لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الأول

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير :

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب

مدخـــل

ترجع أهمية نشر هذا الـكتاب إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

أولا : أنه من الناحية الموضوعية يعالج قضية هامة وهى تفسير القرآن الـكريم على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال ، وهذا منهج فى التفسير نادر فى المـكتبة العربية ، فأنت تستطيع أن تجد عدداً غير قليل من التفاسير التى تتناول النص القرآنى فى ضوء اللغة العربية أو الإعراب أو البلاغة أو الفقه أو أسباب النزول أو التشريع أو القصص والأخبار أو نحو ذلك مما هو مألوف ومعروف منذ نزل القرآن ومنذ ظهرت الاتجاهات المختلفة فى دراسته ، ويمكن أن تجد عدة مصنفات لعدة شخصيات فى كل لون من هذه الألوان بحيث يغنيك واحد أو اثنان منها عمّا سواهما .

فإذا بحثت عن التفسير الصوفى ألفيته — على العـكس من ذلك — نادراً ، وألفيت الإنتاج فيه غير شافٍ ، فإمّا أن يكون مقتضباً « كتفسير القرآن العظيم » لسهل بن عبد الله التُسْتَرِى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) وقد طبعته السعادة فى عام ١٩٠٨ م فيما لا يزيد على مائتى صفحة ، ويستطيع القارىء أن يتصور كيف يمكن لمائتى صفحة أن تعنى بدراسة القرآن على نحو مُرْضٍ .

وإمّا أن يكون مطعوناً فيه كما هو الشأن فى « حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن السُّلمى (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) الذى يقول فى وصفه — ونحن نقتطف منه هذه الفقرة لنوضّح ما قلناه آنفا عن ندرة التفسير الصوفى : « لمّا رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا فى أنواع فرائد القرآن من قراءات وتفاسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصّل ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يشتغل أحدٌ منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة أحْبَبْتُ أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضمّ أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى »[حقائق التفسير للسلمى مخطوطة ١٥٠ تفسير دار الـكتب ص ٢٢١] .

وعندماظهر حقائق التفسير ، أحدث ضجة كبرى ، فقد لقى معارضات شديدة من معاصريه وممن أتوا بعده ، فاتُّهِمَ بالابتداع والتحريف والقرمطة والتشيع ووضع الأحاديث على الصوفية يقول ابن الصلاح : (وجدت عن الإمام الواحدى أنه قد صنّف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر)

وقال الذهبي فى « تذكرته » : أتى السُّلمى فى « حقائقه » بمصائب وتأويلات للباطنية نسأل الله العافية تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ .

ووصفه ابن تيمية بالكذب : (منهاج السنة ج ٤ ص ١٥٥) .

وعدَّ السيوطى تفسيره ضمن التفاسير المبتدعة معللا لذلك بقوله : « . . . . وإنما أوردته فى هذا القسم لأنه غير محمود (طبقات المفسرين للسيوطى ط ليدن سنة ١٨٣٩ ص ٣١) .

أما إخوان الصفا الذين يحشرهم جولد تسيهر ضمن مفسرى الصوفية فى كتابه (مذاهب التفسير الإسلامى) ، فهم أولاً غير صوفية وإنما هم جماعة من المشتغلين بالفلسفة ذوى أغراض بعيدة خبيثة ، ضمت صفوفهم لفيفاً من الناس مختلفى النزعات والثقافات حتى كان من بينهم ملاحدة ، فإحالتهم على الصوفية تجن على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى التصوف ، ولسنا نبرىء جولد تسيهر من ذلك — مع تقديرنا لكتابه القيِّم .

وحتى القرن الخامس الهجرى لا نجد كما يقول صاحب (تاريخ أدبيات درايران) : « أهمّ من حقائق السلمى ولطائف الإشارات للقشيرى وتفسير سورة الإخلاص للغزالى » [تاريخ أدبيات در ايران للدكتور ذبيح الله صفا (مكتوب بالفارسية) فصل التفسير صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

وبعد ذلك بنحو قرن نلتقى بتفسير ابن عربى الذى هو قبل كل شىء مطعون فى نسبته إليه ، وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده (اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ، وينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير) ويضيف الأستاذ الإمام (وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز) تفسير المنار ج ١ ص ١٨) .

نعم صدق الأستاذ الإمام ، فالكتاب مملوء بدعاوى وحدة الوجود ، وما جرّه هذا المذهب من ويلات ، ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية له ، ولكننا نشعر بالحاجة إلى أن نسوق شواهد قليلة تثبت مجانبة هذا التفسير للحق ، وكيف أنه لا يصح أن يكون نموذجاً للاتجاه الصوفى السديد — كما حلا لجولد تسيهر أن يظهره ويتحمس له ، ليخرج من ذلك بأحكام عامة يصدرها عن التصوف الإسلامى — كأنما يروى غليله .

فى سورة المزمل عند قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً ، يقول : (واذكر اسم ربك الذى هو أنت . .) ١١ ـ ٢ ص ٣٥٢ .

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ، يقول : نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا ، وظهورنا فى صوركم) جـ ٢ ص ٢٩١ وليس هذا التصوُّر بمستغرب على من يقول إن عِجْلَ بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذَها الله وحلَّ فيها !!

وليس من الإنصاف أن يقال للناس هذا هو رأى الصوفية المسلمين ولا رأى بعده ، بل يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مذهب وحدة الوجود مذهبٌ فلسفى يبتعد عن المنهج القلبى العرفانى الذى اختطه أرباب المجاهدات والأحوال للوصول إلى وحدة الشهود ، وفى وحدة الشهود — ومهما قيل عنها من كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم على حدّ تعريف أبى نصر السراج الطوسى للشطح — يبقى دائماً شىء هام قوى ناصع أن العبد عبد والرب رب ولا تداخل ولا امتزاج ولا حلول ولا اتحاد ، بل بمقدار ما يصل العبد إلى تحقيق عبوديته يصل إلى التحقق من ربوبيته الرب وتنزيهه عن كل إفك وباطل . . . تعالى الله علوًّا كبيراً .

ولا ينبغى لنا أن نغض الطرف عن قيمة التفاسير المبعثرة فى المراجع الصوفية الكبرى لآيات بعينها من القرآن الكريم ، فإن تبعثر هذه التفاسير لا يحول دون تقديرها حق قدرها ، ذلك لأنها غالباً ما سيقت لتدعيم موقفٍ أو لتشهد على استمداد فكرة أو لفظة ، فهى من هذه الناحية لا تخرج عن كونها تفسيراً صوفياً غير مجموع .

وفيما عدا ذلك يمكن القول إن أبرز التفاسير الصوفية التى نعرفها كتابان أولهما « عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد روزَبهان بن أبى النصر البقلى الشيرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ [كشف الظنون جـ ٢ ص ٢١]

وثانيهما التأويلات النجمية » لنجم الدين داية المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وقد مات قبل أن يكمله فأكمله علاء الدولة السمنانى المتوفى ٧٣٦ هـ (كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٨) .

* * *

لأجل هذا كله نحتفل « بلطائف الإشارات » فأغلب ما سقناه من تفاسير صوفية لا يسلم من النقد ، ولا يصحُّ أن يكون نموذجاً صالحاً لتمثيل الصوفية والتصوف بأمانة وصدق .

« لطائف الإشارات » سفر نفيس كتبه صاحبه محاولاً أن يوفِّق بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ، وقاصداً إلى هدف بعيد أنه لا تعارض بين هذه وتلك ، وأن أى كلام يناقض ذلك خروج على أىٍّ منهما وعلى كليهما (فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، الشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده) الرسالة القشيرية ص ٤٦ .

وهذا ما حدث فعلاً . . فأنت خلال قراءة « اللطائف » تشعر أن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصل من القرآن ، ويتجلَّى ذلك بصفة خاصة حينما ورد المصطلح الصوفى صريحاً فى النص القرآنى كالذكر والتوكل والرضا ، والولى والولاية والحق والظاهر والباطن ، والقبض والبسط . . . الخ فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم ، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ونحوها .

كذلك تلحظ عبقرية القشيرى إزاء اللفظة أو الآية حينما لا يكون فيها اصطلاح صوفى ، فإنه يستخرج لك من آيات الطلاق إشارات فى الصحبة والصاحب ، ومن علاقة النبى بأصحابه إشارات عن الشيخ ومريديه ، ومن مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والجبال إشارات رائعة تتصل اتصالا وثيقا بالرياضيات والمجاهدات أو بالمواصلات والكشوفات .

وربما قيل إن صنيع القشيرى مسبوق وملحوق ، ولكن ها نحن منذ قليل أوضحنا مقدار ما أصاب التفاسير الصوفية من سهام النقد ، وبقى أن نتعرف الأسباب التى جعلتنا نحكم بأن لطائف الإشارات ، خير مناضل عن التفسير الصوفى بعامة ، بل بأنه من أفضل الأعمال

التى أنتجتها قرائح الصوفية فى شتى العصور ، وربما يبدو فى ذلك بعض التعميم مع أن الأحكام العلمية ينبغى ألا تخضع للتعميم لأننا لا نستطيع أن ندّعى المعرفة الشاملة بكل التراث الصوفى ، ونعترف أن عِشرتنا مع الكتاب وصاحبه عشر سنوات كاملة أثناء إعداد بحثى الماجستير والدكتوراه فى الموضوعات الصوفية ، ونعترف أن حماسنا لما نلحظه من الاعتدال عند القشيرى دون سائر الباحثين ، ونعترف أنّ ما كنا نشعر به من وجوه النقص فى سائر المصنّفات التى نهض بها غيره فى هذا الخصوص — كلّ ذلك ربما كان الدافع إلى لجوئنا إلى هذا الحكم الذى سقناه .

ومن أعجب الأمور أن القشيرى يشتهر « بالرسالة » التى لا تخرج عن كونها مجموعة من الأسانيد المنسوبة إلى الشيوخ فى موضوعات بعينها ، ومجموعة من التراجم لأبرز الشيوخ الذين ظهروا منذ نهاية القرن الثانى الهجرى حتى بداية القرن الخامس فى صفحات قليلة ربمّا أغنت عنها الكتب المطوّلة التى وضعت خصيصاً لهذا الغرض مثل تذكرة العطار أو طبقات السلمى أو طبقات الشعرانى ونحوها . ومع تقديرنا « للرسالة » إلا أننا لا نعتبرها بحالٍ من الأحوال أفضل أعمال القشيرى ، وأنها ظلمته حين شهرته ، وحين أوقفت اسمه عليها ، وأصبح حتّما منذ الآن أن يقول الناس « القشيرى صاحب اللطائف » لا صاحب « الرسالة » . فاللطائف هى أبلغ أعماله التى تزيد على العشرين — فى نقل صورة واضحة لشخصيته ، ولست أدرى لماذا لم يجد هذا الكتاب ما هو جدير به من الاهتمام فى العصور الماضية ؟ لماذا حكم عليه دائماً أن يبقى فى منطقة الظل ؟ حتى صار ما نعرفه عن نسخه كما نفهم من « تذكرة النوادر » وكما يقول بروكلمان — محدوداً ومبعثراً بين روما وبرلين واسطنبول وتونس والهند والقاهرة ، ومعظمها كما سنذكر بعد قليل غير كامل .

ولكى ندرك أهمية هذا الكتاب فى تصحيح كثير من المقاييس العلمية عن التصوف والتفسير الصوفى لابُدّ لنا أن نلم بشىء من سيرة صاحبه ، ونكتفى من معالم هذه السيرة بما يمكن أن يتبرر به وصول هذا العمل الجليل بتلك الأوصاف وإلى تلك النتائج . وذلكم هو العامل الثانى لأهمية نشر هذا الكتاب :

ثانياً : صاحب هذا الكتاب هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيرى ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيرى .

ولد فى ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦ م .

وتوفى فى يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ هـ وهو عربى النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن ، ويذكر ابن حزم أن سلالات من قشير اتجهت إلى المغرب نحو الأندلس إبّان الفتح الإسلامى زمن الأمويين ، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاة وقواد على خراسان ونيسابور . (جمهرة الأنساب ٢٧٣ و ٤٥٩) كذلك فإن القشيرى عربى النسب من جهة أمه فهى سلمية وأخوها أبو عقيل السلمى من وجوه دهاقين أسْتوا ، واستوا هى الناحية التى ولد فيها القشيرى وتلقى بها تعليمه الأولىّ .

وحَدَثَ أن اجتاحت المنطقة ضائقة اقتصادية ، ففكر الأهالى فى إرسال لفيف من أبنائهم إلى نيسابور لكى يتلقوا من دروس الحساب ما يمكّنهم — بعد عودتهم — من المشاركة فى تنظيم الأمور الاقتصادية ، وكان القشيرى أحدَ هؤلاء الأبناء .

وبدأ القشيرى فى نيسابور يتهيأ لهذا اللون من الدراسة ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنها عندما اجتذبته مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب ، ولم تبخل نيسابور عليه بزاد ، فلقد كانت فى ذلك الوقت تعج بالنشاط الفكرى ، وتحفل بكبار الشيوخ أمثال ابن فورك ، ومحمد بن أبى بكر الطوسى ، وأبى إسحق الاسفراييني ، وقد ظفر القشيرى فى كنف هؤلاء الأئمة برعاية خاصة حينما أتيح له الاتصال بهم ، وأتيح لهم معرفته عن قرب ، ووضح لهم فيه حسن الاستعداد ، والدأب ، واستقامة الخُلُق .

ولم يكن القشيرى يضيع فترة مابعد الدرس هباء ، بل كان ينكب على القراءة والاستذكار وكان شديد الوَلَع بالعلوم العقلية ، وبخاصة تلك التى تتناول المسائل التى طالما اشتجر الخلاف حولها بين الأشاعرة وأهل الاعتزال ، واستوعب فى هذه الفترة معظم ما صنّف الباقلانى .

وجاء يوم سأل فيه الإمام الاسفراييني تلميذه القشيرى — حين وجده لا يكتب كما يكتب سائر الطلاب : أمَا عَلِمت يا بنى أن هذا العلم لا يحصل بالسماع ؟

(ولكن القشيرى أعاد عليه كل ما سمعه ، وقرره أحسن تقرير ، من غير إخلال بشىء فتعجّب منه وأكرمه ، وقال له ما كنت أدرى يا بنى أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى درس يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقتى ، وإن أشكل عليك شىء طالعتنى به

فعل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفراييني وطريقة ابن فورك) طبقات الشافعية للسبكي جـ ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها .

وبينما كان القشيري منصرفاً بكل همته إلى هذا اللون من الدراسة ، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ساقه القَدَرُ ذات يوم إلى مجلسٍ من لون آخر يتصدره شيخ من طراز آخر . استمع القشيري إلى أبي علي الدقاق وهو يعظ على طريقة الصوفية ؛ ويتحدث في الرياضات والمجاهدات ، والأحوال والكشوفات ، والأذواق والمواجيد ، والمعارف العليا التي تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ، ويملكان فيه كل ذرة ، وإذا القشيري يحادث نفسه صامتاً : إني لهذا خُلِقْت !

وعندما كان يتهيأ ليغشى ما اعتاد من مجالس كانت أقدامه تسوقه نحو الدقاق ومجلسه ؛ فكان أول مَن يجلس وآخر من ينهض .

ولمحه الشيخ ، ورأى فيه إصغاء ملفتا للنظر ، فقربه منه ، وحباه بعطفه .

وذات يوم تقدم الطالب — في استحياء — من شيخه ، فشكا إليه أمراً حَزَبَه ؛ إنه لا يستطيع أن يجمع بين المواظبة على ما اعتاد من مجالس وبين مجلس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكل همته وعزيمته إلى علم القلوب ، وابتسم الشيخ للشاب ، وتطلع إلى وجهه ، وربت على كتفه قائلا :

— إنما ينبغي لك أولا أن تتقن دراستك بقدر طاقتك !

ومضى الشاب الطموح يجمع بين الدراستين ، وساعده ذلك على أن يتكون تكوينا عقلياً ووجدانياً في مرحلة من أدق مراحل العمر ، كما ساعده على أن يتجنب كثيراً من المشاكل النفسية التي تلم بأمثاله نتيجة الاغتراب عن بلده ، ونتيجة الملل .

وأعجب الدقاق بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه (فاختاره لكريمته فاطمة مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها) ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٧٥ .

وهكذا توثقت الصلة بين الشيخ والشاب ، وصار الدقاق رائده وملهمه الذي أعانه على مواجهة مشكلات الحياة ، وبصّره بآفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق .

فكان هذا الاتصال عاملاً جديداً من عوامل الاستقرار النفسى ، وبداية لمرحلة جديدة من النضج الفكرى ، لأنه أتاح له أن يجد فى صهره شيخاً ورائداً وصديقاً ، وسهّل عليه أن يهرع إليه يستنصحه إزاء كل مسألة تعرض له أو أمر ينبهم عليه ، فلم يقع تحت تأثير بلبلة ، ولم يخضع لأزمة ، ولم تتجاذبه ضغوط أو صراعات .

كل ذلك ترك أثره فى شخصيته ، فلسنا نجد فى مؤلفاته اضطراباً أو جموحاً أو غموضاً ، ولسنا نشعر فيما وراء السطور بعقدة من العقد ، ولسنا نحس بميلٍ إلى ابتداع ، إنما نجد أنفسنا أمام شخصية سويّة ، يتميز الخط الفكرى لها بالاستقامة والاعتدال ، والوضوح والصدق ، والإخلاص والبذل .

ولعلّ أبسط دليل على وفاء القشيرى لشيخه أنك لو تصفحت « رسالته » لما غاب اسم الدقاق عن عينك ، وهو يذكر اسمه دائماً مقروناً بالتكريم والترحم ، ويكفيك أن نقرأ هذه الفقرة لتوضح لك أولا شيئاً عن مسلك القشيرى خلال حياته العلمية وتوضح لك ثانياً مدى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة المريد بشيخه ، فهذه وتلك تصوّر ما نرمى إليه من بعيد عن كشف جوانب فى سيرة الرجل الذى نقدّم لك كتابه .

يقول القشيرى : « لم أدخل على الأستاذ أبى على — رحمه الله — فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنتُ أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غُرِز فىّ إبرة مثلاً لَعَلّى كنت لا أحسُ بها . ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحْتَجْ أن أسأله بلسانى عن المسألة ، فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى ، وغير مرة رأيت منه هذا عيانا ، وكنت أفكر فى نفسى كثيراً إنه لو بعث الله عزّوجلّ فى وقتى رسولاً إلى الخلْق هل يمكننى أن أزيد فى حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى ؟ فكان لا يتصور لى أن ذلك ممكن ، ولا أذكر أنىّ فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج — رحمه الله تعالى — من الدنيا) الرسالة ص١٤٧ .

وليس استطراداً أن نذكر لك كلمة موجزة عن رأى عبد الرءوف المناوى فى الدقاق ،

لأن هذه الكلمة على إيجازها لا تكشف لك عن سمات الدقاق وحسب إنما هى سمات ، القشيرى ذاته فى أدق التفاصيل .

يقول المناوى « هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعى ، كان لسان وقته وإمام عصره ، فارها فى العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سَرِىَّ الحقيقة ، أخذ مذهب الشافعى عن القفال والحصرى وغيرهما ، وبرع فى الأصول وفى الفقه وفى العربية حتى شُدَّت إليه الرِّحال فى ذلك ، ثم أخذ فى العمل ، وسلك طريق التصوف ، وأخذ عن النصراباذى ، قال ابن شهبه : وزاد عليه حالاً ومقاماً . . . وقد أخذ عنه القشيرى صاحب « الرسالة » وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة ١٠٤ هـ كلام المناوى بعد أن أخذ يضرب أمثلته لأقواله المنثورة والمنظومة [الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ترجمة الدقاق] .

أمَّا فى مجال الصداقة فلعلَّ أوثق من نعرف اتصالا به صديقه أبو عبد الرحمن السلمى وصديقه أبو المعالى الجوينى إمام الحرمين .

وترجع أهمية السُّلمى فى حياة القشيرى إلى أنه غزير الإنتاج فى العلوم الصوفية ، وأن القشيرى استفاد من علمه ، وآية ذلك أنك تجد السلمى فى « الرسالة » حلقة اتصال بارزة فى العديد من الأسانيد والأخبار التى عليها يعتمد القشيرى موصولة بالدارقطنى والسَّراج والنصراباذى وغيرهم ، ولكن الأهم من ذلك — فى تقديرنا — أن القشيرى استفاد من السُّلَمى فائدة أبعد أثراً ، ذلك أنه تجنَّب التورط فى المزالق التى أدَّت بصديقه إلى أن يُتَّهم وأن يكون موضع نقد معاصريه ومن جاء بعده ، وقد نوَّهنا بشىء من ذلك عند كلامنا عن « حقائقه » .

أمَّا الجوينى فقد كان — كالقشيرى — شافعياً من حيث المذهب الفقهى ، أشعرياً من حيث العقيدة الكلامية ، وقد تعرَّض — كالقشيرى — لآلام المحنة التى اكتوى بنارها الأشاعرة ، والتى سنتحدث عنها بعد قليل ، وهاجر البلاد وجاور الحرمين ، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد انجلاء الغُمَّة .

وإذا كان السُّلمى صديقاً أقرب إلى الاستاذ فإن الجوينى كان صديقاً أقرب إلى التلميذ ، فقد استفاد من علم القشيرى ، فإذا تذكرنا أن الجوينى أستاذ الغزالى أمكن أن نقول إن

القشيرى موصول بالغزالى لا بطريق المصنفات التى خلّفها وحسب بل بطريق السَّنَدِ الذى يمثله الجوينى .

وفى مجال الحياة العملية نجد القشيرى يضطلع بأعمال تتفق واستعداده وثقافته ، فقد اشتغل بالتدريس فى مسجد المطرز وهو فى الثلاثين من عمره ويتضح ذلك من هذا النص : « كنتُ فى ابتداء وصلتى بالاستاذ أبى علىٍّ — رضى الله عنه — عقد لى المجلس فى مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلى « نسا » ، فكنت أمشى معه يوماً فى طريق مجلسه ، فخطر ببالى : ليته ينوب عنّى فى مجالسى أيام غيبتى . . . . الخ » الرسالة ص ١١٦ .

وإلى جوار ذلك كان القشيرى يعكف على التأليف دون انقطاع فانتهى من التفسير الكبير المعروف (بالتيسير في التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ ، ومن اللطائف عام ٤٣٤ ، ومن الرسالة عام ٤٣٧ واستمر يمارس هذا النشاط فى دأبٍ لا يعرف الكلال حتى وصلت كتبه إلى خمسة وعشرين كتاباً أو نحوها ، ومن أهمها إلى جوار ما سبق : ترتيب السلوك ، والتحبير فى التذكير ، والأربعون حديثاً ، وشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، واستفادات المرادات ، والقصيدة الصوفية ، والتوحيد النبوى ، واللُّمع ، والفصول ، والفتوّة ، ونحو القلوب الصغير ، والكبير ، والمقامات الثلاثة ، وفتوى ، والمعراج .

ولم يطبع من هذه الكتب إلا النذر اليسير ، وفى النية أن نقوم — بعون من الله — بإخراج ما وقع لنا منها خلال رحلات طويلة عديدة ، حتى يزداد الناس علماً به وتقديراً له .

ولم يسلم القشيرى خلال حياته من المحن والآلام ، وربّما كانت أشدها جميعاً ما حدث له إبّان حكم السلطان طغرل ووزيره اللعين الكندرى .

كان السلطان طغرل سنياً حنفياً ، ووزيره أبو نصر الكندرى معتزلياً رافضياً ، خبيث العقيدة ، ذا آراء مسرفة فى التشبيه وخلق الأفعال ، والقَدَر ، وكان متعصباً فى ذلك أشد التعصب .

وفى هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذّة لها فى أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ، ومحبة فائقة ، ذلكم هو الاستاذ أبو سهل بن الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ،

وكان كثير المال جواداً ، وكان مرموقاً بالوزارة ، وداره مجتمع العلماء ، وملتقى الأئمة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلّق بالمذهب الأشعرى ، وذود عنه ، وسعى حثيث لنشره فقد ألهب ذلك حقد الكندرى ، خاصةً وقد كان يخشى أن يقع اختيار السلطان عليه للوزارة من دونه ، فمضى يلفق — لدى السلطان — عنه التهم . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى حيلة دنيئة حين حصل من السلطان على تفويض بسبّ المبتدعة على المنابر ، فلم يجد السلطان فى ذلك بأساً ، فوافق عليه ، ولكن الكندرى استغل هذه الموافقة فأقحم اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة الواجب سَبُّهم ، وكل من كان يرفض الانصياع لذلك من الوعاظ والخطباء يفصل من عمله ، ويطرد من البلاد ، فنجم عن ذلك شر خطير ، وفتنة كبرى امتد شررها إلى سائر المشرق ، وبات الأشاعرة فى حزن مقيم .

وفى وسط هذه المحنة ، وذات يوم كئيب أسود جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيرى وإمام الحرمين والرئيس الفراتى وأبى سهل الموفق ، ونفيهم ، ومنعهم من المحافل ، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على الاستاذ الفراتى وعلى القشيرى وأخذوا يجرونهما فى الطرقات ، ويكيلون لهما أقذع أنواع التهكم والاستخفاف حتى وصل الشرطة بهما إلى محبس القهندر .

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد على طريق كرمان ، واتجه إلى الحجاز ، وهناك جاور ، وأمّا أبو سهل . فقد كان لحسن الحظ غائباً فى بعض النواحى .

وبقى السجينان الجليلان فى المحبس ، وقامت جماعات كبيرة من الناس لإنقاذهما ، وحدثت حرب دامية بينهم وبين رجال السلطان انتهت بهزيمة رجال السلطان ، وأخرج السجينان الجليلان من سجنهما ، ولكن كبار الأشاعرة اجتمعوا وقرروا أن جهاز الحكم لن يهدأ له قرار ، وأن الخير فى رحيل أئمة المذهب إلى أماكن نائية عن المشرق .

فترك القشيرى وطنه وبيته وأهله وعشيرته ، ومضى يضرب فى الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة ، كان خلالها موضع التكريم والتبجيل ، وأقبل الناس عليه وعلى دروسه إقبالاً عظيماً ، حتى لقد خصص الخليفة العباسى — القائم بأمر الله — له مجلساً خاصاً فى مسجد قصره ، وكان يواظب على شهود وعظه ومجلس حديثه ، ويكرمه ، ويحظى ببركته .

وقد وصف الخطيب البغدادى (صاحب تاريخ بغداد) مقدار إعجاب الناس بالقشيرى ، وكان هو نفسه أحد تلاميذه حيث يقول (حدّثنا وكتبنا عنه وكان ثقة) .

(تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٨٣) .

وذهب القشيرى للحج ، وهناك التقى بصديقه الجوينى وبعدد كبير من الأئمة الذين شردتهم المحنة طوال سنوات عديدة ، فاجتمعوا وتدارسوا أحوالهم ومستقبلهم ، واستقر رأيهم على أن يطيعوا كلمة واحدة منهم مهما كانت هذه الكلمة حتى يتم الاتفاق على مبدأ ثابت يسرى عليهم جميعاً ، ولم يكن ذلك الذى وقع عليه اختيار الجمع غير عبد الكريم القشيرى .

فصعد المنبر ، وظل يتكلم ، وهم يجدون لكلامه وقعاً مؤثراً على قلوبهم وعقولهم ، ثم مرّت لحظات صمت ، بعدها شَخَصَ القشيرى ببصره إلى السماء ضارعاً ثم أطرق ، والناس من حوله يتابعون أمره ، ويتفرّسون ملامحه . . . ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عالٍ :

« يا أهل خراسان . . بلادَكم بلادَكم ، إن السكندرى غريمكم يُقطَّعُ الآن إرباً إرباً ، وإنى أشاهده الساعةَ وقد تمزّقت أعضاؤه ثم أنشد :

عميد الملك ساعدك الليالى ... على ماشئت من درك المعالى
فلم يكُ منك شىء غير أمرٍ ... بلعن المسلمين على التوالى
فقابلك البلاء بما تلاقى ... فَذُق ما تستحق من الوبال

(تبيين كذب المفترى لابن عساكر ليدن ص ٩٣)

ويقول السبكى فى طبقاته : (وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع السكندرى إربا إربا . وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان) السبكى فى « طبقات الشافعية » جـ ٢ ص ٢٧٢ .

وهكذا عاد القشيرى بعد هذه السنوات العشر الثِّقال (من ٤٤٥ إلى ٤٥٥) إلى بلاده ، وهى وإن كانت أقسى فترات عمره ، وأشدها آلاماً إلا أنها كانت حافلة بالتجارب ، وأعانته على زيادة خبرته بالحياة والأحياء ، وساعدت على توثيق الصلة بينه وبين الأوساط العلمية والأدبية خارج المشرق ، ودفعته إلى أن يصنِّف العديد من المصنفات المتصلة بالمذهب الأشعرى

وبخاصة كتابه الجليل القدر « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » ، وهى قبل كل شىء وبعد كل شىء آية ثباته على مبدئه ، وأنه خليق أن يتصدَّر المفكرين الأحرار فى جيله .

وجاء السلطان ألب أرسلان خَلَفاً لعمه طغرل ، وبمجىء أرسلان ووزيره الهمام الفذ نظام الملك استقبل العالم الإسلامى كله والأشاعرة بوجه خاص والقشيرى بوجه أخص عهداً زاهراً آمنا ، وعاد القشيرى إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره ، وقضى بها عشر سنوات (كان فيها مرفهاً محترماً ، ومطاعاً معظماً ، وأكثر صفوه فى آخر أيامه التى شاهدناه فيها آخراً ، وازداد من يقرأ عليه كتبه وتصانيفه والأحاديث المسموعة له ، وما يؤول إليه من نصرة المذهب حتى بلغ المنتمون إليه آلافاً ، فأملوا تذكيره وتصانيفه أطراف) « تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسى حفيد القشيرى » .

وكان نظام الملك أحد تلاميذه والمقربين إليه ، وأعاد الوزير ـ بفضل توجيه القشيرى ـ للأشاعرة وللزهاد وللعلماء كل ما فقدوه إبَّان المحنة الأليمة من كرامة وحظوة .

أمّا أبناء القشيرى فلا نعرف له إلا بنتاً واحدة هى أمة الرحيم أم عبد الغافر الفارسى (قاموس الأعلام باللغة الأوزبكية ط اسطانبول سنة ١٣١٤ ص ٣٠٨٠) .

ونعرف له ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة ، سلكوا مسلك أبيهم وقد ترجم لهم السبكى فى طبقاته كما تحدَّث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ولهذا ينبغى أن نتحفظ فى نسبة الأقوال المنسوبة إلى القشيرى فى بعض المراجع فقد تكون هذه الأقوال صادرة عن أحد أبنائه فهم جميعاً أشاعرة وهم جميعاً شافعية وهم جميعاً سلكوا طريق الإرادة .

لبث القشيرى فى نيسابور فى أخريات حياته لم يكد يبرحها إلا لزيارة أقاربه فى البلاد المجاورة مثل نسا وأبيورد ، ولكنه كان يعود مسرعاً إلى نيسابور بعد كل زيارة .

وقبل أن تبزغ شمس السادس عشر من ربيع الآخر من عام ٤٦٥ هـ ، كانت روحه الطاهرة قد عادت إلى بارئها . فووري جثمانه إلى جوار صهره وشيخه وملهمه وصديقه أبى على الدقاق فى مقبرة خاصة بالأسرة ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر يزورها الناس للتبرك .

* * *

من خلال هذه السيرة التى حاولنا إيجازها نستطيع أن ندرك أهمية الكتاب الذى نقدم له .

فصاحب الكتاب رجل أوتى حظًا وفيراً من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج باب الصوفية ، وهذه فى حدّ ذاتها ظاهرة لها أهميتها ، وقد رأينا كيف نصح الشيخ الدقاق له بالتعمق فى هذه الدراسات قبل البدء بالسير فى دروب الإرادة ، وفى ذلك أبلغ رد على من يتخرّصون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم يجانبون العقل ، ويحتقرون العلم ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم — كما يدعى ابن الجوزى غفر الله له .

والقشيرى بعد ذلك كله أديبه ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربى تذوقاً يعتمد على أسس قوية ، وقد أوضحنا ذلك بتفصيل كبير فى الأطروحة التى أعددناها عنه ونلنا بها درجة الدكتوراه .

فإذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآنى ، وليستخرج منه إشارات لطيفة فهو مُعَدٌّ لذلك أحسن إعداد ، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة ، بقدر ما لديه من تهيؤ صالح مكتمل .

ثم هو شافعى أشعرى ، وهو سنى متحفظ ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف ، لا يأخذ — وهو يستخرج إشارة من العبارة — إلا جانب الحذر والحيطة والاعتدال ، وهو من أجل ذلك لم يخرج قيد أنملة عن هذا الخط ، فلم ينصر الحقيقة على حساب الشريعة ، ولم ينصر الشريعة على حساب الحقيقة ، ولذلك لا نعجب إذا لم نجد عنده جموحاً أو ميلاً إلى جموح ، ولا نعجب إذا ألفيناه لا يُسْخِط أوساطَ أهل السُّنَّةَ حتى من تعصَّب منهم ضِدَّ التصوف وأهله ؛ فقد كان رائده دائماً نصرة الحق، فليس غريباً أن يجىء «لطائف الإشارات» تعبيراً صادقاً عن التصوف فى أفضل درجات الاعتدال ، وأنقى صور التناول . فليس عند القشيرى ما عند غيره من مساس بالألوهية ، بل هو طالما يعلنها حرباً لا هوادة فيها على المبتدعين والمضلين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تارة تحت ستار الثوب ، وتارة بدعوى الفناء المُغرق ، ونحو ذلك من الأباطيل .

والتصوف عند القشيرى ليس ثوباً مرقعاً ، أو خرقة بالية تَفْرد صاحبها عمن سواه ، وتكون عَلَماً على تقواه ، إنما هو صفاء النفس من كروراتها . وإنَّ من كان صادقاً فى طويته ونيَّته سيكون محفوظا فى حالة انمحائه ، سوف يُرَدُّ فى حالة الجمْع إلى حالة الفَرْق الثانى

ليؤدىَ الفرائض الواجبة عليه ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى ، ويكون فى كل أحواله مُصَرَّفاً بإرادة مولاه . كذلك فإن من كان صادقاً فى بدايته ووسيلته وغايته كان محفوظاً — من قِبَل الحق — فى كل كلمة ينطق بها أو كل حركة تصدر عنه ، فإذا نطق نطق بالله ، وإذا تحرّك تحرّك بالله . ومثل هذا العبد لا يُنتظر منه — وهو فى يد الله على هذا النحو — أن يكون غريبَ الأقوال أو غريبَ الأفعال . فالصدق هو عمدة الأمر فى هذا السبيل — كما يرى هذا الإمام الجليل .

ثالثاً : ننتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث فى أهمية إخراج هذا الكتاب ، وهو فى هذه المرة يعود إلى النسخة أو النسختين اللتين نعتمد عليهما فى التحقيق .

النسخ الكاملة من « اللطائف » نادرة فهى حسبما تقول تذكرة النوادر لا تزيد على خمس إحداها فى خزانة بانكى پور مكتوبة فى القرن التاسع ، والثانية فى المكتبة الحبيبية تاريخ كتابتها عام ٨٤٤ وهى ناقصة من أولها ، والثالثة فى الخزانة الآصفية بخط قديم جداً ، والرابعة فى مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد مكتوبة بخطوط مختلفة سنة ٧٢٦ والخامسة فى مكتبة محمد باشا باسطنبول .

غير أننا نعتقد أن هناك عدداً أكبر من النسخ يزيد عما ذكرت التذكرة وأنها منبثة فى أنحاء متفرقة من العالم ، ونرجح أن النسخ الكاملة نادرة جداً كما يشير بروكلمان . وإنه لمن دواعى التوفيق أن يتاح لنا أن نحصل — لأول مرة — على الكتاب كاملا ، فقد وجدنا فى مدينة طشقند عاصمة جمهوريات أوزبكستان السوفيتية فى المركز الدينى لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان نسخة شبه كاملة تحت رقم ١٣٠٢ تفسير تبدأ بمقدمة بقلم القشيرى — وهى على جانب كبير من الأهمية — لأنها تكشف عن منهجه فى الدراسة ، ثم بعدها الفاتحة والبقرة و . . . . حتى سورة قريش ، ومعنى ذلك أنها تنقص فقط سور الماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس . وهذه السور القصيرة موجودة فى النسخة الأخرى التى عندنا فى مصر ورقمها ٢٦٦ تفسير (أنظر فهرس الخزانة التيمورية ط تفسير ص ٢٣٠) والتى تبدأ بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) فى سورة الأنبياء وقد قمنا بنسخ هذه المخطوطة ، كما قمنا بالتقاط صورة بالميكروفيلم للنسخة الطشقندية ثم أجرينا تصويرها

وتكبيرها بحيث تسهل قراءتها وكانت النسختان المادة الأساسية التى اعتمدنا عليها أثناء إعداد الدكتوراه عند كلامنا عن القشيرى المفسّر .

النسختان إذاً تتكاملان ، ويصبح هذا السفر النفيس كاملا ، ويقع فى نحو ألف ومائتين صفحة ، اخترنا أن نقسمها إلى أربعة أجزاء تصدر متلاحقة فى مدى عام أو عامين حسبما تساعدنا الظروف ويرزقنا الله العافية .

وصف عام للنسخة السوفيتية

تبلغ أوراقها ٥٩٧ ورقة ، والأرقام التى كتبها الناسخ مطموسة فى كثير من الأحيان ولذا حرصنا عند تكبير الميكروفيلم والتصوير والطبع أن نرقمها نحن من خلف حتى لا تضطرب الأمور عند القراءة والدراسة .

وعلى الورقة الأولى توجد تعليقة مكتبة الإدارة الدينية هكذا :

تفسير
أبو القاسم القشيرى
صو ا = 200
II = 1302
٣٥

أما الورقة الثانية فيبدو أنها كانت خالية فملأها أحد القراء بأحاديث وشواهد شعرية وكتابة باللغة الفارسية .

ثم تبدأ مقدمة الكتاب بقلم القشيرى منذ الورقة الثالثة .

وقد وقع خطأ فى ترقيم الصفحات ، فبينما نجد الحديث متصلاً غير منقطع بعد الورقة ٢١٤ نجد رقم الورقة التالية هو ٢٢٥ بدلا من ٢١٥ ، وهناك خطأ آخر ربما حدث قبل تغليف الكتاب : فالأوراق من ٣٩٤ إلى ٤٠١ كلها موجودة عقب الورقة ٤٣١ دون أن يحدث خلل أو سقوط ، ومعنى هذا أن الكتاب رغم هذا — كاملٌ لم يضعْ منه شىء .

كذلك يقع تفسير أواخر طه وأوائل الأنبياء ـ خطأ ـ ضمن تفسير الفرقان . وقد صححنا هذا الوضع .

ونظراً لعدم اكتمال النسخة من آخرها — كما قلنا من قبل — فلقد كنا نخشى أن يغيب عنّا التذييل الذى يذكر فيه الناسخ اسم وتاريخ انتهائه من عمله كما جرت العادة ، ولكن لحسن الحظ وجدناه قد قسّم الكتاب قسمين كبيرين ينتهى القسم الأول بنهاية تفسير سورة الكهف ورقة ٣٧٨ ، وعندها كتب هذه العبارة باللغة الفارسية المختلفة بالعربية :

(تمّ بعون الله وحسن توفيقه نصف أول إز تفسير محقق إمام أبو قاسم القشيرى رحمة الله عليه بتاريخ شهر شوال سنة ١٢٢٤) .

ومن هذه العبارة يتضح أن الناسخ غير عربى ، وأنه ربما كان فارسياً أو أفغانياً أو أوزبكياً أو أذربيجانياً ، فكثرة من سكان أفغانستان وأزبكستان وأذربيجان يعتبرون الفارسية لغة اتصالهم بالعلوم الإسلامية حتى اليوم .

وقد نجم عن كون الناسخ فارسياً جنساً أو لغةً أن كتابته ومراعاته للإملاء لم تكونا جيدتين ، وكان علينا أن نقرأ الكتاب قراءة متفحصة لنحاول أن نحدد الطريقة التى اتبعها ، لأنها — بما فيها من خطأ أحياناً أو خروج على المألوف فى الرسم أحياناً أخرى — هى التى جرى عليها عند نقله من النسخة الأخرى التى يحتمل أنها تجرى على هذا النحو ، وربما كان الناسخ ينقل على نحو يكون مفهوماً لديه ، وميسور القراءة له وحده .

وهو لا يهتم بضبط الكلمات ، ولا بترقيم العبارات فليس هناك ضبط أو فاصلة أو علامات استفهام أو أقواس أو علامات تعجب أو نحو ذلك . وقد وقع الناسخ فى أخطاء عديدة أثناء النسخ ، وربّما كان مسئولاً عن ذلك أو يحتمل أن النسخة التى نقل عنها بهذا الوصف .

وهامش النسخة وبخاصة فى القسم الأول من الكتاب حافلة بالتعليقات ، بعضها مكتوب بالفارسية قصد منها شرح المفردات وترجمتها .

وهناك عناوين جزئية مكتوبة باللغة العربية بخط حسن تشير إلى موضوعات متنوعة ربما قصد بعض القراء إلى أن يجمعها ليستفيد منها ، وليحدد موقف المصنِّف إزاءها مثل (الروح — حقوق الوالدين — الدعاء — النَّفْس . . . إلخ) .

وعندما كانت تسقط بعض الكلمات أو العبارات من الناسخ أثناء النقل كان يستدرك

فيضع علامة مميزة على آخر كلمة فى المتن بدأ بعدها السقوط ويضع العلامة نفسها فى الهامش فوق الكلمة أو العبارة الساقطة ، فإذا تكرر السقوط فى الصفحة الواحدة ميّز كل موضع وكل مستدرك بعلامة مباينة . كذلك فإنه كان يضع علامة خاصة عندما يعيد كتابة كلمة أو عبارة أو سطر بدون داعٍ حتى يلفت نظر القارىء إلى ما وقع فيه من سهو .

ولم يحدث أن وضع الناسخ ترجمة فارسية لكلمة داخل المتن بل كان يكتب الترجمة أسفل نظيرها ، اللهم إلا فى حالة واحدة داخل شاهد شعرى :

أنكَه شاد شود در عطا دادن

ومعناها : أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء .

ونستبعد أن القشيرى يفعل ذلك ، فعلى الرغم من إتقانه للغة الفارسية إلا أنه حرص فيما نعرف له من مصنفات أن يكتب بالعربية خالصة .

ويبدو أن النسخة أتيح لها أن تراجَع ذات مرة ، فهناك تصحيحات مختلفة فى رسم الكتابة موجودة فى الهامش فى أماكن مقابلة لموضع التصحيح فى المتن . ومن أمثلة ذلك ما جاء فى الورقة ٣٥٠ أول سورة الإسراء (وتوحّد بعلو قعونه) تصحح فى المراجعة (وتوحّد بعلو نعوته) .

وفى الورقة ٣٦١ (لِبلَاءٍ أو شدة يقاليها) تصحح فى الهامش (لبلاء أوشدة يقاسيها) .

وفى الورقة ٣٧٢ جاء فى سياق وصف الدنيا (نعمها مشوقة بنقمتها تصحح فى المراجعة (نعمها مشوبة بنقمها) .

وقد كنا نحكّم الدقة عند الاستفادة من هذه المراجعة لأننا نفترض أنها قد تكون نوعاً من الاجتهاد الشخصى وليست تصويباً على نسخه أفضل .

بقى شىء هام جداً ، وهو توضيح موقفنا من أخطاء الناسخ ، ويمكن أن نقول إننا اتخذنا منها ثلاثة مواقف .

(ا) موقفاً نجد فيه الخطأ مؤكّداً ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

(ب) موقناً فيه الخطأ شبه مؤكد وعند ذلك نكتب فى المتن ما نراه صواباً دون أن نترك الأمر على عواهنه بل نثبت فى الهامش ما جاء فى النسخة ، موضحين أسباب رفضنا لما كتبه الناسخ حتى نضع أمام القارىء صورة أمينة لما نقوم به من عمل ، وكان المفروض أن نكتب كل ما كتب الناسخ فى المتن وأن نصوّب ما نراه فى الهامش ولكن هذه الأخطاء كثيرة جداً بحيث تعوّق القراءة ، وتشق على الدارس .

(حـ) موقناً فيه خطأ الناسخ محتمل ، وعند ذلك ننقل عن الناسخ ما كتب فى المتن ، ونشير إلى موقفنا إزاءه فى الهامش قائلين (ونرجح كذا ... أو لا نستبعد أنها فى الأصل كذا) تاركين الرأى للقارئ والدارس فى أن يختارا ما يريانه أقرب إلى الصواب .

أمّا المشتبهات فنضع مكانها نقطاً بين أقواس ونشير إليها فى الهامش ، وليس لنا فيها حيلة إلا إذا ظهرت لنا نسخة من الكتاب أكثر وضوحاً .

وإذا تطلب السياق كلمة أو حرفاً ليتماسك ويتضح وضعناها من عندنا بين قوسين مشيرين إليها فى الهامش .

ويجب ملاحظة أننا لا نقحم أنفسنا فى تكملة أو ترجيح إلا بناء على معرفة بأسلوب القشيرى الذى ترجع معاشرتنا له إلى سنوات تزيد على العشر ، كذلك كثيراً ما نرجع إلى مصنفاته الأخرى لنتبيّن رأيه فى موضع مناظر ومع كل ذلك فإننا دائماً نضع الأمر بين يدى القارئ لنترك له أن يشاركنا ، وله أن يقتنع بما نقول أو يتقبل ما نقلناه عن الناسخ بحذافيره حسبما يحلو له ، وله أن يرفض .

ومع أن الهوامش لا تخلو من تعليقات وشروح وتخريجات للحديث الشريف إلا أننا نشعر أنها مقتضبة وغير كافية ، فحرصنا على تزويد الناس بالمتن كان رائدنا الأول فى هذه المرحلة ، على أننا نَعِد — إن أعاننا الله — أن نتمم هذا العمل بشروح أكثر بسطة ، فليس «اللطائف» بأقل حاجة إلى الشروح من « الرسالة » التى حظيت باهتمام الدارسين والباحثين طوال أجيال متعاقبة .

النسخة المصرية

تبدأ هذه النسخة كما قلنا من قبل بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) حتى نهاية الكتاب ، وترجع أهمية هذه النسخة إلى أنها أولا أكملت ما ينقص النسخة السوفيتية من قصار السور ، كما أنها ساعدت — نظراً لوضوح كتابتها أكثر من زميلتها — على التقليل من المشتبهات ، وتتجلى أهمية ذلك فى المجلد الثانى .

ولسنا ندرى شيئاً عن الناسخ الذى اضطلع بها ولا عن تاريخ نسخها نظراً لأنها ناقصة من بدايتها كما أن الناسخ لم يترك شيئاً عنه فى نهايتها ، ونرجح أنها أحدث عهداً من النسخة السابقة اعتماداً على رسم الكتابة وقواعد الإملاء .

منهج القشيرى فى تأليف الكتاب وأهميته

صدّر القشيرى كتابه بمقدمة مفيدة أوضحت خطته فى تناول الأسلوب القرآنى ، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءاً على الكتاب وحده إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن ، وسائله وغاياته .

أطلق القشيرى على كتابه اسم « لطائف الإشارات » وإذاً فالتسمية التى زعمها صاحب كتاب (تاريخ أدبيات درايران) ج ٢ ص ٢٥٧ ط ثالثة سنة ١٣٣٩ غير صحيحة حيث يقول : « لطائف الإشارات فى حقائق العبارات » .

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ — مفردة أو مركبة — دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية ، وإنما يُنظَر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادى ، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم — بفضل من الله — العلم الذى يكشفون به عن هذا الجوهر .

وهناك رباط وثيق بين هذا العلم وبين العمل ؛ إذ لا يحظى به إلا من جرّد قلبه من كل سانحة ، وصفّى نفسه من كل كدورة ، وتهيأ بكل الهمة لهذه المهمة الجليلة : دراسة كلام الحق جلّ ذكره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفى ذلك يقول القشيرى فى مقدمته : « أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفىّ رموزه ، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق — سبحانه وتعالى — يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون ، وعن لطائفه مخبرون ، وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون » .

ويتضح — بادئ ذى بدء — أنّ هذا اللون من الدراسة يفترق عن سائر ألوان الفكر الإسلامى فى أمورٍ كثيرة ، لعلّ أهمها عنصر الاصطفاء من قِبل الله ، فليس يُمكِن لغير من اختصهم الله بفضله أن يخوضوا فيه . فأنت تستطيع أن تكون متكلماً أو فيلسوفاً أو نحوياً أو أديباً إذا توَفَّرت لذلك ، وكان لديك استعداد ملائم ، وخصصته بعنايتك ، أمّا أن تكون مستنبطاً للإشارة من العبارة فهذه خصوصية فريدة لابدّ أن يسبقها اجتباء إلهى . كذلك يمكنك أن تكون عالماً فى أى فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك عمل ، أمّا أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغى أن تقترن بجهود مضنية فى تصفية النفس والقلب من كل العلائق ، وتخليتهما عن كل الشواغل الدنية ، وتحليتهما بكل الأوصاف السنيّة .

وربما كانت هذه الشروط المتصلة بالاجتباء المسبوق ، والعمل المقترن بالعلم من أسباب ندرة ما وصلَنَا من هذا اللون من التفسير ، كما أنها قد تكون أسباب خروج بعض ما يحشر فى نطاقه — زوراً أو خطأ — عن التفسير الإشارى السديد .

فرق آخر يفرق هذا اللون من التفسير عن غيره أنه لا يعتمد اعتماداً كلياً أو مسرفا على العقل ، إنما هو يعنى بالأمور العقلية بالقَدْر الذى يُعْنَي به الصوفية بالعقل ، ونعْني به أن الذهن آلة لتصحيح الإيمان فى مراحل البداية ، أمّا فيما فوق ذلك وفيما هو حثيث الخطو نحو المعارف العليا فهناك ملكات أخرى يناط بها حَمْل هذا العبء ، وهى فى مذهب القشيرى تتدرج صعوداً من القلب إلى الروح إلى السر ثم إلى سر السر أو عين السر . معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآنى ليس عمليةً عقلية صرفة إلا فى الحدود التى تضمن عدم

افتيات الإشارة على العبارة ، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربى سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية ، ولا تخرج بها عن الدلالات التى توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه ، فكأن الإشارة ليست انبعاثاً تلقائياً محضاً ولكنها مقيدة — منذ البداية — بالكثير من العلوم العقلية والنقلية فما أشبه موقف اللفظة القرآنية فى هذا المجال بموقف من يتهيأ لارتياد الطريق الصوفى فكلاهما يتعرّى عن ظاهره ، وكلاهما يخضع لما تتطلبه المعارف العقلية والنقلية من شرائط البداية ، وكلاهما يصبح صافياً رائقاً يشف درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وارتقى القصود . . فاللفظة القرآنية فيها حياة وفيها نمو ، وفيها عوالم مضيئة متألقة تشبه تلك العوالم التى يتدرج فيها العابد الزاهد المريد العارف المحب .

قد يقال وأى فرق إذاً بين التفسير الإشارى وغيره من التفاسير مادام يعنى بالأمور العقلية والنقلية ؟ والجواب على ذلك أنه لا يعنى بهذه الأمور لذاتها ، ولا يوقف نفسه داخل أسوارها ، ولا يقطع العمر فى حزازاتها وخلافاتها ، إنما هى وسيلة فى الابتداء يلجأ إليها المفسر بمقدار ما يسعفه حظه منها لكى يفض الأغلفة الظاهرية . وهذه العناية إن التزمت بذلك صارت وسيلة من وسائل إقناعنا بأن التفسير الإشارى ليس عشوائياً يخب فيه كل من هبّ ودبّ ولكنه خاضع لنواميس وقواعد .

ونستطيع بعد ذلك أن نميّز بين تفسير القشيرى فى « لطائفه » وبين أولئك الذين ننسب تفاسيرهم إلى التصوف وأهله ، أولئك الذين أسرفوا حين حمّلوا النص القرآنى فوق مايحتمل ، وبدلاً من أن يَخْضَعُوا للنص القرآنى أخضعوا النصّ القرآنىّ لنصرة مذاهبهم ، وساروا فى الدروب العقلية حتى جمحوا ، وابتعدوا عن الخط الأصيل حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس فى مجالس الفلسفة والكلام لا في مجالس الرياضات والمجاهدات والأحوال . أمّا عند القشيرى فليس هناك مذهب عقلى خبىء ، ولا عقيدة باطنية مستورة ، كلُّ ما عنده من قصد أن يتمّ لقاء كاملٌ بين الشريعة والحقيقة فى ظلال كلمات الله — جل ذكره ، لأنه إذا لم يتم هذا اللقاء فى كنف كلام الله فأين يمكن أن يتم ؟!

وهنا تلتقى هذه المحاولة التى بذلها فى « اللطائف » مع المحاولة التى بذلها فى « الرسالة »

فهو منذ الصفحة الأولى فى « رسالته » يحاول أن يُعرِّف بأن عقيدة الشيوخ « الذين بهم اقتداء » عقيدة سليمة لاتخرج في قليل أو كثير عن عقيدة التوحيد الرائقة الصافية ، ثم يسير فى تراجم الشيوخ ليختار لك من أقوالهم وأخبارهم وأفعالهم ما يؤيد ذلك ، ثم يبوِّب رسالته إلى التوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة . . . الخ . ولا ينثنى عند استفتاح كل باب عن ذكر آيات من كتاب الله الكريم بعدها أحاديث وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه . . لماذا كل ذلك ؟ لكى يثبت أن هناك لقاء بين الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشىء واحد .. تلك هى الغاية القصوى التى يطمح إليها هذا الإمام الجليل ، والتى من أجلها نذر عمره ، وخصص جهده ، ولم يضن عليها بشىء في استطاعته ، ولم يفارقه الطموح إليها فى مصنَّف من مصنفاته . . . وما أعظمها وما أشرفها من غاية !

فإذا كنَّا أخرجنا من نطاق التفسير الإشارى هذه التفاسير المنسوبة لبعض المنتسبين للتصوف فأوْلى أن نخرج من هذه التأويلات الاعتزالية والشيعية والبدعية والإلحادية وغيرها مما تعتمد فى مباحثها على أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، ذلك لأن قضية الظاهر والباطن استغلت استغلالاً سيئاً لخدمة الكثير من العقائد الهدّامة ، وارتكبت فى حق الظاهر القرآنى جرائم خطيرة حين أريد له أن يؤول لنصرة الأغراض المريضة والدعوات الجامحة ، وفى ذلك يقول التفتازانى فى شرح العقائد النسفية : « سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معانٍ باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية » ، ويستدرك التفتازانى قائلاً : « وأمّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان » (شرح العقائد النسفية ط الحلبى سنة ١٣٢ هـ) .

والذى نحمده للقشيرى وينبغى أن نشيد به فى هذا التقديم أنه حرص أشد الحرص على النص القرآنى ، وأنه التزم بالنظر إليه نظرة اعتبار وتقديس ، وكان عمله أشبه بمن يقبس قطفات من الضوء من مشكاة كبيرة ينير بها الطريق أمام الزهاد والعارفين ، دون أن يتورط فى تعسف أو ينزلق فى درب من دروب الشطط ، والسبب الهام الذى يعود إليه هذا المنهج

أنه سنيٌّ حريص على سنيته بقدر ما هو صوفى حريص على صوفيته ، فكان عليه أن يرضى أوساط أهل السنة فى الوقت الذى كان عليه أن ينفع الصوفية ، وأن يوضح لكلا الطرفين أن الأصول والفروع فى الحالين مستمدة من كتاب الله الكريم .

ولقد أعان القشيرى فى عمله أنه صنّف قبل « اللطائف » كتاباً كاملاً فى تفسير القرآن على نحو تقليدى هو « التيسير فى التفسير » — الذى حصلنا على مصورة للجزء الخامس منه من أكاديمية العلوم السوفيتية — ونجده فى « التيسير » يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص . وقد صنّفه قبل أن يلتقى بشيخه الدقاق أى قبل أن يسلك المسلك الصوفى ، فأعانه ذلك على أن يفقه العبارة من معظم زواياها المتصلة بالظاهر ، حتى إذا بدأ يكتب « اللطائف » كان طريقه إلى الإشارة وإلى فقه الباطن ممهداً ، ومناله ميسوراً ، وآفاقه مُفَتَّحة .

* * *

سار القشيرى فى « اللطائف » على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب إلى آخره ، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة ، وأحياناً حرفاً حرفاً ، والبسملة تتكرر بلفظها فى مفتتح كل سورة ، ومع ذلك فإننا نجده يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر ؛ إذ هى تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه ، ويزداد إعجابنا بالقشيرى كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلّها ، فالله والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة فى سورة القارعة ، ولها دلالات أخرى فى سورة النساء ولها دلالات خاصة فى الأنفال وهكذا . . .

ونستنتج من ذلك عدّة نتائج :

أولا : أنه يعتبر البسملة قرآنا ؛ وليست كما يقول البعض — شيئاً يُستفتَح به للتبرك ، شأن ما نصنع فى بداية أقوالنا وأفعالنا (انظر « المغنى » للقاضى عبدالجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ جـ ١١ ط وزارة الثقافة (تراثنا) ص ١٦١) .

ثانياً : أنه ما دام يعتبر البسملة قرآنا ، وما دام يجد لها مقاصد متجددة ، فكأنه لا يؤمن بفكرة التكرار فى القرآن ، وفى ذلك يقول فى الورقة الثالثة من

اللطائف : « فلمَّا أعاد الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية ـ أعنى بسم الله الرحمن الرحيم ـ فى كل سورة ، وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة » .

ثالثاً : أن لدى القشيرى قدرة غير عادية ونَفَساً طويلاً عند استبطان الظاهر ، لأننا نجده أمام أربع كلمات تتكرر بلفظها ومعناها من بداية القرآن إلى نهايته ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه سار على هذه السُّنَّة فى « التيسير » ازداد إعجابنا به وعجبنا له .

ومن الخير أن نضرب هنا مثلين لما صنع فى بسملة « اللطائف » لنستوضح مقاصده من هذا الاتجاه .

يقول فى بسملة سورة « الحجر » : « سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزِيدَ فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، لِيُعْلَمَ أنَّ الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلا يَقْبَلُ من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَنْ ردَّ لاستيجاب (=لاستحقاق) علة . فإنْ قيل العلة فى إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال فى كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء فى بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال فيها موجود . فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء » .

ويتضح من هذا أن استنباط الإشارة ليس — كما قلنا من قبل — مسألة عشوائية إنما هو خاضع لقواعد وأصول ، وإلى تفنيد لمختلف الآراء ، ومحاولة للإقناع .

وليس هذا فقط . . بل إنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك — كما أدهشنى — أن هناك صلة وثيقة محكمة بين هذا الذى فسرت به البسملة وبين كلام فى داخل السورة عن رفع الخلْق بلا علة ، وخفضهم بلا علة ، وذلك كما ورد فى قصة خلق آدم ، وكيف أن الملائكة (كانوا فى حال سترهم لأنهم نظروا إلى القوالب مع أن الاعتبار بالمعانى التى يودعها ، فالملائكة استصغروا قدْر آدم وحاله وتعجبوا من الأمر لهم بالسجود فكشف لهم شظيَّة مما اختصه فسجدوا للأمر وكذا حال من ادَّعى الخيرية) أما إبليس فلم يفطن للمشيئة الإلهية

العليا ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون (بعدما لاحت لهم المعرفة) وبقى هو على عناده متأبياً أن يسجد لبشر مخلوق من صلصال من حمأ مسنون (لأنه لا يعرف أن مشيئة الله تجرى على غير علة) .

وفى سورة براءة — التى نعرف أنها السورة الفريدة فى القرآن الكريم التى تبدأ بدون بسملة نجد الأمر يستوقف نظر القشيرى فلا يتركه كى يمر دون استنباط إشارة ، استمع إليه يقول : « الحقُّ — سبحانه — جرَّد هذه السورة عن ذكر البسملة لِيُعْلَمَ أنه يخصُّ من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء بما يشاء ، لا لِصُنْعِه سبب ، ولا فى أفعاله غرض ولا أرَب . ومَنْ قال إنه لم يذكرها لأن السورة مفتتحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً فى الإشارة — إلا أنه ضعيف ، وفى التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل قوله : « الذين كفروا . . » ومثل قوله « ويل لكل همزة لمزة » وقوله : « تبت يدا أبى لهب وتب » وقوله : « قل يأيها الكافرون . . . » فهذه كلها مفاتح السور ، والبسملة مثبتة فى أوائلها ، وهى متضمنة ذكر الكفار .

وقد يقال إنها تضمنت ذكر الكفار دون ذكر صريح للبراءة ، وإن تضمنته تلويحاً وهذه البراءة هنا فى ذكر البراءة من الكفار قطعاً فلم تصدر بذلك الرحمة ، وإذا كان تجرد السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يخشى أن تجرد الصلاة عنها يمنع كمال الوصلة والاستحقاق » .

... ... وبعد أن ينتهى القشيرى من بسط مذهبه فى كل بسملة على هذا النحو الطريف الممتع يبدأ فى تفسير السورة آية آية ، ولم يتخلَّ عن آية إلا فى مواضع نادرة ، بل ربما تكون الآية طويلة نسبياً ومع ذلك لا يتركها دون إشارة حتى ولو كانت سريعة مقتضبة « على سبيل الإقلال خشية الملال » كما يقول فى مقدمته .

ولا بد أن القارئ يتوقع أن تسوق إليه موقف القشيرى من الحروف المقطعة التى تلى البسملة فى عديد من السور نظراً لما دار حول هذه الحروف من جدل كثير ، ونظراً لأنها لبعدها عن مألوف الكلام العادى أقرب ما تكون إلى الرموز وبمعنى آخر أقرب ما تكون إلى الإشارات أى أدْخَلَ فى عمل القشيرى فى « لطائف الإشارات » . وربما كان أفضل

ما نورده هنا قول القشيرى فى (الم) التى افتتحت بها سورة البقرة لأنها كانت أول حروف مقطعة يقابلها أثناء عمله . يقول : « هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم . ولكل كتاب سر ، وسرُّ الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم أنها مفاتيح أسمائه ؛ فالألف من اسم « الله » واللام يدل على اسم « اللطيف » ، والميم يدل على اسم « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه ، وقيل إنها أسماء السور ، وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى الله عليه وسلَّم ؛ فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد (ص) .

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط ، وسائر الحروف يتصل بها إلا أحرف يسيرة ، فلينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة لاحتياج الخلق بجملتهم إليه واستغنائه عن الجميع .

ويقال[1] يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تَقَدُّسَ الحق — سبحانه وتعالى — عن التخصص ؛ ذلك أن سائر الحروف لها محل من الحلق والشفة واللسان إلى غيرها من المخارج ، غير الألف فإنها هويته لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه ؛ فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين الجانب ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه . وقد اختص كل حرف بصفة مخصوصة ، وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالمرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصَلُحَ للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير

---

(١) عندما يقول القشيرى « ويقال ... » فليس معنى ذلك دائماً أن يورد بعدئذ رأياً لغيره فربما — وهذا هو الغالب — أنه يقصد إلى توضيح وجهة نظره من زوايا مختلفة .

مركبة على سُنّةِ الأحباب فى ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبى من هذه القصة ، قال شاعرهم :

قلت لها قفى قالت قاف

ولم يقل وقفتُ ستراً عن الرقيب ، ومراعاةً لقلب الحبيب ، وهكذا تكثر العبارات للعموم ، والرموز والإشارات للخصوص ؛ أسْمَعَ موسى كلامه فى ألف موطن ، وقال نبيّنا صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم فاختُصِرَ لى الكلام اختصاراً » وقال بعضهم :

قال لى مولاى ما هذا الدنف قلتُ تهوانى قال : لام ألف

... ... ويمضى القشيرى بعد ذلك فيستخرج للصوفية إشارات ثمينة مما يصادفه فى الآية من حكم تشريعى يتصل بالقتال والغنيمة والأسر والكيل والميزان والدين والشهادة ونحو ذلك أو كلام فى العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة أو ما يعود بالآية إلى أسباب نزولها والأخبار والقصص التى رويت من حولها ، أو ما تحتوى من مظاهر قدرة المولى ـ جل وعلا ـ فى خلق الإنسان والكون .

وينبغى ألا ننتظر من القشيرى إسهاباً فى الأحكام الفقهية والقواعد التعبدية والأسانيد ونحو ذلك فما لهذا ألّف كتابه ، ولا يصح للقارئ أن يتوقع منه ذلك فهناك تفاسير مخصوصة وضعت للوفاء بهذه الأمور ، إنما قصد القشيرى إلى استمداد شىء نافع للصوفية يتدعم به رأى من آرائهم أو عمل من أعمالهم ، فهذا هو مقصوده ، وتلك مراميه ، ونحن من أجل ذلك نقول بلا تحفظ إن « لطائف الإشارات » يمثل تمثيلاً صادقا مذهب القشيرى فى التصوف أكثر مما تمثله « الرسالة » فهو يغنى عنها وهى لا تغنى عنه .

وعلينا الآن أن نسوق أمثلة قليلة توضح موقف القشيرى فى تلك الأمور حتى يعرف القارئ منذ البداية أى نوع من التفسير ذلك الذى نضعه بين يديه . ففيما يختص بالأحكام التشريعية نراه مثلاً عند الآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه » يقول : الغنيمة ما يحصل عليه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند الجهاد والقتال . ولمّا كان الجهاد قسمين : جهاد الظاهر مع الكفّار وجهاد الباطن مع النفس والشيطان ، وكما أن للجهاد

الأصغر غنيمة عند الظفر كذلك للجهاد الأكبر غنيمة وهو أن يملك نفسه التى كانت فى يد عدوّيه : الهوى والشيطان ، وبعد أن كانت ظواهره مقراً للأعمال الذميمة وباطنه مُسْتقَرّاً للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مسكنَ الرضا ، ومقرُّ الشهواتِ والمنى محلاًّ لما يرد عليه من مطالبات المولى ، وتصير النَّفْسُ مستلبة من إصرار الشهوات ، والقلبُ مختطفاً من وصف الغفلات ، والروح منزوعة من أيدى العلاقات ، والسرُّ مصوناً من الملاحظات . وكما أنَّ من جملة الغنيمة سهما لله وللرسول وهو الخُمْس فما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهم خالص لله وهو مالا يكون للعبد فيه نصيب لا من كرائم العقبى ولا من ثمرات التقريب ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبد عنـد ذلك محرراً عن رقِّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يمحو ما سوى الله » .

ونلفت نظر القارئ إلى ما ورد فى هذا النص من ترتيب الملـكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى ، وهى : النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر ، ولـكل منها وظيفة ولـكل وظيفة غاية ، كما أن لـكلٍّ منها آفات ولـكن لـكل علاج . . . والـكلام فى ذلك كله موزع فى الـكتاب حسب السياق الذى توحى به آيات الـكتاب الـكريم . والقشيرى مشـكور أعظم الشكر حين التزم بهذا الترتيب ، ولم يتخلَّ عنه لا فى اللطائف وحده بل فى كل ما بين أيدينا من مصنفاته ، حتى صار له مذهب واضح السمات بارز القسمات فى المعراج الروحى ، وتفصيل ذلك موضح فى كتابنا عن « مذهبه فى التصوف » الذى هو القسم الأول من بحثنا للدكتوراه .

ويطابق القشيرى بين ما يحدث من نسخ لبعض الأحكام وبين ما يحدث من نسخ فى السلوك الصوفى حيث يقول عند قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل . . . » « حكم هذه الآية كان ثابتاً فى الشرع ، ولـكنه نسخ بعده . والنسخ هو الإزالة ، ومعنى النسخ فى سلوك المريدين أنهم فى الابتداء فرضهم القيام بالظاهر من حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شىء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر » .

أما فيما يختص بالعبادات فإننا نلحظ أن القشيرى يغتنم كل فرصة كى يوضح ضرورة التزام العبد بأدائها مهما أوغل فى الفناء عن نفسه ، فليس ثمة عذر لسقوطها عنه أو إعفائه

منها ، كذلك نراه يهتم اهتماماً ملحوظاً بالحث على التغلغل فى بواطنها ، ومعرفة جواهرها ، فهى ليست رسوماً ظاهرية يؤديها البدن وحسب ولكنها ذات مقاصد بعيدة .

فاستقبال القبلة عند الصلاة له عند القشيرى إشارة : (لتكن القبلة مقصود نفسك ، وسبحانه مقصود مشهود قلبك ؛ لا تعلّق قلبك بأحجار وآثار ، وأفرِدْ قلبك لى) وعند قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » يقول : « إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التى تجب فيه ، وعلى لسان أهل الإشارة الحج هو القصد ، فقصدٌ إلى بيت الحق وقصدٌ إلى الحق ، فالأول حج العوام والثانى حج الخواص ، وكما أن الذى يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه فإحرامه بعقد صحيح على قصد صحيح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ثم باشتماله بثوبى صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى وإطلاق خواطر المنى ، وما فى هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية ، وأفضل الحج الشجّ والعجّ ؛ فالشج صب الدم والعج رفع الصوت بالتلبية فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة وحسن الالتجاء والوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف القلوب الأسامى والصفات (= أسماء الله الحسنى وصفاته) ، وطواف القلوب حول مشاهد العز ، والسعى بالأسرار بين صفى كشف الجلال ولطف الجمال ، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمنى والمعارضات بكل وجه » .

ونسمع القشيرى عند : « كتب عليكم الصيام . . . » يقول : « الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات . . . .

ونهاية الصوم إذا هجم الليل ، ولكن من أمسك عن الأغيار فصومه نهايته أن يشهد الحقّ . والصوم لرؤية الهلال والإفطار لرؤيته كما يقول عليه السلام فالرؤية عائدة على الهلال ، وعند أهل التحقيق فالرؤية عائدة إلى الحق ؛ فصومهم لله حتى شهودهم ، وفطرهم لله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله » .

هذا عن العبادات أما عن أسباب النزول فينظر إليها القشيرى كما ينظر إلى مورد المثَلِ ومضربه ، فالآية « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » يقول عندها القشيرى : « نزلت حين أمر اللهُ رسولَه بقطع بعضها فقالت اليهود : أى فائدة فى هذا ؟ أمِنَ الصلاح قطع النخل وعقر الشجر ؟

فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأن ذلك بإذن الله ، وانقطع الكلام ؛ وفى هذا دليل على أنَّ الشريعة غير مُعَلَّلَةٍ ، وأنه إذا جاء الأمرُ الشرعىُّ بطل طلب التعليل ، وسكتت الألسنة عن المطالبة : بِلِمَ ؟ وهكذا من قال لأستاذه وشيخه : لِمَ ؟ لم يفلح ، وكلُّ مريد يكون لأمثال هذه الخواطر فى قلبه جَوَلَان لا يجىء منه شىء ، ومَنْ لم يتجرد قلبه عن طلب الاعلال ولم يباشر حسن الرضا لكل ما يجرى ، واستحسان ما يبدو من الغيب من الله — بسرِّه وقلبه — فليس من الله فى شىء » .

وفى قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » يقول : « نزلت هذه الآية فى أهل رجل من اليمن ترك لهم جنة مثمرة ، وكان يتصدَّق منها للمساكين ، فلما ورثه أهله قالوا : لن نفعل فعله ، وأقسموا ألا يعطوا شيئاً ، فأَهْلَكَ الله جنتهم . وندموا وتابوا » وهذه حال من له بداية حسنة ، ويجد التوفيق على التوالى ، ويجتنب المعاصى ، فيعوضه الله فى الوقت نشاطاً ، وتلوح فى باطنه أحوال فإذا بَدَرَ منه سوء دعوى ، وترك أدَباً من آداب الخدمة تنسدُّ عليه تلك الأحوال ، ويقع فى فترة ، فإذا حصل منه بالعبادات والفرائض إخلال انقلب حاله ، ورُدَّ عن الوصال إلى البعاد ، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، وصارت صفوته قسوة ، فإن كان له بعد ذلك توبة على ماسلف ، وندامة على ما فات من أمره ، فقلَّما يصل إلى حاله ، ولكن لا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك ، رعايةً لما سلف منه فى البداية من أحواله ، فإن الله تعالى رءوف بعباده » .

ومن مظاهر القدرة الإلهية فى الكون والحياة والإنسان لا يغيب عن القشيرى أن يستمد إشارات مناسبة يوجهها نحو الموضوعات الصوفية فيقول مثلاً عند « ألم نخلقكم من ماء مهين » : « مهين أى حقير ذكَّرهم أصل خلقتهم لئلا يعجبوا بأحوالهم ، فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ،

كان نطفة وفى انتهائه إلى جيفة ، وفى وسائط حاله كنيف فى قميص ، فبالحرىّ ألا يدل ولا يفخر . . . ثم صوّره فأحسن صورته ؛ فهو قادر على أن يرقيك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة .

والإنسان أفضل من الجان لأن الجان من نار ، والنار بالماء تنطفىء وتصبح رماداً ولا يجىء منها شىء . أمّا الطين (الإنسان) فإذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، ولذلك العدو (إبليس) انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة ، ولكن آدم عليه السلام لما اغترّ تجبّره ماء العناية فقال تعالى : ثم اجتباه ربه » .

« خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى « يحبهم ويحبونه » خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » خلق الإنسان من طين ولكنه يقول « اذكرونى أذكركم » خلق الإنسان من طين ولكن :

فكم أبصرت من حُسْنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

* * *

وبعد . . . فهذه أمثلة سريعة أردنا أن نقدمها للتدليل على المواقف التى يتخذها القشيرى فى ظلال القرآن من زوايا مختلفة وفى ظروف متنوعة ، ومن مجموع هذه المواقف يتحصل مذهبه فى التصوف فضلاً عن مذهبه فى الكلام ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه حاول أن يحل بطريق العلم الصوفى ما عجز المتكلمون عن حلّه ، فحين حلّ القلبُ محلّ العقل ليصعد ويقصد نحو الملأ الأعلى، وأصبح الحقّ مناط الأمل لم يعد هناك معنى لأى حديث فى الجبر والاختيار والحسن والقبيح والثواب والعقاب — على النحو الذى اشتجر من حوله الخلاف بين المتكلمين . الله — فى عرف هذا الصوفى وفى عرف الصوفية الخُلّص — مشهود ومحبوب لا معبود فقط ، وكلّ كلام عن جبر الحب وعذاب الحب يسمُج ويسخف ، وهل هناك أجمل من أن يتعذب الإنسان فى حبه حتى يهلك ؟ ألا ما أروعها من غاية ! وما أجدر من أن يضيع العمر بين فقد ووجد !

وما أعظم أن يكون الحقّ خلَفاً لك عن كل حطام الدنيا وأن تكون مشاهدته بديلاً لك عن كل نعيم الجنان !

* * *

بقيت مسألة هامة لا أحب أن أنهى هذا التقديم دون أن أوضحها ، وهى قيمة هذا الكتاب من الناحية الأدبية .

والواقع أن المسألة أكثر شمولا وأوسع أبعاداً من أن تنصرف إلى « لطائف الإشارات » وحده أو حتى إلى أعمال القشيرى كلها ، إنها تتصل بقضية أعظم هى الطريقة التى يؤخذ بها الإنتاج الصوفى عموماً ، فما زلنا حتى الآن نكتفى بدراسة الأعمال الصوفية ضمن الدراسات الفلسفية والعقلية ، فالتصوف فى جامعاتنا يدرس فى أقسام الفلسفة بينما لا يدرس فى أقسام اللغة العربية وآدابها ، وإذا حدث شىء من ذلك فهو ينتقل إليها بطريق أساتذة الفلسفة .

وإنى لأتساءل : إلى متى يظل الحال هكذا ؟ إن الوضع مقلوب ، فالمشتغلون بالأدب أولى باحتضان التصوف ، لأن الإنتاج الصوفى — فى كثير من الأحوال — درر من المنظوم والمنثور ، والصوفية أنفسهم قوم يصرحون أن مذهبهم لا يعنى بالعقل إلا فى مراحل البداية من أجل تصحيح الإيمان ، أمّا طريقهم بعد ذلك فوثيق الصلة بالقلب والوجدان ، فهم بذلك يقتربون من أهل الفن وينأون عن أهل العقل ، هم فى حاجة إلى من يتذوق أقوالهم أكثر مما هم فى حاجة إلى من يتفكر فيها ، وتجربتهم فى الفناء تدنو من تجربة الإلهام فى الفن ، ومصطلحاتهم التى وضعوها لأنفسهم تنم عن بصر نافذ فى الأسلوب العربى والاشتقاق ، وهكذا يفرض الإنتاج الصوفى نفسه على الدراسات الأدبية ، بينما المشتغلون بهذه الدراسات لا يكادون يحركون ساكناً .

وليس بمعقول أن أقنع القارىء بجدوى دراسة « اللطائف » من الناحية الأدبية بواسطة هذه السطور القليلة ، فهذا له مكان آخر ، إنما قصدت لأثير قضية عامة قد يؤدى الأخذ بها إلى تصحيح كثير من المقاييس التى تتصل بالتصوف وبالأدب على حدٍّ سواء .

وفى تقديرنا أن منهج القشيرى فى استخراج الإشارة من العبارة منهج أدبى ، لأنه يعتمد على تذوق اللفظة — مفردة ومركبة — تذوقاً ينبنى على أصول من اللغة والاشتقاق والإعراب والبلاغة ، ثم إن التعبير الذى يفصح به القشيرى تعبير أدبى له خصائص الأسلوب الأدبى والصياغة الفنية ، ومعنى هذا أنه نظر للقرآن بمنظار أدبى وعبّر عن نظرته بطريقة أدبية ، وليس أدخل فى التفسير الأدبى من منهج كهذا ، حيث استكمل ناحيتين : أدب المفسّر وأدب المفسَّر .

حقاً إن القرآن كتاب دين وهداية وتشريع وعلم وغير ذلك مما يمكن أن تحج إليه المقاصد الإنسانية تلتمس فيه زاداً ينمى المعارف ، ويثرى العلوم ، ويفتح مغاليق الأمور . ولكنه قبل كل ذلك معجزة فنية بهرت سامعيها أول ما بهرتهم بالبيان ، والنظم ، والقول ، فوجدوا لذلك حلاوة ، وعليه طلاوة ، وهم أهل لَسَنٍ وفصاحة ، فنحن نعلم أن المعجزة تكون من جنس معجزات المخاطبين ولكنها من حيث الدرجة أعلى قَدْراً وأصعب دَرَكا وأعزُّ منالاً .

نخرج من هذا إلى أن دراسة إعجاز القرآن إن أغفلت تفسيراً كاللطائف — راعى فيه صاحبه أدبَ المفسَّر وأدب المفسِّر — إنما تغفل عن رافدٍ غنى من روافد الدراسات القرآنية .

ويمكن أن نضرب أمثلة سريعة توضح طريقة القشيرى عندما يتصدّى لبعض الجوانب فى الأسلوب القرآنى .

فمن اللفظة المفردة تنبعث إيحاءات جميلة مؤثرة تزيد المعنى قوة وتأكيداً ؛ كأن يقول عند قوله تعالى : « بل هم فى شك يلعبون » : اللعب فعل يجرى على غير ترتيب ، تشبيهاً باللُّعاب الذى يسيل لا على نظام مخصوص ، فوصف المنافق باللعاب تصويراً لتردده وتحيره وشكه فى عقيدته » .

والتسبيح عنده مرتبط « بالسباحة فى بحار التوحيد بلا شاطئ ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح فحازت أيديهم جواهر التفريد ، نظموها فى عقود الإيمان ورصعوها فى أطواق الوصلة » .

والفجر « انفجار الصبح كما يَتفجَّر الماء من الصخر » .

ومن القصة تنبعث إيحاءات ممتعة ؛ فمريم حين خوطبت « وهزِّى إليك بجذع النخلة » : كان ذلك الجذع يابساً أخرج الله سبحانه فى الوقت الرُّطَبُ الجنىَّ ، وكان ذلك آية ودلالة على أن الذى قدر على فعل هذا قادر على خلق عيسى عليه السلام من غير أب ، وقد أمرت بهز النخلة اليابسة حينما جاءتها علاقة الولد بعد أن كانت لا تتكلف السعى إذ كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقا ، أمرت بهز النخلة وهى فى أضعف حالها زمان قرب عهدها بوضع الولد ليعلم أن العلاقة توجب المشقة والعناء ، أمرت بهز النخلة اليابسة وأمكنها ذلك وهى فى حال ضعفها وفى ذلك أوضح دلالة على صدقها ... » .

وإذا ضرب القرآن مثلاً بالكلب أو الذبابة أو البعوضة أو التى نقضت غزلها من بعد قوة ، فإن هذا التصوير القرآنى الأخاذ له على وجدان القشيرى الأديب وقع مؤثر ، يقول مثلا (. . . . وضرب المثل بالبعوضة لأنها إذا جاعت فرّت وطارت ، وإذا شبعت تشققت وتلفت ، كذلك الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . « وما فوقها » أى الذباب ، وجهة الإشارة فى أن للذباب وقاحة حيث يعود عند البلاغ فى الذبّ ، والله سبحانه خلق القوة فى الأسد ولكنه خلق فيه النفور من الناس ، وخلق الضعف فى الذباب ، ولكنه خلق فيه الوقاحة ، وتلك حكمة الله) .

والمظاهر الكونية فى القرآن مصادر إشارات لا تنتهى وهى من أقوى الوسائل التى استغلّها القشيرى لتوضيح حقائق العلم الصوفى فالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والسحب والأمطار . . . . كلها توحى بمعانٍ كثيرة لتوضيح الفروق الدقيقة بين الطوالع واللوامع واللوائح ، وعلم اليقين وحق اليقين ، وعلوم الإنسان العقلية والمعارف اللدنية . . . . إلى آخره .

يقول عند « كلا والقمر » : أقمار العلوم إذا أخذ هلالها فى الزيادة بزيادة البراهين فإنها تزداد حتى إذا صارت إلى حد التمام وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، ثم تأخذ علوم البراهين فى النقصان حين تطلع شموس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقا كذلك إذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم فى النقصان بزيادة المعارف كالسراج فى ضوء الشمس) .

وتوقف القشيرى طويلاً عند المواقف النفسية وعند الاستدلالات الوجدانية فى الأسلوب القرآنى فكشف الكثير من أسرار الإعجاز القرآنى كما أبان عن عبقريته فى التذوق الفنى ، وليس ذلك غريباً بالنسبة لصوفىّ ذى بصيرة كاشفة ، وشاعرٍ له حس دقيق مرهف ، وباحثٍ متعمق فى أغوار النفس البشرية ، وأديبٍ يحسن التعبير عما يذوق ويجد .

نفعنا الله بعلمه وبركته ؟

دكتور ابراهيم بسيونى

نرمز للنسخة السوفيتية المصوَّرة بالحرف (ص)

ونرمز للنسخة المصرية بالحرف (م)

ونرمز للرسالة القشيرية ط الحلبي سنة ١٩٥٩ (بالرسالة)

صورة لورقة من النسخة السوفيتية

رَبِّ يَسِّرْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرح قلوب أوليائه بعرفانه ، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه ، لمن أراد طريقه ، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه ، وأنزل الفرقان هدًى وتبيانا ، على صفيِّه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله — معجزة وبيانا ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ، ورزقهم الإيمان بمُحكَمِه ومتشابهه وناسخه ، ووعده ووعيده ، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأذ (واره) لاستبصار ماضمنَّه من دقيق إشاراته ، وخفىّ رموزه ، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون[1] وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحُكْمُ إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون .

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيرى رحمه الله : وكتابنا هذا يأتى على ذكر طرف من إشارات القرآن[2] على لسان أهل المعرفة ، إما من معانى مقولهم ، أوقضايا أصولهم ، سلكنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملال ، مستمدين من الله تعالى عوائد المِنَّة ، متبرئين من الحول والمُنَّة[3] مستعصمين من الخطأ والخلل ، مستوفقين لأصوب القول والعمل ، ملتمسين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سلّم) ، ليختم لنا بالحسنى بمنِّه وأفضاله . وتيسّر الأخذ

---

(١) وردت فى س (مخبرون) والسياق لا يتطلبها .

(٢) ما تحته خط هو تكملة اعتمدنا فى إثباتها هنا على ما جاء فى (تذكرة النوادر) التى اقتبست بضع فقرات رجوعاً إلى نسخة أخرى .

(٣) المُنَّة بضم الميم القوة .

فى ابتداء هذا الكتاب فى شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة[1] ، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجلّ .

سورة فاتحة الكتاب .

هذه السورة بدا (ية) الكتاب ، ومفاتحة الأحباب بالخطاب والكتاب منه أجلُّ النِّعمى ، وأكْرَمُ الحسنى إذ هى (. . .)[2] وابتداء وفى معناه قيل .

أفديك بل أيام دهرى كلها تفدين أياماً (. . . . .)
سُقْياً لمهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصبابة معهداً[3]

ولقد كان صلى الله عليه وسلم غير مُرتقِبٍ لهذا الشأن ، وما كان هذا الحديث منه على بال ، وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ فى الفرار ، وآثر التباعد لهذا الأمر آوى (. . .) قائلاً : دثرونى دثرونى ، زمِّلونى زمِّلونى ، وكان يتحنَّث فى حِراء ، ويخلو هنالك (. . . .) فجأة ، وصادفته القصة بغتةً كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبى فارغاً فتمكَّنا[4]

وكان صلوات الله عليه وسلم رَضِىَ بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه وتعالى أراده لأن)[5] يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال. «يس والقرآن الحكيم»، (رفعه إلى) أشرف المنازل وإن لم يسم إليه بطرف التأميل سُنَّة منه تعالى وتقدَّس (. . .) إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك ما قصُّوا العَجَب من شأنه (. . .) يتيم أبى طالب

---

(١) اعتمدنا فى استكمال رقمى الآحاد والعشرات من السنة على (تذكرة النوادر) حيث سقطا فى س . وبهذا يبطل قول صاحب كشف الظنون (المجلد الثانى ص ١٥٥١) بأن القشيرى ألف اللطائف قبل عام ٤١٠ ، ويبدو أن الأمر قد التبس على حاجى خليفة فظن تاريخ تأليف « التيسير فى التفسير » هو تاريخ تأليف « اللطائف » .

(٢) مابين الأقواس المفرغة ساقط فى س ومن حسن الحظ أن السقوط الكثير على هذا النحو لا يتكرر بعد الورقتين الأولى والثانية من (س) .

(٣) اعتمدنا فى تكملة البيت على هذا النحو على وروده فى (م) كاملا عند تفسير سورة الحديد .

(٤) الشطر الثانى من البيت ناقص فى (س) ومكمل فى (م) عند تفسير آية : علم القرآن من سورة الرحمن

(٥) زيادة أضفناها ليستقيم المعنى .

من بين البرية ، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم فى سابق (علمه) سبحانه وتعالى مُقدَّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفى معناه قيل :

هـذا (. . .) أطهار وكان فى فقر من السيار
آثرُ عندى (بالإكبار) من أخى (ومن) جارى
وصاحب الدرهم (والدينار) فإن صاحب الأمر مع الإكثار[1]

ولقد كان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة حميد الشأن ، (محمود) الذكر ، ممدوح الإسم ، أميناً لكل واحد . وكانوا يسمونه محمداً الأمين ، ولكن (الكافرين) (. . .) حالته ، بدّلوا اسمه ، وحرّفوا وصفه ، وهجّنوا ذكره ، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (. . .) وثالث يقول كاذب ، ورابع يقول شاعر :

أشاعوا لنا فى الحى أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حربا

وهكذا صفة المُحِبّ ، لا ينفك عن الملام ولكن كما قيل

أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللُّوَّم[2]

وماذا عليه من قبيح قالة (من) يقول ، (والحق سبحانه يقول) : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك» أى استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا .

[فصل] وتسمى هذه السورة أيضاً أمّ الكتاب ؛ وأم الشىء أصله ، وإمام كل شىء مقدّمه . وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية ، والثناء على الله بجمال الربوبية ، ثم[3] كمالها من الفضائل — لا تصح الفرائض إلا بها . وقوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه وتعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » يعنى قراءة هذه السورة ، فصارت أمّ الكتاب ، وأصلاً لما تنبنى عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب .

---

(١) أضاع البياض الذى فى المصورة كثيراً من ألفاظ هذه الأبيات فحاولنا إضافة بعض الألفاظ ، وإن كان وزن الشعر ما زال غير سليم .
(٢) وردت خطأ فى (ص) : فليلمنى اللؤم .
(٣) لا نستبعد أن تكون فى الأصل (ثمّ) كمالها ...

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الباء فى «بسم الله» حرف التضمين ؛ أى بالله ظهرت الحادثات ، وبه وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، وحاصل منسوق ، من عين وأثر وغبر ، وغيرٍ من حجر ومدر ، ونجم وشجر ، ورسم وطلل ، وحكم وعلل — إلا بالحق وجوده ، والحق مَلِكُه ، ومن الحق بدؤه ، وإلى الحق عوده ، فبه وَجَدَ من وَحَّد ، وبه جحد من ألحد[1] ، وبه عرف من اعترف ، وبه تخلَّف من اقترف .

وقال « بسم الله » ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفَرْقِ بين هذا وبين القَسَم عند الآخرين ، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء ، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان ، ليكون ورود قوله « الله » على قلبٍ مُنَقَّىً وسرٍ مُصَفًّى . وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره)[2] بأوليائه ومن السين سره مع أصفيائه ومن الميم منته على أهل ولايته ، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرّه ، وبمنته عليهم حفظوا أمره ، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره . وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء ، وبالسين[3] سلامته سبحانه عن كل عيب ، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه ، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه ، وعند السين سناءه ، وعند الميم ملكه ، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعنى بسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية[4] كلمات غير مكررة[5] ، وإشارات غير معادة ، فلذلك نستقصى القول ها هنا وبه الثقة .

---

(١) وردت فى ص (اللحد) .

(٢) سقطت فى ص وأثبتناها لأن ما بعدها يدل عليها .

(٣) وردت فى ص (بالسنين) .

(٤) من هنا ندرك أن القشيرى يعتبر البسملة قرآنا خلافاً لمن يعدونها من قبيل الاستفتاح والتبرك ، فتبدأ بها القراءة كما يُفعل فى سائر الأفعال (أنظر المغنى للقاضى عبد الجبار ج ١١ ط وزارة الثقافة سلسلة تراثنا ص ١٦١) .

(٥) من هنا ومما نعلم من مذهب القشيرى نراه لا يعتقد فى فكرة التكرار فى القرآن لأن التكرار أليق بالمخلوقين ولأسباب أخرى لا محل لها هنا .

حقيقة الحمد الثناء على المحمود ، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة ، واللام ها هنا للجنس ، ومقتضاها الاستغراق ؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمَّا وصفاً وإمَّا خلقاً ، فله الحمد لظهور سلطانه ، وله الشكر لوفور إحسانه . والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله ، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله ؛ فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله ، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطوْله ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو ، واستيجابه لنعوت العز والسمو ، فله الوجود (قدرة)[1] القديم ، وله الجود الكريم ، وله الثبوت الأحدى ، والكون الصمدى ، والبقاء الأزلى ، والبهاء الأبدى ، والثناء الديمومى ، وله السمع والبصر ، والقضاء والقدر ، والكلام والقول ، والعزة والطوْل ، والرحمة والجود ، والعين والوجه والجمال ، والقدرة والجلال ، وهو الواحد المتعال ، كبرياؤه رداؤه ، وعلاؤه سناؤه ، ومجده عزه ، وكونه ذاته ، وأزله أبده ، وقدمه سرمده ، وحقه يقينه ، وثبوته عينه ، ودوامه بقاؤه ، وقدره قضاؤه ، وجلاله جماله ، ونهيه أمره ، وغضبه رحمته ، وإرادته مشيئته ، وهو الملك بجبروته ، والأحد فى ملكوته . تبارك الله سبحانه ! ! فسبحانه ما أعظم شأنه !

[فصل] علَّم الحق سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزَهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حَمِد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله : « الحمد لله » فانتعشوا بعد الذِّلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستقلت أسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق ، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال . وقالوا :

ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل

هذا خطيب الأولين والآخرين ، سيد الفصحاء ، وإمام البلغاء ، لمَّا سمع حمده لنفسه ، ومدحه سبحانه لحقِّه ، علم النبى أن تقاصر اللسان أليق به فى هذه الحالة فقال : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

داوود لو سمعت أذناه قالتَها لما ترنَّم بالألحان داوود
غنت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داوود من الخجل

(١) هذه كلمة زائدة يمكن الاستغناء عنها ، ويرجح ذلك نظم الأسلوب وسياق المعنى ، أو ربما كانت (قِدَمُه).

[فصل] وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم فى أحوالهم ؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعى صفة نفعه ودفعه ، وإزاحته وإتاحته ، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وطائفة حمدوه على مالاح لقلوبهم من عجائب لطائفه ، وأودع سرائرهم من مكنونات بره ، وكاشف أسرارهم به من خفى غيبه ، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده . وقوم حمدوه عند شهود ما كاشفهم به من صفات القدم ، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم ، وتأمل خصائص القِسَم ، و (فرق بين)[1] من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله ، كما قال قائلهم :

وما الفقر عن أرض المشيرة ساقنا ولكننا جئنا بلقياك نسعد

وقوم حمدوه مُسْتَهْلَكين عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده ، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده ، فهم به منه يعبّرون ، ومنه إليه يشيرون ، يُجرى عليهم أحكام التصريف ، وظواهرهم[2] بنعت التفرقة مرعية ، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع[3] الجمع ، كما قالوا :

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معانى الغيب أنت لسانه

قوله جل ذكره : ﴿ ربّ العالمين ﴾

الرب هو السيد ، والعالمون جميع المخلوقات ، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنشيها ، ومُوجِد الرسوم والديار بما فيها .

ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق ، فهو مُربٍ نفوس العابدين بالتأييد ومربٍ قلوب الطالبين بالتسديد ، ومربٍ أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مربٍ الأشباح بوجود النِّعم ، ومربٍ الأرواح بشهود الكرم .

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمور عباده من ربيت العديم أربه ؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدين

---

(١) وردت (وفر ...) ثم بعدها بياض فأكملناها على هذا النحو ليتم المعنى .

(٢) وردت (وظاهرم) ولكن السياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وردت (جميع الجمع) ولكن الاصطلاح الصوفى هو جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع وجمع الجمع هو الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله (رسالة القشيرى ط سنة ١٩٥٩ ص ٣٩) .

بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقائه ، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقائه ، قال قائلهم :

ما دام عزك مسعوداً طوالعه فلا أبالى أعاش الناس أم فقدوا

قوله جلّ ذكره : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾

اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة صفة أزلية وهى إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق .

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم فى الإفادة ، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق، والرحيم ينعت به غيره ، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن ، وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة ، أو نفس النعمة كما هى (عند قوم فالنعم فى أنفسها مختلفة ، ومراتبها متفاوتة فنعمة هى)[1] نعمة الأشباح والظواهر ، ونعمة هى نعمة الأرواح والسرائر .

وعلى طريقة من فرّق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام المعنى ، والرحيم عام الاسم خاص المعنى ؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم ، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم ، فالرحمن بما روّح ، والرحيم بما لوّح ؛ فالترويح بالمبارّ ، والتلويح بالأنوار : والرحمن بكشف تجلّيه والرحيم بلطف توليّه ، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم بما أسدى[2] من العرفان ، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولّى من الغفران ، بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يَمُنّ به من الرضوان ، بل الرحمن بما يكتم به والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان ، بل الرحمن بما يوفق ، والرحيم بما تحقق ، والتوفيق للمعاملات ، والتحقيق للمواصلات ، فالمعاملات للقاصدين ، والمواصلات للواجدين ، والرحمن بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم ؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية .

قوله جل ذكره : ﴿ مالك يوم الدين ﴾

المالك من له المُلك ، ومُلك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع ، فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك ، وله المُلك . وكما لا إله إلا هو فلا قادر على الإبداع إلا هو ، فهو بإلهيته متوحد ، وبملكه متفرد ، ملك نفوس العابدين فصرفها فى خدمته ، وملك قلوب العارفين فشرّفها بمعرفته ، وملك نفوس القاصدين

---

(١) تكملة فى الهامش استدرك بها الناسخ فأثبتناها فى موضعها .

(٢) وردت (أسرى) والأصح (أسدى) .

فتيّمها ، وملك قلوب الواجدين فهيّمها . ملك أشباح من عَبَدَه فلاطفها بنواله وأفضاله ، وملك أرواح مَنْ أحبهم (. . . .)[1] فكاشفها بنعت جلاله ، ووصف جماله . ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفقهم حيث شاء على ما شاء كما شاء ، ولم يَكِلْهم إليهم لحظة ، ولا ملّكهم من أمرهم سِنَّةً ولا خطرة ، وكان لهم عنهم ، وأفناؤهم له منهم[2] .

[فصل] مَلَكَ قلوبَ العابدين إحسانُه فطمعوا فى عطائه ، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقنعوا ببقائه . عرّف أربابَ التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم ، علموا أن العبد لا ملك له ، ومن لا ملك له لا حكم له ، ومن لا حكم له لا اختيار له ، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض ، ولا فى اختياره معارضة ، ولا لمخالفته تعرّض ، « ويوم الدين » يومُ الجزاء والنشر ، ويوم الحساب والحشر — الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد ، فمِنْ بين مقبولٍ يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم ، ومن بين مردودٍ بحكمه سبحانه وتعالى لا بجُرْمِهم . فأمّا الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأمّا الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم :

قومٌ إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

معناه نعبدك ونستعين بك . والابتداء بذكر المعبود أتمّ من الابتداء بذكر صفته — التى هى عبادته واستعانته ، وهذه الصيغة أجزل فى اللفظ ، وأعذب فى السمع . والعبادة الإتيان بغاية ما فى (بابها)[3] من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع .

والاستعانة طلب الإعانة من الحق .

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمُنَّة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمِنَّة ، فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد . فى العبادة وجود شرفه ، وبالاستعانة أمان تلفه . والعبادة ظاهرها تذلل ، وحقيقتها تعزُّز وتحمُّل :

وإذا تذللت الرقاب تقرباً مِنّاً إليك ، فعزُّها فى ذُلِّها

---

(١) مشتبهة فى س ، وربما كانت (وأحبوه)

(٢) (له) هنا معناها لأجله اى أنه أفناهم من أنفسهم لأجله ليبقوا به ، وكان الأسلم أن تكون العبارة : وأفناؤهم منهم له ولكن حرص المصنّف على مراعاة الانسجام بين عنهم ومنهم .

(٣) وردت (بابه)

وفى معناه :

حين أسلَمْتَنِي لذالٍ ولام ألقيتنى فى عينٍ وزاى[1]

[فصل] العبادة نزهة القاصدين[2] ، ومستروح المريدين ، ومربع الأنس للمحبين ، ومرتع البهجة للعارفين . بها قُرَّةُ أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم . وإليه[3] أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : أرِحنا بها يا بلال » . ولقد قال مخلوق فى مخلوق :

يا قوم ثارى عند أسمائى يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أصدق أسمائى

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه ، ونزلك بساحة جوده ، وتسليمك إلى يد حكمه ، فتقصده بأمل فسيح ، وتخطو إليه بخطو وسيع ، وتأمل فيه برجاء قوى[4] ، وتثق بكرم أزلى ، وتتكل على اختيار سابق ، وتعتصم بسبب جوده (غير ضعف)[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

الهداية الإرشاد ، وأصلها الإمالة ، والمهدىُّ من عرف الحق سبحانه ، وآثر رضاه ، وآمن به . والأمر فى هذه الآية مضمر ، فمعناه اهدنا بنا[6] — والمؤمنون على الهداية فى الحال — فمعنى السؤال الاستدامة والاستزادة . والصراط المستقيم الطريق الحق وهو ماعليه أهل التوحيد . ومعنى اهدنا أى مِلْ بنا إليك ، وخُذْنا لك ، وكن علينا دليلنا ، ويَسِّرْ إليك سبيلنا ، وأقم لنا همتنا ، واجمع بك همومنا .

[فصل] اقطعْ أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوِّح فى قلوبنا طوالع الأنوار ، وأفرِدْ

---

(١) وردت و (زار) (٢) وردت (القاصرين) (٣) أى وإلى ذلك أشار

(٤) وردت (قوى) وهى غير مناسبة للمعنى .

(٥) إما أن تكون زائدة أو ينقصها حرف الجر في فتكون (فى غير ضعف) أو تكون (غير ضَعِف) (أساس البلاغة ص ٥٦٣) أى غير متكثر بالأسباب لجلب المال .

(٦) ويكون المعنى على هذا أقم فينا ما يجعلنا نهتدى به إليك ، ولكن نرجح أن يكون قد وقع خطأ من الناسخ وأن الأصل (إهدنا بك) لأن ذلك يتفق مع مذهب القشيرى وغيره من الصوفية حيث يعتبرون كل شىء يقع من العبد مرده إلى الحق سبحانه ، فلا قدرة للعبد — وحده — على معرفة الله ، ولا على الاهتداء إليه ، وتدل الدلائل فيما بعد على ذلك مثل قوله (فنجدك بك) . واما أن يكون الأصل (إهدِ بنا) أى — كما جاء فيما بعد — مِلْ بنا .

قصودنا إليك عن دَنَس الآثار ، ورقّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى جَمْع ساحات القُرب والوصال .

[فصل] حُلْ بيننا وبين مساكنة[1] الأمثال والأشكال ، بما تلاطفنا به من وجود الوصال ، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال .

[فصل] أرْشِدْنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات ، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال .

« اهدنا الصراط المستقيم » أى : أزِلْ عنّا ظلماتِ أحوالنا لتستضىء[2] بأنوار قُدْسِك عن التفيؤ بظلال طلبنا ، وارفع عنا ظل جهدنا لنستبصر بنجوم جودك ، فنجدك بك .

[فصل] اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه ، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها ، أو يصدنا عن الوصول تعريج فى أوطان التقليد ، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون لى معتاد من التلقين ، وتستهوينا آفة من نشو أو هوادة ، وظن أو عادة ، وكلل أو ضعف إرادة ، وطمع مالٍ أو استزادة .

[فصل] الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل ، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ماشهدت بصحته دلائل التوحيد ، ونبهت عليه شواهد التحقيق . الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة ، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظَ سالكُه ، وفارق[3] الحقوقَ قاصدُه . الصراط المستقيم ما يُفْضِى بسالكه إلى ساحة التوحيد ، ويُشْهِدُ صاحبَه أثرَ العناية والجود ، لئلا يظنّه موجَبُ (ببذل)[4] المجهود .

---

(١) وردت (ساكنة) والأصح بالميم فقد جاءت كذلك فى مواضع كثيرة أخرى .

(٢) وردت خطأ (لتصتفىء) .

(٣) وردت (وفارن) فى ص ، والأصح أن تكون بالقاف ؛ فالحظوظ للعبد والحقوق للحق .

(٤) وردت (بذل) بدون باء والأقوى فى رأينا أن تكون بالباء وأن نقرأ موجب بفتح الجيم أى مستحق ، وبذلك يتضح موقف القشيرى من قضية هامة وهى : هل يجب على الله أن يثيب المطيع ؟ ولا يرى القشيرى هذا الوجوب لأنه يربط كل عمل للعبد بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنسانى . وقد صدق الرسول (ص) حين قال : « ما منكم من أحد ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾

يعنى طريق من أنعمتَ عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء . ويقال طريق من (أفنيتهم)[1] عنهم ، وأقمتهم بك لك ، حتى لم يقفوا فى الطريق ، ولم تصدهم عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم .

ويقال صراط من (طهرتهم)[2] عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك .

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان ، ومغاليط[3] النفوس ومخاييل الظنون ، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشر(ية) .

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبرى من الحول والقوة ، وشهود ماسبق لهم من السعادة فى سابق الاختيار ، والعلم بتوحيدك فيما تُمضيه من المَسَار والمضار .

ويقال صراط الذين أنعمتْ عليهم بحفظ الأدب فى أوقات الخدمة ، واستشعار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات (بواده)[4] الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخِلُّوا بشىء من أحكام الشريعة . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئ شموسُ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيِّعُوا شيئاً من أحكام الشرع[5] .

ويقال صراط الذين أنعمتَ عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

---

(١) وردت (أفتنهم) فى س (٢) وردت (ظهرتهم) فى س
(٣) وردت (مغاليظ) فى س (٤) وردت (بواد)
(٥) نلاحظ أن القشيرى يلح كثيراً على التزام آداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الانمحاء ، واستلبه سلطان الفناء ، ويحسن هنا أن نشير إلى اصطلاح فى مذهب القشيرى وهو الفرق الثانى وهى حالة عزيزة يرد عندها العبد إلى الصحو لكى يؤدى ما يجب عليه من الفرائض فى أوقاتها ، ويكون رجوعه لله بالله (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٩) .

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجم الخذلان[1] ، وأدركتهم مصائب الحرمان ، وركبتهم سطوة الرد ، وغلبتهم بوَاده الصد والطرد .

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان ، وأصابهم[2] سوء الخسران ، فشغلوا فى الحال باجتلاب الحظوظ — وهو فى التحقيق (شقاء) ؛ إذ يحسبون أنهم على شىء ، وللحق فى شقائهم سر .

ويقال هم الذين أنِسُوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق سبحانه فى بابهم شانا ؛ بُدِّلوا بالوصول بعادا ، وطمعوا فى القرب فلم يجدوا مرادا ، أولئك الذين ضلّ سعيُهم ، وخاب ظنهم .

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق ، والتعامى عن رؤية التأييد . ولا الضالين عن شهود سابق الاختيار ، وجريان التصاريف والأقدار .

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة ، وتقصيرهم فى أداء شروط الطاعة .

ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا فى مفاوز الغيبة ، وتفرّقت بهم الهموم في أودية وجوه الحسبان .

[فصل] ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين ، والتأمين سُنَّة ، ومعناه يارب افعل واستجب ، وكأنه يستدعى بهذه القالة التوفيق للأعمال ، والتحقيق للآمال ، وتحط رِحْلُه بساحات الافتقار ، ويناجى حضرة الكرم بلسان الابتهال ، ويتوسل (بتبريه)[3] عن الحول والطاقة والمُنَّة والاستطاعة إلى حضرة الجود . وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة لتحققه بصدق الاستغاثة .

السورة التى تذكر فيها البقرة . . قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسم مشتق من السمو والسِّمَة ، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات ، ويسمو بهمته إلى مَحَالِّ المشاهدات . فمن عدِم سمة المعاملات على ظاهرة ، وفقدَ

---

(١) يقول القشيرى في الرسالة (ومنهم من تغيرم البواده وتصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا ووقتاً . . أولئك م سادات الوقت) ص ٤٤ .

(٢) وردت (أحبابهم) .

(٣) وردت (ببريته) والصواب (بتبريه) .

سُمُوُّ الهِمَّةِ للمواصلات بسرائره لم يَجِدْ لطائف الذكر عند قالته ، ولا كرائم القرب فى صفاء حالته .

[فصل] معنى الله : الذى له الإلهية ، والإلهية استحقاق نعوت الجلال . فمعنى بسم الله : باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة . الرحمن الرحيم من تَوَحَّد فى ابتداء الفضل والنصرة . فسماع الإلهية يُوجِبُ الهيبةَ والاصطلام ، وسماع الرحمة يوجِبُ القربة والإكرام . وكُلُّ مَنْ لاطفه الحق سبحانه عند سماع هذه الآية ردَّه بين صحو ومحو ، وبقاء وفناء ، فإذا كاشفَه بنعت الإلهية أشهده جلاله ، فحاله محو . وإذا كاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فحاله صحو :

أغيب إذا شَهِدْتُك ثم أحيا فكم أحيا لديك وكم أبيدُ

قوله جل ذكره : ﴿ الم ﴾

هذه الحروف المقطعة فى أوائل السورة من المتشابِه الذى لا يعلم تأويله إلا الله — عند قوم ، ويقولون لكل كتاب سر ، وسر الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم إنها مفاتح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » ، واللام يدل على اسمه « اللطيف » ، والميم يدل على اسمه « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه .

وقيل إنها أسماء السور .

وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام تدل على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى عليه وسلم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

والأَلِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه ، واستغنائه عن الجميع .

ويقال يتذكر العبد المخلص[1] مِنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص

---

(١) وردت في س (المخلص) وهى خطأ من الناسخ .

بالمكان ؛ فإن سائر الحروف لها محل من الحلق أو الشفة[1] أو اللسان إلى غيره من المدارج[2] غير الألف فإنها هويته ، لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه فى (مراعاة) حقه ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه .

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة ، والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف ، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير مركبة ، على سنة الأحباب فى ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبى من القصة — قال شاعرهم :

قلت لها قفى لنا قالت . قاف
لا تحسبى أنّا نسينا لا يخاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل: «قالت قاف» .

ويقال تكثر العبارات[3] للعموم والرموز والإشارات للخصوص ، أسمَعَ موسى كلامَه فى ألف موطن ، وقال لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : ألِفْ . . . وقال عليه السلام : أوتيتُ جوامع الكَلِم[4] فاختُصرَ لى الكلامُ اختصاراً » وقال بعضهم : قال لى مولاى : ماهذا الدنَف ؟

قلت : تهوانى ؟ قال : لام الف

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾

---

(١) وردت فى ص (الشفق) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) معناها المخارج — كما جاء فى الهامش .
(٣) وردت فى ص (العبادات) والأصح بالراء لأن القشيرى فى مواضع كثيرة يقابل بين العبارة والإشارة
(٤) وردت فى ص (القلم) وهى خطأ من الناسخ . وسيأتى تخريج الحديث فى هامش قريب .

قيل ذلك الكتاب أى هذا الكتاب ، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب ، وقيل ذلك الكتاب الذى وعدتُك إنزاله عليك يوم الميثاق .

لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذى كتبتُ فيه الرحمةَ على نفسى لامتك — لا شك فيه ، فتحقق بقولى .

وقيل الكتاب الذى هو سابق حكمى ، وقديم قضائى لمن حكمت له بالسعادة ، أو خنمت عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكمى الذى أخبرت أن رحمتى سبقت على غضبى لا شك فيه[1]) .

وقيل إشارة إلى ما كتب فى قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان ، والمحبة والإحسان ، وإن كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند فقد اللقاء ، وبكتاب الأحباب سلوتهم وأنسهم ، وفيه شفاؤهم ورَوْحهم ، وفى معناه أنشدوا :

وكتْبُكَ حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أقرَّ عيوننا وشفى القلوب فنِلْن غايات المنى
وتقاسم الناسُ المسرةَ بينهم قِسَماً وكان أجلهم حَظّا أنا[2]

قوله جل ذكره : ﴿ هُدىً للمتقين ﴾

أى بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات الجهل ، وبصَّره بأنوار العقل ، واستخلصه بحقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء شفاء ، وعلى الأعداء عمًى وبلاء . المتَّقى من اتقى رؤية تقاه ، ولم يستند إلى تقواه ، ولم يَرَ نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾

---

(١) ما بين القوسين تكملة استدرك بها الناسخ فأثبتها فى هامش الصفحة .

(٢) لم يكن الناسخ يظهر اهتماماً بأبيات الشعر فوصلتنا رديئة الخط كثيرة الأخطاء فقمنا بتصحيحها بقدر الإمكان حتى تبدو ذات معنى ، وذلك استناداً إلى حالة لها أكثر ضبطاً إما فى مواضع أخرى من هذا الكتاب أو من كتب القشيرى الأخرى .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق بالعقل والتحقيق ببذل الجهد ، فى حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالمؤمنون هم الذين صدَّقوا باعتقادهم ثم الذين صَدَقُوا فى اجتهادهم .

وأمَّا الغيب فما يعلمه[1] العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر دينى أدركه العبد بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد فالإيمان به غَيْبِيٌّ . فالرب سبحانه وتعالى غيب . وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب والمآب ، والحساب والعذاب — غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيّدوا ببرهان العقول آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين ، فأوْرَدَهم صدقُ الاستدلال ساحاتِ الاستبصار ، وأوصلهم صائبُ الاستشهاد إلى مراتب السكون ؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعى الريب . ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار ، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية ، وطلب بخواطر ذكية ، وردٌّ وردع لدواعٍ ردية ، فطلعت شموس أسرارهم فاستغنوا عن مصابيح استدلالهم ، وفى معناه أنشدوا :

لَيْلِىَ من وجهك شمس الضحا وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

وأنشدوا :

طلعت شمس من أحبَّك ليلاً فاستضاءت ومالها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب[2]

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب فى شهود الغيب فصار غيباً يغيب .

وأمَّا إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة[3] عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلِّىَ له[4]

---

(١) وردت (يعمله) والأرجح أن تكون (يعلمه) حتى تتلاءم مع طبيعة الغيب .
(٢) وردت (بما لها) ، (وتغيب بالليل) ، (ليت تغيب) وقد صححنا ذلك بما يتلاءم مع الوزن والمعنى
(٣) وردت (ثم الغيت) وهى خطأ من الناسخ والأصح (الغيبة) كما سنجد فى الهامش التالى .
(٤) القشيرى هنا متأثر بفكرة الواسطى حينما دخل نيسابور وسأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها . فقال « ... هلا امركم بالغيبة عنها برؤية ملشئها ومجريها » الرسالة ص ٣٤ .

فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه ، وهو عن ملاحظتها محو ، فنفوسهم مستقبلة القِبْلة ، وقلوبهم مستغرقة فى حقائق الوصلة :

أرانى إذا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نحوها بوجهى وإنْ كان المُصَلَّى ورائيا
أصلى فلا أدرى إذا ما قضيتها أثنتين صليت الضحا أم ثمانيا ؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الفرض ، ولكن عن أودية الغفلة مايرجعون . أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون ؛ فشتَّان بين غائبٍ يحضر أحكام الشرع ولكن عند أوطان الغفلة ، وبين غائبٍ يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾

الرزق ما تمكَّن الإنسان من الانتفاع به ، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إمَّا نَفْلاً وإما فرضاً على موجب تفصيل[1] العلم . وبيان الإشارة أنهم لايدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم ؛ فينفقون نفوسهم فى آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية . فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيثُ الأحوال ، فهؤلاء يكتفى منهم عِشْرِين بنصفٍ ومن المائتين بِخَمس[2] ، وعلى هذا السَّنَن جميع الأموال يعتبر فيه النِّصاب . وأمَّا أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم - لأنفسهم ولحظوظهم - لحظةً قامت عليهم القيامة .

[فصل] الزاهدون أنفقوا فى طريقة متابعة هواهم ، فآثروا رضاء الله على مناهم ، والعابدون أنفقوا فى سبيل الله وسعهم وقواهم ، فلازموا سراً وعلنا نفوسهم . والمريدون أنفقوا فى سبيله مايشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شىء من دنياهم وعقباهم . والعارفون أنفقوا فى سبيل الله ما هو سوى مولاهم فقرَّبهم الحق سبحانه وأجزاهم ، وبحكم الإفراد به لقَّاهم .

---

(١) وردت (تفضيل) ولا يرجحها السياق فالمقصود ما يفصله العلم من مقادير زكاة المال .
(٢) إشارة إلى ان زكاة الأموال مقدارها ربع العُشْر .

[فصل] الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم. والفقراء أنفقوا من هممهم على مَنَابَتِهِمْ[1] ويقال العبد بقلبه وببدنه وبماله ، فبإيمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم ، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم ، وبإنفاقهم قاموا بأموالهم ، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم ، وحين قاموا لِحَقِّهِ بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية .

قوله جلّ ذكره : ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون﴾

إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن ، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن ، ولكنه أعاد ذكر الإيمان ها هنا على جهة التخصيص والتأكيد ، وتصديق الواسطة صلى الله عليه وسلم في بعض ما أخبر يوجب تصديقه في جميع ما أخبر ، فإن دلالة صِدْقه تشهد على الإطلاق دون التخصيص ، وإنما أيقنوا بالآخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقا ، وكأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون[2] وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبْتَ فالزَمْ .

وهذا عامر بن عبد القيس يقول : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » . وحقيقة اليقين التخلص عن تردد التخمين ، والتقصي عن مجوزات الظنون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أولئك على هُدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ يعني على بيان

---

(١) من (اناب) وعند القشيري : التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما ، فكل من تاب لخوف عقوبة فهو صاحب توبة ؛ ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب ، او رهبة من العقاب فهو صاحب اوبة (الرسالة ص ٥٠) .

(٢) وردت (وكأني بأهل النار تعاويون) ووردت في موضع آخر من الكتاب عند تفسير الآية ٤٩ من سورة البقرة (يتمادون) . وبالرجوع إلى مصادر الحديث وجدناه على النحو التالي : « سأل النبي (ص) حارثة فقال : لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، واظمأت نهاري ، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني انظر إلى اهل الجنة يتزاورون ، وإلى اهل النار في النار كيف يتعاوون . فقال له النبي (ص) : عرفت فالزم . » .

البزاز بسند ضعيف عن انس ، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف ايضاً

من ربهم ويقين وكشف وتحقيق ، وذلك أنه تجلّى لقلوبهم أولاً بآيانه ثم تجلّى لها بصفاته ثم تجلى لها بحقه وذاته .

وقوم « على هدىً من ربهم » بدلائل العقول ؛ وضعوها فى موضعها فوصلوا إلى حقائق العلوم ، وقوم على بصيرة ملاطفات التقريب فبمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين ، وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية ، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار .

« وأولئك هم المفلحون » الفلاح الظفر بالبُغية[1] ، والفوز بالطِلبة ، ولقد نال القوم البقاء فى مشهد اللقاء فظفروا بقهر الأعداء ، وهى غائمة[2] النفوس من هواجسها ، ثم زلات القلوب من خواطرها[3] ، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل ، أو رجوع إلى ذكر وفكر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾

من كان فى غطاء وصفه محجوبا عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من دلّه على الحق ، وقول من أعانه على استجلاب الحظ ، بل هو إلى دواعى الغفلة أميل ، وفى الإصغاء إليها أرغب . كيف لا ؟ وهو بِكَىِّ الفرقة موسوم ، وفى سجن الغيبة محبوس ، وعن محل القربة ممنوع ، لا يحصل منهم إيمان ، لأنه ليس لهم من الحق أمان ؛ فلمّا لم يؤمنوا لم يؤمِنوا . حكم سبق من الله حتم ، وقول له فصل ، وإن القدرة لا تُعارَض ، ومن زاحم الحق فى القضية[4] كبسته سطوات العزة ، وقَصَمَتْه بواده[5] الحكم .

ويقال إن الكافر لا يرعوى عن ضلالته لِمَا سَبَق من شقاوته ، وكذلك المربوط بأغلال نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه ، فهو لا يبصر رشده ، ولا يسلك قصده . ويقال إن

---

(١) وردت فى س (بالبغتة) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) الغاغة مرعى البهائم .

(٣) يقول القشيرى فى رسالته : إن الهاجس خاص بالنفس والخاطر خاص بالقلب ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) القضية هنا معناها القضاء .

(٥) البواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة (الرسالة ص ٤٤) .

الذى بقى فى ظلمات رعونته سواء عنده نصح المرشدين وتسويلات المُبْطِلين ، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركاتِ الإنصاف ، فلا يدرك بسمع القبول ، ولا يُصغى إلى داعى الرشاد ، كما قيل :

وعلى النصوح نصيحتى وعلىّ عصيان النصوح

ويقال من ضلّ عن شهود المِنَّةِ عليه فى سابق القسمه تَوَهَّمَ أن الأمر من حركاته وسَكَناته فاتَّكَلَ على أعماله ، وتعامى عن شهود أفضاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خَتَمَ الله على قلوبِهم وعلى سمْعِهم وعلى أبصارِهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم ﴾

الختم على الشىء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه ، وكذلك حَكَمَ الحقُّ سبحانه بألا يُفارقَ قلوبَ أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة ، ولا يدخلها شىء من البصيرة والهداية . على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سُدَّت تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان ، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلتها عن استماع خواطر الحق . وأمّا الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل فى قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة ، وإنما ذلك لخاص الخاص ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فى الأمم مُحَدَّثُون فإن يكن فى أمتى فعمر »[1] فهذا المحدَّث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام . وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق ، ولهم عذاب عظيم لحسبانهم أنهم على شىء ، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنة (و . . .)[2] فى الحال والمآل[3] ، فى العاجل فُرقَته ، وفى الآجل حُرقته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾

---

(١) للحديث صورة أخرى « إن من أمتى مكلَّمين ومحدَّثين وإن عمر منهم » .
(٢) مشتبهة فى س .
(٣) والأرجح أنها (فى الحال والمآل) حتى تنسجم مع العاجل والآجل .

ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين ، فهتَكَ الله أستارهم بقوله : وما هم بمؤمنين كذا قيل :

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يَدَّعِيه

ولما تجردت أقوالهم عن المعانى كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذى توهموه فيها ، لأنه تعالى قال : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » ولولا نفاقهم لم يزدد عذابهم .

ويقال لما عَدِموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال ، فإن الله تعالى قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فكانوا يقولون نشهد إنك لرسول الله ، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق فى الحال ، وقيل :

أيها المدعى سليمى هواها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت فى هواها كواوٍ أُلصِقت فى الهجاء ظلما بعمرو

قوله جلّ ذكره : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه[1] إلى أنفسهم فصاروا فى التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقدارهم ، وما استَخَفُّوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبالَ فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينَهم . ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه .

والإشارة فى هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لى ربى ومنى وأنا يقع فى وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت ، وهذا التوهم أصعب العقوبات[2] لأنه يرى سراباً فيظنه شراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾

فى قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبَّسوا

---

(١) وردت فى س (عليها) والأصح أن تكون عليه لأن الضمير يعود على الخداع وربما قصد القشيرى عودة الضمير على مفهوم ، وهو جريمة الخداع .

(٢) جاء فى رسالة القشيرى « التوحيد إسقاط الياءات فلا تقول لى وبى ومنى وإلى » ص ١٤٩

على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يَخْلُص وجعه إليهم فى المآل . (وفى) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظه ، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم فى الإرادة بقَدَم ، ويتأخر بالحظوظ ومتابعة النَّفْس بأخرى ، فهو لا مريدٌ صادقٌ ولا عاقلٌ متثبت . ولو أن المنافقين أخلصوا فى عقائدهم لأَمِنوا [1] فى الآخرة من العقوبة كما أَمِنوا فى الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة [2] ، كذلك لو صدق المريد فى إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة ، ولأدركته بركات الصدق فيما رامه من الظفر بالبُغية ، ولكن حاله كما قيل :

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن [3]

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات ، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القُرْبِ والمناجاة . وأمَّا من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى فسكونُهم [4] إلى دار الغرور سقم لقلوبهم ، والزيادة فى علتهم تكون بزيادة حرصهم ؛ كلما وجدوا منها شيئاً — عَجّل لهم العقوبة عليه — يتضاعف حرصهم على مالم يجدوه .

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتتُ همومهم ثم تنغّص عيشهم فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هواهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفى معناه قيل :

تبدلت فتبدلنا واحسرتا لمن ابتغى عوضاً ليسلو فلم يجد [5]

والإشارة فى العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هى الحسرة يوم الكشف إذا رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا ، ورأوْا أنفسهم كيف خسروا .

---

(١) وردت (لآمنوا) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) وردت (والزمته) وهى خطأ فى الكتابة .
(٣) أصلحنا قليلا فى البيت لكى يؤدى معنى ، لأن ما فى البيت من أخطاء كتابية تفقده كل قيمة ، ونرجح أنها (حيف) لا (حنف) وإن كان الحنف معناه الميل إلا أن الحيف وهو الظلم أقرب .
(٤) ويحتمل أيضاً أنها فى الأصل (فركونهم) حتى تتلاءم مع (ومن ركن ...) ، وكلاهما مقبول .
(٥) وزن البيت غير سليم وقد ورد فيه (واخسراتا) و (ليلى) ويبدو أن الناسخ قد وقع فى أخطاء أخرى عند النقل

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض
قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم
المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾

الإشارة منها : أنه إذا دعاهم واعظ فى قلوبهم من خفى خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا رخص التأويل ، ولبّسوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم ، وحين جحدوا برهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم ، وأبدلهم تصامُماً عن الحق ، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة[1] وسلبهم الإيمان بها .

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعادة فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة ، وأبعد من أهلها ، وفى المَثَل : من اخترق كُدْسه[2] عنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه .

وإرفاق المرتدين عن طريق الإرادة — عند الصادقين منهم — غير مقبول كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبل زكاة ثعلبة .

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له فى وجهه كذبتَ ، فهم لمَّا قالوا إنما نحن مصلحون ، أكذبهم الحق سبحانه فقال : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » : إنَّا نَعْلَمُهم فَنَفْضَحُهم .

قوله عز ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم
هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾

الإشارة منها أن المنافقين لما دُعوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسَّفَه ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أُمِروا بِتَرْكِ الدنيا وصفوا أهل الرشْد بالكسل والعجز ، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شىء ، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش ، وفى الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة ، وقعوا فى الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، شيَّدوا القصور ولكن

---

(١) يقصد القشيرى طريقة الصوفية .

(٢) الكدْس بضم الكاف وتسكين الدال : المجتمع من كل شىء كالحب المحصود والتمر والدراهم والرمل والجمع اكداس (الوسيط واللسان) .

سكنوا القبور ، زيّنوا المهد ولكن أُدرجوا اللحد ، ركضوا فى ميدان الغفلة ولكن عثروا فى أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا يغنى عنهم شىء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتَكَ أم حمارُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عِشْرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين قالوا نحن معكم ، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين الأمْرَيْن فَنَفُوا عنهما . قال الله تعالى : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك ، فالضدان لا يجتمعان ، و « المُكَاتَبُ عَبدٌ ما بَقِيَ عليه درهم » ، وإذا ادلهم الليل من هاهنا أدبر النهار من هاهنا ، ومن كان له فى كل ناحية خليط ، وفى زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق ، ينتابه كل قوم ، وينزل فى قلبه كل (. . . .)[1] ، فقلبه أبداً خراب ، لا يهنأ بعيش ، ولا له فى التحقيق رزق من قلبه ، قال قائلهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المنافقون إنما نحن مستهزئون قال الله تعالى : « الله يستهزئ بهم » أى يجازيهم على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزِمَّتهم فى أيدى الشهوات استهوتهم فى أودية التفرقة ، فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوحوا فى متاهات الغيبة ، وكما يمد المنافقين فى طغيانهم يعمهون يطيل مدة[2] هؤلاء فى مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملا ، وأسوأ ما كانوا عملا ، ذلك جزاء ما عملوا ، ووبال ما صنعوا . وتحسين أعمالهم القبيحة فى أعينهم من

---

(١) مشتبهة فى ص .

(٢) وربما كانت يطيل (مد) والسياق يقبل كليهما .

أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة[1] أَجَلُّ مصيبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ﴾

الإشارة منها أن من بقى عن الحقوق بالبقاء فى أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم وما ربحت تجارتهم . والذى رضى بالدنيا عن العقبى لفى خسران ظاهر .

ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا .

وإذا كان للمصاب[2] بفوات النعيم مغبونا فالذى مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وانحاز[3] بقلبه عن مولاه ، وبقى فى أسْرِ الشهوات ، لا إلى قلبه رسول ، ولا لروحه وصول ، ولا معه مناجاة ، ولا عليه إقبال ، ولا فى سرّه شهود — فهذا هو المُصَابُ والمُمْتَحَن .

وإن من فاته وقت فقد فاته ربه ، فالأوقات لا خَلَفَ عنها ولا بَدَلَ منها ، ولقد قال بعضهم:

كنتَ السوادَ لمقلتى فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما
أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم
فى ظلمات لا يبصرون ﴾

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمنافقين بمن استوقد ناراً[4] فى ابتداء ليلته ثم أطفئت النيران فبقى صاحبها فى الظلمة ، كذلك المنافق ظهر عليه شىء من العوافى فى الدنيا بظاهره ثم امْتُحِنُوا فى الآخرة بأليم العقوبة ، أو لاح شىء من إقرارهم ثم بقوا فى ظلمة إنكارهم .

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة ، يسلك طريق الإرادة ، ويتعنَّى مدة ، ويقاسى بعد الشدة شدة ، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة ، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشرية . أورق عُودُه ثم لم يثمر ، وأزهر غصنه ثم لم يدركه ، وعجَّل كسوف الفترة على

---

(١) الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ، ووقفة المريد شر من فترته (الرسالة ص ١٩٩) .
(٢) وردت (المصايب) فى س وهى غير ملائمة .
(٣) وردت (وأنجاز) والأرجح ما اخترنا .
(٤) وردت (نارى) والأرجح ما اخترنا .

أقمار حضوره ، وردّته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف ، فوطن عن القرب قلبه ، وغلّ من الطالبين نفسه ، فكان كما قيل .

حين قرّ الهوى وقلنا سُرِرْنا وَحَسِبْنَاَ من الفراق أمِنَّا
بعث البَيْن رُسْلَه فى خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة فى هذه الآية لمن له أدنى شىء من المعانى فيظهر الدعاوى فوق ماهو به ، فإذا انقطع عنه (. . .)[1] ماله من أحواله بقى فى ظلمة دعاواه .

وكذلك الذى يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها ، فإذا استتبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد — برز عليه الموت من مكامن المكر فيترك الكُل ويحمل الكَلّ .

قوله جل ذكره : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يرجعون ﴾

صم عن سماع دواعى الحق بآذان قلوبهم ، بكم عن مناجاة الحق بألسنة أسرارهم ، عمى عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم ، فهم لا يرجعون عن تماديهم فى تهتكهم ، ولا يرتدعون عن انهماكهم فى ضلالتهم

ويقال صم عن السماع بالحق ، بكم عن النطق بالحق ، وعمى عن مطالعة الخلق بالحق . لم يسبق لهم الحكم بالاقلاع ، ولم تساعدهم القسمة بالارتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كَصَيِّبٍ من السماء فيه ظُلُمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموتِ والله مُحيطٌ بالكافرين ﴾

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إمّا بهذا وإما بذلك شبّه القرآن بمطرٍ ينزل من السماء ، وشبّه مافى القرآن من الوعد والوعيد بما فى المطر من الرعد والبرق ، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد . كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعَهم وعظُ الواعظين، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة ؛ ولو أقلعوا عمّاهم فيه من الغفلة لَسَعِدُوا ، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة ، وأصروا على طريقتهم الفاسدة ، وتعللوا بأعذار واهية ،

(١) هنا كلمات زائدة وضع الناسخ عليها علامات مميزة توضح ضرورة الاستغناء عنها .

ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، ويسعون فى الخطر بأيمانهم[1] :

إن الكريم إذا حباك بودّه ستر القبيح وأظهر الإحسانا
وكذا الملول[2] إذا أراد قطيعةً مل[3] الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ يكاد البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾

من تمام مثل المنافقين — كذلك أصحاب الغفلات — إذا حضروا مشاهد الوعظ ، أو جنحت[4] قلوبهم إلى الرقة ، أو داخلهم شىء من الوهلة تَقْرُبُ أحوالهم من التوبة ، وتقوى رغبتهم فى الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم ، وشاوروا إلى قرنائهم ، أشار الأهل والولد عليهم بالعَوْدِ إلى دنياهم ، وبسطوا فيهم لسان النصح ، وهَدَّدُوهم بالضعف والعجز ، فيضعف قصودُهم ، وتسقط إرادتهم ، وصاروا كما قيل :

إذا ارعوى ، عاد إلى جهله كذِى الضنى عاد إلى نكسة

وقال : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » يعني سمع المنافقين الظاهر وأبصارهم الظاهرة ، كما أصمهم وأعماهم بالسر ، فكذلك أرباب الغفلة ، والقانعون من الإسلام بالظواهر — فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات ، كما سلبهم التحقيق فيما يستبطنونه من صفاء الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾

العبادة موافقة الأمر ، وهى استفراغ الطاقة فى مطالبات تحقيق الغيب ، ويدخل فيه التوحيد بالقلب ، والتجريد بالسر ، والتفريد بالقصد ، والخضوع بالنفس ، والاستسلام للحكم .

ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات ، والتجلد فى أداء الطاعات ، ومقابلة الواجبات

---

(١) جمع يمين ومعناها هنا اليد .
(٢) وردت (الملوك) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (ملا) وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت فى س (جنهت) وهى خطأ فى النسخ .

بالخشوع والاستكانة ، والتجافى عن التعريج فى منازل الكسل والاستهانة .

قوله : « لعلكم تتقون » : تقريب الأمر عليهم وتسهيله ، ولقد وقفهم بهذه الكلمة — أعنى لعلّ — على حد الخوف والرجاء .

وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)[1] عن متوعدات العقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾

تعرّف إليهم بذكر ما مَنّ به عليهم من خَلْقِ السماء لهم سقفا[2] مرفوعاً ، وإنشاء الأرض لهم فرشا موضوعاً ، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً . ويقال أعتقهم عن مِنّة الأمثال بما أزاح لهم من العلة فيما لا بُدّ منه ، فكافيهم السماء لهم غطاء ، والأرض وطاء ، والمباحات رزقاً ، والطاعة حرفةً ، والعبادة شغلاً ، والذكر مؤنساً ، والرب وكيلاً — فلا تجعلوا لله أنداداً ، ولا تُعلّقوا قلوبكم بالأغيار فى طلب ما تحتاجون إليه ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى مُتَوَحِّد بالإبداع ، لا مُحْدِثَ سواه ، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر ، أو خيرٍ أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك — فى التحقيق شِرْكاً .

وقوله عز وجل: « وأنتم تعلمون » أن من له حاجة فى نفسه لا يَصْلُحُ أن تَرفَع حاجتك إليه . وتعلُّقُ المحتاج بالمحتاج ، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد فى الفقر ، ولا يزيل هواجم الضُر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نَزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التى وقودُها الناسُ والحجارة أُعِدّتْ للكافرين ﴾

---

(١) هذه كلمة احتاجها السياق فأضفناها مستفيدين من اقوال القشيرى فى موقف مماثل فى الرسالة ص٥٦ (وحقيقة الاتقاء التحرز ... ...) .

(٢) وردت (شقفا) وهى خطأ فى النسخ .

لبّس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه ، فتاهوا فى أودية الظنون لما فقدوا نور العناية ، فلم يزدد الرسول عليهم إتيانا بالآيات ، وإظهاراً من المعجزات إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك ، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه ؛ لا يزيده ضياء الحجج إلا عمًى عن الحقيقة ؛ قال الله تعالى : « وما تغنى الآيات والنُذُر عن قوم لا يؤمنون » ، وليبلغ عليهم فى إلزام الحجة عرّفهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن الذى قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم ، وقدّر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم ، واعتضدوا بأشكالهم ، واستفرغوا كُنْهَ طاقتهم واحتيالهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة القرآن . ثم قال فإن لم تفعلوا — وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرون على ذلك ولا يفعلون فقال : « ولن تفعلوا » ، فكان كما قال — فانظروا لأنفسكم ، واحذروا الشِّرْكَ الذى يوجب لكم عقوبة النار التى من (سطوتها)[1] بحيث وقودها الناس والحجارة ، فإذا كانت تلك النار التى لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها ( )[2] فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم ، وحين أشرفت[3] قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم التثبيت فقال : « أُعِدَّت للكافرين ، ففى ذلك بشارة للمؤمنين . وهذه سُنَّةٌ من الحق سبحانه : إذا خوّف أعداءه[4] بَشَّر مع ذلك أولياءه .

وكما أنَّ كيد الكافرين يضمحل فى مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى المُلْبِسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين ، وأمارةُ المُبْطِل فى دعواه رجوعُ الزجر منه إلى القلوب ، وعلامة الصادق فى معناه وقوع القَهر[5] منه على القلوب . وعزيزٌ من فصّل وميّز بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ﴾.

---

(١) وردت بالصاد وعند ذلك يكون الخطأ من الناسخ ، وربما كانت فى الأصل (صفتها) ، وقد تخيرنا (سطوتها) لأنها أقرب إلى الشكل الوارد ولتلاؤمها مع المعنى والسياق .

(٢) هنا كلمة زائدة وضع الناسخ عليها علامة مميزة .

(٣) وردت بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت هكذا (اعداويه) وهى خطأ فى النسخ .

(٥) وردت (التهم) ولكن ما جاء بعدها يثبت خطأ الناسخ ، فضلا عن أنها غير ذات معنى هنا .

هذه البشارة بالجنان تتضمن تعريفاً بنعمٍ مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذى يُشْرَح بلسان التفسير . ويشير إلى البشارة للخواص بنعم مُعَجَّلة مضافة إلى تلك النعم يتيحها الله لهم على التخصيص ، فتلك المؤجلة[1] جنان المثوبة وهذه جنان القُرْبَة ، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزُّلفَة ، بل تلك حدائق الأفضال وهذه حقائق الوصال ، وتلك رفع الدرجات وهذه رَوْح المناجاة ، وتلك قضية جوده ، هذه الاشتمال بوجوده ، وتلك راحة الأبشار وهذه نزهة الأسرار ، وتلك لطف العَطاء للظواهر وهذه كشف الغِطاء عن السرائر ، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقا قالوا هذا الذى رُزِقْنا من قبل وأُتُوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد[2] عليهم النعم فى كل وقت ، فالثانى عندهم — على ما يظنون — كالأول ، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم — فكذلك أهل الحقائق : أحوالهم فى السرائر أبداً فى الترقى ، فإذا رُقِّىَ أحدهم عن محلٍّ توهّم أن الذى سيلقاه فى هذا النَّفَس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف ، كما قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحيَّرُ الألبـاب دون نزوله

قوله جل ذكره : « إن الله لا يستحى أن يضرب مَثَلا ما بعوضة فما فوقها » .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التَّرْك ، فإذا وصف نفسه بأنه يستحى من شىء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحى فمعناه لا يبالى بفعل ذلك .

والخَلْقُ فى التحقيق — بالإضافة إلى وجود الحق — أقلُّ من ذرةٍ من الهباء فى الهواء ،

---

(١) وقع الناسخ فى خطأ فكتبها (المعجلة) والسياق يرفضها لأن الإشارة للبعيد بتلك وللقريب بهذه .
(٢) وردت (يجدد) والسياق يرفضها ويقبل (تتجدد) وربما كانت (يجدد) أى الحق سبحانه وتعالى يجدد .

لأن هذا استهلاك محدود فى محدود . فسيّان — فى قدرته[3] — العرش والبعوضة ، فلا خَلْقُ العرش أشق وأعسر ، ولا خَلْق البعوضة أخف عليه وأيسر ، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن لحوق العُسْر واليُسْر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف ، فلا يستحى أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحى أن يضرب بالعرش — فما دونه — مثلا .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاعت فَرَّتْ[1] وطارت ، وإذا شبعت تشققت فَتَلَفَتْ كذلك (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

وقيل ما فوقها يعنى الذباب ، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته ، حتى إنه ليعود عند البلاغ فى الذب ، ولو كان ذلك فى الأسد لم ينجُ منه أحد من الخَلْق ، ولكنه لمَّا خَلَق القوة فى الأسد خلق فيه تنافراً من الناس ، ولمَّا خَلق الوقاحة فى الذباب خلق فيه الضعف ، تنبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته ، ونفاذ قدرته .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ .

فأمّا من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار ، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار . وأمّا الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضربُ الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال .

قوله جل ذكره : ﴿ يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِى به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين ﴾ .

هذا الكتاب لقوم شفاء ورحمة ، ولآخرين شقاء وفتنة . فمن تعرَّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله : « ألست بربكم » تذكَّروا عند ورود الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — قديمَ عهده ، وسابقَ وُدِّه فازدادوا بصيرة على بصيرة ، ومَنْ رَسَمَهُ بِذُلِّ القطيعة ، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة

---

(١) وردت (فريت) وهى خطأ فى النسخ . (٣) وردت (قدرة) .

النبوية إلا جُحداً على جُحد ، وما خفى عليهم اليوم صادق الدلالة ، إلا لِمَا تقدم لهم سابقُ الضلالة . لذلك قال الله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » .

قوله جل ذكره : ﴿الذين ينقضون عهدالله من بعدميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ .

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة ، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة ، قال بِتَرْكِ نفسه ثم لم يَصْدُق حين عزم الأمر ، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة[1] ، وكما أنَّ من سلك الطريق بنفسه — ما دام يبقى درهم فى كيسه — فغيرُ محمودٍ رجوعُه فكذلك من قصد بقلبه — ما دام يبقى نَفَسٌ من روحه — فغير مَرْضِىٍّ رجوعُهُ :

إن الأُلى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلاً معلولا[2]

ويقطعون ما أمر الله به أن يُوَصل : وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخَلْق ، ولا يتم وصل مَالَهُ إلا بقطع ما لَكَ ، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد .

ومما أُمِرَ العبد بوصله : حفظه ذِمام أهل هذه الطريقة ، والإنفاق على تحصيل ذلك بصدق الهمم لا ببذل النِّعَم ، فهممهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة ، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة . وفساد هذه الطريقة فى الأرض : أما مَنْ لهم حواشى أحوالهم ، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشادِ مريدٍ بكلامهم ، وإشحاذِ قاصدٍ بهممهم ؛ وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم .

ومِنْ نَقْضِ العهد أيضاً أن يحيد سِرُّك لحظةً عن شهوده ، ومِنْ قَطْع ما أُمِرْتَ بِوَصْلِهِ

---

(١) من عناصر المذهب الصوفى عند القشيرى إلحاحه الدائم على ألا يلجأ الصوفى إلى الاسترخاص ، ذلك لأن الرخصة — وإن كانت متاحة بأمر الشريعة — إلا أنها — أى الشريعة — للعموم ، وفيها يؤخذ فى الاعتبار أمر المستضعفين وأصحاب الأشغال والحوائج أما « هؤلاء الطائفة فليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، فإذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى » . الرسالة ص ١٩٩ .

(٢) وردت (الهوى) وفى موضع آخر من اللطائف (و ١٦٥) وردت : (منهلا معسولا) .

أن يتخلل أوقاتك نَفَسٌ لحظّك دون القيام بحقه ، ومِن فسادِكَ فى الأرض ساعة تجرى عليك ولم تَرَهُ فيها . ألاَ إن ذلك هو الخسران المبين ، والمحنة المظمة ، والرزية الكبرى .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجَعون ﴾ .

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد ، أى لا ينبغى مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبهُ .

ويقال تعرَّف إلى الخلق بلوائح دلالاته ، ولوامع آياته . فقال : « وكنتم أمواتاً » يعنى نطفة ، أجزاؤها متساوية ، « فأحياكم » : بَشَراً اختصَّ بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً ، وبعضها بكونه لحما ، وبعضها بكونه شَعْراً ، وبعضها بكونه جِلداً . . إلى غير ذلك .

« ثم يميتكم » بأن يجعلكم عظاماً ورفاتا ، « ثم يحييكم » بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتا ، « ثم إليه تُرجعون » أى إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة .

ويقال « كنتم أمواتاً » بجهلكم عنّا ، ثم « أحياكم » بمعرفتكم بنا ، « ثم يميتكم » عن شواهدكم ، « ثم يحييكم » به بأن يأخذكم عنكم ، « ثم إليه ترجعون » أى بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق[1] .

ويقال « كنتم أمواتاً » لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم ، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقلبكم فى قبضته سبحانه وتعالى .

ويقال يحبس عليهم الأحوال ؛ فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية ، كلّما قالوا هذه حياة — وبينا هم كذلك — إذ أدال عليهم فأفناهم ، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم ، فهم أبداً بين نفى وإثبات ، وبين بقاء وفناء ، وبين صحو ومحو . . كذلك جرت سنته سبحانه معهم .

---

(١) وردت (بأجزاء) وهى خطأ قطعاً .

والمقصود بإجراء الحق هنا هو ما سبق ان نوّهنا به فى هامش سابق عن حالة الفرق الثانى حيث « يرد العبد إلى الصحو عند اوقات أداء الفرائض ليجرى عليه الفرائض فى أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله . فالحق يجرى أفعاله وأحواله عليه » الرسالة ص ٣٩ .

قوله جل ذكره : ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾ .

سخَّر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شىء منها ، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون ، وبالنجم يهتدون ، وبكل مخلوق بوجه آخر ينتفعون . لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون .

ويقال مَهَّدَ لهم سبيل العرفان ، ونبَّهَهُم إلى ما خصَّهم به من الإحسان ، ثم علمهم علوَّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شىء عليم ﴾

فالأكوان بقدرته استوت ، لا أن الحق سبحانه بذاته — على مخلوق — استوى ، وأنَّى بذلك ! والأحدية والصمدية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه ، إذ المكان به استوى ، لا الحق سبحانه على مكانٍ بذاته استوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

هذا ابتداء إظهار سِرِّه فى آدم وذريته . أمَرَ حتى سلَّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينه أربعين صباحاً ، وكل واحد من الملائكة يفضى[1] العَجَبَ : ما حكم هذه الطينة ؟ فلمَّا ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها فى بديع الصنعة وعجيب الحكمة ، فحين قال « إنى جاعل فى الأرض . . . » تَرَجَّمَت الظنون ، وتقسَّمت القلوب ، وتجنَّت الأقاويل ، وكان كما قيل :

وكم أبصرتُ من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يَقُلْ فى شأن شىء منه ما قال فى حديث آدم حيث قال : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » ، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة

---

(١) وردت فى ص (يقضى) بالقاف والصواب أن تكون (يفضى) بالفاء .

لو كان من المخلوقين . والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها ، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إنى خالق عرشاً أو جنة أو مَلَكاً ، وإنما قال تشريفاً وتخصيصا لآدم إنى جاعل فى الأرض خليفة .

[فصل] ولم يكن قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام ، فإن حَمْلَ الخطاب على ما يُوجِب تنزيه الملائكة أَوْلى لأنهم معصومون . . قال تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم » .

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنَّ فى قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب ، فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم : « ونحن نسبح بحمدك » . ثم إن الحق سبحانه عرَّفهم أن الفضيلة بالعلم أتمُّ من الفضيلة بالفعل ، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه ، وآدم كان أكثر علمًا وأوفره ، فظهرت فضيلته ومرتبته .

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال : « إنى أعلم مالا تعلمون » ، مِن غفرانى لهم .

ويقال : فى تسبيحهم إظهارُ فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم[1] ، ومن غفرانه لعاصى بنى آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته ، والحق سبحانه غنى عن طاعات كل مطيع ، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه .

ويقال إنى أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم فى محبتنا ، وذكاء سرائرهم فى حفظ عهودنا وإن تدنَّس بالعصيان ظاهرهم ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ ... جاءت محاسنُه بألْفِ[2] شفيع

ويقال إنى أعلم مالا تعلمون من محبتى لهم ، وأنتم تظهرون أحوالكم ، وأنا أخفى عليهم أسرارى فيهم ، وفى معناه أنشدوا :

ما حطَّك الواشون عن رتبة ... عندى ولا ضرك مغتاب

كأنهم أثْنَوْا — ولم يعلموا — ... عليك عندى بالذى عابوا[3]

---

(١) نلاحظ هنا تأثر القشيرى بفكرة الملامة النيسابورية التى ظهرت فى موطنه ، والتى من أصولها عدم إظهار الفعل ، لأن فى ذلك ملاحظة واستجلاب ، ملاحظة لفعل الإنسان وهو مهما بلغ تافه حقير ، واستجلاب لرضاء الناس والاشتهار بينهم ، وكلا الأمرين – فى نظر الملامتية – شرْك خفى .

(٢) وردت (بألف) وبها ينكسر الوزن .

(٣) وردت أخطاء كثيرة فى البيتين مثل (ضربك) ولم (يعلموا علك) .

ويقال إنى أعلم مالا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم ، وصولةَ قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم ، فأنتم فى رتبة وفاقكم وفى عصمة أفعالكم ، وفى تجميل تسبيحكم ، وهم مُنْكَرون عن شواهدهم ، متذللون بقلوبهم ، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذماما قويا .

ويقال أى خطر لتسبيحكم لولا فضلى ، وأى ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوى ؟ ويقال لبَّسْتُكم طاعتكم ولبستهم رحمتى ، فأنتم فى صدار[1] طاعتكم وفى حُلَّةِ تقديسكم وتسبيحكم ، وهم فى تغمد عفوى وفى ستر رحمتى ألبستهم ثوب كَرَمى ، وجللتهم رداء عفوى .

ويقال: إن أسعدتكم عصمتى فلقد أدركتهم رحمتى .

وإيصال عصمتى بكم عنده وجودكم وتعلُّق رحمتى بهم فى أزلى .

ويقال : لئن كان مُحسِنُكم عتيقَ العصمة فإن مجرَمُهم غريق الرحمة

ويقال : اتكالهم علىَّ زكّى أحوالهم فألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف إلا بمقدار ما منّ به الحق عليهم فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .

عموم قوله الأسماء يقتضى الاستغراق ، واقتران قوله سبحانه بكُلها يوجب الشمول والتحقيق ، وكما علَّمه أسماء المخلوقات كلها — على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره — علَّمه أسماء الحق سبحانه ، ولكن إنما أظهر لهم[2] محل تخصصه فى علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بان رجحانه عليهم ، فأما انفراده بمعرفة أسمائه — سبحانه — فذلك سِرٌّ لم يَطَّلِع عليه مَلَكٌ مُقَرَّب . ومن ليس له رتبة مساواة آدم فى معرفة أسماء المخلوقات فأى طمعٍ فى مداناته فى أسماء الحق ، ووقوفه على أسرار الغيب ؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يتقضى أن يصحَّ (به سجود)[3] الملائكة

---

(١) الصدار قميص صغير يلى الجسد ، ولاحظ مقابلة القشيرى بين الصدار للملائكة وبين الثوب والرداء للإنسان لتدرك مقاصده البعيدة .

(٢) أى للملائكة .

(٣) وردت فى س (بسجود) ونرجح أنها كما أثبتنا .

فى الظن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه ؟ ما الذى يُوجَبُ لِمنْ أُكْرِمَ به ؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسبيح والتقديس وهذه طاعات تليق بالمخلوقين ؛ فإنّ الطاعةَ سِمَةُ العبيد ولا تتمدامُ ، والعلم فى الجملة صفة مدحٍ يجب فى نعت الحق سبحانه وإجباً لا يصحُّ لغيره ، فالذى يُكْرِمُهُ بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات)[1] .

ويقال أكرمه فى السر بما علَّمه ثم بيَّن تخصيصه يوم الجهر وقدَّمه . ويقال قوله : « ثم عرضهم » ثم : حرف تراخٍ ومهلة . . إمّا على آدم ؛ فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك فى قلبه ، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذٍ استخبره عما تحقّق به واستيقنه . وإمّا على الملائكة ؛ فقال لهم على وجه الوهلة : « أنبئونى » فلمَّا لم يتقدم لهم تعريف تحيَّروا ، ولمَّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ، ونطق وأفلح ، إظهاراً لعنايته السابقة — سبحانه — بشأنه .

وقوله : « إن كنتم صادقين » فيه إشارة إلى أنهم تعرَّضوا لدعوى الخصوصية ، والفضيلة والمزية على آدم ، فعرَّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه فى قديم تخصيصه . ولمَّا عَلِمَ الحقُّ سبحانه تَقَاصُرَ علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلَّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أنَّ الأمر أمرُه ، والحكمَ حُكمُه ، فَلَهُ تكليف المستطيع ، ردّاً على من توَهَّمَ أن أحكام الحق سبحانه مُعَلَّلَة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول ، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء ، الحَسَنُ ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه[2] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قالوا سبحانك لاعِلْمَ لنا إلاَّ ماعَلَّمْتنا
إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

قدَّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به ، ونزَّهوا حقيقة حُكْمِهِ عن أن يكون يَعرِض وهم المعترضون[3] ، يعنى لا علم لنا بما سألتنا عنه ، ولا يتوجَّه عليكَ لوم فى تكليف العاجز

---

(١) هكذا جاءت العبارة فى ص وهى لا تخلو من غموض ولكننا آثرنا عدم التدخل فى إصلاحها نظراً لخطورة الموقف الذى تصفه ، ونرجح أن الناسخ مخطئ فى نقله .

(٢) يغمز القشيرى هنا بالمعتزلة الذين يقيسون الأفعال الإلهية بمقاييس إنسانية عقلية (ولكنهم نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ونزهه الصوفية من حيث العلم فأصابوا) الرسالة ص ٢٩ .

(٣) وردت (المعترضين) ، ويعرض هنا مضارع عرض فى الآية السابقة .

بما علمتَ أنه غير مستطيع له ، إنك أنت العليم الحكيم أى ما تفعله فهو حقٌّ صِدْقٌ ليس لأحد عليكَ حكمٌ ، ولا منك سَفَهٌ وقبح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقُلْ لكم إنّى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنّه لمَّا قال للملائكة : « أنبئونى » دَاخَلَهُم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم ، لا سيما حين طالَبَهم بإنبائهم إياه ما لم تُحِطْ به علومهم . ولما كان حديث آدم عليه السلام ردَّه فى الإنباء إليهم فقال : « أنبئهم بأسمائهم » ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق فى الهيبة . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال : « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض » يعنى ما تقاصرت عنه علوم الخَلْق ، وأعلم ما تبدون من الطاعات ، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة .

[فصل] ولمَّا أراد الحق سبحانه أن يُنَجِّىَ (١) آدمَ عصمه ، وعلَّمه ، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به ، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نَسِىَ فى الحضرة عهده ، وجاوز حدَّه ، فقال الله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » فالوقت الذى ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان ، والوقت الذى أمضى عليه الحكم ردَّه إلى حال النسيان والعصيان ، كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجرى وتمضى ، ذلَّ بحكمه العبيد ، وهو فعَّال لما يريد .

[فصل] ولمَّا توهموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرَّفهم أن بساط العز مقدس عن التجمل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد ، فرَدَّهم إلى السجود لآدم أظهرَ الغنَاء عن كل وفاق وخلاف (٢) .

---

(١) وردت (ينجب) وهى بلا ريب خطأ فى النسخ ويمكن أن تكون ينجى آدم — كما أثبتنا — أو ينجو آدمَ، والأرجح ما اخترناه .

(٢) وردت (وخلاق) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا ما يلائم السياق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر
وكان من الكافرين ﴾ .

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ[1] ولكن لموافقة أمره سبحانه ، فكأن سجودَهم لآدم عبادةٌ لله ؛ لأنه كان بأمره ، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشريفاً لشأنه، فكأن ذلك النوعَ خضوعٌ له ولكن لا يسمى عبادة ، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصحُّ لغيره سبحانه .

ويقال بَيَّن أن تقدُّسَهَ — سبحانه — بجلاله لا بأفعالهم ، وأن التَجمُّلَ بتقديسهم وتسبيحهم عائدٌ إليهم ، فهو الذى يجل من أجَلَّه بإجلاله لا بأفعالهم ، ويعز من أعزَّ قدره سبحانه بإعزازه ، جَلَّ عن إجلال الخلق قدْرُه ، وعزّ عن إعزاز الخَلْق ذِكْرُه .

قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس » أبى بقلبه ، واستكبر عن السجود بنفسه ، وكان من الكافرين فى سابق حكمه وعلمه . ولقد كان ابليس مدةً فى دلال طاعته يختال فى صدار موافقته ، سلّموا له رتبة التقدم ، واعتقدوا فيه استحقاق التخصيص ، فصار أمره كما قيل :

وكان سراج الوصل أزهر بيننا فهبَّت به ريحٌ من البيْن فانطفا

كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية ، ويحسب استحقاق الزلفة والخصوصية :

فبات بخير والدنى[2] مطمئنة وأصبح يوماً والزمان تقلبا

فلا سالِفَ طاعةٍ نَفَعَه ، ولا آنِفَ رجعةٍ رفعه ، ولا شفاعةَ شفيعٍ أدركتْه ، ولا سابقَ عنايةٍ أمْسكتْه . ومن غَلَبَه القضاء لا ينفعه العناء .

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية ، فتداركتْه رحمةٌ أحدية ، وأما ابليس فأدركته شقوة أزلية ، وغلبته قسمة وقضية . خاب رجاؤه ، وضلّ عناؤه .

---

(١) الضمير عائد على آدم أى ليس السجود لآدم عينه ، ويحتمل أنها (لغيره) بدليل قوله فيما بعد (وذلك لا يصح لغيره سبحانه)

(٢) وردت (والزمان) وقد صححنا البيت طبقاً لما ورد فى عيون الأخبار لابن قتيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا يا آدم اسْكُنْ أنت وزوجك الجنة وكلا[1] منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

أسْكَنَه الجنةَ ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة ، ولولا سابق التقدير لكان يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولاً ، وبالخضرة يبساً ، وبالوجود فقدا ، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه — ويقع منه ما يقع .

ولو تطاولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدّها لم يقع فى شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم .

ولا مكانَ أفضل من الجنة ؛ ولا بَشَرَ أكيس من آدم ، ولا ناصح يقابل قولة إشارة الحق عليه ، ولا غريبة (منه) قبل ارتكابه ما ارتكب ، ولا عزيمة أشد من عزيمته — ولكنَّ القدرةَ لا تُكابَر ، والحُكْمَ لا يُعارَض .

ويقال لما قال له : « اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً » كان فيه إشارة إلى أن الذى يليق بالخَلْق السكون إلى الخَلْق ، والقيام باستجلاب الحظ ، وآدم عليه السلام وَحْدَه كان بكل خير وكل عافية ، فلمَّا جاء الشكلُ والزوجُ ظهرت أنياب الفتنة ، وانفتح باب المحنة ؛ فحين سَاكَنَ حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل ، فوقع فيما وقع ، ولقد قيل :

داء قديمٌ فى بنى آدم صبوةُ إنسان بإنسان

[فصل] وكلُّ ما منُِع[2] منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه .

فهذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها ونُهِىَ عن شجرة واحدة ، فليس فى المنقول أنه مدّ يده إلى شىء من جملة ما أبيح ، وكان عِيلَ صبره حتى واقع ما نُهِىَ عنه — هكذا صفة الخَلْق .

[فصل] وإنما نبّه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » فإذا أخبر أنه جاعله خليفته فى الأرض كيف يمكن بقاؤه فى الجنة ؟

---

(١) وردت خطأ (فكلا) ، والصحيح (وكلا) البقرة : ٣٥ .

(٢) وردت (امتنع) ثم استدرك الناسخ فصححها على هذا النحو فى الهامش .

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة ، مسجود الكافة ، على رأسه تاج الوصلة ، وعلى وسطه نطاق القُرْبَة ، وفى جيده (. . . .)[1] الزلفة ، لا أحد فوقه فى الرتبة ، ولا شخص مثله فى الرفعة ، يتوالى عليه النداء فى كل لحظة يا آدم يا آدم . فلم يُمْسِ حتى نُزِعَ عنه لباسُه ، وسُلِبَ استئناسه ، والملائكة يدفعونه بعنف أن اخرجْ بغير مُكْثٍ :

وأمِنْتُهُ فأتاح لى من مَأمنى مكراً ، كذا من يأمن الأحبابا

ولمّا تاه آدم عليه السلام فى مشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب ، وكان كما قيل :

لله دَرُّهُمُ من فِتْيةٍ بَكَرُوا مثلَ الملوكِ وراحوا كالمساكين

[فصل] نهاه عن قرب الشجرة بأمره ، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره ، ولبّس عليه ما أخفاه فيه من سِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ .

أزلّهما أى حَمَلَهما على الزّلة ، وفى التحقيق : ما صَرَّفَتْهُما إلا القدرة[2] ، وما كان تقلبهما إلا فى القضية ، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهراً ، ولكن ما ازداد — فى حكم الحق سبحانه — شأنُهما إلا رفعةً وقدراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضُكم لِبَعضٍ عدوٌ ﴾ .

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان ، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالم بالظفر[3]) .

[فصل] لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات ، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

[فصل] لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكانٌ فى هداية نفسه ،

---

(١) مشتبهة ولكن يحتمل انها (نُضار) فهى قريبة من ذلك فى الرسم .
(٢) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية .
(٣) هكذا وردت العبارة فى س وقد أثبتناها كما هى دون تصرف حتى فى رسم الحروف .

وكيف يكون ذلك ؟ والتفرد بالإبداع لكل شيء من خصائص نعته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

مشهد الأشباح ومألفها أقطار الأرض ، ومعهد الأرواح ومرتعها رداء العرش ، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون للهم بالحدثان تعلّق ، ولصعود القصود إلى الحقائق على الأغيار وقوع .

قوله جل ذكره : ﴿فتلقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ .

جرت على لسان آدم مع الحق — سبحانه — كلماتٌ ، وأسمع الحقُّ — سبحانه — آدمَ كلماتٍ ، وأنشدوا :

وإذا خِفْنا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحقُّ سبحانه القولَ في ذلك إجمالاً لِيُبْقِيَ القصة مستورة ، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح[1] .

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلا ، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلا . وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له : أفراراً منا يا آدم ؟ كذلك قوله عليه السلام : ربنا ظَلَمْنَآ أَنْفُسَنَا . وقوله : أمخرجي أنت من الجنة ؟ فقال : نعم ، فقال أتردني إليها ؟ فقال : نعم .

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعه إياه من عزيز خطابه زاداً ، ليكون له تذكرة وعتاداً :

وأذكر أيام الحمى ثم انثني على كبدي[2] من خشية أن تقطعا

ومخاطبات الأحباب لا تحتمل الشرح ، ولا يحيط الأجانب بها علما ، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل ، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه

---

(١) مطرح أي موضع .
(٢) وردت على (كبد) . (والأصل في البيت) (تصدعا) بدلا من (تقطعا) .

ذلك يحتمل فى حال الأحباب عند المفارقة ، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندى فلا تنسَ عهدى ، وإنْ تَقَاصَر عنك يوماً خبرى فإياك أن تؤثر علىّ غيرى ، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فاتنى وصولك فلا يتأخَّرَنَّ عنى رسولُك .

قوله جل ذكره : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تَبِع هُداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب ، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب فى عين القربة قال الله تعالى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ، بعد أن كان لكم فى محل القربة قرار ومتاع إلى حين ، يستمتعون يسيراً ولكن (فى) آخرهم يعودون إلى الفقر ، وأنشدوا :

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة[1] وإن أيسروا عادوا سراعا إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بَشَّره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال : « فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر ، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجَّل ، وفراق معجَّل .

قوله جل ذكره : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ .

حقيقة النعمة على لسان العلماء[2] لذة خالصة عن الشوائب ، وما يوجب مثلها فهى أيضاً عندهم نعمة ، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المُنْعِم أو ما ذكَّرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى إلى المنعم أو مالم يحجبك عن المنعم .

---

(١) حسبة أى احتساباً – هكذا فى الهامش .

(٢) واضح أن مقصود القشيرى من (لسان العلماء) و (لسان التفسير) هو التفسير العادى ، أما (عند أهل الحقيقة) و (الإشارة منه) ونحو ذلك فهو التفسير الصوفى .

وتنقسم إلى نعمة أبشار وظواهر ، ونعمة أرواح وسرائر ، فالأولى وجوه الراحات والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات . فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر[1] .

[فصل] ويقال أمَرَّ بنى إسرائيل بذكر النِّعَم وأمَرَّ أُمَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم بذكر المُنعِم ، وفرق بين من يقال له اذكر نعمتى وبين من يقال له : فاذكرونى أذكركم .

قوله جل ذكره : ﴿وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون﴾

عهدُه — سبحانه — حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أوفوا بعهدى بحفظ السر أوفِ بعهدكم بجميل البِر ، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق أوفِ بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا علىّ غيرى أوفِ بعهدكم فى ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى ، أوفوا بعهدى برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع أوفِ بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع[2] ، أوفوا بعهدى بحفظ أسرارى أوف بعهدكم بجميل مَبَارِّى ، أوفوا بعهدى باستدامة عرفانى أوفِ بعهدكم فى إدامة إحسانى ، أوفوا بعهدى فى القيام بخدمتى أوفِ بعهدكم فى المِنَّةِ عليكم بقبولها منكم ، أوفوا بعهدى فى القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوفِ بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة ، أوفوا بعهدى بالنبرى عن الحوْل والمُنَّة أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة ، أوفوا بعهدى بالتفضيل والتوكل أوفِ بعهدكم بالكفاية والتفضل ، أوفوا بعهدى بصدق المحبة أوفِ بعهدكم بكمال القربة ، أوفوا بعهدى اكتفوا منى بى أوفِ بعهدكم أرضى بكم عنكم ، أوفوا بعهدى فى دار الغيبة على بساط الخدمة بشدّ نطاق الطاعة ، وبذل الوسع والاستطاعة أوفِ بعهدكم فى دار القربة على بساط الوصلة بإدامة الأُنْس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة ، أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك

---

(١) نعرف من هذا ان الملكات الباطنة عند القشيرى هى فضلا عن النفس التى هى محل المحظورات والمعلولات ، والعقل الذى به تصحيح الإيمان فى البداية — القلب وهو مستودع المعرفة والروح وهى مستودع المحبة ثم السر وهو الذى يشاهد الحقائق ، وله فوق ذلك ملكة أخرى هى سر السر أو عين السر لا يطلع عليها سوى الحق .

(٢) اللوامع تسبق الطوالع فى الظهور ، والطوالع ابق وقتاً وأقوم سلطاناً وأدوم مكناً وأذهب للظلمة وانفى للتهمة (الرسالة ص ٤٣ ، ٤٤) .

الشهوات أوفِ بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبداً : ربى ربى أوفِ بعهدكم بأن أقول لكم عبدى عبدى . وإياى فارهبون ، أى أفردُونى بالخشية لانفرادى بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا مِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرٍ به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون ﴾ .

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان ، وجمهور المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال ، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق الإقبال ، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله ، وآخر أحوالهم الإيمان من حيث العيان ، وذلك لخواص الخواص .

ولا تكونوا أول كافرٍ به ، ولا تَسُنُّوا[1] الكفر سُنَّةً فإن وِزْرَ المبتدئ فيما يَسُنُّ أعظم من وزر المقتدى فيما يتابع .

« ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » لا تؤثروا على عظيمٍ حقى خسيسَ حظِّكم . « وإياى فاتقون » كثيرٌ[2] من يتقى عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تلبسوا[3] الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين ، والكون فى حالة واحدة فى محلين[4] ، (فالعبد) إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ ، وأمّا حصول الأمْرَيْن فمحالٌ من الظن .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل » تدنيس ، « وتكتموا الحق » تلبيس ، « وأنتم تعلمون » أن حق الحق تقديس ، وأنشدوا :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟!
هى شامية إذا ما استهلت وسهيلٌ إذا استهل يمانى !

---

(١) وردت (ولا تلسوا) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (كثيراً) وهى خطأ حيث يجب الرفع على تقدير (منْ يتقى عقوبته كثير) .
(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها . (ولا تابس) والصحيح ولا تلبسوا (البقرة : ٤١) .
(٤) وردت فى (محلى) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾

احفظوا آداب الحضرة ، فحفظ الآداب أتمُّ فى الخدمة من الخدمة ، والإشارة فى إيتاء الزكاة إلى زكاة الهِمَم كما تؤدَّى زكاةُ النِّعم ، قال قائلهم :

كلُّ شىء له زكاةٌ تُؤدّى وزكاةُ الجمال رحمةُ مثلى

فيفيض من زوائد همه ولطائف نظره على المُتَبِّعين والمُرَبين بما ينتعشون به و (...)[1]، « واركعوا مع الراكعين » : تقتدى بآثار السلف فى الأحوال ، وتجتنب سنن الانفراد فإن السكون فى غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة[2] .

قوله جل ذكره : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

أتُحَرِّضون الناس على البِدار[3] وترضَوْن بالتخلُّف ؟ ويقال أتدعون الخَلْقَ إلينا وتقعدون عنَّا ؟ أتسرحون الوفود وتقصرون فى الورود[4] ؟ أتنافسون الخَلْق[5] وتنافرونهم بدقائق الأحوال وترضوْن بإفلاسكم عن ظواهرها ؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقالَ الذَّرِ ومقياسَ الحَبِّ وتساهمون لأنفسكم أمثال الرِّمال والجبال ؟ قال قائلهم :

وتبصر فى العين منى القذى وفى عينك الجذع لا تبصر ؟ !

ويقال أتُسْقَوْنَ بالنُّجُب[6] ولا تشربون بالنُّوَب ؟

---

(١) هنا لفظتان مشتبهتان وفيهما شطب .

(٢) الاشارة وإن كانت لصلاة الجماعة إلا أنها توضح أيضا حرص القشيرى على الاهتمام بالاجماع كمصدر من مصادر الشريعة .

(٣) وردت بالياء وهى خطأ فى النسخ .

(٤) من ورد الماء أى ذهب ليستقى .

(٥) وردت أتنافسون (الحق) وواضح أنها خطا فى النسخ .

(٦) نجبُ الأشياء ونجائبها لُبَّابها وخالصها ، وربما كانت النخب (بالخاء) ج نخب وهو الشربة العظيمة الوسيط ص ٩١٥ .

« وأنتم تتلون الكتاب » ثم تماندون بخفايا الدعاوى وتجحدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر .

« أفلا تعقلون » إن ذلك ذميمٌ من الخصال وقبيحٌ من الفعال .

قوله جل ذكره : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ .

الصبر فطم النفس عن المألوفات ، والصلاة التعرُّض لحصول المواصلات ، فالصبر يشير إلى هجران الغَيْر ، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب ، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على من تجلَّى الحق لسِرِّه فإن فى الخبر المنقول : « إن الله تعالى إذا تجلَّى لشىء[1] خشع له » . وإذا تجلَّى الحق ، خَفَّ وسَهُلَ ما توقّى الخلْق ؛ لأن التوالى للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة ، والتجلِّى بالمشاهدات — بحكم التحقيق — يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة .

ويقال استعينوا بى على الصبر معى ، واستعينوا بحفظى لكم على صلاتكم لى ، حتى لا تستغرقكم واردات الكشف والهيبة ، فلا تقدرون على إقامة الخدمة .

وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب فى أوان الكشف حتى يقوى[2] العبد على القيام بأحكام الفرق لَمِنَّةٌ عظيمة من الحق[3] .

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر فى الله ، والصبر لله ، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن[4] الله :

والصبر يحسن فى المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم[5]

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

---

(١) وردت بدون اللام ، والأصح بها .

(٢) وردت حتى (يقول) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) يشير القشيرى بذلك إلى الفرق الثانى ، ويعتبر أن من علامة قبول العبد عند ربه أن يساعده على الرجوع إلى هذا الفرق حتى يستطيع أداء ما عليه من فريضة

(٤) الأرجح أنها (على) بدليل ورودها فى البيت الشاهد ، كذا فى « الرسالة » فى سياق مماثل .

(٥) ورد البيت فى الرسالة هكذا (والصبر يجمل) و (فإنه لا يجمل) ص ٩٣ .

الظن يُذكَر ، ويقال المراد به اليقين ، وهو الأظهر ها هنا .

ويذكر ويراد به الحسبان فمَنْ ظنَّ ظن يقين فصاحب وصلة .

ومن ظنّ ظن تخمين فصاحب فرقة . ومُلاقو ربهم ، صيغة تصلح لماضى الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم فى المستقبل . ولكن القوم[1] لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعدَ لهم تقرَّرَ ، والغيب لهم حضور .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضّلتكم على العالَمين ﴾ .

أشْهَدَ بنى إسرائيل فضل أنفسهم فقال : « وأنى فضلتكم على العالمين »

وأشهد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضل نفسه فقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا »[2] .

فشتّان بين مَنْ مشهودُه فضلُ نفسه ، وبين مَنْ مشهودُه فضل ربه ؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب ، وشهود العبد فضل الحق — الذى هو جلاله فى وصفه وجماله فى استحقاق نعته — يقتضى الثناء وهو يوجب الإيجاب[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون ﴾

العوام خوَّفهم بأفعاله فقال : « واتقوا يوماً » « واتقوا النار » .

والخواص خوَّفهم بصفاته فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » وقال : « وما تكون فى شأن . . . إلى قوله إلا كنا عليكم شهودا »[4] .

وخاص الخاص خوَّفهم بنفسه فقال : « ويحذركم الله نفسه »

---

(١) يقصد الصوفية .

(٢) سورة يونس آية ٥٨ .

(٣) الإيجاب = الاستحقاق والقبول .

(٤) يونس آية ٦١ .

ويوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له ، وأذِنَ فيه ، فهو الشفيع الأكبر — على التحقيق — وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف[1].

وفى معناه قيل :

الحمد لله شكرا فكلُّ خيرٍ لديه
صار الحبيب شفيعاً إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، ومالهم من ناصرين ، فلا يُقْبَل منهم فداء ، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

من صبر فى الله على بلاء أعدائه عوَّضه الله صحبة أوليائه ، وأتاح[2] له جميل عطائه ؛ فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم ، وجعلهم ملوكا ، وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين . « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » : قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة . وفى الحقيقه ما كان من الله — فى الظاهر — محنةً فهو — فى الحقيقة لمن عرفه — نعمةٌ ومِنَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ .

تقاصرت بصائر بنى إسرائيل فأراهم المعجزات عيانا ، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سراً ، وبذلك جرت سُنَّتُه سبحانه ، وكل من كان أشحذَ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض ،

---

(١) وردت (التوفيق) وهى خطأ فى النسخ ، والقشيرى — كغيره من الباحثين — يرى أنه لا ينبغى إضافة اسماء وصفات لما ورد فى الحديث المروىّ عن أبى هريرة والذى أبلغها تسعة وتسعين ، فلا يصح أن يسمى الله عاقلاً ولا ذكياً ونحو ذلك .

(٢) وردت (بالخاء) وهى خطأ فى النسخ .

والإشارات معه أوفر ، قال صلى الله عليه وسلم » : أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا »[1] .

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون — دَاخَلَهُمْ رِيبٌ ؛ فقالوا : إنه لم يغرق[2] حتى قذفهم البحر ، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرقون . وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء[3] الناس : « كأنى بأهل الجنة يتزاورون وكأنى بأهل النار يتعاوون وكأنى أنظر عرش ربى بارزاً »[4] فشتّان بين من يُعاين فيرتاب مع عيانه ، وبين مَنْ يسمع فكالعيان حالُه من قوة إيمانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العِجْلَ من بعده وأنتم ظالمون ﴾.

شتّان بين أمة وأمة ؛ فأمّةُ موسى عليه السلام — غاب نبيُّهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجْلَ معبودَهم ، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً ، فقالوا : « هذا إلهُكم وإله موسى فَنَسِيَ »[5] وأمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم مضى من وقت نبيّهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر فى وصف معبودهم مايوجب تشبيها لما أبْقَوْا على حشاشتهم ولو كان فى ذلك ذهاب أرواحهم[6] .

---

(١) « إنما بعثت فاتحا وخاتما وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر لى الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون » البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قتادة مرسلاً (المنتخب من كنز العمال ٤ ص ٣٠٢) .

والتهوك = الاضطراب فى القول وأن يكون على غير استقامة .

(٢) الفعل بالمفرد هنا لأنه عائد على لفظ آل أو على فرعون ، ثم تحدث بعد ذلك بالجمع حين أعاده على المعنى

(٣) افتاء وفتاء جمع فتىً وهو الشاب من إنسان أو حيوان الوسيط ص ٦١٠ .

(٤) خرّجنا هذا الحديث المروى عن حارثة فى هامش سبق .

(٥) سورة طه آية ٨٨ .

(٦) يغمز القشيرى هنا بالشبهة ، فيلحق من يقول بالتشبيه بعبدة العجل ، فكلامها توقح ونسب للالوهية ما ينبغى أن تتنزه عنه . وأهل السنة يرفضون رفضاً قاطعاً كل ما يشين الذات الإلهية من تصورات مادية .

ويقال إن موسى — صلوات الله عليه — سلَّم أمته إلى أخيه فقال : اخلفنى فى قومى ، وحين رجع وجدهم وقعوا فى الفتنة ، ونبيُّنا — صلوات الله عليه — توكَّل على الله فلم يُشِرْ على أحَدٍ فى أمر الأمة وكان يقول فى آخر حاله : الرفيق الأعلى . فانظر كيف تولَّى الحق رعاية أمته فى حفظ التوحيد عليهم . لعمرى يُضَيِّعون حدودَهم ولكن لا ينقضون[1] توحيدَهم.

قوله جل ذكره : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾

سرعة العفو على عظيم الجُرْم تدل على حقارة قدر المعفو عنه ، يشهد لذلك قوله تعالى (مخاطباً أمهاتِ المسلمين) : « من يأتِ منكن بفاحشة مُبَيِّنَةٍ يُضاعف لها العذاب ضعفين » ، هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى : « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » ، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم) : « ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ .

فرقان هذه الأمة الذى اختُصُّوا به نورٌ فى قلوبهم ، به يُفَرِّقون بين الحق والباطل ، قال النبى صلى الله عليه وسلم لوابصة : « استفتِ قلبك »[2] .

وقال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وقال الله تعالى : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وذلك الفرقان ميراث ما قدَّموه من الإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ .

أى ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم ، فأمَّا الحق سبحانه فعزيز الوصف ، لا يعود إلى عِزِّه من ظلم الظالمين شىء ، ومن وافق هواه واتَّبع مناه فَعِجْلُه ما علَّق به همَّه ، وأفرد له قصده .

---

(١) وردت (ينقصون) بالصاد والأقوى أن تكون بالضاد لأن المقصود هو تمسك أمة محمد (ص) بعدم (نقض) التوحيد .

(٢) هكذا رواه أحمد فى مسنده والبخارى فى تاريخه والدارمى فى سننه وحسنه النووى فى رياض الصالحين بلفظ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .

(٣) الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة والترمذى من حديث أبى سعد والطبرانى وابو نعيم عن أنس

قوله جل ذكره : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ .

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾

التوبة بقتل النفوس غير (. . .)[1] إلا أن بنى اسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً ، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سراً ، فأوّلُ قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروجُ عن النفس .

[فصل] ولقد توهم الناس أن توبة بنى إسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة ، وأمّا أهل الخصوص من هذه (الأمة)[2] ففى كل لحظة قتل ، ولهذا :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء

وقتل النفس فى الحقيقة التبرى عن حوْلِها وقوتها أو شهود شيء منها ، ورد دعواها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق — سبحانه — بجملتها ، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار البشرية عنها ، فأمّا بقاء الرسوم والهياكل فلا خطرَ له ولاعبرةَ به .

قوله جل ذكره : ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التوّاب الرحيم ﴾

كونه لكم عنكم أتمُّ من كونكم لأنفسكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ .

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بِتَرْكِ الحرمة ، وذلك من أمارات البعد والشقوة .

---

(١) هنا كلمة مُشْتَبِهَة .

(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وإثبات نعت التولى بمكاشفات العزة مقرونا بملاطفات القربة من علامات الوصلة ، دلالات السعادة .

فلاجَرَمَ لما أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاءً لهم بمقتضى الحكم ، وإجراءً للسنّةِ فى الصفح عن الجُرْم ، ومن قضايا الكرم إسبالُ الستر على هناتِ الخدَم .

قوله جل ذكره : ﴿ وظَلَّلْنا عليكم الغَمام وأنزلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوى ، كُلُوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلمون ﴾ .

لمّا طرحهم فى متاهات الغُربة لم يرضَ إلا بأن ظَلَّلَهُم ، وبلبسة الكفايات جَلَّلَهُم ، وعن تكلف التكسُّب أغناهم ، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولاَّهم ؛ فلا شعُورُهم كانت تَطُول ، ولا أظفارهم كانت تنبُت ، ولا ثيابهم كانت تتسخ ، ولا شعاعُ الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سُنَّتُه لمن حال بينه وبين اختياره ، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدًا ، وادخلوا البابَ سُجَّدًا ، وقولوا حِطَّةٌ نَغفِرْ لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ﴾ .

( )[1] بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يُؤْمَرون ، حتى قالةٍ أُوصُوا بحفظها فَبدّلوها ، وحالةٍ من السجود أُمِروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها ، وعَرّضوا أنفسَهم لِسهام الغيب ، ثم لم يطيقوا الإصابة بقَرْعِها[2] ، وتعرضوا لمفاجآت العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وَقْعِها .

---

(١) كلمة مشتبهة فى ص . (٢) وردت بدون الباء فى ص وقد أضفناها ليستقيم المعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ فبدَّلَ الذين ظَلَموا قَوْلاً غيرَ الذى
قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رِجْزًا
من السماء بما كانوا يَفسُقُون ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم ، أو يصدوا مِنْ دونهم أسبابَ البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم ، فزعوا من الندم لما عضّهم ناب[1] الألم ، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الحَجَرَ فانفجرت منه اثنتا عشرةَ
عيْناً ، قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مشرَبَهم ،
كلوا واشربوا من رِزْقِ اللهِ ،
ولا تَعْثوا فى الأرض مُفْسِدين ﴾ .

إن الذى قدر على إخراج الماء من الصخرة الصمّاء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه ، وإيصال محل الاستغاثة إليه ، وليكون على موسى عليه السلام — أيضاً فى نقل الحجر — مع نفسه شغل ، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساةُ نوعٍ من معالجةِ ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه[2] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّةٍ ، ملازماً لحدّه ، غيرَ مُزَاحِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامةً يعرفون بها مشربَهم ، فهؤلاء لا يَرِدُون مشرب الآخرين ، والآخرون لا يَرِدُون مشرب الأولين .

وحين كفاهم ما طلبوا أمرَهُمْ بالشكر ، وحِفْظِ الأمرِ ، وتَرْكِ اختيار الوِزر ، فقال : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .

والمناهل مختلفة ، والمشارب متفاوتة ، وكلٌّ يَرِدُ مَشْرَبه ؛ فمشربٌ عَذْبٌ فُرات ، ومشربٌ مِلْح أُجاج ، ومشربٌ صافٍ زلال ، ومشرب رتق أو شال[3] . وسائقُ كلِّ قومٍ

(١) وردت (ناب) بالتاء وهى خطأ فى النسخ .
(٢) لاحظ هنا مذهب القشيرى فى التوكل ، وكيف أنه لا يتعارض مع السعى .
(٣) أوشال : جمع وَشَل = وهو الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره . الوسيط ص ١٠٤٧ .

يقودهم ، ورائد كُلٍّ طائفة يسوقهم ؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المنى والشهوات ، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات ، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات ، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات ، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك فى حقيقة الوجود والذات .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادعُ لنا رَبَّك يُخْرِج لنا مما تُنْبِتُ الأرض من بَقْلِها وقثائها وفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها . قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما سألتم ، وضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ والمسكنة وباءو بِغَضَبٍ من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ .

لم يرضَوْا بحسن اختياره لهم ، ولم يصبروا على قيامه بتولى ما كان يَهُمُّهُم من كفاية مأكولهم وملبوسهم ، فنزلوا فى التحير إلى ما جرت[1] عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام ، والرضا بالدون من الحال ، فردَّهم إلى مقاساة الهوان ، وربطهم بإدامة الخذلان ، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّة الاستحياء ، وتَرْكِ الاروعاء ، فعاقبهم على قبيح فعالهم ، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم ، وحين لم تنجح فيهم[2] النصيحة ، أدركتهم النقمة والفضيحة . ويقال كان بنو إسرائيل متفرق الهموم مُشَتَّتِي القصود ؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعامٍ واحد ، ولم يكتفوا فى تدينهم بمعبود واحد ، حتى قالوا لموسى عليه السلام — لمَّا رأوا قوماً يعبدون الصنم[3] — يا موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم إله ،

---

(١) وردت فى ص (مرت) وهى بالجيم أصوب . (٢) وردت (فهيم) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (الضم) وهى خطأ فى النسخ .

وهكذا صفة أرباب التفرقة . والصبر مع الواحد شديد ، قال تعالى : « وإذا ذكرتَ ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » .

قوله جل ذكره : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى
والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر
وعَمِل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم
ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ .

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدَّق الحق سبحانه في آياته ، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته ، فتبايُن الشرع واختلاف وقوع الاسم غيرُ قادح في استحقاق الرضوان، لذلك[1] قال: «إن الذين آمنوا والذين هادوا» ثم قال : « من آمن منهم » أي إذا اتفقوا في المعارف فالكُلُّ لهم حُسْنُ المآب ، وجزيلُ الثواب. والمؤمن مَنْ كان في أمان الحق سبحانه ، ومَنْ كان في أمانه ـ سبحانه وتعالى ـ فبالحريِّ ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا
فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوةٍ
واذكروا مافيه لعلكم تتقون، ثم توليتم
من بعد ذلك فلولا فضلُ الله عليكم
ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾

أخذ سبحانه ميثاقَ جميع المُكَلَّفين ، ولكنَّ قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرَّف إليهم فوَحَّدوه وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه ، ولا حُجَّةَ أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور —وهو الجبل— ولكن عَدِموا نورَ البصيرة ، فلا ينفعهم عيانُ البصر . قال الله تعالى « ثم توليتم من بعد ذلك » ، أي رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان ، ولولا حكمه بإمهاله ، وحِلْمُهُ بأفضاله لعاجَلَكُم بالعقوبة ، وأحلَّ عليكم عظيم المصيبة ولخَسِرَتْ صفقتُكم بالكُلِّيَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في
السبت فقلنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين﴾ .

---

(١) وردت (كذلك)

مسْخُ هذه الأمة حصل على القلوب ، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما أُلزموا به من الشرع — عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النَّصُّ ، فهذه الأمة مِنْ نَقْضِ العهدِ ورفض الحدِّ عوقبت بمسخ القلوب، وتبديل الأحوال، قال تعالى: «ونُقَلِبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة»[1] وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس ، وفى معناه أنشدوا:

يا سائلى : كيف كنتَ بَعْدَه ؟ لقيتُ ما ساءنى وسَرَّه
ما زلت أختال فى وِصالىَ حتى أمِنت مِن الزمانِ مَكْرَه[2]
طال علىَّ الصدود حتى لم يُبْقِ مما شَهِدَت ذرَّه

قوله جل ذكره : ﴿ فجعلناها نَكالاً لِماَ بين يديها وما خلفها وموعِظةً للمتقين ﴾ .

هكذا مَنْ مُنِىَ بالهجران ، ووُسِمَ بالخذلان ، صارت أحواله عِبْرة ، وتجرَّع — مِنْ مُلاَحظته لحاله — عليه الحسرة ، وصار المسكين — بعد عِزِّه لكلِّ خسيسٍ سُخْرَة. هكذا آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر :

وقد أحدق الصبيان بى وتجمعوا علىَّ وأشلوا بالكلاب ورائيا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ .

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهماً بأن يكون لم (. . .)[3] تُفضِى بالإخلاد إلى الاعتدال[4] عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم المشقة وحلَّ بهم[5] ما حَذِرُوه من الافتضاح.

[فصل] ولما قال إنها بقرة لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عوَانٌ بين ذلك ، أى ليست بِفَتِيَّةٍ ولا مُسِنَّة بل هى بين السِّنَّيْنِ . حصلت الإشارة أن الذى يصلح لهذه الطريقة مَنْ لا يستهويه

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٠ .
(٢) ورد في البيت (أحتال) و (وجال) و (أتيت) من الزمان وقد أصلحنا ليستقيم المعنى والوزن .
(٣) سقطت هنا لفظة من الناسخ وهو ينتقل من ورقة إلى أخرى.
(٤) الاعتدال هنا بمعنى العدول عن الشيء .
(٥) وردت (وجلبهم) وهى غير ملائمة للمعنى والسياق .

نَزَقُ الشباب وسُكْره ، ولم يُعَطِّله عجزُ المشيب وضعفُه ، بل هو صاحٍ استفاق عن سُكْرِه ، وبقيت له — بَعْدُ[1] — نضارةٌ من عمره .

قوله جل ذكره : ﴿صفراء فاقعٌ لونُها تَسُرُّ الناظرين. قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبَيِّن لنا ما هى إنَّ البقر تَشَابَهَ علينا وإنَّا إن شاء الله لَمُهْتَدُون﴾

كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة[2] يستغرق شاهدُه القلوبَ لِمَا أُلبس من رداء الجبروت ، وأقيم به من شاهد الغيب[3] حتى أن من لاَحَظَه تناسى أحوال البشرية ، واستولى عليه ذكر الحق ، كذا فى الخبر المنقول : أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله (. . . .)[4]

قوله جل ذكره : ﴿قال إنه يقول إنها بَقَرَةٌ لا ذلُولٌ تُثير الأرضَ ولا تسقى الحرثَ مُسَلَّمَةٌ لاشيةَ فيها قالوا[5] الآن جِئْتَ بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ .

كما أن تلك البقرة لم يُذلِلْها العملُ ، ولم تُبْتَذَلْ فى المكاسب ، لا لونَ فيها يخالف عِظَمَ لَوْنِها فالإشارة منه أن أهلِ الولاية[6] الذين لم يتبذلوا بالأغيار لتحصيل ماطلبوا من الأسباب ، ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال ، ولم يتكلوا على الاختيار والاحتيال ، وليسوا نهباً لمطالبات المنى ، ولا صيداً فى مخلب الدنيا ، ولا حكمَ للشهوات عليهم ، ولا سلطان للبشرية تملُّكهم ، ولم يسعَوْا قط فى تحصيل مرادهم ، ولم يشقوا لدرك بُغيتهم ، وليس عليهم رقم الأغيار ، ولا سِمَةُ الأسباب — فَهُمْ قائمون بالله ، فانون عما سوى الله ، بل هم محو ، مُصَرِّفُهم اللهُ . والغالب — على قلوبهم — الله

وكما أن مَعبودَهم الله كذلك مقصودهم الله .

---

(١) ربما صحت على هذا ويكون المعنى ما زالت فيه بقية من نضارة عمره ، ويحتمل أن تكون فى الأصل (بعض) ويكون المعنى وبقيت له بعض نضارة من عمره .

(٢) يقصد أهل التصوف .

(٣) وردت (الغير) ولا معنى لها هنا لأن شهود الغيب هو الذى يحدث ذلك الأثر .

(٤) فى (س) علامات تدل على أن الكلام مبتور ، ونرجح أن (ذاكر) بدل (ذكر) .

(٥) أخطأ الناسخ عند كتابة هذه اللفظة من الآية الكريمة حيث وردت (قال) الآية ٧٠ من سورة البقرة .

(٦) فى س (ولاية) بدون تعريف والأصح بها .

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله ، وموجودهم الله ، بل هم محو بالله و (....)[1] عنهم الله ، وأنشد قائلهم .

إذا شئتِ أن أرْضَى وترضَىْ وتملكى زمامِىَ — ما عشنا معاً — وعنانى
إذن فارمُقى الدنيا بعينى واسمعى بأذنى وانطقى بلسانى

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ .

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحِيَل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات ، ولو أنهم فعلوا ما أمِروا به لما تضاعفت عليهم المشاق .

قوله جل ذكره : ﴿وإذا قتلتم نَفْساً فادَّارأتم فيها والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون ﴾ .

الخائن خائف ، ولخشية أن يظهر سرُّه يركن إلى التلبيس والتدليس ، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عوارُه ، وتتضح أسرارُه ، وتهتك عن شَيْنِ فعله أستارُه . قال الله تعالى : « والله مخرج ما كنتم تكتمون » .

قوله جل ذكره : ﴿ فقلنا اضْرِبُوهُ ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياتِهِ لعلكم تعقلون﴾ .

أراد الله سبحانه أن يحيي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم ، صارت الإشارة منه :

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه ؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حَيِيَ قلبُه بأنوار المشاهدات، وكذلك من أراد اللهُ حياةَ ذِكْرِهِ فى الأبدال[2] أمات فى الدنيا ذكره بالخمول[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ثم قَسَتْ قلوبُكم منْ بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجَّرُ منه الأنهار، وإن منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيخرُجُ منه الماء وإنَّ منها لَمَا يَهْبِطُ من خشية الله وما الله بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾ .

---

(١) مشتبهة فى س . (٢) ربما كانت فى الأصل (الأبد)
(٣) أى منع عنه الاشتهار بين الخلق لأن المهم مرتبته لدى الحق .

بيّن أنهم — وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات — فحين لم تساعدهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية، لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو، وكذلك قلوبهم لا تفهم[1]، ولا تغني[2]. ثم بيّن أنها أشد (. . . . .)[3] من الحجارة، فإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله[4]، وأمّا قلوبهم فخالية عن كل خير، وكيف لا وقد مُنِيَتْ بإعراض الحقّ عنها، وخُصَّتْ بانتزاع الخيرات منها.

قوله جل ذكره: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾.

أنبأهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله — سبحانه — حرّفوا وبدّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يَبقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذى لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا أتُحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليُحاجّوكم به عند ربّكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون﴾.

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق، وإخفاء الحال على المسلمين، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام على أسرارهم، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفئ بمزاولة الأغيار. وموافقةُ اللّسانِ مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفرقة.

قوله جل ذكره: ﴿ومنهم أميّون لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون. فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا﴾.

---

(١) تكملة فى الهامش استدرك بها الناسخ اثبتناها فى موضعها.
(٢) أى لا تغنى عنهم من الله شيئاً، وربما كانت فى الأصل (ولا تعى) حتى تتلاءم مع (لا تفهم).
(٣) زيادة ميزها الناسخ — لا لزوم لها.
(٤) إشارة إلى قوله تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله»

أخبر أنهم متفاوتون فى نقائص كفرهم ، فقومٌ منهم أخَسُّ درجةً وأكثر جهلاً ركنوا إلى التقليد ، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها . ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يتمناه فى نفسه ، ولا يساعده إمكان ، ولا لظنونه قط تحقيق . ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره :

« فويل لهم مما كَتَبَتْ أيديهم وويل لهم مما يَكْسِبُون » .

أى خَسِروا فى الحال والمآل ، والإشارة فى هذه الآية لمن عَدِم الإخلاص فى الصحبة فى طريق الحق ؛ يَنْضَمُّ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصاحِب ، وله مع هذه الطريقة جانب ، كلما دَعَتْهُ هواتف الحظوظ تَسارَعَ إلى الإجابة طوعاً ، وإذا قادته دواعى الحق — سبحانه — يتكلف شيئاً ، فَبِئْسَت الحالة حين لم يخلص ، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله ! ثم لا يُفْلِحُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن تَمَسَّنَا النار إلا أيَّاماً معدودة ، قُلْ أتَّخَذْتُم عند الله عهداً فلن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَه أم تقولون على الله مالا تعلمون ﴾ .

الإشارة فى هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة ، وغلب عليه حسبانه ، فحكم لنفسه — لفرط غفلته — بأنه من أهل القصة[1] ، ويَخْلُدُ إلى هواجس مناه ، فيحكم على الغيب بأنه يتَجاوز عنه ؛ نَسِيَ قبائح ما أسلفه ، ويذكر مغاليط ما ظَنَّه ، فهو عَبْدُ نَفْسِهِ ، يغلب عليه حسن ظنه ، وفى الحقيقة تعتريه نتائج غفلته ومكره ، قال تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سيئة وأحاطت به خَطِيئَتُهُ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

الذى أحاطت به خطيئته هو الكافر — على لسان العلم[2] .

---

(١) أى من أهل الطريق الصوفى .

(٢) أى على لسان التفسير المادى أى غير الاشارى

ولكنّ الإشارة منه إلى مَنْ سكن قلبُه على استغاثاته على وجه الدوام ، فإن أصحاب الحقائق كالحَبّ[1] على المَقْلَى ـ فى أوقات صحوهم ، فَمَنْ سَكَنَ فَلِفَرْطِ عِزّتِهِ ـ لا يَفْتُرُون[2] .

ومَن استند إلى طاعة يتوسّلُ بها ويَظن أنه يقرب بها ينبغى أن يتباعد عن السكون إليها ومَنْ تَحقّقَ بالتوحيد علِمَ ألا وسيلة إليه إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

فى الحال جنان الوصل . . . . . .

(. . . . .)

(. . . . .)

(. . . . .)[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجون فريقاً منكم من ديارِهم تظاهرون عليهم بالإثم والعُدوان ﴾ .

. . . أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، الإشارة فيه أن نصرتكم لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصرة عليهم بما فيه شقاؤهم ، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يأتوكم أسارى[4] تُفادوهم ، وهو مُحرّمٌ عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾

أى كما تراعون — بالفداء عنهم — حقوقَهم ، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كَفُّ أيديكم عنهم ، وتَرْكُ إزعاجهم عن أوطانهم ، فإذا قُمتم ببعض ما يجب عليكم فما الذى يقعدكم

(١) وردت (كالحسب) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) من الفترة ، وقد أوضحنا رأى المصنف فى الفترة والوقفة فى هامش سبق .

(٣) حدث سقوط فيما بين (الوصل) و ... (أضرابكم) وبذلك لم يصلنا تفسير الآيات الكريمة من رقم ٨٢ إلى ٨٤ .

(٤) يستخرج القشيرى من لفظة أسارى إشارات معينة بعد قليل .

عن الباقى ، حتى تقوموا به كما أُمِرْتُم ؟ أماَ علمتم أن مَنْ فَرَّقَ بين ما أُمِرَ به فآمن ببعضٍ وكَفَرَ ببعضٍ فقد حبط — بما ضيَّعه — أجرُ ما عَمِلَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياة الدنيا ، ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشَدِّ العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾ .

أى ظنوا أن ما فعلوه نَفَعَهم ، فانكشف لهم فى الآخرة أن جميع ما فعلوه — لمَّا مزجوه بالآفات وجرَّدُوه عن الصدق والإخلاص — غيرُ مقبولٍ منهم .

والأُسَرَاء أصناف : فَمِنْ أسير غَرِقَ فى بحار الهوى فإنقاذُه بأن تدلَّه على الهُدَى . ومِنْ أسيرٍ بقى فى أيدى الوساوس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذَه من الشك والتخمين ، وتخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين . ومن أسيرٍ تجده فى أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه ، ففَكُّ أسْرِه بأن تدلَّه على شهود المِنن ، بتَبَرِّيه عن حسبانِ كلِّ حَوْلٍ بِخَلْقٍ وغَيْر . ومن أسيرٍ تجده فى ربيطة ذاته ففكُّ أسره إنشاده[1] إلى إقلاعه ، وإنجاده على ارتداعه . ومن أسير تجده فى أسر صفاته ففكُّ أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون[2] ، ومن أسيرٍ تجده فى قبضة الحق فتخبره أنه ليس لأسرائهم فداء ، ولا لقتلاهم عَوْد ، ولا لربيطهم خلاص ، ولا عنهم بُدٌّ ، ولا إليهم سبيل ، ولا مِن دونهم حيلة ، ولا معَ سِواهم راحة ، ولا لحكمهم رَدٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هُمْ يُنصَرُون ﴾ .

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا فى الدنيا والآخرة كما قالوا :

---

(١) إنشاده إلى إقلاعه أى مطالبته والنصح له .
(٢) وردت (المكون) والأصوب الكون لأن المقصود يقتضى ذلك .

أناسٌ أعرضوا عنَّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
فإن كانوا[1] قد استَغْنَوْا فإنَّا عنهم أغنى

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكِتابَ وقَفَّيْنا مِنْ بَعده بالرُّسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُسِ ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفُسُكم استكبرتم ففريقاً كَذَّبْتُم وفريقاً تَقْتُلون ﴾ .

الإشارة : أوصلنا لهم الخطاب ، وأردفنا رسولاً بعد رسول ، والجميع دَعَوْا إلى واحد . ولكنهم أَصْغَوْا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى ، فما استلذته النفوس قَبِلُوه ، وما استثقلته[2] أهواؤهم جحدوه[3] ، فإذا كان الهوى[4] صفتهم ثم عبدوه ، صارت للمعبود[5] صفات العابد ، فلا جَرَمَ الويل لهم ثم الويل !

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لَعَنَهُم الله بكفرهم فقليلاً ما يُؤمِنون ﴾ .

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعانى ، ولكن عندمطالبات التحقيق تَفْتَرُّ أنيابُ المُتَلَبِّسِين عن أسنانٍ شاحذة بل (. . . . .)[6] وقيل :

إذا انسكبت دموعٌ فى خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) اللفظة ناقصة فى المتن ومصححة فى الهامش على اليسار .
(٢) وردت (استسقلته) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (هجدوه) ثم تصحيح لها فى الهامش (جهدوه) ولا يستبعد أنها : (جحدوه) على أساس نكرانهم للتوحيد .
(٤) وردت (الهوا) والصحيح (الهوى) .
(٥) وردت (المعبود) وهى خطأ فى النسخ .
(٦) هنا كلمة مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله
مُصَدِّقٌ لِمَا معهم وكانوا مِنْ قَبْلُ
يستفتحون على الذين كفروا فلمَّا
جَاءَهُم ما عَرَفوا كفروا به فلعنة الله
على الكافرين ﴾ .

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء ، ووعد من نفسه تحقيق الوفاء ، ونشر أعلام النشاط عند البروز[1] إلى القتال ، تنادى بالنِّزال وصدق القتال — انهدم عند التفات[2] الصفوف ، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المحذور ، قال تعالى : « فإذا عزموا الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ بئسما اشْتَرَوْا به أنفُسَهُم أن يكفروا
بما أنزل اللهُ بَغياً أن يُنَزِّلَ الله
من فضله على من يشاء من عباده فباءو
بغضبٍ على غَضَبٍ وللكافرين
عذاب مُهين ﴾ .

أنزلهم التحاسُد عن مقر العِزّ[3] إلى حضيض الخِزْى ، وسامهم ذُلَّ الصَّغَر حين لم يَرْضَوا بمقتضى الحُكْم ، فأضافوا استيجاب مقتٍ آنفٍ إلى استحقاقِ مقتٍ سالف .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم آمِنوا بما أنزل الله
قالوا نؤمن بما أُنْزِلَ علينا ،
ويكفرون بما وراءه وهو الحق
مُصَدِّقاً لِمَا معهم ، قُلْ فَلِمَ تَقتلون
أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين» .

---

(١) وردت (البرود) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت هكذا فى (س) ، وربما كانت فى الأصل (التقاء) الصفوف أو (التفاف) كذلك يحتمل (انهزم) بدلا من (انهدم) .
(٣) وردت (العسر) وهى خطأ فى النسخ .

الإشارة فيه : إذا قيل لهم حَقِّقُوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم ، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم ، (. . . .)[1] بُعداً عن زمرة الخواص ، غير معدودين فى جملة أرباب الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءكم[2] موسى بالبينات ثم اتخذتم العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتم ظالمون ﴾ .

أى دعاكم إلى التوحيد ، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود ، ولكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عِجْلٍ اتخذتموه ، وصنمٍ تمنيتموه . فرفع ذلك من بين أيديهم ، لكن بقيت آثاره فى قلوبهم وقلوب أعقابهم ، ولذلك يقول أكثرُ اليهود بالتشبيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعَصَيْنا وأُشْرِبوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم ، قل بِئْسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

كرَّرَ الإخبار عن غُلُوِّهم فى حُبِّ العجل ، ونُبُوِّهم عن قبول الحق ، و (... ... ...)[3] وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل ، فلا النصحُ نَجَعَ فيهم ، ولا العقوبةُ أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم ، ولا بالذم فيهم احتفلوا[4] ، ولا بموجب الأمر عملوا .

---

(١) هنا لقطة مشتبهة .
(٢) أخطأ الناسخ حين كتبها (جاءم) فصححناها طبقاً للاية ٩٢ .
(٣) هنا عبارة غامضة كتابة وبالتالى معنى .
(٤) وردت (اختلفوا ، واللائم للسياق (احتفلوا) أى اظهروا الاهتمام .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عندَ الله خالِصةً مِنْ دون الناس فَتَمَنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين * ولن يتمنوْه أبداً بما قَدَّمَتْ أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط الموافى ؛ فمن وَثِقَ بأن له الجنة قطعاً — فلا محالةَ — يشتاق إليها ، ولمَّا لم يتمنوا الموت[1] — وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوهُ أبداً — صار هذا التعريف معجزةً للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال .

وفى هذا بشارة[2] للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم ، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة ، وقديماً قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء . قال الله تعالى : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَتَجِدَنَّهم أحرصَ الناسِ على حياة ، ومِنَ الذين أشركوا يَوَدُّ أحَدُهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بِمُزَحْزِحِهِ من العذابِ أن يُعَمَّر والله بصير بما يعملون ﴾[3] .

حُبُّ الحياة فى الدنيا نتيجة الغفلة عن الله ، وأشد منه غفلة أحبُّهم للبقاء فى الدنيا . وحالُ المؤمن من هذا على الضدِّ . وأما أهل الغفلة وأصحاب التهتك فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم ؛ فالعبد الآبِق لا يريد رجوعاً إلى سَيِّدِهِ . والانقلابُ إلى مَنْ هو خيرُه مَرجوٌ خيرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّه غيرُ مأمون ، ثم إن امتداد العمر مع يقين

---

(١) فى النسخة (الجنة) ولكن الآية الكريمة والسياق يشيران إلى تمنى الموت ثم إن الضمير فيما بعد فى (لن يتمنوه أبداً) ضمير مذكر وليس ضمير مؤنث .

(٢) وردت (وفى هذا إشارة) والمعنى يتطلب (بشارة) مما يرجح هذه على تلك .

(٣) أسقط الناسخ من الآية من أول (وما هو) إلى (أن يعمر) فأثبتناه .

الموت (لا قيمة له) إذا فاجأ الأمرُ وانقطع العُمْرُ . وكلُّ ما هو آتٍ فقريب ، وإذا انقضت المُدَّةُ فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن كان عَدُوّاً لجبريل فإنه نَزَّلَه على قلبكَ بإذن الله مُصَدِّقاً لِمَا بين يَدَيْه وهُدىً وبُشرىٰ للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورُسُلِه وجبريلَ وميكال فإن الله عَدُوٌّ للكافرين ﴾ .

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير ، وأنهم لا يحبونه ، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به ، فأكذبهم الحقُّ سبحانه فقال : من كان عدواً لجبريل لأنه لا يأتي بالخير فأي خير أعظم مما نزل به من القرآن ؟ !

ثم قال إن مَنْ عادى[1] جبريلَ وميكائيل فإن الله عدوٌ له ؛ فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَوْرِد — كريمُ المنزلة ، عظيم الشرف . وما ضرَّتْ جبريلَ — عليه السلام — عداوةُ الكفار ، والحق سبحانه وتعالى وليُّه ، ومَنْ عَادَى جبريلَ فالحقُّ عَدُوُّه ، وما أعزز[2] بهذا الشرف وما أجلَّه ! وما أكبر علوه !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيناتٍ وما يكفر بها إلا الفاسقون . أوَ كُلَّما عاهدوا عهداً نَبَذَه فريقٌ منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ .

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه ، وسبقت من الله بالشقاوة

---

(١) وردت (عبادى) وهى خطأ في النسخ ، فعادى مناسبة لعدم محبتهم لجبريل كما سبق .
(٢) الصحيح ان يقال وأعزز بهذا الشرف أو : ما أعز هذا الشرف فليس فى التعجب ما أفعِلْ به فما حدث هو خطأ من الناسخ لأن القشيرى ـ كما نعلم من سيرته ـ حريص أشد الحرص على قواعد النحو .

قِسْمَتُه ، ولا عقلَ لِمنْ يجحدُ أنَّ النهارَ نهار ، وكذلك لا وَصْلَ لمن لم تساعده من الحق ابو ر واستبصار . أوَ كُلَّما عاهدوا عهداً سابقُ التقدير لم كان يشوِّش عليهم ، وينقض عَهْدَهُم لا حِقُ التدبيرُ منهم ، والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جَاءهم رسول من عند الله مصدقٌ[1] لِمَا معهم نَبَذَ فريق من الذين أوتوا الكِتَاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ .

جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر ، وكذَّبوا رسلهم الذين أتوهم فى الظاهر ، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان ! ويا حرماناً قارَنَه خِذلان !

قوله جل ذكره : ﴿ واتبعوا ما تَتلوا الشياطين على مُلْكِ سليمان ، وما كَفَرَ سُليمانُ ، ولكنَّ الشياطين كفروا يُعَلِّمون الناسَ السِّحْرَ وما أُنزل على المَلَكَين بِبَابلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعلِّمان من أَحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفُرْ فيتعلمون منهما ما يُفَرِّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أَحدٍ إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد عَلِموا لَمَنِ اشتراهُ مالَهُ فى الآخرة من خَلاق ﴾ .

مَنْ فرَّقَتْهُ الأهواء وقع فى كل مطرح من مطارح الغفلة ، فيستقبله كل جنس من قضايا

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (مصدقاً) والصحيح (مصدق) الآية ١٠١ .

الجهالة ، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبْرة ، ولِمَنْ سلك طريقَه فتنة ، فمن اقتدى به فى غيِّه انخرط فى سِلْكِه ، والتحق بجنسه ، هكذا صفة هاروت وماروت فيما استقبلهما ، صارا للخلْق فتنة بل عبرة ، فمَنْ أصغى إلى قيلهما ، ولم يعتبر بجهلهما تعلَّق به بلاؤهما ، وأصابه فى الآخرة عناؤهما .

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مآلَ فى هذه الطريقة إلى تمويهٍ وتلبيس ، وإظهار دعوى بتدليس ، فهو يستهوى مَن اتَّبَعَه[1] ، ويلقيه فى جهنم بباطله ، (. . . . .)[2]

ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتكت أستارُه ، وظهر لذوى البصائر عوارُه . وإن هاروت وماروت لما اغتَّرا بحاصل ما اعتاداه من المعصية بَطَأَ لسان الملامة فى عُصاة بنى آدم ، فلِمَا رُكِّب فيهما من نوازع الشهوات، ودواعى الفتن والآفات ، اقتحما فى العصيان ، وظهر منهما ما انتشر ذِكْرُه على ألسنة القصاص ، وهما مُنَكَّسَان إلى يوم القيامة ولولا الرفق بهما وبشأنهما لَمَا انتهى فى القيامة عذابُهما ، ولكنَّ لطفَ الله مع الكافة كثيرٌ . ولَمَّا قال الله تعالى: « ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم » عَلِم أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم — وإن كان صفةَ مدحٍ — ففيه غيرُ مرغوبٍ فيه ، بل هو مستعاذٌ منه قال النبى صلى الله عليه وسلم : أعوذ بك من علم لا ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ولبئس ما شَرَوْا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون ﴾

لو علم المغبونُ ماذا أبقى وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسراتٍ ، ولكن سيعلم — يوم تُبْلى السرائر — الذى فاته من الكرائم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَوْ أنهم آمنوا واتقوا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عندِ الله خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾

ولو آثروا الإقبالَ على الله على اشتغالهم عن الله ، لحَصَّلُوا ذُخْرَ الدارين ، ووصلوا إلى

---

(١) وردت (التبعة) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) هنا عبارة غامضة كتابة ومعنى ، ويرجح أن الناسخ قد وقع فى أخطاء نقلية .

عِزِّ الكَوْنَين ، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطواتُ القهر ، فأثبَتَتْهم فى مواطن الهجر .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لا تقولوا راعِنا وقولوا انظُرْنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ .

قصودُ الأعداء فى جميع أحوالهم — من أعمالهم وأقوالهم — قصودٌ خبيثة ؛ فهم — على مناهجهم — يبنون فيما يأتون ويَذَرُون . فسبيلُ الأولياء التَّحرزُ عن مشابهتهم ، والأخذ فى طريق غير طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ما يودُّ الذين كفروا من أهلِ الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خيرٍ مِن رَبِّكُم ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ .

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصِلَةٌ مُستَدامةٌ ، ولكن الحسود لا يسود ، ولا يحصُل له مقصود وخصائص الرحمة للأولياء كافية — وإنْ زَعَمَ مِنَ الأعداء أفَّاكٌ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف .

قوله جل ذكره : ﴿ما نَنسَخ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مِثلها أَلَمْ تَعْلم أن الله على كل شىء قدير﴾ .

النسخُ الإزالة أى ما ينقلك من حال إلى ما هى فوقها وأعلى منها ، فنُصنُ وَصْلِك أبداً ناضر ، ونجمُ عِزِّكَ أبداً ظاهر ، فلا ننسخُ من آثار العبادةِ شيئا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولا نسخنا من أنوار العبوديّة أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودةِ[1] .

---

(١) وردت (من اقمار العبودية) وهى خطأ من الناسخ ، لأن السياق هنا يتطلب (العبودة) =

فأبداً[1] سِرُّك في الترقي ، وقدرك في الزيادة بحسن التَوَلِّي

وقيل مارقّاكَ عن محل العبودية إلا سَلَكَكَ بساحات الحرية ، وما رَفَعَ عنك شيئاً من صفات[2] البشرية إلا أقامك بشاهدٍ من شواهد الألوهية .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تعلم أن الله له مُلْكُ السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ .

سُنَّتُهُ — سبحانه — أن يجذب أولياءه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مِلْكِهِ[3] ، ثم يأخذهم من مُطالعةِ مِلْكه إلى شهود حقِّه ، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته ، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ تريدون أنْ تسألوا رسولَكم كما سُئِل موسى من قبل . ومَن يَتَبَدَّلِ الكفرَ بالإيمان فقد ضلَّ سَواء السبيل ﴾ .

إنَّ بني إسرائيل آذَوْا موسى عليه السلام ، فنُهِيَ المسلمون عن فِعْل ما أسلفوه ، وأُمِروا

= فنحن نعرف من مذهب القشيرى أن العبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخاص الخاص .

العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات . . . وهكذا — ومن أسانيد كثيرة فى باب العبودية فى « الرسالة » — نلحظ أن الدرجة القصوى فى الأمر هى (العبودة) ، والترتيب هنا يمشى هكذا آثار العبادة ، انوار العبودية ، أقمار العبودة ، وهو ترتيب فى غاية الدقة ، يعطى كل درجة قدرها .

( ) وردت (فأبد) بدون تنوين .

(٢) نلفت النظر هنا إلى أهمية كلمة صفات البشرية ، أى أن المقصود — حسب مذهب القشيرى — ليس سقوط البشرية فى حد ذاتها ، وإنما صفاتها المملولة ، وينبغى أن يكون واضحاً تمام الوضوح أن التصوف الإسلامى الحق — والقشيرى من أفضل المعبرين عنه — لا يقول بأدنى تداخل بين البشرية والألوهية فالعبد عبد والرب رب .

(٣) ضبطنا ملك وملك مستفيدين من كلام القشيرى فى كتابه « التحبير » ضمن اسم « الملك » .

بمراعاة أن حشمة الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية ما يتسع فى الإمكان . فكانوا بحضرته كأنَّ على رءوسهم الطير . قال تعالى : « تعزروه وتوقروه » وحسنُ الأدب — فى الظاهر — عنوانُ حسن الأدب مع الله فى الباطن .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كُفَّاراً حَسَداً من عِندِ أنفسهم مِنْ بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾

مَنْ لَحِقَهُ خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألاَّ يطلعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ ، ومَنْ اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمسٌ .

وكذلك كانت صفات الكفار ، فأرغم اللهُ أنفهُم ، وكبَّهم على[1] وجوههم .

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة فى البداية إذا رغبوا فى السلوك ، فمن لم يساعده التوفيق (فى الصحبة ، وعاشر أناساً متر سِّمين بالظواهر)[2] فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح ، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة ، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة ، أولئك أعداء الله حقاً ، أدركهم مقت الوقت . وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق .

« فاعفوا واصفحوا . . . » فسبيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سِرَّه ، ويستعمل مع كل أحد ضلة[3] ، ويبذل فى الطلب رفعة[4] ، فمن قريب يفتح الحق عليه طريقه .

---

(١) فى النسخة س (وكبهم لوجوههم) وقد آثرنا عليها (على وجوههم) .
(٢) أصلحنا فى هذه العبارة قليلا لكى يتضح معناها طبقاً لوصايا القشيرى للمريدين فى « رسالته »
(٣) هكذا وردت فى (س) وقد نقلناها كما جاءت ، وربما كانت فى الأصل (خلة) بمعنى الصفة اى أن يحافظ على سره مع ربه عن طريق اتصافه مع صحبته بصفات ملائمة . تضمن أن يكون سره محفوظاً
(٤) ربما كانت فى الأصل (ويبذل فى الطلب وسعه) .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير ﴾.

الواجب على المريد إقامة المواصلات ، وإدامة التوسل بفنون[1] القُربات ، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدْرَكُ[2] ثمرته فى أواخر الحالات.

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن يَدْخُلَ[3] الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيُّهم ، قل هاتوا بُرهانكم ، إنْ كنتم صادقين ﴾ .

كلُّ حِزْبٍ يُمَهِّدُ الأملَ لنفسه ، ويظنُّ النجاة لحاله ، ويدعى الوسل[4] من سهمه . ولكنّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتى بحاصل ، ولا يحوز بطائل .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى[5] مَنْ أَسْلَمَ وجهَه لله وهو مُحسِنٌ فله أجْرُه عِندَ ربِّه ولا خَوْفٌ عليهم ولاهم يَحزنون ﴾

أسلم وجهه أى أخلص لله قصده ، وأفرد لله وجهه ، وطهّر عن الشوائب عقله . « وهو محسن » . عالِمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله ؛ وهو محسن فى المآل كما أنه مسلم فى الحال .

ويقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتكون مستسلماً بظاهرك ، مشاهداً بسرائرك ، فى الظاهر جهد وسجود وفى الباطن كشف ووجود .

---

(١) جاءت هكذا فى ص (يقنون) ثم صححها الناسخ فى الهامش .
(٢) جاءت فى ص (تدركوا) .
(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (يدخلوا) والصحيح (يدخل) الآية ١١١ .
(٤) الوسل والوسيلة والواسلة = الوصلة والقربى من الله (الوسيط ص ١٠٤٤)
(٥) أسقط الناسخ (بلى) والصحيح وجودها الآية ١١٢ .

ويقال « أسلم وجهه » بالتزام الطاعات ، « وهو محسن » قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور ، فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر ، ولا يلحقهم خوفُ المكر ، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

الإشارة فى هذه الآية على العكس من حكم الظاهر ؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعضٍ اليوم ، والأولياء من وجه كذلك ، ولذا قالوا : لا زالت الصوفية بخيرٍ ما تنافروا ، ولا يَقْبَلُ بعضهم بعضاً لأنه لو قَبِل بعضُهم بعضاً بقى بعضُهم مع بعض .

لكنّ الأعداء كلهم على الباطل . عند تَبَرّى بعضهم من بعض أمّا الأولياء فكلُّهم على الحق — وهذه ما ذكرنا من حكم العكس .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمَّن منع مَسَاجِدَ الله أنْ يُذْكر فيها اسمُه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفينَ . لَهُمْ فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾ .

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات ، وأوطان العبادة نفوس العابدين . وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالمُنى والعلاقات ، وأوطان المعرفة قلوب العارفين . وخَرَّب أوطان المحبة بالحظوظ والمُسَاكنات ، وهى أرواح الواجدين . وخرَّب أوطان

المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهى أسرار الموحدين[1]

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

لأهل الإشارة خزى الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجهُ اللهِ إن اللهَ وَاسِعٌ عليم ﴾ .

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها . وللقلوب شوارق وطوارق . وطوارقها هواجس النفوس تطرق فى ظلمات المنى والشهوات .

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف .

فما دامت الشوارق طالعة فَقِبْلَةُ القلوب ، واضحة ظاهرة ، فإذا استولت[2] الحقائق خَفِيَ سلطانُ الشوارق ، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس ، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر ، فلا شهود رسم ، ولا بقاء حِسٍّ وفَهْمٍ ، ولا سلطان عقل وعلم ، ولا ضياء عرفان . فإن وجدان[3] هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية ، وإذا صار الموصوف محواً فأنَّى لهم ببقاء الصفة !

قال تعالى : « فَأَيْنَمَا تولوا فثمّ وجه الله » مادام يبقى من الإحساس والتمييز بقية — ولو شظية — فالقِبْلة مقصودة ، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة . وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائلُ بكلِّ وِجْهةٍ ، ولا معرفةَ بالقِبْلة تَسَاوَتْ الجهاتُ فى جواز الصلاة إلى كل واحدٍ منها إذا لم يكن للنية ترجيح .

---

(١) نعرف من مذهب القشيرى أن الأسرار (للموحدين) ولذا نرجح أن الناسخ أخطأ حينما كتبها (الواجدين) وقد أثبتناها هنا على هذا الترجيح .

(٢) وردت (سولت) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وجدان ، ووجود مصدران لوجد ، غير أن القشيرى يؤثر استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الاصطلاحى الدقيق فى موضعها الملائم (التواجد بداية والوجد واسطة والوجود نهاية) .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ .

مَكَرَ بهم لم يُفْنِهم — من الإفناء — فى الحال ، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال، فنطقوا بعظيم الفِرْية على الله ، واستنبطوا عجيب المِرْية فى وصف الله ، فوصفوه بالولد ! وأنَّي بالولد وهو أحدى الذات ؟! لاحدَّ لذاتِه ، ولا تجوز الشهوة فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ بل له ما فى السماوات والأرض كُلٌّ له قانتون ﴾ .

أى ليس فى الكون شىء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادى عليه آثار الخِلْقَة ، وتفصح منه شواهد الفطرة ، وكل صامتٍ منها ناطق ، وعلى وحدانيته ـ سبحانه ـ دليلٌ وشاهد .

قوله جل ذكره : ﴿ بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون ﴾ .

البديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مِثْل ، وعند أهل الإشارة الذى ليس له شىء مِثله . فهذا الاسم يشير إلى نفى المثل عن ذاته ، ونفى المثال عن أفعاله ، فهو الأحد الذى لا عدد يجمعه ، والصمد الذى لا أمَدَ يقطعه ، والحق الذى لا وهم يصوِّره ، والموجود الذى لا فهم يقدره . وإذا قضى أمراً فلا يعارض[1] عليه مقدور ، ولا ينفكُّ من حكمه محظور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلمنا[2] الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين مِن قَبْلهم مثل قولِهم تشابهت قلوبهم قد بيَّنَّا[3] الآيات لقوم يُوقنون ﴾ .

---

(١) الصواب أن تكون (فلا يمتاص) ، فهكذا يعبر القشيرى فى مثل هذا السياق .
(٢) وردت (لولا يكلمهم) وهى خطأ ، وقد صححناها طبقاً للآية ١١٧ .
(٣) وردت خطأ (بيَّن) والصحيح (بينا) الآية ١١٧ .

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها ، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)[1] ، لكن من عَدِم سمع الفهم تصام[2] عن استماع الحق ، فإنه — سبحانه — خاطب قوماً من أهل الكتاب ، وأسمعهم خطابه[3] ، فلم يطيقوا سماعه ، وبعدما رأوا من عظيم الآيات حرَّفوا وبدَّلوا . وفى الآيات التى أظهرها ما يزيح العِلَّة من الأغيار ، ويشفى الغُلَّة من الاخيار ، ولكن ما تُغْنِي الدلائل — وإنْ وَضُحَتْ — عمن حُقَّتْ لهم الشقاوة وسبقت ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ .

أفردناكَ بخصائص لم نُظْهِرْها على غيرك ؛ فالجمهور والكافة تحت لوائك ، والمقبول من وافقَكَ ، والمردود من خالفَكَ ، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال ، ولا عنك لأحدٍ (. . .)[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلَّتهم قُلْ إنَّ هُدَى الله هو الهُدَى ولئن اتَّبَعْتَ أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالَكَ مِنَ الله مِن وَلىٍّ ولا نصير ﴾ .

لا تبالِ برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا ، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم ، ودون ذلك لهم حظ القتال فأعْلِنِ[5] التبرى منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وانصب العداوة

---

(١) العبارة التى فى (ص) مضطربة فى الخط والمعنى ، وقد صححناها طبقاً لما نعرف من آراء القشيرى الكلامية : إن الله خالق العباد وأفعال العباد (فالله خالق كل شىء ، أما الانسان فليس له أن يوصف بذلك لأن كل من لحقه وصف التكوين لا يصح منه الايجاد) .

(٢) وردت (تصاع) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت أسمعهم (خاطبهم) والأرجح أنها فى الأصل أسمعهم (خطابه) .

(٤) مشتبهة .

(٥) وردت (ما علف) وهى خطأ فى النسخ ، وقد جعلناها (فأعلن) لتلائم (وأظهر) بعدها .

لهم ، واعلم أن مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة ، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالك[1] ، وادعُ — إلى البراءةِ عنهم وعن طريقتهم — أُمَّتَكَ ، وكُن بنا لَنَا ، مُتَبَرِّياً عمن سوانا ، واثقاً بنصرتنا ، فإنَّكَ بِنَا وَلَنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وَكَلَّلْنَا أسماع قلوبهم بسماع خطابنا ، وخصصناهم بإسبال نور العناية عليهم ، وأيَّدناهم بتحقيق التعريف فى أسرارهم ، يقومون بحق التلاوة ، ويتصفون بخصائص الإيمان والمعرفة فهم أهل التخصيص ، ومَنْ سِواهم أصحابُ الرد .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنِّى فضلتكم على العالمين ﴾

جرت سُنَّتُه — سبحانه — فى الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء العلامة فيقول : يا بنى إسرائيل اذكروا ، أى يا بنى يعقوب ، ومع هذه الأمة[2] أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول : « يأيها الذين آمنوا »

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجزى نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ منها عَدْلٌ ، ولا تنفعها شفاعة ولاهُمْ يُنْصَرُون ﴾

أمَّا الأعداء فلا يَقْبَلُ منهم شيئا ، وأما الأولياء فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة » ، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمةٍ مع نبيِّها ، وأمَّا المؤمنون — فعلى التخصيص — تنفعهم شفاعة نبيِّهم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) جاءت الجملة فى ص هكذا (فاحرس عن أخطار ذلك ببالك) وصححنا لأنفسنا بشىء من التصرف يليح فهم المعنى ، وربما كان أقرب إلى الأصل .

(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسى نفسى ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى أمتى[1] .

قوله جل ذكره : ﴿وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمَّهُنَّ﴾

البلاء تحقيق الولاء ، فأصدقهم ولاء أشدُّهم بلاء .

ولقد ابتلى الحق — سبحانه — خليلَه عليه السلام بما فرض عليه وشرع له ، فقام بشرط وجوبها ، ووَفَّى بحكم مقتضاها ، فأثنى عليه سبحانه بقوله : « وإبراهيم الذى وفَّى » — من التوفية — أى لم يُقَصِّر بوجهٍ ألبتة .

يقال حمَّله أعباء النبوة ، وطالبه بأحكام الخُلَّة ، وأشد بلاء له كان قيامه بشرائط الخلة ، والانفراد له بالتجافى عن كل واحد وكل شىء ، فقام بتصحيح ذلك مختليًا عن جميع ما سواه ، سِرًّا وعَلَنًا .[2]

كذلك لم يلاحظ جبريلَ عليه السلام حين تعرض له وهو يُقْذف فى لجَّة الهلاك ، فقال : هل من حاجة ؟ فقال : أمَّا إليكَ . . . . فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام فى تلك الحالة ، وأى بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساغ كائنًا من كان ؟ !

---

(١) أخطأ الناسخ حين نقلها « كل عهد يقول . . والصواب » كل أحد ... وقد سمع القشيرى هذه العبارة من أستاذه الدقاق — كما يقول فى رسالته فى باب الفتوة .

(٢) هذا هو رأى القشيرى فى « الخُلَّة » ، ونرى لزاماً علينا أن ننبه إلى بعض الآراء الأخرى فيها . فالمعتزلة — الذين يبتعدون عن كل ما يحمل على التشبيه — يبذلون جهدهم فى الاستعانة باللغة للحصول على تأويلات للنص القرآنى تخدم هذه الغاية ، فلما لم يرضهم حَمْل لفظة الخليل على ظاهرها فى الآية « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (النساء : ١٢٥) استشهدوا ببيت من الشعر القديم لزهير وهو :

وإن اتاه خليـل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

(ديوان زهير نشر دار الكتب ص ١٥٣) وفيه خليل بمعنى محتاج ، وقد أورد القشيرى هذا الرأى ضمن تفسيره للآية ١٢٤ النساء ، أى أنه لا يعارض أن تحتمل اللفظة هذا المعنى .

ويفسر دكتور عبد الرحمن بدوى قول أبى طالب المكى (إن رابعة قد ارتفعت إلى وصف معنى الخلة) بما يلى : (على أن مقام الخلة هذا يمكن أن يُفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير والشر ، ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا . أما — رابعة ورباح — فقد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت » .

شهيدة العشق الالهى ص ٦٣ ، ٦٤

وفى هذا إشارة دقيقة إلى الفَرْقِ بين حال نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وحال إبراهيم عليه السلام ، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه :

فقال : أمَّا إليكَ . . فلاَ . ولم يُطِقْ جبريل صحبة النبى صلى الله عليه وسلم فنطق بلسان العجز وقال :

لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ[1] .

وشتّان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قوّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه ، وبين حالةٍ يعترف للحبيب — صلوات الله عليه — فيها بعجزه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً ، قال ومِن ذريتى قال : لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمْنا ﴾

الإمام مَنْ يُقْتَدَى به ، وقد حقّق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاقتداء به فقال : « ملة أبيكم إبراهيم » أى اتبعوا ملة إبراهيم يعنى التوحيد ، وقال : « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى » .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يَفْهَمَ عن الحق ثم يُفْهِمَ الخلْق ؛ فيكون واسطة بين الحق والخلْق ، يكون بظاهره مع الخلْق لا يفتر عن تبليغ الرسالة ، وبباطنه مشاهداً للحق ، لا يتغير له صفاء الحالة ، ويقول للخلْق ما يقوله له الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن ذريتى ﴾

نطق بمقتضى الشفقة عليهم ، فطلب لهم ما أُكرِم به . فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نَسَبٍ ، أو باستيجاب سبب ، وإنما هى أقسام مضت بها أحكام فقال له : « لا ينال عهدى

---

(١) يشير بهذا إلى ما حدث ليلة الاسراء والمعراج فى الملأ الأعلى (انظر كتاب المعراج) للقشيرى نشره دكتور على عبد القادر . ط . (الكتب الحديثة) سنة ١٩٦٤ .

الظالمين » وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها ، فهى لا ادِّخار لها عن أحد وإن كان كافراً ، ولذلك :

قال جلّ ذكره : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾

فقال الله تعالى : ﴿ ومن كفر فأُمَتِّعُهُ قليلا ﴾

يعنى ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار ، ولكن عهدى لايناله إلا مَن اخترته مِنْ خواص عبادى .

أمَّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد .

أمَّا الإسلام والمحاب فغير مبذول لكل أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمْنا ﴾

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت — يعنى الكعبة — مثابة للناس إليه يثوبون ، ومأمنا لهم إليه يرجعون ، وإياه من كل نحوٍ يقصدون .

هو بيت خلقتُه من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل ؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخِلْقة انفصل ، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل[1] ، وكلُّ من التجأ إلى ذلك البيت أَمِنَ من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام ، والتوبة عن الآثام .

ويقال بُنِيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد .

بيتٌ من وقع عليه ظِلُّه أناخ بعَقْوَةِ[2] الأمن .

---

(١) قارن رأى القشيرى الصوفى الحريص بآراء بعض الصوفية الذين أوتوا حظاً من الجرأة فى التعبير عن هذا الموضوع ، من ذلك مثلا قول رابعة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة أما الكعبة فماذا أفعل بها ... ولم تشأ أن تنظر إليها (تذكرة الأولياء . العطار ج ١ ص ٦١) .

وقول الحلاج : « إن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو عقلياً فى نفوسنا صورة الكعبة ، كما نجد من آقامها » شخصيات قلقة فى الاسلام . د . بدوى ص ٦٨ .

(٢) العَقْوَة = الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولها (الوسيط ص ٦٢٤) .

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرْفُه بُشِّرَ بتحقيق الغفران .

بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَه طافت اللطائف بقلبه ، فطَوْفَةٌ بطوفة ، وشَوْطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

بيتٌ ما خَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول[1] إليه مَالَه .

بيت ما ربح مَنْ ضَنَّ عليه بشيء ؛ مَنْ زاره نَسِيَ مزارَه ، وهجر دياره .

بيت لا تُسْتَبْعَدُ إليه المسافة ، بيت لا تُتْرَك زيارته لحصول مخافة ، أو هجوم آفة ، بيت ليس له بمهجة الفقراء آفة .

بيت من قعد عن زيارته فَلِعدَمِ فُتُوَّتِه ، أو لقلة محبته .

بيتٌ من صَبِرَ عنه فقلبه أقسى من الحجارة . بيت من وقع عليه شعاعُ أنواره تَسَلَّى عن شموسه وأقماره .

بيت ليس العجَب ممن بقى (عنه)[2] كيف يصبر ، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع !

قوله جل ذكره : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى﴾ .

عَبْدٌ رفع لله سبحانه قَدَمًا فإلى القيامة جعل أثر قَدَمِهِ قِبْلَةً لجميع المسلمين إكرامًا لا مدى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرَا بيتى للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السجود . وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليومِ الآخِر قال ومن كفر فأُمَتِّعه

---

(١) وردت (الوصل) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) (عنه) تكملة جاءت فى هامش الصفحة ؛ وهى تكملة ضرورية .

قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار
وبئس المصير ﴾ .

الأمر فى الظاهر بتطهير البيت ، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب .

وتطهير البيت بِصَوْنه عن الأدناس والأوضار ، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة الأجناس والأغيار .

وطوافُ الحجاج حول البيت معلومٌ بلسان الشرع ، وطوافُ المعانى معلومٌ لأهل الحق ؛ فقلوب العارفين المعانى فيها طائفة ، وقلوب الموحِّدين الحقائق فيها عاكفة ، فهؤلاء أصحاب التلوين[1] وهؤلاء أرباب التمكين .

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة .

وقلوب الموحِّدين على بساط الوصل أبداً راكعة .

وقلوب الواجدين على بساط القرب أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة ، وسوامى قصود المريدين بمشهد الجود أبداً طائفة ، ووفود هِمَمِ العارفين بحضرة العزِّ أبداً عاكفة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا
بلدًا آمنا ﴾ .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحظٍّ العبد كان مستجابا ، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحظٍّ نفسه ، وإنما كان لِحقِّ ربِّه عزَّ وجلَّ .

ولمَّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم

---

(١) وردت (التكوين) وهى خطأ من الناسخ ، والصحيح أنها (التلوين) .
والتلوين والتمكين لفظان اصطلاحيان : (التلوين صفة ارباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق ، فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقى من حالٍ إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف وهو أبداً فى الزيادة أما صاحب التمكين فوصل ثم اتصل ، وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية عن كليته بطل . والتغير بما يرد على العبد إما لقوة الوارد او لضعف صاحبه ، والسكون إما لقوته أو لضعف الوارد عليه)
الرسالة ص ٤٤

وفى الذين لم يؤمنوا . ولمَّا قال فى حديث الإمامة : «ومن ذُرِّيتى» من غير إذن مُنِـعَ وقيل له : «لا ينال عهدى الظالمين» .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

نجْحُ السؤال فى صدق الابتهال ؛ فلما فزعا إلى الخضوع فى الدعاء أتاهما المدد ، وتحقيق السؤال .

« إنك أنت السميع » لأقوالنا « العليم » بأحوالنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أُمَّةً مُسْلِمةً لك ، وأرِنا مَنَاسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنتَ التواب الرحيم ﴾ .

« مسلمين » : منقادين لحكمك حتى لا يتحرك مِنَّا عِرْق بغير رضاك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا فى القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله ، وبين من يطلب نائبا بعده يقوم بطاعته فى أحواله .

« وأرنا مناسكنا » إذ لا سبيل إلى معرفة الموافقات إلا بطريق التوفيق والإعلام .

« وتب علينا » : بعد قيامنا بجميع ما أمَرْتَنَا حتى لا نلاحظ حركاتِنا وسكناتِنا ، ونرجع إليك عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشِّرْك الخفىِّ فى توهُّمِ شىءٍ مِنَّا بِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتِك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنَّك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

إن الواجبات لمّا كانت من قِبَلِ الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدىً ، وألا يخليهم عن رسولٍ وشرع . وطلب فى ذلك الموقف أن يكون الرسول « منهم » ليكونوا أسْكَنَ إليه وأسْهَلَ عليهم ، ويصحُّ أن يكون معناه أنه لما عَرَّفَهُ — سبحانه — حالَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذى به (أمره[1]) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يرغب عن مِلَّةِ إبراهيم إلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمِن الصالحين ﴾ .

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية ، فجعل الدينَ دينَه ، والتوحيدَ شِعارَه والمعرفةَ صِفته ؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحه ، والكفر مهواه ؛ إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال له ربُّه أَسْلِمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام ، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس ، قال : « أسلمت لرب العالمين » : قابلت الأمر بالسمع والطاعة ، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة . ولم يدخر شيئاً من ماله وبدنه وولده ، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح ، وحين قال له خلِّه من الأسر (عمل)[2] ما أُمِرَ به ، فلم يكن له فى الحالين « اختيار » ولا تدبير .

ويقال إن قوله : « أسلمتُ » : ليس بدعوى من قِبَلِهِ لأن حقيقة الإسلام إنما هو التَّبرى من الحوْل والقوة ، فإذا قال : « أسلمت » فكأنه قال أَقِمْنى فيما كلفتنى ، وحَقِّق منى ما بِهِ أمرتنى . فهو أحال الأمر عليه ، لا لإظهار معنى أو ضمان شىء من قِبَلِ نفسه .

ويقال أمَرَه بأن يستأثر بمطالبات القدرة ؛ فإن من حلَّ فى الخلَّة محلَّه يحل به — لا محالة — ما حَلَّ به .

---

(١) نرجح أنها فى الأصل (أخبره) حتى تتلاءم مع السياق وبذا يكون الناسخ مخطئاً فى نقلها .
(٢) فى ص (فَسَلِّمَ) ويمكن أن يحتملها المعنى ، ولكن ترجيح (عمل) أقوى فى الدلالة على الامتثال

ويُسأَلُ ها هنا سؤال فَيقال : كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه : « أسلمت » ولم يَقُلْ نَبيُّنا صلى الله عليه وسلّم حينما قيل له إعْلَم « علمت » ؟ .

والجواب عن ذلك من وجوه : منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أنا أعلمكم بالله[1] » ولكن لم يَرِد بعده شرع فكان يخبر عنه بأنه قال علمت .

ويقال: إن الله سبحانه أخبر عن الرسول عليه السلام بقوله : « آمن الرسول » لأن الإيمان هو العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقول الحق وإخباره عنه أتمُّ من إخباره ـ عليه السلام ـ عن نفسه .

والآخر أن إبراهيم لما أخبر بقوله : « أسلمت » اقترنت به البلوى ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — يتحرز عما هو صورة الدعوى فَحُفِظَ وكُفِيَ .

والآخر أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بما يجرى مجرى الأفعال ، فإن الاستسلامَ به إليه يشير . ونبينا صلى الله عليه وسلم أُمِر بالعلم ، (ولطائف العلم أقسام)[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَصَّى بها إبراهيمُ بنيه ، ويعقوبُ :
يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّينَ
فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

أخبر أن إبراهيم عليه السلام وصَّى بنيه ، وكذلك يعقوب عليه السلام قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام . فشرائعهم — وإن اختلفت فى الأفعال — فالأصل واحد ، ومشرب التوحيد لا ثانى — له فى التقسيم — وقوله تعالى : « إن الله اصطفى

---

(١) « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله » .
البخارى عن أنس « والله إنى لأخشاكم وأتقاكم له » .
والشيخان عن عائشة « والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » .

(٢) هنا وضع الناسخ علامة تدل على أنه أخطأ فى النقل ، ولهذا فإن العبارة التى وردت فى (ص) مضطربة وقد آثرنا أن نلتقط منها ما نرجح أنه ملائم للمعنى . فالمقصود أن إبراهيم عليه السلام عبَّر بقوله « أسلمت » وهذا فعل إنسانى بينما لم يقل الرسول (ص) « علمت » لأن العلم ليس كسباً للعبد وإنما هو قسمة له أى أنه من عين الجود لا من قبيل المجهود ، والله أعلم

لكم الدين » إشارة بما تقوى به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام ، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام .

قوله جل ذكره : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك ﴾ .

جروا كلهم — صلوات الله عليهم — على منهاج واحد فى التوحيد والإسلام ، وتوارثوا ذلك خَلَفاً عن سَلَف ، فهم أهل بيت الزلفة ، ومستحقو القربة ، والمُطَهَّرون من قِبَل الله — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ .

لم يقولوا إلٰهنا مراعاة لخصوصية قَدْره ، حيث سلموا له المزية ، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه ، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيَّعٌ له[1] بقولهم « ونحن له مسلمون » .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك أُمَّةٌ قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلون عما كانوا يعملون ﴾ .

أنزل الحقُّ — سبحانه — كُلاًّ بمحلِّه ، وأفرد لكل واحدٍ قَدْراً بموجِبِ حكمه ، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر ، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر ، وكلٌّ فى إقليمه ملِك ، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَك .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

---

(١) وردت (طبع لهم) ونرجح أن الناسخ قد أخطأ فى النقل لأن « ونحن له مسلمون » معناه (ونحن طُيَّعٌ له) وطُيَّع جمع طائع مثل رُكَّع وسُجَّد من راكع وساجد .

معناه إذا تجاذبتك الفِرَق ، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة ، فاحكم بتقابل دعاواهم ، وأزِد من توجهك إلينا ، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام فى اعتزال الجملة ، سواء كان أباه ، أو كان ممن لا يوافق مولاه ، ولذا قال « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » للحق بالحق .

قوله جل ذكره : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيُّون من ربِّهم ، لا نُفَرِّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

لمَّا آمن نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بجميع ما أُنْزِلَ من قَبْلِهِ أُكْرِمَ بجميع ما أَكْرَمَه من قبله ، فلمَّا أظهر موافقة الجميع أمَرَ الكُلَّ بالسكَوْنِ تحت لوائه فقال : « آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائى يوم القيامة »[1] .

ولمَّا آمنت أُمَّتُه بجميع ما أنزل الله على رسله[2] ، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا فى التكريم بالسَّهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ .

إن سلكوا طريقتكم ، وأخذوا بسبيلكم ، أُكرِموا بما أُكْرِمتم ، ووصلوا إلى ما وصلتم ، وإنْ أَبَوْا إلا امتيازاً أَبَيْنا إلا هوانهم . فإنَّ نَظَرَنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة ،

---

(١) « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، ومانبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » .
من أحاديث الشفاعة رواه الترمذى (٧٩ / ٦ منتخب كنز العمال) .
(٢) وردت رسوله ، والأولى أن تكون رسله لأن السياق يقتضى ذلك .

وإعراضنا عمن بَايَنَك وخالفك (. . .)[1] ، من خالفك فهو فى شق الأعداء ، ومن خَدَمَك فهو فى شق[2] الأولياء .

« فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » : كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة ، فمن نابذكم قصمته أيادى النصرة ، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة ، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام ، العليم باستحقاقكم (منا)[3] خصائص اللطف والإكرام .

قوله جل ذكره : ﴿ صِبْغَةَ الله ومَنْ أَحْسَنُ من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ .

معناه الزموا صبغةَ الله ، فهو نصب بإضمار فعل .

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد ، فما يتكلفه الخلْقُ فإلى الزوال مآله ، وما أثبت الحُق عليه الفطرةَ فبإثباته العبرة .

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة . صبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتُحاجوننا فى الله وهو رَبُّنَا وربُّكُم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلِصون ﴾[4] .

كيف تصحُّ محاجة الأجانب[5] وهم تحت غطاء الغيبة ، وفى ظلال الحجبة . والأولياء فى ضياء الكشف وظُهْر الشهود ؟

---

(١) هنا كلمة (بالواجب) ونظن أنها فى الأصل (بالفرقة) او ما فى معناها لتقابل (الوصلة) .
(٢) وردت (سك) والمعنى يرفضها تماما مما يدل على أنها خطأ من الناسخ وربما كانت (سلْك) .
(٣) وردت (من) وهى مقبولة ، ولكن الأجمل أن تكون (منا) حتى تنسجم الموسيقى الداخلية — وهذه خصيصة فى أسلوب القشيرى — مع (معنا) فى الجملة السابقة عليها ، فضلا عن أن فيها إعادة كل فضل إلى الله .
(٤) أخطأ الناسخ وكتبها (مصلحون) وصحة الآية (١٣٨) (. . مخلصون) .
(٥) وردت (الاجابة) وهى خطأ من الناسخ .

ومتى يستوى حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو فى حكم الاختصاص والإخلاص لانغراقه فى قُرْبَتِهِ ؟ هيهات لا سواء !

قوله جل ذكره : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قُلْ أأنتم أَعْلَمُ أم الله ، ومن أظلم ممن كَتَمَ شهادة عِنْدَه مِنَ الله وما الله بِغَافِلٍ عما تعملون ﴾ .

مَنْ نظر مِنْ نفسه إلى الخَلْقِ يتخيَّل كُلاً بِرَقِيه ، ويحسب الجميع بنعت مثله ؛ فلمَّا كانوا بحكم الأجنبيَّة حَكَمَ الأنبياء — عليهم السلام — بمثل حالتهم ، فردَّ الحقُّ — سبحانه — عليهم ظنَّهم و (. . .)[1] فيهم رأيهم . وهل يكون المجدوب عن شاهده كالمحجوب فى شاهده ؟ وهل يتساوى المختطف[2] عن كُلِّه بالمردود إلى مثله ؟

ذلك ظن الذين كفروا فتعساً[3] لهم !

قوله جل ذكره : ﴿ تلك أمة قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كسبتم ولا تُسْأَلون عما كانوا يعملون ﴾ .

حالت بينكم وبينهم حواجز من القِسمةِ ؛ فهم على الفُرقة والغفلة أسسوا بنيانهم ، وأنتم على الزلفة والوصلة ضربتم خيامكم . وعتيق فضلنا لا يشبه طريد قهرنا[4] ..

---

(١) مشتبهة فى (ص) .

(٢) وردت (المختلف) وهى خطأ من الناسخ ، فمن معرفتنا بأسلوب القشيرى نجزم أنها (المختطف) عن كله خذ مثلا قوله فى مستهل رسالته معبراً عن الفكرة ذاتها ... واختطفوا عنهم بالكلية) .

(٣) وردت (فتعاساً) والصحيح (فتعسا) .

(٤) أخطأ أحد قراء النسخة (ص) حينما فَهِمَ (عتيق) هنا على معنى قديم والمقصود هنا — حسب السياق العام — أنها بمعنى حر ، فمعنى العبارة : إن من يتحرر فى اكناف فضل الله ليس كمن يشرد فى متاهات قهره .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ماولاّهم عن قِبْلتِهم التى كانوا عليها﴾ .

سقمت بصائر الكفار فلم يَلُحْ لهم وجهُ الصواب فى جميع أحوال المؤمنين ، فطالعوها بعين الاستقباح ، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض[1] فى كل ما كان ويكون منهم ، فلم يروا شيئاً جديداً إلا أتَوْا عليه باعتراض جديد .

فمن ذلك تغير أمر القِبلة حينما حُوِّلَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذى ولاّهم[2] عنها ؟ فقال جل ذكره :

﴿قُل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

يتعبَّد العباد إلى أى قطرٍ و (. . .) ونحوٍ شاءوا ، وكذلك أصحابُ الغيبة والحُجبة — عن شهود تصريف الحق لأوليائه — يطلبون وجوهاً من الأمر ، يحملون عليها أحوالهم ، ولو طالعوا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألمِ تَوَزُّع الفِكْر ، وشُغْل تَرَجُّم الخاطر ، ومطالبات تَقَسُّم الظنون ، ولكنَّ الله يهدى لنوره من شاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

الوسط الخيار ، فجعل هذه الأمة خيار الأمم ، وجعل هذه الطائفة[3] خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار . فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم فى القيامة فهذه الطائفة هم الأصول ، وعليهم المدار ، وهم القطب ، وبهم يحفظ الله جميع الأمة ، وكلُّ من قَبِلَتْهُ قلوبهم فهو المقبول ، ومن رَدَّتْه[4] قلوبهم فهو المردود . فالحكم الصادق لفراستهم ، والصحيح حكمهم ، والصائب نظرهم

---

(١) وردت (بالأعراض) وربما يقبلها المعنى ، ولكن النطق (بالاعتراض) أكثر ملاءمة ، خصوصا وقد جاءت (الاعتراض) بعد قليل .

(٢) وردت (وليهم) وهى خطأ فى الكتابة .

(٣) يقصد أهل الحقائق .

(٤) فى النسخة (روية) ومصححة فى الهامش (ردّته) وهى الصحيحة .

عصم جميع الأمة (عن)[1] الاجتماع على الخطأ ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ فى النظر والحكم ، والقبول والرد ، ثم إن بناء أمرهم مُسْتَنِدٌ إلى سُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول[2] عليه السلام فهو عليه ردٌّ[3] ، وصاحبه على لا شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا القِبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول مِمَّنْ ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هَدَى اللهُ ، وما كان الله ليُضيعَ إيمانَكم إن الله بالناسِ لَرَءوفٌ رحيم ﴾ .

بيَّن أن الحكم فى تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل ، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق ليتميز الصادق من المارق[4] ، ومَنْ نَظر إلى الأمر بعين التفرقة لكَبُر عليه أمر التحويل ، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب . ثم قال : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أى من كان مع الله فى جميع الأحوال على قلبٍ واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة ، فسواء غيَّر أو قرَّر ، وأثبت أو بدَّل ، وحقَّق أو حوَّلَ فَهُمْ بِهِ لَهُ فى جميع الأحوال ، قال قائلهم :

كيفما دارت الزجاجة دُرْنا ... يحسب الجاهلون أنَّا جُنَنَّا

فإنْ قابلوا شرقاً أو واجهوا غَرْباً ، وإنْ استقبلوا حجراً أو قاربوا مدراً ، فمقصودُ قلوبهم واحدٌ ، وما كان للواحد فحُكْمُ الجميع فيه واحد .

قوله جل ذكره : ﴿ قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قِبْلةً ترضاها ، فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ .

---

(١) وردت (على) والصحيح عصم (عن) وقد استعملت (عن) فى الجملة التالية فى المعنى نفسه .
(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (بالوصل) .
(٣) جاءت (فهو عليهم رد) والصواب أن تكون (فهو عليه رد) .
(٤) وردت (المارن) وقد جعلناها (المارق) لملاءمتها للمعنى . ونرجح أنها كذلك فى الأصل .

حَفِظَ — صلوات الله عليه — الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه ، فَلَاحَظَ السماء لأنها طريق جبريل عليه السلام ، فأنزل الله عزّ وجل : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » أى علمنا سؤلك عمّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدعاء ، فلقد غيّرنا القِبْلَةَ لأجلك ، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب .

كلُّ العبيد يجتهدون فى طلب رضائى وأنا أطلب رضاك : فلنولينك قِبْلَةً ترضاها » . « فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام » : ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار ، وأفرِد قلبك لى ، ولتكنِ القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك ، والحقُّ مشهودَ قلبك ، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره ، ولكن أَخْلِصوا قلوبَكم لى وأفرِدوا شهودكم بى .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنَّ الذين أوتوا الكتاب لَيَعْلَمُونَ أنه الحقُّ من ربهم وما الله بغافلٍ عما يعملون﴾ .

ولكنه عِلْمٌ لا يكون عليهم حجة ، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة ، « وما الله بغافل عما يعملون » تهويلا على الأعداء ، وتأميلاً على الأولياء .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أتَيْتَ الذين أوتوا الكتاب بكلِّ آية ما تَبِعُوا قِبلَتك وما أنت بتابعٍ قِبْلَتَهُم وما بعضهم بتابع قِبلَة بعض . ولئن اتبعتَ أهواءهم مِنْ بعد ما جاءك مِنَ العِلْم إنَّكَ إذاً لَمِنَ الظالمين﴾ [1] .

سبق لكم من قديم الحكم (. . .)[2] انفرادٌ بطريق الحق ، ووقوع أعدائكم فى شق

---

(١) وقع الناسخ فى الخطأ حين وضع مكان (إنك إذاً لمن الظالمين) مالك من الله من ولى ولا نصير ، فأصلحناه .

(٢) هنا كلمة (القرب) ثم استبعدها الناسخ لزيادتها .

البُعْد ، فبينكما برزخٌ لا يبغيان ، فما بِتابعِ قبلتكم وإنْ أريتهم من الآثار ما هو أظهر من الشموس والأقمار ، ولا أنت — بتابعٍ قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال ، حُكْماً من الله — سبحانه — بذلك فى سابق الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبْنَاءَهُمْ وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾.

حَمَلَتْهم مُسْتَكِنَّاتُ الحَسَدِ على مكابرة ما علموه بالاضطرار ، فكذلك المغلوب فى ظلمات نفسه ، ألقى[1] جلباب الحياء فلم ينْجع فيه مَلَام ، ولم يَرْدَعْه عن انهماكه كلام .

قوله جل ذكره : ﴿ الحقُّ مِن رَبك فلا تكونَنَّ مِن المُمْتَرِين ﴾ .

أى بعدما طلعت لك شموس اليقين فلا تَذْعَنْ[2] إلى مجوزات التخمين[3] . والخطاب له والمراد به الأمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلٍ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

الإشارة منه : أنَّ كل قومٍ اشتغلوا عنَّا بشىء حَالَ بينهم وبيننا ، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبنا ، وأنشد بعضهم :

إذا الأشغالُ أَلْهَوْنى عنك بشُغْلِهم جعلتك أشغالى فأنْسَيْتَنى شُغْلى

---

(١) وردت (تلقى) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فلا ترعن) . والصواب أن تكون (فلا تذعَن) بالذال .

(٣) يغمز القشيرى هنا بما بين علوم أرباب الأحوال وبين العلوم العقلية ، لأننا نعرف من مذهبه أنه مع احترامه للعقل فى البداية إلا أنه يحتمل للإصابة بالتجويز والتخمين وغيرهما من الآفات التى لا تجعله جديرا — وحده — بالوصول إلى المعارف العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ حيثُ خَرَجْتَ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ .

كما تستقبلون أينما كنتم القِبْلَةَ — قَرُبْتُم منها أم بَعُدْتُم — فكذلك أَقْبِلُوا علينا بقلوبكم كيفما كنتم ؛ حَظِيتم منا أو مُنِيتُم .

قوله جل ذكره : ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ .

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ ، ولا يقع لمخلوق عليك ظِلٌّ ، ولا تصل إليك بالسوء يَدٌ ، فحيثما كنتَ وأينما كنتَ وكيفما كنتَ كُنْ لَنَا وكُن مِنّا ، فإنَّ من انقطع إلينا لا يتطرق إليه حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تخشوهم واخشونى ﴾ .

إذا كانوا محوا عن كونهم رسوماً تجرى عليهم أحكامنا — فأنّى بالخشية منهم ! ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولأُتِمَّ نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ .

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف ، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده ، وفى معناه أنشدوا :

نحن فى أكملِ السرورِ ولكنْ ليس إلا بكم يَتمُّ السرور
عيبُ ما نحن فيه — يا أهلَ وُدِّى — أنكم غُيَّبٌ ونحن الحُضُور

قوله جل ذكره : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو[1] عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ .

---

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (يتلون) .

إرسال الرسول مفاتحة لأبواب الوصول ، فكان فى سابق علمه — سبحانه — أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقائه . ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل ؛ فأقوام ألزمهم — بإرسال الرسل إليهم — الكُلَف ، وآخرون أكرمهم — بإرسال الرسل إليهم — بفنون القُرَب والزُلَف ، وشتّان بين قوم وقوم !

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾ .

الذكر استغراق الذاكر فى شهود المذكور ، ثم استهلاكه فى وجود المذكور ، حتى لا يبقى منك أثر يذكر ، فيقال قد كان مرةً فلان .

« فاذكرونى أذكركم » أى كونوا مستهلكين فى وجودنا ، نذكركم بعد فنائكم عنكم ، قال الله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائماً[1] :

اناس حديث حسن فكن حديثا حسنا لمن وعى[2]

وطريقة أهل العبارة[3] (فاذكرونى) بالموافقات (أذكركم) بالكرامات ، وطريقة أهل الإشارة (فاذكرونى) بِتَرْكِ كل حظ (أذكركم) بأن أقيمكم بحق بعد فنائكم عنكم .

(فاذكرونى) مكتفين بى[4] عن عطائى وأفضالى (أذكركم) راضياً بكم دون أفعالكم .

(فاذكرونى) بذكرى لكم ما تذكرون ، ولولا سابِقُ ذكرى لما كان لاحِقُ ذكركم .

(فاذكرونى) بقطع العلائق (أذكركم) بنعوت الحقائق .

ويقال اذكرنى لكل مَنْ لَقِيتَه أذكرك لمن خاطَبْتُه ، فمن ذكرنى فى مَلأٍ ذكرته فى ملأٍ خيرٍ منهم .

---

(١) يقول يحيى بن معاذ : العارف كائن بائن . ومرة قال : للعارف كان فبان (الرسالة ص ١٥٧) .

(٢) البيت منقول كما جاء فى ص ، لم نحاول أن نبدل فى كتابته وهو مضطرب وزنا ومعنى .

(٣) وردت (العبادة) والأصوب أن يكون احتمال ورودها فى الأصل (العبارة) لتعبّر عن درجة أدنى من درجة أهل (الإشارة) .

(٤) وردت (مكتفيا لى) والأقرب الى المعنى أن نجعلها فى صورة الجمع وأن يكون حرف الباء أولى من اللام حيث يقال اكتفيتُ بالله عن عطاء الله .

ويقال (واشكرونى) على عظيم المِنَّةِ عليكم بأن قُلْتُ : (فاذكرونى أذكركم) .

ويقال الشكر من قبيل الذكر ، وقوله (ولا تكفرون) النهى عن الكفران أمرٌ بالشكر ، الشكر ذكر ، فكرر عليك الأمر بالذكر ، والثلاث أول حدٌّ الكثرة ، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة لأنَّ فى الخبر : « من أحب شيئاً أكثر ذكره » فهذا — فى الحقيقة — أمرٌ بالمحبة أى أحْبِبْنِي أحبك ؛ « فاذكرونى أذكركم » أى أحبونى أحببكم .

ويقال : (فاذكرونى) بالتذلل (أذكركم) بالتفضُّل .

(فاذكرونى) بالانكسار (أذكركم) بالمبار .

(فاذكرونى) باللسان (أذكركم) بالجِنان .

(فاذكرونى) بقلوبكم (أذكركم) بتحقيق مطلوبكم .

(فاذكرونى) على الباب من حيث الخدمة (أذكركم) بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة .

(فاذكرونى) بتصفية السِّر (أذكركم) بتوفية البِّر .

(فاذكرونى) بالجهد والعناء (أذكركم) بالجود والعطاء .

(فاذكرونى) بوصف السلامة (أذكركم) يومَ القيامة يومَ لا تنفع الندامة .

(فاذكرونى) بالرهبة (أذكركم) بتحقيق الرغبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ .

استعينوا بالصبر على الصلاة أى بصبركم — عند جريان أحكام الحق عليكم — استحقاقكم صلاة ربكم عليكم ، ولذا فإنه تعالى بعد « وبَشِّر الصابرين » يقول : « أولئك عليهم صلوات من ربهم » .

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر ، وعلو القدر حيث نالوا مَعِيَّة الله قال تعالى : « إن الله مع الصابرين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولوا لِمَن يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء، ولكن لا تشعرون ﴾.

فاتتهم الحياة فى الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية فى العُقْبَى، فهم فى الحقيقة أحياء، يجدون من الله فنون الكرامات .

ويقال هم أحياء لأن الخَلَفَ عنهم اللهُ ومَنْ كان الخلفُ عنه الله لا يكون ميتاً ، قال قائلهم فى مخلوق :

إن يكن عنّا مضى بسبيله فما مات من يبقى له مثل خالد

ويقال هم أحياء بذكر الله لهم ، والذى هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى ليس بميت .

ويقال إنَّ أشباحهم وإنْ كانت متفرقة ، فإنَّ أرواحهم — بالحق سبحانه — متحققة . ولئن فَنِيَتْ بالله أشباحُهم فلقد بَقِيَتْ بالله أرواحُهم لأنَّ من كان فناؤه بالله كان بقاؤه بالله .

ويقال هم أحيـاء بشواهد التعظيم ، عليهم رداء الهيبة وهُمْ فى ظلال الأُنْس ، يبسطهم جَمَالُه مرةً ، ويستغرقهم جلاله أخرى[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولنَبْلُوَنَّكُم بشىء من الخوفِ والجوعِ ونقص من الأموالِ والأنفُس والثمراتِ وبَشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

ابتلاهم بالنعمة لِيُظْهِرَ شكرهم ، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم ، فلما أدخل المعلوم من حالهم فى الوجود ، ورسمهم بالرقم الذى قَسَمَهُ ، وأثبتهم على الوصف الذى علمه ، (ابتلاهم)

---

(١) شبيه بذلك ما يقوله القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » حينما شرح « المحيي المميت » و « الجليل الجميل » : « من كاشفه بجلاله أفناه ، ومن كاشفه بجماله أحياه ، فكشف الجلال يوجب محواً وغيبة ، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة » .

بالخوف وفيه تصفية لصدورهم ، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم ، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم ، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم ، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم .

« وبشّر الصابرين » يعنى الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه .

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوع ابتغاء قربته وكرامته ، ونقصٍ من الأموال بتصدّقِ الأموال والخروج عنها طلبًا للخير منه بحصول معرفته .

« والأنفسِ » تسليما لها إلى عبادته . « والثمرات » القول بترك ما يأملونه من الزوائد فى نعمته « وبشّر الصابرين » على استحسان قضيته ، والانقياد لجريان قدرته .

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب ؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة[1] ، ومن بذل لحكمه النَّفْسَ فله الدرجات ، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقُرُبات ، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات .

قوله جل ذكره : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ ... الآية .

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشكر لا بل بالفرح والفخر .

ومن طالع الأشياء مِلْكاً للحق رأى نفسه أجنبيا بينه وبين حكمه ؛ فمُنشِىء الخلقِ أولى بالخَلْق من الخَلْق .

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله ، ومن شاهد المُبْلِى عَلِمَ أن ما يكون من الله فهو عبد بالله ، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله ؛ الذى كان لله فصابرٌ واقفٌ ، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحكم ، إنْ أثبته ثَبَتَ ، وإنْ محاه انمحى ، وإنْ حرّكه تحرك ، وإن سَكَّنَه سَكَن ، فهو عن اختياراته فانٍ ، وفى القبضة مُصرَّفٌ .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .

---

(١) ربما كانت فى الأصل (الجنات) .

بصلواته[1] عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير ، لابصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته ، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية ، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة[2].

قال تعالى : « وَأُولئكَ هم المهتدون » لما رحمهم فى البداية اهتدوا فى النهاية .

قوله جل ذكره : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ .

تلك المشاهد والرسوم ، وتلك الأطلال والرقوم ، تُعظَّمُ[3] وتُزَار ، وتُشَدُّ إليها الرحال[4] لأنها أطلال الأحباب ، وهنالك تلوح الآثار :

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها وليس فى الدارِ همٌّ ولا طَرَبُ[5]

وإن لتُرابِ طريقهم بل لغبار آثارهم — عند حاجة الأحباب — أقداراً عظيمة ، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم)[6] لأعزُّ من المِسْك الأذفر :

وما ذاك إلا أن مشت عليه أميمةٌ فى تربها وجرَّت به بُردا

قوله جل ذكره : ﴿فمن حَجَّ البيتَ أوِ اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يطوفَ بهما ومَنْ تطوع خيراً فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم﴾ .

حَظىَ الصفا والمروة بجوار البيت فَشُرِعَ السعى بينهما كما شرع للبيت الطواف ، فكما أن الطواف ركن فى النُّسك فالسعى أيضاً ركن ، والجارُ يُكْرَمُ لأجل الجار .

---

(١) وردت (بصلواتهم) وهى خطأ من الناسخ لأن السياق يؤدى إلى (صلاته) سبحانه عليهم فى سابق الأزل ، كذلك تشير الآية الكريمة إلى صلاته لا إلى صلواتهم .

(٢) لاحظ هنا معارضة القشيرى لفكرة وجوب إثابة المطيع على الله . فالله فى رأى القشيرى تنزه عن أن يجب عليه شىء ، لأن طاعة المطيع أولا فضل من الله ، وليست بفضل العبد .

(٣) وردت (تعظيم) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت (الرجال) وهى خطا فى النسخ .

(٥) إما أن تكون (همٌّ) صحيحة ، أى لا حزن ولا فرح ، واما أنها فى الأصل (همسُ) لتناسب الطرب ، وليتناسبا مع خلو الدار من أقل أثر للحياة .

(٦) هكذا وردت فى (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهُدى مِنْ بعدما بيَّناه للنَّاسِ فى الكتاب أولئك يلعنهم اللهُ ويلعنهم اللاعنون ﴾.

الإشارة فى هذه الآية لمن كاشفه الحقُّ سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضنَّ[1] بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب المقت فى الوقت ، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قصَّر فيه لما أخَّر من تعليم المستحِق .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنُوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ .

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرُّجْعَى ، والقيام للمريدين على وجه النصيحة ، وبيَّنوا لهم — بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون — حسنَ قيامهم بمعاملاتهم . فإنَّ أظهرَ الحجَج لبيانِ أفعالك وأصدقَ الشهادةِ لتصحيحِ ما تدعو به الخلْق إلى الله — ألا يُخالِفَ بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك ، قال الله تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولاهم يُنظرون ﴾

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإرادة (أنْ) يرجعوا إلى أحوال العادة ، ثم فى تلك الوحشة قُبضوا ، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا ، أولئك أصحاب الفُرقة ،

---

(١) وردت (ضمن) وهى خطأ من الناسخ وقد استندنا فى الوصول الى أنها (ضنَّ) من كلمة (بخل) التى سجلها الناسخ تحتها . والسياق يؤيدها .

فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران ، ولا لأحد عليهم ترحم ، خسروا فى الدنيا والآخرة ، يلعنهم البقُّ فى الهواء والنقعُ على الماء .

« خالدين » أى مقيمين أبداً فى هوانهم وصغرهم ، لا تخفيف ولا إسعاف ، ولا رفق ولا ألطاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلهُكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

شَرَّفهم غايةَ التشريف بقوله وإلهكم . وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا : علامةُ من يَعُدُّه من خاصِّ الخواص أن يقول له : عبدى ، وذلك أتمُّ من هذا بكثير لأن قوله : « وإلهكم » : وإضافة نَعْتِه أتمُّ من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لَكَ بلا عِلَّة ، وكونُك له عبد يُعوِّض كل نقصك وآفتك . ومتى قال لكم « وإلهكم » ؟

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حِينَ ولا أوَانَ ، ولا رسم ولا حدثان .

و « الواحد » من لا مِثْلَ له يدانيه ، ولا شكل يلاقيه . لا قسيم يجانسه ولا نديم يؤانسه . لا شريكَ يعاضده ولا مُعِين يساعده ولا منازعَ يعانده .

أحدىُّ الحق صمدىُّ العين ديمومىُّ البقاء أبدىُّ العز أزلىُّ الذات .

واحدٌ فى عز سنائه فَردٌ فى جلال بهائه ، وِتْرٌ فى جبروت كبريائه ، قديم فى سلطان عِزِّه ، مجيد فى جمال ملكوته . وكل مَنْ أطنب فى وصفه أصبح منسوباً إلى العمى[1] (ف) لولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبدُ إذا تعرَّض لعرفانه عند أول ساطعٍ من باديات عزِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى خلقِ السمٰواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التى تجرى فى البحرِ بما ينفعُ الناسَ ، وما أنزَلَ اللهُ من السماء مِنْ ماءٍ

(١) وردت (الأعمى) فى ص ويمكن قبولها على أنها اسم جلس .

فأحيا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها
وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وتصريفِ
الرياحِ ، والسحابِ المُسَخَّرِ بين
السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ .

تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته ، وأمارات وجوده ، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله . ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهينَ تلطُف عن العبارة ، ووجوهٍ من الدلالات تَدِقُّ عن الإشارة ، فما من عينٍ من العدم محصولة — من شخصٍ أو طلل ، أو رسمٍ أو أثر ، أو سماء أو فضاء[1] ، أو هواء أو ماءٍ ، أو شمسٍ أو قمر ، أو قَطْرٍ أو مطر ، أو رمل أو حجرٍ ، أو نجم أو شجرٍ — إلا وهو على الوحدانية دليل ، ولِمَنْ يقصد وجوده سبيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناس مَن يتخذ من دون الله
أنداداً يحبونهم كَحُبِّ الله ﴾

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة ، فَشَغَلَهم بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم أن يحبوا كل ما هَوَتْه أنفسهم ، فرضوا بمعمولٍ لهم أن يعبدوه ، ومنحوت — من دونه — أن يحبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى
الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنَّ القوة
لله جميعاً وأنَّ الله شديد العذاب ﴾ .

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام ، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم ، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام ، ولكن من أحبَّ حبيباً استكثر ذكره ، بل استحسن كل شيء منه .

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس

---

(١) وردت (قضاء) في ص .

للجنس ، وقد يميل الجنس إلى الجنس ، وتلك محبةُ منْ ليس بجنسٍ لهم فذلك أعزُّ وأحق .

ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه ، وليس بعجيب محبة ما هو لك مشهود ، وأمَّا المؤمنون فإنهم أحبوا من حَالَ بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه .

ويقال الذين آمنوا أشد حباً لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإنْ عَذَّبَهُم . والكافر تبرأ من الصنم والصنمُ من الكافر كما قال تعالى :«إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا . . . الآية » .

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهى أتم ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » . ومحبتهم للأصنام من قضايا هواهم .

ويقال محبة المؤمنين أتمُّ وأشدُّ لأنها على موافقة الأمر ، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع ، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم ، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التى كانوا يعبدونها قبل ذلك فى حال فقرهم ؛ فكانوا يتخذون من الفضة — عند غِناهم — أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد . . . وعلى هذا القياس ! وأمَّا المؤمنون فأشَدُّ حباً لله لأنهم عبدوا إلهًا واحداً فى السّراء والضراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تَبَرَّأَ الذين اتُبِعُوا مِن الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ .

إذا بَدَتْ لهم أوائلُ العذاب اتضح أنهم لم يقفوا من الصدق على قَدَمٍ ، وأمّا المؤمنون فيسلبهم أرواحهم وأملاكهم وأزواجهم وأولادهم ، ويُسْكِنُ (أولئك)[1] فى القبور سنين ثم يبتليهم فى القيامة بطول الآجال[2] وسوء الأعمال ثم يلقيهم فى النار .

---

(١) أضفنا (أولئك) ليمتنع اللبس .

(٢) فى ص (طول الأحوال) ونرجح أنها فى الأصل (الآجال) لأن وصف الأحوال بالطول غير ملائم فضلا عن أننا نفترض أن القشيرى لا يستعمل الأحوال الا لأرباب الأحوال . وطول الآجال فى جهنم معناه تأبيد العذاب .

(أما المؤمنون)[1] فيأتى عليهم طول الأيام والأعمال فلا يزدادون إلا محبة (على محبة)[2] ولذلك قال: والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله.

قوله جل ذكره: ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كَرَّةً فنتبرأ منهم كما تبرأوا مِنَّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وماهم بخارجين مِنَ النار ﴾.

عند[3] ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات.

قوله جل ذكره: ﴿ يأيها الناس كُلُوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾.

الحرام — وإنْ اسْتُلِذَّ فى الحال — فهو وبىء فى المآل، والحلال — وإن اسْتُكْرِه فى الحال — فهو مرىء فى المآل.

والحلال الصافى ما لم ينسَ مُكْتَسِبُهُ الحقَّ فى حال اكتسابه[4].

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمكتسب على شهود الحق فى كل حال.

وكلُّ ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان.

قوله جل ذكره: ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾.

لاجترائه على الله يدعوك به إلى افترائك على الله.

---

(١) أضفناها ليستقيم السياق إذ يبدو أنها سقطت أثناء النسخ.
(٢) فى الهامش مستدركة وعليها علامة بموضعها.
(٣) وردت (من) والأصح (عند).
(٤) القشيرى هنا مستفيد من تعريف سهل بن عبد الله التُسْتَرى للحلال الصافى (الرسالة ص ٥٩).

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾

لا ترفع أبصارهم عن أشكالهم وأصنافهم ، من أضرابهم وأسلافهم ، فَبَنَوْا على منهاجهم ، فلا جَرَمَ انخرطوا فى النار ، وانسلكوا فى سلكهم ، ولو عَلِمُوا أن أسلافهم لا عقل يردعهم ، ولا رشد يجمعهم لنابذوهم مناصبين ، وعاندوهم مخالفين ، ولكن سلبوا أنوار البصيرة ، وحُرِموا دلائل اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ ومثل الذين كفروا كَمَثَل الذى ينعِقُ بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعقِلون ﴾ .

عدموا سمع الفهم والقبول ، فلم ينفعهم سمع الظاهر ، فنزلوا منزلة البهائم فى الخلوِّ عن التحصيل ، وَمَنْ رضى أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إنْ كنتم إياه تَعْبُدُون ﴾ .

الحلال ما لا تَبِعَةَ عليه ، والطيب الذى ليس لمخلوقٍ فيه مِنَّة ، وإذا وجد العبد (طعاما) يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب .

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس فى غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما حَرَّمَ عليكم المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله ، فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه إن الله غفورٌ رحيم ﴾ .

حرَّم على الظواهر هذه المعدودات وهى ما أهل به لغير الله ، وحرَّم على السرائر صحبة غير الله بل شهود غير الله ، فمن اضطر — أى لم يجد إلى الاستهلاك فى حقائق الحق وصولاً — فلا يَسْلُكَنَّ غير سبيل الشرع سبيلاً ، فإما أن يكون محواً فى الله ، أو يكون قائماً بالله ، أو عاملاً لله ، والرابع همجٌ لا خَطَرَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

العلماء مُطَالَبُون بنشر دلائل العلم ، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السِّر فإنْ كَتَمَ هؤلاء براهين العلوم أُلجِموا بلجام من النار ، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عُوجِلوا ببعاد الأسرار ، وسَلْبِ ما أوتوا[1] من الأنوار . ولكلٍ حدٌّ ، وعلى كل أمرٍ قطيعة .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهُدَى والعذابَ بالمغفرة فما أصبرهم على النار . ذلك بأنَّ الله نزَّل الكتاب بالحقِّ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شِقَاقٍ بعيد ﴾ .

إن الذين آثروا الغَيْرَ على الغيب ، والخلْقَ على الحقِّ ، والنَفْسَ على الأنْسِ ، ما أقسى قلوبهم ، وما أوقح محبوبهم ومطلوبهم ، وما أخس[2] قدرهم ، وما أفضح[3] لذوى الأبصار أمرهم ! ذلك بأن الله نَزَّل الكتاب بالحق ، وأمضى القضاء والحكم فيه بالصدق ، وأوصلهم إلى مَآلَهُ أهلَهُمْ ، وأثْبَتَهُم على الوجه الذى عليه جَبَلَهُمْ .

---

(١) وردت (أتوا) والصواب (أوتوا) لتناسب المعنى .
(٢) وردت (أخص) والصواب أخس لتناسب المعنى .
(٣) وردت ما (أفصح) ونرجح أنها فى الأصل ما (افضح) .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ علىٰ حُبِّهِ ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيلِ والسائلين وفى الرِّقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة[1] والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

والإشارة أن الظواهرَ ليس لها كثيرُ اعتبارٍ إنما الخبر عن الله عزيز .

وكثرة الأوراد — وإن جلَّت — فحرفة العجائز، وإخلاص الطاعات — وإن عزَّ — فصفة العوام ، وَوَصْلُ الليل بالنهار فى وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر فى استحقاق الثواب ، ولكنَّ معرفة الحق عزيزة .

وما ذُكِر فى هذه الآية من فنون الإحسان ، ووجوه قضايا الإيمان ، وإيتاء المال ، وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذِّمم والعِصَم ، والوفاء بالعهود ، ومراعاة الحدود — عظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعاً ، ومطلوبه أمراً لكنَّ قيام الحق عنك بعد فنائك ، وامتحائك مِنْ شاهِدِك ، واستهلاكك فى وجود القِدَم ، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك — أتمُّ وأعلى فى المعنى ؛ لأن التوحيد لا يُبقِي رسماً ولا أثراً ، ولا يغادر غَيْرًا ولا غَبَرًا[2]

---

(١) اخطأ الناسخ فكتبها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) .
(٢) الغبر = السوى أما (الغَبر) فمعروف .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم القِصَاصُ فى القتلى الحُرُّ بالحرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربِّكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ .

حق القِصاص مشروع ، والعفو خير ، فمن جنح إلى استيفاء حقه فَمُسَلَّمٌ له ، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسن ، فالأول صاحب عبادة بل عبودية ، والثانى صاحب فتوة بل حرية

والدم المراق يجرى فيه القِصاص على لسان أهل العلم ، وأمَّا على لسان الإشارة لأهل القصة[1] فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرة قال :

وإن فؤداً رعته لَكَ حامدٌ ... وإنَّ دماً أجريته بِكَ فاخِرُ

وسفك دماء الأحباب (فوق)[2] بِساط[3] القرب خلوف أهل الوصال ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللونُ لونُ الدم ... والريحُ ريح المِسْك »

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم فى القِصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ .

فى استيفاء القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ أمْسَكَ عن القتل وفى ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص — على بيان الإشارة — فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلِفَ فيه (سبحانه)

---

(١) أهل القصة م أرباب الأحوال .
(٢) وردت (فى) والأصوب فوق .
(٣) وردت (سباط) وقد رجحنا (بساط) القرب لورودها فى مواضع أخرى هكذا .

فهو الخَلَفُ عنه ، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه ، وإذا كان الوارثَ عنهم اللهُ والخَلَفَ عنهم اللهُ فبقاءُ الخلفِ[1] أعزُّ مِنْ حياةِ مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

مَنْ تَرَكَ مالاً فالوصية له فى مالِه مُسْتَحبةٌ ، ومَنْ لم يتركْ شيئاً فأنّى بالوصية ! ! فى حالة الأغنياء يوصون فى آخر أعمارهم بالثلث ، أمّا الأولياء فيخرجون فى حياتهم عن الكُلِّ ، فلا تبقى منهم إلا همةٌ انفصلت عنهم ولم تتصل بشىء ؛ لأن الحق لا سبيل للهمة إليه ، والهمة لا تَعَلُّقَ لها بمخلوق ، فبقيت وحيدة منفصلة غير متصلة ، وأنشدوا :

أحبكمُ ما دمتُ حياً فإنْ أمُتْ يحبكم عظمى فى التراب رميم .

هذه وصيتهم : وقال بعضهم :

(. . . . .)[2]

لا بل كما قال قائلهم :

وأتى الرسول فأخبر أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فجرى له دمعى صبيباً

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بعدما سمعَهُ فإنما إثمهُ على الذين يُبَدِّلونه إن الله سميعٌ عليم ﴾ .

من حرّف نُطقاً جرى بحقِّه لَحَقَه شؤمُ ذلك ووباله .

وعقوبته أن يُحرَم رائحة الصدق أن يشمه . فمن أعان الدينَ أعانه الله ، ومن أعان على الدين خذله الله .

---

(١) وردت (الخلق) والصواب (الخلف) .

(٢) هنا شاهد شعرى عجزنا تماماً عن قراءته أو إصلاحه ... وما أكثر خطأ الناسخ فى نقل شواهد الشعر ! !

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ خاف مِن مُّوصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

الإشارة فيه : أن من تَفَرَّسَ[1] فى بعض المريدين ضعفاً ، أو رأى فى بعض[2] أهل البداية رخاوةَ قصدٍ أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله — فرأى أن يرفق بذلك المريد بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطى مباح — فلا بأسَ به فإن حَمْلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثيرُ أجر . فالرِّفق بأهل البداية — إذا لم يكن لهم صارم عزم ، ولا صادق جهد — ركنٌ فى ابتغاء الصلاح عظيم.

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السِّرِّ عن الملاحظات .

ويقال صوم العابدين شرطه ـ حتى يَكْمُلَ ـ صونُ اللسان عن الغيبة ، وصون الطَّرْفِ عن النظر بالريبة كما فى الخبر : (مَنْ صام فَلْيَصُمْ سمعه وبصره . . .) . . . الخبر[3] ، وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره .

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » : الهاء فى قوله

---

(١) وردت بالصاد وهى خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فى أهل بعض البداية) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٣) (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك : معناه من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه) .
رواه البخارى وأصحاب السنن عن أبى هريرة .

عليه السلام — لرؤيته — عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه ، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأما الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطرهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله ، والذى[1] هم به محو — الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فَعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَرَ ﴾ .

من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ، والصوم بالله يوجب القربة . الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة . الصوم لله صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد . الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله قيام بالضمائر . الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة .

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك فى جميع أوقاته عن شهود المخلوقات .

من صام بنفسه سُقِىَ شرابَ السلسبيل والزنجبيل ، ومن صام بقلبه سُقِىَ شراب المحاب بنعمة الإيجاب .

ومن صام بِسِرِّهِ فهم الذين قال فيهم الله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .

شراب يا له من شراب !! شراب لا يُدار على الكف لكنه يبدو له من اللطف .

شراب استئناس لا شراب كاس .

قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » أى من أفطر لهذه الأعذار فعليه صوم عدة أيام بعدد ماأفطر قضاء لذلك . الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلة قوة واحتمال ، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة

---

(١) وردت (والذين) وهو خطأ من الناسخ .

فليُمْهَل حتى تقوى عزيمته وتشتد إرادته ، فعند ذلك يُسْتَدْرَك منه ما رُخِّص له بالأخذ بالتأويل ، وتلك سُنَّةُ الله سبحانه وتعالى فى التسهيل على أهل البداية ، ثم استيفاء ذلك منهم واجبٌ فى آخر الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية[1] طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

الإشارة منه أنَّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقى له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبقى مجرداً للواحد .

[فصل] ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضى المشقة خففه عليك ذلك بأن قلَّل أيام الصوم فى قلبك فقال : « أياماً معدودات » أى مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره ، وهذا كقوله تعالى : وجاهدوا فى الله حق جهاده . ثم قال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج أى لا يلحقكم كثير مشقة فى القيام بحق جهاده .

قوله جل ذكره : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعِدَّة من أيامٍ أخر ﴾ .

رمضان يُرْمِضُ ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم ، وشتان بين من تحرق ذنوبَه رحمتُه وبين من تحرِق رسومَه حقيقتُه .

---

(١) وقع الناسخ فى سهو حين أعاد ثلاثة أسطر مما سبق له أن كتبه ، ووقعت هذه الأسطر المعادة بين كلمتى (فدية ، وطعام) فى الآية الكريمة .

شهر رمضان شهر مفاتحة الخطاب ، شهر إنزال الكتاب ، شهر حصول الثواب ، شهر التقريب والإيجاب . شهر تخفيف الكلفة ، شهر تحقيق الزلفة . شهر نزول الرحمة ، شهر وفور النعمة . شهر النجاة ، شهر المناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العُسر ﴾ .

أراد بك اليسر (وأنت تظن) أنه أراد بك العسر .

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه (أقامه)[1] بطلب اليسر ؛ ولو لم يُرِدْ به اليسر لَمَا جعله راغباً فى اليسر ، قال قائلهم :

لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أرجو وأطلبُه من فيضِ جودِك ما علمتنى الطلبا

حقَّق الرجاء وأكَّد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال : « ولا يريد بكم العسر » لينفىَ عن حقيقة التخصيص مجوزاتِ الظنون .

قوله جل ذكره : ﴿ولتكملوا العِدَّة﴾ .

على لسان العلم تكملوا مدة الصوم .

وعلى لسان الإشارة لتقرنوا بصفاء الحال (وفاء)[2] (المآل)[3]

ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » فى النَّفَسِ الأخير ، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم . والتوفيق فى أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عمرك بالسعادة — أعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾

---

(١) جاءت (أقام) وقد جعلناها (أقامه) ليزداد وضوح المعنى .

(٢) جاءت (ووفاء) ونظن أن الواو الأولى زائدة من الناسخ .

(٣) جاءت (المال) وقد اعتاد الناسخ أن يكتب المال مثل المآل أى بدون علامة على المد ، وآثرنا هنا أن نضعها ، فالمقصود الإعداد لليوم الآخر بالطاعات والعبادات ، وغاية التمام أن نجمع بين الحقيقة والشريعة . هذا فضلا عن أن الإشارة للصوفية ، والصوفية قوم لا مال لهم .

سؤال كل أحدٍ يدلُّ على حاله ؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين[1] ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى » . وليس هؤلاء من جملة من قال : « ويسألونك عن الجبال » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن اليتامى » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن المحيض » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الروح » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الخمر والميسر » ، « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » .

هؤلاء قوم مخصوصون : « وإذا سألك[2] . . . . عبادى عنى » .

أى إذا سألك عبادى عنى فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وإنْ كنتَ السفير بيننا وبين الخلْق فهذا الجواب أنا أتولاه « فإنى قريب » (رَفَعَ الواسطة من الأغيار عن القربة فلم يَقُل قل لهم إنى قريب بل قال جل شأنه : فإنى قريب)[3] .

ثم بَيَّن أن تلك القربة ما هى : حيث تقدَّس الحقُّ سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال : « أجيب دعوة الداع » وإن الحق سبحانه قريب — من الجملة والكافة — بالعلم والقدرة والسماع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة ، وجلَّ وتقدَّس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة ؛ فإنه أحدىٌّ لا يتجه فى الأقطار ، وعزيز لا يتصف بالكُنْهِ والمقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرْشُدون ﴾ .

لم يَعِدْ إجابة من كان باستحقاق زهد أو فى زمان عبادة بل قال دعوة الداعى متى دعانى وكيفما دعانى وحيثما دعانى ثم قال : « فليستجيبوا لى » هذا تكليف ، وقوله : « أجيب دعوة

---

(١) تكررت كلمة (دنيا) مرتين فرجحنا أن تكون الأولى (دين) وتركنا الثانية (دنيا) لتتقابل مع (عقبى) .
(٢) وضع الناسخ علامة تشعر بوجود كلمات زائدة بين (سألك) ... (وعبادى) فحذفنا الزائدة .
(٣) ما بين القوسين تكملة من الهامش استدركها الناسخ فوضعناها فى موضعها .

الداع » تعريف وتخفيف ، قدَّم التخفيف على التكليف ، وكأنه قال : إذا دعوتنى ـ عبدى ـ أجبتُك ، فأجِبْنى أيضاً إذا دَعَوْتُك ، أنا لا أرضى بِرَدِّ دعائِك فلا تَرْضَ — عبدى — بردِّى من نفسك . إجابتى لك بالخير تحملك — عبدى — على دعائى ، ولا دعاؤك يحملنى على إجابتك . « فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى » : وليثقوا فى ، فإنى أجيب من دعانى ، قال قائلهم :

يا عزُّ أُقْسِم بالذى أنا عبده ... وله الحجيج وما حوت عرفات[1]
لا أبتغى بدلاً سِواكِ خليلة ... فثِقى بقولى والكرامُ ثِقات

ثم قال فى آخر الآية : « لعلهم يرشدون » أى ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم هُنَّ لِباس لكم وأنتم لِباسٌ لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفُسَكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشِروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود مِنَ الفَجر ثم أَتِمُّوا الصيام إلى الليل ﴾ .

أخبر أنه — فى الحقيقة — لا يعود إليه عائد من أوصاف الخَلْق ، إنْ كُنتَ فى العبادة التى هى حق الحق أو فى أحكام العادة من صحبة جِنْسِك التى هى غاية النفس والحظ ، فَسِيَّان فى حالك إذا أورد فيه الإذن .

---

(١) جاءت (عرفان) وهى خطأ فى النسخ .

نزلت الآية فى زَلَّةٍ بَدَرَتْ من الفاروق[1] ، فَجَعَلَ ذلك سببَ رُخْصَةٍ لجميع[2] المسلمين إلى القيامة . وهكذا أحكام العناية .

ويقال علم أنه لا بُدَّ للعبد عن الحظوظ فقسم الليل والنهار فى هذا الشهر بين حقه وحظِّك ، فقال أما حقى « فأتموا الصيام إلى الليل » ، وأما حظك « فكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُباشِروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يُبَيِّنُ الله آياته للناسِ لَعلَّهم يتقون ﴾ .

أخبر أن محل القدرة مقدَّس عن اجتلاب الحظوظ ، وقال إذا كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين بِكُم فيكم ، وإذا كنتم قائمين بِنا فلا تعودوا مِنَّا إليكم .

ويقال غيرة الحق سبحانه على الأوقات أن يُمزَجَ الجدُّ بالهزلِ ، قالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله إنى أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام : ذرينى يا ابنة أبى أبكر أتعبد ربى . وقال صلى الله عليه وسلم لى وقت لا يسعنى غير ربى[3]

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) أى عمر بن الخطاب . قال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : يارسول الله إنى أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجلُ أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتلّ فواقعتها فنزل فى عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ط الحلبى) .

(٢) وردت (جميع) .

(٣) للحديث صورة أخرى « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه شىء غير الله عز وجلّ » والمعنى صحيح ولكن سنده غير معروف .

إذا تحاكمتم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم ، وعِلْمه محيط بكم ، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه ، ولئن كان المخلوقون[1] عالمين بالظوهر فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ متولى السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿يسألونك عن الأَهِلَّة قل هى مواقيت للناس والحج﴾ .

الأهلة — جمعُ هلال — مواقيت للناس ؛ لأشغالهم ومحاسباتهم .

وهى مواقيت لأهل القصة فى تفاوت أحوالهم ؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم ، وأما أقوام مخصوصون فهى لهم مواقيت لحالاتهم ، قال قائلهم .

أعد الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قدما لا أعد اللياليا

وقال آخر :

ثمانٍ قد مضَيْنَ بِلا تلاقٍ وما فى الصبر فضلٌ عن ثمانٍ

وقال آخر :

شهورٌ يَنْقَضِين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرارِ[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنَّ البِرَّ من اتقى وأتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

يعنى ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة ، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتِلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين﴾ .

لتكن نفوسُكم عندكم ودائعَ الحق ؛ إنْ أمَرَ بإمساكها أمسِكُوها وصونوها ، وإنْ أمَرَ

---

(١) وردت (المخلوقين) وهى خطأ من الناسخ لأن اسم كان مرفوع بالواو .

(٢) سِرار النهر وسَراره (بالكسر والفتح) آخر ليلة فيه (الوسيط ص ٤٢٨) .

بتسليمها إلى القتل فلا تدّخروها عن أمره ، وهذا معنى قوله : « ولا تَعْتَدُوا » وهو أن تقف حيثما أُوقِفْتَ ، وتفعل ما به أُمِرْتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهم ﴾

يعنى عليكم بنصب العداوة مع أعدائى — كما أن عليكم إثبات الولاية والموالاة مع أوليائى — فلا تُشْفِقُوا[1] عليهم وإن كان بينكم واصد[2] الرحم ووشائج القرابة .

« وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » . أولاً أخرِجوا حبَّهم وموالاتهم من قلوبكم ، ثم (. . . .)[3] عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جارياً عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والفتنةُ أشدُّ من القتل ﴾

والإشارة : أنَّ المحنةَ التى تَرِدُ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التى تَرِدُ على النفوس مِنْ بذل الروح ، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النَّفْس ، إذ النفوس حياتها بمألوفاتها ، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله .

ويقال الفتنة أشد من القتل : أن[4] تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾

الإشارة منه : لا تشوش وقتك[5] مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك

---

(١) ووردت (فلا تشقوا) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٢) الواصد والآصد = العهد . مثل الورث والإرث والوحد والأحد وربما كانت أواصر .
(٣) مشتبهة فى ص وربما كانت : ثم (أخرجوهم) .
(٤) وردت (تنقى) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٥) قال الدقاق — شيخ القشيرى — فى تعريف الوقت : الوقت ما أنت فيه فإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .
ويعلّق القشيرى على رأى أستاذه قائلا : يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان . ويقولون الصوفى ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أَوْلى به فى الحال ، قائم بما هو مُطالَبٌ به فى الحين . وينبغى ألا يفرط العبد فيما يقتضيه حق الشرع .

وإنْ كانت نوافل من الطاعات ، فإن زاحمك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك[1] عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿فإنِ انْتَهَوْا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾

الإشارة منه : إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك ، مما يخرجك عنه ويزاحمك ، فَلُمْ حديثَ النفس ودَعْ مجاهداتها ؛ فإنَّ مَنْ طولب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات[3] .

قوله جل ذكره : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّينُ لله ، فإنِ انتهوْا فلا عُدْوَانَ إلا على الظالمين﴾ .

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس ؛ فإنَّ أعدى عدوِّك نَفْسُك التى بين جنبيك . أى استوفِ أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شىء ، وتُسلِم النَّفْسَ والقلبَ لله ، فلا يكون مُعارِض ولا مُنازِعٌ منك لا بالتوقى ولا بالتلقى ، لا بالتدبير ولا بالاختيار — بحالٍ من الأحوال ؛ تجرى عليك صروفه[3] كما يريد ، وتكون[4] محواً عن الاختيارات ، بخلاف ما يرد به الحكم ، فاذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير ، فأمّا من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام .

قوله جل ذكره : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرماتِ قِصاصٌ . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾

---

(١) وردت (تصدق) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم :

(٢) يريد القشيرى بهذه الفقرة أن تنزل على حكم المرحلة التى وصلت إليها ، فإذا اجتاز بك فضل الله مرحلة جهادك مع نفسك إلى ما فوقها فلا تشغلن وقتك إلا بما صرت عليه ، بمعنى أن تنزل على حكم الوقت.

(٣) وردت (حروفه) والصواب صروفه ، وقد جاء فى الرسالة هذا الشاهد :

تجرى عليك صروفه وهموم سرك مطرقة (الرسالة ص ٦٣)

(٤) وردت (يكون) وهى خطأ من الناسخ .

الإشارة فيه : إذا تقابل حقان كلاهما لله فَسَلِّمِ الوقت بحكم الوقت ، ودلْ مع إشارات الوقت ، وإياك أن ترجح أحدهما على الآخر بمالَكَ من حظ — وإنْ قَلَّ — فتُحجَب عن شهود الحق ، وتَعْمَى بصيرةُ قلبك . وكلُّ ما كان إلى خلاف هواكَ أقرب ، وعن استجلابكَ وسكونكَ إليه أبعد — كان ذلك فى نفسه أصوبَ .

« واعلموا أن الله مع المتقين » : الذين اتقوا إيثار هواهم على ما فيه رضاه ، فإذا قاموا لله — فيما يأتون — لا لَهُم فإن الله تعالى بالنصرة معهم ، قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حُبِّه .

إنفاق الأغنياء من النِّعم وإنفاق الفقراء من الهِمَم .

إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفس النفيس ، وإنفاق الموحِّدين إخراج الخَلْق من السِّر .

قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ؛ فمن أمسك يده وادَّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضاه .

ويقال « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » أى الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال توَهُّمُ أنك تعيش من دون لطفه وإقباله لَحْظَةً .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة فى كل نَفَسٍ .

قوله تعالى : « وأَحْسِنوا إن الله يحب المحسنين » الإحسان أن ترفق مع كل أحد

إلا معك ؛ فإحسانُك إلى نفسك فى صورةِ إساءتُك إليها فى ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظيمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك الى قضاء حق كل أحد علّق عليك حديثه . والإحسان أن تعبده على غير غفلة . والإحسان أن تعبده وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله ﴾

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التى تجب فيها (دون) التقصير فى بعض أحوالها .

وفى التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك[1] .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القَصْد ؛ فَقَصْدٌ إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثانى حج الخواص .

وكما أن الذى يحج بنفسه يُحْرِمُ ويَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ؛ فإحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ، ثم باشتماله بثوبى صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، وإطلاق خواطر المنى ، وما فى هذا المعنى . ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك .

وأفضل الحج الشَّجُّ والعجُّ ؛ الشَّجُّ صَبُّ الدَّم والعجُّ رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف[2] ، ورفع أصوات السِّر بدوام الاستغاثة ، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عَرَفَات وموقف

---

(١) قال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على أنه قال فى هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس .
(تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ ط الحلبي) .
(٢) الخلاف هنا معناها (المخالفة) أى مخالفة النفس وأهوائها .

القلوب الأسامى والصفات لِعزِّ الذات (عند)[1] المواصلات . ثم طواف القلوب حول (مشاهدة)[2] العز ، والسعى بالأسرار بين صَفَّىٍّ كشف الجلال ولطف الجمال .

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات ، والمنى والمعارضات . . بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فما استيسر من الهَدْيِ﴾

الحصر بأمرين بعدو أو مرض .

والإشارة فيه إن استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرُّخَص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحُكْم . « والهَدْيِ » الذى يهدى به عند التحلل بالعذر ، والخروج عن المعلوم ، وتسليمه للفقراء ، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر . وإن مَرِضَتْ الواردات وسَقِمتْ القصود وآل الأمرُ إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه فى الحج الظاهر يجتهد بألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك — بشرط الفدية .

ثم إن عجز ، اشترط أن محله حيث حبسه فكذلك يقوم ويقعد فى أوصاف القصد وأحكام الإرادة ، فإن رجع — والعياذ بالله — لم يُقابَلْ إلا بالردِّ والصد ، وقيل :

فلا عن قِلىً كان التقرب بيننا ولكنه دهر يُشِتُّ ويجمع

وقال الآخر :

ولستُ — وإنْ أحببتُ مَنْ يَسْكُن الفضا بأولِّ راجٍ حاجة لا ينالها

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَحْلِقوا رُءوسكم حتى يبلغ الهَدْيُ
مَحِلَّه فمن كان منكم مريضاً أو به
أذىً من رأسه ففدية من صيام أو صدقة
أو نُسُك﴾ .

---

(١) وردت (عن) فى ص ، والأسامى والصفات مقصود بها أسماء الله الحسنى وصفاته .
(٢) نرجح أنها فى الأصل (مشاهد) جمع مشهد لتناظر (مشاهد) الحج .

يبذل ما أمكنه ، ويخرج عن جميع ما يملكه ، وعليه آثار الحسرة ، واستشعار أحزان الحجبة .

« فمن كان منكم مريضاً . . » الخ : الإشارة منه أن يبتهل ويجتهد بالطواف على الأولياء ، والخدمة للفقراء ، والتقرب بما أمكنه من وجود الاحتيال والدعاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أمِنتُم فمَن تمتّع بالعُمْرَة إلى الحج فما استيسر من الهَدْى ، فمن لم يجِدْ فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعةٍ إذا رَجَعتُم ، تلك عَشَرَةٌ كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام . واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ .

فإذا تجلت أقمار القصود عن كشوف التعزز ، وانجلت غيابة الحجبة عن شموس الوصلة وأشرق نور الإقبال فى تضاعيف أيام الوقفة ، فليستأنِف للوصلة وقتاً ، وليفرش للقربة بساطاً ، وليجدد للقيام بحق السرور نشاطاً ، ولْيَقُلْ : حَىَّ على البهجة ! فقد مضت أيام المحنة .

وليُكْمِل الحج والعمرة ، وَلْيَسْتَدِم القيام بأحكام الصحبة والخدمة .

« واعلموا أن الله شديد العقاب » بالحجاب لمن لم يُرِه أهِلَّة الوصلة والاقتراب .

قوله جل ذكره : ﴿ الحجُّ أشْهُرٌ معلومات ﴾ .

كما أن الحج بالنفوس أشْهُرٌ معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها ، ولا يجوز فعل الحج فى جميع السَّنَةِ إلا فى وقت مخصوص ، من فاته ذلك الوقت فاته الحج — فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها ، وهى أيام الشباب ؛ فمن لم تكن له إرادة فى حال شبابه فليست له وصلة فى حال مشيبه ، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التى آخرها الجنة ، فأما الإرادة التى آخرها الوصلة . . فلا .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَن فرَضَ فيهن الحج فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ فى الحج ﴾ .

كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرِّج على شيء فى الطريق ، ولا يمزج إرادته بشيء . فمن نَازَعه أو عَارَضَهُ أو زاحمه — سَلَّم الكل للكل ، فلا لأجل الدنيا مع أحدٍ يخاصم ، ولا لشيء من حظوظ النَّفْس والجاه مع أحد يزاحم ، قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَما تَفْعلوا مِنْ خيرٍ يَعْلَمْهُ الله ﴾ .

تكتفى بِعِلْمِهِ وحُكْمِهِ عن شهود خَلْقِهِ وحُكْمِ خلقِهِ وعلم خلقِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وتزودوا فإن خيرَ الزاد التقوى واتقونِ يا أولى الألباب ﴾ .

تقوى العامة مُجانبة الزلات ، وتقوى الخواص مجانبة الأغيار بالسرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جُنَاحٌ أن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن ربِّكم ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغى من فضل الله مما يُعينك على قضاء حقِّه ، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين — فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك — فهو معلول .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أَفَضْتُم من عَرَفَات فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لِمَنَ الضالين ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى قمت بحق طلبه فاذكر فضله معك ، فلولا أنه أرَادَكَ لما أَرَدْتَه ، ولولا أنه اختارك لما آثرتَ رضاه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك فى الظاهر ، لا بلبسة ولا بخرقة ولا بصفة ،

بل تكون كواحد من الناس ، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً ، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفر اللهَ ، وجَدِّدْ إيمانك فإنه شِرْكٌ خَفِيٌّ خامَرَ قلبَك.

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كَذِكرِكم آباءكم أو أشدَّ ذِكْرا ﴾

« قضيتم مناسككم » إشارة إلى القيام بحق العبودية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيامٌ بالنفس .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر .

ويقال كما أنَّ الأغيار يفتخرون بآبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم فَلْيَكُن افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لآبائكم عليكم حقُّ التربية فحقُّنا عليكم أوجب ، وأفضالنا عليكم أتم .

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب[1] ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لآبائكم من حسن الحال .

ويقال إنك لا تملُّ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك ، فاستَدِمْ ذِكرنا ، ولا تعْتَرِضَنَّك ملالة أو سآمة[2] أو نسيان .

ويقال إنْ طَعَنَ في نَسَبِكَ طاعِنٌ لم ترضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبِدَعِ فَذُبَّ عنَّا .

ويقال الأبُ يُذكَرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية .

وقال « كذكركم آباءكم » ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذكَر احتراماً والأم تُذكَر شفقةً عليها ، والله يَرْحَمُ ولا يُرْحَمُ .

---

(١) وردت (مثاقب) وهي خطأ في النسخ .

(٢) وردت (مسامة) وهي خطأ في النسخ .

« أو أشد ذكرا » لأن الحقّ أحقّ ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك ، والحقّ سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضى الواجب حتى إن كان ذرة .

وقوله « كذكركم آباءكم » الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمِنَ الناسِ من يقول ربَّنا آتنا فى الدنيا[1] ومالَه فى الآخرة مِنْ خلاق ﴾ .

خطاب لو قاله مخلوقٌ لكَ كان شاكراً[2] ، ولو أنه شكا منك كما شكا إليك لساءت الحالة ، ولكن بفضله أحلَّكَ محل أن يشكو إليك فقال : مِنَ الناس من لا يجنح قلبه إلينا ، ويرضى بدوننا عنّا ، فلا يبصر غير نفسه وحظّه ، ولا يمكن إيمان له بربه وحقّه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات ، والحسنةُ التى بها تحصل جميع الحسنات فى الدنيا — حفظُ الإيمان عليهم فى المآل ؛ فإنَّ مَنْ خرج من الدنيا مؤمنا لا يخلد فى النار ، وبفوات هذا لا يحصل شىء . والحسنة التى تنتظم بها حسنات الآخرة — المغفرة ، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير .

ويقال الحسنة فى الدنيا العزوف عنها ، والحسنة فى الآخرة الصون عن مساكنتها . والوقاية من النار ونيران الفُرقه إذ اللام فى قوله « النار » لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقة ونيران الفرقة جميعاً .

ويقال الحسنة فى الدنيا شهود بالأسرار وفى الآخرة رؤية بالأبصار .

ويقال حسنة الدنيا ألا يُغنيك عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك .

---

(١) التبس على الناسخ نقل هذه الآية بالآية التى تليها فوضع هنا (حسنة) وهى زائدة .
(٢) نرجح أنها (شاكياً) فى الأصل .

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ .

إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير . « والله سريع الحساب » للعوام فى الفرصة ، وللخواص فى كل نَفَس .

ويقال ذكر فريقين : منهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، والثانى يقول فى الدنيا والعقبى ، وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه ، المستسلمون لأمره ، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا الله فى أيامٍ معدوداتٍ
فَمَن تَعَجَّلَ فى يومين فلا إثمَ عليه ،
ومَن تأخَّر فلا إثمَ عليه لِمَنِ اتَّقَى ،
واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه
تُحشَرون ﴾ .

هذه صفة أواخر النسك ، وهو الرمى فى أيام مِنى لما قدموا بأركان الحج خَفَّفَ عنهم بأن خَيَّرهم فى المقام والإفاضة والتعجيل فى التفريق

والإشارة منه أنَّ مَنْ خمدت نفسُه ، وحَيِيَ قلبُه ، واستدام بحقائق الشهود (سِرُّه)[1] — فإنْ سَقَطَ عنه شىء من فروع الأوراد ففيما هو له مستديمٌ من آداب الحضور عِوَضٌ عن الذى يفوت .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يعجبك قوله
فى الحياة الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على
ما فى قلبه وهو أَلَدُّ الخِصام ﴾ .

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم فى الظاهر بَسْطَةً فى اللسان ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان ؛ فَهُمْ فى غطاء جهلهم ، ليس وراءهم معنىً ، ولا على قولهم اعتمادٌ ، ولا على إيمانهم اتِّكالٌ ، ولا بهم ثقةٌ بوجهٍ .

---

(١) نعلم من مذهب القشيرى أن حقائق الشهود متصلة بالسر ، وما دام قد ذكر النفس والقلب فقد وجدنا من الضرورى للتوضيح ذكر (سره) حيث نرجح أنها سقطت من الناسخ .

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر ؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان ، ولا بهذه الجملة استبصار ، فالواجبُ صونُ الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار[1] ، وإن أهل الوداعة[2] من العوام الذين فى قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة ، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثيرٍ ممن عدَّ نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تولىَّ سعى فى الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ والله لا يحب الفساد ﴾ .

الإشارة لِمَنْ سَعْيُه مقصورٌ على استجلاب حظوظه ، فهو لا يبالى بما يَنْحَلُّ من عُرى الدين، ويهى من أسباب الإسلام ، بعدما تَشتد حبال دنياهم ، وتنتظم أسباب مناهم ، من حرامٍ جمعوه ، وحُطامٍ حَصَّلوه . فإذا خَلَوْا لوساوسهم وقصودهم الردية سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدنيا ، واستعمالهم مَنْ يستعينون بهم فى تمشية أمورهم مِنَ القوم الذين نزع الله البصيرة من قلوبهم .

« والله لايحب الفساد » : ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفساد الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قِيل له اتقِ اللهَ أخذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ .

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبُّر ، وزال عنهم خضوعُ الإنصاف ؛ فَشَمَخَتْ آنافُهم عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال : ألمثلى يقال هذا ؟!

---

(١) هنا نلاحظ أن القشيرى يرى عدم البوح بأسرار الطريقة وأن الكتمان خير ـ وهذا موقف هام فى مسألة على جانب عظيم من الخطورة .

(٢) وردت (الاوداعة) ونرجح أنها الوداعة لأنها أقرب إلى السياق .

وأنا كذا وكذا ! ثم يكبر عليك (. . .)[1] فيقول : وأنت أَوْلى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا .

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة ، وتقلَّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه ، ونبهه على سوء[2] وصفه ، لم يطوِ على نصيحة جنبيه وتبقى فى القلب — إلى سنين — آثارها .

قال تعالى « فحسبه جهنم » يعنى ما هو فيه فى الحال من الوحشة وظلمات النَّفْس وضيق الاختيار حتى لا يسعى فى شىء غير مراده ، فيقع فى كل لحظة غير مرة فى العقوبة والمحنة ، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر ، قال الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر».

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناسِ من يشرى نفسه ابتغاء مرضاتِ الله والله رءوف بالعباد ﴾ .

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة ، ونعتتهم سوابق القسمة ، فآثروا رضاء الحق على أنفسهم ، واستسلموا بالكلية لمولاهم ، والله رءوف بالعباد : ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال ، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

كلَّف المؤمنَ بأن يُسالِمَ كل أحدٍ إلا نَفْسَه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده ؛ فإن مَنْ سَالَم نَفْسَه فَتَرَ عن مجاهداته ، وذلك سبب انقطاع كل قاصد ، وموجِبُ فترةِ كل مريد .

و « خطوات الشيطان » ما يوسوسه إليك من عجزك عن القيام باستيفاء أحكام المعاملة ، وتركِ نزعاتٍ لا عِبْرة بها ، ولا ينبغى أن يُلْتَفَتَ إليها ، بل كما قال الله تعالى «فإذا خِفْتِ عليه فألقيه فى اليَمِّ » ثم أَبْصِرْ ما الذى فعل به حين أَلْقَتْه ، وكيف ردَّه إليها بعدما نجَّاه .

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (سواء) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن زللتم مِنْ بعدمَا جاءتكُم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾

الزّلةُ الواحدةُ بعد كشف البرهان أقبحُ من كثيرٍ منها قبل ذلك ، ومَنْ عُرِفَ فى الخيانة لا يُعْتَمد عليه فى الأمانة . ومحنة الأكابر[1] إذا حلّت كان فيها استئصالهم بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ هل يَنْظُرون إلا أن يأتيَهم اللهُ فى ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ والملائكة ﴾ .

استبطأ القومُ قيامَ الساعةِ فأخبروا عن شدة الأمر إذا قامت الساعة بتفصيل ما ذكر .

وتلك أفعال فى معنى الأحوال ، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال فى علو شأنه سبحانه وتعالى ، ونفاذ قدرته فيما يريد . « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » أى انهتك ستر الغيب عن صريح التقدير السابق . ولقد استغنت قلوب الموحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن كل انتقال وزوال ، واختصاص بمكان أوزمان ، تقدس عن كل حركة وإتيان[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ سَلْ بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة ومَن يُبَدِّلْ نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾

فائدة السؤال ليقرر عليهم بالسؤال الحجة ، لا ليُقرِّر للرسول صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ما أشكل عليهم من واضح المحبة .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب » بزوال تلك النعمة . وعند ذلك يعرفون قدرها ، ثم يَنْدُبُونها ولا يصلون إليها قط ، قال قائلهم :

ستهجرنى وتتركنى فتطلبنى فلا تَجِدِ

---

(١) محنة الأكابر المقصود بها هنا زلات الأكابر ، وعقوبتها اشد ، وقد استدل القشيرى على ذلك فى موضع سابق بأن من ترتكب فاحشة من أمهات المسلمين يضاعف لها العذاب ضعفين .

(٢) إشارة إلى ما فى الآية الكريمة (يأتيهم الله) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

مكروا[1] فلم يشعروا ، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الوقيعة فى أوليائه سبحانه ، والسخرية منهم ، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (. . . . .)[2] علموا مَن الخاسر منهم مِن الذى كان فى ضلال بعيد .

قوله جل ذكره ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه مِنْ بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه والله يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

يعنى الغيبة عن الحق جمعتهم ، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب مارُزقوا من أنوار البصيرة وحُرِموها . ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم ، وبمجىء الرسل تهود قوم وتَنَصَّر قوم ، ثم فى العاقبة يُرَدُّ كل واحد إلى ما سبق له من التقدير ، وإن الناس اجتمعوا كلهم فى علمه سبحانه ثم تفرَّقوا فى حكمه ، فقوم هداهم وقوم أغواهم ، وقوم حجبهم وقوم

---

(١) ربما كانت فى الأصل (مُكِر بهم) فلم يشعروا ، فالآية تقول (زُيِّن للذين ...) فهم لم يشعروا بأن تزيين الدنيا لهم مكر من الله والله خير الماكرين .

(٢) زائدة .

جذبهم ، وقوم ربطهم بالخذلان وقوم بسطهم بالإحسان ، فلا مِن المقبولين أمر مكتسب ، ولا لردِّ المردودين سبب ، بل هو حُكْمٌ بُتٌّ وقضاء جُزم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مَّثَلُ الذين خَلَوْا مِن قبلكم مَسَّتْهُم البأساء والضَّرَّاء وزُلْزِلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنَّ نصرَ الله قريب ﴾ .

خلق الله الجنة وحفَّها بالمصاعب ، وخلق النار وحفَّها بالشهوات والرغائب ، فَمن احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال . ثم إن الحق سبحانه ابتلى الأولين بفنونٍ من مقاساة الشدائد ، وكلُّ من أُلحِقَ بهم من خلف الأولياء أدخلهم فى سِلْكِهم ، وأدرجهم فى غمارهم ، فمن ظنَّ غير ذلك فَسَرَابٌ ظَنَّه ماء ، وحكم لم يحصل على ما ظنه تأويلا . ولقد مضت سُنَّة الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنيخُون بعقوة الظفر إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس ، فحين طال بهم التَرَقُّبُ صادَفَهم اللطفُ بغتةً وتحقق لهم المُبْتَغَى فجأة . قال تعالى « ألا إن نصر الله قريب » .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قُلْ ما أنفقتم من خير فللوالدَيْن والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ .

علموا أن العبد غير منفردٍ بالفاعلية أن يفعل ، فإنَّ العبد ليس له فعل شيء إلا بإذن مولاه فتوقفوا فى الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن ، لأنَّ العبوديَّة الوقوفُ حيثما أوقفك الأمر .

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى . وإنَّ ما طالعوه تفاصيلُ الأمر وإشارات الشرع والواو فى هذه الآية فى قوله : « والأقربين واليتامى » تشير إلى نوعٍ من الترتيب ؛ فالأولى بمعروفك والداك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذى قاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شَرٌ لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ .

صعبت على النفوس مباشرة القتال ، فبيَّن أن راحات النفوس مؤجلة لأنها فى حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحات القلوب فإنها معجلة إذ هى فى وصف التقريب ، فالسادة فى مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلى ، كما أن السعادة فى موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السُنَّة العليا .

وبشرى ضمان الحق باليُسْر أَوْلَى أن تُقْبَل من محذرات هواجس النفوس فى حلول العسر وحصول الضر .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قُلْ قِتال فيه كبيرٌ وَصَدٌّ عن سبيل الله ، وكُفرٌ به والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ﴾ .

من المعاصى ما يكون أشد من غيره وأصعب فى المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يُوجِب ما يُوجِبه على البساط ؛ فإذا حصلت الزلة بالنَّفْس فأثرها بالعقوبة المؤجلة وهى الاحتراق ، وإذا زلّ[1] القلب فالعقوبة معجلة وهى بالفراق ، وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة

(١) وردت (زال) وهى قطعاً خطأ فى النسخ .

على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صرفك إلى ما هم عليه من الغفلة ، فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ، ومن فسخ مع الله عهده مسخ قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم ﴾ .

إن الذين صدقوا فى قصدهم ، وأخلصوا فى عهدهم ، ولم يرتدوا فى الإرادة على أعقابهم ، أولئك الذين عاشوا فى روح الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

الخمر ما خامر العقول ، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسكر حرام بقوله صلى الله عليه وسلم : « حرمت الخمر بعينها ، والسكر من كل شراب » ، فمن سكر من شراب الغفلة استحق ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات ، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السكر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود ، فمن لم يصدق فليجرب .

ومعنى القمار موجود فى أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الحِيَل والخداع والكذب فى المقال . وبذلُ الصدقِ والإنصافِ عزيزٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قُلِ العَفْوَ كذلك يُبَيِّن اللهُ لكم الآياتِ لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ﴾

قيل العفوُ ما فضل عن حاجتك ، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر كفاياتهم ، فأمّا خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يُؤْثِر به غيرَه على نفسه وبه فاقة إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذى يؤثِر به غيباً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قُلْ إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانُكُم ﴾

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتمّ من إصلاح مالهم ، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع بذل النصح ، و (مفارقة المال مَنْ مِنْ أرشادهم خير من الترخص بأن يقولِ إنه لا يتوجه على فرضيهم)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يعلم المُفْسِدَ مِنَ المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ .

فيُعاملُ كلاً على سواكن قلبه من القُصُود لا على ظواهر كَسْبِهِ من جميع الفنون .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤمِنَّ ولَأَمَةٌ مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولَعَبْدٌ مؤمِنٌ خيرٌ مِّن مُشركٍ ولو أعجبكم ، أولئك يدعون

---

(١) فيما بين قوسين غموض ربما نتج عن خطأ فى النقل .

إلى النـار والله يدعو إلى الجنـة
والمغفرة بإذنه ، ويُبَـيِّنُ آياته للناسِ
لعلهم يتذكَّرون ﴾ .

صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضـا بأن تنتهى إلى أحدٍ يسلك إلى الـكفر ، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة فى فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره ، هذا فى الـكتابيات اللاتى يجوز مواصلتهن ، فأما أهل الشِرْك فحرامٌ مواصلتهم قطعاً ، وأوجهُ مباينتهم فى هذا الباب حُكْمٌ جَزْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً
فاعْتَزِلُوا النسـاء فى المحيض
ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ فإذا
تطهَّرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور ممـا هو باختيار العبد ، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كسب ، وهو ابتداء حكمُ الحق ، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم من تلك الحالة ، ثم أُمِرْنَ باعتزال المُصَـلَّى فى أوان تلك الحالة ، فالمصلِّى مناجٍ ربَّه ، فنُحِّين عن محل المناجاة حكماً من الله لا جُرْماً لهن . وفى هذا إشارة فيقال : إنهن — وإنْ مُنِعْنَ عن الصلاة التى هى حضور بالبدن فلم يحجبن عن استدامة الذكر بالقلب واللسان ، وذلك تعرض بساط القرب ، قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه تعالى : « أنا جليس من ذكرنى » .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الله يحب التـوَّابين ويحب المتطهرين ﴾ .

يقال يحب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب .

ويقال التوابين من الزلة ، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة .

ويقال التوّابين من ارتكاب المحظورات ، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات .

ويقال التوّابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانـكسار .

ويقال التوّابين من الزلة ، والمتطهرين من الغفلة .

ويقال التوّابين من شهود التوبة ، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ نساؤكم حَرْثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه وبشّر المؤمنين ﴾ .

لمّا كانت النفوس بوصف الغيبة عن الحقيقة أباح لها السكون إلى أشكالها إذا كان على وصف الإذن ، فلمّا كانت القلوب فى محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات .

« وقدّموا لأنفسكم » من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم ، لذلك قال :

« واعلموا أنكم ملاقوه » فانظروا لأنفسكم بتقديم ما يسركم وجدانه عند ربكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تجعلوا الله عُرضةً لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾

نزّهوا ذِكْرَ ربكم عن ابتذاله بأى حظ من الحظوظ .

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شَرَكاً يُصْطَاد به حطام الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم ﴾

ما جرى به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطرٍ فى الخير والشر ، ولكن ما انطوت عليه الضمائر ، واحتوت عليه السرائر ، من قصود صحيحة ، وعزائم قوية فذلك الذى يؤخذ به إن كان خيراً فجزاء جميل ، وإن كان شراً فعناء طويل .

قوله جل ذكره : ﴿ للذين يُؤْلُون مِن نسائهم تَرَبُّصُ أربعة أشهر ﴾

إذا كان حق صحبة الأشكال محفوظاً عليك — حتى لو أخْلَلْتَ به — وأخذَكَ بحكمه : فحقُّ الحقِّ أحَقُّ بأن تجب مراعاته . « فإن فاءوا » أى رجعوا إلى إحياء ما أماتوا ، واستدراك ما ضيَّعوا « فإن الله غفور رحيم » فلما تقاصر لسان الزوجة — لكونها أسيراً فى يد الزوج — تَوَلَّى الله — سبحانه — الأمرَ بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾

إنْ ملَّ حق صحبتها ، وأكَّد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره ، فإنْ بدا له بادٍ من ندم فلا يُلبِس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلَّقها .

ولمَّا كان الفراق شديداً عزَّى المرأة بأن قال إنه « سميع » أى سمعنا موحش تلك القالة ، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

أمَرَ المطلقات بالعِدَّة احتراماً لصحبة الأزواج ، يعنى إنْ انقطعت العلاقة بينكما فأقيموا على شرط الوفاء لما سَلَفَ من الصحبة ، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة ؛ فاصبروا حتى يمضى مقدار من المدة . ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة حيث لم تقم بينهما صحبة ؟

ثم قال جل ذكره : ﴿ ولا يَحِلُّ لَهُنَّ أن يكتُمن ما خلق اللهُ فى أرحامهن إن كُنَّ يُؤمِنَّ بالله واليوم الآخر ﴾ .

يعنى إن انقطع بينكما السبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النَّسَبِ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وبُعولتُهُنَّ أحَقُّ بِرَدِّهن ﴾ .

يعنى مَنْ سَبَقَ له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع فى النكاح من الثلمة

﴿ فى ذلك إنْ أرادوا إصلاحاً ﴾ .

يعنى أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن يعزم على طلاقها بعدما أرجعها .

﴿ولَهُنَّ مِثلُ الذى عليهن بالمعروف﴾

يعنى إن كان له عليها حق فما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال .

﴿وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ .

فى الفضيلة ، ولهن مزية فى الضعف وعجز البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

ندب إلى تفريق الطلاق لئلا تسارع إلى إتمام الفراق ، وقيل فى معناه :

إنْ تَبَيَّنْتُ أنَّ عَزْمَكِ قتلى فذرينى أضنى قليلا قليلا

ثم قال جلَّ ذكره : ﴿ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾ .

إمَّا صحبة جميلة أو فُرْقة جميلة . فأمَّا سوء العشرة وإذهاب لذة العيش بالأخلاق الذميمة فغير مَرْضِيٍ فى الطريقة ، ولا محمود فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحِلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ .

فإن فى الخبر « العائد فى هبته كالعائد فى قَيْئِه » والرجوع فيما خرجتَ عنه خِسَّة .

ثم قال جل ذكره : ﴿إلاَّ أن يخافا ألاَّ يُقيمَا حُدودَ الله فإن خِفْتُم ألاَّ يُقيما حدودَ الله فلا جُناحَ عليهما فيما افتدت به﴾ .

يعني إنْ أرادت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال ، فإنَّ النفس تساوى لصاحبها كل شيء ، والرجل إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقلَّ من ذلك ، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها وَمَن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾

هذه آداب يُعَلِّمكها الله ويَسُنُّها لكم ، فحافظوا على حدوده ، وداوموا على معرفة حقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن طلّقَها فلا تَحِلُّ له من بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيره ﴾

الرجلُ يَشُقُّ عليه أن ينكحَ زوجتَه غيرُه فمنعه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُغْيَة المنع[1] لما بيَّن أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل[2] غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثانى لِيَحْذَرَ الطلاق ما أمكنه. ثم قال «فإنْ طَلَّقَها» يعنى الزوج «فلا جُناحَ عليهما أن يتراجعا» يعنى تتزوج بالزوج الأول

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يُهَوِّن مُقاساةَ كلِّ شديدة ؛ فلو انطوى الزوجان بعد الفرقة على التحسُّر على مافاتهما من الوصلة ، وندما على ذلك غايةَ الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا ، والمرأة فى هذه الحالة كأنها (. . .)[3] من الزوج الأول بمكان الزوج الثانى والزوج كالآتى على نفسه فى احتمال ذلك .

ثم قال جل ذكره ﴿ إن ظنَّا أن يُقيما حدودَ الله ، وتلك حدودُ الله يُبيِّنُها لقوم يعلمون ﴾

يعنى لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه ، قال قائلهم :

ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ألا أعود إلى فراقك ثانية

---

(١) وردت (بغاية المنع) والأرجح أنها (بُغية المنع) فإن السياق يتطلب ذلك .

(٢) وردت (يفعل) والأصوب أن تعود على المرأة لأنها هى التى ستتزوج ثانيةً وهذا هو ما يشق على الزوج الأول .

(٣) هنا كلمة رسمها هكذا (الميشور) وربما كانت (المبتور) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن
فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن
بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا
ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه
ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا
نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من
الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا
الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾

تضمنت الآية الأمر بحسن العِشْرة ، وتَرْكِ المغايظة مع الزوجة ، والمحك على وجه اللجاج ؛ فإمّا تخلية سبيلٍ من غير جفاء أو قيامٌ بحق الصحبة على شرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن
فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهن
إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك
يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله
واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم
وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

تضمنت الآية نهى الأولياء[1] عن مضارتهن ، وتركَ حمية الجاهلية ، والانقيادَ لحكم الله في تزويج النساء إنْ أردن النكاح من دون استشعار الأنفة والحمية .

بل إذا رضيت بكفوٍ يخطبها فحرام عليكم ظلمها . والتذويبُ عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشدُّ مجاهدةً وأصدقُ معاملة لله .

قوله جل ذكره : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين
كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾

(١) الأولياء هنا من ولاية الرجل على المرأة وليست من الولاية في باب التصوف .

غايةُ الرحمة التى يُضْرب بها المَثَلُ رحمةُ الأمهات ؛ فأمَرَ الله سبحانه الأمهاتِ بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حَوْلَين كاملين ، وقطعُ الرضاعة عنه قبل الحولين إشارةٌ إلى أن رحمة الله بالعبد أتمُّ من رحمة الأمهات .

ثم قال جل ذكره : ﴿وعلى المولود له رزْقُهن وكسوتهن بالمعروف﴾ .

يعنى الأب عليه رزقهن وكسوتهن — أى المرضعات — بالمعروف . لمَّا يَنُبْن عنك وَجَبَ حَقُّهُن عليك ، فإنَّ مَنْ لك كله فعليك كله .

ثم قال جل ذكره : ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا ﴾

إدخارُ المستطاع بُخْلٌ ، والوقوفُ — عند العجز — عذر .

ثم قال جل ذكره : ﴿لا تُضارَّ والدةٌ بِوَلَدِها﴾ .

فى الإرضاع وما يجب عليه .

﴿ ولا مولودٌ له بِوَلَدِه وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ .

يعنى الوالد[1] بولده يعنى فيما يلزم من النفقة والشفقة . فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود .

ثم قوله جل ذكره : ﴿فإن أرادا فِصالا عن تَراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جُناح عليهما وإنْ أرَدْتُمْ أن تَسْتَرْضِعُوا أوْلادَكُمْ فلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾

يعنى فطاماً قبل الحولين ، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح . اشتملت الآية على تمهيد طريق الصحبة ، وتعليم محاسن الأخلاق فى أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَم .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن ذكر أنه لم يُقَبِّل أولاده : « إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقى » .

---

(١) وردت (الولد) والسياق يقتضى أن تكون (الوالد) بعد أن تحدث عن (الوالدة) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾

لمّا كان حق الميت أعظم لأن فراقه لم يكن بالاختيار كانت مدة الوفاء له أطول . وكانت عدة الوفاة فى ابتداء الإسلام سَنَةً ، ثم رُدت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتتحق براءة الرحم عن ماء الزوج ، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزوج آخر . والميت لا يستديم وفاءه إلى آخر العمر أحدٌ كما قيل :

وكما تَبْلَى وجوهٌ فى الثرى فكذا يَبْلَى عليهن الحَزَن

قوله جل ذكره : ﴿ولا جناح عليكم فيما عرَّضتم به من خطبة النساء أو أكننتُم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سِرًّا إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة ، وتأسيس لحال الوصلة . وحرّم منه ما فيه ارتكاب المحظورات من إلمام بذنب أو عِدةٌ بِجُرْمٍ[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تعزِموا عُقْدَةَ النكاحِ حتى يبلغ الكتابُ أجله ، واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم﴾

---

(١) وردت بالحاء والصحيح أن تكون بالجيم .

أى تنقضى عدة الأول فإن حُرْمة الماضى لا تضيع .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جُناحَ عليكم إن طلقتم النساء
مالم تَمَسُّوهُنَّ أو تَفْرِضوا لهن فريضة
ومَتِّعُوهنَّ على الموسِعِ قَدَرُهُ ،
وعلى المُقْتِرِ قَدَرُه متاعاً بالمعروف
حقاً على المحسنين ﴾

إن ابتلاء تَمَّ بوصيلة[1] أشكالكم ثم بدالكم فلا جناح[2] عليكم فى اختيار الفرقة — إذا أردتم — فإن الذى لا يجوز اختيار فرقته — واحد ؛ فأمَّا صحبة الخَلْق بعضهم مع بعض فليس بواجب ، بل غاية وصفه أنه جائز .

ولمَّا وقع عليهن اسمكم فنصف المسمَّى يجب لهن ، فإن الفراق — كيفما كان — فهو شديد ، فجعل ما يستحق من العوض كالخَلَفِ لها عند تجرع كأس الفرقة .

فإن لم يكن مسمًّى فلا يخلو العقد من متعة ؛ فإن تجرع الفرقة — مجرداً عن الراحة — بلاء عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
وقد فرضتم لَهُنَّ فريضة فنصف
مافرضتم إلا أن يعفون أو يَعْفُوَ الذى
بيده عُقْدَةُ النكاح ، وَأَنْ تعفوا
أقربُ للتقوى ﴾ .

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن ، إمَّا من جهة المرأة فى النصف المستحق لها ، أو من قِبَل الزوج فى النصف العائد إليه .

---

(١) وردت (بوصيلة) وربما كانت الياء زائدة وأنها (بوصلة) أشكالكم .
(٢) وردت (فلاح جرح) وهى خطأ من الناسخ ، وقد صححناها (فلا جناح) طبقاً للآية ، ويحتمل أيضاً أنها فى الأصل (فلا جُرْم) .

ثم قال جلّ ذكره : ﴿ ولا تَنسَوُاْ الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فمن قريب يخل[1] بالفرض .

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل ، وإن من سُنَّةِ الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشحذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم فى اقتناء أسباب الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ حافظوا على الصَّلَوَاتِ والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ .

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهيبة ، ويخرج بالتعظيم ، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب ، والصلاة الوسطى (أبهم ذكرها على البيت)[2] لتراعى الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هى لئلا يقع منك تقصير فى شىء منها .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ خِفْتُمْ فَرِجالا أو رُكبانًا فإذا أَمِنتُمْ فاذكروا الله كما علَّمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ .

أى لا تُخلُّوا بمناجاتى لأوقاتها على الوصف الذى أمكنكم فان ماتحسونه[3] من أعدائكم أنا سلّطتُهم عليكم ، فاذا خلوتم بى بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم ، وجعلت لكم الظفر عليهم ، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم فى الاعتكاف بحضرتى سراً وجهراً .

---

(١) يحتمل انها (بخل) و (يُبخِّل) ، فإذا عرفنا أن الصوفية عموماً يتشددون في التعبد ويتفوقون فيه على الكافة أمكن القول أن المعنى ممكن أن ينصرف إلى بخل بمعنى أن القشيرى يحذر من أن الاكتفاء بالفرض قد يؤدى إلى البخل به ، وهذا بدوره يؤدى إلى أن يخل بشأنه وقد وردت بخل وبخل فى السياق فيما بعد ـ والله أعلم .

(٢) وردت هكذا وقد نقلناها من النص دون تعديل وربما كانت (أبهم ذكرها عن البت) .

(٣) يحتمل أن تكون (تخشونه) من أعدائكم وكلاهما مقبول ، وإن كنا نؤثر (تخشونه) لتناسب « فإن خفتم » فى الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويَذَرُون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعا إلى الحوْلِ غير إخراجٍ فإن خَرَجْنَ فلا جُناح عليكم فيما فعَلْنَ فى أنفُسِهن من معروفٍ واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ .

كانت عِدَّةُ الوفاة فى ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث يقول قائلهم :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومَنْ لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لابد من انتهاء مدة الحداد ولقد قال قائلهم :

قال : لو مِتَّ لم أعِشْ قلتُ : نافقتَ فاسْكُتِ
أى حىٍ رأيتَــه ماتَ وَجْدًا بِمَيِّتِ ؟ ! (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ .

الدلائلَ ، فتأدبوا بما أشير عليكم ، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكمى .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَرَ الموتِ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

---

(١) فى الشعر أخطاء كثيرة وقع فيها الناسخ لحاولنا إصلاحها بقدر الممكن ليكون مفهوماً .

لمّا استبعدوا قدرة الله فى الإعادة أراهم فى أنفسهم عيانا ، ثم لم ينفع إظهار ذلك لِمَنْ لم يشحذ بصيرته فى التوحيد . ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أُخبِرُوا ، لِمَا آمنوا به بالغيب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ .

يعنى إنْ مَسَّكم ألمٌ فتصاعد[1] منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لأنينكم ، عليم بأحوالكم ، بصير بأموركم . والآية توجِبُ تسهيل ما يقاسونه من الألم ، وقالوا :

إذا ما تمنى الناسُ روحا وراحةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمع

قوله جل ذكره : ﴿ مَن ذا الذى يُقْرِض الله قَرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ .

سُمِّى القرض قرضاً لأنه يقطع[2] من ماله شيئاً ليعطيه للمقترض ، والمتصدِّق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً ، فالقرض القطع ، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحباب حيث خاطبك فى باب الصدقة باسم القرض ولفظه .

ويقال دلّت الآية على عِظَم رتبة الغَنِيِّ حيث سأل منه القرض ، ولكن رتبة الفقير فى هذا أعظم لأنه سأل لأجْله القرضَ ، وقد يسأل القرض من[3] كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد . وفى الخبر « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند أبى شحمة اليهودى على شعيرٍ أخذه لقوت عياله[4] أبْصِرْ مِمَّن اقترض ولأجل مَن اقترض !

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العِوَض .

---

(١) وردت (فتصاهد) وواضح أنها خطأ فى النسخ .

(٢) أخطأ الناسخ فجاءت (يقع) وقد اخترنا (يقطع) لتناسب القرض ... القطع كما سيذكر بعد .

(٣) وردت (عن) والصحيح والملائم للسياق أن يقال (من) .

(٤) للحديث بقية (... ولم يترك ديناراً ولا درهماً ، ولم يقسم له ميراث ولم يوجد له فى بيت أثاث) البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة (توفى ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين) ، وعنْ البيهقى بثلاثين صاعاً من الشعير ، والترمذى والنسائى والبيهقى عن ابن عباس بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله . وسنده حسن ، ولم يترك ولا درهما ، مسلم عن عائشة .

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة ، وإنما يعطى عن شهود .

ويقال القرض الحسن من العلماء[1] إذا كان عند ظهر الغنى ، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لابد منه .

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خَمْسَةَ[2] ، وعلى لسان القوم بذل الكل ، وزيادة الروح على ما يبذل .

قوله جل ذكره ﴿والله يَقْبِضُ ويَبْسُطُ وَإليه تُرجَعون﴾.

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله ، ويبسط عليهم بسط خَلَفِهِ .

ويقال يقبض الرزق أى يُضَيِّق ، يبسط الرزق أى يوسِّع ؛ يقبض على الفقراء ليمتحنَهم بالصبر ، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر .

ويقال يقبض تسلية للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء ، ويبسط لئلا يتقلدوا المِنَّةَ من الأغنياء .

ويقال قال للأغنياء : إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تذروهم ، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم .

ويقال قَبَضَ القلوب بإعراضه وبَسَطَها بإقباله .

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف ، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء .

ويقال القبض لقهره والبسط لِبِرِّه .

ويقال القبض لِسِرِّه والبسط لكشْفِه .

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرادين .

ويقال القبض للمتسابقين[3] والبسط للعارفين .

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به ،

---

(١) يقصد القشيرى بالعلماء - على لسان الشريعة ، وبالأكابر - على لسان الحقيقة .

(٢) يشير بذلك إلى مقدار زكاة المال وهى ربع العشر .

(٣) ربما كانت « للسابقين » إشارة إلى قوله تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

ويقال القبض حقه ، والبسط حظك .

ويقال القبض لمن تولَّى عن الحق ، والبسط لمن تجلَّى له الحق .

ويقال يقبض إذا أَشْهَدَكَ فِعْلَكَ ، ويبسط إذا أشهدك فضله .

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ إلى الملإ مِنْ بنى إسرائيل مِنْ
بعد موسى إذ قالوا لنبىٍ لهم ابعث
لنا مَلِكاً نقاتل فى سبيل الله
قال هل عَسَيْتُم إن كُتِبَ عليكم
القتال ألا تقاتلوا ﴾ .

استقبلوا الأمر بالاختيار ، واقترحوا على نبيِّهم بسؤال الإذن لهم فى القتال ، فلمَّا أُجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التكاسل ، وعرَّجوا في أوطان التجادل والتغافل. ويقال إنهم أظهروا التصلب والجد فى القتال ذَبّاً عن أموالهم ومنازلهم حيث :

﴿ قالوا وما لنا ألا نُقاتلَ فى سبيل الله
وقد أُخرِجْنَا مِن ديارنا وأبنائنا
فلمَّا كُتِبَ عليهم القتال تولوا
إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ .

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يَخْلُص — لحقِّ الله — عزمُهم ، ولو أنهم قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله لأنه قد أمرنا ، وأوجب علينا ، فإنه سيدنا ومولانا ، ويجب علينا أمره — لعلَّهم وُفِّقُوا لإتمام ما قصدوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لهم نبيُّهم إن الله قد بعث لكم
طالوتَ مَلِكاً قالوا أنَّى يكون له
المُلْك علينا ونحنُ أحقُ بالملك منه ولم
يُؤتَ سَعَةً من المال قال إن الله اصطفاه

عليكم وزاده بسطة فى العِلْم والجسم
والله يُؤْتى مُلْكَه من يشاء والله
واسع عليم ﴾

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه[1] كان فقيراً لا مال له ، فبيَّن لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عَدِمَ المالَ فقد زاده الله علماً ففَضَلَكم بعلمه وجسمه ، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يُرِدْ عظيم البِنْيَة فإن فى المثل : « فلان اسم بلا جسم » أى ذكر بلا معنى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالَ لهم نبيُّهم إنَّ آية مُلْكِه أن
يأتيَكم التابوت فيه سكينة من ربكم
وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل
هارون تحمله الملائكة إنَّ فى ذلك
لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدَّه بتأييد من قِبَلِه ، فلما مُلك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيِّهم فى اختياره ، فردَّ عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملكه ، وأن نبيهم عليه السلام صَدَّقَهم فيما أخبرهم .

ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بنى إسرائيل فى التابوت الذى رَضُوا عن الألواح ، وعصا موسى عليه السلام ، وآثار صاحب نبوتهم . وجعل سكينة هذه الأمة[2] فى قلوبهم ، فقال : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين » ثم إن التابوت كان تتداوله أيدى الأعداء وغيرهم ؛ فَمَرَّةً كان يُدْفَن ومرة كان يُغلب عليه فيُحمَل ، ومرة يُرَدّ ومرة ومرة . . . وأما قلوب المؤمنين فَحالَ بين أربابها وبينها ، ولم يستودعها ملكا ولا نبياً ، ولا سماء ولا هواء ، ولا مكاناً ولا شخصاً ، وقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) وردت (كأنه) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » يعنى فى قبضة الحق سبحانه ، وتحت تقليبه وتصريفه ، والمراد منه « القدرة » ، وشتّان بين أمة سكينتهم فيما للأعداء عليه تسلّط وأمةٍ سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه سلطان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخُلْق وبالدنيا وبالنَّفس ، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدّ الاضطرار بمقدار القوام ، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ[1] ، ومن جاوز حد الاضطرار وانبسط فى صحبته مع شىء من ذلك من الدنيا والنفس والخلق بموجب الشهادة[2] والاختيار — فليس من الله فى شىء إنْ كان ارتكاب محظور ، وليس من هذه الطريقة فى شىء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾

كذلك الخواص فى كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فداخلهم شىء من رعب البشرية ، فربط الله على قلوبهم بما ذكرهم من نصرة الحق سبحانه لأوليائه إذا شاء .

---

(١) هذه درجة فى الاعتدال يتسم بها مذهب القشيرى ، يوفق بها بين الشريعة والحقيقة فى النظر إلى الدنيا والنفس والناس فى عرف أرباب القلوب .

(٢) أى أن يشهد الدنيا والنفس والخلق فى شىء من الأشياء والواجب أن يشهد الله فى كل شىء ، غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (الشهوة) أى أنه ليس من الله فى شىء من ينظر إلى هذه الأمور بشهوة واختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من
فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن
الله والله مع الصابرين ﴾

لا بهم ولكن بإذن الله ، بمشيئته وعونه ونصرته ، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا برزوا لجالوتَ وجنودِه قالوا رَبَّنَا
أَفْرِغْ علينا صبراً ، وثَبِّتْ أقدامَنَا
وانصرنا على القومِ الكافرين ﴾

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو ، ثم بعده النصرة عليهم ، فإن الصبر حق الحق ، والنصرة نصيبهم ، فقدَّموا تحقيق حقه — سبحانه — وتوفيقه لهم ، ثم وجود حظِّهم من النصرة ، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصرة عليهم — لا للانتقام منهم لأجْل ما فاتهم من نصيبهم — ولكن لكونهم كافرين ، أعداء الله .

فقاموا بكل وجهٍ لله بالله ؛ فلذلك نُصِرُوا ووَجدوا الظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقَتَلَ داودُ
جالوتَ ، وآتاه اللهُ المُلْكَ والحكمة
وعلَّمَهُ مما يشاء ﴾

هيَّبَ الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة فى الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدى داود . وكان كما فى القصة رَبْعَ القامة غير عظيم الجثة ، مختصر الشخص ، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلاع ، ولكن الظفر كان له لأن نصرة الله سبحانه كانت معه .

قوله جل ذكره : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾

فلم يبق منهم أثر ولا عين ، وقتل داودُ جالوتَ . وداود بالإضافة إلى جالوت فى الضخامة والجسامة كان بحيث لا تُتَوَهَّمَ غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم .

استقبلنى وسيفه مسلول وقال لى واحدنا معذول[1]

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ ولكنَّ الله ذو فضلٍ على العالمين ﴾ .

لو تظاهر الخلق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بمشاغلهم شرَّهم عن قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقِّ وإنك لَمِنَ المرسلين ﴾ .

لم يكن فى علمك ولا فى وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التى سلفت ، وإنما وَقَفْتَ عليها بتعريفٍ من قِبَلِ الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم مَن كَلَّم الله ، ورَفَعَ بعضَهم درجاتٍ ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيّدناه برُوحِ القُدُسِ ﴾

جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا فى خصائص التفضيل ، لكل واحدٍ منهم أنوار ، ولأنوارهم مطارح ، فمنهم من هو أعلى نورا ، وأتم من الرفعة وفورا . فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم ، بل حُكْمٌ بالحسنى أدركهم ، وعاقبة بالجميل تداركتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء اللهُ ما اقتتل الذين مِنْ بعدهم مِنْ بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ .

---

(١) وربما كانت (مخذول) .

ولـكنهم مُصَرَّفُون بالمشيئة الأزلية ، ومسلوبون من الاختيـار الذى عليه المدار وبه الاعتبار . والعبودية شدُّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم
من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّة
ولا شفاعة ، والـكافرون هم الظالمون ﴾

يعنى اغتنموا مساعدة الإمكان فى تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَد وانقضاء الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

« الله » اسم تفرّد به الحق — سبحانه فلا سَمِيَّ له فيه . قال الله تعالى : « هل تعلم له سمياً » أى هل تعرف أحداً غيره تسمَّى « الله » ؟

من اعتبر فى هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمتعارض ، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال لا على اشتقاق الألفاظ ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال .

قوله « لا إله إلا هو » : إخبار عن نفى النظير والشبيه ، بما استوجب من التقديس والتنزيه . ومن تحقق بهذه القالة لا يرى ذَرَّةً من الإثبات بغيره أو من غيره ؛ فلا يرفع إلى غيره حاجته ، ولا يشهد من غيره ذرة ، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه ، ويديم لوجوده انفرادَه ، فلا يسمع إلا من الله وبالله ، ولا يشهد إلا بالله ، ولا يُقْبِلُ إلا على الله ، ولا يشتغل إلا بالله ، فهو محوٌ عما سوى الله ، فَمَآلُهُ شكوى ولا دعوى ، ولا يتحرك منه لغيره عِرْقٌ ، فاذا استوفى الحق عبداً لم يَبْقَ للحظوظ — ألبتة — مساغ .

ثم إن هذه القالة تقتضى التحقق بهـا ، والفناء عن الموسومات بجملتها ، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق — سبحانه ، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، فإن ذلكَ أجمعَ آفاتٌ لا تليق بالقِدَم .

وقوله « الحى القيوم » : المتولى لأمور عباده ، القائم بكل حركة ، و (المحوى)[1] ، لـكل عين وأثر .

---

(١) وردت هكذا ويحتمل أن تـكون فى الأصل إما (المحيي) لتتلاءم مع (الحى) أو أن تـكون (المجرى) أى القائم أو (القيوم) على ملـكه :

« لاتأخذه سنة ولا نوم » لأنه أحدي لا ترهقه غفلة ، وصمد لا تمسه علة ، وعزيز لا تقاربه قلة ، وجبار لا تميزه عزلة ، وفَرْدٌ لا تضمه جثة ، ووتر لا تحده جهة ، وقديم لا تلْحَقُه آفة ، وعظيم لا تدركه مسافة .

تَقَدَّس مِن جمالِه جلالُه ، وجلالُه جمالُه ، وسناؤه بهاؤه ، وبهاؤه سناؤه ، وأزله أبده ، وأبده سرمده ، وسرمده قِدَمُه ، وقدمه وجوده

قوله جل ذكره : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾

مِلْكاً وإبداعا ، وخَلْقاً واختراعا .

﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾

من ذا الذى يتنفس بنَفَس (. .)[1] إلا بإجرائه ، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه . ومن ظنَّ أنه يتوسل إليه باستحقاقٍ أو عمل ، أو تذلل أو أمل ، أو قربة أو نسب ، أو علة أو سبب — فالظنُّ وطنه والجهل مألفه والغلط غايته والبعد قُصاراه .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .

لأنه لا يخرج عن علمه معلوم ، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم .

﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

يعنى من معلوماته ، أى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا باذنه .

فأى طمع لها فى الإحاطة بذاته وحقه ؟ وأنَّى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عِزِّه أمَد ، ولا يدركه حَدٌّ ؟!

قوله جل ذكره : ﴿وَسِعَ كرسيُّه السموات والأرض﴾ .

خطاب لهم على قدر فهمهم . وإلا فأى خَطَرٍ للأكوان عند صفاته ؟

جلَّ قَدْرُه عن التعزز بعرش أو كرسى ، والتجمل بجنٍ أو إنْسِى .

---

(١) مشتبهة فى (ص) ويحتمل أن تكون مشطوبة لزيادتها فهناك شبه علامة على ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾

كيف تُتْعِبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلْقُ الذرة والكونِ بجملته — له سواء ؛ فلا من القليل له نَيَسَّر ، ولا من الكثير عليه تَعَسَّر .

قوله جل ذكره : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾

فإن الحجج لائحة ، والبراهين ظاهرة واضحة .

﴿ قد تبيَّن الرشدُ من الغى ﴾

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضيائه ، والحقوق الأزلية معلومة ، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العَدَم .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾

وطاغوتُ كلِّ واحدٍ ما يشغله عن ربه

﴿ ويؤمن بالله ﴾

والإيمان حياة القلب بالله

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهى ، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

﴿ لا انفصامَ لها والله سميع عليم ﴾

فمن تحقق بها سراً ، وتعلَّق بها جهراً فاز فى الدارين وسَعِد فى الكونين .

قوله جل ذكره : ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾

الولى بمعنى المتولى لأمورهم ، والمتفرد بإصلاح شئونهم ، ويصح أن يكون الولى على وزن فعيل فى معنى المفعول فالمؤمنون يقولونَ[1] طاعته . وكلاهما حق : فالأول جمع والثانى فرق ،

---

(١) أخطا الناسخ فكتبها (يقولون) بالقاف ونرجح أنها (يتولون) بالتاء .

وكلُّ جمعٍ لا يكون مقيداً بفرقٍ وكلُّ فرقٍ لا يكون مؤيداً بجمع فذلك خطأ وصاحبه مبطل[1] والآية تُحْمَلُ عليهما جميعاً .

﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾

يعني بحكمه الأزلي صانهم عن الظلمات التي هي الضلال والبدع ، لأنهم[2] ما كانوا في الظلمات قط في سابق علمه .

﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾

ما استهواهم من دواعي الكفر

﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات
أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

باستيلاء الشُبَه على قلوبهم ، فيجحدون الربوبية ، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً .

ويقال يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .

ويقال يخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم بتوسلون أو يَصِلُون إليه بشيء من سكناتهم وحركاتهم .

ويقال يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلَّ أنفسهم ويدخلهم في ظل عنايته .

ويقال يخلصهم عن حسبان النجاة بهم .

ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه
أن آتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيم
ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي
وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي

---

(١) يقصد القشيري من ذلك أن الفرق ضروري وهام ، إذ يتسنى للعبد خلاله أن يؤدي ما عليه من فرائض ، وهذا ركن أساسي في مذهب القشيري وغيره من الشيوخ الثقاة .

(٢) سقطت (ما) والمعنى يتطلبها .

بالشمس من المشرق فأتِ بها من
المغرب فبُهت الذى كفر والله لا يهدى
القوم الظالمين ﴾

عَجَّل الحق سبحانه لاعدائه عقوبة الفرقة قبل أن يعاقبهم بالحرقة ، وهذه العقوبة أشد أثراً فى التحقيق — لو كانت لهم عين البصيرة . وإن الحق سبحانه أخبر أن إبراهيم عليه السلام انتقل مع العدو اللعين من الحجة الصحيحة إلى أخرى ، أوْضَحَ منها — لا لِخَلَلٍ فى الحجة — ولكنْ لقصورٍ فى فهم الكافر ، ومحكٌ مَنْ سُدَّتْ بصائره عن التحقيق تضييعُ الوقت بلا فائدة تُجدِى ، لا بمقدار ما يكون من الحاجة لأمرٍ لابُدَّ منه .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كالذى مرَّ على قريةٍ وهى خاوية على عُروشِها قال : أنَّى يحيى هذه اللهُ بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبِثتَ ؟ قال : لَبِثْتُ يوماً أو بعض يوم قال : بل لَبِثْتَ مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حمارِك ولنجعلك آية للناس ، وانظرْ إلى العِظَامِ كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لَحماً ، فلمَّا تبيَّن له قال : أعْلَمُ أنَّ الله على كل شىء قدير ﴾

لم يكن ذلك سؤال جحدٍ ، ولا قضية جهل ، ولا دلالة شكٍ فى القدرة ، فإن هذا الخبر عن عُزَيْر النبى عليه السلام ، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الشَّكُّ والجهل ، ولكنه كان سؤال تعجُّب ، وأراد بهذه المقالة زيادة اليقين ، فأراه الله ذلك فى نفسه ، بأن أماته

ثم أحياه ثم بعث حماره وهو ينظر إليه ، فازداد يقينا على يقين . وسؤالُ اليقين من الله ، والحيلةُ فى ردِّ الخواطر المشكلةُ ، دَيْدَنُ المتعرفين ، ولذلك (. . . . .)[1] الله سبحانه عُزيرا فى هذه المقالة حتى قدَّر عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال « واعلم أن الله على كل شىء قدير » من الإحياء والإماتة أى ازددت معرفة بذلك ، وأرانى من عظيم الآيات ما ازداد به يقيناً ؛ فإنَّ طعامه وشرابه لم يتغيرا فى طول تلك المدة ، وحماره مات بلا عظام . والطعام والشراب بالتغيير أوْلى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرِنى كيف تحيي الموتى قال : أوَلَمْ تؤمن؟ قال : بلى ، ولكن ليَطْمَئِنَّ قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جُزْءاً ثم ادعهُنَّ يَأتِينَك سَعْيًا ، واعلمْ أن الله عزيز حكيم ﴾ .

قيل كان فى طلب فى زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلاً من عين اليقين[2] .

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه : « أو لم تؤمن قال بلى » كنت أومن ولكنى اشتقتُ إل قولك لى أوَلم تؤمن ، فإن بقولك لى « أو لم تؤمن » تطمينا لقلبى . والمحبُّ أبداً يجتهد فى أن يجد خطاب حبيبه على أى وجه أمكنه . .

---

(١) مشتبهة .

(٢) من أقوال القشيرى التى تتناثر فى كتبه نجد أنه ينظر للمعرفة على أنها ثلاث درجات .

١ — عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ — قلبية ونورها البيان أو عين اليقين :

٣ — كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين ،

ويقول : (علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الأنوار تتبدد أمام شمس حق اليقين) .

اللطائف — التحبير فى التذكير ص ٧٠ — الرسالة ص ٤٣ ؛ ٤٤ والواقع أن القشيرى التزم بهذا الترتيب التزاما دقيقاً ولم يتخل عنه فى كل ما كتب .

وقيل إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله « واعلَمْ أن الله عزيز حكيم » . وإن موسى — عليه السلام — لما سأل الرؤية جهراً وقال : « ربِّ أرِنى أنظر إليك » فَرُدَّ بالجهر صريحاً وقيل له « لن ترانى » .

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأُشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور ، وفى الطيور الأربعة طاووس ، والإشارة إلى ذبحه تعنى زينة الدنيا ، وزهرتها ، والغراب لِحرصه ، والديك لمشيته ، والبط لطلبه لرزقه .

ولما قال إبراهيم عليه السلام : أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قيل له : وأرنى كيف تذبح الحى ؟ يعنى إسماعيل ، مطالبة بمطالبة . فلمَّا وَفَّى بما طولب به وفَّى الحق سبحانه بحكم ما طلب .

وقيل كان تحت ميعاد من الحق — سبحانه — أن يتخذه خليلاً ، وأمارة ذلك إحياء الموتى على يده ، فجرى ما جرى .

ووصل بين[1] قصة الخليل صلى الله عليه وسلم فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عُزَير إذ أراه فى نفسه ؛ لأن الخليل يَرْجُحُ على عزير فى السؤال وفى الحال ، فإن إبراهيم — عليه السلام — لم يَرُدَّ عليه فى شىء ولكنه تَلَطَّف فى السؤال ، وعُزَير كلمه كلام من يُشْبِهِ قولُه قولَ المستَبْعِد ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتمَّ دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التبس على نمرود ما قال إبراهيم — عليه السلام — ربى الذى يحيي ويميت ، فقال « أنا أحيي وأميت » أراد إبراهيم أن يُرِيَهُ الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذى ادَّعى .

وفى هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادةَ اليقين من الله سبحانه وتعالى فى حال النظر[2] .

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام ، فقيل له : « أو لم تؤمن » يعنى أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شىء رأيته « هذا ربى » فلم تَدْرِ كيف بَلَّغْنَاكَ إلى هذه الغاية ، فكذلك يوصلك إلى ما سَمَتْ إليه هِمَّتُك .

---

(١) جميل من القشيرى أن يوضح التماسك والالتئام فى السياق القرآنى بين قصة وقصة .
(٢) خصوصاً فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان .

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعنى النفس ؛ فمَنْ لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يَحْيَ قلبُه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قَطِّعْ بيدك هذه الطيور ، وفَرِّقْ أجزاءها ، ثم ادْعُهُنَّ يأتينك سعياً ، فما كان مذبوحاً بيد صاحب الخلة ، مقطعاً مُفَرَّقاً بيده — فإذا ناداه استجاب له كل جزء مُفَرَّق . . كذلك الذى فَرَّقه الحق وشتَّته فإذا ناداه استجاب :

ولو أنَّ فوق تُرْبَةً وَدَعَوْتَنِي لأَجَبْتُ صَوْتَكَ ، وَالعِظَامُ رُفَاتُ

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثَلِ حبةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابل فى كلِّ سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لِمَن يشاء والله واسعٌ عليم ﴾ .

فالخَلَفُ لهم الجنة ، والذين ينفقون أرواحهم فى سبيل الله فالخَلَفُ عنهم الحقُّ سبحانه ، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته ، ومَنْ أنفق حاله فوجد قربته ؛ فإنفاق المال فى سبيله بالصدقة ، وإنفاق الأحوال فى سبيله بملازمة الصدق ، وبنفى كل حظ ونصيب ، فترضى لجريان حكمه عليك من غير تعبيس القلب ، قال قائلهم :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتركُ ما أريد لما يريد

والإنفاق على ضربين : إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أمَّا العابدون فاذا أنفقوا حَبَّةً ضاعَفَ لهم سبعين إلى ما ليس فيه حساب ، وأما الواجدون فكما قيل :

فلا حَسَنٌ نأتى به يقبلونه ولا إن أسأنا كان عندهم محو

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثُمَّ لا يُتْبِعون ما أنفقوا مناً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

المنُّ شهود ما تفعله ، والأذى تذكيرُك — لمن أحسنت إليه — إحسانَك .

ويقال ينفقون ما ينفقون ثم لا يشهدون ألبتة أفعالهم ولا أعمالهم .

ويقال كيف يمنون بشيء تستعذرونه وتستحقونه .

ويقال لا يمنون بفعلهم بل يشهدون المنة لله بتوفيق ذلك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً والله غنى حليم﴾

يعنى قولٌ — للفقير المجرد — يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجَبِ بفعله ، وما يتبع من إلزام المنة فيه .

ويقال إقرار منك مع الله بعجزك وجُرْمك ، وغفران الله لك على تلك القالة — خيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ بالمنِّ مشوبة ، وبالأذى مصحوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتُبْطِلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كمثلِ صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

إنما يُحْمَلُ جميلُ المنة من الحق سبحانه ، فأمَّا من الخلْق فليس لأحد على غيره مِنَّةٌ ؛ فإنَّ تحمل المنن من المخلوقين أعظم محنة ، وشهود المنة من الله أعظم نعمة ، قال قائلهم :

ليس إجلالُكَ الكبار بِذُلٍّ إنما الذُّلُّ أنْ تُجِلَّ الصِّغَارا

ويقال أفقرُ الخلْق مَنْ ظنَّ نفسَه موسِراً فيَبين له إفلاسه ، كذلك أقل الخلْق قدراً من ظن أنه على شيء فيبدو له من الله ما لم يكن يحتسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَثَلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جَنَّةٍ بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلَها ضِعفين فإن لَّم يُصبْها وابلٌ فَطَلٌّ والله بما تعملون بصير * أيَوَدُّ أحدُكم أن تكون له جَنَّةٌ من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكِبَرُ وله ذريةٌ ضُعَفَاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ، كذلك يُبَيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ .

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق : لمن أنفق فى سبيل الله ، ولمن أنفق ماله فى الباطل ؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء لا يحصل لهم فى الحال إلا الردّ ، وفى المآل[1] إلا التلف . وهؤلاء ظلَّ سعيهم مشكوراً ، وهؤلاء يدعون ثبورا ويَصْلَوْنَ سعيراً هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حَبِطَتْ أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وَبَالهم .

ويقال مَثَلُ هؤلاء كالذى أنبت زرعا فزكا أصله ونما[2] فصله ، وعلا فَرْعُهُ وكثر نَفْعُهُ . ومَثَلُ هؤلاء كالذى خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت — على كبره[3] —

---

(١) وردت (المال) والصحيح أنها (المآل) على عادة القشيرى فى المقابلة بين ما يحدث فى الدنيا وفى الآخرة ؛ بين الحال والمآل .

(٢) وردت (نماء) والصحيح أنها فعل (نما) ليلتحم التركيب الداخلى للأسلوب .

(٣) إشارة إلى ما فى الآية : (وأصابه الكبر) .

حيلته وتواترت من كل وجهٍ وفى كل وقت محنته .... هل يستويان مثلاً ؟ وهل يتقاربان شَبَهًا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومِمَّا أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تنفقون ولَسْتُم بآخذيه إلا أن تُغْمِضُوا فيه واعلموا أنَّ الله غنيٌّ حميد ﴾

لينظرْ كلُّ واحدٍ ما الذى ينفقه لأجل نفسه ، وما الذى يخرجه بأمر ربه . والذى يخرج عليك من ديوانك : فما كان لحظِّك فنفائس ملكك ، وما كان لربك فخصائص مالك الذى لله (فاللُّقْمَةُ لُقْمَتُهُ)[1] ، والذى لأجلك فأكثرها قيمة وأكملها نعمة .

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه ، بل أبصر كيف يقبله منك ، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك ؛ الكلُّ منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً[2] ، ثم يُوفِّي عليك عطاءه ويسمى العطاء جزاء ، يوصلك بتوفيقه برًّا ، ثم يملأ العالَم منك شكراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الشيطان يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يَعِدُكم مغفرة منه وفضلاً والله واسعٌ عليم ﴾

يَعِدُ الشيطانُ الفقرَ لفقره ، والله يَعِدُ المغفرة لكرمه .

---

(١) وردت هكذا (فلقمته لقمته) ويحتمل ان تكون كما أثبتنا ، أو أن تكون فالقيمة لقيمته بدليل مابعدها .

(٢) تأمل كيف يرى القشيرى قيمة العمل الإنسانى : إنه على الحقيقة فضل من الله ولكن من الناحية النسبية فعل للانسان . . . وهذه مسألة هامة تتفرع عنها قضايا كلامية كثيرة يختلف فيها عن المعتزلة .

الشيطانُ يعدكم الفقر فيشير عليكم بإحراز المعلوم ، ويقال يشير عليكم — بطاعته — بالحرص ؛ ولا فقرَ فوقه .

يعدكم الفقر بالإحالة على تدبيركم واختياركم .

يعدكم الفقر بنسيان ما تَعَوَّدْتُموه من فضله — سبحانه[1] .

ويقال يعدكم الفقر بأنه لا يزيد شكايتَك .

ويقال يعدكم الفقر بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه .

ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته .

« ويأمركم بالفحشاء » أى الرغبة فى الدنيا ، ويقال بالأسباب التى تقوى الحرص ، ويقال بكثرة الأمل ونسيان القناعة ، ويقال بمتابعة الشهوات ، ويقال بإيثار الحظوظ ، ويقال بالنظر إلى غيره ، ويقال بإخطار شىء سواه ببالك .

ويقال بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق .

ويقال بالرجوع إلى ما تركته لله

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » : الفضل الموعود — فى العاجل — القناعة ، وفى الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (. . . .)[2] والغفران .

ويقال فى العاجل الظفر بالنفس ، ويقال فتح باب العرفان ، ونشر بساط القرب ، والتلقى لمكاشفات الأُنس .

قوله جل ذكره : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتى خيراً كثيراً وما يَذَّكَّر إلا أولوا الألباب ﴾

---

(١) أضفنا (سبحانه) ليمتنع اللبس وهى غير موجودة فى (ص) .
(٢) هنا لفظة مشتبهة أقرب ما تكون إلى (العفو) ولكننا آثرنا عدم إثباتها فى النص لعدم التأكد .

الحكمة : يحكم عليكم خاطرُ الحقِّ لا داعى النفس ، وتحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان .

ويقال الحكمة صواب الأمور .

ويقال هى ألا تحكم عليك رعونات البشرية .

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره)[1] .

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى ، والسَّفَهُ مخالفة أمره .

ويقال الحكمة شهود الحق والسَّفَهُ شهود الغير

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ ﴾

قوم تَوَعَّدَهم بعقوبته ، وآخرون توعدهم بمثوبته.. وآخرون توعدهم بعلمه ؛ فهؤلاء العوام[2] وهؤلاء الخواص . قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » فلا شىء يوجب سقوط العبد من عين الله كمخالفته لعهوده معه بقلبه ، فليحذر المريد من إزلال[3] نفسه فى ذلك غايةَ الحذر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تُبْدُوا الصدقات فَنِعِمَّا هى ، وإن تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لكم ، ، ويُكَفِّرُ عنكم من سيئاتِكم ، والله بما تعملون خبير ﴾

---

(١) ربما وقع الناسخ فى خطأ حين وضع هذه الجملة فى هذا المكان ، والأقرب أن تكون بعد كلمة (زواجر الشيطان) فنحن نعرف من مذهب القشيرى أنه يرى أن الشيطان لا يملك أن يغرى الخلق (لأنه لو كان قادراً على ذلك لكان يمسك على الهداية نفسه ، ومن عجز أن يحافظ على نفسه كان فى إغراء غيره أشد عجزاً) قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

(٢) العوام هنا تنصرف إلى الموعودين بالمثوبة والمتوعدين بالعقوبة .

(٣) (إزلال) بالزاى معناها الايقاع فى الزلة والتسبب فى ارتكابها ، أوضحناها حتى لا تلتبس (بإذلال) ومع ذلك فيمكن قبول (إذلال) بالذال إذا فهمنا أن سقوط العبد من عين الله هو (ذلة) لنفسه .

إنْ أظهَرْتَ صحبتَكَ معنا وأعلنتَ فلقد جوَّدْتَ وأحسنْتَ ، وإنْ حفظت سِرَّنا عن دخول الوسائط بيننا صُنْتَ شروط الوداد ، وشَيَّدت من بناء الوصلة العماد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عليك هداهم ولكنَّ الله يهدى مَن يشاء ، وما تنفقوا مِنْ خَيْرٍ فلأنفسِكم ، وما تُنفِقُونَ إلا ابتغاء وجهِ الله ، وما تُنفقُوا مِنْ خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمُون ﴾

لكَ المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والرتب الشريفة ، والمنازل العلية ، والسنن المرضية . وأنت سيد الأولين والآخرين ، ولا يدانيك أحدٌ — فضلاً عن أن يساميك ، ولكن ليس عليك هداهم فالهداية من خصائص حقنا ، وليس للأغيار منه شظية . يا محمد : أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ للفقراء الذين أُحصِرُوا فى سبيلِ الله لا يستطيعون ضَرْباً فى الأرض ، يحسَبهُم الجاهِلُ أغنياء مِنَ التعفف، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون النَّاسَ إلحافاً ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله به عليم ﴾

أخذ عليهم سلطانُ الحقيقة كل طريقٍ ، فلا لهم فى الشرق مذهب ، ولا لهم فى الغرب مضرب . كيفما نظروا رأوا سرادقات التوحيد محدقة بهم :

كأنَّ فجاجَ الأرض ضاقَتْ برَحْبِها عليهم فما تزداد طولاً ولا عرضاً

---

(١) من هذه الفقرة يتضح موقف التصوف الإسلامى الحق في نظرته إلى الرسول صلوات الله عليه وليس في الأمر — كما نرى — جموحٌ أو شطط (قارن ذلك بنظرة ابن عربى وتلاميذه) .

ولا يسلم لهم نفس مع الخلق ، وأنّى بذلك ولا خَلْق ! ! وإذا لم يكن فإثبات ما ليس شِرْكٌ (سقها)[1] فى التوحيد .

والفقير الصادق واقف مع الله بالله ، لا إشراف للأجانب عليه ، ولا سبيل لمخلوقٍ إليه تنظره عين الأغيار فى لبسة سوى ما هو به ؛ قال تعالى : «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم . تعرفهم يا محمد — أنت — بسيماهم ، فليست تلك السيماء مما يلوح للبصر ولكنها سيماء تدركها البصيرة . لا إشراف عليهم إلا بنور الأحدية .

ويقال « تعرفهم بسيماهم » : استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم ، وصياح أسرارهم إلى العرش (نشاطاً عنه) عند ذبول ظاهرهم عن الانتعاش[2] .

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس إلحافاً ، فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال — لما يشير إليه دليل الخطاب — فذلك صيانة لهم ولسر قصتهم ، لئلا يلاحظهم الخلْق بعين السؤال ، وليس على سرّهم ذرة من الإثبات للأغيار[3] .

ويقال : « أُحصِرُوا فى سبيل الله » : وقفوا على حكم الله ، وأُحْصَرُوا نفوسَهم على طاعته وقلوبَهم على معرفته ، وأرواحَهم على محبته ، وأسرارَهم على رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
سِرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم
ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾

مادام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً ، فإذا نفد المال لا يفترون عن شهوده لحظةً ليلاً ونهاراً .

---

(١) مشتبهة وقد أثرنا أن ننقلها كما هى وربما كانت (سقما) أى علة فى التوحيد .
(٢) العبارة فيها شيء من غموض نتيجة اشتباه مابين القوسين ولكن المراد — والله أعلم — أنه بينما تبدو ظواهرهم ذابلة بحكم التواضع والانكسار فإن أسرارهم جادة فى التسبيح من حول العرش .
(٣) هنا يبدو القشيرى متأثراً بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون
إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان
مِنَ المسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع
مثل الربا ، وأحلَّ الله البيعَ وحرَّم
الربا ، فمَن جاءه موعظة من ربه
فانتهى فله ماسلف ، وأمْرُهُ إلى الله
ومَنْ عاد فأولئك أصحاب النـار
هم فيها خالدون ﴾

مَنْ أعرض عن الأمر ، ورخَّص لنفسه بما يسوِّله له خاطره من التأويل فلا استقلال لهم فى الحال ولا انتعاش فى المآل ؛ خسروا فى عاجلهم ولم يربحوا فى آجلهم .

ومَن انتبه بزواجر الوعظ ، وكَبَحَ لجامَ الهوى ، ولم يُطْلِق عنان الإصرار فَلَهُ الإمهال فى الحال ، فإنْ عاد إلى مذموم تلك الأحوال فَلْيَنْتَظِروا أوشكَ الاستئصالِ وفجاءة النَّكال .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا ويُرْبِى الصدقاتِ
والله لا يحبُّ كُلَّ كَفَّار أثيم ﴾ .

ما كان بإذن منه — سبحانه — من التصرفات فمقرون بالخيرات ، ومصحوب بالبركات .
وما كان بمتابعة الهوى يُسَلَّط عليه المَحْقَ ، وكانت عاقبة أمره الخسران

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات
وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم
يحزنون ﴾ .

إن الذين كانوا لنا يكفيهم ما يجدون منَّا ، لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾

الاكتفاء بموعود الربِّ خيرٌ للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .

ومقصودُك من تسويلات النفس ، وموعودك مما ضمنه الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن لم تفعلوا فَأْذَنُوا بحربٍ من الله ورسوله،وإن تُبْتُمْ فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون ﴾

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار ، ولا قَدْرٌ ولا أخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كان ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى ميسرة وَأن تَصَدَّقُوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

إذا تقرر عند القاضى إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حَبْسه ، وإن ظهرت لدى الحق حجة المفلس فذلك مرتهن بحق خصمه ، ولكنه فى إمهال وإنظار. والرب لا يحكم بهذا علينا ؛ فمع علمه بإعسارنا وعجزنا ، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له — يرحمنا .

قوله « إلى ميسرة » : ليس للفقير المفلس وجه يحصل له منه شىء إلا من حيث ما جعل الله سبحانه من سهم الغارمين ، فأمَّا من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد .. وأنَّى للمفلس به ؟ !

وأمَّا الربح فى التجارة من تقليب رأس المال والتصرُّف فيه .. فأنَّى للمفلس به ؟ !

ما بقى للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (. . . . .)[1] وإن كان ضعيفاً ، فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما المفلس عن قوته — كما هو مفلس عن ماله — ما بقى له وجه إلا ما يسبب له مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾ .

---

(١) هنا عبارة مطموسة .

الرجوع على ضربين : بالأبشار والنفوس غداً عند التوفى ، وبالأسرار والقلوب فى كل نَفَسٍ محاسبة ، نقدٌ ووعد ، فَنَقْدُ مطالبته أحقُّ مما سيكون فى القيامة من وعده .

وقال للعوام : « واتقوا يوماً » وقال للخواص : « وإياى فاتقون »

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بِدَيْنٍ
إلى أَجَلٍ مُسمىً فاكتبوه وليكتب
بينكم كاتِبٌ بالعدل ولا يَأْبَ كاتبٌ
أن يكتب كما عَلَّمه الله فليكتب
وليُمْلِلِ الذى عليه الحقُّ وليَتَّقِ الله
ربَّه ولا يَبْخَسْ منه شيئاً فإن
كان الذى عليه الحق سفيهاً
أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمل هو
فليُمْلِلْ وليُّه بالعدل ، واستشهدوا
شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا
رجلين فرجل وامرأتان مِمَّن ترضون
من الشهداء أنْ تَضِلَّ إحداهما فتذكرَ
إحداهما الأخرى ولا يأبَ الشهداء
إذا ما دُعُوا ، ولا تسأموا أن
تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أَجَلِه
ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة
وأدنى ألا ترتابوا إلاَّ أن تكون
تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس
عليكم جُناح ألا تكتبوها ،
وأشهِدوا إذا تبايعتم ، ولا يُضَارَّ
كاتبٌ ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه
فُسُوقٌ بكم ، واتقوا الله ويُعلِّمُكُمُ

الله ، والله بكل شىء عليم * وإن
كنتم على سفَرٍ ولم تجدوا كاتباً
فَرِهَانٌ مقبوضة فإنْ أمِنَ بعضكم
بعضاً فليؤد الذى ٱؤْتُمِنَ أمانَته
وَلْيَتَّقِ اللهَ ربَّه ولا تكتموا
الشهادة وَمَن يكتمها فإنه آثِمٌ
قلبُه والله بما تعملون عليم » .

أَمَرَ الله سبحانه الخَلْقَ بالقيام بالصدق ، وعَلَّمَهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لئلا يُجْرِىَ — بعضُهم على بعض — حيفاً ، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم ، وموجب رِفْقِهِ بهم كيلا يتخاصموا . فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليومَ ما يقطع الخصومة بينهم فبالحرى أن يجرى ما يرفع فى الآخرة آثار الخصومة[1] بينهم ، وفى الخبر المنقول : تواهبوا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالى عليكم ، فإن الكريم إذا قدر غفر .

وفيما شرع من الدَّيْن[2] رِفْق بأرباب الحاجات ، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتيال، ويضيق به الصدر عن الاحتمال ، ويمنعه حفظ التجمل عن الكدية والسؤال ، فأذِنَ له فى الاستدانة لِيَجْبُرَ أمرَه فى الحال ، وينتظرَ فضل اللهِ فى المآل ، وقد وعد على الإداتة الثوابَ الكثير ، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ للهِ ما فى السموات وما فى الأرض
وإن تُبْدُوا ما فى أنفسكم أو تُخفوه
يُحاسِبْكم به اللهُ فيغفرُ لِمَن يَشاء

---

(١) وردت (الحكومة) ونظن أنها خطأ فى النسخ وأن الأصل (الخصومة) .
(٢) ضبطناها هكذا وذلك هو الملائم للسياق .

ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ .

من المعانى والدعاوى ، ويقال من القصود والرغائب ، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما « تبديه » : العبادة ، « وما تخفيه » الإرادة .

ويقال ما « تخفيه » : الخطرات و « ماتبديه » : « العبارات » .

ويقال ما « تخفيه » : السكنات والحركات[1]

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة ، فلا تغفل[2] خطرة ولا تحمل وقتك نَفَساً[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ آمن الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربهِ والمؤمنون كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكته وكتبِهِ ورُسُله لا نُفَرِّقُ بين أَحَدٍ من رُسُلِهِ وقالوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَك رَبَّنا وإليك المصير ﴾ .

هذه شهادة الحق – سبحانه — لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — بالإيمان ، وذلك أتمُّ له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقال آمن الخلْق كلُّهم من حيث البرهان وآمن الرسول — عليه السلام — من حيث العيان .

ويقال آمن الخلْق بالوسائط وآمن محمد — صلى الله عليه وسلم — بغير واسطة .

---

(١) ربما كانت فى الأصل « تخفيه » السكنات « وتبديه » الحركات وسقطت تبديه من الناسخ .

(٢) وردت (تنقل وربما صحت على أساس أن تعقل (بمعنى تحبس) أو بمعنى استخدام العقل ، وهو فى هذه الحالة آفة تعترض الفناء الكامل .

(٣) ضبطناها هكذا لأن الانتباه إلى (النَّفَس) أمارة عدم اكتمال الفناء .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القَدْر فقال « آمن الرسول » ، ولم يقل آمنتَ ، كما تقولَ لعظيم الشأن من الناس : قال الشيخ ، وأنت تريد قلتَ .

ويقال آمن الرسول والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولكن شتان بين إيمان وإيمان ، الكلُّ آمنوا استدلالا ، وأنت يا محمد آمنتَ وصالا .

قوله جل ذكره ﴿ لا يكلِّف الله نَفْساً إلا وُسْعَها ﴾

لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير ، كل ذلك رِفق منه وفضل .

﴿ لها ما كَسَبَتْ ﴾

من الخيرات .

﴿ وعليها ما اكْتَسَبَتْ ﴾

ما تكسبه من التوبة التى تُنَجِّى من كسب[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا ولا تَحمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربّنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾

كان إذا وقعت حاجة كلّموه بلسان الواسطة . قالوا « ياموسى ادْعُ لنا ربك » وهذه الأمة قال لهم : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

وكانت الأمم (السالفة)[2] إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضى مدة لقبول التوبة ، وفى هذه الأمة قال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » .

وكانت الأمم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم ، وخصائصهم أكثر من أن يأتى عليه الشرح .

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى ان القشيرى فى استخراج إشارته من (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) يتجه إتجاهاً مخالفا للتفسير التقليدى ، ولكن الواقع ان إشارة القشيرى مرتبطة بمذهبه فى أن الله خالق كل شىء حتى أفعال العباد ، فهو خالق التوبة وحين يتقبلها تعود (على) العبد ، انظر مثلا تفسيره (ويتوب عليكم) من سورة النساء .. من هذا الكتاب) .

(٢) (السالفة) موجودة فى الهوامش فأثبتناها فى موضعها من المتن .

قوله جل ذكره : ﴿ واعفُ عنَّا ﴾

فى الحال

﴿ واغفر لنـا ﴾

فى المـآل

﴿ وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا

على القوم الـكافرين ﴾

فى جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك ، فأنت مولانا فاجعل النصرة لنـا على ما يشغلنا عنك .

ولما قالوا « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين ، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم ، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة .

والحمد لله رب العالمين .

السورة التى يذكر فيها آل عمران

« بسم الله الرحمن الرحيم »

اختلف أهل التحقيق فى اسم « الله » هل هو مشتق من معنًى أم لا ؟ فـكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنى ، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص[1] ، يجرى فى وضعه مجرى أسماء الأعلام فى صفة غيره ، فاذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فُهومُهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه . وحقُّ هذه القالة أن تـكون مقرونة بشهود القلب فاذا قال بلسانه « الله » أو سمع بآذانه شهد بقلبه « الله » .

وكما لا تدل هذه الـكلمة على معنى سوى « الله » لا يـكون مشهودُ قائلها إلا « الله » فيقول بلسانه « الله » ، ويعلم بفؤاده « الله » ، ويعرف بقلبه « الله » ، ويحب بروحه « الله » ،

(١) وردت (الاقتصاص) .

ويشهد بسره « الله » ، ويتملق[1] بظاهره بين يدى الله ، ويتحقق بسرّه الله ، ويخلو بأحواله لله وفى الله؛ فلا يكون فيه نصيب لغيرالله ، وإذا أشرف على أن يصير محواً فى الله لله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله[2] الرحمن الرحيم استبقاء لمهجتهم أن تتلف ، وإرادةً فى قلوبهم أن تنق ؛ فالتلطفُ سُنَّة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ الم * الله ﴾

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك ، فأنت فى أسر الغفلة لا تهتدى إلى صلاحك ورشدك ، وهو مجرٍ مايجبرك ، وكافٍ بما ينصرك ، فبغير سؤالك — بل بغير علمك بحالك — يكفيك من حيث لا تشعر ، ويعطيك من غير أن تطلب .

والإشارة من اللام إلى لطفه بك فى خفىّ السِّر حتى أنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يثبتك فيه . والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلقات الطِّلْبَةِ من الأولياء ، فلا يتحرك فى العالم شىء ، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال فى قوله : « كل يوم هو فى شأن » إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء — لم يكن ذلك ببعيد .

ويقال تفرّق عن القلوب — باستماع هذه الحروف المقطعة التى هى خلاف عادة الناس فى التخاطب — كلُّ معلومٍ ومرسوم ، ومعتاد وموهوم ، من ضرورة أو حِسٍّ أو اجتهاد ، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات ، وصفّى الأسرار عن المعتادات والمعهودات يَرِدُ هذا الاسم وهو قوله : « الله » على قلبٍ مقدَّسٍ من كل غَيْرٍ ، وسِرٍّ مصفىٍّ عن كل كيف ؛ فقال « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

فهو الذى لا يلهو فيشتغل عنك ، ولا يسهو فتبقى عنه ، فهو على عموم أحوالك رقيبُ سِرِّك ؛ إنْ خلوتَ فهو رقيبك ،وإن توسطت الخَلْقَ فهو رقيبك[3] ، وفى الجملة — كيفما دارت بك الأحوال — فهو حبيبك .

---

(١) إستخدم القشيرى هذا الفعل فى موضع مماثل عند قوله (تذكير ماسلف من الإنعام فتح لباب التملق فى اقتضاء امثاله فى المستقبل) وفى موضع آخر (فيحمله صدق الإرادة على التملق والتضرع ص ٢٤٨ من هذا الجزء .

(٢) وردت (بقو) .

(٣) وردت فهو (قريبك) والمعنى يحتملها ولكن الانسجام فى الأسلوب يتطلب (رقيبك) مكررة

قوله جل ذكره : ﴿ نَزَّلَ عليكَ الكتابَ بالحقِّ ﴾ .

وما كنتَ يا محمد تدرى ما الكتاب ، ولا قصة الأحباب ، ولكنا صادفك اختيار أزلىّ فألقاك فى أمرٍ عجيبٍ شانُه ، جَلِىٌّ برهانُه ، عزيزٍ محلُّه ومكانُه .

﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بين يديه ﴾ .

أى محققاً لموعوده لك فى الكتاب على ألسنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل * مِن قبلُ هدًى للناسِ وأنزل الفُرقان ﴾ .

أى إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُبَناً على المرسلين فما أخْلَيْنَا كتاباً من ذِكْرِكَ ، قال قائلهم :

وعندى لأحبابنا الغائبين صحائفُ ذِكرُك عنوانُها

وكما أتممنا بك أنوار الأنبياء زيَّنا بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ﴾ .

وهو ذُلُّ الحجاب ، ولكنهم لا يشعرون .

« والله عزيز » على أوليائه « ذو انتقام » من أعدائه ، عزيز يطلبه كل أحد ، ولكن لا يجده — كثيراً — أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لايخفى عليه شىء فى الأرضِ ولا فى السماء ﴾ .

لا يتنفس عبدٌ نَفَساً إلا والله سبحانه وتعالى مُحْصِيه[1] ، ولا تحصل فى السماء والأرض ذرة لا وهو سبحانه مُحْدِثُهُ ومُبْدِيه ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه .

هذا على العموم ، فأمَّا على الخصوص : فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيها ، ولا رجع أحدٌ إليه فى نازلة إلا وهو كافيها .

---

(١) وردت (محيصة) وهى خطا من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُصَوِّركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ .

هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة ، وهو الذى قدَّر أحوالكم فى الأزل كيف شاء ، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

فلا يُعَقِّبُ حكمَهُ بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتَشابِهات فأمَّا الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيَتَّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنةِ وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العِلْم يقولون آمنا به ، كلٌّ مِّنْ عِندِ ربِّنا ، وَمَا يذَّكرُ إلا أولوا الألباب ﴾

جَنَّسَ عليهم الخطاب ؛ فمِنَ ظاهرٍ واضح تنزيله ، ومن غامض مشكل تأويله . القِسْم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقِسْم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها ، فسبيلُ العلماء الرسوخُ فى طلب معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الوقوف فمُقابَلٌ بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلَّموه إلى عالم الغيب .

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب ، فما سنح لفهومهم من لائح التعريفات بنَوْا (عليه)[1] إشارات الكشف .

---

(١) فى ص (بنوا على) والأصوب (بنوا عليه) حتى تتماسك العبارة لأن الإشارة تبنى على التعريف .

إنْ (طولبوا)[1] باستدامة الستر وطيِّ السِّر تخارسوا عن النطق ، وإنْ أُمِروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ، ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأمَّا الذين أُيِّدوا بأنوار البصائر فمستضيئون بشعاع شموس الفهم ، وأمَّا الذين أُلبسوا غطاء الريب ، وحرموا لطائف التحقيق ، فتتقسم بهم الأحوال وتَتَرجَّمُ بهم الظنون ، ويطيحون فى أودية الرَّيْبِ والتلبيس ، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾

ومَنْ وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور ، وصافيات اليقين . وأمَّا أصحاب العقول الصاحية ففى صحبة التذكر ، لظهور البراهين و (. . . .)[2] أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هَدَيْتَنا
وَهَبْ لنا من لدُنك رحمة إنَّكَ
أنت الوَهَّاب ﴾

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب[3] .

ويقال حين صدقوا فى حسن الاستغاثة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا إنَّكَ جَامِعُ الناس ليومٍ
لا ريب فيه إنَّ الله لا يُخْلِفُ
الميعاد ﴾

اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب ، وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب ،

---

(١) فى ص (طالبوا) والأوفق أن تُبنى للمجهول مثل (أمِروا) التى بعدها ، لأن فاعليتهم حينئذ مفقودة .

(٢) مشتبهة .

(٣) ربما يقصد القشيرى من هذه العبارة أنهم أبداً طامعون فى الهداية محتاجون ـ لا لأعمالهم ـ بل لفضل الله ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون بأنهم ما زالوا بعيدين عن التمام ، وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها « ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً » .

اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال ، وغداً جمع الأبشار لشهود الأحوال ، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾

فلا فداء ينفعهم ، ولا غناء يدفعهم ، ولا مال يُقبَلُ منهم ، ولا حجاب يُرفَع عنهم،ولا مقال يسمَع فيهم ، بهم يُسَعَّرُ الجحيم ، ولهم الطرد الأليم ، والبعد والحميم .

قوله جل ذكره : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كَذَّبوا بآيتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴾

أصرُّوا فى العتوِّ على سَنَنِهم ، وأَدَمْنَا لهم فى الانتقام سَنَنَنَا ، فلا عن الإصرار أقلعوا ، ولا فى المَبَارِّ طَمِعُوا ، ولعمرى إنهم هم الذين نَدِموا وتحسَّرُوا على ما قدَّموا — ولكنْ حينما وجدوا البابَ مسدوداً ، والندمَ عليهم مردودا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ للذين كفروا سَتُغْلَبُون وتُحْشَرون إلى جهنم وبئس المِهاد ﴾

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق فى الآجل[1] ، ولا تكون لهم لذةُ عيشٍ فى العاجل ، والذى يلقونه فى الآخرة من شدة العقوبة بالحُرْقة فوق ما يصيبهم فى الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة[2] ، ولكن سَقِمتْ البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب .

---

(١) يشير القشيرى بهذا إلى الآية الكريمة « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم » .

(٢) أما الخواص فيرون رؤية الله منتهى آمالهم ، وصدُّه عنهم أشد عليهم من عذاب السعير ، يقول البسطامى : « لله خواصٌ من عباده لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته ساعة لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار »

قوله جل ذكره : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة
تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة
يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد
بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة
لأولى الأبصار ﴾

إذا أراد اللهُ إمضاء أمرٍ قلَّل الكثير فى أعين قوم ، وكثَّر القليل فى أعين قوم ، وإذا لبَّس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم ، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهواتِ مِن النساء
والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب
والفضة والخيل المسومة والأنعام
والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله
عنده حُسْنُ المآب ﴾

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو فى معناها ، وفى الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها . وأصعب العوائق فى هذه الطريق الشهوة الخفية . وأداء الطاعاتِ على وجه الاستحلاء معدودٌ عندهم فى جملة الشهوة الخفية . ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك ، وكأنه فى حال ما يناجيك يناغيك ، فإنه بكل لطيفة يصفك (فيطريك)[2] وتحتها خُدَعٌ خافية . ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا)[3] بإثباته فى لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله .

---

(١) من هذا نفهم أن ترتيب ملكات الاطلاع عند القشيرى هو على هذا النحو : البصر ثم البصيرة ثم السر
(٢) مستدركة فى الهامش فأثبتناها فى موضعها .
(٣) نظن أن (لا) زائدة لأن السعادة التى تدرك العبد لا تتم إلا (بإثباته فى . .) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مُطَهَّرة ورضوانٌ من الله والله بصير بالعباد ﴾

بيَّن فضيلة أهل التقوى على أرباب الدنيا ، فقال : هؤلاء لهم متابعة المنى وموافقة الهوى وأولئك لهم الدرجات العُلى ، والله بصير بالعباد ؛ أنزل كل قوم مَنْزِلَه ، وأوصله إلى ما لَهُ أهلَه .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمَنَّا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنا عذاب النار ﴾

أى ينقطعون إلينا بالكلية ، ويتضرعون بين أيدينا بذكر المحن والرزية ، أولئك ينالون منا القربة والخصوصية ، والدرجات العليَّة ، والقِسَم المُرضيَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمُنْفِقين والمستغفرين بالأسحار ﴾

الصبرُ حبسُ النَّفْس ، وذلك على ثلاث مراتب :

صبر على ما أُمرَ به العبد ، وصبر عما نُهِىَ عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد ؛ إمَّا فى فوات محبوبك أو هجوم ما لا تستطيعه[1] .

فإذا ترقيتَ عن هذه الصفة ـ بألا تصيبك مشقةٌ أو تنال راحةٌ ـ فذلك رضاً لا صبر[2] .

ويقال الصابرين على أمر الله ، والصادقين ، فيما عاهدوا الله .

و « القانتين » ، بنفوسهم بالاستقامة فى محبة الله .

---

(١) فوات المحبوب صدُّه عنك وهجره لك ، والهجوم الذى لا تستطيعه هو الذى (يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك ، ومنهم من تصرفه الهَوَاجم ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة ، أولئك سادات الوقت) الرسالة ص ٤٤ .

(٢) لاحظ الفرق بين الرضا والصبر .

و « المستغفرين » عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم فى الله[1]

ويقال : « الصابرين » بقلوبهم و « الصادقين » بأرواحهم و « القانتين » بنفوسهم ، و « المستغفرين » بألسنتهم .

ويقال « الصابرين » على صدق القصود و « الصادقين » فى العهود و « القانتين » بحفظ الحدود و « المستغفرين » عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد .

ويقال « الصابرين » الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب . وصبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى، حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم[2] شىء من الدنيا والعقبى .

و « الصادقين » الذين صدقوا فى الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا ، ثم صدقوا حتى شهدوا ، ثم صدقوا حتى وجدوا ، ثم صدقوا حتى فقدوا .. فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود[3] .

و « القانتين » الذين لازموا الباب ، وداوموا على تجرّع الاكتئاب ، وتركوا المحاب ، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب .

و « المُنْفِقين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)[4] ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظ لهم فى العاجل الآجل ، استهلاكا عند القرب والوصال بما لقوا من الاصطلام والاستئصال[5] .

و « المستغفرين » عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الاسحار يعنى ظهور الإسفار ، وهو فجر القلوب لا فجرٌ يظهر فى الأقطار .

---

(١) قارن ذلك بما يحكيه المناوى فى (طبقاته) وابن الجوزى فى (صفة الصفوة) عن رابعة أنها كانت تردد : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه) .

(٢) قواطع الدنيا معروفة أما قواطع العقبى فهى تعليق العمل المبذول بالاجر ، إما الطمع فى المثوبة أو الخوف من العقوبة .

(٣) هذا تلخيص دقيق للمعراج الروحى ينبغى أن نتمهل عنده لحسن فهمه واستيعابه .

(٤) مستدركة فيما بين السطور فأثبتناها فى موضعها .

(٥) الاستئصال هو الذى عبر عنه القشيرى فى رسالته بقوله : (كأس تصطلمهم منهم وتفنيهم وتختطفهم ولا تبقيهم ، كأس لا تبقى ولا تذر ، تمحوهم بالكلية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية) الرسالة ص ٤٣

قوله جل ذكره : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لا إله إلا هو ﴾

أى عَلِمَ اللهُ وأخبر اللهُ وحَكَمَ اللهُ بأنه لا إله إلا هو ، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق ، وأوّلُ مَنْ شهد بأنه اللهُ — اللهُ ، فشهد فى آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلى ، وأخبر عن وجوده الأحدى ، وكونه الصمدى ، وعونه القيومى ، وذاته الدهومى ، وجلاله السرمدى ، وجماله الأبدى . فقال : « شهد الله » ثم فى آباده ، « شهد الله » أى بَيَّنَ اللهُ بما نَصَبَ من البراهين ، وأثبت من دلائل اليقين ، وأوضح من الآيات ، وأبدى من البينات . فكلُّ جزء من جميع ما خلق وفطر ، ومن كتم العدم أظهر ، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل ، من أعيان مستقلة ، وآثار فى (ثانى)[1] وجودها مضمحلة ، وذوات للملاقاة قابلة ، وصفات فى المَحَالِّ متعاقبة — فهو لوجوده مُفْصِح ، ولربوبيته موضِّح ، وعلى قِدَمِه شاهد ، وللعقول مُخْبِر بأنه واحد ، عزيز ماجد ، شهد سبحانه بجلال قَدْره ، وكمال عزه ، حين لا جحد ولا جهود[2] ولا عرفان لمخلوق ولا عقل ، ولا وفاق ، ولا كفر ، ولا حدثان ، ولا غير ، ولا إلحاد ، ولا شِرْك ، ولا فهم ولا فكر ، ولا سماء ولا فضاء ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا وصول للمزدوجات[3] ، ولا فضول باختلاف الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ والملائكةُ ﴾

لم يؤيِّد شهادته بوحدانيته بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيَّدَهُم ، حين وفَّقهم بشهادته وسدَّدهم ، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم .

قولة جل ذكره : ﴿ وأولوا العِلم ﴾

وهم أولياء بنى آدم إذ علموا جلال قدرته ، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم ، فشهدوا عن شهود وتعيين ، لا عن ظن وتخمين ، إن لم يدركوه — اليوم —

---

(١) ربما كانت فى الأصل فى (شانِ) وجودها ... بتخفيف الهمز .

(٢) ربما كانت فى الأصل (جحود) ، ويحتمل أنها (جهود) فيكون المقصود الجهود الإنسانية الكسبية .

(٣) ربما قصد منها كل شىء وضده ، وربما كانت (للدرجات) .

ضرورة وحِسًّا ، لم يعتقدوه ظنًّا وحَدْساً ؛ تعرَّف إليهم فعرفوه ، وأشهدهم فلذلك شهدوا ، ولو لم يقُلْ لهم إنه مَنْ هو لَمَا عرفوا مَنْ هو .

ولكنَّ العلماء يشهدونِي بصحو عقولهم ، والمُوَحِّدُون يشهدون بعد خمودهم ؛ فهم كما قيل :

مُسْتَهْلَكُون بقهر الحق قد هَمَدُوا واستُنْطِقُوا بعد افتنائهمُ بتوحيد

فالمُجْرِى عليهم ما يبدو منهم — سواهم ، والقائمُ عنهم بما هم عليه وبه — غيرُهم ، ولقد كانوا لكنهم بانوا ، قال قائلهم :

كتابى إليكم بعد موتى بليلة ولم أدرِ أنِّى بعد موتىَ أكتب

وأولو العلم على مراتب : فَمِنْ عالِمٍ نَعْتُه وفاق ورهبانية ، ومن عالم وصفه فناء وربّانية ، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره ، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ، ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حججه وتوحيده بحديث يخرجه (. . . .)[1] ، وعالمٍ لاطفه حتى أحضره ثم كاشَفه فقهره ، فالاسم باقٍ ، والعين محو ، والحكم طارق والعبد محق ، قال قائلهم .

بنو حق غدوا بالحق صِرفاً فنعت الخلْق فيهو مستورُ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم ، وعند عِلْمِهم بأنفسهم ، فأما أعمالهم[2] أعيانهم فمخلوقة ، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمسبوقة ، وذات الحق لا توصف بقبول حدثان ، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات ، تقدَّس الحق عن كل ضدٍّ وندٍّ ، ووصل وفصل ، وجمع وفرق ، وعين وخلق ، وملك وفلك ، ورسم وأثر ، وعبد وبشر ، وشمس وقمر ، وشخص وغَبَر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الدينَ عند الله الإسلام ﴾ .

---

(١) مشتبهة .

(٢) نرجح أنه فى الأصل (وأعيانهم) وأن الواو سقطت من الناسخ أى أنهم وما يصنعون — من خلق الله ، وذلك الأصل من الأصول الكلامية عند القشيرى .

الدِّينُ الذى يرتضيه ، والذى حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويمليه ، وبالفضل يُلَقِّيه — هو الإسلام .

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام ، وما سواه فمردود ، وطريق النجاة على صاحبه مسدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومَن يكفر بآيات الله فإنَّ الله سريع الحساب ﴾ .

جاءهم العلم الذى عليهم حجة ، لا المعرفة التى لها بيان ومحجة ، فأصروا على الجحود ، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود

قوله جل ذكره : ﴿ فإن حاجوك فَقُلْ أسلَمْتُ وجهى لله ومَنِ اتَّبَعَنِ ، وقُل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلَمْتُمْ ، فإنْ أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تَوَلَّوْا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ .

طَالِعْهُم بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال فى شهود اختلافهم وتباين أطوارهم ؛ فإنَّ مَنْ طالَعَ الكائناتِ بعين القدرة علم أن المُثْبِتَ للكلِّ — على ما اختص به كل واحد من الكل — واحدٌ .

فادْعُهم جهراً بجهر ، واشهد تصريفنا إياهم سِرًّا بسر ، واشغل لسانك بنصحهم ، وفرِّغ قلبك عن حديثهم ، وأفرد سِرَّك عن شهودهم ، فليس الذى كلفناك من أمورهم إلا البلاغ ، والمُجرِى للأمور والمبدى — نحن .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيِّينَ بغير حق ، ويقتلون الذين

يأمرون بالقسط مِنَ الناس فَبَشِّرْهم
بعذابٍ أليم ﴾ .

إن الذين ربطناهم بالخذلان ووسمناهم بوصف الحرمان — أخبِرْهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد ، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان ، من الخذلان والحرمان إلى العقوبة والنيران .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين حَبِطت أعمالُهم
فى الدنيا والآخرة وما لهم من
ناصرين ﴾

أولئك الذين ليس لهم — اليومَ — توفيق بأعمالهم ، ولا غداً تحقيق لآمالهم ، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا فى الدارين نصرتنا ، ولم يشهدوا عِزَّنا وقدرتنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من
الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله
ليحكم بينهم ثم يتولَّى فريق منهم
وهم مُعْرِضون ﴾

امتحناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون ، فاصبر على ما أُمِرْتَ فيهم ، واعلم سوء أحوالهم ، فإنهم أهل التولِّى عن الإجابة ، لأنهم فقدوا منا حسن التجلى بسابق الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لَن تَمَسَّنَا النار
إلا أياما معدودات ، وغرَّهم فى دينهم
ما كانوا يفترون ﴾

عاقبناهم فى الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب ، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم ، ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون .

ظن المخطئون حكما . . .

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب
فيه ووفيت كل نفس ما كسبت
وهم لا يُظلَمون ﴾

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم، وانقطاع دواعيهم، وانخلاع قلوبهم من مكامنها، وتراقيها إلى تراقيهم، ثم ما يلقونه من الحساب والعتاب، والعذاب والعقاب، وعدم الإكرام والإيجاب، وما فى هذا الباب.

وقيامةُ الكفار يومَ الحشر، وقيامة الأحباب فى الوقت، ولِشَرْحِ هذا تفسير طويل[1]

قوله جل ذكره: ﴿ قُلِ اللهم مالكَ المُلْكِ ﴾

«اللهم» معناها يا الله والميم فى آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا. فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق، أى صِفْنى بما أَسْتَحِقُّه من جلال القَدْر فَقُلْ: يا مالكَ المُلْكِ لا شريكَ لكَ ولا مُعينَ، ولا ظهير ولا قرين، ولا مُقاسِمَ لكَ فى الذات، ولا مُساهِمَ فى المُلْك، ولا مُعارِضَ فى الإبداع.

﴿ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشاء وتنزع
الملك ممن تشاء ﴾

حتى نعلم أن الملك لك، والمَلِكُ من المخلوقين مَنْ تَذَلَّلَ له، ومنزوعُ المُلْكُ ممن تكبَّر عليه؛ فَتَجَمُّلُ الخلْقِ فى تذللهم للحق، وعِزُّهم فى محوهم فيه، وبقاؤهم فى فنائهم به

﴿ وتُعِزُّ من تشاء ﴾

بعز ذاتك.

﴿ وتُذِلُّ من تشاء ﴾

بخذلانك

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك. وتعزُّ

---

(١) من كلام القشيرى فى هذا الخصوص فى موضع آخر من هذا الكتاب:
(والقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق، وليس لها كاشف غيره سبحانه)

من تشاء بيُمْن إقبالك ، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك . وتعزّ من تشاء بأن تؤنسه بك ، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك . وتعز من تشاء بأن تشغله بك ، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك . وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه ، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه . وتعز من تشاء بطوالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق[1] نفسه . وتعز من تشاء ببسطه بك ، وتذل من تشاء بقبضه عنك .

وتؤتى المُلْكَ من تشاء بشد نطاق خدمتك ، وتنزع الملك ممن تشاء بنفيه عن بساط عبادتك[2] . تؤتى الملك من تشاء بإفراد سِرّه لك وتنزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه بمخلوق ، وتعز من تشاء بإقامته بالإرادة ، وتذل من تشاء بردّه إلى ما عليه أهل العادة .

﴿ بيدك الخير ﴾

ولم يذكر الشر حفظاً لآداب الخطاب ، وتفاؤلا بذكر الجميل ، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾

من الحجب والجذب ، (والنصرة)[3] والخذلان ، والأخذ والرد ، والفرق والجمع ، والقبض والبسط .

قوله جل ذكره : ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

---

(١) الطوارق فى اللغة ما يطرق بالليل ، وروى عن النبى (ص) أنه كان يدعو : « وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير » .
وعن بعض المشايخ : يطرق سمعى علم من علوم أهل الحقائق فلا أدعه أن يدخل قلبى إلا بعد أن أعرضه على الكتاب والسُّنة . (اللمع للطوسى ص ٤٢٢) .

(٢) وردت (عبادك) والأصوب أن يقال (عبادتك) لأن العبودية لا تلتقى عن مخلوق ، أما العبادة فهى حالة مخصوصة يعان عليها العبد أو لا يعان ، فالعبد إما فى العبادة أو فى العادة :

(٣) أضفنا هذه الكلمة من عندنا حتى يتم الانسجام الداخلى للأسلوب ويكون المعنى أوضح ، ونحن فى هذه الإضافة ـ كدأبنا دائماً ـ متمثلين النهج الذى يسلكه القشيرى فى مثل هذا المواضع .

تولج الليل فى النهار حتى يَغْلِبَ سلطانُ ضياءِ التوحيد فلا يَبْقَى من آثار النفس وظلماتها شىء ، وتولج النهار فى الليل حتى كأن شموسَ القلوب كُسِفَت ، أو كأن الليل دام ، وكأن الصبح فُقِد .

وتخرج الحى من الميت حتى كأن الفترة لم تكن ، وعهد الوصال رجع فَتِيًّا ، وَعُودُ القلوبِ صار غضاً طريًّا .

وتخرج الميت من الحى حتى كأن شجرة البر م أورقت شوكا وأزهرت شوكا ، وكأن اليائس لم يجد خيراً ، ولم يشم ريحاً ، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة .

﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

حتى لا (كدر)[1] ولا جُهْدَ ولا عَرَقَ جبينٍ ، ولا تَعَبَ يمينٍ . لَيْلُهُ روْح وراحة ، ونهارُه طرب وبهجة ، وساعاته كرامات ، ولحظاته قُرُبات ، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان ، ولا يأتى على استقصاء كنهها عبارة ولا بيان .

وفيما لوَّحنا من ذلك تنبيه على طريق كيفية الإفصاح عنه .

ويقال لما قال : « وتنزع الملك ممن تشاء انكسر خُمَارُ كلِّ ظانٍّ أنه مَلِكٌ لأنه شاهد ملكه يعرض للزوال فَعَلِمَ أن التذلل إليه فى استبقاء ملكه أَوْلى به من الإعجاب والإدلال .

ويقال المَلِكُ فى الحقيقة — مَنْ لا يشغله شىء بالالتفات إليه عن شهود من هو المَلِكُ على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾

من حقائق الإيمان الموالاةُ فى الله والمعاداة فى الله .

وأَوْلى مَنْ تسومه الهجرانَ والإعراضَ عن الكفار — نَفْسُك ؛ فإنها مجبولةٌ على

---

(١) نرجح أنها (كدٌّ) بدون راء ، ومع ذلك فالمعنى يتقبل كليهما .

المجوسية حيث تقول : لى ومنى وبى[1] ، وقال الله تعالى . « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار[2] » .

وإن الإيمان فى هذه الطريقة عزيز ، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام — وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً — فليسوا بأهل لموالاتك ، والشكل بالشكل أليق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يفعل ذلك فليس من الله
فى شىء إلا أن تتقوا منهم تُقَاةً
ويحذركم الله نَفْسَه ، وإلى الله المصير ﴾

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم — ألبتة .

« ويحذركم الله نفسَه » : هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة ، فأمَّا الذين نزلت رُتْبَتُهم عن هذا فقال لهم : « واتقوا النار التى . . . » وقال : « واتقوا يوماً ترجعون . . » إلى غير ذلك من الآيات .

ويقال : « يحذركم الله نفسه » أن يكون عندكم أنكم وصلتم ؛ فإن خفايا المكر تعترى الأكابر ، قال قائلهم :

وآمِنْتُهُ فأتاح لى من مأمنى مكراً ، كذا مَنْ يأمن الأحبابا

ويقال « يحذركم الله نفسه » لأن يجرى فى وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق ، أو يطأ بساطَ العزِّ قَدَمُ همة بشر ، جلَّتْ الأحدية وعزَّت !

وإنَّ من ظن أنه أقربهم إليه ففى الحقيقة أنه أبعدهم عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إن تخفوا مافى صدوركم أوتبدوه
يعلمه الله ويعلم ما فى السمٰوات

---

(١) وإلى هذا يشيرون حين يقولون (التوحيد إسقاط الياءات) الرسالة ص ١٤٩ . لأن التوحيد الحق لا يقتفى شعورك بما سوى المُوحَّد ، ولكن النفس مجبولة على الدعوى . وهذا شرك خفى .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وما فى الأرض والله على كل شىء
قدير ﴾

لا يَعْزُبُ معلوم عن علمه ، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك ، فعن قريب سيأتيك الغوث والإجابة ، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة ، ويُعَجِّلُ المدَدَ والكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من
خيرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ
لو أَنَّ بينها وبينه أَمَداً بعيداً ﴾ .

وَدَّ أهل الطاعات أنْ لو استكثروا منها ، ووَدَّ أهل المخالفات أنْ لو كبحوا لجامهم عن الركض فى ميادينهم ، قال قائلهم :

ولو اننى أُعْطِيتُ من دهرى المُنَى وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المنى بِمُسَدَّدِ
لَقُلْتُ لأيامٍ مَضَيْن : ألا ارجعى وقلتُ لأيام أتَيْن ألا ابعدى

قوله جل ذكره : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف
بالعباد ﴾ .

الإشارة من قوله : « ويحذركم الله نفسه » للعارفين ، ومن قوله « والله رءوف بالعباد » للمستأنفين ، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة .

ويقال لمَّا قال : « ويحذركم الله نفسه » اقتضى أسماع هذا الخطاب تحويلهم[1] فقال مقروناً به « والله رءوف بالعباد » لتحقيق تأميلهم ، وكذلك سُنَّتُه يطمعهم[2] فى عين ما يروعهم .

ويقال أفناهم بقوله « ويحذركم الله نفسه » ثم أحياهم وأبقاهم بقوله « والله رءوف بالعباد »

---

(١) ربما يقصد القشيرى تحويلهم من الخوف إلى الرجاء ، فبعد أن خوفهم نفسه أطمعهم فى رأفته .
(٢) وردت (يطعمهم) وواضح أنها خطأ فى النسخ فأصلحناه بما يلائم السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم ﴾

« تحبون الله » فرق ، و « يحببكم الله » جمع .

« تحبون الله » مشوب بالعلة ، و « يحببكم الله » بِلا عِلّة ، بل هو حقيقة الوصلة . ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه ، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية ، وتقتضى منه تلك الحالة إيثاره — سبحانه — على كل شىء وعلى كل أحد .

وشرطُ المحبةِ ألا يكون فيها حظٌ بحال ، فَمَنْ لم يَفْنَ عن حظوظه بالكلِّية فليس له من المحبة شظيَّة .

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانَه إليه ولطفَه به ، وهى إرادةُ فضلٍ مخصوص ، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له ، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه ، فعلى هذا تكون من صفات فعله .

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك ، قال قائلهم .

وما الحب حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق[1] بين الحبيب والخليل ؛ قال الخليل : « فمن تبعنى فإنه منى » .

وقال الحبيبُ : « فاتبعونى يحببكم الله » .

فإن كان مُتَّبِعُ الخليل « منه » إفضالاً فإن متابِعَ الحبيبِ محبوبُ الحقِّ سبحانه ، وكفى بذلك قربة وحالا .

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحدٍ نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال فى هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة ، أو التجرد

---

(١) وردت (فراق) وهى خطأ من الناسخ ، إذ المراد التفرقة بين موقف المصطفى (ص) وإبراهيم عليه السلام .

عن آفة لأنه قال يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، بيّن أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحبُّ اللهَ ويحبُّه اللهُ .

ويقال قال أولاً : « يحببكم الله » ثم قال : « ويغفر لكم ذنوبكم » والواو تقتضى الترتيب ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ سابقةٌ على الغفران ؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه ، فالمحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب المحبة .

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان[1] وهو صفاؤها .

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب فى السر .

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب .

والحبُّ حرفان حاء وباء ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البَدَن ، فالمُحِبُّ لا يتأخر عن محبوبه لا قلبه ولا بَدَنَه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أطيعوا الله والرسول فإن تَوَلَّوْا فإنَّ الله لا يحب الكافرين ﴾ .

أمرهم بالطاعة ثم قال : « فإن تولوا » أى قَصَّرُوا فى الطاعة بأن خالفوا ، ثم قال : « فإن الله لا يحب الكافرين » لم يَقُل العاصين بل قال الكافرين ، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عُصاةً[2]

قوله جل ذكره : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عِمران على العالَمين * ذرية بعضها مِنْ بعض والله سميع عليم ﴾

اتفق آدم وذريته فى الطينة ، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذى هو من قِبَلِه ، لا بالنَّسَب ولا بالسبب .

---

(١) وردت (الإنسان) وهى خطأ من الناسخ (أنظر الرسالة ص ١٥٨) .
(٢) فالمؤمن العاصى منزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر ـ فى نظر القشيرى المتكلم .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ قالت امرأة عمران ربِّ إنِّى نذرتُ لك ما فى بطنى محرراً فتقبلْ منى إنك أنت السميع العليم * فلمَّا وَضَعَتْهَا قالت رَبِّ إنى وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنِّى سَمَّيْتُهَا مريم وإنِّى أُعِيذُها بِكَ وذُرِّيتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

المُحَرَّرُ الذى ليس فى رِقِّ شىء من المخلوقات ، حرَّرَه الحق سبحانه فى سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال . فلمَّا نذرت أمُّ مريم ذلك ، ووضعتها أنثى خَجِلت ، فلمَّا رأتها قالت « ربِّ إنى وضعتها أنثى » وهى لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى : « والله أعلم بما وضعت » ولعمرى ليس الذكر كالأنثى في الظاهر ، ولكن إذا تَقَبَّلَها الحقُّ — سبحانه وتعالى — طلع عنها كل أعجوبة .

ولما قالت « إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً » قالت « فَتَقَبَّلْ منى » فاستجاب ، وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها ، ونجا بحديثها عَالَمٌ وهَلَكَ بسببها عَالَمٌ ، ووقعت الفتنة لأجلهما فى عَالَم .

قالت : « وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » استجارت بالله من أن يكون للشيطان فى حديثها شىء بما هو الأسهل ، لتمام ما هم به من أحكام القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وكَفَّلَهَا زَكَرِيا ﴾

حيث بَلَّغَها فوق ما تَمَنَّتْ أمها ، ويقال تقبَّلها بقبول حسنٍ حتى أفردها لطاعته ، وتولاَّهَا بما تَوَلَّى به أولياءه ، حتى أفضى جميع مَنْ فى عصرها العَجَبَ من حُسْنِ توليه أمرها ، وإن كانت بنتاً .

ويقال القبولُ الحَسَنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه — سبحانه — بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال ، فلم يُبالِ بِقُبْح مقال الأعداء .

أجد الملامة فى هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فليلمنى اللُّوَّمُ

وكما قيل :

ليقــل من شاء ما شــاء فإنى لا أُبــالى

ويقال القبول الحسن أنْ ربّاها على نعت العصمة حتى كانت تقول : « إنى أعوذ بالرحمن منك إنْ كنت تقيّا » .

« وأنبتها نباتاً حسناً » حتى استقامت على الطاعة ، وآثرت رضاه — سبحانه — فى جميع الأوقات ، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام ، وهذا هو النبات الحسن ، وكفلها زكريا . ومن القبول الحسن والنبات الحسن أنْ جعل كافلَها والقَيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : إنْ رأيْتَ لى طالباً فكُنْ له خادماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَدَ عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنَّى لكِ هذا ؟ قالت : هو مِنْ عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

مِنْ أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا فى المحراب ، ومن كان مسكنه وموضعه الذى يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب — فذلك عَبْدٌ عزيز .

ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشُغْلَها على زكريا عليه السلام ؛ فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقاً لِيعْلَمَ العاملون أن الله — سبحانه — لا يُلْقِى شُغْلَ أوليائه على غير[1] ، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو فى رفق الولى لا إنه

(١) وردت على (عين) وهى خطأ فى النسخ .

تكون عليه مشقة لأجل الأولياء . وفى هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه فى رفق الفقراء .

ثم كان زكريا عليه السلام يقول : أنَّى لك هذا ؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة ، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شُغْلها ، فكان يسأل ويقول : أنَّى لك هذا ؟ ومن أتاكِ به ؟

وكانت مريم تقول : هو من عند الله لا من عند مخلوق ، فيكون لزكريا فيه راحتان : إحداها شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى ، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها ، ولم يسبق به . قوله « كلما دخل عليها زكريا المحراب » فلفظة كلَّما للتكرار[1] وفى هذا إشارة : وهو أن زكريا عليه السلام لم يَذَرْ تَعَهُّدَها — وإن وجد عندها رزقا — بل كل يوم وكل وقتٍ كان يتفقد حالها لأن كراماتِ الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعاً ؛ فيجوز أن يُظهِرَ الله ذلك عليهم دائماً ، ويجوز ألا يظهر ، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها ، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله : « يا مريم أنَّى لكِ هذا ؟ » لجواز أن يكون الذى هو اليوم لا على الوجه الذى كان بالأمس ، فإنه لا واجب على الله سبحانه[2] .

وقوله : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » إيضاح عن عين التوحيد ، وأن رزقه للعباد ، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته ، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعاتهم ووسيلة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هُنالِك دعا زكريا ربَّه قال ربِّ هَبْ لى مِن لدنك ذُرِّيَّة طيبة إنك سميع الدعاء ﴾

أى لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين ، ورجاء على رجاء ؛ فسأل الوَلَدَ على كبر سِنِّه ، وإجابتُه إلى ذلك كانت نقضاً للعادة .

---

(١) أى لتكرار زيارة زكريا لها مرة بعد مرة .

(٢) هنا إشارة دقيقة تتصل بمذهب القشيرى — الذى يخالف المعتزلة — أنه لا وجوب على الله فى إثابة المطيع ، لأن طاعة المطيع ليست زيناً لله ، ومعصيته ليست شيناً لله ، وإنما المعول عليه فضل الله وهذا لا علة له ، ولا وجوب على الله فيه .

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولَدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة ، ووارثا من نَسْلِه فى النبوة ، ليكون قائما بحقِّ الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ فإن السؤال إذا كان لحقِّ الحقِّ — لا لحظِّ النَّفْسِ — لا يكون له الرد[1].

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء عندها فى الصيف ، فسأل الولد فى حال الكِبَر ليكون آية ومعجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكةُ وهو قائمٌ يُصَلِّى فى المحراب ﴾ .

لما سأل السؤال ، ولازم الباب أتَتْهُ الإجابةُ .

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة .

ويقال حكم الله — سبحانه — أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته ، فأمَّا مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه فى ذُلِّ الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقا بكلمةٍ من الله وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِيًّا مِنَ الصالحين ﴾ .

قيل سمَّاه يحيى لحياة قلبه بالله ، ولسان التفسير أنه حيي به عقر أمه .

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه .

قوله : مصدقا بكلمة من الله : أن تصديقه بكلمة « الله » فيما تعبده به أو هو مكوَّن بكلمة الله .

وقوله « وسيداً » : السيِّد من ليس فى رق مخلوق ، تحرَّر عن أسر هواه وعن كل مخلوق ، ويقال السيد من تحقق بعلويته سبحانه ، ويقال السيد من فاق أهل عصره ، وكذلك كان يحيى عليه السلام .

---

(١) الرد هنا معناها الرفض .

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ، ولا شَاهَدَ لنفسه قَدْراً . ولما أخلص فى تواضعه لله بكل وجهٍ رقَّاه على الجملة ، وجعله سيدا للجميع .

وقوله « وحصورا » أى مُعْتَقا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر . ويقال متوقيا عن المطالبات ، مانعا نفسه عن ذلك تعززا وتقربا ، وقيل منعته استئصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فَضْلٌ لحظٍّ .

« ونبيًّا من الصالحين » أى مستحقا لبلوغ رتبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿قال ربِّ أنَّى يكون لى غلام
وقد بلغنى الكِبَرُ وامرأتى عاقرٌ
قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ .

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال : أنَّى يكون لى غلام ؟

ويحتمل أنه قال : بأى استحقاقٍ منى تكون لى هذه الإجابة لولا فضلك ؟

ويحتمل أنه قال أنَّى يكون هذا : أعَلَى وجهِ التبنى أم على وجه التناسل ؟

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التى طعنت فى السن أو من جهة التَّسرِّى بمملوكة ؟ أمْ مِنْ هذه ؟

فقيل له : لا بَلْ مِنْ هذه ؛ فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معا ، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعا .

قوله جل ذكره : ﴿قال ربِّ اجعل لى آية قال آيتك
ألا تُكلِّم الناس ثلاثة أيَّام إلا رَمْزًا﴾

طلب الآية ليعلم الوقت الذى هو وقت الإجابة على التعيين لا لِشكٍّ له فى أصل الإجابة .

وجعل آية ولايته[1] فى إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح ، أى لا تمتنع عن خطابى فإنى لا أمنع أولياءى من مناجاتى .

---

(١) وردت (دلالته) وقد تكون مقبولة فى المعنى أيضاً .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر ربّكَ كثيرا ﴾ .

بقلبك ولسانك فى جميع أوقاتك .

﴿ وسَبِّح بالعشِىِّ والإبكار ﴾ .

فى الصلاة الدائبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قالت الملائكة يا مريم إنَّ اللهَ آصطفاكِ وطَهَّرَكِ وآصطفاك على نِساء العالمين ﴾ .

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريمَ من قِبَلِهم رفعا بشأنها ، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم ، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها : إن الله اصطفاك بتفضيلك ، وإفرادكِ من أشكالك وأندادك ، وطَهَّرَكِ من الفحشاء والمعاصى بجميل العصمة ، وعن مباشرة الخلْق[1] ، واصطفاك على نساء العالمين فى وقتك .

وفائدة تكرار[2] ذكر الاصطفاء : الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثانى اصطفاكِ بأنْ حَمَلْتِ بعيسى عليه السلام من غير أب ، ولم تشبهك امرأة — ولن تشبَهك — إلى يوم القيامة ، ولذلك قال « على نساء العالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿ يا مريم اقنتى لربِّكِ واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ .

لازمى بساط العبادة ، وداومى على الطاعة ، ولا تُقَصِّرِى فى استدامة الخدمة ، فكما أفردك الحقُّ بمقامك ، كونى فى عبادته أو حد زمانك .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيه إليكَ

---

(١) ربما يقصد القشيرى من ذلك أنه أبعدها عن أن يباشرها الزوج شأن نساء العالمين .

(٢) لاحظ كيف يلتمس القشيرى معنى متجدداً لكلمة تتكرر بلفظها — لأنه لا يرى أن فى القرآن تكراراً إلا لداع متجدد .

وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون
أقلامَهم أيُّهُم يَكْفُلُ مريمَ وما كنتَ
لديهم إذ يختصمون ﴾

أى هذه القصص نحن عرفنا كهاو (خا) طبناك بمعانيها ، وإنْ قَصَصْنَا نحن عليك هذا — فعزيزٌ خطابُنا ، وأعزُّ وأتم مِنْ أنْ لو كنتَ مشاهداً لها .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله
يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح
عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا
والآخرة ومِنَ المقربين . وَيُكَلِّمُ
النـاسَ فى المهـدِ وكهـلاً ومِنَ
الصالحين ﴾

لم يُبَشرها بنصيب لها فى الدنيا ولا فى الآخرة من حيث الحظوظ ، ولـكن بَشَّرها بما أثبت فى ذلك من عظيم الآية ، وكونه نبياً لله مؤيَّداً بالمعجزة .

ويقال عرَّفها أن مَنْ وقع فى تغليب القدرة ، وانتهى عند حكمه يَلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد . ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت ، والاشتهار بالعفة ، فشوَّش عليها ظاهر تلك الحالِ بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام ، ولـكن — فى التحقيق — ليس كما ظَنَّهُ الأغبياء[1] الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير .

وقيل إنه (. . . . .)[2] عَرَّفها ذلك بالتدريج والتفصيل ، فأخبرها أن ذلك الولَدَ يعيش حتى يُـكلِّمَ الناس صبيًّا وكهلا ، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه .

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء .

ويقال ربط على قلبها بما عرَّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحتها يُنْطِقُ اللهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها .

---

(١) وردت (الأغنياء) والمعنى والسياق يرفضانها .
(٢) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت ربِّ أنَّى يكون لى وَلَد
ولم يمسسنى بَشَرٌ ، قال كذلك الله
يخلُقُ ما يشاء ﴾

كما شاهدتِ ظهور أشياء ناقضة للعادة فى رزقنا فكذلك ننقض العادة فى خلق ولدٍ من غير مسيس بشر .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾

أى أراد إمضاء حُكْمٍ .

﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال :

﴿ أنى قد جئتكم بآيةٍ من ربكم ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ ويُعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة
والإنجيل * ورسولاً إلى بنى
إسرائيل أنِّى قد جئتكم بآيةٍ من
ربِّكم أنِّى أخْلُقُ لكم مِنَ الطين
كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون
طيراً بإذن الله وأُبْرِىء الأكمه
والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله
وأُنَبئكم بما تأكلون وما تدخرون
فى بيوتكم إنَّ في ذلك لآيةً لكم
إن كنتم مؤمنين ﴾

وتلك آياته الظاهرة ، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عمّا عملوه مُسِرِّين به ، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخبر أنه

مصدِّق لما تقدمه من الشرائع ، ومختص بشريعةٍ تنسخ بعض ما تقدمه ، وأقرهم على البعض — على ما نطق به تفصيل القرآن .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أحَسَّ عيسى منهم الكفر ..... ﴾ الآية .

حين بَلَّغهم الرسالة واختلفوا — فمنهم من صدَّقه ومنهم من كذَّبه وهم الأكثرون — عَلِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء ، فقطع عنهم قلبه ، وصدق إلى الله قصده ، وقال لقومه : مَنْ أنصارى إلى الله ليساعدونى على التجرد لحقِّه والخلوص فى قصده ؟ فقال مَن ابسطت عليهم آثار العناية ، واستخلصوا بآثار التخصيص : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد علينا بالصدق ، وليس يشكل عليك[1] شيء مما نحن فيه .

﴿ ربَّنا آمنا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

وأما الباقون فجدُّوا فى الشقاق ، وبالغوا فى العداوة ، ودسُّوا له المكائد ، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم ، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولَبْسٌ عليهم . فاللهُ — سبحانه — رفع عيسى عليه السلام نبيَّه ووليَّه ، وحُقَّ الطردُ واللَّعنُ على أعدائه ، وهذا مَكْرُهُ بهم :

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنِّى متوفيك ﴾

الإشارة[2] فيه إنى متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعك من نعوت البشرية ، ومطهرك من إرادتك بالكلية ، حتى تكون مُصَرَّفاً بنا لَنا ، ولا يكون عليك من

---

(١) نرجح أنها فى الأصل : « يشكل (علينا) شيء مما نحن فيه » ، لأن هذا الترجيح يقوى المعنى ، إذ يفصح عن مدى صحة إيمانهم ، أما إذا كانت (عليك) فيكون المعنى أن أنصاره طمأنوه عن أنفسهم ، وطلبوا إليه ألا يستشكل (عليه) أمر من أمورهم ، بدليل ما أفصحوا عنه فى الآية التالية .

(٢) تخدم هذه الإشارة فى إبراز وتدعيم واحدة من أخطر قضايا الفكر الدينى .

اختيارك شيء ، ويكون إسبال التولى عليك قائماً عليك . وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة — جَلَّتْ .

ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار ، ومشاهدة الأمثال والآثار ، فى جميع الأحوال والأطوار .

﴿ وجَاعِلُ الذين اتَّبَعُوكَ فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾

بالنصرة والقهر والحجة .

ومتبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دِينه ومَنْ هو على عقيدته فى التوحيد — وهم المؤمنون ، فَهُمْ على الحقِّ ، إلى يوم القيامة لهم النصرة ، ثم إن الله سبحانه يحكم — يوم القيامة — بينه وبين أعدائه . فأمّا الكفار فنى الجحيم وأمّا المؤمنون فنى النعيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾

ذلك نتلُوه عليك يا محمد ، نعرفك معانيه بما نوحى إليك ، لا بتكلفك ما تصل إلى عِلْمِه ، أو بِتَعَلُّمِك من الأمثال ، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسى عند اللهِ كَمَثَلِ آدم . . . ﴾ الآية

خَصَّهما[1] بتطهير الروح عن التناسخ فى الأصلاب وأفرد آدم بصفةِ البدء ؛ وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز ، وهما وإنْ كانا كبيرى الشأن فنَقْصُ الحدثان والمخلوقية لازِمٌ لهما :

﴿ ثم قال له كُن فيكون ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ الحق مِنْ ربِّك . . . ﴾ الآية

---

(١) وردت (خصها) والصحيح خصهما لعودة الفعل على آدم وعيسى عليهما السلام . ه

الحق من ربك يا محمد ، فلا تَشُكَّنَّ فى أنه — سبحانه — لا يماثله فى الإيجاد أحَدٌ ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة . والموجودات التى (. . . . .)[1] وجودها عن كتم العَدَم — من الله مبدؤها وإليه عَوْدُها .

قوله جل ذكره ﴿ فمن حاجَّك فيه . . . . . ﴾ الآية

يعنى بعدما ظَهَرْتَ على صدق ما يُقال لك ، وتَحقَّقَتْ بقلبك معرفة ما خاطبناك ، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة ، وثِقْ بأن لك القهر والنصرة ، وأنَّا توليناك ، وفى كنف قُرْبنا آويناك ، ولو أنهم رغبوا فى هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة ، ولكن أخَّر الله — سبحانه — ذلك عنهم لعلمه بِمَنْ فى أصلابهم من المؤمنين[2] .

والإشارة فى هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين ، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخنست آثار هؤلاء فلا إقرار ، ولا عنهم آثار .

قوله جل ذكره : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾

لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة ، ولا يدرك سر حكمه وهم[3] مخلوق ، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود ، أو موهوم يصوره التقدير[4] .

﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمُفْسِدِين ﴾

فإن تولوا — يا محمد — فإنه لا ثَبَاتَ عند شعاع أنوارك لشبهة مُبْطِل .

« فإن الله عليم بالمفسدين » إمَّا يجتاحهم[5] ، أو يحلم[6] حتى إذا استمكنَتْ ظنونُهم يأخذهم بغتةً وهم لا يُنْصَرون .

---

(١) مشتبهة .

(٢) هذا تعليل ممتع لإمهال المخالفين .

(٣) وردت (وهو) وهى خطأ من الناسخ ، ونظن أن الأصل (وم) وهى مناسبة للسياق .

(٤) للقشيرى عبارة فى نفس الموضوع وردت فى مستهل رسالته : « وكل ما تصوره الأوهام فالله بخلاف ذلك » .

(٥) وردت (يحتاجهم) وهى خطأ من الناسخ .

(٦) وردت (ويحكم) والملائم للمعنى (أو يحلم) من الحلم ، ويكون المعنى على هذا الأساس أنه إما أن يعجل بانتقامه فيجتاحهم أو يمهلهم بحلمه ثم يبغتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهل الكتابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم . . . . ﴾ الآية

هى كلمة التوحيدِ وإفرادِ الحق سبحانه فى إنشاء الأشياء بالشهود .

وقوله : « ألا نعبد إلا الله » : لا تطالعْ بِسِرِّك مخلوقاً . وكما لا يكون غيْره معبودَك فينبغى ألا يكون غيرُه مقصودَك ولا مشهودَك ، وهذا هو أتقاء الشِرْك ، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم .

« ولا يتخذَ بعضُنَا بَعضاً أرباباً » ويظهر صدقُ هذا بترك المدح والذم لهم .

ونفى الشكوى والشك عنهم ، وتنظيف السر عن حسبان ذرة من المحو والإثبات منهم قال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالتها العربُ قولُ لبيد » .

ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطل وكل نعيمٍ لا مَحالَة زائل[1]

فإنَّ الذى على قلوبهم من المشاق أشد . وأمَّا أهل البداية فالأمر مُضيَّقٌ عليهم فى الوظائف والأوراد ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب ، لفراغهم بقلوبهم من المعانى[2] ، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً فى قوله جل ذكره :

﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تُحاجُّون فى إبراهيم ﴾ . . . الآية .

ضرب على خليله — صلوات الله — نقاب الضنَّة وحجاب الغيرة ، فقطع سببه عن جميعهم بعدادِّعاء الكل فيه ، وحَكَمَ بتعارض شُبُهاتِهم ، وكيف يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ على دين مَنْ أتى بعده ؟! إن هذا تناقضٌ من الظن .

ثم قال :

﴿ ها أنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فيما لكم

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٢) المقصود من (المعانى) هنا كل ما تميل إليه النفس ، والنفس محل المعلولات .

به عِلْم ، فَلِمَ تُحاجون فيما لَيْسَ لكم به
علم ، وَاللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون ﴾

يعني ما كان فى كتابكم له بيان ، ويصح أن يكون لكم عليه برهان ، فَخَصَّهُمْ فى ذلك إمَّا بحق وإما بباطل ، فالذى ليس لكم ألبتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف تصديتم للحكم فيه ، وادَّعاء الإحاطة به ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً
ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾

الحنيف المستقيم على الحق ، والأحنف هو المستقيم فى حلقة الرِّجْل ، ويسمى مائل القَدَم بذلك على التفاؤل[1] . وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق، ولا زائغاً عن الشرع ، ولا مُعَرِّجاً على شيء فيه نصيب للنفس ، فقد سَلَّمَ مَالَه ونَفْسَه ووَلَدَه ، وما كان له به جملةً — إلى حكم الله وانتظار أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ أَوْلَى الناس بإبراهيم لَلَّذِينَ
اتبعوه ، وهذا النبي ، والذين آمنوا ،
والله ولىُّ المؤمنين ﴾

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر ، بقى أهل الحقِّ فى كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى ، فكانوا حزباً واحداً ، فبعضهم أَوْلَى ببعض . وإبراهيم صاحب الحق ، ومن دان بدينه — كمثل رسولنا صلى الله عليه وسلم وأمته — على الدين الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى .

« والله ولىُّ المؤمنين » لأنهم تولَّوْا دينه ، ووافقوا توحيده ، وولاية الله إنما تكون بالعَوْن والنصرة والتخصيص والقربة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَّت طائفة مِنْ أهل الكتابِ
لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم ﴾

من حلَّت به فتنة ، وأصابته محنة ، واستهوته غواية — رَضِيَ لجميع الناس ما حلَّ به ،

---

(١) فكلمة حنيف من الأضداد = مستقيم ومائل .

فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق ، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره ، وأن يعودَ إليهم وبالُ فعلهم .

قوله جل ذكره : ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآياتِ الله وأنتم تَشْهَدُون﴾

قَبلَ[1] بعثه — صلى الله عليه وسلم — على صحة نبوته[2] ، فما الذى يحملكم على غيكم حتى جحدتم ما علمتم ؟

قوله جل ذكره : ﴿يا أهل الكتاب لمَ تَلْبِسُون الحقَّ بالباطل وتَكْتُمُون الحقَّ وأنتم تَعلمون﴾

تكتمون الحق فى شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبى الصادق ، وهل هذا إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان ، ثم أخبر أنَّ منهم من ينافق فى حالته ، فيريد أن يدفع عنه أذى المسلمين ، ولا يخالف إخوانه من الكافرين ، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً ، والخلوص فى عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سِرّاً .

قوله جل ذكره : ﴿وقالت طائفة مِنْ أهلِ الكتاب آمنوا بالذى أُنزِلَ على الذين آمنوا وَجهَ النهار واكفروا آخِرَه لعلهم يرجعون﴾

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِف للمسلمين ، وأن ذلك لا ينفعُهم أمَّا فى الدنيا فلإطلاع الله نبيَّه عليه السلام والمؤمنين — عليه ، وأمَّا فى الآخرة فَلِفَقْدِ إخلاصهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تؤمِنوا إلا لِمَن تبع دينكم﴾ الآية .

---

(١) فى ص (قيل) وهى خطأ في النسخ ، ويكون المعنى أنتم — يا أهل الكتاب — تشهدون قبل بعثه على صحة نبوته ...

(٢) فى ص (نبوية) وهى خطأ فى النسخ .

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين ، والإشارة فيه ألا تعاشروا الأضداد ، ولا تفشوا أسراركم للأجانب .

﴿ قُلْ إن الفضل بيدِ الله ﴾

فهو الذى يختص من يشاء بأنوار التعريف ، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

يختص من يشاء بفنون إنعامه ، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أراده . ولابُدَّ من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجرى الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية .

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التى يختصُّ — بشىء منها — عبداً من عباده ، فيدخل تحت قوله : يختص برحمته ، أى بنعمته .

فقومٌ اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق ، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة ، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بعطاء الأبشار ، وآخرين بلقاء الأسرار ، قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » .

ويقال لمَّا سمعوا قوله : « يختص برحمته من يشاء » ، علموا أن الوسائل ليست بهادية[1] ، وإنما الأمر بالابتداء والمشيئة .

ويقال يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ أهل الكتاب مَنْ إن تَأمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّه إليك . ومنهم مَن إنْ تأمنه بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك ﴾ ..الآية

---

(١) وصدق الرسول الكريم حين قال : « إنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتغمدنى الله برحمته » رواه الشيخان عن عائشة

أخبر أنهم — مع ضلالتهم وكفرهم — متفاوتون فى أخلاقهم ، فكُلُّهمْ خَوَنَةٌ فى أمانة الدِّين ، ولكنّ منهم من يرجع إلى سداد للمعاملة ، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك فى إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب ؛ إذ الكفار مُطَالَبُون بتفصيل الشرائع ، فإذا كانوا فى كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقلَّ عذاباً ، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة .

ثم بيَّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا :

﴿ قالوا ليس علينا فى الأمِّيين سبيلٌ ﴾

فلا تجرى عليهم هذه الحالة ، أو تنفعهم هذه القالة ، بل الحكم لله تعالى .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إنَّ الذين يشترون بعهد الله وأيْمَانِهم ثَمَنًا قليلا أولئك لا خَلَاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ .

الذين آثروا هواهم على عُقباهم ، وقدَّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم فى الآخرة ؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا فى الدارين .

بقوا عن الحق ، وما استمتعوا بحظٍّ ، جَمَعَ عليهم فنون المِحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ثم مع هذا يُخَلِّدُهم فى العقوبة الأبدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ منهم لَفَرِيقاً يَلْوُون ألْسِنَتَهُم بالكتابِ لِتَحْسَبُوه مِنَ الكتاب ، وما هو مِنَ الكتاب ، ويقولون هو مِنْ عِند الله وما هو مِنْ عند الله ، ويقولون على اللهِ الكَذب وهم يعلمون ﴾ .

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين فى الدعاوى فى هذه الطريقة .

يزيِّنون العبارات ، ويطلقون ألسنتهم بما لاخَبَرَ فى قلوبهم منه ، ولا لهم بذلك تحقيق ، تلبيساً على الأغبياء والعوام وأهل البداية ؛ يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم . قال تعالى فى صفة هؤلاء « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، كذلك أرباب التلبيس والتدليس ، يُرَوِّجون قالَتهم على المستضعفين ، فأمَّا أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة .

قال الله تعالى « ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون » ، أى يعلمون أنهم كاذبون ، كذلك أهل الباطل والتلبيس فى هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خَرِبَة ، وأسرار محجوبة ، نعوذ بالله من استحقاق المقت !

قوله جل ذكره : ﴿ما كان لِبَشَرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى مِن دون الله ، ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسُون﴾ .

أى ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلْق إلى نفسه ، أو يقول بإثبات نفسه وحظِّه ، لأن اختياره — سبحانه — إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عمَّا لا يجوز ، فتجويز ذلك فى وصفهم مُنَافٍ لحالهم ، وإنما دعاء الرسل والأولياء — للخلْق — إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين » أى إنما أشار بهم على الخلْق بأن يكونوا ربانيين ، والربَّانى منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقيانى ولحيانى ... وبابه .

وهم العلماء بالله الحلماء فى الله القائمون بفنائهم عن غير الله ، المستهلكة حظوظهم ، المستغرقون فى حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ، ينطقون بالله ويسمعون بالله ، وينظرون بالله ، فهم بالله مَحْوٌ عمَّا سوى الله .

ويقال الربانى من ارتفع عنه ظِلُّ نفسه ، وعاش فى كنف ظلِّه — سبحانه .

ويقال الربَّانى الذى لايُثْبِتُ غير ربِّهِ مُوَحِّدًا ، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو مِنْ غيره .

ويقال الربَّانى من هو مُحَقٌّ فى وجوده — سبحانه — ومحو عن شهوده ، فالقائم عنه غَيْرُه ، والمُجْرِى لِماَ عليه سواه .

ويقال الربَّانى الذى لاتؤَثِّرُ فيه تصاريف الأقدار على اختلافها .

ويقال الربّانى الذى لا تُغَيِّره محنة ولا تَضُرُّه نِعْمَة — فهو على حالة واحدة فى اختلاف الطوارق .

ويقال الربَّانى الذى لا يتأثر بورود واردٍ عليه ، فَمَن استنطقته رقة قلبٍ ، أو اسْتَمَالَه هجومُ أمر ، أو تفاوتت عنده أخطار حادث — فليس بربانى .

ويقال إنَّ الربَّانى هو الذى لا يبالى بشىء من الحوادث بقلبه وسِرِّه ، ومن كان لا يقصر فى شىء من الشرع بفعله .

« بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » مِنْ توالى إحسانى إليكم ، وتضاعف نعمتى لديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكُفْرِ بعد إذ أنتم مُسْلِمون ﴾ .

أى لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات فى الخير والشر .

ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية .

ويقال يأمركم بتوقيرهم من حيث الأمر والشريعة ، وتحقير قدر الخلْق — بالإضافة[1] إلى الربوبية . « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » أيأمركم بإثبات الخلْق بعد شهود الحق ؟

---

(١) وتحقير قدر الخلق (بالإضافة إلى الربوبية) معناها (بالنسبة إلى) جلال الربوبية وعظمتها .

ويقال « أيأمركم بمطالعة الأشكال ، ونسبة الحدثان إلى الأمثال ، بعد أن لاحت فى أسراركم أنوار التوحيد ، وطلعت فى قلوبكم شموس التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ... ﴾ الآية

أخذ الله ميثاق محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء عليهم السلام ، كما أخذ ميثاقهم فى الإقرار بربوبيته — سبحانه ، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام ، فقد قَرَنَ اسمه باسم نفسه ، وأثبت قَدْرَه كما أثبت قدر نفسه ، فهو أوحد الكافة فى الرتبة ، ثم سَهَّلَ سبيلَ الكافة فى معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات .

﴿ فمن تولَّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

الإشارة فيه : فَمَنْ حاد عن سُنَّتِه ، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله ، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبُثَتْ درجتهم ، ووجب المقت عليهم لجحدهم ، وسقوطهم عن تعلُّق العناية بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن فى السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً ... ﴾

مَنْ لاحظه على غير الحقيقة ، أو طالع سواه فى توهم الأهلية[1] كَرَاءِ السراب ظنَّه ماء فلَمَّا أتاه وجده هباء . ومغاليط الحسبانات مُقَطِّعَةٌ مُشْكِلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بها نَزَلَ بوادٍ قَفْرٍ .

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها » لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ آمنا بالله وما أُنْزِل علينا ،

---

(١) الأهلية معناها الاستحقاق ، استحقاق كل تقديس ، ولا نستبعد أنها فى الأصل الألوهية لأن السياق يسير متحدثا عن البشر الذين يقولون للناس كونوا عباداً لنا ، وعن الملائكة والنبيين ووجوب عدم اتخاذهم أربابا .

وما أُنْزِل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربِّهم لا نُفَرِّق بين أَحَدٍ منهم ونحن له مُسْلِمون ﴾

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حَوْلنا أو قوتنا .

وآمنا بما أنزل علينا بالله ، وأنَّا لا نُفَرِّق بين أحد منهم — بالله سبحانه — لا بحولنا واختيارنا ، وجهدنا[1] واكتسابنا ، ولولا أنه عرَّفنا أنه مَنْ هو ما عرفنا وإلا فمتى عَلِمْنا ذلك ؟ ![2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمن يبتغِ غير الإسلام ديناً فَلَن يُقْبلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

مَنْ سَلَكَ غير الخمود تحت جريان حكمه سبيلاً زَلَّتَ قَدَمُه فى وهدة[3] من المغاليط لا مدى لقعرها .

ويقال من توسَّل إليه شىء دون الاعتصام به فخُسْرانه أكثر من رِبْحِهِ .

ويقال من لم يَفْنَ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل .

ويقال مَنْ لم يَمْشِ تحت راية المصطفى صلى الله عليه وسلم المُعظَّم فى قَدْره ، المُعَلَّى فى وصفه ، لم يُقْبَلْ منه شىء ولا ذرة .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد

---

(١) وردت (وجحدنا) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) قارن ذلك بعبارة ذى النون المصرى : عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى . (الرسالة ص ١٥٦) .

(٣) أخطأ الناسخ حين كتبها (وحدة) بالحاء .

إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌّ
.... ، ... الآية ﴾

مَنْ أبعده عن استحقاق الوصلة فى سابق حكمه فمتى يقربه من بساط الخدمة بفعله فى وقته ؟ ويقال : الذى أقصاه[1] حكم (الأول)[2] متى أدناه صدق العمل ؟ والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنةَ الله
والملائكةِ والناس أجمعين ﴾

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه فى ابتداء أمرهم ، ابتداؤهم ردُّ القسمة ، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة ، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة .

﴿خالدين فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ
ولاهُمْ يُنْظَرُون ﴾

خالدين فى تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة ، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة .

﴿ إلا الذين تابوا مِنْ بعد ذلك
وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم ﴾

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة ، ولم يكونوا فى شق السبق من تلك الجملة ، وإن كانوا فى توهم الخلق من تلك الزمرة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم
ثم ازدادوا كُفراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهم
وأولئك هم الضالون ﴾

الإشارة منه : أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة ،

---

(١) وردت (أقضاه) ونحن نرجح أن تكون (أقصاه) بالصاد حتى تتلاءم مع (أدناه) التى جاءت بعدها — فذلك أقرب إلى طبيعة أسلوب القشيرى فى هذا السياق .

(٢) هكذا كتبها الناسخ ، ونحن نميل إلى أنها فى الأصل (الأزل) .
فالقشيرى يعتقد أن الأقسام سبقت فى الأزل وأن قيمة الإنسان مرتهنة بذلك .

وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى ، ثم أنكروا على أهل الطريقة ، وازدادوا فى وحشة ظلماتهم — لن تُقبلَ توبتهم ، « وأولئك هم الضالون » عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة . وعقوبتهم أنهم على ممر الأيام لايزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة ، ولا يتحسرون على مافاتهم من صفاء الحالة . ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لقُبلت توبتهم ، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة فى هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأسّفوا على ما مضى من أوقاتهم .

قال تعالى : « ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » وإن المرتدّ عن الإسلام لأشدُّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلى ، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشد إنكاراً لها وأكثر إعراضاً عن أهلها من الأجنبىّ عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفّار فلَن يُقبلَ مِنْ أحدِهم مِلْءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين ﴾ .

الإشارة منه : لِمنْ مات بعد فترته — وإن كانت له بداية حسنة — فلا يحشر فى الآخرة مع أهل هذه القصة ، ولو تشفع له ألف عارف ، بل من كمال المكر به أنه يلقى شبهه فى الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو — فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغى أن يشفع له .

قوله جل ذكره : ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون وماتنفقوا من شىء فإن الله به عليم ﴾

لمّا كان وجود البرّ مطلوبا ذكر فيه « مِنْ » التى للتبعيض فقال : « مما تحبون » ؛ فمَنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أى البعض ، ومَنْ أراد البارّ فلينفقْ جميع ما يحبه . ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى ، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربّه.

ويقال إذا كنت لاتصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البارّ وأنت تؤثر عليه حظوظك . « وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء

والعِوض ، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحَزَن ، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه ، قال قائلهم :

ويهتز للمعروف فى طلب العلى لتُذكَرَ يوماً — عند سلمى — شمائلُه

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ الطعام كان حِلاًّ لبنى إسرائيل إلا ماحرَّم إسرائيل على نَفْسِهِ مِن قبل أن تُنَزَّل التوراة ، قُلْ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فَمَنِ افترى على الله الكَذِبَ مِن بعدِ ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾

الأصل فى الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم ، فما لا يوجد فيه حدٌّ فذلك من الحق — سبحانه — توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع ؛ فإنَّ الله — سبحانه — وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية[1] ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ماهم به من أحكام القلوب ، فإن الذى على قلوبهم من المشاق أشد . وأما أهل البداية فالأمر مضيَّقٌ عليهم فى الوظائف والأوراد ؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعانى ، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً فى قوله : « فمن افترى على الله الكذب » إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط ؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله — سبحانه — هواجسها ، والله برئٌ عنها . وعزيزٌ عبدٌ يفرِّق بين الخواطر والهواجس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ صدق الله فاتَّبِعوا مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

مِلَّةُ إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية ، والتسليم لحكْمِهِ من غير أن تبقى بقية ؛ فإثبات ذرة فى الحسبان من الحدثان شِرْكٌ — فى التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للذى

---

(١) أهل النهاية هم العوام ، وأهل البداية هم الخواص .

ببكةَ مُبارَكًا وهدىً للعالَمينَ * فيه آياتٌ بيِّنات مَقامُ إبراهيم ومن دخله كان آمِناً ، ولله على الناسِ حِجُّ البيتِ مَن استطاع إليه سبيلا ، ومَن كفر فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين ﴾

البيت حَجَرةٌ والعبد مَدَرَةٌ ، فرَبَطَ المدرة بالحجرة ، فالمدر مع الحجر . وتعزَّز وتقدَّس من لم يزل .

ويقال البيت مطاف النفوس ، والحق سبحانه مقصود القلوب !

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن :

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر ، ولكن ليس كل حجر كالذى يجانسه من الحجر .

حَجَرٌ ولكن لقلوب الأحباب مزعج بل لأكباد الفقراء منفج[1] ، لا بل لقلوب قومٍ مُثْلِجٌ مبهج ، ولقلوب الآخرين منفج مزعج .

وهم على أصناف : بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم ، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم .

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب ، ومن لاحظه بعين الإضافة حظى بكل تقريب وإيجاب ، كما قيل :

إن الديار — وإن صَمَتَتْ — فإنَّ لها عهداً بأحبابنا إذ عندها نزلوا

بيت من زاره بنفسه وجد ألطافه ، ومن شهده بقلبه نال كشوفاته .

---

(١) نفج الأرنبَ أثاره والناجفة الريح الشديدة ، فيكون معنى منفج شديد الإثارة .

ويقال قال سبحانه : « وطهِّر بيتى » وأضافه إلى نفسه ، وقال هاهنا : « إن أول بيت وضع للناس » وفى هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع[1] .

وسميت (بكة) لازدحام الناس ، فالكلُّ يتناجزون على البدار إليه ، ويزدحمون فى الطواف حواليْه ، ويبذلون المهج فى الطريق ليصلوا إليه .

والبيت لم يخاطِب أحداً منذُ بُنِىَ بِمُنْيَةٍ ، ولم يستقبل أحداً بحظوة ، ولا راسل أحداً بسطر فى رسالة ، فإذا كان البيت الذى خلقه من حجر — هذا وصفه فى التعزز[2] فما ظنُّك بِمَن البيتُ له . قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى » .

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات ؟ !

ويقال لا تُعلِّقْ قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أَفْرِدْ سِرَّك لأول حبيبٍ آثرك .

ويقال شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له .

ويقال ازدحام الفقراء بهمهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم ، فالأغنياء يزورون البيت ، ويطوفون بِقَدَمِهم ، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهمهم .

ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه فى الحجر ، والقلب بيت الحق سبحانه فى السِّر ، قال قائلهم :

لستُ من جملة المحبين إنْ لم ... أجعل القلبَ بيته والمقاما
وطوافى إجالة السِّر فيه ... وهو ركنى إذا أردت استلاما

فاللطائف تطوف بقلوب العارفين ، والحقائق تعتكف فى قلوب الموحِّدين ، والكعبة مقصود العبد بالحج ، والقلب مقصود الحق بإفراده إياه بالتوحيد والوجد .

---

(١) ربما كان فى الأصل (... ... الإشارة إلى عين الجمع ، « وأول بيت وضع للناس » إشارة إلى الفرق) فى الأول نسب البيت إلى نفسه ، وفى الثانى أشار إلى وضعه للناس .
وسقطت هذه العبارة الأخيرة من الناسخ .

(٢) وردت (التعذر) والسياق يتطلب (التعزز) .

قوله جل ذكره : ﴿ مباركاً وهدىً للعالمين ﴾

بركاته اتصال الألطاف والكشوفات ، فَمَنْ قصده بهمته ، ونزل عليه بقصده هداه إلى طريق رُشْدِه .

قوله جل ذكره : ﴿ فيه آيات بيِّنات ﴾

ولكن لا تُدْرَكُ تلك الآيات بأبصار الرءوس ولكن ببصائر القلوب ، ومقام إبراهيم — فى الظاهر — ما تأثر بقَدَمِه ، وفى الإشارة : ما وقف الخليل عليه السلام بهمه .

ويقال إن شرف مقام إبراهيم لأنه أَثَرُ الخليل ، ولأثر الخليل خطر عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن دَخَلَه كان آمِنا ﴾

يقال مَنْ دَخَلَ مقام إبراهيم كان آمناً ، ومقام إبراهيم التسليم ، ومن كان مسلماً أموره إلى الله لم يبق له اختيار ، وكان آمناً ؛ فالأمن ضده الخوف ، والخوف إنما يكون على ألا يحصل مرادك على ما تريد ، فإذا لم تكن للعبد إرادة واختيار فأىُّ مساغٍ للخوف فى وصفه ؟

ويقال إن الكناية[1] بقوله (دخله) راجعة إلى البيت ، فمن دخل بيته — على الحقيقة — كان آمناً ، وذلك بأن يكون دخوله على وصف الأدب ، ولا محالة أدب دخول البيت تسليم الأمور إلى رب البيت ، فإنَّ من لم يكن صاحب تسليم فهو معارضٌ للتقدير . ودخول البيت إنما الأدب فيه أن يكون دخولاً على التسليم دون المعارضة والنزاع فيؤول إلى المعنى المتقدم .

وإن جعلتَ الإشارة من البيت إلى القلب فمن دخل قلبَه سلطان الحقيقة أَمِنَ مِنْ نوازعِ البشرية وهواجسِ غافة النفس، فإنَّ من التجأ إلى ظل المَلِكِ لم يتطرَّقْ إليه محذورا .

ويقال لا يكون دخول البيت — على الحقيقة — إلا بخروجك عنك ، فإذا خرجت عنكَ صَحَّ دخولُك فى البيت ، وإذا خرجتَ عنكَ أَمِنْتَ .

ويقال دخول بيته لا يصحُّ مع تعريجك فى أوطانك ومعاهدك ، فإن الشخص الواحد

---

(١) يقصد بها ضمير الغائب فى (دخله) .

لا يكون فى حالة واحدة فى مكانين ؛ فمن دخل بيت ربّه فبالحرىّ أن يخرج عن معاهد[1] نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله على النـاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾

شرط الغنىّ ألا يَدَّخِر عن البيت شيئاً مِنْ مالِه ، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نَفَساً من روحه .

ويقال الاستطاعة فنون ؛ فمستطيع بنفسه ومَالِه وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزَّمِنُ للمصوب ، وثالث غفل الـكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطايانا .

ويقال حج البيتِ فَرْضٌ على أصحاب الأموال ، وربُّ البيتِ فَرْضٌ على الفقراء فرض حتم ؛ فقد يَنْسَدُّ الطريق إلى البيت ولـكن لا ينسدُّ الطريق إلى رب البيت ، ولا يُمْنَعُ الفقير عن ربِّ البيت .

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظِّمه : فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت ، وقاصد بقلبـه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فَرضِهم ، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند[2] شهود ربهم ، فأمَّا القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام ، وأمَّا القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن كَفَرَ فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين ﴾

ضرب رقم الـكفر على من ترك حج البيت ، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء فى كدِّ التأويل ، ثم قال : « فإن الله غنى عن العالمين » وهذا زيادة تهـديد تدل على زيادة تخصيص .

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج ، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن

---

(١) أى مألوفات نفسه .

(٢) وردت (عن) والصحيح (عند) .

يفسخ كلَّ عَقْدٍ يصدُّه عن هذا الطريق ، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق ، وإذ اطَّهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء ، فإذا تجرَّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة ، وإذا لبَّى بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إلا وقد استجابت لله . فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسِرِّه حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام ، ولا تعرض لتخصيص ؛ فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه ، وعرف له تعالى حقَّه على نفسه ، ويتعرَّف إلى الله تعالى بِتَبَرِّيه عن مُنَّتِهِ[1] وحَوْلِهِ ، والحقُّ سبحانه يتعرَّف إليه بِمِنَّته وطَوْله ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه ، ولا يصحُّ ذكرُه لربِّه مع ذكره لنفسه ، فإذا بلغ مِنىً نفى عن قلبه كل طَلَبٍ ومُنًى ، وكلَّ شهوةٍ وهوى .

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة فى الدنيا والعقبى .

وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية ، وتقرَّب به إلى الحق سبحانه ، فإذا دخل الحَرَمَ عَزَمَ على التباعد عن كل مُحرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة .

وإذا وقع طَرْفُه على البيت شهد بقلبه ربَّ البيت ، فإذا طاف بالبيت أخذ سِرُّه بالجولان فى الملكوت

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفَّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية .

فإذا حَلَقَ قطع كلَّ علاقة بقيت له .

وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربِّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه ، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى .

فمن أكمل نسْكَه فإنما عمل لنفسه ، ومن تكاسل فإنَّ الله غنى عن العالمين وقال صلى الله عليه وسلم : « الحاج أشعث أغبر » ، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر .

---

(١) ضبطناها هكذا لأن القشيرى يميز بين (المِنَّة) للحق و (المُنَّة) للعبد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات اللهِ واللهُ شهيدٌ على ما تعملون ﴾

الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم ، ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم ، فهم مدعوون — شرعاً وأمراً ، مطرودون — حُكْماً وقهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عن سبيل اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وأنتم شهداء، وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون ﴾

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ فى نَفْسِهِ ؟ إنَّ فى هذا لَسِرًّا للربوبية .

قوله جل ذكره ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً مِنَ الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها ، بل هى متعدية إلى كل من يحوِّم حول أهلها ، فَمَنْ أطاع عدوَّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء)[1] ألقاه فى وهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ اللهِ وفيكم رَسُولُه ، ومَن يعتصِم بالله فَقَدْ هُدِى إلى صراط مستقيم ﴾

لا ينبغى لمن أشرقت فى قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه ، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا .

وقوله : « ومن يعتصم . . . » الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله ، فأمّا

---

(١) مكتوبة (إلا) وسقطت بقية الكلمة فأكملناها (الأعداء) وربما (الأجانب) أو ما فى معناها طبقا لما نعرفه عن اتجاه القشيرى فى مواضع مماثلة .

مَنْ لم يَهْدِه الله فمتى يعتصم بالله ؟ فالهدايةُ منه فى البداية توجِبُ اعتصامك فى النهاية ، لا الاعتصام منك يوجب الهداية .

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوءِ إليه ، ودوامُ الفرار إليه ، واستصحاب الاستغاثة إليه . ومَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة ، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصَمُ به ؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله : « أعوذ بك منك » .

ومَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محواً عن حوله وقوته فى اعتصامه — فالشِرْكُ وطنُه وليس يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تُقاته ﴾ .

حقُّ التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِه ولا ينقص .

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه ، وأمره على وجهين : على وجه الحَتْم وعلى وجه النَدْب وكذلك القول فى النهى على قسمين : تحريم وتنزيه ، فيدخل فى جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقى عن كل خلة ثم التنقى من كل عِلَّة ؛ فإذا تَقِيتَ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْت حقَّ تقواك .

وحق التقوى رفض العصيان ونفى النسيان ، وصون العهود ، وحفظ الحدود ، وشهود الإلهية ، والانسلاخ عن أحكام البشرية ، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم ، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشىء من طاعتك دون صرف كرمه ، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحداً بِعِلَّة ولا يَرُدُّ أحداً بعلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون ﴾ .

لا تُصَادِفَنَّكم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا
حفرةٍ من النار فأنقذكم منها ،
كذلك يُبيِّن الله لكم آياته
لعلكم تهتدون ﴾ .

الاعتصامُ بحبله — سبحانه — التمسك بآثار الواسطة — العزيز صلوات الله عليه — وذلك بالتحقق والتعلُّق بالكتاب والسُّنَّة .

ويصح أن يقال : الخواص يُقال لهم « اعتصموا بحبل الله » ، وخاص الخاص قيل لهم « واعتصموا بالله » ، ولِمَنْ رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله ، أو فكرته واستدلاله ، أو معارفه وأشكاله ، والتجأ إلى ظل تدبيره ، واستضاء بنور عقله وتفكيره[1] — فمرفوع عنه ظل العناية ، وموكول إلى سوء حاله .

وقوله : « ولا تفرقوا » : التفرقة أشد العقوبات وهى قرينة الشِرك .

وقوله : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء » . وكانوا أعداء حين كانوا قائمين بحظوظهم ، مُعَرِّجين على ضيق البشرية ، متزاحمين بمقتضى شُحِّ النفوس .

« فألَّفَ بَيْنَ قلوبكم » : بالخلاص من أَسْرِ المكونات ، ودَفَعَ الأخطار عن أسرارهم ، فصار مقصودُهم جميعاً واحداً ؛ فلو ألَّفَ ألفَ شخص فى طلبٍ واحدٍ — فهم فى الحقيقة واحد .

« فأصبحتم بنعمته إخوانا » نعمته التى هى عصمته إياكم ، إخواناً متَّفِقِى القصدَ والهمة ، متفانين عن حظوظ النَّفْس وخفايا البخل والشحِّ .

« وكنتم على شفا حفرة من النار » : بكونكم تحت أَسْرِ مُنَاكم ، ورباط حظوظكم وهواكم .

---

(١) واضح أن القشيرى يرى أن الالتجاء إلى العقل والفكر كوسيلة للوصول يعد قاطعا من القواطع ، لأن للعقل آفات — ذكرها القشيرى فى مواضع مختلفة — تجعله غير جدير بأن يعتمد عليه العبد فى معرفة الحقائق العليا ؛ إن مهمة العقل عند هذا الباحث لا تتجاوز منطقة البداية — عند تصحيح الإيمان .

« فأنقذكم منها » : بنور الرضاء ، والخمود عند جريان القضاء ، وتلك حقاً هى المكانة العُظمى والدرجة الكبرى ، ويدخل فى هذه الجملة تَرْكُ السكون إلى ما مِنْك من المناقب والتُّقى ، و لعقل والحجا ، والتحصيل والنُّهى ، والفرار إلى الله — عزّ وجلّ — عن كل غَيْر وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْتَكُن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عن المنكر وأولئك هم المُفْلِحون ﴾

هذه إشارة إلى أقوامٍ قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة ، وقفوا جملتهم على دلالات أمره ، وقَصَرُوا أنفاسَهم واستغرقوا أعمارَهم على تحصيل رضاه ، عملوا لله ، ونصحوا الدين لله ، ودَعَوْا خلْقَ الله إلى الله ، فَرَبِحَتْ تجارتُهم ، وما خَسِرتْ صفقتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين تَفَرَّقوا واختلفوا مِنْ بعد ما جاءهمُ البيناتُ وأولئك لَهُمْ عذابٌ عظيم ﴾

هؤلاء أقوام أظهر عليهم فى الابتداء رقومَ الطلب ، ثم وسمهم[1] فى الانتهاء بِكَيِّ الفُرقة ، فباتوا فى شق الأحباب ، وأصبحوا فى زمرة الأجانب[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ فأمَّا الذين اِسودَّتْ وجوهُهُم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأمَّا الذين آبيضَّتْ وجوهُهُم ففى رحمة الله هُمْ فيها خالدون ﴾

---

(١) الرقم نعت يجرى فى الابتداء والوسم نعت يجرى فى الأبد بما جرى فى الأزل .

(٢) تأمل الدقة فى استعمال (باتوا) وكيف تعبر عن البداية ، ثم (أصبحوا) لتعبر عن النهاية .

أرباب الدَّعاوَى تسودُّ وجوهُهم ، وأصحاب المعانى تبيض وجوههم ، وأهل الكشوفات غداً تبيضُّ بالإشراق وجوهُهُم ، وأصحاب الحجاب تسودُّ بالحجبة وجوهُهُم ، فتعلوها غَبَرة ، وترهقها قَتَرة .

ويقال من ابيض — اليومَ — قلبُه ابيضَّ — غداً — وجهُه ، ومَنْ كان بالضد فحاله العكس .

ويقال مَنْ أعرض عن الخلْق — عند سوانحه — ابيضَّ وجهه بروْح التفويض ، ومَنْ علَّق بالأغيار قلبَه عند الحوائج اسودَّ محيَّاه بغبار الطمع ؛ فأمّا الذين ابيضت وجوههم ففى أُنْسٍ وروْح ، وأمّا الذين اسودّت وجوههم ففى محن ونَوْح .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما اللهُ يريد ظُلماً للعالَمين * ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله تُرجَعُ الأمور ﴾

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات فى كل قليل وكثير ، عمارة لسبيل الوداد : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ وأنَّى يجوز الظلم فى وصفه تقديراً ووجوداً — والخلْق كلُّهم خَلْقُه — والحكمُ عليهم حُكْمُهُ ؟

ولله ما فى السموات وما فى الأرض مِلْكاً ، وإلى الله تُرجَعُ الأمور حُكماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾

لمّا كان المصطفى صلوات الله عليه أشرفَ الأنبياء كانت أُمَّتُه — عليه السلام — خيرَ الأمم . ولمّا كانوا خيرَ الأمم كانوا أشرفَ الأمم ، ولمّا كانوا أشرف الأمم كانوا أشْوَقَ الأممِ ، فلمّا كانوا أشوق الأمم كانت أعمارُهم أقْصَرَ الأعمار ، وخَلَقَهم آخِرَ الخلائق لئلا يطولَ مُكْثُهم تحت الأرض . وما حصلت خيريتُهم بكثرة صلواتهم

وعباداتهم ، ولكن بزيادة إقبالهم ، وتخصيصه إياهم . ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذنُ بالدخول تقدَّم المتأخرون .

وكم باسطين إلى وَصْلِنا أكُفَّهمُ لم ينالوا نصيباً

قوله جل ذكره : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾

المعروف خدمة الحق ، والمنكر صحبة النفس .

المعروف إيثار حقِّ الحق ، والمنكر اختيار حظ النفس .

المعروف ما يُزْلِفُك إليه ، والمنكر ما يحجبك عنه .

وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف ، وحقُّ النَّاهى عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر .

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾

لو دَخَلَ الكافةُ تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العزِّ فى الدنيا والعقبى ، ولكن بَعُدُوا عن القبول فى سابق الاختيار فصار أكثرُهم موسوماً بالشِّرْك .

قوله جل ذكره : ﴿ لَن يَضُرُّوكم إلا أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصَرون ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم ، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم ، وإن استطالوا على الأولياء بموجب حسبانهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان .

قال جل ذكره : ﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ أينما ثُقِفُوا

إلا بِحَبْلٍ من الله وَحَبْلٍ من
الناسِ وباءوا بغضبٍ من اللهِ *
وضُربت عليهم المَسْكنةُ ذلك
بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله ،
ويقتلون الأنبياء بغير حقٍ ، ذلك
بما عَصَوْا وكانوا يعتدون ﴾

علَمُ الهجران لا ينكتم ، وسِمَةُ البُعْد لا تَخْفَى ، ودليل القطيعة لا يستتر ؛ فهم فى صغار الطرد ، وذُلّ الرد ، يعتبر بهم أولو الأبصار ، ويغترُّ بهم أضرابُهم من الكفار الفُجَّار .

قوله جل ذكره : ﴿ ليسوا سَوَاء مِنْ أهل الكتاب
أُمَّةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل
وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم
الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر ويسارعون فى الخيرات
وأولئك من الصالحين ﴾

كما غايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك أثبت مناقاة بين أحوال الأولياء وأحوال الأعداء ، ومتى يستوى الضياء والظلمة ، واليقين والتُّهمة ، والوصلة والفرقة ، والبعاد والألفة ، والمعتكف على البساط والمنصرف عن الباب ، والمتصف بالولاء والمنحرف عن الوفاء ؟ هيهات يلتقيان ! فكيف يتفقان أو يستويان ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وما يفعلوا من خيرٍ فَلَن يُكْفَرُوه
والله عليم بالمتقين ﴾

لن يخيبَ عن بابه قاصد ، ولم يخسرْ عليه (تاجر)[1] ، ولم يستوحشْ معه مصاحب ، ولم يَذِلَّ له طالب .

---

(١) هكذا فى ص ، وربما استوحاها القشيرى من الآية (اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) فيكون المعنى — والله أعلم — من آثر الله على كل شىء فقد ربحت تجارته وما خسر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا لَن تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِنَ اللهِ شيئاً ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

لا فى الحال لهم بدل ولا فى المآل عنهم خلف . فى عاجلهم خَسِروا ، وفى آجلهم فى قطعٍ وهجْرٍ ، وبلاءٍ وخُسْرٍ ، وعذابٍ ونُكْرٍ :

تبَدَّلَتْ وتبدلنا واحسرةً لمن ابتغى عِوَضاً لسلمى فلم يَجِدَ

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلَكَتْهُ وما ظَلَمَهم اللهُ ولكنْ أنفسهم يظلمون ﴾

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسراتٍ متتابعة ، وماحصلوا من حسباناتهم إلا على محن مترادفة ، وذلك جزاء من أعرض وتولّى

قوله جل ذكره : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودُّوا ما عَنِتُّمْ ، قد بَدَتِ البغضاء من أفواههم ، وما تُخْفِى صدورُهم أكبرُ ، قَدْ بيَّنَّا لكم الآياتِ إن كنتم تعقلون ﴾

الركون إلى الضد — بعد تبين المشاق — إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو ، فأشار الحقُّ — سبحانه — على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض ، وإظهار البراءة عن كل غير ، ودوام الخلوص للحق — سبحانه — بالقلب والسر . وأخبر أن مضادات القوم للرسول

صلى الله عليه وسلم أصلية غير طارئة عليهم ، وكيف لا ؟ وهو صلوات الله عليه محلُّ الإقبال وهم محل الإعراض . ومتى يجتمع الليلُ والنهار ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتابِ كلِّه ، وإذا لَقُوكُم قالوا : آمنا ، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ ﴾

أنتم بقضية كرمكم تصفو — عن الكدورات — قلوبُكم ؛ فتغلبكم الشفقة عليهم ، وهم — لعتوِّهم وخُلْفِهم — يكيدون لكم ما استطاعوا ، ولفرط وحشتهم لا تترشح منهم إلا قطرات غيظهم . ففَرِّغْ — يامحمد — قلبك منهم .

﴿ قل موتوا بغيظكم إنَّ الله عليم بذات الصدور ﴾

دَعْهُمْ يتفردوا بمقاساة ماداخلهم من الغيظ ، واستريحوا بقلوبكم عمَّا يَحِلُّ بهم ، فإنَّ الله أَوْلى بعباده ؛ يوصل إلى مَنْ يشاء ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وإن تُصِبْكُم سيئةٌ يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يَضُرُّكم كيدُهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة ، الراجعين إلى أحوال أهل العادة ؛ لا يعجبهم[1] أن يكون لمريد نفاذ ، وإذا رأوا فترةً لقاصد استراحوا إلى ذلك . وإنَّ الله — بفضله ومِنَّتِه — يُتِمُّ نورَه على أهل عنايته ، ويَدَرُ الظالمين الزائغين[2] عن سبيله فى عقوبة بعادهم ، لا يبالى بما يستقبلهم .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لا يعجبكم) والسياق والمعنى يرفضانها .
(٢) وردت (الذائقين) بالقاف وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعِدَ للقتالِ ، والله سميعٌ عليم ﴾

أقامَه — صلى الله عليه وسلم — بتبوئه الأماكن للقتال ، فانْتُدِب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سِرِّه ، فالمدار على قضائه وقَدَرِه ، والاعتبار بإجرائه واختياره .

قوله جلّت قدرته : ﴿ إذْ هَمَّت طائفتان منكم أن تَفْشَلا واللهُ وليُّهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يُبْرِزُ الجميعَ في صدار الاختيار ؛ كأنَّ الأمر إليهم في نفيهم وإثباتهم ، وفعلهم وتركهم ، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصريف القبضة ، وتقليب القدرة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نَصَرَكم اللهُ ببَدْرٍ وأنتم أذِلَّةٌ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ .

تذكير ماسَلَفَ من الإنْعَام فتحٌ لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأْنَف[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تقولُ للمؤمنين ألَن يَكْفِيَكُمْ أن يُمِدَّكُم رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنزَلِينَ * بَلَى ، إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورِهم هذا يُمْدِدْكم ربُّكم بخمسة آلافٍ مِنَ الملائكة مُسَوِّمين ﴾

كان تسكينُ الحقِّ سبحانه لقلبِ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بلا واسطة من الله

---

(١) خلاصة معنى هذه العبارة التي قد تبدو غامضة — أن التعبير القرآني ظاهره نسبة الأفعال للانسان — وهذا من وجهة نظر الصوفي تعبير بالفرق ، والحقيقة أن كل شيء مرجعه إلى الله حيث يكون التعبير عنه بالجمع ، وقد تقدم معنى الجمع والفرق في هامش آخر .

(٢) المستأنف = المستقبل .

— سبحانه ، والربط على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم — فلولا بقية بقيت عليهم ملودَّهم فى حديث النصرة إلى إنزال المَلَك ، وأنَّى بحديث المَلَك — والأمرُ كلُّه بِيَدِ المَلِك ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جعله اللهُ إلا بُشرى لكم ، ولتطمئنَّ قلوبُكم به ، وما النصرُ إلا منْ عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَه مع أوليائه أنه إذا ضعفت نِيَّاتُهم ، أو تناقصت[1] إرادتهم أو أشرفت[2] قلوبهم على بعض فترة — أراهم من الألطاف ، وفنون الكرامات ما يُقَوِّى به أسبابَ عِرْفانهم ، وتتأكد به حقائق يقينهم .

فعلى هذه السُّنَّة أنزل هذا الخطاب . ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال: « وما النصر إلا من عند الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الذين كفروا أو يَكْبِتَهُم فينقلبوا خَائِبِينَ ﴾ .

إنَّ اللهَ لا يُشْمِتُ بأوليائه عدواً ؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة ، فعدوُّه لا محالة يَكبِهُ[3] الله فى الفتنة والعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس لكَ مِنَ الأمرِ شىء ، أو يتوبَ عليهم ، أو يُعذِّبَهم ، فإنهم ظالمون * وَلِلهِ مافى السموات ومافى الأرض ، يغفرُ لِمَن يشاء ويُعذِّب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ .

---

(١) وردت (تناقضت) ولا يمنع أن تكون بالصاد حتى ينسجم النقص مع الضعف .
(٢) وردت بالقاف وهى خطأ فى النسخ .
(٣) هكذا فى (ص) وهى صحيحة ولكننا لا نستبعد أن تكون فى الأصل (يكبته) حيث جاء هذا الفعل فى الآية الكريمة التى نحن بصددها .

الإله من له الأمر والنهى ، فلمّا لم يكن له فى الإلهية نظير لم يكن له — (صلى الله عليه وسلم)[1] — من الأمر والنهى شىء .

ويقال جرّده — بما عرّفه وخاطبه — عن كلّ غيرٍ ونصيب ودعوى ، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شىء ، فإذا لم يَجُزْ أن يكون لسيِّد الأولين والآخرين شىء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبتُه عن منزلتِه فمتى يكون له شىء من الأمر ؟

ويقال استأثر (بِسَتْرِ عباده فى حكمه[2]) فقال أنا الذى أتوب على من أشاء من عبادى وأعذِّب من أشاء ، والعواقب عليك مستورة ، وإنك — يا محمد — لا تدرى سرى فيهم .

ويقال أقامه فى وقتٍ مقاماً فقال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه ، وقال له فى وقتٍ آخر : « ليس لك من الأمر شىء » ثم زاد فى البيان فقال : « ولله مافى السموات ومافى الأرض » . فإذا كان المُلْك ملكه ، والأمر أمره ، والحكم حكمه — فَمَنْ شاء عذَّبه ، ومن شاء قرَّبه ، ومن شاء هداه ، ومن شاء أغواه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مُضاعَفَةً واتقوا الله لعلّكم تُفْلِحون * واتقوا النارَ التى أُعِدَّت للكافرين ﴾ .

حرَّم الربا على العِباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردها ، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى مالا نهاية له ، والإشارة فيه أن الكرم لايليق بالخَلْق وإنما هو صفة الحق سبحانه .

« واتقوا النار التى أُعِدَّتْ للكافرين » : دليل الخطاب أنَّ المؤمن لا يُعذَّبُ بها ، وإنْ عُذِّب بها مُدَّةً فلا يُخَلَّدُ فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لَعَلَّكم تُرْحَمون ﴾

---

(١) أضفناها لتوضيح المعنى .

(٢) ربما كانت فى الأصل هكذا (بسر حكمه فى عباده) لأنه بعد قليل يقول (لاتدرى سرى فيهم) أى أن المستأثر به هو السر ، وكذلك كلمة (ستر عباده) مرفوضة فالأولى أنه يستر الحكم ، أو العواقب كما جاء بعد قليل .

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْرِه ، وتخفيفاً على الأمة حيث ردَّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم ، فإنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وسارعوا إلى مَغفرةٍ مِن ربِّكم وجَنةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين * الذين ينفقون فى السَّراءِ والضَّراءِ والكاظمين الغيظ والعافين عن النـاسِ والله يحب المحسنين ﴾

معناه سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » وإنما توجب المغفرة التوبةُ لأن العـاصى هو الذى يحتاج إلى الغفران .

والناس فى المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقَدَمِهم فى الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم فى القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات . فَمَنْ سارع بِقَدَمِه وجد مثوبته ، ومن سارع بهممه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته .

ولمَّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض ، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول فى مقابلة العَرْض ، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض ، فقومٌ قالوا : المغفرة من صفات الذات وهى بمعنى الرحمة فعـلى هذا فمغفرته حُكْمُه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه ، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض .

ومن قال : مغفرته من صفات فِعْلِه قال لـكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية ، إشارةً إلى استغراقه جميـع الذنوب .

قوله جل ذكره . ﴿ الذين ينفقون فى السَّراء والضَّراء ﴾

لا يدَّخِرون عن الله شيئاً ، ويؤثِرونه على جميـع الأشياء ، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد ، وأموالهم فى إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات ،

وقلوبهم فى الطلب ثم دوام المراعاة ، وأرواحهم على صفاء المحبّات والوفاء على عموم الحالات ، وينفقون أسرارهم على المشاهدات فى جميع الأوقات[1] ، ينتظرون إشارات المطالبات ، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات[2]

قوله : « والكاظمين الغيظ » : يتجاوزون عن الخَلْق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة ، وأقوام يَحْلُمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمِهم فيشهدونهم بعين التسلط ، وآخرون يكظمون الغيظ تحققاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهون عليهم التحمل ، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافِيَ الدرجات فى الذُّلّ لأن نفوسهم ساقطة فانية ، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار فى الإنشاء والإجراء ؛ فعلموا أنَّ المنشئ الله ؛ فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمّا أفردوه بالإبداع انقادوا لحكمه ؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه ، فأكرمهم الحق سبحانه بِبَرْدِ الرضاء ، فقاموا له بشرط الموافقة .

قوله « والعافين عن الناس » فرضاً[3] رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس ، قال قائلهم :

رُبَّ رامٍ لى بأحجار الأذى لم أَجِدْ بُدّاً من العطف عليه

« والله يحب المحسنين » والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. هذا فى معاملة الحق ، وأما فى معاملة الخلْق فالإحسان أن تَدَعَ جميع حقك بالكلية كم كان على من كان ، وتقبل (. . . .)[4] منه ولا تقلده فى ذلك مِنّة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحِشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومَن يغفر الذنوب إلا الله ،

---

(١) سقطت الواو فأثبتناها .
(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (المطالبات) أيضاً ، ونظراً لأن المطالعة مرتبطة بالكشف والكشف مرحلة متأخرة . فقد تركنا الأولى (المطالبات) وصوبنا الثانية (المطالعات) .
(٣) وردت (قرضاً) والصواب بالفاء فهكذا يرشدنا السياق ، والشاهد الشعرى بعده .
(٤) مثلبة .

ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون *
أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم
وجنات تجرى من تحتها الأنهار
خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « قُلْ لِلظَّلَمَةِ حتى لا يذكرونى فإنى أوجبتُ أن أذْكُرَ مَنْ ذكرنى، وذِكْرِى للظَّلَمَة باللعنة » . وقال لظَلَمَةِ هذه الأمة :

« أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » ثم قال فى آخر الآية : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

ويقال فاحشةُ كلٍّ أحد على حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم . وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفِعْلها من الأغيار ، قال قائلهم :

أنت عينى وليس من حق عينى غضُّ أجفانها على الأقذاء[1]

فليس الجُرْم على البساط كالذَّنب على الباب .

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم ، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم ، فاستغفروا لذنوبهم بالتبرى عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به ، فخلصهم من ظلمات نفوسهم . وإن رؤيةَ الأحوال والأفعال لَظُلُمَاتٌ عند ظهور الحقائق ، ومَنْ طَهَّره الله بنور العناية صانه عن التورط فى المغاليط البشرية[2] .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » بردِّهم إلى شهود الربوبية ، وما سبق لهم من الحسنى فى سابق القسمة .

« وجنات تجرى من تحتها الأنهار » مؤجلاً من الفراديس ، ومُعَجَّلاً فى روْح المباحات وتمام الأُنْس .

قوله جل ذكره : ﴿ قد خَلَتْ مِن قبلِكم سُنَنٌ فسيروا

---

(١) البيت لابن الرومى يعاتب صديقه أبا القاسم التوزى الشطرنجى .

(٢) القشيرى فى هذه الفقرة متأثر بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين يعلنون حرباً لا هوادة فيها على كل دعوى للنفس حتى ليحاولون ستر حياتهم الباطنية بفعل ما يوجب ملامة الناس ، وكل ذلك فى سبيل كسر النفس وعدم استشعار العبد لأى فضل منه :

فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين* هذا بيان للناسِ وهدىً
وموعظة للمتقين ﴾

يعنى اعتبروا بمن سلف ، وانظروا كيف فعلنا بمن وَالَى وكيف انتقمنا ممن عَادَى ، وقوله تعالى « هذا بيان للناس » : بيان لقومٍ من حيث أدلة العقول ، ولآخرين من حيث مكاشفات القلوب ، ولآخرين من حيث تجلى الحق فى الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلوْن
إنْ كنتم مؤمنين ﴾

يعنى إذا قلتم بالله (ووصلتم[1]) بالله فلا ينبغى أن تخافوا من غير الله ، ولا تَهِنوا ولا تضعفوا فإن النصرة من عند الله ، والغالب الله ، وما سوى الله فليس منهم ذرة لا منهم سينة .

قوله : « إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى للمؤمن ألا تظله مهابةٌ من غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فَقَد مَسَّ القومَ
قَرْحٌ مِثْلُه ، وتلك الأيام نداولها بين
الناسِ وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا
ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب
الظالمين ﴾

إنْ نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم ، ومُنُوا بمثل ما به مُنيتم ، فمن صبر منهم ظفر ، ومَنْ ضجر مِنْ حَمْلِ ما لقى خَسِر ، والأيام نُوَبٌ والحالات دُوَلٌ ، ولا يخفى على الحق شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وليمحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحقَ
الكافرين ﴾ .

---

(١) لا نستبعد أنها (وصُلْتُمْ) من صال يصول ، ويدعم ذلك حرف الجر بعده ، وكذلك السياق .

اختبارات الغيب سبك[1] للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه ، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله .

« ويمحق الكافرين » فى أودية التفرقة . (وأما الزبد فيذهب جفاء)[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أن تدخلوا الجنةَ ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه فى مهواة الهلاك ، وإنَّ من عرف قَدْر مطلوبه سَهُلَ عليه بَذْلُ مجهوده : (... ...) وهو بلذاته على من يظن يخلع العذار)[3] وقال قائلهم :

إذا شام الفتى برق المعانى فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقاد

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كنتم تمنَّوْنَ الموتَ مِن قبلِ أن تَلْقَوْهُ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾

طوارق التمنى بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن :

إذا انسكبت دموعٌ فى خُدُودٍ تبيَّن من بكى[4] ممن تباكى

قوله جل ذكره : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مات أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم وَمَن ينقلِب

---

(١) وردت (شبك) ونرجح أنها (سبك) فالسياق يدعم ذلك .

(٢) نرجح أن هذه الآية موضوعة هنا خطأ وأن مكانها عقب (لا خبث فيه) ليتماسك المعنى .

(٣) هكذا فى (س) والصحيح أنه :

وما جاد دهر بلذاته على من يضنُّ بخلع العذار

وهو لأبى نواس فى ملاحاة له مع مسلم بن الوليد .

(٤) جاءت فى الشطر (تبين من بق) وهى خطأ فى النسخ .

على عقبيه فَلَن يضُرَّ الله شيئا
وسيجزى اللهُ الشاكرين ﴾

إن الرسل موقوفون حيثما وُقِفُوا ، ومخبرون عمّا عُرِّفوا بمقدار ما عَرَفُوا ؛ فإذا أُيِّدُوا بأنوار البصائر اطّلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أُعطُوا من الإشراق بوظائف البلوغ .

« أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم » لما تُوُفِّى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سقمت البصائر إلا بصيرة الصديق رضى الله عنه فأمَدَّه اللهُ بقوة السكينة ، وأفرغ عليه قوة التولى فقال . « من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات » فصار الكُلُّ مقهورين تحت سلطان قالته لِمَا انبسط عليهم من نور حالته ، كالشمس بطلوعها تندرج فى شعاعها أنوارُ الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم .

وإنما قال : « أفإن مات أو قتل » لأنه صلى الله عليه وسلم مات . وقيل أيضاً لأنه قال : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أن تموتَ إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً وَمَن يُرِدْ ثواب الدنيا نؤتِهِ منها وَمَن يُرِد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى[2] الشاكرين ﴾ .

الأنفاس محصورة ؛ لازيادة فيها ، ولا نقصان منها .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة .

« ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم الرضوان .

---

(١) وفى البخارى بلفظ « ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » قال المقريزى : « وهذا قاله فى مرض موته » .
(٢) أخطأ الناسخ إذ أضاف (وسيجزى الله) وقد التبس عليها ختام الآية السابقة .

« وسيجزى الله الشاكرين » : وجزاء الشكرِ الشكرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأين من نبيٍ قاتَل معه رِبِّيُّون كثيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا والله يحِبُّ الصابرين ﴾ .

إنَّ الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق ، وطالبوا نفوسهم بالتحقيق ، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق — وجدوا محبةَ الحقِّ سبحانه ميراثَ صبرِهم ، وكان الخَلَفَ عنهم الحقُّ عند نهاية أمرهم ، فما[1] زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا فى حفظ العهد ، وسلَّموا تسليما ، وخرجوا عن الدنيا وكان كلٌّ منهم للعهد مقيماً مستديماً ، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان قولَهُمْ إلاَّ أن قالوا ربَّنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسْرَافَنَا فى أمرِنا ، وثَبِّتْ أقدامنا وانصُرْنَا على القومِ الكافرين ﴾ .

تحققوا بحقائق المعنى فَخَرِسُوا[2] عن إظهار الدعوى ، ثم نطقوا بلسان الاستغفار ، ووقفوا فى موقف الاستحياء ، كما قيل :

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسناتُه آثامُ

قوله جل ذكره : ﴿ فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا ﴾

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس فى الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلقائه ، ثم استقلال السرِّ بوجوده .

---

(١) أخطا الناسخ إذ نقلها (فلما زاغوا) وهذا يخالف المعنى المراد ، والصحيح (فما)

(٢) وردت بالحاء والصواب أن تكون بالخاء ، فالمعنى يتطلب ذلك ويقوى به .

﴿ وحُسْنَ ثوابِ الآخرة ، واللهُ يحبُّ المحسنين ﴾ .

يعنى دخولهم الجنة وهم محررون عنها ، غير داخلين فى أسْرِها .

ويقال ثوابُ الدنيا والآخرة الغيبةُ عن الدارين برؤية خالقهما[1] .

ولمّا قال « ثواب الدنيا » قال فى الآخرة « وحسن ثواب الآخرة » فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصَّه بوصف الحُسْن ، وتلك المزية دوامها وتمامها وثمارها ، وأنها لا يشوبها ما ينافيها ، ويوقع آفةً فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تُطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ .

يعنى إنْ طاوعتم الأضداد جرّوكم إلى أحوالهم[2] ، فألقوكم فى ظلماتهم ، بل الله مولاكم : ناصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم ، « وهو خير الناصرين » : لأنه يعينكم على أنفسكم ليكفيَكم شرَّها ، ومَنْ سواه يزيد فى بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم .

« وهو خير الناصرين » لأن مَنْ سواه يمن عليك بنصرته إياك ، وهو يجازيك على استنصارك به .

ويقال كل من استنصرتَ به احتجتَ إلى أنْ تُعْطِيَه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فإذا استنصرتَه — سبحانه — يعطيكَ كلَّ لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك .

قوله جل ذكره : ﴿ سَنُلْقِى فى قلوبِ الذين كفروا

---

(١) الغيبة فى المصطلح الصوفى من مقوماتها ألا يحس العبد بوارد من تذكر ثواب أو تفكر فى عقاب ، وعلى حسب الغيبة عن الخلق يكون (حضور) العبد بالحق .

(٢) وردت (أحوالكم) وهذا خطأ فى النسخ .

الرعبَ بما أشركوا بالله ما لم يُنَزِّلْ
به سلطانا ومأواهم النـار وبِئْس
مثوى الظالمين ﴾

إنّ الله سبحانه خصّ نبيّنا — صلى الله عليه وسلم — بإلقاءِ الرعبِ منه فى قلوب أعدائه ، قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بالرعب » . فـكذلك أجرى هذه السُّنّة مع أوليائه ؛ يطرح الهيبة منهم فى القلوب ، فلا يكاد يـكون محق إلا ومنه — على المبطلين وأصحاب الدعوى والتمويه — هيبةٌ فى القلوب وقهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَدَقَـكُمُ الله وعْدَهُ إذْ
تَحسُّونَهُم بإذنِهِ حتى إذا فَشِلْتُم
وتنازعتُم فى الأمْرِ وعَصَيْتُم مِنْ بعدِ
ما أرَاكُم ما تُحِبُّون ﴾

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به ، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن عطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لاينصرك ، فاذا استنصرته — سبحانه — يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك) . (١)

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أولياءه بحق حقه ، وأقعدهم عن تحصيل حظوظهم ، وقام سبحانه بكفايتهم بكل وجه ، فمن لازم طريق الاستقامة ، ولم يزغ عن حدّه ولم يزُغْ فى عهده ، فإنه سبحانه يصدق وعده له بجميل الـكفاية ودوامها ، ومن ضلّ عن الاستقامة — ولو خطوة — عثر فى مشيته ، واضطربت عليه — بمقدار جُرْمه — حاله وكفايته ، فمن زَادَ زِيدَ له ، ومن نَقَصَ نُقِصَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ منكم مَّن يريد الدنيا ومنكم مَّن

---

(١) ما بين القوسين سبق وروده عند تفسير « وهو خير الناصرين » فى ختام الآية قبل السابقة ؛ ولا ندرى هل أعادها القشيرى هنا لتفسير « ولقد صدقكم الله وعده » أم أن الناسخ قد وقع فى التكرار سهواً أثناء الـكتابة ؟

يريد الآخرة ، ثم صَرفَكُمْ عنهم
ليبتَلِيَكُم ولقد عفا عنكم ، والله
ذو فضلٍ على المؤمنين ﴾

قيمة كل أحدٍ إرادته ؛ فَمَنْ كانت همتُه الدنيا فقيمتُه خسيسة حقيرة كالدنيا ، ومن كانت همتُه الآخرة فشريفٌ خطره ، ومن كانت همهُ ربانية فهو سيد وقته .

ويقال مَنْ صفا عن إرادته وصل إليه ، ومن وصل إليه أقبل — بلطفه — عليه ، وأزلفه بمحل الخصوصية لديه .

قوله : « ثم صرفكم عنهم » : الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغَلهم بغيره عنه ، وآخرون صَرفَهم عن كل غير فأفردهم له ؛ فالزاهدون صَرفَهم عن الدنيا ، والعابدون صرفهم عن اتباع الهوى ، والمريدون صرفهم عن المنى ، والموحِّدون صرفهم عما هو غيرٌ وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تُصْعِدون ولا تلوُون على أحَدٍ
والرسولُ يدعوكم فى أُخراكم فأثابكم
غمًّا بِغَمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم
ولا ماأصابكم والله خبيرٌ بما تعملون
* ثُمَّ أنزل عليكم مِنْ بَعْدِ الغَمِّ
أَمَنةً نُعاساً يغشى طائفةً منكم ،
وطائفةٌ قد أَهمَّتْهُمْ أنفُسُهم يظنون
بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية يقولون
هل لنا مِنَ الأمرِ من شىء ، قُلْ إنَّ
الأمرَ كلَّه لله ؛ يخفون فى أنفُسِهِم
مالا يُبْدُون لكَ يقولون لو كان لنا
من الأمرِ شىء ما قُتِلنا هاهنا ، قُل

لو كنتم فى بيوتكم لبَرَزَ الذين
كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجِعهم
وليبتلىَ اللهُ ما فى صدوركم ،
وليُمَحِّصَ ما فى قلوبكم ، والله عليم
بذات الصدور ﴾ .

قوله : « إذ تصعدون » الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة ، ودواعى الحق سبحانه — من أنفسهم ، ومن جميع الأقطار حتى كأنّ الأحجارَ من الشوارع واللَّبِنَ من الجدران — تناديه : لا تفعلْ يا عبدَ الله ! وهو مُصِرٌّ فى لَيِّه ، مقيمٌ على غَيِّه ، جاحد لِمَا يعلم أنه هو الأحقُّ والأوْلى من حاله ، فإذا قضى وطَرَه واستوفى بهمته ، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه ، ويقف عن ركضه فى ميدانه ، فلا يحصل إلا على أنفاسٍ متصاعدة ، وحسراتٍ متواترة ؛ فأورثه الحقُّ —سبحانه— وحشةً على وحشة . حتى إذا طال فى التحسُّر مقامه تداركه الحق — سبحانه — بجميل لطفه ، وأقبل عليه بحسن عطفه ، وأنقذه من ضيق أسرِه ، ونقله إلى سعة عفوه وفضله ، وكثيرٌ مِنْ هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (. . . . .)[1] ويقومون بالله لله بلا انتظار تقريب ولا ملاحظة ترحيب .

قال تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنة نعاساً يغشى طائفةً منكم وَطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » : فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم[2] إلى القول بتَرْكِ أنفسهم ، وغَسلِ أيديهم منهم ، ورفْع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله لله ، بلا ملاحظة طمع وطلبة ، بل على عقيدة اليأس عن كل شىء . عليه أكَّدُوا العهد ، وبدَّلُوا اللحظ[3] ، وتركوا كل نصيب وحظ ، وهذه صفة مَنْ أنزل علية الأَمنةَ .

فأمَّا الطائفة التى أهمتهم أنفسهم — فبقوا فى وحشة نفوسهم ، ومِنْ عاجل عقوبتهم سوء

---

(١) مشتبهة .
(٢) وردت (فطراتهم) بالطاء والأصوب أن تكون بالتاء لأن الفترة وقت متاساة ومعاناة فهى تتلاءم مع (وتجرع حسراتهم) .
(٣) اللحظ هنا معناها الملاحظة ، ملاحظة النفس أو ملاحظة العوض .

عقيدتهم فى الطريقة بعد إيمانهم بها ؛ قال تعالى : « ونقلبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

والإشارة فى قوله تعالى : « هل لنا من الأمر من شيء » لهؤلاء أنهم يتحيَّرون فى أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة ، ولا إعراض بالكلية ، يجيلون فترتهم على سوء اختيارهم ، ويضيفون صفوة ـ لو كانت لقلوبهم ـ إلى اجتهادهم ، وينسَوْن ربَّهم فى الحالين ، فلا يبصرون تقدير الحق سبحانه . قال تعالى :

« قُلْ إنَّ الأمر كلَّه لله » : فَمَنْ عَرَفَ أن المنشىء الله انسلخ عن اختياره وأحواله كانسلاخ الشَّعْرِ عن العجين ، وسَلَّمَ أموره إلى الله بالكلية . وأمارة مَنْ تحقق بذلك أن يستريح من كدِّ تدبيره ، ويعيش فى سعة شهود تقديره .

وقوله : « يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » : لم يُخْلِصُوا فى عقائدهم ، وأضمروا خلاف ما أظهروا ، وأعلنوا غير ما ستروا ، وأحالوا الكائنات على أسبابٍ توهموها .

قال تعالى : «قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم » :
أخبر أن التقدير لا يُزَاحَم[1] ، والقَدَر لا يُكابَر ، وأن الكائناتِ محتومة ، وأن الله غالب على أمره .

وقوله : « وليبتلى الله ما فى صدوركم » : فأمّا أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفةٍ وحجبة ، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة ، فتصبح قلوبهم خالصةً من الشوائب ، صافيةً عن العلائق ، منفرِدةً للحق ، مجرَّدَةً عن الخلق ، مُحَرَّرة عن الحظّ والنَّفْس ، ظاهرةً عليها آثارُ الإقبال ، غالباً عليها حُسْنُ التَّوَلِّى ، باديةً فيها أنوارُ التجلى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين تَوَلَّوْا منكم يوم التقى الجمْعَانِ إنَّما استزلهم الشيطانُ ببعض ما كَسَبُوا ولقد عفا الله عنهم إنَّ الله غفور حليم ﴾

(١) وردت بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من صَقِمَتْ إرادتُهم ، وضَعُفَتِ نِيَّاتُهم ، وقادهم الهوى ، وملَكَتْهُم الفَترة .

فأَبلَهم نصحُ الناصحين ، ودعوة المنى ، ووساوس الشياطين فركنوا إلى الغيبة ، وآثروا الهوى على التُّقَى فبقوا عنه ، ولم يتهنَّوا بما آثروه عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرضِ أو كانوا غُزّىً ، لَوْ كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا ليجعلَ الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يُحيي ويُميت ، والله بما تعملون بصير ﴾

مَنْ تعوَّد أن يتلهف على ماضيه وسالفه ، أو يتدبر فى مستقبله وآنفه ، فأقلُّ عقوبة له ضيق قلبه فى تفرقة الهموم ، وامتحاء نعت الحياة[1] عن قلبه لغفلته وقالته ليت كذا ولعلَّ كذا ، وثمرةُ الفكرة فى ليت ولعلَّ — الوحشةُ والحسرةُ وضيق القلبِ والتفرقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ولَئِن قُتِلْتُمْ فى سبيل الله أو مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون * ولَئِن مُتُّم أو قُتِلْتُم لإلى اللهِ تُحْشَرون ﴾

بذل الروح فى الله خير من الحياة بغير الله ، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من البقاء مع غير الله ، وما يؤثره العبدُ على الله فغير مبارك ، إنْ شِئتَ : والدنيا ، وإنْ شِئْتَ : والعقبى .

قوله « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » : إذا كان للمصير إلى الله طاب المسيرُ

---

(١) حياة القلب عمارته بالله وقد وردت فى مطلع الإشارة التالية ، ولا يستبعد أنها (الحياء) فهى مقبوله أيضاً .

إلى الله : وإنَّ سَفْرةً إليه بعدها نَحُطُّ رحالَنَا لَمُقَاساتُها أحلى من العسل !

قوله جل ذكره . ﴿فَبِمَا رحمةٍ مِنَ الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فَظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين﴾ .

جرَّده عن أوصاف البشرية ، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية ، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولى ، لا من آثار الوفاق والتبرى ، ولولا أنه استخلصه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة ؟ !

ويقال إن من خصائص رحمته — سبحانه — عليه أنْ قَوّاه حتى صَحِبَهُم ، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم ، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم — مع سلطان ما كان مستغرقا له ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه ، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطاق صحبتهم ؟ !

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان قريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ؟

ويقال لولا أنه صلى الله عليه وسلَّم شاهدهم محواً فيما كان يَجْرِى عليهم من أحكام التصريف ، وتحقَّق أن منشئها الله — لما أطاق صحبتهم .

قوله تعالى : « ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك » : لو سقَيْتَهم صِرْفَ شراب التوحيدِ غيرَ ممزوجٍ بما فيه لهم حظٌّ لتفرقوا عنك ، هائمين على وجوههم ، غير مطيقين للوقوف لحظةً ، « فاعفُ عنهم » فيما يكون تقصيراً منهم فى حقك وتوقيرك ، وما عثرت عليه مِنْ تفريطهم فى خدمتنا وطاعتنا — فانتصِبْ لهم شفيعا إلينا .

ويقال « فاعفُ عنهم » فاعف — أنت — عنهم فإن حكمك حكمُنا ، فأنت لا تعفو إلا وقد عفَوْنا . ثم ردَّه عن هذه الصفة بما أثبته فى مقام العبودية ، ونقله إلى وصف التفرقة

فقال : ثم قِفْ فى محل التذلل مبتهلا إلينا فى استغفارهم . وكذا سُنَّتُه — سبحانه — مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه ، يردُّهم مِنْ جمعٍ إلى فرقٍ ومن فَرْقٍ إلى جمع ، فقوله : « فاعف عنهم » جمع ، وقوله : « واستغفر لهم » فرق .

ويقال « فاعف عنهم » وتجاوز عنهم فى حقوقك ، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالا للكرم ؛ ولهذا كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

ويقال ما يُقصِّرون فى حقِّك تعلَّق به حقَّان : حقك وحق ، فاذا عفوتَ أنت فلا يكفى هذا القَدْرُ بل إنْ لَمْ أتجاوز عنهم فى حقى كانوا مستوجبين للعقوبة ؛ فمن أرضى خصمَه لا يَنْجَبِر حالُه ما لم يغفر اللهُ له فيما ترك من أمره .

وقوله « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » أى أَثْبِتْ لهم محلاً ؛ فإنَّ المعفوَ عنه فى صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة ، فإذا شاورتَهم أزَلْت عنهم انكسارهم ، وطيَّبْتَ لهم قلوبهم .

ويقال تَجَنَّسوا فى أحوالهم : فَمِنْ مُقَصِّرٍ فى حقه أُمِرَ بالعفو عنه ، ومن مرتكب لذنوبه أُمِرَ بالاستغفار له ، ومن مطيعٍ غير مقصرٍ أُمِرَ بمشاورته .

ثم قال : « فإذا عزمت فتوكل على الله » أى لا[1] تتكل على رأى مخلوق وكِلْ الأمور إلىّ ، فإنا لا نخليك عن تصريف القبضة بحالٍ .

وحقيقة التوكل شهود التقدير ، واستراحة القلوب عن كد التدبير .

« إن الله يحب المتوكلين » يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لغبٍ[2] وَنَصَبٍ ، وإنه يعامل كلاً بما يستوجبه ؛ فقومٌ يغنيهم — عند توكلهم — بعطائه ، وآخرون يكفيهم — عند توكلهم — بلقائه ، وقوم يرضيهم فى عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه ، ويقفون معه به له — على تلوينات[3] قَدَرِه وقضائه .

---

(١) سقطت (لا) من الناسخ .

(٢) وردت (لقب) بالقاف والصواب أن تكون (لغب) بالغين ، وربما كانت فى الأصل (تعب)

(٣) اللفظة رديئة الخط ، ويحتمل أنها (تقلبات) ، وتلوين الأحوال مصحوب — حسب الاصطلاح الصوفى — بتقلب الأحوال ، ولهذا فالمعنى يتقبل كلا اللفظين .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إن ينصرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم ، وإن يخذُلْكم فمن ذا الذى ينصُرُكم مِنْ بَعْدِه وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

المؤمنون نصرته لهم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح .

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد[1] السرائر .

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو ، وأعدى عدوك نَفْسُكَ التى بين جنبيك . والنصرة على النَّفْس بأن تهزم دواعى مُنَّتِها بعواصم رحمته حتى تَنْفَضَّ جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شبهات الدواعى التى هى أوصاف البشرية ، وشهوات النفوس وأمانيها ، التى هى آثار الحجبة وموانع القربة .

« إن يخذلكم » الخذلان التخلية مع المعاصى ، فَمَنْ نَصَرَه قبض على يديه عن تعاطى المكروه ، ومن خَذَلَه ألقى حَبْله على غاربه ، وَوَكَلَه إلى سوء اختياره ، فيفترق عليه الحال فى أودية الشهوات ، فمرة يُشَرِّق غير محتشِم ، وتارة يُغَرِّب غير مُحترِم ، ألا ومن سبَّبَه الحق فلا آخذ بيده ، ومن أسلمه[2] فلا مجيرَ له .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : فى وجدان الأمان عند صدق الابتهال ، وإسبال ثوب[3] العفو على هناة الجُرْم عند خلوص الالتجاء ، بالتبرى من المنَّة والحول .

ويقال لما كان حديث النصرة قال : « فلا غالب لكم » ، ولما كان حديث الخذلان لم يقل « فلا ناصر لكم » بل قال بالتلويح والرمز : « فمن ذا الذى ينصركم من بعده » : وفى هذا لطيفةٌ فى مراعاة دقائق أحكام الخطاب .

---

(١) من السداد .
(٢) أى أسلمه إلى نفسه :
(٣) وردت (ثواب) ، والملائم للاسبال : (ثوب) ولذلك آثرناها .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لنبيٍ أن يَغُلَّ ومَن يَغْلُلْ يأتِ بما غلَّ يوم القيامة ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمون ﴾

نَزَّه[1] أحوال الأنبياء عن الدَّنَس بالخيانات ، فمن حَمَّلْنَاه من الرسالة إلى عبادنا يوصلها إلى مستحقيها واجباً ، ولا يعتنى بشأنِ حميمٍ له مِنْ دون أمرنا ، ولا يمنع نصيب أحدٍ أمرناه بإيصاله إليه ، بحقدٍ ينطوى عليه . ألا ترى كيف قال : « اذهب فوارِه » لأبى طالب لمَّا قال له أمير المؤمنين عليٌّ رضى الله عنه : مات عمُّك[2] الضال . وكيف قَبِلَ الوحشىَّ قاتِلَ حمزة لمَّا أسلم ؟

ويقال ما كان لنبيٍ من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضع أسرارنا فى غير أهلها ، بل يُنْزِلون كل أحدٍ عند ما يستوجبه ، وفى الأثر « أُمِرْنا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلَهم »

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومأواه جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير * هُمْ دَرَجاتٌ عِندَ اللهِ ، واللهُ بَصير بما يعملون ﴾

لا يستوى مَنْ رضى عنه فى آزاله ومَنْ سخط عليه فخذله فى أحواله ، وجعله متكلاً على أعماله ، ناسياً لشهود أفضاله ، واتباع الرضوان بمفارقة ما زُجِر عنه ، ومعانقة ما أُمِرَ به ، فَمَنْ تجرَّد عن المزجور ، وتجلَّد فى اعتناق المأمور فقد اتبع الرضوان ، واستوجب الجنان .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (نزح) بالحاء :

(٢) « إذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » هكذا اخرجه ابن سعد وابن عساكر عن على رضى الله عنه :

وفى السيرة الحلبية : إن هذا الحديث أخرجه أيضاً أبو داود والنسائى وابن الجارود وابن خزيمة عن على قال : لما مات أبو طالب أخبرت النبى (ص) بموته فبكى وقال :

« اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » .

وانظر أيضاً « أسنى المطالب فى نجاة أبى طالب » لزينى دحلان ط طهران سنة ١٣٨٢ (ص ٤٤) .

«هم درجات عند الله» : أى هم أصحاب درجات فى حكم الله ، فَمِنْ سعيدٍ مُقَرَّب ، ومِنْ شَقِيٍّ مُبْعَد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بَعَثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾

أجزل لديهم العارفة ، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله ، وعرَّفهم دينهم ، وأوضح لهم براهينهم ، وكان لهم بكل وجه فلا نِعَمَهُ شكروا ، ولا حقَّه وَقَّروا ، ولا بما أرشدهم استبصروا ، ولا عن ضلالتهم أقصروا .. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا . وأمَّا المؤمنون فتقلدوا المِنَّة فى الاختيار ، وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار ، فَسَعِدُوا فى الدنيا والعُقْبي ، واستوجبوا من الله الكرامة والزُّلفى .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ لمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصَبْتم مِثْلَيها قُلْتُمْ أنَّى هذا قل هو من عند أنفسِكم ، إنَّ الله على كل شىء قدير ﴾

عادة الخَلْق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان ، والرجوع إلى الله بالتهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران ، وفنون المكاره والافتتان ، وإنَّ مَنْ تعاطى (. . .)[1] الإجرام فحقيق بألا ينسى حلول الانتقام .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمان فبإذن

---

(١) مشتبهة .

الله وليمحّص المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلمُ بما يكتمون ﴾

هوّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أُحُد ، بأن قال إن ذلك أجمعَ كان بإذن الله ، وإنّ بلاء يصيب بإذن الله لمِنَ العسلِ أحلى ، ومِنْ كل نعيم أشهى .

ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصحبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكاسلوا :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصال وقال كانَ وكانا

قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » فلا جَرَم (سقَوْا العسَل ودَسُّوا له فيه الحنظل)[1] ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

قوله جل ذكره : ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلوا قُلْ فادرءوا عن أنفسِكم الموت إن كنتم صادقين﴾

الذين ركنوا إلى ما سوّلت لهم نفوسهم من إيثار الهوى ، ثم اعترضوا على من يصرف أحكام القضاء وقالوا لو تحرّزُا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة . . لَمَذْمُومةٌ تلك الظنون ، ولَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب .

---

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة لو بنى الفعلان فيها للمعلوم ، أما لو بنيا للمجهول فإن الجزء الثاني منها يكون (ودس لهم فيه الحنظل) . فالفاعل في الحالة الأولى يكون ضميرا يعود على المنافقين ، ونائب الفاعل في الحالة الثانية يكون المولى عز وجل وما جاء في النسخة (س) يرجح الثانية ، وإن كنا نميل للأولى .

قُلْ لهم — يا محمد — استديموا لأنفسكم الحياة ، وادفعوا عنها هجوم الوفاة !

ومتى تقدرون على ذلك ؟ ! هيهات هيهات !

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله
أمواتاً بلْ أحياء عند ربهم يُرْزَقون
فَرِحين بما آتاهم الله من فضلِه
ويستبشرون بالذين لم يَلْحقوا بِهم
من خَلْفِهم ألاَّ خَوفٌ عليهم
ولاَهُمْ يَحْزَنون ﴾

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس فى رضاء الحق أتمُّ من البقاء بنعمة الخلْق مع الحجبة عن الحق .

ويقال إن الذى وارثُه الحى الذى لم يزل فليس بميت — وإن قُتِل :

وإن كانت العبدان للموت أُنْشِئَتْ فقتلُ امرئٍ فى اللهَ — لاشكَّ — أفضلُ

قوله : « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » : مَنْ علم أن أحباءه ينتظرونه وهم فى الرَّفَه والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإلمام بهم والنزول عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يستبشِرون بنعمة من اللهِ وفضل
وأنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المؤمنين ﴾

عِلَّةُ استبشارهم وموجبه فضلٌ من الله ونعمة منه ، أى لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى استبشروا ؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عبادُه وأنه مولاهم[1] ، ولولا فضله ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة .

---

(١) يقول الدقاق — شيخ القشيرى وصهره — ليس أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، وقد وصف بها الرسول (ص) فى أشرف أوقاته فى الدنيا ، قال تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى .

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى (الرسالة ص ١٠٠)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول مِنْ بعدما أصابَهُمُ القَرْحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم ﴾

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العربية[1] وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرها ، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستحلاء[2] تحمُّل الحُكْم . فالاستجابة للحق بوجوده ، والاستجابة للرسول — عليه السلام — بالتخلُّق بما شرع من حدوده .

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء فى حق الربوبية ، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء فى إقامة العبودية .

« من بعد ما أصابهم القرح » : فى ابتداء معاملاتهم قبل ظهور أنوار التجلى على قلوبهم ، وابتسام الحقائق فى أسرارهم .

« للذين أحسنوا منهم » : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . . . — وهو للشاهدة والتقوى — . . . فإن لم تكن تراه فإنه يراك[3] — وهو المراقبة فى حال المجاهدة .

« أجر عظيم » لأهل البداية مؤجّلاً ، ولأهل النهاية مُعجّلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناس قد جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهم فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ ﴾

لم يلتَبِسْ على ظواهرهم شىء مِنْ أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم — فى أسرارهم — طوالع من الكشوفات ، فازدادوا يقيناً على يقين .

---

(١) أى على مقتضى صيغ الاشتقاق فى اللغة .

(٢) فى س (استجلاء) والصواب أن تكون بالحاء .

(٣) « أعبد الله كأنك تراه . . . » رواه الطبرانى عن أبى الدرداء ، وحسّن السيوطى سنده ، وضعفه المنذرى . قال الحافظ العراقى : رجاله ثقات وفيه انقطاع « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم » وفى الحلية عن زيد بن أرقم .

ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِن الخَلْق فى توهم الإنجاد والإعانة .

قوله جل ذكره : ﴿ فانقلبوا بنعمةٍ مِنَ الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رِضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم ﴾

كذا سُنَّة الحق — سبحانه — مع مَنْ صَدَق فى التجائه إليه أن يمهد مقيله فى ظل كفايته ؛ فلا البلاء يمسه ، ولا العناء يصيبه ، ولا النَّصَبُ[1] يُظِلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما ذلكم[2] الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم ، وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾

الإشارة فى تسليط دواعى الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله ؛ كالصبىّ الذى يخوَّف بشىء يفزع الصبيان ، فإذا خافَ لم يهتدِ إلى غير أمه ، فإذا أتى إليها آوَتْه إلى نفسها ، وضمَّتْه إلى نَحْرِها ، وألصقَتْ بخَدِّه خدَّها .

كذلك العبد إذا صدق فى ابتهاله إلى الله ، ورجوعه إليه عن مخالفته ، آواه إلى كنف قربته ، وتداركه بحسن لطفه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يحزُنك الذين يُسارِعون فى الكفرِ إنَّهم لن يضروا الله شيئاً ، يريد الله ألا يجعلَ لهم حظًّا فى الآخرة ، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

زاد فى قوة قلبه بما جدَّدَ له من تأكيد العهد ، بأنه لا يُشْمِتُ به عدوًّا ، ولا يُوَصِّل إليه من قِبَلِهم سوءاً .

---

(١) فى س (النصيب) والصواب (النصب) فالمعنى يتطلب ذلك .
(٢) هنا أضاف الناسخ ـ سهواً ـ لفظة (الله) فحذفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴾ .

إنْ أضَرُّوا فما أضروا إلا بأنفسهم ، وإنْ أصَرُّوا فما أصَرُّوا إلا على خسرانهم :

فما نحن عذَّبْنَا بِبُعْدِ ديارهم ولا نحن ساقتنا إليهم نوازعُ

قوله جل ذكره ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنَّ ما نُملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنَّما نُملِي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مُهِين ﴾ .

من تمام المكر بهم ، وللمبالغة فى عقوبتهم أنَّا نعذِّبهم وهم لا يشعرون ، نستدرجهم من حيث لا يعلمون ؛ نملى لهم فيظنون ذلك إنعاماً ، ولا يحسبونه انتقاماً ، فإذا برزت لهم كوامنُ التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفى خسران ، وقد اتَّضح لكلِّ ذى بصيرة أن ما يكون سببَ العصيان وموجبَ النسيان غيرُ معدودٍ من جملة الإنعام .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان اللهُ ليذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ مِنَ الطيِّبِ ، وما كان الله ليُطْلِعَكُمْ على الغيْبِ ، ولكنَّ الله يجتبى مِن رُسُلِه مَن يشاء ، فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِه ، وإن تؤمنوا وتتقوا فَلَكُمْ أجرٌ عظيم ﴾ .

جمعهم اليومَ من حيث الأشخاص والمبانى ، ولكنه فرَّقهم فى الحقائق والمعانى ؛ فمِنْ طيِّبةٍ سجيتُه ، ومن خبيثةٍ طِينَتُه . وهم وإن كانوا مشائب[1] ففى بصيرة الخواص هم ممتازون[2] .

---

(١) مشائب = أخلاط .

(٢) ممتازون هنا مرتبطة بالفعل (يميز) الذى فى الآية الكريمة أى إنهم معلومون عندنا ؛ نميز طيبهم مهما كانوا أخلاطاً .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب » : فإنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوثين بأدناس البشرية ، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلَّ وقلَّ ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسراره :

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فَضْله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم ، سَيُطَوَّقون ما بَخِلُوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السمٰوات والأرضِ ، والله بما تعملون خبير ﴾

مَنْ آثر شيئاً على الله لم يبارِك له فيه ؛ فلا يدوم له — فى الدنيا — بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه — فى الآخرة — عنه دفاع .

والبخل — على لسان العلماء — منع الواجب ، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شيء ولو ذرةً من المال أو نَفَساً من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد سَمِعَ الله قولَ الذين قالوا إنَّ الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقَتْلَهمُ الأنبياء بغير حقٍّ ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذٰلك بما قدَّمت أيديكم وأنَّ الله ليس بظلاَّمٍ للعبيد ﴾

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى . والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سنةُ الأحباب .

ويقال علم أن فى المؤمنين مَنْ يغتاب الناس ، وذلك قبيح من قالتهم ، فأظهرَ قُبْحاً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار ، فكأنه قال : لئن قبحت قالتهم فى الاغتياب فأقبحُ من قولهم قولُ الكفار حيث قالوا فى وصفنا ما لا يليق بنعمتنا .

وفيه أيضاً إشارة إلى الدعاء إلى الخَلْق ، والتجاوز عن الخَصْم ، فإن الله — سبحانه — لم يسلبهم ما أولاهم مع قبيح ما ارتكبوه من التقصير فى حقوقه .

قوله : « سنكتب ما قالوا » : هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدقّ إشارة ؛ يعنى أنهم وإنْ نَسُوا أحوالهم وأقوالَهم فإنا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم :

صحائفُ عِنْدِى للعِتاب طويتها ... سَتُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطولُ
سأصبر حتى يجمع الله بيننا ... فإنْ نلتقِ يوماً فسوف أقول

قوله : « ذلك بما قَدَّمت أيديكم وأن الله ليس بظَلَّام للعبيد » هذا لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق/لأشبه العذر مما عمله به ، فكأنه — سبحانه — يقول : « عبدى : هذا الذى تلقاه — اليوم — من العقوبة لأن الذنب لك ، ولولم تفعله لما عذَّبتُك » .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلينا
ألا نؤمن لرسولٍ حتّى يأتينا بقُرْبانٍ
تأكله النارُ قلْ قد جاءكم رُسُلٌ مِن
قبلى بالبيِّنات وبالذى قُلْتُمْ ، فلِمَ
قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾

تقوَّلوا على الله — سبحانه — فيما تعللوا به من تَرْكِ الإيمان ، فقالوا : لقد أُمِرْنا ألا نصدِّق أحداً إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى السماء ، وتنزل نار من السماء ، فتأخذ القربان عياناً ببصر ، فقال تعالى : قلْ لهم إن من تقدَّمنى من الأنبياء عليهم السلام أتَوْكم بما اقترحتم على من القربان ، ثم لم تؤمنوا ، فلو أجبتكم إليه لن تؤمنوا بى أيضاً ؛ فإن مَنْ أقصته السوابق — فلو خاطبَتْه الشمسُ بلسان فصيح ، أو سجدت له الجبالُ فرآها بلحظٍ صحيح — لم يَلِجْ العرفان فى قلبه ، وما ازداد إلا شكاً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كذَّبوك فقد كُذِّب رُسُلٌ مِن
قبلِكَ جاءوا بالبينـاتِ والزُّبُرِ
والكتاب المنير ﴾ .

أى عادة الكفار تكذيب الرسل : وعلى هذا النحو درج سَلَفُهم ، وبهديهم اقتدى خَلَفُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموتِ وإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجورَكم يومَ القيامة فَمَن زُحْزِحَ عن النارِ وأُدْخِلَ الجنَّةَ فقد فاز ، وما الحياةُ الدنيا إلاّ متاعُ الغُرور ﴾

أى كأسُ الموت توضع على كفٍّ كلِّ حىٍّ فمن تحلَّاها طيِّبَةً نفسُه أَوْرَثَتْهُ سُكْرَ الوَجْد ، ومن تَجَرَّعَها على وجه التعبس ، وقع فى وهْدَةِ الرَّدِّ ، وَوُسِمَ بِكَىِّ الصَّدّ ، ثم يوم القيامة : فمن أُجِير من النار وصل إلى الراحة الكبرى ، ومن صُلِّىَ بالسعير وقع فى المحنة الكبرى .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » : لأن ما هو آتٍ فقريبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فى أموالِكم وأنفسِكم ولتسمَعُنَّ مِنَ الذين أوتوا الكتاب مِن قبلكم ومِنَ الذين أشركوا أذًى كثيراً وإن تَصْبِروا وتتقوا فإنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ .

كفاهم أكثر أسباب الضر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم ، وعرّفهم أن خير الأمرَيْن لهم إيثار الصبر واختيار السكون تحت مجارى الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا بِهِ ثمناً قليلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُون ﴾

أخبر أنهم أبرموا عهودهم أن لايزولوا[1] عن وفائه ، ولكنهم نقضوا أسباب الذِّمام بما صاروا إليه من الكفران ، ثم تبيَّن أنَّ ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارَكْ لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أتَوا ويحبون أن يُحْمَدُوا بِما لَمْ يفعلوا ، فلا تَحْسَبَنَّهُم بمفازَةٍ مِنَ العذابِ ولهم عذابٌ أليم ﴾

إن مَنْ باشر رؤيةَ الخَلْق قلبُه ، ولاَحَظَهم بِسِرِّه فلا تظنَّنَّ أنَّ عقوبتَهم مؤخرةٌ إلى يوم القيامة ، بل ليسوا من العذاب — فى الحال — بمفازة ، وأىُّ عذابٍ أشدُّ من الردِّ إلى الخَلْق والحجاب عن الحق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مُلْكُ السموٰاتِ والأرضِ والله على كلِّ شىءٍ قديرٌ ﴾

الإشارة من هذه الآية هاهنا إلى غناه — سبحانه — عمَّا فى الكون ، وكيف يحتاج إليهم ؟ ! ولكنهم لا يجدون عنه خَلَفاً ، ولا عليه بَدَلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى خلقِ السموٰاتِ والأرضِ واختلاف الليلِ والنَّهار لآياتٍ لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ .

الآيات التى تعرَّف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هى التى فى الأقطار من العبرِ والآثار ، والآيات التى تعرَّف بها إلى الخواص فالتى فى أنفسهم . قال سبحانه : « سنريهم

---

(١) وردت (ان لا يزالوا) ونرجح انها فى الأصل (ان لا يزولوا) لأن هذه مناسبة للمراد من الاية ، ومن سياق المعنى ، ولو كان حرف الجر (على) بعدها لقبلنا (لا يزالوا) .

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ؛ فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين ، والآيات الباطنة توجب عين اليقين .

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالى العباد ؛ فليالى أهل الوصلة قصيرة ، وليالى أهل الفراق طويلة ؛ فهذا يقول :

شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصافٍ لهن ولا سِرار

ويقول :

صباحك سكر والمساء خمار ... فنمت وأيام السرور قصار

والثانى يقول :

ليالى اقر الظاعنين (. . . .) ... شَكَوْتَ وليلُ العاشقين طويلُ

وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قِصَرِه فهو لِمَا غَلَبَ عليه يقول :

لستُ أدرى أطال لَيْلِىَ أمْ لا ؟ ... كيف يدرى بذاك من يَتَقَلَّى ؟ !

لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِى ... ورعَيْتُ النجوم كنتُ مُحِلاًّ

قوله تعالى : « لأولى الألباب » : أولو الألباب هم الذين صَحَتْ عقولُهم عن سُكْرِ الغفلة . وأمارة مَنْ كان كذلك أن يكون نظرُه بالحق ؛ فإذا نظر من الحقّ إلى الحقّ استقام نظره ، وإذا نظر من الخَلْق إلى الحق انتكست نعمته ، وانقلبت أفكاره مُورِّثةً للشبهة .

قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً . . . » الآية :

استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم ؛ فإن قاموا فبذكره ، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة فى حقائق الذكر ، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره ، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها [1] .

ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القربة .

ومَنْ لم يَسْلَمْ فى بداية قيامه عن التقصير لم يسلم له قعودٌ فى نهايته بوصف الحضور .

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من رأى استاذه الإمام ابن فورك فى « قياماً وقعوداً » فى الآية الكريمة (الرسالة ص ١١١) .

والذكر طريق الحق — سبحانه — لما سلك المريدون طريقاً أصحَّ وأوضح من طريق الذكر ، وإن لم يكن فيه سوى قوله : « أنا جليس من ذكرنى » لكان ذلك كافياً .

والذاكرون على أقسام ، وذلك لتباين أحوالهم : فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره من نَقْصٍ سَلَفَ له ، أو قُبْحٍ حصل منه ، فيمنعه خجله عن ذكره ، فذلك ذكر قبض .

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم من تقريب الحقّ إيّاه بجميل إقباله عليه .

وذاكر هو محو فى شهود مذكوره ؛ فالذكر يجرى على لسانه عادةً ، وقلبه مُصْطَلَمٌ فيما بدا له .

وذاكر هو محل الإجلال يأنف من ذكره ويستقذر وصفه[1] ، فكأنه لتصاغره عنه لا يريد أن يكون له فى الدنيا والآخرة (ثناء)[2] ولا بقاء ، ولا كون ولا بهاء ، قال قائلهم :

ما إن ذكرتك إلا همّ يلعننى قلبى وروحى وسرى عند ذكراكا
حتى كأنّ رقيباً منك يهتف بى إياك ويحك والتذكار إياكا

والذكر عنوان الولاية ، وبيان الوصلة ، وتحقيق الإرادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شىء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ، ومُنْشَأةٌ عن الذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾

التفكر نعمة كل طالب ، وثمرته الوصال بشرط العلم ، فإذا سلم الذكر عن الشوائب

---

(١) هذا النوع من الذكر يلتقى بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين لا ينظرون لأى عمل إلا من حيث رؤية التقصير فيه .
(٢) ربما كانت (فناء) وإن كان المعنى يتقبل كليهما .

ورد صاحبه على مناهل التحقيق ، وإذا حصل الشهود والحضور محا صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر ، فالذكر سرمد[1] .

ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها .

وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه .

وفكر العارفين فى الآلاء والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحانك فقِنا عذابَ النَّار ﴾

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار فى بحار التعظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنَّا إنَّك مَن تُدخِل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾

مَنْ ابتليتَه فى الآجل بالحرقة فقد أخزيتَه ، ومن ابتليتَه بالفرقة فى العاجل فقد أشقيتَه ، ومن أوْلَيْتَه بيُمْنِ الوصله فقد آويته وأدْنيته .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنَّا إنَّنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أنْ آمنوا بربكم فآمنَّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفِّر عنَّا سيئاتنا وتوفَّنا مع الأبرار ﴾

يعنى أجبْنَا الداعى ولكن أنت الهادى ، فلا تَكِلْنا إلينا ، ولا ترفع ظلَّ عنايتك عنَّا .

والإيمان الدخول فى مُوجِبات الأمان ، وإنما يؤمِن بالحق من أمَّنَه الحق ، فأمانُ الحق للعبد — الذى هو إجارته — يوجِب إيمانَ العبدِ بالحق الذى هو تصديقه ومعرفته .

---

(١) [سأل أبو عبد الرحمن السلمى الشيخ الدقاق . آلذكر أتم أم الفكر ؟
فقال الدقاق : ما الذى يقع لك منه ؟
فأجاب السلمى : عندى الذكر أتم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر وما وصف به الحق سبحانه اتم مما اختص به الخلق فاستحسنه الدقاق] الرسالة ص ١١١ .
وقد ذكرنا هذه الرواية هنا : اولا لتوضح الفرق بين الذكر والفكر وثانياً لتبرز قول القشيرى : (الذكر سرمد) أى مستدام .

« وتوفَّنا مع الأبرار » : وهم المختصون بحقائق التوحيد ، القائمون لله بشرائط التفريد ، الواقفون مع الله بخصائص التجريد .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا وآتِنا ما وعدتنا على رسلك
ولا تُخزِنا يوم القيامة إنَّك
لا تخلف الميعاد ﴾

حَقِّق لنا ما وعدتنا على ألسنة الوسائط[1] من إكمال النُّعمىٰ (. . . . .)[2] وغفران كل ماسبق منا من متابعات الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنِّى لا أُضِيعُ
عَمَلَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى
بعضكم من بعضٍ فالذين هاجروا
وأُخرجوا مِن ديارهم وأوذوا
فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأكفرن
عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات
تجرى من تحتها الأنهار ثواباً
من عند الله والله عنده حسن
الثواب ﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذى لَقَّنَهُم الدعاء ، وهو الذى ضمن لهم الإجابة ، ووَعْدُه جميل الثواب على الدعاء زائدٌ على ما يدعون لِأَجْل الحوائج .

« فالذين هاجروا » : يعنى الديار والمزار ، وجميع المخالفين والموافقين من الأغيار .

« وأخرجوا من ديارهم » : إلى مفارقة معاهدهم من مألوفاتهم .

« وأوذوا فى سبيلى » : عُيِّروا بالفقر والملام ، وفتنوا بفنون المحن والآلام .

---

(١) يقصد الرسل عليهم السلام .

(٢) مشتبهة .

« وقاتلوا وقُتِلوا » : ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر .

« لأُكفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم » : يعنى لنعطينَّهم فوق آمالهم وأكثر ، مما استوجبوه بأعمالهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد. متاعٌ قليل ثم مأواهم جهنّم وبئس المهاد ﴾

لا تتداخلنك تهمة بأنَّ لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هى أيام قلائل وأنفاس معدودة ، ثم بعدها حسرات مترادفة ، وأحزان متضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الذين اتقوا ربَّهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴾

الذين وسمناهم بذُلِّ الفرقة بئست حالتهم ، والذين زفوا قَدَماً لأجلنا فنعمت الحالة والزلفة ، وصلوا إلى الثواب المقيم ، وبقوا فى الوصلة والنعيم ، وما عند الله مما ادَّخرنا لهم خيرٌ مما أمَّلوه باختيارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب لَمَن يؤمن بالله وما أُنزِلَ إليكم وما أُنزِلَ إليهم خاشعين لله لا يشترون بآياتِ الله ثمناً قليلاً ، أولئك لهم أجرُهم عند ربهم ، إنَّ اللهَ سريعُ الحساب ﴾

يريد منْ ساعَدَتْهم القسمةُ بالحسنى فهم مع أولياء الله نعمةً كما كانوا معهم قسمةً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابِروا

وَرَابِطوا ، واتقوا اللهَ لَعَلَّكم تُفْلِحون ﴾

الصبر فيما تفرد به العبد ، والمصابرة مع العدو .

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص .

ويقال أول الصبر التصبر ، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاصطبار وهو نهاية[1] .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات ، وتصابروا فى ترك الهوى والشهوات ، وقطع المنى والعلاقات ، ورابطوا بالاستقامة فى الصحبة فى عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابِروا بقلوبكم ، ورابطوا بأسراركم .

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب ، وصابروا على ابتغاء القربة ، ورابطوا فى محل الدنوّ والزلفة — على شهود الجمال والعِزَّة .

والصبر مُرٌّ مَذاقُه إذا كان العبد يتحسَّاه على الغيبة ، وهو لذيذٌ طعمُه إذا شربه على الشهود والرؤية .

« واتقوا الله لعلكم تفلحون » : الفَلَاحُ الظَّفَرُ بالبُغْية ، وهِمَّتُهم اليوم الظفر بنفوسهم ، فعند ذلك يتم خلاصهم ، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيوف المجاهدة ، وصلبوها على عيدان المكابدة ، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله .

---

(١) يمكن أن يجد القارىء فى صنيع القشيرى حول مادة (ص ب ر) انه — وهذا شأنه دائماً — يحاول أن يؤسس المصطلح الصوفى على دعائم لغوية تعتمد على الفروق الدقيقة بين صيغ الاشتقاق المختلفة من المادة الواحدة ، فصيغة المفاعلة فيها المشاركة ، وصيغة التفعل فيها تكلف يلائم البداية . . . وهكذا .

السورة التى يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم.

اختلفوا فى الاسم عن ماذا اشْتُقَّ ؛ فمنهم من قال إنه مشتق من السموّ وهو العلوّ . ومنهم من قال إنه مشتق من السِّمَة وهى الكيّة .

وكلاهما فى الإشارة : فَمَنْ قال إنه مشتق من السمو فهو اسمُ مَنْ ذَكَرَه سَمَتْ رتبتُه ، ومَن عَرَفَه سَمَتْ حالتُه ، ومن صَحِبَه سَمَتْ هِمَّتُه ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والمبَارّ ، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار فى الأسرار ، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقِّ الأغيار .

ومن قال أصله من السِّمَة فهو اسمُ مَنْ قصدَه وُسِمَ بِسِمَةِ العبادة[1] ، ومن صحبه وسِمَ بسمة الإرادة ، ومن أحبّه وسم بسمة الخواص ، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص . فسِمَةُ العبادة توجب هيبة النار أن ترمى صاحبها بشررها ، وسمة الإرادة توجب حشمة الجِنان أن تطمع فى استرقاق صاحبها ـ مع شرف خطرها ، وسمة الخواص توجب سقوط العُجْبِ من استحقاق القربة للماء والطينة على الجملة[2] ، وسمة الاختصاص توجب امتحاء الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة .

ويقال اسمُ مَنْ واصله سما عنده (عن) الأوهام قَدْرُه (سبحانه)[3] . ومن فاصله وُسِمَ بِكَيِّ الفُرقة قلبُه .

---

(١) هنا حدث اضطراب من الناسخ فاخطأ فى النقل وقد رتبنا الكلام فى النصف الأول من الفقرة حسب الترتيب الوارد فى النصف الثانى منها والذى يبدأ « فسمة العبادة توجب .... الخ » .
ذلك الترتيب الذى يتمشى مع المذهب العام للقشيرى فى كل مصنفاته .

(٢) يقصد تشريف الانسان على جملة المخلوقات ، فالانسان وحده ـ دون سائر الكائنات ـ هو الذى خوطب بتبادل الذكر والمحبة مع الحق جل شأنه .

(٣) وضعنا (عن) و (سبحانه) ليمتنع اللبس ، وهما غير موجودين فى النص (يقول القشيرى فى رسالته : ما يصوره وهمك فالله بخلاف ذلك) .

وعلى هذه الجملة يدل اسمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ اتقوا ربّكم الذى خلقكم
مِن نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها
وبثّ منهما رجالاً كثيراً ، ونساء ،
واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام
إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

الناس اسم جنس ، والاشتقاق فيه غير قوى . وقيل سمى الإنس إنساً لظهوره[1] فعلى هذه الإشارة : يامَنْ ظهرتم عن كتم العَدَم بحكم تكليفى ، ثم خصصتُ مَنْ شئتُ منكم بتشريفى ، وحرمتُ من شئت منكم هدايتى وتعريفى : ونقلتكم إلى ماشئتُ بل أوصلتكم إلى ماشئت بحكم تصريفى .

ويقال لم أُظهِرْ منَ العَدَمِ أمثالكم ، ولم أُظهِرْ على أحدٍ ماأظهَرْتُ عليكم من أحوالكم .

ويقال سمَّيتَ إنساناً لنسيانك ، فإن نسيتنى فلا شئ أخَسُّ[2] منك ، وإنْ نسيت ذكرى فلا أحد أحطُّ[3] منك

ويقال من نَسِيَ الحق فلا غاية لمحنته ، ومن نسى الخَلْقَ فلا نهاية لعلوّ حالته

ويقال يقول للمُذْنِبين : يامَنْ أسيتَ عهدى ، ورفضتَ ودى ، وتجاوزت حدّى حانَ لك أن ترجع إلى بابى ، لتستحقّ لطفى وإيجابى . ويقول للعارفين ، يامَنْ نسيت فينا حظَّكَ ، وصُنتَ عن غيرنا لَحْظَكَ ولَفْظَكَ — لقد عظُم علينا حَقُّك ، وَوَجَبَ لدينا نصرُك[4] ، وجلَّ عندنا قَدْرُك . .

---

(١) حتى يقابل (الجن) لاختفائه . وربما كان قصد القشيرى إلى ذلك .

(٢) وردت (أخص) بالصاد ، وربما نقبلها على أساس أن الله يعاتب عبده : إن نسيتنى فأنت رغم ذلك (اخص الكائنات بمحبتى) .

(٣) وردت (أحض) بالضاد وربما كانت أحسن .

(٤) وجب واستوجب والإيجاب عند القشيرى ترد بمعنى الاستحقاق ، وعلينا أن نتأمل الدقة فى استعمال (لدينا) ولم يقل (علينا) فلا وجوب على الله — بخلاف المعتزلة .

ويقال يامن أَنِستَ[1] بنسيم قربي ، واستروحتَ إلى شهود وجهي ، واعتززت بجلال قَدْري — فأنت أجلُّ عبادي عندي .

قوله : «اتقوا ربكم» : التقوى جماع الطاعات ، وأوله ترك الشِّرْكِ وآخره اتقاء كل غير ، وأولُ الأغيار لك نفسُكَ ، ومَنْ اتَّقَى نفسه وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ، و (وقف) لله . . لا لشهود حظٍّ في الدنيا والعقبى .

قوله : « الذى خلقكم من نفس واحدة » : وهو آدم عليه السلام ، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضا كذلك ، لمَّا ظهرت مزية آدم عليه السلام به على جميع المخلوقين والمخلوقات فكذلك وصفُنا ، قال تعالى : « أولئك هم خير البريَّة » .

ولفظ «النفس» للعموم والعموم يوجب الاستغراق .

قوله : « وخلق منها زوجها » : حكَمَ الحقُّ — سبحانه — بمساكنة الخلْق مع الخلْق لبقاء النسل ، ولردِّ المِثْل إلى المِثْل فربَطَ الشكلَ بالشكلِ .

قوله . « وبثَّ منهما رجالا كثيراً ونساء » : تعرَّف إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية ودلالات الحكمة ؛ حيث خلَق جميع هذا الخلْق من نسلِ شخصٍ واحدٍ ، على اختلاف هيئتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم ، وإن اثنين منهم لا يتشابهان ، فلكلٍ وجه في الصورة والخلْق ، والهمة والحالة ، فسبحان من لا حدَّ لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته .

ثم قال : « واتقوا الله » تكرير الأمر بالتقوى يدلُّ على تأكيد حكمه .

وقوله : « تساءلون به والأرحام » : أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فَمَنْ قَطَعَ الرحمَ قُطِع ، ومَنْ وَصَلَها وصل .

« إنَّ الله كان عليكم رقيباً » : مطلعا شهيداً ، يعُد عليك أنفاسَك ، ويرى حواسَّك ، وهو متَوَلٍّ خطراتِك ، ومنشىء حركاتِك وسكناتِك . ومَنْ عَلِمَ أنه رقيب عليه فبالحرى أن يستحيَ منه .

---

(١) لاحظ كيف يربط القشيرى بين الناس (والأُنْسِ) بعد أن ربطها (بالإِنْسِ) فدار الكلام كله على لفظة (الناس) التى وردت فى الآية الكريمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيِّب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنَّه كان حُوباً كبيراً ﴾

مَنْ أُقيم بمحلِّ الرعاية فجاء على رعيَّتِه فَخَصْمُهُ ربُّه ؛ فإنه — سبحانه — ينتقم لعباده مالا ينتقم لنفسه . فَوَلِيُّ اليتيم إنْ أنصفَ وأحسَنَ فحقُّه على الله ، وإنْ أساء وتعدَّى فَخَصْمُهُ اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن خفتم ألا تُقسِطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم مِّنَ النساء مثنى وثُلاثَ ورُباع ، فإنْ خِفْتُم ألاَّ تعدِلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاَّ تَعُولُوا * وآتُوا النِّساء صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾

أباح الله للرجال الأحرار التزوج بأربع فى حالة واحدة ، وأوجب العدل بينهن ، فيجب على العبد أن يراعىَ الواجبَ فإنْ عَلِمَ أنه يقوم بحق هذا الواجب آثر هذا المُباح ، وإنْ عَلِم أنه يقصِّر فى الواجب فلا يتعرَّض لهذا المباح ، فإنَّ الواجبَ مسئولٌ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن طِبْنَ لكم عن شىء منه نَفْساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾

دلَّ هذا على أن طعامَ الفتيان[1] والأسخياء مرىء لأنهم لا يُطعِمون إلا عن طيب نَفْسٍ ، وطعام البخلاء ردىء[2] لأنهم يرون أنفسهم ، وإنما يُطعِمون عن تكلُّف لا عن طيب نَفْس . قال صلى الله عليه وسلم : « طعامُ السخىِّ دواء وطعام البخيل داء » .

---

(١) الفتيان جمع فتى . والفتوة أصل من أصول الصوفية عماده الإيثار والبذل والصفح والعفو ، والأنفة عما فى الكونين إلى غير ذلك من محاسن السلوك التى ينبغى للنفس أن ترتاضها ، وأن تتحلى بها حتى يتهيأ العبد لما هو أجل وأعظم ، وأن يكون إيثاره لله وبذله لله وروحه لله ، لأن من يؤمر بالتزام ذلك بالنسبة للمخلوق لا يضن بأضعافه بالنسبة إلى الحق .

(٢) مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (ردىء) وقد وضعناها مع التحفظ ، والمعنى بتقبلها .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تؤتوا السُّفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

السَّفيه من يمنعك عن الحقِّ ، ويشغلك عن الربِّ .

والسَّفيه من العيال والأولاد من تؤثر حظوظَهم على حقوق الله تعالى .

قوله : « التى جعل الله لكم قياماً » : حفظ التجمل فى الحال أجدى عليكم من التعرض للتبذل والسؤال ، والكدية والاحتيال . وإنما يكون البذل خيراً من الإمساك عند تحرُّرِ القلب والثقةِ بالصبر . فأمّا على نية الكدية وأن تجعل نفسك وعيالك كَلاًّ على الناس فَحِفْظُكَ ما جعله الله كفايةً لنفسك أَوْلى ، ثم الجود بفاضل كفايتك .

قوله : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً » : إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويَفْضُلُ[1] فلا تدَّخره عمّا تدعو إليه حاجتهم معلومك خشيةَ فقرٍ فى الغد ، فإن ضاقت يدُك عن الإنفاق فلا يَتَّسِعَنَّ[2] لسانك بالقبيح من المقال .

ويقال إذا دَعَتْكَ نَفْسُك إلى الإنفاق فى الباطل فأنت أسفه السفهاء فلا تُطِعْ نَفْسَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستُم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالَهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبِدَاراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليَسْتَعْفِفْ وَمَن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالَهم فأشهِدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾

---

(١) يفضل وفاضل هنا بمعنى يزيد وزيادة .

(٢) لاحظ المقابلة الجميلة فى تعبير القشيرى بين (ضاقت يدك) و (ويتسع لسانك)

إيناس الرشد العفة والديانة ، والسخاء والصيانة ، وصحبة الشيوخ ، والحرص على مشاهدة الخير ، وأداء العبادات على قضية الأمر .

ويقال الرشيد مَن اهتدى إلى ربِّه ، وعندما تسنح له (حاجةٌ) من حوائجه لا يتكل على حَوْله وقُوَّتِه ، وتدبيره واختياره .

قوله جل ذكره : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كَثُرَ نصيباً مفروضاً ﴾

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة ، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب ؛ فلو مات رجلٌ وخلف ابنين تساويا فى الاستحقاق وإنْ كان أحدهما براً تقياً والآخر فاجراً عَصِياً ، فلا للتقى زيادة لتقواه ، ولا للفاجر بخس لفجوره ، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطيّةٍ من قِبَل الله ، فيتساوى فيه البر والفاجر . كذلك حكم الإيمان ابتداء عطيةٍ للمسلمين : قال الله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ، ثم قال : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم . . . » الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان[1] والمستحقون ، وحضَرَ من لا نصيب لهم فى الميراث من المساكين فلا تحرموهم من ذلك . فإن كان المستحقُ مُوَلًّى عليه ، فَعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا : « إذا بلغ الصبى قلنا له حتى يعطيك شيئاً » وهذا معنى قوله : « وقولوا لهم قولاً معروفا » . وفى هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لعرصته غداً ، والحق سبحانه يغفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم ، فمن كان منكم من فقراء المسلمين لا يحرمهم الغفران

(١) السهمان ج سهم .

إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان ، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً ، ولا لكَ استحقاق سابق فبفضله ما أهّلكَ لمعرفته مع علمه بما يحصل منك فى مستأنف أحوالك من زلتك.

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا مِن خلفهم ذرية ضِعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ﴾

بَيَّنَ فى هذه الآية أن الذى ينبغى للمسلم أن يدخره لعياله[1] التقوى والصلاح لا المال ؛ لأنه لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال : « فليتقوا الله » فانه يتولى الصالحين

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامىٰ ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾

إنما تولىَّ الحق سبحانه خصمية اليتيم ، لأنه لا أحدَ لليتيم غيرُه ، وكلُّ من وَكَلَ أمره إليه فَتَبَرَّأ من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حَظِّ الأُنثيين فإن كُنَّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحدٍ منهما السُدُسُ مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فلأُمِّه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصيةٍ يُوصِى بها أو دَيْن ﴾

---

(١) وردت (العبارة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هذه إشارة موجهة إلى الأولياء ، فهم لا سند لهم من جاه أو سلطان أو مخلوق فإذا تعرضوا للأذى تولى الله عنهم خصومة المؤذى .

الوصية هاهنا بمعنى الأمر ، فانه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين :

١ — الفرض ٢ — التعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصَبَةَ قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين ، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً ، ثم العَصَبَة وهم أقوى استحقاقاً . قال صلى الله عليه وسلم :

« ما أبقَتْ الفرائض فَلِأَوْلَى عَصَبَةٍ ذَكَر »[1] كذلك أبداً سنته ، كما فى قوله تعالى :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قدّم الظالم على السابق ، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنكسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة .

وقوله « للذكر مثل حظ الانثيين » . لوكان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أوْلَى لضعفها ، ولعجزها عن الحراك ، ولكنَّ حُكْمَهَ — سبحانه — غيرُ معلَّل[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيُّهم أقربُ لكم نفعاً فريضةً منَ الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً ﴾

الأبناء ينفعونكم بالخدمة ، والآباء بالرحمة ، الآباء فى حال ضعفك فى بداية عمرك ، والأبناء فى حال ضعفك فى نهاية عمرك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بعد وَصِيَّةٍ يوصين بها أو دَيْنٍ ، ولهن الربع

---

(١) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٦٩ « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر »

(٢) تحتاج هذه العبارة إلى بعض توضيح . وربما كان أفضل تحديد لها ما يذكره ذو النون المصرى : « علة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه » ثم ما يوضحه أبو نصر السراج فى اللمع حيث يقول : « معنى هذا القول — والله أعلم — أن وجود النقصان فى كل شىء مصنوع كائن ، لأنه لم يكن فكان ، وليس فى صنع الصانع لمصنوعاته علة ، وقال بعضهم :

يا شفائى من السقا م وإن كنتَ علّتى (اللمع ص ٤٤٠)

مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ،
فإن كان لكم ولد فلهن الثمن
مما تركتم من بعد وصية توصون بها
أو دين وإن كان رجل يورث كلالة
أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل
واحد منهما السدس فإن كانوا
أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث
من بعد وصية يوصى بها أو دين
غير مضار ، وصية من الله والله
عليم حليم ﴾

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنسب، والسبب أنَّ الميت إذا مات تحمَّل القريبُ أحزانَه فعوَّضَ اللهُ الوارثَ على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجُّع مالَ الموروث . . وكذا سُنَّتُه — سبحانه — التعويضُ على مقاساة الأذى — جوداً منه لا وجوباً عليه[1] — كما توهَّم قوم . وكلُّ مَنْ كان أقربَ نسباً أو أقوى سبباً من الميت كان أكثر استحقاقاً لميراثه ، وفي معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية (. . . .
. . .) عقب النوى * موت الفتى ظل مغرما[2]

قوله جل ذكره : ﴿ تلك حدودُ الله ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه يُدْخِلْه جنَّاتٍ تجري من

---

(١) يلح القشيري دائماً في نفي كل وجوب على الله ، كما لاحظنا ذلك في مواضع شتى بينما لا يمنع المعتزلة من وجوب المثوبة للمطيع — عليه ، ووجوب العقوبة للعاصي — عليه .

(٢) توجد في البيت كلمات فارسية (انكه شاد شود در عطاء ادن) = أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء . ومعنى البيت غير واضح .

تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك الفوزُ العظيمُ ﴾ .

حدوده : أوامره و نواهيه ، وما تعبّد به عباده .

وأصل العبودية حفظ الحدود ، وصون العهود ، ومَنْ حَفظَ حَدَّه لم يُصِبْه مكروه ولا آفة ، وأصلُ كلِّ بلاء مجاوزة الحدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه ويتعدَّ حدودَه يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مُهينٌ ﴾

وإنما هما عقوبتان: معجلة ومؤجلة ، ويقترن بهما جميعاً الذُّلُّ ؛ فلو اجتهد الخلائق على إذلال العاصى بمثل الذل الذى يلحقهم بارتكاب المعصية لم يقدموا[1] عليها : لذلك قال قائلهم : من بات[2] ظُلِما[3] بذنب أصبح وعليه مذلته ، فقلت ومن أصبح مُبِرّاً بِبِرٍ ظلَّ وعليه مهابته

قوله جل ذكره : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة مِن نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسِكوهن فى البيوت حتى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهُنَّ سبيلا ﴾ .

إنما اعتبر فى ثبوت الفاحشة — التى هى الزنا — زيادة الشهود إسبالاً لِسَتْرِ الكَرَمِ

---

(١) وردت (لم يقدروا) والملائم للمعنى أن تكون (لم يقدموا) مما يرجح أن الناسخ قد أخطأ .
(٢) وردت (من مات) والسياق يقتضى (بات) ، (وأصبح) ، وظلَّ . .
(٣) وردت (مسلما) وهى خطأ من الناسخ .

على إجرام العباد ، فإنَّ إقامة الشهود — على الوجه الذى فى الشرع لإثبات تلك الحالة — كالمُتَعَذِّر[1] .

وفى قوله — صلى الله عليه وسلم — لما عز لما قال له : يارسول الله ـ صلوات الله عليك ـ إنِّى زنيتُ فَطَهِّرْنى . فقال : لعلَّك قَبَّلْتَ .. ثم قال فى بعض المرات : « استنكهوه »[2] .

ففى هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسباله الستر على الأعمال القبيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما
فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما
إنَّ الله كان توَّاباً رحيماً ﴾

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ[3] شىء فى الردع والمنع منه بالرفع ، لعلّ العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما التوبة على الله للذين يعملون
السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب
فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله
عليماً حكيماً ﴾ .[4]

لا استغفار مع الإصرار[5] ؛ فإن التوبة مع غير إقلاع سِمَةُ الكذَّابين .

وقوله : « السوء بجهالة » : يعنى عَمِلَ عَمَلَ الجُهّال .

---

(١) يدل هذا الرأى ـ فى نظرنا ـ أولا على فهم صائب لما وراء الحدود الشرعية من مرام بعيدة ، ويدل ثانياً على سعة صدر الصوفية فى الصفح عن أرباب الخطايا ، وستر معايب الخلائق ، ولقد أحسن الحسن البصرى حين قال : النصيحة على الملأ فضيحة .

(٢) وفى صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٩٨ عن ابن عباس : لما أتى ماعز بن مالك النبى (ص) قال له لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت...الخ قال نعم فعند ذلك أمر برجمه (ومعنى استنكهوه : أى ابحثوا فى فمه عن نكهة الخمر فربما يكون ثملا) .

(٣) وردت (بلغ) وهى خطأ فى النسخ

(٤) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية فجاءت (من قريبة) ، (السوء بجَالة) .

(٥) أخطأ الناسخ فكتبها (الاسرار) بالسين والمعنى يرفضها .

وذنب كل أحدٍ يليق بحاله ، فالخواص ذنوبهم حسباتهم أنهم بطاعاتهم يستوجبون محلاً وكرامة ، وهذا وَهَنٌ فى المكانة ؛ إذلا وسيلة إليه إلا به .

قوله « ثم يتوبون من قريب » : على لسان أهل العلم : قبل الموت ، وعلى لسان المعاملة : قبل أن تتعود النفس ذلك فيصير لها عادة ، قال قائلهم :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قال إنّى تُبْتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كُفَّار أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عذاباً أليماً ﴾

يعنى إذا كُشِفَ الغطاء وصارت المعارف ضروريه[1] أُغْلِقَ بابُ التوبة ؛ فإن مِنْ شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً . ثم إن فى هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حقيقة الصدق . قال داوود — عليه السلام — فى آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تبكى يا داوود ، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك[2] وقبلت توبتك ؟

فقال : إلهى ، الوقتُ الذى كان بى رُدَّه إلىَّ

فقال : هيهات يا داوود ، ذاك وُدٌّ قد مضى !!

وفى معناه أنشدوا :

فَخَلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لكم

---

(١) المعرفة الضرورية — عند القشيرى — هى التى تنال فى الانتهاء أما فى الابتداء فهى معرفة كسبية والأولى تشبه الشمس والثانية تشبه السراج ، فإذا طلعت الشمس انبسط شعاعها على السراج (الرسالة ص ١٤٩)*

(٢) وردت (خصمك) ولكن الإرضاء حسبما نعلم من قصة داود كان لخصمه ، لذلك رجحنا أن تكون (خصمك) فإرضاء الخصم ملائم لقبول التوبة والغفران

أن تَرِثوا النِّساء كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ
لتذهبوا ببعض ما آتيتموهُنَّ إلاَّ
أن يَأْتِين بفاحِشةٍ مُبَيِّنةٍ ،
وعاشِروهن بالمعروف فإن كَرِهتموهن
فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل اللهُ
فيه خيراً كثيراً ﴾

التلبيسُ على المستضعفين ، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين — غيرُ محمودٍ عند الله . فمن تعاطَ ذلك انتقم الله منه ، ولم يبارِك له فيما يختزل من أموال الناس بالباطل والاحتيال . ومن استصغر خصمه فى الله فأهون ما يعاقبه الله به أنْ يَحرمَهُ الوصولَ إلى ما يأمل من محبوبه .

وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » : أى بتعاليم الدين والتأدب بأخلاق المسلمين وحُسْنِ الصحبة على كراهة النفس ، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملهن كلف خدمتك ، وتتغامى عن مواضع خجلتهن .

قوله : « فإن كَرِهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً . . . » كل ما كان على نفسك أشقَّ كانت عاقبتُه أهنأ وأمرأ .

واعلم أن الحقَّ سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِه ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون الخيرة فيه أتم . وقد حكم الله — سبحانه — بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى المنازل ، وبعكس ذلك موافقتها ، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة ، وبعكس ذلك موافقتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكانَ
زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً ،
فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه
بهتانا وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه

وقد أفضى بعضكم إلى بعضٍ
وأخذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً ﴾

يعلمهم حسنَ العهد ونعتَ الكرم فى العِشْرة ، فيقول لا تجمعْ الفرقةَ واستردادَ المال عليها ، فإن ذلك تَرْكُ الكرم ؛ فإنْ خوَّلْتَ واحدة مالاً كثيراً ثم جفوتها بالفراق فما آتيتها يسيرٌ فى جنب ماأذقْتَها من الفراق .

قوله : « وكيف تأخذونه . . . . » : يعنى أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة ، فقفوا عند مراعاة الذمام ، وأوفوا بموجب الميثاق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكم
مِنَ النساء إلا ما قد سَلَفَ ، إنه
كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً .

تشير الآية إلى حفظ الذمام ، والوقوف على حد الاحترام ، فإن السَّجيَّةَ تتداخلها الأَنَفَةُ من أن ينكح فِراشَه غيرُه ، فنهى الأبناء عن تخطى حقوق الآباء فى استفراش منكوحة الأب .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم
وأخواتكم وعمَّاتكم وخالاتكم ،
وبناتُ الأخ وبنات الأخت ،
وأمهاتكم اللَّاتى أرضعنكم وأخواتكم
من الرضاعة ، وأمهات نسائكم
وربائبكم اللاتى فى حُجوركم من
نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن
لم تكونوا دخلتم بهن فلا جُناح
عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين
من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين

الأختين إلا ما قد سَلَفَ إن الله
كان غفوراً رحيماً ﴾

تكلُّفُ انتزاع المعانى التى لأجلها حصل هذا التحريم محالٌ من الأمر ؛ لأن الشرعَ غيرُ مُعَلَّلٍ[1] ، بل الحق تعالى حرَّم ما شاء على من شاء ، وكذلك الإباحة ، ولا عِلَّةَ للشرائع بحال ، ولو كانت المحرَّماتُ من هؤلاء محلَّلاتٍ [محرمات][2] لكان ذلك سائغاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والمحْصَنَاتُ مِنَ النساء إلا ما ملَكَتْ
أيْمانُكم كتابَ الله عليكم ، وأُحِلَّ
لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا
بأموالِكم مُحْصِنين غيرَ مُسَافحين
فما استمتعتم به منهن فآتُوهُنَّ
أُجورَهُنَّ فريضةً ولا جُنَاحَ عليكم
فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ،
إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

إذا حافظت الحدود ، وراعيت العهود ، وحصل التراضى بين النساء بحكم الشرع فما لا يكون فيه للخلق خصيمة ، ولا من الحق سبحانه منه تبِعةٌ ، فذلك مباحٌ طلقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن لم يستطِعْ منكم طَوْلاً أن
يَنكِحَ المحْصَنَاتِ المؤمنات فمن
مَّا مَلَكَتْ أيمانكم من فتياتكم
المؤمنات ، واللهُ أعلمُ بإيمانكم
بعضكم من بعض فانكِحوهن بإذن
أهلِهن ، وآتوهن أجورهُنَّ بالمعروف
مُحْصَنَاتٍ غيرَ مسافحاتٍ ولا متخذاتٍ

---

(١) نظن أن هذه النظرة التى يأخذ بها الفشبرى أمور التشريع قابلة للمناقشة .
(٢) هذه كلمة زائدة ولم ينبه الناسخ إلى زيادتها ، وربما كانت فى الأصل : « والمحللات محرمات » وحدث سقوط

أخـدان فإذا أُحْصِنَّ فإن أتيْنَ
بفاحشـةٍ فعليهن نصف ما على
المحصَنات من العذاب ذلك لِمَنْ خَشِىَ
العنَتَ منكم وأن تصبروا خير لـكم
والله غفور رحيم ﴾ .

الرخص جعلت للمستضعفين ، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدّ ، والأخذ بالاحتياط والتضييق ؛ إذ لاشغل لهم سوى القيام بحق الحق ، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ فى الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أوْلى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر ، لأنه ترك بعض الأمور لما هو الأهم والأجلُّ ، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فمباح له الانحدار إلى وصف الترخص[1] .

ثم قال فى آخر الآية : « وأن تصبروا خير لـكم » : يعنى على مقاساة ما فيه الشدة ، وفى هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال : « وأن تصبروا خير لـكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله ليبيِّنَ لـكم ويهديكم سُنَنَ
الذين مِن قبلِـكم ويتوبَ عليـكم
والله عليم حكيم ﴾

لما عرَّف النبى — صلى الله عليه وسلم — وأمَّته أخبارَ مَنْ مضى من الأمم ، وما عملوا ، وما عاملهم به انتظروا ما الذى يفعل بهم ؛ فإن فيهم أيضاً من ارتـكب مالا يجوز ، فقالوا : ليت شِعْرنا بأىِّ نوع يعاملنا ... أبالخسف أو بالمسخ أو بالعذاب أو بماذا ؟

فقال تعالى : « ويهديكم سنن الذين من قبلـكم » نعرِّفـكم ما الذى عملنا بهم .

---

(١) القاعدة « أن الله يحب أن تؤتى رُخَصُه كما تؤتى عزائمه » ولـكن القشيرى يرى بالنسبة لأرباب الأحوال أن (الرخصة فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهؤلاء الطائفة (= الصوفية) ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل إذا انحطَّ الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى ، ونقض عهده فيما بينه وبينه سبحانه) الرسالة ص ١٩٩ .

« ويتوب عليكم » أمّا أنتم فأتوب عليكم ، أمّا من تقدّم فلقد دمّرتُ عليهم .

ويقال « يريد الله ليبيِّن لكم » : أى يكاشفكم بأسراره فيظهر لكم ماخفى على غيركم .

ويقال يريد الله ليبيِّن لكم انفرادَه — سبحانه — بالإيجاد والإبداع ، وأنه ليس لأحد شىء .

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء ، والاستسلام للحكم والقضاء .

وقيل « ويتوب عليكم » أى يتقبّلُ توبتكم بعدماخلَقَ توبتكم ، ثم يُثيبُكُم على ما خلق لكم من توبتكم [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما * يريد اللهُ أن يخفِّفَ عنكم وخُلِق الإنسان ضعيفاً ﴾.

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد اللهُ توبتَه فلا يُشمِتُ به عدوًّا ، ولا يناله فى الدارين سوء .

« ويريد الذين يتّبعون الشهواتِ . . » : إرادتهم منكوسة ، وهى عند إرادة الحق — سبحانه — ضائعة مردودة .

« ويريد الله أن يُخفِّف عنكم » : يعنى ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم أتعاب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

---

(١) واضح من هذا الكلام أن الفضل كله لله ، هو الذى يخلق توبة العبد وهو الذى يثيبه على توبته ، وقد ربطنا بين هذا وبين ما ذكره القشيرى عند (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) التى جاء ذكرها فيما سبق (من هذا الكتاب ص ٢١٦)

ويقال يخفف عنكم أتعاب الطلب بروْح الوصول .

« وخلِق الإنسان ضعيفاً » : وصف بهذا فقرهم وضُرّهم ، و (. . .)[1] بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفُسكم إنَّ الله كان بكم رحيماً * وَمَن يفعلْ ذلك عدواناً وظلماً فسوف نُصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾.

كل نفقة كانت لغير الله فهى أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلةٍ ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة[2] ، فكل ذلك باطل . « ولا تقتلوا أنفسكم » : يعنى بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطته سبحانه . ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باستحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضاء الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإنّا لانُخليه من عقوبة شديدة ، وهو أن نَكِلَها إلى صاحبها ، ونلقى حبْلَها على غاربها .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تَجْتَنِبُوا كبائر ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّر عنكم سيئاتِكم ونُدْخِلْكُم مُّدخلا كريماً ﴾ .

الكبائر — على لسان العلم — ها هنا الشِّرْكُ بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشِّرْكُ

---

(١) مشتبهة .

(٢) والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، أى لو كان ما تبذله وأنت تشهد نفسك دون أن تشهد الحق ، فهو عمل ضائع ، لأنك حينئذ ستحسب قدْراً لنفسك .

الخَفِيّ . ومن جملة ذلك ملاحظة الخَلْق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم[1] .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة[2] الحد فهو بعيد عن التكفير .

ويقال أكبر الكبائر إثباتُك نَفْسَكَ فإذا شاهدت نَفْيَها[3] تَخَلَّصْتَ[4] من أسْر المحن . « وندخلكم » فى أموركم « مدخلا كريماً » إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المُصَرِّفَ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَتَمَنَّوْا ما فضَّلَ اللهُ به بعضكم
على بعضٍ ، للرجال نصيب مما
اكتسبوا وللنساء نصيب مما
اكتسبْن ، واسألوا الله من فضلِه ،
إنَّ اللهَ كان بكلِّ شىء عليماً ﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعنى لا بالتمنى ، ولسان التوحيد أن الأمر بالحُكْم والقضاء لا بالإرادة والمنى . ويقال اسلكوا سبيل من تقدَّمكم فى قيامكم بحق الله ، ولا تتعرضوا لنَيْلِ ما خُصُّوا به من فضل الله . قوموا بحقِّ مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم .

ويقال لا تتمنوا[5] مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهُم ، وتلا زموا سيرهم ، وتعملوا عملهم .. فإن ذلك جَوْرٌ من الظن .

ويقال كن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أى وجه شئت : دنيا وآخرة (وإلاَّ)[6] أشركتَ فى توحيدك من حيث لم تشعر .

---

(١) ربما يشترك كثير من الباحثين فى هذا الرأى مع القشيرى ولكنه عند أهل الملامة عنصر أساسى وخطير فى تعاليمهم ، حيث يزيد إلى درجة استجلاب سخط الناس ولومهم للعبد .

(٢) وردت (بالراء) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى إن الله يغفر مجاوزة الحد على شرط سلامة العهد وعدم الشرك .

(٣) وردت (ففيها) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت بالتاء المربوطة لا المفتوحة وهى خطأ فى النسخ .

(٥) وردت بالهاء لا بالميم والصحيح أنها بالميم ويتأيد ذلك بقوله بعد قليل (لا تتمنَّ مقامات الرجال) .

(٦) إضافة منا ليستقيم المعنى ، إذ واضح أنها سقطت من الناسخ .

ويقال لا تتمنَّ مقامات الرجال فإنَّ لكل مقام أهلاً عند الله ، وهم معدودون ؛ فما لم يمت واحد منهم لا يورَث مكانه غيرُه ، قال تعالى : « جعلكم خلائف » والخليفة من يخلف من تقدَّمه ، فإذا تَمَنَّيْتَ مقام ولىٍّ من الأولياء فكأنَّكَ استعجلتَ وفاتَه ؛ على الجملة تمنيت أو على التفصيل ، وذلك غير مُسَلَّم .

ويقال خمودُك تحت جريان حكمه — على ما سبق به اختياره — أَحْظَى لكَ من تعرضك لوجود مناك ، إذ قد يكون حتفك فى مُنيتك .

ويقال مَنْ لم يؤدّب ظاهرهُ بفنون المعاملات ، ولم يهذِّب باطنه بوجوه[1] المنازلات فلا ينبغى أن يتصدَّى لنيْل المواصلات ، وهيهات هيهات متى يكون ذلك !

« واسألوا الله من فضله » : الفرق[2] بين التمنى وبين السؤال من فضله من وجوه : يكون التمنى للشىء مع غفلتك عن ربك ؛ فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشىء من غير توقعه من الله ، فإذا سألتَ الله فلا محالةَ تذكره ، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيحْمِلُه صِدْقُ الإرادة على التملُّق والتضرع ، والمتمنى يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمنى ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبَك ماأعطاه ويعطيك إياه ، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .

ويقال لاتتمنَّ العطاء وسَلْ الله أن يعطيك من فضله الرضا بِفَقْدِ العطاء وذلك أتمُّ من العطاء ، فإنَّ التحرُّرَ من رِقِّ الأشياء أتمُّ مِنْ تَمَلُّكِها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوالِدان والأقربون والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتوهم نصيبَهم إنَّ اللهَ كان على كُلِّ شىء شهيداً ﴾ .

جعل المعاقدة فى ابتداء الإسلام نظيرةَ النَّسَبِ فى ثبوت الميراث بها فَنَسَخَ حكم الميراث

---

(١) وردت (بوجوده) والصواب أن الدال زائدة ليتلاءم المعنى مع (فنون) كذلك فإن (بوجوده المنازلات) غير مستقيمة .

(٢) لاحظ كيف تثرى بحوث القشيرى التى من هذا القبيل علوم اللغة والبلاغة .

وبقى حكم الاحترام ، فإذا كانت المعاقدة بين الناس بهذه المثابة فما ظنك بالمعاهدة مع الله ؟ .
قال الله تعالى : « رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه » وأنشدوا :

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيَّةَ منهلاً معسولاً

قوله جل ذكره : ﴿ الرجال قوَّامُون على النِّساء بما فضَّلَ الله بعضهم على بعضٍ ، وبما أنفقوا مِنْ أموالِهِم ، فالصَّالحات قانِتاتٌ حافِظاتٌ للغيبِ بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعِظُوهُنَّ واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إنَّ الله كان عليًّا كبيراً ﴾ .

خصَّ[1] الرجال بالقوة فزيد بالحمل عليهم ؛ فالحمل على حسب القوة . والعبرة بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث .

قوله : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهنَّ » : أى ارتقوا فى تهذيبهن بالتدريج والرفق ، وإنْ صَلُحَ الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا بالضرب ، فالآية تتضمن آداب العِشْرة .

ثم قال : « فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » : يعنى إن وَقَفَتْ فى الحال عن سوء العشرة (. . . . .)[2] ورجعتْ إلى الطاعة فلا تَنْتَقِمْ منها عمَّا سَلَفَ ، ولا تمتنع من قبول عذرها والتأنِّى عليها .

يقال : « فلا تبغوا عليهن سبيلاً » بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب[3] من نقمتك .

---

(١) جاءت (حضَّ) أى أخطأ الناسخ فنقل نقطة الخاء إلى الضاد .
(٢) هنا ثلاث كلمات زائدة وضع الناسخ علامة مميزة للتنبيه على ضرورة حذفها لتكرارها بدون داع .
(٣) أى تستحق المرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ خِفْتُم شِقاقَ بَيْنِهما فابعثوا حَكَماً مِنْ أهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أهْلِها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إنَّ اللهَ كان عليماً خبيراً ﴾ .

يقال لكَ عليها الطاعة بالبدن ، فأمَّا المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله ، فلا تكلفها مالا يرزقك الله منها ؛ فإن القلوب بقدرة الله ، يُحَبِّبُ إليها من يشاء ، ويُبَغِّضُ إليها من يشاء .

ويقال « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » أى لا تنسَ وفاءها فى الماضى بنادر[1] جفاءٍ يبدو فى الحال فربما يعود الأمر إلى الجميل .

قوله جل ذكره : ﴿ واعبدوا اللهَ ولا تشرِكوا به شيئاً وبالوالدين إحْسَاناً وبِذِى القُربى واليتامَى والمساكينِ والجارِ ذى القربى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحبِ بالجنْبِ وابنِ السبيل وما مَلَكَتْ أيْمانكم . إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كان مُخْتَالاً فخوراً * الذين يبخلُون ويأمُرون النَّاسَ بالبُخْلِ ويكتُمون ما آتاهم اللهُ من فَضْلِهِ وأعتَدْنَا للكافرين عَذَاباً مُهِيناً ﴾

قوله « واعبدوا الله » : العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر[2] .

« ولا تشركوا » الشِّركُ جَلِيُّه اعتقادُ معبودٍ سواه ، وخَفِيُّه : ملاحظةُ موجود سواه ،

---

(١) لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (ببادر) والمعنى يتقبل (نادر) و (بادر) فكلاهما يدل على قدر من الجفاء لا يستحق الاهتمام ويستوجب العفو .

(٢) أى طاعة ما أمرك به وترك ما نهاك عنه .

والتوحيد أن تعرف أنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ بالله ، قائمةٌ به ؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها ، وليس لأحدٍ ذرة ولا شظية ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع .

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلْق ، واستحلاء مدحهم والذبول تحت ردّهم وذمّهم — كلٌّ ذلك من الشِّرْكِ الخفِّي .

قوله : « وبالوالدين » الإحسان إلى الوالدين على وجه التدريج إلى صحبة فإنك أُمِرْتَ أولاً بحقوقهما لأنهما من جِنْسِك ومنهما تربيتك ، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك . وإذا صَلُحْتَ للصحبة والعِشْرة مع ذوى القربى والفقراء والمساكين واليتامى ومن فى طبقتهم — رُقِّيتَ عن ذلك إلى استيجاب صحبته — سبحانه .

قوله : « والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . . . الآية » من جيرانك (. . . .)[1] فلا تؤذهما بعصيانك ، وراعِ حقهما بما تُولِى عليهما من إحسانك .

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجارُ نفسِك — وهو قلبك — أَوْلى بألا تضيِّعه ولا تَغفلَ عنه ، ولا تُمكِّنَ حلول الخواطر الرديئة به .

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك — وهو روحك — أَوْلى أن تحامىَ على حقِّها ، ولا تُمكِّن لما يخالِفها من مساكنتها ومجاورتها . وجار روحك — وهو سِرُّك — أَوْلى أن ترعى حقَّه ، فلا تُمكِّنَه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

قوله : « وهو معكم أينما كنتم » الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوى التحقيق .

قوله : « الذين يبخلون . . . الآية » : البخل على لسان العلم منع الواجب ، وعلى بيان الإشارة ترك الإيثار فى زمان الاضطرار . وأمرُ الناسِ بالبخل معناه مَنْعُهم عن مطالبات الحقائق فى معرِض الشفقة عليهم بموجب الشرع ، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن العلائق وحذف فضولات الحالة فمَن نصحه بأن يقول : «ربما لا تَقْوَى على هذا ، ولأن تكون مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً ، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كَلّاً على

---

(١) مشتبهة .

المسلمين — ويَرْوِى له فى هذا الباب الأخبار والآثار أمثالَ هذا . . . . . » فلولا بُخْلُه[1] المستكن فى قلبه لأعانه بهمته فيما يسنح لقلبه[2] بَدَلَ أن يمنع عنه ما(يجب ان) يقول فى معرض النصح . ومن كانت هذه صفته أدركه عاجل المقت حيث أطفأ شرر إرادة ذلك المُسْتَضْعَفِ بما هو عند نفسه أنه نصيحة وشفقة فى الشرع .

وقوله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » : إن كان الله أغناهم عن طلب الفضيلة بما خوَّلهم وآتاهم كتموا ذلك طمعاً فى الزيادة على غير وجه الإذن .

ويقال يكتمون ما آتاهم الله من فضله إذا سألهم مريدٌ شيئاً عندهم فيه نجاته ، وضنوا عليه بإرشاده .

ويقال بخل الأغنياء بمنع النعمة ، وبخْلُ الفقراء بمنع الهمة .

قوله جل ذكره : ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس
ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِر
ومَن يكُنِ الشيطانُ له قريناً فَسَاء
قرينا﴾

أدخل هؤلاء أيضاً تحت قوله : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » فعقوبتهم فى العاجل أنهم ليسوا من جملة مُحِبِّيه ، وكفى بذلك محنة .

والمختال الذى ينظر إلى نفسه والمرائى الذى ينظر إلى أبناء جنسه ، وكلاهما مُسَوَّمان بالشرك الخفىّ والله لا يحب المشركين . والفخور من الإبل كالمصراة من الغنم وهو الذى سُدَّت أخلافه ليجتمع فيها الدَّرُّ[3] فيتوهم المشترى أن جميع ذلك معتاد لها وليس كذلك ، فكذلك الذى يرى من نفسه حالاً ورتبة وهو فى ذلك مدعٍ وهو الفخور ، والله لا يحبه ، وكذلك المرائى الذى ينفق ماله رئاء الناس .

---

(١) حاول بعضهم أن يصححها فى الهامش فظن أن صوابها (تجعله) والصحيح أنها (بخله) .
(٢) يستعمل القشيرى الفعل (يسنح) للدلالة على ما يرد القلب من خواطر قد تصبح هواجس فتنشده نحو العلائق والخلائق ، وقد تكون إلهاماً من قبل الحق سبحانه فتهديه السبيل .
(٣) الدّر = اللبن الغزير .

قوله جل ذكره : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخِر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً ﴾

ليس فى إيمانهم بالله عليهم مشقة ، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عِزّ الدنيا والآخرة ، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لا يَظْلِمُ مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفها ويُؤْتِ مِن لَّدُنه أجراً عظيماً ﴾

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم — من غير استحقاقهم — بفضله ، ويضاعف أجورَهم على أعمالهم ؛ فأمَّا الظلم فمحالٌ تقديره فى وصفه لأن الخلقَ خلقُه ، والمُلْكَ ملْكه . والظالم من يعتدى حداً رُسِمَ له — وهو فى وصفه مُحال لِعزّه فى جلال قدره .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ وجِئْنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعَصَوا الرسولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الأرضُ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾

إذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — الشهيد على أمته ، وهو الشفيع لهم ، فإنما يشهد بما يُبْقِى للشفاعة موضِعَها .

قوله تعالى : « يومئذ يود الذين كفروا . . . . » الآية : يحصلون على ندمٍ ثم لا ينفعهم، ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم ، فينقمعون بِخِمَار الذُّل ، وينقلبون إلى أوطان المحن[1] والضر .

---

(١) وردت (المحسن) والسين زيادة من الناسخ والصواب (المحن) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكَارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنُباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا ، وإن كنتم مرضى أو على سَفَرٍ أو جاء أحدٌ منكم مِنَ الغائط أوْ لامستُم النِّساء فلَمْ تجدوا ماء فَتَيمَّمُوا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إنَّ الله كان عفُواً غفوراً ﴾

النَّهيُ عن موجب السكر من الشراب لا من الصلاة ، أى لا تصادفنكم الصلاة وأنتم بصفة السُّكْر ، أى امتنعوا عن شُرْبِ ما يُسْكِر فإنكم إن شربتم سكرتم ، ثم إذا صادفكم الصلاة على تلك الحالة لا تُقْبَل منكم صلاتكم .

والسُّكْر ذهاب العقل والاستشعار ، ولا تَصحُّ معه المناجاة مع الحق .

المُصَلِّى يناجى ربَّه ؛ فكلُّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملحق بهذا من حيث الإشارة ؛ ولأجل هذه الجملة حَصَلَ ، والسُّكْرُ على أقسام :

فسُكْرٌ من الخمر وسُكْرٌ من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا .

وأصعب السكر سكرك من نفسك فهو الذى يلقيك فى الفرقة عنه ، فإنَّ مَنْ سَكِرَ من الخمر فقصاراه الحرقة — إن لم يُغْفَر له . ومن سكر من نفسه فحاله الفرقة — فى الوقت — عن الحقيقة .

فأمَّا السُّكْر الذي يشير إليه القوم[1] فصاحبه محفوظٌ عليه وقته حتى يصلى والأمر مخفف عليه : (فإذا خرج عن الصلاة هجم عليه غالبُه فاختطفه عنه ومن لم يكن محفوظا)[2] عليه أحكام الشرع (فمشوبٌ بحظٍّ)[3] .

---

(١) أى السكر عند الصوفية .

(٢) هذا الذى بين قوسين مستدرك فى هامش الصفحة وضعناه فى موضعه من النص .

(٣) (فمشوب بحظ) وضعنا هاتين اللفظتين هنا مستفيدين من أقوال القشيرى فى مواضع مناظرة =

وقوله تعالى : « ولا جُنُباً إلا عابرى سبيل . . . الآية » : أذن للمضطر أن يترخَّص فى عبور المسجد وهو على وصف الجنابة ، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور ، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت فى القيام بشرائط الوقت فمرفوعةٌ عن صاحبه المطالبة به .

ثم إنه — سبحانه — بفضله جعل التيمم بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفَرْقِ عن ارتقاء ذرة[1] الجمع — بِقَدْرِ ما يحصل من الضعف — بَدَلٌ لأهل الحقائق .

ثم إن التيمم — الذى هو بَدَلُ الماء — أعمُّ وجوداً من الماء ، وأقلُّ استعمالاً من الأصل ، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب .

ثم فى الظاهر أَمَرْنا باستعمال التراب وفى الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول[2] .

وردَّ التيمم إلى التقليل ، وراعى فيه صيانةً لرأسِك عن التُّراب ولقَدَمك ؛ فإنَّ العزَّ بالمؤمن — ومولاه باستحقاق الجلال — أَوْلى من الذل لِمَا هو مفلس فيه من الحال ، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذلُّل فعرفانُه بجلال سيِّده يوجب كل تَعزُّزٍ وتَجمُّل .

قوله جل ذكره ﴿ ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * واللهُ أعلمُ بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى باللهِ نصيرا * مِنَ الذين هادوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعه ويقولون سَمِعْنَا وعَصَيْنا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعنا ليّاً بألسنتِهم

= فى مصنفاته الأخرى ، وذلك نظراً لانبهام الكلمتين هنا لرداءة خط الناسخ (انظر حديث القشيرى عن السكر فى الرسالة ص ٤١) .

(١) نرجح أنها في الأصل (ذروة الجمع) وأن الواو قد سقطت من الناسخ .

(٢) لأن فيه تذكيراً للانسان بأصله .

وطَعْناً فى الدِّين ، ولو أنَّهم قالوا
سَمِعْنا وأطَعْنا واسْمَعْ وانظُرْنا
لكان خيراً لهم وأقْوَمَ ولكِن
لَعَنَهُم اللهُ بكُفرِهم فلا يؤمنون
إلا قليلاً ﴾

ومكروا مكراً ولم يشعروا وجهة مكرهم أن أُعْطُوا الكتابَ ثم حُرِمُوا بركاتِ الفهم حتى حرَّفوا وأصَرُّوا .

قوله : « من الذين هادوا . . . » الآية : تركوا حشمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورفضوا حرمته ، فعوقبوا بالشك فى أمره ، ولذلك لم يترك أحد حشمته (محتشم)[1] إلا حيل بينه وبين نيل بركات صحبته وزوائد خدمته . ولو أنهم عاجلوا فى نفى ما دَاخَلَهم من الحسد وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعته ، فأُسْعِدوا به فى الدارين ، وكيف لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة ؟ وإنَّ مَنْ قعدت به الأقدار لم ينهض به الاحتيال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين أوتوا الكتابَ آمِنوا
بما نَزَّلنا مُصَدِّقاً لِمَا معكم مِن قبل
أن نَطْمِسَ وجوهاً فَنَرُدَّها على
أدبارها أو نلعنهم كما لَعَنَّا أصحابَ
السَّبْتِ وكان أمرُ الله مفعولا ﴾

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر فى رفض الدنيا فعاد لا يصبر عن جمعِها[2] ومنعِها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر

---

(١) نرجح أن هذه الكلمة زائدة من الناسخ ، أو ربما كان الأصل (حشمةَ مُحْتَشَمٍ) .
(٢) وردت (جميها) وهى خطأ فى النسخ .

ما دون ذلك لِمَن يشاء ، وَمَن
يشرِكْ بالله فقد افترى إثما عظيماً ﴾

العوام طولبوا بترك الشِرْكِ الجلىّ ، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفىّ ، فمن توسَّل إليه بعمله ويظنه منه ، أو توَّهم أن أحكامه — سبحانه — معلولة بحركاته وسكناته ، أو راعى خَلْقاً أو لاحظ نَفْساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق[1] .

والله لا يغفر أن يُشرَكَ به وكذلك من توَّهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملتحق بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يُزَكُّون أنفُسَهم بل اللهُ يُزَكِّى من يشاء ولا يُظلمون فتيلا * انظرْ كيف يَفْتَرون على الله الكَذِبَ ، وكَفَى به إثماً مُبِيناً ﴾

مَنْ ركن إلى تزكية الناس له ، واستحلى قبول الخواص له — فضلا عن العوام — فهو من زكَّى نفسه ، ورؤية النَّفْس أعظم حجاب ، ومن توَّهم أنه بِتَكَلُّفِه يزكِّى نفسه : بأوراده أو اجتهاده ، بحركاته أو سكناته — فهو فى غطاء جهله .

قوله : « انظر كيف يفترون . . . . » الآية : الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق ، والمُفْتَرِى — فى قالته فى هـذا الأمر — لا ينطق بشىء إلا أجيَّتْه الآذان وانزجرت له القلوب ، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

(١) يقول زكريا الأنصارى شارح الرسالة : « من كانت أفعاله لله تعالى وشاهدها طاعة له تعالى فهو فى التفرقة ومن شاهدها جارية عليه فضلا من الله فقد شاهدها بالله فهو فى الجمع » (هامش ٣٩) .

سبيلا * أولئك الذين لَعَنَهم اللهُ ، ومَن يلعن اللهُ فلن تَجدَ له نصيراً ﴾

طاغوتُ كلِّ أحدٍ نَفْسُه وهواه وحِبْتُه و (. . . . .)[1] مقصوده من الأغيار ، فمن لاحظ شخصاً أو طالع سبباً أو عرَّجَ على عِلَّةٍ أو أطاع هوىً ، فذلك جبته وطاغوته . وأصحاب الجبت والطاغوت يستوجبون اللعن ؛ وهو الطرد عن بساط العبودية ، والحجاب عن شهود الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لهم نصيب من المُلْكِ فإذاً لا يُؤْتونَ النـاسَ نقيراً * أَمْ يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم الله مِن فضلِه فقد آتينا آل إبراهيمَ الـكتابَ والحِكمةَ وآتيناهم مُلْـكاً عظيماً * فمنهم مَنْ آمن به ومنهم مَّن صَدَّ عنه وكـفى بجهنَّمَ سعيراً ﴾

مَنْ جُبِلَ على الشُّحِّ لا يزداد بسعة يده إلا تأسفاً على راحةٍ ينالها الخلْق، كأنَّ مَنْ شَرِبَ قطرةَ ماءٍ قد تحسَّى بل رَشَفَ من ماء حياته !

قوله : « أم يحسدون الناس . . . . » : بل ينـكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال ، وسُنَّةُ الله سبحانه مع أوليائه مضت بالتعزيز والتوقير لهم . ودأبُ الـكافرين جرى بالارتياب فى القـدرة ؛ فمنهم من آمن بهم ، ومنهم من ردَّ ذلك وجحد ، وكفى بعقوبة الله منتقماً عنهم .

قوله : « وآتيناهُمْ ملـكا عظيماً » : المُلْك العظيم معرفة المَلِك ، ويقال هو المُلْكُ على النَّفس .

---

(١) مشتبهة .

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء .
ويقال الاطلاع على أسرار الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصْليهم ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جلودُهم بَدَّلْناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العذاب * إنَّ اللهَ كان عزيزاً حكيماً ﴾

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء ؛ يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم فى وحشة الإنكار[1] ؛ كلَّما لاح لقلوبهم شيء من هذه القصة[2] جرَّهم إنكارُهم إلى ترك الإيمان بها والإزراء بأهلها على وجه الاستبعاد ، فهم مؤبدة عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات سندخلهم جنَّاتٍ تجرى مِن تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواجٌ مُطَهرة ونُدْخِلُهم ظلاًّ ظليلاً ﴾

هم اليوم فى ظل الرعاية ، وغداً فى ظل الحماية والكفاية ، بل هم فى الدنيا والعقبى فى ظل العناية .

والناس فى هذه الدنيا متفاوتون : فمنهم من هو فى ظل رحمته ، ومنهم من هو فى ظل رعايته ، ومنهم من هو فى ظل كرامته ، ومنهم من هو فى ظل عنايته ، ومنهم من هو فى ظل قربته .

---

(١) وردت (الأفكار) بالفاء والصواب — حسب المعنى والسياق — وكما جاء بعد قليل فى (وجرم إنكارهم) أن تكون (الإنكار) .
(٢) يقصد من (القصة) : التصوف وأهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلِها ، وإذا حكمتُم بين الناسِ أن تحكُمُوا بالعدلِ * إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكم به إنَّ اللهَ كان سميعاً بصيراً ﴾

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال[1] الخلْق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم .

ويقال لله — سبحانه وتعالى — أماناتٌ وَضَعَها عِنْدكَ ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله — سبحانه — سالمةً مِنْ خيانتِكَ فيها ؛ فالخيانة فى أمانة القلب ادعاؤك فيها ، والخيانة فى أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها .

والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب والبعيد فى العطاء والبذل، وألا تحملَك مخامرةُ حقدٍ على انتقامٍ لنفسٍ .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطِيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولِي الأمْرِ منكم فَإن تَنَازَعْتُم فى شىء فَرُدُّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلك خيرٌ وأحْسَنُ تأويلا ﴾ .

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول — صلى الله عليه وسلم — تفخيماً لشأنه ورفعاً لِقَدْرِه .

وأمَّا أولو الأمر — فعلى لسان العلم — السلطان ، وعلى بيان المعرفة العارفُ ذو الأمر على المستأنف ، والشيخُ أولو الأمر على المريد ، وإمامُ كل طائفة ذو الأمر عليهم .

---

(١) وردت (أحوال) والصواب أنها (أموال) لأن الأحوال لا تكون ودائع للناس عندك بل أموالهم

ويقال الولى أولى بالمريد (من المريد)[1] للمريد .

قوله : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله » على لسان العلم — إلى الكتاب والسُّنَّة، وعلى بيان التوحيد فوَّض ذلك ووَكَلَ علمَهُ إلى الله سبحانه ، وإذا اختلف الخاطران فى قلب المؤمن فإن كان له اجتهاد العلماء تأمل ما يسنح لخاطره بإشارة فهمه ، ومن كان صاحب قلب وَكَلَ ذلك إلى الحق — سبحانه — وراعى ما خوطب به فى سرائره، وأُلْقِيَ — بلا واسطة[2] — فى قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعُمُون أنهم آمنوا بِما أُنزِلَ إلَيْكَ وما أُنزِلَ من قبلِك يريدون أن يَتَحاَكَموا إلى الطَّاغوتِ وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ويريدُ الشيطانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بعيداً ﴾ .

أظهروا الإخلاص ، ونافقوا فى السِّر ، ففضحهم — سبحانه — على لسان جبريل عليه السلام بقوله:« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به» أى يرفضوه . فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والذم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قِيلَ لهم تَعاَلَوْا إلى ما أنزل اللهُ وإلى الرسولِ رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدوداً ﴾ .

كل شىء سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين ، فأمّا التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص ، وأهل الفترة فى الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق ؛ لأن خلافَ الهوى يَشُقُّ على غير الصديقين . وكما أن ناظِرَ الخلْق[3] لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك

---

(١) هذا استدراك موجود فى هامش الصفحة أثبتناه فى موضعه من النص .

(٢) تامل جيدا (بلا واسطة) فهذا وصف هام للمعرفة عند الصوفية ، يميزها ويكشف جوهرها .

(٣) أى العين .

المنافقون لم يطيقوا الثبات له — صلى الله عليه وسلم — فلذلك كان صدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا أصابتْهُم مُصِيبَةٌ بما قدَّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إنْ أردْنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ .

تَضَرُّعُ غير المخلص عند هجوم الضُّر[1] لا أصل له ، فلا ينبغى أن يكون به اعتبار لأن بقاءه إلى زوال المحنة ، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)[2] .

ويقال من المصيبة أن يمحقك وقتك فيما لا يجدى عليك[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يعلم اللهُ ما فى قلوبهم فأعْرِضْ عنهم وعِظْهُمْ وقُل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ .

أُبْسُطْ لهم لسانَ الوعظِ بمقتضى الشفقة عليهم ، ولكن انقَبِضْ بقلبك عن المبالاة بهم والسكون إليهم ، واعلم[4] أن من لا نكون نحن له لا يغنى عنه أنْ تعينه[5] شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِن رسولٍ إلا ليُطَاعَ بإذنِ اللهِ ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ .

ما أمَرْنا الرسلَ إلاَّ بدعوة الخَلْقِ إلينا .

---

(١) وردت (الضرورة) والصواب (الضر) فالمعنى يقتضى ذلك ويؤيد أن الخطأ فى النسخ .

(٢) ما بين قوسين تكملة وجدناها ضرورية لتوضيح المعنى فاستفدنا مما جاء فى موقف مشابه فى الرسالة ص ٣٤ حيث يقول (وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين) .

(٣) من أقوالهم فى الوقت : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك ، والوقت سيف فكما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب .

(٤) وردت (ما علم) وهى خطأ فى النسخ ، وربما كانت (فاعلم) فى الأصل واشتبهت على الناسخ .

(٥) (أن تعينه) المصدر المؤول من ان والفعل (أى عونك له) يقع فاعلا للفعل (يغنى) .

وقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » . لو جعلوك ذريعتَهم لوصلوا إلينا ، ويقال لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة المبار .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويُسَلِّمُوا تسليماً ﴾ .

سَدَّ الطريق — إلى نفسه — على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فمَنْ لم يمش تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

قوله : « ثم لا يجدوا . . . » : فلابُدَّ لك من (. . .)[1] تلك المهالك بوجه ضاحك ، كما قال بعضهم :

وحبيبٍ إنْ لم يكن منصفاً كنتُ منصفا ... أتحسّى له الأمَرَّ وأسقيه ماصفا
إن يقل لى اِنشقَّ اخترتُ رضاً لا تَكلُّفاً ... .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفُسَكُم أو اخرجوا مِن دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم ، ولو أنَّهم فعلوا مايُوعَظُون به لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم مِّن لَّدُنَّا أجراً عظيماً * ولهديناهم صِراطاً مستقيما ﴾

أخبر عن سُقْم إخلاصهم وقوة إفلاسهم ، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم .

خلاهم عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة،وشدُّوا نطاق الطاعة

---

(١) هنا كلمة ناقصة ربما كانت (مواجهة) أو (مقابلة) تلك المهالك بوجه ضاحك .

لكان ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً ، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاء مقيماً .

والأمر — على بيان الإشارة — يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المألوفات ، والخروج من ديار (تقبُّل النَّفْس)[1] ، ومفارقة أوطان (إرادة)[2] الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِدّيقين والشُهداءِ والصَّالحين وحَسُنَ أُولئك رفيقاً * ذلك الفضلُ من الله وكفى بالله علماً ﴾

جعل طاعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — مفتاحَ الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذى يصحُّ للأُمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال : « ذلك الفضل من الله » : جرَّد عليهم محلّهم عن كل علة واستحقاق وسبب ؛ فإن مالاح لهم وأصابهم صرفُ فضله وابتداء كرمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حِذْرَكُم فانفِرُوا ثُبَاتٍ أو انفِرُوا جميعاً * وإنَّ منكم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فانْ أصابتكم مصيبةٌ قال قد أنعم الله علىَّ إذْ لم أكن مَعهم شهيداً * وَلَئِنْ أصابكم فَضلٌ مِّنَ اللهِ ليقولَنَّ كأن لَمْ تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كُنْتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيما ﴾ .

---

(١) وضع الناسخ (تقبل النفس) فى مكان خاطىء يبهم المعنى إذ وضعها قبل (على بيان الإشارة) والصواب أن تكون في مكانها الذى اخترناه حتى يستقيم السياق .

(٢) وردت (اراد) بدون همز للألف وبدون تاء مربوطة فاخترنا (إرادة) لملاءمتها للسياق .

الفرار إلى الله من صفات القاصدين ، والفرار مع الله من صفات الواصلين ؛ فلا يجد الفرار مع الله إلا من صدق فى الفرار إلى الله . والفرارُ من كل غَيْرِ شأنُ كل مُوَحِّد .

قوله تعالى : « وإنَّ منكم لمن ليبطئن . . . » الآية : أى لم تستقر عقائدهم على وصفٍ واحد ، فكانوا مرتبطين بالحظوظ ؛ فإذا رأوا مكروهاً يُظلُّ المسلمين شكروا وقالوا : الحمد الله الذى حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم ، وإنْ كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم ، وتمنوا أنْ لو كانوا معكم ، خسروا فى الدنيا والآخرة : فَهُمْ لا كافرٌ قبيحٌ ولا مؤمنٌ مخلِصٌ .

قوله : « كأن لم تكن بينكم وبينه مودة » : يعنى طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فى سبيل الله الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة ، وَمَن يُقَاتِلْ فى سبيلِ الله فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجْراً عظيما ﴾ .

مَنْ لم يَقْتُلْ نَفْسَهُ فى نَفْسِهِ لا يصحُّ جهادُه بنفسِهِ ؛ فأولا (إخراج خطر الروح)[1] من القلب ثم تسليم النفس للقتل .

وقوله « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » يعنى بقاؤنا بعده خيرٌ له من حياته بنفسه لنفسه ، قال قائلهم :

ألست لى عِوَضا منى ؟ كفى شَرَفاً ... فما وراءك لى قصدٌ ومطلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وما لكم لا تقاتِلون فى سبيل الله والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجال والنِّساءِ والوِلدانِ الذين يقولون رَبَّنَا أَخْرِجنا مِنْ هذه القرية الظَّالِمِ أَهْلُها واجعل لنا مِن لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾

---

(١) هكذا فى النسخة (ص) وربما كان المقصود أنك لا تستطيع أن تبذل نفسك إلا إذا قويت على قهرها والتهوين من خطرها .

أى شىء يمنعكم عن القتال فى سبيل الله ؟ وما الذى لا يُرَغِّبُكُم فى بذل المهجة[1] لله ؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم فى الله ولله ؟ أتخافون أن تخسِرُوا على الله ؟ أم لا تعلمون أنكم تُحشَرُون إلى الله ؟ فلم لا تكتفون ببقائه بعد فنائكم فى الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا يقاتِلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كَيْدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ﴾

المخلصون لله لا يؤثِرُون شيئاً على الله ، ولا يضنون بشىء عن الله ، فهم أبداً على نفوسهم لأجل الله ، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين . ثم قوّاهم وشجّعهم بقوله : « فقاتلوا أولياء الشيطان » أى لا تُضمِرُوا لهم مخافة ، فإنى متوليكم وكافيكم على أعدائكم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيْدِيَكم وأقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ فلمَّا كُتِبَ عليهم القِتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ خَشْيَةً وقالوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ علينا القِتالَ لولا أخَّرْتَنَا إلى أجلٍ قريبٍ ﴾

أخرِجُوا أيدِيَكُم عن أمورِكم ، وكِلُوها إلى معبودكم .

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والتصرف فيه .

ويقال امتَنِعُوا عن الشهوات .

ويقال « كُفُّوا أيديكم » إلا عن رَفْعِها إلى الله فى السؤال بوصف الابتهال .

---

(١) وردت (المحجة) بالحاء وهذا خطأ فى النسخ وصوابها (المهجة) لملاءمتها للسياق .

فلمَّا كتب عليهم القتال استثقلوا أمرَه، واستعجلوا لطفَه. والعبودية فى تَرْكِ الاستثقال، ونفى الاستعجال، والتباعد عن التبرم والاستثقال.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ مَتاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لِمَنِ اتّقَى ولا تُظْلَمُون فتيلاً ﴾

مَكَّنَكَ من الدنيا ثم قال: «قل متاع الدنيا قليل»، فلم يَعُدَّها شيئاً لك ثم لو تَصدَّقْتَ منها بِشِقِّ تمرةٍ لَتَخلَّصْتَ من النار، وحظيت بالجنة، وهذا غاية الكرم.

واستقلالُ الكثير من نفسك — لأجل حبيبك — أقوى أمارات صُحْبتك.

ويقال لما زَهَّدَهم فى الدنيا قلَّلَها فى أعينهم ليهون (عليها[1]) تركها.

ويقال قل متاعُ الدنيا بجملتها قليلٌ، والذى هو نصيبك منها أقلُّ من القليل، فمتى يناقشك لأجلها (بالتحليل)[2]، لو سَلِمَ عهدك من التبديل؟

وإذا كانت قيمة الدنيا قليلة فأخَسُّ من الخسيس مَنْ رَضِىَ بالخسيس بدلاً عن النفيس.

وقد اخْتَلَعَ المؤمن من الكون بالتدريج. فقال أولاً: «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير» (فأحفظهم)[3] عن الدنيا بالعقبى، ثم سلبهم عن الكونين بقوله: «والله خيرٌ وأبقى».

قوله جل ذكره: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدةٍ، وإن تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه مِنْ عندِ اللهِ وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا هذه مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عندِ الله فَمَا لِهؤلاءِ القومِ لا يكادون يَفْقَهُون حَديثاً ﴾

---

(١) الضمير فى (عليها) يعود على أعينهم، وربما كانت فى الأصل (عليهم) فيعود الضمير على الزهاد.

(٢) نرجح أنها فى الأصل (التحليل) إشارة إلى قوله (ص) حلالها حساب وحرامها عقاب.

(٣) نرجح أنها فى الأصل (فاختطفهم) عن الدنيا بالعقبى ثم سلبهم . . . فهذا أقرب إلى مراحل تدرج الفناء الصوفى.

للموت فرح للمؤمن ، فالخبرُ عن قُرْبه بِشارةٌ له ، لأنه سببٌ يوصله إلى الحق ، ومن أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه .

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فالاستسلام لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرها .

ثم أخبر أنهم — لضَعْفِ بصائرهم ومرض عقائدهم — إذا أصابتهم حَسَنَةٌ فَرِحُوا بها ، وأظهروا الشكر ، وإنْ أصابتهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العِرْقُ المجوسي[1] فأضافوه[2] إلى المخلوق ، فَرَدَّ عليهم وقال : قل لهم يا محمد كلٌّ من عند الله خلقاً وإبداعاً ، وانشاء واختراعا ، وتقديراً وتيسيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وما أصابك من سيئةٍ فَمِن نَّفْسِك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خَلْقاً[3]

قوله جل ذكره : ﴿ مَّن يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أطاعَ اللهَ ومَن تَوَلَّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾

هذه الآية تشير إلى الجَمْع لحال الرسول — صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه طاعته طاعتنا ، فمن تقرَّبَ منه تقرَّبَ منا ، ومقبولُه مقبولُنا ، ومردودُه مردودنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا مِن

---

(١) لعل القشيرى يقصد بذلك إلى أنهم بنسبتهم شيئاً لغير الله يشركون ، وينأون عن التوحيد .
(٢) أخطأ الناسخ فنقلها (فأذاقوه) فصوبناها بما يلائم السياق .
(٣) هذا تلخيص دقيق لرأى القشيرى فيما يصيب العباد .

عندِك بَيَّتَ طائفةٌ منهم غير الذى
تقولُ ، والله يكتب ما يُبَيِّتون ،
فَأعرِض عنهم ، وتوَكَّلْ على الله ،
وكفى بالله وكيلاً ﴾

يعنى إذا حضروك[1] استسلموا فى مشاهدتك ، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك ، فعادوا إلى ظلمات ، كما قالوا :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

قوله جل ذكره : ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآن ولو كان مِنْ
عِندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً * وإذا جاءهم أمرٌ مِنَ الأمنِ
أو الخوفِ أذاعوا به ولو ردُّوه
إلى الرسولِ وإلى أولى الأمرِ منهم
لعَلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم ،
ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمتُه
لاتَّبَعْتُمُ الشيطانَ إلا قليلاً ﴾

تديرُ إشارة المعانى بغوص الأفكار ، واستخراجُ جواهر المعانى بدقائق الاستنباط .

قوله : « وإذا جاءهم أمر . . . » : لمَّا كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم فأظهروا السرَّ بعضُهم لبعض . فأمَّا المؤمنون فعالِمُ أسرارِهم مولاهم ، وما يسنح لهم خَاطَبُوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السِّر لمخلوق ؛ فسامِعُ نجواهم اللهُ ، وعالِم خطابهم الله .

قوله تعالى : « ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم . . . . » أى لو بَثُّوا[2]

---

(١) أخطأ الناسخ فنقلها (حفروك) فصوبناها بما يلائم السياق .
(٢) كتبها الناسخ (ثبوا) فصوبناها بما يلائم السياق : (بثوا أسرارهم) .

أسرارهم عند من هو (. . . .)[1] ومَنْ هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكالَ ، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد[2] .

« ولولا فضل الله » مع أوليائه لهاموا فى كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم فى الوقت .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَاتِلْ فى سبيل اللهِ ، لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ المؤمنين ، عسى اللهُ أن يَكُفَّ بَأْسَ الذين كفروا واللهُ أشدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تنكيلاً ﴾

اِسْتَقِمْ معنا بتسليم الكُلِّ مِنْكَ إلى أمرنا ، فإنَّك — كما لا يقارنُكَ أحَدٌ فى رتبتك لعلوِّك على الكل — فنحن لا نكلِّف غيرك بمثل ما تكلفت ، ولا نُحَمِّل غيرك ما تحملت لانفرادك عن أشكالك فى القدوة[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نصيبٌ منها ، ومن يشفعْ شفاعةً سيئةً يكن له كِفْلٌ منها ، وكان اللهُ على كل شىء مُقِيتاً ﴾

الشفيع يخلِّص للمشفوع له حالَه . ويستوجب الشفيعُ — من الله سبحانه على شفاعته — عظيمَ الرتبة ، ومَنْ سعى فى أمرنا بالفساد تحمَّلَ الوِزْرَ واحتقب الاثم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحيةٍ فحيوا بأحْسَنَ

---

(١) مشتبهة ، وما بعدها قد يكفى عنها .

(٢) فى هذا الخصوص يحث القشيرى فى إحدى وصاياه على ألا يفضى المريد بذات نفسه إلا لأوباب الطريقة من الشيوخ ؛ إذ يقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب غير هذه الطريقة . فحجج أهلها — فى مسائلهم — أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والذى للناس غيب فهو لهم ظهور فهم من أهل الوصال ، والناس أهل استدلال الرسالة ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) لا نستبعد أيضاً أنها فى الأصل (القدرة) لتلائم التكليف والتحمل ؛ والمعنى يتقبل (القدوة) و (القدرة) .

منها أو ردُّوها إنَّ اللهَ كان على كلِّ
شيء حسيباً ﴾

تعليم لهم حُسْنَ العِشْرة وآداب الصحبة . وإن من حَيَّاكَ فضلاً صار ذلك — فى ذمتك — له قرضاً ، فإمَّا زِدْتَ على فِعله وإلاَّ فلا تنقص عن مثله .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم
القيامة لا ريب فيه وَمَنْ أَصْدَقُ
مِنَ اللهِ حديثاً ﴾

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتا ؛ فالنفى يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه ، والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفى فيما أثبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فِئَتَين واللهُ
أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدون
أن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، ومَن
يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ له سَبِيلاً ﴾

(. . . .)[1] العهد فيهم أنهم أعدائى ، لا ينالون مِنِّى فى الدنيا والعقبى رضائى ، وإنكم لا تُنْقِذون بهمكم من أقمته بقسمتى[2] فإن المدار على القِسَم دون (. . . .)[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا
فتكونون سَوَاء فلا تتخذوا منهم
أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله
فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث
وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا
ولا نصيراً * إلا الذين يَصِلون

---

(١) مشتبهة .

(٢) أى ما قسمته له فى سابق الآزال لا قدرة لمخلوق على تغييره .

(٣) سقطت كلمة من الناسخ ربما كانت (الاحتيال) وربما كانت (الهمم) فكلاهما يفيد أنه لا منجاة لإنسان بعمله وحده بل المدار على القسمة .

إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حَصِرتْ صُدُورُهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومَهم ولو شاء اللهُ لَسَلَّطَهُم عليكم فَلَقَاتَلُوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم ، وهيهات أن يكون لمناهم تحقيق ! وما دام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالِفوهم ولا تطابقوهم بحال ، ولا تعاشروهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً ؛ وموافِقٌ لك فى قصدك خيرٌ لك من مخالفٍ على الكره تعاشره .

قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم . . . . » الإشارة من هذه الآية أن عند الاعذار أذِن فى معاشرة فى الظاهر[1] رفقاً بالمستضعفين .

« فإن اعتزلوكم . . » الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين فى أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقتكم وسلِّموا لهم أحوالهم . فإن أمكنكم أن تلاحظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم[2] وإلا فسلِّموا لهم أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ستجدون آخَرِين يريدون أن يأمَنوكم ويأمَنُوا قومَهم كلَّما رُدُّوا إلى الفِتْنةِ أُرْكِسُوا فيها فإن لم يَعْتَزِلوكم ويُلْقُوا إليكم السَّلَمَ ويكفوا أيْدِيَهم فَخُذُوهم واقتلوهم حيثُ

---

(١) أى أن الصحبة والمعاشرة ينبغى ألا يصل أمرها الى حد المساكنة ، لأن صحبة الحق أولى من كل غير . . . وهذا مبدأ نادى به القشيرى وطبقه على نفسه إبان محنته الأليمه .

(٢) وردت (همتهم) وهى خطأ من الناسخ لأن المعنى يتطلب (همتكم)

ثَقِفْتُمُوهم وأولئِكُمْ جعَلْنا لكم
عليهم سُلطاناً مُبِيناً ﴾

إن من رام الجمع بين الضدين خاب سَعْيُه ، ولم يرتفع عزمُه ، فكما لا يكون شخص واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقيما على أحكام أهل العادة . فإن الإرادة والعادة ضدان[1] ، والواجب مباينة الأضداد ، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لمؤمنٍ أن يَقْتُلَ مُؤمِناً
إلا خطأً ومن قَتَلَ مؤمِناً خطأً
فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ودِيَةٌ مُسلَّمَةٌ
إلى أهله إلاَّ أن يصَّدَّقوا فإن كان
مِن قومٍ عَدُوٍّ لكم وهو مؤمن
فتحرير رقبة مؤمِنة وإن كان من
قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فدِيَةٌ
مسلَّمَةٌ إلى أهله وتحرير رقبةٍ مؤمنة
فمن لم يَجِدْ فصيامُ شهرين متتابعين
توبةً منَ اللهِ وكان اللهُ عليما حكيما ﴾.

خفف أَمْرَ الخطأ على فاعله حتى حَمَّلَ موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛ فالخواص عاقلة المستضعفين من الأمة ، وأهل المعرفة عاقلة المريدين ، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسبيلُهم أن يحْمِلوا أثقال المستضعفين فيما ينوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يَقتُل مؤمناً مُتعمِّداً فجزاؤه
جَهَنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عليه
ولَعَنَه وأعَدَّ له عذاباً عظيما ﴾.

كما يُحرَّم قتلُ غيرك عليك يحرَّمُ قتلُ نفسك عليك ، ومن اتَّبعَ هواه سعى فى دَمِ نفسه ، ومن لم ينصح مريداً بحسنِ وعظِه ولم يُعِنْه بهمته فقد سعى فى دمِه ، وهو مأخوذ بحاله

(١) الناس — عند القشيرى — إما أهل العادة أو أهل الإرادة .

وخليق[1] بأن تكون له عقوبة الأذية بألا يتمتع بما ضنّ به على المريدين من أحواله : ولقد قال — سبحانه — : ياداود إذا رأيت لى طالباً فكن له (خادماً)[2]

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا[3] إذا ضَرَبْتُمْ فى سبيل اللهِ فَتَبَيَّنُوا ولا تقولوا لِمَنْ أَلْقَى إليكم السَّلامَ لستَ مؤمِناً تبتغون عَرَضَ الحياةِ الدنيا فَعِندَ اللهِ مغانمُ كثيرة ، كذلك كنتمْ مِّن قبل فَمَنَّ اللهُ عليكم فَتَبَيَّنُوا إنَّ اللهَ كان بِمَا تعملون خبيراً ﴾ .

عَاشِرُوا الناسَ على ما يُظْهِرُون من أحوالهم ، ولا تَتَفَرَّسوا فيهم بالبطلان ؛ فإنَّ مُتَوَلِّىَ الأسرار اللهُ[4] . هذا إذا كان غرضٌ فاسدٌ يحملكم عليه من أحكام النَّفْس ، فأمَّا من كان نظرُه بالله ولم يَنْسَتِرْ عليه شىء فَلْيَحْفَظْ سِرَّ اللهِ فيما كوشِفَ به ، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لايستوى القاعِدون مِنَ المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهِدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفُسِهِمْ فَضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهِمْ على القاعدين درجة ، وكُلاً وَعَدَ اللهُ الحسنى ، وفَضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً *درجاتٍ

---

(١) وردت (وحقيقة بأن) وصوابها وحقيق بان ولكننا آثرنا (وخليق بأن) حتى يمتنع اللبس .
(٢) مشتبهة هنا ولكنها واضحة فى موضع سبق (انظر تفسير آية وأنبتها نباتاً حسناً ص ٢٣٧
(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها .
(٤) تدل هذه النظرة على سماحة الصوفية واتساع صدورهم ، فالأصل عندهم أن كل الناس طيبون ، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ، ونتقبل ظواهرهم تاركين أسرارهم للمولى سبحانه .

منه ومَغْفِرَةً ورحمةً وكان اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ .

الحقُّ سبحانه جمع جميع أوليائه فى أفضاله لكنه غايَرَ بينهم فى الدرجات ، فَمِنْ غنيٍّ ومن عبدٍ هو أغنى منه[1] ، ومِنْ كبيرٍ ومن هو أكبر منه ، هذه الكواكب دُرِّية ولكن القمرَ فوقها ، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها !

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهِمْ قالوا فيم كنتم قالوا كُنَّا مُسْتَضْعفِينَ فى الأرضِ قالوا ألم تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجِروا فيها فأولئك مأواهم جَهَنَّمُ وَساءَتْ مصيراً ﴾ .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجلُ وهو فى أسْرِ نَفْسِهِ وفى رِقِّ شهواته — ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظِلِّ قُربته ليتخلَّصَ مِنْ هوى نفسِهِ[2] إذ لا حجابَ بينك وبين هذا الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا المُسْتَضْعَفِين مِنَ الرجال والنِّساء والوِلدان لا يَستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عَسَى اللهُ أن يعفوَ عنهم وكان الله عَفُوًّا غفوراً ﴾

الإشارة منه إلى الذين مَلَكَتْهُم المعانى فأفنتهم عنهم ، فَبَقُوا مُصَرَّفِين له ، لا لهم حَوْلٌ ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجْرِيه — سبحانه — عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحقّ محوٌ عنهم ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا يتنفَّسُون لغيره نَفَساً .

---

(١) واضح أن القشيرى يقصد الغنى فى الأحوال لا الغنى فى الأموال فليس لهذه كبير قيمة .
(٢) وردت هكذا (هو انفسه) فصوبناها .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فعسى أن يتفضَّل الحقُّ — سبحانه — عليهم بالعفو .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً ، وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾

مَنْ هَاجَرَ فى الله عما سوى الله ، وصحح قَصْدَه إلى الله وَجَدَ فسحة فى عفوة الكَرَم ، ومقيلاً فى ذرى القبول ، وحياة وَسَعَةً فى كنف القرب .

والمهاجر — فى الحقيقة — من هجر نَفْسَه وهواه ، ولا يصحُّ ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، ومَنْ قَصَدَه ثم أدركه الأجلُ قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محطُّ روحه إلا أوطان قربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جُنَاحٌ أن تَقْصُرُوا مِنَ الصلاةِ إنْ خِفْتم أن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا إنَّ الكافرين كانوا لكم عدوًّا مُبِيناً﴾

القَصْرُ فى الصلاة سُنَّةٌ فى السفر ، وكان فى ابتداء الشرع عند الخوف[1] ، فأُقِرَّ ذلك مع زوال الخوف رفقاً بالعباد ، فلما دخل الفرضَ القَصرُ لأجل السفر عوضوا بإباحة النَّفْل فى السفر على الراحلة أينما توجهت به دابته من غير استقبال، فكذلك الماشى ؛ ليعلَمَ أنَّ الإذنَ

---

(١) لأن فى مبدا الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو فى سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله . . . ويرى ابن عمر أن هناك فرقاً بين صلاة السفر وصلاة الخوف ، وهو يحتج على قصر الصلاة فى السفر ويراه فى صلاة الخوف .
(تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٥٤٦) لابن كثير .

فى المناجاة مستديمٌ فى كل وقت ؛ فإنْ أردْتَ الدخول فمتى شئت ، وإن أردت التباعد مترخصاً فلك ما شئت ، وهذا غاية الكرم ، وحفظ سُنَّة الوفاء ، وتحقق معنى الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا كنتَ فيهم فأقمت لهم الصلاةَ
فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معك وَليأخذوا
أسلحتهم فإذا سجدوا فَلْيَكُونُوا
من ورائكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى
لم يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا معك وليأخذوا
حِذْرَهم وأسلحتَهم ، ودَّ الذين كفروا
لو تَغْفُلُون عَنْ أسلحتِكم وأمتعتكم
فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدةً ،
ولا جُناحَ عليكم إن كان بِكم أذًى
مِن مَطَرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا
أسلحتكم وخذوا حِذْرَكم إنَّ اللهَ
أعَدَّ للكافرين عذاباً مُهينا ﴾

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نَفَسٌ من الاختيار لا فى الخوف ولا فى الأمْن ، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة ، ولا عند استيلاء سلطان الحقيقة إذا كنتَ بعين الجمع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فإذا قضيتُمُ الصلاة فاذكروا الله قياماً
وقعوداً وعلى جُنوبكم فإذا اطمأننْتُمْ
فأقيموا الصلاة إنَّ الصلاة كانت
على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾

الوظائف الظاهرة مُوَقته[1] ، وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع ؛ أمَّا بالرسوم

---

(١) أى حسب ميقات .

فوقتاً دون وقت ، وأمّا بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال .. الذكرُ كيفما كنتم وكما كنتم ، وأما الصلاةُ فإذا اطمأننتم .

قوله جل ذكره : « ولا تهنُوا في ابتغاء القومِ إن تكونوا تَألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » :

قوموا بالله وليكن[1] استنادكم في جهادكم إلى الله .

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون » : القومُ شاركوكم في إحساس الألم ، ولكن خالفوكم في شهود القلب ، وأنتم تشهدون مالا يشهدون ، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون ، فلا ينبغي أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ لتحكمَ بين الناسِ بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا * واستغفر[2] الله إن الله كان غفوراً رحيمًا » .

لم يأمرْك[3] بالحكم بينهم على عمًى ولكن بما أراك الله[4] أي كاشفك به من أنوار البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك ، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك .

قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » : أي لا تناضِل عن أرباب الحظوظ ولكن مع

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (ولا يكن) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها واستغفروا .

(٣) وردت (لم يأمركم) والصواب (لم يأمرك) لأن الخطاب كله موجه إلى الرسول (ص) .

(٤) يحتج من ذهب من علماء الأصول بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان له أن يحكم بالاجتهاد ، وفيما رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد عن رجلين من الأنصار اختصما إلى الرسول (ص) في مواريث بينهما قد درست وليس عندهما بينة . . ينتهي الحديث على النحو التالي .

« إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل عليَّ فيه » .

أبناء الحقوق ، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى ، ومَنْ رَكَنَ إلى أنواع نوزاع المنى خان فيما طولب به من الحياء لاطلاع المولى[1] .

« واستغفر الله » لأمتك ؛ فإنا قد كفيناك حديثك بقولنا : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تجادِلْ عن الذين يختانون أنفسَهم إن الله لا يحبُّ مَن كان خوّاناً أثيماً * يَسْتَخْفُون مِنَ النـاسِ ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى مِن القولِ وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ .

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه ، والراضون بالتعريج فى أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا ، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيذلهم — لا جَرَم — ولا يكرمهم .

قوله : « يستخفون من الناس » الغالب على قلوبهم رؤية الخلْق ولا يشعرون أنَّ الحق مُطَّلِـعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَ الله قلوبهم بوسم الفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فَمَن يجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامة أم مَّن يكون عليهم وكيلاً﴾ .

أىْ تدفع عنهم — بحرمتك — لأنك فيهم ، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون ؟!

---

(٣) (يقال إن سبب نزول هذه الآية أن رجلا شكا أن طعمة بن أبيرق سرق درعه ، فلما رأى السارق ذلك ألقى الدرع فى بيت رجل برىء ، وقال لنفر من عشيرته إنى غيبت الدرع فى بيت فلان ، فانطلقوا إلى النبى (ص) ليلا فقالوا : يا نبىَّ الله إن صاحبنا برىء . وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رءوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله (ص) فبراه وعذره على رءوس الناس ، فأنزل الله هذه الآية) وقد حرصنا على إثبات سبب نزولها لأن ما بعدها من الآى مرتبط بهذه الواقعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يعملْ سوءًا أو يظلِمْ نَفْسَهُ ثم يستغفر الله يَجِدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ .

« ثم » : حرفٌ يدل على التراخي ؛ أي يزجون[1] عمرهم في البطالات والمخالفات ثم في آخر أعمارهم يستغفرون الله .

وقوله « يجد الله » : الوجود غاية الحديث[2] ، والعاصي لا يطلب غير الغفران ، ولكن الله — سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله — إذا شاء ، فسُنَّتُهُ تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه.

قوله جل ذكره . ﴿ ومَن يكْسِبْ إثماً فإنَّما يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾ .

الحقُّ غنيٌّ عن طاعة المطيعين ، وزلة[3] العاصين ، فمن أطاع فحظُّه حَصَّلَ ، ومن عصى فحظه أخذ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن يكْسِبْ خطيئة أو إثماً ثم يَرْمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مُبيناً ﴾ .

من نسب إلى بريء ما هو صفته من المخازي عكس الله عليه الحال ، وألبس ذلك البريء ثواب محاسن راميه ، وسحب ذيل العفو على مساويه ، وقَلَبَ الحال على المتعدِّي بما يفضحه بين أشكاله ، في عامة أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فَضْلُ اللهِ عليكَ ورحمتُه

---

(١) وردت (يرجون) بالراء والصواب بالزاي

(٢) (التواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة ، وسمت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : التواجد يوجد استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر) الرسالة ص ٣٧ .

(٣) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون بالزاي لأن المناسب للسياق لفظ ضد الطاعة .

لَهَمَّتْ طائفة منهم أن يُضِلُّوك
وما يُضِلُّون إلا أنفُسَهُمْ وما يضرونك
من شيء وأنزل الله عليك الكتاب
والحكمة وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم
وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الفضلُ إحسانٌ غيرُ مستحق[1] ، والإشارةهنا — من الفضل — إلى عصمته إياه ، فالحقُّ — سبحانه — عَصَمَه تخصيصاً له بتلك العصمة ، وكما عصمه عن تَرْك حقه — سبحانه — عَصَمَه بأنْ كَفَّ عنه كَيْدَ خلْقِه فقال : « ولولا فضل الله عليك ورحمته .. » الآية .

كلاَّ ، لن يكونَ لأحدٍ سبيلُ إلى إضلالك فأنت فى قبضة العزة ، وما يُضِلُّون إلا أنفسهم ، وما يضرونك بشيء ، إذ المحفوظ منا محروس عن كل غير ، وإنَّ الله سبحانه قد اختصك بإنزال الكتاب ، واستخلصك بوجوه الاختصاص والإيجاب،وعلَّمك ما لم تكن تعلم ، ولم يمن عليك بشيء بمثل ما مَنَّ به على من خصَّه به من العلم . ويحتمل أنه أراد به علمه — صلى الله عليه — بالله بجلاله ، وعلمه بعبودية نَفْسه ، ومقدار حاله فى استحقاق عِزِّه وجماله .

ويقال علَّمك ما لم تكن تعلم من آداب الخدمة إذ لم تكن ملتبساً عليك معرفة الحقيقة .
ويقال أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحدٍ نور إلا مُقْتَبَساً مِنْ نورِك ، ومَنْ لم يمش تحت رايتك لا يصل إلى جميع بِرِّنا ، ولا يحظى بقربنا وَوَصْلنا .

« وكان فضل الله عليك عظيماً » : فى الآباد ، أنَّكَ كنت — لنا بشرف العز وكرم الربوبية فى الآزال — معلوماً . ويقال وعلَّمك ما لم تكن تعلم من عُلُوِّ رُتْبَتِكَ على الكافة .
ويقال « علَّمك ما لم تكن تعلم » أنَّ أحَداً لا يُقَدِّرُ قَدْرَنا إلا بمقدار مُوافَقَتِه لأمْرِنا قوله جل ذكره : ﴿ لَّا خَيْرَ فى كثيرٍ مِّنْ نَّجواهم

---

(١) لأن الفضل معناه الزيادة ، فربما يرمى القشيرى إلى أنه غير مستحق بسبب ذلك ؛ لأنه يفوق المستحق

إلا مَنْ أمَرَ بصَدَقَةٍ أو معروفٍ
أو إصلاحٍ بين الناس ومَن يفعلْ
ذلك ابتغاء مَرضَاتِ اللهِ فسوف
نُؤتيه أجراً عظيماً ﴾

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتعدى صاحبَه إلى غيره ؛ ففضيلة الصَدَقَة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه ، والفُتُوةُ أن يكون سعيك لغيرك ، ففى الخبر : «شَرُّ الناسِ مَنْ أكَلَ وَحدَه» وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة .

قال صلى الله عليه وسلم فى قَصْرِ الصلاة فى السفر : « هذه صدقة تصدَّقها الله عليكم فاقبلوا صَدَقَتَهُ »[1]

والصدقة على أقسام : صدقتك على نفسك ، وصدقتك على غيرك ؛ فأمَّا صدقتك (على نفسك فحَمْلُها على أداء حقوقه تعالى ، ومَنْعُها عن مخالفة أمره ، وقَصرُ يدها عن أذية الخَلْق ، وصَوْنُ خواطرها وعقائدها عن السوء . وأمَّا صدقتك)[2] على الغير فصَدَقةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن .

فصدقة بالمال بإنفاق النعمة ، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة ، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد الهمة .

والصدقة على الفقراء ظاهرة لا إشكالَ فيها ، أمَّا الصدقةُ على الأغنياء فتكون بأن تجود عليهم بهم ، فتقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم .

وأمّا المعروف : فكلُّ حَسَنٍ فى الشرع فهو معروف ، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما لهم فيه قربة إلى الله ، وزلفى عنده ، وإعلاء النواصى بالطاعة .

---

(١) هكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث ابن جريج عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وقال على بن المدينى هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر بن الخطاب ، ولا يحفظ الا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

(٢) ما بين القوسين استدراك فى الهامش وضعناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

ومن تصدَّق بنفسه على طاعة ربه، وتصدَّق بقلبه على الرضا بحكمه، ولم يخرج بالانتقام لنفسه، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه، وأصلح بين الناس بصِدْقه فى حاله — فإنَّ لسانَ فعله أبلغ فى الوعظ من لسان نطقه، فهو الصِّدِّيق فى وقته. ومن لم يؤدِّبْ نَفْسَه لم يتأدبْ به غيرُه، وكذلك من لم يهذِّبْ حالَه لم يتهذَّبْ به غيره.

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » غيرَ سائلٍ به مالاً أوحائزٍ لنفسه به حالاً فمن قريب يبلغ رتبة الإمامة فى طريق الله، وهذا هو الأجر الموعود فى هذه الآية (١).

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرسولَ من بعد ما تَبَيَّنَ له الهُدَى ويتَّبِعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصلِه جَهنَّمَ وساءت مصيراً ﴾

خواطر الحق سفراؤه تعالى إلى العبد، فمن خالَفَ إشاراتِ ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب، ومنها أنْ يَعْمَى عن إبصار رشده. وكما أن مخالفَ الإجماع عن الدين خارجٌ فمخالِفُ ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق — ساقط.

قوله جل ذكره: ﴿ إنَّ الله لا يَغفِر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لِمَن يشاء ومَن يُشْرِكْ بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً * إن يدعون مِن دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مريداً * لَعَنَهُ اللهُ وقال لأتخذنَّ مِنْ عبادك نصيباً مفروضاً * ولأُضِلَّنَّهم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرَنَّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام ولآمُرَنَّهم فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ،

---

(١) نلاحظ فى هذه الفقرة أن القشيرى يوجه — بطريق غير مباشر — لومه إلى بعض الوعاظ المحترفين الذين ظهروا فى عصره وقبل عصره.

ومَن يتَّخذِ الشيطانَ وَلياً مِّن دون
الله فقَدْ خَسِرَ خُسراناً مبيناً ﴾

قوله «إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به» : إثبات الغير فى توهم ذرة من الإبداع عين الشِرْك ، فلا للعفو فيه مساغ . وما دون الشرك فللعفو فيه مساغ ، ومن توسَّل إليه سبحانه بما توهَّم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم . كلاّ ، بل هو الله الواحد .

قوله : « إنْ يدعون من دونه إلا إناثاً » : أوقعوا على الجماداتِ تسمياتٍ[1] ، وانخرطوا فى سلك التوهم ، وركنوا إلى مغاليط الحسبان ، فَضَلُّوا عن الحقيقة .

« وإن يدعون إلا شيطانا مَريداً لَعَنَهُ الله » ، أى ما يدعون إلا إبليس الذى أبعده الحقُّ عن رحمته ، وأسحقه[2] بِبُعده ، وما إبليس إلا مُقَلَّبٌ فى القبضة على ما يريده المنشئ ، ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكا فى الإلهية . كلاّ ، إنما يُجرِى الحقُّ — سبحانه — على الخلْقِ أحوالاً ، ويخلق[3] عقيب وساوسه للخلق ضلالا ، فهو الهادى والمُضِل ، وهو — سبحانه — المُصَرِّفُ للكل ، فيخلق (. . . .)[4] فى قلوبهم عُقَيْبَ وساوسه إليهم طول الآمال ، ويُحَسِّن فى أعينهم قبيح الأعمال ، ثم لا يجعل لأمانيِّهم تحقيقاً ، ولا يعقب لما أمَّلُوه تصديقاً ، فهو تعالى مُوجِد تلك الآثار جملةً ، ويضيفها إلى الشيطان مرةً ، وإلى الكافر مرة ، وهذا معنى قوله : « ولأضلنهم ولأمنينهم » . . . الآية ومعنى قوله تعالى « يعدهم ويمنيهم »

قوله جل ذكره : ﴿ يَعِدُهم ويُمَنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطان
إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنَّمُ
ولا يجِدون عنها محيصاً ﴾

---

(١) واضح من كلام القشيرى أنه يفهم الإناث على أنها الأوثان ، وهكذا عن عائشة . وروى عن بعض الصحابة أنها الملائكة إشارة إلى قوله تعالى فى موضع آخر (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) . وعن الحسن : الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح .

(٢) فى النسخة ص (استحقه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) يؤكد القشيرى نسبة خلق كل شىء لله ، وتجريد الشيطان من كل سلطان .

(٤) مشتبهة .

الذين قسم لهم الضلالة فى الحال حكم عليهم بالعقوبة فى المآل[1] ، ولولا أنه أظهر ما أظهر بقدرته وإلا متى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها ؟! والوقوفُ على صدق التوحيد عزيزٌ ، وأربابُ التوحيد قليلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبداً وَعْدَ اللهِ حقاً وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾

الذين أسعدناهم حكماً وقَوْلا ، أنجدناهم حين أوجدناهم كرما وطَوْلا ، ثم إنَّا نُحققُ لهم الموعودَ من الثواب ، بما نُكْرِمُهم به من حسن المآب .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس بِأَمانِيِّكم ولا أَمَانىِّ أهلِ الكتابِ مَن يعملْ سوءا يُجْزَ بهِ ولا يَجِدْ لهُ من دونِ اللهِ وليّاً ولا نصيرا * ومَن يعملْ مِنَ الصالحاتِ مِن ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمِنٌ فأولئك يدخلون الجنَّةَ ولا يُظْلَمون نَقيراً ﴾

مَنْ زَرَعَ الحنظل لم يجْتنِ الورد والعبهر[2] ، ومن شرب السُّمَّ الزُّعاف لم يجد طعم العسل ، كذلك مَنْ ضيَّعَ حقَّ الخدمةِ لم يستمكِنْ على بساط القربة ، ومَنْ وُسِمَ بالشقْوة لم يُرْزَقْ الصفوة ، وَمَنْ نَفَتْهُ القضية[3] فلا ناصرَ له من البَرِيَّة .

قوله : « ومن يعمل من الصالحات . . . . » الآية . مَنْ تَعَنَّى فى خدمتنا لم يبق عن نَيْلِ

---

(١) وردت (المال) وصوابها (المآل) .
(٢) العبهر ـ الياسمين وقيل النرجس (لسان العرب جـ ٢٠ ص ٥٣٦) ط بيروت .
(٣) القضية مقصود بها القضاء ، قضاء الله .

نعمتنا ، بل من أغنيناه[1] فى طلبنا أكرمناه بوجودنا ، بل من جرّعناه كأسَ اشتياقنا أنلناه أُنْسَ لقائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أحسنُ ديناً مِمَّنْ أسلم وجهه لله وهو محسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ ابرهيم حنيفاً واتَّخذَ اللهُ ابرهيمَ خليلاً * ولله ما فى السموٰات وما فى الأرضِ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾

لا أحدَ أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله ؛ يعنى أفرد قصده إلى الله ، وأخلص عقده لله عما سوى الله ، ثم استسلم فى عموم أحواله لله بالله ، ولم يدَّخِرْ شيئاً عن الله ؛ لا من ماله ولا من جَسَدِه ، ولا من روحه ولا من جَلَدِه ، ولا من أهله ولا من وَلَدِه ، وكذلك كان حال ابرهيم عليه السلام .

وقوله « وهو محسن » : الإحسان — بشهادة الشرع — أن تعبد الله كأنَّك تراه ، ولا بد للعبد من بقية[2] من عين الفرق حتى يصحّ قيامه بحقوقه — سبحانه — لأنه إذا حصل (مستوفى)[3] بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه ، وهذا اتِّباع ابرهيم عليه السلام الحنيف الذى لم يبق منه شىء على وصف الدوام .

وقوله « واتخذ الله ابراهيم خليلاً » : جرَّد الحديث عن كل سعى وكدٍ وطلبٍ وجهدٍ حيث قال : « واتخذ الله ابراهيم خليلاً » فعُلِمَ أنّ الخلّة لُبسةٌ يُلْبِسها الحقُّ لا صفةٌ يكتسبها العبد .

---

(١) ربما كانت (عنيناه) بالعين أى من احتمل العناء فى سبيلنا لتلائم (جرعناه كأس) أما (أغنيناه) بالغين فيكون معناها أوجدنا فيه الفناء عما سوانا .

(٢) أى لابد أن يرد إلى الفرق الثانى حتى يستطيع أن يقوم بالفرائض الواجبة عليه فى أوقاتها .

(٣) هكذا جاءت فى النسخة ص وربما كانت فى الأصل (مساس) بالحقيقة ، فنحن نعرف عن مذهب القشيرى فى هذا الخصوص أن العبد ينبغى أن يحافظ على الشريعة مهما كانت الظروف ، وأى مساس بالشريعة بدعوى الاصطلام أو الفناء — فردود ، وهو آية تقص فى صدق صاحبه .

ويقال الخليل المحتاج[1] بالكلية إلى الحق فى كل نَفَسٍ ليس له شىء منه بل هو بالله لله فى جميع أنفاسه وأحواله ، اشتقاقاً من الخُلَّة (التى هى الخَصَاصَة وهى الحاجة)[2] .

ويقال إنه من الخلة التى هى المحبة ، والخلة أن تباشِر المحبةُ جميعَ أجزائه ، وتتخلل سِرَّه حتى لا يكون فيه مساغ للغير .

فلمَّا صَفَّاه الله — سبحانه — (عليه السلام) عنه ، وأخلاه منه نَصَبَهُ للقيام بحقه بعد امتحانه[3] عن كل شىءٍ ليس الله سبحانه.

ثم قال : « وأَذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً . . . . »[4] : لا يلبى الحاج إلا لله ، وهذه إشارة إلى جمع الجمع[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَستفتونك فى النِّسَاءِ قلِ اللهُ يُفْتيكم فيهنّ وما يُتْلَى عليكم فى الكِتاب فى يتامى النِّساء اللَّاتِى لا تؤتونَهنّ ما كُتِبَ لَهُن وترغبون أن تنكحوهن والمستضْعَفِين مِن الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقِسْط وما تفعلوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله كان به عليماً ﴾

نهاهم عن الطمع الذى يحملهم على الحيف والظلم على المستضعفين من النِّسْوان واليتامى ، وبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم اللهُ ، فَمَنْ راقب اللهَ فيهم لم يخسرْ على الله بل يجد جميل الجزاء ، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليمَ البلاء .

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى محاولة فريق من المعتزلة صرف الخلة عن كل ما يتطرق إليها من دلالة حسية ، والتماسهم ذلك فى الشعر القديم وقد نبهنا إلى ذلك فى هامش سبق .

(٢) هذه العبارة مكررة خطأ من الناسخ .

(٣) وردت (بعد امتحانه) بالنون وقد صوبناها إلى (امتحائه) أى بعد وصوله إلى المحو .

(٤) آية ٢٧ سورة الحج

(٥) وردت (جميع الجمع) والصواب (جمع الجمع)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً
أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن
يُصْلِحا بينهما صُلحاً ، والصُّلحُ
خَيْرٌ ، وأُحْضِرَت الأَنْفُسُ الشُّحَّ ،
وإن تُحْسِنُوا وتتقوا فإنَّ اللهَ كان
بما تعملون خبيراً ﴾

صحبة الخلْق بعضهم مع بعض إنْ تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة ، وممازجة النفرة والسآمة . فمَنْ أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلْقُ عن مراعاة حقه ، وخرج الكافة عليه باستصغار أمره واستحقار قَدْره . ومَنْ رجع إلى الله بقلبه ، استوى له — فى الجملة والتفصيل — أمرُه ، واتسع[1] لاحتمال ما يستقبل من سوء خُلُقِ الخَلْق صدرُه فهو يسحب[2] ذيلَ العفو على هَنَاتِ جميعهم ، ويُؤْثِرُ الصلح بتركِ نصيبه وتسليم نصيبهم قال الله تعالى : « والصلح خير » .

واتضاعك فى نفسك عن منافرة مَنْ يخاصمك أجدى عليك ، وأحرى لك مِنْ تطاولِكَ على خصمك باغياً الانتقام ، وشهودِ مَالَكَ فى مزيّة المقام . وأكثر المنافقين فى أَسْرِ هذه المحنة .

قوله تعالى : « وأحضرت الأنفس الشح . . . » : وشُحُّ النَّفْس قيام العبد بحظِّه .

فلا محالة مَنْ حُجِبَ عن شهود الحق رُدَّ إلى شهود النَّفْس .

قوله تعالى : « وإن تحسنوا » : يعنى يكن ذلك خيراً لكم . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .

« وتتقوا » : يعنى عن رؤيتكم مقامَ أنفسكم ، وشهود قَدْرِكم ، يعنى وأنْ تروا ربَّكم ، وتفنوا برؤيته عن رؤية قدْرِكم .

---

(١) وردت (والتسع) وهى خطأ فى النسخ
(٢) وردت (ويستحب) وهى خطأ النسخ .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » : يعنى إذا فنيتم عنكم وعن عملكم ، فكفى بالله عليماً بعد فنائكم ، وكفى به موجِداً عقب امتحانكم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَن[2] تستطيعوا أن تعدِلوا بين النساءِ ولو حرصتم ، فلا تميلوا كُلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقَةِ وإن تُصْلِحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ﴾

يعنى أنكم إذا (. . . .)[3] فى أموركم انعكس الحال عليكم ، وانعكس صلاح ذات بينكم فساداً لكم ، فإذا قمتم بالله فى أموركم استوى العيشُ لكم ، وصفا عن الكدر وقتكم . ويقال مَنْ حَكَمَ الله بنقصان عقله فى حاله[4] فلا تقتدرون أن تجبروا نقصانهم بكفايتكم .

قوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل » : يعنى لا تزيغوا عن نهج الأمر . قِفوا حيثما وُقفتم ، وأنفذوا فيما أُمِرْتُم .

وقوله : « فتذروها كالمعلقة » يعنى أنكم إذا منعتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتم بهن من الوجهين ؛ لا منكم نصيب ، ولا إلى غيركم سبيل ، وإن هذا الحيف عظيم . والإشارة[5] من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فتَحَ — سبحانه — عليك شهود حقه ، ووجود لطفه ؛ فإنَّ من كان فى الله تلَفُهُ فالحق — سبحانه — خَلَفُهُ ، وإنْ تُصْلِحوا ما بينكم وبين الخَلْق ، وتتقوا فيما بينكم وبين الحق فإن الله غفور لعيوبكم ، رحيم بالعفو عن ذنوبكم .

---

(١) وردت (امتحانكم) وهى خطأ فى النسخ فالامتحاء يرادف الفناء .

(٢) وردت (وان) وهى خطأ في النسخ .

(٣) مشتبهة ، ونرجح أنها كلمة تساوى فى المعنى (قمتم بأنفسكم) لتقابل ما جاء بعد (فإذا قمتم بالله) .

(٤) يشير القشيرى بذلك الى النساء .

(٥) أسلوب القشيرى في هذه الإشارة فى حاجة منا الى وعى وتيقظ ، فالحظوظ للعبد ، والحقوق للحق ، والشهود للحق والوجود يكون للطف . والمغفرة — بمعنى التغطية — تكون للعيب ، والعفو — الإزالة — يكون للذنب ؛ والعيب قديبقى مغطى ولكن الذنب يزول .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِن سَعَتِه وكان الله واسِعاً حكيماً ﴾ .

الصحبة التى لابُدَّ منها صحبةُ القلب مع دوام افتقارٍ إلى الله ؛ إذ الحقُّ لابُدَّ منه . فأمَّا الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر ، وذلك فى ظنون أصحاب التفرقة ، فأمَّا أهل التحقيق فلا تجربة لهم أن حاجةَ الخلْق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مافى السموٰات وما فى الأرضِ ولقد وصَّينا الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم وإياكم أنِ اتقوا الله ، وإن تكفروا فإنَّ لِلهِ مافى السموٰات وما فى الأرضِ وكان الله غنياً حميداً ﴾ .

كلَّف الكافة بالرجوع إليه ، ومجانبة مَنْ سِواه ، والوقوف على أمره ، ولكن فريقاً وُفِّق وفريقًا خُذِل . ثم عَرَّفَ أهلَ التحقيق أنه غَنِيٌّ عن طاعة كلِّ ولىٍّ ، وبرىء عن[1] زلة[2] كل غوى .

قوله جل ذكره : ﴿ ولِلهِ مَافى السموٰاتِ وما فى الأرض وكَفَى باللهِ وَكيلًا ﴾ .

قَطَعَ الأسرار عن التَّعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفراده بمُلْكِ مافى السموٰات والأرض ، ثم أطمعهم فى حسن تولِّيه ، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله : « وكفى بالله وكيلا » يصلح يملك حالك ولا يختزل مالك .

قوله جل ذكره : ﴿ إن يَشَأْ يُذهِبْكُم أيُّها الناسُ ويأتِ بآخَرِين وكان اللهُ على ذلك قديراً ﴾ .

---

(١) قبل (عن) واو زائدة فحذفناها

(٢) وردت (ذلة) بالدال والصواب أن تكون هنا بالزاى .

من استغنى عنه فى آزاله فلا حاجة له إليه فى آباده . ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغنى عنه فى نَفَسٍ .

ويقال لانهاية للمقدورات فإنْ لم يكن عمرو فَزَيْدٌ ، وإنْ لم يكن عبدٌ فعبيد ، والذى لا يَدَلَّ عنه ولا خَلَفَ فهو الواحد الأحد .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يريد ثوابَ الدنيا فَعِندَ اللهِ ثوابُ الدنيا والآخِرة وكانَ اللهُ سميعًا بصيراً ﴾ .

لمّا علّقوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكَّرهم حديث الآخرة ، فقال « فعندالله ثواب الدنيا والآخرة » تعريفًا لهم أنَّ فوق هممهم من هذه الخسيسة[1] ماهو أعلى منها من نعيم الآخرة ، فلمَّا سَمَتْ إلى الآخرة قصودُهم قطعهم عن كل مرسوم[2] ومخلوق بقوله : « والله خير وأبقى »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسْطِ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوىٰ أن تعدِلوا وإن تلووا أو تُعرِضوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

---

(١) يقصد الدنيا بهذا الوصف

(٢) الرسم ــ كما يقول أبو نصر السراج فى لمعه ــ هو ما رسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق فيمتحى بإظهار سلطان الحق عليه .

سئل الجنيد عن رجل غاب اسمه وذهب وصفه وامتحى رسمه فقال : نعم عند مشاهدته قيام الحق له بنفسه لنفسه فى ملكه ، فيكون ذلك معنى قوله امتحى رسومه يعنى علمه وفعله المضاف إليه بنظره إلى قيام الله له فى قيامه (اللمع ص ٤٢٧) .

(٣) آية ٧٣ سورة طه

القسط العدل ، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفساك ، واستيفاء حقوقه مِنْ كلِّ مَنْ هو لكَ عليه أمر ، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إمَّا أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق .

ومَنْ بقى لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره لله .

وأصل الدِّين[1] إيثار حق الحق على حق الخلق ، فمن آثر على الله — سبحانه أحداً إمَّا والداً أو أمًّا أو وَلَدًا أو قريباً أو نسيباً ، أو ادَّخر عنه نصيبًا فهو بمعزل عن القيام بالقسط .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمَنُوا آمِنوا بالله ورسوله والكتابِ الذى نَزَّل على رسوله والكتابِ الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾ .

يأيها الذين آمَنوا من حيث البرهان آمِنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان .

ويقال يأيها الذين آمَنوا تصديقاً آمِنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم .

ويقال يأيها الذين آمنوا فى الحال آمِنوا باستدامة الإيمان إلى المآل[2]

ويقال يأيها الذين آمَنوا آمِنوا وراء كل وصل وفصل[3] ووجد وفقد .

---

(١) بهذا نستطيع أن نجد صلة رحم بين لفظتى (الدِّين) و (الدَّين) إذ يكون لكل منهما ارتباط — على نحو ما — بالحق وصاحب الحق .

(٢) وردت (المال) وهى خطأ فى النسخ ، فالمقصود بالحال : الدنيا ، والمآل : العقبى

(٣) الوصل مختاه لحوق الغائب . وقال يحيى بن معاذ : « من لم يعمِّ عينيه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصل الى ما فوق العرش » . يعنى لم يلحق ما فاته من مراقبة الذى خلق العرش . وقال الشبلى : من زعم أنه واصل فليس له حاصل .

والفصل فوت الشىء المرجو من المحبوب .

قال بعضهم فرح الاتصال ممزوج بترح الانفصال (اللمع ص ٤٣٣)

ويقال يأيها الذين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنخنم بعقوة الوصول ، واستمكنت منكم حيره البديهة[1] وغلبات الذهول[2] ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذى كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات[3] فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد ، ووصل وفصل .

قوله جل ذكره : ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثم ازدادوا كفراً لم يكنِ اللهُ ليغفر لهم ولا ليَهْدِيَهم سبيلا * بَشِّر المنافقين بأنّ لهم عَذاباً أليما ﴾ .

الذين تبدَّلَتْ بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم ، أولئك الذين قصمتهم[4] سطوة العزة حكماً ، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً — فالحقُّ سبحانه لا يهديهم لقصد ، ولا يدلهم على رشد ، فبَشِّرْهم بالفُرْقة الأبدية ، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ لله جميعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عليكم فى الكتابِ أنْ إذا سَمِعْتُمْ آيات الله يُكْفَرُ بِها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديثٍ غيرِه ، إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ ،

---

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تاملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة ، وقال الواسطى : حيرة البديهة أجل من سكون التولى عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١) .

(٢) الغلبات عند قوة الرغبة والانفلات من دواعى الهوى والنفوس ، عند قوة رغبة الطالب اذا لاح له أعلام المزيد فى حال طلبه المطلوب ، فلوظن أن مطلوبه وراء بحر سبحه أو فى تيه سلكه بالهجوم عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧) .

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضلين والأدعياء ، أولئك الذين شن عليهم القشيرى هجومه العنيف فى مستهل « رسالته » والذين أساءوا إلى التصوف وأهله .

(٤) القصم : الكسر . حكى عن الزقاق أنه قال : لو أن المعاصى كانت شيئاً اخترته لنفى ما أحزننى ذلك لأن ذلك يشبهنى ، وإنما قصم ظهرى حين سبق لى منه ذلك . (اللمع ص ٤٣٤) .

إنَّ اللهَ جامِعُ المنافقين والكافرين
فى جهنَّم جميعاً ﴾ .

من اعتصم بمخلوقٍ فقد التجأ إلى غير مُجير ، واستند إلى غير كهف ، وسقط فى مهواة من الغلط بعيد قعرها ، شديد مكرها . أيبتغون العزَّ عند الذى أصابه ذلّ التكوين ؟! متى يكون له عزٌّ على التحقيق ؟ ومَنْ لا عزَّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدَّى إلى غيره ؟

ويقال لا ندرى أى حالتهم أقبح : طلب العز وهم فى ذل القهر وأسر القبضة أم حسبان ذلك وتوهمه من غير الله ؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشىء من غير وجهه فالإخفاق[1] غاية جهده ، ومن رام الغنى[2] فى مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كدِّه .

ويقال لو هُدُوا بوجدان العِزِّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهم إلى من ليس بيده شىء من الأمر .

قوله : « فإن العزَّةَ لله جميعًا » العزُّ على قسمين : عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفاً ، وعزٌّ حادثٌ يختص به سبحانه من يشاء فهو له — تعالى — مِلْكاً ومنه لطفاً[3] .

قوله « وقد نَزَّل عليكم فى الكتاب ..... » الآية : لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلماتِ أنفسِهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم مايَرِدُون من أنفاسهم ، فمن كان بوصفٍ ما متحققًا شاركه حاضروه فيه ؛ فجليسُ مَنْ هو فى أُنْسٍ مستأنِسٍ[4] ، وجليسُ من هو فى ظلمةٍ مستوحِش .

ويقال هجرانُ أعداءِ الحقِّ فرضٌ ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين ، والركون إلى أصحاب الغفلة قَرْعُ بابِ الفرقة

---

(١) وردت (الأحقاف) وهى خطأ فى النسخ إذ المقصود الخيبة والإخفاق .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها بالألف هكذا : (الغنا) .

(٣) يتساءل القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » تحت اسم « العزيز » : فإن قيل كيف الجمع بين قوله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » وقوله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ثم يجيب : لا تنافى بينهما فإن العز الذى للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى ملكا وخلقا ، وعزه — سبحانه وتعالى — له وصفاً ، فإذا العز كله لله تعالى .

(٤) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مستأنف) ولا معنى لها هنا والصواب (مستأنس) لتقابل (مستوحش)

قوله : « إنكم إذن مثلهم » : أوضحُ برهانٍ على سريرة (. . . .)[1] صحبة من يقارنه[2] وعِشْرة مَنْ يخادنه ؛ فالشكل مقيد بشكله ، والفرعُ منتشِرٌ عن أصله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتربصون بكم : فإن كان لكم فتحٌ مِنَ اللهِ قالوا ألم نكُن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألَمْ نستحوذ عليكم ونَمْنَعْكُم مِنَ المؤمنين ، فاللهُ يحْكُمُ بينكم يومَ القيامةِ ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾

لمَّا عَدِموا الإخلاص فى الحقيقة ، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة ، امتازوا[3] عن المسلمين فى الحُكْم ، وباينوا الكافرين فى الاسم ، وواجبٌ على أهل الحقِّ التحرُّزُ عنهم والتحفُّظ منهم ، ثم ضمن لهم — سبحانه — جميلَ الكفاية بقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »[4] وهذا على العموم ؛ فإن وبال كيدهم إليهم مصروف ، وجزاء مَكْرِهم عليهم موقوف ، والحقُّ — من قِبَلِ الحقِّ سبحانه — منصورٌ أهلُه ، والباطلُ — بنصر الحقِّ سبحانه — مُجْتَثٌّ أصلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن المنافقين يخادِعون اللهَ وهو خَادِعُهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءون الناسَ

---

(١) مشتبهة ولابد أنها كلمة بمعنى (المرء) أو (الشخص) . . . ونحوها

(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين .

(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة

(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة حين يحكم الله بينهم ، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة . ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصراً بالكلية ، ولكن قد يحصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة . (ابن كثير ص ٥٦٧)

ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مُذَبْذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وَمَن يُضلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ له سبيلاً ﴾

خداع المنافقين : إظهار الوفاق فى الطريقة واستشعار الشِرْك فى العقيدة .

وخداع الحق إياهم : ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ، فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذى ظنُّوه شراباً كان سرابا ، قال تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »[1] .

وقوله : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا . . . . » الآية : علامة النفاق وجود النشاط عند شهود الخَلْق ، وفتور العزم عند فوات رؤية الخَلْق .

وقوله : « مذبذبين بين ذلك . . . » الآية : أَخَسُّ الخَلْقِ من يَدَعُ[2] صدار العبودية ، ولم يجد سبيلاً إلى حقيقة الحرية[3] ، فلا له من العز شظية ، ولا فى الغفلة عيشة هنية .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء مِن دونِ المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا للهِ عليكم سلطاناً مُبيناً ﴾

---

(١) آية : ٤٧ سورة الزمر .

(٢) وردت (تدع) والصواب (يدع) لأن الكلام ليس خطابا ، ومعناها ترك .

(٣) حقيقة الحرية إشارة الى نهاية التحقق بالعبودية لله تعالى ، وهو ألا يملكك شىء من المكونات وغيرها ، فتكون حراً اذا كنت لله عبداً ، كما قال بشر الحافى لسرى السقطى رحمهما الله فيما حكى عنه أنه قال : إن الله تعالى خلقك حراً فكن كما خلقك ، لا تراءِ أهلك فى الحضر ، ولا رفقتك فى السفر ، اعمل لله ، ودع الناس عنك .

وقال الجنيد : آخر مقام العارف الحرية .

وقال بعضهم : لا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى الله مسترقا (اللمع ص ٤٥٠) .

كرَّر[1] عليهم الوعظ ، وأكَّد بمباينة الأعداء عليهم الأمر ، إبلاغاً فى الإنذار ، وتغليظاً فى الزجر ، وإلزاماً للحجة (. . . .)[2] موضع العذر .

قوله : « أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا » : توَعَّدَهم على موالاتهم للكفار بما لم يتوعَّد على غيره من المخالفات ، لما فيه من إيثار الغير على المعبود ؛ وإيثارُ الغير على المحبوب من أعظم الكبائر فى أحكام الوداد . فإذا شَغَلَ من قلبه محلاً — كان للمؤمنين — بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه — هو للحق — بالغير ؟ !

والعقوبة التى توَعَّدَهم بها أنْ يَكِلَهم وما اختاروه من موالاة الكفار ، وبئس البدل !

كذلك مَنْ بقى (عن)[3] الحق تركه مع الخَلْق ؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلْق ، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة .

قوله جل ذكره : « إنَّ المنافقين فى الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ولَن تَجِدَ لهم نصيراً » .

دلَّتْ الآية على أنَّ المنافق ليس بمُسْتأمنٍ لأنَّ الإيمان ما يوجب الأمان ، فالمؤمن يتخلَّص بإيمانه من النار ، فما يكون سبب وقوعه فى الدرك الأسفل من النار لايكون إيماناً ، ويقال هذا تحقيق قوله : « والله خير الماكرين » أى مَكْرُه فوق كل مَكْرٍ . لمَّا أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر[4] بكفره .

ويقال نقلهم[5] فى آجلهم[6] إلى أشد ما هم عليه فى عاجلهم ، لِمَا فى الخبر : « من كان

---

(١) نعرف من مذهب القشيرى أنه لا يميل إلى القول بالتكرار في القرآن الكريم ، ولعل أبسط نتائج هذا المذهب أنه لا يرى فى البسملة التى تأتى فى مستهل كل سورة بلفظها — أى شىء من التكرار ، بل هى عنده متجددة بما يتلاءم والسورة ، لأجل هذا تستوقفنا هنا كلمة : « كرر » ونتدبر الأسباب القوية التى أرجع إليها التكرار .

(٢) مشتبهة .

(٣) وردت (من) ولكن المعنى يرفضها قطعاً ويؤيد (عن) خصوصاً وقد جاءت (عن) فى العبارة التالية التى هى بمثابة نتيجة للجزء الأول من الكلام .

(٤) وردت (جاهد) بالدال والصواب ان تكون (جاهر) بالراء فالمعنى يقتضى ذلك .

(٥) وردت هكذا (نقلهم) بنقطة محذوفة فوق الحرف الأول ثم ثلاث نقط فوق القاف وربما أراد الناسخ أن يحذف النقطة الثالثة فأخطأ وحذف النقطة التى فوق النون .

(٦) وردت (أجلهم) والصواب (آجلهم) .

بحالةٍ لقى الله بها » فالمنافق — اليومَ — فى الدرك الأسفل من الحجر[1] فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار . والدرك الأسفل من الحجر — اليوم — لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة . ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب فى حال حضورهم بألسنتهم ، وسوء الأدبِ يوجِبُ الطردَ .

قوله جل ذكره ﴿إلاَّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينَهم للهِ فأولئك مَعَ المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجْرًا عظيماً﴾ .

لم يشترط كل هذه الشرائط فى رجوع أحدٍ عن جُرْمِهِ ما اشترط فى رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم فى كفرهم . وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم : «فأولئك مع المؤمنين » ولم يقل من المؤمنين ، وفى هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبتهم وإنْ تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آفتهم ، وفى معناه أنشدوا :

والعُذر مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة ، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين ، فالتوبة ههنا أى رجعوا عن نفاقهم ، وأصلحوا — بصدقهم فى إيمانهم ، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وشاهدوا المِنَّة لله عليهم حيث هداهم ، وعن نفاقهم نجَّاهم .

قوله : « وأخلصوا دينهم لله » : ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم فى الحال ، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال .

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله فى أن يثبتهم على الإيمان ، ويعصمهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق .

---

(١) نرجح أنها (الهجر) بالهاء ويتأيد ذلك بقوله فيما بعد (ليس لهم من الله شظية) .

ويقال تابوا عن النفاق ، وأصلحوا بالإخلاص فى الاعتقاد ، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله فى أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء — فى التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان اللهُ شاكِرًا عليماً ﴾ .

هذه الآية من الآيات التى توجب حُسْنَ الرجاء وقوة الأمل ، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين : الشكر والإيمان ، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان ؛ فإن الشكر قالة ، والإيمان حالة ، ولقد هوّن السبيل على العبد حين[1] رضى منه بقالته وحالته . والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأمّا الكافر فلا يصح منه الشكر ؛ لأن الشكر طاعة والطاعة لا تصح من غير المؤمن .

وقوله : « وآمنتم » يعنى فى المآل ؛ فكأنه بيّن أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان ، فمعنى الآية لايعذبكم الله عذاب التخليد[2] إن شكرتم فى الحال وآمنتم فى المآل .

ويقال إن شكرتم وآمنتم صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشكركم وبإيمانكم .

ويقال الشكر شهود النعمه من الله والإيمان رؤية الله فى النعمة ، فكأنه قال: إن شاهدتم النعمة من الله فلا يقطعنّكم شهودها عن شهود المُنْعِم

وقوله : « وكان الله شاكراً عليماً » أى والله شاكر عليم ، ومعنى كونه شاكراً أنه مادِحٌ للعبد ومُشْهِدٌ عليه فيما يفعله لأن حقيقةَ الشكر وحَدَّه الثناء على المُحْسِن بذكر إحسانه ؛ فالعبد يشكر الله أى يثنى عليه بذكر إحسانه إليه الذى هو نعمته عليه ، والربُّ يشكر للعبد أن يثنى عليه بذكر إحسانه الذى هو طاعته له ، فإن الله يثنى عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوباً كثيرة .

ويقال يشكره — وإنْ عَلِمَ أنه سيرجع فى المستأنف إلى قبيح أعماله .

---

(١) وردت (من) ونرجح أنها فى الأصل (حين)
(٢) وردت (التخليل) ونرجح أنها (التخليد) فهو وصف عذاب جهنم .

ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه ، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصى وقَصْدُه مخالفةُ ربِّه ولكنه يُذْنِبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبة .

ويقال يشكره لأن العبد يعلم فى حالة ذنوبه أن له ربًّا يغفر له .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ وكان اللهُ سميعاً عليماً ﴾

قول المظلوم فى ظالمه — على وجه الإذن له — ليس بسوء فى الحقيقة ، لكنه يصح وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى : « وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها »[1] والجزاء ليس بسيئة .

ويقال مَنْ عَلِمَ أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثيرٍ مما تدعو نفسه إليه .

ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تُحدِّثُ فى نفسك من مساءة الخلْق ؛ فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون فى أنفسهم[2] بما (يعد)[3] لا يُطالَب به كثيرٌ من العوام فيما يَسمعُ منهم الناس .

قوله : « إلاَّ مَنْ ظُلِمَ » : قيل ولا من ظُلِمَ . وقيل معناه ولكن مَنْ ظُلِمَ فله أنْ يذكرَ ظالمَه بالسوء[4] .

ويقال من لم يُؤْثِرْ مدحَ الحقِّ على القَدْحِ فى الخَلْقِ فهو المغبون فى الحال .

ويقال من طالَع الخلْقَ بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم ينبسط فيهم لسان اللوم ؛

---

(١) الآية ٤٠ سورة الشورى .

(٢) من ذلك ما يحكيه القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » عن الشبلى حيث يقول : « قال بعضهم كنت مع الشبلى — رحمه الله — ففتح له بمنديل حسن فمر بكلب ميت فقال لى : كفن هذا الكلب بهذا المنديل . وعدت إليه فقال لى فعلت ما أمرتك به؟ فقلت : لا . فلم يقل لى شيئاً فقلت له : ماسبب ذلك الذى أمرتنى به؟ فقال : عندما مررت به استقذرته واستقبحته ، فنوديت فى سرى : ألسنا نحن خلقناه ؟ فأمرتك بذلك كفارة لما خطر لى » .

(٣) ربما كانت هذه اللفظة (يعد) زائدة ، أو سقطت (لا) قبلها فيكون معنى (لا يعد) لا يحسب ولا يعتبر

(٤) عن ابن عباس : إن الله لا يحب أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له . وعن الحسن البصرى يكفى أن يقول المظلوم « اللهم أعنى عليه واستخرج حقى منه » وفى رواية عنه أنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه .

يقول الرجل لصاحبه : « أنا أحْتَمِل من (. . . .)[1] خدمتك حرمة لك مالا أحتمله من ولدى » ، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلْق فالعبد بمراعاة هذا الأدب — بينه وبين مولاه — أوْلى .

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام ، ولا يحب ذلك بخطوره[2] من الخواص .

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول فى صفة الله ما لم يَرِدْ به الإذن والتوفيق .

والجهر بالسوء من القول فى صفة الخلْق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه ، وتقول فى صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً ، وفى صفة الخلْق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان — وإن كنت فيه صادقاً .

قوله « وكان الله سميعاً علياً » : سميعاً لأقوالكم ، علياً بعيوبكم ، يعنى لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمثابتهم .

ويقال سميعاً لأقوالكم علياً ببراءةِ ساحةِ مَنْ تَقَوَّلْتُم عليه ، فيكون فيه تهديد للقائل — لبرىء الساحةِ — بما يتَقَوَّلُ عليه .

ويقال سميعاً : أيها الظالم ، علياً : أيها المظلوم ؛ تهديدٌ لهؤلاء وتبشيرٌ لهؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تُبْدُوا خيراً أو تُخْفُوه ، أو تَعْفُوا عن سوءٍ فإنَّ اللهَ كان عَفُوًّا قديراً ﴾

« إن تبدوا خيراً » تخلقاً بآداب الشريعة ، وتخفوه تحققاً بأحكام الحقيقة .

« أو تعفوا عن سوءٍ » أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخُلُق .

« فإن الله كان عَفُوّاً » لعيوبكم « قديراً » على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم .

ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسِنُّون وما تعينون غيركم على ما يُهَدُّون به من سلوك سُنَّتكم ، وإنْ تخفوه اكتفاء بعلمه ، وصيانة لنفوسكم عن آفات التصنُّع ، وثقةً

---

(١) مشتبهة .

(٢) أى (بأن يخطر عليهم خاطر) فعقوبة العوام على النطق والقول وعقوبة الخواص على (الخاطر)

بأن[1] من تعملون[2] له يرى ذلك ويعلمه منكم ، وإن تعفوا عن سوء أى تتركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم[3] فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون ، وهو قادر على أن يبتليكم بما ابتلى به الظالم ، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المِنَّة ، وتنبيهاً على أن يستعيذوا أن يُسلَبوا العصمة، وأنْ يُخْذَلُوا حتى يقعوا فى الفتنة والمحنة .

ويقال إنْ تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس ، أو تخفوه بأن تدعوا لهم فى السرّ ، أو تعفوا عن سوء إنْ ظُلِمْتُم .

ويقال من أحسن إليك فأبْدِ معه خيراً جهراً ، ومن كفاك شرَّه فأخلِصْ بالولاء والدعاء له سِرّاً ، ومن أساء إليك فاعفُ عنه كرماً وفضلاً ؛ تجِدْ من الله عفوَه عنك عما ارتكبتَ ، فإن ذنوبَك أكثرُ، وهو قادرٌ على أنْ يُعطيَك من الفضل والإنعام مالا تصل إليه بالانتصاف من خصمك ، وما تجده بالانتقام[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ورسله ويريدن أن يفرّقوا بين الله ورُسُلِه ويقولون نؤمِن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهِيناً ﴾

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذميم فعلهم ، ثم بيَّنَ أنه

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (باب)

(٢) مستدركة في الهامش (تعملون) لأنها فى المتن (تعلمون) والصواب ما جاء فى الهامش

(٣) إشارة القشيرى هنا فى حاجة منا إلى تدبر ، فهو يبدأ أولا بالنفس ، ثم ينتقل إلى الناس ، ذلك لأنه حسب ما نعرف عنه يعتبر صراعك مع نفسك هو الميدان الأول الذى ينبغى أن تحارب فيه أهواءك وأطماعك ودعواك ؛ هى أعدى أعدائك ، ثم تأتى من بعد ذلك علاقاتك خارج نفسك أى مع الناس

(٤) واضح من هذا مقدار ما يتمتع به الصوفية من رحابة الصدر ولين الجانب وسماحة الطبع .

ضاعف[1] من عذابهم ما كان جزاء جرمهم ، لِتَعْلَمَ أنه لأهل الفساد بالمرصاد .

قوله جل ذكره : ﴿والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ ولم يُفَرِّقوا بين أحَدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

لما آمنوا بجميع الرسل ، وصَدَّقوا فى جميع ما أُمِروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء . وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان ، فكما أنه لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (. . . .)[2] إلى آخر ما له — كذلك لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (من)[3] أُمِرَ بالإيمان به ؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله . فالإشارة فى هذا أن من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية ، قال صلى الله عليه وسلم : « الحجُّ عرفة »[4] فمن قطع المسافة — وإن كان من فج عميق — ثم بقى عن عرفات بأدنى بقية لم يُدْرِك الحج .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقى عليه درهم »[5]

قوله جل ذكره : ﴿ يسألك أهلُ الكتابِ أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً مِنَ السماءِ فقد سألوا موسى أكبر مِن ذلك فقالوا أرِنا

---

(١) وردت (أضعف) وهى خطأ من الناسخ ، ولابد أن تكون (ضاعف) العذاب لأن جزاء الكافرين عذاب مهين وهو الذل الدنيوى الموصول بالذل الأخروى .

(٢) مشتبهة .

(٣) نرجح أنها فى الأصل (ما) أمر بالإيمان به منعاً للبس ، ويمكن أن تقبل (من) على أنها مرتبطة بالرسل .

(٤) « الحج عرفه من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة فقد أدرك الحج أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه (الامام أحمد فى مسنده وأبو عدي فى الكامل والحاكم فى مستدركه والبيهقى فى السنن) ٢/٣٥٨ منتخب كنز العمال .

(٥) « المكاتب عبد ما بقى عليه من كتابته شىء » .

مفتاح كنوز السنة (مادة العتق) للدكتور ا . فنسنك ط لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، ومراجعه سنن أبى داود كتاب ٢٨ باب ١ وسنن ابن ماجه كتاب ١٩ باب ٣ وموطأ مالك كتاب ٣٩ ومسند أحمد جـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٨٤ .

اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم ثم اتخذوا العِجْلَ من بعد ما جاءتهم البَيِّنَاتُ فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه : أحدهما سؤالهم الرؤية والثانى عبادة العجل بعد ما ظهرت لهم الآيات الباهرة .

فأمّا سؤالهم الرؤية فَذَمُّوا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عذرهم بإقامة المعجزات ، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم، أو على موجب التصديق به، أو على ما تحملهم عليه شدة الاشتياق ، وكل ذلك سوء أدب .

الإشارة فيه أيضاً أنْ مَنْ يكتفى بأن يكون العجلُ معبودَه — متى — يسلم له أن يكون الحقُّ مشهودَه ؟

ويقال القومُ لم يباشِرْ العرفانُ أسرارَهم فلذلك عكفوا بعقولهم[1] على ما يليق بهم من محدودٍ جوّزوا أنْ يكون معبودَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾

حجةً ظاهرةً ، بل تفرداً صانَه من التمثيل والتعطيل .

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه .

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة .

---

(١) هذا كلام له أهمية قصوى فى تحديد مدى تقدير القشيرى لقيمة العقل .

فنحن نعرف من مذهبه فى المعرفة أن العقل يعول عليه فقط فى البداية ، يقول في رسالته ص ١٩٧ (تجب البداءة بتصحيح اعتقاد بين العبد وبين الله تعالى صاف عن الظنون والشبه خال من الضلال والبدع صادر عن البراهين والحجج) ولكن العقل بعدئذ غير جدير بمواصلة الصعود إلى ما هو أعلى من ذلك لأنه يصاب بآفات (التجويز والتحير والتوهم والتحدد) ويناط بغير العقل من الملكات الأخرى وهى القلب والروح والسر وعين السر أو سر السر أن تواصل الصعود نحو الذرى العليا . فما أشبه الذين يريدون تطبيق الوسائل العقلية على الربوبية بمن عبدوا العجل ! وعكفوا بعقولهم على المحدود !

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً ، وهو بقاؤهم فى حال لقائهم — قال صلى الله عليه وسلم : « لا تضامون فى رؤيته »[1] — فى خبر الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَفَعْنَا فَوْقَهم الطُّورَ بميثاقِهم وقلنا لهم ادخُلُوا البابَ سُجَّداً وقلنا لهم لا تَعْدُوا فى السَّبْتِ وأَخَذْنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾

ما زادهم فى الظاهر آيَةٌ إلا زادوا فى قلوبهم جحداً ونُكْراً ، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام ؛ لمَّا لم تنفتح لشهودها بصائرُ قلوبهم ، قال تعالى : « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِما نَقْضِهم ميثاقَهم وكُفْرِهم بآياتِ اللهِ وقَتْلِهِمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وقَوْلِهم قلوبُنَا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكُفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾

معناه لارتكابهم هذه المناهى ، ولا تصافهم بهذه المخازى ، أحللناهم منازل الهوان ، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لِحَقِّهِمْ شؤم المخالفات حالة بعد حالة ، لأن من عقوبات المعاصى الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهى ؛ فَبِنَقْضِهم الميثاق ، ثم لم يتوبوا ، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات ، ثم لشؤم كفرهم خذِلُوا حتى قتلوا أنبياءهم — عليهم السلام — بغير حقٍ ، ثم لشؤم ذلك تجاسروا حتى ادَّعوا شدةَ التفهُّم ، وقالوا : قلوبنا أوعية العلوم ، فَرَدَّ الله عليهم وقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم » فَحَجَبَهُمْ عن محلِّ العرفان ، فعمهوا فى ضلالتهم .

---

(١) « ... إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر »
البخارى كتاب ٩ باب ١٥ و ٢٦ وكتاب ٦٥ سورة ٤ مفتاح كنوز السنة ص ٥٧
(٢) آية ١٠١ سورة يونس

قوله جل ذكره : ﴿ وبكفرِهم وقَوْلِهم على مريم بهتانا عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبُوه ولكن شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لَهُم به مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ﴾

مجاوزةُ الحدِّ ضلالٌ ، كما أن النقصانَ والتقاصرَ عن الحقِّ ضلالٌ ، فقومٌ[1] تقوَّلُوا على مريم ورموها بالزنا ، وآخرون جاوزوا الحدَّ في تعظيمها فقالوا : ابنُها ابنُ الله ، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال .

ويقال مريم — رضى الله عنها — كانت وليَّةَ الله ، فَشَقِيَ بها فرقتان : أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه — سبحانه — فَمُنْكِرُهم يَشْقَى بِتركِ احترامهم ، والذين يعتقدون فيهم مالا يستوجبونه يَشْقَوْن بالزيادة في إعظامهم ، وعلى هذه الجملة دَرَجَ الأكثرون من الأكابر .

قوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه . . يقيناً بل رفعه الله » .

قوله تعالى : « وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم . . . . عزيزاً حكيما » قيل أوقع الله شَبَهَهُ[2] على الساعي به فقُتِلَ وصُلِبَ مكانَه ، وقد قيل : مَنْ حفر بئراً لأخيه وقع فيها[3]

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (فقوموا) .

(٢) وردت (شبهة) بالتاء المربوطة والصواب (شبه)

(٣) اختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه ، وكانوا اثني عشر رجلا (ذكر أسماءهم) ومنهم ليودس وكريا يوطا . ويقول ابن اسحق (نقلا عن رواية نصرانية) أن ليودس مقابل ثلاثين درهما هو الذي دل الأعداء على عيسى بأن قبَّلَه ساعة دخولهم فأخذوه فصلبوه . انتهت الرواية .

تعليق : هذه الرواية التي اعتمد عليها ابن اسحق تتفق مع ما جاء في الأناجيل الأربعة وليودس هذا هو يهوذا الاسخريوطي .

وقيل إن عيسى عليه السلام قال : مَنْ رَضِيَ بأن يُلقَى عليه شَبَهِى فيُقتلَ دونى فله الجنة ، فرضى به بعضُ أصحابه[1] ، فيقال لمَّا صبر على مقاساة التلف لم يعدِم من الله الخلف[2] ، قال الله تعالى : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »[3] .

ويقال لمَّا صَحَّتْ صحبةُ الرجل مع عيسى — عليه السلام — بِنَفْسِه صَحِبَهُ بروحه ، فلمَّا رُفِعَ عيسى — عليه السلام — إلى محل الزلفة ، رفع روح هذا الذى فداه بنفسه إلى محل القربة[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مِنْ أهلِ الكتاب إلا ليُؤْمِنَنَّ به قبل موتِه ، ويومَ القيامةِ يكون عليهم شهيدا ﴾

لما حكم بأن لا أمَانَ لهم فى وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان فى تلك الحالة ، فَعُلِمَ أنَّ العِبْرَةَ بأمان الحقِّ لا بإيمان العبد .

قال جل ذكره : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذين هادوا حَرَّمْنَا عليهم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لهم وبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً * وأَخْذِهم الرِّبَا وقد نُهُوا عنه وأَكْلِهم أموالَ الناسِ بالباطلِ ، وأَعْتَدْنَا للكافرين منهم عذاباً أليما ﴾

---

(١) عن ابن اسحق عن رجل كان نصرانياً وأسلم أنه ذكر له أن عيسى حين جاءه من الله إنى رافعك قال يا معشر الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيق فى الجنة حتى يشبه للقوم فى صورتى فيقتلوه فى مكانى فقال أحدهم واسمه سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس فى مجلسى فجلس فيه ، ورفع عيسى (عم) فدخلوا على سرجس وصلبوه .

وفى رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس اتفاق كبير مع ذلك دون ذكر اسم (سرجس) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ نقلها (الخلق) بالقاف .

(٣) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٤) فى تعبير القشيرى ذكاء ، ففى حالة عيسى قال (رفع) دون أن يحدد كيفية الرفع ، أبالجسد أم بالروح أم بهما معاً ، وفى حالة الثانى قال (رفع روحه) ، ونفهم — من حيث المصطلح — أن الزلفة أقوى من القربة.

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المُباحات .

فمَنْ ركب محظوراً بظاهره حُرِمَ[1] ما كان يجده من الأحوال المباحة ، والألطاف الحاصلة فى سرائره .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الراسخون فى العِلْم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاةَ ، والمؤمنون بالله واليوم الآخِر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾

الراسخ فى العلم هو ألا يكون فى الدليل مُقَلِّداً ، كما لا يكون فى الحكم مقلداً ، بل يضع النظر موضعه إلى أن ينتهى إلى حد لا يكون للشكّ فى عقله مساغ .

ويقال الراسخ فى العلم من يرتقى عن حد تأمل البرهان[2] ويصل إلى حقائق البيان .

ويقال الراسخ فى العلم أن يكون بعلمه عامِلاً حتى يفيد عمله علمَ ماخفى على غيره ، ففى الخبر : « من عمل بما علمه ورّثه الله علم مالم يعلم »[3] .

وخَصَّ « المقيمين الصلاة » فى الإعراب فنَصَبَ اللفظ بإضمار أعنى على المدح لِمَا للصلاة من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان فى أكثر المواضع فى القرآن ، ولأن الله

---

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (جرم) بالجيم والصواب أن تكون بالحاء لارتباطها بتحريم المباحات فيما سبق .

(٢) أى ينبغى ألا يكف الانسان على العقل وحده بل عليه أن يرتقى عن هذا الحد .
(راجع الهامش الذى يتناول هذه القضية من هذا الكتاب)

(٣) أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء عن أنس بن مالك .
ويرى أبو نصر السراج أن هذا العلم الموروث هو علم الاشارة ، فيكشف الله سبحانه لقلوب أصفيائه المعانى المذخورة ، واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم فى معانى القرآن ... اللمع ص ١٤٧ (كتاب المستنبطات) .

— سبحانه — أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (بها)[1] ليلةَ المعراج بغير واسطة جبريل عليه السلام . . . وغير هذا من الوجوه .

قوله تعالى « أجراً عظيماً » : الأجر العظيم هو الذى يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل .

قال جلَّ ذكره : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ، وَآتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾

إفراد النبى صلى الله عليه وسلم من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة ؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو ، فاشتركا فى الإفراد لكنهما تباينا فى الفضيلة على حسب المقام ، فتفرَّد واحد من بين أشكاله بغير فضائل ، وتفرَّد آخر من بين أضرابه[2] بألف فضيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرُسُلاً قد قصصناهم عليكَ مِن قبلُ وَرسلاً لم نَقْصُصْهُم عليكَ وكلَّمَ اللهُ موسى تكليماً ﴾

سُنَّةُ الله فى أوليائه سترُ قومٍ ، وشَهْرُ قومٍ ، وبذلك جرَتْ سُنَّتُهُ أيضاً فى الأنبياء — عليهم السلام — أظهر أسماء قومٍ وأجمل تفصيل آخرين . والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً ، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلا ، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها ، فما أظهرها لهم — طالبهم بالإخلاص فيها ، وما سترها

---

(١) إضافة وضعناها ليتماسك المعنى .

(٢) وردت (أخرايه) بالخاء وهى خطأ فى النسخ والصواب (أضرابه) أى (أشكاله) التى سبقت ، والفقرة كلها غير واضحة ، وقد أثبتناها كما هى .

عليهم — فلأنه غار[1] على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بحقائق أفردهم بمعانيها .

« وكلَّم الله موسى تكليما » : إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة .

قوله جل ذكره : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِين ومنذِرِين ﴾

وقَفَ الخلقَ عند مقاديرهم ، وبيَّن أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتباء ثوابهم ، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم ، وأنه ليس للخلق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما فى الحال أو فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ لِئَلا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسُلِ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾

أنَّى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حُجَّة ؟ ! ولكنَّ الله خاطبهم على حسب عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لكنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أَنْزَلَ إليكَ أَنْزَلَه بعلمِه والملائكةُ يَشْهَدُون وكَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾

سلاَّه الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه ، ولذلك قال : « وكفى بالله شهيداً » .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيلِ اللهِ قد ضَلُّوا ضَلالاً بعيداً * إنَّ الذين كفروا وظَلَمُوا لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لهم ولا ليهديَهم طريقاً * إلا طريقَ جهنَّمَ خالدين فيها أبَداً ، وكان ذلك على اللهِ يسيرا ﴾

---

(١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتى العبدُ المؤمنُ ما حرَّم الله تعالى عليه ، الرسالة ص ١٢٦ وقال القشيرى : إذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده . (الرسالة نفس الصفحة) .

جعل صدَّهم المؤمنين (من)[1] اتباع الحقِّ نظيرَ كفرهم بالله ، واللهُ تعالى عظَّم حقوق أوليائه كتعظيم حقِّ نفسه ، ثم قال : « إن الذين كفروا وظلموا » جعل ظُلْمَهُم سبيلَ كفرهم ، فَعَلَّقَ استحقاق العقوبة المؤبَّدة عليها جميعاً . والظلم — وإنْ لم يكن كالكفر فى استحقاق وعيد الأبد — فَلِشُؤْمِ الظلم لا يبعد أن يخذلَه اللهُ حتى يُوَافِيَ ربَّه على الكفر .

قوله جل ذكره ﴿ يأيها الناسُ قد جاءكمُ الرسولُ بالحقِّ
مِن ربِّكم فآمِنُوا خَيْرًا لكُم
وإن تكفُرُوا فإنَّ للهِ مافى السموٰات
والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾

«ياأهل الكتاب» : أخبر أنه سبحانه غنى عنهم ، فإنْ آمنوا فحظوظ أنفسهم اكتسبوها وإن كفروا[2] فَبَلَايَاهُم لأنفسهم اجتلبوها. والحقُّ — تعالى — مُنَزَّه الوصف عن (الجهل)[3] لوفاق أحدٍ ، والنقصِ لخلاف أحد .

قوله : « وإن تكفروا فإن لله مافى السموٰاتِ والأرضِ » يعنى إن خرجوا عن استعمال العبودية — فعلاً ، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده — خلْقاً ، قال تعالى : « إن كل من فى السموٰات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً »[4]

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تَغْلُوا فى دينِكم
ولا تَقُولُوا على اللهِ إلا الحقَّ
إنَّما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رَسُولُ
اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ مِنْه

---

(١) ربما كانت (عن) فهكذا فى الآية الكريمة .

(٢) فى النسخة (وإن لم تكفروا) ولكنها مصححة باستدراك فى الهامش (وإن كفروا) وهو الأصوب .

(٣) نظن أن الناسخ قد أخطأ فى نقل هذه الكلمة فان من عادة القشيرى فى مثل هذا السياق أن يذكر أن طاعة المطيع ليست زيناً للحق ؛ ومعصية العاصى ليست شيناً له ، لأجل هذا نرجح أن العبارة هنا تستقيم لو كانت (والحق تعالى منزه الوصف عن الكمال لوفاق أحد وعن النقص لخلاف أحد) .

(٤) آية ٩٣ سورة مريم .

فآمنوا بالله ورُسلِه ، ولا تقولوا ثلاثة انتَهُوا خيراً لكم إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ سبحانه أن يكونَ له ولدٌ ، له ما فى السموات وما فى الأرضِ وكفى بالله وكيلا ﴾ .

غُلوُّهم فى دينهم جَرْيُهم على مقتضى حسبانهم ؛ حيث وصفوا — بمشابهة الخلْق — معبودَهم ، ثم مناقضتهم ؛ حيث قالوا الواحد ثلاثة والثلاثة واحد[1] ، والتمادى فى الباطل لا يزيد غير الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ المسيحُ أن يكون عَبْدًا للهِ ولا الملائكةُ المُقَرَّبون وَمَن يَسْتنكِفْ عَنْ عبادتِهِ ويَسْتكبِرْ فَسَيَحْشُرُهم إليه جميعاً * فأمَّا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيوفيهم أُجُورهم ويزيدُهم مِّن فَضلِهِ ﴾

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شَرَفُه ، وكيف يستكبر عن التذلُّلِ وفى استكباره تَلَفُه ، ولهذا الشأن نطق المسيح أول ما نطق بقوله : إنى عبد الله ، وتجمُّل العبيد فى التذلل للسَّادة ، هذا معلوم لا تدخله ريبة[2] .

وقوله : « ولا الملائكة المقربون » لا يدل على أنهم أفضل من المسيح ، لأنه إنما خاطبهم على حسب عقائدهم ، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بنى آدم .

---

(١) الثلاثة إما أن يكون مقصوداً منها : الله والمسيح ومريم ، وإما — كما ورد فى الأناجيل — الأب والابن والروح القدس ، وسواء انصرفت إلى هؤلاء أم إلى أولئك فانه شرك محض تولى القرآن الكريم تفنيده فى مواضع شتى .

(٢) وردت (رتبة) ولا نحسب أن لها معنى هنا ، ونرجح أنها فى الأصل (ريبة) أى هذا معلوم لا شك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون اللهِ وليّاً ولا نصيراً ﴾

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه[1] أبداً بعدما عرفوا جلاله ، فإذا صارت معارفُهم ضروريةً[2] فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا[3] ، فَحَسَراتهم حينئذ على مافاتهم أشدُّ عقوبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ مِّن ربِّكم ﴾

البرهان ما لاح فى سرائرهم من شواهد الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾

وهو خطابه الذى فى تأملهم معانيه حصولُ استبصارِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين آمنوا باللهِ[4] واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾

« سيدخلهم فى رحمته » : والسين للاستقبال أى يحفظ عليهم إيمانهم فى المآل[5] عند التوفى ، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان فى الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَهْدِيهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾

---

(١) أى يقطع بينهم وبين رؤيته سبحانه ، وفى هذا يقول ذو النون (خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات .

ويقول بعضهم : إلهى إذا شئت أن تعذبنى فألق بى إلى النار ولا تعذبنى بذل الحجاب .

(٢) قلنا من قبل فى هامش سابق ـ نقلا عن مذهب القشيرى : إن المعرفة فى البداية كسبية وفى الانتهاء ضرورية ، ومعنى الكلام هنا أنهم يحرمون من أعظم الأشياء متعة بعد ما لاحت لهم بعض المعارف . . وذلك غاية فى التعذيب .

(٣) (عنه بقوا) البقاء عن الله سبحانه أشد أنواع العقاب .

(٤) سقطت (بالله) من الناسخ فأثبتناها فى موضعها .

(٥) وردت (المال) ويلزم وضع المد على الألف لتكون (المآل) وقد تكرر هذا فى مواضع كثيرة فيما سبق .

هذه الهداية هى إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله لهم فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم ، ولا بتعبهم وكدّهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة
إن امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أُختٌ
فلها نِصْفُ ما تَرَكَ وهو يَرِثُها
إن لم يَكُن لها وَلَدٌ فإن كانتا اثْنَتَيْنِ
فَلَهُما الثُّلُثان مما ترك ، وإن كانوا
إخوةً رِجالاً ونِساء فللذَّكر مثلُ
حَظِّ الأُنثيين ، يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن
تَضِلوا واللهُ بكل شىء عليم ﴾

قطع الخصومة بينهم فى قسمة[2] الميراث فيما أظهر لهم من النصّ على الحكم ، فإن المال محبَّبٌ إلى الإنسان ، وجُبِلَت النفوس على الشحّ ؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابلة الاشباه)[3] فى الاجتهاد ، فكان يؤدى ذلك إلى التجاذب والتواثب ؛ فحَسَمَ تلك الجملة بما نصّ على المقادير فى الميراث قطعاً للخصام . ولتوريثه للنسوان — وإن لم يوجد منهن الذبّ عن العشيرة — دلالة على النظر لضعفهن . وفى تفضيل الذكور عليهن لِمَا عليهم مِنْ حَمْلِ[4] المؤن وكذا السعى فى تحصيل المال ، والقيام عليهن .

---

(١) يهدف القشيرى دائماً إلى أن يعود بكل شىء إلى فضل الله ، وأن يشعر العبد دائماً بأن عمله ليس وحده كافياً للنجاة ، فاذا طالع العبد نفسه فى شىء ما ففى ذلك وبال عليه .

(٢) وردت (بالصاد) والصواب أن تكون بالسين ، وربما كانت (قضية) فى الأصل .

(٣) هكذا فى النسخة (ص) ونرجح أنها فى الأصل (لقابله الاشتباه) فى الاجتهاد اى ان النص على المواريث ازال كل اشتباه ينجم عن الاجتهاد .

(٤) وردت (يحمل) ونرجح أنها فى الأصل : (حمل) فقبلها جار .

(حاشية) لم يتعرض القشيرى لمعنى (الكلالة) ولقد كنا نود لو أوضح الرأى فيها ، خصوصاً وأن موضوعها منهم ، وتسمى هذه الآية الأخيرة من سورة النساء بآية الصيف ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعنى ابن مغول يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبرهيم عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلالة فقال : « يكفيك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها أحب إلى من ان يكون لى حمر النعم . =

السورة التى تذكر فيها المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَماعُ اسم الله يُوجِبُ الهيبة ، (والهيبةِ)[1] تتضمن الفناء والغيبة ، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة ، والحضور يتضمن البقاء والقربة .

فمن أسمعه « بسم الله » أدهشه فى كشف جلاله ، ومن أسمعه « الرحمن الرحيم » عَيَّشَه بِلُطْفِ أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾

« يا » حرف نداء ، و « أى » اسم منادى ، « ها » تنبيه ، و « الذين آمنوا » صلة المنادى . ناداهم قبل أن بداهم ، وسمَّاهم قبل أن براهم ، وأهَّلهم فى آزاله لِمَا أوصلهم إليه فى آباده .

شَرَّفهم بقوله : « يأيها الذين آمنوا » ، وكلَّفهم بقوله « أوفوا »، ولمَّا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قَدَّم التشريف بالثناء على التكليف الموجِب للعَناء .

ويقال الإيمانُ صنفان : أحدهما يشير إلى عين الجود ، والثانى إلى بذل المجهود . فَبَذْلُ المجهودِ خِدْمَتُك ، وعين الجود قِسْمَتُه ؛ فبخدمتك عناء الأشباح ، وبقسمته ضياء الأرواح .

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب .

ويقال « يأيها الذين آمنوا » : يا مَنْ دخلوا فى إيمانى ، ماوصلتم إلى أمانى إلا بسابق إحسانى .

ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتَهم لشهود حقى حتى لا يكونوا كمن أعرضتُ عنهم مِنْ خَلْقِى .

= وذكر الإمام أحمد بإسناد آخر أكثر صحة مما سبق .

ومن الأقوال التى ذكرت عن الكلالة أنها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالراس من جوانبه ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ، ومن الناس من يقول الكلالة من لا ولد له كما دلت عليه الآية (إن امرؤ هلك ليس له ولد) .

(١) أضفناها لأن السياق يستدعيها ، إذ نرجح أنها سقطت فى النسخ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾

كُلُّ مُكلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعقده ، والعقد ما ألزمك بسابق إيجابه ، ثم وَفَّقَكَ — بعدما أظهرك عند خطابه — بجوابه[1] ، فانبرم العقد بحصول الخطاب ، والقبول بالجواب .

ويدخل فى ذلك — بل يلتحق به — ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا بِسِرٍّ ؛ من خلوصٍ له أضمره ، أو شىء تبيَّنه ، أو معنًى كوشف به أو طولب به فقَبِله .

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد ، ولا يكون ذلك إلا بالتبرِّى من المِنَّة ، والتحقق بتولى الحق — سبحانه — بلطائف المِنَّة[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلا ما يُتْلَى عليكم غَيْرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حُرُم ﴾

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُرْمٍ سَبَق منها ، وتحريم بعضها والمنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها — دليلٌ على ألاَّ عِلَّةَ لصنعه .

وحرَّم الصيد على المُحْرِم خصوصاً لأن المُحْرِمَ متجرِّدٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه ، فالأليق بصفاته كَفُّ الأذى عن كل حيوان .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله يحكم ما يريد ﴾

لا حَجْرَ عليه فى أفعاله ، فيخصُّ من يشاء بالنُّعمى ، ويفرد من يشاء بالبلوى ؛ فهو يُمْضِى الأمور فى آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى فى آزاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُحِلوا شعائرَ الله ﴾

الشعائر معالم الدِّين ، وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين ، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير ، والتزام الأمر بجميل الاعتناق ، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا الشهرَ الحرامَ ولا الهَدْىَ ولا القلائد ﴾

---

(١) يشير القشيرى إلى قوله تعالى يوم الذر : « ألست بربكم ؟ قالوا بلى » .
(٢) يفرِّق القشيرى بين المِنَّة للعبد والمِنة للحق .

تعظيم المكان الذى عظّمه الله ، وإكرامُ الزمان الذى أكرمه الله . وتشريف الإعلام على ما أمر به الله — هو المطلوب من العبيد أمراً ، والمحبوب منه حالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا آمّين البيتَ الحرامَ يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا ﴾

وبالحرىّ لمن يقصد البيت ألا يخالف ربَّ البيت .

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقّى موجبات السخط ، ومجانبة العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تَعْتَدُوا ﴾

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم ، فأمّا ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم ، وإنكم لنا .

قوله « ولا يجرمنكم شنآن قوم . . . . » أى لا يحملكم بغضُ قومٍ لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حدَّ الإذن فى الانتقام ، أى كونوا قائمين بنا ، متجردين عن كل نصيبٍ وحظٍّ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ .

البِرُّ فِعْلُ ما أُمِرْتَ به ، والتقوى تَرْكُ ما زُجِرتَ عنه .

ويقال البِرُّ إيثار حقه — سبحانه ، والتقوى تركُ حظِّك .

ويقال البِرُّ موافقة الشرع ، والتقوى مخالفةُ النَّفْس .

ويقال المعاونة على البِرِّ بحُسْنِ النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين ، والمعاونة على التقوى بالقبض على أيدى الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ ، وبليغ الزجر ، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم .

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدِّين ، فيكون قولُك الذى تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةً تظهرها و(عليك) نبوُّ وِزْرِها . وكذلك المعاونة

على البر والتقوى أى الانصاف بجميل الخِصال على الوجه الذى يُقْتدَى بك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾ .

العقوبة ما تعقب الجُرْم بما يسوء صاحبه . وأشد العقوبة حجاب المُعَاقَبِ عن شهود المُعَاقب ؛ فإنْ تَجرَّعَ كاساتِ البلاء بشهود المُبْلِي أحلى من العسل والشهد .

قوله جلِ ذكره : ﴿ حُرِّمت عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير ﴾ .

وأكل الميتة أن تتناول من عِرْض أخيك على وجه الغيبة[1] ، وليس ذلك مما فيه رخصةٌ بحالٍ لا بالاضطرارِ ولا بالاختيارِ ، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ فى حالِ الضرورة .

ويقال كما أنَّ فى الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً فكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطَهَّرَ نفسه — مُبَاحٌ قربه ، حلال صحبته . ومَنْ ماتت نفسه فى ظلمة غفلته حتى لا إحساسَ له بالأمور الدينية فخبيثةٌ نفسه ، محظورٌ قُربُه ، حرام معاشرته ، غيرُ مباركةٍ صحبتُه .

وإنَّ السلف سموا الدنيا خنزيرةً ، ورأوا أنَّ مايُلْهِي قربُه ، ويُنْسِي المعبودَ ركونُه ، ويحمل على العصيان جنوحُه — فهو مُحرَّمٌ على القلوب ؛ ففى طريقة القوم حبُّ الدنيا حرامٌ على القلوب ، وإن كان إمساكُ بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ﴾ .

كما أنَّ المذبوح على غير اسمه ليس بطيِّبٍ فَمَنْ بَذَل رُوحَه فيه وَجَدَ رَوْحه منه ، ومن تهارشته كلاب الدنيا ، وقلته مخالب الأطماع ، وأسَرَتْه مطالبُ الأغراض والأعراض — فحرامٌ ماله على أهل الحقائق فى مذهب التعزز ، فللشريعةِ الظرف والتقدير .

وأمَّا المنخنقة فالإشارة منه إلى الذى ارتبك فى حِبال المنى والرغائب ، وأخذه خناقُ

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى قوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ... » .

الطمع ، وخنقته سلاسل (الحِرْص)[1] فحرامٌ على السالكين سلوك خطتهم ، ومحظور على المريدين متابعة مذهبهم .

وأمّا الموقوذة فالإشارة منها إلى نفوس جُبِلَت على طلب الخسائس حتى استملكتها كلها فهى التى ذهبت بلا عوض حصل منها ، وأمثال ذلك حرامٌ على أهل هذه القصة .

والإشارة من المتردية إلى من هلك فى أودية التفرقة ، وعمى عن استبصار رشد الحقيقة ؛ فهو يهيم فى مفاوز الظنون ، وينهك فى متاهات المنى .

والإشارة من النطيحة إلى من صَارَعَ الأمثال ، وقارع الأشكال ، وناطح كلاب الدنيا فحطموه بكلب حرصهم ، وهزموه بزيادة تكلبهم ، وكذلك الإشارة من :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ ﴾.

وأكيلة السبع ماولغت فيه كلاب الدنيا ، فإن الدنيا جيفة ، وأَكَلَةُ الجيفِ الكلابُ ويستثنى منه المزكى وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله ؛ لأن زادَ المؤمنِ من الدنيا : ما كان لله فهو محمود ، وما كان للنَّفْس فهو مذموم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ذُبِحَ على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ .

فهو ما أُرْصِدَ لغير الله ، ومقصودُ كلِّ حريصٍ — بموجب شرعه — معبودُه من حيث هواه قال الله تعالى . « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » يعنى اتخذ هواه إلهه .

« وأن تستقسموا بالأزلام » ، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصَاحبةٍ بُنِيَتْ على استجلاب الحظوظ الدنيوية — لا على وجه الإذن — إذ القمار ذلك معناه . وقَلَّتْ المعاملات المجرَّدَة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلِكم فِسْقٌ ﴾

أى إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدِّين .

---

(١) وردت (الحرس) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم يَئِس الذين كفروا من دينكم فلا تَخْشَوْهم واخْشَوْنِ ﴾

أى بعدما أزَحْتُم عن قلوبكم آثارَ الحسبان ، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن ، فلا تلاحظوا سواى ، ولا يُظَلِّلَنْ قلوبكم إشفاقٌ من غيرى .

ويقال إذا كانت البصائرُ متحققة بأن النَّفعَ والضر ، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق — سبحانه ، فمن المحال أن تنطوى — من مخلوق — على رَغَبٍ أو رَهَبٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليومَ أكملت لكم دينكم ﴾

إكمالُه الدين — وقد أضافه إلى نفسه — صوَّنُه العقيدة عن النقصان ؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمَّلها بأنوار تأييده وتسديده ، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصيرٍ ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور .

ويقال إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ فى المآلِ ، كما أن ابتداء الدِّين توفيقُ الحصول فى الحال ؛ فلولا توفيقه لم يكنْ للدين حصول ، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شىء يعلمه الحق — سبحانه — من أوصافه وقد علَّمك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقاصر عنه عقلك من تعيين صفاته — على التفصيل — أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار .

وإنما أراد بذكر « اليوم » وقتَ نزول الآية . وتقييد الوقت فى الخطاب بقوله « اليوم » لا يعود إلى عين إكمال الدِّين ، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدِّينُ موهوبٌ ومطلوبٌ ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله ، والموهوبُ ما سبق منه حصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾

النعمة — على الحقيقة — ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه ، والنعمة المذكورة

ها هنا نعمة الدِّين ، وإتمامها وفاء المآل ، واقتران الغفران وحصوله . فإكمال الدين تحقيق المعرفة ، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة . وهـذا خطاب لجماعة المسلمين ، ولا شك فى مغفرة جميع المؤمنين ، وإنما الشك يعترى فى الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ورضيت لـكم الإسلام ديناً ﴾

وذلك لما قَسَمَ للخَلْق أديانَهم ؛ فخصّ قوماً باليهودية ، وقوماً بالنصرانية ، إلى غير ذلك من النِّحَلِ والمِلَلِ ، وأفرد المسلمينَ بالتوحيد والغفران .

وقدَّمَ قومٌ الإكمالَ على الإتمام ، فقالوا : الإتمام يقبل الزيادة ، فلذلك وَصَفَ به النعمة لقبول النِّعم للزيادة ، ولا رتبةَ بعد الـكمال فلذلك وصف به الدين .

ويقال لا فرق بين الدِّين والنعمة المذكورة ها هنا ، وإنما ذُكِرَ بلفظين على جهة التأكيد ، ثم أضافه إلى نفسه فقال : « نعمتى » وإلى العبد فقال : « دينكم » . فوَجْهُ إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب ، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخَلْق . فالدين من الله عطاء ، ومن العبد عناء[1] ، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاعٍ فى السِّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فى مخمصةٍ غيرَ متجانفٍ لإثم فإنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالكٍ فترة ، أو لمريدٍ فى السلوك وقفة ، ثم تنبَّه لعظيم واقعه فبادر إلى جميع الرَّجْعَةِ باستشعار التحسّر على ما جرى تدارَكَتْه الرحمةُ ، ونظر الله — سبحانه — إليه بقبول الرجعة .

والإشارة من قوله « غير متجانفٍ لإثم » أى غير معرِّج على الفترة ، ولا مستديمٍ لعُقْدةِ الإصرار ، ويحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رُخَصِ العلم لضعفٍ وَجَدَه فى الحال فربما تجرى معه مُساهلةٌ إذا لم يفسخ عَقْدَ الإرادة .

---

(١) هذه العبارة تساوى فى المعنى ماسبق ذكره ان « الدين موهوب ومطلوب » والمقصود بالعناء أن الدين معاناة وممارسة من جانب العبد .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قُلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وما علَّمتم من الجوارح مكلبين تُعَلِّمُونَهُنَّ مما علَّمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسمَ اللهِ عليه ، واتقوا الله إن اللهَ سريعُ الحساب ﴾

لما علموا أن الحَسَنَ من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرَّفوا ذلك من تفصيل الشرع ، فقال : « يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم » ثم قال :

« قل أحل لكم الطيبات » وهو الحلال الذى تحصل من تناوله طيبةُ القلوب فإنَّ أكْلَ الحرامِ يُوجِبُ قسوة القلبِ ، والوحشةُ مقرونةٌ بقسوةِ القلبِ ، وضياء القلوب وطِيبُ الأوقات متصلٌ بصَوْن النُّخلُق عن تناول الحرام والشبهات .

وقوله : « وما علمتم من الجوارح مكلبين » : ولمَّا كان الكلب المُعَلَّمَ تركَ حظَّه ، وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته ، وجاز اقتناؤه ، واستغرق فى ذلك حكم خساسته فكذلك مَنْ كانت أعماله وأحواله لله — سبحانه — مختصة ، ولا يشوبها حظٌّ تَجِلُّ رتبتُه وتعلو حالته .

ويقال حُسْنُ الأدب يُلْحِقُ الأخِسَّةَ برتبة الأكابر ، وسوء الأدب يَرُدُّ الأعِزَّةَ إلى حالة الأصاغر .

ثم قال : « واذكروا اسم الله عليه » : بيَّن أنَّ الأكلَ — على الغفلة — غير مَرْضِيٍّ عنه (فى القيمة)[1]

« واتقوا الله إن لله سريع الحساب » بحيث لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحسابِ — اليومَ — مع الأحباب والأولياء ، فهم لا يُسَامَحون فى (الخطوة)[2] ولا فى اللحظة ، معجَّلٌ حسابُهم ، مُضاعَفٌ — فى الوقتِ — ثوابُهم وعقابُهم .

---

(١) وضعت (فى القيمة خطأ) بعد سريع الحساب وقد أثبتناها فى موضعها الصحيح .

(٢) وربما كانت فى الأصل (الخَطْرَةُ) بالراء فالأكابر يحاسبون على أدق خاطر يخطر على قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ مِنَ المُؤْمناتِ وَالْمُحْصَنَاتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورَهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ، ومَن يكفر بالإيمان فقد حَبِطَ عَمَلُه وهو فى الآخرةِ من الخاسرين ﴾

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب مايوجد فيه رضاء الحق — سبحانه — فتوجد عند ذلك راحةُ القلوب .

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم » : القَدْرُ الذى بيننا وبينهم من الوفاق فى إثبات الربوبية لم يَعْرَ من أثرٍ فى القربة فقال الله تعالى : « ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى »[1]

وكذلك الأمر فى المحصنات من نسائهم . وأُحِل الطعامُ والذبيحةُ بيننا وبينهم من الوجهين فيحلُّ لنا أكل ذبائحهم ، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا ، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا ، ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُعْلَى .

ثم قال « محصنين غير مسافحين » يعنى إنهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحبتهن بغير نكاح تعظيما[2] لأمرِ السِّفاح ، وتنبيهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق . وكذلك « ولا متخذى أخدان » لأنه إذا لم يجز تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة فمتى يسلم ذلك مع الكفار الذين هم الأعداء ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة

---

(١) آية ٨٢ سورة المائدة .
(٢) تعظيما هنا معناها تهويلا واستبشاعاً .

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
وامسحوا برءوسكم وأرجلكم
إلى الكعبين ﴾

كما أنَّ فى الشريعة لا تصحُّ الصلاةُ بغيرِ الطهور فلا تصحُّ — فى الحقيقة — بغير طهور . وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر أيضاً طهارة ، وطهارةُ الأبدان بماء السماء أى المطر ، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل .

وكما يجب غسلُ الوجهِ عند القيام إلى الصلاة يجب — فى بيان الإشارة — صيانةُ الوجه عن التبذُّل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .

وكما يجب غسلُ اليدين فى الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد .

وكما يجب غسل الرِجْلين فى الطهارة يجب صونهما فى الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لايجوز

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كنتم جُنُباً فاطهروا وإن كنتم
مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ
منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم
تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً
فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾

كما يقتضى غسل جميع البدن فى الطهارة ، كذلك فى الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء ؛ وذلك عندما تقع للمريد فَتْرةٌ فيقوم بتجديد عقدٍ ، وتأكيد عهد ، والتزام عزامة ، وتسليم وقتٍ ، واستدامة ندامة ، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهرُ الماء ففَرْضُهُ التَّيَمُّمُ فكذلك إذا لم يجد المريد مَنْ يفيض عليه صَوْبَ همته ، ويغسله ببركات إشارته ، ويعينه بما يثوب به من زيادة حالته — اشتغل بما تيسَّر له من اقتفاء آثارهم ، والاستراحة إلى مايجد من سالف سِيَرِهِم ، وما ورد من حكاياتهم

وكما أن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذلك المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف .

قوله جل ذكره : ﴿ مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾

وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقى المريد عن أحكام الإرادة فلْيَحْطُطْ رِجْلَه بساحات العبادة ، فإذا عَدِمَ اللطائف فى سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره ، وإذا لم يتحقَّقْ بأحكام الحقيقة فليتخلق بآداب الشريعة ، وإن لم يتحرج عن تَرْكِه الفضيلة فلا يدنسْ تصرفه بالحرام والشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكن يريد ليطهركم ﴾

أى يطهر ظواهركم عن الزلة بعصمته ، ويطهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .

ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال ، ويطهر ظواهركم عن الوقوع فى شِباك الأشغال .

ويقال يطهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدنُّسَ المقادير بالأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾

إتمام النعمة على قومٍ بنجاة نفوسهم ، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم ، وشتَّان بين قوم وقوم ! .

ويقال إتمام النعمة فى وفاء العاقبة ؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد تَمَّتْ سعادته ، وصَفَتْ نعمته .

ويقال إتمام النعمة فى شهود المنعِم ؛ فإنَّ وجودَ النعمة لكل أحد ولكنَّ إتمامَها فى شهود المنعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ﴾

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذى لولاه ما علمْتَ أنه من هو .

ويقال أمرهم بتذكّر ما سبق لهم من القِسَمِ وهم فى كَتْمِ العَدَم ، فلا للأغيار عنهم خبر ،

ولا لهم عين ولا أثر ، ولا وقع عليهم بصيرة ، وقد (سماهم)[1] بالإيمان ، وحكم لهم بالغفران قبل حصول العصيان ، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرّفهم التوحيد قبل أن كلّفهم الحدود ، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة وحذّرهم الخيانة ، فقابلوا قوله بالتصديق ، ووعدُوا من أنفسهم الوفاء بشرط التحقيق ، فأمدّهم بحسن التوفيق، وثبّتهم على الطريق ، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله جل ذكره : « إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .

ثم قال : « واتقوا الله » : يعنى فى نقض ما أبرمتم من العقود ، والرجوع عمّا قدمتم من العهود ، « إنّ الله عليم بذات الصدور » لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ﴾

لا يُعَوِّقنّكم حصولُ نصيبٍ لكم فى شىء عن الوفاء لنا ، والقيام بما يتوجّب عليكم من حقنا .

ويقال من لم يقسط عنه مواعد رغائبه ، ولم يمحُ عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يقم لله بحق ولم يفِ لواجباته بشرط .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يجرِمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدِلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾

أى لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنبات الحيف فإنّ مرتعَ الظلم وبيئ ، ومواضع الزيغ مهلكة .

ثم صرّح بالأمر بالعدل فقال : « اعدلوا » ولا تكون حقيقة العدل إلا (بالعدول)[2] عن كل حظٍ ونصيب .

---

(١) يرجح أنها فى الأصل (وسمّهم) فالوسم فى الاصطلاح تتعلق بالأزل وهذا يتفق مع السياق .
(٢) وردت (بالعدوان) والصواب أن تكون (بالعدول) كما هو واضح .

والعدلُ أقربُ إلى التقوى ، والجَوْرُ أقربُ من الرَّدَى ، ويُوقِعُ عن قريبٍ في عظيم البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾

والمغفرة لا تكون إلا للذنب ، فوصفهم بالأعمال الصالحات ، ثم وعدهم المغفرة لِيُعْلَمَ أن العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها ، بخلاف ما تَوَهَّمَ مَنْ قال إن المعاصى تُحْبِطُ الطاعات .

ويقال بيَّن أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عَفْوِه وغفرانه ، ولولا ذلك لَهَلَكَ ، خلافاً لمن قال إنه لايجوز أن يَعَذِّبَ البرىء ويجب أن يثيب المحسنين[1] .

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً ، وعقوبةُ البرىء غيرَ حسنة لكان التجاوزُ عنه واجباً عليه ، ولم يكن حينئذ فضل يمن به عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

لهم عقوبتان : معجلة وهى الفراق ، ومؤجلة وهى الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أيديَهم فكفَّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يذكِّرهم ماسلف لهم من نِعَم الدفع[2] وهو ماقصر عنهم أيدى الأعداء ، وذلك من أمارات

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى أقوال المعتزلة بوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصى — على الله . فلا وجوب — فى نظره — على الله ، وإنما كل شىء منه فضل ، ولا قيمة لعمل العبد بجانب هذا الفضل .

(٢) يميز القشيرى بين نعمتين : نعمة دفع ونعمة نفع .

العناية . ولقد بالغ فى الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهر لك الغيبَ من غير التماسٍ أو سَبْق شفاعةٍ فيك ، أو رجاءِ نفعٍ من المستأنف[1] منك ، أو حصول ربحٍ فى الحال عليك ،أو وجود حق فى المستأنف لك .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » يعنى كما أحسنت إليكم فى السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحسانى فى (الغابر)[2] من غير (استيجاب)[3] .

قوله جلَ ذكره : ﴿ ولقد أخذ اللهُ ميثاقَ بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عَشَرَ نقيباً وقال الله إنى معكم ﴾ .

يذكرهم حُسْنَ أفضاله معهم ، وقبح (فعلهم)[4] فى مقابلة إحسانه بنقضهم عهدهم .

وعرف المؤمنين — تحذيراً لهم — ألا ينزلوا منزلتَهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم .

قوله جل ذكر : ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزَّرْتموهم ﴾ .

أى لئن قمتم بحقى لأوصلن إليكم حظوظكم ، ولئن أجللتم أمرى فى العاجل لأُجِلَّن قَدْرَكم فى الآجل .

وإقامة الصلاة أن تشهد مَنْ تعبده ، ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعْبد اللهَ كأنَّكَ تراه » .

ويقال إقامة الصلاة شرطها أنْ تُقْبِلَ على مَنْ تناجيه بأن تستقبل القُطْرَ الذى الكعبة فيه .

وأمَّا إيتاء الزكاة فحقُّه أن تكسب المال من وجهه ، وتصرفه فى حقه ، ولا تمنع الحق

---

(١) أى ما يمكن أن نقدمه من طاعات فى المستقبل ، فالله غنى عنه .
(٢) نرجح أنها (الحاضر) حتى ينسجم السياق فإن (الغابر) و (السالف) بمعنى (الماضى) .
(٣) يعنى استحقاق .
(٤) وردت (فعلهم) بميم زائدة من الناسخ .

الواجب فيه عن أهله ، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته ، ولا تُحْوِج الفقير إلى طلبه فإنَّ الواجبَ عليكَ أن توصل ذلك إلى مستحقه .

وتعزير[1] الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال ، واعتناق أمرهم بتمام الجد والاستقلال ، وإيثارهم عليك فى جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، والفقراء يبذلون مهجتهم وأرواحهم فى طلب الله ، (فأولئك)[2] عن مائتى درهم يُخْرِجُون خَمْسَة ، وهؤلاء لايدخرون عن أمره نَفَساً ولا ذرَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ لأكفِرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

التكفير هو الستر والتغطية ، وإنه يستر الذنوب حتى عن (العاصى)[3] فيمحو من ديوانه ، وينْسِى الحَفَظَةَ سوالف عصيانه . وينفى عن قلبه تذكر ما أسلفه ، ولا يوقفه فى العرصة على ماقدَّم من ذنبه ، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضله كما قال : « ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » ، كما قيل :

ولما رضوا بالعفو عن ذى زلة حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

قوله جل ذكره : ﴿ فمَن كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾

فَمَنْ جَحَدَ هذه الأيادى بعد اتضاحها فقد عَدَلَ عن نَهْجِ أهل الوفاء ، وحاد عن سَنَنِ أصحاب الولاء .

قوله جل ذكره ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم ﴾

جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة فى العصيان .

---

(١) وردت (وتعزم) والصحيح (وتعزير) والعزر فى اللغة الرد ومعناها هنا رددتم عنهم أعداءهم ونصرتموهم .

(٢) وردت (فهؤلاء) وقد جعلناها أولئك إشارة إلى البعيد ليتميز كل فريق .

(٣) وردت (المعاصى) بالميم والصواب بدونها فهكذا يتطلب السياق .

قوله جل ذكره : ﴿وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه﴾

وتحريفُهم الكلم عن مواضعه نوعُ عصيان منهم ، وإنما حرَّفوا لقساوة قلوبهم . وقسوة القلب عقوبة لهم مِنْ قِبَل الله تعالى على ما نقضوه من العهود ، ونقض العهد أعظمُ وِزْرٍ يلم به العبد ، والعقوبة عليه أشد عقوبة يُعاقَبُ بها العبد ، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنَ به من الصدِّ ، وعن قريبٍ يُمتَحَن بمحنة الرد بعد الصدِّ[1] ، وذلك غاية الفراق ، ونهاية البعد .

ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصفوة ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام القسوة ، فإن لم يتفق إقلاع عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة .

ومن تحريف الكلم — على بيان الإشارة — حَمْلُ الكلم على وجوهٍ من التأويل مما تسوِّل لصاحبِه نَفْسُه ، ولا تشهد له دلائلُ العلم ولا أصلُه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ونَسُوا حظًّا مما ذُكِّرُوا به﴾

أوَّلُ آفاتِهم نسيانُهم ، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا ، فالنسيان أول العصيان ، والنسيانُ حاصلٌ من الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم﴾

الخيانة أمرها شديد وهى من الكبار أبعد ، وعليهم أشد وأصعب . ومن تعوَّد اتباع الشهوات ، وأُشْرِبَ فى قلبه حُبَّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُق إلى آخر عمره ، اللهم إلا أن يجودَ الحقُّ — سبحانه — عليه بجميلِ اللطف .

قوله جل ذكره : ﴿فاعفُ عنهم واصفحْ إن اللهَ يحب المحسنين﴾

قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كل أحدٍ أهلاً للعقاب . وللصفح

---

(١) من هذا نفهم أن (الرَّد) عند القشيرى أقرب وأشد وقعاً من (الصد) ،

(٢) هذا أصل من أصول التاويل المقبول فى نظر القشيرى ، وهو في الوقت نفسه يوضح صفة في التفسير الإشارى .

على العفو مزية وهى أن فى العفو رفع الجناح ، وفى الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب ، فمن تجاوز عن الجانى ، ولم يلاحظه — بعد التجاوز — بعين الاستحقار والازدراء فهو صاحب الصفح .

والإحسان تعميمٌ — للجمهور — بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقَهم فَنَسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم اللهُ بما كانوا يصنعون ﴾

الإشارة فى هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال : « قالوا إنا نصارى » وسموا نصارى لتناصرهم ، وبدعواهم حرّفوا وبدّلوا ، وأما المسلمون فقال . « هو سمّاكم المسلمين »[1] .

كما قال : « ورضيت لكم الإسلام دينا »[2] فلا جَرَمَ ألا يسموا بالتناصر . ولمّا سمّاهم الحقُّ بالإسلام ورَضِيَ لهم به صانهم عن التبديل فَعُصِمُوا .

ولما استبكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم ، وفساد ذات البين ؛ فأرباب الغفلة لا ألفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض ، قال صلى الله عليه وسلّم : « المؤمنون كنفس واحدة »[3] ، وقال تعالى فى صفة أهل الجنة : « إخواناً على سرر متقابلين »[4] .

---

(١) آية ٧٨ سورة الحج ،

(٢) آية ٢ سورة المائدة .

(٣) فى رواية الإمام مسلم عن النعمان بن بشير .

المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله . . . » صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٧١ .

(٤) آية ٤٤ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولنا
يبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخفُون
من الكتابِ ويعفو عن كثير ﴾

وصف الرسول — صلى الله عليه وسلم — بإظهار بعض ما أخفوه ، وذلك علامة على صدقه ؛ إذ لولا صدقه لما عَرَفَ ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم ، وذلك من أمارات خُلُقِه ؛ إذ لولا خُلُقُه لَمَا فعل ذلك ؛ فإظهار ما أبداه دليل عِلْمه ، والعفو عما أخفى برهان حِلْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جاءكُم مِّنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ
مبين * يَهْدِى به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضوانَه سُبلَ السَّلام ويُخْرِجُهم من
الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم
إلى صراطٍ مستقيم ﴾

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغنى عند فقد البصيرة ، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحى عن سِرِّه شواهد الأغيار ، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هوَ
المسيحُ ابنُ مريم قُلْ فَمَن يملِكُ مِن
الله شيئاً إنْ أراد أن يُهلكَ المسيحَ
ابنَ مريم وأمَّه ومَن فى الأرضِ جميعاً ،
ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ
وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله
على كل شىء قدير ﴾

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوامث متى يفارقه نَقْصُ الخِلْقة ؟
ومَنْ لاحت عليه شواهدُ التغيُّر أنَّى يليق به نعت الربوبية ؟

ولو قَطَعَ البقاء عن جميع ما أوجد فأى نقصٍ يعود إلى الصمد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خَلَقَ يغفر لِمَن يشاء ويعذِّب من يشاء ، ولله ملكُ السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾

البنوة[1] تقتضى المجانسة ، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ ، والمحبـةُ بين المتجانسين تقتضى الاحتظاظ والمؤانسة ، والحق سبحانه عن ذلك مُقدَّس .

فردَّ الله — سبحانه — عليهم فقال تعالى : « بل أنتم بشر ممن خلق » .

والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم ؛ فالقديم لا بعضَ له لأن الأحدية حقه ، فإذا لم يكن له عدد لم يجز أن يكون له ولد . وإذا لم يجز له ولد لم تجز — على الوجه الذى اعتقدوه — بينهم وبينه محبة .

ويقال فى الآية بشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال : « قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم » .

ويقال بيَّن فى هذه الآية أن قصارى الخلْق إمَّا عذاب وإمّا غفران ولا سبيل إلى شىء وراء ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبين لكم على فَتْرَةٍ من الرسلِ أن تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير ، فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ ، والله على كل شىء قديرٌ ﴾

---

(١) وردت (النبوة) وهى خطأ فى النسخ لأن الإشارة عائدة إلى ما جاء فى الآية : « نحن أبناء الله »

يقال فى : كل زمان تقع فَتْرَة فى سبيل الله ثم تتجدد الحال ، ويُعَمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العَدَم ، ولقد كان زمانُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أكثرَ الأزمنة بركةً ، فأحيا بظهوره ما اندرس من السبيل ، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل ، وبذلك مَنَّ عليهم ، وذكَّرهم عظيمَ نعمتِه فيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قومِ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾

كان الأمر لبنى اسرائيل — على لسان نَبيِّهم — بأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، وكان الأمر لهذه الأمة[1] — بخطاب الله لا على لسان مخلوق — بأن يذكروه فقال : « فاذكرونى أذكركم »[2] وشتان بين من أمره بذكره — سبحانه — وبين من أمره بذكر نعمته ! ثم جعل جزاءهم ثوابَه الذى هو فضله ، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذى هو قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾

المَلِكُ مِنَ المخلوقين مَنْ عَبَدَ المَلِكَ الحقيق .

ويقال المَلِكُ مَنْ مَلَكَ هواه ، والعبد من هو فى رِقِّ شهواته .

ويقال « جعلكم ملوكا » : لم يخرجكم إلى أمثالكم ، ولم يحجبكم عن نفسه بأشغالكم ، وسَهَّلَ إليه سبيلَكم فى عموم أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم مالم يؤتِ أحداً من العالمين ﴾

لئن آتى بنى إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإيتاء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده ، والاستقلال بوجوده أتمُّ من الاستغناء بمقتضى جوده .

---

(١) يقصد أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .
(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدسةَ التى كَتَبَ اللهُ لكم ﴾

من الفرق بين هذه الأمة وبين بنى إسرائيل أنه أباح لهم دخولَ الأرض المقدسة على الخصوص فقال : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة ، وبعد جهد وشدة ، وقال فى شأن هذه الأمة « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[1] فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابةَ تكليف ثم قصروا ، وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشريف ، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصروا .

وقال : « ادخلوا الأرض المقدسة . . . . . » وقال لهذه الأمة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[2] فهؤلاء ذلَّل لهم وسَّهل عليهم ، وأولئك صعَّب عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيما أنزل الله عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾

الارتداد على قسمين : عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل ، وعن الإرادة وذلك يوجب الشَّقْوَة — التى هى الفراق — على القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياموسى إنَّ فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون »

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان ، وداخلتهم هواجمُ الرعبِ فأصروا على ترك الأمر . ومَنْ طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدهم فى أَسْرِ التقدير قوالبَ متعريةً عن إمكان الإيجاد ، ولم يقع على قلبه ظلُّ التوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعمَ

---

(١) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .
(٢) آية ١٥ سورة الملك .

اللهُ عليهما ادخلوا عليهم الباب
فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾

أنعم الله (عليهما)[1] بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين ، وعلما أن من رجع إليه بنعت الاستكفاء تداركته عواجلُ الكفاية ثم قال :

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾

أى من شأن المؤمنين أن يتوكلوا ، وينبغى للمؤمن أن يتوكل .

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان . وظاهر التوكل الذى لعوام المؤمنين العلم بأن قضاءه لا رادَّ له ، وحقائق التوكل ولطائفه التى لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومِنْ الله ولله ، فإنَّ مَنْ فَقَدَ ذلك انتفى عنه اسم الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ﴾

مَنْ أقصَتْه سوابِقُ التقدير لم يزِدْه تواترُ (العظة)[2] إلا نفوراً وجحوداً .

قوله جل ذكره . ﴿ فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾

تركوا آداب الخطابِ فصرَّحوا ببيان الجحد ولم يحتشموا من مجاهرة الرد .

قوله جل ذكره ﴿ قال ربِّ إنى لا أَمْلِكُ إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾

لما ادَّعى أنَّه يملك نَفْسَهُ عرف عجزه عن مِلْكِه لنفسه حيث أخذ برأس أخيه يجرُّه إليه .

ويقال . لا أملك إلا نفسى أى لا أدخرها عن البذل فى أمرك . لا أملك إلا أخى فإنه لا يؤثر نفسه عن الذى أكلفه مِنْ قِبَلِكَ .

---

(١) (عليهما) زيادة أضفناها ليتضح المعنى .
(٢) وردت (العظمة) والمعنى يرفضها ويتطلب (العظة) التى وردت فى الآيات السابقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنها محرَّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرضِ ، فلا تأسَ على القومِ الفاسقين ﴾ .

مجاهرة الرد تعجّل العقوبة ؛ فإن من ما كَرَ الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكامن التقدير ما يُلْجِئُه إلى التطوّح فى أوطان الذُّلّ .

ويقال حيَّرهم فى مفاوزهم حتى عموا عن القَصْد ؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون ، بعد طول التعب وإدامة السير ، وكذلك من حيَّره اللهُ فى مفاوز القلب يتقلب ليلًا ونهاراً فى مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الحيرة ، فيحطون بحيث يرحلون عنها ، فلا وجهَ للرأى الصائب يلوح لهم ، ولا خلاص من بعده للتجويز يساعدهم ، والذى التجأ إلى شهود الصمدية استراح عن نقلة فكره ، ووقع فى روْح الاستبصار بعد أتعاب التوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابْنَىْ آدمَ بالحق إذ قرَّبا قرباناً فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخرِ قال لأقتلنَّكَ ﴾.

كانت الدنيا بحذافيرها فى أيديهما فحسد أحَدُهما صاحبَه ، فلم يصبر حتى أسرع فى شىء بإتلافه ، وحين لم يُقْبَلْ قربانُه اشتد حسدُه على صاحبه ، ورأى ذلك منه فهدَّده بالقتل . فأجابه بنطق التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنما يتقبل اللهُ من المتقين ﴾ .

يعنى إنما يُتَقَبَّلُ القربانُ مِمَّن[1] طالَع فى القربان مساعدةَ القدرة ، وألقى توهُّم كونه باستحقاقه واستيجابه .

قوله جل ذكره : ﴿ لئن بسطتَ إلىَّ يَدَكَ لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدى إليك لأقتلَكَ إنى أخاف اللهَ ربَّ العالمين ﴾ .

---

(١) وردت (من) وهى خطأ فى النسخ .

لئن بدأتنى بالإثارة[1] لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أَكِلُ أمرى إلى من بيده مقاليد الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى أريد أن تبوأَ بإثمى وإثمك فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ .

تحقّق بأنّ العقوبة لاحِقةٌ به على ما يسلفه من الذّنب فَرَضِىَ بانتقامِ اللهِ دون انتقامه لنفسه .

وقوله : « أن تبوء بإثمى وإثمك » الذى تستوجبه بسبب قتلك إياى ، فأضافه إلى نفسه ، وإذا رأى المظلوم ما يحلُّ بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ فطوَّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ .

لا تستولى هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق ، فإذا توالت العزائمُ الرديئةُ ، واستحكمت القصودُ الفاسدةُ من العبد صارت دواعى الحق خفيةً مغمورةً . والنَّفْسُ لا تدعو إلا (إلى)[2] اتباع الشهوات ومتابعة المعصية[3] ، وهى مجبولةٌ على الأخلاق المجوسية . فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فبعث اللهُ غراباً يبحث فى الأرضِ لِيُرِيَهُ كيف يوارى سوأةَ أخيه قال يا ويلتا أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين ﴾ .

---

(١) وردت (الإشارة) واللائم أن تكون (الإثارة) .
(٢) سقطت (إلى) من الناسخ والمعنى يستلزمها .
(٣) وردت (المصيبه) ولا معنى لها هنا وإنما اللائم (المعصية) .

إرادة الحق — سبحانه — وصولُ الخلْقِ إلى لطف الاحتياط فى أسباب التعيش ، فإذا أشكل عليهم وجهٌ من لطائف الحيلة سبَّب الله شيئاً يُعَرِّفُهم ذلك به .

قوله جل ذكره ﴿ مِنْ أجلِ ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نَفْساً بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنَّما قتل الناسَ جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسُلُنا بالبينات ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرضِ لمُسرِفون ﴾ .

هذا قريب مما قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« من سنَّ حسنة فله أجْرُها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[1] » .

قوله جل ذكره : « إنما جزاء الذين يحاربون اللهَ ورسولَه ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنفَوْا من الأرضِ ذلك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيمٌ ﴾

السعى فى الفساد على ضربين : بالظاهر وعقوبته معلومة فى مسائل الفقه بلسان العلم ، وفى الباطن وعقوبته واردة على الأسرار ، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق ، وكسوف شمس العرفان ، والستر بعد الكشف ، والحجاب بعد البسط . والحجاب استشمار

---

(١) فى رواية مسلم عن جرير بن عبد الله : (. . من سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً) حـ ٤ ص ٢٠٥٩ ط ع الحلبى .

الوحشة بعد الأُنْس ، وتبديل توالى التوفيق بصنوف الخذلان ، والنفى على بساط العبادة[1] . والإخراج إلى متابعة النفوس ، وذلك — واللهِ — خِزْىٌ عظيم وعذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا الذين تابوا مِنْ قَبْلِ أن تَقْدِروا عليهم فاعلموا أنَّ الله غفور رحيم ﴾

من أقلع عن معاصيه ، وارتدع عن ارتكاب مساويه ، قبل أن يهتك عنه ستر السداد لا تقام عليه — في الظاهر — حدودُ الشريعة لاشتباهها على الإمام ، ولايؤاخذه الحق سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهرِ ما يثبت من حاله مآلَه فى استيجاب السداد ، فإذا بدا للإمام[2] جُرْمُهُ أُقيم عليه الحدُّ وإنْ تقنَّع بنقاب التقوى .

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقريب الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ﴾

ابتغاء الوسيلة التبرى عن الحول والقوة ، والتحقق بشهود الطول والمِنَّة .

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقريب إليه بما سبق لك من إحسانه .

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة .

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل .

ويقال الوسيلة خلوص (العَقْد)[3] عن الشك .

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق فى الولاء إلى آخر العمر .

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء ، وتجريد الأحوال عن الأعجاب ، وتخليص النَّفْسِ عن الحظوظ .

---

(١) أى الاخراج من نطاق الارادة إلى نطاق العبادة .

(٢) وردت (للايمان) وهى خطأ فى النسخ إذ الامام هو الذى يقيم الحد .

(٣) وردت (العقد) وربما كانت (العقل) فهو الذى يصاب بآفة الشك ، وكلاهما مقبول فى المعنى

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثلَه معه ليَفْتَدُوا به من عذابِ يومِ القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أليم ﴾

اليوم — يقبل من الأحباب مثقال ذرة ، وغداً — لا يقبل من الأعداء ملء الأرض ذهباً ، كذا يكون الأمرُ .

ويقال إفراط العدو فى التقرب موجبٌ للمقت ، وتستر الولى[1] فى التودد إحكامٌ لأسباب الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ يريدون أن يخرجوا مِنَ النار ومام بخارجين منها ولهم عذابٌ مقيمٌ ﴾

كما أن الأعداء لا مخيص لهم من النار كذلك المُبْعَدُون عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً عن التهتك أدركهم — من فجأة الخذلان — ما يركسهم فى وهدة العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاء بما كسبا ، نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم ﴾

لو أنَّ ولياً من الأولياء سرق نصاباً من جرذ ، ووجد فيه استحقاق القطع ، أقيم عليه الحدُّ كما يقام على المتهتك ، ولا يَسْقُطُ الحدُّ لصلاحه . والإشارة فيه أن أمْرَ الملك مُقَابَلٌ بالتعظيم ، بل كل من كان أعلى رتبةً فَخَطَرُه أتمُّ وأخفى ، والمطالبةُ عليه أشدُّ[2] . فلا يَسْتَخِفَنَّ أحدٌ الإلمام بزلة « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن تاب من بعد ظُلْمه وأصلح

---

(١) وردت (المولى والصواب أن تكون (الولى) ضد (العدو) حسبما نعرف من أسلوب القشيرى

(٢) لأن أصحاب الرتبة الكبيرة بهم اقتداء ؛ فعليهم وزرهم ووزر من تبعهم .

فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه إن اللهَ
غفورٌ رحيم ﴾

من استوفى أحكام التوبة فتَدَارَكَ ما ضَيَّعه ، وندم على ما صنعه ، وأصلح من أمره ما أفسده — أقبل الله عليه بفضله فغَفَرَه[1] ، وعاد إليه باللطف فجَبَرَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تعلم أنَّ اللهَ له مُلكُ السموات
والأرض يُعذِّب من يشاء ويغفر
لمن يشاء والله على كل شيء قدير ﴾

بيَّنَ أنه لا يعذِّب مَنْ يعذِّبُ بِعَلَّة ، ولا يرحم من يرحم بعلة ، وإنما يتصرف في عبده بحق ملكه ، وأنَّ الحكمَ حكمه ، والأمرَ أمرُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الرسولُ لا يحزنك الذين
يسارِعون في الكفرِ مِنَ الذين قالوا
آمنا بأفواههم ولم تؤمِن قلوبُهم ومن
الذين هادوا سمَّاعون للكذب سمَّاعُونَ
لقومٍ آخرين لم يأتوك يحرِّفون الكَلِمَ
من بعد مواضعه يقولون إنْ أوتيتم
هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ،
ومَن يُرِدْ اللهُ فتنتَه فلن تملكَ له
من اللهِ شيئاً ﴾

مَنْ أقصاه الحقُّ عن محلِّ التقريب ، وأرخى له عنان الإمهال وَكَلَهُ إلى مكره ، ولبَّسَ عليه حاله وسِرَّه ، فهو ينهمك في أودية حسبانه ، وإنما يسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وبالُه ، فأمَرَ نَبيَّه — صلى الله عليه وسلم — بترك المبالاة بأمثالهم ، وقلة الاهتمام بأحوالهم ، وعرَّفه أنهم بمعزلٍ عن رحمته ؛ وإنَّ مَنْ ردَّته القسمة الأزلية لا تنفعه الأعلال

(١) غفره أي غطاه وستر خطاياه .

فى الاستقبال ، فقال : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » يعنى إنْ أَهَّلَه الله للحرمان ، وقيّده بشباك الخذلان فشفاعة الأغيار فيه غير مقبولة ، ولطائف القبول إليه غير موصولة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين لم يُرِد اللهُ أن يُطَهِّرَ قلوبَهم ﴾

أولئك الذين لم تعجن طينتُهم بماء السعادة فَجُبِلُوا على نجاسة الشِرْك فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقّى بفنون المعاملات .

ويقال : « من يُرِدْ الله فتنته » : مَنْ أرسل عليه غاغة الهوى ، وسلّط عليه نوازع المنى ، وأذلّه (. . .)[1] القضاء ، فليس يلقى عليه غير الشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾

وَرَدُوا من الهوان إلى الهوان ، ووُعِدُوا بالفراق ، وَرُدُّوا إلى الاحتراق ، فلا تدرى أى حاليهم أقرب من استيجاب الذل ؟ بدايتهم فى الرد أم نهايتهم فى الشِرْك والجحد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت فإنْ جاءوك فاحكم بينهم أو أعرِضْ عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضرُّوك شيئاً وإنْ حكمتَ فاحكُم بينهم بالقسط إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين ﴾

يعنى إنهم طرحوا حشمة الدِّين ، وقنعوا بالحظوظ الخسيسة واكتفوا (بالأعواض)[2] (النذرة)[3] ، فإذا تحاكموا إليك فأحِلْهم من حِلْمك على ما يستحق أمثالهم من (الازال)[4] ،

---

(١) مشتبهة .

(٢) الأعواض جمع عوض وربما كانت في الأصل (الأعراض) جمع عَرَض ، وكلاهما مقبول .

(٣) (النذرة) أى القليلة الهينة ولا نستبعد أنها (المذلة) أى الخسيسة وعند ذلك تكون الكلمة التالية رقم (٤) الأنذال جمع نذل ، وليس بمستبعد أن تكون الازال أى الاحلال فيكون السياق (فأحلهم من حلمك على ما يستحق أمثالهم من الاحلال = الازال . من قولهم حللت بالمكان أى نزلت به). وربما كان المقصود بالآزال ما سبق لهم من القسمة .

وأنت مُخيرٌ فيما تريد ؛ فسواء أقبلت عليهم فحكمت أو أعرضت فرددت فالاختيار لك .

قوله : « إن الله يحب المقسطين » : الإقساط الوقوف على حدّ الأمر من غير (حَنَفٍ)[1] إلى الحظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف يُحكِّمونك وعندهم التوراةُ فيها حُكم اللهِ ثم يتولَّوْن من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾

يعني أنهم قارفوا الجحد ، وأصرُّوا على الغي ، وتعودوا الإعراض عن الإيمان ، فمتى تؤثِّر فيهم دعوتُكَ ، وقد سُدَّتْ مسامعُهم عن القبول ، وطُبِعَ على قلوبهم سابقُ الحكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونُورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بما استُحْفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ .

يخبر أنه استحفظ بنى إسرائيل التوراة فحرَّفوها ، فلما وَكَلَ إليهم حفظها ضيَّعوها .

وأمَّا هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن ، وتولَّى — سبحانه — حفظه عليهم فقال : « إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون »[2] فلا جَرَمَ لو غيَّرَ واحدٌ حركةً أو سكوناً من القرآن لنادى الصبيان بتخطيئه .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تخشَوا الناسَ واخشونِ ﴾ .

إنَّ الخلقَ تجرى عليهم أحكامُ القدرة وأقسام التصريف ؛ فالخشية منهم فرعٌ من المحال، فإنَّ من ليس له شظية من الإيجاد فأنَّى تصحُّ منه الخشية ؟!

---

(١) حنف — ميل وليس بمستبعد أن تكون فى الأصل (حيف) إلى الحظ وكلاهما مقبول .

(٢) آية ٩ سورة الحجر

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

لاتأخذوا على جحدٍ[1] أوليائى والركونِ إلى مافيه رضاء أعدائى عِوضاً يسيراً فتبقوا بذلك عنِّى ، ولا يُبَارَكُ لكم فيما تأخذون من العوض .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله . . . » فمن اتخذ بغيره حكما ، ولم يجد — تحت جريان حكمه — رضى واستسلاماً[2] ففى شِرْكٍ خامَرَ قلبَه ، وكفرٍ قارَنَ سِرَّه . وهيهات أن يكون على سَوَاء !

قوله جل ذكره : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنَّ النَّفسَ بالنَّفس والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسِّنَّ بالسن والجروحَ قِصاصٌ ، فمن تَصدَّقَ به فهو كفَّارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هم الظالمون ﴾ .

بيَّن أن اعتبار العدالة كان حتما فى شرعهم ، ولمَّا جنحوا إلى التضييع استوجبوا الملام . «فمن تصدَّق به فهو كفارة له» ، يعنى فمن آثر ترك مالهُ باعتناق العفو لم يخسر علينا باستيجاب الشكر ، ومن أبى إلا تمادياً فى إجابة دواعى الهوى فهم الذين وضعوا الشىء فى غير موضعه؛ أى استبدلوا بلزوم الحقائق متابعةَ الحظوظ ، وبإيثار الفتوة موافقةَ البشرية[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة

---

(١) وردت (جهد) بالهاء والملائم أن تكون (جحد) فهكذا تشير الآية الكريمة ، وكذلك السياق؛ إن رضاء الأعداء يقابله جحد الأولياء .

(٢) وردت (واستلاماً) والصواب (استسلاماً) أى أى انقياداً وطاعة .

(٣) لأن من عناصر الفتوة — عند الصوفيه — البذل والإيثار والتضحية

وآتيناه الإنجيل فيه هُدًى ونورٌ
ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة
وهدًى وموعظةً للمتقين ﴾ .

يعنى أتبعناهم بعيسى ابن مريم ، وخصصناه بالإنجيل ، وفى الإنجيل تصديق لما تقدّمه ، وتحقيق لِمَا أوجب الله وألزمه ، فلا الذّينَ قضوا حقه ، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه ، ولاالرسولَ حفظوا أمره ؛ ففسقوا وضلوا ، وظلموا وزلّوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أهلُ الانجيل بما أنزل الله
فيه ومَن لم يحكم بما أنزل اللهفأولئك
هم الفاسقون ﴾ .

قال الله تعالى فى هذه السورة[1] : « ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وقال فى موضع آخر « ... فأولئك هم الظالمون » وقال فى هذه الآية « ...فأولئك هم الفاسقون» أمّا فى الأول فقال : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا . . . فأولئك هم الكافرون » لأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر .

وفى الثانى قال : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس . . . . . فأولئك هم الظالمون » لأن مَنْ جاوز حدّ القصاص واعتبار المماثلة ، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظَلَمَ بعضهم على بعض .

وأمّا ها هنا فقال : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله . . . . فأولئك هم الفاسقون » أراد به معصيةً دون الكفر والجحد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ
مُصَدِّقاً لِما بين يديه من الكِتاب
ومُهَيْمِناً عليه ﴾

---

(١) وردت فى هذه (الآية) والصواب أن تكون (السورة) لأن القشيرى ألقى نظرة شاملة على آية واحدة ذات نهايات شتى فى السورة كلها .

(٢) وهذه هى المنزلة بين الكفر والإيمان — كما يسميها بعض علماء الكلام .

قدَّم تعريفه — صلى الله عليه وسلم — قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدَّمه فيستوجب ما استوجبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل اللهُ ، ولا تتبِعْ أهواءهم عما جاءك من الحقِّ لكلٍ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ، ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدةً ، ولكن لِيَبْلُوَكم فيما آتاكم ﴾

لا تملكك مودةُ قريبٍ أو حميمٍ ، واعتنِقْ ملازمةَ أمرِ الله — تبارك وتعالى — بترك كل نصيبٍ لك .

ثم قال : « لكل جعلنا شرعة ومنهاجاً » يعنى طريقةً وسُنَّةً ؛ أى أفردنا كلَّ واحدٍ منكم — معاشِرَ الأنبياءِ — بطريقة ، (وأمَّا[1]) أنت فلا يدانيك فى طريقتك أحد ، وأنت المقدَّمُ على الكافة ، والمُفضَّلُ على الجملة ، ولو شاء الله لَسَوَّى مراتبكم ، ولكن غاير بينكم ابتلاء ، وفَضَّلَ بعضكم على بعض امتحاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستبقوا الخيراتِ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته ؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد ، والعارفون همتهم من حيث المواجد[2] .

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا ، واستباق العابدين بقَطْعِ الهوى ، واستباق العارفين بنفى المُنى ، واستباق الموحدين بترك الورى ، و نسيان الدنيا والعُقبى .

---

(١) وردت (ولما) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وقع الناسخ فى تكرار عبارة (والعارفون ..) فحذفناها

قوله جل ذكره : ﴿ وأنِ احكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعضِ ما أنزل اللهُ إليك ﴾

قُمْ بالله فيما تحكم بينهم ، وأقِمْ حقوقه فيما تؤخر وتقدم ، ولا تلاحظ الأغيار فيما (تؤثر)[1] أو تَذَر ، فإن الكلَّ محوٌ فى التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنَّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإنَّ كثيراً من الناسِ لفاسقون ﴾

يعنى (عِظْهم)[2] بلسان العلم فإنْ أبَوْا قبولاً فشاهِدْهم بعين الحكم . ويقال : أشْدُدْ عليهم باعتناق لوازم التكليف ، فإن أعرضوا فعاينهم بعين التصريف ؛ فانَّ الحقَّ — سبحانه — بشرط التكليف يلزمهم ؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم ، فالتكليف فيما أوجب ، والتصريف فيما أوجد ، والعبرة بالإيجاد والإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أفحُكمَ الجاهلية يَبغُون ، ومَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لقومٍ يوقنون ﴾

أيعودون فى ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فَجْرُ العرفان ، وطلعت شموسُ التحقيق ، وانهتكت أستارُ الريب ؟

ويقال أيطلبون منك أن تحيدَ عن المحبة المثلى ، وقد اتضحت لك البراهين وتجلَّى اليقين ؟

ويقال أيطمعون فى استتار الحقائق فى السرائر وقد تجلت شموس اليقين ؟

---

(١) وردت (تؤشر) بالشين وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (عظمهم) بزيادة ميم وهى خطأ فى النسخ .

ويقال أتحسبون أن (. . . .)[1] ظلمة الشك لها سلطان ، وقد متّعَ نهارُ الحقائق[2] : . . . كلاّ ، فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضُهم أولياء بعضٍ ومَن يتولهّم منكم فإنه منهم إنّ الله لا يهدي القومَ الظالمين ﴾

لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه — سبحانه — إيثاراً للسكون إلى الحظ ، أو احتشاماً من القيام للحق ، أو ركونا إلى قرابة نَسَبٍ ، أو استحقاقا لمودة حميم ، أو تهيباً من استيحاش صديق . بل صمموا عقودكم على التبرّى منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض ، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين[3] . « ومن يتولهّم منكم » التحق بهم ، وانخرط فى سِلكهم ، وعُدّ فى جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبَنا دائرةٌ فعسى اللهُ أن يأتىَ بالفتح أو أمرٍ من عِنده فيصبحوا على ما أسَرُّوا فى أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا باللهجَهْدَ أيمانهم إنهم لَمَعَكُمْ حَبِطتْ أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾

---

(١) مشتبهة

(٢) متوع النهار اصطلاح صوفى تحدث القشيرى عنه فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ضمن اللوائح واللوامع والطوالع .

(٣) قائمة إلى الدين اى راجعة إلى اختلاف دينهم عنكم ، وربما سقطت من الناسخ كلمة يوم قبل (الدين) فيكون المعنى : إن العداوة بينكم وبينهم قائمة دائمة إلى يوم الدين .

يعنى إن الذين سقمت ضمائرهم ، وضعفت فى التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة[1] الأعداء خوفاً من معاداتهم ، وطمعاً فى المأمول من صحبتهم ، ولو استيقنوا أنهم فى أسر العجز وذل الإعراض ونفى الطرد لأملوا الموعود من كفاية الحق ، والمعهود من جميل رعايته ، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد ؛ فتفرّقوا فى أودية الحسبان والظنون ، وعن قريبٍ يأتيكم الفَرَجُ — أيها المؤمنون ، وتُرْزَقُون الفتحَ بحسن الإقبال ، والظفر بالمسئول لسابق الاختيار ، فيشعرون الندم ، ويقاسون الألم ، وأنتم (تعلون)[2] رءوسكم بعد الإطراق ، وتصفو لكم مَشَارِبُ الإكرام ، وتضىء بزواهر القرب مَشَارِقُ القلوب . حينئذٍ يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم يعاينون بأبصارهم ما تحققوه بالغيب فى أسرارهم ، ويَصِلُون من موعودهم إلى مايوفى ويربو على مقصودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا مَن يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ .

جعل صفة من لا يرتدُّ عن الدين أن اللهَ يحبه ويحبُّ الله ، وفى ذلك بشارة عامة للمؤمنين لأنه يجب أن يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإنَّ الله يحبه . وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً ، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه . وفى الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد .

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه : إمَّا أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه ، والمدح والثناء عليه .

أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله .

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبته إرادته لإكرامه ، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعامٍ مخصوصٍ ، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبةُ أخصَّ من الرحمة ،

---

(١) وردت (هرارة) ، وبالرجوع إلى كتب التفسير ساعدتنا على اختيار (مداراة) (انظر تفسير وجدى) .

(٢) وردت (تعلون) والملائم أن تكون (تعلون) رءوسكم بعد الإطراق .

واللفظان يعودان إلى معنىً واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته ، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق .

وأمّا محبة العبد لله — سبحانه — فهى حالة لطيفة يجدها فى قلبه ، وتحمله تلك الحالة على إيثارِ[1] موافقة أمره ، وتَرْكِ حظوظ نفسه ، وإيثارِ حقوقه — سبحانه — بكل وجه .

وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد فى الوقت الذى يعبّر عنه ؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب ، ويقال المحبة ذهاب المُحِبِّ بالكلية فى ذكر المحبوب ، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبوبه بكل وجه ، والمحبة بلاء كل كريم ، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همته أعلى فمحبته أصفى بل أوفى بل أعلى

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحوَ فيه ودَهَشٌ فى لقاء المحبوب يوجب التعطّلَ عن التمييز ، ويقال المحبة بلاء لا يُرْجَى شفاؤه، وسقام لا يعرف دواؤه .ويقال المحبة غريمٌ يلازمك لايبرح، ورقيبٌ من المحبوب يستوفى له منك دقائقَ الحقوق فى دوام الأحوال ، ويقال المحبة قضية توجب المحبة ؛ فمحبة الحق أوجبت محبة العبد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يحبهم ويحبونه أذِلةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين يجاهِدون فى سبيل اللهِ ولا يخافون لومةَ لائمٍ ذلك فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاء والله واسعٌ عليم ﴾

لولا أنه يحبهم لما أحبوه ، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنّى تكون للطينة ذِكْرُ المحبة ؟ ثم بيّن الله تعالى صفة المحبين فقال « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . يبذلون المُهَجَ فى المحبوب من غير كراهة ، ويبذلون الأرواح فى الذَبِّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور .

---

(١) وردت خطأ (إيسار) بالسين

(٢) كلام القشيرى فى المحبة هنا لا يكاد يختلف كثيراً عن كلامه عنها فى (الرسالة)

ثم قال تعالى فى صفتهم : « يجاهدون فى سبيل الله » أى يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة ، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات ، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات ، ويجاهدون بأسرارهم بالإستقامة على الشهود فى دوام الأوقات .

ثم قال : « لا يخافون لومة لائم » أى لا يلاحظون نُصْحَ حميم ، ولا يركنون إلى استقلال حكم ، ولا يجنحون إلى حظ ونصيب ، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحالٍ .

ثم بيَّن — سبحانه — أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال : « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » متفضلٌ عليم بِمَنْ يَخُصُّ بذلك من عبيده .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاةَ وهم راكعون ﴾

الولى أى الناصر ، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق — سبحانه — . فأعداء الحقِّ هم أعداء الدِّين .

و « إنما » حرفٌ يقتضى أن ما عداه بخلافه ، وأعدى عدوِّك نَفْسُكَ — كما فى الخبر — ومَنْ عادى نَفْسَهُ لم يخرج بالمخاصمة عنها مع الخلْق وبالمعارضة فيها مع الحق[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون ﴾

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصم لِلحقِّ على أنفسهم لا خصم لأنفسهم على مولاهم ، والغلبة بالحُجَّةِ والبرهان دون اليد .

ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِل . ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل أهل الباطل .

---

(١) أى إن من خاصم نفسه لم تتم بينه وبين الناس ولا بينه وبين الحق خصومة من أجل نفسه فقد انتفت حظوظها بالكلية وأسلمها لربه بلا معارضة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتَّخَذُوا دينكم هُزُواً ولَعِباً مِّنَ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلِكم والكفار أولياء واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين ﴾

نَبَّهَهُم على وجوب التحيز عنهم والتميز منهم ، فإن المخالف فى العقيدة لا يكون موافقاً فى الحقيقة .

ويقال أَمَرَهم بأن يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوا ولعباً ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون ﴾

الأذانُ دعاء إلى محلِّ النجوى ، فَمَنْ تحقَّقَ بعلوِّ المحلِّ فسماعُ الأذانِ يوجب له روْحَ القلب واسترواح الروح ، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحَظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء ، وذلك حكمُ الله : غايرَ بين عباده على ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ يا أهل الكتابِ هل تَنْقِمون مِنَّا إلاَّ أنْ آمَنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِل مِن قَبْلُ وأَنَّ أكثرَكُم فاسقون ﴾

ما لنا عندكم عيبٌ إلا أننا تحققنا أننا محو فى الله ، (وأنَّ الكائنات حاصلة بالله ولا نتقفى أثراً سوى لله فى الله)[1] ، وهذا — واللهِ — عيبٌ زائلٌ ، ونقصٌ ليس له — فى التحقيق — حاصل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل أنبئكم بِشَرٍّ مِّن ذلك مثوبة

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

عند الله مَن لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه
وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ
الطاغوت أُولئِكَ شَرٌّ مكاناً وأَضَلُّ
عَن سواءِ السبيل ﴾

يعنى أخسُّ من المذكورين قَدْرَاً ، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذلَّه، وأبعده عن نعت التخصيص فأضلَّه ، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده ، وحجبه عن شهود الحقيقة وطرده .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالكفرِ وهم قد خرجوا به واللهُ
أعلمُ بما كانوا يَكْتُمون ﴾

أظهروا الصدق ، وفى التحقيق نافقوا ، وافتضحوا من حيث أوهموا ولبَّسُوا ؛ فلا حالُهم بقيت مستورة ، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة [1] ، وهذا نعتُ كل مبطل . وعند أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة فى أنوار فراستهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وترىٰ كثيراً منهم يسارِعون
فى الإثم والعُدْوانِ وأكلِهم السُّحتَ لبئس
ما كانوا يعملون ﴾

تملكتْهُم الأطماعُ فاستهوتهم فى متاهات العناء ، وذلك نعت كل (طالع)[2] فى غير مطمع ؛ ذُلٌّ حاضر ، وصَغَارٌ مستولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبارُ عن
قولهم الإثمَ وأكلِهم السُّحْتَ لبئس
ما كانوا يصنعون ﴾

---

(١) وردت (مكتوبة) والصواب أن تكون مكبوتة لتلائم مستورة التى سبقت .
(٢) ربما كانت (طامع) فى غير مطمع وربما كانت (ضالع)

الربَّانىُّ من كان لله وبالله ؛ لم تبق منه بقية لغير الله .

ويقال الربّانىُّ الذى ارتقى عن الحدود .

والربانىُّ مَنْ توقَّى الآفات ثم ترقَّى إلى الساحات ، ثم تلقَّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات ، فخلا عن نفسه ، وصفا عن وصفه ، وقام لِرَبِّه وبربِّه .

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين ، فهم خلفاء ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم ، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله مايُومِئُون إليه ، وتحقق ما علقوا هممهم به .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهود يَدُ اللهِ مَغْلولةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان يُنفِق كيف يشاء ولَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ماأُنزِل إليكَ مِن ربِّكَ طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم العَدَاوَةَ والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فَسَاداً ، والله لا يحب المفسدين ﴾ .

صغَّر سوء قالة الموحِّدين — فى اغتياب بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين وبالشهادة ناطقين — بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول فى الله ؛ يعنى أنهم وإن أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم مَنْ نَسَبَنَا إلى ما نحن عنه مُنَزَّهٌ ، وأطلق فى وصفنا ما نحن عنه مُقدَّسٌ .

ثم إن الحق — سبحانه قال : « غُلَّتَ أيديهم ولعنوا بما قالوا » فلا ريح الصدق يشمون ، ولا نَفَساً من الحقِّ يجدون .

ثم أثنى على نفسه فقال : « بل يداه مبسوطتان »[1] أى بل قدرته بالغة ومشيئته نافذة ، ونعمته سابغة وإرادته ماضية .

ويقال « بل يداه مبسوطتان » أى يرفع ويضع ، وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحدٌ عن نِعَمِ النفع وإن خلا عن نعم الدفع .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفَّرْنا عنهم سيئاتِهم وَلأَدْخَلْناهم جناتِ النعيم ﴾

إنما وعدهم الغفرانَ بشرط التقوى . ودليل الخطاب يقتضى أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم . وقال لظالمى هذه الأمة: « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه »[2] ثم قال فى آخر الآية : « جنات عدن يدخلونها » أى أهل التقوى لأنه هو أهل المغفرة ، فإنْ تركتم التقوى فهو أهلٌ لأن يغفر

ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم ، ولكنهم وَقَفُوا فوُقِفُوا .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا مِن فوقهم ومِن تحت أرْجُلِهم ﴾

أى لو سلكوا سبيلَ الطاعة لوسَّعنا عليهم أسباب المعيشة وسَّهلنا لهم الحال حتى إن ضربوا بيمينٍ ما لقوا غيرَ اليُمْن ، وإنْ ذهبوا يَسْرةً ما وجدوا إلا اليُسْر .

قوله جل ذكره : ﴿ منهم أُمَّةٌ مُقْتَصِدة ، وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون ﴾

المقتصد الواقف على حدِّ الأمر ، لا يُقَصِّر فيُنْقِص ، ولا يجاوزُ فيزيد .

---

(١) لاحظ كيف يؤول القشيرى (اليد) ليبعد عنها كل دلالة حسية ويجعلها من الأوصاف الالهية .
(٢) آية ٣٢ سورة فاطر

ويقال المقتصدُ الذى تساوى فى هِمَّتِهِ الفقدُ والوجودُ فى الحادثات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزِل إليك مِن ربِّكَ وإن لم تفعل فما بَلَّغتَ رسالته ﴾

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك مُلاَحَظَةً لِغَيْرٍ ، إذ لا غير — فى التحقيق — إلا رسوم موضعة ، وأحكام القدرة عليها جارية .

ويقال بَيِّنْ للكافة أنك سيِّدُ ولد آدم ، وأنَّ آدم دون لوائك .

ويقال بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليك أنِّى أغفر للعصاة ولا أُبالى ، وأردُّ مِنَ المطيعين مَنْ شِئْتُ ولا أُبالى .(١)

قوله جل ذكره : ﴿ والله يعصمك من النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يهدى القومَ الكافرين ﴾

يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم ، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع عليه احتشامٌ منهم .

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تغرق فى بحر التوهم ؛ بل تشاهدهم كما هُمْ ؛ وجوداً بين طرفى العَدَم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ لَسْتُمْ على شىء حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِل إليكم من ربكم وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً فلا تأسَ على القومِ الكافرين ﴾

---

(١) يتضح من هذه الإشارة شيئان : أولهما مدى إتساع صدور الصوفية للناس ونظرتهم المتفائلة إلى سعة الرحمة الإلهية مما يطمئن العصاة ويحمس على التوبة ، وثانيهما مدى مخالفة القشيرى للمعتزلة فى مسأله وجوب المتوبة أو العقوبة على الله سبحانه ، فلا وجوب ـ عنده ـ على الله بخلافهم .

أى ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ، ولا قَدْرُكم فى الدنيا والعُقبى ، ولا مقداركم ولا منزلكم فى حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهى ، والمحافظة على أحكام الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخِر وعَمِل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾

بَيَّنَ أنهم — وإنْ تجنَّسَتْ أحوالهم — فبعدما تجمعهم أصولُ التوحيد فلهم الأمان من الوعيد ، والفوزُ بالمزيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفسُهم فريقا كَذَّبُوا وفريقا يَقْتُلُون * وحَسِبُوا ألا تكونَ فتنةٌ فعموا وصموا ثم تابَ اللهُ عليهم ثم عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم والله بصيرٌ بما يعملون ﴾

داروا مع الهوى فوقعوا فى البلاء . ومِنْ أمارات الشقاء الإصرارُ على متابعة الهوى ، وحسبوا ألا تكون فتنة ، فعموا وصموا . واغتروا بطول الإمهال فأصروا على قبيح الأعمال ، فلما أخَذَتْهم فجاءةُ الانتقام لم ينفعهم الندم ، وبَرَّحَ بهم الألم .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريم وقال المسيحُ يا بنى إسرائيل اعبدوا اللهَ ربى وربكم إنَّه مَن يُشرِكْ بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّةَ ومأواه النارُ وما للظالمين مِنْ أنصار ﴾

سَقِمَتْ بصائرهم والتبست عليهم أمارات الحدوث ، فخَلَطُوا فى عقائدهم استحقاقَ أوصافِ القِدَمِ بنعوت الحدوث !

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ وما مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه واللهُ غفورٌ رحيم ﴾

بلغ الخذلانُ بهم حداً أنْ كابروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة ، ولا يخفى فسادُ هذا على مجنونٍ . . فكيف على عاقل ؟ !

قوله : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » لم يُغْلِقْ بابَ التوبة عليهم — مع قبيح أقوالهم ، وفساد عقائدهم — تضعيفاً[1] لآمال المؤمنين بخصائص رحمته .

قوله جل ذكره : ﴿ ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعامَ انظرْ كيف نبيِّن لهم الآياتِ ثم انظُرْ أنَّى يُؤْفَكون ﴾ .

مَنْ اشتملت عليه الأرحامُ ، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنَّى يليق بوصف الإلهية ؟

ثم مَنْ مَسَّتْهُ الحاجةُ حتى اتصف بالأكل وأصابته الضرورةُ إلى أن يَخْلُصَ من بقايا الطعام فأنَّى يليق به استيجابُ العبادة والتسميةُ بالإلهية ؟

انظر — يا محمد — كيف نزيد فى إيضاح الحجة وكيف تلبَّس عليهم سلوكُ المحجة ؟

---

(١) تضعيفاً أى جعلها مضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أتعبدون مِن دون اللهِ ما لا يملكُ لكم ضَرًّا ولا نفعًا والله هو السميع العليم ﴾ .

تعليقُ القلوب — بدون الرب — فى استدفاع الشر واستجلاب الخير محيق للوقت فيما لا يُجْدِى ، وإذهابٌ للعمر فيما لا يُغنى ؛ إذ المتفردُ بالإيجاد برىء عن الأنداد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكُم غيرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أهواء قومٍ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضَلُّوا عن سَواءِ السبيل ﴾

التعمقُ فى الباطل قطعٌ لآمال الرجوع ؛ فكلما كان بُعْدُ المسافةِ مِنَ الحقِّ أتمَّ كان اليأسُ من الرجعةِ أوجبَ ، ومتَّبِعُ الضلالة شرٌّ مِنْ مبتدِعها ؛ لأن المبتدعَ يبنى والمُتَّبِع يُتِمُّ البناء ، ومنْ به كمالُ الشرِّ شرٌّ ممن منه ابتداء الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داودَ وعيسى ابنِ مريم ذلك بِما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون ﴾ .

أمَرَ الأنبياء — عليهم السلام — حتى ذكروا الكفار بالسوء ، وأمَّا الأولياء فخصَّهم بذكر نفسه فقال : « هو الذى يصلى عليكم »[1] ؛ فلعنةُ الكفار بلسان الأنبياء ، وذِكْرُ المؤمنين بالجميل بلسان الحقِّ — سبحانه ، ولو كان ذلك ذِكْرًا بالسوء لكان فيه استحقاقُ فضيلةٍ ، فكيف وهو ذكرٌ بالجميل ! ؟ ولقد قال قائلهم :

لئن ساءنى أنْ تَلْقَنِى بمساءةٍ فقد سرَّنى أنى خَطَرْتُ ببالِكا

قوله جل ذكره : ﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْن عن مُنكَرٍ

---

(١) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

فعلوه[1] لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

الرضاء بمخالفة أمر الحبيب مُوَافَقَةٌ للمخالف ، ولا أَنَفَةَ بعد تميز الخلاف . والسكوتُ عن جفاء تُعامَلُ به كَرَمٌ ، والإغضاء عما يُقَال فى محبوبك دناءةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولَّوْنَ الذين كفروا لَبِئسَ ماقدَّمَتْ لهم أنفُسُهُمْ أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ .

شرٌّ خِصال اللئام مطابقةُ مَنْ يضاد الصديق ، فإذا كان سخط الله فى موالاة أعدائه ، فرحمته — سبحانه فى معاداة أعدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيِّ وما أُنزِلَ إليه ما اتخذوهم أولياء ولـكنَّ كثيراً منهم فاسقون ﴾ .

صَرَّحَ بأنَّ مُوَافِقَ مَنْ ناوءكَ[2] آثَرَ التباعدَ عنك ؛ إذ لو كانت بينكما شَهْرَةٌ غيرُ مُنْقَطِعَةٍ لأخلصتَ[3] فى موالاته ، وأخلصَ فى مصافاتك .

قوله جل ذكره : ﴿ لتجدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنهم لايَسْتَكْبِرُون ﴾ .

بَيَّنَ أنَّ صفة العداوة وإن كانت تجمعهم فمعاداةُ بعضهم تزيد على بعض ، وبقدر

---

(١) سقطت (فعلوه) من الناسخ فاثبتناها .
(٢) وردت (ناولك) وربما كانت فى الأصل (ناواك) والتبست على الناسخ فظنها لاماً .
(٣) أخطأ الناسخ فكتبها (لأخصلت) .

ما للنصارى من التَّرهُّب أثر فيهم (بالمقاربة)[1] من أهل الحق ؛ فإنهم وإن لم ينتفعوا بهم من حيث الخلاص فقد ذكرهم الله سبحانه — بمقاربة أهل الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسولِ
ترى أعينَهم تفيضُ من الدمعِ
مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا
فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

هذه صفة من نظر إليه الحق نظر القبول ، فإذا قَرَعتْ سمْعَهُم دعوةُ الحقِّ ابتسمت البصيرة فى قلوبهم ، فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لنا لا نؤمِنُ بالله وما جاءنا
من الحقِّ ونطمعُ أن يُدْخِلنا ربُّنا
مع القومِ الصالحين ﴾

وأى عذر لنا فى التعريج فى أوطان الارتياب ، وقد تجلَّت لقلوبنا الحجج ؟ ثم ما نؤمله من حُسْنِ العاقبة . متى بدونه يمكن أن نطلبه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنَّاتٍ تجرى
من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك
جزاء المحسنين ﴾

لمَّا صَدَقَتْ آمالهم قابلها بالتحقيق ، سنَّةً منه — سبحانه — ألا يخيب راجيه ، ولا يرد مؤمليه[2] ، وإنما علَّق الثواب على قولِ القلب الذى هو شهادةٌ عن شهوده ، فأمَّا النظر المنفردُ عن البصيرةِ فلا ثوابَ عليه ولا إيجاب[3] .

---

(١) وردت (بالمقرنة) والصواب أن تكون (المقاربة) فقد وردت كذلك فيما بعد إشارة إلى ما فى الآية (أقربهم مودة . . .) . وربما قبلنا (المقارنة) على أساس مقارنة النصارى باليهود .

(٢) وردت (مؤلميه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) لاحظ هنا قيمة الإيمان النظرى بالقياس إلى الإيمان القلبى ، ومغزى ذلك فى التسامح الدينى .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا
أولئك أصحابُ الجحيم ﴾

(هذا) أثر الإعراض عن الأعداء فى مقابلة أثر الإقبال على الأولياء معجّلاً ومؤجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا
طيباتِ ما أحلَّ الله لكم ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين ﴾

من أمارات السعادة الوقوفُ على حد الأمر ؛ إنْ أباحَ الحقُّ شيئاً قَبِلَه ، وقابله بالخشوع ، وإنْ حَظَرَ شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود ..

ومما أباحه من الطيبات الاستروَاح إلى نسيم القرب فى أوطان الخلوة ، وتحريم ذلك : إنْ استبدَلَ تلك الحالة بالخلطة دون العزلة ؛ والعِشْرَةِ دون الخلوة ، وذلك هو العدوان العظيم والخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ وكُلُوا مما رزقكم اللهُ حلالاً
طيّباً ، واتقوا اللهَ الذى أنتم به
مؤمنون ﴾

الحلال الصّافى بأن يأكلَ العبدُ ما يأكلُ على شهوده — سبحانه — فإنْ نَزَلَتْ الحالةُ عن هذا فعَلَى ذِكْره — سبحانه — فإنَّ الأكلَ على الغفلة حرامٌ فى شريعة الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يؤاخذكم اللهُ باللَّغْوِ فى أيمانِكم
ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتُم الأيمانَ
فكفَّارتُه إطعامُ عشرةِ مساكين
من أوْسَط ما تُطْعِمُون أهليكم
أو كِسْوَتُهم أو تحريرُ رقبةٍ ، فمن
لم يجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ ، ذلك
كفَّارةُ أيمانكم إذا حَلَفْتُم واحفظوا

أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم
آياته لعلكم تشكرون ﴾

الإشارة منه إلى وقتٍ يغلب على قلبك التعطشُ إلى شيء من إقباله أو وصاله ، فتُقسِمُ عليه بجماله أو جلاله أن يرزقَك شظيةً من إقباله ، فكذلك فى شريعة الرضا نوعٌ من اليمين ، فيعفو عنك رحمةً عليك لضعف حالك . والأولى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت ما يُجْرِى عليكَ من أحكامه فى الردِّ والصد ، وأن تؤثِرَ استقامتَك فى أداء حقوقه على إكرامك بحسن تقريبه وإقباله ، كما قال قائلهم :

أُريدُ وِصالَه ويريد هجرى فأترُكُ ما أريد لما يريد

ومِنَ اللغوِ فى اليمين — عندهم — ما يجرى على لسانهم فى حال غلبات الوَجْد من تجريد العهد وتأكيد العقد ، فيقول :

وحقِّك ما نظرتُ إلى سواكا ، ولا قُلْت بغيرك . . ولا حُلْتُ عن عهدك ، وأمثال هذا . . .

وكلُّه فى حكم التوحيد لغو ، وعن شهود عهد الأحدية سهوٌ . . . ومَنْ أنتَ فى الرِّفعةِ حتى تَعْدِمَ نَفْسَكَ ؟ وأين فى الدار ديَّار حتى تقول بتركه أو تتحقق بوصله أو هجره ؟ كلا . . . بل هو الله الواحد القهار[1] .

وكما أن الكفَّارة الشرعيةَ إمَّا عِتْقٌ أو إطعامٌ وإما كسوةٌ فإن لم تستطع فصيام ثلاثة أيام : فكفَّارتهم — على موجب الإشارة — إمّا بذل الروح بحكم الوَجْدِ ، أو بذل القلب بصحة القصد ، أو بذل النفس بدوام الجهد ، فإن عجزتَ فإمساكٌ وصيامٌ عن المناهى والزواجر .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنو إنما الخمرُ والميسرُ

---

(١) وشبيه بذلك قول الشبلى حين سئل عن التوحيد (من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد ، ومن أشار إليه فهو ثنوى ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ، ومن نطق فيه فهو غافل . . . وكل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، محدث مصنوع مثلكم » الرساله ص ١٤٩ .

والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عمل
الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحون ﴾

الخمر ما خامر العقول ، والخمر حرام .

والإشارة فيه أنه يزيد نَفَادَ العقل بما يوجب عليه من الالتباس .

ومَنْ شَرِبَ من خمر الغفلة فسُكْرُه أصعب ؛ فشرابُ الغفلةِ يوجب البعد عن الحقيقة .

وكما أن من سَكِرَ من خمر الدنيا ممنوعٌ عن الصلاةِ فمن سَكِرَ من خمر الغفلة فهو محجوبٌ عن المواصلاتِ .

وكما أنَّ مَنْ شَرِبَ من خمر الدنيا وجب عليه الحدُّ فكذلك من شرِبَ شرابَ الغفلة فعليه الحدُّ إذ يُضْرَبُ بسياط الخوف .

وكما أنَّ السكرانَ لا يُقامُ عليه الحدُّ مالم يُفِقْ فالغافل لاينجح فيه الوعظُ ما لم ينته .

وكما أن مفتاحَ الكبائر شربُ الخمر (فالغفلة)[1] أصلُ كلِّ زَلَّة ، وسببُ كلِّ ذِلَّة وبدء كل بُعْد وحجبة عن الله تعالى .

ويقال لم يحرم عليه الشرابَ فى الدنيا إلا وأباح له شرابَ القلوب ؛ فشراب الكبائر محظور (وشراب الاستئناس مبذول ، وعلى حسب المواجد حظى القوم بالشراب)[2] ، وحيثما كان الشرابُ كان السكْر ، وفى معناه أنشدوا :

فما ملَّ ساقيها وما ملَّ شارب عقار لحاظ كأسه يسكر اللُّبَّا
فصحوك من لفظى هو الوصل كله وسكرك من لحظى يبيح لك الشربا

وحُرِّم الميسرُ فى الشرع ، وفى شريعة الحب القوم مقهورون ؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم مطروحة فى شوارع التقدير ، يطؤها كل عابر سبيل من الصادرين من عين المقادير ، وأرواحهم مستباحة بحكم القهر ، عليها خرجت القُرْعةُ من (. . .)[3] الحكم ، قال تعالى « فساهم فكان من المدحضين »[4] .

---

(١) اضفنا (الغفلة) وليست موجودة فى النص ليتضح المعنى .
(٢) ما بين القوسين مثبت فى الهامش نقلناه إلى موضعه حسب العلامات .
(٣) مشتبهة . (٤) آية ١٤١ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يريد الشيطانُ أن يوقِع بينكم العداوةَ والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر اللهِ وعن الصلاة فهل أنتم مُنْتَهُون ﴾ .

طال بُعْدُهم عن الحقيقة فقاسوا الهوان فى مطارح الغربة ، وصاروا سخرة للشيطان ؛ فبقوا الصلاة التى هى محل النجوى وكمال الراحة ، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهِم بما تولد من الشحناء والبغضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ .

كلما كان العبد أعرفَ بربه كان أخوفَ من ربه ، وإنما ينتفى الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله : « أولئك لهم الأمن »[1] وذلك عند دخول الجنة . وحقيقةُ الحذر نهوضُ القلب بدوام الاستغاثة مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يُحِبُّ المحسنين ﴾

من حافظ على الأمر والنهى فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يُضَايَق فيها ، وإنما المقصودُ من العبد التأدبُ بصحبة طريقه سبحانه ، فإذا اتَّقى الشِرْكَ تعرَّف ، ثم اتَّقى الحرامَ فما تصرَّف ، ثم اتقى الشحَّ فآثر وما أسرف .

---

(١) آية ٨٢ سورة الأنعام .

وقوله « ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا . . . » يعنى اتقوا المنع[1] وأحسنوا للخلق — وهذا للعموم . ثم اتقوا شهود الخلق، فأحسنُ الشهودِ الحقُّ ، والإحسانُ أنْ تعبد الله كأنك تراه — وهذا للخواص .

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالا)[2] والمحسنين أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿يأيها الذين آمنوا لَيَبْلُوَنَّكم اللهُ بشىء
من الصيد تناله أيديكم ورماحُكم ليعلمَ
اللهُ مَن يَخَافُه بالغيب فَمَنِ اعتدى
بعد ذلك فله عذابٌ أليم *
يأيها الذين آمنوا لا تَقْتُلُوا الصيدَ
وأنتم حُرُمٌ ومَنْ قَتَلَه منكم متعمداً
فجزاء مِثلُ ما قَتَلَ من النَّعَم يَحْكُمُ به
ذَوَا عَدْلٍ منكم هدْيا بالغ الكعبة
أو كَفَّارةٌ طعامُ مساكين أوْ عَدْلُ
ذلك صياماً لِيَذُوقَ وبالَ أمرِه
عفا اللهُ عمَّا سَلَفَ ومَنْ عاد فينتقِمُ
اللهُ منه والله عزيزٌ ذو انتقام﴾ .

أباح الصيد لمن كان حَلالاً[3] ، وحرَّم الصيد على المُحْرِم الذى قَصْدُه زيارة البيت . والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغى أن يكون الصيد منه فى الأمان ، لا يتأذى منه حيوان بحال ، لذا قالوا : البَرُّ مَنْ لا يؤذى الذر ولا يُضْمِر الشر .

ويقال الإشارة فى هذا أنْ مَنْ قصدَنا فعليه نَبْذُ الأطماع جملةً ، ولا ينبغى أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال .

---

(١) أى منع الإحسان .
(٢) ترجح أنها فى الأصل (أموالا) .
(٣) الحلال = الخارج من الإحرام (المنجد : مادة حل) .

وكما أنَّ الصيدَ على المُحْرِم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار - على الواجد — حرامٌ ما دام مُحْرِماً بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحرِمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ، أو طمع أو رغب فى شىء أو اختار لَزِمَتْهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع ، ولكن كفّارته تجرده — على الحقيقة — عن كل غير ، قليلٍ أو كثير ، صغير أو كبير .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّ لكم صيدُ البحر وطعامُهُ متاعاً لكم وللسيارةِ وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً واتقوا اللهَ الذى إليه تُحشَرون ﴾

حُكْمُ البحرِ خِلافُ حُكْمِ البر . وإذا غرق العبدُ فى بحار الحقائق سَقَطَ حكمه ، فصيد البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محواً ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌ ، واللهُ غالِبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ جعل اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناسِ والشهرَ الحرامَ والهَدْىَ والقلائدَ ذلك لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يعلم ما فى السموات وما فى الأرضِ وأنَّ اللهَ بكل شىء عليم ﴾

حَكَمَ الله سبحانه — بأن يكون بيتُه — اليومَ ملجأً يلوذ به كل مؤمِّل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذى أرَبٍ .

والبيتُ حَجَرٌ والعبد مَدَرٌ ، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذى لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير .

قوله جل ذكره : ﴿ اعلموا أنَّ الله شَديدُ العقابِ وأنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إنْ زاغوا عن الشهود لحظةً ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ما على الرسولِ إلا البلاغُ والله يعلم ما تُبْدُون وما تكْتُمون * قل لا يستوى الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيثِ فاتقوا الله يا أولى الألبابِ لعلكم تفلحون ﴾

المتفرِّدُ بالإلهية اللهُ . والرسولُ — وإنْ جلَّ قَدْرُه — فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره)[1] .

قوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب » : الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى فى حالة اكتسابه ، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق .

ويقال الخبيث مالم يُخْرَجْ منه حقُّ الله تعالى ، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه — سبحانه . ويقال الخبيث ما ادخرتَه لنفسك ، والطيب ما قدَّمتَه لأمره .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم عفا اللهُ عنها والله غفورٌ حَليمٌ ﴾

---

(١) لا نستبعد ايضاً انها ربما كانت فى الأصل (بتيسيره) ، وكلاهما مقبول فى السياق .

إذا أُسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلمٍ أُخْفِيَ عنكم ، فيتنغّص (بالتج ...)[1] — عليكم — عَيْشُكم .

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر — حيث لا تستوجبون ذلك — فيسوءكم تقاصرُ رتبتكم .

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من (التفال)[2] ولا تطلبوا أسرار البارى ، واركنوا إلى روْح المنى فى استدفاع ما (ظلكم)[3] ولا تبحثوا عن سر ذلك ، وراعوا الأمر مجملاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قد سألها قومٌ مِّن قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾

يعنى توهَّم قومٌ أنهم محررون عن التأثر فيما يصادفهم من تجاءة التقدير ، وذلك منهم ظَنٌّ ، كما يقول بعضهم :

تبيَّن يومَ البيْن أنَّ اعتزامَه على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

قوله جل ذكره : ﴿ ما جعل اللهُ من بَحِيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾

هذه أحكامٌ ابتدعوها ، فردَّهم الحقُّ — سبحانه — عن الابتداع ، وأمَرهم بحسن الاتِّباع ، وأخبر أنَّ ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللهُ

---

(١) بقية الكلمة مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (التجسس) وهى مقبولة هكذا فى السياق ؛ أى لا تجعلوا التجسس ومحاولة معرفة الأسرار ينغص عليكم عيشكم .

(٢) هكذا فى النسخ ونرجح أنها فى الأصل (التأويل) وإن كانت بعيدة فى الرسم .

(٣) أى ما غشيكم من سُحُب الإعراض .

وإلى الرسول قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا
عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾

إذا هتفت بهم دواعى الحقّ بالجنوح إلى وصف الصدق صدّهم عن الإجابة ما مرنوا عليه من سهولة (التقليد)[1] ، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلاّ فى ضلال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم
لا يضرُّكم مَّن ضلّ إذا اهتديتم
إلى الله مرجعكم جميعاً فيُنَبِّئُكم بما
كنتم تعملون ﴾

يكفى للفقير أن يعشىَ وقد جُبِرَ بعضُ (كَسْرِه)[2] ، فأمّا إذا ادّعى التقدم أو الطمع فى إنجادِ منْ سواه فمحال من (الحدث)[3] والظن .

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه ، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرّغ إلى غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا شهادةُ بَيْنِكم إذا
حضرَ أحدَكم الموتُ حين الوصية
اثنان ذَوَا عدلٍ منكم أو آخران من
غيركم إنْ أنتم ضربتم فى الأرض
فأصابتكم مصيبةُ الموتِ تحبسونهما
من بعد الصلاة فيُقسِمانِ بالله إن ارتبتم
لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قُربى
ولا نكتُمُ شهادةَ الله إنّا إذاً لَمِنَ

---

(١) وردت (التقليل) والصواب (تقليد) آبائهم واسلافهم كما فى الآية .
(٢) وردت (كثره) بالثاء والصواب : جبر (كسره) بالسين .
(٣) ربما كانت فى الأصل (الحدس) لتتمشى مع الظن .

الآثمين * فإنْ عُثِرَ على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مَقامهما من الذين استحق عليهم الأوْلَيان فيقسمان بالله لَشَهادَتُنا أحقُّ من شهادتهما وما اعتَدَيْنا إنا إذاً لمِنَ الظالمين * ذلك أدنى أن يَأتُوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدَّ أيْمانٌ بعد أيْمانهم واتقوا اللهَ واسمعوا ، والله لا يهدى القومَ الفاسقين ﴾

حكم هذه الآية كان ثابتاً فى الشرع ونُسخ ، وفى بيان التفسير تفصيله .

والنسخُ هو الإزالة ، وذلك جائزٌ فى العبادات .

ومعنى النسخ يوجد فى سلوك المريدين ؛ فهم فى الابتداء فَرْضُهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات . فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شىء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر ، فهو كالنسخ من حيث الصورة .

قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها »[1] . واتصافهم بمراعاة القلوب أتمُّ بتأديبهم بأحكام المعاملات[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم يجمع اللهُ الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلمَ لنا إنَّك أنتَ علاَّمُ الغيوب ﴾

يكاشفهم بنعت الجلال فتنخنس فهومُهم وعلومُهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق

---

(١) آية ١٠٦ سورة البقرة . (٢) أى أن مراعاة الحقيقة تتم بمراعاة الشريعة .

ويقولون : « لا علم لنا » ، وهكذا تكون الحالة غداً : مَنْ قال لشيء، أو مَالَ لشيء مما يكون نعتاً بمخلوق فعند ظهور وابل التعزُّز تتلاشى الجملة ، فالملائكة يقولون : « ما عبدناك حق عبادتك » والأنبياء يقولون : « لا عِلْمَ لنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيَّدتُك بروح القُدُس تكلمُ الناسَ فى المهد وكهلاً وإذ علَّمتُكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتُبْرِئُ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففتَ بنى إسرائيل عنك إذ جئتَهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحب والهيمان فى المذكور[1] ، وكلُّ وقتٍ للأحباب يمضى يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم : إما عليهم وإمَّا عنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشْهَدْ بأنَّنا مسلمون ﴾

---

(١) أعلى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور وفيها ينتقل العبد من مرتبة ذكر النعم إلى ذكر المنعم. فكأن القشيرى يقصد بإشارته إلى ان تذكير عيسى وامه بالنعم التى وردت فى الآية تحثهما على الارتقاء من مرحلة النظر إلى النعم إلى مرحلة النظر إلى صاحبها سبحانه وتعالى ، وحبه والهيمان فيه .

وإنما خصَّهم بالوحى إليهم إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم[1] ، وفى الأثر : « هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربُّك أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبُنا ونعلم أن قد صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشاهدين ﴾

طلبوا المائدةَ لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعُذِرُوا وأجيبوا إليها ؛ إذ كان مرادُهم حصولَ اليقين وزيادةَ البصيرة .

ويقال كلٌّ يطلب سُؤْلَه على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه فى مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه فى (فائدة)[2] من الموارد يَرِدُها ، وعزيز منهم من يجد الفناء[3] عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزِلْ علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخِرنا ، وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾

شَتَّان بين أمة طلب لهم نبيُّهم سكوناً بإنزال المائدة عليهم ، وبين إمة بدأهم ـ سبحانه ـ

---

(١) وهذا يطابق فكرة القشيرى فى الولاية وكيف انها ملحقة بالمعجزة ، فما يظهر على الولى من كرامة هو بركة النبي الذى الولى من امته وعصره .

(٢) ربما كانت (مائدة) ليتم التقابل بين المائدتين الحسية والمعنوية .

(٣) ربما كانت (الفناء) اى يجد الاستغناء عن كل برهان ودليل ، وتصح (الفناء) بالفاء على معنى أن فناءه فى الله لا يحوجه إلى برهان أو دليل . .

بإنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد ، قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »[1]

وقال فى صفتهم « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »[2]

وفَرْقٌ بين مَنْ زيادةُ إيمانه بآياته التى تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُبَاحُ لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الله إنى مُنَزِّلُهَا عليكم فمَن يكفرْ بعدُ منكم فإنى أُعَذِّبُهُ عذاباً لا أُعذبُهُ أحَداً مِّنَ العالمين ﴾

أجابه إلى سؤاله لهم ، ولكن توعدهم[3] بأليم العقاب لو خالفوا بعده لِيَعْلَمَ السالكون أنَّ المراد إذا حصل ، وأنْ الكرامة إذا تحققت — فالخطر أشدُّ والحالُ من الآفة أقربُ ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، ومحن الأكابر إذا حلَّت جلَّت .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناسِ اتخذونى وأمى إلهين مِن دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علاَّمُ الغيوب ﴾

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث ، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف .

---

(١) آية ٤ سورة الفتح .
(٢) آية ٢ سورة الأنفال .
(٣) وردت (يوعدم) .

ثم إن عيسى — عليه السلام — حفظ أدب الخطاب فلم يُزَكِّ نَفْسَه ، بل بدأ بالثناء على الحق — سبحانه — فقال : تنزيهاً لك ! إنى أنزهك عما لا يليق بوصفك .

ثم قال : « ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » أى إنى إن كنت مخصوصاً مِنْ قِبَلِكَ بالرسالة — وشرط النبوة العصمة — فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لى ؟ .

ثم إنى « إن كنتُ قلتُه فقد علمته » . كان واثقاً بأن الحقَّ — سبحانه — عليم بنزاهته من تلك القالة .

« تعلم ما فى نفسى » : أى علمك محيطٌ بكل معلوم .

« ولا أعلم ما فى نفسك » أى لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعَرِّفُنِي بإعلامك . « إنك أنت علاَّم الغيوب » الذى لا يخرج معلوم عن علمك ، ولا مقدور عن حكمك .

قوله جل ذكره : ﴿ ما قُلْتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن
اعبدوا الله ربى وربَّكم وكنتُ عليهم
شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتنى
كُنتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت
على كل شىء شهيد ﴾

ما دعوتُهم إلا لعبادتك ، وما أمرتهم إلا بتوحيدك وتقديسك ، وما دمت حياً فيهم كنت (. . . .)[1] على هذه الجملة ، فلما فارقتُهم كان تصرفهم فى قبضتك على مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وَصْفِ وفاقهم وخلافهم ، ولِعَمَتَى اقتصادهم[2] وإسرافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تعذِّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم
فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾

---

(١) مشتبهة .
(٢) الاقتصاد هنا معناها الاعتدال .

بيَّن أن حكم المولى فى عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه ، فقال إن تعذبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أى المُعِزّ لم بمغفرتك لهم .

ويقال أنت العزيز الحكيم الذى لا يضرك كُفْرُهم .

ويقال « العزيز » القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند)[1] القدرة سِمَةُ الكرمِ ، وعند العجز أمارةُ الذُّلِّ .

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن (تتجمل)[2] بطاعة مطيعٍ أو تنتقص[3] بزلّةِ عاصٍ . وقوله « الحكيم » ردٌّ على من قال : غفران الشِّركِ ليس بصحيح فى الحكمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الله هذا يومُ ينفع الصادقين صدقُهم لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ﴾

مَنْ تعجَّل ميراثَ صدقه فى دنياه من قبولٍ حصل له من الناس ، أو رياسةٍ عقدت له ، أو نفعٍ وصل إليه من جاهٍ[4] أو مالٍ . فلا شىء له فى آجله من صواب صدقه ، لأن الحقَّ — سبحانه — نصّ بأنَّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ رَّضِىَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾

ورضاء الحق — سبحانه — إثباتُ مَحَلٍّ لهم ، وثناؤه عليهم ومدحُهُ لهم ، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله . ورضاؤهم عن الحقِ — سبحانه — فى الآخرة وصولهم إلى مناهم ؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى .

---

(١) وردت (عن) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (تتحمل) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (تنتقض) بالضاد وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت (جاره) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ لله مُلْكُ السموات والأرض وما فيهن ﴾

تَمَدَّحَ الحقُّ — سبحانه — بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات ، الصالحة لإيجاد المصنوعات ، ولم يتجمل بإضافة غيرٍ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ ، أو عينٍ أو طلل .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾

من الإبعاد والإسعاد ، والصد والرد ، والدفع والنفع ، والقمع والمنع .

السورة التى تذكر فيها الأنعام

« بسم الله الرحمن الرحيم »

باسمه استنارت القلوب واستقلَّت ، وباسمه زالت الكروب واضمحلت ، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت ، وبا (. . .)[1] انْخَنَسَتْ العقولُ فطاحت .

ويقال باسم الله نال كلُّ مؤمِّلٍ مأموله ، وبرحمة الله وَجَدَ كل واجد وصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدلله الذى خَلقَ السموات والأرضَ وَجَعَلَ الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾

بدأ الله — سبحانه — بالثناء على نفسه ، فحمد نفسه بثنائه الأزلىّ وأخبر عن سنائه الصمدى ، وعلائه الأحدى فقال : « الحمد لله » .

وقوله عز وجل : « الذى خلق السموات والأرض » : « فالذى » إشارة و « خلق السموات والأرض » عبارة. استقلت الأسرارُ بسماع « الذى » لتحققها بوجوده ، ودوامها لشهوده ، واحتاجت القلوب عند سماع « الذى » إلى سماع الصلة لأن « الذى » من الأسماء الموصولة بكونِ القلوب تحت ستر الغيب فقال : « خلق السموات والأرض »

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره ﴿ وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلُون ﴾

خَلَقَ ظلمةَ الليل وضياء النهار ، ووحشةَ الكفر والشِرْك ، ونور العرفان والاستبصار .

ويقال جَعَلَ الظلماتِ نصيبَ قومٍ لا لِجُرْمٍ سَلَفَ ، والنورَ نصيبَ قومٍ لا لاستحقاقٍ سبق ، ولكنه حُكْمٌ به جرى قضاؤه .

ويقال جعل ظلماتِ العصيان محنةَ قومٍ ، ونور العرفان نزهةَ قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى خلقكم من طينٍ ثم قضى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمّى عنده ثم أنتم تَمْتَرون ﴾

أثبت الأصل من الطين وأودعها عجائب (السير)[1] ، وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق ، فالعِبْرةُ بالوَصْلِ لا بالأصل ؛ فالوَصْلُ قُرْبَةٌ والأصل تُرْبَةٌ ، الأصل من حيث النُّطفة والقطرة، والوصل من حيث القربة والنَّصرة .

قوله « ثم قضى أجلًا وأجل مُسَمًّى عنده » : جعل للامتحان أجلًا ، ثم جعل للامتنان أجلا ، فَأَجَلُ الامتحان فى الدنيا ، وأَجَلُ الامتنان فى العُقبى .

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلًا وهو وقت المهلة ، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة ؛ فالمهلة لها مدًى ومنتهى ، والوصلة بلا مدًى ولا منتهى ؛ فوقتُ الوجودِ له ابتداء وهو حين تطلع شموس التوحيد ثم يتسرمد[2] فلا غروب لها بعد الطلوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سِرَّكم وجهركم ويعلم ماتكْسِبُون ﴾.

---

(١) إما ان تكون (السير) جمع سيرة او تكون (السير) مصدر سار يسير ، ولا نستبعد . انها فى الأصل (السر) فالسر — كما يقول صاحب اللمع — هو خفاء بين العدم والوجود(اللمع ص٤٣٠)

(٢) وفى ذلك يقول الشبلى :

تسرمد وقتى فيك وهو مسرمد وافنيتنى عنى فصرت مجرداً

(اللمع ص ٤٤٢)

وهو الذى هو معبودُ مَنْ فى السماء ، مقصود مَنْ فى الأرض ، وهو الموجود قبل كل سماء وفضاء ، وظلام وضياء ، وشمس وقمر ، وعين وأثر ، وغيْر وغَبَر .

قوله جل ذكره : ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربِّهم إلا كانوا عنها مُعْرضين﴾ .

أى لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابلوهُ جحداً وكفراً ، ولا يُولِيهم إقبالاً إلا قابلوه بإعراض ، ولا يلقاهم بَسْطًا إلاَّ (. . . .)[1] بانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَد كذَّبوا بالحق لمَّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ .

إنهم أصَرُّوا على الخلافِ مستكبرين ، وعن قريب يقاسون وبالَ أمرهم ، ويذوقون غِبَّ جُحْدِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كم أهلكنا من قَبْلِهم مِن قرن مَكَّنَّاهم فى الأرضِ مالم نُمَكِّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مِدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا مِنْ بعدهم قَرْنًا آخَرِين﴾ .

يعنى مَنْ تَقَدَّمَهُم كانوا أشدَّ تمكناً فى إمهالنا ، وأكثر نصيبًا – فى الظاهر – من أقوالنا ؛ سهَّلنا لهم أسبابَ المعاش ، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش ، فحين وَطَّنُوا على كواذب المنى قلوبَهم ، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبَهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير ، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من النَّدَم ، وذاقوا دونه طعم الألم . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، وأورثناهم مساكنهم ، وأسكناهم أماكنهم ، فلمَّا انخرطوا – في النىّ – عن

(١) مشتبهة .

سلكهم ، ألحقناهم فى الإهلاك بهم ، سُنَّةً منا فى الانتقام قضيناها على أعدائنا ، وعادةً فى الإكرام أجريناها لأوليائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ .

يُخْبِرُ عن كمال قدرته فى إبداء مايريده بعد ما قَضَى لهم الضلالَ ، فلو أشهدهم كُلَّ دليل ، وأَوْضَحَ لهم كل سبيل ما ازدادوا إلا تمادياً فى الضلال والنفرة ، وانهماكاً فى الجهل والغىّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا أُنزِل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضِىَ الأمر ثم لا يُنظَرُون ﴾ .

بيَّنَ أنَّ العِبْرةَ بالقسمة دون الاعتبار بالحجة ، وما يغنى السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر ؟ كذلك ما تغنى الحجَجُ عند مَنْ عدم عناية الأزل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً وللَبَسْنَا عليهم ما يَلبِسُون ﴾ .

مَنْ لم يُقَدِّسْ سِرَّه لَبَّسَ عليه أمْرَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد استُهْزِىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِك فحاقَ بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

أى سَبَقَكَ — يا محمد — مَنْ كُذِّب به كما كُذِّبْتَ ، فحقَّ لهم نصرنا ، فانتقمنا ممن ناوءهم ، فعاد إليهم وبالُ كيدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ سيروا فى الأرضِ ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين ﴾ .

قُلْ دوخوا فى الأرضِ ، وسيحوا فى سيركم فيها من الطول والعَرْضِ ، ثم انظروا هل أفْلَتَ من حكمنا أحدٌ ، وهل وجد من دونَ أمرنا مُلْتَحَدًا[1] ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِمَن ما فى السموٰاتِ والأرض قُلْ لله كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمةَ ليَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه الذين خَسِروا أنفُسَهم فهم لا يؤمنون ﴾

سَلْهُم هل فى الدار ديار ؟ وهل للكونِ — فى التحقيق — عند الحق مقدار ؟ فإنْ بقوا عن جوابٍ يَشْفِي ، فَقُلْ : الله فى الربوبية يكفى .

قوله : « كتب على نفسه الرحمة » : أخبرَ وحَكَمَ وأرادَ على حسب ما عَلِمَ ، فَمَنْ تَعلَّقَ بنجاته عِلْمُهُ سَبَقَ بدرجاته حُكْمُهُ ، ومَنْ عَلِمَهُ فى آزاله أنه يَشْقَى فبقدر شقائه فى البلاء يبقى .

قوله جل ذكره . ﴿ وله ما سَكَنَ فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾

الحادثاتُ للهِ مِلْكاً ، وبالله ظهوراً ، ومِنْ اللهِ بدءاً ، وإلى اللهِ رجوعاً . وهو «السميع» لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين الواجدين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أتَّخِذُ وليًّا فاطرِ السموٰات والأرض ﴾

أبَعْدَ ما أكرمنى بجميل ولايته أتولى غيره ؟ وبعد ماوَقَعَ علىَّ ضياء عنايته أنظرُ فى الدارين إلى أحد ؟ إنَّ هذا محالٌ فى الظنِّ والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم ﴾

له نعتُ الكَرَمِ فلذلك يُطْعِمُ ، وله حقُّ القِدَمِ فلذلك لا يُطْعَمُ

---

(١) الملتحد = الملجأ لأن اللاجىء يلجأ إليه (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنى أخاف إنْ عصيتُ ربى
عذابَ يومٍ عظيم ﴾

أى إنّى بعجزى متحقق ، ومن عذابِ ربى مُشْفِق ، وبمتابعة أمره مُتَخَلِّقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عنه يومئذٍ فقد رَحِمَه
وذلك الفوزُ المبين ﴾

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه لاحِقَ عقوبته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ له
إلا هو وإن يمسسك بخيرٍ فهو على
كل شىء قديرٌ ﴾

إنَّه مَنْ ينجيك من البلاء ، ومن يُلقيك فى العناء . وإذ المتفرِّد بالإبلاغ واحد فالأغيارُ كلُّهم أفعاله ؛ وإن الإيجاد لا يَصْلُحُ من الأفعال .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو القاهرُ فوق عباده وهو
الحكيم الخبير ﴾

عَلَتْ رُتبةُ الأحدية صفةَ البشرية ، فهذا لم يزل وهذا لم يكن فحصل[1] . ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قل أى شىء أكبرُ شهادةً قُلِ اللهُ
شهيدٌ بينى وبينكم وأُوحى إلىَّ هذا
القرآنُ لأُنذرَكم به ومن بلغ أئِنَّكُم
لَتَشْهَدُونَ أنَّ مع الله آلِهةً أخرى
قل لا أشهدُ قل إنما هو إله واحد
وإننى برىء مما تشركون ﴾

---

(١) وبتعبير آخر هذا واجب الوجود وهذا ممكن الوجود — كما يقول أهل الفلسفة .

غلَبَتْ شهادة الحقِّ — سبحانه — كلَّ شهادة ، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائقِ الشيء علومُهم ، والحقُّ — سبحانه — هو الذى لا يَخْفِىَ عليه شىء ، ثم أخبره — صلى الله عليه وسلم أنه مبعوثٌ إلى الكافة ومَنْ سيوجد إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسَهم فهم لا يؤمنون ﴾

أحاط علمُهم بصدقِ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فى نُبوَّتِهِ ، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية فعقدت ألسنتهم عن الإقرار به ، فجحدوه جهراً ، وعلموا صِدْقَه سِرّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمنْ أظلمُ مِمن افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته إنه لا يُفلح الظالمون ﴾

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى ، ثم لم يستحيوا من اطلاعه ، ولم يخشوا من عذابه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾

يجمعهم ليوم الحشر والنشر ، لكنه يفرقهم فى الحكم والأمر ، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : واللهِ ربِّنا ما كُنَّا مشركين ﴾ (١)

هذا الذى أخبرَ عنهم غايةُ التمرد ، حيث جحدوا ما كَذبُوا فيه وأقسموا عليه ، ولو كان لهم بالله عِلمٌ لتحققوا بأنه يعلم سِرَّهم ونجواهم ، ولا يخفى عليه شىء من أُولاَهم وعُقباهم ، لكن الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (مشرقين) بالقاف .

قوله جل ذكره : ﴿ انظرْ كيف كَذَبُوا على أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

هذه كلمة تعجب ؛ يعنى إنَّ قصتهم منها ماهو محلُّ التعجب لأمثالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾ .

بيَّنَ أن السمعَ — فى الحقيقة — سمعُ القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سَمْعُ الظاهر فلا عِبْرَة به .

ويقال مَنْ ابتلاه الحقُّ بقلبٍ مطبق ، ووضع فوق بصيرته غطاء التلبيس لم يزدْه ذلك إلا نفرة على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَرَوْا كلَّ آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

يعنى مَنْ أقصَته القسمة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم ينهَوْن عنه وينأَوْنَ وإن يُهلكون إلا أنفسَهم (و)[2] ما يشعرون ﴾ .

فى هذه الآية إشارة صعبة (لمن)[3] يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتى بذلك سراً .

ويقال خالَفَتْ أحوالُهم قضايا أقوالهم ، وجرى إجرامُهم مجرى مَنْ ألقوا حِبالَهم على غاربهم ، وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعلُه .

---

(١) تساوى هذه العبارة فى المعنى ما يأتى بعد قليل (وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعله) .
(٢) سقطت الواو من الناسخ فأثبتناها .
(٣) وردت (لم) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا
ياليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّب بآيات ربِّنا
ونكون من المؤمنين ﴾ .

يعنى حين ينجز للعبد ماوعده له من القربة بشغل من شاء بنوعٍ من العلة حتى لايطلع أحد على محل الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ بدا لهم ما كانوا يُخْفُون مِن قبل
ولو ردُّوا لعادوا لِمَا نُهُوا عنه وإنهم
لكاذبون * وقالوا إنْ هى إلا حياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

غداً يوم تنهتك الأستار ، وتظهر الأسرار — فكم من مُجَلَّل بثوب تقواه ، ويَحْكم له معارفُه بانه زاهدٌ فى دنياه ، راغب فى عقباه ، محبٌ لمولاه ، مُفارِقٌ لهواه ، فَيُكْشَفُ الأمر عن خلاف مافهموه ، ويفتضح عندهم بغير ماظنوه .

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه ا ظنَّ الكلُّ أنه خليع العذار هيِّن الأعلال ، مشوش الأسرار ، فظهر لذوى البصائر جوهره ، وبدت عن خفايا الستر حقيقته[1] .

ثم قال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » أخبر عما علم أنه لايكون أنه لو كان كيف كان يكون ؛ فقال لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم ، وكذلك لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى أحسن أعمالهم :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربِّهم قال
أليس هذا بالحقِّ ؟ قالوا : بلى وربِّنا

---

(١) لاحظ كيف ان القشيرى متأثر إلى حد كبير بتعاليم الملامتية ، فأهل الملامة يقومون بأعمال تستوجب ملامة الناس ستراً لأسرارهم وصونا لأحوالهم قصداً إلى محاربة دعوى النفس ، والاكتفاء بعلم الحق بأحوالهم وحقائقهم .

قال : فذوقوا العذابَ بما كنتم
تَكفُرُونَ ﴾ .

ياحسرةً عليهم من موقف الخجل ، ومحل مقاساة الوَجَل ، وتذكر تقصير العمل !
فهم واقفون على أقدام الحسرة ، يقرعون أسنان الندم حين لاندم ينفعهم ، ولا شكوى تُسْمَعُ منهم ، ولا رحمة تنزل عليهم .

وحين يقول لهم : أليس هذا بالحق ؟ يُقِرُّون كارهين ، ويصرخون بالتبرى عن كل غَيْر قوله جل ذكره : ﴿ قد خسِرَ الذين كَذبوا بلقاءِ الله حتى
إذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا ياحسرتنا
على مافرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم
على ظهورهم ألا سَاء ما يَزِرُون *
وما الحياة الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ وللدارُ
الآخِرةُ خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون *
قد نعلم إنه لَيَحْزُنُكَ الذى يقولون
فإنهم لا يُكَذِّبونك ولكنَّ الظالمين
بآيات الله يجحدون ﴾

خسران وأى خسران ! لم يخسروا مالاً ، ولا مقاماً ولا حالاً ، ولكن كما قيل :

لعمرى لئن أنزفتُ دمعى فإنه لفرقةِ مَنْ أفنيتُ فى ذكره عمرى

المصيبة لهم والحسرة على غيرهم ، ومَنْ لم يَعْرِفْ جلالَ قدره متى تأسَّف على ما يفوته من حديثه وأمره ؟ !

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » : ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو من الدنيا ، وما كان من الدنيا فإنه — لا محالة — يُلهيك عن مولاك ، وما يشغلك عن الحق ركونُه لغيرُ مباركٍ قُرْبُهُ .

قوله : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكنَّ الظالمينَ بآيات اللهِ يَجْحدون » : هذه تعزية للرسول — صلى الله عليه وسلم

وتسلية . أى قد نعلم ماقالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسَبَبِنا ولأجْلِنا . ولقد كُنْتَ عظيمَ الجاه فيهم قبل أن أوقفنا عليكَ هذا الرقم ؛ وكانوا يسمونك محمداً الأمين ، فإنْ أصابَكَ ما يصيبك فَلِأَجلِ حديثنا ، وغيرُ ضائعٍ لك هذا عندنا ، وحالُكَ فينا كما قيل :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنع قصةٍ وكانوا لنا سِلْما فصاروا لنا حَربا

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كُذِّبت رُسُلٌ مِّن قبلك فَصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نَصْرُنا ولا مُبَدِّلَ لكلمات الله ولقد جاءك من نَّبَإِى المُرْسَلِين ﴾

يعنى إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَنا صبر على ما أصابه من حديثنا ، فلا خَسِرَتْ فينا صفقتُه ، ولا خَفِيَتْ علينا حالتُه ، وما قابَلَ حُكْمَنا مَنْ عَرَفَنا إلا بالمُهج ، وما حملوا مالقوا فينا إلا على الحدق :

إنَّ الألى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيةَ منهلا معسولا

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كان كَبُرَ عليكَ إعراضُهُم فإنِ استطعتَ أن تبتغى نَفَقاً فى الأرضِ أو سُلَّماً فى السماء فتأتيهم بآيةٍ ، ولو شاء اللهُ لَجَمَعهم على الهُدَى فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾

لفرط شفقته — صلى الله عليه وسلم — استقصى فى التماس الرحمة من الله لهم ، وحمل على قلبه العزيز بسبب ماعَلِمَ من سوء أحوالهم ما أثَّر فيه من فنون الأحزان . فعرَّفه أنهم مُبْعَدُون عن التقريب ، منكوبون بسالف القسمة .

ولو أراد الحقُّ — سبحانه — لَخفَّفَ عنهم ، ولو شاء أن يهديَهم لكان لهم مقيل فى الصدور ، ومثوى على النشاط ، ولكن مَنْ كَبَسَتْهُ العِزَّةُ لم تُنْعِشْهُ الحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يُرْجَعُون ﴾

مَنْ فقد الاستماع فى سرائره عَدِمَ توفيقَ الاتِّباعِ بظاهره ، والاختيارُ السابقُ فى معلومه — سبحانه — غالبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ مِّن ربِّهِ قُلْ إنَّ اللهَ قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذيح العذر ، ولم يعلموا أن الله المانع لهم فلولا ما (. . .)[1] من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم مافرطنا فى الكتاب من شىء ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرون ﴾

يعنى تساوت المخلوقات ، وتماثلت المصنوعات فى الحاجة إلى المُنْشِىء : فى حال الإبداع ثم فى حال البقاء ، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار ، فما من شىء من عينٍ وأثر ، ورسم وطلل . . إلا وهو على وحدانيته شاهِدٌ ، وعلى كون أنه مخلوق . . دليلٌ ظاهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كَذَّبوا بآيتنا صُمٌّ وبُكْمٌ فى الظلمات ، من يشإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾

الذين فاتتهم العناية الأزلية سَدَّ الحرمانُ أسماعَهم ، وغَشَّى الخِذلانُ أبصارَهم .

---

(١) مشتبهة وربما كانت (سد) فهى فى الخط إلى ذلك أقرب .

والإرادة لا تُعارَض ، والمشيئةُ لا تزَاحَم[1] ، والحقُّ — سبحانه — فى جميع الأحوالِ غالبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتكم إنْ أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ ، أغيرَ الله تَدْعُون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشِفُ ما تدعون إليه إن شاء وتَنْسَوْن ماتُشْرِكون ﴾

إذا مَسَّكم الضُرُّ ، ونابَكُم أمرٌ فمِمَّنْ ترومون كَشْفَه ؟ ومَنْ الذى تؤملون لُطْفَه ؟ أمخلوقاً شرقياً أم شخصاً غربياً ؟ أم مَلَكاً سماوياً أم عبداً أرضياً ؟

ثم قال : « بل إياه تدعون » : أى إنكم — إنْ تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم — لن تجدوا من دونه أحداً ، ولا عن حكمه مُلْتَحَداً ، فتعودون إليه فى استكشاف الضر ، واستلطاف الخير والبِّر ، كما قيل :

ويرجعنى إليكَ — وإن تنأتْ ديارى عنكَ — معرفةُ الرجال
و قد تركناكَ للذى تريد فعسى إنْ خَبَرْتَه أنْ تعودا

فإذا جرَّبْتَ الكُل ، وذُقْتَ الحُلْوَ والمُرَّ ، أفضى بك الضُرُّ إلى بابه ، فإذا رجعت بنعت الانكسار ، وشواهد الذل والاضطرار ، فإنه يفعل ما يريد : إنْ شاء أتاح اليُسْر وأزال العُسر ، وإن شاء ضاعف الضُر وعوَّض الأجر ، وإنْ شاء ترك الحال على ما (قبل)[2] السؤال والابتهال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ مِّن قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلَّهم يتضرعون ﴾

---

(١) وردت (تزام) بالماء وهى خطأ فى النسخ
(٢) وردت (قبل) وهى خطأ فى النسخ .

يخبر عن سالف سنته فى أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم ، وما أحلّ بمن خالفه من الألم وفنون النِّقَم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرعوا ولكن قست قلوبُهم وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شىء حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هُم مُبْلِسُون ﴾

يعنى أنهم لما أظَلَّهُم البلاء ، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهال والتملق لكشفنا عنهم المحن ، ولأتحنا لهم المنن ، ولكن صدَّهم الخذلان عن العقبى فأصروا على تمردهم ، فَقَسَتْ قلوبُهم وتضاعفت أسباب شقوتهم .

قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به » يخبر عن خَفِيِّ مكره بهم ، وكيف أنه استدرجهم ، ثم أذاقهم وبالَ أمرهم فقال : لما طالتْ عن الحضرة غيبتُهم ، ولم تنجحْ مواعظُنا فيهم سَهَّلْنا لهم أسبابَ العوافى وصببنا عليهم عزالى[1] النِّعم ، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية ، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتةً وعذبناهم فجأة ، وأذقناهم حسرةً فإذا هم من الرحمة قانطون ، ولِمَا خامر قلوبَهم — من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة — آيسون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُطِع دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمد لله ربِّ العالمين ﴾

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبقَ منهم عين ولا أثر ، ولم يَرِدْ حديث منهم أو خبر ،

---

(١) العزالى : يقال أعزلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر

والله — سبحانه وتعالى — بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فَقْدِهم له استيحاش ، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار[1]

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَّن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم به انظُرْ كيف نُصَرِّفُ الآياتِ ثم هُمْ يَصْدِفون ﴾

عرَّفهم محلَّ عجزهم ، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم .

وحذَّرهم فقال : إنْ لم يُدِمْ عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم ، ولم يوجِبْ لهم ما ألبسهم من العوافى — بكل وجهٍ فى كل لحظة — فمن الذى يهب ما سلبه ، أو يضع ما منعه ، أو يعيد ما نفاه ، أو يَرُدُّ ما أبداه ؟ كلا . . . بل هو الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ الله بغتةً أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظالمون ﴾[2]

يقول إنْ عجَّلَ موعودَه لكم من العقاب أفترون أن غيرَ المستوجِب يُبْتَلَى ؟ أو أن المستحِقَّ له يجد من دونه مهرباً ومَنْجَى ؟ إنَّ هذا محالٌ من الظن .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نُرسِلُ المرسَلين إلا مُبَشِّرين ومُنْذِرين فَمَنْ آمَنَ وأصلح فلاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا يَمَسُّهُم العذابُ بما كانوا يَفْسُقون ﴾

---

(١) فالحق — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة المطيع ولا شين بمعصية العاصى .
(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (الظالمين)

يعنى ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم ، ثم بجميل الوعد لهم ، ومفارقة ما فيه هلاكهم ، ثم بأليم العقوبة فى الآجل ما يحصل من خلافهم .

فَمَنْ آمن وصدَّق أنجزنا له الوعد ، ومَنْ كفر وجحد عارضنا عليه الأمر ، وأدخلنا عليه الضُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلىَّ قُلْ هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾

يعنى قل لهم إنى لا أتخطى خطى ، ولا أتعدَّى حدِّى ، ولا أُثْبِتُ من ذات نفسى شيئاً ، وإنما يقال لى أبلَّغْتَ ؟ وأقول : أَجَلَ ، أَوْصَلْتُ .

ثم قال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » : هل يتشاكل الضوء والظلام ؟ وهل يتماثل الجُحْدُ والتوحيد ؟ كلا . . . لا يكون ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنذرْ به الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربِّهم ليس لهم مِّن دونه وَلِىٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ﴾

الإنذارُ إعلامٌ بمواضع الخوف ، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خصَّ المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال : «هدىً للمتقين» لأن الانتفاع والاتِّباع بالتقوى ، والإنذار اختص بهم.

ويقال : الخوف هاهنا العلم ، وإنما يخاف من علم ، فأمَّا القلوب التى هى تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارقُ الخوف .

قوله : « من دونه من ولى ولا شفيع » يعنى كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمدَ لهم من أفعالهم ، ولا مستندَ من أحوالهم ، ولا (يؤمنون)[1] شيئاً سوى صرف العناية وخصائص الرحمة .

---

(١) الصواب أن تكون (يأمنون) لأن ما بعدها منصوب ، ولو كانت يؤمنون لكان ما بعدها مجروراً ، والسياق يقوى اختيار (يأمنون) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم
بالغَدَاة والعَشيِّ يريدون وجهه
ما عليك من حسابهم من شيء
وما مِنْ حسابك عليهم من شيء
فتطردَهم فتكونَ مِنَ الظالمين ﴾

هذه وصية له — صلى الله عليه وسلم — فى باب الفقراء والمستضعفين ، وذلك لما قَصَرُوا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول — صلوات الله عليه وسلامه — مجلسه منهم ، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدى الله أرادَ أنْ يُبَيِّن له أثرَ حُسْنِ الابتهال فتولىَّ — سبحانه — خصيمتهم .

وقال : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » : لا تنظر يا محمد إلى خِرقتهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقتهم فى سرائرهم[1]

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهرهم بأن أظهر قصتهم ، ولولا أنه — سبحانه — قال « يريدون وجهه » فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه ؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق — فى التحقيق — إلا بالحدوث ، وحقيقة الصمدية متقدسة عن الاتصاف بالحدثان ، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة ، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها[2] .

فيقال تكلم الناس فى الإرادة : وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل فى القلوب يسلب

---

(١) واضح من كلام القشيرى اتصاف هذا النفر بصفات كثيرة تدنو بهم من أهل التصوف ، وهكذا نجد أن السهروردى فى مقدمة « عوارفه » يوضح أن سبب نزول هذه الآية فى أهل الصُّفة الذين كانوا يلازمون صفة مسجد المدينة وليس لهم شغل سوى العبادة وتلاوة القرآن وكان أحدهم إذا ركع قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته لتمزق ثوبه . . . الخ (عوارف المعارف ص ٤٧) .

(٢) يقول القشيرى فى هذا المعنى فى « رسالته » : المريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد — فى عرف هذه الطائفة — من لا إرادة له ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً (الرسالة ص ١٠١)

القرار من العبد حتى يصل إلى الله ؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ[1] ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون وصوله إليه — سبحانه — سكوناً ولا قراراً ، كما قال قائلهم :

ثم قطعتُ الليلَ فى مَهْمَهٍ لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبنى شوقى فأطوى السُّرى ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوبا

ويقال تقيَّدت دعوتهم بالغداة والعشىّ لأنها من الأعمال الظاهرة ، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة ، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة ، والأحوال الباطنة مسرمدة غير مؤقتة ، فقال : « يدعون ربهم بالغداة والعشىّ » ثم قال : « يريدون وجهه » أى مريدين وجهه فهى فى موضع الحال[2] .

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم ، ولا مطالبة من عقباهم ، ولا همٌّ سوى حديث مولاهم ، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم ، فتولَّى حديثهم وقال : ولا تطردهم — يا محمد — ثم قال : ما عليك من حسابهم من شىء ؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مئونة ؛ قال تعالى : « ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء » . لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك ، بل كلٌّ يتولى الحقُّ — سبحانه — حسابَه ؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه ، وإن كان شراً فهو مقاسيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعضٍ لِيَقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا أليس الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾

أمَّا الفاضل فَلْيشكرْ ، وأمَّا المفضول فلْيصبِرْ .

ويقال سبيل المفضول على لسان المحبة الشكر ، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل ، قال قائلهم فى معناه :

أتانى منكِ سبُّكِ لى فَسُبِّي أليس جَرَى بفيكِ اسمى ؟ فَحَسْبِي

---

(١) وردت (ولا يهدى) والصواب أن تكتب (ولا يهدأ) منعاً للبس .
(٢) أى إن الجملة الفعلية (يريدون وجهه) تعرب حالا

وقال آخر :

وإنَّ فؤاداً بعثتُه — لَكَ شاكرٌ وإنَّ دَمَاً أجريتُه — لَكَ حامدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقُلْ سلامٌ عليكم ﴾

أحلَّه محل الأكابر والسَّادة ، فإن السلام من شأن الجائى إلا فى صفة الأكابر ؛ فإن الجائى أو الآتى يسكت لهيبة المأتى حتى يبتدئ ذلك المقصودُ بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتى .

ويقال إذا قاسوا تعبَ المجىء فأزِلْ عنهم المشقةَ بأن قُلْ : « سلام عليكم » .

ويقال السلام هو السلامة أى فقُلْ لهم سلام عليكم ؛ سَلِمْتُمْ فى الحال عن الفُرقة وفى المآل عن الحُرْقة (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ كتب ربُّكم على نفسه الرحمةَ ﴾

إنْ وَكَلَ بك من كتب عليك الزلة فقد تولَّى بنفسه لك كتابة الرحمة .

ويقال كتب بمعنى حَكَمَ ، وإنه ما حكم إلا بما علم .

ويقال كتابته لك أزلية ، وكتابته عليك وقتية ، والوقتية لا تبطِلُ الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ أنَّه مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب مِنْ بعده وأصلح فأنَّه غَفورٌ رحيم ﴾

يعنى مَنْ تعاطى شيئاً من أعمال الجُهَّال ثم سوَّف فى الرجوع والأوبة قابلناه ، يعنى مَنْ تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال ، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بِكُلِّ لطف وقبول .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وكذلك نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَسْتَبِينَ سبيلُ المجرمين ﴾ .

---

(١) اى سلمتم فى الدنيا من عذاب نأيه وهجره ، وسلمتم فى الآخرة من عذاب جهنم ذات الحريق .

نزيل الإشكال ، ونُفْصِحُ[1] طريق الاستدلال ، ونُطْلِعُ شموسَ التوحيد ، ونمد أهله بحسن التأييد ، ونَسِمُ قلوبَ الأعداء بوسم الخذلان ، ونذيقهم شؤمَ الحرمان لئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ ، ولا فى الطريق إشكال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنِّى نُهِيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون اللهِ قُلْ لا أتَّبِعُ أهواءكم قد ضَلَلتُ إذاً وما أنا مِنَ المهتدين ﴾ .

يعنى صرِّح بالاعتراف بجميل ما خصصناكَ به من وجوه العصمة والنعمة ، وأخبرهم أنك فى كنف الإيواء مُتقلِّب ، وفى قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ ؛ فلا للهوى عليك سلطان ، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إنِّى على بَيِّنَةٍ من ربى وكَذَّبْتُم به ما عندى ما تستعجلون به إنِ الحكمُ إلا لله يَقُصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين ﴾ .

قلْ إنَّ الله — سبحانه — لم يغادرنى فى قطر الطلب والتباس التحيُّر ، وأغنانى عن (كَدٍّ)[2] الاستدلال ، وَروَّحنى بشموس الحقيقة . ولئن بقيتم فى ظلمة الالتباس فليس لى قدرة على إزالة ما مُنيتم به من التحير ، ونفى ما امتُحِنْتُم به من الجهالة والتردد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لو أن عندى ما تستعجلون به لقُضِىَ الأمرُ بينى وبينكم والله أعلمُ بالظالمين * وعنده مفاتحُ الغيب

---

(١) من الافصاح وهو الابانة والايضاح .

(٢) وردت (قد) والقصود عناء الاستدلال وكده ـ حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فى مثل هذا الموضع .

لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البرِّ
والبحر وما تَسْقُطُ مِن ورقةٍ إلا يعلمها
ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرضِ ولا رَطْبٍ
ولا يابِسٍ إلا فى كتابٍ مبين . ﴾

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم علىَّ — شفقةً عليكم ، لكن المتفرِّد بالحكم لا يُعارَضُ فيما يريد .

« وعنده مفاتح الغيب » : المفتاح ما به يرتفع الغَلْقُ ، والذى يحصل مقصود كلِّ أحد ، وهو قدرة الحق — سبحانه ؛ فإنَّ التأثير لها فى الإيجاد ، والموصوفُ بقدرةِ الإيجاد هو الله :

ويقال أراد بهذا شمول علمه ، أى هو المتفرِّد بالإحاطة بكل معلوم ، وقطعاً لا يُسأل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

ويقال عندك مفاتح[1] الغيب وعنده مفاتح الغيب فانْ آمنتَ بغيبه مدَّ الشمس على غيبك .

قوله جل ذكره ﴿ وهو الذى يتوفَّاكم بالليل ويعلم
ما جرحتم بالنهار ثُم يبعثكم فيه
ليُقْضَى أَجَلٌ مسمًّى ثم إليه مرجعكم
ثم ينبئُكم بما كنتم تعملون ﴾ .

إنه يتوفَّى الأنفس فى حال النوم وفى حال الوفاة ، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك — إذا توفَّاك — على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك ، فبالحرىِّ ألا يعذِّبَك غداً — إذا توفَّاك — على ما علمه من قبيح أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو القاهرُ فوق عباده ويرْسِلُ

---

(١) نسبة المفاتح إلى الانسان — إن صحَّ أن القشيرى قالها — يمكن تأويلها على انها جمع مفتح مصدر ميمى بمعنى الفتح والفتوح وهما من فضل الله ، ولكنهما بالنسبة إلى المفاتح الالهية كنسبة ضوء المصباح إلى ضوء الشمس ، إذا ظهر شعاع الشمس غمر ضوء المصباح . . . هكذا نفهم من السياق — والله أعلم .

عليكم حَفَظَةً حتى إذا جاء أحدَكُمُ
الموتُ توفَّتْهُ رُسُلُنا وهم لا يُفَرِّطون﴾.

فوق عباده بالقهر والرفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ، ألا
له الحكمُ وهو أسرع الحاسبين﴾ .

ردَّهم إلى نفسه . وما غابوا عن القبضة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن يُنجيكم من ظلمات البرِّ
والبحر تدعونه تضرعاً وخُفيةً لئن
أنجانا مِنْ هذه لنكونَنَّ من
الشاكرين ﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة فى المحبة ، فإنه إذا عرف جميلا أسداه تمكَّن من قلبه الحبُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ اللهُ ينجيكم منها ومن كل
كربٍ ثم أنتم تُشْرِكون ﴾

المتفرِّدُ بالقدرة على إيجادكم اللهُ ، والذى هو (الخَلَفَ)[1] عما يفوتكم اللهُ ، والذى حكَمَ بنجاتكم اللهُ ، والذى يأخذ بأيديكم كلما عثرْتم اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ
عليكم عذاباً مِن فوقكم أو من
تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾

إذا أراد الله هلاك قومٍ أمر البلاء حتى يحيط بهم سرادقه كما يحيط بالكفار غداً إذا

---

(١) وردت (الخلق) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

أدركتهم العقوبة ، وخرج بعضهم على بعض ؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

قوله جل ذكره : ﴿ ويذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ ، انظُرْ كيف نصرِّف الآياتِ لعلهم يفقهون ﴾

لا طعمَ أردأ للإنسان من طعم الإنسان : إن شِئْتَ من الولاية والمحبة ، وإن شئت فى العداوة والبغضة ؛ فمَنْ مُنِي بالبغضة مع أشكاله تنغَّصَ عليه عَيْشُهُ فى الدنيا ، ومَنْ مُنِيَ بمحبة أمثاله تكدَّر عليه حالُه مع المولى ، ومن صانَه عن الخَلْق فهو المحفوظ (المعانى)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذَّبَ به قومُكَ وهو الحقُّ قُل لستُ عليكم بوكيل * لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وسوف تعلمون ﴾

يعنى قل لهم إنما على تبليغ الرسالة ، فأمَّا تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعْرِضْ عنهم حتى يخوضوا فى حديثٍ غيره ﴾

لا توافقهم فى الحالة ، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذَرْهُم ووحشَتَهم بِحُسْنِ الإعراض عنهم ، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحُسْنِ الانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا يُنسِيَنَّك الشيطانُ فلا تقعدْ بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾

---

(١) المحفوظ (المعانى) اى محفوظة معانيه ، وربما كانت فى الأصل (المُمَانِىّ) بالفاء المفتوحة أى المصون عن كل أذى وعلة .

أى إنْ بَدَرَ منك تغافلٌ فتداركْتَه بحسن التذكر وجميل التَّنَبُّه ، فاجتهِدْ ألا (تزل[1]) فى تلك الغلطة قدمُك ثانيةً لئلا تقاسى أليمَ العقوبة مِنّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما على الذين يتقون مِنْ حسابِهم
مِن شىء ولكن ذِكْرَى لعلَّهم
يتقون ﴾

أى من كان نقىَّ (الثوب)[2] عن ارتكاب الإجرام يُعْزَل يوم نشره عن ملاقاة تلك الآلام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَرِ الذين اتخذوا دينَهم لَعِبًا
ولهوا وغرَّتهم الحياة الدنيا وذكِّر به
أن تُبْسلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ ليس
لها من دون اللهِ ولىٌّ ولا شفيع ،
وإن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ
منها أولئك الذين أُبْسِلوا بما كَسَبُوا
لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ
بما كانوا يكفرون ﴾

أى كِلْهم وما اختاروه فإنَّا أعْتَدْنَا لهم (من خفىِّ المكر ما إذا أحللناه بهم كسرنا عليهم)[3] خُمارِ الوهم والغِلظة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أندعوا من دون اللهِ
ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَدُّ على
أعقابنا بعد إذ هدانا اللهُ كالذى

---

(١) وردت (تذل) بالذال والصواب أن تكون بالزاى (تزل) اى تقع فهذا هو الملائم للسياق .
(٢) وردت (الثواب) والصواب أن تكون (الثوب) فهو الذى يوصف بالنقاء .
(٣) ما بين القوسين موجود فى هامش الورقة أثبتناه فى موضعه حسب العلامة المميزة .

استهوته الشياطينُ فى الأرضِ ، حيرانَ ، له أصحابٌ يَدْعونه إلى الهُدَى ائتِنا * قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هو الهُدَى ، وأُمِرْنا لِنُسلِمَ لربِّ العالمين ﴾

أى كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والعوْد إلى الشِرْك ، فقال لهم الله : قل لهم — يا محمد — : أنُؤْثِرُ الضلالَ على الهدى بعد طلوع شمس البرهان ؟

ونَدَعُ الطريقة المُثْلى بعد ظهور البيان ؟ ونترك عِقوةَ الجَنَّةِ وقد نزلناها ؟ ونطلب الجحيم مثوىً بعد ما كُفِيناها ؟ إنَّ هذا بعيدٌ من المعقول ، محالٌ من الظنون .

وكيف يساعد أتباعُ الشيطانِ مَنْ وَجَدَ الخلاصَ من صحبتهم ، وأبصر الغىَّ من صفتهم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْ أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تُحْشَرون ﴾ .

أى أمَرَنا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إنْ تعوَّد نجوى السلطان متى ينطق (بمكالمة)[1] الأخَسِّ ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خلَقَ السموات والأرضَ بالحقِّ ويومَ يقول كُن فيكونُ قولُه الحقُّ وله المُلْكُ يومَ يُنفَخُ فى الصُّورِ عالِمُ الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

يعنى أنه لايعترض على قدرته — سبحانه — حدوث مقصود ، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود .

---

(١) وردت (مكاملة) والأوفق بالنسبة للسان أن تكون (مكالمة) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ أتتَّخذُ أصناماً آلهةً إنِّى أرَاكَ وقومَك فى ضلالٍ مبين ﴾ .

الأصل متَّهَمٌ فى الجحود ، والنَّسْلُ متصفٌ بالتوحيد ، والحقُّ — سبحانه — يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السمٰواتِ والأرضِ وليكونَ مِنَ الموقنين ﴾ .

لاطَفَه بسابق العناية ، ثم كاشفه بِلاحِقِ الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق فى (قضاء)[1] سرِّه شظية من غبار العيب ، فلمَّا صحا من غيم النجوز [2] سما سرُّه فقال بنفى الأغيار جملة ، وتبرأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكبًا قال هذا ربى فلمَّا أفَلَ قال لا أُحِبُّ الأفلين * فلمَّا رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربى فلما أفَلَ قال لئِن لم يَهْدِنى ربى لأكونَنَّ من القوم الظالمين * فلمَّا رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربى هذا أكبرُ فلما أفَلَتْ قال ياقومِ إنى برىء مما تُشْرِكُونَ ﴾

---

(١) ربما كانت (فضاء) بالفاء فالغبار والغيم يعلقان بالفضاء

(٢) المقصود من ذلك ما أصاب إبراهيم من اضطراب ، وهنا افتقاد كية من القشيرى حيث أراد وصم العقل بالتجويز لانحصار دائرته فى نطاق الحسّ ، وعدم استطاعته تجاوز هذا النطاق لأنه معتمد عليه .

يعنى أحاطت به (سجوف)[1] الطلب ، ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطالع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان ، فقال : هذا ربى ثم يزيد فى ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان ، « فقال هذا ربى » .

ثم (أسفر)[2] الصبح ومتع النهار فطلعت شموس (العرفان)[3] من برج شرفها فلم يبقَ للطلب مكان ، ولا للتجويز حكم ، ولا للتهمة قرار فقال : « يا قوم إنى برىءٌ مما تشركون » إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عقِبَ الظهور ستر .

ويقال قوله — عند شهود الكواكب والشمس والقمر — « هذا ربى » إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله ، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً فى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى وجهتُ وجهى للذى فطرَ السمٰواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ .

أفردتُ قصدى لله ، (وطهّرت)[4] عقدى عن غير الله ، وحفظت عهدى فى الله لله ، وخلصت وجدى بالله ، فإنى لله بالله ، بل (محو)[5] فى الله والله الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وحاجَّه قومُه قال أتحاجونى فى الله وقد هدَانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وَسِعَ ربى كلّ شىءٍ عِلْمًا أفلا تتذكرون ﴾ .

يعنى قال لهم أترومون سَتْرَ الشموسِ بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذيولكم وأن تُسْدِلوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانُه وتوالى بيانُه ؟

---

(١) سجوف جمع سَجف وسِجف وهو الستر ، وأرخى الليل سجوفه أى ظلمته .

(٢) وردت (أصفر) والصواب أن تكون (أسفر) الصبح .

(٣) لاحظ كيف طبق القشيرى نظريته فى المعرفة على تدرج ابراهيم (عم) فى الوصول إلى حقيقة الألوهية من عقلية ونورها البرهان إلى قلبية ونورها البيان إلى كشفية ونورها العرفان ،

(٤) وردت (ظهرت) بالظاء والصواب أن تكون بالطاء

(٥) وردت (مهو) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف[1] أخاف ما أشركتم ولا تخافون
أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به
عليكم سلطانا فأىُّ الفريقين أحقُّ
بالأمنِ إن كنتم تعلمون ﴾

يعنى وأى خوفٍ يقع على قلبى ظله ولم أُلِمْ بشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جحد ؟ وأنتم ما شممتم رائحة التوحيد فى طول عمركم ، ولا ذقتم طعم الإيمان فى سالف دهركم ! ثم بسوء ظنكم تجاسرتم وما ارعويتم ، وخسرتم وما باليتم . فأيُّنا أَوْلى أن يُعْلِن بسرِّه ما هو بصدده من سوء مَكْرِه وعاقبةِ أمْرِه ؟

قوله جلت قدرته : ﴿ الذين آمنوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم
بظُلْمٍ أولئك لهم الأمنُ وهُمْ مهتدون ﴾

أى الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله ؛ فإن من قال « الله » ثم رجع بالتفضيل — عند حاجاته أو مطالباته أو شىءٍ من حالاته إلى غير الله فخِصْمُه — فى الدنيا والعقبى — اللهُ .

والظلمُ — فى التحقيق — وضعُ الشىء فى غير موضعه ، وأصعبه حسبان أن من الحدثان ما لم يكن وكان ؛ فإنَّ المنشىء اللهُ ، والمُجْرِىَ اللهُ ، ولا إله إلا الله ، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفعُ
درجاتٍ مَّن نشاء إنّ ربّك حكيم عليم ﴾

أشار إلى ترقِّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته ، وذلك ترتيب أهل السلوك فى وصولهم إلى الله ، فالتحقق بالآيات التى هى أفعاله ومراعاة ذلك وهى الأُولى ؛ ثم إثبات صفاته وهى الثانية ، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول ، فبرسومه يعرف العبد نعوته ، وبنعوته يعرف ثبوته[2] .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (فكيف)

(٢) للقشيرى كتابان (ترتيب السلوك) و (المقامات الثلاث) لم تصل بعد أيدينا إليها ، أولهما توجد منه مخطوطة بالفاتيكان والثانى استعاره بعضهم من مكتبة جامعة القاهرة ولم يرده ، فهل يمكن أن نحدس أن هذه الفقرة خلاصة مقتضبة لوجهة نظره فى ترتيب مقامات السلوك وعددها .

قوله جل ذكره : ﴿ ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلاً هدينا ونُوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كُلٌّ مِن الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكُلاً فَضَّلنا على العالمين * ومِن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صِراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عبادِه ولو أشركوا لَحبِطَ عنهم ما كانوا يعملون ﴾

ذَكَرَ عظيم المِنَّة على كافَّتِهم — صلوات الله عليهم ، وبَيَّنَ أنه لولا تخصيصه إياهم بالتعريف ، وتفضيله لهم على سواهم بغاية التشريف ، وإلا لم يكن لهم استيجاب ولا استحقاق .

ثم قال : « ذلك هدى الله . . . . . يعملون » يعنى لو لا حظوا غيراً ، أو شاهدوا — من دوننا — شيئاً ، أو نسبوا شظية من الحدثان — إلى غير قدرتنا — فى الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم ، فإن الله — سبحانه — لا يغفر الشِرْكَ بحالٍ ، وإن كان (يغفر)[1] مادونه لِمنْ أراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ فقَدْ وَكَّلْنَا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾

---

(١) وردت (يفقر) والصواب (يغفر) طبقاً للآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به . . . إلخ) .

يعنى إنْ أعرض قومُك — يامحمد — فليس كلٌّ من (. . . . .)[1] على الجحود أظهرناهم ، بل كثير من عبادنا نزَّهنا — عن الجحود — قلوبَهم ، وعَجَنَّا بماء السعادة طينتهم وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً ، ولا يزيغون عن التحصيل شِمَّةً .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين هدى الله فَبِهُدَاهم
اقْتَدِه قُل لا أسألكم عليه أجراً
إنْ هو إلا ذكْرى للعالَمين ﴾

أولئك الذين طهَّر اللهُ عن الجحد أسرارَهم ، ورَفَعَ على الكافة أقدارَهم ، فاقْتَفِ — يامحمد — هداهم ، فإنَّ مَنْ سلك الجادَّة أمِن من العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه إذ قالوا
ما أنزل اللهُ على بَشَرٍ مِّن شىء قلْ
مَنْ أنزل الكتابَ الذى جاء به
موسى نوراً وهدىً للناسِ تجعلونه
قراطيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُون كثيراً
وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم
قلِ اللهُ ثم ذَرْهم فى خوضِهم يلعبون ﴾

مَنْ توهَّم أنَّ العلومَ[2] تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة فى نعته ، كما أنَّ الإدراك غير جائز فى وصفه ، وكما أن الإشراف مُحالٌ على ذاته .

ثم قال : « قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً » أى سَلْهم عن الأحوال ، وخاطِبْهم فى معانى أحكام الرسوم والأطلال ، فَإِنْ بقوا فى ظلمة (الحيرة)[3] فَقُلْ : الله تعالى ، ثم ذَرْهُم . يعنى صَرِّح بالإخبار عن التوحيد ، ولا يهولنَّك تماديهم فى الباطل ، فإنَّ تمويهات الباطل لا تأثير لها فى الحقائق .

---

(١) مشتبهة .
(٢) يقصد بها علوم العقل .
(٣) وردت (الجبرة) والخطأ فى النقط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناهُ ، مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الذى بين يديه ولِتُنذِرَ أُمَّ القرى ومَنْ حَوْلَها والذين يؤمِنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافِظون ﴾

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخَطَرِ جليلُ الأثرِ ، فيه سلوة[1] عند غلبات الوجد ، ومن بقى عن الوصول تذلّل للرسول ، وقيل :

وكُتْبُكَ حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتِمُ
كأنى ملحوظٌ من الجِنِّ نظرةً ومِنْ حوالىَّ الرُّقى والتمائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كَذِبًا أو قال أُوحِىَ إلىَّ ولم يُوحَ إليه شىء ومَن قال سأُنزِلُ مثلَ ما أنزل اللهُ ولو ترى إذ الظّالِمون فى غمراتِ الموتِ والملائكةُ باسِطوا أيديهم أخرِجوا أنفُسَكم اليومَ تُجزَوْن عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على اللهِ غيرَ الحقِّ وكنتم عن آياتِه تستكبِرون ﴾

يعنى إن الذين يَنزِلون منزلة المُحدَّثين ، ولم تُلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب — فالحقُّ — سبحانه عنهم برىء . والمتَّبِعُ بما لم ينَلْ كلابسِ ثوبى زور ، وفى معناه أنشدوا :

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) وردت (صلوة) بالصاد وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جِئْتُمونا فُرَادَى كما خلقناكم أوَّلَ مرة وتركتم ماخوَّلْناكُم وراءَ ظهورِكم وما نرى معكم شُفعاءَكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطَّعَ بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تَزْعُمُون ﴾

دَخَلْتَ الدنيا بخرقةٍ ، وخَرَجْتَ منها بخرقة ، ألاَ وتلك الخرقة أيضاً (.....)[1] ، وما دخلت إلا بوصف التجرد ، ولا خرجتَ إلا بحكم التفرد . ثم الأثقالُ والأوزارُ ، والأحمالُ والأوضارُ لا يأتى عليها حَصْرٌ ولا مقدار ؛ فلا مالكم أغنى عنكم ولا حالكم يَرْفُعُ منكم ، ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم ؛ فقد تَقَطَّعَ بَيْنُكم ، وتَفَرَّق وَصْلُكم ، وتبدَّد شملُكم ، وتلاشى ظنُّكم ، وخانكم — فى التحقيق — وسعُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوى يخْرِج الحيَّ مِنَ الميت ومخرِجُ الميتِ مِنَ الحيِّ ذلكم الله فأنَّى تُؤفَكُون ﴾

موجِد ما فى العالَم من الأعيانِ والآثار والرسوم والأطلال يُسَلِّط العَدَمَ على ما يريد من مصنوعاته ، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته ، فلا لحكمه ردٌّ ، ولا لحقِّه جحدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فالقُ الإصباحِ وجعل الليل سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْبَاناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم ﴾

وكما فَلَقَ صبحَ الكون فأشرقتْ الأنوارُ كذلك فَلَقَ صبحَ القلوبِ فاستنارت به الأسرار ، وكما جعل الليل سَكَناً لِتَسْكُنَ فيه النفوس من كدِّ التصرف عن أسباب المَعَاش

---

(١) مشتبهة .

كذلك جعل الليـلَ سَكَناً للأحباب يَسْكُنونَ فيه إلى روْح المناجاة إذا هدأت العيونُ من الأغيار .

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان[1] معلوم على حد معلوم ، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَت لم تنقص ولم تزِدْ ، والقمر لا يبقى ليـلةً واحدةً على حالة واحدة فأبداً فى الزيادة والنقصان ، ولا يزال ينمو حتى يصير بدراً ، ثم يتناقص حتى لا يُرى ، ثم يأخذ فى الظهور ، وكذلك دأبُه دائماً إلى أنْ ننْقَضَ عليه العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعل لـكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلماتِ البرِّ والبحر قد فصَّلْنا الآياتِ لقومٍ يعلمو ﴾

كما أن نجوم السماء يُهتدى بها فى الفلوات فـكذلك نجوم القلوب يهتدى بها فى معرفة ربِّ الأرضين والسموات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنشأكم مِّن نَّفْسٍ واحدة فمستقر ومستودَعٌ قد فصَّلنا الآيات لقومٍ يفقهون ﴾

ذكَرَهم وصفَهم حين خَلَقَهم من آدم عليه السلام . وكما أن للنفوس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع ، فَمِنْ عَبْدٍ مُسْتَقَرُّ قلبِه أوطانُ الشهوات والمنى ، ومن عبـدٍ مستقره موقع الزهد والتقى ، ومن عبدٍ مستقره — حيث لا مسكن ولا مأوى — وراء الورى[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نباتَ كل شىء فأخرجنا

---

(١) وردت (بحسمان) بالميم والصواب أن تـكون (بحسبان)
(٢) أى فى حال الفناء يتلاشى فى الوجود الذى لا تحده حدود .

منه خَضِراً نُخْرِجُ منـه حبّاً
مُتراكِباً ، ومِنَ النخلِ مِن طلعها
قِنوانٌ دانية وجنّاتٍ من أعناب
والزيتون والرُّمّان مُشْتَبِهاً وغير
متشابِهٍ ، انظروا إلى ثَمَرِه إذا أثمر
وينعِهِ إنَّ فى ذلـكم لآياتٍ لقومٍ
يؤمنون ﴾

تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطارُ الـكون ، وتباين النبات فى اللون والطَّعم واختلفت الأشياء ، ودلَّ كلُّ مخلوقٍ بلسان فصيح ، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُسْتَقِلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله شركاءَ الجن وخَلَقَهم
وخرقوا (١) له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ
سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفون ﴾

مُدَّت بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه ، وتلك عقوبةٌ لأرباب الغفلة عن الله تعالى عُجِّلَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ بديعُ السمٰواتِ والأرضِ أنّى يكونُ
له ولد ولم تـكن له صاحبةٌ وخَلَقَ
كلَّ شىءٍ وهو بكل شىءٍ عليم ﴾

البديع الذى لا مثل له ، أو هو المنشئ لا على مثال ، وكلاهما فى وصفه مستحق .

والواحد يستحيل له الوَلَدُ لاقتضائه البعضية ، والتوحيد ينافيه .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلـكم اللهُ ربُّكم لا إله إلا هو

---

(١) خَرَقَ الإفكَ = اختلقه ، أو من خرق الثوبَ إذا شقه فيكون المعنى : (اشتقوا له) وإشارة إلى شرك تعتمد على المعنيين .

خالِقُ كُلِّ شيءٍ فاعبدوه وهو على
كل شيءٍ وكيل ﴾

تعرَّف إليهم بآياته ، ثم تعرَّف إليهم بصفاته ، ثم كاشفهم بحقائق ذاته .

فقوله : « لا إله إلا هو » تعريف للسادات والأكابر ، وقوله : « خالق كل شيء » تعريف للعوام والأصاغر .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصار
وهو اللطيف الخبير ﴾

قَدَّسَ الصمديةَ عن كل لحوقٍ ودَرَك ، فأنّى بالإدراك ولاحدَّ له ولا طرف ؟ ! « وهو اللطيف » الذى لا يخفى عليه شيء ، « الخبير » الذى أحاط علمُه بكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جاءكُم بصائرُ من ربِّكم فَمَنْ
أبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ومَنْ عَمِيَ فعليها
وما أنا عليكم بحفيظ ﴾

أوْضحَ البيانَ وألاحَ الدليلَ ، وأزاحَ العِلَل وأنارَ السبيلَ ، ولكن قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بعقلته إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُصَرِّف الآيات وَلِيقولوا
دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَه لقوم يعلمون ﴾

أوقع الفتنةَ فى قلوبهم فَخَنِسَتْ عليهم الأحوال : فَمِنْ شُبْهةٍ دَاخَلَتْهم ومن حَيْرةٍ مَلَكَتْهُم . ومن تحقيق أدركه قوم ، وتعريفٍ توقف على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك
عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ﴾

العَجَبُ ممن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده ، وكيف يعتقد معبوده بجواز ألا يرتفع فى ملكه مراده ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يدعون مِن دونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بغير علمٍ﴾

يعنى خَاطِبْهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفى الشبهة ، ولا تُكلِّمْهم على موجب نوازع النَّفْس والعادة ، فيَحْمِلَهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابِقْهُم على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة فى غيِّهم ، فسيكون فِعْلُكَ سبباً وعِلَّةً لزيادةِ كفرِهم وفِسْقِهم .

قوله جل ذكره : ﴿كذلك زيَّنَّا لكلِّ أمةٍ عَمَلَهم ثم إلى ربِّهم مَرْجِعهم فينبئُهم بما كانوا يعملون﴾

لبَّسْنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيحَ جميلاً ، ولم يَرَوْا لسوءِ حالتهم تبديلا ، فركنوا إلى الهوى ، ولم يميزوا بين العوافى والبَلا .

قوله جل ذكره : ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهم لئن جاءتهم آيةٌ ليُؤْمِنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله وما يشعِرُكُم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ .

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان ، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم ، وما يُغْنِي وضوحُ الأدلة لمن لا تساعده سوابقُ الرحمة ، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهم فى طغيانهم يعمهون﴾

العَجَبُ ممن تبْقَى على قلبه شبهةٌ فى مسألة القَدَر[1] ، والحقُّ — سبحانه — يقول :

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى القدرية الذين يقولون بخلق الأفعال ، فسموا قدرية من قبيل تسمية الشيء بضده ، بيتماسى خصومهم بالجبرية .

ويوصف القدرية بأنهم مجوس هذه الأمة ، لأنه كما أن أتباع زرادشت يعارضون خالق الخير بمبدإ ثان هو علة الشر كذلك هم — أى القدرية — يُخرجون أعمال الإنسان السيئة من دائرة خلق الله ، فالله ليس هو الذى يخلق المعصية بل إرادة الإنسان المستقلة .

« ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به » ، لا بل من حقائق التقليب بقاء إشكال هذا الأمر — مع وضوحه — على قلوب مَنْ هو منْ جملة العقلاء ، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه ! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أننا نَزَّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤْمِنوا إلا أن يشاء اللهُ ولكنَّ أكثرهم يجهلون ﴾

لأن الآيات وإنْ توالت ، وشموس البرهان وإنْ تعالَتْ فَمَنْ قَصَمَتْهُ العِزَّةُ وكَبَسَتْه القِسمة لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضلالا ، ولم يستنجز إلا الشقوة حالاً .

قوله جل ذكره ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عَدُوّاً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غروراً ولوشاء ربُّك ما فعلوه فَذَرْهم وما يفترون ﴾

كلَّما كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى ، والمطالبات أقوى ، فلمَّا كانت رتبُ الأنبياء — عليهم السلام — أشرفَ كانت العداوة معهم أشد وأصعب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِتَصْغَىَ إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخِرة وليرضَوْه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فَرَضُوا لأنفسهم أخسَّ الأنصباء[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وهو الذي

---

(١) الأنصباء جمع نصيب وهو الحصة من الشيء (المنجد) .

أنزل إليكم الكتابَ مُفَصَّلاً والذين
آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ
مِّن ربك بالحقِّ فلا تكونَنَّ مِنَ
الممترين ﴾

قلْ لهم أترون أنى — بعد ظهور البيان ووضوح البرهان — أذَرُ اليقين ، وأوثر التخمين وأفارق الحقَّ ، وأقارن[1] الحظ ؟ إن هذا محال من الظن .

قوله جل ذكره : ﴿ وتمَّتْ كلمة ربِّك صِدْقا وَعدْلاً
لامُبَدِّل لكلماته وهو السميع العليم ﴾

تقدَّسَتْ عن التغيير ذاتُه ، وتنزهت عن التبديل صفاتُه . والتمام ينفى النقصان . وكلُّ نقصانٍ فمن الحدَثِ أصلُه ، وأنَّى بالنقص — والقِدَمُ وصفُه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تُطِعْ أكثر مَن فى الأرض
يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون
إلا الظن وإنْ هُمْ إلا يَخْرُصُون ﴾

أهلُ الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخَطَراً ، وأمَّا الأعداء ففيهم كثرة . فإنْ لاحظْتَهُم — يا محمد — فتَنُوكَ ، وإنْ صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّك هو أعلم مَن يَضِلُّ عن سبيله
وهو أعلم بالمُهْتَدين ﴾

تقاصرت علومُ الخَلْق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عَرَّفهم من أمره ، والذى لا يخفى عليه شىء فهو الواحدُ — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلُوا مما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه إن
كنتم بآياته مُؤمنين ﴾

هذا فى حكم التفسير مختص بالذبيحة ، وفى معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة ، فإن من

(١) ربما كانت فى الأصل (أقارف) بالفاء ، وكلاهما صحيح فى السياق .

أكل على الغفلة فما دامت تلك القوةُ باقيةً فيه فخواطره إما هواجس النَّفْس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَكُمْ ألا تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه وقد فصَّل لكم ما حرَّمَ عليكم إلا ما اضطُرِرْتم إليه وإنَّ كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إنَّ ربَّك هو أعلم بالمعتدين ﴾

يعنى أى شىء عليكم لو تركتم الغفلة ؟ وما الذى يضركم لو استدمتم الذكر ؟

وقد تبيَّن لكم الفَرْقُ بين أُنْس الذكر ووحشة الغفلة فى الحال والوقت ، (ألاَ)[1] تعرفوا حكم الثواب والعقاب فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وذروا ظاهرَ الإثم وباطنه إنَّ الذين يكسِبون الإثمَ سَيُجْزَون بما كانوا يقترفون ﴾

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع ، وباطن الإثم هو سرٌّ بينك وبين الله ، لا وقوف لمخلوقٍ عليه .

ويقال باطن الإثم خَفِيُّ العقائد و (. . . .)[2] الألحاظ .

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل .

ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المعرفة — الإغماض عمَّا لَك فيه حظ ، ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المحبة — دوام التغاضى عن مطالبات الحب ؛ وإنَّ بِناء مطالبات الحب على التجنى والقهر[3] ، قال قائلهم :

---

(١) وردت (إلى) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) مشتبهة .

(٣) وفى هذا المعنى أنشدوا :

بنى الحب على القهر فلو عدل المحبوب يوما لَسَمج
ليس يستحسن في شرع الهوى عاشق يطلب تأليف الحجج

إذا قلتُ : ما أذنبتُ ؟ قالت مجيبةً :

حياتُك ذنبٌ لا يقاس به ذنبُ

ويقال أسبغتُ عليكم النِّعم ظاهراً وباطناً ، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً ، فإنَّ من شرط الشكر تركَ استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرْ اسمُ الله عليه وإنَّه لَفِسْق وإنَّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم لِيجادلوكم وإنْ أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ .

ما كانت (....)[1] من الأحوال عاصيًا ولربَّه ناسياً فتوقِّيه شرط عند أصحاب (...)[2].

ثم قال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » فهذا يدل على أنَّ مَنْ توقَّى ذلك انحدت لله خواطِرُه ، وانقطعت عنه خواطر الشيطان . وأصلُ كل قسوةٍ متابعةُ الشهوات ، ومَنْ تعوَّد متَابَعتَها فليودِّعْ صفوةَ القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ مَن كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُه فى الظلمات لَيْسَ بخارجٍ منها، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ .

الإيمان عند هؤلاء القوم حياةُ القلب بالله . وأهل الغفلة إذْ لَهُمْ الذكر فقد صاروا أحياء بعد ما كانوا أمواتاً ، وأربابُ الذكرِ لو اعتراهم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياة . والذى هو فى أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفى روْح الاستبصار لا يدانيه مَنْ هو فى (أسْرِ)[3] الظلمات ، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات .

---

(١) مشتبهة .

(٢) مشتبهة .

(٣) وردت (أصر) بالصاد وقد آثرنا (أسر) لتلائم (رهين) الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسِهم وما يشعرون ﴾ .

لَبَّسنا عليهم حقائق التوحيد ، وسوَّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات ؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمْكرون ، وهم فى التحقيق مخادعون ، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمنَ حتى نُؤْتَى مِثْلَ ما أوتى رُسُلُ اللهِ اللهُ أعلمُ حيث يجعل رسالتَه سيصيبُ الذين أجرموا صَغَارٌ عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ .

بعد إزاحة العلة ، وبيان الحجة ، وزوال الشبهة (فالتعلُّل)[1] باستزادة البصيرة (إعلام)[2] عن سوء الأدب ، وذلك منهم من التعدى ؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بمَنْ جاء بنوعٍ من تسويلات النَّفْس يوجب مقاساة الهوان . وملازمةُ الحدود ، وتركُ التعدى على الحق قضيةُ التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يهديَه يشرحْ صدره للإسلام ﴾ .

الْمُسْلِمُ لا يتحرك فى باطنه عِرْقٌ للمنازعة مع التقدير ، فإن الإسلام يقتضى تسليم الكل بلا استثنار ، ومَنْ استثقل شيئاً من التكليف أو بقى منه نَفَسٌ لكراهية شىء فيعدُّ غير مستسلمٍ لحكْمِه .

ويقال نورٌ فى البداية هو نور العقل ، ونورٌ فى الوسائط هو نور العلم ونور فى النهاية هو

---

(١) وردت (فالتعليل) والسياق يتطلب (التعلل) فبها يقوى ويتضح .
(٢) وردت (إقلام) ولا معنى لها ، وترجح أنها فى الأصل (إعلام) أى علامة .

نور العرفان ؛ فصاحب العقل مع البرهان ، وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة فى حكم العيان .

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شىء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

ويقال أول أثر لأنوار الغيب فى العبد يُنَبِّهه إلى نقائص قَدَرِه ومساوىء غيِّه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غَلَبَاتُ الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السرَّ بعد ما كان يشهد ، كالنَّاظِرِ فى قُرصِ الشمس تُسْتَهْلَكُ أنوار بصره فى شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة فى حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّه يجعل صدرَه ضيِّقًا حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ فى السماء كذلك يجعلُ الله الرِّجسَ على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وذلك حتى لا يسعى فى غير مراد الحق سبحانه[1] ، وحدُّ البشرية ضيق القلب ، وصاحبه فى أسْرِ الحدثان والأعلال ، ولا عقوبةَ أشدُّ من عقوبة الغفلة عن الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا صراطُ ربِّك مستقيماً قَدْ فصَّلنا الآياتِ لقومٍ يذكَّرون ﴾ .

الصراطُ المستقيمُ إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيَّدٌ بجمع ، وجمعٌ مقيدٌ بشرع ، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسع ، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد ، والتحقق بأنَّ المُجْرِى

---

(١) تبدو فى هذه العبارة رائحة الجبرية . . نعم ، ولكنها جبرية الحب ، فالإرادة والمريد والمراد كلها تدور فى فلك الحب ، وهذا فرق بين النزعتين الكلامية البحتة والصوفية ، عند تصديهما لهذا الموضوع .

واحدٌ لاشريك له ، ثم تركُ الاعتماد ونفى الاستناد ، لاعلى (حركاته)[1] يعتمد ، ولا إلى سكناته يستند ، (بل)[2] ينتظر مايفتح به التقدير ، فإن زاغ صاحبُ الاستقامة لحظةً ، والتفت بمنةٍ أو يسرةٍ سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ لهُم دارُ السلامِ عِندَ ربِّهم ﴾ .

دار السلام أى دار السلامة ، ومَنْ كان في رِقِّ شيءٍ من (الأغراض)[3] والمخلوقات لم يجد السلامة ، وإنما يجد السلامة مَنْ تحرر عن رِقِّ المُكَوَّنَات ، والآية تشير إلى أنّ القومَ فى الجنة لكنهم ليسوا فى أَسْرِ الجنة ، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكَوَّن .

ويقال مَنْ لم يُسلِّمْ — اليوم — على نفسه وروحه وكلِّ مالَه من كل كريمة وعظيمة تسليمَ وداعٍ لايجد — غداً — ذلك الفَضْل ، فمن أراد أن يُسلِّم عليه ربُّه — غداً — فَلْيُسَلِّمْ على (الكون)[4] بجملته ، وأولا على نفسه وروحه .

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ — اليوم — لسانُه عن الغيبة ، وجَنانه عن الغيبة ، وأبشاره وظواهره من الزَّلَّة ، وأسراره وضمائره من الغفلة ، وعقله من البدعة ، ومعاملته من الحرام والشبهة ، وأعماله من الرياء والمصانعة ، وأحواله من الإعجاب .

ويقال شرفُ قَدْر تلك الدار لكونها فى محل الكرامة ، واختصاصها بعنْدية الزُّلفة ، وإلا فالأقطار كلها ديار ، ولكن قيمة الدار بالجار ، قال قائلهم :

إنِّى لأحسد داراً فى جِوارِكُمُ طوبى لمن أضحى لدارك جاراً
يا ليت جارَكَ يعطينى من داره شِبراً إذاً لأعطيه بِشِبْرٍ داراً[5]

ويقال : وإن كانت الدارُ منزهةً عن قبول الجار ، وليس القرب منه بتدانى الأقطار ، فإطلاقُ هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنسٌ ؛ بل لو جاز القربُ فى وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا

---

(١) وردت (حرقاته) والصواب أن تكون (حركاته) لتتلاءم مع (سكناته) .
(٢) أضفنا (بل) ليتضح المعنى وهى غير موجودة فى النص .
(٣) (الأغراض) جمع غرض ، وليس بمستبعدان تكون (الأعراض) بالعين جمع عرض ، وكلاهما مقول .
(٤) وردت (السكون) وهى خطأ من الناسخ .
(٥) البيت الثانى مكسور ولكننا حرصنا على اثباته كما جاء فى النسخة .

كبير أثر ، وإنما حياة القلوب بهذا ، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات ؛ فهو لِأَجْلِ قلوب الأحباب يُطْلق هذا ويقع العلماء فى كد التأويل ، وهذا هو أمارة الحب ، قال قائلهم :

أنا من أَجْلِكَ حُمِّلْتُ الأ ذى الذى لا أستطيع

قوله جل ذكره : ﴿ وهو وليُّهم بما كانوا يعملونَ ﴾[1] .

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال : « وهو وليهم » لأنه إذا كان — سبحانه — هو وليَّهم فإنَّ المنازل بأَسْرِها طابت كيفما كانت ، قال قائلهم :

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها وليس فى الدار لى همٌّ ولا وَطَرُ

هو وليُّهم فى دنياهم ، ووليُّهم فى عقباهم ، هو وليهم فى أولاهم وفى أخراهم * وليهم الذى استولى حديثه على قلوبهم ، فلم يَدَعْ فيها لغيره نصيباً ولا سِوىً * وليهم الذى هو أَوْلَى بهم منهم * وليُّهم الذى آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فآثروه فى جميع أحوالهم * وليهم الذى تطلب رضاهم ، وليهم الذى لم (يَكِلْهُم)[2] إلى هواهم ، ولا إلى دنياهم ، ولا إلى عقباهم .

وليهم الذى بأفضاله يلاطفهم ، وبجماله وجلاله يكاشفهم .

وليُّهم الذى اختطفهم عن كل حظ ونصيب ، وحال بينهم وبين كل حميم وقريب ، فحرَّرهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب ، وليُّهم الذى هو مؤنِس أسرارهم .

مَشَاهِدُه مُعْتَكَفُ أبصارهم ، وحضْرَتُه مَرْتَعُ أرواحهم .

وليُّهم الذى ليس لهم سواه ، وليهم الذى لا يشهدون إلا إياه ، ولا يجدون إلا إياه ، لا فى بدايتهم يقصدون غيره ، ولا فى نهايتهم يجدون غيره ، ولا فى وسائلهم يشهدون غيره[3]

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشرَ الجِنِّ
قد استكثرتم مِنَ الإنسِ وقال
أولياؤهم من الإنسِ ربَّنا استمتعَ .

---

(١) وقع الناسخ فى ثلاثة أخطاء كتابية ونقلية فى هذه الآية إذ كتبها (فهو وليهم اليوم بما كانوا يكسبون) اذ التبست عليه مع آية اخرى .

(٢) وردت (يكلمهم) بزيادة ميم وهى خطأ فى النسخ .

(٣) لاحظ هنا هذا الترتيب : قصود ثم شهود ثم وجود .

بعضنا ببعضٍ وبلغنا أَجلنا الذى أَجلتَ لنا ، قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء اللهُ إنَّ ربَّك حكيم عليم ﴾

يعتذرون فلا يسمع ، ويحتجون بما لا ينفع ، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم ، لـكنْ سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسِبون ﴾

يعنى نجمع بين الأشكال ، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض ، والأعداء مجموعون يفرُّ بعضهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ يامعشرَ الجنِّ والإنس ألَم يأتِكم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومِكُم هذا قالوا شَهِدْنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وشهِدوا على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾

عرَّفهم أنه أزاح لهم العِلَلَ من حيث التزام الحجة ، لـكنه حكم لهم بالشقوة فى الأزل ، (فَلبَّسَ)[1] عليهم المحجة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك أن لَّمْ يكن ربُّكَ مُهلكَ القُرى بِظُلْمٍ وأهلُها غافِلون ﴾

متى يصحُّ فى وصفه توهم الظلم والمُلكُ مُلكه والخَلْقُ خلقُه ؟

ومتى يقبح منه تصرُّفٌ فى شخصٍ بما أراد ، والعبد عبده والحكم حكمه ؟

---

(١) وردت (فلبس) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وما ربك بغافلٍ عما يعملون ﴾

المحسن فى روْح الثواب متنعِّم ، والمذنب فى نوْح العذاب متألم .

قوله جل ذكره : ﴿ وربُّك الغَنِيُّ ذو الرحمة إن يشأ يُذْهِبكم ويستخلِف مِنْ بعدِكم ما يشاء كما أنشأكم مِّن ذرية قومٍ آخَرين ﴾

« الغنيُّ » يشير إلى كشفه ، « وذو الرحمة » يشير إلى لطفه .

أخبرهم بقوله « الغنى » عن جلاله ، وبقوله : « دو الرحمة » عن أفضاله ؛ فبجلاله يكاشفهم فيُفْنِيهم ، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم .

ويقال سماع غِناه يوجِب محوَهم ، وسماع رحمته يوْجب صحوهم ، فهم فى سماع هذه الآية مترددون بين بقاءٍ وبين فناءٍ ، وبين إكرام وبين اصطلام ، وبين تقريبٍ وبين تذويب ، وبين اجتياحٍ وبين ارتياح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمُعْجِزين ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى قِصَر الأمل ، ومَنْ قَصُرَ أملُه حَسُنَ عملُه ، وكل ماهو آتٍ فقريبٌ أجَلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عاملٌ فسوف تعلمون مَن تكون له عاقبةُ الدار إنه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان فى صيغة الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرثِ والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصِلُ

إلى اللهِ وما كان لله فهو يصِلُ إلى
شركائهم ساء ما يحكمون ﴾

لما بَنَوْا قاعدة أمرِهم على موجب الهوى صارت فروعُهم لائقةً بأصولهم ؛ فهو كما قيل .

إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القرود

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركين
قتلَ أولادِهم شركاؤهم ليردوهم
ولِيَلبِسُوا عليهم دينَهم ولو شاء اللهُ
ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك ؛ إذْ الأشكالُ يتناصرون ، فالنَّفْسُ لا تدعو إلا إلى الأجنبية ، لأنها مُدَّعيةٌ تتوهم أن منها شيئاً ، وأصلُ كلِّ شِرْكِ الدعوى ، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر ، فهم أعوانٌ يتناصرون .

ثم قال : « ولو شاء الله ما فعلوه » صَرَّح بأن المراد على المشيئة ، والاعتبار (بسابق)[1] القضية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ
لا يَطْعَمُها إلا مَن نشاء بزعمهم
وأنعامٌ حُرِّمت ظهورُها ، وأنعام
لا يذكرون اسمَ اللهِ عليها افتراء
عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون *
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام
خالِصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا
وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء ،
سيجزيهم وَصفَهُم إنه حكيم عليم ﴾

(١) وردت (بسائق) وهي خطأ من الناسخ إذ المقصود بما سبق من القضاء .

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا ، وأمورٍ شرعوها على الوجه الذى اعتادوا ، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل ، وشرعوها بلا حجةٍ من إذن رسول ، والاشارة فيه أن من (نحا نحوهم)[1] فى زيادة شىء فى الدين ، أو نقصان شىءٍ من شرع المسلمين فمضاهٍ لهم فى البطلان ، ينخرط فى سلكهم فى الطغيان .

قوله جل ذكره : ﴿ قد خَسِرَ الذين قتلوا أولادَهم سَفَهًا بغير عِلْمٍ وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على اللهِ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشيةُ الفقر على قتل الأولاد ، ولذلك قال أهل التحقيق : من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنْشَأَ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ والنَّخلَ والزرعَ مختلِفاً أُكُلُهُ والزيتونَ والرُّمَّانَ متشابِهاً وغيرَ متشابِهٍ كلُوا مِن ثَمَرِه إذا أثمر ﴾

يعنى كما أنشأ فى الظاهر جناتٍ وبساتينَ كذلك أنشأ فى السِّر جناتٍ وبساتين ، ونزهة القلوب أتم من جنات الظاهر ؛ فأزهار القلوب مونِقة ، وشموس الأسرار مشرقة ، وأنهار المعارف زاخرة .

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تماثل الأحوال ، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه ، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا ، وإن اشتركت فى كونها أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتوا حقَّه يَوْمَ حصادِه ﴾

---

(١) وردت (نجا نجوم) وهى خطأ من الناسخ .

حَقُّ الواجبِ يومَ الحصاد إقامةُ الشكر ، فأمَّا إخراج البعض فبيانه على لسان العلم[1] ، وشهودُ المنعِم فى عين النعمة أتمُّ من الشكر على وجود النعمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يُحِبُّ المسرفين ﴾

الإسراف — على لسان العلم — مجاوزة الحد .

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كلُّ ما أنْفَقْتَه فى حظِّ نَفْسِكَ — ولو كانت سمسمة ، وما أنفقته فى سبيله — سبحانه — فليس بإسراف ، ولو أربى على الآلاف .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الأنعامِ حَمُولَةً وفَرْشاً ﴾

يعنى تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية فى الفضيلة على المخلوقات . وكما سخَّر الأعيان للإنسان كذلك سخّر الأزمان فى تصريف الحدثان لخواصِّ الإنسان[2]

قوله جل ذكره . ﴿ كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنه لكم عدو مُبين * ثمانيةَ أزواجٍ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . . . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائعٌ فى جميع ما يحصل به الانتفاع .

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر ، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكَرَم بل الجود فى وجود القِدَم .

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان ، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان ، وللسِّر رزق وهو الشهود الذى يكون للعبد وهو قرين العيان .

---

(١) أى إخراج مقدر على حسب المعروف فى الزكاة .

(٢) يشير بذلك إلى ما يحدث على أيدى الأولياء من كرامات

قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين » الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدَّب العبدُ باستدامة السكون والتزام حُسْنِ الخُلُق ، فإنَّ الضانية مستسلمةٌ لمن يلي عليها ، فلا بصياحها تُؤْذِي[1] ولا (بـ . . . وها)[2] ، يعني كذلك سبيل من وَطِيء هذا البساط .

وكذلك « في الإبل آيات » منها انقيادها لمن جَرَّ زِمَامَها ، واستناختها حيثما تُنَاخ بلا نزاع ولا اختيار . ومنها ركوبها عند الحَمْل ، ومنها صبرها على مقاساة العطش ، وذوبانها في السير .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا
على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أن يكون مَيْتَةً
أو دَمًا مسفوحاً أو لحمَ خِنزيرٍ فإنَّه
رِجْسٌ أو فِسْقًا أُهِلَّ لغير اللهِ به
فَمَنِ اضْطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنَّ
ربَّكَ غفورٌ رحيم ﴾

بيَّن أنَّ الشارِعَ اللهُ ، والمانعَ عن الخَلْق هو الله ، وما كان من غيرِ الله فضائعٌ باطِلٌ عند الله . بيَّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين هادوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي
ظُفُرٍ ومِنَ البقرِ والغنم حرَّمنا عليهم
شُحُومَهُمَا إلا مَا حَمَلَتْ ظهورُهما
أوِ الحوايا أوْ ما اختلط بعظمٍ ذلك
جزيناهم ببغيهم وإنَّا لصادقون ﴾

---

(١) في هذه الإشارة الدقيقة نلمح أن القشيري يدعو إلى إيثار الكتمان وعدم البوح بالأسرار ، وعلى ذلك كبار الشيوخ . يقول الشبلي . على أثر محنة الحلاج « كنت وابن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كتمت » .

(٢) مشتبهة ، وربما كانت (بعدوِّها) ، وعندئذ قد تكون العبارة فلا بصاحبها تؤذي ولا بعدوها.

بيَّن أن ما حرَّم عليهم ضيَّعوه ؛ إذ لما لم يعاقبهم عليه لم يشهدوا مَكْرَه العظيم فيما ابتدعوه من قِبَلِ نفوسهم — فأهملوه ولم يحافظوا عليه ، فاستوجبوا عظيم الوِزْر وأليم الهجر .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كذَّبوك فقُل ربُّكم ذو رحمةٍ واسعة ولا يُرَدُّ بأْسُهُ عنِ القوم المجرمين ﴾

الإشارة منه بيان تخصيص الأولياء بالرحمة ، وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة . والصورة الإنسانية جامعة (لهم)[1] ولكن القسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم .

قوله جل ذكره ﴿ سيقولُ الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا مِن شيءٍ كذلك كَذَبَ الذين مِن قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنا ، قُلْ هل عندكم مِنْ عِلْمٍ فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظنَّ وإنْ أنتم إلاَّ تخرُصُون ﴾

كذبت قالتُهم لأنها لم تَصْدُرْ عن تصديق ، فَدَمُّوا على جهالتهم وإن كانت (. . . .)[2] في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ فلله الحجةُ البالِغةُ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾

صَرَّحَ بأن إرادته — سبحانه — لا تتقاصر عن مراد ، وليس عليه اعتراض .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أنَّ اللهَ حَرَّم هذا فإن شَهِدوا ،

---

(١) وردت (له) والصواب أن تكون (لهم) لتشمل الأولياء والأعداء .
(٢) مشتبهة .

فلا تَشْهَدْ معهم ، ولا تتبع أهواء
الذين كذبوا بآيتنا والذين لا يؤمنون
بالآخرةِ وهم بِرَبِّهم يَعْدِلُون ﴾

أشار إلى أنَّ مَنْ تجرَّد عن برهانٍ يُصَرِّحه وبيان (يُوَضِّحُه)[1] فغيرُ مقبول من فاعله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكم
ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين
إحساناً ، ولا تقتلوا أولادَكم مِّنْ
إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ،
ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها
وما بَطن ، ولا تقتلوا النَّفسَ التى
حرَّم الله إلا بالحقِّ ذلكم وصاكم به
لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال
اليتيم إلا بالتى هى أحسنُ حتى يبلغَ
أشدَّه وأوفوا الكيل والميزانَ
بالقِسْط لا نُكَلِّف نَفْساً إلَّا وُسْعَها
وإذا قلتم فاعدِلوا ولو كان ذا قُرْبَى
وبعهدِ الله أوْفُوا ذلكم وصَّاكم به
لَعَلَّكم تَذَكَّرون * وأنَّ هذا
صِراطى مستقيمًا فاتبعوه ، ولا تتبعوا
السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيله ، ذلكم
وصَّاكم به لعلكم تتقون ﴾

---

(١) وردت (يوضمه) والصواب أن تكون بالحاء ليقوى المعنى والموسيقى اللفظية ونرجح أن الناسخ اشتبه عليه شكل الحاء فظنها عيناً

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشِرْك فإنه رأس المحرمات ، والذى لا يقبل معه شىء من الطاعات، وينقسم ذلك إلى شِرك جَلِىٌّ وشِرْك خَفِىٌّ ؛ فالجلىُّ عبادةُ الأصنامِ ، والخفىُّ ملاحظةُ الأنامِ ، بعين استحقاق الإعظام .

والثانى من هذه الخصال ترك العقوق ، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق ، وإراقة دمائهم بغير استحقاق .

ثم ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا وما استتر ، ويدخل فى ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النَّفس بغير الحق ؛ وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .

ثم بذل الإنصاف فى المعاملات والتوقى من جميع التبعات[1]

ثم الصدق فى القول والعدل فى الفعل .

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فَمَنْ قابل هذه الأوامر بجميل الاعتناق سعد فى داريه وحظى بعظائم منزلته .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم آتينا موسى الكتابَ تَماماً على الذى أحْسَنَ وتفصيلاً لكلِّ شىءٍ وهدىً ورحمةً لَعَلَّهم بلقاء ربِّهم يؤمنون ﴾

يهوِّن عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأنَّ الذين كانوا قبلنا كانوا فى الضعف والعجز مثلنا ، ثم صَبرُوا فظَفروا ، وأخْلَصُوا فخَلُصُوا .

---

(١) أى الاحتراز عما فيه تبعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مُبَارَكٌ فاتَّبِعُوه ، واتقوا لعلكم تُرْحَمُون ﴾

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب ، وإذا بَقِيَ العبدُ عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب ، ومن لم يجدْ فى قراءة القرآن كمالَ العيشِ والأُنس فلِأَنَّه يقرأ ترسماً لا تحققاً (١)

قوله جل ذكره : ﴿ أن تقولوا إنَّما أُنزلَ الكتابُ على طائفتين مِن قبلنا وإن كُنَّا عن دِرَاسَتِهم لغافلين * أو تقولوا لو أنَّا أُنزِل علينا الكتابُ لكُنَّا أهدى منهم فقد جاءكم بَيِّنَةٌ مِّن ربكم وهدى ورحمةٌ ﴾

أزاح كلَّ عِلَّة ، وأبدى كل وصلة ، فلم يُبْقِ لك تعللا ، ولا فى آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ممن كذَّب بآياتِ الله وصَدَفَ عنها سنجزى الذين يَصْدِفون عن آياتنا سوءَ العذابِ بما كانوا يصدِفون ﴾

عقوبةُ كلِّ جُرْمٍ مؤجلة ، وعقوبة التكذيب معجلة ، وهى ما يوجب بقاءهم فى أَسْرِ الشك حتى لا يستقر قلبهم على شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيَهم الملائكةُ أو يأتىَ رَبُّكَ أو يأتىَ بعضُ آياتِ ربِّكَ يومَ يأتى بعضُ آياتِ ربِّك

---

(١) يمكن ان يصلح هذا الرأى لتحديد موقف القشيرى من قضية « السماع » ومدى تأثير القرآن والشعر فى الوجدان الصوفى . أنظر قصة يوسف بن الحسين الرازى (الرسالة ص ١٧١) .

لا ينفع نَفْساً إيمانُها لم تكن آمنت
مِن قبلُ أو كَسَبَتْ فى إيمانها خيراً
قُلِ انتظروا إنَّا مُنتظِرون ﴾

أخبر أنه بعدما (أزاح)[1] لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم ، و (اغتروا)[2] بطول السلامة لهم ، ثم بيَّن أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُكْماً فلا معارِضَ لتقديره ، ولا مُناقِضَ لتدبيره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا
شِيَعاً لستَ منهم فى شىءٍ إنَّما أمْرُهم
إلى الله ثم يُنَبِّئُهُم بما كانوا يفعلون﴾

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم ، (فكانوا)[3] مجتمعين جهراً بجهر ، متفرقين — فى التحقيق — سِرّاً بسِرّ .

قوله : « لستَ منهم فى شىءٍ » . لا نجمعك وإياهم ، يعنى شِقُّكَ شِقُّ الحقائق ، وشِقُّهم شِقُّ الباطل ، و (لا اجتماعَ)[4] للضدين .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن جاء بالحسنةِ فله عشر أمثالها ﴾

هذه الحسنات للظاهر ، وأمّا حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة .

ويقال الحسنة منْ فضله تعالى تَصْدُر ، وبلطفه تحصل ، فهو يُجْرِى ، ثم يَقْبَلُ ويثنى ، ثم يجازى ويُعطى .

ويقال إحسانه — الذى هو التوفيق — يوجِبُ إحسانك الذى هو الوفاق ، وإحسانه — الذى هو خلق الطاعة — يوجِبُ لك نعت الإحسان الذى هو الطاعة ، فالعناء منك فِعْلُه والجزاء لك فَضْلُه[5] .

---

(١) وردت (ذبح) وذبح العلة وإزاحتها كلاهما مقبول ولكننا آثرنا أزاح لأنه استعملها فى هذا السياق قبل قليل .

(٢) وردت (اعتروا) بالعين والصواب (اغتروا) بالغين .

(٣) وردت (فكا . . .) فأكملناها .

(٤) وردت و (الاجتماع) والمعنى يرفضها ويقبل و (لا اجتماع) .

(٥) تعبر هذه الفقرة عن موقف القشيرى بالنسبة لقضية وجوب المثوبة والعقوبة على الله بالنسبة للمطيع والعاصى ، فبينما يقول المعتزلة بهذا الوجوب ، يرفض القشيرى كل وجوب على الله ، ويعود بالأمر كله إلى الفضل الإلهى .

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَةَ الخدمة ، وإحسان القلوب حفظ الحرمة ، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة .

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه فى السرائر ، فالذى منك مجاهدتُك ، والذى إليك مشاهدتك .

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا ، وإحسان المريدين رفض الهوى ، وإحسان العارفين قطع المنى ، وإحسان الموحدين التخلِّى عن الدنيا والعقبى ، والاكتفاء بوجود المولى .

ويقال إحسان المبتدئين الصدق فى الطلب ، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب ، فشرطُ الطلب ألا يبقى ميسورٌ إلاَّ بَذَلْتَه ، وشرط الأدب ألا تسمولك هِمَّةٌ إلى شىء إلا قطعتَه وتركته .

ويقال للزهاد والعبَّاد ، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاء محصور معدود ، ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن جآء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلَها وهم لا يُظلمون ﴾

يعنى (يُكالُ)[1] عليه بالكيل الذى يكيل ، ويوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفا .

قوله جل ذكره : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صِراط مستقيم ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

أرشده إلى الطريق الصحيح . ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى ماسواه . ومَنْ وَجَدَ سبيلا إلى مخلوق عرج في أو طان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية ، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميلاً أو قدَّم عليهم تعويلاً ، فقد استشعر تسويلاً ، وجُرِّعَ تضليلا .

---

(١) وردت (يقال) وهى خطا فى النسخ .

و « الصراط المستقيم » ألاَّ ترى من دونه مثبتاً لذرةٍ ولا سنة .

و « الدين القيم » مالا تمثيلَ فيه ولا تعطيل ، ولا نفي للفَرْقِ الذى يشير إلى العبودية ، ولا رد للجمع الذى هو شهود الربوبية(١) .

والحنيف المائل إلى الحق ، الزائغ عن الباطل ، الحائل عن ضد الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّ صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله ربّ العالمين * لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين ﴾

مَنْ كوشِفَ بحقائق التوحيد شهدَ أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمُنَقِّل إياه من وصفٍ إلى وصف ، و(....)(٢) عليه فنون الحدثان — واحدٌ لا يشاركه قسيم ، وماجِدٌ لا يضارعه نديم .

ويقال مَنْ عَلِمَ أنه بالله علم أنه لله ، فإذا علم أنه لله لم يَبقَ فيه نصيب لغير الله ؛ فهو مستسلمٌ لحكم الله ، لا مُعترِضٌ على تقدير الله ، ولا معارِضٌ لاختيار الله ، ولا مُعْرِضٌ عن اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أبغى رَبًّا وهو ربُّ كلِّ شىءٍ ولا تَكسِبُ كلُّ نفْسٍ إلا عليها ولا تزِر وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

---

(١) من اقوال القشيرى التى توضح مقصوده هنا : ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية ومايليق باحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحق — سبحانه — أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ، ومن أشهده الحق — سبحانه — ما يوليه من أفعال نفسه — سبحانه — فهو عبد يشاهد الجمع ؛ فإثبات الخلق من باب التفرقة ، واثبات الحق من نعت الجمع ، ولابد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) مشتبهة وهى قريبة من (المجرى) .

كيف أوثِر عليه بَدَلاً وإنى لا أجد عن حكمه حِوَلا ، وكيف أقول بغيرٍ أو ضدٍ أو شريك ؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود ؟ وإنْ لاحظتُ يمنةً ما شاهدتُ إلا مُلْكَه ، وإنْ طالعتُ يَسْرةً ما عايَنْتُ إلا مُلكَه ! بل إنى إنْ نظرتُ يمنةً شهدت يُمْنَه ، وإنْ نظرتُ يَسْرَةً وجدتُ نحوى يُسْرَه[1] !

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض ورفع بعضَكم فوق بعضٍ درجاتٍ ليبلوَكم فيما آتاكم إنَّ ربَّك سريعُ العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾

صير التوبة إليكم ، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم ، فأنتم المقصودون اليوم دون من هو سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافا ، وخلقكم أخْيافاً[2] فمِنْ مُسَخَّرٍ له ، مُرَفَّهٍ ، مُرَوَّحٍ ، يتعب لأجْله كثيرٌ . ومن مُعَنًّى ، وذى مشقةٍ أُدير عليه رأسُه . وجاء البلاء ليختبركم فيما آتاكم ، ويمتحنكم فيما أعطاكم . إنَّ حسابه لكم لا حِقٌ ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الأعراف

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الباء مكسورة فى نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء ، وهى صغيرة القامة فى الخط ، ونَقْطُها الذى تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القِلَّة ، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف ، فهى تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه .

والسين « من بسم الله » حرفٌ ساكنٌ فالإشارة من الباء ألا تَذَرَ — فى الخضوع والتذلل ، والجهد والتوسل — ميسوراً ، ثم تسكن منتظراً للتقدير ، فإنْ مَنَّ القبولَ بفضله

---

(١) وردت (يمنه ويسره) بتاء مربوطة والصواب أن تكونا (اليمن واليسر) مضافتين لله — سبحانه .

(٢) يقال هم إخوة أخياف : أى أنَّ امهم واحدة والآباء شتى فهم مختلفون (المنجد)

فذلك المأمول ، وإنْ ردَّ بحكمٍ فله الحكم ، فتوافق تقديره بالموافقة فى الرضا به ، إذا الميم تشير إلى مِنته إن شاء ، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إنْ لم يَمُنَّ .

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق — سبحانه — بذلك من دون الخلق ، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلْق ، فالغيب لهم كشف ، والخبرُ لهم عيان ، وما للناس عِلْم فلهم وجود .

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البَسط بما (. . . .)[1] فيه من وجوه المراعاة ! وصنوف لطائف المناجاة ، فهم فى جنات النعيم ، وعيشٍ بسطٍ وتكريم ، ودوام روْحٍ مقيم .

والميم تشير إلى محبة الحق — سبحانه — لهم بدءاً فإنها هى الموجبة لمحابِّهم ، إذ عنها صَدَرَ كلُّ حب فبمحبته لهم أحبوه ، وبقصده إليهم طلبوه ، وبإرداته لهم أرادوه .

ويقال نزهة أسرار الموحدين فى الإناخة بعقوة بسم الله ، فَمَنْ حَلَّ تلك الساحة رَتَعَ فى حدائق القُدْس ، واستروح إلى نسيم الأُنْس .

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم ؛ فللأغنياء موقفهم عرفات ، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات .

ويقال قالة « بسم الله » ربيع الأحباب ؛ أزهارها لطائف الوصلة ، ونَوْرُها زوائد القربة .

قوله جل ذكره : ﴿ المص ﴾ .

هذه الحروف من المتشابه فى القرآن على طريقة قومٍ من السَلَف ، والحق — سبحانه — مستأثر بعلمها دون خلقه . وعلى طريقة قومٍ فلها معانٍ تُعْرَف ، وفيها إشارات إلى أشياء توصَف : فالألِف تشير إلى أُلفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة ، فهى — فى التحقيق — فى ذلك المعنى كالمتحدة ؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكلين ، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون .

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثَه فلم يحتشم من بَذْل روحه .

---

(١) مشتبهة .

ويقال الألف تجرُّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشىء ، وحين استغنى عن كل شىء اتصل به كل شىء على جهة الاحتياج إليه .

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف ؛ فمرةً أصبحت مفتوحة ، ومرةً (مسكونة)[1] ، ومرة مرفوعة ، وأمّا الألف التى هى بعيدة عن الاتصال بالعلاقات (فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهى على سكونها الأصلى)[2] .

وأمّا الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين فى القصد ، وصدق أحوال العارفين فى الوجد ، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب ، إذ العطش نعت كلِّ قاصد ، كما أن الدهشة وصف كل واجد .

ويقال الصاد تبدى محبةً للصدورِ وهو بلاء الأحباب .

ويقال الصاد تطالبك بالصدق فى الود ، وأمارة الصدق فى الود بلوغ النهاية والكمال ، حتى لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالمنع .

قوله جل ذكره : ﴿ كتابٌ أُنزِلَ إليك فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه لتنذِرَ به وذِكْرى للمؤمنين ﴾ .

كتاب الأحباب تحفة الوقت ، وشفاء لقاساة ألم البعد ، وهو لداء الضنى مُزِيل ، ولشفاء الشكِّ مُقِيل ، وقال تعالى : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ولم يقل : فى قلبك ؛ فإن قلبه — عليه السلام — فى محل الشهود ، ولذلك قال : ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »[3] وكذلك قال موسى عليه السلام : « ربِّ اشرح لى صدرى »[4] . وقال للمصطفى صلوات الله

---

(١) وردت (مسكونه) بسقوط النون وهى خطأ فى النسخ .
(٢) ما بين القوسين موجود فى الهامش اثبتناه فى موضعه من المتن حسب العلامة المميزة .
(٣) آية ٩٧ سورة الحجر .
(٤) آية ٢٥ سورة طه

عليه : « ألم نشرح لك صدرك »[1] . فإن القلب فى محل الشهود ، وهو أبداً بدوام أُنْس القرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « تنام عينى ولا ينام قلبى »[2] وقال : « أسألك لذة النظر »[3] وصاحب اللذة لا يكون له حرج .

قوله جل ذكره : ﴿ اتَّبِعُوا ما أُنزل إليكم من ربِّكم ولا تتبعوا مِن دونه أولياء قليلاً مّا تذَكَّرون ﴾ .

استَسْلِموا لمطالبات التقدير ، قِفُوا حيثما وقفتم ، وتحققوا بما عرفتم ، وطالعوا بما كوشفتم ، ولا تلاحظوا غيراً ، ولا تركنوا إلى عِلَّةٍ ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسُنا بياتاً أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذْ جاءهُم بَأْسُنا إلاَّ أن قالوا إنَّا كنا ظالمين ﴾ .

يعنى كم من قرية ركنوا إلى الغفلة ، واغتروا بطول المهلة ، باتوا فى (خَفْضٍ)[4] الدعة وأصبحوا وقد صادفتهم البلايا بغتة ، وأدركتهم القضية فجأة ، فلا بلاء كُشِف عنهم ، ولادعاء سُمِع لهم ، ولا فرار نَفَعَهم ، ولا صريخ أنقذهم . فما زالوا يفزعون إلى الابتهال ، ويصيحون : الويل ! ويدعون إلى كشف الضر ، ويبكون من مسِّ السوء ؟ ! بادوا وكأنه لاعين ولا أثر ، ولا لأحدٍ منهم (خبر)[5] . تلك سُنَّةُ الله فى الذين خَلَوْا من الكافرين ، وعادته فى الماضين من الماردين .

---

(١) آية ١ سورة الشرح .

(٢) فى رواية سعيد بن منصور فى سننه عن ابن سعد بن الحسن مرسلا : (تنام عيناى ولا ينام قلبى) ص ١٢٠ الجامع الصغير .

(٣) وردت ضمن وعاء طويل رواه النسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه عن عمار بن ياسر — هكذا (. . . وأسألك لذة النظر الى وجهك) .

(٤) وردت (حفض) بالحاء والصواب أن تكون (خفض العيش) بالخاء .

(٥) وردت (خبر) بالباء والصواب أن تكون (خبر) بالباء .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » : سؤال تعنيف وتعذيب .

« ولنسأل المرسلين » : سؤال تشريف وتقريب .

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » عن القبول فيتقنَّعون بذل الخجل .

« ولنسألن المرسلين » عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة ، فالكلُّ بسِمةِ العبودية والتوقير ، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ وما كُنَّا غائبين ﴾

فلنخبرنهم يومَ الفصلِ ما هم عليه اليوم ، وتوقفهم على ما أسلفوه ، وتقيمنهم فى مقام الصَّغارِ ومحل الخزى ، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير .

ويقال أجرى الحقُّ — سبحانه — سُنَّتَه بتخويف العباد بعلمه مرةً كما خوَّفهم بعقوبته تارة ؛ فقال تعالى : « واتقوا يوماً »[1] يعنى العذاب الواقع فى ذلك اليوم ، وقال فى موضع آخر : « ويحذِّركم الله نفسه »[2] وهذا أبلغ فى التخويف ، وقال « ألم يعلم بأن الله يرى »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ والوزن يومئذٍ الحقُّ فَمَن ثَقُلَتْ موازينُه فأولئك هم المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم بما كانوا بآياتنا يَظْلِمُون ﴾

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص ، وأحوالهم بميزان الصدق . فَمَنْ كانت أعمالُهم بالرياء

---

(١) آية ٤٨ سورة البقرة
(٢) آية ٢٨ سورة آل عمران
(٣) آية ١٤ سورة العلق

مصحوبة لم يَقْبَلْ أعمالَهم ، ومَنْ كانت أحوالُهم بالاعجاب مشوبةً لم يرفع أحوالَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد مكنَّاكم فى الأرض وجعلنالكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾

سَهَّلنا عليكم أسباب المعيشة ، ويسَّرنا لكم أحوال التصرف ، ثم أراد منكم أنْ تتخذوا إليه سبيلاً ، ولم يعتص عليه مراد .

« قليلا ما تشكرون » لاستعمالكم — فى الخلاف — أبدانَكم ، ولإنفاقكم — بالإسراف — أحوالكم ، ولاستغراقكم — فى الحظوظ — أوقاتكم . فلا نعمة الفراغ شكرتم ، ولا من مسَّ العقوبة شكوتم . . . خسرتم وما شعرتم !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثُمَّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذى أردْناكم ، وأقمناكم فى الشواهد التى اخترنا لكم ؛ فمِنْ قبيحٍ صورته خَلْقاً ومن مليح ، ومن سقيم حالته خُلُقاً[1] ، ومن صحيح . ثم إنا نعرفكم سابِق آيادينا إلى أبيكم ، ثم لاحِقَ خِلافه بما بقى عِرْقٌ منه فيكم ، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم)[2] ويعاديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما مَنَعَكَ ألا تسجُدَ إذ أمَرْتُك قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين ﴾

أى لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجودِ لآدم لو كُنْتَ تُعَظِّم أمرى ؟ فيتحقق الموحدّون أن موجِبْ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ ، ولو ساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود .

---

(١) ضبطنا خلقاً وخلقاً حسبما يتطلبه السياق

(٢) هكذا فى ص ونرجح أن الناسخ قد اخطأ فى النقل ؛ فما بين قوسين لا معنى له ، وربما كانت فى الأصل (ثم ما علمنا بمن كان يحسدكم ويعاديكم) والمقصود إبليس كما فى الآية

قال : « أنا خير منه » ادَّعى الخيرية ، وكان الواجب عليه — لولا الشقوة — أنْ يُؤْثِرَ التذلُّلَ على التكبُّر ، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحقِّ .

ثم إنه وإنْ سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفس لأنه بِحَظٍّ ، فلم يزِدْه قياسُه إلا فى استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره[1] ، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه — سبحانه — وقسمته .

قوله جل ذكر : ﴿ قال فاهبط منها فما يكونُ لَكَ أن تتكبَّر فيها فاخرُجْ إنَّكَ منَ الصَّاغرين ﴾ .

فارقْ بساطَ القربة ، فإنَّ التكبُّرَ والترفُّعَ على البساط ترك الأدب ، وتركُ الأدب يوجِب الطرد .

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبِّر ، والمتكبِّر بعيد عن الحق سبحانه ، ورؤية المقام قَدْحٌ فى الربوبية إذ لا قَدْرَ لغيره تعالى ، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلا فقد نازع الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أنظِرْنى إلى يومِ يُبْعثُون * قال إنَّكَ مِنَ المُنظَرين ﴾ .

أجاب دعاءه فى الحال ولكن كان ذلك مكراً به لأنه مكَّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة ، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقوةً . ليعلمَ الكافةُ أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمةً ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فَبِما أغويتنى لَأَقْعُدَنَّ لهم صِراطك المستقيم ﴾ .

جَاهَرَ الحقيقةَ بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غايةَ الخلوص فى العبودية ، فَعُلِمَ أن جميع ما كان منه فى (سالف)[2] حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق .

---

(١) حيث اعتبر النار خيراً من الطين .

(٢) وردت (سالك) والصواب ان تكون (سالف) اى سابق عهده قبل عصيانه .

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بين أيديهم ومِنْ خلْفِهم وعن أيْمانِهم وعن شمَائِلهم ولا تجدُ أكثرَهم شاكرين﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبَهم ، ويتسلطُ عليهم من جميع جهاتهم ، ولم يَعْلَمْ أن الحقَّ سبحانه قادر على حفظهم عنه ، فإنَّ ما يكيد بهم مِنَ القدرةِ حَصَلَ ، وبالمشيئة يوجد ، ولو كان الأمر به أو إليه لَكَانَ أوْلى الخلْقِ بأنْ يُؤَثِّرَ فيه كدُّحه نَفْسَهَ ، وحيْث لم ينفعه جهدُه فى سالِف أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿قال اخرُجْ منها مذءوماً مَدْحوراً لمن تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾ .

أخرجه من درجته ، ومن حالته ورتبته ، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته ، ثم تخليده أبداً فى عقوبته ، ولا يذيقه ذرةً من بَرْدِ رحمته ، فأصبح وهو مقدَّمٌ على الجملة ، وأمسى وهو أبعد الزُّمرة ، وهذه آثار قهر العِزَّة . فأىُّ كَبِدٍ يسمع هذه القصة ثم لا يتفتت ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنةَ فكُلا مِنْ حيثُ شِئْتُما ولا تَقْرَبا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ .

لما أسكن آدمَ الجنةَ خَلَق معه سبب الفتنةِ ، وهو ما أكرمه به من الزوجة . وأى نقصٍ يكون فى الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التى هى شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة ؟.

قوله جل ذكره : ﴿فوسوس لهما الشيطانُ﴾ .

نِسْبَتُه ما حَصَلَ منهما إلى الشيطان من أمارات العناية ، كانت الخطيئةُ منهما لكنَّه تعالى قال : «فوسوس لهما الشيطان» .

ويقال التقى آدمُ بإبليس بعد ذلك فقال له : ياشَقِيُّ ! وسوستَ إلىَّ وفعلتُ ! ، فقال إبليس لآدم . ياآدم ! هَبْ أنِّى كنتُ إبليسَك فَمَنْ كان إبليسى !؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبْدِىَ لهما ما ووِرى عنهما مِن سوءاتِهما ﴾ .

وفى ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال : «ليبدىَ لهما» فلم يطلع على سوأتهما غيرهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكين — لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام — ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما .

ويقال لمَّا طمعا فى الخلود وقعا فى الخمود ، ووقعا فى البلاء والخوف ؛ وأصلُ كلِّ محنةٍ الطمعُ .

ويقال إذا كان الطمع فى الجنة — وهى دار الخلود — أَوْجَبَ كُلَّ تلك المحن فالطمع فى الدنيا — التى هى دار الفناء — متى يسلم صاحبه من ذلك ؟ ويقال إن يكونا إنما ركنا إلى الخلود فلا لنصيبِ أنفسهما ، ولكن لأجل البقاء مع الله تعالى ، وهذا أَوْلى لأنه يوجب تنزيه محلِّ النبوة . وقيل ساعاتُ الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة ، فما لبثا فى دار الوصلة إلَّا بعضًا من النهار ؛ دَخَلاَ ضحوةَ النهار وخَرَجَا نِصْفَ النهار ! ويقال إن الفراقَ عينٌ تصيب أهلَ الوصلة ، وفى معناه قال قائلهم :

إنْ تكُنْ عينٌ أصابتك فما إلا لأنَّ العين تصيب الحسَنَا

ويقال حين تمَّتْ لهما أسباب الوصلة ، ووَطَّنَا نفوسهما على دوام القربة بدا الفراق من مكامنه فأباد من شملهما (ما)[1] انتظم ، كما قيل :

---

(١) وردت (فانتظم) والصواب (ما انتظم)

حين تمَّ الهوى وقلنا سُرِرْنا وحَسِبْنَاَ مِنْ الفراق أمنَّا
بَعَثَ البَيْنُ رُسْلَه فى خفاءٍ فأبادوا من شملنا ما جمعنا

قوله جل ذكره : ﴿ وقَاسَمَهُمَاَ إنِّى لكما لِمَنَ الناصحين * فدَلاَّهما بغرور ﴾

(حُسْنُ ظنِّ آدم — عليه السلام — حَمَلَه على سكون قلبه إلى يمين العدو لأنه لم يخطر بباله أن يكذب فى يمينه بالله ، ثم لمَّا بان له أنه دلاَّهما بغرورٍ تاب إلى الله بصدق الندم ، واعترف بأنه أساء وأجرم ، فَعَلِمَ — سبحانه — صِدْقَه فيما ندم ، فتداركه بجميل العفو والكرم)[1]

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لهما سوءاتُهُمَاَ ﴾

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشيرُ العقاب ، وتَنَغُّصِ الحال ، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق — سبحانه — شيئاً يبقيه عنه ، فلا يكون له بما آثر استمتاع . وكذلك مَنْ ادَّخر عن الله — سبحانه — نَفْسَه أو مالَه أو شيئاً بوجهٍ من الوجوه — لا يبارك الله فيه ، قال تعالى فى صفة الأعداء : « خسر الدنيا والآخرة » .

ويقال لمَّا بَدَتْ سوأتهما احتالا فى السَّتْرِ ، وطَفِقاَ يخصفان عليهما من ورق الجنة فبعدما كانت كسوتهما حُلَلَ الجنة ظلَّا يستتران بورق الجنة ، كما قيل :

لله دَرُّهُمُ مِنْ فِتْيَةٍ بكروا مثل الملوك ، وراحوا كالمساكين

وأنشدوا : لا تعجبوا لمذلتى فأنا الذى عَبَثَ الزمانِ بمهجتى فأذَلَّها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان فى الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلُّها تتطاول وتأبى أن يأخذ آدم — عليه السلام — شيئاً من أوراقها . وقبل ذلك كان لا يلاحِظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال :

وكانت — على الأيام — نفسى عزيزة فلمَّا رأت صبرى على الذلِّ ذلَّتِ

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من المتن .

ولمّا أُخرِج آدمُ من الجنة وأُسكِن الأرض كلّف العملَ والسعىَ والزرع والغرسَ ، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدّد بكاؤه ، وجبريل — عليه السلام — يأتيه ويقول : « أهذا الذى قيل لك : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » ؟

فَلَمْ تعرِف قدره . « فَذُقْ جزايا خِلافِك » فكان يسكن عن الجزع . ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل :

وجاشَتْ إلىَّ النفسُ أوّلَ مرةٍ وزيدت على مكروهها فاستقرتِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وطَفِقاَ يخصفان عليهما من ورق الجنة
وناداهما ربُّهما ألَمْ أنْهَكُماَ عن تلكما
الشجرة وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما
عدو مبين ﴾

كانت لا تصل يدُه إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه ، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة — التى هى شجرة المحنة — لكان ذلك عنايةً بشأنه ، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة ، تتمةً للبلاء والفتنة ، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر — إبلاغاً فى القهر — لَمَا خالف الأمر ، ولمَاَ حَصَلَ ما حَصَل .

« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » : فكان ما دَاخَلَهما من الخجل أشدَّ من كل عقوبة ؛ لأنهما لو كانا فى الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة ، فلما ناداهما بالعتاب حَلَّ بهما من الخجل ماحلّ ، وفى معناه أنشدوا :

واخجلنا من وقوفى وَسْطَ دَارِهِمُ إذ قال لى مغضبا : من أنت يارجل ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالا ربَّناَ ظلمنا أنفُسَناَ وإن لم تغفر لنا
وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾

اعترفا بالظلم جهراً ، وعرفا الحكم فى ذلك سِرّاً ؛ فقولهما : « ربنا ظَلَمْناَ أنفسنا » اعتراف بالظلم من حيث الشريعة ، وعرفان بأن المدارَ على الحكم من حيث الحقيقة ، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخلْق طوى الشريعة[1] ، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فَقَدْ جَحَدَ الحقيقة ،

(١) حتى يكون الشر ملسوباً للإنسان كَسْباً .

فلمَّا أقرّا بالظلم قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولا بظلمنا خَسِرْنا ، بل قالا : فَعَلْنَا فإنْ لم تغفر لنا خسرنا ، فبِتَرْكِ غفرانك نخسر لارتكاب ظلمنا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدو ﴾

أهْبَطَهم ، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقع فى اللعنة ، وأهبط آدم عن بقعته فتداركتْه الرحمة .

ويقال لم يُخْرِج آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإنْ أُخرِجَ عن دار الكرامة ، فلذلك قال الله تعالى : « ثم اجتباه ربُّه » وأما إبليس — لعنةُ الله عليه — فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة ؛ فلم ينتعش قط عن تلك السَّقْطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم فى الأرض مُسْتَقَرٌ ومتاع إلى حين ﴾

« ولكم فى الأرض مستقر » هذا عامٌّ « ومتاع إلى حين »: أراد به إبليسَ على الخصوص .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فيها تَحْيَوْن وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُون ﴾

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ فى الدنيا ، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار ، فَمِنْ عُسْرٍ ومن يُسْر ، ومن خير ومن شر ، ومن حياةٍ ومن موت ، ومن ظَفَرٍ ومِنْ فَوْت . . . إلى غير ذلك من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خير ذلك من آياتِ الله لعلهم يذّكّرون ﴾

سترناكم عن الأسباب الظاهرة ، ويَسَّرنا لكم ما تدفعون به صنوفَ المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع .

ثم قال : « ولباسُ التقوى ذلك خير » فإن اللباس الظاهر بقى آفاتِ الدنيا ، ولباس التقوى يصون عن الآفات التى توجب سخط المولى ، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه . وللنَّفْس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب ، لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفى الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . وللسرِّ لباسٌ من التقوى وهو نفى المساكنات والتصاون من الملاحظات .

ويقال تقوى العُبَّاد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفى مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطانُ
كما أخْرَجَ أبويكم من الجنة ينزع
عَنْهُمَا لِباسَهُمَا ليريَهما سوءاتِهما ﴾

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشكَّ بين وسواس الشيطان وهاجِس النَّفْس ، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطرُ القلبِ وزواجرُ العلمِ مغمورةً مقهورةً — فعن قريبٍ تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها ، وينخرط فى سلك موافقة الهوى فيسقط فى مهواة الزلة ، فإذا لم يحصل تداركٌ بوشيك التوبة صارت الحالةُ قسوةً فى القلب ، وإذا قسا القلبُ فارقته الحياة وتمَّ له البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث
لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء
للذين لا يؤمنون ﴾

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق — سبحانه — بقلبه ، فيستغيث إليه من كيده ، فيُدْخِله — سبحانه — فى كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا فعلوا فاحِشةً قالوا وجدنا عليها
آباءنا والله أمَرَنا بها ، قُلْ إن اللهَ

لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله
مالا تعلمون ﴾

استروحوا فى التعلل إلى سلوكهم نهجَ أسلافِهم ، فاستمسكوا بحبلٍ واهٍ فزلّت بهم أقدامُ الغرور ، وقعوا فى وهدة المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَمَرَ ربِّى بالقِسْط ﴾

القِسط العدل ، ويقع ذلك فى حق الله تعالى ، وفى حق الخلْق ، وفى حق نفسك ؛ فالعدلُ فى حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير فى المأمور بِهِ أو إقدامٍ على المنهِّى عنه ، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما خوَّلك ، ثم لا تؤْثِرَ عليه شيئا فيما أحلَّ لك . وأمَّا العدل مع الخلْق — فعلى لسان العلم — بذلُ الإنصاف ، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف . وأمَّا العدل فى حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها ، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها ، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال فى كل نَفَس .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا وجوهَكم عند كل مسجد
وادعوه مخلصين له الدِّين ﴾

الإشارة منه إلى إستدامة (شهوده فى كل حالة ، وألا تنساه لحظةً فى كلِّ ما تأتيه وتذره وتقدمه)[1] وتؤخره .

قوله جل ذكره : ﴿ كما بدأ كم تعودون * فريقاً هَدَى
وفريقاً حَقَّ عليهم الضلالةُ إنهم
اتخذوا الشياطينَ أولياء مِن دون
الله ويَحْسَبون أنهم مُهْتَدون ﴾

من كانت قِسمتُهُ — سبحانه — له بالسعادة كانت فطرته على السعادة ، وكانت حالته بنعت السعادة ، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة ، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالةٍ لقى الله بها » .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص .

وجملة العلم بالقضاءِ والقَدَرِ أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون ، وأراد أن يكون كما علم . وما عَلِمَ ألا يكون — مما جاز أن يكون أراده ألا يكون — أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذى أخبر ، وقضى على العبد وقدَّر أجرى عليه ما سبق به الحكم ، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف ..

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدمَ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾

على لسان العلم : يجب سَتْرُ العَوْرة فى الصلاة ، وعلى موجِب الإشارة : زينة العبد بحضور الحضرة ، ولزوم السُّدَّة ، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود ؛ فالعابد على الباب بنعت العبودية ، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتَّان بين عبدٍ وعبد !

قوله جل ذكره : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يحبُّ المسرفين ﴾

الإسراف ما تناولته لَكَ ولو بقدر سمسمة .

ويقال الإسراف هو التعدى عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظّاً بأى وجهٍ كان .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّم زينةَ اللهِ التى أخرج لعباده والطيبات مِنَ الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾

الإشارة منها إلى زينة السرائر ؛ فزينة العابدين آثار التوفيق ، وزينة الواجدين أنوار التحقيق ، وزينة القاصدين ترك العادة ، وزينة العابدين حسن العبادة .

ويقال زينةُ النفوس صدارُ الخدمة ، وزينة القلوب حفظ الحرمة ، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة .

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر .

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود .

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات ، وزينة القلوب دوام المواصلة من حيث المشاهدات .

ومعنى قوله : « قل من حرم زينة الله التى . . . . » يعنى إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها ، فمن تصدى لطلبها فهى مباحة له من غير تأخير قصود .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيِّباتِ مِنَ الرِّزق ﴾

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه ، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى .

ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله ، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّما حرَّم ربى الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَن والإثمَ والبَغْىَ بغير الحقِّ وأن تشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانا وأن تقولوا على اللهِ مالا تعلمون ﴾

ما ظهر منها الزَّلَّةُ ، وما بطن منها الغفلة .

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة ، وما بطن بإشارة الحقيقة .

ويقال لقومٍ تركُ الرخص يكون علة ، والأوْلى بهم والأفضل لهم الأخذ به . وقوم لو ركنوا إلى الرُّخص لقامت عليهم القيامة .

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة أو سِنَّة .

ويقال فاحشة الأحبابِ الصبر على المحبوب[1]

---

(١) لأنهم عندئذ يستطيعون الصبر بعيداً عن رضا محبوبهم عزَّ وجلَّ . (الرسالة ص ١٦٢)

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حيّاً وقد منيت بالفراق ، قال قائلهم :

لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأَجلْ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق ، قال قائلهم :

يا قُرَّةَ العين سَلْ عينى هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عينى ؟

ويقال فاحشةُ قومٍ أنْ تبقى لهم قطرةٌ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة ، أو يبقى لهم نَفَسٌ لم يَتَنَفَّسُوا به فى حسرة ، وفى معناه أنشدوا :

لئن بقيَتْ فى العين منِّى دمعةٌ فإنى إذاً فى العاشقين دخيلُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلِّ أُمَّةٍ أَجل فإذا جاء أجلهُم لا يستأخِرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾

لكلِّ قومٍ مدةٌ مضروبةٌ ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة ؛ فلنعمةِ المُتْرَفين مُدَّةٌ ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشِّدَّة ، ولمحنةِ المستضعفين مدةٌ فإذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة .

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة ، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم إمَّا يَأْتِيَنَّكم رُسُلٌ منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون ، واحملوا الأمرَ على الجِدِّ فإنَّا — مع استغنائنا عن الأغيار ، وتَقَدُّسِنا عن المنافع والمضار — نُطَالِبُ بالقليل والكثير ، ونحاسِبُ على النقير والقطمير .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

مَنْ قابَلَ ربوبيتَنا بالجحْدِ ، وحكمنا بالرد ، لَقِيَ الهوانَ ، وقاسى الآلام والأحزان ، ثم العَجْزُ يلجئه إلى الخنوع ، ولكن بعد ألا ينفع ولا يسمع[1]

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتابِ حتى إذا جاءتهم رُسُلُنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تَدْعُون من دون الله ؟ قالوا ضَلُّوا عنا ، وشَهِدوا على أنفُسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم ، فمن جرى بسعادته الحكمُ وقع عليه رقم السعادة ، ومن سبق بشقاوته الحكمُ حُقَّ عليه عَلَمُ الشقاوة .

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع فى قَعْرِ اللَّظى تداركتْه العنايةُ وأخرجتْه الرحمةُ ، ومَنْ سَبَقَتْ له قسمةُ الشقاوةِ .. فلو نزل الفراديس تداركته السخطة وأخرجته اللعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ادخلوا فى أُمَمٍ قد خَلَتْ من قبلكم مِّنَ الجنِّ والإنسِ فى النار كُلَّما دَخلتْ أُمَّةٌ لَعنَتْ أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت

(١) توضح هذه العبارة فى ضوء ما سيرد بعد قليل هكذا : (ولكن بعد الا ينفعهم بكاء ولا يسمع لهم دعاء) .

أُخراهم لأُولاهم رَبَّنَا هؤلاء أضلونا
فَآتِهِمْ عذاباً ضعفاً من النارِ ، قالَ
لكلٍ ضِعْفٌ ولكن لَّا تعلمون *
وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم
علينا من فضلٍ فذوقوا العذابَ
بما كنتم تكسِبُون ﴾

آثار إعراض الحق عنهم أورثَتْ لهم وحشةَ الوقت ؛ تبرَّم بعضُهم ببعض ، وضاق كلُّ واحدٍ منهم عن كل شيء حتى عن نفسه ، فدعا بعضهم على بعض ، وتبرّأ بعضهم من بعض ، وكذلك صفة المطرودين .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كَذَّبوا بآياتنا
واستكبروا عنها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ
السَّماء ولا يدخلون الجنَّة حتى يَلِجَ
الجملُ فى سَمِّ الخياط وكذلك نجزى
المجرمين * لهم من جهنم مهاد ﴾

فلا دعاؤهم يُسمَع ، ولا بكاؤهم ينفع ، ولا بلاؤهم يكشف ، ولا عناؤهم يُرْفَع .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن فوقهم غواش وكذلك
نجزى الظالمين ﴾

كما أحاطت العقوبات بهم فى الدنيا فتَدَنَّس بالغفلة باطنُهم ، وتلوَّثَ بالزَّلة ظاهرهم[1] ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ؛ فَمَنْ فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم فى القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفى ويزيد على الكل .

---

(١) نذكِّر أن القشيرى منذ قليل أوضح أن (ما ظهر من الفواحش هى الزلة وما بطن منها هى الغفلة)

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات
لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا أولئك
أصحاب الجنَّة هم فيها خالدون ﴾

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فيسَّرنا عليهم الطاعاتِ بحسن التوفيق ، وخَفَّفْنا عنهم العباداتِ بتقليل التكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَزَعْنا ما فى صدورهم من غِلٍّ ،
تجرى من تحتهم الأنهار ﴾

طهرنا قلوبهم من كل غش ، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة . وطَهَّرَ قلوب العارفين من كل حظ وعلاقة ، كما طهَّر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومُنْية ، وطهَّر قلوب العابدين عن كل تهمة وشهوة ، وطهَّر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر — كل واحد على قدر رتبته .

ويقال لمَّا خَلَق الجنة وَكَلَ ترتيبها إلى رضوان ، والعرش ولى حفظه إلى الجملة[1] ، والكعبة سلَّم مفتاحها إلى بنى شيبة ، وأمَّا تطهير صدور المؤمنين فتولاَّه بنفسه .

وقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ » .

ويقال إذا كان نزع الغل من الصدور مِنْ قِبَله فلا محلَّ للغرم الذى لزمهم بسبب الخصوم حيث كان منه سبحانه وجه أدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا
وما كُنَّا لنَهتدىَ لولا أن هدانا الله
لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحق ﴾

فى قولهم اعترافٌ منهم وإقرارٌ بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات،

(١) هل المقصود بها جملة الملائكة إشارة إلى قوله تعالى : « والملائكة من حول العرش يسبحون بحمد ربهم . . . » ؟

وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم ، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف .

قوله جل ذكره : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنةُ أُورِثْتمُوها بما كنتم تعملون ﴾

تسكينٌ لقلوبهم ، وتطييبٌ لهم ، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ أن قد وجدنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حقاً فهل وَجَدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حقاً ؟ قالوا : نعم ، فأذَّنَ مُؤَذِّنٌ بينهم أن لَّعنَةُ اللهِ على الظالمين * الذين يَصُدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرةِ كافرون ﴾

اعترف أهل النار بحقيقة الدِّين ، وأقروا بسوء ما عملوا ، ولكن حين لم ينفعهم إقرارٌ بحالٍ من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وبينَهما حِجابٌ ﴾

ذلك الحجاب الذى بينهما حصل من الحجاب السابق ؛ لمَّا حُجِبوا فى الابتداء[1] فى سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبوا فى الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال حجاب وأى حجاب ! لا يُرفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة .

حجابٌ سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرْم .

---

(١) وردت فى (الابتداع) والصواب أن سابق القسمة فى (الابتداء) قبل الطاعة والجرم — كما سيأتى بعد قليل ، وكما نعرف من مذهب القشيرى فى هذا الخصوص .

قوله جل ذكره: ﴿وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كُلاًّ بسيماهم﴾

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم ، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم .

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التى وجدوهم عليها فى دنياهم ؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب ، وآخرون موسومون[1] بأنوار الرد والحجب .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادَوْا أصحابَ الجنّةِ أن سلامٌ عليكم لم يَدْخُلُوها وهم يطمعون ﴾

سلِمُوا اليومَ عن النكرة والجحود ، وأكرِموا بالعرفان والتوحيد .

وسلموا غداً من فنون الوعيد ، وسَعِدُوا بلطائف المزيد . وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب مالم يَسْمُ إليه طَرْفُ تأميلهم ، ولم يُحِطْ بتفصيله كُنْهُ عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تِلقاء أصحابِ النّارِ قالوا ربَّنَا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ .

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديراً عليهم عظيم المِنّة التى بها نجاتُهم ، فيزيدون فى الاستغاثة وصدق الابتهال ، فتكمل بهم العارفة[2] بإدامة مالاطفهم به من الإيواء والحفظ .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ الأعرافِ رِجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكُم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاءِ الذين أقسمتم لاينالُهُمُ اللهُ برحمةٍ ، ادخلوا الجنةَ لاخوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾

---

(١) قال أحمد بن عطاء : (الوسم يظهر على المقبولين والمطرودين) اللمع ص ٤٢٧ .

(٢) العارفة هى الفضل والمعروف والمنة .

ذلك مايرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد ، وهى مما لايخفى على ذى عينين، فيقولون لهم : هل يُغنِي عنكم ماركنتم إليه من أباطيلكم ، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم ، وباطل تأويلكم ؟ فشاهِدوا — اليومَ — تخصيصَ الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم ، وانظروا هل يغنى عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ
أنْ أفيضوا علينا من الماءِ أو مما
رزقكم اللهُ قالوا إنّ اللهَ حَرَّمُهما
على الكافرين * الذين اتخذوا
دينَهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياةالدنيا
فاليوم ننساهم كما نَسُوا لِقاءَ يومِهم
هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾

دلّت الآية على أن من أواخر مايبقى على الإنسان الأكلَ والشربَ؛ فإنهم فى تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوعُ والعطش حتى يتضرعون كلَّ ذلك التضرع ؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم فى غاية الآلام ، والعادة — اليومَ — أن من كان فى ألم شديد لا يأكل ولا يشرب ، وهذا شديد .

ثم أبْصِرْ كيف لا يسقيهم قطرةً — مع استغنائه عن تعذيبهم ، وقدرتِه على أن يعطيهم مايريدون ! ولكنه قهر الربوبية وعِزُّ الأحدية ، وأنه فعّالٌ لما يريد . فكما لم يرزقهم — اليومَ — من عرفانه ذرة ، لا يسقيهم غداً فى تلك الأحوال قطرة ، وفى معناه أنشدوا :

وأقْسَمْنَ لا يسقيننا — الدهرَ — قطرةً ولو فُجِّرت من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعدما نفدت دموعهم ، وفى هذا المعنى قيل :

يا نازحاً نَزَفَتْ دمعى قطيعتُه هَبْ لى من الدمعِ ما أبكى عليكَ به .

وفى هذا المعنى أنشدوا .

جرف البكاء دموعَ عينك فاستعِرْ عيناً لغيرك دمعها مدرار

مَنْ ذا يُعيرك عينَه تبكى بها أرأيتَ عيناً للبكاء تُعار ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً
وغرَّتهم الحياةُ الدنيا فاليومَ ننساهم
كما نَسُوا لِقاء يومِهم هذا وما كانوا
بآياتنا يجحدون ﴾ .

كما تركوا أمره وضيَّعوه تركهم فى العقوبة ، ولا (. . .)[1] فيما يشكون ، فتأتى عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب ذلك جزاء لِمَنْ لم يعرف قَدْرَ الوصلة فى أوقات المهلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جئناهم بكتابٍ فصَّلناه على علمٍ
هُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤمِنون ﴾

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابلوه بالتصديق وصاحَبُوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد ، ونالوا الضياء بقرب الوداد ، ووصلوا فى الدنيا والعقبى إلى جميل المراد ، ولكنه — سبحانه — أبَى القسمة فى نصيبهم إلا الشقْوة .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا تأويلَه يومَ
يأتى تأويلُه يقول الذين نَسُوه مِن
قَبْلُ قد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ
فهل لَّنا مِن شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ
فنعملَ غير الذى كُنَّا نعملُ
قد خَسِروا أنفُسَهم وضَلَّ عنهم
ما كانوا يفترون ﴾

إذا كُشِفَ جلالُ الغيب ، وانتفت عن قلوبهم أغطيةُ الرَّيْب ، فلا بكاء لهم يَنْفَع ، ولا دعاء منهم يُسْمَع ، ولا شكوى عنهم تُرْفَع ، ولا بلوى من دونهم تُقْطَع

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن ربّكم اللهُ الذى خَلقَ السموات والأرضَ فى ستّةِ أيامٍ ثم استوى على العرشِ يُغشِى الليلَ النهارَ يطلبه حَثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مُسخرات بأمرِه ألاَ له الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ رَبُّ العالَمين ﴾

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهى أفعاله ، وتعرّف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية[1] التى هى جماله وجلاله ، فشتان بين قومٍ وقوم !

ثم كما يدخل فى الظاهر الليلَ على النهار والنهارَ على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض. ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب : فَمِنْ عبد أحواله أجمع قبض ، ومن عبدٍ أحواله أجمع بسطٌ ، ومن عبدٍ يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط كما أن بعض أقطار العالَم فيها نهار بلا ليل ، وفى بعضها ليل بلا نهار ، وفى بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل .

« ألا له الخلق والأمر » : فمنه الخير والشر ، والنفع والضر ، فإن له الخلْقَ والأمر .

« تبارك الله رب العالمين » هذه الكلمة مجمع الدعاء لاشتمالها على إفادة معنى قِدَمِه ودوامِ ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء .

وأفادت معنى جلاله الذى هو استحقاقه لنعوت العِزّ لأنه قد تبارك أى تعظّم . وأشارت إلى إسداد النِّعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البَرَكة هى الزيادة فهى مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ادعُوا ربَّكم تضرعا وخُفية

---

(١) لاحظ حرص القشيرى الشديد حين يقرر أن أقصى حالات المشاهدة لا تكون مشاهدة الذات — فقد جلت الصمدية أن يستشرف من شهود ذاتها عبد ، إنما هى مشاهدة نعوت الذات : الجمال والجلال .

إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا
فى الأرض بَعْدَ إصْلاَحِهاَ وادعوه
خوفاً وطمعاً ﴾

الأمر بالدعاء إذنٌ — فى التسلِّى — لأرباب المحنة ، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى روْح المناجاة فى حال الدعاء ؛ والدعاء نزهةٌ لأرباب الحوائج ، وراحةٌ لأصحاب المطالبات ، ومعجل من الأُنس بما (. . . .)[1] إلى القلب عاجل التقريب . وما أخلص عبدٌ فى دعائه إلا رَوَّحَ — سبحانه — فى الوقت قلبَه .

ويقال علَّمهم آداب الدعاء حيث قال : « تضرعا وخفية » وهذا أدب الدعاء ؛ أن يَدْعُوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار . ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكَكَ عن دعائه — الذى لا بد منه — اعتداء منك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُفْسدوا فى الأرض بعد إصلاحها
وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾

من الإفساد بعد الإصلاح إحمالُ النفس عن المجاهدات بخلع عذارها حتى تتبع هواها بعدما كَبَحْتَ لجامَها مدةً عن العَدْوِ فى ميدان الخلاف ، ومن ذلك إرسالُ القلب فى أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق ، ومن ذلك استشعارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه ، ومن ذلك الجنوحُ إلى تتبع الرُّخص فى طريق الطلب بعد حمل النَّفْس على ملازمة الأَوْلى والأَشَق ، ومن ذلك الانحطاطُ بحَظٍّ إلى طلبِ مقامٍ منه أو إكرام ، بعد القيام معه بترك كل نصيب

وفى الجملة : الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ فى الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ﴾

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً ، فالأول العابدون والثانى العاصون[2]

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربِّه ولا ناسياً لِحقِّه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

---

(١) مشتبهة (٢) تأمل كيف يفسح الصوفية صدورهم ويفتحون أبواب الأمل أمام العصاة

ويقال المحسن الذى لم يخرج (. . . .)[1] عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى يرسِل الرياحَ بُشرى بين يدى رحمته ﴾

تباشير القرب تتقدم فينأدى نسيمُه إلى مشام الأسرار ، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض فى الباطن ، فظل الوحشة يتقدمها ، ونسيم الوصلة بعدها ، وفى قريبٍ منه قال قائلهم :

ولقد تشمَّمْتُ القضاء لحاجتى فإذا له من راحتيك نسيم

قوله جل ذكره : ﴿ حتىَّ إذا أقَلَّتْ سحاباً ثِقالاً سُقْناه لبلدٍ مَيِّتٍ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به مِن كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكَّرون ﴾

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبَرِّحُ به الوجد ويَنْحلُ به الجسم ، بل يُبْطِلُ كلَّه البعدُ ، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً ، ويصير دارس حاله عقيب السقوط نديا ، كما قال بعضهم :

كنَّا كمن أُلْبِسَ أكفانه وقرَّب النعشُ من اللَّحد
فجالتْ الروحُ فى جسمه وردَّه الوصلُ إلى المولد

قوله جل ذكره : ﴿ والبلد الطَّيبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذن ربِّه والذى خبُث لا يَخْرُجُ إلا نكداً كذلك نُصَرِّف الآياتِ لقومٍ يشكرون ﴾

إذا زكا الأصلُ نما الفرع ، وإنْ خبُث الجوهر لم يَطبْ ما تحلَّل منه ، وإن طاب العنصر

---

(١) مشتبهة .

فالجزء يحاكى أصلَه ، والأسِرَّةُ تدل على السريرة ، فَمَنْ صفا باطنُ قلبه زكا ظاهرُ فعله ، ومن كان بالعكس فحاله بالضد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال
ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ
غَيْرُه ، إنى أخاف عليكم عذابَ
يوم عظيم ﴾

بَلَّغَ الرسالةَ فلم ينجعْ فيهم ما أظهر من الآلاء ، لأنَّ محرومَ القسمة لا ينفعه مجهودُ الحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ من قومه إنا لنراك
فى ضلال مبين * قال ياقومِ ليس
بى ضلالة ولكنى رسولٌ مِّن ربِّ
العالمين ﴾

قوله « ليس بى ضلالة » : نسبوا نوحاً — عليه السلام — إلى الضلالة ، فتولىَّ إجابتهم بنفسه فقال « ياقوم ليس بى ضلالة » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — نُسِبَ إليه فتولىَّ الحق — سبحانه — الردَّ عنه فقال : « ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى »[1] فشتّان بين مَن دافع عن نفسه ، وبين مَنْ دَافَع عنه ونفى عنه ربُّه[2] !

قوله جل ذكره : ﴿ أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربى وأنصح لكم
وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

إنى أعلم أنِّى وإنْ بالغت فى تبليغ الرسالة فمَنْ سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحى ، ولا يؤثِّرُ فيه قولى ، فمَنْ أسقطته القسمةُ لم تنعشه النصيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أن جاءكم ذِكْرٌ مِّن ربِّكم

---

(١) آية ٢ سورة النجم .

(٢) من عادة القشيرى أن يلتمس نوعاً من المقارنة بين المصطفى صلوات الله عليه وبين سائر الأنبياء عليهم السلام ليظهر علو مقامه ورفعة مرتبته بينهم .

على رجلٍ منكم لِيُنْذِرَكُمْ ولتتقوا
ولعلكم تُرحمون ﴾

عجبوا مِنْ كوْنِ شخص رسول اللهِ ، ولم يتعجبوا من كون الصنمِ شريكاً لله ، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغباء !

قوله جل ذكره : ﴿ فكذَّبوه فأنجيناه والذين معه
فى الفُلْكِ وأغرقنا الذين كذَّبوا
بآياتنا إنَّهم كانوا قوماً عَمِين ﴾

تسربلوا غِبَّ التكذيب لمَّا ذاقوا طعم العقوبة ، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أملوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ياقومِ
اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره
أفلا تتقون * قال الملأُ الذين كفروا
مِن قومه إنا لنراك فى سفاهةٍ
وإنَّا لنظنك من الكاذبين * قال
ياقوم ليس بى سفاهةٌ ولكنى رسولٌ
مِن ربِّ العالمين * أبلغكم رسالات
ربى وأنا لكم ناصِحٌ أمين *
أوَعجبتم أن جاءكم ذِكرٌ مِّن ربِّكم
على رجلٍ منكم لينذِركم ﴾

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم ، فوقعوا فى وهدتهم ، ومُنُوا بمثل حالتهم . فلا خيرَ فيمن آثر هواه على رضاءِ الله ، ولا رَبِحَ مَنْ قَدَّم هواه على حقِّ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء منْ بعد
قومِ نوحٍ ﴾

جعل الله الخلقَ بعضهم خَلَفاً عن بعض، فلا يُفْنِي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم مِنْ ذلك الجنس . فأهل الغفلة إذا انقرضوا خَلَفَ عنهم قوم ، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم ، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طَرْفُ[1] تأميله إلى محل الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله ، فما لم تنتهِ نوبةُ أولئك لا تنتهي النوبة إلى هؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وزادكم في الخلق بَسْطَةً ﴾

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخَلْقِ زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخُلُق ، وكما أوقع التفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكروا آلاء اللهِ لعلكم تفلحون ﴾

النَّعماء عام ، والآلاء خاص ، فتلك تتضمن ترويح الظواهر ، وهذه تتضمن التلويح في السرائر ، تلك بالترويح بوجود المبار ، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ونَذَرَ
ما كان يعبد آباؤنا فَأْتِنَا بما تَعِدنا
إن كُنتَ مِنَ الصَّادقين ﴾

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد ، فَشَقَّ عليهم الإعراضُ عن الأغيار ، وفي معناه قال قائلهم :

أراكَ بقيةً من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يُخْرِجُه من غش التفرقة ، وشخص لا يحيد لحظةً عن سَنَنِ التوحيد [فهو لا يعبد إلا واحداً ، وكما لا يعبد إلا واحداً لا يشهد إلا واحداً ، قال قائلهم :

لا يهتدي قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد وَقَعَ عليكم مِّن ربِّكم

---

(١) وردت (طرق) بالقاف وهي خطأ في النسخ .

رِجْسٌ وغَضَبٌ أتجادلوننى فى أسماءٍ
سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها
مِن سلطان فانتظروا إنّى معكم من
المُنتَظِرين ﴾

إذا أراد اللهُ هوانَ عبدٍ طَرَحَهُ فى مفازات التفرقة ؛ وإنَّ من علامات غضبه وإعراضه ردَّ العبد إلى شهود الأغيار ، وتغريقَه إياه فى بحار الظنون ، إذ لا تحصيل للأغيار فى معنى الإثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة مِنَّا وقطعنا
دابِرَ الذين كَذَّبوا بآياتنا وما كانوا
مؤمنين ﴾

لارتبةَ فوق رتبة النبوة ، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة .

وأخبر — سبحانه — أنه نجّى هوداً برحمته ، وكذلك نجّى الذين آمنوا معه برحمته ، ليُعْلَمَ أنَّ النجاةَ لا تكون باستحقاق العمل ، وإنما تكون بابتداء فضلٍ من الله ورحمته ؛ فما نَجَا مَنْ نجا إلا بفضل الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قوم
اعبدوا اللهَ مالكم مِنْ إلهٍ غيره
قد جاءتكم بينةٌ مِن ربِّكم هذه
ناقةُ اللهِ لكم آيةً فذروها تأكل
فى أرضِ اللهِ ولا تمسُّوها بسوءٍ
فيأخذَكُمْ عذابٌ أليم ﴾

غاير الحقُّ — سبحانه — بين الرسل من حيث الشرائع ، وجمع بينهم فى التوحيد ؛ فالشرائع[1]] التى هى العبادات مختلفة ، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد.

---

(١) كل هذه المساحة فيما بين القوسين موجودة فى الهامش بخط دقيق جداً .

ثم أخبر عن إمضاء سُنَّتِه تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام ، وإمهال أُمَمِهم ريثما ينظرون فى معجزات الرسل .

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه فى مقابلتهم الرسل بالتكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله — فيما كان يقاسى من بلاء قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جَعَلَكُم خلفاء من بعد عادٍ وَبوَّأكُم فى الأرضِ تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبالَ بُيُوتاً فاذكروا آلاء اللهِ ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾

أزاح علتهم فى بسط الدلالة ، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتُهم .. فلا الدليلَ تأمَّلُوه ، ولا السبيل لازموه ، ولا النعمة عرفوا قدرها ، ولا المِنَّة قدَّموا شكرها ، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ الذين استكبروا مِن قومه للذين استُضْعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مُرْسلٌ مِّن ربِّه قالوا إنا بما أُرْسِلَ به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافِرون * فعقروا الناقةَ وعَتَوْا عن أمْرِ ربِّهم وقالوا يا صَالح ائْتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من المرسَلين * فأخَذَتْهم الرَّجفةُ فأصبحوا فى دارِهم جاثمين * فتولَّى عنهم وقال يا قومِ لقد أبلغتُكم رسالةَ ربى ونصحتُ لكم ولكن لَّا تحبون النَّاصحين ﴾

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَه ألا يخص بأفضاله ، وجميل صنعه وإقباله — فى الغالب من عباده — إلاَّ مَنْ يسمو إليه طَرْفُه بالإجلال ، وألاَّ يوضحَ له قَدْرَه بين الأضراب والأشكال ؛ فأنصار كلِّ نبى إنما هم ضعفاء وقته ، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار ، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام ، ولا كما يعتقد فيهم الأنام ، بل الجواهر مستورة فى معادنها ، وقيمة المَحالِّ بساكنيها ، قال قائلهم :

وما ضرَّ نصلَ السيف إخلاقُ غمده إذا كان عَضْباً حيث وجهته وترا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه »(١)

قوله تعالى : « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » الحيلة تدعو إلى وِفاق الهوى ؛ فتستثقل النَّفْسُ قولَ الناصحين ، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم العائبون ، قال قائلهم :

وكم سقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضة المتنصح

قوله جل ذكره : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ ماسَبَقَكُم بها مِنْ أحَدٍ مِنَ العالمين * إنَّكُم لتأتون الرجالَ شهوةً مِّن دون النِّساءِ بل أنتم قومٌ مُسْرِفون * وما كان جوابَ قومِه إلا أن قالوا أخْرِجوهم من قريتكم إنَّهم أناسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهلَه إلا امرأتَه كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبةُ المجرمين ﴾

---

(١) فى رواية الترمذى (كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك) . الجامع الصغير ص ٢٣٧

أباح الحقُّ — سبحانه — فى الشرع ما أزاح به العذر ، فمن تَخَطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه ، واستوجب إذلاله ، واستجلب — باختياره — صغره .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى مدين أخاهم شُعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بَيِّنَةٌ من ربكم فأوفوا الكيلَ والميزان ولا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم ولا تُفْسِدُوا فى الأرضِ بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ﴾

خسَّت هِمَمُ قومِ شعيبٍ فقنعوا بالتطفيف فى المكيال والميزان عند معاملاتهم ، ثم إن الحق — سبحانه — لم يُساهِلْهم فى ذلك ليُعْلَمَ أنَّ الأقدار ليست من حيث الأخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقعدوا بكلِّ صِراطٍ توعِدون وتَصُدُّون عن سبيل اللهِ مَنْ آمن به وتبغُونها عِوَجاً ﴾

من المعاصى مالا يكون لازماً لصاحبه وحدَه بل يكون متعدِّياً عنه إلى غيره . ثم بِقَدْرِ الأثر فى التعدِّى يحصل الضر للمبتدىء[1]

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركُمْ وانظروا كيف كان عاقبةُ المُفْسِدِين * وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أُرْسِلْتُ به وطائفةٌ لم يؤمِنوا

---

(١) مثلما يحدث فى حالة البدعة ، فصاحب البدعة يحمل وزر ابتداعه ووزر من اقتدى به (انظر رأى المشيرى فى كتاب التحبير تحت « البديع ») وهنا قد تكون (المبتدى) أى البادىء بالابتداع وقد تكون (المقتدى) ويقصد بها من اقتدى به ، فكلاهما يناله الضر هذا جزاء اتباعه وذاك لابتداعه .

فاصبروا حتى يحكمَ الله بيننا وهو
خير الحاكمين ﴾

مَنَّ عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشى الأمور ويحصل المراد .

ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار (خيراً أو شراً ، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار فى الخير ، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان)[1] فى الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ الذين استكبروا من قومه
لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا
معك من قريتنا أو لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنا
قال أَوَ لَوْ كُنَّا كارهين ﴾

كما أن (أهل)[2] الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم ، والأوحد فى بابه مَنْ بايَنَ نهج أضرابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن
يشاء اللهُ ربُّنا وسِعَ ربُّنا كلَّ شىء
عِلماً على الله توكَّلنا ، ربَّنا افتحْ
بيننا وبين قومنا بالحقِّ وأنت خير
الفاتحين ﴾

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا : « قد افترينا على الله كذبا إن عُدْنا فى ملتكم » ، ثم أقروا بالشكر حيث قالوا : « بعد إذ نَجانا الله منها » ، ثم تبرأوا عن حولهم وقوتهم حيث قالوا : « ومايكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا » يعنى إنْ يُلْبِسنا لِباسَ الخذلان نُرَدُّ إلى الصغر والهوان .

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا : « على الله توكَّلنا » أى به وَثِقْنا ، ومنه الخيرَ أمَّلْنا .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من المتن .
(٢) وضعنا (أهل) ليتضح المعنى وهى غير موجودة فى المتن .

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فتداركهم الحقُّ — سبحانه — عند ذلك بجميل العِصْمة وحسن الكفاية [1]

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا مِن قومِه لَئِن اتبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسِرون * فأخذَتْهُم الرَّجْفَةُ فأصبحوا فى دارِهم جاثمين ﴾

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيِّهم ، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته ، وكانوا مخطئين فى حكمهم ، مبطلين فى ظنهم ، فعُلِمَ أنَّ كل نصيحة لا يجب قبولها ، وكل إشارة [2] لا يَحْسُنُ اتباعُها .

قوله تعالى : « الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها » كانت لهم غلبتهم فى وقتهم ، ولكن لما اندرست أيامُهم سَقَطَ صِيتُهم ، و (خمد) [3] ذكرهم ، وانقشع سحابُ مَنْ تَوَهَّمَ أنَّ منهم شيئا .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين كذّبوا شُعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾

الحقُّ غالِبٌ فى كل أمر ، والباطل زاهق بكل وصف ، وإذا كانت العِزَّةُ نعتَ مَنْ هو أزلىُّ الوجود ، وكان الجلال حقَّ مَنْ هو المَلِك فأى أثر للكثرة مع القدرة ؟ وأى خطر للعلل مع الأزل ؟ ولقد أنشدوا فى قريبٍ من هذا :

استقبلنى وسيفه مسلول وقال لى واحدنا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتُكم

---

(١) لاحظ من هذه الفترة ترتيب السلوك : صحة العزم ثم الشكر ثم التبرى عن الحول والقوة ثم التوكل ثم التفويض .

(٢) إشارة هنا معناها مشورة أى نصيحة .

(٣) وردت (خمر) بالراء ، وقد صوبناها (خمد) ذكرهم وليس بمستبعد أن تكون (خمل) ذكرهم لخمود الذكر وخموله بمعنى متقارب .

رسالاتِ ربى ونصحتُ لكم فكيف
آسَى[1] على قومٍ كافرين ﴾

بَيَّنَ أنه راعى حدَّ الأمر ؛ فإذا خرج عن عهدة التكليف فى التبليغ فما عليه من إقرارهم أو إنكارهم ، من توحيدهم أو جحودهم ؛ إنْ أحسنوا فالميراثُ الجميلُ لهم ، وإن أساءوا فالضررُ بالتألم عائدٌ عليهم ، ومَالِكُ الأعيان أوْلى بها من الأغيار ، فالخَلْقُ خَلْقُهُ والمُلْكُ مُلْكُهُ ؛ إن شاء هداهم ، وإن شاء أغواهم . فلا تأسُفْ على نفيٍ وفقد ، ولا أثر من كَوْنٍ ووجود[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا فى قريةٍ مِّن نبيٍّ
إلاَّ أَخَذْنَا أهلَها بالبأساءِ والضَّراءِ
لعلَّهم يضَّرَّعون * ثُمَّ بَدَّلْنَا
مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عَفَوْا
وقالوا قدمَسَّ آباءنا الضراءُ والسَّراءُ
فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

حرَّكهم بالبلاء الأهْوَنِ تحذيراً من البلاء الأصعب ، فإذا تمادوا فى غيهم ، ولم ينتبهوا من غفلتهم مَدَّ عليهم ظلالَ الاستدراج ، ووسّع عليهم أسبابَ التفرقة مكراً بهم فى الحال ، فإذا وَطَّنُوا — على مساعدة الدنيا — قلوبَهم ، وركنوا إلى ما سوَّلت لهم من امتدادها ، أبرز لهم من مكامن التقدير ما نَغَّصَ عليهم طيبَ الحياة ، واندق بغتةً عُنُقُ السرور ، وشَرِفُوا بما كانوا ينهلون من كاسات المنى ، فتبدّل ضياء نهارهم بِسُدْفَةِ الوحشة ، وتكدّر صافى مشربهم بيد النوائب ، كما سبقت به القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّ أهل القُرى آمنوا واتقوا

---

(١) اخطا الناسخ إذ كتبها (عسى) بالعين .

(٢) ربما كان (ووَجْد) فالوجد يقابل الفقد ، ولكن حيث هو هنا لا يتحدث عن طائفة الصوفية ، وإنما يتحدث عموماً ، فالوجود مرادف للكون .

لفتحنـا عليهم بركاتٍ مِنَ السماء والأرضِ ، ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * أفأمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيَهُم بأسُنا بَياتاً وهم نائمون ﴾

لو آمنوا بالله ، واتَّقُوا الشِرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسباب العطاء — ولـكن[1] سَبَقَ بخلافه القضاء — وأبوابِ الرضاء ، والرضاء أتمُّ من العطاء .

ويقال ليست العِبْرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة فى النعمة ، ولذا لم يَقُلْ أضعفنا لهم النعمة ولـكنه قال : باركنا لهم فيما خوَّلنا .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ أمِنَ أهلُ القرى أن يأتيَهم بأسُنَا ضُحًى وهم يلعبون ﴾

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله ، ويقال مَنْ حَذِرَ البيات لم يجدْ روحَ الرُّقاد .

ويقال رُبَّ ليلةٍ مُفْتَتَحةٍ بالفرَحِ مختتمةٌ (بالترح)[2] . ويقال رُبَّ يومٍ تطلع شمسه من أوج السعادة قامت ظهيرته على قيام الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا القومُ الخاسِرون ﴾

يقال مَنْ عرف علوَّ قدره — سبحانه — خشى خفيَّ مكره ، ومَنْ أمِنَ خفيَّ مكره نَسِيَ عظيم قَدْرِه .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ لَمْ يَهْدِ للذين يرِثون الأرضَ

---

(١) وردت (وإن سبق . . .) وعند ذلك يضطرب السياق فوجدنا ان الأوفق ان تكون (ولـكن سبق . . .) لأنهم فى الآية كذبوا . . ، ثم وضعنا الجملة المبدوءة بلـكن بين علامتى جملة اعتراضية ، فانتظم السياق ، ونرجح ان ما صنعناه قريب من الأصل او هو الأصل .

(٢) وردت (بالطرح) بالطاء ، وهى خطأ من الناسخ فالترح ضد الفرح .

مِنْ بعدِ أهلها أن لو نشاء أصَبْناهُمْ
بذُنوبِهم ونطبعُ على قلوبِهم فَهُمْ
لا يَسْمعون ﴾

أوَ لا يعلم المغترون بطول سترنا أن لو أردنا لعجّلنا لهم الانتقام ، أو بلغنا فيهم الاصطلام ، ثم لا ينفعهم ندم ، ولا يُشْكَى عنهم ألم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك القرى نَقُصُّ عليكَ مِنْ
أنبائها ولَقَدْ جاءتْهم رُسُلُهم
بالبيِّناتِ فما كانوا ليؤمِنوا
بما كَذّبوا مِن قبلُ كذلك يطبع
اللهُ على قلوبِ الكافرين ﴾

سلكوا طريقاً واحداً فى التمرد ، واجتمعوا فى خطٍ واحد فى الجحد والتَّبلُّد ؛ فلا للإيمان جَنَحُوا ، ولا عن العدوان رجعوا ، وكذلك صفةٌ من سَبَقَتْ بالشقاء قِسمتُه ، وحقت بالعذاب عليه كَلِمتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما وجدنا لأكثرِهم مِّنْ عَهْد
وإن وَجَدْنا أكثرَهم لفاسقين ﴾

نجم فى الغدر طارِقُهم ، وأفَلَ من سماء الوفاء شارِقُهم ، فَعَدِمَ أكثرُهم رعاية العهد ، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد .

ويقال : شكا مِنْ أكثرِهم إلى أقلِّهم ، فالأكثرون مَنْ ردَّتهم القسمة ، والأقلون مَنْ قَبِلَتْهم الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم مُّوسى بآياتنا
إلى فرعونَ ومَلإِه فظلموا بها فانظر
كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾

لما انقرضت أيامُهم ، وتَقَاصَر عن بساط الإجابة إقْدامُهم[1] بعث موسى نبيَّه ، وضمَّ

(١) ويجوز أن تكون (أقدامهم) فالقشيرى يستعمل وطء القَدَم للبساط كثيراً

إليه هارون صفيَّه ، فقُوبِلا بالتكذيب والجحود ، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى يا فرعون إنى رسولٌ من ربِّ العالمين * حقيقٌ عَلَى ألا أقولَ على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربِّكم فأرسِلْ معى بنى إسرائيل * قال إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إن كُنْتَ مِنَ الصادقين ﴾

الرجوعُ إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعبٌ شديد ، ولكنه لمَّا وَرَدَ الأمرُ قابله بحسن القبول ، فلما ترك اختيار نفسه أيّده الحق — سبحانه — بنور التأييد حتى شاهَدَ فرعونَ محواً فى التقدير فقال : « حقيقٌ عَلَى ألا أقول على الله إلا الحق » فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق ؛ فالخلق محوٌ فيما هو الوجود الأزلى فأىُّ سلطانٍ لآثار التفرقة فى حقائق الجمع ؟

قوله : « قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إنْ كنتَ من الصادقين » : من المعلوم أن مجرَّد الدعوى لاحجة فيه ؛ ولكن إذا ظهر برهانٌ لم يبق غيرُ الانقياد لماَ هو الحق ، فَمَنْ استسلم (. . .)[1] ، ومَنْ جَحَدَ الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطا لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبينٌ ﴾

إنما أظهر له المعجزةَ مِنْ عَصاَه لطولِ (مقارنته)[2] إياها ، فالإنسانُ إلى ما أَلِفَه أَسْكَنُ بقلبه . فلَّما رأى ما ظهر فى العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام فى الفرار لتحققه بأن ذلك من قهر الحقائق ، وفى هذا إشارة إلى أنَّ السكونَ إلى شىءٍ غِرَّةٌ وغفلةٌ (إيش)[3]

---

(١) لابد ان كلمة هنا سقطت من الناسخ مثل (سلم) او (نجا) او نحوها .
(٢) (مقارنته) هنا معناها مصاحبته لها بدليل قوله فيما بعد (إلى ما أَلِفَه) .
(٣) (إيش) هذه كلمة دارجة استعملها القشيرى كثيراً فى رسالته ومعناها (اى شىء) .

ما كان ، فإنّ تقلب العبد فى قَبْضِ القدرة ، وهو فى أَسْر التقلُّب ، وليس للطمع فى الكوْن مساغٌ بحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ونزَعَ يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾

العصا — وإنْ كانت معه من زمنٍ — فيَدُه أخص به لأنها عضو له ، فكاشَفَه أولاً[1] برَسْمٍ مِنْ رسْمِه ثم أشهده من ذاته فى ذاته ما عرَّفَ أنه أوْلى به منه ، فلما رأى انقلابَ وصفٍ فى يده عَلِمَ أنه ليس بشىء من أمره بيده .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ من قومِ فرعونَ إنَّ هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يُخرجَكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾

إذا أراد الله هوان عبدٍ لا يزيد الحقَّ حُجَّةً إلا ويزيد لذلك المُبْطِل فيه شبهةً ؛ فكلَّما زاد موسى — عليه السلام — فى إظهار المعجزات ازدادوا حيرةً فى التأويلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أرْجِه وأخاه وأرْسِلْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكلِّ ساحرٍ عليمٍ ﴾ .

تَوَهَّمَ الناسُ أنهم بالتأخير ، وتقديم التدبير ، وبذل الجهد والتشمير يُغَيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير ، ولم يعلموا أن القضاء غالبٌ ، وأنَّ الحكمَ سابقٌ ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم ، والتسرع[2] والحِلْم . . كلا ، بل هو الله الواحد القهار العلاَّم .

---

(١) فى هذه الإشارة نلحظ تأثر القشيرى بالمكاشفة ، فالحق سبحانه يتجلى للعبد اولا بنعت من نعوت صفاته ثم يتجلى له بنعت من نعوت ذاته .

(٢) وردت (التشرع) حيث التبست علامة التضعيف التى على السين على الناسخ ، والتسرع مقبول فى السياق لأنه يقابل الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء السَّحَرَةُ فِرعونَ قالوا إنَّ لنا لأجراً إن كُنَّا نحن الغالبين * قال نَعَمْ وإنكم لَمِنَ المقربين * قالوا يا موسى إما أن تُلْقِيَ وإمَّا أن نكون نحن المُلْقِين * قال أَلْقُوا فلما أَلْقَوْا سحروا أعين النَّاسِ واسترهبوهم وجاءوا بِسِحْرٍ عظيمٍ ﴾

ظنوا أنهم يَغلِبُون بما يسحرون ، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثيرسحرهم، وأنه لا يرد عنهم ما زَوَّرُوه فى أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكِيدَ لهم ، فهو كما قيل :

ورمانى بأسهم صائباتٍ وتعمدته بسهم فطاشا

فبَيْنَاهم فى توهُّم أنَّ الغلبة لهم فُتِحَ عليهم — من مكامن القدرة — جيشٌ ، فوجدوا أنفسهم — فى فتح القدرة — مقهورين بسيف المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى أنْ أَلقِ عَصَاكَ فإذا هى تلْقَفُ ما يأفِكون * فَوَقَعَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملون * فَغُلِبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا آمَنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون ﴾

مَوَّهُوا بسحرهم أنهم غَلَبُوا ، فَأَدْخَلَ الله — سبحانه — على تمويهاتهم قهرَ الحق وطاشت تلك الحِيَلُ ، وخاب منهم الأمل ، وجذب الحقُّ — سبحانه — أسرارهم على الوهله فأصبحوا فى صدر العداوة ، وكانوا — فى التحقيق — من أهل الود . فسبحان مَنْ يُبْرِز

العدوَّ فى نعت الولى ؛ ثم يقلب الكتابَ ويُظْهِرُ الولىَّ فى نعت العدو ، ثم يأبى الحالُ إلا حصولَ المَقْضِىِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فرعون ءامَنتُم به قبل أنْ آذنَ لكم إنَّ هذا لَمَكرٌ مكرتموه فى المدينة لتُخرِجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأُقَطِّعنَّ أيديَكم وأرجُلَكم[1] مِّنْ خِلافٍ ثم لأُصَلِّبنكم أجمعين ﴾

خاطبَهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا[2] ، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ الأشكال ، وأن قلوبهم طهرت عن تو التفرقة ، وأن شمسَ العرفان طلعت فى سماءِ أسرارهم ، فأشهدوا الحقَّ بنظر صحيح ، ولم يبقَ لتخويفات النفس فيهم سلطان ، ولا لشىء من العلل بينهم مساغ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا إنَّا إلى ربِّنا مُنقَلِبون ﴾

لمَّا كان مصيرهم إلى الله سَهُلَ عليهم ما لقوا فى مَسيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تَنقِمُ منَّا إلاَّ أنْ آمنا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءَتْنا ، ربَّنا أفرِغْ علينا صَبْراً وتَوَفَّنا مُسْلمين ﴾

لما عَلِمُوا لله ، وأوذوا فى الله ، صدقوا القصد إلى الله ، وطلبوا المعونة من قِبَلِ الله ، كذا سُنَّةُ مَنْ كان لله أن يكون كلُّه على الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأُ من قومِ فرعون أتَذَرُ موسى وقومَهُ ليُفْسِدوا فى الأرضِ ويذَرَكَ وآلهتَكَ ، قال سنُقَتِّلُ

---

(١) اخطأ الناسخ إذ كتبها (ايديهم وارجلهم) .
(٢) نعرف من عبارات القشيرى : « كانوا لكنهم بانوا » و « العارف كائن بائن » .

أبناءهم ونَسْتَحْيِي نساءهم وإنا فوقهم
قاهرون ﴾

لما استزادوا من فرعون فى التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه ، ويعترف بقصور قدرته ، فتوعد موسى وقومَه بما عكس الله عليه تدبيره ، وغلب عليه تقديره.

قوله جل ذكره : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا باللهِ
واصبروا إنَّ الأرضَ لله يورِثُها مَن
يشاء مِنْ عباده والعاقبةُ للمتقين ﴾

أحالهم على الله فإن رجوعَه إليه ، فقال لهم : إن رجوعى — عند تحيرى فى أمورى — إلى ربى ، فليكن رجوعُكم إليه ، وتوكُّلُكم عليه ، وتَعَرَّضوا لنفحات يُسْرِه ، فإنه حَكَمَ لأهل الصبر بجميل العُقبى .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أُوذينا مِن قبلِ أن تأتينا ومِنْ
بعدِ ما جِئْتنا قال عسى ربكُم أن
يُهْلِكَ عدوَّكم ويستخلفكم فى الأرضِ
فينظرَ كيف تعملون ﴾

خفى عليهم شهودُ الحقيقة ، وغُشِىَ على أبصارهم حتى قالوا توالت علينا البلايا ؛ ففى حالك بلاء ، وقَبْلَكَ شقاء .. فما الفضل ؟ فأجابهم موسى — عليه السلام — بما علق رجاءهم بكشف البلاء فقال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فوقفهم على الانتظار . ومن شهد ببصر الأسرار شهد تصاريف الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أخَذْنا آلَ فرعونَ بالسِّنينَ
ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذَّكرون ﴾

شدَّد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة ، فلا الوطأة أصلحتهم شِدَّتُها ولا النعمة نبهتهم كثرتها ، لا بل إنْ مَسَّهم يُسْرٌ لاحظوه بعين الاستحقاق ، وإن مَسَّهُم عُسْرٌ حملوه على التَّطَيُّرِ بموسى — عليه السلام — بمقتضى الاغترار .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنةُ قالوا لنا هذه وإن تُصِبهُم سيئة يَطَّيَّرُوا بموسى ومَن معه ﴾

الكفورُ لا يرى فضل المنعم ؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق ، ثم إذا اتصل به شيء مما يكرهه تجنَّى وحمل الأمر على ما يتمنّى :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعة ... ملَّ الوصال وقال كان وكانا
إن الكريم إذا حَبَاك بودِّه ... سَتَر القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره : ﴿ ألا إنما طائرُهم عند اللهِ ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون ﴾

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة ، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة ، وأفهامهم عن إدراك المعانى مردودة

قوله جل ذكرهُ : ﴿ وقالوا مهما تأتِنا به مِن[1] آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾

جعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارَهم ، وهتكوا بألسنتهم — فى العتوِّ — أستارهم .

قوله جل ذكرة : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾

جَنَّسَ عليهم العقوباتِ لمَّا نوَّعوا وجَنَّسوا فنونَ المخالفات ، فلا إلى التكفير عادوا ، ولا إلى التطهير تصدوا ، وعوقبوا بِصَرْفِ قلوبهم عن شهود الحقائق

(١) سقطت (من) فى النسخ فأثبتناها .

وذلك أبلغُ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا .... ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا وقع عليهم الرِّجزُ قالوا
ياموسى ادْعُ لنا ربَّكَ بما عَهِد عندَك
لئن كَشَفْتَ عنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ
لك ولَنُرْسِلنَّ معك بنى اسرائيل ﴾

لم يقولوا ادع لنا ربَّنا ، بل قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك ، فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنبية..

قوله جل ذكره : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أَجَلٍ
هم بالغوه إذا هُمْ يَنكُثُون *
فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنَّهم
كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾

أبرموا العهد ثم نقضوه ، وقدموا العهد ثم رفضوه ، وكما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه
والشيخُ لا يترك أخلاقَه حتى يُوارى فى ثرى رمسه

قوله جل ذكره : ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا
يُسْتَضْعَفُون مشارِقَ الأرض
ومغارِبَها التى باركنا فيها وتمَّتْ
كَلِمةُ ربِّكَ الْحُسْنى على بنى اسرائيل
بما صَبَرُوا ودَمَّرْنَا ما كان يَصْنَعُ
فِرعونُ وقومُه وما كانوا يَعْرِشون ﴾

مَنْ صبر على مقاساة الذُّلِّ فى الله وضع الله على رأسه قلنسوة العرفان ، فهو العزيز سبحانه ، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم ، ولا يضيع من جميل عهده جزاءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحرَ

فَأَتَوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلٰها كما لَهُم آلِهةٌ ، قال إنَّكم قومٌ تجهلون * إنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطِلٌ ما كانوا يعملون ﴾

لم تَخْلُصْ فى قلوبهم حقائقُ التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله ، حتى قالو لنبيِّهم موسى — عليه السلام — : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبُه من إثبات الأشغال والأعلال ، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال .

ويقال مَنْ ابتغى بالصنم أن يكون معبودَه متى يُتَوَهَّم فى وصفِه أنْ يُخلِصَ إلى اللهِ قصودَه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال أغيرَ الله أبغيكم إلٰها وهو فَضَّلكم على العالمين ﴾

ذكَّرهم انفرادَه — سبحانه — بإنشائهم وإبداعهم ، وأنه هو الإله المتفرد بالإيجاد ، ونَبَّهَهُم أيضاً على عظيم نعمته عليهم ، وأنه ليس حقُّ إتمام النعمة عليهم مقابلتَهم إياها بالتولِّى لغيره والعبادة لِمَنْ سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أنجيناكم مِنْ آلِ فرعون يسومونكم سوءَ العذابِ يُقَتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاءٌ مِن ربِّكم عظيم ﴾

ما ازداد موسى — عليه السلام — فى تعديد إنعام الله عليهم ، وتنبيههم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً على جحد ، وبُعْداً بالقلوب — عن محل العرفان — على بُعْد ، وهذه أمارة من بلاه — سبحانه — فى السابق بالقطع والرد .

قوله جل ذكره : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة

وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقاتُ ربّه
أربعين ليلة ﴾

عِدَةُ الأحباب عزيزة ، فإذا حصلت المواعدة بين الأحباب ، فهى عذبة حلوة كيفما كانت ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

أمطلينا وسوِّفى وعِدينا ولا تَفِى

ويقال عَلَّلَ الحقُّ — سبحانه — موسى بالوعد الذى وعده بأن يُسْمِعَه مرةً أخرى كلامَه ، وذلك أنه فى المرة الأولى ابتلاه بالإسماع من غير وعد ، فلا انتظار ولا توقع ولا أمل ، فأخذ سماعُ الخطاب بمجامع قلب موسى — عليه السلام — فعلَّق قلبه بالميقات المعلوم ليكون تأميله تعليلاً له ، ثم إن وعد الحقِّ لا يكون إلا صدقاً ، فاطمأن قلبُ موسى — عليه السلام — للميعاد ، ثم لمَّا مضت ثلاثون ليلة أتى كما سَلَفَ الوعد فزاد له عشراً فى الموعد . والمطل فى الإنجاز غير محبوب إلا فى سُنَّةُ الأحباب ، فإن المطل عندهم أشهى من الإنجاز ، وفى قريب من هذا المعنى أنشدوا :

أقيمى لعمرك لا تهجرينا ومَنِّينا المنى ، ثم امطلينا
عِدينا موعداً ما شِئْتِ إنَّا نحبُّ وإنْ مطلت تواعدينا
فإما تنجزى وعدَكِ أو فإنا نعيش نؤمل فيك حينا

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى لأخيه هرون اخلُفْنى فى قومى وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سبيلَ المُفسدين ﴾

كان هارون — عليه السلام — حمولاً بحسن الخُلُق ؛ لمَّا كان المرورُ إلى فرعونَ استصحب موسى — عليه السلام — هارونَ ، فقال الله — سبحانه — : « أشركه فى أمرى » بعد ما قال : « أخى هارون هو أفصح منى لساناً » . ولمَّا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه ، فقال : « اخلُفنى فى قومى » وهذا غاية حَمْلٍ من هارون ونهاية التصبر والرضاء ، فلم يَقُلْ : لا أقيم فى قومك . ولم يقل : هلَّا تحملنى مع نفسك كما

استصحبتنى حال المرور إلى فرعون ؟ بل صبر ورضى بما لزم ، وهذه من شديدات بلاء الأحباب ، وفى قريب منه أنشدوا :

قال لى من أحب والبين قد حلَّ وفاقاً لزفرتى وشهيقْ
ما تُرى فى الطريق تصنع بعدى قلت : أبكى عليك طول الطريق

ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب ، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العِجْل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون — عليه السلام — فى الخطاب ، فقال : « يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسى » .

ويقال لو قال هارون — عليه السلام : إن لم تعوضنى عما فاتنى من الصحبة فلا تعاتبنى فيما لم أذنب فيه بحال ذرةً ولا حبَّةً .. لكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنبُ كان من بنى إسرائيل ، والعتاب جرى مع هارون ، وكذا الحديث والقصة ، فما كلُّ مَنْ عصى وجنى استوجب العتابَ ، فالعتابُ ممنوعٌ عن الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه قال ربِّ أرِنى أنظُرْ إليكَ ، قال لن ترانى ولكن انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنِ استقرَّ مكانه فسوف ترانى ، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعله دَكّاً وخرَّ موسى صَعِقاً ﴾

جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المُهيَّمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شيء لموسى . آلافُ الرجال قطعوا مسافاتٍ طويلة فلم يذكرهم أحد ، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان : « ولما جاء موسى »

ويقال لما جاء موسى لميقات باسطر الحقُّ — سبحانه — سقط بسماع الخطاب ، فلم يتمالك حتى قال : « أرنى أنظر إليك » ، فإنَّ غَلَبَات الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دَنَتْ الخيامُ من الخيـام

ويقال صار موسى — عليه السلام — عند سماع الخطاب بعين السُّـكْر فنطق ما نطق ، والسكران لا يُؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس فى نص الـكتاب معه عتاب بحرف ؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّماعِ فخرج لسانه[1] عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه من الأَرْيَحِيَّةَ وبَسْطِ الوصلة .

ويقال جمع موسى — عليه السلام — كلماتٍ كثيرةً يتـكلم بها فى تلك الحالة ؛ فإن فى القصص أنه كان يتحمل فى أيام الوعد كلمات الحق ، ويقول لمعارفه : ألـكم حاجة إلى الله ؟ ألـكم كلام معه ؟ فإنى أريد أن أمضى إلى مناجاته .

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر — مما دبَّره فى نفسه ، وتحمله من قومه ، وجمعه فى قلبه — شيئاً ولا حرفاً ، بل نطق بما صار فى الوقت غالباً على قلبه ، فقال : ربِّ : أرِنى أنظر إليك ، وفى معناه أنشدوا :

فيا ليلَ كم من حاجةٍ لى مهمة إذا جئتُـكم ليلى فلم أدرِ ماهِيَا

ويقال أشدُّ الخلقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب ؛ هذا موسى عليه السلام ، وكان عريق الوصلة ، واقفاً فى محل المناجاة ، محدقة به سجوفُ التولى ، غالبة عليه بوادِهُ الوجود ، ثم فى عين ذلك كان يقول : « ربِّ أرنى أنظر إليك » كأنه غائبٌ عن الحقيقة . ولـكن ما ازداد القومُ شُرْباً إلا ازدادوا عطشاً ، ولا ازدادوا تيهاً إلا ازدادوا شوقاً ، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالـكمال ، والحقُّ — سبحانه — يصونُ أسرار أصفيائه عن مداخلة الملال[2] .

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال : « ربِّ أرنى أنظر إليك » ولا أقلَّ

---

(١) تعليل القشيرى لموقف الإفصاح الذى وقفه موسى يوضح كيف يلتمس هذا الباحث مبررا لشطحات الصوفية — بطريق غير مباشر ، ويعزو ذلك تارة للسكر الروحى وتارة لوقوع العبد تحت تأثير العزة الإلهية ، فيخرج اللسان عن طاعته .

(٢) وفى ذلك أنشدوا :

فما مل ساقينا وما مل شارب عقار لحاظ كأسه يسلب اللبا

من نظرة — والعبد قتيل هذه القصة — فقوبل بالردّ ، وقيل له : « لن ترانى » وكذا قهر الأحباب ولذا قال قائلهم :

جَوْرُ الهوى أحسن من عَدْلِهِ وبخله أظرف من بذله

ويقال لمّا صرّح بسؤال الرؤية ، وجهر صريحاً رُدّ صريحاً فقيل له : « لن ترانى » ، ولما قال نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — بسِرّه فى هذا الباب ، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلّب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها »[1] فردّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزّ من أن يطمح إلى شهوده — اليومَ — طَرْفٌ ، بل الألحاظ مصروفة موقوفة — اليومَ — على الأغيار[2] .

ويقال لما تَمّتْ همّتُهُ إلى أسنى المطالب — وهى الرؤية — قوبل « بِلَنْ » ، ولمّا رجعَ إلى الخلْق وقال للخضر « هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما علمت رشدا » ، قال الخضر : « إنك لن تستطيع معى صبراً »[3] فقابله بلن ، فصار الردُّ موقوفاً على موسى — عليه السلام من الحق ومن الخلْق ، ليكون موسى بلا موسى ، ويكون موسى صافيا عن كل نصيب لموسى من موسى ، وفى قريب منه أنشدوا :

(. . . . .)[4] نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البيْن فينا ينعق

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال : « ربِّ أرنى أنظر إليك » فأجيب بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفَرْق . فزع موسى حتى خَرّ صعقاً ، والجبل صار دَكّاً . ثم الروْح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية ، ويكون الحقُّ — بعد امتحاء معالم موسى — خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى ، فعلى الحقيقة : شهود الحقائق بالحقِّ أتمُّ من بقاء الخلْق بالخلْق ، كذا قال قائلهم :

---

(١) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٢) من هذا — ومما أوضحه فى رسالته — نعرف أن القشيرى لا يرى بجواز رؤيه الله بالبصر فى هذه الدنيا .

(٣) آية ٦٧ سورة الكهف

(٤) هنا لفظتان مطموستان ونعرف أنهما «أبنى أبينا ... » .

ولوجهها من وجهها قمرٌ ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذى ورد على موسى بقوله : « فإن استقرَّ مكانه فسوف ترانى » « ولما تجلَّى ربُّه للجبل جعله دَكًّا » أتمُّ وأعظم منه قولُه : « لن ترانى » لأن ذلك صريحٌ فى الرد ، وفى اليأس راحة . لكنَّه لما قال فسوف أطمعهُ فيما منعه فلما اشتد موقفُه جعل الجبل دكاً ، وكان قادراً على إمساك الجبَل ، لكنه قهر الأحباب الذى به جرَتْ سُنَّتُهم .

ويقال فى قوله : « أنظُرْ إلى الجبل » بلاءٌ شديد لموسى لأنه نُفِيَ عن رؤية مقصوده ومُنِيَ برؤية الجبل ، ولو أذِنَ له أنْ يُغْمِضَ جفنَهُ فلا ينظر إلى شىء بعدما بقى عن مراده من رؤيته لكان الأمرُ أسهلَ عليه ، ولكنه قال له : « لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل » .

ثم أشدُّ من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجلىَ ؛ فالجبل رآه وموسى لم يرَه ، ثم أمرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال ، وهذا — واللهِ — لصعبٌ شديد !! ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرَكَ لا أنظر إلى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر إليه ، وفى معناه أنشدوا :

أريدُ وصالَه ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريدُ

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله : « ولكن انظر إلى الجبل » تداركَه قلبَ موسى — عليه السلام — حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل :

فذرينى أفنى قليلا قليلا

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال : « تُبْتُ إليك » يعنى إن لم تكن الرؤية هى غايه المرتبة فلا أقل من التوبة ، فقَبِلَه — تعالى — لسمو همته إلى الرتبة العلية .

قوله جل ذكره : ﴿ تُبْتُ إليك ﴾

هذه إناخة بعقوة العبودية ، وشرط الإنصاف ألا تبرحَ محلَّ الخدمة وإنْ حيل بينك وبين وجود القربة ؛ لأن القربةَ حظُّ نفسك ، والخدمةَ حقُّ ربك ، وهى تتم بألا تكون بحظ نفسك .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتُكَ على النَّاسِ برسالاتى وبكلامى فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وكُنْ مِنَ الشاكرين ﴾

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قلب موسى — عليه السلام — بكل هذا الرِّفق ، كأنه قال : يا موسى ، إنى منعتُكَ عن شىء واحد وهو الرؤية ، ولكنى خصصتُك بكثيرٍ من الفضائل ؛ اصطفيتُك بالرسالة ، وأكرمتُك بشرف الحالة ، فاشكرْ هذه الجملة ، واعرفْ هذه النعمة ، وكنْ من الشاكرين ، ولا تتعرضْ لمقام الشكوى ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ أعرضوا فهم الذين تَعَطَّفُوا وإنْ جَنَوْا فاصبرْ لهم إن أخلفوا

وفى قوله سبحانه : « وكن من الشاكرين » إشارة لطيفة كأنه قال : لا تكن من الشاكين ، أى إنْ منعتُكَ عن سُؤْلِك ، ولم أعطِك مطلوبَك فلا تَشْكُنِى إذا انصرفتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء مَوعظةً وتفصيلاً لكلِّ شىء ﴾

وفى الأثر : أن موسى عليه السلام كان يسمع صريرَ القلم ، وفى هذا نوع لطف لأنه إنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد عله بالأثر (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخُذْها بقوة ﴾

فيه إشارة إلى أن الأَخْذَ يُشير إلى غاية القرْبِ ، والمراد هاهنا صفاء الحال ، لأن قربَ المكانِ لا يَصِحُّ على الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأْمُرْ قومَكَ يأخذوا بأحسنها ﴾

فَرْقٌ بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ ، أَخْذُ موسى عليه السلام من الحق على وجهٍ من تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة ، وأَخْذُهُم أخذُ قبول من حيث التزام الطاعة ، وشتان ما هما ! .

---

(١) نلاحظ أن القشيرى كان ممتعاً أشد ما يكون الإمتاع حين استغل موقف شهود موسى استغلالا جميلا أوشك أن يحيط بكل جوانب هذه اللحظات الحاسمة فى الحياة الروحية ، فاجتمعت إشاراته لتكون درساً فى غاية الدقة والإفادة .

قوله : « بأحسنها » بمعنى بِحُسْنِها ، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة يعنى : بأحسنها ألا تعرّج على تأويل وارجعْ إلى الأَوْلَى[1].

قوله جل ذكره : ﴿ سَأُورِيكم دار الفاسقين ﴾

يعنى عليها غَبَرةُ العقوبة ، خاوية على عروشها ، ساقطة على سقوفها ، مُنْهَدٌّ بنيانُها ، عليها قَتَرَةُ العقاب .

والإشارة من دار الفاسقين إلى النُّفوس المتابعة للشهوات ، والقلوب التى هى معادن للنى وفاسد الخطرات ، فإنَّ الفِسقَ يوجب خرابَ المحل الذى يجرى فيه ؛ فمن جرى على نفسه فِسْقٌ خربت نفسه . وآية خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات ، فكما تتعطل المنازل عن قطانها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصى فتنتفى عنها لوازم الطاعات ومعتادها ، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة ، حتى لو خُيِّر بين ركعتى صلاة وبين مقاساة كثيرٍ من المشاق آثر تحمل المشاقِّ على الطاعة . . وعلى هذا النحو ظلمُ القلوب وفسادُها فى إيجاب خراب محالها .

قوله جل ذكره : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبّرون
فى الأرضِ بغير الحقِّ وإن يروا
كلَّ آيةٍ لَّا يؤمنوا بها ﴾

سأحْرِمُ المتكبرين بركاتِ الاتباع حتى لا يقابلوا الآياتِ التى يُكاشَفُون بها بالقبول ، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُون به بسمع الإيمان .

والتكبُّر جحدُ الحق — على لسان العلم ، فَمَنْ جَحَدَ حقائقَ الحقِّ فجحودُه تكبُّره واعتراضُه على التقدير مما يتحقق جحودُه فى القلب .

---

(١) يوجه القشيرى هذه الإشارة نحو موضوع الرخص ، فمن المعلوم أنه يرى ان من الأفضل الا يلجأ المريد للرخصة ، وفعل الأولى عنده هو ترك الرخصة لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة ، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه .

ويقال التكبُّر توهمُ استحقاقِ الحقِّ لك .

ويقال من رأى لنفسه قيمةً فى الدنيا والآخرة فهو متكبِّر .

ويقال مَنْ ظنَّ أنَّ شيئاً منه أو له أو إليه — من النفى والإثبات — إلا على وجه الاكتساب فهو متكبِّر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِن يَرَوْا سبيلَ الرُّشدِ لا يتخذوه
سبيلاً وإن يروا سبيل الغَىِّ يتخذوه
سبيلا ذلك بأنهم كذَّبوا بآياتنا
وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا
بآياتنا ولقاءِ الآخرة حَبِطَتْ أعمالُهم.
هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون ﴾

تبيَّن بهذا أنه لا يكفى شهودُ الحقِّ حقاً وشهودُ الباطلِ باطلاً بل لا بُدَّ من شهود الحق من وجود التوفيق للحق ، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل .

ويقال إنَّ الجاحِدَ للحقِّ — مع تحققه به — أقبحُ حالةً من الجاهل به المُقصِّر فى تعريفه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّخَذَ قومُ موسى مِنْ بعدِه مِن
حُلِيِّهم عِجْلاً جَسَدًا له خُوارٌ ﴾

لم يُطَهِّرْ قلوبَهم — فى ابتداء أحوالهم — عن توهم الظنون ، ولم يتحققوا بخصائص القِدَمِ وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم فى وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجْلِ أن يكونَ معبودَهم متى تشم أسرارُهم نسيمَ[1] التوحيد ؟ هيهات لا ! لا ولا مَنْ لاحظ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثَّرى ، أو الجِنَّ أو الورى . وإنَّ مَنْ لَحِقَه ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان ، أو صحَّ فى التجويز أن ترتقى إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية .

---

(١) وردت (تشيم) وهى خطأ فى النسخ .

ويقال شتَّان بين أمة وأمة ! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجْلَ ، وأمة خرج نبيُّهم — عليه السلام — من بينهم وأتى نيف وأربعمائة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشموس والأقمار أو شيئاً من الرسوم والأطلال تستحق الإلهية أحرقوه بهمهم

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما فى معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلى ينافى هذه الجملة .

ويقال أجْهِلْ بقومٍ آمنوا بأن يكونَ مصنوعُهم معبودَهم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء — فأىُّ عقلٍ يُقِرُّ مثل هذا التلبيس ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يَهْدِيهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾

جعل من استحقاقه[1] نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت[2] بأنه متكلِّمٌ فى حقائق آزاله ، وأنه متفرِّد بهداية العبد لا هاديَ سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق — سبحانه — وتكليمه مع العبد ، وإنَّ الملوكَ إذا جلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبٌ تناسى ذِكْرِ عبدٍ على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

وبخلاف هذا أجرى الحقُّ — سبحانه — سنَّتَه مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون »[3] وأمَّا المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم : « ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان »[4] ، وأنشدوا فى معناه .

وما تزدهينا الكبرياء عليهمُ إذا كلَّمونا أن نكلمهم مَرَدَّا

---

(١) وردت (حقاقهم) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى معارضة المعتزلة الذين ينفون الصفات الإلهية منعاً للتعدد ، واقتضاء حامل ومحمول .

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) فى رواية مسلم عن عدى بن حاتم قال رسول الله (ص) :
« ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان) ص ٧٠٣ ج ٢ ط الحلبى .

قال تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنَفِدَ البحرُ قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا سُقِطَ فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضَلُّوا قالوا لئن لَّم يرحمنا ربُّنا ويغفِرْ لنا لنَكونن من الخاسرين ﴾

حين تحققو ابقبح صنيعهم تجرَّعوا كاساتِ الأسف ندماً ، واعترفوا بأنهم خَسِروا إنْ لم يتداركهم من الله جميلُ لُطْفِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما رَجَعَ موسى إلى قومِه غضبان أسِفاً قال بئسما خلَفْتمونى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُم أَمْرَ ربِّكم ﴾

لو وجد موسى قومه بألف ألف وِفاقٍ لكان متنغِّصَ العيش لِمَا منى به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار . . فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل ؟ ! ولا يُدْرَى أىُّ المحن كانت أشدّ على موسى :

أفِقدانُ سماع الخطابِ ؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية ؟ أو ماشاهد من افتنان بنى اسرائيل ، واستيلاء الشهوة على قلوبهم فى عبادة العجل ؟ سبحان الله ! ما أشدَّ بلاءه على أوليائه !

قوله جل ذكره : ﴿ وألقى الألواحَ وأخَذَ برأسِ أخيه يجرُّه إليه قال ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشمِتْ بى الأعداء ولا تجعلْنى مع القومِ الظالمين * قال ربِّ اغفرْ لى ولأخى وأدْخِلْنا فى رحمتك وأنت أرحمُ الراحمين ﴾

---

(١) آية ١٠٩ سورة الكهف .

إن موسى عليه السلام وإنْ كان سَمِعَ من الله فِتَنَ قومه فإنه لما شاهَدَهم أثَّرت فيه المشاهدةُ بما لم يؤثر فيه السماع ، وإنْ عُلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة تأثيراً آخر .

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارونُ فى الخطاب .

فقال : « يا ابنَ أُمَّ » فَذَكَرَ الأمَّ هنا للاسترفاق والاسترحام .

وكذلك قوله : « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » يريد بهذا أنه قد توالت المحنُ علىَّ فذَرْنى وما أنا فيه ، ولا تَزِد فى بلائى ، خلفتنى فيهم فلم يستنصحونى . وتلك علىَّ شديدةٌ . ولقيتُ بَعْدَكَ منهم ما ساءنى ، ولقد علمت أنها كانت على عظيمة كبيرة ، وحين رجعتَ أخذتَ فى عتابى وجر رأسى وقصدْتَ ضربى ، وكنت أود منك تسليتى وتعزيتى . فرِفقاً بى ولا تُشْمِتْ بى الأعداء ، ولا تضاعِفْ علىّ البلاء .

وعند ذلك رقَّ له موسى — عليه السلام ، ورجع إلى الابتهال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال : « ربِّ اغفر لى ولأخى وأَدْخِلْنا فى رحمتك » وفى هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد فى عموم الأحوال ، والتحقق بأنَّ له — سبحانه — تعذيبَ البرىء ؛ إذ الخلْقُ كُلُّهم مِلْكُه ، وتَصَرُّفُ المالكِ فى مِلكه نافذٌ .

ويقال : ارتكابُ الذَّنْبِ كان من بنى اسرائيل ، والاعتذارُ كان من موسى وهارون عليهما السلام ، وكذا الشرط فى باب خلوص العبودية .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين اتخذوا العِجْلَ سينالهُم غَضَبٌ مِّن ربِّهم وذِلَّةٌ فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾

يعنى إن الذين اتخذوا العِجْلَ معبوداً سَيَنالُهم فى مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم . والسين فى قوله « سينالهم » للاستقبال ، ومَنْ لا يضره عصيان العاصين لا يبالى بتأخير العقوبة عن الحال ، وفَرْقٌ بين الإمهال والإهمال ، والحق — سبحانه — يمهل ولكنه لا يهمل ، ولا ينبغى لِمَنْ يذنب ثم لا يُؤَاخَذُ فى الحال أنْ يَغْتَرَّ بالإمهال .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين عَمِلوا السيئاتِ ثم تابوا

مِنْ بعدها وآمنوا إنَّ ربَّك مِنْ
بعدها لغفور رحيم ﴾

وَصَفَهُم بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها ، ثم قال : « من بعدها لغفور رحيم » . والإيمان الذى هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة ، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يُضِرْه عصيانٌ ، أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله ، أو آمنوا أى عَدُّوا ما سبق منهم من نقض العَهْدِ شِرْكاً .

ويقال استداموا للإيمان فكان مواظبتهم على الإيمان .

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله ، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا سَكَتَ عن مُّوسى الغضبُ
أخذ الألواحَ وفى نُسْخَتِها هُدَىً
ورحمة للذين هم لربِّهم يرهبون ﴾

تشير إلى حسن إمهاله — سبحانه — للعبد إذا تغيَّر عن حدِّ التمييز ، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردَّه من بواده الغيب

وإذا كانت حالة الأنبياء — عليهم السلام — أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بِمنْ دونهم[1] ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واختار موسى قومَه سبعين رَجُلا
لميقاتنا فلما أخذتْهم الرَّجفةُ قال ربِّ
لو شئْتَ أهلكتَهم مِّن قبلُ وإياى
أتهلكنا بما فعل السُّفهاء مِنَّا ؟ إنْ
هِىَ إلا فِتْنَتُكَ تضلُّ بها من تشاء
وتهدى من تشاء ، أنتَ ولِيُّنا ،
فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين ﴾

(١) يستشفع القشيرى للوالِه إذا خرج عن حد التمييز إن كان صادقاً وله عذر .

شتّان بين أمة وأمة ؛ أمة يختارهم نبيُّهم — عليه السلام ، وبين أمة اختارها الحقُّ — سبحانه ، فقال : « ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين »[1] .

الذين اختارهم موسى قالوا : « أرِنَا الله جهرة حتى أخذَتْهم الصاعقةُ » والذين اختارهم الحق — سبحانه — قال الله تعالى فيهم : « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة »[2] .

ويقال إن موسى — عليه السلام — جاهر الحقَّ — سبحانه — بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً : « إنْ هى إلا فتنتكَ » ثم وَكَلَ[3] الحكمَ إليه فقال : « تُضِلُّ بها مَنْ تشاء وتَهْدِى مَنْ تشاء » ثم عقَّبها ببيان التضرع فقال : « فاغفر لنا وارحمنا » ، ولقد قدَّم الثناء على هذا الدعاء فقال : « أنت ولِيُّنا فاغفر لنا وارحمنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واكتُبْ لنا فى هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة ﴾

نَطَقَ بلسان التضرع والابتهال حيث صَفَّى إليه الحاجة ، وأخلص له فى السؤال فقال . « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة » أى اهدنا إليك .

وفى هذه إشارة إلى تخصيص نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — فى التبرى من الحول والقوة والرجوع إلى الحقِّ لأن موسى — عليه السلام قال : « واكتب لنا فى . . . . » ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » ولا أقلَّ من ذلك ، وقال : « واكفلنى كفالة الوليد » ثم زاد فى ذلك حيث قال : « لا أحصى ثناء عليك »[4] .

---

(١) آية ٣٢ سورة الدخان والمقصود أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ٢٢ سورة القيامة

(٣) وردت (وقل) والصواب أن تكون (وكل) إليه الحكم .

(٤) قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفلنى كفالة الوليد ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وجهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا اليك » .

اللهم اكفلنى كفالة الوليد عليها النبى (س) لبعض أصحابه ، للشيخين من حديث البراء . اللهم امتعنى بسمعى وبصرى : الترمذى ، والحاكم عن أبى هريرة « ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين » الحاكم من حديث أنس قال : صحيح على شرط الشيخين ، وعلَّمه صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا هُدْنا إليك ﴾

أى مِلْنَا إلى دينك ، وصِرْنا لكَ بالكلية ، من غير أنْ نترك لأنفسنا بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال عذابى أصيب به مَنْ أشاء ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء ﴾

وفى هذا لطيفة ؛ حيث لم يقل : عذابى لا أُخْلى منه أحَدَاً ، بل علَّقَه على المشيئة . وفيه أيضاً إشارة ؛ أنَّ أفعاله — سبحانه — غيرُ مُعَلَّلَة بأكساب الخلْق ؛ لأنه لم يقل : عذابى أصيب به العصاة بل قال : « من أشاء » ؛ وفى ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال : « أصيب به من أشاء » فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك ، وإلا لم يكن حينئذٍ مختاراً .

ثم لمَّا انتهى إلى الرحمة قال : « ورحمتى وسعت كل شىء » لم يُعَلِّقها بالمشيئة ؛ لأنها نفس المشيئة ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم . فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعل علَّقه بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات .

ويقال فى قوله تعالى : « وسعت كل شىء » مجالٌ لآمالِ العُصَاة ؛ لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعابدين والعارفين فهم « شىء »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾

أى سأوجبها لهم ، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحدٍ شىء على الله إذ لا يجب عليه شىء لعزِّه فى ذاته[2] .

قوله ها هنا : « للذين يتقون » أى يجتنبون أنْ يروا الرحمة باستحقاقهم ، فإذا اتقوا هذه الظنون ، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللةً بأكسابهم — استوجبوا الرحمة ، وبحكم بها لهم .

---

(١) اى ضمن (شىء) التى فى الآية « ورحمتى وسعت كل شىء » .

(٢) أى بخلاف المعتزلة الذين يقولون بالوجوب (على) الله ، وشتان بين الوجوب (من) الله والوجوب (عليه) ؛ فالوجوب من الله فضل ، والوجوب على الله إلزام .

« والذين هم بآياتنا يؤمنون » أى بما يكاشفهم به فى الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال ، وبما يلاطفهم به فى الأسرار مما يجدونه فى أنفسهم من فنون الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتّبعون الرسولَ النبيَّ الأُميَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث ﴾

أظهر شرفَ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بقوله : « النبى الأمى » أى أنه لم يكن شىء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قِبَلِ نَفْسِه ، أو من تعلُّمه وتكلُّفه ، أو من اجتهاده وتصرُّفه . . بل ظهر عليه كلُّ ما ظهر مِنْ قِبَله — سبحانه — فقد كان هو أمّياً غير قارىءٍ للكتب ، ولا مُتَتَبِّعٍ للسِّير .

ثم قال : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » : والمعروف هو القيام بحق الله ، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى ، والتعريج فى أوطان المُنَى ، وما تصوِّره للعبد تزويراتُ الدعوى[1] . والفاصلُ بين الجسمين ، والمميِّزُ بين القسمين — الشريعة ، فالحَسَنُ من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلَهُم ذلك ، والقبيح ما كان موافقاً لِلنَّهْىِ[2] والزجرِ فليس لهم فعل ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ويضع عنهم إصرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم ﴾

الإصرُ الثِّقلُ ، ولا شىء أثقلُ من كَدِّ التدبير ، فمَنْ ترك كد التدبير إلى روْح شهود التقدير ، فقد وُضِع عنه كلُّ إصر ، وكُفِىَ كُلَّ وِزر وأمر

والأغلالُ التى كانت عليهم هى ما ابتدعوه مِنْ قِبَلِ أنفسهم باختيارهم فى التزامِ طاعات

---

(١) يقصد بها دعوى النفس أنها على شىء وذلك زور وباطل .

(٢) وردت (الهنى) وهى خطأ فى النسخ .

الله ما لم يُفْتَرضْ عليهم ، فَوُكِلُوا إلى حَوْلِهِمْ ومُنَّتِهم فيها ؛ فأهملوها ، ونقضوا عهودهم .

ومَنْ لَقِيَ — بخصائص الرضا — ما تجرى به المقادير ، وشَهِدَ الحقَّ فى أجناس الأحداث — فقد خُصَّ بكل نعمة وفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه
واتبعوا النُّور الذى أُنزِلَ معه
أولئك هم المُفْلِحُون ﴾

اعترف لهم[1] بنصرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلا فالنبى صلى الله عليه وسلم كان الله حسيبه ، ومَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يأيها الناسُ إنى رسولُ اللهِ
إليكم جميعاً الذى له مُلْكُ السموات
والأرضِ لا إله إلا هو يحيي ويميت
فآمِنوا بالله ورسولِه النبيِّ الأمِّى
الذى يؤمِنُ باللهِ وكلماتِه ، واتبِعوه
لعلكم تَهْتَدون ﴾

صَرِّحْ بما رَقَّيْناكَ إليه من المقام ، وأفصِحْ عما لقيناك به من الإكرام ، قُلْ إنى إلى جماعتكم مُرسَلٌ ، وعلى كافتكم مُفَضَّل ، ودينى — لِمَنْ نظر واعتبر ، وفكَّر وسَبَرَ — مُفَصَّل . فإلهى الذى لا شريكَ له ينازعه ، ولا شبيهَ يُضارِعه له حقُّ التصرف فى مُلْكِه بما يريد من حكمه . ومن جملة ما حكم وقضى ، ونفذ به التقدير وأمْضى — إرسالى إليكم لتطيعوه فيما يأمركم ، وتحذروا من ارتكاب ما يزجركم . وإنَّ مما أمَرَكُمْ به أنه قال لكم : آمِنوا بالنبيِّ الأمِّى ، واتبعوه لتُفْلِحوا فى الدنيا والعقبى ، وتستوجبوا الزُّلفى والحسنى ، وتتخلصوا من البلوى والهوى .

---

(١) (اعترف لهم) أى عرف لهم هذا العمل وأشاد به .

قوله جل ذكره : ﴿ومن قوم موسى أُمَّةٌ يَهْدُون بالحقِّ وبه يَعْدِلون﴾

هم الذين سبقت لهم العناية ، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل ، وأدركتهم الرحمةُ السابقةُ ، فلم تتطرق إليهم مفاجأةُ تغيير ، ولا خوفُ تبديل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطعناهم اثنتى عَشْرةَ أسباطاً أُمَماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُه أنِ اضرب بعصاك الحجرَ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَّشربَهم وظَلَّلْنَا عليهم الغَمامَ ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى كلوا مِن طيباتِ ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يَظلِمون﴾

فرَّقهم أصنافاً ، وجعلهم فى التحزب أخيافاً ، ثم كفاهم ما أهَمَّهُم ، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابَهم ؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرِّ والبرد ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعى والكد ، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً ، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين ، ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق ، سبحانه وتعالى فيما يُمضِى عليهم من فنون أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القريةَ وكُلُوا منها حيث شِئْتُمْ وقولوا حِطَّةٌ وادْخلوا البابَ سُجَّداً نَغفِرْ لكم خَطِيئاتِكمْ سَنَزِيدُ المحسنين﴾

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود ، وما حصل منهم من نقض العهود . وعما ألزمهم من التكليف ، ولقّاهم به من صنوف التعريف ، وإكرامه من (شاء)[1] منهم بالتوفيق والتصديق ، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق ، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً ، وأذاقهم من سوء الجزاء ، حُكْماً — من الله — حتما ، وقضاء جزماً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظلموا منهم قولاً غيرَ الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رِجْزاً مِنَ السماء[2] بما كانوا يَظْلِمون ﴾

جاء فى التفسير أنهم زادوا حرفاً فى الكلمة التى قيلت لهم فقالوا : حنطة بدل « حِطَّة » فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادةَ فى الدِّين، والابتداعَ فى الشرع عظيمُ الخطَرِ، ومجاوزةُ حدِّ الأمر شديدُ الضرر .

ويقال إذا كان تغييرُ كلمةٍ هى عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب — فما الظنُّ بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات المعبود ؟

ويقال إنَّ القولَ أنقصُ من العمل بكلِّ وجهٍ — فإذا كان التغيير فى القول يُوجِبُ كلَّ هذا . . فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَسألهم عن القرية التى كانت حاضِرةَ البحرِ إذْ يَعْدُون فى السَّبْتِ إذ تأتيهم حِيتانُهم يومَ سبْتِهم شُرَّعاً ويومَ لا يَسْبِتُون لا تأتيهم كذلك نَبْلُوهُم بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

كان دينهم الأخذ بالتأويل ، وذلك رَوَغانٌ — فى التحقيق[3] ، وإن الحقائق تأبى

---

(١) سقطت (شاء) وقد أثبتناها قياساً على ما حدث فيما بعد .
(٢) سقطت (من السماء) من الناسخ .
(٣) تأمل مفهوم (التأويل) عند القشيرى ، وكيف يعارضه إذا كان باطلاً .

إلا الصدق ، وإنَّ التعريج فى أوطان الحظوظ والجنوحَ إلى محتملات الرُّخَص فسْخٌ لأكيد مواثيق الحقيقة ، ومن شاب شوِّبَ له ، ومن صَفَّى صفى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قالت أُمَّةٌ منهم لِمَ تَعِظُون
قوماً اللهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهم عذاباً
شديداً قالوا مَعْذِرةً إلى ربِّكم
ولعَلَّهم يتَّقُون ﴾

الحقائق — وإن كانت لازمة — فليست للعبد عنه لوازم الشرع عاذِرةً[1] بل الوجوبُ يُفْتَرَضُ شرعاً ، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ماذُكِّرُوا به أنجيْنا الذين
ينهوْن عن السُّوءِ وأخذنا الذين ظلموا
بعذاب بئيس بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

إذا تمادى العبد فى تَهَتُّكِه ، ولم يُبالِ بطول الإمهال والسَّتْر لم تُهْمِلْ يدُ التقدير عن استئصال العين ، ومحو الأثر ، وسرعة الحساب ، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر . ثم البرىء فى فضاء السلامة ، وتحت ظِلِّ الحفظ ، ودوام روْح التخصيص وبَرْدِ عيش التقريب .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنه قلنا لهم
كونوا قِرَدَةً خاسِئين ﴾

إذا انتهت مدةُ الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال ، وإذا سقط العبدُ من عين الله لم ينتعشْ بعده أبداً ، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الردِّ ، وفى معناه أنشدوا :

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تكَدْ إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ تأذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عليهم
إلى يوم القيامة مَن يسومُهم سُوءَ

(١) أى لا ينبغى نصرة الحقيقة على حساب الشريعة بحال .

العذابِ ، إنَّ ربَّكَ لسريعُ العقابِ
وإنَّه لغفورٌ رحيم ﴾

إذا الحقُّ — سبحانه — أمضى سُنَّتَه بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كلُّ أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداء للعذر — وإنْ جلت[1] رتبته عن كل عذر — فإنْ يَنْجَعْ فيهم القولُ وإلا دَمَّرَ عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطعناهم فى الأرضِ أُمَمًا منهم
الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم
بالحسناتِ والسيئات لعلَّهم
يَرجِعون[2] ﴾

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاحٍ وسداد ، ومَعَاصٍ وفساد . ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محنٍ أزاحها ، ومن مِنَنٍ أتاحها ، وطالبهم بالشكر على ما أسدى ، والصبرِ على ما أبلى ، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرَهم فى الخلاف والوفاق ، والإخلاص والنفاق ؛ فأمَّا الحسناتُ فهى ما يُشْهِدهم المُجْرى ، ولا يُلْهيهم عن المُبْدى ، وأمَّا السيئاتُ فالتردد بين الإنجاز والتأخير ، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنْسِيَك نفسك ، والسيئةُ أنْ يُشْهِدَكَ نفسك .

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن . والسيئاتُ التى ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخلَفَ مِنْ بَعدِهم خَلْفٌ وَرِثُوا
الكتابَ يأخذون عَرَضَ هذا
الأدنى ويقولون سَيُغْفَرُ لنا ﴾

استوجبوا الذم بقوله — سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف » لأنهم آثروا العَرَضَ[3]

---

(١) وردت (حلت) بالحاء وهى خطأ فى النسخ .
(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لعلهم يرحمون) .
(٣) وردت (الأرض) وهى خطأ فى النسخ فلفظة (عرض) مذكورة فى الآية .

الأدنى ، وركنوا إلى عاجل الدنيا ، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المنى فقالوا : « سيغفر لنا » .

ويقال من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزلة ، والاغترارُ بزمان المُهْلة ، وحَمْلُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يأتِهِم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه ﴾

أخبر عن إصرارهم على الإغترار بالمنى ، وإيثار متابعة الهوى .

قوله جل ذكر : ﴿ ألَمْ يُؤْخَذْ عليهم ميثاقُ الكتابِ ألاَّ يقولوا على اللهِ إلا الحق ﴾

استفهام فى معنى التقرير[1] ، أى أُمِروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال ، واستحقاق صفات الكمال ، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأتِ منه خبر ، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَرَسُوا ما فيه ، والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتقون ، أفلا تعقلون ﴾

يعنى تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان . يعنى التعرضُ لنفحات فضله — سبحانه — خيرٌ لمن أمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ — فى تحصيل هواه — مجهودَه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يُمَسِّكُون بالكتابِ وأقاموا الصلاة ﴾ .

يمسكون بالكتاب إيمانا ، وأقاموا الصلاة إحسانا ، فبالإيمان وجدوا الأمان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ، فالأمانُ مُعَجَّل والرضوان مؤجل . ويقال « يمسكون بالكتاب » سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة . فالنجاة فى المآل والمناجاة فى الحال .

ويقال أفرد الصلاة هاهنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلَمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

---

(١) وردت (التقدير) بالدال وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها ، والاستفهام التقريرى مصطلح بلاغى

قوله جل ذكره : ﴿ إنا لا نُضِيعُ أجرَ المصلحين ﴾

مَنْ أَمَّلَ سببَ إنعامنا لم تَخْسِرْ له صفقة ، ولم تخفِق[1] له فى الرجاء رفقة ، ويقال من نقل (. . . .)[2] إلى بابه قَدَمَه لم يَعْدِم فى الآجل نِعَمه ، ومَنْ رَفَعَ إلى ساحاتِ جوده هِمَّه نالَ فى الحالِ كرمه

ويقال مَنْ تَوَصَّلَ إليه بجوده نال فى الدارين شَرَفَه . ومن اكتفى بجوده[3] كان اللهُ عنه خَلَفَه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ نتَقْنَا الجَبَلَ فوقهم كأنه ظُلَّة وظنوا أنه واقِعٌ بهم خُذُوا ما آتيناكم بقوةٍ ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾

ليس من يأتى طوعاً كمن يأتى جَبْراً ، فإن الذى يأتى قهراً لا يعرف للحق — سبحانه — قدراً ، وفى معناه أنشدوا :

إذا كان لا يرضيك إلا شفاعة فلا خير فى ود يكون لشافعِ

وأنشدوا :

إذا أنا عاتبتُ المليلَ فإنَّما أَخُطُّ بأقلامى على الماء أحْرُفَا
وَهَبْهُ ارْعَوَى بعد العتاب ألم يكن تودده طبعاً ، فصار تكلُّفا ؟

ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبيه طوعاً ، كذلك لمَّا قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذ ربُّكَ مِن بنى آدمَ مِن

---

(١) وردت (تحقق) وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها .
(٢) مشتبهة وربما كانت (فى العاجل) .
(٣) الأصوب أن تكون هذه (بوجوده) أى من فنى عن نفسه وبقى بالحق كان الحق عنه خلفه .

ظهورهم ذرِّيَّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى، شهدْنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهم أفتهلكنا بما فعل المُبْطِلُون؟ ﴾

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأكيد عناج[1] ودِّه، بتعريف عبده، وفى معناه أنشدوا:

سُقْياً للَيْلَى والليالى التى كُنَّا بِلَيْلَى نلتقى فيها
أفديكِ بل أيامُ دهرى كلها يفدين أياماً عَرَفْتُكِ فيها

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بَصَرٌ، أو ظهر فى قلوبهم لمصنوع أثَرٌ، أو كان لهم من حميمٍ أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفى معناه أنشدوا:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى وصادَفَ قلبى فارغاً فتمكنَّا

ويقال جمعهم فى الخطاب ولكنه فرَّقهم فى الحال. وطائفةٌ خاطبهم بوصف القربة فعرَّفهم فى نفس ما خاطبهم، وفِرْقةٌ أبقاهم فى أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم.

ويقال أقوام لاطَفَهم فى عين ما كاشَفَهم فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم فى نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود.

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فألزمهم بالإشهاد ببيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد، وآخرين أشهدهم واضِحَ الحجة (. . . . . .)[2]

---

(١) العناج حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة (المنجد).
(٢) لابد أن هنا عبارة ساقطة.

ويقال تجلّى لقوم فتولّى تعريفهم فقالوا : « بلى » عن حاصل يقين ، وتَعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم فى أوطان الجحد فقالوا : « بلى » عن ظنٍ وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين فى الأسماء ولكن غاير بينهم فى الرتب ؛ فَجَذَبَ قلوبَ قومٍ إلى الإقرار بما أطلعها فيه من المَبَارّ ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار .

ويقال فرقةٌ ردّهم إلى الهيبة فهاموا ، وفِرْقَةٌ لاطفهم بالقربة فاستقاموا .

ويقال عرّف الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم ، ولَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفى نفس ما أسمعهم أحضرهم ، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم ، وقام عنهم فأنطقهم بحكم التعريف ، وحفظ عليهم — بحسن التولى — أحكامَ التكليف[1] وكان — سبحانه — لهم مُكَلِّفاً ، وعلى ما أراده مُصَرِّفاً ، وبما استخلصهم له مُعَرِّفاً ، وبما رقاهم إليه مُشَرِّفاً .

ويقال كاشف قوماً — فى حال الخطاب — بجماله فطوحهم فى هيمان حبه ، فاستمكنت محابُّهم فى كوامن أسرارهم ؛ فإذا سمعوا — اليومَ — سماعاً تجددت (تلك الأحوال ، فالانزعاجُ الذى يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ ما سَلَفَ لهم)[2] من العهد المتقدم[3] .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصماهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق ، وأسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختصّ بالأنوار التى رشت عليهم قوماً ، فَمَنْ حَرَمَهُ تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة ، ومَنْ أصابَتْهُ تلك الأنوارُ أفْصَحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كُلْفَة .

---

(١) لاحظ مدى إلحاح القشيرى على التزام أحكام التكليف ما سنحت له مناسبة .

(٢) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامات المميزة

(٣) من هذا وما تلاه يتضح كيف ارتبطت الولاية بالفطرة والاجتباء والخصوصية منذ يوم الذر وكذلك الشأن فى العداوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نفصِّل الآياتِ ولعلهم يَرْجِعُون ﴾

إذا سُدَّت[1] عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الحُجَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يظهر الأعداء فى صدار الخُلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة ، ويُبْرِزُ الأولياء بنعتِ الخلاف والزَّلَّة ، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة .

ويقال أقامه فى محل القربة ، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير ؛ فأصبح والكلُّ دونه رتبة ، وأمسى والكلب فوقه — مع خساسته : وفى معناه أنشدوا :

فبينا بخيرٍ والدُّنى مطمئنة وأصبح يوماً — والزمان تَقَلَّبَا

ويقال ليست العِبْرَةُ بما يلوح فى الحال ، إنما العبرة بما يئول إليه فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلْحَقْه الشقاوةُ الأبدية ، ولكن من قصمته السوابق لم تنعشه اللواحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾

إذا كانت مساكنةُ آدمَ للجَنَّةِ وطَمعُه فى الخلود فيها أوجبا خروجَه عنها ، فالركونُ إلى الدنيا — متى يوجِب البقاء فيها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّبَعَ هواه ﴾

موافقة الهوى تُنْزِلُ صاحبَها من سماءِ العِزِّ إلى تراب الذُّل ، وتلقيه فى وهدة الهوان ؛ ومن لم يُصَدِّق عِلْماً فمن قريبٍ يقاسيه وجوداً .

---

(١) وردت (شدت) والمعنى يرفضها ويبدو أن الناسخ قد حسب ضمة السين ثلاث نقط انظر (ولولا انسداد البصائر ص ٥٨٩ من هذا المجلد) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب ﴾

من أخلاق الكلب التعرُّضُ لِمَنْ لم يُخِفْه على جهة الابتداء ، ثم الرضاء عنه بلقمة .. كذلك الذى ارتدَّ عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر ، سيء الخُلُق ، يبدأ بالجفاء كُلَّ بريء ، ثم يهدأ طياشه بنَيْل كُلِّ عَرَضٍ خسيس .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يلهث ذلك مَثَلُ القومِ الذين كذَّبوا بآياتنا فاقصُصِ القصصَ لعلَّهم يتفكرون ﴾

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءةُ والإحسانُ (سيان)[1] ، فهو فى الحالين : إمَّا صاحب ضَجَر أو صاحب بَطَر ؛ لا يحمل المحنة إلا على زوال الدولة ، ولا يقابل[2] النعمة إلا بالنهمة ، فهو فى الحالين محجوبٌ عن الحقيقة .

ويقال الكلب نجاسته أصلية ، وخساسته كلية ، كذلك المردود فى الصفة له نقصان القيمة وحرمان القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ساءَ مَثَلاً[3] القومُ الذين كَذَّبوا بآياتنا وأنفُسَهم كانوا يظلِمون ﴾

أى صفته أدنى من نعت من بُلِيَ بالإعراضِ الأزلىِّ ، وأىُّ نعتٍ أعلى من وصف مَنْ أُكْرِمَ بالقبول الأبدىّ ؟ وأىُّ حيلةٍ تنفع مع مَنْ يخلق الحيلة ؟[4] وكيف تَصِحُّ الوسيلةُ إلا لمن منه الوسيلة ؟

---

(١) (سيان) زياد أضفناها ليستقيم بها والمعنى ويقوى .
(٢) وردت (ولا يقال) وهى خطأ فى النسخ والمعنى يتطلب (ولا يقابل) .
(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مثلان) .
(٤) نعرف من مذهب القشيرى أن (الحيلة) تنصرف إلى الإنسان ، وهو هنا يقرر أن الحيلة من خلق الحق ، وبهذا يتأكد اتجاهه الكلامى نحو جعل الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد .

قوله جل ذكره: ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فهو المهتدى ومَن يُضْلِلْ فأولئك هم الخاسِرون ﴾

ليست الهدايةُ من حيث السعاية، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد ونَظَرِه، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره.

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنسِ ﴾

مَنْ خَلَقَه لجهنم — متى يستوجب الجنَّاتِ؟

ومَنْ أَهَّلَه للسخطة — أنَّى يستحق الرضوان؟

ولولا انسداد البصائر وإلا فأيُّ إشكالٍ بقى بعد هذا الإيضاح؟[1]

ويقال هم — اليومَ — فى جحيم الجحود، مُقَرَّنين فى أصفاد الخذلان، مُلْبَسين ثياب الحرمان، طعامُهم ضريع الوحشة، وشرابهم حميم الفرقة، وغداً هُمْ فى جحيم الحرقة[2].. كما فَصَّلَ فى الكتاب شرعَ تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعيُنٌ لا يُبْصِرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ أولئك هم الغافِلون ﴾

أى لا يفقهون معانى الخطاب كما يفهم المُحَدَّثون[3]، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق

---

(١) يغمز القشيرى هنا بمن يقول بحرية الإنسان فى اختطاط مصيره باختياره وارادته، ويرجع الأمر كله للقسمة.

(٢) لاحظ مفهوم الجحيم، فى تصور الصوفية، وهو جحيم الفراق — هنا فى هذه الدنيا. وبعده جحيم الاحتراق فى الدار الآخرة.

(٣) يقول السراج فى شرح « المحدَّث » التى وردت فى الحديث الشريف: « قد كان فى الأمم محدثون ومكلمون فان يكُ فى هذه الأمة فعمر » المحدَّثُ أعلى درجة من درجات الصديقين، ودلائل ذلك ظهرت عليه حين صاح فى خطبه: ياساوية الجبل، وكان سارية فى نهاوند فسمع صوت عمر وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو (اللمع ص ١٧٣).

وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها شواهدَ التوحيد وعلاماتِ اليقين ؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة ، ولا يسمعون إلا دواعى الفتنة ، ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » : لأنَّ الأَنْعَامَ قد رُفِعَ عنها التكليفُ ، وإن لم يكن لها وِفاقُ الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر .

والأنعامُ لا يَهُمُّها إلا الاعتلاف ، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس ، فكذلك مَنْ أُقيم بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النَّفْس ، وفى معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ والرَّدى لك لازِمَ
وسعيك فيها سوف تكره غِبَّه كذلك فى الدنيا تعيش البهائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولله الأسماء الحُسْنَى فادعوه بها ، وذَرُوا الذين يُلْحِدون فى أسمائه سَيُجزَوْن(١) ما كانوا يعملون ﴾

سبحان مَنْ تعرَّف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرَّفهم أنه مَنْ هو ، وبأى وصفٍ هو ، وما الواجب فى وصفه ، وما الجائز فى نعته ، وما الممتنع فى حقِّه وحكمه ؛ فتجلى لقلوبهم بما يكاشفهم به من أسمائه وصفاته ، فإن العقولَ محجوبةٌ عن الهجوم بذواتها لِمَا يَصِحُّ إطلاقُه فى وصفه ، وإنْ كانت واقفةً على الواجب والجائز والممتنع فى ذاته ، فللعقل العرفان بالجملة ، وبالشرع الإطلاق والبيان فى الإخبار ، والقول فيما وَرَدَ به التوفيق يُطْلَق ، وما سَكَتَ عنه التوفيق يُمْنَع . ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصفٌ من صفاته ذَكَره بما يقتضى هذا الوصف ؛ فمن كان مكاشَفاً بعَطائه(٢) ، مربوطَ القلبِ بأفضاله فالغالب على قالته الثناء عليه بأنه الوهاب والبار والمُعْطِى وما جرى مجراه . ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام ، مكاشَفاً بنعت الرحمة

---

(١) أخطأ الناسخ إذ زاد واواً قبل (ما كانوا) والصواب بدونها .
(٢) وردت (بغطائه) بالغين والصواب ان تكون (بعطائه) بدليل (افضاله) و (الإنعام) فيما بعد فضلا عن الأسماء والصفات الإلهية المختارة (الوهاب والبار والمعطى) .

فالذى يغلب على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما فى معناه . ومَنْ تَمتْ هِمَّتُهُ عن شهود وجوده ، واستهلك فى حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق . ولذلك فأكثر أقوال العلماء فى الإخبار عنه : « البارىء » لأنهم فى الترقى فى شهود الفعل إلى شهود الفاعل . وأمَّا أهل المعرفة فالغالب على لسانهم « الحق » لأنهم [1] مُخْتَطَفُون عن شهود الآثار، متحققون بحقائق الوجود .

ويقال إنَّ الله — سبحانه — وقف الخلْق بأسمائه فهم يذكرونها قالةً ، وتعزَّزَ بذاته ، والعقول — وإنْ صَفَتْ — لا تهجم على حقائق الإشراف ، إذ الإدراك لا يجوز على الحق ؛ فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة ، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات ، والأبصار حسيرةٌ عند طلب الإدراك فى أحوال الرؤية ، والحق سبحانه عزيز ، وباستحقاق نعوت التعالى مُتفَرِّد [2] .

قوله « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » : الإلحاد هو الميل عن القصد ، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان ؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا [3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُون بالحقِّ وبه يعْدِلُون ﴾

أجرى الحقُّ — سبحانه — سُنَّتَه بألا يُخْلِيَ البسيطةَ من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق فى الظهور ، وفى معناه قالوا :

إذا لم يكن قطبٌ فمن ذا يديرها ؟

فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق ، ويدلون على الحق ، ويتحركون بالحق ، ويسكنون

---

(١) وردت (إليهم) ولا معنى لها فى السياق والصواب أن تكون (لأنهم) .

(٢) يلح القشيرى على هذا المعنى دائما فيقول فى تحديد العرفان (تنزه عن الدرك والوصول ، ليس بين الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالى فى شهود أفعاله ، فاما الوقوف على حقيقة إنيته فجلت الصمدية عن شراف عرفان عليه) اللطائف (م) ص ٣٩٨ .

(٣) (لا تمثيل ولا تعطيل) هذا أصل من أصول المذهب الكلامى عند هذا الإمام .

للحق بالحق ، وهم قائمون بالحق ، يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخلق ، بهم يُسقَوْنَ إذا قحطوا ، ويُمطَرون إذا أجدبوا ، ويُجَابُون إذا دَعَوْا[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأُمْلِى لهم إنّ كيدى متين ﴾

الاستدراج أن يلقى فى أوهامهم أنهم من أهل الوصلة ، وفى الحقيقة : السابقُ لهم من القسمة حقائقُ الفُرقة .

ويقال الاستدراجُ انتشار الصيت بالخير فى الخلْق ، والانطواء على الشر — فى السر — مع الحق .

ويقال الاستدراج ألا يزداد فى المستقبل صحبةً إلا ازداد فى الاستحقاق نقصان رتبة .

ويقال الاستدراج الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال ، ولو كان صادقاً فى حاله لكان معصوماً فى أعماله .

ويقال الاستدراج دعاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة .

ويقال الاستدراج إفاضة البِّر مع (. . . .)[2] الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم مِّن جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلا نذيرٌ مبين ﴾

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله — عليه السلام — ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرص .

ويقال إن برود[3] الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — كانت بنسيم القربة

---

(١) هذه نظرة القشيرى الى الولاية والأولياء ومعنى القطب وأهميته .

(٢) مشتبهة .

(٣) جمع بُرد

معطرة [1] ، ولكن لا يُدْرَكُ ذلك النَّشْرُ إلا بِشَمِّ العرفان ، فمَنْ فَقَدَ ذلك — فأى خبر [2] له عن حقيقة حاله — صلوات الله عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لم ينظروا فى ملكوتِ السموٰاتِ والأرض وما خَلَقَ اللهُ مِن شىءٍ ﴾

أطلع الله — سبحانه — أقمار الآيات ، وأماط عن ضيائها سحابَ الشبهات ؛ فَمَنْ استضاء بها ترقَّى إلى شهود القدرة .

ويقال ألاح الله تعالى — لقلوب الناظرين بعيون الفكر — حقائقَ التحصيل ؛ فَمَنْ لم يُعَرِّج فى أوطان التقصير أنْزَلَتْه مراكبُ السِّرِّ بساحات التحقق .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْ عسى أن يكونَ قد اقترب أجَلُهم فبأىِّ حديثٍ بعده يؤمِنون ﴾

الناس فى مغاليط آمالهم ناسون لو شيك آجالهم ، فكم من ناسجٍ لأكفانه ! وكم من بانٍ لأعدائه ! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه !

هيهات ! الكبش يعتلف والقَصَّابُ مُسْتَعِدٌّ له !

ويقال سرعة الأَجل تُنَغِّص لذة الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فلا هَادِىَ له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾

مَنْ حَرَمَه أنوارَ التحقيق فهو فى ضباب الجهل ، فهو يَزِلُّ يميناً ويسقط شمالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّان مُرساها قُلْ إنما علمُها عند ربى لا يجلِّيها لوقتِها إلا هو ، ثَقُلَتْ فى السموٰاتِ والأرضِ لاتأتيكم إلا بَغْتَةً ، يسألونك

---

(١) وردت (مطرة) بدون عين ، والسياق يتطلب (معطرة) لتناسب النسيم والشم والنشر

(٢) وردت (خير) والمقصود فاى (خبر) أى فاى علم له عن حقيقة المصطفى (ص) .

كأنك حفيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ،
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

السائلُ عن الساعةِ رجلان ؛ مُنْكِرٌ يتعجَّبُ لفَرْطِ جهله ، وعارِفٌ مشتاقٌ يستعجل لِفَرْطِ شوقه ، والمتحقق بوجوده ساكِنٌ في حاله ؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة .

ويقال الحق — سبحانه — استأثر بعلم الساعة ؛ فلم يُطلِعْ على وقتها نَبيًّا ولا صفيًّا ، فالإيمان بها غيبي ، ويقين أهل التوحيد صادق[1] عن شوائب الرِّيَب . ثم مُعَجَّلُ قيامتهم يُوجِبُ الإيمانَ بمؤجَّلها[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لا أملِكُ لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً إلا ماشاء اللهُ ، ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير ، وما مَسَّنِيَ السُّوء إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾

أمَره بتصريح الإقرار بالتبرى عن حوله ومُنَّتِه ، وأن قيامه وأمرَه ونظامَه بطوْل ربِّه ومنَّتِه ؛ ولذلك تتجنَّسُ على الأحوال ، وتختلف الأطوار ؛ فَمِنْ عُسْرٍ[3] يَمَسُّني ، ومِنْ يسرٍ[4] يخصني ، ولو كان الأمر بمرادي ، ولم يكن بِيَدِ غيري قيادي لتشابهت أحوالي في اليسر ، ولتشاكلت أوقاتي في البعد من العسر .

قوله جل ذكره ﴿ هو الذي خلقكم مِّن نَّفْسٍ واحدةٍ وجعل منها زوجها ﴾

أخرج النَّسَمَة من نَفْسٍ واحدة وأخلاقهم مختلفة ، وهممهم متباينة ، كما أن الشخص من

---

(١) ربما كانت (صاف) في الأصل

(٢) القيامة المعجلة التي يشير إليها هي (التي تقوم في اليوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) اللطائف (م) ٣٥١ ، فالمقصود من العبارة إذاً أن أهل الخصوص يؤمنون إيمان يقين بالقيامة المؤجلة لأنهم يشهدون ويذوقون القيامة المعجلة ، وقد صدق القشيري إذ يقول في رسالته : (فما الناس غيب فلهم ظهور) الرساله ص ١٩٨ .

(٣) وردت (عصر) . (٤) وردت (يستر) وقد صوبناها (عسر ويسر) في ضوء ما قالاها .

نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاؤه مختلفة . فمَنْ قَدِرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها فهو القادر على تنويع أخلاق الخلْق الذين أخرجهم من نَفْس واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَسْكُنَ إليها فلمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ
حَمْلاً خفيفاً فَمَرَّتْ به فلمَّا أثقلَتْ
دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما لئن آتَيْتَنا صالحاً
لنكونن من الشاكرين ﴾

ردُّ المِثْل إلى المِثْل ، وربط الشَّكلَ بالشكل ، ليَعْلَمَ العالمون أن سكون الخلْق مع الحقِّ لا إلى الحق ، وكذلك أنسل الخلْق من الخلق لا من الحق ، فالحقُّ تعالى قدوس ؛ منه كل حظ للخلق خلْقا ، منزه عن رجوع شيء إلى حقيقته حقاً

قوله جل ذكره ﴿ فلمَّا آتاهُما صالحاً جَعَلاَ له شركاء
فيما آتاهما فتعالى اللهُ عما يُشْرِكون ﴾

شرُّ الناس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء ، وشدة التضرع والبكاء ، فإذا أزيلت شكاتُه ، ودُفِعت — بِمِنَّتِه — آفاتُه ضيَّعَ الوفاء ، ونَسِيَ البلاء ، وقابل الرِّفْدَ[1] بنقْضِ العهد ، وأبدل العقد برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم ، وخرطهم فى سِلْك أهل الرد[2]

قوله جل ذكره : ﴿ أيُشْرِكون مالا يَخْلُقُ شيئاً وهم يُخْلَقُون ﴾

كما لا يجوز أن يكون الربُّ مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالقاً ، فَمَنْ وَصَفَ الحقَّ بخصائص وصف الخلْق فقد ألْحَدَ ، ومَنْ نَعَتَ الخلْقَ بما هو من خصائص حق الحق فقد جحدَ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يستطيعون لهم نَصْراً ولا أنفُسَهُمْ
يَنصُرون ﴾

مَنْ حَكَمَ بأنه ليس فى مقدور الحق شيء (لو فعله اسم الجاهل طوعاً إلا فعله [3] فقد

---

(١) (الرفد) هو العطاء .
(٢) وردت (الود) وهى خطأ في النسخ
(٣) ما بين القوسين جاء فى النسخة المصورة هكذا ، وفيه غموض ربما نشأ عن خطا فى النسخ .

وصف بأنه لا يقدر على نصره فَمُضاهٍ الذى يعبد الجماد ، ونعوذ بالله من الضلالة عن الرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدَى لايَتَّبِعُوكم سَوَاءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾

المعبودُ هو القادر على هداية داعيه ، وعِلْمُ العبد بقدرة معبوده يوجِبُ تبرِّيه عن حوْله وقوته ، وإفرادَ الحق — سبحانه — بالقدرة على قضاء حاجته ، وإزالة ضرورته فتتقاصر عن قَصْدِ الخَلْق خطاه[1] ، وتنقطع آماله عن غير مولاه

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين تدعون مِن دون اللهِ عِبادٌ أمثالُكم،فادعوهم فلْيَسْتَجِيبُوا لكم إن كنتم صادقين ﴾

إذا قُرِنَتْ الضرورةُ بالضرورة تضاعف البلاء ، وترادف العناء ؛ فالمخلوق إذا استعان بمخلوقٍ مثلِه ازداد بُعْدُ مرادِه عن النُّجح . وكيف تشكو لمن هو ذو شكاية ؟! هيهات ! إن ذلك خطأ من الظن ، وباطل من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَهُمْ أرْجُلٌ يمشون بها أمْ لهم أيدٍ يَبْطِشُون بها أمْ لهم أعينٌ يُبْصِرون بها ، أمْ لهم آذانٌ يسمعون بها ﴾

بيَّن بهذه الآيات أن الأصنام التى عبدوها دونَهم فيما اعتقدوا فيه صفة المدح ، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً فكيف استجازوا عبادةَ ما فاقهم[2] فى النقص ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكم ثم كِيدُونِ فلا تُنظِرُونِ ﴾

---

(١) وردت (خطاؤه) والصواب أن تكون (خطاه)

(٢) وردت (فوقهم) والأرجح أنها ما (فاقهم) فى النقص لأن الأصنام أقلُّ قدراً من الإنسان ، حيث لا تملك يداً او عيناً أو أذناً ، ولاتعى ولا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فإذا كان الإنسان مع ذلك موصوفاً بالنقص فالصنم أشد نقصاً .

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله ، كيف لا .. والمتفرِّدُ بالقدرة — على النفع والضرر ، والخير والشر — اللهُ ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذى نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولَّى الصالحين * والذين تدعون مِن دونه لا يستطيعون نصرَكم ولا أنفُسَهم يَنصُرون ﴾

مَنْ قام بحقِّ الله تولَّى أمورَه على وجه الكفاية ، فلا يخرجه إلى أمثاله ، ولا يَدَعَ شيئاً من أحواله إلاَّ أجراه على ما يريده بِحُسْنِ أفضاله ، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبدَ راضياً بما يفعل ، ورَوْحُ الرضا على الأسرار أتَمُّ من راحة العطاء على القلوب

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَدْعُوهم إلى الهُدَى لا يسمعوا ، وتراهم يَنظرون إليك وهم لا يُبْصِرون ﴾

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فَلَمْ يُعْتَدَّ برؤيتهم .

ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذِ العفْوَ وأمُرْ بالعُرْف وأعرِضْ عنِ الجاهلين ﴾

من خصائص سُنَّةِ الله فى الكرم أنه أمر نبيَّه — صلوات الله عليه وعلى آله — بالأخذ به ، إذ الخبر وَرَدَ بأنَّ المؤمن أخذ من الله خُلُقاً حسناً . وكلما كان الجُرْمُ أكبرَ كان العفو عنه أجَلَّ وأكمل ، وعلى قَدْرِ عِظَمِ رتبة العبد فى الكرم يتوقف العفو

عن الأصاغر والخدم، قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الجراحات[1] التى أصابته فى حرب أُحُد : « اللهم اغفِرْ لقومى فإنهم لا يعلمون » .

قوله « وَأْمُرْ بالعُرْفِ » : أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء ، وبذلك عامل الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ الناسَ .

قوله : « وأعرِض عن الجاهلين » : الإعراض عن الأغيار بالإقبال على من[2] لم يَزَلْ ولا يزال ، وفى ذلك النجاة من الحجاب ، والتحقق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ ، فاستَعِذْ باللهِ إنَّه سميعٌ عليم ﴾

إنْ سَنَح فى باطنك من الوساوس أثَرٌ فاستعِذْ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وإنْ هَجَسَ فى صدرك من الحظوظ خاطر فاستعِذْ بالله يدركك بإزالة كل نصيب ، وإنْ لَحِقَتْكَ فى بذل الجهد فَتْرَةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة آلائه ، وإنْ اعْتَرَتْكَ فى الترقى إلى محل الوصول وقفةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإنْ تقاصر عنك شىء من خصائص القرب — صيانةً لك عن شهود المحل — فاستعِذْ بالله يُثْبِتْك له بدلاً مِنْ لَكَ بكَ[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائِفٌ مِنَ الشيطانِ تذَكَّروا فإذا هُم مُبْصِرُون ﴾

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطانِ فى ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا

---

(١) وردت (الجراهات) بالهاء وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (ما لم يزل) وقد آثرنا (من لم يزل) لأن (من) للعاقل

(٣) تصلح هذه الفقرة وصية للمريدين ، وتبين عن أسلوب القشيرى فى الوصية من الناحيتين الصوفية والأدبية .

ذكر الله بقلوبهم لما مسّهم طائف الشيطان ، فإن الشيطانَ لا يَقرَبُ قلباً فى حال شهوده الله ؛ لأنه ينخنس عند ذلك . ولكن لكل صارمٍ نبوة ، ولكلِّ عالمٍ هفوة ، ولكل عابدٍ شدة ، ولكل قاصدٍ فترة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارفٍ حجبة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليُغان على قلبي . . . . »[1] أخبر أنه يعتريه ما يعترى غيرَه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحِدَّةُ تعترى خيار أمتى »[2] ، فأخبر أنَّ خِيارَ الأمة — وإنْ جَلّتْ رُتَبتهُم لا يتخلصون عن حِدّةٍ تعتريهم فى بعض أحوالهم ، فتخرُجهم عن دوام الحِلْم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإخوانُهم يَمُدُّونَهم فى الغَىِّ ثم لا يُقْصِرون ﴾

إخوانُ الشيطانِ أربابُ دوامِ الغيبة ؛ فهم فى كمال الغفلة تدوم بهم الحجبة ؛ فمنهم بالزَّلّة مَنْ لم يُلِمْ ، أو أَلَمَّ ولكن لم يُصِرّ فهم خِياره[3] ، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترَّ ، وعلى دوام الغيبة أَصَرَّ — فهم المحجوبون قطعاً ، والمُبْعَدُون[4] — عن محلِّ القربِ — صدّاً[5] وردّاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لم تَأْتِهم بآيةٍ قالوا لولا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إنما أتَّبِع مايُوحَى إلىَّ مِن رَّبى ، هـذا بصائرُ مِن

---

(١) « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة »
أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، وفى رواية لمسلم : « توبوا الى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة »
ويقول صاحب اللمع : الغين الذى كان يتوب منه الرسول مثله مثل المرآة اذا تنفس فيها الناظر فينقص من ضوئها ثم تعود إلى حالة ضوئها (اللمع ص ٤٥١) .
(٢) قال (ص) (انى بشر أغضب كما يغضب البشر) الشيخان عن أبى هريرة وأحمد ومسلم عن جابر
(٣) من هذا يتضح مدى انفساح الأمل أمام العصاة ، وكيف أن باب التوبة يتسع لآمالهم .
(٤) وردت المعبودون وهى خطأ فى النسخ
(٥) وردت (صمد) وهى خطأ فى النسخ وقد تقدم معنى الصد والرد

ربِّكم وهُدًى ورَحْمَةٌ لقومٍ يؤمنون ﴾

مَنْ شاهَدَ الحقَّ من حيث الخَلْق سقط فى مهواة المغاليط ، فهو فى متاهات الشكِّ يجوب منازلَ الرِّيب ، ولا يزداد إلا عمىً على عمىً . ومَنْ طالَعَ الخَلْق بعين تصريف القدرة إياهم تحقق بأنهم لا يظهرون إلا فى معرض اختيار الحق لهم ، فهو ينظر بنور البصيرة ، ويستديم شهود التصريف بوصف السكينة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قُرِىءَ القُرآنُ فاستَمِعُوا له وأنصِتوا لعلكم تُرْحَمُون ﴾

اسْتَمِعُوا بسمع الإيمان والتصديق ، وأنصِتوا (بصون) الخواطر عن معارضات الاعتراض ، ومطالبات الاستكشاف . ومن باشرَ التحقيقُ سِرَّه لازم التصديقُ قلبَه .

والإنصات — فى الظاهر — من آداب أهل الباب ، والإنصات — بالسرائر — من آداب أهل البساط ، قال الله تعالى فى نعت تواصى الجنِّ بعضهم لبعض عند شهود الرسول صلى الله عليه وسلم « فلما حضروه قالوا أنصتوا »[1] ؛ فإذا كان الحضور إلى الواسطة عليه السلام يوجب هذه الهيبة فلزومُ الهيبة وحفظُ الأدب عند حضور القلب بشهود الربِّ أولى وأحق ، قال تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكرْ ربك فى نفسِك تضرعاً وخِيفةً ودونَ الجهر من القول بالغُدُوِّ والآصالِ ولا تكن من الغافلين ﴾[3] .

التضرعُ إذا كوشِفَ العبدُ بوصف الجمال فى أوان البسط ، والخيفة إذا كوشف بنعت الجلال فى أحوال الهيبة ، وهذا للأكابر .

---

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .
(٢) آية ١٠٨ سورة طه .
(٣) أخطأ الناسخ اذ كتبها (الغافلون)

فأمَّا مَنْ دونَهم فَتنوُّعُ أحوالهم من حيث الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . ومن فوق الجميع فأصحاب البقاء والفناء ، والصحو والمحو ووراءهم أرباب الحقائق مُثْبَتُون فى أوطان التمكين ، فلا تَلَوُّنَ لهم ولا تجنُّسَ لقيامهم بالحق ، وامتحائهم عن شواهدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين عند ربِّك لا يستكبِرون عن عبادته ويُسَبِّحونه وله يسجدون ﴾ .

أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية لئلا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم[1] ، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خواص عباده ؛ يلقاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفَرْق لئلا يُخِلُّوا بآداب العبودية فى أوان وجود الحقيقة[2] .

السورة التى تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع ، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحُسْنِ الدِّفاع ؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده ، وبنصرته وَحَّدَ مَنْ وحَّد

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونَكَ عنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ لله والرسولِ ﴾ .

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين ، وكان سؤالهم عن حكمها ، فقال الله تعالى : قُلْ لهم إنها لله مِلْكًا ، ولرسوله — عليه السلام — الحُكْمُ فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً .

---

(١) وردت فوقهم بالواو والصواب (فرقهم) بالراء ، فالكلام عن الجمع والفرق .

(٢) لاحظ هنا كيف يلح القشيرى دائماً على عدم الإخلال باى شرط من شروط الشريعة مهما أوغل العبد فى الفناء ، بل يعتبر حفظ الله لعبده في هذه المرحلة الحاسمة علامة صدق العبد وآية خصوصيته .

قوله جل ذكره : ﴿فاتقوا اللهَ وأصلِحُوا ذاتَ بَيْنِكم﴾.

أى أجيبوا لأمر الله ، ولا تطيعوا دَوَاعِىَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالكم ، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقّ على مراد النَّفْس ، وأصلحوا ذات بَيْنِكم ، وذلك بالانسلاخ عن شُحّ النَّفْس ، وإيثار حقّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظّ ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ :

أى فى الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أى سبيلُ المؤمنِ ألا يخالِفَ هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زَادَتْهُم إيمانًا وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ .

الوَجَل شِدَّة الخوف ، ومعناه ها هنا أنْ يُخْرِجَهم الوَجَلُ عن أوطان الغفلة ، ويزعجهم عن مساكن الغيبة . فإذا انفصلوا عن أوْدية التفرقة وفاءوا إلى مَشَاهِدِ الذكر نالوا السكون إلى الله — عز وجل ؛ فيزيدُهم مايُتْلَى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق ، وتحقيقاً على تحقيق. فإذا طالعوا جلال قَدْرِهِ ، وأيقنوا قصورَهم عن إدراكه ، توكلوا عليه فى إمدادهم بالرعاية فى نهايتهم ، كما استخلصهم بالعناية فى بدايتهم .

ويقال سُنَّة الحقّ — سبحانه — مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهم بين كَشْفِ جلالٍ ولُطْف جمال ، فإذا كاشفهم بجلاله وَجِلَتْ قلوبُهم ، (وإذا لاطفهم بجماله سَكَنَتْ قلوبهم ، قال الله تعالى : « ولتطمئن قلوبهم بذكر الله » . ويقال وجلت قلوبهم)[1] بخوف فراقه ، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروْح وصاله . وذكر الفراق يُفْنيهم وذكر الوصال يُصْحيهم ويُحْييهم .

---

(١) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

ويقال الطالبون فى نَوْحِ رهبتهم ، والواصلون فى روْح قربتهم ، والموحِّدون فى محو غيبتهم ؛ استولت عليهم الحقائق فلالهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستفزهم خوف أو يجرفهم طمع ، ولا لهم إحساس فتَمْلِكُهم لذة ؛ إذ لَمَّا[1] اصْطَلِمُوا ببوادهِ ما ملَكهُمْ فَهُمْ عنهم مَحْوٌ ، والغالبُ عليهم سواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حَقّاً لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم ﴾

لا يرضَوْن فى أعمالهم بإخلال ، ولا ينصفون بجمْعِ مال من غير حلال ، ولا يُعَرِّجون فى أوطان التقصير بحال ، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير ، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل .

« فهم المؤمنون حقاً » أى حققوا حقاً وصدقوا صدقاً . ويقال حق لهم ذلك حقاً .

قوله : « لهم دَرَجاتٌ عند ربِّهم » على حسب ماأَهَّلَهُمْ له من الرُّتَبِ ؛ فَبِسَابقِ قِسْمَتِه لهم استوجبوها ، ثم بصادقِ خِدْمَتِهم — حين وفَّقَهم لها — بلغوها .

ولهم مغفرةٌ فى المآل ، والسَّتْرُ فى الحال لأكابرهم ؛ فالمغفرة الستر ، والحق سبحانه يستر مثالبَ العاصين ولا يفضحهم لئلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم ، ويستر مناقبَ العارفين عليهم لئلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم ، وفَرْقٌ بين سَتْرٍ وَسَتْرٍ ، وشَتَّان ماهما !

وأمَّا الرزق الكريم فيحتمل أنه الذى يعطيه من حيث لا يحْتَسِبُ ، ويحتمل أنه الذى لا يَنْقُصُ بإجرامهم ، ويحتمل أنه مالا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق ، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات .

قوله جل ذكره : ﴿ كما أخرجكَ ربُّك مِنْ بيتِكَ بالحقِّ وإنَّ فريقاً مِنَ المؤمنين لكارِهون ﴾

---

(١) وردت (لم) والسياق يقتضى (لما) .

بَيْنَ — سبحانه — أن الجِدالَ منهم عادة وسَجِيَّةٌ ، ففى كل شىء لهم جدال واختيار ؛ فكرهُوا خروجَه إلى بَدْرٍ، كما جادلوا فى حديث الغنيمة ، قال تعالى: «يسألونك عن الأنفال» وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقربَ إلى الصفح عنه والتجاوز ، فأمَّا إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب

ويقال مالم تباشر خلاصةُ الإيمان القلبَ لا يوجد كمالُ التسليم وترك الاختيار ، وما دام يتحرك من العبد عِرْقٌ فى الاختيار فهو بعيدٌ عن راحة الإيمان .

ولقد أجرى الله سُنَّتَه مع أوليائه ، وكذلك كانت سُنَّتُه مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمالَ النُّعمى إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان ، والتجرد عن مساكنة مافيه[1] حظ ونصيب مِنْ كل معهود

ويقال إن فى هجرة الأنبياء — عليهم السلام — عن أوطانهم أماناً لهم من عادية الأعادى ، وإحياء لقلوب قومٍ تقاصرت أقدامُهم عن المسير[2] إليهم .

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه ؛ فيها لهم خلاصٌ من البلايا ، واستخلاصٌ للكثيرين من البلايا .

قوله جل ذكره : ﴿ يُجادِلونكَ فى الحقِّ بعدما تبيَّن
كأنّما يُساقون إلى الموتِ
وهُم يَنظُرُون ﴾

جحودُ الحقِّ بعد وضوح برهانه علَمٌ[3] لاستكبار صاحبه ، وهو — فى الحال — فى وحشة غَيِّه ، مُعاقَبٌ بالصَّد وتَنغُّص العَيْش ، يَملُّ حياتَه ويتمنى وفاتَه ؛ « كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يَعِدُكُم اللهُ إحدى الطائفتين
أنَّها لكم وتودُّون أنَّ غيرَ ذاتِ
الشوكةِ تكون لكم ويريد الله أن

---

(١) وردت (ما لم فيه) وربما كانت (ما لهم فيه)
(٢) وردت (المصير) والصحيح (مسير) الذين لم تتح لهم فرصة الانتقال إلى أماكن الأنبياء .
(٣) ضبطنا (علم) هكذا لكى تؤدى معنى (علامة) على الاستكبار ، فهكذا يتطلب السياق .

يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابرَ الكافرينَ ﴾.

التعريجُ فى أوطان الكسل ، ومساكنة مألوفات الراحه من خصائص أحكام النَّفْس . فهى بطبعها تؤثِر فى كل حالٍ نصيبهَا ، وتتعجل لذَّةَ حظِّها . ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النِّعم إلا بتجرُّع كاسات الشدائد ، والاسلاح عن معهودات النصيب . « ويريد الله أنْ يُحَقَّ الحق بكلماته » أى إذا أراد اللهُ — سبحانه — تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارقِ نفسه بالأفُول، وحكم لبعض شهواته بالذبول ، وإلى طوالع الحقائق بإشراقها ، ولجوامع للوانع باستحقاقها .

قوله جل ذكره : ﴿ ليُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِهَ المجرمون ﴾

ليحق الحقَّ بالتوفيق فيما يحصل ببذل المجهود ، والتحقيق لما يظهر من عين الجود .

ويقال ليُحِقَّ الحقَّ بنشر أعلام الوصل ، ويُبْطِلَ الباطلَ بقهر أقسام الهزل .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تستغيثون ربَّكم فاستجابَ لكم أنِّى مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفين * وما جعله الله إلا بُشْرى ولتطمئِنَّ به قلوبُكم وما النَّصرُ إلا مِنْ عند اللهِ إنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ .

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة ، والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاة تيسيرٌ للمسئول وتحقيق للمأمول . فإذا صدقت الاستغاثة بتَعَجُّلِ الإجابة حَصَلَتْ الآمالُ وقُضِيَتْ الحاجة . . بذلك جرَتْ سُنَّتُهُ الكريمة .

ويقال بَشَّرَهم بالإمداد بالمَلَك ، ثم رقّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من المَلِكِ ، ولم يَذَرْهم فى المساكنة إلى الإمداد بالمَلَك فقال : « وما النصر إلا من عند الله » ثم قال : « إن الله عزيز » فالنجاة من البلاء حاصلة ، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة ، والدعوات مسموعة ، والإجابة غير ممنوعة ، وزوائد الإحسان مُتَاحة ، ولكن الله عزيز

الطالبُ واجدٌ ولكن بعطائه ، والراغب واصل ولكن إلى مبارُه . والسبيلُ سهلٌ ولكن إلى وجدان لطفه ، فأمّا الحقُّ فهو عزيز وراء كل وصل وفصل ، وقُرْبٍ وبُعْد ، وما وَصَلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه ، وما بقى أحدٌ إلا عن حظه ، وفى معناه أنشدوا :

وقُلْنَ لنا نحن الأهِلَّةُ إنما نضىء لمن يسرى بليلٍ ولا نُقْرِى
فلا بُدَّ إلا ما تزوَّدَ ناظرٌ ولا وصلَ إلا بالجمال الذى يسرى

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أمَنَةً منه ويُنَزِّلُ عليكم مِنَ السَّماء ماء لِيُطَهِّرَكم به ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطانِ ولِيَرْبِطَ على قلوبكم ﴾

غَشيَهم النُّعاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم[1] ونفوسهم كَدَّ الأغيار والكلال ، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن ، وأمطرت السماء فاغتسلوا بعدما لزمتهم الطهارة الكبرى بسبب الاحتلام ، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام فى رَمْلِها ، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلوك رَمْلِها وبالانتفاء عن الغُسْل ، فلمّا (. . . .)[2] الإحساس ، واستمكن منهم النُّعاس ، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قِبل الله لا بسكونهم وحركتهم ، وأشهدهم صرف التأييد وإتمام الكفاية

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء السماء طهَّر سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كلِّ غير وكلِّ عِلَّة ، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوساوس ، وربط على قلوبهم بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجرى الحقُّ من فنون التصريف .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُثَبِّتَ به الأقدامَ ﴾ .

---

(١) وردت (زواهرهم) والصواب أن تكون (ظواهرهم) لتتلاءم مع (نفوسهم)
(٢) مشتبهة وربما كانت (زايلهم)

أقدامَ الظاهر فى مَشاهِدِ القتال ، وأقدامَ السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجارى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ يُوحِى ربُّكَ إلى الملائكةِ أنِّى معَكُمْ فثَبِّتُوا[1] الذين آمَنُوا سأُلْقِى فى قلُوبِ الذين كفروا الرُّعْبَ ﴾ .

عَرَّفَنَا أنَّ الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وتثبيتُ الملائكة للمؤمنين : قيل كانوا يَظْهَرُون للمسلمين فى صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم ، وهم لايعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون فى قلوبهم ذلك مِنْ جهة الخواطر ، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك ، فكما يُوَصِّلُ الحق سبحانه — وساوسَ الشيطان إلى القلوب يوصل خواطرَ المَلَكِ ، وأيَّدَهم بإلقاء الخوف والرعب فى قلوب الكفار .

قوله جل ذكره : ﴿ فاضرِبوا فوقَ الأعناق واضرِبُوا منهم كلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بأنهم شاقُّوا الله ورسولَه ﴾ .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحى والكتاب ، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم على أى وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً يوجِبُ قَتْلَهم ؛ لأنه لاحياةَ بعد ضَرْبِ العُنُقِ ، ولفظُ فوق يكون صلة .

« واضربوا منهم كُلَّ بنان » أى ضرباً يُعْجِزهم عن الضرب ومُقَاتَلَةِ المسلمين ؛ لأنه لامقاتلةَ تحصل بعد فوات الأطراف .

« ذلك بأنَّهُمْ شاقوا الله ورسوله » بَيَّنَ أنهم فى مَغَاليط حسبانهم وأكاذيب ظنونهم . والمُنْشِىء — بكلِّ وجهٍ — اللهُ ؛ لانفراده بقدرة الإيجاد

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (ثبت)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يُشاقِقِ اللهَ ورسولَه فإنَّ الله شديدُ العقاب ﴾ .

يُمْهِلُ المجرمَ[1] أياماً ثم لا يهمله ، بل يُذيقه بأسَ فعله ، ويزيل عنه شُبْهَةَ ظنِّه

قوله جل ذكره : ﴿ذلكم فذوقوه وأنَّ للكافرين عذاب النار[2] ﴾ ..

ذلكم العذاب فذوقوه — أيها المشركون — مُعَجَّلًا ، واعلموا أن للكافرين عذاباً مؤجَّلاً ، فللعاصين عقوبتان مُحَصَّلٌ بنقد ومؤخَّرٌ بوعد .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا[3] إذا لقيتُم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومَن يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفًا لقتالٍ أو مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضَبٍ مِنَ اللهِ ومأواه جهنَّمُ وبئس المصيرُ ﴾ .

يقول إذا لقيتم الكفار فى المعركة زحفاً مجتمعين فاثبتوا لقتالهم ، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب ، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفى الجهاد مع العدو ، فالواجب الثبات عند الصولة — هذا فى الظاهر ، وفى الباطن جهاد مع الشيطان ، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الزَّلة ؛ فَمَنْ وقَفَ على حدِّ الإمساك عن إجابته ، بلا إنجازٍ لما يدعوه بوساوسه فَقَدْ وفَّى الجهاد حقَّه .

وكذلك فى مجاهدة النَّفس ، فإذا وقف العبدُ عن إجابة النَّفْس فيما تدعوه بهواجسها ،

---

(١) وردت (المحرم) بالحاء وهى خطأ فى النسخ
(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (عذاباً أليما) .
(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها

ولم يُطِع[1] شهوتَه فيما تحمله النفسُ عليه من البلاء إلى ابتغاء حظِّه فقد وفَّى الجهادَ حقَّه .

والإشارة فى قوله : « إلا متحرِّفاً لقتالٍ » بإيثار بعض الرُّخص ليتقوّى على ما هو أشد ؛ كأكله مثلاً ما يُقيم صُلْبَه ليقوى على السَّهر ، وكترفقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش ، أو نفى مقاساة جوع أو بَرْدٍ أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه ، ولاستدامة اتصال قلبه به ، فإنْ تَرَكَ بعضَ أوراد الظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة فى أحكام واردات السرائر أَخذَ فى حقِّ الجهاد بحزمٍ .

والإشارة فى قوله : «أو متحيزاً إلى فئة» إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه فى المجاهدة ، ويُبْقِى شهودُ ماهم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته . ثم باستمداده من همم الشيوخ؛فإن المريدَ ربيبُ هِمَّةِ شيخه، فالأقوياءمن الأغنياء ينفقون على خَدَمِهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هِمَمِهم ؛ يجبرون[2] كَسْرَهم ، ويتوبون منهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم . ومَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقه ، أوخالَفَ شيخاً وهو يعرف فضلَه وحَقَّه فقد باء من الله بسخطٍ ، واللهُ تعالى حسيبُهُ فى مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهم ﴾

الذى نَفَى عنهم من القتل هو إماتة الروح وإثبات الموت ، وهو من خصائص قدرته — سبحانه ، والذى يُوصَفُ به الخلْق من القتل هو ما يفعلونه فى أنفسهم ، ويحصل ذهاب الروح عقيبه .

وفائدة الآية قطع دعاواهم فى قول كل واحد على جهة التفاخر قتلتُ فلاناً ، فقال : « فلم تقتلوهم » أى لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشىء والمبدىء[3] هو الله عزَّ وجل . وصانَهم بهذه الآية وصان نَبِيَّه — عليه السلام — عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

---

(١) وردت (لم يطلع) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (يخبرون) والمناسب للكسر (يجبرون)

(٣) وردت (المهدى) بالهاء وقد جعلناها (المبدى) لأن الكلام متجه إلى الإنشاء والإيجاد والإبداع والخلق .

وكذلك قال جل ذكره : ﴿ وما رَمَيْتَ إذ رمَيْتَ ولكنَّ الله رمى ﴾

أى ما رَمَيْتَ بنفسك ولكنك رميْت بنا ، فكان منه (صلوات الله عليه)[1] قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب ، وكَسْبُهُ مُوجَدٌ من الله بقدرته ، وكان التبليغ والإصابة مِن قِبَل الله خَلْقًا وإبداعًا ، وليس الذى أثبت ما نفى ولا نفى ما أثبت إلا هو ، والفعلُ فِعْلُ واحدٍ ولكن التغاير فى جهة الفعل لا فى عينه .

فقوله : « إذ رميت » فرْقٌ ، وقوله : « ولكن الله رمى » جمع . والفرق صفة العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضَمَّنًا بجمعٍ وكلُّ جمع لم يكن — فى صفة العبد — مُؤَيَّدًا بفرق فصاحبُهُ غير سديد الوتيرة .

وإن الحقَّ — سبحانه — يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم ، فيتيهون فى أودية الحسبان ، ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم ، وذلك منه مكرٌ بهم .

قال الله تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[2] وأما أرباب التوحيد فيُشْهِدهم مطالِعَ التقدير ، ويعرِّفهم جريان الحُكْم ، ويُريهم أنفُسَهم فى أَسْرِ التصريف، وقهر الحُكْم . وأمَّا الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيُجرِى عليهم ما يُجْرِى و (ما)[3] لهم إحساس بذلك ، مأخوذون يثبتهم بشواهد النظر والتقدير ، ويتولَّى حفظهم عن مخالفة الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حَسَنًا ﴾

البلاء الاختبار[4] ، فيختبرهم مرة[5] بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم ، أو ذِكْرَهم أو نسيانهم.

---

(١) أضفنا (صلوات الله عليه) ليتضح اتجاه المعنى .
(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .
(٣) سقطت (ما) من الناسخ والمعنى يتطلبها إذ هم لا إحساس لهم بما يجرى عليهم من حكم وتصريف .
(٤) وردت (الاختيار) بالياء وهى خطأ فى النسخ .
(٥) وردت (مر) بدون تاء مربوطة والصواب أن تكون بها .

« البلاء الحسن » : توفيق الشكر فى المِنْحة ، وتحقيق الصبر فى المحنة ، وكل ما يفعله الحقُّ فهو حَسَنٌ من الحقِّ لأنَّ له أنْ يفعلَه . وهذه حقيقةالحَسَن : وهو ما للفاعل أن يفعله[1]

ويقال حَسُنَ البلاء لأنه منه و (. . .)[2] البلاء لأنه فيه .

ويقال البلاء الحسن أن تَشْهَدَ المُبْلِى فى عين البلاء .

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إنْ كان نعمة ، ولا شكوى إن كان محنة .

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إنْ كان عُسْراً ، ولا بطر إن كان يسراً .

ويقال بلاء كلِّ أحدٍ على حسبِ حاله ومقامه ؛ فأصفاهم ولاءً أوفاهم بلاءً ، قال عليه السلام: « أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل »[3]

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ سميع عليمٌ ﴾

تنفيسٌ لقومٍ وتهديدٌ لقومٍ ؛ أصحابُ الرِّفق يقول لهم إن الله « سميعٌ » لأنينكم ؛ فَيُرَوِّح عليهم بهذا وَقْتَهم ، ويحمل عنهم ولاءهم[4] ، وأنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً تمنيتُ أنْ أشكو إليك فتسمعاَ

وقالوا :

قُلْ لى بألسنة التَّنفُّس كيف أنت وكيف حالك ؟

وأمَّا الأكابر فلا يُؤْذَنُ لهم فى التَّنفُّس ، وتكون المطالبةُ متوجِّهةً عليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهارٍ ولا شكوى ، فيقول : لو ترشح منك ما كُلِّفْتَ بِشُرْبِهِ تَوَجَّهَتْ عليك الملامةُ ، فإن لم يكن منك بيانٌ فإنِّى سميعٌ لقالتك ،عليمٌ بحالتك.

---

(١) لاحظ الفرق بين (وهو ما للفاعل أن يفعله) في مسألة الحَسَن فقد جعل فعل الحَسَن حقاً لله وبين (عليه أن يفعله) عند المعتزلة إذ جعلوه واجباً عليه .

(٢) مشتبهة .

(٣) رواه الترمذى ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه ، والحاكم من سعد بن أبى وقاص . والإمام أحمد والنسائى وابن ماجه والدارمى من حديث عاصم . والطبرانى من حديث فاطمة .

(٤) ربما كانت فى الأصل (بلاءَهم) فذلك يناسب التنفيس والترويح والرفق .

ويقال فى قوله « عليم » تسلية لأرباب البلاء ؛ لأنَّ من عَلِم أنَّ مقصودَه يعلم حالَه سَهُل عليه ما يقاسيه فيه ، قال — سبحانه — لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ .

موهن كيدهم : بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين ، والثبات على انتظار الفضل من قِبَلِ الله ، وموهن كيدهم : بأن يأخذَ الكافرين من حيث لا يشعرون ، ويظفر جندُ المسلمين عليهم.

قوله جلّ ذكره : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ .

قال المشركون — يومَ بدر — اللهم انصرْ أَحَبَّ الفِئتين إليك ، فاستجابَ دعاءهم ونصر أحبَّ الفئتين إليه . وهم المسلمون ، فسألوا بألسنتهم هلاكَ أنفسِهم ، وذلك لانجرارهم فى مغاليط ما يُعَلِّقون من ظنونهم ، فهم توهَّموا استحقاق القربة ، وكانوا فى عين الفرقة وحُكْمِ الشِّقْوَةِ ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم ، والوقوع فى شقائهم ؛ فباختيارهم مُنُوا ببوارِهم.

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزَلُّوا ، فلما كُشِفَ السترُ خابوا وذَلُّوا ، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا فى ظنهم وضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم[2]﴾ .

فيغفر لكم ما قد سَلَفَ من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم .

« فهو خير لكم » ليس المراد منه المبالغة ؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثانى ليس فيه شر ، وترك موافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم — بكل وجهٍ — هو شرٌّ لهم ، ولكنه أراد به فى الأحوال الدنيوية ، وعلى موجب ظنِّهم .

---

(١) آية ٩٧ سورة الحجر.
(٢) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية إذ جاءت هكذا « وإن تنتهوا يغفر لهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تعودوا نَعُدْ ﴾ .

يعنى إنْ عُدْتُم إلى الجميل من السيرة عُدْنا عليكم بجميل المِنَّة ، وإنْ عاودتم الإقدام على الشَّرِّ أعَدْنا عليكم ما أذقناكم من الضُّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئاً ولو كثُرَتْ وأنَّ اللهَ مع المؤمنين ﴾

مَنْ غَلَبَتْه قدْرةُ الأحد لم تغنِ عنه كثرة العدد .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ .

الناس فى طاعة الله على أقسام : فمطيعٌ لخوفِ عقوبتِه ، ومطيعٌ طمعاً فى مثوبته ، وآخر تحققاً بعبوديته ، وآخر تشرفاً بربوبيته .

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ ! وأنشدوا :

أحبك يا شمسَ النهارِ وبَدْرَه ... وإن لامنى فيك الشُّها والفراقدُ
وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخرٌ ... وذاك لأنَّ العَيْشَ عندك باردُ

قال تعالى : « أطيعوا الله ورسوله » ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وفى ذلك نوع تخصيص ، وحزب تفضيل يَلْطُفُ عن العبارة ويَبْعُد عن الإشارة[1]

قوله جل ذكره : ﴿ ولا[2] تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون ﴾

أى تسمعون دعاءه إياكم ، وتسمعون ما أُنْزِلَ عليه من دعائى إياكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سَمِعْنا وهم لا يَسْمَعُون ﴾ .

لا تكونوا ممن يشهد جهراً ، ويجحد سِرّاً .

---

(١) هذا من المواضع التى يشعر فيها القارئ أن القشيرى يريد أن يقول شيئاً ولكنه يتركه لفطنة القارىء يستشف ما وراء السطور .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (ولو تولوا) .

ويقال لا تُقِرُّوا بلسانكم ، وتِصرُّوا على كفرانكم .
ويقال مَنْ نطق بتلبيسِهِ تشهد الخبرة بتكذيبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ شَر الدوابِ عند اللهِ الصُّمُ البُكْمُ الذين لا يَعْقِلون ﴾ .

دواعى الحق بحسن البيان ناطقة ، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة ، وخواطر الغيب بكشف ظُلَمِ الريْبِ مُفْصِحة ، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة . فمنْ صُمٍّ عن إدراك ماخوطب به سرُّه ، وعمِيَ عن شهود ما كوشف به قلبه ، وخَرِسَ — عن إجابة ما أُرْشِدَ إليه من حجة — فَهْمُه وعقله فَدُونَ رُتْبةِ البهائم قَدْرُه ، وفوق كل (. . . .) [1] من حكم الله ذُلُّه وصغره .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لَأَسْمَعَهم ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم مُعْرِضون ﴾ .

منْ أَقْصَتْه سوابقُ القسمة لم تُدْنِه لواحقُ الخدمة ، ومنْ عَلِمه اللهُ بنعت الشقوة حَرَمَه مايوجب عَفْوَه .

ويقال لو كانوا فى متناولات الرحمة لألبسهم صدارَ العصمة ، ولكن سَبَق بالحرمان حكْمُهم ، فخُتم بالضلالةِ أمرُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم ﴾ .

أجاب واستجاب بمعنىً مثل أوقد واستوقد ، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية [2] بأنها تكون طوعاً لا كرهاً ، وفَرْقٌ بين من يجيب لخوفٍ أو طمعٍ وبين من يستجيب لا بِعِوَضٍ ولا على ملاحظة غَرَضٍ . وحقُّ الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أنْ تَذَرَ من المستطاع بقية .

---

(١) مشتبهة .
(٢) لاحظ كيف يتفق مذهب القشيرى فى المصطلح مع القاعدة اللغوية : زيادة المبنى فيها زيادة المعنى .

والمستجيبُ لربه محوٌ عن كلِّه باستيلاء الحقيقة ، والمستجيب للرسول — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له — سبحانه ، وبالاستجابة للرسول ؛ فالعبدُ المستجيبُ — على الحقيقة — من قام بالله سرّاً ، واتصف بالشرع جهراً ، فيُفْرِده الحقُّ — سبحانه — بحقائق الجمع و (. . . .)[1] في مشاهدة الفرق ، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير ، ولا لمطالبات الشرع على أحواله نكير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

إذْ لمّا أفناهم عنهم أحياهم به .

ويقال العابدون أحياهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته ، وأما العالِمون فأحياهم بدلائل ربوبيته ، بعد ما أفناهم عن الجهل وظُلْمته . وأمّا المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم . وأمّا المُوَحِّدون فأحياهم بنور توحيده بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غير ، والملاحظة لكل حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أن الله يحولُ بين المرءِ وقلبه وأنّه إليه تُحْشَرُون ﴾

يصون القلوب عن تقليب أربابها فيُقلِّبها كما يشاء هو ، من بيان هداية وضلال ، وغَيبةٍ ووصالٍ ، وحُجْبةٍ وقُرْبة ، ويقينٍ ومرية ، وأُنْسٍ ووحشة .

ويقال صان قلوب العُبّادِ عن الجنوح إلى الكسل ، فجدُّوا في معاملاتهم ، وصان قلوب المريدين عن التعريج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلاتهم ، وصان قلوب العارفين — على حدّ الاستقامة — عن المَيْل فتحققوا بدوام مواصلاتهم .

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله ، فإذا سنح لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل ، ولا على قلوبهم تعويل . وكم بين من يرجع عندسوانحه إلى قلبه ، وبين من لايهتدى إلى شيء إلا إلى ربّه ! كما قيل :

---

(١) مشتبهة ، ولكن حسبما نعلم في مواضع سبقت أن المقصود أن الحق (يتولى) العبد أثناء الفرق الثاني ، حيث يعود بالعبد المأخوذ ليقوم بفرائض الشرع ، حتى لا يكون في تحققه مقصراً في شيء من مطالبات الشريعة ، ولذا نرجح أن الكلمة الناقصة هي : (ولا يتركه) أو ما في معناها .

لا يهتدى قلبى إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم ، قال تعالى : «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب» . والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاتُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً واعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب ﴾ .

احذروا أن ترتكبوا زلَّةً توجب لكم عقوبة لاتخص مرتكبها ، بل يعمُّ شؤمُها من تعاطاها ومن لم يتعاطها .

وغير المجرم لا يُؤْخَذ بِجُرْم من أذنب ، ولكن قد ينفرِد أحدٌ بجرمٍ فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْم ، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم ؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً فى الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً فى المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ، ورضاه به ، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر . فأمَّا من جهة الإشارة : فإن العبدَ إذا باشر زَلَّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهى العقوبة المعجلة ، وتصيب النَّفْس منها العقوبة المؤجلة ، والقلبُ إذا حصلت منه فتنة الزلة — عندما يهم بما لا يجوز — تَعدَّتْ فتنته إلى السِّر وهى الحُجْبَةُ .

والمُقَدَّمُ فى شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركاتُ التى كانت تتعدى منه إلى مُتَّبِعيه وتلامذته ، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً . ويقال إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تَرْكِهم الأذكار أصابتهم فتنةُ ما فعلوه ؛ فلقد قيل إنَّ السفيهَ[1] إذا لم يُنْهَ مأمورٌ . فعلى هذا تصيب فتنةُ الزَّلةِ مرتكبَها ومَنْ تَرَكَ النَّهى عن المنكر — مثل مَنْ ترك الأمر بالمعروف — يؤخذ بِجُرْمه .[2]

---

(١) وردت (السفينة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت هذه العبارة حافلة بالكثير من الأخطاء التى سببت فى غموض المعنى فقومناها حسبما يقتضى السياق — دون أن يكون اقتحامنا خطيراً على النص .

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية — وإن كان من وجهٍ حلال — تؤدى فتنته إلى من يخرج به من المبتدئين ، فبجملة ما أبدى من الرغبة فى الدنيا ، وتَرْكِ التقلل يؤدى إلى الانهماك فى أودية الغفلة والأشغال الدنيوية .

والعابد إذا جَنَحَ عن الأَشَقِّ وتَرَكَ الأَوْلى[1] تعدَّى ذلك إلى من كان ينشط فى المجاهدة ؛ فيستوطنون الكسل ، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:

إن الشبابَ والفراغ والجدة مَفْسَدَةٌ للمرء أى مفسدة

وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة .

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حَظٌّ له ، نَظَرَ إليه المريدُ ، فتتداخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف .

وفى الجملة إذا غفل المَلِكُ ، وتَشَاغَل عن سياسة رعيته تَعَطَّلَ الجندُ والرعية ، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّة ، وفى معناه أنشدوا :

رُعَاتَكَ ضيَّعوا — بالجهل منهم — غُنَيْماتٍ فَسَاسَتْها ذِئابُ

« والله شديد العقاب » بتعجيله ذلك ، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً ليُعَاقِبَه لا يُمَكِّنه من تلافى موجِب تلك العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُسْتَضْعَفُون فى الأرضِ تخافون أن يتخطَّفَكم الناسُ فآواكم وأيَّدَكُم بِنَصْرِه ﴾

يُذَكرهم ما كانوا فيه من القِلَّة والذِّلة وصنوف (...)[2] ثم ما نَقَلَهم إليه من الإِمْكان والبَسْطَة ، ووجوه الأمان والحيطة ، وقرَّبهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القِسَم ،

---

(١) وردت (الأولاد) وهى خطأ فى النسخ ، والجنوح عن الأشق وترك الأولى تعبيران مألوفان عندما يتحدث القشيرى عن ايثار الصوفى للرخص .

(٢) مشتبهة وربما كانت (الحِطَّة) أى نقصان المنزلة ، فإنها قريبة للسياق ، ومنسجمة مع الموسيقى اللفظية .

وإدامة الحمد على جميل تلك النِّعم ، فمهَّدَ لهم فى ظل أبوابه مقيلا ، ولم يجعل للعدوِّ إليهم — بيُمْنِ رعايته — سبيلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تَشْكُرون ﴾

رَزَقَ الأشباحَ والظواهرَ من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق فى شهود المُنْعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون ﴾

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤَمَّلُ منك بحق التعويل ، فخيانةُ اللهِ بتضييع ما ائتمنك عليه ، وذلك بمخالفة النُّصح فى دينه ، وخيانةالرسولِ بالاتصاف بمخالفة ما تبدى من مشايعته .

والخيانة فى الأمانات بترك الإنصاف ، والاتصاف بغير الصدق .

وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن اؤتمِنَ فى مالٍ فتصرَّفَ فيه بغير إذن صاحبه — خيانة ، ومن اؤتمن على الحُرَمِ فملاحظته إياهن — خيانة . فعلى هذا : الخيانةُ فى الأعمال الدعوى فيها بأنها من قِبَلك دون التحقيق بأنَّ مُنْشِئَها اللهُ .

والخيانة فى الأحوال ملاحظتُك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك فى شهود الحق ، إن لم يكن استهلاكك فى وجود الحق . وإذا أَخَلَلْتَ بِسُنَّةٍ من السُّنَنِ أو أدبٍ من آداب الشَّرع فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخيانة فى الأمانات — بينك وبين الخلْق — تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أنما أموالُكم وأولادُكم فتنة وأنَّ اللهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرء — لأجل جمع ماله ولأجل أولاده — يرتكب ماهو خلاف الأمر ، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنةُ الاختبارُ ؛ فيختبرك بالأموال .. هل تؤثرها على حقِّ الله ؟

وبالأولاد .. هل تتركُ لأجلهم مافيه رضاء الله ؟

فإنْ آثرتم حقَّه على حقِّكم ظهرت به فضيلتُكم ، وإنْ اتصفتم بضدِّه عوملتم بما يوجِبه العكس من محبوبكم .

ويقال المالُ فتنةٌ إذا كان عن اللهِ يشغلكم ، والأولادُ فتنةٌ إذا لأجلِهم قصَّرتُم فى حقِّ الله أو فرَّطتُم .

ويقال المال — ما للكفافِ والعفافِ[1] — نِعْمَةٌ ، وما للتقاصرِ والتفاخرِ فتنةٌ ، وفى الجملة ما يشغلكَ عن اللهِ فهو فتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا اللهَ يجعل لكم فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم ويغفِرْ لكم واللهُ ذو الفضل العظيم[2] ﴾ .

الفرقان مابه يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهامٍ قاهر ، فالعلماء فرقانُهم مجلوبُ برهانِهم ، والعارفون فرقانهم موهوبٌ[3] عرفانهم ؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم ، وهؤلاء بمقتضى جُودِ ربِّهم .

العرفانُ تعريفٌ من الله ، والتكفيرُ[4] تخفيفٌ من الله ، والغفرانُ تشريفٌ للعبد من الله .

---

(١) وردت (والعقاب) وهى خطأ من الناسخ إذ لا تؤدى المراد ، ونظن أن (العفاف) تنسجم مع السياق ، ومع التركيب الداخلى للأسلوب .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعل خاتمة الآية (والله سميع عليم) .

(٣) وردت (موهوم) وهى خطأ من الناسخ ، والصواب أن تكون (موهوب) فهكذا يتطلب السياق .

(٤) (التكفير) هنا تشير الى ما ورد فى الآية : « ويكفر عنكم سيئاتكم » .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ يَمْكُرُ بِكَ الذين كفروا ليُثْبِتوك أو يقتلوك أو يُخْرِجوك ويمكرون ويمكر اللهُ واللهُ خير الماكرين﴾

ذكره عظيم مِنَّتِه عليه حيث خَلَّصه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وهمُّوا بقتله ، وحاولوا أن يمكروا به فى السِّر ، فأعلمه الله ذلك .

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءةِ فى السِّر ، والمكرُ من الله الجزاء على المكر ، ويكون المكرُ بهم أنْ يُلْقِيَ فى قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم — فى التحقيق — يُعذِّبُهم ، وإذا شَغَلَ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومهم إليها حتى يَنْسَوْا أمر الآخرة ، وذلك مكرٌ بهم ، إذ يُوطِّنُون نفوسهم عليها ، فيتيح لهم من مأمنِهم سوءاً ، ويأخذهم بغتةً

ومن جملة مكره اغترارُ قومٍ بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس ، وإجراء كثير من الطاعات عليهم ، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطةً، وهم عن الله غافلون ، وعند الناس أنهم مُكْرَمون ، وفى معناه قيل :

وقد حسدونى فى قرب دارى منكم وكم من قريب الدار وهو بعيد

قوله جل ذكره : ﴿وإذا تُتْلَىٰ عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا لو نشاء لقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولينَ﴾

فَرْطُ جهلهم ، وشؤم جحدهم سَتَرَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم فى القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان ، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان ، وقديماً قيل :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحان[1] ما يدَّعيه

---

(١) وردت (الامتهان) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

ويقال لمَّا لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حرموا بركات الفهم فعدوه من جملة أساطير الأولين ، وكذلك مَنْ لا يراعى حرمة الأولياء ، يُعَاقَبُ بأنْ تُسْتَرَ عليه أحوالُهم ، فيظنهم مثله فى استحقاق مثالبه ، فيطلق فيهم لسان الوقيعة ، وهو بذلك أحَقُّ ، كما قيل :

« رَمَتْنِي بدائِها وانْسَلَّتْ »

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ
مِنْ عندِك فأمْطِرْ علينا حجارةً
من السماء أو ائتِنَا بعذابٍ أليمٍ﴾

دَلَّ سؤالهم العذابَ على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستيقنوا عند أنفسهم بأنه لا يُسْتجابُ فيهم ما يدعونه على أنفسهم .

وفى هذا أظهر دليل على أن سكون النفس إلى الشىء ليس بعلم ؛ لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿وما كان الله ليُعَذِّبَهم وأنت فيهم﴾

ما كان الله معذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليعذِّبَ أسلافهم وأنت فى أصلابهم ، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لقَدْرِك ، وإكراماً لمحلِّك ، وإذا خرجتَ من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمك الذين يستغفرون ، فالآية تدل على تشريف قَدْر الرسول — صلى الله عليه وسلم .

ويقال للجوارِ حُرْمةٌ ، فَجَارُ الكرام فى ظل إنعامهم ؛ فالكفار إن لم يَنْعَموا[1] بقرب الرسول — صلى الله عليه وسلم — منهم فقد اندفع العذاب — بمجاورته — عنهم :

وأحبُّها وأحبُّ منزلَها الذى نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

---

(١) وردت (يعنموا) والملائم للمعنى (ينعموا) لترتبط بالإنعام الذى جاء ذكره فى الجملة السابقة ، ويؤكد اختيارنا أيضاً وجود (الباء) فى (بقرب الرسول) إذ يقال (نعم بكذا) ولا يقال (منع بكذا) .

ويقال إذا كان كون الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الكفار يمنع العذاب عنهم فكون المعرفة فى القلوب أولى بدفع العذاب عنها .

ويقال إن العذاب — وإنْ تأخَّر عنهم مدة مقامهم فى الدنيا مادام هو عليه السلام فيهم — فلا محالة يصيبهم العذابُ فى الآخرة ؛ إذ الاعتبار بالعواقب لا بالأوقات والطوارق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان الله مُعَذِّبَهُم وهم يستغفرون ﴾

علم أنه — عليه السلام — لا يَتأبَّد مُكْثُه فى أمته إذ قال له : « وما جعلنا لِبَشَرٍ مِنْ قبلِك الخُلْد »[1] ، فقال إنى لا أضيعُ أُمَّتَه وإن قضى فيهم مُدَّتَه ، فما دامت ألسنتُهم بالاستغفار مُتَطَلِّعةً فصنوف العذاب عنهم مرتفعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَهُم ألاَّ يُعَذِّبَهُم اللهُ
وهم يَصُدُّونَ عنِ المسجدِ الحرامِ
وما كانوا أولياءه ﴾

نَفَى العذابَ عنهم فى آية ، وأثْبَتَه فى آية ، فالمنفىُّ فى الدنيا والمثْبَتُ فى الآخرة .

ثم بيَّنَ إيصالَ العذاب إليهم فى الآخرة بقوله تعالى . « وهم يصدون عن المسجد الحرام » دليل الخطاب أن إعانة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين يوجب استحقاق القربة والثواب

وفى الآية دليلٌ على أنه لا يعذِّب أولياءه بقوله : « وما كانوا أولياءه » فاذا عذَّبَ مَنْ لم يكونوا أولياءه دلَّ على أنه لا يعذِّب من كان من جملة أوليائه . والمؤمنون كلُّهم أولياء الله لأنه قال : «الله وليُّ الذين آمنوا »[2] . والمؤمنَ — وإنْ عذِّب بمقدار جُرْمِه زماناً فإنه لا يُخَلَّد فى دار العقوبة ، فما يُقاسون بالإضافة إلى تأبيد الخَلاصِ جَلَلٌ ، وقيل :

إذا سَلِمَ العهدُ الذى كان بيننا فوُدِّى وإنْ شطَّ المزار سليمُ

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ولكنَّ
أكثرَهم لا يعلمون ﴾

---

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .
(٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

وليس أولياؤه إلا المتقون ، وهم الذين اتقوا الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مُكاءً وتصديةً ﴾ .

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم ، فلم يوجدْ — سبحانه وتعالى — لها احتساباً ؛ فزكاء القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة ، وعناء الظاهر لا يُقْبَلُ إلا مع ضياء السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون ﴾

كان العذابُ مُعَجَّلا وهو حسبانهم أنهم على شيء ، قال الله تعالى :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً » ، ومؤجَّلاً وهو كما قال الله تعالى : ﴿ ولَعَذابُ الآخرة أشق ﴾[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا يُنفِقون أموالَهم ليَصُدُّوا عن سبيلِ الله فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرةً ثُمَّ يغلَبون والذين كفروا إلى جهنَّمَ يُحْشَرون ﴾

يرومون بإنفاقهم صنوفَ أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم ، ثم لا يَحْظَوْن إلا بخسران ، ولا يحصلون إلا على نقصان . خَسِروا وهم لا يشعرون ، وخابوا وسوف يعلمون :

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتك أم حِمارُ ؟

قوله : « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » إنَّهم وإن ألْهَتْهُم أموالُهم فإلى الهوان والذلّة مآلُهم ، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ، ولم تنفعهم أعمالُهم ، بل خُتِمَتْ بالشقاوة أحوالُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ليَميزَ اللهُ الخبيثَ مِنَ الطيِّب ويجعل الخبيثَ بعضَه على بعضٍ فيركُمَه جميعا فيجعلَه في جَهَنَّمَ أولئك هم الخاسِرون ﴾ .

---

(١) آية ٣٤ سورة الرعد .

الخبيث ما لا يصلح لله ، والطيب ما يصلح لله .

الخبيث ما حكم الشرعُ بقبحه وفساده ، والطيب ما شهد العلم بحسنه وصلاحه .

ويقال الخبيث الـكافرُ ، والطيِّبُ المؤمنُ .

الخبيثُ ما شَغَلَ صاحبَه عن الله ، والطيِّبُ ما أوصل صاحبه إلى الله .

الخبيثُ ما يأخذه المرء وينفقه لحظِّ نفسه ، والطيب ما ينفقه بأمر ربه .

الخبيث عملُ الـكافرِ يُصَوَّرُ له ويُعَذَّبُ بإلقائه عليه ، والطيِّبُ عملُ المؤمن يُصَوَّرُ له فى صورةٍ جميلة فيحمل المؤمن عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل للذين كفروا إن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قد سَلَفَ وإن يعودوا فقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ .

إنْ كبحوا لجام التمرد ، وأقلعوا عن الركض فى ميدان العناد والتَّجبُّر أَزَلْنا عنهم صَغَارَ الهوان ، وأَوْجَبْنا لهم رَوْحَ الأمان .

ويقال إن حلُّوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد .

ويقال إن أبصروا قُبْحَ فِعالهم جُدْنا عليهم بإصلاح أحوالهم .

ويقال إنْ جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاغتفار .

ويقال إن عادوا إلى التَّنَصُّل[1] أبحنا لهم حُسْنَ التَّفَضُّل :

أنـاسٌ أعرضوا عنّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظَنَّهم فينـا فهـلاَّ أحسنوا الظنَّا
فإن كانوا لنا — كُنَّا ، وإنْ عادوا لنـا عُدْنا
وإن كانوا قد استَغْنَوْا فإنَّا عنهمُ أغـنى

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتِلوهم حَتَّى لاتـكونَ فتنةٌ ويكونَ

---

(١) تنصَّل من ذنبه أى تبرَّأ

الدينُ كُلُّه لله فإن انتهوْا فإنَّ اللهَ
بما يعملون بصير ﴾

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تُستأصل شأفتهم بحيث يأمَن المسلمون مَضَرَّتَهم ، ويكُفَّون بالكلية فتنتهم . . وحَيَّةُ الوادى لا تُؤْمَنُ ما دامت تبقى فيها حركة ؛ كذلك العدو إذا قُهِر فحقُّه أن تُقْتلعَ جميعُ عروقه ، وتُنَقَّى رِباعُ الإسلام من كل شَكيرة[1] تنبت من الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَوَلَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم
نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير ﴾

فإن أبَوْا إلاَّ عُتُوًّا ، وعن الإيمان إلا نُبُوًّا ، فَلاَ على قلوبكم ظِلُّ مخافةٍ منهم ؛ فإن اللهَ — سبحانه — ولىُّ نصرتكم ، ومتولِّى كفايتكم ؛ إنْ لم تكونوا بحيث نِعْمَ العبيد فهو نِعْمَ المولى لكم ونِعْمَ الناصر لكم .

ويقال نِعمَ المولى لكم يوم قسمة العرفان ، ونِعْمَ الناصرُ لكم يوم نعمة الغفران .

ويقال نِعْم المولى لك حين لم تكن ، ونِعْمَ الناصر لك حين كنتَ .

ويقال نعم المولى بالتعريف قَبْلَ التكليف ، ونِعْم الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف ؛ يُخَفِّفُ عنكم السيئات ويضاعف الحسنات :

وهواكِ أولُ ما عَرَفْتُ مِنَ الهوى والقلبُ لا ينسى الحبيبَ الأوَّلا

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أنَّ ما غَنِمْتُم مِن شىء
فأنَّ لله خُمُسه وللرسولِ ولذى
القُرْبَى واليتامى والمساكين وابنِ
السبيل إن كنتم آمَنْتُم باللهِ
وما أنزلنا على عَبْدِنا يومَ الفُرْقانِ
يومَ التقى الجَمْعانِ ، والله على
كل شىء قدير ﴾

(١) شكرت الشجرة أى خرجت منها الشكيرة وهى ما ينبت حولها من أصلها .

الغنيمةُ ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظَفِروا عند المجاهدة والقتال معهم . فإذا لم يكن قتال — أو ما فى معناه — فهو فَىْء .

والجهاد قسمان : جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النَّفْس والشيطان وهو الجهاد الأكبر — كما فى الخبر[1]

وكما أن فى الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظَّفَرِ ، ففى الجهاد الأكبر غنيمة ، وهو أن يملِك العبدُ نَفْسَه التى كانت فى يد العدو : الهوى والشيطان . فبعد ما كانت ظواهرُه مَقَرًّا للأعمال الذميمة ، وباطنُه مستقراً للأحوال الدَّنِيَّة يصير محلُّ الهوى مَسْكَنَ الرِّضا ، ومَقَرُّ الشهواتِ والمُنى مُسَلَّماً لِمَا يَرِدُ عليه من مطالبات المولى وتصير النَّفْسُ مُسْتَلَبةً مِنْ أَسْرِ[2] الشهوات ، والقلبُ مُخْتَطَفاً من وصف الغفلات ، والرُّوحُ مُنْتَزَعَةً من أيدى العلاقات ، والسِّرُّ مَصُوناً عن الملاحظات . وتصبح غاغةُ النَّفْسِ مُنْهَزِمةً ، ورياسةُ الحقوقِ بالاستجابة لله خافِقةً .

وكما أن من جملة الغنيمة سَهْماً لله وللرسول ، وهو الخُمْسُ فما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهمٌ خالِصٌ لله ؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب ، لا من كرائم العُقْبى ، ولا من ثمرات التقريب ، ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبدُ عند ذلك مُحَرَّراً عن رِقِّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يمحو ما سوى الله ، كما قيل :

مَنْ لم يكن بِكَ فانياً عن حظِّه ... وعن الهوى والإنْسِ والأحبابِ
فكأنه ـ بين المراتب ـ واقِفٌ ... لمنالِ حظٍّ أو لِحُسْنِ ثوابِ

قوله جل ذكره : ﴿ إذ أنتم بالعُدْوةِ الدُّنيا وهم بالعُدْوةِ القُصْوَى والرَّكْبُ أسْفَلَ مِنكم ، ولو تواعدتُّم لاختلفتم

---

(١) إشارة الى ما قاله الرسول بعد إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس » .

(٢) وردت (أسرار) وهى خطأ في النسخ .

فى الميعادِ ، ولـكِن لِّيَقْضِىَ اللهُ
أمراً كان مفعولاً ﴾

يخبر — سبحانه — أنَّ ما جرى يَوْمَ بدرٍ من القتال ، وما حَصَلَ من فنون الأحوال كان بحكم التقدير ، لا بما يحصل من الخَلْق من التدبير ، أو بحكمٍ تقتضيه رَوِيَّةُ التفكير . بل لو كان ذلك على اختيار وتَوَاعُد ، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتَبَاعُد ، فجرى على ما جرى ليقضِيَ الله أمراً كان مقضيًّا ، وحصل من الأمور ما سَبَقَ به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ
وَيَحْيَىٰ مَن حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ
لسميعٌ عليم ﴾

أى ليُضِلَّ مَنْ زاغ عن الحقِّ بعد لزومه الحجبة ، ويهتدىَ مَنْ أقام على الحقِّ بعد وضوح الحُجَّة .

ويقال الحقُّ أوْضَحَ السبيلَ ونَصَبَ الدليلَ ، ولـكن سَدَّ بصائرَ قومٍ عن شهود الرشد ، وفَتَحَ بصائرَ آخرين لإدراك طرق الحق .

الهالك من وقع فى أودية التفرقة ، والحىُّ مَنْ حَيِيَ بنور التعريف .

ويقال الهـالك من كان بحظِّه مربوطاً ، والحىُّ من كان من أسْرِ كلِّ نصيبٍ مُسْتَلَبًا مجذوباً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يُرِيكَهُمُ اللهُ فى منامِكَ قليلاً
ولو أرَاكَهُم كثيراً لَّفَشِلْتُم
ولتَنَازَعْتُم فى الأمرِ ، ولـكِنَّ اللهَ
سَلَّمَ إنه عليمٌ بذات الصدور *
وإذ يُرِيكُمُوهُم إذِ التقيتم فى أعْيُنِكِم
قليلاً وَيقلِّلُكُم فى أعْيُنِهِم ليقضِىَ

(١) كلمة (مجذوب) بهذا الاستعمال قد تؤدى المعنى الذى تطلق به فى أوساط الصوفية اليوم

اللهُ أمْراً كان مفعولاً وإلى اللهِ
تُرجَعُ الأمور ﴾

قيل أراه إياهم فى نومه — صلى الله عليه وسلم — بوصف القِلّة ، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة عليهم .

وقيل أراه فى منامه أى فى محل نومه أى فى عينيه ، فمعناه قلّلهم فى عينيه ؛ لأنهم لو استكثروهم لفشلوا فى قتالهم ، ولانكسرت بذلك قلوبُ المسلمين .

وفى الجملة أراد اللهُ جريانَ ما حصل بينهم من القتال يوم بدر ، وإنّ اللهَ إذا أراد أمراً هَيّأ أسبابَه ، فقلّلَ الكفارَ فى أعين المسلمين فزادوا جسارةً ، وقلّلَ المسلمين فى أعين الكفار فازدادوا — عند نشاطهم إلى القتال — صغراً فى حكم الله وخسارةً .

« والله عليم بذات الصدور » : وكيف لا ؟ ومنه تَصدُرُ المقاديرُ ، وإليه تُرْجَعُ الأمور .

ويقال إذا أراد الله نصرة عبدٍ فلو كَادَ له جميعُ البشر ، وأرادِه الكافةُ بكل ضَرَرٍ ، لا ينفع مَنْ شاء مَضَرَّتَه كَدٌّ ، ويحصل بينه[1] وبين متاح لطفه به سَدٌّ .

وإذا أراد بعبدٍ سوءاً فليس له رَدٌّ ، ولا ينفعه كَدٌّ ، ولا ينعشه بعد ما سقط فى حكمه جَهْدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئةً
فاثْبُتُوا واذكروا الله كثيراً
لعلكم تُفْلِحون ﴾

أراد إذا لقيتم فئةً من المشركين فاثبتوا . والثباتُ إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين ، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة ، والتحقق بالله ، وشهود الحادثات كلها مِنْهُ ، فعند ذلك يستسلم لله ، ويرضى بحكمه ، ويتوقع منه حُسْنَ الإعانة ، ولهذا أحالَهم على الذكر فقال : « واذكروا الله كثيراً » .

ويقال إنّ جميعَ الخيراتِ فى ثبات القلب ، وبه تَبِينُ أقدارُ الرجالِ ، فإذا وَرَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجِسٌ فى نفسه يهيجه .. فَمَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ توَقفَ ريثما

---

(١) الضمير فى (بينه) يعود على الضرر أو من شاء الضرر ، والضمير فى (به) يعود على العبد المنصور .

تَتَبَيَّنُ له حقيقةُ الوارد ، فيثبُتُ لكونه رابطَ الجأش ، ساكنَ القلب ، صافيَ اللُّب . . وهذا نعت الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ ورَسُولَه ولا تَنَازَعوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكم واصبِروا إنَّ اللهَ مع الصابرين ﴾

الموافقة بين المسلمين أصلُ الدِّين . وأولُ الفساد ورأسُ الزَّلَلِ الاختلافُ . وكما تجب الموافقة فى الدين والعقيدة تجب الموافقة فى الرأى والعزيمة[1] .

قال تعالى فى صفة الكفَّار : « تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتَّى » ، وإنما تتحد عزائمُ المسلمين لأنهم كلُّهم يجمعهم التبرِّى مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتِهم ، ويتمحضون فى رجوعهم إلى الله ، وشهودهم التقدير ، فيتحدون فى هذه الحالة الواحدة .

وأمَّا الذين تَوَهَّمُوا الحادثاتِ من أنفسهم فَضَلُّوا فى ساحات حسبانهم ، وأجْرَوْا الأمور على ما يستحسن رأيهم ، فكلٌّ يبنى على ما يقع له ويختار ، فإذا تنازعوا تَشَعَّبَتْ بهم الآراء ، وافترقت بهم الطرقُ ، فيضعفون ، وتختلف طُرُقُهم . وكما تجب فى الدين طاعةُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تجب طاعة أولى الأمر ، ولهذا يجب فى كل وقت نَصْبُ إمامٍ للمسلمين ، ثم لا تجوز مخالفته ، قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أطيعوه ولو كان عبداً مجدعا »[2] وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذا بعث سَرِيَّةً أمَّرَ[3] عليهم أميراً وقال : « عليكم بالسواد الأعظم » .

وإجماعُ المسلمين حُجَّةٌ ، وصلاة الجماعة سُنَّةٌ مؤكَّدة ، والاتِّباعُ محمودٌ والابتداع ضلالة .

قوله « واصبِروا » الصبر حَبْسُ النَّفْس على الشىء ، والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك .

---

(١) وردت (العظيمة) والملائم للرأى ولما جاء بعد قليل تتحد : (عزائم المسلمين) كلمة (العزيمة)

(٢) فى رواية مسلم وابن ماجه عن ام الحصين : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا » ص ١٤٦ ج ٢ من منتخب كنز العمال .

(٣) وردت (اثر) والصواب (أمَّرَ) اميراً ، وربما اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ فحسبها نقطاً لثاء .

« إن الله مع الصابرين » يتولى بالكفاية إذا حصل منهم الثباتُ وحَسُنَ التفويضُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من
ديارهم بَطَراً ورِئاءَ الناسِ ويَصُدُّون
عن سبيل اللهِ واللهُ بما يعملون
مُحيطٌ ﴾

يريد أنَّ أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير مَلَكَتْهُم العِزَّةُ ، واستمكن منهم البَطَرُ ، وداخلَهم رياء الناس ، فارتبكوا فى شِبَاكِ غَلَطِهم ، وحصلوا على مالم يحتسبوه . وأمَّا المؤمنون فَنَصَرَهم نَصْراً عزيزاً ، وأزال عن نبيِّه — عليه السلام — ما أظَلَّه من الخوف وبِصِدْقِ تبريه عن حوله ومُنَّته — حين قال : (لا تكلنى إلى نفسى)[1] — كفاه بحسن التولىِّ فقال (وَمارميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

قوله جل ذكره : « وإذ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال
لا غالِبَ لكم اليومَ مِنَ الناسِ
وإنى جارٌ لكم فلمَّا تراءتِ الْفِئَتانِ
نَكَصَ على عَقِبَيْه وقال إنى برىء
منكم إنِّى أرى مالا تَرَوْنَ إنِّى أخافُ
اللهَ واللهُ شديدُ العِقابِ » .

الشيطان إذا زيَّن للانسان بوساوسه أمراً ، والنَّفْسُ إذا سوَّلت له شيئاً عَمِيَتْ بصائرُ أرباب الغفلة عن شهود صواب الرُّشد ، فيبقى الغافل[2] فى قِياد وساوسه ، ثم تلحقه هواجمُ

---

(١) « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين »
الحاكم من حديث أنس قال صحيح على شرط الشيخين . وهو في اليوم والليل ، وعلمه صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء رضي الله عنها .
(٢) وردت (العاقل) وهى خطأ في النسخ فالكلام عن أرباب الغفلة .

التقدير من كوامن المكر[1] من حيث لا يرتقب ، فلا الشيطان يفى[2] بما يَعِدُه ، ولا النفس شيئاً مما تتمناه تجده ، وكما قال القائل :

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوء ما يأتى به القَدَرُ
وسالمتْكَ الليالى فاغتَرَرْتَ بها ... وعند صفوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ غَرَّ هؤلاءِ دينُهم ومَن يتوكل على اللهِ فإنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾

إن أصحابَ الغفلة وأرباب الغِرَّة إذا هبَّتَ رياحُ صَوْلَتِهم فى زمان غفلتهم يلاحظون أهلَ الحقيقة بعينِ الاستحقار، ويَحْكُمون عليهم بضعف الحال ، وينسبونهم إلى الضلال ، ويعدونهم من جملة الجهَّال ، وذلك فى زمان الفترة ومدة مُهْلةِ أهل الغيبة .

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم ، يَرَوْن الغائبات عن الحواس بعيون البصيرة من وراء ستر رقيق ؛ فلا الطوارقُ تهزمهم ، ولا هواجم[3] الوقت تستفزم[4] ، وعن قريب يلوح عَلَمُ اليُسْرِ ، وتنجلى سحائبُ العُسْر ، ويمحق اللهُ كيد الكائدين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَو ترى إذ يَتَوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم وذوقوا عذابَ الحريق ﴾ .

يُسَلِّيهم[5] عندما يُقَاسُون من اختبارات التقدير بما يُذَكِّرهم زوالَ المحنة ، ووَشْكَ رَوْحِ

---

(١) هكذا فى المتن ، وفى الهامش (كوامن المنكر) ولكن الصواب ماجاء بالمتن إذ المقصود ما يهجم على الغافل من (مكر) الله — سبحانه .
(٢) وردت (يفنى) والملائم لما (يعده) كلمة (يفى) .
(٣) وردت (هوام) .
(٤) وردت (تستقرم) ويكون معنى الجملة بعد هذين التصويبين هو ماجاء فى الرسالة (ص ٤٤) [الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت ، وسادات الوقت لا تصرفهم الهواجم]
(٥) وردت (يسليهم) والمقصود (تسليته) المؤمنين فى أوقات الاختبار .

اليسر ، وسرعةَ حصول النصر ، وحلولَ النِّقَمِ بمرتكبي الظلم . والمؤمن كثيرُ الظَّفَرِ ، فإذا شاهد بأرباب الجرائم حلولَ الانتقامِ رقَّ قلبُه لهم ، فلا ينخرط في سِلْكِ الشماتة ؛ إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام ، بل يجب أن يكون كل أحد بحُسْنِ الصفة ، وكما قيل .

قومٌ إذا ظَفِروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بما قَدَّمَتْ أيديكم وأن الله ليس بظلاَّمٍ للعبيد ﴾ .

يُعَرِّفهم أنَّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الوَطْأَةِ جزاء لهم على ما أسلفوه من قبيح الزَّلَّة ، كما قيل :

سَنَنْتَ فينا سننا قذف البلايا عُقْبَهُ
يصبر على أهوالها مَنْ بَرَّ يوماً ربَّهُ[1]

« وأن الله ليس بظلام للعبيد » أي كيفما يعاملهم في السَّراء والضرَّاء فذلك منه حَسَنٌ وعَدْلٌ ، إذ المُلْكُ مُلْكُه ، والخلقُ خَلْقُه ، والحكمُ حُكْمُه .

قوله جل ذكره : ﴿ كدأبِ آلِ فرعون والذين مِن قَبْلِهم كفروا بآيات الله فأخذهم اللهُ بذنوبهم إنَّ الله قويٌّ شديدُ العِقابِ ﴾

لمَّا سلكوا مسلكَ أهلِ فرعون في الضلال ، سَلَكْنا بهم مسلكهم فيما أذقناهم من العذاب وسوء الحال ، وسُنَّةُ الله ألا تغيير في الإنعام ، وعادته ألا تبديلَ في الانتقام ، ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بما يشهد[2] اعْتَبَرَ بما يصنعه به .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنَّ اللهَ لم يكُ مغيِّراً نِّعمةً أنعمها على قومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم وأنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ ﴾

---

(١) في الشعر اضطراب ، ونرجح أن هناك خطأ في النقل .
(٢) أي بما يشهده يحدث لغيره .

إذا أنعَمَ الحقُّ — سبحانه — على قومٍ نِعمةً وأراد إمهالهم أكرمهم بتوفيق الشكر ؛ فإذا شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم .

وإذا أراد — سبحانه — إزالةَ نعمةٍ عن عبدٍ أذَلَّه بخذلان الكفر ، فإذا حَالَ[1] عن طريق الشكر عرَّض النِّعمة للزوال . فما دام العبدُ يشكر النعمة مقيماً كان الحقُّ فى إنعامه عليه مُديماً ، فإذا قابل النعمة بالكفرانِ انتثر سِلْكُ نظامه ، فبقدر مايزيد فى إصراره يزول الأمر عن قراره .

قوله جل ذكره : ﴿كَدَأْبِ آلِ فرعون والذين مِن قبلهم كذَّبوا بآياتِ ربِّهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آلَ فِرعون وكُلٌّ كانوا ظالمين﴾

تنوَّعَتْ من آل فرعون الذنوب فنَوَّعَ لهم العقوبة ، وكذلك هؤلاء : عُوقِبوا بأنواعٍ من العقوبة لَمَّا ارتكبوا أنواعاً من الزَّلة .

وفائدةُ تكرارِ ذِكْرِهم تأكيدٌ فى التعريف أنه لا يهمل المُكَلَّفَ أصلاً ، وإنْ أهمله حيناً ودهراً .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا فَهُمْ لا يؤمِنون﴾

« عند الله » : فى سابق علمه وصادق حكمه ؛ فإذا كانوا فى عِلْمِهِ شَرَّ الخلائق فكيف يسعدون باختلاف السعايات وصنوف الطوارق ؟

هيهات أن تتبدل الحقائق !

وإذا قال : « فهم لايؤمنون » — وكلامُهُ صِدقٌ وقولُهُ حَقٌّ — فلم يبقَ للرجاء فيهم مساغ ، ولا ينجع فيهم نُصْحٌ وإبلاغ .

قوله جل ذكره : ﴿الذين عَاهدتَّ منهم ثم يَنقُضون عَهْدَهم فى كلِّ مرةٍ وهُم لا يتقون﴾

---

(١) (حالَ) اى تغير مقبولة فى المعنى ، ولكن لا نستبعد أنها (حاد) فى الأصل .

أى الذين صار نقضُ العهد لهم سجيةً ؛ فلم يَذَروا من استفراغ الوسع فى جهلهم بقية .

وإن من الكبائر التى لا غفران لها فى هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً ، أو يترك عقداً التزمه بقلبه مع الله . أولئك الذين سقطوا عن (. . . .)[1] الله ، فرفع عنهم ظلَّ العناية والعصمة .

قوله جل ذكرهُ : ﴿ فإمَّا تَثْقَفَنَّهم فى الحرب فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهم يَذَّكَّرُون ﴾

يريد إنْ صادَفْتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبُهم نقضُ العهد فاجعلهم عِبْرَةً لمن يأتى بعدهم لئلا يسلكوا طريقَهم فيستوجبوا عقُوبتَهُم .

كذلك مَنْ فَسَخَ عقده مع[2] الله بقلبه برجوعه إلى رُخَصِ التأويلات ، ونزوله إلى السكون مع العادات[3] يجعله الله نكالا لمن بعده ، بحرمانه ما كان خوَّلَه ، وتنغيصه عليه مامن حظوظه أمَّلَه ، فيفوته حق الله ، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله :

تبدَّلت وتبدَّلنا واحسرتا لمن ابتغى عِوضاً لليلى فلم يجد

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيانَةً فانْبِذْ إِلَيْهِمْ على سَوَاءٍ إنَّ اللهَ لا يحب الخائنين ﴾

يريد إذا تحقَّقْتَ بخيانة قومٍ منهم فَصَرِّح بأنه لا عهدَ بينك وبينهم ، فإذا حصلت الخيانةُ زال تَمَتُّعُ الأمانة ، وخيانةُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، ومَنْ ضَنَّ[4] بميسورٍ له فقد خانَ فى عهده ، وزاغ عن جده ، وعقوبته معجَّلة ، فهو لا يحبُّه الله ، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته .

---

(١) مشتبهة .
(٢) وردت (من) والصواب عقده (مع) الله .
(٣) وردت (العدالات) والصواب (العادات)
(٤) وردت (ظن) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا سَبَقُوا إنَّهم لا يُعْجِزُون ﴾

كيف يعارِضُ الحقَّ أو ينازعه مَنْ في قَبْضَتِهِ تَقَلُّبُه ، وبقدرته تَصَرُّفه ، وبتصريفه إياه عَدَمه وثبوتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم مِن قوةٍ ومِن رِّباط الخيل ﴾

أعدوا لقتالِ الأعداءِ ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة ، وأتمُّها قوةُ القلب بالله ، والناسُ فيها مختلفون : فواحِدٌ يَقْوَى قلبُه بموعود نَصْرِه ، وآخرُ يَقْوى قَلْبُه بأنَّ الحقَّ عالِمٌ بحاله ، وآخر يقوى قلبه لتحققه بأن يشهد من ربه ، قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »[1] ، وآخر يقوى قلبُه بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه ، وآخر يقوى قلبه برضاه بما يفعله مولاه به .

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبرِّيه عن حوْله وقوَّتِه .

قوله جل ذكره : ﴿ تُرْهِبُون به عدوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ وآخَرِين مِن دونهم لا تعلمونَهم ، اللهُ يعلمهم ، وما تُنفقُوا مِن شيءٍ في سبيل اللهِ يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمون ﴾

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو لاشتفاء صدره من قضية حقد ، بل قصده أن تكون كلمةُ الله هي العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لها وتوكَّلْ على اللهِ إنه هو السَّميعُ العليم ﴾

---

(١) آية ٤٨ سورة الطور .

بعث الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — بالرحمة والشفقة على الخلق ، وبمسالمة[1] الكفار رجاء أن يؤمنوا فى المستأنف فإن أبوا فليس يخرج أحدٌ عن قبضة العزة .

ويقال العبودية الوقوفُ حيثما وقفت ؛ إنْ أُمِرْتَ بالقتال فلا تُقَصِّرْ ، وإنْ أُمِرْتَ بالمواعدةِ فرحباً بالمُسالَمةِ ، « وتوكّلْ على الله » فى الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخيرة ، فيوفقك لما فيه الأولى ، ويختار لك ما فيه من قِسمى الأمرِ — فى الحرب وفى الصُّلحِ — ما هو الأعلى :

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يُريدوا أن يَخدعوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ هو الذى أيَّدك بِنَصْرِه وبالمؤمنين * وألَّفَ بين قلوبِهم لو أنفقْتَ ما فى الأرضِ جميعاً ما ألَّفْتَ بين قلوبِهم ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينهم إنه عزيزٌ حكيم ﴾

أى إنْ لَبَّسُوا عليك ، وراموا خِداعَك بطلب الصُّلح منك — وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه — فإنَّ اللهَ كافيكَ ، فلا تَشْغَلْ قلبَك بغفلتك عن شرِّ ما يكيدونك ؛ فإنى أعلمُ ما لا تعلم ، وأقدِر على ما لا تقدر .

هو الذى بنصره أفردَكَ ، وبلطفِه أيَّدَكَ ، وعن كل سوءٍ ونصيبٍ طَهَّرَك ، وعن رقِّ الأشياء جَرَّدَكَ[2] ، وفى جميع الأحوال كان لك .

هو الذى أيَّدك بمن آمن بك من المؤمنين ، وهو الذى ألَّف بين قلوبهم المختلفة فجمَعها على الدِّينِ ، وإيثارِ رضاء الحق . ولو كان ذلك بِحِيَلِ[3] الخلق ما انتظَمَتْ هذه الجملة ، ولو أبلغتَ بكلِّ ميسورٍ من الأفعال ، وبذلتَ كُلَّ مُستطاعٍ من المال — لَمَا وَصَلَتْ إليه . .

---

(١) وردت (بمسامة) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (حررك) بالحاء وهى خطأ فى النسخ والصواب أن تكون بالجيم .
(٣) وردت (بحيل) بياءين وهى خطأ فى النسخ فهى (حيل) جمع حيلة .

قوله جل ذكره . ﴿ يأيها النبي حَسْبُكَ اللهُ ومَنِ اتَّبَعَكَ مِن المؤمنين ﴾

أحسنُ التأويلات فى هذه الآية أن تكون « مَنْ » فى محل النَّصب ؛ أى ومَنْ اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله .

ومن التأويلات فى العربية أن تكون « مَنْ » فى محل الرفع أى حسبُك مَنْ اتبعك من المؤمنين .

وقد عُلِمَ أن استقلال الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان بالله لا بمن سوى الله ، وكلُّ مَنْ هو سوى الله فمحتاجٌ إلى نصرة الله ، كما أن رسول الله محتاج إل نصرة الله[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبىُّ حَرِّضِ المؤمنين على القتال ﴾

المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلاَّ ازداد بقلبه قوةً ، لأن الاستقلالَ بقوة النَّفس نتيجةُ الغفلة ، وقوةُ القلب بالله — سبحانه — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن يَكُن مِّنكم عشرون صابرون يغلِبُوا مائتين وإن يكُن منكم مِائة يَغْلِبُوا ألفاً مِّن الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون * الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً فإن يَكُن منكم مِّائةٌ صابِرةٌ يغْلِبُوا مِائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلِبوا ألفين بإذنِ الله ، واللهُ مع الصابرين ﴾

هذا لهم ، فأمَّا النبي — صلى الله عليه وسلم — فهو بتوحيده كان مؤَّملاً بأنْ يَثْبُتَ لجميع الكفار لكمال قوَّته بالله تعالى، قال عليه السلام: « بِكَ أصول »[2] ، وفى تحريضه للمؤمنين

---

(١) لاحظ كيف تؤثر النزعة الصوفية فى اختيار الفكرة النحوية .

(٢) « اللهم بك أصول وبك أجول وبك أسير » .

كان هذا من دعائه صلوات الله عليه — إذا أراد سفراً (الإمام أحمد والبزاز عن على كرم الله وجهه ، وقال الحافظ البيهقى : رجاله ثقات) .

على القتال كانت لهم قوة ، وبأمر الله كانت لهم قوة ؛ فقوة الصحابة كانت بالنبى — عليه الصلاة والسلام ، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه . . وشتّان ما هما !

قوله : « الآن خفّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفاً » : والضَّعْفُ الذى علم فيهم كان ضَعْفَ الأشباح فخفّفَ عنهم ، أما القلوبُ فلم يتداخلها الضعف فحُمِلَ من ممارسة القتال بالعذر المذكور فى الكتاب .

والعوام يحملون المشاقَّ بنفوسهم وجسومهم ، والخواص بقلوبهم وهممهم ، وقالوا : « والقلبُ يحْمِلُ مالا يَحْمِلُ البَدَنُ » وقال آخر .

وإنْ تَرَوْنى أُعاديها فلا عَجَبٌ على النفوسِ جنايَاتٌ من الهِمَمِ

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لِنَبِيٍّ أن يكونَ له أسْرَى حتى يُثْخِنَ فى الأرضِ تريدون عَرَضَ الدنيا واللهُ يُرِيدُ الآخِرة واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾

أى لا ينبغى لنبى من الأنبياء — عليهم السلام — أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفِداء ، بل الواجب عليه أن يُثْخِنَ فى الأرض أى يبالغ فى قتل أعدائه — إذ يُقال أثخنه المرضُ إذا اشتدَّ عليه . وقد أخذ النبى — صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ منهم الفِداء ، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصمته ، ولكن لو قاتلتم كان أوْلى . وأراد « بعَرَضِ الدنيا » أخذ الفداء ، والله جعل الفداء ، والله جعل رضاه فى أن يقاتلوهم ، وحرمة[1] الشرع خلاف رحمة الطبع ؛ فشرطُ العبودية أن يؤثر العبدُ اللهَ ، وإذا كان الأمر بالغِلظة فكما قال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله »[2] .

---

(١) وردت (ورحمة) الشرع والصواب (وحرمة الشرع) والمعنى إن اتباع الأمر أولى من تحكيم عاطفة الرحمة .

(٢) آية ٢ سورة النور .

« والله عزيزٌ » : بالانتقام من أعدائه ، « حكيمٌ » : فى جميع ما يصنع من التمليك والإملاك ، والتيسير والتدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أَخَذْتُم عذابٌ عظيم ﴾

لولا أن الله حكم فى آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته لَمَسَّكُم — لأجل ما أخذتُم من الفداء منهم يومَ بدر — عذابٌ عظيم ، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما غَنِمْتُم حَلالاً طيِّباً واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾

الحلال ما كان مأذوناً فيه ، والحلالُ الطيِّبُ أنْ تعلم أن ذلك مِنْ قِبَلِ الله فضلاً ، وليس لَكَ مِنْ قِبَلِكَ استحقاقاً .

ويقال الحلال الصافى ما لم يَنْسَ صاحبُه فيه معبوده .

ويقال هو الذى لا يكون صاحبُه عن شهود ربِّه — عند أخذه — غافلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبيُّ قُل لِمَن فى أيديكم من الأسرى إن يعلمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً يُؤْتِكم خيراً مما أُخِذَ منكم ويَغْفِرْ لكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾

الذى يعطَوْنه خيرٌ مما أُخِذَ منهم . ويحتمل أن يكون ما فى الآخرة من حسن الثواب ، ويحتمل أن يكون ما فى الدنيا من جميل العِوَض . ويقال هو ما يوصلهم إليه من توفيق الطاعات ، وحلاوة الإيمان ، وهو خيرٌ مما أُخِذَ منهم .

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر ، بعدما كانوا أغنياء فى حال الشِّرْك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يريدوا خِيانَتَكَ فقد خانوا اللهَ

مِن قبلُ فَأمْكَنَ منهم واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

يريد إنْ عادوا إلى قتالك بعدما مَنَنْتَ عليهم بالإطلاق وخانوا عَهْدَكَ ، فالخيانة لهم دأب وطريقة ، ثم إنَّا نُمَكِّنُكَ منهم ثانياً كما أمْكَنَّاكَ من أسْرِهم أولاً ، وقيل :

إنْ عَادَتْ العَقْربُ عُدْنا لها وكانت النَّعْلُ لها حاضرة

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم فى سبيلِ اللهِ والذين آوَوْا وَّ نصروا أولئك بعضُهم أولياء بعضٍ والذين آمنوا ولم يهاجِروا ما لَكُم مِّن وَلايتهم من شىء حتى يُهاجروا وإنِ استنصروكم فى الدِّينِ فعليكم النَّصْرُ إلاَّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ ، واللهُ بما تعملون بصيرٌ ﴾

ذَكَرَ صفةَ المهاجرين مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفتهم أنهم آمنوا ثم هاجروا مع الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ثم « جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » هؤلاء هم المهاجرون .

أما الذين آووا فهم الأنصار ؛ آووا الرسول — عليه السلام — والمؤمنين .

فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض فى النصرة والدين .

وأما الذين آمنوا ولكن لم يهاجروا فليست لهم هذه الموالاة إلى أن يهاجروا ، وإنْ استعانوا بكم فعليكم نصرهم .

« إلا على قومٍ » وهم المُعاهِدون معكم .

وكمالُ الهجرةِ مفارقةُ الأخلاق الذميمة ، وهجران النَّفْس فى تَرْكِ إجابتها إلى ما تدعو

إليه من شهواتها. ومن ذلك هجران إخوان السوء، والتباعد عن الأوطان التي باشر العبدُ فيها الزلّة، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضاء الحق.[1]

وأما قوله «والذين آووا ونصروا» فهم الذين يؤثِرون إخوانَهم على أنفُسِهم ولو كان بهم خصاصة، عَوامُّ هؤلاء في الأمور الدنيوية، وخواصُّهم في الكرائم في الآخرة، وخاصُّ الخاصِّ في كل ما يصحُّ به الإثبات من سنيِّ الأحوال إلى ما لا يدرك الوهم.

قوله جل ذكره: ﴿والذين كفروا بعضُهم أولياء بعضٍ
إلاَّ تفعلوه تكُن فتنةٌ في الأرضِ
وفسادٌ كبير * والذين آمنوا
وهاجَرُوا وَجاهدُوا في سَبيل اللهِ
وَالَّذِينَ آوَوا وَّنصروا أولئك هُمُ
المؤمنون حقًّا لهم مغفرةٌ ورِزْقٌ كريم﴾

قطَعَ العصمةَ بينهم وبين المؤمنين، فالمؤمن للأجانبِ مُجانِبٌ، وللأقارب مقارِبٌ. والكفَّارُ بعضهم لبعضهم، كما قيل: «طيرُ السماءِ على أُلاَّفِها تقعُ»

قوله جل ذكره: ﴿والذين آمنوا مِنْ بَعْدُ وهاجروا
وجاهدوا معكم فأولئك منكم،
وأولوا الأرحامِ بعضُهم أَوْلى ببعضٍ
في كتابِ اللهِ إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليم﴾

يريد مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهم في الحال، ومَنْ سيلحق بهم في الاستقبال وآتى الأحوال فالألفةُ تجمعهم، والولاية تشملهم، فلهم من الله في العقبى جزيلُ الثواب، والنجاةُ من العذاب. ولهم في الدنيا الولايةُ والتناصُر، والمودة والتقارب، والله أعلم

---

(١) القشيري من الشيوخ القائلين بأهمية السفر إذا دعت الضرورة
يشرط أن يصحب السفر عن المكان سَفَرٌ عن النفس (انظر الرسالة ص ٢٠٠).

« تنبيــه »

ذكر السيد المحقق فى الصحيفة ٢٠ موقفه من أخطاء الناسخ بأنه اتخذ منها ثلاثة مواقف (ا) موقفا نجد فيه الخطأ مؤكدا ، ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

ولما كانت الطبعة الأولى كثيرة الأخطاء خاصة فى الآيات القرآنية ، فقد قمت بتصويبها وتصحيحها قبل هذه الطبعة الثانية (أفست) ..

أما ماورد فى ب . ج ، فقد تركته كما هو حسب منهج السيد المحقق وسأقوم بمشيئة الله تعالى بتصويب المجلدين : الثانى ، الثالث ، على هذا النحو ، وأرجوا الله التوفيق والعون .

متولى خليل عوض الله
الباحث الأول ـ مركز تحقيق التراث

فهرس

الصفحة

● مدخـــل ٣

● صورة لورقة من المخطوطة السوفيتية ٣٩

● سورة فاتحة الكتاب ٤٢

● سورة البقرة ٥٢

● سورة آل عمران ٢١٧

● سورة النساء ٣١٠

● سورة المائدة ٣٩٦

● سورة الأنعام ٤٥٩

● سورة الأعراف ٥١٦

● سورة الأنفال ٦٠١

تم المجلد الأول ويليه المجلد الثانى

وأوله سورة التوبة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٥ / ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 6594 - 8

يسر إدارة التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب أن تعيد تقديم هذا التفسير الصوفى الكبير للإمام القشيرى بتحقيق العالم الدكتور إبراهيم بسيونى.. وهذا كتاب تشعر خلال قراءته أن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصل من القرآن، ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفى صريحا فى النص القرآنى كالذكر، والتوكل، والرضا، والولى، والولاية، والحق، والظاهر، والباطن، والقبض والبسط... وغير ذلك. فلا تملك إلاّ أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية ـ وإلى الجزء الثانى.

١٣٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثاني

الطابعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير:

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

« . . . أهلُ الجنةِ طابت لهم حدائقُها ، وأهل النار أحاط بهم سرادِقُها ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن أنْ تعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة . . جَلَّتْ الأحدية ، وتقدَّسَتْ الصمدية .

وَمَنْ وقعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تقع عليه قَتَرةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجَدَ حُظْوَةً لدينا ، ومن نَقَلَ قَدَمَهُ نحونا غفرنا له ما قَدَّمه ، ومن رفَعَ إلينا يَدَاً أجزلنا له رَغَداً ، ومن التجأ إلى سُدَّةِ كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمنا ، ومن شكا فينا غليلاً ، مهَّدْنا له فى دار فضلنا مقيلاً »

عبد الكريم القشيرى

عند

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يَسِّرْ

تَبَرَّأْنَا مِمَّا مِنَّا مِنَ الحَوْلِ والمِنَّةِ ، وَتَحَقَّقْنَا بِما مِنْكَ مِنَ الطَّوْلِ وَالمِنَّةِ ، فَلَا تَجْعَلْنَا عُرْضَةً لِسِهَامِ أَحْكَامِكَ ، وَارْحَمْنَا بِلُطْفِكَ وَإِكْرَامِكَ ، وَنَجِّنَا مِمَّنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ فَأَذْلَلْتَهُمْ ، وَبَكَّتَ فِرَاقِكَ وَسَمْتَهُمْ .

عبد الكريم القشيرى

عند

سورة يونس

السورة التى تذكر فيها التوبة

جرَّد الله — سبحانه — هذه السورة عن ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » لِيُعْلَمَ أنه يَخُصُّ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويُفْرِدُ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء ، ليس لِصُنْعِهِ سَبَبٌ ، وليس له فى أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ ، واتَّضَحَ للكافه أن هذه الآية أُثْبِتَتْ فى الكتاب لأنها مُنَزَّلَة ، وبالأمر هنالك مُحَصَّلَة .

ومَنْ قال : إنه لم يذكر التسميةَ فى هذه السورة لأنها مفتتحةٌ بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً فى الإشارة — فضعيفٌ ، وفى التحقيق كالبعيد ؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : « لم يكن الذين كفروا »[1] وقوله : « ويلٌ لكل همزةٍ لمزةٍ »[2] وقوله : « تبَّتْ يدا أبى لهبٍ وتب »[3] وقوله : « قل يأيها الكافرون »[4] . . . هذه كلها مفاتِحُ للسُّوَرِ . . وبسم الله الرحمن الرحيم مُثْبَتَةٌ فى أوائلها — وإن كانت مُتَضَمِّنَةً ذِكرَ الكفار . على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت فى ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإنْ تَضَمَّنَتْهُ تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة .

ويقال إذا كان تجرُّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرىٌ أن يُخْشى أنَّ تجردَ الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ براءةٌ مِّنَ اللهِ ورسُولِهِ إلى الذين عاهَدْتُم مِّنَ المشركين ﴾

---

(١) آية ١ سورة البينة .
(٢) آية ١ سورة الهمزة .
(٣) آية ١ سورة المسد
(٤) آية ١ سورة الكافرون

الفراقُ شديدٌ ، وأشدُّه ألا يَعْقُبَه وصال ، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال : « إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[1]

ويقال مَنْ مُنِيَ بفراق أحبائه فبئست صحبته . وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد ، ولا شكَّ أنهم كانوا قد وطَّنوا نفوسَهم عليه ، فنزل الخبرُ من الغيب بغتةً ، وأتاهم الإعلامُ بالفرقةِ فجأةً ، فقال: «بَرَاءَةٌ من الله ورسوله» ، أى هذه براءة من الله ورسوله ، كما قيل :

فَبِتَّ بخيرٍ — والدُّنى مطمئنةٌ وأصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبا

وما أشدَّ الفُرقةَ — لاسيَّما إذا كانت بغتةً على غير تَرَقُّبٍ — قال تعالى : « وأَنْذِرْهُم يومَ الحسرة إذ قُضِيَ الأمر وهم فى غفلة »[2] وأنشدوا :

وكان سراجُ الوصلِ أزهر بيننا فهبَّتْ به ريحٌ من البَيْن فانطفا

قوله جل ذكره : ﴿ فَسِيحُوا فى الأرضِ أربعةَ أشهر واعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزى اللهِ وأنَّ اللهَ مُخْزِى الكافرين ﴾

إنْ قَطَعَ عنهم الوصلةَ فقد ضَرَبَ لهم مدةً على وجه المُهْلَةِ ، فَأَمَّنَهُم فى الحالِ ليتأهبوا لِتَحَمُّلِ مقاساةِ البراءةِ فيما يستقبلونه فى المآلِ .

والإشارةُ فيه : أنهم إنْ أقلعوا فى هذه المهلة عن الغَيِّ والضلال وجدوا فى المآل ما فقدوا من الوصال ، وإنْ أَبَوْا إلا التمادى فى تَرْكِ الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة .

ثم قال : واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مُخْزِى الكافرين » والإشارة فيه : إنْ أصررتم على قبيح آثاركم سعَيْتُم إلى هلاككم بِقَدَمِكُم . وندمتم فى عاجلكم على سعيكم ، وحَصَلْتُم فى آجِلِكم على خسرانكم ؛ وما خَسِرْتُم إلا فى صفقتكم ، وما ضَرَّ جُرْمُكم سواكم وأنشدوا :

تبدَّلْتَ وتبدَّلْنا واحسرتا مَنْ ابتغى عِوَضا لليلى فلم يَجِدِ

---

(١) آية ٤٨ سورة النساء (٢) آية ٣٩ سورة مريم

قوله جل ذكره : ﴿ وأذانٌ مِّنَ الله ورسُولِه إلى الناسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ ﴾

أى لِيَكُنْ إعلامٌ من الله ورسوله للناس بنقض عهدهم ، وإعلانٌ عنهم بأنهم ما انقطعوا عن مألوفهم من الإهمال[1] ومعهودهم ، وقد برح الخفاء من اليوم بأنهم ليس لهم ولاء ، ولم يكن منهم بما عقدوا وفاء ، فَلْيَعْلَمْ الكافةُ أنهم أعداء ، وأنشدوا :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ أنَّ اللهَ برىءٌ من المشركين ورسولُه ﴾ .

مَنْ رأى من الأغيار — شفقيةً من الآثار ، ولم يرَ حصولَها بتصريفِ الأقدار فقد أشرك — فى التحقيق — واستوجب هذه البراءة .

ومَنْ لاَحظَ الخلْق تَصَنُّعاً ، أو طالَعَ نَفْسَه إعجاباً فقد جعل مالله لغيرِ الله ، وظنَّ ما لله لغير الله ، فهو على خطرٍ من الشِّرْكِ بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تُبْتُم فهو خيرٌ لكم وإن تولَّيتُمْ فاعلموا أنَّكم غيرُ مُعْجِزِى اللهِ وبَشِّرِ الذين كفروا بعذابٍ أليم ﴾ .

إنْ عادوا إلى البابِ لم يقطعْ رجاءهم ، ومدَّ إلى حدٍّ وضوحِ العُذْرِ إرجاءهم . وبيَّن أنهم إنْ أصَرُّوا على عُتُوِّهم فإلى مالا يُطِيقون من العذاب مُنْقَلَبُهم ، وفى النار مثواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا الذين عاهدتُّم من المشركين ثُمَّ لم ينقُصُوكم شيئاً ولم يُظَاهِروا عليكم أحَداً فأتِمُّوا إليهم عَهْدَهم إلى مُدَّتِهم إنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾ :

---

(١) وردت (الإمهال) والصواب أن تكون (الإهمال) لأن الإمهال لا يكون إلا من الحق ، ومألوفهم ومعهودهم (الإهمال) .

مَنْ وَفَّى الحقَّ فى عقدِه فَزِدْه على حفظِ عهدِه ؛ إذ لا يستوى مَنْ وفَّاه ومنْ جفاه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ ﴾ .

يريد إذا انسلخ الحُرُمُ فاقتلوا مَنْ لاعهدَ له من المشركين ، فإنَّهم — وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرُماً — جعل لهم الأمانَ فى مدة هذه المُهلَة ، (. . . .)[1] فكرتم أن يأمر بترك قتال مَنْ أَبَى كيف يرضى بقطع وصال مَنْ أَتَى ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وَجَدتُّموهم وخُذوهم واحصروهم واقعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .

أمَرَهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء .

وأعْدَى عدوِّك نَفْسُكَ التى بين جَنْبَيْك ؛ فسبيلُ العبدِ فى مباشرة الجهاد الأكبر مع النَّفْس بالتضييق عليها بالمبالغة فى جميع أنواع الرياضات ، واستفراغ الوسع[2] فى القيام بصدق المعاملات. ومِنْ تلك الجملة ألا ينزلَ بساحات الرُّخَصِ والتأويلات، ويأخذَ بالأشَقِّ فى جميع الحالات

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فخَلُّوا سبيلَهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

حقيقة التوبة الرجوعُ بالكلية من غير أن تتركَ بقية . فإذا أَسْلَمَ الكافرُ بعد شِرْكِه ، ولم يُقَصِّرْ فى واجبٍ عليه من قِسْمَىْ فِعْله وتَرْكِه ، حَصَلَ الإذنُ فى تَخْلِيَةِ سبيله وفكِّه :

إن وَجَدْنا لِمَا ادَّعَيْتَ شهوداً لم تجدْ عندنا لحقِّ حدوداً

وكذلك النَّفْسُ إذا انخنست ، وآثارُ البشرية إذا اندَرَسَتْ، فلا حَرَجَ —فى التحقيق— فى المعاملات فى أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات . والجلوسُ مع الله

---

(١) مشتبهة

(٢) وردت (الواسع) والصواب أن تكون الوسع .

أَوْلَى من القيام بباب الله تعالى ، قال تعالى فيما ورد به الخبر : « أنا جليس مَنْ ذكرنى »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمعَ كلامَ اللهِ ثم أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾ .

إذا استجار المُشْرِكُ — اليومَ — فلا يُرَدُّ حتى يسمعَ كلامَ الله ، فإذا استجار المؤمن طول عمره من الفراق — متى يُمْنَعُ من سماع كلام الله ؟ ومتى يكون فى زمرة مَنْ يقال لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون[2] » .

وإذ قال — اليومَ — عن أعدائه : « فَأَجِرْه حتى يسمع كلامَ الله » فإنْ لم يؤمن بعد سماع كلامه نُهِىَ عن تعرضه حيث قال : « ثم أبلغه مأمنه » — أترى أنه لا يُؤَمِّنُ أولياءه — غداً — مِنْ فراقه ، وقد عاشوا اليومَ على إيمانه ووفائه ؟ ! كلا .. إنه يمتحنهم بذلك ، قال تعالى : « لا يحزنهم الفزعُ الأكبر »[3] .

ثم قال : « ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون » فإذا كان هذا بِرَّه بِمَنْ لا يَعْلَمُ فكيف بِرُّه بِمَنْ يعلم ؟

ومتى نُضَيِّعُ مَنْ يُنِيخُ بِبَابِنَا والمُعْرِضون لهم نعيمٌ وافِرُ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ كيف يكون للمشركين عَهْدٌ عند اللهِ وعند رسولِه إلا الذين عاهدتُّمْ عند المسجدِ الحرامِ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتقين ﴾ .

---

(١) جاء فى الرسالة ص ١١١ قال محمد الفراء سمعت الشبلى يقول : (أليس الله تعالى يقول : أنا جليس من ذكرنى ؟ ما الذى استفدتم من مجالسة الحق ؟) .

(٢) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٣) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص فى إيمانه ؟

وكيف يكون المحجوبُ عن شهوده كالمستهلَكِ فى وجوده ؟

كيف يكون مَنْ يقول « أنا » كمن يقول « أنت » ؟ وأنشدوا :

وأحبابُنا شتّان : وافٍ وناقِصٌ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، إنْ تَمَسَّكُوا بحبل[1] وفائنا أحللناهم ولاءنا ، وإنْ زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدِّنا ، ثم لم يَرْبَحُوا فى بُعْدِنا .

« إنَّ اللهَ يحب المتقين » : المُتَّقِى الذى يستحق محبةَ مَنْ يُتَّقَى ؛ وذلك حين يتقى محبَّةَ نَفْسه ، وذلك بِتَرْكِ حظّه والقيامِ بحقِّ ربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف وإن يَظْهَرُوا عليكم لا يرقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بأفواهِهم وتأبى قلوبُهم وأكثرهم فاسِقون ﴾ .

وَصَفَهم بلؤم الطبع فقال : كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمروه لكم من سوء الرضاء ؟ فلو ظَفِرُوا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمَةً ، ولم يحفظوا لكم قرابةً أو ذِمَّةً .

وفى هذا إشارة إلى أنَّ الكريمَ إذا ظَفِرَ غَفَرَ ، وإذا قدر ما غَدَرَ ، فيما أَسرَّ وجَهَرَ .

قوله « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم » أى لاعَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ ؛ فإنهم فى حقِّنا كذلك يفعلون : يُظْهِرُون لباسَ الإيمان ويُضْمِرُون الكفر . وإنهم لذلك يعيشون معكم فى زِىِّ الوفاق ، ويستبطنون عين الشِّقاق وسوء النِّفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ اشْتَرَوْا بآياتِ اللهِ ثَمَنًا قليلًا فَصَدُّوا

---

(١) وردت (لجبل) وهى خطأ فى النسخ .

عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

مَنْ رَضِيَ مِنَ الله بغير الله أُرخص فى صفقته ثم إنه خسر فى تجارته ؛ فَلَالَهُ — وهو عن الله — أثر استمتاع ، ولا له — فى دونه سبحانه — اقتناع ؛ بَقِيَ عن الله ، ولم يستمتع عن الله . وهذا هو الخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فى مؤْمِنٍ إلًّا ولا ذِمَّةً وأولئك هم المُعْتَدُون ﴾ .

كيف يراعى حقَّ المؤمنين مَنْ لا يراعى حقَّ الله فى الله ؟ أخلاقُهم تَشابهت فى تَرْكِ الحُرْمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فإخوانُكم فى الدِّين ونُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يعلمون ﴾ .

معناه : وإن قبلناهم وصَلُحُوا لولائنا فَلُحْمَةُ النَّسَبِ فى الدِّين بينكم وبينهم وشيجة[1] ، وإلا فليكن الأجانبُ منا على جانبٍ منكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن نَّكَثُوا أيْمانَهم مِّن بَعْدِ عَهْدِهم وطَعَنُوا فى دينِكم فقاتِلوا أئمةَ الكفرِ إنَّهم لا أيْمانَ لهم لعلَّهم يَنْتَهُون ﴾ .

إذا جنحوا إلى الغَدْرِ ، ونكثوا ما قدَّموه من ضمان الوفاء بالعهد ، وبسطوا ألسنَتَهم فيكم باللومِ فاقصدوا مَنْ رحى الفتنةِ عليه تدور ، وغُصْنُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِهِ يَتَشَعَّبُ ، وهم سادةُ الكفار وقادتُهم .

وحقُّ القتالِ إعدادُ القوةِ جهراً ، والتبرِّى عن الحول والقوة سِرًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ ألاَ تقاتِلون قوماً نَّكثُوا أيْمانَهم

(١) أى مشتبكة متصلة .

وهَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ وَهُم بَدَأُوكُم أوَّلَ مَرَّةٍ أتَخْشَوْنَهم فاللهُ أحقُّ أن تَخْشَوْه إن كنتم مؤمنين ﴾

حَرَّضَهم على القتال — على ملاحظة أمرِ الله بذلك — لا على مقتضى الانطواء على الحقد لأحد ، فإنَّ مَنْ غَضِبَ لنَفْسِه فمذمومُ الوصف ، ومَنْ غَضِبَ لله فإنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ .

وقال « أتخشونهم فالله أحقُّ أن تخشَوْه » : فالخشية من الله بشير الوَصْلة ، والخشية من غير الله نذير الفُرقة . وحقيقة الخشية نَفْضُ السِّرِّ عن ارتكاب الزَّجر ومخالفة الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ قاتِلوهم يُعذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكم ويُخْزِهِم ويَنصُرْكُم عليهم ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين * ويُذْهِبْ غَيْظَ قلوبِهم ، ويتوبُ اللهُ على مَن يشاء واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

هوَّن عليهم كلفةَ المخاطرة بالمهجة بما وَعَدَهُم مِن الظَّفَرِ والنصرة ، فإنَّ شهودَ خِزْيِ العدوِّ مما يُهَوِّنُ عليهم مقاساةَ السوء . والظَّفَرُ بالأَرَب يُذْهِبُ تَعَبَ الطَّلَب .

وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم فى المقام والدرجات ؛ فمنهم مَنْ شفاء صدره فى قَهْرِ عدوِّه ، ومنهم مَنْ شفاء صدرِه فى نَيْلِ مَرْجُوِّه . ومنهم مَنْ شفاء صدره فى الظَّفَر بمطلوبه ، ومنهم مَنْ شفاء صدرِه فى لقاء محبوبه . ومنهم من شفاء صدره فى درك مقصوده ، ومنهم من شفاء صدره فى البقاء بمعبوده .

وكذلك ذهابُ غيظِ قلوبهم تختلف أسبابه ، وتتنوَّعُ أبوابُه ، وفيما ذَكَرْنا تلويحٌ لِمَا تركنا[1] .

« ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاء » حتى يكون استقلاله بمحوِّل الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ حَسِبْتم أنْ تُترَكُوا ولمَّا يَعْلَمِ

---

(١) توضح هذه العبارة ميل القشيرى للإقلال خشية الملال — كما ذكر فى مقدمة كتابه .

إسحاقَ يعقوبَ * قالَتْ يا ويلتـا
أ ألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلِي شيخاً
إنَّ هـذا لَشَيءٌ عجيبٌ * قالوا :
أتعجبين من أمرِ اللهِ ؟ رحمةُ اللهِ
وبركاتُه عليكم أهـلَ البيت إنَّه
حميدٌ مَجيدٌ ﴾

كانت امرأتُه قائمةً بخدمة الأضياف ، فضحكت تَعَجُّباً مِنْ أنْ يكونَ لمثلها فى هذه السِّنِّ ولدٌ .

وقيل كان سرورُها بالسلامة . ويحتمل أنها ضحكت تعَجُّباً من امتناع الضِّيفان عن الأكل . أو تَعَجَبَتْ من كوْن الملائكة فى صورة البشر لَمَّا عَلِمَتْ أنهم ملائكة . ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالوَلَد وقد بُشِّرتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب ، ثم أفْصَحَتْ عما ينطوى عليه قلبُها من التعجب فقالت : « أألد وأنا عجوز وهذا بَعْلى شيخاً ؟ إنَّ هذا لشىءٌ عجيبٌ » !

فأحال الملائكة خَلْقَ الوَلَدِ على التقدير : « قالوا أتعجبن من أمر الله ؟ » فزال موضِعُ التعجب ، وقالوا : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » فبقى الدعاء فى شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعى : كما صَلَّيْتَ وباركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

والبركة الزيادة ، فقد اتصل النَّسْلُ من الخليل ، وبنو اسرائيل منهم — وهم خَلْقٌ كثير ، والعرب من أولاد اسماعيل — وهم الجَمُّ الغفير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذَهَبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ وجاءتْه البُشرى يُجادِلُنا فى قومِ لوطٍ ﴾

لما كانت مراجعته مع الله فى أمر قومِ لوطٍ بحقِّ الله لا لحظِّ نَفْسِهِ سَلِمَ له الجدال ، وهذا يدلُّ على علوِّ شأنه حيث تجاوز عنه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ابراهيمَ لحليمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ ﴾

بالـكُفْرِ أولئك حَبِطَتْ أعمالُهُ ،
وفى النَّارِ هُمْ خالِدون ﴾[1]

عمارةُ المساجد بإقامة العبادة فيها ، والعبادةُ لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص ، والمشرِكُ فاقِدُ الإخلاص ، وشهادتُهم على أنفسهم بالـكفر دعواهم حصول بعض الحدثان بتأثير الأسباب ، فمن أثبت فى عقده جوازَ ذَرَّة فى العالم من غير تقديره — سبحانه — شارَكَ أربابَ الشِّرْكِ فى المعنى الذى لزَمَتْهم به هذه السِّمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يَعْمُرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يخشَ إلا اللهَ فعسى أولئك أن يكونوا مِنَ المهتدين ﴾

لا تـكون عمارةُ المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية ، فالعابد يُعَمِّرُها بتخريب أوطان شهوته ، والزاهدُ يعمرها بتخريب أوطان مُنْيته ، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته ، والموَحِّدُ يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُسَاكنتِه . وكلُّ واحدٍ منهم واقفٌ فى صفته ؛ فلصاحب كلِّ موقفٍ منهم وصفٌ مخصوص .

وكذلك رُتْبتهُم فى الإيمان مختلفة ؛ فإيمانٌ من حيث البرهان ، وإيمان من حيث البيان ، وإيمان من حيث العيان ، وشتان ما هم ! قال قائلهم :

لا تعرِضَنَّ بِذِكْرِنا فى ذِكْرِهِم ليس الصحيحُ — إذا مشى — كالمُقْعَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ أجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وجاهَدَ فى سبيلِ اللهِ لا يستوُون عنـد اللهِ واللهُ لا يهدى القومَ الظالمين ﴾

(١) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (م فيها خالدون)

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام فى مواصلة سرائره ، ولا مَنْ اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه ، ولا من نُصِبَ بالباب من حيث الخدمة كمن مُكِّنَ من البِساط من حيث القربة[1] ، وليس نعت مَنْ تَكلَّفَ نِفاقاً كوصفِ مَنْ تحقَّقَ وِفاقاً ، بينهما بَوْن بعيدٌ !

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وهاجَرُوا وجَاهَدُوا فى سبيل اللهِ بأموالِهم وأنفُسِهم أعظمُ دَرَجةً عِند الله وأولئك هم الفائِزون ﴾

« آمنوا » أى شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ فى سماءِ يقينهم سحابُ رَيْبٍ ، ولا فى هواءِ[2] معارفهم ضبابُ شك .

« وهاجروا » : فلم يُعَرِّجُوا فى أوطان التفرقة ، فَتَمَحَّضَت[3] حركاتُهم وسكناتهم بالله لله .

« وجاهدوا » : لا على ملاحظة غرَضٍ أو مطالعة عِوَضٍ ، فلم يَدَّخِرُوا لأنفسِهم — مِنْ ميسورهم — شيئاً إلا آثروا الحقَّ عليه ، فَظَفِروا بالنعمة ، فى قيامهم بالحقِّ بعد فنائهم عن الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورِضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ * خالدين فيها أبداً إنَّ الله عِندهُ أجرٌ عظيم ﴾

---

(١) يتدرج الدخول عليه — حسبما نعرف من أسلوب القشيرى — من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم السدة .

(٢) وردت (هؤلاء) وقد صوبناها (هواء) لتلائم (سماء) و (سحاب) و(ضباب) فضلا عن أنها أقرب فى الكتابة إليها .

(٣) تمحضت أى صارت خالصة لله

البشارة من الله تعالى على قسمين : بشارة بواسطة المَلَكِ ، عند التوفى :

« تَتَنَزَّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »[1] .

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَك ، إذ يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ، وذلك عند الحساب . يبشرهم بلا واسطة بِحُسْنِ التولِّى ؛ فعاجِلُ بشارتهم بنعمة الله ، وآجِلِ بشارتهم برحمة الله ، وشتان ما هما !

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان ، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان ، فأصحاب الإحسانِ صَلُحَ أمرهم للشهرة فأظْهَرَ أمْرَهُمْ للمَلَكِ حتى بَشَّر وهم جَهْراً ، وأهلُ العصيان صلح حالهم لِلسَّتْرِ فتولَّى بشارتهم — مِنْ غير واسطة — سِرّاً .

ويقال إنْ كانت للمطيع بِشارةٌ بالاختصاص فإنَّ للعاصى بشارة بالخلاص . وإن كان للمطيع بشارة بالدرجات فإن للعاصى بشارة بالنجاة .

ويقال إنَّ القلوبَ مجبولةٌ على محبة من يُبَشِّر بالخير ؛ فأراد الحقُّ — سبحانه — أن تكون محبةُ العبد له — سبحانه — على الخصوص ؛ فتولَّى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة ، فقال : يبشرهم ربهم برحمة منه » وفى معناه أنشدوا :

لَولا تَمتُّعُ مُقْلتى بلقائه لَوَهَبْتُها بُشْرَى بقرب إيابه

ويقال بَشَّرَ العاصِيَ بالرحمة ،والمطيعَ بالرضوان ، ثم الكافةَ بالجنة ؛ فقَدَّمَ العاصِيَ فى الذكر ، وقدَّم المطيع بالبرِّ ، فالذِّكر قوْلُه وهو قديم والبِرُّ طَوْلُه وهو عميم . وقولُه الذى لم يَزَلْ أعزُّ مِنْ طوْلِه الذى حصَلَ . قَدَّم العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيف أَوْلى بالرِّفق من القوى .

ويقال (قدَّم أمر العاصى بالرحمة حتى إذا كان يومُ العَرْضِ وحضورِ الجمعِ لا يفتضح العاصى)[2] .

ويقال « يبشرهم ربُّهم برحمته » يُعَرِّفُهم أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تلك الدرجات

---

(١) آية ٣٠ سورة فصلت

(٢) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامات المميزة ، ولنتأمل مقدار انفساح صدور الصوفية بالنسبة للعصاة ، وذلك نتيجة امتلاء قلوبهم بالأمل في المحبوب .

بسعيهم وطاعتهم ، ولكن برحمته — سبحانه — وصلوا إلى نعمته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمله . قالوا : ولا أنتَ يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

قوله : « لهم فيها نعيم مقيم » : قومٌ نعيمُهم عطاء ربِّهم على وصف التمام ، وقومٌ نعيمُهم لقاء ربهم على نعت الدوام ؛ فالعابدون لهم تمام عطائه ، والعارفون لهم دوام لقائه .

ثم قال : « خالدين فيها أبداً » والكناية فى قوله « فيها » كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة ، سيما وقد ذكر الأجر بعدها ؛ فكما لا يَقْطَعُ عطاءه عنهم فى الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا فى الجنة ، قال تعالى : « لا مقطوعة ولا ممنوعة »[2] أى لا مقطوعة عنهم نعمتُه ، ولا ممنوعةٌ منهم رؤيتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانَكم أولياء إنِ استحبوا الكُفْرَ على الإيمان ومَن يَتَوَلَّهُم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾

مَنْ لم يَصْلُحْ بطاعته لربه لا تَسْتَخْلِصْهُ لصحبة نَفْسِك .

ويقال من آثر على الله شيئاً يُبَارِكْ له فيه ؛ فيَبْقى بذلك عن الله ، ثم لا يُبْقِي ذلك معه ، فإن استبقاه بجهده — كيف يستبقى حياته إذا أذِنَ الله فى ذهاب أَجَلِه ؟ وفى معناه أنشدوا :

مَنْ لم تَزُلْ نعمتُه قَبْلَهُ زَالَ مع النعمة بالموتِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها ومساكنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ

---

(١) الشيخان عن عائشة مرفوعاً : سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا ...الخ

(٢) آية ٣٣ سورة الواقعة

إليكم مِنَ اللهِ ورسولِه وجهادٍ فى سبيله
فَتَرَبَّصُوا حتى يأتىَ اللهُ بأمرِه
واللهُ لايهْدِى القومَ الفاسقين ﴾

ليس هذا تخييراً لهم ، ولا إذْناً فى إيثارِ الحظوظِ على الحقوقِ ، ولكنه غاية التحذير والزَّجر عن إيثار شىء من الحظوظ على الدِّين ، ومرورُ الأيامِ حَكَمٌ عَدْلٌ يَكْشِفُ فى العاقبة عن أسرار التقدير ، قال قائلهم :

سوف ترى إذا انجلى الغُبَارُ أفَرَسٌ تحتك أم حمار ؟

ويقال علامةُ الصدقِ فى التوحيد قطعُ العلاقات ، ومفارقةُ العادات ، وهجران المعهودات والاكتفاء بالله فى دوام الحالات .

ويقال مَنْ كسَدَت سوقُ دِينِه كَسَدَتْ أسواقُ حظوظه ، ومالم تَخْلُ منك مَنَازِلُ الحظوظ لا تعمُرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ نصَرَكم اللهُ فى مواطِنَ كثيرة ﴾

النصرة من الله تعالى فى شهود القدرة ، والمنصورُ مَنْ عَصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ عن التوهُّم والحسبان ، ولم يَكِلْه إلى تدبيره فى الأمور ، وأثبته الحقُّ — سبحانه — فى مقام الافتقار متبرياً عن الحَوْل والمُنَّة ، مُتَحَقِّقاً بشهود تصاريف القدرة ، يَأْخُذُ الحقُّ — سبحانه — بيدِه فيخرجه عن مهواة تدبيره ، ويوقفه على وصف التصبُّر لقضاء تقديره .

قوله جل ذكره ﴿ ويومَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكم
فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقَتْ عليكم
الأرضُ بما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم
مُدْبِرين ﴾ .

يعنى نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب ، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهْر فاضطربت القلوبُ ، وخانت القوى أصحابَها ، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرَتُكم ، فاستخلص اللهُ أسرارَكم — عند صدق الرجوع إليه — بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فقَلَبَ اللهُ الأمرَ على

الأعداء ، وخَفَقَتْ راياتُ النصرة ، ووقعت الدائرة على الكفار ، وارتدَّتْ المزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين .

قوله جل ذكره ﴿ ثمَّ أنزل اللهُ سكينتَه على رسولِه وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تَرَوْها وعذَّبَ الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾

--السكينةُ ثَلَجُ القلب عند جريان حُكْمِ الربِّ بنعت الطمأنينة ، وخمودُ آثار البشرية بالكلية ، والرضاء بالبادى من الغيب من غير معارضةِ اختيارٍ .

ويقال السكينة القرار على بساط الشهود بشواهد الصحو ، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة ، وبلا تحرُّكِ عِرْقٍ لمعارضةِ حُكْمٍ . والسكينة[1] المنزلةُ على « المؤمنين » خمودُهم تحت جريان ما وَرَدَ من الغَيْبِ من غير كراهةٍ بنوازع البشرية ، واختطافُ الحقِّ إياهم عنهم حتى لم تستفزهم رهيةٌ من مخلوق ؛ فَسَكَنَتْ عنهم كلُّ إرادةٍ واختيارٍ .

« وأنزل جنوداً لم تَرَوْها » من وفور اليقين وزوائد الاستبصار .

« وعذَّبَ الذين كفروا » بالتطوح[2] فى متاهات التفرقة ، والسقوط فى وهدة[3] ضيق التدبير ، ومِحْنَةِ الغَفْلةِ ، والغَيْبَةِ عن شهود التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يتوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذلكَ على مَن يَشَاء واللهُ غَفُورٌ رحيم ﴾

ردهم من الجهل إلى حقائق العلم ، ثم نَقَلَهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين ، ثم رقَّاهم عن تلك الجملة بما لقَّاهم به من عين الجمع .

---

(١) وردت (والسكين) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (والتطوع) بالعين وهى خطأ في النسخ .

(٣) جاءت الواو فوق فاء (فى) واكتملت بعدها خطأ : (هده) ، والصواب ان تأخذ الواو مكانها بعد (في) وتصبح الكلمة (وهدة)

قوله جل ذكره ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهِم هذا ﴾

فقدوا طهارة الأسرار بماء التوحيد ، فبقوا فى قذورات الظنون والأوهام ، فَمُنِعُوا قُربانَ المساجدِ التى هى مشاهدُ القرب . وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار ، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما يُبَيِّنُه مِنَ الأمرِ ويُمضِيه من الحُكْمِ .

قوله جل ذكره ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فسوف يُغْنيكم اللهُ مِن فَضْلِه إن شاء إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾

تَوَقُّعُ الأرزاقِ من الأسبابِ من قضايا انغلاق باب التوحيد ، فَمَنْ لم يفْرِدْ معبودَه بالقسمة بَقِىَ فى فقرٍ مُتَرَدِّدٍ .

ويقال مَنْ أناخَ بعُقْوةِ كَرَمِ مولاه ، واستمطر سحابَ جودِه أغناه عن كل سبب ، وكفاه كلَّ تَعَبٍ ، وقضى له كلَّ سؤْلٍ وأرَب ، وأعطاه من غير طلب .

قوله جل ذكره : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون باللهِ ولا باليوم الآخِرِ ولا يُحَرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ولا يَدِينُون دينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعْطُوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرون ﴾

مَن استوجب الهوانَ لا ينْجِيكَ مِنْ شَرِّه غير ما يستحقه من الإذلال على صغره ، ومَنْ دَاهَن عدوَّه فبالحرىِّ أنْ يلقى سوءَه .

ومِنْ أشدِّ الناس لَكَ عداوة، وأبعدِهم عن الإيمان ـ نَفْسُكَ المجبولةُ على الشرِّ فلا تُقْلِعُ إلاَّ بذبحها بِمُدْيَةِ المجاهدات . وهى لا تؤمِن بالتقدير ، ولا يزول شَكُّها قط ، وكذلك تَخْلُدُ إلى التدبير[1] ،

---

(١) أى تدبير الإنسان الناقض لتقدير الحق

ولا تسكن إلا بوجودِ المعلوم[1] ، ولا تقبل منك إلا كاذِبَ المواعيد ، ولذلك قالوا

وأكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها فإنَّ صِدْقَ القول يذرى بالأمل

قوله جل ذكره : ﴿ وقالَتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، وقالتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ، ذلك قولُهم بأفواهِهِم ﴾

لو كان هذا فى تخاطب المخلوقين لكان عينَ الشكوى ؛ والشكوى إلى الأحباب تشير إلى تحقق الوصلة .

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم ، وكم بين مَنْ تشكو منه وبين مَنْ تشكو إليه !!

قوله جل ذكره : ﴿ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الذين كفروا من قبلُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكون ﴾

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية ، وهؤلاء أقروا بالله ، ثم لما أثبتوا له الوَلَدَ نقضوا ما أقروا به من التوحيد ، فصاروا كالكفار قَبْلَهم .

ويحتمل أن تكون مضاهاةُ قولهم فى وصف المعبود بأنَّ عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقولِ الكفار قَبْلَهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله .

ويقال لمَّا وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفَعْهُم صِدْقُهم فى الإقرار بربوبيته مما أضافوا إليه من سوء القالة . وكلُّ مَنْ أطلق فى وصفه ما يتقدَّسُ — سبحانه — عنه فهو للأعداء مُشاكِلٌ فى استحقاق الندم والتوبيخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورُهْبانَهم أرباباً من دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلهاً واحِداً لا إله إلا هو سبحانه عمَّا يُشْرِكون ﴾

---

(١) ربما كان المقصود بالمعلوم هنا ما يقع فى نطاق الحس ؛ وتقدير الحق غيبي لا يقع تحت حس الإنسان وعلم الإنسان .

كما لا تجوز مجاوزة الحد فى وَضع القدْرِ لا تجوز مجاوزة الحد فى رَفْع القَدْر ، وفى الخبر : « أُمِرْنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازِلَهم »

فَمَنْ رأى من المخلوقين شظيةً من الإبداع أنْزَلَهم منزلةَ الأرباب ، وذلك — فى التحقيق — شرْكٌ ، وما أخلص فى التوحيد مَنْ لم يَرَ جميعَ الحادثات بصفاتها (. . . .)[1] من الله .

« وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » : فَمَنْ رفع فى عقده مخلوقاً فوق قَدْرِه فقد أشرك بربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُريدون أن يطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِم ويأبى اللهُ إلاَّ أن يُتِمَّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون ﴾

مَنْ رام أن يَسْتُرَ شُعاعَ الشمسِ بِدُخَانٍ يوجهه من نيرانه ، أو عالج أنْ يمنع حكم السماء بحيلته وتدبيره ، أو يُسْقِطَ نجومَ الفَلَكِ بسهام قوسِه — أظهرُ رُعونتَه ثم لم يَحْظَ بمراده . كذلك مَنْ توهَّم أن سُنَّةَ التوحيد يعلوها وَهَجُ الشُّبَه فقد خاب فى ظنِّه ، وافتضح فى وهمه .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أرْسَل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه ولو كَرِه المشركون ﴾

أزاحَ العِلَلَ بما ألاح من الحُجَج ، وأزال الشُّبَهَ بما أفصح من النهج ؛ فشموسُ الحقِّ طالِعةٌ ، وأدلة الشرع لامعة ، كما قالوا :

هى الشمسُ إلا أنَّ للشمسِ غيبةً وهذا الذى نعنيه ليس يَغيب

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرُّهبانِ لَيَأْكُلُون أموالَ الناسِ بالباطِلِ ويَصُدُّونَ عن سبيل اللهِ ﴾

---

(١) مشتبهة .

العالِمُ إذا ارتفق بأموال الناس عِوَضاً عما يُعلِّمُهم زالَتْ بركاتُ عِلْمِه ، ولم يَطِبْ في طريق الزهد مَطْعَمُه .

والعارِفُ إذا انتفع بخدمة المريد ، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثارُ هِمَّتِه ، ولم تُجْدِ في حكْمِ التوحيد حالتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَكْنِزُون الذهبَ والفِضَّة
ولا يُنْفِقُونَها في سبيل اللهِ فَبَشِّرْهم
بعذابٍ أليم ﴾ .

لهم في الآجِلِ عقوبةٌ . والذين لا يؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم في العاجل حجبة . وقليلٌ مِنْ عبادِه مَنْ سَلِمَ من الحجاب في مُحْتَضَرِه والعقاب في مُنْتَظَرِه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يُحْمَىٰ عليها في نارِ جهنَّمَ
فَتُكْوَىٰ بها جِباهُهم وجُنُوبُهم
وظُهورُهم هذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم
فذوقوا ما كنتم تكنِزُون ﴾

لمَّا طلبوا الجاهَ عند الخلْقِ بمالِهم ، وبَخِلُوا بإخراج حقِّ الله عنه شَانَ وجوهَهم . ولمَّا أسندوا ظهورَهم إلى أموالهم . قال تعالى : « فتكوى بها جِبَاهُهم وجُنُوبُهم وظُهُورهم » .

ويقال : لمَّا (عبسوا) في وجوه العفاة[2] وعقدوا حواجِبَهم وُضِعَتْ الكيَّةُ على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء ، ولمَّا طَوَوْا كَشْحَهم دون الفقراء — إذا جالسوهم — وَضَعَ المِكواةَ على جُنُوبِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشهورِ عند اللهِ اثنا

---

(١) محتضره أي حاضره وعاجله ، ومنتظره أي مستقبله وآجله .
(٢) العفاة م طالبو العطاء ومستحقوه

عَشَرَ شهراً فى كتابِ اللهِ يومَ
خَلَقَ السموٰاتِ والأرضَ منها أربعةٌ
حُرُمٌ ذٰلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾

لمَّا علِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمَةِ القُرْبِ أفْرَدَ بعضَ الشهور بالتفضيل ، ليُخصُّوها باستكثار الطاعة فيها . فأمَّا الخواصُ مِنْ عبادِه فجميعُ الشهورِ لهم شعبانُ ورمضانُ ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة ، وجميع البقاع[1] لهم مسجد . . . . وفى معناه أنشد بعضهم .

يا ربُّ إنَّ جهادى غيرُ مُنْقَطِعٍ وكلُّ أرضٍ لى ثَغْرُ طرسوس

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تظلِموا فيهنَّ أنفُسَكم وقاتِلوا المشركين كافةً كما يقاتلونَكم كافةً واعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين ﴾

قال للعوام : لا تَظْلِموا فى بعض الشهور أنفُسَكُمْ ، يعنى بارتكاب الزَّلَّة . وأمَّا الخواص فمأمورون ألا يَظْلِمُوا فى جميع الشهور قلوبَهم باحتقاب الغفلة[2] .

ويقال : الظلم على النَّفْس أن يجعلَ العبدُ زمامَه بيد شهواته ، فتُورِدُه مَواطِنَ الهلاك .

ويقال : الظلم على النَّفْس بخدمة المخلوقين بَدَلَ طاعة الحقِّ .

ويقال : مَنْ ظَلَمَ على قلبه بالمضاجعات امْتُحِنَ بعدمِ الصفوة فى مرور الأوقات .

« وقاتلوا المشركين كافة » : ولا سِلاحَ أمضى على العدوِّ من تَبَرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك .

---

(١) وردت (البقاء) وهى خطأ فى النسخ
(٢) وردت (العقد) والصواب أن تكون (الغفلة) ، فالغفلة للقلب والزلة للنفس

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما النّسىء[1] زِيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً ليواطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ الله ، زُيِّنَ لهم سوء أعمالِهم واللهُ لا يهدى القومَ الكافرين ﴾ .

الدِّينُ ملاحظةُ الأمر ومجانَبَةُ الوِزر وتركُ التقدم[2] بين يدى الله سبحانه — في جميع أحكام الشرع ، فالآجالُ فى الطاعاتِ مضروبة ، والتوفيقُ فى عرفانه متَّبع ، والصلاح فى الأمور بالإقامة على نعت العبودية ؛ فالشهرُ ما سمَّاه الله شهراً ، والعامُ والحوْلُ ما أعلَمَ الخلْقَ أنه قَدْرُ ما بَيَّنه شرعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا مالَكم إذا قيل لكم انفِرُوا فى سبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُم إلى الأرضِ أرَضِيتُم بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا فى الآخرةِ إلا قليلٌ ﴾ .

عاتَبهم على تركِ البدار عند توجيه الأمر ، وانتهاز فُرْصَةِ الرُّخصَة .

وأمَرَهم بالجد فى العزم ، والقَصْدِ فى الفعل ؛ فالجنوحُ إلى التكاسل ، والاسترواحُ إلى التثاقل أماراتُ ضعفِ الإيمان إذ الايمان غريمٌ مُلازِمٌ لايرضى من العبد بغير ممارسة الأشقِّ ، وملابسة الأحَقِّ .

قولهُ « أرضيتم بالحياة الدنيا » : وهل يَجْمُلُ بالعابدِ أنْ يختارَ دنياه على عُقباه ؟ وهل يحسُن بالعارف أنْ يؤْثِرَ هواه على رضا مولاه ؟ وأنشدوا

---

(١) النسىء = تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، فقد كانوا إذا حل شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر

(٢) أى عدم استعجال شىء موقوت بامر الله وشرعه .. هذا ما نفهمه من السياق

أيجملُ بالأحبابِ ما قد فعلوا مضَوْا وانصرفوا ياليتهم قفَلُوا

إنَّ غيبةَ يومٍ للزاهد عن الباب تَعْدِل شهوراً، وغيبةُ لحظةٍ للعارف عن البِساط تعدل دهوراً، وأنشدوا :

الإلفُ لا يَصْبِرُ عن إلفِهِ أكثرَ من طَرْفَةِ عَيْنِ
وقد صبَرْنا عَنكُمُ ساعةً ما هكذا فِعْلُ مُحِبِّيْنِ

قوله جل ذكره ﴿ إلاَّ تَنفِروا يُعَذِّبكم عذاباً أليماً ويستبدِلْ قوماً غيرَكُم ولا تضرُّوه شيئاً واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

العذابُ الأليمُ إذا أعرض العَبْدُ عن الطاعةِ ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما يردُّه إلى الباب .

العذابُ الأليمُ أنْ يَسْلُبَه حلاوةَ النَّجوى إذا آب .

العذابُ الأليمُ الصدودُ يومَ الورود ، وقيل :

واعدونى بالوصالِ — والوصالُ عَذْبٌ — ورَمَوْنى بالصُّدودِ والصدُّ صعبُ

العذابُ الأليمُ الوعيدُ بالفِراق ، فأمَّا نَفْسُ الفِراق فهو تمامُ التَّلَفِ ، وأنشدوا :

وزَعَمْتَ أنَّ البَيْنَ مِنْكَ غداً هَدِّدْ بذلك مَنْ يعيش غدا

قوله : « ويستبدل قوما غيركم » يصرف ما كان مِنْ إقباله عليه إلى غيره من أشكاله ، وليس كلُّ مَنْ حَفَرَ بئراً يشربُ مِنْ مَعِينِها ، وأنشدوا :

تَسْقِي رَيَاحِينَ الحِفَاظِ مدامعى وسِوَاىَ فى رَوْضِ التواصُلِ يَرْتَعُ

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخرَجَهُ الذين كفروا ثانِيَ اثنينِ إذْ هُمَا فى الغارِ إذ يقولُ لصاحبِهِ لاتَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا ﴾ .

مِنْ عزيزِ تلك النصرة أنه لم يستأنِسْ بثانيه الذى كان معه بل رد الصدِّيقَ إلى الله ، ونهاه عن مساكنته إياه ، فقالَ : ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟

قال تعالى : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

ويقال من تلك النصرة إبقاؤه إياه فى كشوفاته فى تلك الحالة ، ولولا نصرتُه لتلاشى تحت سطواتِ كَشْفِه.

ويقال كان — عليه السلام — أَمَانَ أهل الأرض على الحقيقة ، قال تعالى :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »[1] ، وجعله — فى الظاهر — فى أمان العنكبوت حين نَسَجَ خَيْطَه على باب الغار فَخَلَّصَه من كيدهم .

ويقال لو دخل هذا الغار لا نشقّ نسيج العنكبوت . . فياعجباً كيف سَتَرَ قصةَ حبيبه — صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ؟!

ويقال صحيحٌ ماقالوا : للبقاع دول ، فما خَطَرَ ببالِ أحدٍ أنَّ تلك الغار تصير مأوى ذلك السيِّد — صلى الله عليه وسلم ! ولكنه يختص بقسمته ما يشاء كما يختص برحمته من يشاء .

ويقال ليست الغِيران[2] كلها مأوى الحيَّاتِ ، فمنها ما هو مأوى الأحباب . ويقال علقت قلوب قومٍ بالعرش فطلبوا الحق منه ، وهو تعالى يقول :

« إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » فهو سبحانه — وإن تقدَّس عن كل مكان — ولكن فى هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد ، وأنشدوا :

يا طالبَ الله فى العرشِ الرفيعِ به لا تطلب العرشَ إن المجد فى الغار

وفى الآية دليل على تحقيق صحبة الصدِّيق — رضى الله عنه — حيث سمَّاه الله سبحانه صاحبَه ، وعَدَّه ثانيه ، فى الايمان ثانيه ، وفى الغار ثانيه ثم فى القبر ضجيعه ، وفى الجنة يكون رفيقه .

---

(١) آية ٣٣ سورة الأنفال

(٢) الغار يجمع على أغوار وغيران

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عليه ﴾

الكناية فى الهاء من « عليه » تعود إلى الرسول عليه السلام ، ويحتمل أن تكون عائدةً إلى الصديق رضى الله عنه ، فإن حُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الانفراد ، فقد قال عز وجلّ لجميع المؤمنين : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين »[1] .

وقال للصدِّيق — على التخصيص — فأنزل الله سكينته عليه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلّى للناس عامة ويتجلّى لأبى بكر خاصة[2] » .

وإنما كان حزنُ الصديقِ ذلك اليوم لأجل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إشفاقاً عليه .. لا لأجلِ نَفْسِهِ . ثم إنه — عليه السلام — نفى حزنه وسلاّه بأن قال: «لاتحزن إن الله معنا» ، وحُزْنٌ لايذهب إلا لِتَعِيَّةِ الحقّ لايكون إلاّ « لحقّ الحق »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وأيَّده بجنودٍ لم تَرَوْها وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى وكلمةُ اللهِ هى العليا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾

يريد به النبى صلى الله عليه وسلم . وتلك الجنودُ وفودُ زوائد اليقين على أسراره بتجلِّى المكشوفات .

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » بإظهار حُجج دينه ، وتمهيد سُبُل حقّه ويقينه ؛ فراياتُ الحقّ إلى الأبدِ عالية ، وتمويهات الباطل واهية ، وحِزْبُ الحقّ منصورون ، ووفد الباطل مقهورون .

---

(١) آية ٤ سورة الفتح

(٢) يتأيد كلام القشيرى عن خصوصية أبى بكر بنزول السكينة على قلبه بما يروى عن يوم بدر ، فحينما قال النبى عليه السلام « اللهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض من بعد ذلك » قال له أبو بكر : دع عنك مناشدتك ربك فإنه واثق منجز لك ما وعدك وهو قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب [مسلم والترمذى عن ابن عباس عن عمر]

(٣) لأنه ليس حزناً مرتبطاً بحظ من حظوظ النفس ولكنه لحق الحق

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام فى الغار ، وأشرقت على سِرِّه أنوار صحبة الرسول عليه السلام ، ووقع عليه شعاعُ أنواره ، واشتاق إلى الله تعالى لفَقْدِ قراره — أزال عنه لواعِجَه بما أخبره مِنْ قُرْبه — سبحانه — فاستبدل بالقلق سكوناً ، وبالشوق أُنْساً ، وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة .

ويقال كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثانى اثنين فى الظاهر بشبهه[1] ولكن كان مُسْتَهْلَكَ الشاهد فى الواجِد بِسِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ انفِروا خِفَافاً وثِقالاً وجاهِدوا بأموالِكم وأنفُسِكم فى سبيل اللهِ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾

أمرهم بالقيام بحقه ، والبدار إلى أداء أمره فى جميع أحوالهم .

« خفافا » يعنى فى حال حضور قلوبكم ، فلا يمسُّكم نَصَبُ المجاهدات .

« وثقالا » إذا رُدِدْتُم إليكم فى مقاساة تعب المكابدات . فإنَّ البيعةَ أُخِذَتْ عليكم فى (. . .)[2] و (. . .)[3] .

ويقال « خفافا » إذا تحررتم من رِقِّ المطالبات والاختيار ، « وثقالا » إذا كان على قلوبكم ثقل الحاجات ، وأنتم تؤمِّلُون قضاء الحقِّ مآرِبَكم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتَّبعوك ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ وسيحلِفون باللهِ لو استطعنا لَخَرَجْنَا معكم يُهْلِكون أنفُسَهم واللهُ يَعْلَمُ إنَّهم لكاذبون ﴾

---

(١) (بشبهه) هنا معناها بإنسان مثله ، أى كان أُنسه — فى الظاهر بصاحبه ، وعلى الحقيقة كان أُنْسُه بالله .
(٢) ، (٣) لفظتان مشتبهتان ، وربما كانتا بمعنى (حضوركم وغيبتكم) أو (قربكم وبعدكم) أو نحو ذلك .. فهكذا نفهم من السياق .

يريد به المتخلفين عنه فى غزوة « تبوك » ، بيَّنَ سبحانه أنه لو كانت المسافةُ قريبةً ، والأمرُ هيِّناً لَمَا تخلَّفوا عنك ؛ لأنَّ مَنْ كان غيرَ متحقِّقٍ فى قَصْدِه كان غيرَ بالغٍ فى جهده ، يعيش على حَرْفٍ ، ويتصرَّف بحرف ، فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه . وقال تعالى : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »[1] .

فإذا رأيتَ المريدَ يتَّبعُ الرُّخَصَ ويَجْنَحُ إلى الكسل ، ويتعلَّلُ بالتأويلاتِ . . فاعلَمْ أنه مُنْصَرِفٌ عن الطريق ، متخلِّفٌ عن السلوك ، وأنشدوا :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوصال وقال : كان وكانا

ومَنْ جَدَّ فى الطلب لم يُعَرِّج فى أوطان الفشل ، ويواصل السير والسُّرى ، ولا يحتشم من مقاساة الكدِّ والعناء ، وأنشدوا :

ثم قطعتُ الليلَ فى مهمةٍ ... لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبنى شوقى فأطوى السُّرى ... ولم يَزَلْ ذو الشوقِ مغلوبا

قوله : « وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم » : يمينُ المتعلِّلِ والمُتَأَوِّلِ يمينٌ فاجرةٌ تشهد بكذبها عيون الفراسة ، وتنفر منها القلوب ، فلا تجد من القلوب محلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لهم حتى يَتَبَيَّنَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبين ﴾

لم يكن منه صلى الله عليه وسلم خرْقُ حَدٍّ أو تعاطى محظورٍ ، وإنما (نذر)[2] منه ترك ما هو الأَوْلى . قدَّم الله ذِكْرَ العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب بقوله : « لِمَ أذنت لهم » .

أو مِنْ جواز الزَّلة على الأنبياء — عليهم السلام — إذ لم يكن ذلك فى تبليغ أمر

---

(١) آية ٢١ سورة محمد

(٢) هكذا فى (س) وربما كانت (بدر) فى الأصل أى صدر عنه أما (نذر) فتفيد (قل) منه ترك ما هو الأولى ، وكلاهما لا يرفضه السياق .

أو تمهيد شرع (بقول قائله أنشدوا بالعفو قبل أن وقف للعـذر)[1] وكذا سُنَّة الأحباب مع الأحباب ، قال قائلهم :

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندى ولا ضَرَّك مُغْتَابُ
كأنهم أثنَوْا — ولم يعلموا — عليكَ عنـدى بالذى عابوا

ويقال حسناتُ الأعداء — وإن كانت حسنات — فـكالمردودة ، وسيئات الأحباب — وإن كانت سيئات — فـكالمغفورة :

مَنْ ذا يؤاخِذُ مَنْ يحبُّ بِذَنْبِه وله شفيعٌ فى الفؤاد مُشَفَّع

قوله جل ذكره : ﴿ لا يستأذِنُكَ الذين يؤمِنون بالله واليومِ الآخِرِ أنْ يجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم واللهُ عليمٌ بالمتقين ﴾

المخلصُ فى عقده غيرُ مؤثِرٍ شيئاً على أمره ، ولا يدَّخر مستطاعاً فى استفراغ وُسْعِه ، وبَذْلِ جُهْدِه ، ومقاساة كَـدِّه ، واستعمال جِدِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يستأذنك الذين لا يؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ وارتابَتْ قلوبُهم فَهُمْ فى رَيْبِهم يترددون ﴾

مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلُّف فرصةً لِعَدَمِ إيمانه وتصديقه ، ولاستمكان الريبة من قلبه وسِرِّه . أولئك الذين يتقلبون فى ريبهم ، ويترددون فى شكِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أرادوا الخروجَ لأعَدُّوا له عُدَّةً ﴾

أى لو صدقوا فى الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولـكن سَقِمَتْ إرادتُهم ، فحصلت دون الخروج بَلادَتُهم ، وكذلك قيل :

لو صحَّ منكَ الهوى أُرْشِدْتَ للحِيَـلِ

---

(١) ما بين القوسين مثبت كما فى (ص) وفيه اضطراب ناشىء عن النسخ ، وربما كان شاهداً شعرياً معناه : (جاد بالعفو قبل الوقوف على العذر) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكن كَرِهَ اللهُ انبعاثَهم فثبَّطَهم
وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾

ألزَمَهم الخروجَ من حيث التكليف ، ولكن ثبَّتهم فى بيوتهم بالخذلان ؛ فبالإلزام دعاهم ، وبأمر التكوين أقصاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً
ولأوْضعوا خِلالَكم يَبْغُونكم
الفتنةَ ، وفيكم سمَّاعون لَهُمْ ، واللهُ
عليمٌ بالظالِمين ﴾ .

أخبر عن سابق علمه بهم ، وذكر ما علم أنه لا يكون أنْ لو كان كيف يكون ؛ فقال : ولو ساعدوكم فى الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم فى الفتنة بينكم ، والنميمة فيكم ، والسعى فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلُّفِهم من نقصان عددكم . ومَنْ ضررُه أكثرُ من نفعِه فَعَدَمُهُ خيرٌ مِنْ وجودِه ، ومَنْ لا يحصل منه شىء غيرُ شرورِه فتخلُّفُهُ أنفعُ مِنْ حضوره .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد ابتغَوا الفتنةَ مِن قَبْلُ وقلَّبوا
لَكَ الأمورَ حتى جاء الحقُّ وظهر
أمرُ اللهِ وهم كارِهون ﴾

إنَّهم وإنْ أظهروا وِفاقَكم فقد استبطنوا نِفاقكم ؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيْدِهم تشويشَ أموركم ، حتى كَشَفَ اللهُ عوراتِهم ، وفَضَحَهم ، حتى تَحَذَّرْتُم منهم بما تحققتم من أسرارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يقول ائذَنْ لِّى ولا تَفْتِنِّي
ألاَ فى الفتنة سقطوا وإن جهنَّم
لَمُحِيطة بالكافرين ﴾

أبرزوا قبيحَ فِعالِهم فى مَعْرِض التخرج ، وراموا أنْ يُلَبِّسُوا على الرسول — صلى الله وسلم وعلى آله — وعلى المسلمين خُبث[1] سيرتهم وسريرتهم ، فَبَيَّنَ الله أنَّ الذين (...)[2] بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم ، وكذلك المتجلِّدُ بما يهواه متطوح فى وادى بلواه ، وسَيَلْقَ فى الآخرة من الهوَان ما يُغْنِي عن الحاجة إلى البرهان .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهم وإن تُصِبْك مصيبةٌ يقولوا قد أخَذْنا أمْرَنا مِن قَبْلُ ويتولَّوْا وهم فَرِحون ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى ، ولا يَسُرُّ قلبَه غيرُ حلولِ البلوى ، ولادواء لجروح الحسود ؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا :

كلُّ العداوةِ قد تُرْجَى إماتَتُها إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حَسَدِ

وإن اللهَ تعالى عَجَّلَ عقوبةَ الحاسد ، وذلك : حزنُ قلبِه بسلامة محسوده ؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لن يُصِيبَنَا إلا ما كتبَ اللهُ لنا هو مولانا وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾

المؤمِن لا تلحقُه شماتةُ عدوِّه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليِّه ، فهو يتحقق أنَّ ما يناله مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبِه ما يهواه ، ويستقبله بروْح رضاه فيَعْذُبُ عنده ما كان يَصْعُبُ مِنْ بلواه ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فما لِجُرْحٍ — إذا أرْضَاكُمُ — أَلَمُ

---

(١) وردت (حيث) وهى خطأ فى النسخ

(٢) مشتبهة .

(٣) أى جزاء معجل فى هذه الدنيا ؛ فعند التشيرى اصطلاحان : نقد (هنا فى الدنيا) ، ووعد (فى الآخرة) والسياق يؤدى إلى أن الجزاءين نقد .

ويقال شهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تَعَبَ كلِّ عسير .

قوله : « هو مولانا » : تعريفٌ للعبد أن له — سبحانه — أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ فى مُلْكِه، فهو يبْدِى ويُجْرِى ما يريد بحقِّ حُكْمِه .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم نسيانُ أمورِك بما يَغْلِبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكل سكونُ السِّرِّ عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها يتساوى الحلوُ والمرُّ ، والنعمةُ والمحنةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

بَيَّنَ اللهُ فى هذه الآية الفرْقَ بين المؤمنين وبين الكفار ، فقال قُلْ للذين ينتظرون : أيها الكفار (إن كان[1]) من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم فى القتال ، أو أنَّ القَتْلَ ينالهُم فأىُّ واحدٍ من الأمْرَيْن ينالهم فهو لهم من الله نعمة ؛ لأنَّا إنْ ظَفِرْنا بكم فَنَصْرٌ وغنيمة ، وعِزٌّ للدِّين ورفعة ، وإنْ قُتِلْنَا فشهادةٌ ورحمة ، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى . وإنْ كان الذى يصيبنا فى الدنيا هزيمةٌ ونكبةٌ ، فذلك مُوجِبٌ للأجْرِ والمثوبة ، فإذاً لن يستقبِلَنا إلا ماهو حُسْنَى ونعمة .

وأمَّا أنتم ، فإنْ ظَفِرْنَا بكم فتعجيلٌ لذُلِّكم ومحنة ، وإن قُتِلْتُم فعقوبةٌ من اللهِ وسخطة ، وإن كانت اليد لكم فى الحال فخذلانٌ من اللهِ ، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نقمة .

ويقال « هل تربصون بنا إلا إحدى الْحُسْنَيَيْنِ » إمَّا قيامُ بحقِّ الله فى الحال فنكون بوصف الرضاء وهو — فى التحقيق — الجنةُ الكبرى ، وإمَّا وصولٌ إلى الله تعالى فى المآل بوصف الشهادة ، ووجدان الزلفى فى العقبى وهى الكرامة العظمى .

---

(١) سقطت (إن كان) والمعنى يتطلبها

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أنفِقُوا طوْعاً أو كَرْهاً
لَّن يُتَقَبَّلَ منكم إنَّكم كنتم قوماً
فاسقين ﴾

المردودُ لا يُقبلُ منه توصُّل[1] ، ولا يُغَيِّرُ حُكمُ شقاوته بتكثير التكلُّف والتعمل .

ويقال تقرُّبُ العدوِّ يوجِبُ زيادةَ المقت له ، وتحبُّبُ الحبيب يقتضى زيادةَ العطف عليه ، قال تعالى : « فأولئك يُبَدِّل اللهُ سيئاتهم حسناتٍ . »[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَهم أن تُقْبَلَ منهم نَفَقَاتُهم
إلا أنهم كفروا باللهِ وبرسولِه
ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسَالَى
ولا يُنفِقُونَ إلا وهم كارهون » .

فقدوا الإخلاصَ فى أموالهم فعدموا الاختصاص فى أحوالهم ، وحُرِموا الخلاصَ فى عاجلهم وفى مآلهم .

قوله : « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » : مَنْ أطاعَ من حيث العادة — مِنْ غَيْرِ أن تحملَه عليها لوعةُ الإرادة — لم يَجِدْ لطاعته راحةً وزيادة .

ويقال مَنْ لاحَظَ الخَلْقَ فى الجهر من أعماله ، ورَكَنَ إلى الكسلِ فى السِّرِّ من أحواله فقد وُسِمَ بالخذلان ، وخُتِمَ بالحرمان ، وهذه هى أمارة الفرقة والقطيعة ، قال تعالى : « ومكروا ومكر الله واللهُ خير الماكرين » .[3]

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ ولا أولادُهم
إنَّما يريد اللهُ ليُعَذِّبَهم بها فى
الحياة الدنيا وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم
كافرون ﴾ .

---

(١) لا نستبعد أنها تكون (توسل) بدليل ما بعدها ، والمراد يحتمل كليهما .
(٢) آية ٧٠ سورة الفرقان .
(٣) آية ٥٤ سورة آل عمران

بَيَّنَ أن ما حسبوه نعمة واعْتَدُّوه من الله مِنَّةٌ فهو — فى التحقيق — مِحْنَةٌ ، وسببُ شقاء وفُرْقة ، وإنما دَسَّ التقديرُ لهم سُمومَ الصَّابِ ، فيما استلذوه من الشرابِ ؛ « أيحسبون أن ما نُمِدُّهُمْ به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَحْلِفُون باللهِ إنَّهُمْ لَمِنكُمْ وما هم مِنكُمْ ولكنَّهم قومٌ يَفْرَقُون﴾ .

التَّقَرُّبُ بالأَيْمانِ الفاجرةِ لا يوجِبُ للقلوب إلا بُعْداً عن القُبول .

ويقال إنَّ إظهارَ التلبيس لا (. . .)[2] الأسرارَ بَرْدُ السكون ، ولا يَشْفِي البصائر بِرْدُ الثقة واليقين . . فما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ أبداً ، وما هو كائنٌ سيكون .

قوله جل ذكره : ﴿ لو يَجِدُون مَلْجَأً أو مَغَارَات أو مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون﴾.

إن المماذِقَ[3] فى الخُلَّة ينسلُّ عن سِلْكِها بأضعف خلَّة ، وإنْ وَجَدَ مهرباً آوَى إليه ، ويأمل أن ينال فرصةً ما يتعلَّلُ بها عند ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يَلْمِزُكَ فى الصدقاتِ فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لَّمْ يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون ﴾ .

أولئك أصحابُ الأطماع ؛ يتملقون فى الظاهر ما دامت الأرفاقُ واصلةً إليهم ، فإن انقطعَتْ انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة .

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب ، وسُخْطُه فى عدم ما يوصِّله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء ، إنما هو قائمٌ بحظِّه ، غيرُ صالحٍ للصحبة ، وأمَّا المتحقِّقُ فكما قيل :

فَسِرْتُ إليكَ فى طلبِ المعالى وسَارَ سِوَاىَ فى طلب المعاشِ

قوله جل ذكره : ﴿ولو أنَّهم رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسولُه

---

(١) آية ٥٦ سورة المؤمنون (٢) مشتبهة .

(٣) مذق فلان فى الود أى لم يخلص ، والمذاق الكذوب الملول . والمقصود أن من لم يخلص فى مودته يتصل بأضعف صفة ولأقل شىء .

وقالوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينا اللهُ من
فضلِه ورسولُه إنَّا إلى اللهِ راغبون﴾ .

لو وقفوا مع الله بِسِرِّ الرضا لأَتَتْهُم فنونُ العطاء وتحقيقات المنى ، ولحفظوا مع الله — عند الوجدان[1] — مالهم من الأدب ، من غير معاناة تَعبٍ ، ولا مُقاساة نَصَبٍ .. ولكنَّهم عَرَّجُوا فى أوطانِ الطمعِ فوقعوا فى الذُّلِّ والحَرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ
والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهم وفى
الرقابِ ﴾ [2]

تكلَّم الفقهاء فى صفةِ الفقيرِ ، والفرقِ بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه فى قسمة الزكاة المفروضة . . فأبو حنيفة رحمة الله عليه — يقول : المسكينُ الذى لاشىء له . والفقيرُ الذى له بُلْغَةٌ من العيش .

ويقول الشافعى رحمة الله عليه : الفقير الذى لا شىء له ، والمسكين الذى له بُلْغَةٌ من العيش — أى بالعكس .

وأهل المعرفة اختلفوا فيه ؛ فمنهم من قال بالأول ، ومنهم من قال بالقول الثانى ، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء ؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه . فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أَوْلى ، قالوا إن الله تعالى جعل ذلك مِلْكا للفقير ، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه .

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام ، ورأوا الإيثار على الإخوان أَوْلى من أن يزاحموا أرباب السهمان — مع احتياجهم أخذ الزكاة — وقالوا : نحن آثرنا الفَقْرَ اختياراً . فَلِمَ نأخذ الزكاة المفروضة ؟

---

(١) أى عند وجود النعمة

(٢) نلفت النظر إلى أهمية موقف القشيرى عند استخراج إشارات من هذه الآية الكريمة ، فقد كانت فرصة جيدة لكى يقارن بين نظرة الفقهاء ونظرة الصوفية

ثم على مقتضى أصولهم فى الجملة — لا في أخذ الزكاة — للفقر مراتب :

أوّلُها الحاجةُ ثم الفقرُ ثم المسكنةُ ؛ فذو الحاجة مَنْ يرضى بدنياه وتسدُّ الدنيا فقرَه ، والفقير مَنْ يكتفى بعقباه وتجبُرُ الجنةُ فقرُه ، والمسكين مَنْ لا يرضى بغير مولاه ؛ لا إلى الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بغير مولاه يكتفى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحيني مسكيناً وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين »[1] وقال صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر » لأن عليه بقية[2] ؛ فهو ببقيته محجوبٌ عن ربّه .

ويحسن أن يقال إن الفقر الذى استعاذ منه ألا يكون له منه شىء ، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلْغَةٌ ليتفرّغَ بوجود تلك البلغة إلى العبادة ؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شَغَلَه فَقْرُه عن أداء حقّه ، ولذلك استعاذ منه .

وقوم سَمَتْ هِمَمُهم عن هذا الاعتبار — وهذا أَوْلى بأصولهم — فالفقير الصادق عندهم مَنْ لا سماء تُظِله ولا أرضَ تُقِلُّه ولا معلومَ يشغله ، فهو عبدٌ بالله لله ، يردُّه إلى التمييز فى أوان العبودية ، وفى غير هذا الوقت فهو مُصطلَمٌ عن شواهده ، واقِفٌ بربّه ، مُنْشَقٌّ عن جملته .

ويقال الفَقيرُ من كُسِرَتْ فقاره — هذا فى العربية .

والفقير — عندهم[3] — مَنْ سَقَطَ اختياره ، وتعطلت عنه دياره ، واندرست — لاستيلاء مَنْ اصْطَلَمَه — آثارُه ، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخبارُه ، وأنشدوا :

أمّا الرسومُ فَخَبَّرتْ أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذى أسكنه حالُه بباب مقصوده ، لا يبرح عن سُدَّته ، فهو مُعْتَكِفٌ بقلبه ، لا يغفل لحظةً عن ربّه .

---

(١) الترمذى ، وابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى والحاكم وقال صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانى بسند رجاله ثقات عن عبادة بن الصامت .

(٢) التفت السهروردى إلى ذلك حين ميز بين الفقير والصوفى فقال إن الفقير يتطلع إلى الأعواض ، أما الصوفى فيترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته ، والفقير له إرادة فى اختيار فقره ، أما الصوفى فلا إرادة بنفسه ولكن فيما يوقفه الحق (عوارف المعارف ص ٤٢) .

(٣) أى عند أرباب الأحوال .

وأمّا « العاملون عليها » فعلى لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة . وعلى لسان الإشارة : أوْلَى الناس بالتصاون عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ فى أعماله لله ، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عِوَضاً ، ولا يتطلبون فى مقابلة أحوالهم عَرَضًا ، وأنشدوا :

وما أنا بالباغى على الحب رِشْوَةً قبيحٌ هوىً يُرجَى عليه ثواب[1]

وأمّا المؤلَّفةُ قلوبهم — على لسان العلم — فمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه ، ليتوفَّر فى الدين نشاطُه ؛ فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم ، وبيان ذلك مشهورٌ فى مسائل الفقه .

وحاشا أن يكون فى القوم[2] مَنْ يكون حضورُه بسبب طَمَعٍ أو لنَيْل ثوابٍ أو لرؤية مقام أو لاطلاع حال . . فذلك فى صفة العوام ، فأما الخواص فكما قالوا .

من لم يكن بك فانياً عن حظه وعن الهوى والإنْسِ والأحباب
أو تيمته صبابة جمعت له ما كان مفترقاً من الأسباب.
فلأنْ بين المراتب واقفٌ لِمَنَالِ حظٍّ أو لحُسْنِ مآبِ[3]

قوله جل ذكره : ﴿ وفى الرِّقاب ﴾

وهم على لسان العلم : المكاتَبُون ، وشرحه فى مسائل الفقه معلوم .

وهؤلاء[4] لا يتحررون ولهم تعريج على سبب ، أو لهم فى الدنيا والعقبى أرب ، فهم لا يستفزُّهم طلب ، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقى عليه درهم » ، وأنشد بعضهم :

أتمنى على الزمان مُحَالاً أنْ ترى مقلتاى طَلْعَةَ حُرِّ

قوله جل ذكره : ﴿ والغارمين ﴾

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دَيْنٌ فى غير معصية .

---

(١) البيت للمتنبى من بائيته التى أولها : منى كن لى أن البياض خضاب
(٢) القوم هنا مقصود بها أرباب الأحوال .
(٣) الأبيات لأبى على الروزبارى (اللمع ص ٤٣٥)
(٤) وهؤلاء هنا مقصود بها أيضا ارباب الأحوال .

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق[1] ، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقْضَى دَيْنُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وفى سبيل الله ﴾

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيلَ الله وَجبَ له فى الزكاة سهمٌ على ماجاء بيانُه فى مسائل الفقه .

وفى هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيلَ الله تتوجَّبُ عليه المطالبات ؛ فيبذل أولاً مالَه ثم جاهَه ثم نَفْسه ثم روحَه . . وهذه أول قَدَمٍ فى الطريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وابن السبيل ﴾

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع فى الغُربة ، وفارَقَ وطنَه على أوصاف مخصوصة .

وعند القوم: إذا تغَرَّبَ العبدُ عن مألوفات أوطانه فهو فى قِرَى[2] الحقِّ ؛ فالجوعُ طعامُه ، والخلوةُ مجلسُه ، والمحبةُ شرابُه ، والأُنْسُ شهوده ، والحقُّ — تعالى — مشهودُه . قال تعالى : « وسقاهم ربُّهم شرابا طهوراً »[3] : لقومٍ وَعْدٌ فى الجنة ، ولآخرين نَقْدٌ فى الوقت ؛ اليومَ شرابُ المحابِّ وغداً شراب الثواب ، وفى معناه أنشدوا :

وَمُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا ... وأعمى سقيناه ثلاثاً فأبْصَرَا
وأخرسَ لم ينطِقْ ثلاثين حِجَّةً ... أدَرْنا عليه الكأسَ يوماً فأخبرا

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم الذين يُؤْذُون النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ ﴾

عين العداوة بالمساوىء مُوَكَّلَة ، وعين الرضا عن المعايب كليلة .

بسطوا اللائمة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعابوه بما هو أمارة كرمه ، ودلالة فضله ،

---

(١) أى أن دينهم ليس يقضى أبداً إذ أمره بيد مالكهم .
(٢) القرى = الضيافة والإكرام .
(٣) آية ٢١ سورة الإنسان

فقالوا : إنه بحسن خُلُقِه يسمع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمن غِرٌّ كريم والمنافق خَبٌّ لئيم »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم يؤمنُ باللهِ ويؤمنِ للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم والذين يُؤْذُونَ رسولَ اللهِ لهم عذابٌ أليم ﴾

وقيل : مَنْ العاقلُ ؟ قالوا : الفَطِنُ المُتَغافِل . وفى معناه أنشدوا :

وإذا الكريمُ أتيتَه بخديعةٍ ولقِيتَه فيما تروم يُسارِعُ
فاعلمْ بأنَّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً إنَّ الكريمَ ـ بفضله ـ يتخادع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْلِفُونَ باللهِ لكم لِيُرْضُوكم واللهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرْضُوه إن كانوا مؤمنين ﴾

أخبر أنَّ من تزيَّن للخَلْق ، وتقرَّب إليهم وأدامَ رضاهم ، واتَّبَعَ فى ذلك هواهم ، فإن اللهَ سبحانه يُسْقِط به عن الخَلْق جاهَهُم ، ويُشِينُهم فيما توهَّموا أنه يزينهم ، والذى لا يَضِيعُ ما كان لله ، فأمَّا ما كان لغير الله فوَبَالٌ لِمَنْ أصابه ، ومُحالٌ ما طَلَبَه .

ويقال إنَّ الخَلْق لا يصدقونك وإنْ حَلَفْت لهم ، والحقُّ يَقْبَلُكَ وإنْ تخلَّفْتَ عنه ؛ فالاشتغالُ بالخَلْقِ محنةٌ أنت غيرُ مأجورٍ عليها ، والإقبالُ على الحقِّ نعمةٌ أنت مشكورٌ عليها . والمغبونُ مَنْ تَرَكَ ما يُشْكَرُ عليه ويُؤْثِر ما لا يؤجَرُ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّه مَن يُحَادِدِ اللهَ ورسولَه فأنَّ له نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فيها ذلك الخِزْىُ العظيم ﴾

---

(١) فى رواية الترمذى والحاكم عن أبى هريرة « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » (والخَبُّ = الخَدِيع) وفى الحديث : « لا يدخل الجنة خب ولا خائن »

مَنْ كَفَرَ بالله وأشرك فى توحيده بإثباتِ موهومٍ استحق ما هو حقٌّ لله : تعجَّلُ عقوبته فى الحال بالفُرقة ، وفى المآلِ بالخلود فى الحرقة .

فليس كلُّ مَنْ مُنِي[1] بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة ، وأنشدوا :

غداً يَتَفَرَّقُ أهلُ الهوى ويكْثُر باكٍ ومُسْتَرْجِع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْذَرُ المنافِقُون أن تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهم بما فى قلوبهم ، قُلِ اسْتَهْزِئوا إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون ﴾

ظَنُّوا أنَّ الحقَّ — سبحانه — لا يفضحهم ، قدلَّسُوا عليكَ ، وأنكروا ما انطوت عليه سرائرهم ، فأرخى[2] اللهُ — سبحانه — عنانَ إمهالهم ، ثم هتك الستر عن نفاقهم ؛ فَفَضَحهم عند أهل التحقيق ، فتقنعوا بخِمار الخجل ، وكشف لأهل التحقيق مكامنَ الاعتبار . ونعوذ بالله من عقوبة أهل الاغترار ! « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن سألتَهم ليَقُولُنَّ إنَّما كُنَّا نخوضُ ونلعبُ قُلْ أبِاللهِ وآياتِه ورسوله كنتم تستهزِئون ﴾ .

مَنْ استَهانَ بالدِّين ، ولم يَحتَشِمْ مِنْ تَرْكِ حُرْمةِ الإسلام جعله الله فى الحال نكالاً ، وسامَه فى الآخرة صَغَراً وإذلالا ، والحقُّ — سبحانه — لا يرضى دون أن يذيق العُتَاةَ بَأْسَه ، ويَسْقِيَ كُلّاً — على ما يستوجبه — كأسَه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَعْتَذِروا قد كَفَرْتُم بعد إيمانِكم

---

(١) وردت (مسنى) وهى خطأ فى النسخ وربما كانت (مسته)
(٢) وردت (فأرضى) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) آية ٥٤ سورة آل عمران .

إن نَعْفُ عن طائفةٍ منكم نُعَذِّب
طائفةً بأنهم كانوا مجرمين ﴾[1] .

جرَّدَ العفوَ والعذابَ من عِلَّة الجُرْمِ ، وسببَ الفِعْل مِنْ حُجَّةِ العبد ؛ حيث أحالَ الأمر على المشيئة . . إذ لو كان للوجِبُ لعفوِه أو تعذيبِه صفةَ العبد لَسَوَّى بينهم عند تساويهم فى الوصف ، فلمَّا اشتركوا فى الكفر بعد الإيمان ، وعفا عن بعضهم وعذَّب بعضَهم دَلَّ على أنه يفعل ما يشاء ، ويختصُّ من يشاء بما يشاء[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم مِّن
بعضٍ يأمرون بالمُنْكَر ويَنْهَوْن
عنِ المعروفِ ﴾ .

المؤمنُ بالمؤمنِ يَتَقَوَّى ، والمنافقُ بالمنافق يتعاضد ، وطيور السماء على ألاَّفِها تَقَعُ . فالمنافِقُ لصاحبه أسٌّ[3] به قوامه ، وأصلٌ به قيامه ؛ يُعِينُه على فساده ، ويُعَمِّى عليه طريقَ رشادِه .

والمؤمنُ ينصر المؤمنَ ويُبَصِّرُه عيوبَه ، ويُبَغِّضُ لديه ويُقَبِّحُ — فى عينه — ذنوبَه ، وهو على السدادِ يُنْجِدُه ، وعن الفسادِ يُبْعِده .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقبِضون أيدِيَهم ﴾ .

عن طلب الحوائج من الله تعالى

قوله جل ذكره : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ .

جازاهم على نسيانهم ، فسمَّى جزاء النسيانِ نسياناً . . تركوا طاعتَه ، وآثروا مُخالَفتَه ، فَتَرَكَهُم وما اختاروه لأنفسهم ، قال تعالى : « وتَرَكَهم فى ظُلماتٍ لا يبصرون » .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ أنهى الآية : (بأنهم كانوا مجرمون) .
(٢) هذه لفتة هامة تشير إلى المذهب الكلامى عند التشيرى فيما يتصل بوجوب الإثابة أو العقوبة على الله وعدم وجوبهما .
(٣) الأس بفتح الألف وضمها وكسرها : أصل البناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والكفارَ نارَ جهنمَ خالدين فيها هى حَسْبُهُم ، ولَعَنَهُم اللهُ ولهم عذابٌ مُقيم ﴾ .

وَعَدَهم النارَ فى الآخرة ، ولهم العذابُ المقيمُ فى الحاضرة ، فمؤجَّلُ عذابِهم الحُرقةُ ، ومُعَجَّلُه الفُرقةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ كالذين مِن قبلِكم كانوا أشَدَّ منكم قوةً وأكثرَ أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بِخَلاقِهم ، فاستمتعتُم بخلاقِكم كما استمتع الذين مِن قبلِكم بخلاقهم ، وخُضتُم كالذى خاضوا ، أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم فى الدنيا والآخرةِ وأولئك هم الخاسرون ﴾ .

يقال : سلكتم طريقَ مَنْ قَبْلَكم من الكفار وأهل النفاق وقد كافأناهم . ويقال الذين تقدموكم زادوا عليكم فكافأناهم كما نكافىء أهل الشقاق والنفاق ؛ فى كثرة المدَّةِ وقوةِ العُدَّةِ ، والاستمتاع فى الدنيا ، والاغترار بالانخراط فى سِلْك الهوى . . ولكن لم تَدُمْ فى الراحة مُدَّتُهم ، ولم تُغْنِ عنهم يومَ الشِدَّةِ عُدَّتُهم ، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُم ما لَحِقَ بالذين هم قبلكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يأتِهم نبأُ الذين مِن قَبْلهم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ ابرهيم وأصحابِ مدين والمؤتفكات أتَتْهم رُسُلُهم بالبيناتِ فما كان اللهُ

لِيَظْلِمَهم ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمُون ﴾ ..

ألم يَنْتَهِ إليهم خبرُ القرون الماضية ، ونبأُ الأمم الخالية كيف دَمَّرْنا عليهم جَمْعَهُم ، وكيف بَدَّدْنا شمْلَهم ؟ قَضَيْنا فيهم بالعَدْل ، وحَكَمْنا باستئصالِ الكُلِّ ، فلم يَبْقَ منهم نافخُ نار ، ولم يحصلوا إلاَّ على عارٍ وشنار .

قوله جل ذكره : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياء بعضٍ يأمرون بالمعروفِ وينهَوْن عنِ المُنكرِ ويقيمون الصلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ ويطيعون اللهَ ورسولَه أولئك سيرحمهم اللهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾

يُعين[1] بعضُهم بعضاً على الطاعات ، ويتواصَوْن بينهم بترك المحظورات ؛ فتَحَابُّهم في الله ، وقيامُهم بحقِّ الله ، وصحبتُهم لله ، وعداوتُهم لأجلِ الله ؛ تركوا حظوظَهم لحقِّ الله ؛ وآثروا على هواهم رِضاء الله . أولئك الذين عَصَمَهم اللهُ في الحالِ ، وسيرحمهم في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ومَسَاكِنَ طيبةً فى جناتِ عَدْنٍ ورضوانٌ منَ الله أكبر ذلك هوالفوزُ العظيمُ ﴾

وَعَدَهُم جميعاً الجنةَ ، ومساكنَ طيبة ، ولا يطيب المَسْكَنُ إلا برؤيةِ المحبوبِ ، وكلُّ مُحِبٍ يطيب مَسْكَنُه برؤية محبوبه ، ولكنهم مختلفون فى الهمم ؛ فَمِنْ مربوطٍ بحظٍّ مردودٍ إلى الخلْقِ ، ومِنْ مجذوب بحقٍّ موصول بالحق ، وفى الجملة الأمر كما يقال :

---

(١) وردت (يعنى) وهى خطأ فى النسخ .

أجيرانَنا ما أوحشَ الدارَ بَعْدَكُمْ إذا غِبْتُمُ عنها ونحن حضورُ !

ويقال قومٌ يطيب مسكنُهم بوجودِ عطائِه ، وقومٌ يطيب مسكنُهم بشهود لقائه ، وأنشدوا :

وإنِّى لَأَهْوَى الدارَ لا يستترُ لى بها الودُّ إلا أنَّها من دِيارِكا

ثم قال : « ورضوانٌ من الله أكبر » : وأمارةُ أهلِ الرضوانِ وجدانُ طَعْمِهِ ؛ فهم فى روْح الأُنْسِ ، وروْح الأُنْسِ لا يتقاصر عن راحة دار القُدْس بل هو أتمُّ وأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾

دعا نَبِيُّنا — صلى الله عليه وسلم — كافةَ الخلقِ إلى حُسْنِ الخُلُق .

قال لموسى عليه السلام : « قولا له قولاً لَيِّنًا »[1] .

وقال لنبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — : « واغلُظْ عليهم »[2] ويقال إنما قال هذا بعد إظهار الحجج ، وبعد ما أزاح عُذْرَهُم بأيام المهلة ؛ ففى الأول أمَرَه بالرِّفق حيث قال : « إنما أعظكم بواحدة »[3] ، فلما أصروا واستكبروا أمَرَه بالغِلظة عليهم . والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان ، وإيضاح الحجج والبيان ، ثم إنْ حَصَلَ من العدوِّ جُحْدٌ بعد إزاحة العذر ، فبالوعيد والزجر ، ثم إنْ لم ينجعْ الكلامُ ولم ينفع الملامُ فالقتالُ والحربُ وبَذْلُ الوسعِ فى الجهاد .

قوله جل ذكره : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمةَ الكُفر ، وكفروا بعد إسلامهم ﴾

---

(١) آية ٤٤ سورة طه .
(٢) آية ٩ سورة التحريم .
(٣) آية ٤٦ سورة سبأ .

تَستَّروا بأيْمانِهم فَهَتَكَ اللهُ أستارهم وكشف أسرارهم .

قوله : « ولقدْ قالوا كلمة الكفر » : وهى طَعْنُهُم فى نُبوَّةِ رسولِ الله -- صلى الله عليه وسَلَّم . وكلُّ مَنْ وَصَفَ المعبودَ بصفاتِ الخَلْق أو أضاف إلى الخَلْق ما هو من خصائص نعت الحقِّ فقد قال كلمة الكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَمُّوا بما لم يَنَالوا وما نَقَمُوا إلاَّ أن أغناهم اللهُ ورسولُه مِن فَضْلِه ﴾

أى أظهروا من شعار الكفر ما دَلَّ على جُحْدِهم بقلوبهم بعد ما كانوا يُظْهِرون الموافقة والاستسلامَ ؛ وهمُّوا بما لم ينالوا من قتلٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سوَّلت أنفسهم أنه يُخْرِجَ الأَعَزُّ منها الأذلَّ ، وغير ذلك .

يقال تمنوا زوالَ دولةِ الإسلام فأبى اللهُ إلا إعلاء أمْرِها .

ثم قال : « وما نَقَمُوا إلا أنْ أغنَاهم الله ورسوله » : أى ما عابوه إلا بما هو أَجلُّ خصاله ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للمكافة بما لا عذر لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن يتوبوا يَكُ خيراً لهم وإن يتولَّوْا يُعَذِّبْهم اللهُ عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ومالهم فى الأرضِ مِن ولىٍّ ولا نصير ﴾

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقْدة الإصرار عن القلب ، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء .

قوله جل ذكره ﴿ ومنهم مَّنْ عاهَدَ اللهَ لئن آتانا من فضلِه لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين * فلمَّا آتاهم مِّن فضلِه بَخِلُوا به وتَوَلَّوا وهم مُّعْرِضون ﴾

منهم مَنْ أكَّدَ العَقْدَ مع الله ، ثم نَقَضَه ، فَلَحِقَه شُؤْمُ ذلك ؛ فَبَقِيَ خالداً فى نِفاقِه .

ويقال تطلَّبَ إحسانَ ربِّه ، وتقرَّبَ إليه بإبرام عهده فلمَّا حقَّقَ اللهُ مسئولَه واستجاب مأمولَه ، فَسَخَ ما أبرمه ، وانسلخ عما التزمه ، واستولى عليه البُخْلُ ، فَضَنَّ بإخراج حقه ، فَلَحِقَه شؤمُ نِفاقِه ، بأن بَقِيَ إلى الأبد فى أَسْرِه .

وحدُّ البخل — على لسان العلم — مَنْعُ الواجب . وبُخْلُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، وكلُّ مَنْ آثر شيئاً من دون رضاء ربِّه فقد اتصف ببخله ، فَمَنْ يَبْخَلْ بماله تَزُلْ عنه البركةُ حتى يئول إلى وارثٍ أو يزول بحارث . ومَنْ يبخلْ بنَفْسِه ويتقاعس عن طاعته تفارقه الصحةُ حتى لا يستمتع بحياته . والذى يبخل بروحِه عنه يُعاقَبُ بالخذلان حتى تكون حياتُه سبباً لشقائه .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ فأعْقَبَهُم نِفَاقاً فى قلوبهم إلى يومِ يلقَوْنَه بما أخلفوا اللهَ ما وَعَدُوه وبما كانوا يَكْذِبون ﴾

أعقبهم ببخلهم نفاقاً فى قلوبهم ، ويصحُّ أعقبهم الله نفاقاً فى قلوبهم ، وفى الجملة : مَنْ نَقَضَ عهده فى نفسه رفض الودَّ من أصله ، وكلُّ من أظهر فى الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق بقسطه . والمنافق فى الصف الأخير فى دنياه ، وفى الدَّرْكِ الأسفل من النار فى عقباه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يعلموا أنَّ اللهَ يعلمُ سِرَّهم ونجواهم وأنَّ اللهَ عَلَّامُ الغيوب ﴾

خوَّفَهم بعلمه كما خوَّفهم ببطشه فى أكثر من موضعٍ من كتابه .

و « سِرُّهم » مالا يطلع عليه غير الله .

و « نجواهم » ما يتسارُّون بعضهم مع بعض . ويحتمل أن يكونَ ما لنفوسهم عليه إشرافٌ من خواطرهم[1]

---

(١) يقول القشيرى فى رسالته فى معنى « السر » هو محل المشاهدة كما ان الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف . وقالوا السر مالك عليه إشراف ، وسر السر مالا اطلاع عليه لغير الحق .
(الرسالة ص ٤٨)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَلْمِزُون المُطَّوِّعينَ مِنَ المؤمنين في الصدقاتِ والذين لا يجدون إلا جُهْدَهم فَيَسْخَرون منهم سَخِرَ اللهُ منهم ولهم عذابٌ أليم ﴾

عابوا الذين قَصُرَتْ أيديهم عن الإكثار في الصَدَقة وجادوا بما وصَلَتْ إليه أيديهم ، فَشَكَرَ اللهُ سَعْيَ مَنْ أخلصَ في صدقته بعدما عَلِمَ صدْقَه فيها . وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ مِنْ كثيرِ أهلِ النفاقِ .

ولَمَّا أوجدوا[1] المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللهُ — سبحانه وتعالى — نفْسَهُ بما يستحيل في وصفه — على التحقيق — وهو السخرية بأحدٍ . تطييباً لقلوبِ أوليائه ، فقد تقدَّس عن ذلك لعِزَّة ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ استَغْفِرْ لهم أوْ لاتَسْتغفرْ لهم إن تَسْتَغْفِرْ لهم سبعين مرةً فلَن يغفِرَ اللهُ لهم ذلك بأنَّهم كَفَرُوا باللهِ ورسولِه واللهُ لا يهدى القومَ الفاسقين﴾

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشِركِ والنفاق ، فلا تنفعهم الوسائل ، ولا ينتعش منهم الساقط .

ويقال مَنْ غَلَبَتْه شِقْوتُنا لم ينفعه (تضرعه)[2] ودعوته .

ويقال صريعُ القدرة لا يُنْعِشُهُ الجُهد والحيلة .

---

(١) (أوجدوا) أى سببوا لهم حفيظة وألماً .

(٢) وردت (تضر) بعدها عين مغلقة وهاء ساقطة وقد أكملناها (تضرعه) لملاءمتها للسياق ، ولانسجامها مع (دعوته) بمعنى دعائه واستغفاره لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رسولِ اللهِ وكَرِهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسِهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفِرُوا فى الحرِّ قُلْ نارُ جهنَّمَ أشَدُّ حرًّا لو كانوا يفقهون ﴾

استحوذ عليهم سرورُهم بتخلفهم ، ولم يعلموا أن ثبورَهم فى تأخرهم وما آثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج فى صحبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فنزع الله الراحةَ بما عاقَبَهم ، وسَيَصْلَوْنَ سعيراً فى الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم ، وسوف يتحسرُّون ولاتَ حينَ تحسُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قليلاً وَلْيَبْكُوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسِبُون ﴾

بَدَّل الله مَسَرَّتهم بِحَسْرةٍ ، وفَرْحَتَهم بتَرْحَةٍ ، وراحتهم بِعَبْرَةٍ ، حتى يكثر بكاؤهم فى العُقبى كما كثر ضحكُهم فى الدنيا ، وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بربِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن رَّجَعَكَ اللهُ إلى طائفةٍ منهم فاستأذنوك للخروج فَقُلْ لَّن تَخْرُجوا معى أبداً ولَن تُقَاتِلوا معى عَدوًّا إنَّكم رَضِيتُم بالقعودِ أوَّلَ مرةٍ فاقعدوا مع الخالِفين ﴾

يقول : بعدما ظهرت خيانتُهم ، وتقرر كذبهم ونفاقهم ، لا تَنْخَدِعْ بتملقهم ، ولا تَثِقْ بقولهم ، ولا تُمَكِّنْهم مِنْ صُحبتك فيما يُظْهِرونه مِنْ وفاقك[1] . فإذا وَهَنَ سِلْكُ العهدِ فلا يَحْتَمِلُ بَعْدَه الشَّدَّ ، وإذا اتسع الخَرْقُ لا ينفع بَعْدَه الرَّقْعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُصَلِّ على أحَدٍ منهم مَاتَ أبداً

---

(١) سقطت الواو من (وفاقك) .

ولا تَقُمْ على قَبرِه إنَّهم كفروا باللهِ
ورسولِه ، وماتوا وهم فاسِقون ﴾[1]

ليس بعد التَّبَرِّى التولى ، ولا بعدَ الفراق الوفاق ، ولا بعد الحجبة قربة . مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساغ ، أو لظنِّهم تحقيق ، ولكن سَبَقَ لهم القضاء بالشقاوة ، ونعوذ بالله مِنْ سوءِ الخاتمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم
إنَّما يُرِيدُ اللهُ أن يُعَذِّبَهم بها فى الدنيا
وتَزْهَقَ أنفُسُهُم وهم كافِرون ﴾

يقول لا تحسبنَّ تمكينَ أهل النِّفاق مِنْ تنفيذ مرادهم ، وتكثيرَ أموالهم إمداء معروفٍ منَّا إليهم ، أو إسباغَ إنعامٍ مِنْ لَدُنَّا عليهم ، إنما ذلك مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، وإمهالٌ لا إهمال . وسيلقون غِبَّه[2] عن قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أنْ آمِنوا
باللهِ وجاهِدوا مع رسولِه استأذَنَكَ
أُولُوا الطَّوْلِ منهم وقالوا ذَرْنَا نَكُن
مَّع القاعدين ﴾

إذا تَوَجَّهَ عليهم الأمرُ بالجهاد ، واشتدَّ عليهم حكمُ الإلزام ، تعلَّلوا إلى السَّعَةِ[3] ، وركنوا إلى اختيار الدَّعَةِ واحتالوا فى موجِباتِ التَّخَلُّفِ ، أولئك الذين خَصَّهم[4] بخذلانه ، وصرَفَ قلوبهم عن ابتغاءِ رضوانه .

---

(١) وقع الناسخ فى خطأ حين نقل الآية إذ كتب بعد (ورسوله) : (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .
وقد صوبنا حسب الآية (٨٤) .
(٢) وردت (غيه) بالياء وهى خطأ فى النسخ ، والصواب (غبه) أى عاقبته .
(٣) أى إلى نفس وسعهم ومكنتهم .
(٤) اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ فظن الكلمة (خصتهم) بالتاء وهى غير ملائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالفِ
وطُبِعَ على قلوبِهم فهم لايفقهون ﴾

بَعُدُوا عن بِساط العِبادة فاستطابوا الدّعة ، ورضوا بالتعريج فى منازل الفرقة ، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بِصِدقِ النّدم لقابَلَهُم بالفضل والكرم ، ولكنْ القضاءغالِبٌ ، والتكلفَ ساقطٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الرسولُ والذين آمنوا معه
جاهَدوا بأموالهم وأنفُسِهم وأولئك
لهم الخيراتُ وأولئك هم المُفْلِحُون ﴾

ليس مَنْ أقْبَلَ كمَنْ أعرض وصُدّ[1] ، ولا مَنْ قُبِلَ أمْرُه كَمَنْ رُدّ ، ولا من وحّدَ كمن جَحَدَ ، ولا من عَبَدَ كمن عَنَدَ ، ولا مَنْ أتَى كمن أبَى . . . فلا جَرَمَ رَبِحَتْ تِجارَتُهم ، وجَلتْ رُتْبَتُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أعَدّ الله لهم جناتٍ تجرى مِن تحتها
الأنهارُ خالدين فيها ذلك الفوزُ
العظيم ﴾

تشير الآية إلى أن راحاتِهم موعودة ، وإنْ كانت الأتعابُ[2] فى الحال موجودةٌ مشهودة .

ويقال صادِقُ يقينهم بالثوابِ يُهوِّن عليهم مقاساةَ مايلقونه — فى الوقت — من الأتعاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَاء المُعَذِّرون مِنَ الأعْرابِ
لِيُؤْذَنَ لهم وَقعَدَ الذين كَذَبُوا الله

---

(١) وردت (سد) بالسين والصواب (صد) لتلائم أعرض .
(٢) اشتبهت على الناسخ فظنها (الألقاب) والصواب الأتعاب لتقابل (راحاتهم) ، ثم إنها تكررت فيما بعد قليل .

ورسولَه سيُصيبُ الذين كفروا منهم
عذابٌ أليم ﴾

وهم أصحاب الأعذار — فى قول أهل التفسير — طلبوا الإذنَ فى التأخرِ عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تبوك فسقط عنهم اللَّوْمُ .

أما الذين تأخروا بغير عُذْرٍ فقد توجَّه عليهم اللوم ، وهو لهم فى المستقبل الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الضُّعفاءِ ولا على المرضىٰ
ولا على الذين لا يَجِدُونَ ما يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إذا نصحوا للهِ ورسولِه ماعلى
المُحْسِنين من سبيلٍ واللهُ غفورٌ
رحيم ﴾

قيمةُ الفقرِ تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن فى القلة خيرٌ إلا هذا لكفى لها بهذا فضيلة ؛ بقوا فى أوطانهم ولم يتوجَّه عليهم بالجهادِ أمرٌ ، ولا بمفارقة المنزل امتحان . وا كتفى منهم بنصيحة القلب ، واعتقادِ أنْ لو قدروا لخرجوا .

وأصحابُ الأموال امتُحِنوا — اليومَ — بِجَمْعِها ثم بِحِفْظِها ، ثم مَلَكَتْهُم محنتُها حتى شقَّتْ عليهم الغيبةُ عنها ، ثم توجَّه اللومُ عليهم فى تَرْكِ إنفاقها ، ثم ما يعقبه — غداً — من الحسابِ والعذاب يربو على الجميع .

وإنَّما رفع الحرَجَ عن أولئك[1] بشرطٍ وهو قوله : « إذا نصحوا لله ورسوله » فإذا لم يوجد هذا الشرطُ فالحرجُ غيرُ مرتفعٍ عنهم .

قوله : « ماعلى المحسنين من سبيل » : المُحْسِنُ الذى لا تكون للشرع منه مطالبة لا فى حقِّ الله ولا فى حقِّ الخلْق[2] .

---

(١) فى النسخة (هؤلاء) وقد آثرنا أن نضع (أولئك) ليصرف الكلام إلى الطائفة الأولى أى الضعفاء والمرضى وأصحاب العذر .

(٢) لأنه قد استوفى جميع المطالبات ولم يتبق عليه شىء .

ويقال هو الذى يعلم أنَّ الحادثاتِ كلَّها من الله تعالى .

ويقال هو الذى يقوم بحقوقِ ما نِيط به أمْرُه ؛ فلو كان طيرٌ فى حكمه وقَصَّرَ فى عَلَفِهِ ـ لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لتَحْمِلَهم قُلْتَ لا أجِدُ ما أحْمِلُكم عليه تَوَلَّوا وأعينُهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمع حَزَناً ألا يَجِدُوا ما يُنفِقُون ﴾

مَنَعَهم الفقرُ عن الحِرَاك فالتمسوا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يحملهم معه ويهيئ أسبابَهم ، ولم يكن فى الحال للرسول عليه السلام سَعَةٌ ليوافقَ سُؤْلَهم ، وفى حالة ضيق صدره — صلى الله عليه وسلم — حَلَفَ إنه لا يَحْمِلُهم ، ثم رآهم صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا فى ذلك ، فقال عليه السلام : إنما يحملكم الله .

فلمَّا رَدَّهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الإجابة فى أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » كما قال قائلهم :

قال لى مَنْ أُحِبُّ والبَيْن قد حَلَّ ودمعى مرافِقٌ لشهيقى
ماتُرى فى الطريقِ تصنع بعدى ؟ قلتُ : أبكى عليك طول الطريق

قوله : « حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — بسببهم شُغْلٌ فَتَمَنَّوْا أن لو أُزِيحَ هذا الشغلُ ، لا ميلاً إلى الدنيا ولكن لئلا تعودَ إلى قلبه — عليه السلام — مِنْ قِبَلِهم كراهةٌ ، ولهذا قيل :

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصديق لِقاؤه وأخو الحوائجِ مُمْجِجٌ مَمْلولُ

ثم إنَّ الحقَّ — سبحانه — لمَّا عَلِمَ ذلك منهم ، وتمحضت قلوبُهم للتعلُّق بالله ، وخَلَتْ عقائدُهم عن مُساكنةِ مخلوقٍ تَدَارَكَ اللهُ أحوالَهم ؛ فأمر اللهُ رسولَه عليه السلام أنْ يَحْمِلَهم . . بذلك جَرَتْ سُنَّتُه ، فقال : « وهو الذى يُنَزِّلُ الغيث مِنْ بعدما قنطوا » (١)

---

(١) آية ٢٨ سورة الشورى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما السبيلُ على الذين يَسْتَأْذِنُونك وهم أغنياءُ ﴾

يريد السبيل بالعقوبة والملامة على الذين يتأخرون عنك فى الخروج إلى الجهادِ ولهم الأُهبة والمُكْنَة ، وتساعدهم على الخروج الاستطاعةُ والقدرةُ ؛ فإذا استأذنوك للخروج وأظهروا[1] لم يَصْدُقوا ، فهم مُسْتَوجِبُون للنكير عليهم ، لأنَّ مَنْ صَدَقَ فى الولاء لا يحتشم من مقاساةِ العناء ، والذى هو فى الولاءِ مماذِقٌ وللصِّدقِ مفَارِقٌ يتعلَّلُ بما لا أصل له ، لأنه حُرِمَ الخلوصَ فيما هو أهلٌ له ، وكذا قيل :

إنَّ الملولَ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصَالَ وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بأَن يكونوا مع الخوالِفِ ﴾

قيل فى التفسير : مع النساء فى البيوت .

والإسلام يثنى على الشجاعة ، وفى الخبر : إن الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل حية ، وفى معناه أنشدوا .

كُتِبَ القتلُ والقتالُ[2] علينا وعلى المُحْصَنَاتِ جرُّ الذّيولِ

ومَنْ استوطن مركبَ الكسلِ ، واكتسى لِباسَ الفَشَلِ ، ورَكَنَ إلى مخاريق الحِيَل حُرِمَ استحقاقَ القُربة . ومَنْ أراد اللهُ — تعالى — هَوَانَه ، وأذاقه خِذْلانَه ، فليس له عن حكم الله مناصٌ ..

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْتذِرُونَ إليكم إذا رَجَعْتُمْ إليهم قُل لَا تعتذروا لَن نُؤْمِنَ لكم قد نَبَّأنا اللهُ مِنْ أخباركم وسيرى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه ثُمَّ تُرَدُّون إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾

---

(١) ربما سقطت هنا « العذر » فهى مطلوبة للسياق .
(٢) وردت (القتل والقتل) والصواب (القتل والقتال) .

أراد إذا تَقَوَّلُوا بما هم فيه كاذبون، وضللوا عما كانوا فى تخلفهم به يتصِفون — فأخبِرُوهم أنَّا عَرَّفَنَا اللهُ كَذِبَكم فيما تقولون، واتضحت لَنَا فضائحُكم، وتَمَيَّزَ — بما أظهره الله لنا — سَيِّئُكُم وصالحُكم، فإنَّ اللهَ تعالى لا يَخْفَى عليه شىء مِنْ أحوالكم، وسَتَلْقَوْنَ غِبَّ أعمالكم فى آجلكم[1].

قوله جل ذكره: ﴿ سَيَحْلِفون باللهِ لكم إذا انقلبتُم إليهم لِتُعْرِضُوا عنهم فأعرِضوا عنهم إنَّهم رِجْسٌ ومأواهم جهنمُ جزاء بما كانوا يَكْسِبُون ﴾

يريد أنهم فى حَلِفِهم باللهِ لكم أن يدفع السوء مِنْ قِبَلِكم، وليس قصدهم بذلك خلوصاً فى اعتذارهم، ولا ندامةً على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لتُعْرِضُوا عنهم . . . فأعرِضوا عنهم؛ فإنَّ ذلك ليس بمُنْجِيهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فإنَّ اللهَ يُمْهِلُ العاصىَ حتى يتوَهَّمَ أنه قد تَجَاوَزَ عنه، وما ذلك إلا مَكْرٌ عُومِل به، فإذا أذاقه ما يستوجِبُه عَلِمَ أن الأمرَ بخلاف ما ظنه، وما ينفع ظاهرٌ مغبوط، والحال — فى الحقيقة — يأسٌ من الرحمة وقنوطٌ، وفى معناه قالوا:

وقد حسدونى فى قُرْبِ دارى مِنْهُمُ ... وكم مِن قريبِ الدارِ وهو بعيدُ!

قوله جل ذكره: ﴿ يحلفون لكم لترضَوْا عنهم فإن تَرْضَوْا عنهم فإنَّ اللهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ القومِ الفاسقين ﴾

من كان مسخوطَ الحقِّ لا ينفعه أن يكون مرضىَّ الخَلْقِ، وليست العِبْرَةُ بقولِ غيرِ اللهِ إنَّما المدارُ على ما سَبَقَ من السعادة فى حُكْمِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿ الأعرابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأجدَرُ ألا يَعْلَموا حُدُودَ ما أنزل اللهُ على رسولِه واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

---

(١) وردت (غب أعمالكم فى أعمالكم) والصواب (فى آجلكم) لأن الآية تشير لذلك.

جُبِلَتْ قلوبُهم على القسوةِ فلم تَقْرَعْها هواجِمُ الصفوة ، وكانوا عن أشكالهم فى الخِلْقَةِ مستأخرين بما (...)[1] من سوء الخُلُق ؛ فَهُمْ مِنَ استبانةِ الحقائق أبعد ، ومن استيجاب الهوان أقرب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِن الأعرابِ مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغْرَماً ويتربَّصُ بِكُمُ الدوائرَ ، عليهم دائرةُ السَّوْءِ والله سميعٌ عليمٌ ﴾

خَبُثَت عقائدُهم فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول المِحن بهم ، فأبى اللهُ إلا أن يَحيقَ بهم مكرُهم ، ولهذا قيل فى المثل : إذا حَفَرْتَ لأخيك فَوَسِّعْ فربما يكون ذلك مقيلَك !

ويقال مَنْ نَظَرَ إلى ورائه يُوَفَّقْ فى كثيرٍ من تدبيره ورأيه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الأعرابِ مَن يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ ويَتَّخِذُ ما يُنفِقُ قُرُباتٍ عند اللهِ وصلواتِ الرسولِ ألاَ إنَّها قُرْبَةٌ لَهم سيُدْخِلُهم اللهُ فى رحمتِه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

تَنَوَّعُوا ؛ فمنهم مَنْ غَشَّ ولم يربح ، ومنهم مَنْ نَصَحَ فلم يَخْسِرْ ، فأمَّا الذين مذقوا فهم فى مهواةِ هوانِهم ، وأما الذين صَدَقُوا ففى رَوْحِ إحسانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والسَّابقون الأولُون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ رَّضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه وأَعَدَّ

---

(١) مشتبهة .

لهم جناتٍ تجرى تَحْتَها الأنهـارُ
خالدين فيهـا أبداً ذلك الفوزُ
العظيم ﴾

السابقون مختلفون ؛ فمنْ سابقٍ بِصِدقِ قَدَمِه ، ومِنْ سابقٍ بصدقِ هِمَمِه .

ويقال السابقُ مَنْ ساعَدَتْه القسمةُ بالتوفيق ، وأسعَدَتْه القضية بالتحقيق ، فسبقت له من الله رحمتُه .

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .

ويقال جَمَعَ الرِّضاءُ صَفَّيْهِم : السابقَ منهم واللاحقَ بهم ؛ قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . رَضِى الله عنهم ورضوا عنه » .

ويقال ليس اللاحقُ كالسابق ، فالسابقُ فى رَوْحِ الطلبِ ، واللاحِقُ فى مقاساةِ التعبِ ، ومُعاناةِ النَّصَبِ ، وأنشدوا :

السِّباقَ السِّباقَ قولاً وفعلاً حَذِّروا النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

ويقال رِضاهُم عن اللهِ قضيةُ رضاء الله عنهم ؛ فلولا أنه رَضِىَ عنهم فى آزالِه . . . متى وصلوا إلى رضاهم عنه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ومِمَّنْ حَوْلَكم مِنَ الأعرابِ منافِقُون ومِنْ أهل المدينة مَرَدُوا على النفاقِ ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سَنُعَذِّبُهم مرتين ، ثُمَّ يُرَدُّون إلى عذابٍ عظيم ﴾

تشاكل المخلِصُ والمنافِقُ فى الصورة فلم يَتَمَيَّزا بالمبانى ، وإن تنافَيا فى الحقائق والمعانى ، تقاصر عِلْمُهم عن العرفان فهَتَكَ الله لنبيِّه أستارَهم . . فَعَرَفَهم ، وهم بإشرافه عليهم جاهلون ، وعلى الإقامة فى أوطان نفاقهم مصروفون ، فلم ينفعهم طولُ إمهاله لهم .

« سنعذبهم مرتين » : الأولى فى الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض ، ولا يحصل لهم عليها فى الآخرة عِوَضٌ ولا أجْرٌ ولا مَسَرَّةٌ ، والثانية عذابُ القبر .

وقيل المرة الأولى بِقَبْضِ أرواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمْتحنون بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى ظنُّهم أنهم على شىء ، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآخَرون اعترفوا بذنوبِهم خَلَطُوا
عَمَلاً صالحاً وآخَرَ سَيِّئاً عسى اللهُ
أن يتوبَ عليهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

إن اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم . والإقرارُ توكيدُ الحقوق فيما بين الخلْق فى مشاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله — سبحانه — يوجِبُ إسقاط الجُرْم فى مقتضى سُنَّة كَرَم الحقِّ — سبحانه ، وفى معناه أنشدوا :

قيل لى : قد أساء فيكَ فلانٌ وسكوتُ الفتى على الضيم عارُ
قلتُ : قد جاءنى فأحْسَنَ عُذرا دِيَةُ الذَّنبِ عندنا الاعتذار

« خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » : ففى قوله « وآخر سيئاً » بعد قوله « صالحاً » دليلٌ على أن الزَّلَّةَ لا تحبِطُ ثوابَ الطاعةِ ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً .

وكذلك قوله : « عسى الله أنْ يتوب عليهم » : وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شىء فقد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . . فإذا أخبر أنَّه يجيبُ فإنه يفعل ، فيجب منه لا يجب عليه[1] .

ويقال قوله : « خلطوا عَمَلاً صالحاً » : يحتمل معناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة عملٌ صالح . وقوله : « وآخر سيئاً » : يحتمل أنه نَقْضُهم التوبة ، فتكون الإشارة فى قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » أنهم إن نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زَلَّتهم فواجبٌ مِنَّا أن

---

(١) واضح حرص القشيرى على مقاومة المعتزلة فيما يتصل بنفى اى وجوب على الله فقد جلت الصمدية عن ذلك ، وإن كان يرى أنه يجب منه — سبحانه — الفضل .

تتوبَ عليهم ، ولئن بطلت — بنَقْضِهم — توبتُهم . . لَمَا اختَلَّتْ — بفضلنا — توبتُنا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهم وتُزكيهم بها وصَلِّ عليهم إنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهم واللهُ سميعٌ عليم ﴾ :

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الأعواض عليها ، وتزكيهم عن ملاحظتهم إياها .

تطهرهم بها عن شُحِّ نفوسهم ، وتزكيهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم ؛ فَيَرَوْا عظيم مِنَّةِ الله عليهم بوجدان التجرُّد منها .

« وصلِّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » : إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أَمْنٌ لهم من استقلالهم بأموالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ اللهَ هو يقبلُ التوبةَ عن عبادِه ويأخذُ الصدقاتِ وأَنَّ اللهَ هو التوَّابُ الرحيم ﴾

تمدَّحَ — سبحانه — بقبول توبة العاصين إذ بها يظْهِرُ كَرَمَهُ ، كما تمدَّح بجلال عِزِّه ونَبَّههم على أَنْ يَعرِفوا به جَلالَه وقِدَمَهُ .

وكما تَوحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُرْمِهِ وزَلَّتِهِ . فكما لا شبيهَ له فى جماله وجلاله لا شريكَ له فى أفضاله وإقباله ؛ يأخذ الصدقاتِ — قَلَّتْ أو كَثُرتْ ، فَقَدْرُ الصَّدَقَةِ وخَطَرُها بأخْذِه لها لا بكثرتها وقِلَّتها ؛ قَلَّتْ فى الصورة صَدَقَتَهُم ولكِنْ لَمَّا أخَذَها وقَبِلها جَلَّتْ بقبوله لها ، كما قيل :

يكون أُجاجاً — دونكم، فإذا انتهى إليكم تَلَقَّى طيبَكم فيطيبُ

قوله تعالى : ﴿ وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُه والمؤمنون وسَتُردُّون إلى

عالِمِ الغيْبِ والشهادة فَيُنَبِّئُكم
بما كنتم تعملون ﴾ .

خوّفهم برؤيته — سبحانه — لأعمالهم ، فلمّا عَلِمَ أنّ فيهم مَنْ تتقاصر حالتُه عن الاحتشام لأطّلاعِ الحقّ قال : « ورسوله » ، ثم قال لِمَنْ نَزَلَتْ رتبتُه : « والمؤمنون » . وقد خَسِرَ مَنْ لا يمنعه الحياء ، ولا يردعه الاحتشامُ ، وسَقَطَ من عينِ اللهِ مَنْ هَتَكَ جلبابَ الحياءِ ، كما قيل :

إذا قَلَّ ماء الوَجْهِ قَلَّ حياؤه ولا خيرَ فى وجهٍ إذا قَلَّ ماؤه

ومَنْ لم يَمْنَعْهُ الحياء عن تعاطى المكروهاتِ فى العاجل سيلقى غِبَّ ذلك ، وخسرانُه عن قريبٍ فى الآجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ
إمّا يُعَذِّبُهُم وإمّا يتوبُ عليهم
واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

لم يُصَرِّحْ بقبول توبتهم ، ولم يَيْسِمْهُم باليأسِ من غفرانه ، فوقفوا على قَدَمِ الخجلِ ، متميلين بين الرهبة والرغبة ، متردِّدين بين الخوف والرجاء . أخبر اللهُ — سبحانه — أنّه إنْ عَذَّبهم فلا اعتراضَ يتوجّه عليه ، وإنْ رَحِمَهم فلا سبيلَ لأحدٍ إليه ، قال بعضهم :

ويشبعنى من الآمال وعدٌ ومن علمى بتقصيرى وعيد

قوله جل ذكره : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً
وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً
لِمَنْ حَارَبَ اللهَ ورسولَه مِن قبلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أرَدْنَا إلا الحُسْنَى
واللهُ يَشْهَدُ إنّهم لكاذِبون ﴾ .

مَنْ لم يكن مخلصاً فى ولائه لم يأنسْ القلبُ بكدّه وعنائه ، فتَوَدُّدُه فى الظاهر ينادى عليه بالتوائه ، وبقوله بالتكلُّفِ شهادةُ صِدْقٍ على عَدَمِ صفائه :

مَنْ لم يكنْ للوصال أهلاً فكلُّ إحسانِه ذنوبُ

قوله جل ذكره: ﴿لا تَقُمْ فيه أبداً لَمسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى مِنْ أولِ يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيهِ فيه رجالٌ يُحِبُّون أن يتطهروا واللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرين﴾

للقام فى أماكن العصيان ، والتعريج فى أوطان أهل الجحود والطغيان — من علامات الملأة مع أربابها ، ومُسكانِها وقُطَّانِها .

والتباعدُ عن مَسَاكِنِهم ، وهجرانُ مَنْ جَنَحَ إلى مَسالِكِهم عَلَمٌ لِمَنْ أشرب قلبه مخالفتهم ، وباشرت سِرَّه عداوتُهم .

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا » : يتطهرون عن المعاصى وهذه سِمَة العابدين ، ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين ، ويتطهرون عن محبة المخلوقين ، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين .

قوله « والله يحب المطهرين » : أسرارَهم[1] عن المساكنة إلى كل مخلوق ، أو ملاحظةِ كل مُحْدَثٍ مسبوق .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تقوىٰ من اللهِ ورِضوانٍ خيرٌ أم مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهار به فى نارِ جهنَّم واللهُ لا يهدى القومَ الظالمين﴾ .

المريدُ يجب أن يؤسِّسَ بنيانَه على يقينٍ صادقٍ فيما يعتقده ، ثم على خلوص فى العزيمة ألا ينصرِفَ قبل الوصولِ عن الطريق الذى يسلكه ، ثم على انسلاخه عن جميع مُناه وشهواتِه ، ومآربِه ومطالبِه ، ثم يبنى أمْرَه على دوام ذِكْرِه بحيث لا يعترِضُه نِسيان ، ثم على ملازمة حق للسلمين وتقديم مصالحهم . . . بالإيثار على نفسه . والذى ضَيَّع الأصولَ

(١) أسرارهم مفعول به لاسم الفاعل « المطهرين » .

فى ابتدائه حُرِمَ الوصول فى انتهائه ، والذى لم يُحْكِمْ الأساسَ فى بنائِه سَقَطَ السَّقفُ على جدرانه .

قوله جل ذكره : ﴿لا يزالُ بُنْيَانُهم الذى بَنَوْا رِيبَةً فى قلوبِهم إلا أن تَقَطَّعَ قلوبُهم واللهُ عليم حكيم﴾

عروقُ النِّفاقِ لا تُقْتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمِنْجَلِ التَّحقُّقِ بصحيح البرهان ؛ فَمَنْ أُيِّدَ لإدامة المسير ، وَوفِّقَ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى ثَلَجِ الصدر ورَوْحِ العرفان .

ومَنْ أقام على مُعْتَادِ التقليد لم يسترِحْ قلبُه من كَدِّ التردُّدِ ، وظلمةِ التجويز ، وَجَوَلَانِ الخواطر المشكلة فى القلب .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ اللهَ اشترىٰ من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنةَ ، يقاتِلون فى سبيل اللهِ فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وَعْدًا عليه حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، ومَنْ أوفىٰ بِعَهْدِه مِنَ اللهِ ؟ فاستَبْشِرُوا بِبَيْعِكم الذى بايَعْتُم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم﴾

لمّا كان من المؤمنين تسليمُ أنفسهم وأموالهم لحُكْمِ الله ، وكان من الله الجزاء والثوابُ ؛ أى هناك عِوَضٌ ومُعَوَّض ، فلِمَا بين ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظَ الاشتراء ، وقد قال تعالى : « هل أدلكم على تجارة . . . »[1] ، وقال : « فما ربحت تجارتهم »[2] .

وفى الحقيقة لا يصحُّ فى وصف الحق — سبحانه — الاشتراء لأنه مَالِكُ سِوَاه ، وهو مالِكُ الأعيانِ كلِّها . كما أنَّ مَنْ لم يستحدِثْ مِلْكاً لا يُقَال إنه — فى الحقيقة — باع .

---

(١) آية ١٠ سورة الصف .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة .

وللمقال فى هذه الآية مجال . . . فيقال : البائعُ لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتنع عن تسليم المبيع ، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاء الموعودَ إلا بعد تسليمِ النَّفسِ والمالِ على موجب أوامر الشرع ، فَمَنْ قَعَدَ أو فَرَّطَ فغيرُ مستحقٍ للجزاء .

ويقال لا يجوز فى الشرع أن يبيع الشخصُ ويشترى شيئاً واحداً فيكونَ بائعاً ومشترياً إلا إذا كان أباً وَجَدّاً ، ولكن ذلك هنا بلفظ الشفقة ؛ فالحقُّ بإذنه كانت رَحْمَتُه بالعبد أتمَّ ، ونظرُه له أبلغَ ، وكان للمؤمنِ فيه من الغبطة ما لا يخفى ، فصحَّ ذلك وإن كان حُكمه لا يقاس على حكم غيره .

ويقال إنما قال : « اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأنَّ النَّفسَ محلُّ الآفات فجعل الجنة فى مقابلتها ، وجعل ثَمَنَ القلبِ أجلَّ من الجنة ، وهو ما يخصُّ به أولياءه فى الجنة مِنْ عزيزِ رؤيته[1] .

ويقال النَّفْسُ محلُّ العيب ، والكريم يرغب فى شراء ما يزهد فيه غيره .

ويقال مَن اشترى شيئاً ليتنفع به اشترى خيرَ ما يجده ، ومن اشترى شيئاً لِيَنْتَفِعَ به غيرُه يشترى مارُدَّ على صاحبه لِيَنْفَعَه بثمنه .

وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء — عليهم السلام — : يابنى آدم ، ما خلقتُكم لأربحَ عليكم ولكن خَلَقْتُكم لتربحوا علىَّ .

ويقال اشترى منهم نفوسَهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسَهم ، وأمَّا القلبُ فاستأثره قهراً ، والقهر فى سُنَّةِ الأحبابِ أعزُّ من الفضل ، وفى معناه أنشدوا :

يُبْنَى الحبُّ على القَهْرِ فلو عَدَلَ المحبوبُ يوماً لَسُمِج
ليس يُسْتَحْسَنُ فى حكم الهوى عاشِقٌ يَطْلُبُ تأليفَ الحُجَج

وكان الشيخ أبو على الدقاق[2] رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبَهم لأن القلوبَ وَقْفٌ على محبته ، والوقفُ لا يُشترى » .

---

(١) أنظر كيف تحتل الجنة المرتبة الثانية بعد رؤية المحبوب — عند هذا الصوفى .

(٢) الدقاق هو شيخ القشيرى ورائده وأستاذه وصهره . وقد أشرنا إلى شىء من سيرته فى مدخل هذا الكتاب .

ويقال الطيرُ فى الهواء ، والسَّمَكُ فى المـاء لا يصحُّ شراؤهما لأنه غير ممكن تسليمهما ، كذلك القلبُ .. صاحبُه لا يمكنه تسليمه ، قال تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »[1]

وفى التوراة : « الجنَّةُ جنتى والمالُ مالى فاشـتروا جنتى بمالى فإنْ ربحتم فلـكم وإنْ خَسِرتُمْ فعلىَّ »

ويقال عَلِمَ سوء خُلُقِك فاشتراك قبل أنْ أوجدك ، وغَالَى بثمنك لئلا يكونَ لكَ حقٌّ الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصَّبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له ، والذى اشتراها أوْلى بها من صاحبها الذى هو أجنبيٌّ عنها .

ويقـال أخبر أنه اشتراها لئـلا يَدَّعِىَ العبدُ فيها ؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعْجَبُ بها[2] .

قوله : « فيَقْتُلُون ويُقْتلون » سيّان[3] عندهم أن يَقْتُلُوا أو يُقْتَلُوا ، قال قائلهم :

وإنَّ دَماً أجريتَه لك شاكرٌ وإنَّ فؤاداً خِرْتَه لكَ حامدُ

ويقال قال : « فاستبشروا ببيعكم » ولم يقل بثمن مبيعكم لأنه لم يكن مِنَّا بَيْعٌ ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله « إن الله اشترى من المؤمنين » فجعل بَيْعَهُ بَيْعَنَا ، وهذا مثلما قال فى صفة نبيه -- صلى الله عليه وسلم — : « وما رَمَيْتَ إذ رمَيْتَ ولـكن الله رمى » وهذا عين الجَمْع الذى أشار إليه القوم .

قوله جل ذكره : ﴿ التائبون العابدون ﴾

مَدَحَهُم بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله « التائبون العابدون . . . » ومَنْ رَضِىَ بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشِّراء ، فأمَّا إذا كان عالماً به

---

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) لاحظ مدى التناء القشيرى — فيما يتصل بالنفس — بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

(٣) وردت (شتان) وهى — حسب ما هو واضح — خطأ فى النسخ .

فليس له حقُّ الردِّ ؛ قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين »[1] .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فَوجَدَ به عيْباً ردَّه على مَنْ منه اشتراه ولكنه — سبحانه — اشترى نفوسَنا منه ، فإذا أراد الردَّ فلا يردُّ إلا على نَفْسِهِ ؛ قال تعالى : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكما أنَّ الردَّ إليه فلو ردَّنا كان الردُّ عليه .

قوله تعالى : « التائبون » أى الراجعون إلى الله ، فَمِنْ راجعٍ يرجع عن زَلَّتِهِ إلى طاعته ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جِنْسِهِ إلى الاستغراق فى حقائق حقِّه .

ويقال تائِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله ؛ فيجد غداً فنونَ أفضاله ، وصنوفَ لطفه ونواله ، وتائبٌ يرجع عن كل غير وضدٍ إلى ربِّه بربِّه لربِّه بِمَحْوِ كلِّ أرَبٍ ، وعَدَمِ الإحساس بكلِّ طلب .

وتائب يرجع لحظِّ نَفْسِهِ من جزيل ثوابه أو حَذَراً — على نفسه — من أليم عذابه ، وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه ، وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أوضاره ، ويخلص من شؤم أوزاره ، وتائب يرجع لَمَّا سمع أنه قال : إنَّ اللهَ أفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ من الأعرابى الذى وَجَدَ ضالَّتَه — كما فى الخبر ، وشتَّان ما هما ! وأنشدوا :

أيا قادماً من سَفْرَةِ الهَجْرِ مَرْحَبَا أُناديكَ لا أنساكَ ما هبَّتْ الصَّبَا

وأمَّا قوله « العابدون » : فهم الخاضعون بكلِّ وجه ، الذين لا تَسْتَرِقُّهم كرائمُ الدنيا ، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقْبَى . ولا يكون العبدُ عبداً لله — على الحقيقة — إلا بعد تجرُّدِهِ عن كل شىءٍ حادثٍ . وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخِلْقة ؛ قال تعالى : « إنْ كل من فى السموات والأرض إلَّا آتى الرحمن عبداً »[2] . ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ ، وهو عزيز .

---

(١) آية ٣٢ سورة الدخان .
(٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله جل ذكره : ﴿ الحامِدون ﴾

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُثْنُون عليه عند شهود جلاله وجماله .

ويقال الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل بقدرته ، وبلا انقباضٍ عما يجب من طاعته .

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه .

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا فُتُوَّةَ[1] له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءةَ له .

ويقال الشاكرون له إنْ أدناهم ، الحامدون له إنْ أقصاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ السائحون ﴾

الصائمون ولكن عن شهود غير الله ، الممتنعون عن خدمة غير الله ، المكتفون من الله بالله .

ويقال السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكُّر فى جوانبها وما كبها ، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِئِها ، والتحقق بحكمةِ خالقِها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها ، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوتِ فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الانْسِ بالتحقق بشهود الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ الراكعون ﴾

الخاضعون لله فى جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلِّى ، وفى الخبر . « إن الله ما تجلَّى لشىء إلا خَشَعَ له » .

وكما يكون — فى الظاهر — راكعاً يكون فى الباطن خاشعاً ، ففى الظاهر بإحسان الحقِّ إليه يُحسْنِ تولِّيه ، وفى الباطن كالعيان للعيان للحقِّ بأنوار تجلِّيه .

قوله جل ذكره ﴿ الساجدون ﴾

فى الظاهر بنفوسهم على بِساط العبودية ، وفى الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

---

(١) سأل شقيق البلخى جعفرَ بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق . وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطينا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا (الرسالة ص ١١٥) .

والسجود على أقسام : سجود عند صحة القصود فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال . وسجودٌ عند الشهود إذا تجلَّى الحقُّ لقلبه سَجَدَ بقلبه ، فلم ينظر بعده إلى غيره ، وسجودٌ فى حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته .

قوله جل ذكره : ﴿ الآمِرون بالمعروفِ والنَّاهون عنِ المنكر والحافِظون لحدودِ اللهِ وبَشِّرِ المؤمنين ﴾

هم الذين يَدْعُون الخَلْقَ إلى الله ، ويُحَذِّرونهم عن غير الله . يتواصَوْن بالإقبال على الله وتَرْكِ الاشتغال بغير الله . يأمرون أنفسَهم بالتزام الطاعات بِحَمْلِهم إياها على سَنَنِ الاستقامة ، ويَنْهَوْن أنفسَهم عن اتِّباع المنى والشهوات بِتَرْكِ التعريج فى أوطان الغفلة ، وما تعودوه من المساكنة والاستنامة .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم[1] الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حَرَّكَهم ولا يَسْكُنُون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أنفاسَهم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِروا للمشركين ولو كانوا أُولى قُرْبَىٰ من بعد ما تَبَيَّنَ لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم ﴾

أصلُ الدين التَّبَرِّى من الأعداء ، والتولِّى للأولياء ، والولىُّ لا قريبَ له ولا حميم ، ولا نسيبَ له ولا صَديق ؛ إنْ وَالَى فبأمر ، وإنْ عادى فَلِزَجْر .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه

---

(١) يكون الفعل (وقف) متعدياً مثل : وقف فلانا على الأمر أى أطلعه عليه (الوسيط)

(٢) مراعاة الأنفاس من الأمور التى شغل بها الصوفية دائماً ، يقول الجنيد :

وما تنفست إلا كنت مع نفسى ... تجرى بك الروح منى فى مجاريها

إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وعدها إيَّاهُ فلما
تبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه إنَّ
إبراهيم لأوَّاهٌ حليم ﴾

لما أمرَ المسلمين بالتبرِّى عن المشركين والإعراض عنهم والانقباض عن الاستغفار لهم بَيَّنَ أنَّ هذا سبيلُ الأولياء ، وطريقُ الأنبياء عليهم السلام ، وأنَّ ابراهيمَ — عليه السلام — وإن استغفرَ لأبيه فإنما كان مِنْ قَبْل تحقُّقِهِ بأنه لا يُؤْمِنُ ، فلمَّا عَلِمَ أنه عدوٌّ لله أظْهَرَ البراءةَ منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان اللهُ ليُضِلَّ قوماً بعد
إذ هداهم حتى يُبَيِّن لهم مَّا يتقون
إنَّ الله بكل شيء عليم ﴾

إنَّ اللهَ لا يحكم بضلالكم وذهابكم عن طريق الحقِّ باستغفاركم للمشركين إلا بعد ماتبيَّن لكم أنكم مَنْهِيُّون عنه ، فإذا علمتم أنكم نُهِيتُمْ عن استغفارِكم لهم فإنْ أقْدَمْتُمْ على ذلك فحينئذ ضللتم عن الحقِّ بفعلكم بعد ما نُهيتم عنه . . . هذا بيان التفسير للآية ، والإشارة فيها أنه لا سَلْبَ لعطائه إلا بِتَرْكِ أدب منكم .

ويقال مَنْ أَحَلَّه بِسَاطَ الوصلة مأمُونٍ بعده بعذاب الفرقة ، إلا لِمَنْ سَلَفَ منه تَرْكُ حُرْمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ له مُلْكُ السموات والأرضِ
يُحيي ويُميت وما لكم من دونِ اللهِ
مِن ولىٍّ ولا نصير ﴾

الحقُّ لا يَتَجَمَّلُ بوجود مملوكاته ، ولا يلحقه نَقْصٌ بِعَدَمِ[1] مخلوقاته ، فَقَبْلَ أنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً — والمَلِكُ أكثر مبالغةً من المالك — ومُلْكُه قدرتُهُ

(١) سقطت الميم من (بعدم) فأثبتناها إذ بدونها يضطرب السياق فالمراد (وجود المملوكات وعدمها).

على الإبداع ؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه ، فإذا أَوْجَدَه فهو فى حال حدوثه مقدوره ومملوكه ، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له .

« يحيي ويميت » يحيي مَنْ يشاء بعرفانه وتوحيده ، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده .
ويقال يُحيي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات ، ويُميتُ نفوسَ العابدين بآثار المنازلات .
ويقال يُحيي مَنْ أقبل عليه بِتَفَضُّله ، ويميت من أعرض عنه بِتَكبُّرِه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقد تَابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرَةِ منْ بعدما كاد يَزيغ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تابَ عليهم إنَّه بهم رءوفٌ رحيم ﴾

قَبِلَ توبتهم ، وتاب على نبيِّه — صلى الله عليه وسلم — فى إذنه للمنافقين فى التخلف عنه فى غزوة تبوك ، وأمَّا على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هَمُّوا بالانصراف[1] لِمَا أصابَهم من العُسْرة من الجوع والعطش والإعياء[2] فى غزوة تبوك ، كما قال : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » : وتوبته عليهم أنه تدارَكَ قلوبَهم حتى لم تزغ ، وكذا سُنَّةَ الحقِّ — سبحانه — مع أوليائه إذا أشرفوا على العَطَبِ ، وقاربوا من التَّلفِ ، واستمكن اليأسُ فى قلوبهم من النصر ، ووَطَّنُوا أنفسهم على أنْ يذوقوا البأسَ — يُمطِرُ عليهم سحائبَ الجود ، فيعود عودُ الحياةِ بعد يَبْسِه طريّاً ، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنْس عقب ذبوله غضاً جَنِياً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه ... وقُرِّب النَّعْشُ من اللَّحدِ
فجال ماء الرُّوحِ فى وَحْشَةٍ ... وردَّه الوصل إلى الوِرْدِ

---

(١) وردت (الإنصاف) وليس لها معنى فصوبناها (الانصراف) فهو المقصود .
(٢) وردت (الأعياد) وهى خطأ فى النسخ إذ التبست الهمزة على الناسخ .

تبـارك الله سبحـانه ما (. . .)[1] هو بالسرمد

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى
إذا ضاقَتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ
وضاقَتْ عليهم أنفُسُهم وظنوا أن
لا ملجأ منَ اللهِ إلا إليه ثم تاب
عليهم ليتوبوا ، إنَّ اللهَ هو التواب
الرحيم ﴾

لمَّا صَدَقَ منهم اللجاء تداركهم بالشِّفاء وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحقُّ يُكَوِّرُ نهار اليُسْرِ على ليالى العُسْر ، ويُطلِعُ شموسَ المحنة على نحوس الفتنة ، ويُدِير فلكَ السعادة[2] فيمحق تأثير طوارق النكاية ؛ سُنَّةً منه — تعالى — لا يُبَدِّلها ، وعادةً منه فى الكَرَمِ يُجْرِيها ولا يحوِّلها .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا
مع الصادقين ﴾

يأيها الذين آمنوا برُسُلِ الله ، يأيها الذين آمنوا من أهل الكتاب . . كونوا مع الصادقين المسلمين ، يأيها الذين آمَنُوا فى الحال كونوا فى آخر أحوالكم مع الصادقين ؛ أى استديموا الإيمان . استديموا فى الدنيا الصدقَ تكونوا غداً مع الصادقين فى الجنة .

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وغيرهم .

ويقال الصدق نهاية الأحوال ، وهو استواء السِّرِّ والعلانية ، وذلك عزيز . وفى الزَّبور : « كذب مَنْ ادَّعى محبتى وإذا حَبَّه الليلُ نام عنِّي » .

---

(١) مشتبهة ، والشطر الثانى من البيت الأخير مضطرب الوزن

(٢) ربما كانت (العناية) لتنسجم مع (النكاية) لأننا نلحظ اهتمام القشيرى بالموسيقى الداخلية فى تركيب فقرات هذه الإشارة ، وإن كانت « السعادة » مقبولة فى السياق .

والصدقُ — كما يكون فى الأقوال يكون فى الأحوال ، وهو أتمُّ أقسامِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَهم مِّنَ الأعرابِ أن يتخلَّفوا عن رَسولِ اللهِ ولا يرغبوا بأنفسِهم عَن نَّفْسِهِ ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيلِ اللهِ وَلا يطئون موطِئا يغيظ الكُفَّارَ ولا ينالون مِنْ عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عَمَلٌ صالح إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين * ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ، ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليجزيَهم اللهُ أحْسَنَ ما كانوا يعملون ﴾ .

لايجوز لهم أن يؤثِروا على النبيِّ — صلى الله عليه وسلم — شيئاً من نَفْسٍ وروحٍ ، ومالٍ وولَدٍ وأهلٍ ، وليسوا يخسرون على الله وأنَّى ذلك . . ؟ وإنهم لا يرفعون لأجْلِهِ خطوةً إلاَّ قابَلَهم بألفِ خطوة ، ولا ينقلون إليه قَدَماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرما ، ولايُقاسُون فيه عطَشاً إلا سقاهم من شراب محابِّهِ كاسا ، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا لقَّاهم لطفاً وإيناسا ، ولا ينالون من الأعداء أذىً إلا شَكَرَ اللهُ سَعْيَهَم بما يوجب لهم سعادة الدارين !

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان المؤمنون لينفِروا كافَّةً فلَوْلا نفَرَ من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدِّين ولينذِروا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم لعلَّهم يَحْذَرون ﴾ .

لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفَقُّه فى الدِّين لَتَعَطَّلَ عليهم المعاش ، ولبقى الكافة عن درك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضا على الكفاية .

ويقال جعل المسلمين على مراتب : فعوامُّهم كالرعية للمَلِك[1] ، وكَتَبَةُ الحديثِ كخزَّان المَلِك ، وأهلُ القرآن كحفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للمَلِك إذ الفقيه (. . .)[2] عن الله ، وعلماء الأصول كالقُوَّادِ وأمراءِ الجيوش ، والأولياءُ كأركان الباب ، وأربابُ القلوبِ وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع ، وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالردِّ على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقوم مُفْرَدُون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شُغْلٌ ، يراعون مع الله أنفاسَهم وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزُّهم طَلَبٌ ولا يهزُّهم أرَبٌ ، فَهُمْ بالله لله ، وهم محو عما سوى الله[3] .

وأمَّا الذين يتفقهون فى الدِّين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يُفْهِمُ الخلْقَ عن الله مَنْ كان يَفْهَمُ عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتِلوا الذين يَلُونَكم مِّنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً واعلموا أنَّ اللهَ مع المتَّقين ﴾ .

اقربُ الأعداء إلى المسلم من الكفار ، الذى يجب عليه منازعته هو أعدى عدوِّه

---

(١) فى الهامش (فالناس كلهم خدم للملك) . ولا توجد علامة توضح أنها من المتن ، فربما كانت منه وسقطت العلامة ، وربما كانت توضيحاً من أحد القراء .

(٢) مشتبهة أقرب ما تكون إلى (يرفع) أو (يوقع) ونرجح الثانية فقد وردت كذلك فى سياق مماثل.

(٣) من هذا التصور ندرك شيئاً هاماً عند القشيرى وعند الصوفية الخلص بعامة ، فهم لا يتصورون التصوف مذهباً يسود المجتمع بعامة فيكون الناس جميعاً متصوفة ، بل إن دوره العضوى الهام فى كيان المجتمع محصور فى طائفة مخصوصة يمتد اثرها إلى خارج نطاقها ، والمقصود (بالشغل) و (الفراغ) أن يكونوا خالصين لله . وليس المقصود البطالة من العمل وعدم السعى للرزق .

أى نَفْسُه . فيجب أن يبدأ بمقاتلة[1] نَفْسِه ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[2] .

قوله : « وليجدوا فيكم غِلْظة » مَنْ حابَى عدوَّه قَهَرَهُ ، وكذلك المريد الذى يَنْزِل عن مطالباتِ الحقيقة إلى مايتطلبه من التأويلات فيفسخ عَهْدَه ، وينقض عَقْدَه ، وذلك كالرِّدَّةِ[3] لأهل الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ فمنهم مَّن يقول أيُّكم زَادَتْه هذه إيماناً ، فأمَّا الذين آمنوا فزادَتْهُم إيماناً وهم يَسْتَبْشِرون ﴾[4]

جَعَلَ الله — سبحانه — إنزالَ القرآن لقومٍ شِفَاء . ولقومٍ شَقَاء ؛ فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ جديدةٌ زاد شكُّهم وتحيُّرهم ، فاستعلم بعضُهم حالَ بعضٍ ، ثم لم يزدادوا إلا تحسُّراً ؛ قال تعالى : « وهو عليهم عَمًى »[5] وأمَّا المؤمنون فزادتْهم السورةُ إيماناً فارتقوا مِنْ حدِّ تأمل البرهان إلى روْح البيان ، ثم مِنْ روْح البيان إلى العيان ، فالتجويز والتردد و (. . . .)[6] والتحيُّر مُنْتَفٍ بأجمعه عن قلوبهم ، وشموسُ العرفانِ طالِعةٌ على أسرارهم ، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم ، فلا لَهُم تعبُ الطلب ، ولا لهم حاجة إلى التدبير ،

---

(١) وردت (مقابلة) والملائم بالنسبة للسياق (مقاتلة) هذا العدو .

(٢) رواه الخطيب فى التاريخ عن جابر (ص ٣٢٥ حـ٢ منتخب كنز العمال بهامش مسند الإمام احمد) هكذا : (قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة العبد هواه) .

(٣) وردت (الرد) والصواب ان تكون (الردة) ، وقد أوضح القشيرى ذلك فى موضع آخر من الكتاب إذ يقول (وكما ان المرتد اشد على المسلمين عداوة هكذلك من رجع عن الإرادة الى الدنيا والعادة ، فهو أشد الناس انكاراً لهذه الطريقة وابعد عن اهلها) المجلد الأول : ص ٧٥ .

(٤) ينبغى أن نلحق بهذه الآية الآية التى بعدها « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » لم ترد فى المتن مع أن المصنف يشير إليها فى شرحه .

(٥) آية ٤٤ سورة فصلت .

(٦) مشتبهة ، ومصححة فى الهامش بطريقة مبهمة وهى فى الكتابة هكذا : (النجث) ، ولا نعرف ضمن آفات العقل كلة للقشيرى قريبة فى الخط منها ، وربما كانت (التعب) .

ولا عليهم سلطان الفكر . وأشِعةُ شموس العرفان مستغرقة لأنوار نجوم العلم ، يقول قائلهم :

ولما استبانَ الصبحُ أدرك ضوءه بإسفارِه أنوارَ ضوء الكواكب

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ لا يرَوْن أنَّهم يُفتَنُون فى كل عامٍ مرةً أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولا هُمْ يذَّكَّرون ﴾

لم يُخْلِ الحقُّ — سبحانه — أربابَ التكليف من دلائل التعريفِ ، التعريفُ لهم فى كل وقت بنوع من البيان ، والتكليفُ فى كل أوان بضرب من الامتحان ؛ فما لم يزد لهم فى إيضاح البرهان لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان .

وأمَّا أصحاب الحقائق فما للأغيار فى كلِّ عامٍ مرة أو مرتين فلهم فى كل نَفَسٍ مرة ، لا يخليهم الحقُّ — سبحانه — من زواجِرَ توجِبُ بصائر ، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وَأوَامِرَ[2] قال قائلهم :

كأنَّ رقيباً منك حَلَّ بمهجتى إذا رُمْتُ تسهيلاً علىَّ تَصَعَّبَا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ نَّظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ هل يراكُمْ مِّن أَحَدٍ ثم انصرفوا ، صَرَفَ اللهُ قلوبَهم بأنَّهم قومٌ لا يفقهون ﴾

تَقَنَّعوا بِخمارِ التلبيس ظانِّين أنهم يبقون فى سِرٍّ بتكلفهم ، والحقُّ أبَى إلا أن فَضَحَهم ، وكما وَسَمَهم برقم النَّكِرَة[1] أطْلَعَ أسرارَ الموحِّدين على أحوالهم فعرفوهم على ما هم عليه من أوصافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم

---

(١) النكرة اسم من الإنكار ، يقال : كان لى أشد نكرة (الوسيط) .

(٢) ذلك لأنهم بقيامهم بالحق قلما تبدر منهم أشياء تستدعى الزجر أو الأمر لأنهم دائماً يختارون الأشق .

عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم
بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ﴾

جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم فى البشرية ، فَلِمَا أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ الرحمة عليكم ، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم ، قد وَكَّلَ هِمَمَه بشأنكم ، وأكبرُ هَمِّهِ إيمانُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ
لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو
ربُّ العرشِ العظيم ﴾

أَمَرَه أَنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إلى التوحيد ، ثم قال : فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا بنعت التجريد .

ويقال قال له : يأيها النبي حسبُك الله ، ثم أمره بأن يقول حسبى الله . . . . وهذا عين الجمع ، وقوله « فَقُلْ حسبى الله » فَرْق . . . بل هو جمع الجمع أى : قُلْ ، ولكنك بنا تقول ، ونحن المتولى عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ فى عين التوحيد ؛ فأنت بنا ، ومَحْوٌ عن غيرنا .

سورة يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ سماعُها يوجِب شِفاءَ كلِّ عابد ، وضياءَ كلِّ قاصد ، وعزاءَ كلِّ فاقد ، وبلاءَ كلِّ واجد ، وهُدُوَّ كلِّ خائف ، وسُلُوَّ كل عارف . وأَمانَ كل تائب ، وبيانَ كلِّ طالب . قلوبُ العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله ، وكروبُ الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الر تلك آياتُ الكتاب الحكيم ﴾ .

الألف مفتاح اسم « الله » ، واللام مفتاح اسم « اللطيف » والراء مفتاح اسم « الرحيم » .

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتابَ هو الموعودُ لكم يوم الميثاق . والإشارة فيه أنا حقّقْنا لكم الميعاد ، وأطْلَنا لكم عِنان الوداد . . . وانقضى زمانُ الميعاد ، فالعَصَاةُ مُلْقاة ، والأيامُ بالسرور مُتَلَقَّاة ، فبادِروا إلى شُرْبِ كاساتِ المحابّ ، واستقيموا على نَهْجِ الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ أكانَ للناسِ عجباً أنْ أوْحَيْنا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذِرِ الناسَ ﴾ .

تعجبوا من ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد الموت ، ومن إرسال الرسل إلى الخَلْق ، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مِنْ بين الخَلْق . ولو عرفوا كمال مُلْكِه لم يُنْكِروا جوازَ البعث ، ولو علموا كمالَ ملكه لم يجحدوا إرسالَ الرُّسل إلى الخَلْق ، ولو عرفوا أنّ له أنْ يفعلَ ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة مِنْ بين الخَلْق ، ولكنْ سُدَّتْ بصائرُهم فتاهوا فى أودية الحيرة ، وعَثَرُوا — من الضلالةِ — فى كل وَهْدَةٍ . وكان الأستاذ أبو على الدَّقاق — رحمه الله — يقول : تَجوَّزُوا أن يكون للنحوتُ من الخشبِ والمعمولُ من الصخر[1] إلهاً معبوداً ، وتعجبوا أن يكون مثلُ محمد — صلى الله عليه وسلم — فى جلالةِ قَدْرِه رسولاً . . . !! هذا هو الضلال البعيد .

قوله جَلّ ذكره : ﴿ وبَشِّرِ الذين آمنوا أنّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربِّهم ﴾ .

وهو ما قدَّموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها ، وفنونِ عباداتٍ صَدَقُوا فى القيام بقضائها .

ويقال هو ما قدَّم الحقُّ لهم يومَ القيامة من مقتضى العناية بشأنهم ، وما حَكَمَ لهم من فنونِ إحسانه بهم ، وصنوف ما أفردهم به من امتنانهم .

ويقال : « قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم » : هو ما رفعوه من أقدامهم فى بدايتهم فى زمان

---

(١) وردت (الصفر) بالفاء وهى خطأ فى النسخ .

إرادتهم ، فإنّ لأقدامِ المريدين المرفوعةِ لِأجلِ اللهِ حُرْمَةً عند الله ، ولأيامِهم الخاليةِ فى حالِ تردُّدِهم ، ولياليهم الماضية فى طلبه وهم فى حُرْقَةِ تحيُّرهم .. مقاديرَ عند الله . وقيل :

مَنْ يَنْسَ داراً قد تخونها رَيْبُ الزمان فإنى لست أنساكا

وقيل :

تلك العهودُ لشدِّها لِتَحُلَّها عندى كما هى عقدها لم يُحْلَلِ

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ ربَّكم اللهُ الذى خلق السموٰاتِ والأرضَ فى ستة أيامٍ ثم استوىٰ على العرشِ يُدَبِّرُ الأمرَ ما من شفيعٍ إلا مِنْ بعد إذنه ذلكم الله رَبُّكم فاعبدوه أفلا تَذَكَّرون ﴾ .

لا يحتاج فِعْله إلى مُدَّةٍ ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة ؟ فَخَلَقَ السموٰاتِ والأرضَ فى ستة أيام ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ الله سبحانه وتعالى .

« ثم استوى على العرش » أى تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملوكنا إذا أرادوا التجلِّى والظهورَ للحَشَمِ والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم فى ألوان مشاهدهم . فأخبر الحقُّ — سبحانه — بما يَقْرُب من فَهْم الخلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى على العرش ، ومعناه اتصافه بعز[1] الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية ، تقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود .

« يُدَبِّرُ الأمر » : أى الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره ، وحاصلةٌ بتدبيره ، فلا شريكَ يعضده ، وما قضى فلا أحد يردُّه . « ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه » : هو الذى يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه ، وهو الذى يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبُه .

« ذلكم الله ربُّكم » : تعريف وقوله : « فاعبدوه » : تكليف ؛ فحصولُ التعريف بتحقيقه ، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه .

---

(١) وردت (بغير) الصمدية وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ إليه مَرْجِعُكم جميعاً وعْدَ اللهِ حقًّا
إنَّه يبدأُ الخلْقَ ثم يُعِيدُه ليجزىَ
الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ بالقِسْطِ
والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم
وعذابٌ أليم بما كانوا يَكْفُرُون ﴾

الرجوع يقتضى ابتداء الأرواح قبل حصولها فى الأشباح ، فإن لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبِّيه وذويه ، كما قيل :

أيا قادماً من سَفْرةِ الهجر مرحباً أناديك لا أنساك ماهبَّت الصَّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى ، والثواب والحسنى . والعاصى إذا رجع إلى ربِّه فَبِنَعْتِ الإفلاس وخسران الطريق ؛ فيتلقى لِباس الغفران ، وحُلَّةَ الصفح والأمان ، فرحمةُ مولاه خيرٌ له من نُسْكِه وتقواه .

قوله : « وَعْدَ اللهِ حقاً » : موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى ، وموعودُ العاصى الرحمة والرِّضى . والجَنَّةُ لُطْفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحق ؛ فاللُّطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل ، والنَّعْتُ لم يزل[1] .

قوله . « إنَّه يبدأُ الخلْقَ ثم يعيده » : مَنْ كان له فى جميع عمره نَفَسٌ على وصفِ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففى الإشارة : تكون لذلك إعادة ، وأنشدوا :

كلُّ نَهْرٍ فيه ماء قد جَرَى فإليه الماء يوماً سيعودُ

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى جعل الشمسَ ضياء والقَمَرَ
نوراً وقدَّره منازِلَ لتعلموا عَدَدَ
السِّنينَ والحسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلك
إلا بالحقِّ يُفَصِّل الآياتِ لقومٍ
يعلمون ﴾

(١) يفرق القشيرى فى كتابه (التحبير فى التذكير) الذى قمنا بتحقيقه بين صفات الفعل وصفات الذات .

أنوار العقول نجومٌ وهى للشياطين رجوم ، وللعلوم[1] أقمار وهى أنوار واستبصار ، وللمعارف شموس ولها على أسرار العارفين طلوع ، كما قيل :

إنَّ شمسَ النهار تَغْرُبُ بالليل وشمسُ القلوب ليست تَغِيبُ

وكما أنّ فى السماء كوكبين شمساً وقمراً ؛ الشمسُ أبداً بضيائها ، والقمرُ فى الزيادة والنقصان ؛ يُسْتَرُ بمحاقه ثم يكمل حتى يصير بدراً بنعت إشراقه،ثم يأخذ فى النقص إلى أنْ لا يبقى شىء منه لتمام امتحاقه ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، لم يَجِدْ أكثر من ليلةٍ لكَمَالِه مقاماً ، ثم يأخذ فى النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُه ويتمّ نَقْصُه .

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هو مُتَرَدِّدٌ بين قَبْضِه وبَسْطِه ، وصَحْوِه ومَحْوِه ، وذهابه وإيابه ؛ لا فَنَاء فيستريح ، ولا بقاء له دوامٌ صحيحٌ ، وقيل :

كلَّما قُلْتُ قد دنا حَلُّ قيدى كَبَّلونى فأوثقوا المسْمَارا

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ
وما خَلَقَ اللهُ فى السمٰواتِ والأرضِ
لآياتٍ لقومٍ يَتَّقُون ﴾

اخْتُصَّ النهارُ بضيائه ، وانفرد الليلُ بظلمائه ، من غير استيجابٍ لذلك ، ومن غير استحقاق عقاب لهذا ، وفى هذا دليلٌ على أنَّ الردَّ والقبولَ ، والمَنْعَ والوصولَ ، ليست معلولةً بسببٍ ، ولا حاصلةً بأمرٍ مُكْتَسَبٍ ؛ كلاَّ . إنها إرادةٌ ومَشِيئَةٌ ، وحُكْمٌ وقضية .

النهارُ وقتُ حضور أهلِ الغفلة فى أوطان كَسْبِهم ، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم ، قال قائلهم :

هو الشمس ، إلا أنَّ للشمسِ غَيبةً وهذا الذى نعنيه ليس يغيبُ

والليلُ لأحدِ شخصين : أمَّا المُحِبُّ فَوَقْتُ النَّجوى ، وأمّا العاصى فَبَثُّ الشكوى .

---

(١) وردت (العموم) وهى خطأ فى النسخ إذ المقصود نوع من المقابلة بين (العلوم) والمعارف .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين لا يرجون لِقاءنا ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتِنا غافلون * أولئك مأواهم النارُ بما كانوا يَكْسِبُون ﴾

أنكروا جوازَ الرؤية فَلَمْ يرجوها ، والمؤمنون آمنوا[1] بِجَوَازِ الرؤية فأمَّلُوها .

ويقال : لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه ، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحبُّوه لأنهم لم يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألاَّ يطلبوه ، قال تعالى : « وَأنَّ إلى ربك المنتهى »[2] .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولوطلبوا لعرفوا ، ولو عرفوا لأحبُّوا ، ولو أحبُّوا لاشتاقوا ، ولو اشتاقوا لرجوا ، ولو رجوا لأمَّلوا لقاءه ، قال تعالى : « ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هداها »[3]

قوله تعالى : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » : أصحابُ الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فَحُرِمُوا الجنةَ ، والزُّهَّادُ الزُّهَّادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة ، وقد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم ، ولكلٍّ أحدٍ مقامٌ .

ويقال إذا كانوا لايرجون لقاءه فمأواهم العذابُ والفرقة ، فدليلُ الخطاب أن الذى يرجو لقاءه رآه ، ومآلُه ومنتهاه الوصلةُ واللقاء والزُّلْفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم تجرى مِن تحتهم الأنهارُ فى جنَّاتِ النَّعيم ﴾

كما هداهم اليومَ إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة .

---

(١) من هذا سهم أن التشيعى يؤمن بجواز رؤية الله فى الآخرة ، أما رؤيته فى الدنيا فإنه يقول فى الرسالة ص١٧٥ : (الأقوى أنه لاتجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا — وقد حصل الإجماع فى ذلك) .

(٢) آية ٤٢ سورة النجم .

(٣) آية ١٣ سورة السجدة .

ويقال: أمّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكةُ تتلقّاهم والحقُّ، قال تعالى: «يومَ نَحشر المتقين إلى الرحمن وفداً»[1] نحشرهم، والعاصون يَبْقَوْن منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحون فى مطاحات[2] القيامة.

والحقُّ — سبحانه — يقول لهم: عِبادى، إنَّ أصحابَ الجنة — اليومَ — فى شُغْلٍ عنكم، إنهم فى الثواب لا يتفرّغون إليكم، وأصحابُ النار من شدة العذابِ لا يرقبون لكم معاشِرَ المساكين.

كيف أنتم إنْ كان أشكالكم وأصحابُكم سبقوكم؟ وواحدٌ منهم لا يهديكم فأنا أهديكم. لأنى إنْ عاملتُكم بما تستوجبُون... فأين الكرمُ بحقنا إذا كنا فى الجفاء مِثْلَهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللّهُمَّ وتحيتُهم فيها سلامٌ وآخِرُ دعواهم أن الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين﴾

قالتُهم الثناء على الله، وذلك فى حال لقائهم. وتحيتهم فى تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» «وآخر دعواهم أن الحمد لله»: والحمد هاهنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمدٍ أبدىٍّ سرمدىٍّ، والحقُّ — سبحانه — يُحَيِّيهم بسلامٍ أزلىٍّ وكلام أبدى، وهو عزيزٌ صمدىٌّ ومجيدٌ أحدىٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿ولو يُعَجِّلُ الله للناس الشَّرَّ استعجالَهم بالخير لَقُضِىَ إليهم أَجَلُهم فَنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يَعْمَهُون﴾

أى لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضَجَرِهم لَعجَّلنا إهلاكَهم، ولكن

---

(١) آية ٨٥ سورة مريم.

(٢) المطاح والمطاحة: اسما مكان من طاح، وهو المسلك الوعر المهلك.

تَحَمَّلْنَا ألا نُجِيبَهم ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبدُ بأن الربَّ لا يجيب دُعاءه ، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابَتَهُ لُطْفاً منه وأَنَّ فى ذلك بلاءً لو أجابه ، كما قيل :

أَنَاسٌ أعرضوا عنَّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظنَّهم فينا فهلاَّ أحسنوا الظَّنَّا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لِجَنْبه أو قاعِداً أو قائماً فلمَّا كَشَفْنَا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾

إذا امتُحِنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أَنْ يرومَ التخلُّصَ مما ناله ، فيعلمَ أنَّ غيْر الله لا يُنْجِيه ، فتحمله الضرورةُ على صِدْق الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كَشَفَ اللهُ عنه ما يدعو لِأَجْلِه شَغَلَتْه راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة ، وزَايَلَه ذلك الالتياع ، وصار كأنه لم يكن فى بلاءٍ قط :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا كتسى ولم يكُ صُعلوكاً إذا ما تَموَّلاَّ

ويقال بلاءٌ يُلْجِئُكَ إلى الانتصابِ بين يَدَىْ معبودِك أجدى لك من عطاءٍ ينْسِيكَ ويكفيك عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَهْلَكنا القُرونَ مِن قبلِكم لمَّا ظَلَمُوا وجاءتْهُم رُسُلُهم بالبيناتِ وما كانوا ليؤمِنوا كذلك نجزى القومَ المجرمين ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاك الظالمين ، كما فى الخبر : « لو كان الظلم بيتاً فى الجنَّة لسلَّط اللهُ عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشىء فى غير موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَه ــ عند حوائجه ــ فى المخلوقين ، وتعلَّق قلبُه بهم فى الاستعانة ، وطَلَبِ المأمول فقد وَضَعَ الشىء فى غير موضعه ،

وهو ظلم ؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه ، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجتُه من غيره ، وكان من فقره وحاجته فى مضرَّةٍ . فإنْ صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنَةٌ عظيمةٌ .

وعلى هذا القياس إذا أحبَّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته فى غير موضعها ، وهذا ظلم ؛ وعقوبَتُه خرابُ روحه لِعَدَمِ صفاءِ ودِّه ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من الأُنس بالله ، إذا بقى عن الله يُذيقه الحقُّ طعمَ المخلوقين ، فلا له مع الخَلْقِ سَلْوة ، ولا من الحقِّ إلا الجفوة ، وعدم الصفوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناكم خَلائفَ فى الأرض مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كيف تعملون ﴾

عرَّفناكم بِسِيَرِ مَنْ قَبْلَكُمْ ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتبرتم بهم نَجَوْتُم ، ومن لم يعتبرْ بما سمعه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم ، ومَنْ لم يعتبرْ بِمَنْ سَبَقَهُ اعتبر به مَنْ لَحِقَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لِقاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّله قُلْ مايكونُ لى أنْ أُبَدِّلَه مِن تِلقاء نَفْسى إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلىَّ إنِّى أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربى عذابَ يومٍ عظيم ﴾

إذا اقترحوا عليك بأنْ تأتيَهم بما لم نأمركَ به ، أو تُرِيَهُم ما لم نُظْهِرْ عليك من الآياتِ .. فأخبِرْهم أنَّكَ غير مُسْتَقِلٍّ بِك ، ولا موكولٍ إليك ؛ فنحن القائمُ عليكَ ، المصرِّفُ لكَ ، وأنتَ المتَّبِعُ لما نُجريه عليك غيرَ مُبْتَدِعٍ لِما يَحْصُل منك .

قوله جل ذكره : ﴿قُل لو شاء اللهُ ما تلوْتُه عليكم ولا أدراكم به فقد لَبِثْتُ فيكم عُمُراً مِّن قبلِه أفلا تعقلون﴾

قد عِشْتُ فيكم زمانا ، وعرفتم أحوالى فيما تطلبون منى عليه برهانا[1] ، فما ألفيتمونى (. . .)[2] بل وجدتمونى فى السداد مستقيماً ، وللرشاد مستديماً ، فلولا أنَّ الله تعالى أرسلنى ، ولِمَا حَمَّلَنِي مِنْ تكليفه أَهَّلَنِي لَمَا كنتُ بهذا الشرع آتِياً ولا لهذا الكتاب تالِياً .

« أفلا تعقلون » مالكم تعترضون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

قوله جل ذكره : ﴿فمَنْ أظلَمُ مِمَّنِ افترىٰ على اللهِ كَذِباً أو كَذَّب بآياتِه إنَّه لا يُفْلِحُ المجرمون﴾ .

الكَذِبُ فى الشرع قبيحٌ ، وإذا كان على الله فهو أقبح .

ومِنَ المفتَرين على الله : الذين يُظْهِرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين ، وجزاؤُهم أنْ يُحْرَمُوا ذلك أبداً ، فلا يَصِلون إلى شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ويعبُدون مِن دون اللهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا ينفعُهُم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللهِ قُلْ أتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ فى السمٰواتِ ولا فى الأرضِ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

ذَمَّهُم على عبادة ما ليس منه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ .

فدليلُ الخطاب يقتضى أنْ يكونَ المعبودُ منه الضَّرُّ والنفع ، ومِنْ فَرْطِ غباوتهم أنهم

---

(١) أى لماذا تطلبون الآن منى برهاناً على شىء أنتم عرفتموه عنى من قبل وهو صدق ؟

(٢) مشتبهة .

انتظروا فى المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجَدُ منه الضَّرُّ والنَّفْعُ فى الحال. ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذى قالوا معلوماً، ولو كان كما قالوا لعلِموا أنه سبحانه لا يَعْزُبُ عن علمه[1] معلومٌ.

ومعنى قوله: «لا يعلم»: خلافه. ومَنْ تَعَلَّقَ قلبُه بالمخلوقين فى استدفاع المضارِّ واستجلاب المسارِّ فكالسالكِ سبيلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام؛ إذ المنْشِىء والموجِدُ للشىء مِنَ العَدَم هو الله — سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وما كان النَّاسُ إلا أُمَّةً واحدةً فاختلفوا، ولولا كلمة سَبَقَتْ من ربِّكَ لقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلِفون﴾.

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا، والحق — سبحانه — سَبَقَ قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة، ولذلك لا يُجِيبُهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة.

وإنما اختلفوا لأنَّ الله خَصَّ قوماً بعنايته وقبوله، وآخرين بإهانته وإبعاده، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة.

قوله جل ذكره: ﴿ويقولون لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ مِّنْ رَبِّه فَقُلْ إنما الغَيْبُ لله فانتظروا إنى معكم من المنْتَظِرين﴾.

أخبر أنه — عليه السلام — فى سَتْرِ الغَيْبة وخفاء الأمر عليه فى الجملة لتقاصُرِ علمه عما سيحدث، فهو فى ذلك بمنزلتهم، إلا فى مواطن التخصيص بأنوار التعريف، فكما أنهم فى الانتظار لما يحدث فى المستأنف فهو أيضا فى انتظار ما يوجِدُ — سبحانه — من المقادير. والفَرْقُ بينه — عليه السلام — وبينهم أنه يشهد ما يحصل به — سبحانه — ومنه، وهم مُتَطَوِّحون فى أودية الجهالة؛ يُحيلُون الأمرَ مرةً على الدَّهْرِ، ومرةً على النجم[2]، ومرةً على الطبع.. وكلُّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمىً.

---

(١) وردت (عمله) وهى خطأ فى النسخ.

(٢) المقصود بالنجم هنا الطالع والحظ من نحس وسعود.

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أذقنا النَّاسَ رحمةً مِّن بَعْدِ
ضَرَّاء مَسَّتْهُم إذا لَهُم مَكْرٌ
فى آياتِنا قُلِ اللهُ أسْرَعُ مَكْرًا إنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُبون ما تَمْكُرُونَ ﴾

يعنى إذا أصابهم ضُرٌّ ومحنة فرحمناهم وكشفنا عنهم ، أحالوا الأمر على غيرِنا ، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم : مُطِرْنَا بنوء كذا ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نَجْمٍ أو مساعدةُ دولة أو تأثيرُ فَلَكٍ أو خيراتُ دهر .

فهذا كان مكرُهم أما مكر الله — سبحانه — بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة فى هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجبة أو فترة .. فإذا جاء الحقُّ بكشفٍ أو تجلٍّ أو إقبال فَمِنْ حقِّهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها[1] ، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحقِّ مَكَرَ الله بهم بأنْ شتَّتهم فى تلك الأحوال من غير تَرَقٍّ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مَكْرُه بخَوَاصِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُسَيِّركم فى البرِّ والبحرِ
حتى إذا كنتم فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ
بهم بريحٍ طيبةٍ وفرِحوا بها جَاءَتْها
ريحٌ عاصِفٌ وجاءهم الموجُ مِن كلِّ
مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحِيط بهم دَعَوُا
اللهَ مُخْلِصين له الدِّين لئِنْ أنْجَيْتَنَا
مِنْ هذه لنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾

يريد أنهم يُصْبِحون فى النِّعم يجرُّون أذيالَهُم ، ثم يُمْسُون يبكون لَيَالِيَهُم . وقد يَبِيتُون والبهجةُ مَلَكَتْهُم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتْهُم ، وأنشدوا :

---

(١) تفهم من هذا أنَّ (الملاحظة) أخف من (المساكنة) وكلتاهما من آفات الطريق ، يلح القشيرى دائماً على التحذير منهما ، وقد بالغ أهل الملامة فى توضيح أضرارهما — كما تشهد بذلك النصوص التى رواها عنهم فى (رسالته) .

أقمتَ زماناً والعيونُ قريرةٌ وأصبحتَ يوماً والجفونُ سوافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكَشْفِ البلاء .

فلمَّا أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره[1] يرجِعون، وعلى مناهجهم — فى تمردهم يسلكون.

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ يأيها الناسُ إنَّما بَغْيُكُم على أنفُسِكم متاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجعُكم فَنُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون ﴾

« يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » معناه : تُمَتَّعكم أياماً قلائلَ ، ثم تَلْقَوْن[2] غِبَّ ذلك وتبدأون تقاسون عذاباً طويلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه مِنَ السماءِ فاختلط به نباتُ الأرضِ مما يأكُلُ الناسُ والأنعامُ حتَّى إذا أخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لَّمْ تَغْنَ بالأمسِ كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون ﴾

شَبَّهَ الحياةَ الدنيا بالماء المُنَزَّلِ من السماء يَنْبُتُ به النباتُ وتَخْضَرُّ الأرضُ وتَظْهَرُ الثمار ، ويوطِّن أربابُها عليها نفوسَهم ، فتصيبهم جائحةٌ سماوية بغتةً ، وتصير كأن لم تكن .

كذلك الإنسانُ بعد كمال سِنِّهِ وتمام قُوَّتِهِ واستجماع الخصال المحمودة فيه تَخْتَرِمُهُ المَنِيَّة ، وكذلك أموره المنتظمةُ تَبْطُلُ وتختلُّ بوفاته ، كما قيل :

---

(١) وردت (غيرم) والأكثر ملاءمة للسياق أن تكون (غيره) .

(٢) وردت (يلقون) وهى خطأ فى النسخ لعدم اتفاقها مع أسلوب الخطاب .

فَقَدْنَاه لمَّا تمَّ واختمَّ بالعُلَى كذاك كسوفُ البدرِ عند تمامه

ومن وجوه تشبيه الأحوال الدنيوية بالماء المُنَزَّلِ من السماء أن المطرَ لا ينزل بالحيلة ، كذلك الدنيا لا تساعدها إلا القسمة .

ثم إن المطر إن كان لا يجيء إلا بالتقدير فقد يُسْتَسْقَى . . كذلك الرزق — وإنْ كان بالقسمة — فقد يُلْتَمَسُ من الله ويُسْتَعْطَى .

ومنها أن الماء في موضعه سببُ حياة الناس ، وفي غير موضعه سببُ خرابِ الموضع ، كذلك المال لمستحقه سببُ سلامته ، وانتفاعِ المتصلين به ، وعند مَنْ لا يستحقه سببُ طغيانِهِ ، وسببُ بلاءِ مَنْ هو متصل به ، كما قيل : نِعَمُ الله لا تُعاب ولكنه ربما استعجم على إنسان ، وكما قيل :

يا دولةً ليس فيها من المعالى شظيَّةْ زولى فما أنتِ إلا على الكرام بَلِيَّةْ

ومنها أن الماء إذا كان بمقدارٍ كان سببَ الصلاح ، وإذا جاوز الحدَّ كان سببَ الخراب .. كذلك المال إذا كان بقَدْرِ الكفاية والكفاف فصاحبه مُنَعَّمٌ ، وإذا زاد وجاوز الحدَّ أوجب الكُفران والطغيان .

ومنها أن الماء ما دام جارياً كان طيباً ، فإذا طال مكثه تغيَّر . . كذلك المال إذا أنفقه صاحبُه كان محموداً ، فإذا ادَّخَره وأمسكه كان معلولا مذموماً .

ومنها أن الماء إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى ، وإذا كان غيرَ طاهرٍ فبالعكس . . كذلك المال إذا كان حلالاً ، وبعكسه لو كان حراماً .

ويقال كما أن الربيعَ تتورد أشجارُه ، وتظهر أنوارُه ، وتخضرُّ رِباعُه ، وتتزين بالنبات وهَادُه وتِلاعه ، لا يُؤْمَن أنْ تصيبَه آفة من غير ارتقاب ، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب . كذلك منَ الناس مَنْ تكون له أحوالٌ صافية ، وأعمالٌ بشرط الخلوص زاكية ، غصونُ أُنْسِهِ مُتَدَلِّية ، ورياضُ قربِهِ مونِقةٌ . . ثم تصيبه عَيْنٌ فيذبل عودُ وِصاله ، وتنسدُّ أبوابُ عوائدِ إقباله ، كما قيل :

عينٌ أصابَتْكَ إنَّ العينَ صائبةٌ والعينُ تُسْرِعُ أحياناً إلى الحسَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ يدعو إلى دارِ السلامِ ويهدى مَن يشاء إلى صِراطٍ مستقيم ﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفى الحقيقة دعاهم إلى ما يوجِب لهم الوصول إلى دار السلام ؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره . والدعاء من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف .

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف ؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص .

ويقال التكليف بحقِّ سلطانه ، والتعريف بِحُكْمِ إحسانه .

ويقال الدعاء قَوْلُه والهداية طَوْلُه ؛ دَخَلَ الكلُّ تحت قوله ، وانفرد الأولياء بتخصيص طَوْلِه . دار السلام دار الله لأن السلام اسم مِنْ أسمائه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهى دار السلامة أى أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الحُرقَة وسالمون من الفُرقة ؛ سَلِموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه ، وسَلِموا من الفُرْقة فوصلوا إلى عزيز لقائه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُهُ عن السجود للصَنَم ، وسَلِمَ قلبُه عن الشِّرْكِ والظُلم .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والذى سَلِمَ قلبُه عن محبة الأغيار درجتُه أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُه من الذنوب والأوضار .

ويقال قوم سلمت صدورُهم من الغِلِّ والحسد والحقد ؛ وسَلِمَ الخلْقُ منهم ؛ فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، وليس لهم على أحد شىء ؛ فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمحسنُ من سَلِمَ الخلْقُ بأجمعهم من قلبه .

« الصراط المستقيم » : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب

البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف[1] كالعيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » .

قوله جل ذكره : ﴿ للذين أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وزيادة ﴾ .

« أحسنوا » : أى عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالُهم على مقتضى الإذن .

ويقال « أحسنوا » : لم يُقَصِّروا فى الواجبات ، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات .

ويقال « أحسنوا » : أى لم يَبْقَ عليهم حقٌّ إلا قاموا به ؛ إن كان حقُّ الحقِّ فَمِنْ غير تقصير ، وإن كان من حقِّ الخَلْق فأداه من غير تأخير .

ويقال « أحسنوا »: فى المآل كما أحسنوا فى الحال،فاستداموا بما فيه واستقاموا ، والحسنى التى لهم هى الجنة وما فيها من صنوف النِّعم .

ويقال الحسنى فى الدنيا توفيق بدوام[2] ، وتحقيق بتمام ، وفى الآخرة غفران مُعَجَّل ، وعيان على التأبيد[3] مُحَصَّل .

قوله : « وزيادة » : فعلى موجِب الخبر وإجماعِ السلف النظرُ إلى الله . ويحتمل أن تكون « الحسنى » : الرُّؤية ، « والزيادة » . دوامُها . ويحتمل أن تكون «الحسنى» : اللقاء ، « والزيادةُ » : البقاء فى حال اللقاء .

ويقال الحسنى عنهم لامقطوعة ولا ممنوعة ، والزيادة لهم لاعنهم محجوبة ولا مسلوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ ولا ذِلَّةٌ أولئك أصحابُ الجَنَّةِ هم فيها خالِدون ﴾ .

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب ، ويعكسه حديث الكفار حيث قال : « ووجوه يومئذ عليها غَبَرة » .

---

(١) (المعرفة بالوصف) احتراز هام جداً ، حتى لا يظن أن (البيان) يستشرف من (الذات) الصمدية ، وإنما يقتصر الأمر على (عرفان الأوصاف) الإلهية كالجلال والجمال والكرم . . إلى آخره .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « خير العمل أدومه وإن قل »

(٣) (التأبيد) معناه إلى الأبد فهم فى الجنة خالدون أبداً ، وستأتى لفظة (التأبيد) فى العقوبة أيضا بعد قليل .

« والذِّلة » التى لا تصيبهم أى لا يُرَدُّوا مِنْ غير شهودٍ إلى رؤية غيره ، فهم فيها خالدون فى فنون أفضالهم ، وفى جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كَسَبُوا السيئاتِ جزاء سيئةٍ بمثلها وترهَقُهُم ذِلَّةٌ مالهم مِنَ الله مِنْ عاصمٍ كأنَّما أُغْشِيَتْ وُجوهُهُم قِطَعًا من الليلِ مُظْلِماً أُولئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ ﴾ .

والذين كسبوا السيئاتِ وعملوا الزَّلاتِ لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء فى « بمثلها » : صلة أى للواحد واحد .

« وترهقهم ذلة » : هو تأبيد العقوبة .

« ما لهم من الله من عاصم » أى ما لهم من عذابه من عاصم ، سِيمُوا ذُلَّ الحجاب ، ومُنُوا بتأبيد العذاب ، وأصابهم هوان البعاد . وآثارُ الحجاب على وجوههم لائحة فإنَّ الأَسِرَّةَ تدلُّ على السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَحْشُرُهم جميعاً ثم نقولُ للذينَ أشركوا مَكانَكم أنتم وشركاؤكم ، فزَيَّلْنَا بينهم وقال شُرَكاؤُهم ما كنتم إيانا تَعْبُدُون * فكفى باللهِ شهيداً بيننا وبينكم إن كُنَّا عن عبادتِكم لغافلين ﴾

يجمع بين الكفار والأصنام التى عبدوها من دون الله ، فتقول الأصنام : ما أمرناكم بعبادتنا . فيدعون على الشياطين التى أطاعوها ، وعلى الأصنام التى أمرتهم أن يعبدوها ، وتقول الأصنام : كفى بالله شهيداً ، على أنَّا لم نأمركم بذلك ؛ إذ كُنَّا جماداً . وذلك لأنَّ اللهَ يُحْيِيها يوم القيامة ويُنْطِقُها .

وفى الجملة . . . يتبرأُ بعضُهم مِنْ بعض ، ويذوقُ كلٌّ وبالَ فِعْلِه .

وفائدةُ هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم ؛ فاشتغالُهم — اليومَ — بذلك مُحالٌ[1] ، ولهم فى المآلِ — مِنْ ذلك — وبالٌ . .

قوله جل ذكره : ﴿ هُنالك تَبْلُو كلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقِّ ، وضلَّ عنهم مَّا كانوا يَفْتَرون ﴾

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طَعْمَ هوانِهم ؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعدَ عن الله ، والطردَ من قِبَلِ الله ، وذلك جزاء مَنْ آثَرَ على اللهِ غيرَ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن يرزُقُكم من السماءِ والأرضِ أمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصارَ ، ومَن يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحى ، ومَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فسيقولون اللهُ فقُلْ أفلا تتقون ﴾

كما تَوَحَّدَ الحقُّ — سبحانه — بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً ، وكما لا خالقَ سواه فلا رازقَ سواه .

ثم الرزق على أقسام : فللأشباح رزق : وهو لقومٍ توفيق الطاعات ، ولآخرين خذلان الزَّلات . وللأرواح رزق : وهو لقومٍ حقائق الوصلة ، ولآخرين — فى الدنيا — الغفلة وفى الآخرة العذاب والمهلة .

« أمَّنْ يملك السمعَ والأبصار » : فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يعميها عن التحقيق .

---

(١) المحال هنا معناها ما عُدِلَ به عن وجهه (أنظر هذا المعنى فى الوسيط) .

« ومن يخرج الحيَّ من الميت ويخرج الميت من الحى » : يخرج المؤمنَ من الكافر ، والكافرَ من المؤمن .

« فسيقولون الله » : ولكنْ ظَنًّا ... لا عن بصيرة ، ونُطْقاً ... لا عن تصديق سريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فذلكُمُ اللهُ ربُّكم الحقُّ ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ فأنَّى تُصْرَفون ﴾

ما يكون من موضوعاتِ الحق ، ومتعلقاتِ الإرادة ، ومتناولاتِ المشيئة ، ومُجَنَّساتِ التقدير ، ومُصَرَّفاتِ القدرة — فهى أشباحٌ خاوية ، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ ربِّكَ على الذين فَسَقُوا أنَّهم لا يؤمِنون ﴾

سَبَق لهم الحُكْمُ ، وصَدَقَ فيهم القولُ ؛ فلا لِحُكْمِهِ تحويل ولا لقوله تبديل ، فإنَّ العَلَلَ[1] لا تُغَيِّر الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل مِن شركائكم مَّن يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُه ؟ قلِ اللهُ يبدأُ الخلْقَ ثم يُعِيدُهُ فأنَّى تؤفَكون ﴾

كَشَفَ قبيحَ ما انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخَلْقُ والإعادة ، وأثبت أن المعبودَ مَنْ مِنْه الخَلْقُ والإعادة .

قومٌ جعلوا له فى الإيجاد شركاء بدعوى القَدَرِ ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة . وكل هذا جنوحٌ إلى الكُفْر وذهابٌ عن الدِّين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُركائكم مَّن يهدى إلَى الحقِّ قُلِ اللهُ يهدى للحق أفمَن يهدى إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن

---

(١) أى — حسب مذهب القشيرى — أحكام الله السابقة لا تخضع لعلة ، غير أننا لا نستبعد أنها (الحيل) جمع حيلة ، فليس تدبير الإنسان يتغير الحكم السابق فى الأزل .

لا يَهِدِّى إلَّا أن يُهْدَى فما لكم
كَيْفَ تَحْكُمون ﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجودٌ ، وأنه ذو الحق ، وأنه مُحِقُ الحقِّ .
والحقُّ من أوصاف الخَلْق ما حَسُنَ فعله وصحّ اعتقاده وجاز النطق به .

« والله يهدى للحق » : أى إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنىً ؛ فَمَنْ هداه الحقُّ للحقِّ وَقَفَه على الحقِّ ، وعزيزٌ منْ هداه الحقُّ إلى الحقِّ للحقِّ ، فماله نصيبٌ وما له حَظٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُم إلا ظَنًّا إنَّ
الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الحقِّ شيئاً إنَّ اللهَ
عليمٌ بما يفعلون ﴾

الظَّنُّ يُنافى اليقين ، فإنه ترجيح أحد طَرَفَى الحكم على الآخر من غير قَطْع .

وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع ؛ فالظنُّ فى أوصاف الحقِّ معلولٌ ، والقطع — فى أوصاف النَّفس — لكل أحدٍ معلول . والعَبْدُ يجب أن يكون فى الحال خالياً عن الظن إذْ لا يَعْرِفُ أحدٌ غيْبَ نَفْسِهِ فى مآله .

وفى صفة الحقِّ يجب أن يكونَ العبدُ على قطعٍ وبصيرة ؛ فالظنُّ فى الله معلول ، والظن فيما مِنَ الله غير محمود . ولا يجوز بوجهٍ من الوجوه أن يكون أهلُ المعرفةِ به سبحانه — فيما يعود إلى صفته — على الظن ، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيَّه — عليه السلام — أنْ يقول : « أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى »[1] ؟ وكما قلنا[2] :

طَلَعَ الصباحُ فلات حين سراج وأتى اليقين فلات حين حجاج
حصل الذى كُنَّا نؤمِّل نَيْلَه من عَقْدِ ألويةٍ وحلِّ رتاج

---

(١) آية ١٠٨ سورة يوسف .
(٢) الشعر هنا للقشيرى نفسه كما يستفاد من عبارته .

والبعد قوّضَ بالدّنو خيامه والوصلُ وَكّدَ سَجْلَه بعِناج[1]
قَدْ حانَ عَهْدٌ للسرور فحيهلا لمواجم الأحزان بالإزعاج

قوله جل ذكره . ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفْتَرَىٰ
مِن دونِ اللهِ ولـكن تصديقَ الذى
بين يديْه وتفصيل الـكتاب لاريْبَ
فيه مِن ربِّ العالَمِين ﴾

انسدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمىً على عمىً ، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدىً على هدى ، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقومٍ سببَ تحيُّرهم ، ولآخرين موجِبَ تبصُّرهم

قوله جل ذكره : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ
مِثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِن دونِ
اللهِ إن كُنْتم صادقين ﴾

كلَّتْ القرائح ، وخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة ، واعترف كلُّ خطيب مِصْقَعٍ بالعجز عن معارضة هذا الـكتاب ، فلم يتعرَّض لمعارَضته إلا مَنْ افتضح فى قالته .

قوله جل ذكره : ﴿ بل كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه
ولمَّا يأتِهم تأويلُهُ كذلك كذَّبَ
الذين مِن قبلهم فانظر كيف كان
عاقبةُ الظالمين ﴾

قابلوا الحقَّ بالتـكذيب لِتَقَاصُرِ علومهم عن التحقيق ، فالتحقيقُ من شرط التصديق ، وإنما يؤمِن بالغيب مَنْ لوَّح — سبحانه — لقلبه حقائق البرهان ، وصَرَفَ عنه دواعى الرَّيْب .

---

(١) السجل = الدلو العظيمة ، والمناج = حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يؤمِنُ به ومنهم مَّن لّا يؤمِن به، وربُّك أعلَمُ بالمفسدين ﴾

فأمَّا الذين آمنوا فهم الذين كَحَلَ الحقُّ أبصارَ قلوبِهم بنور اليقين ، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وَسَمَ قلوبَهم بالعمى فزلُّوا — بالضلالة — عن الهُدَى . . تلك سُنَّةُ الله فى الطائفتين، ولن تجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كذَّبوكَ فقُل لّى عملى ولكم عملُكم أنتم بريئُون مِمَّا أعمل وأنا برىءٌ مما تعملون ﴾

بَرِحَ الخفاء ، واستبانت الحقائق ، وامتاز[1] الطريقان ، فلا المحسنُ بِجُرْمِ المسىء مُعَاقَبٌ ، ولا المسىء بِجُرْمِ المحسن مُعاتَب ، كُلٌّ على حِدَةٍ بما يعمله وعلى ما يفعله مُحَاسَب .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن يَسْتَمِعُون إليكَ أفأنت تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يَعقِلُون ؟! ﴾ .

من استمع بتكلفه ازدادفى تَخَلُّفِهِ بزيادة تصرفه ، ومَنْ استمع الحقَّ بِتَفَضُّلِهِ — سبحانه — استغنى فى إدراكه عن تَعَمُّلِهِ . والحقُّ — سبحانه — يُسْمِعُ أولياءه ما يناجيهم به فى أسرارهم ، فإذا سمعوا دعاء الواسطة[2] قابلوه بالقبول لِمَا سَبَقَ لهم من استماعِ الحقِّ . ومَنْ عَدِمَ استماعَ الحقِّ إياه من حيث التفهيم لم يَزِدْه سماعُ الخَلْقِ إلا جحداً على جحد ، ولم يحظَ به إلا بُعْداً على بُعْد .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم مَّن ينظر إليكَ أفأنتَ تَهْدى العُمْىَ ولو كانوا لا يُبْصِرون ؟! ﴾ .

مَنْ سُدَّتْ بصيرتُه بالغفلة والغيبة لم يَزِدْه إدراكُ البَصَرِ إلا حجبةً على حجبة ، ومَنْ

---

(١) (امتاز) هنا معناها اتضح الفرق بينهما .

(٢) المقصود بالواسطة النبي عليه الصلاة والسلام .

لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسمع من الله بالله ، فقصاراه العمى والصمم ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[1] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : « فبى يسمع وبى يبصر »[2] .

وأنشد قائلهم :

تأمَّلْ بعين الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً ... إلى منظرٍ منه إليه يعود

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يظلِمُ الناسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفُسَهم يَظلِمون ﴾ .

نَفَى عن نَفْسِه ما يستحيل تقديره فى نعته ، وكيف يوصَفُ بالظلم وكلُّ ما يُتَوَهَّمُ أنْ لو فَعَلَه كان له ذلك ؟ إذ الحقُّ حقُّه والمُلْكُ مُلْكُه . ومَنْ لا يَصِحُّ تقديرُ قبيحٍ منه — أنَّى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَحْشُرهم كأن لَمْ يلبثوا إلا ساعةً من النهارِ يتعارفون بينهم قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدِين ﴾ .

الأيامُ والشهور ، والأعوام والدهور بعد مُضيها فى حُكْمِ اللحظة لمن تفكَّرَ فيها ، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتى من الوقت قريب ، وكأنَّ قَدْرَ الماضى من الدهر لم يُعْهَدْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا نُرِيَنَّك بعضَ الذى نَعِدُهم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلينا مَرْجِعُهم ثم اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون ﴾ .

---

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

(٢) « حتى أحبه فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها » .
— حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأحمد عن عائشه .

معناه أن خبره صدق ، ووعده ووعيده حق ، وبعد النَّشْرِ حَشْرٌ ، وفى ذلك الوقت مُطالَبَةٌ وحسابٌ ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون المعلومُ مُشاهَداً موجوداً !

قوله جل ذكره : ﴿ ولِكُلِّ أُمَّةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولُهم قُضِىَ بينهم بالقِسطِ وهم لا يُظلَمون ﴾ .

لم يُخْلِ زماناً مِنْ شَرْعٍ ، ولم يُخْلِ شرعاً مِنْ حُكْمٍ ، ولم يُخْلِ حُكْماً مما يَعْقُبُه من ثوابٍ وعقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ﴾ .

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب ، فأما أهل التحقيق فليس لهم لواردٍ يَرِدُ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده ، أو استعجالٌ على حين كَوْنِه ، ولا إذا وَرَدَ استقبالٌ لما تضمنه حُكْمُهُ ؛ فهم مطروحون فى أَسْرِ الحُكْمِ ، لا يتحرك منهم — باختيارهم — عِرْقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لا أَمْلِكُ لنفسى ضَرًّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إذا جاء أَجَلُهم فلا يستأخِرون ساعةً ولا يَستَقْدِمون ﴾ .

المملوكُ متى يكون له مِلْك ؟ !

وإذا كان سيِّدُ البرايا — عليه الصلاة والسلام — لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .. فمَنْ نَزَلَتْ رُتْبَتُه ، وتقاصَرَتْ حالُته متى يملك ذرةً أو تكون باختياره وإيثاره شمةٌ ؟ طاح الذى لم يكن[1] — فى التحقيق ، وتفرَّدَ الجبارُ بنعت الملكوت .

---

(١) (الذى لم يكن) يقصد بها الحادث من إنسان وحيوان وعين وأثر .. الخ .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ أرأيتم إنْ أتاكم عذابُه بياتاً أو نهاراً ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنه المجرمون ﴾

مَنْ عَرَفَ كمالَ القُدرة لم يأمَنْ فجأةَ الأخذِ بالشدة ، ومن خاف البيات لم يستلذ السُّبات . ويقال مَنْ توسَّدَ الغفلةَ أيقظتْه فجاءةُ العقوبة ، ومَنْ استوطن مركب الزَّلَّة عَثَرَ فى وَهْدَةِ المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ أثُمَّ إذا ما وقع آمنتُم به آلآنَ وقد كنتم به تستعجلون ﴾

بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير .

ويقال لاحُجَّةَ بعد إزاحة العلة ، ولا عذْرَ بعد وضوح الحجة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم قيل للذين ظَلَمُوا ذوقوا عذابَ الخُلْدِ هل تُجْزَوْن إلا بما كنتم تَكْسِبُون ﴾

لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا تجرع مامنه سَقتْ، ولا يحصد زارعٌ غَلَّةً إلا مامنه زرع ، وفى معناه قالوا :

سَنَنْتَ فينا سَنَناً قَذَفَ البلايا عقبه
يصبر على أهوالها مَنْ برَّ يوما رَبَّه(١)

قوله جل ذكره : ﴿ ويَسْتَنْبِئُونَكَ أحقٌّ هُوَ قُلْ : إى وربى إنَّه لَحقٌّ وما أنتم بِمُعْجِزِين ﴾

صرِّحْ بالإخبار عند استخبارهم ، وأعْلِمْ بما يزيل الشُّبْهَةَ عمَّا التبس على جُهَّالِهم ، وأكِّدْ إخبارَكَ بما تذكره مِنَ القَسَمِ واليمين ، مضافاً ذلك إلى ماتُسْلِفُه من التَّبيين . على أنه لاينفعهم

(١) الشطر الثانى من هذا البيت مطموس غير واضح ، ولكننا أكملناه حسبما ورد النص فى موضع سبق .

نُصْحُك ، ولا يُؤَثِّر فيهم وعظُكَ .. كيف لا ؟ وقد جُرِّعوا شرابَ الحُجبة ، وَوُسِمُوا بِكَيِّ الفُرقة ؛ فلا بصيرة لهم ولا (. . .)[1] ولا فهمَ ولا حصافة .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ به وأَسَرُّوا الندامةَ لَمَّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بينَهم بالقِسْطِ وهم لا يُظْلَمون﴾

لا يُقْبَلُ منهم عَدْلٌ ولا سَرَفٌ[2] ، ولا يحصل فيما سَبَقَ لهم من الوعيد خَلَفٌ . ولاندامة تنفعهم وإنْ صَدَقوها ، ولا كرامةَ تنالهم وإنْ طلبوهَا ، ولا ظُلْمَ يجرى عليهم ولا حيف ، كلا . . . بل هو اللهُ العَدْلُ فى قضائه ، الفَرْدُ فى علائه بنعت كبريائه .

قوله جل ذكره : ﴿أَلاَ إِنَّ للهِ ما في السمٰواتِ والأرضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ولكن أكثَرَهُم لا يعلمون﴾

الحادثات بأسْرِها لله مِلْكاً ، وبه ظهوراً ، ومنه ابتداء ، وإليه انتهاء ؛ فقولُه حقٌّ ، ووعدهُ صِدْقٌ ، وأمره حَتْمٌ ، وقضاؤه باتٌّ . وهو العَلِيُّ ، وعلى ما يشاء قوىٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿هو يُحْيِي ويُمِيتُ وإليه تُرْجَعُون﴾

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة ، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة ، فنفوسُ العابدين تَلَفُها فنون المجاهدات ، وقلوب العارفين شَرَفُها عيون المشاهدات .

ويقال يحيي مَنْ أقبل عليه ، ويميت مَنْ أعرض عنه .

ويقال يحيي قلوبَ قوم بجميل الرجاء ، ويميت قلوبَ قومٍ بِوَسْمِ القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿يٰأيها الناسُ قد جاءتكم مَوْعِظة مِّن

---

(١) مشتبهة .
(٢) السرف هنا معناها مجاوزة الحد .

ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾

الموعظة للكافة . . ولكنها لا تنجع في أقوامٍ ، وتنفع فى آخرين ؛ فمَنْ أصغى إليها بسَمْعِ سِرِّه اتضح نورُ التحقيق فى قلبه ، ومَنْ استمع إليها بنعت غَيْبَتِه ما اتصف إلا بدوام حجبته .

ويقال الموعظة لأربابِ الغيبة ليَتُوبُوا ، والشفاء لأصحاب الحضور ليطيبوا .

ويقال « الموعظة » : للعوام ، « والشفاء » : للخواص ، « والهُدى » لخاص الخاص ، « والرحمة » لجميعهم ، وبرحمته وَصلوا إلى ذلك .

ويقال شفاءُ كلِّ أحدٍ على حَسَبِ دائه ، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة ، وشفاء للطيعين بوجود النعمة[1] ، وشفاء العارفين بوجود القربة ، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة ، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات ، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ بفَضْلِ اللهِ وبرحمته فبذلك فليفرحوا هُوَ خيرٌ مما يجمعون ﴾ .

« الفضل » : الإحسانُ الذى ليس بواجبٍ على فاعله ، « والرحمة » إرادة النعمة وقيل هى النعمة .

والإحسان على أقسام وكذلك النعمة ، ونِعَمُ اللهِ أكثر من أنْ تحصَى .

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات ، والرحمة ما أزاحَ عنهم من الآفات .

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجراء الطاعات ، ورحمته مَاعَصَمَهم به من ارتكاب الزَّلات . ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق .

---

(١) نعلم من مذهب القشيرى أن (الرحمة) من أوصاف الذات ، و (النعمة) من أوصاف الفعل . . فتأمل كيف يرتبط مصير (المذنبين) بوصف من أوصاف ذاته ، ولاحظ كيف يفتح الصوفية بذلك أبواب الأمل أمام التائبين .

ويقال فضل الله ما يخُصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته ما يخصُّ به أهلَ الزلاّتِ من وجوه غفرانه .

ويقال فضل الله الرؤية ، ورحمته إبقاؤهم فى حالة الرؤية .

ويقال فضل الله المعرفة فى البداية ، ورحمته المغفرةُ فى النهاية .

ويقال فضل الله أنْ أقامَكَ بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقَّه بحكم البيان إلى أنْ تراه غداً بكشف العيان .

قوله : « فبذلك فليفرحوا » أى بما أهَّلَهم له ، لا بما يتكلَّفون من حَرَكاتهم وسَكَناتهم ، أو يَصِلُونَ إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعملهم . « هو خيرٌ مما يجمعون » : أى ما تُتْحَفُونَ به من الأحوال الزاكية خيرٌ مِمَّا تجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذى لَكَ منة — فى سابق القسمة — خيرٌ مما تتكلَّفُهُ من صنوف الطاعة والخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتم ما أنزَلَ اللهُ لكُم من رِزْق فَجَعَلْتُم منه حراماً وحلالاً قُلْ آللهُ أذِنَ لكم أمْ على اللهِ تَفْتَرون ؟ ﴾ .

يعنِّفُهم ويقرِّعُهم[1] على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم ، ويُظْهِر كذبهم فيما تقوَّلُوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ظَنُّ الذين يَفْتَرون على اللهِ الكذِبَ يومَ القيامةِ إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ ولكنَّ أكْثَرَهم لا يَشْكُرُون ﴾ .

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب .

---

(١) قرع فلانا أى أوجعه باللوم والعتاب (المحيط)

ثم قال : « إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس» فى إمهالِ مَنْ أجرَم ، والعصمةِ لِمَنْ لم يُجْرِم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تكونُ فى شأنٍ وما تتلُو
منه مِن قرآنٍ ولا تعملون مِنْ عملٍ
إلا كنَّا عليكم شهوداً إذ تُفيضُون
فيه ، وما يَعْزُبُ عن ربِّكَ مِن
مِثْقال ذَرَّةٍ فى الأرضِ ولا فى السماءِ
ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلاَّ
فى كتابٍ مُبين ﴾

خَوَّفَهم بما عرّفهم من اطلاعه عليهم فى جميع أحوالهم ، ورؤية ما سيفعلونه من فنون أعمالهم . والعلْم بأنه يراهم يوجِبُ استحياءهم منه ، وهذه حال المراقبة ، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحيي منه ، وتَركَ متابعة هواه ، ولا يُحوِّم حَوْلَ ما نهاه ، وفى معناه أنشدوا :

كأنَّ رقيباً منك حالٌ بمهجتى إذا رُمْتُ تسهيلا علىَّ تصعُّباً

وأنشدوا :

أُعاتِبُ عَنْكَ النفْسَ فى كلِّ خَصلَةٍ تعاتبنى فيها وأنت مقيم

« وما يعزُبُ عن ربك من مثقال ذرة » : وكيف يخفى ذلك عليه ، أو يتقاصر علمه عنه ، وهو منشئُه وموجِدُه ؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة ، وإنما قال : « إلا في كتاب مبين » : ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم — لعدم اكتفائهم فى الامتناع عمَّا نُهُوا عنه — برؤيته وعلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ألاَ إنَّ أولياء اللهِ لاخوفٌ عليهم﴾ .

الولىُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو مَنْ توَالَت طاعاته ، من غير أن يتخللها عصيان .

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول ؛ فيكون الولىُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله ، ويكون بمعنى كونه محفوظاً فى عامة أحواله من المحن .

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصى فيعصمه الحقُّ — سبحانه — على دوام أوقاته من الزلاَّت .

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالولىُّ لا يكون إلا محفوظاً .

والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يُلِمُّ بِذَنْبٍ أَلْبَتَّةَ ، والمحفوظ قد تحصُل منه هَنَات ، وقد يكون له — فى الندرة — زَلاَّتٌ ، ولكن لا يكون له إصرار : « أولئك الذين يتوبون من قريبٍ »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ لا خَوْفٌ عليهم ولاهم يحزنون ﴾ .

حسنٌ ما قيل إنه « لا خوف عليهم » : فى الدنيا ، « ولا هم يحزنون » : فى العاقبة . ولكن الأَوْلى أنْ يقال إنّ الخواص منهم لاخوفٌ عليهم فى الحال — لأنَّ حقيقةَ الخوفِ توقُّع محذورٍ فى المستقبل ، أو ترقُّب محبوبٍ يزول فى المستأنف . . وهم بِحُكْمِ الوقت ؛ ليس لهم تطلُّعٌ إلى المستقبل . والحزن هو أن تنالهم حُزُونة فى الحال ، وهم فى رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجرى فلا تكون لهم حزونة الوقت . فالولىُّ لا خوفٌ عليه فى الوقت ، ولا له حزن بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون وليّاً إلا إذا كان موفَّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات . وكلُّ خَصْلَةٍ حميدةٍ يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هى صفة الأولياء . ويقال الولىُّ مَنْ فيه هذه الخصلة .

ويقال الولىُّ من لا يُقَصِّر فى حقِّ الحق ، ولا يؤخِّر القيام بحق الخلق ؛ يطيع لا لخوف عقاب ، ولا على ملاحظةِ حسن مآب ، أو تطلعٍ لعاجلِ اقتراب ، ويقضى لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً ، ولا يقتضى من أحدٍ حقًّا له ، ولا ينتقم ، ولا ينتصف[2] ولا يشمت ولا يحقد ، ولا يقلد أحداً مِنَّةً ، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قَدْراً ولا قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا فى الحال ، واتقوا الشِّرْكَ فى المآل . ويقال « آمنوا » أى قاموا

---

(١) آية ١٧ سورة النساء .

(٢) أى إذا اساء إليه أحد لم يطلب من مخلوق إنصافاً ، وإنما عفا وتساهل ، تاركا الأمر لله .

بقلوبهم من حيث المعارف . « وكانوا يتقون » : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف .

ويقال « آمنوا » بتلقى التعريف . « واتقوا » : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لَهُم البُشْرَىٰ فى الحياة الدُّنيا وفى الآخرة ، لا تبديلَ لكلمات الله ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ .

القيام بالأمر يدل على الصحة ؛ فإذا قاموا بما أُمِروا به ، واستقاموا بِتَرْكِ ما زُجروا عنه بَشَّرَتْهُم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام ، وبَشَّرَتْهم الحقيقة باستيجاب الإكرام ، بما كوشِفوا به من الإعلام .. وهذه هى البشرى فى عاجلهم . وأما البُشرى فى آجِلِهم : فالحقُّ — سبحانه — يتولَّى ذلك التعريف ، قال تعالى : « يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوان »[1]

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون فى قلوبهم مِنْ ظَفَرِهم بنفوسهم بسقوط مآربهم ، وأىُّ مُلْكٍ أتمُّ من سقوط المآرب ، والرضا بالكائن[2] ؟ هذه هى النعمة العظمى ، ووجدانُ هذه الحالة هو البشرى الكبرى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التى لهم وبين البشارة التى للخلْق أنَّ التى للخلْق عِدَةٌ[3] بالجميل ، والذى لهم نَقْدٌ ومحصول .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم إنَّ العِزَّةَ لله جميعاً هو السَّميعُ العليم ﴾ .

العبدُ مادام متفرقاً يضيقُ صدرُه ويستوحش قلبُه بما يسمع ويشهد من الأغيارِ والكفارِ ما تَتَقَدَّسُ عنه صفةُ الحقّ ، فإنْ صار عارفاً زالَتْ عنه تلك الصفة لتحققه بأنَّ الحقَّ سبحانه وراءَ كلِّ طاعةٍ وزَلَّةٍ ، فلا له — سبحانه — من هذا استيحاش ، ولا بذلك استئناس .

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

(٢) الكائن هنا معناها الواقع ، فلا يتطلعون إلى زيادة أو تغيير .

(٣) عدة = وعد ، وتذكر ما قلناه فى هامش سابق عن الوعد والنقد .

ثم يتحقق العارفُ بأنَّ المُجرِىَ لطاعةِ أربابِ الوِفاق — اللهُ ، والمُنْشِىء لأحوال أهل الشِّقاقِ — اللهُ . لا يبالى الحقُّ بما يجرى ولا يبالى العبدُ بشهود ما يجرى ، كما قيل :

بنو الحقِّ قضوا بالحقِّ صِرْفا فَنَعْتُ الخَلْقِ فيهم مستعار

قوله جل ذكره ﴿ ألا إنَّ للهِ مَن فى السمٰواتِ ومَن فى الأرضِ وما يتَّبِعُ الذين يَدْعُون من دونِ اللهِ شُركاء إن يتَّبعون إلا الظنَّ وإنْ هم إلا يَخْرُصُون ﴾

لله مَنْ فى السمٰوات ومَنْ فى الأرض مِلْكاً ، ويبدى عليهم ما يريد حكما جَزْماً ؛ فلا لقبوله عِلَّة ، ولا موجِبَ لردِّه زَلَّة ، كلا ... إنها أحكامٌ سابقة ، لم تُوجِبْها أجرامٌ لاحقة ، ولا طاعاتٌ وعبادتٌ صادقة .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى جَعَلَ لكم الليلَ لتسكُنُوا فيه والنهارَ مُبْصِراً إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون ﴾

الليلُ لأهل الغفلة بُعْدٌ وغيبة ، ولأهل الندم[1] توبة وأوبة ، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة ؛ فالليل بصورته غير مُؤْنِسٍ ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلامِ الليلِ عندى من يَدٍ[2] تُخَبِّرُ أن المانوية تكذب

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا اتخذ اللهُ وَلَداً سبحانه هو الغنىُّ له ما فى السمٰوات وما فى الأرضِ إنْ عندَكم مِّن سلطان بهذا ، أتقولون على اللهِ ما لا تعلمون ﴾

---

(١) وردت (القوم) وهى خطأ فى النسخ إذ لا معنى لها هنا والمناسب (الندم) .
(٢) وردت (مزيد) وهى خطأ فى النسخ .

الوَلدُ بعض الوالد ، والصمدية تَجِلُّ عن البعضية ، فَنَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن ذلك بقوله « سبحانه » .

ثم إنه لم يعجِّلْ لهم العقوبة — مع قبيح قالتهم ومع قدرته على ذلك — تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده .

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّدِه ، فلا قسيمَ له ، ولا يجوز في نعته التبنّي أيضاً لِتَفَرُّدِه وأنه لا شبيهَ له .

قوله : « هوالغنيُّ » : الغِنَى نَفْيُ الحاجة ، وشهوةُ المباشرةِ حاجة ، ويتعالى عنها سبحانه .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّ الذين يفْتَرون على اللهِ الكذبَ لا يُفْلِحون ﴾

ليس لهم بما هم فيه استمتاع ، إنما هي أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة ، فلا قَدَمٌ لهم بعد ذلك تُرْفَع ، ولا نَدَمٌ ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نَبأَ نوحٍ إذ قال لقومِه يا قومِ إن كان كَبُر عليكم مَقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلى الله توكلتُ فأجمِعوا أمرَكم وشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أمرُكُم عليكم غُمَّةً ثم اقضُوا إليَّ ولا تُنْظِرون ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم — لِمَا كان يمسُّه من مقاساة الشِّدَّة من قومه ، فإنَّ أيامَ نوحٍ — وإنْ طالت — فما لَبِثَتْ كثيراً إلا وقد زالت ، كما قيل :

وأحْسَنُ شيء في النوائب أنها إذا هي نابت لم تكن خلدا

ثم بيَّنَ أنه كان يتوكل على ربِّه مهما فعلوا . ولم يحتشم عبدٌ — ما وَثِقَ بربِّه — من كلِّ ما نَزَلَ به . ثم إن نوحاً — عليه السلام — قال : إني توكلت على الله ، وهذا عين التفرقة ،

وقال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : « يأيها النبيُّ حَسْبُكَ الله »[1] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تَوَلَّيْتُم فما سألتكم من أجرٍ إنْ أجرِيَ إلا على اللهِ وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المسلمين ﴾

إذا كان عملُه لله لم يَطْلُب الأجْرَ عليه من غير الله ، وهكذا سنَّتُه فى جميع أولياء الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فكذَّبوه فنَجَّيْناه ومَن معه فى الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرين ﴾

أغرق قومَه بأمواج القَطْرة ، وفى الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة ، وحفظ نوحاً — عليه السلام — وقومه فى السفينة ، وفى الحقيقة نَجَّاهم فى سفينة السلامة . كان نوحٌ فى سابق حكمه من المحروسين ، وكان قومُه فى قديم قضائه من جملة المُغْرَقين ، فَجرَتْ الأحوال على ما جَرَتْ به القسمةُ فى الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بَعَثْنا مِنْ بَعْدِه رُسُلاً إلى قومِهم فجاءوهم بالبيناتِ فما كانوا ليؤمِنوا بما كذَّبوا به مِن قَبْلُ كذلك نَطْبَعُ على قلوبِ المُعْتَدين * ثم بعثنا مِنْ بعْدِهم موسى وهارون إلى فرعون وملَئِه بآياتِنا فاستكبروا وكانوا قوماً مُجْرِمين ﴾

---

(١) آية ٦٤ سورة الأنفال

قصَّ عليه — صلوات الله عليه وسلامه — أنباء الأولين ، وشرح له جميع أحوال الغابرين ، ثم فَضَّلَه على كافتهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أنهاراً وهو البحر ، ثم به انتظم عِقْدُهم ، وبنورِه أشْرَقَ نهارُهم ، وبظهوره خُتِم عددُهم[1] ، كما قيل :

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أجْلِه حيًّا غدٌ والتفت الأمسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاءهم الحقُّ مِنْ عندِنا قالوا إنَّ هذا لسِحْرٌ مبين ﴾

ما زَادَهم الحقُّ سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغيانا ، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَه فى المردودين عن معرفته أنه لا يزيد فى الحجج هدىً إلا ويزيد فى قلوبهم عَمًى ، ثم خفى عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

« يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » : نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا ، وكذا صفةُ مَنْ أقصتْه السوابقُ ، وردَّته المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عمَّا وَجَدْنا عليه آباءنا وتكونَ لكما الكبرياء فى الأرضِ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا ، واستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم شؤمُ العقيدةِ وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دَعَوْهم إلى الله لتكونَ لهم الكبرياء على عباد الله ، ولم يعلموا أنهم إنما دَعَوْهم إلى الله بأمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال فِرعونُ ائتونى بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾

لما استعان فى استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبَرَّأ منهم وتوَعَّدهم

---

(١) قارن ذلك بما يقوله الحلاج فى طواسينه وبما يقوله أصحاب « نظرية الانسان الكامل » عن الحقيقة المحمدية لتلحظ مدى اعتدال هذا الامام السنى المتحفظ فى نظرته لشخصية الرسول عليه صلاة الله وسلامه .

بقوله : لأفعلنَّ ولأصنعنَّ ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت فى غير الله فإنها تئول إلى العداوة والبغضة ، قال تعالى : « الأخِلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدو »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جاء السحرةُ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلْقُون * فلمَّا ألقوا قال موسى ما جِئْتُم به السِّحْرُ إنَّ اللهَ سيُبْطله إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ﴾

أمَرَهُمْ أمراً يُظْهِرُ به بُطْلانَهم ليُدخِلَ الحقَّ على ما أتوا به من التمويه ، فلذلك قال موسى عليه السلام : « إن الله سيبطله » ؛ فلمَّا التقمت عصا موسى — جميع ما جاءوا به من حِبَالِهم وعِصِيِّهم — حين قَلَبَها اللهُ حيَّةً .. عَلِمُوا أنَّ اللهَ أبطل تلك الأعيان وأفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُحِقُّ اللهُ الحقَّ بكلماته ولو كَرِه المجرمون ﴾ .

من جملة ما أحقَّه أن السَّحَرَةَ كان عندهم أنهم يَنْصُرون فرعون ويجيبونه فكانوا يُقْسِمون بِعِزَّته حيث قالوا « بِعِزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون » وقال الحقُّ سبحانه : بعزتى إنكم لمغلوبون ، فكان على ما قال تعالى دون ما قالوه ، وفى معناه قالوا :

كم رَمَتْنِي بِأسْهُمٍ صائباتٍ وتَعَمَّدْتُها بِسَهْمٍ فطاشا

قوله جل ذكره : ﴿ فما آمَنَ لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ مِن قومِهِ على خوف من فرعونَ وَمَلَإِيهِم أن يَفْتِنَهم وإنَّ فرعونَ لعالٍ فى الأرضِ وإنه لمن المسْرِفين ﴾ .

أهلُ الحقيقة فى كل وقتٍ قليلٌ عَدَدُهم ، كبيرٌ عند الله خَطَرُهم .

---

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كُنتم آمَنتُم بالله فعلَيْهِ توكَّلوا إن كنتُم مسلمين ﴾

بيَّن أن الإيمان ليس من حيث الأقوال . . بل لابد فيه من صدق الأحوال قصداً .
وحقيقةُ التوكل تَوَسُّلٌ تقديمُه متَّصِلٌ ، ثم يعلم أنه بفضله — سبحانه — تَحْصُلُ نجاتُه ، لا بما يأتى به من التكلُّف — هذه هى حقيقة التوكل[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فقالوا على الله توكلنا ربَّنا لا تجْعلْنا فتنةً للقوم الظالمين ﴾ .

تبرأنا مما منَّا مِنَّا مِنَ الحوْل والمُنَّة ، وتحققنا بما منك من الطوْل والمِنَّة .

فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك فى عقوبتك بانتقامك ، وارحمنا بلطفك وإكرامك ، ونجِّنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عليهم فأذْلَلْتَهم ، وبِسَكِّ فراقك وسَخَّتَهم

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبَوَّءا لقومِكما بمِصْرَ بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبْلةً وأقيموا الصلاة وبَشِّرِ المؤمنين ﴾ .

مَهَّدْ إليهم لعبادتنا محَالَّ وهى نفوسهم ، ولمعارفنا منازِلَ وهى قلوبهم ، ولمحبتنا مواضعَ وهى أرواحهم ، ولمشاهدتنا معاهِدَ وهى أسرارهم ؛ فنفوس العابدين بيوت الخدمة ، وقلوب العارفين أوطان الحشمة ، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة ، وأسرار الموحدين منازل الهيبة[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى رَبَّنا إنَّك آتيتَ فِرْعَوْنَ وملأَه زينةً وأموالاً فى الحياة الدنيا رَبَّنا ليُضلُّوا عن سبيلِك ربنا اطمس

---

(١) أى يغنى عن التوكل برؤية الوكيل . . كما يقول إبرهيم الخواص (ت ٢٩١)
(٢) هذه الفقرة هامة فى توضيح الملكات الباطنية وترتيبها ووظائفها فى المعراج الروحى — فى مذهب هذا الصوفى .

على أموالهم واشدُدْ على قلوبِهم
فلا يؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذاب
الأليم﴾ .

لما يَئِس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السُّخْطَة وإذاقة الفرقة . ومن المعلوم أنّ الأنبياء — عليهم السلام — مِنْ حقهم العصمة ، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى فى الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿قال قد أُجِيبَت دَّعْوَتُكما فاستقيما
ولا تَتَّبِعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون﴾ .

الاستقامةُ فى الدعاء تَرْكُ الاستعجالِ فى حصول المقصود ، ولا يَسْقُطُ الاستعجالُ من القلب إلا بوجدان السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بِحُسْنِ الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب

ويقال ينبغى للعبد أن يستقلَّ بالله[1] ما أمكنه ، فعند هذا يقلُّ دعاؤه . ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب — فى جوازه — فالواجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكِنَ الجأشِ .

ويقال من شرط الدعاء صِدْقُ الافتقار فى الابتداء ، ثم حُسْنُ الانتظار فى الانتهاء ، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة فى الدعاء سقوط التقاضى[2] على الغيب ، والخمود عن الاستعجال بحُسْنِ الثقة ، وجميل الظّن .

ويقال فى الآية تنبيهٌ على أنَّ للأمورِ آجالاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم فى الوقت المعلوم .

قوله جل ذكره : ﴿وجَاوَزْنَا ببنى إسرائيلَ البَحْرَ

---

(١) الاستقلال بالله الاكتفاء به وعدم النظر إلى النفس أو الأغيار .
(٢) التقاضى على الغيب معناه النظر إلى ما يأتى من الغيب بعين التقليل أو التكثير ، البطء أو السرعة .. ففى ذلك إقحام لحظوظ النفس فى حقوق الحق .

فأتبعهم فرعونُ وجنودُه بَغْياً وعَدْواً حتى إذا أدْرَكه الغَرَقُ ، قال : آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلا الذى آمَنَتْ به بنوا إسرائيلَ وأنا من المسلمين ﴾

حَمَلَتْ العِزَّةُ فِرعونَ على تَقَحُّمِ البحر على إثرهم ، فلمَّا تحقَّقَ الهلاكُ حَمَلَتْه ضرورةُ الحيلةِ على الاستعاذة ، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار .

ويقال لما شهد صَوْلَةَ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة[1] ، لكن : « بعد شهود البَأْسْ لا ينفع التخاشعُ والابتئاسْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ آلآنَ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِين ﴾

... أبعدَ طولِ الإمهال ، والإصرار على ذميمِ الأفعال ، والرَّكْضِ فى ميدان الاغترار ، وانقضاء وقت الاعتذار ؟! هيهات ! لقد استوجَبْتَ أن تُرَدَّ فى وجهك ، فلا لِعُذْرِك قَبُولٌ ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصولٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فاليومَ نُنَجِّيكَ ببدنِكَ لتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً ، وإنَّ كثيراً من النّاسِ عن آياتِنا لَغافِلون ﴾

لَنُشْهِرَنَّ تعذيبَكَ ، ونُظْهِرَنَّ — لِمَنْ استبصر — تأديبَك ، لِتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ عِبْرة ، وتزدادَ حين أفَقْتَ أسَفاً وحسرةً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَقَدْ بَوَّأْنا بنى إسرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ورزقناهم منَ الطيباتِ ، فما اختلفوا حتى جاءَهُم العِلْمُ إنَّ ربَّك

---

(١) تصح أن تكون كذلك ، وتصح أن تكون (الغلظة) بالظاء ، وهى قسوة القلب من الكفر والعناد ، ولا نستبعد أيضاً أن تكون : أفاق من سكر (الغفلة) .

يقضى بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا
فيه يختلفون ﴾

أذللنا لهم الأيامَ ، وأكثرنا لديهم الإنعامَ ، وأكرمنا لهم المقامَ ، وأتحنا لهم فنونَ الحسناتِ ، وأدمنا لهم جميع الخيراتِ . . . فلمَّا قابلوا النعمة بالكفران ، وأصرُّوا على البَغْيِ والعدوان أذقناهم سوء العذاب ، وسَدَدْنا عليهم أبوابَ ما فتحنا لهم من التكريم والإيجاب ، وذلك جزاء مَنْ حادَ عن طريق الوِفاق ، وجَنَحَ إلى جانب الشِّقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كُنْتَ فى شكٍ مما أنزلنا
إليكَ فاسْألِ الذينَ يقرءونَ
الكتابَ مِن قَبْلِك لقد جاءكَ
الحقُّ مِن ربِّكَ ، فلا تكونَنَّ منَ
المُمْتَرِين ﴾

ما شكَّ — صلى الله عليه وسلم — فيما عليه أُنْزِل ، ولا عن أحدٍ منهم ساءلَ ، وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل ، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل .

ويقال صفةُ أهل الخصوص ملاحظةُ أنفسِهم وأحوالِهم بعين الاستصغار .

ويقال فإنْ تَنَزَّلْتَ منزلةَ أهلِ الأدب فى تَرْكِ الملاحظات فَسَلْ عَمَّن أرسلنا قَبْلَكَ فهل بَلَّغْنا أحداً منزلتك ؟ وهل خَصَصْنا أحداً بمثل تخصيصكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونَنَّ منَ الذين كَذَّبوا
بآياتِ اللهِ فتكونَ منَ الخاسرين ﴾

ما كان منهياً عنه ، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً ، فلا بد من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يَجُزْ فى صفته — صلى الله عليه وسلم — التكذيبُ بآياتِ الله ؛ لأنه نُهِىَ عنه لا لكونه قبيحاً بالعقل[1] حتى يقال كيف نُهِىَ عنه وكان ذلك بعيداً منه ؟

---

(١) يغمز القشيرى هنا بقول المعتزلة : إن القبيح ما رآه العقل قبيحاً والحسن ما رآه العقل حسناً . ويرى القشيرى التعويل على الشرع فى هذا الخصوص — كما هو واضح من إشارته .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عليهم كلمةُ رَبِّك لا يُؤْمِنون ﴾

فالأعداء حَقَّتْ عليْهم كلمةُ بالعقاب ، والأولياء حقت عليهم كلمةُ بالثواب ؛ فالكلمة أزليَّة ، والأحكام سابقة ، والأفعال فى المستأنف على ممر الأوقات على موجب القضية لاحقة ، فالذين نصيبهم من القسمة الشِقْوةُ لا يؤمِنون وإن شاهدوا كل دلالة ، وعاينوا كل معجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا كانت قرية آمَنَتْ فنفعَها إيمانُها إلا قومَ يُونسَ لَمَّا آمنوا كَشَفْنَا عنهم عذابَ الخِزيِ فى الحياةِ الدنيا ومَتَّعْنَاهم إلى حين ﴾ .

قومُ يونس تداركتْهم الرحمةُ الأزليةُ فيما أجرى عليهم من توفيقِ التضرع ، فكَشَفَ عنهم العذابَ ، وصَرَفَ عنهم ما أظلَّ عليهم من العقوبة بعدما عاينوا من تلك الأبواب ؛ فبرحمته وصلوا إلى تضرعهم ، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَن فى الأرض كُلُّهم جميعاً أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

كيف يتصور عليه سبحانه مرادٌ — والذى يبقى شىء عن مراده ساهٍ أو مغلوبٌ ؟ والذى يستحق جلالَ العِزَّةِ لا يفوته مطلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أن تُؤمِنَ إلا بإذنِ اللهِ ويجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يَعْقِلون ﴾ .

---

(١) أى أن عمل الإنسان لا يكفى وحده للوصول إلا إذا ارتبط بتوفيق الله وفضله .

لا يمكن حَمْلُ[1] الإذن فى هذه الآية إلا على معنى المشيئة ؛ لأنه للكافة بالإيمان ، والذى هو مأمورٌ بالشىء لا يقال إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حملُ هذه الآية على معنى أنه لا يُؤْمِنُ أحدٌ إلا إذا ألجأه الحقُّ إلى الإيمان واضطره — لأنَّ موجِبَ ذلك ألا يكون أحدٌ فى العَالَمِ مؤمناً بالاختيار ، وذلك خطأ ، فدلَّ على أنه أراد به إلا أنْ يشاء اللهُ أنْ يُؤْمِنَ هو طوعاً . ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن ؛ لأنه يُبْطِلُ فائدةَ الآية ، فَصَحَّ قولُ أهل السُّنَّة بأنَّ ما شاء اللهُ كان ومالم يشأ لم يكن[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ انظروا ماذا فى السمٰوات والأرضِ وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ .

الأدلة — وإنْ كانت ظاهرة — فما تُغْنِي إذا كانت البصائرُ مسدودةً ، كما أن الشموسَ — وإن كانت طالعة — فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة ، كما قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بعقلته ... إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فهل ينتظرون إلا مِثْلَ أيامِ الذين خَلَوْا مِن قَبْلِهم قُلْ فانتظِروا إنّى معكم منَ المنتظِرين ﴾ .

تَمَنِّي ألطافِ أنوارِ الحقيقةِ تَعَنٌّ فى تسويل ، واستنادٌ إلى غير تحصيل ، وتمادٍ فى تضليل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنا والذين آمنوا كذلك حَقًّا علينا نُنجِ المُؤْمِنِين ﴾ .

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى : « علينا » هاهنا معناها « منا » ،

---

(١) وردت (حول) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) هذا نموذج طيب لموقف القشيرى متكلماً سلبياً — بالنسبة لقضية اختيار الإنسان .

فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً ، فيجب الشيء من الله — لصدقه — ولا يجب عليه — لِعِزَّتِه[1] .

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء — عليهم السلام — فى النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين فى النار لأنه أخبر أنه يُنَجِّى الرسلَ والمؤمنين جميعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يٰأيها الناسُ إن كنتم فى شَكٍّ مِّن دينى فلا أَعْبُدُ الذين تعبدون من دونِ اللهِ ولكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الذى يتوفّاكم وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِنَ المؤمنين ﴾ .

إن كنتم فى غطاء الرَّيْبِ فأنا فى ضياء مِنَ الغيبِ ، إنْ كنتم فى ظلمة الجهل فأنا فى شموس الوَصْلِ ، إن كنتم فى سدفة الضَّلالة فأنا فى خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة .

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق : فأنتم وقعتم فى وهدة العِوجِ ، وأنا ثابِتٌ على سَوَاء[2] النَّهجِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْ أَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حنيفاً ولا تكونَنَّ مِنَ المشركين ﴾

أى أَخْلِصَ قلبَك للدّين ، وجَرِّدْ قلبَكَ عن إثبات كلِّ ما لَحِقَه قهرُ التكوين ، وكُنْ مائلاً عن الزيغ والبِدَع ، داخِلاً فى جُمْلَةِ مَنْ أخلص فى الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَدْعُ مِن دون اللهِ ما لا ينفعكَ ولا يَضُرُّكَ فإن فَعَلْتَ فإنَّك إذاً مِّنَ الظالمين ﴾

---

(١) تامل هذا التخريج حتى ينسجم مذهبه الكلامى مع ظاهر النص القرآنى.
(٢) وردت (سوء) وهى خطأ فى النسخ .

لا تعبدْ ما لا تنفعكَ عِبادتُه ولا تَضُرُّك عبادتُه ، وتلك صفة كل ما يعْبد من دون الله . واستعانة الخَلْق بالخَلْق تمحيقٌ للوقتِ بلا طائلٍ ؛ فَمَنْ لاَ يَمْلكُ لنَفْسِه ضَرّاً ولا نَفْعاً كيف يستعين به مَنْ هو فى مثل حاله ؟ وإذا انضاف الضعيفُ إلى الضعيف ازدادَ الضعفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلاَّ هُوَ وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لِفَضلِه يُصيب به مَن يشاء مِنْ عباده وهو الغفور الرحيم ﴾

كما تفرَّد بإبداع الضُرِّ واختراعه فلا شريكَ يُعَضِّدُه . . كذلك توحَّدَ بكشف الضُرِّ وصَرْفِه فلا نصيرَ يُنْجِدُه .

ويقال هوَّنَ على المؤمنِ الضُرَّ بقوله : « وإن يمسسك الله بضُرٍ » حيث أضافه إلى نفسه، والحنظلُ يُسْتَلَذُّ مِنْ كفِّ مَنْ تحبه .

وفَرَّقَ بين الضُرِّ والخير بإضافة الضرِّ إليه فقال : وإن يمسسك الله بضرٍّ ، ولم يقل : وإنْ يُرِدْكَ بضرٍ — وإنْ كان ذلك الضرُّ صادراً عن إرادته — وفى ذلك من حيث اللفظ دِقَّةٌ .

ويقال : عَذُبَ الضرّ حيث كان نفعه ؛ فلمَّا أوجب مقاساة الضُرِّ من الحرَبَ أبدل مكانَه السرورَ والطَّرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ قل يأيها الناسُ قد جاءكم الحقُّ من ربِّكم فمنِ اهتدَى فإنما يهتَدِى لنفسِه ومن ضل فإنما يَضِلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾

مَنْ استبصر رَبِحَ رُشْدَ نفسِه ، ومَنْ ضلَّ فقد زاغ عن قَصْدِه ؛ فهذا بلاءٌ اكتسب ، وذلك ضياء وشفاء اجتلب .

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّبِعْ ما يوحَىٰ إليكَ واصبِرْ حتى يَحْكُمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكمين ﴾

قِفْ عند جريان أحكامنا ، وانسلخْ عن مرادِك بالكلية ، ليُجْرِيَ عليك ما يريد ، والله أعلم بالصواب .

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقولِ قومٍ فَبَصَّرتْها ، وعلى قلوب آخرين فَجَرَّدَتْها ، فالتي بَصَّرَتْها فبنور برهانه ، والتي جَرَّدتها فبقهر سلطانه .. فعالِمٌ سَلَكَ سبيلَ بحثه واستدلاله فَسَكَنَ لَمّا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله ، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصاله فطاح لَمّا لاحت لَمعةٌ ممن تقدَّس بالإعلام باستحقاق جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ آلر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حكيمٍ خبير ﴾

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية .

واللام إشارة إلى لُطْفِه بأهل التوحيد .

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البَرِيَّةِ .

وهي في معنى القَسَم : أي أقسم بانفرادي بالربوبية ولطفي بمن عَرَفَني بالأحدية ، ورحمتي على كافة البرية — إنَّ هذا الكتابَ أُحْكِمَتْ آياتُه .

ومعنى « أحكمت آياته » : أي حُفِظَتْ عن التبديلِ والتغيير ، ثم فُصِّلَتْ ببيان نعوتِ الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية ، وتعبَّد به الخلْقُ من أحكام العبودية ، ثم مالاح لقلوب الموحِّدين والمحبين من لطائف القربة ، في عاجِلِهم البُشْرى بما وَعَدَهم به من عزيز لقائه في آجِلهم ، وخصائصهم التي امتازوا بها عَمَّنْ سواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألاّ تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ .

أى فصلَتْ آياتُه بألا تعبدوا إلا الله .

ويقال معناه فى هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إنى لكم منه « نذيرٌ » مبينٌ بالفرقة ، « وبشيرٌ » بدوام الوصلة ، (فالفرقة بل فى عاجله واحداً)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه ﴾

استغفروا رَبَّكم أولاً ثم توبوا إليه بعده .

والاستغفار طلب المغفرة ، يعنى قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النَّظرة ، وحَمْل الرجاء والثقة بأنه لا يُخَلِّد العاصِيَ فى النار ، فلا محالةَ يُخْرِجُه منها . . فابْتَدِئوا باستغفاركم ، ثم توبوا بِتَرْكِ أوزاركم ، والتنقِّى عن إصراركم .

ويقال استغفروا فى الحال مما سلف ، ثم إنْ أَلْمَمْتُم بزِلَّةٍ أخرى فتوبوا .

ويقال استغفروا فى الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة — إلى مآلِكم — مما أسلفتم من قبيح أعمالكم .

ويقال « استغفروا » : الاستغفار هو التوبة ، والتنقى من جميع الذنوب ، ثم « توبوا » منْ تَوَهُّم أنكم تُجَابُون بتوبتكم ، بل اعلموا أنه يُجِيبكم بِكَرَمِه لا بأعمالكم .

ويقال « الاستغفار » : طَلَبُ حظوظكم مِنْ عَفوِنا . . فإذا فعلْتُم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب ، وارجعوا إلينا ، واكتفوا بنا ، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به .

قوله جل ذكره : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَنًا إلى أجلٍ مُسَمًّى ﴾

أى نُعَيِّشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً .

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص .

ويقال هو القناعة بالموجود .

---

(١) هذه عبارة إما أنها زائدة نتيجة خطأ فى النسخ ، أو أن بها اضطرابا فى الكتابة أفقدها المعنى .

ويقال هو ألا يخرّجه إلى مخلوق ، ولا يجعل لأحد عليه مِنّةً (لا سيما للئيم[1]) .

ويقال هو أن يوفقه (لاصطناع المعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن تُقْضَى على يديه)[2] حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ فى حال شبابه بِزَلَّةٍ ، وألا يتصفَ بأنه عن الله فى غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجرى عليه من نَوْعَىْ العسر واليسر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَه ، وإن تَوَلَّوْا فإنّى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير ﴾

منْ زادتْ حسناتُه على سيئاتِه أعطاه جزاء ما فَضَلَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هذا بيان التفسير .

ويقال مَنْ فَضَّلَه بحسن توفيقه أوصله إلى مايستوجبه من لطفه ويزيده . .

ويقال هو أن يستر عليه فضلَه حتى لا يلاحظ حالَه ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه ومَا لَه . . بِعَيْن الاستحقار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقيه عن التعريج فى أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية ، ويُنَقِّيه عن (. . . .)[3] البشرية ، والتكدر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجرى فى الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه هِمَّتُه ، ويُبَلِّغَه فوق ما يستوجبه محلّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلى الله مرجِعُكم وهو على كلِّ شىء قديرٌ ﴾

---

(١) ما بين القوسين فى أعلى الصفحة ومكتوب بخط ردىء جداً .

(٢) ما بين القوسين فى هامش الصفحة بخط حسن ومن هذا وذاك يتضح أن النسخة تبين لها أن تراجع بواسطة قارئين مختلفين .

(٣) مشتبهة .

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله ، وتنتفى الظنونُ ، ويحصل اليأسُ مِنْ غير الله بكل وجه ، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار ، والحقُّ يُجْرِى عليه ماسَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

أى يسترون ما تنطوى عليه عقائدهم ، ويُضْمِرون للرسول — عليه السلام — وللمؤمنين خِلافَ ما يُظْهِرون ، والحقُّ — سبحانه — مُطَّلِعٌ على قلوبهم ، ويعلم خفايا صدورِهم ، فتلبيسُهم لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً ، وكان الله — سبحانه — يُطْلِعُ رسولَه — عليه السلام — على ما أَخْفَوْه إمَّا بتعريفِ الوحى ، أو بإشهادِ لِقُوَّةِ نورٍ ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراسة ، فكل مؤمن له بِقَدْرِ حاله من الله هداية ، قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » [1] ولقد قال قائلهم .

أَبِعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِفُؤادى ؟ كلُّ مافى الفؤادِ للعين بادِ

قوله جل ذكره : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ إلا على اللهِ رِزْقُها ﴾ .

أراح القلوبَ من حيرة التقسيم ، والأفكارَ من نَصَبِ التفكير فى باب الرزق حيث قال : « إلا على الله رزقها » فَسَكَنَتْ القلوبُ لَمَّا تَحَقَّقَتْ أنَّ الرزقَ على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ فى غَلَطٍ من حسبانه . ثم إن اللهَ سبحانه

---

(١) رواه الترمذى والطبرانى .

ورواه القشيرى فى رسالته (ص ١١٥) هكذا : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال أخبرنا أحمد ابن على الرازى قال أخبرنا محمد بن أحمد بن السكن قال حدثنا موسى بن داود قال حدثنا محمد بن كثير الكوفى قال حدثنا عمرو بن قيس عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله (ص) : « واتقوا ... » .

بيّن أنَّ الرزقَ الذى « عليه » ماحالُه فقال : «وفى السماء رزقكم » ، وما كان فى السماء لايوجد فى السوق ، ولا فى التّطواف فى الغرب والشرق[1] .

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته .

ويقال للنفوسِ رزقٌ هو غذاء طريقُه الخَلْقُ ، وللقلوب رزق وهو ضياء مُوجِدُهُ الحق .

ويقال لم يقل ما يشتهيه أو مقدار ما يكفيه بل هو موكولٌ إلى مشيئته ؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه ومِنْ مُقَتَّرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كلٌّ فى كتابٍ مبين ﴾

قيل أراد به أصلابَ الآباء وأرحامَ الأمهات ، أو الدنيا والآخرة . ويقال مُسْتَقَرُّ المريد ببابِ شيخِه كمستقرِّ الصبيِّ بباب والديه . ويقال مستقر العابدين المساجد ، ومستقر العارفين المَشاهد ، فالمساجدُ مستقرُّ نفوسِ العابدين ، والمشاهِدُ مُسْتَقَرُّ قلوب العارفين .

ويقال مستقرُّ المحب رأسُ سِكَّةِ محبوبِه لعلَّه يشهده عند عبوره .

ويقال المساجِدُ للعابدين مستقرُّ القَدَم ، وللمشاهِدُ للعارفين مستقرُّ الهِمَم ، والفقراء مستقرهم سُدَّةُ الكَرَم .

ويقال الكلُّ له مثوىً ومستقر ، أما الموحِّد فإنه لامأوى له ولا مستقر ولامثوى ولا منزل .

ويقال النفوس مستودَعُ التوفيق من الله ، والقلوبُ مستودعُ التحقيق من قِبَلِ الله .

ويقال القلوبُ مستودعُ المعرفة ؛ فالمعرفة وديعةٌ فيها . والأرواح مستودع المحبة فالمحابُ ودائع فيها . والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ السموات والأرضَ فى ستة أيامٍ وكان عرشُه على الماء ليبلوَكُم أيكم أحسنُ عملاً ﴾

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى أن كلام القشيرى لا ينتظم مع قوله تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ولكن الواقع أنه يقصد بذلك رزق السرائر لا رزق الظواهر .

وأَحْسَنُ الأعمالِ موافقةُ الأمرِ ، ولم يَقُلْ أكثر عملا .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً .

ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه فى شهود المعبود .

قوله : « ليبلوكم » الابتلاء منْ قِبَلِه تعريفُ الملائكة حالَ من يبتليه فى الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئِن قُلْتَ إنَّكم مَّبعوثون مِنْ بَعْدِ الموتِ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾

استبعدوا النَّشْرَ لِتَقَاصُر علومهم عن التحقُّق بكمال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا أن البعثَ ليس بمناصٍ فى الإيجاد ولا بمستحيلٍ فى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أَخَّرْنَا عنهم العذابَ إلى أُمَّةٍ معدودةٍ ليقولُنَّ ما يَحبِسُه ؟ ألاَ يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزِئون ﴾

يقول : إنْ أَمْهَلْنَا ، وأخَّرْنا عليهم العذابَ لا يَرْعَوُون ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن عَجَّلْنا لهم العقوبةَ لا يتوبون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجهلُ فى الحالَيْن ، وعَمِيَتْ بصائرُهم عن شهودِ التقدير والإيمان بالغيب فى النوعين . ويوم يأتيهم العذابُ فلا مناصَ ولا منجاةَ ولا مراحَ لهم منه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَئِنْ أذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثم نزعناها منه إنَّه ليئوسٌ كفورٌ ﴾ .

تَكَدُّرُ ما صفا من النِّعم ، وتَغيُّرُ ما أُتيح من الإحسان والمِنَن حالٌ معهودةٌ وخُطَّةٌ عامة ، فلا أحدَ إلا وله منها خِطَّةٌ[1] فمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه ، ولم يتضاعفْ فى كل نَفَسٍ تَلَهُّفُه وكَرْبُه ففى ديوان النسيان ، وأثبت اسمه فى جملة أهل الهجران . ومن استمسك بعروة التضرع ، واعتكف بعقوة التذلل ، احتسى كاساتِ الحسرة عُلُلاً بعد نهل طاعته للحق بنعت الرحمة ، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوالْ القربة ، وأطْلَعَ عليه شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة ، كما قيل

تَقَشَّعَ غيمُ الهجرِ عن قمر الحبِّ · وأشرق نورُ الصبح فى ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ فى التحقيق ، ولا يُعدُّ زوالُها وتكدُّرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل ، لكنَّ المحنة الكبرى والرزيةَ العظمى ذبولُ غصنِ الوصال ، وتكدرُ مشرب القرب ، وأفولُ شوارق الأُنْسِ ، ورَمَدُ بصائر أرباب الشهود . . . فعند ذلك تقوم قيامتُهم ، وهناك تُسْكَبُ العَبَراتُ . ويقال إذا نَعَقَ فى ساحاتِ هؤلاء غرابُ البَيْن ارتفع إلى السماء نُوَاحُ أسرارهم بالويل ، ومن جملة ما يبثون من نحيبهم ما قلتُ .

قولا لمنْ سَلَبَ الفؤادَ فراقُه ولقد عَهِدْنا أن يُبَاحَ عِتابُه
بَعْدَ الفراقِ . . . فبالذى هو بيننا هَلاَّ رحمتم مَنْ دنا إزهاقُه ؟
عهدى بمن جحد الهوى أزمانَ كُـ ـنَّا بالصبابةِ — لايَضيق نِطاقُه .
والآن مُذْ بَخِلَ الزمانُ بوصلنا ضاق البسيطة ،حين دام فراقُه .
هل تُرتَجى من وصل عِزِّك رجعةٌ تحنو على قمرٍ يدوم محاقُه ؟
إن كان ذاك كما تروم فأخبِروا أنَّى له أن يعودَ شروقُه[2] ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أذقناه نعماءَ بعد

---

(١) (الخطة) بضم الخاء = الأمر والحالة ، و (والخطة) بكسر الخاء ما يختطه الإنسان لنفسه من قدر معلوم من الأرض ونحوها .

(٢) الأبيات فى هذا النص وصلتنا مضطربة الوزن سيئة الخط ، مطموسة الكلمات فى كثير من المواضع وقد تدخلنا فيها بقدر يسمح بإظهار المعنى وتناسق السياق .

ضرّاء مسّتْهُ ليقولَنّ ذهبَ السيئاتُ عنّي إنه لَفَرِحٌ فخور ﴾ .

إذا كشفنا الضُرَّ عنهم رحمةً منّا عادوا إلى تهتكهم بدلا من أن يتقربوا إلينا ، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا ، وكلما أتحْنا لهم من إمهالنا أمِنوا لمكرنا ، ولم يخافوا أنْ نأخذهم فجأة بقهرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاّ الذين صبَرُوا وعمِلُوا الصالحاتِ أولئك لهم مغفرة وأجْرٌ كبير ﴾ .

الإنسان فى الآية السابقة اسم جنس .

وإلا للاستثناء منه ، وقيل بمعنى « لكن » ، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا ، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك ، أى لكنّ الذين آمنوا بخلاف ذلك ، فإنهم لصبرهم على على مابه أُمِروا ، وعما عنه زُجِروا ، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزّلات .. فلهم مغفرة وأجر ، مغفرة لعصيانهم ، وأجرٌ على إحسانهم . والفريقان لا يستويان ، قال قائلهم .

أحْبَابُنا شَتّان وافٍ وناقِصٌ ولا يستوى قطُّ مُحبٌّ وباغض

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعَلّكَ تارِكٌ بعضَ ما يوحىٰ إليك ﴾ .

اقترحوا عليه أن يأتى بكتابٍ ليس فيه سَبُّ آلهتِهم ، وبيّن الله — سبحانه — له ألا يتركَ تبليغ ما أُنزِل عليه لأجلِ كراهتهم ، ولا يُبَدِّلَ ما يُوحَى إليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وضائِقٌ به صَدْرُك أن يقولوا لولا أُنزِلَ عليه كَنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ إنّما أنتَ نذيرٌ واللهُ على كل شىء وكيل ﴾ .

وهذا على وجه الاستبعاد ؛ أى لا يكون منك تركُ ما أُوحِيَ إليك ، ولا يضيق صَدرُك

بما يبدو من الغيب .. ومَنْ شرح الله بالتوحيد صدرَه ، ونوّر بشهود التقدير سِرَّه — متى يلحقه ضيقُ صدْرٍ أو استكراهُ أمْرٍ ؟ ثم قال : « إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » : أى أنت بِالإرسالِ منصوبٌ ، وأحكامُ التقدير عليكَ مُجْرَاةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعُوا مَنِ استطعتم مِّن دون اللهِ إن كنتم صادقين ﴾ .

فى الآيةِ بيانٌ أنَّ المكلَّفَ مُزَاحُ العِلَّةِ لِمَا أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهِّلَ له من التحقيق . وأنَّ الإيمانَ بالواسطة — صلى الله عليه وسلم وآله — واجِبٌ لِما خُصَّ به من المعجزات التى أوضحها الكتابُ المُنَزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذى عجز الكفار عن معارضته .

قوله جل ذكره : ﴿ فإلَّم يستجيبوا لكم فاعلموا أنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وأن لا إلهَ إلا هو فهل أنتم مُّسْلِمون ﴾ .

يعنى فإن لم يستجيبوا لكم يعنى إلى الإتيان بمثله — وهم أهل بلاغة — فتحققوا أنه من قِبَلِ الله ، وليس على سنة التحقيق (....)[1] إنما العمى فى بصائر من ضلُّوا عن الحقِّ ، وتاهوا فى سدفة الحيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يُرِيدُ الحياةَ الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالَهُم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُونَ ﴾ .

مَنْ قَنَع منهم بدنيا الدناءةُ صِفَتُها وَسَّعْنَا عليه فى الاستمتاع بأيامٍ فيها ، ولكن عَقِبَ اكتمالِها سيرى زوالَها ، ويذوق بعد عسلِها حَنْظَلَها .

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحَبِط ما صَنَعُوا فيها ، وباطِلٌ ما كانوا يعملون ﴾ .

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهُم ، وظهرت لهم — بخلاف ما احتسبوا — آلامُهم ، حَبِطَتْ أعمالُهم ، وحاق بهم سوء حالهم .

قوله جل ذكره ﴿ أفَمَن كان على بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّهِ ويتلوه شاهِدٌ منه ومِن قَبْلِهِ كتابُ موسى إماماً ورحمةً أولئك يؤمنون به ومَن يكفر به مِنَ الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُه فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ منه إنَّه الحقُّ مِن ربِّك ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنون ﴾ .

فيه إضمار[1] ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . لا يستويان .

والبيِّنةُ لأقوامٍ برهانُ العِلْمِ ، ولآخرين بيانُ الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدهم الحقُّ مالا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلى من وجهك شمس الضحا . . . . . .
فالناس فى الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك فى الضوء والشاهد

فالذى يتولاه فهو مشاهِدٌ ، وفى الخبر «أولياء الله الذين إذا أرادوا ذكر الله ....[2]» .

قال تعالى : « ولو نشاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن أظلم ممنِ افترىٰ على اللهِ كذباً . . . ﴾ الآية .

---

(١) إضمار هنا مستعملة لما يسمى فى علم البلاغة بإيجاز الحذف .
(٢) سقطت بقية الخبر من الناسخ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب المقت ، وعقوبته ألَّا يُرْزَق بركةً فى أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبَه ، فيفضحه بين الخلْق ، والشهداء قلوبُ الأولياء ، ومَنْ شهدت القلوبُ عليه بالردِّ فهو غيرُ مقبولٍ عند الحقِّ

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَصُدُّون عن سبيل الله ... ﴾ الآية .

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب ، ومِنْ صدِّهم عن السبيل أن يُظهِروا من أنفسهم أحوالاً تُخِلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يَرَوْن ذلك كبيرةً فى الطريقة ، ويُوهِمون المُسْتَضْعفين من أهل الاعتراض عليهم أنَّ لهم فى ذلك رخصة ، فيضِلُّون ويُضِلُّون . ومن جملة صدِّهم عن السبيل تغريرهم بالناس ، وإيقاعهم فى الغَلَطِ ، ويرتفقون بشىء مما فى أيديهم من حطام الدنيا ، ولا يَسْتَحيُون منْ أخْذِ شىء لا يستوجبونه بأى وجه حقٍّ ، ويُدَاهِنُون فى دين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرضِ ... الآية ﴾ .

مَنْ هذه صفتهم لا يربحون فى تجارتهم ، ولا يلحقون غايةً طلبوها ؛ فيبقون عن الحق ، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخلْق . . خَسِرتْ صفْقتُهُمْ ، وبَارَتْ بضاعتُهم ، لَقُوا الهوان ، وذاقوا اليأس والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جَرَمَ أنَّهم فى الآخرة هُمُ الأخْسَرون ﴾ .

لا محالةَ أنهم فى الآخرة أشدُّ خسراناً ، وأوفر — من الخيرات — نقصاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ وأخْبَتُوا ﴾ .

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم . . .
والبصير والسميع ... ﴾ الآية

مثلُ الـكافر فى كفره كالأعمى والأصم ، ومَثَلُ المؤمن فى إيمانه كالسميع والبصير — هذا بيان التفسير .

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّه ، والأصمُّ الذى طَرِش بسَمْع قلبه ؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سر تقديره فى أفعاله ، ولا بنور فراسةٍ توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه ، ولا بسَمْع القبولِ استجابَ لدواعى الشريعة ، ولا بِحُكْمِ الإنصاف انقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسِرِّه من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذى يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ، ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، والمستورات له كشف . فالذى يسمع فَصِفَتُه ألا يسمعَ هواجسَ النَّفْس ولا وساوس الشيطان ؛ فيسمع من دواعى العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قدراً ، ثم يكاشف بخطاب من الحق سِرًّا[1]

فهؤلاء لا يستويان ، ولا فى طريق يلتقيان :

راحَتْ مُشَرِّقَةً ورُحْتُ مُغَرِّباً فمتى التقاء مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه إنِّى
لـكم نذيرٌ مبين * أن لَّا تعبدوا
إلا اللهَ إنى أخافُ عليـكم عذابَ
يوم أليم ﴾ .

كان نوحٌ عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمْراً وأشدَّهم بلاء ، وسمى نوحاً لـكثرة نَوْحه على نَفْسِهِ . . وسببُ ذلك أنه مرَّ بكلبٍ فقال : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه أنْ اخلقْ أنت أحْسَنَ من هذا . فأخذ يبكى وينوح على نفسه كلَّ ذلك النَّوْح . فـكيف بحالِ مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره فى مدة تـكليفه — ولم يحصل منه لله كثير من ولاية ! ؟

---

(١) تفيد هذه الإشارة فى بيان أحكام « السماع » عند الصوفية .

قوله جل ذكره : ﴿ فقال الملأُ الذين كَفَروا مِن قَوْمِهِ ما نراك إلا بَشَراً مِثْلَنا وما نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلا الذين هم أَرَاذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وما نَرَى لكم علينا مِن فَضْلٍ بل نَظُنُّكم كاذبين ﴾ .

أنكروا صحة كَوْنِهِ نبيًّا لمشاكلته إياهم فى الصورة ، ولم يعلموا أن المباينة بالسريرة لا بالصورة .

ثم قال : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىَ الرأى » : نظروا إلى أتباعه نَظْرَةَ استصغارٍ ، ونَسَبُوهم إلى قِلَّةِ التحصيل .. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَّطَ اللهُ عليه ، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِه ، فبالمعانى يحصل الامتيازُ لا بالمبانى :

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد هصور
فإن أكُ فى شِرَاركم قليلا فإنى فى خِيارِكم كثير

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا قوم أرأيتُم إن كنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن ربى وآتانى رحمةً مِّن عِندِهِ فعُمِّيَتْ عليكم أَنُلْزِمُكُموها وأنتم لَهَا كارِهون ﴾ .

الصُّبحُ لا خَلَلَ فى ضيائه لِكَوْنِ الناظرين عميانا ؛ والسيفُ لا خَلَلَ فى مَضائِهِ لِكَوْنِ الضاربين صبياناً . . . وكيف لِبَشَرٍ من قدرةٍ على هداية مَنْ أَضَلَّه اللهُ — ولو كان نبيًّا ؟[1] .

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُصْحٌ ، ولا ينجح فى المُصِرِّ وعظٌ !

---

(١) الأفضل أن تكون (ولو كان نبياً) جملة اعتراضية تلى (لبشر) حتى يستقيم التركيب ، ولكننا أثبتنا ما جاء فى (س) .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجْرِيَ إلا على الله وما أنا بطارِدِ الذين آمنوا إنهم مُلاَقُوا ربِّهم ولكنِّى أراكم قوماً تجهلون ﴾ .

سُنَّةُ الأنبياء — عليهم السلام — ألا يطلبوا على رسالتهم أجراً ، وألَّا يُؤَمِّلُوا لأنفسهم عند الخلْق قَدْراً ، عَمَلُهُم لله لا يطلبون شيئاً من غير الله . فَمَنْ سَلَكَ من العلماء سبيلَهم حُشِرَ فى زمرتهم ، ومَنْ أخذَ على صلاحِهِ مِنْ أحدٍ عِوَضاً ، أو اكتسب بسداده جاهًا لم يَرَ من الله إلا هوانا وصَغَاراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ مَن يَنصُرُنى مِنَ الله إن طَرَدْتُهم أفلا تَذَكَّرُون ﴾

مجالسةُ الفقراءِ اليومَ — وهم جُلَساء الحقِّ غداً — أجدى من مجالسة قومٍ من الأغنياء هم من أهل الردِّ .

ومَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ الله وأدناه استوجب الخِزْيَ فى دنياه ، والصَّغَارَ فى عقباه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا أقولُ لكم عندى خزائنُ اللهِ ولا أعْلَمُ الغيبَ ولا أقولُ إنِّى مَلَكٌ ﴾

لا أتخطَّى خَطِّى عما أبلغتُ مما حملتُ من رسالتى ، ولا أتعدَّى ما كُلِّفْتُ به ، ولا أزيد عما أُمِرْتُ ، ولن أخرجَ عن الذى أنبأونى ، بل أنتصِب بشاهدى فيما أقاموني .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا أقولُ للذين تزدرِى أعْيُنُكم لن يُؤْتِيَهم اللهُ خيراً ، اللهُ أعلمُ بما فى أنفسِهم إنِّى إذاً لَمِنَ الظالمين ﴾

إن أولياء الله سبحانه فى أثوابِهم ولا يراهم إلا من قارَبَهُم فى معناهم . اللهُ أعلمُ بأحوالهم ، وفى الجملة : طيرُ السماء على أُلاَّفها تقع .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا نوحُ قد جادَلْتَنا فأكْثَرْتَ جِدالنا فأْتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ مِنَ الصادقين ﴾

أوضح لهم من البراهين مالوا أمعنوا النظر فيه لتمَّ لهم اليقين ، ولكنهم أصروا على الجحود ، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ قالَ إنما يأتيكم به اللهُ إن شاء وما أنتم بِمُعْجِزين ﴾

أقرَّ بالعبودية ، وتَبَرَّأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمرَ على المشيئة . ولقد أنصف مَنْ لم يُجاوِز حَدَّه فى الدعوى . والأنبياء عليهم السلام — وإن كانوا أصحاب التحدى للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا ينفعكم نُصْحِي إنْ أردتُ أنْ أنْصَحَ لكم ، إن كان اللهُ يريد أن يُغْوِيَكم هو ربُّكم وإليه تُرْجَعون ﴾

مَنْ لم يُساعده تعريفُ الحقِّ — بما له بحكم العناية — لم ينفعه نصْحُ الخَلْقِ فى النهاية .

ويقال مَنْ لم يُوَصِّلْه الحقُّ للوصال فى آزاله[1] لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ فى حاله

ويقال مَنْ سَبَقَ الحُكْمُ له بالضلالة أنَّى ينفعه النصحُ وبَسْطُ الدلالة ؟

ويقال من لم تساعدْه قسمةُ السوابق لم ينفعه نُصْحُ الخلائق .

قوله : « إن كان الله يريد أن يُغْوِيَكم » : من المحال اجتماع الهداية والغواية ؛ فإذا أراد اللهُ بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .

ثم بيَّن المعنى فى ذلك بأن قال « هو ربُّكم » لِيَعْلَمَ العالِمون أنَّ الربَّ تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية .

---

(١) أى بما سبقت به القسمة — حسب تعبير القشيرى فى مواضع أخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ أم يقولون افتراه قُلْ إنِ افتريتُهُ فَعَلَيَّ إجرامى وأنا برىء مما تُجْرِمُون ﴾

ومهما وصفتمونى فإنى أُجيبُ اللهَ . . وكُلٌّ مُطالَبٌ بفعله دون فِعْلِ صاحبِه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُوحِيَ إلى نوحٍ أنه لن يؤمِنَ من قومِكَ إلا مَن قد آمَنَ فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يفعلون ﴾

عرَّفه الحقُّ أنَّه غنيٌّ عن إيمانهم ، فكَشَفَ له أحكامَهم ، وأنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قدسبق الحكمُ بشقائهم ، فعند ذلك دعا عليهم نوحٌ — عليه السلام — بالإهلاك .

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للمطمع فى إيمانهم مساغٌ ، فلما حَصَلَ العكسُ نطق بالتماس هلاكهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واصنَعِ الفُلْكَ بأَعْيُنِنَا ووَحْيِنا ولا تخاطبْنى فى الذين ظلموا إنَّهم مُغْرَقون ﴾

أى قُمْ — بشرط العبودية — بصنع السفينة بأمرنا ، وتحقق بشهودنا ، وأنَّك بمرأى منا . ومَنْ عَلِمَ اطلاعَه عليه لم يلاحِظْ نَفْسَه ولا غيرَه ، لا سيما وقد تحقق بأنَّ المُجْرِى هو سبحانه .

وقال له : راعِ حَدَّ الأَدَبِ ، فما لم يكن لك إذْنٌ منا فى الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطبْنا فيهم .

ويقال سبق لهم الحكمُ بالغَرَقِ — وأمواج بحر التقدير تتلاطم — فكلٌّ فى بحار القدرة مُغْرَقُون إلا من أَهَّلَه الحقُّ بِحُكْمِه فحَمَلَه فى سفينة العناية .

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغَرْقَى فى بحار القَطْرة ، ومِنْ قبلُ كانوا غرقى فى بحار القدرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويصنع الفُلْكَ وكلما مَرَّ عليه مَلأٌ من قومِهِ سَخِروا منه قال إن تسخروا مِنَّا فإنا نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرون ﴾

لما تحقَّقَ بما أمر اللهُ به لم يأبَهْ عند إمضاء ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل ، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشاهِد له قبلَ الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم ﴾

لا طاعةَ لمخلوقٍ فى مقاساة تقديره — سبحانه — إلا من تحمل عنه بفضله ما يحمله بحُكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أمرُنا وفار التَّنُّورُ قلنا احملْ فيها مِن كل زوجين اثنين وأهْلَكَ ﴾

طال انتظارُهم لِمَا كان يَتَوَعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يَزِدْهُمْ تطاولُ الأيامِ إلا كفراً ، وصَمَّمُوا على عقد تكذيبهم .

ثم لمَّا أتاهم الموعودُ إياهم بغتةً ، وظهر من الوضع الذى لم يُحِبُّوه فارَ الماء من التنور المسجور ، وجادت السماء بالمطر المعبور[1] .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » : استبقاء للتناسل .

ويقال : قد يُؤْتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِه ؛ فإن ابليسَ جاء إلى نوحٍ — عليه السلام — .

وقال : احْمِلنى فى السفينة فأبَى نوحٌ عليه السلام ، فقال له إبليس : أمَا عَلِمْتَ أنى من المُنْظَرين إلى يومٍ معلومٍ ، ولا مكانَ لى اليومَ إلا فى سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يَحْمِلَه معه .

ويقال لم يكن لابن نوحٍ معه مكان ، وأُمِرَ بِحَمْل إبليس وهو أصعب الأعداء ! وفى هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجرى على قياسِ الخَلْق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . ابنك لا تحمله ، وعدوك فأَدْخِلْه ، فالله سبحانه فعَّالٌ لما يريد[2] .

---

(١) أى الجارى .

(٢) فى هذه الإشارة تلميح إلى قاعدة فى مذهب القشيرى أن أفعال الله لا تخضع لما ألف الناس من مقاييس نسبية .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ مَن سَبَقَ عليه القولُ ومَنْ آمَنَ
وما آمَنَ معه إلا قليلٌ ﴾

« إلا من سبق عليه القول » بالشقاوة . وفيه تعريف بأن حُكْمَ الأزَل لا يُرَدُّ ، والحقُّ — سبحانه — لا يُنَازَعُ ، والجبَّارُ لا يُخَاصَمُ ، وأن مَنْ أقصاه ربُّه لم يُدْنِهِ تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وَعْظ .

« وما آمن معه إلا قليل » ولكن بَارَكَ الحقُّ — سبحانه — في الذين نجَّاهم من نَسْلِه ، ولم يدخل خَلَلٌ فى الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أهْلَك مِنْ قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال اركبُوا فيها بسم الله مَجْرِيها
ومُرْساها إنَّ ربى لغفورٌ رحيم ﴾

عَرَفَ أنَّ نجاتَه من القَطْرةِ لمَّا تقاطرَتْ ليست بالحِيَلِ — وإنْ تنوَّعَتْ وكَثُرَتْ ، فباسم اللهِ سلامتُه ، وبتوكلِه على الله نجاتُه وراحتُه ، وبتفضله — سبحانه — صلاحُه وعافيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وهى تجرى بهم فى موجٍ كالجبالِ
ونادى نوحٌ ابنَه وكان فى مَعْزِلٍ
يا بُنَيَّ اركَب معنا ولا تكن مع
الكافرين ﴾

وكان فى معزل بظاهره ، وكان فى سرٍّ تقديره أيضاً بمعزلٍ عما سبق لنوحٍ وقومه من سابق فضله . فحينما نطق بلسانِ الشفقةِ وقال : « يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » — لم يقل له : ولا تكن من الكافرين ؛ لأن حالته كانت مُلْتبِسةً على نوح إذ كان ابنُه يناققه — فقيل له : يا نوح إنه مع الكافرين لأنه فى سابق حُكْمِنا من الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ قال سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ
الماءِ قال لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أمْرِ اللهِ
إلاَّ مَن رَحِمَ وحَالَ بينهما الموجُ
فكانَ مِنَ المُغْرَقِين ﴾

أخطأ مِنْ وجهين : رأى الهلاكَ من الماءِ وكان مِنَ اللهِ ، ورأى النجاةَ والعِصمة من الجبلِ وهما من الله ، فقال له نوح : لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله . قيل أراد لا معصومَ اليوم من الله . وقيل لا أحدَ يَعْصِمُ أحداً من أمر الله ، لكنْ مَنْ رَحِمَهُ ربُّه فهو معصومٌ من ذلك ، وله عاصمٌ وهو الله .

ولقد كان نوح — عليه السلام — مع ابنه فى هذه المخاطبات فجاءت أمواجُ الماءِ وحالَتْ بينهما وصار من المُغْرَقِين ، فلا وعظُه ونُصْحُه نفعاه ، ولا قولُه وتذكيره نَجَّيَاه وخَلَّصاه .

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح عَرِّفْنَا العَالَمَ بدعائك ولا عليكَ إنْ عَرَفَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقيل يا أرضُ ابْلَعى ماءكِ ويا سماء أَقْلِعى وغيض الماء وقُضِيَ الأمرُ واسْتَوَتْ على الجُودِيِّ وقيل بُعْداً للقومِ الظالمين ﴾

فلما غَرِقَ ابنُ نوحٍ سَكَنَ الموجُ ونضَبَ[1] الماء وأقلعت السماء ، وكأنه كان المقصودُ من الطوفانِ أنْ يغرقَ ابنُ نوحٍ — عليه السلام — وقيل :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدهرُ بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إنَّ ابنى مِنْ أهلى وإنَّ وَعْدَكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين * قال يا نوحُ إنَّه ليس مِنْ أهْلِكَ إنه عَمَلٌ غيرُ صالحٍ فلا تَسْأَلْنِ ما ليس لك به عِلْمٌ إنّى أعِظُك أن تكونَ من الجاهلين ﴾

---

(١) وردت (نصب) بالصاد ، وهى خطأ فى النسخ ، والمراد (نضب) الماء أى غار وانحسر ، فهى ملائمة لإقلاع السماء أى إمساكها عن المطر .

خاطبَ الحقَّ — سبحانه — فى باب إبْنِهِ ، واستعطفَ فى السؤال فقال :

« إن ابنى من أهلى » : فقال له : إنَّه ليست مِنْ أهل الوصلة قِسْمَتُه — وإنْ كان من أهْلِكَ نَسَباً ولُحْمَةً ، وإنَّ خطابَك فى بابه عملٌ غيرُ صالح ، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ صالح[1] .

« فلا تسألنِ ما ليس لك به علم » : أى سَتَرْتُ غيبى فى حال أوليائى وأعدائى ، فلا يُعْلَمُ سِرُّ تقديرى .

قوله : « إنى أعظك » : وذلك لُحرْمةِ شيخوخته وكِبَرِه ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له فى وَلَدِه ، فتَدارَكَ بِحُسْنِ الخطابِ قَلْبَه .

وقيل إن ابنَ نوح بَنَى من الزجاجِ بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة ، فلما ركب نوحٌ السفينةَ دَخَلَ ابنُه فى البيتِ الذى اتخذه من الزجاج ، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البولَ حتى امتلأ بيْتُ الزجاج من بَوْلِه ؛ فَغَرِق الكلُّ فى ماء البحر ، وغرق ابنُ نوحٍ فى بَوْلِه ! لِيُعْلَمَ أنه لا مفرَّ مِنَ القَدَر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ إنّى أعوذُ بك أنْ أسألَك
ما ليسَ لى به عِلْمٌ وإلّا تَغْفِرْ لى
وترحمْني أكُن مِنَ الخاسرين ﴾

نَسِيَ نوحٌ — عليه السلام — حديثَ ابنه فى حديث نفسه ، فاستعاذ بفضله واستجار بلطفِه ، فوجد السلامةَ من ربِّه فى قوله جل ذكره :

﴿ قيل يا نوحُ اهْبِطْ بسلامٍ مِنَّا
وبركاتٍ عليكَ وعلى أممٍ مِمَّن معَكَ
وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثم يَمَسُّهُم مِنَّا
عذابٌ أليم ﴾

طَهَّرَ وجهَ الأرضِ من أعدائه ، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلائه ، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه .

---

(١) وعلى هذا الرأى تكون نجاة قوم نوح بسبب عملهم الصالح لا بسبب قرابتهم له .

والأممُ التى أخبر أنه سَيُمَتِّعُهم ثم يَمَسُّهم العذابُ هم الذين ليسوا من أهل السعادة .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلك مِنْ أنباءِ الغَيْبِ نُوحِيها إليكَ ما كُنتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قومُكَ من قبلِ هذا ، فاصبِرْ إنَّ العاقبةَ للمتقين ﴾

أعلمناكَ بهذه الجملة ، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلّمه من شخص ، أو من قراءةِ كتاب ؛ فإنْ قابَلَكَ قومك بالتكذيب فاصبِرْ ، فعَنْ قريبٍ تنقلب هذه الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قومِ اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه إنْ أنتم إلا مُفْتَرُون ﴾

كَلَّفَ الأنبياء — عليهم السلام — بالذهاب إلى الخَلْق لا سيما وقد عاينوا — بالحق — مَنْ تَقَدَّمَهُم من فترة الملأ ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أمَرَهُم الحقُّ بالتوجُّهِ إليهم فرَضُوا ، وأظهروا الدلالةَ ، وأدَّوْا الرسالةَ ، ولكن ما زاد الناسُ إلا نفرةً على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قومِ لا أسألكُمْ عليه أجراً إنْ أجْرِيَ إلا على الذى فَطَرَنى أفلا تَعْقِلُون ﴾ .

لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء — عليهم السلام — إلاَّ وأخْبَرَ أنه ليس له أنْ يطلبَ فى الجملة أجْرَاً إلَّا من اللهِ لا من غير الله.

قوله جل ذكره : ﴿ ويا قومِ استغفِروا ربَّكم ثم توبوا إليه يُرْسِلِ السماء عليكم مِدْراراً ويَزِدْكُم قوةً إلى قوَّتِكم ولا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمين ﴾ .

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، مِنْ توهمكم أن نجاتكم باستغفارِكم . بل تحقَّقُوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضلِ ربِّكم ؛ فَبِفَضلِهِ وبتوفيقه توصَّلْتُم إلى استغفاركم لا باستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، وبرحمته أهَّلَكُم إلى استغفاركم ، وإلَّا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قَرْع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبوابَ رحمته ، ويَسَّرَ له أسبابَ نعمته .

ويقال يُنَزِّل على ظواهركم أمطارَ النِّعمة ، وعلى ضمائرِكم وسرائرِكم يُنَزِّل أنواعَ المِنَّة ، ويزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرِزْقِ ، وقوةً تحصلون بها تحسين أصناف الخُلُقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياهودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وما نحن بتاركى آلِهَتِنا عن قولِكَ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

ما زادهم هودُ عليه السلام بَسْطا فى الآية وإيضاحاً فى المعجزة إلا زادهم اللهُ تعالى عَمَىً على عَمَىً ، ولم يرزقْهم بصيرةً ولا هدىً ، ولم يزيدوا فى خطابِهم إلا بما دَلُّوا على فَرْطِ جهالتهم ، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهابهم[1] ، وقالوا :

﴿ إن نقولُ إلا اعتراك بعضُ آلِهتنا بسوءٍ قال إنى أُشهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أنِّى برىءٌ مما تُشرِكون ﴾ .

وكيف ظَنُّوا أنَّ آلهتَهم تَمسُّ أعداءهم بسوءٍ وهى لا تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءها ؟ فهؤلاء الغوايةُ عليهم مُسْتَوْلِية . ثم إن هوداً عليه السلام أفْصَحَ عن فضل ربِّه عليه ؛ وصَرَّحَ بإخلاصه وحُسْنِ يقينه فقال : إنى برىء مما تشركون ، ثم قال :

﴿ مِن دونه ، فكِيدُونى جميعاً ثم لا تُنظِرونِ ﴾ .

---

(١) يقال نهب فلاناً أى تناوله بلسانه وأغلظ له القول .

فلم يَحْتَجْ معهم إلى تضرعٍ واستخذاء ، ولا راوَدهُم فى سِلْمٍ واستمهال ، ولم يَتَصِفْ فى ذلك بركونٍ إلى حَوْله ومُلَّته ، ولم يستند إلى جِدِّه وقوَّته بل قال :

﴿ إنِّى توكلتُ على اللهِ ربِّى وربِّكم
مَّا من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصِيَتِها
إنَّ ربى على صراط مستقيم ﴾ .

أخبر أنه بموعودِ الله له بنُصْرتِه واثق ، وأنه فى خلوص طاعته لربِّه وفى صفاء معرفته (غيرُ مُفارِقٍ)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تولَّوْا فقد أبلغتُكم ما أُرْسِلْتُ
به إليكم ويستخلِفُ ربِّى قوماً غيركم
ولا تضُرونه شيئاً إنَّ ربى على كلِّ
شىءٍ حفيظ ﴾ .

أوحينا إليه أنْ قُلْ لهم : إنْ تولَّوْا ولم تُؤمنوا بى فقد بَلَّغتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتى ، وإنى واثقٌ بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوامٍ آخرين سواكم أطوعَ له منكم ، وإنْ أفناكم ما اختلَّ مُلْكُه ؛ إذْ الحقُّ — سبحانه — بوجود الأغيار لا يلحقه زَيْنٌ — وإنْ وَحَّدُوا ، وبفقدهم لا يَمَسُّه شَيْنٌ — وإنْ جحدوا وألحدوا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاء أمرُنا نَجَّيْنا هوداً والذين
آمنوا معه برحمةٍ منَّا ونَجَّيْناهُم مِنْ
عذابٍ غليظ ﴾ .

ولما جاء أمرُنا بإهلاكِهم نَجَّيْنا هوداً والذين آمنوا برحمتنا ، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاةَ بوسيلةِ نُبُوَّته ، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال : « برحمةٍ منا » ؛ ليَعْلَمَ الكافةُ أنَّ

---

(١) بعد (معرفته) يوجد بياض مما يدل على سقوط خبر أن وقد أكملنا النقص بكلمة ملائمة من عندنا تتفق مع السياق والنسق حسبما نعلم من طريقة القشيرى .

الأنبياء — عليهم السلام — ومَنْ دونَهم عتيقُ رحمته ، وغريقُ مِنَّتِه ، لا لاستحقاقِ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله فى شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك عادٌ جَحَدوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوْا رُسُلَه واتبَعُوا أمْرَ كلِّ جبارٍ عنيدٍ ﴾

فى إنزالِ قصصهم تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم وآله — فيما كان يقاسى من العناء ، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء ، والعدَةُ بتبديل — ما كانوا يلقَوْنه من الشِدَّة — بالرجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُتبِعوا فى هـذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ ، ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم ألا بُعْداً لعادٍ قومِ هودٍ ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أمَّا فى هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تَبِعَه من اللَّعنة ، ثم ما يلقونه فى الآخرة من تأبيد العقوبة . وبقاؤهم عن رحمة الله أصعبُ من صنوف كل تلك المحنة[1] ، وكما قيل :

تبَدَّلَتْ وتبدلنـا واحسرتا لِمَنْ ابتغى عوضاً لِسَلْمى فَلَمْ يَجِد

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى ثمُودَ أخاهم صالحاً قال ياقومِ اعبدوا اللهَ ما لـكم مِنْ إلهٍ غيرُهُ هُو أنشأكم من الأرضِ واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنَّ ربى قريبٌ مجيبٌ * قالوا ياصالحُ قد كنتَ فينا مَرْجُوًّا قبل هـذا أتنهانا أن

(١) وردت (المحبة) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

نَّعبُدَ ما يعبُدُ آباؤُنا وإنَّنَا لفى شكٍّ مما تدعونا إليه مريب * قال يا قومِ أرَأيْتُم إن كُنتُ على بَيِّنَةٍ من ربى وآتانى مِنهُ رحمةً فمن يَنصُرُنى مِنَ اللهِ إنْ عَصَيْتُهُ فما تزيدوننى غير تَخْسير * وياقوم هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً فذَرُوها تأكلْ فى أرضِ اللهِ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فيأخذَكُم عذابٌ قريبٌ * فعقروها فقال تَمَتَّعُوا فى دارِكم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعْدٌ غيرُ مكذوب * فلما جاء أمرُنا نَجَّيْنَا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منَّا ومِنْ خِزى يومئذٍ إنَّ ربَّك هو القوىُّ العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لَّم يغنَوْا فيها ألا إنَّ ثموداً كفروا ربَّهم ألا بُعْداً لثمود ﴾

عُقَيْبَ ما مضى من قصة عادٍ ذَكَرَ قصة ثمود ، وثمود هم قوم صالح ، وقد انخرطوا فى الغىِّ فى سِلْكِ مَنْ سَبَقَهم ، فَلَحِقَتْهُ العقوبةُ بجميعهم . ثم أخبر أنهم قابلوا نَبِيَّهم — عليه السلام — بالتكذيب ، ولم يقفوا على ما نبَّههُم عليه من التوبة والتصديق ، وأصرُّوا على الإقرار أنهم فى شأنه لفى شكٍّ مريب .

ثم بيَّن أنَّ صالحًا لم يُعرِّجْ — فى التبليغ — على تقصير .

وبَعْدَ تمرُّدِهم وامتناعهم عن الإنابةِ ، وإصرارهم على تَرْكِ الإجابة حقَّ عليهم

ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب ، ونجّى نبيَّهم — عليه السلام — ، ونجّى مَن اتَّبعَه من كل عقوبة .. سُنَّةٌ منه — سبحانه — فى إنجاء أوليائه أمضاها ، وعادةٌ فى تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى
قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لَبِثَ أن
جاء بعجل حَنِيذٍ * فلما رأى أيديَهم
لا تَصِلُ إليه نَكِرَهُمْ وأوْجَسَ
منهم خيفةً قالوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلنا
إلى قومِ لوط ﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيمَ — عليه السلام — بالبشارة ، وأخبر أن إبراهيمَ — عليه السلام — أنْكَرَهُم ، ولم يَعْرِفْ أنهم ملائكةٌ . فيُحتمل أنَّه — سبحانه — أراد أن تكونَ تلك البشارة فجأةً من غير تنبيهٍ لتكونَ أتَمَّ وأبلغَ فى إيجاد السرور ، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال : فأوجس منهم خيفةً .

ويقال إن إبراهيم — عليه السلام — كان صاحبَ النبوة والخُلَّة والرسالة فلا بُدَّ أن تكون فراستُه أعلى من فراسة كلِّ أحدٍ ، ولكنه فى هذه الحالة لم يَعْرِف الملائكةَ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ — سبحانه وتعالى — إذا أراد إمضاء حُكْمٍ يَسُدُّ على مَنْ أرادَ عيونَ الفراسة ، وإنْ كان صاحبُ الفراسة هو (خليل)[1] الله ، كما سَدَّ الفراسة على نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — فى قصة الإفْكِ إلى الوقت الذى نزل فيه الوحىُ ، وكذلك التبس على لوطٍ — عليه السلام — إلى أن تبيَّن له الأمر .

وتكلموا في هذه « البشرى » ما كانت ؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق ، وبأنَّه سيولد له ولد من نَسْله وسُلالته ؛ قال تعالى : « ومن وراء إسحاق يعقوب » .

ويقال : لامة قومه — حيث كانوا مُرْسَلين بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

---

(١) سقطت كلمة (خليل) فأثبتناها لحاجة السياق إليها .

ويقال بشارة بالخُلَّةِ وتمام الوصلة .

ويقال إن الخُلَّة والمحبة بناؤهما كتمان السِّرِّ ؛ فَيَعْلَمَ أنهم أُرْسِلُوا ببشارةٍ ما ولم يكن للغير اطلاع ، قال قائلهم :

* بين المحبين قولٌ لست أفهمه *

ويقال إن تلك البشارة هى قولهم : « سلاماً » وأن ذلك كان من الله ، وأىُّ بشارة أتمُّ من سلام الحبيب ؟ وأىُّ صباحٍ يكون مُفْتَتَحًا بسلام الحبيب فصَبَاحٌ مباركٌ ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ .

قوله : « فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ » : لمَّا توهمهم أضيافاً قام بحقِّ الضيافة ، فقدَّم خَيْرَ ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال فى موضعٍ آخر : جاء بعجل سمين[1] . والمحبةُ توجِبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما مِنْكَ للحبيب ، وفى هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم السُّفْرة[2] مِمَّا حضر فى الوقت .

قوله : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يَدُه ما يُقَدَّم إليه من الطعام ، والامتناعُ عن أكل ما يُقَدَّم إليه معدودٌ فى جملة الجفاء فى مذهب أهل الظَّرْف[3] . والأكلُ فى الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين .

« وأوجس منهم خيفةً » : أى خاف أنه وقع له خَلَلٌ فى حاله حيث امتنع الضِّيفانُ عن أكل طعامه ؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم .

وقيل إن الملائكة فى ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة ؛ فلمَّا امتنعوا عن الأكل ، وعَلِمَ أنهم ملائكةٌ خافَ أنْ يكونوا قد أُرْسِلُوا لعقوبة قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ وامرأتُه قائمةٌ ، فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْنَاهَا بإسحاقَ ومِن وراء

---

(١) آية ٢٦ سوره الذاريات .

(٢) السفرة = طعام يصنع للمسافر ، أو المائدة وما عليها من طعام (الوسيط) .

(٣) الظرف : (يقال ظرف فلان ظرفاً كان كيسا حاذقاً ، والظرف فى اللسان البلاغة ، وفى الوجه الحسن ، وفى القلب الذكاء) الوسيط .

اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتَّخِذُوا
مِن دونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ ولا المؤمنينَ
وَليجةً ، واللهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾

مَنْ ظَنَّ أنه يُقْنَعُ منه بالدعوى — دون التحقق بالمعنى — فهو على غَلَطٍ فى حسبانه . والذى طالبهم به من حيث الأمر صِدْقُ المجاهدةِ فى الله ، وتَرْكُ الركونِ إلى غير الله ، والتباعدُ عن مُساكَنَةِ أعداءِ الله . . ثِقةً بالله ، واكتفاء بالله ، وتبرِّياً من غير الله .

وهذا الذى أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجةً فالمعنى فيه : ألا يُفْشُوا فى الكفارِ أسرارَ المؤمنين .

وأولُ مَنْ يهجره المسلمُ — لئلا تَطَّلِعَ على الأسرار — نَفْسُه التى هى أعدى عدوِّه ، وفى هذا المعنى قال قائلهم :

كتابى إليكم بعد موتى بليلةٍ ولم أدرِ أنِّى بعد مَوْتِىَ أكتبُ

ويقال : إن أبا يزيد[1] — فيما أُخْبِرَ عنه — أنه قال للحقِّ فى بعض أوقات مكاشفاته : كيف أطلبك ؟ فقال له : فارِقْ نَفْسَكَ .

ويقالُ إن ذلك لا يتمُّ ، بل لا تحصل منه شظيّة إلا بِكَيِّ عُرُوقِ الأطماعِ والمطالباتِ لِماً فى الدنيا ولِماً فى العُقبى ولِماً فى رؤية الحال والمقام — ولو بِذَرَّةٍ . والحريةُ عزيزةٌ[2] ... قال قائلهم :

أتمنى على الزمانِ مُحَالاً أنْ ترى مُقْلَتَاىَ طَلْعَةَ حُرٍّ

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان للمُشركين أن يَعْمُرُوا
مساجدَ اللهِ شاهدين على أنفُسِهم

---

(١) هو أبو يزيد البسطامى كان جده (سروشان) مجوسياً وأسلم ، وهو أحد إخوة ثلاثة كانوا جميعاً زهاداً وأصحاب أحوال ، مات سنة ٢٦١ ، وقيل سنة ٢٣٤ (طبقات السلمى) و (رسالة القشيرى) .
(٢) (والحرية عزيزة) هنا معناها نادرة الوجود .

والإشارة فيه أنه كان يقابِل ما وَرَدَ على ماله و نفسِهِ وولده بالاحتمال ، ولمّا كان حقُّ الحقِّ فى حديثِ قومِ لوط أخَذَ فى الجدالِ إلى أن أبَانَ له سلامةَ لوط — عليه السلام — وقال الله سبحانه : —

﴿ يا ابراهيمُ أعْرِضْ عن هذا إنه قد
جاء أمرُ ربِّكَ وإنّهم آتيهِم عذابٌ
غيرُ مردود ﴾

يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا فإنَّ الحُكْمَ بعذابِهم قد نَزَل ، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمّا جاءتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهم
وضاقَ بهم ذَرْعاً وقال هذا يومٌ
عصيبٌ ﴾

أى أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْرِىَ عليهم من قومه ما لا يجوز فى دِين الله ؛ فذلك الحزنُ كان لحقِّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه ، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساةَ الحزنِ لحقِّ الله محمودةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءه قومُهُ يُهْرَعُونَ إليه ومِن قبلُ
كانوا يَعْمَلُون السيئاتِ قال يا قومِ
هؤلاء بناتى هُنَّ أطهَرُ لكم فاتَّقُوا
اللهَ ولا تُخْزُونِ فى ضيفى أليس
منكم رجلٌ رشيد ﴾

قوله « هؤلاء بناتى هُنَّ أطهرُ لكم » : قيل إنه أراد به نساء أمته ، فنبىُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده فى الشفقة والنصيحة .

ويقال إنه أراد بناتِه منْ صُلْبِه .

« أليس منكم جل رشيد » يرتدى جلبابَ الحشمة ، ويؤثِر حقَّ الله على ماهو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لقد عَلِمْتَ ما لنا فى بناتِكَ من حقٍ وإنَّك لَتَعْلَمُ ما نُريد ﴾

أصرُّوا على عصيانهم ، وزهدوا فى المأذون لهم شرعاً ، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم ؛ لا يَرْدَعُها عقلٌ ، قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ »

قوله جل ذكره : ﴿ قال لو أنَّ لى بكم قوة أو آوِى إلى رُكْنٍ شديد ﴾

لو أن لى قوةً فأمنعكم عن ارتكابِ المعصية ؛ فإنَّ أهمَّ[1] الأشياء على الأولياء ألا يَجْرِىَ من العصاةِ ما ليس لله فيه رضاء .

ويقال : لو كان لى قدرةٌ لإيصال الرحمةِ إليكم — مع ارتكابكم المعاصى — لَرَحِمْتُكم وتجاوزتُ عنكم .

ويقال لو أنَّ لى قوةً لهَدَيْتُكم إلى الدِّين ، ولَعَصَمْتُكم عن ارتكاب المخالفات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا لوطُ إنّا رُسُلُ ربك لَن يَصِلوا إليك فأَسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتفِتْ منكم أحدٌ إلا امرأتَك[2] إنَّه مصيبُها ما أصابهم ﴾

لَمّا ضَاقَ به الأمرُ كَشَفَ اللهُ عنه الضُرَّ فعَرَّفَ إليه الملائكةُ وقالوا : لا عليكَ فإنهم لا يصلون إليكَ بسوءٍ ، وإنَّا رُسُلُ ربك جئنا لإهلاكهم ، فاخرُجْ أنت وقومُك من بينهم ، واعلمْ أنَّ مَنْ شارَكَهم فى عملهم بنوعٍ فَلَهُ مِنْ العذابِ حِصَّةٌ . ومن جملتهم امرأتك التى كانت تدل القوم على المَلَك لفعلة الفاحشة ، وإن العقوبة لاحقةٌ بها ، مُدْرِكَة لها .

والإشارة منه أن الجسارةَ على الزَّلّةِ وخيمةُ العاقبةِ — ولو بعد حين ، ولا ينفع المرء اتصالُه بالأنبياء والأولياء إذا كان فى الحكم والقضاء من جملة الأشقياء .

---

(١) أفعل التفضيل هنا مأخوذ من الهم ، أى (فإن أكثر ما يسبب الهم للأولياء) .

(٢) مستثنى من (فأسر بأهلك) منصوب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أليس الصبحُ بقريبٍ ﴾ .

فما هو كائنٌ فقريبٌ ، والبعيدُ ما لا يكون . وإنَّ مَنْ أقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ عليه — ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية — تصور له الحال كأنه وقتُ مُباشَرَتِهِ لتلك الزَّلة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاء أمرُنا جعلنا عالِيَها سافِلَها وأمطرنا عليها حِجارةً مِّن سِجيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ .

سُنَّةُ الله فى عباده قلبُ الأحوال عليهم ، والانقلابُ مِنْ سِمَات الحدوث ، أمّا الذى لا يزول ولا يحول فهو الذى لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية .

وإنَّ مَنْ عاش فى السرور دهراً ثم تبدل يُسْرُه عُسْراً فَكَمَنْ لم يَرَ قطُّ خيراً ، والذى قاسَى طولَ عمره ثم أُعْطِى يُسْرًا فكمن لم يَرَ عُسْراً .

قال تعالى : « ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أول مرة »[1] .

قوله جل ذكره ﴿ مُّسَوَّمَةً عند ربكَ وما هى مِنَ الظالمين ببعيد ﴾ .

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم ، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبةَ لاحقةٌ بمن سَلَكَ سبيلَهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقَهم ، كما قيل :

ومَنْ يَرَنى ولم يعتبر بَعْدِى فإنَّ لكلِّ معصيةٍ عقابا

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْباً قال يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُه

---

(١) آية ١١٠ سورة الأنعام .

ولا تَنقُصُوا المكْيالَ والميزانَ إنى أراكم بخيرٍ وإنى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ محيط * ويا قوم أَوْفُوا المكيالَ والميزانَ بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعثَوْا فى الأرض مُفْسِدِين ﴾ .

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .

وفى الظاهر لم كانت أجرامُهم كاليسيرة ، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون إنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف فى المكيال .

وليس قَدْرُ الأجرامِ[1] لأعيانها ، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظُمَ شأنُها ، قال تعالى : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم »[2] .

ولما أن قال لهم شعيب :

« بقيةُ اللهِ خَيْرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » .

يعنى القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُعْقِبِ للوَبالِ لم يقابلوا نصيحتَه لهم إلا بالعِناد والتمادى فيما هو دائمٌ من الجحد والكنود .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا شُعيبُ أصلاتُكَ تأمركَ أن نَتْرُكَ ما يعبد آباؤنا أو أن نَّفْعلَ فى أموالِنا ما نشاء إنَّك لأنت الحليمُ الرشيد ﴾ .

استوطئوا مركب الجهل ، واستحلبوا مشْربَ التقليد ، وأعقَوْا قلوبَهم من استعمال الفكرِ ، واستبصارِ طريقِ الرُّشدِ .

---

(١) جمع (جرم) وهو الذنب .

(٢) آية ١٥ سورة النور .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بَيِّنةٍ مِّن ربى ورَزَقنى منه رِزْقاً حسناً ﴾ .

البَيِّنَةُ نورٌ تَسْتَبْصِرُ به ما خَفِيَ عليكَ تحت غطاء الغفلة .

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال ، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية ، وحُسْنُ توليه لشأنك — فى جميع ما فيه صلاحك — من إتمام النعمة ودوام العصمة .

وقيل الرزق الحسنُ ما تغنِّي صاحبُهُ لِطَلَبِهِ ، ولم يصبهْ نَصَبٌ بسببه .

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرَّزَّاق .

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنْسِي الرزَّاق ، ويحمل صاحبَه على التوسعة والإنفاق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أريدُ أنْ أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عَنْهُ ﴾ .

يمكن للواعظ أو الناصح أنْ يساهِل المأمورَ فى كل ما يأمره به ، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه ؛ فإنَّ الإتيانَ بجميع الطاعات غيرُ مُمْكن ، ولكنَّ التجرُّد عن جميع المحرَّماتُ واجبٌ .

ويقال مَنْ لم يكنْ له حُكْمٌ على نفسه فى المنع عن الهوى لم يكن له حُكْمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ ﴾.

مَدَارُ الأمرِ على الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح ؛ فيَقْرِنُ اللهُ به حسن التيسير ، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما توفيقى إلاَّ باللهِ ﴾ .

حقيقةُ التوفيق ما ينفق به الشيء ، وفى الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة ، وهو قدرة الطاعة ، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعى وفنون المَنْهيات يُعدُّ من جملة التوفيق — على التوسُّع .

والتوفيقُ باللهِ ومن الله ، وهو — سبحانه — بإعطائه متفضِّلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعود عند عدم الموجود . ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرَّبّ

قوله جل ذكره : ﴿ وياقومِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقى أن يُصيبَكم مِّثْلُ ماأصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد ﴾ .

تورثكم مُخالَفَتُكم إياى فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللهِ أنْ يلحقكم من أليم العقوبة ماأصاب مَنْ تقدَّمكم من الذين سِرْتُم على منهاجهم ، وما عهدُكم ببعيد بمن تحققتم كيف حَلَّتْ بهم العقوبة ، وكيف أنهم مازادتْهم كثرةُ النصيحةِ إلاَّ غُلُوًّا فى ضلالتهم ، وعُتُوًّا في جهالتهم ، وكما قيل .

وكمْ صُغْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المُتَنَصِّحُ

قوله جل ذكره : ﴿ واستَغْفِرُوا ربَّكم ثم توبوا إليه إنَّ رَبِّى رحيمٌ وَدُود ﴾ .

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله « ثم توبوا إليه » أى توبوا ثم لا تُنْقِضُوا توبتَكم ؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاء المآلِ بصفاءِ الحال لم يحصل قَبُولٌ ، وكأن لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ .

« إنَّ ربى رحيمٌ ودودٌ » : يرحم العصاةَ ويودُّهم .

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحَلُوب بمعنى محلوب. والرحمةُ

تكون للعاصى لأنَّ المطيعَ بوصف استحقاقه الثواب على طاعاته ، ثم ليس كلُّ من يُحِبُّ السلطانَ فى محلّ الأكابر ، فالأصاغرُ من الجُنْدِ قد يحبون المَلِكَ ، وأنشدوا :

ألا رُبَّ مَنْ يدنو ويزعم أنه يودُّك ، والنأى أودُّ وأقربُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياشُعَيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مماتقول
وإنَّا لنراكَ فيناضعيفاً ، ولولا رهطُك
لرَجَمْنَاكَ وما أنتَ علينا بعزيز ﴾ .

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فَحُرِمُوا فَهْمَ معانى الخطاب ، وأقرُّوا على أنفسهم بالجهل ، وأحالوا إعفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته ، فعاتبَهُم عليه :—

﴿ قالَ ياقومِ أرَهْطِي أعَزُّ عليكم من اللهِ
واتخذتموه وراءكم ظِهْرِياً إنَّ ربى
بما تعملون محيط ﴾ .

أترون مِنْ حقّ رهطى مالا تَرَوْنَ من حقّ ربى ؛ وإنَّ ربى يُكافئكم على أعمالكم بما تستوجبون فى جميع أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وياقومِ اعْمَلُوا على مكانَتِكم
إنى عاملٌ سوف تعلمون من يأتيه
عذابٌ يُخْزِيه ومَنْ هو كاذبٌ
وارتقبوا إنى معكم رقيب * ولما
جاء أمرُنا نَجَّيْنا شُعَيْبًا والذين آمنوا
معه برحمةٍ مِنَّا وأخذتِ الذين ظلموا
الصيحةُ فأصْبَحُوا فى دِيارِهِم
جَاثِمِينَ * كأن لَّمْ يَغْنَوْا فيها ألاَ
بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

أرخى لهم ستر الإمهال فلمَّا أصَرُّوا على تماديهم فى الغواية حلَّت بهم العقوبة ، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نارٍ ، ولا فى دِيارِ الظالمين ديَّار ، قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار »

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتِنا وسلطانٍ مبين * إلى فرعون ومَلَئِهِ ﴾

كَرَّر قصة موسى عليه السلام تفخيما لشأنه ، وتعظيما لأمره ، وتنبيهاً على علوِّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التى أرسله بها ، ومعجزاته الباهرة ، وبراهينه القاهرة . .

ويقال أصعبُ عدوٍّ قَهَرَهُ أولا نَفْسُهُ ، وقد دَلَّه — سبحانه — على ذلك لمَّا قال : إلهى ! كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلى .

فَنَبَّهَه إلى استصغارِه لنفسه ، وانكساره لله بقلبه ، فزادت صولتُه لما صار معصوماً عن شهود فضلٍ لنفسه ؛ والسلطانُ الذى خصَّه به استولى على قلوبِ مَنْ رآه ، كما قال : « وألقيتُ عليك محبةً منى »[1] فما رآه أحدٌ إلا أحبَّه ، ثم إنه لم يأخذه فى الله ضعفٌ ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون — وهو رضيع — كما فى القصة ، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموت لمَّا طالبه بقبض روحه . . كما فى الخبر ، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه لمَّا رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة ، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطىَّ لما استعان به مَنْ وافقه فى العقيدة ، وقال لله « إن هى إلا فتنتك »[2] لمَّا أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة . . . ففى جميع هذا تَجَاوَزَ اللهُ عنه لمَا أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ فاتَّبَعُوا أمْرَ فِرعونَ وما أمرُ فِرعونَ برشيد * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يوم القيامة فأوردَهم النَّارَ وبِئْسَ الوِرْدُ المورودُ ﴾

---

(١) آية ٣٩ سورة طه .
(٢) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

رضوا بمتابعة فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشعروا بخطئهم ، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعاً . وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم ، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤُهم ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم ، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم — وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بمعبوده ، وأسرف فى مجاوزة حدوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُتْبِعوا فى هذه لعنةً ويومَ القيامةِ بِئْسَ الرِّفْدُ المرفودُ ﴾

بَعُدُوا فى عاجلهم من الإيمان ، وفى آجلهم من الغفران والجنان . والذى لهم فى الحال من الفُرقة أعظمُ — فى التحقيق — من الذى لهم فى المآلِ من الحُرقة ، وهذه صفةُ مَنْ امتحنه اللهُ باللعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك من أنباءِ القُرَى نقصُّه عليكَ منها قائمٌ وحصيد ﴾

لم يكن فى جملة مَنْ قصَّ عليه مِنَ الأنبياء — عليهم السلام — مَنْ أكثر منه تبجيلا ، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً ، فكما تَقَدَّمَ على الأنبياء — عليهم السلام تقدَّمَتْ أمتُه على الأمم ، قال تعالى : « كنتم خير أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفُسَهم فما أغْنَتْ عنهم آلِهَتُهم التى يَدْعُون مِن دونِ اللهِ مِن شىء لمَّا جاء أمرُ ربِّك وَمَازَادُوهُمْ غيرَ تتبيب ﴾

لا يجوز الظلمُ فى وصفه ، فَتَصَرُّفُه فى مُلْكِه بحقِّ إلهيته — مطلقٌ ، يحكم بحسب إرادته ومشيئته ، ولا يتوجه حقٌّ عليه ، فكيف يجوز الظلمُ فى وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر ، ولكن فى صفته لا يجوز العذر إذ الخلقُ خلقُه ، والمُلْكُ مُلْكُه ، والحُكْمُ حُكْمُه .

---

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : ﴿وكذلك أَخْذُ ربّك إذا أَخذَ القُرَى وهى ظالِمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديد﴾

إنَّ الحقَّ — سبحانه — يمهل ولكن لا يهمل ، ويحكم ولكن لا يعجّل ، وهو لا يُسأل عمّا يفعل .

وقيل إذا أخذ النفوسَ بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها ، وإذا أخذ القلوبَ بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها . قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً لِّمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهود﴾

مشهودٌ يشهده مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق فى ذلك اليوم .

ويقال الأيام ثلاثة : يومٌ مفقودٌ وهو أمسِ ليس بيدك منه شىء ، ويومٌ مقصود وهو غدٌ لا تدرى أتدركه أم لا ، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذى أنت فيه ؛ فالمفقودُ لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغ ، والمشهود وقتك وهو مُعَرَّضٌ للزوال .. فاستغله فيما ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿وما نُؤَخِّرُه إلا لِأَجَلٍ مَّعدود﴾

الأَجَلُ لا يَتَقَدَّم ولا يتأخر لكل (...)[2] ، والآجالُ على ما عَلِمها الحقُّ — سبحانه — وأرادها جاريةٌ ؛ فلا طلبٌ يُقَدِّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجلُه ، وكذلك للوصول وقت ، فلا طلب مع رجاء الوصول ، ولا طلب مع خوف الزوال ، ولقد قيل :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها متوقِّعٌ لقواصمِ الظُّهرِ
وفضيلةُ البلوى ترقبُ أهلِها عَقِبَ البلاء — مَسَرَّةَ الدهر

قوله جل ذكره : ﴿يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذنه فمنهم شَقِىٌّ وسعيد﴾

---

(١) آية ١٢ سورة البروج .
(٢) مشتبهة .

الشقيُّ من قُسِم له الحرمانُ فى حاله ، والسعيد مَنْ رُزِق الإيمان فى مآله .

ويقال الشقاء على قسمين : قومٌ شقاؤهم غير مؤبد ، وقومٌ شقاؤهم على التأبيد ، وكذلك القول فى السعادة . الشقيُّ مَنْ هو فى أَسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير ، والسعيد مَنْ رَجَعَ من ظلماتِ التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشقيُّ من كان فى رق العبودية ظانًا أنَّ منه طاعاته ، والسعيد مَنْ تحرر عن رقِّ البشرية وعَلِمَ أن الحادثاتِ كلها لله سبحانه .

وأمَّا الأشقياء — على التأبيد — فهم أهل الخلود فى مقتضى الوعيد ، والسعداء — على التأبيد — من قال الله تعالى فى صفتهم : « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين شَقُوا ففى النارِ لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ماداماتِ السمٰواتُ والأرضُ إلا ماشاء ربُّكَ ﴾

« إلا ما شاء ربُّك » أن يزيد على مُدَّةِ السمٰوات والأرضِ .

« إلا ما شاء ربُّك » أن ينقلهم إلى نوعٍ آخر من العذاب غير الزفير والشهيق .

« إلا ما شاء ربُّك » ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أنْ يُدْخِلَهم النار ؛ فلا استثناء لبعض أوقاتِهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده .

« إلا ما شاء ربُّكَ » من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبَّد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّك فعَّالٌ لِمَا يريد ﴾

فيه إشارة إلى أن الذى يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الذين سُعِدوا ففى الجنةِ خالدين فيها ما دامت السمٰواتُ والأرضُ إلا ماشاء ربُّكَ عطاء غير مَجْذوذ ﴾

لهم اليومَ جنَّاتُ القُربة ، ولهم غداً جنَّاتُ المثوبة .

والكفارُ اليوم فى عقوبة الفُرقة ، وغداً فى عقوبة الحُرْقة .

« فعّالٌ لما يريد » فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنّة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السمٰوات والأرض .

وفى قوله « عطاء غير مجذوذ » — أى عطاء غير مقطوع — دليلٌ على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ مما يَعْبُدُ هؤلاءِ ما يعبدون إلا كَمَا يَعْبُدُ آباؤُهم مِن قبلُ وإنَّا لَمُوَفُّوهُم نصيبَهم غيرَ منقُوصٍ ﴾

لايريد أنَّه عليه السلام فى شكٍّ ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضاهين لآبائهم ، كما تقول : لا شكَّ أنَّ هذا نهارٌ .

ويقال الخطابُ له والمرادُ به لأُمَّتِه .

« وإنا لموفوهم نصيبهم » : نجازيهم على الخير بخير وعلى الشر بضُر [1]

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاخْتُلِفَ فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهم وإنَّهُم لَفى شَكٍّ منه مُرِيبٍ ﴾

اختلفوا فى الكتاب الذى أوتى ، وهو التوراة .

واختلفوا فى كونه رسولاً ، فمِنْ مُصَدِّقٍ ومِنْ مُكذِّب .

ثم أخبر أنه — سبحانه — حَكَمَ بتأخير العقوبة ، ولولا حكمته لعجَّل لهم العقوبة .

وفائدةُ الآية من هذا التعريفِ التخفيفُ على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فيما كان

---

(١) لم يقل القشيرى : وعلى الشر بشر ، وإنما استعمل (الضر) تأدباً من ناحية ، ولأنه — حسب مذهبه الكلامى — لاينسب (الشر) لله ، من ناحية أخرى ، وكما سنرى بعد قليل فى تفسيره للحسنة والسيئة

يلقاه من قومه من التكذيب ، فى سماع قصة الأشكال — وبعضُهم من بعض — سلوة ، ولقد قيل :

أجارتَنا إنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيب

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعمالَهُمْ إنَّه بما يعملون خبير ﴾

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب ، وكرَّر ذلك فى القرآن فى كثيرٍ من المواضع إبلاغاً فى التحذير ، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجَّلٌ ومؤجَّل ، وكلُّ مَنْ أعرض عن الغفلة وجَنَحَ إلى وصف التيقظ وَجَدَ فى معاملاته — عاجلاً — الربحَ لا الخُسران ، وآجلاً الزيادةَ لا النقصان ، وما يجده المرء فى نفسه أتمُّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه .

قوله جل ذكره . ﴿ فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ومَن تابَ معك وَلاَ تَطْغَوْا إنَّه بما تعملون بصير ﴾

يحتمل أن تكون السين فى الاستقامة سين الطلب ؛ أى سَلْ من الله الإقامة لكَ على الحقّ .

ويحتمل أن تكون الإقامة فى الأمر بمعنى أقام عليه .

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقِّها من غير إخلالٍ بها ، فلا يكون فى سلوكِ نهج الوِفاقِ انحرافٌ عنه .

ويقال المستقيمُ مَنْ لا ينصرف عن طريقه ، يواصل سيره بمسراه ، ووزعه بتقواه ، ويتابع فى ترك هواه .

ويقال استقامة النفوس فى نفى الزَّلَّة ، واستقامة القلوب فى نفى الغفلة ، واستقامة الأرواح بنفى العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفى الملاحظة[1] .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسَهم عن العبادة وألا يُخِلُّوا بأدائها ، ويقضون عسيرَها ويسيرَها . واستقامةُ الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة التائبين

(١) تهمنا هذه العبارة عند تحديد الآفات التى تصيب الملكات الباطنة حسب مذهب القشيرى .

ألا يُلِمُّوا بعقوبة زلة فَيَدَعُونَ صغيرَها وكبيرَها . . . وعلى هذا النحو استقامة كلُّ أحدٍ .
قوله « ومن تاب معك » : أى فَلْيَستَقِمْ أيضاً مَنْ معك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَرْكنوا إلى الذين ظلموا فَتَمَسَّكم النارُ ومالَكُم من دونِ اللهِ مِنْ أولياء ثم لاتُنصَرون ﴾

لا تعملوا أعمالَهم ، ولا ترضوا بأعمالِهم ، ولا تمدحوهم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف لهم ، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم ، ولا تساكنوهم بقلوبكم ، ولا تخالطوهم ، ولا تعاشروهم . . . كل هذا يحتمله الأمرُ ، ويدخل تحت الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقِمِ الصلاةَ طَرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً مِّنَ الليلِ إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ذلك ذِكرىٰ للذاكرين ﴾

أى استَغْرِقْ جميعَ الأوقاتِ بالعبادات ، فإنَّ إخلالَكَ لحظةً من الزمان بفَرْضٍ تؤديه ، أو نَفْلٍ تأتيه حَسْرَةٌ عظيمةٌ وخُسرانٌ مبينٌ .

قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » الحسنات ما يجود بها الحق ، والسيئات ما يذنبها العبد ، فإذا دخلت حسناتُه على قبائح العبد مَحَتْها وأبْطَلَتْها .

ويقال حسناتُ القُربة تَذْهَبُ بسيئات الزَّلَّة .

ويقال حسناتُ الندم تَذْهَبُ بسيئات الجُرْم .

ويقال (انسكاب)[1] العَبْرَة تُذْهِبُ العَثْرَة[2] .

ويقال حسناتُ العرفان تُذْهِبُ سيئاتِ العصيان .

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات الإصرار .

ويقال حسناتُ العناية تذهب سيئات الجناية .

ويقال حسنات العفو عن الإخوان تذْهِبُ الحقدَ عليهم .

ويقال حسنات الكرَمِ تُذْهِبُ سيئاتِ الخدَم .

---

(١) هكذا مصوبة في الهامش وهي أصوب مما جاء في المتن (ارتكاب) .
(٢) وردت (العسرة) بالسين والأصوب (العثرة) لأنها تنسجم مع السياق .

ويقال حسنُ الظنِّ بالناس يُذْهِبُ سوأتهم بكم[1] .

ويقال حسنات الفضل من الله تُذْهِبُ سيئاتِ حسبان الطاعة من أنفسكم .

ويقال حسناتُ الصدق تَذْهَبُ بسيئاتِ الإعجاب .

ويقال حسناتُ الإخلاص تَذْهَبُ بسيئاتِ الرياء .

قوله جل ذكره : ﴿ واصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين ﴾

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر .

« فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » المحسنُ : العاملُ الذى يعلم أنَّ الأجرَ على الصبر والطاعة بفضله — سبحانه — لا باستحقاق عملٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا كان من القرونِ مِن قَبْلِكُمْ أولوا بقيةٍ يَنْهَوْن عنِ الفسادِ فى الأرضِ إلا قليلاً ممَّنْ أنجينا منهم واتَّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾

معناه لم يكن فيكم مِنْ هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل . .

وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم مَنْ يَنْهى عن الفساد ، ويحفظ الدِّين، ويطيعون أنبياءهم — إلا قليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان ربُّكَ لِيُهْلِكَ القرىٰ بظلمٍ وأهلُها مُصْلِحون »

أى لم يُهلِك اللهُ أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك مَنْ كان ظالماً .

---

(١) ربما يقصد القشيرى من هذه العبارة الحث على الصفح عن عثرات الناس .

ويقال معناه : لو أهلك الله أهلَ القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن المُلْكَ مُلْكُهُ ، والخلْقَ عبيدُه .

ويقال « المصلح » مَنْ قام بحقِّ ربِّه دون طلب حظِّه .

ويقال : « المصلح » من آثر نجاته على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَه طاعتُه ، ومصلحٌ تصلِحُ قلبَه معرفةُ سيِّدِه ، ومصلح تُصلِحُ سِرَّه مشاهدةُ سيِّدِه .

قوله جل ذكره ﴿ ولو شاء ربُّكَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالون مُختَلِفِين ﴾

لو شاء لَجَعلهم أربابَ الوفاق ثم لايوجبون لمُلْكِه زَيْناً ، ولوشاء لجعلهم أرباب الخلافِ ثم لا يوجِبُون لمُلْكِه شَيْنا .

ثم قال : « ولا يزالون مختلفين » لأنه كذلك أراد بهم .

« إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ » فى سابق حكمه فعصمهم عن الخلاف فى حاصل أمورهم ، وأقامهم به ، ونصبهم له ، وأثبتهم فى الوفاق والمحبة والتوحيد .

قوله جل ذكره ﴿ وتَمَّتْ كَلِمَةُ ربِّك لأَمْلَأَنَّ جهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾

أى لا تبديلَ لقوله ، ولا تحويلَ لحكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكُلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَك ﴾

سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين ، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذى رقَّاه إليه ، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه .

ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع ، ولم يذكر قصتَه لأحد تعريفاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه ، وفَرْقٌ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يستقل بِمَنْ منه يسمع ، وأنشدوا :

وَحَدِّثْنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَنِي حَنِينًا فَزِدْنِي مِنْ حديثِكَ يا سعدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتِكم إنَّا عاملون * وانتظِروا إنَّا مُنتَظِرُون ﴾

إن الذين يجحدون التوحيد ، ويؤثِرون على الحقِّ غيرَ الحق ، ولم يُصَدِّقوا الوعيد ، يوشِكُ أنْ يَنْصَبَّ عليهم الانتقامُ فيغرقون فى بحار العقوبة ، ويسقطون فى وهاد الهوان ، فلا لويلهم انتهاء، ولا لِذُلِّهم انقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله غيبُ السمٰواتِ والأرضِ وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّه فاعْبُدْه وتوكَّلْ عليه وما ربكَ بغافلٍ عما تعملُون ﴾

عمّى عن قلوبهم العواقبَ ، وأخفى دونهم السوابق ، وألزمهم القيامَ بما كلَّفهم فى الحال ، فقال : « فاعبده » فإنْ تقسَّمَ القلبُ وتَرَجَّمَ الظَّنُّ وخيف سوء العاقبة .. فتوكَّلْ عليه أى اسْتَدْفِعْ البلاء عنك بِحُسْنِ الظَّنِّ ، وجميل الأمل ، ودوام الرجاء .

« وما ربك بغافل عما تعملون » : أحاط بكل شىء عِلْماً ، وأمضى فى كل أمرٍ حُكْماً .

السورة التى يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الاسم[1] مِنْ وَسَمَ ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهرَه بالعبودية ، وسرائرَه بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى المراتب العَلِيَّة ، وأُزْلِفَتْ رتبَتُه من المنازل السنِّية .

أو أن الاسم مشتق من السِّمة أو من السموِّ

(١) ربما كان القشيرى فى شرحه لمعنى (الاسم) متأثراً بالجو العام للسورة ، وما حدث لكل من يوسف وإخوته من أحداث .

وقدَّم الله — سبحانه — اسمَ اللهِ فى هذا المحل على اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء — التى هى حرف التضمين والالصاق — إلى أنَّ « به » عَرَفَ مَنْ عَرَف ، و « به » وقف مَنْ وقف ؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه ، والواقف دونه مربوط بخذلانه .

قوله جل ذكره : ﴿ الر تلك آياتُ الكتاب المبين ﴾

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنَّةُ الأحباب فى سَتْرِ المحابِّ ؛ فالقرآنُ — وإنْ كان المقصودُ منه الإيضاحَ والبيانَ — ففيه تلويح وتصريح ، ومُفَصَّلٌ ومُجْمَلٌ ، قال قائلهم :

أبكى إلى الشرق إنْ كانت منازِلُكم مما يلى الغربَ خوفَ القيل والقالِ

ويقال وقفت فهُومُ الخَلْق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه — صلى الله عليه وسلم ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة ولكنه أفرد الحبيبَ بفهمه ، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول قائلهم :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه قولٌ ، ولا قلم للخَلْق يحكيه

وفى إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهى أنَّ منْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعانى ، ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير ؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وَصْلِه ؛ فأنزل اللهُ هذه الحروف التى لاسبيلَ إلى الوقوف على معانيها ، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها بِعَدَم السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطَالَبَةٌ بالفهم ، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرِقين فى عين الجَمْع ، ولذا قيل : استراح من العقل له[1] .

وقوله تعالى : « تلك » يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذى وعدناك .

---

(١) هكذا فى (س) ونرجح أنها (استراح من لا عقل له) والعقل هنا معناه الوعى .

وقيل هذا تعريفنا : إليك بالتخصيص ، وإفرادُنا لك بالتقريب — قد حققْناه لكَ ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود .

والإشارة من « الكتاب المبين » ها هنا إلى حُكْمِه السابق له بأنْ يُرَقِّيَه إلى الرتبة التى لا يبلغها غيرُه ، وقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا . . »[1] أى حين كلَّمنا موسى عليه السلام ، وأخبرناه بعلوِّ قَدْرِك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نُبَلِّغُك هذا المقامَ الذى أنت فيه الآن . وكذلك كلُّ مَنْ أوحينا إليه ذَكَرْنا له قِصتَكَ ، وشَرَحْنا له خِلقتَك ، فالآنَ وقتُ تحقيق ما أخبرنا به ، وفى معناه أنشدوا :

سُقْياً لمهدِكَ الذى لو لم يكن ما كان قلبي للصبابةِ مهدا

قال الله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر » يعنى بعد التوراة « أن الأرضَ يرثها عبادى الصالحون »[2] يعنى أمة محمد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقِلون ﴾ .

فى إنزال الكتاب عليه ، وإرسالِ الرسول[3] إليه — تحقيقٌ لأحكام المحبة ، وتأكيدٌ لأسباب الوصلة ؛ فإنَّ مَنْ عَدِمَ حقيقةَ الوصول استأنس بالرسول ، ومَنْ بَقِيَ عن شهود الأحباب تَسَلَّى بوجود الكتاب ، قال قائلهم :

وكُتُبُكَ حَوْلى لا تُفارقُ مضجعى ففيها شفاء للذى أنا كاتِمُ .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نقصُّ عليك أحْسَنَ القَصَص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

« أحسن القصص » : خلوُّه عن الأمر والنهى الذى سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو يعرِّض لوقوع التقصير .

« أحسن القصص » : ففيه ذكر الأحباب .

---

(١) آية ٤٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .
(٣) (الرسول) هنا مقصود به القرآن الكريم أو جبريل — كما هو واضح من السياق .

« أحسن القصص » : لأن فيه عفوَ يوسف عن جنايات إخوته .

« أحسن القصص » : لما فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه .

« أحسن القصص » : بالإضافة إلى ماسألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس .

« أحسن القصص » : لأنه غير مخلوق[1] .

ويقال لمَّا أخبره الله — سبحانه — أن هذه القصةَ أحسنُ القصص وجد رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — لنفسِه مزايا وزوائد لتخصيصه ؛ فَعَلِمَ أن الله تعالى لم يُرَقِّ أحداً إلى مثل مارقَّاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾

أى الذاهبين عن فهم هذه القصة . أى ما كنتَ إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها ، أى إنك لم تَصِلْ إلى معرفتها بكدِّك وجهدك ، ولا بطلبك وجِدِّك . . . بل هذه مواهبُ لا مكاسب ؛ فبعطائِنا وَجَدْتَها لا بعنائك ، وبِتَفَضُّلِنَا لا بتعلُّمِكَ ، وبِتَلَطُّفِنا لا بتكلُّفِك ، وبنا لا بك .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إنى رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لى ساجدين ﴾

لما ذكر يوسف — عليه السلام — رؤياه لأبيه عَلِمَ يعقوبُ — عليه السلام صِدْقَ تعبيرها ، ولذلك كان دائم التذكُّر ليوسف مدةَ غيبته ، وحين تطاولتْ كان يَذْكُرُه حتى قالوا : « تالله تفتأ تذكر يوسف » فقال : « إنى أعلم من الله مالا تعلمون » فهو كان على ثقةٍ من صِدْقِ رؤياه

فإنْ قيل : فإذا كان الصبىُّ لا حُكْمَ لِفِعْلِهِ فكيف يكون حكم لرؤياه ؟ وما الفرق ؟

---

(١) القرآن غير مخلوق . . هذا أصل من الأصول الكلامية الهامة عند الأشاعرة — ومنهم القشيرى .

فيقال : إن الفعل بِتَعَمُّدٍ يحصل فيكون مُعَرَّضاً لتقصير فاعله ، أمّا الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان .

ويقال إنّ حقّ السِّرّ الكتمانُ وإن كان على مَنْ هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر سِرّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إخْوَتِكَ فَيَكِيدوا لَكَ كَيْداً إنَّ الشَّيْطانَ للإنسانِ عدوٌّ مُبِينٌ ﴾

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لمّا سبق التقديرُ في أمر يوسف ـ عليه السلام ـ حصل ما حصل .

ويقال إن يوسفَ خالَفَ وصية أبيه في إظهارِ رؤياه إذ لو لم يُظْهِرْها لما كادوا له ، فلا جَرَمَ بسبب مخالفته لأبيه — وإن كان صبيا صغيرا — لم يَعْرَ مِنَ البلايا .

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويلُه سجودَ الإخوة له رأى ما تعبيره : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ؛ فدخل الإخوة الحَسَدَ[1] أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لِفَرْطِ شفقة الأبوة .

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال : « وخرُّوا له سُجَّداً » ولم يسجد الأبُ ولا خالته حيث قال : « ورفع أبويه على العرش » فإن يوسفَ صانَهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ ربُّكَ ويُعَلِّمُكَ مِن تأويلِ الأحاديث ﴾

أي كما أكرمك بهذه الرؤيا التي أرَاكَها يجتبيك ويُحْسِنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعد النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فما يحصل للعبد من الخيرات — لا بتكلفه ولا بتعمده — فهو قضية الاجتباء .

---

(١) وردت (الحد) والصواب أن تكون الحسد (انظر توضيح ذلك بعد قليل صفحة ١٧٠) ودخول الأب كان بنفسه ولم يكن بقلبه ، وكان سببه شدة الإشفاق على ولده .

ويقال من الاجتباء المذكور أنْ عَصَمَهُ عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه .

ويقال من قضية الاجتباء إسباله الستر على فعل إخوته حيث قال : « وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن» ،ولم يذكر خَلاصَهُ من البئر.ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال : « لا تثريب عليكم اليوم »

قوله جل ذكره : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِن تأويل الأحاديث ﴾

أى لنعرفَ قَدْرَ كلِّ أحد ، ونقفَ على مقدار كلِّ قائلٍ بما نسمع من حديثه .. لا مِنْ قوله بل لِحِدَّةِ كياستك وفَرْطِ فراستك .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك وعلى آلِ يعقوبَ كَمَا أَتَمَّها على أبويكَ مِن قَبْلُ إبراهيم وإسحاق إنَّ ربَّك عليمٌ حكيم ﴾

مِنْ إتمامِ النعمة توفيقُ الشكرِ على النعمة ، ومن إتمام النعمة صَوْنُها عن السَّلبِ والتغيير ، ومن إتمام النعمة التَّحرزُ [1] منها حتى تَسْهُلَ عليكَ السماحةُ بها .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كان فى يوسُفَ وإخوته آياتٌ للسائلين ﴾

يعنى لكلِّ ذى مِحنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولكلِّ ذى نعمة حتى يعلم كيف يشكر .

ويقال فى قصتهم كيفية العفو عن الزَّلَّة ، وكيفية الخَجْلَةِ لأهل الجفاءِ عند اللقاء .

ويقال فى قصتهم دلالاتُ لطفِ الله سبحانه بأوليائه بالعصمة ، وآياتٌ على أنَّ المحبة (. . .)[2] من المحنة .

ويقال فيها آياتٌ على أنَّ من صَدَقَ فى رجائه يُخْتَصُّ — يوماً — ببلائه .

---

(١) (التحرز) من النعمة التوق منها ، وإذا افترضنا أنها قد تكون (التحرر) بالراء فمعناها ألا يكون العبد أسيراً للنعمة حتى يسهل عليه أن يجود بها ... وكلاهما صحيح مقبول فى السياق .

(٢) مشتبهة

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ قالوا لَيُوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا مِنَّا ونحن عُصْبَةٌ إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين ﴾

عرَّفوا على ما سَتَرُوه من الحَسَدِ ، ولم يحتالوا فى إخراج ذلك من قلوبهم بالوقيعة فى أبيهم حتى قالوا : « إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين » .

ويقال لمَّا اعترضوا بقلوبهم على أبيهم فى تقديم يوسف فى المحبة عاقبهم بأن أمهلهم[1] حتى بسطوا فى أبيهم لسانَ الوقيعة فوصفوه بلفظ الضلال ، وإن كان المرادُ منه الذهابَ فى حديث يوسف عليه السلام . ولمَّا حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ — سبحانه — حتى أقامَهم بين يدى يوسف عليه السلام ، وخرُّوا له سُجَّداً ليعلَموا أنَّ الحسودَ لا يسود .

ويقال أطولُ الناسِ حُزْناً مَنْ لاقَى الناسَ عن مرارةٍ ، وأراد تأخيرَ مَنْ قَدَّمه اللهُ أو تقديمَ مَنْ أخَّرَه اللهُ ؛ فإخوةُ يوسف — عليه السلام — أرادوا أن يجعلوه فى أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوقَ السرير !

قوله جل ذكره : ﴿ اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أبيكم ﴾

أى يَخْلُصْ لكم إقبالُ أبيكم عليكم ، وقديماً قيل : مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فَاتَه الكلُّ ؛ فلمَّا أرادوا أن يكون إقبالُ يعقوب — عليه السلام — بالكليَّةِ — عليهم قال تعالى : « فتولى عنهم » .

ويقال كان قَصْدُهم ألا يكونَ يوسفُ أمامَ عينه فقالوا : إمَّا القتلُ وإمَّا النَّفْىُ ، ولا بأسَ بما يكونُ بعد ألا يكونَ يوسف عليه السلام .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونوا مِنْ بَعْدِه قوماً صالحين ﴾

عَجِلوا بالحرام ، وعَلَّقُوا التوبةَ بالتسويف والعزم ، فلم يمحُ ما أَجَّلُوا من التوبة ما عجَّلوا من الحَوْبة .

---

(١) وردت (أهملهم) وهى خطأ فى النسخ لأن الله لا يهمل ولكن يمهل ، والسياق يقتضى (الإمهال) .

ويقال لم تَطِبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن بابِ اللهِ بالكليَّة فدبَّروا لُحْسنِ الرجوع قبل ارتكاب مادعته إليه نُفُوسُهم ، وهذه صفة أهل العرفان بالله[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسفَ وألقُوه فى غيابة الجُبِّ يلتقطْه بعضُ السَّيَّارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إخوةُ يوسف — وإنْ قابلوه بالجفاء — مَنَعَتْهُم شفقةُ النَّسَبِ وحُرْمَةُ القرابةِ من الإقدام على قتله ؛ فقالوا لاتقتلوه وغَيِّبُوا شَخْصَهُ .

ويقال إنما حَمَلَهم على إلقائه مرادُهم أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، فلمَّا أرادوا حصولَ مرادهم فى تغييبه لم يبالغوا فى تعذيبه .

ويقال لمَّا كان المعلومُ له — سبحانه — فى أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى اللهُ فى قلبِ قائلهم حتى قال : « لا تقتلوا يوسف » .

ثم إنه — وإن أبلاه فى الحال — سَهَّلَ عليه ذلك فى جَنْبِ ما رقَّاه إليه فى المآل[2] ، قال قائلهم :

كم مرةٍ حَفَّت بكَ المكارِه خارَ لَكَ اللهُ — وأنت كاره

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا أبانا مَالَكَ لا تَأْمَنَّا على يوسف وإنَّا له لناصِحون ﴾ .

كلامُ الحسودِ لا يُسمَع ، ووعدُه لا يُقْبل — وإنْ كانا فى معْرِضِ النُّصح ؛ فإنَّهُ يُطْعِمُ الشَّهْدَ ويَسْقِي الصَّابَ .

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب — عليه السلام — ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف : « ويكيدوا لك كيداً » ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصير مسدودةً .

---

(١) واضح من هذا ومما جاء فى السياق أن القشيرى — بتسامحه الصوفى الأصيل — ينظر إلى إخوة يوسف نظرة خالية من التحامل عليهم .

(٢) كأنما ينصح القشيرى أصحاب الإرادة : إن لقيتم اليوم فى الله شدةً ، فلكم غداً مثوبة . وكأنما يوضح لأهل الجدل : إن مقاييس الشر والخير الإنسانية خاطئة قاصرة .

ويقال من قَبِلَ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ فى يوسف عليهما السلامُ — من بلائه .

قوله جل ذكره ﴿أرْسِلْه معنا غداً يرتَعْ ويلعبْ وإنا له لحافظون﴾ .

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام فى تمكينهم من يوسف بما فيه راحةُ نَفْسٍ فى اللعب ، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه — وإنْ كان يشُقُّ عليه فراقُه ، ولكنَّ المحبَّ يؤثِرُ راحةَ محبوبه على محبةِ نَفْسه .

ويقال لما رَكَنَ إلى قولهم : « وإنا له لحافظون » — أى مِنْ قِبَلِهِم[1] — حتى قالوا : « وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ؛ فَمَنْ أسلم حبيبَه إلى أعدائه غُصَّ بتحسِّى بلائه .

قوله جل ذكره : ﴿قال إنِّى ليَحْزُنُنِي أن تذهبوا به وأخاف أن يأكلَه الذئبُ وأنتم عنه غافلون﴾ .

يَحْزُننى أن تذهبوا به لأنى لا أصبر عن رؤيته ، ولا أطيق على فُرقتِه . . . هذا إذا كان الحالُ سلامته .. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب ؟!

ويقال لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب ، فنى الخبر ما معناه : إنما يُسَلطُ على ابن آدم ما يخافه . وكان من حقه أن يقول أخافُ اللهَ لا الذئب ، وإنْ كانت مَحَالُّ الأنبياءِ عليهم السلام — محروسةً من الاعتراض عليها .

ويقال لمَّا جرى على لسان يعقوب — عليه السلام — من حديث الذئب صار كالتلقين لهم ، ولو لم يسمعوه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب[2] .

---

(١) يرجع القشيرى ما أصاب يعقوب من بلاء إلى ركونه إلى حفظ يوسف من قبل الخلق ؛ وأنه اطمأن للدعوام مع أن الحفظ لا يكون إلا الله .

(٢) تفيد هذه النقطة فى إثبات كرامة الأولياء ، وما يجرى على ألسنتهم من تنبؤ بما قد يحدث فى المستأنف على وجه الإجمال .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لَئِنْ أكله الذئبُ ونحن عُصْبةٌ إنَّا إذاً لخاسِرون ﴾ .

لَحِقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا : « إنَّا إذاً لخاسرون » : لأنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقٌ بأن يقال قد خُسِرت صفقته .

ويقال لمَّا عدُّوا القوة فى أنفسهم حين قالوا : « ونحن عصبة » خُذِلُوا حتى فعلوا[1] .

ويقال لمَّا ركَنَ يعقوبُ — عليه السلام — إلى قولهم : « ونحن عصبة » لَقِىَ ما لَقِىَ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غَيابَةِ الجُبِّ وأوحينا إليه لتُنَبِّئَنَّهم بأمرِهم هذا وهم لا يَشْعرون ﴾ .

الجوابُ فيه مُقَدَّر ؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه فى البئر فعلوا ما عزموا عليه . أو فلمَّا ذهبوا به وألقوه فى غيابة الجُبِّ أوحينا إليه ؛ فتكون الواو صلة . والإشارة فيه أنه لمَّا حَلَّتْ به البلوى عجَّلنا له التعريفَ بما ذكرنا من البُشْرَى ؛ ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمِّلٌ له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحىُ من قِبَل مولاه ، وكذا سُنَّتُه تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاءِ إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ الصفاء ، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ .

تمكينُ الكذَّابِ من البكاء مِمَّةُ خذلان الله تعالى إياه ، وفى الخبر : إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكى ما شاء .

ويقال : لا يَبْعُدُ أنْ يقال إنهم وإنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا ، فَعَلاهُمْ البكاء لندمهم — وإن لم يُظْهروا لأبيهم — وتَقَوَّلُوا على الذِّئْبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءوا على قميصه بِدَمٍ كذِبٍ ﴾ .

---

(١) فقد كانت من دعاوى النفس .

لم يُؤثِّرْ تزويرُ قَالَبِهم فى إيجاب تصديق يعقوب — عليه السلام لكذبهم بل أخبره قلبُه أنَّ الأمرَ بخلاف ما يقولونه فقال :

﴿ بل سَوَّلَتْ لكم أنفُسُكم أمراً
فصبرٌ جميلٌ واللهُ المُسْتَعانُ على
ما تَصِفُون ﴾ .

فَعَلم على الجملة وإنْ لم يعلمْ على التفصيل . . وهكذا تقرع قلوبَ الصديقين عواقبُ الأمور على وجه الإجمال ، إلى أنْ تَتَّضحَ لهم تفاصيلُها فى المستأنف .

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أُغفلوا عن تمزيق قميصه حتى عَلم يعقوب تَقَوُّلَهم فيما وصفوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاءتْ سَيَّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى
دلْوَه قال يا بُشرىٰ هذا غلامٌ وأَسَرُّوه
بضاعةً والله عليم بما يعملون ﴾ .

ليس كلُّ من طلب شيئاً يُعطى مرادَه فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله ؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسفَ عليه السلام .

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة ؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف — فى الحقيقة — حُرّاً[1] .

ويقال لمَّا أراد اللهُ تعالى خلاصَ يوسف — عليه السلام — من الجُبِّ أزعج خواطر السَّيارة فى قصد السفر ، وأعدمهم الماء حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص ، ولهذا قيل : ألا رُبَّ تشويشٍ يقع فى العَالَم والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ . كما قيل : رُبَّ ساعٍ له قاعد .

قوله جل ذكره ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهِمَ معدودةٍ
وكانوا فيه مِنَ الزَّاهدين ﴾

لم يعرفوا خسرانهم فى الحال ولكنهم وقفوا عليه فى المآل .

---

(١) أى ربما تكون حقيقة النعمة أعظم من ظاهرها .

ويقال قد يُبَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس ، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغَبْن .

ويقال لم يحتشموا من يوسف — عليه السلام — يوم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ ، ولكن لمَّا قال لهم : أنا يوسف — وقع عليهم الخجل ، ولهذا قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .

ويقال لمَّا خَرُّوا له سُجَّدًا علموا أنَّ ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمنٍ بخس .

ويقال لمَّا وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا فى نعمته ، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه فى مقام الذُّلِّ قائلين « مَسَّنا وأَهْلَنا الضُّرُّ » ، وفى معناه أنشدوا :

ستسمع بى وتذكرنى وتطلبنى فلا تجدِ

ويقال ليس العَجَبُ ممن يبيع مثلَ يوسف — عليه السلام — بثمنٍ بَخْسٍ إنما العَجَبُ ممن (....)[1] مثل يوسف — عليه السلام — بثمن بخس ، لا سيَّما « وكانوا فيه من الزاهدين » (الخرق لا غاية له ، وكذا العجب لا نهاية له)[2] .

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف — عليه السلام — بثمنٍ بخسٍ ، إنما العجب ممن يبيع وقته الذى أعزُّ من الكبريت الأحمر بعَرَضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا .

ويقال إنَّ السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا فى شرائه بدراهم ، والذين وقفوا على جماله وشىء من أحواله غالوا — بمصر — فى ثمنه حتى اشتروه بزنته دراهم ودنانير مراتٍ — كما فى القصة[3] ، وفى معناه أنشدوا :

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاى مُطَّرَحاً فعند غيرِك محمولٌ على الحَدَقِ[4]

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذى اشتراه مِن مِصْرَ

---

(١) هنا كلمة فى الكتابة هكذا (بحل) ولا ندرى كيف نصرفها إلى إتجاه يخدم المعنى .

(٢) ما بين القوسين ورد هكذا فى (ص) وفيه التباس ناشىء عن سوء النسخ .

(٣) يقال إن العزيز إشتراه بزنته ورقاً وحريراً ومسكاً .
(تفسير النسفى ج ٢ ص ٢١٦ ط عيسى الحلبي)

(٤) الحدق جمع حدقة وهى السواد المستدير وسط العين .

لامرأتِهِ أَكْرِمِى مثواه عسىٰ أن
يَنفَعَنَا أو نتخذَه وَلَدًا ﴾

لمَّا نودى على يوسف فى مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ — سبحانه — حتى أصابتهم الضرورةُ ومَسَّتْهُمْ الفاقةُ حتى باعوا من يوسف — عليه السلام — جميعَ أملاكهم ، ثم باعوا كلُّهم منه أنفُسَهم — كما فى القصة — وفى آخر أمرهم طلبوا الطعام ، فصاروا بأجمعهم عبيدَه ، ثم إنه عليه السلام لما مَلَكَهم مَنَّ عليهم فأعتقهم[1] ؛ فَلَئِنْ مَرَّ عليه بمصرَ يومٌ نودى فيه عليه بالبيع ؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد مَلَكَ جميعَ أملاكهم ، ومَلَكَ رقابَ جميعهم ؛ فيومٌ بيومٍ ، قال تعالى : « فإنّ مع العسر يسراً » يومان شتَّان بينهما !

ثم إنه أعتقهم جميعاً ... وكذا الكريمُ إذا قدر غفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسفَ فى الأرض ، ولِنُعَلِّمَه من تأويل الأحاديث ﴾

أراد مَنْ حَسَدَه ألّا تكونَ له فضيلةٌ على إخوته وذويه ، وأراد اللهُ أن يكونَ له مُلْكُ الأرضِ ، وكان ما أراد اللهُ لا ما أراد أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ غالِبٌ على أمرِه ﴾

أرادوا أن يكونَ يوسفُ عليه السلام فى الجُبِّ ، وأراد اللهُ — سبحانه — أن يكون يوسف على سرير المُلْكِ ؛ فكان ما أراد الله ، والله غالبٌ على أمره .

---

(١) فى القصة « وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدرام والدنانير فى السنة الأولى حتى لم يبق معهم شىء منها ثم بالحلى والجواهر فى الثانية ثم بالدواب فى الثالثة ثم بالعبيد والإماء فى الرابعة ثم بالدور والعقار فى الخامسة ثم باولادهم فى السادسة ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعاً ثم اعتق أهل مصر ورد عليهم أملاكهم » النسفى ج ٢ ص ٢٢٨ .

وأرادوا أن يكون يوسفُ عبداً لمن ابتاعوه من السيارة ، وأراد اللهُ أن يكونَ عزيزَ مصر — وكان ما أراد اللهُ .

ويقال العِبْرَةُ لا ترى من الحقِّ فى الحال ، وإنما الاعتبارُ بما يظهر فى سِرِّ تقديره فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا بَلَغَ أشُدَّه آتيناه حُكْمًا وعِلْمًا ، وكذلك نَجْزِى المحسنين ﴾

من جملة الُحكْمِ الذى آتاه اللهُ نفوذُ حُكْمِه على نَفْسِه حتى غَلَب شهوته ، وامتنع عما رَاوَدَتْه تلك المرأةُ عن نَفْسِه ؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكْمَ له على غيره .

ويقال إنما قال : « ولمَّا بلغ أشدَّه » أى حين استوى شبابُه واكتملت قُوَّته ، وكان وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعى مطالبات البشرية — آتاه الله الُحكْمَ الذى حبسه على الحقِّ وصَرَفَه عن الباطل ، وعَلِمَ أنَّ ما يعقب اتباع اللذاتِ من هواجم النَّدمِ أشدُّ مقاساةً من كلفة الصبر فى حال الامتناع عن دواعى الشهوة . . فآثَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع . وذلك الذى أشار إليه الحقُّ — سبحانه — من جميل الجزاء الذى أعطاه هو إمدادُه بالتوفيق حتى استقام فى التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق ، قالَ تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا »[1] : أى الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سُبُلَ الصبرِ على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائقُ المواصلة .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَرَاوَدَتْه التى هو فى بيتها عن نَّفْسِه وغلَّقتِ الأبوابَ وقالت هَيْتَ لَك قال معاذَ اللهِ إنه ربى أحْسَنَ مثواى إنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾

لما غَلَّقَت عليه أبوابَ المسكنِ فَتَحَ الله عليه باب العصمة[2] ، فلم يُضِرْه ما أُغْلِقَ بعد إكرامه بما فُتِحَ .

---

(١) آية ٦٩ سورة العنكبوت .

(٢) نلفت النظر إلى جمال عبارة القشيري الناتج عن المقابلة بين (الإغلاق) و (الفتح) .

وفى التفسير أنه حفظ حُرْمَةَ الرجل الذى اشتراه ، وهو العزيز .

وفى الحقيقة أشار بقوله : « إنه ربِّى » إلى ربِّه الحقِّ تعالى : هو مولاى الحق تعالى ، وهو الذى خلَّصنى من الجُبِّ ، وهو الذى جعل فى قلب العزيز لى محلًّا كبيراً فأكرم مثواى فلا ينبغى أنْ أُقْدِمَ على عصيانه — سبحانه — وقد غمرنى بجميل إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها : إن العزيز أمرنى أنْ أنفعَه . « عسى أن ينفعنا » فلا أخُونُه فى حُرْمَتِه بظهر الغيب .

ويقال لمَّا حفظ حُرْمة المخلوقِ بظهر الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة فى الحال ومَكَّنَه من مواصلتها فى المآل على وجه الحَلَال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد هَمَّتْ به وهَمَّ بها لولا أن رأى بُرْهانَ ربِّه كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنَّه مِنْ عبادِنا المخلَصين ﴾

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه — بغير اختياره ولا بِكَسْبِه — كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن « الهمُّ »[1] منه ولا منها زَلَّةً ، وإنما الزَّلَّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ ، فأمّا نفسُ الهمِّ فليس مما يَكْسِبُهُ العبد .

ويقال اشتركا فى الهمِّ وأُفْرِد — يوسف عليه السلام — بإشهاده البرهان .

وفى تعيين ذلك البرهان — ما الذى كان ؟ — تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالخَبَرِ المقطوع به .

وفى الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقِّ إياه بآية من آيات صُنْعِه ، قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسِهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق »[2] .

---

(١) واضح أن القشيرى يهدف إلى نفى كل تهمة عن يوسف ولهذا يلجأ إلى تأويل لفظة « الهم » الذى اشترك فيه وامرأة العزيز كما يعبر ظاهر اللفظ

(٢) آية ٥٣ سورة فصلت .

وقوله : « كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء » صَرَفَ عنه السُّوء حتى لم يوجَد منه العزمُ على ذلك الفعل — وإنْ كان منه همٌّ — إلا أن ذلك لم يكن جُرْماً كما ذكرنا .

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهمِّ — كشفٌ ، والسوء المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفسُ الزنا ، وقد صرفهما الله تعالى عنه .

قوله « إنه من عبادنا المُخْلَصين » : لم تكن نجاتُه فى خلاصه ، ولكن فى صرفِ السوء عنه واستخلاصه .

قوله جل ذكره : ﴿ واستبَقَا البابَ وقَدّتْ قميصَه مِن دُبُرٍ وألفَيَا سَيِّدَها لدى البابِ ﴾

استبقا ، هذا ليهْرَبَ ، وهذه للفعلة التى كانت تطلب .

ولم يضر يوسفَ — عليه السلام — أنْ قَدَّتْ قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحَّ عليه قميصُ تقواه .

ويقال[1] لم تَقْصِدْ قَدَّ القميصِ وإنما تَعَلَّقَتْ به لتَحْبِسَه على نفسها ، وكان قصدُها بقاء يوسف — عليه السلام — معها ، ولكن صار فعلُها وَبالاً على نَفْسِها ، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتَها وشفاءها .

ويقال تولَّد انخراقُ القميصِ من قبضها عليه وكان فى ذلك افتضاح أمرها ؛ لأن قَبْضَها على قميصه كان مزجوراً عنه . . لِيُعْلَمَ أنَّ الفاسِدَ شَبَّه فاسدٌ .

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم فى الحالِ أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدَّامِه .. كذلك صاحبُ البلاءِ فى الهوى مسلوبُ التمييز .

ويقال لمّا لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصَه ليكونَ لها فى إلقائها الذَّنْبَ على يوسف — عليه السلام — حُجَّةٌ ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ حتى صار ذلك عليها حجة ، وليوسف دلالة صدق ، قال تعالى : « ولا يحيق المكرُ السيئُ إلا بأهله »[2]

---

(١) فيما يلى من إشارات نلاحظ أن القشيرى قد جعل من امرأة العزيز رمزاً لطالب الدنيا وأسير الهوى ومن يوسف رمزاً مقابلا لذلك .

(٢) آية ٤٣ سورة فاطر .

قوله تعالى : « وألفيا سيدها لدى الباب » : لمَّا فَتَحَا البابَ وجدا سيدها لدى الباب ، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ؛ إذا خَرَجَ العبدُ عن الذى هو عليه من التكليف فى الحال وقع فى ضِيق السؤال .

ويقال قال : « ألفيا سيدها » ولم يقل سيدهما لأن يوسف فى الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيزُ له سيداً .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت ما جزاء مَنْ أرَادَ بأهلِك سُوءا إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم ﴾

شَغَلَتْهُ بإغرائها إياه بيوسف عن نَفْسِها بأن سَبَقَتْ إلى هذا الكلام .

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتلَه ؛ ففى عين ما سَعَتْ به نظرت له وأَبْقَتْ عليه .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترضَ بذلك ، وستزيد ؛ فالعذاب الأليم يعنى الضَّرب المُبَرِّح . . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج .

ويقال أوقعت السجن الذى يبقى مؤجَّلا فى مقابلة الضرب الأليم المعجل ليُعْلَمَ أنّ السجنَ الطويل — وإنْ لم يكن فيه فى الظاهر ألم — فهو فى مقابلة الضرب الشديد الموجِع ؛ لأنه — وإنْ اشتدّ فلا يقابله .

ويقال قالت : « ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ » فذِكْرُ الأهل هاهنا غايةُ تهييج الحَمِيّة وتذكيرٌ بالأَنَفَة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هى رَاوَدتْني عن نَفْسِى وشَهِدَ شاهِدٌ من أهْلِها إن كان قميصُه قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو مِنَ الكاذبين * وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ فكَذَبَتْ وهو مِنَ الصادقين * فلمَّا رأى قميصَه قُدَّ من

دُبُرٍ قال إنَّه من كيدكن إنَّ كَيْدَكُنَّ
عظيم ﴾ .

أفصح يوسف عليه السلام بِجُرْمِها إذ ليس للفاسق حُرْمَة يجب حِفْظُها ، فلم يُبَالِ أنْ هَتَك سترها فقال . « هى راودتنى عن نفسى » فلمَّا كان يوسفُ صادقاً فى قوله ، ولم يكن له شاهدٌ أنطق اللهُ الصبيَّ الصغير الذى لم يبلغ أوانَ النطق[1] . ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً فى نفسه لم يبالِ اللهُ أن يُنْطِقَ الحجرَ لأجله .

قوله : « فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر . . . » لما اتضح الأمرُ واستبان الحالُ وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز : « إنه من كيدكن » : دلَّت الآيةُ على أنَّ الزنا كان مُحرَّماً فى شرعهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يوسفُ أَعْرِضْ عن هذا واستغفرى
لذنبكِ إنَّكِ كنتِ مِنَ الخاطئين ﴾

لم يُرِدْ أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف : أَعرِضْ عن هذا الحديث ، ثم قال لها : « واستغفرى لذنبك » : دلَّ على أنه لم يكن فى شرعهم على الزنا حدٌّ — وإن كان مُحَرَّماً حيث عَدَّه ذنباً .

ويقال ليس كلُّ أحد أهلاً للبلاء ؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء ، فأمَّا الأجانب فَيُتَجَاوَزُ عنهم ويُخَلَّى سبيلُهم — لا لكرامةِ مَحَلِّهم — ولكن لحقارة قدرهم ، فهذا يوسف عليه السلام كان برىء الساحةِ ، وظهرت للكلِّ سلامةُ جانبه وابتُلِيَ بالسجن . وامرأة العزيز فى سوء فِعْلِها حيث قال : « إنه من كيدكن » ، وقال لها : « واستغفرى لذنبك » . . ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال نِسوةٌ فى المدينةِ امرأةُ العزيزِ

---

(١) قيل هو صبى فى المهد وهو ابن خال لها . وسمى قوله شهادة لأنه أدى مؤدى الشهادة فى أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها (النسفى ج ٢ ص ٢١٨) .

تُراوِدُ فتاها عن نَفْسِهِ قد شَغَفَها حُبًّا
إنّا لنراها فى ضلالٍ مبين ﴾

إنّ الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النِّسوةُ فيها لسانَ الملامة.

ولما كانت أحسن منهن قيمةً — فقد كُنَّ من جملة خَدَمِها — كانت أسرعَ إلى الملامة.

قوله جل ذكره: ﴿ فلمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أرْسَلَتْ
إليهنَّ وأعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً
وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهن سِكِّيناً
وقالتِ اخْرُجْ عليهنَّ فلمَّا رَأَيْنَه
أكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيديَهُنَّ وقُلْنَ
حاشَ للهِ ما هذا بَشَراً إنْ هذا
إلا مَلَكٌ كريمٌ * قالت فَذَلِكُنَّ
الذى لُمْتُنَّنِي فيه ولقد رَاوَدْتُه عن
نَفْسِهِ فاستعْصَمَ ولئِن لم يَفْعَلْ ما آمُرُه
لَيُسجَنَنَّ وليكوناً من الصَّاغِرين ﴾

أرادتْ أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة، وتَنْفِيَ عن نفسها أن تكون لها[1] أهلاً، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ، فلمَّا رأينه تَغَيَّرْنَ وتحيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: «ما هذا بشراً»: وقد كان بشراً، وقلن «إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم»: ولم يكن مَلَكاً.

قوله: «فذلكن الذى لمتننى فيه»: أثَّرَتْ رؤيتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أيديَهن بدل الثمار، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تمالكن حتى قَطَّعْتنَّ أيديَكُنَّ! فكيف أصبر وهو فى منزلى؟! وفى معناه أنشدوا:

---

(١) أى أهلا للملامة.

(أنت عنـــد الخصام عدوى . . . . .)[1]

ويقال[2] إن امرأة العزيز كانت أَتَمّ فى حديث يوسف — عليه السلام — من النسوة فَأَثَّرَتْ رؤيتُه فيهن ولم تُؤَثِّرْ فيها ، والتَّغَيُّرُ صفةُ أهل الابتداء فى الأمر ، فإذا دام المعنى زال التغيُّر ؛ قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لمن رآه يبكى وهو قريب العهد فى الإسلام : هكذا كُنَّا حتى قَسَتْ القلوبُ . أى وَقَرَتْ[3] وَصَلُبَتْ . وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تَعَوَّدَ شُرْبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمَعُ له صوت .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ السِّجنُ أَحَبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلاَّ تَصْرِفْ عنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وأَكُن من الجاهلين ﴾

الاختيار مقرونٌ بالاختيار ؛ ولو تمنَّى العافية بدل ما كان يُدْعى إليه لعلَّه كان يُعافَى ، ولكنه لما قال : « السجن أحبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه » طُولِبَ بِصِدْقِ ما قال .

ويقال إن يوسف عليه السلام نَطَقَ من عين التوحيد حيث قال : « وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن » فقد عَلِمَ أن نجاته فى أن يَصْرِفَ — سبحانه — البلاء عنه لا بتكلُّفِه ولا بتَجَنُّبِه .

ويقال لمَّا آثر يوسفُ — عليه السلام — لحوقَ المشقة فى الله على لذَّة نفسه آثره عَصْرُه حتى قيل له : « تالله لقد آثرك اللهُ علينا »[4]

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجابَ له ربُّه فَصَرَفَ عنه كَيْدَهُنَّ إنه هو السميع العليم ﴾

---

(١) بقية البيت مضطربة فى الكتابة ، ومطموسة فى بعض المواضع .
(٢) القشيرى هنا مستفيد من رأى استاذه أبى على الدقاق .
(انظر رأى الدقاق فى رسالة القشيرى فى معنى التلوين والتمكين ص ٤٤)
(٣) وقرت = أصابها الثقل .
(٤) آية ٩١ من سورة يوسف .

لمّا رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيكِ الإغاثة . . . كذلك ما اغبرّ لأحدٍ — في الله تعالى — قَدَمٌ إلاّ روّحه بِكَرَمِهِ وتولاّه بِنِعَمِهِ — إنه هو « السميع » لأقوال السائلين ، « العليم » بأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بدا لهم مِن بعدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حين ﴾

لمّا سَجَنَ يوسفَ — عليه السلام — مع ظهور براءة ساحته اتقاء على امرأته أن يُهتَكَ سترُها حوّل اللهُ مُلْكَهَ إليه ، ثم في آخر الأمر حَكَمَ اللهُ بأن صارت امرأتَه بعد مقاساتها الضُّر . . . وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ .

ويقال لمّا ظُلِمَ يوسفُ عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر أمرها بما كان فيه هتك سترها ، فقالت : « الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه » .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَخَلَ معه السجنَ فَتَيَانِ
قال أحدُهما إنّي أراني أعْصِرُ خَمْراً
وقال الآخرُ إنّي أراني أحْمِلُ فوقَ
رأسي خُبزاً تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنا
بتأويله إنّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِين ﴾

لصحبة السجن أثرٌ يظهر ولو بعد حين ؛ فإنّ يوسف عليه السلام لمّا قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأنساه الشيطانُ ذكر ربّه فبقي يوسف في السجن زماناً ، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال : فأرْسِلوا إلى يوسف وقيل له : « يوسف أيها الصديق أفْتِنا . . . الآية » فالصحبة تُعطى بَرَكاتِها وإن كانت تُبْطِئ .

قوله : « إنا نراك من المحسنين » : الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعةٌ ، بها يتَوَسَّلُ إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرْزَقانِه
إلاّ نبّأتُكما بتأويله قبل أن يأتيكما
ذلكما مما علّمني ربي إنّي تركتُ مِلّةَ
قومٍ لا يؤمنون باللهِ وهم بالآخرة
هم كافرون ﴾

التَّثَبُّتُ في الجَواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم ، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجيبَهما ولم يُسْرِع الإجابةَ في الوقت .

ويقال لمّا أخّرَ الإجابة عَلّقَ قلوبَهما بالوعد ؛ وإذا لم يكن نَقْدٌ فليكن وَعْدٌ .

ويقال لمّا فاتحوه بسؤالهم قدّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال : « ذلك مما علّمني ربي إنّي تَرَكتُ مِلّةَ قوم . . . » ثم قال :

﴿ واتّبعْتُ مِلّةَ آبائي إبراهيمَ
وإسحٰقَ ويعقوبَ ما كان لنا أن
نُشْرِكَ باللهِ من شيء ذلك مِن
فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ولكنّ
أكثرَ الناسِ لا يَشْكُرون ﴾

ولما فَرغَ من تفسير التوحيد ، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال :

﴿ياصاحِبَيِ السِّجنِ أأربابٌ متفرقون
خيرٌ أمِ اللهُ الواحِدُ القهّارُ *
ما تعبدون من دُونِهِ إلا أسماء
سَمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله
بها من سلطانٍ إنِ الحُكم إلا للهِ أمَرَ
ألا تَعْبدوا إلا إياه ، ذلك الدِّينُ القيِّمُ
ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكتَ حين أخذ فى شرح التوحيد وذكر المعبود، وفى الخبر: مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَرَ مِنْ ذِكْرِه.

قوله جل ذكره: ﴿ يا صاحِبَيِ السِّجنِ أمَّا أحدُكما
فيَسْقِى ربَّه خَمْراً وأمَّا الآخَرُ
فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ مِن رَّأسِه
قُضِىَ الأمرُ الذى فيه تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

اشتركا فى السؤال واشتركا فى الحكم وفى دخول السجن، ولكن تباينا في المآلِ؛ واحدٌ صُلِبَ، وواحِدٌ قُرِّبَ ووُهِبَ.. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فَمِنْ مرفوعٍ: فوق السِّماكِ مَطْلَعُه، ومن مدفونٍ: تحت التراب مضجعُه.

قوله جل ذكره: ﴿ وقال للذى ظَنَّ أنه ناجٍ منهما اذكُرْنى
عند ربِّكَ فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربِّه
فَلَبِثَ فى السِّجْنِ بِضْعَ سنين ﴾.

يتبيَّن أنَّ تعبير الرؤيا — وإنْ كان حقاً — فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع.

ثم إنه عاتب يوسفَ عليه السلام لأنه نَسِيَ فى حديثه مَنْ يستعين به حين قال: «اذكرْنى عند ربِّك».

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عِوَضاً على ما عَلَّمَه، وفى بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، عَلِّمْ مجاناً كما عُلِّمْتَ مجاناً.

ولما استعان بالمخلوقِ طال مُكْثُه فى السجن، كذلك يجازى الحقُّ — سبحانه — مَنْ يُعَلِّقُ قلبَه بمخلوق.

قوله ذكره: ﴿ وقال المَلِكُ إنِّي أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يأكُلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وسَبْعَ
سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابِسَاتٍ

يا أيها الملأُ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تَعْبُرُون ﴾ .

كان ابتداء بلاء يوسف — عليه السلام — بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَها وأظهرها ، وكان سببُ نجاتِه أيضا رؤيا رآها الملِكُ فأظهرها ، ليُعْلَمَ أنَّ اللهَ يفعل ما يريد ؛ فكما جعل بلاءه فى إظهار رؤيا جعل نجاته فى إظهار رؤيا[1] ؛ لِيَعْلَمَ الكافةُ أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أضغَاثُ أحلامٍ وما نحن بتأويل الأحلام بعَالِمِين ﴾ .

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ فى التعبير ، فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاثُ أحلام فلم يُضِرْه ذلك ، ولم يؤثِّرْ فى صحة تأويلها .

قوله : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » : مَنْ طلَبَ الشىء مِن غيرِ موضعِه لم يَنَلْ مطلوبه ، ولم يَسْعَدْ بمقصوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أنا أُنَبِّئُكم بتأويلِه فأرْسِلُونِ ﴾

لَمَّا كان المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون فى ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّر الرؤيا — قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا ، ولم يحصل للمَلِكِ ثَلَجُ الصَّدْرِ إلا بتعبير يوسف[2] ، ليُعْلَمَ أنَّ اللهَ — سبحانه — إذا أراد أمراً سَهَّل أسبابَه .

ويقال : إن الله تعالى أفْرَدَ يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين : بحُسْنِ الخِلْقة وبزيادة العلم ؛ فكان جمالُه سببَ بلائه ، وصار علمُه سببَ نجاته ، لتُعْلَمَ مزيَّةُ العلمِ على غيره ، لهذا قيل : العلم يُعْطِى وإن كان يُبْطِى .

---

(١) يهدف القشيرى إلى شىء بعيد هو أن المقاييس الإنسانية نسبية ولا تؤدى حتما إلى الصواب ، وبالتالى لا ينبغى تطبيقها على ما يجرى فى الكون من تصاريف إلهية .

(٢) يصلح هذا التصور — على نحو ما — لتفسير كرامات الأولياء .

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلمُ بالمولى أولى أن يوجِبَ العقبى ، قال تعالى: « وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً ومُلْكاً كبيراً »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قال تزرعون سَبْعَ سنين دَأَباً فما حَصَدْتُم فَذَرُوه فى سُنْبُله إلا قليلاً مِمَّا تأكلون ﴾ .

لم يقدِّم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل فى المرة الأولى ، لأن هذا السائل هو الذى دعاه فى المرة الأولى . فإمَّا أنه قد قَبِلَ فى المرة الثانية ، وإمَّا أنه لم يقبل فَيَئِسَ منه فأهمله .

وصاحبُ الرؤيا الثانية كان المَلِكَ وكان غائباً ، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا فى المشاهدة دون المغايبة .

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرَّس فى الفَتَيان قبولَ التوحيد فإنَّ الشباب ألينُ قلباً ، أمَّا فى هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصلبَ قلباً وأفظَّ جانباً ؛ فلذلك لم يَدْعُهُ إلى التوحيد لِمَا تفرَّسَ فيه من الغِلظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال المَلِكُ ائتونى به فلمَّا جاءه الرسولُ قال ارجِعْ إلى ربِّك فاسألْهُ ما بالُ النِّسوةِ اللاتى قطَّعْنَ أيديَهُنَّ إنَّ ربى بكيدهِنَّ عليم ﴾ .

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المَلِكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَه عيبُه من قلبه ، فلا يؤثِّر فيه قوله ، فلذلك توقَّفَ حتى يَظْهَرَ أمرُه للمَلِكِ وتنكشفَ براءةُ ساحته .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما خَطْبُكُنَّ إذ رَاوَدتُّنَّ يوسفَ

---

(١) آية ٢٠ سورة الإنسان .

عن نَفْسِهِ قلْنَ حاشَ للهِ ماعَلِمْنا عليه
من سوء ﴾

الحقائق لا تنكتم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ . . ولو بعد حين .

نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بَريئاً ، وأُنِّبَ على ذلك مدةً ، وكان أمرُه فى ذلك خَفِيًّا. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنَّة ، وأنطق عُذّالَه ، وأظهر حالَه ، عما فرق به سربالَه[1] ، فَقُلْنَ : « حاشَ لله ما علمنا عليه من سوء » .

قوله جل ذكره : ﴿ قالتِ امرأةُ العزيزِ الآن حَصْحَصَ
الحقُّ أنا راودتُه عن نفْسِه وإنه
لَمِنَ الصادقين ﴾

لَمّا كانت امرأةُ العزيزِ غيرَ تائبةٍ فى محبة يوسف تركَتْ ذنبَها عليه وقالت لزوجها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب . ثمَّ لمّا تناهَتْ فى محبته أقَرَّت بالذنبِ على نفسها فقالت : « الآن حصحص الحقُّ ... » فالتناهى فى الحبِّ يوجب هتكَ الستر ، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسِّرّ[2] ، وقيل :

لِيقُلْ مَنْ شاء ما شاء فإنى لا أبالى

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أنِّى لم أَخُنْهُ بالغيبِ
وأنّ اللهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين ﴾

إنما أراد اللهُ أن يُظْهِرَ براءةَ ساحةِ يوسف ، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على مايبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح ، ولم يُرِدْ يوسف أن يصيبَهم بسببه — من قِبَلِ اللهِ — عذابٌ

---

(١) السربال = القميص .

(٢) من هذه الإشارة نستطيع بطريق غير مباشر أن نعرف موقف القشيرى من قضية هامة وهى : هل يفصح المحب الواله عن حبه المكتون أم يكتم ؟ وهل تغتفر له شطحاته فى هذا الموقف أم لا ؟

شَفَقَةٌ منه عليهم ، وهذه صفةُ الأولياء : أن يكونوا خَصْمَ أنفسِهم ، ولهذا قيل : الصوفى دمه هَدَرٌ وملْكُه مُبَاحٌ[1] — ولذلك قال :

﴿ وما أُبرِّئُ نَفْسِى إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارةٌ بالسوءِ إلا ما رَحِمَ ربى إنَّ ربى غفورٌ رحيم ﴾

لَمَّا تمدَّح بقوله : « ذلك ليعلم أنى لم أَخُنْهُ بالغيب » كأنه نودى فى سرِّه : ولاحين همَمْتَ؟ فقال : « وما أبرئُ نفسى ! »[2]

ويقال : قوله « ليعلم أنى لم أَخُنْهُ بالغيب » بيانُ الشكر على ما عصمه الله ، وقوله : « وما أبرئُ نفسى » بيانُ العُذْر لما قصَّر فى أمر الله ، فاستوجب شكرُه زيادةَ الإحسان ، واستحقَّ بعذره العفوَ .

والعفو بادٍ من قوله :

﴿ وَقال المَلِكُ ائتونى به أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فلمَّا كَلَّمَهُ قال إنَّك اليومَ لدينا مكينٌ أمينٌ ﴾ .

لما اتضحت للملك طهارةُ فِعْلِه ونزاهةُ حالِه استحضره لاستصفائه لنفسه ، فلمَّا كَلَّمَه وسَمِعَ بيانَه رَفَعَ محلَّه ومكانه ، وضمنه بِرَّه وإحسانَه ، فقال : « إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمين » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اجعلنى على خزائنِ الأرضِ إنِّى حفيظٌ عليمٌ ﴾

إنما سأل ذلك ليضعَ الحقَّ مَوْضِعَه ، وليصلَ نصيبُ الفقراء إليهم ، فَطَلَبَ حقَّ الله تعالى فى ذلك ، ولم يطلب نصيباً لنفسه .

ويقال لم يقل إنى حَسَنٌ جميلٌ بل قال : إنى حفيظ عليم أى كاتِبٌ حاسبٌ ؛ لِيُعْلَمَ أنَّ الفضلَ فى المعانى لا فى الصورة .

---

(١) هذا تعريف الصوفى عند سهل بن عبد الله التُسْتَرى (الرسالة ص١٣٩) .
(٢) هذا نموذج لمقاومة دعوى النفس ومحاربة افترارها على الدوام ، وعدم الاطمئنان إلى مصالحتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك مكّنّا ليوسفَ فى الأرض يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يَشَاء نُصيبُ برحمتِنا مَن نَشَاء ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾ .

لمَّا لم تكن له دواعى الشهوات من نَفْسِهِ مَكّنَهَ اللهُ من مُلْكه — قال تعالى : « ومَنْ يقترفْ حسنةً نزد له فيها »[1] — فقال : « ولا نُضيع أجر المحسنين » .

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد ، وبيَّن أنه إنما يوفِّى عبادَه من ألطافه بفضله لا بفعلهم ، وبرحمته لا بخِدْمتِهم ؛ فقال: « نُصيب برحمتنا من نشاء » ثم يرقى هممهم عما أولاهم من النِّعَم فقال: ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرةِ خَيْرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

لِيُعْلَمَ أنَّهُ لابُدّ من التقوى ومخالفة الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فَعَرَفَهُم وهم له مُنكِرون ﴾ .

عَرَفَ يوسفُ — عليه السلام — إخوتَه وأنكروه ، لأنهم اعتقدوا أنّه فى رِقّ العبودية لمّا باعوه ، بينما يوسف — فى ذلك الوقت — كان قاعداً بمكانِ المَلِكِ . فَمَنْ طلب الملِكَ فى صفة العبيد متى يعرفه ؟

وكذلك مَنْ يعتقد فى صفات المعبودِ ما هو مِنْ صفات الخَلْق . . . متى يكون عارفاً ؟ هيهات هيهات لما يحسبون !

ويقال لمَّا أخفَوه صار خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه ، كذلك العاصى .. بخطاياه وزلاتِهِ تقع غَبَرَةٌ على وجه معرفته .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جَهَّزَهم بِجَهَازِهم قال ائتونى

---

(١) آية ٦٣ سورة الشورى .

بأخٍ لكم مِنْ أبيكم ألاَ تَرَوْنَ أنِّى
أوفى الكيلَ وأنا خير المُنْزِلين ﴾

المحِبُّ غيورٌ ؛ فلمَّا كان يعقوبُ عليه السلام قد تَسَلَّى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب[1].

ويقال تَلَطَّفَ يوسف فى استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب ، وأما الترغيب ففى مالِه الذى أوصله إليهم وهو يقول : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » وفى إقباله عليهم وفى إكرامه لهم وهو يقول : « وأنا خير المنزلين » .

وأمّا الترهيب فبمنع المال وهو يقول :

﴿ فإن لَمْ تأتونى به فلا كَيْلَ لكم
عندى ولا تَقْرَبون ﴾

أى فإن لم تؤامِنونى عليه فلا كيل لكم عندى ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا سَنُراوِدُ عنه أباه وإنّا لفاعِلون ﴾

لما عَلِمَ يوسفُ من حالهم أنهم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ عَلِمَ أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً فى إيفاء الكيل ، فلن يَصْعُبَ عليهم الإتيان به .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لِفتيانِه اجعلوا بضاعتهم
فى رِحالِهم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا
إلى أهلِهم لعلّهم يرجعون ﴾

جَعَلُ بضاعتهم فى رحالهم — فى باب الكَرَم — أتمُّ مِنْ أنْ لَوْ وَهَبَها لهم جَهْراً ؛ لأنه يكون حينئذٍ فيه تقليد منه بالمواجَهَةِ ، وفى تمليكها لهم بإشارةٍ تجرُّدٌ مِنْ تكلُّفِ تقليد منه بالمحاضرة[2].

ويقال عَلِمَ أنهم لا يَسْتحلُّون مالَ الغَيْر فدَسَّ بضاعتهم فى رحالهم ، لكن إذا رأَوْها قالوا : هذا وقع فى رحالنا منهم بغَلَطٍ ، فالواجبُ علينا ردُّها عليهم . وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أبَوْا .

---

(١) وكذلك فإن للحق غيرة على عبده المؤمن أن يساكن سواه .
(٢) وكذلك نسمة الحق تأتى فى خفاء ... وقلَّ من يفطن إليها .

قوله جل ذكره . ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكيلُ فأرْسِلْ معنا أخانا نَكْتَلْ وإنَّا له لحافظون ﴾

لم يمنع يوسفُ منهم الكيلَ ، وكيف مَنَعَ وقد قال : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » ؟ ولكنهم تجوزوا فى ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نَفْسُ يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : « مُنِعَ منا الكيلُ » فى المستقبل إذا لم تحمِلْه إليه .

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا فى القول ليعقوبَ — عليه السلام — حيث قالوا : « أخانا » إظهاراً لشفقتهم عليه ، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم : « وإنَّا له لحافظون » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هل آمَنُكُم عليه إلا كما آمِنتُكُم على أخيه مِن قَبْلُ ؟ ﴾

مَنْ عَرَفَ الخيانة لا يلاحظ الأمانة ، ولذا لم تَسْكُنْ نَفْسُ يعقوبَ بضمانهم لِمَا سَبَقَ إليه من شأنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فاللهُ خيرٌ حافِظاً وهو أرحم الراحمين ﴾

« الله خير حافظاً » : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شىء مِنْ قِبَلِهم .

ولم يقل يعقوب فالله خيرُ مَنْ يَرُدُّه إلىَّ ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه سريعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا فَتَحوا متاعَهم وجدُوا بضاعتَهم رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ونمير أهْلَنَا ونَحفظُ أخانا ونزدادُ كيْل بعيرٍ ذلك كَيْلٌ يسير ﴾

بيّن يوسفُ — عليه السلام — أنه حين عاملهم لم يَحْتَجْ إلى عِوَضٍ يأخذه منهم ،

فلمَّا باعهم وجَمَعَ لهم الكيلَ ما أخذ منهم ثمناً ، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى : « إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » .

وكلُّ مَنْ خطا للدِّين خطوةً كافأه اللهُ تعالى وجازاه ، فجمَعَ له بين رَوْحِ الطاعةِ ولذَّةِ العيش من حيث الخدمة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قال لَنْ أُرْسِلَه مَعَكم حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ لتأْتُنَّني به إلا أن يُحاطَ بِكُم فلمَّا آتوْه موثِقَهُم قال : اللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾

إنَّ الحَذَرَ لا يُغْنى من القَدَر . وقد عَمِل يعقوب — عليه السلام — معهم فى باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط ، وأخذ الميثاق ولكن لم يُغْنِ عنه اجتهادُه ، وحَصَلَ ما حكم به الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وما أُغْنِي عنكم مِّنَ اللهِ مِن شىءٍ إنِ الحُكْمُ إلا للهِ عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم فى الدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بَصَرُه على يوسف ، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر[1] .

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم فى أمر يوسف كانوا فى شدة العناية بشأنه ، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا دَخلوا مِنْ حيثُ أمَرَهُم أبوهم

---

(١) نحسب أنه ربما كان الأمر بتفريقهم مرده إلى أنه فى الجماعة تختفى المسئولية الفردية إذ تذوب فى الكيان الجماعى ، بينما يكبر الشعور بالمسئولية إذا كانوا آحاداً ، وقد قالوا ليعقوب من قبل (لئن أكله الذئب ونحن عصبة .) .

ما كان يُغنِي عنهم مِّنَ اللهِ مِن شيء إلاَّ حاجةً فى نَفْسِ يعقوبَ قَضاها وإنَّه لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْناه ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

إن لم يحصل مقصودُ يعقوب عليه السلام فى المآل حصل مراده فى الحال ، وفى ذلك القَدْرِ لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصاغر حفظُ إشاراتِ الأكابر ، والقولُ فيما يأمرون به هل فيه فائدةٌ أم لا — تَرْكٌ للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ، ويتمنَّى به حصولَ مرادِه .. ثم لا يحصل مرادُه عُلِمَ أنه لا ينبغى أن يُعْتَقَدَ فى الشيوخ أنَّ جميع مايريدون يتَّفِقُ كونُه على ما أرادوا ؛ لأنَّ الذى لا يكونُ إلا ما يريده واجباً وما أراده فهو كائن . . هو اللهُ الواحدُ القهارُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا دخلوا على يوسفَ آوى إليه أخاه قال إنِّى أنا أخوك فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يعملون ﴾

حديثُ المحبةِ وأحكامها أقسام : اشْتَاقَ يعقوبُ إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبَقِيَ سنين كثيرة ، واشتاقَ يوسف إلى بنيامين فَرُزِقَ رؤيته فى أَوْجَزِ مدةٍ .

وهكذا الأمر ؛ فمنهم موقوفٌ به ، ومنهم صاحب بلاء .

ويقال لئِن سَخِنَتْ[1] عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عينُ يوسفَ بلقائه . كذا الأمر : لاتَغْرُبُ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جَهَّزَهم بجَهَازهم جعل السِّقَايَةَ فى رَحْلِ أخيه ثم أذَّنَ مُؤذِّنٌ أيَّتُها العيرُ إنكم لسارِقون ﴾

(١) سخنت العين أى لم تَقَرَّ

احتمل بنيامينُ ماقيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .

ويقال : ما نُسِبَ إليه من سوء الفعال هان عليه فى جَنْبِ ماوجد من الوصال .

ويقال لئن نَسَبَ يوسفُ أخاه للسرقة فقد تعرَّف إليه بقوله : إنى أنا أخوك — سِرّاً ، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة فى ظاهره ، محمولاً بوجدان الكرامة فى سِرِّهِ ، وفى معناه أنشدوا :

أجِدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلُمْنى اللُّوَّمُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تاللهِ لقد عَلِمْتُم ماجِئْنَا لِنُفْسِدَ فى الأرضِ وما كُنَّا سارقين ﴾

يعنى حُسْنُ سيرتنا فى سير المعاملة يدلكم على حسن سريرتنا فى الحالة .

ويقال لو كُنَّا لسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَا وجدتموه فى رحالنا بعد أن غِبْنَا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كُنْتُم كاذبين ؟ ﴾

تَجَاسَرَ إخوةُ يوسف بجريانِ جزاء السَّرقةِ عليهم ثقةً بأنفسهم أنهم لم يُباشِروا الزَّلَّةَ ، وكان بنيامينُ شريكَهم فى براءة السَّاحةِ ، فلما استُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسانَ الملامةِ ، وبقى بنيامين[1] فلم يكن له جوابٌ كأنَّه أقَرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ ، ولو قال : لم أفعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذى احتال بهم ذلك لأجلِهِ حتى يُبْقِيه معه ، فَسَكَتَ لسان بنيامين ، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُهُ .

ويقال لم يستصعب الملامه — وإنْ كان بريئاً — مما قُرِنَ به ، ولا يَضُرُّ سوء المقالةِ بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال سِيء بما أظْهَرَتْ عليه المقالة ، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاء الحالة .

قوله جل ذكره ﴿ قالوا إن يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له

---

(١) يصلح بنيامين — كما يصوره القشيرى — نموذجاً لواحد من أهل الملامة ، لو دققنا النظر فى إشارات القشيرى بصدده .

مِن قَبلُ فَأَسَرَّها يوسفُ فى نَفْسه
ولم يُبْدِها لهم قال أنتم شَرٌّ مَكَاناً ،
واللهُ أعلَمُ بما تصِفون ﴾ .

كان بنيامينُ بريئا مما رُمِىَ به من السرقة ، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة ، واحدٌ بواحدٍ ليَعْلَمَ العالمون أنَّ الجزاء واجبٌ .

ويقال كان القُرْحُ بالقَدْح أوجعَ ما تجرَّعه يوسف منهم[1] ؛ حيث قالوا :

« إنْ يَسْرِق فقد سَرَقَ أخٌ له من قبل » فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً فى قلبه من الجفاء الأول .

ويقال إذا حَنِقَ عليك الملِكُ فلا تأمَنْ غِبَّه — وإنْ طالت المدة — فإن يوسف عليه السلام حَنِق عليهم فلقوا فى المستأنف منه ما ساءهم مِنْ حَبْسِ أخيه ، وما صاحبَهم من الخجل من أبيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يأيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً
كبيراً فَخُذْ أحدَنا مكانَه — إنَّا
نراكَ من المحسنين ﴾ .

لم تنفعهم كثرةُ التَّنَصُّل ، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاء التوسُّل ، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدَهم فى البَدَل . . كذلك فكلٌّ مُطَالَبٌ بفعل نفسه : لا تزِرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى ؛ فلا الأبُ يُؤْخَذُ بَدَلَ الولد ، ولا القريبُ يُرْضَى به عوضاً عن أحد ؛ لذلك قال يوسف عليه السلام :

﴿ قال مَعَاذَ الله أن نأخذَ إلاَّ مَن
وَجدْنا متاعَنا عندَه إنَّا إذاً
لَّظالِمون ﴾ .

توهموا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال ، فعرَضُوا أنفسهم كى يؤخذَ واحدٌ منهم بَدَلَ أخيهم ، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادَهم فى ذلك ، وأنَّ مقصودَه من

(١) القُرْح = الجرح ، والقَدْح = العيب فى عِرْض غيرك .

ذلك ما استكَنَّ فى قلبه مِنْ حُبٍّ لأخيه ، وكلاً . . أنْ يكونَ عن المحبوبِ بَدَلٌ أو لقوم مقامُ أحدٍ . . وفى معناه أنشدوا :

إذا أوْصَلْتَنا الخُلْدَ كيما تُذيقنا أبَيْنا وقُلْنا : أنتَ أوْلَى إلى القلب

وقيل :

أُحِبُّ لَيْلى وبُغْضَتْ إلىَّ نساء ما لَهُنَّ ذُنُوبُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا استيأسوا منه خَلَصُوا نَجِيًّا قال كبيرُهم ألَمْ تعلموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ ومن قبلُ ما فَرَّطتُم فى يوسفَ فَلَنْ أبْرَحَ الأرضَ حتَّى يأذَنَ لى أبى أو يَحْكُمَ اللهُ لى وهو خير الحاكمين ﴾ .

لما عَلِموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضُهم ببعضٍ فعملت فيهم الخجْلة ، وعلموا أن يعقوب فى هذه الكرَّةِ يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفَعْلة ، فلم يرجع ، أكبرهم إلى أبيهم، وتناهى إلى يعقوبَ خَبَرُهم، فاتهمهم وماصدّقهم،واستخونهم وماستوثقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنَك سَرَقَ وما شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا وما كُنَّا للغيبِ حافظين ﴾

كان لهم فى هذه الكرَّةِ حجة على ما قالوه ، ولكن لم يسكن قلبُ يعقوب عليه السلام إليها ، فإنَّ تعيُّنَ الجُرْمِ فى المرة الأولى أوْجَبَ التُّهمةَ فى الكرَّةِ الأخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ واسألِ القريةَ التى كُنَّا فيها والعيرَ التى أقبلنا فيها وإنّا لصادقون ﴾

ما ازدادوا إقامةَ حُجَّةٍ إلا ازداد يعقوبُ — عليه السلام — فى قولهم شُبْهةً .

ويقال : فى مُساءلة الأطلال أُخذٌ لقلوب الأحباب ، وسَلْوَةٌ لأسرارهم .. وهذا البابُ مما للشرح فيه مجال .

قوله جل ذكره ﴿ قال بل سَوَّلَتْ لكم أنفُسُكُمْ أمراً فَصَبْرٌ جميلٌ عسى اللهُ أن يأتِيَنِي بهم جميعاً ﴾

لجأ إلى قُرْبِ خلاصه من الضُرِّ بالصبر .

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمْسِ حتى قال : « يا أسفا على يوسف » ليُعْلَمَ أنَّ عَزْمَ الأحبابِ على الصبر منقوضٌ غيرُ محفوظ[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وتولَّىٰ عنهم وقال يا أَسَفَاً على يوسف وابْيَضَّتْ عَيناه من الحُزْنِ فهو كظيم ﴾

تولَّى عن الجميع — وإن كانوا أولادَه — ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ لا تُبْقِى ولا تَذَر .

ويقال أراد إخوةُ يوسفَ أن يكونَ إقبالُ يعقوب عليهم بالكلِّيَّة فأعْرَضَ ، وتولَّى عنهم ، وفاتَهُم ما كان لهم ، ولهذا قيل : مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فاتَه الكلُّ .

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُساعِداً لنفسِهِ على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع ، وانفرد بإظهار أسفه ، وفى معناه أنشدوا :

فريدٌ عن الخِلاَّنِ فى كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام ، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرُ يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأجلِ يوسف ولم يكن فى قدرةِ

---

(١) يوضح القشيرى هذا المعنى فى رسالته حيث يقول : [واعلم أن الصبر على ضربين : صبر العابدين وصبر المحبين ، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفى هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : أصبح يعقوب وقد وعد من نفسه — فصبر جميل — ثم لم يمس حتى قال . يا أسفاً على يوسف] الرسالة ص ٩٠ .

يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله ، وأمّا داود فقد كان يبكى لله ، وفى قدرة الله — سبحانه — ما يحفظ بَصَرَ الباكى لأجلِه .

سمعتُ الاستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله — يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوبَ بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرُه ، وداود بكى لأجلِ الله فبقى بَصَرُه .

وسمعته — رحمه الله — يقول : لم يقل الله : « عَمِيَ يعقوب » ولكن قال : « وابيضّتْ عيناه » ، لأنه لم يكن فى الحقيقة عَمِىَ ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف[1] .

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف ، لأنه لا شىء أشدُّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب فى حال فراقه ، وفى معناه أنشدوا :

لما تَيَقَّنْتُ أنى لَسْتُ أُبْصِرُكم أغمضتُ عينى فلم أنظر إلى أحد

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلّى برؤية بنيامين فى حال غيبة يوسف ، فلما بقى عن رؤيته قال : « يا أسفا على يوسف» أى أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالأثر ، فلمّا بقى عن النظر قال : يا أسفا على يوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ مِنَ الهالكين ﴾

هددوه بأن يصير حرضاً — أى مريضاً مشرفاً على الهلاك — وقد كان ، وخوفُوه مما لم يبالِ أن يصيبه حيث قالوا « أو تكون من الهالكين » .

ويقال أطيب الأشياء فى الهلاكِ ما كان فى حكم الهوى — فكيف يُخَوَّفُ بالهلاكِ من كان أحبُّ الأشياء إليه الهلاكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنّما أشكو بَثِّى وحُزْنى إلى اللهِ وأعلم مِنَ الله مالا تعلمون ﴾

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللهِ ، ومَنْ شكا إلى الله وَصَلَ ، ومَنْ شكا من الله انفصل .

---

(١) هذا نموذج من التذوق للنص القرآنى لا يفطن إليه إلا أرباب الذوق الصوفى .

ويقال لمّا شكا إلى الله وَجَدَ الخلَفَ من الله .

ويقال كان يعقوبُ — عليه السلام — مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه ، ومستريحاً محمولاً بِسِرِّه وروحه ؛ لأنه عَلِمَ من الله — سبحانه — صِدْقَ حالِه فقال : « وأعلم من الله مالا تعلمون » ، وفى معناه أنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً تمنَّيْتُ أن أشكو إليكَ فتَسْمَعَا

قوله جل ذكره : ﴿يا بَنِيَّ اذهبوا فتَحَسَّسُوا مِن يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَّوْحِ اللهِ إنَّه لا ييأسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون﴾

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه فى طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب للسيرة وفى اعتقادهم هلاكُ يوسف . . وكلُّ إنسانٍ وهمُّه .

ويقال قوله « فتحسسوا من يوسف وأخيه » أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم ؛ بالبَصَرِ لعلَّهم تقع عليه أعينهم ، وبالسَّمْعِ لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه ، وبالشمِّ لعلَّهم يجدون ريحَه ؛ وقد توهَّم يعقوبُ أنهم مثله فى إرادةِ الوقوفِ على شأنه . ثم أحالهم على فضل الله حيث قال : « لا ييأس من روْح الله إلا القوم الكافرون » .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف ، فَظَهَرَ من قِلَّةِ الصبرِ عليه ما ظهر ، وآثَرَ غَيْبَةَ الباقين من الأولاد فى طلب يوسف على حضورهم عنده . . فشتَّان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف ! واحدٌ لم يَرَهْ فابْيَضَّتْ عيناه من الحزن بفرقته ، وآخرون أمَرَهُم — باختياره — بِغَيْبَتِهم عنه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا دخلوا عليه قالوا يٰأيها العزيز مَسَّنَا وأهْلَنَا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ

---

(١) هنا لفتة ذكية إلى أننا قد نحب ونهلك فى حب من لا تراه أعيننا .. فإذا صح هذا بالنسبة لخالق مثلنا فكيف بالنسبة لبارئنا وخالقنا ! ! ؟

ثم إن التقريب والإبعاد يرتبطان بالاجتباء الإلهى وحده .

مُزْجاةٍ فأوفِ لنا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ
علينا إنَّ الله يجزى المتصدقين ﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ ، ومقاساة الجوع والفقر ، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام ، وما لأجله وَجَّهَهُم أبوهم .

ويقال استلطفوه بقولهم : « مَسَّنَا وأهلنا الضُّرُّ » ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم .

ويقال لمَّا طالعوا فقرهم نطقوا بِقَدْرِهم فقالوا : وجئنا ببضاعة مزجاةٍ — أى رديئة — ولما شاهدوا قَدْرَ يوسفَ سألوا على قَدْرِه فقالوا : أوفِ لنا الكيْلَ .

ويقال قالوا كِلْنا كَيْلاً يليق بفضلِكَ لا بفقرنا ، وبكرمِك لا بِعَدَمِنا ، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا : « وتصدَّق علينا » : نَزَلوا أوْضعَ مَنْزِلٍ ؛ كأنهم قالوا : إنْ لم نستوجِبْ معاملةَ البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاءِ ، على وجه المكافأة والجزاء .

فإنْ قيل كيف قالوا وتصدَّقْ علينا وكانوا أنبياء — والأنبياء لا تحل لهم الصدقة ؟ فيقال لم يكونوا بعد أنبياء ، أو لعلّه فى شرعهم كانت الصدقةُ غيرَ مُحَرَّمةٍ على الأنبياء .

ويقال إنما أرادوا أنَّ مِنْ ورائنا مَنْ تَحِلُّ له الصدقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف
وأخيه إذْ أنتم جاهِلون ﴾

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا : « فأوْفِ لنا الكيْلَ » فعرفهم فعلهم ووقفهم عند أحدهم فقال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ يعنى إنَّ مَنْ عَامَلَ يوسفَ وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغى له أن يتجاسَرَ فى الخطاب كتجاسركم .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم : أنهيتم كلامكم ، وأكثرتم خطابكم ، فما كان فى حديثكم إلا ذكر ضرورتكم . . أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف ؟! وذلك فى باب العتابِ أعظم من كلِّ عقوبة

ولمّا أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عندهم فقال: « إذ أنتم جاهلون »[1].

قوله جل ذكره: ﴿ قالوا أإنك لأنت يوسفُ قال:
أنا يوسفُ وهذا أخى قد مَنَّ اللهُ
علينا إنَّه مَن يتَّقِ ويَصْبِرْ فإن اللهَ
لا يُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾

فى الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له فى الخطاب: « يأيها العزيز » فلمّا عرفوه قالوا: « إنَّكَ لأنت يوسف »؛ لأنه لمّا ارتفعت الأجنبيةُ سقط التكلُّفُ فى المخاطبة، وفى معناه أنشدوا:

إذا صَفَتْ المودَّةُ بين قومٍ ودام ودادُهم قَبُحَ الثناء

ويقال إنَّ التفاصُلَ والتفارُقَ بين يوسف وإخوته سَبَقا التواصلَ بينه وبين يعقوب عليهما السلام؛ فالإخوةُ خَبَرَه عرفوه قبلَ أنْ عَرَفَه أبوه ليعلَمَ أن الحديث بلا شكٍ.

ويقال لم يتقدموا على أبيهم فى استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته، بل إنهم ـ وإن عرفوه ـ فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة، إنما كان غرضُهم حديثَ الميرة والطعام فقط، فقال: « أنا يوسف وهذا أخى »: يعنى إنى لأخٌ لِمِثْلِ هذا لا لمثلكم؛ ولذا قال: « أنا يوسف وهذا أخى »، ولم يقل وأنتم إخوتى، كأنَّه أشار إلى طرفٍ من العتاب، يعنى ليس ما عاملتمونى به فِعْلَ الإخوة.

ويقال هوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَة[2] الخجلة حيث قال « أنا يوسف» بقوله: «وهذا أخى»، وكأنه شَغَلَهم بقوله: « وهذا أخى » كما قيل فى قوله تعالى: « وما تلك بيمينك يا موسى » إنه سبحانه شَغَلَ موسى عليه السلام باستماع: « وما تلك بيمينك يا موسى » بمطالعة العصا فى عين ما كوشِف به من قوله: « إنى أنا الله ».

---

(١) واضح أن القشيرى يطبق فكرة القبض والبسط فى هذه الإشارة.
(٢) بداهة الخجلة = مفاجأتها

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر فى مقاساة الجهد والعناء فقال : « إنه مَنْ يتَّق ويصبر فإنَّ اللهَ لا يضيع أجر المحسنين » .

وسمعتُ الأستاذ أبا على الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول لما قال يوسف : « إنَّه من يتقِ ويصبر» أحالَ فى استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : « تاللهِ لقد آثرك اللهُ علينا » يعنى ليس بِصَبْرِكَ يا يوسفُ ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثار اللهِ إياك علينا ؛ فبه تقدمت علينا بحمدك وتقواك . فقال يوسف ـ على جهة الانقياد للحقّ : «لا تثريبَ عليكم اليومَ» ؛ فأسقط عنهم اللوم ، لأنه لمَّا لم يرَ تقواه من نفسه حيث نبَّهوه عليه نَطَقَ عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿قالوا تاللهِ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا وإن كُنَّا لخاطئين﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف — عليه السلام — حيث قالوا : لقد آثرك الله علينا ، وأكَّدوا إقرارَهم بالقَسَمِ بقولهم « تالله » وذلك بعد ماجحدوا فَضْلَه بقولهم : « ليوسف وَأَخُوهُ أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عصبة إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مبين » ، وهكذا مَنْ جَحَدَ فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لمَّا اعترفوا بفضله وأقرُّوا بما اتصفوا به من جُرْمِهم بقولهم : « وَإن كنا لخاطئين» وجدوا التجاوزَ عنهم حين قال يوسف :

﴿قال لا تثريبَ عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين﴾

أسرع يوسفُ فى التجاوز عنهم ، ووَعَدَ يعقوبُ لهم بالاستغفار بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » لأنه كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم ، وأما يوسف فلم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفى معناه أنشدوا :

تركُ العتابِ إذا استحق أخ منك العتابَ ذريعةُ الهجْرِ

---

(١) خلاصة رأى الدقاق أنه ليس بعمل الإنسان يصل ولكن بفضل الله واختياره ، وحتى عمل الإنسان فهو أيضاً يتم بفضل الله واختياره . . وذلك أصل من أصول المذهب القشيرى كما وضح فى مواضع متفرقة.

ويقال أصابهم — فى الحال — مِن الخجلة ما قام مقام كلّ عقوبة ، ولهذا قيل :

كفى للمقصّر الحياء يوم اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجهِ أبى يأتِ بصيراً وأتونى بأهلِكم أجمعين ﴾

البلاء إذا هَجَمَ هَجَمَ مَرّةً ، وإذا زال زال بالتدريج ؛ حلّ البلاء بيعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا : « فأكله الذئب » ولما زال البلاء .. فأولاً وَجَدَ ريحَ يوسفَ عليه السلام ، ثم قميص يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدى يوسف ، ثم رؤية يوسف .

ويقال لمّا كان سببُ البلاء والعمى قميصَ يوسف أراد اللهُ أن يكونَ به سَبَبُ الخلاص من البلاء[1] .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام — لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور — لا يطيقه عند أخذ القميص فقال : « فألقوه على وجه أبى » .

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب .

ويقال كان العمى فى العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجد الشفاء من العمى .

ويقال لمّا كان البكاء بالعين التى فى الوجه كان الشفاء فى الإلقاء على العين التى فى الوجه ، وفى معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيب النّوى إلا فتىً ظلّ مغرماً

وقوله « وأتونى بأهلكم أجمعين » : لما عَلِمَ حزنَ جميعِ الأهلِ عليه أراد أن يشترك فى الفرح جميعُ من أصابهم الحزن .

---

(١) ويضاف إلى ذلك أن عدم تمزق قميص يوسف كان دلالة على براءة الذئب ، وأن تمزقه من دبر كان دلالة على براءة يوسف من تهمة زليخا . وبهذا وذاك يمكن أن يكون قميص يوسف رمزاً لموحيات كثيرة فى القصة .

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضَرَه ، إبقاء على حالِه لا إخلالاً لقَدْره وما وَجَبَ عليه من إجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا فَصَلَتِ العيرُ قال أبوهم إنى لأَجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ .

ما دام البلاء مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثُه — على يعقوب — مُشْكلاً ، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجهٍ حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه فى الجُبِّ ولكن اشتبه عليه خَبَرُه وحالُه ، فلما زال البلاء وَجَدَ ريحَه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً — من مصر إلى كنعان .

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفرادِه بالأسف عند فقدان يوسف . وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف[1] ؛ فلا يعرف ريحَ الأحباب إلا الأحبابُ ، وأمّا على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِل . . إذ أنّى يكون للإنسان ريح ؟! .

ويقال لفظ الريح هاهنا توسع[2] ، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ ، ويقال إنى لأَجِدُ ريحَ الفتنة .. وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا أن تُفَنِّدُون ﴾

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قولُه ، فزادوا في الملامة فقالوا : —

﴿ قالوا تاللهِ إنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾

قرنوا كلامهم بالشتم ، ولم يحتشموا أباهم ، ولم يُراعوا حقَّه فى المخاطبة ، فوصفوه بالضلال فى المحبة .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيمَ يوسف عليه السلام ، وخبر يوسف كثر حتى جاء الإذن للرياح ، وهذه سُنَّةُ الأحباب : مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال ، وفى معناه أنشدوا :

---

(١) لاحظ الجمال فى أسلوب القشيرى فى (يجد) ريح يوسف و (وجد) على فراقه .
(٢) كلمة (توسع) يستخدمها القشيرى بمعنى (مجاز) — ذلك الاصطلاح البلاغى المعروف .

وإنِّى لأستهدى الرياح نسيمكم إذا هى أقبلتْ نحوكم بِهُبُوب
واسألها حَمْلَ السلامِ إليكمُ فإنْ هى يوماً بلغتْ فأجيبُوا

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً قال ألَمْ أقُل لكم إنى أعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمون ﴾

لو أُلقِيَ قميصُ يوسف على وجه مَنْ فى الأرض مِنَ العميان لم يرتد بصرهم ، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص ؛ فإنَّ بَصَرَ يعقوبَ ذهب لفراق يوسف ، ولمَّا جاءوا بقميصه أنْطَقَ لسانَه ، وأَوْضَحَ برهانَه ، فقال لهم : « ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » عن حياة يوسف ، وفى معناه أنشدوا :

وَجْهُكَ المأمولُ حُجَّتُنا يومَ يأتى النَّاسُ بالحجج

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يا أبانا استغفِرْ لنا ذنوبَنا إنَّا كنا خاطئين ﴾

كلُّ إنسانٍ وهمُّه ؛ وَقَعَ يعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام فى السرور والاستبشار ، وأَخَذَ إخوةُ يوسف فى الاعتذارِ وطَلَبِ الاستغفار .

ويقال إخوة يوسف — وإنْ سَلَفَتْ منهم الجفوة كلَّموا أباهم بلسان الانبساط لتقديم شفقةِ الأبوةِ على ماسَبَقَ منهم من الخطيئة .

ويقال يومٌ بيومٍ ؛ اليوم الذى كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بقميص يوسف ، وكان الإخوة فى الخجلة مما عملوا بيوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قال سوف أستغفِرُ لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾

وَعدَهُمُ الاستغفارَ لأنه لم يَفْرَغْ من استبشاره إلى الاستغفار .
ويقال لم يُجِبْهُم على الوهلة ليدلَّهم على ما قَدَّمُوا من سوء الفَعْلةِ ؛ لأن يوسفَ كان غائباً

وقتئذٍ ، فوعدهم الاستغفارَ فى المستأنَف — إذا رضِى عنهم يوسف حيث كان الحقُّ أكثرُه له ، ولو كان كله ليعقوب لوهبهم على الفور .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا دَخَلوا على يوسفَ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنين ﴾

اشتركوا فى الدخول ولكن تباينوا فى الإيواء ، فانفرد الأَبَوَان به لِبُعْدِهما عن الجفاء ، كذلك غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فى وجود الجنان ، ولكنهم يتباينون فى بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَفَعَ أبويه على العرشِ وخرُّوا له سُجَّدًا وقال يا أبَتِ هذا تأويلُ رُؤياى من قَبْلُ قد جعلها ربى حَقًّا ﴾

أوقف كُلاً بمحلِّه ؛ فرَفَعَ أبويه على السرير ، وتَرَكَ الإخوةَ نازلين بأماكنهم .

قوله : « وخرُّوا له سُجَّداً » : كان ذلك سجودَ تحيةٍ ، فكذلك كانت عادتهم . ودَخَلَ الأَبَوَان فى السجود — فى حقِّ الظاهر — لأنَّ قوله « خرُّوا » إخبارٌ عن الجميع ، ولأنه كان عن رؤياه قد قال : إنّى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » وقال هاهنا : « هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وقد أَحْسَنَ بى إذْ أخرجنى من السجن وجاء بكم مِّنَ البدوِ مِنْ بعد أن نَّزَغَ الشيطانُ بينى وبين إخوتى إنَّ ربى لطيفٌ لما يشاء إنَّه هو العليم الحكيم ﴾

شهد إحسانه فَشَكَرَه . . كذلك مَنْ شهد النعمة شَكَرَ ، ومَنْ شهد المُنْعِمَ حمده[1] وذَكَرَ حديثَ السجن — دون البئر — لطول مدة السجن وقلة مدة البئر .

وقيل لأن فيه تذكيرا بِجُرْمِ الإخوة وكانوا يخجلون . وقيل لأن « السجن أحب إلىَّ مما يدعونني إليه » . وقيل لأنه كان فى البئر مرفوقاً به والمبتدئ يُرفَقُ به وفى السجن فَقَدَ ذلك الرِّفق لقوة حاله ؛ فالضعيف مرفوقٌ به والقوىُّ مُشَدَّدٌ عليه فى الحال ، وفى معناه أنشدوا :

وأسررتنى حتى إذا ما سَبَيْتَنِي بقولٍ يحل العُصْم سهلَ الأباطح
تجافيتَ عنِّي حين لا لِى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفى قوله : « وجاء بكم من البدو » إشارة إلى أنه كما سُرَّ برؤية أبويه سُرَّ بإخوته — وإنْ كانوا أهل الجفاء ، لِأَنَّ الأُخُوَّةَ سَبقتْ الجفوة[2] .

قوله : « من بعد أن نزغ الشيطانُ بينى وبين إخوتي » أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر ، فقال كان الذى جرى منهم من نزغات الشيطان ، ثم لم يرض بهذا حتى قال : « بينى وبين إخوتى » يعنى إن وَجَدَ الشيطان سبيلا إليهم ، فقد وجد أيضاً إلىَّ حيث قال : « بينى وبين إخوتى » .

ثم نطق عن عين التوحيد فقال : « إنَّ ربى لطيف لما يشاء » فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلونى .

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ قد آتيتنى مِنَ المُلْكِ وعلَّمتنى من تأويلِ الأحاديث ﴾

من حرف تبعيض ؛ لأن المُلك — بالكمال — لله وحده .

ويقال المُلْكُ الذى أشار إليه قسمان : مُلْكُهُ فى الظاهر من حيث الولاية ، ومُلْكٌ على نفسه حتى لم يعمل ماهمَّ به من الزَّلَّة .

---

(١) أى إن (الحمد) أعلى درجة من (الشكر) . . وهكذا ترى البحوث الصوفية اللغة .

(٢) وربما يرمى القشيرى من بعيد إلى أن يشير إلى أن الحق — سبحانه — يتفضل بكرمه على عباده — حتى ولو كانت منهم جفوة — لأنهم عباده أولا . . وإلى هذا يشير فى موضع آخر من كتابه . « عبدى . . إن لم تكن لى . فأنا لك »

ويقال ليس كلُّ مُلْكِ المخلوقين الاستيلاء على الخلق ، إنما المُلْكُ — على الحقيقة — صفاءُ الخُلُق .

قوله : « وعلمتنى من تأويل الأحاديث» : التأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام[1].

قوله جل ذكره : ﴿ فاطِرَ السمٰواتِ والأرضِ أنتَ
وَليي فى الدنيا والآخرةِ تَوَفَّني مُسْلِماً
وأَلْحِقْنى بالصَّالحين ﴾

« فاطر السمٰوات والأرض » — هذا ثناء ، وقوله : « توفَّنى » — هذا دعاء .
فَقَدَّمَ الثناء على الدعاء ، كذلك صفة أهل الولاء .
ثم قال : « أنت ولي فى الدنيا والآخرة ، هذا إقرارٌ بِقَطْع الأسرار عن الأغيار .
ويقال معناه : الذى يتولَّى فى الدنيا والآخرة بعرفانه أنتَ ؛ فليس لى غيرك فى الدارين .
قوله : « توفنى مسلماً » : قيل عَلِمَ أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فسألَ الوفاة .
وقيل من أمارات الاشتياق تمنِّي الموت على بساط العوافى[2] مثل يوسف عليه السلام أُلْقِيَ فى الجُبِّ فلم يقل توفنى مسلماً ، وأقيم فيمن يزيد[3] فلم يقل توفنى مسلماً ، وحُبِسَ فى السجن سنين فلم يقل توفنى مسلما ، ثم لما تمَّ له المُلْكُ ، واستقام الأمر ، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّداً ، وأَلْقَى أبويه معه على العرش قال :

« توفَّني مسلماً » ، فعُلِمَ أنه كان يشتاق للقائه (سبحانه) .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتَ أنَّا نلتقى فيما بعد الموت . . فلِمَ بكيْتَ كلَّ هذا البكاء ؟

---

(١) تصلح هذه العبارة لتوضيح الفرق — فى نظر القشيرى — بين كلمتى التأويل والتفسير .

(٢) هذه العبارة والاستشهاد عليها من قصة يوسف أوردها القشيرى منسوبين لشيخه الدقاق فى الرسالة ص ١٦٣ .

(٣) (أقيم فيمن يزيد) لم ترد فى النص السابق بالرسالة . ومعناها : نودى عليه ليباع كالعبيد بعد إخراجه من البئر .

فقال يعقوب ، يا بُنَيّ إنَّ هناك طرُقا ، خِفْتُ أن اسلكَ طريقاً وأنت تسلك طريقاً ، فقال يوسف عند ذلك : « توفَّني مسلماً » .

ويقال إن يوسف — عليه السلام — لما قال : توفنى مسلماً ، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال : يا بنى دَعْني أشتفى بلقائك من الذى مُنِيتُ به فى طول فراقك ، فلا تُسْعِفْنى — بهذه السرعة — قولَكَ : توفَّني مسلماً .

قوله جلَّ ذكره . ﴿ ذلك مِنْ أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحيه إليكَ وما كُنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يَمْكُرون ﴾ .

تبيّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميٍّ لا يكون إلا بتعريف سماوىّ

ويقال كونُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أميًّا فى أول أحواله علامةُ شَرَفِهِ وعلوِّ قدْرِه فى آخر أحواله ، لأنَّ صِدْقَهُ فى أن هذا من قِبَل اللهِ إنما عُرِفَ بكونه أميا ، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أكثرُ الناسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وصادق حُكْمِهِ حكمته فيهم .

ويقال معناه : أقَمْتُكَ شاهداً لإرادة إيمانهم ، وشِدَّةِ الحِرْصِ على تحققِهم بالدِّين ، وإيقانهم . ثم إنِّى أعلم أنهم لا يؤمن أكثرُهم ، وأخبرتك بذلك ، وفُرِضَ عليكَ تصديق بذلك ، وفرضتُ عليك إرادتى كونَ ما عَلِمْتُ أنه لا يكون من إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تسألُهم عليه مِنْ أجرٍ إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعَالَمِين ﴾

هذه سُنَّةُ الله — سبحانه — مع أنبيائه حيث أمَرَهُم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة

عِوَضا ولا أجراً ، وكذلك أمره للعلماء — الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء عليهم السلام — بألاّ يأخذوا مِنَ الخلْقِ عِوَضا على دعائهم إلى الله ، فَمَنْ أخذ منهم حَظا من الناس لم يُبَارَكْ للمستمع فيما يسمع منه ؛ فلا له أيضا بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأيِّن مِّنْ آيةٍ فى السمٰواتِ والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها مُعْرِضُون ﴾ .

الآياتُ ظاهرة ، والبراهين باهرة ، وكلُّ جزْءٍ من المخلوقات شاهِدٌ على أنَّه واحد ، ولكن كما أنَّ مَنْ أغمَضَ عينه لم يستمتع بضوء نهاره فكذلك مَنْ قَصَّرَ فى نَظَرِه واعتباره لم يحظَ بعرفانه واستبصاره .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يؤمِنُ أكثرُهم باللهِ إلا وهم مُشرِكون ﴾ .

الشِّرْكُ الجلىُّ أن يتَّخِذَ من دونه — سبحانه — معبوداً ، والشِّرْكُ الخفِىُّ أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه — سبحانه — مقصوداً .

ويقال شِرْكُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً ، أو يطالعوا سواه موجوداً[1] .

ويقال مِنَ الشِّركِ الخفىِّ الإحالةُ على الأشكال فى تجنيس الأحوال ، والإخلاد إلى الاختيار والاحتيال[2] عند تزاحم الأشغال .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأمِنُوا أن تأتيَهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيَهم الساعةُ بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

أفأمِنَ الذى اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبْتلى بالاستئصال ، أفأمنَ مَنْ اغترَّ بطول السلامة ألا يقوم البلاء عليه يومَ القيامة .

---

(١) أى (موجوداً) على الحقيقة .

(٢) (الاحتيال) معناها اللجوء إلى الحيلة أى التدبير الإنسانى بل ينبغى إسقاط التدبير واللجوء إلى التدبير الإلهى .

ويقال الغاشيةُ حجابٌ من القسوة يحصل فى القلب، لايزول بالتضرع ولا ينقشع بالتخشع

ويقال الغاشيةُ من العذاب أن تزولَ من القلب سرعةُ الانقلاب إلى الله تعالى ، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله فى الطريق ما يوجب قنوطه من زواله ، وفى معناه أنشدوا :

قلتُ للنَّفسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنِ اتَّبَعَنِي وسبحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المشركين ﴾

« البصيرة » : اليقين الذى لا مِرْيَةَ فيه ، والبيان الذى لاشكَّ فيه . البصيرة يكون صاحبُها مُلَاطَفاً بالتوفيق جَهْرًا ، ومكاشَفاً بالتحقيق سِرًّا .

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ العرفانِ ؛ فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل .

قوله « أنا ومن اتبعنى» أى ذلك سبيلى،وسبيلُ مَنْ اقتدى بهدىِ فهو أيضاً على بصيرة

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِن قبلِكَ إلا رجالاً نُوحِى إليهم مِّنْ أهلِ القُرىٰ أَفَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ؟ ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتقوا أفلا تَعْقِلون ﴾ .

تعجبوا أن يبعثَ اللهُ إلى الخلْق بشرًا رسولاً ، فبيَّن أنه أجرى سُنَّتَه — فيمن تقدَّمَ من الأمم — ألا يكونَ الرسولُ إليهم إلا بَشَرًا ، فإما أن جحدوا جوازَ بعثةِ الرسولِ أصلاً ، أو أنهم استنكروا أن يبعث بشرًا رسولاً .

ثم أمرَهُم بالاستدلال والتفكر والاعتبار والنَّظَر فقال : « أفلم يسيروا فى الأرض . . ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ حتَّى إذا استيأسَ الرُّسُلُ وظنُّوا أنهم

قد كُذِبُوا جَاءَهُم نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَن نَّشاء ولا يُرَدُّ بَأْسُنَا عنِ القومِ المجرمين ﴾ .

حتى إذا استيأس الرسلُ منْ إيمانِ قومهم ، وتَيَقَّنُوا أنهم كذبوهم — والظن ها هنا بمعنى اليقين — فعند ذلك جاءهم نصرُنا ؛ للرسل بالنجاةِ ولأقوامهم بالهلاك ، ولا مَرَدَّ[1] لبأسنا

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين[2] شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها ، قال تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته »[3] ؛ فكما أنّه يُنَزِّلُ المطرَ بعد اليأسِ فكذلك يفتح الأحوالَ بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كان فى قَصَصِهم عِبْرةٌ لأُولِى الألبابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكن تَصْديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ كلِّ شىء وهُدَىً ورحْمَةً لقومٍ يؤمنون ﴾ .

عِبْرةٌ منها للملوكِ فى بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام ، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم ، وأعتقهم حين مَلَكَهم .

وعبرةٌ فى قصصهم لأرباب التقوى ؛ فإن يوسفَ لمَّا ترك هواه رقَّاه الله إلى ما رقَّاه .

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما فى اتباع الهوى من شدة البلاء ، كامرأة العزيز لمَّا تبعت هواها لقيت الضرَّ والفقر .

وعبرةٌ للمماليك فى حضرة السادة ، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز ، وصارت زليخا امرأته حلالاً .

---

(١) سقطت الدال من (لا مرد) فأثبتناها .

(٢) وردت (المرتدين) وهى خطأ فى النسخ فالكلام عن أحوال (المريدين) ، كذلك فإن الله لا يفتح على (المرتدين) شيئاً فهم مغضوب عليهم .

(٣) آية ٢٨ سورة الشورى .

وعبرةٌ فى العفو عند المقدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته .

وعبرةٌ فى ثمرة الصبر ، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام[1] .

السورة التى يذكر فيها « الرعد »

بسم الله الرحمن الرحيم

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يُورِثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً ، ولقومٍ حزناً ثم هَرَباً ، فمَنْ سَمِعَ بشاهد الرجاء طلب وجود رحمته فأذُنُه لها طَرَب ، ومَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جل ذكره : ﴿ آلمر تلك آياتُ الكتابِ والذى أُنزِلَ إليكَ مِن رَّبكَ الحقُّ ﴾

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إنَّ هذه آيات الكتاب الذى أخبرتُ أنِّى أُنَزِّلُ عليك

فالألف تشير إلى اسم « الله » ، واللام تشير إلى اسم « اللطيف » ، والميم تشير إلى اسم « المجيد » ، والراء تشير إلى اسم « الرحيم » . فقال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتابِ الذى أخبرتُ أنى أنزله على محمد — صلى الله عليه وسلم . ثم عَطَفَ عليه بالواو قولَه تعالى : « والذى أنزل إليك من ربك الحق » هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نَبيِّه — صلى الله عليه وسلم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لايؤمنون ﴾

أى ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فَهُمْ الأكثرون عدداً ، والأقلون قَدْراً وخَطَراً

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ الذى رَفَعَ السمٰواتِ بغيرِ عَمَدٍ ترونها ثم استوىٰ على العرشِ ﴾

---

(١) أحسن القشيرى إذ جعل خاتمة السورة بمثابة خلاصة دقيقة لها ، وأوضح العبرة المستفادة من دور كل شخصية فيها .

دَلَّ على صفاته وذاته بما أخبر به من آياته ، ومن جملتها رفعُ السمٰواتِ وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّها ، ولا أوتادٌ تُمْسِكُها . وأخبر فى غير هذه المواضع أنه زَيَّنَ السماء بكواكبها ، وخصَّ الأرض بجوانبها ومناكبها .

« ثم استوى على العرش » : أى احتوى على مُلْكِه احتواء قُدْرَةٍ وتدبير . والعرشُ هو المُلْكُ حيث يقال : اندكَّ عرشُ فلان إذا زال مُلْكُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجرى لأَجَلٍ مُسَمًّى . . . ﴾

كلٌّ يجرى فى فَلَكٍ . ويدلُّ كل جزء من ذلك على أنه فِعلُ مَلِكٍ فى مُلْكِه غير مشترك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مَدَّ الأرضَ وجَعَلَ فيها رواسِيَ وأنهاراً ومِن كلِّ الثمراتِ جَعَلَ فيها زوجين اثنين يُغْشِى الليلَ النهارَ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَتَفَكَّرون ﴾

بَسَطَ الأرضَ ودحاها ، والجبالَ أرساها ، وفَجَّرَ عيونها ، وأجرى أنهارها ، وجَنَّسَ بِحارها ، ونَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها ، وأنبت أشجارَها ، وصَنَّفَ أزهارَها وثمارَها ، وكوَّر عليها ليلَها ونهارَها . . ذلك تقديرُ العزيز العليم .

قوله جل ذكره : ﴿ وفى الأرضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وجَنَّاتٌ من أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ، ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ فى الأُكُلِ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون ﴾

فَمِنْ سبخٍ [1] ومن حَجَرٍ ومن رملٍ . . أنواع مختلفة ، وأزواج متفقة . وزروع ونبات وأشجار أشتات ، وأصل الكل واحد ، فأجزاؤها متماثلة ، وأبعاضها متشاكلة ، ولكن جعل بعضها غدقا [2] ، وبعضها قشراً ، وبعضها غُصْناً ، وبعضها جذعا ، وبعضها أزهاراً ، وبعضها أوراقاً . . ثم الكلُّ واحد ، وإن كان لكلِّ واحدٍ طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص ، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسقَى بماءٍ واحدٍ ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارُ ما يحتاج إليه ، « ونُفَضِّلُ بعضها على بعض فى الأُكل » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولُهم أئذا كُنَّا تراباً أئنا لَفِي خَلْقٍ جديدٍ ، أولئك الذين كَفَرُوا بربِّهم وأولئك الأغلالُ فى أعناقِهم وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ﴾

وإن تعجبْ — يا محمد — لقولهم فهذا موضعٌ يَتَعَجَّبُ منه الخَلْق ، فالعَجَبُ لا يجوز فى صفة الحق [3] ، إذ أن التعجبَ الاستبعادُ والحقُّ لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً ، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخَلْق ، وحَسَنٌ ما قالوا : « إنما تعجَّبَ مَنْ حُجِبَ » لأنَّ مَنْ يَنَلْ عيونَ البصيرةِ لا يتعجَّبُ مِنْ شىء .

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أى إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له .

وإطلاق هذا — وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة — لا يجوز ، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا . والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا : أعجبُ العجبِ قول مالا يجوز فى وصفه العجب . . وإنْ تعجَّب .

وقوله تعالى : « أئذا كنا تراباً أئنا لَفِي خَلْقٍ جديد » : استبعادُهم النشأةَ الثانيةَ — مع إقرارهم بالخَلْقِ الأولِ وهما فى معنًى واحد — موضعُ التعجب ، إذ هو صريح

---

(١) السبخ المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام (الوسيط) .
(٢) الغدق من العشب بله وريه (الوسيط)
(٣) إشارة إلى ما في الآية (فعجب قولهم ..) .

فى المناقضة ، وكان القومُ أصحابَ تمييز وتحصيل ، فقياسٌ مثل هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله — سبحانه — لَبَّسَ عليهم كما قال : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون »[1] — وإلا ما كان ينبغى أنْ يخفى عليهم جواز هذا مع وضوحه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ له مُعَقِّبَاتٌ مِن بينِ يديه ومِن خَلْفِه يَحفظونه من أمْرِ اللهِ ﴾

الكناية فى : « له معقبات » راجعةٌ إلى العبد ، أى أن الله وَكَّلَ بكلِّ واحدٍ منهم معقباتٍ وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلَّف وذاكَ[3] من أمر الله ، أى من البلاء الذى بقدرة الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ، وذلك أن الله — سبحانه — وَكَّلَ لكلِّ واحدٍ من الخَلْق ملائكةً يدفعون عنهم البلاء إذا ناموا وغفلوا ، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا . . . وفى جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يُغَيِّر ما بقومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفسِهم وإذا أراد اللهُ بقومٍ سوءا فلا مَرَدَّ له ، وما لَهُم من دُونه مِن وَالٍ ﴾

إذا غيَّروا ما بهم إلى الطاعات غيَّر الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا فى نعمة فغيَّروا ما بهم من الشكر لله تغيَّر عليهم ما مَنَّ به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك ، وإذا كانوا فى شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا فى التضرع ، وأظهروا العجز غيَّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .

ويقال إذا غيَّروا ما بألسنتهم من الذِّكْرِ غيَّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيان

---

(١) آية ٩ سورة يس .

(٢) هنا وضع الناسخ علامة على سقوط مساحة من النص ، ومن المؤسف أنه لا يوجد إستدراك لذلك فى الهامش ويقع فى هذه المساحة تفسير للآيات من (٥ إلى ١٠) من السورة .

(٣) فى النسخة (وهذا) ولكننا آثرنا أن نجعلها (وذاك) حتى تزيد السياق إيضاحاً ونمنع اللبس إذ ربما يظن أن (وهذا) الثانية مبتدأ .

والغفلة ، فإذا كان العبد فى بسطةٍ وتقريبٍ ، وكشفٍ بالقلب وترقب . . فاللهُ لا يُغيِّر ما بأنفسهم بترك أدبٍ ، أو إخلال بحقٍ ، أو إلمام بذنبٍ .

ويقال لا يَكُفُّ ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يتركَ ويُغيِّر ماهو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حضور[1] القلب بالنسيان ومايُطيح به من العصيان . أبدل اللهُ تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان ، وسلَبَهَ ما كان يعطيه من الإحسان .

ويقال إذا توالت المحنُ وأراد العبدُ زوالَها فلا يصل إليه النَّفْضُ[2] منها إلاَّ بأنْ يغير ما هو به ؛ فيأخذ فى السؤال بعد السكوت ، وفى إظهار الجزَع بعد السكون ، فإذا أخذ فى التضرع غيَّر ما به من الصبر[3] .

قوله : « وإذا أراد الله بقومٍ سوءا فلا مردَّ له » : يقال إذا أراد اللهُ بقومٍ بلاء وفتنة فما تعلَّقَتْ به المشيئة لا محالة يجرى .

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءا (. . .)[4] أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، ويسعون — فى الحقيقة — فى دَمِهِم كما قال قائلهم :

إلى حَتْفِى مَشَى قدمى إذا قَدَمِى أراق دمى

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُرِيكم البرقَ خوفاً وطمعاً وينشئُ السحابَ الثِّقال ﴾

كما يريهم البرقَ — فى الظاهر — فيكونون بين خوفٍ وطمعٍ ؛ خوفٍ من إحباس المطر وطمعٍ فى مجيئه . أو خوفٍ للمسافر من ضرر مجىء المطر ، وطمعٍ للمقيم فى نفعه . . كذلك يُرِيهم البرقَ فى أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق فى الصفاء ، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة .

---

(١) وردت (حصول) وقد آثرنا أن تكون (حضور) القلب حتى تقابل (النسيان) .
(٢) يقال نفض فلان من مرضه أى برىء منه (الوسيط)
(٣) سيعود القشيرى إلى الإجابة عن سؤالين : متى يجوز للعبد أن يشكو ويتضرع ؟ وهل هذا آية نفاد صبره أم علامة ضعفه إزاء القوة الإلهية ؟ . . عند حديثه عن أيوب فى سورة الأنبياء .
(٤) مشتبهة وربما كانت لفظة بمعنى (أعمى)

« خوفاً » : من أن ينقطع ولا يبقى ، « وطمعاً » : فى أن يدومَ فيه نقلُ صاحبِه من المحاضرة إلى المكاشفة ، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود .

ويقال « يريكم البرق » : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان ، ثم يصير إلى نهار العرفان . فإذا طلعت شموسُ التوحيدِ فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس ، كما قيل :

هى الشمسُ إلا أنَّ للشمس غيبةً وهذا الذى نَعْنيه ليس يغيب

ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجنَّ[1] عليهم ليالى الفرقة ، فَقَلَّمَا تخلو فرحةُ الوصال من أن تعقبها موجة الفراق[2] ، كما قيل :

أى يومٍ سررتنى بوصالٍ لم[3] تدَعْنِي ثلاثةً بصدود ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ[4] الثِّقَالَ ﴾

إذا انتاب السحابةَ فى السماء ظلامٌ فى وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض ، فمَا لَمْ تَبْكِ السماء لا يضحكُ الروضُ ، كما قيل :

ومأتمٌ فيه السماء تبكى والأرضُ من تحتها عَرُوسُ

كذلك تنشأ فى القلب سحابة الطلب ، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر ، ثم يلوح وجهُ الحقيقة ، فتضحكُ الروح لفنونِ راحاتِ الأُنْس ، وصنوفِ أزهارِ القُرْب .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُسبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ من خِيفَتِهِ ﴾

أى الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بها مَن

---

(١) مصوبة هكذا فى الهامش ، والمعنى يتقبلها ويرفض (تمن) التى فى المتن .
(٢) وردت (القرآن) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (كم) (٤) وردت (الصحاب) بالصاد وهى خطأ .

يشاء ، وهم يُجَادِلُونَ فى اللهِ وهو
شديدُ المِحَالِ ﴾

قد يكون فى القلب حنين وأنين ، وزفير وشهيق . والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين — خصوصاً — اطلاعٌ يبكون دَمَاً لأجْلهم ، لا سيّما إذا وقعت لواحدٍ منهم فترةٌ ، والفترةُ فى هذه الطريقة الصواعقُ التى يصيب بها من يشاء ، وكما قيل :

ما كان ما أوْلَيْتَ مِن وَصْلنا إلا سراجاً لاح[1] ثم انطَفَا

قوله جل ذكره : ﴿ له دعوةُ الحق والذين يَدْعُونَ مِن
دونِه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إلاَّ
كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ
وما هو بِبَالِغِه ﴾

دواعى الحق تصير لائحةً فى القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم ، استجاب لبيان العلم . وفى مقابلتها دواعى الشيطان[2] التى تهتف بالعبد بتزيين المعاصى ، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت[3] الغَىّ ، ومعها دواعى النَّفْس وهى قائدةٌ للعبد بزمام الحظوظ ، فمن رَكَنَ إليها ولاحَظَها وقع فى هوانِ الحجاب .

ودواعى الحقّ تكون بلا واسطة مَلَكٍ ، ولا بدلالة عقلٍ ، ولا بإشارة علم ، فمن أسمعه الحقُّ ذلك استجاب لا محالةَ لله بالله .

قوله جل ذكره : ﴿وما دعاء الكافرين إلَّا فى ضلال﴾

هواجس النَّفس ودواعيها تدعو — فى الطريقة — إلى الشِّرْكِ ، وذلك بشهود شىء منكَ ، وحسبان أمرٍ لَكَ ، وتعريجٍ فى أوطان الفرْق ، والعَمَى عن حقائق الجمْعِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله يَسْجُدُ مَن فى السمٰوات

---

(١) وردت (راح) بالراء والمعنى لا يتقلبها فاخترنا (لاح) لأنها أقرب فى المعنى والخط .
(٢) وردت (السلطان) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (لصورت) والراء زائدة كما هو واضح .

والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالهم
بالغُدُوِّ والآصال﴾

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضر ألجأه إلى أنْ يتواضع ويسجد ، وذلك معنى سجوده كرهاً — وهذا قول أهل التفسير . والكافر يسجد طائعاً مختاراً ، ولكن لمّا كان سجودُه لطلبِ كَشْفِ الضُّرِّ قال تعالى : إنه يسجد كرهاً وعلى مقتضى هذا كلُّ مَنْ يَسْجُدُ لابتغاء عِوَضٍ أولكشفِ محنة .

ويقال السجودُ على قسمين : ساجدٌ بِنَفْسِه وساجدٌ بقلبه ؛ فسجودُ النَّفْسِ معهود[1] ، وسجودُ القلب من حيث الوجود . . وفَرْقٌ بين من يكون بنفسه ، وواجد بقلبه .

ويقال الكلُّ يسجدون لله ؛ إمَّا من حيث الأفعال بالاختيار ، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبشار : سجودٌ من حيث الدلالة على الوحدانية ؛ فكلُّ جزء من عين أو أثر فَعَلَى الوحدانيةِ شاهدٌ ، وعلى هذا المعنى للهِ ساجدٌ . وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ مَن ربُّ السمٰواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ قُلْ أفاتَّخَذْتُم مِّن دونِه أولياء لا يَمْلِكُون لأنفُسِهِمْ نَفْعاً ولا ضَرًّا﴾

سَلْهُمْ — يامحمد — مَنْ موجِدُ السواتِ والأرض ومُقَدِّرُها ، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبِّرُها ؟ فإنْ أَسْكَتَهُمْ عن الجواب ما استكَنَّ فى قلوبهم مِنَ الجهلِ فقُلْ الله منشيها ومجريها .

ثم قال : « أفاتخذتم من دونه أولياء » : يعنى الأصنام ، وهى جمادات لاتملك لنفسها نَفْعاً ولا ضرًّا ، ويلتحق فى المعنى بها كلُّ مَنْ هو موسومٌ برقم الحدوثِ ، فَمَنْ علَّقَ قلبَه بالحدثان ساوَى — مِنْ وجهٍ — مَنْ عَبَدَ الأصنام ، قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »[2] .

---

(١) أى السجود فى الصلوات العادية بالنسبة للكافة ، وأما سجود القلب فللخاصة .
(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ والبصيرُ
أَمْ هل تستوى الظلماتُ والنُّورُ ﴾

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة ، والبصيرُ مَنْ كَحَّلَ الحقُّ بصيرة سِرِّه بنور التوحيد . . لا يستويان !

ثم هل تستوى ظلماتُ الشِّرك وأنوارُ التوحيد ؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياء شهود التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ جعلوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِه
فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عليهم قُلِ اللهُ خالِقُ
كلِّ شىء وهو الواحِدُ القَهَّارُ ﴾

أى لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدٌّ مُضَاهٍ ، وفى جميع الأحكام له موازٍ ، ولم يُجْدِ حينئذٍ التمييزُ بين فِعْلَيْهما .

وكذلك لو كان له نِدٌّ . . فإنَّ إثباتَهما شيئين اثنين يوجب اشتراكَهما فى استحقاق كل وصف ، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له ، وهـذا يؤدى إلى ألا يُعْرَفَ المَحَلُّ . . وذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ اللهُ خالقُ كُلِّ شىء وهو الواحدُ
القَهَّارُ ﴾

« كل شىء » تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها ، والمخاطِبُ لا يدخل فى الخطاب .

« وهو الواحد » : الذى لا خَلَفَ عنه ولا بَدَل[1] ، الواحد الذى فى فضله منزه عن فضل كل أحد ، فهو الـكافى لـكلِّ أحد ، ويستعين به كل أحد .

« والقهار » : الذى لا يجرى بخلاف حُكْمِه — فى مُلْـكِه — نَفَسٌ .

قوله جل ذكرهُ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء ماء فَسَالَتْ أودِيَة

---

(١) وردت (يدل) بالياء وهى خطأ فى النسخ .

بِقَدَرِها فاحتملَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابياً
ومِمَّا يُوقِدُون عليه فى النارِ ابتغاء
حِلْيةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كذلك
يَضْربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ ،
فأمَّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاءً وأمَّا ما يَنْفَعُ
الناسَ فَيَمْكُثُ فى الأرضِ كذلك
يَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ ﴾

هذه الآية تشتمل على أمثالٍ ضربها اللهُ لتشبيه القرآنِ المُنَزَّلِ بالماء المُنَزَّلِ من السماء ، وشبَّه القلوب بالأودية ، وشبَّه وساوسَ الشيطان وهواجسَ النَّفْس بالزَّبَدِ الذى يعلو المـاء ، وشبَّه الخُلُق[1] بالجواهر الصافية من الخَبَثِ كالذهب والفضة والنحاس وغيرها ، وشبَّه الباطلَ بِخَبَثِ هذه الجواهر . وكما أن الأودية مختلفة فى صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتمل الماء فى القلة والكثرة — كذلك القلوبُ تختلف فى الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكما أن السيلَ إذا حَصَلَ فى الوادى يُطَهِّرُ الوادى فكذلك القرآن إذا حصل حِفْظُه فى القلوب نَفَى الوساوسَ والهوى عنها ، وكما أنَّ المـاء قد يصحبه ما يكدره ، ويخلص بعضه مما يشوبه — فكذلك الإيمان وفَهْمُ القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نَزَغَاتِ الشيطان ومن الخواطر الرَّدِيَّة ، فالقلوب بين صافٍ وكَدِرٍ .

وكما أنَّ الجواهر التى تتخذ منها الأوانى إذا أذيبت خَلَصَتْ من الخَبَثِ كذلك الحق يتميز من الباطل ، ويبقى الحقُّ ويضمحل الباطل .

ويقال إن الأنوار إذا تلألأت فى القلوب نَفَت آثار الكلفة ، ونور[2] اليقين ينفى ظلمة الشك ، والعلم ينفى تهمة الجهل ، ونور المعرفة ينفى أثر النكرة ، ونور المشاهدة ينفى آثار البشرية ،

---

(١) هكذا فى المصورة ونرجح أنها (الحق) ليقابل (الباطل) كما تقابل الجواهر الصوفية الخبث — ويزيد من قوة هذا الترجيح ما سيأتى بعد قليل عند (التمييز بين الحق والباطل) .
(٢) وردت (ونور) وهى خطأ فى النسخ .

وأنوار الجمع تنفى آثار التفرقة . وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ ، وأنوارُ طلوعِ الشمس من حيث العرفان تنفى سَدَفَةَ الليل من حيث حسبان أثر الأغيار .

ثم الجواهر التى تتخذ منها الأوانى مختلفة فمِنْ إناء يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص ، إلى غيره ـ كذلك القلوب تختلف ، وفى الخبر : إن لله تعالى أوانىَ وهى القلوب » ؛ فزاهد قاصدٌ ومحب واجِدٌ ، وعابدٌ خائفٌ ومُوحِّدٌ عارفٌ ، ومتعبِّدٌ متعففٌ ومتهجِّدٌ متصوف ، وأنشدوا :

أَلوانُها شتَّى الفنونِ وإنما تُسْقى بماء واحدٍ من مَنْهَلِ

قوله جل ذكره : ﴿ للذين استجابوا لربِّهم الحُسْنَى والذين لم يستجيبوا له لو أنَّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثْلَه معه لافتَدَوْا به أولئك لهم سُوء الحسابِ ومأواهم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهَادُ ﴾

« الحسنى » [1] : الوعد بقبول استجابتهم ، وذلك مِنْ أجَلِّ الأشياء عندهم ؛ فلا شىء أعزُّ على المحبِّ مِنْ قبولِ محبوبه منه شيئاً .

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنّ لهم جميع ما فى الأرض وأنفقوه عَمْداً لا يُقْبَلُ منهم ، ولهم سوء الحساب ، وهو المناقشة فى الحساب ، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَمَن [2] يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ من رَّبِّك الحقُّ كَمَنْ هو أعمى إنَّما يَتَذَكَّرُ أولوا الألباب ﴾

استفهام فى معنى النفى ، أى لا يستوى البصير والضرير ، ولا المقبول بالمردود بالحجبة ، ولا المؤَمَّل بالنظر بالمُعَرَّض للتعذيب ، ولا الذى أقصيناه عن شهودنا بالذى هديناه

---

(١) يرى النسفى أن (الحسنى) هنا صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى .
(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (أفلم) .

بوجودنا . إنما يتَّعِظُ مَنْ عقله له تشريف ، دونَ مَنْ عقله له سببُ إقصاءٍ وتعنيف .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين[1] يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ولا يَنقُضُون الميثاق ﴾

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان ، والوفاء بشرط الإحسان ، والتوقِّ من ارتكاب العصيان بذلك أُبْرِمَ العقدُ يوم الميثاق والضمان .

وميثاقُ قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه ، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَصِلونَ ما أَمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ ويَخْشَوْن ربَّهم ويخافون سُوءَ الحِساب ﴾[2]

الذين يصِلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أنفاسَهم بعضاً ببعض ، فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغير الله ، ولا بغير الله ، ولا فى شهود غير الله .

ويقال يَصِلُون سَيْرَهم بِسُرَاهم فى إقامة العبودية ، والتبرِّى من الحول والقوة .

وقوله : «ويخشون ربهم » : الخشية لجامٌ يُوقفُ المؤمنَ عن الرَّكْضِ فى ميادين الهوى ، وزِمامٌ يَجُرُّ إلى استدامة حكم التُّقَى .

وقوله : « ويخافون سوء الحساب » هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون

قوله جل ذكره : ﴿ والذين صَبَرُوا ابتغاء وجهِ ربِّهم وأقاموا الصلاةَ ﴾

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التى لأجلِها يصبر الصابر ، فالعُبَّاد يصبرون لخوف العقوبة ، والزهاد يصبرون طمعاً فى المثوبة ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم ، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول ، واستدامةُ التوقى منه ،

---

(١) أخطأ الناسخ إذ حملها (والذين) .

(٢) هذه الآية مستدركة فى هامش الورقة بعد أن سقطت من المتن .

فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العِلَل والزَّلَل . وعن كل شيء يشغل عن الله .

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تعزُّز الحق ، فإنَّه - سبحانه - يتفضَّلُ على الكافة من المجتهدين ، ويتعزز — خصوصاً — على المريدين ، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم ، فإذا صدَقُوا في صبرهم جادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنفقوا مِمَّا رَزَقْنَاهم سرًّا وعَلانِيةً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالَهم . والعُبَّاد ينفقون نفوسَهم ويتحملون صُوف الاجتهاد ، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد . والمريدون ينفقون قلوبهم ويسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يبوحَ علم من الإقبال عليهم . وأمَّا المحبون فينفقون أرواحَهم . . وهي كما قيل :

ألستَ لي خَلَفاً ؟ كفى شَرَفاً فما وراءكَ لي قَصْدٌ ومطلوبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَدْرَءون بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئكَ لَهُمْ عُقْبَى الدار ﴾

يعاشرون الناس بِحُسْنِ الخُلُق ، فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف ، وإنْ عَامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء ، وإنْ أذنب إليهم قومٌ اعتذروا لهم ، وإن مرضوا عادوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلونها ومَن صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم ، والملائكةُ يَدْخُلونَ عليهم مِنْ كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُم ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدار ﴾

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَنْ يحبون صحبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم ، وقد ورد فى الخبر : « المرءُ مع مَنْ أحَبَّ » فَمَنْ كان محبوبهُ أمثالَه وأقاربَه حُشِرَ معهم ، ومَنْ كان اليومَ بقلبه مع الله ، فهو غداً مع الله ، وفى الخبر : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » ، وهـذا فى العاجل ، وأمَّا فى الآجل ، ففى الخبر : « الفقراء الصابرون جُلَسَاءُ الله يومَ القيامة » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِه ، ويقطعون ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ ، ويُفْسِدون فى الأرضِ أولئـك لهم اللَّعْنَةُ ولهم سوءُ الدارِ ﴾

مَنْ كفر بعد إيمانه نَقَضَ عهدَ الإسلام فى الظاهر ، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سـلوكه طريق الإرادة ، فقد نقض عَهْدَه فى السَّرَّاء . . . فهذا مُرْتَدٌ جهراً ، وهذا مرتَدٌ سِرًّا ، والمرتد جهراً عقوبته قطعُ رأسِه ، والمرتد سِرًّا عقوبته قَطْعُ سِرِّه .

وقوله : «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » ، هو نقض قوله : « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » .

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار ، وتَرْكُ الاكتفاء بالله الجبّار .

ويقال نَقْضُ العهـد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهود الأقدار ، وملاحظة التقدير .

ويقال نقض العهد بِتَرْكِ نَفْسِه ، ثم يعود إلى ما قال بتركه .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يشاءُ ويقدِرُ ﴾

يبسط الرزق للأغنياء ويُطالِبُهم بالشكر ؛ ويُضَيِّقُ على الفقراء ويطالبهم بالصبر

وَعَدَ الزيادةَ للشاكرين ، ووعد المَعِيَّةَ للصابرين . للأغنياء الأموال بمزيدها ، وللفقراء التجرد فى الدارين عن طريقها وتليدها .

قوله جل ذكره : ﴿ وفَرِحُوا بالحياة الدنيا وما الحياةُ الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾

فَرِحَ الأغنياء بزكاء أموالهم ، وفَرِحَ الفقراء بصفاء أحوالهم .

« وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاعٌ » قليلٌ بالإضافة إلى ما وعدهم الله ؛ فأموالُ الأغنياء — وإنْ كَثُرَت — قليلةٌ بالإضافة إلى ما وَعَدَهم من وجود أفضاله ، وأحوال الفقراء — وإنْ صَفَتْ — قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أُنزِل عليه آيةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِى إليه مَنْ أنابَ ﴾

« يضل من يشاء » : وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا — صلى الله عليه وسلم — من الشواهد والبرهان حتى (. . .)[1] الزيادة .

« ويهدى من يشاء » : وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بِذِكْرِ اللهِ ، ألا بِذِكْرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ ﴾

قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله ، وفى الذكر وَجَدُوا سَلْوَتَهم ، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم . وقومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكر الله فَذَكَرَهُمْ الله — سبحانه — بلطفه ، وأثْبَتَ الطمأنينةَ فى قلوبهم على وجه التخصيص لهم .

---

(١) مشتبهة .

ويقال إذا ذكروا أنّ اللهَ ذَكَرَهم استروحت قلوبُهم ، واستبشرت أرواحُهم ، واستأنست أسرارُهم ، قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لِمَا نالت بذِكْرِهِ من الحياة ، وإذا كان العبدُ لا يطمئن قلبُه بذكر الله ، فذلك لِحَلَلٍ فى قلبه ، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ طُوبى لهم وحُسْنُ مآبٍ ﴾

طابت أوقاتُهم وطابت نفوسُهم .

ويقال طوبى لمن قال له الحقُّ : طوبى .

طوبى لهم فى الحال ، وحُسْنُ المآب فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك أرسلناكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِها أُمَمٌ لتتلوَ عليهم الذى أوحينا إليك ﴾

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل . . لئن أصابك منهم بلاء فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء ، فاصبِرْ كما صَبَرُوا تُؤْجَرْ كما أُجِرُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم يَكْفُرُون بالرحمٰنِ قُلْ هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه متَابِ ﴾

لئن كفروا بنا فآمِنْ أنت ، وإذا آمنتَ فلا تبالِ بِمَنْ جَحَدَ ، فإنَّك أنت المقصودُ من البَرِيَّة ، والمخصوصُ بالرسالة والمحبة .

لو كان يجوز فى وصفنا أن يكون لنا غرضٌ فى أفعالنا .

ولو كان الغرض فى الخلقة فأنت سيد البَشَر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال[1] ، فهذا مخلوق يقول فى مخلوق :

---

(١) هذه أقصى درجة فى التصور الشخصية الرسول صلوات الله عليه — فى نظر هذا الصوفى . قارن ذلك بأقوال باحث آخر كابن عربى أو الجيلى عن « الإنسان الكامل » ، لتلحظ الفرق الهائل بين الاتجاهين .

وكنتُ أخَّرْتُ أوطارى لوقت فكان الوقت وقتك والسلام
وكنت أطالِبُ الدنيا بِحُبٍّ فكنتَ الحبَّ..وانقطع الكلام

قوله جل ذكره: ﴿ولو أنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا فى الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن ، ولكن المنشئ الله ، والخير والشر جملةً من الله ، والأمر كله لله . فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن — والقرآن كلام الله العزيز — فلا تكون ذرة من النفى والإثبات لمخلوق . . فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره: ﴿أفلَم يَايْئَسِ الذين آمنوا أن لَّو يشاء اللهُ لهدى الناسَ جميعاً﴾

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا ، ويقال أفلم ييأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدى ؟

قوله جل ذكره: ﴿ولا يزالُ الذين كفروا تُصيبهم بما صَنَعُوا قارِعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من دارِهم حتى يأتِيَ وعدُ اللهِ إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعاد﴾

يعنى شؤمُ كُفْرِهم لا يزال واصلاً إليهم ، ومقتص[1] فعلهم لاحِقٌ بهم أبداً .

قوله جل ذكره: ﴿ولقدِ اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فأمْلَيْتُ للذين كَفَرُوا ، ثم أخذتُهم فكيف كان عِقَابِ﴾

(١) من (اقتص) والقصاص أن يوقع على الجانى مثل ماجنى .

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما كان يلاقيه منهم .
وكما أن هؤلاء فى التكذيب جَرَوْا على نهجهم فنحن أدَمْنَا سُنَّتَنَا فى التعذيب معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَمَنْ هو قائِمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ﴾

الجواب فيه مضمر ؛ أى أفمن هو مُجْرِى ومنشئ الخلقِ والمُطَّلِعُ عليهم ، لا يَخْفَى عليه منهم شىء كَمَنْ ليس كذلك ؟ لا يستويان غداً أبداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله شُركاء قُلْ سَمُّوهُم أم تُنَبِّئُونه بما لا يَعْلَمُ فى الأرضِ أم بظاهرٍ مِّنَ القَوْلِ ﴾

قُلْ لهم أرونى أى تأثير منهم ، وأى نفع لكم فيهم ، وأى ضرر لكم منهم ؟ أتقولون ما يعلم الله بخلافه ؟ وهذا معنى قوله : « مالا يعلم » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ زُيِّنَ للذين كفروا مَكْرُهُم وصُدُّوا عَنِ السبيلِ ، ومن يُضْلِلِ اللهُ فما له مِنْ هادٍ ﴾ .

أى قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان ، وزين للذين كفروا مكرهم ، وصاروا مصدودين عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُقُ ، فإنَّ مَنْ أَضَلَّه حُكْمُهُ — سبحانه — لا يهديه أحدٌ قطعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المُتَّقُون تجرى مِن تحتها الأنهارُ أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها تلك عُقْبى الذين اتقوا ، وعُقبى الكافرين النارُ ﴾ .

المَثَلُ أى الصفة ، فصفة الجنة التى وعد المتقون هى أنها جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وأُكُلُها دائم وظلها دائم ، أى أن اللذاتِ فيها متصلةٌ . وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة ، فالمؤجَّلةُ

ما ذكره الله — سبحانه — فى نص القرآن ، والمعجلة جنة الوقت[1] . . والدرجات — من حيث البسط — فيها متصلة ، ونفحاتُ الأُنْسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آتيناهم الكتابَ يفرحون بما أُنزِلَ إليك ﴾ .

يريد بهم مؤمنى أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم .

﴿ومِنَ الأحزابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَه﴾

أى الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمَّا نزل : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »[2] .

﴿ قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ به ، إليه أدعو وإليه مآبِ ﴾ .

قل يا محمد : « إنما أمرت أن أعبد الله » . والعبوديةُ المبادرةُ إلى ما أُمِرْتُ به ، والمحاذرة[3] مما زجرْتُ عنه ، ثم التبرِّى عن الحوْل والمُنَّة ، والاعتراف بالطوْل والمِنَّة .

وأصل العبودية القيام بالوظائف ، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه حُكْماً عربياً ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أهواءهم بعدما جاءكَ مِنَ العِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ من وَلِيٍّ ولا وَاقٍ ﴾ .

أى حُكْماً ببيان العرب ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أرسل الرسلَ فى كلِّ وقتٍ كُلاًّ بلسان قومه ليهتدوا إليه .

ويقال مِنْ صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذِّمام ، وهذه الأشياء مندوبٌ إليها فى الشريعة .

---

(١) أى جنة أرباب الأحوال . . . هنا فى هذه الدنيا

(٢) آية ١١٠ سورة الإسراء ومنهم كعب بن الأشرف والسيد والعاقب وأشياعهم .

(٣) وردت (المحاضرة) بالضاد وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

« ولئن اتبعت أهواءهم » : أى ولئن وافقتهم ، ولم تعتصم بالله ، ووَقَعَتْ على قلبك حشمةٌ من غير الله — فَمَالَكَ من واقٍ من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ وجعلنا لهم أزواجاً وذريةً وما كان لرسولٍ أن يأتِيَ بآيةٍ إلاَّ بإذنِ الله ﴾

أى أرسلنا رسلًا من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونوا إلا من جنسك ، وكما لكم أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك قادحاً فى صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم .

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر فى حاله ؛ ولا يضره ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كتابٌ ﴾ .

أى لكل شىء أجل مثبت فى كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قُسِمَ له ، وأنه لا اطلاعَ لأحدٍ على علمه ، ولا اعتراضَ لأحدٍ على حُكْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحُو اللهُ ما يشاء ويُثْبِتُ وعِندَه أُمُّ الكتابِ ﴾ .

المشيئة لا تتعلق بالحدوث ، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث .

فصفات ذات الحق — سبحانه — من كلامه وعلمه ، وقوْلِه وحُكْمِهِ لا تدخل تحت المحو والإثبات ، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله ؛ المحوُ يرجع إلى العَدَم ، والإثباتُ إلى الإحداثِ ، فهو يمحو من قلوب الزُّهاد حُبَّ الدنيا ويُثْبِتُ بَدَلَه الزهدَ فيها ، كما فى خبر حارثةَ : « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حَجَرُها وذَهَبُها »[1] .

---

(١) سأل النبي (ص) حارثة . لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ..... ، خرجنا هذا الحديث فى هامش سابق .

ويمحو عن قلوب العارفين الحظوظَ ، ويُثْبِتُ بدلها حقوقَه تعالى ، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهودَ غير الحق ويثبت بَدَلَه شهود الحق ، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود الأحدية .

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم ، ويثبتهم بشاهد الحق .

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحقّ فيكون محواً عن الخلْق مثبتا بالحق للحق .

ويقال يمحو العبد فلا يجرى عليه حكم التدبير،ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطانَ التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء .

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق ، ويثبت بَدَلَه غلباتِ الغفلةِ وهواجِمَ النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة ، ويثبت بدلها الرجوعَ إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة .

ويقال يمحو أوضارَ الزَّلَّة عن نفوس العاصين ، وآثار العصيان عن ديوان المذنبين (ويثبت)[1] بدل ذلك لَوْعَةَ النَّدم ، وانكسار الحَسْرَةِ ، والخمودَ عن متابعة الشهوة .

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئةَ ، ويثبت بدلها الحسنة ، قال تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

ويقال يمحو الله نضارةَ الشباب ويثبت ضعفَ المشيب .

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين فى مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار صحبتهم ، ويثبت بدلاً منه الزهد فى صحبتهم والاشتغال بعِشْرَتِهم .

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صفَتْ من الغيب[2] ، وليالٍ كانت مُضاءةً بالزلفة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياما هى أشدُّ ظلاما من الليالى الحنادس[3] ، وزمانا يجعل سَعَةَ الدنيا عليهم محابِس .

---

(٢) سقطت هذه اللفظة من الناسخ .

(٢) من (الغيب) يكون المعنى أن الأيام التى كانت تمنح لهم من الغيب صافية ، ولكننا لا نستبعد أنها قد تكون (الغيم) على معنى خلو تلك الأيام من كل كدورة بدليل المقابلة التى وردت فيها بعد .

(٣) جمع حندس أى شديد السواد .

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله ، ويثبتهم فى وقت آخر بلطف جماله .

ويقال يمحوهم إذا تجلَّى لهم ، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم .

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار ، ويثبتهم إذا تجلَّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار ، ويشهدون بحكم الافتخار .

قوله جل ذكره : ﴿ وعنده أُم الكتاب ﴾

قيل اللوح المحفوظ الذى أثبت فيه ما سبق به عِلْمُهُ وحُكْمُهُ مما لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه .

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مَّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نَعِدُهُم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّما عليكَ البلاغُ وعلينا الحسابُ ﴾

نفى عنه الاستعجال أمرا ، و (. . . .)[1] فى قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعود جهرا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأرضَ نَنقُصُها مِنْ أطرافِها والله يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وهو سريعُ الحساب ﴾

فى التفاسير : بموت العلماء ، وفى كلام أهل المعرفة بموت الأولياء ، الذين إذا أصاب الناسَ بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم .

ويقال هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشِدٌ فى طريق الله لم يجد مَنْ يهديه إلى الله .

ويقال : فى كل زمان لسانٌ ينطق عن الحقِّ سبحانه[2] ، فإذا وَقَعَتْ فترةٌ سكَنَ ذلك اللسانُ — وهذا هو النقصان فى الأطراف الذى تشير إليه الآية ، وأنشد بعضهم :

طوى العصران ما نشراه منى وأبلى جدتى نشرٌ وطىٌّ

---

(١) مشتبهة .

(٢) يتصل ذلك بفكرة القطب والأوتاد والأبدال

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شئ

ويقال ينقصها مِنْ أطرافها أى بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار ، وانتشار الإسلام ، قال تعالى : « ليظهره على الدين كله »[1] .

ويقال ينقصها من أطرافها بخرابِ البلدان ، قال تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه »[2] وقال : « كُلُّ مَنْ عليها فان »[3] فموعودُ الحقِّ خرابُ العالَمِ وفناء أهلِه ، ووعدُه حقٌّ لأن كلامَه صِدْقٌ ، واللهُ بحكم لا مُعَقِّبَ لحكْمِه ، ولا ناقِضَ لما أبرمه ، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه ، ولا قابل لِمَنْ رَدَّه ، ولا رادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه ، ولا مُذِلَّ لمن أعزَّه .

« وهو سريع الحساب » : لأن ما هو آتٍ فقريب .

ويقال « سريع الحساب » فى الدنيا ؛ لأنَّ الأولياء إذا ألموا بشىء ، أو همُّوا لمزجورٍ عُوتِبُوا فى الوقت ، وطولِبوا بِحُسْنِ الرُّجعى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِم فَلِلَّهِ المَكْرُ جميعاً يعلم ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وسيعلم الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾

مكرُهم إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفْرَ ، ومكرُ الله بهم تَوَهُّمُهم أنهم مُحْسِنون فى أعمالهم ، وحسبانهم[4] أنهم سَتَأْمَنُ أحوالُهم ، وظَنُّهم أنه لا يحيق بهم مكرُهم ، وتخليتُه إياهم — مع مَكرِهم — مِنْ أعْظَمِ مَكْرِه بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الذين كفروا : لَسْتَ مُرْسَلاً قلْ كَفَى بالله شهيداً بَيْنِى وبَيْنَكُم ومَنْ عِندَه عِلْمُ الكتاب ﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .
(٢) آية ٨٨ سورة القصص .
(٣) آية ٢٦ سورة الرحمن .
(٤) وردت (وحسناتهم) وهى خطأ فى النسخ .

وَبالُ تكذيبهم عائدٌ إليهم ، فإنَّ اللهَ شهيدٌ لكَ بِصدْقِك . « ومن عنده علم الكتاب » هو الله سبحانه وتعالى عنده عِلْمُ جميع المؤمنين . فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً ؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك .

السورة التى يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله معناه بالله ؛ فقلوب العارفين بالله إشراقُها ، وقلوب الوالهين بالله احتراقُها ، لهؤلاء فا (. . .)[1] محبته ، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . فَوَصلَ من الطالبين مَنْ وصل

قوله جل ذكره : ﴿ الر كتابٌ أنزلناه إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ بإذْنِ ربِّهم إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾

أقسم بهذه الحروف : إنَّه لَكِتَابٌ أُنْزِل إليكَ لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومِنْ ظُلُماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ، ومن ظلمات الابتداع[2] إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب ، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ — بإذن ربهم ، وبإرادته ومشيئته ، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهِ الذى له ما فى السمٰوات وما فى الأرضِ وَوَيلٌ للكافرين مِنْ عذابٍ شديد ﴾

عرَّف الخَلْقَ أنَّ اللهَ هو الذى له ما فى السمٰوات وما فى الأرض .

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (الابتداء) بالهمزة وهى خطأ من الناسخ .

فَمَنْ عَرَف فله المآب الحميد ، ومَنْ جَحَدَ فله العذاب الشديد ؛ وذلك العذاب هو جَهْلُه بأنه — سبحانه — مَنْ هو .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ويَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ويَبْغُونَها عِوَجاً أولئك في ضلالٍ بعيد ﴾

ثم ذكر ذميم أخلاقِهم ، فقال : هُمُ الذين يؤْثِرُونَ اليسيرَ مِنْ حُطَامِ الدنيا على الخطير من نِعَمِ الآخرة ، وذلك من شدة جُحْدِهم ، ويبغون للدِّين عِوَجاً بكثرة جَمْعِهم ، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة ، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجلُّ محنة ومصيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن رَّسولٍ إلّا بِلِسَانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم فَيُضِلُّ اللهُ مَن يشاء ويَهْدِي مَن يشاء وهو العزيزُ الحكيم ﴾

إنما كان كذلك ليكون آكَدَ في إلزام الحجة ، وأنّى ينفع ذلك إذا لم يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ المحجَّةِ ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السابقة ، وأصحابُ الغواية وقعوا في ذُلِّ العداوة ، فلا اعتراضَ عليه فيما يصنع ، ولا يُسألُ عما يفعل أو لم يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ وذَكِّرْهُم بأيَّامِ اللهِ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور ﴾

أخْرِجْ قومَكَ بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين ، ومنْ إشكالِ الجهل إلى رَوْحِ العِلْم . وذَكِّرْهُم بأيام الله ؛ ماسلف لهم من وقت الميثاق ، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم .

ويقال ذَكِّرْهُمْ بأيام الله وهى ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها فى الأشباح :

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها
أيام لم (. . . . . .)[1]

ويقال ذَكِّرْهم بأيام الله وهى التى كان العبدُ فيها فى كتم العدم ، والحق يتولَّى عباده قبل أن يكون لِلعبَاد فِعْلٌ ؛ فلا جُهْدَ للسابقين ، ولا عناء ولا تَرْكَ للمقتصدين ، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم[2] .

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة ، والحكم على الإرادة . . ولم يكن للعبد اختيار فى تلك الأيام .

قوله : « .... إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

« صبَّار » : راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيذ العيش يَسُرُّه .

« شكورٌ » : محجوبٌ[3] بشهود النِّعم عن استغراقه فى ظهور حقه . . هذا واقفٌ مع صبره وهذا واقف مع شكره ، وكلٌّ مُلْزَمٌ بحدِّه وقَدْرِه . . . والله غالب على أمره ، مقدَّسٌ فى نَفْسِهِ مُتعزِّزٌ بجلال قُدْسِه .

قوله جل ذكره ﴿ وإذْ قال موسىٰ لقومه اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عليكم إذْ أنجاكم مِنْ آلِ فرعونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذابِ ويُذَبِّحُون أبناءكم ويَسْتَحْيُونَ نساءكم وفى ذَٰلِكُم بلاءٌ مِّن ربِّكم عظيمٌ ﴾

---

(١) بقية الكلام غامضة فى الكتابة والمعنى ، وتعجز المطبعة أن تنقل حروفها .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى الآية ٣٣ من سورة فاطر : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(٣) فلا يزول الحجاب إلا إذا تجرد العبد عن شهود النعمة ، وشاهد المنعم ، ومن شاهد المنعم استقبل السراء والضراء بلا تمييز .

تذكُّرُ ما سَلَفَ من النِّعَمِ يوجِبُ تجديد ما سَبَقَ من المحبة ، وفى الخبر :

« جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها » ؛ فالحقُّ أمَرَ موسى عليه السلام . بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه ، ولطائف إكرامه . . وفى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء — عليهم السلام : « عبدى ، أنا لَكَ مُحِبٌّ فبحقى عليكَ كُنْ لى محباً »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ تأذَّنَ ربُّكُم لَئِن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكم ولَئِن كَفَرْتُم إنَّ عذابى لشديدٌ ﴾

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامى وإكرامى ، وإن كفرتم بإحسانى لأعذبنكم اليوم بامتحانى ، وغدا بفراقى وهجرانى .

لئن عرفتم وصالى لأزيدنكم من وجود نوالى إلى شهود جمالى وجلالى[1] .

ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة .

ويقال لئن شكرتم شهود الكافى لأزيدنكم بشهود أوصافى .

ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامى لأزيدنكم بشهود إكرامى ثم إلى شهود إقدامى .

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائى لأزيدنكم منتظرَ آلائى .

ويقال لئن شكرتم مخصوصَ نِعَمى لأزيدنكم مأمول كَرَمِى .

ويقال لئن شكرتم ما خوَّلْناكُم من عطائى لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائى .

ويقال لئن شكرتم ما لَوَّحتُ فى سرائركم زدناكُم ما ألبسْنا من العصمة لظواهركم .

ويقال لئن كفرتم نِعْمَتِى بأنْ توهمتم استحقاقَها[2] لَجَرَّعْناكم ما تَسْتَمرُّون مذاقها .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن فى الأرض جميعاً فإنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حميد ﴾

(١) أى إن الوجود والشهود — عند هذا الصوفى — يرتبطان بالأوصاف لا بالذات ، فقد جلت الصمدية عن أن يستشرف العبد من الذات .

(٢) أى ينبغى أن تنظروا لأعمالكم بعين الاستصغار وأن ما تنالون من نعمة فضل من الله وليس نظير أعمالكم .

إن اجتمعتم أنتم ومن عَاضَدَكم ، وكل من غاب عنكم وحضركم ، والذين يقتفون أثركم — على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً — ما أوجهتم لِعزِّنا شَيْنَا ، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنا زَيْنا . والحقُّ بنعوته ووصف جبروته عَلِيٌّ ، وعن العالَمِ بأسْرِه غنيٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نبؤُا الذين مِنْ قبلِكُمْ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلَّا اللهُ جاءتهم رُسُلُهُم بالبيناتِ فَرَدُّوا أيديهم فى أفواهِهم وقالوا إنا كَفَرْنا بما أُرْسِلْتُم به وإنَّا لفى شَكٍّ مِمَّا تدعوننا إليه مُرِيبٍ ﴾ .

استفهام فى معنى التقرير . أخبره أنه لما جاءتهم الرسلُ قابلوهم بالكنود ، وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم فى أفواههم ، وحَذَوْا سبيلَ أمثالهم فى الكفر ، وبنوا على الشك والريبة قواعدَهم ، وأسسوا على الشِّرْكِ والغَيِّ مذاهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت رُسُلُهم أفى اللهِ شكٌّ فَاطِرِ السموات والأرضِ يدعوكم ليغفِرَ لكم مِّن ذنوبكم وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

استفهام والمراد منه توبيخ ونفى . سبحانه لا يتحرك نَفَسٌ إلا بتصريفه .
وكيف يبصر جلالَ قَدْرِهِ إلا من كَحَّله بنور بِرِّه ؟

ثم قال : « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » : ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق ، وألّا يهربَ من خدمةٍ أو يجنحَ إلى راحة .. إنما العَجَبُ من سيدٍ عزيزٍ كريمٍ يدعو عَبْدَه ليغفرَ له وقد أخطأ ، ويعامله بالإحسان وقد جفا .

والذى لا يَكُفُّ عن العناد ، ولا يؤثر رضاء سيده على راحة نفسه فلا يُحْمَلُ هذا إلا على قِسمةٍ بالشقاء سابقة . . وإن أحكام الله بردُّه صادقة . ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهم :

﴿ قالوا إنْ أنتم إلا بَشَرٌ مِثْلُنا
تُريدون أن تَصُدُّونا عمَّا كان يعبد
آباؤُنا فَأْتُونَا بسلطانٍ مبين ﴾

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم ، ولم يعرفوا سرائرهم ، ومالوا إلى تقليد أسلافهم ، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت لهم رُسُلُهم إن نحن إلا بَشَرٌ
مِثْلُكُم ولكنَّ الله يَمُنُّ على مَن
يشاء مِن عبادِه ، وما كان لنا أن
نأتيَكم بسلطانٍ إلا بإذنِ الله
وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون ﴾

قالت لهم الرسلُ مانحن إلا أمثالكم ، والفرق بيننا أنه — سبحانه — مَنَّ علينا بتعريفه ، واستَخْلَصنا بما أفْرَدَنا به من تشريفه . والذى اقترحتم علينا من ظهور الآيات فليس لنا إلى الإتيَانِ به سبيلٌ إلاَّ أن يُظْهِرَه الله علينا إذا شاء بما شاء — وهو عليه قدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَنَا ألا نتوكَّلَ على اللهِ وقد
هدانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ على
ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل
المتوكِّلون ﴾

« ما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد رقَّانا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان ، فكفانا من مهان الشان . « وما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد حقَّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان ، وكفاية ما أظلَّنا من الامتنان . « ما لنا ألا نتوكل على الله » ولم نخرج إلى التقاضى على الله فيما وعدنا الله .

قوله : « ولنصبرن على ما آذيتمونا » : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية المُبْلِي، وفى معناه أنشدوا :

يستقدمون بلاياهم كأنهمُ لا ييأسون من الدنيا إذا قبلوا

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكم مِنْ أرضِنا أو لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنا فأوحى إليهم ربُّهم لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام فى الإتيان بمثل آياتهم أخذوا فى الجفاء معهم بأنواع الإنذار ، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان ، والتشريد فى البلدان . وبسط الله على قلوبهم بوعد نصره ولقائه ما أظلّهم من الأمر ، ومَكّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال :

« لنهلكن الظالمين » ، وقال :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ مِنْ بَعْدِهِم ذالك لِمَن خَافَ مقامى وخَافَ وعيدِ ﴾

« وخاف وعيدِ » : أى خاف مقامه فى محل الحساب غداً فأناب إلى نفسه على وجه التخصيص .

ويقال خاف مقامى أى هاب اطلاعى عليه ، فالأول تذكير المحاسبة فى الآجل ، والثانى تحقيق المراقبة فى العاجل .

قوله جل ذكره : ﴿ واستفتحوا وخاب كُلُّ جبّارٍ عنيد ﴾

الاستفتاح طلب الفتح ، والفتح القضاء ،واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم : «إن كان هذا هو الحق من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء »[1] وغيره فلما نزل بهم البلاء ، وتحقق لهم

(١) آية ٣٢ سورة الأنفال .

الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم ، ولم تُقْبَلْ منهم صدقتُهم وفداؤهم ، وندموا حين لا ندامة ، وجزعوا بعدما عَدِموا السلامة .

ويقال : « واستفتحوا » : بغير الرسل ، ولما وجد الرسل إصرارَ قومهم سألوا النصرة عليهم من الله كقول نوح — عليه السلام : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » ، وقول موسى عليه السلام : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم »[1] فأجابهم الله بإهلاكهم .

ويقال إذا اشتد البلاءُ وصَدَقَ الدعاءُ قَرُبَ النّجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾

لفظ « وراء » يقع على ما بين يديه وعلى ما خَلْف ، والوراء ما توارى عليك أى استتر ؛ يريد هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان ، وعلى ما خَلْفَه ؛ أى لأجل ما سلف من الماضى من قبيح أفعاله ، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة ، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرةً واحدةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

يرى العذابَ — من شدته — فى كل عضو ، وفى كل وقت ، وفى كل مكان . وليس ذلك الموت ؛ لأنَّ أهلَ النار لا يموتون ، ولكنه فى الشدة كالموت . ثم « من ورائه عذاب غليظ » : وهو الخلود فى النار ، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيامٍ قلائل ساعدته المشيئةُ فيها ، وانخدع فلم يشعر بما يليها .

---

(١) الآية ٨٨ سورة يونس .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الذين كفروا بربِّهم أعمالُهم
كرَمَادٍ اشتدَّتْ به الريحُ فى يومٍ
عاصفٍ لا يَقْدِرُون مِمَّا كَسَبُوا
على شىء ذلك هو الضلالُ
البعيدُ ﴾

أى وفيما يُتْلَى عليكَ — يا محمد — مَثَلٌ لأعمال الكفار فى تلاشيها ، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شىء منها كرَمَادٍ فى يومٍ عاصف ، فإنه لا يَبْقَى منه شىء — كذلك أعمالُهم . ومَنْ كان كذلك فقد خاب فى الدارين ، وحلَّ عليه الويل .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السمٰواتِ
والأرضَ بالحقِّ ، إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ ﴾

خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحُكْمِ الحق ، أى له ذلك بحقِّ ملكه ، وخلقهما بقوله الحق ؛ فجعل كلَّ جزءٍ منهما على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد الوصول إلى ربِّه سبيلاً .

ثم قال : إنْ يَشَأْ يذهبكم بالإفناء ، ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ فى الإنشاء ، وليس ذلك عليه بعزيز ... وأنَّى ذلك وهو على كل شىء قدير ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وبَرَزُوا للهِ جميعاً ، فقال الضعفاءُ
للذين استكبروا إنَّا كنَّا لكم
تَبَعاً فهل أنتم مُغْنُون عَنَّا مِنْ
عذابِ اللهِ مِنْ شىء ..... ﴾

لم يكونوا عن الحقِّ — سبحانه — مستترين حتى يظهروا له ، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا فى مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم ، فصاروا كأنهم ظهروا لله . فقال الضعفاء للذين استكبروا : «إنا كنا لكم تبعاً» توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء ، فأجابهم المتكبرون : إنَّا جميعاً فى العذاب مشتركون ، ولو أمكننا أنْ نرفعَ عنكم من

العذاب ، وقدرنا على أن نهديكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتم ، وأجبناكم إلى ما سألتم ، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين ، ولا نحن لكم بمغيثين ، ولا لما تدعونا إليه بمستجيبين ...

فلا تلوموا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ! إنما ينفع لومُ النَّفْس فيما تتعاطاه من الإساءة فى زمان المُهْلَةِ وأوقات التكليف ؛ فإنَّ أبوابَ التوبةِ مفتوحة ، ولكن لمن لم ينزع روحه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُدْخِلَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فيها بإذْنِ ربِّهم تحيَّتُهم فيها سَلامٌ ﴾

ذلك الذى مضى ذِكْرُه صفةُ الكفار والأعداء . وأمَّا المؤمنون والأولياء ، فقال : « وأُدْخِلَ الذين آمنوا .... » والإيمان هو التصديق ، «وعملوا الصالحات» تحقيق التصديق . ويدخل فى جملة الأعمال الصالحة ما قلَّ أو كَثُرَ من وجوه الخيرات حتى القَذَر نميطه[1] عن الطريق .

و « تحيتهم فيها سلام»—وكذلك قال تعالى :«لهم دار السلام » ، فالوصفُ العام والتحيةُ لهم من الله السلامُ .

ويقال إن أحوالهم متفاوتة فى الرتبة ؛ فقومٌ سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَم تَرَ كيف ضرب اللهُ مَثَلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابِتٌ وفَرْعُها فى السماء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كلَّ حين بإذْنِ رَبِّها

(١) أماط الأذى أى نحاه وأبعده

ويَضْرِب اللهُ الأمثال للناسِ لعلهم يَتَذَكَّرون * ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كَشَجَرَةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ مالها من قرار ﴾

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة ثابت فى الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتى أكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلُها كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين ، وفروعها الأعمال الصالحة التى هى الفرائض ومجانبة المعاصى .

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن[1] وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية ، وأزهارها الأخلاق الجميلة ، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة .

وكما أن الثمار تختلف فى الطّعم والطبع والرائحة والصورة . . كذلك ثمرات الطاعات ومعانى الأشياء التى يجدها العبدُ فى قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهى صفة العابدين ، والبسطِ الذى يجده العبدُ فى وقته وهو صفة العارفين ، وراحةٍ فى الضمير وهو صفة المريدين ، وأُنْسٍ يناله فى سِرِّه وهو صفة المحبين . وقلقٍ واهتياجٍ يجدهما ولا يعرف سببهما ، ولا يجد سبيلا إلى سكونه وهو صفة المشتاقين . إلى مالا يفى بشرحه نطقٌ ، ولا يستوفيه تكلُّفُ قَوْلٍ . وذكرٍ من لوائح ولوامع ، وطوارق وشوارق ، كما قيل .

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظْهِرُ كتمانا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمراتِ الأشجار فى السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة فى كل لحظة كذا كذا مرة . وكما قال الله تعالى فى ثواب الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » كذا لطائف هذه الشجرة

---

(١) أى إذهاب الفاسد منه .

لامقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق عنها لامصروفة ولامحجوبة ، وهى فى كل وقت ونَفَسٍ تبدو لهم غيرَ محجوبة .

وثمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار ، وإشارات أهل القصة وألفاظهم فى مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنَّوْر .

ويقال الكلمة الطيبة هى الشهادة بالإلهية ، وللرسول — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة ، وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص .

والشجرة الطيبة المعرفة ، وأصلها ثابت فى أرضٍ غير سبخةٍ ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق ، فالإيمان لا ينبت فى قلبيهما كما أن الشجرة فى الأرض السبخة لا تنبت . ثم لا بدَّ للشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام العناية ، وإنما تُرْوَى بالكفاية ، وتَتَوَرَّدُ بالهداية .

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندمِ والحياءِ والتلهفِ والحسرةِ والأمانة والخشوعِ وإسبال[1] الدموع .

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ؛ فمنها التوكل والتفويض والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الوافية ، والأخلاق العالية الزكية .

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى كلمة الكفر ، وخبثُها ما صحبها من نجاسة الشِّرك ، فَخُبْثُ الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشِّرْكِ ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هى الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض متناقض ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا علة مقتضية ، إنما هو شُبَهٌ وأباطيل وضلال ، تقتضى وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار ، لأنها حاصلةٌ من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

قوله جل ذكره : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول

---

(١) أسبلت العين = سال دمعها (الوسيط ج ١ ص ٤١٧) .

الثابتِ فى الحياةِ الدنيا وفى الآخرةِ
ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعل اللهُ
ما يشاء ﴾

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك العِوَج .

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة .

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان .

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذى لا يجوز عليه الفناء والبطول[1] فهو بالثبوت أَوْلَى من قول العبد ؛ لأن قولَ العبد أثَرٌ ، والآثار لايجوز عليها الثبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتُ العبد لقول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وإخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان . وقول الله لايزول ؛ فى الدنيا يثبتُه حتى لا بِدْعَةَ تعتريه ، وفى الآخرة يثبتُه برسله من الملائكة ، وفى القيامة يثبتُهُ عند السؤال والمحاسبة وفى الجنة يثبتُهُ لأنه لايزول حد العبد لله ، ومعرفته به . وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه — سبحانه — دعاءه ثَبَّتَه حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم .

ويقال إذا دَعَتْهُ الوساوسُ إلى متابعةِ الشيطان ، وصيَّرتْه الهواجسُ إلى موافقة النَّفْس فالحق يثبته على موافقة رضاه .

ويقال إذا دَعَتْهُ دواعى المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها ، فيترك الجميع ، ولا يتَحسَّسُ إلا دواعىَ الحقِّ — سبحانه كما قيل :

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كى تردَّنا أبينا وقلنا : مطلبُ الحقِّ أوَّلا

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين بَدَّلوا نعمةَ اللهِ
كُفْراً وأحلُّوا قومَهم دارَ البَوارِ ﴾

---

(١) بطل الشىء بطولا وبطلانا = ذهب ضياعاً (الوسيط ج ١ ص ٦١) .

وضعوا الكفران محل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغى لها من الشكر . واستعمال النعمة فى المعصية من هذه الجملة ، فأعضاء العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصى بَدَنَه فى الزَّلة بدلاً من أن يستعملها فى الطاعة فقد بَدَّلَ النعمة كفراً ، وكذلك إذا أودع الغفلَة قلبَه مكانَ المعرفة ، والعلاقَة فيه مكان الانقطاع إليه ، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَلَ الثقة به ، ولَطَّخَ لسانَه بذكر المخلوقين ومَدْحِهم بَدَلَ ذكرِ الله واشتغل بغير الله دون العناء فى ذكره . . . كلُّ هذا تبديلُ نِعَمِ الله كفراً . وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله ، مكفياً من قِبَلِ الله . . وَجَدَ فى فراغه مع الله راحةً عن الخَلْق ، ومن إقباله عليه — سبحانه — كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع فى بحار الاشتغال ومعاملة الخَلْق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار ؛ على معنى إيقاعه قلبَه ونَفْسَه وجوارحَه فى المذلة من الخَلْق ، والمضرة فى الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أرَ قَبْلى مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم

قوله جل ذكره : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ القرار ﴾

وهى الجحيم المُعَجَّل . . وعذابُها الفُرْقَة لا الحُرْقَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله أنداداً لِيُضِلُّوا عن سبيله قُلْ تَمَتَّعُوا فإنَّ مصيرَكُم إلى النار ﴾

رضوا بأن يكون معمولُهم معبودَهم ، ومنحوتُهم مقصودَهم ، فضلُّوا عن نَهْجِ الاستقامة، ونأوا عن مقر الكرامة ، وسيلقون غِبَّ[1] ما صنعوا يوم القيامة كما قيل :

قد تركناكَ والذى تريد فعسى أن تَمَلَّهُم فتعودا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيامُ السرور قِصارٌ ، ومُتَعُ الغفلة سريعة الانقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لِعبادىَ الذين آمنوا يُقِيموا

---

(١) وردت (غير) وقد آثرنا أن تكون (غب) ليتوى المعنى أى عاقبة ما صنعوا .

الصلاة وينفقوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا
وعلانيةً مِّن قَبْلِ أن يأتِيَ يومٌ
لا بَيْعٌ فيه ولا خِلال ﴾

جعل اللهُ راحةَ العبدِ — اليومَ — بكمالها فى الصلاة ؛ فإنَّها محلُّ المناجاة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أرِحْنا يا بلال بالصلاة »[1] والصلاة استفتاح باب الرزق ، قال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً »[2]

وفى الصلاة يبث[3] العبد أسرارَه مع الحق ؛ فإذا كان لقاء الإخوان — كما قالوا — مَسْلاَةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله ، ونشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :

قُلْ لى بألسنة التَّنَفُّسِ كيف أنت وكيف حالك ؟

« وينفقوا مما رزقناهم » : أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره ، وإنفاق البَدَنِ على طاعته ، والوقتَ[4] على شكره ، والقلبَ على عرفانه ، والروح على حبه ، والسِّرَّ على مشاهدته . . ولا يكلِّف الله نَفْساً إلا ما آتاها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط بالشاهد الذى آتاك . . يقول العبد المسكين : لو كان لى نَفْسٌ أطوع من هذه لأَتَيْتُ بها ، ولو كان لى قلبٌ أشدُّ وفاء من هذا لَجُدْتُ به ، وكذلك بروحى وسِرِّى ، وقيل :

يفديك بالروح صَبٌّ لو انَّ له أعز من روحه شيئاً فداك به

« من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » : وفى هذا المعنى أنشدوا :

قلتُ للنَّفْس إنْ أردتِ رجوعاً فارجعى قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرضَ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث الشريف .
(٢) آية ١٣٢ سورة طه .
(٣) وردت (يثبت) والمعنى يقتضى (يبث) .
(٤) وردت (الوقف) وهى — كما هو واضح — خطأ فى النسخ .

الثمراتِ رِزْقاً لكم وسخَّر لكم الفُلْكَ لتجرى فى البحر بأمره وسخَّر لكم الأنهار * وسخَّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبيْن وسخَّر لكم الليل والنهار ﴾

فى الظاهر رفعَ السماء فأعلاها ، والأرض من تحتها دحاها ، وخلقَ فيها بحاراً ، وأجرى أنهارا ، وأنبت أشجاراً ، وأثبت لها أنوارا وأزهارا ، وأمطر من السماء ماء مدراراً . وأخرج من الثمرات أصنافا ، ونوَّع لها أوصافا ، وأفرد لكلٍّ منها طعماً مخصوصاً ، ولإدراكه وقتاً معلوماً .

وأمَّا فى الباطن فسماء القلوب زيَّنها بمصابيح العقول ، وأطلع فيها شمس التوحيد ، وقمر العرفان . وأجرى فى القلوب بحرى الخوف والرجاء ، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان ؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف ، كما جاء فى الخبر : « لو وزنا لاعتدلا »[1] — هذا لعوام المؤمنين ، فأمَّا للخواص فالقبض والبسط ، وللخاص الخاص فالهيبة والأُنْس والبقاء والفناء .

وسخَّر لهم الفُلْكَ فى هذه البحار ليعبروها بالسلامة ، وهى فلك التوفيق والعصمة ، وسفينة الأنوار والحفظ . وكذلك ليالى الطلب للمريدين ، وليالى الطرب لأهل الأُنْس من المحبين ، وليالى الحرب[2] للتائبين ، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم من كلِّ ما سألتموه ، وإن تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إنَّ الإنسان لظلومٌ كفَّار ﴾

ما تَمَّتْ إليه هِمَمُكُمْ ، وتعلَّق به سؤالُكُمْ ، وخَطَرَ تحقيقُ ذلك ببالِكم ، أنلناكم

---

(١) أورده السراج فى لمعه ص ٩١ (قال صلى الله عليه وسلم : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)
(٢) ربما يقصد القشيرى بالحرب هنا جهاد التائب مع نفسه ، وإظهار الحزن والتأسف .

فوق ما تُؤَمِّلُون[1] ، وأعطيناكم أكثر مما تَرْجُون[2] ، قال تعالى : « ادعونى استجب لكم » .

وقرأ بعض القراء[3] : « من كُلِّ ما سألتموه » فَيُنَوِّنُ قوله : كلٍ ، ويجعل ما سألتموه (ما) للنفى أى كل شىء مما لم تسألوه .

كذلك جاز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى — وهذا لأرباب الطاعات ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى — وهذا لأصحاب الزلات . عَلِم قصور لسان العاصى وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكَّر ما عمله من الزلاَّت ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشمةَ السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرتُ لكم قبل أن تستغفرونى .

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهَّلَه الحق — سبحانه — من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ . . قَبْلَ أنْ كان له إمكانٌ ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو عصيان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً . .

لا بَلْ :

أتانى هواها قبل أنْ أعْرِفَ الهوى فصادف قلباً خالياً فتَمَكَّنَا

قوله جل ذكره : (وإن تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تُحْصُوها
إنَّ الإنسان لظلومٌ كَفَّار)

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِهِ . . ؟ وشكرُكُم نَزْرٌ يسير ، وإنعامُهُ وافر غزير .
وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام ؟
إنَّ نِعَمَهُ عُلُومُكم عن تفصيلها متقاصرةٌ ، وفُهُومُكُم عن تحصيلها متأخِّرةٌ .

---

(١) وردت (تؤمنون) وهى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا تؤملون .
(٢) وردت (ترجعون) وهى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فآثرنا ترجون .
(٣) لا يهتم القشيرى بالقراءات إلا نادراً ، وحيثما وجد ذلك مجالا لإشارة نافعة للصوفية

وإذا كان ما يدفع عن العبد منّ وجوه المحن[1] وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له . فكيف يأتى الحصر والإحصاء على مالا يتناهى ؟

وكما أن النَّفْعَ من نِعَمِهِ فالدفعُ أيضاً من نعمه .

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيقٍ آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ[2] قال ابراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمِناً واجْنُبْني وَبَنِيَّ أن نَعْبُدَ الأصنامَ * ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من النـاسِ فمن تَبِعَنِي فإنه مِنِّي ﴾

كما سأل أن يجعل مكةَ بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبَه محلاً آمناً ؛ أى لا يكون فيه شىء إلا بالله . « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعـالى : « أفرأيتَ مَن اتخذ إلٰهه هواه »[3] فصنمُ كلِّ أحدٍ ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ وولَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لمّا بنى البيتَ استعان بالله أن يجرِّدَه من ملاحظة نفسه وفعله .

ويقال إنه — صلى الله عليه وسلم — كان متردداً بين شهود فضـل الله وشهود رفق نفسه ، فلما لقى من فضله وجوده قال من كمال بسطه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » . ولما نظر من حيث فقر نفسه قال : « واجنبني وبنىَّ أن نعبد الأصنام » .

ويقال شاهد غيره فقال : « واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام » ، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .

---

(١) وردت (المحسن) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) سقطت (وإذ) من الناسخ .
(٣) آية ٢٣ سورة الجاثية .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن تَبِعَنِي فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾

« فإنه مني » : أي موافق لي ومن أهل مِلَّتِي ، ومن عصاني خالفني وعصاك .

قوله : « فإنك[1] غفور رحيم » : طلبٌ للرحمة بالإشارة ، أي فارحمهم .

وقال : « ومَنْ عصاني » . . ولم يَقُلْ : مَنْ عصاك ، وإنْ كان من عصاه فقد عصى الله ، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه ، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة .

ويقال إن قولَ نبينا صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أتمُّ في معنى العفو حيث قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وابراهيم — عليه السلام — عَرَّضَ وقال : « فإنك غفور رحيم » .

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب[2] فقال : « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنَا إنِّي أسكَنْتُ من ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من الناسِ تهوى إليهم وارزُقْهم مِنَ الثَّمراتِ لعلهم يَشْكُرُون ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله : « إني أسكنت . . . » وإنما رأى الرِّفقَ بهم في الجِوارِ لا في المَبَارِّ فقال : « عند بيتك المحرم » ثم قال : « ليقيموا الصلاة » : أي أسكنتُهم لإقامة حقِّكَ لا لِطَلَبِ حظوظهم .

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها « فإن الله غفور رحيم » .
(٢) تفيد هذه الإشارة في النواحي البلاغية حيث استبدل التعبير بالأسلوب الإنشائي بالأسلوب الخبري .

ثم قال : « فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم » أى ليشتغلوا بعبادتك ، وأقم قومى — ما بقوا — بكفايتك ، « وارزقهم من الثمرات » : فإنَّ مَنْ قام بحقِّ الله أقام اللهُ بحقِّه قَوْمَه ، واستجاب اللهُ دعاءه فيهم ، وصارت القلوبُ من كل بَرٍ وبحرٍ كالمجبولة على محبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين به ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : « بوادٍ غير ذى زرعٍ » : أى أسكنتُهم بهذا الوادى حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبُهم ، ولا تشتغل بشَىْءٍ أفكارهم وأسرارُهم ؛ فهم مطروحون ببابِكَ ، مصونون بحضرتك ، مرتبطون بحُكْمِك ؛ إنْ رَاعيتَهُم كَفَيْتَهُم وكانوا أعزَّ خَلْقِ الله ، وإنْ أقصيتَهم ونفيتَهم كانوا أضعفَ وأذلَّ خَلْقِ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنَا إنك تعلم ما نُخْفِي وما نُعْلِنُ وما يخفى على اللهِ من شىء فى الأرضِ ولا فى السماء ﴾ .

استأثرتَ بعلم الغيب فلا يَعْزُبُ عن علمك معلومٌ ، وحالى لا تخفى عليك ، فهى كما عرفتَ ، أنت تعلم سِرِّى وعَلَنِي .. ومَنْ عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار ، واستروح قلبُهُ عن تَرَجُّمِ الأفكار ، والتَّقَسُّمِ في كون الحوادث من الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدُ للهِ الذى وَهَبَ لى على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحٰقَ إنَّ ربى لَسَمِيعُ الدعاء ﴾

أسعده بمنحه الولد على الكبر ، ويلتحق ذلك بوجهٍ من المعجزات ؛ فحمد عليه . ولمَّا كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته — سبحانه — عليه ، وإكرامه بأنواره ، وهذا يكون بمعنى المَلَق[1] ، ويكون استدعاء نعمةٍ بنعمة ، فكأنه قال : كما أكرمتنى بِهِبَة الوَلَدِ على الكِبَر ؛ فأَكْرِمْنى بهذه الأشياء التى سألتُها .

ويقال الإشارة فى هذا أنه قال : كما مَنَنْتَ علىَّ فوهبتنى على الكِبَرِ هذه الأولاد

---

(١) الملق = الدعاء والتضرع (الوسيط) .

فأجنِبْنا أن نعبد الأصنام لتكونَ النعمةُ كاملةً . وفى قوله : « إن ربى لسميع الدعاء » . . إشارة إلى هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصلاةِ ومِن ذُرِّيَّتِي ، ربَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ * ربَّنَا اغْفِرْ لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يومَ يقومُ الحساب ﴾

فى قوله : « ربِّ اجعلني مقيم الصلاة . . » إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة ، فمعناه اجعل صلاتى ، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى ، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً .

وقوله : « ومن ذريتى » : أى اجعل منهم قوماً يُصَلُّون ، لأنه أخبره فى موضع آخر بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » (١)

ثم قال : « ربنا اغفر لى ولوالدىَّ » وهذ قبل أن يعلم أنه لا يُؤْمِن .

ويقال إن إجابة الدعاءِ ابتداء فضلٍ منه . ولا ينبغى للعبد أن يَتَّكِلَ على دُعاءِ أحد وإن كان عَلِيَّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ؛ فلا دعاء أتمُّ منْ دعاءِ إبراهيم عليه السلام ، ولا عنايةَ أتمُّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .

ويقال لا ينبغى للعبد أن يترك دعاءه أو يقطعَ رجاءه فى ألا يستجيبَ الله دعاءه ، فإن إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حينما لم يُجَبْ فيه . فلا غضاضةَ على العبد ولا تناله مَذَلَّةٌ إنْ لم يُجِبْهُ مولاه فى شىء ؛ فإنَّ الدعاء عبادةٌ لا بدَّ للعبد من فِعْلها ، والإجابةُ من الحقِّ فضلٌ ، وله أن يفعل وله ألا يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾

هذا وعيدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين ؛ فالمظلوم إذا تحقَّق بأنه — سبحانه — عالِمٌ بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه تحمله .

---

(١) آية ١٢٤ سورة البقرة .

والظلم على وجوه ؛ ظلمٌ على النَّفْس بوضع الزَّلَّةِ مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه ، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين .

ويقال من جملة الظالمين الشيطانُ ، فالعبدُ المؤمنُ مظلومٌ من جهته ، والحقُّ — سبحانه — ينتصف له منه غداً ، وذلك إنْ لم يَتَّبِعْهُ اليومَ ، ودَفَعَه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يُؤَخِّرُهُم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ * مُهْطِعِين مُقْنِعِي... الآية ﴾

وهذا للعوام من المؤمنين ، علَّق قلوبهم بالانتقام منهم فى المستأنف ، وأمَّا الخواص فإذ علموا أنه — سبحانه — عالِمٌ بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأمَّا خواص الخواص فإذ علموا أنهم عبيده فإنهم لايرضون بالعفو عن ظُلْمِهم حتى يستغفرَلهم ، كما قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، وفى معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن ذى زلة حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

وأمَّا أصحاب التوحيد فإذ عَلِمُوا أنه المنشىء ، وألا مخترعَ سواه فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، ولا معَ أحدٍ مُعَاتَبَة ، ولا منه مطالبة ، لأنهم يَعُدُّون إثباتَ الغيرِ فى الظن والحسبان شِرْكاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنذِرِ الناسَ يومَ يأتيهم العذابُ فيقولُ الذين ظَلَمُوا ربَّنا أخِّرْنا إلى أجلٍ قريبٍ نُجِبْ دعوتَكَ ونَتَّبِعِ الرُّسُلَ أو لم تكونوا أقْسَمْتُم من قَبْلُ ما لكم من زوالٍ ﴾

أفسدوا فى أول أمورهم ، وقصَّروا فى الواجب عليهم ، ولم يكن للخَلَلِ فى أحوالهم جبران ، ولا لعذرهم قبول لتصحَّ الحجة عليهم ، فافتضح المجرم منهم ، وخاب الكافر ، وحُقَّ الحكمُ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسَهم وتبيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾

أحللنا بهم العقوبة ، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم ، وجريتم على منهاجهم ، وفعلتم مثلَ فِعْلِهم ، وبإمهالنا لكم اغتررتم . . فانْتَظِرُوا منَّا ما عاملناكم به جزاء لكم على ما أسلفتم .

ويقال إن معاشرةَ أهل الهوى والفسق ومجاورتَهم مُشَارَكةٌ لهم فى فِعْلِهم ، فيستقبلُ فاعلُ ذلك استقبالَهم ، ومَنْ سَلَكَهُم ينخرط فى التردِّى نحو وَهْدَةِ هلاكهِ مِثْلَهم .

قوله جل ذكره : ﴿فلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه إنَّ اللهَ عزيزٌ ذو انتقام﴾ .

أى لا تحسبنَّه يخلف رسله وعده ؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه فى قوله ، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقِّه فى مُلْكِه ، وهو « عزيز » لا يصل إليه أحد ، وإن كان ولياً . « ذو انتقام » لا يفوته أحد وإن كان (. . . . .)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ وبَرَزُوا للهِ الواحدِ القهار﴾.

لا يختلف عَيْنُها وإنما تختلف صورتها ، وكذلك إذا انكدرت النجوم ، وانشقت السماء يقال ما بدّل عينها وإنما بدَّل الأزمانَ والمكانَ على الناس باختلاف أحوالهم فى السرور والمحن ؛ كَمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول : تغيَّر الزمانُ والوقتُ . . وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء .

ويقال إن آدم لما قتل أحدُ ابنيه الآخرَ قال :

تغيرت البلادُ ومَنْ عليها فوجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قبيحُ

وفى هذه القصة[2] من كان صاحب بسطٍ فَرُدَّ إلى حال القبض ، ومن كان صاحب أُنسٍ

---

(١) وردت لفظتان هكذا (سهماً قوماً) .

(٢) يشير القشيرى إلى (بالقصة) إلى الحياة الصوفية .

فصار صاحب حجاب — يصحُّ أن يقال بدل له الأرض ، قال بعضهم :

ما الناس بالناس الذى عهدى بهم ولا البلاد بتلك التى كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة ، وكانت الأرض به راجفة ، وكان النهار له ليلا ، وكان الليل له ويلا ، وكما قيل :

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ ولا ماء الحيـاة ببارد

قوله جل ذكره : ﴿ وتَرَى المُجْرِمين يومئذٍ مُقَرَّنِينَ فى الأصفاد * سَرابِيلُهم من قَطِرَانٍ وتَغْشَىٰ وُجوهَهُم النارُ * لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إنَّ اللهَ سريعُ الحساب ﴾ .

الأصفاد الأغلال . الأصفاد تجمعهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سرابيلهم ، والحميم شُرْبُهم ، والنارُ محيطةٌ بهم . . وذلك جزاء مَنْ خالف إلهه .

قوله جل ذكره : ﴿ هذا بَلاغٌ للناس وَلِيُنْذَرُوا به ولِيَعْلَموا أنَّما هو إلـهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الألبابِ ﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لائحة ، والدواعى واضحة ، والمهلة متسعة ، والرسول عليه السلام مُبَلِّغ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكنَّ القسمةَ سابقةٌ ، والتوفيقَ عن القيام ممنوعٌ ، والربُّ — سبحانه — فعَّالٌ لما يريد ، فَمَنْ اعتبر نجا ، ومن غفل تردَّى . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليُعْلَمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلم يُقْبَلْ من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَنْ رَدَّ لاستيجاب علة . فإنْ قيل العِلَّةُ فى إسقاط الألف من بسم الله كثرةُ الاستعمال فى كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود ، فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ الٓر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبين ﴾ .

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة فى الخطاب ، فأعرضوا عن كل شىء وسمعوا لها . ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التى يسمعونها آياتُ الكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابُهم ، واستعدت لسماع ما يقول آذانُهم : « تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين » .

ووصف القرآن بأنه مبين ؛ لأنه يُبَيِّنُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم ، وللمريدين ما يقوى رجاءهم ، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم ، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم ، ويبيِّن للمصطفى — صلى الله عليه وسلم — تحقيقَ ما مَنَعَ غَيْرَه بعد سؤاله . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام : « لن ترانى » بعد سؤاله : « رب أرنى أنظر إليك »[1]

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف

قوله جل ذكره : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا ، وأى كأس رشفوا .

ويقال إذا صارت المعارفُ ضروريةً أحرقَتْ نفوسَ أقوامِ العقوبةُ ، وقطَّعَتْ قلوبَهم الحَسْرَةُ .

ويقال لوعرفوا حالَهم وحالَ المؤمنين لعَلِمُوا أن العقوبةَ بإهلاكهم حاصلةٌ لقوله تعالى بعدئذ :

﴿ ذَرْهُم يأكلوا ويَتَمَتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوف يعلمون ﴾ .

قيمةُ كل امرئٍ على حسب هِمَّتِه ؛ فإذا كانت الهمةُ مقصورةً على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يُحَاسَبُ ، وعلى العقل لا يُطَالَبُ ؛ فالتَّكليفُ يتبعه التشريف ! وغداً سوف يعلمون .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَهْلَكْنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلومٌ * ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وما يستأخِرون ﴾ .

الآجال معلومة ، والأحوال مقسومة ؛ والمشيئة فى الكائنات ماضية ، ولا تخفى على الحق خافية

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا يأيها الذى نُزِّل عليه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُون ﴾ .

الجنون معنًى يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه ، فلمَّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أَوْلَى بما وصفوه به[1] ، فهم كما فى المَثَل : رَمَتْنِي بِدَائِها وانْسَلَّت .

---

(١) لأنهم ليسوا عقلاء ولا تحصيل لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْمَا تأتِينا بالملائكةِ إن كنتَ من الصادقين * ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلاَّ بالحقِّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين ﴾

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أيَّد به معجزاتِه ، فيتوجب اللَّوْمُ عليهم لسوءِ أدَبِهم . وأخبر الحقُّ — سبحانه — أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكةَ لأبصارِ بنى آدم فيكون ذلك عند استبصارهم ؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية . وفى المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقتُ أوَانَ هَلَاكِهم ؛ لِعِلْمِه أنَّ فى أصلابهم مَنْ يؤْمنُ بالله سبحانه فى المستأنف .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافظون ﴾ .

أنزل التوراة وقد وَكَلَ حفظها إلى بنى إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله ، فحرَّفوا وبَدَّلوا ، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظه ، وإنما يحفظه بقرائه ؛ فقلوبُ القُرَّاءِ خزائنُ كتابه ، وهو لا يضيع كتابه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا مِن قَبْلِكَ فى شِيَعِ الأولين * وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون * كذلك نَسْلُكُه فى قلوبِ المجرمين * لا يُؤْمِنون به وقد خَلَتْ سُنَّة الأولين ﴾ .

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب ، وأنه أدام سُنَّتَه معهم فى التعذيب . ثم قال : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » : وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة ، وسَدَّ — بالحرمان — عليهم سلوكَ الطريقة ، وبيَّن أنه لو أراهم الآياتِ عياناً ما ازدادوا

إلا عتواً وطغيانا ، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو فتَحْنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يَعْرُجُون * لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا بل نحن قومٌ مَسْحُورُون ﴾

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا ، وبأمر التكوين مقضياً . . فمتى ينفع فيه النصح ؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ ؟ كلا . . إن البصيرةَ له مسدودةٌ ، و (. . . .)[1] الخذلان بِقَدَمِهِ مشدودة ، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة ، والحقيقة على الخديعة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزَيَّنَّاها للناظرين ﴾

بروجاً أى نجوماً هى لها زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .

﴿ وحَفِظْناها من كلِّ شيطان رجيم * إلا مَنِ استَرَقَ السمعَ فأتْبَعَهُ شِهابٌ مبين ﴾ .

إذا رام الشياطينُ أن يسترقوا السمعَ كانت النجومُ لها رجوماً

كذلك للقلوب نجومٌ وهى المعارف وهى فى الوقت ذاته رجوم على الشياطين ؛ فلو دنا إبليسُ وجنودُه من قلب ولىٍّ من الأولياء أحرقَتْه بل محقَتْه نجومُ عقلِهِ وأقمارُ علمِهِ وشموسُ توحيدِه .

وكما أنَّ نجومَ السماء زينةٌ للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهى زينة .

قوله جل ذكره : ﴿ والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ ﴾

---

(١) مشتبهة وهى فى الخط هكذا (متقلاب) وربما كانت (متقلات) بمعنى اثقال وقيود .

النفوس أرض عبادة العابدين ، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة ، والخوف والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرهبة .

ويقال من الرواسى التى أثبتها فى الأرض الأولياء فَبِهِمْ يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ . ومن الرواسى العلماء الذين بهم قِوَامُ الشريعة ؛ فعلماء الأصول هم قِوامُ أصلِ الدِّين ، والفقهاء بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيحُ والأمنُ والمُزْنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْبَتْنَا فيها مِن كلِّ شىءٍ موزون ﴾

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار[1] أنبت فى القلوب صنوفاً من الأنوار[2] ، منها نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد . . إلى غير ذلك من الأنوار .

﴿ وجعلنا لكم فيها معايشَ ومَن لستم له برازقين ﴾

سببُ عيشِ كلٍّ واحدٍ مختلفٌ ؛ فعيْشُ المريدين من إقباله ، وعيش العارفين التجمل بأفضاله[3]

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مِّن شىءٍ إلا عندنا خزائنه وما نُنَزِّلُه إلا بِقَدَرٍ معلوم ﴾

خزائنه فى الحقيقة مقدوراته ، وهو — سبحانه — قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث . ويقال خزائنه فى الأرض قلوبُ العارفين بالله ، وفى الخزانة جواهر من كل صنف ؛ فحقائق العقل جواهر وضعها فى قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار العارفين

---

(١) أنوار النبات جمع نورة وهى الزهرة البيضاء .
(٢) أنوار القلوب جمع نور .
(٣) وردت (أفعاله) وقد رجحنا (أفضاله) لأنها أدق فى المعنى ، وإن كان كلاهما صحيحا

مواضع سِرِّه ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزانةُ ذِكْرِه .

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خُطَاه عن التردد على منازل الناس فى طلَبِ الإرْفاق منهم ، وسعى فى الآفاق فى طلب الأرزاق منها ، قاطعاً أمَلَه عن الخَلْق ، مُفْرِداً قلبَه لله متجرِّداً عن التعلُّق بغير الله .

قوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » : عَرَّفَ القِسْمَة مَن استراح عن كدِّ الطلب ؛ فإنَّ المعلومَ لا يتغير ، والمقسوم لايزيد ولا ينقص ، وإذا لم يَجِبْ عليه شىء لأحد فبقدرته على إجابة العبد إلى طلبته لايتوجب عليه شىء .

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحمُّلِ المِنَّةِ من الأغنياء مما يعطونهم ، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً ، فليس للفقير صَرْفُ القلب عن الله سبحانه إلى مخلوق واعتقادُ مِنَّةٍ لأحد ، إذ المُلْكُ كله لله ، والأمر بيد الله ، ولا قادر على الإبداع إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ فأنزلنا من السماء ماء ﴾

كما أن الرياحَ فى الآفاق مُقَدِّمَاتُ المطر كذلك الآمال فى القلوب،وما يقرب العبدمما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر ، ونسيم النجاة فى الطلب يحصل ، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف .

قوله جل ذكره : ﴿ فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

أسقاه إذا جعل له السُّقيا ؛ كذلك يجعل الحق — سبحانه — لأوليائه ألطافاً معلومة فى أوقات محدودة ؛ كما قال فى وصف أهل الجنة : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » .

كذلك يجعل من شراب القلوب لكُلٍّ ورداً معلوماً ، ثم قضايا ذلك تختلف : فمِنْ شراب يُسْكِر ، ومن شراب يُحْضِر ، ومن شراب يزيل الإحساس ، كما قيل :

فصحوك من لفظى هو الصحو كله وسُكْرُكَ من لحظى يبيح لك الشُّرْبا

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ، ولا عن الخلائق لهم خبر .

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عطَّرتْها بنفحات الأُنس ، فيَسقُونَ في نسيمها على الدوام ، وفي معناه أنشدوا :

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرَّةً[1] ولا ثوبَ إلا بُرْدَةً وردائيا
وما زال بُرْدِي لينا من ردائها إلى الحوْلِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مناقِبَه ومثالبُه محاسنه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميتُ ونحن الوارثون ﴾ .

نحيي قلوبهم بالمشاهدة ، ونميت نفوسهم بالمجاهدة .

ويقال نحييهم بأن نفْنِيَهُم بالمشاهدة ، ونميتَهم بأنْ نأخذَهم عن شواهدهم .

ويقال يحيي المريدين بذكره ، ويميت الغافلين بهجره .

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات ، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات .

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله ، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمنا المُسْتَقْدِمين منكم ولقد علمنا المُسْتأخِرين ﴾ .

العارفون مستقدمون بِهِمَمِهم ، والعابدون مستقدمون بقَدَمهم ، والتائبون بندمهم . وأقوام مستأخِرون بقدمهم وهم العُصاة ، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون بخسائس الحالات .

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات ، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات .

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقِّ — من غير تعريجٍ إلى تفكر ، والمستأخِرون الذين يرجعون[2] إلى الرُّخَصِ والتأويلات .

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق ، والمستأخرون الذين تثبطهم مشقة الخذلان .

---

(١) قرة أي باردة .

(٢) وردت (يرجون) وهي خطأ في النسخ — حسبما نعرف من رأي القشيري في مثل هذا الموقف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ ربَّكَ هو يحشرهم إنَّه حكيم عليم ﴾ .

يبعث كلاً على الوصف الذى خرجوا من الدنيا عليه : فمن منفرد القلب بربه ، ومن مُتَطَوِّحٍ فى أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمأٍ مَسْنون * والجانَّ خلقناه مِن قَبْلُ من نار السَّموم ﴾ .

ذكَّرَهم بخِسَّتِهم لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم .

ويقال القيمة فى القُربةِ لا بالتُّربة ، والنسب تربة ولكن المتَ قربة .

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم » . وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجىء منها شىء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك العدو[1] لمَّا انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده ، وأمَّا آدم — عليه السلام فلمَّا اغْتَرَّ جَبَرَهُ ماء العناية ، قال تعالى : « ثم اجتباه ربه . . . »[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إنى خالقٌ بَشَراً من صلصالٍ من حمأٍ مَسْنُونٍ * فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيه مِن روحى فقعوا له ساجدين * فَسَجَدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعون * إلاَّ إبليسَ أَبَى أن يكونَ مع الساجدين ﴾ .

أظهرهم بهذا القول ، وفى عين ما أظهرهم سَتَرَهم .

ويقال ليست العِبْرة بقوالبهم ، إنما الاعتبار بالمعانى التى أودعها فيهم .

---

(١) يقصد إبليس . (٢) آية ١٢٢ سورة طه .

ويقال الملائكة لاحظوه بعين الخلقة فاستصغروا قَدْرَه وحاله ، ولهذا عَجِبوا من أمرِ الله — سبحانه — لهم بالسجود له ، فكشف لهم شظية مما اختَصَّه به فسجدوا له .

قوله : « إلا إبليس أبى أن يكونَ من الساجدين » : وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عن أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبَقِيَ فى ظُلمة الحَيْرةِ .

ويقال بَخِلَ بسجدةٍ واحدةٍ ، وقال : أَسْتَنْكِفُ أنْ أسجد لغير الله . ثم من شقاوته لا يبالى بكثرة معاصيه ، فإنه لا يَعْصِي أحدٌ إلاَّ وهوسببُ وسواسه ، وداعيه إلى الزَّلَّةِ . . وذلك هو عين الشقوة وقضية الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ قال يا إبليسُ مَالَكَ ألاَّ تكونَ مع الساجدين * قال لم أكُن لأسجد لبشرٍ خَلَقْتَه من صلصالٍ من حمأٍ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنَّ عليكَ اللَّعْنَةَ إلى يوم الدين ﴾ .

سأله ومعلومٌ له حالُه ، ولو ساعدته المعرفةُ لقال : قُلْ لى مالك ؟ وما مَنَعَكَ ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول : أنت .. حيث أشقَيْتَني ، وبقهرِك أغْوَيْتَني ، ولو رَحِمْتَني ، لَهَدَيْتَنِي وفى كنف عصمتك آويتنى ... ولكنَّ الحرمانَ أدركه حتى قال : « لم أكن لأسجد لبشرٍ »

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ فأنظِرْنى إلى يوم يُبْعَثُون * قال فإنك مِنَ المُنظَرِين * إلى يوم الوقتِ المعلومِ ﴾ .

ولمَّا أبعده الحقُّ — سبحانه — عن معرفته ، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة والبعث ، فأجابه . وظَنَّ اللَّعينُ أنه حصل فى الخير مقصوده ، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً ، فكأنه كان فى الحقيقة مكراً — وإن كان فى الحال فى صورة إجابة السؤال بما يُشْبِهُ اللطفَ والبِرَّ .

وبعض أهل الرجاء يقول : إن الحق — سبحانه — حينما يهين عدوَّه لا يَرُدُّ دعاءه

فى الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار ؛ فالمؤمن — إذ أمْرُهُ الاستغفارُ والسؤالُ بوصفِ الافتقارِ — أَوْلَى ألا يقنطَ مِنْ رحمتِه ، لأنَّ إنظارَ اللعينِ زيادةُ شقاءٍ له لا تحقيق عطاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ بما أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فى الأرضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُم أجمعين ﴾

الباء فى : « بما أغويتنى » باء القَسَم ، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقْسِم به لولا فَرْطُ جَهْلِه . ثم هو فى المعنى صحيح ، لأنَّ الإغواء مما يتفرَّدُ الحق بالقدرة عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولكنَّ اللعينَ لا يعرف الله على الحقيقة ، إذ لو عَرَفَه لم يدعُ إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلالِ غيرِه لاستبقى على الهدايةِ نَفْسَه . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حَدْساً وهو لم يَعْرِف الله — على الحقيقة — قَطُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا عبادَك منهم المُخْلَصِين * قال هذا صِراطٌ عَلَيَّ مستقيم ﴾

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمالُ عن الغَيْن وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال . وقد عَلِمَ اللعينُ أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمَّا تحقَّقَ من عناية الحقِّ بشأنهم .

« قال هذا صراط علىَّ مستقيم » تهديدٌ ، كما تقول : افعل ما شِئْتَ . . وهذا طريق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عبادى ليس لَكَ عليهم سلطانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوين ﴾

السلطان الحجة ، وهى لله على خَلْقِه ، وليس للعدوِّ حجة على مخلوق ، إذ لا تتعدَّى مقدرتُه محلَّه ، فلا تَسلُّطَ — فى الحقيقة[1] — لمخلوقٍ على مخلوق بالتأثير فيه .

« إن عبادى ... » : إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاص ، وهم الذين حماهم عن شواهدهم ، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة

(١) نلاحظ أن القشيرى يكثر فى هذا الموضوع من قوله (فى الحقيقة ، وعلى الحقيقة . . ونحو ذلك) والسبب فى ذلك راجع إلى أن ظاهر النصوص أن لابليس إرادة وفعلا ، ولكن — فى الحقيقة — كل شىء مرده إلى الحق سبحانه .

وجرّدهم عن حَوْلهم وقوّتهم ، وكان النائبَ عنهم فى جميع تصرفاتهم وحالاتهم ، وحفظ عليهم آدابَ الشرع ، وألبَسهم صِدارَ الاختيار فى أوان أداء التكليف ، وأخذهم عنهم باستهلاكهم فى شهوده ، واستغراقهم فى وجوده . . . فأىُّ سبيلٍ للشيطان إليهم؟ وأى يدٍ للعدو عليهم ؟

ومَنْ أشهده الحقُّ حقائقَ التوحيد ، ورأى العالَمَ مُصَرَّفاً فى قبضة التقدير ، ولم يكن نهباً للأغيار .. فمتى يكون لِلَّعين عليه تسلط ، وفى معناه قالوا :

جحودى فيك تقديسٌ وعقلى فيك تهويسُ
فمن آدم إلاّ كَ ومَنْ فى البيت إبليسُ[1]

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهم أجمعين * لها سَبْعَةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جُزْءٌ مَقْسُوم ﴾ .

اجتمعوا اليومَ فى أصل الضلالة ، ثم الكفر مِلَلٌ مختلفةٌ ، ثم يجتمعون غداً فى العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون ، لكلٍّ دَرَكَةٍ من دركات جهنم قوم مُخَصُّون .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ المتَّقين فى جناتٍ وعيون ﴾ .

المتقى مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقَى بِتَكلُّفِهِ ، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلاَّ بعد أن وقَّاه الحقُّ — سبحانه — بفضله . هم اليومَ فى جنات ولها دَرَجات بعضها أرفعُ من بعض ، كما أنهم غداً فى جنّات ولها درجات بعضها فوق بعض .

اليوم لقومٍ درجةُ حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأُنْسِ والقربة ، قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم ولزم كلُّ قومٍ مذهبَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادخلوها بسلامٍ آمنين ﴾ .

---

(١) هذان البيتان للحلاج (الطواسين ص ٤٢) والديوان المقطعة رقم ٢٨ ومعناهما : أنى لو سجدت لغيرك — حسبما أمرتنى — فأنا جاحد ، ولكن — نظراً لمرفق بك — فإن جحودى عين تقديسى ، لأنى أعلم أنه لا يستحق السجود على الحقيقة إلا أنت ، فأنا راض بامتثال لمنتك تمالعدم امتثالى لإرادتك.

معناه : يقال لهم : « أدخلوها » ، وأُجْمِلَ ذلك ولم يقل مَن الذى يقول لهم . ويرى قومٌ أن المَلَكَ يقول لهم : أدخلوها .

ويقال إذا وافَوا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدةَ ، وتاسوا الأمورَ الشديدةَ فمِنْ حقِّهم أن يدخلوا الجنة ، خاصةً وقد علموا أنَّ الجنةَ مُباحةٌ لهم ، ولعلهم لايفقهون حتى يقال لهم

ويقال يحتمل أنهم لايدخلونها بقول المَلَكِ حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :

ولا أَلْبَسُ النُّسكَ وغيرُك مُلْبِسٌ ولا أَقْبَلُ الدنيا وغيرك واهبُ

قوله : « بسلامٍ آمنين » : بمعنى السلامة ، وهى الأمان ، فيأمنون أنهم لايخرجون منها

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لايخرجون عما هم عليه من الحال ؛ فالرؤيةُ لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية — مديدةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَزَعْنا مافى صُدُورِهم من غِلٍّ ﴾ .

أمَرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال : « وطَهِّر بيتى »[1] ، وأمَرَ جبريلَ عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فطَهَّرَه[2] .. وتولَّى هو — سبحانه — بنفسه تطهيرَ قلوب العاصين ، فقال : « ونزعنا مافى صدورهم من غل »[3] وذلك رفقاً بهم ، فقد يصنع الله بالضعيف مايتعجَّبُ منه القوى ، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبُهم ، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم .

ويقال قال : « مافى صدورهم » ولم يقل مافى قلوبهم لأن القلوب فى قبضته يقلبها ، وفى الخبر : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » : يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً . وقيل بين إصبعين أى نعمتين

قوله جل ذكره : ﴿ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلين ﴾

قابل بعضُهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كلُّ واحدٍ عن صاحبه سِرَّه وقلبَه ، فالنفوس متقابلة

---

(١) آية ٢٦ سورة الحج .

(٢) أنظر كتاب (المعراج) للقشيرى ففيه تفصيل ذلك

(٣) عن على بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم وأن الغل هو الجاهلية الذى كان بين تيم وعدى وبنى هاشم فلما أسلموا تحابوا .

ولـكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة ؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : « واعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه »[1]

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بِمُخْرَجِين ﴾ .

أى لا يلحقهم تعبٌ ؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكان ، ولا تحار أبصارهم ، ولا يلحقهم دَهَشٌ ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .

« وما هم منها بمخرجين » أى لا يلحقهم[2] ذلُّ الإخراج بل هم بدوام الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أنا الغفورُ الرحيم ﴾

لمَّا ذَكَرَ حديثَ المتقين ومالهم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين ، فتداركَ اللهُ قلوبهم ، وقال لنبيِّه — صلى الله عليه وسلم — أخبر عبادى العاصين أنى غفور رحيم ، وأنى إنْ كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين .

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله : « أنى أنا » بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة ؛ لأنه يكون عندئذ مُخْتَطَفاً عن شاهده ، مُسْتَهْلَكاً فى أنيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنَّ عَذَابِى هو العذابُ الأليم ﴾ .

العذابُ الأليم هنا هو الفراق ، ولا عذابَ فوق الفراق فى الصعوبة والألم[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَبِّئْهم عن ضيفِ ابراهيم * إذ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاماً ﴾ .

ألا عرَّفهم كيف كانت فتوة الخليل فى الضيافة ، وقيامه بحقِّ الضيفان ، وكان الخليلُ

---

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) هنا وقع الناسخ فى خطأ التكرار إذ أعاد كتابة عبارات سابقة مما ورد بعد (لا يلحقهم تعب ... إلخ) :

(٣) أى أن عذاب الفراق يفوق فى نظر الصوفية — عذاب الاحتراق .

عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلمَّا سلموا من جانبهم وردَّ عليهم وانْقَضُوا عن تناولِ طعامِه :

﴿ قال إنَّا منكم وَجِلون ﴾ .

وَجِلون أى خائفون ، فإنَّ الإمساكَ عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة . ولمَّا عَلِمَ أنهم ملائكةٌ خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين . ولكن سكن رَوْعُه عندما قالوا له :

﴿ قالوا لا تَوْجَلْ إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عليم ﴾ .

فليس لك موضِعٌ للوَجَلِ لكن موضِعٌ للفَرَجِ ؛ فإنا جئناكَ مُبَشِّرين ، وإنْ كُنَّا لغيرِكَ مُعَذِّبين .

نحن « نبشرك بغلام عليم » : أى يعيش حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشارتُهم بالوَلَدِ وببقاءِ الولد هى العجب فقال :

﴿ قال أبشرتمونى على أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ فبِمَ تُبَشِّرون * قالوا بَشَّرْناكَ بالحقِّ فلا تكن مِّنَ القانطين * قال ومَن يَقنطُ من رحمة ربِّه إلا الضالون ﴾

قال أبشرتمونى وقد مَسَّنى الكِبَرُ ؟ وإنَّ الكبير قد فاته الوقت الذى يفرح فيه من الدنيا بشىء . بماذا تبشرونى وقد طَعَنْتُ فى السنِّ ، وعن قريبٍ أرتحل إلى الآخرة ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً .

قال : كيف أخطأ ظنكم فىّ فتوهمتم أنى أقنط من رحمة ربى ؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث ، وعرف أنه لن يُصيبَه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم :

﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المُرْسَلون * قالوا إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين * إلاَّ آلَ لوطٍ إنّا لَمُنَجُّوهُم أجمعين * إلاَّ امرأتَه قَدَّرْنا إنَّها لَمِنَ الغابرين ﴾ .

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم فى الفساد ، وكانت تدل قومه على أضيافه ، فاستوجبت العقوبة .

فلمَّا وافى المرسلون من آل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر ، وتفرَّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم ، قالوا : بل جئناكَ بما كان قومُك يَشُكُّونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم ، وآتيناك بالحق ، أى بالحكم الحق :

﴿ فَأَسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيلِ واتَّبِعْ أدْبارهم ولا يلتفِتْ مِنكُم أحَدٌ وامضوا حيثُ تؤْمَرُون ﴾

فأَسْرِ بأهلك بعد ما يمضى شىء من الليل ، وامش خلفهم ، وقدِّمهم عليك ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يَرَوْا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلَك إلا امرأتك ، فإنا نعذبها لمشاركتها مع قومك فى العصيان . « وامضوا حيث تؤمرون » : فلكم السلامة ولقومكم العقوبة .

« وقضينا إليه ذلك الأمر » أى عَلَّمْناه وعَرَّفْناه : « أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوع » ؛ أى أنهم مُهْلَكون ومُسْتَأْصَلون بالعقوبة .

ثم لما نزل الملائكةُ بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافى ، فلا تتعرضوا لهم فتفضحونى ، واتقوا اللهَ ، وذروا مخالفة أمره ولا تُخْجِلونى . فقال قومه : ألم نَنْهَكَ عن أن تحيِيَ أحداً ، وأمرناك ألا تمنعَ مِنَّا أحداً ؟ فقال : هؤلاء بناتى يعنى نساء أمتى . وقال قومٌ :

أراد بناتِه من صلبه ، عَرَضَهن عليهم لئلا يُلِمُّوا بتلك الغلطة الفحشاء ، فلم تنجع فيهم نصيحة ، ولم يُقْلِعوا عن خبيثِ قَصْدِهم .

فأخبره الملائكة ألا يخافَ عليهم ، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم ، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهم لفى سَكْرَتِهم يَعْمَهُون ﴾

أقسم بحياته تخصيصاً له فى شرفه ، وتفضيلاً له على سائر البرية ، فقال وحياتك — يا محمد — إنهم لفى ضلالتهم وسكرة غفلتهم يتردَّدون ، وإنهم عن شِرْكهم لا يُقْلِعون .

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن فى وقته حياة أشرف من حياته — إنهم فى خمارِ سُكْرِهم ، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً ، ولا يخافون سوءاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فأخذتهمُ الصيحةُ مُشْرِقين * فجعلنا عالِيَها سافِلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ * إن فى ذلك لآياتٍ للمتوسِّمين * وإنها لَبِسَبِيلٍ مُقيمٍ * إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ .

باتوا فى حبور وسرور ، وأصبحوا فى محنة وثبور ، وخرَّت عليهم سقوفُهم ، وجعلنا مُدَنَهم ومنازِلهم عاليَها سافِلَها ، وأمطرنا عليهم من العقوبة مالم يُبْقِ عيناً ولا أثَراً ، إنَّ فى ذلك لَعِبْرةً لمن اعتبر ، ودلالةً ظاهرة لمن استبصر ، « وإنها لبسبيل مقيم » لِمَنْ شاء أن يَعْتَبِرْ

قوله جل ذكره : ﴿ إن فى ذلك لآياتٍ للمُتَوَسِّمين ﴾[1]

جاء فى التفسير « المتفرسين » ، والفراسةُ خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهورِ برهانٍ عليه ، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة . مشتق من فريسة

---

(١) أخر الناسخ تفسير هذه الآية عند النقل فوضعها بعد الآية ٨٦ (إن ربك هو الخلاق العليم) وقد صححنا هذا الوضع .

الأسد إذ لفريسته يقهر . والحق — سبحانه — يُطْلِعُ أولياءه على ما خفى على غيرهم . وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس فى جميع الأشياء وفى جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن تُسَدَّ عليه عيونُ الفراسة فى بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فَنَبِيُّنا — صلى الله عليه وسلم — كان يقول لعائشة — رضى الله عنها — فى زمان الإفك : « إنْ كُنْتِ فعلتِ فتوبى إلى الله » . وكإبراهيم ولوط — عليهما السلام — لم يعرفا الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كان أصحابُ الأيكةِ لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لَبِإمامٍ مبين * ولقد كَذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسلين * وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنها مُعْرِضِين * وكانوا يَنْحِتون مِنَ الجبالِ بيوتاً آمنين * فأخَذَتْهُم الصيحةُ مُصْبِحين * فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسِبون ﴾ .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان شعيب — عليه السلام — مبعوثا لهم فكَذَّبوه ، فانتقمنا منهم .

قوله : « وإنهما » يعنى مدين والأيكة . . . « لبإمام مبين » : أى بطريق واضح مَنْ قصده (. . .)[1] .

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر[2] — وهم ثمود — كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم أعرضوا عن الآيات التى هى المعجزات كناقةِ صالح وغيرها ، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُغْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموت والعذاب .

---

(١) مشتبهة .

(٢) الحجر واد بين المدينة والشام .

ثم أخبر أنهم أخذتهم الصيحةُ على بغتةٍ ، ولم تغنِ عنهم حيلتُهم لمّا حلَّ حَيْنُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وماخلقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما ﴾ .

دلّت الآيةُ على أنّ أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله لأنها بين السموات والأرض .

﴿ إلاّ بالحقِّ وإنّ الساعةَ لآتيةٌ ﴾

« إلا بالحق » : أى وأنا مُحقٌ فيه ويقال « بالحقِّ » : بالأمرِ العظيم الكائنِ إنّ الساعة لآتيةٌ يعنى القيامةَ .

﴿ فاصفَحِ الصفح الجميلَ ﴾

يقال الصفح الجميل الذى تذكَر الزّلّةُ فيه .

ويقال الصفح الجميل سحبُ ذيل الكَرَمِ على ما كان مِنْ غير عَقْدِ الزّلّةِ ، بلا ذِكْرٍ لما سَلَفَ من الذنب ، كما قيل :

تعالوا نصطلح ويكون منّا

(.....)[1]

ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عدٍّ الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصى ، قال قائلهم :

(وتُذْنِبُون فننسى ونعتذر)

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ ربَّكَ هو الخلّاقُ العليم ﴾ .

« هو الخلّاقُ العليم » إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المثانِي والقرآنَ العظيم ﴾ .

أكثرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثانى لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة

---

(١) الشطر الثانى مطموس غير واضح .

ومرة بالمدينة ، ولأنها شيء في كل سورة يتكرر ، من « الثنية » وهي التكرير ، أو لأن بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . ومعنى هذا مذكور في كتب التفاسير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما مَتَّعْنَا به أزواجاً منهم ﴾ .

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زَهْرَةِ الدنيا وزينتها .

ويقال غار على عينيه — صلى الله عليه وسلم — أن يستعملها في النظر إلى المخلوقات .

ويقال أَدَّبَه اللهُ — سبحانه — بهذا التأديب حتى لا يُعِيرَ طَرْفَه من حيث الاستئناس به .

ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لمَّا لم يكن اليومَ سبيلٌ لأحد إلى رؤيته[2] ، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ماخَوَّلْنَاهم ، كما قال بعضهم :

لمَّا تَيَقَّنْتُ أني لستُ أبصركم ... أغمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

ويقال شَتَّانَ بينه وبين موسى — عليه السلام ! قال له : لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل » ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — مَنَعَه من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال : « ولا تَمُدَّنَّ عينيك » .

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله ؟ !

ويقال لما أُمِرَ بِغَضِّ بَصَرِه عما يتمتَّع به الكفارُ في الدنيا تَأَدَّبَ — عليه السلام — فلم ينظرْ ليلةَ المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة ، فأثنى عليه الحقُّ بقوله : « مازاغ البصر وما طغى » وكان يقول لكل شيء رآه : « التحيات لله » أي المُلْكُ لله .

---

(١) ويرى بعضهم أنها سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة فقيل الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما ، وقيل سورة يونس . أو أسباع القرآن .

(٢) الضمير في (رؤيته) يعود إلى الحق سبحانه ، والمقصود حفظ العين — من قبيل الوفاء — لكي لا تعاين سواه سبحانه فيما بعد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْزَنْ عليهم ﴾

أدّبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ واخْفِضْ جناحَكَ للمؤمنين ﴾

أى ألِنْ لهم جانبَكَ . وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة[1] فى الشفاعة إلى مواليها يمضى معها .. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِه — صلوات الله عليه — وكان فى الخبر : إنه كان يخدم بيته وكان فى (مهنة) أهله[2] . وتولّى خدمة الوفد ، وكان يقول: سيدُ القومِ خادمُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ إنّى أنا النذيرُ المبين ﴾

لمّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه — سبحانه وتعالى — سَلِمَ له أن يقول : إنى وأنا . وفى الخبر : أن جابراً دَقَّ عليه الباب ، فقال : مَنْ ؟ قال : أنا . . فقال النبى عليه السلام : « أنا أنا » .. كأنه كرهها[3]

ويقال : قُلْ لاحدٌ لاستهلاكك فينا ، سلّمنا أن تقول : إنى أنا ، لما كنتَ بنا ولنا .

قوله جل ذكره ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾

أى قل إنى أنا لكم مُنْذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذى عذّبْنا به المقتسمين ؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه فى قصه صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ؛ فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه .

ويقال إنى لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة فى الموسم ، وصدوا الناس . وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به : لا تؤْمِنْ بمحمدٍ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم :

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾[4]

---

(١) الوليدة = الجارية ، قال طرفة :

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ... ترى ربها أذيال سعل ممدد

(٢) عن الأسود بن يزيد : قال سئلت عائشة رضى الله عنها ما كان النبى (ص) يصنع فى بيته ؟ قالت : كان يكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إليها (رواه البخارى) .

(٣) الحديث جاء مضطرب الكتابة فى النسختين وقد صححناه كما أورد النووى فى رياض الصالحين ط بيروت ص ٣٥١

(٤) عضين ج عضة وأصلها عضوة أى جزء ، وعضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساما .

فتفرقوا القول فيه ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال بعضهم إنه سحر ، وقال بعضهم إنه كهانه . . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عما كانوا يَعْمَلُون ﴾

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .

ويقال يسأل قوماً عن حركات ظوهراهم ، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم . ويسأل الصديقين عن تصحيح المعانى بفعالهم ، ويسأل المدَّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم .

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقومٍ أُنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلِّمهم ويُسْمِعُهُم خطابَه لاشتياقهم إليه ، ولا عَجَبَ فى ذلك فالمخلوق يقول فى مخلوق :

من الخَفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها إذا ما انتهت أُحْدُوثَةٌ لَوْ تُعِيدُهَا

فلا أسعدَ مِنْ بَشَرٍ يعرف أنَّ مولاه غداً سيكلمه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصدع بما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾

كُنْ بنا وقُلْ بنا ، وإذا كنتَ بِنا ولَنَا فلا تجعلْ حِساباً لغيرنا ، وصرِّحْ بما خاطبناك به ، وأَفْصِحْ عَمَّا نحن خصصناكَ به ، وأَعْلِنْ محبتنا لك :

فسبِّحْ[1] باسم مَنْ تَهْوى ودَعْنا من الكُنَى فلا خيرَ في اللَّذاتِ مِنْ بعدها سَتْرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخَرَ فسوف يعلمون ﴾

الذين دَفَعْنَا عَنكَ عاديةَ[2] شَرِّهم ، ودَرَأْنا عنكَ سوء مكرهم ، ونصرناك بموجب

---

(١) الأصل فى البيت (فصرح) والتصريح يقابل (الكناية) .

(٢) وردت (عادية) بالغين ، والملائم للسياق (عادية) بالعين . حيث يقال (دفعت عنك عادية فلان أى ظلمه وشره) : الوسيط ص ٥٩٥ .

عنايتنا بشأنك . . فلا عليكَ فيما يقولون أو يفعلون ، فما العقبى إلا لكَ بالنصر والظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نعلمُ أنكَ يضيقُ صدرُك بما يقولون * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وكُن مِّنَ الساجدين ﴾ .

وقال : « يضيق صدرك » ولم يقل يضيق قلبك ؛ لأنه كان فى محل الشهود ، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله ، ولا تكون مع اللقاء وحشة .

ويقال هَوَّنَ عليه ضيق الصدر بقوله : « ولقد نعلم » ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمِّكَ فارتفع[1] بلسانك فى رياض تسبيحنا ، والثناء علينا ، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا ، واستحقاق عِزِّنا .

قوله جل ذكره : ﴿ واعبد ربَّك حتى يأتِيَكَ اليقينُ ﴾

قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة ، إلى أنْ تجلس على بِساط القربة ، وتطالَبَ بآداب الوصلة .

ويقال التزِمْ شرائطَ العبودية إلى أنْ تَرْقَى بل تُكْنَى بصفات الحرية .

ويقال فى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »[2] : إن أشرف خصالك قيامك بحقِّ العبودية .

---

(١) وردت هكذا ونرجح أنها فى الأصل (فارتع) فهى أكثر ملاءمة للمعنى . جاء فى رسالة القشيرى ص ١١١ (وفى الخبر المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ، فقيل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : مجالس الذكر .

(٢) عن العلاقة بين العبودية واليقين ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله : « العبادة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين » الرسالة ص ٩٩ .

السورة التى يذكر فيها النحل

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ألف الوصل فى « بسم الله » لم يكن لها فى التحقيق أصل ، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسَّاكن ، وإذ وقع ذلك أنفا عنها أُسقِطَتْ فى الإدراج ، ولكن كان لها بقاء فى الخط وإنْ لم يكن لها ظهور فى اللفظ ، فلمَّا صارت إلى « بسم الله » أسقطت من الخط كذلك .. وكذلك من ازداد صحبةً استأخر[1] رتبةً .

ويقال أى استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت فى الخط ؟ وأى استحقاق إلى الألف فى قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأىُّ موجبٍ لحذف الألف من السمٰوات ؟

طاحت العِلَلُ فى الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة فى أرباب الردِّ والقبول ، قال تعالى « إن ربَّك فعَّال لما يريد »[2].

قوله جل ذكره : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوه سُبْحانَه وتعالى عمَّا يُشْرِكون ﴾ .

صيغة أتى للماضى ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى « سيأتى » أمر القيامة ، والكائناتُ كلُّها والحادثات بأمْرِها من جملة أمره ؛ أى حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره ، وقَضَائه وتدبيره ؛ فما يحصل من خير وشرٍّ ، ونفع وضُرٍّ ، وحلو ومُرٍّ .. فذلك من جملة أمره تعالى .

« فلا تستعجلوه » وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خامدون تحت جريان تصريف الأقدار ؛ فليس لهم إيثار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أمَّلُوا شيئاً ، أو أُخبِروا بحصول شىء فلا استعجالَ لهم ، بل شأنهم

---

(١) إن صح نقل هذه الكلمة عن الأصل فلربما يقصد القشيرى منها استخفى عن الظهور ، وازداد ذبولا ، وبعداً عن التظاهر والدعوى .

(٢) آية ١٠٧ سورة هود .

التأنّى والثباتُ والسكونُ . وإذا بَدَا من التقدير حُكمٌ فلا استعجالَ لهم لما يَرِدُ عليهم ، بل يتقبلون مفاجأةَ التقدير بوجهٍ ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردِّ والقبول ، والمنع والفتوح بوصف الرضاء ، ويحمدون الحق — سبحانه وتعالى — على ذلك .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » : تعالى عما يشركون بربهم ، والكفار لم ييسر لهم حتى أنّه لا سكَنَ لقلوبهم من حديثه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوح مِنْ أَمْرِه على مَن يشاء مِنْ عبادِه أنْ أنذِروا أنه لا إلٰه إلاَّ أنَا فاتقونِ ﴾ .

ينزل الملائكة على الأنبياء — عليهم السلام — بالوحى والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثُون . وإنزالُ الملائكةِ على قلوبهم غيرُ مردودٍ لكنهم لا يُؤْمَرُون أن يتكلموا بذلك ، ولايَحْمِلون رسالةً إلى الخَلْق .

ويُراد بالروح الوحى والقرآن ، وفى الجملة الروح ما هو سبب الحياة ؛ إمَّا حياة القلب أو حياة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحقِّ تعالى عمَّا يُشْرِكون ﴾

خَلَقَها بالحق ، ويَحكُم فيها بالحق ، فهو مُحِقٌّ فى خَلْقِها لأنَّ له ذلك ، ويدخل فى ذلك أمرُه بتكليف الخَلْق ، وما يَعْقُبُ ذلك التكليفَ من الحَشْرِ والنَّشْرِ ، والثواب والعقاب .

« تعالى عما يشركون » : تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه مليك

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ .

تَعرَّفَ إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب ، والتأليف اللطيف ؛ من نطفةٍ متماثلة الأجزاء ، متشاكلة فى وقت الإنشاء ، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والخروج من الخفاء . ثم ما رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل ،

ويَسَّرَ له النطقَ والفعل ، والتدبير فى الأمور ، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير .

قوله جل ذكره : ﴿ والأنعام خَلَقَها لكم فيها دِفْءٌ ومنافِعُ ومنها تأكلون ﴾ .

ذكَّرهم بما تفضَّل عليهم ، وأخبرهم بما للحيوانات من النِّعم ، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع فى جميع الأحوال ، كالحَمْلِ وكالسفر عليها وقطع المسافات ، والتوصُّل على ظهورها إلى مآربهم ، وما لنَسْلِها ولدرِّها من المنافع .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم فيها جمالٌ حين تُرِيحون وحين تَسْرحون * وتحمل أثقالَكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إنَّ رَبَّكم لرءوفٌ رحيم ﴾ .

الغنيُّ له جمال بماله ، والفقير له استقلال بحاله . . وشتَّان ما هما ! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون ، والفقراء يستقلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون . أولئك تحمل أثقالَهم جِمالُهم ، وهؤلاء يحمل الحقُّ عن قلوبهم أثقالَهم .

« لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » : قومٌ أحوالهم مقاساة الشدائد ؛ يَصِلُون سيرهم بسُراهم ، وقومٌ فى حمل مولاهم ؛ بعيدون عن كَدِّ التدبير ، مستريحون بشهود التقدير ، راضون باختيار الحقِّ فى العسير واليسير[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والخيلَ والبِغَالَ والحميرَ لِتَرْكَبُوها وزينةً ويَخْلُقُ مالا تعلمون ﴾ .

فالنفوس فى حَمْلها كالدواب ، والقلوب معتقة عن التعنِّى فى الأسباب . « ويخلق ما لا تعلمون » : كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون فى الآخرة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ فكذلك أرباب الحقائق يجدون — اليومَ — مالم يخطر قطُّ على بال ، ولا قرأوا فى كتاب ، ولا تلقنوه من أستاذ ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه

(١) يطلق القشيرى على الأول اصطلاح (متحمل) وعلى الثانى (محمول) .

لا يعلم تفصيله[1] سواه . . وكيف يعلم من أخبر الحقُّ — سبحانه — أنه لا يعلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ولو شاء لَهَدَاكُمْ أجمعين ﴾ .

قومٌ هداهم السبيل ، وعَرَّفَهم الدليل ، فصرفَ عن قلوبهم خواطر الشكِّ ، وعَصَمَهم عن الجَحْدِ والشِّرْك ، وأطْلَعَ فى قلوبهم شمسَ العرفان ، وأفردهم بنور البيان . وآخرون أضلّهم وأغواهم ، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم ، وفى سابق حُكْمِهِ من غير سببٍ أذَلَّهم وقمعهم[2] ، ولو شاء لعرَّفهم وهداهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شَجَرٌ فيه تُسِيمُون * يُنْبِتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كُلِّ الثمراتِ إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يتفكَّرون ﴾ .

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات ، وأجرى العادة بأن يديمَ به الحياة ، وينبت به الأشجار، ويخرج الثمار ، ويجرى الأنهار .

ثم قال : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ثم قال بعده بآيات : « لقوم يعقلون » ، ثم قال بعده : « لقوم يذكرون » . وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة[3] . فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن فى نظره خَلَلٌ وجب له العلم لا محالة ، ولا فرق بين العلم والعقل فى الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

ويقال إنما قال : « آيات لقوم يعقلون » : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير

---

(١) وردت (تفضله) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) (قمعهم) = قهرهم وذلهم . على أننا لا نستبعد — حسبما نعرف من كلف القشيرى بالجرس على الموسيقى اللفظية — أنها ربما كانت (أقام) أى صغرهم وأذلهم (انظر آية ٤ سورة القصص المجلد الثالث).

(٣) هذه نقطة هامة إذا أردنا أن ندرس مذهب المعرفة عند الصوفية عموماً ، والقشيرى بخاصة

عارفاً ، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل ، فللعالِم حتى يكون عارفاً بربِّه آياتٌ ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ؛ فبدليل واحد يعلم وَجْهَ النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وسَخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ ﴾

الليل والنهار ظرفا الفعل ، والناس فى الأفعال مختلفون : فموفَّقٌ ومخذول ؛ فالموفَّق يجرى وقته فى طاعة ربه ، والمخذول يجرى وقته فى متابعة هواه .

العابد يكون فى فَرْضٍ يقيمه أو نَفْلٍ يديمه ، والعارف فى ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤانسه ، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَطَفُون عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدرى أطال لَيْلِىَ أم لا ... كيف يدرى بذاك مَنْ يَتَقَلَّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالة لَيْلِى ... ورعيت النجومَ كنت مُخِلَّا

قوله جل ذكره : ﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمره إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون ﴾ .

هذا فى الظاهر ، وفى الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ذَرَأَ لكُمْ فى الأرض مُختلِفاً ألوانُه إنَّ فى ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون ﴾

أقوامٌ خَلَقَ لهم فى الأرض الرياضَ والغياض[1] ، والدور والقصور ، والمساكن والمواطن ، وفنون النِّعم وصنوف القِسَم . . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا لهم فى الأرض شِبْر ؛ لا ديارَ تملكهم ، ولا علاقة تُمْسِكُهُم — أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق .

---

(١) الغياض جمع غيضة وهى الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى سَخَّرَ البحرَ لتأكلوا منه لحمًا طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا منه حِلْيَةً تلبسونها وترى الفُلْكَ مواخِرَ فيه ولتبتغوا مِن فضلِهِ ولعلكم تشكرون ﴾

سخر البحر فى الظاهر ، وسهّل ركوبه فى الفُلْك ، ويَسَّر الانتفاع بما يستخرج منه من الحُلِيِّ كاللؤلؤ والدُّرِّ ، وما يُقْتَاتُ به من السمك وحيوان البحر .

ومن وجوه المعانى خلق صنوفا من البحر ، فقومٌ غَرْقَى فى بحار الشغل وآخرون فى بحار الحزن ، وآخرون فى بحار اللهو . . فالسلامةُ من بحر الشغل فى ركوب سفينة التوكل ، والنجاة من بحر الحزن فى ركوب سفينة الرضا ، والسلامة من بحر اللهو فى ركوب سفينة الذكر ، وأنشد بعضهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وألقى فى الأرض رواسِيَ أن تميدَ بكم وأنهارًا وسُبُلاً لعلكم تهتدون ﴾ .

الرواسى فى الظاهر الجبال ، وفى الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلْق ، بهم يرحمهم ، وبهم يغيثهم . . ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب . وفى الخبر : « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته » وقال تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »[2] ، كما قال تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم »[3] ، وأنشد بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن

قوله جل ذكره : ﴿ وعَلاَمَاتٍ وبالنَّجمِ هم يَهْتَدُون ﴾ .

الكواكبُ نجومَ السماء ومنها رجومٌ للشياطين ، والأولياء نجومٌ فى الأرضِ . وكذلك العلماء وهم أئمة فى التوحيد وهم رجومٌ للكُفَّار والملحدين .

---

(١) سقط الشاهد الشعرى من الناسخ .
(٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .
(٣) آية ٢٥ سورة الفتح .

ويقال فرْقٌ بين نجوم يهْتَدَى بها فى فِجَاج الدنيا ، ونجومٍ يُهْتَدَى بهم إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ أفمن يَخْلُق كَمَن لّا يخْلُقُ أفلا تذكّرون ﴾ .

تدل هذه الآية على نفى التشبيه بينه — سبحانه — وبين خَلْقِه . وصفاتُ القِدَم لله مُسْتَحَقَّة ، وما هو من خصائصِ الحدثان وسِماتِ الخلْق يتقدَّس الحقُّ — سبحانه — عن جميع ذلك . ولا تُشَبَّه ذاتُ القديمِ بذواتِ المخلوقين ، ولا صفاتُه بصفاتِهم ، ولا حُكْمُه بحُكْمِهم ، وأصلُ كلِّ ضلالةٍ التشبيهُ ، ومِنْ قُبْحِ ذلك وفسادِه أنَّ كلَّ أحدٍ يتبرأُ منه ويستنكِفُ من انتحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تعُدُّوا نعْمَة اللهِ لا تُحْصُوها إنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رحيم ﴾ .

الموجوداتُ لاتحصوها لِتقاصُرِ علومِكم عنها ، وما هو من نِعَمِ الدفع[1] فلا نهاية له . وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمعرفتكم (. . . .)[2] لكم من شكره .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ يعلم ماتُسِرُّون وما تُعْلِنُون ﴾ .

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . . فلا يخفى عليه حسبان ، وما تعلنون من الوفاق والشقاق ، والإحسان والعصيان . والآيةُ توجِبُ تخويفَ أربابِ الزَّلاَّت، وتشريفَ أصحابِ الطاعات .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَدْعُونَ من دونِ اللهِ لا يَخْلُقُون شيئاً وهم يُخْلَقُون ﴾ .

أخبر أن الأصنامَ لا يَصِحُّ منها الخلْقُ لكونها مخلوقةً ، ودلَّت الآيةُ على أنَّ من وُجِدَتْ له سِمَةُ الخلْق لا يَصِحُّ منه الخلْق ، والخَلْقُ هو الإيجاد ؛ ففى الآية دليلٌ على خَلْقِ الأعمال .

---

(١) من قصور الانسان أنه لا يشعر إلا بنعم المنح ، ولكن نعم الدفع التى لا تتناهى لا يكاد الانسان يشعر بها ألبتة وبالتالى لا يشكر عليها . . وما أكثرها !

(٢) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ أمواتٌ غيرُ أحياء وما يَشْعُرون أيّان يُبْعثون ﴾ .

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التكوين لا يصحُّ منه الإيجاد . وفى التحقيق كُلُّ مَنْ عَلقَ قلبُه بشىء ، وتوَهَّم منه خيراً أو شراً فقد أشرك بالله بظنِّه ، وإنّما التوحيدُ تجريدُ القلبِ عن حسبان شظيّةٍ من النفى والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات .

قوله جل ذكره : ﴿ إلٰهُكم إلٰهٌ واحدٌ فالذين لا يُؤْمِنون بالآخرةِ قلوبُهم مُنكِرَةٌ وهم مُسْتَكْبِرُون ﴾ .

لا قَسِيمَ لِذَاتِه جوازاً أو وجوباً ، ولا شبيهَ له ولا شريك . . ومَنْ لم يتحققْ بهذه الجملة قطعاً ، وبشهادة البراهين له تفصيلا فهو فى دَرَكاتِ الشِّرك واقعٌ ، وعن حقائق التوحيد بمعزل ، قال تعالى فى صفة الكفار : « قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » أى فى أَسْرِ الشِّرْكِ وغطاء الكفر ، ثم ليس فيه اتصاف لطلب العرفان ؛ لأنَّ العلةَ — لِمَنْ أراد المعرفة — مُتاحة ، وأدلة الخلْق لائحة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جَرَمَ أنَّ الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون ﴾ .

فيفضحهم ويبيِّنُ نفاقَهم ، ويُعْلِنُ للمؤمنين كفرهم وشِقاقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين ، ويكفيهم فضلاً بشارة الحق لهم بمحبته لهم .

قوله جَلَّ ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطير الأولين ﴾ .

لِحَقَهم شؤمُ تكذيبهم ، فأصرُّوا على إعراضهم عن النظر ، وقَسَتْ قلوبُهم ولم تجنح

إلى الإقرار بالحق ، فَلَبَّسُوا على من يسائلهم ، وقالوا : هذا الذى جاء به محمد من أكاذيب العجم، فَضَلُّوا وأَضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَحْمِلوا أوزارَهم كامِلةً يومَ القيامة ومِنْ أوزارِ الذين يُضِلُّونهم بغير عِلمٍ ألاَ سَاءَ مايَزِرُون ﴾ .

لما سَعَوْا فى الدنيا لغير الله لم تَصِفْ أعمالُهم ، وفى الآخرة حَمَلُوا معهم أوزارهم . أولئك الذين خَسِروا فى الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : ﴿ قد مَكرَ الذين مِن قبلهم ﴾ .

اتصفوا بالمكر فحاق بهم مَكْرُهم ، ووقعوا فيما حفروه لغيرهم ، واغتروا بطول الإمهال، فأخذهم العذابُ من مأمَنِهم ، واشتغلوا بِلهوِهم فَنَقَّصَ عليهم أطيب عَيْشِهم :

﴿ فأتى اللهُ بُنْيانَهم مِنَ القواعدِ فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ مِن فوقِهم وأتاهم العذابُ من حيث لايشعرون ﴾ .

الذى وصف نفسه به فى كتابه من الإتيان فمعناه العقوبة ، وذلك على عادة العرب فى التوسع فى الخطاب .

وهو سبحانه يكشف الليلَ بِبَدْرِه ثم يأخذ الماكر بما يليق بمَكْرِه ، وفى معناه قالوا :

وأمِنْتُهُ فأتاحَ لى من مأمَنى مكرًا ، كذا مَنْ يَأمَنُ الأياما

قوله جل ذكره : ﴿ ثم يومَ القيامة يُخْزِيهم ويقولُ أين شركائِىَ الذين كنتم تُشاقون فيهم، قال الذين أُوتوا العِلْمَ إنَّ الخِزْىَ اليومَ والسوء على الكافرين ﴾ .

فى الدنيا عاجلُ بلائهم ، وبين أيديهم آجِلُه . وحَسْرةُ[1] المُفلِس تتضاعف إذا ماحُوسِبَ ، وشاهَدَ حاصِلَه .

« قال الذين أوتو العلم .. » : يُسْمِعُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبيِّن للكافة صِدْقَهم. ويقع الندمُ على جاهلهم[2] . وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمُّل ، وعن قريب ينكشف الغطاء ، وأنشد بعضهم :

خليلىَّ لو دارت على رأسِىَ الرَّحى من الذُّلِّ لم أجزَعْ ولم أتكلَّمِ
وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا ولكننى أفصحتُ يومَ التكلُّمِ

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفَّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهم فألقَوُا السَّلَمَ ما كنَّا نَعْمَلُ مِن سوءٍ بلى إنَّ الله عليمٌ بما كنتم تعملون * فادخلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدين فيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكبِّرين ﴾ .

« ظالمى أنفسهم » : بارتكاب المعاصى وهم الكفار .

« فألقوا السلم » : انقادوا واستسلموا لحكم الله .

« ما كنا نعمل من سوء » : جحدوا وأنكروا ماعملوا من المخالفات .

« بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » : هكذا قالت لهم الملائكة ، ثم يقولون لهم : « ادخلوا أبواب . . » : وكذلك الذين تقسو نفوسُهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزَلتْ بهم الوفاةُ يأخذون فى الجزع وفى التضرع ، ثم لاتطيبُ نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس ، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أخَلُّوا من معاملاتهم ، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير ، والنقير والقطمير ، ثم يبقون أبداً فى وبال ما أحقبوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم فى أُخراهم .

---

(١) وردت (مسرة) بالميم (وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .
(٢) وردت (جاهدم) بالدال . وربما كانت فى الأصل (جاحدم) ، فالجهل والجحد من صفات الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربُّكُم قالوا خيراً ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةٌ ولَدارُ الآخرةِ خير ولنِعْم دارُ المتقين ﴾ .

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم ، وسألوهم عن أحوال محمد — صلى الله عليه وسلم ، وعما أنزل اللهُ عليه ، قالوا : دينه حقٌّ ، واللهُ أنزل عليه الحقَّ .. والذين أحسنوا فى الدنيا يجِدُون الخير فى الآخرة .

ويقال فى هذه الدنيا حسنة ، وهى ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكونَ تلك الحسنةُ زيادةَ التوفيق لهم فى الأعمال ، وزيادةَ التوفيقِ لهم فى الأحوال .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أنْ يُوَفِّقَهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يبلِّغهم منازلَ الأكابر والسادةِ ،

قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا »[1]

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدَّى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين ، وما يجرى على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : لأن يهتدى بهداك رجل خير لك من حمر النعم »[2] .

ثم قال : « ولدار الآخرة خير » ، لأن ما فيها يبقى ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن فى الدنيا مشاهدة وفى الآخرة معاينة[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ جناتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونها تَجْرِى مِن

---

(١) آية ٢٤ سورة السجدة .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) نفهم من هذا أن المعاينة أعلى درجة من المشاهدة ، ونفهم كذلك أن المشاهدة — وهى تتم فى هذه الدنيا — هى أقصى درجات المعراج الروحى عند أصحاب وحدة الشهود ، وكل قول بما يزيد عن ذلك خروج عن أصول هذا المذهب ، وقد نعى كثير من الباحثين على الغلاة والأدعياء والمضللين ، فى هذا الخصوص .

تحتها الأنهارُ لهم فيها ما يشاءون
كذلك يَجْزِى اللهُ المتقين﴾

كما أن الإرادات والهِمَمَ تختلف فى الدنيا فكذلك فى الآخرة ، وفى الخبر : « مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ الله بها » فَمِنْ مريدٍ يكتفى من الجنة بورودها ، ومن مريدٍ لا يكتفى من الجنة دون شهود ربِّ الجنة .

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم ، وما وجدوا فى ذلك من صحبة اللعين[1] فى سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك ، ومن شاء أن تدومَ رؤيتُه ، ويتأبَّدَ سماعُ خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم يخطر ببال أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفَّاهم الملائكةُ طَيِّبِين
يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنَّةَ
بما كنتم تعملون ﴾ .

يقبض أرواحَهم طيبةً . أو يقال « طيبين » حال .

والأسباب التى تطيب بها قلوبُهم وأرواحُهم مختلفة ، فمنهم مَنْ طاب وقتُه لأنه قد غُفِرتْ ذنوبُه ، وسُتِرتْ عيوبه ، ومنهم مَنْ طاب قلبُه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبُه ، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه .

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه ، ويصل إلى حُسْنِ مآبه .

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أَمِنَ من زوال حالِه ، وحظى بسلامة مآله[2] ، ومنهم من يطيب قلبُه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله — قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم .

ويقال « تتوفاهم الملائكة » طيبةً نفوسهم أى طاهرةً من التدنُّس بالمخالفات ، وطاهرةً قلوبُهم عن العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شىء من المخلوقات .

---

(١) اللعين مقصود به إبليس .
(٢) وردت (ماله) والملائم هنا أن تكون (مآله) .

قوله تعالى : « سلام عليكم » إحظَوْا بالجنة ، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكَ ، ومنهم مَنْ يُكَاشِفه بذلك المَلَكُ .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلاَّ أن تأتيَهم الملائكةُ
أو يأتيَ أمرُ ربِّكَ كذلك فعَلَ
الذين مِن قبلهم وما ظَلَمَهمُ اللهُ
ولكِن كانوا أنفسَهم يَظلِمون *
فأصابهم سَيِّئَاتُ ما عَمِلوا وحاقَ
بهم ما كانوا به يَستَهزِئُون ﴾

القوم ينتظرون مجيء المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونَه . ولكن لمَّا كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسلَ غيرُ صادقين ، ولمَّا سلكوا[1] مسلكَ أضرابهم من المتقدمين — عوملوا بمثل مالَقِيَ أسلافُهم ، وما كان ذلك من الله ظلماً ، لأنه يتصرف فى مُلْكه من غير حُكْمِ حاكمٍ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين أشركوا لوشاء اللهُ
ما عَبَدْنا مِن دُونه مِن شيء نحن
ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن دونِه مِن
شيء كذلك فعل الذين من قَبْلهم فهل
على الرُّسُلِ إلاَّ البلاغُ المبينُ ﴾

خَبَثَتْ قصودُهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء ، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم ، وانكشف عدمُ صِدْقِهم فى أحوالهم .

وقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . » يشبه قولهم : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[2] . ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك .

---

(١) وردت (سكنوا) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) اية ٤٧ سورة يس .

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد بَعَثْنا فى كل أُمةٍ رسولاً أنِ اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت فمنهم مَنْ هدى اللهُ ومنهم من حقَّت عليه الضلالةُ فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين ﴾

لم يُخْلِ زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرَّقهم فى سابقِ حُكْمِهِ؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهم[1] وأعماهم[2].

قوله جل ذكره: ﴿ إن تَحْرِصْ على هُدَاهم فإن اللهَ لا يَهْدِى من يُضِلُّ ومَا لَهُم من ناصرين ﴾

ألزمهم الوقوفَ على حدِّ العبودية فى إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال: إنك وإنْ كنتَ بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلالَ لا يجرى عليه غيرُ ما قَسَمْتُ له.

ويقال من ألبسته صدارَ الضلال لا تنزعه وسيلةٌ ولا شفاعة.

قوله جل ذكره: ﴿ وأقسموا باللهِ جهدَ أيمانِهم لا يبعثُ اللهُ مَن يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾.

القَسَمُ يؤكِّد الخبرَ، ولكنَّ يمينَ الكاذب توجب ضَعْفَ قوله؛ لأنه كلما زاد فى جحد الله ازداد القلبُ نفرةً من قوله.

قوله جل ذكره: ﴿ لِيُبَيِّنَ لهم الذى يختلفون فيه وليعلَمَ الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين ﴾.

---

(١) وردت (حجتهم) وهى خطأ فى النسخ إذ ربما كانت النقطتان فوق الياء فتحة فى الأصل وتوهم الناسخ أنها نقطتان.

(٢) وردت (وأعمالهم) والمعنى والسياق يرفضانها ويتقبلان (وأعمام).

إذا بيَّن الله صِدْقَ ما ورد به الشرع فى الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاحُ أهل التكذيب فيكون فى ذلك زيادةٌ لهم فى التعذيب .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما قولُنا لِشَىءٍ إذا أردناه أن نقولَ له كُن فيكونُ ﴾ .

فيكون بالسمع عِلْمُ تَعَلُّقِ قَوْلِه بما يفعله . وحَمَله قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسَّرُ عليه فعلُ شىءٍ أراده ، فالآية على القولين جميعاً .

والذى لا يحتاج فى فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدةٍ يقع الفعل فيها .

وتدل الآيةُ على أنَّ قولَه ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولا له : كن ، وذلك القول يجب أن يكون مقولا له بقولٍ آخر . . . وهذا يؤدى إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى ما لا نهاية له[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هاجروا فى الله مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهم فى الدنيا حَسَنَةً ولَأجرُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون ﴾ .

مَنْ هَاجَرَ عن أوطان السوء — فى الله — أبدل له اللهُ فى جوار أوليائه ما يكون له فى جوارهم معونةٌ على الزيادة فى صفاء وقته . ومَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة . ومَنْ فارَقَ مجالسة المخلوقين ، وانقطع بقلبه إليه — سبحانه — باستدامة ذكره — فكما فى الخبر : « أنا جليس من ذكرنى » . وبدايةُ هؤلاء القوم نهايةُ أهل الجنة ؛ ففى الخبر « الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة » . ويقال القلبُ مظلومٌ من جهة النَّفْس لما تدعوه إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث اللهُ القلبَ أوطانَ النَّفْس حتى تنقادَ لما يطالِبُ به القلبُ

---

(١) كلام الله ليس بمخلوق — هذا أصل هام من أصول المذهب الأشعرى الذى يُعَدّ القشيرى من أعظم أنصاره . وقد ناقش هذه القضية بإسهاب فى كتابه القيم : « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » . وانظر أيضاً كتابنا (الإمام القشيرى : تصوفه وأدبه — فصل : القشيرى متكلماً) :

من الطاعة ؛ فبعد ما تكون أوطان الزَّلَّةِ بدواعى الشهوة تصير أوطانَ الطاعةِ لسهولة أدائها .

قوله جل ذكره : ﴿الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يَتَوَكَّلُون﴾

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقى بالله بحُسْن الرجاء .

ويقال صبروا فى الحال ، وتوكلوا على الله فى تحقيق الآمال .

ويقال الصبر تحسِّى كاساتِ المقدور ، والتوكل الثقة فى الله فى استدفاع المحذور .

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسقَى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يقوَوْن على الصبر بما حققوا من التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلكَ إلا رِجالاً
نُوحِى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر
إن كُنتُم لا تَعْلَمُون﴾ .

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسلاً ، فأخبر أنَّ الرسلَ كلَّهم كانوا من البشر ، وأنَّ فيمن سبق مَنْ أقَرَّ بذلك . « وأهل الذكر » هم العلماء ؛ والعلماء مختلفون : فالعلماء بالأحكام إليهم الرجوعُ فى الاستفتاء من قِبَل العوام فَمَنْ أُشْكِل عليه شىء من أحكام الأمر والنهى يرجع إلى الفقهاء فى أحكام الله ، ومن اشتبه عليه شىء من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله ، فالفقيه يوقِّع عن الله ، والعارف ينطق — فى آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها — عن الله ، فهو كما قيل : (أليس حقاً نطقت بين الورى فاشتهرت ، كاشفها يعلم ما منَّ عليها فجرت ، فهى عناء به عينيه قد طهرت)[1] .

قوله جل ذكر : ﴿بالبيناتِ والزُّبُرِ وأنزلنا إليك
الذكرَ لتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّل إليهم
ولَعَلَّهُم يتفكرون﴾

أى إن البيانَ إليك ، فأنت الواسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحينا .

---

(١) ما بين القوسين نقلناه كما هو من النص ، وربما كان شاهداً شعريا مضطرب الكتابة .

قوله جل ذكره: ﴿أفأمِنَ الذين مكروا السيئاتِ أن يَخْسِفَ اللهُ بهم الأرضَ أو يأتيَهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون * أو يأخذَهم فى تقلُّبِهم فما هم بمعجزين * أو يأخذَهم على تخوُّفٍ فإنَّ ربَّكُم لَرءوفٌ رحيمٌ﴾.

العبدُ فى جميع أحواله عُرْضَةٌ لِبِهام التقدير، فينبغى أن يستشعر الخوفَ فى كلِّ نَفَسٍ من الإصابة بها، وألاَّ يأمنَ مَكْرَ الله فى أى وقت، وأكثر الأسنة تعمل فى الموطأةِ نفوسُهم وقلوبُهم على ما عَوَّدَهم الحق من عوائد المِنَّة، ولكن كما قيل:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلِه ... إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحاراً[1]

قوله جل ذكره: ﴿أوَ لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِن شىءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُه عَنِ اليمين والشمائلِ سُجَّدًا للهِ وهم داخِرون﴾

كل مخلوقٍ من عين أو أثر، مِنْ حَجَرٍ أو مَدَرٍ أو غَبَرٍ فلله — من حيث البرهان — ساجد، ومن حيث البيان على الوحدانية شاهد.

قوله جل ذكره. ﴿ولله يَسْجُد ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ من دابَّةٍ والملائكةُ وهم لا يستكبِرون﴾.

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتَنَعَتْ عن إقامة الشهادة لقوم قالَتْ، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جل ذكره: ﴿يخافون ربَّهم من فوقهم ويفعلون ما يُؤْمَرُون﴾.

يخافون الله أن يُنزِلَ عليهم عذاباً من فوق رءوسهم.

---

(١) كان عبد الحميد الكفوف كثيراً ما يتمثل بهذا البيت في قصصه (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨).

« ويفعلون ما يؤمرون » لا يعصونه ولا يحيدون عن طاعته .

ويقال خيرُ شيء للعبد في الدنيا والآخرة الخوفُ ؛ إذ يمنعه من الزَّلَّة ويحمله على الطاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال اللهُ لا تتَّخِذُوا إلهين اثنين
إنَّما هو إلهٌ واحِدٌ فإيَّاى فارهبونِ.
وله ما فى السمٰواتِ والأرضِ ﴾

الحاجة إلى إثبات صانعٍ واحد داعية ، وما زاد على الواحد (فالا . . .)[1] فيه متساوية .

ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ وله الدِّينُ واصِباً أفَغَيْرَ اللهِ تتَّقُون ﴾

له الدين خالصاً وله الدين دائماً، وله الدينُ ثابتاً ، فالطاعة له واجبة . فلاتتقوا غيره ، وأطيعوا شَرْعَهَ بخلاف هواكم ، واعبدوه وَحْدَه ، واستجيبوا له فى المَسَرَّةِ والمَضَرَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما بِكُم من نعمةٍ فمِنَ اللهِ ﴾

النِّعمة ما يُقَرِّبُ العبدَ من الحق ، فأمَّا مالا يوجِب النسيانَ والطغيان ، والغفلةَ والعصيانَ فأَوْلَى أن يكون محبة .

ويقال ما للعبد فيه نفع ، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً ، ، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان ، « وقليلٌ من عبادى الشكور »[2] على كل حال .

وفائدةُ الآيةِ قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيار فى حالتى اليُسْر والعُسْر ، والثقة بأن الخير والشر ، والنفع والضر كلاهما من الله تعالى .

قوله جل ذكره ﴿ ثُمَّ إذا مَسَّكم الضُرُّ فإليه تجأرون ﴾

إذ ليس لكم سواه ؛ فإذا أَظَلَّت العبدَ هواجمُ الاضطرارِ التجأ إلى الله فى استدفاع

---

(١) بقية الكلمة مشتبهة .
(٢) آية ١٣ سورة سبأ .

ما مسّه من البلاء ثم إذا مَنّ الحقُّ عليه ، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأنْ لم يمسه سوء أو أصابه همٌّ كما قيل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَمَوَّلاَ(١)

وقال :

﴿ ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربِّهم يُشْرِكون ﴾

الخطاب عام ، وقوله « منكم » : لأنَّ القومَ منهم

﴿ لِيَكْفُروا بما آتيناهم فَتَمَتَّعوا فسوف تعلمون ﴾

فى هذا تهديد أى أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامةٌ ، ويعتذرون حين لا يُقْبَلُ لهم عُذْرٌ . . ومَنْ زَرَعَ شراً فلن يَحْصُدَ إلا جزاء عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ ويجعلون لِمَا لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تَفْتَرون ﴾

أى يجعلون لما لا يعلمون — وهى أصنامهم التى ليس لها استحقاق العلم — نصيباً من أرزاقهم ؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا .

« تالله » أقسم إنهم سيلْقَوْن عقوبةَ فِعْلِهم . .

قوله جل ذكره : ﴿ ويجعلون للهِ البناتِ سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾

من فَرْطِ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد ، ثم زاد اللهُ فى خذلانهم حتى قالوا : للملائكة بنات الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم . ويلتحق بهؤلاء فى استحقاق

---

(١) تمول أى نما المال له .

الذمُّ كلُّ مَنْ آثر حَظَّ نَفْسِهِ على حقِّ مولاه ، فإذا فعل مَالهُ فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذموم الوصف ، ملوماً على ما اختاره من الفعل .

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهةِ أنْ تُولَدَ لهم الإناثُ فقال :

﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظَلَّ
وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كظيم * يَتَوَارَى
من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمْسِكُه
على هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ فى التراب
ألاَ سَاءَ ما يَحْكُمون ﴾

استولت عليهم رؤية الخَلْق[1] ، وملكتهم الحيرة ، فَحَنِقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البَعْلِ فيهن . . وهذه نتائج الإقامة فى أوطان التفرقة ، والغيبة عن شهود الحقيقة .

ثم قال : « أيمسكه على هون » أى يحبس المولودَ إذا كان أنثى على مَذَلَّةٍ ، « أم يدسه فى التراب » ليموت ؟ وتلك الجفوةُ فى أحوالهم جَعَلَتْ — من قساوة قلوبهم فى أحوالهم — العقُوبةَ أشدَّ مما كانت بتعجيلها لهم . وجَعَلَهُم فرطُ غيظهم ، وفَقْدُ رضائهم ، وشدة حنقهم على من لا ذنبَ له من أولادهم — من أهل النار فى دَرَكَاتِ جهنم ، وتكدَّر عليهم الوقتُ ، واستولت الوحشةُ .. ونعوذ بالله من المَثَلِ السوء !

قوله جل ذكره : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرةِ مَثَلُ السوء
ولله المثلُ الأعلى وهو العزيزُ الحكيم *
ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهم
ما تَرَكَ عليها من دابةٍ ولكن

---

(١) أى تشتت رؤيتهم حين لم ينظروا إلى الخالق واستبدلوا ذلك بأن نظروا للمخلوق . . . وهذه صفة هل التفرقة والغيبة — كما سيأتى بعد .

يؤخرهم إلى أجلٍ مُسَمًّى فإذا جاء
أجلُهم لا يستأخِرون ساعةً
ولا يَستقدِمُون ﴾ .

مَثَلُ السوء للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء .

ولله صفات الجلال ونعوت العِزّ ، ومَنْ عَرَفَه بنعت الإلهية تَمَّتْ سعادتُه فى الدارين ، وتجلت راحته ، وتنزَّه سِرُّه على الدوام فى رياضِ عرفانه ، وطَرِبَتْ روحُه أبداً فى هيجان وَجْدِه .

أمّا الذين وُسِمُوا بالشِّرْكِ ففى عقوبة مُعَجَّلة وهموم مُحَصَّلة . « ولو يؤاخذ الله . . . . » أى لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لحَلَّ الاستئصالُ بهم ، ولكنَّ الحُكْمَ سَبَقَ بإمهالهم ، وسَيَلْقَوْن غِبَّ أعمالِهم فى مآلِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتَصِفُ
ألسنتُهم الكَذِبَ أنَّ لهم الحُسنى
لاجَرَمَ أنَّ لهم النار وأنَّهم مُفْرَطون ﴾

انخدعوا لمَّا لانَ لهم العيشُ ، فظنوا أنهم ينجون ، وبما يُؤَمِّلونه يحيطون ؛ فحَسُنَتْ فى أعينهم مَقابِحُ صفاتهم ، ويومَ يُكْشَفُ الغطاء عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة ، فلا تُسْمَعُ منهم دعوة ، ولا تتعلق بأحدهم رحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ تالله لقد أرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ
فزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فهو وَلِيُّهم
اليومَ ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ .

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبى — صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه أخبر أن مَنْ تقدَّمَه من الأمم كانوا فى سلوك الضلالة ، والانخراط فى سِلْكِ الجهالة كما كان من قومه ، ولكن اللهَ — سبحانه — لم يعجز عنهم . وكما سَوَّلَ الشيطانُ لأُمَّتِه ، وكان ولياً لهم ، فهو ولىُّ هؤلاء وأمَّا المؤمنون فالله وليُّهم ، والكافرون لا مَوْلى لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنزلنا عليكَ الكتابَ
إلاّ لِتُبَيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيه
وهُدًى ورحمةً لِقَومٍ يؤمِنون ﴾ .

أنت[1] الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى ، تُبَلِّغُ عنّا وتؤدِّى مِنّا ، فأنت رحمةٌ أرسلناك لأوليائنا . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهتدى ، ومَنْ عصاك ففى هلاكه سعى .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ أنزل من السماءِ ماءً فأحيا به
الأرضَ بعد موتها إنَّ فى ذلك لآيةً
لقومٍ يسمعون ﴾ .

أحيا بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق ، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال ، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار ، وانفردت بحقائق الاتصال .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لَكُم فى الأنعامِ لَعِبرةً نُسقِيكم
مما فى بُطُونِه من بين فَرْثٍ ودَمٍ
لَبَنًا خالِصًا سائغًا للشاربين ﴾ .

سَخَّرَها لكم ، وهيأها للانتفاع بلحمها وشحمها ، وجِلْدِها وشَعْرِها ودَرِّها ، وأصلها ونَسْلِها . ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن ـ مع صفائه وطعمه ونَفْعِهِ ـ من بين الروث[2] والدم ، وذلك تقدير العزيز العليم . والذى يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الزَّلَّةِ من وجوهها المختلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِن ثمراتِ النخيل والأعنابِ
تتخذون منه سَكَرًا ورِزْقًا حَسَنًا
إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون ﴾

---

(١) وردت (آية) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) الفرث والروث بقايا الطعام .

مَنَّ على العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس . . وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب ، ويقال هو الذى لا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيه ولا تَبِعَةَ عليه .

ويقال هو ما لا يعصى اللهَ مكتسبُه فى حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا يَنْسَى اللهَ فيه مُكْتَسِبُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحىٰ ربُّكَ إلى النَّحلِ أنِ اتخذِى
مِنَ الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشَّجَرِ
ومما يَعْرِشُون * ثم كُلِى من كلِّ
الثمراتِ فاسلُكى سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً
يخرج من بطونِها شرابٌ مختلِفٌ
ألوانُه فيه شفاء للناسِ إنَّ فى ذلك
لآيةً لقومٍ يَتَفَكَّرون ﴾

أوحى إلى النحل : أراد به وحى إلهام .. ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً ، طَابَ ما كلُه وجعل ما يخرج منه شفاء للناس .

ثم إن الله — سبحانه — عَرَّفَ الخَلْقَ أنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق ؛ إذ أن النحلَ ليس له خصوصية فى القامة أو الصورة أو الزينة ، ومع ذلك جعل منه العَسَلَ الذى هو شفاء للناس .

والإنسان مع كمال صورته ، وتمام عقله وفطنته ، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى . . فأىُّ فضيلةٍ للنحل ؟ وأىُّ ذنبٍ للإنسان ؟ ليس ذلك إلا اختياره — سبحانه .

ويقال إن الله — سبحانه — أجرى سُنَّتَه أنْ يُخْفِيَ كلَّ شىء عزيز فى شىء حقير ؛

فجعل الإبْرَيْسَم[1] فى الدود وهو أضعف الحيوانات ، وجعل العسل فى النحل وهو أضعف الطيور ، وجعل الدُّرَّ فى الصدف وهو أوحش[2] حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج فى الحجر .... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له فى قلوب المؤمنين وفيهم من يعصى وفيهم من يخطىء[3] .

قوله جل ذكره . ﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ ثم يَتَوَفَّاكم ومِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لكى لا يعلم بعد عِلْمٍ شيئاً إنَّ اللهَ عليمٌ قدير ﴾

خَلَق الإنسانَ فى أحسن تركيب ، وأملح ترتيب ، فى الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، والنور والضياء ، والفهم والذكاء . ورَزَقه من العقل والتفكر ، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التى خُصَّ بها من الرأى والتدبير ، ثم فى آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً ، ويرى فى كل يومٍ ألَمّاً جديداً .

ويقال « منكم من يرد إلى أرذل العمر » : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون فى أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير فى آخر عمره عاصياً .

ويقال أرذل العمر أن يرغب فى عنفوان شبابه فى الإرادة ، ويسلك طريق الله مدةً ، ثم تقع له فترةٌ ، فيفسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند القوم هذه رِدَّةٌ فى هذا الطريق .

ويقال أرذلُ العمر رغبةُ الشيخ فى طلبٍ .

ويقال أرذلُ العمر حُبُّ المرء للرياسة .

---

(1) الإبريسم = أحسن الحرير (معرب) (الوسيط حـ ١ ص ٢) .

(2) هنا معناها أجوع الحيوان ، من قولهم بات وحشاً أى جائعاً لم يأكل شيئاً فخلا جوفه (الوسيط جـ ٢ ص ٩ ، ١٠) .

(3) ينسجم اتجاه القشيرى فى هذه الإشارة مع السياق القرآنى .. إذ يأتى بعد قليل : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » .. وفضل الله بلا علة .

ويقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خصومَهُ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ واللهُ فَضَّلَ بعضَكم على بعضٍ في الرزقِ فما الذين فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِم على ماملَكَتْ أيْمانُهم فهم فيه سَوَاء أفبِنِعمةِ اللهِ يجحدون ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فَمِنْ مضَيَّقٍ عليه رزقُهُ ، ومِنْ مُوَسَّعٍ عليه رزقه ، ومِنْ أرزاق هي أرزاق النفوس ، وأرزاقٍ للقلوب وأرزاق للأرواح ، وأرزاق للأسرار ؛ فأرزاقُ النفوسِ لقوم بتوفيق الطاعات ، ولآخرين بخذلان المعاصي . وأرزاق القلوب لقوم حضورُ القلب باستدامة الفكر ، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة . وأرزاق الأرواح لقوم صفاء المحبة ، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم ، فيكون بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم . وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحقِّ ، فأمَّا من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ جَعَل لكم من أنفسِكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنينَ وحَفَدَةً ﴾

شَغَلَ الخَلْقَ بالخلاقِ لأنَّ الجنس أَوْلَى بالجنس . ولمَّا أراد الحقُّ — سبحانه — بقاء الجنس هَيَّأ سبب التناسب والتناسل لاستيفاء مثل الأصل . ثم مَنَّ على البعض بخَلْق البنين ، وابتلى قوماً بالبنات — كلٌّ بتقديره على مايشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَزَقَكم من الطيباتِ أفَبِالباطل يؤمنون وبنعمةِ الله هم يكفُرُون ﴾

والرزق الطيب لعبدٍ ما تستطيبه نَفْسُهُ ، ولآخر ما يستطيبه سِرُّه .

فمنهم من يستطيب مأكولاً ومشروباً ، ومنهم من يستطيب خلوةً وصفوة . . . إلى غير ذلك من الأرزاق .

« أفبالباطل يؤمنون » ، وهو حسبان حصول شيء من الأغيار ، وتعلّق القلب بهم استكفاء منهم أو استدفاعاً لمحذور أو استجلاباً لمحبوب .

« وبنعمة الله هم يكفرون » والنعمة التي كفروا بها هي الثقةُ بالله ، وانتظارُ الفَرَجِ منه ، وحسنُ التوكلِ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون مِن دونِ اللهِ مالا يملكُ لهم رِزْقًا من السمٰوات والأرضِ شيئاً ولا يستطيعون ﴾

ومَنْ يَتَعَلَّقُ بشخصٍ أو بسببٍ مُضَاهٍ[1] لعُبَّاد الأصنام من حيث إنه يضيِّعُ وقتَه فيما لا يُعينُه ، فالرزقُ ، من الله — في التحقيق — مُقَدَّرٌ .

قوله جل ذكره ﴿ فلا تضربوا للهِ الأمثالَ إنَّ اللهَ يَعلَمُ وأنتم لا تعلمون ﴾ .

كيف تُضْرَبُ الأمثالُ لمن (لا)[2] يساويه أحدٌ في الذات والصفات وأحكام الأفعال ؟

ومَنْ نَظَرَ إلى الحقِّ من حيث الخَلْقِ[3] وقع في ظلمات التشبيه ، وبقي عن معرفة المعبود .

قوله جل ذكره : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مملوكاً لا يَقْدِرُ على شيءٍ ومَن رزقناه منّا رِزْقًا حَسَناً فهو يُنفِقُ منه سِرًّا وجَهْراً هل يَسْتَوُون ؟ الحمدُ للهِ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

شبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا مِلْكَ له في الشرع ، والمؤمنَ المخلصَ بمَنْ رَزَقَه الخيراتِ ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثوابَ وحُسْنَ المآبِ على ما أنفقه .

---

(١) في الهامش هكذا ، بينما هي في النص (معناه) ، والصواب ما جاء في الهامش أي مماثل .
(٢) سقطت (لا) والمعنى يتطلبها .
(٣) أي من حيث مضاهاته بالخلق ، ومناظرته بالحدثان .

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفسه ، ملاحِظاً لأبناء جِنْسِه ، متمادياً فى حسبان مغاليطه كمَنْ كان مُدْرِكاً بربِّه مصطَلَماً[1] عن شاهده ، غائبًا عن غيره ، والمُجرِى عليه ربُّه ولا حَوْل له إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رجلين أحدُهما أبكمُ لا يَقْدِرُ على شىء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوَجِّهه لا يأتِ بخيرٍ هل يستوى هو ومَن يأمر بالعدل وهو على صِراطٍ مستقيم ؟ ﴾

هذا المثَلُ أيضاً للمؤمن والكافر ؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذى لا يجىء منه شىء ، ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حَوْلِه وقُوَّتِه ، ولا يعترف إلا بطوْلِه — سبحانه — ومِنَّتِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله غيبُ السموات والأرضِ ، وما أمرُ الساعة إلا كلَمْحِ البصرِ أو هو أقربُ إنَّ الله على كل شىء قدير ﴾

استأثر الحقُّ — سبحانه — بعلم الغيبيات ، وسَتَرهَا على الخلْق ؛ فيخرِجُ قوماً فى الضَّلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية . . فالعواقبُ مستورة ، والخواتيم مبهمة ، والخَلْقُ فى غفلة عما يُرَادُ بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ أخرَجَكُم من بطونِ أمهاتِكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ لعلكم تشكرون ﴾

---

(١) الاصطلام : شعث غلبة ترد على العقول فيستلبها بقوة سلطانه وقهره (اللمع ص ٤٥٠) .

خلقَهُم مِنْ غير أنْ شاورهم ، وأثبتهم — على الوصف الذى أراده — دون أن خَيَّرهم ، ولم يعلموا بماذا سبق حُكْمُهم . . أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العَدَم أخرجهم من من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاحَ أنفُسِهِمْ عَلِمُوا ، ولا صفةَ ربِّهم عَرفوا ثُمَّ بحُكْمِ الإلهام هداهم حتى قَبِلَ الصبيُّ ثديَ أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف .

« وجعل لكم السمعَ » : لتسمعوا خطابه ، « والأبصارَ » لتُبصِروا أفعالَه ، «والأفئدة» لِتَعْرِفُوا حقَّه ، ثم لتَشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم يَرَوْا إلى الطير مُسَخَّراتٍ فى جَوِّ السماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا اللهُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمِنُون ﴾ .

الطائر إذا حَلَّقَ فى الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط ، وقد قامت الدلالة على أن الحقَّ — سبحانه — متفرِّدٌ بالإيجاد ، ولا يَخْرُجُ حادثٌ عن قدرته ، وفى ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والله جَعَلَ لكم من بيوتِكم سَكَناً وجعل لَكُم من جلودِ الأنعامِ بيوتاً تستخفونها يومَ ظَعْنِكم ويومَ إقامتِكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومَتَاعاً إلى حين ﴾

للنفوس وطن ، وللقلوب وطن . والناس على قسمين مستوطِنٌ ومسافر : فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم ؛ فالمريد أو الطالب مسافرٌ بقلبه لأنه يَتَلَوَّنُ ، ويرتقى من درجة إلى درجة ، والعارف مقيمٌ ومستوطِنٌ لأنه واصل متمكن والطريق منازلُ ومراحلُ ، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب ، والمريد سالِكٌ والعارف واصِلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والله جَعَلَ لكم مما خَلَقَ ظِلالاً

وجعل لكم من الجبالِ أكْنَاناً
وجَعَلَ لكم سَرَابِيلَ تقيكم الحرَّ
وسرابيل تقيكم بأسَكم كذلك يُتِمُّ
نِعْمَتَه عليكم لعلكم تُسْلِمون ﴾

فى الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً . . كذلك جعل فى ظل عنايته لأوليائه مثوىً وقراراً .

وكما سَتَرَ ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم ـ كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به فى السراء والضراء ، ولباسَ العصمة يحميكم من مخالفته ، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته ، وكساكم بحُلَلِ الوصل مما يؤهلكم لقربته ومحبته .

قوله : « كذلك يتمُّ نعمته عليكم . . » ، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتُهم مختومة بالخير ، ويكفيهم أمورَ الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويُسَدِّدُهم حتى يؤثروا ما يوجِبُ من الله الرضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ تَولَّوْا فإنما عليكَ البلاغُ المبين ﴾ .

إذا بَلَّغْتَ الرسالة فما جعلنا إليك[1] حكم الهداية والضلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْرِفون نعمةَ الله ثم يُنْكِرونها وأكثرُهمُ الكافرون ﴾ .

يَسْتَوْفِقُونَ إلى الطاعةِ ، فإذا فعلوا أُعْجِبُوا بها[2] .

---

(١) وردت (إليكم) والخطاب موجه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فالصواب (إليك) .
(٢) فى هذا الصدد ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطى نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ .
فقالوا : كان يأمرنا بإلتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها .
فقال : هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشيها ومجريها ؟) الرسالة ص ٣٤ .

ويقال يستغيثون ، فإذا أجابهم قَصَّروا فى شُكْرِه .

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنةٌ استجاروا بربهم ، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة ، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التى أوجبت لهم تلك الحالة .

ويقال يعرفون فى حال توبتهم قُبْحَ ما كانوا فيه فى حال زلتهم ، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَبْعَثُ من كلِّ أمةٍ شهيداً ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا ولا هم يُسْتَعْتَبُون ﴾ .

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلُ عن أحوال أممهم ، فمن نَطَقَ بحجةٍ أُكْرِمَ ، ومَنْ لم يُدْلِ بحجةٍ لا تُراعى له حُرْمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذابَ فلا يُخَفَّفُ عنهم ولا هم يُنظَرُون ﴾

أى يُشَدَّد عليهم الأمرُ ولا يُسَهَّل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شُرَكَاءهم قالوا ربَّنا هؤلاءِ شُرَكَاؤُنا الذين كُنَّا نَدْعُوا مِن دونِك فألْقَوْا إليهم القولَ إنَّكم لَكاذِبون ﴾ .

تمنوا أن يَنْقِمُوا من إخوانهم الذين عاشروهم ، وحملوهم على الزَّلَّة ، فيتبرأون من شركائهم ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وتضيق صدورهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ وألْقَوْا إلى اللهِ يومئذٍ السَّلَمَ وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون ﴾ .

استسلموا لأمر الله وحُكْمِه ، ويومئذ لا تضرُّعَ منهم يُرَى ، ولا مِحْنَةَ — يصرخون من ويلها — عنهم تُكْشَف

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نَبْعَثُ فى كلِّ أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسِهم وجئنا بكَ شهيدا على هؤلاءِ ونَزَّلْنا عليكَ الكتابَ تِبْياناً لكلِّ شىءٍ وهُدًى ورحمةً وبُشْرَىٰ للمسلمين ﴾ .

تأتى — يومَ القيامة — كلُّ أمة مع رسولها ، فلا أُمةَ كهذه الأمةِ فضلاً ، ولا رسولَ كرسولنا صلى الله عليه وسلم رتبةً وقَدْراً .

« ونزلنا عليك الكتاب » أى القرآن تبيانا لكل شىء ، فيه للمؤمنين شفاء ، وهو لهم ضياء ، وعلى الكافرين بلاء ، وهو لهم سبب محنة وشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ يأمر بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذى القُرْبىٰ ويَنْهَى عَنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغْىِ يَعِظُكُم لعلكم تَذَكَّرون ﴾ .

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو نقيض الجور والظلم .

أمر اللهُ الإنسانَ بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخَلْق ؛ فالعدلُ الذى بينه وبين نفسه مَنْعُها عما فيه هلاكُها ، قال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى »[1] ، وكمالُ عدلِه مع نفسه كفُّ عُروقِ طمعِه .

والعدلُ الذى بينه وبين ربِّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسه ، وتقديمُ رضا مولاه على ما سواه ، والتجرد عن جميع المزاجر ، وملازمة جميع الأوامر .

والعدل الذى بينه وبين الخَلْق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل[2] أو كثر ، والإنصاف بكل وجه وألا تَشِىَ إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا بِالهَمِّ أو العزم .

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

(٢) وردت (كل) بالكاف وهى خطأ من الناسخ .

وإذا كان نصيبُ العوام بَذْلَ الإنصافِ وكَفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواص تَرْكُ الانتصاف ، وإسداءُ الإنْعام ، وتَرْكُ الانتقام ، والصبرُ على تَحَمُّلِ ما يُصيبُكَ من البلوى .

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم — والعلمُ مأمورٌ به — أى العلم بحدوثِ نَفْسه ، وإثباتِ مُحْدِثه بصفات جلاله ، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها . وأما الإحسانُ فى الفعل فالحَسَنُ منه ما أمر الله به ، وأَذِنَ لنا فيه ، وحَكَمَ بمدح فاعله .

ويقال الإحسان أن تقوم بكل حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان اطيرِ فى مِلْكِك ، فلا تقصر فى شأنه .

ويقال أن تَقْضِيَ ما عليك من الحقوق وألا تقتضِيَ لك حقاً من أحد .

ويقال الإحسان أن تتركَ كل ما لَكَ عند أحد ، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً . وجاء فى الخبر : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » وهذه حال المشاهدة التى أشار إليها القوم .

قوله : « وإيتاءِ ذى القربى » إعطاء ذى القرابة ،وهو صلةُ الرَّحِم ، مع مُقاساةِ ما منهم من الجَوْرِ والجفاء والحَسَدِ .

ينهى عن الفحشاء والمنكر » : وذلك كلُّ قبيحٍ مزجورٍ عنه فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوفوا بِعَهْدِ الله إذا عاهدتُّم
ولا تَنقُضُوا الأَيْمانَ بعد توكيدها
وقد جعلتُم اللهَ عليكم كفيلاً إنَّ
اللهَ يعلم ما تفعلون ﴾

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمين الوفاء بعهد الله فى قبول الإسلام والإيمان ، فتجبُ عليهم استدامةُ الإيمان . ثم لكلِّ قومٍ منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه ، فهم مُطَالَبُون بالوفاء به ؛ فالزاهدُ عَهْدُه ألا يرجعَ إلى الدنيا ، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد نَقَضَ عهده ولم يفِ به . والعابد عاهده فى تَرْكِ الهوى . والمريدُ عَاهَدَه فى ترك العادة ، وآثره بكل وجه . والعارف عهده التجرد له ، وإنكار ما سواه . والمحب عهده تركُ نَفْسِهِ معه بكل وجه[1] .

---

(١) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

والموحِّد عهده الامتحاء[1] عنه ، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد منْهِىٌّ عن تقصير عهده ، مأمورٌ بالوفاء به .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالتى نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانَكم دَخَلاً بينكم أن تكون أُمَّةٌ هِىَ أربى من أمةٍ ﴾

مَنْ نَقَضَ عهده أفسد بآخِرِ أمرِه أوَّلَه ، وهَدَمَ بِفِعْلِه ما أسَّسَه ، وقَلَّعَ بيده ما غَرَسَه ، وكان كمن نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثا[2] ، أى من بعد ما أبرمت فَتْلَه .

وإنَّ السالكَ إذا وقعت له فترة ، والمريدَ إذا حصلت له فى الطريق وقفة ، والعارف إذا حصلت له حجبَةٌ[3] ، والمحبَّ إذا استقبلته فرقةٌ — فهذه مِحَنٌ عظيمةٌ ومصائِبُ فجيعةٌ ، فكما قيل :

فَلأَبْكِيَنَّ على الهلالِ تأسُّفاً خوفَ الكسوفِ عليه قبل تمامه

فما هو إلا أنْ تُكْسَفَ شَمْسُهُم، وينطفِىء — فى الليلة الظلماء — سِراجُهم ، ويتشتَّتَ من السماء ضياء نجومِهم ، ويصيبَ أزهارَ أُنْسِهم وربيعَ وَصْلِهم إعصارٌ فيه بلاء شديدٌ ، وعذابٌ أليم . فإنَّ الحقَّ — سبحانه إذا أراد بقوم بلاء فكما يقول : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة[4] » فإنَّ آثارَ سُخْطِ الملوكِ مُوجِعةٌ ، وقصةَ إعراضِ السلطانِ مُوحِشَةٌ وكما قيل :

والصبر يَحْسُنُ فى المواطن كلها إلا عليكَ — فإنَّه مذمومٌ

---

(١) القشيرى مستفيد من قول بعض الشيوخ : المحبة محو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته .
« الرسالة ص ١٥٨ »

(٢) أنكاثا جمع نكث وهو ما ينكث فتله ، وقيل هى ريطة ، وكانت حمقاء تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن غزلهن .

(٣) وردت (محبة) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا (حجبة) لأنها أقرب إلى السياق ، ومشابهة فى الكتابة لكلمة (محبة) حيث يحتمل أن يحدث الالتباس فى حرف الميم عند النقل .

(٤) آية ١١٠ سورة الأنعام .

هنالك تنسكب العَبَراتُ ، وتُشَقّ الجيوب ، وتُلْطَم الخدود ، وتُعطَّلُ العِشار ، وتخَرَّبُ المنازلُ ، وتسودُّ الأبواب ، وينوح النائح :

وأتى الرسول فأخـ ـبر أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فجرى لهم دمعى صبيبا
وتركن ناراً فى الضلوع وزرعن فى رأسى مشيبا

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ به ولَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يومَ القيامة ما كنتم فيه تختلِفون ﴾

بلاءٌ كلٌّ واحدٍ على ما يليق بحاله ؛ فمن كان بلاؤه بحديث النَّفْسِ أو ببقائه عن هواه ، وبحرمانه لكرائمه فى عُقْباه فاسمُ البلاءِ فى صفته مَجَازٌ ، وإنما هذا بلاء العوام . ولكنَّ بلاء الكِرامِ غيرُ هذا فهو كما قيل :

مَنْ لم يَبِتْ — والحبُّ مِلْءُ فؤادِه لم يَدْرِ كيف تَفَتُّتُ الأكبادِ

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدةً ، ولكِن يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِى من يشاء وَلَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تعملون ﴾

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم فى أموالهم ، أو من جهة تقصيرهم فى أعمالهم ولِمَا ضيَّعوه من أحوالهم . . فهذه — لعمرى — وجوهٌ وأسبابٌ ، ولكنَّ سِرَّ القصةِ كما قيل :

أنا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ ولكن ما احتيالى بسوء رأى الموالى ؟

قوله : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » : لو شاء الله سَعَادَتَهم لَرَحِمَهُمْ ، وعن المعاصى عَصَمَهُمْ ، وبدوامِ الذكر — بَدَلَ الغفلة — ألهمهم . . ولكن سَبَقَتْ القسمةُ فى ذلك ، وما أحسن ما قالوا :

شكا إليك ما وَجَدْ مَنْ خانه فيك الجَلَدْ
حيرانُ . . لو شِئْتَ اهتدى ظمآنُ . . . لو شِئْتَ وَرَدْ

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾

أبعدكم عدم صدقكم فى إيمانكم عن تحققكم ببرهانكم ، لأنكم وقفتم على حد التردد دون القطع والتعيين ، فأفضى بكم تردّدكم إلى أوطان شركيكم ، إذ الشك فى الله والشرك به قرينان فى الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾

لا تختاروا على القيام بحق الله والوفاء بعهده عوضاً يسيراً مما تتنفعون به من حطام دنياكم من حلالكم وحرامكم ، فإن ما أعد الله لكم فى جناته — بشرط وفائكم لإيمانكم — يوفى ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾

الذى عندكم عرض حادث فانٍ ، والذى عند الله من ثوابكم فى مآلكم نعم مجموعة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو ما لكم أفعال معلولة وأحوال مدخولة[1] ، وما عند الله فثواب مقيم ونعيم عظيم

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثار متعاقبة ، وأصناف متناوبة ، أعيانها غير باقية وإن كانت أحكامها غير باطلة[2] ، والذى ينصف الحق به من رحمته بكم ومحبته لكم وثباته عليكم فصفات أزلية ونعوت سرمدية .

---

(١) أى [illegible] بالدخل

(٢) لأنها منكم فعلا ومن الله حكماً .

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعَرَّضٌ للزوال ، وقابلٌ للانقضاء ، وما وَصَفْنَا به أنفُسَنا من الإقبال لا يتناهى وأفضال لا تفنى ، كما قيل :

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائى وإنى للقائهم لَأَشَدُّ شوقا

قوله : « ولنجزين الذين صبروا . . . » : جزاء الصبر الفوزُ بالطِّلْبَةِ ، والظَّفَرُ بالبُغية . ومآلهم فى الطلبات يختلف : فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقةٍ فى الله . فعِوَضُه وثوابُه عظيمٌ من قِبَل الله ، قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »(١) .

ومَنْ صبر عن اتباع شهوةٍ لِأَجل الله ، وعن ارتكاب هفوةٍ مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى : أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً »(٢) .

ومَنْ صبر تحت جريان حُكْمِ الله ، متحققاً بأنه بِمَرْآةٍ من الله فقد قال تعالى : « إن الله مع الصابرين »(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

الصالح ما يصلح للقبول ، والذى يصلح للقبول ما كان على الوجه الذى أمر الله به . وقوله « من عمل صالحاً » : فى الحال ، «فلنحيينه حياة طيبة» : فى المآل ؛ فصفاه الحالِ يستوجبُ وفاء المآلِ ، والعملُ الصالح لا يكون من غير إيمان ، ولذا قال : « وهو مؤمن » .

ويقال « وهو مؤمن » أى مصدِّقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح . ويقال « وهو مؤمن » أى مصدِّقٌ بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه . قوله « فلنحيينه حياة

---

(١) آية ١٠ سورة الزمر .

(٢) آية ٧٥ سورة الفرقان .

(٣) صبر العبد مع الله أشد أنواع الصبر ويكون — كما يقول عمرو بن عثمان : بالثبات مع الله ، وتلقى بلائه بالرحب والدعة .

وصبر الله مع العبد يصفه الشيخ الدقاق بقوله : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله تعالى معيته . (الرسالة ص ٩٣) .

طيبة » : الفاء للتعقيب ، « ولنجزينهم . . . » الواو للعطف ففى الأولى مُعَجَّل ، وفى الثانية مؤجَّل ، ثم ماتلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق ، وإنما يعرف ذلك بالذوق ؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة ، وقوم قالوا إنه القناعة ، وقوم قالوا إنه الرضا ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه نسيم القرب . . . والكل صحيحٌ ولكلٍّ واحدٍ أهل .

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب ، وفى معناه قالوا :

نحن فى أكمل السرور ولكنْ ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ
غَيْبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّى أنكم غُيَّبٌ ونحن حُضُورُ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكونَ لهم حاجةٌ ولا سؤالٌ ولا أَرَبٌ ولا مُطالَبَةٌ ؛ وفرقٌ بين من له إرادة فتُرْفَع وبين من لا إرادةَ له فلا يريد شيئاً[1] ، الأولون قائمون بشرط العبودية ، والآخرون مُعْتَقُون بشرط الحرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستَعِذْ باللهِ من الشيطانِ الرجيم ﴾ .

شيطانُ كُلٍّ واحدٍ ما يشغله عن ربه ، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نَفْسُهُ حتى شَغَلَتْهُ عن ربه ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادة أو ملاحظةِ حال — فذلك شيطانُهُ . والواجبُ عليه أن يستعيذَ بالله من شرِّ نَفْسِه ، وشرِّ كل ذى شر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّه ليس له سُلْطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ .

أنَّى يكون للشيطانِ سلطانٌ على العبد والحقُّ — سبحانه — متفرِّدٌ بالإبداع ، متوحِّدٌ بالاختراع ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما سلطانه على الذين يتولَّوْنه والذين هم به مُشْرِكون ﴾ .

---

(١) فى هذا الصدد يقول القشيرى فى رسالته : « والمريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد فى عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ، فمن يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً . (الرسالة ص ١٠١) .

إنما سلطانُه على الذين هم فى غطاء غفلتهم ، وسر ظنونهم ومشتبهاتهم فأمّا أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثاتِ بالله ظهورُها ، ومن اللهِ ابتداؤها ، وإلى الله مآلها وانتهاؤها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا بدَّلْنَا آيةً مكانَ آيةٍ واللهُ أعلمُ بما يُنَزِّلُ قالوا إنما أنتَ مُفْتَرٍ بل أكثَرُهم لا يعلمون * قُلْ نَزَّلَه رُوحُ القُدُسِ من ربِّكَ بالحقِّ ليُثَبِّتَ الذين آمنوا وهُدًى وبُشْرَىٰ للمسلمين ﴾ .

ما ازدادوا فى طول مدتهم إلا شكاً على شكٍ ، وجحداً على جحدٍ ، وجرَوْا على منهاجهم فى التكذيب ، فلم يُصَدِّقوه صلى الله عليه وسلم ، وما زادوا فى ولايته إلا شكاً ومُرْية :

وكذا الملولُ إذا أرَادَ قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله : « قل نزّله روحُ القُدُس من ربك بالحق » : ردٌّ على فرط جهلهم بربهم ، وبُعْدِ رتبتهم عن التحصيل ، فلمّا كانوا متفرقين فى شهود المَلِكِ رُدُّوا فى حين التعريف إليهم بِذِكْرِ المَلَكِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد نعلم أنَّهم يقولون إنما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الذى يُلْحِدون إليه أعجميٌّ وهذا لِسانٌ عربيٌّ مبينٌ ﴾ .

لم يستوحش الرسولُ — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبهم ، وخفاء حاله وقَدْرِه عليهم . . وأىُّ ضررٍ يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجَالَسَتُه إذا خَفِيَتْ على الأَخَسِّ مِنَ الرعيةِ حالتُه ؟

ثم إنه أقام الحجةَ فى الردِّ عليهم حيث قال : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » : فَمِنْ فَرْطِ جهلهم توهموا أنَّ هذا القرآنَ — الذى عجز كافةُ الخَلْق

عن معارضته فى فصاحته وبلاغته — مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمى النطق[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين لا يؤمنُون بآياتِ اللهِ لا يهديهِمُ اللهُ ولهم عذابٌ أليم ﴾ .

إنَّ منْ سَبَقَتْ بالشقاوة قسمتُه لم تتعلق من الحق — سبحانه — به رحمتُه ، ومَنْ لم يَهْدِه اللهُ فى عاجله إلى معرفتِه لا يهديه اللهُ فى آجِلِه إلى جنته .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يفْترى الكذِبَ الذين لا يؤمنون بآياتِ اللهِ وأولئك هم الكاذبون ﴾ .

هذا من لطائف المعاريض ؛ إذ لمَّا وصفوه — عليه السلام — بالافتراء أنار الحقُّ — سبحانه — فى الجواب ، فقال : لستَ أنت المفترِى إنما المفترِى مَنْ كذَّبَ معبودَه وجَهِلَ توحيدَه .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كَفَرَ باللهِ من بعد إيمانه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبُه مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ ولكِن مَّن شَرَحَ بالكفر صَدْراً فعليهم غَضَبٌ مِّنَ اللهِ ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ عبده بقلبه ، وإخلاصَهُ فى عَقْدِه ، ولحقته ضرورة فى حاله خَفَّفَ عنه حُكْمَهُ ، ودَفَعَ عنه عناءه فلا يَلْفِظُ بكلمة الكفر إلا مُكْرَهاً — وهو مُوَحِّدٌ ، وهو مستحقٌ العُذْرَ فيما بينه وبين الله تعالى[2] . . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ،

---

(١) أرادوا به غلاماً كان لحويطب اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب ، أو هو جبر غلامٌ رومى لعامر بن الحضرمى وكان يقرأ التوراة والإنجيل ، أو سلمان الفارسى . . وكلهم أعاجم .

(٢) ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر الذى جرت كلمة الكفر على لسانه مكرهاً وهو معتقد الإيمان ، وأتى رسول الله وهو يبكى ، فجعل الرسول يمسح عينيه ويقول : « إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » .
وكان يقول عنه : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه »

وتجردوا لسلوكِ طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسبابٌ ، واتفقت لهم أعذارٌ ، كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ أو إلى شيء من العلوم رجوعٌ . . لم يكن ذلك قادحاً فى صحة إرادتهم ، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم ، ولا ينفى بذلك عنهم صِحَّةَ القَصْدِ إلى الله تعالى .

أمَّا « مَنْ شَرَحَ بالكفر صدراً » : فرجع باختياره ، ووضع قدَماً — كان قد رَفَعَهُ فى طريق الله — بِحُكْمِ هواه فقد نَقَضَ عهْدَ إرادته ، وفَسَخَ عقده ، وهو مستوجب (. . .)[1] إلى (. . .)[2] تتداركه الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم استَحَبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخِرة وأنَّ الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾

السالك إذا آثر (الحظوظ)[3] على الحقوق بَقِىَ عن الله ، ولم يبارِكْ له فيما آثره على حقِّ الله ، ولقد قالوا :

قد تركناكَ والذى تريد فعسى أنْ تَمَلهم فتعود

قوله جل ذكره ﴿ أولئكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم وسَمْعِهم وأبصارِهم وأولئك هم الغافلون ﴾ .

إذا تمادى فى غفلته، ولم يتدارك حالَه بملازمةِ حَسْرَتِه، ازدادقسوةً على قسوة ، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿ لا جَرَمَ أنَّهم فى الآخِرةِ هُمُ الخاسِرون ﴾

هم فى الآخرة محجوبون ، وبِذُلِّ البعد موسومون .

---

(١) مشتبهة (٢) مشتبهة .

(٣) سقطت هذه اللفظة والسياق يتطلبها ، فأثبتناها حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فى المقابلة بين حظوظ النفس وحقوق الحق .

قوله جل ذكره ﴿ ثم إنَّ ربَّكَ للذين هاجروا مِنْ بَعْدِ مافُتِنُوا ثم جاهدوا وصَبَرُوا إنَّ ربَّكَ من بَعْدِها لَغَفُورٌ رحيمٌ ﴾

ومَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر ، ولم يجنح إلى جانب الرُّخَصِ ، وأخذ فى الأمور بالأشقِّ أكرم اللهُ حَقَّه، وقرَّب مكانَه ، ولَقَّاه فى كل حالةٍ بالزيادة، وربحت صفقتُه حين خسِرَ أشكالُه، وتَقَدَّمَ على الجملة وإنْ قَلَّ احتيالُه .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم تأتى كلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عن نَفْسِها وتُوَفَّى كلُّ نفسٍ ماعَمِلَتْ وهم لايُظْلَمُون ﴾ .

غداً كلٌّ مشغولٌ بنفْسه ، ليس له فراغ إلى غيره . وعزيزٌ عبدٌ لايشتغل بنفسه ، قال صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالٍ لقى الله بها » . إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغا ، ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمامٌ بنفسه . والمؤمن لانَفْس له ؛ قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم »[1] اشتراها الحقُّ منهم ، وأودعها عندهم ، فليس لهم فيها حق ، وإنما يراعون فيها أمرَ الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمِنةً مطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغَدًا من كلِّ مكان فكفَرَتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقَها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون ﴾ .

فراغ القلبِ من الأشغال نعمةٌ عظيمة ، فإذا كفر عبدٌ بهذه النعمة بأن فتح على نَفْسِه بابَ الهوى ، وانجرف فى فساد الشهوة ، شوَّشَ الله عليه قلبه ، وسَلَبَه ما كان يَجِدُه من صفاءِ وقته ؛ لأنَّ طوارقَ النفسِ تُوجِبُ عزوبَ شوارق القلب ، وفى الخبر : إذا أقبل الليلُ من

---

(١) آية ١١١ سورة التوبة

هاهنا أدبر النهارُ من هاهنا » . وكذلك القلبُ إذا انقطع عنه سهودُ ما كان الحقُّ أتاحه له أصابه عطَشٌ شديد ولهبٌ عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءهُم رسولٌ مِنهم فكذّبوه فأخذَهُم العذابُ وهم ظالِمون ﴾ .

كما جاءهم الرسولُ جهراً فإنه تتأدّى إليهم منْ قِبَل خواطرهم إشاراتٌ تترى[1] ، فمَنْ لم يستجِبْ لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق[2] أخذه العذابُ من حيث لا يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما رزقكُمُ اللهُ حلالا طيباً واشكروا نِعمةَ اللهِ إن كنتُم إياه تعبُدُون ﴾ .

الحلالُ الطيبُ مايتناوله العبدُ على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب فى ترك الشبهة[3] ، وحقيقةُ الشكر على النعمةِ الغيبةُ عن شهودِ النعمة بالاستغراق فى شهود المنعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما حَرَّمَ عليكم الميْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ الله به فَمَنِ اضطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

يُبَاحُ تناولُ المحرماتِ عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع ، ولا يُرَخَّصُ فى ذلك إلا على أوصاف مخصوصة ، وبِقَدْرِ ما يَسُدُّ الرَّمق ، كذلك عند استهلاكِ العبدِ بغلبات الحقيقة لابد من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدى الفرض الواجب عليه ، ثم لا يُمكَّن من التعريج فى أوْطان التفرقة والتمييز بعد مضى أوقات الصحو من أجل أداء الشرع[4] ، كما قيل :

---

(١) تترى أى تتابع ، وربما كانت (سرا) لتقابل جهراً

(٢) أى إعتاق النفس وتحريرها من رق الشهوات

(٣) وردت (الشدة) والصواب — حسب ما يقول القشيرى فى مواضع مماثلة — أن تكون (الشبهة)

(٤) هذه هى حالة الفرق الثانى التى تتخلل حالة جمع الجمع ، وفيها يرد العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ويكون رجوعه لله بالله لا للعبد بالعبد

فإنْ تَكُ منه غيبة بعد غيبةٍ فإنَّ إليه بالوجود إيابى

قوله جل ذكره: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسِنَتُكُمُ الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذِبَ إنَّ الذين يَفْتَرُون على الله الكذِبَ لا يُفْلِحون * متَاعٌ قليلٌ ولهُم عذابٌ أليم﴾.

الصدق فى كل شىء أولَى[1] من الكذب، وكثيرٌ من أقوالهم فى الاعتراض عَيِّنَاتٌ[2] من الكذب.

والصِّدِّيق لا يكذب صريحاً، ولا يتداول أقوال كاذبٍ مهين. وصاحبُ الكذب تظهر عليه المذَلَّةُ لما هو فيه من الزَّلَّةِ، وله فى الآخرة عذاب أليم[3].

قوله جل ذكره: ﴿وعلى الذين هَادُوا حرَّمْنا ما قَصَصْنا عليكَ من قبلُ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أنفُسَهم يَظلمون﴾.

بيَّن أنه أوضح لِمَنْ تَقَدَّمَ الحلالَ والحرامَ، فمنهم مَنْ أتى بما أُمِرَ به ومنهم مَنْ خالف.. وكلٌّ عُومِلَ بما استوجبه؛ فمن أطاع قلبُهُ قرَّبَهُ، ومَنْ عَصَى رَدَّه وحَجَبَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿ثم إنَّ ربَّكَ للذين عَمِلوا السوء بِجَهَالَةٍ ثم تابوا مِنْ بَعْدِ ذلك وأصلَحوا إنَّ ربَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفورٌ رحيم﴾.

---

(١) وردت (أولا) وهى خطأ فى النسخ

(٢) عينات جمع عينة وهى نموذج من أصل الشىء ومادته (الوسيط)

(٣) قمنا هنا ببعض إصلاحات طفيفة نظراً لاتهام الخط ورداءته، ووجود بعض حروف تعجز المطبعة عن نقلها كما هى فى الرسم.

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قَدَّمُوا ، وأسِفوا على كثيرٍ مما أسلفوا وفيه أسرفوا ، ومحَا صِدْقُ عَبْرَتِهم آثارَ عَثْرَتِهم — نظرَ اللهُ إليهم بالرحمة ، فتابَ عليهم إذا أصلحوا ، ونجَّاهم إذا تضرَّعوا .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ إبراهيمَ كان أُمَّةً قانِتاً للهِ حنيفاً ولم يَكُ مِنَ المشركين ﴾ .

قيل آمن بالله وحدَه فقام مقام الأمة ، وفى التفسير : كان معلِّماً — للخير — لأمةٍ .

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودة ما يكون فى أمةٍ متفرقاً .

ويقال لمَّا قال إبراهيمُ لكلِّ ما رآه : « هذا ربى » ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هى بل كان مُسْتَهْلَكاً فى شهودِ الحقِّ ، ورأى الكونَ كُلَّه بالله ، وما ذكر حين ذكر غيرَ الله . . كذلك كان جزاء الحق فقال : أنت الذى تقوم مقام الكلِّ ، ففى القيامِ بحق الله منك على الدوام غُنْيةٌ عن الجميع .

و « الحنيف » : المستقيم فى الدِّين ، أو المائل إلى الحق بالكلية[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجتباه وهَدَاه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

الشاكرُ فى الحقيقة — مَنْ يرى عَجْزَه عن شكره ، ويرى شُكْرَهُ من الله عزَّ وجل ، لِتَحَقُّقِهِ أنه هو الذى خَلَقَه ، وهو الذى وَفَّقَه لشكره ، وهو الذى رزقه الشكرَ ، وهو الذى اجتباه حتى كان بالكلية له — سبحانه .

« وهداه إلى صراط مستقيم » أى تحقَّق بأنه عَبْدُه ، وأنه رقَّاه إلى محلِّ الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتيناه فى الدُّنيا حَسَنَةً وإنَّهُ فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحين ﴾ .

الحسنةُ التى آتاه اللهُ هى دوامُ ما آتاه حتى لم تنقطعْ عنه .

---

(١) الحنيف — فى اللغة — من الأضداد = المائل والمستقيم (ابن الانبارى فى كتاب الاضداد)

ويقال هى الخلة . ويقال هى النبوة والرسالة .

ويقال آتيناه فى الدنيا حسنةً حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لغيرٍ بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أَوْحَيْنا إليك أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

« ملة ابراهيم » أى الكون بالحق ، والامتحاء[1] عن شاهد نفسه ؛ فكان نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى اتباعه ابراهيم مؤْتَمِراً بأمر الله . وكانت ملةُ إبراهيم — عليه السلام — الخُلُقَ والسخاء والإيثارَ والوفاء ، فاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ، فقد زاد على الكافة شأنه ، وبانت مَزِيَّتُهُ .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّما جُعِلَ السَّبْتُ على الذين اختلفوا فيه وإنَّ ربَّك لَيَحْكُمُ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾

قومٌ حرَّموا العملَ فيه وقومٌ حللوه معصيةً منهم ، وقيل جعل الجمعة لهم فقالوا : لانريد إلا يومَ السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حادوا[2] عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هواهم . ثم أنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسَنَةِ وجادِلْهم بالتى هى أحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هو أعلمُ بِمَن ضَلَّ عن سبيلِهِ وهو أَعْلَمُ بالمُهْتَدِين ﴾ .

---

(١) وردت (الامتحان) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (جادوا) وهى خطأ فى النسخ .

الدعاء إلى سبيل الله بحث[1] الناسِ على طاعةِ الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله .
والدعاء بالحكمة ألا يخالفَ بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علمٍ وصوابٍ ، ولا يكون فيها تعنيف .

« وجادلهم بالتى هى أحسن » : بالحجّة الأقوى . والطريقة الأوضح . قال تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »[2] : فشَرْطُ الأمرِ بالمعروف استعمالُ ما تأمر به ، والانتهاء عما تنهى عنه[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم به
وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خيرٌ للصابرين ﴾

إذا جرى عليكم ظُلْمٌ من غيركم وأردتم الانتقامَ . . فلا تتجاوزُوا حَدَّ الإذنِ بما هو فى حكم الشرع .

« ولئن صبرتم » : فتركتم الانتصافَ لِأَجْلِ مولاكم فهو خيرٌ لكم إنْ فَعَلْتُمْ ذلك . والأسبابُ التى قد يترك لأجلها المرء الانتصافَ مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً فى الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً فى أن يتكفَّل اللهُ بخصومه ، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجرى عليه ، ومنهم من يترك ذلك لِكَرَمِ نَفْسِه ، وتَحرُّزِه عن الأخطار ولاستحبابه العفوَ عند الظَّفَرِ ، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقاً ، ولا يعتقد أنَّ لأحدٍ هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسِه ؛ فمِلْكُه مُبَاحٌ ودَمُهُ هَدَرٌ . ومنهم من ينظر إلى خصمه — أى المتسلط عليه — على أنَّ فِعْلَه جزاء على ما عمله هو من مخالفة أمر الله ، قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[4] . فاشتغاله باستغفاره عن جُرْمِهِ يمنعه عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا باللهِ ولا تحزَنْ
عليهم ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرون ﴾

---

(١) وردت (بحيث) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) آية ٨٨ سورة هود .
(٣) أى تكون أنت قدوة فيما تدعو إليه من أوامر وما تنهى عنه من زواجر .
(٤) آية ٣٠ سورة الشورى .

« واصبر » تكليف ، « وما صبرك إلا بالله » : تعريف . « واصبر » تحقق بالعبودية « وما صبرك إلا بالله » إخبارٌ عن الربوبية .

« ولا تحزن عليهم.. » أى طالِع التقدير ، فما لا نجعلُه خطراً عندنا لاينبغى أن يوجِبَ أثراً فيك ؛ فمَنْ أسقَطْنا قَدْرَه فاستَصغِرْ أمْرَه . وإذا عرفتَ انفرادَنا بالايجادِ فلا يضيق قلبُك بشدة عداوتهم ، فإنَّا ضَمَنَّا كِفايتَك ، وألا نُشْمِتَهم بك ، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم مُحْسِنون ﴾

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

« الذين اتقوا » رؤيةَ النصْرةِ مِنْ غيره ، والذين هم أصحابُ التبرى من الحَوْلِ والقوة .

والمحسن الذى يعبد الله كأنه يراه ، وهذه حال المشاهدة .

بسم الله الرحمن الرحيم

« . . . أهلُ الجنةِ طابت لهم حدائقُها ، وأهل النار أحاط بهم سرادِقُها ، والحقُّ — سبحانه — مُنزَّهٌ عن أنْ تعودَ إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة . . جَلَّتْ الأحدية ، وتقدَّسَتْ الصمدية .

وَمَنْ وقعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تقع عليه قَتَرةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجدَ حُظْوَةً لدينا ، ومن نقَلَ قَدَمَه نحونا غفرنا له ما قَدَّمه ، ومنْ رفَعَ إلينا يَدَاً أجزلنا له رَغَداً ، ومن التجأ إلى سُدَّةِ كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمنا ، ومن تمسكا فينا فليلاً ، مهَّدْنا له فى دار فضلنا مقيلاً »

عبد الكريم القشيرى

عند

سورة الكهف

السورة التى يذكر فيها بنو إسرائيل[1]

قوله تعالى وتقدّس : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

كلمةٌ ما سَمِعَها عابدٌ إلّا شكر عصمتَه ، وما سمعها سالِكٌ إلا وَجَدَ رحمتَه ، وما تحقّقَها عارفٌ إلاّ تعطّرَ قلبُه بنسيمِ قُربته ، وما شهدها موحّدٌ إلا تقطّرَ دمُه لخوفِ فُرقته .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحان الذىٓ أسرى بِعَبْدِهِ ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذى باركْنا حَوْلَه لنُرِيَهُ من آياتِنا إنّه هو السميعُ البصيرُ ﴾

افتتح السورةَ بِذِكْرِ الثناء على نَفْسه فقال : « سبحان الذى . . » : الحقُّ سبّحَ نَفْسَه بعزيزِ خطابِه ، وأخبر عن استحقاقه لجلال قَدْرِه ، وعن توحُّدِه بعلوِّ نُعُوتِه .

ولمّا أراد أنْ يَعْرِفَ العبادُ ما خَصَّ به رسولَه — صلى الله عليه وسلم — ليلةَ المعراجِ من عُلوِّ ما رقّاه إليه ، وعِظَمِ ما لقّاه به أزالَ الأُعْجوبةَ بقوله : « أسرى » ، ونفى عن نبيِّه خَطَرَ الإعجابِ بقوله : «بعبده» ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ أُلوهيته، واستحقاقَه لكمالِ العزِّ فلا يُتَعَجَّبُ منه أن يفعل ما يفعل . ومَنْ عرف عبوديةَ نَفْسِه ، وأنّه لا يَمْلِكُ شيئاً من أمره فلا يُعْجَبُ بحاله . فالآية أوضحت شيئين اثنين : نَفْيَ التعجُّبِ من إظهارِ فِعْلِ اللهِ عزّوجل ، ونفيَ الإعجابِ فى وصف رسول الله عليه السلام .

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام — حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة —

---

(١) يقول السيوطى فى الإتقان : « وتسمى أيضاً سورة الإسراء ، وسورة سبحان وسورة بنى إسرائيل » الإتقان ط الحلبي سنة ١٩٥١ ج١ ص ٥٤ .
أما القاضى البيضاوى (ص ٢٧٠) فيقول : سورة بنى إسرائيل أو سورة « أسرى »

فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا »[1] ، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى بعبده » وليس مَنْ جاء بنفسِه كمَنْ أُسْرَى به ربُّه ، فهذا مُتَحَمِّلٌ وهذا محمول ، هذا بنعت الفَرْقِ وهذا بوصف الجمع ، هذا مُرِيدٌ وهذا مُرَادٌ .

ويقال جعل المعراجَ بالليل عند غَفْلَةِ الرُّقَبَاءِ وغَيْبَةِ الأجانب ، ومن غير ميعاد ، ومن غير تقديم أُهْبَةٍ واستعداد ، كما قيل :[2]

ويقال جعل المعراجَ بالليل ليُظْهِرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ ، وتكذيبَ مَنْ تعجَّب وكَذَّبَ أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تعبُّدُه صلى الله عليه وسلم وتهجُّدُه بالليل جَعَلَ الحقُّ سبحانه المعراجَ بالليل

ويقال :

ليلةُ الوَصْلِ أصْفَى من شهور ودهور سواها

ويقال أرسله الحقّ — سبحانه — لينعلَّم أهلُ الأرضِ منه العبادة ، ثم رَقَّاه إلى السماء ليتعلَّمَ الملائكةُ منه آدابَ العبادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ البصر وما طغى »[3] ، فما التَفَتَ يميناً ولا شمالا ، وما طمع فى مقامٍ ولا فى إكرام ؛ تجرَّد عن كلِّ طلبٍ وأَرَبٍ .

قوله : لنريه من آياتنا » : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشْفٌ بالذات .

ويقال من الآيات التى أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله — سبحانه — شىء فى جلاله وجماله ، وعِزِّه وكبريائه ، ومجده وسنائه

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه — أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثلَه فى نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته .

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .
(٢) هنا شاهد شعرى مضطرب فى الكتابة ، وأكثر أجزائه سلامة هو : والناس عما نحن فيه بمعزل .
(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتَيْنَا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لِبَنِى إسرائيل ألّا تتخذوا من دونى وكيلاً ﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ نَبِيَّنَا — صلوات الله عليه — كان أوفى — سماعاً ، فإنَّ الشمسَ فى طلوعها وإشراقها تكون أقربَ ممن طلعت له من حقائقها .

قوله جل ذكره : ﴿ ذُرِيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مع نُوحٍ إنَّه كان عَبْداً شكوراً ﴾

أى يا ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح — على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ؛ وكان نوح قد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب فى كل (. . .)[1] كما فى القصة — سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأُمِرَ حين دعا عليهم فقال : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً[2] » .

ويقال الشكور هو الذى يكون شكره على توفيقِ اللهِ له لِشُكْرِه ، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِه .

ويقال الشكور الذى يشكر بماله ، ينفقه فى سبيل الله ولا يدَّخِره ، ويشكر بنفسِه فيستعملها فى طاعة الله ، ولا يُبقِي شيئاً من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبِه ربَّه فلا تأتى عليه ساعةٌ إلا وهو يذكره .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَضَيْنَا إلى بنى إسرائيلَ فى الكتابِ

---

(١) مشتبهة . .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع بإهلاكهم نتيجة نفاد صبره أو عدم شكره بل حسبما أمره الله ، ولو وضعنا الفاصلة بعد (وأُمِرَ) يكون المعنى : إلا من قد آمن وأُمِر بالايمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع المذهب العام للقشيرى ، فكل شىء عنده بأمر الله وتوفيقه .

لَتُفْسِدُنَّ فى الأرضِ مرتين ولَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كبيراً ﴾

القضاء هاهنا بمعنى الإعلام ، والإشارة فى تعريفهم بما سيكون فى المُسْتَأْنَفِ منهم وما يستقبلهم ، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخْبِروا به ، وليكونَ أبلغَ فى لزوم الحُجَّةِ عليهم ، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم ، وليعلموا أن ما سَبَقَ به القضاء فلا محالةَ يحصل وإنْ ظُنَّ التباعدُ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ أُولاهما بَعَثْنا عليكم
عباداً لنا أُولى بأسٍ شديدٍ فَجاسُوا
خِلالَ الدِّيارِ وكان وعداً مفعولاً ﴾

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم
وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلناكم
أكثَرَ نفيراً ﴾

يدلُّ على أنه مُقَدِّرُ أعمالِ العباد ، ومدبِّرُ أفعالِهم ؛ فإنَّ انتصارَهم على أعدائهم من جملة أكسابهم ، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذى تولّاه بقوله : « رددنا لكم الكرة عليهم ... »

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أحسنتُمْ لأنفُسِكم وإنْ
أَسأْتُم فَلَهَا فإذا جاء وعدُ الآخرة
لِيَسُوءُوا وجوهَكم ولِيَدْخُلُوا
المسجد كما دخلوه أوَّلَ مَرَّةٍ
ولِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تتبيراً ﴾

إنْ أحسنتُم فثوابَكم كسبتم ، وإنْ أسأتم فعداءكم جَلَبْتُم — والحقُّ أعزُّ مِنْ أنْ يعودَ إليه من أفعال عبادِه زَيْنٌ أو يلحقه شَيْنٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عسىٰ ربُّكم أن يرحَمَكم ﴾

كلمةُ « عسى » فيها ترجية وإطماع ، فهو — سبحانه — وقفهم على حد الرجاء والأمل ، والخوف والوجل .

وقوله « عسى » : ليس فيه تصريح بغفرانهم ورحمتهم ، وإنما فيه للرجاء موجِبٌ قوىٌّ ؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عُدْتُم عُدْنا وجعلنا جهنَّم للكافرين حصيراً ﴾

أى إنْ عُدْتُم إلى الزَّلَّةِ عُدْنا إلى العقوبة ، وإن استقمتم فى التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة .

ويقال إن عُدْتُم إلى نَقْضِ العَهْد عُدنا إلى تشديد العذاب .

ويقال إن عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة .

ويقال إن عُدْتُم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء .

ويقال إن عُدْتُم إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرمنا .

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » ، لأنهم (. . . .)[1] وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين .

و « حصيراً » أى محبساً ومصيراً . فالمؤمنُ — وإنْ كان صاحبَ ذنوب وإنْ كانت كبيرة — فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالةَ يصل يوماً إلى غفرانه .

---

(١) هنا بياض فى النسخة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهْدِى للتى هى أقومُ ويُبَشِّرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كبيراً ﴾

القرآنُ يدل على الحقِّ والصواب . و « أقوم » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكنَّ الخللَ من جهة المُسْتَدِلِّ لاالدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكنَّ المستدِلَّ مُعْرِضٌ ، وبآداب النظر مُخِلٌّ ، فيكون العيبُ فى تقصيره لا فى قصور الدليل[1] .

القرآنُ نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُماتِ جَهْلِه ، وخرج من غمار شَكِّه . ومَنْ رَمَدَتْ عيونُ نظرِه التبس رُشْدُه .

ويقال الحَوَلُ ضَرَرُه أشدُّ من العَمَى ؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِر فيَتْبَعُ قائدَه ، ولكن الأحول يتوهَّمُ الشىء شيئين ، فهو بتخيُّلِه وحسبانه يمارى مَنْ كان سليماً . . كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجدَل ، ولم يضع النظر موضعه بَقِىَ فى ظُلُماتِ جَهْلِه ، وصال بباطل دعواه على خَصْمِه ، كما قيل :

بأطرافِ المسائلِ كيف يأتى — ولا أدْرِى لَعَمْرُكَ — مُبْطِلُوها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ويَدْعُ الإنسانُ بالشرِّ دعاءه بالخيرِ وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾

من الأدب فى الدعاء ألَّا يسألَ العبدُ إلَّا عند الحاجة[2] ، ثم ينظر فإنْ كان شىء لايعنيه ألايتعرَّضَ له ؛ فإنَّ فى الخبر[3] : « مِن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » . ثم من آداب الداعى إذا سأل من اللهِ حاجتَه ورأى تأخيراً فى الإجابة ألا يَتَّهِمَ الحقَّ — سبحانه — ويجب أن يعلم

---

(١) هذا نموذج مصغر لأسلوب القشيرى الجدلى .
(٢) وردت (تجاحه) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (الخير) بالياء

أن الخير فى ألا يجيبَه ، والاستعجالُ — فيما يختاره العبد — غيرُ محمود ، وأَوْلى الأشياءِ السكونُ والرضا بحُكْمِهِ سبحانه ، إن لم يساعدْه الصبرُ وسَأَلَ فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال ، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته ، وأنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتين فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن ربكم ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحِسَابَ وكُلَّ شىءٍ فصَّلْناه تفصيلاً ﴾

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته ، ودلالةً على وجوب وحدانيته ؛ فى تعاقبهما وتناوبهما ، وفى زيادتهما ونقصانهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادةُ شرطُها الدوامُ والاتصال ، والوظائف حقُّها التوفيق والاختصاص

ولو وقع فى بعض العبادات تقصيرٌ أو حَصَلَ فى أداءِ بعضِها تأخيرٌ تَدَارَكَه بالقضاءِ حتى يَتَلَافَى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات فى الليلِ والنهارِ إفرادُ النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيصُ الليل بالظلام بغيرأمرٍ مكتسب[1] ، ومن ذلك قوله تعالى: «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » : وهو اختلاف أحوال القمر فى إشراقه ومحاقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ، بل هو فى كل ليلة فى منزل آخر ، إما بزيادة أو بنقصان .

وأمَّا الشمس فحالها الدوام .. والناس كذلك أوصافهم ؛ فأربابُ التمكينِ الدوامُ شرطُهم ، وأصحابُ التلوينِ التنقُّلُ[2] حَقُّهم ، قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألبابُ دون نزوله

---

(١) أى أن أفعال الله بمخلوقاته لا تخضع لعلة أو سبب ، أو حيلة أو كسب .
(٢) يقصد بالتنقل هنا التقلب فى الأحوال . . وليس التنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزَمْناه طائِرَهُ فى عُنُقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلْقَاه منشوراً ﴾

ألزم كلَّ أحدٍ ما لَبِسَ بِجِيدِه . فالذين هم أهلُ السعادة أسرج لهم مركبَ التوفيق ، فيسير بهم إلى ساحات النجاة ، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مَطِيَّةَ الخذلان فأقعَدَتْهم عن النهوض نحو منهج الخلاص ، فوقعوا فى وَهْدَةِ الهلاك .

قوله جل ذكره : ﴿ اقرأْ كتابَكَ كفى بِنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً ﴾

مَنْ ساعَدَتْه العنايةُ الأزليةُ حُفِظَ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه ، ومَنْ أبلاه بِحُكْمِه رَدَّه وأمْهَلَه ، ثم تركه وعَمَلَه ، فإذا استوفى أَجَلَه عرف ماضَيَّعَه وأهمله ، ويومئذ يُحَكِّمه فى حالِ نفسه،وهو لا محالةَ يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله .. فكم من حسرةٍ يتجرَّعُها ، وكم من خيبةٍ يتلقَّاها !

ويقال مَنْ حَاسَبَه بكتابه فكتابُه مُلازِمُه فى حسابه فيقول : رَبِّ : لا تحاسبنى بكتابى .. ولكن حاسِبْنِي بما قلتَ : إنَّكَ غافرُ الذَّنْبِ وقابلُ التوبِ .. لا تعاملنى بمقتضى كتابى ؛ ففيه بوارى وهلاكى

قوله جل ذكره : ﴿ مَّنِ اهتدىٰ فإنَّما يهتدى لِنَفْسِه ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها ﴾

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه ؛ إنْ كانت طاعةً فضياؤها لأصحابها ، وإنْ كانت زَلَّةً فبلاؤها لأربابها . والحقُّ غنىٌّ مُقَدَّسٌ ، أَحَدِىٌّ مُنَزَّهٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ وما كُنَّا مُعَذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولا ﴾

كُلٌّ مُطالَبٌ بجريرته . وكلُّ نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزْرَ نَفْسٍ أخرى .. « وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولا » : دلّ ذلك على أن الواجباتِ إنما تَتَوَجَّهُ من حيث السمع[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أَرَدْنا أن نُهْلِكَ قريةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عليها القولُ فَدَمَّرْناها تدميراً ﴾

إذا كَثُرَ أهلُ الفسادِ غَلَبُوا ، وقَلَّ أهل الصلاح وفقدوا ؛ فعند ذلك (يغمر)[2] اللهُ الخَلْقَ ببلائه ، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا فى بابهم ، ولا فيهم من يبتهل إلى الله فَيُسْمَعُ دعاؤه ، فَيَخْتَرِمُ[3] أولياءه ، ويُبْقِي أربابَ الفساد ، وعند ذلك يشتدُّ البلاء وتَعْظُمُ المِحَنُ إلى أن ينظرَ اللهُ تعالى إلى الخَلْق نَظَرَ الرحمةِ والمِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ أَهْلَكْنا من القرونِ من بَعْدِ نوحٍ وكفى بربِّكَ بذنوبِ عبادِه خبيراً بصيراً ﴾

فى الآية تسليةٌ للمظلومين إذا استبطأوا هلاكَ الظالمين ، و (. . .)[4] قِصَرِ أيديهم عنهم . فإذا فَكَّروا فيما مضى من الأمم أمثالِهم وكيف بَنَوْا مَشِيداً ، وأَمَّلُوا بعيداً . . فبادوا جميعاً ، يعلمون أنَّ الآخرين — عن قريب — سينخرطون فى سلكهم ، ويُمْتَحَلُون بمثل شأنهم . وإذا أَظَلَّتْهُم سُحُبُ الوحشةِ فاءوا إلى ظلِّ شهود التقدير ، فتزول عنهم الوحشة ، وتطيب لهم الحياةُ ، وتحصل الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّن كان يريدُ العاجلةَ عَجَّلْنا له فيها ما نشاء لِمَن نُريدُ ثم جَعَلْنا له جهنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً ﴾

---

(١) نظن أن القشيرى يريد بذلك أن يرد على بعض أهل الكلام الذين يقولون إن الله يعذب الناس على ذنوبهم حتى ولو لم يبعث لهم رسولا لأن عقل الانسان مطالب بالتكليف قبل سماع الرسل .

(٢) وردت (يعمر) بالعين والصواب أن تكون بالغين لأن السياق يتطلب ذلك .

(٣) وردت (فيحترم) بالحاء والسياق يتطلب أن الله (يختزم) أولياءه أى يأخذهم إليه .

(٤) مشتبهة ، ونرجح أنها كلمة تؤدى إلى معنى (وأحسوا) قصر أيديهم عن الظالمين .

مَنْ رَضِىَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِىَ عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بِقَدْر ما اشْتَمَّهُ ، ثم يكون آنَسَ ما به قلباً وأشدَّ ما يكون به سكونا . . ثم يُخْتَطَفُ عن نعمته ، ولا يخصه بشىء مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه فى الآخرة . . ولقد قيل :

يا غافلاً عن سماع الصوتْ إن لم تبادِر فهو الفوتْ
مَنْ لم تَزُلْ نعمته عاجلاً أزاله عن نعمته الموتْ

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أرَادَ الآخِرةَ وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمِنٌ فأولئك كان سعيُهم مشكوراً ﴾

علامة مَنْ أراد الآخرةَ — على الحقيقة — أن يسعى لها سَعْيَها ؛ فإرادةُ الآخرة إذا تجرَّدَتْ عن العمل لها كانت مجردَ إرادة ، ولا يكون السعىُ مشكوراً . قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المآلِ كما أنه مؤمِنٌ فى الحال . ويقال وهو مؤمن أنَّ نجاته بفضله لا بسببه . « فأولئك كان سعيُهم مشكوراً » أى مقبولاً ، ومع القبول يكون التضعيف والتكثير ؛ فكما أن الصدقة يُرْبِيها كذلك طاعةُ العبدِ يُكَثِّرُها ويُنَمِّيها .

قوله جل ذكره ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربِّك وما كان عطاء ربِّكَ محظوراً ﴾

يجازى كلاً بِقَدْرِه ؛ فَلِقَوْم نجاة ولقومٍ درجات ، ولقوم سلامة ولقومٍ كرامة ، ولقومٍ مثوبتُه ، ولقومٍ قربتُه .

قوله جل ذكره ﴿ انظُرْ كيف فَضَّلْنا بعضَهم على بعضٍ وللآخِرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبر تفضيلا ﴾

التفضيلُ على أقسام ، فالعُبَّاد فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن فى زكاء أعمالهم ، والعارفون فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن فى صفاء أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالإخلاص ، وصفاء الأحوال

بالاستخلاص ؛ فقومٌ تفاضلوا بصدق القَدَمِ ، وقوم تفاضلوا بعلوّ الهِمَم والتفضيل فى الآخرة أكبر : فالعُبَّادُ تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لَتَرَوْنَ أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدرىَّ فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم »

وأهلُ الحضرةِ تفاضلُهم بلطائفهم من الأُنْس بنسيم القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا إشارة . منهم من يشهده ويراه مرةً فى الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون فى الرؤية ويتفاوتون فى نصيبِ كلِّ أحد ، وليس كلُّ مَنْ يراه يراه بالعين التى بها يراه صاحبه ، وأنشد بعضهم[1] :

لو يسمعون — كما سمعتُ حديثها خرُّوا لِعزَّةَ رُكَّعاً وسجودا

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَجْعَلْ مع اللهِ إلٰها آخَرَ فَتَقْعُدَ مذموماً مخذولا ﴾

الذى أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله ، ومخذولاً من قِبَل (مَنْ)[2] عَبَدَه من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقضىٰ ربُّك ألا تعبدوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحسانا إمَّا يَبْلُغَنَّ عندَكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهُما فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لهما قَوْلاً كريماً ﴾

أمَرَ بإفراده — سبحانه — بالعبادة ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها ، وأن يكون مغلوباً باستيلاءِ سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يَحْفَظُهُ عن شهودِ عبادته[3]

وأمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما ، والوقوفِ عند إشارتهما ، والقيام بخدمتهما ،

---

(١) البيت لكثير صاحب عزة .

(٢) سقطت (مَنْ) والسياق يتطلبها ، والخذلان ناجم عن أنَّ أى معبود غير الله لا يملك لمن يعبده نفعاً ولا يدفع عنه ضراً .

(٣) فاخلاص العبد فى التحقق يحفظه عن التقصير فى أمور الشريعة .

وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحُسْنِ عشرتهما ورعاية حُرْمَتِهما ، وألا يبدىَ شواهدَ الكسلِ عند أوامرهما ، وأن يَبْذُل المُكْنَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما . . . هذا فى حال حياتهما ، فأمّا بعد وفاتهما فبِصِدْقِ الدعاء لهما ، .وأداءِ الصَدَقَةِ عنهما ، وحِفْظِ وصيتهما على الوجهِ الذى فَعَلاه ، والإحسانِ إلى مَنْ كان مِنْ أهلِ ودِّهما ومعارفهما .

ويقال إنَّ الحقَّ أمرَ العبادَ بمراعاة حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد . . فَمَنْ عجز عن القيام بحقِّ جنسه أنَّى له أن يقومَ بحقِّ ربه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمة وقُل ربِّ ارحَمْهُما كَمَا ربَّيَانى صغيراً ﴾

اخفض لهما جناحَ الذُّلِّ بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك البَرَمِ بمطالبهما ، والصبر على أمرهما ، وألا تَدَّخِرَ عنهما ميسوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّكُم أعْلَمُ بما فى نفوسِكم إن تكونوا صالحين فإنَّه كان للأوابين غفوراً ﴾

إذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ قلبِ عبدٍ أمَدَّه بحسن الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد[1] ، ويَسَّر عليه العسيرَ من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتِ ذا القُرْبَىٰ حقَّه والمِسْكينَ وابنَ السبيل ولا تبذِّر تبذيراً ﴾

إيتاء الحقِّ يكون من المال ومن النَّفْس ومن القول ومن الفعل ، ومَنْ نَزَل على اقتضاء حقِّه ، وبذل الكُلَّ لأجل ما طالبه به من حقوق . فهو القائم بما ألزمه الحقُّ سبحانه بأمره .

---

(١) أى الاستدامة والاستمرار دون وقفة أو فترة — وتلك من أعظم المنن فى نظر القشيرى ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومه وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدَّره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظَّ النَّفْسِ — وإن كان محسمة — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوفاء بالنَّفْس — فهو تقصيرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين
وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم ، وجَرَوْا فى طريقهم على دواعى الشياطين ووساوسهم ، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصى فقد دعاهم إخوانَ الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من
ربِّك ترجوها فقُل لهم قولاً ميسوراً ﴾

إن لم يُسَاعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصْرِفْهم عنكَ بوعدٍ جميلٍ إن لم تُسْعِفهم بنقدٍ جزيل . وإنَّ وَعْدَ الكرامِ أهْنأُ من نقد اللئام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عنقك
ولا تبسطها كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ ملوماً
محسوراً ﴾

لا تُمْسِكْ عن الإعطاء فتُكْدِى[2] ، ولا تُسْرِفْ فى البذلِ بكثرة ما تُسْدِى ، واسْلُكْ بين الأمرين طريقاً وَسَطاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَبْسُط الرزقَ لمن يشاء
ويَقْدِرُ إنه كان بعباده خبيراً
بصيراً ﴾

إذا بَسَطَ لا تَبْقَى فاقة ، وإذا قبض استنفد كلَّ طاقة[3] .

---

(١) وردت (الأيام) وقد أثبتنا (اللئام) فيها يقوى المعنى وتستقيم المقابلة .
(٢) تكدى أى تبخل ، قال تعالى : « وأعطى قليلا وأكدى » .
(٣) واضح أن القشيرى يوجه الإشاره إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقتلوا أولادَكم خَشْيَةَ إملاقٍ نحن نرزُقهم وإياكم إنَّ قَتْلَهم كان خِطْئاً كبيراً ﴾

مَنْ عَرَفَ أنَّ الرازقَ هو الله خفَّ عن قلبه همُّ العيال[1] — وإنْ كَثُروا ، ومن خفى عليه أنه قَسَّمَ — قبل الخَلْقِ — أرزاقَهم تطوح فى متاهات مغاليطه ، فيقع فيها بالقلب والبَدَنِ ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقربوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا ﴾ .

ترَجَّحَ[2] الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييعَ حُرْمَةِ الحقِّ ، وهتكَ حُرْمَةِ الخَلْق ، ثم لِمَا فيه من الإخلال بالنَّسَبِ ، وإفسادِ ذات البين[3] من مقتضى الأَنَفَةِ والغضب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقتلوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ، ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يُسرِف فى القتلِ إنه كان منصوراً ﴾

لا يجوز قَتْلُ نَفْسِ الغير بغير الحق ، ولا للمرء أن يقتل نَفْسَهُ أيضاً بغير الحق . وكما أنَّ قتلَ النَّفْس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّمٌ فكذلك القَصْدُ إلى هلاكِ المرءِ مُحَرَّمٌ .

ومن انهمك فى مخالفة ربه فقد سعى فى هلاك نفسه . « ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » : أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه ، وعلى معنى الإشارة : إن النصرة مِنْ قِبَلِ الله ؛ ومنصورُ الحقِّ لا تنكسر سِنَانُه ، ولا تطيشُ سِهَامُهُ[4] .

---

(١) وردت (القبال) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .
(٢) ترجح = زاد وثقل .
(٣) وردت (اليمين) وهى خطأ فى النسخ
(٤) وردت (شهامه) بالشين وهى خطا فى النسخ

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلّا بالتى هى أحسن حتى يبلغَ أشدَّه وأوفوا بالعهدِ إنَّ العَهْدَ كان مسئولًا ﴾

لمّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أمَرَ — سبحانه — الأجنبيَّ الذى ليس بينه وبين اليتيم سَبَبٌ أنْ يتولّى أمرَه ، ويقومَ بشأنِه ، وأوصاه فى بابه ؛ فالصبيُّ قاعد بصفة الفراغ والهوينى[1] ، والولىُّ ساعٍ بمقاساة العَنَا . .

فأمْرُ الحقِّ — سبحانه — للولىِّ أحظَى للصبيِّ مِنْ شفقةِ آلِه عليه فى حال حياتهم[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوْفُوا الكيلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقسطاسِ المستقيمِ ذلك خيرٌ وأحْسَنُ تأويلًا ﴾

كما تدين تدان ، وكما تعامِلُ تُجازَى ، وكما تكيل يُكَالُ لكَ ، وكما تكونون يكون عليكم ، ومَنْ وَفَى وفَّوْا له ، ومَنْ خان خانوا معه ، وأنشدوا :

أسَأْنا فساءوا . . عَدْلٌ بلاحيفٍ ولو عَدَلْنا لَخُلِّصْنا من المِحَنِ

قوله جل ذكره ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لكَ به عِلْمٌ إن السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولا ﴾

إذا غَلَبَتْ عليكَ مُجَوِّزَاتُ الظنونِ ، ولم يُطْلِعْكَ الحقُّ على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان ، وإذا أُشْكِلَ عليك شىء من أحكام الوقت فارجِعْ إلى الله ؛ فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَدِّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله ، وقِفْ حيثما وقفت .

---

(١) الهوينى = الخفض والدعة

(٢) ما يقوله القشيرى فى حالة اليتيم ينصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالنسبة لشيخه ؛ فالمريد يجد من شيخه مالا يجده عند دويه ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأشباح .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أنَّ العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم ، وأصحابُ الحقِّ يجْرِى عليهم بحكم التصريف شيء لا علمَ لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَفُ لهم وجهُه ، وربما يجرى على ألسنتهم شيء لا يدرون وَجْهَهُ ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه ، ودليلُ ما نطقوا به من شواهد العلم[1] .

قوله : « إن السمع والبصر . . . . » هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم فى بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة .

ومَنْ استعمل هذه الجوارح فى الطاعات، وصانها عن استعمالها فى المخالفات فقد سَلَّم الأمانةَ على وصف السلامة ، واستحق المدحَ والكرامة . ومَنْ دَنَّسَها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب الملامة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تمشِ فى الأرضِ مَرَحاً إنَّك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولا ﴾

الخُيَلاء والتجبُّر ، والمدح والتكبُّرُ — كل ذلك نتائجُ الغيبة عن الذكر ، والحجبة عن شهود الحقِّ ؛ فإنَّ اللهَ إذا تجلَّى لشيء خشع له — بذلك وَرَدَ الخبر . فأمَّا فى حال حضورِ القلبِ واستيلاءِ الذكر وسلطان الشهود . فالقلبُ مُطْرِقٌ ، وحُكْمُ الهيبة غالبٌ . ونعتُ المدحِ وصفةُ الزَّهْوِ وأسبابُ التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناسُ — فى الخلاص من صفة التكبر — أصنافٌ : فأصحابُ الاعتبار إذْ عرفوا أنهم مخلوقونَ من نطفةِ أمشاج ، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم .. تعلو هِمَمُهم عن التضييق والتدنيق[2] ، ويَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أخْطارٍ للأشياء ، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التجبُّر .

---

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يتضح رأى القشيرى فى التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويذهب القشيرى فى « رسالته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أن يُفْتُوا فى مسائل الفقه إفتاءً يُعْتَدُّ به حتى لو كان أحدهم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شيبان الراعى مع الشافعى وابن حنبل) .

(٢) دنّق البخيل = بالغ فى التضييق فى النفقة

وأمّا أرباب الحضور فليس فى طلوع الحق إلا انخناس النَّفْس ، وفى معناه قالوا :

إذا ما بدا لى تَعاظَمْتُه فأصدر فى حال من لم يرد

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ ذلك كان سَيِّئُهُ عند ربِّك مكروهاً * ذلك مما أوْحَى إليكَ ربُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ ولا تَجْعَلْ مع اللهِ إلهًا آخَرَ فَتُلْقَى فى جهنَّمَ مَلُوماً مدحوراً ﴾

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحاتِ الشهود ، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُرْب تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجبة ، واستولى سلطان الحقيقة ، فيحصل التنقِّى من هذه الأوصاف المذمومة .

وقال تعالى لنبيِّه : « ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة » : بالوحى والإعلام ، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأصفاكم ربُّكم بالبنين واتَّخَذَ مِنَ الملائكةِ إناثا إنكم لَتَقُولون قَوْلاً عظيماً ﴾

جَوَّزوا أن يكونَ لله — سبحانه — ولدٌ ، وفكَّروا فى ذلك ، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم ، فما زادوا فى تَمَرُّدِهم إلا عُتُوًّا ، وفى طغيانهم إلا غُلُوًّا ، وعن قبول الحقِّ إلا نُبُوًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ قل لو كان معه آلِهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوا إلى ذِى العرشِ سبيلاً * سُبْحانَهُ وتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كبيراً ﴾

بيَّن أنه لو كان الصانعُ أكثرَ من واحدٍ لَجَرَى بينهم تَضادٌّ وتمانُعٌ ، وصحَّ عند ذلك فى صفتهم العجزُ ، وذلك من سِمات المحدثات .

ثم قال سبحانه — تنزيهاً له عن الشَّريك والظهير ، والمعين والنظير :

﴿ تُسَبِّحُ له السمٰواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَن فيهن وإن من شىء إلا يُسَبِّحُ بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحَهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾

الأحياء من أهل السمٰوات والأرض يُسَبِّحون له تسبيحَ قالة[1] ، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة . وما من جزء من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ، ولـكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا — لجهلهم وتَعَسُّر إدراكهم — وأنـكروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرةِ حِجاباً مستوراً ﴾ .

أى أدخلناك فى إيواء حِفْظِنا ، وضربنا عليك سرادقاتِ عصمتنا ، ومنعنا الأيدى الخاطئةَ عنك بلطفنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وَقْراً وإذا ذكرتَ ربَّك فى القرآنِ وَحْدَه وَلَّوْا على أدبارهم نفوراً[2] ﴾ .

صَرَّح بأنه خالقُ ضلالتهم ، وهو المثبت فى قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم[3] « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده . . » أحبوا أن تذكر آلهتَهم ، قد ختم الله على قلوبهم ، فلا حديثَ يُعْجِبُهم إلاَّ مِمَّنْ لهم شَـكْلٌ ومِثْلٌ .

---

(١) وردت (ماله) بالميم والصواب أن تـكون (قالة) بمعنى أن تسبيح الأحياء بالقول والنطق .

(٢) يمكن أن تـكون (نفورا) مصدراً من نَفَـر ينفر أى ولىّ ، ويمكن أن تـكون جمع نافر كقاعد وقعود .

(٣) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة ينبنى على أصل فى مذهب القشيرى — نوهنا به سابقاً — وهو أن الله خالق كل شىء — على الحقيقة — حتى أكساب العباد ، هى له خلقا ولهم فعلا .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن أعلمُ بما يستمعون به إذ يَسْتَمِعُونَ
إليكَ وإذ هم نَجْوَىٰ إذ يقول الظالمون
إن تَتَّبِعون إلاَّ رجلا مسحوراً ﴾

لَبَّسوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحوالَهم ، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم ، ففَضَحهم اللهُ تعالى ، وكَشَفَ أسرارَهم ، وبَيَّنَ مقابحَهم ، وهَتَكَ أستارَهم ، فما تنطوى عليه السريرة لابُدَّ أن يَظْهرَ لأهل البصيرة بما يبدو على الأَسِرَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ انظرْ كيف ضربوا لكَ الأمثالَ
فَضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

عابوه بما ليس بنقيصةٍ فى نفسه حيث قالوا : « إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » أى ذا سِحْرٍ . وأىُّ نقيصة كانت له إذا كان — صلى الله عليه وسلم — من جملة البَشَر ؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولٍ نصرته ، ولم يكن تخصيصه ببِنْيَةٍ ، ولا بصورة ، ولا بحِرْفَةٍ ، ولم يكن منه شىء بسببه وإنما بأنَ شرفَه لجملة ما تعلَّق به لُطْفُه القديم — سبحانه — ورحمتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا أئذا كُنَّا عِظاماً ورُفَاتاً
أئنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جديداً ﴾

أقَرُّوا بأنَّ الله خلَقَهم ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهم ، ولكن . . كما جاز أن يوجِدَهم أولاً وهم فى كتم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر ، ولكنهم كانوا فى متناول القدرة ومتعلق الإرادة ، فَمِنْ حقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدَهم إلى الوجود مرة أخرى.. وهكذا إذا رَمَدَت عينُ قلبٍ لم يستبصر صاحبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كونوا حِجَارةً أو حديداً *
أو خَلْقاً مما يكبر فى صدورِكم
فسيقولون مَن يُعِيدُنا قُلِ الذى

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مرةٍ فَسَيُنْغِضُونَ[1]
إليكَ رُءوسَهُم ويقولون متى هو ؟
قُلْ عسىٰ أن يكونَ قريباً ﴾

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه لا يتعصَّى عليه مقدورٌ لأنه موصوف بقدرة أزلية ، وقُدْرَتُه عامَّةُ التعلق ؛ فلا المشقة تجوز فى صفته ولا الرفاهية . فالخلقُ الأول والإعادة عليه سِيَّان ؛ لا مِنْ هذا عائدٌ إليه ولا من ذاك ، لأن قِدَمَه يمنع تأثير الحدوث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ إن لَبِثْتُمْ إلاَّ قليلاً ﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحمد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم — وهم فى قبورهم — فى نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل لعبادى يقولوا التى هى أحسَنُ ، إنَّ الشيطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُم ، إنَّ الشيطانَ كان للإنسانِ عدوًّا مُبيناً ﴾

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحَسَنِ ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركُه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار المُحِبِّ بعبودية محبوبه .

ويقال أحسنُ قولٍ من المذنبين الإقرارُ بالجُرْم ، وأحسنُ قولٍ من العارفين الإقرارُ بالعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانك لا أُحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

---

(١) ينغضون رءوسهم أى يحركونها تعجباً واستهزاء .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّكم أَعْلَمُ بِكُمْ إن يَشَأْ يرحمْكم أو إن يشأ يُعَذِّبْكم وما أرسلناكَ عليهم وكيلاً ﴾

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه ليتعلَّق كُلُّ قلبه بربه . وجَعَلَ المواقبَ على أربابها مشتبهةً ، فقال « ربكم أعلم بكم » . ثم قدَّمَ حديثَ الرحمةِ على حديثِ العذاب ، فقال : « إنْ يشأ يرحمكم أو إنْ يَشأْ يعذبكم » وفى ذلك تَرَجٌّ للأمل أنْ يَقْوى .

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم ، ولكن العبدَ يعلم ظاهرَ حاله ، وعِلْمُ الرب يكون بحاله وبمآله ، ولهذا فالواجبُ على العبد أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، وهذا معنى : « إن يشأ يرحمكم أو إنْ يشأ يعذبكم » بعد قوله : « أعلم بكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيين على بعض وآتَيْنَا داودَ زَبُوراً ﴾

فَضَّلَ بعضَ الأنبياء على بعضٍ فى النبوة والدرجة ، وفى الرسالة واللطائف والخصائص . وجعل نبيَّنا — صلى الله عليه وسلم — أفضلَهم ؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس ، وهم شموسٌ وهو شمسُ الشموس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذين زَعَمْتُم من دونه فلا يَمْلِكون كشْفَ الضُّرِّ عنكم ولا تحويلاً ﴾

استعينوا فيما يستقبلكم[1] بالأصنام التى عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادةُ شىء من دون الله ، ولا يضركم تَرْكُ ذلك ، ولقد قيل فى الخبر : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[2]

---

(١) أى ما يستقبلكم من البلايا

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، وأحمد عن الحسين بن على ؛ والعسكرى عن علىّ ، وأوضحه الشيخان فى تخريج الأربعين .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يَدْعُون يبتغون إلى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويَرْجُون رحمتَه ويخافونَ عذابَه ، إنَّ عذابَ ربِّكَ كان محذوراً ﴾

يعنى الذين يعبدونهم ويدعونهم — كالمسيح وعُزَير والملائكة — لا يملكون نَفْعاً لأنفسهم ولاضَرّاً ، وهم يطلبون الوسيلةَ إلى الله أىْ يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسانِ الله ، وطمعاً فى رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه فى أحوال أنفسهم ؟

ويقال فى المَثَلِ : تملُّقُ الخلْقِ بالخَلْق تملُّقُ مسجونٍ بمسجون .

ويقال : إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازدادا فاقةً .

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً فى البئر ، وفى معناه أنشدوا :

إذا التقى فى حَدَبٍ واحدٍ سبعونَ أعمى بمقادير
وسَيَّروا بعضَهم قائداً فكُلُّهم يسقط فى البير

قوله جل ذكره : ﴿ وإن مِّن قريةٍ إلا نحن مُهْلِكُوها قبلَ يومِ القيامة أو مُعَذِّبُوها عذاباً شديداً ، كان ذلك فى الكتابِ مَسْطوراً ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذى يَرِدُ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى مَايَرِدُ على القلوب والسرائر ؛ فعذابُ القلوبِ لأصحابِ الحقائقِ أحدُّ فى الشِّدَّةِ مِمَّا يُصيب أصحابَ الفقر والقلة .

ثم إن الحقَّ سبحانه أجرى سُنَّتَه بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها ، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها .

ومن سام[1] الناس ظُلْماً وخَسْفًا فَبِقَدْرِ ظُلْمِه يعذِّبُه اللهُ — سبحانه وتعالى — فى الوقت بتنغيص العَيْشِ ، واستيلاءِ الغضب مِنْ كلِّ أحدٍ عليه ، وتَتَرَجَّمُ ظنونُه وتتقسَّمُ أفكاره فى أحواله وأشغاله . ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لَعَلِمَ ما طعم الحياة .. ولكنْ حُرِموا النِّعَمَ ، وما علموا ما مُنُوا به من النِّقَمَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَنَا أن نُرْسِلَ بالآياتِ
إلَّا أن كَذَّبَ بها الأولون وآتينَا
ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً فظلموا بها ﴾[2]

أجرى الله سُنَّتَه أنه إذا أظهر آية اقْتَرَحَتْها أُمَّةٌ من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أنْ يُعَجِّلَ لها العقوبة ، وكان المعلومُ والمحكومُ به ألا يجتاحَ العذابُ القومَ الذين كانوا فى وقت الرسول — عليه السلام — لِأَجْلِ مَنْ فى أصلابهم مِنَ الذين عَلِمَ أنهم يؤمِنُون ؛ فلذلك أخَّرَ عنهم العذاب الذى تعجَّلوه[3] .

﴿ وما نُرْسِلُ بالآيات إلا تخويفا ﴾

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله ؛ فإنْ لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب . ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شىء بتأخير العقوبة عنهم فأخَّرَ العذابَ ، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِه وعِلْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنَا لكَ إنَّ ربَّك أحاط بالناس
وما جَعَلْنَا الرؤيا التى أريناكَ إلَّا فتنةً
للناسِ والشجرةَ الملعونة فى القرآن

---

(١) وردت (صام) بالصاد وهى خطأ فى النسخ .

(٢) اختار من الآيات التى اقترحها الأولون ناقة صالح (عم) لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها سادرهم وواردهم .

(٣) عن عائشة رضى الله عنها (. . . ناداني مَلَكُ الجبال فسلم علىَّ ثم قال :
يامحمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين (جبلين يحيطان بمكة) فقال النبي (ص) : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) .

وَنُخَوِّفُهُم فما يزيدُهم إلّا طُغياناً كبيراً ﴾[1]

الإيمانُ بما خَصَصْنَاكَ به امتحانٌ لهم وتكليفٌ ، ليتميزَ الصادقُ من المنافقِ ، والمؤمنُ من الجاحد ؛ فالذين تَدَارَكَتْهُم الحمايةُ وقفوا وثبتوا ، وصَدَّقوا بماقيل لهم وحققوا . وأما الذين خَامَرَ الشكُّ قلوبَهم ، ولم تباشِر خلاصةُ التوحيد أسرارَهم ، فما ازدادوا بما امتُحِنُوا به إلا تحيُّراً وضلالاً وتَبَلُّداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنا للملائكةِ اسجُدُوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلا إبليسَ قال أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينا ﴾

امتنع الشقيُّ وقال : لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به ، وكان ذلك جهلاً منه ، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثِراً ، ولمحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أرأيْتَك هذا الذى كَرَّمْتَ عليَّ لَئِنْ أخَّرتِ إلى يومِ القيامةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّته إلا قليلا ﴾

لو علقت به ذرَّةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب[2] على نفسه بالإضلال والإغواء ، لكنَّه أقامه الحقُّ بذلك المقام ، وأنطقه بما هو لقلوبِ أهلِ التحقيق مُتَّضِح .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ منهم فإنَّ جهنَّمَ جزاؤكم جَزَاءً موفوراً *

---

(١) الرؤيا المقصودة هى التى سبقت يوم بدر ، وفيها بُشر بالنصرة وبأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فسخروا منه . وربما كانت رؤيا المعراج عند من قال إن المعراج كان فى المنام .
والشجرة الملعونة هى الزَّقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها تنبت شجرة ! فجعلوها سخرية

(٢) حَطَبَ = جَنَى على نفسه لعدم تفقد أمره وكلامه

واستفزِزْ مَنِ استطعتَ منهم بصوتِكَ
وأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلِكَ ورَجِلِكَ
وشارِكْهُم فى الأموالِ والأولادِ ،
وعِدْهُم ومايَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً ﴾

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بألا مراء ولا تفويت ، ولو أخَّر عقوبةَ قومٍ فإن ذلك إمهالٌ لا إهمال ، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ .

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك » : أى إفعل ما أمكنكَ ، فلا تأثيرَ لفعلك فى أحد ، ، فإنَّ المنشىء والمُبْدِعَ هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ عبادى ليس لَكَ عليهم سُلْطانٌ
وكفى بربِّك وكيلاً ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم[1] ،ولا حجة للعذر على أحد ، بل الحجة لله وحده .

ويقال السلطان هو التَّسَلُّط ، وليس لإبليس على أحدٍ تسلط ؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فالحادثاتُ كلها تحدث بقدرة الله ؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير فى أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادى » الخواصَّ من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلَ الله ؛ فإن وساوسَ الشيطان لا تضرُّهم لالتجائهم إلى الله ، ودوام استجارتهم بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم .

ويقال إنَّ فرار[2] الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون فى أسْرِ غيره ، وأمَّا مَنْ استعبده هواه ،

---

(١) العموم هنا معناها الكافة أى الخواص وغير الخواص .
(٢) وردت (قرار) بالقاف وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

واستمكنت منه الأطماع ، واسترقته[1] كل خسيسة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه . . وفى الخبر « تَعِسَ عبد الدرهم تعس عبد الدينار »[2]

ويقال فى « عبادى » هم المُتَفَيِّشُون فى ظلال عنايته ، المُتَبَرِّؤُون عن حَوْلِهم وقُوَّتِهم ، المتفرِّدُون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلُّق به .

قوله جل ذكره : ﴿ ربُّكم الذى يُزْجِى لكم الفُلْكَ فى البحر لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إنه كان بكم رحيماً ﴾

تعرَّف إلى عباده بخَلْقِهِ وإنعامه ، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غَبَرٍ إلا وهو شاهِدٌ على وحدانيته ، دالٌّ على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فى البحر ضَلَّ مَن تَدْعُون إلَّا إياه فلمَّا نجّاكم إلى البرِّ أعْرَضْتُم وكان الإنسانُ كفوراً ﴾

جُبِلَ الإنسانُ على أنه إذا أصابته نقمةٌ ، أو مَسَّتْهُ محنة فَزِعَ[3] إلى الله لاستدفاعها ، وقد يُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله ، فإذا أزال اللهُ تلك النِّقمة[4] وكَشَفَ تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا ، كأنهم لم يكونوا فى ضُرٍّ مَسَّهم ، وفى معناه أنشدوا :

فكم قد جهلتم ثم عُدْنا بِحِلْمِنا أحباءنا كم تجهلون ! وَتَحْلُمُ !

---

(١) وردت (ويسرته) ولا معنى لها هنا .
(٢) فى رسالة القشيرى ص ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . تعس عبد الخميصة) .
(٣) وردت (فرغ) بالراء والأفضل أن تكون بالزاى
(٤) وردت (النعمة) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿أفأمِنتُم أن يَخْسِفَ بكم جانبَ البرِّ أو يُرْسِلَ عليكم حاصِبًا ثم لا تَجِدُوا لكم وكيلاً ۝ أم أمِنتُم أن يُعِيدَكم فيه تارةً أخرى فيرسِلَ عليكم قاصِفًا مِّن الريحِ فيُغْرِقَكم بما كَفَرتُم ثم لا تَجِدُوا لكم علينا به تَبِيعًا﴾

الخوفُ تَرقُّبُ العقوبات مع مجارى الأنفاس — كذلك قال الشيوخ[1] . وأعرفُهم بالله أخوفُهم من الله . وصنوفُ العذابِ كثيرة ؛ فكم من مسرورٍ أوَّلَ ليلِه أصبح فى شِدَّة ! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النِّعم ! وفى معناه قالوا : إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات . ووصفوا أهل المعرفة فقالوا :

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿ولقد كَرَّمْنَا بنى آدمَ وحَمَلْنَاهُم فى البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطيباتِ وفَضَّلْناهم على كثيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تفضيلاً﴾ .

المراد من قوله : « بنى آدم » هنا المؤمنون لأنه قال فى صفة الكفار : « ومَنْ يُهِنِ الله فما له من مُكْرِم »[2] . والتكريم التكثير من الإكرام ، فإذا حَرَمَ الكافرَ الإكرامَ .. فمتى يكون له التكريم ؟ .

ويقال إنما قال : « كَرَّمْنا بنى آدم » ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد

---

(١) هذه العبارة للجنيد كما جاء فى رسالة القشيرى ص ٦٥ فى رواية أبى عبد الله الصوفى عن على بن ابراهيم العكبرى .

(٢) آية ١٨ سورة الحج .

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابلَ فِعْلٍ ، أو مُعَلَّلاً بِعِلةٍ ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يوجبُ ذلك التكريم .

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة .

ومن التكريم أنه على أى وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خاطَبه ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله .

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبتَه ، فلو تكرر منه جُرْمُهُ ثم توبته يضاعف له قبولَه التوبة وعفوَه .

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ فى التوبة أَخَذَ بيده ، وإذا قال : لا أعود — يقبل قولَه وإنْ عَلِمَ أنه ينقض توبته .

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهرَهم بتوفيق المجاهدة ، وحَسَّنَ باطنَهم بتحقيق المشاهدة .

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم ، وغفر لهم قبل استغفارهم ، كذا فى الأثر : « أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى » .

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم : « فاذكرونى أذكركم »[1] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن .

وكما خُصَّ بنى آدم بالتكريم خصَّ أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم بتكريم مخصوص ، فمن ذلك قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه »[2] و « رضى الله عنهم ورضوا عنه »[3] وقوله « والذين آمنوا أشد حباً لله »[4] .

ومن التكريم قوله : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »[5].

---

(١) آية ١٥٢ سورة البقرة .
(٢) آية ٥٤ سورة المائدة .
(٣) آية ١١٩ سورة المائدة .
(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة .
(٥) آية ١١٠ سورة النساء .

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه .

ومن التكريم لقومٍ توفيقُ صِدْق القَدَم ، ولقومٍ تحقيقُ علوِّ الهِمَم . قوله : « وحملناهم في البرِّ والبحر » : سخَّر البحر لهم حتى ركبوا في السفن ، وسخَّر البرَّ لهم حتى قال : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

ويقال محمولُ الكرامِ لا يقع ، فإنْ وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده .

ويقال الإشارة في حملهم في البرِّ ما أوصل إليهم جهراً[1] ، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سِرًّا .

ويقال لمَّا حَمَلَ بنو آدم الأمانة[2] حملناهم في البر ، فحَمْلٌ هو جزاء حَمْلٍ ، حَمْلٌ هو فِعْلُ مَنْ لم يكن[3] وحَمْلٌ هو فَضْلُ من لم يَزَل .

قوله : « ورزقناهم من الطيبات » : الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق ؛ فمَنْ لم يكن غائباً بقلبه[4] ولا غافلاً عن ربِّه استطاب كُلَّ رزقٍ ، وأنشدوا :

يا عاشقي إنى سَعِدْتُ شرابا لو كان حتى علقماً أو صابا

قوله : « وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا » : أى الذين فضلناهم على خلقٍ كثير ، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ مَنْ خَلَقْنا ، وذلك التفضيل في الخِلْقة . ثم فَاضَلَ بين بنى آدم في شيء آخر هو الخُلُق الحسن ، فَجَمَعَهم في الخِلْقة — التى يفضلون بها سائر المخلوقات — ومَايَزَ بينهم في الخُلُق .

ويقال : « كَرَّمْنَا بنى آدم » : هذا اللفظ للعموم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين ، ففَضَّل أولياءه على كثير ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية .

---

(١) وردت (خيراً) والصواب أن تكون (جهراً) لتقابل سراً) وبذلك يقوى السياق ويتماسك .

(٢) وردت (الاهانة) بالهاء ومن المؤكد أن الميم التبست على الناسخ والمراد (الأمانة) إشارة إلى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة . . . الآية » .

(٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى .

(٤) غيبة القلب عن علم مايجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠) .

ويقال فضّلهم بألاّ ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ ندعو كُلَّ أناسٍ بإمامِهم فمَنْ أوتى كتابَه بيمينه فأولئك يقرءون كتابَهم ولا يُظلَمون فتيلاً ﴾

إمامُ كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِى به ، ولكن .. مِنْ إمامٍ يهتدى به مُقْتَدِيه ، ومن إمام يتردَّى به مقتديه .

« فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم » : لكمالِ صحوهم وقيادة عقلهم ، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفِهم وتَرَدُّدِهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن كان فى هذه أعمىٰ فهو فى الآخرةِ أعمىٰ وأَضلُّ سبيلاً ﴾

فى الآخرة أعمى عن معاينته ببصيرته .

فى الآخرة عذابُه الفُرقةُ وتضاف إليها الحُرْقة — لهذا فهو « أضلُّ سبيلاً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أوْحَيْنا إليكَ لِتَفْتَرِىَ علينا غيرَه وإذاً لا تَخذوكَ خليلاً ﴾

ضربنا عليكَ سرادقاتِ العصمة ، وآويناكَ فى كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك ، فالزَّلَّةُ منك محال[1] ، والافتراء فى نعتك لا يجوز . . ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَتضاعَفَتْ عليكَ تشديداتُ البلاء ، لكمالِ قدْرِك وعُلُوِّ شأنك ؛ فإنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فَذَنْبُه — لو حصل — أشدُّ تأثيراً .

---

(١) وردت (مجال) بالجيم وهى خطأ فى النسخ ، ومن قول القشيرى يتضح أنه يؤيد عصمة الأنبياء من الزلات .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا أن ثبتناكَ لقد كِدتَّ تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ الممات ثم لا تجدُ لكَ علينا نصيراً ﴾

لو وكلناكَ ونفسَكَ ، ورفعنا عنك[1] ظِلَّ العصمة لألممتَ بشيء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا ، ولكننا أفردناكَ بالحفظ ، فلا تتقاصر عنكَ آثارُه ، ولا تغرُبُ عن ساحتك أنوارُه .

قوله : « إذاً لأذقناك . . . الآية » هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم ، ومِحَنُ الأحِبَّةِ وإنْ قَلَّتْ جَلَّتْ ، وفي معناه أنشدوا :

أنت عيني وليس من حقِّ عيني غضُّ أجفانها على الأقذاء

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كادوا ليَستفِزُّونَكَ مِنَ الأرضِ ليُخرِجوكَ منها وإذاً لا يلبثون خِلافَكَ إلا قليلاً ﴾

مَنْ ظنَّ (أنه يستمتع بحياته بعد مضيِّ الأعِزَّة)[2] والأكابر غَلِطَ في حسابه ، وإن الحسودَ لا يسود :

وفي تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ ضوءها (ويجهد أن يأتي لها)[3] بضريب

والأرض كلها ملكٌ لنا ، ونقلِّب أولياءنا في ترددهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار ، تردداً على بساطنا ، وتقلباً في ديارنا ؛ فالبقاع لهم سواء ، وأنشدوا :

(فَسِرْ أو أقِمْ)[4] وَقْفٌ عليكَ محبتي مكانُكَ من قلبي عليك مصونُ

---

(١) وردت (عليك) والملائم للسياق أن تكون (عنك) .
(٢) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .
(٣) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .
(٤) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

قوله جل ذكره : ﴿ سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قَبْلَكَ من رُسُلِنا ولا تجدُ لِسنَّتِنا تحويلًا ﴾

الحقُّ أمضى سُنَّتَه مع الأولياء بالإنعام ، ومع أعدائه بالإدغام[1] ، فلا لهذه أو هذه تحويل .

قوله جل ذكره : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لدلوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقرآنَ الفَجْرِ إنَّ قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً ﴾

الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق . والصلاةُ الوقوفُ فى محل المناجاة .

والصلاةُ اعتكافُ القلبِ فى مشاهد التقدير .

ويقال هى الوقوف على بساط النجوى . وفَرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى البساط فى اليوم والليلة مراتٍ .

« إن قرآن الفجر كان مشهوداً » : تشهده ملائكة الليل والنهار — على لسان العلم . وأمّا على لسان القوم فإن قرآن الصبح — الذى هو وقت إتيانه — يُبْعِدُ من النومِ وكَسَلِ النفس فله هذه المزية .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الليل فتهجَّدْ به نافِلَةً لك عسىٰ أن يَبْعَثَكَ ربُّك مَقَامًا محموداً ﴾

الليل لأحدِ أقوام : لطالبى النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَح[2] منهم إلى التوبة ، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يَجِدُّون فى الطاعات ، ويسارعون فى الخيرات ، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة .

ويقال الليل لأحد رجلين : للمطيع والعاصى : هذا فى احتيال أعماله ، وهذا فى اعتذاره عن قبيح أفعاله .

---

(١) أدغمه الله إدغاماً أى سود وجهه وأذله (الوسيط) .
(٢) وردت (نجح) وهى خطأ فى النسخ .

والمقام المحمود هو المخاطبة فى حال الشهود ، ويقال الشهود .

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به — صلى الله عليه وسلم[1] — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لى مِن لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً ﴾

أى أدخلنى إدخالَ صدقٍ وأخرجنى إخراجَ صدقٍ . والصدقُ أن يكون دخولُه فى الأشياء بالله لله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره .

« واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » : فلا ألاحظ دخولى ولا خروجى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلْ جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً ﴾

أراد بالحقِّ ها هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشِّرْك ، والحقُّ المطلق هو الموجود الحق ، والحق المقيد ما كان حسناً فى الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل نقيض الحق . واللهُ حقٌّ : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق[2] .

ويقال الحقُّ ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطلُ ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين إلا خَساراً ﴾ .

القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء ، وشفاء من داء الشِّرْكِ للمؤمنين ، وشفاء من داء

---

(١) إضافة من حانبنا حتى يتضح السياق .

(٢) قارن ذلك بنظرية « وحدة الوجود » وما تراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

النكرة للعارفين ، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين ، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين ، وأنشدوا :

وكُتْبُكَ حَوْلِي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذى أنا كاتِمُ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطابٌ واحد ، والكتابُ كتابٌ واحد ، ولكنه لقومٍ رحمةٌ وشفاء ، ولقوم سخطٌ وشقاء . قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء ، وقوم أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أَنْعَمْنَا على الإنسانِ أعْرَضَ ونَأَى بجانبِه ، وإذا مَسَّه الشرُّ كان يَئُوساً ﴾ .

إذا نزعنا عنه موجباتِ الخوفِ ، وأرخينا له حَبْلَ الإمهال ، وهَيَّأنا له أسبابَ الرفاهية اعترته مغاليطُ النسيانِ ، واستولت عليه دواعى العصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضُه فى هذا الموضوع لسيانُه ، ورؤية الفضل منه لا من الحقِّ ، وتوهمه أنَّ ما به من النِّعم فباستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدةٍ قاساها . . وهذا فى التحقيق شِرْكٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِه فربُّكم أعْلَمُ بِمَنْ هو أهدى سبيلاً ﴾ .

كُلٌّ يترشح بِمُودَعِ باطنه ، فالأَسِرَّةُ تدل على السريرة ، وما تُكِنُّه الضمائرُ يلوح على السرائر ، فَمَنْ صفا مِنَ الكدورة جوهرُه لا يفوح منه إلا نَشْرُ مناقبه ، ومنْ طبِعَتْ على الكدورةِ طينتُه فلا يشمُّ مَنْ يحوم حولَه إلا ريحَ مثالبه .

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخْبِرُ عن بواطنِ السرائر .

ويقال حَبٌّ (. . .)[1] لا يُنْبِتُ غضَّ العود .

---

(١) مشتبهة .

وبقال من عُجِنَتْ بماء الشِّقْوةِ طينتهُ ، وطُبِعَتْ على النَّكْرَةِ جِبِلَّتُهُ لا تسمح بالتوحيد قريحتهُ ، ولا تنطِقُ بالتوحيد عبارتهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونَكَ عَنِ الروحِ قُلِ الروحُ مِنْ أمرِ ربى وما أُوتِيتم من العلمِ إلا قليلاً ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُغَلِّطُوه فأمَرَه أن ينطق بلفظٍ يُفْصِحُ عن أقسامِ الروح ؛ لأنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ « الروحِ » يدخل تحت قوله تعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه فى القالب ، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذنُ محلَّ السمعِ .. إلى آخره ، والبصير والسامع إنما هو الجملة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْس ، والحكمُ أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة)[1]

وفى الجملة الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح فى جسده .

والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها ، وهى مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين . وقيل إنه أدركها التكليف ، وإن لها صفاء التسبيح ، وصفاء المواصلات ، والتعريف من الحق .

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » : لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَئِن شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنا إليكَ ثم لا تَجِدُ لكَ به علينا وكيلا ﴾

---

(١) ما بين القوسين مضطرب اضطراباً شديداً فى النسخ ، وقد عدنا إلى رسالة القشيرى فاعتمدنا عليها فى تنظيم السياق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة ص ٤٨) .

سُنَّةُ الحقِّ — سبحانه — مع أحبائه وخواص عباده أن يُديمُ لهم افتقارهم إليه ، ليكونوا فى جميع الأحوال مُنقادين لجريانِ حُكْمِه ، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِه ، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَه — صلوات الله عليه — بقوله : « ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » : (فمن كان استقلاله بالله يقدِّم)[1] مرادَ سيده — فى العزل والولاية — على مراد نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا رحمةً مِّن رَّبِّك إنَّ فَضْلَه كان عليك كبيراً ﴾

والمقصودُ (من هذا إدامة تَفَرُّدِ سِرِّهِ)[2] صلى الله عليه وسلم به — سبحانه — دونَ غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هـذا القرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِه ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ﴾

(سائر الأنبياء)[3] معجزاتُهم باقيةٌ حُكْماً ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — معجزته باقيةٌ عيناً، وهى القرآن (الذى نتلوه ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه)[4] ولا مِنْ خَلْفِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَرَّفْنا للناسِ فى هذا القرآنِ من كُلِّ مَثَلٍ فأبَى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً ﴾

لا شىء أحْظَى عند الأحباب من كتاب الأحباب ، فهو شفاء من داء الضنى ، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البَلاَء، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفـاء للذى أنا كاتم

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مدونة في أعلى الورقة بعلامات مميزة لمكانها من النص ، وقد أثبتنا كلا فى موضعه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن نؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لنا
من الأرضِ يَنْبُوعاً * أو تكونَ
لَكَ جَنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ
الأنهارَ خلالها تفجيرا * أو تُسقِطَ
السماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً
أو تأتِيَ بالله والملائكةِ قَبيلاً
* أو يكونَ لَكَ بَيْتٌ من زُخْرُفٍ
أو ترقَى فى السماء ، ولن نُؤْمِنَ
لِرُقِيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً
نَقْرَؤُه قُلْ سبحان ربى هل كُنْتُ
إلاَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾

اقترحوا الآياتِ بعد إزاحةِ العِلَّة وزوالِ الحاجة ، فَرَكَضُوا فى مضمارِ سوءِ الأدب ، وحُرِموا الوُصْلة والقُربة . ولو أُجيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْدًا و نكرَة ، وقد قيل :

إنَّ الكريمَ إذا حباكَ بودِّه ... سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا اللئيمُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

« قلْ سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا » : قل يا محمد : سبحان ربى ! مِنْ أين لى الإتيان بما سألتم من جهتى ؟ فهل وَصْفِى إلا العبودية ؟ وهل أنا إلا بَشَر ؟ قال تعالى : « لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله »(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَ الناسَ أن يُؤْمِنُوا إذ
جاءَهُم الهُدَى إلاَّ أن قالوا أَبَعَثَ
اللهُ بَشَراً رسولا ﴾

---

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تعجَّبوا[1] مما ليس بمحلِّ شُبهة ، ولكن حَمَلَهم على ذلك فَرْطُ جَهْلِهم ، ثم أَصَرُّوا على تكذيبِهم وجحدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لو كانَ فى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمئنين لَنَزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً ﴾

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ ، والشكلُ بالشكلِ آنَسُ ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لجَعَلْنا الرسولَ إليهم ملَكاً ، فلمَّا كانوا بَشَرًا فلا ينبغى أن يُسْتَبعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كَفَى باللهِ شهيداً بينى وبينَكم إنَّه كان بعبادِه خبيراً بصيراً ﴾

الحقُّ — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقَاسُ حُكْمُه على حُكْمِ الخلْق ، ولا يجوز فى صفةِ المخلوقِ أنْ يكونَ الحاكمُ هو الشاهد ، فكما لا تشبه ذاتُه ذاتَ الخلْقِ لا تشبه صفتُه صفةَ الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ ومَن يُضْلِلْ فلَن تَجِدَ لهم أولياء مِن دونِه ونحشرهم يومَ القيامةِ على وجوهِهم عُمْياً وبُكْماً وصُمًّا مأواهم جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهم سعيراً ﴾

مَنْ أراده بالسعادةِ فى آزاله استخلصه فى آباده بأفضاله ، ومَنْ عَلِمَه فى الأزل بالشقاء وَسَمَه فى أبده بِسِمةِ الأعداء . فلا لِحُكْمِه تحويل ، ولا لِقَوْلِه تبديل .

---

(١) وردت (تعجلوا) والمعنى يقتضى (تعجبوا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا
وقالوا أئذا كُنَّا عِظاماً ورُفاتا
أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً ﴾

لمّا أصرُّوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم ، ولو ساعدهم التوفيقُ لَوُجِدَ منهم التحقيق ، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحُرِموا التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَ
السَّمٰواتِ والأرضَ قادِرٌ على أن
يَخْلُقَ مِثْلَهم وجَعَلَ لهم أَجَلاً لاريبَ
فيه فَأَبَى الظالِمون إلا كُفُوراً ﴾

مَهَّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس[1] ، فلم يغادر فى الكتاب شيئاً من أحكام الدِّين لم يؤيده بالدليل والبيان[2] ، فَعَلِمَ الكُلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قل لو أنتم تَمْلِكُون خَزَائِنَ رحمةِ
ربى إذاً لأَمْسَكْتُم خشيةَ الإنفاقِ
وكان الإنسانُ قَتُوراً ﴾

إذ البُخْلُ غريزةُ الإنسان ، والشحُّ سجيته [(. . . .)[3] المعروف لايعرف الخلقة][4]

---

(١) من هذا نعرف أن القشيرى مؤمن بأهمية القياس العقلى ضمن ما هو معروف من مصادر الشريعة وفى هذا رد على من يتهم الصوفية بالتنكر للعقل ، مع أنهم حريصون كل الحرص على تصحيح الإيمان فى مراحل البداية عن طريق الوسائل العقلية .

(٢) ربما كانت (البرهان) بدل (البيان) ، فالبرهان أقرب إلى (الدليل) وإلى (القياس) كما أن البيان — فى مذهب القشيرى المعرفى — مرحلة قلبية وليست عقلية .
ومع ذلك فقد يكون المقصود أن كتاب الله لم يغادر شيئاً إلا أيده (بالدليل العقلى) و (البيان) القلبى.

(٣) هنا بياض فى الأصل .

(٤) ما بين القوسين الكبيرين ورد هكذا وفيه غموض ناتج عن سقوط ما سبق .

قوله جل ذكره . ﴿ ولقد آتَيْنَا موسى تِسعَ[1] آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾

هي أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فقال له فرعونُ إنِّي لأَظُنك يامُوسَى مسحوراً ﴾ قال لقد عَلِمْتَ ما أنزَلَ هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرض بصائرَ وإنِّي لأظنك يا فرعونُ مثبوراً ﴾

أنت — يا فرعون — سلكتَ طريق الاستدلال فعَلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا مِنْ قِبَلِ الله ، ولكنَّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلةِ في ظلمات الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿ فأراد أن يَسْتَفِزَّهم من الأرضِ فأغرقناه ومَن معه جميعاً ﴾

أراد فرعونُ إهلاكَ بني إسرائيل واستئصالَهم ، وأراد الحقُّ — سبحانه — نصرتهم وبقاءهم ، فكانَ ما أراد الحقُّ لا ما كاد اللعين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا مِنْ بَعْدِه لبني إسرائيلَ اسكُنُوا الأرضَ فإذا جاء وَعْدُ الآخرةِ جِئْنا بكم لفيفاً ﴾

أورثهم منازلَ أعدائهم ، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته ، وعرَّفهم أنهم إنْ سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تقدَّمهم ذاقوا من العقوبة مثلَ عقوبتهم .

---

(١) عن ابن عباس أنها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى اسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور .

قوله جل ذكره : ﴿ وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نزَل
وما أرسلناكَ إلا مُبَشِّرا ونذيراً *
وقرآناً فَرَقْناه لِتَقْرَأه على الناسِ
على مُكْثٍ ونَزَّلْنَاه تنزيلاً ﴾

القرآن حقٌّ ، ونزوله بحق ، ومُنَزِّلُه حق ، والمُنَزَّلُ عليه حق ، فالقرآن بحقٍّ نزل ومِنْ حقٍّ نزل وعلى حقٍّ نزل . وقد فَرَّقَ القرآنَ لِيُهَوِّنَ عليه — صلوات الله عليه — حِفْظَه ، وليكثر تردد الرسول من ربِّه عليه ، وليكون نزوله فى كل وقت وفى كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ آمِنوا به أو لا تُؤْمِنوا إنَّ
الذين أوتوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا
يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان
سُجَّداً * ويقولون سُبحان رَبِّنا إن
كان وعدُ ربِّنا لَمَفْعولاً ﴾ .

إنْ آمنتم حَصَلَ النفعُ لكم ، وإنْ جَحَدْتُم ففى إيمان مَنْ آمن مِنْ أوليائنا عنكم خَلَفٌ ، وإنَّ الضَّرَرَ عائدٌ عليكم .

وإنَّ مَنْ أضأنا عليهم شموسَ إقبالنا لتُشْرِقِ أنوارُ معارفهم ؛ فإذا تُليت عليهم آياتُنا سَجَدُوا بَدَلَ جُحْدِهم ، واستجابوا بدل تمردهم ، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَخِرُّون للأذقانِ يبكون ويزيدُهم
خشوعاً ﴾ .

تأثيره فى قلوب قوم يختلف ؛ فتأثير السماع فى قلوب العلماء بالتبصُّر ، وتأثير السماع

فى أنوار الموحِّدين بالتحير[1]؛ تبصُّر العلماء بصحة الاستدلال، وتحيُّر الموحدين فى شهود الجمال والجلال.

وبكاء كل واحدٍ على حسب حاله: فالتائب يبكى لخوف عقوبته لما أسْلَفَهُ من زَلَّته وحَوْبته، والمطيعُ يبكى لتقصيره فى طاعته، ولكيلا يفوته ما يأمله من مِنَّتِهِ.

وقوم يبكون لاستيهامْ عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين. وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول[2]، وهو فى الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفى معناه أنشدوا:

خُلِقْنا رجالا للتجلدِ والأسَى وتلك الغوانى للبُكا والمآتِمِ

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمَنَ أيًّا ما تدعوا فَلَهُ الأسماء الحُسْنَى﴾

مِنْ عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تَنَزُّهُهم بأسرارهم فى رِياض ذِكْرِه بتعداد أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة، ومن مَأْنَسٍ إلى مأنس.

ويقال الأغنياء ترددهم فى بساتينهم، والأولياء تنزههم فى مشاهد تسبيحهم، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.

قوله جل ذكره: ﴿ولا تَجْهَرْ بصلاتِكَ ولا تُخافِتْ بها وابتغِ بين ذلك سبيلاً﴾.

لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكُلِّها، وارفع صوتك فى بعضها دون بعض.

ويقال ولا تجهر بها جهراً يَسْمَعُهُ الأعداء، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

« وابتغ بين ذلك سبيلاً »: يكون للأحباب مسموعاً، وعن الأجانب ممنوعاً.

---

(١) ليس (التحير) هنا ناجماً عن الشك، وإنما ناجم عن شدة الوله وعنف الأخذ.
(٢) لأن الأكابر في حال التمكين لا التلوين.

ويقال « ولا تجهر بصلاتك » : بالنهار ، « ولا تخافت بها » : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلِ الحمدُ لله الذى لم يتخذْ وَلَدًا ولم يَكُن له شريكٌ فى المُلْكِ ولم يَكُن له وليٌّ من الذُّلِّ وكبِّره تكبيراً ﴾ .

احْمَدْه بذكر تقدسه عن الولد ، وأنه لا شريك له ، ولا ولى له من الذل ، إما على أنه لم يَذَلَّ فيحتاج إلى ولى ، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته . ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرَّفك بذلك .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعتريهم بِذُلٍّ ، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً .

« وكبِّرْه تكبيراً » بأنْ تَعْلَمَ أنَّك تصل إليه به لا بتكبيرك .

السورة التى يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماعِ اسم الله ، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله ، وما طَرِبَتْ الأرواح إلا بشهود جلال الله .

سماع « بسم الله » راحةُ القلوبِ وضياؤُها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

« بسم الله » قُوتُ العارفين ، بها يزول كدُّهم وعناؤهم ، وبها استقلالهم وبقاؤهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمدُ للهِ الذى أَنزَلَ على عَبْدِهِ الكتابَ ولم يَجْعَل له عِوجًا ﴾

---

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسملة فى أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذين فنوا عن أنفسهم لبقائهم بالله .

إذا حُمِلَ « الحمدُ » هنا على معنى الشكر فإنزالُ الكتاب من أجلِّ نِعَمِه ، وكتابُ الحبيب لدى الحبيب أجلُّ موقِعٍ وأشرفُ محلٍّ ، وهو من كمال إنعامه عليه ، وإنْ سمّاه — عليه السلام — عَبْدَه فهو من جلائل نِعَمه عليه لأنَّ من سمّاه عَبْدَه جَعَلَه من جملة خواصِّه .

وإذا حُمِلَ « الحمدُ » فى هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه — سبحانه ، بأنَّه المالكُ الذى له الأمرُ والنهيُ والحكمُ بما يريد ، وأنه أعدَّ الأحكامَ التى فى هذا الكتاب للعبيد ، وسمّاه صلى الله عليه وسلم عبدَه لمّا كان فانياً عن حظوظه ، خالصاً لله بقيامه بحقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شديداً مِن لَدُنه ﴾

« قَيِّماً » : أى صانه عن التعارض والتناقض ، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز .

« والبأس الشديد » : مُعَجَّلُه الفراق ، ومؤجَّلُه الاحتراق .

ويقال هو البقاء عن الله تعالى ، والابتلاء بغضب الله .

ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً ﴾ .

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول ، وهو ما يُؤَدَّى على الوجهِ الذى أُمِرَ به . ويقال العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص ، وصاحبُه صادقٌ فيه .

ويقال هو الذى لا يستعجل عليه صاحبه حَظّاً فى الدنيا مِنْ أخذِ عِوَضٍ ، أو قَبُولِ جاهٍ ، أو انعقادِ رياسة . . وما فى هذا المعنى .

وحصلت البشارةُ بأنَّ لهم أجراً حسناً ، والأجرُ الحَسَنُ مالا يجرى مع صاحبه استقصاء فى العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل .

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّر صاحبَه تقصيرَه ، ويستر عنه عيوبَ عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾

البشارة منه أنَّ تلك النِّعم على الدوام غير منقطعة ، وأعظم من البشارة بها قوله[1] :

﴿وينذرَ الذين قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ۝
مالهم به من عِلْمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ
كلمةً تخرُجُ من أفواهِهِم إن يقولونَ
إلا كَـذِباً ﴾

قالتُهم القبيحةُ نتيجةُ جَهْلِهم بوحدانيةِ الله ، ولقد توارثوا ذلك الجهلَ عن أسلافهم ؛ والحَيَّةُ لا تَلِدُ إلا حَيَّةً !

كبُرت كلمتُهم فى الإثم لمَّا خَسَّت فى المعنى . ومَنْ نطق بما لم يحصل له به إذن لَحِقَه هذا الوصف . ومَنْ تـكلَّمَ فى هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل فى غمار هؤلاء[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَك على آثارهم
إن لم يُؤْمِنُوا بهذا الحديثِ أَسَفاً ﴾

مِنْ فَرْطِ شفقته — صلى الله عليه وسلم — داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان ، فهوَّن الله — سبحانه — عليه الحالَ ، بما يشبه العتابَ فى الظاهر ؛ كأنه قال له : لِمَ كل هذا ؟ ليس فى امتناعهم — فى عَدِّنا — أثر ، ولا فى الدِّين من ذلك ضرر . . فلا عليكَ من ذلك .

ويقال أشهده جريانَ التقدير ، وعَرَّفَه أنه — وإنْ كان كُفْرُهم منْهِيًّا عنه فى الشرع — فهو فى الحقيقة مُرَادُ الحق .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّا جَعَلْنَا ما على الأرضِ زِينَةً لها﴾

---

(١) البشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

(٢) فى هذه الإشارة غمزة بمن ينطقون — بدعوى المحو — بما لا يليق .

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار ، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار . وإنَّ قيمةَ الأوطانِ لقُطَّانها ، وزينة المساكن فى سُكَّانها .

ويقال العُبَّاد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياء زينةُ الأرض وهم أمانُ مَنْ فى الأرض .

ويقال إذا تلألأت أنوار التوحيد فى أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم .

قوله جل ذكره : ﴿لِنَبْلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملًا﴾

أحسنهم عملًا أصدقهم نِيَّةً ، وأخلصهم طويةً .

ويقال أحسنهم عملًا أكثرهم احتساباً ؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبة له ، وأعلى من هذا بل وأولى من هذا فأحسنهم عملًا أشدُّهم استصغاراً لفعله ، وأكثرهم استحقاراً لطاعته ؛ لشدة رؤيته لتقصيره فيما يعمله ، ولانتقاصه أفعاله فى جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرء نَظَرُه إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار ، لقول الشاعر :

وأكبرُ من فِعْله وأعظمُه تصغيرُه فِعْلَه الذى فَعَله

معناه : أكبرُ مِنْ فعلِه — الذى هو عطاؤه وبَذْلُه — تقليلُه واستصغارُه لِمَا يُعْطِيه ويجود به .

قوله جل ذكره : ﴿وإنَّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزًا﴾

كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها فى الحال سُلِبَ قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنِيه فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا من آياتنا عَجَبًا﴾

أزال الأعجوبةَ عن أوصافهم بما أضافه إلى ربِّه بقوله : « من آياتنا » ؛ فَقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ .

ويقال مكثوا فى الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال : « أصحاب الكهف » ، وللنفوس مَحَالٌ ، وللقلوب مَقَارٌ ، وللهمم مَجَال ، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه[1] .

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم ؛ فحالُك أعجبُ فى ذهابك إلينا فى شطر من الليل حتى قاب قوسين أو أدنى[2] ، وهم قد بقوا فى الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إلى الكهفِ
فقالوا ربَّنَا آتِنا من لَدُنْكَ رَحْمَةً
وهَيِّئْ لنا مِنْ أمْرِنا رَشَداً ﴾

آواهم إلى الكهف بظاهرهم ، وفى الباطن فهو مُقِيلُهم فى ظِلِّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم[3] .

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » : أى أنهم أخذُوا فى التبرِّى مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتِهم ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ فَاقَتِهم ، فاستجاب لهم دعوتَهم ، ودفع عنهم ضرورتَهم[4] ، وبوَّأهم فى كنف الإيواء مقيلا حسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذانِهم فى الكهفِ
سِنين عَدَدًا » .

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائقِ ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

---

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذى يعتكف فيه .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى المنزلة الرفيعة التى وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — ليلة الإسراء والمعراج ، وكيف أنه انتهى فى ليلة واحدة إلى ما لم يصل إليه أصحاب الكهف فى سنين .

(٣) واضح أن القشيرى يعالج قصة أهل الكهف فى ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من النماذج التى يقدمها التصوف لتفسير الظواهر العجيبة التى تقلب فيها العادة ، ويحار فيها العقل .

(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يلزم الإنسان من طعام وشراب وتخلص من بقاياها . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾

أى رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم ، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع .

قوله جل ذكره : ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم﴾

لمّا كانوا مأخوذين عنهم تولّى الحق — سبحانه — أنْ قصّ عنهم ، وفرّقَ بين من كان عن نفسه وأوصافه قاصًا ؛ لبقائه فى شاهده وكونه غيرَ منتفٍ بجملته .. وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره ؛ لفنائه عنه وامتحائه منه وقيام غيره عنه .

ويقال لا تُسمَعُ قصةُ الأحباب أعلى وأجلّ مما تُسمَعُ من الأحباب ، قال عزّ من قائل : « نحن نقص عليك » ، وأنشدوا :

وحدّثتني يا سعدُ عنها فزدتنى حنيناً فزدنى من حديثكَ يا سعدُ

قوله : « إنهم فتية آمنوا بربهم » : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا — على الوهلة — بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لمّا أتتهم دواعى الوصلة[1] .

ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿وزدناهم هدًى * وربطنا على قلوبهم﴾

لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم فى أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقّاهم أولاً التبيين ، ثم رقّاهم عن ذلك باليقين .

---

(١) لاحظ أهمية ذلك فى فهم معنى (الفتوة) عند الصوفية .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى متع نهار[1] معارفهم ، واستضاءت شموسُ تقديرهم ، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ فى خواطرهم ، و (. . .)[2] فى التجريد أسرارهم ، وتمّتْ سكينةُ قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أفنيناهم عن الأغيار ، وأغنيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسْكَنَّا فيها من شواهد الغيب ، فلم تَسنح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰواتِ والأرضِ ﴾

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عمّا سوى الله .

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصلَ إلى الله .

ويقال قعدت عنهم الشهوات فَصَحَّ قيامُهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لن نَدْعُوَا مِن دونِهِ إلٰها ، لقد قُلْنَا إذاً شَطَطاً ﴾ .

مَنْ أحال الشيء على الحوادثِ فقد أشرك بالله ، ومَنْ قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً مِنْ دون الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هؤلاءِ قومُنا اتخذوا من دونه آلِهةً لولا يأتون عليهم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن افترى على الله كذباً ﴾

---

(١) متوع النهار اصطلاح يأتى فى مذهب القشيرى بعد اللوائح والطوالع واللوامع ، وهو يلتقى مع المعنى من حيث اللغة (يقال متع النهار أى بلغ غاية ارتفاعه) .

(٢) مشتبهة وهى قريبة فى الرسم من (واتخذوا) ومصوبة فى الهامش (وانحدروا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهى على العموم كلمة تفيد خلوص أسرارهم فى التجريد وإلا لما حدثت سكينة قلوبهم .

لمَّا لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبُهم ، فمن اكتفى بِنَفْى القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول فى نحلته .

« فَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ » فمن ذَكَرَ فى الدِّين قولاً لم يؤيِّد ببرهان عقلى أو نقلى فهو مفترٍ ، ومَنْ أظهر مِنْ نَفْسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ . والذى يصدق فى قوله — فى هذه الطريقة — فهو الذى يسمع من الحق بسرِّه ، ثم ينطق بلفظه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأْوُوا إلى الكهفِ يَنشُرْ لكم ربُّكم مِن رحمتِه ويُهَيِّئْ لكم من أمرِكم مِرْفقاً ﴾

العزلةُ عن غير الله توجِبُ الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد العزْلَةِ عن غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عُبِدَ من دون الله آواهم الحقُّ إلى كنفِ رعايته ، ومهد لهم مثوىً فى كهفِ عنايته .

ويقال مَنْ تبرَّأ مِنَ اختياره فى احتياله ، وصَدَقَ رجوعه إلى الله فى أحواله ، ولم يستَعِن — بغير الله — من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله ، وكفاه جميعَ أشغاله ، وهيَّأ له مَحَلًّا يتفيؤ فيه فى بَرْدِ ظِلالِه ، بكمالِ إقباله .

قوله جل ذكره : ﴿ وترى الشمسَ إذا طلعت تَزاور[2] عن كهفهم ذاتَ اليمينِ وإذا غَرَبَت

---

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة فى قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها فى بعض الأحيان عواقب جسيمة : وهى هل يفصح الصوفي الواله أم يكتم ؟ ونلاحظ أن القشيرى ربط القضية بعنصر أساسى هو الصدق . . .

(٢) تزاور من الزور وهو الميل ، والزور الميل عن الصدق .

﴿ تقرضهم(١) ذاتَ الشمالِ وهم فى فجوةٍ
منه ذلك من آياتِ الله ﴾

كانوا فى مُتَّسَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم(٢) .

إن نورَ الشمسِ ضياء يستضىء به الخَلْقُ ، ونور معارفهم أنوار يُعْرَفُ بها الحق ، فهذا نور يظهر فى الصورة ، وهذا نور يلوح فى السريرة . وبنور الشمس يدرك الخلْق وبنورهم كانوا يعرفون الحق .

وفى قوله — عزَّ اسمه : « ذلك من آيات الله » فيه دلالة على أن فى الأمر شيئاً بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمسِ إذا انتهى إليهم ارورَّ عنهم ، ومضى دونَهم بخلاف(٣) ما يقول أصحاب الهبة ، ليكونَ فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلَكُ فى النور الذى عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ ومَن يُضلِلْ
فَلَن تَجِدَ له وليًّا مُرْشِداً ﴾

فالله يَهْدِى قوماً بالأدلةِ والبراهين ، وقوماً بكشف اليقين ؛ فمعارفُ الأولين قضية الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان :

« ومَنْ يُضلِلْ الله » : أى مَنْ وَسَمَه بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفانَ ولا علمَ ولا إيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ وتَحْسَبُهُم أيقاظاً وهم رقودٌ ونُقَلِّبُهم
ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ﴾

---

(١) تقرضهم أى تقطعهم أى تتركهم وتعدل عنهم .
(٢) بالإضافة إلى أنوارهم أى إذا قيست بأنوارهم .
(٣) أى هذا على لسان أهل التفسير أما على لسان أهل الإشارة . وهذه أول مرة يطلق القشيرى (أصحاب الهبة) هذا الوصف عليهم فى « لطائفه » ، لهذا نبهنا إليه .

هم مسلوبون عنهم ، مُخْتَطَفُون منهم ، مُستَهلَكون فيما كوشِفوا به من وجود الحق ؛ فظاهرهم — فى رأى الخَلْق — أنهم بأنفسهم ، وفى التحقيق : القائمُ عنهم غيرُهم . وهم محوٌ فيما كوشفوا به من الحقائق .

ثم قال : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » : وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم ؛ فلا كشفقةِ الأمهات بل أتم ، ولا كرحمة الآباء بل أعزُّ . . . وبالله التوفيق .

ويقال إن أهلَ التوحيد صفتهم ما قال الحقُّ — سبحانه — فى صفة أصحاب الكهف : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » فَهُمْ بشواهد الفَرْقِ فى ظاهرهم ، لكنهم بعين الجمع بما كُوشِفوا به فى سرائرهم ، يُجْرِى عليهم أحوالَهم وهم غير متكلِّفين ، بل هم يثبتون — وهم خودٌ عما هم به — أن تصرفاتِهم القائمُ بها عنهم سواهم ، وكذلك فى نطقهم(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَلْبُهم باسِطٌ ذِراعيه بالوصيدِ
لَوِ اطَّلعتَ عليهم لَوَلَّيْتَ منهم فِراراً
ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً ﴾

كما ذَكَرَهُم ذَكَرَ كلبَهم ، ومَنْ صَدَقَ فى محبة أحدٍ أحبَّ مَنْ انتسب إليه وما يُنْسَبُ إليه .

ويقال كلبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان — بل الحق يقول بقوله العزيز — : « وكلبهم باسط . . . . » فهل ترى أنَّ مُسْلِماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يردُّه يوم القيامة خائباً . ؟ إنه لا يفعل ذلك .

ويقال فى التفاسير إنهم قالوا للراعى الذى تبعهم والكلب معه : إصرف هذا الكلب عنَّا . . . فقال الراعى : لا يمكننى ، فإنى أنا دينه .

ويقال أنطق الله سبحانه — الكلبَ فقال لهم : لِمَ تضربوننى ؟
فقالوا : لِتَنْصَرِفَ عنَّا .
فقال : لا يمكننى أن أنصرف . . لأنه ربَّانى .
ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد الأولياء فإلى القيامة يقال « وكلبهم باسط ذراعيه

(١) فنطق العبد الواله وتصرفه يكونان بالله .... تذكر قصة الحلاج .

بالوصيد » . . . فهل إذا رَفَعَهَا مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما صَحِبَهم الـكلبُ لم تضره نجاسةُ صِفَتِهِ ، ولا خساسةُ قيمته .

ويقال قال فى صفة أصحاب الـكهف إن كانوا «سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم » ، أو خمسة سادسهم كلبهم فقد قال فى صفة هذه الأمة : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » . .

وشتَّان ما هما !

ويقال كُلٌّ يُعامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته ؛ فالأولياء قال فى صفتهم : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ، والـكلب قال فى صفته : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ويقال كما كرَّر ذكرَهم ، كرر ذِكْرَ كلبِهم .

وجاء فى القصة أن الـكلبَ لما لم ينصرفْ عنهم قالوا : سبيلنا إذا لم ينصرف عنَّا أنْ نَحْمِلَه حتى لا يُسْتَدَلَّ علينا بأثر قَدَمِهِ فحملوه ، فـكانوا فى الابتداء (بل إياه)[1] وصاروا فى الانتهاء مطاياه . . كذا مَنْ اقتفى أثرَ الأحباب .

ويقال في القصة إن الله أنطق الـكلب معهم ، وبِنُطْقِه رَبَطَ على قلوبهم بأنْ ازدادوا يقيناً بسماع نطقه ، فقال : لِمَ تضربونى ؟ فقالوا : لتنصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاء يصيبـكم فى المستقبل وأنتم بلائى فى الحال :

ثم إنَّ بلاءكم الذى تخافون أنْ يصيبكم من الأعداء ، وبلائى منـكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما لزم الـكلبُ محلَّه ولم يجاوزْ حدَّه فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء . . . كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوُصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِراراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْبًا ﴾

---

(١) وردت هكذا ونرجح أنها (بلاياه) بدليل ما سيأتى بعد ذلك : (وأنتم بلائى فى الحال) .

الخطاب له — صلى الله عليه وسلم . والمرادُ منه غيره .

ويقال لو اطلعتَ عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً ، ولو شاهدتَهم من حيث شهود تولِّى الحق لهم لبقيت على حالك .

ويقال لو اطلعتَ عليهم وشاهدتَهم لَوَلَّيْت منهم فراراً مِنْ أنْ تُرَدَّ عن عالى منزلتك إلى منزلتهم ؛ والغنىُّ إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فرَّ منه ، ولم تَطِبْ به نَفْسُه . « ولملئت منهم رعباً » بأن يُسْلَبَ عظيمُ ما هو حالك ، و تُقامَ فى مثل حالهم النازلة عن حالك .

ويقال : « لوليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائلٌ منهم كَمْ لبِثْتم قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ ﴾

استقلوا مدة لُبْثهم وقد لَبِثُوا (طويلاً) ، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم عِلْمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدرى أطال لَيْلىَ أم لا ؟ كيف يدرى بذاك من يتقلَّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِى ورعيت النجومَ كنتُ مُخِلاًّ

ويقال أيامُ الوصالِ عندهم قليلة — وإنْ كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس ، وأنشدوا :

صَباحُكَ سُكْرٌ والمساء خُمار[1] نَعِمْتَ وأيامُ السرورِ قِصارُ

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربُّكم أعلم بما لَبِثْتُم ﴾

لأنه هو الذى خَصَّكُم بما به أقامكم .

---

(١) الخمار = ماخالط الإنسان من سُكْر الخمر .

قوله جل ذكره : ﴿ فابعثوا أحدَكُم بِوَرِقِكم هذه إلى المدينةِ فَلْيَنظُرْ أيها أزكى طعاماً فَلْيَأْتِكُم برِزْقٍ منه ﴾

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلبٌ لأكلٍ ولا شربٍ ولا شيء من صفة النَّفْس ، فلمَّا رُدُّوا إلى التمييز أخذوا فى تدبير الأكل أوَّلَ ما أحسوا بحالهم ، وفى هذا دلالة على شدة[1] ابتداء الخَلْق بالأكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً ﴾

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التَّخَلُّقِ وجميل الترفُّقِ ، أى ليتلطف مع من يشترى منه شيئاً .

ويقالَ أوصوا مَنْ يشترى لهم الطعامَ أنْ يأتيهم بألطف شيء وأطيبِه ، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس ولا المبتذل فى المطعم من المأكول .

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك[2] .

والذى بلغ المعرفة لا يوافقه إلا كل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّهم إن يَظْهَروا عليكم يَرْجُمُوكم أو يعيدوكم فى مِلَّتِهم ولن تُفْلِحوا إذاً أبداً ﴾

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب[3] وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا فى مخالفتهم إمَّا بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل ، ولا يرضون

---

(١) شدة هنا معناها ضرورة .

(٢) معنى هذا ان القشيرى يميز بين مطعم وملبس أصحاب الرياضات ومطعم وملبس أهل المعرفة ، وربما كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيما بعد : « تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب » .

(٣) من هنا نفهم ضرورة أن يكتم أرباب الأحوال اسرارهم ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يدركون حقائق أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد الضرب والقتل (تذكر قصة الحلاج وغيره) .

إلا بردِّهم إلى ما منه تخلصوا ، فمَنْ احترق كدسُه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نَفْسُه .

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار .

ويقال مَنْ أظْهرَ لأعدائه سِرَّه فقد جَلَبَ باختياره ضُرَّه ، وفَقَدَ ما سَرَّه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أعْثَرْنا عليهم ليَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌ وأنَّ الساعةَ لاريبَ فيها إذْ يتنازعون بينهم أمرَهم فقالوا ابنوا عليهم بُنْياناً رَبُّهم أعْلَمُ بِهِم قال الذين غَلَبُوا على أمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجِداً ﴾

جعل أحوالَهم عِبْرَةً لِمَنْ جاء بَعْدَهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم ، فعاينهم الناس ، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة .

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذين عن التمييز ، متقلبين فى القبضة على ما أراده الحق ، مستودعين فيما كوشفوا ، مستهلكين عنهم فى وجود الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلْبُهم ، ويقولون خمسةٌ سادِسُهم كلبُهم رَجْماً بالغيبِ ، ويقولون سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم ﴾

أخبر أنَّ علومَ الناسِ متقاصرةٌ عن عددهم ؛ فالأحوالُ التى لا يطلع عليها إلا اللهُ فى أسرارهم وقلوبهم .. متى يكون للخَلْق عليها إشرافٌ ؟

أشكل عليهم عددهم ، وعددهم يُعْلَمُ بالضرورة ، وهم لا يُدْرَكُون بالمشاهدة .

---

(١) يقول الشبلى واصفاً سبب محنة الحلاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كتمت » .

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقُّ — سبحانه — ذكرَهم وذكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار ، ولمَّا ذَكَرَهم عَدَّ الكلبَ فى جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل ربى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهم ما يَعْلَمُهُم إلا قليلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده ، ومَنْ كان قريباً فى الحالِ منهم ؛ فهم فى كتم الغَيْرة وإيواء الستر لا يَطَّلِعُ الأجانبُ عليهم ؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ ؛ لأنَّ الحق — سبحانه — يستر أولياءه عن الأجانب ، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة ؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : « الصوفية أهل بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرهم »(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَسْتَفْتِ فيهم مِنْهُم أحداً ﴾

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم ، ولا يهتدى إلى أحكامهم من لا يعرفهم . . فلا يصحُّ استفتاءُ مَنْ غاب علمهم عنه فى حالهم . ومَنْ لم يكن قلبُهُ محلاً لمحبة الأحباب لا يكون لسانُه مقراً لذكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولنَّ لشىء إنى فاعلٌ ذلك غداً * إلا أن يشاء اللهُ ﴾

إذا كانت الحوادثُ صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ اللهَ لم يَعُدَّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته ، واندرجت أحكامه فى شهوده لحكم الله .

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة فى مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ

---

(١) هذا القول للجنيد (ص ١٣٩) الرسالة

بِسِرِّه ، والشرعُ يستدعى منه نهوض قلبه فى طاعته ، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُر رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عسَى أن يَهْدِيَنِ ربِّى لأقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴾

إنْ طرأتْ عليك طوارقُ النسيان — لا بتعهدك — فجرِّدْ بذكرك قَصْدَكَ عن أوطان غفلتك .

ويقال « واذكر ربك إذا نسيت » : فى الحقيقة نَفْسُك تمنعك من استغراقك فى شهود ذكرك .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربِّك : فإن العبدَ إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة فى ذكره[2] .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّك منه .

ويقال واذكر ربَّك إذا نسيت غيرَ ربِّك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَبِثُوا فى كَهْفِهِم ثلاثَمِائةٍ سنينَ وازدادوا تِسْعًا ﴾

كانوا مأخوذين عنهم فى إحساسهم بأنفسهم فلم يقفوا على تطاول مدتهم ، وفى المثل : « أيام السرور قصار » ، والدهور فى السرور شهور ، والشهور فى المحن دهور ، وفى معناه :

أَعُدُّ الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قبلاً لا أعد الليالیا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بما لَبِثُوا له غَيْبُ

---

(١) معنى هذه الفقرة انه قد يبدو فى الظاهر ان للعبد إرادة فى الامتثال للطاعة وفى إجراء أحكام الشريعة ، ولكن فى الحقيقة أن الحق سبحانه يتولى تبرئته من حوله وإرادته ، وتهيئة سره للتجرد عن كل غير وسوى .

(٢) لأن أعلى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور .

السمٰواتِ والأرضِ أَبْصِرْ به وأَسْمِعْ
ما لهم مِّن دونِهِ من ولىٍّ ولا يُشْرِكُ
فى حُكْمِهِ أحدًا ﴾

مَنْ لم يعد أيامَهُ لاشتغاله بالله أحصى اللهُ أنفاسَهُ التى لله ، قال تعالى : « أحصى كل شىء عددًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ ما أُوحِيَ إليكَ من كتابِ ربِّكَ ﴾

تَسَلٍّ — حينما تتنوع عليك الأحوال — بما نُطْلِعُكَ عليه من الأخبار ؛ وإنَّ كُتُبَ الأحبابِ فيها شفاء لأنها خطابُ الأحباب للأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ لا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ ولن تَجِدَ من دونه مُلْتَحَدًا ﴾

أى لا تغيير لِحُكْمِهِ ؛ فَمَنْ أقصاه فلا قبولَ له ، ومَنْ أدناه فلا وصولَ له ، ومَنْ قَبِلَه فلا رَدَّ له ، ومَنْ قَرَّبه فلا صَدَّ له .

قوله جل ذكره : ﴿ واصبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدعون ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدون وجْهَه ﴾

قال : « واصبر نفسَك » ولم يقل : « قلبَك » لأن قلبه كان مع الحقِّ ، فأمره بصحبته جَهْرًا بجهر ، واستخلص قلبه لنفسه سِرًّا بِسِرٍّ .

ويقال « يريدون وجهه » : معناها مريدين وجهه أى فى معنى الحال ، وذلك يشير إلى دوامِ دُعائِهم ربهم بالغداة والعشىِّ وكون الإرادة على الدوام .

ويقال « يريدون وجهه » : فآويناهم فى دنياهم بعطائنا ، وفى عقباهم بكرائمنا .

ويقال « يريدون وجهه » : فكشف قناعَهم ، وأظهر صفْوَهم ، وشَهَرَهم بعدما كان قد سَتَرَهم ، وأنشدوا :

وكشفنا لكَ القناعَ وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا

ويقال لما زالت التُّهمُ سَلِمَتْ لهم هذه الإرادة ، وتحرروا عن إرادةِ كلِّ مخلوقٍ وعن محبةِ كل مخلوق .

ويقال لمَّا تقاصَرَ لسانُهم عن سؤالِ هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحُرْمَةِ باب الحقِّ — سبحانه — أمَرَه بقوله : « واصبر نفسك » وبقوله :

﴿ ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ﴾

أى لاترفع بَصَرَكَ عنهم ، ولا تُقْلِع[1] عنهم نظرك .

ويقال لما نظروا بقلوبِهم إلى الله أمَرَ رسولَه — عليه السلام — بألا يرفعَ بَصَرَه عنهم ، وهذا جزاء فى العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا ، وخَلَفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا ، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظَرَكَ فإنا لانمنع غداً نظرهم عنَّا[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغفلنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواه وكان أمْرُهُ فُرُطًا ﴾

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يُخْلِيَ لهم مجلسَه من الفقراء ، وأن يطردَهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله . « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لايعنيهم .

ويقال « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنعِم .

ويقال هم الذين طوَّح قلوبَهم فى التفرقة ، فهم فى الخواطر الرَّدِيَّة مُثْبَتُون ، وعن شهود مولاهم محجوبون .

---

(١) لا تقلع عنهم نظرك أى لا تكف وتبعد .

(٢) تهم هذه الإشارة فى تقدير مدى تصور الصوفية لشخصية محمد (ص) .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتُلُوا بنسيان الحقيقة ولا يتأسَّفُون[1] على ما منُّوا به ولا على ما فاتَهم

ويقال الغفلةُ تزجيةُ الوقتِ فى غيرِ قضاء فَرْضٍ أو أداء نَفْلٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُلِ الحقُّ من ربِّكم فمن شاء فَلْيُؤْمِن ومَن شاء فَلْيَكْفُرْ ﴾

قُلْ يا محمد : ما يأتيكم من ربِّكم فهو حقٌّ ، وقوله صِدْقٌ .. فمَنْ شاء فليومِنْ ، ومن شاء فليكفر . . هذا غاية التهديد ، أى إنْ آمنتم ففوائدُ إيمانكم عليكم مقصورة ، وإنْ أبَيْتُم فعَذَابُ الجحود موقوفٌ عليكم ، والحقُّ — سبحانه — عزيزٌ لايعود إليه بإيمان الكافة — إذا وَحَّدُوا — زَيْنٌ ، ولا مِنْ كُفْرِ الجميع — إنْ جحدوا — شَيْنٌ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إنَّا أعْتَدْنا للظالمين نارًا أحاطَ بهم سُرَادِقُها وإن يستغيثوا يُغَاثوا بماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِى الوجوهَ بِئْسَ الشرابُ وساءتْ مُرْتَفَقًا ﴾

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألَم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحقِّ ، ولو علموا ذلك لَعَلَّه كان يرحمهم . والحقُّ — سبحانه — أكرم من أن يعذِّبَ أحداً يُتَّهَمُ لأجْلِه .

ويقال لو علموا مَنْ الذى يقول : « وساءت مرتفقاً » لعلَّه كان لم تَسَل ساعةً ، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا ، وإلا فهذا شِبْهُ مرتبةٍ لهم ، والعبارة عن هذا تدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلًا * أولئكَ لهم جنَّاتُ عَدْنٍ تجرى مِن

---

(١) وردت (ولا يتنافسون) والمعنى يرفضها مما يرجح خطأ الناسخ فى نقلها .

تحتهم الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْراً
من سُنْدُسٍ وإِسْتبرقٍ مُتَّكِئِينَ
فيها على الأَرائِكِ نِعْمَ الثوابُ
وحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾

أهلُ الجنة طابتْ لهم حدائقُها ، وأهلُ النار أَحاط بهم سُرادِقُها .

والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدةٌ . . . جَلَّتْ الأحديةُ ، وتَقَدَّسَتْ الصمدية !

ومَنْ وَقَعَتْ عليه غَبَرَةٌ فى طريقنا لم تَقَعْ عليه قَتَرَةُ فراقنا ، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجَدَ حظوةً لدينا ، ومَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نحونا غفرنا له ما قَدَّمَه ، ومَنْ رَفَعَ إلينا يَدًا أَجْزَلْنا له رَغَداً ، ومَنْ التجأ إلى سُدَّةٍ[1] كَرَمِنا آويناه فى ظِلِّ نِعَمِنا ، ومن شكا فينا غليلا[2] مَهَّدْنا له — فى دار فضلنا — مقيلاً .

« أجر مَنْ أَحْسَنَ عملا » : العملُ أحسنُه ما كان مضبوطًا بشرائط الإخلاص .

ويقال « مَنْ أَحْسَنَ عملا » بأن غاب عن رؤية إحسانه .

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَصْدَه عن كلِّ حظٍّ ونصيب .

ويقال الإحسان فى العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا فى فضله ، فإذا أخلصتَ فى تَوَسُّلِكَ إليه بفضله ، وتوصُّلِكَ إلى ما مَوَّلَكَ من طَوْلِه بِتَبَرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك استوجبت حُسْنَ إقباله ، وجزيل نواله .

قوله « أولئك لهم جنات عَدْنٍ تجرى من تحتها الأنهار » أولئك هم أصحابُ الجنان ، فى رَغَدِ العيش وسعادةٍ جَدٍّ[3] وكمال الرِّفد[4] ، يلبسون حُلَلَ الوُصلة ، ويُتَوَّجون بتاج القُرْبة ،

---

(١) وردت (سيده)
(٢) وردت (عليلا) بالعين .
(٣) الجد = الحظ .
(٤) الرفد = العطاء والصلة .

ويُحَلَّون على المباسط ، ويتَّكِئون على الأرائك ، ويشمون رياحينَ الأُنْس ، ويقيمون في مجال الزُّلفة ، ويُسْقَوْنَ شرابَ المحبة ، ويأخذُون بيَدِ الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة ، ويسقيهم شراباً طهوراً يُطَهِّر قلوبَهم عن محبة كلِّ مخلوقٍ .

« نِعْمَ الثوابُ وحَسنتْ مُرْتَفَقاً » : نِعْمَ الثوابُ ثوابُهم ، ونعم الربُّ ربُّهم ، ونعم الدارُ دارُهم ، ونعم الجارُ جارُهم ، ونعم الحالُ حالُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرِبْ لهم مثلاً رجلين جَعَلْنا
لأحدِهما جَنَّتين من أعنابٍ
وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ وجَعَلْنا بينهما
زَرْعاً * كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها
ولَمْ تَظْلِم منه شيئاً وفجَّرْنا خِلالَها
نَهَراً * وكان له ثَمَرٌ فقال لصاحِبِه
وهو يحاوِرُه أنا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً
وأعَزُّ نَفَراً * ودَخَلَ جَنَّتَه وهو
ظالِمٌ لِنَفْسِه قال ما أظُنُّ أن تبيدَ
هذه أبداً * وما أظنُّ الساعةَ قائِمَةً
ولئِن رُدِدْتُ إلى ربي لأَجِدَنَّ خيراً
منها مُنقَلَباً * قال له صاحِبُه وهو
يحاوِرُه أكفرتَ بالذي خَلَقَكَ من
تُرابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثم سَوَّاكَ رَجُلاً
* لكِنَّا هو اللهُ ربي ولا أُشْرِكُ
بربِّيَ أحداً * ولَوْلا إذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاء الله لا قوةَ
إلا باللهِ إن تَرَنِ أنا أقَلَّ مِنكَ مالاً
وولَداً * فعسى ربي أن يُؤْتِيَنِ خيراً

من جَنَّتِكَ ويُرْسِلَ عليها حُسْبانا
من السماء فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً *
أو يُصْبِحَ ماؤها غَوْراً فلن تَسْتَطِيعَ
له طَلَباً ﴾

أخبر أنه خَلَقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذى ذَكَرَه ، فَشَكَرَ أحدُهما لخالقِه وكَفَرَ الآخرُ برازقه ، فأصبح الكافرُ وجنَّتُه أصابتها جائحةٌ ، وندم على ما ضَيَّعَه من الشكر ، وتوجَّه عليه اللومُ .

وفى الإشارة يخلق عَبْدين يُطَيِّبُ لهما الوقت ، ويُمَهِّدُ لهما بساط اللطف ، ويمكِّن لهما من البَسْط . . فيستقيم أحَدُهما فى الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحُسْن المنازلة وصدق المعاملة ، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسنِ الاستقامة ، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يُخْتَطَفُ عنها بما يُكاشَفُ به من حقائق التوحيد ، ويصبح مُنْتَفٍ عن جملته باستهلاكه فى وجود ما بان له من الحقائق .

والثانى لا يُقَدِّرُ قَدْرَ ما أهَّلَ له من حُسْن البداية فيرجعُ إلى مألوفاته ، فينتكِسُ أمرُه ، بانحطاطه إلى ذميم عاداته ، فيرتدُّ عن سلوكِ الطريقة ويتردَّى[1] فى ظلمةِ الغفلة ، فيصيرُ وقتُه ليلاً مظلما ، ويتطوحُ فى أودية التفرقة ، ويُوسَمُ الطردَ ، ويُسْقى شرابَ الإهانة ، وينخرطُ فى سلك الهَجْر . . وذلك جزاء مَنْ لم يَرْعَهُ الحقُّ لو صلته أهلاً ، ولم يجعل لولائهم فى التحقيق والقبول أصلاً :

تبدَّلَتْ وتبدلنا يا حسرةً لِمَنْ ابتغى عوضا لسلمى فلم يَجِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأصبحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيْه على ما أنْفَقَ فيها وهى خاويةٌ
على عُرُوشِها ويقول ياليتنى لم أُشْرِكْ
بِرَبِّى أحَداً * ولم تَكُن له فِئَةٌ

---

(١) وردت (ويرتدى) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنصُرُونَهُ مِن دونِ اللهِ وما كان مُنتَصِراً ﴾

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حظَّه على حقِّ الله ، قَرَعَ بابَ ندامته ، ثم لا ينفعه .

ولو قرع باب كَرَمِهِ فى الدنيا — حين وَقَعَتْ له الفترةُ — لأشكاه[1] عند ضرورته ، أنجاه من ورطته . . ولكنه رُبِط بالخذلان ، ولُبِّسَ عليه الأمرُ بحُكْمِ الاستدراج .

قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : مَنْ اشْتَهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السلطانِ عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية ، كذلك مَنْ وَسَمَهُ الحقُّ بكيِّ الهَجْرِ لم يَرْثِ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ ، ولم يَحْمِهِ صديقٌ ولا وليٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هنالك الولايةُ للهِ الحقِّ هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقْباً ﴾ .

هو الحقُّ المتفرِّدُ بنعتِ ملكوته ، لا يشرك فى جلال سلطانه من الحدثان أحداً ، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيا هنالك لحدثان ولا خطر ، كلاَّ . . بل هو الله الخلاَّق الواحد القهار .

هنالك الوِلاية لله أى القدرة — والواو هنا بالكسر ،

وهنالك الوَلاية لله أى النصرة — والواو هنا بالفتح[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واضرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه مِنَ السماء فاختلَطَ به نباتُ الأرضِ فأصبح هَشِيماً تذروه الرِّياحُ ، وكان اللهُ على كلِّ شىءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ .

---

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأعانه .

(٢) الولاية (بالكسر) بمعنى القدرة أى : السلطان والملك كله لله ، يتولى الله كل مضطر فيكون قوله : « لم أشرك ربى أحدا » كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً من شؤم كفره — ولولا ذلك لم يقلها . أو على الولاية (بالفتح) بمعنى النصرة تقريراً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »

منْ وَطَّنَ النَّفْسَ على الدنيا وبهجتها غرّته بأمانيها ، وخدعته بالأطماع فيها . ثم إنها تُخْفِى الصَّابَ فى شرابها ، والحنظلَ فى عَسَلِها ، والسرابَ فى مآربها ؛ تَعِدُ ولا تفى بِعِدَاتِها ، وتُوفِى آفاتُها على خيراتها . . نِعَمُها مشوبةٌ بِنِقَمِها ، وبؤسُها مصحوبٌ بمآنوسها ، وبلاؤها فى ضمن عطائها . المغرورُ مَنْ اغترَّ بها ، والمغبونُ مَنْ انخدع فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا ﴾

مَنْ اعتضد بعتاده ، واغترَّ بأولاده ، ونَسِىَ مولاه فى أوان غَفَلَاتِهِ . . خَسِرَ فى حاله ، وندِمَ على ما فاته فى مآله .

ويقال زينةُ أهل الغفلة فى الدنيا بالمال والبنين ، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين . . فهؤلاء رُتَبُهم لظواهرهم . . وهؤلاء زينتهم لعبوديته ، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته .

ويقال ما كان للنَّفْس فيه حظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا ، ويدخل فى ذلك الجاهُ وقبول المدح ، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها .

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول : إن شئت فى عاجله وإن شئت فى آجله .

قوله جل ذكره : ﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ .

وهى الأعمال التى بشواهد الإخلاص والصدق .

ويقال « الباقيات الصالحات » : ما كان خالصاً لله تعالى غيرَ مشُوب بطمعٍ ، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ .

ويقال « الباقيات الصالحات » : ما يلوح فى السرائر من تحلية العبد بالنعوت ، ويفوح نَشْرُه فى سماء الملكوت .

ويقال هى التى سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة .

ويقال هى ضياء شموسِ التوحيد المستكِنّ (فى السرائر مما لا يتعرّضُ لكسوف الحجبة)[1]

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ نُسَيِّر الجِبَالَ وتَرَى الأرضَ بارِزَةً وحَشَرْنَاهُم فَلَمْ نُغَادِرْ منهم أحداً ﴾

كما تُسَيِّرُ جبالُ الأرض[2] يوم القيامة فإنها تُقْتَلَع بموتِ الأبدال الذين يديم بهم الحقُّ — اليومَ — إمساكَ الأرض ، فهؤلاء السادة — فى الحقيقة — أوتادُ العالَمِ .

قوله : « فلم نغادر منهم أحداً » : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأسَ المنية ، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإنّ شَرَفَهم فى الدرجات فى تَوَقِّيهم عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وعُرِضوا على ربك صَفّاً ﴾

يقيم كُلَّ واحدٍ يومَ العَرْضِ فى شاهد مخصوص ، ويُلْبِسُ كُلاً ما يُؤَهِّله له ؛ فَمِنْ لباسِ تقوى ، ومن قميصِ هوى ، ومن صِدَارِ وَجْدٍ ، ومن صُدْرَةِ محبة ، ومن رداءِ شوقٍ ، ومن حُلَّة وُصْلَة .

ويقال يجرِّدهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامةِ . وينادِى المنادى على أجسادهم : هذا الذى أَنَى وَوَجَدَ ، وهذا الذى أَبَى وجَحَدَ . وهذا الذى خالَفَ فأصَرَّ ، وهذا الذى أنعمنا عليه فَشَكَرَ ، وهذا الذى أَحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذى أسقيناه شرابَنا ، ورزقناه محابَّنا ، وشَوَّقناه إلى لقائنا ، ولَقَّيْنَاه خصائص رِعَايَتِنا[3] .

وهذا الذى وَسَمْناه بحجبتنا ، وحرمناه وُجُوهَ قربتنا . وألبسناه نطاق فراقنا ، ومنعناه توفيق وفاقنا ، وهذا ، وهذا . . .

---

(١) تكملة فى أسفل الصفحة موضحة فى المتن بالعلامة × .

(٢) نلاحظ كثيراً أن القشيرى يتحدث عن الأوتاد والأبدال والقطب كما ورد فى القرآن ذكر للجبال ، فكما أن الله يمسك بها الأرض ويثبتها كذلك يقوم هؤلاء بحفظ الخلق ، وبكرامتهم يندفع البلاء عنهم .

(٣) الرعاء : المراعاة والمحافظة .

واخجلتى من وقوفى وَسْط دارِهِمُ ! وقال لى مُغْضَباً : مَنْ أنت يا رجلُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لقد جِئْتُمونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بل زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر ، ولا مُعينٍ ولا مُظاهِر .

قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم . . . كيف أنتم ؟ وكيف وَجَدْتُم مقيلَكم ؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم !

وقوم يُقال لهم : ما صنعتُم ، وماضَيَّعْتُم ؟ ما قدَّمتُم ، وما أخرتم ؟ ما أعلنتم ، وما أسررتُم ؟

قُلْ لى بألسنةِ التنفُّس[1] كيف أنت وكيف حالك ؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفْصِحون عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ماهم به من أحوالٍ مع محبوبهم وآخرون تملكهم الحيرة وتُسْكِتُهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قالت سكينةُ مَنْ هذا فقلتُ لها ، أنا الذى أنت من أعدائه زَعُموا

قوله جل ذكره : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مُشْفِقين مما فيه ﴾

إنما يصيبهم ما كُتِبَ فى الكتاب الأول وهو المحفوظ ، لا ما فى الكتاب الذى هو كتاب أعمالهم نسخَةَ ما فى اللوح المحفوظ .

ويقال إنْ عامَلَ عبداً بما فى الكتاب الذى أثبته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما فى كتاب المَلِكِ — سبحانه ، وفرقٌ بين من يُعَامَل بما فى كتاب الحقِّ من الرحمة[2] والشفقة وبين مَنْ يحاسبه بما كَتَبَ عليه المَلَكُ من الزَّلَّة[3]

---

(١) التنفس : الاستراحة من الكد والتعب

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى « كتب على نفسه الرحمة » (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى : « فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (آية ٥٤ سورة الأنعام) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حاسبهم فى القيامة يتصور لهم كأنهم فى الحال ما فارقوا الزَّلّة ، وإن كانت مباشرةُ الزَّلّةِ قد مَضَت عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتابِ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يظلم ربُّكَ أحداً ﴾

يملك الحزنُ قلبَه لأنه يعلم أنه يرى فى عمله سيئةً فهو فى موضع الخجل لتقصيره . وإنْ رأى حسنةً فهو فى موضع الخجل أيضاً لِقِلّةِ توقيره ؛ فَخَجْلَةُ أهلِ الصدقِ عند شهود حسناتهم توفى وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زَلّاتهم .

ويقال أصحابُ الطاعةِ إذا وجدوا ما قدَّموا من العبادات فآلم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة ، وأمّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدَّموا بمجاوزةَ الحدِّ ونقضَ العهْدِ ، وما فى هذا الباب من الزَّلّة وسوء القصد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ كان من الجن فَفَسَقَ عن أمرِ ربِّه ﴾

أظهرَ للملائكة شَغِيَّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسيرٍ من الله — سبحانه ، وسَكَّرَ بَصَرَ اللعينِ فما شهد منه غير الْعَيْنِ[1] ففسق عن أمر ربه ، ولا صدق فى قوله : « أنا خير منه » لمّا فَسَقَ عن الأمر ، ولكن أدركته الشقاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفتتخذونه وذُرِّيَّتَه أولياء مِن

---

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد المادى لآدم فقال : خلقتنى من نار وخلقته من طين ، ولم ينظر إلى الجوهر ، والسبب فى ذلك فى رأى القشيرى أن الله أغلق عليه .

دونى وهم لكم عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمين
بَدَلاً ﴾

فى الآية إشارة إلى أنَّ مَنْ يُفْرِدْه بالولاية فلا يقتفى غَيْرَه ولا يخافُ غيرَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أشهدتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوات والأرضِ
ولا خَلْقَ أنفسِهم وما كُنتُ مُتَّخِذَ
المُضِلِّين عَضُداً ﴾

أكذب للنجمين والأطباء الذين يتكلمون فى الهيئات والطبائع بقوله : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » : وبَيَّنَ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصلَ له فى التحقيق .

« وما كنت متخذ المضلين عضداً » : أى لم أجعل للذين يُضِلُّون الناسَ عن دينهم بِشُبَهِهِمْ فى القول بالطبائع حجةً ، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تقاصرت علومُ الخَلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومُهم بحقائق الصمدية ، واستحقاقِه لنعوته إلا بمقدار ما يخصُّهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً ؟

ويقال أخبر أنَّ علومَهم تتقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كُلِّ ما فى الكون ، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك ؛ ولاحاجةَ بهم إلى الوقوف على ما قَصَرَتْ علومُهم عنه ، إذ لا يتعلَّق بذلك شىء من الأمور الدينية . فالإشارة فى هذا أن يَصْرِفُوا عنايتَهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإنه لابُدَّ لهم — بحكم الديانة — من التحقق بها ؛ إذ الواجبُ على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه فى تفاصيل مسائل الصفات والأحكام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يقولُ نادُوا شُرَكَائِيَ الذين

---

(١) فى هذا أبلغ رد على من يتهمون الصوفية بعجافاتهم للعلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُم فلم يستجيبوا لهم
وجعلنا بينهم مَوْبِقاً ﴾

علمَ الحقُّ — سبحانه — أنَّ الأصنامَ لا تغنى ولا تنفع ولا تضر ، ولكن يعرِّفهم فى العاقبة بما يُصَيِّر معارفَهم ضرورية[1] حَسْماً لأوهام القوم ؛ حيث توهموا أنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[2] .

فإذا تحققوا بذلك صدقوا فى الندم ، وكان استيلاء الحسرة عليهم ، وذلك من أشد العقوبات لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم
مواقِعوها ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفاً ﴾

إذا صارت الأوهامُ منقطعةً ، والمعارفُ ضروريةً ، والنارُ مُعَايَنَةً استيقنوا أنهم واقعون فى النار ، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ ، ولا تنفع لهم حيلةٌ ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل . . لقد استمكنت الخيبةُ ، وغَلَبَ اليأسُ ، وحَصَلَ القنوط ، وهذا هو العذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَرَّفْنَا فى هذا القرآنِ للناسِ
من كل مَثَل وَكَانَ الإنسَانُ أكثرَ شىء
جَدَلاً ﴾

أوضح للكافة الحججَ ، ولكن لَبَّسَ على قوم النهج فوقعوا فى العِوَج .

« وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » الجَدَلُ فى الله محمود مع أعدائه ، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرْفٌ إلى مخالفةٍ تُوهِمُ أن أحداً يعارض التقدير ، وتجويزُ ذلك انسلاخُ

---

(١) المعارف إما ضرورية أو كسبية ، والضرورية من الحق ، والكسبية من الخلق .
(٢) آية ٣ سورة الزمر .

عن الدِّين . ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه ، وإغلاقُ بابِ الجدل دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما مَنَعَ الناسَ أن يؤمنوا إذْ جاءهُم الهُدَىٰ ويستغفِروا رَبَّهم إلَّا أن تأتِيَهم سُنَّةُ الأولين أو يأتِيَهمُ العذابُ قُبُلاً ﴾

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتَرْكِ المبادرة إلى المأمور ، ولا توفيقَ يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعى إلى عزم الفعل ، فَهُمْ — وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ماليسوا يفعلونه — ليسوا عاجزين عن ذلك ؛ ولكنهم بحيث لو أن العبدَ منهم أراد ما أُمِرَ به لَتأتَّى منه ذلك ، وتعذَّر عليه ؛ ففى الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه ، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهى واسطة بين القدرة والعجز .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نُرْسِلُ المُرْسَلين إلا مبشرين ومنذِرين ويجادِلُ الذين كفروا بالباطلِ ليُدْحِضوا به الحقَّ واتَّخَذُوا آياتى وما أُنذِرُوا هُزُواً ﴾

أرسل الرسلَ — عليهم السلام — تترى ، وأيَّدَهم بالحجج والبراهين ، وأمرهم بالإنذار والتخويف ، والتشريف فى عين التكليف ، وتضمين ذلك بالتحقيق ، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم ، وشَقِيَ آخرون بخلافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظْلَمُ مِمَّن ذُكِّر بآياتِ ربِّهِ فأعرَضَ عنها ونَسِيَ ما قدَّمتْ يداه إنَّا جعلنا على قلوبِهم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوه وفى آذانِهم وَقْراً وإنْ تَدْعُهُم إلى الهُدَىٰ فلَن يَهْتَدُوا إذاً أبَدًا ﴾

لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّر ووُعِظَ بما لوَّح له من الآيات ، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أُصلِحَ أو شُغْلٍ كُفِيَ أو دعاءٍ أُجيب له ، أو سوءِ أدبٍ حصل منه ، فأُدِّبَ بما يكون تنبيهاً له ، أو حصلت منه طاعة وكوفىء فى العاجل إمَّا بمعنًى وَجَدَه فى قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أُنْسٍ، وإمَّابكفاية شُغْلٍ أو إصلاح أمرٍ..ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُومل به ، أو أعرض عن تَذَكُّرِه ، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يداه من خيره وشرِّه ، فوجد فى الوقت موجبه .. ومَنْ كانت هذه صِفَتُه جعل على قلبه ستراً وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركاتُ ما وُهِبَه .

ويقال مَنْ أظلم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَرَبِهِ فيَتَّهِمُ رَبَّه ، ويشكو مما يلاقيه ، ويَنْسَى حُرْمة الذى بسببه أصابه ما أصابه ؟ وكما قيل :

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لِفُرصته حتى إذا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وربُّك الغفورُ ذوالرحمةِ لو يُؤَاخِذهم بما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لهم العذابَ ، بل لهم مَوْعِدٌ لن يجدوا من دونه مَوْئِلاً ﴾

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجَبَتْ المغفرةَ لهم .

ويقال «الغفور» : للعاصين من عباده ، و «ذوالرحمة» بجميعهم فيُصلح أحوالَ كافتهم .

« لو يؤاخذهم بما كسبوا » : لعجَّل لهم العذابَ ؛ أى عَامَلَهم بما استوجبوه من عصيانهم ، فعجَّلَ لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته ، ثم فى العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك القرىٰ أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا وجعلنا لِمَهْلِكِهم مَوْعِداً ﴾

لمَّا لم يشكروا النِّعم ولم يصبروا فى المحن عَجَّلنا لهم العقوبة .

ويقال لمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير ، وحُرِمُوا رَوْح الرضا وَكَلْناهم إلى ظُلُماتِ تدبيرهم ، فطاحوا فى أودية غفلاتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قال موسىٰ لفتاه لا أبرَحُ حتَّى أبلُغَ مَجْمَعَ البحرين أو أمْضِيَ حُقُبًا * فلمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيَا حُوتَهما فاتَّخَذَ سبيله فى البحر سَرَبًا ﴾

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال : « وإذ قال موسى لفتاه » وهو اسم كرامة لا اسم علامة .

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك(١) ، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغَ فى الآية ، وأبعَدَ من اختيار البَشَر .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا جَاوَزَا قال لفتاه آتِنا غداءنا لقد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَبًا ﴾

كان موسى فى هذا السَّفرِ مُتَحَمِّلاً ، فقد كان سَفَر تأديبٍ واحتمالِ مشقةٍ ، لأنه ذهب لاستكثار العلم . وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تحمُّلٍ للمشقة ، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ ، فقال : « لقينا من سفرنا هذا نَصَبًا » .

وحين صام فى مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ ، لأن ذهابَه فى هذا السفر كان إلى الله ، فكان محمولاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أرأيتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصَّخرةِ فإنى نَسِيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلاَّ الشيطانُ أنْ أذْكُرَه واتخذ سبيلَه فى البحر عجباً * قال ذلك

---

(١) كان الحوت سمكة مملوحة ، فنزلا ليلة على شاطىء عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السمكة الماء عاشت ووقعت فى الماء (اللسان) .

ما كُنَّا نَبْغِ فارتدَّا على آثارهما قَصَصاً ﴾[1]

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصراف إلى مكانهما ، ثم قال يوشع : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أدْخَلَ عليه النسيانَ ليكونَ الصَّيْدُ من تكلفِه ، ثم قال : « ذلك ما كنا نبغ » : يعنى دخول السمك الماء وكان مشوياً ؛ فصار ذلك معجزة له ، فلما انتهيا إلى الموضع الذى دخل السمك فيه الماء لَقِيَا الخضر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجدَا عَبْدًا مِّنْ عبادِنا آتيناه رحمةً مِّنْ عندنا ، وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾

إذا سمَّى الله إنساناً بأنه عَبْدُه جَعَلَه من جملة الخواص ؛ فإذا قال : « عبدى » جعله من خاص الخواص .

« آتيناه رحمةً من عندنا » : أى صار مرحوماً من قِبَلِنا بتلك الرحمة التى خصصناه بها من عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بها راحماً على عبادنا .

« وعلَّمناه من لدنا علماً » : قيل العلم من لدن الله[2] ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتَّطَلُّب .

ويقال ما يُعَرِّف به الحقُّ — سبحانه — الخواصَّ من عباده .

ويقال ما يعرِّف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده .

---

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ، فقص قصصاً : اتبع الأثر .

(٢) يتخذ الصوفية من قصة الخضر وموسى مصدراً ثرياً لاستمداد كثير من أصولهم فيما يتصل بالعلم اللدنى وعلم الوراثة ، والولاية والنبوة ، والعلاقة بين المريد والشيخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، وللملامة على ظاهر مستشنع باطنه سليم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات القشيرى شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يعود منه نَفْعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعهُ لعباده مِمَّا فيه حقُّ الله — سبحانه .

ويقال هو ما لا يَجِدُ صاحبهُ سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قال له موسى هل أَتَّبِعُكَ على أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

تَلَطَّفَ فى الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان ، ثم صَرَّح بمقصوده من الصحبة بقوله : « على أن تعلمنى مما علمت رشداً » .

ويقال إن الذى خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمه من أستاذ ولا من شخص ، فما لم يكن بتعليم أحد إياه . . متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنَّكَ لن تستطيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وكيف تَصْبِرُ على ما لم تُحِط به خُبْرًا * قال ستجدنى إن شاء اللهُ صابراً ولا أَعْصِى لكَ أمراً ﴾

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف !

ثم تدارك قلبَه بقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ » ، فأجابه موسى : « قال ستجدنى . . . » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يعصيَه فيما يأمر به ، فأمَّا الصبر فقَرَنَه بالاستنشاء بمشيئة الله فقال : « ستجدنى إن شاء الله صابراً » فصبر حتى وُجِدَ صابراً ، فلم يقبض على يدى الخضر فيما كان منه من الفعل ، والثانى قوله : « لا أعصى

---

(١) وسر قوة العلم الذى يبعد عن الدليل أنه من الحق ، وبقدر ما تختفى الجوانب الإنسانية فى العلم وتبرز المنن الإلهية فيه تكون نصاعة برهانه وقوة بيانه .

لك أمراً » : أطلقه ولم يُقْرِنْه بالاستثناء ، فما استثنأ لِأَجله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخُلْفُ(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تسألنى عن شىء حتى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْراً ﴾

فإنه ليس للمريد أن يقول : « لا » لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العامىّ للعالِم المفتى فيما يفتى ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا رَكِبَا فى السفينةِ خَرَقَها قال أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها لقد جِئْتَ شيئاً إمْراً ﴾

لما ركبوا الفُلْكَ خرقها وكان ذلك إبقاء على صاحبها لئلا يرغبَ فى السفينةِ المخروقةِ المَلِكُ الطامعُ فى السفن .

وقوله : « لتغْرق أهلها » أى لتؤدىَ عاقبةُ هذا الأمر إلى غَرَقِ أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قَصَدَ إغراقَ أهلِ السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معِيَ صبراً ﴾

أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنّا نُجْرِيه من حيث الحُكْم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لاتؤاخِذْنى بما نسيتُ ولاتُرْهِقْنى من أمْرِى عُسْراً ﴾

طالَبه عا هو شرط العلم حيث قال : « لاتؤاخذنى بما نسيت » ؛ لأن الناسىَ لايدخل تحت التكليف ، وأيَّدَ ذلك بما قَرَنَ به قوله : « ولا ترهقنى من أمرى عسراً » فالمُتَمَكِّنُ من حقه

---

(٢) الخلْف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان ينسى ويتساءل عقب كل حادثة فى القصة ، وكان الخضر فى كل مرة يقول : « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً » .

التكليف ، ومَنْ لا يصحُّ منه الفعلُ والتَرْكُ لا يتوجه ( )[1] والناسى[2] من جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا لَقِيا غلاماً فَقَتَلَه ، قال أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغيرِ نَفْسٍ لقد جِئْتَ شيئا نُكْراً ﴾

كان بِخُلُقِ العلم واجباً على موسى — عليه السلام — قَصْرُه حيث يرى فى الظاهر ظُلْماً ، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ ، ففى ذلك الوقت كان قلب العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع مَعِيَ صبراً ﴾

كرَّر قوله : « إنك لن تستطيع . . . » لأنه واقف بشرط العلم ، وأمَّا فى محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال :

﴿ قال إن سألتُكَ عن شىء بَعْدَها فلا تُصاحِبْنى قد بَلَغْتَ من لَدُنِّى عُذْراً ﴾

بلغ عصيانه ثلاثاً ، والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ القِلَّة وأَوَّلُ حَدِّ الكثرة ، فلم يَجِدْ المُسامَحَةَ بعد ذلك[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ فانطلقا حتى إذا أَتَيا أَهْلَ قريةٍ استطعما أَهْلَها فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهما فوجدا فيها جِداراً يريد أن يَنقَضَّ فأقامه قال لو شِئْتَ لَتَّخذْتَ عليه أجْراً ﴾

---

(١) بياض فى النسخة ، ونرجح أن المفقود (عليه لوم) او مؤاخذة .
(٢) وردت (والناس) والسياق يتطلب (والناسى) بالياء إذ جاء فى الآية (. . . بما نسيت) .
(٣) قد تكشف هذه العبارة عن تصور القشيرى لأقصى درجات الذنب القابل للتوبة .

كان واجبا فى ملتهم على أهل القرية إطعامهما ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم ؛ ولو كان أغضى على ذلك منهم لكان أحسن .

فلمّا أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمْتَ بمحظور، ولكنه قال له : « لو شئت لتخذت عليه أجراً » أى إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أخذُكَ خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وَجَبَ حقُّهم فلِمَ أخللتَ بحقنا ؟

ويقال إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب فَرُدَّ إلى تحمُّلِ المشقة ، وإلاَّ فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر[1] ، ولكنه كان فى ذلك الوقت محمولاً وفى هذا الوقت مُتَحَمِّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قال هذا فِراقُ بينى وبينِكَ سأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لم تَسْتَطِع عليه صَبْراً ﴾

أى بعد هذا فلا صحبة بيننا .

ويقال قال الخضر إنَّك نبيٌّ . . وإنما أؤاخذك بما قُلْتَ ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط ؛ وقلتَ : إنْ سألتُك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ؛ وإنما أعاملك بقولك .

ويقال لمّا لم يصبر موسى معه فى تَرْكِ السؤال لم يصبر الخضرُ أيضاً معه فى إدامة الصحبة فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير — فى أمر السفينة التى كانت للمساكين ، وقَتْلِ النَّفْس بغير حق — لم يفارقه الخضر ، فلمَّا صار فى الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌّ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة ، فقال الخضر : « هذا فراق بينى وبينك » .

ويقال كما أن موسى — عليه السلام — كان يحب صحبة الخضر لما له فى ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إيثاراً للخلوة بالله عن المخلوقين .

---

(١) ومع ذلك لم يطلب اجراً ، ولم يفكر فى ذلك ألبتة . . لأنه كان بحق الله ؛ ولكنه فى هذا الموقف كان متكلفا ، فهو يفكر بحظ نفسه ، ولذا فكر فى الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ أمَّا السفينةُ فكانت لمساكين يعملون فى البحرِ فأردتُ أنْ أعيبَها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينة غصباً﴾

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُرِدْ أنْ يبقى فى قلبِ موسى شِبْهُ اعتراضٍ ؛ فأزال عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ، وكشف له أنَّ السِّرَّ فى قصده من خَرْقِ السفينة سلامتُها وبقاؤُها لأهلها حيث لن يطمعَ فيها المَلِكُ الغاصبُ ، فبقاء السفينةِ لأهلها — وهى معيبةٌ — كان خيراً لهم من سلامتها وهى مغصوبة .

قوله جل ذكره . « وأمَّا الغلامُ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يُرهِقَهما طُغْيانًا وكُفْرًا * فأردنا أن يُبْدِلَهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْمًا ﴾

بيَّن له أنَّ قَتْلَ الغلامِ لمَّا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الحُكْمُ أنَّ فى بقائه فتنةً لوالديه ، وفى إبدال الخَلَفِ عنه سعادةً لهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الجِدارُ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كَنْزٌ لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربُّكَ أن يَبْلُغَا أَشُدَّهما ويَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُما رحمةً من ربِّك وما فَعَلْتُهُ عن أمرى ، ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِع عليه صَبْراً ﴾

أما تسوية الجدار فلاستبقاء كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخَلْق .

قوله جل ذكره ﴿حتىٰ إذا بَلَغَ مطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ على قومٍ لم نَجْعَل لهم من دونها سِتْراً * كذلك وقد أَحطْنَا بما لديه خُبْراً * ثم أَتْبَعَ سبباً﴾

أقوامٌ هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل مغربِ الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم .. كذلك الناس فى طلوع شمس التوحيد : منهم الغالب عليهم طلوع شموسهم ، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقُّهم ، وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل .

قوله جل ذكره : ﴿حتى إذا بَلَغَ بين السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا ياذا القرنين إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدُون فى الأرضِ فهل نجعلُ لكَ خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا * قال ما مَكَّنِّى فيه ربِّى خيرٌ فأعِينُونِى بقوةٍ أجْعَلْ بينكم وبينهم رَدْماً﴾

أى ما كانوا يهتدون إلا إلى لسانِ أنفسِهم ، وما كانوا يفقهون فقهَ غيرِهم فلجئوا إلى عَبَرَاتهم فى شرح قصتهم ، ورفعوا إليه — فى باب ياجوج وماجوج — مظلمتَهم ، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤلهم ، وحقَّق لهم بُغْيَتَهم ، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية ، لمّا رأى أنَّ من الواجبِ عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة .

قوله جل ذكره : ﴿آتونى زُبَرَ الحديدِ حتَّى إذا ساوَىٰ بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخوا حتى إذا

جعله ناراً قال آتونى أُفرِغْ عليه
قِطْراً ﴾

استعان بهم فى الذى احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال : « آتونى زبر الحديد » فلمَّا فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أى جانبى الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أنْ يَأْذَنَ اللهُ له فى الخروج ، وتندفعَ عن الناس عادية (....)[1] إلى الوقت المضروب لهم فى التقدير .

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله . وبيَّنَ — سبحانه — أنَّ خروجَهم من وراء سَدِّهم مِنْ أشراط الساعة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين كانت أعْيُنُهم فى غِطاءٍ
عن ذِكْرِى وكانوا لا يستطيعون
سمعاً ﴾

نظروا بأعين رءوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ، ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق ، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف .

قوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعاً » : لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ — سبحانه — الإسماع ؛ فلم يستطيعوا لهم القبول .

قوله جل ذكره : ﴿ أفَحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا
عبادِى من دونى أولياء إنَّا أعْتَدْنا
جَهَنَّمَ للكافرين نُزُلاً ﴾

أى توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم ، واعتقدوا فى أصنامهم استحقاقَ التعظيم ، وكانوا يقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[2] ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

---

(١) مشتبهة .
(٢) آيه ٣ سورة الزمر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أعمالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدنيا ﴾

ضلَّ سعيُهم لأنهم عَمِلُوا لغيرِ اللهِ . . وما كان لغيرِ الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلَّ سعيُهم هم الذين قَرَنُوا أعمالَهم بالرياء ، ووصفوا أحوالَهم بالإعجاب ، وأبطلوا إحسانَهم بالملاحظات أو بالمَنِّ .

ويقال هم الذين يُلاحِظُون أعمالهم وما مِنْهُم بعينِ الاستكثار(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم يَحْسَبُون أنَّهم يُحْسِنُون صُنْعًا ﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فعَمِلوا من غير عِلْمٍ ، ولم يكونوا على وثيقة(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين كفروا بآياتِ ربِّهم ولقائِه فَحَبِطَتْ أعمالُهم فلا نُقِيمُ لهم يومَ القِيامَةِ وَزْنًا ﴾

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا فى ظلمة الجحد ، فتفرَّقَتْ بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا على بصيرة ، ولم تستقر قلوبُهم على عقيدة مقطوعٍ بها ؛ فليس لهم فى الآخرة وزنٌ ولا خَطَرٌ ، اليومَ هم كالأنعام ، وغداً واقعون ساقطون (. . .)(٣) الأقدام .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك جَزَاؤُهم جَهَنَّمُ بما كفروا واتخذوا آياتى ورُسُلِى هُزُواً ﴾

---

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس ، كثيراً ما حذَّر منها أهل الملامة فى نيسابور — موطن القشيرى .

(٢) الوثيقة مايضبط به الأمر ويُحْكَم .

(٣) مشتبهة ، وقد ضبطنا (الأقدام) بفتح الهمزة مراعاة للانسجام مع (الأنعام) على عادة القشيرى فى ضبط الموسيقى الداخلية للجمل والفقرات ، ومع ذلك فإنَّ صحة ضبطها تتوقف على معرفة الكلمة المشتبهة .

هم اليومَ فى عقوبة الجحد ، وغداً فى عقوبه الردّ . اليوم هم فى ذُلّ الفراق ، وغداً فى أليم الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كانت لهم جنّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾

لهم جنات مُعَجَّلة سراً ، ولهم جنان مؤجلة جهراً .

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها لا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً ﴾

عرّفنا — سبحانه — أن مايخوّله لهم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ؛ فهم أبداً فى الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لهم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لو كان البحرُ مِدَاداً لكلماتِ ربى لنَفِدَ البحرُ قَبلَ أن تنفَدَ كلماتُ ربى ولو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾

أى لا تُعَدّ معانى كلمات الله لأنه لانهايةَ لها ؛ فإنّ متعلقاتِ الصفةِ القديمةِ لانهاية لها ؛ كمعلوماتِ الحقّ — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذى هو مخلوقٌ(٢) لا يَسْتَوْفِى ما هو غير مُتَنَاهٍ — وإنْ كَثُرَ ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إلىَّ أنّما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ ﴾

---

(١) القشيرى من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأبصار فى الآخرة ، أما فى الدنيا فيقول : الأقوى فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .

(٢) يقصد (البحر) إذا صار مداداً ؛ فالبحر يتناهى . وكلمات الله لا تتناهى .

أَخْبِرْ أَنَّكَ لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ ، والفَرْقُ بينكَ وبينهم تخصيصُ الله — سبحانه — إياكَ بالرسالة ، وتَرْكِه إياهم فى الجهالة .

ويقال : قل اختصاصى بما لى من (الاصطفاء)[1] ، وإن كنا — أنا وأنتم — فى الصورة أكفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَن كان يَرْجُو لِقاء ربِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّهِ أحَدًا ﴾

حَمْلُ الرجاءِ فى هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَنٌ ، ولكنَّ تَرْكَ هذا على ظاهره أَوْلَى ؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاء الله .

والعارف بالله — سبحانه — يرجو لقاء الله والنظرَ إليه

والعمل الصالح الذى بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُه على لواعجِ اشتياقه ، وأنْ يُخْلِصَ فى عمله .

« ولا يشرك بعبادة ربه » : أى لا يُلاحِظُ عَمَلَه ، ولا يستكثر طاعته ، ويتبرأ من حَوْلِه وقُوَّتِه .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته)[2]

---

(١) هنا كلمة منبهمة فى الخط ، فوضعنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا فهى أليق بالمعنى والسياق .

(٢) هكذا فى س وليس واضحاً عودة الضمير فى (رؤيته) هل هى على الصراط أم على الحق . فنحن نعلم أن القشيرى شافعىٌّ من حيث مذهبه الفقهى ، ونعلم كذلك أن الشافعى يقول : لو علم ابن إدريس أنه لا يرى ربَّه يوم القيامة ما عَبَدَه .

انتهت سورة الكهف بهذا التذييل فى النسخة س .

[تمَّ بعون الله تعالى وحسن توفيقه نصف أول از تفسير محقق إمام أبو قاسم القشيرى رحمة الله عليه بتاريخ ١٢ شهر شوال سنة ١١٣٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة مريم عليها السلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله ، اسم عزيز مَنْ عَبَدَه وَاصَلَ جِهادَه ، ومَنْ طَلَبَه وَدَّعَ وِسادَه ، ومَنْ عرَفَه أنكر أحبابَه . ومَنْ يَسَّر له أوقفه على محبته .

مَنْ ذكره نَسِيَ اسمَه ، ومن شَهِدَه فَقَدَ عقلَه ولُبَّه (١) .

اسم عزيز جُبِلَتْ القلوبُ على محبته ، وكل قلب ليس يوقفه على محبته ، فليس بحيلةٍ يصل .

اسمٌ ما اتصفت أشباحُ الأبرارِ إلا بعبادته ، وما اعتكفت أرواحُ الأحرارإلا بمشاهدته .

اسم عزيز مَنْ عَرَفَه اعترف أنه وراء ما وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾

تعريفٌ للأحباب بأسرار معانى الخطاب ، حروف خَصَّ الحقُّ المخاطبَ بها بفهم معانيها ، وإذا كان للأخيار سماعُها وذِكْرُها ، فللرسولِ — عليه السلام — فَهْمُها وسِرُّها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافى فى الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْم .

---

(١) المقصود بفقد العقل واللب هنا غيبة التمييز فى حال الشهود .

ويقال فى الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه ، وتخويفٌ بخفىِّ مَكْرِه فى بلائه .

ويقال فى الكاف إشارة إلى كتابته الرحمةَ على نَفْسِهِ قبل كتابة الملائكةِ الزَّلَّةَ على عباده .

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ، وما له من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يُسْر نِعَمِه بعد عُسْرِ مِحَنِه . وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده .

والعين تشير إلى عِلْمِه بأحوالِ عَبْدِه فى سِرِّه وجَهْرِهِ ، وقُلِّه وكُثْرِه ، وحالِه ومآلِه ، وقدْرِ طاقته وحق فاقته .

وفى الصاد إلى أنه الصادق فى وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عَبْدَهُ زكريا ﴾

تخصيصه إياه بإجابته فى سؤال وَلَدِه ، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له ولجميع أهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ نادَىٰ ربَّهُ نداء خَفِيًّا ﴾ .

وإنما ذلك لئلا يَطَّلِعَ أحدٌ على سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامى عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسُّوء فى نفسه ، ثم أخفى سِرَّهُ عن الخَلْق لئلا يمعَ لأحدٍ إشرافٌ على حاله ، ولئلا يَشْمَتَ بمقالته أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ إنى وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي
واشتعل الرأسُ شيباً ﴾ .

أى لَقِيتُ بضعفى عن خدمتك ما لا أُحِبُّه ؛ فطعنتُ فى السنِّ ، ولا قوةَ بعد المشيب ؛ فهَبْ لى ولداً ينوب عنى فى عبادتك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولم أكُن بدعائِكَ ربِّ شَقِيًّا ﴾ .

أى إنى أسألك واثقاً بإجابتك ؛ لِعلمى بأنى لا أَشْقَىَ بدعائك فإنك تحِبُّ أن تُسأل .

ويقال إنك عوّدتنى إجابة الدعاء ، ولم تردّنى فى سالف أيامى إذا دعوتُك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنى خِفتُ الموالِىَ من ورائى
وكانتِ امرأتى عاقراً فهَبْ لى مِن
لَّدُنكَ وَلِيّاً * يرثُنِي ويرِثُ من آلِ
يعقوبَ واجعلْه ربِّ رَضِيّاً ﴾ .

إنى خِفتُ أنْ تذهبَ النبوة من أهل بيتى ، وتنتقل إلى بنى أعمامى فهبْ لى وَلَداً يعبدك ، ويكون من نَسلى ومن أهلى .

وهو لم يردْ الولدَ بشهوةِ الدنيا وأخذِ الحظوظِ منها ، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله ، وفى قوله : « يرثنى » دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده ؛ فقال : ولداً يكون وارثاً لى ؛ أى يبقى بَعْدِى ، ويرث من آل يعقوب النبوةَ وتبليغ الرسالة .

واجعله ربِّ رضيا : رَضِىٌّ فعيل بمعنى مفعول أى ترضى عنه فيكون مَرْضِيّاً لك . ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أى راضياً منك ، وراضيا بتقديرك .

قوله جل ذكره : ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلامٍ اسمه يحيى
لم نجْعَل له من قبلُ سَمِيًّا ﴾ .

أى استجبنا لدعائك ، ونرزقك ولداً ذكَراً اسمُه يحيى ؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه ، ويحيا به نَسَبُكُ ، ويحيا به ذكْرُك ، وما سألتَه من أن يكون نائبا عنك ؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة فى بيتك .

«لم نجعل له من قبل سميّا» : انفراده — عليه السلام — بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة ؛ أى لم يكن له سَمِىٌّ قَبْله ؛ فلا أحَدَ كُفْؤٌ له فى استجماع أوصافِ فَضْله .

ويقال لم نجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحد لاذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره (١)

---

(١) هذا رأى فى مذهب القشيرى الكلامى يتصل بقضية هامة : هل يكون من النبى ذنب ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قال رَبِّ أَنَّىٰ يكونُ لى غلامٌ وكانتِ امرأتى عاقِراً وقد بلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ .

سأل الوَلَدَ فلمَّا أُجيب قال أنَّى يكون لى غلام ؟ ومعنى ذلك — على ماجاء فى التفسير — أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدةً طويلةً ؛ فكأنه سأل الولدَ فى ابتداء حال سِنِّه ، واستجيبت دعوتُه بعد ماتناهى فى سِنِّه ، فلذلك قال : « أنَّى يكون لى غلام ؟ » .

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد . . أمِنْ هذه المرأة وهى عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكةً أستفرشها ؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد . فقال تعالى : ﴿ قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ﴾

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة فى هذا الوقت الذى فيه حسب مستقرُّ العادة ولادة مثلِ هذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك ، فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ معجزةٌ ؛ ومن وجهٍ راحةٌ وكرامةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقد خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ولم تَكُ شيئا ﴾

دلَّت الآيه على أن المعدومَ ليس بشىء ؛ لأنه نفى أن يكون قبل خَلْقِه له كان شيئا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رَبِّ اجعل لى آيةً قال آيتُكَ ألاَّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سَوِيًّا ﴾

أراد علامةً على علوق المرأة بالولد ؛ ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدِلُّ بها على صِدْق ما يقال له . فأخبره تعالى : أُنبِئُكَ علامةَ وقت إجابتك . . إنَّ لسانَك لا ينطقُ معهم بالمخاطبة — ولو اجتهدتَ كُلَّ الجهد — ثلاثةَ أيام ، وعليكَ أن تخاطبنى ، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التى كانت فى وقتك . فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكلِّمَهم ، وإذا أراد أن يقرأ الكتبَ أو يسبِّحَ اللهَ انطلق مع الله لسانُه .

قوله جل ذكره : ﴿ فخرج على قومه من المحرابِ فأوحى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيًّا ﴾

أى فلمَّا خرج عليهم عرَّفهم — من طريق الإشارة[1] — أنَّ اللسانَ الذى كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوةٍ وآتيناه الحُكْمَ صبيًّا * وحناناً مِّن لَّدُنَّا وزكاةً وكان تقيًّا ﴾

أى قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة مِنَّا ، خَصَصْناكَ بها . . لا قوةَ يدٍ ولكن قوة قلبٍ ، وذلك خيرٌ خَصَّه اللهُ تعالى به وهو النبوة .

ودلَّت الآية على أنه كان من الله له كتاب .

« وآتيناه الحكم صبيا » أى النبوة ، بَعَثَه اللهُ بها إلى قومه ، وأوحى إليه وهو صبىٌّ .

ويقال الحُكْمُ بالصوابِ والحقِّ بين الناس .

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر .

قوله « وحنانا من لدنا . . . » أى آتيناه رحمةً من عندنا ، وطهارةً وتوفيقاً لمجاوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها ؛ فإن التقوى على قسمين : مجموعٍ ومجلوبٍ يتوصَّلُ إليه العبدُ بِتَكَلُّفِه وتَعَمُّلِه ، وموضوعٍ من الله تعالى وموهوبٍ منه يصل إليه العبدُ بِبَذْله سبحانه وبفضله.

قوله جل ذكره : ﴿ وبَرًّا بوالديه ولم يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾

«براً بوالديه » كأمر الله — سبحانه — له بذلك لا لمودَّةِ البَشَرِ وموجِبِ عادة الإنسانية . ولم يكن متمرداً عن الحق ، جاحداً لربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وسلامٌ عليه يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبْعثُ حَيًّا ﴾

أى له مِنَّا أمانٌ يوم القيامة ، ويوم ولادته فى البداية ، ويوم وفاته فى النهاية ، وهو أن يصونَه عن الزَّيْغِ والعِوَجِ فى العقيدة بما يُشْهِدُه على الدوام من حقيقة الإلٰهية .

---

(١) كأنما يقصد القشيرى إلى بيان أن الإشارة تغنى عن العبارة وأنها بأمر إلهى .

وكذلك هو فى القيامة له منه — سبحانه — الأمان ؛ فهو فى الدنيا معصوم عن الزلة . محفوظٌ عن الآفة . وفى الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿واذكُرْ فى الكتابِ مريمَ إذ انْتَبَذتْ مِنْ أهلِها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حِجَابًا فأرسَلْنا إليها روحَنا فَتَمثَّلَ لها بَشَرًا سَوِيًّا﴾

اعتزلت عنهم لتحصيلِ يطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .

فلمَّا أبصرت جبريلَ فى صورةِ إنسانٍ لم تتوقعه أحَسَّتْ فى نفسها رُعْبًا ، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿قالت إنى أعوذ بالرحمنِ منك إن كنتَ تقياً﴾

قالت مريمُ لجبريل — وهى لم تعرفه — إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخافَ ويُتَقىَّ منه ؛ أى إنْ كنتَ تَقْصِد السوء . ومعنى قولها « بالرحمن » ولم تقل : « بالله » — أى بالذى يرحمنى فيحفظنى منك .

ويقال يحتمل أن يكون معناه : إن كنتَ تعرف الله وتكون متقيا مخالفة أمره فإنِّى أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته .

قوله جل ذكره . ﴿قال إنَّما أنا رسولُ ربِّكِ لأهبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾

تعرَّف جبريلُ إليها بما سكَّن رَوْعَها ، وقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام .

﴿قالت أنَّىٰ يكونُ لى غلامٌ ولم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ولم أكُ بَغِيًّا * قال كذلك قال ربُّكِ هو علىَّ هَيِّنٌ

ولنجعلَه آيةً للناسِ ورحمةً مِنَّا وكان أمْرًا مَقْضِيًّا ﴾

قالت أنى يكونُ لى وَلَدٌ ولم أُلِمَّ بِزَلَّةٍ ولا فاحشةٍ ؟ فقال جبريلُ — عليه السلام — : الأمرُ كما قلتُ لَكِ ، فلا يتعصّى ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أقْدَرُ أنْ يجعل هـذا الوَلَدَ دلالةً على كمال قدرته ، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه — سبحانه — لِمَنْ آمَنَ ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فانْتَبَذَتْ به مكانًا قَصِيًّا ﴾

لمَّا ظهر بها الحَمْلُ ، وعَلِمَتْ أنَّ الناسَ يستبعدون ذلك ، ولم تَثِقْ بأحدٍ تُفْشِى إليه سِرَّها . . مَضَتْ إلى مكانٍ بعيد عن الخَلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَجاءها المخاضُ إلى جِذْعِ النخلة قالَتْ يا ليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾

أَلْجَأَها وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جِذْعِ النخلة . ولمَّا أخذها الطَّلْقُ ، ودَاخَلَها الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسان العَجز ، وقالت : « يا ليتنى مِتُّ قبل هذا » .

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقًا من قومها ، لأنها عَلِمَتْ أنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بلسانِ الفُجْرِ ، وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصيبَهم بِسَبَبِها عقوبةٌ .

ويقال قالت : «يا ليتنى مِتُّ قبل هذا » حتى لم أسمع مَنْ قال فى الله تعالى بسببى إن عيسى ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجتُه . . . تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً !

ويقال « يا ليتنى مت قبل هذا » : فى الوقت الذى كنتُ مرفوقًا بى ، ولم تستقبلنى هذه الخشونةُ فى الحالةِ التى لَحِقَتْنِي .

ويقال « ياليتنى مِتُّ قبل هذا » : فى الوقت الذى لم يكن قلبى متعلقاً بسبب .

قوله جل ذكرهُ : ﴿ فناداها مِن تحتها ألاَّ تَحزَنى قد جَعَل رَبُّكِ تحتكِ سَرِيًّا ﴾(١)

فى التفسير أن المَعْنِيَّ بقوله «من تحتها» : جبريلُ عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام . والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أى يرزقك الله ولداً سرياً .

قوله جل ذكره : ﴿ وهُزِّى إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِيًّا ﴾

وكان جِذْعاً يابساً أخرج اللهُ تعالى منه فى الوقتِ الثمرةَ ، وهى الرُّطبُ الجنىُّ ، وكان فى ذلك آية ودلالة لها ؛ فالذى قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام — من غير أبٍ .

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة ، فقد كان زكريا — عليه السلام — يَجِدُ عندها رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف ، فلمَّا جاءتْ علاقةُ الولدِ أُمِرَتْ بهزِّ النخلةِ اليابسةِ — وهى فى أضعف حالها ؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد ، لِيُعْلَمَ أنَّ العلاقةَ توجِبُ العناء والمشقة .

ويقال بل أُمِرَتْ بهزِّ النخلة اليابسة ، وكان تمكنُها من ذلك أوضحَ دلالة على صدقها فى حالها .

ويقال لمَّا لم يكن لها فى هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدها تولَّى الله تعالى كفايتها ؛ لِيَعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عِبادِهِ فى وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلى واشرَبِى وقَرِّى عيناً ،

---

(١) السرى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صغير أو جدول .

فإمَّا تَرِينَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدًا ،
فقولى إنِّي نَذَرْتُ للرَّحمنِ صَوْماً
فلن أُكلِّمَ اليومَ إنسيًّا ﴾

كفاها أسبابَ ما احتاجت إليه مِنْ أَكْلِها وشُرْبِها ، وسَكَّنَ من خوفها ، وطيَّبَ قلبَها .

« فإما ترين من البشر أحداً » : فلا تخاطبيهم وعرِّفيهم ـ بالإشارة ـ أنَّكِ نَذَرْتِ للرحمن الصمتَ مع الخَلْق ، وتَرْكَ المخاطبةِ معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَتَتْ به قَوْمَها تحمله قالوا : يا مريمُ لقد جِئْتِ شيئاً فَرِيًّا * يا أُخْتَ هارونَ ما كان أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

بسط قومُها فيها لسانَ الملامةِ لما رَأَوْها قد وَلَدَتْ ـ وظاهرُ الحالِ كان معهم ـ فقالوا لها على سبيل الملامة : يا مَنْ كنا نَعُدُّكِ فى الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالسداد والصلاح . . مِنْ أين لكِ هذه الحالة الشنعاء ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون . ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً فى قومهم ، فقالوا : يا شبيهَه فى الفساد . . ما هذا الولد ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أخت هارون ، ويا مَنْ فى حسابنا وظَنِّنا ما كان أبواكِ فيهما سوء ولا فساد . . كيف أتيتِ بهذه الكبيرة العظيمة ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ فأشارَتْ إليه قالوا كيف نُكَلِّمُ مَن كان فى المَهْدِ صَبِيًّا ؟ ﴾

فى الظاهر أشارت إلى الولد ، وفى الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهم ما قرب وما بعد وقالوا : كيف نكلِّم مَنْ هو أهل بأن يُنَوَّم فى المهد ؟ !

فـ « كان » ها هنا فى اللفظ صلة .. وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنى عبدُ اللهِ آتانِىَ الكتابَ وجعلنى نبيًّا ﴾

لما قالوا ذلك أنطق اللهُ عيسى حتى قال : إنى عبد الله ، فظهرت براءةُ ساحتها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثلُه . وجرى على لسانه حتى قال : إنى عبد الله ؛ ليُقَال للنصارى إنْ صَدَقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولُكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب فالذى يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عَبْدَ هواه ، ولا فى أسْرِ شىء سواه فمَنْ تحرر مِنْ غيره فهو فى الحقيقة عَبْدُه .

« وآتانى الكتاب » : أى سيؤتينى الكتاب أو آتانى فى سابق حكمه .

« وجعلنى نبياً » بفضله . وفى الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك فى حال ولادته ؛ ولم تَكُنْ منه بَعْدُ عبادةٌ وأخبر أن الله جعله نبياً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وجَعَلنى مُبارَكاً أينما كنْتُ وأوصانى بالصلاةِ والزكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا * وبَرًّا بوالدتى ولم يَجْعلنى جَبَّاراً شقيًّا ﴾ .

أى نافعا للخلْق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَّةِ التى فيها هلاكهم ، ومَنْ استضاء بنوره نجا . فهذه بركاتُه التى كانت تصل إلى الخلْق . ومَنْ بركاتِه إغاثةُ الملهوف ، وإعانةُ الضعيف ، ونصرة المظلوم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة للخَلْق ، وكفُّ الأذى عنهم وحَمْلُ الأذى منهم .

« وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً » أى لم يجعلنى غيرَ قابلٍ للنصيحة .

---

(١) فى موضع آخر حاول القشيرى ان يوضح ضرورة استقلال عمل الإنسان والنظر إليه بعين الاستصغار رغبة منه فى ربط كل شىء بالفضل والاجتباء الإلهيين، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبراً متجبراً . ويقال مختوماً بكُفْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ والسلامُ علىَّ يومَ وُلِدتُّ ويومَ أموتُ ويومَ أُبْعَثُ حيًّا ﴾

قال عيسى عليه السلام : « والسلام علىَّ » ، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . . فشتان ما هما !

والسلام بمعنى السلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلىَّ من قول النصارى في مجاوزة الحدِّ فى المدح ، ومما وصفنى به اليهود من الذمِّ[1] ، فَسَلِمْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام علىَّ يوم أموت ؛ ففى ذلك اليوم تكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتى .
وسلام علىَّ يوم أُبْعَثُ ؛ أى سلامةٌ لى فى الأحوال مِمَّا يُبْتَلَى به غيرُ أهل الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريمَ قَوْلَ الحقِّ الذى فيه يَمْتَرُون ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيكون بقول إله ؟
وقد شكَّ فيه أكثر الخَلْق فَرَدَّه قومٌ وقَبِلَه قومٌ ، والفرق بينهما فى استحقاقه[2] .
وقوله : « قول الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لله أن يتَّخِذَ من وَلَدٍ سبحانه إذا قضىٰ أمراً فإنَّما يقول له كن فيكون * وإنَّ اللهَ رَبِّى وربكم فاعبدوه هذا صِراطٌ مستقيمٌ ﴾

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والوَلَدُ بعضُ والده .

---

(١) فقد اتهم اليهود امه بالزنا .
(٢) أى فى نصيبه من الحق الفارق بين الردِّ والقبول .

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة . ولا يجوز عليه التبنى لأحد لعَدَمِ الجنسية بينهما .

وقوله : « وإذا قضى أمراً . . . » إذا أراد إحداثَ شيءٍ خلَقَه بقدرته ، وخاطَبَه بأمر التكوين[1] ، ولا يتعصَّى عليه — فى التحقيق — مقدور .

« وإنَّ الله ربى وربكم » أى أمرنى بأن تعلموا ذلك ؛ وأمرنى بتبليغ رسالتى ، واتباع ما شَرَعَ اللهُ من العبادات .

قوله جل ذكره : ﴿ فاختلف الأحزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ للذين كفروا مِن مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ ﴾

فَمَنْ عُجِنَتْ بماءِ السعادةِ طينتُه أَطَاعَ فى عاجله وما ضاع فى آجله ، ومَنْ أَقْصَتْه القِسْمة السابقة لم تُدْنِه الخِدْمَةُ اللاحقة ، وسَيَلْقَوْنَ غِبَّ هذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ يومَ يَأْتُونَنَا لكنِ الظالمونَ اليومَ فى ضلالٍ مبينٍ ﴾

صير معارفهم ضروريةً ، وأحوالُهم كلُّها معكوسةً ، والحُجَّةُ تتأكَّد عليهم ، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم ، والرحمةُ لا تتعلَّق بهم ، فلا تُرْحَمَ شكاتُهم ، ولا يُسْمَعُ نِداؤُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنذِرْهم يومَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهُمْ فى غَفْلَةٍ وهم لا يؤمِنون ﴾

تقوم الساعةُ بغتةً ، وتصادفهم القيامةُ وهم غيرُ مستعدين لها فيتحسَّرون على ما فاتهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سَبَقَتْ لقومٍ الشقاوةُ — وهم فى محو العَدَمِ ، ولآخرين السعادة — وهم بنعت العدم ، ولم يكن من أُولئك جُرْم بَعْدُ ، ولا مِنْ هؤلاء وِفَاقٌ بعدُ .

---

(١) أى كن فيكون .

قوله جل ذكره: ﴿ إنّا نحنُ نَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعون ﴾

يريد به إذا قبَضَ أرواحَ بنى آدم بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ ، وليس يريد به استحداث مُلْكِه ، وهو اليومَ مالِكُ الأرض ومَنْ عليها ، ومالكُ الكونِ وما فيه .

ويقال إن زكريا قال — لمّا سأل الولد : « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقال تعالى فى صفة بنى إسرائيل : « كذلك وأورثناها بنى إسرائيل »[1] وقال : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »[2] ، ولما انتهى إلى هذه الأمة[3] قال : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها » . . فشتان بين مَنْ وارِثُه الوَلَدُ وبين مَنْ وارِثُه الأحَدُ !

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وارثَه . . وهذا مخلوق يقول فى صفة مخلوق :

فإنْ يكُ عنّابٌ مضى لسبيله فما مات من يبقى له مِثْلُ خالدِ

وقال تعالى : « ولا تحسَبَنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء »[4] لماذا ؟ لأنَّ وارثَهم اللهُ .

قوله جل ذكره: ﴿ واذْكُرْ فى الكتابِ إبراهيمَ إنّه كان صِدِّيقًا نبيًّا ﴾

الصِدِّيق الكثير الصدق ، الذى لا يمازج صِدْقَه شوبٌ .

ويقال هو الصادق فى أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصِدِّيق لا يناقِضُ سِرُّهُ عَلَنَه .

---

(١) آية ٥٩ سورة الشعراء .
(٢) آية ١٢٨ سورة الأعراف .
(٣) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .
(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذى لا يشهد غيرَ الله مُثْبتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لِمَا يطَالَب به جملةً وتفصيلاً .

ويقال هو الواقفُ مع اللهِ فى عموم الأوقات على حدِّ الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ قال لأبيه يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مالا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عنكَ شيئاً ﴾ .

دلَّت الآيةُ على استحقاقِ المعبودِ الوصفَ بالسمع والبصرِ على الكمال دون نُقْصانٍ فيه ، وكذلك القول فى القدرة على الضَّرِّ والنفع .

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عَلِمَ أن كلَّ الخلْق لا تَصْلُحُ قدرةُ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث ، فمن عَلَّقَ قلبه بمخلوق ، أو تَوَهَّمَ شظية منه من النفى والإثبات فَقَدْ ضَاهَى عَبَدَةَ الأصنام .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأبَتِ إنِّى قد جاءنى مِنَ العِلْمِ مالم يَأْتِكَ فاتَّبِعْنِي أهْدِكَ صِراطاً سوِيًّا ﴾

أَمَرَه باتباعه لمَّا ترجح عليه جانبُه فى كَوْنِ الحقِّ معه — وإنْ كان أكبرَ منه سِنًّا ، وبيَّن أن الخلاص فى اتباع أهل الحقِّ ، وأنَّ الهلاكَ فى الابتداع والتطوح فى مغاليط الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأبَتِ لاتَعْبُدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحمٰنِ عَصِيًّا ﴾ .

بيَّن أنَّ العلةَ فى منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فَبَانَ أنه لاينبغى أنْ تكون طاعةٌ لِمَنْ يَعْصِى اللهَ بحالٍ .

ويقال أساسُ الدِّين هِجْرانُ أربابِ العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأبتِ إنِّى أخافُ أن يَمَسَّكَ عذابٌ مِّنَ الرحمٰن فتكونَ للشيطان وَلِيًّا ﴾

لم يغادرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه ، ولم ينفعه جميل وعظه ، ولم تنجع فيه كثرةُ نُصْحه ؛ فإنَّ مَنْ أقصَتْه سوابقُ التقدير لم تُخَلِّصْهُ لواحقُ التدبير .

قوله جل ذكره : ﴿قال أراغِبٌ أنتَ عن آلهتى ياابراهيم﴾

مثّاه ابراهيمُ بجميل العُقْبَي ، فقابلَه بنوعٍ العقوبة فقال :

﴿لئن لَّمْ تَنتهِ لأرْجُمَنَّكَ واهجُرْنى مَلِيًّا﴾ .

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال :

﴿قال سلامٌ عليكَ سأستَغْفِرُ لكَ ربى إنَّه كان بى حَفِيًّا﴾ .

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه ، إذ كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء فى شانه ، فلمَّا تحقق أنه مختومٌ له بالشقاوة قال له :

﴿وأعتزِلكُم وما تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وأدْعُو ربى عَسَى ألاَّ أكونَ بِدُعاءِ ربى شَقِيًّا﴾ .

« ماتدعون » : أى ماتعبدون ، « وأدعو ربى » : أى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿فلمَّا اعتزَلهم وما يَعْبُدُون مِن دونِ اللهِ وَهَبْنا له إسحٰقَ ويعقوبَ وكلاًّ جعَلْنا نبيًّا﴾ .

لما أيِسَ من أصلِه آنَسَه اللهُ بما أكرمه من نَسْلِه ، فأنبتهم نباتاً حسناً ، ورزقهم النبوةَ، ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام[1] فقال :

---

(١) ربما يشير القشيرى بذلك إلى : (الصلاة على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) فى تشهد كل صلاة ،

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ﴾

مخلصا خالصا لله ، ولم يكن لغيره بوجه ؛ فلم تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يستفزه طمع نحو إيثار حظ ، ولم يغض في الله على شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ﴾ .

للنجوى مزية على النداء ، فجمع له الوصفين : النداء في بدايته ، والسماع والنجوى في نهايته ؛ فوقفه الحق وناداه ، وفي جميع الحالين تولاه .

« من جانب الطور » : ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ .

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيا .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ .

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه[2] ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفداء . وصدق الوعد لأنه حفظ العهد . وكان يأمر أهله بالصلاة — بأمر الله إياه — وبالزكاة ، ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حينما وكيفما كان .

---

(١) بهذا يتجنب القشيري مزلقاً خطراً فلا يكون النداء الإلهي من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه) تقريب مكانة لا مكان .

(٢) من هذه الاشارة نعرف أن القشيري يرى أن اسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة الذبح والفداء .

« وكان عند ربه مرضيا » وكان هذا أشرفَ خِصاله وأجلَّ صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنّه كان صِدِّيقاً نَبِيًّا * ورفعناه مكاناً عَلِيًّا ﴾ .

الصِّدِّيق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مَذْقٌ[1] ، ويكون قائما بالحقّ للحق ، ولا يكون فيه نَفَسٌ لغير الله .

« ورفعناه مكانا عليا » : درجة عظيمة فى التربية لم يُساوِه فيها أحَدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ومِمَّنْ حَمَلْنا مع نوحٍ ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا إذا تُتْلَى عليهم آياتُ الرحمٰن خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا ﴾

أقامهم بشواهد الجمع ، وأخبر أن مِنَّته كامِنَةٌ فى تخصيصِهم بأحوالهم ، وتأهيلهم لِما رقّاهم إليه من المآل ، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقّةُ قلوبِهم ؛ فهم إذا تُتْلَى عليهم الآياتُ سجدوا ، وسجودُ ظواهرِهم يدل على سجودِ سرائرهم بما حقّقَ لهم من شواهد الجمع ، وأمارة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق ؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية ، وبِنَعت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أضاعوا

---

(١) مَذَقَ اللبن والشراب بالماء مَذْقاً اى مَزَجَهُ وخَلَطَهُ ، ومذق الود اى شابه ولم يُخْلِصْه .

(٢) هذا من أشد البراهين نصاعة على تمسك القشيرى بالشريعة ؛ فإن صدق العبد فى التوجه أمارته ان يكون محفوظاً — من قِبَل الحق — كى يؤدى فرائض الشرع .

الصلاةَ واتَّبَعُوا الشهواتِ فسوف يَلْقَوْن غَيًّا ﴾

الذين حادوا عن طريقهم ، وضيّعوا حقَّ الشرع ، وتخطوا واجبَ الأمر ، وزاغوا عن طريق الرشد ، وأخلوا بآداب الشرع ، وانخرطوا فى سِلْكِ متابعة الشهوات — سيلقون عن قريبٍ ما يستوجبونه ، ويُعامَلُون بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿ إلاَّ مَن تاب وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئك يدخلون الجنةَ ولا يُظْلَمون شيئاً * جنَّاتِ عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمٰنُ عِبادَه بالغيبِ إنَّه كان وَعْدُه مَأْتِيًّا * لا يَسْمَعونَ فيها لَغْوًا إلا سَلاَماً ﴾

فأولئك الذين تداركتْهم الرحمةُ الأزليةَ ، وسيبقون فى النعم السرمدية . يستنجز الحقُّ لهم عِداتِهم ، ويُوَصِّلُهم إلى درجاتِهم ، ويُحَقِّق لهم ما وعدهم .

« إنه كان وعده مأتيا » : لأن ما أُتِيتَه فقد أتاك أو ما أتاكَ فقد أتيته[1] .

« لا يسمعون فيها لغواً » : فإن أسماعَهم مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ ، لا يسمعون إلا من اللهِ وبالله ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولهم رِزْقُهُم فيها بُكرةً وعَشِيًّا ﴾

كانوا يعدّون مَنْ عنده طعام البكرة والعشية مِنْ جملة المياسيرِ والأغنياء لكونهم فقراء ؛ إنْ وجدوا غداءهم ففى الغالب يَعْدِمُون عشاءهم ، وإنْ وجدوا عشاءهم فَقَلَّما كانوا يجدون غداءهم . ويقال فى « لهم ما يشتهون فيها » : بمقدار الغدو والعشى من الزمان فى الجنة أى كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف فى الجنة ؛ فللأشباحِ رِزْقٌ من مطعومٍ ومشروب ، وللأرواحِ رزقٌ من سماعٍ وشهود ، ولكلٍ — على قَدْرِ استحقاقه — قِسْطٌ معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك الجنةُ التى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَن كان تَقِيًّا ﴾

---

(١) أى أن (ماتيا) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجريح .

فالجنةُ للأتقياء من هذه الأمة مُعَدَّةٌ لهم ، والرحمةُ لعُصاة المسلمين مُدَّخرةٌ لهم . الجنةُ لُطْفٌ من الله تعالى ، والرحمةُ وَصْفٌ لله تعالى . وقوله : « من عبادنا » : فَعَبْدُه على الخصوصية مَنْ كان اليومَ فى قيد أمره . وقوله : « من كان تقيا » : قوم يتقون المعاصى والمخالفات ، وقوم يتقون الشهواتِ ، وآخرون يتقون الغفلاتِ ، وآخرون يتقون شهودَ كُلِّ غير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما نتنزَّلُ إلا بِأَمْرِ ربِّك له ما بين أيْدِينا وما خَلْفَنا وما بين ذلك وما كان ربُّك نَسِيًّا ﴾

إن الملائكةَ — عليهم السلام — أبداً يَنْزِلون بإذنِ الحقِّ تعالى ، فبعضهم بإنجاد المظلومين ، وبعضهم بإغاثة الملهوفين ، وبعضهم بتدمير الجاحدين ، وبعضهم بنصرة المؤمنين ، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين . والله — سبحانه — لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفْظٍ وإنعامٍ ، أو إمهالٍ ونَكَال . . .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما فاعْبُدْه واصْطَبِرْ لِعبادتِه هل تَعْلَمُ له سَمِيًّا ﴾

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربَّها ، ويكون مالكها ، ويكون قادراً عليها .

وإذا وجدت فهو فاعلها ، فمعنى كون فعل الشىء لفاعله أنه فى مقدوره وجوده .

ويقال إذا كان ربَّ الأكابرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء ، وقيمةُ العَبْدِ بمالِكِه وقَدْرِه[1] ، لا بثمنه فى نَفْسِه وَخَطَرِه .

قوله : « فاعبده » أى قِفْ حيثما أمرك ، ودَعْ ما يقع لك ، وخَلِّ رأيك وتدبيرك .

قوله : « واصطبر لعبادته » : الاصطبار غاية الصبر .

قوله : « هل تعلم له سميا » : أى كفوا ونظيراً . ويقال هل تعرف أحداً يسمى « الله » غيرَ اللهِ ؟ ويقال أنَّى بالنظير . . . وهو بالقِدَمِ متوحد ! والتشبيه يقتضى التسوية بين المتشابهين ، ولا مِثْلَ له . . لا موجوداً ولا موهوماً .

---

(١) أى قدر هذا المالك

قوله جل ذكره : ﴿ ويقول الإنسانُ أئذا ما مِتُّ لسوفَ أُخْرَجُ حيًّا * أو لا يذكر الإنسانُ أنَّا خَلَقْناه من قَبْلُ ولم يَكُ شيئًا ﴾

أنكروا حديثَ البعثِ غايةَ الإنكار ، فأقام الحجّةَ عليهم بالنشأة الأولى ؛ فقال : إن الذى قدر على خَلْقِ الخَلْقِ فى الابتداء وهم نُطَفٌ ضعفاء ، وقَبْلُ كانوا فى أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمهاتِ ففَطَرَهُمْ ، وعلى ما شاء صَوَّرَهم ، وفى الوقت الذى أراد — عن[1] بطون أمهاتهم أخرجَهُم .

قوله : « ولم يك شيئاً » فيه دليل على صحة أهل البصائر أنّ المعدومَ لم يك شيئاً فى حال عَدَمِه[2] .

ويقال أبطل لهم كلَّ دعوى حيث ذَكَّرَهم نَسَبَهم وكَوْنَهم مِنَ العدَمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم والشياطينَ ثم لَنُحضِرَنَّهم حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

نحشرهم جميعاً فيجتمعون فى العَرْصَةِ[3] . ثم يختلف مُنْقَلَبُهم ؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكاتٍ بعضها أسفل من بعض — واسمُ جهنم يجمع أماكنهم . ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هى دَرَجاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض — واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم .

ويقال التفاوتُ فى الجنةِ بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم لَنَنزِعَنَّ من كل شِيعَةٍ أيُّهُم أشَدُّ على الرحمن عِتِيًّا ﴾

---

(١) الأصوب أن تكون (من) كما ورد فى الآية ٧٨ سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » .

(٢) وفيه ردٌّ على القائلين بأن المادة لا تستحدث .

(٣) العرصة = ساحة الدار أو صفيحة من الحديد توضع فى التنور لينضج عليها الخبز وغيره (الوسيط)

مَنْ تَقدَّمَ عليهم فى الإضلال، والضلال ضوعف عليه غداً العذاب والأغلال .

﴿ ثم لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هم أَوْلَى بها صِلِيًّا ﴾

ينزل فى كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها ، فمن كان عتوُّه اليومَ أشدَّ غلوا كان فى النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن منكم إلا وَارِدُها كان على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ﴾

كلٌّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضيْرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (...)[1] والزلل ؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً . وقوم يردونها — كما فى الخبر : « إن للنار عند مرورهم عليها إذوابةً كإذوابةِ اللَّبَن ، فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أوليس وعدنا جهنم على طريق ؟ فيقال لهم . عبرتم وما شعرتم[2] » !

قوله جل ذكره : ﴿ ثم نُنَجِّى الذين اتَّقَوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا ﴾

يُنَجِّى مَنْ كان مؤمناً ، بعضهم قَبْلَ بعض ، وبعضهم بَعْدَ بعض ، ولكن لا يبقى من

---

(١) مشتبهة وهى فى الرسم هكذا (الالتبات) وربما كانت فى الأصل (الالتباس) أى الوقوع فى (اللبس) والالتباس مناسبٌ (للزلل) .

(٢) الإذوابة : الزبد حين يوضع فى البرمة ليذاب (مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣٦٢) .
وعن جابر أنه عليه السلام سئل عن ذلك فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم قد ورد تموها وهى خامدة (القاضى البيضاوى ط الحبشال بجدة) ص ٤١٠ .
وعن جابر أيضاً ، الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم » [الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١١ ص ١٣٦ سلسلة التراث] .
وعن الحسن « ليس الورود الدخول ، إنما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ؛ فالورود أن يمروا على الصراط » وقد استند كثير إلى رأى الحسن واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

المؤمنين مَنْ لا ينجيهم . ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها ، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء ، وتُطْبَقُ عليهم أبوابُ جهنم ، وينقطع منهم الرجاء والأمل .

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم ؛ فزيادة التقوى توجِب لهم التعجيل فى النجاة ؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ ، ومن منقطع ، ومن محترق . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَىٰ عليهم آياتُنا بيناتٍ قال الذين كَفَرُوا للذين آمَنُوا أىُّ الفريقين خَيْرٌ مَقاماً وأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

يعنى إذا قُرِئَتْ عليهم آياتُ القرآن قابلوها بالردِّ والجحد والعتو والزيغ ، ويَدَّعُون أنهم على حقٍ ، ولا يعتمدون فى ذلك إلا على الحَدْسِ والظَّنِّ .

قوله جل ذكره ﴿ وكَمْ أَهْلَكنا قَبْلَهُم من قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أثاثاً ورِئْياً ﴾

أى إن هؤلاء ينخرطون فى سِلْكِ مَنْ تَقَدَّمهم ، كما سلكوا فى الريب منهاجهم ، وسَيَلْقَوْن ما يستوجبونه على سوء أعمالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ[1] مَن كان فى الضلالةِ فَلْيَمْدُدْ له الرحمٰنُ مَدًّا حتى إذا رَأَوْا مَايُوعَدُون إمَّا العذابَ وإمَّا الساعةَ فَسَيَعْلمون مَنْ هو شَرٌّ مكاناً وأَضْعَفُ جُنْداً ﴾

إن الله تعالى يُمْهِلُ الكفارَ ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم ، ويَغْتَرُّوا بسلامةِ أحوالهم ، فينسونه فى غفلة الإمهال والاغترار بسلامة أحوالهم ، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب حسبانهم قوله « حتى إذا رأوا ما يوعدون . . . » أى يحل بهم موعودُ العقوبة عاجلاً أو قيام

---

(١) سقطت (قل) من الناسخ فأثبتناها .

الساعة[1] آجلاً ، فعند ذلك يتضح لهم ما تعامَوْا عنه من شدة الانتقام ، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويزيدُ اللهُ الذين اهتدَوْا هُدًى ﴾

أى يُغْنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم ، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس ، فإذا مَتَعَ نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة .

﴿ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عِندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ مَرَدًّا ﴾

« الباقياتُ الصالحات » : الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص .

ويقال « الباقيات الصالحات » : التى تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خير » لأن فى استحقاقِ القبول زيادةً للهدى ، فيصير عِلْمُ اليقين عينَ اليقين ، وعينُ يقينهم حَقَّ اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ أفرأيْتَ الذى كَفَرَ بآياتِنا وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولَداً ﴾

أَخْبِرْ بقصة ذلك الكافر[2] الذى قال بيمين — من غير حجة — لأُعْطَيَنَّ مالاً وولداً ، ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أطَّلَعَ الغيبَ أم اتَّخَذَ عِندَ الرحمٰن عهداً ؟ ﴾

---

(١) وردت (السرعة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكذا الآية .

(٢) عن الحسن : أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة . والمشهور انها فى العاص بن وائل فقد روى ان خباب ابن الأرت صاغ للعاص حليا فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون انكم تبعثون وان فى الجنة ذهباً وفضة فأنا اقضيك ثم فإنى اوتى مالا وولداً حينئذ !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تؤيد ذلك عن مسروق وعن الكلبى وعن مقاتل . (أسباب النزول ط مؤسسة الحلبى) ص ٢٠٤ .

ورواه البخارى عن الحميدى عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يقول ما يقول بتعريف منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك .

ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً ، أو أمَّلَ منه أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له ، ويَصْدُقُ ظَنُّه لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى لا يخلف عهده .

قوله جل ذكره : ﴿ كلا سَنَكْتُبُ ما يقولُ ونَمُدُّ له
مِنَ العذابِ مَدًّا * ونَرِثُه ما يقولُ
ويأتينا فرداً ﴾

كلا . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس لقولهم تحقيق ، بل سنمد لهم من العذاب مداً أى سنطيل فى العذاب مدتهم .

« ونرثه ما يقول . . . » لن نُمَتِّعَه بأولاده وحَشَمِه وخَدَمِه وقَوْمه ، ويعود إلينا منفرداً عنهم .

قوله جل ذكر : ﴿ واتخذوا مِن دونِ اللهِ آلِهةً ليكونوا
لهم عِزًّا * كلا سَيَكْفرون بعبادَتِهم
ويكونون عليهم ضِدًّا ﴾

حكموا بظنهم الفاسدِ أنَّ أصنامَهم تمنعهم ، وأنَّ ما عبدوه من دون الله تعالى توجِبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلةً .. وهيهات ! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق ، بل إذا حُشِرُوا وحُشِرَتْ أصنامُهم تَبَرَّأَتْ أصنامُهم منهم ، وما أَمَّلُوا نفعًا منها عاد ضرراً عليهم .

ويقال طلبوا العِزَّ فى أماكن الذل ، فأخفقوا فى الطلب ، ونُفُوا عن المراد .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ أنَّا أرْسَلْنا الشياطينَ على
الكافرين تَؤُزُّهم أَزًّا ﴾

تؤزهم أى تزعجهم ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة ، وخاطر الحقِّ يكون بَرَوْحٍ وسكينة ، وهذه إحدى الدلائل بينهما .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تعجَلْ عليهم إنَّما نَعُدُّ لهم عَدًّا ﴾

الأنفاس فى الحكم معدودة ؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها . وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نحشرُ المتقينَ إلى الرحمٰنِ وفداً ﴾

قيل ركبانا على نجائب طاعاتهم ، وهم مختلفون ؛ فمِنْ راكبٍ على صدور طاعاته ، ومن راكبٍ على مراكب هِمَمِه ، ومن راكبٍ على نجائب أنواره . ومِنْ محمولٍ يحمله الحقُّ فى عقباه كما يحمله اليومَ فى دنياه . وليس محمولُ الحقِّ كمحمول الخَلْق !

قوله جل ذكره ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذُّلِّ ، فيجمعهم فى السَّوْقِ ، ولكن يُغَاير بينهم فى معانيه .. فشتَّان ما هما !!

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَمْلِكُون الشفاعةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عند الرحمٰنِ عَهْداً ﴾

وذلك العهدُ حِفْظُهم فى دنياهم ما أُخِذَ عليهم — يومَ الميثاق — من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمٰنُ وَلَدًا * لقد جِئْتُمْ شيئاً إِدًّا * تَكَادُ السمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ منه وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدًّا * أن دَعَوا للرحمٰنِ وَلَدًا ﴾

ما أعظم بهتانهم فى مقالتهم ! وما أشدَّ جرأتهم فى قبيح حالتهم ! لكنَّ الصمديةَ متقدِّسةٌ عن عائدٍ يعود إليها من زَيْنٍ بتوحيدِ مُوَحِّدٍ ، أو شَيْنٍ بإلحاد مُلْحِدٍ ... فما شاهت إلاَّ وجوهُهم عما خاضوا فيه من مقالهم ، وما صاروا إليه من ضلالهم . كما لم يَتَحَمَّلْ بما قاله الآخرون إلا القائل ، وما عاد إلا على القائل مقابلٌ من عاجلٍ أو آجل .

قوله جل ذكره : ﴿ وما ينبغي للرحمٰن أن يتّخذَ ولدًا
إن كلُّ مَن في السمٰوات والأرضِ
إلا آتي الرحمٰنِ عبدًا * لقد
أحصاهم وعدّهم عدًّا * وكلهم
آتيه يومَ القيامةِ فردًا ﴾

أنّى بالولد وهو واحد ؟! وأنّى بالولادة ولا جنسَ له وجوباً[1] ولا جوازاً ؟!

« لقد أحصاهم .. » : لا يَعْزُب عن عِلْمِهِ معلومٌ ، ولا ينفكُّ عن قدرته — مما يصح أن يقال حدوثه — موهوم .

« وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » : لا خَدَمَ يصحبهم ، ولا حَشَمَ يلحقهم ، كلٌّ بِنَفْسِهِ مشتغِلٌ ، وعن غيره منفرد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ
سيجعلُ لهم الرحمٰن وُدًّا ﴾

يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة ، وفي الخبر : « لا يزالُ العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه »[2] .

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً في قلوب عباده ، وفي قلوب الملائكة ، فأهل الخير والطاعة محبوبون مِنْ كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل[3] .

---

(١) وردت (وجوداً) والأرجح ان تكون (وجوباً) لتتلاءم مع (جوازا) اى لايجب عليه ولا يجوز ل وصفه — لتقدسه وتنزهه — ان يكون له جنس .

(٢) (... فإذا احببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التي يبطش بها) وهو حديث قدسي رواه البخارى عن ابي هريرة ، واحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير عن ابى امامة ، وابن السنى عن ميمون ، وقد اخطأ من زعم ان البخارى انفرد بروايته .

(٣) اخرج مسلم والترمذى عن ابى هريرة ان النبي (ص) قال إذا احب الله عبداً نادى جبريل : إنى قد احببت فلاناً فأحبه ، فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى الأرض . . وذلك قوله تعالى : « سيجعل لهم الرحمن وداً » .

السيوطى فى إتقانه ص ١٩٩ ج ٢ ط مصطفى الحلبي .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنما[1] يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ به المتقين وتُنذِرَ به قوماً لُدًّا ﴾

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم تيسير ، ولآخرين تخويف وتحذير . فطوبى لِمَنْ يُسِّر لما وفِّق به ، والويل لمن خُوِّف بل خُذِلَ فيه . والقومُ بين موفقٍ ومَخْذُولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهم مِّن قَرْنٍ هل تُحِسُّ منهم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لهم رِكْزاً ﴾ .

أثبتهم وأحياهم ، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أماتهم وأفناهم ، فبادوا بأجمعهم ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ، ويُطَالَبونَ — يومَ النشور — بالنقير والقطمير .

سورة طه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله اسم عزيز مَنْ تحقَّق بجلال عِزِّته تمحض[2] فى خلوصِ عبوديته ، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سماء نعوته .

اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُه ، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طِلْبَتُه .

اسم مَنْ عَرَفَه زال كَرْبُه وطابَ قلبُه ؛ دِينُه ربُّه[3] وجنَّتُه حُبُّه .

اسم عزيز من وَسَمَه بعبوديته حَرَّرَه من رِقِّ شهواته ، وأعتقه من أَسْرِ مَطَالِبه ؛ فلا له لمحبوبٍ طلبٌ ، ولا يستفزُّه لمحذورٍ هربٌ .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (وإنما)

(٢) المحض = اللبن الخالص ، وتمحض = خلص من الشوائب .

(٣) أى عبادته لربه لذاته ؛ لا طلباً لثواب ولا خوفاً من عقاب كما هو الشأن فى العبادة التقليدية .

قوله جل ذكره : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾

الطاء إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طأْ بسرِّك بساطَ القربة فأنتَ لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوينا عن سرِّك ذِكْرَ غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيشُ مَنْ اهتدى بك .

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » : أى ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك ، وإنما هذا استفتاحُ الوُصلة ، والتمهيد لبساط القُرْبَةِ .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم »[1] وقف بِفَرْدِ قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجهٍ فقيل له : طأ الأرض بقدميك .. لِمَ كل هذا التعب الذى تتحمله ؟ فزاد فى تعبده ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه[2] وقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا تَذْكِرةً لِمَن يَخْشىٰ ﴾

فالقرآنُ تَبْصِرةٌ لذوى العقول ، تذكرة لذوى الوصول ، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحةَ النَّفْسِ فى آجِلِهم ، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنْسِ فى عاجِلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَنزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأرضَ والسمٰواتِ العُلَى ﴾

---

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) يرجح انها (تورمت قدماه) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[انه كان يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له : يارسول الله » أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً] الشيخان ، والنسائى . والترمذى عن المغيرة بن شعبة .

(وسيعود القشيرى إلى فكرة « طأ بقدميك الأرض » فى آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيك . . آية ١٣١) .

جَعَلَ الأرض قراراً لِعبادِه . ونفوسُ العابدين أرضٌ وقرارٌ لطاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرارٌ لمعارفهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الرحمٰنُ على العرشِ استوَى ﴾

استواء عَرْشِه فى السماء معلوم ، وعَرْشه فى الأرض قلوبُ أهل التوحيد .

قال تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية »[1] وعرش القلوب : قال تعالى : « وحملناهم فى البر والبحر »[2] . أمَّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى ، وعرشُ القلوبِ الرحمنُ عليه استولى . عرشُ السماء قِبْلَةُ دعاء الخَلْق ، وعرشُ القلبِ مَحَلُّ نظَرِ الحق . فشتَّان بين عرشٍ وعرش !

قوله جل ذكره . ﴿ له ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ وما بينهما وما تحت الثَّرَىٰ ﴾

له الأشيا على السموم مِلْكاً ، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً . له ما بين السمٰوات والأرض مما أظهر من العَدَمِ ، فالـكلُّ له إثباتاً وخَلْقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن تَجْهَرْ بالقول فإنه يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾

النَّفْسُ لا تقف على ما فى القلب ، والقلبُ لا يقف على أسرار الرُّوح ، والروح لا سبيل له إلى حقائق السرِّ والذى هو أخفى من السِّرِّ فهو ما لا يَطَّلِعُ عليه إلا الحق[3] .

ويقال الذى هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه المَلَـكَانِ ، ويستأثِرُ بعِلْمه الجبَّارُ ، ولا تقف عليه الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ له الأسماء الحُسْنَىٰ ﴾

---

(١) آية ١٧ سورة الحاقة .
(٢) آية ٧٠ سورة الإسراء .
(٣) يسميه القشيرى فى مواضع أخرى من مصنفاته (سر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

نفى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شيء منه صالحا للإبداع ، وأثبت كُلَّ ما في الوجود له باستحقاق القِدَم .

« له الأسماء الحسنى » أي صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى [1]

ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ للخَلْق بأنَّ استحقاقَ العلو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرُّد به .

قوله جل ذكره ﴿ وهل أتاكَ حَدِيثُ موسىٰ ﴾

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير [2] والإثبات . وأجرى — تعالى — سُنَّتَه في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا صلى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إذْ رَأَى ناراً فقال لِأَهلِهِ امكُثُوا
إنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتيكم مِنْها
بِقَبَسٍ أو أَجِدُ على النارِ هُدًى ﴾

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم ، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهلِه :

« امكثوا إني آنست ناراً » فقال أهلُه : كيف تتركنا والوادي مسبع ؟

فقال : لأجلِكُم أفارقكم ؛ فلَعَلِّي آتيكم من هذه النار بقبس .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ ، فلم يتمالك حتى خرج . ففي القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجمع موسى — عليه السلام — حشائشَ ليأخذ من تلك النار ، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُها بأنْ تُعْطِيَ إلى أحد شعلة :

---

(١) الأرجح — حسب الذي ذكره القشيري في كتابه التحبير في التذكير — أنها (وصفه فعل) .
(٢) وردت (التقدير) والصواب أن تكون (التقرير) فهذا هو المصطلح البلاغي الذي يطلق على مثل هذا الاستفهام

وقُلْنَ لنـا نحن الأَهِلَّةُ إنما نضىء لِمَنْ يَسْرِى بليلٍ ولا نُقْرِى

يا موسى هذه النارُ تضىء ولـكن لا تعطى لأحدٍ منها شعلة . يا موسى هذه النارُ تحرق القلوبَ لا النفوس .

ويقال كان موسى عليه السلام فى مزاولة قَبسٍ من النار فـكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً ، فبينما هو فى حالته إذ سمع النداء من الحقّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا أتاها نُودِىَ ياموسىٰ * إنِّى أنا ربُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بالوادِ المُقَدَّسِ طُوًى ﴾

علم موسى أنه كلام الحق — سبحانه — لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيبَ والتنظيمَ والتركيب ، فعَلِمَ أنه خطاب الحق .

ويقال إنما عرف موسى — عليه السلام — أنه كلامُ الله بتعريفٍ خصَّهُ الحق — سبحانه — به من حيث الإلهام دون نوعٍ من الاستدلال .

« قوله : « فاخلع نعليك . . » فإن بِسَاطَ حضرةِ الملوكِ لا يُوطَأُ بِنَعْلٍ .

ويقال ألقِ عصاك يا موسى ، واخلع نعليك ، وأقِمْ عندنا هذه الليلةَ ولا تَبْرَحْ .

ويقال الإشارة فى الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن ، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد .

ويقال «اخلع نعليك» : تَبَرَّأْ عن نَوْعَىْ أفعالك[1] ، وامْحُ عن الشهود جنْسَىْ أحوالِك من قربٍ وبُعْدٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وارتياح واجتياح ، وفناء وبقاء . . وكُنْ بوصفنا ، فإنما أنت بحقنا .

أثْبَتَهُ فى أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته ، المُصْطَلَمِ عن شواهده .

---

(١) ربما حدث سقوط ، فالـكلام يحتاج إلى توضيح (نوعى أفعالك) قياساً على ما ذكر فى (جنسى أحوالك) ونرجح أن نوعى الفعل هما الأمر والنهى ، أو المأمور به والمزجور عنه .. أو ما فى هذا المعنى .

قوله : « إنك بالوادى المقدس طوى » : أى إنك بالوادى المقدس عن الأعلال ؛ وساحاتُ الصمدية تَجِلُّ عن كل شَيْن ، وإيمانٍ وزَيْن ؛ عن زَيْنٍ بإحسان وشَيْن بعصيان ؛ لأنَّ للربوبية سَطَعَاتِ عِزٍّ تقهر كل شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنا اخْتَرْتُكَ فاستمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾

وعلى علمٍ منى بك اصطفيتُك ، وجرَّدْتُكَ ونقَّيْتُكَ عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يُكَدِّرُ صَفْوَك .

ويقال بعدما اخترتُك فأنت لى وبى ، وأنت محو فى فنائك عنك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّنى أنا اللهُ لا إلهَ إلَّا أنا فاعبُدْنى ﴾

تقدَّسْتُ عن الأعلال فى أزلى ، وتنزهت (. . . . .)[1] والأشكال باستحقاق لجلالى وجمالى .

ويقال « لا إله إلا أنا » : الأغيار فى وجودى فَقْدٌ ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ حَقِّى محوٌ

قوله : « فاعبدنى » : أى تَذَلَّلْ لِحُكْمى ، وأنْفِذْ أمرى ، واخضعْ لجبروتِ سلطانى .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقِمِ الصلاة لِذِكْرِى ﴾

إقامتُها من غير ملاحظة مُجْرِيها ومنْشِيها يُورِث الإعجاب . وإذا أقام العبدُ صلاتَه على نعت الشهود والتحقق بأن مجريها غيره[2] كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة ، والوقوف على محل النجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الساعةَ آتِيَةٌ أكادُ أُخفِيها لتُجْزَىٰ كلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَىٰ ﴾

الفائدة فى تعريف العبادِ بقُرْبِ الساعةِ أن يستفيقوا من غفلات التفرقة ، فإذا حضروا

---

(١) حدث هنا طمس أفقدنا بقية الجملة ، وربما كانت (عن الأمثال) .
(٢) الضمير فى (غيره) يعود على العبد والمقصود أن يتحقق العبد بأن الرب هو الذى يجرى عليه تعبده .

بقلوبهم ـ ففى حال استدامة الذكر ـ فما هو موعودٌ فى الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ فى العاجل ؛ والحاضرة لهم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا يَصُدَّنَّكَ عنها مَن لَّا يؤمِنُ بها واتَّبَعَ هواه فَتَرْدَىٰ ﴾

إذا أكرمه اللهُ بحُسْنِ التنبيه ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغى أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة فى تطوحهم فى أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تِلْكَ بيمينِكَ يا موسى ﴾

كرَّرَ عليه السؤالَ فى غير آية عن عصاه لمَّا كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هيبةُ المقام عند فَجْأةِ سماعِ الخطاب ؛ فَلِيُسَكِّنَ بعضَ ما به من بَوَادِهِ الإجلال . . رَدَّهُ إلى سماعِ حديث العصا ، وأراه ما فيها من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لعلَّه كان لا يعى ولا يطيق ذلك . . فقال له : وما تلك بيمينك يا موسى ؟

﴿ قال هى عَصَايَ أتوكَّأُ عليها وأَهُشُّ بها على غَنَمِي ولِيَ فيها مآرِبُ أخرىٰ ﴾

قال هى عصاى ، وأخذ يُعدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له :

﴿ قال أَلْقِها يا موسىٰ ﴾

---

(١) (فالقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) و (جهنم الفراق اشد من جهنم الاحتراق) . اللطائف فى مواضع أخرى .

فإنك بنعت التوحيد[1] ، واقفٌ على بساط التفريد ، ومتى يصحُّ ذلك ، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لَكَ معتمدٌ تتوكأ عليه ، ومستند عليه تستعين ، وبه تنتفع ؟

ثم قال : « ولى فيها مآرب أخرى » : أوّلُ قَدَمٍ فى الطريق تَرْكُ كلِّ سَبَبٍ ، والتَّنَزُّه عن كل طَلَبٍ ؛ فكيف كان يَسْلَمُ له أن يقول : أَفْعَلُ بها ، وأمتنع[2] ، ولى فيها مآرب أخرى .

ويقال ما ازداد موسى — عليه السلام — تفصيلاً فى انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأَوْلى بأن يؤمن بإلقائها ، والتنزه عن الانتفاع بها على موجب التفرُّد لله .

ويقال التوحيد التجريد ، وعلامةُ صحته سقوط الإضافات[3] بأسْرِها ؛ فلا جَرَمَ لما ذكر موسى — عليه السلام — ذلك أُمِرَ بإلقائها فجعلها اللهُ حَيَّةً تسعى ، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقِّب . وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة ؛ إذا كوشِفَ صاحبُها بسِرِّها يهرب منها .

ويقال لمَّا باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب ، فأجاب عما يُسْأل وعمَّا لم يُسْأل فقال : « ولى فيها مآرب أخرى » ، وذَكَرَ وجوها من الانتفاع ؛ منها أنه قال تؤنسنى[4] فى حال وحدتى ، وتضىء لى الليلَ إذا أظلم ، وتحملنى إذ عَيِيتُ فى الطريق فأركبها ، وأَهُشُّ بها على غنمى ، وتدفع عنى عَدوِّى . وأعظم مآرب لى فيها أنَّكَ قُلْتَ : « وما تلك بيمينك ؟ » وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أَنْ تقولَ لى : وماتلك ؟ ويقال قال الحقُّ — بعد ما عدَّد موسى وجوهَ الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها — « لَكَ يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافلٌ عنها وهى انقلابُها حيةً ، وفى ذلك لك معجزةٌ وبرهان صِدْقٍ .

---

(١) إذا صح نقل هذه العبارة عن الأصل فالقشيرى يقصد بها (فإنك موحد) ، والموحد أعلى درجات العارفين .

(٢) أى تكون لى بها منعة وقوة ، وربما كانت (وأنتفع) وكلاهما صحيح فى المعنى .

(٣) سقوط الإضافات أى لا يقول لى ولا بى ولا منى — وهذه آية صحة التوحيد عندهم (أنظر الرسالة ص ١٤٩) .

(٤) وردت (تسعى) ، وقد وجدنا (تؤنسنى) أقرب إلى المعنى وإن كانت بعيدة فى الرسم ، فآثرناها ونبهنا إلى الأصل . أو ربما سقطت (معى) بعد (تسعى) ويكون السياق آنذاك منسجماً .

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع فى العصا كان من قِبَلِ الله . . فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

يا جنةَ الخُلْدِ ، والهدايا إذا تُهدَى إليك فما منكِ يُهْدَى

ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز : لقد عَلِمْتُ كلَّ وصفٍ بهذه العصا ، أمَّا هذه الواحدة فلم أعرفها .

قوله جل ذكره : ﴿قال ألقِها يا موسى * فألقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تسعَى * قال خُذْها ولا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَها الأُولى﴾

لا عِبْرةَ بما يوهِمُ ظاهرُ الأشياء ؛ فقد يُوهِمُ الظاهرُ بشىء ثم يبدو خِلافُه فى المستقبل ؛ فعصا موسى صارت حيةً .

ثم قال المقصودُ بذلك أن تكون لك آيةً ومعجزةً لا بلاء وفتنةً[1] .

قوله : « قال خذها ولا تخف . . . » : أشْهَدَه — بانقلاب العصا من حالٍ إلى حال ؛ مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى — أنَّه يُثَبِّتُ عِبادَه فى حال التلوين مرةً ومرةً ؛ فَمِنْ أخذٍ ومِنْ رَدٍّ ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ[2] .

قوله جل ذكره : ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بيضاء مِنْ غيرِ سُوءٍ آيةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الكُبْرَى﴾

كما أراه آيةً من خارجٍ أراه آيةً من نَفْسِه ، وهى قلبُ يَدِه بيضاء ؛ إذْ جَعَلَها فى جيبه من غير البَرَص . قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[3] .

---

(١) وهذا الكلام ينطبق على الكرامة التى تظهر على يدى الولى ، وهذا فرق بين المعجزة والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التمكين) .

(٣) آية ٥٣ سورة فصلت .

وإنما قال : أَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبِك ولم يقل كُمَّك لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللِّباس كُمّان .

قوله : « لنريك[1] من آياتنا الكبرى » : الآية الكبرى هى ما كان يجده فى نفسه من الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكلُّفِ العبد وتصرُّفه من فنون الأحوال التى يدركها صاحبُها ذوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ٱذْهَبْ إلى فرعونَ إنَّهُ طَغَىٰ ﴾

بعدما أسمعه كلامه من غير واسطة ، وشَرَّفَ مقامَه ، وأجزَلَ إكرامَه أمَرَه بالذهاب ليدعوَ فرعونَ إلى الله — مع عِلْمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يَعْرِف — فشَقَّ على موسى ذهابُه إلى فرعون ، وسماعُ جَحْدِه منه ، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه آثر أمْرَ محنته على مرادِ نفسه .

ويقال لمَّا أمَرَه بالذهاب إلى فرعونَ سأل اللهَ أُهْبَةَ النَّقلِ وما به يتمُّ تبليغ ما حمل من الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قال ربِّ اشرح لى صدرى * ويَسِّرْ لى أمرى * واحلُلْ عقدةً مِّن لِّسانِى * يفقهوا قولِى ﴾

لِيُعْلَمَ أنَّ مِنْ شَرْطِ التكليفِ التَّمكُّنَ مِنْ أداءِ المأمور به .

ويقال إنَّ موسى لما أَخَذَ فى المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو : « ربِّ اشرح لى صدرى ، ويَسِّرْ لى أمرى . . . » وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .

قوله « قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » : حتى أُطِيقَ أنْ أسمعَ كلامَ غيرِك بعدما سَمِعْتُ منك . « واحلل عقدة من لسانى » : حتى ينطلقَ بمخاطبة غيرك ، وقوِّنى حتى أُرُدَّ ما أُردُّ . . . بِكَ لا بى

قوله جل ذكره : ﴿ واجعل لى وزيراً مِنْ أهلى * هارون أخى * اشدُدْ به أَزْرِى ﴾

---

(١) أخطأ الناسخ إذ جعلها (لنريه) .

سَألَ أنْ يَصْحَبَ أخاه معه ، ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة »(١) كان بمفرده ، لأن الذهاب إلى الخلق يوجِب الوحشةَ ؛ فَطَلَبَ من أخيه الصحبة لِيُخَفِّفَ عليه كلفة المشقة .

ويقال إن المحبةَ توجِبُ التجرُّدَ والانفراد وألا يكونَ للغيرِ مع المحبِّ مساغ ؛ ففى ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه ، ولمَّا كان الذهابُ إلى الميقاتِ لم يكن للغيرِ سبيلٌ إلى صحبته ، إذ كان المقصود من ذهابه أن يكونَ مخصوصاً بحاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كى نُسَبِّحَكَ كثيراً * ونَذْكُرَكَ كثيراً * إنك كُنتَ بنا بصيراً ﴾

بيَّن أنَّ طَلَبَه مُشاركةَ أخيه له بحقِّ ربه لا بحظِّ نَفْسِه حيث قال : « كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً » .

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا موسىٰ ﴾

أعطيناكَ ماسألتَ ، وتناسيت ابتداء حالِكَ حين حفظناك فى اليمِّ ونَجَّيْنَا أُمَّكَ من ذلك الغَمِّ ، ورَبَّيْنَاكَ فى حِجْرِ العَدُوِّ . . فأين — حينذاك — كان سؤالُكَ واختيارُكَ ودعاؤُك(٢) ؟

وأثبتنا فى قلب امرأة فرعون شفقتك ، وألقينا عليكَ المحبةَ حتى أحبَّكَ عدوُّك ، وربَّاكَ حتى قَتَلَ بِسَبَبِكَ ما لا يُحْصَى من الولدان ، والذى بَدَأَكَ بهذه المِنَنِ هو الذى آتاك سُؤْلَكَ ، وحقَّقَ لك مأمولَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ أوحينا إلى أمِّك ما يوحىٰ * أنِ اقذفيه فى التابوتِ فاقذفيه فى اليمِّ ، فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بالساحلِ ، يأخذه عَدُوٌّ لى وعَدُوٌّ له ﴾

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) أى أن فضل الله دائم ، وسابق للدعاء ، وغير مرتبط بالاختيار الإنسانى ولا بالعمل الإنسانى ، وهذه نظرة فى الشمول قلما يفطن إليها غير الصوفية . فأين منهم المعتزلة الذين يوجبون على الله ؟! ذلك أحد المرامى البعيدة التى يقصد إليها القشيرى .

كان ذلك وحيَ إلهامٍ ، ألقَى اللهُ فى قلبها أن تجعلَه فى تابوت ، وتلقيه فى اليم يعنى نهر النيل ، فَفَعَلَتْ ، فألقاه النهر على الساحل ، فَحُمِلَ إلى فرعون . فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ امرأةِ فرعون عليه باشر حبُّه قلبَها ، وكذلك وقعت محبتُه فى قلبِ فرعون ، ولكنها كانت أضعفَ قلباً ، فسبقت بقولها « قرة عين لى ولك لا تقتلوه . . »[1] ، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل : « قرة عينٍ لى ولك » .

قوله : « يأخذه عدو لى وعدو له » : ربَّاه فى حِجْرِ العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان . . ولكنْ منْ مَأمِنِهِ يُؤْتَى الحَذِرُ ! وبلاء كلُّ أحدٍ كان بَعْدَه إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين ؛ ففى اليومِ الذى أخذ موسى فى حِجْرِه كان قد أمر بقتل كثير من الولدان ، ثم إنه ربَّاه ليكونَ إهلاكُ مُلْكِهِ على يده . . لِيُعْلَمَ أنَّ أسرارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبارُ .

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه — ولم يكن . وكان يقال لأمِّ موسى ظئر[2] موسى — ولم تكن ؛ فَمَنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصة[3] .

ولقد جاء فى القصة أن موسى لمَّا وُضِعَ فى حِجر فرعون لَطَمَ وجهه فقال : إنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أنْ يُقْتَلَ ، فقالت امرأتُه : إنه صبيٌّ لا تمييزَ له ، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدِّق زوجُها قالتَها ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمدَّ يَدَه إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَها إلى النار فأخَذَ جَمْرةً بيده ، وقرَّبها مِن فِيه فاحترق لِسانُه — ويقال إنَّ العقدةَ التى كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فعند ذلك قالت امرأةُ فرعون : ها قد تبينَّ أن هذا لا تمييزَ له ؛ فقد أخذ الجمرةَ إلى فيه . وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطْمِ فرعون .

---

(١) آية ٩ سورة القصص . (٢) الظئر . المرضعة لغير ولدها .

(٣) يقصد بالحديث والقصة التصوف وأهله ؛ فلقب العبد مرتبط بقلبه وحقيقة باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أخْذِ الجمرة وهو صبيٌّ رضيع، ثم احترق لسانه، فعلم الـكلُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعّال لما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿وألقيتُ عليكَ محبةً مني﴾

أي أحببتك. ويقال في لفظ الناس: فلانٌ ألقى محبته على فلان أي أحبَّهُ. ويقال «ألقيت عليك محبة مني»: أي طَرَحْتُ في قلوب الناس محبةً لك، فالحقُّ إذا أحبَّ عبداً فـكلُّ مَنْ شاهده أحبَّه. ويقال لملاحةٍ في عينيه؛ فـكان لا يراه أحدٌ إلا أحبَّه.

ويقال «ألقيت عليك محبةً مني»: أي أثْبَتُّ في قلبِك محبتي؛ فإن محبةَ العبدِ لله لا تـكون إلا بإثباتِ الحق — سبحانه — ذلك في قلبِه، وفي معناه أنشدوا:

إنَّ المحبةَ أمْرُها عَجَبٌ تُلْقَى عليكَ وما لها سَبَبُ

قوله جل ذكره: ﴿ولِتُصْنَعَ على عيني﴾

أي بمرأىً مني ويقال لا أُمَـكِّن غيري بأنْ يستَبْعِدَكَ عني.

ويقال أحفظك من كل غَيْرٍ، ومن كلِّ حديثٍ سوى حديثنا. ويقال ما وَكَلْنَا حِفْظَكَ إلى أحدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿إذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فتقولُ هل أدُلُّـكُم على مَن يَكْفُلُه فرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّك كي تَقَرَّ عينُها..﴾

البلاء على حَسَبِ قوة صاحبه وضعفه، فـكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى[1]، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أمُّ موسى ضعيفةً فرَدَّ إليها وَلَدَها بعد أيام، وكان يعقوبُ أقوى في حاله فلم يُعِدْ إليه يوسفَ إلا بعد سنين طويلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» رواه الترمذي، وابن ماجه والحاكم عن سعد بن أبي وقاص.

أجرى اللهُ عليه ما هو فى صورةِ كبيرةٍ من قَتْلِ النَّفْسِ بغير حَق ، ثم بيَّن اللهُ أنه لايضره ذلك ، فليست العِبْرةُ بفعل العبد فى قِلَّته وكثرته إنما العِبرةُ بعناية الحقِّ، بشأنِ أحدٍ أو عداوته .

ويقال قد لايموت كثيرٌ من الخلْقِ بفنون من العذابِ ، وكم من أناسٍ لا يموتون وقد ضُرِبُوا ألوفاً من السياط ! وصاحبُ موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزةٍ ! إيش[1] الذى أوجب وفاتَه لولا أنه أراد به فتنةً لموسى ؟ وفى بعض الكتب أنه — سبحانه — أقام موسى كذا وكذا مقاماً ، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر ، وفى كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْساً » .

« فنجيناك من الغم » : أريناكَ عينَ الجمع حتى زال عنك ماداخَلَكَ من الغمِّ بصفة مقتضى التفرقة ، فلمَّا أريناكَ سِرَّ جريانِ التقديرِ نجَّيْناكَ من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ .

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا . ويقال جَنَّسْنَاً عليك البلاء ونوَّعناه حتى جرَّدْناكَ عن كل اختيارٍ وإرادة ، ثم حينئذٍ رَقَّيْناكَ إلى ما استوجَبْتَه من العِلم الذى أهَّلْناكَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنينَ فى أهْلِ مَدْينَ ﴾ .

وكنتَ عند الناسِ أنك أجيرٌ لشعيب ، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك ، وكان يكفى — عندهم — أن تكون خَتَناً[2] لشعيب .

﴿ ثم جِئْتَ على قَدَرٍ ياموسى ﴾ .

أى عَدَدْنا أيامَ كونك فى مدين شعيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرَفَكَ ومحبَّتَكَ منتظرين لك ؛ فجئتَ على قَدَرٍ .

---

(١) أى (أى شىء) وهى لفظة ترد فى مصنفات القشيرى من حين إلى آخر . وجاء فى الوسيط ج ١ ص ٣٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أى زوجاً لابنته ، وفى الحديث « عليٌّ ختن رسول الله »

ويقال إنَّ الأَجلَ إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم ، وأنشدوا فى قريب من هذا المعنى :

بينما خاطرُ المنى بالتلاقى ... سابحٌ فى فؤاده وفؤادى
جمع اللهُ بيننا فالتقينا ... هكذا بغتةً بلا ميعادِ

قوله جل ذكره : ﴿ واصطنعتُكَ لِنفسى ﴾ .

استخلصتُكَ لى حتى لا تَصْلُحَ لأحدٍ غيرى ، ولا يَتأتَّى شىء منك غير تبليغ رسالتى ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردْتُ سِرَّك لى ، وجعلْتُ إقبالَكَ علىَّ دون غيرى ، وحُلْتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دونى .

ويقال « واصطنعتك لنفسى » : قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ ، ثم قال له : « اذهب إلى فرعون » .

قوله جل ذكره : ﴿ ٱذْهَبْ أَنْتَ وأخوكَ بآياتِى ولا تَنِيا فى ذِكْرِى * ٱذهبا إلى فِرْعَونَ إنَّهُ طَغَىٰ ﴾ .

تعلَّلَ موسى عليه السلام لمَّا أرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِلل مثل قوله : « يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى » [1] ، « إنى قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » [2].. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفعه ذلك ، وقال الله : « إننى معكما أسمع وأرى » ، فاستقل [3] موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أُبالى بعد ما أنت معى .

قوله جل ذكره : ﴿ فقولا له قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يتذكَّر أو يَخْشَىٰ ﴾ .

---

(١) آية ١٣ سورة القصص
(١) آية ٣٣ سورة القصص
(٣) الاستقلال هنا معناه الاكتفاء .

إنما أمرهما بالملاينة معه فى الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين ، وفى حال الدعوة يجب اللِّين [1] ؛ فإنه وقت المُهلة ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر [2] ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتى هى أحسن [3] » : وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة » [4] .

ثم إذا ظهر من الخَصمِ التمرُّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابلُ بالغلظة والعنف .

ويقال علَّمهما خطابَ الأكابرِ ذوى الحشمة ؛ ففرعونُ — وإن كان كافراً — إلا أنه كان سلطانَ وقتِه ، والمتسلِّطَ على عِبادِ الله .

ويقال إذا كان الأمرُ فى مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة .. فكيف مع المؤمن فى السؤال ؟

ويقال فى هذا إشارة إلى سهولة سؤال المَلَكَين فى القبر للمؤمن .

ويقال إذا كان رِفْقُه بِمَنْ جَحَدَه فكيف رِفْقُه بِمَنْ وَحَّدَه ؟

ويقال إذا كان رِفْقُه بالكفَّارِ فكيف رفقُه بالأبرار ؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال : أنا . . فكيف رفقه بمن قال : أنت ؟

ويقال إنه [5] أحْسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام ؛ فأراده أن يرفق به اليومَ فى الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هذا ما قال فى آية أخرى « فَقُلْ هل لك إلى أن تزكَّى » [6] .

وقوله : « لعله يتذكر أو يخشى » : أى كُونا على رجاء أن يؤْمِنَ . ولم يخبرهما أنه لا يؤمن

---

(١) وردت (التمكين) وهى خطأ فى النسخ وقد انتبه أحد القراء إلى هذا الخطأ فوضع علامة استفهام صغيرة .

(٢) النظر هنا معناها التفكر فى الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) أى فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة النازعات .

لئلا تتداخلَهما فَترةٌ فى تبليغ الرسالة عِلْماً منه[1] بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ علينا أو أن يَطْغَىٰ ﴾

فى الآية دليلٌ على أنّ الخوفَ[2] الذى تقتضيه جَبِلَّةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبُهُ عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : « إنّنا نخاف » .

ثم إنّه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما .

ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهِما شفقةً عليهما ، ولكن قالا : إننا نخاف أن تحل بنا مكيدةٌ من جهته ، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك ، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقِّ الله لا لِأَجل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأدَّبا فى الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ قال لا تخافا إننى مَعَكُما أَسْمَعُ وأَرَىٰ ﴾

تَلَطَّفَ فى استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : « إننى معكما » بقولهما : « إننا نخاف » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : « إننى معكما » وإلا فأنَّى بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بالنبوَّةِ ؟ !

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله : « إننى معكما » ، فَقَوِيا على الذهاب إليه ؛ إذ مِنْ شَرْط التكليف التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ معنا بنى إسرائيلَ ولا تُعَذِّبْهُمْ ﴾

---

(١) وردت (منهم) وهى خطأ فى النسخ لأن المقصود : مع انه سبحانه عليم بانه لن يؤمن ولن يقبل .
(٢) فى هذه الإشارة توضيح هام لاصطلاح (الخوف) .

طالَ البلاء بنى اسرائيل من جهة فرعون ، فتدرّاكَهُم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين ، بذلك أجرى سُنَّتَهُ أنه يُرخى عِنَانَ الظالم ، ولكن إذا أخَذَهُ فإنَّ أخْذَهُ أليمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جِئْناكَ بآيةٍ مِّن ربِّك ﴾

من شَرْطِ التكليفِ التمكينُ بالبيِّنة والآيةِ للرسولِ حتى يَتَّضِحَ ما يَدُلُّ على صِدْقِهِ فيما يدعو إليه من النبوة . ثم إن تلك الآية وتلك البيِّنة ما نفعتهم ، وإنما تأكدتْ بهما عليهم الحُجَّةُ ؛ فإذا عَمِيَ بَصَرُ القلبِ فأنَّى تنفع بصيرةُ الحجة ؟ وفى معناه قالوا :

وفى نَظَرِ الصادى إلى الماء حَسْرَةٌ إذا كان ممنوعاً سبيل الموارِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ والسَّلامُ على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾

إنما يَتَّبِع الهُدَى مَنْ كَحَّلَ قلبَهُ بنور العرفان ، فأما من كانت على قلبهِ غشاوة الجهل .. فمتى يستمع إلى الهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا قد أُوحِيَ إلينَا أنَّ العذابَ على مَن كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾

ما بعث اللهُ نبياً إلاَّ وقد أنْذَرَ قومَهُ بالعذابِ على تَرْكِ الأمر ، وبَشَّرَهُم بالثوابِ على حِفْظِ الأمر . والعذابُ مُعَجَّلٌ ومؤجَّلٌ ؛ فمؤجَّلُه لا يُوقَفُ على تفصيله الأعداء وكذلك مُؤَجَّلُ الثوابُ ، قال تعالى : « فلا تعلم نَفْسٌ ما أُخفى لهم من قرة أعين »[1] .

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواع ، وعلى حسب مقامِ المرء تَتَوَجَّهُ عليه المطَالَبَاتُ ، والزيادةُ فى العقوبةِ تَدُلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرُّتْبَةِ ؛ كالحرِّ والعَبْدِ فى الحدِّ . وقسوةُ القلبِ نوعُ عقوبة ، وما يتداخل الطاعة نوعُ عقوبة ، وخسرانُ نصيبٍ فى المالِ والأنْفُس نوعُ عقوبة .. إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قالَ فَمَن رَّبُّكُما يا موسى * قال رَبُّنا الذى أعْطَى كُلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى ﴾

---

(١) آية ١٧ سورة السجدة .

« فمن ربكما » على التثنية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالخطاب بعدما قال : « فَمَنْ ربكما ؟ » . فيحتمل أن ذلك لمُشاكَلَة رءوسِ الآى ، ويحتمل أن موسى كان مُقدَّما على هارون فَخَصَّهُ بالنداء .

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فِعْلِه — سبحانه فقال : « ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقه » ليُعْلَمَ أنَّ الدليلَ على إثباته — سبحانه — ما دلَّتْ عليه أفعالُه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فَمَا بَالُ القرونِ الأُولىٰ * قال عِلْمُها عِنْدَ ربى فى كتابٍ لا يَضِلُّ ربى ولا يَنْسَى ﴾

لا يمكننى أن أُخْبِرَكُمْ إلا بما أخبرنِي به ربى ، فَمَا عَرَّفَنى عَرَّفْتُ ، وما ستره علىَّ وَقَفْتُ .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ مَهْدًا وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنزَلَ مِنَ السماء ماء فَأَخْرَجْنَا به أزواجاً مِّن نَبَاتٍ شتَّىٰ ﴾

جَعَلَ الأرضَ مستقراً لأبدانهم ، وجعل أبدانَهم مستقراً لعبادته ، وقلوبهم مستقراً لمعرفته(١) ، وأرواحَهم مستقراً لمحبته ، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أنعامَكم إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ﴾

هيَّأ لهم أسبابَ المعيشة ، وكما نَظَرَ إليهم وَرَزَقَهُم رَزَقَ دوابَّهم التى ينتفعون بها ،

---

(١) وردت (وارواحهم مستقراً لعبادته) والصواب ان تكون (وقلوبهم مستقراً لمعرفته) حسبما نعرف من مذهب القشيرى فى ترتيب الملكات الباطنية (انظر بحثنا فى الدكتوراه عن الإمام القشيرى وتصوفه) ط مؤسسة الحلبى .

وأمرَهم أنْ يَتَقَوَّوْا بما تَصِلُ إليه أيديهم ، وأنْ ينتفِعُوا — ما أمكنهم — بأنعامِهم لِيَكْمُلَ لديهم إنعامُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ منها خَلَقْناكُمْ وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكُمْ تارةً أُخْرىٰ ﴾

إذ خَلَقْنا آدمَ من الترابِ ، وإذ أخْرَجْناكم من صُلْبه . . فقد خَلَقْناكم من الترابِ أيضاً . والأجسادُ قوالِبُ والأرواحُ ودائعُ ، والقوالب نسبتها التُّربة[1] ، والودائع صفتها القُرْبة[2] ، فالقوالب يزيِّنها بأفضاله ، والودائع يحييها بكشف جلاله ولطف جماله . وللقوالب اليوم اعتكافٌ على بِساطِ عبادته ، وللودائع اتصافٌ بدوام معرفته .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرَيْناه آياتِنا كُلَّها فكذَّب وأبَىٰ ﴾

أمره بجهره ، وأعماه عن شهود ذلك بِسِره ، فما نَجَعَ فيه كلامُهُ ، وما انتفعَ بما حذَّره من انتقامه ، وبَشَّرَ له من إنعامه .

قوله جل ذكره : ﴿ قالَ أجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أرْضِنا بِسِحْرِكَ يا موسىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فاجْعَلْ بَيْنَنا وبَيْنَكَ موعِداً لا نُخْلِفُهُ نحنُ ولا أنتَ مَكاناً سُوىً ﴾

دعاهم موسى إلى الله ، وخاطَبَهُم فى حديث الآخرة من تبشيرٍ بثواب ، وإنذارٍ بعذاب ، فلم يُجِيبُوا إلاَّ من حيث الدنيا ، وما زادهم تذكيراً إلا ازدادوا غفلة وجهاله .

---

(١) ، (٢) وردتا (البرية) و (القوية) ولم نجد للجملتين معنى على ذلك — فى حدود ما نعرف — بينما لو صارت النسبة إلى (التربة) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف فى بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا (القربة) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن فى هذا لا نصدر إلا عن استخدام التشيرى لهذا الاسلوب فى مواضع مماثلة — والله أعلم .

كذلك صفةُ مَنْ وَسَمه الحقُّ بالإبعاد ، لم يكن له عرفان ، ولا بما يقال إيمان ، ولا يتأسَّفُ على ما يفوته ، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده .

قوله : « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخلفه . . » تأهَّبُوا لِمُناصَبَةِ الحقيقة ، وتَشَمَّرُوا للمُخالفة ، فقَصَمَتْهُم المشيئةُ ، وكَبَسَتْهُم القدرة ، وكما قيل :

استقبلنى وسيفُه مسلول وقال لى واحدنا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ قال مَوْعِدُكم يَوْمُ الزِّينَةِ وأن يُحْشَرَ الناسَ ضُحًى ﴾

فكان فى ذلك اليوم افتضاحهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرعونُ فَجَمَعَ كَيْدَه ثم أَتَىٰ ﴾

كادَ فرعونَ فَكِيدَ له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأُذِلَّ وأُذِيقَ البأسَ . ولم يَدَعْ موسى شيئاً من الوعظ والرِّفْقِ ، ولم يغادِرْ فرعونَ شيئاً من البَلَهِ والحُمْق ، ولكن :

﴿ قال لهم موسىٰ وَيْلَكُم لا تَفْتَرُوا على اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بعذاب وقد خَابَ مَنِ افترىٰ * فتَنَازَعُوا أَمْرَهم بينهم وأَسَرُّوا النجوىٰ ﴾

اعلموا أنه لا طاقةَ لأحدٍ مع الله — سبحانه — إذا عَذَّبَه ، فحملوا مقالتَه على الإفك ، ورَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا :

﴿ قالوا إنْ هذانِ لَسَاحِرانِ يريدانِ أن يُخْرِجَاكُم من أرْضِكم

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى شاهد شعرى سبق وروده :

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان

ويهدف إلى أن يثبت ان تزين الظاهر لا جدوى منه فى الحقيقة .

بِسِحرِهما ويذهَبا بطريقتكم المُثلى *
فَأجمِعُوا كيدَكُم ثم ائتوا صَفاً
وقد أفلحَ اليومَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾

ها فى دعواها كاذبان يَقْصِدان إلى إخراجِكم من بَلَدِكم ، والتشويشِ عليكم فى مُعْتَقَدِكم .

﴿ قالوا ياموسى إمَّا أن تُلقِيَ وإمَّا أن
نكونَ أوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾

أظهروا من أنفسهم التجلُّدَ ظنًّا بأنَّ النصرةَ لهم ، وإخلاداً إلى ما كان السَّحَرَةُ يُسَوِّلُون لهم ، فَخَيَّروا موسى فى الابتداء بناء على ما توهموا من الإلقاء ، فقال لهم موسى :

﴿ قال بل ألقُوا ، فإذا حِبالُهم
وعِصِيُّهم يُخَيَّلُ إليه مِن سِحْرِهِم
أنَّها تَسْعَى * فأوْجَسَ فى نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إنَّكَ
أنتَ الأعلَى * وألْقِ ما فى يمينِك
تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إنما صَنَعُوا كَيْدُ
سَاحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حيثُ
أتَى * فأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قالوا
آمَنَّا بِرَبِّ هارونَ ومُوسَى * قال
ءامَنْتُم لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُم
إنَّه لَكبيرُكُم الذى عَلَّمَكُم السِّحْرَ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وأرْجُلَكُم مِنْ
خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فى جُذُوعِ النَّخلِ
ولَتَعلَمُنَّ أيُّنَا أشَدُّ عَذَابًا وأبْقَى ﴾

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم ، وليس ذلك إذناً لهم فى السحر ، ولكن أراد الحقُّ إظهارَ تمويههم ، فلمَّا خيَّلوا للناس بإلقاء الحِبال أنها حياتٌ ابتلعَتْ عصا موسى جُمْلَةَ ما صَنَعُوا ، وتحقَّقَ السَّحَرَةُ أنَّ ذلك أمرٌ سماوىٌّ حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوقار[1] الحِبَال ، وصار الثعبانُ عَصاً كما كان ، فسجدوا لله مؤمنين ، وانقلب فرعونُ وقومُهُ خائبين ، وتوَعَّدَهم بالقتل والصَّلْبِ ، وفنونٍ من العذابِ الصعب ، وبعدما كانوا يقْسِمُون بِعِزَّةِ فرعونَ صاروا يَحْلِفُونَ بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لن نُؤْثِرَكَ على ما جَاءنا مِنَ البيناتِ والذى فَطَرَنا فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنما تَقْضِى هذه الحياةَ الدنيا﴾

أى بالله الذى فطرنا إنَّا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من البينات . ولما طلعت فى أسرارهم شموسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء ، وتحملوا اللأْواء[2] ، فكانوا فى الغَدَاةِ كُفَّاراً سَحَرَةً ، وأَمْسَوْا أخياراً بَرَرَةً[3] .

قوله « فاقضِ ما أنت قاضٍ . . . » عَلِمُوا أنَّ البلاء فى الدنيا يَنْقَضى — وإنْ تمادى ، وينتهى وإن تناهى[4]

قوله جل ذكره : ﴿ إنا آمنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أَكْرَهْتَنا عليه مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ .

أهمُّ الأشياء — على مَنْ عَرَفَه — مغفرتُه لخطاياه ، فهذا آدمُ — عليه السلام — لما

---

(١) الأوقار جمع وقر = الحمل الثقيل .

(٢) اللأواء = ضيق المعيشة وشدة المرض (الوسيط) .

(٣) فى هذه الإشارة فتح لباب الأمل امام العصاة نظراً لقصر المسافة بين الكفر والايمان ، فى كما بين الغداة والمساء .

(٤) أى وإن تناهى فى الشدة .

استكشف[1] من حاله ، وحلّ به ماحلّ قال : « ربِّ إنى ظلمتُ نفسى ... »[2] وقال لنبينا — صلى الله عليه وسلم — « واستغفِرْ لذنبك »[3] . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة »[4] . ومَنَّ عليه بقوله : « ليغفرَ لك اللهُ ماتقدَّم من ذنبك وما تأخر »[5]

قوله جل ذكره : ﴿ ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فاضْرِبْ لهم طريقاً فى البحر يَبَساً لا تخافُ دَرَكاً ولا تخشَىٰ * فأتبعَهُم فِرعونُ بجنودِه فغَشِيَهم مِنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُم * وأضَلَّ فِرْعَوْنُ قومَهُ وما هَدَىٰ ﴾ .

لما عبَرَ موسى ببنى إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحرَ منفلقاً والطريقَ فيه يَبَساً عَبَّرَ قَوْمَهُ بتلبيسه فقال : « إنه بمشيتى انفلق ، فأنا ربُّكم الأعلى ! » وحصل — كما فى القصة — من دخوله بعَسْكَرِه البحرَ حتى دخل آخرهم ، وهمَّ أن يخرج أوَّلُهم ، فأمر اللهُ البحرَ حتى التطمت أمواجه فغرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأسُ[6] ، ولم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه ، وقد أدركتْه الشقاوةُ التى سَبَقَتْ له من التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ يابنى إسرائيلَ قد أنجَيْنَاكُمْ من عَدُوِّكُمْ ووعدناكم جانبَ الطورِ الأيمنَ ونزَّلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوَىٰ ﴾

---

(١) يقصد القشيرى حين (بدت لها سوآتهما وانكشفت) وربما كانت فى الأصل (استنكف) اى خجل مما فعل فهى قريبة فى الكتابة وملائمة السياق .

(٢) آية ١٦ سورة القصص

(٣) آية ٥٥ سورة غافر .

(٤) عن اغر مزينة رضى الله عنه قال : قال رسول الله : إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم والليل مائة مرة . أخرجه مسلم وأبو داود .

(٥) آية ٢ سورة الفتح .

(٦) ربما كانت (البأس) بالباء فهى ملائمة للسياق .

يُذَكِّرُهم آلاءه ، ويعدُّ عليهم نعماءه ، ويأمرهم بالتزامِ الطاعة والقيامِ بالشكر لِمَا أسبغ عليهم من فنون النِّعم ، ثم يذكرهم مامَنَّ به على أسلافهم من إنزال المنِّ والسلوى ، وضروب المِحَنِ وفنون البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ كلُوا مِن طيباتِ مارَزَقْناكم ولا تطغَوْا فيه ﴾ .

الطيبُ ما كان حلالا . ويقال الطيب من الرزق مالا يَعْصِى اللهَ مُكْتَسِبُهُ . ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق . ويقال الطيب من الرزق ماحَصَل منه الشكرُ . ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من اللهِ ؛ فما لأهل الجنةِ مؤَجَّلٌ فى عقباهم جهراً ، معجَّلٌ لأصفيائه فى دنياهم سِرّاً ، قال تعالى : « آخذين ما آتاهم ربهم[1] » .

والأرزاقُ مختلفةٌ ؛ فلأقوام حظوظُ النفوس ولآخرين حقوقُ القلوب ، ولأقوامٍ شهودُ الأسرار ؛ فرزق النفوس التوفيق ، ورزق القلوب التصديق ، ورزق الأرواح التحقيق[2] .

قوله : « ولا تطغوا فيه » : بمجاوزة الحلالِ إلى الحرامِ .

ويقال « لا تطغوا فيه » : بالزيادة على الكفاف[3] ، وما لابُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق.
ويقال « لاتطغوا فيه » : بالأكل على الغفلة والنسيان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَيَحِلَّ عليكم غضَبِي ومَن يَحْلِلْ عليه غضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ .

فيحل عليكم غضبى بالخذلانِ لمتابعة الزَّلَّة بعد الزَّلَّة .
ويقال فيحل عليكم غضبى لِفَقْدِكم التأسُّفَ على مافاتكم .
ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال .

---

(١) آية ١٦ سورة الذاريات .
(٢) نضع ذلك فى اعتبارنا عند بحث الملكات الباطنية ، ووظائفها وآفاتها ... وأرزاقها .
(٣) الكفاف من الرزق ما كان على مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنّى لَغَفّارٌ لِمَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً ثم اهْتَدَىٰ ﴾ .

الغفّار كثيرُ المغفرة ؛ فمِنْك التوبةُ عن زَلّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرة لذنوبٍ كثيرةٍ ، ومنه السّرّيةُ التى لا اطلاعَ لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع . وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ ، وهو يغفر لِمَنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة ، وكما قالوا .

إنى — على جَفَوَاتِها — فبِرَبِّها وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ
وأُحِبُّها وأُحِبُّ منزلَها الذى نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

قوله « وإنى لغفار لمن تاب وآمن » : فلا تَصِحُّ التوبةُ إلا لمن يكون مؤمناً .

وقوله هنا : « وآمن » : أى آمن فى المآلِ كما هو مؤمِنٌ فى الحال .

ويقال آمن بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته ، إنما نجاتُه برحمته .

ويقال « وإنى لغفارٌ لمن تاب » : مِنَ الزّلّة « وآمن » : فلم يَرَ أعمالَه من نَفْسه ، وآمن بأن جميعَ الحوادثِ من الحقّ — سبحانه — « وعمل صالحاً » : فلم يُخِلّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنّة والجماعة[1] .

ويقال « ثُمَّ » : للتراخى ؛ أى آمن فى الحال « ثم » اهتدى فى المآل .

ويقال مَنْ سمِعَ منه « وإنّي » لا يقول بعد ذلك : « إنّى »[2]

ويقال من شَغَلَه سماعُ قوله : « وإنى » اسْتُهْلِكَ فى استيلاءِ ما غَلَبَ عليه من ضياء القربة ، فإذا جاءت « لَغَفّارٌ » صار فيه بعين المحو ، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعتنى بشأنه .

ويقال « إنى لغفار » كثير المغفرة لمن تاب مرةً ؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التى لم يَتُبْ منها سِرِّها وجَهْرِها ، صغيرِها وكبيرِها ، وما يتذكر منها وما لا يتذكر . ولا ينبغى أنْ يقولَ :

---

(١) واضح حرص القشيرى السنى على التمسك بسنيته — وهذا أصل ثابت فى مذهبه سواء فى علم الكلام أو فى علم التصوف .

(٢) فالتوحيد الصادق إسقاط الياءات ونفى كل دعوى للنفس .

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظُ عَمَلَه بعينِ الاستصغارِ ، وحالته بغير الاستقرار .

وقوله « ثم اهتدى » : أى اهتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَعْجَلَكَ عن قَوْمِكَ يا موسىٰ ﴾

أخْرَجَهُمْ مع نَفْسِه لمَّا استصحبهم ، ثم تقدَّمَهم[1] بخطوات فتأخروا عنه ، فقيل له فى ذلك مراعاةً لحقِّ صحبتهم .

ويقال قومٌ يُعاتَبون لتأخرهم وآخرون لتقدمهم . . فشتان ماهما !

قوله جل ذكره : ﴿ قال هم أُولاءِ على أثَرِى وعَجِلْتُ إليكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾

أى عجِلْتُ إليكَ شوقاً إليك ، فاستخرج منه هـذا الخطاب ، ولولا أنه استنطقه لَمَا أخبر به موسى[2] .

قوله « هم أولاء على أثرى . . » أى ما خلَّفْتُهم لتصيبى أيامىَ ، ولـكنى عَجِلْتُ إليك لترضى . قال : يا موسى إنَّ رضائى فى أن تـكون معَهم وألَّا تَسبِقَهم ، فـكونُكَ مع الضعفاء الذين استصحبتَهم — فى معانى حصول رضائى — أبلغَ مِنْ تَقَدُّمِكَ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنَّا قد فَتَنَّا قومَكَ من بَعْدِكَ ﴾

فَتَنَّا قومَكَ فَضَلُّوا وعبدوا العِجْلَ ؛ فأخبر الحقُّ — سبحانه — أنَّ ذلك منه تقدير ، وفى هذا تـكذيبٌ لِمَنْ جَحَدَ القولَ بالقَدَرِ .

ويقال طَلَبَ موسى — عليه السلام — رِضَاء الحق ، وقدَّر الحقُّ — سبحانه — فتنةَ قَوْمِه فقال : « إنا قد فتنا قومك من بعدك » ، ثم الحُكْمُ لله ، ولم يكن بُدٌّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله — فلا اعتراضَ على الله — ومِنَ العلم بحقِّ اللهِ فى أنْ يفعلَ ما يشاء ، وأنشدوا :

أُريد وِصَالَه ويريد هجرى فأتركُ ما أُريد لما يُريد

---

(١) حين ذهب لميقات ربه .

(٢) وإلا كان دعوى من النفس . ويفيدنا هذا الرأى في قضية الإفصاح والـكتمان .

قوله جل ذكره: ﴿وأضلهم السامرىُّ﴾

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل ، وهو نوع من التغرير ، وحصل ما حصل ، وظهر ما ظهر من (. . .)[1] .

قوله جل ذكره: ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا﴾

ورجع نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — من المعراج بنعت البسط ، وجاء بالنجوى[2] لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة ، وأكرمهم به من القربة بالزلفة . . فشتان ماهما !

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف ، وخاطبهم ببيان العتاب :

﴿قال يا قومِ ألمْ يعِدْكمْ ربُّكم
وعدًا حسنًا أفطالَ عليكم العهدُ ؟
أم أردتم أن يحِلَّ عليكم غضبٌ
من ربكم فأخلفتُم موعِدِى﴾

ظنوا بنبيِّهم ظنَّ السوْء فى خلفه الوعد ، فلحقهمْ شؤمُ ذلك حتى زاغوا عن العهد ، وأشركوا فى العقد . . وكذلك يكون الأمر إذا لم يفِ المرء بعقده ، فإنه ينخرط فى هذا السِّلْكِ

قوله جل ذكره: ﴿قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا
ولكنَّا حُمِّلْنا أوزارًا من زينةِ
القومِ فقذفناها فكذلك ألقى
السامرىُّ﴾

قالوا لم نكن فى ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منَّا ، ولا عالمين بما آلتْ إليه عاقبةُ

---

(١) مشتبهة ، وهى قريبة فى الخط من (التعدية) وربما كانت صحيحة بمعنى التعدى ؛ لأنهم تركوا عبادة الله إلى عبادة العجل فظلموا أنفسهم وتجاوزوا حدودهم .

(٢) ربما كانت (بالنجاة) حيث تتضح المقابلة بين أمة عاد إليها نبيها من عند ربه (بالنجاة) وأمة عاد إليها نبيها منذراً بالعقوبة ومع ذلك فقد قبلنا (النجوى) على أساس أنها جوهر الصلاة .

حالِنَا ، وإن الذى حملنا من حُلِيِّ القبط صاغَ السامرىُّ منه العجلَ . . وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يخلو من شؤمِ أثره . فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين حراماً عليهم ، فاستعاروا الحلىَّ من القبط ، وآل إليهم ما كان فى أيديهم من المُلْكِ ، فكان سبب عبادتهم العِجْل . . كذلك مَنْ انهمك فى طلب الدنيا من غير وجهِ حلالٍ يكون على خَطَرٍ من رِقَّةِ دينهِ ، قال تعالى : « أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فأخْرَجَ لهم عِجْلاً جَسَداً له خُوَارٌ فَقالُوا هذا إلهُكُم وإلهُ موسى فَنَسِيَ * أفَلا يَرَوْنَ ألاَّ يَرْجِعُ إليهم قَوْلاً ولا يَمْلِكُ لهم ضَرًّا ولا نَفْعاً ﴾

يقال إنهم لمَّا مَرُّوا على قومٍ يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَيْلُهم إلى عبادته مُسْتَكِناً فى قلوبهم ، فصاغ السامرىُّ العجل على تلك الصورة . وفى هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنَّت فى القلب فَمَا لم يُنْقَش ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أن يَلْقَى صاحبُهُ (. . .)[2] .

ويقال إن موسى — عليه السلام — خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِىَ قومُهُ بعبادة العجل ، ونبيُّنا — عليه السلام — خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص مِنْ أمته فى التوحيدِ حديثاً فى التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها مَخْلَصٌ[3] .

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدَّلوه تبديلاً ، بينما ضَمَنَ الحقُّ — سبحانه — إعزاز هذا الكتاب بقوله : « إنا نحن نَزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون »[4] .

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) مشتبهة وهى فى الرسم تقرب من (نعيبه) والنعيب صوت الغراب .. فهل يقصد القشيرى — ما ذكره منذ قليل — أن صاحبه يلقى شؤم أثر ذلك ؟ أم أن اللفظة فى الأصل غير ذلك؟ ربما كانت (تحبه) أو (نعبه) أو (مغبته) .

(٣) لأن المشبهة يدنون بتصوراتهم المادية عن الألوهية من عبدة العجل .

(٤) آية ٩ سورة الحجر .

وقال : « ليظهره على الدِّين كُلِّه »(١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً . . . » بَيَّن أنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم ، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة ، وفيه رَدٌّ على مَنْ لم يُثْبِتْ له فى الأزَلِ القولَ ، ولم يَصِفْه بالقدرة على الخير والشر :

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد قال لهم هارونُ من قَبْلُ ياقومِ إنَّما فُتِنتمُ به وإنَّ ربَّكُمُ الرحمٰنُ فاتَّبِعونِي وأَطِيعوا أمرِى ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة فى هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فَمَنْ تَرَكَ أمْرَ الحقِّ . . كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخَ وأكلَ الناس ؟ لهذا قيل : لا حُرْمَةَ لفاسق ؛ لأنه إذا تَرَكَ حقَّ الحقِّ فمتى يحفظ حقَّ الخلق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا لَن نَّبْرَحَ عليه عاكِفين حتىٰ يرجع إلينا موسى ﴾

كان ذلك تَعَلُّلاً منهم بالباطل ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل ؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ غير اللهِ . . ولكنْ كلُّ مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُ إلى ما يحتج به من الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ياهارونُ ما مَنَعَكَ إذْ رأيْتَهم ضَلُّوا * ألَّا تَتَّبِعَنِ أفَعَصَيْتَ أمْرِى ﴾

ضاق قلبُ موسى — عليه السلام — لَمَّا شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل ، ولقد كان سمع من الله أنَّ السامرىَّ أضَلَّهم حين قال : « إنَّا قد فتنا قومك » ، ولكن قديماً قيل : ليس الخبر كالعيان ، فلمَّا عايَنَ ذلك ضاق قلبُه ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر(٢) ،

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بشعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله غضباً ، وغيرة فى الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبُه اتسع لسانُه . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة . . وكذلك الواجب فى الصحبة لئلا يرتقى الأمرُ إلى الوحشة ، فاستلطفه فى الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿قال يا ابن أُمَّ لا تَأْخُذْ بلحيتى
ولا برأسى إنّى خَشِيتُ أن تقولَ
فَرَّقْتَ بين بنى إسرائيلَ ولم تَرْقُبْ
قَوْلى﴾

أنتَ أمَرْتَنى ألّا أُفارِقَهم . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى :فى الوقتِ الذى احتَجْتَ أنْ تَمْضِىَ إلى فرعون قلتَ : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » ، وقلت : « أرْسِلْه معى » ، وقلت حين مضيتَ إلى سماع كلام الحق : « اخلفنى فى قومى » . . . فما اكتفيت بأنْ لم تستصحبنى . . وخَلَّفْتَنى ! وقد عَلِمْتَ أنى برىء الساحةِ مما فعلوا فأخذتَ بلحيتى وبرأسى . . . ألم ترضَ بما أنا فيه حتى تزيدنى حَرْياً على حَرْيٍ[1] ؟! ... لو قال ذلك لكان مَوْضعَه ، ولكنْ لِحِلْمِه ، ولِعِلْمِه — بأنَّ ذلك كُلَّه حُكْمُ ربِّهم — فقد قابَلَ كلَّ شىء بالرضا .

قوله جل ذكره : ﴿قال فما خَطْبُكَ يا سَامِرِىُّ ؟﴾

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوعٍ آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وتَغَيُّرَه فى نَفْسِه ، واستيلاء الغضب عليه — لم يغيِّرْ التقدير ، ولم يؤَخِّرْ المحكوم .

قوله جل ذكره : ﴿قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثَرِ الرسولِ
فنَبَذْتُها وكذلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسِى﴾

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ ، فَقَبَضْتُ الترابَ من موضعِ حافرِ

---

(١) الحرى = الغضب (الوسيط جـ ١ ص ١٦٩)

دابته ، وألْقِي فى رَوْعى أن ذلك سببُ حياةِ العجل فطرحْتُها فى جوفه . . . هكذا زَيَّنَتْ لى نفسى فاتَّبَعْتُ هواها .

ثم كان هلاكُه . . لئلا يأمَنَ أحدٌ حتىَّ مَكْرِ التقدير ، ولا يركنَ إلى ما فى الصورة من رِفْقٍ فَلَعَلَّه — فى الحقيقة — يكون مكراً ، ولقد أنشدوا :

فأمِنْتُه فأتاحَ لى من مَأْمَنِي مَكْراً ، كذا مَنْ يَأمَنُ الأحبابا

قوله جل ذكره : ﴿ قال فاذهب فإنَّ لك فى الحياة أن تقولَ لا مِسَاسَ وإنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾

لم يَخْفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال فى خطابه مع الحق : « إن هى إلا فتنتك » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بإحلال العقوبةِ بالسامرى والأمر فى بابه بمايستوجبه ؛ ليُعْلَمَ أن الحُكْمَ فى الإبداع والإيجاد — وإنْ كان لله — فالمعاتبةُ والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ فى مقتضى التكليف ، وإجراء الحقِّ ما يُجْرِيه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْراً له .

قوله جل ذكره : ﴿ وانظُرْ إلى إلٰهِكَ الذى ظَلْتَ عليه عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّه ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليمِّ نَسْفاً ﴾

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُهُ الحقُّ — سبحانه بمُحِبِّهِ[1] ؛ ولهذا يُلْقِى الأصنامَ غداً فى النار مع الكفار ، وليس لها جُرْمٌ ، ولا عليها تكليف ، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر . . وإنما هى جماداتٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما إلٰهُكُمُ اللهُ الذى لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شىءٍ عِلْماً ﴾

إى إلهكم الذى تجب عليكم عبادتُه بحقِّ أمره هو اللهُ الذى لا إله إلا هو ، وهو بوصف الجلال ، والذى لا يخفى عليه شىء من المعلومات هو الله ، وليس مِثْلَ الذى هو جماد لا يَعْلَمُ

(١) الباء هنا معناها (مع) .

ولا يَقْدِرُ ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر . ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجمادَ ويحرقه .

قوله جل ذكره : ﴿ كذلك نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ مَا قد سَبَقَ وقد آتيناكَ من لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾

نعرِّفك أحوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليكَ شيء من طُرُقِهم ؛ فتتأدبَ بآدابِهم وتجتمعَ فيك مُتَفَرِّقاتُ مناقِبهم... ولكن اعلمْ أنَّا لم نُبلِغْ أحداً مَبْلَغَكَ ، ولم يكن لأحدٍ منَّا مالَكَ ؛ آتيناك من عندنا شَرَفاً وفخراً لم يشركك فيهما أحدٌ ، وذكَّرْناك ما سَلَفَ لَكَ من العهد معنا ، وجَدَّدْنا لك بينهم تخصيصَنا إياك ، وكريمَ إقبالِنا عليك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَّنْ أعْرَضَ عنه فإنَّه يَحْمِلُ يومَ القيامة وِزْراً ﴾

المُعْرِضُون عنه شركا يحملون غداً وِزْراً وثِقْلاً ، أولئك بَعُدُوا عن محلِّ الخصوصية ، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق ؛ فعقوبتهم لا تزيد على آلام نفوسِهم وإحراقِ أشباحهم ، وأمَّا أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسَوْه لحظةً لَدَارَ — في الحالِ — على رءوسهم البلا بحيث تتلاشى في جَهنَّم عقوبةُ كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة)(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ ونَحْشُرُ المجرمين يومئذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُون بينهم إن لَبِثْتُمْ إلاَّ عَشْراً * نحن أعْلَمُ بِمَا يقولون إذْ يقولُ أمْثَلُهُم طريقةً إن لَبِثْتُمْ إلاَّ يوماً ﴾

قومٌ يومُ القيامة لهم مؤجَّل ، وهو بعد النفخ في الصُّور على ما وَرَدَ في الكتاب وفي الخبر المأثور .

---

(١) ما بين القوسين أضفناه من عندنا ليتضح المعنى المطلوب حسبما نعرف من مذهب الصوفية أن عذاب الفراق أشد من عذاب الاحتراق .

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلةٌ[1] ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة ، وهوان حاضر وعذاب حاصل ، فكما تَرِدُ على ظواهرِ قومٍ فى الآخرة عقوباتٌ ، تَرِدُ على سرائر آخرين عقوباتٌ فى الحياة الحاضرة ، والمعاملةُ مع كلِّ أحدٍ تخالف المعاملةَ مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم . . . » مَنْ تَفَرَّغَ لِعَدِّ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرُ مستوفٍ فى بلائه ، وأمره سهلٌ . . . ومَنْ كان يُرَادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال ؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسْأَلُ عن الخبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونكَ عَنِ الجبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها ربى نَسْفاً * فيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَىٰ فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ﴾

كما أنَّ فى القيامةِ الموعودةِ تُغَيَّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهى كالعِهْنِ المنفوش فكذلك فى القيامة الموجودة . . . فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسى ثباتاً ؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يحقهم عن شواهدهم ، ويأخذهم عن أقرانهم . . . كذا سُنَّتُه سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لا عِوَجَ له وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا ﴾

تنقطع الأوهام ، وتقف الأفهام ، وتنخنس العقول ، وتندرس العلومُ ، وتتحير المعارفُ ، ويتلاشى ما هو نَعْتُ الخلْق ، ويستولى سلطانُ الحقيقة . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أثَرٌ ، ولا رسم ولا طلل ولا غَبَرٌ ، فى الحضور خرَسٌ ، وعلى البساط فَنَاء ، وللرسوم امتحاء ، وإنما الصحة على الثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ لا تَنْفَعُ الشفاعةُ إلاَّ مَنْ أذِنَ له الرحمنُ ورَضِىَ له قَوْلاً ﴾

---

(١) أى القيامة التى تحل بأرباب القلوب فى هذه الحياة الدنيا

(٢) لأنه يكون فانياً عن نفسه ، والقائم عنه ربُّه .

دليلُ الخطابِ انَّ مَنْ أذِنَ له فى الشفاعة تنفعه الشفاعةُ ، وإذا قُبِلَتْ شفاعة أحدٍ بإذن الرحمن فَمِنَ المحالِ ألاَّ تُقْبَلَ شفاعةُ الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو أفضل الكافة ، وشفاعةُ الأكابر من صفوته مقبولةٌ فى الأصاغر في المُؤَجَّل وفى المُعَجَّل . والحقُّ سبحانه يُشَفِّعُ الشيوخَ فى مريديهم اليوم[1]

ويقال شفاعة الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة ، وللعاصين بغفران الزَّلَّة ، كذلك شفاعة الشيوخ — اليوم — للمريدين على قسمين : للذين هم أصحاب السلوك فبزيادة التحقيق والتوفيق ، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرَّة فبالتجاوز عنهم ، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ قائلهم :

إذا مَرِضْتُمْ أتَيْنَاكُمْ نعودُكُمْ وتُذْنِبُون فنأتيكم ونعتَذِرُ !

وحكاياتُ السَّلفِ من الشيوخ مع مريديهم فى أوقات فترتهم معروفة ، وهى مُشَاكِلَةٌ لهذه الجملة ، وإن شفاعتَهم لا تكون إلا بتعريفٍ من قِبَلِ الله فى الباطن ، ويكون ذلك أدباً لهم فى ذلك

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يُحِيطون به عِلْماً ﴾

لا يخفى على الحق شىء مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتيها ، ولا يحيطون به عِلْماً . والكناية[2] فى قوله : « به » يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، ويحتمل أن يعود إلى الحقِّ — سبحانه — ، وهو طريقة السَّلَف ؛ يقولون . يعلم الخلْقَ ولا يحيط به العلم ، كما قالوا : إنه يَرَى ولا يُدْرَك .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَنَتِ الوجوهُ للحىِّ القيومِ وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ .

---

(١) بينما ينكر المعتزلة الشفاعة (أنظر الملل والنحل للشهر ستانى) يثبت القشيرى الشفاعة لا للرسول فقط بل للأولياء فى الدارين ، وللشيوخ في هذه الحياة الدنيا .. على نحو ما هو واضح من إشارته.

(٢) الكناية فى تعبير القشيرى معناها (الضمير) ، وهو هنا الهاء فى (به) .

ذلَّتْ له الرقاب واستسلم لحكْمِه الخلْقُ ، وخَضَعَت له الجبابرةُ ، ومَنْ اقترف الظلمَ بقى فى ظُلُماته ، وعلى حسب ذلك فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وهو مؤْمِنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضْمًا ﴾ .

العمل الصالح مايصلح للقبول ، فاعِلُه هو المتجرِّدُ عن الآفاتِ الواقفة لحقيقة الأمر .

ويقال العمل الصالح مالم يستعجل عليه صاحبُه أجراً .

قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المآل كما هو مؤمن فى الحال .

ويقال هو مؤمنٌ مصدِّق لربِّه أنه لايعطى المؤمنَ لأَجْلِ إيمانه شيئا ، ولكن بفضله ، وإيمانُه أمارةٌ لذلك لاموجِبٌ له [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناعربيا وصَرَّفنا فيه من الوعيدِ لعلَّهم يتقون أو يُحدِثُ لهم ذِكْرًا ﴾ .

أتبعْنا دليلا بعد دليل ، وبعثنا رسولا بعد رسول ، وحذَّرْناهم بوجوهٍ من التعريفات ، وإظهارِ كثيرٍ من الآيات

قوله جل ذكره : ﴿ فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ ﴾ .

تعالى اللهُ فى كبريائه ، وكبرياؤه : سناؤه وعُلاه ومَجْدُه ورِفْعَتُه وعظَمَتُه ، كل ذلك بمعنًى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم .

و « الملِكُ » : مبالغةٌ من المالك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والانفراد بذلك .

و « الحقُّ » : فى وصفه — سبحانه — بمعنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام : « العين حق » [2] أى موجود .

---

(١) على خلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يثيب من أطاع ويعاقب من أذنب .

(٢) يقول القشيرى فى تحبيره ص ٦٨ « الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن ، وكذا معناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام : « السحر حق » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق بمعنى ذى الحقّ ، ويكون بمعنى مُحِقّ الحق . كل ذلك صحيح .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ من قَبْلِ أن يُقْضَىٰ إليكَ وَحْيُهُ وقُل رَبِّ زِدْنى عِلْماً ﴾ .

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافةَ النسيان ، فأمَرَه بالتثبت فى التلقين ، وأمَّنَه من طوارِق النسيان ، وعرَّفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط فى القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إنْ لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحقّ اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .

فالآية تشير إلى التثبت فى الأمور وضرورة التمسك واللبث قصداً للاحتياط [1] .

قوله : (وقل ربِّ زدنى علماً) : فإذا كان أعلَمُ البَشَرِ ، وسيِّدُ العرب والعجم ، ومَن شهد له الحقُّ بخصائص العلم حين قال « وعلَّمَكَ مالم تكن تعلم » [2] يقال له : « وقل رب زدنى علماً » — علِمَ أنَّ ما يخصُّ به الحقُّ أولياءه من لطائف العلوم لاحَصْرَ له .

ويقال أحاله على نفسه [3] فى استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : « هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما علمت رشداً » فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ فى ذلك ثم قيل له : « إنك لن تستطيع معى صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له فى آخر الأمر : « هذا فراق بينى وبينك » . . . وبين عبدٍ أمَرَه عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال : قُلْ يامحمد : « وقل ربِّ زدنى علماً » !

ويقال لما قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » [4] ، قال له : « وقل رب زدنى علماً » لِيُعْلَمَ أنَّ أشرف خِصالِ العبدِ الوقوفُ فى محلِّ الافتقار ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف فى مَعْرِض الدعوى [5] .

---

(١) هذا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياطه فى تناول النص النقلى .

(٢) آية ١١٣ سورة النساء .

(٣) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيتضح بعد قليل .

(٤) البخارى عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له) .
والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٥) أى أن يكون العبد داعياً لا دعيا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قَبْلُ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾

لم نجد له قوةً بالكمال ، وانكماشاً فى مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمَةُ العصيان بقوله: « وعصى آدم ربَّه »[1] .

ويقال « لم نَجِدْ له عزماً » : على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عزماً فى القصدعلى الخلاف[2] ، وإنْ كان.. فذلك بمقتضى النسيان ، قال تعالى « فَنَسِيَ ولم نجد له عزماً » على خلاف الأمر ، وإنْ كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر .

ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله ؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم ، واستقبلته هذه الخطيئة ، وقوله تعالى « فنسى » من النسيان ، ولم يكن فى وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله : « فنسى » ثم أظهر عُذْرَه فقال : « ولم نجد له عزماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قُلْنَا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلاَّ إبليس أبَىٰ ﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر ، ولم تتقدم[3] [من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فَخَلَقه الحقُّ بيده ، ورَفَعَ شأنَه بعدما علَّمه ، وحُمِلَ إلى الجنة ، وأمَرَ الملائكةَ فى كل سماءٍ أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء ، واختباراً لهم . فسجدوا بأجمعهم . وامتنع ابليسُ من بينهم ، فلَقِيَ من الهوان ما سبق له فى حكم التقدير . والعَجَبُ ممن يخفى عليه أنَّ مثل هذا يجرى من دون إرادة الحقِّ ومشيئته وهو عالِمٌ بأنه كذلك يجرى ، واعتبروا الحكمةَ فى أفعاله وأحكامه ، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته ، وكثرة مخالفات

---

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها .

(٢) الخلاف = المخالفة .

(٣) ابتداء من هذا الموضع وحتى ينتهى الكلام بين القوسين الكبيرين وضعه الناسخ خطأ فيما بين الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تفسير سورة الفرقان أى فى مكان متأخر كثيراً وقد صححنا وضعه ، ونبهنا إلى ذلك فى مدخل هذا الكتاب (المجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحقَّ سبحانه أراد خلاف ما علِمَ ، وأجرى فى سلطانه ما يكرهه وهو عالِمٌ ، وكان عالما بما سيكون ! ثم خلق إبليس ومكَّنه من هذه المعاصى مع إرادته ألا يكون ذلك ! ويدَّعُون حُسْنَ ذلك فى الفعل اعتباراً انما هو الحكمة . . . فسبحان مَنْ أعْمَى بصائرَهم ، وعَمَّى حقيقةَ التوحيد عليهم !

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُلْنَا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌّ لَكَ ولزوجكَ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقَى ﴾

وما كان ينفعهم النُّصْحُ وقد أراد بهم ما حذَّرَهم ، وعَلِمَ أنهم سيلقون ما خوَّفهم به .

قوله : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأمَّا إنَّه أضاف الشقاء إلى ادم وحدَه — وكلاهما لحِقَه شقاء الدنيا — فذلك لمضارعة رءوس الآى ، أو لأن التعبَ على الرجال دون النساء . ومَنْ أصغى إلى قول عدوِّه فإنه يتجرَّعُ النَّدَمَ ثم لا ينفعه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ لَكَ ألاَّ تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ وأنَّكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَىٰ ﴾

لا تصديقَ أتمُّ من تصديقِ آدم ، ولا وعظَ أشدُّ رحمةً من الله ، ولا يقينَ أقوى من يقينه . . ولكن ما قاسى آدمُ الشقاء قبل ذلك ، فلمَّا استقبله الأمرُ وذاق ما خُوِّف به من العناءِ والكدِّ نَدِمَ وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » أُوثِرَ بكل وجه ؛ فلم يعرف قَدْرَ العافيةِ والسلامةِ ، إلى أن جرى ما هو محكومٌ به من سابقِ القسمة .

ويقال تنعَّمَ آدمُ فى الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى فى الدنيا عليه الجوعُ والعطشُ ، والبلاء من كل (. . .)(١)

---

(١) هنا طمس أخفى لفظة فى نهاية السطر وهى أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتقبلها ، فالقشيرى يستعملها فى مواضع مماثلة (أنظر مثلا استعماله (منون الحذلان) عند تفسير الآية التى ستأتى بعد قليل : ومن اعرض عن ذكرى ...) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتى فى العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدَّدَ له نوعٌ من البلاء أخذ فى البكاء، وجبريل عليه السلام يأتى ويقول : « ربُّك يُقْرِئُك السلامَ ويقول : لِمَ تبكى ؟ فكان يُذَكِّر جبريلَ عليه السلام وهو يقول : أهذا الذى قُلْتَ : « وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . . ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَسْوَسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أَدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحقُّ يعلم ذلك ولم يذكُرْ آدمُ فى الحال أن هذا من نزغات مَنْ قال له — سبحانه : « إن هذا عدو لك » .

ويقال : لو عَمَّى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها ، ولو لم يكن (. . .)[1] حتى دلَّه على تلك الشجرة (إيش)[2] الذى كان يمنعه منه إلا أنَّ الحُكمَ منه بذلك سَبَقَ ، والإرادةَ به تعلَّقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقىُّ ، فعلتَ وصنعتَ . . !

فقال ابليس لآدم : إنْ كنتُ شيطانَك فَمَنْ كان شيطانى[3] ؟

ويقال سُمِّى الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله ، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإنْسِ ، وشياطين الإنْسِ شرٌّ من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم فى البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسَتِه .

والناسُ تكلموا فى الشجرة : ما كانت ؟ والصحيحُ أنْ يقالَ إنها كانت شجرة المحنة .

ويقال لو لم تُخْلَقْ فى الجنة تلك الشجرةُ لَمَا كان فى الجنة نقصانٌ فى رتبتها[4]

---

(١) مشتبهة .

(٢) معناها (فأى شىء ؟) وهى هنا استفهامية .

(٣) فى ذلك تنصل من اللعين أساسه المغالطة والتلبيس .

(٤) أى أن الجنة فى عرف هذا المتكلم (مخلوقة) و (حادثة) .

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِل إليها يده ، ولكنه — كما فى القصة — كانت لا تصل إلى أوراقها يده — بعد ما أكل منها — حينما أراد أنْ يأخذَ منها لِيَسْتُرَ عورتَه[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾

لمَّا ارتكبا المنهىَّ عنه ظهر مايُسْتَحْيَي مِنْ ظهوره ، ولكنَّ اللهَ — سبحانه — أَلْطَفَ معهما فى هذه الحالة بقوله : فَبَدَتْ لهما سوآتهما ، ولم يَقُلْ — مُطْلَقاً — فبدت سَوْءَتُهما ؛ أى أنه لم يُطْلِعْ على سوءتهما غيرَهما .

ويقال لَمَّا تجرَّدَا عن لِباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وطَفِقَا يخصفان عليهما من وَرَقِ الجنَّة ﴾

أولُ الحِرَفِ والصناعات — على مقتضى هذا — الخياطةُ ، وخياطةُ الرِّقَاع بعضها على بعض للفقراء ميراثٌ من أبينا آدم — عليه السلام[2] .

ويقال كان آدمُ — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلَل الجنة وفنونِ اللِّباس ما اللهُ به أعلمُ ، ثم لم يُمسِ حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان فى الابتداء ما هو موروثٌ فى أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة »[3] : عند ذلك وقعت عليهما الخَجْلةُ لمَّا وَرَدَ عليهما خطاب الحقِّ : « ألم أنهكما عن . . . » ولهذا قيل : كفى للمُقَصِّر الحياء يوم اللقاء

قوله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . . . »[4] : لم يتكلما بلسان الحجة فقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، ولم يقولا : بظلمنا صرنا من الخاسرين ، بل قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا

---

(١) وفى هذا تحذير ضمنى للأكابر من الوقوع فى الزلة ، وكيف أن كرامة الولى تتلاشى بزلته .
(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما نؤرخ للخرقة والمرقعة عند الصوفية .
(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .
(٤) آية ٢٣ سورة الأعراف .

لنكونن من الخاسرين » ليُعْلَمَ أنَّ المدارَ على حُكْمِ الربِّ لا على جُرْمِ الخلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَصَىٰ آدمُ ربَّهُ فغَوَىٰ ﴾

لَمَّا وَقَعَتْ عليه سِمَةُ العصيان — وهو أوَّلُ البشرِ — كان فى ذكر هذا تنفيس لأولاده ، أن تجرى عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة فى حين الفترة .

ويقال كانت تلك الأكلةُ شيئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويرددها الصبيانُ إلى يومِ القيامة .

وعصى آدم ربَّه ليُعْلَمَ أن عِظَمَ الذنوب لمخالفةِ الآمرِ وعِظَمِ قَدْرِه . . لا لكثرة المخالفة فى نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم اجتباه ربُّهُ فتابَ عليه وهَدَىٰ ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ ما فَعَلَه اجتباه ربُّهُ ؛ فالذى اصطفاه أولاً بلا عِلَّة[1] اجتباه ثانياً بعد الزَّلَّة ، فَتَابَ عليه ، وغَفَر ذنبَه ، « وهدى » : أى هداه إليه حتى اعتذر واستغفر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اهْبِطَا منها جميعاً بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يأتينكم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُداى فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالت المحنُ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان ، والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

« فمن اتَّبع هداى . . . » وتَرَكَ هواه ، ولم يعملْ بوسوسة العدوِّ فله كُلُّ خير ، ولا يلحقه ضَيْر .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أعْرَضَ عن ذِكْرِى فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ﴾

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك فى الدنيا ، وفي القبر ،

---

(١) تفيد هذه العبارة فى بيان أهمية الاصطفاء الإلهى ، وأن العمل الإنسانى له الدرجة الثانية فى الأهمية . ثم تفيد فى بيان الفرق فى الاصطلاح بين (الاصطفاء) و (الاجتباء) .

وفى النار ، وبالقلب من حيث وحشة الـكفر ، وبالوقتِ من حيث انغلاق الأمور .

ويقال مَنْ أعرض عن الانخراط فى قضايا الوفاق انثالت عليه فنونُ الخذلان ، ومنْ أعرض عن استدامة ذكره — سبحانه — بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ .

ومَنْ أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النَّفْس بما يوجب له وحشةَ الضمير ، وانسداد أبواب الراحة والبسط .

ويقال مَنْ أعرض عن ذِكْرِ الله فى الخلوةِ قَيَّضَ اللهُ له فى الظاهر من القرينِ السوء ما توجِبُ رؤيتُه له قَبْضَ القلوبِ واستيلاء الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَحْشُرُه يومَ القيامةِ أعمى * قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلك اليومَ تُنْسَىٰ ﴾

فى الخبر : « مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ اللهَ بها » فَمَنْ كان فى الدنيا أعمى القلب يُحْشَرُ على حالته ، ومَنْ يَعِشْ على جهلٍ يحشر على جهلٍ ، ولذا يقولون : « مَنْ بعثَنَا مِنْ مَرْقدنا ؟ »[1] إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً .

وكما يَتْرُكُون — اليومَ — التَدبُّرَ فى آياتِه يُتْرَكُون غداً فى العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نجزى مَنْ أسرف ولم يؤمِنْ بآياتِ ربهِ ولَعَذَابُ الآخرةِ أشَدُّ وأبقىٰ ﴾

جَرَتْ سُنَّتُه بأنْ يُجازِيَ كُلاً بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسِه سيلقى غِبَّه ؛ على الخير خيراً ، وعلى الشرِّ شرًّا .

---

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قَبْلَهم من القرونِ يمشون فى مساكنهم إنَّ فى ذلك لآياتٍ لأُولى النُّهى ﴾

أى أفلا ينظرون فيتفكرون[1] ؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون ؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدجرون ؟ أم على وجوههم — فى ميادين غفلاتهم يركضون ، وعن سوء معاملاتهم لا يرجعون ؟ ألا ساء ما يعملون !

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن ربِّكَ لكان لِزَاماً وأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾

لولا أنَّ كلمةَ اللهِ سَبَقَتْ بتأخير العقوبة عن هذه الأمة ، وأنه لا يستأصلهم لأنَّ جماعةً من الأولياء فى أصلابهم لعَجَّلَ عقوبتَهم ، ولكن .. كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدةً معلومة ، ولكنه لم يهملهم أصلاً .

وإذا كانت الكلمةُ بالسعادة لقومٍ والشقاوة لقومٍ قد سبقت ، والعلمُ بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى — فالسعىُ والجهدُ ، والانكماشُ والجدُّ .. متى تنفع ؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طلوعِ الشمسِ وقبل غروبها ، ومن آناءِ الليل فسبِّحْ وأطرافَ النهارِ لعلَّكَ تَرْضَى ﴾

سماعُ الأذى يوجب المشقة ، فأزال عنه ما كان لَحِقَه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون ، وأمَرَهُ : إنْ كان سماعُ ما يقولون يُوحِشُكَ فتسبيحُنا — الذى تُثْنِى به علينا — يُرَوِّحُك .

« قبل طلوع الشمس » : أى فى صدر النهار ؛ ليباركَ لكَ فى نهارِك ، وينعَّمَ صباحُك .

« وقبل غروبها » أى عند نقصان النهار ؛ ليطيبَ لَيْلُكَ ، وينعمَ رَوَاحُك .

---

(١) (الفاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب ، ولو اعتبرناها سببيه نقول (فيتفكروا) لوقوعها بعد أسلوب طلبي ، ولكننا أثبتنا ما جاء فى النص لتكرار ذلك فيما تلاه .

« ومن آناءِ الليل » أى فى ساعات الليلِ ؛ فإن كمالَ الصفوة فى ذكر الله فى حال الخلوة .
« وأطراف النهار » أى اسْتَدِمْ ذِكْرَ اللهِ فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَينيكَ إلى ما مَتَّعْنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فيه ﴾

فضل[1] الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام ، والذى له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فَلْحَقٌّ على جميع أحواله غَيْرَةٌ ؛ إذ لا يَرْضَى منه أنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس لله — سبحانه — فيه رِضاه ، وفى معناه أنشدوا :

فعينى إذا اسْتَحْسَنَتْ غيرَكم أمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لمّا أدَّبَهُ فى ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَ على وجه الأرض بِفَرْدِ قَدَمٍ تصاوناً عنها حتى قيل له : « طه » أى طأ الأرضَ بِقَدَمِك . . ولِمَ كلُّ هذه المجاهدة وكل هذا التباعد حتى تقف بِفَرْدِ قَدَمٍ ؟ ! طَأ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يُشْغَل به عن الحقّ ، ويستولى حُبُّه على القلب ، ويُجَسِّر وجودُه على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البَطَر والأَشَر .

قوله جل ذكره : ﴿ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأَبْقَى ﴾

القليلُ من الحلالِ — وفيه رضاء الرحمن — خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام . ومعه سُخْطُه . ويقال قليلٌ يُشْهِدُكَ ربُّكَ خيرٌ مِنْ كثير يُنْسِيكَ ربُّك .

قوله جل ذكره : ﴿ وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبر عليها ﴾

الصلاةُ استفتاحُ بابِ الرزق ، وعليها أحال فى تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه . ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قُوتُ النَّفْس قَوِىَ قُوتُ القلب .

وأمَرَ — الرسولَ — عليه السلام — بأن يأمرَ أهلَه بالصلاةِ ، وأنْ يَصْطَبِرَ عليها .

---

(١) الفضل هنا معناه الزيادة (وفضل الرؤية) زيادة التطلع إلى أكثر من المباح .

وللاصطبار مزية على الصبر ؛ وهو ألاَّ يَجِدَ صاحبُهُ الألمَ بل يكون محمولًا مُرَوَّحاً .

قوله جل ذكره : ﴿ لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾

أى لا نكلفك برزق أحدٍ ؛ فإنَّ الرازقَ اللهُ — سبحانه — دون تأثير الخَلْق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نرزُقُكَ والعاقبةُ للتقوىٰ ﴾

هما شيئان : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة[1] النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة[2] القلوب .

ويقال استقلالِ[3] العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الرزَّاق .

ويقال نَفى عن وقته الفَرْقَ بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فإنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزق .

ويقال خفَّفَ على الفقراء مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّرِه عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله : « نحن »[4]

قوله : « والعاقبة للتقوى » : أى العاقبة بالحسنى لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي ، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر[5]

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا يَأْتِينا بآيةٍ مِّن ربِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ ما فى الصُّحُفِ الأُولىٰ ﴾

عَمِيَتْ بصائرهم وادَّعوا أنه لا برهانَ معه ، ولم يكن القصورُ فى الأدلة بل كان الخَلَلُ فى بصائرهم ، ولو جمع اللهُ لهم كلَّ آيةٍ اقْتَرَحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ اللهُ أنْ يؤمنوا لَمَا

---

(١) ، (٢) ربما كانا (قوت النفوس ، وقوت القلوب) بالتاء المفتوحة ؛ فقد سبقا هكذا منذ قليل ، وإن كان السياق لا يمنع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٣) (استقلال) هنا بمعنى اكتفاء .

(٤) لأن من عاش ؛ (نحن) اكتفى بها ولم يستعجل شيئاً .

(٥) كما يقال مثلا (رجل عدل) ونحو ذلك .

ازدادوا إلا طغياناً وكفرا وخسرانا . . . وتلك سنّةُ أسلافهم فى تكذيب أنبيائهم ، ولذا قال :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنّا أهلكناهم بعذابٍ مِن قَبْلِه لقالوا ربّنا لولا أرْسَلْتَ إلينا رسولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ من قبلِ أن نَذِلَّ ونَخْزَىٰ ﴾ .

إنْ أرسلنا إليهم الرسلَ قابلوهم بفنونٍ من الجحد ، ووجوهٍ من العلل ؛ مرةً يقولون فما بالُ هذا الرسول بَشَر ؟ هلاّ أرسله مَلَكاً ؟ ولو أرسلنا مَلَكًا لقالوا هلاّ أرسل إلينا مثلنا بَشَرًا ؟ ولو أظهر عليهم آيةً لقالوا : هذا سِحْرٌ مُفتَرَى ؛ ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا :

هلاّ بَعَثْتَ إلينا رسولاً حتى كنا نؤْمِن ؟ فليست تنقطع أعلالُهم ، ولا تنفك — عما لا يُرْضَى — أحوالهُم . وكذلك سبيلُ مَنْ لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب فى الوداد ، وفى معناه أنشدوا :

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوِصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتعلمون مَنْ أصحابُ الصِّراط السَّوِيِّ ومَنِ اهتدىٰ ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو فى المستأنف ، إلاّ أنّ أربابَ التفرقة ينتظرون ما سيبدو مِمّا يقتضيه حُكْمُ الأفلاك ، وما الذى توجبه الطبائعُ والنجومُ . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم فى رَوْحِ التوحيد ، والباقون فى ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ .

السورة التى يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

بسم الله اسم عزيز مَنْ توسَّلَ إليه بطاعته تفضَّلَ عليه بجميل نعمته ؛ إنْ أطاع فَضَّلَه ، وإن أضاع أمْهَلَه ، ثم إنْ آبَ وأقرَّ . . ذَكَرَه ، وإن عصى وعاب سَتَرَه ، فإن تَنَصَّلَ رَحِمَه ، وإنْ تَكَبَّرَ قَصَمَه[1] .

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلاَّ بآثار توفيقه ، وما استضاءت السرائرُ إلا بأنوار تحقيقه ؛ بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم ، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم ، وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجِلَ مثوبتهم ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتَرَبَ للناسِ حِسابُهم وهم فى غَفْلَةٍ مُعْرِضُون ﴾ .

فالمطيعون منهم عَظُمَ لدينا ثوابُهم ، والعاصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابُهم .

« فى غفلة » يقال الغفلة على قسمين : غافلٍ عن حسابه باستغراقه فى دنياه وهواه ، وغافلٍ عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه ؛ فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْل ؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أَبَدَ الأبدِ لفنائهم فى وجود الحق تعالى[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

---

(١) يمكن القول أن هناك نوعاً من الترابط والانسجام بين إشارات البسملة — على هذا النحو — وبين جزئيات السورة ، حيث انقسم الناس إزاء الأنبياء إلى مصدق ومكذب ، ومؤمن وجاحد . . ونال كل جزاءه .

(٢) تهمنا هذه الإشارة عند دراسة المصطلح الصوفى ؛ فالغفلة نوعان : مذمومة ومحمودة ؛ غفلة ناشئة عن الهجر وغفلة ناشئة عن الوصل .

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازدادوا نفوراً ، ولم يُنزِّلْ عليهم خِطاباً إلا ردُّوه جحداً وتكذيباً ، وما زدناهم فضلاً إلا عدُّوه هَزْلاً ، وما جددنا لهم نعمةً إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة ، فكان الذى أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . وهذه صفة مَنْ أساء مع الله خُلُقَه ، وخَسِرَ عند الله حقَّه .

قوله جل ذكره : ﴿ لاهيةً قلوبُهم وأسَرُّوا النَّجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم أفتأتون السِّحْرَ وأنتم تُبْصِرُن ﴾

عَمِيَتْ بصائرُهم وغاست أفهامهم ، فهم فى غباوة لا يستبصرون ، وفى أكِنَّة عمَّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون .

قوله : « وأسروا النجوى . . . . » لمَّا عجزوا عن معارضته ، وسقطوا عند التحدى ، وظهرت عليهم حُجَّتُه رَجَّمُوا فيه الفِكْرَ ، وقَسَّمُوا فيه الظن ؛ فمرةً نسبوه إلى السحر ، ومرةً وصفوه بقول الشعر ، ومرة رَمَوْه بالجنونِ وفنونٍ من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه : هو محمدٌ الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْباً

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربى يعلم القولَ فى السماء والأرض وهو السميعُ العليمُ ﴾

الأقاويل التى يسمعها الحقُّ — سبحانه — مختلفة ؛ فمِنْ خطابٍ بعضهم مع بعض ، ومن بعضهم مع الحق . والذين يخاطِبون الحقَّ : فمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا ، ومِنْ داعٍ يطلب كرائمَ العُقْبَى ، ومِنْ مُثْنٍ يثنى على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى .

ويقال يسمع أنينَ المُذْنبين سِراً عن الخلق حَذَراً أن يفتضحوا ، ويسمع مناجاةَ العابدين بنعت التسبيح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهم البُرَحاء[1] فَضَجُّوا من شدة الاشتياق .

---

(١) البرحاء : الشدة .

ويقال يسمع خطابَ مَنْ يناجيه سِرًّا بسرٍّ ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثنى عليه بلسان سِرِّه.

قوله جل ذكره : ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراه بل هوشاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأولون ﴾

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه — بعدما نزَّلنا إليه الأمر — من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا هِمَمَه على الوصف الذى كانوا يصفونه به من صدق فى الحال والمقال ، وكما قيل :

رمتنى بدائها وانسلت .

قوله جل ذكره : ﴿ما آمَنَتْ قَبْلَهم مِّن قريةٍ أهلكناها أفَهُم يؤمنون ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَه أنْ يُعَذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا فى الحال ولا فى المآل . وإنَّ هؤلاء الذين كفروا فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أمثالُهم فى الكفران ، وقد حَكَمَ الحقُّ لهم بالحرمان والخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رِجَالاً نوحى إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إن كُنتم لا تعلمون ﴾.

لمَّا قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسِلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بَشراً ، وذَكَرَ أنَّ الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إياهم .

ثم قال : « فاسألوا أهلَ الذكر إنْ كنتم لا تعلمون » : الخطاب للكلِّ والمراد منه الأمة ، وأهلُ الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم . ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين فى محل الإعلام من الحقِّ — سبحانه — أومن يُحْسِنُ الإفهامَ عن الحق .

ويقال العالم يرجع إلى الله فى المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكلت الواقعةُ فيخبر عن اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مقلداً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النصَّ وأدى اجتهاده إلى شىء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأمَّا الحكيم فإذا تكلم فى المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتِي به فإن لم تتقدم له مَن قِبَله المنازلة فتواه فى هذا الطريق كفتوى المقلِّد فى مسائل الشرع .

فأمَّا العارف فيجب أن يتكلم فى هذا الطريق عن وَجْدِه — إنْ كان — وإلا فلاتُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَعُ[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناهم جَسَدًا لا يأكلون الطعامَ وما كانوا خالدين ﴾

لَمَّا عَيَّروا الرسولَ — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . أخبر أن أكْلَ الطعامِ ليس بقادحٍ فى المعنى الذى يختص به الأكابر ، فلا منافاةَ بين أكل الطعام وما تُكِنُّه القلوبُ والسرائر من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها مما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السرُّ .

قوله : « وما كانوا خالدين » : أى إنهم على ممرٍ ومعبرٍ ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْد .

قوله جل ذكرة : ﴿ ثم صَدَقْنَاهم الوعدَ فأنجيناهم ومَن نشاء وأَهْلَكْنَا المُسْرِفين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يُحَقِّق وعدَه وإنْ تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون . والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدِّين ، وإرغام مَنْ نَابَذَ الحقَّ مِنَ الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

---

(١) تهم هذه الإشارة فى توصية الشيوخ إذا استفتاهم المريدون ، كما تهم فى توضيح ما يمكن أن نسميه « أصول الفقه عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكُمْ أفلا تعقلون ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : « فيه ذكركم » : أى شرفُكم ومحلُّكم، فَمَنْ استبصرَ بما فيه من النور سَعِدَ فى دنياه وأخراه .

قوله جل ذكره . ﴿ وكَمْ قَصَمْنَا مِن قريةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ .

إنَّ اللهَ يُمْهِل الظالمَ حيناً لكنه يأخذه أَخْذَ قهرٍ وانتقام ، وقد حَكَمَ اللهُ بخرابِ مساكنِ الظالمين ، وقد جاء الخبر : « لو كان الظلم بيتاً فى الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب » ؛ فإذا ظلم العبدُ نَفْسَهُ حَرَّمَ اللهُ أنْ يقطنها التوفيقُ وجعلها موطنَ الخذلان ، فإذا ظَلَّمَ قلبَه بالغفلة سَلَّط عليه الخواطرَ الردية التى هى وساوس الشيطان ودواعى الفجور . وعلى هذا القياس فى القلة والكثرة ؛ إنَّ الروح إذا خربت زايلتها الحقائقُ والمحابُّ ، واستولت عليها العلائقُ والمساكنات .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بأسَنَا إذا هم منها يَرْكُضُون ﴾

لمَّا ذاقوا وبالَ أفعالهم اضطربوا فى أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهم ، ولم تَعُدْ إلى محالِّها أقدامُهم ، وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبَلُ الأمانة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومساكِنِكم لَعَلَّكم تُسألون ﴾

وللخيانة سراية[1] ، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية ، وإذا غرقت السفينةُ فليس بيد المَلَّاحِ إلا إظهار الأسف ، وهيهات أن يُجْدِى ذلك !

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظالمين ﴾

---

(١) سرى الجرح او السوء سراية . أى دام الألم منهما حتى حدث الموت . ويقال سرى التحريم وسرى العتق أى تعدى إلى غير المحرم أو المعتق (الوسيط) .

للإقرار زمان ؛ فإذا فات وقتُه فكما في المَثَل : يسبق الفريص الحريصُ . ووَضْعُ القوسِ بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾

إنَّ مِنَ البلاء أنْ يشكوَ المرء فلا يُسْمَع ، ويبكي فلا يَنفَع ، ويدنو فَيُقْصَى ، ويعرض فلا يُعاد ، ويعتذر فلا يُقْبَل . . وغايةُ البلاءِ التَّلَفُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما خَلَقْنَا السماء والأرضَ وما بينهما لاعبين ﴾

اللَّعِبُ نعتُ من زَالَ عن حَدِّ الصواب ، واستجلب بفعله الالتذاذ ، وانجرَّ في حَبْلِ السَّفَهِ . وحَقُّ الحقِّ مُتقَدِّسٌ عن هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ لو أرَدْنَا أن نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتخذناه من لَدُنَّا إن كُنَّا فاعلين ﴾

يخاطبهم على حسب أفهامهم ؛ وإلا . . فالذي لا يعتريه سهوٌ لا يستفِزُّه لهْوٌ ، والحقُّ لا يعتريه ولا يضاهيه كُفْوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطِلِ فَيَدْمَغُه فإذا هو زاهِقٌ ولكم الويلُ مِمَّا تصِفُون ﴾

نُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأوهام فينقشع سحابُ الغيبة ، وينجلي ضبابُ الأوهام ، وتنير شمسُ اليقين ، وتصحو سماء الحقائق عن كلِّ غُبار التُّهَم .

قوله جل ذكره : ﴿ وله من في السمواتِ والأرضِ وَمَن عِندَه لا يستكبِرون عن عبادَته ولا يَسْتَحسِرُون ﴾

الحادثات له سبحانه مِلْكاً والكائنات له حُكماً ، وتعالى اللهُ عن أنْ يتَجمّلَ بوِفاقٍ أو ينقص بخلاف ، وبالقَدَرِ ظهورُ الجميع ، وعلى حسب الاختيار[1] تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُون ﴾

المطيعُ المختارُ يُسبِّحه بالقول الصدق ، والكلُّ من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخِلْقَة ، وبرهان البَيِّنة[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلِهةً مِنَ الأرضِ هم يُنشِرُونَ ﴾

تفرَّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد ، وتقدَّسَ عن الأمثال والأنداد ، فالذين يُعْبَدُون مِنْ دونِه أمواتٌ غيرُ أحياءٍ . وهم[3] بالضرورة يعرفون . . أفلا يَعْتَبِرُون وألا يَزْدَجِرُون ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيهما آلِهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا فسبحان اللهِ ربِّ العرشِ عَمَّا يَصِفون ﴾

أخبر أنَّ كلَّ أمر يُنَاطُ بجماعةٍ لا يجرى على النظام ؛ إذ ينشأ بينهم النزاعُ والخلافُ . ولمَّا كانت أمورُ العالَمِ فى الترتيب مُنَسَّقَةً فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرِ مُدَبِّرٍ حكيم ؛ فالسماء فى علوِّها تدور على النظام أفلاكُها ، وليس لها عُمُدٌ لإمساكها ، والأرضُ مستقرةٌ بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها . والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور فى بروج ، ورقعة السماء تتسع من غير فروج . . ذلك لِتقديرِ العزيزِ العليمِ علامةٌ ، وعلى وحدانيته دلالةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألُون ﴾

لِكَوْنِ الخلْق له ، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دونِهِ آلِهةً قل هاتُوا بُرهانَكم ، هذا ذِكْرُ مَن مَعِيَ

---

(١) الاختيار : ما مقصود به الاختيار الإلهى .

(٢) عبر القشيرى عن هذا المعنى فى موضع سابق حين ذكر ان كل الكائنات شاهدة على وحدانيته ؛ للناطق منها توحيد القالة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(٣) الضمير (م) يعود على من يعبدون من دون الله آلهة .

وذِكْرُ من قَبْلِي بل أكثرهم
لا يعلمون الحقَّ فهم مُعْرِضُون ﴾

دلت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد ، ووجوبِ إقامة الحجة والدليل .

ودلَّت الآية على توحيد المعبود ، ودلَّت الآية على إثبات الكسب للعبيد ؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللومُ والعَتْبُ[1] . وكلُّ مَنْ عَلَّقَ قلبه بمخلوقٍ ، أو تَوَهَّمَ من غير الله حصولَ شيء فقد دَخَلَ فى غمار هؤلاء لأنَّ الإلهَ مَنْ يصحُّ منه الإيجاد .

قوله : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » : الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحق ، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوحدانية .

ثم قال : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » إنما عَدِموا العِلْمَ لإعراضهم عن النظر ، ولو وضعوا النظرَ موضعَه لَوَجَبَ لهم العلم لا محالة ، والأمرُ يدل على وجوب النظر ، وأنَّ العلومَ الدينية كُلَّها كسبية[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا مِن قَبْلِكَ مِن رسولٍ
إلا نُوحِى إليه أنه لا إله إلَّا أنا
فاعبدونِ ﴾

التوحيدُ فى كل شريعة واحدٌ ، والتعبدُ ـ على من أُرسل إليه الرسول ـ واجبٌ ، ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضَةٌ ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصول إليه فلا يجوز فى ذلك النسخُ والتبديل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمنُ وَلَدًا سبحانه
بل عِبَادٌ مُكْرَمُون ﴾

فى الآية رخصةٌ فى ذِكْرِ أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الردِّ عليهم ، وكَشْفِ

---

(١) هذا رأى على جانب خطير من الأهمية فى علم الكلام ، وصدوره عن باحث صوفى يعرف أن المريد — على الحقيقة — من لا إرادة له يزيد فى أهمية الأمر .

(٢) فى هذا رد على من يتهمون الصوفية بإنكارهم للعلم .

عوراتهم ، والتنبيهِ على مواضع خطاياهم ، وأنَّه إنْ وَسْوَسَ الشيطانَ إلى أحدٍ بشيءٍ منه كان في ذلك حجةٌ للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿لا يسبقونه بالقولِ وهم بأمره يعملون﴾

أخبر أن الملائكةَ معصومون عن مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يُقَصِّرون في واجبٍ عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يَشْفَعُون إلا لِمَنِ ارتضى وهم مِن خَشْيَتِه مُشْفِقون﴾

عِلْمُهُ القديمُ — سبحانه — لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : « لا يشفعون إلا لمن ارتضى » دلَّ على أنهم يشفعون لقومٍ ، وأنَّ الله يتقبل شفاعتهم(١) .

قوله : « وهم من خشيته مشفقون » : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يَجُزْ أن يُعذِّب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زَلَّةً (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَقُلْ منهم إنى إلهٌ من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين﴾

أخبر أنهم مُعْرِضُون عن الزَّلَّةِ بكلِّ وجهٍ . ثم قال : « ومن يقل منهم إنى إله من دونه »

---

(١) أى أن القشيرى يؤمن بالشفاعة — على عكس بعض فرق المتكلمين الذين ينكرونها .
(٢) هذا رأى آخر له أهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المعتزلة — وقد سموا أنفسهم أهل العدل — أن الله لايعذب البريء .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فالحق — سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أولم يرَ الذين كفروا أنّ السموات والأرضَ كانتا رَتْقًا ففَتَقْناهُما ﴾

دَاخَلَتْهُم الشبهةُ فى إعادة الخَلْقِ والقيامةِ والنَّشْرِ ، فأقام اللهُ الحجةَ عليهم بأن قال : أليسوا قد عَلِمُوا أنه خَلَقَ السموات والأرض ؛ سَمَكَ السماء وبَسَطَ الأرضَ . فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا من الْمَاء كلَّ شىء حىٍّ أفلا يؤمنون ﴾

كُلُّ شىء مخلوقٍ حىٌّ فَمِنَ الماء خَلْقُه ، فإنَّ أصلَ الحيوان الذى حَصَلَ بالتناسل النطفةُ ، وهى من جملة المـاء .

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء ، وحياة القلوب بماء الرحمة ، وحياة الأسرار بماء التعظيم . وأقوام حياتُهم بماء الحياء . . وعزيزٌ هُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسِيَ أن تميد بهم ﴾

الأولياء هم الرواسى فى الأرض وبهم[1] يُرْزَقُون ، وبهم يُدْفَع عنهم البلاء ، وبهم يُوفَى عليهم العطاءُ . وكما أنه لولا الجبالُ الرواسى لم تكن للأرض أوتادٌ . . فكذلك الشيوخ الذين هم أوتادُ الأرضِ (فلولاهم) لَتَزَلْزَلَتْ بهم الشدة .

﴿ وجعلنا فيها فِجَاجًا سُبُلاً لعلهم يهتدون ﴾

كما أن فى الأرض سُبُلاً يسلكونها ليَصِلُوا إلى مقاصِدهم كذلك جعل السُبُلَ إليه

---

(١) الضمير فى (بهم) يعود على الخلق ، ولم يكن القشيرى بحاجة إلى ذكر (الخلق) هنا لكثرة ما أعاد فى هذا الموضوع من قبل . .

مسلوكة بما بيَّن على ألسنتهم من هداية المريدين ، وقيادة السالكين ، كما يَسَّر بهداهم الاقتداء بهم فى سيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلنا السماءَ سَقْفًا محفوظًا وهم عن آياتِها مُعْرِضُون ﴾ .

فى ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . . كذلك للنفوس أراضٍ هى مساكن الطاعاتِ ، وفى سماء القلوب نجومُ العقل وأقمارُ العلم وشموسُ التوحيد والعرفان . وكما جُعِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جَعَلَ من المعارفِ رجوماً للشياطين . وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آياتِ القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لايكاد يعرفها إلا الخواص

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ .

كما أن الحق — سبحانه — فى الظاهر يكوِّر الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ فى نهارِ البسط ليلَ القبض . والبسط فى الزيادة والنقصان . فكما أنَّ الشمسَ أبداً فى برجها لا تزيد ولاتنقص ، والقمرَ مرةً فى المحاق ، ومرةً فى الإشراق . . . فصاحبُ التوحيدِ بنعت التمكين — يرتقى عن حَدِّ تأمُّلِ البرهان إلى رَوْحِ البيان ، ثم هو متحققٌ بما هو كالعيان . وصاحبُ العِلْمِ مرةً يُرَدُّ إلى تجديد نَظَرِه وتَذَكُّرِه ، ومرةً يغشاه غَيْرٌ فى حال غفلته فهو صاحب تلوين[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلنا لِبَشَرٍ مِن قبلِك الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون ﴾ .

إنك فى هذه الدنيا عابرُ سبيلٍ ، لكننا لم نتركك فرداً فى الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه فى الغار : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ! » .

---

(١) فأهل التمكين كالشمس فى ثباتها ، وأهل التلوين كالقمر في تدرجه وتغير أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قوم ؛ لقومٍ انتهاء مدة الاشتياق ، ولآخرين افتتاح باب الفراق ، لقومٍ وقوع فتنتهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزُوًا أهذا الذى يَذْكُرُ آلهتكم وهم بِذِكْرِ الرحمٰنِ هم كافرون ﴾ .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رقّاه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين ، ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريرته ، وعاينوا منه جسمه وصورته .

قوله جَلَّ ذكره : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سأُرِيكم آياتى فلا تَسْتَعْجِلون ﴾ .

العَجَلَةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودةٌ ؛ فالمسارعة البِدارُ إلى الشىء فى أول وقته ، والعَجَلَةُ استقباله قبل وقته ، والعجلةُ نتيجةُ وسوسة الشيطان ، والمسارعةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم ، فاستعجلوا حصولَ ما توعدوهم به . ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم ، فالفَزَعُ يَدُلُّ على استعجالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكُفُّون عن وجوههم النارَ . . . ﴾ .

. . . لأمسكوا اليوم عن الانخراط فى عِذاب [1] الظنون ، والاغترار بمواعيد الشيطان .

---

(١) ضبطناها (عذاب) بكسر العين لتكون جمع (عذب) فقد هزم ما هيأت لهم الظنون فاستعذبوها .

قوله جل ذكره : ﴿ بل تأتيهم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

العقوبة إذا أتت فجأةً كانت أنكى وأشد . وسُنَّةُ اللهِ فى الانتقام أن يُثِيرَ ريحَ البغتةِ فى حال الانغماس فى النِّعْمة والمِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد استُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سخروا منهم ما كانوا بِهِ يستهزئون ﴾ .

تسليةٌ له ، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ؛ أى عن قريبٍ ستجدون وَبالَ ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَن يكلؤكم بالليلِ والنهارِ مِنَ الرحمٰنِ . . . ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم ، وقد جَرَّبوا ذلك فى أحوال محنتهم ، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شىء ، ومما ليس منه نَفْعٌ ولاضرٌّ ؟ وفى ذلك تنبيهٌ للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعى النفع والدفع من الله عز وجل ، فالواجبُ دوامُ اعتكافِهم بقلوبهم بعقوة كَرَمِهِ وجُودِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ . .

بسط القول وكرره فى تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات ؛ وأصنامُهم التى عبدوها من تلك الجملة ، ولم يَرِدْ منهم — على تكرار هذه الألفاظ — إلاَّ عجزٌ وانقطاعُ قولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ بل مَتَّعْنا هؤلاءِ وآباءَهم حتى طال عليهم العُمُرُ أفلا يَرَوْن أنَّا نأتى الأرضَ ننقُصُها من أطرافِها أفَهُمُ الغالبون ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوعاً بالعصمة كان مكراً واستدراجاً ،

وزيادةً في العقوبة . والحقُّ كما يعاقِبُ بالآلام والأهوال يعاقِب بالإملاء والإمهال .

وقال : أفلا يرون أنا نأتى الأرض . . . » تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ للصفوة ؛ فيتعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان ، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذى فيه ذهاب الايمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتمرض الأفاضل . وفى هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل] : (١)

آخرُ الأمر ماتَوَى القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل :

طوى العصران(٢) ما نَشْرَاه منى وأبلى جسدتى نَشْرٌ وطىٌّ
أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى — مع النقصان — شىٌّ

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أُنذِرُكُم بالوحى ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدعاء إذا ما يُنذَرون ﴾

أى بأمرِ اللهِ أُعلِمكُم بموضع المخافة ، ويُوحَى إلىَّ فى بابكم أنْ أُخَوِّفَكُم بأليم عقابه ، ولكنَّ الذى عَدِمَ سَمْعَ التوفيقِ . . أنى ينفعه تكرارُ الأمرِ بالقبول عليه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ من عَذابِ ربِّك ليقولُنَّ يا ويلنا إنَّا كنا ظالمين ﴾

أى إنهم لا يصبرون على أقلِّ شىءٍ من العقوبة ؛ وإنَّ الحقَّ إذا شاء أنْ يؤلِمَ أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ

---

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ في نقله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكان آخر من « الفرقان » .

(٢) العصران : الغداة والعشى ، أو الليل والنهار .

﴿ فلا تظلم نفس شيئا وإن كان
مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتَيْنا بها
وكَفَى بنا حاسِبِين ﴾

توزن الأعمالُ بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقبَل ، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقبَل ، وتوزن الأنفاسُ بميزان (. . .)[1] فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقبَل .

ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم ، وينتقم الضعيفُ من القوى .

ويقال ما كان لغير الله لا يَصْلُح للقبول .

ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عبادَه فى دنياه لا يَرْحَمُهُ اللهُ ، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومَنْ ظلم غيره كوفئ بما يليق بسوء فعله .

قوله : « فلا تظلم نفس شيئا » : أى يُجازِى المظلومين وينتقم من الظالمين ، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة ، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقـدار فسيلقى جزاءه ، ويجد عوَضَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارونَ الفُرْقَانَ
وضياء وذِكْراً للمتقين ﴾

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنُّور ، والحُجَّةِ والبرهان يشاركهم المستجيبون من أُمَمِهم فى الاستبصار به . . .

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا — صلى الله عليه وسلم — فى الاستبصار بنور اليقين .

و « المُتَّقِي » هو المُجَانِبُ لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقى أسبابَ الحجاب وموجِباتها .

---

(١) نرى انه قد حدث سقوط للفظة فى هذا المكان ، ولابد انها بمعنى الخلوص لله والتجرد من كل العلائق ، وربما كانت أيضاً (الحقوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَخْشَوْن رَبَّهُم بالغيبِ وهم مِّنَ السَّاعةِ مُشْفِقُون ﴾

صار لهم فى استحقاق هذه البصائرِ والخشيةِ بالغيب إطراقُ السريرة ، وفى أوان الحضور استشعارُ الوَجَلِ من جريان سوء الأدب ، والحذَرُ من أنْ يبدوَ من الغيبِ من خفايا التقدير ما يوجبُ حجبةَ العبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للعامة ، وخوفُ قيام الساعة التى هى قيامة هؤلاء القوم[1] ؛ فإنَّ ما يستأهل الكافة فى الحشر مُعَجَّلٌ لهم فى الوقت من تقريبٍ ومن تبعيد ، ومن مَحْوٍ ومن إثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مباركٌ أنزلناه أفأنتم له مُنكِرُون ﴾

وَصَفَ القرآنَ بأنه « مبارك » ، وهو إخبارٌ عن دَوَامِهِ[2] ، من قولهم : بَرَكَ الطائرُ على الماءِ أى دَامَ .

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِهِ ؛ وما لا ابتداء له — وهو كلامه القديم — فلا انتهاء للكتاب الدالُّ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه مِن قَبْلُ وكُنَّا به عالمين ﴾

أراد به ما تعرَّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأُفول[3] ، لولا أنَّه خَصَّه فى الابتداء بالتعريف . . وإلاَّ متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خَلْقِهِ لولا ما أضاء[4] عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر فى المخلوق ؟

ويقال هو ما كاشَفَ به رُوحَهُ قبل إبداعها من تجلِّى الحقيقة .

---

(١) اى أرباب الأحوال

(٢) وردت (بيانه) وآثرنا — طبقاً للسياق — أن نجمعها (دوامه)

(٣) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : « إنى لا أحب الآفلين » .

(٤) (أضاء) مقبولة فى السياق ولكننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (أفاء) أى (أنعم) .

قوله جل ذكره ﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيلُ التى أنتم لها عاكفون ﴾

خاطَبَ قومه وأباه[1] ببيان التنبيه طمعاً فى استفاقتهم من سَكْرةِ الغفلة ، ورجوعهم من ظلمة[2] الغلظة ، وخروجهم من ضيق الشُّبْهَة .

ثم سأل اللهَ إعانَتَهُم بطلب الهداية لهم . فلمَّا تَبَيَّن له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم يُصِرُّون تَبَرَّأ منهم أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا وَجَدْنَا آباءنا لها عابدين * قال لقَدْ كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلالٍ مبين قالوا أجِئْتَنَا بالحقّ أمْ أنت مِنَ اللاعبين ﴾

ما استروحوا فى الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحُكْمُ بالتسوية بينهم وبين آبائهم فى الضلال ، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا : « أجِئْتَنَا بالحقّ أمْ أنت من اللاعبين ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال :

﴿ قال بل ربُّكم ربُّ السمٰواتِ والأرضِ الذى فَطَرَهُنَّ وأنا على ذٰلكم مِنَ الشاهدين ﴾

فأحالَهم على النظر والاستدلال والتعرُّف[3] من حيث أدلة العقول[4] لأنَّ إثباتَ الصانع

---

(١) وردت (وأتاه) والصواب أن تكون (أباه) كما فى الآية .

(٢) وردت فى (ظلمة) وفى م (ظل) والصواب أن تكون (ظلمة) فالقشيرى يستعمل الظل للعناية وما فى معناها .

(٣) فى ص (والتعريف) وفى م (التعرف) ونحن نرجح هذه .

(٤) فى ص (القبول) ونحن نرجح (العقول) لتلاؤمها مع السياق .

لا يُعْرَفُ بالمعجزاتُ ، وإنما المعجزاتُ علم بصدق الأنبياء عليهم السلام ، وذلك فرع لمعرفة الصانع .

ثم بيَّن لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة ، ثم إنه لم يَحْفِلْ بما يُصيبه من البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّدُ بالإبداع ، فلا أحدَ يملك له[1] ضراً من دون الله ، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا :

﴿قالوا مَن فَعَلَ هذا بآلِهَتِنَا إنه لَمِنَ الظالمين * قالوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهم يُقَالُ له إبراهيم﴾

أى يذكرهم بالسوء . ويحتمل أن يكون مَنْ فعله . . فاسألوه ، فسألوه[2] فقال : بل فَعَلَه كبيرُهم .

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه ؟ وكيف تحيلنا فى السؤال عليه — وهو جماد ؟

فقال : وكيف تستجيزون عبادة ما هو جمادٌ لا يدفع عن نَفْسِهِ السوء ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ثم نُكِسُوا على رُءوسهم لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء يَنْطِقُون﴾

فقال : شرٌّ وأمرٌّ[3] . . كيف تستحق أمثالُ هذه . . العبادةَ ؟ !

فلمَّا تَوَجَّهَتْ الحجةُ عليهم ولم يكن لهم جواب دَاخَلَتْهم الأَنَفَةُ والحمية فقالوا : سبيلنا أنْ نقتلَه شَرَّ قِتلة ، وأنْ نعامِلَه بما يخوفنا به من النار . فقالوا : « ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم » ، فلما رموه فى النار :

﴿قلنا يانارُ كونى بَرْدًا وسلاماً على إبراهيم﴾

---

(١) الضمير فى (فسألوه) يعود على إبراهيم عليه السلام .
(٢) أى أن فى الكلام كما يقول البلاغيون — إيجاز حذف .
(٣) أى هذا عذر أقبح من الذنب .

لو عَصَمَهُ من نار[1] نمرود ولم يمكنه مِنْ رَمْيِه فى النار من المنجنيق لكان ـ فى الظاهر ـ أقرب من النصر، ولكنْ حفظَه فى النار من غير أنْ يَمَسَّهُ أَلَمٌ أتمُّ فى باب النصرة والمعجزة والكرامة .

ويقال إن ابراهيم — عليه السلام — كان كثيراً ما يقول : أواه من النار !

قال تعالى : « إن ابراهيم لأوّاه حليم »[2]

فلمّا رُمِىَ فى النار، وجعل اللهُ عليه النارَ بَرْداً قيل له : لا تَقُلْ بعد هذا . أواه من النار! فالاستعاذةُ بالله مِنَ الله . . لا مِنْ غيره .

قوله : « وسلاماً » : أى وسلامةً عليه وله ، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنارُ والبَرْدُ عنده سيان .

ويقال إن الذى يحرق فى النار مَنْ فى النار يقدر على حِفْظِه فى النار .

ولمّا سَلِمَ قلبُه من غير الله بكل وجهٍ فى الاستنصار[3] والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شىء بكلِّ وجهٍ . . . تَعرَّض له جبريلُ — عليه السلام — فى الهواء وقد رمى من المنجنيق وقال له :

هل مِنْ حاجة ؟

فقال : أمّا إليكَ . . فَلاَ !

فجعل اللهُ النار عليه برداً وسلاماً ؛ إذ لمّا كان سليمَ القلبِ من الأغيار وَجد سلامةَ النَّفْسِ من البلايا والأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرادوا به كَيْدًا فجعلناهم الأخسَرين ﴾

مَنْ حَفَرَ لأوليائه وقع فيما حَفَرَ ، ومَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقامَ منه سوى الله .

---

(١) فى م (يد) نمرود وكلاهما مقبول فى السياق .

(٢) آية ١١٤ سورة التوبة .

(٣) هكذا فى م وهى أصح من (الاستبصار) فى ص لانسجام (الاستنصار) مع (الاستعانة) .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَجَّيْنَاه ولوطاً إلى الأرضِ التى بَارَكْنا فيها لِلعَالَمِين ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ فى أنبيائه ـ عليهم السلام ـ أنه إذا نَجَّى منهم واحداً أشرك معه مَنْ كان مُسَاهِماً له فى ضُرِّه ومُقَاساةِ مشقته .

قوله جل ذكره : ﴿ ووَهَبْنا له إسحاقَ ويعقوب نافِلَةً وَكُلاًّ جعلنا صالحين ﴾

مَنَّ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابداً لله ، ذاكراً له ، فإنَّ مفاخِرَ الأبناء مناقِبُ للآباء ، كما أنَّ مناقبَ الآباء شرفٌ للأبناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلناهم أئِمَّةً يَهْدُون بأمْرِنا وأوحينا إليهم فعْلَ الخيراتِ وإقامَ الصلاةِ وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾

الإمامُ مُقَدَّمُ القوم ، واستحقاقُ رتبةِ الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التى فى الأمة فيه ، فَمَنْ لم تتجمعْ فيه مُتَفَرِّقاتُ الخصالِ المحمودةِ لم يستحقْ منزلةَ الإمامة .

قوله جل ذكره ﴿ ولوطاً آتيناه حُكْماً وعِلْماً ونَجَّيْناه من القريةِ التى كانت تَعْمَلُ الخبائِثَ إنهم كانوا قَوْمَ سَوءٍ فاسِقين ﴾

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مِثْلِ ما امْتُحِنَ به قومُه ، ثم بخلاصِه منهم بإخراجه إيَّاه مِنْ بينهم ، فميزه عنهم ظاهرا وباطنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وأدخلناه فى رَحْمَتِنا إنه مِنَ الصالحين ﴾

بيَّن أنه أدخله فى رحمته ثم قال : « إنه من الصالحين » ؛ فلا محالة مَنْ أدخله فى رحمته كان صالحاً .

وقوله : « وأدخلناه فى رحمتنا » إخبارٌ عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » : إخبار عن عين الفرق(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ونوحاً إذ نادىٰ مِن قَبْلُ فاستجبنا له فَنَجَّيْنَاه وأهلَه مِنَ الكَرْبِ العظيم ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبوا بآياتِنا إنَّهم كانوا قومَ سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين ﴾

كان نوح ـ عليه السلام ـ أطولَهم عمراً ، وأكثرهم بلاء . ففى القصة أنه كان يُضْرَبُ سبعين مرةً ، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول . لا تقبلِ قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته . وكان نوح ـ عليه السلام ـ يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوهم إلى الله ، فلمَّا أيِسَ من إيمانهم ، وأُوحِىَ إليه : « أنه لن يؤمِنَ من قومِك إلا من قد آمن »(٢) دعا عليهم فقال : « ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً »(٣) فقال تعالى : « ونوحاً إذ نادى من قبل . . . . » فأزهقَ الشِّرْكُ وأُغرِقُ أهلُه .

قوله جل ذكره ﴿ وداودَ وسليمانَ إذْ يَحْكُمَانِ فى الحَرْثِ
● سورة الكهف . . . . . إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القومِ وكُنَّا
● سورة مريم . . . . . لِحُكْمِهِم شاهدين * ففهَّمْنَاها
سُلَيْمانَ وكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً ﴾
● سورة طه .

أشركهم فى حكْم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . ففى مسألة واحدة أثبت لسليمان ـ عليه السلام ـ بها خصوصية ؛ إذ مَنَّ عليه بقوله : « ففهمناها سليمان » ولم يَمُنْ عليه بشىء من المُلْكِ الذى أعطاه بمثل ما منَّ عليه بذلك ، وفى هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين ـ وإنْ اختلفوا ـ إذا كان اختلافُهم فى فروع الدِّين ؛ حيث قال : « وكلاً آتينا

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته ـ سبحانه ، وصلاح العبد فيه شىء من كسب العبد .
(٢) آية ٣٦ سورة هود .
(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً » ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلّقٌ بقوله : «ففهمناها سليمان»(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنَا مع داود الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطيْرَ وكُنَّا فاعلين ﴾

أمَرَ الجبالَ وسَخَّرها لتساعدَ داودَ — عليه السلام — فى التسبيح ، ففى الأثر : كان داود — عليه السلام — يمرُّ وصُفَاحُ(٢) الجبالِ تجاوبه ، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعَلَّمْنَاه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكم لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾

سخَّر الله — سبحانه — لداود الحديد وألانه فى يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى : « وألَنَّا له الحديد » ليتحصن من السهام فى الحروب ، قال تعالى : « وقدِّر فى السَّرد » وأحْكِمْ الصنعةَ وأوثِقْ المسامير . . ولكن لما قصدته سِهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقَتَه حين نظر إلى امرأة أوريا — من غير قصدٍ — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نَفْسه بابَ البيت ، وأخذ يصلى ساعةً ، ويقرأ التوراة مرةً ، والزبور أخرى ، حتى يمضى وينتهى ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أُوحِىَ إليه أنَّه يومُ فتنةٍ ، فأمَرَ الحُجَّابَ والبواب ألا يؤْذَنَ عليه أحدٌ ، فوَقَعَ مِنْ كَوَّةِ البيتِ طيرٌ لم يَرَ مِثْلَه

---

(١) هذا رأى القشيرى فى (الاجتهاد) ومداه ، ويجدر الاهتمام به إذا شئنا أن نبحث فى « أصول الفقه عند الصوفية » .

(٢) صفاح جمع صفح ، وصفح الشىء عرضه (مقاييس اللغة ج.٣ ص ٢٩٣) .
ويقول القرطبي (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحاً ، والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير) ويضيف القرطبي شيئاً هاماً بالنسبة للتفسير الصوفى : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ، ولهذا قال : « وسخرنا » أى جعلناها بحيث تطيعه) .
«الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٣١٩»
وبهذه المناسبة نود أن نستدرك شيئاً لم نشر إليه فى مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبي كثيراً ما يستفيد من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من القشيرى ، وهو فى معظم الأحيان عبد الرحمن القشيرى أحد أبناء المصنف .

فى الحُسْنِ ، فَهَمَّ أَنْ يأخذه ، فتَبَاعَدَ ولم يَطِرْ كالمُطْمِعِ له فى أَخْذِه ، فلم يَزَلْ يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوَّةِ البيت ، فتبعه داودُ ينظر إليه من الكوة من ورائه ، فوقع بصرُه على امرأة أوريا ، وكانت قد تَجَرَّدَتْ من ثيابها تغتسلُ فى بستانٍ خَلْفَ البيتِ الذى به داود ، فحَصَلَ فى قلبه ما حصل ، وأصاب سَهْمُ التقدير حَدَقَتَه ، ولم تَنْفَعْهُ صَنْعَةُ اللُّبوسِ التى كان تعلَّمها لِتُحَصِّنَه مِنْ بأسِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولِسُليمان الريحَ عاصِفَةً تجرى بأمره إلى الأرضِ التى باركنا فيها وكُنَّا بكل شىء عالِمين ﴾

سَخَّر اللهُ له الريحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحُها شَهْرٌ ، ولو أراد أن يزيد فى قَدْرِ مسافتها شِبْرًا لما استطاع ، تعريفاً بأنه موقوفٌ على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أُكْرِمَ به من التسخير ، ولقد نَبَّه — سبحانه — من حيث الإشارة أن الذى مَلَّكَه سليمان كالريح إذا مرَّ وفات ، أو أنه لا يَبْقَى باليدِ منه شىء(١) .

وفى القصة أنه لاحَظَ ذلك يوماً فمالت الريح بِبِسَاطِه قليلاً ، فقال سليمانُ للريحِ : استوِ . فقالت له الريح : استوِ أنت . أى إنما مَيْلِى بِبِسَاطِكَ لميلك بقلبك بملاحظتك ؛ فإذا استويتَ أنتَ استويتُ أنا(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الشياطينِ مَن يَغُوصُون له ويَعْمَلُون عَمَلًا دونَ ذلك وكُنَّا لهم حافظين ﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل فى الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعودَ إلى مكانه فجاءه مَلَكُ الموتِ فطَالَبَه بروحه ، فقال : إلىَّ حين أرجع إلى مكانى .

فقال له : لا وجهَ للتأخير ، وقَبَضَهُ وهو قائم يتكئُ على عصاه وبقى بحالته ، ولم تعلم الجِنُّ ،

---

(١) فهو كما قيل : باطل وقبض الريح .
(٢) فى ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بأنه إذا تغيرت أو تعذرت الأمور فالسبب كامن فى نفوسهم .

إلى أنْ أكَلَتْ دابة الأرضِ — كما فى القصة — عصاه ، فلما خرَّ سليمانُ عَلِمَتْ الشياطينُ بموته ، وتحققوا أنَّ الذى بالعصا قِيامُهُ فَقَهْرُ الموت يلحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأيوبَ إذْ نادىٰ ربَّه أنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أرْحَمُ الراحمين ﴾

أى واذكر أيوبَ(١) حين نادى ربَّه . وسمَّىَ أيوب لكثرة إيابه إلى الله فى جميع أحواله فى السرَّاء والضرَّاء ، والشدَّة والرَّخاء .

ولم يَقُلْ : ارحمنى ، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال : « وأنت أرحم الراحمين » .

ومن علامات الولاية أن يكونَ العبدُ محفوظاً عليه وقتُه في أوانِ البلاء .

ويقال إخبارُه عنه أنه قال : « مسنى الضر » لم يَسْلُبْهُ اسمَ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : « إنا وجدناه صابراً » لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبر ، فنادِرُ قالتِه لم يَسْلبْ عنه الغالِبَ من حالته . والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ ، أو الإيمانُ بالله فهو الذى يستغرِقُ جميعَ أوقاته ، ولا يخلو منه لحظةً ؛ ونادِرُ زلاَّتِه — مع دائمِ إيمانِه — لا يُزَاحِمُ الوصفَ الغالب .

ويقال ؛ لمَّا لم يكن قوله : مسنى الضُرُّ على وجه الاعتراض على التقدير — بل كان على وجه إظهاو العجز — فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر .

ويقال استخرج منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتَنَفَّسٌ للضعفاء فى هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا فى حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر « أنى مسنى الضرُّ » الذى تخصُّ به أولياءك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لمَا خصصتنى بهذا ، ولكن برحمتك أهَّلتنى لهذا .

---

(١) فى تقديرنا أن ما كتبه القشيرى فى هذا الموضع عن أيوب عليه السلام من أجمل ما كتب فى هذا الموضوع سواء من الناحية الأدبية أو من الناحية الإشارية .

ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوب ولكنه استغاثةُ البلاءِ منه ، فلم يُطِقْ البلاء صُحْبَتَه فضجَّ منه البلاء لا أيوبُ ضَجَّ من البلاءِ . . وفى معناه أنشدوا .

صابَرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبراً

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة ، ومعناه : أيمسنى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال « وتلك نعمة تمنها علىَّ »(١) أى أتلك نعمة تمنها علىَّ أن عبدت بنى إسرائيل ؟

ويقال إن جبريلَ — عليه السلام — أتى أيوبَ فقال : لِمَ تسكت ؟ فقال : ماذا أصنع ؟ فقال : إنَّ اللهَ سيان عنده بلاؤك وشفاؤك . . . فاسألْ اللهَ العافيةَ فقال أيوب : إنى مسنى الضُّر ، فقال تعالى : « فكشفنا مابه من ضُرٍّ » والفاء تقتضى التعقيب ، فكأنه قال : فعافيناه فى الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبتَ العافيةَ قبل هذا لاستَجَبْنَا لك .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على موضعها ، فعقرته عقرةً عِيلَ صَبْرُه فقال : مسنى الضر ، فقيل له : يا أيوب : أتصبر معنا ؟ لولا أنى ضربتُ تحت كل شَعْرَةٍ من شعراتك كذاخيمَة من الصبر . . ما صَبَرْتَ ساعة !

ويقال كانت الدوداتُ التى تأكل منه أكلت ما عَلاَ بَدَنَه ، فلم يَبْقَ منه إلا لسانُه وقلبه ، فصعدت دودة إلى لسانِه ، وأخرى إلى قلبِه فقال :

« مسنى الضرُّ » . . . فلم يَبْقَ لى إلا لسانٌ به أذكرك ، أو قلبٌ به أعرفك ، وإذ لم يَبْقَ لى ذلك فلا يمكننى أن أعيشَ وأصبر !

ويقال استعجمت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً . . . وكذلك كانت صحبته(٢) .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سَلْ العافية فقال :

عِشْتُ فى النِّعم سبعين سنة فحتى يأتى علىَّ سبعون سنة فى البلاء . . وعندئذٍ أسألُ اللهَ العافيةَ !

---

(١) آية ٢٢ سورة الشعراء .
(٢) أى وهكذا كانت صحبة الحق لوليه دائماً .

وقيل لمَّا كَشَفَ اللهُ عنه البلاء قيل له : ما أشدُّ مالقيتَ فى أيام البلاء ؟ فقال شماتة الأعداء .

وفى القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم ، وحرَّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان لكَ عند الله منزلةٌ لَمَا ابتلاكَ بكل هذا البلاء !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجُه ، وكانت من أولاد يوسف النبى عليه السلام ، فهى التى بقيت معه وكانت تخدمه وتتعهده .

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب — عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسنى الضرُّ لمَّا قال لها الشيطان : إنْ أردتِ أنْ يَشْفَى مريضُكِ فاسجدى لى ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها فى صورة إنسان ، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ : « مَسَّنِيَ الضرُّ » .

ويقال لمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومُه وقالوا لها : أخْرِجى هذا المريضَ من قريتنا ، فإننا نخاف العَدْوَى وأنْ يَمَسَّنَا بلاؤه ، وأنْ نُعْدَى إلينا عِلَّتُهُ ، فأخْرَجَتْهُ إلى باب القرية فقالوا : إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارُنا عليه ، فنتشاءم به ، فأبْعِدِيه عن أبصارنا ، فحملَتْهُ إلى أرض قَفْرٍ ، وكانت تدخل البلد ، وتُسْتَأْجَرُ للخَبْزِ والعملِ فى الدور ، فتأخذ الأجرةَ وتحملها إليه ، فلما عَلِموا أنَّها امرأتُه استقذروها ولم يستعملوها .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ، فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن شعرها جزٌّ فى ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أنْ يَجْلِدَها إذا صحَّ حَدْسُه ، وكانت المحنةُ على قلبِ تلك المرأة أشَدَّ مما على بَدَنِ أيوب من كل المحن .

وقيل إن امرأتَه غابَتْ ودخلَتْ البلدَ ، فعافى اللهُ أيوبَ عليه السلام ، وعاد شاباً طرياً كما قال فى قصته قوله : « اركض برِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب »[1] . فلما رجعت

---

(١) آية ٤٢ سورة ص

امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ ، فأخذت تبكي وتولول ، فقال لها أيوب — وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — مالَكِ يا امرأة ؟

قالت : كان لي ها هنا مريض فَفَقَدْتُه . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذي تطلبينه !

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال : إنْ أردتَ العافيةَ فاسجُدْ لي سجدةً ، فقال : « مسني الضُّرُّ » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مُكَاشَفاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فكان لا يُحِسُّ بالبلاء ، فَسَتَرَ عليه مرةً ، ورَدَّه إليه ، فقال : مَسَّني الضُّرُّ(١) .

ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالةَ ، واستخرج منه هذه القالةَ ليظهر عليه إقامة العبودية .

ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أنّ هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قَبْلَكَ فما اخْتَرْتُه إلا لَكَ ، فلمَّا أراد كَشْفَه عنه قال : مَسَّني الضُّرُّ !

وقيل كوشف بمعنيً من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ البلاء فقال : مَسَّنِيَ الضُّرُّ لِفَقْدِي أَلَمَ الضُّرِّ .

وقال جعفر الصادق : حَبَسَ عنه الوحيَ أربعين يوماً فقال : مسني الضُّرُّ لِمَا لَحِقَه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّتَه ليقوم بحقِّ الطاعة .

ويقال طلب الزيادةَ في الرضا فاستُجِيبَ له بكَشْفِ ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضرَّ الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية ، وبليته كانت ببقيته ، فَلَمَّا أُخِذَ عنه بالكليةِ زال البلاء ، ولهذا قال « فكشفنا ما به من ضُرٍّ » وكانت نَفْسُه ضُرَّه ، ورَدَّ عليه السلامةَ والعافيةَ والأملَ — في الظاهر — لمَّا صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُنَقًّى عن كل بقية ، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية ، والوجود والفقد .

---

(١) أي ان العبد الواله لايحس بنفسه وهو في حال الجمع ، ويحس بها وهو في حال الفرق . وقد حكى القشيري في الرسالة أن بعضهم قطعت رجله حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر ، بينما آلمت بعضهم قلة . . وهو في حال الفرق .

قوله جل ذكره : ﴿ واسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾

أى واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : « كل من الصابرين » ، ثم قال :

﴿ وأَدْخَلْنَاهم فى رحمتنا إنَّهم مِّنَ الصالحين ﴾

بيَّنَ الحُكْمَ والمعنى ؛ الحكمُ صبرُهم وصلاحُهم ، والمعنى إدخالُه إياهم فى الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وذا النونِ إذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أن لَّن نقدِرَ عليه فنادىٰ فى الظُّلُمَاتِ أن لَّا إلٰهَ إلاَّ أنتَ سبحانك إنى كنتُ من الظالمين ﴾

« مغاضبا » : على مَلِكِ وقته حيث اختاره للنبوة ، وسأله : لِمَ اخترتَني ؟ فقال : لقد أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيِّي : أنْ قُلْ لفلانِ المَلِك حتى يختار واحداً لِيُرْسِلَ إلى نينوى بالرسالة . فَثَقُلَ على ذى النون لما اختارَه المَلِكُ ؛ لأنه علم أن النبوةَ مقرونةٌ بالبلاء ، فكان غضبُه عليه لذلك(١) .

ويقال مغاضباً على قومه لمَّا امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أى شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفيه .

« فظنَّ أنْ لن نقدر عليه » أى أنْ لن نُضَيِّقَ عليه(٢) بطن الحوت ، من قوله : « وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقه »(٣) أى ضيَّق .

---

(١) عن ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك حزقيا أن يبعثا يونس إلى ملك نينوى الذى كان قد غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ؛ وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة الى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ، وقد أوحى لشعيا: ان قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا من بنى اسرائيل إلى أهل نينوى .. فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال : لا ، قال : فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء ، فألحوا عليه .. فخرج مغاضبا للنبى والملك وقومه ، حتى أتى بحر الروم .. وكان من قصته ما كان ، وابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا .. قال تعالى « فالتقمه الحوت وهو ملئم »

(٢) (أن لن نضيق عليه) مفقودة فى ص وموجودة فى م والسياق يقتضى وجودها .

(٣) آية ١٦ سورة الفجر

ويقال فظنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِهِ فى بَطْنِ الحوت .

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخبِرَ بأنَّ الله يُعَذِّب قومَهُ ، وخرج بأهله .

ويقال إن السبعَ افترس أهله فى الطريق ، وأخذ النَّمِرُ ابنا صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنَهُ الآخَر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجُه ، وأشرفَتْ السفينةُ على الغرق ، وأخذ الناسُ فى إلقاء الأمتعة فى البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الغَرَقِ ، فقال لهم يونس : لا تُلْقُوا أمْتِعَتَكُمْ فى البحر بل اطرحونى فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا . فنظروا إليه وقالوا : نرى عليكَ سيماء الصلاح ، وليست تسمح نفوسُنا بإلقائك فى البحر ، فقال تعالى مخبرا عنه : « فساهم فكان من المدحضين »[1] أى فقارعهم ، فاستهموا ، فوقعت القُرْعَةُ عليه .

وفى القصة أنه أتى حَرْفَ السفينة ، وكان الحوتُ فاغراً فاه ، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لمَّا عَلِمَ أنه مُرَادٌ بالبلاء ألقى نَفْسَهُ فى الماء فابتلعه الحوت « وهو مليم » : أى أتى بما يُلام عليه ، قال تعالى : « فالتقمه الحوتُ وهو مليم »[2] .

وأوحى الله إلى السمك : لا تَخْدِشْ منه لَحْماً ولا تَكْسِرْ منه عَظْماً ، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك . فَبَقِيَ فى بطنه ـ كما فى القصة ـ أربعين يوماً .

وقيل إن السمك الذى ابتلعه أُمِرَ بأن يطوف فى البحر ، (وخلق الله له إدراك ما فى البحر)[3] ، وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . . فما ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبَدَه ـ سبحانه ـ سبعين سنة ، ولازم قلبه محبته ومعرفته طولَ عمره . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذلك !

« فنادى فى الظلمات . . . » يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ـ هذا بيان

---

(١) آية ١٤١ سورة الصافات

(٢) آية ١٤٢ سورة الصافات

(٣) موجودة فى م ومفقودة فى ص

التفسير ، ويحتمل(١) أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستَجبْنا له ونَجّيْنَاه من الغمّ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾

استجبنا له ولم يَجْرِ منه دعاء ؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .

ثم قال : « ونجيناه من الغمّ . . . » يعنى : كُلُّ مَنْ قال من المؤمنين ـ إذا أصابه غمٌّ ، أو استقبله مُهِمٌّ ـ مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون .

قوله جل ذكره : ﴿ وزكريا إذْ نادىٰ ربَّه ربِّ لا تَذَرْنى فَرْدًا وأنت خيرُ الوارثين ﴾

سأل الوَلَدَ ، وإنما سأله ليكون له مُعِيناً على عبادةِ ربِّه وليقوم فى النبوة مقامَه ، ولئلا تنقطعَ بركةُ الرسالة من بيته(٢) ، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قَطْعَه بالمنشار ، ولما التجأ إلى شجرة انشقت له وتَوَسَّطَها ، والتأمت الشجرة ، وفطنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفى الظاهر كان حفظًا له منهم ، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته ، ولعلَّهم ـ لو قتلوه ـ لم يُصِبْه من الألم القدْرُ الذى لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته ، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة ، فَقَوِى بذلك يقينُه لمَّا رأى عجيبَ الأمر فيه من نَقْضِ العادة(٣) ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ، ولقد قال قائلهم : « إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى » .

---

(١) هذا النوع من الظلمات — وهو المرتبط بالنفس — متوقع صدوره عن مفسر صوفى ملم بأحوال النفس .

(٢) أى أنه لم يسأل الولد لحظ نفسه بل لحق ربه ، وهذه بشرى إجابة الدعاء .

(٣) أى أن المعجزة ليست فقط من أجل القوم الذين فيهم النبى بل فى حسابها تثبيت قلب النبى وترسيخ يقينه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجبْنَا له ووَهَبْنَا له يحيى
وأصلَحْنَا له زوجَه إنَّهم كانوا
يُسارِعون فى الخيراتِ ويَدْعُونَنَا
رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾

سمى يحيى لأنه حَيِيَ به عقر أمه .

وقوله : « وأصلحنا له زوجه » : لتكون الكرامةُ لهم جميعًا بالولد ، ولئلا يسبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها . . وهذه سُنَّةُ الله فى باب إكرام أوليائه ، وفى معناه أنشدوا :

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا مَنْ كان يألفهم فى المنزل الخشن

ثم قال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا . . . » وفى هذا بشارة لجميع المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر[1] ، ولو لم تكن رهبة لكان أمنًا والأمن كفر[2] .

قوله : « وكانوا لنا خاشعين » الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ ، وكان لهم ذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ والتى أحصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيها
من رُّوحنا وجعَلْنَاهَا وابنَهـا آيةً
للعالَمين ﴾ .

يعنى مريم ، وقد نَفَى عنها سِمَةَ الفحشاء وهجنة الدم .

ويقال فنفخنا فيها من روحنا ، وكان النفخُ من جبريل عليه السلام ، ولكن لمَّا كان بأمره — سبحانه — صَحَّتْ الإضافةُ إليه ، وفى هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإنزال مَلَكٍ فتَصِحُّ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص . كقوله : (ناقة الله ، وبيتى) . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آيةً للعالمين) : ولم يقل آيتين

(١) قال تعالى : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ٥٦ الحجر .
(٢) قال تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ٩٩ الأعراف

لأن أمرهما كان معجزة ودلالة ، ويصح أنْ يراد أنَّ كلَّ واحدٍ منهما آيةٌ — على طريقة العَرب فى أمثال هذا .

وفيه نفى لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم !

قوله (آية للعالمين) : وإنْ لم يهتد بهما جميعُ الناس . . لكنهما كانا آيةً . ومَنْ نَظَرَ فى أمرهما ، ووَضَعَ النظرَ مَوْضِعَه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر فى بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكم أُمةً واحدةً وأنا رَبكُم فاعبدون ﴾ .

أى كلكم خِلْقَتُه ، وكلكم اتفقتم فى الفقر ، وفى الضعف ، وفى الحاجة . « وأنا ربكم » : وخالقكم على وصفِ التَّفَرُّد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أمْرَهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرَّقَتْ أحوالُهم ، فاستأصلتهم البلايا .

قوله : (كلٌّ إلينا راجعون) : وكيف لا . . . وهم ما يتقلبون إلاَّ فى قبضة التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كُفرانَ لِسَعْيِه وإنا له كاتِبون ﴾ .

مَنْ تَعنَّى لله لم يخسر على الله ، ومَنْ تَحمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حقُّه (على)[1] الله : قوله : وهو مؤمن) بعد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمنا لا يكون عمله صالحا ففائدة قوله هاهنا : (وهو مؤمن) فى المآل والعاقبة ، فقد يعمل الأعمالَ الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة ، فيكون فى الحال مؤمنا وعملُه يكون على الوجه الذى آمن ثم لا ثواب له ، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُه .

---

(١) نرجح أنها فى الأصل (من) لأن القشيرى فى مواضع شتى عارض أى وجوب (على) الله . . وطالما أوضحنا ذلك فى الهوامش .

قوله جل ذكره : ﴿ وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يَرْجِعون ﴾ .

أى لا نهلك قومًا وإن تمادوا فى العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة تُختَمُ أمورُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ حتّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم مِن كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون ﴾ .

أى يحق القولُ عليهم ، ويتم الأجلُ المضروبُ لهم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى القَدْرِ المعلومِ فى التقدير لا تحصلُ نجاةُ الناسِ من شرِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هى شاخِصةٌ أبصارُالذين كفروا يا ويلَنَا قد كُنَّا فى غَفْلَةٍ من هذا بل كُنَّا ظالمين ﴾ .

تأخذهم القيامةُ بغتةً ، وتظهر أشراطُ الساعة فجأةً ، ويُقِرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم، ولكن فى وقتٍ لا تُقْبَلُ فيه مَعْذِرَتُهم ، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّكُم وما تعبدون مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّمَ أنتم لها واردون ﴾ .

« وما تعبدون من دونِ الله » : أى الأصنام التى عبدوها ، ولم تدخل فى الخطاب الملائكة التى عبدها قومٌ ، ولا عيسى وإنْ عَبَدَه قومٌ لأنه قال :

« إنكم وما تعبدون » ولم يقلْ إنكم ومن تعبدون[1] . فيُحْشَرُ الكافرون فى النار ، وتُحْشَرُ أصنامُهم معهم . والأصنامُ جماداتٌ فلا جُرْمَ لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه على جهة براءة ساحتها ، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ إلا جماداتٌ .

---

(١) لأن (ما) اسم موصول لغير العاقل و (من) اسم موصول للعاقل .

﴿ لو كان هؤلاء آلِهَةً ما وَرَدُوها
وكلٌّ فيها خالدون ﴾ .

القوم قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[1] فعَلِمُوا أن الأصنامَ جماداتٌ ، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وأنَّ مَنْ عبدها يَقْرُبُ بعبادتها من الله ، فَيُبَيِّن اللهُ لهم — غداً — بأنَّها لو كانت تستحق العبادة ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَا أُلْقِيَتْ فى النار ، ولَمَا أُحْرِقَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فيها زَفِيرٌ وهم فيها لا يسمعون ﴾

« لهم » : أى لِعَبَدَةِ الأصنام ، « فيها » أى فى النار ، « زفير » لحسرتهم على ما فاتهم ، « وهم فيها لا يسمعون » مِنْ نداءٍ يبشرهم بانقضاء عقوبتهم .

وبعكس أحوالهم عُصَاة المسلمين[2] فى النـار فَهَمْ — وإنْ عُذِّبوا حيناً — فإنهم يسمعون قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرهم يوماً بانقضاء عذابهم — وإنْ كان بعد مدة مديدة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين سَبَقَتْ لهم مِنَّا الحُسْنى
أولئك عنها مُبْعَدُون ﴾

« سبقت لهم منا الحسنى » : أى الكلمة بالحسنى ، والمشيئة والإرادة بالحسنى ، لأن الحسنى فعله ، وقوله : « سبقت » إخبار عن قِدَمِه ، والذى كان لهم فى القدم هو الكلمة التى هى صفة تَعلَّقتْ بهم فى معنى الإخبار بالسعادة .

ثم قال : « أولئك عنها مُبْعَدُونَ » أى عن النار ، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ العالِمُون أن المدارَ على التقدير ، وسَابِقِ الحُكْمِ من الله ، لا على تَبَاعُدِ العبد أو بتَقَرُّبه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يسمعون حَسِيسَها وهم فيما اشْتَهَتْ
أنفُسُهُم خالدون ﴾

---

(١) آية ٣ سورة (الزمر)

(٢) تسمى هذه فى علم الكلام : المنزلة بين المنزلتين وهى التى بين المؤمن والكافر ، وليست عقوبة هؤلاء — كما هو شأن الكفار — على التأبيد .. كما يرى التشبرى .

يدل ذلك على أنهم لا يُعَذَّبون فيها بكل وجهٍ . والمراد منه العِبادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم .

« وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » : مقيمين لا يبرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ وتتلقَّاهمُ الملائكةُ هذا يومُكُم الذى كنتم تُوعَدُون ﴾

قيل الفزَعُ الأكبرُ قول المَلَكِ : « لا بشْرَى يومئذٍ للمجرمين »(١)

ويقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون »(٢)

ويقال إذا قيل : يا أهلَ الجنةِ . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً لا موت فيه !

وقيل إذا : « قال اخسئوا فيها ولا تُكلِّمُونِ »(٣)

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتتلقاهم الملائكة » يقال لهم هذا يومكم الذى كنتم وُعِدْتُم فيه بالثواب ؛ فمنهم مَنْ يتلقَّاه المَلَكُ ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عليه الخطاب والتعريف من المَلِك(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ نطوى السماء كَطَىِّ السِّجِلِ للكُتُبِ كَمَا بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه وَعْدًا علينا إنَّا كُنَّا فاعلين ﴾

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها ، والأرضُ كانت فِرَاشاً إذ كانوا عليها ، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم . . على العادة فيما بين الخَلْق من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب .

---

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان

(٢) آية ٥٩ سورة يس

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) أى من الله سبحانه — وهؤلاء هم صفوة الأحبار .

ويقال نطوى السماء التى إليها عَرَجَت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تشهدَ عليهم بالإجرام ، وتُبَدَّلُ الأرضُ التى عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .

أو نطوى السماء لنُقَرِّبَ قَطْعَ المسافاتِ على الأحباب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كَتَبْنا فى الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذكر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصالحون ﴾

« الذكر » هنا هو التوراة ، و « كَتَبَ » : أى أخبر وحَكَمَ ، و « الصالحون » أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم : أنَّ « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾

أمَّا مَنْ أسلم فَبِكَ ينجون ، وأمَّا مَنْ كَفَرَ فلا نعذبهم ما دُمْتَ فيهم ؛ فأنت رحمة مِنَّا على الخلائق أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّما يوحَىٰ إلىَّ أنَّما إلٰهُكم إلٰهٌ واحِدٌ فهل أنتم مُسْلِمُون ﴾

واحدٌ فى ذاته ، واحدٌ فى صفاته ، واحدٌ فى أفعاله . واحد بلا قسيم ، واحد بلا شبيه ، واحدٌ بلا شريك .

« فهل أنتم مسلمون ؟ » مخلصون في عقد التوحيد بالتبرِّى عن كلِّ غيرٍ فى حسبان صَلَاحِيَّتِهِ للألوهية ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكم على سَوَاءٍ وإنْ أدْرِىَ أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدُون ﴾

إنْ أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ : إنى بالالتزام أعلمتُكم ، ولكن للإكرام ما ألهمتكم ، فَتَوَجَّهَتْ عليكم الحجة واستبهمَتْ عليكم المحجة .

قوله : « وإن أدرى أقريب أم بعيد . . » إنَّ علمى متقاصِرٌ عن تفصيل أحوالكم فى مآلكم ، ووقت ما توعدون به فى القيامة من تحصيل أهوالكم ، ولكنَّ حُكمَ اللهِ غيرُ مستأخِرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القولِ ويعلم ما تكْتُمون ﴾

لا يخفى عليه سِرُّكم ونجواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم . . فعلى قَدْرِ استحقاقكم يُجازيكم ، وبموجِب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ أدْرِى لَعَلَّه فِتْنَةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين ﴾

ليس بحيط عِلْمى (إلا)[1] بما يُعلِمُنى ، وإعْلامُه إياى ليس باختيارى ، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادى وإيثارى .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رَبِّ احْكُمْ بالحقِّ وربُّنَا الرحمنُ المستعانُ على ما تَصِفُون ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامةٌ لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التى يذكر فيها « الحج »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

سماعُ « بسم الله » يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماع « الرحمن الرحيم » يوجب الأُنس والقربة ، وذلك وقت صحوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو فى سِلْكٍ واحد .

سماعُ « بسم الله » يوجِب انزعاجَ القلوب وعنده يحصل داء جنونهم[2] ، وسماعُ « الرحمن

(١) سقطت (إلا) فى س وموجودة فى م .

(٢) ليس الجنون والفتون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يتبادر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل والوله فى المحبوب ، وهذه هى المرة الأولى التى تصادف فيها هاتين اللفظتين فى مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (مجنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهيم ومتيم) [انظر التحبير فى التذكير ص ٦٢] .

الرحيم » يوجب ابتهاجَ القلوبِ وبه يحصل شفاء فتونهم ، فعودة فتونهم فى لطف جماله كما أن موجب جنونهم فى كشف جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شىء عظيم ﴾

« يأيها الناس » نداء علامة ، و « يأيها الذين آمنوا » نداء كرامة ، وبكلٍّ واحدٍ من القسمين يفتتح الحقُّ خطابه فى السُّوَر ؛ وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرةً ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هى التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فَرْضٌ ، وتجنب الفضلات والشواغل ـ وإن كان من جملة المباحات ـ نَفْلٌ ، فثوابُ الأول أكثر ولكنه مؤجَّل ، وثوابُ النَّفْلِ أقلُّ ولكنه مُعَجَّل[1] .

ويقال خوَّفهم بقوله : « اتقوا » . ثم سكَّن ما بهم من الخوف بقوله : « ربَّكم » فإنَّ سماعَ الربوبية يوجِب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله : « إن زلزلة السَّاعةِ شىء عظيم » : وتسمية المعدوم « شيئاً » تَوَسُّعٌ ؛ بدليل أنه ليس فى العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظِ يقتضيه ، وكذلك القول فى تسميته « شيئاً » هو توسُّع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكَارَىٰ وما هم بِسُكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ﴾

لكلِ ذلك اليومَ شُغْلٌ يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناسَ سكارى أى من هَوْل ذلك

= ومن المفيد أن نسوق نصاً لإحدى المجانين :

معشر الناس ما جننت ولكن أنا سكرانة وقلبى صاح
أنا مفتونة بحب حبيبٍ لست أبغى عن بابه من براح

(الروض الفائق ص ٣٦٢) وكتابنا (نشأة التصوف الإسلامى ط المعارف ص ١٧٨ .

(١) هذا أصل يضاف إلى أصول الفنه الصوفى عند القشيرى .

اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال فى القيامة وأهوالها غالبة . وكأنهم سكارى وما هم فى الحقيقة بسكارى ، ولكن عذابَ اللهِ شديد ، ولِشِدَّتِهِ يحيرهم ولا يبقيهم على أحوالهم . وهم يتفقون فى تشابههم بأنهم سُكَارَى ، ولكنَّ موجِبَ ذلك يختلف ؛ فمنهم مَنْ سُكْرُه لِمَا يُصيبه من الأهوال ، ومنهم من سُكْرُه لاستهلاكه فى عين الوصال .

كذلك فَسُكْرُهم اليومَ مختلفٌ ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب ، ومنهم من سكره سكر المحاب . . وشتَّان بين سُكْرٍ وسُكْر ! سُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الغفلة ، وسُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الوصلة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يُجادِلُ فى اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ويتَّبع كلَّ شيطانٍ مَّرِيدٍ ﴾

المجادلةُ لله — مع أعداء الحق وجاحدى الدِّين — من موجِبات القربة ، والمجادلة فى الله ، والمماراة مع أوليائه ، والإصرارُ على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان بوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليه أنَّه مَن تولاَّه فأنَّه يُضِلُّه ويَهْدِيه إلى عذابِ السعيرِ ﴾

مَنْ وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلاَّ إلى الضلال ، ثم إنه فى الآخرة يتبرأ من موافقته، ويلعن جملةَ مُتَّبِعيه . فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم مِن ترابٍ ثم من نطفة ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ ما نشاء إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثم نُخْرِجُكم طِفْلاً . . . ﴾

---

(١) حديث القشيرى فى (السكر) هنا مفيد عند دراسة هذا المصطلح .

التبس عليهم جواز (بعثه الخَلْق)[1] واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتجَّ عليهم فى ذلك بما قطع حجتهم ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَاه رَشِدَ ، ومَنْ أَصَرَّ على غَيِّه تَرَدَّى فى مهواة هلاكه .

واحتجَّ عليهم فى جواز البعث بما أقروا به فى الابتداء أن الله خَلَقَهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ؛ فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها . . . إلى أَنْ نَقَلَهم من حال شبابهم إلى زمان شَيْبهم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتجَّ أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — فى حال الربيع — بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه فى الربيع من الخضرة والحياة . والذى يَقْدِرُ على هذه الأشياء يقدر على خَلْق الحياة فى الرِّمة البالية والعظام النخرة .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجبة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعى للحظوظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة فى زمان المشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة فى منازل العصيان .

ويقال أرذل العمر التعريج فى (أوطان)[2] المذلة .

ويقال أرذل العمر العِشْرةُ مع الأضداد .

ويقال أرذل العمر (عَيْشُ)[3] المرء بحيث لايُعْرَفُ قَدْرُه .

ويقال أرذل العمر بأن يُوَكَّل إلى نَفْسِه .

ويقال أرذل العمر التطوح فى أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس ، والعَمَى عن شهود تقدير الحق .

---

(١) هكذا فى م أما فى س فهى (بعثهم الحق) ونرجح الأولى إذ الذى استبعدوه أن يبعث الله واحداً من الخلق .
(٢) هكذا فى م وهى غير موجودة فى س .
(٣) فى م (عيش) المرء وفى س (حبس) المرء . وقد رجحنا (عيش) على معنى أن الله يمنحه من العمر ما لا يكون خلاله تقدير من الخلق له .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنه يُحْيى الموتى وأنَّه على كلِّ شيء قديرٌ ﴾

الله هو الحقُّ ، والحق المطلق الوجود(١) ، وهو الحق أى ذو الحق .

« وأنه يحيي الموتى » أى الأرض التى أصابتها وَحْشَةُ الشتاء(٢) يحييها وقتَ الربيع .

ويقال يحيي النفوسَ بتوفيق العبادات ، ويحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات .

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم .

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر ، ثم بجميلِ الرضا وسكونِ الجأش عند جريان التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يجادِل فى اللهِ بغير عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ منيرٍ ﴾

دليل الخطاب يقتضى جواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه ، قال سبحانه لنبيِّه : « وجادِلْهم بالتى هى أحسن » ومَنْ لم يُحْسِنْ مذهبَ الخصْمِ وما يتعلق به من الشُبَهِ لم يمكنه الانفصال عن شُبْهَتِهِ ، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء(٣) منهم ، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول(٤) ، وفى هذا ردٌّ على مَنْ جَحَدَ ذلك .

قوله جل ذكره ﴿ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيلِ اللهِ

---

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أى مصنف للقشيرى ، ونحن نعطيها أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يعتبرون الوجود المطلق للحق وما عدا موجوده نسبي متكثر متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة . ونظن أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية « فتعالى الله الملك الحق » من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه « التحبير في التذكير » .

(٢) هكذا فى م ولكنها فى ص (الشقاء) بالقاف ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود المقابلة بين الربيع و (الشتاء) .

(٣) هكذا فى م ولكنها في ص (إلا قوماً) .

(٤) فى هذا وفيما بعده رد على من يتهمون الصوفية بمجافاتهم للعلم ، وعدم احترامهم للعقل ، كما أن فيه رداً على قضية أثارها بعض المتكلمين حول وجوب أو عدم وجوب تعلم المسلم أصول التوحيد كى يصح إيمانه ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

له فى الدنيا خِزْىٌ ونُذِيقُهُ يوم القيامة عذابَ الحريقِ ﴾

يريد أنه متكبِّر عن قبول الحق ، زاهِدٌ فى التحصيل ، غيرُ واضعٍ نظره موضعه ؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلُّص من شُبْهته .

ثم قال : « له فى الدنيا خزى » أى مذلة وهوان ، وفى الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يعبد اللهَ على حَرْفٍ فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبينُ ﴾

يعنى يكون على جانبٍ ، غير مخلص . . . لا له استجابة توجب الوفاق ، ولا جَحْداً يبين الشقاق ؛ فإنْ أصابه أمْنٌ وخير ولِينٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه ، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة ارتدَّ على عقبيه ناكسا ، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكسا . ومَنْ كانت هذه صفته فقد خسر فى الدارين ، وأخفق فى المنزلتين .

قوله جل ذكره : ﴿ يدعو مِن دونِ اللهِ مالا يضرُّه وما لا ينفعه ذلك هو الضلالُ البعيد * يدعو لَمَن ضَرُّه أقْرَبُ من نفعِه لَبِئْسَ المَوْلَى ولَبِئْسَ العشيرُ ﴾

أى يعبدُ مَنْ المضَرَّةُ فى عبادتِه أكثرُ من النَّفْعِ منه ، بل ليس فى عبادته النفع بحالٍ ، فالضُّرُّ المُتَيَقَّنُ فى عِبادتهم الأصنامَ هو بيانُ ركاكة عقولِهم ، ورؤيةُ الناسِ خطأ فِعْلِهم . والنفع الذى يتوهمونه فى هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبئس المولى ولبئس العشير » : أى لبئس الناصرُ الصَّنَمُ لهم ، ولبئس القومُ هم للصنم ، ولِمَ لا . ؟ ولأجْلِهِ وقعوا فى عقوبة الأبد .

قوله جل ذكره ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِن تحتها الأنهارُ إنَّ اللهَ يفعل ما يريدُ ﴾

« الذين آمنوا » : أى صَدَّقُوا ثم حقَّقُوا ؛ فالإيمانُ ظاهِرُه التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (انتسام)[1] الحق فى السِّرِّ .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، ففى الحال يجب الإيمان وفى المآل يوجب الأمان ، فمُعَجَّلُ الإيمان من (. . .)[2] المسلمين ، ومؤجَّلُه الخلاصُ من صحبة الكافرين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذى تعلَّق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة ؛ فالمُؤَجَّلَة ثواب وتوبة ، والمعَجَّلَةُ أحوالٌ وقربة ، قال تعالى : « ولِمَنْ خاف مقام ربِّه جنتان »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ مَن كان يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَه اللهُ فى الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السماء ثم ليقطَعْ فلينظُرْ هل يُذْهِبَنَّ كَيْدُه ما يَغيظ ﴾

أى أنَّ الحقَّ — سبحانه — يرغم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لم تَطِبْ

---

(١) فى م (إبتسام) وفى ص (انتسام) ، ونحن نفضل هذه على تلك على أنها صيغة (انفعال) من (تلسم) فلان العلم أو الخبر أى تلطف فى التماسه حتى تبينه وتبعه .

(٢) فى م (سيف) وفى ص (سلف) ونحن نؤثر الأولى إذ أن الذى يؤمن يأمن — فى الحال — من بطش المسلمين الذين أمروا بقتال أعدائهم جهاداً فى سبيل إعلاء كلمة الإيمان .

(٣) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسُهُ بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتلْ نَفْسَهَ من الغيظ خَنْقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إنْ كنتَ لا ترضى بما قد ترى فدونَكَ الحبلَ به فاخنق

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك أنزلناه آياتٍ بيِّنَاتٍ وأنَّ اللهَ يهدى مَن يريد ﴾

« آيات بينات » : أى دلالات وعلامات نَصبَهَا الحقُّ سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهو قضية العقل ، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل ، ومنها ما هو تعريفات فى أوقات المعاملات(١) فما يجده العبد فى حالاته من انغلاقٍ ، واشتدادِ قبضٍ ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لا شكَّ ولا مرية إذا أخَلَّ بواجبٍ أو ألَمَّ بمحظور(٢) . أو تكون زيادة بَسْطٍ أو حلاوة طاعة ، أو تيسير عسيرٍ من الأمور ، أو تجدد إنعامٍ عند حصول شىءٍ من طاعاته .

ثم قد يكون آيات فى الأسرار ، هى خطابُ الحقِّ ومحادثةُ معه ، كما فى الخبر :

« لقد كان فى الأمم مُحَدَّثون فإن يك فى أمتى فعمر »(٣)

ثم يقال الآيات ظاهِرةٌ ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فيمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئين والنصارىٰ والمجوسَ والذين أشركوا إنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهم يومَ القيامةِ إنَّ الله على كلِّ شىءٍ شهيدٌ ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولىُّ والعدوُّ ، والموحِّد والجاحد يُجْمَعُون يومَ الحشر ، ثم الحقُّ ـ سبحانه ـ يعامِل كلاً بما وَعَدَه ؛ إما بوصالٍ بلا مَدَى ، أو بأحوالٍ

---

(١) يمكن القول إن هذه هى المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوفي) ومنها يتضح اهتمام القشيرى بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من العرفان نتيجة المجاهدات .

(٢) فإن الاثم ما حاك فى صدرك . . كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) وهى التى يطلق عليها القشيرى (الفراسة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقتُ واحد ؛ وكلٌّ واحدٍ لما أُعِدَّ له وافد ، وعلى ما خُلِقَ له وارد ..

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ له مَن
فى السَّمٰوَاتِ وَمَن فى الأرضِ والشمسُ
والقمرُ والنجومُ والجِبالُ والشجرُ
والدوابُّ وكثيرٌ مِّنَ الناسِ وكثيرٌ
حَقَّ عليه العذابُ ومَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ
من مُكْرِمٍ إنَّ اللهَ يفعل ما يشاء ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة ، وأربابُ الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة .

وفى كل شىءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحدُ

قوله جل ذكره : ﴿ هذان خَصْمان اختصموا فى ربِّهم
فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثِيابٌ من
نارٍ يُصَبُّ من فوقِ رُءوسِهم الحميم ﴾

أما الذين كفروا فلهم اليومَ لباسُ الشرْكِ وطِرازُه الحرمان ، ثم صدار الإفك وطرازه الخذلان . وفى الآخرة لباسهم القطران وطرازه الهجران ، قال تعالى : « اخسئوا فيها ولا تكلمونِ » .

أمَّا أصحابُ الإيمانِ فلِباسُهم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشِّرْكِ ثم مجانبة المخالفة ، ثم مباينة الغفلة ، ثم مجانبةُ السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله . وفى الآخرةِ لِباسُهم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ، وآخرون هم أصحاب التجريد ؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محلَّ وهم الغُرَبَاء[1] ، وهم الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِقِّ كل ما لَحِقَهُ التكوين .

---

(١) يقول ابن الجلاء فى تعريف الصوفى : فقير مجرد عن الأسباب ، كان مع الله بلا مكان ، ولا يعلمه الخلق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١٤٠) ويقول الحصرى : « الصوفى لا تقله أرض ولا تظله سماء » الرسالة (الصفحة ذاتها) .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنُوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أَساوِرَ من ذَهَبٍ ولؤلؤاً ولِبَاسُهم فيها حريرٌ ﴾

التحلية تحصينٌ لهم ، وسترٌ لأحوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم بالجنة زينة :

وإذا الدُّرُّ زَان حُسْنَ وجوهٍ كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنَا

قوله جل ذكره : ﴿ وهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وهُدُوا إلى صراطِ الحميد ﴾

الطيبُ من القول ما صَدَر عن قلبٍ خالصٍ ، وسِرٌّ صافٍ (مما يَرْضَى به علم التوحيد ، فهو الذى لا اعتراض عليه للأصول)(١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين ، ويقال الطيبُ من القول هو إرشاد المريدين إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ ويُرْجَى(٢) .

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً (٣) وهو مُسْتَنْطَقٌ .

---

(١) هكذا فى س ولا فرق بين العبارة فى س ، م إلا أنها جاءت فى الأخيرة (مما رضى به . . .) والمقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغى ألا تتعارض مع أقوال أرباب أصول التوحيد؛ لأن الحقيقة لا تعارض الشريعة فى شىء . فالضمير (فهو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والسر الصافى .

(٢) أى عند صاحب سلطان ، وقد عرف الصوفية بشجاعتهم الرائعة فى مواجهة أصحاب الأمر والنهى من الحكام وغيرهم .

(٣) هكذا فى س أما فى م فهى (مفقوداً) وعلى الأول يكون المعنى أن قوله مسموح به — ظاهرياً — حيث لا يستشنع فى الباطن ، وعلى الثانى : أى يكون قائله فى حال الفقد فهو لا ينطق بنفسه بل بالله .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد برىء من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « ربّنا ظلمنا أنفسنا »(١) .

ويقال أنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لكَ فيه نصيب .

وأمّا « صراط الحميد » : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى المسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّ الذين كفروا ويَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ الذى جعلناه للناسِ سَوَاءً العاكِفُ فيه والبادِ ومَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ نُذِقْه من عذابٍ أليمٍ ﴾ .

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، وبِغَصْبِ المال الذى لو بقى فى يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء العاكف فيه والبادى(٢) » وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكِرَام يستوى فيه الإقدام ، فَمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيبَ ولا ردَّ ، وبعد الوصول فلا زَجْرَ ولا صدَّ ، أمّا فى الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر ؛ قال تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين »(٣) ولكن فى الوصول فلا تفاوتَ ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوسُ فالموضع الواحد يجمعهم ، ولكنْ لكلٍّ حالٌ ينفرد بها .

---

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .
(٢) البادى = غير المقيم .
(٣) آية ٢٤ سورة الحجر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ ألاّ تُشْرِكْ بى شيئًا وطَهِّرْ بَيْتِيَ للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

أصلحنا له مكانَ البيت ومَكَّنّاه منه ، وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعنّاه عليه ، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة فى زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله « ألا تشرك بى شيئًا » ، أى لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءك له .

« وطهر بيتى . . » يعنى الكعبة ـ وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فَرِّغْ قَلبَكَ عن الأشياء كلِّها سوى ذِكْرِه ـ سبحانه .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرِّغ لى بيتًا أسكنه ، فقال ذلك الرسول : إلهىْ . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن » . والمراد منه ذكر الله تعالى ؛ فالإشارة فيه أن يفرِّغ قلبه لذكر الله . وتفريغ القلب على أقسام : أوله من الغفلة ثم مِنْ توهُّم شىء من الحدثان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيتى » : أى قَلبكَ عن التطلع والاختيار ؛ بألا يكون لك عند الله حظٌّ فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية .

« ويقال طهِّرْ بيتى » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطلعِ إكرامٍ ، أو تطلُّبِ إنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طَهِّرْ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والقائمين » وهى الأشياء المقيمة من مستودعات(١) العرفان فى القلب من الأمور المُغْنِيةِ عن البرهان ،

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (مستوطنات) .

ويتطلع بما هو حقائق البيان التى هى كالعيان كما فى الخبر : « كأنك تراه » .(١)

« والركع السجود » : هى أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة ، والرجاء والمخافة والقبض والبسط ، وفى معناه أنشدوا :

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلبَ بيتَه والمقاما
وطواف إجالةُ السِّرِّ فيه وهو ركنى إذا أردتُ استلاما

قوله : « لا تُشْرِكْ بِى شيئًا » : لا تلاحظ البيتَ ولا بِنَاءكَ(٢) للبيت .

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق فى شهود ربِّ البيت .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَذِّن فى الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجَالاً وعلى كلِّ ضَامرٍ يأتين مِن كل فَجٍّ عميقٍ ﴾

أذَّن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحج ونادى ، وأسمع اللهُ نداءه جميعَ الذرية فى أصلابِ آبائهم ، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج .

وقدَّم الرِّجالةَ على الركبان لأنَّ الحَمْلَ على المركوب أكثر(٣) .

ولتلك الجِمالِ على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب ، وفى قريبٍ من معناه أنشدوا :

وإنَّ جِمالاً قد علاها جَمَالُكُم — وإن قُطِّعَتْ أكبادنا — لحبائب

ويقال « يأتين من كل فجٍّ عميق » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .

وكم قَدْرُ مسافةِ الدنيا بجملتها ! ؟ ولكنْ لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيمِ صنيعِهم يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه .

---

(١) إشارة إلى الحديث (أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموتى) .
الطبرانى عن أبى الدرداء ، وحسن السيوطى سنده ، ورواه البيهقى عن معاذ . وفى الحلية (أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك . . .) .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فقد وردت (ولا تبال) ونحن نرجح ما جاء فى م .

(٣) فتقديم الرجالة فيه تخصيص نظراً لما يبذلونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لهم ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالُهم ، وأرباب الأعمال منافعُهم حلاوةُ طاعتهم ، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاء أنفاسهم ، وأهلُ التوحيد منافعهم رضاهم باختيارِ الحقّ ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويذكروا اسمَ اللهِ فى أيامٍ معلوماتٍ[1] على ما رَزَقَهم من بهيمةِ الأنعام ﴾

لأقوامٍ عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هَدْيِهم[2] . وآخرون يذكرون اسمه عند ذَبْحِهم أمانيهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بِمَحْوِ ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِنْها وأَطْعِمُوا البائِسَ الفقير ﴾ .

شارِكُوا الفقراء فى الأكل من ذبيحتكم — الذى ليس بواجب — لتلحقكم بركاتُ الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا[3] ساحةَ الخضوع والتواضعِ ، وبجانبة الزَّهْوِ والتكبُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفوا نُذُورهم ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودَهم ، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم ، فَمَنْ كان عقدُه التوبةَ فوفاؤه ألا يرجعَ إلى العصيان . ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ فَشَرْطُ وفائه تركُ تقصيره . ومن كان عهدُه ألا يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلُّع إكرامٍ فوفاؤه استقامته على الجملة فى هذا الطريق بألا يرجع إلى استعجالِ نصيبٍ واقتضاءِ حظ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولْيَطَّوَّفوا بالبيتِ العتيقِ ﴾

الإشارة فى الطواف إلى أنه يطوف بنَفْسه حولَ البيت ، وبقلبه فى ملكوت السماء ، وبِسِرِّه فى ساحات الملكوت .

---

(١) أبو حنيفة : هى عشر ذى الحجة وآخرها يوم النحر . وأكثر المفسرين : هى أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدى إلى الحرم من النعم ، قال تعالى : « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » .

(٣) هكذا فى م وفى س (يتركوا) وربما كانت فى الأصل ألا يتركوا فهكذا يقتضى السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك ومَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فهو خيرٌ له عند ربِّه ﴾

تعظيم الحرمات(١) بتعظيم أمره ؛ وتعظيمُ أمرِه بِتَرْكِ مخالفته .

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه ، ولا محالةَ سيلقى سريعاً غِبَّهُ(٢) .

ويقال تعظيم حرماته بالغيرة على إيمانه (وما فَجَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط(٣)) .

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجِبُ الفُرْقة .

ويقال كلُّ شيء من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق ، وتَرْكُ الحرمة على خَطَرٍ ألا يُغْفَر . . وذلك بأن يؤدى ثبوتُه بصاحبه إلى أنْ يختَلَّ دِينُه وتوحيدُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأُحِلَّتْ لكم الأنعامُ إلاَّ ما يُتْلَى عليكم ﴾ .

فالخنزير من جملة المحرمات ، وكذلك النطيحة والموقوذة ، وما يجيء تفصيله فى نَصِّ الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ .

«مِن» ها هنا للجنس لا للتبعيض ، وهوى كلِّ من اتبعه معبودُه ، وصنمُ كلِّ أحدٍ نَفْسُهُ .

« واجتنبوا قول الزور » : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قولُ القلب ونطقه ، ومَنْ عاهد اللهَ بقلبه ثم لا يفى بذلك فهو من جملة قول الزور .

قوله جل ذكره : ﴿ حُنَفَاءَ لله غيرَ مشركين به ومن

---

(١) هكذا في م وفى ص (الجهات) ونرجح الأول حيث وردت فى الآية .
(٢) هكذا في م وفى ص (نحبه) ونرجح (غبه) بمعنى عاقبته .
(٣) هكذا فى م وفى ص (وما فجر صاحب ظلمة قط) والعبارة الأولى أقرب إلى المعنى .

يُشْرِكْ باللهِ فكأنَّما خَرَّ مِنَ السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطيْرُ أو تَهْوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحيقٍ ﴾ .

الحنيف المائلُ إلى الحق عن الباطل فى القلبِ والنَّفْسِ ، فى الجهر وفى السِّرّ ، فى الأفعال وفى الأحوال وفى الأقوال

« غير مشركين به » : الشِّركُ جَلِىٌّ وخَفِىٌّ[1] .

قوله « ومن يشرك بالله فكأنما ... » كيف لا .. وهو يهوى فى جهنم وتتجاذبه ملائكة العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً فى صفة قوم يقول الله تعالى : « نسوا الله فنسيهم »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك ومَن يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنَّها مِن تَقْوى القلوبِ ﴾ .

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً ، وبخواطر الإلهام سِرًّا . وكما لا تجوز مخالفةُ شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنَّ خاطر الحقِّ لا يكذِبُ، وعزيزٌ مَنْ له عليه وقوف . وكما أنَّ النَّفْسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف القلبُ عَمِيَ فى المستقبل ، وانقطعت عنه تعريفاتُ الحقيقة ، والعبارة[3] والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير . ويقوى القلبُ بتحقيق المنازلة ، فإذا خرست النفوسُ ، وزالت هواجسها ، فالقلوبُ تنطق بما تُكاشَفُ به من الأمور .

ومنَ الفَرْقِ بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذى طريقه العلم يعلم صاحبُه أولا ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجرى ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه

---

(١) الشرك الجلى معروف أما الشرك الخفى فهو أن ينازعه منازع فى قلبك من هوى أو حظ أو علاقة تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) فى م و س (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبارة) بالراء أى أن التعبير عن ذلك بالكلام والشرح قاصر

ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجْرِى عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى مايُجْرَى . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار[2] ، بل يكون مختاراً ولكنّ سببَه عليه مشكل ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لكم فيها منافِعُ إلى أَجَلٍ مُسمًّى ثم مَحِلُّها إلى البيتِ العتيقِ ﴾ .

لكلٍّ من تلك الجملة منفعةٌ بِقَدْره وحدِّه[2] ؛ فلأقوام بركاتٌ فى دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين فى لذاذات بَسطِهم ، ولآخرين فى حلاوة طاعاتهم ، ولآخرين فى أُنس أنفاسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلِّ أُمةٍ جعلنا مَنسكاً لِيذكُروا اسمَ اللهِ على ما رَزَقَهم منْ بهيمةِ الأنعام ﴾ .

الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : فقومٌ هم أصحاب التضعيف[3] فيما أوجب عليهم وجعل لهم ، وقومٌ هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وُعدَ لهم . قوله « ليذكروا اسم الله على . . » وذكر اسم الله على مارزقهم على أقسام : منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على مارفقَهم لمعرفته بأنه هو الذى يتقبل منهم وهو الذى يُثيبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ فلَه أَسلِموا وبشِّرِ المُخبتينَ ﴾ .

أى استَسلموا لحكمه بلا تعبيسٍ ولا استكراهٍ من داخل القلب .

---

(١) هذه وجهة نظر باحث صوفى فيما يشغل المتكلمين عن الجبر والاختيار .
(٢) أى بحسب ماله من قدر وهمة ، وما هو واقف عنده من حد ورتبة .
(٣) أصحاب التضعيف أى أصحاب التشدد الذين يأبون اتباع الرخص ، لأن الرخص لاتكون إلا لأرباب الحوائج والأشغال وهؤلاء لا حاجة ولا شغل لهم إلا بالحق .

والإسلام[1] يكون بمعنى الإخلاص ، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفاس . « وبشِّرْ المخبتين » : الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومنْ أماراتِ الإخباتِ كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع ، وذلك بإطراق السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ﴾ .

الوَجلُ الخوفُ من المخافة ، والوَجلُ عند الذكر على أقسام : إما لخوفِ عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم ، أو لخروجٍ من الدنيا على غفلةٍ من غير استعدادٍ للموت ، أو إصلاحِ أُهْبَةٍ ، أو حياءٍ من الله سبحانه فى أمورٍ إذا ذَكَرَ اطلاعه — سبحانه — عليها لمَا بَدَرَت منه تلك الأمور التى هى غير محبوبة .

ويقال الوَجلُ على حسب تجلى الحق للقلب ؛ فإن القلوب فى حال المطالعةِ والتجلى تكون بوصف الوجل والهيبة .

ويقال وَجلٌ له سبب ووجل بلا سبب ؛ فالأول مخافةٌ من تقصير ، والثانى معدودٌ فى جملة الهيبة[2] .

ويقال الوَجلُ خوفُ المكرِ والاستدراج ، وأقربُهم من الله قلباً أكثرُهم من الله — على هذا الوجه — خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ .

أى خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراهٍ ولا تمنى خَرْجةٍ ، ولا رَوْمِ فُرْجةٍ بل يستَسلِمُ طوعاً :

---

(١) هكذا فى م ولكنها فى ص (السلام) والصواب الأولى فى الآية (أسلموا) .
(٢) فالخوف إذن أدنى منزلة من الهيبة ، والترتيب هكذا : الخوف والرجاء ثم القبض والبسط ثم الهيبة والأنس (الرسالة ص ٣٥ و ص ٣٦) .

ويقال الصابرين على ما أصابهم . أى الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلبون السلوةَ باطلاعِ الخلْق[1] على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف فى محلِّ النجوى :

إذا ما تمنَّي الناسُ رَوْحاً وراحةً تمنَّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسمَعاَ

قوله جل ذكره : ﴿ ومما رَزَقْناهم يُنْفِقون ﴾

عند المعاملة من أموالهم ، وفى قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير ؛ فينفقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبَهم على التسليم والخمود تحت جريان الاحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ والبُدْنَ جَعَلْناها لكم من شعائرِ اللهِ لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسمَ اللهِ عليها صَوَافَ فإذا وجَبَتْ جنوبُها فكلُوا منها وأطْعِمُوا القانِعَ وَالمعترَّ كذلك سَخَّرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب واَلحمْل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بِخِلْقَتِها كيف سُخِّرتْ للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان فى البروكِ عند اَلحمْل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها)[2] وصبرها على العطش فى الأسفار ، وعلى قليل العَلَف ، ثم ما فى طبْعِها من لُطْفِ الطبع ، وحيث تستريح بالُحدَاء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك .

---

(١) هكذا فى ص ولكنها فى م (باطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يفزعون للحلق طلباً للسلوة فيما يصيبهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من ص .

« فإذا وجَبَتْ جنوبُها » : أى سقطت على وجه الأرض فى حال النَّحْرِ فأطعموا القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس ، والمُعْتَرّ الذى هو فى تَحَمُّله مُتَحَمِّلٌ ، ولمواضِع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ولا دِماؤها ولكن يناله التقوىٰ مِنكم كذلك سخَّرها لكم لِتُكبِّروا الله على ما هَدَاكم وبَشِّرِ المحسنين ﴾

لاعِبْرةَ بأعيان الأفعال سواء كانت بدنيةً محضة ، أو ماليةً صِرْفة ، أو بما له تعلُّق بالوجهين ، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص[1]، فإذا انضافَ إلى أكسابِ الجوارح إخلاصُ القصود ، وتَجَرَّدَتْ عن ملاحظة أصحابِها للأغيارَ صَلُحَتْ للقبول[2] .

ويقال التقوى شهودُ الحقِّ بِنَعْتِ التفرُّدِ ؛ فلا يُشَابُ تقرُّبُكَ بملاحظةِ أحدٍ ، ولا تأخذ عِوَضاً على عملٍ من بَشَرٍ .

« لتكبروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحقِّ العبودية على قضية الشرع .

« وبشر المحسنين » : والإحسان كما فى الخبر : « أن تعبد الله كأنك تراه . . » .

وأمارةُ صحته سقوطُ التعبِ بالقلبِ عن صاحبِهِ ، فلا يستثقلُ شيئاً ، ولا يتبرم بشىء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

---

(١) يقال إن سبب نزول هذه الآية أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت الآية .

(٢) يرى القشيرى أن هذا جوهر العبادات جميعاً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا عن القشيرى المفسر .

انظر كتابنا (الإمام القشيرى ومذهبه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبى .

يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان ، وعن قلوبهم خطراتِ العصيان ، وعن أرواحهم طوارقَ النسيان .

والخيانةُ على أقسام : خيانةٌ فى الأموال تفصيلها فى المسائل الشرعية ، وخيانة فى الأعمال ، وخيانة فى الأحوال ؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرُّها الإعجابُ ، ثم المساكنةُ وأخفاها الملاحظة[1] .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على)[2] طلب الأعواض ليجدوا فى الآخرة حُسْنَ المآل . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العِوَض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله .

وخيانة العابدين أن يَدَعُوا شهواتِهم ثم يرجعون إلى الرُّخَص ، فلو صدقوا فى مرامهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب .

وخيانة المحبين روم فرحة[3] مما يمسهم من برحاء المواجيد ، وابتغاء خرجة مما يَشْتَدُّ عليهم[4] من استيلاء صَدٍّ ، أو غلبات شوقٍ ، أو تمادى أيامِ هَجْرٍ .

وخيانةُ أربابِ التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عِرْقٌ ، ورجوعُهم — بعد امتحانِهم عنهم — إلى شغلية من أحكام الفَرْقِ ، اللهم إلا أن يكونَ ذلك منهم وجوداً ، وهم عنه مفقودون[5] .

---

(١) نلفت النظر إلى أهمية ذلك عند دراسة المصطلح الصوفى ، خاصة وأن القشيرى لم يتكلم عن ذلك فى رسالته .

(٢) (على) طلب الأعواض معناها لأجل طلب الأعواض .

(٣) (روم) فى ص و (روح) فى م ، ونظن أنها (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمل القشيرى (فرجة ، وخرجة) فى سياق مماثل .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص مما (يشق عليهم) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٥) معنى هذا أن القشيرى يسلم بأنه قد يحدث من العبد الواله ما ينبغى أن يعذر فيه ، إن صحَّ صدقه فى التوجه ، واشتد وقع المحو عليه .

قوله جل ذكره : ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلُونَ بأنّهم ظُلِمُوا وإنّ اللهَ على نَصْرِهم لَقَدِيرٌ﴾ .

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسَّهم — ما هو فى الظاهر — ذُلٌّ من الأعادى يجرى عليهم ضَيْمٌ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاء وظلمٌ . . فالحقُّ — سبحانه — ينتقِمُ من أعدائهم لأجْلِهم ، فهم بنعت التسليم والسكون فى أغلب الأحوال ، وتفاصيلُ الأقدارِ جاريةٌ باستئصالِ مَنْ يناويهم ، وبإحالة الدائرة على أعاديهم . وفى بعض الأحايين ينصبهم الحقُّ سبحانه بنعت الغَلَبَةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَر ، وتمامِ حصولِ الدائرة على مَنْ ناصَبَهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواعُ النصرةِ من الله — سبحانه — حاصلةٌ ، واللهُ — فى الجملةِ — غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿الذين أُخْرِجُوا من ديارِهم بغير حقٍ إلاّ أن يقولوا ربُّنَا اللهُ﴾

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ حميدُ العقبى ، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا »[1] . وقد يجرى من النَّفْسِ وهواجسها على القلوبِ لبعضِ الأولياء وأهلِ القصةِ — ظُلْمٌ ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء ، وتستولى غاشيةُ النَّفْس ، فتعمل فى القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من[2] طوارق الحقائق وشوارق الأحوال ، كما قال قائلهم :

أنعى إليكَ قلوباً طالما هَطَلَتْ سحائبُ الجودِ فيها أبْحُرَ الحِكَمِ

فَيَهْزِمُ الحقُّ — سبحانه — بجنود الإقبالِ أراذِلَ الهواجسِ ، وينصرُ عَسْكَرَ التحقيقِ بأمْدَادِ الكشوفات . ويَتَجَدَّدُ دارسُ العهد ، وتطلُعُ شموسُ السَّعْدِ فى ليالى الستر ، وتُكْنَسُ القلوبُ وتتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

---

(١) آية ٥٢ سورة النمل .

(٢) (للخراب من طوارق الحقائق) أى بسبب خلوها من طوارق الحقائق

أطلالُ سُعْدَى باللوى تَتَجَدَّدُ

فإذا هبَّتْ على تلك القلوب رياحُ العناية ، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صَوْبَ[1] التجلِّى ، وأنبت فيها أزهارَ البَسْط فينضح فيها نهارُ الوَصْلِ ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهم ببعضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن ينصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيزٌ ﴾ .

يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر ، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام .. وتلك سُنَّةٌ أجراها الله لاستنقاء[2] منازل العبادة ، واستصفاء مناهل العرفان . ولا تحويل لِسُنَّتِهِ ، ولا تبديل لكريم عادته .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين إن مكَّنَّاهم فى الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عَنِ المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور ﴾ .

إذا طالت بهم المدةُ ، وساعَدَهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم فى استجلاب حظوظهم ، ولا فى اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم ، ولكن قاموا بأداء حقوقنا .

وقوله : « أقاموا الصلاة » : فى الظاهر ، واستداموا المواصلات فى الباطن .

---

(١) الصوب = المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذى (الوسيط) .

(٢) هكذا فى م ولكنها فى س (لاستيفاء) . وقد آثرنا (استنقاء) لملاءمتها (لاستصفاء) التى بعدها ولا نستبعد أنها قد تكون (لاستبقاء) فى الأصل على معنى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لما بقيت منازل العبادة ؛ لأن الكافرين إذا انتصروا لم يتركوا معابد .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها ؛ فتَعْلَمَ — بين يدى الله — مَنْ أنت ، ومَنْ تناجى ، ومَنْ الرقيب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : « وآتوا الزكاة » : الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم ، وفقراؤهم يُؤْتُون زكاةَ أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خَمْسة للفقراء والباقى لهم ، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتى نَفَسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نَفَسٍ — من المائتين — لَكَ . . وذلك أيضاً عِلَّة[1]

قوله « وأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر » : يبتدئون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأنفُسِهم ثم بأغيارهم ، فإذا أخذوا فى ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم .

ويقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه إجلالا لِقَدْرِه .

ويقال الأمر بالمعروف على نَفْسك ، ثم إذا فَرَغْتَ من ذلك تاخذ فى نهيها عن المنكر ومنْ وجوهِ المنكرِ الرياء والإعجابُ والمساكنةُ والملاحظةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يُكذِّبوك فقد كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قومُ نوح وعادٌ وثمودُ * وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ * وأصحابُ مَدْيَنَ وكُذِّبَ موسىٰ فأمْلَيْتُ للكافرين ثم أخَذْتُهم فكيف كان نكير ﴾ .

فى الآيات تسليةٌ للنبى — صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حَتْمٌ عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاءِ وصنوفِ الأسواء[2] .

---

(١) لأنه ينبغى الا تكون لك فى نفسك بقية على الإطلاق ، ويجب أن تكون بكليتك للحق .
(٢) أسواء = جمع سَوء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّن من قريةٍ أهلكناها وهى ظالمةٌ فهى خاويةٌ على عُرُوشِها ﴾ .

الظلمُ يوجِبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ، فالوحشةُ التى هى غالبةٌ على الظَّلَمَةِ من ضيقِ صدورهم ، وسوء أخلاقهم ، وفَرْطِ غيظ مَنْ يَظْلِمُون عليهم . . كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم ، وهو فى الحقيقة من جملة العقوبات التى تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظَّلَمَةِ ربما يتأخر وربما يتعجل . وخرابُ نفوسهم فى تعطلها عن العبادات لِشُؤْم ظُلْمِهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاء الغفلةِ عليهم خصوصاً فى أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم . . نقدٌ[1] غيرمستأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبِئْرٍ مُعَطَّلةٍ وقصرٍ مَشيدٍ ﴾ .

الإشارة فى « بئر معطلة » : إلى العيون المتفجرة التى كانت فى بواطنهم ، وكانوا يستقون منها ، وفى ذلك الاستقاء حياةُ أوقاتِهم من غلبات الإرادة وقوةِ المواجيد ، فإذا اتصفوا بظلمهم غَلَبَ غُثَاؤُها[2] وانقطع ماؤها بانسداد عيونها .

والإشارة فى « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأُنْس ، وخُلُوِّ أرواحهم من أنوار المحابِّ ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أفلَمْ يَسِيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعْقِلون بها أو آذانٌ يَسْمَعُون بها فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور ﴾

---

(١) (نقد) هنا معناها مُعجَّل ، تقابل (وعد) فى المؤجَّل .
(٢) الغُثَاءُ = الفاسد من الماء ، المتلىء ببقايا الأشياء من وجه الأرض والرغوة القذرة .

كانت لهم قلوب من حيث الخلقة ، فلمَّا زايلتها صفاتُها المحمودةُ صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصمم ، وإذا صَحَّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صَحَّ وصفه بسائر صفات الحيِّ من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدْرَكُ نسيمُ الإقبال بِمَشَامِّ السِّرِّ ، وفي الخبر :

« إني لأجد نفَسَ ربكم من قِبَل اليمن » وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : « إني لأجد ريح يوسف »[1] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريحٍ في الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذابِ ولَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَه وإنَّ يوماً عِندَ رَبِّكَ كألفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّون ﴾ .

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهم على استعمال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »[2] ولو آمنوا لصدَّقوا ، ولو صدَّقوا لَسَكَنُوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » : أي إنَّ الأيامَ عنده تتساوى ، إذ لا استعجالَ له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ مَنْ لا يَجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجْرِي الزمانَ فَسَوَاء عليه وجودُ الزمانِ ، وعدم الزمان وقِلة الزمانِ وكَثْرَةُ الزمانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأيِّن من قريةٍ أمْلَيْتُ لها وهي ظالِمةٌ ثم أخَذْتُها وإليَّ المصيرُ ﴾ :

الإمهال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والإمهال يكون بأنْ يَدَعَ الظالمَ في ظُلْمِه حينا ، ويوسِّع له الحَبْل[3] ، ويطيل به المهل ، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذي

---

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (الحيل) بالياء جمع حيلة ، وربما تأيد هذه بقوله فيما بعد (وكيف يستبق بالحيلة ما سبق في التقدير عدمه) .

أراده ، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتَقِب، فيعلوه نَدَمٌ ، ولات حينه ، وكيف يستبقى بالحيلة ما حق فى التقدير عَدَمُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يأيها الناسُ إنما أنا لكم نذيرٌ مبين ﴾ :

أشابِهُكُم فى الصورة ولكنى أُبايِنُكم من حيث السريرة ، وأنا لِمُحْسِنِيكم بشير ، ولِمُسِيئِكُم نذير ، وقد أيّدْتُ بإقامةِ البراهينِ ما جِئتكم به من وجوهِ الأمر بالطاعة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ فالذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم مَغْفِرةٌ ورِزْق كريمٌ ﴾ .

الناس — فى المغفرة — على أقسام : فمنهم من يستر[1] عليه زَلّتَه ، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر حاله لئلا تُصيبَهُ مِنَ الشهرةِ فتنةٌ[2] ، وفى معناه قالوا :

لا تُنْكِرَنْ جُحْدِى هَوَاكَ فإنما ذاك الجحودُ عليكَ سِتْرٌ مُسْبَلُ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه ، لذلك وَرَدَ فى الكتب : « أولياءى فى قبائى ، لا يشهد أولياءى غيرى » .

« والرزق الكريم » ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِب العبدُ .

ويقال هو الذى يبدو — من غير ارتقابٍ — على رِفْقٍ فى وقت الحاجة إليه .

ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوقَ على صَرْفِهِ فى وَجْهِ القربة . ويقال مافيه البركة .

ويقال الرزق الكريم الذى يُنال من غير تعب[3] ، ولا يتقلد مِنّةَ مخلوق .

---

(١) لأن كفرَ معناها فى اللغة سَتْرٌ .

(٢) وهذه إحدى الأفكار التى لشط أصحاب الملامة فى العمل بها ، وحثّ أتباعهم عليها .

(٣) (الذى ينال من غير تعب) هنا معناها من غير استعجال ، ومن غير بعدٍ عن التفويض والتوكل ، ومن غير اعتماد على مخلوق . ونحو ذلك مما قد يهدم صرح الاستسلام الكامل للرازق الوهاب سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين سَعَوْا فى آياتنا مُعَاجِزِينَ أولئك أصحابُ الجحيم ﴾ .

فى الحال فى معَجَّلِه الوحشه وانسدادُ أبوابِ الرشدِ ، وتنغصُ العَيْش ، والابتلاء بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفى الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الاجرام ..

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تَمَنّي ألْقَى الشيطانُ فى أُمْنِيَتِهِ فينسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ .

الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطانَ ولا تأثيرَ فى أحوالهم منهم ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تخييلٌ وتسويل (من التضليل)[1] . وكان لنبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — سَكَتَاتٌ فى خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات ، فيتلَفَّظ الشيطانُ ببعض الألفاظ[2] ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلٌ تَوَهَّمَ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ — عليه الصلاة والسلام وصار فتنةً لقومٍ .

---

(١) هكذا فى ص ولكن فى م وردت هكذا (وليس به شيءٌ من التضليل) ونحسب ان هذا أكثر ملاءمة للسياق حسبما يتضح من الهامش التالى .

(٢) قيل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقرأ بين قومه سورة النجم حتى إذا وصل إلى (ومناة الثالثة الأخرى) جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى فنبهه جبريل لما لم يفطن له ، وحيث إن النبي معصوم من إجراء الشيطان عليه ، ومعصوم من الغفلة . ولأنه لا يُعْقَل أن يجرى على لسانه مدح للأصنام — فقد جاء لتحطيمها — فيرى بعض المفسرين انَّ الشيطان تكلم بهذه الكلمات — وقد وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد — وتداخلت الكلمات فى قراءة النبي (ص) أثناء سكتة من سكتاته — كما نَبَّهَ القشيرى .

أما — الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُم[1] ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشيطانُ فتنةً للذين في قلوبهم مَّرَضٌ والقاسيةِ قلوبُهم وإن الظالمين لَفِي شقاقٍ بعيدٍ ﴾ .

إذا أراد اللهُ بِعَبْدِهِ خيراً أمدَّه بنور التحقيق ، وأيَّده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يُظلِّله غمامُ الرَّيْبِ ، وينجلى عنه غطاء الغَفْلَة ، فلا تأثيرَ لضبابِ الغَداةِ في شُعاعِ الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿ وليَعْلَمَ الذين أُوتوا العِلْمَ أنَّه الحقُّ من ربِّكَ فَيُؤْمِنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم وإنَّ اللهَ لَهَادِ الذين آمنوا إلى صِراطٍ مستقيم * ولا يزالُ الذين كفروا في مِرْيَةٍ مِنْهُ حتى تَأْتِيَهُم الساعةُ بَغْتَةً أو يأتيَهم عذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ المُلْكُ يومَئِذٍ للهِ يحكم بينهم فالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ في جنَّاتِ النعيم ﴾ :

لم يتخصصْ مُلْكه — سبحانه — بيومٍ ، ولم تتحدد له وقتيةُ أمْرٍ ، ولا لجلاله قَدْرٌ[2] ، ولكنَّ الدعاوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجويزات تتلاشى[3] ؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نِعَمٌ ، وللكفار وأصحاب الشقاق نِقَمٌ .

---

(١) ضبطناها هكذا ولا بأس — من حيث المعنى — أن تُضبطَ (ولم يُضْرِهم ذلك) فما حدث من الفتنة لم يُلحق بهم ضيراً ولا ضرراً ؛ فقد أدركتهم العناية .

(٢) أى أنه يجل عن التحدد بزمانٍ وقدر فهو المطلق الذى لا يتناهى .

(٣) الدعاوى والظنون والتجويزات هى تهم النفس والعقل .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفَرُوا وكَذَّبوا بآياتِنا فأولئك لهم عذَابٌ مُهِين * والذين هاجروا فى سبيلِ اللهِ ثم قُتِلُوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهم اللهُ رِزْقاً حَسَناً وإنَّ اللهَ لهو خَيْرُ الرازقين ﴾

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبين .

« والذين هاجروا . . . » : للقلوب حلاوةُ العرفان ، وللأرواح حُلَّةُ المحاب ، وللأسرار دوام الشهود .

قوله جل ذكرة : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهم مُدْخَلاً يَرْضَوْنه وإنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حليمٌ ﴾ .

إدخالاً فوق ما يَتَمَنَّوْنَه ، وإبقاء على الوصف الذى يُهْدَوْنه . . ذلك فى أوان صحوهم لينالوا لطائفَ الأُنْسِ على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البَسْطِ على أعلى أحوال السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك ومَنْ عاقَبَ بمِثْلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغِيَ عليه لَيَنصُرَنَّه اللهُ إنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

نَصْرُه — سبحانه — للأولياء نَصْرٌ عزيز ، وانتقامه بتمام ، واستئصالُه بكمال ، وإزهاقه أعداءه بتمحيق جملتهم ، وألا يحتاجَ المنصورُ إلى الاحتيالِ أو الاعتضادِ بأشكال[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ في النهارِ ويولِجُ النهارَ فى الليل وأنَّ اللهَ سَمِيعٌ بصيرٌ ﴾ .

---

(١) أى لا يحتاج المنصور إلى حيلة أو أى تدبير إنسانى من جانبه ، بل يسقط تدبيره ، لأن النصر له من عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى أن يعتضد بأمثاله من المخلوقين فكفى الله له ناصراً ومعيناً .

كما في أفقِ العالَم لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار ؛ فعند التجلى نهار وعند الستر ليل ، ولليلِ السِّرِّ ونهاره زيادةٌ ونقصان ، فبمقدار القبضِ ليلٌ وبمقدار البسطِ نهارٌ ، ويزيد أحدُهما على الآخرِ وينقص . . وهذا للعارفين . فأمَّا المحققُون فلَهُم الأُنْسُ والهيبةُ مكانَ قبضِ قوم وبَسْطِهم ، وذلك في حالَيْ صحوِهم ومحوهم ، ويزيد أحدهما وينقص ، ومنهم من يدوم نهارُه ولا يدخل عليه ليلٌ . . وذلك لأهل الأُنْس فقط[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنَّ ما يَدْعُونَ مِن دونه هو الباطِلُ ، وأنَّ اللهَ هو العليُّ الكبيرُ ﴾

إذا بدا عِلْمٌ من الحقائق حَصَلَت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلى ، ثم يزيد ظهورُ ما يبدو ويغلب ، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليلُ من هاهنا » فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ بما دون اللهِ فلا يشهدأولاً الأشياء إلا للحقِّ ، ثم لا يشهدها إلا بالحق ، ثم لا يشهد إلاالحق . . فلا إحساسَ له بغير الحق ، ومِنْ جملة ما ينساه . . نَفْسُهُ والكونُ كله[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أنزل مِنَ السماء ماء فَتُصْبِحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خبير ﴾

ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها ، وماء الرحمةِ يحيي أحوال أهلِ الزَّلةِ بعد تَرْكِها ، وماء العناية يحيي أحوال (. . .)[3] بعد زوال رونقها ، وماء الوصلة يحيي أهل القربة بعد لضوبها .

---

(١) كثير من المصطلحات الصوفية لا يُفهم فهماً دقيقاً إلّا بطريق المقارنة المعتمدة على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب . . . إلخ .
وقد استغل القشيرى — في ظلال القرآن الكريم — هذا الجانب .
(٢) تفيد هذه الفقرة في توضيح مراتب الشهود .
(٣) في م (الناس) وفي س مكتوبة هكذا (المقاليس) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَه مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وإنَّ الله لَهُوَ الغَنِيُّ الحميدُ ﴾

المُلْكُ له ، وهو عن الجميع غنى ، فهو لا يستغنى بمُلْكِهِ ، بل مُلْكُهُ بصير موجوداً بخَلْقِهِ إياه ؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك .

ويقال كما أنه[1] غنىٌّ عن الأجانب ممن أثبتهم فى شواهد الأعداء فهو غنى عن الأكابر وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغنىُّ حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِى حتى يُشْكر .

ويقال الغنىُّ الحميد المستحِقُّ للحمد : أعطى أو لم يُعْطِ ؛ فإنْ أعطى استحقَّ الحمد الذى هو الشكر ، وإنْ لم يُعْطِ استحق الحمد الذى هو المدح[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَا فى الأَرض والفُلْكَ تجرى فى البحر بأمْرِه ويُمْسِكُ السماء أن تَقَعَ على الأرضِ إلا بإذنه إنَّ الله بالناسِ لَرءوفٌ رحيم ﴾ .

أراد به تسخيرَ الانتفاع بها ؛ فما للخَلْقِ[3] به انتفاع ومُيَسَّرٌ له فى الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه ، ثم يُرَاعَى فيه الإذنُ ؛ فَمَنْ استمتع بشىء على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ ، ومَنْ كان بالعكس فمكْرٌ واستدراج .

وأمَّا السفينة.. فإلهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها ؛ بالحَمْل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد ، ثم ما يحصل بها من قَطْع المسافات البعيدة ، والتوصل بها إلى المضارب

---

(١) هكذا في م وهى فى س (أنت) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٢) لأجل هذا نقول فى صلاتنا : « الحمد لله رب العالمين » أى نشكرك فى السراء ، ونمدحك فى الضراء فالحمد أعم والشكر أو المدح أخص .

(٣) ورحت هكذا فى م وهى فى س (للحق) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

النائية ، والتمكن من وجوه الانتفاع ففى ذلك أعظمُ نعمة ، وأكملُ عافية .

وجعل الأرضَ للخَلْقِ قراراً من غير أن تميد ، وجعل السماء بناء من غير وقوع ، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء فى الظلام ، ثم هى زينة السماء — وفى ذلك من الأدلة ما يوجب ثَلَجَ الصدر وبَرْدَ اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثم يُحْيِيكم إنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ ﴾

إحياء النفوسِ وإماتتها مراتٌ محصورةٌ ، وإحياء أوقاتِ العُبَّاد وإماتتها لا حَصْرَ له ولا عَدَّ ، وفى معناه أنشدوا .

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ

ويقال يُحْيِي الآمالَ بإشهادِ تفضله ، ثم يميتها بالاطلاع على تَعَزُّزِه .

ويقال هذه صفة العوام منهم ، فأمَّا الأفاضل فحياتُهم مسرمدةٌ وانتعاشهم مؤبَّد . وأنَّى يحيا غيرُه وفى وجوده — سبحانه — غُنْيَةٌ وخَلَفٌ عن كل فائت[1] ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ لِكلِّ أمةٍ جعلنا مَنسَكاً هم ناسِكوه فلا يُنَازِعُنَّك فى الأمرِ وادعُ إلى ربِّكَ إنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مستقيمٍ ﴾

جَعَلَ لكلٍّ فريقٍ شِرْعَةً هم واردوها ، ولكلٍّ جماعةٍ طريقةً هم سالكوها .

وجعل لكلٍّ مقامٍ سُكَّانَه ، ولكلٍّ محلٍّ قُطَّانَه ، فقد ربط كُلاً بما هو أهلٌ له ، وأوصل كلاً إلى ما جعله محلاً له ؛ فبِساط التَّعَبُّدِ موطوء بأقدامِ العابدين ، ومشاهد الاجتهاد معمورةٌ بأصحاب التكلف من المجتهدين ، ومجالسُ أصحابِ المعارفِ مأنوسةٌ بلزوم العارفين ، ومنازلُ المحبين مأهولةٌ بحضور الواجدين .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ونحن لا نستبعد أن تكون فى الأصل (فان) ؛ فسواء كان الفناء بالمعنى المعروف أو بالمعنى الصوفى فإنها منسجمة مع السياق ، ولأن القشيرى يستعمل هذا الأسلوب كثيراً : فكنى به خلفاً لك عند فنائك عنك .

قوله : « فلا ينازعنك فى الأمر الأمر ... » إشْهَدْ تصاريفَ الأقدار ، واعمل بموجِب التكليف ، وانتهِ دون ما أُذِنْتَ له من المناهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن جادلوك فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بما تعملون ﴾

كِلْهُم إلينا عندما راموا من الجدال ، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال ، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال ، فإنهم قوالبُ خاويةٌ ، وأشباحٌ عن المعانى خالية .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يومَ القيامةِ فيما كُنْتُم فيه تختلفون ﴾

أمّا الأجانب فيقول لهم : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »(١) ، وأمّا الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً ، وأقوام مخصوصون يقول لهم : بينى وبينكم حساب ؛ فلا جبريلَ يحكم بينهم ولا ميكائيل ، ولانبيٌّ مرسَلٌ ، ولا مَلَكٌ مُقرَّبٌ .

« الله يحكم بينكم » بحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميعَ خصمائه ، ويأمر بإرضاء جميع غُرَمائِه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافى السماءِ والأرضِ إنَّ ذلك فى كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يَسيرٌ ﴾

يعلم السِّرَّ والنجوى ، وما تكون حاجةُ العبدِ له أَمَسّ وأقوى ، وبكلِّ وجه هو بالعبد أَوْلى ، وله أن يحمل له النُّعْمى ، ويزيل عنه البَلْوى ، ولا يسمع منه الشكوى ، فله الحُكْمُ تبارك وتعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ويعبدون مِن دونِ اللهِ ما لم يُنَزِّل به سُلطاناً وما ليس لَهُم به عِلْمٌ وما للظالمين من نصير ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

الآية تشير إلى أنَّ مَنْ كان مِنْ جملة خواصِّه أفرده — سبحانه — ببرهان ، وأيَّده ببيان، وأعزَّه بسلطان . ومنْ لا سلطانَ له يمتد إليه قَهْرُه ، ومن لا برهان له ينبسط عنه — إلى غيره — نورُه ، فهو بِمَعْزِلٍ عن جملته .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ في وجوهِ الذين كَفَرُوا المُنْكَرَ يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُون عليهم آياتِنا ، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذلِكُمُ النارُ وَعَدَهَا اللهُ الذين كفروا وبِئْسَ المصيرُ ﴾

لِسَمَاعِ الخطابِ أَثَرٌ في القلوبِ من الاستبشارِ والبهجة ، أو الإنكار[1] والوحشةِ . ثم ما تخامره السرائرُ يلوحُ على الأَسِرَّةِ في الظاهر ؛ فكانت الآياتُ عند نزولِها إذا تُلِيَتْ على الكفارِ يلوحُ على وجوهِهم دُخَانُ ما تنطوى عليه قلوبُهم من ظلماتِ التكذيب ، فما كان يقع عليهم طَرْفٌ إلاَّ نَبَأَ عن جحودهم ، وعادت إلى القلوب النُّبُوءةُ عن إقلاعهم .

ثم أخبر أنَّ الذى هم بصَدَدِه فى الآخرةِ من أليم العقوبةِ شرٌّ بكل وجهٍ لهم مِمَّا يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم . وإنَّ المناظرَ الوضيئةَ للرائين مُبْهِجةٌ ، والمناظرَ المُنْكَرةَ للناظرين إليها موحِشَة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له إنَّ الذين تَدْعُون مِن دونِ اللهِ لن يَخْلُقُوا ذُباباً ولَوِ اجتمعوا له وإن يَسْلُبْهمُ الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه منه ضَعُفَ الطالِبُ والمطلوبُ ﴾ .

---

(١) هكذا فى م ولكنها فى ص (الانكسار) بالسين وهى خطأ لأن المقصود بيان المقابلة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

تنبه الأفكار المُشتتة ، والخواطرَ المتفرقة على الاستجماع لِسماع ما أراد تضمينه فيها ؛ فاستحضرها فقال : « ضُرِبَ مَثلٌ فاستمعوا له . . »

ثم بيَّنَ المعنى فقال إنَّ الذين تَدْعُون من دون الله ، وتدعونها آلهةً ؛ أى وتسمونها آلهة (وأنها للعبادة مستحقة)[1] لن يخلقوا بأجمعهم ذباباً ، ولا دونَ ذلك . وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس فى وسعهم استنقاذهم ذلك منه ، ومنْ كان بهذه الصفة فَسَاءَ المَثَلُ مَثلُهم ، وضَعُفَ وصفُهم ، وقَلَّ خَطَرُهم .

ويقال إن الذى لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهْوِن بِقَدْرِه !

قوله جل ذكره : ﴿ ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيزٌ ﴾

ماعرفوه حقَّ معرفتِه ، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومَنْ لم يكن فى عقيدته نَقْضٌ لِمَا يستحيل فى وصفه — سبحانه — لم تُباشِرْ خلاصةُ التوحيدِ سِرَّه ، وهو فى تَرَجُّمِ فِكْرٍ ، وتجويز ظنٍ ، وخَطَرِ تعسُّف ، يقعُ فى كل وهدة من الضلال .

ويقال العوامُ اجتهادُهم فى رَفْضِهم الأعمالَ الخبيثةَ خوفاً من الله ، والخواص جهدهم فى نَقْضِ عقيدتِهم للأوصافِ التى تَجِلُّ عنها الصمدية ، وبينهما (. . .)[2] بعيد .

« إن الله لقوى عزيز » قوى أى قادر على أن يخلُقَ مَنْ هو فوقهم فى التحصيل وكمال العقول . « عزيز » : أى لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه — إلا بما يليق بصفة البشر — بِقَدرٍ من العرفان .

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصور ، ولكنْ كلٌّ بِوَجْدِه مربوطٌ ، وبحدِّه فى همته موقوف ، والحق سبحانه عزيز[3] .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص مفقود فى م

(٢) فى ص جاءت (وفاق) وفى م جاءت (فرقان) والأولى مرفوضة ، وفى مثل هذا الموضع يستعمل القشيرى (فرق) أو (بون) بعيد .

(٣) كلام القشيرى هنا فى (قوى) وفى (عزيز) هام لأنه لم يرد فى مبحثه المستقل عن الأسماء والصفات الإلهية الذى ضمنه كتاب (التحبير فى التذكير) الذى حققناه ونشرته دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ يصطفى مِنَ الملائكةِ رُسُلًا ومِنَ الناسِ إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ ﴾ .

الاجتباء والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القَدْرِ ، وتخصيص الطَّوْلِ ، وتقديمهم على أشكالهم فى المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ؛ فالفضيلةُ بحقِّ المُرْسِلِ ، لا لخصوصيةٍ فى الخِلْقةِ فى المُرْسَل .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمورُ ﴾ .

يعلم حالَهم ومآلَهم ، وظاهرَهم و باطنَهم ، ويومَهم وغدَهم ، ويعلم نَقْضَهم عَهْدَهم ؛ فإليه مُنْقَلَبُهم ، وفى قبضتِه تَقلُّبُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعبُدُوا رَبَّكم وافعَلُوا الخيرَ لَعَلَّكم تُفْلِحون ﴾ .

الركوعُ والسجودُ والعبادةُ كُلُّها بمعنى الصلاة ؛ لأنَّ الصلاةَ تشتمل على هذه الأفعال جميعها ، ولكنْ فَرَّقَها فى الذكر[1] مراعاةً لقلبِكَ من الخوف عند الأمر بالصلاة ؛ فَقَسَّمها ليكونَ مع كلِّ لفظةٍ ومعنى نوعٌ من التخفيف والترقيه ، ولقلوبِ أهلِ المعرفةِ فى كل لفظةٍ راحة جديدة .

ويقال لَوَّنَ عليهم العبادةَ ، وأمَرَهم بها ، ثم جميعُها عبادةٌ واحدةٌ ، ووَعَدَ عليها من الثوابِ الكثيرِ ما تقصُرُ عن عِلْمه البصائر .

ويقال عَلِمَ أنَّ الأحبابَ يُحِبُّون سماعَ كلامِه فَطَوَّلَ عليهم القولَ إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أُنْساً على أُنْسٍ ، ورَوْحاً على روْح ، ومُعَادُ خطابِ الأحبابِ هو رَوْحُ رُوحهم ، وكمالُ راحتهم .

---

(١) ما يلى من الكلام فى هذه الفقرة مفيد فى المباحث البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « وافعلوا الخير » فادخل فيه جميع انواع القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جهادِه ﴾ .

(« حَقَّ جهاده » : حق الجهاد ما وافق الأمر فى القَدْرِ والوقتِ والنوعِ ، فإذا حَصَلَتْ فى شىء منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جهاده)[1] .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدةٌ بالنَّفْسِ ، ومجاهدةٌ بالقلبِ ، ومجاهدةٌ بالمالِ . فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بَذَلَه فى الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والإرفاق[2] . والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُه عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة ، والعزمُ على المخالفات ، وتذكرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل — وإنْ كان فى الأخَفِّ أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يَفْتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النَّفْس لحظةً ، قال قائلُهم .

يارَبِّ إنَّ جهادى غيرُ مُنْقطِعٍ فكلُّ أرضٍ لى ثَغْرٌ طرسوس

قوله جل ذكره : ﴿ هو اجتباكم ﴾

يحتمل أنه يقول مِنْ حَقِّ اجتبائه إياكم أنْ تُعَظِّموا أمْرَ مولاكم

ويحتمل أن يقال هو الذى اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لَمَا جاهَدْتُم ، فلاجتبائه إياك وَفَّقَكَ حتى جاهدتَ .

ويقال عَلِمَ ما كنت تفعله قبل أنْ خَلَقَكَ ولم يمنعه ذلك مِنْ أنْ يَجْتَبِيكَ ، وكذلك إنْ رأى ما فَعَلْتَ فلا يمنعه ذلك أنْ يتجاوزَ عنك ولا يعاقبك

---

(١) ما بين قوسين موجود فى م وناقص فى س .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) فمعناه التسهيل ، والقشيرى لا يرضى به غالباً لأرباب الطريق لأنهم باحثون عن الأشق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهى جمع رفق وقد نهى القشيرى فى نهاية رسالته عن رفق النسوان والصبيان فهم الأنتان والجيف . . . إلخ . والسياق هنا بعيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جَعَلَ عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ ﴾ .

الشرع مبناه على السهولة ، والذى به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه، وتتخلَّص به من أليم عقابه وامتحانه — يسير[1] من الأمر لا يستغرق كُنْهَ إمكانك؛ بمعنى أنَّك إنْ أرَدْتَ فِعْلَه لَقَدَرْتَ عليه ، وإنْ لم توصَفْ فى الحال بأنَّك مستطيعٌ ما ليس بموجودٍ فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ مِلَّةَ أبيكم ابراهيم ﴾ .

أى اتَّبِعوا والزَمُوا مِلَّةَ أبيكم ابراهيم عليه السلام فى البَذْلِ والسخاء والجود والخلة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ هو سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم ﴾ .

اللهُ هو الذى اجتباكم ، وهو الذى بالإسلام والعرفان سَمَّاكم المسلمين . وقيل ابراهيم هو الذى سماكم المسلمين بقوله : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »[2] .

قوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم ، نَصَبَ الرسولَ بالشهادة علينا ، وأمره بالشفاعة لأمته ، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقِى للشفاعة موضعاً ومحلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونُوا شُهَدَاء على الناسِ ﴾ .

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله ، ومَنْ كانت له شهادة عند أحد — وهو كريم — فلا يجرح شاهده ، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده .

قوله جل ذكره : ﴿ فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصِمُوا باللهِ هو مولاكم فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النصيرُ ﴾ .

---

(١) يسير خبر لاسم الموصول (والذى به ...) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ بحكم الإتمام ، ونعت الاستدامة ، وجميل الاستقامة .

والاعتصامُ بالله التبرى من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله . ويقال الإعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة . ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة .

« هو مولا كم » : سيدكم وناصركم والذى لا خلف عنه .

« فنعم المولى ونعم النصير » نِعْمَ المولى : إخبارٌ عن عظمته ، ونعم النصير : إخبارٌ عن رحمته .

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد »[1] ولسليمان « نعم العبد »[2] فلقد قال لنا « نعم المولى ونعم النصير » ، ومدحه لِنَفْسه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك .

ويقال « نعم المولى » : بَدَأَكَ بالمحبة قبل أنْ أحببتَه ، وقبل أن عرَفْتَه أو طَلَبْتَه أو عَبَدْتَه .

« ونعم النصير » : إذا انصرف عنكَ جميع مَنْ لكَ فلا يدخل القبر معك أحدٌ كان ناصِرَك ، ولا عند السؤال أو عند الصراط .

السورة التى يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو ، والمسمى بهذا الاسم استحقاقَ العلو ، فالاسم اسم لسموِّه من القِدَم ، والحقُّ حقٌّ لعلوِّه بحق القِدَم .

ويقال مَنْ عرف « بسم الله » سمت هِمَّتُه عن المرسومات ، ومَنْ أحبَّ بسم الله صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات ..

اسمُ مَنْ طَلَبَه نَسِيَ من الدارين أَرَبَه ، ومَنْ عَرَفَه وَجَدَ بقلبه مالا يعرِف سَبَبَه .

---

(١) « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة صٓ .
(٢) « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة صٓ .

قوله جل ذكره : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتِهم خاشِعون ﴾

ظَفِرَ بالبُغْيَةِ وفاز بالطِّلْبَةِ مَنْ آمَنَ بالله .

و « الفَلَاحُ » : الفوزُ بالمطلوبِ والظَّفَرُ بالمقصود .

والإيمانُ انتسامُ الحقِّ في السريرة ، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةَ القلب ، واستمكانُ التحقيقِ من تأمور الفؤاد(١) .

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السِّرِّ على بِساطِ النَّجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة ، والذوبان تحت سلطان الكشف ، والامتحاءِ عند غَلَبَاتِ التَّجلِّي .

ويقال أدْرَكَ ثَمَرَاتِ القُرْبِ وفَازَ بكمالِ الأُنْس مَنْ وَقَفَ على بِساط النجوى بنعت الهيبة ، ومراعاةِ آداب الحضرة . ولا يَكْمُلُ الأُنْسُ بلقاءِ المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب . وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النَّفْسُ ؛ فلا راحةَ للمُصَلِّي مع حضورِ نَفْسه ، (فإذا خنس عن نَفْسِه)(٢) وشاهِدِه عَدِمَ إحساسَه بآفاتِ نَفْسِه ، وطابَ له العيشُ ، وتَمَّتْ له النُّعْمَى ، وتَجلَّتَ له البُشْرى ، ووَجَدَ لذَّةَ الحياةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون ﴾

ما يَشْغَلُ عن الله فهو سَهْوٌ ، وما ليس لله فهو حَشْوٌ ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمعقولٍ مع الله فهو لَغْوٌ ، (وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ ، والتعريجُ على شيء من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ)(٣) .

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومَدْحِه من كلام خَلْقِه فكل ذلك لغو .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم للزكاةِ فاعِلون ﴾

---

(١) يقال اجعل هذا الأمر في تأمورك أي داخلَ قلبك (الوسيط : مادة أ م ر) .
(٢) ما بين القوسين موجود في م وغيرَ موجود في ص .
(٣) موجود في م وغير موجود في ص .

الزكاةُ النَّماء ، ومَنْ عَمَلُه للنماءِ فأمارةُ ذلك أنْ يكونَ بنقصانه فى نفْسِهِ عن شواهده ولا يبلغ العبدُ إلى كمالِ الوصفِ فى العبودية إلا بذوبانه عن شاهده .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لفُروجِهم حافظون * إلاَّ على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ أيْمَانُهم فإنَّهم غيرُ مَلُومين ﴾

لفروجِهم حافظون ابتغاء نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللهِ ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العَادُون ﴾

أى مَنْ جَاوزَ قَصْدَ إيثار الحقوق ، وجَنَحَ إلى جانب استيفاء الحظوظ . . فقد تَعَدَّى مَحَلَّ الأكابر ، وخالف طريقتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لِأَمَانَاتِهم وعَهْدِهم راعون ﴾

الأماناتُ مختلفةٌ ، وعند كلِّ أحدٍ أمانةٌ أخرى ، فقومٌ عندهم الوظائفُ بظواهرهم ، وآخرون عندهم اللطائفُ فى سرائرهم ، ولقومٍ معاملاتُهم ، ولآخرين منازلاتُهم ، ولآخرين مواصلاتُهم .

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم مَنْ عاهده ألا يَعْبُدَ سواه ، ومنهم مَنْ عَاهَدَه ألا يشهدَ فى الكونين سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدْعُوهم المُنَادِى وهم ليسوا بالباب ، فهم فى الصف الأول بظواهرهم ، وكذلك فى الصف الأول بسرائرهم

قوله جل ذكره ﴿ أولئك هم الوارِثون * الذين يَرِثُونَ الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾

الإرث على حسب النُّسب ، وفى استحقاق الفردوسِ بوصف الإرثِ لِنَسَبِ الإيمان فى الأصل ، ثم الطاعات فى الفضل .

وكما فى استحقاق الإرث تفاوتٌ فى مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك فى الطاعات ؛ فمنهم مَنْ هم فى الفردوس بنفوسهم ، وفى الأحوال اللطيفة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (. . .)(١) عن حالات قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من سُلَالة مِّن طِينٍ ﴾

عَرَّفهم أصلَهم لئلا يُعْجَبُوا بفِعْلِهم .

ويقال نَسَبَهُم لئلا يخرجوا عن حَدِّهم ، ولا يغلطوا فى نفوسهم .

ويقال خَلَقَهم من سُلالَةٍ سُلَّتْ من كل بقعه ؛ فمنهم مَنْ طينته من جُرْدَة(٢) أو من سَبْخَةٍ(٣) أو من سَهْلٍ ، أو من وَعْرٍ . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ عُذْرَهم عند الكافة ؛ فإنَّ المخلوقَ من سلالة من طين . . . ما الذى يُنْتَظَرُ منه ؟!

ويقال خلقهم من سلالة من طين ، والقَدْرُ للتربية لا للتربة .

ويقال خلقهم من سلالة ولكنَّ مَعْدِنَ المعرفةِ ومَرْتَعَ المحبةِ ومتعلق العناية منه لهم ؛ قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » .

ويقال خَلَقَهم ، ثم من حالٍ إلى حالٍ نَقَلَهم ، يُغَيِّر بهم ما شاء تغييره .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم جعلناه نُطْفَةً فى قَرارٍ مَّكِينٍ * ثم خَلَقْنا النطفَةَ عَلَقَةً فخلقنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فخلقنا المضغةَ عِظَاماً ، فكَسَوْنا العِظامَ لحْماً ﴾

---

(١) مشتبهة فى س ، م وربما كانت (ولا ينفكون) .
(٢) الأرض الجردة التى لا نبات فيها .
(٣) السَّبَخَةُ التى فيها ملح ونزٌّ ولا تكاد تنبت .

قطرةٌ أجزاؤُها متماثلةٌ ، ونُطْفَةٌ أبعاضُها متشاكِلة ، ثم جعل بعضها لحماً وبعضَها عَظْماً ، وبعضَها شَعْراً ، وبعضها ظُفْراً ، وبعضها عَصَباً ، وبعضها جِلْداً ، وبعضها مُخّاً ، وبعضها عِرقاً . ثم خَصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جُزْءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم الصفاتُ التى للإنسان خَلَقَها متفاوتةً ، من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلم والإرادةِ والشجاعةِ والحقد والجودِ والأوصافِ التى يتقاصر عنها الحَصْرُ والعَدُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنشأناه خَلْقاً آخَرَ فتبارَكَ الله أحسنُ الخالِقين ﴾

فى التفاسير أنه صورة الوجه ، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة ، واخْتُصَّ به من السَّمْع والبصر والعقل والتمييز ، وما تفرَّد به بعضٌ منهم بمزايا فى الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال « ثم أنشأناه خلقاً آخر » : وهو أنْ هَيَّأهم لأحوالٍ عزيزة يُظْهِرها عليهم بعد بلوغهم ، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال ؛ فلقومٍ تخصيصٌ بزينة العبودية ، ولقومٍ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تحقّقٌ بالصفاتِ الصمدية بامتحائهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التى هى أوصاف البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين ﴾

خلق السمواتِ والأرضين بجملتها ، والعرشَ والكرسىَّ ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها — ثم لمَّا أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذى ذكره بعد نعت خَلْقِه بنى آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً ، وإفراداً لهم من بين المخلوقات .

ويقال إنْ لم يَقُلْ لك إنَّكَ أحسنُ المخلوقاتِ فى هذه الآية فلقد قال فى آية أخرى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[1] .

---

(١) الآية ٤ سورة التين .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُثْنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثنى عليك .

ويقال لما ذكر نعتَك ، وتاراتِ حالِكَ فى ابتداء خَلْقك ، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق ، ولا بيانُ مدحٍ ينطلق . . نأَبَ عنك فى الثناء على نفسه ، فقال : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إنكم بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُون ﴾

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

وأنشدوا :

حياتُنا عندنا قروضٌ ونحن بعد الموت فى التقاضى
لابُدَّ مِنْ ردِّ ما اقترضنا كلُّ غريمٍ بذاك راضى

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » وكلُّ ما هو آتٍ فقريب .

ويقال كسر على أهلِ الغفلة سطوةَ غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتِهم بقوله : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، وللجادِ مُضاهون ، وعن المكنه والمقدرة والاستطاعة والقوة لَمُبْعَدُون ، وفى عِداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم إنكم يومَ القيامةِ تُبْعَثُون ﴾

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموصولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالَم حتى لو قيل للقيامة : ممن تخافين ؟ لقالت من القيامة . وفى القيامة ترى الناسَ سُكارَى حَيارَى لا يعرفون أحوالَهم ، ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم ، إلى أن يتبيَّنَ لكلِّ واحدٍ أمْرُه ، خَيْرُه وشَرُّه : فيثقل بالخيرات ميزانُه ، أو يخف

عن الطاعاتِ أو يخلو ديوانُه . وما بين الموت والقيامة : فإمّا راحاتٌ مُتّصِلَة ، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خَلَقْنَا فوقكم سَبْعَ طرائِقَ وما كنّا عَنِ الخَلْقِ غافلين ﴾

الحقُّ — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مُدْرَكٌ ، ولا تخفى عليه — من مخلوقاته — خافية . وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْق وبصائرهم ؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِما وراء الحُجُبِ . وكذلك إذا حلّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول ، وانسدّت بصائرها ، وانتفت فهومها

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة ؛ ففى الظاهر السموات حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنْية والشهوة ، والإرادات الشاغلة ، والغفلات المتراكمة .

أمّا المريدون فإذا أظَلّتْهُم سحائب الفَتْرَةِ ، وسَكَنَ هيجانُ إراداتِهم فذلك من الطرائق التى عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرّكَ بهم عِرْقُ الرغبة انْفَلّتْ[1] قوة زهدهم ، وضَعُفَتْ دعائمُ صَبْرِهم ، فيَتَرَخّصون بالجنوحِ إلى بعضِ التأويلاتِ ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً ، وتَخْتَلُّ رتبةُ عزوفهم ، وتَنْهَدُّ دعائم زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التى خَلَقَ فوقهم .

وأما العارفون فربما تظلُّهم فى بعض أحايينهم وَقفةٌ فى تصاعد سرّهم إلى ساحاتِ الحقائق . فيصيرون مُوقفين ريثما يتفضّلُ الحقُّ — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً ، ويرفع عنهم ماعاقهم من الطرائق .

وفى جميع هذا فإنّ الحقّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ ، ولا تاركٍ للعِبادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزَلْنَا مِنَ السماءِ ماءً بِقَدَرٍ فأسكَنّاه فى الأرضِ وإنا على ذَهَابٍ به لقادِرون ﴾ .

---

(١) انفلّ السيف = انثلم حدّه ، وانفلّ القوم = انهزموا .

أنزل من السماء ماء المطر الذى هو سببُ حياةِ الأرضين ، وذلك بقدرٍ معلومٍ . ثم .. البلادُ مختلفةٌ فى السَّقْيِ: فبعضها خِصْبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسَنَةٌ يزيد وسَنَةٌ ينقص ، سنةٌ يفيض وسنةٌ يغيض .

كذلك أنزلنا من السماء ماء الرحمة فيحيي القلوب ، وهى مختلفة فى الشُّرْب : فمِنْ موسَّعٍ عليه رزقه منه ، ومِنْ مُضَيَّقٍ مُقَتَّرٍ عليه . ومِن وقتٍ هو وقت سحٍّ ، ومِنْ وقتٍ هو وقت حَبْسٍ .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنَ العُصاةِ وآثارَ زلّتِهم وأوضارَ عثرتِهم ، وماء هو سقى قلوبهم يزيل به عطَشَ تحيرهم ، ويحيي به موات أحوالهم ؛ فَتَنْبُت فى رياض قلوبهم فنونُ أزهار البسط ، وَصنوف أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب ، فيزيل عنها به حشمة الوصف ، وَيسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز ، وَيحملها على التجاسر ببذلِ الرُّوح ؛ فإذا شربوا طَرِبوا ، وإذا طَرِبوا لم يُبالوا بما وَهَبوا [1].

قوله جل ذكره : ﴿ فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ
وَأعنابٍ لكم فيها فواكِهُ كثيرةٌ
ومنها تأكلون ﴾ .

كما يحيي بماء السماء الغياضَ والرياض ، ويصنِّف فيها الأزهارَ والأنوارَ ، وتثمر الأشجارُ وتجرى الأنهار .. فكذلك يَسْقِي القلوبَ بماء العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر ، وتؤتى أُكلَها : من طيب عيش ، وكمالٍ بسطٍ ، ثم وفورِ هيبة ثم رَوْحِ أُنسٍ ، ونتائجِ تَجَلٍّ ، وعوائد قُرْبٍ .. إلى ما تتقاصر العباراتُ عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات فى حَصْره .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ لكم فى الأنعامِ لَعِبْرَةً
نُسقيكم مِمَّا فى بطونِها ولكم فيها
منافِعُ كثيرةٌ ومنها تأكلون ﴾ .

الإشارات منه أنَّ الكدوراتِ الهاجمةَ لاعِبْرَةَ بها ولا مبالاة ؛ فإنَّ اللَّبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الأنعام من بين ماتنطوى حواياها عليه من الوحشة ، لكنه صافٍ لم يؤثر

(١) حتى لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحُكم الجِوار ، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة ؛ إذ الحقيقة لايتعلق بها حقٌّ ولا باطل . ومَنْ أشرفَ على (سِرٍّ)[1] التوحيد تحقَّقَ بأنَّ ظهور جميع الحدثان من التقدير ، فتسقط عنه كلفة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو .

« ولكم فيها منافع » : لازمةٌ لكم ، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم :

إنِّى — على جَفَواتِها — بربِّها وبكلِّ متَّصِلٍ بها متَوَسِّلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وعليها وعلى الفُلْكِ تُحمَلُون ﴾ .

يحفظهم فى السفينة فى بحار القطْرة ، ويحفظهم فى سفينة السلامة والعصمة فى بحار القُدْرة ، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها ، والناسُ فيها غَرْقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ — سبحانه — فى سفينة العناية .

وصفةُ أهل الفُلْكِ إذا مسَّهم شِدَّةُ خوفِ الغَرَقِ ماذكَر الله فى قوله : « فإذا ركبوا فى الفُلْكِ دعوا الله مخلصين له الدين[2] » كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ ، والتجأ إلى صِدْق الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ — سبحانه — من مخلوقات التقدير . ويقال إنَّ وَجهَ الأرضِ بحارُ الغفلة ، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارٌ مهلكةٌ والناس فيها غرقى ، وكما قال بعضهم :

النـاسُ بحـرٌ عميقٌ والبعـدُ عنهم سفينةْ
وقد نصحتُك فانظـر لِنفسِـكَ المسكينـةْ

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرْسلْنا نوحاً إلى قومِهِ فقال ياقومِ اعبُدُوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُه أفلا تتَّقون ﴾ .

---

(١) موجودة فى م وغير موجودة فى ص .
(٢) آية ٦٥ سورة العنكبوت .

كَرَّرَ قصةَ نوح لِمَا فيها من عظيم الآيات من طولِ مقامه فى قومه ، وشدةِ مقاساة البلاء منهمْ ، وتمام صبره على ما استقبله فى طول عمره ، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه ، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه ، ثم لم يغادِرْ منهم أحداً ، ولم يبال — سبحانه — بأنْ أهلك جملتهم . ولقد ذكر فى القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ ، فَحَمَلَتْهُ وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان ، فلمَّا بلغ الماء إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها — قدْرَ ما أمكنها — إبقاء على وَلَدِها ، وإشفاقاً عليه من الهلاك ، إلى أن غَلَبَها الماء وتَلِفَتْ وولدها . فأوحى الله إلى نوح — عليه السلام — لو أنى كنتُ أَرْحَمُ واحداً منهم لَرَحِمْتُ تلك المرأة وولدها .

وفى الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر ، ولكثرة ما كان يبكى أوحى الله إليه : يا نوح .. إلى كم تنوح ؟ فسمَّاه نوحاً . ويقال إنَّ ذنبَه أنه مرَّ يوماً بكلبٍ فقال : ما أوحشه !

فأوحى الله إليه : اخلق أنت أحْسَنَ من هذا ! فكان يبكى معتذراً عن قالته تلك . وكان قومُهُ يلاحظونه بعين الجنون ، وما زاد لهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوة ، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة .

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان ، وأدخل فى السفينة أَهْلَه ، تعرَّض له إبليسُ — كما جاء فى القصة — وقال : إحمِلْنى معك فى السفينة ، فأبى نوح وقال : يا شقىُّ . . تطمع فى حملى إياك وأنت رأسُ الكفَرَةِ ؟ !

فقال إبليسُ : أَمَا عَلِمْتُ — يا نوحُ — أنَّ الله أنْظَرَنى إلى يوم القيامة ، وليس ينجو اليومَ أحدٌ إلاَّ فى هذه السفينة ؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليسُ مع نوح فى السفينة ، ولم يكن لابنه معه مكانٌ فى السفينة . (وفى هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول)[1] لأنه إن كان المعنى فى أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِه فبإبليس يُشكل . . ولكنها أحكامٌ غيرُ معلولة ، وجاز له — سبحانه — أن يفعل ما يريد : يَضِلُّ[2] مَنْ شاء ويَرُدُّ مَنْ شاء

---

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود فى ص .

(٢) وردت فى م (يضل) بالضاد ونحن نجد (يصل) أكثر انسجاماً مع المعنى لتقابل (يرد)

قوله جل ذكره : ﴿ وقل ربِّ أنزِلنى مُنزَلا مُبارَكاً وأنتَ خير المُنزِلين ﴾ .

الإنزالُ المباركُ أن يكون بالله ولله ، وعلى شهودِ الله من غير غفلة عن الله ، ولا مخالفاً لأمر الله

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرْب عليك ، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلِّى حتى لا تبقى عين ولا أثر ، فإذا تمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك ؛ لأنك بلا أنت . . بكليتك من غير بقيةٍ أو أثرٍ عنك .

قوله جل ذكره ﴿ ثم أنشأنا من بَعْدِهم قرنا آخَرِين ﴾

تتابعت القرونُ على طريقةٍ واحدةٍ فى التكذيب ، وغرّهم طولُ الامهالِ ، وما مكنّهم من رَفَهِ العيش وخَفْضِ الدّعَةِ ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم ، ولم يَسْمُ لهم طَرفٌ إلى مَنْ فوقهم فى الحال والمنزلة ، فقالوا : أنؤمن بمن يتردد فى الأسواق ، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لَسَلَكنا سبيلَ الغَىِّ ، وتنكبْنا سُنَّةَ الرُّشْدِ . فأجراهم اللهُ فى الإهانةِ وإحلال العقوبة بهم مجرىً واحداً ، وأذاقهم عذابَ الخِزْى . وأعظمُ ما دَاخَلَهم من الشُّبهةِ والاستبعادِ أمرُ الحَشْرِ والنشر ، ولم يرتقوا للعلم بأنَّ الإعادة كالابتداء فى الجواز وعدم الاستحالة ، والله يهدى مَنْ يشاء ويُغْوِى مَنْ يريد .

ثم إن اللهَ فى هذه السورة ذَكَرَ قصةَ موسى عليه السلام ، ثم بعده قصةَ عيسى عليه السلام ، وخَصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً إنِّى بما تعملون عليم ﴾

كلوا من الطيبات مما أحلَّ لكم وأباح ، وما هو محكومٌ بأنه طيب — على شريطة مطابقة

---

(١) نلاحظ هنا أن القشيرى قد اختصر الكلام فقفز إلى الآية ٥٠ دون تمهل أمام كل آية كما تعودنا منه

رُخْصَةِ الشريعة — مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه . وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ هذه أمَّتُكم أمَّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتقونِ ﴾ .

معبودكم واحدٌ، ونبيُّكم واحد ، وشرعكم واحد ؛ فأنتم في الأصول شرعٌ سواء ، فلا تسلكوا ثِنْيَاتِ الطرق(١) فتطيحوا في أودية الضلالة . وعليكم باتباع سَلَفِكم، واحذروا موافقة ابتداع خَلَفكم .

« وأنا ربكم فاتقون » خافوا مخالفةَ أمري ، واعرفوا عظيمَ قَدْرِي ، واحفظوا في جريان التقدير سِرِّي ، واستديموا بقلوبكم ذكري ، تجدوا في مآلكم غفري ، وتحظَوْا بجميلِ بِرِّي .

قولة جل ذكره : ﴿ فتقطَّعوا أمرَهم بينهم زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بما لديهم فَرِحون ﴾ .

فمستقيم على حَقِّه ، وتائه في غَيِّه ، ومُصِرٌّ على عصيانه وفِسْقِهِ ، ومقيمٌ على إحسانه وصِدْقه ، كُلٌّ مربوطٌ بحدِّه ، موقوفٌ بما قُسِمَ له في البداية من شأنه ، كلٌّ ينتحل طريقتَه ويَدَّعي بحسن طريقته حقيقةً ، وعند صحوِ سماء قلوبِ أربابِ التوحيدِ لا غُبارَ في الطريق ؛ وهم على يقين معارفهم ؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهَة .

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهم ، وغبارِ جُحْدِهم ، وظلمة تقليدهم ، ومحنة شكهم ..

قوله جل ذكره ﴿ فَذَرْهم في غَمْرَتهم حتى حين ﴾ .

إنَّ مدةَ أخذِهم لقريبةٌ ، والعقوبة عليهم — إذا أُخِذُوا — لشديدة ، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أيَحْسَبُون أنَّما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبنين * نسارعُ لهم في الخيراتِ بل لا يَشْعُرون ﴾ .

---

(١) ثنية الطريق = مُنعطفه .

هذا فى شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتلبيس المنهاج ؛ رَأَوْ سَرَاباً فَظَنُّوه شراباً ، ودَس لهم فى شَهْدِهم صاباً فتوهموه عذَاباً[1] ، وحين لقوا عَذَاباً عَلِموا أنهم لم يفعلوا صوابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الذين هم مِّنْ خَشْيَةِ ربِّهم مُّشْفِقُون ﴾

أمارةُ الإشفاقِ من الخشيةِ إطراقُ السريرةِ فى حال الوقوف بين يدى الله بشواهد الأدب ، ومحاذرةُ بَغَتَاتِ الطَّرْد ، لا يستقر بهم قرارٌ لِمَا داخَلَهم من الرُّعبِ ، واستولى عليهم من سلطان الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم بآياتِ ربِّهم يؤمِنون ﴾

تلك الآياتُ مختلفةٌ ؛ فمنها ما يُكاشَفون به فى الأقطار من اختلاف الأدوار ، وما فيه الناس من فنون الهِمَم وصنوفِ المُنى والإرادات، فإذا آمن العبدُ بها ، واعتبر بها اقتنع بما يرى نَفْسَهُ مطالَبًا به .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم بربِّهم لا يُشْرِكون ﴾

يَذَرُون جَلِيَّ الشِّرْكِ وخَفِيَّه ؛ والشِّرْكُ الخفىُّ ملاحظةُ الخَلْق فى أوانِ الطاعات ، والاستبشارُ بمَدْحِ الخَلْقِ وقبولهم ، والانكسارُ والذبولُ عند انقطاع رؤية الخَلْق .

ويقال الشِّرْكُ الخفىُّ إحالةُ النادرِ من الحالات — فى المَسَارِّ والمَضَارِّ — على الأسباب كقول القائل : « لولا دعاء أبيك لهلكت » و « لولا هِمَّةُ فلان لما أفلحت » . . . وأمثال هذا ؛ قال الله تعالى « وما يؤمن أكثرُهم بالله إلا وهم مشركون »[2] .

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفاء من شُرْب الدواء .

فاذا أيقن العبدُ بِسِرِّه ألا شىء من الحدثان ، ولم يتوهم ذلك ، وأيقن ألاَّ شىء إلاَّ من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشِّرْك[3] .

---

(١) العِذاب جمع عذْب وهو السائغ من الطعام والشراب ونحوهما (الوسيط) .
(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .
(٣) أى أن القشيرى لا ينكر الأسباب ولكن ينعى على من يتوهم أن من الحدثان شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾

يُخْلِصُون فى الطاعات من غير إلمام بتقصير ، أو تعريج فى أوطانِ الكسل ، أو جنوح إلى الاسترواح بالرُّخَص . ثم يخافون كأنهم ألَمُّوا بالفواحش ، ويلاحظون أحوالَهم بعين الاستصغار ، والاستحقار ، ويخافون بغتاتِ التقدير ، وقضايا السخط ، وكما قيل :

يتجنَّب الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حَسَناتُه آثامُ

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك يسارِعون[1] فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾

مُسارِعٌ بِقَدَمِه من حيث الطاعات ، ومُسارِعٌ بِهِمَمِه من حيث المواصلات ، ومُسارِعٌ بِنَدَمِه من حيث تجرُّع الحسرات ، والكلُّ مصيبٌ ، وللكلِّ من إقباله — على ما يليق بحاله — نصيب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ولدينا كتابٌ يَنطِقُ بالحقِّ وهم لا يُظْلَمون ﴾

المطالباتُ فى الشريعةِ مُضَمَّنَةٌ بالسهولة ، وأمَّا مطالباتُ الحقيقة فكما قالوا : ليس إلاَّ بَذْل الروح ، ولهذا فهم لا تشغلهم التُّرَّهَات[2] . قال لأهل الرخص والمستضعفين فى الحال : « وما جعل عليكم فى الدِّين من حَرَجٍ »[3] ، وأمَّا أربابُ الحقائق ، فقال : « وإنْ تُبْدُوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »[4] وقال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم »[5] ، وقال : « وجاهِدوا فى الله حقَّ جهاده[6] » .

---

(١) فى س أخطأ الناسخ إذ زاد (لهم) بعد يسارعون .

(٢) الترهات جمع ترهة وهى القول الباطل الذى لا نفع فيه ، أو الطريق الصغيرة المتشعبة عن الطريق الأعظم .

(٣) آية ٧٨ سورة الحج .

(٤) آية ٢٨٤ سورة البقرة .

(٥) آية ١٥ سورة النور .

(٦) آية ٧٨ سورة الحج .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحقّ وهم لا يظلَمون » : لولا غفلتُهم عن مواضع الحقيقة لما خوّفهم بكتابة المَلَكِ ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوّفهم باطلاعِ الملائكة ، وكتابتِهم عليهم أعمالَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ بل قلوبُهم فى غَمْرةٍ مِّنْ هـذا ، ولهم أعمالٌ مِّن دونِ ذلك هم لها عاملُون ﴾

لا يَصلُحُ لهذا الشأنِ[1] إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغلَ له فى الدنيا والآخرة ، فأمّا مَنْ له شُغْلٌ بدنياه ، أو على قلبِه حديثُ عقباه ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفى الخبر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم ، وأرباب العُقْبى مشغولون بعُقباهم ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم ؛ وإن الذى له فى الدنيا والآخرة غير مولاه — حين الفراغ — عزيز ؛ قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغلٍ فاكهون »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ حتىٰ إذا أخذْنا مُتْرَفيهم بالعذابِ إذا هُم يَجْـأرون ﴾

إنه — سبحانه — يُمْهِلُ ولكنّه لا يُهْمِلُ ؛ فإذا أخَذَ فَبَطْشُهُ شديدٌ ، قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »[3] ... فإذا أخَذَ أصحابُ الكبائر — حين يحل بهم الانتقامُ — فى الجوابِ رُدُّوا في الهوان ، ويقال لهم :

﴿ لا تَجْأَروا اليومَ إنّكم مِّنّا لا تُنصَرُون ﴾

فإذا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره .

---

(١) (هذا الشأن) يقصد به طريق أرباب الأحوال
(٢) آية ٥٥ سورة يس .
(٣) آية ١٢ سورة البروج .

ويقال للجناية سِراية ؛ فإذا أمسك الجانى عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية .

قوله جل ذكره : ﴿ قد كانت آياتى تُتْلَى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تَنْكِصُون * مستكبرين به سامِرًا تَهْجُرُون ﴾

ذَكَرَ هذا من باب إملاء العُذْرِ ، وإلزامِ الحجة ، والقطع بألا ينفعَ — الآنَ — الجزعُ ولا يُسْمَعُ العُذْرُ ؛ والملوكُ إذا أبرموا حُكْمًا ، فالاستغاثةُ غيرُ مؤثِّرةٍ فى الحاصل منهم ، قال قائلهم :

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجهٍ — آخِرَ الدهرِ — تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ أفلَمْ يدَّبَّرُوا القولَ أمْ جاءهم ما لم يأتِ آباءهُم الأولين ﴾ .

يعنى أنهم لو أنعموا النظرَ ، وسلطوا على أحوالهم صائبَ الفِكْرِ لاستبصروا فى الحال ، ولانثنى عن قلوبهم الاستعجامُ والإشكال ، ولكنهم استوطنوا مركبَ الكسل ، وتعرَّجُوا فى أوطان التغافل ، فتعودوا الجهل ، وأيِسوا من الاستبصار .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ لَمْ يَعْرِفوا رسولَهم فَهُمْ له مُنكِرُون ﴾ .

ذُهِلُوا عن التحقيق فَتَطَوَّحُوا فى أودية المغاليط ، وتَرَجَّحَتْ بهم الظنونُ الخاطئةُ ، وملَكَتْهُم كواذبُ التقديرات[1] ، فأخبر اللهُ (الرسولَ)[2] عن أحوالهم ؛ فمرةً قابلوه بالتكذيب ، ومرةً رَمَوْه بالسِّحرِ ، ومرةً عابوه بتعاطيه أفعالَ العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب ، ومرةً قَدَحُوا فيه بما هو فيه من الفقر وقِلَّةِ ذات اليدِ . . . فأخبر اللهُ عن تَشَتُّتِ أحوالِهم ، وتَقَسُّمِ أفكارهم

---

(١) هكذا فى م أما فى س فهى (التقدير) ونحن نرجح الأولى حتى يقتصر إطلاق (التقدير) بالمفرد على الفعل الإلهى أما هنا فهى (التقديرات الإنسانية) أى الظنون .

(٢) السياق يتطلب وجود كلمة (الرسول) وهى غير موجودة فى النسختين وصنعنا ما من عندنا لينسجم الأسلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَوِ اتبعَ الحقُّ أهواءهم لَفَسَدَتِ السمٰواتُ والأرضُ ومَن فيهن بَلْ أتيناهم بِذِكْرِهِم فَهُمْ عن ذِكْرِهِم مُعْرِضون ﴾

وذلك لتضادِّ مُنَاهم وأهوائِهم ؛ إذ هم متشاكسون فى السؤال والمراد ، وتحصيلُ ذلك مُحَالٌ تقديرُه فى الوجود . فَبَيَّنَ الله — سبحانه — أنه لو أجرى حُكْمَهُ على وفق مرادِهم لاختلَّ أمرُ السمواتِ والأرض ، ولَخَرَجَ عن حَدِّ الإحكام والإتقان .

قوله جل ذكره : ﴿ أم تسألهم خَرْجاً فَخَرَاجُ ربِّك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين ﴾ .

أى إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرٍ ، ولا بإعطاءِ عِوَضٍ حتى تكونَ بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة . أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لك الرياسة . ثم قال : والذى لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنيك عن التصدِّى لنَيْلِ ما يكون فى حصوله منهم مطمع . وهذا كان سُنَّة الأنبياء والمرسلين ؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله . والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء فسبيلُهم التوقِّى عن التَّدَنُّسِ بالأطماع ، والأكل بالدِّين فإنه رِياء مُضِرٌّ بالإيمان ؛ فإذا كان العملُ لله فالأجرُ مُنْتَظَرٌ من الله ، وهو موعودٌ من قِبَل الله (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّكَ لَتَدْعوهم إلى صِراطٍ مستقيم ﴾

الصراطُ المستقيمُ شهودُ الربِّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء، وفى الإيجاد ، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراهِ الحُكْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ عَنِ الصِّراطِ لناكِبُون ﴾ .

---

(١) القشيرى هنا يغمز بانحراف كثير من الوعاظ المحترفين الذين امتلأ بهم عصره ، ومنذ عهد الحسن البصرى — الذى طالما نبه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسمع هذه الصيحة ناعية ما آل إليه أمر المحترفين إلى التهافت والتهالك على أطماع الدنيا الزائلة .

زاغوا عن الحجة المُثْلى بقلوبِهم فوقعوا فى جحيم الفرقة ، وستميل وتزل أقدامُهم غداً عن الصراط ، فيقعون فى نار الحرقة ؛ فهم ناكبون فى دنياهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو رَحِمْنَاهم وكَشَفْنَا مابهم مِّن ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طغيانهم يَعْمهون ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حُكْمِهِ فيهم ، فقال : لو كشفنا عنهم فى الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان فى المآل ، ولقد عَلِمَ أنهم سيكفرون ، وحَكَمَ عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لايجوز أن يكون حُكْمُهُ فيهم بخلافِ عِلْمِهِ بهم[1]

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَخَذْناهم بالعذابِ فما استكانوا لربِّهم وما يَتَضَرَّعُون ﴾ .

أذقناهم مقدماتِ العذابِ دونَ شدائِده . . تنبيهاً لهم ، فما انتبهوا وما انزجروا ، ولو أنهم إذ رأَوْا العذابَ فزعوا إلى التضرعِ والابتهالِ لأسرع اللهُ زوالَه عنهم ، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم ، لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عليهم باباً ذا عذابٍ شديدٍ إذا هم فيه مُبْلِسُون ﴾

لما أجللنا بهم أشدَّ العقوباتِ ضَعُفُوا عن تَحَمُّلِها ، وأُخِذُوا بغتةً ، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهال ، فَيَئِسُوا عن الإجابة ، وعَرَّجوا فى أوطان القنوط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أَنْشَأَ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئِدةَ ، قليلاً مَّا تشكرون ﴾

ذكر عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم بأن خَلَقَ لهم هذه الأعضاء ، وطالَبَهم بالشكر عليها .

وشُكْرُهُمْ عليها استعمالُها فى طاعته ؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ ألا تسمعَ إلا بالله ولله ، وشُكْرُ البَصَر ألا تنظرَ إلا بالله لله ، وشكرُ القلب ألاَّ تشهدَ غيرَ الله ، وألاَّ تحبَّ به غيرَ الله .

---

(١) هذا التمييز بين الحكم والعلم له أهميته الكبيرة فى قضية القَدَر .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى ذَرَأَكُمْ فى الأرضِ وإليه تُحشَرُون ﴾

الابتداء للحادثاتِ من الله بدءاً ، والانتهاء إليه عوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المعانى ؛ فتعرف أنَّ الحادثاتِ بالله ظهوراً ، ولله مِلْكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وله اختلافُ الليلِ والنهارِ ، أفلاَ تَعْقِلون ﴾

يُحْيِي النفوسَ ويُميتُها والمعنى فى ذلك معلومٌ ، وكذلك يحيي القلوبَ ويميتها ؛ فموتُ القلب بالكُفْرِ والجحد ، وحياةُ القلبِ بالإيمان والتوحيد ، وكما أنَّ للقلوبِ حياةً وموتاً فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ ، فحياةُ الأوقاتِ بيُمْنِ إقباله ، وموتُ الأوقاتِ بمحنة إعراضه ، وفى معناه أنشدوا :

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

قوله : « وله اختلاف الليل والنهار » ؛ فليس كلُّ اختلافها فى ضيائها وظلمتها ، وطولها وقِصَرِها ، بل ليالى المحبين تختلف فى الطول والقِصَرِ ، وفى الروْح والنوْح ؛ فَمِنَ الليالى ما هو أضوأُ من اللآلى ، ومن النهار ما هو أشدُّ من الحنادس ، يقول قائلهم : ليالىَّ بعد الظاعنين شُكُولُ .

ويقول قائلهم :

وكَمْ لظلامِ الليلِ عِنْدِىَ من يَدٍ ... تُخَبِّرُ أنَّ المانويةَ تَكْذِبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا :

ليالى وصالٍ قد مَضَيْن كأنَّها ... لآلى عقودٍ فى نحور الكواعبِ
وأيامُ هَجْرٍ أعقبتها كأنَّها ... بياضُ مَشيبٍ فى سواد الذوائبِ

قوله جل ذكره: ﴿ بل قالوا مِثْلَ ما قال الأولون * قالوا أئذا مِتْنا وكُنّا تُراباً وعِظاماً أئنا لمبعوثون * لقد وُعِدْنا نحن وآباؤُنا هذا مِن قَبْلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾

سلكوا فى التكذيب مَسْلَكَ سَلَفِهم ، وأسرفوا فى العناد مثل سَرَفِهم ، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتَلَفِهم .

قوله : « لقد وعدنا ... » لَمّا طال عليهم وقتُ الحشر ، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنَّشْر زَادَ ذلك فى ارتيابهم،وجعلوا ذلك حُجَّةً فى لَبْسِهم واضطرابهم ، فقالوا : لقد وُعِدْنا مثل هذا نحن وآباؤنا ، ثم لم يكن لذلك تحقيق ، فما نحن إلاّ أمثالهُم . فاحتجَّ اللهُ عليهم فى جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخَلْق :

فقال جل ذكره: ﴿ قُل لِمَنِ الأرضُ ومَن فيها إن كُنتُم تعلمون * سيقولون للهِ قُلْ أفلا تَذَكَّرون * قُلْ مَن ربُّ السمواتِ السَّبْعِ وربُّ العرشِ العظيم * سيقولون للهِ قُلْ أفلا تتقون * قُلْ مَنْ بيده ملكوتُ كُلِّ شيء ، وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون للهِ قُلْ فأنّى تُسْحَرُون ﴾

أمَرَه — عليه السلام — أنْ يُلَوِّنَ عليهم الأسئلة ، وعَقَّبَ كُلَّ واحدٍ من ذلك — مُخْبِراً عنهم — أنهم سيقولون : لله ، ثم لم يَكْتَفِ منهم بقالتهم تلك ، بل عاتَبَهم على

تجرُّدِ قولهم عن التَّذَكُّر والفَهْمِ والعلم ، تنبيهاً على أن القول — وإنْ كان فى نفسه صدقاً — فلم تكن فيه غنية ؛ إذ لم يصدر عن علمٍ ويقينٍ .

ثم نَبَّهَهُمْ على كمالِ قدرته ، وأنَّ القدرة القديمة إذا تعلَّقت بمقدورٍ له ضدٌّ تعلَّقت بضدِّه ، ويتعلق بمثل متعلقه .

والعَجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله ، ثم تجويزهم عبادةَ الأصنامِ التى هى جماداتٌ لا تحيا ، ولا تضرُّ ولا تنفع .

ويقال أولاً قال : «أفلا تذكرون» ، ثم قال بعده : «أفلا تتقون» ، فَقَدَّمَ التذكُّرَ على التقوى ؛ لأنهم بتذكرهم يَصلُون إلى المغفرة ، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته . ثم بعد ذلك قال : « فأنَّى تُسْحَرون » ؛ أى بعد وضوح الحجة فأىُّ شَكٍّ بَقِىَ حتى تنسبوه إلى السِّحْرِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ بل أَتَيْناهُم بالحقِّ وإنَّهم لَكاذِبُون ﴾

بَيَّنَ أنهم أَصَرُّوا على جحودهم ، وأقاموا على عُتُوِّهم ونُبُوِّهم ، وبعدَ أن أُزيحت العِللُ فلات حين عذر ، وليس لتجويز المُساهَلَةِ موجِبٌ بَتاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كان معه مِنْ إلهٍ ﴾

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك ، والأمران جميعاً داخلان فى حدِّ الاستحالة ، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة فى القَدْرِ ، والصمدية تتقدَّسُ عن جواز أن يكون له مِثْلٌ أو جنس .

قوله جل ذكره : ﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولَعَلَا بعضُهم على بعضٍ سبحان اللهِ عما يَصِفُون * عالمِ الغيبِ والشهادةِ فتعالى عمَّا يُشْرِكون ﴾

كُلُّ أمرٍ نِيطَ بِاثنين فقد انتفى عنه النظامُ وصحةُ الترتيب ، وأدلة التمانع مذكور في مسائل الأصول .

« سبحان الله » تقديساً له ، وتنزيهاً عما وصفوه به . « عالم الغيب والشهادة » : تَنَزَّهَ عن أوهامِ مَنْ أشرك ، وظنونِ مَنْ أَفِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُون ﴾

يقول إن عجلت لهم ما تتوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم ، ولا توصل إليَّ سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقِّ أنْ يفعلَ ما يريد ، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإِنَّا على أن نُّرِيَكَ ما نَعِدُهم لَقادِرون ﴾

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عَلِمَ ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك ، فَصَحَّتْ القدرةُ على خلاف المعلوم[2]

قوله جل ذكره : ﴿ ادْفَعْ بالتي هي أَحْسَنُ السيئةَ نحن أعلم بما يَصِفون ﴾

الهمزة في « أحسن » يجوز ألا تكون للمبالغة ؛ ويكون المعنى إدفع بالحسن السيئة . أو أن تكون للمبالغة ؛ فتكون المكافأة جائزةً والعفوُ عنها — في الحُسْنِ — أشدَّ مبالغةً .

ويقال ادفع الجفاء بالوفاء ، وجُرْمَ أهل العصيانِ بحكم الإحسان .

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل بما هو حق له .

ويقال اسلكْ مسلكَ الكَرَم ، ولا تجنحْ إلى طريق المكافأة .

---

(١) لأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض ، إذ لا يعود عليه سبحانه من هذا أو ذاك مصلحة .

(٢) في هذا ردٌّ ضمني على المعتزلة القائلين بإنكار الصفات ، إذ يتضح أن صفة العلم متميزة عن صفة القدرة . فالأشاعرة — ومنهم القشيري — حين يثبتون الصفات إنما يثبتون المعاني اللائقة بذاته ، وهي معان وإن تنوعت فليست طوارىء على الذات ، وإنما الذات قائمة بها .

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القَلبُ ، والسيئةُ ما تدعو إليه النَّفْسُ .

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة ، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائقِ ، والسيئةُ ظلمةُ الخلائق .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل ربِّ أعوذ بِكَ من هَمَزَاتِ الشياطين * وأعوذ بِكَ ربِّ أن يَحْضُرُونِ ﴾

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بك منك »[1] ، ولكنه — سبحانه — أراد أن تَعْبُدَه بالاستعاذة به من الشيطان ، بل مِنْ كلِّ ما هو مُسَلَّطٌ علينا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجرى العادة . وإلاَّ . . فلو كان بالشيطان من إغواء الخَلْقِ شيء لكان يُمْسِكُ على الهدايةِ نَفْسَه ! فَمَنْ عَجَزَ عن أنْ يحفَظَ نَفْسَه كان عن إغواء غيرِه أشَدَّ عجزاً ، وأنشدوا :

جحودى فيك تلبيس وعقلى فيك تهويس
فَمَنْ آدم إلاَّكَ ومن فى (...)[2] ابليس

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أحدَهُمُ الموتُ قال رب ارْجِعُونِ * لعَلِّى أعملُ صالِحاً فيما تركْتُ كلاَّ إنَّها كلِمةٌ هو قائلُها ومن ورائِهم بَرْزَخٌ إلى يومِ يُبعَثُون ﴾ .

---

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك » . مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى .

(٢) فى م (الين) وفي ص (الين) ، والبيتان للحلاج فى الطواسين ص ٤٢ وفى ديوانه (المقطعة الثامنة والعشرون) جاءت البين ، والمعنى أن آدم الذى خلقته من طين هو سبب بلائى فسجودى له سجودٌ لغيرك . وفى البيتين بعض الغموض والشطح ، ولهذا نعجب من استشهاد القشيرى بهما . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب القشيرى فى رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يستشهد بأقواله شعراً ونثراً . . وقد عللنا لذلك فى كتابنا « الإمام القشيرى وتصوفه » ط مؤسسة الحلبى .

إذا أخذ البلاء بخناقهم ، واستكن الشرُّ من أحوالهم ، وعلموا ألاّ محيصَ ولا محيدَ أخذوا فى التضرُّع والاستكانة ، ودون مايرومون خرطُ القتادِ ! ويقال لهم هلاّ كان عُشْرُ عشرِ هذا قبلَ هذا ؟ ولقد قيل :

قلتُ للنفسِ : إنْ أرَدتِ رجوعاً ... فارجعى قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا نُفخَ فى الصُّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتساءلُون ﴾ .

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطعُ الأسبابُ ، ولا ينفع النّدم ، وسيلقَى كلُّ غِبَّ مااجترم؛ فَمَنْ ثَقُلتْ بالخيرات موازينُه لاحَ عليه تزيينُه . ومنْ ظهرَ مايشينه فله من البلاء فنونه ؛ تلفح وجوهَهم النار ، وتلمح من شواهدهم الآثار ، ويتوجه عليهم الحجاج ، فلا جواب لهم يُسْمَع ، ولا عُذْر منهم يُقْبل ، ولا عذاب عنهم يُرْفع ، ولا عقابُ عنهم يُقْطَع .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ربّنا غلَبَتْ علينا شِقْوتُنا وكنّا قوماً ضالّين ﴾ .

نطقوا بالحقّ . . . ولكن فى يومٍ لا ينفع فيه الإقرار ، ولا يُقْبَلُ الاعتذار ، ثم يقولون :

﴿ ربَّنا أخرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنا ظالمون ﴾ .

والحقُّ يقول : لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. عِلمَ أنّ ردَّهم إلى الدنيا لا يكون ، ولكنه عِلم أنّه لو كان فكيف كان يكون.

قوله جل ذكره : ﴿قال اخسئوا فيها ولا تُكلّمون﴾ .

عند ذلك يتمُّ عليهم البلاء ، ويشتدُّ عليهم العناء ، لأنهم ماداموا يذكرون اللهَ لم يحصل الفراق بالكلية ، فإذا حِيلَ بينهم وبين ذكره تم لهم المحنة ، وهو أحدُ ما قيل فى قوله « لايحزنهم الفزع الأكبر »[1] .

---

(١) آية ١٠٣ سورة الأنبياء .

وفى الخبر : أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواءٌ كعواء الذئب . وبعض الناس تثار من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لهم : « اخسئوا فيها » ، فيقولون : إلينا يقول لنا ! أليس هو يخاطبنا بذلك ؟ ! وهؤلاء يقولون : قَدْحُ الأحباب ألذُّ من مَدْح الأجانب ، وينشدون فى هذا المعنى :

أتانى عنكِ سَبُّكِ لى .. فسُبِّى أليس جرى بفيكِ اسمى فَحَسْبِى

قوله جل ذكره : ﴿ إنه كان فريقٌ من عبادى يقولون ربَّنا آمنّا فاغفِر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الراحمين * فاتخذتموهم سِخْرِيًّا حتى أنسَوْكم ذِكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جَزَيْتُهم اليومَ بما صَبَرُوا أنهم هم الفائزون ﴾ .

الحقُّ — سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيِّبُ به قلوبَ أوليائه ، وتلك خصومةُ الحق ، فيقول : قد كان قومٌ من أوليائى يُفْصِحون بمدحى وثنائى ، ويتصفون بمدحى وإطرائى ، فاتخذتموهم سخرياً ... فأنا اليوم أجازيهم ، وأنتقم ممن كان يناويهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال كم لَبِثْتُم فى الأرضِ عددَ سنين * قالوا لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ فاسأل العادِّين * قال إن لَبِثْتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى مايوفى ويُرْبِى عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ إن كانوا فى الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحات التى يلقونها فى القيامة ، وإن كانت شدائد فتتلاشى في جنب مايرونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية .

قوله جل ذكره: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ .

العبثُ اللهو ، واللَّعِبُ والاشتغالُ بما يُلْهِى عن الحقّ ، والله لم يأمر العبادَ بذلك ، ولم يَدْعُهم إلى ذلك ، ولم يندبهم إليه .

والعابثُ فى فِعْلِه مَنْ فِعْلُه على غير حدّ الاستقامة ، ويكون هازلاً مُسْتَجْلِباً بفعله أحكامَ اللهو إلى نَفْسه ، متمادياً فى سهوه ، مستلذّ التفرقةِ فى قصده . وكلُّ هذا من صفات ذوى البشرية ، والحقُّ — سبحانه — مُنزّهٌ النعتَ عن هذه الجملة ، فلا هو بِفِعْلِ شىء عابث ، ولا بشىء منَ العَبَثِ آمِرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلهَ إلا هو ربُّ العَرْشِ الكريمِ ﴾ .

الحقُّ — بنعوت جلاله — متوحِّدٌ ، وفى عِزِّ آزاله وعلُو أوصافه متفرِّدٌ ، فذاتُه حقٌّ ، وصفاته حقٌّ ، وقولُه صِدْقٌ ، ولا يتوجَّهُ لمخلوق عليه حقٌّ ، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شىء منها بمستحق[1] .

« لا إله إلا هو رب العرش الكريم » : ما تجمَّل بالعرشِ ، ولكنْ تَعَزَّزَ العرشُ بأنَّه أضافَه إلى نَفْسِه إضافةَ خصوصية .

والكريمُ الحسَنُ ، والكرمُ نَفْىُ الدناءة .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ له به فإنَّما حِسابُه عِندَ ربِّه إنهُ لا يُفْلِحُ الكافرون ﴾ .

حسابُه على الله فى آجِلِه . وعذابُه من الله له فى عاجله ، وهو الجهل الذى أودعَ قلبَه حتى رَضِىَ بأنْ يَعْبُدَ معه غيرَه . وقولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » كلامٌ

---

(١) معنى هذه العبارة أنه لايجب على الله شىء فى إحسانه لعباده ، فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ، وليس نتيجة وجوب على الله أو حق للعبد .

حاصلٌ من غير دليل عقل ، ولا شهادة خبرٍ أو نقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقولٌ ليس يساعده برهان .

قوله جل ذكره : ﴿وقُل رَبِّ اغفِرْ وارحَمْ وأنت خيرُ الراحمين﴾ .

اغفرْ الذنوبَ، واسترْ العيوبَ، وأجزِلْ الموهوب.وارحمْ حتى لا تستولى علينا هواجمُ التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة ، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز(١).

السورة التى يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُه ، اسم بشيرُ الحياة وصلته ، اسم سببُ الرَّوْح عرفانُه ، اسم راحةُ الرُّوح إحسانُه ، اسم كمالُ الأُنْسِ إقبالُه ، اسمٌ فتنةُ قلوبِ المُهَيَّمين جمالُه ، اسم مَنْ شَهِدَه دامت سلامته ، اسم مَنْ وَجَدَه قامت قيامتُه ، اسم لا إليه حظوة ، ولا بدونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها﴾ .

سورة هى شَرَفٌ لك — يامحمد — أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدى سورة(٢) ؛ فكلُّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة ، بيَّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيَّنا (فيها من الأحكام ما)(٣) لكم به اهتداء ، وللقلوب مِنْ غمرة الاستعجام شفاء .

أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ ، ودلائلَ واضحاتٍ ، وحُجَجًا لائحات ؛ لتتذكروا تلك الآيات ، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبينات .

---

(١) لأن الرحمة — فى الأصل — وصف للذات ، والنعمة من صفات الفعل .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » ، وإلى قوله تعالى فى سورة يونس : « قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » .

(٣) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

قوله جل ذكره : ﴿ الزانيةُ والزانى فاجلدوا كُلَّ واحدٍ منهما مِائةَ جَلْدَةٍ ﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جَعَلَ إثباتَ أمره وتقريرَ حُكْمِه والقطعَ بكونه على أكثر الناسِ خصلةً عسيرةً بعيدةً ؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقولَ : رأيتُ ذلك منه فى ذلك منها ! وذلك أمرٌ ليس بالهيِّن ، فسبحان مَنْ أعظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاء ، ثم جعل الأمر فى إثباتها بغاية الكدِّ والعناء ! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له صلى الله عليه وسلَّم: لعلَّك قَبَّلْتَ .. لَعَلَّكَ لا مسْتَ ، وقال لبعض أصحابه: «استنكهوه»(١) وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحدِّ عنه ، إلى أنْ ألحَّ وأصَّر على الاعتراف .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأخُذْكم بهما رأفة فى دِينِ اللهِ إن كنتُم تؤمنون بالله واليومِ الآخر ﴾

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع .

والرحمةُ من موجب الشرع وهو المحمود ، فأمّا ما يقتضيه الطَّبعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود . ونهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ ، وتَرَكَ الأمرَ ، وأساء الأدبَ ، وانتصبَ فى مواطنِ المخالفة .

ويقال نهانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بتلك الفَعْلة الفحشاء — رقمَ الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(٢) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلَّةَ إيمانه مع قبيح جُرْمِهِ وعصيانه .

---

(١) وردت الإشارة إلى حادث « ماعز » فى هامش سبق ، وقوله « استنكهوه » اى ابحثوا هل فى فمه ريح الخمر ، وبعدها سأله النبي للمرة الأخيرة « أزنيت ؟ فقال نعم . فأمر به فرُجِمَ » صحيح مسلم ط أولى سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .

(٢) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب أنهما قالا : عن أبى هريرة أن النبي (ص) قال (لا يزنى . . . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى لِيَكُونَ عليهم أشدَّ ، وليكونَ تخويفاً لمتعاطى ذلك الفعل ، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضعَ أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مِثْله ، وكيف عَصَمَهم من ذلك . وإنْ جرى منهم شىء من ذلك يذكروا عظيمَ نعمَةِ اللهِ عليهم ؛ كيف سَترَ عليهم ولم يفضحهم ، ولم يُقِمْهم فى الموضع الذى أقام فيه هذا المُبْتَلَى به . وسبيلُ من يشهد ذلك الموضعَ ألّا يُعَيِّرَ صاحبَه بذلك ، وألا ينسى حُكْمَ اللهِ تعالى فى إقدامه على جُرْمِه .

قوله جل ذكره : ﴿ الزانى لا يَنكِحُ إلّا زانيةً أو مُشْرِكَةً والزانيةُ لا ينكِحُها إلّا زانٍ أو مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين ﴾

الناسُ أشكالٌ ؛ فكلٌّ نظيرٍ[1] مع شكله ، وكلٌّ يُساكِنُ شكلَه ، وأنشدوا :

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقارَنِ يقتدى

فأهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم – وإنْ تَبَاعَدَ مزارُهم (وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم — وإن تناءت ديارهم)[2]

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَرْمُون المُحْصَنَاتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شهَدَاء فاجْلِدُوهم ثمانين جَلْدةً ولا تَقْبلوا لهم شهادةً أبداً وأولئكَ هُمُ الفاسِقون ﴾

لئلا يستبيحوا أعراضَ المسلمين ، ولئلا يهتكوا أستارَ الناسِ أمَرَ بتأديبهم ، وإقامة الحدِّ عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (وكل طير . .) وربما كانت (وكلٌّ يطير) أو (فكل طيرٍ) ، والمثل يقول : (الطيور على اشكالها تقع) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى س .

ثم بَالَغَ فى عدد الشهود ، وألاَّ تُقْبَلَ تلك الشهادةُ إلَّا بالتضرعِ التام ، ثم أكده بقوله « ولا تَقْبَلُوا لهم شهادةً أبداً » . وفى الخبر المسند قوله عليه السلام : « مَنْ أتى منكم بشىء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، فإنَّ مَنْ أبدى لنا صفحته ، أقمنا عليه حدَّ الله »(١)

قوله جل ذكره ﴿ إلَّا الذين تابوا مِنْ بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

جَعَلَ من شرطِ قبولِ شهادته صِحَّةَ توبته ، وجعل علامةَ صحةِ توبته إصلاحهَ ، فقال : « وأصلحوا » ، وهو أن تأتى على توبته مدةٌ تنتشر فيها بالصلاح صفتُه ، كما اشْتَهَرَتْ بِهَتْكِ أعراضِ المسلمين قالتُه . كلُّ هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يَرْمُون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلَّا أنفسُهم فشهادةُ أحَدِهم أربَعُ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصادقين ﴾

لمَّا ضاق الأمرُ على من رأى أهلَه على فاحشة ، إذ أن فى ذلك قبول نسبٍ غير صحيح — فقد نهى الشرعُ عن استلحاقه ولداً مِنْ غيره . وكان أمراً محظوراً هتكُ عِرضِ المرأة والشهادةُ عليها بالفحشاء ، إذ يجوز أن يكون الأمر فى المُعيب ؛ أى بخلاف ما يدَّعيه الزوجُ . ولأن ذلك أمرٌ ذو خَطَرٍ شَرَعَ اللهُ حُكْمَ اللِّعان(٢) ليكون للخصومة قاطعاً ، وللمُقْدِمِ على

---

(١) رواه البيهقى والحاكم عن ابن عمر بإسناد جيد بلفظ : « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله تعالى عنها ، فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله ، وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله » (ص ١٥٥ ج ١ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ) .

(٢) اللعان فى الشريعة أن يُقسم الزوج أربع مرات على صدقه فى قذف زوجته بالزنا ، والخامسة باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذباً وبذا يبرأ من حدِّ القذف . ثم تقسم الزوجة أربع مرات على كذبه ، والخامسة باستحقاقها غضب الله إن كان صادقاً فتبرأ من حد الزنا . وقد نزلت آية اللعان فى هلال بن أمية أو عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتى خولة شريك بن سحماء فكذبته ، فلاعن النبى (ص) بينهما . فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا — وهما من أهل الشهادة — صح اللعان بينهما ، واختلف الفقهاء هل تقع الفرقة بينهما بالتلاعن أم بتفريق القاضى .

الفاحشةِ زاجراً ، فنى مثل هذه الأحوال عنها خَرْجَةٌ[1] . ولولا أنَّ الله على كل شىء قدير وإلا فنى عادة الناس . مَن الذى يهتدى لِمِثْلِ هذا الحكم لولا تعريفٌ سماوى وأمر نبوى ، من الوحى مُتَلَقَّاهُ[2] ، ومِن اللهِ مُبْتَداهُ وإليه منتهاهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّ الله توَّابٌ حكيم ﴾ .

... لبقيتم فى هذه الواقعة المعضلة ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشكلة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم لا تحسبوه شَرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم . لكلٍّ امرىءٍ منهم ما اكتسبَ مِنَ الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عَذَابٌ عظيم ﴾

هذه قصة عائشة رضى الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيَّنَ اللهُ — سبحانه — أنه لا يُخْلِي أحداً من المحنة والبلاء ، فى المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُمْتَحَنُ الرجلُ على قَدْرِ دينه » ، وقال: « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »[3].

ويقال إن الله — سبحانه — غيورٌ على قلوب خواصِّ عباده ، فإذا حصلت مساكنةٌ بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِى اللهُ ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه ، ويردُّه إلى نفسه ، وأنشدوا :

إذا عَلِقَت روحى بشىءٍ ، تعلَّقَتْ به غِيَرُ الأيام كى تَسْلُبَنِّيَا

وإن النبى — صلى الله عليه وسلم — لمَّا قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

---

(١) الخرجة هى الخروج والخلاص من أمر شديد .

(٢) هكذا فى س وهى فى م (مستفاد) وكلاهما صحيح ، ولكن الأولى أقوى مراعاة للموسيقى اللفظية ، وربما كانت (مستقاه) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . . . وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فسا كنها .

وفى بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إنى أحبك وأحب قربك » . . . فأجرى اللهُ حديثَ الافكِ حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إلى الله ، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله ؛ حيث قال — لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها : بحمد الله لا بحمدك كشف الله عنها به تلك المحنة ، وأزال الشكَّ ، وأظهر صِدْقَها وبراءةَ ساحتها .

ويقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسةَ المؤمن فإنَّ المؤمن ينظر بنور الله »[1]، فإذا كانت الفراسةُ صفةَ المؤمن فأَوْلَى الناس بالفراسةِ كان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءةُ ساحتها ، حتى كان يقول : « إنْ فَعَلْتِ فتوبى » .

والسبب فيه أنه فى أوقات البلاء يَسُدُّ اللهُ على أوليائه عيونَ الفراسةِ إكمالاً للبلاء . وكذلك إبراهيم — عليه السلام — لم يميِّز ولم يعرف الملائكة حيث قدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيذ ، وتوهمهم أضيافاً . ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان — صلى الله عليه وسلم — يقول لعائشة : « يا حُمَيْرَاء » .

فلما كان زمان الإفك ، وأرسلها إلى بيت أبويها ، واستوحش الأبوان معها ، ومَرِضَتْ عائشةُ — رضى الله عنها — من الحزن والوجد ، كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا رأى واحداً من دار أبى بكر يقول :

كيف بيتكم ؟ لا عائشة ولا حميراء ! فما كان يطيب بالتغافل عنها ، فتعبيره — إنْ لم يُفْهِمْ بالتصريح — فيُفْقَهُ بالتلويح .

ثم إنه — سبحانه — قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم » : فبمقدار جُرْمِهم احتمل كلُّ واحدٍ ما يخصُّه من الوِزْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون

---

(١) الترمذى والطبرانى ، الترمذى من حديث أبى سعد ، والطبرانى وأبو نعيم بسند حسن عن أنس .

والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا
هذا إفكٌ مُبينٌ ﴾ .

عاتبهم على المبادرةِ إلى الاعتراضِ وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها ، وتَرْكِهم الإعراض عن حُرَم النبي صلى الله عليه . ثم قال : وهلاَّ جاءوا على ما قالوا بالشهداء ؟ وإذا لم يجدوا ذلك فهلاَّ سكتُوا عن بَسْطِ اللسان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتهُ
في الدنيا والآخرة لمَسَّكم فيما أفضتُم
فيه عذابٌ عظيم ﴾ .

لأنه أخبر أن جُرْمَهم — وإنْ كان عظيماً — فإنه في عِلْمِ اللهِ عنهم غير مُؤَثِّر ، ولولا أن الله — سبحانه — ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعلَّه لم يذكُرْ هذه المبالغة في أمرهم ؛ فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُرْبي على كل سوء — ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرفاقهم ، ولكن ما تتعلَّق به حقوقُ أوليائه — لا سيما حق الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك عظيمٌ عند الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتِكم وتقولون
بأفواهِكم ما ليس لكم به عِلْمٌ
وتَحْسَبُونه هَيِّناً وهو عِندَ الله عظيم ﴾

بالَغَ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تأذَّى به قلبُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » : وسبيلُ المؤمنِ ألا يستصغرَ في الوفاق طاعةً ، ولا يستصغرَ في الخلافِ زَلَّةً ؛ فإنَّ تعظيمَ الأمْرِ تعظيمٌ للآمِرِ . وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون مَنْ الآمرُ به .

ويقال : يَسيرُ الزَّلَّةِ — يلاحِظُها العبدُ بعين الاستحقار — فتُحْبِط كثيراً من الأحوال ، وتكدِّر كثيراً من صافي المشارب .

واليسير من الطاعة — ربما يَسْتَقِلُّها العبدُ — ثم فيها نجاتُه ونجاةُ عالمٍ معه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قُلْتُم ما يكونُ لنا أن نَتَكلَّم بهذا سبحانك هذا بُهْتَانٌ عظيم ﴾

استماعُ الغيبةِ نوعٌ من الغيبة ، بل مستمِعُ الغيبةِ شَرٌّ للغتابين ؛ إذ بسماعة يَتِمُّ قَصْدُ صاحبِه . وإذا سمع المؤمنُ ماهو سوء قالةٍ فى المسلمين — مما لاصِحَّةَ له فى التحقيق — فالواجبُ الردُّ على قائله ، ولا يكفى فى ذلك السكوتُ دون النكير ، ويجب ردُّ قائله بأحسنِ نصيحةٍ ، وأدقِّ موعظةٍ ، ونوعِ تشاغُلٍ عن إظهارِ المشاركةِ له فيما يستطيب من نَشْرِه من إخجالِ لقائله موحشٍ ، فإنْ أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن ؛ لأنه إنْ لم يَسْتَحِ قائلُه من قوله فلا ينبغى أن يستحى المستمعُ من الرَّدِّ عليه[1] .

قوله جل ذكره ﴿ يَعِظُكم اللهُ أن تعودوا لِمِثْلِه أبداً إن كُنْتُم مؤمنين ﴾

يتعلَّق هذا بأنَّ مَنْ بَسَطَ لسانَه فى عائشة — رضى الله عنها — بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية ، (ولعمرى قائلُ ذلك مرتكبُ كبيرةٍ ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك)[2] ؛ أى ينبغى للمؤمن ألا يتكلمَ فى هذا ، وهذا كما يقول القائل : « إذا كُنْتَ أخى فواسِنى عند شِدَّتى ؛ فإنْ لم تواسِنى لم تخرج عن الأُخُوَّةِ بذلك » . . ومعنى هذا القول أنَّه ينبغى للأخ أن يواسِىَ أخاه فى حال عَثْرَتِه ، وتَرْكُ ذلك لا يُبْطِلُ النَّسبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يُحِبُّون أن تشيعَ الفاحِشةُ فى الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم فى

---

(١) فى هذه الوصية تتجلى نزعة القشيرى فيما يمكن أن نسميه (آداب السلوك) ونزمع بعون الله أن ننجز بحثاً شاملا عن « علم الأخلاق عند الصوفية » .

(٢) ما بين القوسين موجود فى س وغير موجود فى م ، والعبارة هامة فى توضيح الرأى فى مرتكب الكبيرة ، ورد على من يلصقون وصمة الكفر — دون حساب — بالكثير من الناس .

الدنيا والآخرة واللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون ﴾

هؤلاء فى استحقاق الذمِّ أقبحُ منزلةً ، وأشدُّ وِزْرًا حيث أحبوا افتضاح المسلمين ، ومن أركان الدين مظاهرةُ المسلمين ، وإعانةُ أولى الدِّين ، وإرادةُ الخير لكافة المؤمنين . والذى يودُّ فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخَلْق ، واللهُ لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤهله لمنالِ خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورَحْمَتُهُ وأنَّ اللهَ رءوفٌ رحيم ﴾ .

كرَّر قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . » لِيُبَيِّنَ للجميع أنَّ حُسْنَ الدفعِ عنهم كان بفضله ورحمته وجميل المنح لهم ، وكلٌّ يشهد حُسنَ المَنْحِ ويشكر عليه ، وعزيزٌ عبدٌ يشهد حُسْنَ الدفع عنه فيحمده على ذلك[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطواتِ الشيطان ومَن يتّبِعْ خُطواتِ الشيطان فإنه يأمر بالفحشاءِ والمنكرِ ﴾

إذا تَنَقَّى القلبُ عن الوساوس ، وصفا عن الهواجس بَدَتْ فيه أنوارُ الخواطر ، فإذا سما وقتُ العبدِ عن ذلك سَقَطَتْ الخواطر ، وبدت فيه أحاديث الحق — سبحانه — كما قال فى الخبر : « لقد كان فى الأمم محدَّثون فإن يكن فى أمتى فعُمَر » . وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد ، ولا يكون فيه احتمالٌ ولا إشكال ولا إزعاج ، وصاحبُه يجب أنْ يكون أميناً ، غيرَ مُظْهِرٍ لِسِرٍّ ما كوشِفَ به[2]

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُهُ ما زكَى منكم من أحدٍ أبداً ولكن اللهُ يُزَكِّى من يشاء واللهُ سميعٌ عليم ﴾

---

(١) أى يكثر فى الحياة من يشكر على نعمة المنح ويقل من يشكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجرى بأثر ملموس ، والثانية تجرى ولا يكاد يشعر بها المرء .

(٢) هنا نجد القشيرى يطالب بالكتمان دون الإفصاح فى الكتمان حفظ للأمانة .

رَدَّهم فى جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منَّ الحقُّ في قسمى النفع والدفع ، وحالتى العسر واليسر ، والزَّكى[1] من الله ، والنُّمى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم والسَّعةِ أن يؤتوا أولى القُرْبى والمساكين والمهاجرين فى سبيلِ الله وليعفوا وليصفحوا ﴾

تحرَّك فى أبى بكر عِرْقٌ من البشرية فى وصف الانتقام من مسطح[2] حين شرع وخاضَ فى ذلك الحديث ، وكان فى رفق أبى بكر فقطع عنه ذلك ، وأخبر به الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمرَ من الله فى ذلك ، فأنزل الله تعالى : « ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم . . » فلم يرضَ من الصديق رضى الله عنه أن يتحرك فيه عِرْقٌ من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله فى ماضى أيامه . والإحسان إلى المحسن مكافأة ، وإلى مَنْ لا يسىء ولا يحسن فضل ، وإلى الجانى فُتُوَّةٌ وكَرَمٌ[3] ، وفى معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن كلِّ زَلَّةٍ حتى أنالوا كَفَّه وأفادوا

قوله : « وليعفوا وليصفحوا » : العفو والصفح بمعنىً ، فكررهما تأكيداً .

ويقال العفو فى الأفعال ، والصفح فى جنايات القلوب[4] .

---

(١) الزكى والزكاء = النماء والزيادة ، وزكى الشىء = أصلحه وطهره .

(٢) مسطح ابن خالة أبى بكر ، وكان مسكينا ، بدريا مهاجراً ، كان ينفق عليه أبو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن يغفر الله لى ، ورد إلى مسطح نفقته رغم ما خاض فى عائشة رضى الله عنها .

(٣) يمكن أن يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى عقده القشيرى « للفتوة » فى رسالته .

(٤) نعرف عن القشيرى أنه لا يتحمس كثيراً للقول بأن بالقرآن تكراراً ، لأجل ذلك نراه يسرع إلى التمييز بين العفو والصفح عقيب ذكره أنهما بمعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ألا تُحِبون أن يَغْفِرَ اللهُ لكم والله غفورٌ رحيم﴾

هذا من كمال تلطفه — سبحانه . وفى الخبر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر — رضى الله عنه : « بلى ، أُحِبُّ يارب » ، وعفا عن مسطح . وإن الله لا يغادر فى قلوب أوليائه كراهة من غيرهم ، وأنّى بالكراهة مِنَ الخلْق والمتفرِّدُ بالإيجاد اللهُ ؟! وفى معناه أنشدوا :

رُبَّ رامٍ لى بأحجار الأذى ... لم أجِدْ بُدًّا من العطف عليه
فعسى أن يَطلعَ اللهُ على ... قَدَحِ القومِ فيدْنيني إليه

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ الذين يَرْمُون المُحْصَنَات الغافِلاتِ المؤمناتِ لُعِنُوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾

بالغ فى توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة فى شأنهم .

ووَصَفَ المحصناتِ بالغفلة : أى بالغفلة عما يُنْسَبْنَ إليه ؛ فليس الوصف على جهة الذمّ ، ولكن لبيان تباعدهن عمّا قيل فيهن .

واستحقاقُ القَذَفَةِ لِلْعَنَةِ — فى الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشؤم زلتهم تتغير عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام[1] .

قوله جل ذكره : ﴿يوم تشهد عليهم ألْسِنَتُهُم وأيْدِيهم وأرْجُلُهم بما كانوا يعملون﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه نَظَرَ بى ، تشهد بأنه بكى بى .. وكذلك سائر الأعضاء .

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنه : من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة . وهذا تعظيم ومبالغة فى أمر الإفك .

ويقال شهادةُ الأعضاء فى القيامة مؤجَّلةٌ ، وشهادتها فى المحبة اليومَ مُعَجَّلة ؛ من صُفْرَةِ الوجهِ إذا بدا المحبوب ، وشحوبِ اللون ، ونحافةِ الجسم ، وانسكابِ الدموع ، وخفقان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يومئذٍ يُوَفِّيهم اللهُ دينهم الحقَّ ويعلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المُبين ﴾

يجازيهم على قَدْرِ استحقاقهم ؛ للعابدين بالجِنان والمثوبة على توفيةِ أعمالِهم ، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفيةِ أحوالِهم ؛ فهؤلاء لهم عُلوُّ الدرجات ، وهؤلاء لهم الأُنس بعزيزِ المشاهدات ودوام المناجاة .

« ويعلمون أن الله هو الحق المبين » : فتصيرُ المعرفةُ ضروريةً ؛ فيجدون المُعَافاةَ من النَّظَرِ وتَذَكُّرِهِ ، ويستريح القلبُ من وَصْفِ تَرَدُّدِهِ وتَغَيُّرِه : (لاستغنائه ببصائره عن تَبَصُّرِه)[1] .

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحقَّ ؛ فهم قائمونَ بالحق للحق مع الحق ، يبيِّن لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، ويكون القائمَ عنهم ، والآخذَ لهم منهم من غير أنْ يُرَدَّ م إليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ .

« الخبيثات » : من الأعمال وهى المحظورات « للخبيثين » : من الرجال المؤْثِرين لها طوعاً ، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلٌّ مربوطٌ بما يليق به ؛ فالفِعْلُ لائقٌ بفاعله ، والفاعلُ بِفِعْلِه فى الطهارة والقذارة ، والنفاسة والخساسة ، والشرفِ والسَّرَفِ .

ويقال « الخبيثات » : من الأحوال ؛ وهى الحظوظُ والمُنَى والشهواتُ لأصحابها والساعين لها . والساعون لمثلها لها ، غيرَ ممنوعٍ أحَدُها من صاحبه ، فالصفةُ للموصوف مُلازِمة ، والموصوفُ لِصِفَتِه ملازِمٌ .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ويكون مراد القشيرى أنه لم يعد مجال للتبصر فقد أصبح الشهود عيانا ، وتحققت لهم الرؤية البصرية التى لم ينالوها فى الدنيا ، ونفهم أن القشيرى لا يرى الرؤية العيانية إلا فى الآخرة .

ويقال « الخبيثات » : من الأشياء للخبيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالمنازل السحيقة . . . وإنّ طعامَ الكلابِ الجِيَفُ .

ويقال « الخبيثاتُ » : من الأموال — وهى التى ليست بحلالٍ — لمن بها رتبته ، وعليها تعكف هِمَّتُه ؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلاّ لمثل تلك الأموال ،وتلك الأموال لا تساعد إلا مثلَ أولئك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبـاتُ للطيبين والطيبون للطيباتِ ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال هى الطاعات والقُرَبُ للطيبين ، والطيبون هم المؤْثِرُون لها والساعون فى تحصيلها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهى تحقيق المواصلات بما هو حقُّ الحق ، مُجَرَّداً عن الحظوظ — « للطيبين» من الرجال، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتهم عن كلّ مُبتَذَلٍ خسيس ،ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالى ، وهى التجمُّلُ بالتذلل لِمَنْ له العِزَّةُ .

ويقال الطيبات من الأموال —وهى التى لا نكيرَ للشرع عليها، ولا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيها— للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلَّصوا من رِقِّ الكون .

ويقال «الطيبات» من الأشخاص وهن المُبَرَّآتُ من وهج الخطر، المتنقيات عن سفساف أخلاق البشرية ، وعن التعريج فى أوطان الشهوات — «للطيبين» من الرجال الذين هم قائمون بحقِّ الحقِّ ؛ لا يصحبون الخلْقَ إلا للتعفُّفِ ، دون استجلاب الشهوات .

﴿ لهم مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾

لهم مغفرةٌ فى المآل ، ورزقٌ كريم فى الحال وهو ماينالون من غير استشرافٍ ، ولا تطلب طمعٍ ، ولا ذلّ مِنَّةٍ[1] ، ولا تقديم تعبٍ[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير

---

(١) أى (مِنَّة) من مخلوق .
(٢) (التعب) الذى ينشأ عن الاستعجال وعدم التفويض ونقص الثقة .

بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا
على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم
تذكرون ﴾

الخواصُّ لا يَرَوْنَ لأنفسهم ملكاً يتفردون به ؛ لا من الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة ، فمَنْ فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم مَنْعٌ ولا زَجْرٌ ، ولا حَجْبٌ لأحدٍ ولا حَظْرٌ . . هذا فيما نيط بهم . أمَّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرَّضون لمن هي في أيديهم؛ لا باستشرافِ طَمَعٍ ، ولا بطريقِ سؤالٍ ، ولا على وجهِ انبساطٍ[1] . فإنْ كان حكمُ الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحقُّ يُلجِيء مَنْ في يده الشيء ليحمِلَه إليه بحكم التواضع والتقرُّب، والوليُّ يأخذ ذلك بنعتِ التعزُّزِ، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة[2]، وأنشد بعضهم في هذا المعنى :

وإني لأستحي مِنَ الله أنْ أرَى أسيرَ بخيلٍ ليس منه بعيرُ
وأنْ أسألَ المرء اللئيمَ بعيره وبعْرانُ ربِّي في البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره : ﴿ فإن لم تجدُوا فيها أحَدًا
فلا تدخلوها حتى يُؤْذَنَ لكم ﴾

في هذا حِفْظُ أمْرِ الله وحِفْظُ حُرْمةِ صاحب الدارِ ؛ لأنَّ مَنْ دَخلَها بغيرِ إذْنِ صاحِبها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة ، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يَطَّلِعَ عليه غيرُه ، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان .

﴿ وإن قيل لكم ارجِعُوا فارْجِعُوا هو
أزْكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾.

---

(١) يقول السري السقطي في مثل هذا السياق : « أعرف طريقا مختصراً قصداً إلى الجنة . فقيل له ما هو ؟ فقال : لا تسأل من أحد شيئا . ولا تأخذ من أحد شيئا ، ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً » الرسالة ص ١١ » .

(٢) أي بأرباب الطريق الصوفي

إن قيل لكم : ارجعوا .. فارجعوا ؛ فقد تكون الأعذارُ قائمةً ، وصاحبُ الملك بِملْكِه أوْلى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جُنَاحٌ أن تدخلوا
بيوتاً غيرَ مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم
والله يَعْلمُ ما تُبْدون
وما تَكْتُمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الجُناحَ والحَرَجَ فى الانتفاعِ بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبُه بغير إذْنِه ؛ كدخولِ أرضٍ للداخلِ فيها أغراضٌ لقضاءِ حاجته — ولا يجد طريقاً غير ذلك — إذا لم يكن فى دخوله ضَرَرٌ على صاحبها ، وجرى هذا مجرى الاستظلال بظِلِّ حائطٍ إذا لم يكن قاعداً فى مِلْكِه ، وكالنظر فى المرآة المنصوبة فى جدار غيره . . وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون قضية العقل — على ما توهمَّه قومٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل لِلمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهم
ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلك أزْكى
لهم إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنعون ﴾ :

« يغضوا » : من أبصار الظواهر عن المُحَرَّمات ، ومن أبصار القلوب عن الفِكَرِ الرَّدِيَّة ، ومن تصوُّرِ الغائبات عن المعاينة[1] ، ولقد قالوا : إنَّ العينَ سببُ الحَيْن ، وفى معناه أنشدوا :

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَك رائداً لقلبك — يوماً — أتْعَبَتْكَ المناظرُ

وقالوا : مَنْ أرسل طَرْفَه اقتضى حَتْفَه .

وإن النظرَ إلى الأشياء بالبَصَرِ يوجِبُ تَفْرِقَةَ القلوب .

ويقال إن العدوَّ إبليسَ يقول : قوسى القديمُ وسهمى الذى لا يخطىء النظرُ . وأرباب

---

(١) ربما يقصد القشيرى أن ينهى عن إقحام فكرة النظر بالعين فى الأمور الغيبية ، وبمعنى آخر النهى عن إخضاع كل شىء للحس ، فطبيعة الغيبيات تختلف عن ذلك ؛ وإلا كنت كمن يحاول عبور الماء فوق جواد ، أو يعبر اليابسة وهو فى سفينة — على حد تعبير جلال الدين الرومى فى سياق مماثل .

المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحسَّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم فى المجاهدة فى أحوال الرياضة(١) .

ويقال قَرَنَ اللهُ النهى عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفَرْجِ فقال : « ويحفظوا فروجَهم » تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر ؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد ، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق — سبحانه — يكاشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرُّضٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وقُل لِلمؤمناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارِهن ويَحْفَظْنَ فروجَهن ولا يُبْدِين زينتهن إلا ما ظَهَرَ منها وليَضْرِبْنَ بِخُمُرِهنَّ على جيوبِهنَّ ﴾

المطالَبةُ عليهن كالمطالبةُ على الرجال لشمولِ التكليفِ للجنسين ، فالواجبُ عليهن تركُ المحظوراتِ ، والندبُ والنَّفْلُ لهن صونُ القلب عن الشواغل والخواطر الردية ، ثم إنِ ارتَقَيْنَ عن هذه الحالةِ فالتعامى بقلوبِهن عن غيرِ المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » : ما أباح الله — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمُستثنىً من الحظرِ ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات فى الآجل ، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أولياءه عما يضرهم فى الدِّين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخَلْق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفى الجملةِ مافيه زينة العبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أنَّ للنساءِ عورةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك مَنْ أظهر للخَلْق ما هو زينة سرائره(٢) من صفاءِ أحواله ، وزكاء أعماله

---

(١) سقطت (الرياضة) من النسخة س .

(٢) هنا يجدد القشيرى رأيه بدقة فى قضية الإفصاح والكتمان . فالأصل عنده الكتمان ، فإذا افصح العبد فلا يكون ذلك إلاَّ لاضطرار ويكون عندئذ غير مؤاخذ لأنه بعيد عن التعمل والتكلف.

انقلب زَيْنُه شَيْناً ، إلا إذا ظهر على أحدٍ شيء — لا بنعمله ولا بتكلُّفه — فذلك مستثنىً لأنه غير مؤاخَذٍ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه ، فذوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُسْتَثْنَى حُكْمُهن عن الحَظَرُ (١).

قوله جل ذكره : ﴿ أوِ التابعين غيرِ أولى الإرْبَةِ مِنَ الرجالِ أوِ الطِّفْلِ الذين لم يَظْهروا على عوراتِ النساء ﴾

تُرَاعَى فى جميع ذلك آدابُ الشرع فى الإباحة والحظر .

قوله جل ذكره ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكم تُفْلحون ﴾

التوبةُ الرجوعُ عن المذمومات من الأفعال إلى أضدادها المحمودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزَّلَّةِ وهى توبة العوام ، وتوبة عن الغفلة وهى توبة الخواص . وتوبةٌ على محاذرة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أمَرَ الكافةَ بالتوبةِ ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصَّ الخاصِّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفِّق.

ويقال أمَرَ الكلَّ بالتوبةِ لئلا يخجلَ العاصى من الرجوع بانفراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رِفْقاً بهم — من أمارات الكَرَمِ .

ويقال فى قوله : « لعلكم تفلحون » يتبين أنَّه أمَرَهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك ، لا ليكون للحقِّ — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم تجمُّلٌ .

ويقال أحوجُ الناس إلى التوبةِ مَنْ تَوَهَّمَ أنَّه ليس يحتاج إلى التوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْكِحُوا الأيامى منكم والصالحين

---

(١) يصلح هذا نموذجاً (للقياس) إن أردنا بحث ما اسميناه (الفقه الصوفى) .

مِنْ عِبادكم وإمائِكم إن يكونوا
فُقَراء يُغْنِهِمُ الله من فَضْله واللهُ
واسِعٌ عليم ﴾

إذا كان القصدُ فى المناكحة التأدبَ بآداب الشرع يكفى الله ببركاته مطالباتِ النفس والطبع ، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاء نسْلٍ يقوم بحقِّ الله(١) .

قوله : « إن يكونوا فقراء يُغْنِهم الله فى من فضله : يُغْنِهمُ اللهُ فى الحال، أولاً بالنفس ثم غِنَى القلب ؛ وغِنَى القلبِ غِنَى عن الشىء ، فالغنِىّ عن الدنيا أتمّ من الغنى بالدنيا .

ويقال إن يكونوا فقراء فى الحال يُغْنِهم الله فى المستأنف والمآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَستعفِفِ الذين لا يجدون نِكاحاً
حتى يُغْنِيَهُمُ الله من فَضْله ﴾

مَنْ تقاصر وسعُهُ عن الإنفاقِ على العيال فليصبر على مقاساة التحمل فى الحال ، فمَنْ قريبٍ تجيبه نَفْسُهُ إلى سقوط الأَرَب ، أو الحق — سبحانه — يجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يَحْتَسِب ، ولا تخلو حالُ المتعفِّفِ عن هذه الوجوه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يبتغون الكتابَ مِمَّا مَلَكَتْ
أيمانُكم فكاتِبُوهم إنْ عَلِمْتُمْ
فيهم خيراً وآتوهم من مال الله
الذى آتاكم ﴾

أى إنْ سَمَحَتْ نفوسكم بإزالة الرِّقِّ عن المماليك — الذين هم فى الدين إخوانكم — من غير عِوَضٍ تلاحظون منهم فلن تخسروا على الله فى صفقتكم . وإنْ أبيتم إلا العوض ودعوا إلى الكتابة، وعلمتم بغالب ظنكم صحةَ الوفاء بمال الكتابة من قِبَلِهم فكاتبوهم(٢) ،

---

(١) كذلك دعا الأنبياء ربهم حين طلبوا الذرية .

(٢) المكاتبة أن يقول لمملوكه : « كاتبتك على ألف درهم » مثلا ؛ فإن أداها عتق ، ومعناها كتبت عليك بالوفاء وكتبت على بالعتق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجهٍ ؛ من قدْرٍ يحط من مال الكتابة ، وإعانةٍ لهم من فروض الزكاة[1] ، وإمهالٍ بِقدْرِ ما يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له .

وإذا كنا فى الشرع مأمورين بكل هذا الرِّفقِ حتى يصل المملوكَ المسكينُ إلى عتقه فبالحرىِّ أن يسموَ الرجاء إلى الله بجميل الظنِّ أن يُعْتِقَ العبدُ من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقدر وسعه — من عناءٍ قاساه ، وفضلٍ من الله — عن قديمٍ — رجاه[2] .

ثم فى الخبر : « إن المكاتب عبدٌ ما بقى عليه درهم » : والعبد يسعى بجهده ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شىء من الأغيار فهو بكمال رِقِّه وليس فى الحقيقة بِحُرٍّ .. فالمكاتَبُ عَبْدٌ ما بقى عليه درهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُكْرِهوا فتياتِكم على البِغاء إنْ أرَدْنَ تَحَصُّنًا لتَبْتَغُوا عَرَضَ الحياةِ الدنيا ، ومَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غفورٌ رحيم ﴾ .

حَامِلُ العاصى على زَلَّته ، والداعى له إلى عَثْرَته ، والمُعِينُ له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوِزْرِ أكثرُ مِنْ غيره ، وبعكسه لو كان الأمر فى الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أنْزَلْنَا إليكم آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ ومثلاً مِّنَ الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين ﴾

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى أسهم الزكاة : (وفى الرقاب) وعند الشافعى — رحمه الله — حطوا من بدل الكتابة ربعاً .

(٢) للسنى كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد القشيرى حيث يقول : العابد كالعبد فهو يشترى نفسه من ربه بنجوم مرتبة ليسعى فى فكاك رقبته خوفا من البقاء فى ربقة العبودية وطمعا فى فتح باب الحرية ليسرح فى رياض الجنة ، فعليه فى اليوم والليلة خمس ، وفى المائتى درهم خمسة ، وفى السنة شهر ، وفى العمر زورة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً[1] ، ولم يترك الحقُّ — سبحانه — للإشكال محلاً ؛ بل أوْضَحَ المنهاجَ وأضاء السِّراجَ ، وأنار السبيلَ وألاح الدليل ، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ ، ولا يمسُّه تعبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾

أى هادى أهل السمواتِ والأرض ، ومنه نورهما . والذى منه الشىء يسمى باسمه الشىء. ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً ؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أى منوِّرها وخالقُ مافيها من الضياء والزينة ، وموجِدُ ما أودعها من الأدلة اللائحة .

ويقال نوَّر اللهُ السماء بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح »[2] فكذلك زينَ القلوب بأنوارٍ هى نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العلم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد[3] ، فلكلٌّ شىء من هذه الأنوار مطرحُ شعاعٍ بقدره فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ نُورِه كمشكاةٍ فيها مصباحٌ
المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها
كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شجرةٍ
مُباركةٍ زيتونةٍ لاشرقيةٍ ولاغربيةٍ
يكاد زيتُها يضىء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى اللهُ لِنورِه مَن
يشاء ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ
واللهُ بكلِّ شىءٍ عليم ﴾ .

قوله « مثل نوره كمشكاة .. » : أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبَّهَ صدرَه

---

(١) الغبرة = لطخ الغبار . (٢) آية ١٢ سورة فصلت .

(٣) نلفت النظر إلى أهمية هذا الترتيب فى توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهى تتدرج فى الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى شمس الشموس .

بالمشكاة ، وشبَّه قلبَه فى صدره بالقنديل فى المشكاة ، وشبَّه القنديل — الذى هو قلبه — بالكوكب الدرىّ ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافى الذى يمدُّ السراج فى الاشتعال . ثم وصفَ الزيتَ بأنَّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خلَلٍ مسَّه . ثم وصف ذلك الزيت — فى صفوته — بأنه بحيث يكاد يضىء من غير أن تمسَّه نار .

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الحنيفى ، فما كان يهودياً — وهم الذين قِبْلتُهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً — وهم الذين قبلتهم فى ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نورا كتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونورُ معرفته موقدٌ من شجرةٍ هى إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالعشى دون الغداة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشى ، بل تصيبه الشمسُ طولَ النهارِ ليتمَّ نضج زيتونه ، ويكمل صفاء زيته . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوفُ قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يعتدلان ؛ فلا يغلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيبتهم أُنَسهم ، وقبضُهم بسطَهم ، وصحوُهم محوَهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامُهم بآداب الشريعة تحقُّقَهم بجوامع الحقيقة [1] .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أى أن هِمَمَهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عَرْشاً ولا كرسياً ، سطعت [2] عن الأكوان ، ولم تجد سبيلا إلى الحقيقة ؛ لأن الحقَّ مُنزَّهٌ عن اللحوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالحق غير

---

(١) فالقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه بين طرق الأحوال حتى يصفو له .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (شطحت) وربما قبلناها فالسياق لا يرفضها .

متصلة[1] ؛ وهذه صفة الغرباء . . وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرِّج في أقطار الكسل ، فيصل سَيْرَه بِسُراه في استعمال فِكْرِه ، والحقُّ يمده : بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارضِ الاجتهادِ شيء من حُبِّ رياسةٍ ، أو ميلٍ لسوءٍ ، أو هوادة . فإذا أسفر صُبْحُ غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهْد ، وحصول الوَجْدِ عند أداء الوِرْد .

ثم بعده نور المعاملة ، ثم نور المنازلة ، ثم متوع نهار المواصلة . وشموس التوحيد مشرقة ، وليس في سماء أسرارِهم سحابٌ ولا في هوائها ضبابٌ ، قال تعالى : « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نَظَرَ في ديوانه ، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرَّعُ كاساتِ نَدَمِهِ ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِهِ ، والتَّنَقِّي عما كان عليه في أوقات فترته . فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة ؛ فيعلم أنَّه — سبحانه — مُطَّلِعٌ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلِّي الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلُه نهاراً ، ونجومُه أقماراً ، وأقمارُه بدوراً ، وبدورُه شموساً . . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم مالا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ ، فالعبارات — عند ذلك — خُرْسٌ ، والشواهد طُمْسٌ ، وشهود الغير عند ذلك محال[2] . عند ذلك : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العشار عطلت »[3] ، « وإذا السماء انشقت ، وانفطرت . . »

---

(١) هذا نموذج للتصوف الإسلامي الحق الذي لا تشوبه شائبة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، فالرب رب والعبد عبد ، ولا تداخل بينهما .

(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسوى ، فقد فنى العبد عن نفسه وعن الغير الله تماما فناء ذوقيا شهوديا ، لا فناء طبيعيا كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .

(٣) سورة التكوير .

فهذه كلها أقسام الكون . وما من العَدَمِ لم صار إلى العدم . القائمُ عنهم غيرُهم ، والكائن عنهم سواهم . وجلَّتْ الأحديةُ وعزَّتْ الصمدية ، وتَقَدَّسَتْ الديمومية ، وتنزهت الإلهية .

قوله جل ذكره : ﴿ فى بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِم تجارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقام الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة ﴾

المساجدُ بيوتُه — سبحانه — وإنَّ الله أذِنَ أنْ تُرْفَعَ الحوائجُ فيها إليه فيقضيها ، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار . المساجدُ بيوتُ العبادةِ والقلوبُ بيوتُ الإرادة ؛ فالعابِدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله ، والقاصدُ يصل بإرادته إلى الله .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مَشاهِدُ المحبة ، والأسرار محالُّ المشاهدة .

قوله : « يسبح له فيها بالغدو . . . . » لم يقل : لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون ، بل قال : لاتلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، فإنْ أمكن الجمع بينهما فلا بأسَ — ولكنه كالمتعذر — إلاَّ على الأكابر الذين تجرى عليهم الأمورُ وهم عنها مأخوذون[1] .

ويقال هم الذين يُؤْثِرون حقوقَ الحقِّ على حظوظ النَّفْس .

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن : حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ، وقاموا لأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم » عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عِوَضٍ أو مطالعة سبب .

قوله جل ذكره : ﴿ يخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأبصارُ ﴾

---

(١) هذا رأى حاسم فى مدى وجوب السعى من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير لموقف من يعجزون عن ذلك .

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤَجَّلٌ لهم ، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت ؛ فانَّ حقيقةَ الخوفِ تَرَقُّبُ العقوباتِ مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ يرزق مَن يشاء بغيرِ حسابٍ ﴾

مَنْ رَفَعَ الحسابَ من الوَسَطِ يَرْفَعْ معه الحسابَ[1] ، ومَنْ هو فى أَسْرِ مطالباته فالوزنُ يومئذٍ الحقُّ .

والرزقُ بغير حسابٍ فى أرزاق الأرواح ، فأمَّا أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ معدودةٌ ؛ لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهى وجودُ أفضالٍ وفنونُ نوالٍ . وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أن يأتىَ عليه العَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجلال فذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً ، ووَجَدَ اللهَ عِندَه فوفَّاه حِسَابَه ، واللهُ سريعُ الحسابِ ﴾

وقال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يُحْسِنُون صنعاً »[2] ، وقال : « وَيَحْسَبُونَ أنهم على شىء »[3] . ومَنْ أَمَّلَ السرابَ شراباً فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعلمَ أنَّه كان تخييلاً ؛ فالعَطَشُ يزداد ، والروح تدعو للخروج .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كظُلُماتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يغشاه

---

(١) ربما يقصد القشيرى من هذه العبارة أولئك الذين يعبدون الله لذاته دون حساب فى العلاقة لثواب أو عقاب ، ويتأيد ذلك بقوله فى العبارة التالية (ومن هو فى أسر مطالباته . .) أى من ابتغى العوض ؛ لأنه يكون على حد تعبير رابعة كالأجير السوء .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) آية ١٨ سورة المجادلة .

موجٌ مِن فوقِهِ موجٌ مِن فوقِهِ
سَحَابٌ ، ظُلُماتٌ بعضُها فوق
بَعْض إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ
يراها ومَن لَمْ يجعلِ اللهُ له نوراً
فما لَهُ مِن نورٍ ﴾

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفرقة ، وليالى الجُحْدِ ، وحنادسُ الشَّكِّ إذا اجتمعت فلا سِراجَ لصاحبِها ولا نجوم ، ولا أقمارَ ولا شموسَ .. فالويلُ ثم الويل !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لعبدٍ نورُ القسمة ، ولم يساعده تَعَلُّقٌ فجهدُه وكدُّه ، وسَعْيُه وجِدُّه عقيمٌ من ثمراته ، موئِسٌ من نَيْلِ بركاته . والبدايات غالبةٌ للنهايات ؛ فالقبولُ لأهْلِهِ غيرُ مُجْتَلَبٍ ، والردُّ لأهله غير مكْتَسَبٍ . وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة فى عِلْمِهِ فى آزاله ، وأراد كونَ ما عَلِمَ من أفعاله يكون ، وأخبر أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلِمَ[1] .

وهكذا القول فى الشقاوة ؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ ، ولا تتوجَّهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له مَن
فى السمٰواتِ والأرضِ ، والطيرُ
صافَّاتٍ كُلٌّ قد عَلِمَ صلاتَهُ وتسبيحَه
واللهُ عليمٌ بما يفعلون ﴾

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالة وخَلْق ؛ فتسبيحُ الخَلْقِ عام من كل مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحٌ خاصٌّ بالحيوانات ، وتسبيحٌ خاصٌّ بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير بصيرة ؛ فالذى قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذى تجرَّدَ عن العرفان مردود .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ
وإلى اللهِ المصيرُ ﴾

---

(١) هذا شرح جميل لفكرة القشيرى عن : « الله خالق أفعال العباد » التى هى إحدى أصول عقيدته الكلامية .

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك ، والملك القدرة على الإيجاد ؛ فالمقدورات — قَبْلَ وجودِها — للخالق مملوكة ، كذلك فى أحوال حدوثِها بعد عَدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه ، فَمُلْكُه لا يحدث ولا يزول ولا يَئُولُ شىء منه إلى البطول .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً ثم يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثم يجعله رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرج مِنْ خِلالِهِ ويُنَزِّلُ مِنَ السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيُصِيب به مَن يشاء ويَصْرِفُهُ عن يشاء يكاد سَنَا بَرْقِهِ يذهب بالأبصارِ * يُقَلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ إنَّ فى ذلك لَعِبْرَةً لأولى الأبصار ﴾ .

تعرَّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنْعِهِ فى بديع حكمته ، وبما يدل منها على كمال قدرته ، وشمول علمه وحكمته ، ونفوذ إرادته ومشيئته . فَمَنْ أنعم النظرَ وَصَلَ إلى بَرَدِ اليقين ، ومَنْ أعرض بقى فى وَهْدَةِ الجحْدِ وظلمات الجهل .

ترتفع بقدرته بخاراتُ البحرِ ، وتصعد بتسييره[1] وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ، ثم يُديرها إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر قطرةً قطرةً ؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْبٍ فيقلبه عَذْباً ، ويُسِيحُهُ السحابُ سَكْباً ، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً ، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُنْسَكُ أو يُنَزَّلُ ، ولا بالحيلةِ يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذى لا يُمْطِره[2] .

« يُقَلِّب اللهُ الليلَ والنهارَ » : وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار . . ذلك تقدير العزيز العليم .

---

(١) وربما كانت فى الأصل (بتيسيره) وكلاهما مقبول فى السياق .
(٢) نفى الجهد والحيلة من أمارات الاعتماد على التقدير وإسقاط التدبير

قوله جل ذكره : ﴿ واللهُ خلَقَ كُلَّ دابةٍ من ماءٍ فمنهم مَّن يمشى على بَطْنِه ومنهم من يمشى على رِجْلين ومنهم من يمشى على أربع يَخْلُقُ اللهُ ما يشاء إنَّ الله على كلِّ شىء قدير ﴾ .

يريد خلقَ كُلِّ حيوانٍ من ماء ، يخرج من صُلْب الأب وتريبة[1] الأمّ . ثم أجزاء الماء متساويةٌ مماثِلةٌ ، ثم ينقسم إلى جوارح فى الظاهر وجوارح فى الباطن ، فيختصُّ كلُّ عضو وينفرد كل شِلْوٍ[2] بنوع من الهيئة والصورة ، وضَرْبٍ من الشكلِ والبِنْيَةِ . ثم اختلاف هيئات الحيوانات فى الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ، ثم فى القامة والمنظر ، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجِلْدٍ وعَظْمٍ وسِنٍّ ومخٍّ وعَصب وعِرْقٍ وشَعْرٍ .

فالنظرُ فى هذا — مع العبرة به — يوجِبُ سجودَ البصيرةَ وقوة التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أنْزَلْنَا آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ واللهُ يهدى مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾

الآيات بَيِّنَةٌ ولكنَّ اللهَ يهدى إليها قوماً ويُلَبِّس على آخرين ، والذى سُدَّ بَصَرُه أنَّى ينفعه طلوعُ الشمسِ والنجوم ؟ وكذلك الذى سُدَّت بصيرته أنَّى تنفعه شواهدُ العلوم ودلائلُ الفهوم ؟ وقالوا فى معناه :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته ... اذا استَوَتْ عِنْدَه الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون آمَنَّا بالله وبالرسولِ وأطعنَا ثم يَتَوَلَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

---

(١) وردت (تربة) والصواب أن تكون (تريبة) الأم وهى عظمة الصدر مما يلى الترقوتين والجمع تراثب .

(٢) الشلو = العضو .

يستسلمون فى الظاهر ويُقِرُّون باللسان ، ، ثم المخلص يبقى على صدقه .

والذى قال لخوفِ سيفِ المسلمين ، أو لِغَرَضٍ له آخر فاسد يتولّى بعد ذلك ، وينحاز إلى جانب الكَفَرَة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكُمَ بينهم إذا فَرِيقٌ منهم مُعْرِضون ﴾

علموا أن افتضاحهم فى حكم نيتهم ، فمن عَلِم أنه قاسط فى خصومته لم يَطِبْ نَفْساً بحُكْمِهِ . وكذلك المريبُ يَهْرَبُ من الحقّ ، ويجتهد فى الفرار[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يَكُن لهم الحقُّ يَأْتُوا إليه مُذْعِنِين ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حُكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذى يميل بين الصحة والسقم ؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نَفْيٌ بالقطع ولا إثباتٌ بالعلم ، فهم منطوٍّحون فى أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أفى قلوبهم مَرَضٌ أم ارتابوا أم يخافون أن يحيفَ اللهُ عليهم ورسولُه بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

فلمّا انخرطوا فى سلك التجويز ما حصلوا إلا فى ظُلَمِ الشك ، ولما لم يكن لهم يقينٌ فى القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكُمَ بينهم أن يقولوا سمعنا وأطَعْنا وأولئك هم المُفْلِحون ﴾ .

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٢١ ان هذه الآية نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض ، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمدا يحيف علينا . . . إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةٌ بحكم التصديق شأنُهم قيامُهم بإظهار ماضمنوه من التحقيق . ومنْ يُقَابِلْ أمرَ الله بالطاعة ، ويستقبلْ حُكمه بالاستخذاء .. فأولئك هم الصادقون فى الحقيقة ، السالكون فى الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِنْ أمرتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طاعةٌ معروفةٌ إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون ﴾ .

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج فى المستقبل ، فقال : لا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به ؛ فطاعةٌ فى الوقت أَوْلى من تسويفٍ بالوعد .

ثم قال : قُلْ يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .. فإن أجابوا سَعِدُوا فى الدارين ، وأحسنوا إلى أنفسهم . وإنْ تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أَضَرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم فى المستقبل عليهم ، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم ، وليس على الرُسلِ إلا حُسْنُ البلاغ . ويومَ الحشرِ يُعْطَى كُلُّ أحدٍ كتابَه ، ويُعَامَلُ بمقتضى حساب نَفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الأرضِ كما استخلَفَ الذين من قَبْلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم ولَيُبَدِّلَنَّهُم منْ بعدِ خَوْفِهم أمْناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومَن كَفَرَ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وَعْدُ الله حقٌّ وكلامُه صدقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه — بالإجماع —

لم يتقدمهم فى الفضيلة — إلى يومنا — أحدٌ [1] ؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم ، وصدَق وعدُ الله فيهم ، وهم على الدين المرضىّ من قِبلِ الله ، ولقد أمِنُوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبِّ عن حوزة الإسلام أحسنَ قيام .

وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلَّة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده، الهادون مَنْ يسترشِدُ فى الله ؛ إذ الخلَلُ فى أمر المسلمين من الولاةِ الظَّلَمَة ضَرَرُه مقصورٌ على مايتعلَّق بأحكام الدنيا ، فأما حفَّاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قومٌ هم حفَّاظُ أخبار الرسول عليه السلام وحفَّاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزَنَةِ ، وقوم هم علماء الأصولِ الرادُّون على أهلِ العِناد وأصحابِ البِدَع بواضح الأدلة ، وهم بطارِقَةُ الإسلام وشجعانُه .

وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم فى علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدِّيَات ، وما فى معانى الأَيْمانِ والنذور والدعاوى ، وفصل الحُكم فى المنازعات وهم فى الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى المُلْك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم فى الدِّين كخواصِّ الملِك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالدين معمورٌ بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَحسبَنَّ الذين كفروا مُعْجِزين فى الأرضِ ومأواهم النارُ ولَبِئْسَ المصيرُ ﴾ .

إنَّ الباطلَ قد تكون له دولةٌ ولكنها تخييل — وما لذلك بقاء — وأقلُّ لُبْثاً من عارضٍ ينشأ عن الغيظ .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لِيَستأذِنكم الذين مَلَكتْ أيمانُكم والذين لم

---

(١) فى م بعدها (وما يعدم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الحُلُم منكم ثلاثَ مراتٍ من
قبل صلاة الفجر ...﴾ (١)

ضيَّق الأمر من وجهٍ ووسَّعَه من وجهٍ ، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحُرُم ، والتحرر من مخاوف الفتنة ، وإذا كانت الجوانبُ محروسةً صارت المخاوفُ مأمونة.

قوله جل ذكره : ﴿ والقواعِدُ من النساء اللاتى لا يرجون
نِكاحا فليس عليهن جُنَاحٌ أن
يَضَعْنَ ثيابَهن غيرَ متبرجاتٍ بزينةٍ
وأن يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لهُنَّ والله
سميعٌ عليم ﴾ .

يحدث تأثيرٌ بالمضَرّة لبناتِ الصدور من دواعى الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة ؛ فإذا سَكنَتْ تلك الثائرة سَهُل البابُ ، وأُبيحت الرُّخَصُ وأُمِنَتْ الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الأعمى حرَجٌ ولا على
الأعرجِ حرَج ولا على المريضِ
حرَج ولا على أنفُسِكم أن تأكلوا
مِنْ بيوتِكم أو بيوتِ آبائِكم ﴾.

إذا جاءت الأعذارُ سهُلَ الامتحانُ والاختيارُ ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة ، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية ؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة فى الارتفاق .

---

(١) ذكر ابن عباس أن الرسول (ص) وجَّه غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال : يا رسول الله : وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية .
وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد حين دخل عليها غلام كبير فى وقت كرهته فشكت إلى رسول الله . فأنزل الله هذه الآية .

(٢) بنات الصدور تعبير بالكناية عن الأسرار والخواطر .

ثم قال : « أو صديقكم » : وعزيزٌ منْ يصدُقُ فى الصداقة ؛ فيكون فى الباطن كما يُرَى فى الظاهر ، ولا يكون فى الوجه كالمرآة ومِنْ ورائِك كالمقْراض ، وفى معناه ماقلت :

مَنْ لى بمن يثق الفؤاد بودِّه ... فإذا تَرحَّلَ لم يزغ عن عهده
يا بؤس نفسى من أخٍ لى باذل ... حسنَ الوفاء بوعده لا نَقْدِه
يُولِى الصفاء بنُطْقِه لا خُلقه ... ويدسُّ صاباً فى حلاوة شَهْده
فلسانُه يبدى جواهر عقده ... وجَنانه تغلى مراجلُ حقده
لا هُمَّ إنى لا أطيق مِراسَه ... بك أستعيذ من الحسود وكيده

(وقوله : « أوصديقكم » مَنْ تُؤْمَنُ منه هذه الخصال وأمثالها)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا دَخَلْتُم بيوتاً فَسَلِّمُوا على أنفُسِكم تحيةً مِنْ عِندِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلكم تَعْقِلُون ﴾

السلامُ الأمانُ ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللهِ على نَفْسِه ؛ أى يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسلمَ نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله ، إذ لا يحل لمُسلِمٍ أنْ يفْتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه — سبحانه — ظِلَّ عِصْمَتِه؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ فى الشرع[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسولِه وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذِنُوه إن الذين يستأذِنُونك أولئك الذين يؤمنون باللهِ ورسولِه ، فإذا استأذنوك

---

(١) ما بين القوسين موجود فى س وغير موجود فى م .
(٢) فى هذه الإشارة غمز بأصحاب البدع الذين يرتكبون ما يخالف الشرع بدعوى الوله والانمحاء

لِبَعْضِ شأنِهم فأذَنْ لِمَن شِئْتَ
منهم واستَغْفِرْ لهم اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ
رحيم ﴾

شرطُ الاتباع موافقةُ المتبوعِ ، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى »[1] والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء ، والمريدون لشيوخهم كالأُمَّةِ لنبيِّهم ؛ فَشَرْطُ المريدِ ألا يَتَنَفَّسَ بِنَفَسٍ إلا بإذن شيخه ، ومَنْ خالَفَ شيخَه فى نَفَسٍ — سِرّاً أو جَهْراً — فإنه يرى غِبَّه سريعاً فى غير ما يُحِبُّ . ومخالفةُ الشيوخِ فيما يستسرونه[2] عنهم أشدُّ مِمَّا يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالخيانة . ومَنْ خالَفَ شيخَه لا يَشُمُّ رائحةَ الصِّدقِ ، فإن بَدَرَ منه شىء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذارِ والإفصاحِ عمَّا حَصَلَ منه من المخالفة والخيانة ، لِيَهْدِيَه شيخُه إلى ما فيه كفَّارةُ جُرْمِه ، ويلتزم فى الغرامة بما يحكم به عليه . وإذا رجع المريدُ إلى شيخه بالصدق وَجَبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهمته ؛ فإن المريدين عِيالٌ على الشيوخ ؛ فُرِضَ عليهم أن يُنْفِقُوا عليهم من قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرسولِ بَيْنَكم
كَدُعاءِ بعضِكم بَعْضاً قد يَعْلَمُ اللهُ
الذين يَتَسَلَّلُون منكم لِوَاذاً ﴾

أى عَظِّموه فى الخطاب ، واحفظوا فى خدمته الأدبَ ، وعانِقوا طاعتَه على مراعاةِ الهيبة والتوقير .

قوله جل ذكره : ﴿ فليحذَرِ الذين يُخالِفون عن أمْرِه[3]
أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم
عذابٌ أليم ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الحشر .

(٢) فى ص (يستبشرونه) وفى م (يستترونه) ونحن نؤيد هذه حتى تتلاءم مع (ما يظهر بالجهر) فينتظم السياق بها .

(٣) يقال خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

سعادة الدارين فى متابعة السُّنَّة ، وشقاوة المنزلين فى مخالفة السُّنَّة . ومِنْ أيْسَرِ ما يُصيب مَنْ خالَفَ سُنَّته حرمانُ الموافقة ، وتَعَذُّرُ المتابعة بعده ، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ ألا إنَّ للهِ ما فى السمٰوات والأرضِ قد يَعْلَمُ ما أنتم عليه ويومَ يُرْجَعُون[1] إليه فيُنَبِّئُهم بما عَمِلُوا واللهُ بكلِّ شىء عليم ﴾[2]

إنَّ لليوم غداً ، ولِمَا يفعلُ العبدُ حساباً ، وسيُطالَبُ المكلَّفُ بالصغيرِ والكبير ، والنقير والقطمير .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله اسم جليل شهدت بجلالهأفعالُه ، ونَطَقَتْ بجماله أفضالُه . دَلَّتْ على إثباتِه آياتُه ، وأخْبَرَتْ عن صفاتِه مفعولاتُه .

بسم الله اسم عزيز عُرِفَتْ بفعله قدرتُه ، اسم كريم شَهِدَتْ بفضله نصرته .

بسم الله اسم عزيز عَرَّفَه العقلاء بدلالات أفعاله ، وعَرَّفَه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله ؛ فبلطف جماله عرفوا جودَه ، وبكشف جلاله عرفوا وجودَه .

بسم الله اسم عزيز مَنْ دعاه لبَّاه ، ومَنْ توكل عليه كَفاه ، ومَنْ تَوَسَّلَ إليه أكرمه وآواه ، ومن تَنَصَّلَ إليه[3] رَحِمَه وأدناه ، ومن شكا إليه أشكاه[4] ، ومن سأله خوَّله وأعطاه .

---

(١) وفى قراءة (يَرجعون) بفتح الياء وكسر الجيم .

(٢) يروى أن ابن عباس رضى الله عنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت

(٣) تنصل إليه هنا معناها تبرأ من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أى قبلَ الشكاة وأعان الشاكى .

قوله جل ذكره : ﴿ تبارك الذى نَزَّلَ الفُرقانَ على عَبْدِه
ليكونَ للعالمين نذيراً ﴾

يقال بَرَكَ الطيرُ على الماء إذا دام وقوفُه على ظهر الماء . ومَبارِكُ الإبلِ مَواضِعُ إقامتها بالليل . وتبارك على وزن تَفاعَل تفيد دوامَ بقائه ، واستحقاقه لِقِدَمِ ثبوته وبقاء وجوده لا عن استفتاحٍ ولا إلى انقطاع .

وفى التفاسير « تبارك » أى تعظَّمَ وتكبَّر . وعند قومٍ أنه من البركة وهى الزيادة والنفع ، فدوامه وجودُه ، وتكبره مستحقاق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير إلى فَضْله وإحسانه ولُطْفِه .

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقِّه ، وثناء بذكر وصفه وعِزِّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ فكلمةُ « تبارك » مجمعُ الثناء عليه — سبحانه .

« الذى نزَّل الفرقان » وهو القرآن « على عبده » : فأكرمه بأن نَبَّاه وفَضَّلَه ، وإلى الخَلْق أرسله ، وبَيَّنَ مُعْجِزَتَه وأمارةَ صِدْقه بالقرآن الذى عليه أنزله ، وجعله بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ﴾

تَفَرَّدَ بالمُلْكِ فلا شريكَ يساهمه ، وتَوَحَّدَ بالجلالِ فلا نظيرَ يُقاسِمُه ؛ فهو الواحد بلا قسيمٍ فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاتِه ، ولا شبيهٍ فى حَقِّه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واتخذوا من دونه آلِهَةً لا يخلقون
شيئاً وهم يُخْلَقون ولا يَمْلِكُون
لأنفسِهم ضَرّاً ولا نَفْعاً ولا يَمْلِكون
موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾

اتخذوا من دون اللهِ آلهةً لا يملكون قطميراً ، ولا يخلقون نقيراً ، ولا يدفعون عنهم

كثيراً ولا يسيراً ، ولا ينفعونهم ولا يُسهِّلُون عليهم عسيراً ، ولا يملكون لأحدٍ موتاً[1] ولا نُشوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاَّ إفْكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظُلْماً وزوراً * وقالوا أساطيرُ الأولين اكْتَتَبَها فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلاً * قُلْ أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السمٰواتِ والأرضِ إنَّه كان غفوراً رحيماً ﴾

ظنُّوه كما كانوا ، ولمَّا كانوا بأمثالِهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورِهم ، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا — فقد قالوا من غير حُجَّةٍ وتَقَوَّلُوا ، ولم يكن لقولهم تحصيل ، ولأساطيرُ الأولين تُرَّهاتُهم[2] التى لا يُدْرَى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت ومتى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتابَ — الذى أنزله الذى يعلم السِّرَّ فى السمٰوات والأرض — لا يَقْدِر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا[3] من الوقت الذى أتى به أعداء الدينِ ، وهم على كثرتهم مجتهدون فى معارضته بما يوجب مساواته ؛ فادَّعوا تكذيبه . وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمار ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله ، فانتفى الرَّيْبُ عن صِدْقِه ، ووَجَبَ الإقرارُ بحقِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا ما لِهَذا الرسولِ يأكلُ الطَّعامَ

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (حياة ولا نشورا) والمعنى يتقبلهما أيضاً .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (برهانهم الذى ...) ولكننا آثرنا (ترهاتهم) بدليل التأنيث فى (كانت) مكرراً .
(٣) هكذا فى ص وهى فى س (ولو تسا عدوا) .

ويَمْشِي فى الأسواقِ لولا أُنْزِلَ إليه
مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلْقَى
إليه كنزٌ أو تكونُ لَهُ جَنَّةٌ
يأكلُ منها وقال الظالمون إن
تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً *
انظُرْ كيف ضربوا لَكَ الأمثالَ
فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُون سبيلاً *
تَبَارَكَ(١) الذى إن شاء جَعَلَ لَكَ
خيراً من ذلك جناتٍ تجرى من
تحتها الأنهارُ ويجعل لَكَ قُصُوراً ﴾

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم يمشى فى الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلاَّ نُزِّلَ عليه الملائكةُ فيُرَوْنَ عياناً؟ وهلاَّ جعل له الكنوزَ فاستكثر مالاً؟ وهلاَّ خُصَّ بآياتٍ — اقترحوها — فتَقْطَعَ العُذْرَ وتُزِيلَ عنَّا إشكالا؟! وما هذا الرجلُ إلا بشرٌ تعتريه مِنْ دواعى الشهوات ما يعترى غيره! فأىُّ خصوصيةٍ له حتى تلْزَمَنَا متابَعَتُهُ ولن يُظْهِرَ لنا حجةً؟ فأجاب الله عنهم وقال: إنَّ الحقَّ قادرٌ على تمليكك ما قالوا وأضعافَ ذلك، وفى قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضعافُ ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخير(٢) بعد ما أزيح العذرُ باظهار معجزة واحدة، واقتراح ما يَهْوَوْنَ تحكُّمٌ على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافَه لم يؤمنوا؛ لأن حُكْمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

---

(١) يذكر ابن عباس أنه لما عير المشركون محمداً (ص) بالفاقة أقبل رضوان خازن الجنة عليه وقال: يا محمد، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة فقال النبى: يا رضوان لا حاجة لى فيها، لأحب إلى أن أكون عبداً صابراً شكوراً فقال رضوان: أصبت أصابك الله. ورفع الرسول بصره فإذا منازله فوق منازل الأنبياء وغرفهم فدعا النبى: اللهم اجعل ما أردت أن تعطينى فى الدنيا ذخيرة عندك فى الشفاعة يوم القيامة.

(٢) يمكن أن تكون (التحيز) لتنسجم مع (ما اقترحوه) ومع (ما يهوون) ولكننا لا نستبعد أن تكون (التحيز) بالحاء لكثرة جدلهم حول ما ينبغى — فى تصورهم — للرسول.

﴿ بل كذَّبوا بالساعةِ وأعتَدْنَا لِمن كذَّبَ بالساعةِ سعيراً ﴾ .

فهم فى حُكم الله من جملة الكفار ، والله أعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيدَ الأبدِ . . فلا محالة يُمْتحنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلايستطيعون سبيلا » : دليلٌ على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبدُ فى الحالِ ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً ، وهم معاتبُون مُكَلَّفُون .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا رَأَتْهُم مِن مكانٍ بعيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزَفيراً ﴾ .

فوحشةُ النارِ توجد من مسافة بعيدة قبل شهودِها والامتحان بها ، ونسيمُ الجنة يوجد قبل شهودِها والدخول فيها ، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قَبْلَ المستَمتِعين بها . وكذَبَ مَنْ أحال[1] وجودها قبل كون سكانها وقطانها من المنتفعين أو المعاقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التى لا تكون إلا بموجود حيث قال :

﴿ وإذا أُلْقُوا مِنها مكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِين دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً * لَّا تَدْعُوا اليومَ ثُبُوراً واحِداً وادعوا ثُبُوراً كثيراً ﴾ .

راحةُ الجنة مقرونة بسعتها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيُضيِّق عليهم مكانَهم ، ويضيِّق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتُهم تبطل وكانوا يتخلصون

---

(١) لهذا الرأى أهميته حيث يرى كثير من المعتزلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما يوجدان فى الآخرة عند الجزاء ، وأجمع المعتزلة — بخلاف جهم وحده — أنهما لا تفنيان ولا يفنى أهلهما ، وهم فى هذا يتفقون مع الأشاعرة . أما مخالفة جهم لذلك فقد ذكرها الشهرستانى فى (الملل والنحل ج ١ ص ١١١ ط الخانجى) بدعوى أن تلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بجحيمها حركات تتناهى مع أن نصوص القرآن صريحة فى دوامهما . . والقشيرى الأشعرى يصرح بذلك فى الآيات التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتناهى ، ومِحَنٌ لا تنقضى ؛ كلما راموا نرجةً قيل لهم : فلن نزيدكم إلا عذاباً .

قوله جل ذكره ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خيرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ التى وُعِدَ المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾

المتقون أبداً فى النعيم المقيم ؛ حور وسرور وحبور ، ورَوْحٌ وريحان ، وبهجة وإحسان ، ولطف جديد وفضلٌ مزيد ، وألذُّ شرابٍ وكاساتُ محابٍّ ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ ، وكمال أُنْسٍ ودوام طرب وتمام جَذَلٍ ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق . والأسماء أسماء فى الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها[1]. ثم فيها ما يشاءون ، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون ، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ .

ولكن لا يخلق فى قلوبهم إلا إرادةَ ما عَلِم أنه سيفعله ، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتُهم ، ويمنع من قلوبهم مشيئتَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَحْشُرُهم وما يَعْبُدُون مِن دونِ اللهِ فيقولُ أأنتم أَضْلَلْتُمْ عِبادِى هؤلاءِ أَمْ هُمْ ضلُّوا السبيل ﴾.

اللهُ يحشرُ الكفارَ ويحشر الأصنامَ التى عبدوها من دون الله ، فَيُحْيِيها ويقول لها : هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ فيتبرأون . كلُّه تهويلٌ وتعظيمٌ للشأن ، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن . فالأصنامُ تتبرأ منهم ، وتقابلهم بالتكذيب ، وهم ينادون على أنفسِهم بالخطأِ والضلالِ ، فيُلْقَوْن فى النار ، ويَبْقَوْنَ فى الوعيد إلى الأبد .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إلا إنَّهم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُون فى الأسواقِ ﴾ :

---

(١) هذا تنبيه هام جداً لتوضيح حقيقة النعم التى فى الآخرة .

أخبر أن الذين تقدّموه من الرسل كانوا بشراً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهورَ المعجزات عليهم . وفى الجملة الفضائل بالمعانى لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بعضكم لِبَعْضٍ فِتْنَةً أتصبرون وكان ربك بصيراً » .

(فضّلَ بعضاً على بعض ، وأمر المفضولَ بالصبر والرضاء ، والفاضلَ بالشكر على العطاء)[1] وخصّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصّ قوماً بالموافى ، وآخرين بالأسقام والآلام ، فلا لِمَن نَمَّهَ مناقب ، ولا لِمَنْ امتحنه مصايب . . فبحُكمِهِ لا بِجُرْمِهم ، وبفضله لا بفعلهم ، وبإرادته لا بعبادتهم ، وباختياره لا بأوضارهم ، وبأقداره لا بأوزارهم ، وبه لا بهم .

قوله : « أتصبرون ؟ » استفهام فى معنى الأمر ، فمَنْ ساعدَه التوفيقُ صبر وشكر ، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين لا يَرْجُون لقاءنا لولا أُنْزِل علينا الملائكةُ أوْ نَرَى ربَّنا لقد استكبروا فى أنفُسِهم وعَتَوْ عُتُوًّا كبيراً ﴾ .

« لا يرجون لقاءنا » : لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله فى القيامة من الدنيا . وكما كانوا لا يخافون العذابَ ، ولا ينتظرون الحَشْرَ كذلك كانوا لا يُؤمِنون لقاء الله . فَمُنْكِرُ الرؤيةِ من أهل القِبْلَةِ — ممن يؤمِن بالقيامة والحشرِ — مُشَارِكٌ لهؤلاء فى جُحْدِ ما وَرَدَ به الخبرُ والنقلُ ، لأن النقْلَ كما وَرَدَ بكوْنِ الحَشْرِ وَرَدَ بكون الرؤية لأهل الإيمان[2] . فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول

---

(١) ما بين القوسين فى م وغير موجود فى س .

(٢) يعود القشيرى بعد قليل إلى شرح موضوع الرؤية عند تفسيره الآية : « وكفى بربك هاديا ونصيراً »

الملائكة عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان فى القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ لا بُشْرَىٰ يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾ .

اقترحوا شيئين : رؤيةَ الملائكةِ ورؤيةَ اللهِ ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفىّ ، ولكن تقول الملائكةُ لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حجراً محجوراً » : أى حراماً ممنوعاً يعنى رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحَمْلُه على ذلك أَوْلى من حَمْلِه على الجنة ، ولم يجرِ لها هنا ذِكْرٌ . ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة »[1] فكما لا تكون للكفار بشارةٌ بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤيةُ للكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَدِمنا إلى ما عمِلوا مِنْ عَمَلٍ فجعَلْناه هَبَاءً منثوراً ﴾ .

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سعيُهم وخاب جُهْدُهم ، وضاع عمرُهم وخَسِرَتْ صفقتُهم وانقطع رجاؤهم ، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمالُ رَوْحِهم ، وتتأدّى إلى قلوبهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحُهم ؛ ويتقاصر عن ثنائه نُطْقُهم ، حيث يسمعون قوله : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحقُّ لأجله : « وقدمنا إلى . . . » فَهُمْ إذا سمعوا ذلك وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله : « فجعلناه هباء منثوراً » ويقولون : ياليت

---

(١) آية ٣٠ سورة فصلت .

لنـا أعمال أهل الدارين ثم لاتُقْبَلُ منهـا ذرةٌ وهو يقول بسببها : وقدمنا إلى ماعملوا من عمل . . . » ؛ لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدُّوا ذلك من أجلِّ ماينالون من الاحسان إليهم[1] ، وفى معناه أنشدوا :

سأرجع من حجٍّ عامِيَ مُخْجَلاً لأنَّ الذى قد كان لا يُتَقَبَّلُ[2]

قوله جل ذكره : ﴿ أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً ﴾ .

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، والمُكتفون بوجدانها ، فحسُنَتْ لهم أوطانُهم ، وطابَ لهم مَستَقَرُّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ تَشَقَّقُ السماء بالغمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾ .

يريد يومَ القيامة إذا بَدَتْ أهوالُها ، وظَهَرت للمبعوثين أحوالُها عَمِلوا وتحققوا — ذلك اليومَ — أنَّ المُلْكَ للرحمن ، ولم يتخصص ملكُه بذلك اليوم ، وإنما علْمُهم ويقينُهم حَصَلَ لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعى الأغيار ، وتنتفى أوهامُ الخلْق فلا يتجدَّدُ له — سبحانه — وصف ولكن تتلاشى للخلْق أوصاف ، وذلك يومٌ على الكافرين عسير ، ودليلُ الخطابِ يقتضى أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرقُ ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاَّ وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْهِ[3]

---

(١) هذه إشارة دقيقة غاية الدقة ، نأمل أن يفطن إليها القارىء ويستمتع بها .

(٢) معنى البيت مرتبط بالفكرة الصوفية أن عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله معقود على الفضل الإلهى ، فكلما استصغر العابد عبادته بجانب هذا الفضل شعر بقصوره وارتقى فى التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة . . وفى هذا تقول رابعة بعد عبادة ليلة كاملة : إن استغفارنا فى حاجة إلى استغفار .

(٣) قيل نزلت هذه الآية فى أبى بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد فى مبارزة ، وقيل نزلت فى عقبة بن أبى معيط وكان محالفاً لأبىّ .

يقول ياليتنى اتخذتُ مع الرسولِ سبيلاً * يا وَيْلَتَا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ .

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يقتضى سرورَ المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم فى الله ، وأمَّا الكافر فيُضِلُّ صاحبَه فيقع معه فى الثبور ، ولكن المؤمن يهدى صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الرسولُ يارب إنَّ قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنةُ المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام — أنه قال : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » فمَنْ شكا من الله فهو جاحد ، ومن شكا إلى الله فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخْلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلَّطَ عليه عَدُوًّا فى وقته ، إلا أنَّه لم يغادِرْ من أعدائِهم أحداً ، وأذاقهم وبالَ ما استوجبوه على كفرهم وغَيِّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وكفى بربِّكَ هادياً ونصيراً ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ماورد فى الخبر : أن كل أمة ترى فى القيامة الصنم الذى عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار ، فيُلْقَوْن فيها ويبقى المؤمنون ، فيقال لهم : ماوقفكم ؟ فيقولون : إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نرَ معبودنا ! فيقال لهم : ولو رأيتموه . . فهل تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : بِمَ تعرفونه ؟

فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً فى صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم فيقولون : معاذ الله . . نعوذ بالله منك ! ماعبدناك . فيتجلَّى الحقُّ لهم فيَسجدون له .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزِّلَ عليه القرآن جُملةً واحدة كذلك لِنثبِّتَ به فؤادَك ورَتَّلْناه ترتيلاً ﴾ .

أى إنما أنزلناه متفرقاً ليسهُل عليك حِفْظُه ؛ فإنه كان أمياً لايقرأ الكتب ، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه فى كل وقت وكل حين . . وكثرةُ نزوله كانت أوجبَ لسكون قلبه وكمال رَوْحه ودوام أُنْسه[1] ، فجبريل كان يأتى فى كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة ، وذلك أبلغُ فى كونه معجزةً ، وأبعدُ عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلا[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يأتونَك بِمَثَلٍ إلا جِئْناكَ بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً ﴾ .

كان الجوابُ لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحما ، ولفساد مايقولونه موضحاً ، ولكن الحقَّ — سبحانه — أجرى السُّنَّة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شِفاءً وبصيرةً ، ولهم إلا عَمًى وشبهة .

ثم أخبر عن حالهم فى مآلهم فقال :

﴿ الذين يُحْشَرُون على وُجوهِهم إلى جَهَنَّمَ أولئك شَرٌّ مكاناً وأضَلُّ سبيلاً ﴾

يحشرون على وجوههم وذلك أمارة لإهانتهم ، وإن فى الخبر : « الذين أمْشاهم اليومَ

---

(١) لأنه كتاب يحمله رسول الحبيب من الحبيب إلى الحبيب .

(٢) أى أن اتصال القرآن الكريم بحياة الناس وواقع أمورهم آية كونه معجزة ؛ بعكس ما يتخرص به المضللون الملحدون الذين يدعون أن محمداً كاتب هذا القرآن ، وأنه أُوتى ذكاء خارقا كان يجعله يكتب للناس ما يلبى احتياجهم ويحل مشاكلهم . . خرست ألسنتهم إن يقولون إلا زوراً .

على أقدامهم يُمشيهم غداً على وجوههم »[1] ، وهو على ذلك قادر ، وذلك منه غير مستحيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ
وجعلنا مَعَه أخاه هارونَ وزيراً ﴾

قَلَّما يجرى فى القرآن لنبينا — صلى الله عليه وسلم — ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عُقَيْبَه موسى عليه السلام . وتكررت قصته فى القرآن فى غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير فى الذكر يوجب التفصيل فى الوصف ؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت فى باب البلاغة أتمَّ لا سيما إذا كانت فى كل مرة فائدةٌ زائدة[2] .

ثم بيَّن أنه قال لهما :

﴿ فقلنا اذْهَبا إلى القَوْمِ الذين
كَذَّبُوا بآياتِنا فدَمَّرْناهم تدميراً ﴾

أى فَذَهَبا فَجَحَدَ القومُ فدمرناهم تدميراً[3] أى أهلكناهم إهلاكاً ، وفى ذلك تسليةٌ للنبى — صلى الله عليه وسلم — فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووَعْدٌ له بالجميل فى أنه سَيُهْلِكُ أعداءه كُلَّهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وقومَ نوحٍ لَمَّا كَذَّبوا الرُّسُل
أغرقناهم وجعلناهم للناسِ آيةً
وأعْتَدْنا للظالمين عَذاباً أليماً ﴾

أَحْلَلْنا بهم العقوبة كما أحللنا بأمثالهم ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم . ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرَّسِّ ، ومَنْ ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك

---

(١) القسم الأول من الخبر على النحو التالى : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم » قيل يا رسول الله : كيف يمشون على وجوههم فقال عليه السلام : الذين أمشاهم . . . .

(٢) يضاف هذا إلى ما سبق أن نبهنا إليه عن موقف القشيرى من التكرار .

(٣) يلفت القشيرى نظرنا إلى ما يعرف فى البلاغة بإيجاز الحذف، فقد اكتفى بذكر أول القصة وآخرها وقد أحسن القشيرى حين وطأ لذلك بكلام فى القصة الواحدة التى تعاد أكثر من مرة .

به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث . . . كل ذلك تطييباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً لِسرِّه ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديه ، ويدمِّر مَنْ يناويه ، وقد فَعَلَ من ذلك الكثير فى حال حياته ، والباقى بعد مُضِيِّه — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رَآوْكَ إن يَتَّخِذُونَكَ إلا هُزُواً أهـذا الذى بَعَثَ اللهُ رسولاً . . . ﴾

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته ، فإذا أخبر اللهُ وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أَوْجَبَ للسَّلْوَةِ وأقربَ من الأُنْس ، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا فى أيام امتحانهم كما قال قائلُهم :

يودُّ بأن يمشى سقيما لَعَلَّها ... إذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتزُّ للمعروفِ فى طَلَبِ العلَى ... لتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بعين الازدراء والتصغيرِ لشأنه ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَه ، قال تعالى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ أرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلَهَه هواه أَفأنتَ تكون عليه وكيلاً ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْن ؛ يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُون على مقتضى ما يقع لهم . والمؤمنُ بِحُكْمِ اللهِ لا بحكم نفسه ، وبهذا يتضح الفرقان[2] بين رجل وبين رجل . والذى يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه، وملتحِقٌ بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوءِ فى هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرهم يسمعون أو يَعْقِلُون إنْ هُم إلاَّ كالأَنْعامِ بل هُمْ أَضَلُّ سبيلاً ﴾

---

(١) آية ١٩٨ سورة الأعراف

(٢) فرَّقَ بين الشيئين فرقاً وفرقانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل ما فُرِّقَ به بين الحق والباطل

كالأنعام التى ليس لها هَمٌّ إلاَّ فى أَكْلَةٍ وشَرْبَة ، ومَنْ استجلب حظوظَ نَفْسِه فكالبهائم . وإنَّ اللهَ — سبحانه — خَلَقَ الملائكةَ وعلى العقلِ جَبَلَهم ، والبهائمَ وعلى الهوَى فَطَرَهم ، وبنى آدم ورَكَّبَ فيهم الأمْرَيْن ؛ فَمَنْ غَلَبَ هواه عَقْلَه فهو شرٌّ من البهائم ، ومَنْ غَلَبَ عَقْلُه هواه فهو خير من الملائكة . . كذلك قال المشايخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى ربِّك كيف مَدَّ الظِّلَّ ولو شاء لَجَعَلَه ساكِناً ثم جَعَلْنَا الشمسَ عليه دليلاً * ثم قَبَضْنَاه إلينا قَبْضاً يسيراً ﴾

قيل نَزَلَ الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى بعض أسفاره وقت القيلولة فى ظل شجرة وكانوا خَلْقاً كثيراً فَمَدَّ اللهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعَهم وكانوا كثيرين ، فأنزل الله هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله فى ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرضَ كلَّها ظلاً ، ثم إذا طلعت الشمسُ ، وانبسط على وجه الأرض شعاعُها فكلُّ شخصٍ يُبْسَطُ له ظِلٌّ ، ولا يُصيب ذلك الموضعَ شعاعُ الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ فى الزيادة وقت الزوال . وذلك من أماراتِ قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظلِّ والضوء والفىء .

قوله : « ولو شاء لجعله ساكنا » : أى دائماً . « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ؛ أى حال ارتفاعِ الشمسِ ونُقصانِ الظِّلِّ .

ويقال : ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه ؛ فقومٌ هم فى ظل الحماية ، وآخرون فى ظل الرعاية ، وآخرون فى ظل العناية ، والفقراء فى ظل الكفاية ، والأغنياء فى ظل الراحة من الشكاية .

ظلٌّ هو ظل العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء ، والرحمة للمؤمنين ، ثم فى الدنيا لكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله للنبى صلى الله عليه وسلم : « ألم تر إلى ربك » ثم قوله : « كيف مدَّ الظِلَّ » ستراً لما كان كاشفة به أولاً ، إجراء للسُّنَّةِ

فى إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام : « لَن تَرانى» . وقال لنبينا عليه السلام : « ألم تر إلى ربك » وشتان ما هما !

ويقال أحيا قلبه بقوله : « ألم تر إلى ربك » إلى أن قال : « كيف مدَّ الظل » فجعل استقلاله بقوله : « ألم تر إلى ربك » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياه بقوله : « ألم تر إلى ربك » ثم أفناه بقوله : « كيف مَدَّ الظِلَّ » وكذا سُنَّتُه مع عباده ؛ يُرَدِّدُهم بين إفناء وإبقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً والنومَ سُباتاً[1] وجعل النهارَ نُشُوراً ﴾

جعل الليلَ وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين ؛ فأربابُ الغفلة يسكنون فى ليلهم ، والمحبون يسهرون فى ليلهم إنْ كانوا فى رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لكمال أُنْسِهم ، وإن كانوا فى ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم ، فالسَّهرُ للأحباب صِفَةٌ : إمّا لكمال السرور أو لهجوم الهموم . ويقال جعل النومَ للأحباب وقتَ التجلِّى بما لا سبيلَ إليه فى اليقظة ، فإذا رَأَوْا ربَّهم فى المنام يؤثِرون النومُ على السَّهر[2] ، قال قائلهم :

وإنى لَأستغفى ومابى نَعْسَةٌ لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وقال قائلهم :

رأيتُ سرورَ قلبى فى منامى فأحببتُ التَّنَعُّسَ والمناما

ويقال النوم لأهلِ الغفلة عقوبةٌ ولأهلِ الاجتهادِ رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ — سبحانه — يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المجاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رحمته وأَنْزَلْنا من السماءِ ماءً طَهُوراً ﴾

---

(١) السبت = القطع . والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته . وقيل السبات = الموت ، والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » ، ويعضده ذكر النشور فى مقابلته .

(٢) ذكر القشيرى فى باب « رؤيا القوم » برسالته أمثلة كثيرة للكرامات التى تحققت للأوليا، أثنا نومهم ، وكان بعضها ذا تأثير عظيم فى مجرى حيواتهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَم فتهب على قلوب ذوى الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارِّه ، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُشكْفَى بالله لله ، ويرسِلُ رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاةِ فتحملهم على النَّدَمِ ، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة ، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات ، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا تستقِرُّ إلا بالكشف والتجلِّي .

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نسيمَ القُرْبِ هَامَ فى ملكوت الجلال ، وامتحى عن كل مرسومٍ ومعهود .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ۝
لِنُحْيِيَ به بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أنعاماً وأَنَاسِيَّ كثيراً
ولقد صَرَّفْناه بينهم لِيَذَّكَّرُوا
فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً ﴾ .

أنزل من السماء ماء المطرِ فأحيا به الغياضَ والرياضَ ، وأنبت به الأزهار والأنوار ، وأنزل من السماء ماء الرحمةِ فَغسلَ العصاةُ ما تلطخوا به من الأوضار ، وما تدنَّسوا به من الأوزار .

و « الطَّهُور » هو الطاهرُ المُطَهِّرُ ، وماء الحياء يُطهِرُ قلوبَ العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها فى بعض الأحيانِ من الغفلات . وماء الرعاية يُحْيي به قلوبَ المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلِّى حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال ، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع[1] الشهواتِ فيردها إلى القيام بالعبادات .

قوله جل ذكره ﴿ ولو شِئْنا لَبَعَثْنا فى كل قريةٍ نذيراً ﴾

---

(١) الباء فى (باتباع) معناها (بسبب) .

إنَّ اللهَ — سبحانه — خصَّ نبينا صلى الله عليه وسلم بأن فضَّله على الكافة ، وأرسله إلى الجملة ، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُهُ إلى الأبد . وبهذه الآية أدَّبه بأدقِّ إشارة ، حيث قال : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً » وهذا كما قال : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك »[1] .

وقَصْدُ الحقِّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم .

وفى القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسْأَل ، فأوحى الله فى ليلة واحدة إلى ألف نبي من بنى إسرائيل فأصبحوا رُسَلاً ، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام ، فضاق قلبُ موسى وقال : يا رب ، إنى لا أطيق ذلك ! فقبض اللهُ أرواحهم فى ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تُطِعِ الكافرين وجاهِدْهُمْ به جهاداً كبيراً ﴾

أى كُنْ قائماً بحقِّنا من غيرِ أن يَكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بِمَنْ سوانا ، فإنَّا نَعْصِمُكَ بَكلِّ وجهٍ ، ولا نرفع عنكَ ظِلَّ عنايتنا بحالٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجعل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً محجوراً ﴾ .

البحر المِلْح لا عذوبة فيه ، والعَذْبُ لا ملوحة فيه ، وهما فى الجوهرية واحد ، ولكنه سبحانه — بقدرته — غايَرَ بينهما فى الصفة ، كذلك خَلَقَ القلوبَ ؛ بعضُها مَعْدِنُ اليقينِ والعرفانِ ؛ وبعضُها مَحَلُّ الشكِّ والكفران .

ويقال أثبت فى قلوب المؤمنين الخوف والرجاء ، فلا الخوف يغلب الرجاء ، ولا الرجاء يغلب الخوف .

---

(١) آية ٨٦ سورة الإسراء .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلب المؤمنِ مضيئاً (مشرقاً[1]) وقلب الكافر أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن ، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم .

ويقال قلوبُ العوام فى أَسْرِ المطالب ورغائب الحظوظ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالب ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خَلَقَ من الماءِ بشَرًا فجعله نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّكَ قديراً ﴾

الخَلْقُ متشاكلون فى أصل الخِلْقة ، متماثلون فى الجوهرية ، متباينون فى الصفة ، مختلفون فى الصورة ؛ فنفوسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة . والخَلْقُ بَشَرٌ . . ولكنْ ليس كلُّ بَشَرٍ كبشر ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يَسْعَى إلا فى مخالفته ، ولا يعيش إلا بنصيبه وحَظِّه ، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقى عن حدِّ الوقاحة والخساسة ، وواحدٌ ولىٌّ لا يَفْتُرُ عن طاعته ، ولا يَنْزِل عن هِمَّتِه ، فهو فى سماء تعززه بمعبوده .

وبينهما للناس مناهل ومشارب ؛ فواحِدٌ يكون كما قال :

﴿ ويَعْبُدُون مِن دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُم ولا يَضُرُّهم وكان الكافِرُ على ربِّه ظهيرًا ﴾

يكتفى بالمنحوتِ من الخشب ، والمصنوعِ من الصَّخْرِ ، والمُتَّخَذِ من النحاس ، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرْش — وإنْ علا ، ولا ينقاد بقلبه لمخلوقٍ — وإنْ اتصف بمناقب لا تُحْصَى

---

(١) وردت فى م ولم ترد فى ص .

قوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناكَ إلا مُبَشراً ونذيراً﴾ .

رسولاً مِنَّا ، مأموراً بالإنذار والتبشير ، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ ، غيرَ طالبٍ منهم أجراً ، وغير طامعٍ فى أنْ تَجد منهم حَظًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاَّ مَن شاء أن يتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلاً ﴾ .

« إلّا » أداة استثناء منقطع ؛ إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربِّهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم ، فهو لِمَنْ أقْبَلَ بشيرٌ ، ولِمَنْ أعرض نذير .

قوله جل ذكره : ﴿ وتَوَكَّلْ على الحيِّ الذى لا يموت ﴾ .

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله . وحقُّه وأصْلُه عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلّها حاصِلةٌ من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه .

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه — إذا عَلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله — حصل له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ فَرْضٌ ، وهو من شرائط الايمان ، فإن الله تعالى يقول : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »[1] وما زاد على هذا القَدْرِ — وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار — فهى أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقرَّرَ هذا فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكلٍّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم : إمَّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفى بما فى يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحاله القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له

---

(١) آية ٢٣ سورة المائدة .

والمطلوب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة هامة نبهنا إليها في مدخل هذا الكتاب ، وهى أن القشيرى يحاول أولا استمداد المصطلح الصوفي من كتاب الله ، (فالتوكل) الذى هو ركن هام من أركان الطريق الصوفى له أصل فى القرآن . ثم تأتى من بعد ذلك مرحلة البحث فى تطور هذا الأصل ونموه في بيئة المتصوفة .

فلايستزيد. ثم اكتفاء كلّ أحدٍ يختلف فى القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء فى التخلص من الحِرصِ وإرادة الزيادة.

ثم بعد هذا سكونُ القلب فى حالة عَدَمِ وجود الأسباب، فيكون مجرداً عن الشىء، ويكون فى إرادته متوكلا على الله. وهؤلاء متباينون فى الرتبة، فواحد يكتفى بوعدهِ لأنه صَدَّقَه فى ضمانه، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعد ربه.. ويسمى هذا توكلاً، ويقال على هذا: إن التوكل سكون القلب بضمان الربّ، أو سكون الجأش فى طلب المعاش، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد.

وألطف من هذا أن يكتفى بِعِلْمِ أنه يعلم حالَه فيشتغل بما أمره الله، ويعمل على طاعته، ولا يراعى إنجاز ما وعَدَهَ، بل يَكِلُ أمرَه إلى الله.. وهذا هو التسليم.

وفوق هذا التفويض[1]، وهو أنْ يَكِلَ أمرَه إلى الله، ولا يقترح على مولاه بحالٍ، ولا يختار، ويستوى عنده وجودُ الأسباب وعَدَمُها، فيشتغل بأداء ما ألزمه الله، ولا يفكر فى حال نَفْسِه، ويعلم أنه مملوكٌ لمولاه، والسيدُ أَوْلَى بِعَبْدِه من العبد بنفسه[2].

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً فى المَنْع، واستعذب ما يستقبله من الرَّدِّ.. وتلك هى مرتبة الرضا[3]، ويحصل له فى هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه مالا يحصل لِمَنْ دونَه من الحلاوة فى وجود المقصود.

---

(١) الواقع أن القشيرى هنا متأثر بالآراء الكثيرة التى أدلى بها الشيوخ فى هذا الموضوع، وعلى وجه الخصوص بشيخه الدقاق، الذى يقول: التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. ويقول كذلك: التوكل بداية والتسليم واسطة، والتفويض نهاية. ويقول كذلك: التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين. (الرسالة ص ٨٥).

(٢) يروى فى هذا الباب أن جماعة سألوا الجنيد: أين نطلب الرزق؟

فقال: إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه. قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك.

فقال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه. فقالوا: ندخل البيت فنتوكل؟

فقال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟

فقال: ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها).

(٣) كذلك ربط السراج فى «لمعه» بين التوكل والرضا بوصفهما مقامين متتاليين فى مقامات الطريق (اللمع ص ٧٩ من أسفل).

وبعد هذا الموافقة ، وهى ألا يجد الراحة فى المَنْع ، بل يجد بَدَلَ هذا عند نسيم القرب زوائدَ الأُنْس بنسيان كلِّ أَرَبٍ ، ونسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب ، فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرْدِ الرضا — وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً — فكذلك أهل الأُنْسِ بالله . . بنسيانِ كلِّ فَقْدٍ ووَجْدٍ ، وبالتغافل عن أحوالهم فى الوجود والعدم يعدون النزولَ إلى استلذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً فى الحال .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء . . وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فعند ذلك لا أُنْسَ ولا هيبة ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشةَ ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم[1] . فأمّا ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين — على تباين شِرْبِهم — يختلف على حسب اختلاف مجالِهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل فى المهد ، لا شئ مِنْ قِبَلِهِ إلا أن يرضعه مَنْ هو فى حضانته[2] .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من تعب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب ، ولا يقدح فى توكله[3] .

ويقال عوامّ المتوكلين إذا أُعطُوا شكروا ، وإذا مُنعُوا صبروا . وخواصُّهم إذا أُعطُوا آثروا ، وإذا مُنِعُوا شكروا .

---

(١) هذا الترتيب الذى ذكره القشيرى على جانب كبير من الأهمية لأنه أولا يكشف عن التدرج فى مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات — التى هى جهود — إلى الأحوال التى هى من عين الجود . وواضح أن (الرضا) يحمل فى طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد عالج القشيرى هذه الظاهرة فى رسالته ص ٩٧ .

(٢) القشيرى متأثر بأقوال الشيوخ فى ذلك : نحو « المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ثدى أمه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال فى حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩ .

(٣) هذه نقطة هامة جداً توضح أن التوكل الصوفى الحق لا يتعارض مع الكسب ، ولا يتعارض معه الكسب . . وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتكاسل .

ويقال الحق يجود على الأولياء — إذا توكلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأَرَبُ فمتى يكون الطلب ؟

ويقال التوكل فى الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأمّا التوكل على الله فى إصلاحه — سبحانه — أمورَ آخرةِ العبد فهذا أشدُّ غموضاً ، وأكثرُ خفاء . فالواجبُ فى الأسباب الدنيوية أن يكون السكونُ عن طلبها غالباً ، والحركةُ تكون ضرورةً . فأمّا فى أمور الآخرة وما يتعلّقُ بالطاعةِ فالواجبُ البِدارُ والجِدُّ والانكماشُ ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوحِ إلى الفشل .

والذى يَتَّصِفُ بالتوانى فى العبادات ، ويتباطؤ فى تلافى ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم والقيام بحقِّ الواجبات ، ثم يعتقد فى نفسه أنه متوكِّلٌ على الله وأنه — سبحانه — يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ ، ممكورٌ مُسْتَدْرَج ، بل يجب أن يبذل جهدَه ، ويستفرغ وسعَه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستندُ إلى سكونه وحركته ، ويتبرّأُ بِسِرِّه من حَوْلِه وقوّتِه . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغى أن يخلوَ من مخافته ، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله فى الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة فى العواقب ؛ فإن ذلك — إذا حَصَلَ — فالوقتُ غالِبٌ ، وهو أحد ماقيل فى معانى قولهم : الوقت سيف[1]

قوله جل ذكره : ﴿ الذى خَلَقَ السمٰوات والأرضَ
وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوى
على العرشِ ﴾

انتظم به الكونُ — والعرشُ من جملة الكون — ولم يتجمَّل الحقُّ — سبحانه — بشىء

---

(١) فى هذا المعنى يقول القشيرى « أى كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب ، وكما أن السيف لين مسه قاطع حده فمن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار بَرِيَّتِهِ ؛ فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته ، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمنُ
قالوا وما الرحمنُ أنسجدُ لما تأمرنا
وزادهم نفوراً ﴾ .

أقبل الحقُّ — سبحانه — بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزِه فلذلك جحدوه ؛ فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعْدِ ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصدِّ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد .

قوله جل ذكره : ﴿ تبارك الذى جَعَلَ فى السماء بروجاً
وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ .

زيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وخَلَق فيها البروجَ ، وبَثَّ فيها الكواكب ، وصان عن الفطورِ والتشويشِ أقطارَها ومناكبَها ، وأدار بقدرته أفلاكها ، وأدام على ما أراد إمساكها .

وكما أثبت فى السماء بروجاً (أثبت فى سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً)[2] ؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء (بيوتُ)[3] شمسها وقمرها ونجومها ، وبروجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شموسها ونجومها . وتلك النجوم التى هى نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم ، وقمرُ القلوبِ المعرفةُ .

---

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لآراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومسألة تنزهه عن المكانية ، أو من ناحية خلق الله ما بين السموات والأرض وهل المقصود بذلك خلق أفعال الانسان . وقد ناقش الباقلانى فى كتابه (التمهيد فى أصول الدين) كلا الأمرين ، والواقع أن القشيرى — تلميذ الباقلانى — متأثر بآراء أستاذه إلى حد كبير ، وإن كان الباقلانى أقل تأويلا للصفات الخبرية منه .

(٢) غير موجودة فى ص وموجودة فى م .

(٣) فى ص (نبوت) وفى م (بيوت) وقد رجحنا هذه لأن البرج (بيت يبنى على سور المدينة وفى أعلاها) كما جاء فى المعاجم .

قمرُ السماءِ له نقصان ومحاق ، وفى بعض الأحايين هو بَدْرٌ بوصف الكمال ، وقمر المعرفة أبداً له إشراق وليس له نقصان أو محاق ، ولذا قال قائلهم :

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لها بَدْرٌ تذلُّ له البدور

فأمّا شمسُ القلوب فهى التوحيد ، وشمسُ السماء تغرب ولكن شمسَ القلوب لا تغيب ولا تغرب ، وفى معناه قالوا :

إن شمس النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوبِ ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل ، وشمس القلوب سلطانُها فى الضوء والطلوع بالليل أتمُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أراد أن يذَّكَّر أو أراد شُكوراً ﴾ .

الأوقاتُ متجالِبةٌ ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة فى البعض أفضل والثوابُ عليها أكثر . والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليلِ ، فَمَنْ وقع له فى طاعة الليل خَلَلٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبْرَانه ، وإنْ حصل فى طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففى ذلك إتمامٌ لنقصانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وعِبادُ الرحمٰنِ الذين يمشون على الأرْضِ هَوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ .

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفِّقُوا للطاعات ، فبرحمتِه وصلوا إلى التوفيق للطاعة . وعِبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته ؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته . . هكذا بيان الحقيقة ، وبطاعتهم وصلوا إلى جَنَّتِه . . هكذا لسان الشريعة .

ومعنى « هونا » متواضعين متخاشعين

ويقال شَرْطُ التواضع وحَدُّه ألا يستَحْسِنَ شيئاً من أحواله ، حتى قالوا[1] : إذا نَظَرَ إلى رِجْلِهِ لا يستحسن شِسْعَ نَعْلِهِ ، وعلى هذا القياس لا يُساكِنُ أعمالَه ، ولا يلاحظ أحواله .

قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » : قيل سداد المنطق ؛ ويقال مَنْ خاطَبَهم بالقَدْح فهم يجاوبونه بالمدْح له .

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، الطاعنون فيهم ، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرِّفق ، وحُسْنِ الخُلُقِ ، والقولِ الحَسَنِ والكلام الطيب .

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم فى أمانٍ من المجافاة[2]

قوله جل ذكره ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾

يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا فى الخبر : « مَنْ كَثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار » أى عَظُم ماء وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياء ظاهِرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ .

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يقولون ربَّنا اصرِفْ عَنَّا
عَذَابَ جهنَّم إنَّ عذابَها كان غراماً
* إنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقاماً ﴾

يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطِبونَ بلسان التَنَصُّل[3] كما قِيل :

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

---

(١) هذا القول سمعه القشيرى من شيخه الدقاق (الرسالة ص ٧٤) .

(٢) وردت (المكافاة) والصواب أن تكون (المجافاة) بمعنى أنهم لا يقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عادام أمن من انتقامهم أو على معنى أن مجافاة الأعداء لا تصيبهم بأذى إذ ليس فى مقدور أحد أن يؤذى أولياء الله .

(٣) وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » رواه احمد عن عائشة ، والترمذى وابن أبى حاتم ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾.

الإسرافُ أن تنفق فى الهوى وفى نصيب النّفْس ، فأمّا ما كان لله فليس فيه إسراف ، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأمّا التضييقُ على النّفْس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتتعودَ الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المذموم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين لا يَدْعُون مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يقتلون النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يزنون ﴾[1]

« إلهاً آخر » : فى الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار . وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبْشارُ فكذلك توَهُّمُ المبارِّ والمضارِّ من الأغيار شِرْكٌ .

« ولا يقتلون النفس . . . » من النفوس المُحَرَّم قَتْلُها على العبد نَفْسه المسكينةُ ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم »[2] . وقَتْلُ النّفس من غير حقٍّ تمكينُك لها من اتباع مافيه هلاكُها فى الآخرة ؛ فإنَّ العبدَ إذا لم يَنْهَ مأمورٌ .

---

(١) (عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت الآية : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر . . . . إلى قوله تعالى : غفوراً رحيما » رواه مسلم عن ابراهيم بن ديناو عن حجاج . و (عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت ثم أى ؟

قال : أن تزانى حليلة جارك . فأنزل الله هذه الآية وما بعدها تصديقاً لذلك) رواه البخارى ومسلم عن عثمان بن أبى شيبة ، عن جرير .

و (عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى (ص) فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذ أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، فهل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية . . وأسلم وحشى) .

(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ الخطاب أن تقتلَها بالحقّ[1] ، وذلك بِذَبْحِهَا بسكين المخالفات ، فما فَلاحُكَ إلا بقتل نَفْسِكَ التى بين جنبيك .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَن يفعلْ ذلك يَلْقَ أثاماً ﴾ .

يضاعَفُ لهم العذابُ يومَ القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة . وآخرون يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان . بل مَنْ كان مضاعَفَ العذاب فى عقباه فهو الذى يكون مضاعَفَ العذاب فى دنياه ؛ جاء فى الخبر : مَنْ كان بحالةٍ لقى الله بها .

قوله جل ذكره : ﴿ إلَّا مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً فأولئك يُبَدِّل اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ وكان اللهُ غفوراً رحيما ﴾ .

إلا من تاب من الذنب فى الحال ؛ وآمن فى المآل .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحاً » لا ينقض توبتَه .

ويقال إنْ نقَض توبتَه عَمِلَ صالحاً أى جَدَّدَ توبتَه ؛ « فهولاء يبدِّل اللهُ سيئاتهم حسنات » . ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان[2] .

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يمحو ذِلةَ زَلاَّتِهم ، ويثبت بَدَلَها الخيراتِ والحسناتِ ، وفى معناه أنشدوا :

ولمّا رضوا بالعفو عن ذى زَلَةٍ حتى أنالوا كفَّه وأفادوا

قوله جل ذكره : ﴿ والذين لا يشهدون الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً * والذين

---

(١) تذكر كيف يفرق القشيرى بين حظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء هنا (قتل النفس إلا بالحق) أى ذبحها بسكين المجاهدات في سبيل حق الله .

(٢) واضح من هذا الرأى مدى اتساع صدور الصوفية للأمل في الأخذ بيد العصاة ، ورحمة الله — فى نظرى — أكثر رحابة من أن تضيق في وجه من عثرت أقدامه .

إذا ذُكِّرُوا بآيات ربِّهم لم يَخِرُّوا
عليها صُمًّا وعُمْيانًا ﴾ .

يستمكنون فى مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلاً . وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضين لا يساكِنون أهل تلك الحالة .

ويقال نزلت الآية فى أقوام مرُّوا — لمَّا دخلوا مكة بأبواب البيوت التى كانوا يعبدون فيها الأصنام مرةً — متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللهُ لهم ذلك .

ثم قال فى صفتهم : « والذين إذا ذكروا بآيات ربِّهم لم يخروا عليها صُمًّا وعميانا » : بل قابلوها بالتفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا مِنْ
أزواجنا وذُرِّياتِنا قُرَّةَ أعْيُن
واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ .

قرة العين مَنْ به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقِّ الله قائماً .

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً ، ولمخالفة أمره مفارقاً .

« واجعلنا للمتقين إماماً » الإمام مَنْ يُقْتَدى به ولا يَبْتَدِع .

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدَّعوا فيها اختيارهم ؛ فالإمامةُ بالدعاء لا بالدعوى ، فقالوا : « واجعلنا للمتقين إماماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بما صبروا
وَيُلَقَّوْنَ فيها تحيةً وسلاماً ﴾ .

يعطى — سبحانه — الكثيرَ من عطائه ويعده قليلاً ، ويقبل اليسيرَ من طاعة العبد ويعده كثيراً عظيماً ، يعطيهم الجنة ؛ قصوراً وحوراً ثم يقول : « أولئك يجزون الغرفة » ، ويقبل اليسيرَ من العبد فيقول : « فجاء بعجل سمين »[1] .

---

(١) آية ٢٢ سورة الذاريات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمعون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويتجلىٌ لهم ليَرَوْه من غير تكلف نقل ، ولا تحمل قطع مسافة(١)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »(٢) : اليومَ يحضر العبدُ بيتَه لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قَطعَ المسافة ، فهم على أرائكهم — فى مستقرٍّ عِزِّهم — يسمعون كلامَ الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « بما صبروا » أى صبروا عمّا نُهوا عنه ، وصبروا على الأحكام التى أجراها عليهم بِتَرْكِ اختيارهم ، وحُسْن الرضا بتقديره .

قوله جل ذكره : ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومُقاماً ﴾

مقيمين لا يبرحون منازلهم(٣) ، وفى أحوالهم حَسُنَ مستقرهم مستقراً ، وحَسُن مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل ما يَعْبَأُ بكم ربِّى لولا دعاؤكم فقد كذَّبْتُم فسوف يكونُ لِزاماً ﴾ .

لولا عبادتكم الأصنامَ ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادةِ وتسميتكم لها آلهةً . . متى كان يخلدكم فى النار ؟ .

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذْتُم فى الاستكانةِ والدعاء ، وتضرَّعتم رحِمَكم وكَشَفَ الضرَّ عنكم .

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى موضوع الرؤية فى الآخرة
(٢) آية : ٦٠ سورة الرحمن .
(٣) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى تأبيد نعم أهل الجنة .

تم المجلد الثانى ويلية المجلد الثالث

وأوله سورة الشعراء

فهـــرس

الصفحة

● سورة التوبة ٥

● سورة يونس ٧٦

● سورة هود ١٢٠

● سورة يوسف ١٦٤

● سورة الرعد ٢١٥

● سورة إبراهيم ٢٣٨

● سورة الحجر ٢٦٢

● سورة النحل ٢٨٤

● سورة بني إسرائيل ٣٣٣

● سورة الكهف ٣٧٥

● سورة مريم ٤١٨

● سورة طه ٤٤٤

● سورة الأنبياء ٤٩١

● سورة الحج ٥٢٧

● سورة المؤمنون ٥٦٦

● سورة النور ٥٩٢

● سورة الفرقان ٦٢٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٦٩ / ٢٠٠٠

I.S.B N 977 - 01 - 6599 - 9

هذا هو المجلد الثانى من (لطائف الإشارات) للإمام القشيرى رحمه الله الذى اعتمد فيه على إبراز الجانب الإلهى فى تجليه على أصفيائه من خلقه وفى ذلك يقول: «أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفىّ رموزه، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوارِ الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون». فانظر عزيزى القارئ كيف خصّ الله خلّص عباده وأصفيائه من خلقه ـ وإلى الجزء الثالث.

١٣٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثالث

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٠

التراث

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير :

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب

إهداء ٢٠٠٦ ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« طسٓ تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين »

. . . تلك دلالاتُ كَرَمِنا ، وأماراتُ فَضْلِنا ، وشواهد بِرِّنا ؛ نُبيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، ونحقق للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا . بطهارة قُدْسِي وسناء عِزِّي لا أُخيب أَمَلَ مَنْ أَمَّلَ لُطْفِي ، بوجود بِرِّي تطيب قلوبُ أوليائي ، وبشهود وجهي تغيب أسرار أصفيائي .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفي ، وسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي . هذا الكتابُ بيانٌ وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل لِمَنْ حَقَّقْنا له الإيمان ، وأكَّدنا له الضمان ، وكفلنا له الإحسان »

عبد الكريم القشيري

عند سورة النمل

السورة التي يذكر فيها
الشعـــراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتضى من الزاهد تَرْكَ دنياه ، ومِنَ العابدِ مخالفة هواه ، ومن القاصدِ قَطْعَ مُناه ، ولا يَرْضَى مِنَ العارفِ أَنْ يُساكِنَ شيئاً غيرَ مولاه . إنْ خَرَجَ عن كُلِّ مرسومٍ — بالكلية ، وانسلخ عن كل معلومٍ — مِنْ غير أن تبقى له منه بقية فلعلَّه يَجِدُ شظيَّة . وإنْ عَرَّجَ على شيء ، ولم يَصْفُ من الكدورات ـ حتى عن يسيرها ـ وإنْ دَقَّ ـ فإنه كما في الخبر : « المُكَاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه درهم » .

قوله جل ذكره : « طسم * تلك آياتُ الكتاب المبين »

ذَكَرْنا فيما مضى اختلافَ السَّلَفِ في الحروف المُقَطَّعة ؛ فعند قوم : الطاء إشارة إلى طهارة عِزِّه وتَقَدُّسِ عُلُوِّه ، والسين إشارةٌ ودلالةٌ على سناء جبروته ، والميم دلالةٌ على مَجْدِ جلاله في آزاله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ المُنتهى ، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي ارتقى محمدٌ ليلةَ الإسراء عن شهوده شجرةَ طوبى حتى بَلَغَ سدرةَ المنتهى ، فلم يُسَاكِنْ شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعُقْبَى[1] .

---

(١) أورد القشيري في كتابه « المعراج » طائفة كبيرة من الأخبار نفهم منها أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه لم يتطلع إلى شيء مما رأى من عجائب المخلوقات وعظائم النعم في تلك الليلة ، بل كان خالص القصد إلى الحق ، وبعبارة صوفية دقيقة : كان فانياً بحقوق ربه عن حظوظ نفسه ، فما زاغ البصر وما طغى . وفي ذلك يقول رويم : «لما أكرم المصطفى (ص) بأعظم الشرف في المسرى علت همته عن الالتفات إلى الآيات والكرامات ، والجنة والنار ، فما زاغ البصر ؛ أي ما أثار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقلَّ الأنهار والأودية . (المعراج ص ١١٢)

ويقول القشيري في ص ١٠٢ من الكتاب نفسه: يروى في الخبر أنه «لما ركب البراق لم يعرِّج على شيء،==

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح ، والسين سرورُ العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده[1] والميم إشارة إلى موافقتهم للهِ بِتَرْكِ التخيُّر على الله ، وحُسْنِ الرضا باختيار الحق لهم .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طيب قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لكمال العَيْشِ بمعرفة وجود الرزّاق بَدَلَ طيب قلوب العوام بوجود الأَرْفاق والأرزاق .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن مساكنة كلِّ مخلوق ، والميم إشارة إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك .

قوله جل ذكره : « لَعَلَّكَ باخِعٌ نَّفْسَك ألا يكونوا مؤمنين » .

أى لِحِرْصِكَ على إيمانِهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريبٌ مِنْ أنْ تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تَرْكِهم الإيمان .

فلا عليكَ — يا محمد — فإنه لا تبديلَ لِحُكْمِنا ؛ فَمَنْ حَكَمْنا له بالشقاوة لا يُؤْمِن . ليس عليكَ إلا البلاغ ؛ فإنْ آمنوا فبها ، وإلاَّ فَكُلُّهم[2] سَيَرَوْنَ يومَ الدِّين ما يستحقون .

قوله جل ذكره : « إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عليهم من السماء آيةً فَظَلَّت أعناقُهم لها خاضعين » .

أخبر عن قدرته على تحصيلِ مرادِه من عباده ، فهو قادرٌ على أَنْ يُؤْمِنوا كَرْهاً ؛ لأن التقاصُرَ عن تحصيل المرادِ يوجِبُ النقصَ والقصورَ فى الألوهية .

قوله جل ذكره : « وما يأتيهم مِّن ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَثٍ إلاَّ كانوا عنه معرضين » .

= كان يُنَادىَ من يمينه ومن يساره ، ثم قال له جبريل عليه السلام : الذى ناداك من يمينك داعى اليهودية ، والذى ناداك من يسارك داعى النصرانية ، ولو التفتَّ يا محمد لتهودت أو تنصرت أمتك » .

(١) استقل الشىء رآه قليلا واستقل بالشىء لم يشتغل بسواه اكتفاءً به .

(٢) السياق مقبول على هذا النحو ، ولكننا لا نستبعد أن يكون هناك سقوط تكملته « لنا » ، وعندئذ يكون السياق « فكلامهم لنا ؛ .... » .

أى ما نُجَدِّد لهم شَرْعاً ، وما نرسل لهم رسولاً . . إلا أعرضوا عن تأمل برهانه ، وقابلوه بالتكذيب . فلو أنهم أنعموا النظرَ فى آياتِ الرسل لاتضح لهم صِدْقُهم ، ولكن المقسوم لهم من الخذلان فى سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق . فقد كَذَّبوا ، وعلى تكذيبهم أَصَرُّوا ، فسوف تأتيهم عاقبةُ أعمالِهم بالعقوبة الشديدة ، فيذوقون وبالَ شِرْكهم .

قوله جل ذكره : « أو لم يَرَوْا إلى الأرضِ كم أنبتنا
فيها من كل زَوْجٍ كريم * إنَّ فى
ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين *
وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ » .

فنونُ ما ينبت فى الأرضِ وقتَ الربيع لا يأتى عليه الحَصْرُ ، ثم اختصاصُ كلِّ شىء منها بلون وطعمٍ ورائحة مخصوصة ، ولكلٍّ شكلٌ وهيئةٌ ونَوْرٌ مخصوص ، وورق مخصوص . . . إلى ما تَلْطُفُ عنه العبارة ، وتَدِق فيه الإشارة . وفى ذلك آياتٌ لِمَنْ استبصر ، ونَظَر وفَكَّرَ .

«وإن ربك لهو العزيز»: القاهرُ الذى لا يُقْهَر ، القادر الذى لا يُقْدَر ، المنيعُ الذى لا يُجْبَر. « الرحيم » : المحسنُ لعباده ، المريدُ لسعادة أوليائه .

قوله جل ذكره : « وإذ نادىٰ ربُّكَ موسىٰ أنِ ائْتِ القومَ
الظالمين * قومَ فرعونَ ألا يتقون » .

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلِمَ أنه شديد الخصومة ، قد غَرَّتْه نَفْسُه فهو لا يبالى بما فعل . وأَخَذَ (موسى)[1] يتعلَّلُ — لا على جهة الإباء والمخالفة — ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عَلِمَ أنَّ الأمرَ به جَزْمٌ ، والحُكْمَ به عليه حَتْمٌ .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إنِّى أخاف أن يُكَذِّبونِ *
ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأَرسِلْ

(١) ليست موجودة في النص وقد وضعناها بين قوسين منعاً للبس .

إلى هارون * ولهم عليّ ذنبٌ فأخاف
أن يَقْتُلونِ » .

سأل موسى — عليه السلام — أن يَشْفَعَه بهارون ويُشْرِكَه فى الرسالة . وأخبر أنه قَتَلَ نَفْساً ، وأنه فى حُكْمِ فرعون عليه دَمٌ ، فقال : « فأخاف أن يقتلون » إلى أنْ قال له الحقُّ : —

« قال كَلاَّ فاذهبا بآياتنا إنَّا معكم مستمعون » .

« كلا » حرفُ رَدْعٍ وتنبيه ؛ أى كلا أن يكون ذلك كما توهمتَ ، فارْتَدِعْ عن تجويز ذلك ، وانتَبِهْ لغيره . إنى معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة ، واليدُ ستكون لكما ، والسلطانُ سيكون لكما دونَ غيركما ، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأُبْصِرُ ما يُبْصِرُون وما تُبْصِرُون أنتم .

قوله جل ذكره : « فأْتِيَا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ ربِّ العالَمين » .

ويقال فى القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدا طريقاً إليه . ثم بعد سَنَةٍ عَرَضَا الرسالة عليه ، فقابلهما بالتكذيب ، وكان من القصة ما كان .. وقال فرعون لمَّا رأى موسى :

« قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وليداً ولَبِثْتَ فينا من عمرك سنين * وفعلتَ فَعْلَتَكَ التى فعلتَ وأنت من الكافرين »

فلم يكن لموسى — عليه السلام — جوابٌ إلا الإقرارَ والاعترافَ ، فقال :

« قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين * ففررْتُ منكم لمَّا خِفْتُكمْ فوهب لى ربى حُكْماً وجعلنى من المرسلين »

قال : كل ذلك قد كان ، وفررت منكم لمَّا خفتكم ، فأكرمنى الله بالنبوة ، وبعثنى رسولاً إليكم ..

ويقال : لم يجحد حقَّ تربيته ، والإحسانَ إليه فى الظاهر ، ولكن بَيَّنَ أنه إذا أمر اللهُ بشىء وَجَبَ اتباعُ أمره . ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجِبُ حَقّاً فتربيةُ اللهِ أَوْلَى بأن يُعَظِّمَ العبدُ قَدْرَها[1] .

قوله : « ففررت منكم لما خفتكم » : يجوز حَمْلُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نَفْسِه . والفرارُ ـ عند عَدَمِ الطاقة ـ غيرُ مذمومٍ عند كلِّ أحد[2] .

ويقال : فررت منكم لمَّا خِفْتُ أن تنزل بكم عقوبةٌ من الله لِشُؤْمِ شِرْكِكم ، أو من قول فرعون : « ما علمت لكم من إله غيرى »[3] .

قوله جل ذكره : « وتلك نعمةٌ تَمُنُّها علىَّ أنْ عَبَّدت بنى إسرائيل »

ذَكَرَ فرعونُ — من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه — أنه استحياه بين بنى إسرائيل ، ودفع عنه القتلَ ، فقال موسى : أَوَ تلك نعمة تمنها علىَّ ؟ هل استعبادُك لبنى إسرائيل يُعَدُّ نعمةً ؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة ، ولا لَكَ فيها مِنَّة[4] .

قوله جل ذكره : « قال فرعون وما رَبُّ العالمين ؟ »

نَظَرَ اللعينُ بجَهْلِهِ ، وسَأَلَ على النحو الذى يليق بِغَيِّه ، فسأل بلفظ « ما » — و « ما » يُسْتَخْبَرُ بها عمَّا لا يعقل ، فقال : « وما ربُّ العالمين ؟ » .

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه ، وأخبر عمَّا يصحُّ فى وصفه تعالى فقال :

« قال ربُّ السمٰواتِ والأرضِ
وما بينهما إن كُنتُم موقنين » .

---

(١) هذه إشارة إلى قيمة تربية الشيوخ بالقياس إلى تربية الوالدين ؛ فالوالدان يربيان الأشباح والشيوخ يربون الأرواح .

(٢) نتذكر كيف فر القشيرى نفسه من المشرق الإسلامى عندما أحدقت به الأخطار ، وهدد السلطان الجائر حياته وعقيدته ، فلم تلن قناته ، وهرب بعقيدته إلى حيث يسلم هو ورفاقه (أنظر مدخل الكتاب) .

(٣) آية ٣٨ سورة القصص .

(٤) لأن تعبيدهم وذبح أبنائهم هما سببا حصوله عنده وتربيته له ، ولو تركهم لرباه أبواه شأن أى طفل .. فليس هنا نعمة ولا منة ، لأن القصد كان إذلال أهله لا الإحسان إليهم أو إليه .

فَذَكَرَ صفتَه ــ سبحانه وتعالى ــ بأنَّه إلهٌ ما فى السمٰوات والأرض ، فأخذ فى التعجب ، وقال :

« قال لِمَنْ حَوْلَه ألَا تستمعون ؟ * قال ربُّكم ورَبُّ آبائِكم الأولين » .

قال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فحادَ فرعونُ عن سَنَنِ الاستقامة فى الخطاب ، وأخذ فى السفاهة قائلاً :

« قال إنَّ رسولَكم الذى أُرْسِلَ إليكم لَمَجْنون » .

لأنه[1] يزعم أنَّ هناك إلٰهًا غيرَه . ولم يكن فى شىء مما يجرى من موسى ــ عليه السلام ــ أو مما يتعلَّق به وصفُ جنونٍ . ولم يُشْغَلْ بمجاوبته فى السفاهة فقال :

« قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

أى إنْ كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ . فقال فرعون :

« قال لَئِن اتخذتَ إلٰهًا غيرى لأجعلنَّكَ من المسجونين » .

مضى فرعونُ يقول : لأفعلنَّ ، ولأصنعنَّ ... إنِ اتخذتَ إلٰهًا غيرى . وجرى ما جرى ذِكْرُه وشَرْحُه فى غير موضع .

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا ، وقَلْبَها ــ سبحانه ــ ثعبانًا كاد يلتقم دارفرعون بمن فيها ، ووثَبَ فرعونُ هاربًا ، واختفى تحت سريره ، وهو ينتفض من الخوف ، وتَلَطَّخَتْ بِزَّتُه[2] ، وافتضح فى دعواه ، واتضحت حالته ، فاستغاث بموسى واستجاره ، وأخذ موسى الثعبانُ فردَّه اللهُ عصًا .

---

(١) أى موسى عليه السلام .
(٢) البزة ــ الهيئة أو الشارة .

ولمَّا فَارَقَه موسى ـ عليه السلام ـ تداركته الشقاوة ، وأدركه شؤمُ الكفر ، واستولى عليه الحرمانُ ، فجمَعَ قومَه وكلَّمهم فى أمره ، وأجمعوا كلُّهم على أنه سَحَرَهم . وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه .. كما قيل :

إذا ارْعَوَى عَادَ إلى جَهْلِهِ ... كَذِى الضَّنَى عاد إلى نُسْكِسِه

ثم إنه جمَعَ السَّحَرَةَ ، واستعان بهم ، فلمَّا اجتمعوا قالوا : « إنَّ لنا لأجراً » . فنطقوا بحُساسة هِمَّتِهم ، فضَمَنَ لهم أجْرَهم . وإنَّ مَنْ يعملْ لغيره بأجْرَةٍ ليس كَمَنْ يكون عملُه لله . ومَنْ لا يكون له ناصِرٌ إلاَّ بضمانِ الجَمَالة وبَذْلِ الرِّشَا فعَنْ قريبٍ سيُخْذَل .

قوله جل ذكره : « قال نعم وإنكم إذاً لمن المقَربين » .

قال فرعون: «وإنكم إذاً لمن المقربين» ، ومَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوقٍ فإنَّ ما يصل إليه من الذُّلِّ يزيد على ما أمَّلَه من العِزِّ فى ذلك التَّقَرُّب . والمُقَرَّبون من الله أوَّلُ مَنْ يدخل عليه يومَ اللقاء ، فهم أولُ مَنْ لهم وصولٌ . والمُقَرَّبون من الله لهم على الله دَخْلَة ، والناسُ بوصف الغفلة والخَلْقُ فى أَسْرِ الحجبة .

ثم لمَّا اجتمع الناسُ ، وجاء السَّحَرةُ بما مَوَّهُوا ، التَقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به ، وعادت عصاً ، وتلاشت أعيانُ حِبَالِهِم[1] التى جاءوا بها ، وكانت أوقاراً ، وأُلْقِيَ السحرةُ سُجَّداً ، ولم يحتفلوا[2] بتهديد فرعون إياهم بالقَتْل والصَّلْب والقَطْع ، فأصبحوا وهم يُقْسِمُون بعِزَّة فرعون ، ولم يُمْسُوا حتى كانوا يقولونَ : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات[3] » .

ثم لمَّا ساعَدَهم التوفيقُ ، وآمنوا بالله كان أهمَّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم ، وهذه هى غاية هِمَّةِ الأولياء ، أن يستجيروا بالله ، وأن يستعيذوا من عقوبة الله ، فأَعْرَفُهم بالله أَخْوَفُهم مِنَ الله .

---

(١) يتصل ذلك برأى القشيرى في المعجزة وأنها قد تكون قلب الأعيان ، أما كرامة الولى فقد لا تكون كذلك ، وهى مع ذلك متصلة بنبى الأمة التى يتبعها هذا الولى .

(٢) وردت (يختلفوا) والسياق يرفضها ويؤيد (يحتفلوا) كما هو واضح .

(٣) آية ٧٢ سورة طه .

ويقصد القشيرى إلى أن يوضح أن العبرة بالخواتيم ، وهو بهذا يحث – بطريق غير مباشر – على التوبة ، وعدم القنوط من رحمة الله .

ولمّا أمَرَ اللهُ موسى بإخراج بنى اسرائيـــل ، وتَبِعَهم فرعونُ بجَمْعِهِ ، وقال أصحابُ موسى :

« فَلَمّا تراءا الجمعانِ قال أصحابُ موسى
إنّا لَمُدْرَكون * قال : كلّا
إنّ معى ربى سيَهْدِينِ » .

فكان كما قال ، إذ هداهم اللهُ وأنجاهم ، وأغْرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم ، وقد قال سبحانه : « واعلموا أنّ الله مع المتقين »[1] : يُنَجّيهم من كلّ بلاء ، ويَخُصُّهم بكل نعمة .

قوله جل ذكره : « واتلُ عليهم نبَأَ إبراهيم * إذ قال
لأبيه وقومه ما تَعْبُدُون * قالوا نَعْبُدُ
أصناماً فَنَظَلُّ لها عاكفين * قال هل
يسمعونكم إذ تَدْعون ؟ * أو ينفعونكم
أو يَضُرُّون ؟ * قالوا بل وَجَدْنا آباءنا
كذلك يفعلون » .

عاتب[2] ابراهيمُ أباه وقومَه ، وطالَبهم بالحجة على ماعابَهم به وقال لِمَ تعبدون مالا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ؛ ولا ينفع ولا يَضُرُّ ، ولا يُحِسُّ ولا يَشْعُر ؟ فلم يرجعوا فى الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافَهم ، وقالوا :

على هذه الجملة وَجَدْنا أسلافَنا . فنطق إبراهيمُ — عليه السلام — بعد إقامةِ الحجة عليهم والإخبارِ عن قبيح صنيعهم بمَدْح مولاه والإغراق فى وصفه ، وقال :

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبـــدون *
أنتم وآباؤكم الأقْدَمون * فإنّهم عدوٌّ لى
إلاّ رَبَّ العالمين » .

---

(١) آية ٣٦ سورة التوبة .

(٢) ربما كانت (عاب) بدليل قوله بعد قليل (على ما عابهم) ، لكن السياق يلتئم بـ (عاتب) أكثر ، إذ العتاب أليق بالنسبة للأب ، كذلك فإن ابرهيم لم يكن يدرى فى ذلك الوقت أن أباه لن يؤمن .

ذَكَرَهم بأقلّ عبارة فلم يقل : فإنهم أعداء لى ، بل وَصَفَهم بالصدر الذى يصلح أن يوصَفَ به الواحد والجماعة فقال : « فإنهم عدو لى » .

ثم قال : « إلا ربَّ العالمين » ، وهذا استثناء منقطع ، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهم صفحاً حتى يتوصَّلَ إلى ذكر الله ، ثم أخذ فى شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت ، إذ مضى يقول : والذى .. والذى .. والذى .. ، ومن أمارات المحبة كَثْرَةُ ذِكْرِ محبوبك ، والإعراضُ عن ذكرِ غيرِه ، فَتَنَزُّهُ المحبين بتقلُّبِهم فى رياض ذِكْرِ محبوبهم ، والزهّادُ يعددون أورادَهم ، وأربابُ الحوائج يعددون مآربَهم ، فيطنبون فى دعائهم ، والمحبون يُسْهِبون فى الثناء على محبوبهم .

قوله جل ذكره : « الذى خَلَقَنى فهو يَهْدِينِ » .

كان مهتدياً ، ولكنه يقصد بالهداية التى ذَكَرَها فيما يستقبله من الوقت ، أى : يهدينى إليه به ، فإنّى مَحْقٌ فى وجوده وليس لى خَبَرٌ عنّى ! .

والقوم حين يكونون مستغرقين فى نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم ، فيهديهم عنهم إلى ربهم ، ويصيرون فى نهايتهم مستهلَكين فى وجوده ، فانين عن أوصافهم ، وتصير معارِفُهم - التى كانت لهم - واهيةً ضعيفةً ، فيهديهم إليه[1] .

قوله جل ذكره : « والذى هو يُطْعِمُنِى ويَسْقِينِ » .

لم يُشِرْ إلى طعامٍ معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم ، وإلى شراب محبته الذى يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم .

قوله جل ذكره : « وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِينِ » .

لم يَقُلْ : وإذا أمرضنى لأنه حفظ أدبَ الخطاب .

---

(١) يشرح القشيرى قول الواسطى : لا تصح المعرفة وفى العبد استغناء بالله وافتقار . فيقول : أراد الواسطى بهذا أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته . (الرسالة ص ١٥٥) . وقال ذو النون : عرفت ربى ولولا ربى ما عرفت ربى (الرسالة ص ١٥٦) .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما يتمارض الأحبابُ طمعاً في العيادة ، قال بعضهم :

إنْ كان يمنعكَ الوشاةُ زيارتى فادخُلْ علىَّ بِعِلَّةِ العُوَّادِ

ويقول آخر :

يَوَدُّ بأنْ يمشِى سقيماً لَعَلَّها إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُراسِلُه

ويقال ذلك الشفاء الذى أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْعَثَ إليه جبريلَ ويقول له : يقول لَكَ مولاك . . . كيف كنتَ البارحة ؟

قوله جل ذكره : « والذى يُمِيتُنى ثم يُحْيِينِ »

أضاف الموتَ إلى الله ؛ فالموتُ فوق المرض ؛ لأن الموتَ لهم غنيمةٌ ونعمةٌ ؛ إذ يَصِلُون إليه[1] بأرواحهم .

ويقال « يميتنى » بإعراضه عنى وقتَ تعزُّزِه ، « ويحيينى » بإقباله علىَّ حين تَفَضُّلِه . ويقال يميتنى عنى ويحيينى به .

قوله جل ذكره : « والذى أطمعُ أن يغفرَ لى خطيئتى يومَ الدِّين »

خطيئةُ الأحبابِ شهودُهم محنتَهم ، وتَعَنِّيهم عند شدة البلاء عليهم ، وشكواهم مما يمسُّهم من برحاء الاشتياق ، قال بعضهم :

وإذا محاسنى ـ اللاتى أُدِلُّ بهـا ـ كانت ذنوبى . . . فقُلْ لى : كيف أعتذر ؟

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لى حُكْمًا وأَلْحِقْنى بالصالحين » .

« هب لى حكما » : على نفسى ، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نَفْسِه لا حُكْمَ له على غيره .
« وألحقنى بالصالحين » : فأقوم بحقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشىء دون حقك .

---

(١) (إليه) الضمير هنا يعود إلى محبوبهم – سبحانه .

قوله جل ذكره : « واجعل لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخِرين » .

فى التفاسير : « لسان صدق » : أى ثناء حسناً على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك[1] ، وأذكرك بعد قبض روحى إلى الأبد بذكرٍ مُسْرَمَدٍ .

ويقال أذكرنى على لسان المخبرين عنك .

قوله جل ذكره : « واغْفِرْ لأبى إنه كان من الضالين » .

على لسان العلماء : قَالَه بعد يأسه من إيمان أبيه ، وأمّا على لسان الإشارة فقد ذَكَرَه فى وقت غَلَبَاتِ البَسْطِ ، ويُتَجَاوَزُ ذلك عنهم[2] .

وليست إجابةُ العبد واجباً على الله فى كل شىء ، فإذا لم يُجَبْ فإنّ للعبد سلوةً فى ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ .

قوله جل ذكره : « ولا تُخْزِنِى يومَ يُبْعَثون » .

أى لا تُخْجِلْنى بتذكيرى خَلَّتى ، فإنّ شهودَ ما مِنَ العبدِ ـ عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص ـ أشَدُّ عقوبة[3] .

قوله جل ذكره : « يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُون * إلّا مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سليمٍ » .

قيل: « التائب السليم » اللديغ .

وقيل هو الذى سَلِمَ من الضلالة ثم من البِدْعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجبة ثم من المُضَاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة . هذه كلها آفاتٌ[4] ، والأكابرُ سَلِمُوا منها ، والأصاغرُ امتُحِنُوا بها .

---

(١) وردت (الآية) ونرجح أن الناسخ قد أخطأ في النقل ، فأثبتنا (آلائك) أى نعمك لأنها أقرب إلى السياق .

(٢) معنى هذا أن القشيرى يرى اغتفار ما ينطق به الصوفى من أقوال وهو فى حال الانمحاء .

(٣) لأن شهود ما من العبد معناه أن التوحيد مازال يشوبه كدر الغيرية .

(٤) يفيد ذكر هذه الآفات على هذا النحو من الترتيب والدقة أجل فائدة عند دراسة المصطلح الصوفى ـ خصوصاً وأن هذه المصطلحات لم ترد على هذا النحو فى الفصل الذى خصصه القشيرى لهذا الموضوع فى الرسالة .

ويقال : « القلب السليم » الذى سَلِمَ من إرادة نَفْسِه .

قوله جل ذكره : « وأُزْلِفَتِ الجنةُ للمتقين * وبُرِّزَتِ الجحيمُ للغاوين »

« أزلفت » : أى قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ فى الوقت ، فإنَّ ماهو آتٍ قريبٌ ، وبالمين أُحْضِرَتْ . وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَبْعُدُ إدْناء الجنة من المتقين .

« وبرزت الجحيم للغاوين » أظْهِرَتْ ؛ فتؤكَّدُ الحجَّةُ على أرباب الجحود ، ويُعْرَضُون على النار ، وتُعْرَضُ عليهم منازلُ الأشرار ، فَيُكَبْكَبُونَ فيها أجمعين ، ويأخذون يُقِرُّونَ بذنوبهم ، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون : —

« تاللهِ إن كُنَّا لفى ضلالٍ مبين * إذ نُسَوِّيكم بربِّ العالَمين »

ولا فضيحةَ أقبحُ ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم : « إذ نسويكم بربِّ العالمين » فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشِّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالِهم ـ التشبيهُ فى صفة المعبود .

قوله جل ذكره : « فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم »

فى بعض الأخبار[1] : يجىء ـ يومَ القيامة ـ عَبْدٌ يُحاسَبُ فتستوى حسناتُه وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومُه ، فيقول الله ـ سبحانه : عبدى .. بقيت لك حسنةٌ واحدة ، إن كانت أدْخَلَتْكَ الجنةَ .. أنظُرْ .. وتَطَلَّبْ من الناس لعلَّ واحداً يهب لَكَ حسنةً واحدةً . فيأتى العبدُ فى الصفين ، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه ، ويقول لكلِّ واحدٍ فى بابه فلا يجيبه أحدٌ ، فالكلُّ يقول له : أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ ، فيرجع إلى مكانه ، فيسأله الحقُّ ـ سبحانه : ماذا جئتَ به ؟

---

(١) فى م (فى بعض الأحيان) والأصوب أن تكون (فى بعض الأخبار) كما فى ص .

فيقول : يا ربِّ . . لم يُعْطِنى أحدٌ حسنةً من حسناته .

فيقول الله ـ سبحانه : عبدى . . ألم يكن لك صديق (فىّ)[1] ؟

فيتذكر العبدُ ويقول : فلان كان صديقاً لى .

فيدله الحقُّ عليه ، فيأتيه ويكلِّمه فى بابه ، فيقول : بلى ، لى عباداتٌ كثيرة قَبِلَها اليومَ فقد وهبتُك منها ، فيسير هذا العبدُ ويجىء إلى موضعه ، ويخبر ربَّه بذلك ، فيقول الله ـ سبحانه : قد قَبِلْتُها منه ، ولن أنقص من حقِّه شيئاً ، وقد غفرت لكَ وله ، وهذا معنى قوله :

« فما لنا من شافعين ولا صديق حميم »

قوله جلَّ ذكره : « كَذَّبَتْ قومُ نوحٍ المرسلين ..... »

ذكر قصة نوحٍ وما لَقِىَ من قومه ، وأنهم قالوا : ـ

« قالوا أنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأرذلون ؟ »

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون ، لكنهم ـ فى حكم الله ـ هم المتقدِّمون الأكرمون . قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بضعفائكم » .

وإنَّ اللهَ أغرق قومه لمّا أصَرُّوا واستكبروا .

وكذلك فَعَلَ بمن ذَكَرَتْهم الآياتُ فى هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين . . كلٌّ منهم قابلوا رُسُلَهم بالتكذيب ، فَدَمَّر اللهُ عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رسولَه على مقتضى سُنَّتِه الحميدة فيهم . وقد ذَكَرَ اللهُ قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله : ـ

« وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ »

« العزيز » : القادر على استئصالهم ، « الرحيم » الذى أَخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم ، ولم يقطعْ الرزقَ مع قُبْحِ فِعالِهم .

---

(١) هكذا فى م و ص وهى صحيحة مقبولة فى المعنى والسياق ؛ غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (صديق وفىّ) حيث تقابل ما جاء فى الآية (صديق حميم) فالبحث يومئذ يكون عن الصديق الوفى الحميم .

وهو « عزيز » لم يُستَفَزّ بقبيح أعمالهم ، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لَمَا تَجَمَّلَ بأفعالهم[1].

قوله جل ذكره : « وما أسألكم عليه من أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاّ على ربِّ العالَمين » .

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال : « لا أسألكم عليه من أجرٍ » ليَعلَمَ الكافةُ أنّ من عَمِلَ لله فلا ينبغى أنْ يَطْلُبَ الأجْرَ من غير الله . وفى هذا تنبيهٌ للعلماء — الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء — أنْ يتأدّبوا بأنبيائهم ، وألّا يطلبوا من الناس شيئاً فى بَثِّ علومهم ، ولا يرتفِقون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق فى بثِّ ما يُذَكِّرُ به من الدِّين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارِكُ اللهُ للناس فيما منه يَسْمَعون ، ولا للعلماء أيضاً بركةٌ فيما من الناسِ يَأْخُذُون ، إنهم يبيعون دينَهم بِعَرَضٍ يسيرٍ ، ثم لا بَرَكَةَ لهم فيه ، إذ لا يبتغون به الله ، وسيَحْصُلُون على سُخْطِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنّه لتنزيلُ ربِّ العالَمين * نَزَلَ به الروحُ الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكونَ من المُنْذِرين * بلسانٍ عربيٍّ مبين » .

كلامُ اللهِ[2] العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام . والكلامُ من الله غيرُ منفصل ، وبغير الله غير متصل .. وهو ـ على الحقيقة لا على المجاز — مُنَزَّلٌ . ومعناه أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان على السماء . فَسمِعَ من الربِّ ، وحَفِظَ ، ونَزَلَ ، وبَلَّغَ الرسولَ . فَمَرَّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه[3] عند

---

(١) لأن الله — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة ولا شين بمعصية .

(٢) ينبغى الاهتمام برأى القشيرى هنا عند بحث قضية «خَلْق القرآن» ، وعلى النظرة إلى ما بين دفتى المصحف . ومقارنة ذلك (بكلام) الله إلى موسى عند الشجرة ... موضوع هام ناقشه القشيرى فى كتابه (شكاية أهل السنة) .

(٣) تأمل كيف ينظر الصوفية إلى حالة المصطفى (ص) عند تلقى الوحى على أنها حالة عرفانية ، فالعرفان لا يتم إلا عند الامتحاء .

نزول الوحى عليه . ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسْمِعُهُ . والرسولُ ـ صلوات الله عليه ـ يحفظه ويُؤَدِّيه . والله ـ سبحانه ضَمِنَ له أنه سيَقْرِؤُه حتى لا ينساه[1] . فكان يجمع اللهُ الحِفْظَ فى قلبه . ويُسَهِّلُ له القراءةَ عند لفظه . ولمَّا عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله .. عُلِمَ صِدْقُه فى أنَّه مِنْ قِبَلِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنَّه لَفِى زُبُرِ الأولين » .

جميعُ ما فى هذا الكتاب من الأخبار والقصص ، وما فى صفةِ الله من استحقاق جلاله — موافِقٌ لِمَا فى الكتب المُنَزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه ، فمهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه : « لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه »[2] .

ثم أخبر أنه لو نَزَّلَ هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغةٍ غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك ، ولقالوا : لو كان بلساننا لعرفناه ولآمَنَّا به ، فأزاح عنهم العِلَّةَ ، وأكَّدَ عليهم الحُجَّة .

ثم أخبر عن صادقِ عِلْمِهِ بهم ، وسابقِ حُكْمِهِ بالشقاوة عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذابَ فى القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

قوله جل ذكره : « أفَرَأَيْتَ إن مَتَّعناهم سنينَ *
ثم جاءهم ما كانوا يوعَدُون *
ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعون » .

إنْ أرخينا لهم المُدَّةَ ، وأمهلناهم أزمنةً كثيرة — وهم بوصف الغفلة — فما الذى كان ينفعهم إذا أخَذَهُمُ العذابُ بغتةً ؟ ! .

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكْ أهلَ قريةٍ إلّا بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البيناتِ ، فإذا أصَرُّوا على كُفْرِهم عَذَّبَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّهم عن السَّمْعِ لمعزولون » .

---

(١) يُشير بذلك إلى قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى » آية ٦ سورة الأعلى .
(٢) آية ٤٢ سورة فصلت .

وَجدَوْا السمعَ — الذى هو الإدراك — ولـكن عَدِمُوا الفَهْمَ ، فلم يستجيبوا لِمَـا دُعُوا إليه . فعند ذلك استوجبوا من اللهِ سوء العاقبة .

قوله جل ذكره : « وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين » .

وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنفعهم قَرَابَتُهم منه ، ولا تُقْبَلُ شفاعتُه — إنْ لم يؤمِنوا — فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النّسب ، فهذا نوحٌ لمَّـا كَفَرَ ابنُه لم تنفعه بُنُوَّتُه ، وهذا الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أبوه لم تنفعه أُبُوَّتُه ، وهذا محمدٌ ـ عليه الصلاة والسلام — كثيرٌ من أقاربه كانوا أشدَّ الناسِ عليه فى العداوةِ فلم تنفعهم قرابتُهم .

قوله جل ذكره : « واخفِضْ جناحَـك لِمَنِ اتبعـك من المؤمنين » .

أَلِنْ جَانِبَكَ وقارِبْهم فى الصحبة ، واسحبْ ذيلَ التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتمِلْ منهم سوء الأحوال ، وعاشِرْهم بجميلِ الأخلاق ، وتحمَّلْ عنهم كَلَّهم ، وارْحَمْهم كُلَّهم ، فإنْ مرضوا فعُدْهم ، وإنْ حرموك فأَعْطِهم ، وإنْ ظلموك فتجاوَزْ عنهم ، وإنْ قصَّرُوا فى حقى فاعفُ عنهم ، واشفَعْ لهم ، واستغفِرْ لهم[1].

قوله جل ذكره : « فإنْ عَصَـوْكَ فَقُلْ إنِّى برىء مما تعملون » .

لا تفعلْ مثلَ فِعْلِهم ، وكل حسابَهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حدًّا ، فعند ذلك لا تأخذْكَ رأفةٌ تمنعكَ من إقامة حدِّنا عليهم .

قوله جل ذكره : « وتوكَّلْ على العزيز الرحيم » .

انقَطِـعْ إلينا ، واعتصِمْ بِنا ، وتوسَّـلْ إلينا بِنا ، وكن على الدوام بنا ، فإذا قُلْتَ فَقُلْ بنا ، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا ، واشهد بقلبك — وهو فى قبضتنا — تتحققْ بأنك بنا ولنا .

توكَّلْ على « العزيز » تَجِدِ العِزَّةَ بتوكلك عليه فى الدارين ، فإنَّ العزيز مَنْ وثق بالعزيز .

---

(١) تصلح هذه الإشارة لتكون دستوراً فى (الصحبة) بصفةٍ عامة . وللقشيرى فصل فى الرسالة فى هذا الخصوص .

« الرحيم » الذى يقرِّبُ مَنْ تَقَرَّبَ إليه ، ويُجْزِلُ البِرَّ لِمَنْ تَوسَّل به إليه[1] .

قوله جل ذكره : « الذى يراكَ حين تقوم » .

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخَلْق ، فإنّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهدٍ من الحقّ رَاعَى دقائقَ أحواله ، وخفايا أموره مع الحقّ[2] .

قوله جل ذكره : « وتَقَلُّبَكَ فى الساجدين » .

هَوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته . ولامشقّةَ لِمَنْ يَعلَمُ أنّه بمرأًى من مولاه ، وإنّ حَمْلَ الجبالِ الرواسى على شَفَرِ[3] جَفْنِ العينِ لَيَهونُ عند مَنْ يشاهد رَبّه[4] .

ويقال « تقلبك فى الساجدين » بين أصحابك ، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم شَمْسٌ ، أو هم شموسٌ وأنت بينهم شمس الشموس .

ويقال : تقلبك فى أصلابِ آبائك من المسلمين الذين عرفوا اللهَ ، فسجدوا له دون مَنْ لم يعرفوه .

قوله جل ذكره : « إنه هو السميعُ العليم » .

« السميع » لأنين المحبين ، « العليم » بحنين العارفين .

« السميع » لأنين المُذْنبين ، « العليم » بأحوال المطيعين .

---

(١) هذه الإشارة نموذج طيب لعبقرية القشيرى عند صياغة (وصاياه) للمريدين من الناحيتين الصوفية والأدبية .

(٢) يقال إنه لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوال ، فاستأذنوا ذا النون أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن له ، فابتدأ يقول ، فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض . ثم قام رجلٌ من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : «الذى يراك حين تقوم» فجلس الرجل .

ويعلق الشيخ الدقاق على هذه القصة بأن ذا النون كان صاحب إشراف على هذا الرجل، وكان الرجل صاحبَ إنصافٍ حين قبل منه ذلك فرجع وقعد (الرسالة ص ١٧٠) .

(٣) شَفَرُ الجَفْن = حَرْفه الذى ينبت عليه الهُدْبُ . (الوسيط) .

(٤) يربط النسفى بين هذه الآية وبين الآيتين السابقة واللاحقة ، فالمعنى عنده : أنه سبحانه (يراك حين تقوم) متهجداً ، ويرى (تقلبك) فى المصلين ؛ يرى ما كنت تفعل فى جوف الليل من قيامك للتهجد ، وتقلبك فى تصفح أحوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ولتعلم كيف كانوا يعملون لآخرتهم . وهو (سميع) لما تقوله ، (عليم) بما تنويه وبما تعمله ، وبذلك هوّن عليه معاناة كل مشقة حيث أخبر برؤيته له فى كل ما يقوم به .

(تفسير النسفى جـ ٣ ص ١٩٩) ط عيسى الحلبى .

قوله جل ذكره : « هل أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم * يُلقُون السَّمْعَ وأكثرُهم كاذبون » .

بيّن أن الشياطين تتنزّلُ على الكفار والكهنة[1] فتوحى إليهم بوساوسهم الباطلة .

قوله جل ذكره : « والشعراء يَتّبِعهم الغاوون » .

لمّا ذَكَرَ الوحيَ وما يأتى به الملائكةُ من قِبَلِ الله ذكر ما يوسوس به الشياطينُ إلى أوليائه ، وألحَقَ بهم الشعراء الذين فى الباطل يهيمون ، وفى أعراض الناس يقعون ، وفى التشبيهات — عن حدِّ الاستقامة — يخرجون ، ويَعِدُون من أنفسهم بما لا يُوفُون ، وسبيلَ الكذبِ يسلكون .

قوله جل ذكره : « إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً ، وانتصروا مِنْ بعد ما ظُلِمُوا » .

فيكون شِعْرُه خالياً من هذه الوجوه المملولة المذمومة[2] ، وهذا كما قيل : الشعرُ كلامُ إنسان ؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه .

قوله جل ذكره : « وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَموا أىَّ مُنقَلَبٍ ينقلِبُون » .

سيعلم الذين ظلموا سوء ما عملوا ، ويندمون على ما أسلفوا ، ويصدقون بما كَذَّبوا .

---

(١) من أمثال سطيح وطليحة ومسيلمة .
وإذا كان محمد (ص) يشتم الأفاكين ويلعنهم .. فكيف تنزل الشياطين عليه ؟ !

(٢) من أمثال عبد الله بن رواحه وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضى الله عنهم ، فشعرهم غلبت عليه الحكمة والموعظة والزهد ، والدعوة إلى الفضيلة ، ومؤازرة الدين الجديد ، ورفع لواء التوحيد .

السورة التي يذكر فيها
النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قَصَدَهُ العاصى لِطَلَبِ التخفيف فصار وِزْرُه مغفوراً ، اسم كريم قَصَدَهُ العابِدُ لِطَلَبِ التضعيف فصار أجره موفوراً ، اسم جليلٌ أَمَّهُ الولىُّ لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُهُ مشكوراً ، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَتْهُ العِزَّةُ ، وطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

جَلَّتْ الأحديةُ .. فأنّى بالوصول ! وتَقَدَّسَتْ الصمديةُ .. فَمَنْ ذا الذى عليها يقف[1] ؟ .

« كلاَّ .. إنها تذكرة . فمن شاء ذكره »[2] :

وكم باسطين إلى وَصْلِنا أَكُفَّهُمُو .. لم ينالوا نصيبا !

قوله جل ذكره : « طسٓ تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين » .

بطهارةِ قُدْسِي وسناء عِزِّى لا أُخَيِّبُ أَمَلَ من أَمَّلَ لطفى .

بوجود بِرِّى تطيب قلوبُ أوليائى ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفى ، وسَعْىُ العاملين مشكورٌ بعطفى[3] .

---

(١) التوحيد – فى نظر القشيرى – هو أعلى درجات العرفان ، وهذا التوحيد العرفانى – متأثراً التوحيد الإسلامى الأصيل – لايشوبه كَدَرٌ ولاتعقيد ولاتداخل ولاحلول ولا امتزاج . فعرفانُ الصوفى مهما عَظُمَ لايتعدى كونه (عرفاناً بنعت التعالى فى شهود أفعال الحق ، فأمَّا الوقوف على حقيقة الإنية فقد جَلَّت الصمدية عن إشراف عرفان عليها) تفسير بسملة سورة الجمعة « من هذا المجلد » .

(٢) آية ٥٤ سورة المدثر .

(٣) غير خاف على القارىء أن يلحظ تردد حرفى الطاء والسين فى كلمات الأسطر الثلاثة ، كأنما القشيرى يريدنا أن نتفهم دقائق (طس) من بعيد .

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » · [illegible] دلالات كَرَمِنا ، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بِرِّنا ، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، و[illegible] لأصفيائنا حِفْظَ عَهْدِنا .

قوله جل ذكره · « هُدًى وبُشْرى للمؤمنين » ·

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشِفاء ، ونورٌ وضياء ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان ، وأكَّدْنا لهم الضمان ، وكفلنا لهم الإحسان .

قوله جل ذكره : « الذين يُقِيمون الصلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم يوقِنون » ·

يديمون المواصلات ، ويستقيمون فى آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وحركاتِهم وسكناتِهم الزكاة ، بما يقومون فى حقوق المسلمين أحسنَ مقام ، وينوبون عن ضعفائهم أحسنَ مناب .

قوله جل ذكره : « إن الذين لايؤمِنون بالآخرةِ زَيَّنَّا لهم أعمالَهم فهم يَعْمَهُون » ·

أغشيناهم فَهُم لا يُبْصِرُون ، وعَمَّيْنَا عليهم المسالكَ فهم عن الطريقة المُثْلَى يَعْدِلون ، أولئك الذين فى ضلالتهم يعمهون ، وفى حيرتهم يَتَرَدَّدُون .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لهم سوء العذابِ وهم فى الآخرةِ هم الأخْسَرون » ·

« سوء العذاب » أن يجد الآلامَ ولايجد التسلِّى بمعرفة المُسَلِّى ، ويحمل البلاء ولا يحمل عنه ثقلَه وعذابَه شهودُ المُبْلِى .. وذلك للكفار ، فأمَّا المؤمنون فيُخَفِّفُ عنهم العذابَ فى الآخرةِ حُسْنُ رجائِهم فى الله ، ثم تضرُّعُهم إلى الله ، ثم فَضْلُ الله معهم بالتخفيف فى حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشى والإفاقة — كما فى الخبر — إلى وقت إخراجهم من النار .

قوله جل ذكره : « وإنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِن لدُن حكيم عليم » ·

أى أن الذى أكرمكَ بإنزال القرآن عليك هو الذى يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء .

قوله جل ذكره : « إذ قال موسى لأهله إنِّى آنستُ ناراً
سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ
قَبَسٍ لَعَلَّكم تصطلون » .

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر ، ودَجَا عليه الليلُ ، وأخذ امرأتَه الطَّلْقُ وهَبَّت الرياحُ الباردة ، ولم يورِ الزَّنْد ، وضاق على موسى الأمرُ ، واستبهم الوقتُ ، وتشتتت به الهمة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا إنِّى أبصرتُ ناراً . وفى القصة : إنه تشتت أغنامُه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعَه فشردت ، فقالت امرأتُه :

كيف تتركنا وتمضى والوادى مسبع ؟ ! .

فقال : امكثوا .. فإنى لأجلكم أمضى وأتعرف أمرَ هذه النار ، لَعَلِّى آتيكم منها إمَّا بِقَبَسٍ أو شعلةٍ ، أو بخبرٍ عن قومٍ نُزُولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة ، ومن جهتهم انتفاع . وبَدَتْ لعينه تلك النارُ قريبةً ، فكان يمشى نحوها ، وهى تتباعد حتى قَرُب منها ، فرأى شجرةً رطبةً خضراء تشتعل كلُّها من أولها إلى آخرها ، وهى نار مضيئة ، فَجَمَعَ خُشَيْبَاتٍ وأراد أن يقتبس منها ، فعند ذلك سمع النداء من الله لا من الشجرة كما تَوَهَّم المخالِفون من أهل البدع . وحصل الإجماعُ أَنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله ، ولو كان النداء فى الشجرة لكان المتكلم به الشجرة ، ولأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء فى الشجرة[1] . وإلا فنحن نجوِّز أن يخلق الله نداء فى الشجرة ويكون تعريفاً ، ولكن حينئذٍ يكون المتكلم بذلك الشجرة .

---

(١) أى أنه على هذا الرأى كلام غير مخلوق ، لأن كلام الله صفته ، وصفته – سبحانه – غير مخلوقة .. وهذا هو نفس الرأى بالنسبة للقرآن ، وهذا هو الجواب الذى دحض به السلف زعم الجهمية حينما أرادوا أن يثبتوا أن القرآن مخلوق ، لأن القرآن شىء ، «والله خالق كل شىء» (انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ١ ص ٢٢٢) فيكون النداء الذى سمع من الشجرة كالكلام الذى بين دفتى المصحف . . كلاهما كلام الله – على الحقيقة ، ولكن من حيث التجوز فى التعبير يقال (فى الشجرة) و (فى المصحف) .

ولا يُنْكر فى الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخَلَقَ كلاماً فى الشجرة أيضاً ، فموسى سمع كلامَه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً فى الشجرة ... وهذا من طريق العقل جائز .

قوله جل ذكره : «فلما جاءها نودى أن بورِكَ مَن فى النارِ ومَنْ حولها وسبحان اللهِ ربِّ العالَمين » .

أى بورِكَ مَنْ هو فى طلب النار ومَنْ هو حول النار[1] .

ومعنى بورِكَ أى لَحِقَتْه البركةُ أو أصابته البَرَكةُ .. والبركةُ الزيادةُ والنماء فى الخير .

والدعاء مِنَ القديمِ — سبحانه — بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

قوله جل ذكره « يا موسى إنَّه أنا اللهُ العزيزُ الحكيم » .

الذى يُخاطِبُكَ أنا اللهُ « العزيزُ » فى استحقاق جلالى ، « الحكيم » فى جميع أفعالى .

قوله جل ذكره : « وألقِ عَصَاكَ فلمَّا رآها تهتزُّ كأنها جانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ » .

فى آية أخرى بَيَّنَ أنه سأله ، وقال له على وجه التقرير : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » وأجابه بقوله : « هى عصاى » وذَكَرَ بعضَ ما له فيها من المآرب والمنافع ، فقال الله : « وألقِ عصاك » ، وذلك لأنه أراد أنْ يُرِيَه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمالَ اليقين .

وألقاها موسى فقَلَبَهَا اللهُ ثعباناً ، أولاً حيةً صغيرةً ثم صارت حيةً كبيرةً ، فأوجس فى نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِرًا هارباً ، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لمَّا كان عارفاً بأن الله يعذِّب مَنْ يشاء بما يشاء ، فقال له الحقُّ :

« يا موسى لا تَخَفْ إنِّى لا يخاف لدىَّ المُرْسَلُون » .

أى لا ينبغى لهم أن يخافوا .

---

(١) يرى النسفى أن (مَنْ) فى مكان النار هم الملائكة ، و(مَنْ حولها) هو موسى . (النسفى حـ٣ ص ٢٠٢) .

« إلا مَن ظَلَمَ ثم بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سوء
فإنى غفورٌ رحيم » .

وهذا يدلُّ على جواز الذَّنْبِ على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط تَرْكِ الإصرار . فأمَّا مَنْ لا يُجيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة[1] .

فلما رأى موسى انقلابَ العصا عَلِمَ أنَّ الحقَّ هو الذى يكاشفه بذلك .

ويقال : كيف عَلِمَ موسى — عليه السلام — أنَّ الذى سمعه كلامُ اللهِ ؟ .

والجواب أنه بتعريفٍ منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كَسْبياً ، ويكون الدليل له الذى به عَلِمَ صِدْقَه فى قوله : « إنه أنا الله » هو ما ظهر على يَدِهِ — فى الوقت — من المعجزة ، من قَلْبِ العصا ، وإخراج يده بيضاء[2] .

قوله جل ذكره : « وأَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبِكَ تَخرجْ بيضاء
من غير سوء فى تِسْعِ آياتٍ إلى فرعون
وقومِه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

من غير سوء أى بَرَصٍ . وفى القصة أن موسى عليه السلام ذَكَرَ اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التى أَوْجَبَتْ انزعاجَه ، وقَصْدَه فى طلب النار ، فقال الله تعالى : إنا قد كفيناكَ ذلك الأمرَ ، ووكلنا بامرأتِكَ وأسبابك ، فجمعنا أغنامَك وثيرانَك ، وسَلِمَتْ لَكَ المرأةُ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جاءتْهم آياتُنا مُبْصِرةً قالوا هذا
سِحْرٌ مبين » .

---

(١) لا يستخدم فريق من الفقهاء تعبير (الذنب) بالنسبة للأنبياء عليهم السلام وإنما يطلق على ما يبدر منهم (فِعْل خلاف الأَوْلى) تأدباً .

والنبى — على الوجوب — معصوم ، والولىّ محفوظ أى قد تقع منه هنات أو زلات ولكنه لا يُصِرّ على مافعل (الرسالة ص ١٧٥) .

(٢) أى أن الأصل فى المعجزة أنها دليل صدق النبى ، فقد يستطيع السحرة والكهنة عمل أشياء عجيبة ولكنها لا تخرج عن كونها دليل مهارة أو ذكاء أو قدرة على الإيهام والانبهار .

والنبى مأمور بإظهار المعجزة أما الولى فمأمور بإخفاء الكرامة (الرسالة ص ١٧٤) .

لم يُظْهِرِ اللهُ — سبحانه — آيةً على رسولٍ من أنبيائه — عليهم السلام — إلّا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعوا النظرَ فيها موضعَه لتوَصَّلُوا إلى حصول العلم وثلج الصدور ، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحْدِ . قال تعالى وقولُه صِدْقٌ :

« وجحدوا بهـــا واستيقنتها أنفسُهم
ظُلْماً وعُلُوًّا فانظرْ كيف كان عاقبةُ
المُفْسدين » .

وكما يَحْصُلُ من الكافرِ الجحْدُ [1] تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالةٌ يعلم فيها — بالقطع — أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فِعْلها من غير أنْ يكونَ متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقْدِمُ على ذلك غيرَ مُحْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوتِه . وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرُها شؤماً ، وأشدُّها في العقوبة ، وأبْعَدُها عن الغفران .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ عِلْماً وقالا
الحمدُ للهِ الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ مِنْ
عباده المؤمنين » .

يقتضي حكمُ هذا الخطاب أنه أفْرَدهُما بجنسٍ من العلم لم يشارِكْهُما فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَه على وجه تخصيصهما به ، ولا شكّ أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيانٍ لها أغناها عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه [1] .

---

(١) ليس حتماً أن يكون جحد الجاحد بعد المعرفة لأن (جحد) بمعنى أنكر ، وقد يكون الإنكار نتيجة جهلٍ بالشيء ، ولكن الواضح أن القشيري يتجه إلى توضيح أسوأ ألوان الجحود ، وهو الذي يحدث بعد المعرفة ، وقد أحسن القشيري حين قابل بين ذلك وبين أسوأ أحوال العاصي ، وهي تلك التي يقدم فيها على المعصية وهو عليم بعاقبتها ، ومع ذلك يعقد النية عليها ، ويفعلها .

(٢) نعلم من مذهب القشيري أن البيان أرقى في المعراج العرفاني من البرهان ، ونجد هنا سبب تفوق البيان على البرهان .

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ، فيكون إخبارُهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : « عُلِّمنا منطق الطير » .

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما فى البيان .

وفى الآية دليل على أن التفضيل الذى يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر بأنهما شَكَرَا الله على عظيم ما أنعم به عليهما [1].

قوله جل ذكره : « وورِثَ سليمانُ داوودَ وقال يأيها الناسُ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطيرِ وأوتينا من كلِّ شىء إنّ هذا لهو الفَضْلُ المبينُ » .

ورث أباه فى النبوة ، وورثه فى أن أقامه مقامه .

قوله : « عُلِّمنا منطق الطير » : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صِدْقَ إخباره عن نبوته . ومَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياء كلّها بالله ومن الله . ويكون مُكاشَفاً بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شىء تعريفاتِ الحقِّ — سبحانه — للعبد مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم مَحْكِيٌّ عنهم . وكما أنّ ضربَ الطّبْلِ مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ — بالمواضعة — عند سماعه وقتُ الرحيلِ والنزولِ فالحقُّ — سبحانه — يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفاتِ ، من سماعِ الأصواتِ وشهودِ أحوال المرئيات فى اختلافها ، كما قيل :

إذا المرء كانت له فِكرةٌ ففى كل شىء له عِبْرَةٌ

قوله جل ذكره : « وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنسِ والطيرِ فهم يُوزَعُون » .

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « العلماءُ ورثة الأنبياء » والعلم نعمة تحتاج إلى الشكر ، ويلزم أن يعتقد العالم أنه إن فُضِّلَ على كثير فقد فضل عليه كثيرٌ أيضاً ، وما أحسن قول عمر رضى الله عنه : كل الناس أفقه من عمر .

سخّر اللهُ لسليمان — عليه السلام — الجنَّ والطيرَ ، فكان الجنُّ مكلَّفين ، والطيرُ كانت مُسَخَّرَةً إلا أنه كان عليها شَرْعٌ ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته ، حتى النمل كان سليمان يعرف - طابَهم وينفذ عليهم حُكْمَه .

قوله جل ذكره : « حتى إذا أَتَوْا على وادِ النَّمل قالت نَمْلَةٌ يأيها النملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكم لا يَحْطِمَنَّكُم سليمانُ وجنودُه وهم لا يَشْعُرون» .

قيل إن سليمان استحضر أميرَ النملِ الذى قال لقومه : « ادخلوا مساكنكم » وقال له : أَمَا عَلِمْتَ أنِّى معصومٌ ، وأنِّى لن أُمَكِّنْ عسكرى مِنْ أنْ يطئوكم ؟ فأخبره أميرُ النملِ أنّه لا يعلم ذلك ؛ لأنه ليس بواجبٍ أن يكون النملُ عالماً بعصمة سليمان . ولو قال : لعلكم أبيح لكم ذلك .. لكان هذا أيضاً جائزاً .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان : إنى أحمِلُ قومى على الزهد فى الدنيا ، وخَشِيتُ إن يَرَوْكُم فى مُلْكِكم أنْ يرغبوا فيها[1] ، فأمَرْتُهم بدخول مساكنهم لئلا يتشوَّشَ عليهم زُهْدُهُم . ولئنْ صَحَّ هذا ففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبار لِمَنْ هو فى رعيتهم . وفى الآية دليلٌ على حَسْنِ الاحتراز مِمّا يُخْشَى وقوعُه ، وأنَّ ذلك مما تقتضيه عادةُ النفْسِ وما فُطِرُوا عليه من التمييز .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان : ما الذى أعطاك اللهُ من الكرامة ؟ .

فقال : سَخَّرَ لى الريحَ .

فقال : أَمَا عَلِمْتَ أنَّ الإشارة فيه أنه ليس بيدك مما أُعْطيتَ إلا الريح ؟[2] .

وهكذا بيَّنَه الكبيرُ على لسان الصغير ! .

قوله جلَّ ذكره : « فَتَبَسَّمَ ضاحكاً مِن قولها » .

---

(١) الضمير في (فيها) يعود على الدنيا .

(٢) أى أنه عطاء زائل لا مكث له ولا قرار .

التبسُّمُ من الملوكِ ينذر لمراعاتهم حُكْمَ السياسة ، وذلك يدلُّ على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسُّم ، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حُسْنَ سياسته لرعيته .

وفى القصة أنه استعرض جُنْدَه ليراهم كم هم ، فعَرَضَهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شَهْرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِرًا فلم ينتهوا ، ومَرَّ سليمانُ عليه السلام .

وفى القصة : أن عظيم النمل كان مثل البغل فى عِظَمِ الجثه ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جل ذكره : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نعمتَكَ التى أَنْعَمْتَ علىَّ وعلى والدىَّ وأَنْ أعملَ صالحًا ترضاه » .

فى ذلك دليلٌ على أن نَظَرَه إليهم كان نَظَرَ اعتبارٍ ، وأنه رأى تعريفَ الله إياه ذلك ، وتنبيهُه عليه من جملة نِعَمِهِ التى يجب عليها الشكرُ .

وفى قوله : « وعلى والدىَّ » دليلٌ على أنَّ شُكْرَ الشاكر لله لا يختص بما أَنْعَمَ به عليه على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ماخَصَّ وعَمَّ من نِعَمِهِ .

قوله جلَّ ذكره : « وأَدخِلْنى برحمتِكَ فى عبادِكَ الصالحين » .

سأل حُسْنَ العاقبة ؛ لأنَّ الصالحَ من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة .

قوله جل ذكره : « وتفقَّدَ الطيرَ فقال ما لِيَ لا أرى الهُدْهُدَ أَمْ كان من الغائبين » .

تَطَلَّبَه فلمَّا لم يَرَه تعرَّف ما سبب تأخره وغيبته .

ودلَّ ذلك على تيقظ سليمان فى مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ، حيث لم تَخْفَ عليه غيبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعةً واحدةً .. وهذا أحسن ما قيل .

ثم تَهَدَّدَه إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديدٍ ، وذلك يدلُّ على كمال سياسته وعَدْلِهِ فى مملكته .

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد يعرف أعماقَ الماء بإلهام خُصَّ به ، وأنَّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء ، فطلبَ الهدهد ليهديَهم إلى مواضع الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن فى الهدهد كَثْرَةً . وغيبةُ واحدٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ — اللهم إلّا إنْ كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء .. والله أعلم .

وروى أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك ، وأنه قيل له : إنْ كان الهدهدُ يرى الماء تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى الفَخَّ مخفيًا تحت التراب ؟ .

فقال : إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر .

ويقال : إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَّةً ، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها ، فوقع شعاعُ الشمسِ على الأرض ، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه ، فَعَرَفَ بذلك غَيْبَتَه .. وهذا أيضاً ممكن ، ويدل على كمال تَفَقُّدِه ، وكمال تَيَقُّظِه — كما ذكرنا .

قوله جل ذكره : « لَأُعَذِّبَنَّه عذاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّه أو لَيَأْتِيَنِّى بسُلْطانٍ مُبِين » .

فى هذه الآية دليل على مقدار الجُرْمِ ، وأنه لا عِبْرَةَ بصغر الجثة وعِظَمِها . وفيه دليل على أن الطير فى زمانه كانت فى جملة التكليف ، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شَرْعٌ ، وأنَّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعْرَفُ ذلك على وجه القَطْع .

وتعيين[1] ذلك العذاب الشديدِ غيرُ ممكنٍ قطعاً ، إلا تجويزاً واحتمالًا .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كلَّ ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ فى شىء نَقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ .

وقد قيل هو نتفُ رِيشِه وإلقاؤه فى الشمس .

---

(١) واضح هنا طريقة منافشة المصرى لشىء لم يرد به النقل . وكيف يعطى النقل أهمية وتقديراً ، فإذا لم يكن نقل فينبغى التجويز لا القطع .

وواضح كذلك مدى استغلاله لهذا الموقف فى توجيه كلامه للمريدين والطالبين بطريق غير مباشر .

وقيل يفرّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشتّت عليه وقته .

وقيل يُلزِمُه خدمة أقرانه .

والأَوْلَى فى هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، وألا يُقْطَعَ بشىء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنَ العذاب الشديد أن يُمْنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولى لشأنه ويوكَلَ إلى حَوْلِه ونَفْسِه ، ومن ذلك أن يُمْتَحَنَ بالحِرْصِ فى الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع فى اسم العذر ثم لا يرتفع[1] . ومن ذلك سَلْبُ القناعة ، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجرى . ومن ذلك توهم الحدثان وحسبان شىء من الخَلْق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِسَّةِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق ، والتباس الحقّ فى صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده . ومنه الفقر فى الغُرْبة .

قوله جل ذكره : « فَمَكَثَ غيرَ بعيدٍ فقال أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ به وجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بنبأٍ يقين »

فلم يلبث الهدهدُ أن جاء ، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تَهدَّدَه ، فقال : أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ ، « وجِئْتُكَ من سبأ بنبأ يقين » .

ثم ذكر حديث بلقيس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم

---

(١) عاد القشيرى إلى الآية نفسها فى رسالته حيث يقول : وقيل فى قوله تعالى : لأعذبنه عذابا شديداً – يعنى لأسلبنه القناعة ولأبتلينّه بالطمع يعنى أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك (الرسالة – ص ٨٢) .

ما عَدَّه ، فلم يتغير سليمانُ — عليه السلام — لذلك ، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك فى الطمع فى مُلْكِ غيرهم ، فلما قال :

« وجَدتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ
وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصَدَّهم عن السبيلِ فَهُمْ
لا يَهْتَدُون »

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ ، وغَضِبَ فى الله ، و :

« قال سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أم كُنتَ من الكاذبين »

وفى هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحدِ لا يوجِب العلمَ فيجب التوقفُ فيه على حدِّ التجويز ، وفيه دلالة على أنه لا يُطرَح بل يجب أن يُتَصَرَّفَ : هل هو صدق أم كذب ؟[1]

ولمَّا عَرَفَ سليمانُ هذا العُذْرَ تَرَكَ عقوبتَه وما تَوَعَّدَه به . . وكذلك سبيلُ الوالى ؛ فإنَّ عَدْلَه يمنعه من الحيفِ على رعيته ، ويَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ فى صورة المجرمين إذا صَدَقَ فى اعتذاره .

قوله جل ذكره : « اذْهَب بكتابى هذا فَأَلْقِه إليهم
ثم تولَّ عنهم فانْظُرْ ماذا يَرْجِعُون »

فى الآية إشارة إلى أنه لا ينبغى للإنسان أن يذكر بين يدى الملوك كلَّ كلمة ، فإنه يَجُرُّ العناءَ بذلك إلى نَفْسِه ؛ وقد كان لسليمان من الخَدَمِ والحَشَمِ ومَنْ يأتمر بأمره الكثير ، ولكنه لم يستعمل واحداً فى هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذى قال ما قال ، فلزمه الخروج من عهدة ما قال .

ويقال لمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكِه عُوِّضَ عليه فَأُهِّلَ للسفارة والرسالة — على ضعف صورته[2] .

---

(١) يضاف هذا الرأى فى أخبار الآحاد إلى مذهب القشيرى فى المسائل الحديثية والفقهية .
(٢) هنا إشارة بعيدة إلى الرسل والأولياء ، ودحض لما يقال عنهم من التهم .

فمضى الهدهدُ ، وألقى الكتابَ إليها كما أُمِرَ ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجاب .

قوله جل ذكره : « قالت يٰأيها الملأُ إنِّى أُلقِىَ إلىَّ كتابٌ كريمٌ * إنه من سليمانَ وإنَّه بسم الله الرحمٰن الرحيم * ألّا تعلُوا علىَّ وَأْتونى مسلمين » .

« كتاب كريم » الكَرَمُ نَفْىُ الدناءة ، وقيل لأنه كان مختوماً[1] ، وقيل لأنَّ الرسولَ كان طيراً ؛ فعَلِمَتْ أنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرة لَهُ لا بُدّ أنه عظيمُ الشأنِ . وقيل : لأنه كان مُصَدَّرًا ببسم الله الرحمٰن الرحيم . وقيل لأنه كتب فيه اسم نَفْسِهِ أولًا ولم يَقُلْ : إنه من سليمان إلى فلانة . ويقال لم يكن فى الكتاب ذكر الطمع فى المُلْكِ بل كان دُعَاء إلى الله : « ألا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين » .

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها ، وقَهَرَها ؛ فلم يكن لها جواب ، فقالت : « إنى أُلقى إلىَّ كتابٌ كريم » فلمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلكِها ، ورُزِقَتْ الإسلامَ وصُحْبَةَ سليمان .

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة مالا يتجرَّدُ عن التسمية ، وإذا تجرَّدت كان الأمرُ فيها بالعكس .

قوله جل ذكره : « قالت يٰأيها الملأُ أفتونى فى أمرى ما كُنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهدونِ[2] » .

---

(١) يقال إنه طبعه بالمسك وختمه بخاتمه . قال صلى الله عليه وسلم : « كرم الكتاب ختمه » وقيل من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخفَّ به .

(٢) (حتى تشهدونِ) بكسر النون ، أما الفتح فلحن ؛ لأن النون إنما تفتح فى موضع الرفع وهذا فى موضع النصب لأن ما سبق «حتى» أسلوب طلبى ، فالفعل ينصب بعدها بأن مضمرة . وأصله «تشهدوننى» فحذفت النون الأولى للنصب ، والياء لدلالة الكسرة .

أخَذَتْ فى المشاورة كما تقتضيه الحال فى الأمور العظام ؛ فإن المَلِكَ[1] لا ينبغى أن يكون مستبداً برأيه ، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأى والبصيرة .

قوله جل ذكره : « قالوا نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأسٍ شديدٍ
والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرين ؟ » .

أجابوا على شرط الأدب ، وقالوا : ليس منا إلّا بَذْلُ الوسع ، وليس لنا إلّا إظهارُ النُّصح ، وما علينا إلا متابعةُ الأمر — وتمشيةُ الأمرِ وإمضاؤه .. إليكِ .

قوله جل ذكره : « قالت إنّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً
أفسدوها وجعلوا أعِزّةَ أهلِها أذِلّةً
وكذلك يفعلون » .

ويقال إنّ : « وكذلك يفعلون » مِنْ قَوْلِها .

ويقال : تغييرُ الملوكِ[2] إذا دخلوا قريةً — عن صفتها — معلومٌ ، ثم يُنْظَر .. فإن كان الداخِلُ عادلاً أزال سُنّةَ الجَوْرِ ، وأثبت سُنّةَ العَدْلِ ، وإنْ كان الداخلُ جائراً أزال الحَسَنَ وأثبت الباطلَ . هذا معلوم ؛ فإنّ خرابَ البلادِ بولاةِ السُّوء ، حيث يستولى أسافلُ الناس وأسقاطُهم على الأعزة منهم ، وكما قيل :

يا دولة ليس فيهـــا من المعـــالى شـــظية
زولى فمـــا أنتِ إلّا على الكرام بلـــيّة

وعمارة الدنيا بولاة الرُّشْدِ ، يكسرون رقابَ الغاغة ، ويُخَلِّصُون الكرامَ من أسْرِ السِّفْلة ، (ويأخذ القوس باريها)[3] ، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها .. كذلك المعرفةُ

---

(١) نعلم من سيرة القشيرى أنه كانت بينه وبين أصحاب السلطان فى موطنه خلافات فى الرأى ، فهو هنا يغمز بما ينبغى أن يكون عليه صاحب السلطان من آداب ، سواء فى اختيار أعوانه ، أو فى قبول النصح والشورى .

(٢) كأنما القشيرى ينفس عن نفسه ما قاساه فى عهد السلطان طغرل ووزيره الكندرى وكأنما يمجد ما ناله من الخير فى عهد السلطان ألب أرسلان . ووزيره العظيم نظام الملك (انظر مدخل هذا الكتاب : المجلد الأول)

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (فتأخذ النفوس بأزمتها) .

والخصالُ المحمودة إذا باشَرَتْ قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنى ، وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّحِّ وصِغَرِ الهمة .. وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتُثْبِتُ بَدَلَها من الأحوال العَلِيَّةِ والأوصاف المَرْضِيَّةِ ما به نظامُ العبد وتمامُ سعادته . ومتى استولت على قلبٍ غاغةُ النفسِ والخصالُ المذمومة أزالت عنه عمارته ، وأبْطَلَتْ نضارتَه ، فتخرب أوطانُ الحقائق ، وتتداعى مساكنُ الأوصاف الحميدة للأفول ، وعند ذلك ، يَعْظُم البلاء وتتراكم المِحَنُ .

قوله جل ذكره : « وإنِّى مُرْسِلَةٌ إليهم بهديةٍ فناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلون » .

جاء فى القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا ، ومن جملتها لَبِنَةٌ مصنوعةٌ من الفضة وأخرى من الذهب . وأن اللهَ أخبر سليمانَ بذلك ، وأوحى إليه فى معناه . وأمَرَ سليمانُ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميدانًا ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللَّبِنِ المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأمَرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك وألا تُنَظِّفَ آثارُها من رَوْثٍ وغيره ، وأن يُتْرَكَ موضعان لِلَبِنَتَيْنِ خالِيَيْن فى ممرِّ الدخول . وأقبل رُسُلُها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلمَّا رَأَوْا الأمر ، ووقعت أبصارُهم على طريقهم ، صَغُرَ فى أعينهم ما كان معهم ، وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا فى الفكرة .. كيف يتخلصون مما معهم ؟ . فلمَّا رأوا موضع اللَّبِنَتَيْن فارغا ظنُّوا أن ذلك سُرِق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا هذا نُسِبْنا إلى أنَّا سرقناها من هذا الموضع ، فطرحاها فى الموضع الخالى ، ودَخَلَا على سليمان :

قوله جل ذكره : « فلمَّا جاء سليمان قال أتُمِدُّونَنِ بمالٍ فما آتانِيَ اللهُ خيرٌ مما آتاكُم بل أنتم بهديتكم تَفْرَحُون » .

أتمدونني مالاً ؟ ! وهل مثلى يُسْتَمَالُ بمثل هذه الأفعال ؟ إنكم وأمثالكم تعامِلُون بمثل ما عوملتم[1] ! أرجع إليهم : —

---

(١) أى أنتم قوم لاتعلمون إلاظاهراً من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزدادون وبما يُهْدَى إليكم ؛ لأن ذلك مبلغ همتكم — وحالى خلاف حالكم ، فأنا — بما آتانى الله — غنىٌّ عن حظوظ الدنيا .

« ارجع إليهم فَلَنَأْتِيَنَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها ولَنُخْرِجَنَّهم منها أذِلَّةً وهم صاغِرون » .

فلمَّا رجعوا إلى بلقيس ، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة ، فعزَمَتْ على المسير إلى خدمته ، وأوحى الله إلى سليمان بذلك ، وأنها خرجت مستسلمةً ، فقال : أيكم يأتينى بعرشِها ؟ .

قوله جل ذكره : «قال يأيها الملأُ أيُّكم يأتينى بعَرْشِها قبل أن يأتونى مُسْلِمين * قال عِفْريتٌ من الجنِّ أنا آتيكَ به قَبْلَ أن تقومَ مِن مقامِك وإنِّى عليه لقوىٌّ أمين » .

بسط اللهُ — سبحانه — مُلْكَ سليمان ، وكان فى مُلْكِه الجِنُّ والإنسُ والشياطين ؛ الجنّ على جهة التسخير ، والإنس على حكم الطوع ، والشياطين وكانوا على أقسام .

ولمَّا قال : «أيكم يأتينى بعرشها ؟ » قال عفريت من الجن — وكان أقواهم — «أنا آتيك به قبل أنْ تقومَ من مقامك وإنى عليه لقوى أمين » ، فلم يرغب سليمانُ فى قوله لأنه بَنَى القولَ فيه على دعوى قُوَّتِه[1] .

قوله جل ذكره : « قال الذى عِندَه عِلْمٌ من الكتابِ أنا آتيكَ به قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إليك طَرْفُكَ فلمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عنده قال هذا من فضل ربى لِيَبْلُوَنى أأشْكُرُ أم أكْفُرُ ومَن شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِه ومَن كَفَرَ فإنَّ ربى غنىٌّ كريم » .

---

(٢) هذه نظرة ملائمة تعتمد على التعوز [illegible] الكلام

« الذى عنده علم من الكتاب » (قيل هو آصف)[1] وكان صاحب كرامة. وكراماتُ الأولياء مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبيُّ صادقاً فى نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقه ويكون من جملة أمته .

ومعلومٌ أنه لا يكون فى وُسْعِ البَشَرِ الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقَطْعُ المسافة البعيدة فى لحظةٍ لا يصح تقديره فى الجواز إلا بأحد وجهين : إمَّا بأن يُقَدِّم[2] اللهُ المسافةَ بين (العرش وبين منزل سليمان)[3] ، وإمَّا بأن يعدم العرش ثم يعيده فى الوقت الثانى بحضرة سليمان . وأىُّ واحدٍ من القسمين كان — لم يكن إلّا من قِبَلِ الله ، فالذى كان عنده علم من الكتاب دعا الله — سبحانه — واستجاب له فى ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه .

ولمَّا رأى سليمان ذلك أخذ فى الشكر لله — سبحانه — والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِهِ ، والاستحياء ، والتواضع له ، وقال : « هذا من فضل ربى » : لا باستحقاقٍ منى ، ولا باستطاعةٍ من غيرى ، بل أحمد النعمةَ لربِّى حيث جعل فى قومى ومِنْ أمتى مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقةُ الشكرِ — على لسان العلماء — الاعترافُ بنعمة المُنْعِم على جهة الخضوع والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناء على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل فى هذا شكرُ اللهِ للعبد لأنه ثناء منه على العبد بذكر إحسان العبد ، وشكرُ العبدِ ثناء على الله بذكر إحسانه .. إلّا أنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامُه ، وإحسانُ العبد طاعتُه وخدمتُه لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرْفُ النعمة فى وجه الخدمة .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص

(٢) فى م (يعدم) بالعين ، وإعدام المسافة أى جعلها فى حكم العدم مقبول فى المعنى ، وينسجم مع جعل العرش فى حكم العدم وإعادة خلقه من جديد .. وكذلك تقديم المسافة (بالقاف) مقبول حتى يصبح نقله من مكان إلى مكان قريب ميسوراً ، فالإعدام أو التقديم كلاهما مقبول لأن القدرة الإلهية تشملهما .

(٣) هكذا فى م ولكنها فى ص (بين القريتين) أى قرية سليمان وقرية بلقيس .

ويقال الشكر ألاَّ تستعينَ بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهودُ المنعِم من غير مساكنةٍ إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنَّكُم[1] » ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد ، غيرَ متعرض لمنال العِوَض .

ويقال حقيقةُ الشكرِ قيد النعم وارتباطها ؛ لأنَّ بالشكر بقاءها ودوامَها .

قوله جل ذكره : « قال نَكِّرُوا لها عَرْشَها نَنظُرْ أَتَهتَدِى أَمْ تكونُ من الذين لا يهتدون » .

أراد سليمانُ أن يمتحنَها وأن يختبرَ عقلَها ، فأمر بتغيير عرْشِها ، فلمَّا رأته : —

« قيل أهكذا عَرْشُكِ ؟ قالت : كأنَّه هو »

فاستدلَّ بذلك على كمالِ عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة ، فصار لها آية وعلامةً على صحة نبوة سليمان — عليه السلام — وأسلَمَتْ : —

« وصَدَّها ما كانت تعبد من دونِ اللهِ إنها كانت من قومٍ كافرين * قيل لها ادخلى الصَّرْحَ فلمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْه لُجَّةً وكَشَفَتْ عن ساقيها قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قواريرَ قالت ربِّ إنِّى ظَلَمْتُ نفسى وأسلمت مع سليمانَ لله ربِّ العالمين »

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها . فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبْهَ

---

(١) آية ٧ سورة ابراهيم .

طبقٍ كبيرٍ صافٍ مضيء ، ووَضَعَه فوق بِرْكَةٍ بها ماء كثير عميق ، يُرَى الماء من أسفل الزجاج ولا يُمَيَّزُ بين الزجاج والماء ، وأُمِرَتْ أن تخوضَ تلك البركة ، فكَشَفَتْ عن ساقيها ؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جِنّيةُ النَّسَبِ ، وأن رجليها كحوافر الدواب ، فتَقَوَّلوا عليها . ولمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماءَ كَشَفَتْ عن ساقيها ، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين . وقيل لها : « إنه صرح مُرد من قوارير » : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجِباً ليقينها . وآمَنَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ فإذا هم فريقانِ يختَصِمُون »

ذكر قصةَ ثمود ، وقصة نبيِّهم صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزةً ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذى كانت لهم فيه أعظم آية . . إلى قوله :

« ومكروا مَكْراً ومَكَرْنا مَكْراً وهم لا يَشْعُرون »

ومَكْرُهُم ما أظهروا فى الظاهر من موافقة صالح ، وعقرهم الناقة خفيةً ، وتوريك الذَّنبِ على غير جارمه[1] ، والتبرّى من اختيارهم ذلك .

وأمّا مَكْرُ اللهِ فهو جزاؤهم على مَكْرِهم باخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم ، ثم إحلالها بهم بغتةً . فالمَكْرُ من الله تخليتُه إياهم مع مَكْرِهم بحيث لا يعصمهم ، وتزيينُ ذلك فى أعينهم ، وتحبيبُ ذلك إليهم . . ولو شاء لعَصَمَهُم . ومن أليم مَكْرِه انتشارُ الصيت بالصلاح ، والعمل فى السِّرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفى الآخرة لا يَجُوزُ فى سُوقِها هذا النَّقْدُ ![2] .

---

(١) أى إلقاء الجرم على غير من اقترف الجرم .

(٢) جميل من القشيرى تعبيره عن أسلوب (التعامل) بين الخلق والمخلوق مكراً بمكر بلفظة (النقد) .. وفى الآخرة لا يسرى هذا النقد ، فلا يجدى مكرهم فتيلا لأن التعامل فى (سوق) الآخرة يكون على نحوٍ آخر .

قوله جل ذكره : « فانظرْ كيف كان عاقبةُ مَكْرِهم
أنَّا دَمَّرْناهم وقومَهم أجمعين » .

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً : —

« فتلك بيوتُهم خاوية بما ظَلَمُوا إنَّ فى ذلك لآيةً
لقومٍ يعلمون » .

وفى الخبر : « لو كان الظلمُ بيتاً فى الجنة لَسَلَّطَ اللهُ عليه الخرابَ » ؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمت بِزَلَّاتِها خربت بلحوقها شؤم الذِّلة حتى يتعود صاحبُها الكسلَ ، ويستوطن مركبَ الفشل ، ويُحْرَم التوفيق ، ويتوالى عليه الخذلانُ وقسوةُ القلب وجحود العين[1] وانتفاء تعظيم الشريعة من القلب . وأصحابُ القلوبِ إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا طَرْدَها عن قلوبهم .. خربت قلوبُهم حتى تقسو بعد الرأفة ، وتجف بعد الصفوة .

فخرابُ النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة ، وخرابُ القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة ، وخراب الأرواح باستيلاء الحجبة والوقفة ، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة[2] .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحِشةَ
وأنتم تُبْصِرون * أئِنَّكُم لتأتون
الرجالَ شهوةً من دون النساء بل أنتم
قومٌ تجهلون » .

ذَكَرَ قصة لوطٍ وأمته ، وما أصَرُّوا عليه من الفاحشةِ ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم من العقوبة ، وإحلالَ العقوبة بامرأته التى كانت تطابق القومَ ، وتخليص الحقِّ لوطاً من بينهم ، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإهلاكهم .

قوله جل ذكره : « قُلِ الحمدُ للهِ وسلام على عباده .
الذين اصطفى آللهُ خيرٌ أم مايُشْرِكون » .

---

(١) أى لا تكون مقراً للاعتبار .

(٢) هذه إشارة هامة توضح آفات الطريق فى مراحله المختلفة .

هم الذين سَلَّم عليهم فى آزاله وهم فى كتم العَدَمِ ، وفى متناول علمه ومتعلق قدرته ، ولم يكونوا أعياناً فى العَدَم ولا أفادوا [1] ، فلمَّا أظهرهم فى الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام ، ويُسْمِعُهم فى الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبَهِ ، ومن فنون البِدَعِ ، ومن وجوه الألم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من الغيبة والحجبة وما ينافى دوام القربة .

ويقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّم عليهم قبل أنْ خَلَقَهم وأبداهم ، وبعد أن سَلَّم عليهم بودِّه لَقَّاهم .

ويقال : اصطفاهم بنورِ اليقين وحُلَّةِ الوَصْلِ وكمالِ العَيْش .

قوله جل ذكره : « أمَّن خلق السمٰواتِ والأرضَ
وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به
حدائق ذاتَ بهجةٍ ما كان لكم أن
تُنْبِتُوا شَجَرَها .. » .

فثمراتُ الظاهرِ غذاء النفوس ، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياء القلوبِ ، وكما لا تبقى فى وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بقيةٌ فلا يبقى فى قلوبهم وأوقاتهم من الغيبةِ والحجبةِ والنفرةِ والتهمةِ شَظِيَّةٌ .

قوله جل ذكره : « أمَّن جعل الأرضَ قراراً وجعل
خلالها أنهاراً وجَعَلَ لها رواسِيَ » .

نفوسُ العابدين قرارُ طاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم ، وأرواح الواجدين قرار

---

(١) ربما يقصد القشيرى أنهم – وقد كانوا فى كتم العدم – لم تصدر عنهم طاعة تفيدهم فى استحقاق إثابة لهم واستيجاب تسليم عليهم .. والمقصود – إن صح هذا الرأى – أن عمل الإنسان لا قيمة له بجانب الفضل الإلهى والقسمة السابقة .

محبتهم ، وأسرار الموحِّدين قرار مشاهدتهم[1] ، فى أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة ، وبها يسكن ظمأ اشتياقهم وهيجانُ قَلَقِهم واحتراقِهم .

« وجعل لها رواسيَ » من الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

ويقال « جعل لها رواسى » اليقين والتوكل .

ويقال الرواسى فى الأرض الأبدالُ والأولياء والأوتاد[2] ؛ بهم يديم إمساكَ الأرض ، وببركاتهم يَدْفَعُ عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسى هم الأئمة الذين يَهْدُون المسترشدين إلى الله .

قوله جل ذكره : « وجعل بين البحرين حاجِزاً أإلٰهٌ مع الله بل أكثرُهُم لايعلمون » .

« جعل بين البحرين حاجزاً » بين القلب والنفس لئلا يغلب أحدُهما صاحبَه .

ويقال بين العبودية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غَلَبَتْ العبوديةُ كانت جَحْداً للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقةُ العبوديةَ كانت طَيًّا للشريعة .

ويقال: ألْسِنَةُ المريدين مَقَرُّ ذكره ، وأسماعُهم محَلُّ الإدراك الموصِّل إلى الفهم ، والعيون مقر الاعتبار .

قوله جل ذكره : « أمَّن يجيب المُضْطَرَّ إذا دعاه ويكشف السوء . . » .

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء ؛ فالإجابةُ بالقَولِ والكشفُ بالطَّوْلِ ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإنعام . ودعاء المضطر لاحجابَ له ، وكذلك دعاء المظلوم » ولكن لكلٍّ أجلٍ كتاب » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مساعدتهم) ويبدو أن الهاء التبست على الناسخ ، فالمعروف أن الاسرار محل المشاهدة .

(٢) جاء فى حلية الأولياء (حـ٨ ص ٣٦٧) حديث عن النبى (ص) : «خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم) .

ويرى الجرجانى : أن الأبدال سبعة (التعريفات ص ٣٧ ط مصر سنة ١٩٣٨)

ويرى ابن عساكر : أنهم ٢٢ بالشام + ١٨ بالعراق (تاريخ دمشق لابن عساكر حـ١ ص ٢٧٨) .

ويرى الهجويرى : أن الأوتاد أربعة يطوفون العالم بجملته كل ليلة (كشف المحجوب ص ٢٦٩) .

ويقال للجناية : سراية ؛ فمَنْ كان فى الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُرْمِه الذى سَلَفَ منه وهو مختارٌ فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم فى حال اختيارهم .

وما دام العبدُ يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلِ والحيلة ، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه — فليس بمضطرٍ ، فالمضطرُّ يرى نَفْسَه كالغريق فى البحر ، أو الضالّ فى المتاهة ، وهو يرى عِنَانَه بيد سَيِّدِه ، وزِمَامَه فى قبضته ، فهو كالميت بين يدى غاسِلِه ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة[1] .

ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحدٍ فى أن يدعوَ له ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ الإجابة له .. لا لمن يدعو له .

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابةَ وكَشْفَ السوء وَعَدَه بقوله : —

« ... ويجعلُكم خُلَفَاء الأرضِ أإلٰهٌ
مع اللهِ قليلًا ما تَذَكَّرون » .

فإنَّ مع العسر يسراً ، ولم يقل: للعسر إزالة ، ولكن قال : مع العسرِ يُسْرٌ ؛ فنهارُ اليُسْرِ حاصلٌ بعد ظلام العُسْرِ .

ثم قال : « أإلٰه مع الله قليلًا ما تذكرون » لأنَّ العبدَ إذا زَالَ عُسْرُه ، وكُشِفَ عنه ضُرُّه نَسِيَ ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يَكُ صعلوكا إذا ما تَمَوَّلَا

---

(١) إذا اطمأن العبد لنفسه ، ولاحظ عملَه فَقَدَ عنصراً هاماً من عناصر السير فى هذا الطريق ، وهو الإخلاص .. وفى ذلك يقول أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . ويرى أبو عثمان المغربى : أن إخلاص الخواص : هو ما يجرى عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد .

قوله جل ذكره : « أَمَّن يَهدِيكُم فى ظُلُمَاتِ البرِّ والبحرِ »

إذا أظلم الوقتُ على صاحبه فى متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعضٍ بشواهد العقل .. فَمَنْ الذى يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير ، وللاستسلامِ لحكم التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوَّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق ، والاستسلام لما جرَتْ به الأقسامُ ، وسَبَقَت به الأقدار ؟ .

« .. ومَن يُرسِلُ الرياحَ بُشْراً بين يدى رحمتِه أإلٰهٌ مع اللهِ تعالى اللهُ عَمَّا يُشْرِكون » .

مَنْ الذى يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِهِ بين يدى أنوار اختياره فيمحوَ آثارَ اختيارِ نَفْسِك ، ويعجِّلَ بحُسْن الكفاية لك ؟ .

ويقال : يرسل رياحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأوضار التدبير ، ثم يُطْلِعُ شموسَ الرضا فيحصلُ بَرْدُ الكفاية فوق المأمول فى حال سكينة القلب .. أإله مع الله ؟ « تعالى الله عما يشركون » : من إحالة المقادير على الأسباب .

قوله جل ذكره : « أَمَّن يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُه ومَن يرزقُكُم من السماء والأرضِ أإلٰهٌ مع اللهِ قُلْ هاتوا بُرهانَكُم إن كنتم صادقين » .

يُظْهِرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِه ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحقَّ فيه قولُه ، وسَبَقَ به قضاؤه وقَدَرُه . فإذا زال وانتفى وانعدم بعضُ ما يظهر ويخصص .. فَمَنِ الذى يعيده مثلما بدأه ؟ ومن الذى يضيِّق الرزقَ ويُوَسِّعُه ؟ ومن الذى يقبض فى بعض الأوقات على

بعض الأشخاص ؟ وفى وقت آخر من الذى يبسط على قوم آخرين ؟ .

هل فى قدرة أحدٍ غيرِ اللهِ ذلك ؟ .

إنْ توهمتم شيئاً من ذلك فأوْضِحُوا عنه حُجَّتَكم . وإذ قد عجزتم .. فهلّا صدّقتُم ؟ وبالتوحيد أقررتم ؟ .

قوله جل ذكره : « قُل لا يعلم مَن فى السموات والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ وما يَشْعُرون أيّانَ يُبْعَثُون » .

« الغيب » : ما لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ ، وليس عليه للخلْق دليل ، وهو الذى يستأثر بعلمه الحقُّ[1] ، وعلومُ الخَلْق عنه متقاصرة ، ثم ما يريد اللهُ أن يخصَّ قوماً بعلمه أفردهم به .

« وما يشعرون أيان يبعثون » : فإنه أخفى علمَ الساعة عن كل أحدٍ .

قوله جل ذكره : « بل ادّارَكَ[2] عِلْمُهم فى الآخرةِ بل هم فى شكٍّ منها بل هم منها عَمُون » .

فهم فى الجملة يَشُكُّون فيه ؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه .. وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضِ القلب ، فلا حياةَ له فى الحقيقة ، ولا راحةَ له من يأسه ؛ إذ هو من البعث فى شكٍّ ، ومن الحياة الثانية فى استبعاد : —

« وقال الذين كفروا أإذا كُنَّا تُراباً وآباؤنا أئِنَّا لَمُخْرَجون * لقد وُعِدْنا هذا نحن وآباؤنا من قَبْلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ إذ الحق هو الذى يستأثر بعلم الغيب .

(٢) يرى القرطبى أن القراءة هكذا والقراءة على (بل أدرك) معناها واحد لأن أصل (ادّارك) تدارك وأدغمت الدال فى التاء وجىء بألف الوصل (الجامع لأحكام القرآن جـ ١٣ ص ٢٢٦) .

وُعِدَ آباؤنا بذلك من قبل ، ثم لم يكن لهم تحقيق ، وما نحن إلا مِثْلُهم ، وكانوا يسألون متى الساعة ؟ :

« ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ » .

فقال الحقُّ : إنه عن قريبٍ سيحل بهم ميقاته : —

« قُلْ عسىٰ أنْ يكونَ رَدِفَ[1] لكم بعضُ الذى تستعجِلون » .

ثم قال جل ذكره :

« وإنَّ رَبَّكَ لذو فَضْلٍ على الناسِ ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

لأنهم لا يُمَيِّزُون بين مِحَنِهم ومِنَحِهم . وعزيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ بين ما هو نعمةٌ من الله له وبين ما هو محنة ؛ فإذاً تقاصَرَ عِلْمُ العبدِ عمَّا فيه صلاحه ، فعسى أن يحب شيئاً ويظنَّه خيراً وبلاؤه فيه ، ورُبَّ شيء يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها ، وهى محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله فى صَرْفِها ! وبعكس هذا كم من شيء يظنه الإنسان بخلاف ما هو به ! .

قوله جل ذكره : « وإنَّ ربَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صدورُهم وما يُعْلِنون » .

لا تَلْتَبِسُ على الله أحوالُهم ؛ فصادِقٌ يستوى ظاهِرُه وباطنُه بعلمه ، ومنافقٌ يخالف باطنُه ظاهرَه يُلَبِّسُ على الناس حالَه .. وهو — سبحانه — يعلمه ، وكافرٌ يستوى فى الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه يعلمه ، وهو يجازى كلاً على ما عَلِمَه .. كيف لا .. وهو قَدَّرَه ، وعلى ما عليه قضاه وقَسَمَه ؟ : .

---

(١) من أردف أى تبع ، وقال الفراء : ردف لكم أى دنا .

قوله جل ذكره : « وما مِنْ غائبةٍ فى السماء والأرضِ
إلَّا فى كتابٍ مبين » .

ما من شىء إلَّا مُثْبَتٌ فى اللوح المحفوظ حُكْمُهُ ، ماضيةٌ فيه مشيئته ، متعلِّقٌ به عِلْمُهُ

قوله جل ذكره : « إنَّ هـذا القرآنَ يَقُصُّ على بنى
إسرائيل أكثَرَ الذى هم فيه يختلفون *
وإنَّهُ لَهُدًى ورحمةٌ للمؤمنين » .

وهم يُخْفُون بعضاً ، وبعضاً يُظْهِرُون ، ومع ما يَهْوَوْن يدورون .

وفى هذه الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابَهم ، وعَصَمَ مِنَ التغيير والتبديل ما به يدينون . وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدًى ورحمة للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذى أخبر الصادقُ أنهم له مُحَرِّفون مُبَدِّلُون .

« إنَّ رَبَّكَ يقضى بينهم بحُكْمِهِ
وهو العزيز العليم » .

هو « العزيز » المُعِزُّ للمؤمنين ، « العليم » بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم .

قوله جل ذكره : « فتوكَّلْ على اللهِ إنَّكَ على الحقِّ
المبـين » .

أى اجتهد فى أداء فَرْضِه ، وثِقْ بصدق وعده فى نصره ورزقه ، وكفايته وعَوْنِه . ولا يهولنَّكَ ما يجرى على ظواهرهم من أذًى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كلُّه بتسليطنا إن كان محذوراً ، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً . وإنك لَعَلَى حقٍّ وضياء صِدْقٍ ، وهم على سنَنِ ضلالةٍ وشِرْكٍ .

قوله جل ذكره : « إنَّك لا تُسْمِعُ الموتَى ولا تُسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعاء إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين » .

الذين أمات اللهُ قلوبَهم بالشِّرْكِ ، وأصَمَّهم عن سماع الحق — فليس فى قُدْرَتِكَ أنْ تَهْدِيَهم للرُّشْدِ أو تنقذهم من أَسْرِ الشكِّ .

« وما أنت بِهادِى العُمْىِ عن ضلالتِهم
إن تُسْمِعُ إلَّا مَن يُؤْمِن بآياتنا فَهُم
مُسْلِمُون » .

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة ، ولكنك لا تهدى أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالته إلى العرفان ، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .

أنت لا تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يؤمِن بآياتنا ، فلا يَسْمَعُ منك إلَّا مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق .

قوله جل ذكره : « وإذَا وَقَعَ القولُ عليهم أخرجنا لهم
دابَّةً مِنَ الأرضِ تُكَلِّمُهم أنَّ الناسَ
كانوا بآياتِنا لا يوقِنون » .

إذا حقَّ الوعدُ بإقامةِ القيامةِ أوضحنا أشراطَها فى كلامِ الدَّابةِ المُخْرَجَةِ من الأرضِ (١) . وغير ذلك من الآيات .

قوله جل ذكره : « ويومَ نَحْشُرُ من كلِّ أمةٍ فوجاً مِمَّن
يُكَذِّبُ بآياتنا فهم يُوزَعون » .

وعند ذلك لا ينفع الإيمانُ ولا يُقبَلُ العُذْرُ : —

---

(١) فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم : «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً = زيادة من صحيح مسلم) طلوعُ الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» . ومن الأقوال فى هذه الدابة: أنها فصيل ناقة صالح ، ومنها أن هذه الدابة تكون إنساناً متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، ومنها أنها تخرج من جبل الصفا بمكة بعد أن يتصدع ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة للصحابة والتابعين والمفسرين .

«وَوَقَعَ القولُ عليهم بما ظلموا فهم
لا ينطِقُون» .

ثم كَرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما : —

« ألم يَرَوْا أنّا جعلنا الليلَ لِيَسْكُنُوا
فيه والنهارَ مُبْصِراً إنّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يُؤْمِنون » .

أى ليكونَ الليلُ وقتَ سكونِهم ، والنهارُ وقتَ طلبِ معاشِهم .

قوله جل ذكره : « ويومَ يُنفَخُ فى الصُّورِ ففزِعَ مَن
فى السمٰواتِ ومَن فى الأرضِ إلّا مَن
شاء اللهُ وكُلٌّ أتَوْه داخرين » .

أخبر أن اليومَ الذى يُنْفَخُ فيه فى الصور هو يومُ إزهاق الأرواح ، وإخراجها عن الأجساد؛ فَمِنْ روحٍ ترقى إلى عِلّيين ، ومِنْ روحٍ تذهب إلى سجّين . أولئك فى حواصل طيرٍ تسرح فى الجنة تأوى بالليلِ إلى قناديلَ معلقةٍ من تحت العرش صفتها التسبيح والرَّوْح والراحة ، ولبعضها الشهود والرؤية ... على مقادير استحقاقهم لِمَا كانوا عليه فى دنياهم .

وأمّا أرواحُ الكفار ففى النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم .

قوله جل ذكره : « وترى الجبالَ تَحْسَبُها جامِدةً وهى
تَمُرُّ مَرَّ السحابِ صُنْعَ اللهِ الذى أتقن
كُلَّ شىء إنّهُ خبيرٌ بما تفعلون » .

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين ، هم ساكنون بنفوسهم[1] سائحون فى الملكوت بأسرارهم .. قيل: إن الإشارة اليومَ إليهم . كما قالوا : العارف كائنٌ بائنٌ : كائنٌ مع الناس بظاهره ، بائنٌ عن جميع الخَلْق بسرائره .

---

(١) عُرِف الجنيدُ بسكونه وقلة اضطرابه عند السماع ، فلما سئل فى ذلك تلا : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى .... » (اللمع للسراج ص ١٢٨) .

قوله جل ذكره : « مَن جاء بالحسنةِ فله خيرٌ منها وهم مِّن فَزَعٍ يومئذٍ آمِنون * ومَن جاء بالسيئةِ فَكُبَّتْ وجوهُهم فى النار هل تُجْزَوْنَ إلّا ما كُنتُم تعملون » .

يحتمل أن يكون « خير » ها هنا للمبالغة ؛ لأن الذى له فى الآخرةِ من الثوابِ خيرٌ مِمّا منه من القُرَب : ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها . وهم آمنون مِنْ فَزَعِ القيامة . ومن جاء بالسيئة : فكما أن حالَهم اليوم من المطيعين بالعكس فَحُكْمُهم غداً فى الآخرة بالضدِّ .

قوله جل ذكره : « إنما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ ربَّ هذه البلدة ... »

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفِ ، والتبرّى من الشِّركِ ؛ الجلىِّ منه والخفىِّ ، وبملازمةِ الطريقِ السَّوىِّ . وأخبر أنَّ مَنْ اتبعه وصَدَّقَه أوجب الحقُّ ذمامه وحقَّه .

قوله جل ذكره : « وقُلِ الحمدُ للهِ سيريكم آياته .. »

سيريكم — عن قريبٍ — آياتِه ، فطوبى لِمَنْ رجع قبل وفاته ، والويلُ على مَنْ رجع بعد ذهاب الوقت وفواته ! .

سورة القصص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسَّر له فى دنياه وعُقْباه ، اسم عزيز مَن اشتاق إلى لُقْياه استعذَبَ فيه ما يلقاه من بَلْوَاه . ومَنْ طَلَبَ غيره مُؤْنِساً فى دنياه أو عُقْباه « ضَلَّ مَنْ تدعون إلّا إياه » .

قوله جل ذكره : «طسم * تلك آياتُ الكتابِ المبين» .

« الطاء » تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار الموحِّدين عن شهود غير الله . « والسين » تشير إلى سِرِّ اللهِ مع العاصين بالنجاة ، ومع المطيعين بالدرجات ، ومع المحبين بدوام المناجاة . « والميم » تشير إلى مِنَّتِه على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات فى سبيل الخيرات .

قوله جل ذكره : « نتلوا عليكَ من نبأِ موسىٰ وفرعون بالحقِّ لقومٍ يؤمِنون » .

سماعُ قصةِ الحبيبِ من الحبيب يُوجِبُ سلوةَ القلب ، وذهابَ الكَرْبِ ، وبهجةَ السِّرِّ ، وثَلَجَ الفؤاد . وقد كرَّر الحقُّ ذكر قصة موسى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقَدْرِه ، ثم زيادةً فى البيانِ لبلاغة القرآن ، ثم إفادةً لزوائدَ فى المذكورِ قولُه فى كل موضعٍ يتكرر فيه .

قوله جل ذكره : « إنَّ فرعونَ عَلاَ فى الأرضِ وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً يستضعف طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءهم ويَستحيِ نساءهم إنه كان من المفسدين » .

تكبّر فرعونُ بغير حقٍّ فأقاه بحقٍّ ، وتجبّرَ بغير استحقاق فأذلّه الله باستحقاق واستيجاب ، وجعل أهلها شيعاً يذبّح أبناءهم[1] بعد ما استضعفهم ، ويستحى نساءهم ، وأفنى منهم من كان (...)[2] ، وبالفساد حَكَمَ فيهم ، واللهُ لم يرضَ بتركِ إتلافهم .

قوله جل ذكره : « ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين * ونُمَكِّنَ لهم في الأرضِ ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم ما كانوا يَحْذَرُون » .

نريد أن نَمُنَّ على المستَضْعَفِين بالخلاصِ من أيديهم ، وأنْ نجعلَهم أئمةً ، بهم يَهْتَدِي الخلْقُ ، ومنهم يتعلم الناسُ سلوكَ طريق الصدق ، ونبارك في أعمارهم ، فيصيرون وارثين لأعمار مَنْ يُناويهم ، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم ؛ فهم هُدَاةٌ وأعلامٌ ، وسادةٌ وقَادَةٌ ؛ بهم يُقْتَدَى وبنُورِهم يُهْتَدَى .

« ونمكن لهم في الأرض » : نُزِيلُ عنهم الخوفَ ، ونرزقهم البسطة والاقتدار ، ونمد لَهُمْ في الأجل . ونُرِي فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهم على أيديهم ؛ وأنَّ الحقَّ يُعْطِي — وإن كان عند الخَلْق أنَّهُ يُبْطِي .

قوله جل ذكره : « وأوحينا إلى أمِّ موسىٰ أنْ أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رادُّوه إليكِ وجاعِلوه من المرسلين » .

---

(١) كان سبب سلوكه هذا السبيل مع بني إسرائيل أن الكهنة قالوا له ان مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال له المنجمون ذلك ، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

(٢) مشتبهة .

أى ألقينا فى قلبها ، وأوحينا إليها وحىَ إلهامٍ ، فاتخذت خاطرها فى ذلك ، وجرى منها ذلك وهى مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها .

لما وضعت أم موسى موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ فى ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبنى اسرائيل، رجاء أن يقتلَ مَنْ رأى فى النوم ما عُبِّر له أن ذهابَ مُلْكِه على يدى إسرائيلى .. فألقى الله فى قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنه ربّاه فى حِجْرِه ذلك اليومَ — ليُعْلَمَ أنّ الأقدارَ لا تُغَالَبُ .

جعلت أم موسى موسى فى تابوتٍ ، وألقته فى نيل مصر ، فجاء الماء به إلى بِرْكةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها ، فأخذوه وحملوه إليه ، وفتحوا رأسَ التابوت . فلما رآه فرعون أخَذَتْ رؤيتُه بمجامع قلبه ، وكذلك تمكّن حُبُّه من قلب امرأةِ فرعون ؛ قال تعالى : « وألقيت عليك محبةً منى » : [1] حيث خَلَقَ الله ملاحةً فى عينى موسى ؛ فكان من يقع عليه بَصَرُه لا يتمالك من حُبِّهِ .

قوله جل ذكره : « فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدواً وحَزَناً إنّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين » .

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأةُ فرعون :

« قُرَّتُ عينٍ لى ولكَ لا تقتلوه عسىٰ أن يَنفعَنا أو نَتَّخِذَه ولداً وهم لا يشعرون » .

فلم يكن لها ولد ، وهم لا يشعرون إلى ماذا يئول أمره .

« وأصبح فؤادُ أمِّ موسىٰ فارغاً إن كادت لَتُبْدِى به لولا أن رَبَطْنا على قلبها لِتكونَ مِنَ المؤمنين » .

---

(١) آية ٣٩ سورة طه .

لمّا ألقته فى الماء سَكَّنَ اللهُ قلبَها ، وربط عليه ، وألهمها الصبر ، وأصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدى به من حيث ضعف[1] البشرية ، ولكن الله ربط على قلبها .

قوله جل ذكره : « وقالت لأخته قُصِّيه فَبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون » .

أمَرَتْ أمُّ موسى أختَه أن تتبعَ أثره ، وتنظرَ إلى ماذا يئول أمره ، فلمّا وجدوه واستمكن حُبُّه من قلوبهم طلبوا مَنْ يُرضِعه :

« وحَرَّمنا عليه المراضِعَ من قَبْلُ
فقالَتْ هل أدُلُّكم على أهل بيتٍ
يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه
إلى أمِّه كى تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزَنَ
ولتعلمَ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ولكنَّ
أكثَرَهم لا يعلمون » .

أبى موسى قبولَ ثدىِ واحدةٍ ممن عُرِضَ عليهن .. فَمَنْ بالغداة كانوا فى اهتمامٍ كيف يقتلونه أمسوا — وهم فى جهدهم — كيف يُغَذُّونه[2] !

فلمّا أعياهم أمرُه ، قالت لهم أختُه : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ » فَقَبِلُوا نصيحتها شفقةً منهم عليه ، وقالوا : نعم ، فردُّوه إلى أمِّه[3] ، فلمّا وَضَعَتْ ثَدْيَها فى فمه ارتضعها موسى فَسُرُّوا بذلك ، وكانوا يَدْعُون أمَّه حاضنةً ومرضعةً .. ولم يُضِرها ، وكانوا يقولون عن فرعون : إنه أبوه .. ولم ينفعه ذلك[4] !

---

(١) هكذا فى م ، وقد أخطأ الناسخ فى ص حين أضاف لفظة (الله) بعد (ضعف) .
(٢) هكذا فى م ، وفى ص (يعذبونه) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .
(٣) هكذا فى م ، وفى ص (آمره) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .
(٤) يقصد القشيرى إلى شىء بعيد هو أن أحكام الناس ليست بالضرورة صائبة ، وأن للأمور حقائق وجواهر وبواطن خافية ، وأن أسماء الأشياء وظواهرها لا عبرة بها .

ولمَّا أخذته أمُّه علمت بتصديق الله ظنها ، وسكن عن الانزعاج قلبُها ، وجرى من قصة فرعون ما جرى .

قوله جل ذكره : « ولمَّا بَلَغَ أشُدَّه واستوىٰ آتيناه حُكْماً وعِلماً وكذلك نجزى المحسنين »

لمَّا كَمُلَتْ سِنُّه وتمَّ عقلُه ، واستوى كمال خصاله « آتيناه حكما » : أى أتممنا له التحصيل ، ووَفَّرْنا له العلم ، وبذلك جرَتْ سُنَّتُنا مع الأكابر والأنبياء .

قوله جل ذكره : « ودَخَلَ المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها فوجَدَ فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوِّه ..» الآية .

قيل : دخل المدينةَ فى وقت الهاجرة، وتَفَرُّقِ الناس ، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان:أحدهما إسرائيلىٌّ من شيعة موسى وعلى دِينه ، والآخرُ قِبطىٌّ مخالفٌ لهما ، فاستغاث الإسرائيلىُّ بموسى على القبطى ، فوكَزَه موسى ليَدْفَعَه عن الإسرائيلى،فمات الرجلُ بذلك الوَكْز ، ولم يكن موسى يقصد قَتْلَه ، فقال موسى : —

« هذا من عَمَلِ الشيطانِ إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبين » .

فقد تمنَّى موسى أنْ لو دَفَعَه عنه بأيْسَرَ مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان[1] ، ولكنَّ دَفْعَهُ عنه بالغلظةِ نَسَبَه إلى الشيطان بأنْ حَمَلَه على تلك الحِدَّة .

وهكذا .. إذا أراد اللهُ أمراً أجرى أسباباً ليَحْصُلَ بها مرادُه ، ولولا أنه أراد فتنةَ موسى لَمَا قبَضَ روحَ الرجلِ بمثل تلك الوكزة ، فقد يُضْرَبُ الرجلُ الكثيرَ من الضَّرْبِ والسياط ثم لا يموت ؛ فموتُ القبطى بوكزةٍ اجراء لما قضاه وأراده .

---

(١) يتصل ذلك برأى القشيرى :أن الشيطان ليس بيده شىء ؛ لأنه لو كان بيده شىء لأمسك على الهداية نفسه ، وكل عمل الشيطان أنه يوسوس فى صدور الناس .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إنِّى ظَلَمْتُ نفسى فاغْفِرْ لى فغَفَرَ له إنه هو الغفورُ الرحيم » .

تاب موسى عمّا جرى على يده ، واستغفر ربَّه ، وأخبر اللهُ أنه غفَرَ له ، ولا عتاب[1] بعد المغفرة .

قوله جل ذكره : « قال رَبِّ بما أنْعَمْتَ علىَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين » .

قال موسى ربِّ بما أنعمت علىَّ من توفيقك لى بالتوبة[2] فلن أعودَ بعد ذلك إلى مثل ما سَلَفَ منى .

قوله جل ذكره : « فأصبح فى المدينةِ خائفاً يترقَّبُ فإذا الذى استنصره بالأمسِ يَسْتَصْرِخُه
قال له موسى إنَّكَ لَغَوِىٌّ مبين *
فلمَّا أنْ أرادأن يَبْطِشَ بالذى هو عدوٌّ
لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلَنى
كماقَتَلْتَ نَفْساًبالأمسِ إن تُرِيدُ إلاَّ أن
تكونَ جبَّاراً فى الأرضِ وما تريدُ
أن تكونَ من المُصْلِحين » .

أصبح فى المدينة خائفاً على نَفْسِه من فرعون لأنه كان يَدَّعى أنه يحكم بالعدل ، وخاف موسى أن ينسبه فى قَتْلِ القبطىِّ إلى العَمْدِ والقصد . فهو « يترقب » علم فرعون وأن يُخْبَر بذلك فى وقته .

---

(١) هكذا فى النسختين ولا نستبعد أن تكون (عقاب) بالقاف فالسياق يحتملها أيضاً وإن كانت (عتاب) أليق بمقام النبوة .

(٢) حقيقة التوبة أن يتوب الله عليك أولاً ، ويهيىء لك أسباب التوفيق لذلك ، فإذا شكرت فاشكر له ، فعملك لا يكفى ولا يغنى عن فضل الله .

وقيل « خائفاً » من الله مما جرى منه . ويقال « خائفاً » على قومه حلولَ العذابِ بهم . وقيل « يترقب » نصرة الله إياه . ويقال « يترقب » مُؤْنِساً يَأْنَسُ به .

فإذا الذى استنصره بالأمس يخاصِمُ إنساناً آخَرَ ، ويستعين به لِيُعِينَه ، فَهَمَّ موسى بأن يعين صاحبَه ، فقال الذى يخاصمه : « ياموسى ، أتريد أن تقتلنى كما قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ؟ » : قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذى قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، ولكن لمَّا قَصَدَ مَنْعَه عن صاحبه استدلَّ على أن موسى هو الذى قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أنَّ موسى هو الذى قتل القبطىَّ بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل .

قوله جل ذكره : « وجاء رَجُلٌ من أقصى المدينةِ يسعىٰ
قال ياموسى إنَّ الملأَ يَأْتَمِرُون بِكَ
ليقتلوكَ فاخرُجْ إنِّى لَكَ مِنَ الناصحين »

جاء اسرائيلىٌّ من معارف موسى يسعى ، وقال إن القوم يريدون قَتْلَكَ ، وأنا واقفٌ على تدبيرهم ؛ وقد أرادوا إعلامَ فرعون .. فاخرُجْ من هذا البلد ، إنى لك من الناصحين .

« فخرج منها خائفاً يَتَرَقَّبُ قال ربِّ
نَجِّنى من القومِ الظالمين » .

خرج[1] من مصر « خائفاً » أن يقتفوا أثَرَه ، « يترقب » أن يدركه الطلب ، وقيل « يترقب » الكفايةَ والنصرةَ من الله ، ودعا الله فقال : « نجنى من القوم الظالمين » .

قوله جل ذكره « ولمَّا تَوَجَّه تِلقاءَ مدينَ قال عسىٰ ربى
أن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السبيل » .

---

(١) ربما يذكرنا موقف موسى بقضية هامة فى الطريق الصوفى هى «السفر» : وضرورته أو عدمها ، وقد اختلف المشايخ فى أمره (الرسالة ص ١٤٣) ، ويرى القشيرى ضرورة السفر . إن نبا المكان واشتد البلاء . (الرسالة ص ٢٠٢) وهو نفسه غادر بلاده عند إطباق المحنة عليه .

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح[1] ، وتوجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديَه ربُّه إلى النحو الذى هو خيرٌ له ، فقال : عسى ربى أن يهدينى إلى أرْشَدِ سبيلٍ لى .

قوله جل ذكره : « ولَمَّا وَرَدَ ماء مدينَ وَجَدَ عليه أُمَّةً من الناسِ يسقون ووَجَدَ من دونِهمُ امرأتين تذودان قال ما خطْبُكما ؟ قالتا لا نَسْقِى حتى يُصْدِرَ الرِّعاء وأبونا شيخٌ كبير » .

لمَّا وافى مدين شعيب كان وقت الهاجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون الماءَ فى الحياضِ ، ويسقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيبُ النبيُّ عليه السلام قد كُفَّ بَصَرُه لكثرة بكائه ؛ فى القصة أنه بكى فذهب بَصَرُه ، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَه فبكى ، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُه ، فأوحى الله إليه : لِمَ تبكى ياشعيب .. ؟ إنْ كان بكاؤك لخوف النار فقد أَمَّنْتُكَ ، وإن كان لِأَجْلِ الجنة فقد أَتَحْتُها لك .

فقال : ربِّ .. إنما أبكى شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخْدَمْتُكَ نَبِيِّى وكليمى عَشْرَ حجج .

وكانت لشعيب أغنامٌ ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت بِنْتاه تسوقان الغنمَ مكانَ الرعاة ، ولم يكن لهما قدرة[2] على استقاء الماء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انقضَوْا[3] فإنْ بَقِيَتْ فى الحوضِ بقيةٌ من الماء استقت بنات شعيب .

---

(١) وهكذا سفر الأكابر .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (قوة) .

(٣) من الجائز أن تكون فى الأصل (انفضوا) بالفاء فالسياق يحتملها بدليل قوله فيما بعد (فلما انصرف الرعاة)

فلمّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهَدَ ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبُه لهما وقال : ما خطبُكما ؟ فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير . فلمّا انصرف الرعاةُ سَقَى لهما ، ثم تولّى إلى ظلِّ جدارٍ بعد ذلك . كان الجوع قد أصابه خلال سفَرِه ، ولم يكن قد تعوَّدَ قط الرحلةَ والغُرْبةَ ، ولم يكن معه مالٌ ، فدعا الله :

« فقال ربِّ إنِّى لِمَا أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقيرٌ » .

قيل طَلَبَ قوةً تُزيل جوعَه ، وقيل طَلَبَ حالًا يستقِلُّ بها . والأحسن أن يقال جاع فَطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بها رَمَقَه — والمعرفة توجِب سؤالَ ما تحتاج إليه من الله قليلًا أو كثيراً[1] . فلمّا انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسّها بيديه فوجَدَ أثرَ الزيادة فى تلك الكَرَّة ، فسألَهما فذَكَرَتا له القصة ، وما سمعتا منه حين قال : « ربِّ إنى لما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقيرٌ ، فقال شعيب : إذاً هو جائع . وبَعَثَ إحداهما لتدعوَه : —

« فجاءَتْهُ إحداهما تمشى على استحياءٍ قالت إنَّ أبى يَدْعُوك لِيَجْزِيَكَ أجرَ ما سَقَيْتَ لنا . فلمّا جاءه وقصَّ عليه القَصَصَ قال لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القومِ الظالمين »

قيل إنما استحيَتْ لأنها كانت تخاطِبُ مَنْ لم يكن لها مَحْرَماً[2] .

وقيل لمّا دَعَتْه للضيافة تكلمتْ مستحيِيةً — فالكريم يستحى من الضيافة .

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لمّا أحْسَنَ موسى إليه وأنه[3] لم يكافئه — وإن كان موسى

---

(١) لاحظ كيف طبق القشيرى (أدب السؤال) ومتى يجب ؟ وكيف يجب ؟ على موقف موسى الغريب المسافر الجائع المتعب ، وهذه الإشارة موجهة من بعين إلى أرباب الطريق .

(٢) المحرم من الرجال والنساء الذى يحرم التزوج به لرحمه وقرابته .

(٣) الضمير فى (وأنه) يعود على شعيب كما هو واضح من السياق .

لم يُرِدْ مكافأةً منهم « فلمَّا جاءه وقصَّ عليه القصص » : لم يَقُلْ : فلما جاءَه قَدَّم السُّفْرةَ[1] بل قال : وقصَّ عليه القصص .. وهذا طَرَفٌ من قصته .

ويقال : وَرَدَ بظاهرِه ماءَ مدين ، ووَرَدَ بقلبه موارِدَ الأُنْس والرَّوْح . والموارد مختلفة ؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسطِ بكشوفات الحاضرة فيطربون بأنواع الملاطَفَة ، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواح فيُكاشَفُون بأنوار المشاهدة ، فيغيبون عن كل إحساسٍ بالنَّفْسِ ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ .. وعند ذلك الولاية لله ؛ فلا نَفْسَ ولا حِسَّ ، ولاقلبَ ولا أُنْسَ .. استهلاكٌ فى الصمدية وفناء بالكلية ! .

ويقال كانت الأجنبيةُ والبعد عن المحرميَّة يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالها .. ولكن الذى بينهما من المشاكلة والموافقة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألها عن قصتهما ، كما قيل :

أَجارَتَنا إنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ويقال : لمَّا سألها وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أمرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكالُهم .

ويقال مِنْ كمالِ البلاء على موسى أنَّه وافى الناسَ وكان جائعاً ، وكان مقتضى الرِّفْقِ أنْ يُطْعِموه ، ولكنه قَبَضَ القلوبَ عنه ، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أنْ يعملَ عَمَلَ أربعين رجلاً ؛ لأن الصخرة التى نَحَّاها عن رأس البئر — وَحْدَه — كان ينقلها أربعون رجلاً ، فلمَّا عَمِلَ عَمَلَ أربعين رجلاً ، تولَّى إلى الظِّلِّ ، وقال : إنْ رأيتَ أنْ تُطْعِمَنِي بعد مُقَاساة اللتيا والتى .. فذلك فَضْلُكَ ! .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسانَ أحلى من ذلك . وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لا مِنْكَ .. بل منه إليه[2] .

---

(١) السفرة طعام يصنع للمسافر ، أو مائدة وما عليها من طعام .

(٢) لأنك بلا أنت ، فبالضرورة ليس منك شكوى ، فعلى الحقيقة لا وجود إلا له ، فاتركه ممسكاً بعنانك ، واستسلم لما يختار ، ولن يكون إلا الخير .

ويقال : تولّى إلى ظلّ الأُنْس ورَوْح البسط واستقلال السِّرّ بحقيقة الوجود .

ويقال قال : « رب إنى لما أنزلت إلىّ من خيرٍ فقير » : فَزِدْنى فقراً ؛ فإنّ فقرى إليك يوجِبُ استعانتى بك[1] .

قوله جل ذكره : « قالت إحداهما يا أبَتِ استَأْجِرْه إنّ خيرَ مَنِ استأجَرْتَ القويُّ الأمينُ » .

كان شعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير ، ولكن لا يسكن قلبُه إلى أحدٍ ، فلمّا رأى موسى ، وسمع من ابنته وصفَه بالقوة والأمانة سأل :

عَرَفْتُ قُوَّتَه .. فكيف عرفْتِ أمانتَه ؟

فقالت : كنتُ أمشى قُدّامَه فأخَّرَنى عنه فى الطريق قائلاً : سيرى ورائى واهدينى ، لئلا يَقَعَ بَصَرُه علىّ .. فقال شعيب :

« قال إنى أريد أنْ أنكِحَكَ إحدى
ابنتىّ هاتين على أن تأجُرَنى ثمانىَ
حِجَجٍ فإنْ أتممْتَ عَشْرًا فمِنْ عِندِكَ ،
وما أريد أنْ أشُقَّ عليكَ ستجدنى إن
شاءَ اللهُ من الصالحين » .

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يعمل عشر حججٍ لشعيب .

وفى القصة أن شعيباً قال لموسى : ادخلْ هذا البيتَ وَأخْرِجْ مما فيه من العِصِىِّ عصاً ، وكان البيتُ مظلِماً ، فدَخَل وأخرج العصا ، تلك التى أظهر الله فيها معجزاتِه ، ويقال : إنها كانت لآدم عليه السلام ، ووقعت لشعيب من نبىٍّ إلى نبىٍّ . إذ يقال : إنه لما هَبَطَ آدمُ إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السِّباع ، فأنزل عليه الله عصاً ، وأمَرَه جبريلُ أنْ يَرُدَّ السباعَ عن نَفْسِه بتلك العصا .

---

(١) إظهار الضعف آية العبودية فالدعاء هنا ليس من قبيل الشكوى ، ولكنه تعبير عن ضعف العبد أمام عظمة الربوبية ، فكأنه نوع من التعبد (راجع قصة أيوب إذ نادى ربه ....)

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلمّا أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب: ردّها إلى البيت ، واطرحها فيه ، وأخْرِجْ عصاً أخرى ، ففَعَلَ غير مرة ، ولم تحصل كلّ مرة فى يده إلا تلك العصا ، فلمّا تَكَرَّرَ ذلك عَلِمَ شعيبُ أنّ له شأناً فأعطاه إياها ،

وفى القصة : أنه فى اليوم الأول ساق غنَمَه ، وقال له شعيب : إنّ طريقَكَ يتشعب شِعْبَيْن : على أحدهما كَلأٌ كثيرٌ .. فلا تَسْلُكْه فى الرعى فإنّ فيه ثعباناً ، واسْلُكْ الشِّعْبَ الآخرَ . فلمّا بلغ موسى مَفْرِقَ الطريقين ، تفرّقَتْ أغنامُه ولم تطاوعه ، وسامت فى الشِّعْبِ الكثيرِ الكَلأ ، فتَبِعَها ، ووقع عليه النومُ ، فلمّا انتبه رأى الثعبانَ مقتولاً ، فإن العصا قتلته ، ولمّا انصرف أخبر شعيباً بذلك فَسُرَّ به . وهكذا كان يرى موسى فى عصاه آياتٍ كثيرة ، ولذا قال : « ولى فيها مآرب أخرى » .

قوله جل ذكره : « فلمّا قضىٰ موسى الأجَلَ وسارَ بأهلِه
آنَسَ مِن جانبِ الطُّورِ ناراً قال لأهلِه
امْكُثُوا إنِّى آنَسْتُ نارًا لَعَلِّى آتيكم
منها بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ من النارِ لَعَلّكم
تصطلونَ » .

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر ، فَحَمَلَ ابنهَ شعيب ، وسارَ بأهله متوجّهاً إلى مصر . فكان أهلُه فى تسييره وكان هو فى تسيير الحقّ ، ولمّا ظَهَرَ ما ظهر بامرأته من أمر الطّلْقِ استصعب عليه الوقتُ ، وبينا هو كذلك إذ آنَسَ من جانب الطور ناراً — أى أبصر ورأى — فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوعُ أُنْسٍ : وإنّ اللهَ إذا أراد أمراً أجرَى ما يليق به ، ولو لم تقع تلك الحالةُ لم يخرج موسى عندها بإيناس النار ، وقد تَوَهَّمَ — أول الأمر — أنّ ما يستقبله فى ذلك الوقتِ من جملة البلايا ، ولكنه كان فى الحقيقة سَبَبَ تحقيقِ النبوة . فلولا أسرار التقدير — التى لا يهتدى إليها الخَلْقُ — لما قال لأهله : « امكثوا إنى آنست ناراً لعلّى آتيكم منها بخبر » .

ويقال : ألاح له ناراً ثم لوّح له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصودُ النّارَ ولا النورَ وإنما سماع نداء : « إنى أنا اللهُ ربُّ العالمين » .

قوله جل ذكره : « فلمّا أتاها نُودِىَ من شاطىء الوادِ الأيمنِ فى البقعةِ المُبارَكة من الشجرة أن ... » الآية

أخفى تعيين قَدَمِ موسى على الظنون بهذا الخطاب حيث قال : « من شاطئ الواد الأيمن » ، ثم قال : « فى البقعة المباركة » ثم قال « من الشجرة » .

وأخْلِقْ بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فعندها سَمِعَ خطابَ مولاه بلا واسطة ؛ وأعزُّ الأماكنِ فى العالمِ مَشْهَدُ الأحباب :

وإنى لأهوى الدارَ ما يستعزنى لها الود إلا أنها من ديارِكا

ويقال : كم قَدَمٍ وَطِئَتْ لك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابُها بها شيئاً ! . وكم ليلةٍ جَنَّت تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة ! .

ويقال : شتّان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور محنتِه وفتنتِه ، وشجرة موسى وعندها افتتاحُ نُبُوَّتِه ورسالتِه ! .

ويقال : لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة[1] ، ولا يُدْرَى ما الذى كانت تثمره ، بل هى شجرة الوصلة ؛ وثمرتها القربة ، وأصلُها فى أرض المحبة وفَرْعُها باسِقٌ فى سماء الصفوة ، وأوراقها الزلفة ، وأزهارها تَنْفَتِقُ عن نسيم الرَّوْح والبهجة :

فلمّا سمع[2] موسى تغيَّر عليه الحال ؛ فى القصة : أنه غُشِى عليه ، وأرسل اللهُ إليه الملائكة لِيُرَوِّحوه بمراوح الأُنْس ، وهذا كان فى ابتداء الأمر ، والمبتدئُ مرفوقٌ به . وفى المرة الأخرى خرّ موسى صَعِقاً ، وكان يفيق والملائكةُ تقول له : يا ابن الحَيْض . أمثلك مَنْ يسأل الرؤية ؟ !

---

(١) قيل هى شجرة العليق وقيل العوسج والعوسج إذا عظم يقال له الفرقد (القرطبى) .

(٢) معروف أن السماع عند الصوفية يصحبه — وخصوصاً لدى المبتدئين — تأثيرات عضوية ونفسية حادة

وكذا الحديث والقصة[1] ؛ فى البداية لُطفٌ وفى النهاية عُنفٌ ، فى الأولِ خَتْل وفى الآخرِ قَتْل ، كما قيل :

فلمّا دارت الصهبـــاء[2] دعا بالنّطـــع والسيفِ
كذا مَنْ يشرب الراحَ مع التنّين فى الصيفِ[3]

قوله جل ذكره : « وأنْ ألقِ عصاك » .

ياموسى .. اخْلَعْ نعليكَ والقِ عصاك ، وأقِمْ عندنا هذه الليلة ، فلقد تَعِبْتَ فى الطريق — وذلك إن لم يكن فى النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال .

ياموسى .. كيف كُنْتَ فى الطريق ؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صوّبت[4] وكيف شرّقْتَ وكيف غرّبْتَ ؟ ما كنتَ فى الطريق وحدَك يا موسى ! أحصَيْنا خُطاكَ — فقد أحصينا كلَّ شىء عَدَدًا . يا موسى .. تَعِبْتَ فاسترِحْ ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَحْ — كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافةَ فى القيامةِ ، وتبوّأ مَنْزِلَه من الجنة ؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون ، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة، وكذا العبد أوالخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سلطانِه . يبتدئ أولاً بخدمة الشُّدَّةِ العَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله . وكذلك اليوم أمرنا[5] ؛ إذا أصبحنا كلَّ يوم : ألا نشتغِلَ بشىء حتى نَفْتَتِحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطِبَ المخلوق ، نحضر بساط الخدمة — أى الصلاة — بل نحضر بساط الدنوِّ والقربة ، قال تعالى : « واسجد واقترب »[6] : فالمُصَلِّى مُنَاجٍ رَبَّه . ولو عَلِمَ المُصَلِّى مَن

---

(١) يقصد حديث الحب وقصته

(٢) الرواية الصحيحة «فلما دارت الكأس» .

(٣) البيتان من المقطعة التى أنشدها الحلاج وهو يواجه مصرعه ، وأولها :

نديمى غير منسوب إلى شىء من الخوف

(طبقات الشعرانى ج١ ص ١٢٠)

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (ضربت) ، وضرب فى الأرض أى جال وسار ، وقد أثبتنا (صوّبت) لتتلاءم مع الأفعال المضعفة طبقاً لما نعرف من حرص القشيرى على الموسيقى اللفظية .

(٥) من هذا نفهم أن القشيرى يكتب كتابه أو يمليه من أجل الصوفية ، فضمير المتكلمين يدل على نوع من التخصيص .

(٦) آية ١٩ سورة العلق .

يناجى ما التفت ؛ أى لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً وشمالاً فى التسليم الذى هو التحليل[1].

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا رآها تَهتزُّ كأنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ يا موسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ مِنَ الآمنين » .

عند ما انقلبت العصا حَيَّةً وَلَّى موسى مُدْبِرًا ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول : حديثٌ أوَّلُه تسليطُ ثعبان ! مَنْ ذا يُطِيقُ أوَّلَه ؟ ! .

قيل له : لا تَخَفْ يا موسى ؛ إن الذى يَقْدِرُ أنْ يَقْلِبَ العصا حيةً يقدر أن يَخْلُقَ لك منها السلامة : « يا موسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ من الآمنين » : ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت ، إنما أثبت هذا لأسلطَه على عدوِّك ، فهذه معجزتُك إلى قومك ، وآيتُك على عدوِّك .

ويقال: شتان بين نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بثعبانٍ سَلَّطَه على عدوِّه ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — رجع بعد ما أُسْرِىَ به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى — لِيُوَافِىَ أُمَّتَه بالصلاة التى هى المناجاة ، وقيل له : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قوله جل ذكره : « اسْلُكْ يَدَكَ فى جيبِكَ تخرجْ بيضاء مِن غيرِ سوء واضمُمْ إليك جناحَكَ من الرَّهبِ فَذَانِكَ بُرْهانان من ربِّكَ إلى فرعونَ ومَلئِه إنَّهم كانوا قوماً فاسقين » .

قيل له : اسلُكْ يَدَكَ فى جيبك، لأنَّ المدرعةَ التى كانت عليه لم يكن لها كُمٌّ . وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمَّر ، وأن يجِدَّ ،

---

(١) التحليل: الإباحة ، والمقصود هنا أنه عقيب التسليم يحل له أن يخاطب الخلق وأن يشتغل بشىء بعدما تمت مناجاته مع الحق ، تلك المناجاة التى يؤثر القشيرى دوامها واستمرارها . ومعلوم أن الصوفية إذا أنهوا صلاتهم يستمرون فى الذكر والتأمل دون حدود .

وأنْ يُخْرِجَ يَدَه من كُمِّه . وإنه قال لموسى : أدْخِلْ يَدَكَ فى جيبك تخرج بيضاء ، وألق عصاكَ نجعلها ثعباناً ، بلا ضَرْبِكَ بها ، وبلا استعمالِك لها يا موسى : الأمرُ بِنَا لا بِكَ ، وأنا لا أنت .

« واضم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك » : يا موسى ، فى وصف خضوعك تجدنى ، وبتبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك تَصِل إلىَّ .

قوله جل ذكره « قال رَبِّ إنِّى قَتَلْتُ منهم نَفْسًا فأخاف أن يَقْتُلُونِ » :

تَمَلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاء أن يُعَافَى من مشقةِ التبليغِ ومقاساةِ البلاء ؛ لأنه عَلِمَ أنَّ النبوةَ فيها مَشَقَّةٌ ، فلم يَجِدْ الرُّخصةَ والإعفاءَ مِمَّا كُلِّف ، وأجاب سُؤْلَه فى أخيه حيث سأله أنْ يجعلَ له رِدْءا ، وضمن لهما النصرة .

ثم إنهما لَمَّا أتيَا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد[1] ، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر[2] ، وجاوباه[3] بالحجة ، ودَعَوَاه إلى سَوَاء الحجَّة ، فأبَى إلَّا الجَحْدَ .

قوله جل ذكره « وقال فِرْعونُ يأيها الملأ ما عَلِمْتُ لكم من إلٰهٍ غيرى فأَوْقِدْ لى يا هامانُ على الطينِ فاجعل لى صَرْحًا لعلِّى أطَّلِعُ إلى إلٰهِ موسى وإنى لَأَظُنُّه من الكاذبين » .

ادَّعى الانفرادَ بالإلٰهية فزاد فى ضلالِه على عَبَدَةِ الأصنام الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ ، ثم قال لهامان : « ابْنِ لى صَرحا لعلِّى أطلع إلى إلٰه موسى » وكان هذا من زيادة ضلاله ،

---

(١) (والجحد) موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٢) (والسحر) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (وحارباه) .

حيث تَوَهَّم أن المعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولعمرى لو كان فى جهةٍ لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه ! .

« واستكبر هو وجنودُه فى الأرضِ
بغير الحقِّ وظنُّوا أنّهم إلينا لا يُرْجَعُون»
فأخذناه وجنودَه فنَبَذْناهم فى اليَمِّ فانظُرْ
كيف كان عاقبةُ الظالمين » .

أبَى إلّا أنْ يدومَ جحودُه ، وعُنوده ، فأغرقه اللهُ فى البحرِ ، كما أغرق قلبَه فى بحر الكُفْر .

قوله جل ذكره : « وجعلناهم أئمةً يَدْعُون إلى النارِ
ويومَ القيامة لا يُنصَرون » .

لا لِشَرَفِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تَلَفِهم قَدَّمَهم فى الخزى والهوان على كلِّ أمة ، ولكن لم يُرْشِدُوا إلّا إلى الضلال . ولم يَدُلُّوا الخَلْقَ إلّا على المُحَال ، وما حصلوا إلا على سوءِ الحال ، وما ذاقوا إلا خِزْىَ الوبال . أفاضوا على مُتَّبِعِيهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا فى خِسَّةٍ[1] مطلوبهم .

قوله جل ذكره : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنةً ويومَ
القيامةِ هم من المقبوحين » .

كانوا فى الدنيا مُبْعَدين عن معرفته ، وفى الآخرة مُبْعَدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ ، ومن هَجْرٍ إلى بُعْدٍ ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ .

قوله جل ذكره : « ولقد آتَيْنَا موسى الكتابَ مِنْ
بَعْدِ ما أهْلَكْنَا القرونَ الأولى بصائرَ

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خيبة)

للناسِ وهُدًى ورحمـــةً لعَلّهم
يَتَذَكّرُون » .

إنما تطيب المنازلُ إذا خلَتْ من الأجانب ، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتُها بِفَقْدِ الرُّقباء وغَيْبَتِهم ، فلمّا أهلك اللهُ فرعونَ وقومَه ، وأورث بنى اسرائيلَ أموالَهم وديارَهم ، ومحا عن جميعِها آثارَهم — طابَ لهم العيشُ وطَلَعَتْ عليهم شموسُ السعادة .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانب الغَربيِّ إذ قَضَيْنا
إلى موسى الأمرَ وما كُنتَ من
الشاهدين » .

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً ، ولكنهم رأوا أنّ إخبارَك عنهم بحيث لا يكذبك كتابُهم . وبالضرورة عرفوا حالَكَ ، وكيف أنك لم تَعلَمْ هذا من أحدٍ ، ولا قَرَأْتَه من كتاب ، لأنّكَ أُمّيٌّ لا تُحْسِنُ القراءة ، وإذاً فليس إخبارُكَ إلا بتعريفنا إياك ، وإطلاعنا لكَ على ذلك .

ويقال : « وما كنتَ بجانب الغربى » : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ، وكَلّمْناه ، وخاطبناه فى بابِكَ وبابِ أُمّتِكَ ، ولم تقدح غَيْبَتُكُم فى الحال ، وكَوْنى لكم خيرٌ من كَوْنِكم لكم .

ويقال : لمّا خاطَبَ موسى وكَلّمَه سأله موسى : إنّى أرى فى التوراة أُمّةً صفتهم كذا وكذا .. مَنْ هم ؟ وسأل عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يُجابُ بأنّها أمة أحمد[1] ، فاشتاق موسى إلى لقائنا ، فقال له : إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم ، فإنْ شِئْتَ أسمعتُكَ كلامَهم ، فأراد أن يسمعَ كلامنا ، فنادانا وقال : يا أمةَ أحمد .. ، فأجاب الكلّ من أصلاب آبائهم ، فسَمِعَ موسى كلامَهم ولم يُدْرِكْهُم[2] . والغنىُّ إذا سأله فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن

(١) هكذا فى ص وهى فى م (أمة محمد) ، ونحسب أن الأرجح أن تكون أحمد طبقاً للآية «ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »

(٢) تنسب هذه الرواية إلى وهب (القرطبى جـ١٣ ص ٢٩٢) .

يردّه من غير إحسان إليه . (وفى رواية عن ابن عباس)[1] أن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ، ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ثاوياً[2] فى أهل مدين
تتلو عليهم آياتِنا ولكنا كُنَّا مُرْسِلين »

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذِكْرُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم بالجميل . وذكر أمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن فى الوجود مُحْدَثٌ مخلوقٌ وفى ذكره متعلق لا باستفتاح . ولم نكن فى العَدَمِ أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا فى متعلق القدرة ومتناول العلم والمشيئة . وذكرنا فى الخطاب الأزلىّ والكلام الصمدىّ والقول الأبدىّ .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانبِ الطورِ إذ نادَيْنا
ولكِن رحمةً من ربِّكَ لِتُنذِرَ قوماً
ما أتاهم مِن نذيرٍ مِّن قَبْلِكَ لعلّهم
يتذكّرون » .

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك ، وكما نادينا موسى — وهو فى الوجود والظهور — نادينا كم وأنتم فى كتم العَدَمِ ، أنشدوا :

كُنْ لى كما كُنْتَ فى حالٍ لم أكُنِ

قوله جل ذكره : « ولولا أن تُصِيبَهُم مصيبةٌ بما قَدَّمَت
أيديهم فيقولوا رَبَّنا لولا أرْسَلْتَ إلينا
رسولاً فنَتَّبِعَ آياتِكَ ونكونَ من
المؤمنين * فلمَّا جاءَهم الحقُّ من عندنا

---

(١) أضفنا مابين قوسين من عندنا لتكتب الرواية بكاملها فهى ناقصة فى المتن .
(٢) ثاوياً ومقيماً .. قال العجاج : فبات حيث يدخل الثوى : أى الضيف المقيم .

قالوا لولا أوتى مِثْلَ ما أوتِى موسى
أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قَبْلُ
قالوا سِحْران تَظَاهَرا وقالوا إنَّا بكلٍّ
كافرون » .

تمنوا فى زمانِ الفترة أن يبعث اللهُ إليهم رسولًا ليهتدوا به ، ووعدوا من أنفسِهم الإيمانَ والإجابة ، فلمَّا أتاهم الرسولُ كذَّبوه ، وقالوا : هلَّا خُصَّ بمثل معجزات موسى فى الظهور ، وكان ذلك منهم خطأً ، واقتراحًا فى غير موضع الحاجة ، وتحكُّمًا بعد إزاحة العِلَّةِ :

وكذا الملولُ إذا أراد تعليةً دَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

ثم قال : أفلا تَذْكُرون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموهما بالسحر ؟ .

وقال : إنْ ارتبتم أنَّ هذا الكتاب من عند الله فَأْتوا بكتابٍ مِثْلِه ، واستعينوا بشركائكم . ومِنْ وقته إلى يومنا هذا لم يأتِ أحدٌ بسورة مِثْلِه ، وإلى القيامة لا يأتون بكتابٍ مثله .

قوله جل ذكره : « ولقد وَصَّلْنا لهم القولَ لعلهم
يتذكَّرون » .

أتبعنا رسولاً بعد رسول ، وأردفنا كتابًا بعد كتاب ، فما ازدادوا إلا كفراً وفجوراً ، وجحداً وعتواً .. فلا إلى الحقِّ رجعوا ، ولا إلى الاستقامة جنحوا .

قوله جل ذكره : « الذين آتيناهم الكتابَ مِن قبلِه هم
به يُؤْمِنون » .

مَنْ أكحلنا بصيرتهم بنور الهداية صَدَّقوا بمقتضى مساعدة العناية ، ومَنْ أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس فى غوايته ، وانهمك فى ضلالته .

قوله جل ذكره : « وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنَّا به إنَّه
الحقُّ مِن ربِّنا إنَّا كُنَّا من قبلِه
مُسْلِمين » .

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق ، وانقادوا بحُسْنِ الاستسلام ، فلاجَرَمَ يُؤْتَون أجرَهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المخارم فى عاجلهم وآجلهم ، مرةً فى الآخرة وهى المثوبة وأخرى فى الدنيا وهى لطائف القربة .

قوله جل ذكره : « وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

« اللغو » : ما يُلْهِى عن الله . ويقال « اللغو » مالا يوجب وسيلةً عند الله ، ويقال مالا يكون بالحقِّ للحقِّ ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلبٍ غافلٍ ، ويقال هو مايوجب سماعُه السَّهو .

قوله جل ذكره : « إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحببتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يشاء وهو أعلمُ بالمهتدين »[1] .

الهدايةُ فى الحقيقةِ إمالةُ القلبِ من الباطلِ إلى الحقِّ ، وذلك من خصائص قدرة الحقِّ — سبحانه — ونطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق — توسُّعاً ، وذلك جائزٌ بل واجبٌ فى صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

ويقال : لَكَ شَرَفُ النبوَّةِ ، ومنزلةُ الرسالةِ ، وجمالُ السفارةِ ، والمقامُ المحمودُ ، والحوض المورود ، (وأنت سيد ولد آدم .. ولكنك لا تهدى من أحببت ؛ فخصائصُ الربوبيةِ لا تصلح)[2] لِمَنْ وَصْفُهُ البشرية .

قوله جل ذكره : « وقالوا إن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أرضنا أوَلَمْ نُمَكِّن لهم

---

(١) قال ابو اسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب حين أبى أن ينطق الشهادة وقال : أنا على ملة عبد المطلب فقال الرسول (ص) : لأستغفرن لك مالم أنه عنك (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨)

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

حرَما آمِنًا يُجْبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيء رِزْقًا مِّن لَدُنَّا ولـكِنَّ أكْثَرَهم لا يعلمون » .

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إنْ صَدَّقْناكَ ، وآمَنَّا بِكَ ، (لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم)[1] فقال الله تعالى : وكيف تخافونهم وترون اللهَ أظفركم على عدوِّكم ، وحَكَّمنا بتعظيم بيتكم ، وجعلنا مكةَ تُجْبَى إليها ثمراتُ كل شيء من أقطار الدنيا ؟

ويقال من قام بحقِّ الله — سبحانه — سَخَّر له الـكونَ بجملته ، ومَنْ اشتغل برعاية سِرِّه لله ، وقام بحقِّ الله ، واستفرغ أوقاته فى عبادة الله مُـكِّنَ من التصرُّفِ بهمته فى مملـكة الله ؛ فالخَلْقُ مُسَخَّرٌ له ، والوقتُ طَوعُ أمرِه ، والحقُّ — سبحانه — متولٍ[2] أيامَه وأعماله يُحَقِّقُ ظنَّه ، ولا يُضَيِّعُ حقَّه .

أمَّا الذى لا يطيعه فيهلك فى أودية ضلاله ، ويتيه[3] فى مفازات خِزْيِه ، ويبوء بوِزْرِ هواه .

قوله جل ذكره : « وكَمْ أهْلَـكْنَا من قريةٍ بَطِرَتْ معيشتَها فتِلْكَ مساكنُهم لم تُسْكَن مِنْ بَعْدِهم إلا قليـلاً وكُنَّا نحنُ الوارثين » .

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظامَ أمورهم ، فهاموا فى أودية الـكفران على وجوهِهم ، فَخَرُّوا فى أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم اللهُ من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهم ؛ فأماكنهم منهم خالية ، وسقوفُها عليهم خاوية ، وغِربانُ الدمار فيها ناعية .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في النص ، ولكنها تتمه لسبب نزول الآية كما أورده الواحدى ، حيث ذكر أن الآية نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف الذى قال للنبى (ص) : إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن يمنعنا من اتباعك أنا نخاف .... الخ (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨) .

(٢) ومن هذا المنطلق يصدر القشيرى رأيه فى (الولايه) وما يتصل بها من (الكرامة) .

(٣) هكذا فى الأصل وهى تحمل معنيين : التكبُّر ، والضلال فى الأرض .

قوله جل ذكره : « وما كان رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى حتى يبعثَ فى أُمِّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كُنَّا مُهْلِكِى القُرى إلّا وأهلُها ظالِمون » .

« وما كان ربُّكَ مُهلِك القرى حتى يبعث فى أمِّها رسولاً » : بالتكليف يأمرهم ، ويأمر التكوين — على ما يريد — يقفهم . وهو — سبحانه — يبعث الرسلَ إنذاراً ويعمى السُّبُلَ عليهم اقتداراً ؛ يُوَضِّحُ الحجةَ بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدى إلا مَنْ سَبَقَت له السعادة بحكم القسمة .

قوله جل ذكره : « وما أوتيتم مِن شىءٍ فمَتَاعُ الحياةِ الدُّنيا وزينتُها وما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبقى أفلا تعقِلون » .

الدنيا حلوة خَضِرَة ، ولكنها فى التحقيق مُرَّةٌ مَذِرَة[1] ، فَبِشْرُها يُوهِمُ أنها صَفْوٌ ولكن مِن وراءِ صَفْوِها حَسْوٌ[2] ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

قوله جل ذكره : « أفمَن وعدناه وَعْدًا حسناً فهو لاقيه كمَن متَّعْناه متاعَ الحياةِ الدنيا ثم هو يوم القيامة من المُحْضَرين »[3] .

الدنيا سمومُ حَنْظَلِها تتلو طعومَ عَسَلِها ، وتَلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لُطْفَ ما يظهر

---

(١) مذرت البيضة مذراً = فسدت ، فهى مذرة ، ومذرت معدته أى خبثت وفسدت (الوسيط) .

(٢) يقال يوم كحسو الطائر أى قصير جداً ، ونوم كحسو الطائر أى قليل متقطع .

(٣) عن مجاهد أن هذه الآية نزلت فى على وحمزة وأبى جهل .
وقال السدى : نزلت فى عمار والوليد بن المغيرة
وقيل نزلت فى النبى (ص) وأبى جهل .

من أربها ، وليس من أكرمَ بوجدان نعيم عقباه كمَنْ مُنِيَ بالوقوع فى جحيم دنياه

قوله جل ذكره : « ويومَ يُناديهم فيقولُ أين شُرَكائِيَ الذين كُنْتُمْ تَزْعُمُون ؟ » .

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل .. وإلّا فمِنْ أين لهم الجواب فضلاً عن الصواب ! والذى يسألُهم هو الذى على ما شاء جَعَلَهم ؛ فما وَرَدَ فِعْلٌ إلا على فِعْلِه ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أصْلِه . وإذْ تَبَرَّأَ بعضُهم من بعض بَيَّنَ أنه لم يكن للأصنام استحقاقُ العبودية ، ولا لأحدٍ من النفى والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةَ أو منه شظيَّة .. كلاّ بل هو الواحد القهار .

قوله جل ذكره : « ويومَ يناديهم فيقول ماذا أجَبْتُمُ المُرْسَلين » .

يسألهم سؤالَ هيبةٍ ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ ، ولا قوةُ عقلٍ ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ ، قال جلّ ذكره :

« فَعَمِيَتْ عليهم الأنباء يومئذٍ فَهُمْ لا يتساءلون » .

إذ استولت عليهم الحَيْرَةُ ، واستمكن منهم الدهشُ ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم .

قوله جل ذكره : « فأمّا مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً فَعَسى أن يكونَ من المُفْلِحين * وربُّكَ يَخْلُقُ ما يشاء ويختارُ ما كان لهم الخِيَرَةُ سبحان اللهِ وتعالى عمّا يُشْرِكون » .

يختار ما يشاء ومَنْ يشاء من جملة ما يخلق . ومَنْ ليس إليه شيء من الخلقِ . فما له والاختيار ؟ !

الاختيارُ للحقِّ استحقاقُ عِزٍّ يوجِبُ أن يكون ذلك له ، لأنّه لو لم يُنَفِّذْ مشيئتَه واختيارَه لم يكن بوصف العِزِّ ، فمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلاّ ذليلاً ؛ فالاختيارُ للحقِّ نعتُ عِزٍّ ، والاختيارُ للخَلْقِ صفةُ نَقْصٍ ونعتُ بلاء وقصور ؛ فاختيارُ العَبْدِ غيرُ مُبارَكٍ عليه لأنّه صفةٌ هو غيرُ مُسْتَحِقٍّ لها ، ومَنْ اتصف بما لا يليق به افتضح فى نَفْسِه ، قال قائلهم :

ومعالٍ إذا ادّعاها سواه لَزِمَتْه جِنايةُ السُّرّاقِ

والطينةُ إذا ادّعَتْ ما هو صفة الحقِّ أظهرت رعونتَها ، فما للإنسان والاختيار ؟ ! وما للمملوكِ والمِلْك ؟ ! وما للعبيدِ والتصدُّر فى دَسْتِ[1] الملوك ؟ !

قال تعالى : « ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »[2].

قوله جل ذكره : « وربُّك يعلم ما تُكِنُّ صدورُهم وما يُعْلِنون »

ولِمَ لا وقد قال : «ألا يعلم من خَلَقَ وهو اللطيف الخبير » ؟ فالعِلْمُ — الذى لا يَعْزُبُ عنه معلومٌ — نعتُ من لم يَزَلْ ، والإبداع من العَدَمِ إلى الوجود يتفرّدُ بالقدرة عليه لم يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « وهو اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ له الحمدُ فى الأولى والآخِرَةِ وله الحُكْمُ وإليه تُرْجَعُون »

« لا إله إلا هو » : تَوَحَّدَ بِعِزِّ هيبته ، وتَفَرَّدَ بجلال ربوبيته ، لا شبيهَ يساويه ،

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب ، أما فى ص فقد وردت (درس) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) واضح من مذهب القشيرى شيء هام جداً أنه يقف عند (ويختار) وتكون (ما) فى هذه الحالة نافية ، وهو بهذا ينسجم مع مذهب أهل السنة فى أن الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد .

أما الزمخشرى فيرى (ما كان لهم الخيرة) بياناً لقوله (ويختار) ولهذا لم يدخل العاطف . ويرفض الطبرى أن تكون (ما) نافية لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لهم فيما يستقبل ، ويرد عليه بأن (ما) تصلح لنفى الحال والاستقبال .

ولا نظيرَ يُضاهيه . «له الحمد» استحقاقاً على عَطِيَّتِه ، وله الشكر استيجاباً على نعمته ؛ فى الدنيا المحمودُ اللهُ ، وفى العقبى المشكورُ اللهُ ؛ فالإحسان من اللهِ لأن السلطانَ للهِ ، والنعمةُ من اللهِ لأنَّ الرحمةَ للهِ ، والنصرةُ من اللهِ لأنَّ القدرةَ للهِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُم إن جَعَلَ اللهُ عليكم الليلَ سَرْمَداً إلى يوم القيامةِ مَنْ إلٰهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياء أفلا تسمعون »

إن دامت ليالى الفترة فمَنِ الذى يأتى بنهار التوبة غيرُ اللهِ ؟

وإنْ دامت ليالى الطَّلَبِ فمَنِ الذى يأتى بصُبْحِ الوجودِ غيرُ اللهِ ؟

وإن دامت ليالى القبض فمن الذى يأتى بصبح البسطِ غيرُ اللهِ ؟

وإن دام ليلِ الفراق فمن الذى يأتى بصبح الوصالِ غيرُ الله ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتُم إن جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامةِ مَنْ إلٰهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكُنون فيه أفلا تُبْصِرون»

إنْ دام فى الوصلة نهارُكم فأىُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم ؟

وإن دام نهارُ معاشِكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فمَنْ إلٰهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكُنون فيه إلى الله إلا الله ، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللهِ إلا الله[1] .

قوله جل ذكره : « ومِن رحمتِه جَعَلَ لكم الليل والنهارَ لتسكنوا فيه ولتبتغوا مِن فَضْلِه ولعلكم تَشْكُرون »

---

(١) منذ أشرقت على القشيرى آية : «وهو الله لا إله إلا هو ..».
ولفظ الجلالة لا يكاد يغيب عنا فى إشاراته ، مما يدل — والله أعلم — على أن الرجل ذاكر أخذته حالة انمحاء فى المذكور .. وقد حرصنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذا الملحظ ليشعر بالفرق بين المفسر التقليدى والمفسر الإشارى .. إن الكلمات هنا أشبه بالتسابيح الوافدة من عالم بعيد !

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال ؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة ، وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالى أهل الوصال ساداتُ الليالى ، وليالى أهل الفراق أسوأ الليالى ؛ فأهلُ القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامُهم ، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم فى ليلهم ونهارهم ، يقول قائلهم :

والليالى إذا نأيتِ طوالٌ وأراها إذا دَنَوْتِ قِصَار

وقال آخر :

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أفقدها والليل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث :

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه وحَوْلٌ نلتقى فيه — قصيرُ

قوله جل ذكره : « ويومَ يُنَادِيهم فيقولُ أين شركائِيَ الذين كنتم تَزْعُمُون * ونَزَعْنا من كلِّ أمّةٍ شهيداً فقُلْنا هاتوا بُرْهانَكُمْ فعَلِموا أنَّ الحقَّ للهِ وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون »

كلا . . لا حُجَّة لهم ، ولا جوابَ يعذرهم ، ولا شفيعَ يرحمهم ، ولا ناصِرَ يُعينهم . اشتهرت ضلالتُهم ، واتضحت للكافة جهالتُهم ؛ فدامَ بهم عذابُ الأبد ، وحاقَ بهم وبالُ السَّرْمَد .

قوله جل ذكره : « إنَّ قارونَ كان مِن قومِ موسىٰ فبَغَى عليهم »

جاء فى القصص أنه كان ابن عمِّ موسى ، وكان من أعبد بنى إسرائيل ، وكان قد اعتزل الناسَ ، وانفرد فى صومعته يتعبَّد ، فتصوَّر له إبليسُ فى صورة بَشَرٍ ، وأخذ فى الظاهر يتعبَّدُ معه فى صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لسنا فى شىء ؛ عيونُنا

على أيدى الناسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو خير ورثنا ، ولا بُدَّ لنا من أخْذِه ، فقال له قارون : وكيف يجب أن نفعلَه ؟

فقال له : أن ندخل فى الأسبوع يوماً السوق ، ونكتسب ، وننفق ذلك القَدْرَ فى الأسبوع ، فأجابه إليه . فكانا يحضران السوق فى الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لستُ أنا وأنت فى شىء ، فقال : وما الذى يجب أن نعمله ؟

فقال له : نكتسب فى الأسبوع يوماً لأنفسنا ، ويوماً نكتسب ونتصدّق به ، فاجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر : لسنا فى شىء ، فقال : وما ذاك ؟

قال : إنْ مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوتَ يومٍ ، فقال : وما نعمل ؟

قال : نكتسب فى الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للادخار ، فأجابه إليه . . فلمّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه وَدَّعَه ، وقال :

إنّى مُفارِقُكَ . . فَدُمْ على ما أنت عليه ، فصار من أمره ومالِه ما صار ، وحَمَلَه حُبُّ الدنيا على جَمْعِها ، وحَمَلَه جَمْعُها على حُبِّها ، وحَمَلَه حُبُّها على البغى عليهم ، وصارت كثرةُ مالِه سَبَبَ هلاكِه ، وكم وُعِظَ بِتَرْكِ الفَرَحِ بوجود الدنيا ، وبِتَرْكِ الاستمتاع بها ! وكان لا يأبى إلاّ ضلالاً .

ويقال خَسَفَ اللهُ به الأرضَ دعاء موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول :

ياأرضُ خُذِيه .. وبينما كانت الأرض تَخْسِفُ به كان يستعين بموسى بحقّ القرابة ، ولكن موسى كان يقول : يا أرضُ خُذِيه .

وفيما أوحى اللهُ إلى موسى : لقد ناداكَ بحقّ القرابة وأنت تقول : يا أرض خذيه ! وأنا أقول : يا عبدُ ، نادِنى فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يَقُلْ .

وفى القصة أنه كان يُخْسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلمّا حَبَسَ اللهُ يونسَ فى بطن الحوتِ أمَرَ الحوتَ أن يطوفَ به فى البحار لئلا يضيقَ قلبُ يونس ، حتى انتهى إلى قارون ، فسأله قارونُ عن موسى وحاله ، فأوحى الله إلى المَلَك :

لا تَزِدْ فى خَسْفِه لحرمة أنه سأل عن ابن عمه ، ووَصَلَ به رَحِمَه[1] .

قوله جل ذكره : « وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرةَ
ولا تَنسَ نصيبَكَ من الدنيا وأَحْسِن
كما أَحْسَنَ اللهُ إليكَ ولا تَبْغِ الفسادَ
فى الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدين »

وَعْظ مَنْ حُرِمَ القبولَ كمثل البَذْرِ فى الأرض السَّبِخَة ؛ ولذا لم ينفعْه نُصْحُهم إياه ، ولم يكن للقبول فيه مساغٌ .

« ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا » : ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها ، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً ، ولا يُوجِبُ فى الآخرةِ عقوبةً

ويقال النصيبُ من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنَّفْس ، وعلى معرفته بالقلب ، وعلى ذِكْرِه باللسان ، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ .

« وأَحْسِنْ كما أحسنَ الله إليك » : إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله ؛ لأنَّ الكافرَ لا حَسَنَةَ له . والآية تدل على أن لله على الكافر نِعَماً دنيوية .

والإحسانُ الذى أُمِرَ به إنفاقُ النعمةِ فى وجوهِ الطاعةِ والخدمة ، ومقابلتُه بالشكران لا بالكفران .

ويقال الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون تَوَهُّمِ الاستحقاق .

قوله جل ذكره : « قال إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندى ... »

ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه .

ويقال السُّمُّ القاتلُ ، والذى يطفئُ السراجَ المضىء النظرُ إلى النَّفْسِ بعين الإثباتِ ،

---

(١) الواقع أن القصص والأخبار والروايات التى تدور حول موضوعات سورة القصص كثيرة جداً ، خصوصا عند ابن عباس ومدرسته ، ولكن الملاحظ أن القشيرى يختار منها – فى ظلال القرآن – عينات خاصة تحقق مقاصده البعيدة من أجل إبراز الموضوعات الصوفية سواء من ناحية الرياضات أو المجاهدات أو من ناحية الأذواق والأحوال .

وتَوَهَّمُ أنَّ منك شيئاً من النفى أو الإثبات[1] .

قوله جل ذكره : « فَخَرَجَ على قومِه فى زينتِه قال الذين
يريدون الحياةَ الدنيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ
ما أُوتِيَ قارونُ إنَّه لَذُو حَظٍّ عظيمٍ »

تمنَّى مَنْ رآه مِمَّن كان فى حُبِّ الدنيا ساواه أنْ يُعْطِيَه اللهُ مِثْلَ ما أعطاه .

أمَّا مَنْ كان صاحياً عن خمار غفلته ، مُتَيَقِّظاً بنور بصيرته فكان موقفُهم : —

« وقال الذين أوتوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثَوابُ اللهِ خيرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِل صالحاً
ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون »

وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء :

« لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا
ويْكأنَّه لا يُفْلِحُ الكافرون »

مَنَّ اللهُ علينا فلم نَنْجَرِفْ فى نَهْجِه ، ولم ننخرط فى سِلْكِه ، وإذاً لَوَقَعَ بنا الهلاك .

أمَّا المُتَمَنُّون مكانَه فقد نَدِمُوا ، وأمَّا الراضون بقسمته — سبحانه — فقد سَلِمُوا ؛ سَلِمُوا فى العاجل إلى أنْ تَظْهرَ سعادتُهم فى الآجل .

قوله جل ذكره : « تلك الدارُ الآخِرةُ نجعلُها للذين
لا يُرِيدون عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فساداً
والعاقبةُ للمتقين »

قيل « العلو فى الدنيا » أنْ تَتَوَهَّمَ أنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك .

و « الفساد » أن تتحرك لحظَّ نَفْسِك ونصيبك ولو بِنَفَسٍ أو خطوةٍ . . وهذا للأكابر ،

---

(١) هذه نظرة عامة نجدها عند جميع الصوفية ولكنها أصل هام فى تعاليم أهل الملامة تترتب عليه مناهج فى السلوك .

فأمّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا فى الأرض » كعُلوِّ فرعون « ولا فساداً » كفَسَادِ قارون[1] .

ويقال الزهاد لا يريدون فى الأرض عُلوّاً ، والعارفون لا يريدون فى الآخرة والجنة عُلوّاً .

ويقال « تلك الدار الآخرة » للعُبّادِ والزُّهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار .

قوله جل ذكره : « مَن جاء بالحسنةِ فله خيرٌ منها ومَن جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى الذين عَمِلوا السيئاتِ إلا ما كانوا يعملون » .

ثواب الحسنةِ فى التضعيف ، وأمرُ السيئةِ بناؤه على التخفيف .

والمؤمنُ — وإن كان صاحبَ كبائر — فسيئاتُه تَقْصُرُ فى جَنْبِ حسناتِه التى هى إيمانُه ومعرفتُه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذى فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ قُلْ ربِّى أَعْلَمُ مَنْ جاء بالهُدَى ومَنْ هو فى ضلالٍ مبين » .

« لرادُّكَ إلى معاد » : فى الظاهر إلى مكة . . وكان يقول كثيراً : «الوطن الوطن»[2] ، فَحَقَّقَ اللهُ سُؤْلَه . وأمّا فى السِّرِّ والإشارة فإنه « فرض عليك القرآن » أى يَسَّرَ لك قراءةَ القرآن ، والمَعَادُ هو الوصفُ الذى كانت عليه روحُك قبل حلول شَجَنِكَ[3] من مُلَادغات القُرْبِ ومطالعات الحقِّ .

---

(١) أحسن القشيرى إذ جعل وظيفة هذه الآية التعقيب على القصتين السابقتين فأبان تماسك الأسلوب القرآنى .

(٢) ولهذا يرى ابن عباس أن هذه الآية لا مكية ولا مدنية وإنما نزلت فى الجحفة .

(٣) هكذا فى النسختين ، فإن صحت فى النقل من الأصل فربما كان المقصود (ما أصابك من جراحات الحب) ، ويتأيد فهمنا بما يلى ذلك وربما كانت (شجنك) أى لوعة حبك – والله أعلم .

وقيل الذى ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادُّك إلى عين الجمع بالتحقُّق بالحقِّ والفناء عن الخَلْق .

ويقال إن الذى أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادُّك إلى الفناء عنك بمحقك فى وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ ترجوا أن يُلْقَى إليك الكتابُ إلّا رحمةً من ربِّكَ فلا تكونَنَّ ظهيراً للكافرين » .

ما كنت تؤمِّل مَحَلَّ النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليكَ من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره : « ولا يَصُدَّنَّك عن آياتِ اللهِ بعد إذْ أُنزِلَتْ إليكَ وادعُ إلى ربِّكَ ولا تكونَنَّ من المشركين » .

لا يصدنَّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذَّوْبِ والشهود ، والإدراك والوجود . لا تتداخلَنَّكَ تُهْمَةُ التجويز وسؤالاتُ العلماء بما يَدَّعُون من أحكام العقول ؛ فما يُدْرَكُ فى شعاع الشمس لا يَحْكُمُ ببطلانه خفاؤه فى نور السراج .

قوله جل ذكره : « ولاتَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ لاإله إلاهوَ كلُّ شىء هالِكٌ إلا وَجْهَه له الحُكْمُ وإليه تُرْجَعون » .

كلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كلُّ حىٍّ ميت إلا هو ، قال تعالى : « إن امرؤ هلك » : أى مات ؛ فكلُّ شىء مُعَدٌّ لجوازِ الهلاك والعَدَمِ ، ولا يبقى إلا « وجهه » : ووَجْهُهُ صفةٌ من صفاته لا تستقل إلا به ،

فإذا بقى وجهُهُ فَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموجود ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له ؛ فنى بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون[1] العقل ؛ فخَصَّ الوجه بالذكر لأنَّ فى بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته .

---

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (نور) ، وتأويل الوجه على أنه صفة فيه رد على المشبهة .

السورة التى يذكر فيها
العنكبوت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَعْداً ، وسماعُه يوجب سلوة الواجدين نقداً [1].

اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إلى مثوبته فى آجله ، ومَنْ سمعه[2] حظى بقربته فى عاجله .

قوله جل ذكره : « الٓمٓ * أَحسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنون »

« الألف » إشارة إلى تَفَرُّده عن كل غير بوجه الغِنى ، وباحتياج كل شىء إليه ؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ .

« واللام » تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفى آخره صورة تعويجٍ ما ، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف ـ فهى منتصبة القامة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شىء ولكن اللام تتصل بغيرها ـ فلا جَرَم لا يكون فى الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .

أمّا « الميم » فالإشارة فيه إلى الحرف « مِنْ » ؛ فَمِنَ الربِّ الخَلْقُ ، ومِنَ العبدِ خدمةُ الحق ، ومن الربِّ الطَّوْلُ والفضلُ . . .

« أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا . . » بمجرد الدعوى فى الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا لا يكون ، فتيمة كلِّ أحدٍ ببلواه ، فَمَنْ زاد قَدْرُ معناه زاد قدر بلواه ؛ فعلى النفوس بلاء وهو

---

(١) النقد مكافأة فى الدنيا وهى المواصلات والمكاشفات ، والوعد مكافأة فى الآخرة وهى الجنة .

(٢) المقصود بالسماع هنا ما يوجب الحيان .

المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها فى أحسن العمل . وعلى القلوب بلاء وهو مطالبتُها بالطلب والفكر الصادق بتطلُّع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاء وهو التجرُّدُ عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب ، والتباعُد عن كل المساكنةِ لشىء من المخلوقات . وعلى الأسرار بلاء وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلِّى إلى أن تصير مُسْتَهْلَكاً فيه .

ويقال فتنة العوام فى أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخواص فى حفظ آداب الوصول فى أوان المشاهدات . وأشدُّ الفتنِ حفظُ وجود التوحيد لئلا يجرى عليك مَكْرٌ فى أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحقِّ فيظن أنه الحق ، ولا يدرى أنَّه من الحقِّ ، وأنَّه لا يُقال إنّه الحقُّ ـ وعزيز مَنْ يهتدى إلى ذلك[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد فتنَّا الذين مِن قَبْلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين »

لم يُخْلِهِم من البلاء والمِحَن لِيُظْهِر صبرَهم فى البلاء أو ضدَّه من الضَجَرِ ، وشكرهم فى الرخاء أو ضدة من الكفر والبَطَرِ . وهم فى البلاء ضروب : فمنهم مَنْ يصبر فى حال البلاء ، ويشكر فى حال النَّعماء . . . وهذة صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يضجُّ ولا يصبر فى البلاء ، ولا يشكر فى النعماء . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يؤثِر فى حال الرخاء ألاَّ يستمتعَ بالعطاء ، ويستروح إلى البلاء ؛ فَيَسْتَعْذِبَ مقاساةَ الضُّرِّ والعناء . . وهذا أجَلُّهم .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أن يَسْبِقُونا سَاء ما يَحْكُمُون »

يرتكبون المخالفاتِ ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة . . ساء حُكْمُهم ! فمتى ينجو منَ العذابِ مَنْ ألقى جلبابَ التُّقى ؟ !

ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإمهالنا اليومَ ، وتَوَهَّموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد أَمِنُوا .

---

(١) يفيد هذا الكلام عند البحث فى قضية الحلاج الذى قال وهو غائب فى غلبات الشهود : «أنا الحق»

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئات أن جرى التقديرُ لهم بالسعادة ، وأنَّ ذلك يؤخر حُكْمَنا . . كلا ، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قسمتُه بالسعادة ، وهيهاتَ أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة !

قوله جل ذكره : « مَن كان يرجو لِقاء اللهِ فإنَّ أجلَ اللهِ لآتٍ وهو السميعُ العليمُ » .

مَنْ خاف عذابَه يوم الحساب فَسَيَلْقى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ مِنَّا لأهل الخوف اليومَ . ومَنْ أمَّلَ الثوابَ يومَ البعثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل . ومَنْ زَجَّى عُمْرَه فى رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النَّظَرَ إلينا ، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة .

« وهو السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين المحبين الوالهين .

قوله جل ذكره : « ومَنْ جاهَدَ فإنّما يُجاهِدُ لِنَفْسِه إن اللهَ لَغَنِيٌّ عن العالَمين »

مَنْ أحْسَنَ فنجاة نفسه طلبها ، وسعادة حالة حَصَّلَها . ومن أساء فعقوبة نفسه جَلَبَها ، وشقاوة جدَّه اكتسبها .

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ . . والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْن ، ولا يَمَسُّه من الشِّقاقِ شَيْنٌ . .

قوله جل ذكره . « والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهِم ولَنَجْزِيَنَّهم أحسن الذى كانوا يعملون » .

مَنْ رَفَعَ إلينا خطوة نال مِنَّا خطوة ، ومَنْ تَرَكَ فينا شهوةً وَجَدَ مِنَّا صفوة ، فنصيبهم من الخيرات موفور ، وعملهم فى الزلاَّت مغفور . . بذلك أجرينا سُنَّتنا ، وهو متناول حُكْمِنا وقضيتنا .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّينا الإنسانَ بوالديه حُسْناً » .

أَمرَ اللهُ العِبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية . وإذا كانت تربيةُ الوالدين — وهى إنْ حَسُنَتْ — فإلى حدٍّ يوجبُ رعايتهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى ، والإحسانِ العميمِ بالعبد والامتنان القديم الذى خصَّه به مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ؟ !

قوله جل ذكره : « وإن جاهداك لِتُشْرِكَ بى ما ليس لك به عِلْمٌ فلا تُطِعْهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

إنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بالله فإياكَ أنْ تطيعَهما ، ولكن رُدَّ بِلُطْفٍ ، وخالِفْ برفْقٍ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لندخلنهم فى الصالحين » .

أى لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم ، فإن المعهود من سُنَّتِنا إلحاق الشكلِ بشكله ، وإجراء المِثْلِ على حُكْمِ مِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « ومن الناسِ مَن يقول آمنَّا بالله فإذا أوذى فى الله جَعَلَ فتنة الناسِ كعذابِ الله » . . .

المِحَنُ تُظْهِرُ جواهرَ الرجال ، وهى تدُلُّ على قِيمهِم وأقدارهم ؛ فَقَدْرُ كلِّ أحد وقيمته يَظْهَرُ عند محنته ؛ فَمَنْ كانت محنتهُ من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها ، أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس ، أو فَقْدِ حبيبٍ من الخلْقِ فحقيرٌ قَدْرُه ، وكثيرٌ فى الناسِ مثلُهُ . ومَنْ كانت محنته فى الله ولله فعزيزٌ قَدْرُه ، وقليلٌ مَنْ كان مثله ، فهم فى العدد قليلٌ ولكن فى القَدْرِ والخَطَرِ جليلٌ : وبقدر الوقوف فى البلاء تظهر جواهرُ الرجال ، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسُهم .

والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى ، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى ، ويتشرب ولا يترشح بغير

شكوى ولا إظهار ؛ كالأرضِ يُلقَى عليها كلُّ خبيث فتُنْبِتُ كلَّ خضرة وكل نزهة[1] .

قوله جل ذكره : « ولَيَعلَمَنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين » .

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدود تَبَيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولْنَحْمِلْ خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم مِنْ شىء إنَّهم لكاذبون »

ضمنوا بما لم يفوا به ، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على حَمْل نفوسهم ؛ فاحتقبوا وِزْرَ ما عملوا ، وطولبوا بوزْر ما به أُمِرُوا[2] ، فضاعفَ عليهم العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة ، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب أخاه بيثرب .

قوله جل ذكره : « وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالًا مع أثقالهم وَلَيُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يَفْتَرون »

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتَشبِّهون بأهل الحقائق :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحانُ ما يَدَّعيه

وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[3] . . وهيهات هيهات !

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من قول الجنيد : (الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح) الرسالة ص ١٣٩ .

(٢) رأينا بناء (أمروا) المعلوم حتى يتضح أن وزرهم أشد نتيجة قولهم الذين آمنوا : (اتبعوا سبيلنا)؛ فالداعى إلى السوء يحمل وزر نفسه ووزر من يقتدى به. ومن الجائز أن تبنى للمجهول فتكون (أمروا) ولكن المعنى يكون أقل تأثيراً وأداء .

(٣) آية ١١١ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومهِ فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفانُ وهم ظالمون * فأنجيناه ... » الآية

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شَكّا فى أمره ، وجهلا بحاله ، ومُرْية فى صدقه ، ولم يزدد نوح ـ عليه السلام ـ لهم إلّا نُصْحاً ، وفى الله إلا صبراً . ولقد عرّفه اللهُ أنه لن يؤمِنَ منهم إلا الشِّرْذِمةُ اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأمَرَهُ باتخاذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه . فلا تبديلَ لِسُنَّتِهِ فى نصرة دينه .

قوله جل ذكره : « وإبراهيمَ إذ قال لقومه اعبدوا اللهَ واتقوه ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون »

كَرَّرَ ذِكْرَ ابراهيم فى هذا الموضع ، وكيف أقام على قومه الحُجَّة ، وأرشدهم إلى سَوَاء المحجة ، ولكنهم أصروا على ماجحدوا ، وتعصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا ، وكادوا لابراهيم كيداً . . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكراً بهم واستدراجاً . ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُه ، ولا وَجَدَ منهم مساغاً وَعْظُه .

قوله جل ذكره : « إنّما تعبدون من دون اللهِ أوثاناً وتَخْلُقُون إفكاً إنَّ الذين تعبدون من دون اللهِ لا يَمْلِكون لكم رِزْقاً فابتغوا عند اللهِ الرزقَ واعبدوه واشكروا له إليه تُرجَعون »

لا يُدْرَى أيهما أقبح : . هل أعمالكم فى عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم ـ فيما تزعمون كذباً ـ عن هذه الجمادات ؟ وهى لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً ، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً ، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك .

وبَيَّنَ أنهم فى هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحظوظ وطلب الأرزاق[1] فقال :

« فابتغوا عند الله الرزقَ واعبدوه » لتَصِلوا إلى خير الدارين.

وابتغاء الرزق من الله إدامةُ الصلاة ؛ فإن الصلاةَ استفتاحُ بابِ الرزق ، قال تعالى :

« وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبِرْ عليها لا نسألك رزقاً »[2]

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى فى استجلاب الرزق..

وفى الآية تقديمٌ لابتغاء الرزق على الأمر بالعبادة ؛ لأنه لا يُمْكِنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر ؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة ، وبالرزق يجد القوة ، قالوا :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه
فمكروهَ ما يلقى يكون جزاؤه

« واشكروا له » : حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته[3] .

قوله جل ذكره : « وإن تُكَذِّبوا فقَدْ كَذَبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكم وما على الرسول إلا البلاغُ المبين »

وبالُ التكذيب عائدٌ على المُكَذِّب ، وليس على الرسول ـ بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كى يكون مُبَيِّناً ـ شىء آخر . وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام .

وفيما حلَّ بالمكذِّبين من العقوبة ما ينبغى أن يكون عِبْرَةً لِمَنْ بعدهم .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَمْ يَرَوْا كيف يُبْدِئُ اللهُ الخلْقَ ثم يُعِيدُه إنَّ ذلك على اللهِ يسيرٌ »

---

(١) فالعبادة الخالصة علامتها أن تكون خالصة للمعبود بلا تطلع لعوض أو غرض ؛ والغيبة عن أى (وارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب) الرسالة ص٤٠ .

(٢) آية ١٣٢ سورة طه .

(٣) عنى القشيرى بتوضيح النسق فى الأسلوب القرآنى حين ناقش ترتيب الكلام على نحو مقنع أخاذ .

الذى دَاخَلَهم فيه الشَّكُّ كان بعث الخَلْق ، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنَةِ بعد تقضِّيها على الوجه الذى كان فى العام الماضى . وبَيَّنَ أن جَمْعَ أجزاءِ المكلَّفين بعد انقضاض البِنية كإعادة فصول السنة ؛ فكما أن ذلك سائغٌ فى قدرته غيرُ مُسْتَنْكَرٍ فكذلك بعثُ الخَلْق .

وكما فى فصول السنة تتكرر أحوالُ العِبادة فى الأحوال العامة المشتركة بين الكافة ، وفى خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس ، ثم زوالها ، إلى موالاة الطاعات ، ثم حصول الفترة ، والعود إلى مثل الحالة الأولى ، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة . . كذلك تتكرر عليهم الأحوال .

وأربابُ القلوبِ تتعاقب أحوالُهم فى القبض والبسط ثم فى الهيبة والأُنْس ، ثم فى التجلى والسَّتْر ، ثم فى البقاء والفناء ، ثم فى السُّكْر[1] والصحو . . وأمثال هذا كثير . وفى هذا المعنى قوله :

« قُلْ سِيروا فى الأرضِ فانظروا كيف بَدَأَ الخلْقَ ثم اللهُ يُنْشِئُ النشأةَ الآخِرةَ إنَّ اللهَ على كل شىء قدير »

وفى معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا :

كلُّ نَهْرٍ فيه ماء قد جَرَى
فإليـــه الماء يوماً سيعود

قوله جل ذكره : « يُعَذِّبُ مَن يشاء ويرحم مَن يشاء وإليه تُقْلَبون »

أجناسُ ما يعذِّبُ به عبادَه وأنواعُ ما يرحم به عباده . . لا نهاية لها ولا حَصْر ؛ فَمِنْ ذلك أنه يعذِّب من يشاء بالخذلان ، ويرحم من يشاء بالإيمان . يعذِّب من يشاء بالجحود والعنود ،

---

(١) وردت فى ص (الشك) وفى م (السُّكر) والصواب هذه لأنها تلائم السياق . فالسكر والصحو حالان من أحوال الفناء .

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يعذب من يشاء بالحِرْصِ ويرحم من يشاء بالقناعة . يعذِّب من يشاء بتفرقة الهمِّ ويرحم من يشاء بجَمْعِ الهِمَّة . يعذب من يشاء بإلقائه فى ظلمة التدبير ، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير . يعذب من يشاء بالاختيار من نَفْسِه ، ويرحم من يشاء بإنفاذه بحُكْمِ ربِّه . يعذب من يشاء بإعراضه عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يعذب من يشاء بأن يَكِلَه ونَفْسَه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحُسْنِ تولِّيه . يعذب من يشاء بحبِّ الدنيا ويمنعها عنه ، ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبَسْطِها عليه . يعذب من يشاء بأن يثبته فى أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

قوله جل ذكره : « وما أنتم بمُعْجِزِين فى الأرضِ
ولا فى السماءِ وما لكم من دون اللهِ من
ولىٍّ ولا نصير » .

نُقَلِّب الجملةَ فى القبضة ، ونُجْرى عليهم أحكامَ التقدير : جحدوا أم وَحَّدوا ، أقبلوا أم أعرضوا .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا بآياتِ اللهِ ولقائه
أولئك يَئِسُوا من رحمتى وأولئك لهم
عذابٌ أليمٌ »

تعجلت عقوبتهم بأن يئسوا من رحمته . . ولا عقوبةَ أشدُّ من هذا .

قوله جل ذكره : « فما كان جوابَ قومِه إلّا أن قالوا
اقتلوه أو حَرِّقوه فأنجاه اللهُ منَ النارِ
إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون »

لمَّا عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا فى معارضته بالتهديد والوعيد ، والسفاهة والتوبيخ ، والله تعالى صرف عنه كَيْدَهم ، وكفاه مَكْرَهم ، وأفلج عليهم حُجَّتَه[1] ،

(١) أفلج الله عليهم حجته أى أظهرها وأثبتها .

وأظهر للكافة عجزَهم ، وأخبر عما يلحقهم فى مآلهم من استحقاق اللَّعْنِ والطردِ ، وفنون الهوان والخِزْى .

قوله جل ذكره : « فآمَنَ له لوطٌ وقال إنِّى مُهَاجِرٌ إلى ربِّى إنه هو العزيزُ الحكيم »

لاتَصِحُّ الهجرةُ إلى الله إلّا بالتبرِّى — بالكلِّ — بالقلبِ عن غير الله . والهجرةُ بالنَّفْسِ يسيرةٌ بالإضافة إلى الهجرة بالقلب ـ وهى هجرة الخواص ؛ وهى الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجَمْع . والجمعُ بين التعريجِ فى أوطان التفرقة والكَوْنِ فى مشاهد الجَمْع مُتَنَافٍ[1].

قوله جل ذكره : « ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا فى ذُرِّيته النبوةَ والكتابَ وآتيناه أجرَه فى الدنيا وإنه فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحين » .

لمَّا لم يُجِبْ قومُه ، وبذل لهم النصح[2] ، ولم يدَّخر عنهم شيئاً من الشفقة ـ حقَّقَ اللهُ مرادَه فى نَسْلِه ، فوهب له أولادَه ، وبارك فيهم ، وجعل فى ذريته الكتابَ والنبوة ، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالُهم للقبول ، وأحوالُهم للإقبال عليها ، ونفوسُهم للقيام بعبادته ، وأسرارُهم لمشاهدته ، وقلوبُهم لمعرفته .

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » للدنوِّ والزلفة والتخصيص بالقربة .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومِه إنَّكم لتأتون الفاحِشة ما سَبَقَكُمْ بها من أحدٍ من العالمين » .

---

(١) ما يكون كسبا للعبد وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق وما يكون من قبل الحق من إبداء ممان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع فإثبات الخَلْق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) فى ص زاد الناسخ (فى أوطان) وهى غير موجودة فى م والسياق يستغنى عنها .

لأمَهُم على خصلتهم الشنعاء ، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء ، وما يُضيِّعُونه من المعروف ويأتون من المنكر الذى جعلته تخليته الفُسَّاق مع فِسقهم ، وترك القبض على أيديهم ، وقلة الاحتشام من اطّلاع الناس على قبائح أعمالهم . ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر ، ومنها التسويف فى التوبة ، ومنها التفاخر بالزلّة .

فما كان جوابُهم إلا استعجالَ العقوبة ، فحلَّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك مَنْ شاركهم .

قوله جل ذكره : « ولمَّا جاءت رُسُلُنا ابراهيمَ بالبُشرى
قالوا إنَّا مُهْلِكوا أهل هذه القرية
إنَّ أهلَها كانوا ظالمين » .

التبس على إبراهيمَ أمرُهم فظنَّهم أضيافًا ؛ فتكلَّفَ لهم تقديم العجل الحنيذ جريًا على سُنَّتِه فى إكرام الضيف . فلما أخبروه مقصودَهم من إهلاك قوم لوط تكلَّم فى باب لوط ... إلى أن قالوا : إنَّا مُنَجُّوه . وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوطٍ — وإنْ كان بريئًا — لم يكن ظالمًا ؛ إذ لو كان قبيحًا لما كان إبراهيم عليه السلام — مع وفرة عِلْمِه — يشكل عليه حتى كان يجادل عنه . بل لله أن يعذِّب مَنْ يعذِّب ، ويُعافِى مَنْ يُعافِى[1] .

قوله جل ذكره : « ولمَّا أن جاءتْ رُسُلُنا لوطًا سِئَ بهم
وضاق بهم ذَرْعًا وقالوا لا تَخَفْ
ولا تَحْزَنْ إنَّا مُنَجُّوكَ وأهْلَكَ
إلَّا امرأتَكَ كانت من الغابرين » .

لمَّا أن رآهم لوطٌ ضاق بهم قلبُه لأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ ، فخاف عليهم من فساد قومه ؛ فكان ضِيقُ قلبِه لأجْلِ الله — سبحانه ، فأخبروه بأنهم ملائكة ، وأنَّ قومه لن يَصِلُوا إليهم ، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه ، وزال ضيقُ صَدْرِه .

---

(١) أى أبرأه من العلل والبلايا وأصحَّه .

ويقال أقربُ ما يكون العبد فى البلاءِ من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاء ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مُضْطَرًّا ، واللهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الاجابة[1]. كذلك كان لوط فى تلك الليلة ، فقد ضاق بهم ذَرْعًا ثم لم يلبث أنْ وَجَدَ الخلاصَ من ضيقه .

قوله جل ذكره : « ولقد تَرَكْنَا منها آيةً بَيِّنَةً لقومٍ يَعْقِلون » .

فَمَنْ أراد الاعتبارَ فله فى قصتها عِبْرة .

قوله جل ذكره : « وإلى مدين أخاهم شعيبًا ... » الآيات .

ذَكَرَ قصةَ شعيبٍ وقصة عادٍ وثمود وقصة فرعون ، وقصة قارون .. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على مِنْوال بعضٍ ، وسلك مسلكَهم ، ولم يَقْبَلوا النصحَ ، ولم يُبَالوا بمخالفة رُسلِهم ، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم ، إمضاء لِسُنَّتِهِ فى نصرة الضعفاء وقهر الظالمين .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الذين اتخذوا من دون اللهِ أولياء كَمَثَلِ العَنكَبوتِ اتخذت بيتًا وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون » .

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتًا ، ولكن كلما زاد نسجًا فى بيته ازداد بُعْدًا فى الخروج منه ؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى .. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجنى .

وبيتُ العنكبوتِ أكثره فى الزوايا من الجدران ، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ[2] والكتمان ، وأمَّا المؤمن فظاهرُ المعاملةِ ، لا يستر ولا يُدَخْمِس[3] .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : «أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء» آية ٦٢ سورة النمل .
(٢) التقية عند بعض الفرق الإسلامية معناها إخفاء الحق ومصانعة الناس فى غير دولتهم .
(٣) دخمس عليه = لم يبيِّن له ما يريد ، ودخمس الشيء = ستره .

وبيتُ العنكبوتِ أوهنُ البيوت لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أدْوَن[1] دَفْعٍ .. كذلك الكافر ؛ لا أصلَ لشأنه ، ولا أساسَ لبنيانه ، يرى شيئاً ولكن بالتخييل ، فأمّا فى التحقيق .. فَلاَ .

قوله جل ذكره : « وتلك الأمثالُ نَضْرِبهَا للنـاسِ
وما يعقِلُها إلا العالِمون » .

الكلُّ يشتركون فى سماع الأمثال ، ولكن لا يصغى إليها مَنْ كان نَفُورَ القلبِ ، كنودَ الحالِ ، متعوداً الكسلَ ، مُعَرِّجًا فى أوطان الفَشَلِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ اللهُ السموات والأرضَ بالحقِّ
إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين » .

« بالحق » : أى بالقول الحق والأمر الحق .

قوله جل ذكره : « اتْلُ ما أوحِيَ إليكَ من الكتابِ
وأقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن
الفحشاءِ والمُنْكَرِ ولَذِكرُ اللهِ أكبر
والله يعلم ما تصنعون » .

أى من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهىَ عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى ينبغى للمؤمن أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الايمان — كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

ويقال بل الصلاةُ الحقيقية ما تكونَ ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإن لم يكن من العبد انتهاء فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل ، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر .

---

(١) أى على أضعف دفع

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر . فإن كان — وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها

ويقال الفحشاء هى الدنيا ، والمنكر هو النَّفْس .

ويقال الفحشاء هى المعاصى ، والمنكر هو الحظوظ .

ويقال الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسبانُ النجاة بها ، وقيل ملاحظتُه الأعواض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

ويقال الفحشاء رؤيتها ، والمنكر طلب العِوض عليها .

« ولذكر الله أكبر »[1] : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُحْدَث .

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ؛ لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذِكْرُ اللهِ لَكَ أكبرُ من ذكْرك له .

ويقال ذكْرُه لك بالسعادة أكبرُ من ذكْرك له بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقى للذاكر معه ذِكْر مخلوق .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقى للزلّةِ معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبْقىَ معه للفحشاء والمنكر سلطاناً ؛ فلِحُرمة ذكره زَلاّتُ الذاكر مغفورةٌ ، وعيوبه مستورةٌ .

قوله جل ذكره : « ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى

---

(١) رأى القشيرى فى «ولذكر الله أكبر» ، ليس فيه كما يلحظ القارىء تقليل من قيمة الصلاة المادية التى وردت فى الآية نفسها ، كما قد يدعى بعض من يتهمون الصوفية بأنهم يرفعون «ذكرهم» ويخفضون قيمة «الصلاة» وبالتالى لا يأبهون بها —.. وهذا — كما هو واضح — اتهام باطل .

هى أحْسَنُ إلا الذين ظلموا منهم
وقولوا آمنا بالذى أنزلَ إلينا وأنزلَ
إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحِدٌ ونحن
له مُسْلمون »

ينبغى أن يكون منك للخصم تبيين ، وفى خطابك تليين ، وفى قبول الحق إنصاف ، واعتقاد النصرة — لما رآه صحيحاً — بالحجة ، وتَرْك الميل إلى الشىء بالهوى .

قوله جل ذكره : « وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ
فالذين آتيناهم الكتابَ يؤمنون به
ومن هؤلاء مَن يؤمِنُ به وما يجحد
بآياتنا إلا الكافرون » .

يعنى أنهم على أنواع : فرحومٌ نظرْنا إليه بالعناية ، ومحرومٌ وسمْناه بالشقاوة .

قوله جل ذكره : « وما كنتَ تتلو من قبْله من
كتاب ولا تخُطّه بيمينك إذاً
لارتابَ المبطلون » .

أى تَجَرَّد قلبك عن المعلومات . وتقدّس سرّك عن المرسومات ، فصادَفك من غير ممازجة طبْعٍ ومشاركةِ كَسْبٍ وتكلف بشرية[1] ، فلما خلا قلبك وسرُّك عن كل معلومٍ ومرسومٍ ورَد عليك خطابُنا وتفهيمنا غيرَ مقرونٍ بهما ماليس مِنّا .

قوله جل ذكره : « بل هو آياتٌ بيناتٌ فى صدور
الذين أوتوا العِلْمَ وما يجحدُ بآياتنا
إلا الظالمون » .

قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب ، فيها أودع براهين حقه ، وبينات سِرِّه ، ودلائل توحيده ، وشواهد ربوبيته ؛ فقانون[2] الحقائق قلوبهم ، وكلُّ شىء يطلبُ من موطنه

(١) أى أن هذه الآفات تلحق علوم الإنسان حينما لا تكون خالصة .
(٢) من معانى كلمة (القانون) طريق الشىء وأصله .

ومحله ؛ فالدرّ يطلبُ من الصدف لأنّ ذلك مسكنه ، والشمس تطلب من البروج لأنها مطلعها ، والشهد يُطلبُ من النّحل لأنه عشه . كذلك المعرفة[1] تُطْلَبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته . ومنها (. . . .)[2]

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا أُنزِلَ عليه آياتٌ من ربِّه قُلْ إنما الآياتُ عند اللهِ وإنما أنا نذيرٌ مبين »

خَفِيَتْ عليهم حالتُكَ ـ يا محمد ـ فطالبوكَ بإقامة الشواهد ، وقالوا : « لولا أنزل عليه آيات . . . » أوَلم يَكْفِهم ما أوضحنا عليكَ من السبيل ، وألْحَنا لكَ من الدليل ؛ يُتْلَى عليهم ذلك ، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله ؟! هذا هو الجحود وغاية الكُنود !

قوله جل ذكره : « قُلْ كفى باللهِ بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرضِ والذين آمنوا بالباطلِ وكفروا باللهِ أولئك هم الخاسِرون »

أنا على حقٍّ واللهُ ـ سبحانه ـ يعلمه ، وأنتم لستم على حق والله يعلمه .

قوله جل ذكره : « ويستعجلونك بالعذابِ ولولا أجَلٌ مُسَمًّى لجاءهم العذابُ ولَيَأْتِيَنَّهم بغتةً وهم لا يَشْعرون »

لولا أني ضربْتُ لكلِّ شيء أجَلاً لعَجَّلْتُ لهم ذلك ، ولَيَأْتِيَنَّهم العذابُ ـ حين يأتيهم ـ بغتةً وفجأةً .

---

(١) ورد في ص بعد كلمة المعرفة (وصف الحق) وربما كانت (بوصف الحق) وهي غير موجودة في م ، ونرجح أنها موجودة في الأصل بدليل اقتران الضمير بـ (خواصه) .

(٢) في ص (توقع نسخة توحيده) وفي م (يرفع نسخة توحيده) وكلاهما غامض في الكتابة وإن كنا نستطيع أن نفهم أن التوحيد ـ وهو أقصى درجات المعرفة ـ محله قلوب الخواص .

قوله جل ذكره . « يومَ يَغْشاهم العذابُ مِن فوقِهم
ومن تحت أرجُلِهم ويقول ذوقوا
ما كنتم تعملون »

وإذا أحاطت بهم فى جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريخ لهم ، كذلك - اليومَ - مَنْ أحاط به العذابُ ؛ مِنْ فوقه اللّعنُ ومن تحته الخسفُ ، ومن حوله الخِزْيُ ، ويُلْبَسُ لباسَ الخذلان ، ويوسم بكيِّ الحرمان ، ويُسْقَى شرابَ القنوط ، ويُتَوَّجُ بتاج الخيبة ، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط ، ويُغَلُّ بِغُلِّ العداوة ، فهُمْ يُسْحَبون فى جهنم الفراق حُكْماً ، إلى أن يُلْقَوْا فى جحيم الاحتراق عيناً .

قوله جل ذكره : « يا عبادىَ الذين آمنوا إنَّ أرضى
واسعةٌ فإياى فاعبدونِ »

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيق بمريدٍ مكان ، فإذا نبَا به منزلٌ - لوجهٍ من الوجوه - إمّا لمعلومٍ حصل ، أو لقبولٍ من الناس ، أو جاهٍ ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لبَلاءٍ ضِدٍّ ، أو لوجهٍ من الوجوه الضارة . . . فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره ، كما قالوا[1] :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَـــرِيّاً
أنْ أرى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أمْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقتَه مكانٌ انتقل إلى غيره من الأماكن[2] .

قوله جل ذكره : « كلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الموتِ ثم إلينا
تُرْجعون »

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور ؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطِّن نفسَه

---

(١) البحترى فى السينية .

(٢) تعبر هذه الفقرة عن رأى التشيرى فيما يعرف عند الصوفية (بالسَّفر) فهو يجيزه للعارف ، أما بالنسبة للمريد فإنه يرى عدم السفر ؛ لأن ثبات المريد فى مكان به ابتلاء هروب من مواجهة الابتلاء وذلك آية ضعف فى الإرادة : (ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، ، فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل(الرسالة ص ٢٠٠).

على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأَجَلُ فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحُكْمِ الوقت ، كما قالوا :

لو قال لى مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعةً
وقلتُ لداعى الموت : أهلاً ومرحبا

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لنبوئنَّهم من الجنة غُرَفاً تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أَجْرُ العاملين » .

هم ـ اليومَ ـ فى غُرَفِ معارفهم على أَسِرَّةِ وَصْلِهم ، مُتَوَّجُون بتيجان سيادتهم ، يُسْقَوْن كاساتِ الوَجْدِ ، ويَجْبُرُون فى جِنانِ القُرْب ، وعداً كما قال : —

« الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يتوكلون »

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة .

الصبرُ العكوفُ فى أوطان الوفاء ، الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها .

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

الصبر صفة توجب معيَّةَ الحقِّ . . وأَعْزِزْ بها !

وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكلفٍ ، ثم صبرٌ بسهولة ، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة ، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا ؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً .

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار ، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله ، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل ؛ فلا تتبرَّم فى الخلوة بانقطاع الأغيار عنك . التوكل إعراضُ القلب عن غير الربِّ .

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من دابةٍ لا تحمل رزقَها اللهُ يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » .

« لا تحمل رزقها » أى لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه فى كيسه أو خزائنه فالله يرزقه من غير مقاساة تعب منه .

ويقال « لا تحمل رزقها » المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها بيت تجمع فيه القوت ، وليس لها خازن ولا وكيل .. الله يرزقها وإياكم .

ويقال إرادةُ اللهِ فى أن يستبقيكَ ولا يقبض رُوحَك أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تمنِّيك لأجلِ بقائك .. فلا ينبغى أنْ يكونَ اهتمامُكَ بسبب عَيْشِك أتمَّ وأكبرَ من تدبير صانعك لأجل بقائك .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ ليقولُنَّ اللهُ فأنّى يُؤفكُون » .

إذا سُئِلوا عن الخالق أقروا بالله ، وإذا سُئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله .. هذه مناقَضَةٌ ظاهرة !

قوله جل ذكره : « اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يشاء من عبـاده ويَقْدِرُ له إنَّ اللهَ بكلِّ شىء عليم » .

الرزق على قسمين : رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب ، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعانى بحيث لا يحصره تكلف الكلام ، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُرَفَّهٌ عليه ، وفيهم مرزوق ولكنْ مُضَيَّقٌ عليه .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم مَن نَزَّلَ مِنَ السماءِ ماء فأحيا به الأرضَ من بعد موتِها ليقولُنَّ اللهُ قُلِ الحمـد للهِ بل أكثرُهم لا يعقِلون » .

كما عَلِموا أنَّ حياةَ الأرضِ بعد موتها بالمطر من قِبَل الله فليعلموا أنَّ حياةَ النفوسِ بعد موتها — عند النَّشْرِ والبعث — بقدرة الله . وكما علموا ذلك فليعلموا أنَّ حياةَ الأوقات بعد نفوتها ، وحياة القلوب بعدفترتها ... بماء الرحمة بالله .

قوله جل ذكره : « وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهِيَ الحيوانُ لو كانوا يعلمون » .

الدنيا كالأحلام ، وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم . والآخرة هنالك العيش بكماله ، والتخلص — من الوحشة — بتمامه ودوامه .

قوله جل ذكره : « فإذا رَكِبُوا فى الفُلْكِ دعوا اللهَ مُخْلصين له الدِّينَ فلمَّا نَجَّاهم إلى البرّ إذا هم يُشرِكون » .

الاخلاصُ تفريغُ القلب عن الكلّ ، والثقةُ بأن الاخلاص ليس إلا به — سبحانه ، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً فى المحمودات ولا فى المذمومات ، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدّين . وإذا توالت عليهم الضرورات ، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين (فإذا كشف الضُّرّ عنهم عادوا إلى الغفلة ، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل)[1] :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نُكْسِهِ

قوله جل ذكره : « أو لم يروا أنا جعلنا حرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حَوْلِهم أفبالباطلِ يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » .

مَنَّ عليهم بدَفْعِ المحن عنهم وكَوْنِ الحرَمِ آمنًا . وذَكَّرَهم عظيمَ إحسانه عليهم ، ثم إعراضهم عن شكر ذلك .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص ، والسياق يتطلبه ؛ لأن الشاهد الشعرى الموجود فى النسختين يؤيد معناه .

قوله جل ذكره : « ومَنْ أظلمُ ممن افترىٰ على اللهِ
كَذِبًا أو كَذَّبَ بالحقِّ لمَّا جاءه أليس
فى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين » .

أى لا أحدَ أشدُّ ظلمًا ممن افترى على الله الكذب ، وعَدَلَ عن الصدق ، وآثَرَ البهتانَ ولم يتصرف بالتحقق ، أولئك هم الشُّقاطُ فى الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا
وإن الله لمع المحسنين » .

الذين زَيَّنُوا ظواهرَهم بالمجاهدات حَسُنَتْ سرائرُهم بالمشاهدات . الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف . الذين قاسوا فينا التعبَ من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرَّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّى من الشواغل فى جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الحواسِّ لله ، وبِعَدِّ الأنفاس مع الله .

السورة التى يذكر فيها
الـــروم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جودُه ، بلاء المتهمين قصودُه ، ضياء الموحِّدين عهوده . وسلوةُ المحزونين ذِكرُه ، وحِرفةُ[1] المُمتحنين شكرُه .

اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وجبّارٌ سناؤه بهاؤه ، وبهاؤه علاؤه .

العابدون حَسْبُهم عطاؤه ، والواجدون حسْبهم بقاؤه[2] .

قوله جل ذكره : « آلمّ غُلِبَتِ الرومُ فى أدنى الأرض
وهم من بَعْدِ غلبهم سَيغلبُون *
فى بضْع سنين » .

الإشارة فى « الألف » إلى أنه ألِفَ صُحْبتنا مَنْ عَرَف عظمتنا ، وأنّه ألف بلاءنا مَنْ عَرَفَ كبرياءنا .

والإشارة فى « اللام » إلى أنه لزَم بابنا مَنْ ذاق محابّنا ، ولزَم بساطنا مَنْ شهد جمالنا .

والإشارة فى « الميم » إلى أنه مُكِّنَ منْ قُرْبنا مَنْ قام على خدمتنا ، ومات على وفائنا مَنْ تحقق بولائنا .

قوله : « غُلبتِ الروم » : سُرّ المسلمون بظفر الروم على العجم — وإن كان الكفر يجمعهم — إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الآية . . فكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحُزْنه واهتمامه لدين الله ؟

---

(١) الحرفة هنا معناها دأبه وديدنه (الوسيط) .

(٢) لأن بقاءهم به خلف لهم عن كل شيء ، فكل شيء زائل .

قوله جل ذكره : « للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ
ويومئذٍ يفرح المؤمنون * بنصر اللهِ
ينصُر مَن يشاء وهو العزيزُ الرحيم » .

« قبلُ » إذا أُطلق انتظم الأزل ، « وبَعدُ » إذا أطلق دلّ على الأبد ؛ فالمعنى الأمر الأزلىُّ لله ، والأمر الأبدىُّ لله ؛ لأنَّ الربَّ الأزلىّ والسَّيِّدَ الأبدىّ اللهُ .

لله الأمرُ يومَ العرفان[1] ، ولله الأمرُ يومَ الغفران .

لله الأمرُ حين القسمة ولا حين ، ولله الأمرُ عند النعمة وليس أى معين[2] .

ويقال : لى الأمرُ « من قبل » وقد علمتُ ما تفعلون ، فلا يمنعنى أحدٌ من تحقيق عرفانكم ، ولى الأمر « من بعد » وقد رأيتُ ما فعلتم ، فلا يمنعنى أحدٌ من غفرانكم .

وقيل « لله الأمر من قبل » بتحقيق ودِّكم ، ولله الأمر من بعد بحفظ عهدكم :

إنى — على جفواتها — وبرِّها
وبكلِّ مُتصل بها مُتوسلِ[3]

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

اليومَ إرجافُ السرور وإنما
يومَ اللِّقاء حقيقةُ الإرجاف

اليومَ ترحٌ وغداً فرح ، اليوم عَبرة وغداً حَبرة ، اليوم أسف وغداً لطف ، اليوم بكاء وغداً لقاء .

قوله جل ذكره : « وعدَ اللهِ لا يخلِفُ اللهُ وعدَه
ولكنَّ أكثر النّاس لا يعلمون »

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص يوم (القربان) ، والمعرفة والقرب يجريان فى هذه الحياة الدنيا ، أما الغفران فهو فى الآخرة يوم الحساب .

(٢) هكذا فى وهى فى ص : (ولله الأمر عند النقمة وليس فى معسر) وهى غامضة فى الكتابة والمعنى ، وقد آثرنا ما جاء فى م لوضوحه .

(٣) فى موضع آخر من هذا المجلد ..... تجد هذا البيت متبوعاً بالبيت التالى (الذى فيه خبر إن) :

لأحبها وأحب منزلها الذى نزلت به وأحب أهل المنزلِ

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته .

يقول المؤمنون : مِنا يومَ الميثاق وعدٌ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومَ وعدٌ بالجنة ، فإن وَقع فى وعدنا تقصيرٌ لا يقع فى وعده قُصورٌ .

قوله جل ذكره : « يعلمون ظاهراً من الحياةِ الدنيا *
وهم عن الآخرة هم غافلون » .

استغراقُهم فى الاشتغال بالدنيا ، وانهماكهم فى تعليق القلب بها . . مَنَعَهم عن العلم بالآخرة . وقيمةُ كلِّ امرىءٍ عِلمه بالله ؛ ففى الأثر عن علىٍّ — رضى الله عنه — أنه قال : أهل الدنيا عَلَى غفلةٍ من الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها فى غفلة عن الله .

قوله جل ذكره : « أو لم يتفكروا فى أنفسِهم ما خلقَ اللهُ
السموٰاتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ
وأجَلٍ مسمًّى وإنَّ كثيراً من الناسِ بلقاءِ
ربِّهم لكافِرون » .

إنَّ مَنْ نَظَرَ حقَّ النظر ، ووَضَعَ النظر موضعَه أثمر له العلم واجباً ، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الغائبات ، وعَلِمَ موعوده الصادق فى المستأنف — نجا عن كَدِّ التردد والتجويز[1]. فسبيلُ مَنْ صحا عقلُه ألا يجنحَ إلى التقصير فيما به كمال سكونه .

قوله جل ذكره : « أوَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فينظروا
كيف كان عاقبةُ الذين من قَبْلِهم
كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ
وعَمَرُوها أكثرَ مما عمروها ، وجاءتْهم

---

(١) التردد والتجويز آفتان تصيبان — فى نظر القشيرى — العقل ، بينما القلب والروح والسر وعين السر لا تصاب بهما .

رُسُلُهم بالبينات فما كان اللهُ لِيَظْلِمَهم
ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمُون » .

سَيْرُ النفوسِ فى أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوبِ بِجَوَلانِ الفِكْرِ فى جميع المخلوقات ، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التى توجِبُ ثلج الصدر — ثم تلك العلوم على درجات . وسير الأرواح فى ميادين الغيب بنعت خرق سرادقات الملكوت ، وقصاراه الوصولُ إلى محلّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأسرار بالترقى عن الحِدْثان[1] بأسْرِها ، والتحقق أولا بالصفات ، ثم بالخمود بالكلية عمّا سِوى الحقّ[2].

قوله جل ذكره : « ثُمَّ كان عاقبةَ الذين أساءوا
السُّوأَىٰ أن كَذَّبوا بآياتِ اللهِ وكانوا
بها يَسْتَهْزِئُون » .

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصُد الوَرْدَ ، ومَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار ، ومَنْ سَلَكَ طريق الغىّ لم يَحُلْ بساحة الرشد .

قوله جل ذكره : « اللهُ يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده ثم إليه
تُرْجَعون .

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُبْلِسُ المجرِمون» .

شهودُهم ما جحدوه فى الدنيا عيانًا ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعًا[3] هو الذى يفتت أكبادهم ، وبه تتمُّ محنتُهم .

قوله جل ذكره : « ولم يَكُن لهم مِن شركائهم شُفَعاءُ
وكانوا بشركائهم كافرين » .

---

(١) المقصود بالحدثان المخلوقات إذ لها أول وابتداء ولها آخر وانتهاء .

(٢) انظر بخصوص هذا الترقى صفحة ٤٨٦ (المجلد الأول من هذا الكتاب) .

(٣) لأن معرفتهم العينية تقطع كل شك كان يراودهم فى الحياة الدنيا ، فلا مجال يومئذ لأمل زائف .

تغلب العداوةُ مِنْ بعضٍ على بعضٍ .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يومئذٍ يتفرقون » .

فريقٌ منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل الفرقة . فريق للجنة والمِنَّة ، وفريقٌ للعذاب والمحنة . فريقٌ فى السعير ، وفريقٌ فى السرور . فريقٌ فى الثواب ، وفريقٌ فى العذاب . فريق فى الفراقِ ، وفريقٌ فى التلاقى .

قوله جل ذكره : « فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فهم فى روضةٍ يُحْبَرُون » .

فهم فى رياضٍ وغياضٍ

« وأمَّا الذين كفروا وكَذَّبوا بآياتِنا ولقـاءِ الآخرةِ فأولئك فى العذابِ مُحْضَرون » .

فهم فى بوارٍ وهلاكٍ .

قوله جل ذكره : « فسُبْحان اللهِ حين تُمْسون وحين تُصْبِحون * وله الحمدُ فى السموٰاتِ والأرض وَعَشِيًّا وحين تُظْهِرون » .

مَنْ كان صباحُه لله بُورِكَ له فى يومه ، ومن كان مساؤه بالله بورك له فى ليله :

وإنَّ صَبَاحًا نلتقى فى مسائه صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبُ

شتَّان بين عبدٍ صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته ، وبين عبدٍ صباحه مفتتح بمشاهدته ورواحه مفتتح بعزيز قربته !

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه فى هذه الأوقات ، والآية تتضمن الصلوات الخمس[1] ،

---

(١) قيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية . فـ (حين تمسون) صلاة المغرب والعشاء ، (وحين) تصبحون صلاة الفجر ، (وعشيا) صلاة العصر ، (وحين تظهرون) صلاة الظهر .

وإرادةَ الحقِّ من أوليائه بأَنْ يجددوا العهدَ في اليوم والليلة خمسَ مراتٍ ؛ فتقف على بساط المناجاة ، وتستدرك مافاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

قوله جل ذكره : « يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ويخرجُ الميِّتَ من الحيِّ ويحيي الأرضَ بعد موتِها وكذلك تُخْرَجُون » .

« يخرج الحي من الميت » : الطيرَ من البيض ، والحيوان من النُّطفةِ .

و « يخرج الميت من الحيِّ » : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .

والمؤمنَ من الكافرِ والكافرَ من المؤمن .

ويُظْهِرُ أوقاتاً من بين أوقات ؛ كالقبض من بين أوقات البسط ، والبسط من بين أوقات القبض .

« ويحيي الأرض بعد موتها » : يحييها بالمطر ، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك يوم النشور يحيي الخلقَ بعد الموت .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه أَنْ خَلَقَكُمْ من ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون » .

خَلَقَ آدمَ من التراب ، ثم من آدم الذُّرِّيَّةَ . فذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال الأصل تُرْبة ولكن العِبْرَة بالتربية لا بالتربة ، القيمةُ لما مِنْهُ لا لأعيان المخلوقات . اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر ! ولكن البيت مختارُه وهذا المختار حجر ! واختار الإنسانَ ، وهذا المختار مَدَرٌ ! والغنيُّ غنيٌّ لذاتِه ، غنيٌّ عن كلِّ غيرٍ من رَسْمٍ وأثر .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجَعَلَ بينكم

مودةً ورحمةً إنّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يتفكرُون » .

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل ، ورَبَطَ الشكلَ بالشكلِ ، وجعل سكونَ البعضِ إلى البعضِ ، ولكنّ ذلك للأشباح والصُّوَر ، أمّا الأرواح فصُحْبَتُها للأشباح كرهٌ لا طوعٌ[1] . وأمّا الأسرار فمُعْتَقَةٌ لا تساكن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه خَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ
واختلافُ ألسِنَتِكُمْ وألوانِكم إنّ
فى ذلك لآياتٍ للعالِمين » .

خَلَقَ السماواتِ فى علوِّها والأرضَ فى دنوِّها ؛ هذه بنجومِها وكواكبها ، وهذه بأقطارها ومناكبها . وهذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومَدَرِها .

ومن آياته اختلافُ لغات أهل الأرض ، واختلافُ تسبيحات الملائكة الذين هم سكان السماء . وإنّ اختصاصَ كلِّ شىء منها بحُكْمٍ — شاهدُ عَدْلٍ ، ودليلُ صِدْقٍ على أنها تناجى أفكار المتيقظين ، وتنادى على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه منامُكم بالليل والنهارِ
وابتغاؤكم مِن فَضْلِه إنّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يسمعون » .

غَلَبَةُ النومِ بغيرِ اختيارِ صاحبه ثم انتباهُه مِنْ غير اكتسابٍ له بِوُسْعِه يدلُّ على موته وبَعْثِه بعد ذلك وقتَ نشوره . ثم فى حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه ، وعلى أوصافٍ كثيرة أمره .. كذلك الميت فى قبره .. اللهُ أعلمُ كيف حاله فى أمره ، وما يلقاه من خيره وشرّه ، ونفعه وضرّه ؟

---

(١) فكرة اغتراب الروح عن مصدرها الأصيل ، وليثها فى داخل البدن ، ذلك القفص المادى أو السجن الترابى — تحتل اهتماماً كبيراً عند شعراء الصوفية (أنظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى » فصل الفطرية) .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِهِ يريكم البَرْقَ خوفاً وطمعاً ويُنَزِّلُ من السماء ماء فيُحيي به الأرضَ بعد موتِها إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون » .

يُلْقِي في القلوب من الرجاء والتوقع في الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فمِنْ عبدٍ يحصُل مقصودُه ، ومِنْ آخر لا يتفق مرادُه .

والأحوال اللطيفة كالبروق ، وقالوا : إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار[1] ، فاللوائح في أوائل العلوم ، واللوامع من حيث الفهوم ، والطوالع من حيث المعارف[2] ، والشوارق من حيث التوحيد .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِهِ أن تقومَ السماء والأرضُ بأمْرِه ثم إذا دعاكُم دعوةً من الأرضِ إذا أنتم تخرُجون » .

يُفني هذه الأدوار ، ويُغيِّر هذه الأطوار ، ويبدِّل أحوالا غير هذه الأحوال ؛ إماتةٌ ثم إحياء ، وإعادةٌ وقبلها إبداء ، وقبرٌ ثم نَشْر ، ومعاتبةٌ في القبر ثم محاسبةٌ بعد النَّشْرِ .

قوله جل ذكره : « وله مَن في السمٰواتِ والأرضِ كُلٌّ له قانِتُون » .

له ذلك مِلْكاً ، ومنه تلك الأشياء بَدْءاً ، وبه إيجاداً ، وإليه رجوعاً .

قوله جل ذكره : « وهو الذي يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده وهو أهون عليه وله المَثَلُ الأعْلى في السمٰوات والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

---

(١) يتفق موقف القشيري من هذه المصطلحات هنا مع ما ذكره في «الرسالة» وإن كان قد زاد عليها هنا (متوع النهار) .

(٢) نفهم من هذا أن القشيري يرى هذا الترتيب : العلم ثم الفهم ثم المعرفة أو العرفان ، ونفهم أن التوحيد أعلى درجات العرفان .

« وهو أهون عليه » أى فى ظنِّكم وتقديركم[1] .

وفى الحقيقة السهولةُ والوعورةُ على الحقِّ لا تجوز .

« وله المَثَلُ الأعلى » : له الصفةُ العليا فى الوجود بحقِّ القِدَم ، وفى الجود بنعت الكَرَم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النصرة بوصف الكمال ، وفى العلم بعموم التعلُّق ، وفى الحكم بوجوب التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية[2] بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العزِّ والجلال ، وفى الملكوت بنعت المجد والجمال .

قوله جل ذكره : « ضربَ لكم مثلاً من أنفسِكم هل لكم مما مَلَكَتْ أيمانُكم مِنْ شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سَواء تخافونهم كَخِيفَتِكُمْ أنفُسَكم كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعقلون » .

أى إذا كان لكم مماليك لا تَرْضَوْن بالمساواة بينكم وبينهم ، وأنتم متشاكلون[3] بكلِّ وجه ـ إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم ـ فَمَا تقولون فى الذى لم يَزَلْ ، ولا يزال كما لم يزل ؟ .

هل يجوز أن يُقَدَّرَ فى وصفه أن يُساوِيَه عبيدُه ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكَه ؟ تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً !.

قوله جل ذكره : « بل اتَّبَعَ الذين ظَلَمُوا أهواءهم بغير علمٍ فَمَن يهْدِى مَنْ أضَلَّ اللهُ وما لَهم من ناصرين » .

---

(١) معنى هذه العبارة : حسب ظنكم وتقديركم الإعادةُ أسهلُ من الإنشاء .. فَلِمَ أنكرتم الإعادة ؟ فضلا عن أنه ليس عند الله سهل ولا عسير .

(٢) القضية : هى قضاء الله .

(٣) متشاكلون معناها : متشابهون ومتساوون ولا فرق فى الجوهرية بينكم وبينهم .

أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى ؛ لأنه قريبٌ من الشِّرْكِ ، قال تعالى : « أفرأيتَ مَنِ اتخذ إلٰهه هواه »[1]. فمَنِ اتَّبعَ هواه خالف رضا مولاه ؛ فهو بوضعه الشيء غيرَ موضعه صار ظالماً ، كما أنَّ العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ .. كذلك هذا بمتابعة هواه بَدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار فى الظلم متمادياً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وجهَكَ للدِّين حنيفاً فِطْرَةَ اللهِ
التى فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله
ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ
لاَ يَعْلَمون » .

أخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله ، واحفَظْ عهدكَ مع الله ، وأَفرِدْ عملكَ فى سكناتِك وحركاتِك وجميعِ تصرفاتِك لله .

« حنيفاً » : أى مستقيما فى دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضًا عن غيره[2]. والزَمْ « فطرةَ الله التى فطر الناس عليها » أى أثْبِتَهُم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْبٌ ، ولا شِرْكٌ ولا كُفْر ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولاعصيان . فاعرف بهذه الجملة ، ثم افعل ما أُمِرْتَ به ، واحذر ما نُهِيتَ عنه .

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » أى إعْرَفْ واعْلَمْ أن فطرة الله التى فطر الناس عليها : تجرُّدُهم عن أفعالهم ، ثم اتصافهم بما يكسبون — وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله[3].

وعلى هذا تكون « فطرةَ » الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ — كما قلنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) فكلمة « حنيف » من الأضداد .

(٣) يذكرنا هذا بتفسير أبي طالب المكى لقول رابعة « أحبك حبين .. » فالحب الأول فطرى تفضل الله به ، والحب الثانى عائته هى بكسبها ولكنها حتى فى هذا الحب الكسبى لا فضل لها ، ولذلك استدركت :

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

أنظر (قوت القلوب للمكى جـ٢ ص٥٦ وماقبلها) وانظر أيضا كتابنا (نشأة التصوف الإسلامى) ط دار المعارف .

سبحانه فَطَرَ كلَّ أحدٍ على ماعَلِمَ أنه يكون فى السعادة أو الشقاوة ، ولا تبديلَ لحُكْمه ، ولا تحويلَ لما عليه فَطَرَه . فمَنْ عَلِمَ أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته ، وخَلَقَه فى حُكْمه سعيداً . ومَنْ عَلِمَ شقاوته أراد أن يكون شقياً وأخبر عن شقاوته وخَلَقَه فى حكمه شقيًا .. ولا تبديل لحُكمه ، هذا هو الدين المستقيم والحقُّ الصحيح[1]

قوله جل ذكره : « مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاةَ ولا تكونوا من المشركين » .

أى راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية ، متصفين بوفاقه ، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه ، متّقين صغيرَ الإثم وكبيره ، قليلَه وكثيره ، مُؤثرين يسيرَ وفاقه وعسيره ، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهراً ، متحققين بمراعاة فضائلها سِراً .

قوله جل ذكره : « من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حِزْبٍ بما لديهم فرحُون » .

أقاموا فى دنياهم فى خمار الغفلة ، وعناد الجهل والفترة ؛ فركنوا إلى ظنونهم ، واستوطنوا مركب أوهامهم ، وتموّلوا من كيس غيرهم ، وظنوا أنهم على شىء . فإذا انكشف ضبابُ وقتهم ، وانقشع سحابُ جحدِهم . . انقلب فرُحهم ترحاً ، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة ، ولم يعرّجوا إلاّ فى أوطان الجهالة .

قوله جل ذكره : « وإذا مسّ الناسَ ضُرٌّ دعوْا ربّهم مُنيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربّهم يشركون » .

---

(١) نحسب أن القشيرى قد حاول إيضاح مشكلة هامة من مشاكل علم الكلام ، فليست الجبرية عنده بناقضة لحرية الإنسان واختياره ، ما دامت الأمور كلها مرتبطة بعلم الله الذى سبق كل شىء ، وبفضل الله الذى فطر على ما علم .

إذا أظلتهم المحنةُ ونالتهم الفتنةُ ؛ وَمَسَّتْهُم البليَّةُ رجعوا إلى الله بأجمعهم مستعينين، وبلطفه مستجيرين ، وعن محنتهم مستكشفين[1] ..

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم : إذا فريق منهم — لا كلُّهم — بل فريقٌ منهم بربهم يشركون ؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة فى الكفران ، ويقابلون إحسانه بالنسيان ، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء ، ولا فى مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره : « لِيَكفرُوا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » .

أى عن قريبٍ سيحدث بهم مثلما أصابهم ، ثم إنهم يعودون إلى التضرع ، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءًا من التخشع ، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم .

قوله جل ذكره : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يُشركون » .

بَين أنهم بَنوا على غير أصلٍ طريقَهم ، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم ، وعلى غير شَرعٍ من الله أو حجةٍ أو بيانٍ أسَّسُوا مذاهبَهم .

قوله جل ذكره : « وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها وإن تُصِبْهمُ سيئةٌ بما قدّمَت أيديهم إذاهم يقنطُون » .

تستميلهم طوارقُ أحوالهم ؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح ، وإن كانت شدة فإلى قنوطٍ وَتَرح .. وليس وصفُ الأكابر كذلك ؛ قال تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »[2] .

---

(١) أى راجين كشف الغمة عنهم .

(٢) آية ٢٣ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « أو لم يَروا أنّ اللهَ يبسُط الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ إنّ فى ذَلك لآياتٍ لِقومٍ يُؤمنون » .

الإشارة فيها إلى أن العبدَ لا يُعلِّقُ قلبه إلا بالله ؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله ، وما يسرُّهم ليس وجودُه إلا من الله ، فالبسطُ الذى يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده ، والقبض الذى يسوءهم ويوحشهم منه حصولُه ، فالواجبُ لزوم عَقْوَةِ[1] الأسرار ، وقطعُ الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره : « فآتِ ذا القربى حَقَّه والمسكينَ وابن السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجهَ اللهِ وأولئك هم المفلحون » .

القرابةُ على قسمين : قرابةُ النسب وقرابة الدِّين ، وقرابةُ الدين أمسُّ ، وبالمواساة أحقُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلا بالعبادة ، غيرَ متفرِّغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقَّه آكدَ ، وتفقُّدَه أوْجَبَ .

« ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله » : المريدُ هو الذى يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه ؛ فإيثارُ المريد وَجه اللهِ أتمُّ من مراعاته حال نفسه ، فهِمَّتُه فى الإحسانِ إلى ذوى القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لِنَفْسِهِ وعياله وما يهمه من خاصته .

قوله جل ذكره : « . . وما آتيتُم مِن زكاةٍ تريدون وَجهَ اللهِ فأولئك هم المُضْعِفون » .

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجهَ الله ، وألا تستخدم الفقير لما تَبرَّه به من رافقة[2] ،

---

(١) العقوة الموضع المتسع أمام الدار .

(٢) الرافقة = الرفق واللطف ، تقول : أولاه رافقة (الوسيط) .

بل أفضل الصدقة على ذى رَحِمٍ كاشح[1] حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ فيه ، فهؤلاء هم الذين يضاعِفُ أجْرَهم: قَهرُهم لأنفسهم حيث يخالفونها ، وفوزُهم بالعِوَض مِنْ قِبَلِ الله .

ثم الزكاة هى التطهير ، وتطهيرُ المالِ معلومٌ ببيان الشريعة فى كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البَدَنِ وزكاةُ القلبِ وزكاةُ السِّرِّ . . كلُّ ذلك يجب القيام به .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَكُمْ ثم رَزَقَكُمْ ثم يُمِيتُكم ثم يُحْيِيكم هل مِن شُرَكائِكُمْ مَن يفعلُ مِن ذلكم مِن شىء سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكون » .

« ثم » حرفٌ يقتضى التراخى ؛ وفى ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِه إياك أن يرزقك ؛ كنتَ فى ضعف أحوالك ابتداء ما خَلَقَكَ ، فأثبتك وأحياك من غير حاجةٍ لك إلى رزقٍ ؛ فإلى أن خرجتَ من بَطْنِ أمّك : إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ فى بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شُرْبٌ ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق — إنْ حَقٌّ ما قالوا : إن الجنينَ يتغَذَّى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم ، فَيَسَّرَ لك أسبابَ الأكل والشرب من لَبَنِ الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره

« ثم يميتكم » بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

« ثم يحييكم » بحياة قلوبكم ثم بأن يحييكم بربِّكم .

---

(١) كاشح أى مبغض . وربما كان خير مثل للتصدق على ذى رحم مبغض ، ما حدث من أبى بكر حينما امتنع عن تقديم الزكاة لمسطح على أثر قيامه بدوره المعروف فى قصة الإفك ، فعوتب أبو بكر فى ذلك ونزلت فيه «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » آية ٢٢ سورة النور .

ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق .

ويقال : لا مُكْنَةَ لك فى تبديل خَلْقِكَ ، وكذلك لا قدرةَ لَكَ على تعسُّر رزقِك ، فالمُوَسِّعُ عليه رزقُه — بِفَضْلِهِ سبحانه . . لا بمناقِب نَفْسِه ، والمُقَتِّرُ عليه رزقُه بحُكْمِهِ سبحانه . . لا بمعايب نَفْسِه .

« هل من شركائكم مَنْ يفعل مِنْ ذلكم من شىء ؛ هل من شركائكم الذين أثبتموهم أى من الأصنام أو توهمتموهم من جملة الأنام . . مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ « سبحانه وتعالى » تنزيهاً له وتقديساً .

قوله جل ذكره : « ظَهَرَ الفسادُ فى البَرِّ والبحرِ بما كَسَبَتْ أيدى الناسِ لِيُذِيقَهُم بعضَ الذى عَمِلوا لَعَلَّهم يرجِعون » .

الإشارة من البرّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

وفسادُ البرّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات ، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشَّرّ والفِسْقِ . . وغير ذلك . وعَقْدُ الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظمِ فسادِ القلب ، كما أنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فِعْلها من أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقٍّ ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ فى غير قيامٍ بِجَدٍّ ، والإغراق فى الدعاوَى من غير استحياء من الله تعالى .

« ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » : بعض الذى عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب ، وعدم التأسُّف على مافاته من الحقّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ سِيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِن قَبْلُ كان أَكْثَرُهُم مُشْرِكِين » .

« سيروا » بالاعتبار ، واطلبوا الحقَّ بنعت الأفكار .

« فأنظروا » كيف كانت حال مَنْ تقدَّمكم من الأشكال والأمثال ، وقيسوا عليها حُكْمَكُ فى جميع الأحوال. « كان أكثرهم مشركين » كانوا أكثرَهم عدداً ، ولكن كانوا فى التحقيق أقلَّهم وزناً وقَدْراً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين القيِّم من قبل أن يأتىَ يومٌ لا مَرَدَّ له من الله يومئذٍ يَصَّدَّعُون » .

أَخْلِص قَصْدَكَ وصِدْقَ عَزْمِكَ للدين القيِّم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فَمَنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمامُ وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خُسْرَانُه أَتَمَّ من رِبْحِه ، ونقصانُه أَعَمُّ من نَفْعه[1] .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أن يُرْسِلَ الرياحَ مُبَشِّرَاتٍ وليُذِيقَكم مِن رحمته ولتجرىَ الفُلْكُ بأمرِه ولتبتغوا من فَضْلِه ولعلَّكُم تشكرون » .

يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العِباد فتكنس عن قلوبهم غبارَ الخوف وغُثَاء اليأس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بِساط الجُهْدِ ، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياحَ البسطِ على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض ، وينشر فيها إرادة الوصال. ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدواء الوصال .. فذلك ارتياحٌ به ولكن بعد اجتياحٍ عنك .

---

(١) يرى كبار الصوفية – والقشيرى منهم – أن التأدب بشيخ أمر ضرورى فى الطريق الصوفى كى يكبح جماح المريد ، ويهديه إلى ربه عند رعونة نفسه ، ويبعد به عن الزهو عندما تلوح له بوادر الكشوفات ، ويشير عليه بالسفر إن دعت الحاجة إلى ذلك ... ونحو هذا .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إلى
قومِهم فجاءوهم بالبيِّناتِ فانتقمنا
من الذين أجرموا وكان حَقًّا علينا
نَصْرُ المؤمنين » .

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا ، فمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق ، ومَنْ عارضَهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا ، وشوَّشْنا عليهم ما أمَّلوا ، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَعَّموا ، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا .

« وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤمنين » بتوطئتهم بأعقاب أعدائهم ، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم ، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم ، وهدَّمنا بنيانهم ، وأخمدنا نيرانَهم ، وعَطَّلْنا عنهم ديارَهم ، ومَحَوْنا بقَهْرِ التدمير آثارَهم ، فظَلَّتْ شموسُهم كاسفة ، ومكيدةُ قَهْرِنا لهم بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى يُرْسِلُ الرياحَ فتثيرُ سحابًا
فيبسُطُهُ فى السماءِ كيف يشاء ويجعله
كِسَفًا فتَرَى الوَدْقَ يخرج من خلالِهِ
فإذا أصاب به مَن يشاء مِنْ عباده
إذا هُمْ يستبشرون »

يرسل رياح عَطْفِهِ وجُودِه مبشراتٍ بوَصْلِهِ وجوده ، ثم يُمْطِر جودَ غيبِه على على أسرارهم بلُطْفِه ، ويطوى بساطَ الحشمة عن ساحات قُرْبِه ، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِه ، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِه ، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسِه ، ويسقيهم بيده شرابَ حُبِّه ، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم — لا بِهِم — ولكنْ بِنَفْسه ، فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ ، والإشارات دونها طُمْسٌ

قوله جل ذكره : « فانظُرْ إلى آثارِ رحمةِ الله كيف يحيي الأرضَ بعد موتها إنَّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلِّ شيء قدير » .

يحيي الارضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخْرِجَ زَرْعَها وثمارَها ، ويحيي النفوس بعد نَفْرَتِها ، ويوفقها للخيرات بعد فترتها ، فيعمر أوطانُ الرِّفاق بصادق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، ويحيي القلوبَ بعد غفلتها بأنوار الحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة ، ويهتدى بأنوار أهلها أهلُ العسر من أصحاب الإرادات ، ويحيي الأرواح بعد حَجْبَتِها — بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسُها عن بُرْجِ السعادة ، ويتصل بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحبُ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب ، ويُحْيِي الأسرارَ — وقد تكون لها وَقْفَةٌ فى بعض الحالات — فتنتفى بالكلية آثارُ الغيرية ، ولا يَبْقَى فى الدار ديَّار ولا من سكانها آثار ؛ فسَطَواتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق ، هنالك الولاية لله . . سقط الماء والقطرة ، وطاحت الرسوم والجملة[1] .

قوله جل ذكره : « ولئن أرسَلْنا ريحاً فرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بعده يكفرُون » .

إذا انسدَّت البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات .. كذلك مَنْ حقَّتْ عليهم الشقاوةُ جرَّته إلى نفسها — وإنْ تبوَّأ الجنةَ منزلاً .

قوله جل ذكره : « فإنَّكَ لا تُسمِعُ الموتىٰ ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء إذا وَلَّوْا مُدْبِرين » .

مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم ، وإذا كان فى السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمْعُ الظاهر لايفيده آكَدُ الحُجَّة . وكما لا يُسْمِعُ[2] الصُّمَّ الدعاء فكذلك لايمكنه أن يهدى العُمْيَ عن ضلالتهم .

---

(١) أى انتفت آثار البشرية ، وصار العبد مستهلكاً بالكلية .

(٢) الفاعل ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على الرسول صلوات الله عليه ، فإن الخطاب فى الآية الكريمة موجه إليه.

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَكم من ضَعْفٍ ثم جَعَلَ من بعد ضَعْفٍ قُوَّةً ثم جَعَلَ من بَعْدِ قوةٍ ضَعْفًا وشَيْبَةً يخلُقُ ما يَشاءُ وهو العليمُ القديرُ » .

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية[1] ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك فى ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية فى نعت التردد والحيرة فى الطلب ، ثم بعد قوة الوصل فى ضعف التوحيد .

ويقال أولًا ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان فى حال العرفان ؛ لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود ؛ لأن الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر .

ويقال « خلقكم من ضعفٍ » : أى حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين »[2].

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمون ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُؤْفَكون » .

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إمَّا لأنهم كانوا أمواتًا .. والميت لا إحساسَ له ، أو لأنهم عَدُّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْن ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثِهم تحت الأرض . وإن ذلك الذى يقولونه من جملة ما كانوا يظهرون من جَحْدهم على موجب جهلهم ، ثم لا يُسْمَعُ عُذْرُهم ، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهم .

---

(١) الطفولية = الطفولة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . ورواه الطبرانى بسند رجال ثقات عن عبادة بن الصامت . وادعى ابن الجوزى وابن تيمية أنه موضوع ، وأبطل ذلك الحافظ بن حجر .

وأخبر بعد هذا فى آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم فى غيِّهم ، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم .

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم .

« فاصبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ
ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون » .

السورة التى يذكر فيها
لقـــمان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سمعها أقرَّ أنّه لا يسمع مِثْلَها ، ومَنْ عَرَفَها أنِفَ أنْ يسمعَ غيرها . كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُه ، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُه ، وتَمَّتْ من النِّعَمِ فى الدنيا والعقبى حِصَّتُه ، وزَهِدَ فى دنياه من غير رغبةٍ فى عقباه ؛ لأنَّها - وإنْ جَلَّتْ - غيرُ مولاه[1]

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب فى عمارة فنائه ، ولم يتحشم[2] سرعةَ وفائه .

قوله جل ذكره : « الٓمٓ * تلك آياتُ الكتابِ الحكيم »

الألف تشير إلى آلائه ، واللام تشير إلى لطفه وعطائه ، والميم تشير إلى مجده وسنائه ؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه ، وبلطفه وعطائه يثبت المحبةَ فى أسرار أصفيائه ، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خَلْقِه بوصف كبريائه .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » : المحروس عن التغيير والتبديل .

« هُدًى ورحمةً للمحسنين * الذين يقيمون الصَّلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم يُوقنون »

هو هدًى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله ، والمقيمين عبادةَ الله كأنهم

---

(١) فالحب الخالص منتف عن الغيرية .

(٢) لم يتحشم أى : لم يتجنب

ينظرون إلى الله . وشَرْطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله : دانيهم وقاصيهم ، ومطيعِهم وعاصيهم .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » : يأتون بشرائطها فى الظاهر من ستر العورة ، وتقديم الطهارة ، واستقبال القِبْلة ، والعلم بدخول الوقت ، والوقوف فى مكانٍ طاهر . وفى الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق ، وسَتْرِ عورةِ الباطنِ بتنقيته عن العيوب ، لأنها مهما تكن فاللهُ يراها ؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى اللهُ عيوبَك فاحذَرْها حتى لا تكون . والوقوف فى مكان طاهر ، وهو وقوف القلبِ على الحدِّ الذى أُذِنْتَ فى الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، وَرَحِمَ اللهُ مَنْ وقف عند حدِّه . والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلُّل والاستكانة ، وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القِبلةَ بنَفْسِك، وتعلِّق قلبَكَ بالله من غير تخصيص بقَطْرٍ أو مكان .

قوله جل ذكره : « أولئك على هُدًى من ربِّهم وأولئك هم المفلحون »

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحقِّ آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا فى الدنيا والعُقْبى فسلِموا ونَجَوْا .

قوله جل ذكره : « ومِنَ الناسِ مَنْ يشترى لَهْوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عن سبيل الله بغير عِلْمٍ ويتَّخِذَها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهِينٌ »

« لهو الحديث » : مايشغل عن ذكر الله[1] ، ويَحْجُبُ عن اللهِ سماعُه . ويقال : هو لَغْوُ الظاهر الموجِبُ سَهْوَ الضمائر ، وهو ما يكون خَوضاً فى الباطل ، وأخذاً بما لا يعنيك.

---

(١) اعتاد كثير من المفسرين أن يفسروا اللهو هنا (بالغناء) ، لأجل هذا نلفت النظر إلى عدم صرف القشيرى المعنى فى هذا الاتجاه ، لأننا نعلم من مذهبه أنه لا يرى بأساً فى سماع الغناء ولكن بشرط أن يحرك الوجدان نحو غاية سامية فى السماع ، وألا يبعث فيها الهوى والمجون ، وألا يكون مصحوباً بشىء محرَّم . (أنظر كتابنا : الإمام القشيرى ونزعته فى التصوف) ط مؤسسة الحلبى .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتْلَى عليه آياتنا ولَّى مستكبراً
كأنْ لم يَسْمَعْها كأنَّ فى أُذُنَيْهِ وَقْراً
فَبَشِّرْه بعذابٍ أليم »

المُفْتَرِقُ بِهَمِّه ، والمُتَشَتِّتُ بقلبه لا تزيده كثرةُ الوعظِ إلا نفوراً ونُبُوّاً ؛ فسماعُه كَلاَ سماع ، ووعظه هباء وضياع ، كما قيل :

إذا أنا عاتَبْتُ المُلولَ فإنما
أَخُطُّ بأقلامى على الماء أحرُفا

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم
جنَّاتُ النعيم * خالدين فيها وَعْدَ اللهِ
حَقًّا وهو العزيز الحكيم »

« آمنوا » : صَدَّقوا « وعملوا الصالحات » : تَحَقَّقُوا ؛ فاتصافُ تحقيقِهم راجعٌ إلى تصديقهم ، فَنَجَوْا وَسَلِمُوا ؛ فهم فى راحاتهم مقيمون ، دائمون لا يَبْرَحُون .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمواتِ بغير عَمَدٍ تَرَوْنها
وألقى فى الأرضِ رواسِيَ أنْ تميدَ بِكُمْ
وبَثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وأنزلنا من
السماء ماء فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم »

أمسك السمواتِ بقدرته بغير عِماد ، وحَفَظَها لا إلى سِناد أو مشدودةً إلى أوتاد ، بل بحُكْمِ الله وبتقديره ، ومشيئته وتدبيره .

« وألقى فى الأرض رواسى . . » فى الظاهر الجبال ، وفى الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق ، بهم يقيهم ، وبهم يَصرِف البلاءَ عن قريبهم وقاصيهم .

« وأنزلنا من السماء ماء . . » المطر من سماء الظاهر فى رياض الحُضْرَة ؛ ومن سماء الباطن فى رياض أهل الدنوِّ والحَضْرَة .

قوله جل ذكره : « هذا خَلْقُ اللهِ فأرونى ماذا خَلقَ الذين
مِن دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .

هذا خَلْقُ الله العزيز فى كبريائه ، فأرونى ماذا خَلقَ الذين عَبدْتم من دونه فى أرضه وسمائه ؟

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا لُقمانَ الحكمةَ أنِ اشكرْ
للهِ ومَن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسِه
ومن كفرَ فإنّ اللهَ غنىٌّ حميدٌ » .

« الحكمة » الإصابة فى العقل والعقد والنطق . ويقال « الحكمة » متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث هِمةَ النفس . ويقال « الحكمة » ألا تكون تحت سلطان الهوى . ويقال « الحكمة » الكونُ بحكم من له الحكم . ويقال « الحكمة » معرفةُ قدْر نَفسك حتى لا تمدّ رِجليك خارجا عن كسائك . ويقال « الحكمة » ألا تستعصى عَلَى مَنْ تعلم أنك لا تقاومه .

« أن أشكر لله » : حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الرّبِّ . فهو مقلوب قولهم : كَشَرَتْ عن أنيابها الدابةُ ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذَب وجبذَ .

ويقال الشكرُ تحققكَ بعجزك عن شكره . ويقال الشكر مابه يحصل كمالُ استلذاذ النعمة . ويقال الشكر فضلةٌ تظهر عَلَى اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فينطلق بمدح المشكور . ويقال الشكر نعتُ كلّ غنىٍّ كما أن الكفرانَ وَصفُ كلِّ لَئيم . ويقال الشكر قرْع باب الزيادة[1] . ويقال الشكر قيد الإنعام . ويقال الشكر قصة يمليها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال . « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه »[2] : لأنه فى صلاحها ونصيبها يسعى .

قوله جل ذكره : « وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يعظه يا بُنَىَّ
لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيم » .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى «ولئن شكرتم لأزيدنكم» آية ٧ سورة ابراهيم .
(٢) آية ٤٠ سورة النمل .

الشِّرْكُ عَلَى ضربين : جَلِىّ وخفِىّ ؛ فالجلِىُّ عبادة الأصنام ، والخفِىّ حسبان شىء من الحدثان من الأنام . ويقال الشِّرْكُ إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب . ويقال الشرك ظلم عَلَى القلب ، والمعاصى ظلم عَلَى النفس، وظلم النفوس مُعَرَّضٌ للغفران ، ولكنّ ظلمَ القلوب لاسبيل إليه للغفران .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه حملته أُمه وَهناً على وَهن وَفصاله فى عامين أنِ اشكرْ لى ولوالديكَ إلىّ المصير » .

أوجب الله شُكرَ نفسه وشكر الوالدين . ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، وألا يُكتَفَى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِم أنّ شُكْرَ الحقِّ لا يكْفى فيه مجرَّدُ القول ما لم تكن فيه موافقةُ العقل ؛ وذلك بالتزام الطاعة ، واستعمال النعمة فى وجه الطاعة دون صَرفِها فى الزَّلَّة ؛ فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير ، وشكرُ الوالدين بالإنفاق والتوفير.

قوله جل ذكره : « وَإن جاهداكَ على أن تشركَ بى ما ليس لكَ به علم فلا تُطعْهما وصاحِبْهما فى الدنيا معروفاً ، واتّبع سبيلَ منْ أنابَ إلىّ ثم إلىّ مرْجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

إنْ جاهداك على أن تشرك بالله،أو تسعى بما هو زلة فى أمر الله—فلا تطعهما ،ولكن عاشرهما بالجميل ؛ تخشين فى تلين ، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرَجٌ ، وانفرد بسرِّك لله ، «واتبع سبيل منْ أناب إلىّ » : وهو المنيبُ إليه حقاً من غير أن تبقى بقية فى النفس .

قوله جل ذكره : « يا بُنىَّ إنها إن تَكُ مثقالَ حبةٍ مِن خردلٍ فتَكُن فى صخرةٍ أو فى السمٰوات أو فى الأرضِ يأتِ بها اللهُ إن اللهَ لطيفٌ خبيرٌ » .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمةُ فلا محالةَ تصل إلى المقسوم له بغير مرية . . « إن الله لطيف خبير » : عالم بدقائق الأمور وخفاياها .

قوله جل ذكره : « يابُنَيَّ أَقِمِ الصلاةَ وأْمرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر واصبرْ عَلَى ما أصابكَ إنَّ ذلك مِنْ عزْمِ الأمور » .

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه ، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك ، ومنْ لا حُكْمَ له عَلَى نَفسه لا ينفذ حكمه على غيره .

والمعروف الذى يجب الأمرُ به هو مايُوَصِّلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذى يجب النهى عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

« واصبر عَلَى ما أصابك » تنبيهٌ عَلَى أنَّ منْ قام لله بحقٍّ امْتُحِنَ فى الله ؛ فسبيله أنْ يصبرَ لله — فإنَّ منْ صبرَ لله لا يَخسر عَلَى الله .

قوله جل ذكره : « ولا تصعِّرْ خدَّكَ للناس ولا تمشِ فى الأرض مَرَحاً إنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ » .

يعنى لا تتكبرْ عَلَى الناسِ، وطالِعْهم من حيث النسبة والتحقق بأنكَ بمشهدٍ منْ مولاك . ومَنْ عَلِمَ أنَّ مولاه ينظر إليه لا يتكبرُ ولا يتطاول بل يتخاضع ويتضاءل .

قوله جل ذكره : « وَاقْصِدْ فى مَشيكَ وَاغضُضْ مِن صوتِكَ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوْتُ الحميرِ » .

كُنْ فانياً عن شواهدك ، مُصْطَلَماً عن صَوْلَتِك ، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتِك ، مُنْتَشِقاً[1] مما استولى عليك من كشوفات سِرِّك .

---

(١) (انتشق) الماء وغيره : جذب منه بالنَّفَس فى أنفه ، ورجل نشق إذا دخل فى أمر لا يكاد يخلص منه (الوسيط) .

وانظر مَنِ الذى يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك ؛ « إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير » : فى الإشارة هو الذى يتكلم فى لسان المعرفة من غير إذنٍ من الحقّ . وقالوا : إنه الصوفىُّ يتكلم قبل أوانه .

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لكم ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهِرةً وباطنةً ومِنَ الناسِ مَنْ يجادِل فى اللهِ بغيْرِ عِلْمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منير » .

أثبت فى كل شىء منها نَفْعًا لكم ، فالسماء لتكونَ لكم سقفاً ، والأرض لتكون لكم فِراشاً ، والشمس لتكون لكم سراجاً ، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب ، والنجوم لتهتدوا بها .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » : الإسباغُ ما يَفْضُلُ عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة .

قوله : « نعمه ظاهرة وباطنة » : تكلموا فيه فأكثروا . فالظاهرةُ وجودُ النعمة ، والباطنةُ شهودُ المنعِم . والظاهرةُ الدنيويّةُ ، والباطنةُ الدينيةُ . والظاهرة حُسْنُ الخَلْق ، والباطنة حُسْنُ الخُلُق . الظاهرةُ نَفْس بلا زَلّة ، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة . الظاهرةُ العطاء ، والباطنة الرضاء . الظاهرة فى الأموال ونمائها ، والباطنة فى الأحوال وصفائها . الظاهرةُ النعمةُ ، والباطنةُ العصمةُ . الظاهرةُ توفيقُ الطاعات ، والباطنةُ قبولُها . الظاهرة تسوية الخَلْقِ ، والباطنة تصفية الخُلُق . الظاهرة صحبة الصالحين ، والباطنةُ حِفْظُ حُرْمَتِهم . الظاهرةُ الزهدُ فى الدنيا ، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى[1] . الظاهرة الزهد ، والباطنةُ الوَجْدُ . الظاهرة توفيق

---

(١) هذه أعلى درجات الزهد ، وهى تهمنا ونحن نؤرخ للتطور التاريخى الذى حدث عندما تطور الزهد إلى تصوف (أنظر كتابنا نشأة التصوف الإسلامى (ط دار المعارف) .

المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النَّفْس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرةُ اشتغالُكَ بنَفْسِك عن الخَلْق ، والباطنةُ اشتغالُك بربِّك عن نَفْسِك . الظاهرة طَلَبُه ، الباطنةُ وجودُه[1] . الظاهرةُ أنْ تَصِلَ إليه ، الباطنة أن تبقى معه .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اتَّبِعوا ما أنزل اللهُ قالوا بل نَتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذابِ السعير » .

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى مُحَوِّل أحوالهم . فأمَّا مَنْ سَمَتْ نَفْسُه ، وخلص فى الله قَصْدُه فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسَلَكَ المحجَّةَ المُثْلَى : —

« ومَن يُسْلِمْ وجْهَه إلى اللهِ وهو مُحْسِنٌ فقد استمسك بالعروةِ الوُثْقَى وإلى اللهِ عاقبةُ الأمور » .

وعلى العكس : —

« ومَن كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُه إلينا مرجِعُهم فَنُنَبِّئُهُم بما عَمِلوا إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدور » .

إلينا إيابُهم ، ومِنَّا عذابُهم ، وعلينا حسابُهم . ولئن سألتَهم عن خالقهم لأقَرُّوا ، ولكن إذا عادوا إلى غيِّهم نقضوا وأصروا .

قوله جل ذكره : « للهِ ما فى السمٰواتِ والأرضِ إنَّ اللهَ هو الغنىُّ الحميدُ » .

لله ما فى السمٰوات والأرضِ مِلْكاً ، ويُجْرِى فيهم حُكْمَه حَقًّا ، وإليه مَرْجِعُهم حتما .

---

(١) الوجود مرحلة تأتى بعد التواجد والوجد .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ أَنَّمَا فى الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِنْ بعده سبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم » .

لو أنَّ ما فى الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً ، وبمقدار ما يقابله تُنْفَقُ القراطيسُ ، ويتكلَّفُ الكُتَّابُ حتى تتكسر الأقلامُ ، وتفنى البحارُ ، وتستوفى القراطيسُ ، وتفنى أعمارُ الكُتَّاب .. ما نَفِدَت معانى مالنا مَعَكَ من الكلام ، والذى نُسْمِعُك فيما نخاطبك به لأنك معنا أبَدَ الأبد ، والأبدىُّ من الوصف لا يتناهى .

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باقٍ :

صحائفُ عندى للعتابِ طَوَيْتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطول

قوله جل ذكره : « ما خَلْقُكُمْ ولابَعْثُكُمْ إلّا كَنَفْسٍ وَاحدةٍ إنَّ اللهَ سميعٌ بصير » .

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيَّان ؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر ، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر ، إنما أمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن فيكون »[1] يقوله بكلمته ولكنه يكوّنه بقدرته ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وُسْعٍ ، ولا بدعاء خاطرٍ ، ولا بطُرُوء غَرَضٍ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنَّ ما يَدْعُون من دونهِ الباطِل وأنَّ اللهَ هو العَلِيُّ الكبيرُ » .

« الله هو الحق » : الكائنُ الموجودُ ، مُحِقُّ الحقِّ[2] ، وما يدعون من دونه الباطل : من العَدَمِ ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَم[3] .

---

(١) آية ٨٢ سورة يس .

(٢) فى س جاء بعدها (وما يدعونه هو التلاوة) ويقول مجاهد ، إنه الشيطان . ويقال : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . .

(٣) شغلت قضية (الحق والباطل) أصحاب وحدة الوجود . ورأى القشيرى هنا يصلح عند المقارنة بين أرباب وحدة الشهود وأرباب وحدة الوجود فى شأن هذين الاصطلاحين .

قوله جل ذكره : « إنّ اللهَ عنده عِلْمُ الساعةِ ويُنَزِّلُ الغيثَ ويعلم مافى الأرحام » .

يتفرّد بعلم القيامة ، ويعلم مافى الأرحام ذكورَها وإناثها ، شقيها وسعيدها ، حسنها وقبيحها ويعلم متى يُنزِّل الغيث ، وكم قطرة يُنزلها ، وبأى بقعة يُمطرها .

« وما تدرى نَفسٌ ماذا تكسِبُ غداً
وما تدرى نفسٌ بأى أرضٍ تموت
إن اللهَ عليمٌ خبير »[1] .

ما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً من خير وشر ، ووفاق وشقاق ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؛ أتدرك مرادَها أم يفوت ؟ .

---

(١) قال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تجرى فى البحرِ
بنعمة اللهِ لِيُرِيَكُم من آياتهِ إنَّ فى
ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور » .

فى الظاهر سلامتُهم فى السفينة ، وفى الباطن سلامتُهم من حدثان الكون، ونجاتُهم فى سفائن العصمة فى بحار القدرة .

« إن فى ذلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ » وَقُوفٍ لا ينهزم من البلايا ، شَكُورٍ على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسى البلايا والعطايا .

قوله جل ذكره : « وإذَا غَشِيَهُم مَوجٌ كالظُّلَلِ دَعَوا
اللهَ مُخلِصين له الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهم إلى
البَرِّ فمنهم مُقْتَصِدٌ وما يَجْحَدُ بآياتِنا
إلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظَهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة ، فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم :

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمنا أحباءنا : كم تجهلون ونَحْلُمُ !

قوله جل ذكره : « يا أيها الناسُ اتقوا ربكم واخْشَوْا
يوْماً لا يَجْزِى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ
هو جازٍ عن وَالدِه شيئاً إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ
فلا تغرَّنكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكم
باللهِ الغَرور » .

يخوِّفهم مرةً بأفعاله فيقول : « اتقوا يوما » ، ومرةً بصفاته فيقول: « ألم يعلم بأن الله يرى» ومرةً بذاته فيقول : « ويحذركم الله نفسه » .

سُورَةُ السَّجْدة

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

كلمةٌ سماعُها ربيعُ الجميع ، من العاصى والمطيع ، والشريف والوضيع . مَنْ أصغى إليها بسَمْعِ الخضوعِ ترك طَيِّبَ الهجوع ، ومَنْ أصغى إليها بسمع الحبابِّ تَرَكَ لذيذَ الطعامِ والشراب .

قوله جل ذكره . « الٓمٓ * تنزيلُ الكتابِ لا ريبَ فيه مِن ربِّ العالَمين »

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتى فلا يصبرون عنى ، وأَلِفَ العارفون تمجيدى فلا يستأنسون بغيرى .

والإشارة فى اللام إلى لقائى المُدَّخرِ لأحبَّائى ، فلا أبالى أقاموا على ولائى أم قصَّروا فى وفائى .

والإشارة فى الميم : أى تَرَكَ أوليائى مرادَهم لمرادى .. فلذلك آثرتُهم على جميع عبادى .

« تنزيل الكتاب لاريب فيه من ربِّ العالمين » : إذا تعذَّرَ لقاء الأحبابِ فأعزُّ شىء على الأحباب كتابُ الأحباب ؛ أنزَلْتُ على أحبابى كتابى ، وحَمَلْتُ إليهم الرسالةُ خطابى ، ولا عليهم إنْ قَرَعَ أسماعَهم عتابى ، فَهُمْ فى أمانٍ من عذابى .

قوله جل ذكره : « أَمْ يقولون افتراه بل هو الحقُّ من ربِّك لِتُنذِرَ قوماً ما أتاهم مِن نذيرٍ من قَبْلِكَ لعلَّهم يَهتَدُون »

الذى لكم منا حقيقة ، وإن التبس على الأعداء فليس يضيركم ، ولا عليكم ، فإنَّ

صحبةَ الحبيب مع الحبيب ألذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب.

قوله جل ذكره: « اللهُ الذى خَلَقَ السموٰاتِ والأرضَ
وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوىٰ
على العرشِ مالكم من دونه من وَلِيٍّ
ولا شفيعٍ أفَلا تتذكَّرون » .

وتلك الأيام خَلَقَها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه فى وقتٍ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ فى غير الوقت[1]. وكما يستغنى فى كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقتُ عن الوقت.

« ثم استوى على العرش »: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر؛ استوى على العرش ولكن القديم ليس له حدٌّ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البُعْد، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تعطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكنَّ العرشَ جمادٌ.. وأنَّى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِدٍّ، أَحَدٌ بلا حَدٍّ.

« ما لكم من دونه من وَلِيٍّ ولا شفيعٍ »: إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماء عنه تُظِلُّكم، ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحدَ — إذا لم يُعْنَ بشأنكم فى الدنيا والآخرة — ينظر إليكم.

قوله جل ذكره: « يُدَبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرضِ
ثم يَعْرُجُ إليه فى يومٍ كان مقدارُه
ألفَ سنةٍ مِمَّا تَعُدُّون »

خَاطَبَ الخلْقَ — على مقدار أفهامهم ويجوز لهم — عن الحقائق التى اعتادوا فى تخاطبهم

« ذلك عالِمُ الغيبِ والشهادة العزيزُ الرحيم »

« العزيز » مع المطيعين « الرحيم » على العاصين.

« العزيز » للمطيعين ليكسِرَ صولتَهم « الرحيم » للعاصين ليرفعَ زَلَّتَهم.

---

(١) لأن الزمان سَرْمَدٌ لا يرتبط بالوقت ولا يقتطع به.

قوله جل ذكره : « الذى أَحْسَنَ كُلَّ شىء خَلَقَه
وبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ من طين * ثم جعل
نَسْلَه من سُلالةٍ من ماء مهين »

أَحْسَنَ صورةَ كلِّ أحدٍ ؛ فالعرشُ ياقوتةٌ حمراء ، والملائكه أولو أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُبَاع ، وجبريلُ طاووس الملائكة ، والحور العين — كما فى الخبر — فى جمالها وأشكالها ، والجِنانُ — كما فى الأخبار ونص القرآن . فإذا انتهى إلى الإنسان قال : « وخَلَقَ الإنسانَ من طينٍ . ثم جعل نَسْلَه من سلالة من ماء مهين »[1] . . كل هذا ولكن :

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكن
عليك من الورى وقع اختيارى

خَلَقَ الإنسانَ من طين ولكن « يحبهم ويحبونه »[2] ، وخلق الإنسان من طين ولكن : « فاذكرونى أذكركم »[3] ، وخلق الإنسان من طين ولكن « رضى الله عنهم ورضوا عنه » !

قوله جل ذكره : « وقالوا أئذا ضَلَلْنا فى الأرضِ أئِنا
لفى خلقٍ جديد بل هم بلقاء ربِّهم كافرون »

لو كانت لهم ذَرَّةٌ من العرفان ، وشَمَّةٌ من الاشتياق ، ونَسْمَةٌ من المحبة لَمَا تَعَصَّبُوا كُلَّ هذا التعصب فى إنكار جوازِ الرجوعِ إلى الله ولكن قال : « بل هم بلقاء ربِّهم كافرون » .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَتَوفَّاكُم مَلَكُ الموتِ الذى
وُكِّلَ بكم ثم إلى ربِّكُم تُرْجَعون »

لولا غفلةُ قلوبهم وإلا لَمَا أحال قَبْضَ أرواحهم على مَلَكِ الموت ؛ فإنَّ مَلَكَ الموتِ لا أثَرَ منه فى أحدٍ ، ولا له تصرفات فى نَفْسِه ، وما يحصل من التوفِّى فمن خصائص قدرة

---

(١) آية ٥٤ سورة المائدة .
(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .
(٣) آية ٨ سورة البينة .

الحق . ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ فخاطبَهم على مقدار فهمهم ، وعلَّقَ بالأغيار قلوبَهم ، وكلٌّ يُخاطَبُ بما يَحتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِه وضعفه .

قوله جل ذكره : « ولو تَرَىٰ إذ المجْرِمون ناكِسُوا
رءوسِهم عند ربِّهم ربَّنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا
فارجِعْنا نعملْ صالحًا إنَّا موقِنون »

مَلَكَتْهُم الدهشةُ وغَلَبَتهم الخجْلَةُ ، فاعتذروا حينَ لا عُذْرَ ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف .

قوله جل ذكره : « ولو شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها
ولكنْ حَقَّ القولُ مِنِّى لأَمْلَأَنَّ جهنَّمَ
من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين »

لو[1] شئنا لَسَهَّلنا سبيلَ الاستدلال ، وأدَمْنا التوفيقَ لكلِّ أحدٍ ، ولكن تعلَّقَتْ المشيئةُ بإغواء قومٍ ، كما تعلَّقت بإدناءِ قوم ، وأردنا أن يكونَ للنار قُطَّان ، كما أردنا أن يكون للجَنَّةِ سُكان ، ولأنَّا عَلِمْنا يومَ خَلَقْنا الجنَّةَ أنه يسكنها قوم ، ويوم خلقنا النارَ أنه ينزلها قومٌ ، فمِنَ المُحَالِ أن نُرِيدَ ألا يقعَ معلومُنا ، ولو لم يحصل لم يكن عِلْمًا ، ولو لم يكن ذلك عِلْمًا لم نكن إلهًا . . ومن المحال أن نريد ألا نكونَ إلهًا .

ويقال : مَنْ لم يتسلَّطْ عليه من يحبه لم يجْرِ فى مُلْكِه ما يكرهه .

ويقال : يا مسكين أفنيتَ عُمْرَكَ فى الكَدِّ والعناء ، وأمضيتَ أيامَكَ فى الجهد والرجاء ، غيَّرت صفتك ، وأكثرتَ مجاهدتك . . فما تفعل فى قضائى كيف تُبَدِّله ؟ وما تصنع فى مشيئتى بأىِّ وسعٍ تَرُدُّها ؟ وفى معناه أنشدوا :

شكا إليك ما وَجَدَ ... من خانَهُ فيك الجَلَدْ
حيرانُ لو شئتَ اهتدى ... ظمآنُ لو شئتَ وَرَدْ

---

(١) هذه الإشارة المستوحاة من الآية تمثل أقصى درجات الجبرية فى مذهب هذا الباحث الصوفى ، ولكن القارىء لا يعزب عنه أن يجدها جبرية ممتزجة بالحب .. ويكفى أنها مرتبطة بمشيئة الخالق .

قوله جل ذكره : « فذوقوا بما نَسِيتُم لقاء يومِكُم هذا
إنّا نَسينا كُمْ وذوقوا عـذابَ الخُلْدِ
بما كنتُم تعملون »

قاس من الهوانِ ما استوجبتَه بعصيانك ، واخْلُدْ فى دار الخِزْى لما أسلفتَه من كفرانك .

قوله جـل ذكره : « إنَّما يُؤْمِنُ بآياتِنا الذين إذا
ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا
بحمد ربِّهم وهم لا يَسْتَكْبِرون »

التصديقُ والتكذيبُ ضدان ـ والضدان لا يجتمعان ؛ التكذيب هو جحودٌ واستكبار ، والتصديقُ هو سجودٌ وتحقيق ، فمَن اتَّصَفَ بأحد القسمين انمحى عنه الثانى.

« خرُّوا سُجَّداً » : سجدوا بظواهرهم فى المحراب ، وفى سرائرهم على ترابِ الخضوع وبِساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكْمِ الخمود .

ويقال : كيف يستكبر مَنْ لا يَجِدُ كمالَ راحتهِ ولا حقيقةَ أُنسِه إلا فى تذلُّلِه بين يدى معبوده ، ولا يؤثِرُ آجلَ جحيمه على نعيمه ، ولا شقاءه على شفائه ؟ !

قوله جل ذكره : « تَتجافى جُنُوبُهم عن المضاجع يَدْعون
رَبَّهم خـوفاً وطَمَـعاً ومما رزقناهم
يُنفِقُون »

فى الظاهر : عن الفِراش قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد ، وفى الباطن: تتباعد قلوبُهم عن مضاجعات الأحوال، ورُؤية قَدْرِ النفس ، وتوهُّمِ المقَام — فإن ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سُمٌّ قاتل — فلا يسـاكنون أعمالَهم ولا يلاحظون أحوالَهم . ويفارقون مآلِفَهم ، ويَهجُرون فى الله معارفَهم .

والليل زمان الأحباب ، ، قال تعـالى : « لتسكنوا فيه » : يعنى عن كلّ شُغل وحديثٍ سوى حديث محبوبكم . والنهـارُ زمانُ أهل الدنيا ، قال تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » ، أولئك قال لهم : « فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا فى الأرض » :

إذا ناجيتمونا فى ركعتين فى الجمعة فعودوا إلى متجركم ، واشتغلوا بحرفتكم .

وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إمَّا فى طرَب التلاقى وإما فى حَرَب الفراقِ ، فإن كانوا فى أُنْسِ القربة فَلَيْلُهُم أقصرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارنى مَنْ هَوَيْتُ بعـــد بعادِ
بوصـــال تُجَـــدَّدٍ ووِدادِ
ليـــلة كاد يلتقى طرفاها
قِصَراً وهى ليـــلة الميعـادِ

وكما قالوا :

وليلةٍ زَيْنُ ليالى الدهر قابلتُ فيها بدرها ببدر
لم تَسْتَبِن عن شفقٍ وفجرِ حتى تولَّت وهى بِكْرُ الدهر

وأمَّا إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقة وانفرادٍ بكُرْبة فَلَيْلُهم طويل ، كما قالوا :

كم ليـــلةٍ فيك لا صباحَ لها أفْنَيْتُها قابضاً على كبـدى
قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

قوله : يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » : قومٌ خوفاً من العذاب وطمعاً فى الثواب ، وآخرون خوفاً من الفراقِ وطمعاً فى التلاق ، وآخرون خوفاً من المكر وطمعاً فى الوَصْلِ .

« ومما رزقناهم ينفقون » : يأتون بالشاهد الذى خصصناهم به ؛ فإنْ طَهَّرْنا أحوالَهم عن الكدورات حضروا بأحوالٍ مُقَدَّسة ، وإنْ دَنَّسْنا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسَة ، « ومما رزقناهم ينفقون » ؛ فالعبدُ إنما يتجر فى البضاعة التى يودعها لديه سَيِّدُه :

يفـــديكَ بالروح صَـــبٌّ لو يكون له
أعـــزّ من روحـــه شىء فـــداك به

قوله جل ذكره : « فلا تَعلم نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ جَزَاء بمـــا كانوا يعملون » .

إنما تَقَرُّ عينُكَ برؤية مَنْ تحبه ، أو ما تحبه ؛ فطالبْ قلبكَ ورَاع حالك : فيحصل اليومَ سرورُك ، وكذلك غداً . . وعلى ذلك تحشر ؛ ففى الخبر :

« مَنْ كان بحالة لقى الله بها » .

ثم إنّ وصفَ ماقال الله سبحانه إنه لا يعلمه أحدٌ — مُحَالٌ ، اللهم أن يُقال: إنها حال عزيزة ، وصفةٌ جَليلة .

قوله جَل ذكره : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون »[1] .

أفمن كان فى حال الوصال يَجرّ أذيالَه كمنْ هو فى مَذلةِ الفراق يقاسى وبالَهَ ؟

أفمن كان فى رَوْحِ القربة ونسيم الزلفة كمن هو فى هوْل العقوبة يعانى مشقة الكلفة ؟

أفمن هوفى رَوْح إقبالنا عليه كمن هو فى محنة إعراضنا عنه ؟

أفمن بقى معنا كمنْ بقى عَنّا ؟

أفمنْ هو فى نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو فى ليالى الكفران ووحشة العصيان ؟

أفمن أُيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموسُ العرفان كمن ربِطَ بالخذلان ووُسم بالحرمان ؟ لايستويان ولا يلتقيان !

قوله جَل ذكره : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّاتُ المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون » .

« الذين آمنوا » : صَدَّقوا ، « وعملوا الصالحات » : بما حَقَّقوا — فلهم حُسْنُ الحال ، وحميدُ المآلُ وجزيلُ المنال ، وأما الذين كذّبوا وجحدوا ، وفى معاملاتهم أساءوا

---

(١) عن ابن عباس : أن الوليد بن عقبة قال لعلى بن أبى طالب : أنا أحدّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال علىّ : اسكت فإنما أنت فاسق ... فنزلت الآية (الواحدى ص ٢٣٦) .

وأفسدوا ، فتصاراهم الخزيُ والهوان ، وفنون من المحن وألوان .. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً ، وكلما أمّلوا نجاةً جُرّعوا وزيدوا يأساً .

قوله جل ذكره : « ولَنُذِيقَنَّهم من العذابِ الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجِعون » .

قومٌ عذابهم الأدنى مِحَنُ الدنيا ، والعذابُ الأكبر لهم عقوبة العقبى .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم فى عبادتهم ، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ فى قلوبهم تصيبهم .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفة فى سلوكهم تُنيبهم ، والعذابُ الأكبرُ لهم حجبةٌ عن مشاهدهم تنالهم ، قال قائلهم :

أدّبتنى بانصـــرافِ قلبـــك عنّى
فانظرْ إلىّ فقد أحســـنت تأديبى(١)

ويقال العذاب الأدنى الخذلان فى الزلة ، والأكبر الهجران فى الوصلة .

ويقال العذاب الأدنى تكدّرُ مشاربهم بعد صفوها ، كما قالوا :

لقد كان ما بينى زمانا وبينـــه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخِرٍ لها ، كما قيل :

تطاول نأينـــا يا نور حتى كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

قوله جل ذكره : « ومنْ أظلمُ ممنْ ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه ثم أعرض عنها إنّا من المجرمين منتقمون »

إذا نُبِّهَ العبدُ بأنواع الزّجر ، وحُرِّكَ — لتَرْكِهِ حدودَ الوفاق — بصنوفٍ من التأديب

---

(١) الشطر الأول غير موزون ، والشطر الثانى من البسيط .

ثم لم يرتدعْ عن فعله ، واغترّ بطول سلامته ، وأمِنَ من هواجم مَكْرِه ، وخفايا سِرِّه . . أخَذَه بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مِنْ أخذته ، قال تعالى : « لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون »[1]

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فلا تكن في مِريةٍ من لقائه وجعلناه هدًى لبنى اسرائيل » .

فلا تكن فى مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا[2] .

« وجعلناه هدًى لبنى إسرائيل » :

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم جُعِلَ رحمةً للعالمين .

قوله جل ذكره : « وجعلنا منهم أئمةً يهدُون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

لمّا صبروا على طلبنا سَعِدوا بوجودنا ، وتعدّى ماناوا من أفضالنا إلى متبعيهم ، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهلِهم ؛ فهم للخلق هُداةٌ ، وفى الدين عيون ، وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره : « إنّ ربك هو يفصل بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون » .

يحكم بينهم ، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول ، والمهجور من الموصول ، والرضى من

---

(١) آية ٦٥ سورة المؤمنون .

(٢) صرف القشيرى الرؤية واللقاء إلى موسى عليه السلام ، وأنه سيلقى ربه ويراه . بينما يرى قتادة أن المقصود : فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة وستلقاه — أى محمد — فيها ، كما لقيته ليلة الإسراء . وعن الحسن : فلا تكن — يا محمد — فى شك من أنك ستلقى مالقيه من التكذيب والأذى ، فالهاء عائدة على محذوف .

وقيل إن الكلام متصل بقوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت » ... فلا تكن فى مرية من لقائه ، وجاءت « ولقد آتينا موسى » اعتراضاً .

الغوى ، والعدو من الولىّ ... فكم من بهجةٍ دامت هنالك ! وكم من مهجةٍ ذابت عند ذلك !

قوله جل ذكره : « أوَلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا مِن قبلِهم
من القرونِ يمشون فى مساكِنِهم إنّ
فى ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون »

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا فى حَبرَةٍ فصاروا عِبْرَةً ، كانوا فى سرورٍ فآلوا إلى قبور ؛ فجميع ديارهم ومزارهم صارت لأغيارهم ، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا فى ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وكما قيل :

نعمةٌ كانت على قو ـ مٍ زمانا ثم بانت
هكذا النعمةُ والإحـ ـسانُ مذ كان وكانت

قوله جل ذكره : « أوَلَمْ يَرَوْا أنّا نسوق الماء إلى الأرضِ
الجُرُزِ(١) فنُخْرِج به زَرْعًا تأكل منه
أنعامُهم وأنفُسهم أفلا يُبْصِرون »

الإشارة فيه : تُسْقى حدائقُ وَصْلِهم بعد جفاف عُودِها ، وزوال المأنوسِ من معهودِها ، فيعود عودُها مورِقاً بعد ذبوله ، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الفتحُ إن كنتم
صادقين * قلْ يومَ الفتح لا ينفع الذين
كفروا إيمانُهم ولا هم يُنظَرون » .

---

(١) يقول الزمخشرى (الجرز) الأرض التى جزر نباتها أى قطع ، إما لعدم الماء وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز ، ويدل عليه قوله تعالى «فنخرج به زرعاً» .
وقال عكرمة : هى الأرض الظمأى .
ويحاول بعضهم أن يطلقها على مكان بعينه (ابن عباس : أرض باليمن) ومجاهد : (أرض النيل) .

استبعدوا يومَ التلاق وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه .

قوله جل ذكره : « فأعْرِضْ عنهم وانتظرْ إنهم منتظرون » .

أعْرِض عنهم باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا .

« وانتظر » زوائدَ وَصْلِنا ، وعوائدَ لطفنا .

« إنهم منتظرون » هواجِمَ مقتنا وخفايا مكرنا .. وعن قريب يجد كلٌّ منتظرَه محتضرًا .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله شهود وجودِه يوجِبُ لَكَ تلفاً فى تَلَفٍ ، ووجودُ جودِه يوجِبُ لَكَ شرفاً فى شرف ، ففى تَلَفِكَ يكون (هو)[1] عَنْكَ الخلَف ، وفى شرفك تصل إلى كلِّ لُطَف .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ اتَّقِ اللهَ ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً » .

يأيها المُشَرَّفُ حالاً ، المُفَخَّمُ قَدْراً مِناً ، المُعَلَّى رُتْبَةً من قِبَلِنا .. يأيها المُرَقَّى إلى أعلى الرُّتَبِ بأسنى القُرَبِ .. يأيها المُخَبِّرُ عنا ، المأمونُ على أسرارنا ، المُبَلِّغُ خطابَنا إلى أحبابنا... اتقِ اللهَ أنْ تلاحِظَ غيراً معنا ، أو تساكِنَ شيئاً مِنْ دوننا ، أوتُثْبِتَ أحداً سوانا ، أو تتوَهَّمَ شغلياً مِنَ الحِدثان مِنْ سوانا . « ولا تطع الكافرين » إشفاقاً منك عليهم ، وطمعاً فى إيمانهم بنا لو وافَقْتَهم فى شىء أرادوه منك[2] .

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنعهم فى أنفاسهم ، وسَكَناتِهم ، وحَرَكاتِهم أن ينظروا إلى غيره — أو يُثْبِتوا معه غيره — إلا منصوباً لقدرته ، مصرَّفاً بمشيئته ، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته .

---

(١) وضعنا (هو) من عندنا ليتضح المعنى كما نفهم من أسلوب القشيرى فى مثل هذا المجال .

(٢) يقال نزلت هذه الاية حينما دخل أبو سفيان وأبو جهل وأبو الأعور السلمى على النبى (ص) بعد قتال أحد ، وطلبوا الأمان ، وقالوا للرسول : «ارفض ذكر آلهتنا ، وقل إن لها شفاعة ومنعة وندعك وربك» فشق على النبى (ص) قولهم ، فقال عمر بن الخطاب — وكان بصحبة النبى : ائذن لى يا رسول الله فى قتلهم ، فقال النبى : إنى قد أعطيتهم الأمان ... وأمر بإخراجهم من المدينة . (الواحدى ص ٣٦) .

التقوى لجامٌ يكبحك عمّا لا يجوز ، زمامٌ يقودك إلى ما تحب ، سوطٌ يسوقك إلى ما أُمِرْتَ به ، شاخصٌ يحملك على القيام بحقِّ الله ، حِرْزٌ يعصمك مِنْ توَصل أعدائك إليك ، عُوذَةٌ تشفيك من داء الخطأ .

التقوى وسيلةٌ إلى سلحات كرَمه ، ذريعةٌ تتوسل بها إلى عقوة جوده .

قوله جل ذكره : « وَاتَّبِعْ ما يوحىٰ إليك مِن ربك إنّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً » .

اتبعْ وَلا تبتدع ، وَاقتدِ بما نأمرك به ، وَلا تهتدِ باختيارك غير ما نختار لك ، وَلا تُعرِّج فى أوطان الكسل ، ولا تجنحْ إلى ناحية التوانى ، وكن لنا لا لكَ ، وقم بنا لا بِكَ .

قوْله جل ذكره : « وتوكلْ على اللهِ وكفى بالله وكيلا » .

انسلخْ عن إهابك ، واصدق فى إيابك إلينا ، وتشاغلْ عن حسبانك معنا ، واحذرْ ذهابَكَ عنا ، وَلا تُقَصِّرْ فى خطابك معنا .

وَيقال التوكل تحقُّقٌ ثم تَخَلُّقٌ ثم توثق ثم تعلق ؛ تحققٌ فى العقيدة ، وَتخلقٌ بإقامة الشريعة ، وتوثق بالمقسوم من القضية ، وَتعلقٌ بين يديه بحُسْنِ العبودية .

ويقال التوكلُ تحققٌ وتعلقٌ وتخلقٌ . تحققٌ بالله وتعلقٌ بالله ثم تخلق بأوامر الله .

وَيقال التوَكل استواء القلب فى العدم والوجود .

قوله جل ذكره : « ما جعلَ الله لرَجُلٍ مِن قلبين فى جوفه » .

القلبُ إذا اشتغل بشىء شُغِلَ عما سواه ، فالمشتغلُ بما مِنَ العَدَمِ منفصلٌ عمن له القِدَمُ ، والمتصل بقلبه بمن نعته القِدَم مشتغلٌ عمّا من العدَم . . والليل والنهار لا يجتمعان ، والغيبُ والغيرُ لا يلتقيان .

« وما جعل أزواجكم اللائى تُظَاهرُون

منهن أمهاتِكم وما جَعَلَ أدعياءَكم
أبناءَكم ذلكم قولُكم بأفواهكم » .

اللائى تظاهرتم[1] منهن لَسْنَ أمهاتكم ، وَالذين تبنيتم ليسوا بأبنائكم ، وإن الذى صرتم إليه من افترائكم ، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردودٌ عليكم ، غيرُ مقبولٍ منكم ، وإنْ أمسكتم عنه بعد البيان نجوْتم ، وإنْ تمادَيتم بعد ما أعْلِمْتم أطلتِ المحنةُ عليكم .

قولُه جل ذكره : « ادْعوهم لآبائهم هو أقسطُ
عند اللهِ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانُكم
فى الدِّين ومواليكم وليس عليكم
جُناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تَعَمَّدَتْ
قلوبُكم وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

راعُوا أنسابهم ، فإن أردتم غير النسبة فالأخوّةُ فى الدِّين تجمعكم ، وقرابةُ الدِّين وَالشكلية أوْلى من قرابة النَّسَبِ ، كما قالوا :

وقالوا قريبٌ من أبٍ وعمومةٍ
فقلتُ : وإخوانُ الصفاء الأقاربُ
نُناسبهم شكلا وعِلْماً وَأُلفةً
وَإن باعدتهم فى الأصول المناسبُ

قوله جل ذكره : « النبىُّ أوْلىٰ بالمؤمنين منْ أنفسهم
وَأزوَاجُه أمهاتهم ، وأولوا الأرحام
بعضهم أوْلىٰ ببعض فى كتابِ اللهِ
من المؤمنين والمهاجرين .. »

---

(١) يعنى أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، وسيأتى تفصيل ذلك فى سورة المجادلة (المجلد الثالث .

الإشارة من هذا : تقديم سُنته على هواك ، والوقوفُ عند إشارته دون ما يتعلقُ به مُناك ، وإيثار مَنْ تتوسل به سبباً ونسباً على أعِزَّتِكَ ومَنْ والاكَ .

« وأولو الأرحَام بعضهم أوْلَى ببعض » :

ليكنْ الأجانبُ منك على جانب ، ولتكن صلتك بالأقارب . وصلةُ الرحِمِ ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار ، ولكن بموافقة القلوب ، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب :

أرواحنا فى مكانٍ واحدٍ وغدتْ
أشباحُنا بشآمٍ[2] أو خراسان

قوله جل ذكره : « وإذْ أخذْنا من النبيين ميثاقَهم ومنك ومن نوحٍ وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً » .

أخذَ ميثاق النبيين وقتَ استخراج الذرية من صُلب آدم — فهو الميثاق الأول ، وكذلك ميثاق الكلِّ . ثم عند بَعْثِ كلِّ رسول ونُبُوَّةِ كلِّ نبيٍّ أخذ ميثاقه ، وذلك على لسانِ جبريل عليه السلام ، وقد استخلص اللهُ سبحانه نبيَّنا عليه السلام ، فأسمعه كلامَه — بلا واسطة — ليلةَ المعراج . وكذلك موسى عليه السلام — أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا — صلى الله عليه وسلم — زيادة حال ؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشفُ الرؤية[1] .

ثم أخذ المواثيق من العُبَّاد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه ، فلكلٍّ من الأنبياء والأولياء والأكابر على مايُؤَهلهم له ، قال صلى الله عليه وسلم « لقد كان فى الأمم

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (بعراقٍ)

(٢) فى كتاب الرؤية الكبير يرى الأشعرى جواز ذلك ، أما القشيرى : فبينما يشير هنا إلى ذلك إذ به كما سيأتى فى بسملة سورة البروج يقول : «بسم الله اسم لم يره بصر إلا واحد ، وهو أيضاً مختلف فيه» المجلد الثالث

مُحَدَّثون فإن يكن في أمتي فعمر » وعمرُ عمر مشاركٌ لعمر في خواص كثيرة ، وذلك شيء تمّ بينهم وبين ربهم .

قوله جلّ ذكره : « ليسألَ الصادقين عن صِدْقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً » .

يسألهم سؤالَ تشريفٍ لا سؤالَ تعنيف ، وسؤالَ إيجابٍ لا سؤالَ عتاب . والصدقُ ألّا يكونَ في أحوالِكَ شَوْبٌ ولا في اعتقادك رَيْبٌ ، ولا في أعمالك عَيْبٌ . ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق . والصدقُ في الأحوال تصفيتُها من غير مداخلة إعجاب .

والصدق في الأقوال سلامتها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك ، وفيما بينك وبين الناس التباعدُ عن التلبيس ، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرّي من الحَوْلِ والقوة ، ومواصلة الاستعانة[1] ، وحفظ العهود منه على الدوام .

والصدق في التوكل عَدَمُ الانزعاج عند الفَقْدِ ، وزوال الاستبشار بالوجود[2] .

والصدق في الأمر بالمعروف التحرّز من قليل المداهنة وكثيرها ، وألا تتركَ ذلك لِفَزَعٍ أو لِطَمَعٍ ، وأن تَتَقَرَّبَ بما تَنْهى ، وتتصف بما تأمر ، وتنهى (نَفْسَك)[3] عما تَزْجُر .

ويقال الصدق أن يهتدي إليكَ كلُّ أحد ، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد . ويقال الصدق ألا تحتاجَ إلى التأويلات[4] .

---

(١) هكذا في ص وهي في م (الاستعانة) وكلاهما مقبول في السياق .

(٢) هكذا في ص و م وربما كانت (الموجود) إذ نحسب أن مقصد القشيري أن تكون راضياً إذا فقدت أو وجدت ، وفي ذلك يقول عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء (بالموجود) الرسالة ص ٨١ والشاكر الذي يشكر على (الموجود) والشكور الذي يشكر على المفقود (الرسالة ص ٨٩) . ومع ذلك فقد وردت (الوجود) في قول النوري : الصوفي نعته السكون عند العدم والإيثار عند الوجود ... فالوجود بهذا المعنى ضد العدم ؛ أي وجود الأشياء وفقدانها . ولكننا نفضل أن يقتصر اصطلاح (الوجود) على الدرجة القصوى بعد التواجد والوجد وهو الحق . (الرسالة ص ٣٦ و ٣٧) وانظر أيضا تفسير القشيري للآية ٣٩ سورة سبأ (في هذا المجلد)

(٣) وضعنا (نفسك) من عندنا ليتضح المعنى .

(٤) معروف أن القشيري يكره التأويلات المؤدية إلى الاسترخاص بالنسبة للصوفية .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جاءتْكُم جنودٌ فأرسَلْنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوْها وكان اللهُ بما تعملون بصيراً » .

ذكرُ نعمةِ اللهِ مُقابَلَتُها بالشكر ، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساةُ البلاء فى الحال ، ولو تذكرتَ ما أولاكَ فى الماضى لَقَرُبَتْ من قلبك الثقةُ فى إيصال ما تؤمِّلُه فى المستقبل .

ومن جملة ماذكَّرهم به :[1] « إذ جَاءتْكُم جنودٌ ... » كم بلاء صَرَفَه عن العبدِ وهو لم يشعر ! وكم شُغْلٍ كان يقصده فصَدَّه عنه ولم يعلم ! وكم أمرٍ عَوَّقَه والعبدُ يَضِجُّ وهو — (سبحانه) — يعلم أن فى تيسيره له هلاكَ العبد فمَنَعَه منه رحمةً به ، والعبدُ يتَّهِمُ ويضيق صَدْرُه بذلك !

قوله جل ذكره : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغَتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ وتظنون باللهِ الظنونا »

أحاط بهم سُرَادِقُ البلاء ، وأحدقَ بهم عَسْكرُ العدوِّ ، واستسلموا للاجتياح ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتَقَسَّمَتِ الظنونُ ، وداخَلَتْهُم كوامِنُ الارتياب ، وبدا فى سويدائهم جَوَلانُ الشكِّ .

« هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوا زِلْزالاً شديداً » .

ثم أزال عنهم جملتها ، وقَشَعَ عنهم شِدَّتَها ، فانجاب عنهم سحابُها ، وتفرَّقَتْ عن قلوبهم همومُها ، وتَفَجَّرَتْ ينابيعُ سكينتهم .

---

(١) يوضح القشيرى هنا ما يسمى عنده (نِعَم المنع) وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المنح) ، والعبد — لقصر نظره — يشكر على هذه ، ويحنق عليه تلك .

قوله جل ذكره : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم
مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه
إلّا غروراً » .

صَرّحوا بالتكذيب — لِما انطوت عليه قلوبُهم — حين وجدوا للقال مجالاً .

قوله جل ذكره : « وإذ قالت طائِفَةٌ منهم يا أهلَ
يَثْرِبَ لا مُقَامَ لكم فارجعوا ويستأذِنُ
فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إنَّ بيوتَنا
عورةٌ وما هى بعورة إن يُرِيدون
إلّا فِراراً » .

تواصَوْا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينُهم من وشك ظَفَرِ الأعداء . قوله : « ويستأذن فريق . . . » : يتعلّلون[1] بانكشافِ بيوتهم وضياعِ مُخَلَّفَاتِهم ، ويكذبون فيما أظهروه عُذْراً ، وهم لم يَحْمِلْهم على فعلهم غيرُ جُبْنِهِم وقلةُ يقينهم .

قوله جلّ ذكره : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل
لا يُولون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولا »

وَلكن لما عزم الأمر ، وظهر الجدّ لم يساعدهم الصدقُ ، ولم يذكروا أنهم سَيُسْأَلون عن عهدهم ، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم .

قوله جل ذكره : « قُل لن ينفعكم الفرارُ إن فررتم
من الموتِ أو القتلِ وإذاً لا تُمتعون
إلا قليلاً » .

لأنّ الآجالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديم عليها ، وكما قالوا : « إنّ الهاربَ عمّا هو كائن فى كفِّ الطالب يتقلبُ » .

« وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً » : فإنّ ما يدّخرُه العبدُ عن الله من مالٍ أو جاهٍ أو نَفيسٍ أو قريب لا يُبارَكُ له فيه ، ولا يجدُ به مَنعَةً ، ولا يُرزقُ منة غبطة .

(١) يغمز القشيرى هنا — من بعيد — بالمتعللين فى الطريق بعلل الاسترخاص ودعاوى النفس .

قوله جل ذكره : « قُلْ مَن ذا الذى يعصمكم من
اللهِ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم
رحمةً ولا يَجِدون لهم من دون اللهِ
وليًّا ولا نصيراً » .

من الذى يحققُ لكم منْ دونه مَرْجُوًّا ؟ ومن الذى يَصرف عنكم دونه عَدُوًّا ؟.

قوله جل ذكره : « قد يعلم اللهُ المعوِّقين منكم والقائلين
لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأسَ
إلا قليلاً » .

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصرة النبي عليه السلام ، ويمنعون غيرهم ليكونَ جمعُهم أكثرَ وكيدُهم أخفى ، وهم لا يعلمون أنّ الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام عليهم ثم ذَكَرَ وَصْفَهم فقال :ـ

« أشحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ
رأيتَهم ينظرون إليكَ تدور أعينهم
كالذى يُغشى عليه من الموتِ فإذا
ذهبَ الخوْفُ سلقوكم بألسنةٍ حِداد »

إذا جاء الخوْفُ طاشتْ من الرعبِ عقولُهم ، وطاحت بصائرهم ، وتعطلت عن النصرة جميعُ أعضائهم . وإذا ذَهبَ الخوْفُ زَيّنوا كلامَهم ، وقدّموا خداعهم ، واحتالوا فى أحقاد خيستهم ... أولئك هذه صفاتهم ؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبَهم ، ولا صدقوا فيما أظهروا من ادعائهم واستسلامهم .

قوله جلّ ذكره : « يَحْسَبُون الأحزابَ لم يذْهبوا
وَإن يأتِ الأحزابُ يوَدّوا لو أنهم
بادُون فى الأعرابِ يسألون عن أنبائكم
وَلو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلاً » .

يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا ، ويخافون من عَوْدهم ، ويفزعون من ظلِّ أنفسهم

إذا وَقعوا على آثارهم ، ولو اتفق هجومُ الأعداء عليكم ما كانوا إلا فى حرز سيوفهم وَدرية[1] رماحهم .

قوله جلّ ذكره : « لقد كان لكم فى رسولِ اللهِ
أسوةٌ حسنةٌ لمنْ كان يرجو اللهَ
واليومَ الآخِرَ وذكرَ الله كثيراً » .

« كان » صلة ومعناها : لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، به قدْوتكم ، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم . وأقوال الرسول (ص) وأفعاله على الوجوب إلى أن يقومَ دليل التخصيص ، فأما أحواله فلا سبيلَ لأحدٍ إلى الإشراف عليها ، فإن ظهرَ شىء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مُكتسَباً مِنْ قِبَلِه فيُلحق فى الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله ، وإن كان غير مكتسبٍ له فهى خصوصيةٌ له لا ينبغى لأحد أن يتعرّض لمقابلته لاختصاصه — صلى الله عليه وسلم — بعلوّ رتبته[2] .

قوله جلّ ذكره : « ولما رأى المؤمنون الأحْزابَ
قالوا هذا ما وَعدَنا اللهُ ورسولهُ وصَدَقَ
اللهُ ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وَتسليما »

كما أنّ المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء ، فالمؤمنون وأهلُ اليقين ازدادوا قوّةً ، وعلى الأعداء جرأةً ، ولحكم الله استسلاماً ، ومن الله قوةً .

قوله جل ذكره : « من المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ماعاهدوا
الله عليه فمنهم منْ قضَى نحبه ومنهم
من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » .

شَكرَ صنيعَهم فى المراس ، ومدح يقينهم عند شهود الباس ، وسماهم رجالاً إثباتا

---

(١) الدرية ما يستتر به الصائد من الصيد فيرميه إذا أمكنه .

(٢) يفيد هذا الكلام فى توضيح نظرة هذا الباحث إلى السنّة كمصدر أساسى من مصادر التشريع ، فالسنّة أقوال وأفعال وأحوال ، منها ما يصلح للعموم ، ومنها ما يختص به الرسول نفْسُه .

لخصوصية رتبتهم[1] ، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوّ الحالة والمنزلة ، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صِدْقه[2] ، ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله فى الحياة والممات ، ولم يزيغوا عن عهدهم ، ولم يراوغوا فى مراعاة حدّهم؛ فحقيقةُ الصدقِ حِفْظُ العهْد وتَرْكُ مجاوزة الحدّ .

ويقال : الصـــدقُ استواء الجهر والسِّرّ .

ويقال : هو الثباتُ عندما يكون الأمرُ جِدًّا .

قوله جـــل ذكره : « لِيَجْزِىَ اللهُ الصادقين بصدْقهم
ويُعذّبَ المنافقين إن شـاء أو يتوبَ
عليهم إن الله كان غفوراً رحيما » .

فى الدنيا يجزى الصادقين بالتمـكين والنصرة على العـدو وإعلاء الراية ، وفى الآخرة بجميلِ الثواب وجزيلِ المـآب والخـلودِ فى النعيم المقيم والتقـديمِ على الأمثال بالتـكريم والتعظيم . .

« ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » على الوجْه الذى سَبق به العلم ، وَتَعلّقتْ به المشيئة .

ويقال : إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعَلّقَ القولَ فيه بالرجاء فبالحرىّ ألا يُخَيِّبَ المؤمنَ فى رجائه .

قوله جل ذكره : « ورَدّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم
ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ
وكان اللهُ قويًّا عزيزاً » .

لم يُشمتْ بالمسلمين عَدُوًّا ، ولم يُوصِّلْ إليهم مَنْ كيدهم سوءا ، ووضع كيدهم فى نحورهم ، واجتثّهم مِنْ أصولهم ، وبيّن بذلك جواهر صِدْقهم وغير صدقهم ، وشكر مَنْ استوجب شكره مِنْ جملتهم ، وفضحَ مَنْ استحقّ الذمّ من المدلسِّين منهم .

---

(١) «من المؤمنين رجال ..» : عن أنس أنها نزلت فى عمه أنس بن النضير الذى أبلى يوم أحد بلاءً عظيماً ، حتى قتل وبه ثمانون جراحة بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم .. رواه البخارى عن بندار ، ومسلم عن محمد بن حاتم .

(٢) «فمنهم من قضى نحبه» نزلت فى طلحة بن عبيد الذى ثبت بجانب الرسول يوم أحد حتى دعا له الرسول (ص) : اللهم أوجب لطلحة الجنة . (الواحدى ص ٢٣٨) .

« وأنزل الذين ظاهروهم مِنْ أهْـل الـكتابِ مِن صَيَاصيهم وقـذفَ فى قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً » .

إنّ الحقّ — سبحانه — إذا أجمل أكمَل ، وإذا شفى كفى ، وَإذا وَفى أوْفى .. فأظفر المسلمين عليهم ، وأورثهم معاقلَهم ، وأذلّ مُتعزَّزَهم ، وكفاهم بكلّ وجهٍ أمرَهم ، ومكّنهم من قَتْلِهم وأسرِهم ونهْبِ أموالهم ، وسَبْى ذراريهم .

قوله جل ذكره : « يا أيها النبىّ قُل لأزواجِك إن كنْتنّ تُرِدْن الحياةَ الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرِّحكنّ سراحاً جميلا * وإن كنتنّ تُرِدْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن اللهَ أعدّ للمحسناتِ مِنكنّ أجراً عظيما » .

لم يُرِدْ أنْ يكونَ قلبُ أحد من المؤمنين والمؤمنات منه فى شُغل ، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب ، فَخَيَّرَ — صلى الله عليه وسلم — نساءه[1] ، ووفقَ اللهُ سبحانه عائشةَ أمّ المؤمنين — رضى الله عنها — حتى أخبرت عن صِدْقِ[2] قلبها ، وكمالِ دينها ويقينها ، (وَبما هو المنتظر مِنْ أصلها وتربيتها)[3] ، والباقى جَرَيْن على منهاجها ، ونَسَجْنَ على مِنوالها .

قوله جلّ ذكره : « يا نساء النبىّ من يأتِ منكنّ

---

(١) يقال إنه قال لعائشة : إنى ذاكر لك أمراً ولا عليك أن لاتعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، ثم قرأ عليها القرآن ، فقالت : أفى هذا أستأمِرُ أبوىّ ؟ فإنى أريد الله ورسولَه والدارَ الآخرة . فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (كذب) وهى خطأ قطعاً .

(٣) مابين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

بفاحشة مُبَيِّنَة يُضاعَفْ لها العذابُ
ضِعفَين وكان ذلك على الله يسيراً » .

زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أمارات الفضيلة ، ولذا فضل عذاب الأحرار على العبيد وقليل ذلك من أمارات النقص ؛ فلما كانت منزلتهن في الشرف فوق منزلة جميع النساء ضاعفَ عقوبتهن على أجرامهن ، وضاعف ثوابهن على طاعاتهن . وقال :

« ومن يَقْنُتْ منكنَّ لله ورسوله
وتعملْ صالحاً نُؤْتِها أجرَها مرتين
وأعتدنا لها رزقاً كريماً » .

ثم قال :

« يا نساء النبيِّ لستنَّ كأحد من النساء
إن اتقيتنَّ فلا تخضعنَ بالقول فيطمعَ
الذي في قلبه مرضٌ وقُلْنَ قولاً
معروفاً » .

نهاهن عن التبذُّل ، وأمرهنَّ بمراعاة حُرْمَةِ الرسول (ص) ، والتصاون عن تطلُّعِ الفاسقين في مُلاينتهن .

قوله جل ذكره : « وقرن في بيوتكنَّ ولا تبرَّجنَ
تبرُّجَ الجاهلية الأولى وأقمنَ الصلاة
وآتين الزكاةَ وأطعنَ اللهَ ورسولَه
إنما يريد اللهُ ليذهبَ عنكم
الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّركم
تطهيراً » .

« الرجس » : الأفعالُ الخبيثةُ والأخلاقُ الدنيئة ؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهرَ منها وما بطن ، وما قلَّ وما جلَّ . والأخلاقُ الدنيئةُ الأهواء والبِدَعُ كالبخل والشحِّ

وقَطْعِ الرَّحِمِ ، ويريد بهم الأخلاقَ الكريمةَ كالجُودِ والإيثار والسخاء وصِلَةِ الرَّحِمِ ، ويديم لهم التوفيقَ والعصمةَ والتسديد ، ويُطهرهم من الذنوب والعيوب .

قوله جل ذكره : « واذكُرْن ما يُتلَى فى بيوتكنّ من آياتِ الله والحكمة إنّ اللهَ كان لطيفا خبيراً » .

اذْكُرْنَ عظيمَ النعمة وجليلَ الحالةِ التى تجرى فى بيوتكن ؛ من نزولِ الوحى ومجىء الملائكة ، وحُرْمَةِ الرسول — صلى الله عليه وسلم — والنور الذى يقتبس فى الآفاق ، ونور الشمس الذى يَنبسط على العالم ، فاعرفن[1] هذه النعمة ، وَارعين هذه الحُرمة .

قوله جل ذكره : « إن المسلمين والمسلمات . . . »

الإسلام هو الاستسلام ، والإخلاص ، والمبالغة فى المجاهدة والمكابدة .

« والمؤمنين والمؤمنات . . . »

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات ، ويقال هو التصديق والتحقيق ، ويقال هو انتسامُ الحقيقةِ فى القلب . ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل ، ولقومٍ بالعلم ، ولآخرين بالفهم عن الله ، ولآخرين بالتوحيد ، ولآخرين بالمعرفة ، ولآخرين إيمانُهم حَياةُ قلوبهم بالله .

« والقانتين والقانتات . . . »

القنوتُ طولُ العبادة .

« والصادقين والصادقات . . . »

فى عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم .

---

(١) عرف هنا بمعنى ذكر الفضل .. وبهذه المناسبة أكشف للقارىء عن شىء حيرنى دهراً طويلا حينما كنت أقرأ لائية ابن الفارض التى أولها :

قلبى يحدثنى بأنك متلفى ... روحى فداك عرفت أم لم تعرف

فطالما أزعجنى الشطر التالى من هذا البيت ؛ لأنى كنت أربط بين عرف وبين علم . فكنت أسائل نفسى كيف يخاطب ابن الفارض رمد على هذا النحو ؟ حتى اهتديت إلى أن المعنى : ألنى سأفتديك بروحى حتى ولو تلفتُ فى ذلك ، وسأتى عليه ، سواء ذكرت لى ما أصنع ، واحتسبته .. أم لم تفعل .

« والصابرين والصابرات .. »

على الخصال الحميدة ، وعن الصفات الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية .

« والخاشعين والخاشعات .. » .

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوادِه الحقيقة .

« والمتصدقين والمتصدقات .. »

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم ، أو قالوا فيهم[1]

« والصائمين والصائمات .. »

المسكين عمَّا لا يجوز فى الشريعة والطريقة .

« والحافظين فروجَهم والحافظات .. »

فى الظاهر عن الحرام ، وفى الإشارة عن جميع الآثام .

«والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات..»

بألسنتهم وقلوبهم وفى عموم أحوالهم لا يَفْتُرُون ، ولا يَتَدَاخَلُهم نسيان .

« أعدَّ اللهُ لهم مَغْفِرَةً وأجراً عظيماً » .

فهؤلاء لهم جميلُ الحُسْنَى ، وجزيلُ العُقبَى .

قوله جل ذكره : « وما كان لِمُؤْمِن ولا مُؤْمِنةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمْرِهم ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً » .

الافتياتُ عليه فى أمره والاعتراضُ عليه فى حُكْمِه وتَرْكُ الانقيادِ لإشارته .. قَرْعٌ لبابِ الشِّرْكِ ؛ فَمَنْ لم يُمْسِكْ عنه سريعاً وَقَعَ فى وهدته .

قوله جل ذكره : « وإذ تقول للذى أنعم اللهُ عليه وأنعمْتَ

---

(١) وهذا من آمارات الفُتُوَّة (أنظر الرسالة ص ١١٣)

عليه أمْسِكْ عليك زوجَكَ واتقِ اللهَ
وتُخْفِي فى نفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه وتَخْشَى
الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه فلمَّا قضىٰ
زيدٌ منها وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لكى
لا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج
أدعيائِهم إذا قَضَوْا منهن وَطَرًا وكان
أمْرُ اللهِ مفعولاً » .

أنعم اللهُ عليه بأن ذَكَرَه وأفرده من بين الصحابة باسمه .

ويقال : أنعم اللهُ عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَنِّيكَ له . ويقال : بأن أعْتَقْتَه ، ويقال : بالإيمان والمعرفة . وأنْعَمْتَ عليه بالعتق وبأن تَبَنَّيْتَه . « أمْسِكْ عليكَ زوجكَ » إقامةً للشريعة مع عِلْمِك بأن الأمر فى العاقبة إلى ماذا يئول ؛ فإنَّ اللهَ أطْلَعَكَ عليه ، وقلت له : « اتق .. » . قوله : « وتخفى فى نفسك ما اللهُ مُبْدِيه » : أى لم تُظْهِرْ لهم أنَّ اللهَ عَرَّفَكَ ما يكون من الأمر فى المستأنف .

« وتخفى فى نفسك .. » مِنْ مَيْلِكَ ومحبتك لها لا على وجهٍ لا يَحِلُّ . « وتخشى الناس.. » أى وتخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة من قصة زيد ، وكانت تلك الخشية إشفاقاً منكَ عليهم ، ورحمةً بهم .

ويقال : وتستحى من الناسِ — واللهُ أحقُّ أن تَسْتَحِيَ منه .

ويقال : تخشى الناسَ ألا يطيقوا سماعَ هذه الحالة ولا يَقْوَوْا على تَحَمُّلِها ، فربما يخطر ببالهم ما يَنْفِى عنهم وُسْعَهم ..

« فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زوجناكها .. » لكى لا يكون عليك حَرَجٌ ، ولكى لا يكونَ على المؤمنين حرج فى الزواج بزوجات أدعيائهم ، فإنما ذلك يُحَرَّمُ فى الإبن إذا كان من الصُّلْبِ .

« وكان أمرُ اللهِ قَدَراً مقدوراً » .

لايُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد . وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ لكونه معصوماً .

قوله جل ذكره : « الذين يُبَلِّغون رسالاتِ اللهِ ويَخْشَوْنَه ولا يَخْشَوْن أحداً إلا اللهَ وكفى باللهِ حسيبًا » .

« ويخشونه » : علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ عَلِموا أنه لا شيء لأحدٍ مِنْ دونه .

قوله جل ذكره : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم ولكن رسولَ اللهِ وخاتَمَ النَّبِيِّين وكان اللهُ بكلِّ شيء عليماً » .

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء .. ولكن ليس بأبيكم .

ويقال نَسَبُه ظاهرٌ .. ولكن إنما يُعْرَفُ بي لا بنَسَبِه ؛ فقلَّما يقال : محمدُ بن عبد الله ، ولكن إلى أبد الأبد يقال : محمد رسول الله . وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ — بعد لا إله إلا الله — محمدٌ رسولُ الله .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذكْراً كثيراً * وسَبِّحُوه بُكْرَةً وأصيلاً »

الإشارة فيه أَحِبُّوا الله ؛ لأنَّ النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره » فيجب أن تقول : الله ، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله .

ويقال : اذكروا الله بقلوبكم ؛ فإنَّ الذكرَ الذى تمكن استدامته ذكرُ القلب ؛ فأمَّا ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسْتَمَدَاً كالمتعذر .

« وسبِّحوه بكرةً وأصيلا » : التسبيحُ من قبيل الذكر ، ولكنه ذَكَرَه بلفظين لئلا تعتريك سآمة[1] .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُصَلِّى عليكم وملائكتُه
لِيُخْرِجَكم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ
وكان بالمؤمنين رحيماً » .

الصلاةُ فى الأصلِ الدعاء[2] ؛ فصلاتُه — سبحانه — دعاؤه لنا بالتقريب ، وصلاةُ الملائكة دعاؤهم إليه لنا : بالغفرانِ للعاصى ، وبالإحسانِ للمطيع .

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة

« ليخرجكم من الظلمات إلى النور » : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أى يعصمكم من الضلال بَرْوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر فى قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق ، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال يصونكم من الشِّرْكِ ، ويُثبِتُكم بشواهد الإيمان .

قوله جل ذكره : « تَحِيَّتُهم يومَ يَلْقَونَه سلامٌ ،
وأعدَّ لهم أجراً كريمًا » .

التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية ، واللقاء إذا قُرِنَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر . والسلام خطاب يفاتح به الملوك إخباراً عن عُلُوِّ شأنهم ورتبتهم ، فإلقاؤه حاصِلٌ وخطابُه

---

(١) هذه لفتة هامة تهم البلاغيين .

(٢) يوضح القشيرى هنا ما يسمى عنه (نعم المنع) ، وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المنح) ، والعبد — لقصر نظره — يشكر على هذه ، وتخفى عليه تلك .

مسموعٌ ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر[1] .

« أجراً كريماً » : الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة ، وكريماً أى حسناً .

وفى الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير ؛ فإنَّ الكريم لا يستقصى عند البيع والشراء فى الأعداد ، وذلك تعريفٌ بالإحسانِ السابق فى وقت غيبتك[2] .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً * وداعياً إلى اللهِ بإذنه وسراجاً منيراً * وبَشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم من اللهِ فضلاً كبيراً » .

يأيها المُشَرَّفُ مِنْ قِبَلِنا إنَّا أرسلناكَ شاهداً بوحدانيتنا ، وشاهداً تُبَشِّر بمتابعتنا ، وتحذِّرُ من مخالفة أمْرِنَا ، وتُعْلِمُ الناسَ مواضعَ الخوف مِنَّا ، وداعياً إلينا بنا ، وسراجاً يستضيئون به ، وشمساً بنبسط شعاعُها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ ، وآمَنَ بك ، فلا يصل إلينا إلاَّ مَنْ اتَّبعكَ وخَدَمَك ، وصَدَّقَك وقَدَّمَك .

« وبَشِّرْ المؤمنين » بفضلِنا معهم ، ونَيْلِهم طَوْلَنا عليهم ، وإحسانِنا إليهم . ومَنْ لم تُؤَثِّرْ فيه بَرَكةُ إيمانه بك فلا قَدْرَ له عندنا .

قوله جل ذكره : « ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتَوَكَّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلاً » .

لا توافِقْ مَنْ أعرضنا عنه ، وأضللنا به من أهل الكفر والنفاق ، وأهل البِدَع والشِّقاق . وتوكلْ على الله بدوام الانقطاع إليه ، وكفى بالله وكيلا .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا نكَحْتُم

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى المبدأ الذى يتحمس له القشيرى وهو الرؤية العيانية للحق فى الآخرة .

(٢) يقصد القشيرى : أولئك الذين أحسن الله إليهم فى سابق علمه ، وهم مازالوا فى كتم العدم – على حد تعبيره فى مواضع مناظرة .

المؤمناتِ ثم طَلَّقْتُموهُنَّ مِن قَبْلِ أن تَمَسُّوهُنَّ فما لكم عليهن مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدّونها فَمَتِّعُوهنّ وسَرِّحُوهنَّ سَرَاحاً جميلاً » .

إذا آثرتُمْ فراقَهُنَّ فَمَتِّعوهن ليكونَ لهن عنكم تذكرة فى أيام الفرقة فى أوائلها إلى أنْ تتوطَّنَ نفوسُهن على الفرقة .

« وسرحوهن سراحاً جميلاً » : لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن شيئاً تخلَّفتُم به معهن ، فلا تجمعوا عليهن الفراقَ بالحال والإضرارَ من جهة المال .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إنَّا أحْلَلْنا لَكَ أزواجَكَ اللاتى آتيتَ أجورَهُنَّ وما مَلَكَتْ يمينُك مِمَّا أفاءَ اللهُ عليكَ وبنات عَمِّكَ وبناتِ عَمَّاتِكَ وبناتِ خالِك . . . . . غفوراً رحيماً » .

وسَّعْنَا الأمرَ عليكَ فى باب النكاح بكم شِئْتَ ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التسوية بينهن وعدم مراعاة حقوقهن ، ومن الحَيْفِ عليهن . والتَّوْسِعةُ فى بابِ النكاحَ تَدُلُّ على الفضيلة كالحُرِّ والعبد .

« تُرْجِي مَن تَشَاء منهنَّ وتُؤْوِى إليكَ مَن تشاء ومَنِ ابتغيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فلا جُناحَ عليكَ ذلك أدْنَى أن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ولا يَحْزَنَّ ويَرْضَيْنَ بما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ واللهُ يعلم ... » .

« مَن تشاء » : على ما تتعلّق به إرادتُك ، ويقع عليه اختيارُك ، فلا حَرَج عليكَ ولا جُنَاح .

« لا يَحِلُّ لَكَ النساء من بَعْدُ ولا أن تبدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجَبَكَ حُسْنُهنَّ إلا ما مَلَكَتْ يمينُكَ وكان اللهُ على كلِّ شيء رقيباً » .

لما اخْتَرْتَهُنَّ أثبت اللهُ لهن حُرْمة ، فقال : « لا يحل لك النساء من بعد » فكما اخترْنَكَ فلا تَخْتَرْ عليهن امرأةً أخرى تطييباً لقلوبهن ، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن ، وهذا يدل على كَرَمِه — والحِفَاظُ كَرَمٌ ودَيْنٌ[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تَدْخُلوا بيوتَ النبيِّ إلاَّ أن يُؤْذَنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرين إناهُ ولكنْ إذا دُعِيتُمْ فادخلوا ... » الآية .

أمَرَهم بحفظ الأدب فى الاستئذان ، ومراعاة الوقت ، ووجوب الاحترام ؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب ، وحِفْظِ أحكام تلك الحضرة ، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ، ولا تتغافلوا عنكم ، ولا يَمْنَعَنَّكُمْ حُسْنُ خُلُقِه من حِفْظِ الأدب ، ولا يحملنَّكم فرطُ احتشامِه على إبرامه[2] .

« فإذا طَعِمْتُمْ فانتشروا ولامستأنسين لحديثٍ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم » : حُسْنُ خُلُقِه — صلى الله عليه وسلم — جرَّهم إلى المباسطة معه ، حتى أنزل اللهُ هذه الآية .

« وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهن » : نَقَلَهم عن مألوفِ العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة ، وبَيَّنَ أن البَشَرَ بَشَرٌ — وإن كانوا من الصحابة ، فقال :

« ذلكم أطْهَرُ لقلوبِكم وقلوبِهنَّ

---

(١) ضبطناها هكذا (دين) بفتح الدال وتسكين الياء فيها يستقيم المعنى ويقوى السياق .

(٢) أى إضجاره وإملاله .

فلا ينبغى لأحدٍ أن يأمن نفسه — ولهذا يُشَدَّدُ الأمرُ فى الشريعة بألا يخلوَ رجلٌ بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَة .

« وما كان لكم أن تُؤْذُوا رسولَ اللهِ ولا أن تنكِحوا أزواجَه مِن بَعْدِه أبداً إنَّ ذلكم كان عند اللهِ عظيماً[1] » .

وهذا من خصائصه — صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا ، فيهتم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إليهنَّ بغيرهن بعد وفاته — وإنْ كان التحرُّزُ عنه — وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ — أتمَّ وأعلى .

قوله جل ذكره : « إن تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفُوه فإن اللهَ كان بكلِّ شىء عليماً » .

حِفْظُ القلبِ مع الله ، ومراعاةُ الأمر — بينه وبين الله — على الصِّحَةِ فى دوام الأوقات لا يَقْوى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور .

قوله جل ذكره : « لا جُنَاحَ عليهنَّ فى آبائِهنَّ ولا أبنائِهنَّ ولا إخوانِهنَّ ولا أبناء إخوانِهنَّ ، ولا أبناء أخواتِهنَّ ولا نسائِهنَّ ... » الآية .

لما نزلت آيةَ الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال فى الاستتار ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية للرخصة فى نظر هؤلاء إلى النساء ، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة .

---

(١) يستند القرطبى إلى رواية نقلها أبو نصر عبد الرحمن القشيرى – ابن القشيرى صاحب هذا الكتاب – عن ابن عباس الذى يقول : قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع الرسول على حراء – فى نفسه – لو توفى الرسول لتزوجت عائشة ، وهى بنت عمى . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . ولكن هذا الرجل ندم على ما حدثت به نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه وكَفَّرَ بالتصدق وعتق الرقيق . (القرطبى جـ١٤ ص ٢٢٨) .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون على النبيِّ يأيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليماً».

أراد الله — سبحانه — أن تكون للأمة عنده — صلى الله عليه وسلّم — يَدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يَدُ نعمةٍ ، فأمَرَهم بالصلاة عليه ، ثم كافأ — سبحانه عنه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : مَنْ صَلَّى عليَّ مرةً صلى اللهُ عليه عشر مرات . وفى هذا إشارة إلى أن العبدَ لا يستغنى عن الزيادة من الله فى وقتٍ من الأوقات ؛ إذ لا رتبةَ فوق رتبةِ الرسولِ ، وقد احتاج إلى زيادةِ صلواتِ الأُمَّةِ عليه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُؤْذون اللهَ ورسولَه لَعَنَهم اللهُ فى الدنيا والآخِرة وأعَدَّ لهم عذاباً مُهِيناً * والذين يُؤْذون المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُهْتاناً وإثماً مُبِيناً » .

يُؤْذون اللهَ ورسولَه بعمل المعاصى التى يستحقون بها العقوبة ، ويؤذون أولياءه . ولمَّا قال : مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاع الله ، فكذلك مَنْ آذى رسولَه وأنبياءه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه ، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبتهم .

ثم ذكر قوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات .. » وذكر عقوبتهم ، فجعل إيذاء الرسولِ مقروناً بما ذكر من إيذاء الله ، ثم ذكر إيذاء المؤمنين ، ويدلُّ ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول صلى الله عليه وسلم[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ قُل لأزواجك وبناتِكَ ونساء المؤمنين يُدْنِين عليهنَّ مِن

---

(١) فى هذا رد ضمنى على من يدعى الوصول ، ويجهر بأن لواء الأنبياء يعقد له فى معاريجه ، وأن الأنبياء أدنى من الأولياء .

جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يُعرَفْنَ
فلا يُؤذَيْنَ وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

هذا تنبيهٌ لهن على حِفْظِ الحُرْمة وإثبات الرُّتبَة ، وصيانةٌ لهن ، وأمرٌ لهن بالتصاونِ والتعفُّفِ . وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين فى تعاطيهم ما كان يشغل قلبَ الرسول صلى الله عليه وسلّم من الإرجاف فى المدينة : —

« لئن لم ينتهِ المنافقون والذين فى قلوبهم
مَرَضٌ والمُرْجِفون فى المدينة لنُغْرِيَنَّك
بهم ثم لا يجاورونكَ فيها إلا قليلاً
* ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا
تقتيلاً * سُنَّةَ اللهِ فى الذين خَلَوْا مِن
قَبْلُ ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلاً » .

إنهم إنْ لم يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنا فى التدمير على مَنْ سَلَف من الكفار[1] .

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك ، ثم استعجالهم قيامَها من غير استعدادٍ لها ، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التى علم أنه يُعَذِّبهم بها ، وما يقع عليهم من الندامة على ما فَرَّطوا .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذَوْا موسى فبرَّأه اللهُ مِمَّا قالوا ، وكان
عند اللهِ وجيهاً » .

نسبوه إلى الأُدْرَة[2] ، وأنّ به عيباً فى الخِلْقَة ، ولكنه كان رجلاً حَيِيًّا ، وكان إذا اغتسل لا يتجرّد (من ثوبهِ)[3] ، فتوهموا به ذلك . وذات يومٍ خلا ليغسلَه ، ووضع ثيابَه

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الكبائر) .
(٢) الأدرة (على وزن الغرفة) — انتفاخ الخصية ، والآدر — المصاب بذلك .
(٣) مابين قوسين من عندنا ليتضح السياق .

على حَجَرٍ فأمشى اللهُ الحجرَ بثيابه ، وموسى يعدو خَلْفَه حتى تَوَسَّطَ بنى إسرائيل ، وشاهدو خِلْقَتَه سليمةً ، فوقف الحجرُ ، وأخذ موسى ثيابه ولبسها[1] ، وهذا معنى قوله : « فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » فى القَدْرِ والمنزلةِ . والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس ، فقبولُ الناسِ لا عِبْرَةَ به ولا خَطَرَ له ، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُون بلا شىء ، ويَرُدُّون بلا شىء قال قائلهم :

إنْ كنتُ عندك يا مولاى مطرحاً
فعنـــد غيرك محمولٌ على الحدق

وقالوا : فإنْ أكُ فى شِرَارِكُمُ قليـــلاً
فإنى فى خِيارِكُمُ كثيرُ

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً * يُصْلِحْ لكم أعمالَكم ويغفِرْ لكم ذنوبَكم ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً » .

القول السديد كلمةُ الإخلاص ، وهى الشهادتان عن ضميرٍ صادق .

ويقال سدادُ أقوالِكم سدادُ أعمالِكم ، ولقد هَوَّن عليكم الأمرَ فمَنْ رضى بالقالة — وهى الشهادة بأن تركَ الشِّرْكَ — وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللهُ له أعمالَه الدنيوية من الخَلَل ، وغَفَرَ له فى الآخرة الزَّلَل ؛ أى حصلت له سعادةُ الدارين .

ويقال ذَكَرَ « أعمالَكم » بالجمع[2] ، وقدَّمها على الغُفران ؛ لأنه ما لم يُصْلِح لك فى حالِكَ أعمالَكَ وإنْ لم يَكْفِكَ ما أهَمَّكَ من أشغالك . . لم تتفرغْ إلى حديث آخِرَتِكَ .

قوله جل ذكره : « إنَّا عَرَضْنَا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها

---

(١) هذه رواية ابن عباس .. وفي رواية أخرى : اتهم بقتل أخيه هارون .

(٢) أى أن الله بفضله ينظر منك إلى القليل فيعتبره كثيراً .

وأشفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كان
ظلوماً جَهُولاً » .

هنا إضمار أى : أهل السموات والأرض والجبال .

وقيل أحياها وأعْقَلَها ، وهو كقوله : « إئْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتَيْنا طائعين[1] » .

« فأبين أن يحملنها » : أى أبين أنْ تَخُنَّ فيها ، « وحملها الإنسان » : أى خان فيها . وهم مراتب : فالكفار خانوا فى الأصل الأمانة — وهى المعرفة — فكفروا . ومَنْ دُونَهم خانوا بالمعاصى ، وبعضهم أشَدُّ وبعضهم أهون ، وكلٌّ احتقب من الوِزْرِ مقدارَه .

ويقال « أبين » إباء إشفاقٍ لا إباء استكبارٍ ، واستعفين . . . فعفا عنهن ، وأعفاهن مِنْ حَمْلها .

« وحملها الإنسان » : قَبِلَها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها .. كلٌّ بقدره .

« إنه كان ظلوماً جهولاً » بصعوبة حَمْلِ الأمانة فى الحال ، والعقوبة التى عليها فى المآل . وقومٌ قالوا عرَضَ الأمانةَ على السموٰاتِ والأرضِ وعَرَضَها على الإنسان ، فمن استعفين وهؤلاء[2] لم يستعفوا ولم يراعوا .

ويقال : الأمانة القيام بالواجباتِ أصولها وفروعها .

ويقال : الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً .

ويقال : لمَّا حَمَلَ آدمُ الأمانة وأولاده قال تعالى : « وحملناهم فى البر البحر »[3] .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ويقال حمل الإنسانُ بالله لا بنَفْسِهِ . ويقال ظَلَمَ نَفْسَه حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السمواتُ والأرضون . والظُّلْمُ وَضْعُ الشىء فى غير موضعه .

ويقال كاشَفَ السموٰاتِ والأرضَ بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا ، وكاشَفَ آدمَ

---

(١) آية ١١ سورة فصلت .
(٢) الإنسان هنا اسم جنس .
(٣) آية ٧٠ سورة الإسراء .

وذُرِّيتَه بوصف اللطفِ فقَبِلوا وحملوا ، وفى حال بقاء العبد بالله يحمل السمٰواتِ والأرضَ بشعرة من جَفْنِه . ويقال كانت السمٰوات والأرض أصحاب الجثث والمبانى فأشفقوا من حَمْل الأمانة . والحِمْلُ إنما تحمله القلوب . وآدم كان صاحبَ معنىً فَحَمل ، وأنشدوا :

حملت جبال الحكم فوق وإننى لَأَعْجَزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَه ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها ، فلمَّا أبَوْا وأشفقوا حَمَلَها الإنسانَ طوعاً لا كرهاً .

قوله جل ذكره : « لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمُشْرِكات ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمناتِ وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

اللام فى « ليعذب » للصيرورة والعاقبة ؛ أى صارت عاقبةُ هذا الأمرِ عذابَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز (تَمَّت السورة)[1] قد يقال : المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَرَدَ ذكرهم . . فأين العابدون وذكرهم ؟

ولكنهم فى جملة مَنْ مضى ذِكْرُهم ، وليسوا فى المشركين ولا فى المنافقين ، فلا محالة فى جملة العاصين الذين تاب عليهم .

فيأيها العاصى ، كنت تحذر أنْ يُخْرِجَك العابدون من جملتهم ، فاشهد الجبَّارَ — فى هذا الخطاب — كيف أدرجك فى جملتهم[2] ؟ !

---

(١) هكذا في الأصل ، وهذه أول مرة يستدرك بها المصنف شيئاً عقب خاتمة سورة .

(٢) هذا الاستدراك لافت للنظر من حيث يدل على رحابة صدر الصوفية ، وشدة حرصهم على فتح أبواب الأمل أمام العصاة الراغبين فى التوبة ، «لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» .

سُورَةُ سَبَأ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله كلمةٌ سَلاّبةٌ غلاّبة ، نهّابةٌ وهابةٌ ؛ تسلب القلوب .. ولكن لا كل قلب ، وتغلب الألبابَ ولكن ليس كل لب ، وتنهب الأرواح ولكن مِنَ الأحباب ، وتَهَبُ الارتياح .. ولكن لقوم مخصوصين مِنَ الطلاّب .

قوله جل ذكره : « الحمدُ لله الذى له مافى السمٰواتِ وَمافى الأرضِ وله الحمدُ فى الآخرة وهو الحكيمُ الخبيرُ » .

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه ، ومَدْحُه لنفسه إخبارٌ عن جلالِه ، واستحقاقه لنعوت عزِّه وجماله ، فهو فى الأزل حامدٌ لنفسِه محمودٌ ، وواحدٌ موجود ، فى الآزال معبود ، وبالطلبات مقصود .

« الذى له مافى السمٰوات ومافى الأرض » : المُلْكُ لا يكون بالشركة ؛ فلا مَلِكَ إلا الله . وإنْ أجرى هذا الاسمَ على مخلوق فالزنجىُّ لا يتغير لونُه وإنْ سُمِّىَ كافوراً !

« وله الحمد فى الآخرة » مِنَ الذين أعتقهم ، وفى النعمة أغرقهم .

« وهو الحكيم » بتخليد قومٍ فى الجنة ، وتأبيد قومٍ فى النار .

قوله جل ذكره : « يعلم ما يلِجُ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزلُ من السماء وما يَعْرُجُ فيها وهو الرحيم الغفور » .

« يعلم ما يلج فى الأرض » من الحَبِّ تحت الأرض ، والماء يرسب فيها ،

والأشياء التى تُلقَى عليها ، والناس يُقْبَرُون فى الأرض .

« وما يخرج منها » من النبات والأزهار ، والموتى يُبعثون .

« وما ينزل من السماء » من القَطْرِ والمَلَكِ ، والبركة والرزق ، والحُكْمِ

« وما يعرج فيها » من الصحف ، وحوائج الناس : وهِمَمِ الأولياء .

« وهو الرحيم » بعباده ، « الغفور » لجميع المذنبين من المسلمين .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ
قُلْ بلى وربى لَتَأْتِيَنَّكُم عالِمِ الغيبِ
لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى السموات
ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك
ولا أكبرُ إلا فى كتابٍ مبين » .

كرّر فى القرآن تكذيبهم بالساعة ، واستبعادهم لذلك ، والردّ عليهم . وأخبر عن سابق علمه بهم ، وأنه لا يخرج شىء من معلوماته عن علمه ، فأثبت علمه بكل شىء وشموله لكل شىء . . لأنه لو لم يكن له علم لكان نقصاً ، ولأنه لو خرَجَ معلومٌ واحدٌ عن علمِه لكان بقدرته نقصٌ ، والنقصُ — بأى وصفٍ كان — لا يجوز فى صفته بحالٍ .

قوله جل ذكره : « ليجزىَ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ
أولئك لهم مَغفرةٌ ورزقٌ كريم »
الآياتَ . .

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة ، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غيرَ منفصلة .

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذى أُنْزِلَ به حقاً وصِدْقاً . والذين كفروا قال بعضهم لبعض : إنهم يرون أن هذا الذى تقول به من النشر والحساب والبعث كذبٌ ، أو أنّ بك جِنّةً ، ثم أقام عليهم حُجة التجويز بما أجرى به سُنّتَه فى الخلق والإبداع . . فما زادهم ذلك إلا جحوداً ، وما قابلوه إلا عنوداً .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داودَ مِنَّا فضلا يا جبالُ
أوِّبى معه والطيرَ وألَنَّا له الحديد *
أن اعملْ سابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْدِ
واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير »

« داود » اسم أعجمى ، وقيل سمى داود لأنه داوى (جَرْحه ، وَرَدَ فى القصة أنه قال فى إحدى مناجاته : يا رب ، إنى أرى فى التوراة ما أعطيتَ لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطنيها)[1] فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : إنى أصبر على بلائك ، فأعْطنى ما أعطيتهم ، فأبلاه ، فوقف ، فأعطاه ما أعطاهم .

« ولقد آتينا داود منا فضلا » : تكلموا فى هذا الفضل ؛ فمنهم مَنْ أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير : « أوبى معه » ، وكذلك الجبال ، وكان فى ذلك تنفيس فى وقت حُزْنِه وبكائه . وقيل ذلك الفضلُ رجوعُه إلى الله — فى حال ماوقع له[2] — بالتنصل والاعتذار . ويقال هو شهودُه موضعَ ضرورته وأنه لا يُصْلِحُ أمرَه غيرُه . ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حتى كان ليرْغبُ فى متابعته مَنْ يسمع إليه[3] . ويقال حلاوةُ صوته فى المناجاة . ويقال حُسْنُ خُلقه مع أمته الذين اتبعوه ، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل ...

قوله : « يا جبال أوبى معه والطيرَ » أمرَ الجبالَ والطيرَ بمجاوبته حتى خرَجَ إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه .

ويقال أوحى الله له : يا داود ، كانت تلك الزَّلَّةُ مباركةً عليك ! فقال . يارب ، وكيف ؟ فقال : كنتَ تجىء قبلها (كما يجىء المطيعون والآن)[4] تجىء كما يجىء أهل الذنوب !

---

(١) مابين القوسين ساقط من ص موجود فى م .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى قصة داود مع زوجة أوريا ، وكيف تاب وأناب .

(٣) يقول القرطبى : كان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكانت الجبال تتجاوب صداه ، والماء الجارى ينقطع جريه . ويضيف القرطبى : « أيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة ، فإذا دخلت الفترة احتاج أى ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير .

(٤) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

يا داود ، إن أنينَ المذْنبين أحبُّ إلى من صُراخ العابدين !

ويقال ، كان داود يقول . اللهمّ لا تَغفرْ للخاطئين ، غيرةً منه وصلابةً فى الدين ... فلما وقع له ما وقع كان يقول . اللهم اغفر للمذنبين ، فعسى أن تغفرَ لداود فيما بينهم .

ويقال لمّا تاب الله عليه ، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطير بمجلسه ، وَرفع صوتَه ، وأداره فى حَنَكِه على حسب ما كان من عادته تفرّقت الطيور وَقالوا : الصوتُ صوتُ داود والحال ليست تلك ! فأوحَى اللهُ إليه هذه وَحْشةُ الزّلة ، وتلك كانت أُنسَ الطاعة .. فكان داودُ يبكى وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه .

وَيقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى[1] ، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير ...

« أن اعملْ سابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْد واعملوا صالحا » . ألان له الحديدَ ، وجعل ذلك معجزةً له ، وجعل فيه توسعةَ رزقه ، ليجدَ فى ذلك مكسبا ، لِيَقْطَعَ طَمَعَه عن أمته فى ارتفاقه بهم ليباركَ لهم فى اتّباعِه[2] .

قوله جل ذكره : « ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ
ورواحها شهرٌ »

أى آتينا سليمانَ الريح أى سَخّرناها له ، فكانت تحمل بساطهُ بالغدو مسيرة شهر ؛ وبالرواح مسيرةَ شهر .

وفى القصة أنه لاحظ يوما مُلْكَه ، فمال الريحُ ببساطه ، فقال سليمان للريح : استوِ ، فقالت الريح : استوِ أنت ، فما دمتَ مستويا بقلبك كنتُ مستوياً بك ، فلما مِلْتَ مِلتُ .

« وأسلنا له عينَ القِطْر ومنَ الجنّ
من يعملُ بين يديه بإذن ربه ومن يَزِغْ
منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السعير »

---

(١) هذه غمزة بمن يتظاهرون بالتواجد فى مجالس السماع الصوفية ، إذ ينبغى الصدق ليتحول التواجد إلى وجد ثم إلى وجود .

(٢) هذا تنبيه لمن يتصدر منزلة الإمامة : ألا يرتفق ، وألا يطلب عوضاً ، وألا يطمع فى الذين يتبعونه .

أى وآتيناه ذلك ، فكانت الشياطينُ مُسَخَّرةً له ، يعملون ما يشاء من الأشياء التى ذكرها سبحانه .

قوله جل ذكره : « اعملوا آلَ داود شُكْرًا وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكور »[1] .

أى اعملوا يا آل داود للشكر ، فقوله : « شكراً » منصوب لأنه مفعول له .

ويقال شكراً ؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون »[2] .

وقد مضى طَرَفٌ من القول فى الشكر . والشكور كثير الشكر ، والأصل فى الشكر الزيادة، والشَكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلَفِ ؛ فالشكور الذى يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثالُه وأضرابُه . وإذا كان الناسُ يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره فى البلاء .

والشاكر يشكر على البَذْلِ ، والشكور على المنع[3] ... فكيف بالبذل ؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ومالِه ، والشاكر ببعض هذه .

ويقال فى «وقليل من عبادى الشكور» قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة منى ولا يحملها على الأسباب؛ فلا يشكر الوسائطَ ويشكرنى . والأكثرون يأخذون النعمة من الله ، ويَجِدُون الخيرَ مِنْ قِبَلِه ثم يتقلدون المِنَّةَ من غير الله ، ويشكرون غيرَ الله .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَضَيْنا عليه الموتَ ما دَلَّهُم على مَوْتِه إلاَّ دابةُ الأرضِ تأكل مِنسَأَتَه فلمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا فى العذاب المُهِين » .

---

(١) يقول السهروردى فى عوارفه : «فى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ فأوحى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى. (عوارف المعارف ص ٣٤٤)

(٢) آية ٤ سورة المؤمنين .

(٣) وردت العبارة فى الرسالة هكذا : الشاكر يشكر عند البذل والشكور عند المطل (الرسالة ص ٨٩) .

كان سليانُ — عليه السلام — يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ ، وبقى على ذلك الوصف مدةً ، والشياطين كانو مُسَخَّرين يعملون ما أمرهم به ، ويتصرفون على الوجه الذى رَسَمَ لهم ، وينتهون عمَّا زَجَرَهم ، فقد كانوا يتوهمُّون أنه حىٌّ . ثم إنَّ الأَرَضَةَ[1] أكلت عصاه فَخَرَّ سليانُ فعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات ، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة ، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير ؛ وهكذا المَلِكُ الذى يقوم مُلكُه بغيره ، ويكون استمساكه بعصا . فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه ، ومَنْ قام بغيره زال بزواله .

قوله جل ذكره : « لقد كان لسبأٍ فى مَسْكَنِهم آيةٌ
جَنَّتَانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من
رِزْقِ ربِّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ
وربٌّ غفورٌ » .

كانوا فى رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته ، فأُمِروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضَيَّعوا الشكر ، فبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لِمَن ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

قوله جل ذكره : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ
وبَدَّلْناهم بجنتيهم جنتين ذَوَاتَى أُكُلٍ
خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل » .

كذلك من الناس من يكون فى رَغَدٍ من الحال ، واتصالٍ من التوفيق ، وطَرَبٍ من القلب ، ومساعدةٍ من الوقت ، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسىء أدباً أو يتبع شهوةً ، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به ، فيتغير عليه الحالُ ؛ فلا وقتَ ولا حالَ ، ولا طربَ ولا وصالَ ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً ، كما قلنا[2] :

---

(١) الأرضه = دودة تأكل الخشب .
(٢) هكذا فى ولكنها فى ص : كما قالوا .

ما زلت أختال فى زمانٍ وحالِ حتى أمِنْتُ الزمانَ مَكْرَه
حال علىَّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتَ ذرَّة

قوله جل ذكره : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور».

* وجعلنا بينهم وبين القُرَى التى بارَكْنا
فيها قرىً ظاهرة وقَدَّرْنا فيها السيْرَ
سيروا فيها ليالِىَ وأياماً آمنين » .

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سُقُوا إلاَّ بِمَّا ثَبِطُوا[1] ، وما وقعوا إلاَّ فى الوَهْدَةِ التى حَفَرُوا ، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذى صَنَعُوا !

« وجعلنا بينهم وبين القرى .. » : ما كان من شأنهم إلا التمادى فى عصيانهم ، والإصرار على غيهم وطغيانهم .

« فجعلناهم أحاديثَ ومزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ
إنَّ فى ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شكور »

فرَّقناهم تفريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلا مضروباً ؛ يقولون . ذهبوا أيدى سبأٍ ، وتفرَّقوا أيادى سبأ . وفى قصتهم آياتٌ لكل صبَّار على العاقبة ، شكور على النعمة .

قوله جل ذكره : « ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّه
فاتَّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين *
وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا
لِنَعْلَمَ مَن يؤْمِنُ بالآخرةِ ممن
هو منها فى شكٍ وربُّكَ على كُلِّ
شىء حفيظ » .

صدَّق عليهم إبليس ظنّه — وإنْ كان لا يملك لنفسه أمراً ، فإبليس مُسَلَّطٌ على أتباعه

(١) ثبط = حمق فى عمله .

من الجنِّ والإنس ، وليس به من الإضلال شيء ، ولو أمكنه أن يَضُرَّ غيرَه لأمكنه أن يمسكَ على الهداية نَفْسَه ، قال تعالى : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان[1] » .

« وربك على كل شيء حفيظ » : يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ثم أخبر — سبحانه وتعالى — أنه بمُلْكِه متفرِّدٌ ، وفى الألوهية متوحِّدٌ ، وعن الأضداد والأنداد متعزِّزٌ ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذَرَّةٍ ، ولا مقياسَ حَبَّةٍ ، وليس منهم نصير ، ولا شريك ولا ظهير ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن الملائكةَ فى السماء بوصف الهيبة فَزِعُون ، وفى الموقف الذى أثبتهم الحقُّ واقفون ، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون .

ثم قال جل ذكره : « قُلْ مَن يرزقُكم من السموٰاتِ والأرضِ قُلِ اللهُ وإنَّا أوإياكم لعَلَىٰ هُدَىً أو فى ضلالٍ مبين » .

لم يَقُلْ أحدٌ — مع شِرْكِه — إنه يُحِيلُ فى الرزق على أحدٍ غيره ، فكما لا شريكَ له فى الرزق ولا شريكَ له فى الخَلْق فلا شريكَ له فى استحقاق العبادة والتعظيم .

قوله جل ذكره : « قُل لا تُسألون عمَّا أجرمْنَا ولا نُسْأَلُ عمَّا تعملون * قُلْ يجمع بيننا رَبُّنا ثم يفتح بيننا بالحقِّ وهو الفتاحُ العليمُ » .

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم . . ويوم الجمع يحاسِب اللهُ كُلاًّ على أعماله ، ويُطَالِبُ كُلاًّ بشأنه ، لا يؤاخِذُ أحداً بعمل غيره ، وكلٌّ يُعْطَى كتابَه ، ويَطْلُبُ اللهُ مِنْ كلِّ واحدٍ حسابَه .

وقد أجرى الله سُنَّتَه بأن يجمع بين عباده ، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم . فللاجتماع أثرٌ كبيرٌ فى الشريعة ، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص . وقد عاتب اللهُ — سبحانه — الذين يتفرقون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومَدَحَ مَنْ لا يتفرَّق إلا عن استئذان .

---

(١) آية ٦٥ سورة الإسراء .

والشيوخُ ينتظرون فى الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية :

« قل يجمع . . . . »

قوله جل ذكره : « قُلْ أرُونى الذين ألحقتم به شُركاء
كلاَّ بل هو اللهُ العزيزُ الحكيم » .

كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيكَ لاشريك لكَ ، هو لك ، تملكه وماملك[1] ، لانهماكهم فى ضلالتهم . وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر ، ولا تسمع ولا تُبصر ، وقعت لهم شبهةُ استحقاقها العبادة ، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم . . . وهذا هو الضلال البعيد والخُسران المبين .

قوله جل ذكره : « وما أرسلناكَ إلا كافةً للناسِ
بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ الناس
لا يعلمون » .

أرسلناكَ مُؤيَّداً بالمعجزات ، مُشرَّفاً بجميع الصفات ، سيداً فى الأرضين والسموات ، ظاهراً لأهل الإيمان ، مستوراً عن بصائر أهل الكفران — وإن كنتَ ظاهراً لهم من حيث العيان ، قال تعالى : « وتراهمْ ينظرون إليك وهمْ لا يبصرون »[2]

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم
صادقين * قُل لكم ميعادُ يومٍ ،
لاتستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون»

لكثرة مايقولون هذا كرّره اللهُ فى كتابه خبراً عنهم ، والجواب إن لكم ميعاد يومٍ ، وفى هذا الميعاد لا تستأخرون ساعةً ولا تستقدمون .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لن نؤمنَ بهذا

---

(١) وردت التلبية مضطربة الكتابة وقد صححناها طبقاً لما جاء فى المحبر لابن حبيب .

(٢) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

القرآن ولا بالذى بين يدَيه ولو ترىٰ
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم
يرجع بعضُهم إلى بعض القولَ يقول
الذين استضعفوا للذين استكبروا
لولا أنتم لكنّا مؤمنين » .

لو رأيتهم يومذاك لرأيتَ منظراً فظيعاً ؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القولَ ، ويُحيل بعضهم على بعض الُجرمَ ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون : بل أنتم اتبعتمونا . وهكذا أصحابُ الزلاتِ الأخلاء فى الفساد ، قال تعالى : « بعضهم لبعض عدو »[1] .

وكذلك الجوارحُ والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض ؛ فاليدُ تقول للجملة أخذتْ ، والعين تقول أبصرت ، والاختلاف فى الجملة عقوبة ، ومَنْ عمل بالمعاصى أخرج الله عليه كل من هو أطوع له ، ولكنهم لايعلمون ذلك ، ولو علموا لاعتبروا ، ولو اعتبروا لتابوا ووفّقُوا .. ولكن ليقضى اللهُ أمْراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : « وما أرسلنا فى قريةٍ مِن نذير إلا قال
مُترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون »

أى قابلوا رُسُلَنا بالتكذيب ، وصَبَر رُسُلُنا . . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟ فهم لنجاتهم أُرسلوا ، ولصلاحِهم دَعَوا وبلغّوا ، ولو وافقوهُم لسعدوا . . ولكنّ أقساماً سبقت ، وأحكاماً حقت ، والله غالبٌ على أمره .

« وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً
وما نحن بمعذّبين » .

ليس هذا بكثرة الأموال وَالأولاد ، وإنما هى بصائرُ مفتوحةٌ لقوم ، وأخرى مسدودةٌ لقوم .

---

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى
تُقربكم عندنا زُلفى إلا مَنْ آمن وعَمل
صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِّعفِ بما
عملوا وهُم فى الغرفات آمنون » .

لا تستحقّ الزّلفى عند الله ؛ بالمال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية ، بلْ بالعناية السابقة ، وَالهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة ، فأولئكَ لهم جزاء الضعف » : يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأمم « وهُم فى الغُرُفات آمنون » مِنْ تكدر الصفوة والإخراج من الجنة .

قوله جل ذكره : « والذين يسعوْن فى آياتنا معاجزين
أُولئكَ فى العذاب مُحضَرون » .

هم الذين لايحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقّ اللهِ فى السرّ ، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم الله ، ثم فى عذاب السقوط من عين الله .

قوله جل ذكره : « « قُلْ إنَّ ربى يَبسطُ الرزق لِمَن
يشاءُ مِنْ عبادهِ ويقدِرُ له وما أنفقتم
من شىء فهو يُخلفه وهوخيرالرازقين » .

منَ الخَلَف فى الدنيا الرضا بالعَدَم والفقد ، وهو أتمّ من السرور بالموجود[1] ؛ ومن ذلك الأنسُ بالله فى الخلوة ؛ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .

قوله جل ذكره : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكةِ
أهؤلاء إياكم كانوا يَعبدون » .

قومٌ كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم ؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه،

(١) استعمل القشيرى هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وبهذا يتأيد رأينا فى هامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق .

فيفتضح هؤلاء — والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة ، وفى بعض الأخبار :

أنّ غداً منْ يسألهم الحقّ فيقعْ عليهم من الخجل مايجعلهم يقولون : عذّبنا ربنا بما شئت من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال !

قوله جل ذكره : « فاليوم لا يملكُ بعضكم لبعض نفعاً ولا ضَرًّا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذابَ النار التى كنتم بها تكذبون » .

الإشارة فى هذا أنّ مَن علقَ قلبه بالأغيار ؛ وظنّ صلاحَ حاله بالاحتيال[1] ؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع اللهُ الرحمةَ من قلوبهم ؛ ويتركهم ، ويشوشُ أحوالهم ، فلاهم من الأمثال والأشكال معونة . ولا لهم منْ عقولهم فى أمورهم استبصار ، ولا إلى الله رجوع ، وإنْ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم ، ويقول لهم : ذوقوا وبالَ ما به استوجبتم هذه العقوبة .

قوله جل ذكره : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مُفترًى وقال الذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم إنْ هذا إلا سحر مُبين » .

الحكماء ، والأولياء — الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة — إذا دَلوا الناسَ عَلَى الله . قال بعض إخوان السوء — مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا[2] لمريدٍ : ما هذا ؟ منْ الذى يطيق كل هذا ؟ ربما لا تُتمّمُ الطريق !

لا بُد من الدنيا مادُمت تعيش ! . . . وأمثال ذلك ، حتى يميل هذا المسكينُ عند قبول النصح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية . . . فيهلك ويضلّ .

---

(١) الاحتيال هنا معناه الاعتماد على جهده الإنسانى ، وتفريغ الوسع فيه دون التعويل على فضل الله ومنته ، فالواجب إسقاط التدبير والاعتماد على التقدير .

(٢) يشبههم القشيرى فى موضع آخر بمن كان يعوق المجاهدين قبيل القتال .

قوله جل ذكره : « وما آتَيْنَاهم من كُتُبٍ يَدْرُسُونها
وما أرسلنا إليهم قَبْلَكَ من نذيرٍ » .

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة ؛ يعارضون أصحابَ القلوب فيما يجرى من الأمور ، بما تشوَّش إليهم نفوسُهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقْتَضَى تفرقةِ قلوبهم — على قياس ما يقع لهم — مِنْ غيرِ استنادٍ إلى إلهامٍ ، أو اعتمادٍ على تقديرٍ من الله وإفهام .

وأهلُ الحقائق — الذين هم لسانُ الوقت — إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذى يتكلم عن الفراسة أو عن الإلهام ، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم[1] . وأصحابُ الغفلة ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون،فسبيلُ هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأيام[2] تجيب أولئك .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّما أَعِظُكم بواحدةٍ أن تقوموا
لله مثنى وفُرادَى ثم تتفكَّروا مابصاحبِكم
مِن جِنَّةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يدَىْ
عذابٍ شديد » .

يقول : إذا سوَّلَتْ لكم أنفُسُكم تكذيبَ الرسولِ فأنعموا النظرَ . . هل تَرَوْنَ فيه آثار ما رميتوه به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . . قُلْتُم إنه ساحر — فأين آثار السحر

---

(١) انظر ص٣٤٨ من المجلد الثانى من هذا الكتاب .
وقد يظن أن هذا محل طعن فيما يصدر عن المعارف من أقوال وأحوال ، والواقع أن مرد عجز العارف عن إقامة الحجة إلى أن ما يتمثل عليه من كشوفات ليس من تدبيره أو احتياله ، ولا نتيجة مهارته أو ذكائه .. وإلا كان مطلوباً منه أن يسوق حجة أو يقدم برهاناً .. إنما هى أنوار إلهية تنبجس فى عالمه الباطن .. وليست تجربة الإمام الغزالى إلا نموذجاً للعارف الذى نهل من العلوم العقلية قدراً عظيماً ، ولكن ذلك لم يهدىء سورة غليله ، ولم يقده إلى الراحة والسكينة .. حتى فيض الله له فى علوم القوم ما شفاه وكفاه (انظر الصفحات الأولى من : «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالى) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الأنام) ونحن نرجح (الأيام) على معنى أن الدهر كفيل بتوضيح الحقيقة — وإن خفيت زمناً .

على أحواله وأفعاله وأقواله ؟ قلتم إنه شاعر — فمن أى قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قلتم إنه مجنون — فأىّ جنونٍ ظهر منه ؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك . . . فهلّا عرفتم أنه صادق ؟ !

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّ ربى يقذف بالحقّ علاّمُ الغيوب » .

يقذف بالحقّ على باطل أهل الغفلة فتزول حِيَلُهم ، ويظهر عَجْزُهم . ويقذف بالحقّ على أحوال أهل الخِلاف فيضمحل اجتراؤهم ، ويحيق بهم شؤمُ معاصيهم .

ويقذف بالحقّ — إذا حضر أصحاب المعانى — على ظُلُماتِ أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتَهم ، ويفضحهم فى الحال ، ويفْضح عوارُهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ جاء الحقُّ وما يُبْدِئُ الباطِلُ وما يُعِيد » .

الباطلُ على مَمَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً ، والحقُّ على مَمَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً .

قوله جل ذكره : « قُلْ إن ضَلَلْتُ فإنّما أَضِلُّ على نفسى وإنِ اهتديْتُ فَبِما يُوحِى إلىّ ربِّى إنّه سميعٌ قريبٌ » .

إنْ كنتُ مهتدياً فبِربِّى لا بجهدى . وإنْ كنت عندكم من أهل الضلال فوبالُ ضلالتى عائدٌ علىّ ، ولن يضرَّكم ذلك . فانظروا أنتم إلى أنفسكم . . أين وقعتم ؟ وأى ضرر يعود عليكم لو أطعتمونى ؟ لا فى الحال تخسرون ، ولا فى أنفسكم تتعبون ، ولا فى جاهكم تنقصون .

وما أخبركم به عن نَقْصِ أصنامكم فبالضرورة[1] أنتم تعلمون ! فمالكم لا تُبْصِرون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

---

(١) أى لا جدال فى أنكم تجدونها لاتنفع ولا تضر ولا تستطيع أن تدفع عنها مكروهاً ، فهى لاتليق بتأليه ولا تقديس .

قوله جل ذكره : « ولو ترى إذ فَزِعوا فلا فَوْتَ وأُخِذُوا من مكانٍ قريب » .

أى لو رأيتَ ذلك لرأيتَ منظراً فظيعاً، وأمراً عظيماً ؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

« وقالوا آمَنَّا به وأنَّى لهم التناوشُ من مكانٍ بعيد » .

إذا تابوا — وقد أُغْلِقَتْ الأبواب ، وندمُوا — وقد تقطَّعَت الأسباب . . فليس إلا الحسرات والندم ، ولات حين ندامة !

كذلك من استهان بتفاصيل فترته ، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِهِ يُتَجَاوَزُ عنه مرةً ، ويُعْفَى عنه كَرَّةً ، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوء الأدبِ حَدَّ الغفلة ، وزاد على مقدار الكثرة[1] . . يحصل له من الحقِّ رَدٌّ ، ويستقبله حجاب ، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء ، ولا يُرْحَمُ له بكاء ، كما قيل :

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِلَ بأشياعِهم مِنْ قَبْلُ إنهم كانوا فى شكٍّ مُرِيب » .

التوبة يشتهونها فى آخر الأمر وقد فات الوقت ، والخَصْمُ يريد إرضاءه فيستحيي أن يذكر فى ذلك الوقت ، وينسدُّ لسانه ويعتقل ؛ فلا يمكنه أن يُفْصِحَ بما فى قلبه ، ويودُّ أنْ لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد ، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعده القوةُ ، ويتمنى أن يكون له — قبل خروجه من الدنيا — نَفَسٌ . . ثم لا يتفق .

---

(١) فى رأى القشيرى : الثلاثة — آخر حد القلة ، وأول حد الكثرة — .

سُورَةُ فَاطِر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يوجب رَوْحاً لمنْ كان يشاهد الإتقان ، ويُوجِبُ لَوْحاً لمن كان بوصف البيان ؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان ، واللوحُ من شهود السلطان ، وكلٌّ مُصيب ، ولكلٍّ من الحقِّ نصيب .

قوله جل ذكره : « الحمدُ للهِ فاطِرِ السمٰواتِ والأرضِ
جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أولى أجنحة ... »

استحق المدحَ والثناء على انفراده[1] بالقدرة على خلق السمٰوات والأرض .

« جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورُباع يزيد فى الخلق ما يشاء » : تَعرَّف إلى العباد بأفعاله ، ونَدبهَم إلى الاعتبار بها ، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسمٰوات والأرض وغيرها ، ومنها ما سبيلُ الإيمانِ به الخبرُ والنقلُ — لا بدليل العقل — والملائكةُ مِنْ ذلك ؛ فلا نتحقق كيفيّة صُوَرِهم وأجنحتهم ، وكيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة ، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته ، وصِدْقَ كلمته .

قوله : « يزيد فى الخَلْقِ ما يشاء » : قيل الخُلُقُ الحَسَنُ ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلاحَةُ العينين ، وقيل الكياسة فى الخِيَرَة[2] ، وقيل الفصاحة فى المنطق ، وقيل الفهم عن الله ، ويقال السخاء والجود ، ويقال الرضا بالتقدير ، ويقال علو الهمة ، ويقال التواضع ، ويقال ألعفة عند الفقر ، ويقال الظرف فى الشمائل ، ويقال أن تكون مُحَبَّباً إلى القلوب ، ويقال خفة الروح ، ويقال سلامة الصدر من الشرور ، ويقال المعرفة بالله بلا تأمُّل

---

(١) هكذا فى م . وهى فى ص (إرشاده) .
(٢) اسم من الاختيار .

برهان[1] ، ويقال الشوق إلى الله ، ويقال التعطُّف على الخلْقِ بجملتهم ، ويقال تحرُّر القلوب من رِقِّ الحدثان بجملته ، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً فى الدارين[2] .

قوله جل ذكره : « مايفتح اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له مِنْ بَعْدِه وهو العزيزُ الحكيم » .

المُوَسَّعُ عليه رِزْقُه لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله ، والمحرومُ لا يُوَسِّعُ عليه غيرُ الله .

ويقال : مايلج فى قلوب العارفين من أنوار التحقيق لاسحابَ يستره ، ولاضياء يقهره .

ويقال : ما يلزم قلوبَ أوليائه من اليقين فلا مُزيلَ له ، وما يُغْلَق على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره — سبحانه .

ويقال الذى يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمْسِكَ له ، والذى يمنعه عن أعدائه — بما يُلْقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها — فلا مُيَسِّرَ له من دونه .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم هل من خالقٍ غيرُ اللهِ يرزقكم من السماء والأرضِ لا إلهَ إلا هو فأنَّى تُؤْفَكون » .

مَنْ ذَكَرَ النِّعمةَ فصاحبُ عبادةٍ، ونائلُ زيادة ، ومَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادةٍ ، ونائلُ زيادة .. ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادة ؛ ذلك زيادته فى الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاؤه : اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة ، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة .

والنعمة على قسمين[3] : ما دَفَعَ عنه من المِحَن ، وما نَفَعَ به من المِنَن ؛ فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجِبُ دوامَ العصمة ، وذكره لما نَفَعَه به يوجب تمام النعمة .

---

(١) من اختاره الله لمعرفته لايتركه يتعنّى فى الأدلة والبراهين بعد اجتيازه مرحلة البداية المصححة بالعقل ، بل يفك أسره من هذه القيود لينطلق فى رحلة العرفان بالقلب ، ثم الروح ، ثم السر ، ثم عين السر .

(٢) يرى الزمخشرى أن الآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق وميزة فيه .. وتلك أمور لا يحيط بها وصف .

(٣) مرة أخرى يعود القشيرى إلى ذكر نعم الدفع ، ونعم النفع ، وواضح أن الذكر والشكر لازمان على الدوام .. هذاهو المقصد الذى يطمح إليه القشيرى .

« هل من خالقٍ غيرُ الله . . ؟ » وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعلِّقْ قلبَه بأحدٍ فى طلب شىء ، ولم يتذلل فى ارتفاقٍ لمخلوقٍ ، وكما لا يرى رِزْقَه من مخلوقٍ لايراه من نفسه أيضاً ؛ فيتخلَّصُ من ظلمات تدبيره واحتياله[1] ، ومن تَوَهُّم شىء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يُخْلِصُ فى توكله وتفويضه .

قوله جل ذكره : « وإن يُكَذِّبوكَ فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ » .

هذه تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسهيلٌ للصبر عليه ؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله ، وأنّهم صَبَرُوا وأنّ اللهَ كفاهم ، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدى بهم ، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه . وفى هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب فى موقفهم من العوامِّ والأجانبِ عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، بينما أهل الحقائق أبداً منهم فى مقاساة الأذى إلا بِسَتْرِ حالهم عنهم[2] .

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرَّاء[3] المتقشفين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ

---

(١) فالواجب إسقاط التدبير وشهود التقدير — كما قلنا فى الهامش منذ قليل .

(٢) لجأ «ملامتية» نيسابور إلى هذا الستر ، واكتفوا بعلم الله بأسرارهم وصلاح باطنهم ، ولم يأبهوا بالمخلوقين . بل رغبة فى تأكيد علاقتهم بالله ، وإمعاناً فى إخفاء حقائقهم كانوا يقومون بأشياء تستوجب الملامة ... نقول ذلك رغبة فى توضيح أن أفكار هذا المذهب كانت معروفة فى مدينة نيسابور موطن القشيرى ، كما كان السلمى جد أبى عبد الرحمن صديقه الحميم واحداً من رواد هذا المذهب وأئمته .

(٣) القراء جماعة من قراء القرآن ظهروا منذ عهد مبكر (ولازموا الأعمدة فى الليل يتهجدون ، حتى إذا جاء النهار استقوا الماء واحتطبوا للنبى وكانوا فى صحبته (ابن سعد جـ٣ ق١ ص ٣٦ ، ٣٧) ، ولكن اللفظة أطلقت فيما بعد بصفة عامة على (الذين يزورون عن الدنيا ويخصصون أنفسهم للعمل الصالح والزهد والتأمل) ابن سعد جـ٦ ص٢٥٥ . (ويقال تقرى بتسهيل الهمزة أى تنسك) (أمالى القالى جـ٣ ص ٤٧) .. ولقد نبه عمر بن الخطاب إلى ضرورة تنقية هذا اللون من التعبد من كل الأغراض والأمراض حيث يقول : «يأيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وبأعمالكم» البيان والتبيين جـ٣ ص١٣٨ . ولكن يبدو أن الزمن قد فعل فعله فى خروج طوائف من القراء عن هذا الخط ... الأمر الذى جعل القشيرى — وقد عاش فى القرنين الرابع والخامس — يتحفظ فى الحكم عليهم .

فلا تَغرَّنَّكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكُم
باللهِ الغَرُور » .

وَعْدُ اللهِ حقٌّ فى كل ما أخبر به أنه يكون ، فَوعْدُه فى القيامة حقٌّ ، ووعده لِمَنْ أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حقٌّ ، ووعده للمطيعين فى الآخرة بوجود الكرامة حقٌّ ، وللعاصين بالندامة حقٌّ ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك استعدَّ للموت ، ولم يهتم بالرزق ، فيكفيه اللهُ شُغْلَه ، فينشط العبدُ فى استكثار الطاعة ثقةً بالوعد ، ولا يُلِمُّ بالمخالفاتِ خوفاً من الوعيد .

قوله جل ذكره : « إنَّ الشيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتخذوه
عَدُوًّا إنما يدعو حِزْبَه ليكونوا من
أصحابِ السَّعير » .

عداوةُ الشيطان بدوام مخالفته ؛ فإنَّ مِنَ الناس مَنْ يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل ، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربِّ ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة . والشيطانُ لا يفتر فى عداوتك ، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك ؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك .

« إنما يدعو حِزْبَه » وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، الغافلون عن الله . ودليلُ هذا الخطاب : إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً ، وأنا وَلِيُّكُم وحبيبُكم فأَحِبُّونى وارْضَوْا بى حبيباً .

قوله جل ذكره : « الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ
والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم
مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ كبير » .

الذين كفروا لهم عذابٌ مُعَجَّلٌ وعذابٌ مُؤَجَّلٌ ، فَمُعَجَّلُه تفرقةُ قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة هِمَّتِهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنمُ معبودَهم . وأمَّا عذاب الآخرة فهو ما لا نخفى على مسلمٍ — على الجملة — صعوبتُه .

وأماً « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فلهم مغفرةٌ أى سَتْرٌ لذنوبهم اليومَ ، ولولا ذلك لا فتضحوا ، ولولا ذلك لَهَلَكُوا .

« وأجر كبير » : والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله فى القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال . وفى الآخرة : تحقيقُ السُّؤْلِ ونَيْلُ ما فوق المأمول .

قوله جل ذكره : « أَفَمَن زُيِّنَ له سوء عَمَلِهِ فرآه حَسَناً فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِى مَن يشاء فلا تذهبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَراتٍ إنَّ اللهَ عليمٌ بما يصنعون » .

معنى الآية : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان !

ومعنى « زين له سوء عمله » أن الكافرَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عملَه حَسَنٌ ، قال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[1] .

ثم الراغبُ فى الدنيا يجمع حلالَها وحرامهاَ ، ويحوّش[2] حُطَامها ، ولا يفكر فى زوالها ، ولا فى ارتحاله عنها قبل كمالها ؛ فلقد زين له سوء عمله (والذى يتبع شهواته ويبيع مؤبّد راحاته فى الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله[3]) . وإن الذى يُؤْثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لَهُوَ من جملتهم . والذى يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاتَه ودرجاتِه فى الجنة — وأنَّ هذا يكفيه ... فقد زُيِّن له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة . والذى هو فى صحبة حظوظه ولا يُؤْثِرُ حقوق اللهِ فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً .

« فلا تذهب نَفْسُكَ عليهم حسراتٍ » : يعنى إذا عَرَفْتَ حقَّ[4] التقدير ، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله ، ودَعَوْتَهم جَهْراً ، وَبذَلْتَ لهم نُصْحاً ، فاستجابتُهم ليست لك ، فلا تَجْعَلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناء .

---

(١) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٢) حوش المال ونحوه = جمعه وادخره (الوسيط) .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (سرّ) التقدير .

قوله جل ذكره : « واللهُ الذى أرسل الرياحَ فتثيرُ
سحاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ ميتٍ فأحيينا
به الأرضَ بعد موتِها كذلك النُشور »

أجرى سُنَّتَه بأنه يُظْهِرُ فَضْلَه فى إحياء الأرض بالتدريج ؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتى بالسحاب ، ثم يوجِّه ذلك السحاب إلى الموضع الذى يريد له تخصيصاً كيف يشاء ، ويُمْطِرُ هناك كيف يشاء . كذلك إذا أراد إحياءَ قلبِ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته ، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء ، ويزعج بها كوامنَ الإرادة ، ثم ينشىء فيها سُحُبَ الاهتياج، ولوعةَ الانزعاج ، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ فى القلب أزهارَ البَسْطِ ، وأنوارَ[1] الرَّوْح ، فيطيب لصاحبِه العَيْشُ إلى أن تتمَّ لطائفُ الأُنْسِ .

قوله جل ذكره : « مَن كان يريد العِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ
جميعاً إليه يصعد الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ
الصالِحُ يرفعُهُ والذين يَمْكُرون
السيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ ومكر
أولئك هو يبُور »

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أنَّ العزةَ بجملتها لله ، فليس للمخلوق شىء من العِزَّة . ويقال مَنْ كان يريد العزةَ لنفسه فلله العِزَّةُ جميعا ، أى فليطلبْها من الله ، وفى آية أخرى أثبت العزة للهِ ولرسوله وللمؤمنين ، وقال ها هنا « فلله العِزَّةُ جميعاً » ؛ ووَجْهُ الجمع بينهما أن عِزَّ الربوبية لله وَصْفاً ، وعزَّ الرسول ، وعزَّ المؤمنين لهم فضْلاً من الله ولهما : فإذاً العِزَّةُ لله جميعاً . وعزُّه سبحانه — قُدْرَتُه . أو ويقال العزيز هو القاهر الذى لا يُقْهَرُ ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين . . ومن صفات ذاته على القول الآخر . ويقال العزيز هو الذى لا يُوصَلُ إليه مِنْ قولِهم : أرضٌ عَزاز إذا لم تستقر عليها الأقدام ، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه .

ويقال العزيز الذى لامِثْلَ له ؛ من قولهم : عَزَّ الطعام فى اليد ، فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو .

---

(١) أنوار هنا جمع نورة وهى الزهرة البيضاء .

قوله : « إليه يصعد الكَلِمُ الطيب » : الكلم الطيب هو الصادرُ عن عقيدةٍ طيبةٍ — يعنى الشهادتين — عن إخلاص . وأراد به صعودَ قَبُولٍ ؛ لأنَّ حقيقةَ الصعود فى اللغة بمعنى الخروج — ولا يجوز فى صفة الكلام[1] .

« والعمل الصالح يرفعه » : أى يقبله . ويقال العملُ الصالحُ يرفع الكَلِمَ الطيب . ويقال الكَلِمُ الطيبُ ما يكون موافقاً للسُّنَّة ، ويقال هو ما يشهد بِصِحَّتِه الإذنُ والتوقيف . ويقال هو نُطْقُ القلبِ بالثناء على ما يستوجبه الربُّ . ويقال هو ما يكون دُعاء للمسلمين . ويقال ما يتجرد حقاً للحقِّ ولا يكون فيه حَظٌّ للعبد . ويقال ما هو مُسْتَخْرَجٌ من العبد وهو فيه مفقود[2] . ويقال هو بيانُ التنصُّل وكلمة الاستغفار .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذى ليس فيه آفة ولايُطْلَبُ عليه عِوَضٌ

قوله جل ذكره : « والذين يَمْكُرُون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد ومَكْرُ أولئك هو يبورُ » .

أى يَقْلِبُ عليهم مَكْرَهم ؛ فما يتوهمونه من خيرٍ لهم يَقْلِبُهُ محنةً عليهم . ويقال : تَخْلِيَتُه إياهم ومَكْرَهم[3] — مع قدرته على عصمتهم ، وكَوْنُه لا يعصمهم هى عذابهم الشديد .

قوله جل ذكره : « واللهُ خَلَقَكُم من ترابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بِعِلْمِهِ وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلا فى كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يسير »

ذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبوا بحالتهم ، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريعُ التغيُّر ، قليلُ

---

(١) لأن الخروج يقتضى محلا .. والألوهية تتنزه عنه .

(٢) أى ما يصدر عن العبد وهو مأخوذ مستلب عن نفسه — من المعارف .

(٣) نصبنا الراء فى (ومكرهم) لتكون مفعولا معه فهكذا نفهم السياق .

القوة فى المُكث ، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته ؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجودِ أعاده بعد انكساره بالذنوب[1] .

وإذا كان لا يَخْفَى عليه — سبحانه — شىء من أحوالهم فى ابتداء خِلْقَتِهم ، فَمَنْ يُبالِ أنْ يَخْلُقَ مَنْ يعلم أنه يَعْصى فلا يبالى أنْ يغفِرَ لِمَنْ رآه يعصى[2] .

قوله جل ذكره : « وما يستوى البحران هذا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سائِغٌ شرابُه وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ
ومِن كُلٍّ تأكلون لحماً طَرِياً
وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها وترى
الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ لتبتغوا مِن فَضْلِه
ولَعَلَّكم تَشْكُرون »

لا تستوى الحالتان : هذه إقبالٌ على الله ، واشتغالٌ بطاعته ، واستقلال بمعرفته . . وهذه إعْراضٌ عن الله ، وانقباضٌ عن عبادته ، واعتراض — على الله — فى قسمته وقبضته . هذه سبب وصاله ، وهذه سببُ هَجْرِه وانفصاله ، وفى كلٍّ واحدةٍ من الحالتين يعيش أهلها ، ويُزْجِى أصحابُها وقتَها . ولا يستوى الوقتان : هذا بَسْطٌ وصاحبُه فى رَوْح ، وهذا قبضٌ وصاحبه فى نَوْح . هذا خوفٌ وصاحبه فى اجتياح ، وهذا رجاء وصاحبه فى ارتياح . هذا فَرْقٌ وصاحبُه بوصف العبودية ، وهذا جَمْعٌ وصاحبُه فى شهود الربوبية .

« ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » : كذلك كُلٌّ يتقرَّبُ فى حالته لربِّه ؛ ويتزَيَّنُ على بابه ، وهو حِلْيَتُه التى بها يتحلّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ .

---

(١) عرض القشيرى فيما سبق لهذه النقطة عندما تحدث عن خلق آدم وإبليس ، وكيف أن ماء العناية جبر آدم حين أظهر العذر فاجتباه ربه وتاب عليه ، وكيف أن الماء أطفأ نار إبليس فأنظره إلى يوم يبعثون ؛ ليدل القشيرى بذلك على أن الطين أفضل من النار ، وأن إبليس أخطأ فى دعوى أفضليته على آدم .

(٢) أى أن معصية العبد من العبد عملا — وفى هذا إثبات لحرية الإنسان واختياره — وإن كانت من الله علماً ... وهو من قبل ومن بعد غافر الذنب وقابل التوب .

قوله جل ذكره : « يولِجُ الليلَ فى النهار ويولج النهارَ فى الليل وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى لِأَجَلٍ مسمًّى ذلكم اللهُ ربُّكُم له المُلْكُ والذين تدعون من دونِه ما يَمْلِكون من قِطْمِير » .

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب ، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْس . وكذلك القبضُ والبسط فقد يستويان ، ومرةً يغلب القبضُ على البسط ، ومرةً يغلب البسطُ على القبض ، وكذلك الصحو والسُّكْرُ ، وكذلك الفناء والبقاء .

وسَخَّرَ شموسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب .

« ذلكم الله ربُّكم له المُلْكُ » : فأرونى شظيةً من النفى أو الإثبات لما تدعونه من دونه ! وإذْ لم يُمْكِنْكُم ذلك . . فَهَلاَّ أَقْرَرْتُم ، وفى عبادته أخلصتم ، وعن الأصنام تَبَرَّأْتُم ؟ .

قوله جل ذكره : « إن تدعوهم لا يسمعوا دُعاءَكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامةِ يكفرون بشركِكم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير » .

إنْ استعنْتُم بأصنامكم لا يُعينوكم ، وإنْ دَعَوْتُموهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سَمِعُوا — على جهة ضَرْبَ المَثَلِ — لا يستجيبون لكم ؛ لأنهم لا يَمْلِكُون نَفْعَ أنفسِهم . . فكيف يَمْلِكون نَفْعَ غيرهم ؟ !

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم » : لا يؤمنون إلا فى ذلك الوقت ، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ أنتمُ الفقراء إلى اللهِ واللهُ هو الغنىُّ الحميد » .

الفقر على ضربين : فقر الخِلْقَة وفقر الصفة ؛ فأمَّا فقر الخِلْقَة فهو عامٌّ لكلِّ أحدٍ ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه ، فهو قد حَصَلَ من العَدَم ، فهو مفتقر إليه ليبديه وينْشيه ، ثم بعد

ذلك مفتقرٌ — فى حال بقائه إليه — ليُديمَه ويقيه . فاللهُ — سبحانه — غنىٌّ ، والعبدُ فقير ؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللهُ غنىٌّ بعينه[1] .

وأمّا فقر الصفة فهو التجرُّد ؛ ففقرُ العوامِ التجرُّدُ من المال ، وفقر الخواص التجرد من الأعلال ليَسْلَمَ لهم الفقر .

والفقر على أقسام : فقر إلى الله ، وفقر إلى شىء هو من الله ؛ معلومٍ أو مرسومٍ وغير ذلك . ومَن افتقر إلى شىء استغنى بوجود ذلك الشىء ؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنىُّ بالله ، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله ، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله ، والمستغنى بالله مفتقِرٌ إلى الله[2] .

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكبُّر . وشَرَفُ العبد فى فقره ، وكذلك ذُلُّه فى توهمه أنه غنىٌّ : —

وإذا تذلَّلَت الرِّقابُ تقرُّباً مِنَّا إليكَ فعِزُّها فى ذُلِّها[3]

ومن الفقر المذموم ، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضعَ فقره إلى ربِّه ، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَه الحقُّ مواضعَ فَقْرِه إليه .

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملكَ شيئاً ويملك كلَّ شىء .

ويقال : الفقير الصادق الذى لا يملكه شىء[4] .

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشَكُّرِ عند كمالِ التكسُّر . ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوالِ الدعوى . ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى .

---

(١) أى أن العبد — كذات مستقلة — فقير ؛ لأنه مخلوق يحتاج إلى خالقه ، والحق — كذات مستقلة — غنى ؛ لأنه خالق فهو فى غير حاجة إلى مخلوقه .

(٢) من أقوال الجنيد فى هذا الصدد وقد سئل عن الافتقار إلى الله : أهو أتم أم الاستغناء بالله قال : إذا صح الافتقار إلى الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به ؛ فلا يقال أيهما أتم ؛ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى (الرسالة ص ١٣٥) .

(٣) من أقوالهم فى هذا الصدد : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه .

(٤) أى لا يكون أسيراً لغرض أو لعرض ، فتلك آفة الدنيا والنفس .

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السِّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله .

ويقال : الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقتِ من غير استكراه شيء منه بكلِّ وجْهٍ .

قوله : « والله هو الغنيُّ الحميد » : الإشارة منه أن يُعْطِي حتى يُحْمَد .

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاه لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة — وجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك — وإمَّا ليجود ويتفضَّل على أحدٍ .

ويقال : لا يقول لنا أنتم الفقراء للإزراء بنا — فإنَّ كَرَمَه يتقدَّسُ عن ذلك — وإنما المقصود أنه إذا قال : والله الغنى ، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا .

ويقال إذا لم تَدَّعِ ما هو صفته — من استحقاق الغِنَى — أولاك ما يُغْنِيك ، وأعطاكَ فوق ما يكفيك .

قوله جل ذكره : « إن يَشَأْ يُذْهِبْكُم ويأتِ بِخَلْقٍ جديد
* وما ذلك على الله بعزيز » .

عَرَّفَكَ أنه غنيٌّ عنك ، وأشهدك موضع فقرك إليه ، وأنه لا بُدَّ لك منه ، فما القصد من هذا إلا إرادته لإكرامك وإيوائك فى كَنَفِ إنعامه .

قوله جل ذكره : « ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرى » .

كُلٌّ مُطَالَبٌ بعمله ، وكلٌّ محاسَبٌ عن ديوانه ، ولكلٍّ معه شأن ، وله مع كلِّ أحدٍ شأن . ومن العبادات ما تجرى فيه النيابة ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة ؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكا فى غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ ، فلو قضى عنه ألفُ وليٍّ وألفُ صَفِيٍّ تلك الصلاةَ الواحدةَ عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ منه إلَّا أَنْ يجيء هو : معاذ الله أن نأخذ إلا مِمَّنْ وجدنا متاعنا عنده ! فعتابُك لا يجرى مع غيرِك ، والخطابُ الذى معك لا يسمعه غيرُك :

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتى مكانُكَ من قلبى عليكَ مصونُ

« إنما تُنذِرُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم

بالغيبِ وأقاموا الصلاةَ ومَن تَزَكَّىٰ
فإنما يتزكَّىٰ لِنَفْسِه وإلى اللهِ المصير » .

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة ، والخشيةُ هى المخافة ؛ فمعنى الآية ، لا ينفع التخويف إلاَّ لمن صَاحَبَ الخوفَ — وطيرُ السماء على أشكالها تَقَعُ .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير *
ولا الظلماتُ ولا النورُ * ولا الظِّلُّ
ولا الحَرُور * وما يستوى الأحياء
ولا الأمواتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يشاء
وما أنت بِمُسْمِعٍ مَن فى القبورِ » .

كما لا يستوى الأعمى والبصير لا تستوى الظلمات والنور ، ولا يستوى الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات .. وكذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنَّا ، والمجذوبُ إلينا ، والمحجوبُ عنَّا ، ولا يستوى مَن اصطفيناه فى الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل ، ولا يستوى من أشهدناه حقَّنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا :

أحبابنا شتان : وافٍ وناقِضُ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله جل ذكره : « إنْ أنت إلا نذيرٌ * إنَّا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإن مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلا فيها نذير » .

أى وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إلاَّ بعثنا فيهم نذيراً ، وفى وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحقِّ .

« بشيراً ونذيراً » : تضمنت الآية بيانَ أنه لم يُخْلِ زماناً ولا قوماً مِنْ شَرْعٍ . وفى وقته صلى الله عليه وسلم أفرده بأنْ أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له :

« وإن يُكَذِّبوكَ فقد كَذَّبَ الذين
من قَبْلِهم جَاءَتْهم رُسُلُهم بالبيناتِ
وبالزُّبُرِ وبالكتابِ المنير » .

أى لو قابلوك بالتكذيب فتلك سُنَّتُهم مع كلِّ نبيٍّ ، وإن أَصَرُّوا على سُنَّتِهم فى الغىِّ فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تبديلاً فى الانتقام والخزى .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماء ماء
فأَخْرَجْنا به ثمراتٍ مُخْتلِفاً ألوانُها ومن
الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتلِفٌ ألوانُها
وغَرَابيبُ سُودٌ » .

بيَّنَ فى هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعلِ بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه ، وفى إتقانِ الفعلِ وإحكامِه شهادة على عِلْمِ الصانعِ وإعلامِه .

وكذلك أيضاً « من الناس والدواب والأنعام » : بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف ، وهو دليل ثبوت مُنْشِيها بنعت الجلال .

قوله جل ذكره : « إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عبادِه العلماء » .

« إنما » كلمة تحقيق تجرى من وجهٍ مجرى التحديد أى التخصيص والقَصْر ، فَمَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله .

والفرق بين الخشية والرهبة أنَّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجرى فى هربه ، والخشية إذا حصلت كَبَحَت جماحَ صاحبها فيبقى مع الله ، فقدمت الخشية على الرهبة فى الجملة[1] .

والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : « وخافونِ إن كنتم مؤمنين »[2] فالخشية قضية العلم ، والهيبة توجب المعرفة .

---

(١) يفيد هذا الكلام فى التفرقة بينهما عند بحث المصطلح الصوفى .
(٢) آية ١٧٥ سورة آل عمران .

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم فى أداء حقِّه . ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق .

ويقال حَذَراً من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ ، وانبساطٌ فى غير وقته بإطلاق لَفْظٍ ، أو تَرَخُّصٍ بِتَرْكِ الأَوْلى .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يتلون كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانيةً يرجون تجارةً لن تبور » .

الذين يستغرق جميعَ أوقاتِهم قيامُهم بذكر الله وبحقِّه ، وإتيانُهم بأنواع العبادات وصنوف القُرَبِ فَلَهم القَدْرُ الأجَلُّ من التقريب ، والنصيبُ الأوفر من الترحيب . وأما الذين أحوالهم بالضدِّ فَمَنَالُهم على العكس . أولئك هم الأولياء الأعِزَّةُ ، وهؤلاء هم الأعداء الأذِلَّة .

قوله جل ذكره : « والذى أوحينا إليكَ من الكتابِ هو الحقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بين يديه إنَّ اللهَ بعبادِه لخَبِيرٌ بصيرٌ » .

ما عرَّفناكَ — من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك ، وتقديمنا لك على الكافة — فعلى ما أخبرناك ، وأنشدوا :

لا أبتغى بَدَلاً سِــــواكِ خليلةً فَثِقِي بقــــولى والكِرَامُ ثِقَاتُ

قوله جل ذكره : « ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذن اللهِ ذلك هو الفضلُ الكبيرُ » .

« أورثنا » : أى أعطينا الكتابَ — أى القرآن — الذين اصطفينا من عبادنا ، وذَكَرَ الإعطاء بلفظِ الإرثِ توسُّعاً .

« اصطفينا » : أى اخترنا . ثم ذكر أقسامَهم ، وفى الخبر أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام : « أمتى وربِّ الكعبة » ثلاث مرات .

وفى الآية وجوهٌ من الإشارة : فمنها أنه لمَّا ذكر هذا بلفظ الميراثِ فالميراثُ يقتضى صحة النَّسَبِ على وجهٍ مخصوص ، فمَنْ لاسببَ له فلا نَسَبَ له ، ولا ميراثَ له .

ومحلُّ النَّسبِ ها هنا المعرفة ، ومحلُّ السبب الطاعة . وإن قيل محلُّ النَّسبِ فَضْلُه ، ومحل السبب فِعْلُك[1] . . فهو وَجْهٌ . ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانُه لك تالياً .

ويقال أهلُ النسب على أقسام:— الأقوى ، والأدنى كذلك فى الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فِعْلٍ للعبد كالبيع ، أمَّا ما يُمْلَكُ بالهِبَةَ فلا يحصل إلا بالقبول والقسمة ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك . والوصية لا تُسْتَحَقُّ إلا بالقبول ، وفى الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل السُّهْمَانِ ، والميراث لا يكون فيه شىء من جهة الوارث وفعله ، والنَّسبُ ليس من جملة أفعاله .

ويقال الميراث يُسْتَحَقُّ بوجهين : بالفرض والتعصيب ، والتعصيبُ أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بذوى الفروض ثم ما يتبقى فللعَصَبَةِ[2] .

« فمنهم ظالِمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله » : تكلموا فى الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظَلَمَ نَفْسَه لكثرة ما حَمَّلَها من الطاعة .

والأكثرون : إنَّ السابقَ هو الأفضل ، وقالوا : التقديم فى الذكر لا يقتضى التقديم فى الرتبة ، ولهذا نظائر كثيرة[3] .

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينةً وهى قوله : « لنفسه » ، وقرن باسم السابق قرينةً وهى قوله:

---

(١) فالنسب وهبى والفعل كسبى كما أن المعرفة وهبية والطاعة كسبية وإن كان الصوفية يرون أن الكسب والاجتلاب والتصرف والتكلف كلها لا تتم إلا بفضل من الله (أنظر شرح المكى لأبيات رابعة المبدوءة بـ «أحبك حبين ... » فى قوت القلوب » . وهذا المعنى واضح هنا أيضاً فى تفسير القشيرى .

(٢) العصبة واحدة العصب ، وعصبة الرجل (فى الفرائض) من ليست له فريضة مسماة فى الميراث ، وإنما يأخذ ما أبقى ذوو الفروض . أنظر رأى القشيرى فى تفضيل التعصيب على الفرض (المجلد الأول من هذا الكتاب ص ٣١٧)

(٣) على نحو ما يذكره البلاغيون فى ذكر الخاص بعد العام .

« بإذن الله » ؛ فالظالمُ كانت له زَلَّة ، والسابق كانت له صولة ، فالظالم رَفَع زلَّتَه بقوله : لنفسه ، والسابق كَسَرَ صولتَه بقوله : بإذن الله .

كأنه قال : ياظالمُ ارفعْ رأسَك ، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك ، وياسابقُ اخفض[1] رأسَك؛ سَبَقْتَ — ولكن بإذن الله .

ويقال إنَّ العزيزَ إذا رأى ظالماً قَصَمَه ، والكريمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده ، كأنه قال : يا ظالم ، إنْ كان كونُكَ ظالماً يوجِبُ قَهْرَك ، فكونُكَ مظلوماً يوجِبُ الأخذَ بيدك[2] .

ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلاَّتُه ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته ، والسابقُ مَنْ زادت حسناته .

ويقال الظالمُ مَنْ زهد فى دنياه ، والمقتصدُ مَن رغب فى عقباه ، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه .

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله ، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ عِلْمه ، والسابقُ من ذَرَّتَ[3] شمسُ معرفته .

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه ، والسابق مَنْ بقى معه .

ويقال الظالِمُ مَنْ تَرَكَ المعصية ، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة ، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة[4] .

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بمالِه ، والمقتصد مَنْ لم يبخلْ بِنَفْسِه ، والسابق مَنْ جاد بروحه .

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين ، والمقتصد مَنْ له عين اليقين ، والسابق مَنْ له حق اليقين .

ويقال الظالم صاحب المودة ، والمقتصد صاحب الخلّة ، والسابق صاحب المحبة .

ويقال الظالم يترك الحرام ، والمقتصد يترك الشُّبهة ، والسابق يترك الفضل[5] فى الجملة .

---

(١) وردت فى ص (إحفظ) والسياق يتطلب (إخفض) رأسك فما سبقت إليه ليس إلا بإذن الله .

(٢) فآية كرم المولى سبحانه أنه ينظر إلى الظالم على أنه مظلوم ؛ مظلوم من قبل نفسه التى دعته إلى أن يظلم غيره .... ولعمرى إنها غاية الكرم كما يتصورها هذا الصوفى الجليل .

(٣) ذرت الشمس ذروراً أى ظهرت أول شروقها (الوسيط) .

(٤) أى العلاقة بالدنيا والنفس وما يتصل بهما .

(٥) الفضل هنا معناه ما زاد عن الحاجة الضرورية اتقاء للحرام والشبهة ، يقول سهل التُّسْتَرِى : « إذا كان الحلال فى التدين هو مالا يُعْصَى الله فيه فإن الحلال عند الصوفى مالا يُنْسَى الله فيه » .

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء ، والمقتصد صاحب جود ، والسابق صاحب إيثار[1] .

ويقال الظالم صاحب رجاء ، والمقتصدُ صاحبُ بَسْط ، والسابق صاحب أُنْس .

ويقال الظالم صاحب خوف ، والمقتصد صاحب خشية ، والسابق صاحب هيبة .

ويقال الظالم له المغفرة ، والمقتصد له الرحمة والرضوان ، والسابق له القربة والمحبة .

ويقال الظالم صاحب الدنيا ، والمقتصد طالب العُقْبى ، والسابق طالب المولى .

ويقال الظالم طالب النجاة ، والمقتصد طالب الدرجات ، والسابق صاحب المناجاة .

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة ، والمقتصد فاز بالمثوبة ، والسابق متحقق بالقربة .

ويقال الظالم مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ ، مقتول بسيف الرغبة ، مضطجعٌ على باب الحسرة. والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة ، مقتولٌ بسيف الأسف ، مضطجع على باب الجود . والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد ، مقتول بسيف المحبة ، مُضْطَجِعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل ، والمقتصد صاحب التسليم ، والسابق صاحب التفويض .

ويقال الظالم صاحبُ تواجد ، والمقتصد صاحب وَجْد ، والسابق صاحب وجود .

ويقال الظالم صاحبُ المحاضرة ، والمقتصد صاحب المكاشفة ، والسابق صاحب المشاهدة .

ويقال الظالم يراه فى الآخرة بمقدار أيام الدنيا فى كل جمعة مرةً ، والمقتصد يراه فى كل يوم مرةً ، والسابق غير محجوبٍ عنه ألبتةَ .

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْلِهِ الذى هو فضله ، والمقتصد مكاشَفٌ بوصفه الذى هو عِزُّه ، والسابقُ المستهلَكُ فى حقِّه الذى هو وُجُودُه .

قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » لأنه ذكر الظالم مع السابق[2] .

قوله جل ذكره : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يدخلونها يُحَلَّوْن فيها

---

(١) يفيد هذا التقسيم في بحث لغوى عن ترتيب : السخاء والجود والإيثار .

(٢) أعجب القرطبى بمنهج الصوفية فى تفسير «الظالم والمقتصد والسابق» على هذا النحو فأورد طائفة كبيرة من أقوالهم استغرقت نحو صفحة ونصف الصفحة (حـ١٤ ص ٣٤٨) .

من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ولِباسُهم
فيها حرير » .

نَبّهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله ، وليس فى الفضل تمييز .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمدُ للهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لغفورٌ شكورٌ » .

تحققوا بحقائق الرضا ، والحَزَنُ سُمِّى حَزَناً لحُزُونَةِ[1] الوقتِ على صاحبه وليس فى الجنة حزونة وإنما هو رضاً واستبشار .

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة . ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء الأدب . ويقال هو سياسة النفس .

« إنَّ ربنا لغفورٌ » للعصاة ، « شكورٌ » للمطيعين . قَدَّمَ ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم[2] .

قوله جل ذكره : « الذى أَحَلَّنا دارَ المُقامةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ » .

« دار المقامة » : أى دار الإقامة ، لا يبغون عنها حوَلا ، ولا يتمنون منها خروجاً .

« لا يمسنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ » : إذا أرادوا أن يرَوْا[3] مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْعِ مسافةٍ ، بل فى غُرَفِهم يلقون فيها تحيةً وسلاماً ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقةٍ أو تحديق مقلة فى جهة[4] ؛ يرَوْنه كما هُمْ بلا كيفية .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا لهم نارُ جهنَّمَ لا يُقْضَى

---

(١) حزن المكان حزونة أى حزن أى خشن وغلظ ، وحزن الرجل اغتم .

(٢) يتجلى هنا ما يتمتع به هذا الصوفى من نزعة الأمل وفتح الباب أمام العصاة .

(٣) يضاف هذا الرأى إلى موضوع «رؤية الله فى الآخرة» كما يتصوره القشيرى .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (وجهة) وكلاهما صحيح إذ المقصود تنزيه من يرونه – سبحانه – عن التقيد بالمكانية .. جلت الصمدية عن التقيد بمحل .

عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها
كذلك نجزى كل كَفُور » .

لا حياة يَتمتَّعُون بها ، ولا موتَ يستريحون به ، وهم مقيمون فى العذاب والحجاب ، لا يفتر عنهم العذاب ، ولا تُرْفَعُ عنهم العقوبة .

« وهم يَصْطَرِخُون فيها ربَّنا أخرِجْنا
نَعْمَلْ صالحاً غيرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لم
نُعَمِّرْكم ما يتذكرُ فيه مَن تذكَّرَ وجاءكم
النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

يقولون : « ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كُنَّا نعمل » ، فيقال لهم أو لم نعمركم ... ؟ أمَا جاءكم النذيرُ قبل أن تبلغوا زمان المشيب ؟

ويقال : ألم تستوفوا مدةَ الإمهالِ فى النظر ؟

«رجاءكم النذير» : الرسل،ويقال ضعف الشيخوخة ، ويقال سقوط السِّنِّ ، ويقال تَقَوُّسُ الظَّهْر.

قوله جل ذكره : «إنَّ اللهَ عالِمُ غيبِ السمٰواتِ والأرضِ
إنَّه عليمٌ بذاتِ الصدور » .

أى عالِمٌ بإخلاص المخلصين ، وصدق الصادقين ، ونفاق المنافقين ، وجَحْدِ الكافرين .

عالِمٌ بِمَنْ يريد بالناس السوءَ وبِمَنْ يُحْسِنُ باللهِ الظنَّ .

قوله جل ذكره : « هو الذى جَعَلَكُمْ خلائِفَ فى الأرضِ
فَمن كَفَرَ فعليه كُفْرُه ولا يزيد
الكافرين كُفْرُهم عند ربهم إلا مَقْتاً ،
ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاَّ خَسَاراً».

أهلُ كلِّ عصرٍ خليفةٌ عَمَّن تقدمهم ؛ فَمِنْ قومٍ هم لِسَلَفِهِم حَمَال[1] ، ومِنْ قوم هم أراذل وأنذال ؛ فالأفاضلُ زمانهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة . وقد قالوا :

(١) الحمال = الدية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم (الوسيط) .

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أجْلِهِ حَيًّا غـدٌ والْتَفَتَ الأمسُ

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم شُركاءَكم الذين تَدْعُون
من دون اللهِ أرونى ماذا خلقوا من
الأرض أمْ لهم شِرْكٌ فى السموٰاتِ أم
آتَيْنَاهم كتاباً فهم على بَيِّنَةٍ منه
بل إن يَعِـدُ الظالمونَ بعضُهم بعضاً
إلا غُروراً » .

كَرَّرَ إشهادَهم عَجْزَ أصنامهم ، ونقصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم ؛ ليُسَفِّهَ بذلك آراءَهم ، وليُنَبِّهَهُم إلى ذميم أحوالِهم وأفعالِهم ، وخِسَّةِ هِمَمِهم ، ونُقْصانِ عقولهم .

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشىءٍ مما به يُطَالَبُون ، وليس لهم صواب عمَّا يُسْأَلُون .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموٰاتِ والأرضَ
أن تزولا ولَئِن زالتا إنْ أمسكهما مِنْ
أحَدٍ مِن بَعْدِه إنه كان حليماً غفوراً » .

أمسكها بقدرته ، وأتقنها بحكمته ، ورتَّبَهما بمشيئته ، وخلَقَ أهلَهما على موجب قضيته ، فلا شبيهَ فى إبقائهما وإفنائهما يُسَاهِمُه ، ولا شريكَ فى وجودِهما ونظامهما يُقَاسِمُه .

قوله جل ذكره : « وأقسموا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهم لَئِن
جاءَهم نذيرٌ لَيَكُونُنَّ أهدى من إحدى
الأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهم نذيرٌ ما زادهم
إلاَّ نفُوراً * استكباراً فى الأرضِ
ومَكْرَ السيئ ولا يحيقُ المَكْرُ السيئ
إلاَّ بأهلِه ... » .

ليس لقولهم تحقيق ، ولا لِعَهْدِهم وضمانهم توثيق ، وما يَعِدُون من أنفسهم فصريحُ زُورٍ ، وما يُوهِمُون مِنْ وفائهم فَصِرْفُ تغريرٍ .. وكذلك المريدُ فى أوان نشاطه تُمَنِّيه نَفْسُه

فتظاهر أمام مَنْ تقدّمه حالا بانه عاهد الله ، وأنه أكّدَ عقده مع الله . . فإذا عَضّتْه شهوتُه ، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صَرَعَه بكيده ، وأركسه فى هوة غَيِّه ، ومُنْيَةِ نَفْسِه ؛ فيسودُّ وَجْهُه ، وتذهب عند اللهِ وجاهتُه[1] .

قوله جل ذكره : « أَوَلم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهم وكانوا أشدَّ منهم قوةً وما كان اللهُ لِيُعْجِزَه من شىءٍ فى السمٰواتِ ولا فى الأرضِ إنه كان عليماً قديراً » .

فى الجملة ما خاب له وليٌّ ، وما ربح له عدوٌّ ، ولا ينال الحقيقةَ مَنْ انعكس قَصْدُه ، بل يرتدُّ عليه كَيْدُه ؛ وهو سبحانه يُدَمِّر على أعدائه تدميراً ، ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً .

قوله جل ذكره : « ولو يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِن دابةٍ ولٰكِن يُؤَخرهم إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فإذا جَاءَ أَجَلُهم فإنَّ اللهَ كان بعباده بصيراً » .

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ به ، وما اتسعت أيامُهم القصيرة له ، فأَخَّرَ ذلك ليومِ الحَشْرِ . . فإنَّه طويلٌ . واللهُ على كل شىءٍ قديرٌ ، وبأمورِ عبادِه خبيرٌ بصير .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (ماء وجهه) أى حياؤه ، وقد آثرنا ما جاء فى م لملاءمتها السياق .

سورة يس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » آيةٌ افتتح بها خطابَه ؛ فَمَنْ عَلِمَها أجزل ثوابَه ، وَمَنْ عَرَفَها أكثر إيجابَه ، ومَنْ أكْبَرَ قَدْرَها أكْرَمَ مآبه .

قوله جل ذكره « يس * والقرآن الحكيم »

يقال معناه : يا سيد . ويقال : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سِرِّه مع الأحباب ؛ فيقال بحقِّ يوم الميثاق وسِرِّى مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم : —

« إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلين * على صِرَاطٍ مستقيم »

أى إنَّكَ — يا محمد لَمِنَ المرسلين ، وإنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم .

« تنزيلَ العزيز الرحيم »

أى هذا الكتاب تنزيل (العزيز) : المتكبر الغنى عن طاعة المطيعين ، (الرحيم) : المُتَفَضِّل على عباده المؤمنين .

قوله جل ذكره : « لِتُنذِرَ قوماً ما أُنْذِرَ آباؤهم فهم غافِلون » .

أى خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن ، وأنزلنا عليكَ هذا الفُرقان لِتُنْذِرَ به قوماً حصلوا فى أيام الفترة ، وانقرض أسلافُهم على هذه الصِّفَةِ .

قوله جل ذكره : « لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يُؤْمِنون »

أى حقّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرُّوا على جَحْدِهم ، وانهمكوا فى جهلهم ، فالمعلومُ منهم والمحكومُ عليهم أنَّهم لا يُؤْمِنون[1].

قوله جل ذكره : « إنَّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحُون »

سَنَجُرُّهُم إلى هوانهم وصغرهم ، وسنذيقهم وبالَ أمرهم .

« وجعلنا من بين أيديهم سَدًّا ومِنْ خَلْفِهم سَدًّا فأغشيناهم فَهُمْ لا يُبْصِرون » .

أغرقناهم اليومَ فى بحار الضلالة ، وأَحَطْنا بهم سرادقاتِ الجهالة . وفى الآخرة سنُغْرِقُهم فى النار والأنكال ، ونضيِّقُ عليهم الحال ، بالسلاسل والأغلال .

« فأغشيناهم » : أعميناهم اليومَ عن شهود الحُجَّة ، ونُلَبِّسُ عليهم فى الآخرة سبيلَ المَحَجَّة ، فَيَتَعَثَّرُون فى وَهَدَاتِ جهنم داخرين ، ويبقون فى حُرُقَاتها مهجورين ، مطرودين ملعونين ، لا تَقْطَعُ عنهم ما به يُعَذَّبُون[2] ، ولا نَرْحمهم مما منه يَشْكُون ؛ تَمادَى بهم حِرْمانُ الكفر ، وأحاطت بهم سرادقاتُ الشقاء ، ووَقَعَتْ عليهم السِّمَةُ بالفراق .

قوله جل ذكره : « وسَوَاءٌ عليهم ءأنذَرْتَهُمْ أم لم تُنذِرْهُم لا يُؤْمِنون »

مهجورُ الحقِّ لا يَصِلُه أحدٌ ، ومردودُ الحقِّ لا يَقْبَلُه أحد . والذى قَصَمَتْه المشيئةُ وأَقْمَتْهُ القضيةُ لا تنجعُ فيه النصيحة .

---

(١) أريد أن أنبه دائما إلى أن الجبرية عند الشيخ لا تتعارض مع الحرية الإنسانية ، فالإنسان حُرٌّ فيما يفعل ولكن فى دائرة ما حددته له القضية السابقة التى ترتبط بالعلم الإلهى السابق للإبداء والإنشاء .. نحن نعلم ماحدث ولكن العلم الإلهى يسجل بدءاً كل ما سيحدث .

(٢) من هذا نفهم أن القشيرى لا يؤمن بأبدية الجنة وحسب ، بل يؤمن بأبدية النار أيضاً . على خلاف جهم الذى يرى أن حركاتهم تتناهى ، فهما ليستا أبديتين — كما قلنا من قبل . وعلى خلاف ابن القيم الذى يرى أبدية الجنة فقط حيث يستوقفه الاستثناء فى قوله تعالى «لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك» فيقول : إذاً فعذابها ينقطع (حادى الأرواح ص ٢٦٣ وشفاء الغليل ص ٢٦٢) ولكن يُرَدُّ على ابن القيم أن المقصود فى الآية هم عصاة المؤمنين وليس الكفار الذين هم — طبقاً لنصوص كثيرة — خالدون فيها أبداً «لايجدون ولياً ولا نصيراً» .

« إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرحمٰنَ بالغيبِ
فَبَشِّرْه بمغفرةٍ وأجْرٍ كريم »

أى إنما ينتفع بإنذارك مَن اتَّبعَ الذِّكْرَ ؛ فإنَّ إنذارَكَ — وإن كان عاماً فى الكُلِّ وللكُلِّ — فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون .. ألاَ سَاءَ ما يَحْكُمون ، وإنْ كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون . أمَّا الذين اتبعوا الذكر ، واستبصروا ، وانتفعوا بالذى سمعوه منك ، وبه عملوا — فقد استوجبوا أنْ تُبَشِّرَهم ؛ فَبَشِّرْهُم ، وأَخْبِرْهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم .

« وأجرٍ كريمٍ » : كبيرٍ وافرٍ على أعمالهم — وإنْ كان فيها خَلَلٌ .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحن نُحْيِى الموتىٰ ونكتُبُ
ما قَدَّمُوا وآثارَهم » .

نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمْطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة ، ونكتب ما قدَّموا .

« وآثارَهم » : خُطَاهم إلى المساجد[1] ، ووقوفَهم على بِساط المناجاةِ معنا ، وَتَرَقْرُقَ دموعِهم على عَرَصَات خدودهم ، وتَصَاعُدَ أنفاسِهم .

« وكُلَّ شىءٍ أحْصَيْنَاه فى إمامٍ مُبِين »

أثبتنا تفصيلَه فى اللوح المحفوظ .. لا لتناسينا لها — وكيف وقد أحصينا كل شىءٍ عدداً ؟ — ولكننا أحْبَبْنا إثبات آثار أحبائنا فى المكنون من كتابنا .

قوله جل ذكره : « واضرِبْ لهم مَثَلاً أصحابَ القريةِ
إذ جاءها المُرْسَلُون » .

انقرض زمانُهم ، ونُسِيَ أوانُهم وشأنُهم ! ولكننا نتذكر أحوالَهم بعد فوات أوقاتهم ، ولا نرضى بألا يجرىَ بين أحبائنا وعلى أَلْسِنَةِ أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين ، وهذا مخلوقٌ يقول فى صفة مخلوق :

---

(١) قال أبو سعيد الخدرى : كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ، فأنزل الله الآية ، وقال لهم النبى (ص) : «إن آثاركم تكتب فلم تنتقلون» أسباب النزول للواحدى ص٢٤٥ .

إذا نَسِيَ الناسُ إخوانَهم وخَانَ المـودَّةَ خِلاَّنُها
فعندى لإخوانِيَ الغائبين صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

قوله جل ذكره : « قالوا ما أنتم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وما أنزل الرحمنُ من شىء إنْ أنتم إلاَّ تَكْذِبون * قالوا رَبُّنا يعلم إنَّا إليكم لَمُرْسَلون » .

قال الرسل : « ربنا يعلم إنَّا إليكم لمرسلون » وليس عِلْمُنا إلاَّ بما أُمِرْنا به من التبليغ والإنذار .

« قالوا إنَّا تَطَيَّرْنَا بكم لَئِن لم تنتهوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وليَمَسَّنَّكُم مِنَّا عذابٌ أليم » .

لنرجمنَّكم ، ولَنَصْنَعَنَّ ، ولَنَفْعَلَنَّ ... فأجابهم الرسل : إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف تَلْقَوْن ما تُوعَدُون .

قوله جل ذكره : « وجاء من أقصى المدينةِ رَجُلٌ يسعى قال ياقومِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِين * اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مُهْتَدُون » .

فى القصة أنه جاء من قرية فسَّماها مدينة ، وقال من أقصى المدينة ، ولم يكن أقصاها وأدناها لِيَتَفَاوَتَا بكثيرٍ ، ولكنه — سبحانه — أجرى سُنَّتَه فى استكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِه إذا كان يرضاه ، ويستنزِرُ الكثيرَ من فَضْلِه إذَا بَذَلَه وأعطاه .

« اتبعوا من لا يسألكم أجراً .. » فأَبْلَغَ الوَعْظَ وصَدَقَ النُّصْحَ .. ولكن كما قالوا :

وكم سُقْتُ فى آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ

فلمَّا صَدَقَ فى حاله ، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه ، ورجع إلى التوبة ، لقَّاه حُسْنَ أفضالِه ، وآواه إلى كَنَفِ إقبالِه ، ووَجَدَ ما وَعَدَه ربُّه من لُطْفِ أفضالِه .

« قال يا ليت قومى يعلمون * بما غفَرَ لى
ربِّى وجعلنى من المُكْرَمِين ».

تَمنَّى أنْ يعلم قومُهُ حاله ، فَحَقَّقَ اللهُ مُنَاه ، وأخبر عن حاله ، وأنزل به خطابه ، وعرَّفَ قومَهُ ذلك . وإنما تمنَّى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم ، ليعملوا مثلما عَمِلَ لِيَجِدُوا مثلما وَجَدَ .

قوله جل ذكره : « وما أنزَلْنَا على قومِه
مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ من السماء وما كُنَّا
مُنزِلِين * إن كانت إلاَّ صيحة واحدةً
فإذا هم خامدون » .

ما كانت إلا قضية مِنَّا بعقوبتهم ، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء .

قوله جل ذكره : « يا حَسْرَةً على العبادِ ما يأتيهم من
رسولٍ إلاَّ كانوا به يَسْتَهْزِئُون » .

إن لم يتحسَّرُوا هم اليوم فَلَهُمْ موضع التحسُّر ؛ وذلك لانخراطهم فى سِلْكٍ واحد من التكذيب ومخالفة الرسل ، ومناوءة أوليائه — سبحانه . .

قوله جل ذكره : « ألم يَرَوْا كم أهلكنا قَبْلَهم من
القرون أنَّهم إليهم لا يَرْجِعون * وإن
كُلٌّ لَمَّا جميعٌ لدينا مُحْضَرُون » .

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية ، وما عاملنا به الأمم الخالية ، فلم يرجع إليهم أحد ، فكلُّهم فى قبضة القدرة ، ولم يَفُتنا أحدٌ ، ولم يكن لواحدٍ منهم علينا عونٌ ولا مَدَدٌ ، ولا عن حكمنا ملتحد

قوله جل ذكره : « وآيةٌ لهم الأرضُ المَيْتَةُ أحْيَيْنَاهَا
وأخْرَجْنا منها حَبًّا فمنه يأكلون ».

لمَّا كان أمرُ البعث أعظمَ شُبَهِهِمْ ، وكَثُرَ فيه إنكارُهم كان تكرارُ الله سبحانه لحديث

البعث ، وقد ضَرَبَ — سبحانه — المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات فى الكثير من الآيات . والعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِرِ علومَ الأصول ويقول ليس فى الكتاب عليها دليل ! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما فى القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أدلة العقول[1] ؟ ولكنْ يَهْدِى اللهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم ، واشتغلوا بأهم شىء عندهم لَمَا ضيَّعوا أصول الدِّين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوْا فى الفروع رتبةَ الإمامة والتصدُّر .. ويقال فى معناه :

يا مَنْ تَصدَّرَ فى دستَ الإمامة فى مسائل الفقه إملاء وتدريسا
غَفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحْكِمها شيَّدتَ فرعاً وما مَهَّدْتَ تأسيساً !

قوله جل ذكره : « سبحان الذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ ومن أنفُسِهم ومِمَّا لا يعلمون » .

تُنَبِّه هذه الآيةُ على التفكُّرِ فى بديع صُنْعِه ؛ فقال : تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياء المتشاكلةَ فى الأجزاء والأعضاء ، من النبات ، ومن أنفسهم ، ومن الأشياء الأخرى التى لا يعلمون تفصيلها ، كيف جعل أوصافَها فى الطعوم والروائح ، فى الشكل والهيئة ، فى اختلاف الأشجار فى أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها فى تفرُّقِها واجتماعها ، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ : الطبائع ؛ فى الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأحداث التى يخلقها اللهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرىَ العادة من التأثيرات التى تحصل فى الأبدان . ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، فالأوقات متجانسة ، والأزمان متماثلة ، والجواهر متشاكلة .. وهذه الأحكام مختلفة ، ولولا تخصيصُ حُكْمٍ لكل شىء بما اختصَّ به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أولى منه . وإنَّ مَنْ كَحَّلَ اللهُ عيونَ بصيرته بيُمْن التعريف، وقَرَنَ أوقاته بالتوفيق ، وأَتَمَّ نَظَرَه ، ولم يصده مانع .فما أقوى فى المسائل حُجَّتَه ! وماأَوْضَحَ فى السلوكِ نَهْجَه ! .

---

(١) فى هذا ردٌّ على من يتهم الصوفية بمجافاتهم للعقل والعلم .

إنّها لأقْسَامٌ سَبَقَت على مَنْ شاءه الحقُّ بما شاء .

قوله جل ذكره : « وآيةٌ لَهُم الليلُ نَسْلَخُ منه النهارَ فإذا هم مُظْلِمون » .

نُبْطِلُ ضوءَ النهارِ بهجومِ الليلِ عليه ، وتزيلُ ظلامَ الليل بهجومِ النهار عليه ، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالى التوقف ، ويقود بيد كَرَمِه عصا منْ عَمِيَ عن سلوكِ رُشْدِه فيهديه إلى سَوَاءِ الطريق .

قوله جل ذكره : « والشمسُ تجرى لِمُسْتَقَرٍّ لها » .

على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت فى فصول السنة ، وكل يومٍ لها مشرقٌ جديد ولها مغربٌ جديد . . وكل هذا بتقدير العزيز العليم .

« والقمرَ قدَّرْناه منازِلَ حتى عَادَ كالعُرْجون القديم * لا الشمسُ ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون » .

الإشارة منه أن العبد فى أوان الطلب رقيقُ الحال ، ضعيفٌ ، مختصرُ الفَهْم . . ثم يُفَكِّر حتى تزداد بصيرته . . . إنه كالقمر يصير كاملاً ، ثم يتناقَصُ ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً ، وكُلَّما ازداد من الشمس دُنُوًّا ازداد فى نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفى ولا يُرَى . . . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدراً — مَنْ الذى يُصَرِّفه فى ذلك إلاّ أنه تقدير العزيز العليم ؟ وشبيهُ الشمسِ عارِفٌ أبداً فى ضياء معرفته ، صاحبُ تمكينٍ غيرُ مُتَلَوِّنٍ (١) ، يشرق من برج سعادته دائماً ، لا يأخذه كسوفٌ ، ولا يستره سحابٌ .

وشبيهُ القمر عبدٌ تتلون أحوالُه فى تنقله ؛ فهو فى حال من البسط يترقّى إلى حَدِّ الوصال ، ثم يُرَدُّ إلى الفترة ، ويقع فى القبض مما كان به من صفاء الحال ، فيتناقص ، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته ، ثم يجود الحقُّ — سبحانه — فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته ،

(١) سبق أن أوضحنا الفرق بين حالى التلوين والتمكين .

وإفاقته عن سَكرَتِه ، فلا يزال يصفو حاله إلى أنْ يَقْرُبَ من الوصال ، ويرزقَ صفة الكمال ، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال . . كذلك حاله إلى أنْ يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله ، كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بَدَنى من كثرة التلوين من بُدَّتِه[1]
وأنشدوا : كُلَّ يومٍ تتلون غيرُ هذا بِكَ أجمل

قوله جل ذكره : « وآيَةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهم فى الفُلْكِ المشحون * وخَلَقْنَا لهم مِن مِثْلِهِ ما يَرْكَبُون » .

الإشارة فيه إلى حَمْلِ الخَلْقِ فى سفينة السلامة فى بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنونٍ من التغيير والتأثير . فكَمْ من عبدٍ غرق فى اشتغاله فى ليله ونهاره ، لا يستريح لحظةً من كَدِّ أفعاله ومقاساةِ التعب فى أعماله ، وجَمْعِ ماله .

فَجَرَّه ذلك إلى نسيانِ عاقبته ومآلِه ، واستيلاء شُغْلِه بوَلَدِه وعيالِه على فِكْرِه وبالِه — وما سَعْيُهُ إلاَّ فى وَبَالِه !

وكم من عَبْدٍ غرق فى لُجَّةِ هواه ، فَجَرَّتْه مُناه إلى تَحَمُّلِ بلواه ، وخسيسٍ من أمر مطلوبه ومُبْتَغَاه . . ثم لا يَصِلُ قط إلى منتهاه ، خَسِرَ دنياه وعقباه ، وبَقِيَ عن مولاه !

ومن أمثال هذا وذاك ما لا يُحْصَى ، وعلى عقلِ مَنْ فكَّرَ واعتبر لا يَخْفَى .

أمَّا إذا حفظ عبداً فى سفينة العناية أفرده — سبحانه — بالتحرُّرِ من رِقِّ خسائس الأمور ، وشَغَلَه بظاهره بالقيام بحقِّه ، وأكرمه فى سرائره بفراغ القلب مع ربِّه ، ورقَّاه إلى ما قال : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » . . وقُلْ فى عُلُوِّ شأنِ مَنْ هذه صفته . . ولا حَرَجَ !

قوله جل ذكره : « وإن نَشَأْ نُغْرِقْهُم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنقَذون * إلاَّ رحمةً مِنَّا ومتاعاً إلى حين » .

---

(١) البدة = النصيب والقسمة (اللسان) .

لولا جُودُه وفَضْلُه لَحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم ، لكنه بِحُسْنِ الأفضال ، يحفظهم في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم تُرْحَمون » الآيات

هذه صفات من سَيَّبَهم[1] في أودية الخذلان ، ووَسَمَهم بسِمَةِ الحرمان ، وأصَمَّهم عن سماع الرُّشْد ، وصَدَّهم بالخذلان عن سلوكِ القصد ، فلا تأتيهم آيةٌ في الزَّجْرِ إلا قابلوها بإعراضهم ، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم ، وإذا أُمِرُوا بالإنفاقِ والإطعامِ عارضوا بأنَّ اللهَ رازقُ الأنام ، وإنْ يَشَأْ نَظَرَ إليهم بالإنعام :—

« وإذا قيل لهم أنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ قال الذين كفروا للذين آمنوا أنُطْعِمُ مَنْ لو يشاء اللهُ أطعمه »

ثم قال جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ * ما يَنظُرون إلاَّ صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يَخِصِّمون * فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجِعُون »

يستعجلون هجومَ الساعة ، ويستبطئون قيامَ القيامة — لا عن تصديقٍ يُزعجهم من شَكِّهم ، أو عن خوفٍ يمنعهم عن غَيِّهم ، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل ، وإنكاراً لِصِحة النبوة ، واستبعاداً للنشر والحشر .

ويومَ القيامةِ هم في العذاب مُحْضَرُون ، ولا يُكْشَفُ عنهم ، ولا يُنصَرُون .

قوله جل ذكره : « ونُفِخَ في الصُّور فإذا هم من الأجداثِ إلى ربِّهم يَنسِلُون * قالوا

---

(١) سيبه = تركه وخلاه يسيب حيث شاء (الوسيط) .

يا وَيْلَنَا مَنْ بعثنا مِن مَرْقَدِنا هذا
ماوَعَدَ الرحمٰنُ وصَدَقَ المُرْسَلُون »

يموتون قَهْرًا ، ويُحْشَرُون جَبْرًا ، ويلقون أمراً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . « قالوا يا ويلنا مَنْ بعثنا[1] من مرقدنا ؟ » يموتون على جهلٍ ، لا يعرفون ربَّهم ، ويُبْعَثُون على مِثْلِ حالِهم ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهم ، ويعدون ما كانوا فيه فى قبورهم من العقوبة الشديدة — بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْن من الآلام الجديدة — نوماً ورقاداً ، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً ، لا يذوقون بَرْدًا ولا شراباً إلا حميماً وغَسَّاقاً ، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً : فقد قال جل ذكره : —

« فاليـــومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً
ولا تُجْزَوْن إلاَّ ما كنتم تعملون » .

قوله جل ذكره : « إنَّ أصحابَ الجنة اليومَ فى شُغُلٍ فاكِهون » .

إنما يضاف العبدُ إلى ما كان الغالبَ عليه ذِكْرُه والآخذَ بمجامع قلبه ، فصاحبُ الدنيا مَنْ فى أسْرِها ، وأصحابُ الجنة مَنْ هم طُلّابُها والساعون لها والعاملون لِنَيْلِها ؛ قال تعالى مخبراً عن أقوالهم وأحوالهم : « لمثل هذا فليعمل العاملون »[2] . وهذه الأحوال — وإن جَلَّتْ منهم ولهم — فهى بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر ، قال صلى الله علية وسلم : « أكثر أهل الجنة البُلْه »[3] ومَنْ كان فى الدنيا عن الدنيا حُرًّا فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حراً ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغلٍ

---

(١) سقطت (بعثنا) من الناسخ في ص .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(٣) جاء فى اللسان أن الأبله من تغلب عليه سلامة الصدر ، وحسن الظن بالناس ؛ لأنه يغفل أمر دنياه ، ويقبل على آخرته ويشغل نفسه بها ، قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله » فهم أكياس فى أمر الآخرة (اللسان حـ١٩ ص ٤٧٧) ط بيروت .

فاكهون » وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشغلهم الجنة عن أُنْس القربة ، وراحات الوصلة ، والفراغ للرؤية[1]

ويقال : لو عَلِمُوا عَمَّن شُغِلُوا لَمَا تَهَنَّأوا بما شُغِلُوا .

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة : « إن أصحاب الجنة . . » كأنه يخاطبهم مخاطبةَ المُعاينة إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، ويُرَادُ به : أنت تفعل كذا .

ويقال : إنما يقول هذا لأقوام فى العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بَعْدُ لِعِصْيانِهم ؛ فيقول الحق : عبدى . . أهلُ النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم ، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليومَ فى شُغْلٍ عنك لأنهم فى لَذَّاتهم ، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم ، وذلك من أتمِّ الأشغال ، وهى أشغالٌ مؤنِسَةٌ مريحةٌ لا مُتْعِبَةٌ موحِشَةٌ .

ويقال : الحقُّ لا يتعلَّق به حقٌّ ولا باطل ؛ فلا تَنَافِيَ بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم ، وشهودهم مولاهم ، كما أنهم اليومَ مشغولون مستديمون لمعرفته بأى حالةٍ هم ، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم — باستيفاء حُظُوظِهم — فى معارفهم .

ويقال شَغَلَ نفوسَهم بشهواتها[2] حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبةٍ من إحساس النَّفْس الذى هو أصعب الرُّقَباء ، ولا شىء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب .

قوله جل ذكره : « هم وأزواجُهم فى ظِلالٍ على الأرائك مُتَّكِئُون » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (لله وبه) ، وقد آثرنا (الرؤية) متأثرين برواية القرطبى عن الثعلبى والقشيرى — ابن المصنف — حيث تقول هذه الرواية : «فينظر إليهم الحق وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه» القرطبى حـ ١٥ ص ٤٥ .

(٢) قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العذارى .

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال (ص) : «إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عدن أبكاراً» . ذكر ابن عباس : كلما أتى الرجل من أهل الجنة الحوراء وجدها بكراً ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، ولا يكون بينهما منى ، منه أو منها . (القرطبى حـ ١٥ ص ٤٥) .

« أزواجهم » : قيـــل أشكالهم فى الحال والمنزلة ، كقوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم »[1] وقيل حَظَاياهم[2] من زوجاتهم .

« لهم فيها فاكِهةٌ ولهم ما يَدَّعون »

« لهم فيها فاكهة » : أى نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس .

« ولهم فيها ما يدعون » : ما يريدون ، ويقال تسلم لهم دواعيهم ، والدعوى — إذا كانت بغير حقٍّ — معلولة .

قوله تعالى : « سَلاَمٌ قَوْلاً من ربٍّ رحيم »

يسمعونَ كلامَه وسلامَه بلا واسطة ، وأكَّدَ ذلكَ بقوله : « قولاً » .

وبقوله : « من ربٍّ » ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

« من ربٍّ رحيمٍ » . والرحمةُ فى تلك الحالة أنْ يرزقَهم الرؤيةَ فى حال ما يُسَلِّمُ عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة فى ذلك الوقت أن يُنَقِّيَهم فى حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبَهم دهشٌ ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : « من ربٍّ رحيم » ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ ، ولرجائهم مساغ ؛ فإن الذى يحتاج إلى الرحمة العاصى .

ويقال : قال ذلك ليعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

قوله جل ذكره : « وامتازوا اليومَ أيُّها المجْرمون » .

غيبةُ الرقيب أتمُّ نعمةٍ ، وإبعادُ العدوِّ[3] مِنْ أجَلِّ العوارف[4] ؛ فالأولياء فى إيجاب القربة ، والأعداء فى العذاب والحجبة .

---

(١) آية ٢٢ سورة الصافات .
(٢) جمع حظية وهى المرأة التى تفضل على غيرها فى المحبة .
(٣) يقول قتادة فى « امتازوا » إنها بمعنى عزلوا عن كل خير .
(٤) العوارف جمع عارفة وهى الفضل والإحسان .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ أعهد إليكم يا بنى آدمَ ألاَّ تعبدوا الشيطانَ إنَّه لكم عدوٌّ مبين * وأنِ اعبُدُونى هذا صراط مستقيم » .

لو كان هـذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لَكانَ شِبهَ اعتذار ؛ أى لقد نصحتُكم ووعظتُكم ، ومن هذا حَذَّرْتُكم ، وكم أوصلتُ لكم القولَ ، وذكَّرْتُكم فلم تقبلوا وَعْظِى ، ولم تعملوا بأمرى ، فأنتم خالَفْتُمْ ، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُمْ ، وبذلك سَبَقت القضيةُ مِنَّا لكم .

قوله جل ذكره : « اليومَ نَخْتِمُ على أفواهِهم وتُكَلِّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجُلُهم بما كانوا يَكْسِبُون » .

اليومَ سَخَّرَ اللهُ أعضاءَ بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض ، وغداً ينقض هذه العادة ، فتخرج بعضُ الأعضاء على بعض ، وتجرى بينها الخصومة والنزاع ؛ فأمَّا الكفار فشهادةُ أعضائِهم عليهم مُبيدةٌ ، وأمَّا العُصَاةُ من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعضُ أعضائهم بالعصيان ، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان ، وكما قيل :

بينى وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكمُ العَدْلُ الجوادُ المُنْصِفُ

وفى بعض الأخبار المرويةِ المُسْنَدَةِ أنَّ عَبْداً تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّةَ فيتطاير شَعره من جفن عينيه ، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق : تكلمى يا شعرة جَفْنِ عبدى واحتَجِّى عن عبدى ، فتشهدله بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادى منادٍ :هذا عتيقُ اللهِ بِشَعْرَة .

قوله جل ذكره : « ومَن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فى الخَلْقِ أفلا يَعْقِلون » ؟

يَرُدُّه إذا استوى شبابُه وقوَّتُه إلى العكس ، فكما كان يزداد فى القوة يأخذ فى النقصان إلى أن يبلغَ أرذلَ العمر فى السن فيصير إلى مثل حال الطفولية فى الضعف ، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شىء ، كما قيل :

طوى العصران ما نشراه منى وأبلى جـدى نَشْرٌ وطىٌّ

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شئُ

هذا فى الجثث والمبانى دون الأحوال والمعانى ؛ فإن الأحوال فى الزيادة إلى أن يبلغ حدَّ الخَرَفِ[1] فَيَخْتَلُّ رأيُه وَعَقْلُه . وأهل الحقائق تشيب ذوائبُهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيَهم فى عنفوان شبابها ، وطراوة جدَّتها .

قوله جل ذكره : « وما عَلَّمْناه الشِّعْرَ وما ينبغى له
إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مبين » .

كلامه صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن أوزان الشِّعر ، والذى أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تَحَيَّرَ القومُ فى بابه ؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لهم مِمَّا عَمِلَتْ
أيدينا أَنْعَاماً فهم لها مالكون * وذلَّلْناها
لهم فِنْها رَكُوبُهُم ومنها يأكلون * ولهم
فيها منافِعُ ومشارِبُ أفَلا يَشْكُرُون » .

ذَكَرَ عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم ، وجميلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التى ينتفعون بها بوجوه الانتفاع .

ولفظ « أيدينا » تَوَسُّع . أى مما عملنا وخلقنا ، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها ، وبشُرْبِ ألبانها ، وبالحملِ عليها ، وقَطْعِ المسافاتِ بها ، ثم بأصوافها وأوبارها وشَعْرِها ثم بِعَظْمِ بعضها . . فطالَبَهم بالشكر عليها ، ووصَفَهم بالتقصير فى شُكْرِهم .

ثم أَظْهَرَ — ما إذا كان فى صفة المخلوقين لكان شكاية — أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان : —

« واتخذوا مِن دونِ اللهِ آلهةً لعَلَّهُم يُنْصَرُون

---

(١) الخرف فساد العقل من الكِبَر .

* لا يستطيعون نَصْرَهم وهُم لهم جُندٌ مُحْضَرون » .

اكتفوا بأمثالهم[1] معبوداتٍ لهم ، ثم سَلَّى نبيَّه — صلى الله عليه وسلم بأنْ قال له : —

« فلا يَحْزُنْكَ قولُهم إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون »

وإذا عَلِمَ العبدُ أنه بمرأى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه ، ولا سيما إذا كان فى الله .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَم يرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْناه مِن نُطْفَةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين » .

أى شدَدْنا أَسْرَهم ، وجمعنا نَشْرَهم ، وسوَّينا أعضاءهم ، ورَكَّبْنا أجزاءهم ، وأودعناهم العقل والتمييزَ . . ثم إنه « خصيم مبين » : ينازعنا فى خطابه ، ويعترض علينا فى أحكامنا بِزَعْمِه واستصوابه ، وكما قيل :

أُعَلِّمُه الرماية كُلَّ يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رمانى

قوله جل ذكره : « وضَرَب لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال مَن يُحْيِى العِظامَ وهى رميم * قل يُحييها الذى أنشأها أَوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكلِّ خَلْقٍ عليم * الذى جعل لكم من الشجَرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون » .

مَهَّد لهم سبيل الاستدلال ، وقال إن الإعادة فى معنى الإبداء ، فأى إشكالٍ بقى فى جواز الإعادة فى الانتهاء ؟ وإنَّ الذى قدر على خَلْقِ النارِ فى الأغصان الرَّطبة من المرْخِ والعَفَار[3] قادرٌ على خَلْقِ الحياةِ فى الرِّمة البالية ، ثم زاد فى البيان بأن قال : إن القدرة على مِثْلِ الشىء

---

(١) أى أمثالهم من المخلوقين والمخترعات .

(٢) نزلت حين سأل أبى بن خلف الجمحى رسول الله (ص) وقد جاءه بعظم حائل قائلا : يا محمد ، أترى الله يحيى هذا بعدما رم ؟ فقال : نعم ، ويبعثك ويدخلك فى النار . (أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٦) .

(٣) المرخ شجر طويل ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى ، يقتدح به . والعفار الجوز المأكول . وفى المثل : «فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار» (الوسيط) .

كالقدرة عليه لاستوائهما بكلٍّ وجه ، وإنه يحيي النفوسَ بعد موتها فى العرصة كما يُحْيى الإنسانَ من النطفة ، والطيرَ[1] من البيضة ، ويحيي القلوبَ بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوسَ أهل الكفر بالهوى والطغيان .

قوله جل ذكره : « إنَّمَا أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُن فيكون » .

« إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » بخَلْقِه وقدرته . وأخبرنا أنه تتعلَّق بالكوّن كلمتُه على ما يجب فى صفته ، وسيّان عنده خَلْقُ الكثيرِ فى كثرته والقليلِ فى قِلَّته .

قوله جل ذكره : « فَسُبحان الذى بيده ملكوتُ كُلِّ شىء وإليه تُرْجَعُون » .

أى بقدرته ظهورُ كلِّ شىء : فلا يحدث شىء — قَلَّ أو كَثُرَ — إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شىء إلا بإبقائه ، فمنه ظهور ما يُحْدِث ، وإليه مصير ما يُفْنِى .

---

(١) وردت (والطين) والصواب أن تكون (والطير) .

سورة الصَّافّات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا استولت على قلب أزالت عنه أولاً من الدارين أَرَبَه ، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرَبَه ، ثم شَرَّفَت من حيث الهمة طَلَبَه .

قوله جل ذكره : « والصافاتِ صَفّاً »

افتتح اللهُ هذه السورة بالقَسَمِ بالصافات ، وهم الملائكة المصطفَّةُ فى السماء وفى الهواء ، وفى أماكنهم على ما أمرهم الحق — سبحانه — من المكان يلازمونه ، والأمر يعانقون ؛ يُسَبِّحونه ويُقَدِّسونه ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

« فالزَّاجراتِ زَجْراً »

عَطَفَهم على ما تَقَدَّم بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحابَ . ويقال يزجرون الناسَ عن المعاصى . ويقال هى الخواطرُ الزاجرةُ عن المناهى .

« فالتالياتِ ذِكْراً »

يقال « الصافات » الطيورُ المصطفَّةُ فى السماء ، « والتاليات ذكراً » الملائكة يتلون كتابَ اللهِ ، ويتلون الوحىَ على الأنبياء عليهم السلام .

« إنَّ إلٰهَكُم لَوَاحِدٌ »

هذا هو المقسومُ عليه .

أخبر أنه سبحانه واحدٌ فى مُلْكِه ، وذلك لأنهم تَعَجَّبُوا أن يقوم الواحِدُ بجميع أحوال العالَم. ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُه فى حقِّه عن القسمة ، وتَقَدُّسُه فى وجوده عن الشبيه ، وتَنَزُّهُه فى

مُلْكِهِ عن الشريك ؛ واحد فى جلاله ، واحدٌ فى استحقاق جماله ، واحدٌ فى أفعاله ، واحدٌ فى كبريائه بنعت علائه ، ووصف سنائه .

قوله جل ذكره : « رَبُّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المشارق »

مالِكُ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما ، وخالقهما ، وأكسابُ العبادِ داخِلةٌ فى هذا[1] . « ورب المشارق » مشارق النجوم والشمس والقمر ، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها .

قوله جل ذكره : « إنّا زَيَّنّا السماء الدُّنيا بزينةٍ الكواكب * وحِفْظاً مِن كلِّ شيطانٍ مارِد »

زَيَّنَ السماءَ الدنيا بالنجوم ، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال ، وحفظ السمٰواتِ بأنْ جعل النجومَ للشياطين رجوماً ، وكذلك زَيَّن القلوبَ بأنوار التوحيد ، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمَها بنجوم معارفهم .

قوله جل ذكره : « إلا مَنْ خَطِفَ الخطْفَةَ فأتبعه شهابٌ ثاقب »

كذلك إذا اغتنم الشيطانُ من الأولياء أن يُلْقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تذكَّرُوا ، فإذا هم مُبْصِرون ، ورجعوا .. قال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا[2] » .

قوله جل ذكره : « فاستَفْتِهِم أهم أَشَدُّ خَلْقاً أم مَنْ خلقنا إنّا خلقناهم من طينٍ لازب »

---

(١) هذا الرأى على جانب كبير من الأهمية من الوجهة الكلامية . وخلق أكساب العباد من الله حكماً وعلماً . لأن الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تخرج عن نطاق الحكم والعلم الإلهيين — هكذا أوقفنا القشيرى فى مواضع مختلفة .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

عَرّفهم عَجْزَهم عن الإثبات ، وضعفهم فى كل حال ، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب[1] .

قوله جل ذكره : « « بل عَجِبتَ ويسخرون » .

حقيقة التعجب تغير النفْس عما لم تجر العادَةُ بحدوث مثله . وتقرأ[2] « عَجِبْتَ » بالفتح خطاباً للرسولِ صلى الله عليه وسلم — وبالضم فكأن الحقّ يقول ذلك مِنْ قبلَ نفسه بل عجبْتُ ، وَيقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء ، إما فى القدْر ، أو الإكثار فى الذمّ أو فى المدح .

قوله جل ذكره : « وَإذا ذُكِّروا لا يذكرون »

إذا ذُكروا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكّر فيها ، ويقولون : ليس هذا الذى أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً .

قوله جل ذكره : « أئذا متنا وكنا تراباً وَعظاما أئنا لمبعوثون * أَوَ آباؤنا الأولون »

قالوا : أئذا متنا ، تفرّقت أجزاؤنا ، وَصرنا رميما - - أئنا لمبعوثون ؟ أَوَ آباؤنا الأولون يُبعثون كذلك ؟ قالوه على جهة الاستبعاد ؛ فالمعرفة لهم مفقودة ، والبصائر لهم مسدودة ، وقلوبُهم عن التوحيد مصدودة .

« قُلْ نعم وأنتم داخرون * فإنما
هى زَجرَة واحدة فإذاهم يَنظرُون »

قل لهم يا محمد ؛ نعم ، وعلى وصْف الصغر ما يبعثكم ، وبزجرة واحدة يحشركم ، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم .

---

(١) لازب أى لاصق لصق بعضه ببعض ، أو لازق يلتزق بما أصابه ، وقال مجاهد والضحاك هو المنتن (القرطبى) جـ١٥ ص ٦٨ : ٦٩ .

(٢) بالفتح قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم . وبالضم قراءة عبد الله بن مسعود ، والكوفيين إلا عاصما . والذين ينكرون الضم يرون أن الله لا يعجب من شيء ، ولكن تخريج القشيرى لذلك يكاد يكون سائغاً ، وقد اختاره بعض الأئمة كالبيهقى .

« وقالوا يا ويلنا هذا يومُ الدين *
هذا يَوم الفصل الذى كنتم به تكذبون»

دَعوا بالويل على أنفسهم ! ويقال لهم : هذا يَومُ الفصل الذى كنتم تكذبون به ، وقد عاينتموه اليومَ .

قوله جل ذكره : « احشرُوا الذين ظلموا وأزواجهم
وما كانوا يعبدون * منْ دون اللهِ
فاهدوهم إلى صراطِ الجحيم *
وقفوهم إنهم مسئولون »

أراد بأزواجهم قرناءهم وأشكالهم ومَنْ عمل مثل أعمالهم ؛ ومَنْ أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير .. وكذلك فى هذه الطريقة : منْ أعان صاحبَ فترة فى فترته ، أو صاحب زَلة على زلته — كان مُشاركا له فى عقوبته ، واستحقاق طرْده وإهانته .

قوله : « وقفوهم إنهم مسئولون » : مقامُ السؤالِ مقامٌ صعبٌ : قوم يسألهم المَلَكُ وقومٌ يسألهم المَلِكُ ؛ فالذين تسألهم الملائكةُ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف ، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف ، وهم قسمان : الخواصّ يسترهم الحقّ عن اطلاع الخلق عليهم فى الدنيا والآخرة ، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم اللهُ فلا يفضحهم ، ثم إنهم يكونون فى بعض أحوالهم بنعت الهيبة ، وفى بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة ، وفى الخبر : « أن قوما يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك » وهؤلاء أصحاب الخصوص فى التحقيق : فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم : « كفى بنفسك اليوم عليكَ حسيباً »[1] ، فإذا قرءوا كتابهم يقال لهم . منْ عمل هذا ؟ وما جزاؤه ؟ فيقولون : جزاؤه النار . فيقال لهم : أدخلوها بحكمكم .

ثم يقال لهم فى بعض أحوال استيلاء الفزَع عليهم : —

---

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

« ما لكم لا تناصرُون * بلْ هم
اليومَ مستسلمون * وأقبل بعضهم على
بعضٍ يتساءلون »

يُورِّك بعضُهم الذنبَ على بعض ؛ فهذا يتبرأ من صاحبه ، وصاحبه يتبرأ منه ، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزى والهوان ، ويجمعهم فى اللعن والإبعاد .

قوله جل ذكره : « فإنهم يومئذٍ فى العذابِ مشتركون
* إنا كذلك نفعلُ بالمجرمين »

يشتركون فى العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم ، كما أنهم يشترِكون فى الزلّة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جل ذكره : « إنهُم كانوا إذا قيل لهم لا إلٰهَ
إلا اللهُ يستكبرون »

احتجابهُم بقلوبهم أوقعهمْ فى وهدة عذابهم ؛ ذلك لأنهُم استكبروا عن الإقرار بربوبيته . ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته ؛ قال تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته »[1] ، وقال : « لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون »[2] فإنّ مَنْ عرَفَ اللهَ فلا لذة له إلا فى طاعته ، قال قائلهم.

ويظهرُ فى الهوى عزُّ الموالى فيلزُمنى له ذُلُّ العبيد

قوله جل ذكره : « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر
مجنون * بل جاء بالحقِّ وصَدّقَ
المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب
الأليم » .

---

(١) آية ٢٠٦ سورة الأعراف .
(٢) آية ١٧٢ سورة النساء .

لمَّا لم يحتشموا من وَصفه — سبحانه — بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب فى وصف أنبيائه .

قوله جل ذكره : « وما تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون * إلا عبادَ الله المخلصين ».

الاستثناء راجع إلى قوله : * إنكم لذائقوا العذاب الأليم *

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ — سبحانه — بالعبودية ، والذى يشوبُ عمله رياء فليس بمخلص .

ويقال : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين ، وفى الخبر : يا معاذ ، أخلص العملَ يكفيك القليل منه .

ويقال : الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص[1] .

ويقال : هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال : هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص .

قوله جل ذكره : * أولئك لهُم رزقٌ معلومٌ * فواكهُ وهم مُكْرمون *

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعينة ، وفى وقت الرسول عليه السلام مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير ، وهذه صفة أهل الجنة ؛ فلهُمْ فى الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم ، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأنفسهم[2] ، والفقراء[3] لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم .

* فواكه وهُم مكرمون * : من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله فى كل وقت ، وكذلك اليومَ الخطابُ واردٌ من الله على قلوب الخواص فى كل وقت بكلِّ أمر .

---

(١) أى لا يكون هناك حساب للمخلوقين .

(٢) رزق النفوس لأغنياء الأموال .

(٣) ورزق القلوب لأرباب الأحوال .

« فى جَنَّاتِ النعيم * على سُرُرٍ
مُتَقابلين »

يستأنِسُ بعضُهم برؤية بعضٍ ، ويستروح بعضُهم إلى لقاء بعض .

« يُطَافُ عليهم بكأسٍ من معينٍ *
بيضاء لَذَّةٍ للشاربين »

شراب يوجِبُ لهم الطَّرَبَ ولا وحشةَ هنالك ، شراباً يُحْضِرَهم ولا يُسْكِرُهم ، لأنه قال :

« لا فيهـا غَوْلٌ ولا هم عنها
يُنزَفُون »

فلا تغتالُ عقولَهم ، ولا تُزِيل حِشْمَتَهم ، ولا تَرْفَعُ عنهم هَيْبَتَهم ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر ، وآخرون يُسْقَوْن فى الحضور — وهم على نعت القُرْب .

« وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ عِين *
كأنهنَّ بيضٌ مكنون »

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الولىّ[1] ، ثم الولىُّ قد ينظر إليهن ، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن :

جُنِنَّا بِلَيْلَى وهى جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

قوله جل ذكره : « فأقبـــل بَعْضُهُم على بَعْضٍ
يتساءلون ... »

يتذاكرون فيما بينهم ، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِن باللهِ ، وما آمن به المؤمنون فيخلق اللهُ لهم إطلاعاً عليه وهم فى النار يحترقون .

قوله جل ذكره : « قال تاللهِ إن كِدتَّ لَتُرْدِين *

---

(١) المقصود به هنا الزوج ، أى نساء قد قصَرْنَ طرْفهن على أزواجهن .

ولولا نِعْمَـــةُ رَبِّى لَـكُنتَ من
المُحْضَرين »

نَطَقَ الولىُّ بالحقِّ ولـكنه لم يُصَرِّحْ بعين التوحيد ؛ إذ جَعَلَ الفَضْلَ واسطةً ، والأَوْلى أن يقول : ولولا ربى لـكنتُ من المحضرين[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا لَهُوَ الفوزُ العظيم * لِمِثْلِ
هذا فليعمل العامِلون »

يقال : بل الملائـكةُ يقولون لهم هذا ، ويقال : الحقُّ — سبحانه — إذا أراهم مقامَهم فى الجنة يقول لهم : «لِمِثْلِ هذا فليعمل العاملون » .

ويقال إنْ كان العابدُ يقول هذا ، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بَدَتْ شظيةٌ من الحقائق وتباشير الوصلة ، أو ذَرَّةٌ من نسيم القربة فبالحرىِّ أن يقول القائلون : لِمِثْلِ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواحُ .

على مِثْلِ سَلْمَى يَقْتُلُ المرء نَفْسَه
وإن بات من سَلْمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات ، وتتقاصر الإشارات .

قوله جل ذكره . « أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ
الزَّقُّوم »

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء ، وما هم به من صفة المذلة والعذاب فى النار ؛ من أكْلِ الضريع ، ومن شراب الزقوم التى هى فى قُبْح صورة الشياطين ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ... إلى آخر القصة .

قوله جل ذكره : « ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُون *
ونَجَّيْنَاه وأهْلَه من الـكَرْبِ العظيم »

---

(١) أى نطق بعين الفرق ولو كان بعين الجمع لقال : « ولولا ربى . . . » .

لمَّا أصابه مِنْ الأذى مِنْ قومه حِين كذَّبوهُ ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ حَديثنا . . رَجعَ إلينا ، فخاطبنا وخاطبناه ، وكلمنا وَكلمناه ، وَنادانا فناديناه ، وكان لنا فكَّنا له ، وأجابنا فأجبناه . . فَلَنِعْمَ المجيبُ كان لنا ولنعمَ المجيبون كُنَّا له !

« مِنَ الكرب العظيم » : شتان بين كَرْبِ نوحٍ وبيْن كَرْب أهله !

وما يبكون مثلَ أخى ولكن
أعزِّى النَّفْس عنه بالتأسى

قوله جل ذكره : « وَجعلنا ذُرِّيته هم الباقين »

لأنَّ الناس كلهم مِن أولاد نوح ، فإنَّ مَنْ كان معه فى السفينة لم يتناسلوا[1]

« وَتركنا عليه فى الآخرين »

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « وإنَّ مِن شيعته لإبراهيم * إذ جاء رَبَّه بِقلْبٍ سليم »

يعنى أنَّ إبراهيم مِنْ شيعة نوح عليه السلام فى التوحيد — وإنْ اختلفا فى فروع شرعيهما .

« قلبٌ سليمٌ » : لا آفة فيه . ويقال لديغٍ مِنَ المحبة . ويقال : سليمٍ من محبة الأغيار . ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته . ويقال : مستسلم لله فى قضائه واختياره .

قوله جل ذكره : « إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ »

سألهم على جِهة الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم .

« فما ظَنُّكُم بربِّ العالمين ؟ »

---

(١) قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه .

إذا لقيتموه — وقد عبدتم غيره . . فما الذى تقولون له ؟ وكيف بكم فى مقام الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم — غافلين عنه ؟

قوله جلّ ذكره « فنظر نظرةً فى النجوم * فقال إنى سقيم » .

قيل أراد « إلى » النجوم فأقام « فى » مقامَ « إلى »[1] .

« إنى سقيم » : كانت تأتيه الحمّى فى وقت معلوم ، فقال : قرُبَ الوقتُ الذى أسقم فيه مَنْ أخذِ الحمّى إياى ، فكأنه تعلل بذلك ليتأخرَ عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمشية ما كان فى نفْسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض . وقيل أرى من نفسه موافقة قوْلهم فى القول بالنجوم لأنهمْ كانُوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهمْ[2] .

وكان إبراهيم فى زمان النبوة فلا يبعد أنّ اللهَ — عزّ وجلّ — قد عرّفه بطريق الوحى أنه يخلق — سبحانه — باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب .

ثم لمّا ذهبوا إلى عيدهم كسّرَ أصنامهم ، فلمّا رجعوا قالوا ما قالوا ، وأجابهمْ بما أجابهم به إلى قوله :

« قالوا ابنُوا له بُنيانا فألقُوه فى الجحيم
* فأرادوا به كيداً فجعلناهُمُ الأسفلين » .

ردّ اللهُ كيدهُم إلى نحُورهم . وقد تعرّضَ له جبريلُ — عليه السلام — وهُوَ فى

---

(١) ربما نعترض على هذا . . . فمع تسليمنا بجواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض إلا أننا نرى أن استعمال «فى» أدق . . . فالمقصود من أن ابراهيم « نظر فى » النجوم أنه تأمل وتفكر . بينما لا تؤدى « نظر إلى » أكثر من التطلع بالعين وفرق بين التأمل بالفكر والبصيرة وبين التطلع بالبصر — والله أعلم .

(٢) أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدنا فاخرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع وقال : إن هذا يطلع مع سقمى — وكان علم النجوم مستعملا عندهم — فأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه . وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر فى النجوم (القرطبى ص ٩٢ ج ١٥) .

الهواء وقَدْ رُمىَ من المنجنيق فعرَضَ عليه نفسه قائلاً : هل مِنْ حاجة ؟

فأجابَ : أمَّا إليكَ .. فلا !

قوله جل ذكره : « وقال إنى ذَاهبٌ إلى ربىِّ سيهدين »

يقال إنه طلبَ هداية مخصوصة ؛ لأنه كان صاحب هداية ، إذْ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهبَ إلى رَبِّه . ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ فى الحال وطلبَ الهداية فى الاستقْبال أى زيادةً فى الهداية ، ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدَب فى الحضُور ، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه ؛ فقال سيهدينى إلىَّ لأقومَ بحقِّ عبُوديته ؛ فإن المستهلكَ فى حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادَة إلَّا بأن يُردَّ إلى حَالة التفرقة والتمييز .

ومعنى « إلى ربى » أى إلى المكان الذى يُعْبدُ فيه ربى .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : « إنى ذاهب إلى ربى » : فأخْبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : « ولمَّا جاء موسى لميقاتنا » ، فأخْبر عن صفته لا عن قوله . .

وقال فى صفة نبينا صلى الله عليه وسلّم : « سبحان الذى أسرى بعبده . . . » [فأخْبر عن ذاته سبحانه[1]]

وفصلٌ بَينَ هذِه المقامات ؛ فإبراهيم كان بعين الفرْق ، وموسى بعينِ الجمع ؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع .

قوله جلّ ذكره : « ربِّ هبْ لى من الصالحين * فبشرناه بغلامٍ حليم »

لَمّا قال « حليم » نبَّهَ على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم فى تحمله . .

---

(١) ما بين القوسين من عندنا أضفناه للتوضيح .

قوله جل ذكره: « فلما بَلَغَ معه السَّعْيَ قال يا بنيَّ إنى
أرىٰ فى المنام أنى أذْبحكَ فانظرْ ماذا
ترىٰ قال : ياأبتِ افعل ما تؤمر ستجدنى
إن شاء اللهُ من الصابرين »

« فلما بلغ معه السعى » إشارة إلى وقت توطين القلب عَلَى الوَلد ، رأى إبراهيم — عليه السلام — أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل[1] ليلةَ التروية ، وسميت كذلك لأنه كان يُروِّى فى ذلك طولَ يومه . هَلْ هُو حقٌّ أم لا[2] ؟ . ثم إنه رأى فى الليلة التالية مثل ذلك فَعرف أن رؤياه حق ، فسمى يوم عرفة .

وكان إسماعيل ابنَ ثلاث عشرة سنة ، ويقال إنه رأى ذلك فى النوم ثلاث مرات[3] :

أن اذبح ابنك ، فقال لإسماعيل : « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » فقال إسماعيل : « ياأبتِ افعل ماتؤمر » : أى لا تحكم فيه بحكم الرؤيا ، فإنها قد تصيب وقد يكُون لها تأويل ، فإن كان هذَا أمراً فافعل مقتضاه ، وإن كان لها تأويل فتثبت[4] ، فقد يمكنك ذبح ابنك كلَّ وقتٍ ولكن لايمكنك تلافيه .

ويقال بل قال : أُترُكْ حَديثَ الرؤيا واحمله عَلَى الأمر ، واحملْ الأمر عَلَى الوجوب ، ثم احمله عَلَى الفور ولا تُقصِّرْ .

ويقَال قال له : إن كان يطيب قلبكَ بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبى أن يذبحنى أبى لأجل الله .

---

(١) اختلف الناس فى الذبيح فقال قوم إنه إسحاق وآخرون إنه إسماعيل . وفريق ثالث يقول : الله أعلم به . « وعن الأصمعى أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى . أين عَزَبَ عنك عقلك ! ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان اسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة » . اهلأما إسحق فكان ببيت المقدس .

(٢) مع أن ابراهيم أخذ يتساءل بينه وبين نفسه عن ذلك إلا أنه من الثابت أن الرسل يأتيهم الوحى أيقاظاً ورقوداً ، فقلوبهم لا تنام ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » .

(٣) لأجل ذلك سميت الأيام الثلاثة على التوالى يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (قبلت) ونحن نرجح (فتثبت) بدليل ما بعدها لأنه بعد الذبح يكون قد قضى الأمر . ويأسى ابرهيم إن كان ذلك غير المراد .

ويقال قال اسماعيل لأبيه : أنتَ خليلُ الله وتنام .. أَلَمْ تعلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله يُؤْمَرُ بِذَبْح ابنه ؟ مَالَكَ يا أبَتِ والنوم ؟

ويقال فى القصة : إنه رآه ذات يوم راكباً على فَرَسٍ أشهب فاستحسنه ، ونَظَرَ إليه قلبه ، فأُمِرَ بِذَبْحِهِ ، فلمّا أخرجه عن قلبه ، واستسلم لذبحه ظَهَرَ الفداء ، وقيل له كان المقصودُ من هذا فراغَ قلبك عنه .

ويقال فى القصة : أَمَرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ ألمُ الذَّبح فَيُعَاتَب ، ثم لمّا همَّ بِذَبْحِهِ قال : افتحْ القيدَ عنى حتى لا يقال لى : أمشدودَ اليد جئتنى ؟ وإنى لن أتحركَ :

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمّاً لـكان السُّمُّ من يدِهِ يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاء ؟ قيل : إسماعيل ؛ لأنه وَجَدَ الذَّبحَ من يد أبيه ، ولم يتعوَّد من يده إلا التربية بالجميل ، وكان البلاء عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك .

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعدَه .

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» فلم يأتِ إسماعيل بالدعوى[1] بل تأدَّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إمّا لا تَقُلْ : « يا بُنَىَّ » بهذه اللطافة ، وإمّا لا تَقُلْ : «إنى أذبحك» فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب !

قوله جل ذكره : « فلمّا أَسْلَمَا وتَلَّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صَدَّقْتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزى المحسنين *

قيل فى التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حَلْقِه والسكين لا يقطَع ، فتعجَّبَ ابراهيمُ ، فنودى : يا إبراهيم كان المقصودُ من هذا استسلامكما .

ويقال إن الله سَتر عليهما عِلْمَ ما أريد منهما فى حال البلاء ، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِىِّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء . . . وهكذا يكون الأمر عند البلاء ؛ تَنْسَدُّ الوجوه

---

(١) أى دعوى النفس بالمكنة دون تقديم المشيئة الإلهية .

فى الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حال حديث الإفك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وإنما يتبيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها ، وإلاَّ لم تكن حينئذٍ محنة [إلاَّ أنه يكون فى حال البلاء إسبالٌ يُولَى مع مخامرة المحنةِ][1] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء ؛ قال تعالى : —

« إنَّ هـذا لَهُوَ البلاء المبين *
وفَدَيْنَاه بِذِبحٍ عظيم » .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى فى الجنة قبله بأربعين خريفاً .

والناس فى « البلاء » على أقسام : فبلاء مستعصب وذلك صفة العوام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا .

قوله جل ذكره : « وبَشَّرْنَاه بإسحاق نَبِيًّا من الصالحين *
وباركنا عليه وعلى إسحاقَ . . . »

وكلُّ هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : « إن مع العسر يسراً » .

قوله جل ذكره : « ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون »

مَنَّ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

« وآتَيْنَاهُما الكتابَ المُسْتَبِين » .

يعنى التوراة .

« وهَدَيْنَاهُما الصِراطَ المستقيم »

بالتبرى عن الحَوْلِ والقوة ، وشهود عين التوحيد .

« وتَرَكْنَا عليهما فى الآخِرِين * سلامٌ
على موسى وهارون » .

ثم قال جل ذكره : « وإنَّ إلياسَ لِمَنَ المُرسَلين » .

« إلياس » : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صَنَمِهِم « بَعْل » ،

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ومدينتهم بعلبك . . أنذر قومَه فكذّبوه ، ووَعَظَهم فما صَدَّقُوه ، فأهلَكَ قومَه .

قوله جل ذكره : « وإنَّ لوطاً لَمِنَ المُرْسلين »

مضت قصتُه وكيف نجّى أهلَه إلا امرأته التي شارَكَتْهم في عصيانهم ، فحقَّ العذاب عليها مثلما عليهم[1] .

قوله جل ذكره : « وإن يُونُس لَمِنَ المُرْسَلين » .

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة ، ولكن لم يُعْفَ ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نَفْسَه في بطن الحوت في الظلمة : —

« فالتقمه الحوتُ وهو مُليم »

أي بما يُلَامُ عليه ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن الحيفِ في حُكْمِه ؛ إذ الخَلْقُ خَلْقُه ، ثم اللهُ رَاعَى حقَّ تعبُّدِه ، وحَفِظَ ذِمامَ ما سَلَفَ له في أداء حقِّه فقال : —

« فلولا أنَّه كان من المُسَبِّحين * لَلَبِثَ في بَطْنِه إلى يومِ يُبْعَثُون »

فإن كَرَمَ العَهْدِ فينا من الإيمان ، وهو مِنَّا من جملة الإحسان ، « فالمؤمن قد أخذ من اللهِ خُلُقاً حسناً » — بذلك ورد الخبر .

« فَنَبَذْناه بالعراء وهو سقيم »

« سقيم » : في ضعفٍ من الحال لِمَا أثَّر مِنْ كَوْنِه قضى وقتاً في بطن الحوت .

وأنبتْنا عليه شَجَرَةً من يقطين »

لِتُظِلَّه ، فإنه كان في الصحراء وشعاعُ الشمسِ كان يَضُرُّه ، وقَيَّضَ له اللهُ ظبيةً ذات وَلَدٍ كانت تجيء فيرضع من لبَنِها ، فكأنَّ الحقَّ أعاده إلى حال الطفولية . ثم إنه رَحِمه ، ورجع إلى قومه ، فأكرموه وآمنوا به ، وكان اللهُ قد كَشَفَ عنهم العذاب ، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا وتَضَرَّعوا إلى الله لمَّا رَأَوْا أوائلَ العذاب قد أظلَّتْهم ،

---

(١) نلاحظ أن القشيري يمر سريعاً إزاء قصص الأنبياء هنا لأنه توقف طويلا عند كل منها في مواضع سبقت .

فَـكَشَفَ الله عنهم العذاب ، وآمنوا بالله ، وكانوا يقولون : لو رأينا يونسَ لَوَقَّرْناه ، وعظَّمْناه ، فرجع يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت ، فاستقبله قومُه ، وأدخلوه بَلَدَهم مُـكَرَّمًا .

ويقال : الذَّنْبُ والجُرْمُ كانا من قومه ، فهم قد تُوُعِّدُوا بالعذاب . وأمَّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا ألَمَّ بمحظور ، وخرج من بينهم ، وكَشَفَ اللهُ العذابَ عنهم ، وسَلِمُوا .. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتى بعد نجاته ؛ ويا عجبًا من سِرِّ تقديره ! فقد جاء فى القصة أن الله سبحانه — أوحى إلى يونس بعد نجاته أنْ قُلْ لفلانٍ الفَخَّارِ حتى يَـكْسِرَ الجِرارَ التى عملها فى هذه السنة كلَّها ! فقال يونس : يارب ، إنه قَطَعَ مدةً فى إنجاز ذلك ، فـكيف آمُرُه بأن يَـكْسِرَها كُلَّها ؟

فقال له : يايونس ، يَرِقُّ قلبُكَ لِخَزَّافٍ يُتْلِفُ عَمَلَ سنةٍ . . وتريدنى أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادى ؟! يا يونس ، إنك لم تخلقهم ، ولو خَلَقْتَهم لَرَحِمْتَهم[1] .

قوله جل ذكره : « فاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ البناتُ ولهم البنون ؟ »

لمَّـا قالوا فى صفة الملائـكة إنهم بناتُ الله بَيَّنَ اللهُ قُبْحَ قَوْلِهم ، فقال : سَلْهُم من أين قالوا ؟ وبأى حُجَّةٍ حكموا بما زعموا ؟ وأى شُبْهَةٍ داخَلَتْهم . ثم إنهم كانوا يستنـكفون من البنات ، ويُؤْثِرون البنين عليهن .. ومع كُفرهم وقبيح قولِهم وصفوا القديمَ — سبحانه — بما استنـكفوا منه لأنفُسهم !

قوله جل ذكره : « فإنَّـكُم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلاَّ مَنْ هو صَالِ الجحيم » .

---

(١) تتجلى براعة القشيرى فى التقاط نماذج من القصص تخدم فكرته العامة بخصوص تأميل العصاة ، وإفساح باب التوبة أمامهم . . . على عكس بعض الباحثين الذين لا يهمهم إلا التخويف والتبشيع ، والتهويل والإقناط .

[أى ما أنتم بفاتنين من الناس إلاَّ من أغْوَيْتُه بحُكْمِى ، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم[1] .

قوله جل ذكره : « وما مِنَّا إلاَّ له مَقَامٌ معلومٌ » .

الملائكة لهم مقام معلوم لا يَتَخطَّوْنَ مقامَهم ، ولا يتعدَّوْن حدَّهم ، والأولياء لهم مقام][2] مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً ، والأنبياء لهم مقام مشهورٌ مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة ؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأَمْرُهُم على الشَّهْرِ ، وأَمْرُ الأولياء على السَّتْرِ .

قوله جل ذكره : « ولَقَـــد سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لعبادِنا المُرْسَلين » .

أى سبقت كلمتنا لهم بالسعادة ، وتقدَّمَ حُكْمُنا لهم بالولاية والرعاية ، فَهُم من قِبَلِنا منصورون : —

« إنَّهم لَهُمُ المنصورون * وإنَّ جُندَنا لهمُ الغالِبُون » .

مَنْ نَصَرَه لا يُغْلَبُ ، ومَنْ قَهَرَه لا يَغْلِبُ .

وجُنْدُه الذين نَصَبَهم لنَشْرِ دينه ، وأقامَهم لِنَصْرِ الحقِّ وتبيينه ...مَنْ أراد إذلالَهم فَعَلَى أذقانه يخرُّ ، وفى حبل هلاكه ينجرُّ .

قوله جل ذكره : « فتَوَلَّ عنهم حتى حين * وأَبْصِرْهم فسوف يُبْصِرون » .

تَوَلَّ عنهم — يا محمد — إلى أن تنقضىَ آجالُهم ، وتنتهىَ أحوالُهم . وانتظِرْ انقضاء أيامِهم ، فإنه سينصرم حديثُهم وشيكاً : —

« أفبعذابنا يستعجلون » .

---

(١) فى هذا الرأى رد على القدرية كما هو واضح .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين جاء فى م وسقط فى ص .

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم ، ثم لقلة تصديقهم . فإذا نزل العذابُ بساحتهم ، وأناخ البلاء بعقوتهم فساء صباحهم . فتولَّ عنهم فعَنْ قريبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرون .

قوله جل ذكره : « سبحان ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عما يَصِفون * وسلامٌ على المُرْسلين * والحمدُ لله ربِّ العالمين » .

« سبحان ربك » : تقديساً له ، وسلامٌ على أنبيائنا ، « والحمدُ لله » : أى هو المحمود على ما ساءَ أم سَرَّ ، نَفَعَ أم ضَرَّ .

سورة صٓ

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰنِ الرحيم » .

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه ، اسمٌ جليلٌ تَقَنَّعَت العلومُ خَجَلاً من الطمع فى إحاطته ، اسمٌ كريمٌ صَغُرَت الحوائج عند ساحات جوده ، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلاَّت عباده فى تلاطم أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : « صٓ والقرآنِ ذى الذِّكْرِ » .

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع . . أقسم بهذه الأشياء وبالقرآنِ . وجواب القسم : « إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهلِ النار » .

ويقال : أقسم بصفاء مودةِ أحبابه والقرآنِ ذى الذكر أى : ذى الشرف .. وشَرَفُهُ أنه ليس بمخلوق(١) .

قوله جل ذكره : « بلِ الذين كفروا فى عِزَّةٍ وشِقاقٍ »

فى صلابةٍ ظاهرة ، وعداوة بَيِّنة ، وإعراضٍ عن البحث للأدلة ، والسَّرِّ للشواهد .

قوله جل ذكره « : كَمْ أهلكنا مِن قَبْلِهم مِن قَرْنٍ فنادَوا وَّلات حينَ مناصٍ » .

بادوا حين هَجَمَ البلاء مستغيثين ، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة .

قوله جل ذكره : « وعَجِبُوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ »

عَجِبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم ، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتاتُ آلهةً ، وهذه مناقضة ظاهرة . فلمَّا تحيَّروا فى شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر ، وقسَّموا فيهم القول .

---

(١) وهذا رأى أهل السُّنَّة بخلاف ما يراه المعتزلة .

قوله جل ذكره : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً واحِداً إِنَّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ » .

لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم ، وبعدوا عن ذلك تجويزاً ، فضلا عن أن يكون إثباتاً وحُكْماً ، فلا عرَفُوا الإلَهَ ولا معنى الإلَهية ؛ فإنَّ الإلَهيةَ هى القدرة على الاختراع . وتقديرُ قادِرَيْنِ على الاختراع غيرُ صحيح لِما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا كامِلَى الوصفِ لم يكونا إلهَيْن ، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطِهِ فهو مطروحٌ باطل .

قوله جل ذكره : « وانطلق المـلأُ منهم أَنِ امشُوا واصبِروا على آلهتِكم إِنَّ هذا لشيءٌ يُرَادُ » .

إذا تواصى الـكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة فى دينهم .

قوله جلّ ذكره : « ما سَمِعْنا بهذا فى المِلَّةِ الآخِرةِ إِنْ هذا إلاَّ اختلاقٌ » .

ركنوا إلى السوء والعادة ، وما وجدوا عليه أسلافَهم من الضلالة ، واستناموا إلى التقليد والهوادة .

قوله جل ذكره : « أَءُنزِلَ عليه الذِّكْرُ مِن بيننا بل هم فى شَكٍّ مِن ذِكْرِى بل لَمَّا يذوقوا عذابِ » .

أى لو استبصروا فى دينهم لَمَا أقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم ، ولولا أنَّا أَدَمْنا لهم العوافىَ لَمَا تَفَرَّغُوا إلى طغيانهم[1] .

---

(١) قال تعالى : الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » وقال تعالى : « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » تلك هى الحكمة الإلهية فى إمهالهم .

« أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رحمةِ ربِّك العزيزِ الوهابِ » .

أى : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكَذَّبوا واحتجُّوا .. أعندهم شىء من هذه الأشياء ؟ أم هل هم يقدرون على شىء من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا ، ويعطوا من شاءوا ، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحى على مَنْ أرادوا ؟

« جُنْـدٌ ما هُنَا لِكَ مهزومٌ مِنَ الأحزابِ » .

بل هم جُنْد من الأحزاب المتحزبين . كُلُّهم عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك ، مهزومون . شَبَّهَهُم فى بقائهم عن مرادهم بالمهزومين ؛ فإن هؤلاء الكفار ليس معهم حُجَّةٌ ، ولا لهم قوة ، ولا لأصنامهم أيضاً من النفع والضر مُكْنَة ، ولا فى الردِّ والدفع عن أنفسهم قدرة .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفِرْعونُ ذو الأوتاد .. » الآيات .

ذَكَرَ هؤلاء الأقوام فى هذا الموضع على الجمع ، وفى غير هذا الموضع على الإفراد[1] ، وفى كل موضعٍ فائدة زائدة فى الفصاحة والإفادة بكل وجه . ثم قال :

« إن كُلٌّ إلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ » .

أى ما كان منهم أحدٌ إلاَّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّت العقوبةُ عليه ، واستوجَبَ العذابَ . ثم قال :

« وما ينظُر هؤلاءِ إلاَّ صيحةً واحدةً ما لها مِن فَوَاقٍ » .

أى ليسوا ينتظرون إلا القيامة ، وما هى إلا صيحة واحدة ، وإذا قامت فإنها لا تسكن .

---

(١) المقصود بالجمع والإفراد هنا الجملة والتفصيل .

قوله جل ذكره : « وقالوا رَبَّنَا عَجِّل لنا قِطَّنا قَبْلَ يومِ الحساب » .

اصْبِرْ — يامحمد — على ما يقولون ، فإنه لن تطولَ مُدَّتُهم ، ولن نَمُدَّ — فى مقاساتِكَ أذاهم — لُبْثَكَ ومُكْثَكَ ، وعن قريبٍ سينزل اللهُ نَصْرَه ، ويصدق لك بالتحقيقِ وَعْدَه .

قوله جلّ ذكره : « واذكُرْ عَبْدَنا داودَ ذا الأيْدِ إنّه أوّاب » .

« ذا الأيد » أى ذا القوة ، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نَفْسٍ ، وإنما كانت قوته قوةَ فِعْلٍ ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً — وهو أشدُّ الصوم ، وكان قوياً فى دين الله بِنَفْسِه وقلبه وهمته. « أوّاب » رَجّاع[1] .

قوله جل ذكره : « إنّا سَخَّرْنا الجبالَ معه يُسَبِّحْنَ بالعشىِّ والإشراق[2] * والطيرَ محشورةً كُلٌّ له أوّاب » .

كان داود يُسَبِّح ، والجبالُ تُسَبِّح ، وكان داود يفهم تسبيحَ الجبالِ على وجهِ تخصيصٍ له بالكرامة والمعجزة .

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبِّح الله ، وداود كان يعرف تسبيحَ الطير ؛ وكلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بحاله ساعَدَه كلُّ شىء كان بقُرْبِه ، ويصير غيرُ جِنْسِه بحُكْمِه ، وفى معناه أنشدوا :

رُبَّ ورقاء هتوفٍ بالضُّحى ذات شجوٍ صَرَخَتْ فى فَنَنِ
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً وبَكَتْ شوقاً فهاجَتْ حَزَنى
فبُكائى رُبَّما أرَّقَها وبكاها ربما أرَّقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

---

(١) من (آب) يثوب إذا رجع . فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به (القرطبى ج ١٥ ص ١٥٩) .

(٢) يرى ابن عباس أن (الإشراق) معناه صلاة الضحى إذ هى بعد طلوع الشمس .

قوله جل ذكره : « وشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخطابِ » .

أى قوَّيْنا مُلْكَه بأنصاره ، وفى التفسير : كان يحفظ مُلْكَه كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ .

قوله جل ذكره : « وشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطاب » .

أى شددنا مُلْكَه بنصرنا له[1] ودَفْعِنا البلاءَ عنه .

ويقال شدنا مُلْكَه بالعدل فى القضية ، وحُسْنِ السيرة فى الرعية .

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدى الظَّلَمَةِ .

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين .

ويقال شددنا مُلْكَه بأن رأى النصرةَ مِنَّا ، وَتبرَّأ من حَوْلِه وقُوَّتِه .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكه .

ويقال بِتَيَقُّظِه وحُسْنِ سياسته . ويقال بقبوله الحقَّ من كلِّ أحد .

ويقال برجوعه إلينا فى عموم الأوقات .

« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » : أى أعطيناه الرُّشْدَ والصوابَ ، والفَهْمَ والإصابة .

ويقال العلم بنفْسِه وكيفية سياسة أمته .

ويقال الثبات فى الأمور والحكمة، وإحكام الرأى والتدبُّر.

ويقال صحبة الأبرار ، ومجانبة الأشرار .

وأمَّا « فصل الخطاب » فهو الحكم بالحق ، وقيل : البينة على مَن ادَّعَى واليمين على مَنْ أنكر . ويقال: القضاء بين الخصوم .

---

(١) يغمز القشيرى هنا بأصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية ولا اختيار الوزراء والأعوان . . . ونحن نعلم أنه ابتلى فى عهد طفرل بمحنة كبرى .

قوله جل ذكره : « وهل أتاك نَبَأُ الخَصْمِ إذ تَسَوَّروا المحراب » .. الآيات

أرسل اللهُ إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحاكَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تزَوُّجِه بامرأة أوريا ، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى — هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأمَّا مَنْ جوَّزَ عليهم الصغائر فقال : هذا من جملته . وكنَّى الخَصْمان باسم النعجة عن النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إنِّى لَأَجِدُ فى التوراة أنَّكَ أعطيتَ الأنبياء الرُّتَبَ فأَعْطِنيها ، فقال : إنهم صبروا فيما ابتَلَيْتُهم به ، فوعد داودُ من نَفْسِه الصبرَ إذا ابتلاه طمعًا فى نَيْلِ الدرجات ، فأخبر اللهُ تعالى أنه يبتليه يومَ كذا ، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة ، واختلى فى بيته ، وأمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذيَه أحدٌ بالدخول عليه ، وأغلق على نَفْسِه البابَ ، وأخذ يُصَلِّى زمانًا ، ويقرأ التوراةَ زمانًا يتعبَّد . أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غَلْق بابِ السماء . وأمَرَ حرَسَه أن يدفعوا عنه الناسَ وكانوا ثلاثين ألف رجل — ويقال أربعة آلاف — ولكن لم يُمْكِنْهم أنْ يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء ، ولقد قال الحكماء : الهاربُ مما هو كائن فى كَفِّ الطالبِ يتقلب .

وكانت فى البيت كوَّةٌ يدخل منها الضوء ، فدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب ، ووقع قريباً منه ، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فهَمَّ أن يأخذَه ليدفعَه إلى ابنه[1] ، فتباعَدَ عنه . وجاء فى التفاسير : أنه كان إبليس ، قد تصوَّر له فى صورة طير ، فتَبِعَه داود ، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً ، وداود يتبعه حتى خرَجَ من الكوة ، وَنَظَرَ داود فى إثره فوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهى تغتسل متجردةً ، فعاد إلى قلبه منها شىء ، فكان هذا السبب .

ويقال لم يَرْعَ الاهتمامَ بسبب وَلَدِه حتى فعل به ما فعل ، وفى ذلك لأُولى الأبصار عِبْرَةٌ[2] .

---

(١) نقل القرطبى هذه الرواية منسوبة إلى القشيرى جـ ١٥ ص ١٨٢ .

(٢) يحاول القشيرى فى تلمسه لسبب محنة داود أن يوضح للمريدين أنه حتى الأكابر قد تحل بهم البلوى نتيجة المساكنة إلى غيره ، فيغار الحق عليهم وينزل بهم من الأمر ما يردهم إلى الحق . . . وذلك فضل الله سبحانه .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوَّجَ بها بَعْدُ ، وقد كان خَطَبَها ، وأجابَتْه فى التزوج به ، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِهِ . وقيل بل كانت امرأتَه وسأله أن ينزل عنها ، فنَزَلَ على أمره وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوَّج بها . فلمَّا تَسَوَّرَ الخصمان عليه ، وقيل دَخَلاَ من سور المحراب أى أعلاه ولذلك : —

« فَفَزِعَ منهم قالوا لا تَخَفْ خَصْمان
بَغَىٰ بعضُنا على بعضٍ فاحْكُم بيننا
بالحقِّ ولا تُشطِطْ واهْدِنا إلى سَوَاء
الصِّراط » .

نحن خصمان ظَلَمَ بعضُنا بعضاً ، فاحكُمْ بيننا بالعدل :

إنَّ هذا أخى له تِسْعٌ وتسعون نعجةً
ولِيَ نعجةٌ واحِدةٌ فقال أَكْفِلْنِيها
وعَزَّنى فى الخطابْ » .

« أَكفلنيها » أى انزلْ عنها حتى أَكفلَها أنا ، « وعَزَّنى فى الخطاب » . أى غلبنى ، قال داود :

« قال لقد ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعْجَتِكَ
إلى نِعاجِه » .

فضحك أحدهما فى وجه صاحبه ، وصَعِدَ إلى السماء بين يديه ، فعَلِمَ داودُ عند ذلك أنه تنبيهٌ له وعتابٌ فيما سَلَفَ منه ، وظنَّ واستيقن أنه جاءتْه الفتنةُ الموعودة :

« فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكِعاً وأنابَ » .

أخذ فى التضرع ، وجاء فى التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسَه من السجود إلا (للصلاة)[1] المكتوبة عليه ، وأخذ يبكى حتى نَبَتَ العُشبُ من دموعه ، ولم يأكل ولم

(١) (الصلاة) غير واردة في النسختين وقد استعنا بالقرطبى فى هذه التكملة (جـ١٥ ص ١٨٥) وقد وجدناها=

يشرب فى تلك المدة ، حتى أوحى اللهُ إليه بالمغفرة ، فقال : يارب ، فكيف بحديث الخصم ؟ فقال : إنى استوهبْتُك[1] منه ، وقال تعالى :

« فَغَفَرْنا له ذلك وإنَّ له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآبٍ » .

إن له عندنا لَقُربةً وحُسْنَ رجوعٍ ، وقيل : كان لا يشرب الماء إلا ممزوجًا بدموعه . ويقال لمَّا التجأ داود عليه السلام فى أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرةَ والتجاوز .. وهكذا مَنْ رجع فى أوائل الشدائد إلى الله فاللهُ يكفيه مما ينوبه ، وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حينِ طالت عليه المحنة . ويقال إنَّ زَلَّةً أسَفُكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أجْدَى عليك من طاعةٍ إعجابُكَ بها يُقْصِيكَ عن ربِّك[2] .

قوله جل ذكره : « يا داودُ إنَّا جعلناكَ خليفةً فى الأرضِ فاحْكُمْ بين الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهوىٰ فيُضِلَّكَ عن سبيلِ اللهِ إنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل اللهِ لهم عذاب شديد بما نَسُوا يومَ الحساب » .

« جعلناكَ خليفةً » أى بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام . وقيل حاكما من قِبَلِي لتحكمَ بين عبادى بالحقِّ ، وأوصاه بألا يتبعَ فى الحكم هواه تنبيهًا على أنَّ أعظمَ جنايات العبد وأقبحَ خطاياه متابعةُ الهوى .

ولما ذكَرَ اللهُ هذه القصة أعقبها بقوله :

« وما خَلَقْنَا السماء والأرضَ وما بينهما

= ضرورية لنوضح كيف أن التعبد الفائق الذى يمارسه الخاصة لايمنع من رجوعهم فى حال الفرق الثانى إلى أن يقوموا بالتعبد الذى تفرضه الشريعة . وربما كان ذلك مقصد القشيرى من اختيار هذه الرواية . . . والواقع أن القشيرى يجيد اختيار الشواهد من القصص والأخبار ، واضعاً فى الاعتبار خدمة التصوف وأهله .

(١) أى استوهبتك منه بثوابه الجنة (القرطبى ج ١٥ ص ١٨٥) .

(٢) هكذا يفتح القشيرى أبواب الأمل أمام العصاة ، ويدفع عنهم القنوط من رحمة الله .

باطِلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويلٌ
للذين كفرُوا من النارِ » .

« باطلاً » أى وأنا مُبْطِلٌ فى خلقهما ، بل كان لى ما فعلْتُ وأنا فيه مُحِقٌّ .

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحقِّ .

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط ، ثم قال :

« كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا[1]
آياتِهِ ولِيَتَذَكَّرَ أولوا الألباب » .

« مبارك » وهو القرآن ، ومبارك أى كبيرُ النَّفْعِ ، ويقال مباركٌ أى دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ ؛ مِنْ قولهم بَرَكَ الطيرُ على الماء . ويقال مباركٌ لِمَنْ آمَنَ به وصَدَّقَ . ثم إنه بَيَّنَ أنَّ البركةَ فى تَدَبُّرِهِ والتفكُّرِ فى معانيه .

قوله جل ذكره : « ووَهَبْنَا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العَبْدُ
إنَّهُ أوَّابٌ » .

« نِعْمَ العبدُ » لأنه كان أوَّابًا إلى الله ، راجعًا إليه فى جميع الأحوال ؛ فى النعمة بالشكر ، وفى المحنة بالصبر .

قوله جل ذكره : « إذ عُرِضَ عليه بالعشىِّ الصافِناتُ
الجِيادُ » .

« الصافنات » جمع صافنة وهى القائمة ، وفى التفاسير هى التى تقوم على ثلاث قوائم ؛ إذ ترفع إحدى اليدين على سُنْبُكِها[2] . وجاء فى التفاسير أن سليمان كان قد غَزَا أهلَ

---

(١) فى الألوسى أن علياً قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء ، وكذا فى « البحر » لأبى حيان .

(٢) السنبك طرف الحافر ، والصفون فى اللغة إدامة القيام ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار » ؛ وقال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا

(اللسان : مادة صفن)

دمشق ، وأصابَها منهم[1]، وقيل وَرِثَها عن أبيه داود وكان قد أصابها من العمالقة[2]، وقيل كانت خيلاً لها أجنحة خرجت من البحر[3].

وفى بعض التفاسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرسٍ فَشَغَلَتْه عن بعض أذكاره لله .

« بالعشىِّ » : فى آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر[4].

قوله جل ذكره : « رُدُّوها علىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بالسُّوقِ والأعناقِ » .

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد أن فَرَغَ من صلاته .

وقيل عَرْقَبَها (ليذبحها فَحَبَسَها بالعرقبة عن النفار)[5] ، وقيل وَضَعَ عليها الكىَّ فَسَبَّلَها[6]. وإيش ما كان فكلُّ ذلك كان جائزاً فى شرعه .

قوله جل ذكره : « فقال إنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ ربى حتى توارَتْ بالحجاب »[7] .

أى لَصِقَتْ بالأرض لُحبِّ المال . ويقال لمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوَّضَه[8] الله — سبحانه — بأن سَخَّرَ له الريح ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله .

قوله جل ذكره : « ولقد فَتَنَّا سليمانَ وألقينا على كُرْسِيِّه جَسَدًا ثم أنابَ » .

---

(١) هذه رواية الكلبى .

(٢) هذه رواية مقاتل .

(٣) هذه رواية الحسن والضحاك .

(٤) ينقل القرطبى عن أبى نصر القشيرى بن عبد الكريم القشيرى قوله : ما كان فى ذلك الوقت صلاة ظهر ولا صلاة عصر وإنما كانت تلك الصلاة نافلة ، وشغل عنها ثم تذكرها .

(٥) ما بين القوسين زيادة أضفناها ، اقتبسناها من القرطبى من الموضع نفسه حتى يتضح المعنى الذى يتجه إليه القشيرى (جـ ١٥ ص ١٩٦).

(٦) سبل الشىء أى أباحه وجعله فى سبيل الله

(٧) اختلف فى التى « توارت بالحجاب » فقيل هى الشمس ، وقيل هى الخيل وقد استعرضها حتى توارت الجياد .

(٨) هكذا فى م وهى فى ص (عرضه) بالراء والصحيح ما أثبتناه عن م .

اختلف الناسُ فى هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال : لَأَطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل فى سبيل الله »[1] ولم يَقُلْ إن شاء الله ، ولم تَحْمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيِّه ، فاستغفر ربه من تَرْك الاستثناء ، وكان ذلك ترك ما هو الأَوْلَى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فَهَمُّوا بقَتْلِه ، فاستودعه الريح فى الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فمات الولد ، وألقته الريح على كرسيه ميتاً . فالفتنة كانت فى خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْك الاستعانة بالريح .

وقيل فى التفاسير : إنه تزوج بامرأة[2] كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان ، وسَبَاها ، فقالت له : إن أَذِنْتَ لى أنْ اتَّخِذَ تمثالا على صورةِ لأبى لأتسلَّى بنظرى إليه ؟ فأَذِنَ لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سِرًّا ، فعوقب عليه[3] .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها ، وهى على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ استردَّه . وجاء يوماً شيطانٌ يُقال له « صخر » على صورة سليمان وقال لامرأته : ادفعى إلىَّ الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يُمَشِّى أمورَه — إلا التصرفَ فى نسائه — فقد منعه اللهُ عن ذلك . فلمَّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعةَ دَفَعْتُه إليك . فظَنَّ أنه فُتِنَ ، وكان إذا أخبر الناسَ أنه سليمان لا يُصَدِّقُونه ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَه) نشروا التوراة بين يديه ،

---

(١) فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وأيم الذى نفسى محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢) هذه المرأة — كما يقول الزمخشرى — هى «جرادة ابنة ملك جزيرة فى البحر يقال لها صيدون .

(٣) وكانت عقوبته حرمانه من ملكه أربعين يوماً — هى مدة عبادة الصنم فى بيته .

فقرّ ورمى بالخاتم فى البحر ، وطار فى الهواء . ولمّا أذِنَ اللهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إليه ، ابتلعت سمكةٌ خاتمه ، ووقعت فى حبال الصيادين ، ودفعوها إلى سليمان فى أجرته ، فلمّا شقّ بَطْنَهَا ورأى خاتَمَه لبسه ، وسَجَدَ له الملاحون ، وعاد إلى سرير مُلْكِه[1].

قوله جل ذكره : « قال ربِّ اغفِرْلى وهَبْ لى مُلْكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنّك أنت الوهّابُ » .

أى مُلْكاً لا يسلبه أحدٌ منى بعد هذا كما سُلِبَ منى فى هذه المرة .

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه .

وقيل أراد أنه لاينبغى لأحدٍ من بعدى أن يسأل المُلْكَ ، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله فى اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء ، ولكن قال لا ينبغى من بعدى لأحدٍ من الملوك .

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس ، وإنصافِ بعضهم من بعض ، والقيامِ بحقِّ الله ، ولم يسأله لأَجْلِ مَيْلِه إلى الدنيا .. وهو كقول يوسف : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »[2].

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهرَ ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَه ، فإن المَلِكَ — على الحقيقة — مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَه ، ومَنْ مَلَكَ نَفْسَه لم يَتَّبِعْ هواه .

ويقال أراد به كَمَالَ حالِه فى شهود ربِّه حتى لا يرَى معه غيرَه .

ويقال سأل القناعةَ التى لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سِرَّ نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكَها

---

(١) نلاحظ أن القشيرى — وإن تجنب الوقوع فى كثير من الروايات السخيفة مثل اجتماع سليمان بالنساء فى حيضهن ، ومثل قضائه فى الناس بغير الحق ونحو ذلك — إلا أنه لم يستطع التخلص من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات لأننا لا نستطيع أن نتصور وقوع نبى كسليمان أو كداود فى مثل هذه المزالق التى لاينحدر إليها نبى .

(٢) آية ٥٥ سورة يوسف .

فقال : « لا ينبغى لأحد مِنْ بعدى » لا لأنه بَخِلَ به على نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ولكن لِعِلْمِهِ أنه لا ينظر إلى ذلك .

قوله جل ذكره : « فَسَخَّرْنا له الريحَ تجرى بأمرِه رُخَاء حيثُ أصابَ » .

شكَرَ اللهُ سَعْيَه ، وسَخَّرَ له الريحَ بَدَلاً من الأفراس ؛ فلا يحتاج فى إمساكها إلى العَلَفِ والمُؤَنِ .

« والشياطينَ كُلَّ بَنَّاء وغوَّاصٍ * وآخرين مُقَرَّنين فى الأصفادِ * هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغير حِسابٍ » .

كما سخَّرنا له الشياطين .

ثم قال : « هذا عطاؤنا . . » أى فأَعْطِ أو أَمْسِكْ ، واحفظْ وليس عليك حساب .

والمشىُ فى الهواء للأولياء ، وقَطْعُ المسافاتِ البعيدة فى مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً فى هذه الأمة — وإنْ لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين . وإظهاره على خَدَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه — صلى الله عليه وسلم — أشرف[1] .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عَبْدَنا أيوبَ إذْ نادىٰ ربَّهُ أنِّى مَسَّنِىَ الشيطانُ بِنُصبٍ وعذابٍ » .

أى بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَلِيَّة ، وقيل لما كان قال (أى الشيطان) لامرأته : اسجدى لى حتى أردَّ عليكم ما سلبتكمُ .

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلومٌ فلم يَنْصُرْه . . فابتُلِىَ .

ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلمَّا جاءه ابنُ فقيرٍ مَنَعَهُ من الدخول .

---

(١) من مبادىء نظرية القشيرى فى الكرامة : أن كرامة الولى فرع لمعجزة النبى الذى ينتمى الولى إلى أمته ، فكل شرف للولى هو فى الأصل شرف للنبى وآية حظوته ورتبته .

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً ، وكان لأيوب غَنَمٌ فى ولايته ، فداهَنَه لأَجْلِ غَنَمِه فى القتال .

ويقال حَسَدَه إبليسُ ، فقال : لَئِنْ سَلَّطْتنى عليه لم يشكر لك .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين فى مكتب واحدٍ ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب فى البلاء ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، وقيل[1] سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

قوله جل ذكره : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ[2] هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشَرَابٌ » .

لَمَّا أراد اللهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له : « اركض برجلك » ، فركض ، فظَهَرَت عينُ ماء باردٍ فاغتسل به ، فعاد إليه جماله وكماله . وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة ، واغتسل ، ورَدَّ الله لَحْمَه وشَعْرَه وبشره ، وأحيا أولاده وأهله ، وقيل بل يردُّهم إليه فى الجنة فى الآخرة .

قوله جل ذكره : « وخُذْ بيدِكَ ضِغْثاً فاضرِب به ولا تَحْنَثْ إنَّا وجدناه صابراً نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّاب » .

الضِّغْث الحزمة من القضبان ، وقيل كانت مائة ، وأُمِرَ بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لئلا يحنث فى يمينه ، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائةَ خشبةٍ إنْ صحَّ (أنها أخطأت) . فَشَكَرَ

---

(١) الرواية الأخيرة منسوبة إلى ابن عباس .

(٢) رفض أبو الفرج الجوزى احتجاج بعض المتصوفة بهذه الآية على إباحة الرقص . والواقع أن ذلك يمنع القشيرى تقديراً خاصاً ؛ لأنه لو كان يؤيد ذلك الاحتجاج لقال به ، بل لم يشر إليه ، كما لم يشر عند الآية التى سبقت فى هذه السورة : «ردوها على فطفق ... » إلى ما يحتج به بعض المتصوفة من تمزيق الخرقة وتقطيع الثياب ، فهذه فى رأيه استدلالات فاسدة يلجأ إليها الطغام .

اللهُ لها لبراءةِ ساحتِها ، وصَبْرِها على خدمته . وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ : اسجدى لى ؛ أخبرت أيوبَ بذلك، فغاظه حيث سمعت من إبليس ذلك وظنَّتْ أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهَّمَ فى ذلك رِيبةً ، وكان أيوب يتعلَّق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شيء منها فَحَلَف (أن يضربها بعد شفائه) .

« إنَّا وجدناهُ صابراً .. » : والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الحُكْم . ويقال التلذُّذ بالبلاء ، واستعذابُه دون استصعابه . ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم يَنْفِ قولُه « مسنى الضر » اسمَ الصبرِ عنه ؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثيرَ من الوقت ولم يَقُلْ مَسَّنى الضُّرُّ ؛ فكان الحُكْمُ للغالب .

« نعم العبدُ إنه أواب » لم يشغله البلاء عن المُبْلِي . ونِعْمَ العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذى دخل فيه .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عِبادَنا إبراهيمَ وإسحٰقَ
ويعقوبَ أولِي الأيدى والأبصارِ *
إنَّا أخْلَصْنَاهم بخالصةٍ ذكرى الدَّار » .

« أولى الأيدى » : أى القوة[1] . « والأبصار » أى البصائر .

« إنا أخلصناهم بخالصة » : أى بفضيلة خالصة وهى ذكر الجنة والنار ، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب مِنَ النار . ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين ؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكرى الدار ، «وإنهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخيار » .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ إسماعيلَ واليسَعَ وذا الكِفْلِ
وكُلٌّ من الأخيار » .

---

(١) يرى الطبرى أن (الأيدى هنا معناها : النعم والإحسان لأنهم قد أحسنوا وقدموا الخير) .

« وذا الـكِفْلِ » : قيل كان تَـكَفَّلَ لله بعمل رجلٍ صالحٍ مات فى وقته ، وقيل كَفَلَ مائةً من بنى إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالمٍ ، فـكان يُنْفِقُ عليهم .

ويقال كان اليسعُ وذو الـكفل أخَوَيْن .

قوله جل ذكره : « هـذا ذِكْر وإن لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ » .

أى هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان ، وذِكْرُ الأنبياء والقصص .

ويقال إنَّه شرفٌ لك ؛ لأنه معجزةٌ تدل على صِدْقِك ، وإن للذين يَتَّقُون المعاصِىَ لَحُسْنَ المُنْقَلَبِ .

« جناتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لهُمُ الأبوابُ »

أى إذا جاءوها لا يلحقهم ذُلُّ الحجابِ ، ولا كُلْفَةُ الاستئذان ، تستقبلهم الملائـكةُ بالترحاب[1] والتبجيل . متـكئين فيها على أرائـكهم ، يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرة وشرابٍ على ما يشتهون ، وعندهم حورٌ عين قاصراتُ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن ، « أتراب » : لِدَاتٌ مُستَوِيَاتٌ فى الحُسْنِ والجمال والشكل .

قوله جل ذكره : « هذا وإنَّ للطاغين لَشَرَّ مآبٍ » .

لَشَرَّ مَرْجع ومُنْقَلَبٍ ؛ وهى جهنم يدخـلونها فيبقون مُعَذَّبِين فيها ، وبِئْس المـكانُ ذلك !

« هذا فَلْيَذُوقوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ »

« حميم » : هو الماء الحار ، و « غسَّاق » هو عصارة أهل النار[2] ، ويقال هو زمهرير جهنم[3] .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بالإيجاب) ونحن نؤثر (بالترحاب) لتقابل ما يقال لأهل النار فيما بعد (لامرحباً بهم)

(٢) هذا قول محمد بن كعب .

(٣) هذا قول ابن عباس . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ نتن . وقال قتاده : هو ما يسيل من فروج الزناة ، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح . وقال آخرون إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحَرّه (القرطبى حـ١٥ ص ٢٢٢) .

« وآخَرُ من شَكْلِهِ أزواجٌ »

أى فنون أخرى من مثل ذلك العذاب .

قوله جل ذكره : « هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ معكم لا مَرْحباً بهم إنهم صالوا النار » .

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم ، ويقول الأتباع للمتبوعين :

لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم ، ويقولون :

« ربَّنَا مَن قَدَّمَ لنا هذا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً فى النار » .

فيقال لهم كُلُّكُم فيها ، ولن يفترَ العذابُ عنكم .

قوله جل ذكره : « وقالوا مالنا لانرىٰ رجالاً كُنَّا نَعُدُّهم من الأشرار » ؟ .

يقول الكفار عندما يدخلون النار : مالنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدهم فى الدنيا من الأشرار والمستضعفين .. فَلَسْنَا نراهم هاهنا ؟ أهم ليسوا هنا أم زاغت عنهم أبصارُنا ؟ يقوله أبو جهلٍ وأصحابُه يعنون بلالاً والمستضعفين ، فيُعَرَّفون بأنهم فى الفردوس ، فتزداد حسراتُهم .

(إنَّ ذلك لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أهلِ النارِ) .

أى إن مخاصمةَ أهلِ النارِ فى النار لَحَقٌّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّما أنا مُنذِرٌ وما مِنْ إلٰهٍ إلاَّ اللهُ الواحِدُ القهارُ * ربُّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما العزيزُ الغفّارُ) .

قل يامحمد : إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربى ، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذى لا شريك له .

« قُلْ هو نَبَأٌ عظيم * أنتم عنه مُعْرِضُون

ما كان لى مِن عِلْمٍ بالملإِ الأعلىٰ إذ يختصِمون * إن يوحَىٰ إلىَّ إلَّا أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ » .

أى الذى أَتَيْتُكم به من الأخبار عن القيامة والحَشْرِ ، والجنة والنار ، وما أخبرتكم به عن نُبُوَّتى وصِدْقى هو نبأٌ عظيمٌ ، وأنتم أعرضْتُم عنه .

وما كان لى من عِلْمٍ بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أَنَّ الله عرَّفنى ، وإلا ما كُنْتُ عَلِمْتُهُ . والملأ الأعلى قومٌ من الملائكة فى السماء العليا ، واختصامهم كان فى شأن آدم حيث قالوا : أتجعل فيها مَنْ يُفْسِد فيها ؟

وقد ورد فى الخبر : « أن جبريل سأل الرسولَ صلى الله عليه وسلم عن هذا الاختصام فقال : لا أدرى . فقال جبريل : فى الكفارات والدرجات ؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء فى السَّبَرَات[1] ، ونَقْل الأقدامِ إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإفشاء السلامِ ، وإطعامُ الطعامِ ، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام »[2] . وإنما اختلفوا فى بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها — فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم فى الأصل لا يجحدون .

. . وهذا إنما يُوحِى إلىَّ وأنا منذر مبين .

قوله جل ذكره : « إذ قال ربُّك للملائكةِ إنِّى خالِقٌ بَشَراً من طين »

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم ؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين[3] ،

---

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى الغداة الباردة .

(٢) روى الخبر أبو الأشهب عن الحسن هكذا : «سألنى ربى فقال : يا محمد ، فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ قلت فى الكفارات والدرجات ، قال : ما الكفارات ؟ قلت : المشى على الأقدام إلى الجماعات .... » أخرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب ، وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (المكذبين) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

والجنة والنار ، والعرش والكرسى ، والملائكة ، ولم يقل فى صفة شىء منها ما قال فى صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأَحَدٍ ولا لشىء إلا لآدم ، وسبحان الله ! خَلَقَ أَعَزَّ خَلْقِهِ من أَذَلِّ شىءٍ وأَخَسِّه وهو التراب والطين .

« فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من روحى
فقعوا له ساجدين » .

روحُ آدم — وإنْ كانت مخلوقة — فَلَها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلمَّا سوَّى خَلْقَ آدم ، ورَكَّبَ فيه الروح جلَّلَه بأنوار التخصيص ، فوقعَتْ هيبته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرَتْ لإبليسَ شقاوتُه ، ووقع — بامتناعه — فى اللعنة .

« قال يا إبليسُ ما مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بيدىَّ أَستَكْبَرْتَ أَمْ
كُنتَ من العالين» قال أنا خيرٌ منه
خَلَقْتَنى من نارٍ وخَلَقْتَه من طين » .

من هنا وقع فى الغلط ؛ تَوَهَّمَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيلَ من حيث القسمة دون الخِلْقَة .

ويقال ما أودع اللهُ — سبحانه — عند آدم لم يوجد عند غيره ، ففيه ظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : « قال فاخرُجْ منها فإنَّكَ رجيم *
وإنَّ عليكَ لعنتى إلى يومِ الدين » .

قال فاخرج من الجنة ، ومن الصورة التى كنت فيها ، ومن الحالة التى كنتَ عليها ، « فإنك رجيم » مَرْمِىٌّ باللَّعنِ منى ، وبالشُّهب من السماء ، وبالرجوم من قلوب الأولياء إنْ تعرَّضْتَ لهم .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ فَأَنظِرْنى إلى يومِ يُبْعَثُون * قال فإنَّكَ من المُنظَرِين * إلى يومِ الوقتِ المعلوم » .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه[1] ، وتعلَّقت إرادتُه بسؤال إنظاره ، فازداد إلى القيامة فى سبب عقوبته ، فأَنْظَرَهُ اللهُ ، وأجابه ، لأنه بلسانه سأل تمامَ شقاوته .

« قال فَبِعزَّتِكَ لأُغْوِينَّهم أجمعين * إلاَّ عبادَكَ منهم المُخْلَصِين » .

ولو عَرَفَ عِزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته .

ويقال تجاسُرُه فى مخاطبة الحقِّ — حيث أصَرَّ على الخلاف وأقسم عليه — أَقْبَحُ وأَوْلى فى استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم[2] .

قوله جل ذكره : « قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ * لأَمْلَأَنَّ جهنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ منهم أجمعين » .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ ما أسألكم عليه من أَجْرٍ وما أنا من المُتَكَلِّفين * إنْ هو

---

(١) فى هذه الإشارة دقة تحتاج إلى تأمل ، فقول القشيرى «جرى على لسانه» تفيد أن مأساة إبليس ترجع إلى مشيئة عليا ، وإن كان ظاهر اللفظ أنه بلسانه اختار طريقه ، وبإرادته سعى إلى إنظاره .
وهكذا يغمز القشيرى بمن يحاولون نسبة الحرية للإنسان — مع أن الحرية وبال ونكال .
ويُذَكِّرنا هذا الموقف بقولة ابن عربى فى (شجرة الكون) عند شرح «كن فيكون» أن فى «كن» كل شىء ؛ فى الكاف كمال الدين والكفر ، وفى النون النعمة والنقمة ... فالله خالق كل شىء حين خاطب الكون : «كن»

(٢) فى هذه الإشارة لفتة إلى مقصد بعيد : أن الوقوع فى الذنب أمر قبيح ولكن الإصرار على الذنب أقبح . وهذا حث للعصاة على الإقلاع عن المعاصى ، وعدم اليأس من رحمة الله. وتطالعنا سماحة القشيرى فى هذا الخصوص فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وكذلك أنظر باب «التوبة» فى الرسالة .

إلا ذِكْرٌ لِلعَالَمِين * ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأَه
بَعْدَ حين » .

ما جئتكم من حيث أنا[1] ، ولا باختيارى ، وإنما أُرْسِلْتُ إليكم .

« إن هو إلا ذكر للعالمين » يعنى القرآن ، عظة لكم .

« ولتعلمن نبأه بعد حين » وعُلِمَ صِدْقُه بعد ما استمرت شريعتُه ، فإن مثل ذلك إذا كان باطلاً لا يدوم[2] .

---

(١) أى من طرفى أو من جهتى .
(٢) أى أن دوام الشريعة وخلودها من آيات صحتها وصدقها .

سورة الزمر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمنِ الرحيم »

بسم الله كلمةٌ سماعُها يوجِبُ للقلوب شفاءَها ، وللأرواح ضياءَها ، وللأسرار سناءَها وعلاءَها .

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها بِسَمْعِ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. ومَنْ سمعها بِسَمْعِ الوَجْدِ ظلَّتْ ألبابُه مبهورة ، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة .

قوله جل ذكره : « تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم » .

أى هذا كتابٌ عزيزٌ نزَلَ من ربٍّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان مَلَكٍ عزيز فى شأنِ أمةٍ عزيزة بأمرٍ عزيز . وفى ورود الرسولِ به من الحبيب الأول نزهةٌ لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، وارتياحٌ عند قراءة فصولها .

وكتابُ موسى فى الألواح التى كان منها يقرأ موسى ، وكتابُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم نزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه . . وفَصْلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً فى ألواحه ، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً فى قلبه ، وكذلك أمته ، قال تعالى : « بل هو آيات بيناتٌ فى صدور الذين أوتوا العلم[1] » .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبُدِ اللهَ مُخْلِصاً له الدِّين » .

أى أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا مُحِقٌّ فى إنزاله .

---

(١) آية ٤٩ سورة العنكبوت .

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع . وتكون بالنَّفْس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص ، والتى بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص ، والتى بالروح فالإخلاص فيها التنقِّى عن طلب الاختصاص[1] .

قوله جل ذكره : « ألا للهِ الدينُ الخالِصُ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَىٰ » .

الدين الخالص ماتكون جملته لله ؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ فإنه إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لَمَا صحَّ أَنْ يكونَ فى العَالَمِ مُخْلِصٌ .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء . . . » أى الذين عبدوا الأصنام قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولم يقولوا هذا من قِبَل الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فَرَدَّ اللهُ عليهم . وفى هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرَبِ بنشاطِ نَفْسِه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِى بها . . فكل ذلك اتباعُ هوًى ، قال تعالى : « ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوانِ الله فما رَعَوْها حَقَّ رعايتها[2] » .

قوله جل ذكره : « إن اللهَ لا يَهْدِى مَنْ هو كاذب كَفَّار » .

لا تَهديهم اليومَ لدينه ، ولا فى الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرَّض لغير مقامه ، ويدَّعى شيئاً ليس بصادقٍ فيه ، فاللهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدادُه ورُشْدُه . وعقوبتُه أَنْ يَحْرِمَه ذلك الشيءَ الذى تصدَّى له بدعواه قبل تحقُّقِه بوجوده وذَوْقِه .

---

(١) تصلح هذه الفقرة لتوضيح درجات العبادة ودرجات الإخلاص ، والآفات التى تلحق كل درجة منها ، وكيفية التنقى عن هذه الآفات — وبمعنى آخر فإنها تهمنا عندما نبحث أصول ما أطلقنا عليه : علم النفس الصوفى .

(٢) آية ٢٧ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « لو أراد اللهُ أن يتَّخِذَ وَلداً لاصطفىٰ مِمَّا يَخْلُقُ ما يشاء سبحانه هو اللهُ الواحِدُ القهَّار » .

خاطَبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : المسيحُ ابن اللهِ ، وعُزَيْرُ وَلَدُ اللهِ ؛ فقال : لو أراد أن يتَّخِذَ وَلَداً للتبنِّى والكرامة لاختَارَ من الملائكة الذين هم مُنَزَّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخَلْقِ .

ثم أخبر عن تَقَدُّسِه عن ذلك فقال : « سبحانه هو الله الواحد القهار » تنزيهاً له عن اتخاذ الأولاد . . لا فى الحقيقة لاستحالة معناه فى نَعْتِه ، ولا بالتبنِّى لِتَقَدُّسِه عن الجنسية والمحالات ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ؛ إذ لو كان ذلك فكيف كان يكون حُكْمُهُ ؟ كقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[1] » .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحقِّ » .

أى خَلَقَهما وهو مُحِقٌّ فى خلقهما .

« يُكَوِّرُ الليلَ على النهارِ ويُكَوِّرُ النهارَ على الليل وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى لِأَجَلٍ مُسَمًّى » .

يُدْخِلُ الليلَ على النهارِ ، ويدخل النهارَ على الليل فى الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد فى القبض والبسط ، والجَمْع والفَرْق ، والأخذ والرد ، والصحو والسُّكْرِ ، ونجوم العقل وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ونهار التوحيد ، وليالى الشَّكِّ والجَحْدِ ونهار الوصل ، وليالى الهجر والفراق وكيفية اختلافها ، وزيادتها ونقصانها .

« ألا هو العزيزُ الغفارُ » .

« العزيز » المتعزِّز على المحبين ، « الغفار » للمذنبين .

---

(١) آية ٢٢ سورة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحدةٍ ثم جَعَلَ
منها زَوْجَها وأنزل لكم من الأنعامِ
ثمانيةَ أزواج ، يخلقكم فى بطون
أمهاتِكم خَلْقاً من بعد خلْقٍ فى ظلماتٍ
ثلاثٍ ذلكم الله ربُّكُم له المُلْكُ
لا إله إلا هو فأنَّى تُصْرَفون » .

« من نفس واحدة وخلق منها زوجها » يعنى آدم وحواء .

« وأنزل لكم من الأنعام » أى خلق لكم ، « ثمانية أزواج » فمن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المواشى اثنين .

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق » : أى يصوِّركم ، ويُرَكِّب أحوالكم .

« فى ظلمات ثلاث » : ظلمة البطن ، وظلمة الرَّحِم ، وظلمة المشيمة[1] . ذَكَّرَهم نسبتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال بَيَّنَ آثار أفعاله الحكيمة فى كيفية خِلْقَتِك — من قطرتين — أمشاجاً متشاكلةَ الأجزاء ، مختلفةَ الصُّوَرِ فى الأعضاء ، سَخَّرَ بعضَها مَحَالَّ للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة . . وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسَخَّرَ بعضها مَحَالَّ للحواس كالسمع والبصر والشَّمِّ وغيرها .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم اللهُ بها علينا فَذَكَّرَنا بها — والنفوسُ مجبولةٌ ، وكذلك القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها — استجلاباً لمحبتنا له .

« ذلكم الله ربكم . . . »[2] أى إن الذى أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (البشيمة)
والظلمات الثلاث التى أوردها القشيرى على هذا النحو قالها ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .
وقال أبوعبيدة : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم (القرطبى جـ ١٥ ص ٢٣٦) .
(٢) يبدو أن القشيرى منذ هذه اللحظة وحتى الآية الكريمة التالية انتابته حالة من حالات الذكر ، فجاءت كلماته أشبه بالتسبيح والنجوى .

أى : أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صَوَّرتُكم فأحسنت صُوَرَكم ، وأنا الذى أسبَغْتُ عليكم إنعامى ، وخصصتكم بجميل إكرامى ، وأغرقتكم فى بحار أفضالى ، وعرفتكم استحقاق جمالى وجلالى ، وهديتكم إلى توحيدى ، وألزمتكم رعايةَ حدودى . . . فما لكم لا تَنقَطِعون بالكلية إلىَّ ؟ ولا تحبون ما وَعَدْتُكم لدىَّ ؟ وما لكم فى الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلىَّ ؟

قوله جل ذكره : « إن تكفروا فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنكم ولا يَرْضَىٰ لعِبَادِهِ الكُفْرَ وإن تشكروا يَرْضَه لَكُم ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرىٰ » .

إنْ أعرضتم وأبَيْتُم ، وفى جحودكم تماديتم . . فَمَا نَفْتَقِرُ إليكم ؛ إذ نحن أغنياء عنكم ، ولكنّى لا أرضى لكم أن تبقوا عنى !

يامسكين . . . أنت إنْ لم تكن لى فأنا عنكَ غنىٌّ ، وأنا إن لم أكنْ لك فمن تكون أنت ؟ ومَنْ يكون لك ؟ مَن الذى يُحْسِنُ إليك ؟ مَن الذى ينظر إليك ؟ من الذى يرحمك ؟ من الذى ينثر الترابَ على جراحِك ؟

من الذى يهتم بشأنك ؟ بمن تسلو إذا بَقِيتَ عنِّى ؟ مَن الذى يبيعك رغيفاً بمثاقيل ذهب ؟!! .

عَبْدى . . أنا لا أرضى ألا تكونَ لى وأنت ترضى بألا تكون لى ! يا قليلَ الوفاء ، يا كثيرَ التجنِّى !

إن أطَعْتَنِي شَكَرْتُك ، وإن ذَكَرْتَنِي ذكرتُك ، وإن خَطَوْتَ لأجْلِي خطوةً ملأتُ السموات والأرضين من شكرك :

لو عَلِمْنا أنَّ الزيارةَ حقٌّ لفَرَشْنَا الخدودَ أرضاً لترضى

قوله جل ذكره : « وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا رَبَّهُ منيباً إليه ثُمَّ إذا خَوَّلَه نعمةً منه نَسِيَ ما كان يدعو إليه مِنْ قَبْلُ وجعل للهِ أنداداً » .

إذا مَسَّه ضُرٌّ خَشَعَ وخَضَع ، وإلى قُرْبه فزع ، وتملَّق بين يديه وتضرع . فإذا أزال عنه ضُرَّه ، وكفاه أمرَه ، وأصلح شغلَه نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ، فيعود إلى رأس كفرانه ، وينهمك فى كبائر عصيانه ، ويُشْرِكَ بمعبوده . هذه صِفَتُه . . . فَسُحْقاً له وبُعْداً ، ولَسَوف يَلْقى عذاباً وخِزْياً .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ هو قانِتٌ آناء الليلِ ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّهِ[1] ... » .

« قانتاً » : القنوتُ هو القيامُ ، وقيل طول القيام . والمراد هو الذى يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ الليل والنهار ؛ أى فى جميع الأوقات .

والهمزة للاستفهام أى أمن هو قانت كمن ليس بقانت ؟ أمن هو قانت كالكافر الذى جرى ذِكْرُه ؟ أى ليس كذلك .

ويقال القنوتُ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير . « يَحْذَرُ » العذابَ الموعودَ فى الآخرة ، « ويرجو » الثوابَ الموعودَ . وأراد بالحَذَرِ الخوف .

« قُلْ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنَّما يَتَذَكَّرُ أولوا الألباب » .

---

(١) قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .
وقال ابن عمر : نزلت فى عثمان بن عفان .
وقال مقاتل : نزلت فى عمار بن ياسر .
(أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٧)

أى هل يستويان ؟ هذا فى أعلى الفضائل وهذا فى سوء الرذائل ! « الذين يعلمون » : العِلْمُ فى وصف المخلوق على ضربين : مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد ، وموهوب مِنْ قِبَلِ الربِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان ؛ فالعلومُ الدينية كلُّها برهانية إلَّا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : « قُلْ ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربَّكُم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةٌ وأرضُ اللهِ واسِعةٌ إنَّما يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهم بغير حساب » .

أطيعوه واحذروا مخالفةَ أمره . « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا » بأداء الطاعات ، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان)[1] .

« وأرض الله واسعة » : أى لا تتعلَّلوا بأذى الأعداء ؛ إنْ نَبَا بِكُم منزلٌ فتعلُّلُكم بمعاداة قوم ومَنْعِهم إياكم — لا يُسْمَع ، فأرضُ اللهِ واسعةٌ ، فاخْرُجُوا منها إلى موضع آخر تتم لكم فيه عبادتُكم[2] .

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . والصبر حَبْسُ النَّفْس على ما تكرهه . ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعبيس .

ويقال هو التهدُّفُ[3] لسهام البلاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا له الدين » .

---

(١) تأخر ما بين قوسين فجاء بعد (السهام البلاء) فوضعناه فى هذا المكان لأنه يوضح المقصود بتوضيح « أحسنوا » .

(٢) يقول القشيرى فى إحدى وصاياه للمريدين حاثاً على السفر : «إن ابتلى مريد بجاه أو معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو استنامة إلى معلوم وليس هناك شيخ يدله على ما به يتخلص من ذلك فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ليشوش على نفسه تلك الحالة» (الرسالة ص ٢٠٢) .

(٣) التهدف = الدنو والاستقبال .

مضى القولُ فى معنى الإخلاص . وفى الخبر : إن الله يقول : « الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِه »[1] .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُه الشيطان ، ولا يطَّلِعُ علية المَلَكَان .

« أُمِرْتُ أن أعبد الله .. » أُمِرْتُ لأن أكون أولَ المسلمين فى وقتى وفى شرعى . والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنِّى أخافُ إن عَصَيْتُ ربِّى عذابَ يومٍ عظيم » .

أخاف أصنافَ العذابِ التى تحصل فى ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : « قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا له دينى * فاعبدوا ما شِئْتُم مِن دونِه قُلْ إنَّ الخاسرِين الذين خَسِرُوا أنفُسَهُم وأهليهم يومَ القيامة أَلَا ذلك هو الخُسرَانُ المبينُ » .

هذا غاية الزجر والتهديد ، ثم بيَّنَ أن ذلك غاية الخسران ، وهو الخزى والهوان . والخاسِرُ — على الحقيقة — مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى ، وخَسِرَ عُقْباه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهَى ، وخَسِرَ مولاه فلم يستحِ منه فيما رأى .

قوله جل ذكره : « لَهُم مِن فَوقِهِم ظُلَلٌ من النارِ ومِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ اللهُ به عبادَه ياعباد فاتقونِ » .

أحاط بهم سُرَادِقُها ؛ فهم لا يخرجون منها ، ولا يَفْتُرُونَ عنها . كما أنهم اليومَ فى جهنم

---

(١) أخطأ الناسخ فى ص إذ جعلها (ستر) بالتاء والصواب هى (سر) ، وقد ورد الخبر فى الرسالة هكذا : أخبر النبى (ص) عن جبريل عن الله سبحانه أنه قال : «الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى» (الرسالة ص ١٠٤) .

عقائدِهم ؛ يستديم حجابُهم ، ولا ينقطع عنهم عقابهم[1] .

« ذلك يخوِّف الله به عباده ... » إنْ خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلَّا فبين يديك عقبة كَؤُود .

قوله جل ذكره : « والذين اجتنبوا الطاغوتَ أن يعبدوها[2] وأنابوا إلى اللهِ لهم البُشْرَىٰ »

طاغوتُ كلِّ إنسانٍ نَفْسُه ؛ وإنما يجتنبُ الطاغوتَ مَنْ خالف هواه ، وعانَقَ رضا مولاه . وعبادةُ النَّفْس بموافقة الهوى — وقليلٌ مَنْ لا يعبد هواه ، ويجتنب حديث النَّفْس .

« وأنابوا إلى الله » : أى رجعوا إليه فى كل شىء .

قوله جل ذكره : « فَبَشِّر عبادِ[3] * الذين يستمعون القولَ فَيَتَّبِعُون أحسنَهُ أولئك الذين هداهم اللهُ وأولئك هم أولوا الألباب » .

« يستمعون القول » يقتضى أن يكون الاستماع لكل شىء ، ولكن الاتباع يكون للأحسن . «أحسنه » : وفيه قولان ؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة ، كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أى عزيز . والثانى : الأحسن على المبالغة ، والحَسَنُ ما كان مأذونًا فيه فى صفة الخَلْقُ ويعْلَمُ ذلك بشهادة العلم[4] ، والأحسن هو الأَوْلى والأصوب . ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره ، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصًا له . ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله .

---

(١) إن استيلاء الحب على قلب الصوفى يجعله ينظر إلى العقوبة فى الآخرة على أنها أقل تعذيباً إذا قيست بعذاب الهجر والنأى ، أو على حد تعبيرهم جهنم الاحتراق أخف من جهنم الفراق .. ولهم فى ذلك أقوال جريئة كثيرة (انظر كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف ص ٢٤٨) .

(٢) قال ابن زيد : نزلت هذه الآية فى ثلاثة أنفار كانوا فى الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، وهم زيد بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى (الواحدى ص ٢٤٧) .

(٣) نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص وكان استماعهم لأبى بكر وهو يخبرهم بإيمانه (الواحدى ص ٢٤٧، ٢٤٨).

(٤) استخدم القشيرى هذا المفهوم فى تأييد وترخيص «السماع» بالمعنى الصوفى (الرسالة ص ١٦٦) .

ويقال إن للعبد دواعى من باطنه هى هواجسُ النفس ووساوسُ الشيطانِ وخواطرُ المَلَكِ وخطابُ الحقِّ يُلْقَى فى الرَّوْعِ ؛ فوساوسُ الشيطان تدعو إلى المعاصى ، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النَّفْس وأنَّ لها فى شىء نصيبًا ، وخواطرُ المَلَكِ تدعو إلى الطاعاتِ والقُرَبِ ، وخطابُ الحقِّ فى حقائق التوحيد .

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » : —

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده ، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة[1] .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ حَقَّ عليه كلمةُ العذابِ أفأنت تُنقِذُ مَن فى النار » ؟

الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ فريقان : فريقٌ حقت عليهم كلمةٌ بعذابهم فى النار ، وفريقٌ حقت عليهم كلمةُ العذابِ بالحجاب اليومَ ، فهم اليومَ لا يخرجون عن حجاب قلوبهم ، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان — وإن كانوا من أهل الإيمان[2] .

قوله جل ذكره : « لكن الذين اتقوا رَبَّهم لهم غُرَفٌ مِن فوقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تجرى مِن تحتها الأنهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الميعاد » .

وَعَدَ المطيعين بالجنَّـــةِ — ولا محالةَ لا يُخْلِف ، وَوَعَدَ التائبين بالمغفرة — ولا محالةَ يغفر لهم ، وَوَعَدَ المريدين بالوجود والوصول — وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالةَ مُصْدِقٌ وَعْدَه .

قوله جل ذكره : « أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماءِ ماء

---

(١) (عقولهم غير معقولة) أى غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتصحيح الإيمان ؛ فهذه هى المهمة الأساسية للعقل فى نظر المصنف — كما نوهنا بذلك . وربما كانت فى الأصل (مقفولة) فيها أيضاً يستقيم المعنى .

(٢) نعلم أن كثيرين فى أوساط أهل السُّنَّة يعارضون العديد من مسائل التصوف ، ومن أمثالهم ابن تيميه وابن الجوزى .

فَسَلَكَه ينابيعَ فى الأرضِ ثم يُخْرِجُ به
زَرْعًا مختلِفًا ألوانُه ثم يهيج فتراه مُصْفَرًّا
ثم يجعلُه حُطامًا إنَّ فى ذلك لذِكْرى
لأُولى الألباب » .

أخبر أنه يُنْزِلَ من السماء المطرَ فيُخْرِجُ به الزرعَ فيخضرّ ، ثم يأخذ فى الجفاف ، ثم يصير هشيماً . . . والإشارةُ من هذا إلى الإنسان ، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم فى آخره يحترم .

ويقال إن الزَّرْعَ مالم يأخذْ فى الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحَبُّ ، فالحبُّ هو المقصود منه . . كذلك الإنسان مالم يحصلْ من نَفسِه وصولٌ لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ .

ويقال إن كَوْنَ المؤمنِ بقوة عقله يوجِبُ استفادةً له بعلمه إلى أنْ يبدوَ منه كمالٌ يُمَكِّنُ من أنوار بصيرته ، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة . فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة ، قالوا :

فلمَّا استبان الصبحُ أدرج[1] ضوءه
بأنواره أنوارَ تلك الكواكبِ

قوله جل ذكره : « أفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلامِ
فهو على نورٍ من ربِّه فويلٌ للقاسيةِ
قلوبُهم مِن ذِكْرِ اللهِ أولئك فى ضلالٍ مبين » .

جوابُ هذا الخطابِ محذوفٌ . . . أى أفَمن شرح اللهُ صَدْرَه للإسلام كمن ليس كذلك ؟

لمَّا نزلت هذه الآيةُ سُئِلَ الرسولُ — صلى الله عليه وسلم — عن الشرح المذكور فيها ، فقال : « ذلك نورٌ يُقْذَفُ فى القلب ، فقيل : وهل لذلك أمارة ؟

(١) أدرج الشيءَ أى أفناه (الوسيط) . والمقصود أن أنوار مصابيح المعرفة الإنسانية تتلاشى وتفنى عند سطوع شمس الحقيقة . وقد وردت فى ص ٤٣ من الرسالة (أدرك) والصواب فى نظرنا (أدرج) .

قال : نعم ؛ التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله[1]» .

والنورُ الذى مِنْ قِبَلِهِ — سبحانه — نورُ اللوائح بنجوم العلم ، ثم نورُ اللوامع ببيان الفَهْم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ المكاشفة بتَجلى الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد . . وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا فقد[2] ، ولا قُرْب[3] ولا بُعْدَ . . . كلاّ بل هو الله الواحد القهار[4] .

« فويْلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين »[5] : أى الصلبة قلوبهم ، لم تقرعها خواطرُ التعريف فبقيت عَلَى نَكْرَةِ الجَحْد . . أولئك فى الضلالة الباقية ، والجهالة الدائمة . .

قوله جل ذكره : « اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ[6]
كتاباً متشابهاً مثانِىَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ
الذين يَخْشَوْن ربَّهم ثم تلين جلودُهم
وَقلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ذلك هُدَى الله

---

(١) أورد الغزالى هذا الخبر فى منقذه ، وشرح مهمة هذا النور بأنه الذى يُطْلَب منه الكشف ؛ وأنه ينبجس من النور الإلهى (المنقذ من الضلال ط القاهرة ص ٢٥٥) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قصد) بالصاد وهى خطأ فى النسخ ، فالوجد يقابله الفقد .

(٣) فى ص (ولا فرق) والصواب أن تكون (ولا قرب) لتقابل (ولا بُعْد) لأنه لو قال (ولا فرق) لكان قد قال (ولا جمع) مع أن الموقف هنا موقف (جمع) .. والمقصود اختفاء تقلبات التلوين، والوصول إلى مرتبة التمكين ، أى الوصول إلى حال (جمع الجمع) .

(٤) تفيد هذه الفقرة فى فهم كثير من المصطلحات ، وهذه أول مرة نصادف القشيرى عبارة (بظهور الذات) لأنه فى مواضع كثيرة يلح على أن المشاهدة (للصفات كالجمال أو الجلال أو ... الخ) أما (الذات) فقد جلّت الصمدية — كما يقول — عن أن يستشرف منها مخلوق .

(٥) نزلت فى أبى لهب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله . (الواحدى ص ٢٤٨) واختار الطبرى القول بأن (مِن) فى الآية بمعنى (عن) أى قست قلوبهم عن ذكر الله .

(٦) قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله (ص) : لو حدّثتنا . . فانزل الله عزّ وجل « اللهُ نَزَّلَ أحسن الحديث » فقالوا : لو قصصت علينا .. فنزل «نحن نقص عليك أحسن القصص»

يَهْدِى به مَن يشاء وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لهُ مِن هادٍ » .

« أحسن الحديث » لأنه غير مخلوق[1]

« كتابا متشابهاً » فى الإعجاز والبلاغة .

« مثانى » : يثنى فيها الحكم ولا يُمَلُّ بتكرار القراءة ، وَيشتمل عَلَى نوعين : الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربَّهم » إذا سمعوا آيات الوعيد .

« ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله » إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ، ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأُنْس ، ويقال بالتجلِّى والاستتار[2] .

قوله جل ذكره : « أَفَمَن يتقى بوجهه سوءَ العذابِ يومَ القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كُنتُم تكْسِبون » .

أى فَمَنْ يتقى بوجهه سوءَ العذاب كَمَنْ ليس كذلك ؟ وقيل إنَّ الكافرَ يَلقَى النارَ أوَّلَ ما يلقاها بوجهه ؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً . فأمَّا المؤمِن فيُوقَى ذلك ؛ وإنما يُلَقَّى النضرة والسرور والكرامة ؛ فوجهُهُ ضاحكٌ مُسْتَبْشِرٌ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَ الذين مِن قَبلِهِمْ فأتاهم العذابُ مِنْ حيث لا يَشْعرُون » .

---

(١) سُمِّى القرآن حديثاً لأن الرسول (ص) كان يُحَدِّث به أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فبأى حديثٍ بعده يؤمنون » وقوله : «أفَمِنْ هذا الحديث تعجبون» ويُخَطِّىءُ أهلُ السُّنَّةِ مَنْ يستند فى أن القرآن مخلوق إلى أن « الحديث » من الحدوث فالكلام مُحْدَثٌ فقالوا : الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الله وصفاته الحسنى .

(٢) يستفيد الصوفية من هذه الآية فى تدعيم نظريتهم فى « السماع » والتأثرات النفسية والعضوية الناجمة عن تقلب الأحوال .

أشدُّ العذابِ ما يكون بغتةً ، كما أنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً .

ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غيرِ متوقع ، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً فى القلب ، وفى معناه قلنا :

فَبِتَّ بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ
وأصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة ، قال قائلهم :

بينما خاطر المُنى بالتلاقى سابح فى فؤاده وفؤادى
جمعَ اللهُ بيننا فالتقينا هكذا صُدْفةً بلا ميعادِ

قوله جل ذكره : « ولَقدْ ضربنَا للناسِ فى هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ لعَلَّهم يتذكَّرون * قرآناً عربياً غيرَ ذِى عِوَجٍ لَعلّهمْ يتقون » .

أى أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .

« غير ذى عوج » : فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِهِ .

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاءُ مُتشاكِسُون ورجلاً سَلَماً لِرُجلٍ هل يستويان مَثلاً الحمدُ للهِ بل أكثرهم لا يعلمون » .

مَثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبد اشترك فيه متنازعون .

« فيه شركاء متشاكسون » : فالصنم يدعى فيه قومٌ وقوم آخرون ؛ فهذا يقول : أنا صَنَعْتُهُ ، وذلك يقول : أنا استعملْتُهُ ، وثالث يقول : أنا عَبَدْتُه .

أمّا المؤمن فهو خالِصٌ لله عزّ وجل ، يشبه « عبداً سَلَماً لرجل » أى ذا سلامة من التنازع والاختلاف .

ويقال « رجلاً فيه شركاء متشاكسون » تتجاذبه أشغال الدُّنيا ، شُغْلُ الوَلَدِ وشغل العيال ، وغيرُ ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشَتَّتَةِ .

أمَّا المؤمِن فهو خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيب ؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء ، ولا للرضوان معه شُغْل[1] ، إذْ ليس له طاعات يُدِلُّ بها ، وعَلَى الجملة فهو خالص لله ، قال تعالى لموسى : « واصطنعتك لنفسى »[2] أى أبقيتُكَ لى حتى لا تصلح لغيرى .

« الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » : الثناء له ، وهو مُسْتَحِقٌّ لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : « إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَيِّتُون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصِمون » .

نَعَاه — عليه السلام — إليه . ونَعَى المسلمين إليهم فَفَزِعُوا بأجمعهم من مآتمهم[3] ، ولا تعزية فى العادة بعد ثلاث . ومَنْ لم يَتفرَّغْ من مآتمِ نفسه وأنواع همومه ، فليس له من هذا الحديث[4] شمّة ، فإذا فرغ قلبُه من حديث نَفْسِه ، وعن الكون بجملته فحينئذٍ يجد الخبرَ من ربِّه ، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم ، وأنشد بعضهم :

---

(١) لقيت الجنة من كبار الشيوخ مواقف لا يخلو التعبير عنها — عند من لا يفقهونها — الكثير من الاستغراب ، من ذلك ما يقوله أبو يزيد البسطامى : ما الجنة ؟ لعبة صبيان ! ويقول : الجنة هى الحجاب الأكبر لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجنة ، وكلُّ مَنْ سكن إلى الجنة سكن إلى سواه فهو محجوب .

(٢) آية ٤١ سورة طه .

(٣) هكذا فى ض وهى مقبولة لتناسب الخصومة التى سيترتب عليها فى الآخرة الاختصام .

(٤) يقصد حديث الفناء عن كل أرب وسبب ، أى الفناء بالمعنى الصوفى .

كتابى إليكم بعد موتى بليلةٍ
ولم أدرِ أنى بعد موتى أكتب

قوله جل ذكره : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على
اللهِ وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذ جاءه أليس
فى جهنَّم مثوًى للكافرين » .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعَى وجودَ أشياء لم يَذُقْ شيئاً منها ، قال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة[1] » .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأمَّا المُدَّعِى الذى لم يَبْلُغْ ما يَدَّعِيه فليس يكذب على ربِّه إنما يكذب على نَفْسِه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَذُقْها ولم يَجِدْها ، فأمَّا غيرُ المتحقق الذى يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذى يقول فى صفة الحقِّ — سبحانه — ما يتقدَّسُ ويتعالى عنه[2] .

قوله جل ذكره : « والذى جاء بالصدقِ وصَدَّقَ به
أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند
ربِّهم ذلك جزاء المُحْسنين » .

الذى جاء بالصدق فى أفعاله من حيث الإخلاص ، وفى أحواله من حيث الصدق ، وفى أسراره من حيث الحقيقة .

« ذلك جزاء المحسنين » : الإحسانُ — كما جاء فى الخبر — أن تعبد الله كأنك تراه . فَمَنْ كانت — اليومَ — مشاهدتُه على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، ومَنْ لا فلا[3] .

---

(١) آية ٦٠ من هذه السورة .

(٢) وإلى أمثال هؤلاء أشار القشيرى فى مستهل رسالته قائلاً « .. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا من رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية وزالت عنهم أحكام البشرية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ....» الرسالة ص ٣ .

(٣) روى مسلم عن جابر «يبعث كل عبد على ما مات عليه» ٦/٤٥٧ فيض القدير للمناوى «ومن كان بحالة لقى الله عليها » .

قوله جل ذكره : « لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم أَسْوَأَ الذى عَمِلُوا ويَجْزِيَهم أجرَهم بأحسنِ الذى كانوا يعملون » .

منْ لا يكونَ مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة . ومَنْ كان معه إيمان : فإذا كُفِّرَ عنه أسوأ ما عَمِلَه فأسوأُ أعمالِه كبائرُه ؛ فإنْ غُفِرَتْ يَجْزِهِم بأحسن أعمالهم . وأحْسَنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة ، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابُه مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابُه على الدوام . ثم أحسنُ الأعمال عليها أحسنُ الثوابِ ، وأحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام[1] — وهذا استدلالٌ قوى .

قوله جل ذكره : « أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه . . » .

استفهام والمراد منه التقرير ؛ فاللهُ كافٍ عَبْدَه اليومَ فى عرفانه بتصحيح إيمانه ومَنْعِ الشِّرْكِ عنه ، وغداً فى غفرانه بتأخير العذاب عنه ، وما بينهما فكفايتُه تامة وسلامته عامة .

قوله جل ذكره : « ولَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ قُلْ أفرأيتم ما تَدْعُون من دون اللهِ إنْ أرادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رحمتِه قُلْ حَسْبِىَ اللهُ عليه يتوكَّل المُتَوَكِّلون » .

قَرَّرَ عليهم عُلُوَّ صفاته ، وماهو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك ، ثم طالبَهم بذِكْرِ صفاتِ الأصنام التى عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم فى وصفها إلا بالجمادية ، والبُعْدِ عن الحياة والعِلْم والقدرةِ والتمكُّنِ من الخَلْقِ ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهلَّا استحيَيْتُم من إطلاق أمثال ذلك فى صفته ؟ .

---

(١) « فيجب أن تكون الرؤية على الدوام » نلاحظ إلحاح القشيرى على هذا الرأى فى خاتمة تفسيره للآية السابقة وفى هذه الآية ، ولهذا الرأى أهميته فى مسألتين : خلود الجنة والرؤية .. مسألتان كان حولها جدل كثير أشرنا إلى بعضه فى تعليقات سابقة .

قُلْ ـ يا محمد ـ حَسْبِىَ اللهُ ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافِىَّ اللهُ المتفرِّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، المتَفَضِّلُ علىَّ بما يشاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا قومِ اعملوا على مكانتِكم إنِّى عامِلٌ فسوف تعلمون * مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مُقِيم »

سوف ينكشف ربْحُنا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُعَذِّبُكم فلا شفيعَ لكم ، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخَ لكم .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلنا عليك الكتابَ للناسِ بالحقِّ فَمَنِ اهتدىٰ فَلِنَفْسِه ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها وما أنت عليهم بوكيل » .

مَنْ أحسن فإحسانُه إلى نَفْسِه اكتَسَبَه[1] ، ومَنْ أساء فبلاؤه على نفسه جَلَبَه — والحقُّ غنىٌّ عن التجمُّلِ بطاعةِ مَنْ أقبل والتنقُّصِ بِزَلَّةِ مَنْ أعرض .

قوله جل ذكره : « اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حينَ مَوْتِها والتى لم تَمُتْ فى منامِها فَيُمْسِكُ التى قَضَىٰ عليها الموتَ ويُرْسِلُ الأخرىٰ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكَّرُون » .

يقبض الأرواح[2] حين موتها ، والتى لم تَمُتْ من النفوس فى حال نومها ، فإذا نامت

---

(١) (اكتسبه) موجودة فى م وسقطت فى ص .

(٢) واضح هنا أن القشيرى لا يكاد يميز بين (النفس) و (الروح) مع أنه في الرسالة ص ٤٨ يميز بينهما فيقول (يحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة فى القالب) = البدن وهى محل الأخلاق المملولة (موجودة فى الرسالة خطأ المعلومة) كما أن الروح لطيفة فى القالب هى محل الأخلاق المحمودة.. والجميع إنسان واحد ،وكونهما بصفة=

فيقبض أرواحها[1] . وقبضُ الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح ، ويخلق بَدَلَ الاستشعارِ والعِلْمِ الغفــلةَ والغيبةَ في مَحَالِّ الإحساس والإدراك . ثم إذا قبَضَ الأرواحَ عند الموت خَلَقَ في الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة ، والموتُ ينافي الإحساسَ والعلمَ . وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً ، وقَبْضُ اللهِ الأرواحَ في حال النوم وردت به الأخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإنَّ روحاً تُقْبَضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتـكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات « والله أعلم » .

قوله جل ذكره : « أم اتخذوا من دون اللهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَ لَوْ كانوا لا يَمْلِـكون شيئاً ولا يَعْقِلون » .

أى أنهم ـ وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُـكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار ـــ فإنَّ اللهَ تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إلاَّ إذا أَذِنَ بها ، وإنَّ الذى يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره : «وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزَّتْ قلوبُ

=اللطافة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة» ثم يعود بعد قليل متحدثاً عن الروح فيقول : الأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة فمنهم من يقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة في القالب (اللطائف حـ٢ ص٣٦٧)

وفي تقديرنا أن المسألة ذات جانبين : فإذا نظرنا إلى الموضوع خارج دائرة التصوف فالروح والنفس بمعنى واحد متصل بالحياة ، وقبضهما معناه موت البدن بدليل ما ورد عن الرسول (ص) ، فهو مرة يقول (كما في حديث أم سلمة) : دخل رسول الله (ص) على أبي سلمة وقد شق (= انفتح) بصره فأغمضه ثم قال : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر » وفي مرة أخرى يقول (ص) في حديث صحيح أخرجه ابن ماجه : «تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة .... » وفي صحيح مسلم : قال «ص» : «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها » .

أما الجانب الآخر للمسألة فهو كونهما مصطلحين صوفيين ؛ فالنفس محل المعلولات والروح محل المحمودات . .. وذلك ركن هام في مذهب القشيرى لم يتخل عنه في كتاب من كتبه ، كما هو مذهب كثيرين من المتصوفة .

(١) قبض الروح عند النوم معناه ترقيها (الرسالة ص ٤٨) .

الذين لا يؤمِنُونَ بالآخرةِ وإذا ذُكِرَ
الذين من دونهِ إذا هم يَسْتَبْشِرُونَ » .

اشمأزَّت قلوبُ الذين جحدوا ولم تسكن نفوسُهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين مِنْ دونه استأنسوا إلى سماعه : —

« قل اللهم فاطِرَ السمٰواتِ والأرضِ
عالِمَ الغيبِ والشهادة أنت تحْكُم بين
عِبَادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون » .

عَلَّمَهُ — صلى الله عليه وسلم — كيف يثنى عليه — سبحانه[1] .

وتشتمل الآيةُ على الإشارة إلى بيان ما ينبغى من التنصُّل والتذلُّلِ ، وابتغاءِ العفو والتفضُّلِ ، وتحقيقِ الالتجاء بِحُسْنِ التوكل - ثم أخبر عن أحوالهم فى الآخرة فقال :

« ولو أنَّ للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً
ومِثْلَهُ معه لافتدوا به من سوءِ العذابِ
يومَ القيامة » .

لافتدوا به .. ولكن لا يُقْبَلُ منهم ، واليومَ لو تصدَّقوا بمثقال ذرة لَقُبِلَ منهم . كما أنهم لو بَكَوْا فى الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم ، ولكنهم بدمعة واحدةٍ — اليومَ — يُمْحَى الكثيرُ من دواوينهم .

قوله جل ذكره : « وبَدَا لهم من اللهِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبُون » .

فى سماع هذه الآية حَرَاتٌ لأصحاب الانتباه .

---

(١) فى صحيح مسلم : أن عائشة سئلت بأى شىء كان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ... يختلفون » ، إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» .
وقال سعيد بن جبير : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ؛ قوله تعالى : «قل اللهم فاطر .... يختلفون » .

وفى بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار [فإذا وافوها يقول لهم مالِكٌ : مَنْ أنتم ؟ إن الذين جاءوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوهُهم كانت مُسْوَدَّةً ، وعيونُهم[1]] كانت مُزْرَقَّةً . . وأنتم لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»[2] .

« وبدا لهم سيئاتُ ما كَسَبُوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون».

حاق بهم وبالُ استهزائهم وجزاءُ مَكْرِهم .

قوله جل ذكره : « فإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَانا ثُمَّ إذا خَوَّلناه نعمةً مِنَّا قال إنَّما أُوتيتُه على عِلْمٍ بل هى فتنةٌ ولكنَّ أكثرهم لا يَعْلَمُون » .

فى حال الضُّرِّ يتبرَّءون من الاستحقاق والحوْلِ والقوة ، فإذا كَشَفَ عنهم البلاء وقعوا فى مغاليطهم ، وقالوا : إنما أوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا ، قال تعالى : « بل هى فتنة » ولكنهم لم يعلموا ، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهم مثلَ هذا قالوا وحسبوا ، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم ، فأصابهم شؤمُ ما قالوا ، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك .

قوله جل ذكره : « أو لم يعلموا أنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يشاء ويَقْدِرُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمِنُون » .

---

(١) ما بين القوسين مستدرك فى هامش الورقة ٤٩٦ من النسخة ص

(٢) عن مجاهد قال : إنهم عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات .

وقيل عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا .

أما القشيرى فيصرفها إلى المؤمنين العصاة ، وواضح أنه يميز بين حالة ورودهم إلى النار ، وورود الكفار ، فهؤلاء على التأبيد وأولئك إلى حين .

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس فى الرزق : فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه رِزْقُه ، ومِنْ مُضَيَّقٍ عليه ، وليس لواحدٍ منهم شىء مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير .

قوله جل ذكره : «قُلْ يا عبادِىَ الذين أسرفوا على أنفُسِهم
لا تقنطوا من رحمةِ اللهِ إنَّ الله يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّه هو الغفورُ الرحيم»[1]

التسمية « بياعبادى » مَدْحٌ[2] ، والوصفُ بأنهم « أسرفوا » ذَمٌّ . فلمَّا قال : « يا عبادى » طمع المطيعون فى أن يكونوا هم المقصودين بالآية ، فرفعوا رءوسَهم ، ونكَّسَ العُصَاةُ رءوسَهم وقالوا : مَنْ نحن . . حتى يقول لنا هذا ؟ !

فقال تعالى : « الذين أسرفوا » فانقلب الحالُ ؛ فهؤلاء الذين نكَّسوا رءوسَهم انتعشوا وزالت ذِلَّتُهُم ، والذين رفعوا رءوسَهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهم[3] .

ثم أزال الأُعجوبةَ عن القسمة بما قوَّى رجاءهم بقوله : « على أنفسهم » يعنى إنْ أسْرَفْتَ فعلى نَفْسِكَ أسرفت .

« لا تقنطوا من رحمة الله » : بعد ما قطعْتَ اختلافَكَ إلى بابنا فلا ترفَعْ قلبك عَنَّا .

« إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً » الألف واللام فى « الذنوب » للاستغراق والعموم ، والذنوب جمع ذنب ، وجاءت « جميعاً » للتأكيد ؛ فكأنه قال : أَغْفِرُ ولا أترك ، وأعفو ولا أُبْقِى .

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول عدة أقوال بشأن من نزلت فيهم هذه الآية الكريمة ، ومن هذه الروايات : عن ابن عباس قال : نزلت فى أهل مكة حين قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله .

وقال ابن عمر : نزلت فى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فتركوا دينهم .

ويروى أنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة . (الواحدى ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

(٢) يقول الدقاق : ليس شىء أشرف من العبودية ، وقد سمى بها الحق نبيه (ص) فقال : سبحان الذى أسرى بعبده ، وقال : فأوحى إلى عبده ما أوحى — ولو كان اسم أجل من العبودية لسماه به . (الرسالة ص ١٠٠) .

(٣) راجع ما قاله القشيرى فى قصة داود : (إنَّ زلَّة أسفك عليها يوصلك إلى ربك أجدى عليك من طاعة إعجابك بها يقصيك عن ربك) . ويقول على بن أبى طالب : ما فى القرآن أوسع من هذه الآية . ويقول عبد الله ابن عمر : هذه أرجى آية فى القرآن .

ويقال إنْ كانت لكم جِناية كثيرة عميمة فلى بشأنكم عناية قديمة[1].

قوله جل ذكره: « وأنيبوا إلى ربِّكم وأَسلِمُوا له مِن قَبْلِ أن يأتيَكمُ العذابُ ثم لاتُنصَرُونَ ».

الإنابة الرجوع بالكلية. وقيل الفرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائبَ يرجع من خوف العقوبة، وصاحبُ الإنابة يرجع استحياء لِكَرَمِه[2].

« وأسلِموا له »: وأخلِصوا فى طاعتكم، والإسلامُ — الذى هو بعد الإنابة — أنْ يعلمَ أنّ نجاتَه بفَضْلِه لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته. لا بإنابته يصل إلى فضله.

« من قبل أن يأتيكم العذاب » قبل الفراق. ويقال هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بشهود الناس ثم لا يَنْصَرِفُ عن ذلك.

قوله جل ذكره: « أن تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا على ما فَرَّطتُ فى جَنْبِ اللهِ وإنْ كنتُ لَمِنَ السَّاخرين * أو تقولَ لو أنَّ اللهَ هدانى لكنتُ من المتقين * أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لى كَرَّةً فأكونَ من المُحْسِنين ».

يقال هذا فى أقوامٍ يَرَوْن أمثالَهم تقدموا عليهم فى أحوالهم، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، ويَرَوْن ما وُفِّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة.

---

(١) واضح أن القشيرى يحاول بطرق شتى أن يفتح كل أبواب الأمل أمام اليائسين، فمهما كانت الذنوب كثيرة فعفوالله أكبر وأشمل، ويبدا أن النص القرآنى يحتمل كل المحاولات التى يبذلها القشيرى بسماحته الصوفية الأصيلة.

(٢) ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله فى هذا الخصوص: «أولها توبة وأوسطها إنابة وآخرها أوبة». ثم يعلق على ذلك قائلا: فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً فى الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر — لا لرغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب — فهو صاحب أوبة. ويقال التوبة صفة المؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون). والإنابة صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منيب)، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (نعم العبد إنه أواب) الرسالة ص ٥٠.

أو يقول : لو أنَّ الله هدانى لكُنْتُ كذا ، ويقول آخر : لو أنَّ لى كَرَّةً فأكون كذا ، فيقول الحقُّ — سبحانه :

« بلىٰ قد جاءتْكَ آياتى فكَذَّبْتَ بها
واستَكْبَرْتَ وكُنتَ من الكافرين » .

فَذُقْ من العذابِ ما على جُرْمِك استوجَبْتَ .

قوله جل ذكره : « ويومَ القيامةِ ترى الذين كَذَبُوا
على اللهِ وجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أليس فى
جَهَنَّمَ مثوىً للمتكبرين » .

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها ، وأظهروا المحبةَ لله ولم يتحققوا بها ، وكفاهم افتضاحاً بذلك ! وأنشدوا :

ولمَّا ادَّعَيْتُ الحبَّ قالت كَذَبْتَنى
فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا ؟ !
فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا
وتخرس حتى لا تجيب المناديا[1]

قوله جل ذكره : « ويُنَجِّى اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهم
لا يَمَسُّهُم السوء ولا هم يحزَنُون » .

كما وَقَاهم — اليومَ — عن المخالفات ، حماهم — غداً — من العقوبات ، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين ؛ اليومَ عصمة ، وغداً نعمة . اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية .

قوله جل ذكره : « اللهُ خَالِقُ كُلِّ شىء » .

---

(١) ورد الشاهد الشعرى فى الرسالة ص ١٦٠ هكذا : البيت الأول مطابق ، والثانى هكذا ومتبوعاً بثالث :—

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لاتجيب المناديا
وتنحل حتى لايبقى لك الهوى سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

وقد أورده صاحب اللمع على هذا النحو (اللمع ص ٣٢١) .

تدخل أكسابُ العباد فى هذه الجملة ، ولا يَدْخُل كلامُه فيه ؛ لأن المخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولاصفاته[1].

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السمٰواتِ والأرضِ والذين كفروا بآياتِ اللهِ أولئك هم الخاسِرون » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمرادُ منه أنه قادر على جميع المقدورات ، فما يريد أنْ يُوجِدَه أوْجَدَه .

قوله جل ذكره : « قل أفغيرَ اللهِ تأمرونى أعْبُدُ أيها الجاهِلون » .

أى متى يكون لكم طَمَعٌ فى أن أعبدَ غيره . . وبتوحيده ربَّانى ، وبتفريده غَذَانى ، وبِشَرَابِ حُبِّهِ سَقَانى ؟ ![2].

قوله جل ذكره : « ولقد أُوحِيَ إليكَ وإلى الذين من قَبْلِكَ لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولتكونَنَّ من الخاسِرين » .

لَئِنْ لاحظْتَ غيرى ، وأثْبَتَّ معى فى الإبداع سِوَاىَ أحْبَطْتَ عَمَلَكَ ، وأبطلْتَ سعيَكَ ، بل اللهَ — يا محمد — فاعبُدْ ، وكُنْ من جملة عبادى الشاكرين .

قوله جل ذكره : « وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عَمَّا يُشرِكون » .

---

(١) هذه إشارة خطيرة فى شأن الموضوعات الكلامية المتصلة بالفعل الإنسانى ، وبمسألة خلق القرآن (أنظر كتابنا : الإمام القشيرى : تصوفه وأدبه ط مؤسسة الحلبى للنشر) .

(٢) هذه هى التربية التى عناها القشيرى فى موضع سابق حين قال : « ليس الاعتبار بالتربة بل بالتربية » .

ما عرفوه حَقَّ معرفته[1] ، وما وصفوه حقَّ وصفه ، وما عظَّموه حَقَّ تعظيمه ؛ فَمَن اتصف بتمثيل ، أو جَنَحَ إلى تعطيل[2] حَادَ عن السُّنَّةِ المُثْلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى . وصفوا الحقَّ بالأعضاء ، وتَوَهَّموا فى نَعْتِهِ الأجزاء ، فما قدروه حَقَّ قَدْرِه ؛ فالخَلْقُ فى قبضة قدرته ، والسموات مطويات بيمينه ، ويمينُهُ قُدْرَتُه[3] . ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السمواتِ ويطويَها فهو قادر على ذلك .

« سبحانه وتعالى » تنزيهاً له عما أشركوا فى وصفه .

قوله جل ذكره : « ونُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فى السمٰواتِ ومَن فى الأرضِ إلاَّ مَن شاءَ اللهُ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ » .

فى النفخة الأولى تموتون ، ثم فى النفخة الثانية تُحْشَرُون ، والنفختان متجانستان ؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح ، وفى الأخرى حياة النفوس ؛ لِيُعْلَمَ أن النفخةَ لا تعمل شيئاً لعينها[3] ، وإنما الجبَّارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وأَشْرَقَتِ الأرضُ بنُورِ رَبِّها ووُضِعَ

---

(١) أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم بلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع والأرضين على أصبع والشجرة على أصبع والثرى على أصبع ! فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه ، فأنزل الله تعالى : «وما قدروا الله حق قدره» (الواحدى ص ٢٥٠) .

(٢) (التعطيل على ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع – سبحانه – عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .. ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ولا مخلوق (الجواب الكافى ص ٩٠ لابن القيم ط التقدم) .

(٣) نحسب أن من دواعى التأويل أن الله سبحانه وتعالى قد يخاطبنا عن ذاته وصفاته بما نتخاطب به فيما بيننا حتى نفهم ، والآية تشير إلى ذلك فى وضوح فقد عبر عن قدرته مرة بالقبضة ومرة باليمين ، ومعنى هذا أن الله يقدر على قبض الأرض وجميع ما فيها قدرة أحدنا على ما يحمل بأصبعه .

(٣) كلام القشيرى عن تجانس النفختين واختلاف تأثيرهما ، ثم كلامه بعد قليل عن تجانس السوقين واختلاف وجهتيهما . . مقصود منه – كما نظن – أن القياس الإنسانى ليس دائماً على صواب ، مثال ذلك قوله تعالى : «مطويات بيمينه» ، ونسبة الوجه واليد والعين . . ونحو ذلك لله سبحانه ليس بالضرورة أن يكون على نحو ما يفهم الإنسان من هذه الماديات ، فالكلمة هى الكلمة .. ولكن شتان بين الدلالة هنا والدلالة هناك .. والله أعلم بمقصود القشيرى .. ولكن هكذا نظن .

الكتابُ وجيء بالنبيين والشهداء
وقُضِيَ بينهم بالحقِّ وهم لا يُظلَمون » .

نور يخلقه فى القيامة فتشرق القيامةُ به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكُفَّارُ يَبْقَوْن فى الظلمات ، والمؤمنون نورُهم يسعى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرض بنور ربها . ويقال غداً أنوار التولِّى للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلِّى للعارفين .

قوله جل ذكره : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

إن كان خيرًا فَخَيْرٌ ، وإن كان غير خَيْر فغيرُ خير .

قوله جل ذكره : « وسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها ألم يأتِكم رُسُلٌ منكم يتلون عليكم آياتِ ربِّكُمْ ويُنذِرُونَكُم لِقاءَ يومكُمُ هذا قالوا بلىٰ ولكن حَقَّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرينَ » .

الكفار يُسَاقُون إلى النار عنفاً ، والمؤمنون يُسَاقون إلى الجنة لُطْفاً ؛ فالسَّوْقُ يجمع الجنسين . . ولكن شتان بين سَوْقٍ وسَوْق ! .

فإذا جاء الكفارُ قابلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريمَ ولا تعظيم ، ولا سؤال ولا استقبال . . بل خِزْيٌ وهوانٌ ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان .

قوله جل ذكره : « وسيق الذين اتقوا ربَّهُم إلى الجنة زُمَراً حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكم طِبْتُم فادْخلُوها خالِدين » .

سَوْقٌ ولكن بغير تعبٍ ولا نَصَبٍ ، سَوْقٌ ولكن بِرَوْحٍ وطَرَبٍ .

« زمراً » جماعاتٍ ، وهؤلاء هم عوامُّ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : « يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[1] وفوقهم مَنْ قال فيهم : « وأُزْلِفَتْ الجنة المتقين غير بعيد »[2] وفَرْقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إلى الجنة ، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة . . هؤلاء الظالمون ، والآخرون المقتصدون ، والآخرون السابقون[3] .

« حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . . . . » وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار .

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاق ، ولعلَّ هؤلاء لا رغبةَ لهم فى الجنة بكثير ؛ فَلَهُم معه فى الطريق قَوْلُ « طِبْتُم » ؛ أى أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمدُ للهِ الذى صَدَقَنَا وعْدَه
وأورثنا الأرضَ نَتَبَوَّأُ من الجنةِ حيث
نشاء فَنِعْمَ أجرُ العَامِلِينَ » .

صَدَقَنا وعده بإدخالنا الجنة ، وإكمال المِنَّة .

« وأورثنا الأرضَ » أى أرضَ الجنة ؛ نتبوأ منها حيث نشاء . وهؤلاء قوم مخصوصون ، والذين هم قومُ « الغُرَف » أقوام آخرون .

قوله جل ذكره : « وترى الملائكةَ حافِّين مِنْ حول
العَرْشِ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ ربِّهم وقُضِيَ
بينهُم بالحقِّ وقيل الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين » .

يُسَبِّحون بحمد ربهم فى عموم الأوقات . . هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش . وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ ، لهؤلاء دَرَكات ولأولئك درجات . . إلى غير ذلك من فنون الحالات . وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً فى مقاماتهم على ما أراده الحقُّ فى عباداتهم .

---

(١) آية ٨٥ سورة مريم . (٢) آية ٣١ سورة ق .
(٣) إشارة إلى الآية : «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات» (آية ٣٢ سورة فاطر) .

سورة المؤمن [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ تحقَّقَ بها شَرُفَ من الحقِّ مَنَالُه ، وصفت عنده أحواله ، وخَلَعَ عَلَى نَفْسِه رداء الأفضال ، وألبَسَ قلبَه جَلالَ الإقبال ، وأفرد رُوحَه بِرَوْحِ لُطْفِ الجمال ، واستخلص سِرَّه بِكَشْفِ وصفِ الجلال .

قوله جل ذكره : « حم »

أى حُمَّ أمرٌ كائن [2] .

ويقال « الحاء » إشارة إلى حِلْمِه ، « والميم » إشارة إلى مجده أى : بحِلْمى ومجدى لا أُخَلِّدُ فى النار مَنْ آمنَ بى .

ويقال هذه الحروف (مفاتح أسمائه) [3] .

« تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليمِ » .

---

(١) تسمى سورة غافر ، وسورة الطَّوْل ، وسورة المؤمن لقوله تعالى فيها : «وقال رجلٌ مؤمن» (السيوطى : الإتقان ـ ١ ص ٥٤) .

(٢) أى قُضِى ووقع ، قال كعب بن مالك :

فلمَّا تلاقيناهم ودارت بنا الرَّحى ... وليس لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ

أو تكون بمعنى قَرُبَ كما قال الشاعر

قد حُمَّ يومى فَسُرُّ قومُ ... قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونومٌ

(٣) ما بين القوسين سقط من ص ، وهى موجودة فى م .

عن أنس أن أعرابياً سأل النبى (ص) ما حم ؟ فإنا لانعرفها فى لساننا ، فقال النبى (ص) : « بدء أسماء وفواتح سوره » .

« العزيز » : المُعزُّ لأوليائه ، « العليم » بما كان ويكون منهم ، فلا يمنعه عِلمُه بما سَلَفَ منهم عن قضائه .

قوله جل ذكره : « غافرِ الذَّنبِ وقابِلِ التَّوْبِ
شديدِ العقابِ ذى الطَّوْلِ لا إلهَ
إلا هُو إليهِ المصيرُ » .

كتابٌ مُمنوَنٌ بقبول توبته لِعِبادِه ؛ عَلِمَ أنَّ العاصىَ مُنكَسِرُ القلبِ فأزال عنه الانكسارَ بأن قدَّمَ نصيبه ، فقدَّم اسمَه عَلَى قبول التوبة . فَسَكَّنَ نفوسَهم وقلوبَهم باسْمَيْنِ يُوجِبان الرجاء ؛ وهما قولُه : « غافر الذنب وقابل التوب » .

ثم عقبهما بقوله : « شديد العقاب » ثم لم يرضَ حتى قال بعدئذ « ذى الطول » .

فيُقَابِلُ قولَه : « شديد العقاب » قَوْلُه : « ذى الطَّوْل » .

(ويقال : غافرُ الذنبِ لِمَنْ أَصَرَّ واجْتَرَمَ ، وقابلُ التوبِ لمن أقَرَّ وَندِمَ ، شديد العقاب لِمَنْ جَحَدَ وعَنَدَ ، ذِى الطول لمن عَرَفَ ووَحَدَ)[1] .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمتصدين ، شديد العقاب للمشركين ، ذى الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ اللهِ أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تدارَكَ قلوبَهم بأن يُبشِّرَهم باسْمَيْنِ أو بوَصفَيْن[2] .

« إليه المصير » : وَإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسِير .

قوله جل ذكره : « مَا يُجَادِلُ فى آياتِ اللهِ إلاَّ
الذين كَفروا فلا يَغرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فى
البلادِ » .

---

(١) مابين القوسين بأجمعه ساقط من ص وموجود فى م .

(٢) وهذه آية كريمة سبحانه .

إذا ظَهَرَ البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلَمَتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان .

فأمَّا أهلُ الكفرِ فلهم عَلَى الجمود إصرارٌ ، وشُؤْمُ شِرْكِهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف . . . وكذلك مَنْ لا يحترمون أولياءَ الله ، ويُصِرُّون عَلَى إنكارهم ، ويعترضون عليهم بقلوبهم ، ويجادلون فى جَحْدِ الكرامات ، ومَا يخصُّ اللهُ به عبادَه من الآيات . . . فهؤلاء لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم ، وسيفتضحون كثيراً .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قومُ نُوحٍ والأحزابُ مِنْ بَعْدِهِم، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمةٍ برسولهم ليأخذُوه وجادَلوا بالباطل ليُدْحِضُوا به الحقَّ فَأَخَذْتُهمْ فكيف كان عِقَاب» .

كذلك مَن انقرض مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهمْ ، ولكنَّ اللهَ — سبحانه — انتقم منهم ، وعَلَى كُفْرِهم اخترمهم .

والمُنْكِرُ لهذا الطريق[1] يدين بإنكاره ، ويتقرَّبُ إلى الله به ، ويعد وقيعته فى أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته ، ولكن الله — سبحانه — يعذبهم فى العاجل بتخليتهم فيما هم فيه ، وصَدِّ قلوبهم عن هذه المعانى ، وحرمانهم منها .

قوله جل ذكره : « وكذلك حَقَّتْ كلمةُ ربِّكَ عَلَى الذين كفروا أَنَّهم أصحابُ النار » .

إذا انختم عَلَى عبدٍ حُكْمُ اللهِ بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يورَد عليه من النُّصح . . واللهُ عَلَى أمره غالبٌ . ومَنْ أَسَرَتْه يَدُ الشقاوة فلا يُخَلِّصُه مِنْ مخالبها جُهْدٌ ولا سعاية .

قوله جل ذكره : « الذين يَحْمِلون العَرْشَ وَمَنْ

(1) يقصد الطريق الصوفى .

حَوْله يُسَبِّحُون بِحَمْدِ ربِّهِمْ ويؤمِنُون
به وَيستغفرُونَ للذِين آمنوا رَبَّنا
وَسِعْتَ كُلَّ شيء رحمَةً وعِلْماً فاغْفِرْ
للذين تابوا وَاتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ
عذابَ الجحِيم » .

حَمَلةُ العرش مَنْ حَوْلَ العرشِ مِنْ خواص الملائكة[1] ، مأمورون بالتسبيح لله ، ثم بالاستغفار للعاصين — لأنَّ الاستغفارَ للذنبِ والتوبةُ إنما تحصل من الذنب — ويجتهدون فى الدعاء لهم على نحو مافى هذه الآية وما بعدها ؛ فيدعون لهم بالنجاة ، ثم بِرَفْعِ الدرجات ، ويحيلون الأمر فى كل ذلك على رحمةِ الله .

قوله جل ذكره : « رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَناتِ عَدْنٍ
التى وَعَدْتَهُمْ ومَن صَلَحَ مِنْ
آبائِهم وَأزواجِهمْ وَذُرِّياتِهم إنَّكَ
أنت العزيزُ الحكيم * وَقِهِمُ
السيئاتِ وَمن تَقِ السيئاتِ يومئذٍ
فقدْ رَحِمْتَه وذلك هو الفوز العظيم » .

« وَمنْ تقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رَحمته » : فلئن سَلَّطَ عليك أَراذِلَ مِنْ خَلْقِهِ — وَهُم الشياطين — فلقد قَيَّض بالشفاعة أفاضلَ من خَلْقِهِ ومن الملائكة المقرَّبين

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ
اللهِ أكبرُ مِن مقتِكُمْ أنفُسَكُمْ
إذ تُدْعوْنَ إلى الإيمانِ فتَكْفرُون » .

أشَدُّ العقوباتِ التى يُوصلها الحقُّ إليهم آثارُ سُخْطِهِ وغَضَبِه ، وأَجَلُّ النِّعم

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله (ص) : «أذن لى أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حملة العرش مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» ذكره البيهقى ، وقال : هو أعظم المخلوقات .

التى يغروهم بها آثارُ رضاه عنهم . فإذا عَرَفَ الكافرُ فى الآخرة أنَّ ربَّه عليه غضبانُ فلا شىء أصعبُ على قلبه من ذلك ؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُكاء ينفعه ، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يُسْمَعُ له تضرُّعٌ ، ولا تُرْجَى له حيلة .

قوله جل ذكره : « قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثنتين وأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل » .

الإماتةُ الأولى إماتَتُهم فى الدنيا ثم فى القبر يحييهم ، ثم يميتهم فهى الإماتةُ الثانية . والإحياء الأول فى القبر والثانى عند النشر[1] .

« فاعترفنا بذنوبنا » : أقروا بذنوبهم — ولكن فى وقتٍ لا ينفعهم الإقرار .

« فهل إلى خروجٍ من سبيل » مما نحن فيه من العقوبة ، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ . فيُقال لهم : —

« ذَلِكُمْ بأنه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرْتُم وإن يُشْرَكْ به تُؤْمِنوا فالْحُكْمُ للهِ العليِّ الكبير » .

أى تُصَدِّقوا المشركين لِكُفْرِهم . [وهؤلاء إماتَتُهم محصورة ، فأمَّا أهلُ المحبةِ فلهم فى كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ ، قال قائلهم :

أموت إذا فَقَدْتُكَ ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموت !

فإنَّ الحقَّ — سبحانه — يُرَدِّدُ أبداً الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء ،

---

(١) هذا الرأى يذهب إليه السُّدِّى أيضاً ، وإنما إحياؤهم فى القبور للمسألة ، ومن هذا استدل العلماء على سؤال القبر .

واستدل من الآية كذلك على إحياء الأجساد ، لأن الروح — عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح — لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، فلو كان الثواب والعقاب للروح — دون الجسد — فما معنى الإحياء والإماتة ؟

ويذهب ابن عباس وابن مسعود وقتادة والضحاك إلى أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم . ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان .

والحياة والموت ، والمحو والإثبات][1] .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُرِيكم آياتِهِ ويُنَزِّلُ لَكُمْ من السماء رِزْقًا وما يَتَذَكَّرُ إلَّا مَن يُنِيبُ » .

يُرِيهم آياتِ فَضْلِهِ فيما يُلاطِفُهم ، ويريهم آياتِ قَهْرِه فيما يكاشفهم ، ويريهم آياتِ عَفْوِه إذا تَنَصَّلُوا[2] ، وآياتِ جوده إذا توسَّلُوا ، وآياتِ جلالِه إذا هابوا فنابوا ، وآياتِ جمالِه إذا آبوا واستجابوا . « وينزل لكم من السماء رزقاً » لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات ، (ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات)[3] .

« وما يتذكَّرُ إلّا مَنْ يُنيب » : يرجع من العادة إلى العبادة ، ومن الشَّكِّ إلى اليقين ، ومن الخَلْقِ إلى الحقِّ ، ومن الجهل إلى العِلْم ، ومن النَّكِرَةِ إلى العرفان .

قوله جل ذكره : « فادْعُوا اللهَ مُخْلِصِين له الدِّينَ ولو كَرِه الكافرون » .

شَرْطُ الدعاءِ تقديم المعرفة لتعرفَ مَن الذى تدعوه ، ثم تدعو بما تحتاج إليه مِمَّا لا بُدَّ لَكَ منه ، ثم تنظر هل أعطاكَ ما تطلب وأنت لا تدرى ؟ والواجبُ ألا تطلب شيئًا تكون فيه مخالفةٌ لأمره ، وأنْ تتباعدَ عن سؤالك الأشياء الدَّنِيَّة والدنيوية ، وأنْ ترضى بما يختاره لَكَ مولاك . ومن الإخلاص فى الدعاء ألّا ترى الإجابةَ إلّا منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقًا إلا بفضله ، وأنْ تعلمَ أنه إنْ بَقِيتَ فى سؤالك عن مطلوبك — الذى هو حَظُّكَ — لا تَبْقَ عن عبادة ربِّك — التى هى حَقُّه ؛ فإنَّ الدعاء مُخُّ العبادة ، ومن الإخلاص فى الدعاء أنْ

---

(١) فالموت بالقبض والفناء والمحو ، والحياة بالبسط والبقاء والإثبات . ونحسب أن الكلام الموجود بين القوسين الكبيرين يتصل بالآية السابقة نظراً لتلاؤم تقليب الأحوال مع الإماتة والإحياء وكنا نريد أن نضعه فى مكانه حسبما رأينا لولا أنه موضوع هنا فى م و ص . ويبدو أن القشيرى اعتبر الآيتين كيانا عضوياً واحداً ، فجاءت الإشارة منهما جميعا .

(٢) أى تنصلوا من ذنوبهم .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

تكونَ فى حال الاضطرار لما لا يكون ابتداؤه جُرْماً لك ، وتكون ضرورتُك لسراية جنايتك .

قوله جل ذكره : « رفيعُ الدرجاتِ ذو العَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَن يشاء مِنْ عباده لِيُنذِرَ يومَ التلاقِ » .

رافعُ الدرجات للعُصاةِ بالنجاة[1] ، وللمطيعين بالمثوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوى الحاجات بالكفايات ، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإرادات .

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم فى الجنة ، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم فى الدنيا ؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكونَيْن دون المساكنة إليهما . وأمَّا المحبون فيرفع درجاتِهم عن أن يطلبوا فى الدنيا والعُقبى شيئاً غيرَ رضاء محبوبهم[2] .

« ذو العرش » : ذو المُلْكِ الرفيع . ويقال العرش الذى هو قِبْلَةُ الدعاء ، خَلَقَه أرفعَ المخلوقاتِ وأعظَمَها جُثة[3] .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » روحٌ بها ضياء أبدانهم — وهو سلطانُ عقولهم ، وروحٌ بها ضياء قلوبهم — وهو شفاء علومهم ، وروحٌ بها ضياء أرواحهم

---

(١) واضح أن القشيرى لايكاد يترك فرصة دون أن يفتح أبواب الأمل أمام العصاة حتى لايقنطوا من رحمة الله .. وهذا نابع من سماحته الصوفية الأصيلة .

(٢) هنا نلاحظ أن القشيرى جعل المحب أعلى درجة من العارف — مع أن العرفان الذى غايته التوحيد — هو أعلى مراتب الطريق الصوفى . ولكن نظراً لأن الحب والفناء والمعرفة كلها من الحب وإلى الحب فكثيراً ما نجد كتاب التصوف كالقشيرى والغزالى وغيرهما لايتقيدون تقيداً حرفياً بهذا الترتيب الذى يفيد فى الدراسة فقط ، وقد تناولنا هذه النقطة بالتفصيل فى كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف» فى مقدمة باب «المذاقات» .

(٣) نلاحظ أن القشيرى هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة الدعاء ثم يعود فيقول (.... وأعظمها جثة) بمعنى أن يجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه النسبة المادية ، فإذا كان ذلك بقصد مخاطبة الناس على قدر فهومهم — كما قلنا من قبل فهذا جائز .. ولكن الواقع أن القشيرى يعبر عن شىء من الاضطراب الذى أصاب الأشاعرة إزاء المتشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل فى كتابنا (الإمام القشيرى — تصوفه وأدبه) ... ولعل خير ما انتهى إليه الرازى قوله «حاصل مذهب السلف أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله منها شىء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها» (أساس التقديس للرازى ط الكردى ص ٢٢٣) :

— والذى هو للرُّوح رَوْحٌ — بقاؤهم بالله .

ويقال : روحٌ هو روح إلهام ، وروح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

ويقال : روح النبوة ، وروح الرسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة .

ويقال : روح بها بقاء الخلق ،وروح بها ضياء الحق .

قوله جل ذكره : « يوم هُم بارِزونَ لا يَخفَىٰ على اللهِ منهم شيءٌ » .

يعلم الحاصل الموجود ، ويعلم المعدوم المفقود ، والذى كان والذى يكون ، والذى لا يكون مما عَلِمَ أنه لايجوز أن يكون ، والذى جاز أن يكون أنْ لو كان كيف كان يكون .

« لِمَنِ المُلْكُ اليومَ للهِ الواحدِ القَهّارِ » .

لا يتقيد مُلْكُه بيومٍ ، ولا يختصُّ مُلْكُهُ بوقتٍ ، ولكنَّ دَعَاوَى الخَلْقِ — اليومَ — لا أصلَ لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام .

قوله جل ذكره : « اليومَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليومَ إنَّ اللهَ سريعُ الحساب »

يجازيهم على أعمالهم بالجنان ، وعلى أحوالهم بالرضوان ، وعلى أنفاسهم بالقربة ، وعلى محبتهم بالرؤية .

ويجازى المذنبين على توبتهم بالغفران ، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء .

« لا ظلمَ اليوم » : أى أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه ، وكل ما يفعل فله أنْ يفعلَه . « وهو سريع الحساب » مع عباده ؛ لايشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحساب مع أوليائه فى الحال ؛ يطالبهم بالصغير والكبير ، والنقير والقطمير .

قوله جل ذكره : « وأنذِرهم يومَ الآزفة إذِ القلوبُ لدى

الحناجرِ كاظمين ما للظالمين مِنْ حَمِيمٍ ولا شفيعٍ يُطَاع » .

قيامةُ الكلِّ مؤجَّلة ، وقيامةُ المحبين مُعَجَّلة ؛ فَلَهم فى كلِّ نَفَسٍ قيامةٌ من العقاب والعذاب والثواب ، والبُعَاد والاقتراب ، وما لم يكن لهم فى حساب[1] ، وتشهد عليهم الأعضاء ؛ فالدمعُ يشهد ، وخَفَقَانُ القلبِ ينطق ، والنحولُ يُخْبِر ، واللونُ يُفْصِح . . . والعبدُ يَسْتُرُ ولكن البلاءَ يَظْهَرُ :

يامَنْ تَغَيَّرُ صورتى لَمَّا بَدَا لجميعِ ما ظنُّوا بنا تصديقاً[2]

وأنشدوا :

لى فى محبتـــه شهودٌ أربعٌ وشهودُ كلِّ قضيـــة اثنان
ذوبانُ جسمى وارتعادُ مفاصلى وخفوقُ قلبى واعتقالُ لسانى

وقلوبُهم — إذا أَزِفَ الرحيلُ بَلَغَت الحناجر ، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا نودى بالرحيل وشُدَّت الرواحل .

قوله جل ذكره : « يعلم خائِنَةَ الأعيُنِ وما تُخْفِى الصدورُ » .

فخائنةُ أعين المحبين استحسانهم شيئاً ، ولهذا قالوا :

يا قُرَّة العينِ : سَلْ عينى هل اكتحلت بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن بَصَرِى ؟

ولذلك قالوا :

فعينى إذا استحسنَتْ غيرَكم أَمَرْتُ السُّهادَ بتعذيبها

---

(١) أى وما لم يخطر لهم ببال .

(٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن : يأيها الذى تتغير صورتى عند تجليه علىّ ، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى ، وبذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين .

ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السِّنَةُ والسُّبات فى أوقات المناجاة ؛ وقد جاء فى قصة داود عليه السلام : كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتى ، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عَنِّى !

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم عمَّا تقع عليه عيونُهم .

ومن خائنة أعين الموحِّدين أن تخرج منها قطرةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوقٍ يفوت فى الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأى وجهٍ كان ، ففى الخبر : « حُبُّكَ الشىء يعمى ويصم » .

« وما تخفى الصدور » : فالحقُّ به خبير[1] .

قوله جل ذكره : « واللهُ يقضى بالحقِّ والذين يَدْعُون مِن دونِه لا يَقْضُونَ بشىء إنَّ اللهَ هو السميعُ البصير » .

يقضى للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يومَ القدوم بعَزْلِ عمال الصدود، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبْشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سِكَّةِ[2] الأحبابِ فى صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبْرة لينظرَ إليه أهلُ الحضْرَة .

قوله جل ذكره : « أوَلَم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا مِن قَبْلِهم كانوا هم أشَدَّ منهم قوةً وآثاراً

---

(١) كان عبد الله بن أبى سرح يكتب الوحى لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة .

ويروى أنه لما جىء به إلى الرسول (ص) بعدما اطمأنَّ أهل مكة ، وطلب عثمان رضى الله عنه له الأمان صمت الرسول طويلا ثم قال : «نعم» ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : إن النبى لا تكون له خائنة أعين » .

(٢) السكة = الطريق المستوى .

فى الأرضِ فأخذهم اللهُ بذنوبِهم
وما كان لهم مِنَ اللهِ من واقٍ » .

أو لم يسيروا فى أقطار الأرْض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقَها ومغاربَها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها ؟ أو لم يسيروا بقلوبهم فى الملكوت بجَولاَن الفكر ليشهدوا أنوارَ التجلِّى فيستبصروا بها ؟ أو لم يسيروا بأسرارهم فى ساحات الصمدية ليستهلكوا فى سلطان الحقائق ، وليتخلَّصُوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها ؟ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّهم كانت تأتيهم رُسُلُهم
بالبيناتِ فكفروا فأخَذَهُم اللهُ إنَّه قويٌّ
شديدُ العقاب » .

إنْ بغى من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلْيَعْلَمْ أنَّ مُوجِبَ حَجْبِه اعتراضٌ خامَرَ قلبَه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته ؛ فإنَّ الشيوخَ بمحلِّ السفراء للمريدين .وفى الخبر : « الشيخُ فى قومه كالنبيِّ فى أمته »[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا وسلطانٍ
مبين * إلى فِرعونَ وهامانَ وقارونَ
فقالوا ساحِرٌ كَذَّابٌ » .

أكْرَمُ خَلْقِه فى وقته كان موسى عليه السلام ، وأخَسُّ خَلْقِه وأذَلُّهم فى حُكْمِه وأشدُّهم كفراً كان فرعون ؛ فما قال أحدٌ غيرَه : « ما عَلِمْتُ لكم من إلٰهٍ غيرِى »[2].

فَبَعَثَ اللهُ — أخصَّ عِباده إلى أخسِّ عِباده ، فقابله بالتكذيب ، ونَسَبَه إلى السِّحر ،

---

(١) يقول السهروردى فى عوارفه: «وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله (ص) وهم أحق الناس بإحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب (ص٢٩٣) عوارف المعارف ، وفى موضع آخر يقول : «فليعلم المريد أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام . ص ٢٨٥ .

(٢) آية ٣٨ سورة القصص .

وأنَّبَهُ بكل أنواع التأنيب . ثم لم يُعَجِّلْ اللهُ عقوبتَه ، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه — إنه سبحانه حليمٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جاءهم بالحقِّ مِنْ عندنا قالوا
اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستَحْيُوا
نِساءهم وما كيدُ الكافرين إلاَّ فى ضلال ».

عَزَمَ على إهلاكه وإهلاكِ قومه ، واستعان على ذلك بجُنْدِه وخَيْلِه ورَجْلِه ، ولكن كان كما قال الله : « وما كيد الكافرين إلا فى ضلال » ، لأنه إذا حَفَرَ أحدٌ لِوَلِيٍّ من أولياء الله تعالى حُفْرةً ما وقع فيها غيرُ حَافِرِها .. بذلك أجرى الحقُّ سُنَّتَه .

قوله جل ذكره : « وقال فرعونُ ذرونى أَقْتُلْ موسى
ولْيَدْعُ رَبَّهُ إنِّى أخاف أن يُبَدِّلَ
دينَكم أوأن يُظْهِرَ فى الأرضِ الفسادَ ».

« ولْيَدْعُ ربَّه » أى لِيَسْتَعِنْ بربه ، وإنى أخاف أن يبدل دينكم ، وأخاف أن يُفْسِدَ فى الأرض ، وكان المفْسِدُ هو فرعون ، وهو كما قيل فى المثل : « رَمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ ». ولكن كادَ له له الكيد ، والكائد لا يتخلص من كيده .

فاستعاذ موسى بربه ، وانتُدِبَ فى الردِّ عليهم مؤمِنٌ بالله وبموسى كان يكتم إيمانَه عن فرعون وقومه : —

« وقال رَجُلٌ مؤمِنٌ من آلِ فرعونَ
يكتم إيمانَه أتقتلون رجلاً أن يقولَ رَبِّىَ
اللهُ وقد جاءكم بالبيِّناتِ مِنْ ربِّكم
وإن يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُه وإن
يكُ صادِقاً يُصِبْكُم بعضُ الذى يَعِدُكُم
إن اللهَ لا يَهْدِى مَنْ هو مُسْرِفٌ
كذَّابٌ » .. الآيات

نَصَحَهُم واحتَجَّ عليهم فلم ينجعْ فيهم نُصْحٌ ولا قَوْلٌ . وكم كَرَّرَ ذلك المؤمن من آل فرعون القولَ وأعاد لهم النُّصْحَ ! فلم يستمعوا له ، وكان كما قيل :

وكم سُقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ ... وقـــد يستفيد البغضة المتنصِّحُ

قوله جل ذكره : « ولقد جاءكم يُوسفُ مِنْ قَبْلُ بالبينات فما زِلْتُم فى شَكٍّ مِمَّا جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قُلْتُم لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِه رسولاً كذلك يُضِلُّ اللهُ مَنْ هو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » .

بَيَّنَ أنَّ تكذيبَهم كتكذيب آبائهم وأسلافهم من قبل ، وكما أهلك أولئك قديماً كذلك يفعل بهؤلاء .

قوله جل ذكره : « وقال فرعونُ ياهامانُ ابنِ لى صَرْحاً لَعَلِّى أبلغُ الأسبابَ * أسبابَ السمٰوات فأطَّلِعَ إلى إلٰهِ موسى وإنِّى لأَظُنُّه كاذباً » .

السببُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشىء ؛ أى لعلِّى أصل إلى السماء فأَطَّلِعَ إلى إله موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ فى السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خِزْياً لمذهبهم(١) . وقد غَلِطَ فرعونُ حين تَوَهَّمَ أنَّ المعبودَ فى السماء ، ولو كان فى السماء لَكَانَ فرعونُ مُصِيباً فى طَلَبِه من السماء .

قوله جل ذكره : « وكذلك زُيِّنَ لِفرعونَ سوءُ عَمَلِه وصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فِرعونَ إلا فى تباب » .

أخبر أنَّ اعتقادَه بأنَّ المعبودَ فى السماء خطأٌ ، وأنَّه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله .

قوله جل ذكره : « وقال الذى آمَنَ يا قومِ اتَّبعونِ

---

(١) هنا يغمز القشيرى بالمشبهة غمزة قاسية (انظر ص ٣٤٥ من هذا المجلد) .

أَهْدِكُم سبيلَ الرشادِ * يا قوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاع وإنَّ الآخِرَةَ هى دارُ القرارِ » .

أَصَرَّ على دعائه لهم وأصَرُّوا على جحودهم وعُنُودِهم .

« مَنْ عَمِلَ سيئةً فلا يُجْزَىٰ إلا مِثْلَها ومَنْ عَمِلَ صالحًا من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مُؤمِنٌ فأولئك يدخلون الجنَّةَ يُرْزَقُونَ فيها بغير حِسَاب » .

« فلا يجزى إلا مثلها » : فى المقدار لا فى الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأةُ من الله عليها حسنةٌ وليست بسيئة .

« وهو مؤمن » يعنى فى الحال[1] ، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً فى الحال لا يكون منه العملُ الصالحُ ، « فأولئك يدخلون الجنة يُرْزَقُون فيها بغير حساب » : أى رزقًا مؤبَّدًا مُخلَّدًا ، لا يخرجون من الجنة ولا مِمَّا هم عليه من المآل .

« ويا قومِ مالِى أدْعوكُم إلى النجاةِ وتدْعُونَنى إلى النار » .

وهذا كُلُّه مِنْ قَوْلِ مؤمنِ آلِ فرعونَ ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

« تدعـــوننى لأكْفُرَ باللهِ وأُشْرِكَ به ما ليس لى به عِلْمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيزِ الغفَّارِ » .

تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لى بصحة قولكم ، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

---

(١) فى الحال هنا معناها فى هذه الحياة الدنيا .

« لا جَرَمَ أنَّما تدعوننى إليه ليس له
دعوةٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة وأنَّ مَرَدَّنا
إلى اللهِ وأنَّ المسرِفين هم أصحابُ النارِ »

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعوننى إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياةٌ ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ ، وهى لا تنفع ولا تَضُرُّ . ولقـــد علمنا — بقول الذين ظهر صِدْقُهم بالمعجزاتِ — كَذِبَكُمْ فيما تقولون .

« فَسَتَذْكُرون ما أقولُ لكم وأُفَوِّضُ
أمرى إلى اللهِ إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ » .

أفوض أمرى إلى الله ، وأتوكل عليه ، ولا أخاف منكم ، ولا من كيدكم .

قوله جل ذكره : « فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ ما مَكَرُوا
وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذابِ *
النارُ يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ،
ويومَ تقومُ الساعةُ أَدْخِلُوا آلَ فرعونَ
أشَدَّ العذابِ » .

والآية تدلُّ على عذاب القبر[1] .

ويقال إنَّ أرواحَ الكفار فى حواصل طير سُودٍ تُعْرَضُ على النار غدوا وعشياً إلى يوم القيامة . حيث تدخل النار[2] .

« أدخلوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب » : أى يا آل فرعون أَدْخُلوا أشدَّ العذاب ، فنَصَبه على النداء المضاف . ويقرأ « أَدْخِلوا » على الأمر[3] .

---

(١) بدليل قوله تعالى فيما بعد عن عذاب الآخرة : «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وممن استنتج هذه النتيجة مجاهد وعكرمه ومقاتل ومحمد بن كعب .

(٢) أى هذا دأبها فى الدنيا تذهب فى الغداة أفواجاً أفواجاً بيضا صغاراً ثم تعود فى العشاء سوداً قد احترقت رياشها (الأوزاعى — والنص عند القرطبى جـ١٥ ص ٣١٩)

(٣) فيكون الأمر عندئذ لملائكة العذاب .

« أشد العذاب » : أى أصعبه ، وأصعبُ عذابٍ للكفار فى النار يأسُهم من الخروج عنها . أمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم فى النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين ، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم .

قوله جل ذكره : « وإذ يَتَحَاجُّون فى النار فيقولُ الضعفاء للذين استكبروا إنَّا كُنَّا لكم تبعاً فهل أنتم مُغْنُونَ عنَّا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنَّا كُلٌّ فيها إنَّ اللهَ قد حَكَمَ بين العبادِ » .

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم وافقتمونا باختياركم[1] ؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد فى غيظ قلوبهم ، فكما يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضِيقِ صدورهم وببُغْضِ بعضهم لبعض .

قوله جل ذكره : « وقال الذين فى النارِ لِخَزَنَةِ جهنَّمَ ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يوماً من العذابِ * قالوا أَوَلَم تَكُ تأتيكم رُسُلُكُم بالبيناتِ قالوا بلى ، قالوا : فادْعُوا ، وما دُعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية ، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربِّهم[2] . ثم إن الله ينزع الرحمةَ عن قلوب الملائكة كى لا يستشفعوا لهم .

---

(١) لاحظ هنا كيف يحرص القشيرى على إبراز عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه ينادى بأن الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاتجاهين فقال : يجرى هذا من العبد فعلا ومن الله حكماً .

(٢) من ذلك نفهم أن القشيرى لا يرى بالواسطة عند الدعاء ، بل ينبغى أن تدعو الله مباشرة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ » .

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظَّفَرَ وضِدَّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله .

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة[1] وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك ، ويعرفوا — بالاضطرار[2] — أَنَّ التأثيرَ من الله ،وغاية النصرة أن يَقْتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره ، فإذا أراد حَتْفَه[3] تحقَّق بأن لا عَدُوَّ على الحقيقة ، وأنَّ الخَلْقَ أشباحٌ تجرى عليهم أحكامُ القدرة ؛ فالوليُّ لا عدوَّ له ، ولا صديق له إلا الله ، قال تعالى : « الله وليُّ الذين آمنوا »[4] .

قوله جل ذكره : « يومَ لا ينفعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ » .

دليلُ الخطابِ أن للمؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهم ، ولهم من الله الرحمة، ولهم حُسْنُ الدار ، ومابقى من هذه الدنيا إلا اليسير

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الهُدَىٰ وأورثْنا بنى إسرائيلَ الكتابَ * هُدًى وذِكْرى لأُولى الألبابِ » .

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى .

---

(١) في ص (بالمغفرة) والملائم السياق (بالمعرفة واليقين) كما جاء في م .

(٢) أى تكون معرفة ضرورية ، ونحن نعلم من مذهب القشيرى أن المعرفة في الابتداء كسبية (من العبد) وفي الانتهاء ضرورية (من الرب) .

(٣) في ص (حققه) والملائم السياق أنه يريه (حتف) عدوه .

(٤) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « فاصبرْ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ واستغفرْ لذَنبِك وسَبِّحْ بِحَمْـدِ ربِّكَ بالعشىِّ والإبكارِ » .

الصبرُ فى انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فمَنْ كان تصديقُه ويقينُه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتمَّ وأوفى .

« إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ » : وهو — سبحانه — يُعْطِى وإنْ تَوَهَّمَ العبدُ أنه يُبْطِى .

ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر[1] .

« واستغفر لذنبك » . وفى هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جميعُ استغفاره لأمته لأنه قال فى موضع آخر « وللمؤمنين والمؤمنات »[2] وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حَمْلُ الذَّنْبِ على ما كان قبل النبوة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّلَّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة[3] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُجادِلون فى آياتِ اللهِ بغير سُلطانٍ أتاهُم إن فى صُدورِهم إلاَّ كِبْرٌ مَّاهُم ببالغِيه فاستَعِذْ باللهِ إنه هو السميعُ البصيرُ » .

« بغير سلطان » : أى بغير حجة .

« إنْ فى صدورهم إلا كبر » أى ليس فى صدورهم إلا كِبْرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق ، ويبقون به عن الله ، ولا يصلون إلى مرادهم .

---

(١) لأن قوة الإنسان قد تنسيه ذكر المنعم فيصبر عنه — وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان فى البلاء يدعوه إلى الصبر فى الله ، قال قائلهم :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

(٢) آية ١٩ سورة محمد .

(٣) تفيد هذه الآراء عند بحث قضية كلامية هى : عصمة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « لَخَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ أكبرُ مِنْ خَلْقِ النـاسِ ولـكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلمُون » .

أى خَلْقُ السـمٰواتِ والأرضِ أكبرُ من بَعْثهم وخَلْقهم مرةً أخرى بعد أن صاروا رميما ؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلْقِ السمٰوات والأرض، وينكرون أمرَ البعث .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمىٰ والبصيرُ والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحـاتِ ولا المسىء قليلاً ما تتذكّرون » .

أراد به : ما يستوى المؤمنُ والـكافرُ ، ولا المربوط بشهوته كالمبسوط بصفوته ، ولا المجـذوبُ بقربته كالمحجوب بعقوبته ، ولا المُرَقّى إلى مشاهدته كالمُبَقّى فى شـاهده ، ولا المجدود[1] بسعادته كالمردود لشقاوته .

قوله جـل ذكره : « إنّ السـاعةَ لآتيةٌ لا ريبَ فيهـا ولـكنّ أكثرَ النـاسِ لا يؤمنون » .

إنّ ميقـاتَ الحسابِ لـكائنٌ وإن وقعت المدةُ فى أوانه[2] .

قوله جـل ذكره : « وقال ربكم ادعونى أستَجبْ لـكم إنّ الذين يستكبرونَ عن عبادتى سَيَدْخُلون جَهنم داخرينَ » .

معناه : أدعونى أستجب لـكم إنْ شِئتُ ؛ لأنه قال فى آيةٍ أخرى : « فيـكشف ما تدعون إليه إن شاء »[3].

---

(١) جُدَّ فهو مجدود أى كان له حظ .

(٢) أى إن وقت الحساب لكائن مهما طالت المدة بيننا وبين وقت حصوله .

(٣) آية ٤١ سورة الأنعام .

ويقال ادعونى بشرطِ الدعاء ، وشرطُ الدعاء الأكل من الحلال ؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُه الحاجة ، وأسبابُه اللقمةُ الحلال .

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له ، أو بشىء آخر هو خيرٌ له منه .

ويقال الكافر ليس يدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريكٌ ، وهو لا شريكَ له .

ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو اللهِ ويسأله شيئاً إلا أعطاه فى الدنيا ، فأما فى الآخرة فيقول له : هذا ما طَلبْتَه فى الدنيا ، وقد ادْخرتُه لك لهذا اليوم حتى لَيتَمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً فى الدنيا قط .

ويقال أدعونى بالطاعات استَجبْ لكم بالثواب والدرجات .

ويقال أدعونى بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . ويقال ادعونى بالتنصل أستجب لكم بالتفضُّل . ويقال ادعونى بحسَبِ الطاقة أستجب لكم بكشف الفُاقة

ويقال ادعونى بالسؤال أستجب لكم بالنوَال والأفضال .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتى . . » أى يستكبرون عن دعائى ، سيدخلون جهنم صاغرين .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جعل لكم اللَّيلَ لتسكُنوا فيه ، والنهارَ مُبصراً » ... الآيات

سكونُ الناسِ فى الليل على أقسام : أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم ، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم ، وشتّان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة !

قومٌ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم ، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لبسْطهم واستقلالهم ، وقومٌ يعدِمون القرارَ فى ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشفاق . . . أبداً فى الاحتراق .

« ذلكم اللهُ ربّكم » الذى جَعَل سكونكم معه ، وانزعاجكم له ، واشتياقكم إليه ، ومَحَبّتكم فيه ، وانقطاعَكم إليه .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جعل لكم الأرضَ قَراراً والسماءَ بِناء وصوّركم فأحْسنَ صُوَرَكم » .

« صوّركم فأحسن صُوَرَكم » : خَلقَ العرشَ والكرسىّ والسمٰواتِ والأرضين وجميعَ المخلوقاتِ ولم يقُلْ هذا الخطابَ ، وإنما قال لنا : « وصوّركم فأحسن صورَكم » وليس الحَسَنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحَسَنُ ما يستحسنه الحبيبُ :

ما حَطّكَ الواشون عن رتبةٍ عندى ولا ضَرّكَ مُغتابُ
كأنهم أثْنَوْا — ولم يعلموا — عليكَ عندى بالذى عابوا

لم يَقُلْ للشموس فى علائها ، ولا للأقمار فى ضيائها : « وصوّركم فأحسن صوركم » .

ولمّا انتهى إلينا قال ذلك ، وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[1]

ويقال إن الواشين قَبّحوا صورتكم عندنا[2] ، بل الملائكةُ كتبوا فى صحائفكم قبيحَ ما ارتكبتم . . ومولاكم أحْسَنَ صوَرَكم ، بأنْ محا من ديوانكم الزّلاّت ، وأثبت بدلاً منها الحسناتِ ، قال تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت »[3] ، وقال : « فأولئك يُبدِّل اللهُ سيئاتهم حسنات »[4] .

قوله جل ذكره : « ورزَقكم من الطيِّبات » .

ليس الطيبُ ما تستطيبه النفسُ إنما الطيب ما يستطيبُه القلبُ ، فالخبزُ

---

(١) آية ٤ سورة التين .

(٢) ربما يقصد القشيرى بذلك إبليس الذى استمل بكونه مخلوقاً من نار على آدم المخلوق من الطين .

(٣) آية ٣٩ سورة الرعد .

(٤) آية ٧٠ سورة الفرقان .

القفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنىّ المتسخّط .

ورزقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوبِ لذاذات الطاعات .

قوله جل ذكره : « هو الحىُّ لا إله إلا هو فادعوه
مُخلصين لهُ الدينَ الحمدُ للهِ
ربِّ العالمين »

« هو الحىُّ » : الذى لا يموت ، ولا فَضْلهُ يفوت ، فادعوه بلسان القوت ، وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنى نُهيتُ أنْ أعبُدَ الذين
تدعُون مِن دونِ اللهِ لما جاءنىَ
البيِّنَاتُ مِنْ ربِّىَ وأُمِرْتُ أنْ أُسلِمَ
لِرَبِّ العَالَمين »

قُلْ — يا محمد — إنى نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله ؛ أى أُمرْتُ بالتبرِّى عمَّا عبدْتم ، والإعراضِ عمّا به اشتغلتم ، والاستسلام للذى خلقنى ، وبالنبوة استخصّنى .

قوله جل ذكره : « هو الذى خلقكُم مِّن ترابٍ
ثمّ مِن نُطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم
يُخرُجكم طِفلاً ثم لتبلغوا أشُدّكم ثم
لتكونوا شيوخاً . . »

فمن تُرْبةٍ إلى قَطْرَةٍ ؛ ومن قطرةٍ إلى عَلَقَةٍ .. ثم من بطون أمهاتكم إلى ظهوركم فى دنياكم .. ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً ..

وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يبعث فى أخرى الدارين .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ إلى الذين يُجادلونَ

فى آياتِ اللهِ أنى يُصْرَفون » .

فى آيات الله يَتبلّدُون ؛ فلا حُجةَ يوردُون ، ولا عذابَ عن أنفسهم يَرُدُّون ، سيعلمون حينَ لا ينفعهم عِلمُهم ، ويعتذرون حين لا يُسَمع عُذْرُهم ، وذلك عندما :

« إذِ الأغْلالُ فى أعناقهم والسلاسلُ يُسْحَبُون * فى الحميم ثم فى النار يُسجَرُون » . . الآيات .

يُسْحبُون فى النار والأغلالُ فى أعنَاقهم ، ثم يُذَاقُون ألوانَ العذاب . . فإذا أقرُّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم : أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثواهم ومصيرهم ، وساء ذهابُهم ومسيرهم .

قوله جل ذكره : « فاصْبر إنّ وعدَ اللهِ حَقٌّ فإمَّا نُرِينَّك بعضَ الذى نعِدُهم أو نَتوفينَّكَ فإلينا يُرجَعُون » .

كُنْ بِقلبكَ فارغاً عنهم ، وانظرْ منْ بَعدُ إلى ما يُفعلُ بهم ، واستيقنْ بأنه لابقاء لجولة باطلهم . . فإنْ لقيت بعضَ ما نَتوعدُهم به وإلاّ فلا تكُ فى ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ . ثم أكّدَ تسليتَه إياه وتجديدَ تصبيره وتعريفه بقوله :

« ولقد أرسلنا رُسلاً مِن قَبلكَ منهم مَن قصَصْنا عليك ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك ، وما كان لرسولٍ أن يأتىَ بآيةٍ إلا بإذنِ اللهِ فإذا جاء أمرُ اللهِ قُضِىَ بالحـــقِّ وخَسِرَ هنالِك المُبْطِلُون » .

قصصنا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن فى وسع أحدٍ الإتيان بمعجزة إلا إذَا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذَا ما أردنا . فكذلك إنْ طالبُوك بآيةٍ فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحنا به العُذْر، وأوضحنا صِحّةَ الأمر . . وما اقترحُوه ... فإنْ شئنا أظهَرْنا ، وإنْ شِئنا ترَكْنا .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جَعَل لكم الأنعامَ
لِترْكَبُوا مِنهَا وَمنهَا تأكلُونَ *
ولكم فيهَا منَافعُ ولتبلُغُوا عليها حاجةً
فى صُدُوركم وعليها وعَلَى الفُلْكِ
تُحْمَلونَ * ويُريكم آياتِه فأىَّ
آياتِ اللهِ تُنكِرُون »

ذَكّرَهم عظيمَ إنعامه بتسخير الأَنعام ؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بهَا بالركوب والحَمْل والعمل ، ولتستقوا ألبانها ، ولتأكلوا لحومَها وشحومَها ، ولتنتفعوا بأصوَافها وأوبارها وأشعارها ، ولتقطعوا مسافة بعيدةً عليها . . . فعلى الأنعام وفى الفُلْكِ تَنْتقلون من صُقْعٍ إلى صُقعٍ . . وَأنَا الذى يَسَّرْتُ لكم هذا ، وأنا الذى ألهمتكم الانتفَاع به ؛ فَتَقُوا فى ذلك واعرفوه .

قوله جَل ذكره : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا
كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبلهمْ
كَانوا أكثرَ منهمْ وأشدَّ قوةً وآثاراً
فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا
يكْسبون » . . الآيات

أعرَهم بالاعتبار بِمَنْ كانُوا قبلهُمْ ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكثرَ أموالًا وأطولَ أعمَاراً ، فانجرُّوا فى حِبَالِ آمالهم ، فوقعوا فى وهْدَة غرورهم ، وما بقى الحقُّ

عن مراده فيهم ، واغتروا بسلامتهم فى مُدّةِ ما أرخينا لهم عنان إمهالهم ، ثم فاجأناهُم بالعقوبة ، فلم يُعْجِزُوا اللهَ فى مُرادِه منهم .

فلمَّا رأوا شِدَّةَ البأسِ ، ووقعوا فى مذلّةِ الخيبة واليأس تمنّوْا أن لوْ أعيدُوا إلى الدنيا من الرأس . . فقابلهم الله بالخيبة[1] ؛ وخَرَطهم فى سِلكِ مَنْ أبادَهم من أهل الشِّرْكِ والسّخْطِ .

---

(١) لأن التوبة لا تكون بعد حصول العلم الضرورى ورؤية العذاب ، فإن أوانها يكون قد انقضى .

سورة فصلت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

أفلح مَنْ عرف « بسم الله » ، وما ربح مَنْ بقى عن « بسم الله » .

مَنْ صحب لسانُه « بسم الله » وصحب جَنانُه « بسم الله » كفى له شفيعاً « بسم الله » إلى مَنْ يُعِيذُنا بِذِكْرِ « بسم الله » .

قوله جل ذكره : « حمٓ * تنزيلٌ من الرحمٰن الرحيم » .

بحقى وحياتى ، ومجدى فى صفاتى وذاتى . . هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم .

قوله جل ذكره : « كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون».

بُيِّنَتْ آياتُه ودلالاتُه .

« قرآناً عربياً لقوم يعلمون » : الدليل منصوبٌ للكافة ولكنَّ الاستبصارَ به للعالِمين — دون المُعْرِضين الجاحدين .

« بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرهُم فهم لا يَسمعُون » .

« بشيراً » : لِمَن اخترناهم واصطفيناهم .

« ونذيراً » : لِمَنْ أقيناهم ، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم .

« فأعرض أكثرهم . . » عند دعائنا إياهم ، فهم مُثْبَتُون فيما أردناهم ، وعلى ذلك

(الوصف)[1] عَلِمْناهم[2]

قوله جل ذكره : « وقالوا قلوبُنا فى أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفى آذانِنا وَقْرٌ ومِنْ بيننا وبَيْنِك حجابٌ فاعْمَلْ إننا عاملون » .

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرةٍ لكان ذلك منهم توحيداً[3] ، فَمُنُوا بالمَقْت لِمَا قصدوا من تحقيق القلب .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه وويلٌ للمشركين * الذين لا يُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم كافرون » .

إنما أنا بَشَرٌ مثلكم فى الصورة والبِنْية ، والذات والخِلقَة . والفرقَانُ بينى وبينكم أنَّه يُوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ؛ فالخصوصية مِنْ قِبَلِهِ لا مِنْ قِبَلِى ، ولقد بَقِيتُ فيكم عمراً ، ولقيتمونى دهراً . . فما عثرتم منى على غير صواب ، ولا وجدتم فى قولى شوب كذاب . وأمرى إليكم أنِ استقيموا فى طاعته ، واستسلِموا لأمره . . وطوبى لِمَنْ أجاب ، والويلُ لِمَنْ أصرَّ وعاب ! .

---

(١) سقطت (الوصف) من ص وهى موجودة فى م .

(٢) روى أن قريشاً اختارت عتبة بن ربيعة كى يعرض على النبى (ص) أن يكف عن سب آلهتها وتسفيه أحلامها مقابل رياسة أو مال .. الخ ، وظل يتحدث ، فى ذلك حتى انتهى ، وعندئذ سأله النبى (ص) : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم .. فقال : إسمع .. بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت .....» إلى قوله تعالى : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فوثب عتبة ، ووضع يده على فم النبى وناشده ليسكتن ... ثم مضى إلى قريش فأنبأها بما سمع ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، لأن ما سمعه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر .. ثم أردف : ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لا يكذب ..

(٣) لأنه يكون حينئذ اعترافاً منهم بوجود غطاء من ظلمة البشرية يحجبهم عن حقيقة الأحدية ، ويكون اعترافهم بقصورهم بداية لاستمدادهم لفضل من الله .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ » .

« آمنوا » : شاهدوا ، « وعملوا الصالحات » : لازموا بِساطَ العبودية .

« آمنوا » : شهدوا الحضرة ، « وعملوا الصالحات » : وقفوا بالباب .

« آمنوا » : حضروا ، « وعملوا الصالحات » : بعد ما حضروا لم ينصرفوا .

« لهم أجر غير ممنون » : غير منقوص[1] ؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ ، وأجرُ القلوب الرضا بالله ، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله ، وأجرُ الأسرارِ دوام المشاهدة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أئِنَّكُم لتَكفُرُون بالذى خَلَقَ الأرضَ فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رَبُّ العالَمين » .

خَلَقَ الزمانَ ولم يكن قبله زمان ، وخَلَقَ المكان ، ولم يكن قبله مكان ؛ فالحقُّ — سبحانه — كان ولا مكان ولا زمان ؛ فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُه المكانُ ، ولا يَمْلِكُه الزمان.

« وتجعلون له أنداداً » .. وكيف يكون الذى لم يكن ثم حصل[2] نِدًّا للذى لم يَزَلْ .. ولايزال كما لم يزل ؟ ! ذلك ربُّ العالمين .

قوله جل ذكره : « وجَعَلَ فيها رواسِيَ مِن فوقِها وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها فى أربعة أيامٍ سَوَاءً للسائلين » .

الجبالُ أوتادُ الأرضِ فى الصورة ، والأولياء أوتادٌ ورواسٍ للأرض فى الحقيقة .

---

(١) يقال منفت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَقٍ على الصديق ولا خيرى بممنون

وقيل نزلت الآية فى المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون .

(٢) الذى لم يكن ثم حصل هو الحادث ، المخلوق من العدم .. كيف يكون نداً للقديم الأزلى السرمدى ؟ !

« وبارك فيها » : البركةُ الزيادة . . فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء ، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء .

« وقدَّر فيها أقواتَها » : وجعلها مختلفةً فى الطَّعْمِ والصورةِ والمقدار . وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم .

قوله جل ذكره : « ثم استوىٰ إلى السماء وهى دُخَانٌ
فقال لها وللأرضِ ائتِيا طَوْعاً أو كَرْها
قالتا أتَيْنا طائعين »

« استوى » أى قَصَدَ ، وقيل فعل فعلاً هو الذى يعلم تعيينه[1].

ويقال رتَّبَ أقطارها ، وركَّبَ فيها نجومَها وأزهارَها .

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين » : هذا على ضرب المَثَل ؛ أى لا يتعسَّر عليه شىء مما خلقه ، فله مِنْ خَلْقِهِ ما أراده . وقيل بل أحياهما وأعقلهما وأنطقهما فقالتا ذلك . وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فَلَكاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته .

وأوتادُ النفوسِ الخوفُ والرجاء ، والرغبةُ والرهبة . وفى القلوب ضياء العرفانِ ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقولِ والنفوسِ . والقلوبُ بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه .

قوله جل ذكره : « فقضاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ فى يومين
وأوحىٰ فى كل سماء أمْرَها وزيَّنا السماء
الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقـديرُ
العزيزِ العليمِ » .

---

(١) تقول العرب : فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا ؛ يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثانى ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (النسفى جـ٤ ص ٨٩) .

ومن قال إنه صفة ذاتية زائدة تكون على معنى استوى فى الأزل بصفاته (القرطبى جـ١٥ ص ٣٤٣)

وعلى الرأى الأول يكون الاستواء من صفات الفعل وعلى الثانى يكون من صفات الذات .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمَصابيح ، وزَيَّنَ وجهَ الأرضِ بمصابيحَ هى قلوب الأحباب ؛ فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره : « فإنْ أعرضُوا فقُلْ أنذرتُكُم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ »

أى أَخْبِر المُكَذِّبين لَكَ أنَّ لكم سَلَفاً . . فإن سلكتم طريقهم فى العناد ، وأبيتم إلاَّ الإصرار ألحقناكم بأمثالكم .

« فأمَّا عادٌ فاستكبروا فى الأرضِ بغير الحقِّ وقالوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قوةً أوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الذى خَلَقَهم هو أشدُّ منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدُون » .

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم ، واستمكنت منهم بلواهم .

« فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيامٍ نَحِساتٍ (١) لِنُذِيقَهُم عذابَ الخزى فى الحياةِ الدنيا ولَعَذَابُ الآخرةِ أخْزَىٰ وهم لا يُنصَرون » .

فلم يغادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « وأمَّا ثمودُ فهديناهم فاستَحَبُّوا العَمَىٰ على الهُدَىٰ فأَخَذَتْهُم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يَكْسِبون * ونَجَّيْنا الذين آمنوا وكانوا يتَّقون » .

---

(١) فى قراءة أبى عمرو « نَحْسَاتٍ » وبإسكان الحاء على أنها جمع المصدر « نحس » مستدلا بقوله تعالى : « فى يوم نحس مستمر » ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه .

قيل إنهم فى الابتداء آمنوا وصدّقوا ، ثم ارتدُّوا وكذّبوا ، فأجراهم مجرى إخوانهم فى الاستئصال .

« ونجينا الذين آمنوا . . » : منهم من نجّاهم من غير أن رأوا النار ؛ فَعَبَروا القنطرةَ ولم يعلموا ، وقومٌ كالبرق الخاطف وهم أعلام ، وقومٌ كالراكض . . وهم أيضاً من الأكابر ، وقوم على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط . فبعدَ وبعدَ . . قومٌ بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حَقْوَيْه[1] ، فإذا ما بلغت النار القلب قال الحقُّ لها : (لا تحرق قلبه)[2] ؛ فإنه محترقٌ فىَّ . وقومٌ يخرجون من النار بعدما امْتُحِشُوا[3] فصاروا حُمَمًا[4] :

قوله جل ذكره : « ويومَ يُحْشَرُ أعداء اللهِ إلى النارِ فهم يُوزَعُون * حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودِهم لِمَ شَهِدْتُم علينا قالوا أنطقَنا اللهُ الذى أنطق كلَّ شىء وهو خَلَقَكُم أولَ مرةٍ وإليه تُرْجعون * وما كنتم تستترون أن يشهدَ عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ولكن ظَنَنْتُم أنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيراً مما تعملُونَ * وذلكم ظنكم الذى ظَنَنْتُم بربِّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسِرين » .

---

(١) الحقو = الخصر .

(٢) مابين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٣) أمحش الخر أو النار جلده . أى أحرقه وقشره عن اللحم . ويقال هذه سنة أمحشت كل شىء إذا كانت جدبة .

(٤) الحمم = الفحم أو الرماد .. وكل ما احترق من النار .

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن فى حسابهم أن الله سيُنْطِقها وهو الذى أنطق كلَّ شىء ، ولم يَدُرْ بخَلَدهم ما استقبلهم من المصير الأليم .

« ذلك ظنكم ... » : وكذا مَنْ قعد فى وصف الأقوال ، ووَسَمَ موضِعَه ، وحَكَمَ لنفسه أنه مُقَدَّمُ بلده . فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله ، فإنْ خالف الحالُ قولَه فلا يُعتمد عليه بعد ذلك[1] .

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمرى يُقَابَلُ بالتحقيق ، أمَّا إذا كان نتيجةَ الغرورِ وغيرَ مأذونٍ به فى الشرع فإنه يُرْدِى صاحبَه .

قوله جل ذكره : « فإن يَصْبِروا فالنارُ مثوىً لهم وإن يَسْتَعْتِبُوا فما هم من المُعْتَبِينَ » .

فإنْ يصبروا على موضع الخسف فسينقلبون إلى النار . وإن يستعتبوا — فعلى ما قال — فما هم بمعتبين[2] .

« وقيَّضنا لهم قُرَناءَ فزيَّنُوا لهم ما بين
أيديهم وما خَلْفَهم وحَقَّ عليهم القولُ
فى أُمَمٍ قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِم من الجِنِّ
والإنْسِ إنهم كانوا خاسرين » .

إذا أراد اللهُ بعَبْدٍ خيراً قيَّضَ له قرناءَ خيرٍ يُعينونه على الطاعات ، ويَحْمِلونه عليها ، ويدعونه إليها . وإذا كانوا إخوانَ سوء حملوه على المخالفات ، ودَعَوْه إليها . . ومن ذلك الشيطانُ ؛ فإنهُ مُقَيَّضٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات .. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ. فإنها بئس القرين ! ! فهى تدعو العبدَ — اليومَ — إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عليه غداً بفعل الزلَّة . فالنفسُ — وشرُّ قرينٍ للمرء نفسُه — والشياطينُ وشياطينُ الإنْسِ . . كلها تُزيِّن لهم

---

(١) يعود القشيرى بعد قليل إلى هذا المعنى نفسه حين يتحدث عمن يكلفون بالقالة دون صفاء الحالة .

(٢) أى أن النار مثوى لهم فى الحالين ، ولا مهرب لهم منها ؛ فلا صبرهم بنافع ، ولا طلب الرضا عنهم بنافع ، ولا بد لهم من النار .

« ما بين أيديهم » من طول الأمل ، « وما خلفهم » من نسيان الزَّلَلِ ، والتسويف فى التوبة ، والتقصير فى الطاعة .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كَفَروا لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ وآلْغَوْا فيه لعلَّكم تَغْلِبُونَ »

استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتالوا بكل وجهٍ ، وتواصَوْا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب ، ويسلب العقول ، وكل مَن استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أَخَذَ محمدٌ فى القرآن فأَكْثِرُوا عند قراءته اللَّغوَ واللغطَ حتى يقع فى السهو والغَلَط .

ولم يعلموا أن الذى نُوِّرَ قلبهُ بالإيمان ، وأُيِّدَ بالفهم ، وأُمِّدَ بالنصرة ، وكوشف بسماع السِّرِّ من الغيب هو الذى يسمع ويؤمن . والذى هو فى ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبَه ، ولا يباشر السماعُ سِرَّه[1] .

قوله جل ذكره : « فَلَنُذِيقَنَّ الذين كفروا عذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهم أسوأَ الذى كانوا يعملون»

اليومَ بإدامة الحرمان الذى هو الفراق ، وغداً بالتخليد فى النار التى هى الاحتراق .

« ذلك جَزَاء أعداء اللهِ النارُ لهم فيها دارُ الْخُلْدِ جـزاء بمـا كانوا بآياتنا يَجْحَدُون » .

لهم فيها الخزى والهوان بلا انقطاعٍ ولا انصرام .

« وقال الذين كفروا ربَّنا أَرِنا الذين

---

(١) إذا تذكرنا أن السر أعلى من القلب ومن الروح عرفنا أن «السماع» عند الشيخ ذو مرتبة عالية على عكس مايظنه المغرضون

أضلانا من الجنّ والإنس نجعلهما تحت
أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

من الجنّ إبليس - ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول مَنْ سَنّ المعصية (حين قتل أخاه)[1] .

« نجعلهما تحت أقدامنا » ؛ هذه الإرادة وهذا التمنى زيادة فى عقوبتهم أيضاً ؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمنى ؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَابوا فى شىء ، ولن يُمْنَعَ عنهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرّى فيما بينهم ، فبعضهم يتبرأ من بعض ، كما يفيد بأن الندمَ فى غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين قالوا رَبُّنَا اللهُ ثم استقاموا
تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافوا
ولا تحزنوا وأبْشِروا بالجنة التى كنتم
تُوعَدون » .

« ثم » استقاموا : ثم حرف يقتضى التراخى ، فهو لا يدل على أنهم فى الحال لا يكونون مستقيمين ، ولكن معناه استقاموا فى الحال ، ثم استقاموا فى المآل بأن استداموا إيمانَهم إلى وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخرُ أحوالِ كونِهم مُكَلَّفين .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف التقليد ، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة .

« استقاموا » : الاستقامة هى الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلالٍ بشىء من أقسامها . ويقال : هم على قسمين :

---

(١) زيادة من عندنا للتوضيح وليست موجودة بالمتن .

مستقيم (فى أصول)[1] التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين[2] .

ومستقيم فى الفروع من غير عصيان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فمنهم .. ومنهم ، ومنهم .

« وأبشروا بالجنة » : الذين لهم البشارة هم كل من استقام فى التوحيد ، ولم يشرك . . فله الأمان من الخلود[3] . ويقال : مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ[4] من الخلود فى النار ، ومن له كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحالٍ . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم ؛ فمستقيمٌ فى عهده . ومستقيم فى عقده ، ومستقيم فى جهده ومراعاة حدِّه ، ومستقيم فى عقده وجهده وحدِّه وحبِّه ووِدِّه . . وهذا أتمُّهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا فى تصفية العقد ثم فى توفية العهد ثم فى صحة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم فى وقتهم وفى مآلهم .

ويقال : أقاموا على طاعته ، واستقاموا فى معرفته ، وهاموا فى محبته ، وقاموا بشرائط خدمته .

ويقال : استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا ، وألا يمنعَه الجاهُ بين الناس عن الله . واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفتَه حظٌّ فى الدارين فيحجبه عن مولاه . واستقامةُ العابدِ ألا يعودَ إلى فترته واتباع شهوته ، ولا يتداخله رياء وتصنُّع . واستقامة[5] المُحِبِّ ألا يكون له أرَبٌ من محبوبه ، بل يكتفى من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عِزِّه ووجوده .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » : إنما يكون الخوف فى المستقبل من الوقت ، من حلولِ مكروهٍ أو فوات محبوبٍ ، فالملائكةُ يبشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون ، وكل محذورٍ لهم لا يكون .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (على أصل) وهى مقبولة حسب قوله تعالى فى موضع آخر (استقاموا على الطريقة) ولكننا آثرنا (فى أصول) لتنسجم مع الفروع .

(٢) عن أنس قال : لمّا نزلت هذه الآية قال النبى (ص) : «هم أمتى ورب الكعبة» .

(٣) أى التخليد فى النار .. ويقصد بهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين .

(٤) لاحظ الربط بين الأمن والأمان من ناحية والإيمان من ناحية أخرى .

(٥) أى أن مجرد ذكر المحب لله (الباقى) يكفيه عن تذكر أى عطاء أو منع ، فحسبه الله .

والحزن من حُزُونة الوقت ، ومن كان راضياً بما يجرى فلا حزنَ له فى عيشه . والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزونة فى أحوالهم ، وإنما هم فى الرَّوْح والراحة .

« وأبشروا بالجنة » : أى بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللهُ من جميل الثواب .

والذى هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصِّ عباده بعطاء المَلِكِ ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ فى المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوفٌ ؛ لأن الخوف — كما قلنا من قبل — ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوال محبوبٍ أو حصولِ مكروه ، وإن الذى بصفة الرضا[1] لا حزونة فى حاله ووقته .

ويمكن القول : « لا تخافوا » من العذاب ، « ولا تحزنوا » على ما خلفتم من الأسباب ، « وأبشروا » بحسن الثواب فى المآب .

ويقال : « لا تخافوا » من عزل الولاية ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الجناية ، « وأبشروا » بحسن العناية فى البداية .

ويقال : « لا تخافوا » مما أسلفتم ، « ولا تحزنوا » على ما خلَّفتم ، « وأبشروا » بالجنة التى لها تكلفتم .

ويقال : « لا تخافوا » المذلَّة ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الزلَّة ، « وأبشروا » بدوام الوصلة .

قوله جل ذكره : « نحن أَوْلِياؤُكُم فى الحياة الدُّنيا
وفى الآخرةِ ولكم فيها ما تشتهى
أنفسُكُم ولَكُمْ فيها ما تَدَّعُون * نُزُلاً
من غفورٍ رَحيم » .

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النصرة .

---

(١) هذا من أدق الشروح لمعنى « الرضا » الذى كما نعرف من مذهب القشيرى مرحلة انتقال من المقامات إلى الأحوال .

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطابٍ من الله .

والنصرة تصدر من المحبة ؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة فى الحال .

ويقال : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا » بتحقيق المعرفة ، « وفى الآخرة » بتحصيل المغفرة .

ويقال « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا » بالعناية ، « وفى الآخرة » بحسن الكفاية وجميل الرعاية .

« فى الحياة الدنيا » بالمشاهدة ، « وفى الآخرة » بالمعاينة .

فى الدنيا بالرضاء بالقضاء ، وفى الآخرة باللقاء فى دار البقاء .

فى الدنيا بالإيمان ، وفى الآخرة بالغفران .

فى الدنيا بالمحبة ، وفى الآخرة بالقربة .

« ولكم فيها » أى فى الجنة « ما تشتهى أنفسكم » : الولايةُ نقدٌ ، وتحصيل الشهوات وعدٌ ، فمَنْ يشتغل بنقده قلَّما يشتغل بوعده[1] .

« ولكم فيها ما تدعون » : أى ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيَكم .

« نزلاً » : أى فضلاً وعطاء ، وتقدمةً لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبارّ[2] .

---

(١) تفيد هذه الإشارة الممتعة حقاً فى توضيح الفكرة الصوفية الشائعة التى تقول إن العبادة الحقة هى المجردة عن الطمع فى الثواب والخوف من العقاب .. وهى عند القشيرى من أمارات الولاية والمحبة الصافية .. ويمعن بعض الصوفية فى ذلك فيدفعهم طلب الله لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك للثواب ... ولكنى أريدك للعقاب
فكل مآربى قد نلت منها ... سوى ملذوذ وجدى بالعذاب

(٢) فتكون (نزلا) منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلاً . وقيل : على الحال . وقيل هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين .

« من غفور رحيم » : وفى ذلك مساغٌ لآمال المذنبين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة ، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته .

قوله جل ذكره : « ومَنْ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى اللهِ
وعَمِلَ صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

أى لا أحدَ أحسنُ قولاً منه ، ويكون المراد منه النبى صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله .

وقيل هم المؤذنون . ويقال الداعى إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله وتَرْكِ طلب العِوَضِ من الله ، ويَكِلُ أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

« وعَمِلَ صالحاً » : أى كما يدعو الخَلْقَ إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريقَ الله ، ثم سلكوا طريقَ الله ، ثم دعوا الناسَ إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا الخَلْق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه .

« وقال إننى من المسلمين » : المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره .

قوله جل ذكر : « ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ
اُدْفَعْ بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك
وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميمٌ » .

ادفعْ بالخصلة التى هى أحسن السيئةَ يعنى بالعفو عن المكافأة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الانتصاف[1] .

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » يُشْبِه الولىَّ الحميمَ — ولم يَصِرْ ولياً مخلصاً .. وهذا من جملة حُسْنِ الأدب فى الخدمة فى حقِّ صحبتك مع الله ؛ تحلم مع عباده لأجْلِه .

---

(١) هذه الأوصاف التى ذكرها القشيرى من أمارات الفتوة — كما ورد فى الفصل الذى عقده لها فى «رسالته» .

ومن جملة حُسْن الخُلُق فى الصحبة مع الخَلْقِ ألا تنتقم لنفسك ، وأنْ تعفوَ عن خصمك .

قوله جل ذكره : « وما يُلَقَّاها إلاَّ الذين صَبَرُوا
وما يُلَقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم » .

لايقوم بحق هذه الأخلاق إلّا مَنْ أُكْرِم بتوفيق الصبر ، ورُقِّى عن سفساف الشيم إلى معالى الأخلاق . ولا يصل أحسنَ الدرجاتِ إلا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد .

قوله جل ذكره : « وإمَّا يَنزَغَنَّكَ من الشيطانِ نَزْغٌ
فاستعِذْ باللهِ إنَّه هو السميعُ العليمُ » .

إذا اتصلَتْ بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربِّك ، وارجعْ إليه قبل أية خطوة[1] .. فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة ، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان . . فإذا لم تتداركْ ذلك تجرى الزلَّة ، وإذا لم تتداركْ ذلك بحُسْنِ الرُّجعى صار فسقاً . . وبتمادى الوقت تصبح فى خَطَرِ كل آفة .

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك ينجو من الشيطان ، وقد قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان »[2] ؛ فكلما ازداد العبدُ فى تبرِّيه من حَوْلِه وقوته[3] ، وأخلص بين يدى الله بتضرعه واستعانته واستعاذته زاد اللهُ فى حِفْظه ، ودَفعَ الشيطان عنه .

قوله جَل ذكره : « ومن آياته الليلُ والنهارُ
والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمسِ
ولا للقمرِ واسجدوا للهِ الذى خَلَقَهُنَّ
إن كنتم إياهُ تعبدون » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خطرة) بالراء ، ونحن لا نرفض ذلك إذ يقول القشيرى فى رسالته ص ٤٦ : «الخواطر خطاب يرد على الضمائر وقد يكون الخاطر بإلقاء ملَكٍ ، وأو بإلقاء الشيطان ، وقد يكون حديث النفس».. ويقول فى نفس الموضع : كل خاطر لا يشهد الظاهر فهو باطل .

(٢) آية ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) لأنه كلما ازداد فى ذلك ازدادت عبوديته ، فدخل فى زمرة «عبادى» الذين ليس للشيطان عليهم سلطان . وبهذا الفهم يتأيد السياق ويتماسك فى ظل الشاهد القرآنى .

أَوْضَحَ الآياتِ ، وألاحَ البيناتِ ، وأزاحَ عِلَّةَ مَنْ رام الوصول . واختلافُ الليل والنهار ، ودورانُ الشمسِ والقمرِ من جملة أمارات قدرته ، ودلالات توحيده .

« لا تسجدوا للشمس » فى علائها ، « ولا للقمر » فى ضيائه : « واسجدوا لله » فقد غار[1] عليك أن تسجد لغيره .

والشمسُ — وإنْ عَلَتْ ، والقمر — وإنْ حَسُن . . فلأجْلِكَ خلقناها ، فلا تسجدْ لها ، واسجُدْ لنا .

ويقال : خَلَقَ الملائكة — ومع كثرة عبادتهم ، ومع تقدمهم فى الطاعة — قال لهم : اسجدوا لآدم ، وحين امتنع واحدٌ منهم لُعِنَ إلى الأبد . وقال لأولاد آدم العصاةِ المذنبين : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ... » فشتّان ما هما ! !

والحقُّ — سبحانه وتعالى — يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر .. وأنت لأجْلِ كلِّ حظٍّ خَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كلِّ أحدٍ ؛ وتدخل بمحياك عَلَى كلِّ أحدٍ ! !

قوله جل ذكره : « فإنِ استكبروا فالذين عند رَبِّك يُسَبِّحُون له بالليلِ والنهارِ وهم لا يَسْأَمون »[2]

أى : إنْ تَرَفَّعَ الكفارُ فلا خَلَلَ ؛ لأن الحقَّ غنىٌّ عن كل أحد ، ثم إن الملائكة — الذين هم سكان الآخرة — يسجدون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون من عبادته .

---

(١) يقول القشيرى فى رسالته ص ١٢٦ «الغيرة كراهية مشاركة الغير ، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده» .

(٢) هذه آية سجدة ، واختلف فى موضع السجود منها . . فقال مالك إن موضعه «إن كنتم إياه تعبدون» « لأنه متصل بالأمر» . . وقال الشافعى إنه : «وهم لا يسأمون» لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال .

وقد تضمنت الآية صلاة الكسوف ، وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لايكسفان إلا لموت عظيم .. فصلّى النبى (ص) صلاة الكسوف (القرطبى — ١٥ ص ٣٦٤) .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنك ترى الأرضَ
خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزّتْ
وَرَبَتْ إنّ الذى أحياها لَمُحْيِ الموْتَى
إنَّه عَلَى كل شىء قديرٌ »

الأرضُ تكون جَدْبةً يابسةً فى الشتاء ، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرّت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألمّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه ، فظهرت فيها بركاتُ الندم ، وعفا عن أربابها ما قصرُّوا فى صِدْق القدَم . وكذلك إذا وقعت للعبد فترةٌ فى معاملاته ، أو غيبةٌ عن بساط طاعاته ، ثم تغمّده الحقُّ — سبحانه — بما يدخل عليه من التذكر تظهر فى القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود سداده غضاً طرياً ، ويصير شجر وفاقه — بعد ما أصابته الجدوبة — بماء العناية مستقياً .

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة ، أو حدثت لهم من جرّاء سوء أدبٍ بَدَرَ منهم حجبةٌ ثم نظر الحقُّ — سبحانه — إليهم بالرعاية.. اهتزّت رياضُ أُنْسِهم ، واخضرّت مشاهدُ قربهم ، وانهزمت وفودُ وقفتهم .

« إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير » : إن الذى أحيا الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُلْحِدون فى آياتِنا لا يَخْفَوْن
علينا أفَمَنْ يُلْقَى فى النارِ خيرٌ أم مَنْ
يأتى آمِناً يومَ القيامةِ اعملُوا ما شِئْتُمْ إنه
بما تعملون بصير » .

سيلقون من العذاب مايستوجبونه . . فَلْيَعْمَلوا ماشاءوا . . فليسوا يَسْعَوْن إلاَّ فى ذَمِّهم ، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفروا بالذكر لمَّا جاءهم وإنه لكتابٌ عزيز » .

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عنًّا ، ووقعوا فى هوانهم وشقوا إلى الأبد .

« وإنه لكتاب عزيز » : كتابٌ عزيزٌ لا مِثْلَ له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله .

كتابٌ عزيز غالبٌ لِشُبَهِ المبتدعين والكفار .

عزيزٌ لا يقدر على معارضته أحدٌ .. من قولهم أرض عزاز[1] .

كتابٌ عزيزٌ لأنه كلامُ ربٍّ عزيز إلى رسولٍ عزيزٍ بسفارة مَلَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عزيزة .

كتاب عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبِهم .. وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيب عزيزٌ .

« لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِنْ خلفِه تنزيلٌ مِّن حكيم حميدٍ » .

أى لا ينقضه كتابٌ آخر لا مما تقدَّمه من الكتب ، ولا مما يأتى من بعده .. أى لا كتابَ بعده ، ولانسخَ له .

ويقال لايدفع[2] معناه لفظَه ، ولا يخالف لفظُه معناه ..

ويقال لا يقدر أحدٌ أنْ يأتىَ بمثله .

قوله جل ذكره : « مَّا يُقال لكَ إلا ما قد قيل للرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ وذو عِقابٍ أليم » .

أصولُ التوحيدِ لا تختلف بالشرائع ؛ فجوهرُها فى الأحكام واحد : هو أنه تجب موافقةُ أوامره ، واجتناب مزاجره . ثم إن الله تعالى قال فى كل كتابٍ ، وشَرَعَ لكل أمة أنْ يعرفوا

---

(١) الأرض العزاز = الأرض الصلبة السريعة السيل (الوسيط) .

(٢) دَفَعَ الشيء = نحَّاه وأزاله ، قال تعالى : « ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

أنه للمطيعين مُثيبٌ ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد .

قوله جل ذكره : « ولو جعلناهُ قرآنا أعجمياً لقالوا لولا
فُصِّلَتْ آياته ءَأعجمىٌّ وعربىٌّ قُلْ هو
للذين آمنوا هُدًى وَشِفاء والذين
لا يؤمِنون فى آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم
عَمًى أولئك يُنَادَوْن من مَكانٍ بعيد» .

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ لِمَنْ أراد أنْ يعرفَ صِدْقَ الدعوة ، وصحة الشريعة .

ثم وصفَ الكتابَ بأنه شفاء للمؤمنين ، وسببُ شقاء للكافرين .

وهو شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن كَدِّ الفكر وتحيرُّ الخواطر .

وهو شفاء لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته ، والتلذُّذ بالتفكُّر فيه .

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما بهْ من لُطفِ المواجيد .

وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وآثار خطاب الرب العزيز .

« والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى » : هم لايسمعون بقلوبهم من الحق ، ولا يستجيبون .. بقوا فى ظلمات الجحد والجهل .

« وهو عليهم عمًى » : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِفَ
فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لقُضِىَ
بينهم وإنّهم لفى شكٍّ منه مُريبٍ » .

آتينا موسى التوراةَ ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا فى أمره .. فَمَنْ كَحَّلْنا سرَّه بنور التوحيد صَدَّقه ، ومَنْ أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده .

« ولولا كلمة سبقت من ربك » وهى أن عقوبتَهم فى النار بعد قيام القيامة لعَجَّلنا

استئصالهم ، ولأذقناهم فى الحال وبالهم[1] .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صالحاً فلنفسِه ومَنْ أساء فعليها وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيد » .

« فلنفسه » لأن النفعَ عائدٌ إليه . ومَنْ عمل عملاً سيئاً فإنما ظَلَمَ نَفْسَه ، وأساء إليها ؛ لأنه هو الذى يقاسى ضرَّه ويلاقى شرَّه .

قوله جل ذكره : « إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعةِ وما تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِن أكمامها وما تحملُ من أنثىٰ ولا تَضَعُ إلا بعلمِه ويومَ يُنَادِيهم أين شُرَكائى قالوا ءَاذَنَّاكَ ما مِنَّا من شهيد » .

لمَّا استعجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامةُ التى يَتَوَعَّدُنا بها ؟ قال الله تعالى : إنَّ علمَ القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلمه غيره ، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذى يخرج من الأشجار من الثمار ، وما الذى تنطوى عليه أرحامُ النساء من أولادها ذكوراً وإناثاً ، وما هم عليه من أوصاف الخِلْقة ، وما يحصل من الحيوانات من نتاجها — فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله — فكذلك لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة .

« ويوم يناديهم أين شركائى . . » : يتبرءون من شركائهم ، ولكن فى وقت لا تنفعهم كثرةُ نَدَمِهم وبكائهم .

قوله جل ذكره : « لايسأمُ الإنسانُ من دعاء الخيرِ وإن مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ قنوطٌ » .

---

(١) فى موضع سبق أوضح القشيرى أنه ربما كان من أسباب الحكمة الإلهية فى تأخير عقوبة أمة النبى «ص» - كما حدث للأمم السابقة - هو تأخير العذاب بسبب ما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة ، وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ لا يرجو زوالَه لِمَدَمِ علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه فى الرجوع إليه .

« ولَئِنْ أذقناه رحمةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضرَّاء مَسَّتْه ليقولَنَّ هذا لى وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئِن رُجِعْتُ إلى ربى إنَّ لى عِنـــدَه لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا بما عَمِلُوا ولَنُذِيقَنَّهُم مِّن عذابٍ غَليظ » .

لئن كَشَفْنا عنه البلاءَ ، وأوجبنا له الرجاء لادِّعاه استحقاقاً أو اتفاقاً ، وما اعتقد أن ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول : لو كان لى حشرٌ ونشرٌ لكان لى من الله لطفٌ وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه بخلاف ما تَوَهَّمَ .. وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب .

قوله جل ذكره : « وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعرضَ ونأى بجانبِه وإذا مَسَّهُ الشرُّ فذو دُعاء عريضٍ » .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاء هو مكرٌ واستدراجٌ .. وهو يستديمه . وكثيرٌ مما هو فضلٌ وصَرْفٌ[1] وعطاء يظنه من البلاء فيعافَه[2] ويكرهه .

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحَبَه بالبَطَر ، وإذا أبليناه قابَلَه بالضجر .

ويقال إذا أنعمنا عليه أُعْجِبَ بنفسه ، وتكبَّر مختالا فى زَهْوِه ، لا يشكر ربَّه، ولا يذكر فضله ، ويتباعد عن بِساط طاعته .

---

(١) صَرَف الله المكاره صَرْفا أى أبعدها .

(٢) فى م (فيعافيه) وهى خطأ فى النسخ .

والمستغنى عنّا يهيم على وجهه ، وإذا مسّه الشرُّ فذو دعاء كثيرٍ ، وتضرُّعٍ عريض ، وابتهالٍ شديد ، واستكشافٍ (١) دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُتُوِّه ونُبُوِّه عَوْدٌ ، ولسوء طريقته فى الجحود إعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم إن كان من عند اللهِ ثم كفرتم به مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هو فى شقاقٍ بعيد * سَنُرِيهم آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسِهم حتى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ أو لم يَكْفِ بربِّكَ أنَّهُ على كل شىء شهيد * ألاَ إنَّهم فى مِرْيَةٍ مِّن لقاء ربِّهم ألاَ إنه بكل شىءٍ مُحيط » .

« سنريهم » : السين للاستقبال ؛ أى سيُظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التى تجرى فى أحوال العالَم ، وما سيحِلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبيَّن لهم من خلاله أنَّ هذا الدِّين حقٌّ ، وأنَّ هذا الكتابَ حقٌّ ، وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — حقٌّ ، وأن المُجْرِىَ لهذه الآياتِ والأحداثِ والأمورِ والمنشئَ له هو الحقُّ — سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْرِ الكفار ، وعُلُوِّ الإسلام ، وتلاشى أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات فى الآفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها فى التجانس . وهذه آيات حدوثِ العالَم ، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

« وفى أنفسهم » : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : « فى الآفاق » للعلماء ، « وفى أنفسهم » لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلَمُّوا بذَنْبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا فى طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط ، وجمع وفَرْقٍ ، وحجبٍ

---

(١) الاستكشاف والاستصراف طلب كشف الغُمَّة وصَرْفها

وجذب .. وما يجدونه بالضرورة فى معاملاتهم ومنازلاتهم[1] .

« أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » : هو الكافى ، ولكنهم — أى الكفار — فى مِرْيَةٍ من لقاء ربهم فى القيامة . والإشارة فيه : أن العوامّ لَفى شكٍ من تجويز ما يُكاشَفُ به أهلُ الحضور من تعريفات السرّ .

« ألا إنه بكل شىء محيط » : عالِمٌ لا يَخْفَى عليه شىء .

---

(١) يتفق هذا مع ما يذهب إليه جمهور الصوفية حين يميزون الأحوال والمقامات ، فالأحوال مواهب من الحق ، والمقامات مكاسب للعبد — وإن كانت هذه المكاسب تتم هى الأخرى بفضل الله وعونه .

سُورَةُ الشُّورى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

سلوةُ العاصين فى سماعِ رحمةِ الله ، وحظوةُ العابدين فى رجائهم نعمةَ الله ، وراحةُ الفقراء فى رضاهم بقسمة الله . . لكلٍ من حاله نصيب ، وكلٌّ فى مُتنفَّسِه مُصيب .

قوله جل ذكره : « حٰمٓ * عٓسٓقٓ »

الحاء مفتاح اسمه : حليم وحافظ وحكيم ، والميم مفتاح اسمه : مَلِك وماجد ومجيد ومنّان ومؤمن ومهيمن ، والعين مفتاح اسمه : عالم وعدل وعالٍ ، والعين مفتاح اسمه : سيِّد وسميع وسريع الحساب ، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقدوس[1] .

« كذلك يُوحِى إليك وإلى الذين مِن
قَبْلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم » .

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحِى إليك العزيز الحكيم ، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

« له ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ
وهو العلىُّ العظيم » .

له ما فى السمٰوات وما فى الأرض مُلْكاً .

« وهو العلىُّ العظيم » : عُلُوُّه وعظمتُه استحقاقُه لأوصاف المجد ؛ أى وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال .

---

(١) ربما يتأيد اتجاه القشيرى فى تفسير هذه الحروف المقطعة هنا بالأسماء والأوصاف الإلهية بختام الآيات التالية بالعزيز الحكيم والعلى العظيم والغفور الرحيم .. كأن هذا هو المناخ الذى توحى به افتتاحية السورة .

قوله جل ذكره : « تكاد السمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ من فوقهن والملائكةُ يُسَبِّحون بحمد ربِّهم ويستغفرون لِمَن فى الأرضِ ألاَ إنَّ اللهَ هو الغفورُ الرحيم » .

أى تكاد السمٰوات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى ، والفوقية هنا فوقية رتبة[1] ؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله .

ويقال مِنْ ثِقَلِ الملائكةِ الذين هم فوق السمٰوات لكثرتهم . وفى الخبر : « أطت[2] السماء أطًا وحق لها أن تئط ؛ ما مِنْ موضع قَدَمٍ فى السموات إلا وعليه قائم أو راكع أو ساجد » .

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شئ قالوا كادت السمٰوات تنشقُّ له .. وهنا لقُبحِ قول المشركين ولجرأتهم على الله تعالى ، ولعِظَمِ قولهم كادت السمٰوات تنشقُّ .. قال تعالى : « لقد جئتم شيئاً إدًّا . تكادَ السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبالُ هدًّا . أنْ دَعَوْا للرحمن ولداً »[3] وعلى هذا التأويل : « يتفطرن مِنْ فوقهن » أى إلى أسفلهن ، أى تنفطر جملتُها[4] .

ومع أنَّ أولادَ آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ، ويستغفرون لمن فى الأرض .. ثم قال : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » : أى يغفر لهم مع كثرة عصيانهم . وفى الوقت الذى يرتكب فيه الكفارُ هذا الجُرْمَ العظيمَ بسبب شِرْكهم فإنه — سبحانه — لا يقطع رِزْقَه ونَفْعَه عنهم — وإنْ كان يريد أنْ يعذِّبَهم فى الآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين اتخذوا مِنْ دونِه أولياءَ اللهُ

---

(١) لجأ القشيرى إلى التأويل كى يتفادى نسبة المكانية إلى الألوهية .

(٢) أطَّ الظَّهْرُ = صَوَّتَ من ثِقَلِ الحِمْل (الوسيط) .

(٣) آيات ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ سورة مريم .

(٤) يقول النسفى : كان القياس أن يقال يتفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر ، ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل : كدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن دع الجهة التى تحتهن . (النسفى جـ٤ ص ١٠٠) .

حفيظٌ عليهم وما أنتَ عليهم بوكيلٍ »

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِنْ دونه ، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم . وليس يخفى على الله أمرُهم ، وسيعذبهم بما يستوجبونه . ولستَ — يا محمد — بمُسَلَّطٍ عليهم .

وفى الإشارة : كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حدّاً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطينَ أولياءَ ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابه .. ثم إنْ شاء عذّبه، وإن شاء غَفَرَ له .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليكَ قرآناً عربياً
لِتُنذِرَ أمَّ القُرىٰ ومَنْ حَوْلَها وتُنذِرَ
يومَ الجَمعِ لا ريبَ فيه فريقٌ فى الجنةِ
وفريقٌ فى السعير » .

أنزلنا عليكَ قرآناً يُتْلَى بلغة العرب لتخوِّفَ به أهلَ مكة والذين حولَها . وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة ومكة لأنها سُرَّةُ الأرضِ .

« وتنذر يومَ الجمع » : تنذرهم بيوم القيامة . والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة . ويوم الجمع — وهو اليوم الذى يُجْمَعُ فيه الخلْقُ كلُّهم ، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله، وبين الجسد وروحه[1]، وبين المرء وشكله فى الخير والشرِّ — لا شكَّ فى كَوْنه . وفى ذلك اليومِ فريقٌ يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل فى السعير . وكما أنهم اليومَ فريقان ؛ فريق فى راحة الطاعات وحلاوة العبادات ، وفريق فى ظلمة الشِّرْكِ وعقوبة الجحد .. فكذلك غداً ؛ فريقٌ هم أهل اللقاء ، وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء .

قوله جل ذكره : « ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَهم أمةً واحدةً
ولكن يُدْخِلُ مَن يشاء فى رحمته
والظالمون مالهم من وليٍّ ولا نصير » .

إنْ أراد أن يجمعَهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع .. وإذاً لا زَنْ لهم . ولوشاء

(١) من هذا نفهم أن القشيرى يؤمن بالبعث الكامل أى بعودة الجسد والروح معاً إلى الحياة مرة أخرى .

أن يجمعَهم كُلَّهم على الفساد والعناد لم يكن دافع — وإذاً لاشينَ منه . وحيث خَلَقَهم مختلفين — على ما أراد — فلا مبالاة بهم . . إنه إلٰه واحدٌ جبَّارٌ غيرُ مأمور ، متولٍ جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذى يحيي النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً ، ويميت النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً[1] .. وهو على كل شيءٍ

قوله جل ذكره : « وما اختَلَفْتُم فيه من شيءٍ فحُكمه
إلى اللهِ ذلكم اللهُ ربِّى عليه توكلتُ
وإليه أُنيب » .

« فحُكمُه إلى الله » : أى إلى كتاب الله ، وسُنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإجماعِ الأئمة ، وشواهدِ القياس . والعبرةُ بهذه الأشياء فهى قانون الشريعة ، وجملتها من كتاب الله ؛ فإنَّ الكتابَ هو الذى يدلُّ على صحة هذه الجملة[2] .

ويقال : إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فدَعُوا تدبيركم ، والتجئوا إلى ظلِّ شهود تقديره ، وانتظِروا ما ينبغى لكم أن تفعلوه بحُكم تيسيره[3] .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ؛ لا تدرون أبا لسعادة جَرَى حُكمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم ؟ فَكِلُوا الأمرَ فيه إلى الله ، واشتغلوا فى الوقت بأمر الله دون التفكُّر فيما ليس لكم سبيل إلى عِلْمِه عن عواقبكم .

قوله جل ذكره : « فاطِرُ السمٰواتِ والأرض جعل لكم
من أنفسِكم أزواجاً ، ومن الأنعام
أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كَمِثْلِه شيء
وهو السميعُ البصير » .

خَلَقَ لكم من أنفسكم « أزواجاً : أى أشكالاً ؛ فخَلَقَ حواءَ مِنْ آدم وخَلَقَ

---

(١) الإحياء والإماتة اليوم مرتبطان بالمعانى الصوفية من صفاء وكدورة ونحو ذلك .

(٢) هذا ردٌّ على مَنْ يتهمون الصوفيه بعدم الاحتفال بالمصادر الأساسية للشريعة ، فضلا عن أننا نشعر باهتمامهم بالجانب العقلى حين يبرزون «القياس» كمصدر من مصادر التشريع .

(٣) وهذا المصدر الأخير خاصة بالسادة الأولياء الأصفياء — يهمنا أمره حين ندرس مصادر الفقه الصوفى .

— بسبب بقاء التناسل — جميعَ الحيواناتِ أجناساً .

« يذرؤكم » : يُكثِر خَلْقَكم . « فيه » الهاء تعود إلى البطن أى فى البطن ، وقيل : فى الرَّحِم ، وقيل : فى التزويج[1] .

« ليس كمثله شئ » : لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا مِثْلَ يُضَارِعُه ، ولا شكلَ يشاكله . والكاف فى ليس « كمثله » صلة أى ليس مثله شئ . ويقال : لفظ « مثل » صلة ؛ ومعناه ليس كهُوَ شئ . ويقال معناه ليس له مثل ؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شئ وهو هو ، فلما قال : « ليس كمثله شئ » فمعناه ليس له مثل ، والحقُّ لا شبيهَ له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحكامه .

وقد وقع قومٌ فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون فى المكان ، وأقبحُ قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَرَه فى حدقة ، وسَمْعَه فى عضوٍ ، وقدرته فى يدٍ .. إلى غير ذلك .

وقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْمِ عباده ؛ فقالوا : ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمنه قبيح ، وما يكون من الخَلْق حسناً فمنه حَسَنٌ !! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه — والحقُّ مستحِقٌّ للتنزيه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل .

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السمٰواتِ والأرضِ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يشاء ويَقْدِرُ إنَّه بكلِّ شئٍ عليمٌ » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقدوراته . وكما أن فى الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن المعرفة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأُنْس .. وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا . وفائدة التعريف بأن المقاليد له : أَنْ يقطع العبدُ أفكارَه عن الخَلْق ، ويتوجَّه

---

(١) يقول الشيخ : اختير «فيه» على «به» لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للبث والتكثير .

فى طلب ما يريد من الله الذى « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، والذى هو « بكل شىء عليم »: يوسِّع ويضيِّق أرزاقَ النفوسِ وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحَكَمَ وعَلِمَ .

قوله جل ذكره : « شَرَعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به نوحًا والذى أوحينا إليكَ وما وصَّيْنا به إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ أنْ أقيموا الدِّينَ ولاتتفرقوا فيه كَبُرَ على المُشركين ما تدعوهم إليه اللهُ يجتبى إليه مَن يشاء ويَهْدِى إليه مَنْ يُنيب » .

« شرع » : أى بَيَّنَ وأظهر . « من الدين » أراد به أصول الدين ؛ فإنها لاتختلف فى جميع الشرائع ، وأمَّا الفروع فمختلفة ، فالآية تدلُّ على مسائلَ أحكامُها فى جميعِ الشرائعِ واحدةٌ .

ثم بيَّن ذلك بقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .. وفى القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شُرِعَ فى زمان نوحٍ عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وما تفرَّقوا إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العِلْمُ بَغْيًا بينهم ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربِّك إلى أجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بينهم »

يعنى أنهم أصرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لاعُذْرَ ولا شكَّ « ولولا كلمة سبقت من ربك » .. وهو أنه حَكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ إلى يومِ القيامة لعَجَّل لهم ما يتمنونه .

قوله جل ذكره : « فلذلك فادعُ واستَقِمْ كما أُمِرْتَ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهم وقُلْ آمنْتُ بما أنزل اللهُ من كِتابٍ وأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بينَكُم اللهُ ربُّنا وربُّكُم لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم لا حُجَّةَ بيننا وبينكم
اللهُ يَجْمَعُ بيننا وإليه المصير » .

أى ادْعُ إلى هذا القرآن ، وإلى الدين الحنيفى ، واستقِمْ فى الدعاء ، وفى الطاعة . أمَرَ الكُلَّ من الخَلْقِ بالاستقامة ، وأفرده بذكر التزام الاستقامة .

ويقال : الألف والسين والتاء فى الاستقامة للسؤال والرغبة ؛ أى سَلْ منى أن أقيمك ، « ولا تتبع أهواءَهم ، وقُلْ : آمنتُ بما أنزل اللهُ من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » : أمرتَ بالعدل فى القضية ، وبأن أعْلِمَ أنَّ اللهَ إلهُ الجميع ، وأنّه يحاسِب غداً كلّا بعمله ، وبأن الحجةَ لله على خَلْقِه ، وبأن الحاجةَ لهم إلى مولاهم .

قوله جل ذكره : « والذين يُحَاجُّون فى اللهِ مِن بعدما
استُجِيبَ له حُجَّتُهم داحِضَةٌ عند ربِّهم
وعليهم غَضَبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ » .

يجادلون فى الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمدٍ صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ على المشركين. حُجَّةُ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل ، وهم من الله مستوجِبون للعنة والعقاب[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى أنزل الكتابَ بالحقِّ
والميزانَ ومايُدْريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ » .

أنزلَ الكتابَ ، وأنزل الحُكْمَ بالميزان أى بالحق .

ويقال ألهمهم وزنَ الأشياء بالميزان ، ومراعاةَ العدل فى الأحوال .

« وما يدريك لعلَّ الساعة قريب » : يزجرهم عن طول الأمل ، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجَل .

---

(١) سماها حجة حسب زعمهم — وإن كانت شبهة فى حقيقة أمرها . ومن أمثلة حجج أهل الكتاب أنهم كانوا يقولون المؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم وأولى بالحق .. وكل هذه الحجج داحضة بعدما دخل الناس فى الإسلام ، وتركوا الجاهلية وآثامها ، استجابة لدعاء الرسول : اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض .

قوله جل ذكره : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مُشْفِقُون منها ويعلمون أنها الحقُّ ألاَ إنَّ الذين يُمارون فى الساعةِ لفى ضلالٍ بعيد » .

المؤمنون يؤمنِون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، ويَكِلُون أمورَهم إلى الله ؛ فلا يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء ، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ لطيفٌ بعباده يَرْزُقُ مَن يشاء وهو القويُّ العزيز » .

« لطيف »[2] أى عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلْطِف المحسن .. وكلاهما فى وصفه صحيح . واللطف فى الحقيقه قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليومَ هو لُطْفٌ منه به .

وأكثرُ ما يستعمل اللطف — فى وصفه — فى الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خاطَبَ العابدين بقوله : « لطيف بعباده » : أى يعلم غوامضَ أحوالهم من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاةَ بقوله : « لطيف » : لئلا ييأسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياءَ بقوله : « لطيف » : ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم فى جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراءَ . بقوله : « لطيف » أى أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : «اللهُ» يوجِبَ الهيبةَ والفزع ، وسماعُ « لطيفٌ » يوجِبُ السكونَ

---

(١) لأن الموت يقربهم من اللقاء .. لقاء المحبوب .

(٢) تضاف أقوال القشيرى هنا فى «اللطيف» إلى ما ذكره فى كتاب التحبير فى التذكير (تحقيق بسيونى) وما ذكره فى كتاب : شرح أسماء الله الحسنى (تحقيق الحلوانى) صدر بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ص ١٧٦ وما بعدها .

والطمأنينة . فسماعُ قوله : « اللهُ » أوجب لهم تهويلاً ، وسماع قوله : « لطيفٌ » أوجب لهم تأميلاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطى قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مِنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُهُ بأنه لطيف ، ولولا لُطفُهُ لَمَا عرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِه أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَه دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لطفه بالعبد إبهام عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادتَه لا تَّكَلَ عليه ، وأقَلَّ عملَه . ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه . . فأراده أن يستكثرَ فى الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاء أَجَلِه عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه .

ويقال : من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيَه ما عمله فى الدنيا من الزلّة ؛ لئلا يتنغّص عليه العَيْشُ فى الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نوّر الأسرارَ[1] ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار[2] ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ فى الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : « مَن كان يُرِيدُ حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له فى حَرْثِه ومَن كان يريد حَرْثَ الدنيا نُؤْتِه منها وما له فى الآخرة مِن نصيب » .

« من كان يريد حرث الآخرة » : نَزِدْه — اليومَ — فى الطاعات توفيقًا ، وفى المعارف وصفاء الحالات تحقيقًا . ونَزِدْه فى الآخرة ثواباً واقترابًا وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

« ومَنْ كان يريد حَرْثَ الدنيا » : مكتفياً به نؤتِه منها ما يريد ، وليس له فى الآخرةِ نصيب .

---

(١) هذه (الأسرار) جمع السر وهو الملكة الباطنية التى تعلو الروح — كما نعرف من المذهب العرفانى للقشيرى .

(٢) وأما (الأسرار) الثانية فهى جمع السر كما نعرفه — بمعنى الشأن الخفى .

قوله جل ذكره : « أَمْ لهم شُرَكاءُ شَرعوا لهم من الدِّين
ما لم يأذنْ به اللهُ ولولا كلمةُ الفَصْلِ
لقُضِيَ بينهم وإنّ الظالمين لهم عذابٌ أليم »

« ما لم يأذن به الله » : أى ليس ذلك مما أمَرَ به ، وإنما هو افتراء منهم .

« ولولا كلمة الفصل » . . أى ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .

« ترى الظالمين مُشْفِقين مما كَسَبوا وهو
واقعٌ بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ
فى روضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءون عند
ربِّهم ذلك هو الفضلُ الكبير » .

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهم الله فى الغالب، ولكنه لا محالةَ يعذبهم. وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسَّفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمَّا الكفار.. فغداً يُشْفِقُون مما يقع بهم عند ما يقرءونه فى كتابهم ، لأنَّ العذابَ — لا محالةَ — واقعٌ بهم .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات » : فى الدنيا جنان الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأُنْسِ فى أوقات الخلوة . وفى الآخرة فى روضات الجنة : « لهم ما يشاءون عند ربهم » : إنْ أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم ، وإنَ أرادوا تمامَ الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضلُ الكبير .

قوله جل ذكره : « ذلك الذى يُبَشِّر اللهُ عبادَه الذين
آمنوا وعَمِلوا الصالحات » .

ذلك الذى يُبَشِّرُ اللهُ عبادَه قدمضى ذِكْرُه فى القرآن متفرقاً ؛من أوصاف الجنة وأطايبها، وما وَعَدَ اللهُ من المثوبة .. ونحو ذلك .

« قُل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودةَ فى القُرْبى » .

قُلْ — يا محمد — لا أسألكم عليه أجراً. مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً ، ولكنَّ اللهَ — وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيِّه بما لهم من الكرامات الأبدية — لم يطلب عليه أجراً ؛

فالله — سبحانه — لا يطلب عِوَضاً ، وكذلك نبيُّه — صلى الله عليه وسلم — لا يسأل أجراً ؛ فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً . . فمتى يطلب الرسولُ منهم أجراً ؟! وهو — صلوات الله عليه — يشفع لكلِّ مَنْ آمن به ، والله — سبحانه — يعطى الثوابَ لكل مَنْ آمن به.

« إلا المودة فى القربىٰ » : أراد أن تثبت مودتك فى القربى ؛ فتودّ مَنْ يتقرّب إلى الله فى طاعته[1] .

« ومَن يقترِفْ حسنةً نَزِدْ له فيها
حُسْناً إنَّ اللهَ غفورٌ شكورٌ » .

تضعيف الثواب فى الآخرة للواحدِ من عَشَرَة إلى سبعمائة . . هذه هى الزيادة .

ويقال : الزيادة هى زيادة التوفيق فى الدنيا .

ويقال : إذا أتى زيادة فى المجاهدة تفضّلْنا بزيادة . . وهى تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يقترِفْ حسنةَ الوظائف[2] نَزِدْ له فيها حُسْنَ اللطائف .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهى مما لا يدخل تحت طَوْقِ[3] البَشَر .

قوله جل ذكره : « أم يقولون افترىٰ على اللهِ كَذِباً فإن
يَشَأ اللهُ يختِمْ على قلبِكَ ويمحُ اللهُ
الباطلَ ويُحِقُّ الحقَّ بكلماتِه إنَّه عليمٌ
بذاتِ الصدور » .

أى أنَّك إن افترَيْتَه خَتَمَ اللهُ على قلبِكَ ، ولكنكَ لم تكذِبْ على ربِّكَ .

ومعنى الآية أنَّ اللهَ يتصرَّف فى عباده بما يشاء : مِنْ إبعادٍ وتقريب ، وإدناء وتبعيد[4] .

---

(١) استغلت هذه الآية الكريمة استغلالا عقدياً وسياسياً فى عصور متأخرة خصوصاً من جانب المتشيعين لعلى كرم الله وجهه وبيته.. وواضح أن القشيرى أطلق القرابة على كل من يتقرب إلى الله بالطاعة ؛ فهى عنده قرابة فى الله ، وربما كان ذلك نتيجة سنيته وحرصه على سنيته . (أنظر مدخل اللطائف حـ١ ص ٢٥).

(٢) المقصود بالوظائف أداء العبادات والتزام آداب الشريعة .

(٣) فى ص وردت (طرق) بالراء وهى خطأ فى النسخ .

(٤) يقول مجاهد : «يختم على قلبك » أى يربط عليه بالصبر على أذاهم واتهامهم له بالافتراء والكذب لئلا تدخله مشقة بسبب تكذيبهم .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يَقْبَلُ التوبةَ عن عبادِه ويعفو عن السيئاتِ ويعلمُ ما تفعلون »

« ويعفو عن السيئات » الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهى هنا للعهد ؛ أى تلك السيئات التى تكفى التوبةُ المذكورةُ فى الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء[1] . « ويعلم ماتفعلون »: من الأعمال على اختلافها[2] .

وهو « الذى » .. : الذى من الأسماء الموصولة التى لايتم معناها إلا بِصِلَةٍ ، فهو قد تعرّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزّلّةُ — وإن كانتْ توجِبُ للعبد ذميمَ الصِّفَةِ — فإنّ قبولَها يوجِبُ للحقّ حميدَ الاسم .

ويقال : قوله : « عباده » اسم يقتضى الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)[3] حتى تمنّى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حسابَ الأولين والآخرين لعلّه يقول له : عبدى . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود فى « التوبة عن عباده » ؛ وإذاً فلا ينبغى لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن يتوبوا لكى يَصِلوا إلى ذلك .

ويقال لمّا كان حديثُ العفوِ عن السيئات ذكَرَها على الجمع والتصريح[4] فقال : « ويعفو عن السيئات » . ثم لمّا كان حديثُ التهديد قال : « ويعلم ما تفعلون » فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : ويعلم زلّتك — بل قال ويعلم « ما » تفعلون ، وتدخل فى ذلك الطاعةُ والزّلّةُ جميعاً[5] .

قوله جل ذكره : « ويستجيبُ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فَضْلِه ..

---

(١) يشير القشيرى إلى الآية الكريمة «إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»

(٢) ويدخل فى ذلك — كما سيأتى بعد قليل — المعاصى والطاعات .

(٣) مابين القوسين إضافة من عندنا طبقا لما نعرفه من أسلوب القشيرى فى مثل هذا الموضع .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (والتضرع) وهى خطأ فى النسخ لعدم ملاءمتها للسياق ؛ فالتصريح يقابل «التلويح» المذكور فيما بعد .

(٥) فى هذه الإشارة وما تلاها يبدو انفتاح باب الأمل أمام العصاة ، وكيف يحثهم هذا الإمام الجليل على التوبة الآملة والرجاء الوطيد فى رحمة الله .

(أى إذا دَعَوْه استجابَ لهم)[1] بعظيم الثواب فى الآخرة .

« ويزيدهم من فضله » : يقول المفسرون من أهل السُّنَّة فى هذه الزيادة إنها الرؤية .

ذَكَرَ التوبة وأهلها ، وذكر العاصين بوصفهم ، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. فلمَّا وصل إلى الزيادة — التى هى الرؤية — قال : « ويزيدهم » على الجمع ؛ والكناية[2] إذا تَلَتْ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً ؛ فيكون المعنى أن الطاعاتِ فى مقابلها الدرجات ، وتكون بمقدارها فى الزيادة والنقصان ، وأمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل .. والفضلُ ليس فيه تمييز .

ويقال : لمَّا ذكر أنَّ التائبين تُقْبَلُ توبتُهم ، ومَنْ لم يَتُبْ غفر زلَّته[3] ، وأنَّ المطيعين لهم الجنة .. فلربما خَطَرَ ببالِ أحَدٍ : وإذاً فهذه النارُ لِمَنْ هى ؟ ! فقال جل ذكره :

« والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ » .

فالعصاةُ من المؤمنين لهم عذابٌ .. أمَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضى هذا وذاك ؛ يقتضى أن المؤمنين لهم عذابٌ .. ولكنْ ليس بشديد ، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال : إن لم يَتُبِ العبدُ خوفاً من النار ، ولا طمعاً فى الجنة لَكان من حقِّه أن يتوب لِيَقْبَلَ الحقُّ — سبحانه .

ويقال إن العاصى يكون أبداً منكسرَ القلب ، فإذا عَلِمَ أن اللهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أنْ ليت له طاعةً مُيَسَّرَةً ليقبلها ، فيقول الحقُّ : عبدى ، إنْ لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إنْ أتيتَ بها تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره : « ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزقَ لِعبادِه لَبَغَوْا فى الأرضِ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

---

(١) مابين القوسين زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح العبارة .

(٢) يقصد القشيرى بالكناية الضمير فى «ويزيدهم» .

(٣) لأنه ربط ذلك بمشيئته — سبحانه — فقال «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» .

مَا يشاءُ إنَّه بعباده خبيرٌ بصير » .

هذا الخطاب فى الظاهر يشبه الاعتذار فى تخاطب الآدميين . والمعنى : أننى لم أبسط عليكَ أيها الفقيرُ فى الدنيا لِمَا كان لى من العلم أننى لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ ، ولسَعَيْتَ فى الأرض بالفساد .

ويقال : قوله : « ولكن . . » : لكن كلمة استدراك ، فالمعنى : لم أُوَسِّعْ عليكَ الرزقَ بمقدار ما تريد ؛ ولم أمنع عنك (الكُلَّ)[1] ؛ لأنى أُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما أشاء .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يُنَزِّلُ الغيثَ مِن بعدِ ما قنطُوا وينشرُ رَحمَتَه وهو الولىُّ الحميدُ » .

الله — سبحانه مُحْيِى القلوب ؛ فكما أنه « هو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » ، فبعدما أصابت الأرضَ جدوبةٌ ، وأبطأ نزولُ الغيثِ ، وقَنِطَ الناسُ من مجىء المطر ، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ الفَواتِ يُنَزِّلُ اللهُ بفضله الغيثَ ، ويحيى الأرضَ بعد قنوطِ أهلها . . فكذلك العبد ؛ إذا ذَبُلَ غُصْنُ وقته ، وتكَدَّرَ صَفْوُ ودِّه ، (وكسفت)[2] شمسُ أُنْسِه ، (وبَعُدَ)[3] عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته ؛ فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة ، ويعود عودُه طريًّا ، ويُنْبِتُ فى مشاهد أُنْسِه ورداً جَنِياً . . وأنشدوا :

إنْ راعنى منك الصدود ... فلعلَّ أيامى تعود
ولعلَّ عهدك باللِّوى ... يحيا فقد تحيا العهود
والغصن ييبس تارةً ... وتراه مُخْضرًّا يميد

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه خَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ

---

(١) هكذا فى م ، وهى فى ص (الكيل) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .
(٢) هكذا فى ص ، وهى فى م (كشفت) بالشين وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .
(٣) سقطت فى ص وموجودة فى م والسياق يتطلبها .

وما بَثَّ فيهما من دابَّةٍ وهو على جَمْعِهِمْ
إذا يشاء قديرٌ » .

جعل اللهُ فى كلِّ شىء من المخلوقات دلالةً على توحُّدِه فى جلاله ، وتفرُّدِه بنعت كبريائه وجماله(١) .

« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » : والإشارة منها أنَّ الحقَّ — سبحانه — يغار على أوليائه أن يَسْكَنَ بعضُهم بقلبه إلى بعضٍ ؛ فأبداً يُبَدِّدُ شملَهم ، ولا تكاد الجماعةُ من أهل القلوب تتفق فى موضعٍ واحدٍ إلا نادراً ، وذلك لمدةٍ يسيرة .. كما قالوا :

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنَّهم
بأكنافِ أطرافِ السماء نجومُ

وفى بعض الأحايين قد يتفضَّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم — فى الظاهر — اجتماعٌ والتقاء ، فيكون فى ذلك الوقت قد نظر الحقُّ — سبحانه — بفضله إلى أنَّ فى اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالَم .

وهذا — وإن كان نادراً — فإنه على جَمْعِهم — إذا يشاء — قدير .

قوله جل ذكره : « وما أصابكُم مِن مُصيبةٍ فَبِما كَسَبَتْ أيديكم ويعفو عن كثير » .

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه ، وعلِمَ أن ذلك جزاء له ، وعقابٌ على ما بَدَرَ منه من سوء الأدب لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِه ، ولشَغَلَه ذلك عن رؤية الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئَهم أو يدعوَ عليهم ، وإنما يشغله تلافى ما بَدَرَ منه من سوء الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخَلْق .. تاركاً الأمرَ كلَّه لربِّه .

ويقال : إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد ، وتوالى عليه ذلك .. فَلْيُفَكِّرْ فى أفعاله المذمومة .. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله — مع العفو الكثير — هذا المبلغ ؟ ! فعند ذلك يزداد حزنُه وتأسُّفه : لِعِلْمِه بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

---

(١) سبق أن نبهنا القشيرى إلى توحيد الفعالة وتوحيد الدلالة .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الجوارِ فى البحْرِ كالأعلام».

يريد بها السفن التى تجرى فى البحار ؛ يرسل اللهُ الريحَ فتُسَيِّرها مرةً ، ويُسَكِّنها أخرى، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة .. وهو بهذا يَحُثُّهم على التفكُّر والتنبُّه دائماً .

والإشارة فى هـــذا إلى إمساك الناس[1] فى خلال فَتْرَةِ الوقت عن الأنواء المختلفة ، وحفظهم فى إيواء السلامة ، فالواجبُ الشكرُ فى كل حالة ، وإذا خَلُصَ الشكرُ استوجب جزيلَ المزيد .

قوله جل ذكره : « فما أُوتيتُم مِن شىء فَمَتَاعُ الحياةِ الدُّنيا وما عند اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلُون » .

يعنى أنَّ الراحاتِ فى الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإنْ اتفق وجودُ البعض منها فى أحايين فإنها سريعة (الزوال)[2] ، (وشيكة)[3] الارتحال .

« وما عند الله » من الثواب الموعود « خيرٌ » من هذا القليل الموجود .

قوله جل ذكره : « والذين يَجْتَنِبُونَ كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرون»

« كبائر الإثم » : الشِرْك . و « الفواحش » : ما دون ذلك من الزلاَّت . فإذا تركوها لا يتجرَّعون كاساتِ الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم فى عموم الأحوال .

« والذين استجابُوا لربِّهم وأقاموا الصلاةَ وأمْرُهم شُورَىٰ بينهم ومِمَّا رزقناهم يُنفِقُون » .

---

(١) المقصود بإمساك الناس هنا حفظ الله سبحانه وتعالى لهم .

(٢) وردت (العذاب) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت (وسكية) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

« استجابوا لربهم » : فيما دعاهم إليه وما أَمَرَهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحميدُ المآبِ .

والمستجيبُ لربِّه هو الذى لا يبقى له نَفَسٌ إلا على موافقة رضاه[1] ، ولا تَبْقَى منه لنَفْسِه بقية .

« وأمرهم شورَى بينهم » : لا يستبدُّ أحدُهم برأيه ؛ لأنه يَتَّهِمُ أمرَه ورأيَه أبداً[2] . ثم إذا أراد القطعَ بشىء يتوكل على الله .

قوله جل ذكره : « والذين إذا أصابهُمُ البغْىُ هُم يَنتَصِرون » .

« البغىُ » : الظلمُ ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذى أصابه هو من قِبَلِ نَفْسِه ، فينتصر على الظالم وهو نفسه ؛ بأنْ يكبحَ عنانها عن الركض فى ميدان المخالفات .

قوله جل ذكره : « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وأصْلَحَ فأجرُه على الله إنَّه لا يُحب الظَّالمين » .

(يعنى لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجانى عليكم فى المكافأة أوالانتقام)[3] .

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » : مَنْ عفا عن الجانى ، وأصلح ما بينه وبين الله — أَصْلَحَ اللهُ ما بينه وبين الناسِ . « فأجره على الله » : فالذى للعبد من الله وعلى الله ، وعند الله خيرٌ مما يعمله باختياره .

قوله جل ذكره : « وَلَمَنِ انتصر بعد ظُلْمِه فَأُولئك ما عليهم مِن سبيلٍ * إنَّما السبيلُ على الذين يظلِمون الناسَ ويَبْغُون فى الأرضِ بغير الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم » .

---

(١) هذا ما يعرف عند الصوفية بمراعاة الأنفاس .
(٢) هذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .
(٣) ما بين القوسين سقط فى ص وموجود فى م .

عَلِمَ الله أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحررَ من أحكام النَّفْس ، ولا يتمكن من محاسن الخُلُق فرخَّص لهم فى المكافأة على سبيل العدل والقسط — وإنْ كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو .

« إنما السبيل على الذين يظلمون الناس . . » : السبيلُ بالملامة لِمَنْ جاوز الحدَّ ، (وعدا الطَّوْرَ)[1] ، وأتى غيرَ المأذونِ له من الفعل . . فهؤلاء لهم عذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : « ولَمن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور » .

صَبَرَ على البلاءِ من غير شكوى ، وغَفَرَ — بالتجاوز عن الخَصْمِ — ولم تبقَ لنفْسِه عليه دعوى ، بل يُبرئُ خَصْمَه من كل دعوى ، فى الدنيا والعُقبى . . فذلك من عزم الأمور .

قوله جل ذكره : « ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فما له من ولىٍّ مِن بَعْدِه وترى الظالمين لَمَّا رأَوُا العذابَ يقُولُون هل إلى مَرَدٍّ من سبيلٍ » .

إنَّ الذين أضلَّهم اللهُ ، وأعمى أبصارَهم وبصائرَهم ، وأوقعهم فى كَدِّ عقوبتهم ، وحَرَمَهم بَرْدَ الرضا لحكْمِ ربِّهم ليس لهم ولىٌّ من دون الله ، ولا مانعَ لهم من عذابه . وتراهم إذا رأوا العذابَ يطلبون منه النجاة فلا ينالونها .

وتراهم يُعْرَضُون على النار وهم خاشعون من الذُّلِّ ؛ لا تنفعهم ندامةٌ ، ولا تُسْمَعُ منهم دعوةٌ ، ويُعَيِّرُهم المؤمنون بما ذَكَّروهم به فلا يسمعون ، فاليومَ لا ناصرَ ينصرهم ، ولا راحمَ يرحمهم .

قوله جل ذكره . « اسْتجيبُوا لربِّكم مِن قَبْلِ أن يأتِىَ يومٌ لا مَرَدَّ له مِنَ اللهِ ما لكم مِن ملجإٍ يومَئذٍ ومالَكُم من نَكِيرٍ » .

الاستجابةُ لله الوفاء بعهده ، والقيامُ بحقِّه ، والرجوعُ عن مخالفته إلى موافقته ، والاستسلامُ

---

(١) فى ص (وعد) وهى خطأ فى النسخ . ويقال عدا وتعدى الطور أى جاوز حدَّه وقدره (الوسيط) .

فى كل وقتٍ لحكْمِه . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سيُغْلَقُ البابُ على القلب بغتةً ، ويُؤْخَذُ فلتةً .

قوله جل ذكره : « فإنْ أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليكَ إلا البلاغُ » .

فإنْ أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة ، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به .

«وإنَّا إذا أذَقْنا الإنسان مِناً رحمةً فَرِحَ بها ، وإن تُصِبْهُم سيئةٌ بما قَدَّمت أيديهم فإنَّ الإنسانَ كفورٌ » .

إذا أذقنا الإنسان مِناً رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة ، وقابلها بالبَطَرِ ، وتوصَّل بتمام عافيته إلى المخالفة ، وجعل السلامةَ ذريعةً للمخالفة . وإنْ أصابته فتنةٌ وبلية ، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا ، جحودٌ لآياتنا .

قوله جل ذكره : « للهِ مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ يَخْلُقُ ما يشاءُ يَهَبُ لِمَن يشاء إناثاً ويَهَبُ لِمَن يشاء الذكور »[1] .... .

يهب لمن يشاء الذكور ، ولمن يشاء الإناث ، ولمن يشاء الجنين ، ويجعل من يشاء عقيماً ، فلا اعتراضَ عليه فى تقديره ، ولا افتياتَ فى اختياره ، فهو أَوْلَى بعباده من عباده .

قوله جل ذكره : « وما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ إلا وحياً أو مِن وراءِ حجابٍ أو يُرْسِل رسولا فيوحِي بإذْنه ما يشاء إنَّه عَلِيٌّ حكيم » .

لله بحقِّ مُلْكِه أن يفعل ما يشاء ، ويعطى مَنْ يشاء مِن عباده ما يشاء ، ولكن أجرى

---

(١) يرى النسفى أنه قدم الإناث على الذكور هنا ليوضح أنه فاعل لما يشاؤه لا لما يشاء الإنسان ، فكان تقديم الإناث اللاتى من جملة مالا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم . حـ٤ ص ١١١ .

العادة وحَكَمَ بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ فى هذه الآية ؛ فلم يُكَلِّم أحداً إلا بالوحى ، أو من وراء حجاب ؛ يعنى وهو لا يرى الحقَّ ، فالمحجوبُ هو العبد لا الرب ، والحجابُ أن يخلق فى محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى اللهُ عن أن يكونَ من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفةُ الأجسام المحدودة التى يُسْبَلُ عليها ستر . إنه « عَلِيٌّ » : فى شأنه وقَدْرِه ، « حكيمٌ » : فى أفعاله .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمْرِنا
ما كُنتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ
ولكن جعلناه نوراً نهدى به مَن نشاءُ
من عِبادنا وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ
مستقيم » .

أى ذلك مثلما أوحينا إليك « روحاً » من أمرنا يعنى القرآن ؛ سَمَّاه روحاً لأنه مَنْ آمن به صار به قلبُه حَيًّا .

ويقال « روحاً من أمرنا » : أى جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .

« ما كنت تدرى ما الكتاب . . » : ما كنت تدرى قبل هذا ماالقرآن ، «ولا الإيمان»: أى تفصيل هذه الشرائع .

« ولكن جعلناه » : أى القرآن « نوراً » نهدى به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين .

« ألاَ إلى الله تصير الأمور » : لأن منه ابتداء الأمور .

سورة الزُّخْرُف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

بسم « الله : اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بجُودِه وكَرَمِه لم يُعَلِّقْ بغيره صواعدَ هِمَمِه ، ولم يَقِف على سُدَّةِ مخلوقٍ بِقَدَمِه فى ابتغاء كَرَمِه . اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَه خفايا لُطْفِه[1] لم يتذلَّل[2] فى طَلَب شىء مِنْ غيرِه ، ولم يَرْجِع إلى غيره فى شَرِّه وخَيْرِه .

قوله جل ذكره : « حمٓ * والكتابِ المبين * إنَّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تَعْقِلُون »

الحاء تدل على حياته والميمُ على مجده . . وهذا قَسَمٌ ؛ ومعناه : وحياتى ومجدى وهذا القرآنِ إنَّ الذى أخبرْتُ عن رحمتى بعبادى المؤمنين حقٌّ وصِدْقٌ . وجعلناه قرآناً عربياً ليتيسَّرَ عليكم فَهْمُ معناه .

قوله جل ذكره : « وإنَّه فى أُمِّ الكتابِ لدينا لَعَلِيٌّ حكيم »

« فى أم الكتاب لدينا » : أى أنه مكتوب فى اللَّوح المحفوظ .

« لعلىٌّ حكيم » لَعَلِيُّ القَدْرِ ، حكيمُ الوصفِ ؛ لا تبديلَ له ولا تحويل .

قوله جل ذكره : « أفنَضْرِبُ عنكم الذكرَ صفحاً أن كنتم قوماً مُسرِفين »

أى أننا لا نفعل ذلك ؛ (فيكون معنى الاستفهام)[3] أفنقطع عنكم خطابَنا وتعريفَنا

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خفاء حكمه) . وقد آثرنا الأولى لأنها أكثر تدعيماً للسياق .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (لم تبدلل) وواضح الخطأ الناسخ .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عندنا ليتماسك السياق . والاستفهام فى الآية يفيد الإنكار .

إنْ أسرفتم فى خلافكم ؟ لا . . . إننا لا نرفع التكليفَ بِأنْ خالَفْتُم ، ولا نهجركم — بِقَطْع الكلام عنكم — إنْ أسرفتم .

وفى هذا إشارةٌ لطيفةٌ وهو أنه لا يقطع الكلامَ — اليومَ — عَمَّنْ تمادَى فى عصيانه ، وأسرف فى أكثر شانه . فأحرى أنَّ مَنْ لم يُقَصِّرْ فى إيمانه — وإنْ تَلَطَّخَ بعصيانه ، ولم يَدْخُلْ خَلَلٌ فى عِرفانه — ألا يَمْنَعَ عنه لطائفَ غفرانه[1] .

قوله جل ذكره : « وكم أرسلنا من نبيٍّ فى الأوَّلين *
وما يأتيهم من نبيٍّ إلَّا كانوا
به يستهزِئون » .

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق ، بل كَذَّبَ به الأكثرون وجحدوا ، وعلى غَيِّهم أَصَرُّوا . . .

فأهلَكْنا أشَدَّ منهم بَطْشاً »

أى لم يُعْجِزْنا أحدٌ منهم ، ولم نغادِرْ منهم أحداً ، وانتقمنا مِنَ الذين أساءوا .

قوله جل ذكره : « ولَئِن سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ
والأرضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليم »

كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالقُهم ، وأنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ، وإنما جحدوا حديثَ الأنبياء ، وحديثَ البعثِ وجوازه .

« الذى جعل لكم الأرضَ مَهْداً وجَعَلَ
لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون »

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم ؛ فالخلْقُ سُكَّانُ الأرضِ ، فإذا انتهت المدةُ — مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ — حَكَمَ اللهُ بخرابها . . كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّة قضى اللهُ بخرابها .

---

(١) هكذا تتجلى نزعة الأمل والتفاؤل عند هذا الصوفى حيث يحاول فى إشارته أن يبين كيف أن رحمة الله تمتد لتشمل المؤمنين العصاة حتى من أسرف منهم على نفسه .

قوله جل ذكره : « والذى نَزَّلَ من السماء ماء بِقَدَرٍ
فأنشرنا به بلدةً مَيْتاً كذلك تُخْرَجون »

يعنى كما يُحْيِي الأرضَ بالمطَر يحْيِي القلوبَ بحُسن النَّظَر .

قوله جل ذكره : « والذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها »

أى الأصنافَ من الخَلْق،

« وجعل لكم من الفُلْكِ والأنعامِ
ما تَرْكبون »

كذلك جَنَّسَ عليكم الأحوالَ كلها ؛ فمِنْ رغبةٍ فى الخيرات إلى رهبةٍ مما توعَّدكم به من العقوبات . ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزلّات إلى رجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات طمعاً فى المثوبات . . وغير ذلك من فنون الصِّفات

« لِتَسْتَوُوا على ظهورِه » .

يعنى الفُلْكَ والأنعام . .

« ثم تَذْكُروا نِعْمَةَ ربِّكم إذا استويتم
عليه وتقولوا سبحان الذى سَخَّرَ لنا هذا
وما كُنَّا له مُقْرِنين »

مطيعين ، وكما سَخَّرَ لهم الفُلْكَ فى البحر ، والدوابَّ للركوب ، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك (سَهَّلَ للمؤمنين مركبَ التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة[1]) ، وسهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عَرَصَات الجود ، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعقْوةِ العِزَّةِ . وعند ذلك تَحَطُّ الكافة ؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ : سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً أو نبيًّا مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّماً ، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق[2] .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م فأثبتناه فى هذا الموضع ؛ لأن مرتبة المؤمنين عامة تليها مرتبة المريدين وهى خاصة ، ثم العارفين وهم خواص الخواص .

(٢) يرتبط ذلك بمذهب القشيرى فى «الفناء» ، وكيف أن الصمدية تجل عن الاستشراف .. ناهيك بما يزعمه آخرون من حلول واتحاد .. وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « وجعلوا له من عبادِه جُزْءًا إنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ مبينٌ »

هم الذين قالوا : الملائكةُ بناتُ الله ؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته . . تعسّاً لهم فى قولهم ذلك وخِزْياً [1] ! ! فردَّ عليهم ذلك قائلا :

« أم اتَّخذَ مما يَخْلُقُ بناتٍ وأصفاكم بالبنين »

قال لهم على جهة التوبيخ ، وعابَهم بما قالوا ؛ إذ — على حدِّ قولهم — كيف يُؤْثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات ؟ ! فى قولهم ضلالٌ ؛ إذ حكموا للقديمِ بالوَلَدَ . وفيه جهلٌ ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين — وهم يستنكفون من البنات . . ثم .. أى عيب فى البنات ؟ ثم . . كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ — وهم لم يشاهدوا خِلقتَهم؟

كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً .

قوله جل ذكره : « وقالوا لو شاء الرحمٰنُ ما عبدناهم مالهم بذلك من عِلْمٍ إنْ هم إلّا يَخْرُصُون »

إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً ، فقال تعالى : « ما لهم بذلك من علم » ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولا .

ثم قال : « أم آتيناهم كتاباً من قَبلِه فهم به مُسْتَمْسِكونَ »

أى ليس كذلك ، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضى إلى العلم ، فقال :

« بل قالوا إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مُهْتَدون »

---

(١) فى م (وحزناً) وهى غير ملائمة — كما هو واضح .

فنحن نقتدى بهم ، ثم قال :

« وكذلك ما أرسلنا مِن قَبْلِكَ فى
قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُتْرَفُوها إنَّا
وجدنا آباءنا عَلَى أُمَّةٍ وإنا عَلَى آثارهم
مقتدون »

سلكوا طريقَ هؤلاء فى التقليد لأسلافهم ، والاستنامةِ إلى ما اعتادوه من السِّيرة والعادة .

قوله جل ذكره : « قال أو لو جئتُكم بأهدىٰ
مما وجَدْتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما
أُرْسِلْتُم به كافرون »

فلم ينجعْ فيهم قولُه ، ولم ينفعْهم وَعْظُه ، وأصرُّوا عَلَى تكذيبِهم ، فانتقمَ الحقُّ — سبحانه — منهم كما فعل بالذين من قبلهم .

قوله جل ذكره : « وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه
إننى برَاءٌ مما تعبدون »

أخبر أنَّ إبراهيمَ لمَّا دعا أباه وقومَه إلى الله وتوحيده أبَوْا إلَّا تكذيبَه ؛ فتبرَّأ منهم بأجمعِهم ، وجعلَ اللهُ كلمةَ التوحيدِ باقيةً فى عَقِبِه وقومه .

قوله جل ذكره : « بل مَتَّعْتُ هؤلاء وآباءهم
حتى جاءهم الحقُّ ورسولٌ مبين » .

أرْخَيْنَا عنانَ إمهالهم مدةً ، ثم كان أمرُهم[1] أنِ انتصرْنا منهم ، ودَمَّرْناهم أجْمعين .

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ

(١) هكذا في ص وهي في م (آخرهم) وهي مقبولة في السياق على معنى (آخر أمرهم) أو (آخر شأنهم) .

عَلَى رجل من القريتين عظيم »

إمّا أبى مسعود الثقفى[1] أو أبى جهل ، وهذا أيضاً من فرْط جهلهم .

« أهم يَقْسِمون رحمةَ ربِّكَ ؟
نحن قَسَمْنَا بينَهم معيشتَهم فى الحياةِ
الدنيا ورفعنَا بعضَهم فوقَ بعضٍ
درجاتٍ ليتخذَ بعضُهمْ بعضاً سُخْرِيًّا ،
ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ ممّا يَجْمَعون »

أهم يَقْسمون ـ يا محمد ـ رحمةَ ربك فى التخصيص بالنبوة ؟ أيكون اختيارُ اللهِ ـ سبحانه ـ عَلَى مقتضى هواهم ؟ بئس ما يحكمون !

« نحن قسمنا بينهم ..... » فلم نجعل القسمة فى الحياة الدنيا لهم .... فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء ؟! .....

والإشارة من هذا : أن الحقَّ ـ سبحانه ـ لم يجعل قسمةَ السعادةِ والشقاوةِ إلى أحد ، وإنما المردودُ مَنْ ردّه بحكمه وقضائه وقَدَره ، والمقبولُ ـ من جملة عباده ـ مَنْ أراده وقَبِلَه . . . لا لِعلّةٍ أو سبب ، وليس الردُّ أو القبولُ لأمرٍ مُكتَسب[2] . . .

ثمّ إنه قَسَمَ لِبعضِ عِباده النعمةَ والغنى ، وللبعض القلّةَ والفقر ، وجعل لكلٍّ واحدٍ منهم سكنًا يسكنون إليه يستقلون به ؛ فللأغنياء وجودُ الإنعام وجزيل الأقسام .. فشكروا واستبشروا ، وللفقراء شهودُ المُنْعِم والقَسَّام . . فَحَمدوا وافتخروا . الأغنياءُ وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا ، والفقراء سمعوا قوله : « نحن » فاشتغلوا[3].

---

(١) هو أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى من الطائف ، وأبو جهل من مكة فالقريتان هما الطائف ومكة . وروى أن الوليد بن المغيرة ـ وكان يسمى ريحانه قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علىّ أو على أبى مسعود .

(٢) مرة أخرى ينبه القشيرى إلى أن المعول عليه فى الأمر فضل الله وقسمته ، ولهذا الرأى شأنه فى مسألة الثواب والعقاب التى اتخذها المعتزلة وسيلةً من وسائل تبرير الحرية الإنسانية ـ كما نبهنا إلى ذلك فى هوامش كثيرة من الكتاب .

(٣) أى (اشتغلوا) بالله وطاعته دون غاية غير به أو مطمع زائل . ونحن لا نستبعد أنها قد تكون فى الأصل (فاستقلوا) فهذا هو تعبير الشيخ المألوف فى مثل هذا السياق .

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : أما ترضون أن يرجع الناس بالغنى ؛ وأنتم ترجعون بالنبى إلى أهليكم ؟

« ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا .. » : لو كانت المقاديرُ متساويةً لتعطّلت المعايشُ ، ولَبَقِىَ كلٌّ عندَ حاله ؛ فجعل بعضَهُم مخصوصين بالرّفه والمال ، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال .. حتى احتاج الفقيرُ فى جَبْرِ حاجته إلى أن يعملَ للغنىّ كى يرتفق من جهته بأجرته فيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنىّ والفقير جميعاً .

قوله جل ذكره : « ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً
لجعلنا لِمَن يَكفُرُ بالرحمٰنِ لبيوتهم
سُقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يَظهَرُون »

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر ؛ فالذى يبقى عنّا لو صَبَبْنَا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته . ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهمْ سُقُفاً من فضة ومعارجَ من فضة ، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا .

ولو فعلنا .. لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ ؛ لأنَّ الدنيا بأسْرِها ليس لها عندنا خطر .

قوله جل ذكره : « ومَن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمٰنِ
نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين » .

مَن لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع اللهِ فحادَ عن ذكره ، وأخلدَ إلى الخواطر الرديَّة قيَّضَ اللهُ له مَنْ يَشْغَلُه عن الله — وهذا جَزاءُ مَنْ تركَ الأدبَ فى الخلوة . وإذا اشتغل العبدُ فى خلوته بربِّه .. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن ربه صَرَفه الحق عنه بأى وجْهٍ كان ، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحته بمَا يشغله عن الله .

ويقال : أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه ، واتَّبَعَ شهوته ، وفتح ذلك البابَ عَلَى نَفْسه بقى فى يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلّصُ عنه إلا بعد مُدَّة .

قوله جل ذكره : « وإنهُم ليصدونهم عن السبيل
ويحسَبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا

قال يا ليت بينى وبينك بُعدَ المشرِقين
فبِئس القرين »

الذى سوّلت له نَفْسُهُ أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبَه على موافقته فى باطله ، ويدّعى أنه على حقٍّ . وهو بهذا يَضُر بِنَفْسِه ويضر بغيره . ثم إذا ما انكشف — غداً — الغطاء تبيَّن صاحبُه خيانتَه ، ونَدِمَ على صُحْبَتِه ، ويقول : « يا ويلتَىٰ ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً »[1] و « ياليت بينى وبينك بعد المشرقين » . ولكنَّ هذه الندامةَ لا تنفعُ حينئذٍ ؛ لأنّ الوقتَ يكونُ قد فات ، لهذا قال تعالى :

« ولن ينفعَكم اليومَ إذ ظلمتم أنكم
فى العذاب مُشْتَرِكون »

قوله جل ذكره : « أفأنت تُسْمِعُ الصُّمّ أو تَهْدِى
العُمْىَ ومَنْ كان فى ضلالٍ مبين » .

هذا الاستفهام فيه معنى النفى ؛ أى أنه ليس يمكنُكَ هدايةَ مَنْ سَدَدْنا بصيرته ، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه ، ومَنْ صَبَبْنا فى مسامع فَهْمه رصاصَ الشقاء والحرمان... فكيف يمكنك إسْماعه؟!

قوله جل ذكره : « فإمّا نَذْهَبَنّ بِكَ فإنّا مِنهم
منتقمون »

يعنى : إن انقضى أَجَلُكَ ولم يتفق لكَ شهودُ ما نتوعَّدُهم به فلا تتوَهَّمْ أنَّ صِدْقَ كلامِنا يشوبُه مَيْنٌ[2] ، فإنّ ما أخبرناك عنه — لا محالة — سيكون .

قوله جل ذكره : « أو نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم فإنا عليهم
مقتدرون »

أثبتَهُ عَلَى حدِّ الخوفِ[3] والرجاء ، ووقَفَهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده[4] — سبحانه

(١) آية ٢٨ سورة الفرقان .
(٢) فى م (مبين) وهى خطأ فى النسخ إذ الصواب (المين) أى الكذب .
(٣) فى ص (الحزن) ، لكننا آثرنا عليها ما جاء فى م فالخوف — لا الحزن — يقابل الرجاء فى المصطلح الصوفى (أنظر رسالة القشيرى ص ٣٥) .
(٤) استبد بالأمر = انفرد به (الوسيط) .

بعلم الغيب . والمقصود كذلك أن يكونَ كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير — فالله يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : « فاستمسِكْ بالذى أُوحِىَ إليكَ إنك على صراطٍ مستقيم »

اجتهِدْ من غير تقصير وتوكَّلْ على اللهِ من غير فُتور ، وقِفْ حيثما أُمِرْتَ ، وثِقْ بأنك على صِراطٍ مستقيم .

قوله جل ذكره : « وإنه لَذِكْرٌ لكَ ولقومِكَ وسوف تُسْأَلون » .

أى إنَّ هذا القرآن لَذِكْرٌ لك ؛ أى شرفٌ لك ، وحُسْنُ صيتٍ ، واستحقاقُ منزلةٍ .

قوله جل ذكره : « واسْأَلْ مَنْ أرسلنا مِن قَبْلك مِن رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلِهةً يُعْبَدُون » .

حَشَرَ أرواحَ الأنبياء — عليهم السلام — ليلةَ الإسراء ، وقيل له — صلى الله عليه وسلم : سَلْهم : هل أَمَرْنا أحداً بعبادة غيرنا ؟ فلم يَشُكَّ النبى — صلى الله عليه وسلم — ولم يسأل[1] ويقال : الخطابُ له ، والمرادُ به غيره . . فَمَنْ يرتاب فى ذلك ؟ (ويقال : المراد منه سَلْ أقوامهم ، لكى إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ فى إبرام الحجة عليهم »[2] .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا . . . . . إذا هم منها يضحكون »

كرَّر قصةَ موسىَ غيرَ مرةٍ فى القرآن ، وأعادَها هنا مجملةً ؛ أرسلناه بدلائلنا ، أرسلناه بحجةٍ ظاهرةٍ قاهرةٍ ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط ، فقوبل بالهزء والضحك

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : « لا أسأل قد اكتفيت » وعنه أيضاً : أنه لم يسأل لأنه كان أعلم بالله منهم .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ص وموجود فى م ، والمقصود بها : اسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والانجيل — وعلى هذا الرأى جمهور من المفسرين منهم مجاهد والضحاك وقتادة .

والتكذيب . ومع أنَّ اللهَ سبحانه لم يُجْرِ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاء أوْحَشَ مما قبله . فلمَّا عضَّهم الأمرُ قالوا : يأيها الساحرُ ، ادْعُ لنا ربَّك ليكشف عنَّا البليَّةَ لنؤمِنَ بك ، فدعا موسى ... فكشف اللهُ عنهم ، فعادوا إلى كفرهم ، ونقضوا عَهْدَهُم .

قوله جل ذكره : « ونادىٰ فِرعونُ فى قومه قال : يا قومِ
أليس لى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ
تجرى مِنْ تحتى أفلا تُبْصِرون » .

تعزَّزَ بمُلْكِ مصر ، وجَرْىِ النيل بأمره ! وكان فى ذلك هلاكُه ؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تعزَّزَ بشىء من دون الله فحتفُه وهلاكُه فى ذلك الشىء .

« أم أنا خيرٌ مِنْ هذا الذى هو مَهينٌ
ولا يكاد يُبين » .

استصغر موسى وحديثَه ، وعابَه بالفقر . . فَسَلَّطه اللهُ عليه ، وكان هلاكه بيديه ، فما استصغر أحدٌ أحداً إلا سَلَّطه اللهُ عليه[1] .

قوله جل ذكره : « فاستَخَفَّ قَوْمَهُ فأطاعوه إنهم كانوا
قوماً فاسقِين »

أطاعوه طاعةَ الرهبة ، وطاعةُ الرهبةِ لا تكون مخلصةً ، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرَتْ عن الرغبة .

قوله جل ذكره : « فلمَّا آسَفُونا انتقمنا منهم فأغرقناهم
أجمعين » .

« آسفونا » أغضبونا ، وإنما أراد أغضبوا أولياءنا ، فانتقمنا منهم . وهذا له أصل فى باب

---

(١) يحاول القشيرى أن يغمز بأولئك الذين يتعرضون للأولياء والعارفين ، وكيف أن الحق — سبحانه — يتولى عنهم ردَّ كيد الكائدين .

الجَمْع[1] ؛ حيث أضاف إيسافَهم لأوليائه إلى نَفْسِهِ . . وفى الخبر : أنه يقول : «مَرِضْتُ فلم تَعُدْنى[2] .

وقال فى قصة ابراهيم عليه : « يأتوك رجالاً . . » [3]

وقال فى قصة نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[4] .

قوله جل ذكره : ولمَّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ منه يَصِدُّون » .

وضَرْبُ المَثَلِ بعيسى هو قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »[5] ؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين . فجحدوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »[6] ، فقالوا : رضينا بأن نكون فى النار مع عيسى وعُزَيْر والملائكة ، وليس لهم فى الآية موضع ذِكْر ؛ لأنه سبحانه قال : « وما » تعبدون ، ولم يقل « ومن » تعبدون[7] .

قوله جل ذكره : وقالوا ءالهتُنا خيرٌ أم هُوَ ما ضربوه لك إلَّا جَدَلاً بل هم قومٌ خَصِمون » .

ما ضربوه لك إلا جدلاً »:وذلك أنهم قالوا : إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة ، وإن قال: عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعْبد ، وإن قال : ليس واحدٌ منهم

---

(١) عندما يضاف الفعل إلى الحق يكون المعنى منصرفاً إلى حال الجمع ، وعندما ينسب إلى الخلق يكون منصرفاً إلى حال الفرق ، مثلما أوضح القشيرى هنا ، ومثلما أوضح عند قوله تعالى «: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٢) أصل الحديث : أنه تعالى يقول : «يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، واستسقيتك فلم تسقنى ، واستطعمتك فلم تطعمنى » القرطبى : ج ٢٠ ، ص ٥٥ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج . والخطاب فى الآية لابرهيم في مقام الفرق ، ولنبينا في مقام الجمع .

(٤) آية ٨٠ سورة النساء .

(٥) آية ٥٩ سورة آل عمران .

(٦) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

(٧) لأن « من » العاقل و« ما » لغير العاقل فالمقصود الأصنام .

خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه السلام . هم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم يكن سؤالهم للاستفادة . فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعْبَد ؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام بمستحقٍ أن يكون معبوداً من دون الله . وهكذا بيَّن الله — سبحانه — لنبيِّه أنهم قوم جَدِلون[1] ، وأنَّ حُجَتَهم داحضةٌ عند ربهم

قوله جل ذكره « إنْ هُوَ إلَّا عَبْدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » .

فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة .

« ولو نشاء لَجَعَلْنا منكم ملائكة فى الأرْضِ يَخْلُفُون »

ولو شِئْنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الأرض بَدَلَكم .

ثم قال : « وإنه لَعِلْمٌ للساعةِ فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعونِ هذا صِراطٌ مستقيم »

« وإنه لعِلْمٌ للساعة » : يعنى به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة ، « فلا تمترنَّ » بنزوله بين يدىّ القيامة[2] .

« ولا يَصُدَنَّكم الشيطانُ إنه لكم عدوٌّ مبين »

ولا يصدنكم الشيطانُ عن الإيمان بالساعة ، وعن اتِّباع الإيمانِ بهُداى .

---

(١) سبب نزول هذه الآية وما سبقها تلك المناظرة التى حاول بها عبد الله بن الزبعرى السهمى أن يستهوى قريشاً بإثارة اعتراضات باطلة ، فأفحمه المنطق القرآنى ، وأخرس لجاجه .

يقول معروف الكرخى : إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل (الروض الفائق ، جـ ١ ، ص ١٣٩) .

(٢) عن أبى هريرة — كما ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه — قال قال رسول الله (ص) : لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يُسعى إليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » .

قوله جل ذكره : « ولمَّا جاء عيسى بالبيناتِ قال قد جئتكم بالحكمة ولأُبيِّنَ لكم بعضَ الذى تختلفون فيه فاتقوا اللهَ وأطيعونِ » .

ذكرَ مجيءَ عيسى عليه السلام أول مرة ؛ حيث أتى قومَه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تحزَّبوا عليه[1] ، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة .

« الأَخِلاَّء يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين » .

ما كان لغيرِ اللهِ فمآله إلى الضياع . والأخلاء الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرأ بعضُهم من بعضَ ، فلا ينفع أحدٌ أحداً .

وأمَّا الأخلاء فى الله فيشفع بعضهم فى بعض ، ويتكلم بعضهم فى شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله : « إلا المتقين » .

وشرط الخلَّة[2] فى الله ؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً فى الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعض ؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً لله لا لنصيبٍ فى الدنيا ، ويكون قبولُ بعضهم بعض لأَجْلِ الله ، ولا تجرى بينهم مُداهَنَةٌ ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم فى صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللهِ يقبله ، فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضاه اللهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه غاد هذا إلى مودته ، وإلّا فلا ينبغى أن يُساعدَه عَلَى معصيته ، كما ينبغى أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوى أو لطمعٍ أو لِعِوَض .

قوله جل ذكره : « يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزَنُون » .

يقال لهم غداً : « يا عبادى[3] لا خوفٌ عليكم اليومَ » مما يلقاه أهل

---

(١) كان تحزبهم إلى فرق متعددة هم : اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية .

(٢) تضاف هذه الآراء إلى ما ذكره القشيرى فى رسالته فى باب « الصحبة » .

(٣) بالياء فى الوصل والوقف مدنى وشامى وأبو عمرو ، وبفتح الياء أبو بكر ، والباقون بحذف الياء .

الجمع[1] من الأهوال ، ولا أنتم تحزنون فيما قَصَّرْتُم من الأعمال ...

أمَّا الذنوب . . فقد غفرناها ، وأمَّا الأهوال ... فكفيناها ، وأمَّا المظالم . . فقضيناها .

فإذا قال المنادى : هذا الخطاب يُطْمِعُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :

« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين »

أيِسَ الكفارُ ، وقَوِىَ رجاءُ المسلمين[2] .

قوله جل ذكره : « ادخُلوا الجنةَ أنتم وأزواجُكم تُحْبَرُون[3] »

فى رياض الجنة ، وتَرْتَعون .

ويقال : « تحبرون » من لذة السماع .

قوله جل ذكره : « يُطَافُ عليهم بصِحافٍ من ذهبٍ وأكوابٍ وفيها ما تشتَهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتم فيها خالدون » .

العَبَّاد لهم فيها ما تشتهى أنفُسهم لأنهم قاسوا فى الدنيا — بحُكم المجاهدات — الجوعَ والعطشَ ، وتحمَّلوا وجُوهَ المشاقّ ، فيُجازون فى الجنةَ بوجوهٍ من الثواب .

وأمَّا أهل المعرفة والمحبّون، فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله[4] لطول ما قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم ؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم .

---

(١) يفسر النسفى أهل الجمع بأنهم أهل مكة (آية ٤٥ سورة القمر) .

(٢) قريبٌ مما ذكره القشيرى ما أورده الحارث المحاسبى فى رعايته . (ينادى المنادى يوم القيامة . يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ...» فيرفع الخلائق رءوسهم ، ويقولون : نحن عباد الله. ثم ينادى الثانية : «للذين آمنوا ... » ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم) .

(٣) تحبرون أى تسرون سروراً يظهر حباره (= أثره) على وجوهكم .

(٤) الجنة الحقيقية عند أرباب الأحوال رؤية الله ، ورد فى الخبر : أسألك لذة النظر إلى وجهك » .

قوله جل ذكره : « وتلك الجنةُ التى أُورِثتموُها بما كنتمْ تعملون »

أى يقال لهم — والخطاب للمطيعين غداً — : أنتم يا أصحابَ الإخلاص فى أعمالكم ؛ والصدق فى أحوالكم :

« لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون » .

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفى الأُنْس تتقبلون .

قوله جل ذكره : «إنَّ المجرمين فى عذاب جهَنَّم خالدون» .

هؤلاء هم الكفار المشركون ، فهم أهل الخلود[1] ، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّف .

وأمَّا أهل التوحيد : فقد يكون منهم قومٌ فى النار . ولكن لا يخلدون فيها . ودليلُ الخطابِ يقتضى أنه يُفَتَّرُ عنهم العذاب . ورد فى الخبر الصحيح : أنه يُميتهم الحقُّ — سبحانه — إماتةً إلى أن يُخرِجَهم من النار — والميت لا يحسُّ ولا يتألم[2] .

« لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُون » .

الإبلاس[3] من الخيبة ، ويدل ذلك عَلَى أن المؤمنين لا يأس لهم فيها ، وإن كانوا فى بلائهم فهم عَلَى وصف رجائهم ؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهى حسابهم .

ولقد قال الشيوخ : إنَّ حالَ المؤمن فى النار — من وجهٍ — أَرْوَحُ لقلبه من حاله فى الدنيا ؛ فاليومَ — خوفُ الهلاكِ ، وغداً — يقينُ النجاة ، وأنشدوا :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها متوقِّعٌ لقواصم الظُّهْرِ
وفضيلةُ البلوى تَرَقُّبُ أهلِها — عقبَ الرجاء — مودةَ الدهرِ

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى التشيرى فى أبدية النار ، على خلاف ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن القوة الجسمانية متناهية فلا بد من فنائها ، ولأن دوام الإحراق مع بقاء الحياة خروج عن حكم العقل (انظر شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ وشرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) روى أحمد فى مسنده : « . . أماتهم إماتةً حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة . أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة .. »

(٣) أبلس : سكت لحزنه وانقطاع حجته .

قوله جل ذكره : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين »

هذا الخطاب يُشْبِهُ كلمة العُذْر — وإنْ جلّ قَدْرُه — سبحانه — عن ذلك .

قوله جل ذكره : « ونادوا يا مالِكُ لِيَقْضِ علينا ربُّكَ
قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحقّ
ولكنّ أكثرَكم للحقّ كارِهون » .

لو قالوا : « يامَلِك » لعلّ أقوالَهم[1] كانت أقربَ إلى الإجابة ، ولكنّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك[2] ، فكان الجوابُ عليهم :

« إنكم ماكثون » فيها .. نُصِحتم فلم تنتصحوا ، ولم تقبلوا القولَ فى حينه ، وكان أكثرهم للحق كارهين .

قوله جل ذكره : « أم أبرَموا أمراً فإنّا مُبرِمون »[3]

بل أمورُهم مُنْتَقَضةٌ عليهم ؛ فلا يتمشّى لهم شيء مما دبّروه ، ولا يرتفع لهم أمرٌ عَلَى نحو ما قدّروه — وهذه الحالُ أوضحُ دليل عَلَى إثبات الصانع .

قوله جل ذكره : « أم يَحْسَبون أنّا لا نَسْمَعُ سِرّهم
ونجواهم بلى ورُسُلُنا لديهم يكتبون » .

إنما خوّفهم بسماع الملَكَ ، وبكتابتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله — سبحانه ، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خوّفهم بغير الله ، ومَنْ عَلِمَ أنّ أعمالَه تُكْتَبُ عليه ، وأنه يُطَالَبُ بمقتضى ذلك — قَلّ إلمامُه بما يخاف أنْ يُسْأَلَ عنه ..

قوله جل ذكره : « قُلْ إن كان للرحمن وَلَدٌ فأنا أوّلُ العابدين » .

---

(١) فى ص (أحوالكم) وقد آثرنا عليها (أقوالكم) التى فى م كما يتضح من السياق القرآنى والسياق التفسيرى .

(٢) يلفت القشيرى نظرنا — من بعيد — إلى أن الدعاء ينبغى أن يتجه بالكلية إلى الرب سبحانه ، وقد يكون لذلك أهميته فى فكرة الاستشفاع بالوسيلة — كما يتصورها هذا الإمام.

(٣) يقال إن الآية نزلت فى تدبير الكائدين المكر بالنبى (ص) فى دار الندوة حين استقر أمرهم — حسب مشورة أبى جهل — على أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ثم يشتركون فى قتله فتضعف المطالبة بدمه صلوات الله عليه . وكانت النتيجة أن قتلوا جميعاً يوم بدر .

أى إنْ كان فى ضميركم وفى حُكْمِكم وفى اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فأنا أوَّلُ مَنْ يستنكِفُ من هذه القالة .

قوله جل ذكره : « سبحان ربِّ السمٰواتِ والأرضِ ربِّ العرشِ عمَّا يَصِفون » .

تنزَّه الله تنزيهاً ، وتقدَّس تقديساً عمّا قالوه . وفى هذه الآيات وأمثالِها دليلٌ على جوازِ حكاية قول المبتدعة — فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود — قصداً للردِّ عليهم ، وإخباراً بتقبيح أقوالهم ، وبطلانِ مزاعمهم .

ثم قال جلَّ ذكره : « فَذَرْهُمْ يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاقوا يومَهم الذى يُوعَدون » .

إذ ليس يفوت أمرُهم ، وهم لا محالةَ سيلقون صفرهم .

وفى هذا دليلٌ على أنه لا ينبغى للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة .

قوله جل ذكره « وهو الذى فى السماء إلٰهٌ وفى الأرضِ إلٰهٌ وهو الحكيمُ العليمُ » .

المعبودُ — فى السماء — اللهُ ، والمقصودُ — فى طلب الحوائج فى الأرضِ — اللهُ .

أهلُ السماءِ لا يعبدون غيرَ الله ، وأهل الأرضِ لا يَقْضِى حوائجَهم غير الله .

« وهو الحكيم » فى إمهالِه للعُصاة ، « العليم » بأحوالِ العِباد .

« وتبارك الذى له مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما وعنده علمُ الساعةِ وإليه تُرجَعون » .

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكبَّرَ الذى له مُلْكُ السمٰواتِ والأرض .

السمٰواتُ والأرضُ بقدرته تظهر . . لا هو بظهورها يتعزَّز[1] .

---

(١) الصوفية يستدلون بالخالق على ما خلق ، لأنه حاضر ومشهود ، وهو قديم قامت به الحادثات ... يقول ابن عطاء الله السكندرى : « متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك ؟ »

قوله جل ذكره : « ولا يملك الذين يَدْعون من دونه الشفاعةَ إلا مَن شهِدَ بالحقِّ وهم يعلمون » .

أى شهد — اليوم — بالتوحيد ، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة . وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة[1] .

قوله جل ذكره : « ولَئِن سألتَهم مَنْ خَلَقَهم ليقولُنَّ اللهُ فأنَّى يُؤْفَكون » .

فكيف لا يعتبرون ؟ وكيف يتكبَّرون عن طاعة الله .

« وقِيلِه يارَبِّ إنَّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون * فاصفحْ عنهم وقُلْ سلامٌ فسوف يَعْلَمون »

أى يعلم علمَ الساعة ويعلم[2] « قيلَه يارب »

« فاصفح عنهم . . « أى أَمْهِلْهُم ، وقل لكم منى سلامٌ ... ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون .

---

(١) واضح أن القشيرى يصرف الآية إلى المسلمين عامة ويخرج المشركين ، وتذهب بعض التفاسير إلى أن معنى « الذين من دونه » هم عيسى وعزير والملائكة ، فهم لا يملكون الشفاعة .

(٢) عاصم وحمزة يجران (قيلِه) على الإضافة وعنده علم الساعة وعلم قيله يارب ، والسبعة على النصب : ويعلم قيلَه ...

سورة الدّخان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ ذَكَرَها نال فى الدنيا والعُقْبى بهجتَه ، ومَنْ عَرَفَها بَذَلَ فى طلبها مُهْجَتَه .

كلمةٌ إذا استولت على قلبٍ عطَّلَته عن كلِّ شُغْل ، كلمةٌ إذا واظَبَ على ذِكْرِها عَبْدٌ أَمَّنَتْه من كلِّ هَوْل .

قوله جل ذكره : « حم * والكتابِ المبين »

الحاء تشير إلى حقِّه ؛ والميم تشير إلى محبته . ومعناه : بحقى وبمحبتى لِعبادى ، وبكتابى العزيز إليهم : إنِّى لا أُعَذِّبُ أهلَ معرفتى بفرقتى[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ إنَّا كُنَّا مُنذِرين * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أمرٍ حكيم »

« فى ليلة مباركة » : قيل هى ليلة القَدْر ، وقيل هى النصف من شعبان وهى ليلةالصَّك[2] . أَنْزَلَ القرآنَ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بمقدار ما كان جبريلُ ينزل به على الرسول صلى الله عليه وسلم[3] .

وسمَّاها : « ليلة مباركة » لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالى بركةً ليلةٌ يكون العبدُ فيها حاضراً بقلبه ، مشاهداً لربِّه ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة .

---

(١) يبدو أن القشيرى لم يعتبر « إنا أنزلناه... » جواباً للقسم ، وإلى هذا يذهب بعض النحاة الذين يعتبرون ذلك صفةً للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المُقْسَم به جواباً للقسم (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١٦ ص ١٢٥) .

(٢) من أسماء هذه الليلة : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك .

(٣) أى على مدى ثلاث وعشرين سنة .

وأحوال هذه الطائفه[1] فى لياليهم مختلفة ، كما قالوا:

لا أظلِمُ الليـــلَ ولا أدَّعى أنَّ نجومَ الليل ليست تزولُ
لَيْلِي كما شاءت : قصيرٌ إذا جادَتْ ، وإنْ ضنَّتْ فلَيْلِي طويلُ

« فيها يفرق كل أمرٍ حكيم » يكتب من أمِّ الـكتاب فى هذه الليلة ما يحصل فى السنة كلِّها من أقسام الحوادث فى الخير والشرِّ ، فى المحن والمِنَنِ ، فى النصر والهزيمة ،فى الخصب والقحط .

ولهؤلاء القوم (يعنى الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجدب ، والوصل والفصل ، والوفاق والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والقبض والبسط . . فـكم مِنْ عبدٍ ينزل له الحـكم والقضاء بالبُعْدِ والشقاء ، وآخر ينزل حكمه بالرِّفد والوفاء .

قوله جل ذكره : « أمْراً من عندنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلِين *
رحمةً من ربِّكَ إنه هو السميعُ العليم » .

« رحمة من ربك » : وهى الرسولُ — صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه : « أنا رحمة مهداة »

ويقال : « إنا كنا مرسلين » رحمةً لنفوسُ أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتحقيق .

« إنه هو السميع العليم » : « السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين المحبين .

قوله جل ذكره : « ربِّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما
إن كنتم موقنين »

مالك السمٰوات والأرضين ، ومالك ما بينهما — وتدخل فى ذلك أكسابُ العباد . وتَمَلُّـكُها بمعنى القدرة عليها ، وإذا حَصَلَ مقدورٌ فى الوجود دَلَّ على أنه مفعولُه ؛ لأن معنى الفعل مقدورٌ وجِدَ[2] .

---

(١) يقصد طائفة الصوفية .

(٢) لاحظ كيف يحاول القشيرى أن يدخل في « وما بينهما » أفعالَ العباد ، فحتى أكساب العباد — فى نظر هذا المتكلم داخلةٌ — من حيث هى مقدورة — في نطاق الخَلْق المنسوب إلى الله .

قوله جل ذكره « لا إله إلا هو يحيى ويُميتُ ربُّكم وربُّ آبائِكم الأولين »

هذه الكلمة فيها نَفْيُ ما أثبتوه بجهلهم ، وإثباتُ ما نَفَوْه بجحدهم .

« ربكم ورب آبائكم الأولين » : مُرَبِّى[1] أصْلَكُم ونَسْلَكُمْ .

قوله جل ذكره : « بل هم فى شكٍّ يلعبون »

اللَّعِبُ فِعْلٌ يجرى على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللُّعاب الذى يسيل لا[2] على نظام مخصوص ؛ فَوَصَفَ المنافقَ باللَّعبِ ؛ وذلك لتردُّدِه وتحيُّرِه نتيجةَ شكِّه فى عقيدته .

قوله جل ذكره : « فارتقِبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخَانٍ مبين » .

هذا من أشراط الساعة ؛ إذ يتقدم عليها[3] .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أى تتم هنا فى هذه الدنيا) فيومُهم الذى تأتى السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحباب ، وانسدادِ ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبوابِ الأُنسِ بالأحباب وفى معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحى بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياةِ ببارِدِ

قوله جل ذكره : « يَغْشى الناسَ هذا عذابٌ أليم » .

---

(١) لاحظ كيف يربط القشيرى بين « التربية » و « الرب » .

(٢) سقطت (لا) من ص .. وهى ضرورية كما هو واضح من السياق ، وهى موجودة في م ، ولا تخفى على القارىء روعة الربط بين « اللعب » و « اللعاب » ، ومدى السخرية من دماغ المنافق وقد ماثلت فماً تتحرك فيه الشكوكُ تحرُّكَ اللعاب .

(٣) هناك اتجاهان في معنى « الدخان » في هذه الآية : أحدهما أنه – كما يذكر القشيرى أنه من أشراط الساعة ، خرَّجَ الثعلبى عن حذيفة أنه سأل النبى (ص) : « يانبى الله ، ما الدخان في هذه الآية ؟ فقال : هو دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين ليلة ويوماً ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأمَّا الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره » . وأما الاتجاه الثانى فهو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبى عليهم ، وقد كشفه الله عنهم . ويؤيد ابن مسعود هذا القول الثانى بهذا الكشف ، لأنه لو كان قبل يوم القيامة ما كشفه اللهُ عن الناس .

وعذابُ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ فى الغالب ، وهو عذابٌ مُسْتَعْذَبٌ ، أولئك يقولون :

« ربَّنا اكْشِفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمِنون »

وهؤلاء يستزيدون — على العكس من الخَلْق — العذابَ ، وفى ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ مآربى قد نِلْتُ منها سوى ملذوذِ وجدى بالعذاب[1]

فهم يسألون البلاءَ والخَلْقُ يستكشفونه ، ويقولون :

أنت البلاءُ فكيف أرجو كَشْفَه
إنَّ البلاءَ إذا فَقَدْتُ بلائى

قوله جل ذكره : « أنَّىٰ لهم الذكرى وقد جاءَهم رسولٌ مبين »

إنْ خالفوا دواعى قلوبهم من الخواطر[2] التى تَرِدُ من الحقِّ عليهم عوقبوا — فى الوقتِ بما لا يتَّسعُ لهم ويُسْعِفهم ، فاذا أخذوا فى الاستغاثة[3] يقال لهم : أنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول[4] على قلوبكم فخالفتم ؟ !

قوله جل ذكره : « إنَّا كاشِفو العذابِ قليلاً إنَّكم عائدون * يومَ نَبْطِشُ البطشةَ الكبرى إنَّا منتقِمون » .

---

(١) البيت للحلاج مسبوق بهذا البيت :

أريدك ، لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

(ديوان الحلاج المقطعة السابعة)

(٢) الخواطر من الحق ، والهواجس والوساوس من الشيطان .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (الاستعانة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٤) الرسول هنا — لأن الحديث هنا عن الصوفية — مقصود به ما يَرِدُ على قلوبهم من لدن الحقِّ من الكشوفات والمواصلات

حيث نورثكم حزنا طويلا ، ولا تجدون فى ظلال انتقامنا مقيلا .

قوله جل ذكره : ولقد فَتَنَّا قبلَهم قومَ فرعونَ وجاءهم
رسولٌ كريم * أن أدُّوا إلىّ عِبَادَ اللهِ
إنِّى لكم رسولٌ أمين » .

فَتَنَهم(١) بعد ما أَصَرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة عنودهم(٢)

« وجاءهم رسول كريم » : يطالبهم بازالة الظلم عن بنى إسرائيل ، وأن يستبصروا ، واستنفرهم لله ، وأظهر الحُجَّةَ من قِبَلِ الله .

« فأَسْرِ بعبادى ليلاً إنكم مُتَّبَعون » .

أَمَرَه بأن يَسْرِىَ بعباده المؤمنين ، وعرَّفهم أنهم سيُنقَذون ، وأنَّ عدوَّهم « جُنْدٌ مُغْرَقون »

قوله جل ذكره : « كم تركوا من جنَّاتٍ وعيون *
وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا
فيها فكهين » .

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم ، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .

« كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

وأَسْكَنَّا قوماً آخرين فى منازلهم ودورهم .

قوله جل ذكره . « فما بَكَتْ عليهم السماءُ والأرضُ
وما كانوا مُنظَرين » .

لم يكن لهم من القَدْرِ والخطَرِ ما يتحرك فى العالَم بِسببهم ساكنٌ ، أو يسكن متحركٌ

---

(١) هكذا في س وهى مقبولة فى السياق إشارة إلى ما في الآية الكريمة : « ولقد فتنا . . . » أما في م فهى (فثبتهم) وواضح فيها خطأ الناسخ .

(٢) نفر الجلد : وَرِمَ وتجافى عن اللحم ، ونفرت المرأة عن زوجها : أعرضت وصدَّت ، ونفر من الشىء : فزع منه وانقبض غير راض به .

فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ ، ولاالغبراء لغيبتهم اخضَرَّتْ. لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثر ، ولم يظهر مِنْ قِبَلِهم على قلبِ أحدٍ من عبادِنا أثر . وكيف تبكى السماءُ لَفقْدِ من لم تستبشر به مِنْ قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذى تُسَرُّ السماء بصعودِ عمله إليها ، فإنها تبكى عند غيابه وفَقْدِه[1] .

قوله جل ذكره : ولقد نَجَّيْنَا بنى إسرائيلَ من العذابِ المُهين * من فرعون إنَّه كان عالياً من المُسْرفين * ولقد اخترناهم على عِلْمٍ على العالَمين » .

نجَّاهم ، وأقى عدوَّهم ، وأهلكه .

« ولقد اخترناهم . . . » أى عَلِمنا ما يحتقبون من أوزارهم[2] ، فرفعنا — باختيارنا — من أقدارِهم ما وَضَعَهُ فِعْلُهم وتدنسُّهم بأوضارهم .

ويقال : « على علمٍ منا » بأحوالهم أنهم يُؤْثِرون أمرَنا على كل شىء

ويقال : « على علمٍ منا » بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : « على علم منا » بما نودع عندهم من أسرارنا ، وما نكاشفهم به من حقائق حقِّنا .

قوله جل ذكره : « وآتيناهم من الآياتِ ما فيه بلاءٌ مبين »

من مطالبته بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكَدَرِ والعناء[3] .

قوله جل ذكره : إن هؤلاء ليقولون * إن هى إلا مَوْتَتُنا

---

(١) عن شريح الحضرمى : قال النبى (ص) : « ألا لا غربة على مؤمن ، فما مات مؤمن في غربة غائباً عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » .

(٢) في ص (إنذارهم) والسياق يرفضها ، والصواب ما في م .

(٣) لأن البلاء يكون بالنعمة والنقمة ، قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

الأولى وما نحن بمُنْشَرين * فأتوا
بآبائِنا إن كنتم صادقين » .

اقترح أبو جهلٍ على النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يحيِيَ لهم نَفْسًا[1]:

« لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ » فأخبر الله — سبحانه — أنهم اقترحوا هذا بعد قيام الحُجَّةِ عليهم، وإظهار ماأزاح لهم من العُذْر : ثم قال جلَّ ذكره :

أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ والذين مِن قَبْلهم
أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين * وما خَلَقْنا
السمٰواتِ والأرضَ ومابينهما لاعبين * ماخلقناهما
إلا بالحقِّ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

« تُبّع » هو ملك لليمن ، وكان مسلماً ، وكان فى قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومَه على كثرة عددهم ، وكمال قُوَّتِهم .

قوله جل ذكره : « وماخَلَقْنا السمٰوات والأرض . »

ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، بالحُكْمِ الحقِّ ؛ وبالأمرِ الحقِّ ... « فأنا مُحِقٌّ فى خَلْقِهما » : أى كان لى خَلْقُهما .

قوله جل ذكره : « إنَّ يومَ الفَصْل ميقاتُهم أجمعين * يومَ
لا يُغْنِي مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم
يُنصرون * إلا مَن رَحِمَ اللهُ إنه هو
العزيزُ الرحيم »

---

(١) حدَّد أبو جهل ذلك حين قال النبى: إبعث لنا — إن كنت صادقاً — رجلا مثل قصىّ بن كلاب لنسأله عمّا يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبى جهل فيه ضعف ؛ لأن البعث يكون للجزاء لا للتكليف .

يومئذٍ لا يُغنى ناصرٌ عن ناصر ولاحميمٌ عن حميم ، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ . . شيئاً . ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَه الله ؛ وبفَضْلِه ونِعْمته .

قوله جل ذكره : « إنَّ شجرة الزَّقوم * طعامُ الأثيم * كالمُهْل يغلى فى البطون * كغَلْى الحميم » .

« الأثيم » مرتكبُ الذنوب . « المهل » : النحاس المذاب . « الحميم » : الماء الحار .

قوله جل ذكره : « خُذوه فاعتِلوه إلى سواءِ الجحيم * ثم صُبُّوا فوقَ رأسِه من عذاب الحميم » .

ادفعوا به إلى وسط الحميم . ويقال له :

« ذُقْ إنك أنت العزيزُ الكريم » :

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليلٌ مَهينٌ .

قوله جل ذكره : « إن المتقين فى مقامٍ أمين * فى جناتٍ وعيون» .

آمنين من المحن من جميع الوجوه ، لِباسُهم من حرير ، وفراشُهم من سندسٍ واستبرق ، « متقابلين » : لا يبرحون ولا يبغون عنها حِوَلاً .

قوله جل ذكره : « كذلك وزَوَّجْناهُم بحورٍ عين » .

تباح لهم صُحْبَتُهن ، ولا يكون فى الجنة عقد تزويج ولا طلاقٌ ، ويمكّن الولىُّ بهذه الأوصاف من هذه الألطاف . ثم قد يُختطفُ قومٌ من بين هذه الأسباب ، فيتحررون عن هذه الجملة ؛ فكما أنهم فى الدنيا مُختطَفُون عن كلِّ العلائق فإنهم فى الآخرة تطمع الحورُ العينُ فى صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شىء .(1)

---

(1) الصوفيةالخُلَّص يعبدون الله لا طمعاً فى جنة ولا خوفاً من عذاب ، فرؤيةُ الله جنتهم ، واحتجابُه عنهم جهنمهم الكبرى . ومبعث ذلك أنهم يحبون الله لِذاته ، وفى ذلك يقول قائلهم :

إن ذا الحب لمن يفنى له ... لا لدارٍ ذات لهوٍ وطُرَف
لا ولا الفردوس – لا يألفها ... لا ولا الحوراء من فوق غرف

الزاهدُ فى الدنيا يحميه منها ، والعارفُ فى الجنة يحميه من الجنة .

قوله جل ذكره :« لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولى
ووقاهم عذابَ الجحيم » .

الموتة الأولى هى بقبض أرواحهم فى الدنيا ، ويقيهم الله فى الآخرة العذابَ بفضله ، وذلك هو الظَّفَرُ بالبغية ، ونجاح السُّؤل .

قوله جل ذكره : « فإنما يسرناه بلسانك . . » .

يامحمد ، ليتذكر به أهلُك ، فارتقِبْ العواقبَ تَرَ العجائب. إنهم يرتقبون ، ولكن لايرون إلا ما يكرهون .

سورة الجاثية

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه ، أحدٍ لا يستمسك بعيشه[1] ، جبارٍ ارتدى بكبريائه ، قهّارٍ اتصف بعزِّ سنائه .

« بسم الله » باسم كريمٍ صَمَد ، لا يستغرقُ وجودَه أَمَد ، أبديٌّ عظيمٍ أَحَد ، لا يوجَدُ من دونه مَفَرٌّ ولا ملتحد .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيز الحكيم » .

« العزيز » : فى جلاله ، « الحكيم » : فى أفعاله .

« العزيز » : فى آزاله ، « الحكيم » : فى لطفه بالعبد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى السمٰواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين » .

شواهد الربوبية لائحةٌ ، وأدلةُ الإلٰهية واضحةٌ ؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة ، ووضعَ سِرَّه فى محالِّ العِبْرة[2] حَظِيَ — لا محالةَ — بحقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : « وفى خَلْقِكم وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقومٍ يوقِنون » .

---

(١) هكذا فى ص ، وفى م . . ولو صح أنها هكذا عن القشيرى فربما كان قصده أن الله سبحانه — حى بدون عوامل استمساك تثبت هذه الحياة .. فهو حى لا بسبب أو عارض لأنه لا يفتقر إلى ذلك ، أما المحدث فإنه يعتمد فى حياته على ما يحفظ حياته ، وتزول هذه الحياة بزوال عوامل هذا الحفظ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (بعزه) ونحن نؤثر الأولى لملاءمة الاعتبار لسياق التدبر فى المخلوقات .

إذا أنعم العبدُ نَظَرَه فى استواء قدِّه وقامته ، واستكمال عقله وتمام تمييزه ، وماهو مخصوص به فى جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب ؛ فى أجزائها وأعضائها .. ثم وقف على اختصاص وامتياز بنى آدم من بين البريَّة من الحيوانات فى الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم فى الإيمان والعرفان ووجوهِ خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة فى فنون الإحسان — عَرَفَ تخصُّصَهم بمناقبهم ، وانفرادَهم بفضائلهم ، فاستيقن أن الله كرَّمهم ، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قدَّمَهم .

قوله جل ذكره : « واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزل
اللهُ من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرضَ
بعد موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٌ
لقومٍ يعقِلون » .

جَعَلَ اللهُ العلومَ الدينيةَ كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل ، مُحَقَّقَةً بالشواهد . فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم[1] ، ووقع فى عذاب الجحيم ؛ فاليومَ فى ظلمة الحيرة والتقليد ، وفى الآخرة فى التخليد فى الوعيد .

قوله جل ذكره : « تلك آياتُ اللهِ نتلوها عليكَ بالحقِّ
فبأىِّ حديثٍ بعد الله وآياتِه يؤمنون ؟ »

فَمَنْ لا يؤمن بها فبأى حديثٍ يؤمن ؟ ومن أى أصل يستمد بعده ؟ ومن أى بَحْرٍ فى التحقيق يغترف ؟ هيهات ! ما بقى للإشكال فى هذا مجال .

قوله جل ذكره : وَيلٌ لكلِّ أفَّاكٍ أثيم * يسمعُ آياتِ
الله تُتْلَى عليه ثم يُصِرُّ مُستكبِراً
كأن لم يسمعها فَبَشِّرْه بعذابٍ أليم » .

---

(١) فى هذا ردٌّ على من يزعمون أن الصوفية يتنكرون للعلوم الكسبية ؛ فهى كما هو واضح ذات أهمية قصوى فى تثبيت الإيمان . هذا فى الوقت الذى يقر القشيرى بالعلوم الوهبية كما يتضح من الهامش رقم (٢) فى الصفحة التالية .

كلٌّ صامتٍ ناطقٌ ؛ يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان فى الحكم[1] .

فمَن استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد فاز بذُخْرِ الدارين ، وتصدَّى لِعِزِّ المنزلين . ومَنْ تصام بحكم الغفلة وقع فى وهدة الجهل ، ووُسِم بكيِّ الهَجْر .

قوله جل ذكره : « وإذا عَلِمَ من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُوًا أولئك لهم عذابٌ مُهين » .

قابله بالعناد ، وتأوَّله عَلَى ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيحٍ بإسناد . . . فهؤلاء « لهم عذاب مهين » : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه منها شكٌّ فيما هو به من حاله . . . فإذا استهان بها وقع فى ذُلِّ الحجبة وهوانِ الفرقة[2] .

قوله جل ذكره : « مِن وَرائهم جَهَنَّمُ ولا يُغْنى عنهم ما كَسَبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون اللهِ أولياء ولهم عذابٌ عظيم » .

فعند هذه الفترة ، وفى وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطابَ يُسْمَعُ عنهم ، ولهم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبكا فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى سَخَّرَ لكم البحرَ لتجرىَ الفُلْكُ فيه بأمرِه ولتبتغوا من فَضْلِه ولعلَّكم تَشْكرون » .

عندما يركبون البحر فلربما تَسْلَمُ السفينةُ ولربما تغرق .

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى أن كل شىء ناطق بالوحدانية .. إما نطق قالة – كما فى حال الإنسان ، وإما نطق دلالة – كما فى حال الجمادات .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى العلوم الوهبية ، وضرورة اعتبارها رافداً هاماً من روافد الإيمان الكشفى والتوحيد الشهودى .

وكذلك العبد فى فلك الاعتصام فى بحار التقدير ، تمشى به رياح العناية ، وأشرعةُ التوكل مرفوعةٌ ، والسُّبُلُ فى بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينةُ ناجيةٌ . أمّا إنْ هبّت نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبْقى بيد الملاّحِ شىء ، والمقاديرُ غالبةٌ ، وسرعان ماتبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ .

قوله جل ذكره : « وسخّر لكم ما فى السموات
وما فى الأرض جميعاً منه إنّ فى ذلك
لآياتٍ لقومٍ يتفكرون » .

« جميعاً منه » : كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها — كلُّه منه سبحانه ؛ فما من شىءٍ من الأعيان الظاهرة إلّا — ومن وجه — للانسان به انتفاع . . وكلها منه سبحانه ؛ فالسماء لهم بناء ، والأرضُ لهم مهاد . . إلى غير ذلك . ومِنَ الغَبْنِ أن يستسخرَكَ ما هو مُسَخَّرٌ لك ! [1] وَلْيتأمل العبدُ كلَّ شىء . . كيف إنْ كان خَلَلٌ فى شىء منها ماذا يمكن أن يكون ؟ ! فلولا الشمسُ . . كيف كان يمكن أن يتصرّف فى النهار ؟ [2] ولو لم يكن الليلُ كيف كان يسكن بالليل ؟ ولو لم يكن القمر . . كيف كان يهتدى إلى الحساب والآجال ؟ . . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات .

قوله جل ذكره : « قل للذين آمنوا يَغْفِروا للذين
لا يَرْجُون أيامَ اللهِ ليَجْزِيَ قوماً بما
كانوا يَكْسِبون » [3] .

نَدَبَهم إلى حُسْنِ الخلُق ، وجميلِ العِشْرَة ، والتجاوزِ عن الجهل ، والتنقى من كدورات البشرية . ومقتضياتِ الشُّحِّ .

---

(١) هذا الكلام ينصرف إلى الدنيا بأسرها . . فلا ينبغي أن يسترقك ما هو هبة لك .

(٢) بحثاً عن معاشه .

(٣) يقال إن الآية نزلت بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. ويقال نزلت فى عمر حينما أراد أن يبطش بغلام عبد الله بن أبىّ حين ذهب ليستقى فمنعه حتى ملئت قرب النبى وقرب أبى بكر ، فلما بلغ ذلك عبد الله قال : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فلما بلغ عمر ذلك اشتمل سيفه وأراد التوجه لقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وَبيَّنَ أنَّ اللهَ — سبحانه — لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ أراد أنْ يعرِفَ كيف يحفظ أولياءَه ، وكيف يُدَمِّر أعداءَه . فَلْيَصبِرْ أياماً قلائلَ لِيَعْلَمَ كيف صارت عواقبُهم .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صالحاً فلِنَفْسِه ومَنْ أساءَ فعليها ثم إلى ربِّكم تُرْجَعون »

مَنْ عَمِلَ صالحاً فله مَهْناه ، ومن ارتكب سيئةً قاسي بلواه . . ثم مرجعه إلى مولاه .

قوله جل ذكراه : « ولقد آتينا بنى إسرائيلَ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ورزقناهم من الطيباتِ وفضَّلناهم على العالَمين » .

كَرَّر فى غيرِ موضعٍ ذِكْرَ موسى وذِكْرَ بنى إسرائيل . . بعضه على الجملة وبعضه على التفصيل . وهنا أجْمَلَ فى هذا الموضِع ، ثم عقبه حديث نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يَعْلمون »

أفردناك بلطائفَ فاعرفْها ، وسَلَّنَا لكَ طرائقَ فاسلُكْها ، وأثبتنا لك حقائقَ فلا تتجاوزْها ، ولا تجنحْ إلى متابعة غيرك :

« إنَّهم لن يُغْنُوا عنكَ من الله شيئا .. »

إنْ أرادَ بكَ نعمةً فلا يمنعها أحدٌ ، وإن أراد بك فتنةً فلا يَصْرِفها عنك أحدٌ . فلا تُعَلِّقْ بمخلوقٍ فِكْرَك ، ولا تتوجهْ بضميرك إلى شىء ، وثِقْ بربِّك ، وتوكَّلْ عليه .

قوله جل ذكره : «هذا بصائرُ للناس وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يوقِنون » .

أنوارُ البصيرةِ إذا تلألأت انكشفت دونها تهمةُ التجويز .

ونَظَرُ الناسِ على مراتبِ[1] : فَمِنْ ناظرٍ بنور نجومه[2] — وهو صاحب عقل ،

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مراكيب) بكاف وهى خطأ من الناسخ
(٢) « « « « « (وماهو) وهى خطأ من الناسخ .

ومن ناظرٍ بنور فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقَوِّيه لَوْحٌ — ولكنه من وراء السِّرِّ[1] ، ومن ناظرٍ بيقين عِلْمٍ بحكم برهانٍ وشَرْطِ فكْرٍ ، ومِنْ ناظرٍ بعين إيمان بوصف اتِّباع ، ومن ناظرٍ بنور بصيرةٍ هو على نهارٍ ، وشمسُه طالعة وسماؤه من السحاب[2] مصحية[3] .

قوله جل ذكره : « أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يَحْكُمون » .

أَمَنْ خفضناه فى حضيض الضَّعةِ كَمَنْ رفعناه إلى أعالى المَنَعَة ؟

أَمَنْ أخذنا بيده ورحمناه كَمَنْ داسَه الخذلانُ فرجمناه ؟

أَمَنْ وهبناه بَسْطَ وقتٍ وأُنْسَ حالٍ ورَوْحَ لُطْفٍ حتى خَصَصْناه ورَقَّيْناه ، ثم قَرَّبْناه وأَدْنَيْناه كَمَنْ ترك جُهْدَه واستفراغَ وسعه وإسبالَ دَمْعِه واحتراق قلبه .. فما أنعشناه ؟ .

قوله جل ذكره : « أفرأيتَ مَنِ اتخذ إلٰهه هواه وأضلَّه الله على عِلْمٍ وخَتَمَ على سَمْعِهِ وقلبه وجعل على بَصَرِهِ غِشاوةً ... » .

مَنْ لم يَسْلُكْ سبيلَ الاتباع ، ولم يستوفِ أحكامَ الرياضة ، ولم يَنْسلِخْ عن هواه بالكليّة ، ولم يؤدِّبْه إمامٌ مُقْتَدًى فهو ينجرفُ فى كل وَهْدَةٍ ، ويهيمُ فى كلِّ ضلالة ، ويضلُّ فى كلِّ فجٍّ ، خسرانُه أكثر من ربْحِه !! أولئك فى ضلالٍ بعيد ؛ يعملون القُرَبَ على ما يقع لهم من نشاطِ نفوسهم[4] ، زِمامُهم بيد هواهم ، أولئك أهل[5] المكر .. أَسْتَدْرِجُوا وما يَشْعُرون ! .

---

(١) الفراسة مما يخلقه الله فى قلب العبد من غير كسب منه ، وهى من ثمرات الإيمان الكامل ، وما يسميه القشيرى هنا (لوحاً) يسميه فى موضع آخر (سواطع) أنوار تلمع فى القلب تدرك بها المعانى (الرسالة ص ١١٦) . ولمعرفة الفرق بين اللوائح واللوامع أنظر الرسالة ص ٤٣ . ويعرف الجنيد الفراسة فيقول : هى مصادفة الإصابة ، ثم يذكر أنها موهبة كائنة دائمة (التعرف للكلاباذى ص ١٥٧) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الصحاب) بالصاد وواضح فى ذلك خطأ الناسخ .

(٣) هذه الدرجة الأخيرة – كما هو واضح – أعلى درجات النظر لخلوها من الآفات .

(٤) لأن النفس محل المعلومات ، فعملهم مرتهن بنفوسهم وأهوائهم .

(٥) هكذا فى (ص) وهى فى م (أصل) وهى خطأ من الناسخ لأنهم « أهل » المكر إشارة إلى قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله » .

قوله جل ذكره : « وقالوا ما هى إلاَّ حياتُنا الدنيا نموتُ
ونحيا وما يُهلِكُنا إلا الدهرُ وما لهم
بذلك من عِلْمٍ إنْ هم إلاَّ يظنون » .

لم يَعْتَبِروا بما وجدوا عليه خَلَفَهم وسَلَفَهم ، وأَزْجَوْا فى البهيمية عَيْشَهم وعُمْرَهم ، وأعفوا عن كَدِّ الفكرة قلوبهم . . . فلا بالعلم استبصروا ، ولا من التحقيق استمدوا . رأسُ مالِهم الظنُّ — وهم غافلون .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ
ما كان حُجَّتَهم إلَّا أن قالوا ائتوا بآبائنا
إن كنتُم صادقين » .

طلبوا إحياءَ موتاهم ، وسوف يَرَوْن ما استبعدوا .

ثم أخبر أنَّ مُلْكَ السمٰواتِ والأرضِ لله ، وإذا أقام القيامةَ يُحْشَرُ أصحابُ البطلان ، فإذا جاءهم يومُ الخصام :

« وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً كلُّ أمةٍ تُدْعَى
إلى كتابِها اليومَ تُجْزَوْن ما كنتم تعملون » .

كلٌّ بحسابه[1] مطالَبٌ ... فأمَّا الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا ، وأمَّا الذين كفروا فهلكوا وبادوا[2] .. ويقال لهم : أأنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقْباكم كَذَّبتم مولاكم ؟ فاليومَ — كما نسيتمونا — ننساكم ، والنارُ مأواكم .

قوله جل ذكره : « فللهِ الحمدُ ربِّ السمٰواتِ وربِّ الأرضِ
ربِّ العالمين * وله الكبرياءُ فى السمٰواتِ
والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

لله الحمدُ على ما يُبْدى ويُنْشى ، ويحيي ويُفْنى ، ويُجْرِى ويُمْضِى .. إذ الحُكْمُ لله . والكبرياءُ لله ، والعظمةُ والسَّناءُ لله ، والرفعة والبهاءُ لله .

---

(١) هذا أيضاً رأى يحيي بن سلام ، وقيل «كتابها» المُنزَّلُ عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ .

(٢) هكذا فى م ، وهى فى ص (ونادوا) وهى خطأ من الناسخ .

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ للقلوب سالبة ، للعقول غالبة ، للمطيعين واهبة ، للعارفين ناهبة . . فالذين يهبهم فلهم لُطْفُه ، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقه فهو عنه خَلَفُه[1] .

قوله جل ذكره : « حمٓ * تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيز الحكيم » .

حَمَيْتُ قلوبَ أهلِ عنايتى فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز ، وَثَبَّتُّها فى مشاهدِ اليقينِ بنور التحقيق ؛ فلاحت فيها شواهدُ البرهان ، فأضَفْنا إليها لطائفَ الإحسان ؛ فكَمُلَ منالُها من عين الوصلة ، وغذيناهم بنسيم الأُنْس فى ساحات القربة .

« العزيز » : المُعزُّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم .

« الحكيم » ، المُحْكِم لكتابهِ عن التبديل والتحويل .

قوله جل ذكره : « ما خَلَقْنا السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحقِّ وأجَلٍ مُسَمًّى والذين كفروا عَمَّا أُنْذِروا مُعْرِضون » .

الكافرون مُعْرِضُون عن موضع الإنذار ، مقيمون على حَدِّ الإصرار

---

(١) وفى ذلك يقول شاعرهم :

ألست لى خلفا ؟ كفى شرفاً ... فما وراءك لى قصد ولا أمل

ويقول أبو حمزة موضحاً كيف أن هذا الموت فى سبيل محبوبه عين الحياة :

وتحيى محباً أنت فى الحب حتفه ... وذا عجبٌ .. كون الحياة مع الحتف !

(اللمع للسراج ص ٣٢٥) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم ماتدْعون من دونِ اللهِ
أروني ماذا خلقُوا من الأرضِ أم لهم
شِركٌ في السمواتِ آئتوني بكتابٍ مِن
قَبلِ هذا أو أثارةٍ مِنْ عِلمٍ إن
كنتم صادقين» .

أروني .. أى أثرٍ فيهم فى الملك ، أو القدرة على النفع والضر ؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فأظهِرُوها ، أو دلالة فبيِّنوها .. وإذ قد عَجَزْتُم عن ذلك فهلاَّ رجعتم عن غيِّكم وأقلعتم ؟

قوله جل ذكره : « ومَنْ أضَلُّ ممن يدعو مِن دونِ اللهِ
مَن لايستجيب له إلى يومِ القيامة وهم عن
دعائِهم غافلون » .

مَنْ أشدُّ ضلالاً مِمَّنْ عَبَدَ الجمادَ الذى ليس له حياة ولا له فى النفع أو الضر إثبات ؟

قوله جل ذكره . « وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداء
وكانوا بعبادتهم كافرين » .

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوةُ بين الأصنام وعابديها .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال
الذين كفروا للحقِّ لمَّا جاءَهم هـذا
سِحْرٌ مبين » .

رموا رُسُلَنا بالسِّحر ثم بالافتراء والمكر .. قُلْ — يامحمد — كفى بالله بينى وبينكم شهيداً ؛ أنتم أشركتم به ، وأنا أخلصت له توحيداً . وما كنت بدعاً من الرسل ؛ فلستُ بأول رسولٍ أُرْسِل ، ولا بغير ماجاءوا به من أصول التوحيد جئتُ ، إنما أمرتكم بالإخلاص فى التوحيد ، والصدقِ فى العبودية ، والدعاءِ إلى محاسنِ الأخلاق .

قوله جل ذكره : « وما أدْرِي مايُفْعَلُ بى ولا بكم إنْ

أتَّبِعُ إلَّا مايُوحَى إلىَّ وما أنا إلاَّ نذيرٌ مبين » .

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى : « ليغفرَ لكَ اللهُ ماتقدم من ذنبك وما تأخر »[1] .

وفى الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا : « إيلامُ البرىء قبيحٌ فى العقل » . لأنه لو لم يَجُزْ ذلك لكان يقول : أَعْلَمُ —قطعاً— أنى رسول الله ، وأنى معصومٌ .. فلا محالةَ يغفر لى ، ولكنه قال: وما أدرى ما يُفْعَلُ بى ولا بكم ؛ لِيُعْلَمَ أن الأمرَ أمرُه ، والحكمَ حكمُه ، وله أن يفعلَ بعباده مايريد[2] .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم إن كان مِنْ عندِ اللهِ وكَفَرْتُم به وشَهِدَ شاهدٌ[3] من بنى إسرائيل على مِثْلِهِ فآمن واستكبرتُم إنَّ اللهَ لايَهْدِى القومَ الظالمين » .

تبيَّنَ له أنه لاعُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبةِ الله . وما يستروحون إليه من حُجَجِهم عند أنفسهم كلُّها — فى التحقيق — باطلٌ . وأخبر أن الكفار قالوا : لو كان هذا الذى يقوله

---

(١) آية (٢) سورة الفتح وبنزولها نسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعل به — وبنزول هذه الآية أرغم الله أنوفهم ، وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! وهنيئاً لنا !

(٢) القشيرى ينكر أن يذهب البشر إلى التماس تعليلات للأفعال الإلهية ؛ لأن أفعال الله سبحانه لا تخضع للأغراض ، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يعود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطالما هما فى غير نطاق الإنسانية فلا ينبغى إخضاعهما للمفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وخير وشر ؛ لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والغرض .. والله منزه عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يقودها إلا إلى الخير فما ظنك برب البرية وخالق كل شىء ؟ !

(٣) هو عبد الله بن سلام عند الجمهور ، ولهذا قيل إن هذه الآية مدنية ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبى عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه.؟ فقال الرسول (ص) : أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . (صحيح البخارى حـ٢ ص ٢٢٦) .

من الحشر والنشر حقًّا لم تتقاصر رتبتُنا عند الله عن رتبة أحدٍ ، ولتَقَدَّمْنا — فى الاستحقاق — على الـكُلِّ . ولمّـا لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرّحوا :

« فسيقولون هذا إفْكٌ قديم » .

ولقد بَعَثَ اللهُ أنبياءَه — عليهم السلام — وأنزل عليهم الـكتب ، وبيَّنَ فى كلِّ كتابٍ، وعلى لسانِ كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً ، ولـكن القومَ الذين فى عصر نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — كتموه ، وحسدوه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا
فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون » .

مضى تفسيرُ الاستقامة . وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حَظِيَ بكلِّ كرامة ، ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين فى « الاستقامة » سين الطَّلَب ؛ وإن المستقيم هو الذى يبتهل إلى الله تعالى فى أن يُقيمَه على الحق ، ويُثَبِّتَه على الصدق .

قوله جل ذكره : « ووَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه إحساناً
حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرْهًا ووضعته كُرْهًا » . .

أمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على جهة الاحترام ، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام ، وإذا لم يُحْسِنْ الإنسانُ حُرْمةَ مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد . ولو لم يكن فى هذا الباب إلا قوله — صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب من رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما » لـكان ذلك كافياً . ورعايةُ حق الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام . ووَعَدَ اللهُ على بِرِّ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جلَّ ذكره :

«أولئك الذين نتقبَّلُ عنهم أحسنَ ماعَمِلوا
ونتجاوزُ عن سيئاتِهم فى أصحاب الجنة
وَعْدَ الصدقِ الذى كانوا يوعَدون » .

فقبولُ الطاعةِ وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين . وقد ذمَّ اللهُ — سبحانه — الذى

يتصف فى حقهما بالتأفُّفِ ، وفى ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أى تعنُّف ، وعلى أنَّ الذى يَسْلكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران ، وبالتالى يكون ناقصَ الإيمان .

وسبيلُ العبدِ فى رعاية حق الوالدين أن يُصْلِحَ ما بينه وبين الله ، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره — على العموم ، وأهله — على الخصوص .

وشَرُّ خصَال الولدِ فى رعاية حق والديه أَنْ يتبرَّم بطول حياتهما ، ويتأذَّى بما يحفظ من حقهما . وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ ، ولا بدَّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ[1] ، وقد قالوا فى هذا المعنى :

رويدكَ إن الدهـــــرَ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البيْنِ .. فانتظر الدهرا[2]

قوله جل ذكره : « ويوم يُعْرَضُ الذين كفروا على النارِ أَذْهَبْتُمْ طيباتِكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليومَ تُجزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تستكبرون فى الأرضِ بغير الحقِّ وبما كنتم تَفْسُقُون » .

سبيلُ العبد ألا ينسى فى كل حالٍ معبودَه ، وأَنْ يتذكرَ أنه معه فى همِّه وسروره ، وفى مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أَنْ حَصَلَ له أُنْسٌ ، وغَلَبَ عليه رجاء وبسطٌ ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أو مَسَّهُ خوف .. فليخاطبْ ربَّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ قيل له : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ... »

قوله جل ذكره : « واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومَه بالأحقافِ[3] وقد خَلَتِ النُّذُرُ من بين

---

(١) أى أن أولاده سوف يعاملونه بالكيفية التى عامل بها أبويه .

(٢) إذا لاحظنا اهتمام القشيرى هنا برعاية حقوق الأبوين ، وإذا تذكرنا أنه فى موضع آخر يرى أن حقوق الشيوخ والمربين لا تقل عن ذلك ؛ «لأن الوالدين يربون الأشباح . والشيوخ يربون الأرواح » علمنا أن هذه الإشارة موجهة إلى المريدين بنفس الدرجة الموجهة إلى العموم .

(٣) الأحقاف = ج حقف وهى رمال عظام معوجة لا تبلغ أن تكون جبالا . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمن الغرق . وهناك اختلاف فى مكان ديار عاد يرجع إليه فى كتب التفسير .

يديه ومن خلفِه ألا تعبدوا إلا اللهَ إنى
أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم » .

أخبر بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجّه عليهم من العتاب ، وأخْذِهم بأليم العذاب .

قوله جل ذكره : « ولقد مكنّاهم فيما إن مكنّاكم فيه ...»

فلم يُغْنِ عنهم ما آتيناهم . . . وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : « وإذ صَرَفنا إليك نَفَراً من الجنِّ
يستمعون القرآنَ فلمّا حضروه قالوا
أنصِتوا فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم
مُنذرين » .

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الجنِّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً أتوه ليلة الجن[1] وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ؛ فاليومَ فى الجن مؤمنون ، وفيهم كافرون .

« فلما حضروه قالوا أنصتوا . . » الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ ؛ ولهذا لما حضر الجنُّ بساطَ خدمته — صلى الله عليه وسلم — تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا بساطَه : « أنصتوا » ، فأهلُ الحضور صفتُهم الذبولُ والسكونُ ، والهيبة والوقار . والثورانُ أو الانزعاجُ يدل على غيبةٍ أو قِلّةِ تيقُّظٍ أو نقصان اطلاع[2] . « فلما قُضِيَ . . » يعنى الوحى « ولوا إلى قومهم منذرين » وأخبروهم بما رأوه وسمعوه .

قوله جل ذكره : « يا قومَنا أجيبوا داعِيَ الله وآمِنوا

---

(١) حدث ابن مسعود عن هذه الليلة ، وأبان كيف سمع — وقد كان وحده بصحبة النبى وهو يقرأ القرآن — لَغَطاً وغمغمة ، وشاهد أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها ... الخ .

(٢) هنا نجد القشيرى ينصح بالكتمان ولا يرى الإفصاح ، وقد سئل الجنيد فى ذلك فأجاب : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب (أنظر بحث هذه القضية فى كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى» ط المعارف ص٢٢٩).

به يغفرْ لكم من ذنوبِكم ويُجِرْكم
من عذاب أليم » .

يقال الإجابة على ضربين : إجابةٌ لله ، وإجابة للداعى ؛ فإجابة الداعى بشهود الواسطة — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . وإجابةُ الله بالجهرِ إذا بَلَغَتْهُ الرسالةُ على لسان السفير ، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب ؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيب بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه . ومن توقف عن دعاء الداعى إيَّاه ، ولم يبادرْ بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخَاطب به[1] .

قوله جل ذكره : « أو لم يَرَوْا أن اللهَ الذى خَلَقَ
السمواتِ والأرضَ ولم يَعْىَ بخَلْقِهِنَّ
بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ؟ بلى :
إنه على كل شىء قدير » .

الرؤيةُ هنا بمعنى العلم .

« ولم يَعْىَ » أى ولم يعجز ولم يَضْعُف .

قوله جل ذكره : « ويوم يُعرضُ الذين كفروا
على النار » .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة :

« أليس هذا بالحقِّ ؟ قالوا : بلى وربِّنا . قال : فذوقوا
العذابَ . . »

جزاءً لكم على كُفْركم .

قوله جل ذكره : « فاصبِرْ كما صَبَرَ أولوا العَزم
من الرُّسُلِ » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (يطالب به) وكلاهما مقبول فى السياق فالدعاء خطاب ومطالبة للمدعو .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء فى التفسير أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوفُ لحكْمِ الله ، والثباتُ من غير بَثٍّ ولا استكراهٍ .

قوله جل ذكره : « كأنهم يومَ يَرَوْنَ ما يوعَدُون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ » .

ويقال مُدّةَ الخلْقِ : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتَهى آجالهم بالإضافة إلى الأزليّة[1] كلحظةٍ بل هى أقلُّ ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأى خَطَرٍ لما حصل فى لحظةٍ . . خيراً كان أو شَرّاً ؟ !

---

(١) بالإضافة إلى = بالنسبة إلى .

سورة محمد "صلى الله عليه وسلم" (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

مَنْ ذَكَرَ « بسم الله » جَلَّتْ رُتْبَتُه ، ومَنْ عَرَفَ « بسم الله » صَفَتْ حالتُه ، ومَن أحبَّ « بسم الله » أشكلت قصتُه(٢) ، ومَن صَحِبَ « بسم الله » امتحقت أَنِّيَتُه(٣) ، وتلاشت — بالكلية — جُمْلَتُه .

قوله جل ذكره : « الذين كَفَروا وصَدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالَهم * والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كَفَّرَ عنهم سيئاتِهم وأصلح بالَهم » .

« الذين كفروا » : امتنعوا ، وصَدُّوا فَمُنِعُوا ؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحَجْبَةَ والغيبة .

« أضل أعمالهم » : أى أحبطها .

« والذين آمنوا .. » بما نُزِّلَ على محمد ، « وهو الحق من ربهم .. »

---

(١) وتسمى عند بعض المفسرين « سورة القتال » .

(٢) الكلام فى هذه النقطة كثير لا يتسع له هامش ضيق ، ومن أراد أن يعرف كيف أن قصة المحبين الإلهيين مشكلة فيكفى أن يعلم أن قمة هذه القصة الوصول إلى التوحيد .. أن يختفى الموحِّد فى الموحَّد فلا يكون هناك إلا واحد ، إن تحدث فبالله ، وإن تحرك فبالله . هو بين الناس كائن وعنهم بائن ، يقضى عمره بين وجد وفقد .. (أنظر قصة هذا الحب بتفاصيلها الدقيقة فى كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى » باب الحب والفناء والمعرفة .

(٣) تلاشت آثار بشريته لا بشريته .

أصلح حالهم ، فالكفرُ للأعمالِ مُحْبِطٌ ، والإيمانُ للتخليد [1] مُسْقِط .

ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ اللهِ ، ولم يعملوا [2] شيئاً مما خَالَفَ اللهَ — فلا محالةَ — تقوم بكفاية اشتغالهم بالله .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّ الذين كفروا اتَّبعوا الباطلَ
وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من ربِّهم
كذلك يضربُ الله للناسِ أمثالَهم » .

أى يضرب أمثالَ هؤلاء لحسناتهم ، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم .

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقة السُّنَّةِ ، ورعاية حقوق الله ، وإيثار رضاه ، والقيام بطاعته .

ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداع ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الحظوظ ، وارتكابِ المعصية .

قوله جل ذكره : « فإذا لَقِيتُمُ الذين كفروا فَضَرْبَ
الرِّقابِ حتى إذا أثخنتموهم فَشُدُّوا الوَثاقَ
فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاء حتى تَضَعَ الحربُ
أوزارَها » .

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالعفوُ عنهم وتَرْكُ المبالغةِ فى التشديد عليهم — للندمِ مُوجِبٌ ، وللفرصةِ تضييعٌ ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهم ، واستئصالُ أصولِهم ، واقتلاعُ شَجَرِهم من أصله .

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفْسه فلا ينبغى أن يُبْقِيَ بعد انتفاش شوكها بقيةً من الحياة ، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمَّها فيه [3] .

« فإمَّا مَنًّا بعد وإمَّا فداء » ذلك إذا رجا المسلمون فى ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراجِ

---

(١) العذاب المؤبد .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (ولم يعلموا) وهى خطأ من الناسخ .

(٣) ذلك لأن نفسك التى بين جنبيك هى أعدى أعدائك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر . . لأنها تقودك إلى دواعى الهوى ، وفى ذلك عند الصوفية شرٌّ كلُّ خير .

الكفّارِ عن قومٍ من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفِداء .. وأمثال هذا ، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام [1].

كذلك حال المجاهدة مع النَّفْس : حيث يكون فى إغفاءِ ساعةٍ أو فى إفطارِ يومٍ ترويحٌ للنفس من الكَدِّ ، وتقويةٌ على الجهد فيما يستقبل من الأمر — فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصوابُ من شيخ المريد ، أو فتوى لسانِ الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة [2].

قوله جل ذكره : « والذين قُتِلُوا فى سبيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أعمالَهم * سيهديهم ويُصْلِحُ بالَهم * ويُدْخِلُهم الجنَّةَ عَرَّفَها لهم » .

إذا قُتِل أحدٌ فى سبيل الحقِّ تولّى وَرَثَةَ المقتولِ بأحسنَ مِنْ تولية المقتول .

وكذلك يَرْفَعُ درجاتِه ؛ فيُعْظِمُ ثوابَه ، ويُكْرِمُ مآبَه .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا اللهَ يَنصرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقدامَكم » .

نصرةُ الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرةُ اللهِ للعبد بإعلاء كلمته ، وقَمْعِ أعداء الدين ببركاتِ سَعْيه وهِمَّتِه .

« ويثبت أقدامكم » بإدامةِ التوفيقِ لئلا ينهزمَ من صولةِ أعداءِ الدين .

قوله جل ذكره : « والذين كَفروا فتَعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم * ذلك بأنهم كَرِهوا ما أنزل اللهُ فأحبط أعمالَهم » .

---

(١) للإمام الحق فى أن يقبل أو يمن أو يفادى أو يسترق . والرسول نفسه . قتل عقبة بن معيط والنضر ابن الحارث يوم بدر ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومنّ على ثمامة الحنفى وهو أسير ، ومن على سبى هوازن ، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين .. هذه كلها ثابتة فى الصحيح — وهذه الأربعة إليها مذهب الشافعى .

(٢) تهمنا هذه الفقرة إذا تذكرنا أن القشيرى متشدد فى الرخص ، وقياس الرخصة هنا على آية القتال وعلى حرب المشركين وعلى تصرف الإمام .. فيها دقة تحتاج إلى تدبر . ثم تهمنا فى معرفة من الذى يمنح الرخصة للمريد ؟

تعساً لهم : لعناً وطرداً ، وقَمْعاً وبُعْداً !

« أضلَّ أعمالهم » : هَتَكَ أستارَهم ، وأَظْهَرَ للمؤمنين أسرارَهم ، وأَخْمَدَ نارَهم .

قوله جل ذكره : « أفلم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قبلهم » .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقماهم ؟

قوله جل ذكره : « ذلك بأن اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا وأنَّ الكافرين لا مَوْلَى لهم » .

المولى[1] هنا بمعنى الناصر[2] ؛ فاللهُ ناصرٌ للذين آمنوا ، وأمَّا الكافرون فلا ناصرَ لهم .

أو المولى من الموالاة وهى ضد المعاداة ، فيكون بمعنى المحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أى مُحِبُّهم ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى فى آية أخرى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت »[3] .

ويصح أن يقالَ إنَّ هذه أرجى[4] آية فى القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : إن الله مولى الذين آمنوا » ولم يقل : مولى الزهّادِ والعُبّادِ وأصحاب الأورادِ والاجتهادِ ؛ فالمؤمنُ — وإنْ كان عاصياً — من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما و « آمنوا » فعل ، والفعل لا عمومَ له)[5] .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ »

---

(١) تضاف أقوال القشيرى هنا فى (المولى) إلى حديثه عن ذلك الاسم فى كتاب «التحبير فى التذكير» وإلى حديثه في (الولاية والولى) في مواضع متفرقة من مصنفاته .

(٢) جاءت (الناظر) في ص وهى خطأ فى النسخ .

(٣) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

(٤) جاءت (أوحى) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٥) سقطت العبارة بين القوسين من ص وجاءت فى م . والقشيرى مستفيد من السياق القرآنى إذ عبَّرَ عن الإيمان بالفعل وهو « آمنوا » وعبر عن الكفر بالاسم فقال : « وأن الكافرين لامولى لهم » .

مضى الكلامُ فى هذه الآية .

« والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون
كما تأكل الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم » .

الأنعامُ تأكل من أى موضع بلا تمييز ، وكذلك الكافرُ لا تمييزَ له بين الحلال والحرام .

[كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها ؛ بل فى كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الكافر ، وفى الخبر : « إنه يأكل فى سبعة أمعاء » . أمَّا المؤمن فيكتفى بالقليل كما فى الخبر : « إن كان ولا بُد فثُلُثٌ للطعام وثُلُثٌ للشراب وثلث للنفس» و«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه»][1] .

ويقال : الأنعامُ تأكل على الغفلة ؛ فَمَنْ كان فى حال أكله ناسياً ربَّه فأكْلُه كأكلِ الأنعام .

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من قريةٍ هى أشدُّ قوةً
من قريتك التى أخرجَتْكَ أهلكناهم فلا
ناصرَ لهم »[2] .

« أهلكناهم » : يعنى بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية فى الأعصر الخالية .

قوله جل ذكره : أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه كَمَن
زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه واتبعوا أهواءَهم » .

« البيِّنة » : الضياء والحُجَّة ، والاستبصار بواضح الحجة : فالعلماءُ فى ضياءِ برهانهم ، والعارفون فى ضياءِ بيانهم[3] ؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون .

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط بتمامه من ص وثابت فى م ، وهذه الأخبار موجودة فى الجامع الصغير ج٢ ص ١٥٢ وفى كتاب « الأطعمة » بالجزء الثالث من صحيح البخارى ، و«الأذكار» للنووى . وتكملة الخبر الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : يأكل المسلم فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، وروى كذلك عن ابن عمر .

(٢) عن ابن عباس قال : لما خرج النبى (ص) من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : «اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت احب البلاد إلىّ ولولا المشركون أهلك أخرجونى لما خرجت منك» فنزلت الآية — ذكره الثعلبى ، وهو حديث صحيح .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (ثباتهم) ولكن ما فى ص هو الأصوب ؛ لأننا نعرف من مذهب القشيرى أن (البيان) للعارفين والبرهان لأرباب العلم .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ولهم فيها من كل الثمراتِ ومغفرةٌ من رَبِّهم ».

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء ، فلهم شرابُ الوفاء ، ثم شرابُ الصفاء ، ثم شرابُ الولاء ، ثم شرابٌ حالَ اللقاء .

ولكلٍّ من هذه الأشربة عَمَلٌ ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو ؛ فَمَنْ تحسَّى شرابَ الوفاء لم ينظر إلى أحدٍ فى أيام غيبته عن أحبابه :

وما سَرَّ صدرى مُنْذ شطَّ بك النوى
أنيسٌ ولا كأس ولا متصرف

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الصفاء خَلُصَ له عن كل شَوْبٍ ، فلا كدورةَ فى عهده ، وهو فى كلِّ وقتٍ صافٍ عن نَفْسِه ، خالٍ من مُطَالَباته[1] ، قائمٌ بلا شُغلٍ — فى الدنيا والآخرة — ولا أرَبٍ .

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الولاء عَدِمَ فيه القرار ، ولم يَغِبْ بِسِرِّه لحظةً فى ليلٍ أو نهار .

ومَنْ شَرِبَ فى حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه ؛ فلم يطلب — مع بقائه — شيئاً آخَرَ من عطائه ؛ لاستهلاكه فى علائه عند سطوات كبريائه[2] .

قوله جل ذكره : « ومنهم مَن يستمع إليك حتى إذا خرجوا مِنْ عِندِكَ قالوا للذين أوتوا

---

(١) أى مطالبات الحظوظ ؛ حظوظ النفس .

(٢) تنبه إلى أهمية هذه الفقرة التى أطال فيها القشيرى حديثه عن الأشربة حيث لم يتناولها بتفصيل فى رسالته عند بحث مصطلح السُّكْر .

العِلْمَ ماذا قال آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ اللهُ
على قلوبِهم واتَّبعوا أهواءهم » .

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل اللهُ ؛ لِمَا فيه من افتضاحِهم .

« والذين اهتدوا زَادَهم هُدًى وآتاهم
تقواهم »

« اهتدوا » : بأنواع المجاهدات ، « فزادهم هدًى » : بأنوار المشاهدات .

« اهتدوا » : بتأمل البرهان ، « فزادهم هدًى » بَرَوْح البيان .

« اهتدوا » : بعلم اليقين ، « فزادهم هدًى » : بحقِّ اليقين .

[« اهتدوا » : بآداب المناجاة ، « فزادهم هدىً » : بالنجاة ورَفْعِ الدرجات .

« اهتدوا » : إلى ما فيه من الحقِّ ولم يختلفوا فى أنه الحق ، « فزادهم هدًى » بالاستقامة على طريق الحق][1] .

قوله جل ذكره : « فهل ينظرون إلا الساعةَ أن تأتيهم
بغتةً فقد جاء أشراطُها فأنَّى لهم إذا
جاءتهم ذِكْراهم * فاعْلَمْ أنَّه لا إله إلا اللهُ
واستغفِرْ لِذَنبِكَ وللمؤمنين والمؤمناتِ » .

كان عالماً بأنه : « لا إله إلا الله » فأمره بالثبات عليها ؛ قال (ص) : « أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له[2] » .

ويقال : كيف قيل له : « فاعلم . . » ولم يقل : عَلِمْتُ ، وإبراهيم قيل له : « أَسْلِمْ[3] .. » فقال : « أسلمت ... » ؟ فيُجاب بأنَّ إبراهيمَ لمَّا قال : « أسلمت » ابْتُلِيَ ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم يقل : علمت فعُوفِيَ .

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط فى ص وموجود في م .
(٢) البخارى عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له)
والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .
(٣) آية ١٣١ سورة البقرة : « قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وإبرهيم عليه السلام أتى بَعْدَه شَرْع كَشَفَ سِرَّه ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم يأتِ بعدَه شرعٌ .

ويقال : نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أخبر الحقُّ عنه بقوله : « آمن الرسول[1] .. » والإيمان هو العلم — وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أتمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه : « عَلِمْتُ » .

ويقال : فرقٌ بين موسى عليه السلام لمَّا احتاج إلى زيادةِ العلم فأُحيلَ على الخضر ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال له : « وقُلْ ربِّ زدنى علماً[2] » .. فكم بين مَنْ أُحيلَ فى استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق ! ! .

ويقال لمَّا قال له « فاعلم أنه لا إله إلا الله[3] » كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق ، ثم بالانقطاع منه — أى من الرسول — إليه .. أى إلى الحق سبحانه . والعبدُ إذا قال هذه الكلمةَ على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة — أى كان بصفة النسيان — فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ ؛ كأن تُقال عند التعجب من شىء .. فليس لهذا قَدْرٌ . أمَّا إذا قالها مخلصاً فيها ، ذاكراً لمعناها ، متحققاً بحقيقتها .. فإنْ كان بنفسه فهو فى وطن التفرقة .. وعندهم[4] هذا من الشِّرْكِ الخفىِّ ، وإن قالها بحقٍّ فهو الإخلاص . فالعبد يعلم أولاً ربَّه بدليلٍ وحُجَّةٍ ؛ فعِلْمُه بنفسه كَسْبِىٌّ .. وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كل علم استدلالى[5] ! ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج ، ويتناقص علمُه بنفسه لغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللهِ على القلب . فإذا انتهى إلى حال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُه فى تلك الحالة ضرورياً . ويقلُّ إحساسُه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالىّ وكأنه غافلٌ[6] عن نفسه أو ناس لنفسه .

---

(١) آية ٢٨٥ سورة البقرة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون» .

(٢) آية ١١٤ سورة طه .

(٣) هنا يفرق القشيرى بين التوحيد المنطوق باللسان ، والتوحيد عند أرباب الحقيقة .

(٤) أى عند أرباب الحقائق ، لأن أى شعور بالغيرية نتيجة عدم الإخلاص نقص في التوحيد .

(٥) من هذا يتضح أن الصوفية لا يهملون العقل تماماً بل يحترمونه فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان ، ولكنهم لا يعولون عليه تماماً فى بقية معراجهم الروحى . وهذا رد حاسم على من ينكرون على الصوفية علاقتهم بالعقل والعلوم العقلية .

(٦) في ص (وكأنه قال) وهي خطأ من الناسخ كما هو واضح من السياق بعده .

ويقال : الذى على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق فى البحر فلا إحساسَ له بشىء سوى ما هو مستغرقٌ فيه ومستهلك[1] .

« واستغفِرْ لذنبك » : اى إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا ؛ فإن الحقّ — على جلال قدْرِه — لا يعلمه غيره[2] .

قوله جل ذكره : « ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلَتْ سورةٌ فإذا أُنزلت سورةٌ مُّحكمةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رأيتَ الذين فى قلوبهم مَرَضٌ ينظرون إليك نَظَرَ المغشىِّ عليه من الموتِ . . .

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحى ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحىُ بسرعةٍ فقال تعالى : « فإذا أنزلت سورة محكمة[3] وذكر فيها القتال » رأيتَ المنافقين يكرهون ذلك لِمَا كان يشق عليهم من القتال ، فكانوا يفتضحون عندئذ ، وكانوا ينظرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم — بغاية الكراهة .

... فأَوْلَىٰ لهم » .

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من شيخه أبى على الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قائلا : «التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر» الرسالة ص ٣٧ .

(٢) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضتها فى الصلاة والاستغفار : « إن صلاتنا فى حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا فى حاجة إلى استغفار » كما يذكرنا بقول القشيرى فى موضع مماثل : «... جلت الصمدية عن أن يستشرف من إدراكها بشر» ، وفى ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها ... فكيف كيفية الجبار فى القِدَمِ ؟
هو الذى أحدث الأشياءَ مبتدعاً ... فكيف يدركه مستحدث النسم ؟
(شذرات الذهب حـ٢ ص ٢٤٩) .

(٣) قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة . وقيل معناها مبينة غير متشابهة ؛ لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال .

تهديد[1] .

قوله جل ذكره : « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » .

وهو قولهم : « لولا أنزلت سورة ... » .

ويقال : فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله . « وقول معروف » بالإجابة لما أُمِرُوا به من الجهاد .

ويقال : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أَمثَلُ بهم .

قوله جل ذكره « فإذا عَزَمَ الأمرُ فلو صَدَقُوا اللهَ لكان خيراً لهم » .

إذا عزم الأمرُ — أى جَدَّ وفُرِضَ القتالُ — فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم ونفاقِهم وتقاعدِهم عن الجهاد .

قوله جل ذكره : « فهل عَسَيْتُم إن تَوَلَّيْتُم أَنْ تُفْسِدوا فى الأرضِ وتُقَطِّعُوا أرحامَكُمْ » .

أى فلعلكم إنْ أعرضتم عن الإيمان — بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم — ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا فى الأرض ، وتسفكوا الدماءَ الحرامَ ، وتقطعوا أرحامكم ، وتعودوا إلى جاهليتكم .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لَعَنَهم اللهُ فأَصَمَّهُم وأعمى أبصارَهم » .

أصمَّهم عن سماعِ الحقِّ وقبولِه بقلوبهم ، وأعمى بصائرَهم .

---

(١) يقول الشاعر :

فأولى ثم أولى ثم أولى ... وهل للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدّ

وقال الأصمعى معناها : قاربه ما يهلكه وأنشد :

فعادى بين هاديتين منها ... وأولى أن يزيد على الثلاث

وقال المبرد : يقال لمن هم بالعطب : أولى لك ! أى : قاربت العطب .

قوله جل ذكره : « أفلا يتدبَّرون القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالها » .

أى إن تدَّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان ، وأراحهم من ظلمة التحيُّر .

« أم على قلوبٍ أقفالها » : أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُدَاخِلُها زاجرُ التنبيه ، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم ، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب ؛ فالبابُ إذا كان مُقفَلاً .. فكما لا يدخل فيه شىء لا يخرج منه شىء ؛ كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ ، فلا الكفرُ الذى فيها يَخْرُجُ ، ولا الإيمانُ الذى هم يُدْعَوْن إليه يدخل فى قلوبهم .

وأهلُ الشِّركِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم ، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين ارتدُّوا على أدبارِهم مِن بعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الهُدَى الشيطانُ سَوَّلَ لهم وأَمْلَى لهم » .

الذى يطلع فجرُ قلبه ، ويتلألأ نورُ التوحيد فيه ، ثم قَبْلَ متوع نهارِ إيمانه انكسفت شمسُ يومِهِ ، وأظلم نهارُ عرفانه ، ودَجا ليلُ شكِّه ، وغابت نجومُ عقله .. فحدِّث عن ظُلُماتِه .. ! ولاحرج ![1]

[ذلك جزاؤهم على ممالأتهم مع المنافقين ، وتظاهرهم .. فإذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ تتصل آلامُهم ، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتُهم .][2] .

قوله جل ذكره : « أم حَسِبَ الذين فى قلوبِهم مَرَضٌ أن لن يُخْرِجَ اللهُ أضغانَهم » .

ليس الأمرُ كما تَوَهَّموه ، بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسَهم ، ولقد أخبر الرسولَ عنهم ، وعرَّفه أعيانهم .

---

(١) القشيرى هنا يغمز بمن ينتمون إلى طريقة الصوفية ثم يفسخون عقدهم مع الله ، ويتخلون عن طريق الإرادة بعد قطعهم مسافة قصيرة .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين ساقط فى م وثابت فى ص .

قوله جل ذكره : « ولو نشاءُ لأريناكهم فَلَعَرَفْتَهم بسيماهم ولَتَعرِفَنَّهم فى لَحْنِ القولِ » .

أى فى معنى الخطاب ، فالأَسِرَّةُ تَدُلُّ على السريرة ، وما يخامر القلوبَ فعَلَى الوجوهِ يلوحُ أثرُه :

لستُ ممن ليس يـــدرى ما هـــوان من كرامة
إنَّ للحبِّ وللبغـــضِ على الوجـــه علامة

والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة[1] ، والعارفُ ينظر بنورِ التحقيق ، والموحِّدُ ينظر بالله فلا يستتر عليه شىء[2] .

ويقال : بصائرُ الصديقين غيرُ مُغَطَّاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر »[3] .

قوله جل ذكره : « ولَنَبْلُوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخبارَكم » .

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهرُ الرجال ، فيظهر المخلصُ ، ويفتضح المماذقُ ، وينكشف المنافق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا ، والذين كفروا ونافقوا وقعوا[4] فى الهوان وأُذِلُّوا ، ووسِموا بالشَّقاوة وقُطعوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ ولا تُبْطِلوا أعمالَكم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بعين الفراسة) . روى الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة ، والترمذى من حديث أبى سعد ، والطبرانى وأبو نعيم والبزاز بسند صحيح عن أنس «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

(٢) يفيد هذا الكلام فى ترتيب القوم : مؤمن ثم عارف ثم موحد فالموحدون أعلى درجات السائرين .

(٣) يقول القشيرى فى كتابه «المعراج» ص ٧٢ : (كان الصديق مخصوصاً من البصيرة بما لم يخص به غيره قال (ص) : « سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر » . وذلك لما فتحوا فى المسجد من كل دار خوخة ، والإشارة فيه أن الصديق ليس بممنوع من الإبصار بحال) .

(٤) سقطت (وقعوا) فى ص ، وموجودة فى م .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالرياء والإعجاب والملاحظه .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالمساكنة إليها . « ولا تبطلوا أعمالكم » بطلب الأعواض عليها .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله[1] .

قوله جل ذكره : « فلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأَعْلَوْن واللهُ معكم » .

أى لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة[2] .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله « والله معكم » . أى بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم — والله معكم — لا يخفى عليه شيءٌ منكم ، فهو على الدوام يراكم . ومَنْ عَلِمَ أنَّ سَيِّدَه يراه يتحمل كلَّ مشقةٍ مشتغلاً برؤيته :

« ولن يَتِرَكُم أعمالَكُم »

أى لا ينقصكم أَجْرَ أعمالكم .

قوله جل ذكره : « إنَّما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وإن تؤمِنوا وتتقوا يُؤْتِكُم أجورَكم ولا يسألكم أموالَكم »

تجنبوا الشِّركَ والمعاصى حتى يَفِيَكُم أجورَكم .

واللهُ لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة[3] .

« إن يسألكوها فيُحْفِكُم تبخلوا ويُخْرِجْ أضغانَكم » .

---

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الذين يزعمون أن الطاعة توجب على الله الثواب . ويرى القشيرى أنه لا وجوب على الله ؛ فكل شيء من فضله ؛ لأن طاعة العبد لا توجب لله زينا ، ومعصيته لا تلحق به سبحانه شينا. «والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» .

(٢) عند هذا الحد انتهت النسخة م ، ولذا فإننا نعتمد على النسخة س فى بقية السورة ، وهى مساحة كبيرة .

(٣) وهى على حد تعبير سفيان بن عيينه : غيض من فيض .

« الإحفاء » الإلحاح فى المسألة ... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نفسه ، فأمَّا الإخوان ومَنْ عَلَتْ رتبتُهم فى باب حرية القلب فلا يُسامَحون فى استيفاءِ ذَرَّةٍ ، ويُطالَبون ببذل الرُّوح ، والتزام الغرامات .

قوله جل ذكره : « ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لتنفقوا فى سبيلِ اللهِ فمنكم مَن يبخلُ ومَن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نَفْسِه » .

البخلُ مَنْعُ الواجب ، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لحصَلَ له الثراء — هكذا يظن .

وقوله جل ذكره : « واللهُ الغنىُّ وأنتم الفقراءُ » .

« غنىٌّ » بنفسه على قول ، وغنىٌّ بوصفه على القول الثانى[1] . وغناه كونه لا تتقيد مراداتُه . أمَّا العبدُ فهو فقيرٌ بنفسه ؛ لأنه لا يستغنى عن مولاه ؛ فى الابتداء منذ خَلْقه إلى الانتهاء ، وهو فى دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه .

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقارَه إلى الله . وصِدْقُ الفقير فى شهود فقره إلى الله . ومَنْ افتقر إلى الله استغنى بالله ، ومَنْ افتقر إلى غير الله وقع فى الذُّلِّ والهوان .

ويقال : اللهُ غنىٌّ عن طاعتِكم ، وأنتم الفقراءُ إلى رحمتِه .

ويقال : اللهُ غنىٌّ لا يحتاج إليكم ، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه .

قوله جل ذكره : « وإن تَتَوَلَّوْا يستبدِلْ قومًا غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكم » .

يستبدل قومًا غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً ، وأصدقَ منكم وفاء ؛ فهو قادرٌ على خَلْق أمثالكم ثم لا يكونون أمثالكم فى العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشكرِ والوفاءِ ... بل سيكونون خيراً منكم .

---

(١) أى يمكن أن تكون من صفات الذات أو من صفات الفعل انظر « الغنىّ » فى كتاب «التحبير فى التذكير» للإمام القشيرى تحقيق د . بسيونى .

سورة الفتح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » تشير إلى سُمُوِّه فى أزَلِه ، وعُلُوِّه فى أبَدِه ؛ وسُمُوُّه فى أزله نَفْيُ البداية عنه بحقِّ القِدَم، وعُلُوُّه فى أبده نَفْيُ الانتهاء عنه باستحالة العَدَم؛ فمعرفةُ سُمُوِّه توجِبُ للعبد سُمُوًّا ، ومعرفةُ عُلُوِّه توجِبُ للعبدِ عُلُوًّا(١) .

قوله جل ذكره : « إنا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً » .

قضينا لك قضاء بَيِّناً ، وحكمنا لكَ بتقويةِ دينِ الإسلام ، والنصرةِ على عدوِّك ، وأكرمناكَ بفتح ما انغلق على قلبِ مَنْ هو غيرك — مِنْ قَبْلِك — بتفصيلِ شرائعِ الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزلت الآيةُ فى فتحِ مكة ، ويقال فى فتح الحُدَيبية(٢).

ويقال : هديناك إلى شرائع الإسلام ، ويَسَّرْنا لك أمورَ الدين .

« ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدَّم مِن ذنبك
وما تأخر » .

---

(١) واضح أن مذهب القشيرى في معرفة أسماء الله سبحانه لا يقتصر على المعرفة الكلامية النظرية بل يتجاوز ذلك إلى التأدب بها ، والتخلق بأخلاق الله .. فالعمل مترتب على العلم (انظر مقدمتنا لكتاب التحبير فى التذكير) .

(٢) يقال مرسى [illegible] بين مكة والمدينة (رواية محمد بن أسحاق عن الزهرى عن عروة عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم) وأنها نزلت في سنة الحديبية. (كذلك فى البخارى في سماع قتادة عن أنس) . وقال الضحاك : «مبينا» أى بغير قتال . وقال مجاهد: كان فتح الحديبية آية عظيمة إذ نزح ماؤها فمج فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال الشعبى: هو فتح الحديبية ؛ فقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة : غفر الله له ذنبه ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على الفرس .

كلا القسمين — المتقدِّم والمتأخِّر — كان قبلَ النبوة[1] .

ويقال « ما تقدَّم » من ذَنْبِ آدمَ بِحُرْمتك ، « وما تأخر » : من ذنوب أُمَّتك[2] .

وإذا حُمِلَ على تَرْكِ الأَوْلَى[3] فقد غفر له جميع ما فعـــل من قبيل ذلك ، قبل النبوة وبعدها[4] .

ولمَّا نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك ! فأنزل الله تعالى :

« ليُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » .. ويقال : حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين .

« ويُتِمَّ نعمتَه عليكَ ويَهْدِيكَ صراطاً مستقيماً » .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وببسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله غداً ، [وبإظهار دينه على الأديان ، وبأنه سيد ولد آدم ،وبأنه أُقْسَمَ بحياتِه ،وخصَّه بالعيان][5]. وبسماعِ كلامه سبحانه ليلةَ المعراج ، وبأن بَعَثَه إلى سائرِ الأمم . . وغير ذلك من مناقبه .

« ويهديك صراطاً مستقيماً » يثبتك على الصراط المستقيم ، ويزيدك هدايةً على هداية ، ويهدى بك الخَلْقَ إلى الحقِّ .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَظِّك .

« وينصرك اللهُ نصراً عزيزاً » .

---

(١) نصَّ القشيرى على «قبل النبوة» لأن الأنبياء معصومون من الذنب.

(٢) هذا أيضا قول عطاء الخراسانى .

(٣) ترك الأولى تعبير أدبي مهذب عن «الذنب». ويقال : كان الذنب المتقدم على يوم بدر قوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». والذنب المتأخر كان يوم حنين حيث رمى جمرات فى وجوه المشركين قائلا : «شاهت الوجوه .. حم . لاينصرون» ، فانهزم القوم عن آخرهم ، ولم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . وعند عودة النبى مع أصحابه قال لهم : لو لم أرمهم لم ينهزموا ! فأنزل الله عز وجل : ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(٤) روى الترمذى عن أنس أن النبى فرح بهذه الآية فرحاً شديداً وقال : لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض» .

(٥) ما بين القوسين الكبيرين موجود في ص وغير موجود في م .

لا ذُلَّ فيه ، وتكون غالباً لا يَغْلِبُكَ أَحَدٌ .

ويقال : ينصرك على هواكَ ونَفْسِك ،وينصرك بحُسْنِ خُلُقِك ومقاساةِ الأذىمن قومك.

ويقال نصراً عزيزاً : مُعِزاً لك ولمن آمن بك .

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أَكْرَمَ بها نبيَّه — صلى الله عليه وسلم — وخصَّه بها من الفتح والظَّفَرِ على النَّفْس والعدو ، وتيسير ما انغلق على غيره ، والمغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصُ عظيمةٌ .

قوله جل ذكره : « هو الذى أنزل السَّكينةَ فى قلوبِ المؤمنين » . .

السكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائر والحُجَج ، فيرتقى القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وثَلَج الفؤاد ، فتصير العلومُ ضروريةً[1] . . وهذا للخواصِّ .

فأمّا عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكونُ والطمأنينةُ واليقين .

ويقال : من أوصافِ القلب فى اليقين المعارف والبصائر والسكينة .

وفى التفاسير : السكينة ريح هفَّافة . وقالوا : لها وجهٌ كوجه الإنسان . وقيل لها جناحان .

« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

أى يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

«ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً » .

« جنود السموات والأرض » : قيل : هى جميع القلوب الدالَّةِ على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السموات والأرضِ وما به من قوًى تقهر أعداءَ اللهِ .

---

(١) أى لا تعود كسبيه حيث لم يعد للإنسان من نفسه لنفسه شىء .

ويقال : هم أنصارُ دينه .

ويقال : ما سلَّطه الحقُّ على شيء فهو من جنوده ، سواء سلَّطَه على وليِّه في الشدة والرخاء، أو سلَّطَه على عدوِّه في الراحة والبلاء .

قوله جل ذكره : « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ويُكفِّرَ عنهم سيئاتِهم ، وكان ذلك عند اللهِ فوزاً عظيماً » .

يَسْتُرُ ذنوبَهم ويحطها عنهم . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظَّفَرُ بالبغية[1] .

وسُؤْلُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه ، ومُبْتغاه ومقصودُه مختلِفٌ . . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَراً به .

قوله جل ذكره : «ويُعَذِّبَ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمشركات ، الظانِّين باللهِ ظنَّ السَّوْءِ عليهم دائرة السَّوْء » .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .

و« ظن السوء » : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أنَّ الله لاينصر دينَه ونَبيَّه عليه السلام.

« عليهم دائرة السوء » : عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم .

« ولعنهم» : أبعدهم عن فضله ، وحقت فيهم كلمتُه ، وما سبقت لهم — من الله سبحانه — قِسْمتُه .

قوله جل ذكره : إنَّا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً ».

« أرسلناك شاهداً » : على أُمَّتِكَ يومَ القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .

ويقال : شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأمتك بتوحيدنا . « ومبشراً » : لهم مِنَّا بالثواب ، . « ونذيراً » للخَلْق ؛ زاجِراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات .

---

(١) هكذا في م وهي في ص بالنعمة .

ويقال : شاهداً مِنْ قِبَلِنا ، ومُبَشِّراً بأمرنا ، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا ومِنَا .

قوله جل ذكره : « لِتُؤْمِنوا باللهِ ورسولِه وتُعَزِّروه وتوقِّروه وتسبحوه بُكْرةً وأصيلاً » .

قرئ[1] : « ليؤمنوا » بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أى ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أى الرسول ، ويُوقروه : أى يُعَظِّموا الرسولَ . وتُسَبِّحوه : أى تُسَبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً[2] .

وقرئ : « لتؤمنوا » — بالتاء — أيها المؤمنون بالله ورسوله وتعزروه — على المخاطَبة. وتعزيرُه يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نَفْسك ، وتقديمِ حُكْمِه على حُكْمِك . وتوقيرُه يكون باتباع سُنَّتِه ، والعلم بأنه سيِّدُ بَرِيَّته[3] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُبايعونَكَ إنما يُبايعون الله » .

وهذه البيعة هى بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمُرَة[4] .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عثمانَ رضى الله عنه إلى قريش ليُكلِّمَهم فأرجفوا بقَتْلِه . وأتى عروة بن مسعود[5] إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال :

جئتَ بأوشاب الناس لتفضَّ بَيْضَتَكَ بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك ، وكأنِّى بأصحابك

---

(١) قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبى عمرو .. وكذلك «يسبحوه» بالياء ، والباقون بالتاء على الخطاب

(٢) ونلاحظ أن القشيرى قدتوقف قبل تسبحوه فجعلها بالتاء ،وهناك من المفسرين من يرى ذلك أيضاً (انظر القرطبى حـ١٦ ص ٢٦٧) .

(٣) عزرت الرجل أى رددت عنه ونصرته وأيَّدته — وهو من الأضداد — لأنه قد يأتى بمعنى أدَّبته ولُمْتُه .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : «قد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» والسمرة : شجرة الطلح .

(٥) جاء فى السيرة لابن اسحاق ـ٣ ص ٧٧٨ :

بعد أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، فلما سمعت قريش بذلك استعدت لقتاله مع أنه لم يكن ينوى قتالا وتعاقبت السفراء بينه وبينهم ، وكان كل سفير من قريش يذهب إلى النبى ثم يعود ليقنع قريش بحقيقة نية النبى ولكنهم كانوا لا يرضون بما جاء به ، حتى جاء دور عروة بن مسعود الثقفى — وهو عند قريش غير متهم وقال للنبى «إن قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها أبداً عليهم عنوة . وحينما قال عروة : وايم الله لكأنى بهؤلاء — يريد أصحاب الرسول — قد انكشفوا عنك غداً . فانبرى أبو بكر قائلا : أنحن ننكشف عنه ... الخ .

قد انكشفوا عنك إذا مسّهم حرُّ السلاح ! فقال أبو بكر : أتظن أنّا نسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبايعهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أن يُقاتِلوا وألا يهربوا[1] ، فأنزل الله تعالى:

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » : أى عقْدُك عليهم هو عقد الله .

قوله جل ذكره : « يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم » .

أى « يد الله » : فى المنة عليهم بالتوفيق والهداية[2] : «فوق أيديهم» بالوفاء حين بايعوك.

ويقال : قدرة الله وقوته فى نصرة دينه ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم فوقَ نَصْرِهم لدين الله ولرسوله .

وفى هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع[3] كما قال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

قوله جل ذكره : « فَمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نَفْسه»

أى عذابُ النكثِ عائدٌ عليه .

«ومَن أَوْفَىٰ بما عَاهَدَ عليه الله فَسَيُؤْتيه أَجْراً عظيماً » .

أى من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً .

وإذا كان العبد بوصف إخلاصِه ، بعامِل اللهَ فى شىء هو به متحقِّقٌ ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التى تُظْهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محواً فى أسرارِه . . والحكم عندئذ راجعٌ إلى الواحد — جلَّ شأنه[4] .

---

(١) قال جابر بن عبد الله بايعنا رسول الله (ص) تحت الشجرة على الموت وعلى ألا نفر فما نكث أحد منا البيعة إلاّ جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم .

(٢) نلاحظ أن القشيرى هنا يؤول اليد حتى ينفى عن الله الاتصاف بالجارحة .

(٣) أنت حين بايعت أو حين رميت فأنت من حيث الظاهر تقوم بعمل وأنت فى حال الفرق ، ولكن الحقيقة أنه لا فاعل إلا الله فمنه التوفيق والسداد والإصابة .. وهذا هو حال الجمع . وبمقدار ما يكون العبد فى منزلة التمكين وبعيداً عن التلوين يكون دنوه من حال الجمع ، التى بعدها حال جمع الجمع .. ونبينا صلى الله عليه وسلم كان عندها إذ هو صلوات الله عليه محمول لا متحمل ؛ أى بربه لا بنفسه .

(٤) أى إذا أفضى العبد بشىء من العرفان عندئذ فيكون نطقه وما يظهر عليه من الله وبالله .

قوله جل ذكره : « سيقول لك المخلَّفون من الأعرابِ
شَغَلَتْنا أموالُنا وأهلونا فاستغفرْ لنا
يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم »

لمـَّا قَصَدَ رسولُ الله عليه وسلم التوجهَ إلى الحديبية تخلَّفَ قومٌ من الأعراب عنه. قيل : هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع ، وقالوا : «شغلتنا أموالنا وأهلونا» وليس لنا مَنْ يقوم بشأننا وقالوا : انتظروا ماذا يكون ؛ فما هم فى قريش إلاَّ أَكَلَةُ رأسٍ [1]. فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوه مُعْتَذِرين بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمورهم ! وقالوا : استغفر لنا .

فأطلعه الله — سبحانه — على كذبهم ونفاقهم ؛ وأنهم لا يقولون ذلك اخلاصاً ، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

« قُلْ فَمَن يملك لكم من اللهِ شيئاً إنْ
أرَاد بكم ضَرًّا أو أراد بكم نفعاً بل كان
الله بما تعملون خبيراً »

فضَحَهم . ويقال : ما شغل العبد عن الله شُؤْمٌ عليه .

ويقال : عُذْرُ الماذِقِ وتوبةُ المنافقِ كلاهما ليس حقائق .

قوله جل ذكره « بل ظَنَنْتُمْ أن لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنون
إلى أهليهم أبداً وزُيِّنَ ذلك فى قلوبكم
وظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنتمْ قوماً بُوراً » .

حسبتم أن لن يرجعَ الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً ، وزَيَّنتْ لكم الأمانى ألا يعودوا ، وأنَّ الله لن ينصرهم . « وكنتم قوماً بوراً » أى هالكين فاسدين .

---

(١) أى هم قليل .

ويقال : إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمنَّى ما تتقاصر عنه مُكْنَتُهُ ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز ، ونعتُ كلِّ لئيم . ثم إن الله — سبحانه — بعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده « ولا يحيق المكرُ السيء إلا بأهله[1] » .

ويقال : من العقوبات الشديدة التى يعاقِبُ اللهُ بها المُبْطِل أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نَفْسَه عليه لفرط جهْله. ويُلقى الحقُّ فى قلبه ذلك التمنى حتى تسول له نفسُه أن ذلك كالكائن .. ثم يعذبه الله بامتناعه .

قوله جل ذكره :ومن لم يُؤمن باللهِ ورسولِه فإنَّا أعتدنا للكافرين سعيراً »

وما هو آتٍ فقريب . . وإنَّ الله ليرخى عنانَ الظَّلَمةِ ثم لا يفلتون من عقابه . . وكيف — وفى الحقيقة — ما يحصل منهم هو الذى يجريه[2] عليهم ؟

قوله جل ذكره : « ولله مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ يغفرُ لمن يشاء ويُعَذِّبُ من يشاء وكان اللهُ غفوراً رحيماً »

يغفرُ — وليس له شريك يقول له : لا تفعلْ ، ويعذِّب من يشاء — وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له : لا تفعلْ .

قوله جل ذكره : « سيقولُ المُخَلَّفون إذا انطلقتُمْ إلى مغانمَ لتأخذوها ذرونا نتَّبِعْكم يريدون أن يبدلوا كلامَ اللهِ قل لن تتبعونا »

وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم اللهُ خيبرَ ،

---

(١) آية ٤٣ سورة فاطر .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (يجزيه) بالزاى وقد رجحنا (يجريه) أولاً لاتصالها بمذهب القشيرى وكون الله — على الحقيقة — فاعل كل شىء حتى أكساب العباد . وثانيا لأنها لو كانت بالزاى لقال : يجزيهم عليه .

وأنَّ فيها سيظفرُ بأعدائه ، فلمَّا هَمَّ بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا فى ذلك من الغنيمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما يخرج معى إلى خيبر من خرج إلى الحديبية ، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا »

فقال المتخلفون : إنما يقول المؤمنون ذلك حَسداً لنا ؛ وليس هذا من قول الله ! فأنزل اللهُ تعالى ذلك لتكذيبهم ، ولبيان حكمه ألا يستصحبَهم فهم أهل طمع ، وكانت عاقبتُهم أنهم لم يجدوا مرادَهم ، ورُدُّوا بالمذلة وافتضح أمرهم .

قوله جل ذكره : « قُل للمُخَلَّفين من الأعراب ستُدْعوْن
إلى قوم أولى بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم
أوْ يُسْلِمون فإن تطيعوا يؤتِكم اللهُ
أجراً حسَناً وإن تتولوا كما توليتم من قبلُ
يُعَذبْكم عذاباً أليماً »

جاء فى التفاسير أنهم أهلُ اليمامة أصحاب مسيلمة — وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم ، فالآية تدل على إمامته . . وقيل هم أهل فارس — وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم ؛ فالآيةُ تدل على صحة إمامته . وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبى بكر . « أولى بأس شديد » أولى شدَّة . فإنْ أطعتُم استوجبتم الثواب ، وإن تخلَّفتم استحقَقْتُم العقاب . ودلت الآيةُ على أنه يجوز أن تكون للعبد بدايةٌ غير مُرْضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح — كما كان لهؤلاء وأنشدوا :

إذا فَسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه
فَرَجٌ له عَوْدَ الصلاح . . لعلَّه

قوله جل ذكره : « ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حَرَجٌ ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَه

---

(١) العبارات التى وردت فى إثبات صحة الإمامين جاءت فى م ولم ترد فى ص .

يُدخله جناتٍ تجرى مِن تحتها الانهارُ
ومن يتولَّ يُعَذِّبْه عذاباً أليما »

هؤلاء أصحاب الأعذار . . رفع عنهم الحَرَجَ فى تخلفهم عن الوقعة فى قتال المشركين .

وكذلك مَنْ كان له عُذرٌ فى المجاهدة مع النفس . . فإنَّ الله يحُبُّ أنْ تؤتى رُخَصُه كما يحب أن تؤتى عزائمه[1] .

قوله جل ذكره : « لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ
يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما فى قلوبهم
فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً».

هذه بيعة الرضوان ، وهى البيعة تحت الشجرة بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين . . . » .

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلثمائة وقيل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخولَ مكة ، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادِّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، فقصده المشركون ، ثم صالحوه على أن ينصرفَ هذا العام ، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً)[2] وكان النبى قد رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدهم المشركون خامر قلوبَهم شىء ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصِّدِّيقُ : لم يَقُلْ العام ! فسكنت قلوبهم بنزول الآية ؛ لأن الله سبحانه علم ما فى قلوبهم من الاضطراب والتشكك . فأنزل السكينة فى قلوبهم ،

---

(١) هذه لفتة هامة جداً ، حيث لم نتعود من القشيرى فى سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حينما يتحدث عن الصوفية يعتبر اللجوء إلى الرخصة بمثابة فسخ عقد الإرادة (أنظر الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) ما بين الأقواس تكملة من عندنا اعتمدنا فيها على المصادر المختلفة . أوردناها ليتضح السياق

وثبّتهم باليقين. « وأثابهم فتحاً قريباً » هو فتحُ خيبر بعد مدة يسيرة ، وماحصلوا عليه من مغانمَ كثيرةٍ من خيبر . وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة[1] .

وفى الآية دليلٌ على أنه قد تخطر ببال الانسان خواطرُ مُشكِّكة ، وفى الرَّيب موقعة ، ولكن لا عبرة بها ؛ فإنّ الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيدُ قلبَه ، وقارن التحقيق سِرَّه فلا يضرُّه كيدُ الشيطان ، قال تعالى : إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[2] .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » ويدخل فى ذلك جميعُ ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجَّل لكم هذه — يعنى خيبر[3] ، وقيل : الحديبية .

« وكفَّ أيدى الناس عنكم » لما خرجوا من المدينة حَرسهم اللهُ ، وحفظ عيالهم ، وحمى بَيْضَتهم حين هبَّ اليهود[4] فى المدينة بعد خروج المسلمين ، فمنعهم اللهُ عنهم .

أو يقال : كفَّ أيدى الناس من أهل الحديبية .

« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »

لتكون هذه آيةً للمؤمنين وعلامةً يَسْتدلُّون بها على حراسة الله لهم .

« ويهديكم صراطاً مستقيماً » : فى التوكل على الله والثقة به .

ويقال : كفُّ أيدى الناس عن العبد هو أنْ يَرْزُقَه من حيث لا يحتسب ، لئلا يحتاجَ إلى أن يتكفَّفَ الناس .

ويقال : أنْ يَرْفعَ عنه أيدى الظَّلَمة .

---

(١) هذا أيضا قول ابن عباس ومجاهد .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) يرجح أنها خيبر ، لأن الحديبية كان فيها صلح .

(٤) يرجح الطبرى ذلك ، لأن كف أيدى المشركين فى الحديبية مذكور فى قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم »

ويقال : ألا تحمله المطالبةُ بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه ؛ فيأخذ من الأشياء — برخصة التأويل — ماليس بطيِّب[1] .

قوله جل ذكره : « وأخرىٰ لم تقدروا عليها قد أحاط اللهُ بها وكان اللهُ على كل شيءٍ قديراً »

قيل : فتح الروم وفارس[2] . وقيل : فتح مكة[3] .

وكان الله على كل شيءٍ قديراً : فلا تُعلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره : « ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً »

يعنى: خيبر وأسد وغطفان وغيرهم — لو قاتلوكم لانهزموا ، ولا يجدون من دون الله ناصراً

قوله جل ذكره : « سُنةَ الله التى قد خَلَتْ من قبل ولَن تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلا »

أى سُنَّةُ اللهِ خذلانُهم ولن تجد لسنة الله تحويلا .

قوله جل ذكره : « وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة منْ بعد أنْ أظفركُم عليهم وكان اللهُ بما تعملون بصيراً »

قيل إن سبعين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل اللهُ هذه الآيةَ فى شأنهم[4] .

---

(١) مرة أخرى ننبه إلى إضافة هذا الكلام إلى موقف القشيرى من الرخصة ومداها .

(٢) قال ابن عباس : هى أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليل .

(٣) عن الحسن أيضاً وقتادة ، وقال عكرمة : حنين .

(٤) فى ص ، و م (فأعلمهم سلمان) ، وهما خطأ فى النسخ ، فالرواية عن يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن (ثمانين) رجلا من أهل مكة هبطوا على النبى (ص) من جبل التنعيم متسلحين يريدون =

وقيل أخذ اثنى عشر رجلا من المشركين — بلا عهـــدٍ — فَمَنَّ عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم[1] وقيل : هم أهلُ الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل ترامى الأحجار بينهم ؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم ، فأنزل اللهُ هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدى بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا عن عجزٍ ؛ فأما الكفار فكفُّوا أيديهم رُعْباً وخوفاً ؛ وأمَّا المسلمون فَنَهْياً مِنْ قِبَلِ الله ، لما فى أصلابهم من المؤمنين — أراد اللهُ أن يخرجوا ، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه : أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يَسْلَمَ التائرُ منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك ، فلا من أحد عليهم حَيفٌ ، ولا منهم على أحد حيفٌ ولا حسابٌ ولا مطالبة ولا صلحٌ ولا معاتبة ، ولا صداقة ولا عداوة . . وكذا من كان بالحق ـ وأنشدوا:

فلم يبقَ لى وقتٌ لِذِكرِ مُخَالِفٍ
ولم يبق لى قلبٌ لذكر موافق.

« قوله جل ذكره : « هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام والهَدْىَ معكوفاً أن يبلغَ مَحِلَّه »

« كفروا » وجحدوا ، « وصدوكم » ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

« والهدى معكوفاً[2] »: أى منعوا الهَدْىَ أن يبلغ مَنحرَه ، فمعكوفاً حالٌ من الهدى أى محبوساً .

= غرة (أن يصيبوه على غفلة) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذناهم سلماً فاستحييناهم. (أى أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم (وقال ابن الأثير) السلم (بكسر السين وفتحها لغتان فى الصلح) . وفى رواية قتادة أن النبى سألهم : «هل لكم على ذمة ؟ (= أى عهد) قالوا : لا ، فأرسلهم فنزلت .

وفى رواية الترمذى أنهم ثمانون رجلا هبطوا عليه عند صلاة الصبح ، فأخذهم وأعتقهم . وذكر ابن هشام أنهم يُسَمَّوْنَ العتقاء .. ومنهم معاوية وأبوه .

(١) عن قتادة : أن المشركين رموا رجلا من أصحاب النبى يقال له زُنَيم بسهم فقتلوه ، فبعث النبى خيلا تأتى باثنى عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبى (ص) : هل لكم على ذمة ؟ ... الخ .

(٢) فى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله (ص) معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر الرسول وحلق رأسه ، فنحروا بنحره وحلقوا ، وقد غضب الرسول من توقف عن ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السَّنَة سبعين بَدَنَةً .

قوله جل ذكره : « ولولا رجالٌ مؤمنونَ ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم (١) فتصيبكم منهم معَرَّةٌ بغير علم ليُدْخِلَ اللهُ في رحمته من يشاء »

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرَّة منكم بغير علم لَسلَّطْنا كم عليهم ولأظفرنا كم بهم.

وفي هذا تعريفٌ للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتتعسَّر فيضيق قلب الإنسان . . ولله في ذلك سِرٌّ ، ولا يعدم ما يجرى من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدرى . . كما قالوا :

كم مرة حفَّت بك المكاره خير لك اللهُ . . وأنت كاره

قوله جل ذكره : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزل اللهُ سكينَته على رسوله وعلى المؤمنين وأَلْزَمهم كلمةَ التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها وكان اللهُ بكل شيء عليما »

يعني الأَنَفَةَ(٢) ؛ أي دَفَعَتْهم أنفةُ الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سَنَةَ الحديبية ، فأنزل اللهُ سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة ، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحِلْم .

« وألزمهم كلمة التقوى » وهي كلمةُ التوحيد تَصْدُرُ عن قلبٍ صادق : فكلمةُ التقوى يكون معها الاتقاءُ من الشِّرْك.

---

(١) أن تطئوهم : بالقتل والإيقاع بهم . يقال وطئت القوم : أي أوقعت بهم . فجواب لولا محذوف والمعنى : ولو أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ، ولكننا صنا من كان فيها يكتم وإيمانه .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الأنية) وقد رجحنا الأولى .

« وكانوا أحقَّ بها » حسب سابق حُكْمِه وقديم[1] علمه .. « وكان الله بكل شيء عليما »

ويقال : الإلزامُ فى الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف ، لا إلزام إكراهٍ وعُنْفٍ ؛ وإلزامُ برٍّ لا إلزام جبر . .

وكم باسطين إلى وَصْلنا
أكفهمو .. لم ينالوا نصيبا !

ويقال كلمة التقوى : التواصى بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هى أنْ تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تُبديها للناس .

ويقال : هى سؤالك من الله أنْ يحرُسَك من المطامع .

قوله جل ذكره : لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ
لتَدْخُلنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ
آمنين مُحَلِّقين رءوسَكم ومُقَصِّرِين
لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون
ذلك فتحاً قريباً . »

أى صدقه[2] فى رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أراه[3] من دخول مكة « آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين » كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه . فوطَّن أصحابه نفوسهم على دخول مكة فى تلك السنة . فلمَّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء ، حتى قيل لهم لم يكن فى الرؤيا دخولهم فى هذا العام ، ثم أذن الله فى العام القابل ، فأنزل الله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » فكان ذلك تحقيقا لما أراه ، فرؤياه صلوات الله عليه حق ؛ لأن رؤيا الأنبياء حق .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (وقديم) وقد رجحنا الأولى .
(٢) أى على حذف الجار كقوله تعالى : «وصدقوا ما عاهدوا الله عليه » ؟
(٣) إشارة إلى الرؤيا التى أراه إياها من دخوله وصحبه مكة آمنين .

وكان فى ذلك نوعُ امتحانٍ لهم : « فعلم مالم تعلموا » أتم من الحكمة فى التأخير[1] .

وقوله : « إن شاء الله » معناه إذ شاء الله كقوله : « إن كنتم مؤمنين »

وقيل . قالها على جهة تنبيههم إلى التأدُّب بتقديم المشيئة فى خطابهم[2]

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمنين أو غير آمنين .

وقيل . يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلِّهم أو دخول بعضهم ؛ فان الدخول كان بعد سنة ، ومات منهم قومٌ .

قوله جل ذكره . « هو الذى أرسل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُظهرَه على الدِّينِ كُلِّهِ وكفى باللهِ شهيداً » .

أرسل رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفى ، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين[3] ؛ فما من دينٍ لقوم إلا ومنه فى أيدى المسلمين سِرٌّ ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات .

وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام[4] .

وقيل : فى القيامة حيث يظهر الإسلامُ على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جل ذكره . « محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشِدَّاءُ على الكفَّارِ رُحَمَاءُ بينهم »

---

(١) قد تكون الحكمة فى التأخير هو ما سيحدث لهم من الخير والصلاح والتفوق وكثرة العدد ، فإنه عليه السلام رجع من هذا الموقف إلى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموال وعدة ورجال أضعاف ما كان عليه فى ذلك العام ، وأقبل على مكة فى أهبة وعدة . يدلك على ذلك أنهم كانوا عام الحديبية سنة ست عددهم ألف وأربعمائة ، وكانوا بعده عشرة آلاف .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : «ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله» .

(٣) أى أن (الدين) فى الآية اسم جنس ، أو اسم بمعنى المصدر ، ويستوى فيه المفرد والجمع .

(٤) أى عند نزوله لا يبقى على وجه الأرض كافر .

« أشداء » . جمع شديد ، أى فيهم صلابةٌ مع الكفار .

« رحماء » . جمع رحيم ،وصَفَهَم بالرحمة والتوادِّ فيما بينهم .

« ... تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من اللهِ ورضواناً »

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .

« ... سيماهم فى وجوهِهم من أثرِ السجود »

أى علامة التخشع التى على الصالحين .

ويقال : هى فى القيامة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ ، وأنهم يكونون غداً محجلين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجههُ بالنهار »[1]

ويقال فى التفسير : « معه » أبو بكر ، و « أشداء على الكفار » عمر ؛ و « رحماء بينهم»: عثمان ، وتراهم ركعاً سجداً » علىٌّ رضى الله عنهم[2]

وقيل : الآيةُ عامةٌ فى المؤمنين .

« ذلك مَثَلُهم فى التوراةِ ومَثَلُهم
فى الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطأه فآزَرَهُ
فاستغلظ فاستوى على سوقهِ يُعْجِبُ
الزُّرَّاعَ ليغيظَ بهم الكفار » .

هذا مَثَلُهم فى التوراة ، وأمَّا مَثَلُهم فى الإنجيل فكزرع[3] أخرج شطأه أى : فراخَه .

---

(١) جاء فى سنن ابن ماجة : حدثنا اسماعيل بن محمد الطلحى قال وحدثنا ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كثرت صلاته ...» وقال ابن العربى : هو مدسوس على وجه الغلط .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فلم يرد ذكر للصحابة رضوان الله عليهم سوى الجزء الأخير الخاص بعلى كرم الله وجهه ،وقد يمكن لوتذكرنا ما جاء فى هامش ص ٤٢٥ – أن نستنبط أن ناسخ ص – الذى هوفارسى الأصل كما قلنا فى مدخل الكتاب – ربما كان شيعياً .

(٣) فعلى هذا يجوز الوقف على (التوراة) ثم يستأنف الكلام فيكون هناك مثلان. وقال مجاهد : هو مثل واحد . وعند النسفى : مكتوب فى الإنجيل:سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (حـ٤ ص ١٦٤) .

يقال : أشطأ الزرعُ إذا أخرج صفاره على جوانبه . « فآزره » أى عاونه. «فاستغلظ » أى غَلُظ واستوى على سوقه ؛ وآزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزُّرَّاع ليغيظ بالمسلمين الكفار ؛ شَبَّهَ النبى (صلى الله عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقةواحدة مابين حولها فتشتد ، كذلك كان وحده فى تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فَمَنْ حمل الآية على الصحابة : فمن أبغضهم دخل فى الكفر، لأنه قال:« ليغيظ بهم الكفار» أى بأصحابه الكفارَ. ومَنْ حمله على المسلمين ففيه حُجَّة على الإجماع ، لأنَّ منْ خالف الإجماع — فالله يغايظ به الكفارَ — فمخالفُ الإجماعِ كافرٌ

قوله جل ذكره:« وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً »

وَعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة الذنوب ، وأجراً عظيماً فى الجنة فقوله : « منهم » للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

[« بسم اللهِ » : إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِـدَم .

« الرحمنِ الرحيمِ » : إخبارٌ عن بقائه بوصفِ العَلاء والـكَرَم .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم اللهِ » فَهَيَّمَها .

وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمنِ الرحيمِ » فَتَيَّمَها ؛ فالأرواحُ دَهْشَى فى كَشْفِ جلالهِ ، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله] .

عبد الـكريم القشيرى

فى

بسملة « الشمس »

سورة الحجرات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ تنصَّلَ إليه من زلّاته تفضَّلَ عليه بنجاته ، ومَنْ توسَّلَ إليهُ بطاعاته تطوَّل عليه بدرجاته .

« بسم الله » اسم عزيز مَنْ تقرَّب إليه بمناجاته قابَلَه بلطف أفضاله ، ومَنْ تحبَّبَ إليه بإيمانه أقبلَ عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين يَدَىِ اللهِ ورسولِه واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ » .

« يأيها الذين آمنوا » : شهادةٌ للمنادَى بالشَّرف .

« لا تقدموا » أمرٌ بتحمُّل الكُلَف. قدَّمَ الإكرام بالشرف على الإلزام بالكُلَف أى لا تقدموا بحكمكم « بين يدى الله ورسوله » : أى لاتقضوا أمراً من دون الله ورسوله ، أى لا تعملوا من ذات أنفسِكم شيئاً .

ويقال : قفوا حيثما وُقِفتم ، وافعلوا ما به أُمِرْتُم ، وكونوا أصحابَ الاقتداء والاتّباع . . لا أربابَ الابتداء والابتداع .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكم فوقَ صوتِ النبىِّ ولا تجهروا له بالقولِ كجهرِ بعضكُم لبعضٍ أن تحبطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون » .

أمَرَهم بحفظِ حرمته ، ومراعاةِ الأدب فى خدمته وصحبته ، وألاَّ ينظروا إليه بالعين التى ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخُلُقِه يُلابِنُهم فينبغى ألا يتبسَّطوا معه متجاسرين ، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم بِهِ مِنْ تَخَلُّقِهِ عن حدودِهم زائدين .

ويقال : لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفَاتِحَكم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يَغُضُّون أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ أولئك الذين امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتقوى لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم » .

هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرته ، أولئك هم الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها ، فاتقوا سوءَ الأخلاقِ ، وراعوا الأدبَ .

ويقال : هم الذين انسلخوا من عادات البشرية .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُنَادونكَ مِن وراءِ الحُجُراتِ أكثرهم لا يَعْقِلون * ولو أنَّهم صَبَروا حتى تَخْرُجَ إليهم لكان خيراً لهم واللهُ غفورٌ رحيم » .

أى لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَكَ ، والتزموا هَيْبَتَكَ .

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم (١) .

أمَّا أصحابه — صلواتُ الله عليه وسلامه — الذين يعرفون قدْره فإنَّ أحدهم — كما فى الخبر : « كأنه يَقْرَعُ بابَه بالأظافر » .

---

(١) يقال : نزلت فى قوم من بنى تميم منهم الأقرع بن حابس وسويد بن هاشم ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة ابن حصن ، وأن الأقرع نادى النبى (ص) من وراء حجرته أن اخرج إلينا فإن مدحنا زيْن وذمّنا شيْن . وكان ذلك وقت الظهيرة والنبى فى راحته وبعض شئونه الخاصة . فاستيقظ وخرج لهم .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

دلَّت الآية[1] على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُه .

وفى الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماع إلى كلامِ الساعى والنمَّامِ والمغتابِ للناس .

والآيةُ تَدُلُّ على قبول خبرِ الواحدِ إذا كان عَدْلاً .

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة[2] . ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة .

ويقال : هو الذى ألقى جِلبابَ الحياء .

قوله جل ذكره : « واعلموا أنَّ فيكم رسولَ اللهِ لو يُطيعُكم فى كثيرٍ من الأمرِ لَعَنِتُّم ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليكم الإيمانَ وزيَّنه فى قلوبكم وكرَّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشِدون » .

أى لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى كثير مما تطلبون منه لوقعتم فى العَنَتِ — وهو الفساد[3] . ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأصابتكم من ذلك شدة .

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم فى أكثر الأمور إذا لم يَرَ فى ذلك مصلحة لكم وللدين .

---

(١) يقال : نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط .. أرسله النبى (ص) ليجبى الصدقات من بنى المصطلق . فلما أبصروه تقدموا نحوه فهابهم ؛ فقد كانت بينه وبينهم إحنة .. فعاد منفوره إلى النبى وأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فلم يقنع النبى (ص) بما سمع وأرسل إليهم خالدبن الوليد ليتثبت من الأمر فأخبروه أنهم على إسلامهم ، وأنهم كانوا خارجين إلى سفير النبى لإكرامه ، واستيقن خالد من ذلك حين سمع أذانهم وصلاتهم .. فعاد إلى النبى وجلى حقيقة الأمر .

(٢) مشتق من فَسَقَت الرطبة أى خرجت من قشرها ، والفأرة من جحرها .

(٣) للعنت معان أخرى : فهو : الفجور والزنا — كما جاء فى سورة النساء . وهو : الوقوع فى أمر شاق كما جاء فى آخر سورة براءة .

« ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان » : الإسلام والطاعة والتوحيد ، وزيَّنَها فى قلوبكم .

« وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان . . » : هذا من تلوين الخطاب .

وفى الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ فى القَدَر[1] ، وتخصيص المؤمنين بألطافٍ لا يشترك فيها الكفارُ . ولولا أنَّه يوفِّر الدواعىَ للطاعات لَحَصَلَ التفريط والتقصير فى العبادات .

« فضلاً من الله ونعمة » : أى فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً . والله عليم حكيم .

قوله جل ذكره : « وإن طائفتان[2] من المؤمنين اقتتلوا فأَصْلِحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تبغى حتى تفىءَ إلى أمْرِ الله فإن فاءتْ فأَصْلِحوا بينهما بالعَدْلِ وأقْسِطوا ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين » .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه — والفسق دون الكفر — لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين — لا محالة — فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم ؛ حيث قال : « فإن بغت إحداهما على الأخرى . . . » .

والإشارة فيه : أن النفس إذا ظَلَمَتِ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها فى فسادها فيجب

---

(١) يقصد القشيرى أن القائلين بأن الله سبحانه المتفرد بخلق ذوات العباد وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم و... على صواب لأن الآية صريحة فى خلق الأفعال ؛ فهو الذى حبَّب إلى الإيمان والعكس .

(٢) يقال نزلت فى ابن أُبىّ حين وقف الرسول على مجلس به بعض الأنصار وهو على حمار فقال ابن أبى : خلِّ سبيل حمارك فقد آذانا ، فانبرى له عبد الله بن رواحة قائلاً :

والله إنَّ بول حماره لأطيب من مسكك .

وبعد أن مضى الرسول (ص) طال الخوض بينهما حتى استبَّا وتجالدا ، واشتبك الأوس والخزرج وتجالدوا بالعصى . وقيل بالأيدى والنعال والسعف ، فرجع الرسول (ص) إليهم فأصلح بينهم .

أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هى المطيَّةُ إلى باب الله .

قوله جل ذكره : « إنَّما المؤمنون إخوةٌ فأَصْلِحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلَّكم تُرْحَمون ».

إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوْكَد عزائم الدِّين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشى والنَّمَّام ؛ والمَصْدَرِ فى إفساد ذات البَيْن.

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْقَ هِمةِ عبدٍ فى إصلاح ذات البيْن)[1] فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة[2] .

فأما شرط الأخوة : فَمِنْ حقِّ الأُخُوةِ فى الدِّين ألا تُحْوِجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك ، وألا تُقَصِّرَ فى تَفَقُّدِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك .

ومن حقِّه ألا تُلْجِئَه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَه ؛ فإنْ أشْكَلَ عليكَ وَجْهُه عُدْتَ باللائمة على نفسك فى خفاء عُذْرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذْنَبَ ، وتَعودَه إذا مرض . وإذا أشار عليك بشىء فلا تُطَالِبْه بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة — كما قالوا :

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأى مكان

ومِنْ حقِّه أنْ تَحفظَ عَهْدَه القديم ، وأنْ تُراعِىَ حقَّه فى أهله المتصلين به فى المشهد والمغيب ، وفى حال الحياة وبعد الممات[3] — كما قيل :

وخليل إن لم يكن منصفاً كُنْتَ منصفا

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص المعصية ونحن نؤثر الأولى لملاءمتها السياق .

(٣) فى هذه الفقرة ما يدحض مزاعم الذين يقولون بأن الصوفية قوم انعزاليون ، لايفهمون معنى العلاقات الاجتماعية ولايقدرونها .

تتحسَّى له الأمرَّ ينْ وكُنْ ملاطفا
إنْ يَقُلْ لكَ استوِ احترفْ تَ رضًى لا تكلُّفا

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يَكُنَّ خيراً منهن ، ولا تَلْمِزوا أنفسَكم ولا تنابزوا بالألقابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بعد الإيمان ومَن لم يَتُبْ فأولئك هم الظالمون » .

نهى اللهُ — سبحانه وتعالى — عن ازدراء الناس ، وعن الغَيْبَةِ ، وعن الاستهانةِ بالخلق ، وعن تَرْكِ الاحترام .

« ولا تلمزوا أنفسكم » : أى لا يَعِيبَنَّ بعضُكم بعضاً ، كقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »[1].

ويقال : ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّطَ عليه . ولا ينبغى أن يُعْتَبَر بظاهر أحوال الناس فإنَّ فى الزوايا خبايا . والحقُّ يستر أولياءه فى حجابِ الضَّعَة[2]؛ وقد جاء فى الخبر :

« رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأبَرَّه »[3] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اجتنِبوا كثيراً من الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَب بعضُكم بعضاً ، أيُحِبُّ

---

(١) آية ٢٩ سورة النساء .

(٢) الضعة هنا بمعنى خمول الذكر وانطفاء المنظر .

(٣) فى بعض الروايات بزيادة : « وإن البراء منهم » ، وعند مسلم بلفظ « رُبَّ أشعث أغبر مدفوع إلى الأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه » .

أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً
فكرهتموه واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ
توّابٌ رحيم » .

النَّفْسُ لاتَصْدُقُ ، والقلبُ لايَكْذِبُ . والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ ومَنْ بَقِيَتْ عليه من حظوظه بقيَّةٌ — وإنْ قَلَّتْ — فليس له أن يَدَّعى بيانَ القلب بل هو بنفسه مادام عليه شيءٌ من نَفْسِه ، ويجب أن يَتَّهِمَ نَفْسَهُ فى كل مايقع له من نقصان غيره . . هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخطب . « كلُّ الناس أفقهُ من عمر .. امرأةٌ أفقهُ من عمر » .

« ولا تجسسوا » . والعارف لا يتفرغ من شهود الحقِّ إلى شهود الخَلْق . . فكيف يتفرغ إلى تجَسُّسِ أحوالهم ؟ وهو لا يتفرغ إلى نَفْسِه فكيف إلى غيره ؟ « ولا يغتب بعضكم بعضاً » : لا تحصل الغيبة للخَلق إلَّا من الغيبةِ عن الحقِّ .

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً .. » جاء فى التفسير أن المقصود بذلك الغيبة ، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية . وأخَسُّ الكفّار وأقلُّهم قَدْراً مَنْ يأكل الميتةَ .. وعزيزٌ رؤيةُ مَنْ لا يغتاب أحداً بين يديك .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ إنَّا خلقناكم مِنْ ذَكَرٍ
وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا
إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم إن الله
عليمٌ خبيرٌ » .

إنَّا خلقناكم أجمعكم من آدمَ وحواء ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا لا لتُكاثروا ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصولُ تربةً ونطفةً وعَلَقَةً .. فالتفاخر بماذا ؟ أبالحمأ المسنون ؟ أم بالنطفة فى قرار مكين ؟ أم بما ينطوى عليه ظاهرك مما تعرفه ؟ ! (١) وقد قيل :

(١) ربما نفهم من هذه العبارة ما يقصده القشيرى فى موضع آخر مماثل من سخرية بالإنسان وتحطيم لتجبره : كأن يقول له : من أنت أيها الإنسان ؟ أنت كنيف فى قميص ! ألا ترى إلى ريح إبطك إذا عرقت ، وإلى ريح فمك إذا جعت ! ؟ ... ونحو ذلك .

إنَّ آثارَنا تَدُلُّ علينا فانْظُروا بَعْدَنا إلى الآثارِ

أم بأفعالك التي هي بالرياء مَشُوبة ؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة ؟

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » أتقاكم أي أبعَدكم عن نَفْسِه ، فالتقوى هي التحرُّر من النفس وأطماعها وحظوظها . فأكرمُ العبادِ عند اللهِ مَنْ كان أبعد عن نَفْسِه وأقرَبَ إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : « قالتِ الأعرابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنوا ولكن قولوا أسْلَمنا » .

الإيمانُ هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذَبْح النَّفس ، والنفوسُ لا تموت ولكنها تغيب ، ومع حضورها لا يَتِمُّ خيرٌ ، والاستسلامُ في الظاهر إسلام . وليس كلُّ مَن استسلَمَ ظاهراً مخلصٌ في سِرِّه .

« ولمَّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبكم »

في هذا دليلٌ على أن محلَّ الإيمانِ القلبُ . كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى : « في قلوبهم مرض » ؛ ومَرَضُ القلبِ والإيمانُ ضدان .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسولِه ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ اللهِ أولئك هم الصادقون » .

جَعَلَ اللهُ الإيمانَ مشروطاً بخصالٍ ذَكَرَها ، ونَصَّ عليها بلفظ « إنما » وهي للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ العَكْسِ ؛ فَمَنْ خَرَجَ عن هذه الشرائط التي جَعَلَها للإيمان فمردودٌ عليه قَوْلُه .

والإيمانُ يوجِبُ للعبد الأمان ، فما لم يكن الإيمان موجِبًا للأمانِ فما حبُه بغيره أَوْلَى .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ واللهُ يعلم ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ واللهُ بكل شىء عليم » .

تدل الآية على أنَّ الوقوفَ[1] فى المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً ؛ فالأسامى منه تُؤْخَذ ، والأحكامُ منه تُطْلَب ، وأوامره مُتَّبعة[2] .

قوله جل ذكره : « يَمُنُّون عليك أنْ أسلموا قُل لا تَمُنُّوا علىَّ إسلامَكم بلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَداكم للإيمانِ إن كنتم صادقين » .

مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً ، وإنْ رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر ؟ !

والذى يجب عليه قبول المِنَّة ... كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة ؟ ! هذا لعمرى فضيحة ! بل المِنَّةُ لله ؛ فهو ولىُّ النعمة . ولا تكون المنةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً فى حاله ، فأمَّا إذا كان معلولاً فى صفة من صفاته فهى محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة .

والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين ، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يعلم غيب السمٰواتِ والأرضِ واللهُ بصيرٌ بما تعملون » .

---

(١) هكذا فى م وهى بمعنى (التوقف) (والتوقيف) عند بعض الأمور . ولهذا فما جاء فى ص وهو (التوفيق) خطأ فى النسخ .

(٢) فالاتباع واجب و لابتداع مرفوض – كما نبهنا القشيرى من قبل .

ومَنْ وُقِف ها هنا تكدَّرَ عليه عَيْشُه ؛ إذ ليس يدرى ما غيبه فيه ، وفى معنى هذا قول القائل :

أبكى .. وهل تدرين ما يبكينى ؟
أبكى حذاراً أن تفارقينى
وتقطعى وَصْلى وتهجرينى[1]

(١) فى (اللمع) للسراج وتقطعى (حبلى) وتهجرينى (اللمع ص ٣٠٥) وكلاهما صحيح فى المعنى ملائم للوزن .

سُورَةُ قٓ

« بسم الله » اسم جَبَرَ أحوالَ مَنْ رَحِمَه ، متجبِّرٌ بكبريائه على من أقامه قَهَرَه وحرَمه .

« بسم الله » لطيفٌ يعلم خفايا تصنُّع العابدين ، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين .

قوله جل ذكره : « قٓ والقرآنِ المجيدِ ».

قٓ مفتاح أسمائه : « قوى وقادر وقدير وقريب » . . أقسم بهذه الأسماء وبالقرآن المجيد .

وجوابُ القَسَم محذوف ومعناه لَتُبْعَثُنَّ فى القيامة .

ويقال جوابه : « قد علمنا ما تنقُصُ الأرضُ منهم وعندنا كتاب حفيظ » أى لقد علمنا .

وحذفت اللام لمأ تطاول الخطاب .

ويقال : جوابه قوله : « مايبدَّلُ القولُ لدىّ » .

قوله جل ذكره : « بل عَجِبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم

فقال الكافرون هذا شىء عجيب » .

« منذرٌ منهم » : هو محمد صلى الله عليه وسلم

والتعجُّبُ نوعٌ من تعبير النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارج العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل .

وقد مضى القولُ فى إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك :

« أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ »

أى يَبْعُدُ عندنا أنْ نُبْعَثَ بعد ما مِتْنا . فقال جل ذكره :

« قد عَلِمْنا ما تنقص الأرضُ منهم
وعندنا كتابٌ حفيظ » .

فى هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِّدَ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته الأحباب . . فَمَنْ يَتَفَقَّدُه ومَنْ يَتَعَهَّدُه . . . وهو فى شفير قبره ، وليس لهم منه شىء سوى ذكرِه ، ولا أحدَ منهم يدرى ما الذى يقاسيه المسكين فى حُفْرته ؟ فيقول الحقُّ — سبحانه : « قد علمنا . . . » ولعلَّه يخبر الملائكة قائلا : عَبدى الذى أخرَجته من دنياه — ماذا بقى بينه مَنْ يهواه ؟ هذه أجزاؤه قد تفرَّقَتْ ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ !

« وعندنا كتابٌ حفيظ » : وهو اللَّوحُ المحفوظ ؛ أثبتَنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تذكُّره .

قوله جل ذكره : « بل كَذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهم فهم فى أمرٍ مَرِيج » .

« مريج » أى مختلط ومُلتبس ؛ فهم يتردَّدون فى ظُلُمات تحيُّرهم ، ويضطربون فى شكِّهم .

قوله جل ذكره : « أفَلَمْ ينظروا إلى السماء فوقَهم كيف بَنَيْناها وزَيَّناها وما لها من فروج » .

أوَلَمْ يعتبروا ؟ أوَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بما رفعنا فوقهم من السماء ، رفعنا سَمْكَها فسَوَّيْناها ، وأثبتنا فيها الكواكبَ وبها زَيَّناها ، وأدَرْنا فيها شَمْسَها وقمرَها ؟ أو لم يروا كيف جَلَّسْنا عَيْنَها ونَوَّعْنا أثرَها ؟

« والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ وأنبتْنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيج » .

والأرض مددناها ؛ فجعلناها لهم مِهاداً ، وجَعَلْنا لها الجبالَ أوتاداً ، وأنبتْنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً .. كل ذلك :

« تَبْصِرَةً وذِكرىٰ لكلِّ عَبْدٍ مُنيب »

علامةً ودلالةً لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهودِ أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهودِ حقِّنا وذاتنا[1] .

قوله جل ذكره : « ونَزَّلنا من السماء ماءً مُبَاركاً فأنبتنا به جنَّاتٍ وحَبَّ الحصيد » .

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثيرَ النفعِ والزيادة ، فأنبتنا به « جنات وحب الحصيد » : أى الذى يُحْصَد — كما تقول : مسجد الجامع .

الأجزاء متجانسة . ولكنَّ أوصافَها فى الطعوم والروائحِ والألوانِ والهيئاتِ والمقادير مختلفة .

قوله جل ذكره : « والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيد » .

والنخلُ باسقاتٌ : طويلاتٌ ، لها طَلْعٌ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطَّلْع أو لما فيها مِن الثمار . وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالتفاح والكمثرى وغيرهما ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب وغيرهما . . كلَّ ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكى ينتفعوا به .

« . . . وأحْيَيْنا به بلدةً مَيْتاً كذلك الخروج » .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها ، وكما فَعَلْنا كُلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك — كذلك نجمعكم فى الحشر والنشر ، فليس بَعْثُكُم بأبعدَ من هذا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمودُ * وعادٌ وفِرعَونُ وإخوانُ

---

(١) هذا الترتيب فى منازل الشهود له أهمية فى فهم المعراج الروحى عند هذا الإمام ، وواضح منه أن أعلى درجات الشهود شهود الذات .. وذلك بشرائط سبقت الإشارة إليها فى غير موضع من الكتاب ، ولكننا مع ذلك لا ننسى أن القشيرى — كما نعرف من منهجه — يرى الاستشراف من (الذات) من المحال ، فقد جلت الصمدية عن الدرك واللحوق .. مهما سما العبد فى معراجه الروحى .

لوط * وأصحابُ الأيكةِ وقومُ تُبَّعٍ
كلٌّ كذّبَ الرُّسُلَ فحقَّ وعيد » .

إنّا لم نَعْجَزْ عن هؤلاء — الذين ذكر أسماءهم — وفيه تهديدٌ لهم وتسليةٌ للرسول .

« أفعَيينا بالخلْقِ الأول ؟ بل هم فى
لَبْسٍ من خَلْقٍ جديد » .

أى إنّا لم نعجزْ عن الخلْق الأول . . فكيف نعجز عن الخلق الثانى — وهو الإعادة ؟ لم يعتص علينا فعلُ شىء ، ولم نتعب من شىء .. فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أى ليس كذلك[1].

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنا الإنسانَ ونعلم ما تُوَسْوِسُ
به نَفْسُه ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ
الوريد » .

نعلم ما توسوس به نَفْسُه من شهواتٍ تطلب استنفاذها ، مثل التصنّع مع الخلْق ، وسوء الخُلُق ، والحقد . . وغير ذلك من آفات النَّفْس التى تُشَوِّش على القلب والوقت .

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فحَبْلُ الوريد أقربُ أجزاء نَفْسِه إلى نَفْسِه ، والمرادُ من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولَهم ، ولا يشكل عليه شىء من أمرهم .
وفى هذه الآية هَيْبَةٌ وفَزَعٌ وخوفٌ لقومٍ ، ورَوْحٌ وسكونٌ وأُنْسُ قلبٍ لقومٍ .

قوله جل ذكره : « إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ عَنِ اليمين وعَنِ
الشمالِ قعيد » .

خوّفَهم بشهود الملائكة وحضور الحَفَظَةِ ، وبكتابتهم عليهم أعمالَهم ، فهما قَعيدا[2] كلٌّ

---

(١) فالاستفهام هنا للإنكار أو للنفى .
(٢) عبر عن المثنى بالمفرد للدلالة بواحدٍ على الاثنين مثل قول الشاعر :
رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئاً ومن أجل الطوى رمانى
أى رمانى بأمر كنت منه بريئاً وكان والدى منه بريئاً .

أحدٍ : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه ، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه ، وإذا قام فواحدٌ عند رأسِه وواحد عند قدَمِه ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرُ خَلْفَه .

ويقال : هما اثنان بالليل لكلِّ واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذى يكتب الخيرات اليومَ يكون غيره غداً ، وأمّا الذى يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذى يكتب المعصية اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلةٍ اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ المعاصى متفرقاً فيهم[1] .

قوله جل ذكره : « وجاءتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كُنتَ منه تحيد » .

إذا أشرفت النَّفْسُ على الخروجِ من الدنيا فأحوالُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يزداد فى ذلك الوقت خوفُه ولا يَتَبَيَّنُ إلا عند ذهابِ الروح حالَه . ومنهم مَنْ يُكاشَفُ قبلَ خروجه فيَسكن رَوْعُه ، ويُحفَظُ عليه عَقْلُه[2] ، ويتم له حضورُه وتمييزُه ، فيُسْلِمَ الرُّوحَ على مَهَلٍ مِنْ غير استكراهٍ ولا عبوس . . ومنهم ، ومنهم . . وفى معناه يقول بعضهم :

أنا إنْ مِتُّ ـ والهوى حشو قلبى ـ فبِداء الهوى يموت الكرامُ

ثم قال جل ذكره : « ونُفِخَ فى الصُّورِ ذلك يومُ الوعيد * وجاءتْ كلُّ نَفْسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ » .

سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار ، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرِّ .

---

(١) واضح من ذلك مقدار ما يبعثه الصوفية فى نفوس العصاة من تفاؤل ورجاء أملاً فى فتح باب التوبة

(٢) سقطت (عقله) من النسخة م ، وموجودة فى ص .

ويقال له : « لقد كُنتَ فى غفْلةٍ من هذا فَكَشَفْنا عنكَ غطاءكَ فبصرُكَ اليومَ حديدٌ » .

المؤمنون — اليومَ بَصَرُهم حديد ؛ يُبْصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم .

والكافر يقال له غداً : « بصرك اليومَ حديد » أى : ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب ؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ .

قوله جل ذكره : « وقال قرينُه هذا ما لدىَّ عتيد » .

لا يَخْفَى من أحوالهم شىء إلا ذُكِرَ ، إنْ كان خيراً يُجَازون عليه ، وإن كان غير خيرٍ يُحَاسَبون عليه : إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون ، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون .

« أَلْقِيا فى جهنَّمَ كُلَّ كفَّارٍ عنيد *
مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ مُرِيب » .

منَّاعٍ للزكاة المفروضة .

ويقال : يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين .

ويقال : يمنع الناسَ من الخيرِ والإحسانِ ، ويسىء القول فيهما حتى يُزَهِّدَ الناسَ فيهما .

ويقال : المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرِّ .

ويقال : هو الذى قيل فيه : « ويمنعون الماعون »(١) .

« مريب » : أى يُشَكِّكُ الناسَ فى أمره لأنه غير مخلص ، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق .

قوله جل ذكره : « قال قرينُه ربَّنا ما أَطْغَيْتُه ولكن كان فى ضلالٍ بعيد » .

يقول المَلَكُ من الحفَظَةِ المُوَكَّلُ به : ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة .

---

(١) آية ٧ سورة الماعون .

وإنما[1] كَتَبْتُها بعد ما فَعَلَهَا — وذلك حين يقول الكافر : لم أفعلْ هذا ، وإنما أعجلنى بالكتابة علىّ ، فيقول المَلَكُ : ربَّنا ما أعجلته ..

ويقال : هو الشيطانُ المقرونُ به ، وحين يلتقيان فى جهنم يقول الشيطانُ : ما أكرهته على كفره ، ولكنه فعل — باختياره — ما وسوسْتُ به إليه .

فيقول جل ذكره : « قال لا تَخْتَصِموا لدىَّ وقد قَدَّمْتُ
إليكم بالوعيد * ما يُبَدَّلُ القولُ لدىَّ
وما أنا بظلاَّمٍ للعبيد » .

لا تختصموا لدىَّ اليومَ وقد أمَرْتُكم بالرُّشْدِ ونَهَيْتُكم عن الغَىّ .

قوله جل ذكره : يومَ نقولُ لجهنَّمَ هلِ امتلأتِ وتقول
هل من مزيد »[2]

« نقول لجهنّم ، « وتقول » : القولُ هنا على التوسُّع ؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك بل يُجْيبها حتى تقولَ ذلك .

« هل من مزيد » : على جهة التغليظ ، والاستزادة من الكفار .

ويقال : بل تقول « هل من مزيد » : أى ليس فىَّ زيادة كقوله عليه السلام لمَّا قيل له : يومَ فتح مكة : هل ترجع إلى دارك ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل داراً ؟ ![3] أى لم يترك ، فإن الله — تعالى — يملأ جهنمَ من الكفارِ والعصاةِ ، فإذا ما أُخرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفارِ حتى تمتلئ بهم جهنم .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (ما) والصواب ما أثبتنا .

(٢) عن قتادة عن أنس عن النبى (ص) قال : يلقى فى النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول قط قط . وفى رواية أبى هريرة : يقال لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط قط (البخارى حـ ٣ ص ١٢٨) .

(٣) عن الزهرى عن على بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح : يا رسول الله ، أين تنزل غداً ؟ قال النبى (ص) : وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ ثم قال : لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر المؤمن (البخارى حـ ٣ ص ٤٢) .

قوله جل ذكره : « وأُزْلِفَتِ الجنّةُ للمتقين غيرَ بعيد » .

يقال : إنّ الجنّةَ تُقرَّبُ من المتقين ، كما أنّ النار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال : بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . وهم خواص الخواص .

ويقال : هم ثلاثةُ أصناف : قوم يُحْشَرون إلى الجنة مشاةً وهم الذين قال فيهم : « وسيق الذين اتقوا ربّهم إلى الجنة زمراً[1] » — وهم عوام المؤمنين[2] وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوَّرة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قال فيهم جَلّ وعلا : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[3] — وهؤلاء هم الخـــواص وأمّا خاص الخاص فهم الذين قال عنهم : « وأزلفت الجنة للمتقين » أى تُقَرَّبُ الجنةُ منهم

وقوله : « غير بعيد » تأكيدٌ لقوله : وأزلفت » .

ويقال : « غير بعيد » : من العاصين تطييباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره : « هذا ماتُوعَدون لكلِّ أوّابٍ حفيظ ».

الأوّابُ : الراجعُ إلى الله فى جميع أحواله .

« حفيظ » : أى محافظ على أوقاته ، (ويقال محافظ على حواسه فى الله حافظ لأنفاســـه مع الله)[4] .

قوله جل ذكره : « مَنْ خَشِىَ الرحمٰنَ بالغيبِ وجاء بقلبٍ مُنِيب » .

الخشيةُ من الرحمنِ هى الخشية من الفراق . (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأُنْس ؛ ولذلك لم يقل : من خشى الجبّار ولامن خشى القهّار)[5] .

---

(١) آية ٧٣ سورة الزمر .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص
(٣) آية ٨٥ سورة مريم .
(٤) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .
(٥) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ويقال : الخشية من الله تقتضى العلم بأنه يفعل مايشاء وأنه لا يسْألُ عمَّا يفعل .

ويقال : الخشيةُ ألطفُ من الخوف ، وكأنها قريبةٌ من الهيبة[1] .

« وجاء بقلب منيب » : لم يقل بنَفْسٍ مطيعة بل قال : بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاةِ فى هذا أملٌ ؛ لأنهم — وإن قَصَّروا بنفوسهم وليس لهم صِـــدْقُ القَدَمِ — فلهم الأسَفُ بقلوبهم وصدق الندَم .

قوله جل ذكره : « ادخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخلود » .

أى يقـال لهم : ادخلوها بسلامةٍ من كل آفةٍ ، ووجودِ رضوان ولا يسخطُ عليكم الحقُّ أبداً .

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ : ادخلوها بسلامٍ ، ومنهم من يقول له : لكم ما تشاءون فيها — قال تعالى :

« لهم ما يشاءون فيها ولَدَيْنا مَزيد » .

لم يقل : « لهم ما يسألون » بل قال : « لهم ما يشاءون » : فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلَهم يتحقق لهم فى الوَهْلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

« ولدينا مزيد » : اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه[2]. وقومٌ يقولون : المزيد على الثواب فى الجنة — ولا منافاة بينهما .

---

(١) يقول الدقاق شيخ القشيرى : هى مراتب : الخوف والخشية والهيبة : فالخوف من شرط الإيمان « وخافونِ إن كنتم مؤمنين» والخشية من شرط العلم : « إنَّما يخشى الله من عباده العلماء» . والهيبة من شرط المعرفة : « ويحذركم الله نفسه » . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة وخشية ؛ فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب (الرسالة ص ٦٥) .

(٢) أجمعوا على أن الله تعالى يُرى بالأبصار فى الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ؛ لأن ذلك كرامة من الله تعالى لقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» . وجوَّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ؛ وإنما جاز فى العقل لأنه موجود ، وكل موجود تجوز رؤيته إذا وضع الله سبحانه فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : «أرنى أنظر إليك» جهلاً وكفراً . وجاء السمع بوجوبه فى مثل :—

قوله جل ذكره : « وكم أهلكنا قَبْلَهم مِن قَرْنٍ هم أشَدُّ منهم بَطْشًا فَنَقَّبوا فى البلادِ . . هل من محيص ؟ » .

أى اعْتَبِروا بالذين تقدَّموكم ؛ انهمكوا فى ضلالتهم ، وأَصَرُّوا ، ولم يُقْلِعوا . . فأهلكناهم وما أبْقَيْنَا منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى ذلك لَذِكْرَىٰ لِمَن كان له قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد » .

قيل : « لمن كان له قلب » : أى من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على الإحسان مُقْبِل . ويقال : قَلْبٌ غيرُ قُلَّب .

« أو ألقى السمع » : استمع إلى ما ينادى به ظاهرُه من الخَلْق وإلى ما يعود إلى سِرِّه من الحق[1] . ويقال : لمن كان له قلبٌ صاحٍ لم يَسْكر[2] من الغفلة . ويقال : قلبٌ يعد أنفاسَه مع الله . ويقال : قلبٌ حىٌّ بنور الموافقة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار .

ويقال : « القلبُ — كما فى الخبر — بين إصبعين من أصابع الرحمن » : أى بين نعمتين ؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما ينفعه به من النَّعماء ، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ الذميمةَ وأَلْزَمَه النعوتَ الحميدةَ فهو الذى قال فيه: «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » . وفى الخبر: « إن لله أوانىَ ألاَ وهى القلوب ، وأقربها من الله مارقٌ وصفا » شبَّه القلوب بالأوانى ؛ فقلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شىء ، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور ، ما يُلْقَى فيه من أوَّله يخرج من أسفله ، وقلبُ المؤمنِ إناء صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويَبْقَى .

= « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» . « ووجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» .. وقوله «ص» .. إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة» . وأجمعوا على أنه لا يرى فى الدنيا بالأبصار ، ولكن بالقلوب ؛ لأن الدنيا دار فناء ولا يُرَى الباقى فى الدار الفانية .. وهى على العموم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يسكن) وهى خطأ فى النسخ .

ولكنَّ هذه القلوبَ مختلفةٌ ؛ فقلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات ؛ فالشرابُ الذى يُلْقَى فيه يصحبه أثر ، ويتلطخ به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْراً .

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنا السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما فى ستةِ أيامٍ وما مَسَّنا من لُغُوبٍ » .

وأنى يَمَسُّه اللُّغوبُ . وهو صَمَدٌ لا يحدث فى ذاته حادث ؟ !

قوله جل ذكره : « فاصْبِرْ على ما يقولون وسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغروب » .

إنْ تَأَذَّ سَمْعُكَ بما يقولون فىَّ من الأشياء التى يتقدَّس عنها نَعْتى فاصبِرْ على ما يقولون ، واستروِحْ عن ذلك بتسبيحك لنا .

« ومن الليلِ فَسَبِّحْه وأدبارَ السُّجودِ » .

فالليلُ وقتُ الخلوة — والصفاء فى الخلوة أتَمُّ وأصْفَى .

قوله جل ذكره : « واستمِعْ يومَ يُنادِ المناد من مكانٍ قريبٍ * يومَ يَسمعُون الصيحةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخروج » .

النداءُ من الحقِّ — سبحانه — واردٌ عليهم ، كما أنَّ النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداءُ الذى يَرِدُ عليهم يكون بغتةً ولا يكون للعبد فى فِعْلِه اختيارٌ .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحن نُحيى ونُميتُ وإلينا المصير » .

إلينا مَرْجِعُ الكُلِّ ومصيرُهم .

قوله جل ذكره : « يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِراعاً
ذلك حَشْرٌ علينا يسير » .

هذا يسيرٌ علينا : سواء خلقناهم جملةً أو فرادى[1] ؛ قال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنَفْسٍ واحدة »[2] .

قوله جل ذكره : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم
بجبَّارٍ فذَكِّرْ بالقرآنِ مَن يخافُ
وعيدِ » .

ما أنت عليهم بمتسلِّطٍ تُكْرِههم .

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ فى الخائفين ، فأمّا مَنْ لا يخاف فلا ينجحُ فيه التخويفُ — وطيرُ السماء على ألّافها تقعُ .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرداً)
(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

سُورَة الذّارِيَات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها عزَّ لسانُه ، ومَنْ عَرَفَها اهتزَّ بصحبتها جنانه « بسم الله » كلمةٌ للألبابِ غلاَّبةٌ ، كلمة لأرواح المحبِّين سلاَّبةٌ .

قوله جل ذكره : « والذارياتِ ذَرْواً * فالحاملاتِ وِقْراً * فالجاريات يُسْراً * فالمُقَسِّمات أمراً * إنَّما تُوعَدون لصادِقٌ * وإنَّ الدينَ لواقع » .

والذارياتُ : أى الرياح الحاملات « وقراً » أى السحاب « فالجاريات » أى السفن . « المقسمات أمراً » أى للملائكة .. أقسم بربِّ هذه الأشياء و بقدرته عليها . وجواب القسم : « إنما توعدون لصادق .. » والإشارة فى هذه الأشياء أن من جملة الرياح . الرياح الصبيحية[1] تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحات العزَّةِ فيأتى نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِّ أسرارِ أهل المحبة .. فعندئذ يجدون راحةً من غلَبَات اللوعة ، وفى معناه أنشدوا :

وإنى لأستهدى الرياحَ نسيمكم إذا أقبلَتْ من أرضكم بهبوب
وأسألُها حَمْلَ السلام إليكمو فإنْ هى يوماً بَلَّغتْ .. فأجيبى

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة ، ويُؤْذن بهواجم النَّوى والفُرْقة . فإذا عَنَّ لهم من ذلك شىء أبصروا ذلك بنور بصائرهم ، فيأخذون فى الابتهال ، والتضرُّع فى السؤال استعاذةً منها .. كما قالوا :

---

(١) إشارة إلى صيحاتهم عند اشتداد الوجد .

أقول — وقد رأيتُ لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا

وقد سحَّت عزاليها[1] بِبَيْنٍ حوالينا الصدودُ ولا علينا

وكما قد يَحْملُ الملاَّحُ بعضَ الفقراء بلا أجرة طمعاً فى سلامة السفينة — فهؤلاء[2] يرْجُون أن يُحمَلوُا فى فُلْكِ العناية[3] فى بحار[4] القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .

ومِنَ الملائكةِ مَنْ يتنزَّلُ لتفقد أهل الوصلة ، أو لتعزية أهل المصيبة ، أو لأنواعٍ من الأمور تتصل بأهل هذه القصة ، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خبرٌ عن فراقهم ووصالهم — كما قالوا :

بربِّكما يا صاحبيَّ قِفَا بيا أسائلكم عن حالهم وآسْألانيا

« إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » : الحقُّ — سبحانه — وَعَدَ المطيعين بالجنة ، والتائبين بالرحمة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله : « أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة[5] » وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد — واللهُ رءوفٌ بالعباد .

قوله جل ذكره : « والسماء ذاتِ الحبُك * إنَّكم لفى قولٍ مُختلفٍ * يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ »

« ذات الحبك) أى ذات الطرائق الحسنة — وهذا قَسَمٌ ثانٍ ، وجوابه : « إنكم لفى قول مختلف » يعنى فى أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول : مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . وغير ذلك .

---

(١) الأعزل من السحاب مالا مطر فيه (الوسيط جـ ٢ ص ٦٠٥) .

(٢) يقصد الصوفية .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (الكفاية) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (محال) .

(٥) إشارة إلى الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

« الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » : «أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقمر المحبة ، ونجوم القُرب .. إنكم فى باب هذه الطريقة لفى قولٍ مختلف ؛ فَمِنْ مُنْكِرٍ يجحد الطريقة ، ومِنْ مُعْتَرِضٍ يعترض على أهلها يتوهَّم نقصانهم فى القيام بحق الشريعة[1] ، ومن متعسِّفٍ[2] لايخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقّ أولياءه بالأحوال السنية ، قال قائلهم :

قد سَحبَ الناسُ أذيالَ الظنون بنا ... وفَرَّقَ الناسُ فينا قولهم فِرَقَا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غَيْرتكم ... وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدَقَا

قوله جل ذكره : « يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِك » .

أى يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف ، وذلك أنهم كانوا يصدُّون الناسَ عنه[3] ويقولون: إنه لمجنون .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ الخرّاصُون * الذين هُم فى غَمْرَةٍ ساهُون » .

لُعِنَ الكذّابون الذين هم فى غمرة الضلالة وظلمة الجهالة ساهون لاهون .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلونَ أيَّانَ يومُ الدِّينِ * يومَ هُم على النارِ يُفْتَنُون * ذوقوا فِتْنَتَكم هذا الذى كُنتم به تَسْتَعْجِلون » .

يسألون أيان يومُ القيامة ؟ ؛ يستعجلون بها ، فلأَجْلِ تكذيبهم بها كانت نفوسُهم لاتسكن

---

(١) نلاحظ هنا حرص الإمام القشيرى على أن أرباب الحقيقة لايتنكرون بحال من الأحوال لأى حق من حقوق الشريعة .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (متقشف) التى هى خطأ فى النسخ .

(٣) واضح أن القشيرى يرى الضمير فى (عنه) التى فى الآية عائداً إلى الرسول (ص) . ويعيده بعض المفسرين إلى القرآن أو إلى الدين أو إلى (ما توعدون) . ومعنى عبارة القشيرى أنه يصرف عنه من صرفه فى سابق علمه .

إليها . ويوم هم على النار يُحرَقون ويُعَذَّبون يقال لهم : قاسوا عقوبتكم ، هذا الذى كنتم به تَستَعجِلون .

والإشارة فيه إلى الذين يَكذِبون فى أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء ، ويكذبون فى أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعونه من الأحوال . . قُتِلُوا ولُعِنوا . . وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يُحرَمون من اشتمام رائحة الصدق .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين فى جناتٍ وعيون * آخذين ما آتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك مُحْسِنين » .

فى عاجلهم فى جنّاتِ وَصْلِهم ، وفى آجلهم فى جنّاتِ فَضْلِهم ؛ فغداً درجات ونجاة ، واليومَ قُرُبات ومناجاة ، فما هو مؤجَّلٌ حظُّ أنفسِهم ، وما هو معجَّلٌ حقُّ ربِّهم . هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم ؛ يأخذون نصيبهم منه بِيَدِ الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم فى الجنة من فنون العطاء والرِّفد .

ومَنْ كان اليومَ آخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان ، وملاحظة القسمة فى العطاء والحرمان . كان غداً آخذه بلا واسطة فى الجنان عند اللقاء والعيان . « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا[1] ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا . . فهم كما فى الخبر : « أعبد الله كأنك تراه . . . »[2] .

قوله جل ذكره : « كانوا قليلًا من الليلِ ما يَهْجَعون * وبالأسحارِ هُم يستغفرون » .

---

(١) العارف كائن بائن (هذا رأى يحيى بن معاذ : رسالة القشيرى ص ١٥٧) والمعنى أنه وإن بدا بين الناس يشاركهم ويعاشرهم إلا أنه مشتغل عنهم بمعروفه لا يُشغل عنه طرفة عين .

(٢) جاء فى الحلية عن زيد بن أرقم : «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يَراك ، وأحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم » كذلك رواه الطبرانى والبيهقى عن معاذ بلفظ : «أعبد الله ولا تشرك به شيئاً واعمل كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى » .

المعنى إمّا : كانوا قليلًا وكانوا لا ينامون إلا بالليل (كقوله تعالى : « وقليلٌ من عبادى الشكور »[1] أو : كان نومُهم بالليل قليلًا ، أو :)[2] كانوا لا ينامون بالليل قليلًا[3] .

« وبالأسحار هم يستغفرون » : أخبر عنهم أنهم — مع تهجدهم ودُعائهم — يُنْزِلون أنفسَهم فى الأسحار منزلةَ العاصين ، فيستغفرون استصغاراً لِقدْرِهم ، واستحقاراً لِفعْلهم .

والليلُ . . للأحباب فى أُنْس المناجاة ، وللعصاة فى طلب النجاة . والسَّهرُ لهم فى لياليهم دائماً ؛ إمّا لفَرْطِ أسَفٍ أو لِشدَّةِ لَهَفٍ ، وإمّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ — كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لاصباحَ لها ... أفْنَيْتُها قابضاً على كبدى
قد غُصَّت العينُ بالدموعِ وقد ... وَضَعْتُ خدى على بنان يدى

وإمّا لكمال أُنْسٍ وطيب روح — كما قالوا :

سقى اللهُ عيشاً قصيراً مضى ... زمانَ الهوى فى الصبا والمجون
لياليه تحكى انسدادَ لحاظٍ ... لعَيْنِى عند ارتداد الجفون

قوله جل ذكره : « وفى أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم » .

السائلُ هو المُتَكَفِّف ، والمحرومُ هوالمتعفِّف — ويقال هوالذى يحرم نفسه بترك السؤال.. هؤلاء هم الذين يُعْطَوْن بشرط العلم[4] ، فأمّا أصحابُ المروءة : فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق[5] . وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهل الإيثار — فى الوقت — لكلِّ ما يُفْتَحُ عليهم به .

---

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وسقط فى ص .

(٣) يقول النسفى : ولا يجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فلا تقول : زيداً ماضربت (النسفى حـ٤ ص ١٨٤) .

(٤) أى حسب شرائط الشريعة فى الزكاة .

(٥) هكذا فى م وهى مشطوبة بخط فوقها فى ص ... والعبارة قد تبدو غامضة ، وقد يكون مراد القشيرى — إن صحت عنه العبارة هكذا — أن اهل المروءة لايتقيدون فى عطائهم بما تفرضه الشريعة للمستحقين وحسب فإن المستحق يأخذ ما هو حق له ، وإنما يعطون دائماً ويمنحون دائماً بغض النظر عن استحقاق أو عدمه .

قوله جل ذكره : « وفى الأرضِ آياتٌ للموقِنين * وفى أنفُسِكم أفلا تُبْصِرُون * وفى السماء رِزْقُكُم وما توعَدون » .

كما أنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شىء فكذلك العارف يتحمَّل كلَّ أحد .

ومَنْ استثقل أحدًا أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة ، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة — وأهلُ الحقائق لايتصفون بهذه الصفة .

ومن الآيات التى فى الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة — ومع ذلك تُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ .. كذلك العارف يتشرب كلَّما يُسْقَى من الجفاء ، ولايترشح إلاَّ بكل خُلُقٍ عَلِىٍّ وشيمةٍ زكيَّة[1] .

ومن الآيات التى فى الأرضِ (أنَّ ما كان منها سبخًا يُتْرَكُ ولا يُعَمَّر لأنه لايحتمل العمارة — كذلك الذى لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل ، فمقابلته بهذه الصفة)[2] كإلقاء البذر فى الأرض السبخة .

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » : أى وفى أنفسكم أيضًا آيات ، فمنها وقاحتها فى همتها[3] ، ووقاحتها فى صفتها ، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أنَّ ذَرَّةً أو (...)[4] بها أو منها .

« وفى السماء رزقكم وما توعدون » : أى قسمة أرزاقكم فى السماء ، فالملائكة الموَكَّلون بالأرزاق ينزلون من السماء .

ويقال : السماء هاهنا المطر ، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى .

---

(١) يقول الجنيد : « الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح » ، وقال أيضا : « إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر » (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (صمتها) ويبدو أن الهاء اشتبهت على الناسخ .

(٤) مشتبهة فى النسختين .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمِنَها .

ويقال : قوله : « وفى السماء رزقكم » وها هنا وقف ثم تبتدئ : « وما توعدون » .

قوله جل ذكره : « فَوَرَبِّ السماء والأرضِ إنَّهُ لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون » .

أى : إنَّ البعثَ والنشرَ لَحَقٌّ .

ويقال : إنَّ نصرى لمحمدٍ ولدينى ، وللذى أتاكم به من الأحكام — لحقٌّ مثل ما أنَّكم تنطقون .

كما يقال : هذا حقٌّ مثل ما أنك هاهنا .

ويقال : معناه : « أنَّ اللهَ رازقُكم » — هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُم : مَنْ ربُّكم ؟ ومَنْ خالقكم ؟ قلتم : الله . . فكما أنكم تقولون : إن الله خالق — وهذا حقٌّ . . كذلك القولُ بأنَّ اللهَ رازقٌ — هو أيضًا حقٌّ .

ويقال : كما أنَّ نُطْقَكَ لايتكلم به غيرُك فرزقُكَ لايأكله غيرك .

ويقال : الفائدة والإشارة فى هذه الآية أنه حال برزقك على السماء ، ولا سبيلَ لك إلى العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تتعنَّى فى طلب مالا تصل إليه .

ويقال : فى السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُم . . فإنْ أرَدْتَ أنْ ينزلَ عليكَ رزقُكَ فأَصْعِدْ إلى السماء عملَكَ — ولهذا قالوا : الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق ، وقال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقًا »[1] .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيم المُكرَمين » .

---

(١) آية ١٣٢ سورة طه .

قيل فى التفاسير : لم يكن قد أتاه خبرُهم قبل نزول هذه الاية .

وقيل : كان عددُهم اثنى عشر مَلَكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل : كانوا ثلاثة .

وقوله : « المكرمين » قيل لقيامه — عليه السلام — بخدمتهم . وقيل : أكرم الضيفَ بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يتكلَّف إبراهيمُ لهم ، وما اعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّة فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوِّ عند الكرام كريم .

ويقال : ضيفُ الكرام لايكون إلا كريمًا .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جل ذكره : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلامٌ قومٌ مُنكَرُون » .

أى سلَّمنا عليك (سلامًا) فقال إبراهيم : لكم منى (سلامٌ) .

وقولهُم : « سلامًا » أى لك منّا سلام ، لأنَّ السلامَ : الأمانُ .

« قومٌ مُنْكَرون » : أى أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مِثْلَهم فى الأضياف . ويقال : غُرَبَاء .

قوله جل ذكره : « فَرَاغَ إلى أهْلِه فجاء بِعِجْلٍ سمين * فقَرَّبَه إليهم قال ألا تأكلون » .

أى عَدَلَ إليهم من حيث لا يعلمون[1] ، وكذلك يكون الروغان[2] .

---

(١) أى من حيث لا يعلم الأضياف .

(٢) وكذلك يكون روغان الكرام : خِفْيَةً حتى لا يُسبب لأضيافه الحرج .

« فجاء بعجلٍ سمين » فشواه ، وقرّبه منهم وقال : « ألا تأكلون ؟ » وحين امتنعوا عن الأكل :

« فأَوْجَسَ منهم خيفـــةً قالوا :
لا تَخَفْ ، وبَشَّروه بِغُلامٍ عليم » .

تَوَهَّمَ أنهم لصوص فقالوا له : « لا تخف » .

« وبشروه بغلام عليم » : أى بَشَّروه بالوَلد ، وببقاء هذا الوَلَدِ إلى أن يصير عليًا ؛ والعليم مبالغة من العلم ، وإنما يصير عليًا بعد كبره .

« فأقْبَلَتِ امرأتُه فى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وقالت عجوزٌ عقيم » .

« فى صرّة » أى فى صيحة شديدة ، « فصكت وجهها » أى فضربت وجهها بيدها كفعل النساء « وقالت عجوز عقيم » : أى أنا عجوز عقيم . وقيل : إنها يومَها كانت ابنةَ ثمانٍ وتسعين سنة ، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة .

« قالوا كذلك قال رَبُّكِ إنَّه هو
الحكيمُ العليمُ » .

أى قلنا لكِ كما قال ربُّكِ لنا ، وأنْ نُخْبِرَكِ أنَّ اللهَ هو المُحْكِمُ لأفعالِه ، « العليمُ » الذى لا يخفى عليه شىء[1]

« قال فما خَطْبُكُمْ أيها المُرْسَلون ؟ » .

سألهم : ما شأنُكم ؟ وما أمرُكم ؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ ؟

« قالوا إنّا أُرْسِلْنا إلى قومٍ مُجْرِمين *
لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين *

---

(١) روى أن جبريل قال لها حين استبعدت : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة .

مُسَوَّمَةً عند ربِّكَ للمُسْرفين * فأخرجنا
من كان فيها من المؤمنين * فما وَجَدنا
فيها غير بيتٍ من المسلمين » .

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غيرَ لوطٍ ومَنْ آمن به .

قوله جل ذكره : « وتَرَكْنا فيها آيةً للذين يخافون
العذابَ الأليم » .

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون — دون القاسية قلوبهم[1] .

قوله جل ذكره : « وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعونَ
بسلطانٍ مُبينٍ » .

أى بحجة ظاهرة باهرة[2] .

. . . . إلى قوله : « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنَّا لَمُوسِعون » : أى جعلنا بينها وبين الأرض سعة ، « وإنا لقادرون » : على أن نزيد فى تلك[3] السعة .

« والأرضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهدون » .

أى جعلناها مهاداً لكم . ثم أثنى على نَفْسه قائلاً : « فنعم الماهدون » .
دلَّ بهذا كلِّه على كمال قدرته ، وعلى تمام فضله ورحمته .

قوله جل ذكره : « ومن كلِّ شىء خَلَقنا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكم تَذَكَّرون » .

أى صنفين فى الحيوان كالذَّكَرِ والأنثى ، وفى غير الحيوانِ ؛ كالحركة والسكون ، والسواد والبياض ، وأصناف المتضادات .

---

(١) قيل هى ماء أسود منتن .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قاهرة) وكلاهما مقبول فى السياق .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (ملك) والسياق لايقبل هذه .

قوله جل ذكره: « فَفِرُّوا إلى اللهِ إنِّى لكم منه نذيرٌ مبين » .

أى فارجِعوا إلى الله — والإنسان بإحدى حالتين؛ إمَّا حالة رغبةٍ فى شىء، أو حالة رهبةٍ من شىء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جَلْبِ نَفْعٍ أو رفع ضُرٍّ.. وفى الحالتين ينبغى أنْ يكونَ فِرارُه إلى الله؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللهُ.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرارُه إلى اللهِ صَحَّ قَرارُه مع الله.

ويقال: يجب على العبد أنْ يفرَّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التُّقَى، ومن الشَّكِّ إلى اليقين، ومن الشيطانِ إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أنْ يفرَّ من فعله — الذى هو بلاؤه إلى فعله الذى هو كفايته، ومن وصفه الذى هو سخطه إلى وصفه الذى هو رحمته، ومن نفسه — حيث قال: « ويحذركم الله نفسه » إلى نفسه حيث قال: « ففروا إلى الله »[1]:

قوله جل ذكره: « ولا تجعلوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ إنِّى لكم منه نذيرٌ مبين » .

أُخَوِّفُكم أليمَ عقوبته إنْ أشركتُم به — فإنَّه لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به.

ثم بيَّنَ أنه على ذلك جرَت عادتُهم فى تكذيب الرُّسُل، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك.

قوله جل ذكره: « فَتَولَّ عنهم فما أنت بملوم » .

فأَعْرِضْ عنهم فليست تلحقك — بسوء صنيعهم — ملامةٌ[2]

قوله جل ذكره: « وذَكِّرْ فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين».

ذَكِّر العاصين عقوبتى ليرجعوا عن مخالفةِ أمرى، وذَكِّر المطيعين جزيلَ ثوابى ليزدادوا

---

(١) هنا استخدم القشيرى ثقافته الكلامية فيما يتصل بصفات (الفعل) وصفات (الذات) (أنظر تقديمنا لكتاب التحبير فى التذكير).

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (ملايه) وهى خطأ من الناسخ.

طاعةً وعبادةً ، وذَكِّرِ العارفين ما صَرَفْتُ عنهم من بلائى ، وذكِّرِ الأغنياء ما أتَحْتُ[1] لهم من إحسانى وعطائى ، وذَكِّرِ الفقراء ما أوجبْتُ لهم من صَرْفِ الدنيا عنهم وأعْدَدْتُ لهم من لقائى .

قوله جل ذكره : « ومَاخَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبدونِ * ماأريد منهم مِن رِزْقٍ وما أريد أن يُطْعمون * إنَّ اللهَ هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتين » .

الذين اصطفيْتُهم فى آزالى ، وخَصَصْتُهم — اليومَ — بحسْنِ إقبالى ، ووعدْتُهم جزيلَ أفضالى — ما خَلَقْتُهم إلاَّ ليعبدونِ .

والذين سخطت عليهم فى آزالى ، وربطتهم — اليوم — بالخذلان فيما كلَّفتهم من أعمالى، وخَلَقْتُ النارَ لهم — بحُكْمِ إلهيّتى ووجوب حُكْمى فى سلطانى — ما خلقتهم إلا لعذابى وأنكالى ، وما أعْدَدْتُ لهم من سلاسلى وأغلالى .

ما أريد منهم أنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادى فإنَّ الرزّاقَ أنا .

وما أريد أن يطعمونِ فإننى أنا اللهُ « ذو القوةِ » : المتينُ القوىّ .

قوله جل ذكره : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثلَ ذنوبِ أصحابِهم فلا يستعجِلونَ » .

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فلِمَ استعجالُ العذابِ — والعذابُ لن يفوتَهم ؟ .

« فويلٌ للذين كفروا من يومِهم الذى يُوعَدون » .

وهو يوم القيامة .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الحث) وهى غير ملائمة السياق .

سُورَةُ الطُّور

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ ما استولت على قلبِ عارفٍ إلاّ تَيَّمَتْهُ بكشف جلاله ، وما استولت على قلب مُتَأَفِّفٍ إلاّ أكرمته بلطف أفضاله . فهى كلمةٌ قهّارةٌ للقلوب . ولكن لا لكلِّ قلب ، مُذْهِبَةٌ للكروب . ولكن لا لكلِّ كرب .

قوله جل ذكره : « والطور * وكتابٍ مسطورٍ * فى رَقٍّ منشور » .

أقسم الله بهذه الأشياء (التى فى مطلع السورة) ، وجواب القَسَم قوله : « إن عذاب ربك لواقع » . والطورُ هو الجبلُ الذى كُلِّمَ عليه موسى عليه السلام ؛ لأنه مَحَلُّ قَدَمِ الأحبابِ وقتَ سماع الخطاب . ولأنه الموضعُ الذى سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وذِكْرَ أمّته حتى نادانا ونحن فى أصلاب آبائنا فقال : أعطيتكم قبل أن تَسألونى « وكتابٍ مسطور » : مكتوب فى المصاحف ، وفى اللوح المحفوظ .

وقيل : كتاب الملائكة فى السماء يقرءون منه ما كان وما يكون .

ويقال : ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده .

ويقال ما كتب من قوله : سبقت رحمتى غضبى[1] .

ويقال : هو قوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عبادى الصالحون »[2] .

---

(١) فى الحديث أن الله كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : «إن رحمتى سبقت غضبى » .

(٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

ويقال : الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعْطَى لعباده بأيمانهم وشمائلهم يوم القيامة .
« فى رقٍّ منشور »[1] : يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

« والبيتِ المعمور » .

فى السماء الرابعة[2] . ويقال : هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته . ويقال : هى مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكعبة .

« و السقفِ المرفوع »

هى السماء . وقيل سماء هِمَمِهم فى الملكوت .

« و البحرِ المسجور »

البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء : إنَّ عذابَه لواقع . و عذابُه فى الظاهر ما توعَّدَ به عبادَه العاصين ، وفى الباطن الحجابُ بعد الحضور ، و السترُ بعد الكشف ، والردُّ بعد القبول .

« مَا لَهُ مِن دافع »

إذا ردَّ عَبْداً أبرمَ القضاء بردِّه :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكن إليه بوجه آخرَ ـ الدهر ـ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : « يومَ تمورُ السماء مَوْرًا * وتسير الجبالُ سيرًا » .

« تمور » : أى تدور بما فيها ، وتسير الجبالُ عن أماكنها ، فتسير سيرا .

« فويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبين * الذين هم فى خوضٍ يلعبون » .

---

(١) الرق هو الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه ، منشور لا ختم عليه أو لائح .
(٢) يقابل الكعبة معمور بالملائكة .

الويلُ كلمة تقولها العربُ لمن وقع فى الهلاك .

« فى خوضٍ يلعبون » : فى باطل التكذيب يخوضون .

« يومَ يُدَعُّون إلى نارِ جهنم دَعًّا * هذه النار التى كنتم بها تُكذِّبون * أفَسِحْرٌ هذا أمْ أنتم لا تُبْصِرون » .

يومَ يُدْفَعون إلى النارِ دَفْعًا ، ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تُكذِّبون . . ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّىَ على أبصاركم ؟ !

قوله جل ذكره : « اصْلَوْها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنَّما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون »

والصبرُ على الجزاء فى العاقبة لا قيمة له ، لأنَّ عذابَهم عقوبةٌ لهم :

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى جنَّاتٍ ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربُّهم ووقاهم ربُّهم عذابَ الجحيم » .

المتقون فى جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً[1] . « فاكهين » أى مُعْجَبِين بما آتاهم ربهم وما أعطاهم .

ويقال : « فاكهون » : أى ذوو فاكهة : كقولهم رجل تامر أى ذو تمر ، ولابنٌ أى ذو لَبَن .

قوله جل ذكره : « كُلُوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون »

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطَعْمِهِ ولَذَّتِهِ ، وقومٌ يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم

---

(١) يشير القشيرى إلى النعيم العاجل الذى هو الوصلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم فى حياة وسطى فيها قيامة وحشر ونشر وثواب ؛ وعذاب ، بما يشعرون ؛ من هجر ووصل ، وخوف ورجاء ، ونحو ذلك من الأحوال .

عنه — سبحانه — هنيئاً ، وقوم يصير لهم ذلك هنيا ليِّنا وهم بمشهد منه :

فاشرب على وجهها كَفُرَّتِها مُدامةً فى الكئوس كالشَّررِ

« مُتَّكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ
وزَوَّجْنَاهم بحورٍ عين »

يظلّون فى سرور وحبور ، ونصيب من الأنْس موفور .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا واتَّبعَتْهُمْ ذُرِّيَّتهم
بإيمانٍ أَلْحقْنَا بهم ذُرِّيَّتهم »

يُكْملُ عليهم سرورهم بأَنْ يُلْحِق بهم ذُرِّياتِهم ؛ فإنَّ الانفرادَ بالنعمة عَمَّن القلبُ مشتغِلٌ به من الأهل والولد والذرية يوجِب تَنَغص العيش .

وكذلك كلُّ منْ قلبُ الولىِّ يلاحِظه من صديقٍ وقريب ، وولىٍّ وخادم ، قال تعالى فى قصة يوسف : « وأتونى بأهلكم أجمعين »

وفى هذا المعنى قالوا :

إنىِّ على جفواتها — فبربِّها وبكلِّ مُتَّصلٍ بها متوسِّلِ

لأحبها ، وأُحِبُّ منزلَها الذى نزلت به وأحب أهل المنزلِ

« وما ألتناهم من عَمَلهم من شىء
كلُّ آمرىء بما كَسَبَ رهينٌ »

أى ما أنقصنا من أجورهم من شىء بل وفينا ووفَّرنا . وفى الابتداء نحن أَوْلَيْنا وزدنا على ما أعطينا .

« كلُّ امرىء بما كسب رهين » مُطَالَبٌ بعمله ، يوفَّى عليه أجره بلا تأخير ، وإنْ كان ذنباً فالكثيرُ منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جل ذكره : « وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون
* يتنازعون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها
ولا تأثيم »

أى لا يجرى بينهم باطلٌ ولا يؤثمهم كما يجرى بين الشَّربِ[1] فى الدنيا ، ولا يَذْهبُ الشُّرْبُ بعقولهم فيجرى بينهم ما يُخْرِجهم عن حَدِّ الأدبِ والاستقامة .

وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم مَنْ يسقيهم ، وهم يشهد منه وعلى رؤية منه ؟ .

قوله جل ذكره : « ويطوف عليهم غِلمانٌ لهم كأنهم
لؤلؤٌ مكنون » .

والقومُ عن الدارِ وعمَّن فى الدار مُخْتَطَفُون لاستيلاء ما يستغرقهم ؛ فالشرابُ يؤنِسُهم ولكن لا بِمَنْ يجانسهم[2] ؛ وإذا كان — اليومَ — للعبد وهو فى السجن فى طول عمره ساعةٌ[3] امتناع عن سماع خطاب الأغيار ، وشهود واحدٍ من المخلوقين — وإنْ كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شفيقاً — فمِنَ المحال أنْ يُظَنَّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى . . إنْ كان من أهل القبول والجنة ، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبدُ فى الدنيا يقاسى فى غُرْبَته من مُقَاساة اللتيا والتى — فماذا يجب أن يقال إذا

---

(١) الشرب بالفتح القوم يشربون ويجتمعون على الشراب (الوسيط واللسان) .

(٢) هكذا فى م وهى أقرب إلى الصواب مما جاء فى ص (بجالسهم) باللام لأن السياق يتدعم بالأولى ؛ فالأنس الحاصل يومئذ بالحق لا بالخلق .

(٣) هذه محاولة طيبة يقدمها التفسير الإشارى عند بحث قضية التنعم فى الآخرة ونفى الحسيات عن هذا المتنعم ؛ لأنه إذا تصورنا أن العبد فى ساعة الفناء يكون محواً فيما يشهد ، وأن ذلك يحدث فى الدنيا .. فما بالك فى الآخرة وهم ناظرون إلى ربهم ؟ !

رجع إلى منزله ؟ أيبقى على ما كان عليه فى سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يقاسى فى سَفْرته ، ويتجرع غير ما كان يُسْقَى من كاسات كُرْبته ؟ .

قوله جل ذكره : « وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون * قالوا إنّا كُنّا قَبْلُ فى أهلنا مشفقين * فَمَنَّ اللهُ علينا ووقانا عذابَ السَّموم » .

لولا أنهم قالوا : « فَمَنَّ اللهُ علينا » لكانوا قد لاحظوا إشفاقَهم ، ولكن الحقّ ـ سبحانه ـ اختطفهم عن شُهود إشفاقهم ؛ حيث أشهدهم مِنَّتَه عليهم حتى قالوا : « فَمَنَّ الله علينا ، ووقانا عذاب السموم ، إنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ ندعوه إنه هو البرُّ الرحيم » .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ فما أنت بنعمة ربِّكَ بكاهنٍ ولا مجنون » .

أى أنهم يعلمون أنّكَ ليست بك كَهَانةٌ ولا جُنونٌ ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه ؛ فالسَّفيهُ يبسط لسانَه فيمن يَسُبُّه بما يعلم أنه منه برىء .

« أم يقولون شاعِرٌ نتربَّصُ به رَيْبَ المَنُون * قُلْ تَرَبَّصوا فإنى معكم من المُتَرَبِّصين » .

نتربص به حوادث الأيام ؛ فإنّ مِثْلَ هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات مِنْ قبله كُهّانٌ وشعراء .

ويقال : قالوا : إنّ أباه مات شابًا ، ورَجَوْا أنْ يموت كما مات أبوه ، فقال تعالى :

« قل تربصوا ... » فإننا منتظرون ، وجاء فى التفسير أنّ جميعَهم ماتوا . فلا ينبغى لأحدٍ أن يُؤَمِّلَ موتَ أحدٍ . فَقَلَّ مَنْ تكون هذه صنعتُه إلاّ سَبَقَتْه المَنيةُ — دون أنْ يُدْرِكَ ما يتمنّاه مِنْ الأمنيةِ .

قوله جل ذكره : « أم تأمرُهم أحلامُهم بهـذا أم هم قومٌ طاغون » .

أتأمرهم عقولهم[1] بهذا ؟ أم تحملهم مجاوزة الحدّ فى ضلالهم وطغيانهم عَلَى هذا ؟

قوله جل ذكره : « أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديثٍ مِثْله إن كانوا صادقين » .

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول[2] من ذاتِ نَفْسك فليأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين فيما رَمَوْك به !

قوله جل ذكره ، « أم خُلِقـوا من غـير شىء أم هم الخالقون ؟ » .

كلاّ ليس الأمرُ كذلك ، بل اللهُ هو الخالق وهم المخلوقون .

أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضَ ؟ أم عندهم خزائن ربِّك .

— أى خزائن أرزاقه ومقدوراته ؟ أم هم المسيطرون المُتَسَلِّطون عَلَى الناس ؟ .

أم لهم سُلَّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجرى فى السموات ؟ فليأتِ مستمعُهم بسلطانٍ مبين .

ثم إنه سفّهَ أحلامهم فقال :

« أم له البناتُ ولـكم البنون * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مُثْقلون » .

أم تسألهم عَلَى تبليغ الرسالة أجرًا فهم مثقلون من الغُرْم والإلزام فى المال (بحيث يزهدهم ذلك فى اتباعك ؟ .

---

(١) كانت قريش يدعون أهل الأحلام والنُّهى — فإسناد الأحلام إلى الكفار فى الآية مجاز فيه سخرية منهم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يتضح السياق — فالتشيرى كما هو واضح فى آخر السورة لا يعطى سوى كلمات مقتضبة ، وإنما يهتم بالجانب الإشارى — إن وجد .

أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك ؟

أم يريدون كيدا[1] أى أن يمكروا بك مكراً فالذين كفروا هم المكيدون .

أم لهم إلهٌ غير الله يفعل شيئاً مما يفعل الله ؟ تنزيهاً له عن ذلك ! .

قوله جل ذكره : « وَإِن يَرَوْا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مركوم » .

أى إنْ رأَوْا قطعةً من السماء ساقطةً عليهم قالوا : إنه سحابٌ مركوم[2] رُكم بعضه عَلَى بعض والمقصود أنهم مهما رَأَوْا من الآيات لا يُؤمنون . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا : إنما سُكِّرَتْ أبصارنا ، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً .

قوله جل ذكره : « فَذَرْهُم حتى يُلاقوا يَوْمَهم الذى فيه يُصْعقون * يومَ لا يُغْنى عنهم كَيْدُهم شيئاً ولاهم يُنصَرُون » .

أى فأعرضْ عنهم حتى يُلاقوا يومَهم الذى فيه يموتون ، يوم لا يُغْنى عنهم كيدُهم شيئاً ، ولا يُمْنَعون من عذابنا .

قوله جل ذكره : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون » .

دونَ يوم القيامة لهم عذابُ القَتْلِ والسَّبْيِ ، وما نَزَلَ بهم من الهوان والخزى يوم بدر وغيره[3] .

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » : أنَّ اللهَ ناصرٌ لدينه .

قوله جل ذكره : « واصْبِرْ لحُكمِ ربِّكَ فإنك بأَعْيُنِنَا » .

---

(١) يقال هو كيدهم للرسول والمؤمنين بدار الندوة — وقد يقصد به الكفار أجمعين .

(٢) فى ص (مكروم) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) ويقال عذاب القبر لأنه يسبق القيامة .

أنت بمرأى مِنَّا ، وفى نصرةٍ منَّا .

« فإنك بأعيننا »[1] : فى هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسى الصبر .

« وسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ حين تقومُ » .

أى تقوم للصلاةِ المفروضةِ عليك .

« ومن الليلِ فَسَبِّحْهُ وإدْبارَ النجوم »

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفى الآية دليل وإشارة إلى أنه أمَرَه أنْ يَذْكُرَه فى كلِّ وقت ، وألا يخلوَ وقتٌ من ذِكْره .

والصبرُ لحكمِ اللهِ شديدٌ ، ولكن إذا عَرَفَ اطلاعَ الربِّ عليه سَهُلَ عليه ذلك وهان .

---

(١) التعبير بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية فى حق المصطفى صلوات الله عليه ، خصوصاً إذا تذكرنا أنه سبحانه قال فى حق موسى عليه السلام «ولتصنع على عينى» فالتعبير فى هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

سُورَةُ النَّجْم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ حليمٌ رحيمٌ ، يحلم[1] فيما يعلم ، ويستر مايبصر ويغفر[2] ، وعَلَى العقوبة يقْدِرْ ، يَرَى ويُخْفِى ، ويَعْلَم ولا يُبْدِى .

قوله جل ذكره : « والنجم إذا هَوَىٰ * ما ضَلّ صاحبكم وما غَوَىٰ »

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال : هو جِنْسُ النجوم أقسم بها .

(ويقال : هى الكواكب)[3] . ويقال : أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبى صلى الله عليه وسلم ويقال هى الكواكب التى تُرْمَى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبى صلى الله عليه وسلم عند مُنْصَرَفِهِ من المعراج .

ويقال : أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقولِ الطالبين .

وجوابُ القسَم قوله : « ما ضل صاحبكم وما غوى » : أى ما ضَلَّ عن التوحيد قط ، « وما غوى » : النَّىُّ : نقيضُ الرُّشد . . وفى هذا تخصيصٌ للنبى صلى الله عليه وسلم حيث تولّى — سبحانه — الذّبّ عنه فيما رُمِىَ به ، بخلاف ماقال لنوح عليه السلام وأذِنَ له حتى قال : « ليس بى ضلالة[4] » ، وهود قال : « ليس بى سفاهة[5] » . . وغير ذلك ، وموسى

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (يكلم) وواضح أنها خطأ من الناسخ .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يضير) وهى خطأ من الناسخ .
(٣) موجود فى م وساقط فى ص .
(٤) آية ٦١ سورة الأعراف .
(٥) آية ٦٧ سورة الأعراف .

قال لفرعون : « وإنى لأظنُّكَ يا فرعونُ مثبوراً »[1] . وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم : « ما ضلَّ صاحبكم وماغوى » : معناه ماضلَّ صاحبُكم ، ولا غَفَلَ عن الشهود طَرْفَةَ عينٍ .

قوله جل ذكره : « وما ينطقُ عن الهوىٰ * إنْ هو إلا وَحْيٌ يُوحَىٰ » .

أى ما ينطق بالهوى ، وما هـذا القرآنُ إلا وحىٌ يُوحَى . وفى هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة ؛ إذ قال لداود : « فاحْكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى »[2] .

وقال فى صفة نبيِّنا صلى الله علية وسلم : « وما ينطق عن الهوى » .

(ومتى ينطق عن الهوى وهو فى محل النجوى ؟ فى الظاهر مزمومٌ بِزِمام التقوى ، وفى السرائر فى إيواء المولى ، مُصَفًّى عن كدورات البشرية ، مُرَقًّى إلى شهود الأَحَدِية ، مُكاشَفٌ بجلالِ الصمدية ، مُخْتَطفٌ عنه بالكُلِّيَّة ، لم تبقَ منه إلا لاحقٌ بالحقِّ بقية . . ومَنْ كان بهذا النعت . . متى ينطق عن الهوى ؟)[3].

قوله جل ذكره : « عَلَّمَهُ شـديدُ القُوَىٰ * ذو مِرَّةٍ فاستوىٰ * وهو بالأُفُقِ الأعلَىٰ » .

أى جبريل عليه السلام . و « ذو مِرَّة » : أى ذو قوة وهو جبريل . « وهو بالأفق الأعلى » أى جبريل .

« ثم دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فـكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنىٰ » .

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام ، فتدلَّى جبريلُ : أى نَزَلَ من العُلُوِّ إلى محمد .

وقيل : « تدلَّى » تفيد الزيادةَ فى القُرْب ، وأنَّ محمداً عليه السلام هو الذى دنا من ربِّه دُنُوَّ كرامة ، وأنَّ التدلِّى هنا معناها السجود .

---

(١) آية ١٠٢ سورة الإسراء .

(٢) آية ٢٦ سورة ص .

(٣) كل ما بين القوسين موجود فى مكان آخر ، وضمناه فى مكانه الصحيح حتى يستقيم السياق .

ويقال : دنا محمدٌ من ربِّه بما أودِعَ من لطائفِ المعرفة وزوائدِها ، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه .

« فكان قاب قوسين أو أدنى » : فكان جبريل — وهو فى صورته التى هو عليها — من محمد صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه — صلى الله عليه وسلم — وبين الله قَدْر قوسين : أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة .

ويقال : كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيقَ الأُلفَةِ بينهم إلصاقُ أحدِهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن[1] عقد الموالاة بينهما ، وأنزل اللهُ — سبحانه — هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم . ثم رفع اللهُ هذا فقال : « أو أدنى » أى بل أدنى .

قوله جل ذكره : « فأوحَىٰ إلى عَبدِه ما أوحَىٰ »

أى أوحى اللهُ إلى محمدٍ ما أوحى . ويقال : أَحمَلَه أحمَالاً[2] لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ .

ويقال : قال له : ألم أجدك يتيماً فآويتُك؟ ألم أجدك ضالًّا فهديتُك ؟

ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟

ويقال : بَشَّرَه بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أنَّ الجنةَ مُحَرَّمةٌ عَلَى الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمَّتك . والأَوْلَى أن يقال: هذا الذى قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم يَطَّلِعْ أحدٌ .. كله أيضاً كان له فى تلك الليلة وحدَه ؛ إذ رقَّاه إلى مارقَّاه ، ولقَّاه بما لقَّاه ، وأدناه حيث لا دنوَّ قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غيرٌ ، وأصحاه له فى عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال .. دون أن يَطَّلِعَ أحدٌ على ما كان بينهما من السِّرِّ[3] .

---

(١) كما نقول فى أسلوبنا الآن (تعبيراً عن ..)

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (أجمله إجمالاً) بالجيم فالسياق يرفضهما .

(٣) هذه الفقرة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب فى قصة الإسراء والمعراج . ومضمون كلام القشيرى أننا لو كنا نستسيغ حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التى تتاح للأولياء العارفين .. فكيف لا نتقبلها بالنسبة للمصطفى عليه صلوات الله وسلامه ؟ وبمعنى آخر : نجد التفسير الصوفى يبرز نفسه فى قوة وبصاعة لتوضيح قضية من قضايا التدين ، كانت موضع جدل فى زمانها وبعد زمانها .

قوله جل ذكره : « ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأىٰ » .

ما كذَّبَ فؤادُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم مارآه ببصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربَّه تلك الليلة على الوصف الذى عَلِمَهُ قبل أن يراه[1] .

قوله جل ذكره : « أفتُمارونه على ما يرَىٰ » .

أفتجادلونه على ما يرى ؟

قوله جل ذكره : « ولقد رآه نَزْلَةً أُخرىٰ * عند سِدْرَةِ المنتهىٰ * عندها جنةُ المأوىٰ » .

أى جبريلُ رأى اللهَ مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى ؛ وهى شجرة فى الجنة ، وهى منتهى الملائكة ،وقيل : تنتهى إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهى إليها أرواحُ الخَلْقِ ، ولا يَعْلم ما وراءها إلا الله تعالى — وعندها « جنة المأوى » وهى جنة من الجِنان .

قوله جل ذكره : « إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يغشىٰ » .

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفى خبر : يغشاها رفرف طير خُضْرٍ .

ويقال : يغشاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ .

---

(١) يقول القشيرى فى كتابه المعراج ص ٩٤ : « واختلفوا فى رؤية الله سبحانه ليلة المعراج ؛ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن النبى (ص) لم يَرَ ربَّه ليلة المعراج ، ومَنْ زعم أن محمداً رأى ربَّه ليلة المعراج فقد أعظم على الله الفرية . وقال ابن عباس : إن نبينا (ص) رأى ربَّه ليلة المعراج .

ثم اختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ ففى رواية أنه رآه بعين رأسه ، وفى رواية أنه رآه بقلبه . وقال اهل التحقيق من أهل السُّنَّة : اختلافهم فى هذه المسألة دليل على إجماعهم أن الحق سبحانه يجوز أن يُرى ؛ لأنه لولا أنَّهم كانوا متفقين على جواز الرؤية لم يكن لاختلافهم فى الرؤية فى تلك الليلة معنى .

وقد رويت فى هذا الباب أخبار ، والله أعلم بصحتها ، فإن صحَّ ذلك فلها وجوه من التأويل ، من ذلك ماروى أنه قال : « رأيت ربى فى أحسن صورة» — فهذا الخبر يحتمل وجوهاً منها : رأيتُ ربى وأنا فى أحسن صورة يعنى فى أكمل رتبة وأتم فضيلة ، وأقوى ماكنت ؛ لم يصحبنى دهش ، ولا رهقنى حيرة .

ويمكن أن تكون الرؤية بمعنى العلم ، أى رأيت من قدرة الله تعالى ودلائل حكمته ، ولم يشغلنى شهود الصور عن ذكر المصور ، بل رأيت الفاعل فى الفعل .

وقيل : الصورة بمعنى الصفة ، يقال : أرنى صورة هذا الامر أى : صفته . و« فى » على معنى « على » أى رأيت ربى على أحسن صفة من جلالة وصفه وإفضاله معى

ويقال : أُعْطِيَ رسول الله (ص) عندها خواتيم البقرة ، وغُفِرَ لمن مات من أُمَّتِه لا يشرك بالله شيئاً .

قوله جل ذكره : « ما زاغ البصرُ وما طَغَىٰ »

ما مَالَ — صلوات الله عليه وسلامه — ببصره عمَّا أُبيح له من النظر إلى الآيات ، والاعتبارِ بدلائلها .

فما جَاوَزَ حَدَّه ، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ فى الحَضْرة[1] .

قوله جل ذكره : « لقد رأىٰ من آياتِ ربِّهِ الكُبْرىٰ » .

أى « الآية » الكبرى ، وحَذَفَ الآية . . وهى تلك التى رآها فى هذه الليلة . ويقال : هى بقاؤه فى حال لقائهِ ربَّهُ بوصفِ الصَّحْوِ ، وحفَظَهُ حتى رآه[2] .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم اللَّاتَ والعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثالثةَ الأخرى * ألَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنثى ؟ * تلك إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ » .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها ؛ فاللات صنمٌ لثقيف ، والعُزَّى شجرةٌ لغطفان ، ومناة صخرة لهذيل وخزاعة[3] .

ومعنى الآية : أَخْبِرونا ... هل لهذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فَعَلْنا نحن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم من الرُّتب والتخصيص ؟ .

---

(١) قال أبو يزيد البسطامى : حفظ النبى (ص) طرفه فى المسرى ، فما زاغ البصر وما طغى ، لعلمه بما يؤهل له من المشاهدة ، فلم يشاهد فى ذلك شيئاً ، ولم يُسِر طرفه أحداً ، ثم لما رُدَّ إلى محل التأديب نظر إلى الجنة والنار ، والأنبياء والملائكة للإخبار عنها ، وتأديب الخَلْق بها ؛ فالمقام الأول مقام خصوص والمقام الثانى مقام عموم .

وقال رويم : لما أُكرِمَ عليه الصلاة والسلام بأعظم الشرف فى المسرى عَلَتْ هِمَّتُهُ عن الالتفات إلى الآيات والكرامات والجنة والنار فما زاغ البصر وما طغى ؛ أى ما أعار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقلَّ الأنهار والأودية .

(٢) سئل الشبلى : «كيف ثبت النبى (ص) فى المعراج للقاء والمخاطبة ؟ فقال : إنه عُيِّىء لأمرٍ فمُكِّن فيه» ويقارن القشيرى فى موضع آخر بين موسى عليه السلام إذ خرَّ صعقا بمجرد سماع النداء وبين نبينا عليه الصلاة والسلام إذ ثبت فى محل المشاهدة ، ويضيف : إن موسى فى حال التلوين ، ومحمد فى حال التمكين .

(٣) هذه الأصنام كلها مؤنثات .. وكانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله !

ثم وبّخهم فقال : أرأيتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله ؟ تلك إذاً قسمةٌ ناقصةٌ !

قوله جل ذكره : « إنْ هى إلّا أسماء سَمَّيْتُموها أنتم وآباؤُكم ما أنزل اللهُ بها من سُلْطان إن يتّبعونَ إلّا الظّنَّ وما تَهْوَى الأنفُسُ ولقد جاءهم من ربِّهمُ الهُدَى » .

أنتم ابتدعتُم هذه الأسماء من غير أنْ يكونَ اللهُ أمَركم بهذا ، أو أذِن لكم به .

فأنتم تتبعون الظنَّ ، « وإن الظنَّ لا يغنى من الحقِّ شيئاً »(١)

« ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى » : فأعرضوا عنه ، وكما أنَّ ظنَّ الكفار أوْجَبَ لهم الجهلَ والحَيْرةَ والحُكْمَ بالخطأ — فكذلك فى هذه الطريقة(٢) : مَنْ عَرَّجَ على أوصاف الظنِّ لا يَحْظَى(٣) بشىء من الحقيقة ؛ فليس فى هذا الحديث إلا القطعُ والتحقُّق ، فنهارُهم قد مَتَعَ(٤) ، وشمسُهم قد طلعت ، وعلومُهم أكثرها صارت ضرورية .

أمّا الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب ، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس(٥) أيضاً من هذه الجملة ذات الظن المعلول فى الله ، وفى صفاته وأحكامه .

قوله جل ذكره : « أم للإنسانِ ما تَمَنَّى » .

أى ليس(٦) للإنسان ما يتمنّاه ؛ فإنّه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العَيْشِ .. ومالا نهاية له ، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه .

---

(١) آية ٢٨ فى السورة نفسها .

(٢) يقصد طريقة الصوفية .

(٣) فى م (يخطىء) وهى خطأ فى النسخ

(٤) فى ص (منع) بالنون وهى خطأ ، فمتوع النهار من المصطلحات الصوفية التى زادها القشيرى على (اللوائح والطوالع واللوامع) كما نوهنا من قبل .

(٥) هكذا فى م وهى فى ص (ليبين) وهى خطأ من الناسخ .

(٦) هى (أم) المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها للإنكار ، أى للإنسان — يعنى الكافر — ما تمنى من شفاعة الأصنام ، وغير ذلك من التمنى .

ويقال : ما يتمنّاه الإنسانُ أنْ يرتفعَ مرادُه واجباً فى كل شىء — وأن يَرْتفعَ مرادُ عَبْدٍ واجباً فى كل شىء ليس من صفات الخَلْقِ بل هو لله ، الذى له ما يشاء :

« فللهِ الآخرةُ والأُولىٰ » .

له الآخرةُ والأُولى خَلْقاً ومِلْكاً ، فهو المَلِكُ المالك صاحبُ المُلْكِ التام . فأمّا المخلوقُ فالنقصُ لازِمٌ للكُلِّ .

قوله جل ذكره : « وكم مِّن مَلَكٍ فى السمٰواتِ لا تُغْنِي شفاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأْذَنَ اللهُ لِمَن يشاء ويرضَىٰ ».

وهذا ردٌّ عليهم حيث قالوا : إنَّ الملائكةَ شفعاؤنا عندالله(١) .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين لا يؤمِنون بالآخرة لَيُسمُّونَ الملائكةَ تسميةَ الأنثى * وما لَهم به مِنْ عِلْم إن يتَّبعون إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يُغنى من الحق شيئاً » .

هذه التَّسْمِيةُ من عندهم ، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً . . بل ظَنّاً — والظنُّ لا يفيد شيئاً .

قوله جل ذكره : « فأَعْرِضْ عَمَّن تَولَّىٰ عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا * ذلك مبلَغُهُم من العِلْم إنَّ ربَّك هو أَعْلَمُ بِمَن ضلَّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بمن اهتدى » .

أى أَعْرِض عمَّن أعرض عن القرآنِ والإيمان به وتدَبُّرِ معانيه ، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا .

---

(١) لا تنفع شفاعةُ أحدٍ إلا إذا أذن الله .. فإذا كانت الملائكة مع كثرتها وقربها من الله لا تصلح للشفاعة إلا بإذن من الله – فكيف تصلح هذه الأصنام للشفاعة ؟ !

ذلك مبلغهم من العلم ؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة ، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالِّ ، عليمٌ بالمهتدِى .. وهو يجازى كلًّا بما يستحق .

قوله جل ذكره : « ولله ما فى السموٰاتِ وما فى الأرضِ
ليَجزِىَ الذين أساءوا بما عَمِلوا ويجزِىَ
الذين أحسنوا بالحسنى » .

يجزى الذين أساءوا بالعقوبات ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

قوله جل ذكره : « الذين يَجْتَنِبُون كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ
إلَّا اللَّمَمَ » .

الذنوبُ كلُّها كبائر لأنها مخالِفةٌ لأمر الله ، ولكنَّ بعضَها أكبرُ من بعضٍ . ولا شىء أعظمُ من الشِّرك . « والفواحش » المعاصى .

« إلا اللمم » : تكلموا فيه ، وقالوا : إنه استثناء منقطع ، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش .

ويقال : اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهًا — فأخبر أنه يغفرها .

ويقال : اللمم هو أن يأتىَ المرء ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة .

وقال بعضُ السَّلَفِ : هو الوقعة من الزِّنا تحصل مرةً ثم لا يعود إليها ، وكذلك شرب الخمر ، والسرقة . . وغير ذلك ، ثم لا يعود إليها .

ويقال : هو أن يهم بالزَّلَّة ثم لا يفعلها .

ويقال : هو النَّظَر . ويقال : ما لاحدَّ عليه من المعاصى ، وتُكَفِّر عنه الصلوات . (والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصى)[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ ربَّكَ واسِعُ المغفرةِ هو أعلمُ
بكم إذ أنشأكم من الأرضِ وإذ أنتم

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

أجِنَّةٌ فى بطونِ أمهاتِكم فلا تُزَكُّوا أنفُسَكم هو أعلمُ بِمَنِ اتَّقَى » .

« إذ أنشأكم من الأرض » : يعنى خَلْقَ آدم .

ويقال : تزكيةُ النَّفْسِ من علامات كَوْنِ المرء محجوباً عن الله ؛ لأنَّ المجذوب إلى الغاية والمستغرق فى شهود ربِّه لا يُزكِّى نفسه[1] .

« هو أعلم بمن اتقى » : لأنه أعلمُ بكم منكم .

ويقال : مَن اعتقد أنَّ على البسيطة أحداً شرٌّ منه فهو مُتَكبِّرٌ .

ويقال : المسلمُ يجب أنْ يكونَ بحيث يرى كلَّ مسلمٍ خيراً منه ؛ فإن رأى شيخاً ، قال : هو أكثرُ منِّى طاعةً وهو أفضلُ منِّى ، وإنْ رأى شاباً قال : هو أفضلُ منى لأنه أقلُّ منِّى ذَنْباً .

قوله جل ذكره : « أفرأيتَ الذى تَوَلَّى * وأعطى قليلاً وأكْدَى » .

أعرض عن الحقِّ ، وتصدَّق بالقليل . « وأكدى » أى قطع عطاءه .

« أعنده عِلْمُ الغيبِ فهو يَرَىٰ »

« فهو يرى » : فهو يعلم صِحَّةَ ذلك . يقال : هو المنافق الذى يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك :

« أعنده علم الغيب » : فهو يرى حاله فى الآخرة ؟

« أمْ لم يُنَبَّأْ بما فى صُحُفِ موسى * وإبراهيمَ الذى وَفَّىٰ » .

---

(١) قارن ذلك بقول النسفى فى ذكر المرء لطاعته : « . . وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر » النسفى جـ ٤ ص ١٩٨ . ونظن أن فى عبارة النسفى شيئاً يستحق التصويب : فالأولى أن يقال : وهذا إذا كان على سبيل الاعتراف بالنعمة — لا على سبيل الإعجاب أو الرياء — فإنه جائز . .

أم لم يُنبَّأْ هذا الكافرُ بما فى صحف موسى ، وصحف إبراهيم الذى وفّى ؛ أى أتمّ ما طُولِبَ به فى نفسِه ومالِه ووَلَدِه .

قوله جل ذكره : « ألّا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى * وأن ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى * وأنَّ سَعْيَهُ سوف يُرَى * ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأَوْفَى » .

الناسُ فى سَعْيِهم مختلِفون ؛ فَمَنْ كان سعيُهُ فى طلب الدنيا خَسِرت صفقتُهُ ، ومن كان سعيُهُ فى طَلَبِ الجنة ربحت صفقته ، ومن كان سعيُهُ فى رياضة نَفْسِه وصل إلى رضوان الله ، ومَنْ كان سعيه فى الإرادة شَكَرَ اللهُ سَعْيَهُ ثم هداه إلى نَفْسِه .

وأمَّا المُذْنِبُ — فإذا كان سعيُهُ فى طلب غفرانه ، ونَدَمِ القلبِ على ما اسودَّ من ديوانه ، فسوف يجد من الله الثوابَ والقربة والكرامة والزلفة .

ومَنْ كان سَعْيُه فى عَدِّ أنفاسِه مع الله ؛ لا يُعرِّج على تقصير ، ولا يُفَرِّط فى مأمور فسيرى جزاءَ سَعْيِه مشكوراً فى الدنيا والآخرة ، ثم يشكره بأَنْ يُخاطِبَه فى ذلك المعنى بإسماعِه كلامَه من غير واسطة : عبدى ، سَعْيُك مشكور ، عبدى ، ذَنْبُكَ مغفور .

« ثم يجزاه الجزاء الأوْفى » : هو الجزاء الأكبرُ والأَجَلُّ ، جزاء غير مقطوعٍ ولا ممنوعٍ .

قوله جل ذكره : « وأنَّ إلى ربِّكَ المُنْتَهَى » .

إليه المرجعُ والمصيرُ ، فابتداءُ الأشياء من الله خَلْقاً ، وانتهاءُ الأشياء إلى الله مصيراً .

ويقال : إذا انتهى الكلامُ إلى اللهِ تعالى فاسْكُتُوا .

ويقال : إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفةِ الله فليس بعدَه شىء إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ . . يُجْرِيها على مرادِه — وهى حظوظٌ للعباد .

قوله جل ذكره : « وأنَّه هو أَضْحَكَ وأبْكَى » .

أراد به الضحك والبكاء المتعارَف عليهما بين الناس ؛ فهو الذى يُجْرِيه ويَخْلُقُه .

ويقال : أضحك الأرضَ بالنباتِ ، وأبكى السماء بالمطرِ .

ويقال : أضحك أهلَ الجنة بالجنة ، وأبكى أهل النار بالنار .

ويقال: أضحك المؤمنَ فى الآخرة وأبكاه فى الدنيا ، وأضحك الكافرَ فى الدنيا وأبكاه فى الآخرة.

ويقال : أضحكهم فى الظاهر ، وأبكاهم بقلوبهم .

ويقال : أضحك المؤمنَ فى الآخرة بغفرانه ، وأبكى الكافرَ بهوانه .

ويقال : أضحك قلوبَ العارِفين بالرضا ، وأبكى عيونهم بخوف الفراق .

ويقال : أضحكهم برحمته ، وأبكى الأعداءَ بسخطه .

قوله جل ذكره : « وأنه هُوَ أمات وأحيا » .

أماته فى الدنيا ، وأحياه فى القبر ؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة .

ويقال : أماته فى الدنيا ، وأحياه فى الحشر .

ويقال : أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة ، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة .

ويقال : أمات نفوسَهم بالمعاملات ، وأحيا قلوبهم بالمواصلات .

ويقال : أماتها بالهيبة ، وأحياها بالأُنْس .

ويقال : بالاستتار ، والتجلِّى .

ويقال : بالإعراض عنه ، والإقبال عليه .

ويقال : بالطاعة ، والمعصية .

قوله جل ذكره : « وأنَّه خَلَقَ الزوجينِ الذَّكَرَ والأُنثى » .

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلْقهما من النُّطْفة .

قوله جل ذكره : « وأنه هُو أغنىٰ وأقنىٰ » .

« أغنى » : أعطى الغِنَى ، « أقنى » : أكثر القنية أى المال . وقيل « أقنى » : أى أحوجه إلى المال — فعلى هذا يكون المعنى : أنه خَلَقَ الغِنَى والفقر .

ويقال : « أقنى » أى أرضاه بما أعطاه[1].

ويقال : « أغنى » أى أقنع ، « وأقنى » : أى أرضى .

« وأنَّه هو ربُّ الشِّعْرَىٰ »

(الشِّعرى : كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خزاعة تعبدها فأَعْلَمَ اللهُ أنه ربُّ معبودهم هذا)[2] .

« وأنه أَهْلَكَ عاداً الأولىٰ * وثمودَا
فما أبقىٰ * وقومَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنهم
كانوا هم أظلمَ وأطغىٰ » .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هى إرَم ذات العماد ، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً . وأَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم ، وقوة أجسادهم .

« والمؤْتفِكةَ أهوى * فغَشَّاها ما غَشَّىٰ »

أى المخسوف بها ، وهى قرى قوم لوط ، قَلَبَها جبريل عليهم ، فهى مقلوبة معكوسة .

وقوله : « أهوى » أى : أسقطها اللهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها ، ثم عَكَسَها وألقاها فى الأرض ، فغشاها ما غشاها من العذاب .

قوله جل ذكره : « فبأيِّ آلاءِ ربِّك تتمارَىٰ ؟ »

فبأى آلاء ربك — أيها الإنسان — تتشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم .

قوله جل ذكره : « هذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى » .

---

(١) أقنى : من معانيها أرضى — كما ورد فى أكثر المعاجم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا اعتماداً على كتب التفاسير ، وهى غير موجودة فى نص القشيرى ؛ ولكننا أردنا إضافتها لنلفت النظر إلى خاطرة تراودنا .. أليس هناك ارتباط بين افتتاحية السورة « والنجم إذا هوى » وبين هذه النهاية ؟ . عابدون ومعبودون يهوون ويتساقطون ويهلكون .. أبعد هذا أيها الإنسان تتشكك فى أن هذا النذير صلوات الله عليه لم يأتِ بدعاً ؟ !

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .

« أزِفَتِ الآزِفَةُ * ليس لها من دون اللهِ كاشِفَةٌ » .

أى قَرُبَت القيامة . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردِّها وكَشْفِها إلا الله .

ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة — اليومَ — فليس لها كاشفٌ غيره . وقيامتُهم تقوم فى اليوم غيرَ مَرَّةٍ . تقوم بالهَجْرِ والنَّوى والفراق .

قوله جل ذكره : « أفَمِنْ هذا الحديثِ تَعْجَبونَ .... » .

أفمن هذا القرآن تعجبون ، وتكونون فى شكٍّ ، وتستهزئون ؟

« وأنتم سامِدونَ » : أى لاهون ..

« فاسجدوا لله واعبدوا » : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه[1] .

---

(١) عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : « ... فسجد رسول الله (ص) وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف» (البخارى ج ٣ ص ١٣٠) .

سُورَةُ القَمَر [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله »: كلمة بها نور القلوب والأبصار ، وبعرفانها يحصل سرورُ الأرواح والأسرار . كلمة تدلُّ على جلاله — الذى هو استحقاقه لأوصافه . كلمة تدل على نعته الذى هو غاية أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : « اقتربَتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ » .

أجمع أهلُ التفسير على أنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال ابن مسعود[2]: « رأيت حراء بين فلقتى القمر» ولم يوجد لابن مسعود مخالف فى ذلك ؛ فقد روى أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم .. كلهم رووا هذا الخبر .

وفيه إعجازٌ من وجهين : أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك ، والثانى خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَه ؛ لأنه لا ينكتم مثله فى العادة فإذا خفى كان نقض العادة .

وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى « اقتربت الساعة » : أى ما بقى من الزمانِ إلى القيامةِ إلاقليلٌ بالإضافةِ إلى مامضى.

قوله جل ذكره : « وإن يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا

---

(١) يسميها البخارى : سورة «اقتربت الساعة» .

(٢) عن يحيى بن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله (ص) فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله (ص) : اشهدوا .

وعن قتادة عن أنس قال : انشق القمر فرقتين .

وعن مجاهد عن أبى معمر عن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع النبى (ص)فصار فرقتين . فقال لنا : اشهدوا اشهدوا . (البخارى حـ٣ ص ١٣٠) .

وقد جاء فى النسفى : قال ابن مسعود رضى الله عنه « رأيت حراء بين فلقتى القمر» (النسفى ص ٢٠١) .

سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبوا واتَّبَعُوا
أهواءهم وكُلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٌّ » .

يعنى أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلمُ واجباً .

« سحر مستمر » : أى دائمٌ قويٌّ شديد .. (ويقال إنهم قالوا : هذا ذاهب لا تبقى مدته)[1] فاستمر : أى ذهب .

« وكذّبوا واتبعوا أهواءهم » : التكذيب واتباع الهوى قريبان ؛ فإذا حَصَلَ اتباعُ الهوى فمِنْ شُؤْمِه يحصل التكذيب ؛ لأنَّ اللهَ يُلَبِّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر[2] الرشد .

أما اتباع الرضا فمقرونٌ بالتصديق ؛ لأنَّ اللهَ ببركاتِ اتباع الحقِّ يفتح عينَ البصيرة فيحصل التصديق .

وكلُّ امرئٍ جَرَتْ له القِسْمةُ والتقدير فلا محالةَ يستقر له حصولُ ما قُسِمَ وقدِّر له .

« وكل أمر مستقر » : يستقر عملُ المؤمنِ فتُوجَبُ له الجنة ، ويستقر عملُ الكافرِ فيُجَازَى .

قوله جل ذكره : «ولقد جاءهم مِّن الأنباء ما فيه مُزْدَجَرٌ *
حِكْمةٌ بالغةٌ فما تُغْنِ النُّذُرُ » .

جاءهم من أخبارِ الأنبياء والأممِ الذين مِنْ قَبْلِهم والأزمنةِ الماضية ما يجب أنْ يحصلَ به الارتداعُ ، ولكنَّ الحقَّ — سبحانه — أَسْبَلَ على بصائرهم سُجُوفَ الجهلِ فعَمُوا عن مواضع الرشد .

« حكمة بالغة .. » : بدل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مزدجر) .

والحكمة البالغة هى الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكّر فيها .

« فما تغنِ النذر » : وأى شىء يغنى إنذارُ النذيرِ وقد سَبَقَ التقديرُ لهم بالشقاء ؟

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .
(٢) هكذا فى ص . وهى فى م (لا يستبشر) ، والأصوب ما أثبتنا .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عنهم يومَ يَدْعُ الداع إلى شيء نُكُر * خُشَّعاً أبصارُهم » .

« فتولَّ عنهم » : هاهنا تمام الكلام — أى فأعرِضْ عنهم . وهذا قبل الأمر بالقتال . ثم استأنف الكلامَ : « يوم يدعُ الداعِ .. » والجواب : « يخرجون من الأجداث » — أراد به يوم القيامة .

ومعنى « نُكُر » : أى شيء ينكرونه (بِهَوْله وفظاعته)[1] وهو يوم البعث والحشر .

وقوله : « خشعاً » منصوب على الحال، أى يخرجون من الأجداث — وهى القبور — خاشعى الأبصار .

« ... كأنهم جرادٌ مُنتَشِرٌ *
مُهْطِعين إلى الداعِ يقول الكافرون
هذا يومٌ عَسِرٌ » .

كأنهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، « مهطعين » : أى مُديمى النظر إلى الداعى — وهو إسْرافيل .

« يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » : لتوالى الشدائد التى فيه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ فكَذَّبوا
عَبْدَنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ *
فَدَعا ربَّهُ أنِّى مغلوبٌ فانتصِر *
ففتحنا أبوابَ السماء بماء مُنْهَمِرٍ »

كذب قوم نوح نبيَّهم ، وقالوا : إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .

وقيل : « ازدُجِر » : أى استطار عَقْلُهُ ، أى قومُ نوحٍ قالوا له ذلك .

فدعا ربَّه فقال : إنى مغلوب ؛ أى بتسلُّطِ قومى علىَّ ؛ فلم يكن مغلوباً بالحُجَّة لأنَّ الحُجَّةَ كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهمَّ فانتَصِرْ منهم أى انْتَقِمْ .

---

(١) ما بين القوسين توضيح من جانبنا غير موجود فى النص .

ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْصَبٍّ ، وشَقَقْنَا عيوناً بالماء ، فالتقى ماء السماء وماء الأرضِ على أمرٍ قد قُدِّرَ فى اللوح المحفوظ ، وَقُدِرَ عليه بإهلاكهم !

وفى التفاسير : أن الماء الذى نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ . والماء الذى نزل من السماء هو البخارُ اليومَ .

« وحَمَلْناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ »

وحملنا نوحاً على « ذات ألواح » أى سفينة ، « ودسر » يعنى المسامير وهى جمع دسار أى مسمار .

« تجرى بأَعْيُنِنا جزاءً لِمَن كان كُفِرَ »

« بأعيننا » : أى بمرأًى مِنَّا . وقيل : تجرى بأولياثنا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظِهم .

ويقال : بأعين الماء الذى أنبعناه من أوجه الأرض .

« جزاء لمن كان كُفِرَ » : أى الذين كفروا بنوح[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد تركناها آيةً فهل من مُدَّكِر »

جعلنا أَمْرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يعتبر بها .

« فهل من مدكر » : فهل منكم من يعتبر ؟ . أمرَهم بالاعتبار بها[2] .

قوله جل ذكره : « فكيف كان عذابى ونُذُرِ »

قالها على جهة التعظيم لأمرِه .

وقد ذَكَرَ قصة نوحٍ هنا على أفصحِ بيانٍ وأقصرِ كلامٍ وأَتَمِّ معنًى[3] .

---

(١) يرى بعض المفسرين أن (الذى كُفِر) هو نوح عليه السلام لأنه مكفور به ، فكل نبى رحمة لأمته ، فكان نوح رحمة مكفورة .

(٢) أى أن الاستفهام – بلغة البلاغيين – قد خرج عن معناه الأصلى إلى الأمر .

(٣) كأن القشيرى يريد أن يوضح تعليلاً (لتكرار) قصة نوح . ونحن نعلم أن القشيرى لا يستريح تماماً لفكرة القول بالتكرار فى القرآن .

وكان نوحٌ — عليه السلام — أطولَ الأنبياء عمراً ، وأشدَّهم للبلاء مقاساةً

ثم إن اللهَ — سبحانه — لما نجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه ، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوحٍ عليه السلام . وفى هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين ، إذا لقوا فى دين الله محنةً ؛ فإنَّ الله يُهلِكُ — عن قريب — عَدوَّهم ، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنةُ اللهِ فى جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءه بعد أن يزهق أعداءه .

قوله جل ذكره : « ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل من مُدَّكِر »

يَسَّرنا قراءتَه على ألسنةِ الناسِ ، ويسَّرنا عِلْمه على قلوبِ قومٍ ، ويسَّرْنا فَهْمَه على قلوب قومٍ ، ويَسَّرْنا حِفْظَه على قلوبِ قومٍ ، وكلُّهم أهلُ القرآن ، وكلُّهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشَفَ الأرواحَ من قومٍ — بالقرآن — قبل إدخالها فى الأجساد .

« فهل من مدكر » لهذا العهد الذى جرى لنا معه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر * إنَّا أرْسلنا عليهم ريحاً صرْصراً فى يومِ نحسٍ مُسْتَمِرٍ * تنزعُ الناسَ كأنهم أعجازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ » .

كَذَّبوا هوداً ، فأرسلنا عليهم « ريحاً صرصراً » أى : باردةً شديدة الهُبوب ، يُسْمَعُ لها صوت .

« فى يوم نحس مستمر » أى : فى يوم شؤم استمرَّ فيه العذابُ بهم ، ودام ذلك فيهم ثمانيةَ أيام وسَبْعَ ليالٍ . وقيل : دائم الشؤم تنزع رياحُه الناسَ عن حُفَرِهم التى حفروها

حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنقَطِعٍ . وقيل : كانت الريح تقتلع رءوسهم عن منا كبهم ثم تُلقى بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعت رءوسُها .

« ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْر فهل من مُدَّكِرٍ ؟ » .

هَوَّنا قراءتَه وحِفْظَه ؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقرَأُ ظاهراً إلاَّ القرآن .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ بالنُّذُرِ * فقالوا أبَشراً مِنّا واحداً نتَّبِعُهُ ؟ . . إنّا إذاً لفى ضلالٍ وسُعُرٍ » .

هم قوم صالح . وقد مضى القولُ فيه ، وما كان من عقرهم للناقة . . إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك ، فَصيَّرَهم كالهشيم ، وهو اليابس من النبات ، « المحتظر » : أى : المجمول فى الحظيرة ، أو الحاصل فى الحظيرة[1] ..

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قومُ لوط بالنُّذُر * إنّا أرسلنا عليهم حاصِباً إلاَّ آلَ لوطٍ نَجَّيْناهُم بِسَحَرٍ * نعمةً من عندنا كذلك نجزى مَن شَكَرَ » .

فأرسلنا عليهم « حاصباً » : أى : حجارةً رُمُوا بها .

« كذلك نجزى مَنْ شكر » : أى : جعلنا إنجاءهم فى إهلاكِ أعدائهم .

وهكذا نجزى من شكر ؛ فمثل هذا نعامِلُ به مَن شَكَرَ نعمتنا .

والشُّكْرُ على نِعَم الدفع أتمُّ من الشكر على نِعَم النفع — ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كلُّ مُوَفَّقٍ كَيِّس .

« فَطَمَسْنا أعْيُنَهم فذوقوا عذابى ونُذُر »

---

(١) يقصد القشيرى أنها قد تقرأ بفتح الظاء وبكسرها .

جاء جبريلُ ومَسَحَ بجناحه عَلَى وجوههم فعَمُوا ، ولم يهتدوا[1] للخروج — وكذلك أجرى سُنَّتَه فى أوليائه أن يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ثم يُخَلِّصُهم من كيدهم .

قوله جل ذكره : « سَيُهْزَمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ » .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحقَّق ذلك يومَ بدر ، فصار ذلك من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه[2] .

قوله جل ذكره : « يومَ يُسْحَبون فى النارِ على وجوهِهم ذوقوا مَسَّ سَقَرَ » .

سَحْبُهم على الوجوهِ أمارةٌ لإذْلالهم ، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لكانت عظيمة — فكيف وهو التأبيد والتخليد ؟ ! .

وكما أنّ أمارةَ الذُّلِّ تظهر على وجوههم فعلامةُ إعزازِ المؤمنين وإكرامهم تظهر على وجوههم ، قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة »[3] . وقال : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم[4] » .

قوله جل ذكره : « إنّا كلّ شىء خلقناه بِقَدَرٍ »

أى بِقَدَرٍ مكتوب فى اللوح المحفوظ .

ويقال : خلقنـــاه بقدر ما عَلِمْنا وأردْنا وأخبرْنا .

قوله جل ذكره : « وماأمْرُنا إلّا واحدةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَر »

أى إذا أردنا خَلْقَ شىء لا يتعسَّرُ ولا يتعذَّرُ علينا ، نقول له : كُنْ — فيكون

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (لم يتمكنوا) .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال وهو فى قبة يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لاتُعبد بعد اليوم — فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر (البخارى ج ٣ ص ١٣١) .

(٣) آية ٢٢ سورة القيامة .

(٤) آية ٢٤ سورة المطففين .

بقدرتنا . ولا يقتضى هذا استئناف[1] قولٍ فى ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القديم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يحصل فى ذلك الوقت .

« كلمح بالبصر » : أى كما أن هذا القَدْرَ عندكم (أى قَدْرَ مايلمح أحُدكم ببصره) لا تلحقكم به مشقةٌ — كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً — قلّ أو كَثُرَ ، صَغُرَ أو كَبُرَ — لا تلحقنا فيه مشقة .

قوله جل ذكره : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مُدَّكِر » .

أى أهلكنا القرونَ التى كانت قبلكم فكلُّهم أمثالكم من بنى آدم ...

« وكلُّ شىء فعلوه فى الزُّبُر » .

فى اللوح المحفوظ مكتوبٌ قبل أن يعمله[2] . وفى صحيفة الملائكة مكتوب . لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ..

« وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ » .

كلُّ صغيرٍ من الخَلْق ، وكلُّ كبيرٍ من الخَلْقِ — تخترمه المنيَّةُ .

ويقال : كلُّ صغيرٍ من الأعمال وكبيرٍ مكتوبٌ فى اللوح المحفوظ ، وفى ديوان الملائكة .

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف ؛ لئلا يتجاسر العبدُ على الزَّلَّةِ إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها .

قوله جل ذكره : « إنَّ المُتَّقِين فى جناتٍ ونَهَرٍ * فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِرٍ » .

---

(١) هكذا فى م — وفى ص — فى ص (استيفاء) وكلاهما يمكن أن يتقبله السياق . على معنى أن قوله القديم « كن » لا (يستأنف) عند خلق الحدث . وعلى معنى أنه لا يشترط أن يستوفى خلق الحدث الأمرَ بكن اكتفاء بقوله القديم — والله أعلم .

(٢) هكذا فى م وهى ص أصوب فى السياق من (يعلمه) التى جاءت فى م لأن ما (فعلوه) التى فى الآية تؤدى إلى ذلك .

لهم بساتين وأنهار ، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالآحادُ تُقابَلُ بالآحاد .

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضى أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونَهرٌ .

« فى مقعد صدق » : أى فى مجلس صِدْقٍ .

« عند مليكٍ مقتدِر » : أراد به عِنْديَّةَ القُرْبة والزلفة .

ويقال : مقعد الصدق أى مكان الصدق ، والصادق فى عبادته مَنْ لا يتعبَّدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض .

ويقال : مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْه الأطماع ، ومَنْ صَدَقَ فى العبوديَّة تحرَّرَ عن المقاصد الدَّنِيَّة .

ويقال : مَن اشتغل بالدنيا حَجَبَتْه الدنيا عن الآخرة ، ومَنْ أَسَرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة ، ومَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكونْ بجملته(١) .

* * *

(١) أرباب الحقيقة لا تشغلهم فكرة الثواب والعقاب على النحو المألوف عند العابدين بنفوسهم . فجنَّتُهم الكبرى هى رؤيتُهم لمحبوبهم ، ولهم فى ذلك أقوال كثيرة شعراً ونثراً .. من ذلك :

قول أبى على الروزبارى :

من لم يكن بك فانياً عن حبه ... وعن الهوى والأُنس بالأحباب
أو تيمة صبابة جمعت له ... ما كان مفترقاً من الأسباب
فكأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظٍّ أو لحسن مآب

ويقول الجنيد : كل محبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة . ويقول يحيى بن معاذ :

إن ذا الحب لمن يفنى لـه ... لا لدار ذات لهـو وطُرَف
لا ولا الفردوس — لا يألفها — ... لا ولا الحوراء من فوق غُرَف

ويقول أحدهم :

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ... ويرون الجنان حظاً جزيلاً
ليس لى فى الجنان النار رأى ... أنا لا أبتغى بحبى بديلا

(انظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى » ط المعارف ص ١٩٥ ، ص ١٩٦) .

سُورَةُ الرَّحمٰن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » : إخبارٌ عن عِزِّه وعظمته .

« الرحمٰن الرحيم » : إخبارٌ عن فضله ورحمته .

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح . ولولا عظمته لما عَبَدَ الرحمنَ عابدٌ ولولا رحمتُه لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ .

قوله جل ذكره : « الرحمٰنُ * عَلَّم القرآن »

أى الرحمن الذى عَرَفَه الموحِّدون وجَحَدَه الكافرون هو الذى علَّم القرآن . ويقال : الرحمن الذى رحمهم ، وعن الشِّرك عَصَمَهم ، وبالإيمان أكرمهم ، وكلمةَ التقوى ألزمهم — هو الذى عرَّفهم بالقرآن وعلَّمهم .

ويقال : انفرد الحقُّ بتعليم القرآن لِعباده .

ويقال : أجرى اللهُ تعالى سُنَّتَه أنه إذا أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً[1] أشْرَكَ أُمَّتَه فيه[2] على ما يليق بصفاتهم ؛ فلمَّا قال له (صلعم) : « وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم »[3] .

قال لأمته : « الرحمٰن * علَّم القرآن » .

ويقال : علَّم اللهُ آدمَ الأسماء كلَّها ثم أمره بِعَرْضها على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم — قال تعالى : « أنبئهم بأسماء هؤلاء » يا آدم ، وعلَّمَ (نبيُّنا صلى الله عليه وسلم)[4]

---

(١) (شيئاً) غير موجودة فى م . وموجودة فى ص — والسياق يقوى بها .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (فيه أمته) .

(٣) «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم» آية ١١٣ سورة النساء .

(٤) ما بين القوسين إضافة من جانبنا ليتضح السياق .

المسلمين[1] القرآنَ فقال صلى الله عليه وسلم : « لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب ، والمُصَلِّى مُناجٍ ربَّه » قال لآدم : أذْكُرْ ما علَّمْتُكَ للملائكة . وقال لنا : ناجِنِي ياعبدى بما عَلَّمْتُك[2] . وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخدم بما لا يُلاطَفُ به آباؤهم .

ويقال : لمَّا علَّم آدمَ أسماءَ المخلوقاتِ قال له : أَخْبِرِ الملائكة بذلك ، وعلَّمَنَا كلامَه وأسماءه فقال : إقْرَأوا علىَّ وخاطِبوا به معى .

ويقال : علَّم الأرواحَ القرآن — قَبْلَ تركيبها فى الأجساد بلا واسطة[3] ، والصبيانُ إنما يُعَلَّمُونَ القرآن — فى حالِ صِغَرِهم — قبل أنْ عَرَفَتْ أرواحُنا أحداً ، أو سَمِعْنا من أحدٍ شيئاً . . علَّمَنَا أسماءه :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبى فارغـــاً فَتَمَـكَّنَا

ويقال : سقياً لأيامٍ مضت — وهو يُعلِّمنا القرآن .

ويقال : برحمته علَّمَهم القرآن ؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن — لا بقراءة القرآن يَصِلُون إلى رحمته .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الإنسانَ * علَّمَهُ البيانَ » .

« الإنسان » : ها هنا جِنْسُ الناس ؛ عَلَّمَهم البيانَ حتى صاروا مُمَيَّزِين[4] — فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان . وعَلَّمَ كُلَّ قومٍ لسانَهم الذى يتكلمون ويتخاطبون به .

والبيانُ ما به تبينُ المعانى — وشَرْحُه فى مسائل الأصول .

ويقال : لمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعلِّمه بَشَرٌ ردَّ الله — سبحانه — عليهم وقال : بل عَلَّمَهُ اللهُ ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم . وقيل هو آدم عليه السلام .

ويقال : البيان الذى خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرِفُ به كيفيةَ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال . وأمَّا أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهم هو عِلْمُهم كيفيةَ مخاطبةِ مولاهم — وبيانُ

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (المسامون) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) أنظر كتابنا (البسملة بين أهل العبارة وأهل الإشارة) ورأينا فى معنى (الرحمن) .

(٣) إشارة إلى يوم الذر .

(٤) بتشديد الياء وفتحها على معنى أن البيان علامة تميزهم عن سائر الحيوان ، وبكسرها على معنى أن البيان وسيلة انفرد بها الإنسان للتعبير عما تكنه نفسه للتمييز بين الأشياء .

العبيدِ مع الحقِّ مختلفٌ : فقومٌ يخاطِبونه بلسانهم ، وقومٌ بأنفاسهم ، وقوم بدموعهم :

دموعُ الفتى عمَّا يحسُّ تترجمُ وأشـــواقه تبدين ما هو يكتم

وقومُ بأنينهم وحنينهم :

قُلْ لى بألسنة التنفُّس كيف أنت وكيف حالك ؟

قوله جل ذكره : « الشمسُ والقمَرُ بِحُسْبانٍ » .

يعنى يجرى أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب. فى زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر ونقصانه ، وتُعْرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام .. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأَجَلُ . . فالشمسُ تُكَوَّرُ والقمرُ يَنْكَدِر .

وكذلك لشمسِ[1] المعارفِ وأقمارِ العلوم — فى طلوعها فى أوج[2] القلوبِ والأسرار — فى حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجْرِيها على ما سَبَق به الحُكْمُ .

قوله جل ذكره : « والنَّجمُ والشَّجَرُ يسجدان » .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق[3] ، والشجر : ما له ساق .

ويقال : النجومُ الطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ « يسجدان » سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال .

قوله جل ذكره : «والسماء رَفَعَها ووَضَعَ الميزان » .

سَمَكَ السماء وأعلاها ، وعلى وصفِ الإتقانِ والإحكام بناها ، والنجومَ فيها أجراها ، وبثَّ فيها كواكبَها ، وحفظ عن الاختلالِ مناكِبَها ، وأثبت على ما شاء مشارقَها ومغاربَها .. وخَلَقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ فى المعاملات بينهم .

ويقال : الميزانُ العَدْلُ .

« ألا تَطْغَوْا فى الميزان »

---

(١) هكذا بالمفرد فى م وهى فى ص بالجمع (شموس) ونرجح أنها بالمفرد حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فشمس الحقائق واحدة إذا طلعت غطّى نورها أقمار العلوم .

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (روح) فلا معنى لها هنا .

(٣) لأنه ينجم عن الأرض بلا ساق مثل البقول (النسفى — ٤ ص ٢٠٧) .

احفظوا العَدْل فى جميع الأمور ؛ فى حقوق الآدميين وفى حقوق الله ، فيعتبرُ العدلُ ، وتَرْكُ الحَيْفِ ومجاوزةُ الحدِّ فى كل شىء ؛ ففى الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاصُ ، وفى الأحوال الصدقُ ، وفى الأنفاس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وتَرْكُ المداهنةِ والخداعِ والمكرِ ودقائق الشِّركِ وخفايا النفاق وغوامض الجنايات .

« وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزان » .

(وأقيموا الوزن بالمكيال الذى تحبون أن تُكَالوا به ، وعلى الوصف الذى ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف)[1] .

قوله جل ذكره : « والأرضَ وضعها للأنام * فيها فاكهةٌ والنَّخْلُ ذاتُ الأكمام * والحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحانُ » .

خلق الأرض وَجَعلَها مهاداً ومثوى للأنام .

ويقال : وضعها على الماء وبسط أقطارها ، وأنبت أشجارها وأزهارها ، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارَها .

« فيها فاكهة . . » يعنى ألوانُ الفاكهة المختلفة فى ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها ، وحرارتها وبرودتها . . وغير ذلك من اختلافٍ فى حَبِّها وشجرها ، وورقها ونَوْرها .

« والنخل ذات الأكمام » وأكمام النخل ليفها وما يُغَطِّيها من السَّعف .

« والحَبُّ » : حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحُبوب .

« ذو العصف » : والعصف ورق الزرع[2]

---

(١) ما بين القوسين مضطرب فى النص حاولنا تنظيمه ليعطى معنى .

(٢) قال الضحاك : العصف التبن ، وقال بعضهم العصف هو المأكول من الحب ، والريحان النضيج الذى لم يؤكل . وقال أبو مالك : العصف أول ما ينبت تسميه النبط هبوراً . وقال بعضهم : العصف ورق الحنطة . (البخارى حـ ٣ ص ١٣١) . وسميت الرياح عواصف لأنها تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه .

« والريحان » الذى يُشَمُّ . . ويقال : الرزق لأن العرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله »

ذكَّرهم عظِمَ مِنَّتِه عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التى ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « فبأىِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان »

فبأى آلاء ربكما تجحدان ؟ والآلاء النِّعماء .

والتثنيةُ فى الخطاب للمُكلَّفين من الجِنِّ والإنس .

ويقال : هى على عادة العرب فى قولهم : خليلىَّ ، وقِفَا ، وأرْحلاها باغلام ، وأزجراها باغلام .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخَّار »

« الإنسان » : يعنى آدم ، والصلصالُ الطينُ اليابس الذى إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار .

ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُنْتَنٌ ؛ من قولهم صَلَّ وأصَلَّ إذا تَغيرَّ .

« وخَلَقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ »

المارج : هو اللهب المختلط بواد النار .

« فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان »

يُذَكِّرُ الخَلْقَ من الجن و الإنس كما سبق — وكرَّر اللهُ سبحانه هذه الآية فى غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل ، أى نعمةً بعد نعمة .

ووجُه النعمة فى خلق آدم من طين أنه رقاه إلى رتبته بعد أن خلقه من طين .

ويقال ذَكَّرَ آدمَ نِسبتَه وذكَّرنا نسبتَنا لئلا نُعْجَبَ بأحوالنا .

ويقال عَرَّفَه قدَرَه لئلا يتعدَّى (١) طَوْرَه .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (لا يعدو) .

قوله جل ذكره : « رَبُّ المشرقين وربُّ المغربين * فبأىِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان » .

« المشرقين » : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما .

ووجه النعمة فى ذلك جريانهما على ترتيب واحدٍ حتى يكمل انتفاع الخَلْقِ بهما .

ويقال : مشرق القلب ومغربه ، وشوارق القلب وغواربه إنما هى الأنوار والبصائر التى جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى .

قوله جل ذِكْرُه : مَرَجَ البحرين يلتقيان * بينهما بَرْزَخٌ لا يبغيان » .

« برزخ » أى حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أراد به البحر العذب والبحر الملح . ويقال : لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم .

« يخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرْجانُ »

اللؤلؤ : كبار الدُّرِّ ، والمَرجان : صغار الدُّرِّ . ويقال : المرجان النَّسْل .

وفى الإشارة : خَلَقَ فى القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . ويقال القبض والبسط وقيل الهيبة[1] والأُنس . يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهى الأحوال الصافية واللطائف المتوالية .

ويقال : البحران . إشارة إلى النفس والقلب ، فالقلب هو البحر العَذْب والنفس هى البحر المالح . . فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين ، وكلُّ حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق ذميم[2] . والدرُّ من أحد البحرين يخرج ، ومن الثانى لا يكون إلا التمساح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب . « بينهما برزخ لا يبغيان » : يصون الحقُّ هذا عن هذا ، فلا يَبْغى هذا على هذا .

قوله جل ذكره : « وله الجَوارِ المُنْشَآتُ فى البحرِ كالأعلامِ »

« الجوارى » : واحدها جارية ، وهى السفينة .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أمَّا فى ص فهى (الهيط) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) النفس عند الصوفية محلّ المملولات والقلب محل المحمودات .

« الأعلام » : الجبال

(له هذه السفن التى أنشئت وخلقت فى البحر كأنها الجبال العالية)[1] .

قوله جل ذكره : « كُلُّ مَنْ عليها فانٍ »

كل من على وجه الأرض فى حكم الفناء من حيث الجواز . ومن حيث الخبر : ستفنى الدنيا ومن عليها و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . « والوجه » : صفة لله — سبحانه — لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلّ عليه جَوازاً ، وورد الخبر بكونه قطعاً .

ويقال : فى بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا محالة شَرطها قيامها بنفسه وذاته . وفائدة تخصيص الوجه[2] بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل ، والوجه لا يُعْلَمُ بالعقل ، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار . و « يبقى » : وفى بقائه . سبحانه خَلَفٌ عن كلّ تلفٍ[3] ، وتسليةٌ للمسلمين عمّا يصيبهم من المصائب ، و يفوتهم من المواهب .

قوله جل ذكره : يسأله مَن فى السمٰواتِ والأرضِ كُلَّ يومٍ هو فى شأن » .

أهلُ السمٰواتِ يسألون أبداً المغفرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرَة ، أى لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفى السمٰوات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم: مَنْ شَغَلَه ذِكْرى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين[4] .

و يقال: ليس كلُّ مَنْ فى السمٰواتِ والأرض يسألونه مِمّا فى السمٰوات والأرض ولكن :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه قَوْلٌ ولا قَلَمٌ للخَلْق يحكيه

---

(١) ما بين القوسين مستدرك فى هامش الورقة بالنسخة ص

(٢) سقطت لفظة (الوجه) من النسخة م .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (تالف) وهى صحيحة ولكن السياق والموسيقى الداخلية تتأكد بـ (تلف) .

(٤) « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » رواه البخارى فى التاريخ ، والبزار فى المسند ، والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب .

« كلَّ يوم هو فى شأن » مِنْ إحياء و إماتة ، وقبضِ قوم وبَسْطِ قومٍ .. وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات ، وما يُجْريه عليها من اختلاف الصفات .

وفى الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا : إنَّ اللهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً ، فأخبر أنه كل يوم هو فى شأن ، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِهِ لتلاشى وبَطُلَ .

(ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً ، ويَسْتُرَ عيباً ، ويُذْهِبَ كرباً)[1] ، ويُطَيِّبَ قلبًا ، ويُقْصِى عَبْداً ويُدْنِى عبداً ... إلى غير ذلك من فنون الأفعال . وله مع عباده كلَّ ساعةٍ بِرٌّ جديدٌ ، وسِرٌّ[2] بينه وبين عبده — عن الرقباء — بعيد .

ويقال : كل يوم هو فى شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها .

ويقال : كل يوم هو فى شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ .

قوله جل ذكره : « سَنَفْرُغُ لكم أيُّهَ الثَّقَلاَن[3] » .

أى للحسابِ يومَ القيامة — وليس به اشتغالٌ ... تعالى اللهُ عن ذلك .

ومعنى الآية : سنقصد لحسابكم .

قوله جل ذكره : « يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استطعتُم
أن تَنفُذُوا من أقطارِ السمٰواتِ
والأرضِ فانفُذُوا لا تَنفُذُون
إلا بِسُلْطان » .

أقطارُ السمٰواتِ والأرضِ نواحيها - أى إنْ قدرتم أن تخرجوا من مُلْكِهِ فاخرجوا .

---

(١) هذا الرأى أيضاً لأبى الدرداء (البخارى حـ٣ ص ١٣١) .
(٢) هكذا فى م ، أما فى ص فهى (يُسْر) وقد رجحنا الأولى لأن (السر) يكون بعيداً عن الرقباء .
(٣) (الثقلان) = الإنس والجن سُمِّيا بذلك لأنهما ثقلا الأرض .

ثم قال : «لاتنفذون إلا بسلطان» . أى لا تَصِلون إلى موضعٍ إلّا وهناك سلطانى ومُلْكى ولا تنفذون فى قُطْرٍ إلا وهناك عليكم حجة[1] .

قوله جل ذكره : « يُرْسَلُ عليكما شُوَاظٌ من نارٍ ونُحَاسٌ فلا تنتصران » .

أى فلا تنتقمان . والشواظُ : اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه . والنحاس : الصُّفْرُ[2] المذاب

قوله جل ذكره : « فإذا انشقَّتِ السماء فكانت وردةً كالدِّهان » .

ينفكُّ بعضها عن بعض وتصير فى لون الورد الأحمر . ويقال : بها القُرُش الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أى كدهن الزيت وهو دردىُ الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلَّون لونُها ؛ إذ تكون فى الربيع إلى الصُّفْرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبعد ذلك إلى الغبرة — فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ فى القيامة .

قوله جل ذكره : « فيومئذٍ لَّا يُسْأَلُ عن ذَنْبِهِ إنسٌ ولا جان » .

أراد فى بعض أحوال[3] القيامة لا يُسألون ، ويُسْأَلون فى البعض . . . فيومُ القيامة طويلٌ .

ويقال : لمَّا كانت لهم يومئذٍ علامات : فللكفارِ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغيرُ ذلك من العلامات — فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أنتم ؟ لأنهم يعرفون كُلًّا بسيماهم .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (وجهه) . فإذا قبلنا (حجة) فيكون المعنى أنكم أينما توجهتم فى بقاع السموات والأرض فستجدون دائما برهاناً على وحدانية الله ، وشاهداً على ربوبيته . وإذا قبلنا (وجهه) فهى على معنى : «فأينما تولوا فثم (وجه) الله» .

(٢) الصفر = النحاس الأصفر .

(٣) أحوال القيامة هنا بمعنى مواطن القيامة فى ذلك اليوم الطويل . وربما كانت (أهوال) .

ويقال : لايُسْأَلون سؤالاً يكون لهم ويُسْأَلون[1] سؤالا يكون عليهم[2] .

قوله جل ذكره : « يُعْرَفُ المُجْرِمون بسيماهم فيُؤْخذُ بالنواصى والأقدام » .

المؤمنون غُرٌّ مُحَجَّلُون ، والكفّارُ سود الوجوهِ زُرْقُ العيون ، فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ، ويَجُرُّونهم مرة بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقونهم فى النار ، ويطرحونهم فى جهنم :

« هذه جَهَنَّمُ التى يُكذِّب بها المجرمون
* يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ » .

يقال لهم : هذه جهنم التى كنتم بها تكذبون !

« حميم » : ماء حارٌّ . « آن » تناهى فى النضج

قوله جل ذكره : «ولِمَنْ خافَ مَقامَ ربِّهِ جَنَّتان »

يقال : لِمَنْ خاف قُرْبَ ربِّهِ منه واطلاعه عليه .

ويقال : لمن خاف وقوفَه غداً بين يدى الله — جنتان ، ولفظة التثنية هنا على العادة فى قولهم : خليلىّ ونحوه .

وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، مُعَجَّلَة فى الدنيا من حلاوة الطاعة وروْح[3] الوقت ، ومؤجَّلة فى الآخرة وهى جنة الثواب . ثم هم مختلفون فى جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون فى الآخرة على حسب درجاتهم .

« ذَوَاتا أفنانٍ * فبأى آلاء ربكما تكذبان
فيهما عينان تجريان » .

دلّ على أن الجنتين فى الآخرة . والأفنانِ الأغصان . وهى جمع فنن .

---

(١) سقطت (ويسألون) هذه من م وموجودة فى ص وهى ضرورية .

(٢) هذه المحاولات التى بذلها القشيرى مقصود منها — حسبما نظن — التوفيق بين هذ الآية وبين آيات أخرى مثل : «فوربك لنسألنهم أجمعين » ومثل «وقفوهم إنهم مسئولون» .
ومن قبيل هذه المحاولات قول قتادة : ختم الله على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (بروح) .

ويقال : ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتهيه النَّفْسُ والعينُ — وتكون جمع فن .

« فيهما عينان تجريان » إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل .

ويقال : عينان تجريان غداً لمن كان له — اليومَ — عينان تجريان بالدموع .

« فيهما من كلِّ فاكهةٍ زَوْجان » .

زوجان أى صِنْفان وضَرْبان ؛ كالرطب واليابس ، والعنب والزبيب .

ويقال : إنها فى نهاية الحسن والجودة .

« مُتَّكئين على فُرُشٍ بطائنُها من
إستبرقٍ وجَنَى الجنتين دَانٍ » .

بطائنها من استبرق فكيف بظهائرها ؟ . « والبطائن» : مايلى الأرض . « والاستبرق»: الديباج الغليظ . وإنما خاطَبَهم على قَدْرِ فَهْمِهم ؛ إذ يقال إنه ليس فى الجنة شىء مما يُشْبِه ما فى الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أفهامهم[1].

« وجنى الجنتين دان » : أى مايجتنى من ثمرها — إذا أرادوه — دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تنالهم . وفى الخبر المسند : « مَنْ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غَرَسَ الله له شجرةً فى الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثدى الأبكار ألين من الزبد وأحلى من العسل ، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان » — وذلك قوله : ودنا الجنتين دان .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم .

قوله جل ذكره : « فيهن قاصِراتُ الطَّرْف لم يَطْمِثْهُنَّ
إنسٌ قَبْلَهم ولا جانٌّ » .

أى فى الجنان حورٌ قَصَرْن عيونَهن عن غير أزواجهن .

وإذا كانت الزوجاتُ قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأَوْلى بالعبد إذ رجا لقاءه — سبحانه — أن يقصر طَرْفَه ويَغُضَّه عن غير مُبَاحٍ .

---

(١) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية يوضح مدى تصور القشيرى لنعيم الجنة وابتعادها عن المحسات .

بل عن الـكُلِّ . . إلى أن يلقاه .

ويقال : من الأولياء مَنْ لا يَنْظُرُ إليهن — وإنْ أُبيح له ذلك لتحرُّره عن الشهوات ، ولعلوِّ همته عن المخلوقات[1] — وأنشدوا :

جُننَّا بلَيْلَى وهى جُنَّتْ بغـــيرنا
وأخـــرى بنـا مجنونة لا نريدها

ويقال : هُنَّ لمن قصرت يدُه عن الحرام والشبهة ، وطرفُه عن الرِّيَبِ .

« لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » : لم يصحبهن غيرُ الولىّ ولم يَحْزُنَ غيرَه ، وفى الخبر . اشتاقت الجنة لثلاثة[2] .

« كأنهنّ الياقوتُ والمَرْجَانُ » .

أى : فى صفاء الياقوت ولون المرجان .

قوله جل ذكره : « هَلْ جَزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحْسَانُ؟ » .

يقال : الإحسانُ الأول من الله والثانى من العبد ؛ أى : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالنصرة إلَّا أن يُحْسِن لنا بالخدمة ؟ وهل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالولاء إلا أن يحسن لنا بالوفاء ؟ .

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثانى من الله ؛ أى : هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث القبول والثواب ؟ .

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث النعمة ؟

ويصح أن يكون الإحسانان من الحقِّ ؛ أى : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه فى الابتداء إلا أن نُحْسِنَ إليه فى الانتهاء ؟ وهل جزاء مَنْ فاتحنـــاه باللُّطف إلا أن نُرْبِيَ له فى الفضل والعطف ؟ .

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى موضوع «الرخصة» .

(٢) إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان .

(الترمذى عن أنس ، ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير أبى ربيعة الأيادى . وقد حسَّن الترمذى حديثه . قاله الحافظ الهيثمى) ونرجح أن الموضع الصحيح للخبر هو بعد النص الشعرى السابق ، ونرجح أيضاً أن السبب فى استشهاد القشيرى بهذا الخبر هنا هو إثبات اشتياق الجنة لأهل الخصوص ، بينما هؤلاء الزهاد الثلاثة لا أرَبَ لهم فى الدارين ، لأنهم باقون بربهم .

ويصحُّ أن يكون كلاهما من العبد ؛ أى : هل جزاء من آمن بنا إلّا أن يَثْبت فى المستقبل على إيمانه ؟ وهل جزاء مَنْ عَقَدَ منا عقد الوفاء إلا أنْ يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟ .

ويقال : هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِه إلاّ أنْ نُقَرِّبَه مِنّا ؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَنْ نَفسِه إلاّ أنْ يبقى بنا ؟ .

وهل جزاء مَنْ رَفَع لنا خطوة إلاّ أن نكافئه بكل خطوة ألف حُظْوَة ،

وهل جزاء من حفظ لنا طَرْفَه إلا أن نُكْرِمَه بلقائنا ؟ .

قوله جل ذكره : « ومِن دونِهما جَنَّتانِ » .

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتا ؛ جنتان أُخْرَيان . وليس يريد دونهما فى الفضل ، ولكن يريد « جنتان » سواهما[1].

« مُدْهامَّتانِ » .

أى : خضراوان خُضْرةً تضرب إلى السواد . فالدهمة السواد[2] والفعل منه ادهامّ والاسم منه مُدْهَامٌّ ، وللمؤنث مدهامّة ، وللتثنية للمؤنث مدهامتان .

« فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاختانِ » :

والنَّضْخُ فَوَرَانُ العينِ بالماء .

« فيهما فاكهةٌ ونَخْلٌ ورُمَّانٌ »

الأسماء متشابهة . . والعيون[3] فلا .

« فِيهِن خَيْرَاتٌ حِسانٌ » .

---

(١) قارن ذلك برأى النسفى الذى يقول : هما جنتان من دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين وهما لمن دونهم من أصحاب اليمين . وفى موضع آخر من الصفحة ذاتها يقول النسفى : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأولين لأن مدهامتان دون (ذواتا أفنان) ونضاختان دون (تجريان) وفاكهة (دون كل فاكهة) (النسفى حـ ٤ ص ٢١٣) .

(٢) هذا رأى الخليل أيضاً .

(٣) ربما يقصد القشيرى (و الأعيان) فهذا هو الاصطلاح المألوف استعماله فى علمى الفلسفة والكلام — بل إن القشيرى نفسه يستعمله فى مثل هذا الموضع . والمقصود أن القرآن يتحدث عن نعيم الجنة حسب أفهام الناس ، ولكن الأعيان غير الأسماء .

أي : حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه . واحدها خَيِّرة والجمع خيِّرات وهذا هو الأصل ثم خُفِّفَ فصارت خيرات .

« حُورٌ مقصوراتٌ في الخِيام » .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلاَّت ، مقصورُ القلب عن الغفلات ، مقصور السِّرِّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال .

وفي بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ في فرسخ لها ألف باب[1] .

ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفي الخبر : أنهن يقلن : نحن الناعمات[2] . فلا نبؤس ، الخالدات فلا نبيد ، الراضيات فلا نسخط .

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها : أن المؤمناتِ أجَبْنَهُنَّ : نحن المصلياتُ وما صَلَّيْتُنَّ ، ونحن الصائماتُ وما صُمْتُنَّ ، ونحن المتصدِّقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ ، قالت عائشة يغلبهن قولُه .

« لم يَطْمِثْهُنَّ[3] إنسٌ قَبْلَهُم ولا جَانٌّ » .

قوله جل ذكره : « مُتَّكِئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعبقريٍّ حِسانٍ » .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابيّ والوسائد — وهي خُضْرٌ « وعبقريٍ حسان » : العبقري عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوَشَّى .

قوله جل ذكره : « تَبَارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ والإِكْرَامِ » .

مضى تفسيره .

---

(١) حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد : حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله ابن قيس عن أبيه : أن رسول الله (ص) قال : إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون .. البخاري ج٣ ص ١٣٢ . وذكر ابن جرير الطبري أن الخيمة لؤلؤة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (ج٢٧ ص ٨٤) .

(٢) «نحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ، نحن الخالدات فلا نموت أبداً .. » رواه الترمذي عن علي ، وقال : حديث غريب . ورواه البيهقي وأبو نعيم عن أبي أروى في صفة الجنة ، وذكره السراج في اللمع ص ٣٤٥

(٣) الطمث : الجماع بالتدمية

سُورَةُ الوَاقِعَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بِسْمِ الله » : اسم جبّار مَن اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه ، فإنْ أبَى إلاّ تمادياً فى عصيانه حَالَ بينه وبين اختياره[1] بقَهْرِ سلطانه ، وإنْ لم يلازم هذه[2] الطاعة أَلْجَأه بالبلاء فيأتيها باضطراره .

اسمٌ عزيزٌ أزلىٌّ ، جبّارٌ صَمَدِىّ ، قهّارٌ أحدىّ ، للمؤمنين ولىّ ، وبالعاصين حَفِىّ ، ليس لجماله كَفِىّ ، ولا فى جلاله سمىّ ، لكنه[3] للعُصَاةِ من المؤمنين ولىّ .

قوله جل ذكره : « إذا وَقَعَتِ الواقِعةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » .

إذا قامت القيامة لايردُّها شىء .

« كاذِبة » هاهنا مصدر : كالعافية ، والعاقبة ، أى : هى حقّةٌ لايردها شىء ، وليس فى وقوعها كذب .

ويقال : إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ منهاج الصحة والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقى الكرامة ، ومَنْ حادَ عن نهج الاستقامة وَقَعَ فى الندامة والغرامة ، وعند وقوعها يتبين الصادق من الماذق :

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّن تباكى

« خافِضَةٌ رافعةٌ »

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (إحسانه) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (شدة) الطاعة .

(٣) هكذا فى م ، وفى ص توجد كلمة غير واضحة الكتابة .

« خافضة » : لأهل الشقاوة ، « رافعة » : لأهل الوفاق .

« خافضة » : لأصحاب الدعاوى ، « رافعة » : لأرباب المعانى .

« خافضة » : للنفوس ، « رافعة » : للقلوب .

« خافضة » : لأهل الشهوة ، « رافعة » : لأهل الصفوة .

« خافضة » : لمن جَحَد ، « رافعة » : لمن وَحَّدَ .

قوله جل ذكره : « إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا » .

حُرِّكت حركةً شديدة .

قوله جل ذكره : « وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا * فكانت هباءً مُنبَثًّا » .

فَتَّتَت فكانت كالهباء الذى يقع فى الكوّة عند شعاع الشمس .

قوله جل ذكره : « وكُنْتُمْ أزواجًا ثلاثةً * فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الميمنة * وأَصْحَابُ المَشْئَمَةِ ما أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ * والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » .

« ما أصحاب الميمنة » ؟ على جهة التفخيم لشأنهم والتعظيم لِقَدْرهم ، (وهم أصحاب اليُمْن والبركة والثواب)[1] .

« ماأصحاب المشأمة » : على جهة التعظيم والمبالغة فى ذَمِّهم ، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا فى جانب اليمين من آدم عليه السلام يومَ الذَّرِّ ، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

---

(١) موجود فى ص وغير موجود فى م .

ويقال : الذين يُطَوِّقون الكتابَ بأيمانهم ، والذين يُطَوِّقون الكتاب بشمائلهم .

(ويقال : هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين .. إلى الجنة ، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال .. إلى النار)[1] .

« والسَّابقون السَّابقون » : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة ، (والأفضال الجميلة)[2] .

ويقال : السابقون إلى الهجرة . ويقال : إلى الإسلام . ويقال : إلى الصلوات الخمس .

ويقال : السابقون بصدْق القَدَم . ويقال : السابقون بعُلُوِّ الهِمَم . ويقال : السابقون إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدم إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم .

ويقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ماسبق إليه :

« أولئك المُقَرَّبون »

ولم يقل : المُتَقَرِّبون ، بل قال : أولئك المُقَرَّبون — وهذا عين الجَمْع ، فعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربهم سبقوا — لا بِتَقَرُّبهم[3]

« فى جنَّاتِ النعيم »

أى : فى الجنة[4] . ويقال : مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا فى الجنة ثم يُقَرَّبون من الجنة ، وإنما يُقَرَّبون إلى غير الجنة : يُقَرَّبون من بِساط القربة . .

وأنَّى بالبساط ولا بساط ؟ ! مقربون . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛ مُقَرَّبةٌ نفوسُهم من الجنة وقلوبهُم إلى الحقِّ .

مُقَرَّبةٌ قلوبهُم من بساط المعرفة ، وأرواحُهم من ساحات الشهود — فالحقُّ عزيز . . لا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ .

---

(١) موجودة فى م وغير موجود فى ص .

(٢) موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٣) هذه إشارة إلى أن العمل الإنسانى — وحده — لا يعوَّل عليه إذا قيس بالفضل الإلهى .

(٤) يتحدث القشيرى هنا فى ضوء حالى الفرق والجمع .

ويقال : مقربون ولكن من حظوظهم ونعيمهم . وأحوالهم — وإنْ صَحَّتْ — فالحقُّ وراء الوراء .

قوله جل ذكره : « ثُلَّةٌ مِنَ الأولين ، وقليلٌ مِنَ الآخرين » .

الثُّلَّة : الجماعة . ويقال : ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبينا صلى الله عليه وسلم .

ويقال : ثُلَّةٌ من الأولين : من السلف وقليل من المتأخرين : من الأمة .

« على سُرُرٍ موضونة »[1] .

أى منسوجة نسيج الدرع من الذهب . جاء فى التفسير : طولُ كل سريرٍ ثلثمائة ذراع ، إنْ أراد الجلوسَ عليه تواضع ، وإن استوى عليه ارتفع .

« مُتَّكِئِينَ عليها متقابلين » .

أى لايرى بعضُهم قفا بعضٍ . وَصَفَهم بصفاء المودة وتَهَذُّب الأخلاق .

« يَطُوفُ عليْهم وِلدانٌ مُخَلَّدون » .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدانٌ فى سِنٍّ واحدة . . لا يهرمون .

وقيل : مُقَرَّطون (الخلدة . القُرْط)

« بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَّعِينٍ *لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون » .

« بأكواب » جمع كوب وهى آنية بلا عروة ولا خرطوم ، « وأباريق » : جمع إبريق وهو عكس الكوب (أى له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم فى شربهم إياها ، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون ، ولحم طيرٍ مما يشتهون ، وحُورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، أى : المصون ، جزاء بما كانوا يعملون .

---

(١) وَضَنَّ الثوب نَسَجَه بالجوهر ، فهو واضن وهى واضنة والمفعول موضون .

قوله جل ذكره : « لا يَسْمَعون فيها لَغوًا ولا تأثيماً * إلَّا قِيلاً سلاماً سلاما » .

اللغو : الباطل من القول ، والتأثيم : الإثم والهذيان

ولا يسمعون إلا قيلاً سلاماً ، وسلاماً : نعت للقيل .

« وأصحابُ اليمين ما أصحاب اليمين * فى سِدْرٍ مخضود » : لا شوكَ فيه ، « وطلحٍ منضود » : والطلح شجر الموز ، متراكم نضيد بعضه على بعض .

« وظلٍ ممدود » كما بين الإسفار[1] إلى طلوع الشمس[2] . وقيل : ممدود أى دائم .

« وماء مسكوب » : جَارٍ لا يتعبون فيه .

« وفاكهةٍ كثيرة » : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .

« وفُرُشٍ مرفوعة » لهم .وقيل : أراد بها النساء[3] .

« إنَّا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكاراً » أى الحُور العين .

« عُرُبا » : جمع عَرُوب[4] وهى الغَنِجَةُ المتحببةُ إلى زَوْجِها . ويقال عرباً : أى مُتَشَهِّيَات إلى أزواجهن .

« أترابًا » : جمع تِرْب ، أى : هُنَّ على سِنٍّ واحدة .

« لأصحاب اليمين » : أىَ خلقناهن لأصحاب اليمين .

« ثُلَّةٌ من الأولين * وثُلَّةٌ من الآخِرين » : أى : ثلة من أُولَى هذه الأمة ، وثُلة من أُخْراها .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سَمُومٍ وحميم » : والسَّموم فيحُ جهنم وحَرُّها . والحميم : الماء الحار .

---

(١) طلوع الفجر أو الصبح .

(٢) سقطت (الشمس) من م .

(٣) لأن المرأة يكنى عنها بالفِراش .

(٤) جاء عند البخارى : عروب مثل : صبور يسميها أهل مكة : العَرِبة وأهل المدينة : الغَنِجَة ، وأهل العراق : الشَكِلة (البخارى حـ٣ ص ١٢٢) .

« وظلٍّ من يحموم » ، وهو الدُّخان الأسود .

« لا باردٍ ولا كريم » : لا بارد : أى لا راحةَ فيه . ولا كريمٍ : ولا حَسَنٍ لهم ؛ (حيث لا نفع فيه) .

« إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفين » : أى : كانوا فى الدنيا مُنَعَّمين .

« وكانوا يُصِرُّون على الحِنْثِ العظيم » أى الذَّنْبِ العظيم .

« وكانوا يقولون أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعُوثُونَ ؟ » أى : أنهم يُكَذِّبون بالبعث .

ثم يقال لهم : « إنكم أيها الضالون المُكَذِّبون » اليومَ « لآكلون من شَجَرٍ من زَقُّوم » وجاء فى التفسير : أن الزقوم شجرة فى أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ فى جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

« فمالِئون منها البطون * فشاربون عليه من الحَميم » شرابٌ لا تهنأون به « فشاربون شُرْبَ الهيم » : وهى الإبل العِطاش . ويقال : الهيم أى الرَّمْلُ ينصب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه .

« هذا نُزُلهم يومَ الدِّين » : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خَلَقْنَاكُم فلولا تُصَدِّقون » .

نحن خلقناكم : يا أهلَ مكة — فهلاَّ آمَنْتُم لتتخلصوا ؟ توبِّخون وتُعاتَبون .. واليومَ تَعْتَذِرون ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شىء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التَحسُّر على مافاتهم فى حقِّ الله .

ويقال : أشدُّ البلاء — اليومَ — على قلوب هذه الطائفة[1] خوفُهم من أنْ يَشْغَلَهم — غداً — بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تَكَدَّرَ عليهم من المشارب فى هذا الطريق . وهذه محنةٌ لا شىء أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحابَ القلوبِ — اليومَ — يبتهلون إليه ويقولون : إنْ

(١) يقصد الصوفية .

حَرَمْتَنا مشاهدَ الأُنْس فلا تَشْغَلْنا بلذّاتٍ تشغلنا عن التحسُّر على ما فاتنا ، ولا بآلامٍ تشغلنا عن التأسُّف على ما عَدِمْنا منك .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم ما تُمنون * ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » .

يقال : مَنىَ الرجلُ وأَمْنىَ . والمعنى : هل إذا باشَرْتُم وأنزلتم وانعقد الولد .. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ والخَلْقُ هاهنا : التصوير ؛ أى : أأنتم تجمعون صُوَرَ المولود وتُرَكِّبون أعضاءه .. أم نحن ؟ .

وهم كانوا يُقِرُّون بالنشأة الأولى فاحتجّ بهذا (على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذى كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ فى)[1] إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو المنى وقطرة من تريبة الأم[2] ، وتجتمع القطرتان فى الرَّحِم فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التى هى أجزاء الإنسان من العَظْمِ والعَصَبِ والعرقِ والجِلْدِ والشَّعْرِ . . ثم يركبها على هذه الصور فى الأعضاء الظاهرة وفى الأجزاء الباطنة حيث يُشَكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعِظام بكيفية خاصة . . إلى غير ذلك .

وليس يخلو : إمَّا أنْ يكونَ الأبوان يصنعانه — وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِهما وقُدْرتهما عن ذلك وتمنِّيهما الولدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون !

والنُّطفة أو القَطْرةُ مُحَالٌ تقديرُ فِعْلها فى نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ ، ولا عِلْمَ لها ولا قدرة .

أو مِنْ غيرِ صانعٍ . . وبالضرورة يُعْلَمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقَ إلاَّ أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق[3] .

قوله جل ذكره : « نحن قَدَّرْنا بينكم الموتَ وما نحْنُ بمسْبوقِين * على أن نُبَدِّلَ أمثالَكم ونُنْشِئَكمْ فِيمَا لا تعْلَمُون » .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) تريبة الأم عظمة الصدر والجمع ترائب .

(٣) هذا نموذج طيب يصوِّر طريقة القشيرى متكلماً .

يكون الموتُ فى الوقتِ الذى يريده ؛ منكم مَنْ يموت طفلا ومنكم من يموت شابًّا ، ومنكم من يموت كهلاً ، وبعللٍ مختلفه وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفى أوقاتٍ مختلفة .

« وما نحن بمسبوقين » فى تقديرنا فيفوتنا شىء ولَسْنا بعاجزين عن أن نُخْلِقَ أمثالَكم ، ولا بعاجزين عن تبديلِ صُوَرِكم التى تعلمون ؛ إن أردنا مَسْخَكُم وتبديلَ صُوَرِكم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال : ونُنشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد عَلِمْتُمُ النشأةَ الأُولى فلولا تَذَكَّرون » .

أى : أنتم أقررتم بالنشأة الأولى .. فهلَّا تذكَّرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة ؛ إذ هى فى معناها[2] .

قوله جل ذكره : « أفرأيتُم ما تَحْرُثُون * أأنتم تَزْرَعُونَه أم نحن الزَّارِعُون ؟ »

أى : إذا ألقيتم الحَبَّ فى الأرض .. أأنتم تُنْبِتُونه أم نحن المُنبِتون ؟ وكذلك وُجوهُ الحكمةِ فى إنبات الزَّرْع ، وانقسام الحَبَّةِ الواحدةِ على الشجرة النابتةِ منها (فى قِشْرِها ولحائها وجِذْعِها وأغصانها وأوراقها وثمارها)[3] — كل هذا :

« لَوْ نشاءُ لجعَلْناهُ حُطاماً فظَلْتُم تَفَكَّهون » .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَته ، فصِرْتُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه ، وإنفاقكم عليه ، ثم تقولون :

« إنَّا لَمُغْرَمُون * بل نحن محرُومون »

أى : لَمُلْزَمون غرامةَ ما أنفقنا فى الزَّرع ، وقد صار ذلك غُرْماً علينا — فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقُه بغير عِوَضٍ .

---

(١) وضع هذا السطر فى مكان تالٍ بعد (فى معناها) فنقلناه إلى موضعه الصحيح .

(٢) أى أن الإعادة لا تفترق فى شىء عن الخَلْق الأول .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

« بل نحن محرومون » بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم الماء الذى تشرَبون * أأنتم أنزلتُموهُ مِنَ المُزْنِ أم نحن المُنزِلون * لو نشاء جَعَلْناهُ أُجاجاً فلولاَ تَشْكُرون » .

أأنتم أنزلتموه من السحاب.. أم نحن نُنزِلُهُ متى نشاء أنَّى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً فى الوقت وفى المقدار وفى الكيفية ، فى القِلَّة وفى الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحاً . . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ اللهِ — سبحانه — عليكم فى تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التى خَلَقَها لكم .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم النَّار التى تورُون * أأنتم أنشأتُم شَجَرَتَها أم نحن المُنْشِئون * نحن جَعَلْناها تَذْكِرةً ومتاعاً للمُقْوِين » .

وَرَى الزَّنْدَ يُرِي فهو وارٍ .. وأَوْراه يُورِيه أى يَقْدَحُهُ .

يعنى : إذا قدحتم الزند .. أرأيتم كيف تظهر النار — فهل أنتم تخلقون ذلك ؟

أأنتم أنشأتم شجرتها — يعنى المَرْخَ والعَفَار[1] — أم نحن المنشئون ؟

« نحن جعلناها تذكرة » : أى يمكن الاستدلالُ بها .

« ومتاعاً للمُقْوِين » : يقال : أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أى : الأرض الخالية .

فالمعنى : أن هذه النار « تذكرة » يتذكَّر بها الإنسان ما توعده به فى الآخرة من نار جهنم ، و « متاعا » : يستمتع بها المسافر فى سفره فى وجوه الانتفاع المختلفة .

---

(١) المرخ : شجر ينفرش ويطول فى السماء ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى يُتقدح به .
والعفار : شجيرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لبنى أحمر ، ويتخذ منها الزناد فيسرع الورى . وفى أمثال العرب : «فى كل شجر نار واستمجد المرخُ والعَفار» .

قوله جل ذكره : « فسَبِّح باسم ربِّك العظيم »

أى : اسبحْ بفكرك فى بحار عقلك ، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظفَرْ بجواهر العلم ، وإيَّاك أَنْ تُقصِّرَ فى الغوص لسببٍ أو لآخر ، وإياك أن تتداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسُ مالِك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادك . . وإلاَّ غرقتَ فى بحار الشُّبَه ، وضَلَلْتَ .

وهذه الآيات[1] التى عَدَّها الله — سبحانه — تُمَهِّدُ لسلوكِ طريقِ الاستدلال ، فكما فى الخبر « فِكْرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سَنَةٍ » — وقد نبَّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ * وإنَّه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم * إنه لَقُرْآنٌ كريمٌ * فى كتابٍ مكنونٍ * لايَمَسُّه إلا المُطَهَّرُون * تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » .

قيل : هى مواقع نجوم السماء . ويقال : مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

« إنه لقرآن كريمٌ »: والكَرَمُ نَفْىُ الدناءة — أى: أنه غير مخلوق[2] ويقال : هو « قرآن كريمٌ » : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريمٌ لأنه من عند ربٍّ كريم على رسولٍ كريمٍ ، على لسان مَلَكٍ كريم . « فى كتاب مكنون» : يقال : فى اللوح المحفوظ . ويقال : فى المصاحف . وهو محفوظ عن التبديل . « لايمسّه إلا المطهرون » عن الأدناس والعيوب والمعاصى .

---

(١) إذا تدبرنا هذه الآيات ألفينا القرآن يخاطب العقل الإنسانى بالتدبر فى ثلاثة أشياء : الغذاء والماء والنار ، وبدون الثلاثة لا تقوم الحياة ولا تنتظم .

(٢) هذه إحدى الأفكار الخطيرة التى اشتجر حولها الخلاف بين الأشاعرة الذين يقولون : (القرآن غير مخلوق) وبين المعتزلة الذى يقولون : إنه مخلوق .

ويقال : هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر : أى لا ينبغى أنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتَطهِّراً من الشِّرْكِ ومن الأحداث[1] .

ويقال : لا يجد طَعْمَه وبَرَكَته إلَّا مَنْ آمَنَ به .

ويقال : لا يقربه إلاَّ الموَحِّدون ، فأمَّا الكفَّار فيكرهون سماعَه فلا يقربونه .

وقرئ المُطَهَّرون : أى الذين يُطَهِّرون نفوسَهم عن الذنوب والخُلُقِ الدَّنِىّ .

ويقال : لا يَمَسُّ خيره إلاَّ من طُهِّر يومَ القسمة عن الشقاوة .

ويقال : لا يَفْهَم لطائفَة إلَّا مَنْ طَهَّر سِرَّه عن الكون[2].

ويقال : المطهَّرون سرائرَهم عن غيره .

ويقال : إلا المُحْتَرِمون له القائمون بحقِّه .

ويقال : إلا مَنْ طُهِّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة

« تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » : أى مُنَزَّلٌ من قِبَلِهِ — سبحانه .

قوله جل ذكره : « أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون * وتجعلون رِزْقَكم أنَّكم تُكَذِّبون ».

أبهذا القرآن أنتم تُنافِقون ، وبه تُكَذِّبون .

« وتجعلون رزقكم . . . » : كانوا إذ أُمْطِروا يقولون : أُمْطِرْنا بِنَوْءِ كذا .

يقول : أتجعلون بَدَلَ إنعامِ اللهِ عليكم بالمطر الكفرانَ به ، وتتوهمون أن المطرَ — الذى هو نعمةٌ من الله — من الأنواء والكواكب ؟ ! .

ويقال : أتجعلون حظَّكم ونصيبَكم من القرآنِ التكذيبَ ؟ .

قوله جل ذكره : « فلولا إذا بَلَغَتِ الحُلْقوم * وأنتم حِينَئِذٍ تنظرون * ونحنُ أقْرَبُ إليه مِنكم ولَكِن لاَ تُبْصِرُون » .

---

(١) هى هنا جمع حَدَث أى النجاسة التى ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم .

(٢) لنتذكر أن هذا الكتاب الذى وضعه القشيرى هو لفهم (لطائف الإشارات) القرآنية ، ولندرك رأيه فى سمات هذا اللون من التفسير وأهله .

يخاطبُ أولياء الميت[1] فيقول : هلّا إذا بلغتْ روحهُ الحلقوم ، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض ، رجعتم إلى الله تعالى ، وتحققتم به ؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة . . ولكن لا تبصرون !

ويقال : أقرب ما يكون العبدُ من الحقّ عندما يتم استيلاء ذِكْرِه وشهودِه عليه ، فينتفِي إحساسُ العبدِ بغيره ، وعلى حسب انتفاء العلمِ والإحساسِ بالأغيار — حتى عن نفسه — يكون تحقُّقُ العبد فى سِرِّه حتى لا يرى غير الحقّ .

فالقرب والبعد معناهما : أنَّ العبدَ فى أوان صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ — بَعْدُ — عن نفسه ؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق . . لأنه حينئذٍ لا قُرْب ولا بُعْدَ .

قوله جل ذكره : « فلولا إن كنتم غيرَ مدينين * تَرْجِعونها إن كنتم صادقين » .

ليس لكم من أمر الموت شىء .

«ترجعونها» أى : تردُّون الروح إلى الجسد .

« إن كنتم صادقين » : فى أنه لا بعث[2].

قوله جل ذكره : « فأمّا إن كان من المُقَرَّبين * فَرَوْحٌ وريْحانٌ وجَنَّتُ نعيم » .

المقرَّبون هم الذين قرَّبهم اللهُ بفضله ، فلهم « رَوح وريحان » .

ويقال : الرَّوْح الاستراحة ، والريحانُ الرزقُ .

وقيل : الرَّوْح فى القبر ، والريحانُ : فى الجنة .

---

(١) فى م (البيت) وفى ص (الميت) وهذه هى الصواب .

(٢) نشعر أن تفسير القشيرى هنا مقتضب ، ويلزم التوضيح : ترتيب الآية هو : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين .. أمّا نحن فنحن أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت . أمّا أنتم . . فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمة قابض وكنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت والمبدىء المعيد ؟ !

ويقال : لا يخرج مؤمنٌ من الدنيا حتى يؤتى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه ، فالرَّوْح راحةٌ عند الموت ، والريحان فى الآخرة .

وقيل : كانت قراءة النبي (ص) « الرُّوح » بضم الراء أى لهم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والريحان لنفوسهم ، والجنَّةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ فى الدنيا ، وريحانٌ فى الجنة ، وجنَّةُ نعيمٍ فى الآخرة .

ويقال : رَوْحٌ وريحان مُعَجَّلان ، وجنة نعيم مؤجلة .

ويقال : رَوْحٌ للعابدين ، وريحان للعارفين ، وجَنَّةُ نعيم لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نسيم القرب ، وريحان كمال البسط ، وجنة نعيمٍ فى محل المناجاة .

ويقال : رَوْح رؤية الله ، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة ، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع .

قوله جل ذكره : « وأمَّا إن كَانَ من أصْحَابِ الْيَمين *
فسلامٌ لكَ من أصْحَاب اليَمين » .

أن تخبرك بسلامَة أحوالِهم .

ويقال : سترى فيهم ما تحب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك فى بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تَشْغِلْ قلبَكَ بهم

ويقال : فسلامٌ لك — أيها الإنسان — إنك من أصحاب اليمين ، أو أيها الإنسانَ الذى من أصحاب اليمين .

قوله جل ذكره : « وأمَّا إن كان من المُكَذِّبين
الضَّالِّين * فَنُزُلٌ من حَمِيمٍ *
وتصْليةُ جَحِيم » .

إن كان من المكذبين لله ، الضالّين عن دين الله فله إقامةٌ فى الجحيم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هذا لهو حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسمِ ربِّكَ الْعَظِيم » .

هذا هو الحق اليقين الذى لا محالةَ حاصلٌ .

« فسبحّ باسْم ربِّك الْعَظِيم » أى قَدِّس اللهَ عمّا لا يجوز فى وصفه .

ويقال : صلِّ لله . ويقال : اشكر اللهَ على عصمة أُمَّتِكَ من الضّلال ، وعلى توفيقهم فى اتِّباعِ سُنّتِكَ .

سُورَةُ الحَدِيد

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي به الحقُّ — سبحانه وتعالى — قلوبَ أحبّائه ، فإذا شَرِبوا طَرِبُوا ، وإذا طَرِبوا انبسطوا[1] ، ثم لشهود حقِّه[2] تعرّضوا ، وبنسيم قُرْبه استأنسوا[3] ، وعند الإحساس بهم غابوا . . فعقولُهم تُسْتَغرقُ[4] فى لُطْفِه ، وقلوبهم تُسْتَهْلَكُ فى كَشْفِه .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لله ما فى السَّمٰواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ » .

التسبيحُ التقديسُ والتنزيه ، ويكون بمعنى سباحة الأسرار فى بحار الإجلال ، فيظفرون بجواهر التوحيد ويَنْظِمونها فى عقود الإيمان ، ويُرَصِّعونها فى أطواق الوصلة :

وقوله « ما » فى السمٰوات والأرض المرادُ به « من » فى السمٰوات والأرض ، يسجدون لله طوعاً وكرهاً ؛ طوعاً تسبيحَ طاعةٍ وعبادة ، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة .

وتُحْمَلُ « ما » على ظاهرها فيكون المعنى : ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أثَرٍ إلا ويَدُلُّ على الصانع ، وعلى إثبات جلاله ، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه .

---

(١) انبسطوا أى : ذاقوا حال البسط . ويصل العارف إلى القبض والبسط بعد حالى الرجاء والخوف . والمبسوط قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شىء بحال من الأحوال (الرسالة ص ٣٥) .

(٢) شهود حق الله لا يتم إلا بعد اختفاء حظوظ العبد .

(٣) من الأنس . سئل الجنيد عنه فقال : هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون عنه فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

وسئل الشبلى عنه فقال : هو حشتك منه (التعرف للكلاباذى ص ١٢٦، ١٢٧) .

(٤) ضبطناها هكذا مبنية للمجهول لأن المفروض أن شمس الحقيقة يستغرق نورها نجوم العقل .

ويقال : يُسبح لله ما في السموات والأرض ، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدِ الطلبِ . . . ولكنه — سبحانه عزيزٌ[1].

ويقال : ما تقلّب أحدٌ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد ، فما يُصرِّفهم إلا مَنْ خلقهم ؛ فمِنْ مُطيعٍ ألبسه نطاق وفاقه — وذلك فضْلُه ، ومِنْ عاصٍ ربطه بمثقلة الخذلان — وذلك عدْلُه .

« وهوَ العزيزُ الحكيم » : العزيز : المُعِزُّ لِمَنْ طلَبَ الوصول ، بل العزيز : المتقدِّسُ عن كل وصول . . فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظُّه ونصيبه وصفته على ما يليق به .

قوله جل ذكره : « له مُلْكُ السموات والأرضِ يُحْيِي ويُميتُ وهو على كل شيء قديرٌ » .

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مالكَ إلا الله . وإذا قيل لغيره : مالك فعلى سبيل المجاز ؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحة في الشرع ، ولكنَّ لفظَ المِلْك فيها توسُّعٌ كما أن لفظَ التيمم في استعمال التراب — عند عدم الماء — في السفر مجازٌ ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة ، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز .

« يُحيي ويُميتُ » : يُحْيي النفوسَ ويميتها . ويُحْيي القلوبَ بإقباله عليها ، ويميتها بإعراضه عنها . ويقال : يحييها بنظره وتفضُّله ، ويميتها بقهره وتعزُّزه .

قوله جل ذكره : « هو الأوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيء عليمٌ » .

« الأول » : لاستحقاقه صفة القِدَم ، و « الآخرُ » لاستحالة نعت العَدَم .

و « الظاهر » بالعلو والرفعة ، و« الباطن » : بالعلم والحكمة .

ويقال : « الأول » فلا افتتاحَ لوجوده و « الآخِر » فلا انقطاعَ لثبوته .

« الظاهر » فلاخفاء في جلال عِزِّه ، « الباطن » فلا سبيل إلى إدراك حقِّه .

ويقال « الأول » بلا ابتداء ، و « الآخِر » بلا انتهاء ، و « الظاهر » بلاخفاء ، و «الباطن» بنعت العلاء وعِزِّ الكبرياء .

---

(١) أي حلَّت الصمدية أن يستشرف من ذاتها أحد .. فكل واقف بالباب على البساط .

ويقال « الأول » بالعناية ، و « الآخِر » بالهداية ، و « الظـــــاهر » بالرعاية ، و « الباطن » بالولاية .

ويقال : « الأول » بالخَلْق ، و « الآخِر » بالرزق ، و « الظاهر » بالإحياء ، و « الباطن » بالإماتة والإفناء .

قال تعالى : « اللهُ الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »[1].

ويقال : « الأول » لا بزمان ، و « الآخر » لا بأوان ، و « الظاهر » بلا اقتراب ، و « الباطن » بلا احتجاب .

ويقال : « الأول » بالوصلة ، و « الآخر » بالخلّة ، و « الظاهر » بالأدلة ، و « الباطن » بالبعد[2] عن مشابهة الجملة[3].

ويقال : « الأول » بالتعريف ، « والآخـــــر » بالتكليف ، « والظاهر » بالتشريف « والباطن » بالتخفيف[4]

ويقال : « الأول » بالإعلام ، « والآخر » بالإلزام ، « والظاهر » بالإنعام « والباطن » بالإكرام .

ويقال : « الأول » بأن اصطفاك « والآخر » بأن هداك ، « والظاهر » بأن رعاك ، « والباطن » بأن كفاك .

ويقال[5] : مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه « الأول » كانت فكرته فى حديثِ سابقته : بماذا سمّاه مولاه ؟ وما الذى أجرى له فى سابقِ حُكْمه ؟ أبسعادته أم بشقائه ؟ .

---

(١) آية ٤٠ سورة الروم .

(٢) سقط – (بالبعد) فى النسخة م وموجودة فى ص

(٣) المقصود (بالجملة) هنا جملة المخلوقات .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (بالتحقيق) وهذه وإن كانت – صحيحة إلا أن السياق الموسيقى الذى جرى عليه المصنف يرجح (بالتخفيف) على معنى أنه علم ضعف عباده فلم يكلفهم فوق طاقتهم .

(٥) هذه الفقرة هامة فى بيان أن الصوفية حينما يتصدون لدراسة الأسماء والصفات يهتمون بالآداب ؛ والسلوك وكيف يتخلّق الصوفى بأخلاق الله ويتأدب بأسمائه أنظر مقدمة كتاب ؛ التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى) .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه « الآخرِ » كانت فكرته فى : بماذا يختم له حالَه ؟ وإلامَ يصير مآلُه؟ أعَلَى التوحيد يَخْرُجُ من دنياه أو — والعياذُ بالله — فى النارِ غداً — مثواه ؟

ومَن كان الغالبُ على قلبه اسمُه « الظاهر » فاشتغاله بشكر ما يجرى فى الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسْنِ الرعاية .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه « الباطن » كانت فكرتُه فى استبهام أمره عليه فيتعثّر ولا يدرى . . أفَضْلٌ ما يعامله به ربُّه أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه ؟

ويقال : « الأول » علم ما يفعله عبادُه ولم يمنعه عِلْمُه من تعريفهم ، « والآخِر » رأى ما عَمِلوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم « والظاهر » ليس يَخْفَى عليه شىء من شأنهم ، وليس يَدَعُ شيئاً من إحسانهم « والباطن » يعلم ماليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع[1] عنهم فنونَ مِحَنهم وأحزانهم .

قوله جل ذكره : « هُوَ الذى خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ فى ستّةِ أيامٍ ثم استوىٰ عَلَى العرشِ ».

مضى الكلام فى ذلك .

« يَعْلَمُ ما يَلِجُ فى الأرضِ وما يخْرُجُ مِنْها » .

أى ما يدخل فيها من القَطْرِ ، والكنوزِ ، والبذورِ ، والأمواتِ الذين يُدْفَنون فيها ، « وما يخرج منها » من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن .

« وما يَنزِلُ من السَّماء » .

من المطر والأرزاق . أو ما يأتى به الملائكةُ من القضاء والوحى .

« وما يَعْرُجُ فيها » .

أى وما يصعد إليها من الملائكة ، وطاعاتِ العِباد ، ودعوات الخَلْقِ ، وصحف المُكَلَّفين ، وأرواح المؤمنين .

---

(١) هنا إشارة لنعم الدفع أو المنع التى لا يفطن إليها الناس .

« وهو مَعَكم أينَ ما كُنتم والله بما تعملون بَصيرٌ » .

« وهو معكم » بالعلم والقدرة .

ويقال[1] : « يعلم ما يلج فى الأرض » إذا دُفِنَ العَبْدُ فالله سبحانه يعلم ما الذى كان فى قلبه من إخلاصٍ فى توحيدِه ، ووجوهِ أحزانه خسرانه ، وشَكِّه وجحوده ، وأوصافه المحمودة والمذمومة . . ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

« وما ينزل من السماء » على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة .

« وما يعرج فيها » من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت ، وحسراتهم إذا عَلَت .

قوله جل ذكره : « يُولِجُ اللَّيلَ فى النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ فى اللَّيلِ » .

مضى معناه .

قوله جل ذكره : « آمِنوا باللهِ وَرسُولِهِ وأنفِقوا مِمَّا جَعَلَكم مُستَخْلَفِين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ » .

صَدِّقوا باللهِ ورسولِهِ ، وتَصَدَّقوا « مما جعلكم مستخلفين فيه » بتمليككم ذلك وتصييره إليكم . والذين آمنوا منكم وتصدَّقوا على الوجه الذى أُمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ ؛ فإنَّ ما تحويه الأيدى مُعَرَّضٌ للزوال ، فالسَّعيدُ مَنْ قَدَّمَ فى دنياه مَالَه فى الآخرة عمارة حاله ، والشقىُّ من سار فيما له فى الآخرة وَبالُ مآله .

قوله جل ذكره : « وما لَكُمْ لاتُؤمنون باللهِ والرسولُ يدعوكم لتؤمِنوا بربِّكم وقد أخَذَ ميثاقَكُمْ إن كنتم مُؤمنين » .

---

(١) هذه الفقرة استدراك أثبته القشيرى متأخراً عن موضعه الأصل قليلا .

أى شىء لكم فى تَرْكِكُم الإيمان بالله وبرسوله ، وما أتاكم به من الحشر والنشر ، وقد أزاح العِلَّةَ بأنْ ألاَحَ لكم الحُجَّةَ ، وقد أخَذَ ميثاقَكم وقتَ الذَّرِّ ، وأوجب عليكم ذلك بحُكم الشَّرْع .

قوله جل ذكره : « هُوَ الذى يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكم من الظُّلُماتِ إلى النورِ وإنَّ اللهَ بكم لرءوفٌ رحيمٌ » .

ليخرِجَكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشكِّ إلى نور اليقين .

وكذلك يُريهم فى أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السِّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفعَ والخيرَ ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير[1] إلى سعة فضاء التفويض ، وملاحظة فنون جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الجنوحَ إلى الرُّخَصِ والأخذِ بالتخفيف[2] وما تكون عليه المطالبةُ بالأشَقِّ — فإن بادَرَ إلى ماتدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ فى قلبه من النور ما يَعْلَمُ به ظلمةَ هواجس النَّفْسِ[3] .

قوله جل ذكره : « وما لَكُمْ ألاَّ تُنفِقُوا فى سبيلِ اللهِ وللهِ ميراثُ السمٰواتِ والأرضِ » .

ما فى أيديكم ميراثُه لله ، وعن قريبٍ سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتطاول أحالكم . وهو بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل . . ثم قال :

« لا يَسْتَوى منكم مَّنْ أنفق مِن قَبْلِ الفتحِ وقاتَلَ أولئكَ أعظمُ درجةً

---

(١) أى ظلمات التدبير الإنسانى ، والتعويل على النفس ، فاعتماد الإنسان على تدبيره مجلبة لشقائه . . وأنَّى للطين أن يكون ذا تدبير ؟ !

(٢) هكذا فى م وهى الصواب أما (التحقيق) التى فى ص فهى خطأ فى النسخ ؛ لأن الاسير خاص جنوحٌ إلى (التخفيف) كما نعلم

(٣) يتفق هذا مع قول الرسول الكريم «استفت قلبك ولو أفتاك المفتون» .

من اللذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا وكلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىٰ واللهُ بما تعملُون خبيرٌ » .

لا يستوى منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك . بل أولئك أعظم ثوابًا وأعلى درجةً من هؤلاء ؛ لأنَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشقَّ على أصحابه[1] .

ثم قال : « وكلاً وَعَدَ الله الحسنى » إلاَّ أنَّ فضيلة السَّبْقِ لهم ، ولهذا قالوا :

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً حذِّر النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

قوله جل ذكره : « مَّن ذا الذى يُقرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فيُضاعِفَه له وله أجْرٌ كريمٌ » .

المراد بالقرض الصدقة ، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم ، فكأن المتصدِّق وهو يقرض شيئاً كالذى يقطع شيئاً من ماله ليدفعَه إلى المُسْتَقْرِض .

ويقال « يقرض » أى يفعل فعلاً حسناً ، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهٍ حلالٍ ثم عن طِيبِ قلبٍ ، وصاحبُه مخلِصٌ فيه ، بلا رياء يشوبه ، وبلا مَنٍّ على الفقير ، ولا يُكَدِّره تطويلُ الوعد ، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض .

ويقال : أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين[2] ، فى الخبر : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى »[3] ومَنْ لم يتحرَّرْ من شىء فخروجُه عنه تكلُّفٌ[4] .

---

(١) لأن الإسلام لم يكن بعد . قد عز واستمكن وانتشر فى الأرجاء .

(٢) أى دون أن يكون قصدك على ما تفعل عوضاً أو عرضاً سواء فى الدنيا أو فى الآخرة إذ يكفى أن تعلم أى شرف لك أن : تُقْرِض الله ! !

(٣) حدث الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » البخارى حـ٣ ص ١٩١ (كتاب النفقات) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م «تكلف » كما أثبتنا لأن السياق يقتضى ذلك . وتوجد بعد (تكلف) عبارة منبهة فى الخط والمعنى ، تشبه أن تكون : (وهو على من يصل إليه ربى به) .

قوله جل ذكره : « يومَ ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَىٰ نُورُهم بين أيديهمْ وبأَيْمانِهم بُشْرَاكُمُ اليومَ جَنَّاتٌ تجرى مِن تحتها الأنهارُ خَالدِينَ فيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعظيمُ » .

وهو نورٌ يُعْطَى للمؤمنين والمؤمنات بقَدْر أعمالهم الصالحة ، ويكون لذلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم ، ويحيط جميع جهاتهم .

ويقال : « وبأَيْمانهم » كُتُبهم .

« بشراكم اليومَ جنات » أى بشارتكم اليومَ — من الله جنات . وكما أن لهم فى العرضة هذا النور فاليومَ لهم فى قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه ، ويهتدون به فى جميع أحوالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ينظر بنور الله » وقال تعالى : « فهو على نورٍ من ربِّه[1] » .

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْربُ منهم . وربما يقع من ذلك على القلوب قَهْراً — ولأوليائه — لامحالةَ — هذه الخصوصية .

قوله جل ذكره : « يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نقتبِسْ من نُورِكم » .

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبسَ من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعْطَوْنَ كُتُبهم وهم فى النور ، فإذا مَرُّوا . . . انطفأ النور أمام المنافقين وسَبقَ المؤمنون ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انتظرونا حتى نقتبسَ من نوركم . فيقول المؤمنون :

« قيل ارْجعوا وراءكُمْ فالتمسُوا نوراً »

أى إلى الدنيا وأخلِصوا ! — تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين فى الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى حُكْم الأزلِ فاطلبوا[2] هذا من القِسْمة ! — وهذا على جهة ضرب المَثل والاستبعاد .

---

(١) آية ٢٢ سورة الزمر .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (فاطلعوا) وقد آثرنا الأولى لأنها آكد فى الاستبعاد — وهو المقصود .

« فضُرب بينهم بِسُورٍ له بابٌ باطِنه فيه الرحمةُ
وظاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذابُ » .

« بسورٍ : وهو جَبَلُ أصحاب الأعراف ، يستر بينهم وبين المنافقين ، فالوجهُ الذى يلى المؤمن فيه الرحمة وفى الوجه الآخر العذابُ .

قوله جل ذكره : « ينادونَهُم ألم نكن مَّعكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فَتَنتم أنفُسكم ... » .

ألم نكن معكم فى الدنيا فى أحكام الإيمان فى المناكحة والمعاشرة ؟ .

قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ..

« وتربصتم ، وارتبتم ، وغرَّتكُم الأمانىُّ حتى جاء أمرُ اللهِ
وغرَّكم باللهِ الغَرورُ » .

تربصتم عن الإخلاص ، وشككتم ، وغرَّكم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جل ذكره : « فاليومَ لا يُؤخَذُ مِنكم فِدْيةٌ ولا مِنَ الذين كفروا مأواكم النَّارُ هى مولاكم
وبئسَ المصيرُ » .

النارُ مأواكم ومصيرُكم ومُتَقَلَّبُكُم .

وهى « مولاكم » أى هى أولَى بكم ، وبئس المصير !

ويقال : مخالفةُ الضمائر والسرائر لاتنكتم بموافقة الظاهر[1] ، والأسرار لاتنكتم عند الاختبار

قوله جل ذكره : ألَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشَعَ قلوبُهُم لذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ
ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ

---

(١) السياق حديث عن المنافقين وعن الكفار .. وأراد القشيرى أن ينقل هذا السياق إلى الجو الصوفى فوجه تحذيره لأرباب ؛ الرياء والدعوى ، أولئك الذين يظنون أنهم إن تصاهروا بالقيام بموافقة الشريعة وموافقة القوم فإن الأسرة سريعاً ما تكشف السريرة — على حد تعبيره ، فى موضع مماثل .

مِن قَبْلُ فَطَالَ عليهمُ الأمَدُ فَقَستْ
قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون » .

ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تتواضعَ قلوبُهم وتلين لذِكْر اللهِ وللقرآنِ وما فيه من العِبَرِ ؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل ؟ وأراد بهم اليهودَ ، وكثيرٌ من اليهود فاسقون كافرون .

وأراد بطول الأمَدِ الفترةَ التى كانت بين موسى ونبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، وفى الخبر : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم ملالةٌ فقالوا : لو حَدَّثْتنا .

فأنزل اللهُ تعالى : « الله نَزَّل أحسَنَ الحديث .. » فبعد مُدَّةٍ قالوا :

لو قَصَصْتَ علينا !

فأنزل اللهُ تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ... » فبعد مدةٍ قالوا : لو ذَكَّرْتَنا ووَعَظْتَنا !

فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وفى هذه الآية ما يشبه الاستبطاء .

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة ، والشهوة والصفوة لا تجتمعان ؛ فإذا حَصَلَت الشهوةُ رَحَلت الصفوة . وموجِبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ. ويقال : موجب القسوة أوَّلُه خَطْرة فإن لمْ تُتدارَكْ صارت فكرة وإن لَمْ تُتدارَكْ صارت عزيمة ، فإن لم تُتَدَاركْ جَرَت المخالفة ، فإن لم تُتدارَكْ بالتلافى صارت قسوةً وبعدئذ تصير طَبعاً ورَيْناً[1]

قوله جل ذكره : « اعلموا أنَّ اللهَ يُحْيِى الأرضَ بعد موتها
قد بَيَّنا لكم الآياتِ لعلَّكم تَعْقِلُونَ » .

يُحْيِى الأرضَ بعد موتها بإنزال المطرِ عليها وإخراج النَّبتِ منها .

---

(١) رَانَ الثوب ؛ رَيْنًا أى تطبَّع وتدنَّس ، ورانت النفس أى خبثت وغثت . (الوسيط) .

ويُحيي القلوبَ الميتةَ — بعد إعراضِ الحقِّ عنها — بحسن إقباله عليها[1] .

قوله جل ذكره : « إنّ المُصدّقين والمصدقاتِ وأقرضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لهم وَلَهُمْ أجْرٌ كريمٌ » .

أى المتصدقين والمتصدقات .

« وأقرضوا الله قرضاً حسناً » : يعنى فى النوافل .

« يضاعفُ لهم » فى الحسنات ، الحسنةُ بعَشْر أمثالها .. إلى ما شاء اللهُ

« ولهم أجر كريم » : ثوابٌ كبيرٌ حَسَنٌ . والثوابُ الكريمُ أنّه لا يضِن بأقصى الأجْرِ على الطاعةِ — وإنْ قَلّتْ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئكَ هُمُ الصدِّيقون والشّهداء عند ربِّهم لهم أجْرهم ونُورُهم » .

الصدِّيقون : مبالغة فى الصدق ، والشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء — لهم أجرهم فى الجنة ونورهم فى القيامة .

« والذين كفروا وكَذّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيمِ » .

والصدِّيق مَن استوى ظاهرُه وباطنُه .

ويقال : هو الذى يحمل الأمرَ على الأشقِّ ، ولا يَنْزلُ إلى الرُّخَصِ ، ولا يجنح للتأويلات .

والشهداءُ : الذين يشهدون بقربهم مواطن الوصلة ، ويعتكفون بأسرارهم فى أوطان القربة ، « ونورهم » : ما كحل الحقّ به بصائرهم من أنوار التوحيد .

---

(١) كان المفروض أن تكون العبارة هكذا :
(ويحيى القلوب الميتة بعد إعراضه عنها) .
فاستعمال (الحق) فى الإضافة مسألة تهم أرباب القلوب المتحققين الفانين عن الخلق الباقين بالحق .

قوله جل ذكره : « اعلموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ
وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بينكم وتكاثرٌ
فى الأموالِ والأولادِ » .

الحياةُ الدنيا مُعَرَّضَةٌ للزوال ، غيرُ لابثةٍ ولا ماكثة ، وهى فى الحالِ شاغلةٌ عن الله ، مُطْمِعةٌ[1] وغير مُشْبِعة ، وتجرى على غير سَنَن الاستقامة كجريان لَعِب[2] الصبيان ، فهى تُلْهى عن الصوابِ واستبصار الحقِّ ، وهى تفاخرٌ وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد .

« كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نباتُه
ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا ثم يكونُ
حُطاماً » .

الكفار : الزُّرَّاع .

هو فى غايةِ الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ فى الجفاف ، ثم ينتهى إلى أنْ يتحطّم ويتكسّر .

« وفى الآخرةِ عذابٌ شديدٌ » .

لأهله من الكفّار .

« ومغفِرةٌ من اللهِ ورِضْوانٌ » .

لأهله من المؤمنين .

« وما الحياةُ الدنيا إلا مَتَاعُ الغُرورِ » .

الدنيا حقيرةٌ — وأحقرُ منها قَدْراً طالبُها وأقلُّ منه خَطَراً المزاحم فيها ، فما هى إلا جيفة ؛ وطالِبُ الجيفةِ ليس له خطرٌ . وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها .

وهذه الدنيا المذمومة هى التى تَشْغَلُ العبدَ عن الآخرة !

---

(١) ربما كانت – (مطعمة) فى الأصل ؛ فقد تبدو الدنيا ذات قيمة ولكنها فى الحقيقة عديمة القيمة .

(٢) فى النسختين (لعاب) الأطفال ، ومع ذلك فقد آثرنا أن نثبت هنا (لعب) بالرغم من تحمسنا لاستعمال (اللعاب) فى موضع سبق ؛ ذلك لأننا نرى إضافة اللعاب إلى الصبيان لا يزيد المعنى تأكيداً ، فاللعاب ظاهرة فسيولوجية تجرى على غير نظام — وهذا هو المطلوب – عند الكبار والصغار على حدٍّ سواء ، بينما إضافة اللعب إلى الصبيان تعطى المعنى المطلوب .

قوله جل ذكره : « سَابِقُوا إلى مَغْفِرةٍ من رَّبِّكم وَجنَّةٍ عَرْضُها كَعَرضِ السماء والأرضِ أُعِدَّتْ للذين آمنوا بالله ورُسُلِه » .

أى سارِعوا إلى عَمَلٍ يوجب لكم مغفرةً من ربِّكم ، وذلك العملُ هو التوبة .

« وجنة عرضها . . . » ذَكر عَرْضها ولم يذكرْ طولها ؛ فالطول على ما يوافيه العَرْضُ .

« أُعِدَّت للذين آمنوا بالله ورُسلِه » : وفى هذا دليلٌ على أنَّ الجنةَ مخلوقة[1] .

« ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتيه مَن يشاء واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

وفى ذلك ردٌّ على من يقول : « إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات ، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها »[2] ... لأن الفضلَ لا يكون واجباً .

ويقال : لمَّا سمعت أسرار المؤمنين[3] هذا الخطاب[4] ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح ، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبةِ ، مُستبشرة برعاية حقوق الله ؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحقِّ سبحانه .

قوله جل ذكره : « ما أصَابَ من مُصيبةٍ فى الأرْضِ وَلَا فى أنفُسِكُم إلّا فى كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَّبْرأَها ، إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يسيرٌ » .

المصيبة حَصْلَةٌ[5] تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل فى الأرض ولا فى أنفسكم شىء

---

(١) هكذا أيضاً يرى ابن القيم فى (اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٢) .
والأشاعرة والسلف يرون ذلك ويرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وأنهما باقيتان .

(٢) هذا رأى المعتزلة الذين اعتبروا ذلك من مقتضيات العدل الالهى .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (الموحدين) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (الخطاة) وواضح فيها خطأ الناسخ لأن الأمر متعلق بالفعل (سابقوا ...)

(٥) بمعنى حادث يحصل ، وهى فى (خصلة) بالخاء والصواب حصلة . (انظر ما يقوله القشيرى فى سورة التغابن عند «ما أصاب من مصيبة» على معنى : (خصل الهم خصلا وخصلة) أى وقع بلزق الهدف أو أصابه .

إلا وهو مُثْبَتٌ فى اللوح المحفوظ على الوجه الذى سبق به العِلْم ، وحقّ فيه الحكم ؛ قبل أن نخلق ذلك أثبتناه فى اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل فى الأرض من خصبٍ أو جدبٍ ، من سعةٍ أو ضيق ، من فتنة أواستقامة وما حصل فى النفوس من حزن أو سرور ، من حياةٍ أو موت كلُّ ذلك مُثبت فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل .

وفى قوله : « من قبل أن نبرأها » دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه . وللعبدِ فى العلم بأنّ ما يصيبه : من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من اللهِ — أشدُّ السرور وأتمُّ الأنسِ ؛ حيث عَلِمَ أنه أفْرِدَ بذلك بظهر غيبٍ منـــه ، بل وهو فى كنز العَدَم ، ولهذا قالوا :

سقياً لعهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصبابة معهداً[1]

قوله جل ذكره : « لكيلا تَأْسَوْا على ما فاتكُم
ولا تفرحُوا بما آتاكم » .

عَدَمُ الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْس، فقيمةُ الرجالِ تتبين بتغيُّرِهم — فَمَنْ لم يتغيرْ بما يَرِدُ عليه — مما لا يريده — من جفاء أو مكروهٍ أو محنة فهو كاملٌ ، ومَنْ لم يتغيَّرْ بالمســـارّ كما لا يتغير بالمضارّ ، ولا يَسُرُّه الوجودُ كما لا يُحْزِنه العَدَمُ — فهو سَيِّد وقته[2].

ويقال : إذا أردْتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد ؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النَّفْس بأىّ وجهٍ كان :

« واللهُ لا يحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فخورٍ » .

---

(١) وهكذا نرى أن الجبرية عند الصوفية ترتبط بالمحبة القديمة ، فالله البارىء الخالق للعبد من العدم .. لن يريد به إلا الخير .. وحتى لو أصاب العبد تلف .. فمرحباً به فهو تلف فى سبيل المحبوب .

(٢) التغير من علامات التلوين ، والثبات فى المسار والمضار — عند تقلب الأحوال على العارف — من علامات التمكين . فسادات الوقت هم أهل التمكين .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها[1]، والفخرُ (ناتجٌ)[2] عن رؤيةِ ما به يفتخر .

قوله جل ذكره : « الذين يبخلون ويأمُرُونَ الناس بالبخلِ ، ومَن يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحميدُ » .

بخلوا بكتمان صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وأمَروا أتْباعَهم بذلك ، وذلك لمَّا خافوا من كسادِ سُوقِهم وبطلان رياستهم .

« ومن يتولَّ .. عن الإيمان ، أو إعطاءِ الصَّدَقَة « فإن الله هو الغنى الحميد » .

والبخلُ — على لسان العلم — مَنْعُ الواجب[3] ، فأمّا على بيان هذه الطائفة[4] فقد قالوا : البخلُ رؤية قَدْرٍ للأشياء ، والبخيلُ الذى يُعْطِي عند السؤال[5] ، وقيل : مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمَهَ فهو بخيل[6] .

قوله جل ذكره : « لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ » .

أى أرسلناهم مُؤيَّدين بالحُجَجِ اللائحة والبراهين الواضحة ، وأزَحْنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوكَ الحُجَّةِ المُثْلَى ، ويَسَّرْنا السبيل على مَنْ آثَرَ اتّباعَ الهُدَى . وأنزلنا معهم الكُتُبَ المُنَزَّلَةَ ، و « الميزانَ » : أى الحُكْمَ بالقرآن ، واعتبار العَدْلِ والتسويةِ بين الناس .

« ليقومَ الناسُ بالقسط » : فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحداً .

---

(١) هكذا فى ص وهى أصوب من (زينتها) التى فى م ، فرؤية النفس آفة يحذر منها أرباب الطريق — خاصة أهل الملامة .

(٢) إضافة من عندنا حتى يتضح السياق .

(٣) يقصد منع الزكاة المفروضة حسب علوم الشريعة .

(٤) يقصد طائفة الصوفية .

(٥) أى لاينتظر حتى يسأله سائل ، وإنما هو يعطى دائماً دون انتظار لدعوة داعٍ أو سؤال سائل .

(٦) لأنه ينبغى أن يكون مستعداً لاعضائه لغيره عند أى ظرفٍ من الظروف ، والمقصود أن يكون فى العبد إيثار الفتيان (راجع فضل الفتوة فى رسالة القشيرى) .

قوله جل ذكره : « وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شـــديدٌ ومنافِـعُ للناسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَه بالغيبِ إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ ».

« أنزلنا الحديد » : أى خلقنا الحديد .

ونصرة اللهِ هى نصرةُ دينه ، ونصرةُ الرسولِ باتِّباعِ سُنَّتِه .

« إن الله قوى عزيز » : أقوى من أنْ يُنازِعَه شريكٌ ، أو يضارِعَه فى المُلْكِ مليك ، وأعزُّ من أنْ يحتاج إلى ناصر .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجَعَلْنا فى ذُرِّيَّتِهما النُّبُوَّةَ والـكتابَ »

أى : أرسلنا نوحاً ، ومن بعده إبراهيمَ ، وجعلنا فى نَسْلِهما النبوَّةَ والـكتاب .

« فمنهم مهتدٍ » .

أى : مستجيبٌ .

« وكثيرٌ منهم فاسقون » .

خرجوا عن الطاعة .

قوله جل ذكره : « ثم قَفَّيْنَا على آثارهم برُسُلِنا وقَفَّيْنَا بعيسى ابن مريمَ وآتينـــاه الإنجيلَ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً » .

أى : أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم .

« ورَهْبانيّةً ابْتدعُوهـا مَا كتبْناهَا عليهم » .

بَيَّنَ أنّه لم يأمرهم بالرهبانيَّة[1] بل هم الذين ابتدعوها

(١) الرهبانية هى : الفعلة المنسوبة إلى الرَّهْبان وهو الخائف – صيغة فعلان من رهب مثل خشيان من خشى ، وكانوا يفرون إلى الجبال والصحراوات ليخلصوا من الفتنة فى دينهم ، ويقطعون أنفسهم عن الزواج والنسل .

ثم قال :

« إلّا ابتغاء رِضْوانِ اللهِ » .

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا (أن يقوموا بحقّنا)[1]

« فآتَيْنا الذين آمنوا منهم أجرَهم
وكثيرٌ منهم فاسقون » .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا اتّقُوا اللهَ
وآمِنوا برسولِه يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ
من رَحمته ويجعل لكم نوراً تَمْشُون
به ويغفرْ لكم والله غفورٌ رحيم » .

نزلت فى قومٍ من أهل الكتاب أسلموا .

« كفلين » : أى نَصِيبَيْنِ ؛ نصيباً على الإيمانِ بالله ، وآخَرَ على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسُل .

قوله جل ذكره : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ
ألاّ يَقْدِرون عَلَى شىء من فَضْلِ اللهِ
وأَنَّ الفَضْلَ بيدِ اللهِ يُؤتيه مَن يشاء
واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و «لا» صلة . أى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله[2] ، فإن الفضل بيد الله . و « اليد » هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٢) ونظيره قول ابن جنى فى « لئلا يعلم أهل الكتاب» أى ليعلموا فهي مؤكدة قائمة مقام إعادة الجملة مرة أخرى . (الإتقان للسيوطى حـ١ ص ١٧١) ط الحلبى .

والإشارة فى هذا : اتَّقُوا اللهَ بحفظِ الأدبِ معه ، ولاتأمنوا مَكْرَه أن يَسْلبَكم ماوَهَبَكم من أوقاتكم . وكونوا على حَذَرٍ من بَغَتَاتِ تقديره فى تغيير ما أذاقكم من أُنْسِ محبته .

واتَّبِعوا السُّفَراءَ والرُّسُلَ ، وحافظوا على اتِّباعِهم حتى يُؤْتِيَكُم نصيبيْن من فضله : عصمةً ونعمةً ؛ فالعصمة من البقاء عنه ، والنعمة هى البقاء به .

ويقال : يؤتكم نصيبين : نصيباً من التوفيق فى طَلَبِه ، ونصيباً من التحقيق فى وجوده[1]

(١) (الوجود) هنا ليس معناه (ضد العدم) بل هو أعلى درجات الشهود ، فالتواجد بداية ، والوجد واسطة والوجود نهاية (نظر الرسالة ص ٣٧) .

سُورَةُ المُجَادلة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ عَرَفها بَذَلَ الرُّوحَ فى طلبها — وإن لم يَحْظَ بوصولها ، كلمةٌ مَنْ طلبها اكتفى بالطلب من[1] قبولها .

كلمة جبَّارة لا تنظر إلى كلِّ أحَد ، كلمة قهّارةٌ لا يُوَجدُ من دونها مُلْتَحَد .

كلمةٌ منها بلاء الأحباب — لكن بها شفاء الأحباب .

قوله جل ذكره : « قد سَمِعَ اللهُ قولَ التى تجادِلُكَ فى زوجِها وتشتكى إلى اللهِ » .

لمَّا صَدَقَتْ[2] فى شكواها إلى اللهِ وأَيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله — أنزلَ اللهُ فى شأنها : « قد سمع الله . . » .

تَضَرَّعَتْ إلى الله ، ورَفَعَتْ قِصتَّها إلى الله ، ونَشَرَتْ غُصَّتَها[3] بين يدى الله — فَنَظَرَ إليها الله ، وقال : « قد سَمِعَ الله » .

ويقال : صارت فرجةً[4] ورخْصةً للمسلمين إلى القيامة فى مسألة الظِّهار[5] ، وليعلم العالِمون أنَّ أحداً لا يخسر عَلَى الله .

وفى الخبر : أنها قالت : يارسولَ الله ، إنَّ أوْساً تزوَّجنِى شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ ،

---

(١) وتقدير الكلام : اكتفى من القبول بالطلب ، أى اكتفى أن يشرف بطلبها وعلى الله إتمام الفضل بالقبول — وهذا أساس هام فى منهج الطالبين والسالكين .

(٢) هى خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (قصتها) وقد آثرنا ما جاء فى م لتلوين الكلام وخدمة السياق .

(٤) فى النسختين (فرحة) ولا بأس بها فى المعنى ولكننا نشعر أن (فرجة) تدعم السياق على نحو آكد .

(٥) ظاهَرَ امرأته ظهاراً أى قال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى ؛ أى أنتِ حرام .

ومالٍ كثير ، فلما كبرت سِنِّى[1] ، وذَهَبَ مالى ، وتفرّق أهلى جعلنى عليه كظَهْرِ أُمِّه ، وقد ندِم وندِمت ، وإنّ لى منه صبيةً صِغاراً إنْ ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتُهم إلىّ جاعوا .

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم — فى رواية — : ما أُمِرْتُ بشىء فى شأنك .

وفى رواية أخرى أنه قال لها : بِنْتِ عنه (أى حرمت عليه) .

فترددت إلى رسول الله (ص) فى ذلك ، وشَكَتْ .. إلى أن أنزل الله حُكْم الظِّهار .

قوله جل ذكره : « الذين يُظاهِرُون مِنكم من نسائهم ماهُنّ أُمهاتِهم إنْ أُمّهاتُهم إلّا اللائى ولَدْنَهُم وإنهم لَيقولون مُنكَراً من القولِ وزُوراً وإنّ اللهَ لَعفوٌ غفور » .

قَوْلُ الذين يقولون لنسائهم — جرياً على عادة أهل الشِّرْكِ — أنتِ علىّ كظهر أمى . . هذا شىء لم يَحْكُم اللهُ به ؛ ولا هذا الكلامُ فى نَفْسِه صِدْقٌ ، ولم يثبتْ فيه شَرْعٌ ، وإنما هو زورٌ مَحْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ .

فَعَلِمَ الكافةُ أن الحقائق بالتلبيسِ لا تتعزّز[2] ؛ والسَّبَبُ إذا لم يكن صحيحاً فبالمعاودةِ لا يثبت ؛ فالمرأةُ لمّا سمعت من رسول الله (ص) قولَه : بِنْتِ عنه — كان واجباً عليها السكونُ والصبرُ ؛ ولكنّ الضرورةَ أنطقتْها وحَمَلتْها على المعاودة ، وحصلت من ذلك مسألة : وهى أن كثيراً من الأشياء يحكم فيها ظاهرُ العلمِ بشىء ؛ ثم تُغيِّرُ الضرورة ذلك الحُكْمَ لصاحبها[3] .

قوله جل ذكره : « والذين يُظاهرون من نسائهم ثم

---

(١) وفى رواية : خلا سنّى ونثرت بطنى — أى كثر ولدى .

(٢) ربما كانت فى الأصل (لاتتقرر) ومع ذلك فالمعنى هكذا مقبول .

(٣) هذه غمزة رقيقة بأولئك المتشبثين بالظواهر ، ودعوة إلى التريث .

يعودون لما قالوا فتحريرُ رَقَبةٍ مِنْ
قَبلِ أن يتماسّا * ذلِكم تُوعَظُون بهِ
واللهُ بما تعملون خبير .. » .

الظِّهار — وإن لم يكن له فى الحقيقة أصل ، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع ، فإنه بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول (ص) ولوّح بشىء ما ، وقال فيه حُكمه ، لم يُخلِ الله ذلك من بيانٍ ساق به شَرْعه ؛ فقضى فيه بما انتظم جوانب الأمر كلِّه .

فارتفاعُ الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، والتحاكُم لديه حَمَّل المتعدِّى عناء فعلته ، وأعاد للمرأة حقَّها ، وكان سَبيلاً لتحديد المسألة برُمَّتها .. وهكذا فإنَّ كلَّ صعبٍ إلى زوالٍ .. وكلُّ ليلةٍ — وإنْ طالَتْ — فإلى إسفار(١) .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه كُبِتُوا
كما كُبِتَ الذين من قَبْلِهم وقد
أنزلنا آياتٍ بيِّناتٍ وللكافرين
عذابٌ مُهين » .

الذين يُخالِفون أمرَ اللهِ ويتركون طاعةَ رسولِ الله أُذِلُّوا وخُذِلوا ، كما أُذِلَّ الذين من قَبْلهم من الكُفَّار والعُصاة .

وقد أجرى اللهُ سُنَّتَه بالانتقام من أهل الإجرام ؛ فمَنْ ضيَّعَ للرسولِ سُنَّةً ، وأحدَثَ فى دينه بِدْعةً انخرط فى هذا السلك ، ووقع فى هذا الذُّلِّ .

قوله جل ذكره : « يومَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جميعاً فيُنَبِّئُهم بما
عَمِلوا أحصاه اللهُ ونَسُوهُ واللهُ على
كل شىء شهيدٌ » .

يقال : إذا حُوسِبَ أحدٌ فى القيامة على عمله تصور له مافعله وتذكَّره ، حتى كأنه قائمٌ فى تلك الحالة عن بِسَاط الزَّلَّةِ ، فيقع عليه من الخَجَلِ والنَّدَم ما يَنْسى فى جَنْبِه كُلَّ عقوبة .

---

(١) حدث تدخل من جانبنا فى ترميم هذه الفقرة التى جاءت فى النسختين منبهمة الكتابة والمعنى .

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه ، فإنْ جَرَى المقدورُ ووقَعَ فى هجنة التقصير فلتكنْ زَلَّتُه على بال ، وليتضرعْ إلى الله بحُسْن الابتهال .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ أنَّ الله يعلمُ ما فى السمٰواتِ
وما فى الأرضِ ما يكون من نجوىٰ
ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعهم ولا خمسةٍ
إلا هو سادِسُهم ولا أدْنَى من ذلك
ولا أكثَرَ إلا هو مَعهُم أينما كانوا
ثم ينبئُهم بما عَمِلُوا يومَ القيامةِ
إنَّ اللهَ بكل شىء عليمٌ » .

مَعِيَّةُ الحقِّ — سبحانه — وإن كانت على العموم بالعلم والرواية ، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة — فلهذا الخطاب فى قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ ، ولهم إلى أنْ ينتهىَ الأمرُ بهم إلى التولُّه[1] فالوَلَهِ فالهيمان فى غمار سماع هذا عيش راغد .

ويقال : أصحابُ الكهف — وإنْ جَلَّتْ رتبتُهم واختصت من بين الناس مرتبتهم — فالحقُّ سبحانه يقول : « سيقُولون ثلاثةٌ رابعهم كلبُهم »[2] ولمَّا انتهى إلى هذه الآية قال : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة . . . » فشتَّان بين مَنْ رابِعُهُ كَلْبُهُ وبين من رابِعُهُ ربُّه !!

ويقال: أهلُ التوحيد ، وأصحابُ العقولِ من أهل الأصولِ يقولون : اللهُ واحدٌ لا من طريق العدد[3] ، والحقُّ يقول : « مايكون من نجوىٰ ثلاثة إلا هو رابعهم... » ويقال : حيثما كنتَ فأنا معكَ ؛ إنْ كنتَ فى المسجد فأنا معك ، وإن كنت فى المصطبة فأنا معكَ ، إنْ طَلَبَ العلماء

---

(١) وردت التأويل فى ص والتأول فى م والصحيح – فى نظرنا – أن تكون التولُّه ؛ فهو المنزلة التى تسبق الوَلَه والهيمان .

(٢) آية ٢٢ سورة الكهف .

(٣) الواحد على الحقيقة ليس عدداً لأن العدد هو ما بلغ نصف مجموع حاشيتيه ، وليس قبل الواحد شىء .

التأويلَ[1] وشوّشوا قلوبَ أولى المواجيد فلا بأس — فأنا معهم .

إنْ حضرْتَ المسجد فأنا معك بإسباغ النعمة ولكن وَعْداً ، وإنْ أتيْتَ المصطبة فأنا معك بالرحمةِ وإسبالِ ستر المغفرة ولكن نَقْداً .

هَبْكَ تباعَدْتَ وخالَفْتَنى تقدِرُ أنْ تخرجَ عن لُطْفى ؟!

قوله جل ذكره : « ألَمْ تَرَ إلى الذين نُهوا عن النجوىٰ ثم يعودون لما نُهوا عنه ويتناجَون بالإثمِ والعدوانِ ومعصيةِ الرسولِ ، وإذا جاءوك حَيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به اللهُ » .

آذَوْا قلوبَ المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم[2] ، ولم تكن فى تناجيهم فائدةٌ إلا قصدهم بذلك شغْلَ قلوبِ المؤمنين ، ولم ينتهوا عنه لمَّا نهُوا عنه ، وأَصَرُّوا على ذلك ولم يَنْزَجِروا ، فتوَعَّدهم اللهُ على ذلك ، وتكون عقوبتهُم بأن تتغامز الملائكةُ فى بابهم فيما بينهم ، وحين يشاهدون ذلك تَتَرَجَّمُ ظنونُهم ، ويتعذَّبون بتقَسُّم قلوبهم ، ثم لا ينكشف الحالُ لهم إلَّا بما يزيدهم حزناً على حزنٍ ، وأسفاً على أسفٍ .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا إذا تَنَاجَيْتُم فلا تتناجوا بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرسولِ وتناجوا بالبرِّ والتقوىٰ واتقوا اللهَ الذى إليه تُحْشَرون » .

إنما قَبُحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّن إفسادَ ذات البَيْن ، وخيرُ الأمورِ ما عاد بإصلاحِ ذات البَيْن ، وبعكسه إذا كان الأمر بضدِّه .

---

(1) «فإن حجج أهل هذه الطائفة أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب . والناس : إما أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر .. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛ فالذى للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذى للخَلْق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل الوصال والناس أهل الاستدلال» الرسالة القشيرية ص ١٩٨ وانظر تذكرة الحفاظ للذهبى حـ٤ ص ١٥ .

(2) كان اليهود والمنافقون يتغامزون فيما بينهم وبأيديهم إغاظةً للمؤمنين ، وكانوا إذا أقبلوا على الرسول قالوا له : السام عليك يا محمد .. والسام هو الموت .

قوله جل ذكره : « إنما النّجوى من الشيطانِ ليَحْزُن
الذين آمنوا وليس بِضَارِّهم شيئاً إلاّ
بإذنِ اللهِ وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون » .

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً ، والقلوبُ حاضرةً ، والتوكلُ صحيحاً ؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثيرَ لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم
تَفسَّحوا فى المجالِس فافسحوا يَفْسَحِ اللهُ
لكم وإذا قيل انشُزُوا فانشُزُوا »[1].

لكمال رحمته بهم وتمام رأفته عليهم ، عَلَّمَهم مراعاةَ حُسْنِ الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة (دون أحكام العبادة)[2] فى التفسُّح فى المجالس والنظام فى حال الزَّحمة والكثرة . . وأعْزِزْ بأقوامٍ أمَرَهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحقُّقِهم بأركانه !

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجَيْتُم الرسولَ
فقَدِّموا بين يَدَىْ نجواكم صدَقةً ذلك
خيرٌ لكم وأطهرُ فإن لم تجدوا فإنَّ اللهَ
غفورٌ رحيم »[3].

لمَّا كان الإذنُ فى النجوى مقروناً ببذْلِ المالِ امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظَهَرَت جواهر

---

(١) (انشزوا) أى : انهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو انهضوا من مجلسه صلى الله عليه وسلم إذا أمرتم بالنهوض عنه ، أو انهضوا إلى الصلاة ، أو إلى الجهاد ، أو إلى أعمال الخير .

(٢) هذه موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٣) رُخِّصَ بعدئذ فى المناجاة من غير صدقة . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نُسِخَ . وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار ثم نُسِخَ . . ويحكى : أن علياً كرَّم الله وجهه كان يتصدَّق بدرهم كُلَّما ناجى الرسول — فى بداية الأمر ثم توقَّف لمَّا نسخت الآية ، وأزيلت المؤاخذة .

الأخلاق ونقاوةُ الرجال ـــ ولقد قال تعالى : « ولا يَسْألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحْفكم تبْخلوا ويخْرج أضغانكُم »(١) .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ إلى الذين تَولَّوْا قوماً غَضِبَ الله عليهم مَّا هُم منكم ولا منهم » .

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشْرَكَ نَفْسَه فى استحقاقِ غضبِ مَنْ هو الغضبان ؛ فمَنْ تَوَلَّ مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ اللهِ استوجبَ غَضبَ اللهِ وكفى بذلك هواناً وخسراناً .

«ويَحْلِفون على الكَذِبِ وهم يَعْلَمون * أعَدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيْمَانَهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ فلهم عذابٌ مُّهين »

هذا وصف للمنافقين

« اتخذوا أيمانهم جُنَّة » أى وقايةً وستراً ؛ ومَن آستتر بِجُنَّةِ طاعته لتَسْلَمَ له دنياه فإنَّ سهامَ التقديرِ مِنْ ورائه تكشفه من حيث لا يشعر . . فلا دِينُه يبقى ، ولا دنياه تَسْلَمَ ، ولقد قال تعالى : « لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أوْلاَدُهم من الله شيئاً »(٢) .

قوله جل ذكره : « يومَ يَبْعَثُهم اللهُ جميعاً فيَحْلِفون له كما يَحْلِفون لكم ويحْسَبون أنَّهم على شىء ألَا إنَّهم هم الكَاذبون » .

عقوبتُهم الكبرى ظَنُّهم أنَّ ما عَمِلوا مع الخَلْقِ يتمشَّى أيضاً فى مُعَاملةِ الحقِّ ، ففَرْطُ الأجنبيةِ وغايةُ الجهلِ أكَبَّتهم على مناخرهم فى وَهْدَةِ نَدَمِهم .

---

(١) آية ٣٧ سورة محمد .

(٢) آية ١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : « اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فأنْسَاهم ذِكْرَ اللهِ أولئك حِزْبُ الشيطانِ ألاَ إنَّ حِزْبَ الشيطان هم الخاسرون » .

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنْسَاه ذِكْرَ اللهِ .

والنَّفْسُ إذا استولَتْ على إنسان أنْسَتْهُ الله .

ولقد خَسِرَ حزبُ الشيطان ، وأَخْسَرُ منه مَنْ أعان نَفْسَه — التى هى أعدى عدوِّه ، إلَّا بأنْ يسعى فى قَهْرِها لَعله ينجو مِنْ شَرِّها .

قوله جل ذكره : « إن الذين يُحَادُّون اللهَ ورسولَه أولئك فى الأذَلِّين » .

مَنْ أرْمَتْهُ شِقْوَتُه لم تُنْعِشْهُ قُوَّتُه ، ومَنْ قَصَمَهُ التقديرُ لم يَعْصِمْهُ التدبير ، ومَن استهانَ بالدِّين انخرطَ فى سِلْكِ الأذَلِّين .

قوله جل ذكره : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِي إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ » .

الذى ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير ؟ (١) .

قوله جل ذكره : « لا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُّون مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه » .

مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه ، أو داهَنَ مُبْتَدِعاً فى عهده نَزَعَ اللهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو فى خيانته جارٍّ على عقيدته ، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره .

« أولئك كَتَبَ فى قلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم بروح منه » .

خلق الله الإيمان فى قلوب أوليائه وأثبته ، ويقال : جعل قلوبَهم مُطَرَّزَةً باسمه .. وأعْزِزْ بِحُلَّةٍ لأسرار قومٍ طرازُها اسمُ « الله » ! !

---

(١) التدبير للخلق والتقديرُ للحق .

سُورَةُ الحَشْر [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ — الكونُ بجملته فى طلبه . . وهو عزيز .

الشموسُ والأقمارُ والنجومُ ، والليلُ والنهارُ ، وجميع ما خَلَقَ اللهُ من الأعيان والآثار متناديةٌ على أنفُسِها : نحن عبيدُه . . نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ . . نريد مَنْ لم يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لله ما فى السَّمَوات ومَا فِى الأرْضِ وهو العزيزُ الحكيمُ » .

قدَّسَ اللهَ ونَزَّهَهُ كُلُّ شىء خَلَقه ؛ فكلُّ ما خَلَقَه جَعَلَه على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد أنْ يَعْرِفَ إلَهيَتَه طريقاً وسبيلاً .

أتقن [2] كلَّ شىء وذلك دليلُ عِلْمِه وحكمته ، ورَتَّبَ كُلَّ شىء ، وذلك شاهِدٌ على مشيئته وإرداته .

« وهو العزيز » فلا شبيه يساويه ، ولا شريك له فى المُلْكِ ينازِعُه ويُضاهيه .

« الحكيم » الحاكم الذى لا يُوجَدُ فى حُكْمِه عَيْبٌ ، ولا يتوجَّه عليه عَتْبٌ [3] .

قوله جل ذكره : « هو الَّذِى أخْرَجَ الَّذِين كَفرُوا مِن أهْل الكِتابِ من ديارِهم لأولِ الحَشْرِ » .

هم أهل النضير ، وكانوا قد عاهدوا النبىَّ (ص) ألاَّ يكونوا عليه ، ثم بعد أُحُد نقضوا

---

(١) ويسميها ابن عباس سورة النضير (البخارى جـ ٣ ص ١٢٣) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (أيقن) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (عيب) وهى خطأ فى النسخ .

العَهْدَ ، وبايعوا أبا سفيان وأهلَ مكة ، فأخبر اللهُ تعالى رسولَه بذلك ، فبعثَ صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأوهم أنه يشكو من الرسول فى أخذ الصَّدَقَة . وكان رئيسهم كعب ابن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة (غيلةً) ، وغزاهم[1] رسولِ الله (ص) وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام ، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَرَ عليهم لكثرتهم ، ولِمَنَعَةِ حصونهم .

وظلُّوا يهدمون دورَهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا ، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب ، فَسُمُّوا أولَ الحشر ، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام .

قال حل ذكره : « فاعتبروا يا أُولِى الأبصارِ » .

كيف نَصَرَ المسلمين — مع قِلَّتِهِم — عليهم — مع كثرتهم . وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرةُ عليهم . وإذا أراد اللهُ قَهْرَ عدوٍّ استنوقَ[2] أسَدُه .

ومن مواضع العِبْرةِ فى ذلك ما قاله : « ما ظننتم أن يخرجوا » بحيث داخلتكم الرِّيبةُ فى ذلك لِفَرْطِ قُوَّتِهم — فصانَهُم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبرة فى ذلك أيضاً ما قاله « وظنُّوا أنهم مانِعَتُهم حصونُهم من الله » فلم يكن كما ظنُّوه — ومَنْ تَقَوَّ بمخلوقٍ أسْلَمَه ذلك إلى صَغَارِه[3] ومَذَلَّتِه .

ومن الدلائل الناطقة ما أُلْقِى فى قلوبهم من الخوفِ والرُّعب ، ثم تخريبُهم بيوتَهم بأيديهم علامةُ ضعف أحوالهم ، وبأيدى المؤمنين لقوة أحوالهم ، فتمت لهم الغَلَبَةُ عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم .

هذا كلُّه لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبارُ — والاعتبارُ أحَدُ قوانين الشَّرْع .

ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بغيره اعتَبرَ به غيرُه .

---

(١) حاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم وأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير واحد ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى أريحا وأذرعات بأرض الشام .

(٢) الألف والسين والتاء فيها للصيرورة أى صار ناقة والمقصود : تخاذل المتجبر وصغر شأنه .

(٣) الصَّغار = الرضى بالمذلة والهوان .

ويقال : يُخَرِّبون بيوتَهم بأيديهم ، وقلوبَهم باتِّباع شهواتِ نفوسِهم ، ودِينهم بما يمزجونه به من البِدَع .

قوله جل ذكره : « ولولا أن كَتَبَ اللهُ عليهم الجلاءَ لعذَّبَهم فى الدنيا ولهم فى الآخِـرَةِ عذابُ النار » .

لولا أنْ قضى اللهُ عليهم أنْ يخرجوا لعذَّبهم اللهُ بالقتل والاستئصال[1] ، ثم فى الآخرة لهم عذابُ النار .

« ذلك بأنهم شَاقُّوا اللهَ ورسولَهَ ومَن يُشَاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب » .

ذلك بأنهم خالفوا أمرَ الله . والمشاقّة أن يتحول المرء إلى شِقٍّ آخر .

فالعاصى إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله ، ولِمَنْ شاقَّ اللهَ عذابُ النار .

قوله جل ذكره : « ما قَطَعْتُم من لِّينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذنِ اللهِ وليُخْزِىَ الفاسقين » .

اللِّينة : كلُّ نوعٍ من النخيل ماعدا العجوة والبَرْنِىّ[2] .

لمَّا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقَطْعِ بعض نخيل بنى النضير قالت اليهود : ما فائدة هذا ؟ ! .

فبقى المسلمون عن الجواب ، فأنزل الله تعـالى هذه الآية ليوضِّح أن ذلك بإذن الله . . فانقطعَ الـكلامُ .

وفى هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلَّلَةٍ ، وأنَّ الأمرَ الشرعىَّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ ،

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الاستبصار) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) واحدته البَرْنِيَّة ، وهو نوع جيد من التمر مدوَّر أحمرُ مشْرَبٌ بصفرة . (الوسيط) .

وسَكتَت الألسنةُ عن المطالبة بـ « لِمَ ؟ » وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان . والشيوخُ .

قالوا : مَنْ قال لأستاذِه وشيخه[1] : « لِمَ ؟ » لا يفلح . وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر فى قلبِه جَوَلان لا يجىءُ منه شىء . ومَنْ لم يتجرَّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل ، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجرى واستحسانَ ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبِه — فليس من اللهِ فى شىء

قوله جل ذكره : « وما أفاء اللهُ على رسولِه منهم فما
أوجفتم عليه من خيلٍ ولا رِكابٍ
ولكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَه على مَن يشاء
واللهُ على كل شىء قدير » .

يريد بذلك أموالَ بنى النضير[2] ، فقد كانت من جملة الفَىْء لا من الغنيمة ؛ فالفىْء ما صار إلى المسلمين من أموالِ الكفَّارِ من غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيْلٍ ورِكابٍ ، وتدخل فى جملته أموالُهم إذا ماتوا وصارت إلى بيت المال . والغنيمة ما كانت بقتالٍ وإيجافِ خيلٍ وركابٍ . وقد خَصَّ رسولُ الله (ص) بأموالِ هؤلاء فقراء المهاجرين ، واستأثر لنفسه بما شاء ، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك ، وشكَرَ الله لهم . ذلك لأن تحرُّرَ القلب من الأعواضِ والأملاكِ صِفَةُ السادة[3] والأكابر . ومَنْ أَسَرَتْهُ الأخطارُ وبقى فى شُحِّ نَفْسِه فهو فى تضييقه وتدنيقه ، وهو فى مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث فى استيفاء حظوظه — وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة[4] شىء

---

(١) لاحظ كيف يوجِّه القشيرى إشارته إلى المريدين ، وما ينبغى أن تكون عليه علاقتهم بشيوخهم .

(٢) عن الزهرى عن مالك بن أوس عن عمر رضى الله عنه قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله (ص) مما لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركاب ، فكانت لرسول الله (ص) خاصةً ينفق على أهله منها نفقة سنته ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله (البخارى حـ٣ ص ١٣٣) .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (السعادة) وهى خطأ من الناسخ .

(٤) يقصد طريقة الصوفية .

وأهلُ الصفاء لم تَبْقَ عليهم من هذه الأشـــياء بقيةٌ ، وأمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيء فمُتَرَسِّمٌ(١) سُوقِيٌّ . . لا مُتَحقِّقٌ صوفيٌّ .

قوله جل ذكره : « وما آتاكُمُ الرسولُ فَخُـذُوهُ ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ » .

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِه ، ولزومِ طريقته وسيرته — وفي العِلْم تفصيلُه .

والواجبُ على العبدِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يُـكاشَفُ به من الأحوالِ على العلم — فما لا يقبله الـكتابُ والسُّنَّة فهو في ضلال(٢).

قوله جل ذكره : « للفقراء المهاجرين الذين أُخْرِجوا من ديارِهم وأموالِهم يبتغون فَضْلاً من اللهِ ورضواناً ويَنصُرُون اللهَ ورســـولَه أولئك هم الصادقون » .

يريد أن هذا الفيء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدارَ مائةِ رجلٍ .

« يبتغون فضلاً من الله » وهو الرزق « ورضواناً » بالثواب في الآخرة .

وينصرون دين الله ، « أولئك هم الصادقون » : والفقيرُ الصادقُ هو الذي يتركُ كلَّ سببٍ وعلاقة ، ويفرغ أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف(٣) بقلبه على شيء سوى الله ، ويَقِفُ مع الحقِّ راضياً بجَرَيانِ حُـكْمِه فيه .

---

(١) هكذا في م وهي في ص (متوسِّم) . وعلى الأول يكون المعنى أنه شخص تهمه الرسوم والأشكال ؛ أما باطنه وحقيقته فغير رسمه ، وعلى الثاني يكون المعنى أنه يكتفي من التصوف بالسِّمة أي العلامة ؛ كالثوب مثلا .. وباطنه غير سليم . والربط بين الصفاء والتصوف — كما يتضح من العبارة — عنصر أساسي في مذهب القشيري . (انظر الرسالة باب التصوف) .

(٢) نحسب أنه ليس بعد هذا مجال للتخرص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقلِّلون من قدْرها . فمحصول خواطرهم ، ومكاشفاتهم من خلال أحوالهم .. كل ذلك ينبغي ألا يكون مرفوضاً من الشرع. ومحاولة عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسي آخر في مذهب القشيري — رحمه الله .

(٣) عطف يعطف هنا بمعنى مال وانحنى تجاه ناحية تاركاً ناحية أخرى — وهذا هو أصل معنى اللفظة قبل أن تأخذ معانيها المتوسعة .

قوله جل ذكره : « والذين تَبَوَّءوا الدارَ والإيمانَ من قَبْلِهم يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يَجِدون فى صدورِهم حاجةً مِمَّا أُوتوا ويُؤْثِرون على أَنفُسِهم ولو كان بهم خَصاصة » .

نزلت هذه الآية فى الأنصار . « تبوءوا الدار » أى سكنوا المدينة قبل المهاجرين .. « يحبون من هاجر إليهم » من أهل مكة .

« ولا يجدون فى صدورهم حاجة » مما خُصِّصَ به المهاجرون من الفىء ، ولا يحسدونهم على ذلك ، ولا يَعْتَرِضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجةٌ أو اختلالُ أحوالٍ .

« ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المُفْلِحون » .

قيل نزلت الآية[1] فى رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول .

وقيل نزلت فى رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرَّب منه الطعامَ وأطفأ السراجَ ليُوهِمَ ضيفَه أنه يأكل ، حتى يؤثِرَ به الضيفَ عَلَى نفسه وعَلَى عياله ، فأنزل اللهُ الآية فى شأنه[2].

ويقال : الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللئيمُ من بناها لنفسه)[3].

وقيل : لم يقل اللهُ : ومَنْ يتَّقِ شحَّ نفسه بل قال : ومن يوقَ شحَّ نَفْسه[4] .

ويقال : صاحبُ الإيثارِ يُؤْثِر الشيطانَ على نفسه — وهو جائع .

---

(١) حديث القشيرى [illegible] بعد عن الإيثار يصلح أن يكون متمماً للفصل الذى عقده فى رسالته عن الفتوة ص ١١٣

(٢) هكذا فى رواية أبى هريرة (البخارى حـ٣ ص ١١٣) .

(٣) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٤) فتقاه من الله لا من نفسه .

ويقال : مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثِرَ الجميع دون تمييز .

ويقال : الإيثار أنْ تَرَى أنَّ ما بأيدى الناسِ لهم ، وأن ما يحصل فى يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذنَ فيها .

ويقال : مَنْ رأى لنفسه مِلْكاً فليس من أهل الإيثار .

ويقال : العابدُ يؤثِر بدنياه غيرَه ، والعارفُ يؤثِر بالجنةِ غيرَه [1] .

وعزيزٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لنَفْسِه شيئاً : لافى الدنيا من جاهٍ أو مالٍ ، ولا فى الجنَّة من الأفضال ، ولا منه أيضاً ذَرَّةً من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال [2] .

. . . وهكذا وصفُ الفقير ؛ يكون بسقوطِ كلِّ أرَبٍ .

قوله جل ذكره : « والذين جاءوا مِن بَعْدِهِمْ يقولون :
رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقونا
بالإيمانِ ، ولا تجعلْ فى قُلوبِنا غِلًّا
للذينآمنوا، ربَّنا إنكَ رءوفٌ رحيم ».

أى والذين هاجروا من بعدهم ، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة . . كلُّهُم يَتَرَحَّمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم ، ويسلكون طريقَ الشفقة على جميع المسلمين ، ويستغفرون لهم ، ويستجيرون من اللهِ أنْ يجعلَ لأحدٍ من المسلمين فى قلوبهم غِلًّا أى حِقْداً . ومَنْ [3] لا شفقةَ له على جميع المسلمين فليس له نصيبٌ من الدِّين .

قوله جل ذكره : « ألَمْ تَرَ إلى الذين نافقوا يقولونَ

---

(١) ومن قبيل ذلك ما يقوله الحسين النورى (ت ٢٩٥ هـ) :
« اللهم إن يكن قد سبق فى مشيئتك التى لاتتخلف أن تملأ النار من الناس أجمعين فإنك قادر على أن تملأها بى وحدى وأن تذهب بهم إلى الجنة » .

(٢) لأن الأحوال من الله ، فهى من عين الجود ، كما أن المقامات ببذل المجهود .

(٣) سقطت (ومن) من م وهى موجودة فى ص ، وهى ضرورية للسياق .

لإخوانِهم الذين كفروا من أهلِ الكتابِ لئنْ أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكمْ ، واللهُ يَشْهَدُ إنَّهم لكاذبون » .

يريد بهم منافقى المدينة ؛ ظاهَروا بنى النضير وقريظة ، وعاهَدوهم على الموافقة بكلِّ وَجْهٍ ، فأخبر اللهُ — سبحانه — أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبرَ أنَّهم لايتناصرون ، وأنَّهم يتخاذلون ، ولئنْ ساعدوهم فى بعضِ الحروب فإنهم يتخاذلون إنْ رَأَوْهم ينهزمون أمام مَنْ يجاهدونهم .

قوله جل ذكره : « لأنتم أشَدُّ رهبةً فى صدورِهم من اللهِ ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون » .

أخبر — سبحانه — أن المسلمين أشدُّ رهبةً فى صدورهم من الله[1] ، وذلك لقِلَّةِ يقينهم ، وإعراضِ قلوبِهم عن الله .

قوله جل ذكره : « لا يُقاتلونكم جميعاً إلَّا فى قُرًى مُحصَّنَةٍ أو مِن وراء جُدُرٍ بأسُهُم بينهم شديدٌ » .

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلَّا مُخاتلةً ، أو من وراء جدرانٍ . وإنما يشتدُّ بأسُهم فيما بينهم ، أى إذا حارب بعضُهم بعضاً ، فأمَّا معكم ... فلا .

« تحسَبُهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى ذلك بأنهم قومٌ لا يَعقلون » .

إجتماعُ النفوسِ — مع تنافُر القلوب واختلافها — أصلُ كلِّ فساد ، وموجِبُ كُلِّ تخاذُل ، ومقتضى تجاسُرِ العدوِّ .

---

(١) والمعنى أنهم بنفاقهم يقولون : نحن نخاف الله ، ولكنهم فى الحقيقة يخافون منكم خوفاً أشدَّ من خوفهم من الله ، وذلك لقلة يقينهم ... الخ .

واتفاق القلوب؛ والاشتراكُ فى الهِمَّةِ ؛ والتساوى فى القَصْدِ يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ وكلَّ سعادة . . ولا يكون ذلك للأعداء قطّ ؛ فليس فيهم إلا اختلالُ كلِّ حالٍ ، وانتقاضُ كلِّ شَمْلٍ .

قوله جل ذكره : « كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهم قريباً ذاقوا وَبَالَ أمْرِهم ولهم عذابٌ أليم » .

مَثَلُ بنى قُرَيظة كمثل بنى النضير[1] ؛ ذاق النضير وَبالَ أمرِهم قبل قريظة بِسَنَةٍ[2] ؛ وذاق قريظة بعْدَهم وبال أمرهم .

قوله جل ذكره : « كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسانِ اكْفُرْ ؛ فلمَّا كَفَرَ قال إنى برىءٌ منك إنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالَمين » .

أى مَثَلُ هؤلاء المنافقين مع النضير — فى وَعْدِهم بعضهم لبعض بالتناصر — كَمثل الشيطان « إذ قال للإنسان . . . . » .

وكذلك أربابُ الفترة وأصحاب الزَّلَّة وأصحاب الدعاوى . . هؤلاء كلُّهم فى درجة واحدة فى هذا الباب — وإنْ كان بينهم تفاوت — لا تنفع صُحْبَتُهم فى الله ؛ قال تعالى : « الأخلاء يومئذٍ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين »[3] وكلُّ أحدٍ — اليومَ — يألَفُ شَكْلَه ؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى ، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ ولتَنظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ لغدٍ واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون » .

---

(١) يرى النسفى أن : « مَثَلَهم كمثل أهل بدر » (النسفى حـ ٤ ص ٢٤٣) .

(٢) وكان ذلك سبب مرجع النبى (ص) من الأحزاب ؛ ففى رواية عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما رجع النبى (ص) من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال : قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرج إليهم قال : فإلى أين ؟ قال : هاهنا ، وأشار إلى بنى قريظة (البخارى حـ ٣ ص ٢٣) .

(٣) آية ٦٧ سورة الزخرف

التقوى الأولى على ذكر العقوبة فى الحال والفكر فى العمل خيره وشره[1] .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة ، ومن لا محاسبة له فى أعماله ولا مراقبة له فى أحواله .. فمن قريب سيفتضح[2] .

وعلامة من نظر لغده أن يحسن مراعاة يومه ؛ ولا يكون كذلك إلا إذا فكر فيما عمله فى أمسه والناس فى هذا على أقسام : مفكر فى أمسه : ما الذى قسم له فى الأزل ؟ وآخر مفكر فى غده : ما الذى يلقاه ؟ ؟ وثالث مستقل بوقته فيما يلزمه فى هذا الوقت فهو مصطلم عن شاهده موصول بربه ، مندرج فى مذكوره[3] ؛ لا يتطلع لماضيه ولا لمستقبله ، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته[4] .

قوله جل ذكره : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » .

تركوا طاعته فتركهم فى العذاب ؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا .. أولئك هم الفاسقون[5] .

قوله جل ذكره : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » .

لا يستوى أهل الغفلة مع أهل الوصلة .

وأصل كل آفة نسيان الرب ، ولولا النسيان لما حصل العصيان ، والذى نسى أمر نفسه فهو الذى لا يجتهد فى تحصيل توبته ، ويسوف فيما يلزمه به الوقت من طاعته .

---

(١) ويكون العبد فيها فى مرحلة الغيبة (أى قبل السكر) : فما دام هناك وارد لثواب أو عقاب أو فكر فى حال أو مآل – فهذه فى منازل السالكين دون المرحلة التالية

(٢) تفيد هذه الإشارة فى توضيح الفرق فى الاصطلاح بين : المراقبة والمحاسبة .

(٣) لأن أقصى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور ، وقد اعتبرنا الأوصاف أسماء مفعول تعبيراً عن فناء الإرادة الإنسانية ، وتجرد العبد من كل فعل فى نفسه ولنفسه .

(٤) ولهذا يقولون : الصوفى ابن وقته ؛ ومعناه أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال ، قائم بما هو مطالب به فى الحين ، مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له . ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . (الرسالة ص ٣٤) .

(٥) سيعود القشيرى لاتمام إشارة هذه الآية بعد الآية التالية .

قوله جل ذكره : « لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خشيةِ اللهِ وتلك الأمثالُ نَضْرِبها للناس لعلّهم يتفكّرون » .

أى لو كان للجبلِ عقلٌ وصلاحُ فِكْرٍ وسِرٌّ ، وأنزلنا عليه هذا القرآنَ لخضَعَ وَخَشَعَ . ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : تكاد السمواتُ يَتَفَطَّرْنَ منه »[1] ويدل عليه أيضاً قوله :

« وتلك الأمثالُ نضربها للناس» : ليعقلوا ويهتدوا ، أى بذلك أمَرْناهم ، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم ، بل هو على سبيل المدح وبيانِ تخصيصه إيَّاهم بالقوة ؛ فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » لم يُطِقْ ولَخَشَعَ — وهؤلاء خَصَصْتُهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابى[2] .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الذى لا إلهَ إلّا هُوَ عالِمُ الغيبِ والشهادة هو الرحمٰن الرحيم » .

« الغيب » : مالا يُعْرَفُ بالضرورة ، ولا يُعْرَف بالقياس من المعلومات[3] . ويقال : هو ما استأثر الحقُّ بعِلْمِه ، ولم يجعل لأحدٍ سبيلًا إليه .

« والشهادة » : ما يَعْرِفُه الخَلْقُ .

وفى الجملة : لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه معلومٌ .

---

(١) آية ٩٠ سورة مريم .

(٢) يتصل هذا بموضوع السماع عند الصوفية ، وقد عقد السراج له فصلاً ممتعاً فى «اللمع» ، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة التى أثارها القشيرى يقول السراج : ألا ترى أحدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً فى وجده لا يظهر منه شىء من ذلك (اللمع ص ٢٧٥) ويجيب الجنيد حين سئل عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

(٣) أى لايعرف بالضرورة العقلية ولابالقياس العقلى لأن العقل يستمد أحكامه من المحسات ، والغيب بعيد عن المحسات ، فلا سبيل الخلق إليه بوسائلهم المحدودة وحدها .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الذى لا إله إلا هو المَلِكُ القُدُّوسُ السلامُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكون » .

المَلِكُ : ذو القدرة على الإيجاد .

القدوس : المُنَزَّهُ عن الآفة والنقص .

السلام : ذو السلامة من النقائص ، الذى يُسَلِّمُ على أوليائه ، والذى سَلِمَ المؤمنون من عذابه .

المؤمن : الذى يُصَدق عَبْدُه فى توحيده فيقول له : صَدَقْتَ يا عبدى .

والذى يُصَدِّق نَفسَه فى إخباره أى يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يُؤَمِّنهم من عقوبته .

المهيمن : الشاهد ، وبمعنى الأمين ، ويقال مؤيمن (مُفَيْعِل) من الأمن قلبت همزته هاء وهو من الأمان ، ويقال بمعنى المؤمِن .

العزيز : الغالبُ الذى لا يُغْلَب ، والذى لا مثيلَ له ، والمستحق لأوصاف الجلال ، وبمعنى : المُعِزّ لعباده . والمَنِيعَ الذى لا يَقْدِرُ عليه أحد .

الجبَّار : الذى لاتصل إليه الأيدى . أو بمعنى المُصْلِح لأمورهم من : جَبَرَ الكَسْرَ . أو بمعنى القادر على تحصيل مراده[1] مِنْ خَلْقِهِ على الوجه الذى يريده من : جَبَرْتُهُ على الأمر وأجبرته .

المتكبر : المتقدِّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الخالِقُ البارىءُ المُصَوِّرُ له الأسماء الحُسْنَى يُسَبِّحُ له ما فى السمٰواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مرات) .

هو المنشىء للأعيان والآثار .

« له الأسماء الحسنى » : المُسَمَّيات الحِسَان .

« وهو العزيز الحكيم » : مضى معناهما ، وقد استقصينا الكلام فى معانى هذه الأسماء (فى كتابنا المسمّى : « البيان والأدلة فى معانى أسماء الله تعالى »)[1] .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى م وهو موجود فى ص . وهذه أول مرة نعرف للقشيرى كتاباً بهذا الاسم فلم يرد ذكره فى كتب الفهارس والتراجم . وكنا نعلم حتى هذه اللحظة أن القشيرى قد عالج دراسة الأسماء والصفات فى كتابين فقط أولها : التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى . والثانى : شرح أسماء الله الحسنى تحقيق الحلوانى .

سورة الممتحنة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَلِكٍ لا أصلَ لمُلْكِه عند حَدَث ولا نَسْلَ له ، فَمَنْهُ يَرِث . مالكٍ لا يَسْتَظْهِرُ بجيشٍ وعُدَد ، ولا يتعزَّزُ بقَوْمٍ وعَدَد . مالكٍ للخَلْقِ[1] بأجمعِهم — لكنه اختار قوماً — لا لينتفِعَ بهم — بل لِنَفْعِهم ، وردَّ آخرين وأذَلَّهم بمَنْعِهم ووَضْعِهم :

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عَدُوِّى وعَدُوَّكم أولياء تُلْقُونَ إليهم بالمودَّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحقِّ يُخْرِجون الرسولَ وإيَّاكم أن تُؤْمِنوا بالله ربِّكم إن كنتم خَرَجْتُم جِهاداً فى سبيلى وابتغاء مَرْضاتى »[2] .

قال صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوِّك نَفْسُك التى بين جنبيك[3] وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام : « عادِ نَفْسَك فليس لى فى المملكة مُنَازِعٌ غيرها » . فمَنْ عادَى نَفْسَه فقد قام بحقِّ الله ، ومَنْ لم يعادِ نفسه لَحِقَتْه هذه الوصمةُ . وأصلُ الإيمانِ الموالاةُ والمعاداةُ فى الله ومَنْ جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الخلق) وهى سبطأ من الناسخ .

(٢) نزلت الآية فى حاطب بن أبى بلتعة الذى بعث فى السر بكتاب مع امرأة يقال لها سارة إلى أهل مكة يحذرهم فيه من استعداد النبى لهم والتهيؤ لقتالهم ، فوضعت الكتاب فى عقاص شعرها . ونزل جبريل على الرسول ليخبره بالأمر ، فأرسل فى إثرها فرسانه ، فانتزعوا الكتاب منها .

وحينما هم عمر رضى الله عنه بضرب عنق حاطب قال الرسول : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ففاضت عينا عمر ، ونزلت الآية .

(٣) ينظر الصوفية إلى النفس على أنها محل المعلولات (الرسالة ص ٤٨) .

قوله جل ذكره : « وأنا أعْلَمُ بما أخْفَيْتُمْ وما أعْلَنتُم ومَن يَفْعَلْهُ منكم فقد ضَلَّ سَوَاءَ السبيلِ » .

أنا أعلم « بما أخفيتم » من دقائقِ التصنُّع وخَفِيّات الرياء .

« وما أعلنتم » من التزيُّن للناس .

« ما أخفيتم » من الاستسرار بالزَّلة ، « وما أعلنتم » ، من الطاعة والبِرِّ .

« ماأخفيتم » من الخيانة « وما أعلنتم » من الأمانة .

« ما أخفيتم » من الغِلِّ والغِشِّ للناس ، « وما أعلنتم » من الفضيحةِ للناس .

« ما أخفيتم » من ارتكابِ المحظورات ، « وما أعلنتم » من الأمرِ بالمعروف .

« ما أخفيتم » من تَرْكِ الحشمة منى وقلة المبالاةِ باطِّلاعى ، وما أعلنتم من تعليم الناسِ ووَعْظِهِمْ .

« ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل » فقد حادَ عن طريق الدين ، ووَقَعَ فى الكفر .

قوله جل ذكره : « إن يَثْقَفُوكم يكونوا لكم أعداء ويَبْسُطوا إليكم أيْدِيَهُم وألْسِنَتَهُم بالسُّوء وودُّوا لو تَكْفُرون * لَن تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم » .

إنْ يَظْفَروا بكم وصادَفوكم يكونوا لكم أعداء ، ولن تَسْلَموا من أيديهم بالسوء ولا من ألسنتهم بالذمِّ وذكْرِ القبيح .

« وودُّوا لو تكفرون » : ولن يَنْفَعَكم تَوَدُّدُكم وَتَقَرُّبُكم إليهم ، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبة الآخرةَ تُدْرِكُكُم (١) .

---

(١) لأنكم حينئذ تكونون قد آثرتم قرابتكم بأعدائكم على حقوق الله .

وكذلك صفة الخالِف ، ولا ينبغى للمرء أنْ يتعلَّش إلى عشيرته — وإنْ داهَنَتْه فى قالَةٍ ، ولا أنْ ينخدعَ بتغريرها — وإنْ لايَنَتْه فى حالة

قوله جل ذكره : « قد كانت لكم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إبراهيم والَّذينَ معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَءاءُ منكم ومما تَعْبُدُون من دونِ اللهِ ، كَفَرْنا بكم ، وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمِنوا باللهِ وَحْدَه إلَّا قَوْلَ إبراهيمَ لأبيه لَأَستَغْفِرَنَّ لَكَ وما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شىء » .

أى لكم قُدْوَةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبرَّءوا من الكفار من أقوامهم ؛ فاقتَدُوا بهم .. إلَّا استغفار إبراهيم لأبيه — وهو كافر — فلا تقتدوا به .

ولا تَستَغْفِروا للكفار . وكان إبراهيمُ قد وعده أبوه أنه يُؤْمِن فلذلك كان يستغفر له ، فلَمَّا تَبَيَّنَ له أنه لن يُؤْمِنَ تَبَرَّأَ منه

ويقال : كان منافقاً .. ولم يَعْلَمْ إبراهيم ذلك وقتَ استغفاره له .

ويقال : يجوز أنه لم يعلم فى ذلك الوقت أنَّ اللهَ لا يغفر للكفار .

والفائدةُ فى هذه الآية تخفيفُ الأمرِ على قلبِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتعريفهم أنَّ مَنْ كانوا قبلهم حين كَذَّبوا بأنبيائهم أهلكهم اللهُ ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغى لذلك أنْ يكونَ بالصبرِ أمرُهم .

قوله جل ذكره : « ربَّنَا عليكَ تَوَكَّلْنا وإليكَ أَنَبْنَا وإليكَ المصير » .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصحُّ أن يكون معناه : قولوا : « ربَّنا عليكَ توكلنا » .

وقد مضى القولُ فى معنى التوكل والإنابةُ .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا لا تَجْعَلْنا فِتنةً للذين كفروا واغفِرْ لنا رَبَّنَا إنَّكَ أنت العزيزُ الحكيمُ » .

ربَّنا لا تُظْفِرْهم بنا ، ولا تُقَوِّهم علينا .

والإشارة فى الآية : إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إبراهيم فى السخاء وحُسْنِ الخُلُقِ والإخلاصِ والصدقِ والصبرِ وكلِّ خصلةٍ له ذَكَرَها لنا .

قوله جل ذكره : « عَسَى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبين الذين عَادَيْتُمْ منهم مَوَدَّةً واللهُ قديرٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .

وتفهم فى مقتضى قوله تعالى : « عسى الله » عند حدِّ التجويز . . لا حُكْماً بالقَطْعِ ، ولا دَفْعَ قلبٍ باليأس . . ثم أمَرَهم بالاقتصاد فى العداوة والولاية معهم بقلوبهم ، وَعرَّفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته ، وجَرَيانِ كلِّ شىء على ما يريد لهم ، وصَدَّق هذه الترجية بإيمانِ مَنْ آمَنَ منهم عند فتح مكة ، وكيف أسلم كثيرون ، وحصل بينهم وبين المسلمين مودةٌ أكيدة .

قوله جل ذكره : « لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يُقَاتِلوكم فى الدِّينِ ولم يُخْرِجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطين * إنَّما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم فى الدِّينِ وأخرجوكم من دياركم وظَاهَروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهم ، ومَن يتَوَلَّهُم فأولئك هم الظالمون » .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الوجه الذى يفعلونه ، وأمّا من كان فيهم ذا خُلُقٍ حَسَنٍ ،

أو كان منه للمسلمين وجهُ نَفْعٍ أو رِفْقٍ — فقد أمَرَهم بالملاينة معه . والمُؤَلَّفَةُ قلوبهم شاهدٌ لهذه الجملة ، فإنَّ اللهَ يحب الرِّفق فى جميع الأمور[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكُم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامْتَحِنُوهنَّ اللهُ أعْلَمُ بإيمانِهِنَّ فإنْ علمتُموهنَّ مؤمناتٍ فلا تَرْجِعوهُنَّ إلى الكفَّارِ . . . . » .

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمتحنهن باليمين ، فيَحْلِفْنَ إنَّهن لم يخرجن إلَّا للهِ ، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن ، ولم يخرجن طمعاً فى مالٍ .

وفى الجملة : الامتحانُ طريقٌ إلى المعرفة ، وجواهرُ[2] الناس تتبيَّن بالتجربة[3] . ومَنْ أقْدَمَ على شىء من غير تجربة تحَسَّى كأسَ الندمَ .

« ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِرِ »[4] .

لا توافِقوا مَنْ خالَفَ الحقَّ فى قليل أو كثير .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إذا جاءكَ المؤْمِنَاتُ يُبَايعنكَ عَلَى أن لَّا يُشْرِكْنَ باللهِ شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يزْنين ولا يَقْتُلْنَ أولادهُنَّ ولا يأتين بِبُهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينكَ فى معروفٍ فبايِعْهُنَّ واستغفِر لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم » .

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » .

(٢) هكذا فى ص ، وفى ن م (وجواهر) وهى خطأ من النسخ .

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالِبْهُنَّ وشارِطْهُنَّ بهذه الأشياء :

تَرْكَ الشِّرك ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء فى إلحاق النَّسبِ ، وألا يعصينك فى معروفٍ ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به ، ويدخل فى ذلك تَرْكُ النياحةِ وشقُّ الجيوب ونَتْفُ الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميشُ[1] الوجوه والتبرُّجُ وإظهارُ الزينة . . . وغير ذلك مما هو من شعائر الدِّين فى الجملة .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تتَوَلَّوْا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهم قد يئِسوا من الآخرة كما يَئِسَ الكفَّارُ من أصحابِ القُبور » .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يئسوا من الآخرة كما يئِسَ أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخَلْقَ لا يُبْعَثُون فى القيامة[2].

---

(١) خمش . أى جرح بشرته .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الآخرة) وكلاهما صحيح فى السياق .

سُورَةُ الصَّف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ وقفه اللهُ لعرفانها لم يَصْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصلَ إلى المُسَمَّى بها بِجَنَانِهِ : فى البداية بتأمُّل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده فى إحسانه حتى ينتهى فى شأنه بالتحقق مما هو كِيانِهِ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ للهِ ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

مَنْ أراد أنْ يصفوَ له تسبيحُه فَلْيُصَفِّ قلبَه من آثار نَفْسِه ، ومَنْ أراد أن يَصْفُوَ له فى الجنَّةِ عَيْشُه فَلْيُصَفِّ من أوضارِ ذَنْبِه نَفْسَه .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كَبُرَ مَقْتاً عند اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون » .

جاء فى التفاسير أنهم قالوا : لو عَلِمْنا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنا ولو فيه كل جهد . . ثم لمَّا كان يومُ أُحُد لم يثبتوا ، فنزلت هذه الآية فى العتاب[1] .

وفى الجملة : خلفُ الوعدِ مع كلِّ أحَدٍ قبيحٌ ، ومع اللهِ أقبح .

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضعِ الفقر إلى الحقِّ فى كلِّ نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى[2] . . . واللهُ يحب التبرِّى من الحوْلِ والقوة .

---

(١) قال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيَّه (ص) بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة : اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لَنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنَا .. ففروا يوم أحد ، فعيرهم الله بذلك .

(٢) أى بدعوى النَّفْس ؛ تسوِّل له نفسه أن له فى الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هو الذى مكَّنَ له .

ويقال : لم يتوعَّد — سبحانه — زَلَّةٍ بِمِثْلِ ما على هذا حين قال : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُحب الذين يُقَاتِلون فى سبيلهِ صَفًّا كأنهم بُنْيَانٌ مَرْصوصٌ » .

المحبةُ توجِبُ الإيثارَ ، وتقديم مُرَادِ حبيبك عَلَى مُرَادِ نَفْسِك ، وتقديم محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِك . فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أنْ يُقاتِلَ على الوجه الذى ذكره فَمَنْ لم يُؤْثِرْ محبوبَ اللهِ على محبوبِ نَفْسِهِ — أى على سلامته — انسلخ من محبته لربِّه ، ومَنْ خلا من محبةِ اللهِ وَقَعَ فى الشِّق الآخر ، فى خسرانه .

قوله جل ذكره : « وإذْ قال موسى لقومه ياقومِ لِمَ تُؤْذُونني وقد تعلمون أنِّى رسولُ اللهِ إليكم ؟ فلمَّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم واللهُ لا يَهْدِى القومَ الفاسقين » .

لمَّا زاغوا بِتَرْكِ الحدِّ أزاغ اللهُ قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لمَّا زاغوا عن طريق الرُّشْدِ أزاغ الله قلوبَهم بالصدِّ والردِّ والبُعْدِ عن الوُدِّ .

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ اللهُ سرائرَهم .

ويقال : لمَّا زغوا عن خدمة الباب أزاغ اللهُ قلوبَهم عن التشوُّق إلى البساط .

ويقال : لمَّا زاغو عن العبادة أزاغ اللهُ قلوبَهم عن الإرادة .

قوله جل ذكره : « وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيلَ إنِّى رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقًا لِمَا بين يَدَىَّ من التوراةِ ومُبَشِّراً برسولٍ يأتى من بَعْدِى

---

(١) عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله (ص) : « أتيتُ ليلة أُسْرِىَ بى على قوم تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار كلما قُرِضَتْ وَفَتْ (= تمت وطالت) قلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : « هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ، ويتلون كتاب الله ولا يعملون » . (ابن نعيم من حديث مالك بن دينار عن ثمامة)

اسمُهُ أحمدُ ، فلمَّا جاءهم بالبيِّناتِ قالوا
هذا سِحْرٌ مبين » .

بَشَّرَ كلُّ نبيٍّ قومَه بنَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم ، وأفرد الله — سبحانه — عيسى بالذِّكْرِ في هذا الموضع لأنه آخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام .

قوله جل ذكره : « يُرِيدون لِيُطْفِئوا نورَ اللهِ
بأفواهِهِم واللهُ مُتِمُّ نورِه ولو كَرِهَ
الكافرون[1] » .

فمَن احتال لِوَهَنه ، أو رامَ وهْيَه انعكس عليه كَيْدُه ، وانتقض عليه تدبيرُه .

« ويأبى الله إلَّا أن يتم نوره » : كما قالوا :

وللهِ سِرٌّ في عُلاهُ وإنمـا كلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

كأنه قال : مَنْ تمنَّى أنْ يُطْفِئَ نورَ الإسلامِ بكيده كمن يحتال ويزاول إطفاء شعاعِ الشمس بنَفْثِه ونَفْخِه فيه — وذلك من المُحَال .

قوله جل ذكره : « هو الذى أرْسَلَ رسولَه بالهُدَى
ودِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه
ولو كَرِهَ المُشْرِكون » .

لمَّا تقاعد قومُه عن نصرته ، وانبرى أعداؤه لتكذيبه ، وجحدوا ما شاهدوه من صِدْقِه قَيَّضَ الله له أنصاراً من أمته هم : نُزَّاعُ القبائل ، والآحادُ الأفاضل ، والساداتُ الأماثل ، وأفرادُ المناقب — فبذلوا في إعانته ونصرة دينه مُهَجَهم ، ولم يُؤْثِروا عليه شيئاً من كرائمهم ، ووقوه

(١) حكى عطاء عن ابن عباس : أن الوحي حين أبطأ على رسول الله (ص) أربعين يوماً قال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود : أبشروا ! فقد أطفأ اللهُ نورَ محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم أمره ؛ فحزن النبي (ص) — فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحيُ بعدها .

بأرواحهم ، (وأمدّهم اللهُ سبحانه بتوفيقه كى ينصروا دينه ، أولئك أقوامٌ عَجَنَ الله بماء السعادة طينتَهم ، وخَلَقَ من نور التوحيد أرواحَهم[1]) وأهّلهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم .

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه مُوَضِّحاً ، وبالحقّ مُفْصِحاً ، ولتوحيده مُعْلِناً ، ولجهده فى الدعاء إليه مستفرِغاً . . . فأقْرَعَ بنُصْحِه قلوباً نُكْراً ، وبصَّرَ بنور تبليغه عيوناً عُمْياً .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا هل أدُلُّكُم على تجارَةٍ تُنجيكُم من عذابٍ أليم * تُؤْمِنون باللهِ ورسولِه وتجاهِدون فى سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكُم ذٰلكُمْ خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ».

سَمّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا فى التجارة من الرِّبح والخسران ونوعِ تَكَسُّبٍ من التاجر — وكذلك : فى الإيمان والجهاد رِبْحُ الجنّة وفى ذلك يجتهد العبد ، وخسرانها إذا كان الأمرُ بالضِّدّ .

وقوله : « تؤمنون بالله . . . » أى فى ذلك جهادُكم وإيمانُكم واجتهادُكم ، وهو خيرٌ لكم .

ثم بَيَّن الربحَ على تلك التجارة ماهو فقال :

« يَغْفِرْ لكم ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُم جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ

---

(١) ما بين القوسين ورد فى م وسقط فى ص .

ومساكِنَ طَيِّبَةً فى جناتِ عَدْنٍ ذلا
الفوزُ العظيمُ » .

قدَّم ذِكْرَ أهمِّ الأشياء — وهو المغفرة . ثم إذا فَرَغَت القلوبُ عن العقوبة قال :

« ويدخلكم جناتٍ ... » فبعد ما ذَكَرَ الجنَّةَ ونعيمَها قال : « ومساكن طيبة » ؛ وبماذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلَّا برؤية الحقِّ سبحانه ، ولذلك قالوا :

أجيرانَنَا ما أوحشَ الدارَ بعدكم إذا غِبْتُمو عنها ونحن حضورُ !
نحن فى أكملِ السرورِ ولكنْ ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ مانحن فيه يا أهلَ ودِّى أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

قوله جل ذكره : « وأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ من اللهِ وفَتْحٌ قريبٌ وبَشِّرِ المؤمنينَ » .

أى ولكم نعمة أخرى تحبونها : نصرٌ من الله ؛ اليومَ حِفْظُ الإيمان وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيامة .

« وفتح قريب » : الرؤية والزلفة . ويقال الشهود . ويقال : الوجود[1] أبدَ الأبَد .

« وبشر المؤمنين » : بأنهم لايبقون عنك فى هذا التواصل .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللهِ كما قال عيسى ابنُ مريمَ للحواريين مَنْ أنصارى إلى اللهِ ؟ قال الحواريونَ : نحنُ أنصارُ اللهِ فآمنت

---

(١) لفظة (الوجود) بالمعنى الصوفى مقبولة هنا ، ولكننا فى ذات الوقت لا نستبعد أن تكون (الخلود) إشارة إلى قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً » .

طائفةٌ من بنى إسرائيلَ وكَفَرت
طائفةٌ فأيَّدْنا الذين آمنوا على عدُوِّهم
فأصبحوا ظاهرين » .

أى كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أنْ عيسى لمَّا استعانَ واستنصرَ الحواريين نصروه .. فانصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أنَّ طائفةً من بنى إسرائيل آمنوا بعيسى فأُكْرِموا ، وطائفةً كفروا فأُذِلُّوا ، وأظفرَ أولياءه على أعدائه ... لكى يعرف الرسولُ صلى الله عليه وسلم أنَّ اللهَ سبحانه يُظفِرُ أولياءه على أعدائه .

سورة الجمعة

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم » .

« بسم الله » اسم عزيز إذا تجلّى لقلبِ عَبْدٍ بوصفِ جمالِه تجمعت أفكارُه على بساط جُودِه فلم يتفرّق بسواه[1] .

ومَنْ تجلّى لِسِرِّه بنعت جلالِه اندرجت جملتُه ، واستُهْلِكَ فى وجوده فلم يشعرْ بكرائم دُنْياه ولا بعظائم عُقْباه . .

وكم له من إنعام ! وكم له من إحسان ! وكما فى أمثالهم : « جرى الوادى فطمَّ على القَرِىِّ[2] »

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ للهِ ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ » .

تَسْبَحُ فى بحارِ توحيد الحقِّ أسرارُ أهلِ التحقيق ، وبَحْرُهم بلا شاطىء ؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروجَ ولا براحَ ، فحازت أيديهم جواهرَ التفريد فرصّعوها فى تاج العرفان كى يَلْبَسُوه يومَ اللّقاء .

« المَلِكِ القُدُّوسِ العزيزِ الحكيم » .

« الملك » : الملك المتفرِّد باستحقاق الجبروت .

« القدوس » : المُنَزَّهُ عن الدرك والوصول : فليس بيد الخَلْقِ إلاَّ عرفان الحقائق بنعت التعالى ، والتأمل فى شهود أفعاله ، فأمّا الوقوف على حقيقة أنّيته — فقد جَلّت الصمديةُ عن

---

(١) لاحظ هنا دقة استعمال الاصطلاحين (الجمع والفرق) .

(٢) القَرِىّ — مجرى الماء فى الروضة والجمع : أقرية وأقراء وقريان ، ويضرب المثل عند تجاوز الشىء حدّه .

إشرافٍ عليه ، أو طمعِ إدراكٍ فى حالِ رؤيته ، أو جوازِ إحاطةٍ فى العِلْم به . . فليس إلا قالة بلسانٍ مُسْتَنْطَقٍ ، وحالة بشهودِ حقٍّ مستغرق[1] :

وقُلْنَ لنا : نحـــــن الأَهِلَّة إنما نُضىء لِمَنْ يَسْرِى بليلٍ ولا نَقْرِى[2]

قوله جل ذكره : « هو الذى بَعَثَ فى الأُمِّيينَ رسولاً منهم
يتلوا عليهم آياتِه ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهم
الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا مِن
قَبْلُ لَفِى ضلالٍ مبين » .

جرّده عن كلِّ تكلُّفٍ لِتَعَلُّمٍ ، وعن الاتصافِ بتطَلُّبٍ[3] . . ثم بعثَه فيهم وأظهرَ عليه من الأوصاف ما فاق الجميع .

فكما أيتَمَهُ فى الابتداء عن أبيه وأمِّه ، ثم آواه بلُطْفِه — وكان ذلك أبلغَ وأتمَّ — فإنه كذلك أفرده عن تكلُّفِه العلم — ولكن قال : « وعلَّمك مالم تكن تعلم »[4] .

وقال : « ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً »[5] ألبسه لباسَ العِزَّة ، وتَوَّجه بتاجِ الكرامة ، وخَلَعَ عليه حُسْنَ التولِّى . . لتكونَ آثارُ البشرية عنه مندرجة[6] ، وأنوارُ الحقائقِ عليه لائحة .

وآخَرِين منهم لمَّا يَلْحَقُوا بِهِم وهو
العزيزُ الحكيم » .

---

(١) هذه الفقرة التى كتبها القشيرى عن (القدوس) على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هى توضح : أن الصوفى مهما ارتفع فى معراجه الروحى لا يستشرف من (الذات) فقد جاءت الصمدية عن ذلك ، وإنما هو يتحقق من شهود (الفعل) .. ولا شك أن أهل السنة المتشددين سيجدون فى هذا النص ما يعطفهم نحو التصوف وأهله .

(٢) أى ولا نستضيف .. والمقصود أن السالكين طريق الله دائماً على الدرب سائرون وأن الحق سبحانه لا وقوف على كنهه .

(٣) حتى ينتفى عنه سوء الظن فى تعلمه شيئاً من الكتب السابقة ، وأن ما يدعو إليه ثمرة قراءته .

(٤) آية ١١٣ سورة النساء .

(٥) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٦) هى هكذا فى ص وفى م مشتبهة ، والمقصود لتنطوى عنه آثار البشرية — لا البشرية نفسها — وتلوح عليه أنوار الحقائق.

أى بَعَثَهُ فى الأميين ، وفى آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتى . . إلى يوم القيامة ؛ فهو صلى الله عليه وسلم مبعوثٌ إلى الناسِ كافَّة .

قوله جل ذكره : « ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَن يشاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها « من يشاء » ؛ وفى ذلك ردٌّ على مَنْ قال : إنها تُسْتَحَقُّ لكثرة طاعة الرسول — وردٌّ على من قال : إنها لتخصيصهم بطينتهم ؛ فالفضل ما لا يكون مُسْتَحَقًّا ، والاستحقاق فَرْضٌ[1] لا فضل .

ويقال : « فضل الله » هنا هو التوفيق حتى يؤمِنوا به .

ويقال : هو الأُنْسُ بالله ، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شىء إذا وَجَدَ الأُنْسَ.

ويقال : قَطَعَ الأسبابَ ، — بالجملة — فى استحقاق الفضل ، إذ أَحَالَه على المشيئة .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْمِلوها كمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفاراً بِئْسَ مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظالمين ».

« ثم لم يحملوها » : ثم لم يعملوا بها .

ويُلْحَقُ بهؤلاء[2] فى الوعيد — من حيث الإشارة — الموسومون[3] بالتقليد فى أى

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرد) وهى خطأ فى النسخ ؛ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلاً منه لا (فرضاً) عليه ؛ فلا وجوبَ على الله — كما نعرفُ من مذهب القشيرى .

(٢) أى باليهود الذين لا فائدة لهم فيما يحملونه من الكتب ، فهى تبشر بمحمد ، وهم يجحدون به .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المؤمنون) .

معنى شِئتَ : فى علم الأصول، ومنّا طريقُه أدلةُ العقول ؛ وفى هذه الطريقة[1] منّا طريقُه المنازلات .

قوله جل ذكره : « قُلْ يأيها الذين هادوا[2] إن زَعَمْتُم أنكم أولياء للهِ من دونِ الناسِ فَتَمَنَّوُا الموتَ إن كُنتُم صادقين * ولا يتمنَّونَهُ أبداً بما قَدَّمَتْ أيْدِيهم واللهُ عليمٌ بالظالمين » .

هذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرْفُ قلوبِهم عن تمنِّى الموتِ إلى هذه المدة دَلَّ على صِدْقِه صلوات الله عليه[3] .

ويقال : من علامات المحبة الاشتياقُ إلى المحبوب ؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه إلا بالموتِ فتمنِّيه — لا محالة — شرطٌ ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً . . وكان كما أخبر .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّ الموتَ الذى تفرون منه فإنه مُلاقيكُم ثم تُرَدُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فَيُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون » .

الموتُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ . وفى الخبر : « مَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءه » . والموتُ جِسْرٌ والمقصدُ عند الله . . ومَنْ لم يَعِشْ عفيفاً فَلْيَمُتْ ظريفاً[4] .

---

(١) يقصد طريقة الصوفية .

(٢) أخطأ الناسخ فى م وجعلها (آمنوا) .

(٣) والآية تؤكد هذا مرتين باستعمال أسلوب إنشائى (فتمنوا) وأسلوب خبرى (ولا يتمنونه أبداً) .

(٤) سئل الجنيد عن الظرف فقال : « اجتناب كل خُلُق دنىء واستعمال كل خلق سَنِىّ وأن تعمل لله ثم لا ترى أنك عملت » (اللمع للسراج ص ٩٦٢) .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاةِ من يومِ الجمعة فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذلكم خيرٌ لكم إن كُنتُم تعلمون » .

أوْجَبَ السَّعْىَ يومَ الجمعة إذا نودِىَ لها ، وأمَرَ بِتَرْكِ البيع[1] .

ومنهم من يحمله على الظاهر ؛ أى تَرْكُ المعاملة مع الخَلْقِ[2] ، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنًى آخر : هو تَرْكُ الاشتغالِ بملاحظة الأعراض[3] ، والتناسى عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر ؛ فمنهم مَنْ يسعى إلى ذِكْرِ الله ، ومنهم من يسعى إلى الله ، بل يسعون إلى ذِكْرِ الله جَهْراً بِجَهْرٍ ، ويسعون إلى الله تعالى سِرًّا بسِرٍّ .

قوله جل ذكره : « فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فَضْلِ اللهِ وآذكروا اللهَ كثيراً لعلَّكم تُفلِحون»

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه ، أو شغْلٌ يقصده ويشتغل به — ولكن .. مَنْ لا شُغْلَ له ولا مأوى .. فإلى أين يرجع ؟ وإنما يقال : « وابتغوا من فضل الله » إذا كان له أَرَبٌ .. فأمَّا مَنْ سَكَنَ عن المطالبات ، وكُفِىَ داءَ الطَّلَبِ .. فما له وابتغاء ما ليس يريده ولا هو فى رِقِّهِ ؟ !

قوله جل ذكره : « وإذا رأوْا تجارةً أوْ لَهْواً انفضُّوا إليها وتركُوكَ قائما .. قُلْ ما عند اللهِ

---

(١) هكذا فى ص وهى الصواب حسب الآية ، ولكنها فى م (الجميع) .
(٢) هكذا فى ص وهى فى م (الحق) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) جمع (عَرَض) الحياة الدنيا.

خَيْرٌ من اللَّهْوِ ومن التجارة واللهُ خيرُ الرَّازقين » .

مَنْ أَسَرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لكلِّ داعٍ جرَّه إليه لَهْوٌ أو حَمَلَه عليه سَهوٌ ومَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور ، ولم يلتفت فى حال الشهود . « قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة » وما عندالله للعُبَّاد والزُّهَّاد — غداً[1] — خيرٌ مما[2] نالوه فى الدنيا نقداً . وما عند الله للعارفين — نقداً — من واردات القلوب وبواده[3] الحقيقة خيرٌ مما يُؤَمِّل المستأنِف[4] فى الدنيا والعُقْبى .

---

(١) ويجوز أنها فى الأصل « وعداً » لتقابل « نقداً » فهذا نمط فى تعبير القشيرى مألوف ، ومع ذلك فالوعد (غداً) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (ممن) والصواب (مما)

(٣) البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، وهى إما موجبات فرح أو موجبات ترح ، وسادات الوقت لا تغيّرهم البواده ، لأنهم فوق مايفجؤهم حالاً وقوة (الرسالة — ص ٤٤) .

(٤) موجودة فى ص وغير موجودة فى م وهى ضرورية للسياق ، والمستأنف : هو المريد المبتدىء الذى مازال يفكّر فى الثواب الآجل والثواب العاجل .

سُورَةُ المُنَافِقُون

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَنْ تَحقَّق به صَدَقَ فى أقوالِه ، ثم صَدَقَ فى أعمالِه ، ثم صدق فى أخلاقِه ثم صَدَقَ فى أحوالِه ، ثم صَدَقَ فى أنفاسه[1] .. فصِدْقُه فى القول ألّا يقولَ إلّا عن برهان ، وصِدْقُه فى العمل ألا يكونَ للبِدْعةِ علية سلطانٌ ، وصِدْقُه فى الأخلاقِ ألّا يُلاحِظَ إحسانَه مع الكافَّة بعين النقصان ، وصِدْقُه فى الأحوال أنْ يكونَ على كَشْفٍ وبيانٍ ، وصِدْقُه فى الأنفاس ألا يتنفَّسَ إلا على وجودٍ كالعيان[2] .

قوله جل ذكره : « إذا جاءكَ المنافقُون قالوا : نَشْهَدُ إنَّكَ لرسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المنافقين لَكَاذِبون » .

كَذِبُهم فيما قالوا وأظهروا ، ولكنهم لم يشهدوا عن بصيرة ولم يعتقدوا تصديقك ، فهم لم يكذبوا فى الشهادة[3] ولكنَّ كِذْبَهم فى قولهم : إنَّهم مخلصون لك ، مُصَدِّقون لك . فصِدْقُ القالة لا ينفع مع قُبْحِ الحالة .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (انعامه) والصواب ما أثبتنا بدليل ما بعده .

(٢) لاحظ هنا كيف تتفق إشارة البسملة مع السياق العام للسورة .

(٣) أى تقريرهم بأن محمداً رسول الله حقيقة ليس فيها كذب ، فمن حيث الظاهر فقد نطقت ألسنتهم بالصدق ، ولكن الكذب كامن فى القلب .

ويقال : الإيمان ما يوجِبُ الأَمان ؛ فالإيمانُ يوجِبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصَه من العذاب أكثره وأقلّه . . إلّا ما ينقله من (أعلى)[1] جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : « اتَّخذوا أيْمَانَهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ إنَّهم ساء ما كانوا يعملُون » .

تَسَتَّرُوا بإقرارِهم ، وتكَشَّفوا بنفاقهم عن أستارِهم فافتضحوا ، وذاقوا وبالَ أحوالهم .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ على قلُوبِهم فَهُمْ لا يفقهُون » .

استضاءوا بنورِ الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة ، فانطفأ نورُهم بقَهْرِ الحرمان ، وبقوا فى ظلمات القسمة السابقة بحُكْمِ الشقاوة .

قوله جل ذكره : « وإذا رَأيْتَهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولِهم كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُون كُلَّ صيحةٍ عليهم هم العدُوُّ فاحْذَرْهُم ، قَاتَلَهُم اللهُ أنَّىٰ يُؤْفَكُون » .

أى هم أشباحٌ وقوالبٌ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق — فالجوزُ[2] الفارغُ مُزَيَّنٌ ظاهِرُه ولكنه للعب الصبيان[3] .

« يحسبون كل صيحة عليهم .. » وذلك لِجُبْنِهم ؛ إذ ليس لهم انتعاشٌ بربِّهم ، ولا استقلالٌ بغيرهم .

---

(١) سقطت (أعلى) من الناسخ فى م وهى موجودة فى ص .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص « الحوض » وقد رجحنا الأولى .
(٣) فى هذه الإشارة تنبيه إلى قاعدة صوفية : أن العبرة بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح (أى الأجساد) .

« هم العدوُّ فاحذرهم » هم عدوٌّ لك — يا محمد — فاحْذَرْهم ، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم تعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لكم رسولُ اللهِ لَوَّوْا رُءوسَهم ورأَيْتَهُم يَصُدُّون وهم مُسْتَكْبِرون » .

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبُّر ، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم . . فَخَلِّ سبيلَهم ؛ فليس للنُّصح فيهم مساغٌ ، ولن يُصْحِيَهم من سَكْرَتِهم إلَّا حَرُّ ما سيلقونه من العقوبة ، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم :

« سواء عليهم أَستَغْفَرْتَ لهم أمْ لم تستَغْفِرْ لهم لن يَغْفِرَ اللهُ لهم إنَّ اللهَ لا يَهْدِى القومَ الفاسقين » .

فقد سبق العِلْمُ بذلك :

قوله جل ذكره : « هم الذين يقولون لا تُنفِقوا على مَنْ عِندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا وللهِ خزائنُ[1] السمواتِ والأرضِ ولكنَّ المنافقين لا يفقهُون » .

كأنهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غيرُ متحققِّين بتصريفِ الأيام ، فأَنْطَقَهُم بما خَامَرَ قلوبَهم مِنْ تَمَنِّى انطفاء نورِ رسول الله ، وانتكاث شَمْلِهم ، فتواصَوْا فيما بينهم بقولهم : « لا تنفقوا على من عند رسول الله » فقال تعالى « وللهِ خزائنُ السمواتِ . . . » .

وليس استقلالُك — يا محمد — ولا استقلالُ أصحابِك بالمرزوقين . . بل بالرازق ؛ فهو الذى يمسككم .

---

(١) « ولله خزائن السموات والأرض » بهذا أجاب كثيرون من أرباب الطريق كحاتم الأصم والجنيد والشبلى عندما كانوا يسأل أحدهم : من أين تأكل ؟

قوله جل ذكره : « يقولون لئن رَجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ ولله العِزَّةُ ولرسولِه وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمُون » .

إنما وقع لهم الغَلَطُ فى تعيين الأعزِّ والأذَلِّ ؛ فتوَهَّموا أنَّ الأعزَّ هم المنافقون ، والأذلَّ هم المسلمون ، ولكن الأمر بالعكس ، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وأُذِلَّ المنافقون بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » : لله عِزُّ الإلهية ، وللرسولِ عِزُّ النبوَّة ، وللمؤمنين عِزُّ الولاية . . وجميعُ ذلك لله ؛ فَعِزُّه القديم صِفَتُه ، وعِزُّ الرسولِ وعِزُّ المؤمنين له فِعلاً ومِنَّةً وفَضْلاً ، فإذاً لله العِزَّةُ جميعاً .

ويقال : كما أنَّ عِزَّةَ اللهِ — سبحانه — لا زوالَ لها فعِزَّة الأنبياء بأنْ لا عَزْلَ لهم ، وعِزَّةُ المؤمنين بألا يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ فى النار .

ويقال : مَنْ كان إيمانه حقيقياً فلا زوالَ له .

ويقال : مَنْ تعزَّزَ باللهِ لم يلحقْه تَغَيُّرٌ عن حالِه بغير الله .

ويقال : لا عِزَّ إلَّا فى طاعةِ الله ، ولا ذُلَّ إلَّا فى معصيةِ الله . . وما سوى هذا فلا أصلَ له .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكْرِ اللهِ ومَن يفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسِرون » .

لا تُضَيِّعوا أمورَ دينكم بسبب أموالكم وأولادِكم بل آثِروا حقَّ الله ، واشْتَغِلوا به يَكْفِكُم أمورَ دنياكم وأولادكم ؛ فإذا كُنْتَ للهِ كان اللهُ لك[1] .

---

(١) لتتذكر ما قلناه فى مدخل هذا الكتاب بأن القشيرى نفسه قد ضرب المثل على ذلك حين هاجر من بلده تاركاً أهله فى رعاية الله حينما تعرَّضت عقيدته للمحنة .

ويقال : حقُّ اللهِ بما ألزمكَ القيامَ به ، وحقُّك ضمن لك القيام به ؛ فاشتغِلْ بما كُلِّفْتَ لا بما كُفِيت .

قوله جل ذكره : « وأنفِقُوا من مَّا رزقنـٰكُم مِّن قبل أن يأتِيَ أحَدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرْتنى إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكُن مِّن الصالحين » .

لا تغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم ، وترَقَّبوا بَغَتاتِ آجالِكم ، وتأهَّبوا لما بين أيديكم من الرحيل ، ولا تعرِّجوا فى أوطان التسويف .

سُورَةُ التَّغَابُن

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله . . » كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها يحتاج إلى لسانٍ عزيز فى الغيبة لايُبْتَذَلُ ، وفى ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَل . ومَنْ عَرَفَها يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس فى كلٍّ ناحية منه خليط ، ولا فى كلِّ زاوية زبيط .

قوله جل ذكره: « يُسَبِّحُ للهِ ما فى السمٰواتِ وما فى الأرضِ له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كُلِّ شىءٍ قديرٌ » .

المخلوقاتُ كلُّها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحةٌ . . ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَنْ به طَرَشُ النكرة . .

ويقال : الذى طَرَأَ صَمَمُه فقد يُرْجَى زواله بنوعِ معالجة ، أمَّا مَنْ يُولَدُ أصَمَّ فلا حيلةَ فى تحصيلِ سماعِه . قال تعالى : « فإنك لا تُسْمِعُ الموتى »[1] وقال تعالى : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعَهُم »[2].

قوله جل ذكره : « هو الذى خَلَقَكم فمِنكمْ كافرٌ ومنكم مُؤمِنٌ واللهُ بما تعملون بصير » .

منكم كافرٌ فى سابق حُكْمِه سَمَّاه كافراً ، وعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر ... وكذلك

---

(١) آية ٥٢ سورة الروم .

(٢) آية ٢٣ سورة الأنفال .

كانوا . ومنكم مؤمنٌ فى سابق حُكْمِه سَمَّاه مؤمِناً ، وعَلِمَ فى آزاله أنه يؤْمِن وخَلَقَه مؤمناً ، وأراده مؤمناً . . والله بما تعملون بصير .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السموات والأرضَ بالحقِّ وصوَّرَكم فأحْسَنَ صُوَرَكُم وإليه المصيرُ » .

« خلق السموات والأرض بالحق » : أى وهو مُحِقٌّ فى خَلْقِه .

« وصوَّركم فأحسن صوركم » لم يَقُلْ لشىء من المخلوقات هذا الذى قال لنا ، صوَّر الظاهرَ وصوَّر الباطنَ ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته ، والباطن شاهدٌ على جلال قربته[1] .

قوله جل ذكره : « يعلم مافى السموات والأرضِ ويعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعْلِنون واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدورِ » .

قَصِّروا حِيَلَكُم عن مطلوبكم ، فهو تتقاصر عنه علومُكم ، وأنا أعلمُ ذلك دونَكم . . فاطلبوا منِّى ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .

ويقال : « ويعلم ماتسرُّون » . فاحذروا دقيقَ الرياء ، وخَفِيَّ ذات الصدور « وماتعلنون » : فاحذروا أن يخالِفَ ظاهرُكم باطنَكم .

فى قوله « ما تسرُّون » أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه .

وفى قوله « ما تعلنون » أمرٌ بالصدق فى المعاملة والمحاسبة مع الخَلْق[2] .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يأتِكُم نَبَأُ الذين كفروا مِن قَبْلُ فذاقوا وبالَ أمرِهم ولهم عذابٌ

---

(١) القربة هنا إشارة إلى تميز الإنسان من بين المخلوقات بقيام المحبة بمعناها الخاص بينه وبين الحق سبحانه ، وقد سبق بيان ذلك فى مواضع مختلفة .

(٢) مرة أخرى ننبه إلى ضرورة فهم الفرق بين اصطلاحى : المراقبة والمحاسبة – حسب المنهج القشيرى .

أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبيِّناتِ فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُوننا فكفروا وتولَّوا واستغنى اللهُ واللهُ غنيٌّ حميد » .

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، ومَنْ لم يعتبِرْ عَثَرَ فى مَهْوَاةٍ من الأَمَلِ ، ثم لا يَنْتَعِشُ إلّا بعد فواتِ الأمرِ من يده .

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم .. » . شاهدوا الأمرَ من حيث الخَلْقِ فتطوَّحوا فى متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوال . ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلَّصوا من تفرقة الأباطيل ، واستراحوا بشهود[1] التقدير من اختلافِ الأحوالِ ذات[2] التغيير .

قوله جل ذكره : « زَعَمَ الذين كفروا أنْ لَّن يُبْعَثُوا قُلْ : بلىٰ وربِّى لَتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلْتُم ، وذلك على اللهِ يسير » .

الموتُ نوعان : موتُ نَفْسٍ ، وموتُ قلبٍ ؛ ففى القيامة يُبْعَثون من موت النَّفْس ، وأمَّا موتُ القلبِ فلا بَعْثَ منه — عند كثيرٍ من مخلصى هذه الطائفة ، قال تعالى مُخْبِراً عنهم : « قالوا يا ويلنا مَنْ بَعَثَنا من مرقَدِنا ؟ »[3] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك ؛ فموتُ قلوبهم مُسَرْمَدٌ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً ، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم .

قوله جل ذكره : « فآمِنوا باللهِ ورسولِهِ والنورِ الذى أنزلنا واللهُ بما تعملون خبيرٌ » .

« النور الذى أنزلنا » : القرآن . ويجوز أنْ يكونَ ما أنزل فى قلوب أوليائه من السكينة وفنون الألطاف .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (من شهود) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) فى النسختين (ذوى) وقد رأينا أن تكون (ذات) أو (ذوات) .
(٣) آية ٥٢ سورة يس ، والفرق واضحٌ بين هذه القالة وبين ما قاله أصحاب الكهف المؤمنون .

قوله جل ذكره : « يومَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذلك يومُ التغابُنِ ومَن يُؤْمِن باللهِ ويَعْمَلْ صَالحًا يُكَفِّرْ عنه سيئاتِه ويُدْخِلْهُ جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم » .

المطيعُ — يومئذٍ — فى غبن لأنه لم يستكثر من الطاعة ، والعاصى فى غبن لأنه استكثر من الزلَّة(١) .

وليسَ كلُّ الغبنِ فى تفاوت الدرجات قلَّةً وكثرة ، فالغبن فى الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره : « ما أصابَ من مصيبةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ ومَن يُؤْمِن باللهِ يَهْدِ قلبَهُ واللهُ بكل شىء عليم » .

أىُّ حَصْلةٍ حَصَلَت فمِنْ قِبَلِه خَلْقاً ، وبعلمه وإرادته حُكْماً .

ومَنْ يؤمنْ باللهِ يهدِ قلبَه حتى يهتدى إلى الله فى السَّراء والضَّراء — اليومَ — وفى الآخرة يهديه إلى الجنة .

ويقال : « يهدِ قلبه » للأخلاق السنيَّة ، والتنقِّى من شُحِّ النَّفْس .

ويقال : « يهدِ قلبه » لاتِّباع السُّنَّةِ واجتنابِ البِدْعة .

قوله جل ذكره : « وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ فإن تَوَلَّيْتُم فإنَّما على رسولِنا البلاغُ المبينُ » .

---

(١) قال بعض الصوفية : إن الله كتب الغبن على الخَلْق أجمعين ، فلا يلقى أحدٌ ربَّه إلا مغبوناً ؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب ، وفى الأثر قال النبى (ص) : « لايلقى اللهَ أحدٌ إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحْسِن ، وإن كان محسناً إن لم يزدد» القرطبى حـ ١٨ ص ١٣٨ .

طاعةُ اللهِ واجبةٌ ، وطاعةُ الرُّسُلِ — الذين هم سفراء بينه وبين الخلقِ — واجبةٌ كذلك . والأنوار التى تظهر عليك[1] وتطالبُ بمقتضياتها كلُّها حقٌّ ، ومن الحقِّ . . فتجب طاعتُها أيضاً .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا إنَّ مِنْ أزواجِكُمْ وأولادِكم عَدُوًّا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفِروا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم » .

إذا دَعَوْكَ لتجمعَ لهم الدنيا فهم عدوٌّ لك ، أمَّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف[2] فليسوا لكم أعداء .

قوله جل ذكره : « إنَّما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ واللهُ عندَه أجرٌ عظيم » .

« فتنة » : لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله ؛ فما تَبْقَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك .

ويقال : إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُون بذلك عن أداء حقِّ مولاكم ، وتشغلكم أولادُكم ، فتبقون بهم عن طاعة الله — وتلك فتنةٌ لكم . . ترومون إصلاحَهم . فتفسدون أنتم وهم لايُصْلَحون ! .

قوله جل ذكره : «فاتقوا اللهَ ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لأنفسِكُم ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأولئك هم المُفْلِحون » .

---

(١) الخطاب هنا موجَّهٌ إلى صاحب الأحوال والكشوفات .

(٢) عفَّ عفَّةً وعفافاً أى كفَّ عما لايحل ولايجمل . ويقال : هم أعفَّة الفقر ، أى : إذا افتقروا لايسألون . (الوسيط) .

أى ما دمتم فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا اللهَ . والتقوى عن شهود التقوى بعد ألا يكونَ تقصيرٌ فى التقوى غايةُ التقوى .

« ومن يوقَ شُحَّ نَفْسِه » حتى ترتفعَ الأخطارُ[1] عن قلبه ، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات ، فأولئك هم المفلحون .

قوله جل ذكره : « إن تُقْرِضوا اللهَ قرضاً حَسَنًا يُضاعِفْهُ لكم ويغفِرْ لكم واللهُ شكورٌ حليم ».

يتوجَّه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لِبَذْلِ أموالهم ، وللفقراء فى إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثارِ مرادِ الحقِّ على مرادِ أنفسِهم .

فالغنىُّ يُقال له : آثِرْ حُكْمى على مرادك فى مالِك ، والفقيرُ يقال له : آثِرْ حُكْمى فى نَفْسِك وقلبك ووقتك وزمانك .

« عالِمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيم » .

جلَّ شأنه .

---

(١) المقصود بالأخطار هنا : حسبان أن للشيء أهميةً وشأناً .

سُورَةُ ٱلطَّلَاق

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » اسمُ مَنْ لاسبيلَ إلى وِصاله ، ولا غُنْيةَ — فى غيره — عن فِعاله ، اسمٌ مَنْ عَلِمَه وقع فى كلِ سكونٍ وراحة ، اسمٌ مَنْ عرَفَه وقع فى كل اضطراب وإطاحة[1]، العلماء بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا ، والعارفون بسلطانِ حُكمِه اضْطُلِموا عن شواهدِهم .. فبادوا وطاحوا .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النساء
فطلِّقوهن لعدَّتِهِنَّ وأحصوا العِدَّةَ
وأتقوا اللهَ ربَّكم ... » .

الطلاقُ — وإنْ كان فراقاً — فلم يجعله الحقُّ محظوراً . . . وإن كان من وجهٍ مكروها .

وللطلاق وقتية [2] : سُنِّية وبِدْعية ، ومباحة ، لا سنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أنْ تطلِّقَ فى طُهْرٍ لم تُباشَرفيه طلقةً واحدة ، والبدعية : فى حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه ، والمباحة : فى طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها[3] — والطلاق أكثر من واحدة .

---

(١) أطاحه إطاحةً أى أفناه وأذهبه .

(٢) أى وجوه مرتبطة بأوقات خاصة . روى الدارقطنى عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان : فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً من غير جماع ، وأن يطلقها حاملا مستبيناً حَمْلَها . وأما الحرام فأن يطلقها وهى حائض ، أو يطلقها حين يجامعها لا تدرى اشتمل الرَّحِم على ولدٍ أم لا .

(٣) قال السُّدّى : نزلت فى عبد الله بن عمر طلَّق امرأته حائضاً تطليقةً واحدة ، فأمره رسول الله (ص) بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أنْ يطلقها فليطلقها حين تطهر — من قبل أن يجامعها .

ويقال : إنها نزلت فى أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية .. فلم يكن قبلها للمطلقة عدّة ، وحين طلقت على عهد النبى (ص) طلقت بالعدة (هكذا فى كتاب أبى داود) .

والعِدَّةُ — وإن كانت فى الشريعة لتحصين ماء الزوج (محاماة على الأنساب)[1] لئلا يدخل على ماء الزوج ماء آخر — فالغالبُ والأقوى فى معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية فى وصلة النكاح[2].

والإشارة فى الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التى لم تحِضْ ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التى انقطع حَيْضُهَا ، والحُبْلَى حتى تلد . . . كل ذلك مراعاةً للحرمة : وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة فى كونها أطول؛ لأن حُرْمَة الميت أعظم[3] وكذلك الإمداد فى أيام العِدَّة . . . المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : « وتِلْكَ حدودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حدودَ اللهِ فقد ظَلَمَ نَفْسَه » .

العبوديةُ : الوقوف عند الحدِّ ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه ، ومَنْ راعى مع اللهِ حَدَّه أخلص اللهُ له عَهْدَه . .

« لا تدرى لعلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً » .

قالوا : أراد نَدَماً ، وقيل : وَلَداً ، وقيل : مَيْلاً إليها ، أولها إليه ؛ فإن القلوبَ تتقلب :

والإشارة فى إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشكال حقًّا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُسَاكنة الأمثال ، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أوْلَى وأحَقُّ .

قوله جل ذكره : « ومَن يتَّقِ اللهَ يجعل لَهُ مَخرَجاً * ويَرْزُقْهُ من حيث لا يَحْتَسِبُ » .

---

(١) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

(٢) القشيرى يركز جهده فى استخراج إشارات فى الصحبة والصاحب وغير ذلك من المعانى من آيات الطلاق — غير مهم بتفاصيل هذا الموضوع الواسع الذى تعنى به كتب الفقه المتخصصة .

(٣) يقول القشيرى فى الصفحة ١٨٨ من المجلد الأول من هذا الكتاب : كانت عِدَّةُ الوفاة فى ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب ؛ وفعلهم ، ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ إذ لابدَّ من انتهاء مدة الحداد . « وللمطلقات متاعٌ بالمعروف » والإشارة فيه ألا يجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

إذا صَدَقَ العبدُ فى تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجين لا يَعْلَقُ بها شىء . ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِى مرادقاتِ عنايته ، ويُدْخِلُه فى كنف الإيواء ، ويَصْرِفُ الأشغال عن قلبه ، ويُخْرِجُه من ظلمات تدبيره ، ويُجَرِّدُه من كل أمر ، وينقله إلى شهود فضاء تقديره .

قوله جل ذكره : « ومَن يتوكلْ على اللهِ فهو حَسْبُه ».

لم يقل : ومَنْ يتوكل على الله فتوكُّلُه حَسْبُه ، بل قال : فهو حسبه ؛ أى فاللهُ حَسْبُه أى كافيه .

« إنَّ اللهَ بالغُ أمْرِه قد جعل اللهُ لكلِّ شىء قَدْراً » .

إذا سَبَقَ له شىء من التقدير فلا محالةَ يكون ، وبتوَكُّله لا يتغير المقدور ولا يستأخر ، ولكنَّ التوكُّلَ بنيانه على أنْ يكونَ العبدُ مُرَوَّحَ القلب غيرَ كارهٍ .. وهذا من أَجَلِّ النِّعم .

قوله : « واللائى يئِسْنَ من المحيض » ... إلى قوله : « يجعل لَهُ من أمره يُسْرًا » .

التوكلُ : شهودُ نَفْسِكَ خارجًا عن المُنَّة[1] تجرى عليكَ أحكامُ التقديرِ من غير تدبيرٍ منك ولا اطّلاعٍ لكَ على حُكمِه ، وسبيلُ العبدِ الجمودُ والرضا دونَ استعلامِ الأمر ، وفى الخبر : « أعوذ بك من عِلْمٍ لا ينفع » : ومن العلم الذى لا ينفع — ويجب أنْ تستعيذَ منه — أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهِمٌّ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه ، وتكون مُطالَبًا بالتفويض — فطَلَبُكَ العلم وتمنِّيكَ أنْ تعرفَ متى يصلح هذا الأمرُ ؟ ولأى سبَبٍ ؟ ومِنْ أىِّ وجهٍ ؟ وعلى يد مَنْ ؟ ... كل هذا تخليطٌ ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شىء منه للأكابر .

فيجب عليك السكونُ ، وحُسْنُ الرضا . حتى إذا جاء وقتُ الكَشْفِ فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينتظر العبدُ فى هذه الحالة تعريفًا فى المنام أو ينظر فى (...)[2] من الجامع ،

---

(١) المُنَّة بضم الميم هى ما فى إمكان الإنسان وحيلته واستطاعته .

(٢) مشتبهة فى النسختين .

أو يرجو بيان حاله بأن يجرى على لسان مستنطق فى الوقت . . كلُّ هذا تركٌ للأدب ، واللهُ لا يَرْضَى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ السكونُ .

قوله جل ذكره : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِه ، ومَن قُدِرَ عليه رِزْقُه فَلْيُنفِقْ ممَّا آتاه اللهُ لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا ما آتاها » .

إذا اتسع رزقُ العبد فعلى قَدْرِ المُكنَةِ يُطَالَبُ بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه — أى ضيِّق — فلينفق مما آتاه الله أى من متاع البيت ، ومن رأسِ المال — إن لم يكن من الربح ، ومن ثمنِ الضيعة — إن لم يكن من الغَلَّة .

ومَنْ ملك ما يكفيه للوقت ، ثم اهتمَّ بالزيادة للغد فذلك اهتمامٌ غيرُ مرضىٍّ[1] عنه ، وصاحبُه غير مُعَان . فأمَّا إذا حصل العجزُ بكلِّ وجهٍ ، فإن الله تعالى : لا يكلف نفسًا إلَّا ما آتاها ، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا . هذا من أصحاب المواعيد — وتصديقه على حسب الإيمان ، وذاك على قَدْرِ اليقين — ويقينه على حسب القِسْمة . وانتظارُ اليُسْرِ[2] من اللهِ صفةُ المتوسطين فى الأحوال ، الذين انحطُّوا عن حدِّ[3] الرضا واستواء وجودِ السبب وفَقْدِه ، وارتقوا عن حدِّ اليأس والقنوط ، وعاشوا فى أفياء[4] الرجال يُعَلِّلون[5] بحُسْنِ المواعيد . . وأبداً هذه حالتهم وهى كما قلنا[6] :

إنْ نَابَكَ الدهرُ بمكروهِه قِشْ بتهوين تصانيفه
فعَنْ قريبٍ ينجلى غَيْمُه وتنقضى كلُّ تصاريفه

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (مرحوم) .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص . (البرّ) وقد آثرنا الأولى نظراً لسياق الآية ذاتها .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (درجة) وقد آثرنا الأولى بدليل ورودها فيما بعد .
(٤) هكذا فى ص ولكنها فى م (افناء) والصواب الأولى .
(٥) أى يُسَلُّون النفس .
(٦) أى أن النص الشعرى للقشيرى نفسه . (انظر القشيرى الشاعر فى كتابنا : الإمام القشيرى)

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من قريةٍ عَتَتْ عن أمرِ ربِّها
ورُسُلِه فحاسَبْنـــاها حِسابًا شديدًا
وعَذَّبْناها عذابًا نُكْرًا * فذاقت
وبالَ أمرِها وكان عاقبـــةُ أمرِها
خُسْرًا » .

مَنْ زرع الشوكَ لم يَجْنِ الوردَ ، ومَنْ أضاع حقَّ اللهِ لا يُطَاع فى حظِّ نَفْسه[1] . ومن اجترأ[2] بمخالفةِ أمرِ الله فليصبرْ على مقاساة عقوبة الله .

قوله جل ذكره : « قد أنزلَ اللهُ إليـــكم ذِكْرًا *
رسولاً يتلوا عليكم آيات اللهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
من الظلماتِ إلى النُّورِ » .

إنَّ كتابَ اللهِ فيه تبيانٌ لكلِّ شىء . . فَمَن استضاء بنوره اهتدى ، ومَنْ لجأ إلى سعة فنائه وَصَلَ من داءِ الجهل إلى شِفائه[3] .

ومَنْ يؤمِنْ بالله ، ويعملْ صالحًا لله ، وفى الله ، فله دوامُ النُّعمى من الله . . قال تعالى :
« قد أحسن اللهُ له رِزْقًا » .

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الكفاية ؛ لا نقصانَ فيه تتعطَّلُ الأمورُ بسببِه ، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلُه عن الاستمتاع بما رُزِق لحِرْصِه .

كذلك أرزاقُ القلوبِ . أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به فى الوقت ؛ من غير

---

(١) هكذا فى ص وهى أصوب مما فى م (حق نفسه) فالحقوق لله والحظوظ للعبد .
(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما فى م (احترق) فسياق الآية يوحى بذلك .
(٣) أصل الجملة (وصل إلى شفائه من داء الجهل) .. ولكن حرص القشيرى على التركيب الموسيقى دفعه إلى هذه الصياغة .

نقصانٍ يجعله يتعذَّب بتعطُّشِه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خَطَرٍ من مغاليطَ لا يَخْرُجُ منها إلَّا بتأييدٍ سماويٍّ من الله[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَ سَبْعَ سمٰواتٍ ومن الأرضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتعلموا أنَّ اللهَ على كل شىء قديرٌ وأن اللهَ قد أحاط بكلِّ شىء علمًا » .

خَلَقَ سبعَ سمٰواتٍ ، وخَلَقَ ما خَلَقَ وهو مُحِقٌّ فيما خَلَقَ وأمر ، حتى نعلم استحقاقَ جلالِهِ وكمالَ صفاته ، وأنه أمضى فيما قضى حُكْمًا ، وأنه أحاط بكل شىء علمًا .

---

(١) رأى القشيرى فى « الرزق الحسن » مفيد فى دراسة الجانب النفسى عند الصوفية ، والحدود التى يبدأ عندها الصراع الداخلى ، وآفات ذلك ، وعلاجه .

سُورَةُ التَّحْرِيم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسمٌ عزيزٌ يُمهِل مَنْ عصاه ، فإذا رجع وناداه . . أجابه ولبَّاه[1] فإنْ لم يتوسَّل بِصِدْق قَدَمِه فى ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بصِدْقِ نَدَمِه فى آخر عمره أوْسَعَه غفراً[2] ، وقبل منه عُذْرًا ، وأَكْمَلَ له ذُخْراً ، وأجْزَلَ له بِرًّا .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبىُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لَكَ تبتغى مرْضاتَ أزواجِكَ واللهُ غفورٌ رَّحيم » .

جاء فى القصة : أن النبى صلى الله عليه وسلم حَرَّم على نفسه مارية القبطية ، وفى الحال حَلَفَ ألاَّ يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة حيث رأت النبى صلى الله عليه وسلم معها فى يومها[3] .

وقيل : حَرَّمَ على نَفْسِه شرْبَ العسل لمَّا قالت له زوجاته ، إنَّا نشم منك ريح المغافير ! — والمغافير صمغ فى البادية كريه الرائحة ، ويقال : بقلة كريهة الرائحة . . . فعاتَبَه اللهُ على ذلك .

وهى صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جوَّزَ الصغائر عليه ، وتَرْكٌ للأَوْلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (أبكاه) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (عفواً) وهى وإن كانت مقبولة إلا أن التركيب الموسيقى يجعلنا نؤثر (غفراً).

(٣) الدارقطنى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل الرسول (ص) بأم ولده مارية فى بيت حفصة وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت : تدخلها بيتى ! ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهى حرام علىّ إن قربتها .

وقيل : إنه طَلَّقَ حفصة طلقةً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صوَّامةٌ قوَّامة

وقيل : لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فمَنَعَه اللهُ عن ذلك .

وقيل : لمَّا رأته حفصة مع مارية فى يومها قال لها : إنِّى مُسِرٌّ إليك سِرًّا فلا تخبرى أحداً : إنَّ هذا الأمر يكون بعدى لأبى بكر ولأبيك .

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فسأل النبيُّ حفصة : لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت ؟ .

فقالت له : ومَنْ أخبرك بذلك ؟ قال أخبرنى الله ، وعَرَّفَ حفصةَ بعضَ ما قالت ، ولم يصرِّحْ لها بجميع ما قالت ، قال تعالى : « عرَّف[1] بعضه وأعرض عن بعض » ، فعاتبها على بعضٍ وأعْرَضَ عن بعض — على عادة الكِرام .

ويقال : إن النبى — صلى الله عليه وسلم — لمَّا نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من كل قاطعٍ يقطعنى عنك » .

وظاهرُ هـذا الخطاب[2] عتابٌ على أنَّه مراعاةً لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللهُ له .

والإشارةُ فيه : وجوبُ تقديم حقِّ الله — سبحانه — على كل شىء فى كل وقت .

قوله جل ذكره : « قد فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ
واللهُ مولاكم وهو العليمُ الحكيم » .

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كَفَّرَ بعتق رقبة ، وعاوَدَ مارية .

---

(١) وفى قراءة «عرَّف» بدون التشديد : أى غضب فيه وجازى عليه ، وهو كقولك لمن أساء إليك : لأعرفن لك ما فعلت أى : لأجازينَّك عليه ، وجازاها النبى بأن طلقها طلقة واحدة . وكان أبوعبد الرحمن السلمى يحصب بالحجارة من يقرأها مشددة .

(٢) أى « يأيها النبى لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك .. »

واللهُ — سبحانه — أجرى سُنَّتَه بأنه إذا ساكَن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوَّشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أنْ يُعَاوِدَ ربَّه ، ثم يكفيه ذلك — ولكن بعد تطويل مدةٍ ، وأنشدوا فى معناه :

إذا عُلِّقَت روحى حبيباً تعلَّقت به غِيَرُ الأيام كى تَسْلَبَنِّيَهْ

وقد ألقى الله فى قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن(١) ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الكفاية ، وإمساكه عن وطء مارية تسعًا وعشرين ليلة . . . كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه ، وإرادتُه — سبحانه — تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعُهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جل ذكره : « إن تتوبا إلى اللهِ فقد صغَتْ قلوبُكُما وإن تظاهرا عليه فإنَّ اللهَ هو مولاهُ وجبريلُ وصالِحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعد ذلك ظهير » .

عاتبهما على السير من خَطَرَاتِ القلب ، ثم قال : « وإن تظاهرا عليه . . . » .

« صالح المؤمنين » مَنْ لم يكن منهم فى قلبه نفاق ، مثل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وجاء : أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئًا من ذلك قال لرسول الله :

لو أمرتنى لأضربنَّ عُنُقَها ! (٢)

---

(١) دخل عليه عمر فى المشربة فإذا هو مضطجعٌ على حصير قد أثَّر فى جنبه ، وبجواره قبضة من شعير وتكاد خزانته تخلو من كل شىء فبكى عمر وقال : يانبىَّ الله .. أنت رسول الله .. وذاك قيصر وكسرى فى الثمار والأنهار ، فقال النبى : يابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ فقال عمر : إن كان يشق عليك من أمر النساء .. فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون ! ولم يزل يحدثه حتى تبسم صلوات الله عليه وخرجا إلى الناس .

(٢) لما سمع عمر الناس بالمسجد يقولون : لقد طلق الرسول نساءه ! غضب وذهب إلى بيت النبى ليعلم الأمر فذهب أولاً إلى عائشة وقال : يابنة أبى بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله ؟ فقالت : يابن الخطاب عليك بعيبتك ، فاتجه إلى حفصة وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لايحبك ولولا أنا لطلقك.. فبكت بكاءً شديداً . وذهب إلى رسول الله قائلا : والله لئن أمرنى رسول الله بضرب عنق ابنتى لفعلت .

والعتاب فى الآية مع عائشة وحفصة رضى الله عنهما إذ تكلمتا فى أمر مارية .

ثم قال تعالى زيادةً فى العتاب وبيان القصة :

« عسى رَبُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَهُ أزواجًا خيراً مِّنكُنَّ مسلماتٍ مُؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ وأبكاراً » .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكُم وأهليكُم ناراً وَقُودُها الناسُ والحجارةُ » .

أى : فَقِّهوهم ، وأَدِّبوهم ، وادعوهم إلى طاعة الله ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم .

ودلَّت الآيةُ : على وجوبِ الأمرِ بالمعروف فى الدِّين للأقرب فالأقرب .

وقيل : أظهِرُوا من أنفسكم العبادات ليتعلَّموا منكم ، ويعتادوا كعادتكم .

ويقال : دلُّوهم على السُّنَّةِ والجماعة .

ويقال : عَلِّموهم الأخلاقَ الحِسان .

ويقال : مُرُوهم بقبول النصيحة .

« وقودها الناس والحجارة » : الوقود : الحطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مَدَرَة ، فإن أصل الإنسان مدرة ، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مَدَرة فلا غروَ من فَضْلِ الله .

اللهمَّ فأَلْقِ فيها بَدَلنا حَجَراً وخلِّصْنا منها .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين كفروا لا تَعتَذِروا اليومَ إنَّما تُجزَوْنَ ما كنتم تَعملون »

إذا فاتَ الوقتُ استفحل الأمرُ ، وانغلق البابُ ، وسقطت الحِيَلُ . . فالواجبُ البدارُ والفرارُ لتصل إلى رَوْحِ القَرار .

قوله جل ذكره : « يـٰأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى رَبُّكُم أن يُكَفِّرَ عنكم سيئاتِكم ويُدْخِلَكُم جنَّات تجرى من تحتها الأنهارُ »

التوبةُ النصوحُ : هى التى لا يَعقُبها نَقْضٌ .

ويقال : هى التى لا تراها من نَفْسِك ، ولا ترى نجاتَكَ بها ، وإنما تراها بربِّك .

ويقال : هى أنْ تجدَ المرارةَ فى قلبك عند ذكر الزَّلَّة كما كُنْتَ تجد الراحةَ لنفسِك عند فِعْلِها .

قوله جل ذكره : « يومَ لا يُخْزِى اللهُ النبيَّ والذين آمنوا معه نُورُهم يسعى بين أيديهم وبأيْمانِهم يقولون : رَبَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا واغفِرْ لنا إنَّك على كل شىء قدير » .

لا يُخزِى اللهُ النبيَّ بِتَرْكِ شفاعته ، والذين آمنوا معه بافتضاحِهم بعد ما قَبِلَ فيهم شفاعته .

« نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » عبَّر بذلك عن أنَّ الإيمانَ من جميع جهاتهم .

ويقال : بأيمانهم كتابُ نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ، ومايخصُّهم اللهُ به من الأنوارِ فى ذلك اليوم .

« يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا » : يستديمون التضرُّعَ والابتهالَ فى السؤال[1] .

قوله جل ذكره : « يـٰأيها النبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جهنَّمُ وبئس المصير » .

أمَرَه بالمُلايَنَةِ فى وقت الدعوة ، وقال : « وجادلهم بالتى هى أحسنُ »[2] ثم لمَّا أصرُّوا — بعد بيان الحُجَّةِ — قال : « واغْلُظْ عليهم » : لأن هذا فى حالِ إصرارهم ، وزوالِ أعذارهم .

---

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الصوفية من بعيد كى لا يكفوا عن التضرع والابتهال قط فإن خير العمل أدومه ؛ فالاستدامة شرط أساسى لأن الطريق الصوفى طويل وشاق .

(٢) آية ١٢٥ سورة النحل

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للذين كفروا امْرَأَةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ من عبادنا صالحَيْنِ فخَانَتَاهُما فلم يُغْنِيا عَنْهُمَا من الله شيئاً ، وقيل ادْخُلا النارَ مع الداخلين » .

لمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقَةُ يومَ القِسْمة لم تنفعْهما القربةُ يومَ العقوبةُ .

قوله جل ذكره : « وضَربَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فِرْعَونَ إذ قالت ربِّ ابْنِ لى عندكَ بيتاً فى الجنة ونجِّنى من فرعونَ وعَمله ونجِّنى من القومِ الظالمين » .

قالوا : صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتاً فى الجنة ، وكان من حقِّها أنْ تطلب الكثير .. ولا كما تَوهَّموا : فإنها قالت : ربِّ ابن لى عندك ، فطلبَتْ جوارَ القربة ، ولَبيْتٌ فى الجِوار أفضلُ من ألف قصرٍ فى غير الجوار . ومن المعلوم أنَّ العِندِيَّةَ هنا عِنديَّةُ القربة والكرامة .. ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره ، وله خصوصية . وفى معناه أنشدوا :

إنى لأحْسُد جارَكم لجواركم ... طُوبى لِمَن أضحى لدارِكَ جاراً
يا ليت جارَكَ باعنى من داره ... شِبْرًا لِأُعطيه بِشِبْر داراً

قوله جل ذكره : « ومَريمَ ابنَةَ عِمْران التى أحْصنَت فَرْجَها فنفَخْنا فيه من رُوحِنا وصدَّقَت بكلمات ربِّها وكُتُبه وكانت من القانتين » .

ختَم السورة بذِكْرها بعد ما ذكر امرأة فرعون ، وهما من جملة النساء ، ولمَّا كثُر فى هذه السورة ذِكْرُ النساء أراد الله سبحانه ألَّا يُخْلِىَ السورة من ذكرها تخصيصا لقدْرِها[1]

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (لذكرها) والصواب ما أثبتنا . وجميل من القشيرى أن يلفت نظرنا إلى هذا الملحظ — الذى نظن — والله أعلم — أن فيه تنبيهاً لنساء النبى بعرض نموذجين لامرأتين صالحتين عزفتا عن الدنيا .

سورة الملك (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمُ مَنْ لم تتعطّر القلوبُ إلّا بنسيمِ إقبالِه ، ولم تتقطّر الدموعُ إلّا للوعة فراقه أو روْحِ وصاله ؛ فدموعُهم فى كلتا الحالتين مُنْسكِبة ، وقلوبُهم فى عموم أحوالهم مُلْتَهِبَة وعقولُهم فى غالب أوقاتهم مُنْتَهِبَة .

قوله جل ذكره : « تباركَ الذى بيدِه المُلْكُ وهو عَلَى كلِّ شىء قدير » .

تَقَدَّسَ وتعالَى ، مَنْ إحسانُه تَواتَرَ وتَوالَى ، فهو المتكبِّرُ فى جلالِ كبريائه ، المتجرِّد فى علاء بهائه ودوامِ سنائه .

« بيده المُلْك » : بقدرته إظهارُ مايريد ، وهو على كل شىء قدير .

« الذى خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكم أحْسَنُ عملاً وهو العزيزُ الغفور » .

خَلَقَ الموتَ والحياةَ ، ابتلاء للخَلْق ، يختبرهم ليَظْهَرَ له شكرانُهم وكفرانُهم ، كيف يكونان عند المحنة فى الصبر وعند النعمة فى الشكر — وهو العزيز الغفور .

« الذى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ طِباقًا مَّا تَرَىٰ فى خَلْقِ الرحمٰنِ مِن تفاوت فارجِعِ البصرَ هل ترى من فُطُور؟ »

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم بشأن هذه السورة : « هى المانعة هى المنجية تنجيكم من عذاب القبر » .

عَرَّفَهم كمالَ قدرتِه بدلالات خَلْقِه ، فَسَمَكَ السماءَ وأمسكها بلا عَمَد ، ورَكَّبَ أجزاءَها غيرَ مُسْتعينٍ بأحدٍ فى خَلْقِها ، وبالنجومِ زَيَّنَها ، ومِنَ استراقِ سمعِ الشياطين حَصَّنَها ، وبغيرِ تعليمٍ مُعَلِّمٍ أحكمها وأتقنها .

« ما ترى فى خَلْقِ الرحمٰن من تَفَاوُتٍ ، فارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ من فُطُور ؟ » : لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافى آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة .

ويقال : ما ترى فيها تفاوتاً ، فى استغنائه عن الجميع . . ماترى فيها تفاوتاً فى الخَلْق ؛ فَخَلْقُ الكثير واليسير عنده سيَّان ، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشُقُّ عليه الكثير ؛ لأنه مُتَنَزِّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به .

فأنعِمِ النظرَ ، وكَرِّرِ السَّبْرَ والفِكْرَ . . فلن تجد فيها عيباً[1] ولا فى عِزِّه قصوراً .

قوله جل ذكره : « ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ
وجعلناها رُجوماً للشياطينِ وأعْتَدْنا
لهم عذابَ السعير » .

زَيَّنَ السماءَ بالكواكب والنجوم ، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواعٍ من الأنوار والنجوم ؛ فالمؤمنون قلوبُهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمُّل البرهان ، ثم بالتوفيق لطلب البيان . والعارفون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بشمسِ التوحيد ، وأرواحهُم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفريد ، وأسرارُهم مزينةٌ بآثارِ التجريد[2] . . وعلى القياس : لكلٍّ طائفةٍ أنوارٌ .

« وجعلناها رُجوماً للشياطين » : فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم ، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم . . فأخبر أن هذا القَدْرَ من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفى ، وإنما يُعَذِّبهم مؤبَّدين فى السعير .

---

(١) هكذا فى م وهى فى س (عبثاً) .

(٢) يميز الكلاباذى بين التفريد والتجريد فيقول (ملخصاً) :
التجريد : أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض ، يفعل ذلك لوجوب حقّ الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه ، ويتجرد بسره عن المقامات والأحوال التى ينازلها .
والتفريد : أن ينفرد عن الأشكال ، وينفرد فى الأحوال ، ويتوحد فى الأفعال ويغيب عن رؤية أحواله برؤية محوّلها ولا يأنس بأشكاله ولا يستوحش (التعرف ص ١٣٣) .

قوله جل ذكره : « وللذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّمَ وبِئْسَ المصير * إذا أُلقُوا فيها سَمِعوا لها شهيقاً وهى تَفُور * تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ كُلَّمَا أُلقِىَ فيها فَوْجٌ سَأَلهمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يأْتِكُم نذير ؟ » .

أخبر : أنهم يحتَجُّ عليهم بإرسال الرسل ، فتقول لهم الملائِكةُ : ألم يأتكم نذير ؟

« قالوا : بلى قد جآءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلنا ما نَزَّلَ اللهُ من شىء إنْ أنتم إلا فى ضلالٍ كبير * وقالوا لو كُنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا فى أصْحَاب السَّعِيرِ » .

« وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ .. » فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا العقوبة لأجْلِه[1] ، لم يسمعوا نصيحةَ الناصحين ولا وَعْظَ الواعظين ، ولا ما فيه لقلوبهم حياة .

وفى الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون ؛ فإنَّ مَنْ سَمِعَ بالحقِّ سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كل مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمع ، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُهُ من الله وبالله وفى الله .

قوله جل ذكره : « فاعترفوا بِذَنبِهم فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السعير » .

اعترفوا بذنبهم ولكن فى غير وقت الاعتراف .. فلا جَرَمَ يقال لهم : « فسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعير » .

---

(١) من الآية ومن إشارتها يتضح : أن العقوبة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل الذين يَبْسُطُون الحجة ويسقطون العذر .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم بِالْغَيْبِ لهم مَّغفِرةٌ وأجْرٌ كبير » .

الخشيةُ توجِب عدمَ القرار[1] فيكون العبدُ أبداً — لانزعاجه — كالحَبِّ على المَقْلَى ؛ لا يَقَرُّ ليلَه أو نهارَه ، يتوقَّعُ العقوباتِ مع مجارى الأنفاس ، وكلَّما ازداد فى الله طاعةً ازداد لله خشيةً .

قوله جل ذكره : « وأسِرُّوا قولَكم أوِ اجْهَرُوا به إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدور » .

خوَّفَهم بعِلْمِه ، وندَبَهم إلى مراقبته ؛ لأنه يعلم السِّرَّ وأخفى ، ويسمع الجَهْرَ والنجوى . . ثم قال مُبَيِّناً :

« ألاَ يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللَّطيفُ الخبير » .

وفى كل جُزْءٍ مِنْ خَلْقِه — من الأعيانِ والآثارِ — أدِلَّةٌ على علمه وحكمه .

قوله جل ذكره : « هو الذى جَعَلَ لكم الأرضَ ذَلُولاً فامْشُوا فى مناكِبِها وكُلُوا مِن رِّزْقِه وإليه النُّشُور » .

أى إذا أردتم أن تضربوا فى الأرضِ سَهَّلَ عليكم ذلك .

كذلك جعل النَّفْس ذلولاً ؛ فلو طَالَبْتَها بالوفاقِ وَجَدْتَها مُسَاعِدةً مُوَافقة ، مُتَابِعةً مُسَابِقة . . وقد قيل فى صفتها :

هى النَّفْسُ ماعَوَّدْتَها تتعودُ ... وللدهرِ أيامٌ تُذَمُّ وتُحْمَدُ

قوله جل ذكره : « ءأَمِنتُم مَّن فى السماء أن يَخْسِفَ بكم الأرضَ فإذا هى تَمورُ * أمْ أمِنتُم مَّن

---

(١) هكذا فى س وهى فى م (الفراق) والصواب ما أثبتنا — بدليل ما بعدها .

فى السماء أن يُرْسِلَ عليكم حاصِباً
فستعلمون كيف نذِير » .

« من فى السماء » أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء ، فهم موَكَّلون بالعذاب .

وخوَّفهم بالملائكة أن يُنْزِلوا عليهم العقوبةَ من السماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خَوَّفَهم أنْ يُرْسِلوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . وبيَّن أنَّ مَنْ كذَّب قَبْلَ هؤلاء رُسُلَهم كيف كانت عقوبتهم ، ثم زاد فى البيان وقال :

« أوَلم يَرَوْا إلى الطير فوقَهم صافَّاتٍ
ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلَّا الرحمنُ
إنَّه بكلِّ شىء بصيرٌ » .

أولم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة — بخلاف الأجسام[1] الأخر . . . مَنِ الذى يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن فى الفضاء ؟ وما الذى يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأُخر ؟ .

« أمَّنْ هذا الذى هو جُندٌ لَكم
ينصرُكم من دونِ الرحمنِ إنِ
الكافرون إلا فى غُرور » .

إنْ أراد الرحمنُ بك سوءا . فَمَنْ الذى يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَه ، أو يمحو ما أثبته ، أو يُقَدِّمُ ما أخَّرَه ، أو يُؤَخِّرُ ما قدَّمَه ؟ .

قوله جل ذكره : « أفَمَن يمشى مُكِبًّا على وَجْهِه
أهْدَى أمَّن يمشى سويًا على صراطٍ
مُستقيم * قُلْ هو الذى أنشأكم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الأصنام) والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود المقارنة بين الطيور وغيرها من (الأجسام) بصفة عامة .

وخَصَّكم بالسمع والبصر والأفئدة ، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمه .

« ويَقُولونَ مَتَى هَذَا الوعْدُ إن كُنتمُ صادقين ؟ » .

وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، وبيَّن أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون .

قوله جل ذكره : « قل أرأيتم إنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ ومَن معيَ أو رَحِمَنا فَمَن يُجِيرُ الكافرين من عذابٍ أليم * قُلْ هو الرحمنُ آمَنَّا به وعليه توكلنا . . . . »

وإليه أمورنَا — جملةً — فَوَّضْنَا .

« قُلْ أرأيتم إنْ أصبح ماؤُكم غَوْراً فَمَن يأتيكم بماء مَّعِين » .

مَنِ الذى يأتيكم بالماء إذا صار غائراً فى الأرض لا تناله الأيدى .

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم .. ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

سُورَةُ ٱلقَلَم [1]

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَه لم يتذلَّلْ بعده لمخلوق ، ولم يَسْتَمِنْ فيما نابَه مِن ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بمُحْدَثٍ مرزوق .

إنْ أعطاه قابله بالشُّكْرِ ، وإنْ منعه استجابَهُ بجميل الحمد [2] .

قوله جل ذكره : « نٓ والقلمِ وما يَسْطُرون » .

« ن » قيل : الحوت الذى على ظهره الكون ، ويقال : هى الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال : إنه أقسم بنُصْرَة الله تعالى لعبادِه المؤمنين .

وأقسم بالقلم — وجوابُ القسم قولُه :

« ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بِمَجْنُون * وإنَّ لك لأجْراً غير ممنون » .

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه :

إنه مجنون ، أزاله عنه بنفيه ، ومحقِّقاً ذلك بالقَسَم عليه .. وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه — سبحانه — عليهم بخطابه وعنه ينفيه .

---

(١) هكذا فى ص ، وفى م سورة ن والقلم .

(٢) يمكن أن يفيد ذلك فى التمييز بين الشكر والحمد — كما يرى القشيرى .

« وإنَّ لك لأجراً غير مَمْنُون » : أى غير منقوص .. لمَّا سَمَتْ هِمَّتُه صلى الله عليه وسلم عن طلبِ الأعواض أثبت اللهُ له الأجر ، فقال له : إن لك لأجراً غير منقوص — وإنْ كُنْتَ لاتريده .

ومن ذلك الأَجْر العظيم هـذا الخُلُق ، فأنت لستَ تريدُ الأجْرَ — وبِنَا لَسْتَ تريد ؛ فلولا أنْ خَصَصْناكَ بهذا التحرُّر لـكنتَ كأمثالِك فى أنهم فى أسْرِ الأعواض .

قوله جل ذكره : « وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيم » .

كما عرَّفَه اللهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قبْلَه من الأنبياء عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له : إنك لعلى خلق عظيم .

ويقال : إنه عَرَضَ عليه مفاتيحَ الأرضِ فلم يقبلْها ، ورقّاه ليلةَ المعراج ، وأراه جميع المملكة والجنـة فلم يلتفت إليها ، قال تعالى : « مازَاغَ البصرُ وماطَغَى » فما التفت يميناً ولا شمالاً ، ولهذا قال تعالى : « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » . . ويقال : « على خلق عظيم » : لا بالبلاء تنحرف ، ولا بالعطاء تنصرف ؛ احتمل صلوات الله عليه فى الأذى شَجَّ رأسِه وثَغْرِه ، وكان يقول :

« اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » . وغداً كلٌّ يقول : نفسى نفسى وهو صلوات الله عليه يقول : أمتى أمتى .

ويقال : عَلّمه محاسنَ الأخلاق بقوله : « خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعرف وأعْرِضْ عن الجاهلين »[1] .

سأل صلواتُ الله عليه جبريلَ : بمـاذا يأمرنى ربى ؟ قال : يأمرك بمحاسن الأخلاق ؛ يقول لك : صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وأعْطِ مَنْ حَرَمك واعفُ عَمَّن ظَلَمَك ، فتأدَّبَ بهذا ؛ فأثنى عليه وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

قوله جل ذكره : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بأيِّـكُمُ الْمَفْتُونُ *

---

(١) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ بِمَن ضَلَّ عن
سبيلِهِ وهو أعلمُ بالمهتَدِين » .

المفتون : المجنون لأنه فُتِنَ أى مُحِنَ بالجنون .

« فلا تُطِعِ المُكذِّبين » .

معبودُكَ واحدٌ فليكن مقصودُكَ واحداً . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكنْ مشهودك واحداً .

« ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون » .

مَنْ أصبح عليلا تمنَّى أنْ يكونَ الناس كلُّهم مَرْضَى . . وكذا مَنْ وُسِمَ بكيِّ الهجران ودَّ أنْ يُشارِكه فيه مَنْ عاداه .

« ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِين »

وهو الذى سقط من عيننا ، وأقصيناه بالبعد عنا .

« هَمَّازٍ مشَّاء بنميمٍ »

محجوبٍ عنَّا مُعَذَّبٍ بخذلان الوقيعة فى أوليائنا .

« مَنَّاعٍ للخيرِ[1] »

مُهانٍ بالشُّحِّ ، مسلوب التوفيق .

« مُعْتَدٍ أثيم »

ممنوعِ الحياء ، مُشَتَّتٍ فى أودية الحرمان .

« عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم »

لئيم الأصل ، عديم الفضل ، شديد الخصومة بباطله ، غير راجعٍ فى شىء من الخير إلى حاصله .

« أن كان ذا مالٍ وبنين • إذا تُتْلَى
عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَّلين »

---

(١) عند الجمهور – هو الوليد بن المغيرة ، وكان يقول لبنيه العشرة : من أسلم منكم منعته رفدى .

(أى : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين.. ثم استأنف الكلام فقال)[1] : إذا تتلى .. قابَلَها بالتكذيب ، وحَكَمَ أنَّ القرآن من الأساطير .

« سَنَسِمُهُ على الْخرطوم »

أى سنجعل له فى القيامة على أنفِهِ تشويهاً لصورته كى يُعْرَفَ بها .

قوله جل ذكره : « إنَّا بلَوْنَاهُم كما بَلَوْنا أصحابَ الجنَّةِ إذْ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِين » .

أى امتحنَّاهم[2] .. حين دعا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فابتلاهم الله بالجوع ، حتى أكلوا الجِيَف — كما بلونا أصحاب الجنة ، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مثمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تَعدّاه المِنْجل فلم يجذه من الكَرْم ، فإذا طُرح على البساط فكل شىء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فما أخطأه القطافُ من نخله وكَرْمه يَدَعه للمساكين . وكان يجتمع منه مال ، فلما مات هو قال وَرَثَتُه : إنَّ هذا المالَ تفرَّق فينا ، وليس يمكننا أن نفعلَ ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يُعْطوا للفقراء شيئاً ، فأهلكَ اللهُ جَنَّتَهُم ؛ فندموا وتابوا .

وقيل : أبْدلَهم اللهُ جنةً حسنة ، فأقسموا ليصرِمُنَّ جنَّتهم وقت الصبح قبلَ أنْ تفطِنَ المساكينُ ، ولم يقولوا : إن شاء الله :

« فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وَهُمْ نائمون * فأصبحت كالصَّرِيم » .

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم . وأصبحت « كالصريم » أى كالليل المسودِّ ، فنادى بعضُهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا

---

(١) مابين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .. والمعنى : لاتطعه — مع هذه النقائص والمثالب — ليساره وحظه من الدنيا وكثرة أولاده .

(٢) يقصد أهل مكة حين دعا عليهم الرسول : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف .

لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعَهم أحدٌ . وقصدوا إلى الصرام «على حَرْدٍ» أى : قادرين عند أنفسهم ، ويقال : على غضبٍ منهم على المساكين .

فلمّا رأوا الجنةَ وقد استؤصِلَتْ قالوا : ليست هذه جنتنا ! !

ثم قالوا : بل هذه جَنّتُنا . . ولكنّا حُرِمْنا خيرَها .

قال أوسطُهم : أى أعدلُهم طريقةً وأحسنُهم قولاً :

« أَلَمْ أَقُل لَّكم لولا تُسَبِّحون ؟ »

أى : تستثنون وتقولون : إن شاء الله[1] .

« قالوا سبحان ربِّنا إنّا كنّا ظالمين »

ثم أقبل بعضُهم على بعض يتلاومون ، ويقولون :

« عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنَا خيراً منها
إنَّا إلى ربِّنا راغِبون » .

قال تعالى : « كذلك العذاب » لأهل مكة « ولَعَذابُ الآخرة أكبر » :

وهكذا[2] تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيق على التوالى ، ويجتنبُ المعاصى ، فيُعَوِّضه اللهُ فى الوقتِ نشاطا ، وتلوحُ فى باطنه الأحوالُ . فإذا بَدَرَ منه سوء دعوى أو تَرْكُ أدبٍ من آداب الخدمة تَنْسَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع فى قُرْهٍ[3] من الأعمال . فإذا حَصَلَ منه بالعبادات إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ — انقلب حالُه ، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد ، ومن الإقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوتُه قسوةً . وإن كان له بعد ذلك توبة ، وعلى مَا سَلَفَ منه ندامة — فقد فات الأمرُ من يده ، وقلّما يصل إلى حاله .

---

(١) هذا أيضاً رأى مجاهد ، فجعل قول : إن شاء الله من التسبيح ، وهذه هى حقيقة تقديم المشيئة ، فهى تنزيه لله بأن لا شىء إلا بمشيئته .

(٢) هذه الإشارة موجهة إلى أرباب السلوك يقصد بها إلى التوضيح أن العبرة بالخواتيم ، وينبغى الاهتمام بهذه الفقرة كلها عند بحثنا عن « وصايا القشيرى للمريدين » .

(٣) جمع أقره وهو ما اسودّ من الجلد وتقشّر .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ فى بدايته من أحواله . . . فإنَّ الله تعالى رءوفٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين عند ربِّهم جناتِ النَّعيم » .

الذين يتقون الشِّرْكَ والكُفْر ، ثم المعاصىَ والفِسْقَ ، لهم عند الله الثوابُ والأجْر .

قوله جل ذكره : « أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين ؟ * ما لكم كيف تحكمون ؟ ! * أمْ لكم كتابٌ فيه تَدْرُسُون ؟ »

كيف تحكمون ؟ هل لديكم حجة ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ أم لكم منا عهود فيها تحكمون ؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك .

قوله جل ذكره : « يومَ يُكْشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْن إلى السجودِ فلا يستطيعون »

« عن ساقٍ » : أى عن شِدَّةٍ يومَ القيامة .

ويقال فى التفسير : عن ساقِ العرش .

يُؤْمَرون بالسجود ؛ فأمَّا المؤمنون فيسجدون ، وأمَّا الكفار فتُشَدُّ أصلابُهم فلا تنحنى .

وقيل : يكشف المريضُ عن ساقه — وقت التوفِّى — ليُبْصِرَ ضعفَه ، ويقول المؤذِّنُ : حىَّ على الصلاة — فلا يستطيع .

وعلى الجملة فقد خوَّفَهم بهذه القالة : إمَّا عند انتهائهم فى الدنيا أو ابتدائهم فى الآخرة .

« . . . . وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود وهم سالِمون » .

يُذَكِّرهم بذلك ليزدادوا حسرةً ، ولتكونَ الحجةُ عليهم أبلَغ .

قوله جل ذكره : « فَذَرْنى ومَن يُكَذِّبُ بهذا الحديثِ سَنَسْتَدرِجُهم من حيثُ لايعلمون » .

سنقرِّبهم من العقوبة بحيث لا يشعرون .

والاستدراجُ : أنْ يريد الشيء ويَطْوِى عن صاحبه وَجْهَ القَصْدِ فيه ، ويُدْرِجُه إليه شيئاً بعد شيء ، حتى يأخذه بغتةً .

ويقال : الاستدراج : التمكين من النِّعم مقروناً بنسيان الشكر[1] .

ويقال : الاستدراجُ : أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً .

ويقال : ألّا يُعاقِبَه فى حالِ الزَّلَّة ، وإنما يؤخِّر العقوبةَ إلى ما بعدها .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغترارُ بطول الإمهال .

ويقال : ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش .

قوله جل ذكره : « وأُمْلى لهم إنَّ كَيْدى متينٌ »

أُمْهِلُهم .. ثم إذا أَخَذْتُهم فأَخْذِى أليمٌ شديدٌ .

قوله جل ذكره : « أم تسألهم أجْراً فهم من مَّغْرَم مُثْقَلون » .

أى : ليس عليهم كُلْفة مقابلَ ما تدعوهم إليه ، وليست عليهم غرامة إنْ هم اتبعوك .. فأنت لا تسأل أجراً .. فما موجِباتُ التأخُّرِ وتركُ الاستجابة ؟

« أم عِندهم الغيبُ فهم يكتبون ؟ » .

أم عندهم شيء من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا ؟ » .

---

(١) فى النسختين (بلسان) وهى خطأ قطعا ، فقد اشتبهت على كلا الناسخين . ويؤيد رأينا قول سفيان الثورى فى « سنستدرجهم » نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر (القرطبى جـ١٨ ص ٢٥١) .

قوله جل ذكره : « فاصْبِرْ لِحكْمِ رَبِّكَ ولا تَكُنْ
كصاحبِ الحوتِ إذ نادى وهو مكظوم » .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام ، نادى وهو مكظوم : مملوء بالغيظ على قومه . فلا تستعجلْ — يا محمد — بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقى ما لقى ، وتَثَبَّتْ عند جريان حكمنا ، ولا تُعارِضْ تقديرنا .

« لولا أن تداركه نعمةٌ من ربِّه لنُبِذَ
بالعراء وهو مذموم » .

أى : لولا أنَّ اللهَ رَحِمَه بفَضْلِه لَطُرِحَ بالفضاء وهو مذموم ولكن :

« فاجْتباه ربُّه فجعله من الصالحين » .

فاصطفاه واختاره ، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون .

قوله جل ذكره : « وإن يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقونَكَ
بأبصارهم » .

كانوا إذا أرادوا أنْ يُصيبوا شيئًا بأعينهم جاعوا ثلاثةَ أيام ، ثم جاءوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين : ما أحسنه من شيء ! فكان يسقط المنظور فى الوقت . وقد فعلوا ذلك بالنبى صلوات الله عليه ، فقالوا : ما أفصحه من رجل ! ولكنَّ الله سبحانه حفظه ، ومَرَّ بذكره عليه[1] .

---

(١) فلنبه إلى نقطة هامة .. ورود اسم القشيرى عند القرطبى لا يعنى أنه إمامنا عبد الكريم القشيرى صاحب هذا الكتاب ، بل ربما كان أحد أبنائه الستة .. فكلهم أئمة . وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبى الجزء العشرين ص ٥٤) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول القشيرى هنا وما جاء عند القرطبى فى ج ١٨ ص ٢٥٥ (قال القشيرى : وفى هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ، ولهذا قال : ويقولون إنه لمجنون) أى ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

سورة الحاقة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة عزيزة تحتاج فى سماعها إلى سمع عزيز لم يُستعمل فى سماع الغيبة ، وتحتاج فى معرفتها إلى قلب عزيز لم يتبذّل فى الغفلة والغيبة ، لم ينظر صاحبُه بعينه إلى ما فيه رُتبة ، ولم تتبع نفسُه اللَّبس[1] والطُّبّة[2] .

قوله جل ذكره : « الحاقّةُ * ما الحاقّةُ * وما أدراكَ ما الحاقّةُ » .

« الحاقة » : اسمٌ للقيامة لأنها تحقُّ[3] كلَّ إنسانٍ بعملِه خيْرِه وشرِّه .

« وما أدراك ما الحاقة ؟ » : استفهام يفيد التعظيم لأمرها ، والتفخيمَ لشأنها .

قوله جل ذكره : « كذّبتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة » .

ذكرَ فى هذه السورة : الذين كذّبوا رُسُلَهم من الأمم ، وأصرُّوا على كُفرِهم ، ولم يقبلوا النصيحةَ من أنبيائهم ، فأهلكهم ، وانتقم لأنبيائه منهم .

والفائدةُ فى ذِكرِهم : الاعتبارُ بهم ، والتحرُّزُ عمّا فعلوا لئلا يُصيبَهم ما أصابهم .

وعقوبةُ هذه الأمةِ مُؤجّلةٌ مُؤخّرةٌ إلى القيامة ، ولكنّ خواصَّهم عقوبتُهم مُعجّلة ؛ فقومٌ

---

(١) هكذا فى ص أما فى م فهى (اللهو) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (الطيبة) وقد رجحنا – وهو ترجيح بعيد – أنها قد تكون (الطُّبّة) بمعنى الحذق والمهارة الناتجين عن الحيلة والتدبير، وربما كانت (ولم يتبع مع نفسه اللين والطيبة فالنفس أعدى الأعداء) .

(٣) لأنها تحق كل محاق فى دين الله أى كل مخاصم (وهو قول الأزهرى) . وحاقّه أى خاصمه وادعى كل واحد منهما الحق (الصحاح) .

من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا ، أو أضاعوا أدبًا يعاقبهم برياح الحجبة[1] ، فلا يَبْقَى فى قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدِّين ، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خَطَرٍ فى أحوالهم بأنْ يُمْتَحنوا (بالاعتراض على التقدير)[2] والقِسْمة .

وأمَّا فرعون وقومُه فكان عذابُهم بالغَرَقِ . . كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشتغِلٌ ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ — فإذا لم يشكر النعمةَ ، وأساء أدبَه ، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللهُ به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه فى بحار الاشتغال فيتكدر مَشْرَبُه ، ويصير على خَطَرٍ بأن يُدْرِكَه سُخْطُ الحقِّ وغضبُه .

قوله جل ذكره : « إنَّا لمَّا طَغَى المـــاء حملنـا كُمْ فى الجارية » .

وكذلك تكون مِنَّتُه على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم فى سفينة العافية ، والكون يتلاطم فى أمواجِ بحارِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها ، فيكونون بوصف السلامة ، لا مُنَازَعَةَ ولا محاسبةَ لهم مع أحد ، ولا تَوَقُّعَ شىء من أحدٍ ؛ سالمون من الناسِ ، والناسُ منهم سالمون .

قوله جل ذكره : « فإذا نُفِـخَ فى الصُّـــورِ نَفْخَةٌ واحدةٌ . . . . . » .

بدأ فى وصف القيامة والحساب . .

« . . . . يومئذٍ تُعْرَضونَ لا تَخْفَى منكم خافيةٌ » .

وفى كلِّ نَفَسٍ مع هؤلاء القوم[3] محاسبَةٌ ومطالَبَةٌ ، منهم مَنْ يستحق المثابة ، ومنهم من يستحق المعاقبة .

---

(١) فى الإشارة قياس على الرياح التى أهلكت عاداً .
(٢) موجود فى ص أما فى م فهى (الإعراض) فقط .
(٣) يقصد أهل المجاهدات والمذاقات .

قوله جل ذكره : « فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينه فيقولُ هاؤمُ آقرءوا كتابِيَه * إنِّى ظَنَنْتُ أنِّى مُلَاقٍ حِسابِيَه » .

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، ويأخذ فى الحمد والمدح .

« فهو فى عيشةٍ رَّاضيةٍ » .

القومُ — غداً — فى عيشةٍ راضية أى مَرْضِيَّةٍ لهم ، وهؤلاء القوم — اليومَ — فى عيشةٍ راضية ، والفرق بينهما أنهم — غداً — فى عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت مآرِبُهم ، وحصلت حاجاتُهم ، وهم — اليومَ — فى عيشةٍ راضية إذ كَفُّوا مآرِبَهم فَدَفَعَ عن قلوبِهم حوائجَهم ؛ فليس لهم إرادةُ شىء ، ولا تَمَسُّهم حاجةٌ . وإنما هم فى رَوْحِ الرضا . . فعَيْشُ أولئك فى العطاء ، وعَيْشُ هؤلاء فى الرضاء ؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنًى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال . ويقال لأولئك غداً .

« كُلوا وآشربوا هنيئاً بما أَسْلَفْتُمْ فى الأيامِ الخالية » .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . اسمعوا منَّا . . وانظروا إلينا ، واستأنِسوا بقُرْبنا ، وطالعوا جمالَنا وجلالَنا . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جل ذكره : « وأمَّا من أُوتِيَ كتابَه بشمالِه فيقولُ : يا ليتنى لم أُوتَ كِتابيَه * ولم أدرِ ما حِسابيه * ياليتها كانتِ القاضيةَ » .

هناك — اليومَ — أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم ، ويتضاعف أنينُهم — ليلَهم ونهارَهم — فليلُهم ويلٌ ونهارهم بُعَاد ؛ تكدَّرتْ مشاربُهم ، وخربت أوطانُ أُنْسِهم ، ولا بكاؤهم يُرْحَم ، ولا أنينُهم يُسْمَع . . فعِنْدَهم أنهم مُبْعَدون . . وهم فى الحقيقة من اللهِ مرحومون ، أسبلَ عليهم السترَ فَصَغَّرَهم فى أعينهم — وهم أكرمُ أهل القصة ! كما قالوا :

لا تُنْكِرنْ جحدى هواكَ فإنما ذاك الجحودُ عليك سترٌ مُسْبَلُ

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بما تُبْصِرون * وما لا تبْصِرون » .

« لا » : صلة والمعنى : أُقْسِم ؛ كأنه قال : أقسم بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالثَ لما يبصرون وما لا يبصرون . وجوابُ القَسَم :

« إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ » .

أى وجيهٍ عند الله . وقولُ الرسولِ الكريمِ هو القرآنُ أو قراءةُ القرآن .

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أى أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :

« تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » .

قوله جل ذكره : « ولو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل * لَأَخَذْنَا منه باليمين * ثم لَقَطَعْنَا منه الوتين » .

أى لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه ، ولو تعمَّد لعذَّبناه . والقول بعصمة الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن :

« وإنه لتذكِرةٌ للمتقين * وإنَّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مُكذِّبين * وإنه لَحَسْرَةٌ على الكافرين * وإنه لَحَقُّ اليقين » .

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشىء[1] .

وعلوم الناس تختلف فى الطرق إلى اليقين خفاء وجلاء ؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلائه ، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً ، ثم ما يكون مع الإدراكات[2] .

---

(١) لو كان اليقين نعتاً لم يجز أن يضاف إليه كما لا تقول : هذا ورد الأحمر ، فالإضافة هنا — كما يرى القشيرى — إلى الشىء نفسه . فإن القرآن حق يقينٌ ويقينٌ حقٌ .

(٢) انظر محاولة القشيرى التفرقة بين معانيها فى رسالته ص ٤٧ .

سُورَةُ المَعَارِج

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ من قالها وَجَدَ جمالَها ، ومَنْ شهدها شهد جلالَها .

وليس كلُّ مَنْ قالَها نالَها ، ولا كلُّ من احتالها[1] عَرَفَ جلالَها .

كلمةٌ رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة ، كلمةٌ على الحقيقة الصمدية دالَّة ، كلمة لابُدَّ للعبدِ من ذِكْرِها فى كل حالة .

قوله جل ذكره : « سأل سائِلٌ بعذابٍ واقع » .

الباء فى « بعذاب » بمعنى عن ، أى سأل سائلٌ[2] عن هـــذا العذاب لِمَنْ هو ؟ فقال تعالى :

« للكافرين ليس له دافِعٌ * مِن اللهِ ذى المعارج » .

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج ؛ فهذا العذابُ من الله .

ومعنى « ذى المعارج » ذى الفضل ومعالى الدرجات التى يُبْلِغُ إليها أولياءه .

قوله جل ذكره : « تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه فى يومٍ كان مِقْدارُه خمسين ألفَ سنةٍ » .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ولو صحَّ أنها هكذا فى الأصل فربما كان المعنى : ليس كلُّ من ادَّعى أنه بحيلته وتدبيره ومهارته وحذقه وصل إليها قد عرف أسرارها .

(٢) هو النضر بن الحارث قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وربما تكون سأل بمعنى دعا ، ويكون السائل هو النبى (ص) .

« الروح » أى جبريل ، فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا يعنى به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحاسِبُ الخَلْقَ فى يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسير ما لو كان الناسُ يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة ، واللهُ يُجْرِى ذلك ويُمضيه فى يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس ؛ فالملائكة تعرج فيه من أسفله إلى أعلاه فى يومٍ واحد .

قوله جل ذكره : « فاصبِرْ صبراً جميلاً » .

فاصبرْ — يامحمد[1] — على مقاساةِ أذاهم صبرًا جميلاً . والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه .

ويقال : الصبر الجميل ألا تَسْتَثْقِلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال : الصبرُ الجميلُ ما لا ينْتَظِرُ العبدُ الخروجَ منه ، ويكون ساكناً راضيًا .

ويقال : الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبْلِي .

ويقال : الصبرُ الجميل ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوى .

قوله جل ذكره : « إنَّهم يرَوْنه بعيداً * ونراه قريباً »

إنَّ ما هو آتٍ قَريبٌ ، وما استَبْعَدَ مَنْ يستَبْعِد إلاَّ لأنّه مُرْتابٌ ؛ فأمّا الواثِقُ بالشيء فهو غيرُ مُسْتَبْعِدٍ له .

قوله جل ذكره : « يومَ تكُون السماء كالمُهْلِ *
وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ » .

الإشارة فيه أنه فى ذلك اليوم مَنْ كان فى سُمُوٍّ نخوته ونُبُوِّ صولته يلين ويستكين ويَضْعُفُ مَنْ كان يَشْرُفُ ، ويَذَلُّ مَنْ كان يُذِلُّ .

قوله جل ذكره : « ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً » .

لا يَتَفَرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ ؛ فلكلٍّ امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (بالحمد) وواضح فيها أنها اشتبهت على الناسخ .

ولا يتعهَّدُ المساكينَ — فى ذلك اليوم — إلا الله .

« يُبَصَّرونَهم يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يفتدى
مِنْ عذابِ يَوْمِئِذٍ ببنيه * وصاحِبَتِه
وأخيه * وفصيلتِه التى تُؤْوِيه * ومَن
فى الأرضِ جميعاً ثم يُنجِيه » .

« يبصرونهم » أى يعرفون أقاربهم ، ولكن لا تَرِقُّ قلوبُ بعضهم على بعض .

ويتمنَّى المجرمُ يومئذٍ أنْ يُفتدِىَ من عذاب جهنم بأعز مَنْ كان عليه فى الدنيا من قريبٍ ونسيب وحميمٍ وولدٍ ، وبكلٍّ من فى الأرض حتى يخلص من العذاب .

« كَلاَّ إنَّها لظىٰ » .

اسم من أسماء جهنم .

« نَزَّاعةً للشَّوَىٰ »[1] .

قَلاَّعةٌ للأطراف . تكشط الجِلْدَ عن الوجه وعن العَظْم .

قوله جل ذكره : « تدعو مَنْ أدْبرَ وتَوَلَّىٰ » .

تقول جهنمُ للكافرِ والمنافقِ : يا فلان .. إلىَّ إلىَّ .

والإشارة فيه : أنَّ جهنمَ الدنيا تعلق بقلبِ المرء فتدعوه بكلابِ الحِرْصِ إلى نَفْسِه وتجرُّه إلى جمعها حتى يؤثرها على نَفْسه وكلٌّ أحد له ؛ حتى لقد يَبْخَلُ بدنياه على أولاده وأعِزَّتِه ... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جل ذكره : « إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً » .

---

(١) والشَّوى جمع شواة وهى جلدة الرأس ، قال الأعشى :
قالت قُتَيْلَةُ : ماله قد جُلِّلت شيباً شواتُه

وجاء فى الصحاح : الشوى جمع شواة وهى جلدة الرأس . وهى اليدان والرجلان والرأس من الآدميين ، وكل ما ليس مقتلا . يقال : رماه فأشواه أى لم يصب المقتل .

وقال الضحاك : تفرى الجلد واللحم عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً . ونرى أن المقصود — والله أعلم . أن العذاب لا يقضى عليهم ، حتى يستمر واقعاً بهم إلى الأبد .

وتفسيره ما يتلوه :

« إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزوعاً * وإذا مَسَّه الخيرُ مَنوعًا » .

والهَلَعُ شِدَّةُ الْحِرصِ مع الجزع . ويقال هلوعا : متقلِّبًا فى غمرات الشهوات .

ويقال : يُرْضيه القليلُ ويُسْخِطه اليسير .

ويقال : عند المحنة يدعو ، وعند النعمة ينسى ويسهو .

« إلّا المُصَلِّينَ * الذين هم على صلاتِهم دائمونَ » .

استثنى منهم المصلين — وهم الذين يُلازِمون أبداً مواطنَ الافتقار ؛ مِنْ صَلَى بالمكان[1] .

« والذين فى أموالِهم حَقٌّ معلومٌ * للسائلِ والمحرومِ » .

وهو المُتَكفِّف والمُتَعَفِّف .

وهم على أقسام : منهم مَنْ يُؤْثِر بجميع مالِه ؛ فأموالُهم لكلِّ مَنْ قَصَدَ ، لا يخصُّون سائلاً من عائل . ومنهم مَن يعطى ويمسك — وهؤلاء[2] منهم — ومنهم مَنْ يرى يَدَه يَدَ الأمانة فلا يتكلَّف باختياره ، وإنما ينتظر ما يُشَار عليه به من الأمر ؛ إمَّا بالإمساك فيقف أو ببذْلِ الكُلِّ أو البعضِ فيستجيب على ما يُطَالَبُ به وما يقتضيه حُكْمُ الوقت . . . .

وهؤلاء أتَمُّهُم .

---

(١) صَلِيتَ الناقة أو الحامل ونحوها استرخى صلاها لقرب نتاجها (الوسيط) .

(٢) أى الذين تتحدث عنهم الآية .

« والذين يُصَدِّقون بيومِ الدِّين » .

وأمارتهُم الاستعدادُ للموتِ قبل نزوله ، وأن يكونوا كما قيل :

مستوفِزون على رِجْلٍ كأنهمو فقد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جل ذكره : « والذين هم لفروجِهم حافظون * إلاَّ على أزواجِهم أو ما مَلَكَتْ أيمانُهم فإنَّهم غيرُ ملومين * فمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وإنما تكون صحبتُهم مع أزواجهم للتعفُّفِ وصَوْنِ النَّفْسِ ، ثم لابتغاء أن يكونَ له وَلَدٌ من صلبه يذكر الله . وشَرْطُ هذه الصحبة : أن يعيش معها على ما يهون ، وألا يجرَّها إلى هوَى نَفسِه ويحملها على مرادِه وهواه .

قوله جل ذكره : « والذين هم لأماناتِهم وعَهْدِهم راعون »

يحفظون الأمانات التى عندهم للخَلْق ولا يخونون فيها . وأماناتُ الحق التى عندهم أعضاؤهم الظاهرة — فلا يُدَنِّسُونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التى فى قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرارُ التى بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم . والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ .. كل ذلك أماناتٌ .

ويقال : من الأمانات إقرارُهم وقتَ الذَّرِّ . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك المحبة التى أودعها اللهُ فى قلبه .

قوله جل ذكره : « والذين هم بشهاداتِهم قائمون » .

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض — يقومون بحقوق ذلك كله .

قوله جل ذكره : « فمالِ الذين كفروا قِبَلَكَ مُهْطِعين * عن اليمينِ وعن الشمالِ عِزِينَ » .

والإهطاع أن يُقْبِلَ ببصره إلى الشىء فلا يرفعه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبى صلى الله عليه وسلم « وعزين » : أى خَلْقاً خَلْقاً ، وجماعةً جماعة .

« أَيَطْمَعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُدْخَلَ جَنَّةَ نعيم ؟ »

كلا .. إنك لا تدعو عن هذا ! وليس هذا بصوابٍ ؛ فإنهم ـ اليومَ ـ كفار ، وغدًا يعاملون بما يستوجبون .

« فلا أقسمُ بربِّ المشارق والمغارب . . » لا — هنا صلة ، والمعنى أقسم . وقد مضى القولُ فى المشارق والمغارب ـ « إنا لقادرون » على ذلك .

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا » غاية التهديد والتوبيخ لهم .

« يومَ يخرجون من الأجداث سِراعاً » كأنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبَّه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النُّصُبِ ـ اليومَ ـ كى يقوموا بعبادتهم إياها .

سُورَةُ نُوح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لمَنْ قامت السمواتُ والأرض بقدرته ، واستقامت الأسرارُ والقلوبُ بنصرته .. دَلَّت الأفعالُ على جلالِ شانه ، وذَلَّتِ الرِّقابُ عند شهودِ سلطانه . أشرقت الأقطارُ بنوره فى العُقبى ، وأشرقت الأسرارُ بظهوره فى الدنيا ، فهو المقدَّس بالوصف الأعلى .

قوله جل ذكره : « إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومِه أنْ أنذِرْ قومَكَ من قَبْلِ أن يأتيَهُم عذابٌ أليم »

أرسلنا نوحاً بالنبوَّةِ والرسالة . « أن أنذِر قومك » أى بأن أنذرهم وإرسالُ الرُّسُل من الله فضلٌ[1] ، وله بحق مُلْكه أن يفعل ما أراد ، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لاتقبل الوجوب .

وإرسالُ الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أنه لا يَقْبَل جائز[2] ، وتكليفُهم من ناحية العقل جائز[3] . فنوحٌ — عَلِمَ منهم أنهم لا يقبلون .. ومع ذلك بَلَّغ الرسالة وقال لهم : إنى لكم نذير مبين :

« قال يا قومِ إنى لكم نذيرٌ مبين *
أنِ اعبدوا اللهَ واتقوهُ وأطيعونِ *

---

(١) فى النسختين (فعل) وهى صواب بدليل قوله فيما بعد : (أن يفعل) ما أراد ولكننا رجحنا (فضل) لأن القشيرى يستحسن استعمال (الفضل) عندما يتحدث عن نفى (الوجوب) على الله .

(٢) كى يكون ذلك عليهم حجة ، قال تعالى : «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .

(٣) ولكن لا عقاب إلا بعد إرسال الرسل ؛ لأن العقل وحده غير كافٍ فى قطع المعذرة (قارن ذلك بآراء المعتزلة) .

« يَغْفِرْ لكم من ذنوبِكم ويُؤخِّرْكم
إلى أجَلٍ مُسَمًّى إنَّ أجَلَ اللهِ إذا جاء
لا يُؤَخَّرُ لو كنتم تعلمون » .

يغفر لكم « من » ذنوبكم : مِنْ هنا للجنس لا للتبعيض كقوله تعالى :
« فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

ويقال : ما عملوه دون ماهو معلوم أنهم سيفعلونه ؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراء لهم .. وذلك لا يجوز . فأبوا أن يَقْبَلوا منه ، فقال :

« قال ربِّ إنى دعوْتُ قومى ليلاً
ونهاراً * فلم يزِدْهم دُعائى إلا فِراراً » .

بَيّنَ أنّ الهداية ليست إليه ، وقال : إنْ أرَدتَ إيمانَهم فقلوبُهم بقدرتك — سبحانك .

قوله جل ذكره : « وأصرُّوا واستكبروا استكباراً »

وإنِّى ما ازدَدتُ لهم دعاء إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً .

ويقال : لمَّا دام بينهم إصرارُهم تَولَّدَ من الإصرار استكبارُهم ، قال تعالى :
« فطال عليهم الأمدُ فقَست قلوبهم »[1]

قوله جل ذكره : « ثم إنىَّ دَعَوْتُهُم جهاراً * ثم إنىِّ
أعْلَنتُ لهم وأسرَرْتُ لهم إسراراً *
فقُلْتُ استغفِروا ربَّكم إنه كان
غفَّاراً * يُرْسِل السماء عليكم مدراراً *
ويُمْدِدْكُم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم
جنَّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً » .

---

(١) آية ١٦ سورة الحديد .

ليعلمَ العالِمون : أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقعت له إلى اللهِ حاجةٌ فلن يَصِلَ إلى مرادِه إلّا بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أراد التَّفَضُّل فعليه بالمُذْر والتنصُّل .

قوله : « يرسل السماء عليكم . . . . » : كان نوح عليه السلام كلّما ازداد فى بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم فى الكفر والنسيان .

قوله جل ذكره : « ما لكم لا ترجُون للهِ وقاراً ؟ »

ما لَكُم لا تخافون للهِ عَظَمَةً ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمِّلون على توقيركم للأمرِ من اللهِ لُطفاً ونعمة ؟ .

« ألَم تَرَوْا كيف خَلَقَ اللهُ سَبْعَ
سماواتٍ طباقاً * وجعل القمرَ فيهنَّ
نوراً وجعل الشمسَ سراجاً »

ثم نَبَّهَهُم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة ، وعلى أنَّ خالقهَا يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزَّة .

ثم شكا نوحٌ إلى الله وقال :

« قال نوحٌ ربِّ إنَّهم عَصَوْنى
واتَّبعوا مَن لم يَزِدْه مالُه وولَدُهُ
إلّا خساراً * ومكروا مكراً كُبَّاراً »

يعنى كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا فى الدنيا وهلكوا فى الآخرة .

« وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على
الأرضِ من الكافرين ديَّاراً » .

وذلك بتعريفِ اللهِ تعالى إيَّاه أنَّه لن يؤمِنَ من قومك إلّا من قد آمن . فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم .

سُورَةُ الجِنّ [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقَرَّ بربوبيته ، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته ، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته ، وبه ظَهَرَ ما ظَهَرَ من مقدوراته ، وبه بَطَنَ ما بَطَنَ من مخلوقاته[2] ، فَمَنْ جَحَدَ فبخذلانه[3] وحرمانه ، ومن وَحَدَ[4] فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الجنّ فقالوا : إِنَّا سَمِعْنا قرآناً عجباً »

قيل : إن الجنَّ كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قولِ الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى الكهنة ، فيزيدون فيه وينقصون . . وكذلك كانوا فى الفترة التى بين نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلمَّا بُعِثَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ورُجِمُوا بالشُّهُبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شىء[5] ففرَّ جنوده ، فأتى تسعةٌ منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم آتوا قومهم وقالوا : إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به . . . إلى آخر الآيات .

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ..»[6])

---

(١) أخطأ الناسخ فى ص وجعلها (سورة المزمل) بينما التفسير جارٍ لسورة الجن .

(٢) إشارة إلى الجن .. وهنا نوع من الترابط بين إيحاءات البسملة والسورة .

(٣) الباء هنا معناها (بسبب) أى أن الجاحد جحد بسبب خذلان الله له فى القسمة .

(٤) هكذا فى ص وهى الصواب بينما هى فى م (قصد) ونحن نعلم أن القشيرى يستعمل (جحد) و (وحد) متقابلين .

(٥) «حدث شىء فى الأرض» (الترمذى) .

(٦) ما بين التوسين ورد فى م ولم يرد فى ص ، والآية هى رقم ٢٩ سورة الأحقاف .

قوله جل ذكره : « وأنه تعالىٰ جَدُّ ربِّنا ما اتَّخَذَ صاحِبةً ولا ولداً » .

الجَدُّ العظمة ، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال .

« وأنَّه كان يقول سفيهُنا على الله شطَطاً » .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعنى إبليس . والشطط السَّرَف .

« وأنَّا ظَنَنَّا أن لَّن تقولَ الإنسُ والجِنُّ على اللهِ كَذِباً » .

فى كفرهم وكلمتهم بالشِّرك .

« وأنَّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجِنِّ فزادوهم رَهَقا » .

أى ذِلة وصغار ؛ فالجنُّ زادوا للانس ذِلَّةً ورهقا[1] (فكانوا إذا نزلوا يقولون : نعوذ بربِّ هذا الوادى فيتوهم الجنُّ أنهم على شىء فزادوهم رهقاً)[2] حيث استعاذوا بهم .

قوله جل ذكره : « وأنَّهم ظنُّوا كما ظَنَنتُم أن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أحداً » .

أى ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألّا بعثَ ولا نشور — كما ظننتم أيها الإنس .

« وأنَّا لَمَسْنَا السماءَ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً » .

يعنى حين منِعوا عن الاستماع .

« وأنَّا كُنَّا نقعد منها مقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يستمعِ الآن يَجِدْ له شهاباً رَّصَداً » .

---

(١) أى أن الجن زادوا الإنس رهقاً وهو الخطيئة والإثم حين استعاذوا بغير الله .
وقال مجاهد : زاد الإنس الجنَّ رهقاً أى طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن : سُدْنا الإنس والجن .
(٢) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

فالآن قد مُنِعْنا .

« وأنَّا لا ندرى أشرٌّ أُريد بِمَن فى الأرضِ أم أراد بهم ربُّهم رَشَدًا ؟ » .

« وأَلَّوِ آستقاموا على الطريقةِ لأسقيناهم ماءً غَدَقًا » .

الاستقامة على الطريقة تقتضى إكمالَ النعمةِ وإكثارَ الراحةِ . والإعراضُ عن الله يُوجِب تنغُّصَ العَيْشِ ودوامَ العقوبة .

قوله جل ذكره : « وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا مع اللهِ أحداً » .

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة.. وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قَدَمِه[1] ؟ ! .

ويقال : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بها للهِ غيرَ الله .

قوله جل ذكره : « وأنَّه لمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا » .

لما قام عبد الله يعنى محمداً عليه السلام يدعو الخَلْقَ إلى الله كاد الجنُّ والإنس يكونون مجتمعين عليه ، يمنعونه عن التبليغ ، قل يامحمد :

« قُلْ إنى لا أَمْلِك لكم ضَرًّا ولا رَشَداً * قُلْ إنى لن يُجِيرَنى من اللهِ أحدٌ ولن أَجِدَ مِن دونه مُلْتَحَداً » .

لا أَقْدِر أن أَدْفعَ عنكم ضرًّا ، أو أَسوقَ لكم خيراً .. فكلُّ شىء من الله . ولن أَجِدَ من دونه مُلْتجأً إلا :

---

(١) العبارة غامضة وتحتاج إلى توضيح .. وربما قصد القشيرى إلى أنه إذا كان المسجد وهو محل قدم العابد مكرماً .. فما بالك بالعابد نفسه ، ومحله عند الله ؟ .

« إلا بلاغاً من اللهِ ورسالاتهِ »

فلن يُنَجِّيَنِي من الله إلا تبليغى رسالاته بأمره .

« ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه فإنَّ له نار جَهَنَّمَ خالدين فيها أبداً » .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنْ أدْرِى أقريبٌ ما تُوعَدُون أمْ يجعلُ له ربى أمَداً »

أى : لا أدْرى ما تُوعَدون من العقوبة ، ومن قيام الساعة أقريب أم بعيد ؟ فكونوا على حذرٍ . ويجب أنْ يتوقَّع العبدُ العقوباتِ أبداً مع مجارى الأنفاس ليَسلم من العقوبة .

قوله جل ذكره : عالِمُ الغيبِ فلا يُظهرُ على غَيبِهِ أحداً * إلا مَنِ ارتضىٰ من رَّسولٍ »

فيطلعه بقَدْرِ ما يريده .

« ليَعْلَمَ (١) أن قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم وأحاط بما لديهم وأحصىٰ كُلَّ شىء عدداً » .

أرسل مع الوحى ملائكةً قُدَّامه وخَلْفه . . هم ملائكةٌ حَفَظَةٌ ، يحفظون الوحىَ من الكهنة والشياطين ، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسالاتِ التى يحملها . . . والله يعلم ذلك ، وأحاط عِلْمُه به .

---

(١) قرأ ابن عباس (ليُعْلِمَ) أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

سورة المزمل

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : الحادثاتُ بالله حَصَلَت ، قلوبُ العارفين بالله عَرَفَتْ ما عَرَفَت وأرواحُ الصِّدِّيقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفت وفهومُ الموحِّدين بساحاتِ جلاله وقَفَت ، ونفوسُ العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَت وعقولُ الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت .

قوله جل ذكره : « يأيها المُزَّمِّل * قُمِ الليلَ إلاَّ قليلاً »

أى : المتزمل المتلفِّف فى ثيابِه . وفى الخبر : أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ من شَعْرٍ ووَبَرٍ ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان نصفُه علىَّ وأنا نائمة ، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّى ، وطولُ المِرْطِ أربعةُ عشر ذراعاً[1] .

« نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنه قليلاً * أو زِدْ عليه ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً » .

قم الليل إلا قليلاً ، نصفَه بَدَلٌ منه ؛ أى : قم نصف الليل ، وأَنْقِصْ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث ، فكان عليه الصلاة والسلام فى وجوب قيام الليل مُخَيَّرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث . وكان ذلك قبل فَرْضِ الصلوات الخمس ، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة — وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال : يأيها المتزمِّل بأعباء النبوَّة . . قم الليل .

---

(١) معنى هذا : أن السورة مدنية وليست مكية ، لأن النبى لم يبِنْ بعائشه إلا فى المدينة .

ويقال : يأيها الذى يُخْفِى ما خصصناه به قُمْ فأنذِرْ . . فإنّا نصرناك[1] .

ويقال : قُمْ بنا . . يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس . . قُمْ أنت فليسكن الكلُّ . . ولْتَقُمْ أنت .

ويقال : لمّا فَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِه لأجل أُمّته وإكراماً لشأنه وقدره .

وفى الخبر : « أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ... » ولا يُدْرَى التأويل للخبر[2] ، أو أنّ التأويل معلوم . . وإلى أن ينتهى إلى التأويل فللأحبابِ راحاتٌ كثيرة ، ووجوهٌ من الإحسان موفورة .

قوله جل ذكره : « ورَتِّلِ القُرآنَ ترتيلاً »

إرْتَعْ بِسِرِّكَ فى فَهْمِه ، وتَأَنَّ بلسانِك فى قراءته .

« إنّا سَنُلْقِي عليكَ قولا ثقيلاً » .

قيل : هو القرآن . وقيل : كلمة لا إلَـٰهَ إلا الله .

ويقال : الوحى ؛ وسمّاه ثقيلاً أى خفيفاً على اللسان ثقيلاً فى الميزان .

ويقال : ثقيل أى : له وزن وخطر . وفى الخبر : كان إذا نزل عليه القرآن — وهو على ناقته — وضعت جِرانها[3] ، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه .

وروى ابن عباس : أنّ سورة الأنعامِ نَزَلَتْ مرةً واحدةً فَبَرَكَت ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقل القرآن وهيبته .

ويقال « ثقيلا » سماعه على مَنْ جحده

---

(١) هذان تخريجان مجازيان للفظة (المزمل) .

(٢) هذا الخبر فعلا كان موضع نظر ؛ فقد روى عن طريقين عن أبى هريرة على الشك ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إذا مضى شطر الليل—أو ثلثاه ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا» وفى رواية أخرى : « ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ، أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر» . وخرجه ابن ماجه من حديث ابن شهاب عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن الرسول (ص) قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول ... » وهكذا انتظم الحديث والقرآن .

(٣) أى : صدرها .

ويقال : « ثقيلاً بِعِبْئِهِ — إلاَّ على من أيَّدَ بقوةٍ سماوية ، ورُبِّىَ فى حِجْرِ التقريب »

قوله جل ذكره : « إِنَّ ناشِئَةَ الليلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وأقوَمُ قِيلاً » .

أى : ساعات الليل ، فكلُّ ساعةٍ تحدث فهى ناشئة[1] ، وهى أشد وطئاً أى : مُوَطَّأة أى : هى أشدُّ موافقةً للسانِ والقلبِ ، وأشدُّ نشاطاً .

ويحتمل : هى أشدُّ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار .

« وأقوم قيلا » أى : أَبْيَنُ قولاً .

ويقال : هى أشدُّ مواطأةً للقلب وأقوم قيلًا لأنها أبعدُ من الرياء ، ويكون فيها حضورُ القلبِ وسكونُ السِّرِّ أبلغَ وأتمَّ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لكَ فى النَّهارِ سَبْحاً طويلًا » .

أى : سبحًا فى أعمالك ، والسبح : الذهاب والسرعة ، ومنه السباحة فى الماء .

فالمعنى : مذاهبُك فى النهار فيما يَشْغَلُك كثيرةٌ — والليلُ أَخْلَى لك .

قوله جل ذكره : « واذْكُرِ اسمَ ربِّكَ وتبتَّلْ إليه تبتيلاً » .

أى : انقَطِعْ إليه انقطاعًا تاماً .

« ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ فاتَّخِذْهُ وكيلاً » .

الوكيلُ مَنْ تُوكَلُ إليه الأمورُ ، أى : توَكَّلْ عليه وكِلْ أمورَك إليه ، وثِقْ به .

ويقال : إنك إذا اتخذْتَ من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالَكَ وطالبوك بالأجرة ، وإذا اتخذتنى وكيلاً أَوَفِّرُ عليكَ مَالَكَ وأُعطيكَ الأجر .

---

(١) قال ابن مسعود : الحبشة يقولون : نشأ أى قام .
فكأن ناشئة الليل مصدر بمعنى قيام الليل ... مثل خاطئة وكاذبة .. فإذا افترضنا أنها كلمة شائعة الاستعمال عند الحبشة بهذا المعنى فإنها ذات أصل عربى أيضاً .

ويقال : وكيلُك ينفق عليك من مالِك ، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالى .

ويقال : وكيلُك مَنْ هو فى القَدْرِ دونَك ، وأنت تترفَّعُ أن تكلِّمَهُ كثيراً . وأنا ربُّكَ وسَيِّدُك وأحبُّ أنْ تكلمنى وأكلِّمَكَ .

قوله جل ذكره : « واصبِرْ علىٰ ما يقُولونَ واهجرهم هَجْراً جميلاً » .

الهَجْرُ الجميلُ : أن تعاشِرَهم بظاهرك وتُباينَهم بِسِرِّك وقلبك .

ويقال : الهجرُ الجميل ما يكون لحقِّ ربِّك لا لِحَظِّ نَفْسِك .

ويقال : الهجرُ الجميلُ ألا تُكلِّمَهم ، وتكلمنى لأجْلهم بالدعاء لهم .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال[1] .

قوله جل ذكره : « وذرنى والمكذِّبينَ أُولِى النَّعمة ومَهِّلْهُم قليلاً » .

أى : أُولِى التَّنَعُّم[2] ، وأنظِرْهم قليلاً ، ولا تهتمْ بشأنهم ، فإنى أكفيكَ أمرَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ لَدينا أنكالاً وجَحيماً * وطَعَاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً » .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

« يومَ تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ وكانتِ الجبالُ كثيباً مَّهيلاً » .

---

(١) قال قتادة : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك . (القرطبى) حـ١٩ ص ٤٥) .

(٢) هم صناديد قريش ، ورؤساء مكة من المستهزئين .

وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة .

وقالت عائشة : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

ثم قال :

« إنَّا أرسلنا إليكمْ رسُولاً شَاهِداً عليكمْ كما أرْسلنا إلى فِرْعَونَ رسُولاً » .

يعني : أرسلنا إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً عليكم « كما أرسلنا إلى فرعون رسُولا » ، « فَعصى فِرعونُ الرسُولَ فأخذنَاهُ أخذاً وبيلاً » ثقيلا .

« فكيف تتقون إن كفرتم يوماً » من هَوْلِه يصير الولدانُ شيباً — وهذا على ضَرْبِ المثل .

« السماء مُنْفَطِرٌ به » أى بذلك : اليوم لهوله[1] .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بالله أى : بأمره .

« كان وعده مفعولا » : فما وَعَدَ اللهُ سيصدقه .

« إنَّ هذه تذكرةٌ » : يعنى : هذه السورة ، أو هـــذه الآيات مَوْعِظَةٌ ؛ فَمَن اتعظ بها سَعِدَ .

« إنَّ ربَّك » يا محمد « يعلم أنك تقوم أدنى من ثُلُثَى الليلِ ونصفَه وثُلُثَه وطائفة من الذين معك » من المؤمنين .

« واللهُ يُقَدِّرُ الليلَ والنهارَ » فهو خالقُها « عَلِمَ أن لَّن تُحْصُوه » وتطيعوه .

« فتَاب عليكم » أى : خَفَّفَ عنكم[2] ، « فاقرءوا ما تَيَسَّرَ من القرآنِ » من خمس آيات إلى مازاد . ويقال : من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد[3] .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (لقوله) والصواب؛ ما جاء فى م كما هو واضح من السياق .

(٢) كان الرجلُ لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم (مقاتل) .

(٣) قال الحسن : من قرأ مائه آية فى ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : كُتِب من القانتين .
وفى حديث مسند عن عبد الله بن عمرو : أن النبى (ص) قال : «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين (= أعطى من الأجر قنطاراً) » خرّجه أبو داود الطيالسى فى مسنده .

« عَلِمَ أن سَيَكُونُ منكُم مَّرضىٰ وآخَرونَ يضربُون فى الأرضِ » يسافرون ، ويعلم أصحاب الأعذار ، فَنَسخَ عنهم قيامَ الليل .

« وأَقيمُوا الصَّلاةَ » المفروضة .

« وأَقرِضُوا اللهَ قرضًا حسنًا » مضى معناه .

« وَمَا تُقَدِّموا لأنفسِكُم مِّن خيرٍ تجدُوه » أى : ما تقدِّموا من طاعة تجدوها عند الله ثوابًا هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا .

سُورَةُ المُدَّثر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها نزهةُ قلوبِ الفقراء ، كلمةٌ سماعُها بهجة أسرارِ الضعفاء ، راحةُ أرواحِ الأحِبَّاء ، قوةُ قلوبِ الأولياء ، سَلْوَةُ صدورِ الأصفياء ، قُرَّةُ عيونِ أهلِ البلاء .

قوله جل ذكره : « يأيها المُدَّثِّر * قُمْ فَأَنْذِر » .

يأيها المتدثر بثوبه .

وهذه السورة من أول ما أُنْزِلَ من القرآن . قيل : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذَهَبَ إلى حِرَاء قبل النُّبُوة ، فَبَدا له جبريلُ فى الهواء ، فرجع الرسول إلى بيت خديجة وهو يقول « دثِّرونى دثِّرونى » فَدُثِّرَ بثوبٍ فنزل عليه جبريل وقال : « يأيها المدثر ، قم فأنذِرْ »[1] .

وقيل : أيها الطالبُ صَرْفَ الأذى عنك بالدثار اطلبْه بالإنذار .

ويقال : قُمْ بنا ، وأَسْقِطْ عنك ما سوانا ، وأَنذِر عبادَنا ؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف ، ووقفناك بأعلى المقامات .

ويقال : لمَّا سَكَنَ إلى قوله : « قم » وقام قَطَعَ سِرَّه عن السُّكونِ إلى قيامِهِ ، ومن الطمأنينة فى قيامه .

قوله جل ذكره : « وربَّكَ فَكَبِّرْ » .

---

(١) حدَّث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى ، فنوديت ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا جبريل على عرش فى الهواء فأخذتنى رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت : دثرونى . فصبوا على ماء . رواه البخارى بهذه النهاية : دثرونى وصبوا على ماء بارداً فدثرونى وصبوا علىَّ ماء بارداً فنزلت : يأيها المدثر » .

كَبِّرْه عن كلِّ طَلَبٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وعِلَّةٍ وخَلْقٍ .

« وثيابَكَ فطهِّرْ » .

طَهِّرْ قلبك عن الخلائق أجمع ، وعن كلِّ صفةٍ مذمومة .

وطَهِّرْ نَفْسَك عن الزَّلّات ، وقلبَك عن المخالفات ، وسِرَّك عن الالتفاتات .

ويقال : أَهْلَكَ طَهِّرْهم بالوعظ ؛ قال تعالى : « هُنَّ لِباسٌ لكم »[1] ، فيعبر عنهن — أحيانًا — بالثياب واللِّباس .

قوله جل ذكره : « والرُّجْزَ فاهْجُرْ » .

أى : المعاصى . ويقال : الشيطان . ويقال : طَهِّرْ قلبَك من الخطايا وأشغال الدنيا .

ويقال : مَنْ لا يَصِحُّ جِسْمُه لا يجد شهوةَ الطعام كذلك مَنْ لا يَصِحُّ قلبُه لا يجد حلاوةَ الطاعة .

« ولا تَمْنُن تَسْتَكثِر » .

لا تُعْطِ عطاءً تطلب به زيادةً على ما تعطيه .

ويقال : لا تستكثِرْ الطاعةَ من نفسك .

ويقال : لا تَمُنَّنْ بعملك فتَسْتكثِرَ عملك ، وتُعْجَبَ به .

« ولربِّكَ فاصبِرْ » .

أى : أنت تُؤْذَى فى اللهِ . فاصبِرْ على مقاساةِ أذاهم .

قوله جل ذكره : « فإذا نُقِرَ فى النَّاقورِ * فذلك يَوْمئِذٍ يَوْمٌ عسيرٌ * على الكافرين غيرُ يسيرٍ » .

يعنى : إذا قامت القيامةُ ، فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ هيِّنٍ .

قوله جل ذكره : « ذَرْنى وَمنْ خَلَقْتُ وحيداً » .

---

(١) آية ١٨٧ سورة البقرة .

أى : لا تهتمْ بشأنهم ، ولا تَحْتَفِلْ ؛ فإنِّى أكفيكَ أمرَهم .

إنِّى خَلَقْتُه وحدى ؛ لم يشارِكْنى فى خلقى إيَّاه أحدٌ .

ويحتمل : خَلَقْتُه وَحْدَه لا ناصرَ له .

قوله جل ذكره : « وجَعَلْتُ له مالاً ممدُوداً * وَبنِينَ شُهوداً » .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السَّفَرِ .

« ومَهَّدْتُ له تمهيداً » .

أراد : تسهيلَ التصرُّف ، أى : مكَّنْتُه من التصرُّف فى الأمور[1] .

« ثُم يَطْمَعُ أنْ أزِيدَ » .

يطمع أن أزيده فى النعمة :

« كَلَّا ، إنَّه كانَ لآياتِنا عَنيداً » .

جَحوداً .

« سأُرْهِقُهُ صَعُودًا » .

سأحمله على مشقَّةٍ من العذاب .

« إنَّه فَكَّرَ وقَدَّرَ * فَقُتِلَ كيف قَدَّرَ * ثم قُتِلَ كيف قَدَّرَ » .

أى : لُعِنَ كيف فكَّر ، وكيف قَدَّر ، ويعنى به : الوليد بن المغيرة[2] الذى قال فى النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذَّاب ، وإنه ليس إلا ساحر ، وما يأتى به ليس إلا سحرٌ يُرْوَى :

---

(١) واضح من هذا أن القشيرى يؤمن بحرية الإنسان ، وأن الجبرية عنده ليست مطلقة .

(٢) كان الوليد يدعى ريحانة قريش فلما سمعت منه واصفاً القرآن : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ... » قالت قريش : صبأ الوليد لتصبون قريش كلها ، فلما ذهب إليه أبو جهل ليتحرى . قال له بعد أن نفث مزاعمهم : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

« ثم نَظَرَ * ثُم عَبَسَ وبَسَرَ[1] *
ثم أدْبرَ وآستكبرَ * فقال :
إنْ هذا إلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إنْ هذا
إلَّا قولُ البَشَرِ * سأُصْليهِ سَقَرَ *
وَمَا أدْراكَ مَا سَقَرُ *لا تُبْقِي ولا تَذَرُ*
لَوَّاحةٌ للبَشَرِ » .

لا تُبقى لَحْماً ، ولا تَذَرُ عَظْماً ، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدها ، من لاحته الشمسُ ولوَّحته .

« عَلَيْها تِسعةَ عشرَ » .

قال المشركون : نحن جَمْعٌ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

« وَمَا جعلْنا أصحابَ النَّارِ إلَّا ملائكةً
ومَا جعلْنا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنةً للذينَ
كَفرُوا لِيستَيْقِنَ الذينَ أوتُوا
الكتابَ ويزْدادَ الذينَ ءامنوا إيمانًا
ولا يرْتابَ الذين أوتُوا الكتابَ
والمؤمنونَ » .

فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويقول هؤلاء : أى فائدة فى هذا القَدْر ؟ فقال تعالى :

« كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشاء
ويَهْدِى من يشاء » .

ثم قال :

« وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلَّا هُو
وَما هِيَ إلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » .

أى : تقاصرتِ علومُ الخَلْقِ فلم تتعلَّقْ إلا بمقدار دون مقدار ، والذى أحاط بكل شىء علمًا هو الله — سبحانه .

---

(١) بَسَر أى كلح وجهه وتغير لونه .

« كَلاَّ وَالْقَمَرِ »

كلاّ — حرفُ ردعٍ وتنبيه ؛ أى : ارتدعوا عما أنتم عليه ، وانتبهوا لغيرِه

وأقسم بهذه الأشياء « كَلا والقمرِ » : أى بالقمر ، أو بقدرته على القمر .

وبالليل إذا أدْبرَ .. وقُرِىء « ودَبرَ » أى : مضى ، «والصُّبحِ إذا أسفر» أى : تجلَّى

« إنَّها لَإحدَى الكُبَرِ » .

أى : النار لإحدى الدواهى الكُبَر .

ويقال فى « كلا والقمر » إشارةٌ إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالُها فى الزيادة بزيادة البراهين ، فإنها تزداد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام فى العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، فالعلم يأخذ فى النقصان ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فكما أنه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقًا — كذلك إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم فى النقصان لزيادة المعارف ؛ كالسراج فى ضوء الشمس وضياء النهار . « والليل إذا أدبر» أى إذا انكشفت ظُلَمُ البواطن ، « والصبح إذا أسفر » وتجلَّت أنوار الحقائق فى السرائر . . إنها لإحدى العظائم ! وذلك من باب التخويف من عودة الظُّلَم إلى القلوب(١) .

« نَذيراً للبشرِ » فى هذا تحذيرٌ من الشواغل التى هى قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا المساكنةَ والملاحظةَ إلى الطاعات والموافقات . . فإنّها — فى الحقيقة — لا خطرَ لها(٢) .

« لِمَنْ شاءَ منكمُ أن يتقدَّم أَوْ يتأخَّرَ » عن الطاعات . . وهذا على جهة التهديد .

قوله جل ذكره : « كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهينَةٌ » .

أى : مرتهنة بما عملت ، ثم استثنى :

« إلَّا أصحابَ اليَمين » .

---

(١) من خصائص أسلوب القشيرى — كما أوضحنا ذلك فى كتابنا عنه — أنه كثيراً ما يستعين بمظاهر الطبيعة : الليل والنهار — والقمر والشمس والجبال والمطر والبحار وغير ذلك كموضوع عن طريق ذلك دقائق العلم الصوفى .

(٢) يقصد أن نظرة الإنسان إلى عمله ، وإعطاء هذا العمل قيمة .. من قبيل دعوى النفس .. المهم فى الطريق فضل الله واجتباء الله .

فقال : إنهم غير مرتهنين بأعمالهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى فى شأنهم : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى » ! .

وقيل : أطفال للمؤمنين[1].

« فى جنّاتٍ يتساءلون * عن المجرمين * ما سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ ؟ * قالوا لم نَكُ من المُصَلِّينَ * ولم نَكُ نُطْعِمُ المِسْكينَ * وكُنَّا نخوضُ مع الخائِضين * وكُنَّا نُكَذِّبُ بيومِ الدِّينِ » .

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حَصَلَ لهم إشرافٌ عليهم : ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : ألم نَكُ من المصلين ؟ ألم نكُ نُطْعِمُ المسكين ؟ .

وهذا يدل على أنَّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

« وكنا نخوض مع الخائضين » : نشرع فى الباطل ، ونكذِّب بيوم الدين .

« حَتَّى أتانا اليقينُ » .

وهو معاينة القيامة .

« فما تنفعُهُم شفاعةُ الشافِعينَ » .

أى : لا تنالهم شفاعةُ مَنْ يشفع .

« فَمَا لهم عَنِ التَّذْكرةِ مُعْرِضينَ[2] »

والتذكرة : القرآن :

« كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرةٌ * فَرَّتْ من قَسْوَرَةٍ » .

---

(١) قال ابن عباس : هم الملائكة . وقال على بن أبى طالب : هم أولاد المؤمنين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم . وقال الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الذر . والله أعلم .

(٢) معرضين منصوب على الحال من الهاء والميم فى (لهم) ، وفى اللام معنى الفعل فانتصاب الحال على معنى الفعل .

كأنهم حُمُرٌ نافرة فرّت من أَسَدٍ[1]

« بَلْ يُرِيدُ كلُّ امرىءٍ مِنهم أن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً » .

بل يريد كلُّ منهم أن يُعْطَى كتاباً منشوراً .

« كلاَّ بل لَّا يَخافُونَ الآخرةَ » .

أى : كَلاَّ لا يُعْطَوْن ما يتمنّون لأنهم لا يخافون الآخرة .

« كلاَّ إنَّهُ تذكِرةٌ * فَمَن شاء ذَكَرَهُ » .

إلَّا أنْ يشاء اللهُ — لا أنْ تشاءوا

« هُو أهْلُ التقوىٰ » .

أهلٌ لأنْ يُتَّقَىٰ .

« وَأَهْلُ المغفِرةِ » .

وأهلٌ لأَنْ يغفِرَ لمن يَتَّقِي — إن شاء .

---

(١) القسورة بلسان العرب : الأسد ، أو أول الليل ، أو الشديد . وبلسان الحبشة : الرماة .

سُورَةُ القِيَامة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العِلْم استبصر ، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحيَّر . . فالعلماء فى سكون برهانه ، والعارفون فى دَهَش سلطانه . . أولئك فى نجوم علومهم ، فأحوالُهم صَحْوٌ فى صَحْو ، وهؤلاء فى شموسِ معارفهم : فأوقاتُهم محوٌ فى محو .. فشتان ما هما ! !

قوله جل ذكره : « لا أُقْسِمُ بيومِ القيامةِ » .

أى : أقسم بيوم القيامة

« وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفسِ اللَّوَّامةِ » .

أى : أقسم بالنفس اللَّوَّامه ، وهى النَّفْسُ التى تلوم صاحبَها ، وتعرِف نقصانَ حالِها .

ويقال : غداً .. كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَها : إمَّا على كُفْرِها ، وإمَّا على تقصيرها — وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار « الرَّب » أى : أقسم بربِّ النفس اللوامة . وليس للوم النَّفْسِ فى القيامةِ خطرٌ — وإنْ حُمِلَ على الكُلِّ[1] ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً — ستكون على هذه الجملة . وجوابُ القسَم قولُهُ : بلى...

قوله جل ذكره : « أَيَحسَبُ الإنسانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظامَهُ ؟ »

أيظن أنَّا لن نبعثَه بعد موته ؟

« بلى قادِرِينَ علىٰ أن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ »

« قادرين » نصب على الحال ؛ أى بلى ، نسوى بنانه فى الوقت قادرين ، وتقدر أى نجعل

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الاكل) وهى خطأ قطعاً .

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وظلف الشاة .. فكيف لا نقدر على إعادته ؟ !

« بل يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمامَهُ » .

يُقدِّم الزَّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم[1] على ألا يستكثر من معاصيه فى مستأنف[2] وقته ، وبهذا لا تَنْحَلُّ — فى الوقت — عقدةُ الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبتُه ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِل . فإذا كان استحلاء الزلّةِ فى قلبه ، ويفكر فى الرجوع إلى مثلها ـ فلا تصح ندامتُه .

قوله جل ذكره : « يَسألُ أيَّانَ يَومُ القِيَامةِ ؟ »

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

«فإذا بَرِقَ البصرُ * وَخَسَفَ القمرُ * وجُمِعَ الشَّمْسُ والقمرُ * يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أيْنَ المفرُّ ؟ » .

« بَرِقَ بكسر الراء معناها تحَيَّرَ ، « وبَرَقَ » بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقَى مَلَكٌ ولا رسولٌ إلاَّ وهو يقول : نفسى نفسى !

« وَخَسَفَ القمر وجُمِع الشمس والقمر » كأنهما ثوران عقيران[3] .

ويقال : يجمع بينهما فى ألاَّ نورَ لهما .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (يزعم) وهى خطأ قطعاً بدليل ما بعدها... من شرطها (العزم) .

(٢) أى : فى المستقبل .

(٣) قال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران .

وفى مسند أبى داود الطيالسى عن يزيد الرقاشى عن أنس يرفعه إلى النبى (ص) قال : قال رسول الله ص « إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار » .

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » والمفرّ موضع الفرار إليه ، فيُقال لهم :

« كلاَّ لا وَزَرَ »

اليومَ ، ولا مَهْرَبَ من قضاء الله[1] .

« إلىٰ ربِّك يومئذٍ المُسْتَقَرُّ » .

أى : لا مَحِيدَ عن حُكْمِه .

« يُنَبَّؤُا الإنسانُ يومَئذ بما قدَّمَ وأخَّرَ » .

أى : يَعْرِف ما أسلَفَه[2] من ذنوب أحصاها اللهُ — وإن كان العبدُ نسيَها .

« بَلِ الإنسانُ على نَفْسِه بصيرةٌ * ولوْ ألْقىٰ معاذِيرَهُ » .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمِله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجّةٌ على نفْسه فى إنكار البعث .

و يقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكلِّ حجةٍ فلن تُسْمع منه ولن تنفعه .

قوله جل ذكره : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَل به * إنَّ علينا جَمْعَهُ وقُرآنَه * فإذا قرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ » .

لا تستعجِلْ فى تَلَقُّفِ القرآنِ على جبريل ، فإنَّ علينا جَمْعَه فى قلبك وحِفْظَه ، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك ، فإذا قرأناه أى : جمعناه فى قلبك وحفظك فاتبع بإقرائك جمْعَه .

« ثُمَّ إنَّ علينا بيانَهُ » .

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعجل فى التلقفِ مخافةَ النسيان ، فنُهِىَ عن ذلك ، وضمن اللهُ له التيسير والتسهيل .

---

(١) الوزر فى اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو نحوهما : قال الشاعر :

لعمرى ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (أسفله) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : « كلاَّ بلْ تُحِبون العاجِلةَ * وتذَرون الآخِرة » .

أى : إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة فى الدنيا ، أى : يحبون البقاء فى الدنيا .

« وتذرون الآخرة » : أى : تتركون العملَ للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جل ذكره : « وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ * إلى ربِّها ناظرة » .

« ناضرة » : أى مشرقة حسنة ، وهى مشرقة لأنها إلى ربها « ناظرة » أى رائية لله . والنظر المقرون بـ « إلى » مضافاً إلى الوجه[1] لا يكون إلاَّ الرؤية ، فالله تعالى يخلق الرؤية فى وجوههم فى الجنة على قَلْبِ العادة ، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى .

ويقال : العين من جملة الوجه (فاسم الوجه)[2] يتناوله .

ويقال : الوجهُ لاينظر ولكنَّ العينَ فى الوجهِ هى التى تنظر ؛ كما أنَّ النهرَ لا يجرى ولكنَّ الماء فى النهر هو الذى يجرى ، قال تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

ويقال : فى قوله : « وجوه يومئذ ناضرة » دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهَش ؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء فى حال اللقاء أتمُّ من اللقاء .

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضى بقاء الرائى ، وعندهم استهلاكُ العبدِ فى وجود الحقِّ أتمُّ ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جل ذكره : « وَوُجوهٌ يومئذٍ باسِرةٌ * تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بها فاقِرة » .

---

(١) (مضافاً إلى) معناها (منسوباً إلى) .

(٢) ما بين القوسين وارد فى ص ولم يرد فى م وهو هام فى توضيح السياق .

« باسرة » : أى كالحةٌ عابسة . « فاقرة » أى : داهية[1] وهى بقاؤهم فى النار عَلَى التأبيد .

(تظن أن يخلق فى وجوههم النظر[2]) .

ويحتمل أن يكون معنى « تظن » : أى يخلق ظنًّا فى قلوبهم يظهر أثَرُه على وجوههم .

« كلاَّ إذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ * وقيل مَنْ راقٍ * وظنَّ أنَّه الفِراقُ * والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ * إلى ربِّكَ يومئذٍ المساقُ » .

أى ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بلغت نفوسُهم التراقيَ[3] ، وقيل : مَنْ راقٍ ؟ أى يقول مَنْ حولَه : هل أحدٌ يَرْقِيه ؟ هل طبيبٌ يداويه ؟ هل دواء يشفيه؟[4] .

ويقال : مَنْ حَوْله من الملائكة يقولون : مَن الذى يَرْقى برُوحه ؛ أملائكةُ الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ .

« وظن أنه الفراق » : وعلم الميت أنه الموت ! .

« والتفت الساق بالساق » : ساقا الميت . فتقترنُ شِدَّةُ آخرِ الدنيا بشدَّة أوَّلِ الآخرة .

« إلى ربك يومئذٍ المساق » أى الملائكةُ يسوقون روحَه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه : إمّا إلى عليين — ثم لها تفاوت درجَات ، وإمّا إلى سجِّين — ولها تفاوت دَرَكات .

ويقال : الناسُ يُكَفِّنون بَدنَ الميت ويغسلونه ويُصَلُّون عليه .. والحقُّ سبحانه يُلْبِسُ روحَه ما تستحق من الحُلَلِ ، ويغسله بماء الرحمة ، ويصلى عليه وملائكتُه .

قوله جل ذكره : « فلا صَدَّقَ ولا صلَّىْ * ولكن كذَّب وتَوَلَّى » .

---

(١) الفاقرة لها معان كثيرة منها : الداهية ، والأمر العظيم ، والشر ، والهلاك ، ودخول النار . وهى فى الأصل : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم .

(٢) العبارة هكذا فى م أما فى ص فهى (..... الظن) بدلا من (النظر) ، ويمكن قبول عبارة م على أساس أن (النظر) أمر عظيم – وهو أحد معانى (الفاقرة) كما قلنا .. ولكننا نرجح – والله أعلم – أن العبارة ربما كانت فى الأصل على هذا النحو : [تظن : (أى) يخلق فى وجوههم (الظن)] فحتى هذا الظن مخلوق فى وجوههم من قبل الله .. وربما يتأيد ما ذهبنا إليه بما جاء بعدها مباشرة .

(٣) جمع (ترقوة) : العظام التى تكتنف مقدم الحلق من أعلى الصدر ، وهى موضع الخرجة .

(٤) معروف ألا رقية ولادواء للموت . . ولكنهم يتساءلون هكذا على وجه التحير عند الإشفاء على الموت .

يعنى : الـكافر ما صدّق اللهَ ولا صلّى له ، ولـكن كذّب وتولّى عن الإيمان . وتدل الآيةُ على أنّ الـكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

« ثُم ذَهَبَ إلى أهلِه يَتَمَطّى » .

أى : يتبختر و يختال .

« أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ » .

العَربُ إذا دَعَتْ على أحدٍ بالمكروه قالوا : أولى لك! وهنا أتبع اللفظَ اللفظَ على سبيل المبالغة .

و يقال : معناه الويلُ لَكَ يومَ تحيا ، والويلُ لكَ يوم تَموت ، والويلُ لكَ يومَ تُبْعَث، والويل لكَ يوم تدخل النار[1] .

« أَيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سدًى » .

مُهمَلاً لا يُـكلَّفُ ! ؟ . ليس كذلك .

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثم كان علقةً فَخَلَقَ فسوَّى * فَجَعَلَ مِنهُ الزوجَيْنِ الذَّكَرَ والأنثى » .

« من منى يمنى » أى تُلْقى فى الرَّحم ، ثم كان علقة أى : دماً عبيطا[2] ، فسوّى أعضاءه فى بطن أمه ، ورَكَّبَ أجزاءه على ما هو عليه فى الخِلْقة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ ، وإن شاء خَلَقَ الأنثى ، وإن شاء كليهما .

« أَليس ذلك بقادر على أن يُحْيِيَ المَوْتى ؟ » .

أَليس الذى قدر على هذا كلِّه بقادر على إحياء الموتى ؟ فهو استفهام فى معنى التقرير[3] .

---

(١) فى معنى « الويل لك » تقول الخنساء :

همت بنفسى كل الهموم فأولى لنفسى أولى لها
سأحمل نفسى على آلة فإما عليها وإما لها

ويقال : إن الرسول هدد أبا جهل بهاتين الآيتين .. حتى إذا كان يوم بدر ، ضرب الله عنقه وقتل شر قتله .

(٢) اللحم العبيط : الطرىّ الذى لم ينضج (الوسيط) .

(٣) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (التقدير) بالدال وهى خطأ .

سُورَةُ الإِنسَان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ جبَّارٌ تَوَحَّد فى آزالِه بوصف جبروته ، وتَفَرَّدَ فى آبادِه بنعت ملكوته ؛ فأَزَلُه أَبَدُه ، وأَبَدُه أَزَلُه ، وجبروتُه ملكوتُه ، وملكوته جبروتُه .

أحدىُّ الوصفِ ، صَمَدِىُّ الذات ، مُقَدَّسُ النَّعْتِ ، واحدُ الجلالِ ، فَرْدُ التعالى ، دائمُ العِزِّ ، قديمُ البقاء .

قوله جل ذكره : « هَل أَتَىٰ على الإنسانِ حِينٌ من الدَّهرِ لم يَكُن شيئاً مذكوراً » .

فى التفسير : قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار . قيل : كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُه بين مكة والطائف . ثم من صلصالٍ أربعين سنة ، ثم من حمإٍ مسنون أربعينِ سنة ، فتمَّ خَلْقُه بعد مائة وعشرين سنةٍ[1] .

ويقال : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر ... » : أى لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إلىَّ .

ويقال : هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِك ؟ هل ألقيتُ — لحظةً — حَبْلَكَ على غارِبِك ؟ هل أخليتُك — ساعةً — من رعاية جديدة وحمايةٍ مزيدة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا خَلَقْنا الإنسانَ من نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .

---

(١) وزاد ابن مسعود أربعين سنة فقال : وأقام وهو من تراب أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح (حكاه الماوردى) .

« من نطفة » : أى من قطرة ماء ، « أمشاج » : أخلاط من بين الرجل والمرأة .
ويقال : طوراً نطفة ، وطوراً عَلَقَة ، وطوراً عَظْماً ، وطوراً لَحْماً .

« نبتليه » : نمتحنه ونختبره . وقد مضى معناه . « فجعلناه سميعاً بصيراً » .

« إنَّا هَدَيْناهُ السبيلَ إمَّا شاكِراً
وإمَّا كفوراً » .

أى : عَرَّفْناه الطريقَ ؛ أى طريقَ الخيرِ والشرِّ .

وقيل : إمَّا للشقاوة ، وإمَّا للسعادة ، إمَّا شاكراً من أوليائنا ، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا ؛ فإنْ شَكَرَ فبالتوفيق ، وإنْ كفرَ فبالخذلان .

قوله جل ذكره : « إنَّا أعْتَدْنا لِلكافرين سَلاسِلاً
وأغْلالاً وسعيراً » .

أى : هيَّأْنا لهم سلاسلَ يُسْحَبون فيها ، وأغلالاً لأعناقهم يُهانون بها ، « وسعيراً » : ناراً مستعرة .

« إنَّ الأبرارَ يشربُون من كأسٍ كان
مِزاجُها كافوراً » .

قيل : البَرُّ : الذى لا يُضْمِرُ الشَّرَّ ، ولا يؤذى الذَّرَّ .

وقيل : الأبرار : هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهم عن المستحقرات ، وظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة فاتقوا عن مُسَاكَنةِ الدنيا .

يشربون[1] من كأسٍ رائحتها كرائحة الكافور ، أو ممزوجة بالكافور .

ويقال : اختلفت مشاربُهم فى الآخرة ؛ فكلٌّ يُسْقَى ما يليق بحاله . . . وكذلك فى الدنيا مشاربُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يُسقَى مَزْجًا ، ومنهم من يُسقَى صِرْفاً ، ومنهم من يسقى على

(١) يتحدث القشيرى فى هذه السورة عن الشراب على نحو تفصيل يستحق التأمل ، وينبغى أن يضاف إلى حديثه عنه فى رسالته عند بحث هذا الموضوع عند هذا الصوفى السنى الجليل .

النُّوَب ، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسْقى وحدَه ولايَسقى مما يُسقى غيره ، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً .. وقالوا :

إن كنت من ندماى فبالأكبر اسْقِنى ولا تَسْقِنى بالأصغر المتثلم

وفائدة الشرابِ — اليومَ — أن يشغلهم عن كل شىء فيرُيحهم عن الإحساس ، ويأخذهم عن قضايا العقل . . كذلك قضايا الشراب فى الآخرة ، فيها زوالُ الأَرَبِ ، وسقوطُ الطلبِ ، ودَوَامُ الطَّرَب ، وذَهَابُ الحَرَب ، والغفلة عن كلِّ سبب .

ولقد قالوا :

عاقِرْ عقارك واصْطبِحْ واقدَحْ سرورَك بالقَدَحَ
واخلع عذارك فى الهوى وأَرِحْ عذولَك واسترحْ
وافرَحْ بوقتِك إنما عُمْرُ الفتى وقتُ الفرَح

قوله جل ذكره : « عيناً يشرب بها عبادُ اللهِ يُفَجِّرونها تفجيراً » .

يُشَقِّقُونها تشقيقاً ، ومعناه أن تلك العيون تجرى فى منازلهم وقصورهم على ما يريدون . واليومَ — لهم عيونٌ فى أسرارهم من عين المحبة ، وعين الصفاء ، وعين الوفاء ، وعين البسط ، وعين الروح .. وغير ذلك ، وغداً لهم عيون .

« يُوفون بالنَّذْرِ »

ثم ذكر أحوالهم فى الدنيا فقال : يوفون بالعهد القديم الذى بينهم وبين الله على وجهٍ مخصوص .

« ويَخافـــونَ يوما كان شَرُّه
مُستطيراً » .

قاسياً ، منتشراً ، ممتداً .

« ويُطْعِمونَ الطعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً
وَيتيماً وأسيراً » .

أى : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمون .

ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء فى التفسير : أن الأسير كان كافراً — لأنَّ المسلمَ ما كان يُستأسَرُ فى عهده — فطاف على بيت فاطمة رضى الله عنها[1] وقال : تأسروننا ولا تطعموننا[2] !

« إنَّمَا نُطْعِمُكُم لوجهِ اللهِ لا نُريدُ
مِنكُم جزاءً ولا شكوراً » .

إنما نطعمكم ابتغاءَ مرضاةِ الله ، لا نريد من قِبلكُم جزاءً ولا شكراً .

ويقال : إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم ، ولكن كان ذلك بضمائرهم .

« إنَّا نخافُ من رَبِّنا يوماً عبُوساً
قَمْطَرِيراً » .

أى : يوم القيامة

« فوقَاهُم اللهُ شَرَّ ذلك اليومِ »

---

(١) هكذا فى م ، وفى ص (صلى الله عليها) .

(٢) قال الأسير وهو واقف بالباب : «السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ! أطعمونى فإنى أسير محمد » . فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح .. حتى لصق بطن فاطمة بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع » . فلما رآها النبى (ص) وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال : « واغوثاه يا ألله ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً» فنزلت الآية . ولكن بعض رجال الحديث يطعنون فى هذا الخبر . يقول الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : « هو حديث مزوق مزيف ؛ لأن الله تعالى يقول : يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ، والنبى يقول : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » .

« ولقّاهُم » أى : أعطاهم « نضرةً وسرُوراً » .

« وجزاهم بِمَا صَبروا جَنَّةً وحريراً »

كافَأَهُم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنّةً وحريراً

« متكئِين فيها على الأرَائِكِ »

واحدها أريكة ، وهى السرير فى الحجال[1] .

« لا يرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زمْهريراً »

أى : لا يَتأذّون فيها بِحَرٍّ ولا بَرْدٍ .

« ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُلِّلَتْ
قُطوفُها تذْليلاً » .

يتمكنون من قطافها على الوجه الذى هم فيه من غير مشقة ؛ فإن كانوا قعوداً تُدَلّى لهم ، وإن كانوا قياماً — وهى على الأرض — ارتفعت إليهم .

« ويُطافُ عليهم بآنيةٍ من فِضَّة »

الاسم فضة ، والعين لا تشبه العين[2]

« وأكوابٍ كانت قواريرَاْ *
قواريرَاْ من فضَّةٍ قدَّروها تقديراً »

أى : فى صفاء القوارير وبياض الفضة .. قَدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم .

« ويُسْقَوْن فيها كأساً كان مِزَاجُها
زَنجبيلاً » .

المقصود منه الطِّيب ، فقد كانوا (أى العرب) يستطيبون الزنجبيل ، ويستلذون نكهته ،

---

(١) جمع حجلة وهى ستر يضرب على سرير العروس كالقبة .

(٢) من هذا يتضح أن القشيرى يرى أن الجنة وصفت بما يمكن أن يكون منتهى تصوراتهم الدنيوية لمجالات النعمة .. فالألفاظ هى الألفاظ ولكن الحقائق شىء آخر .

وبه يشبِّهون الفاكهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان[1] .

« عيناً فيها تُسَمَّى سلسبيلاً » .

أى : يُسْقَوْنَ من عينٍ — أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم ؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ — سبحانه — بلا واسطة .

قوله جل ذكره : « ويطوفُ عَليهم وِلْدانٌ مُخَلَّدونَ إذا رأيتَهُم حَسِبْتَهم لُؤلُؤاً مَّنثوراً » .

أى : يخدمهم ولدان مخلدون (وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصائف)[2] .

وجاء فى التفسير : لا يَهْرَمون ولا يموتون . وجاء مُقَرَّطون .

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منثوراً[3] .

وفى التفسير : مامن إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جل ذكره : « وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نعيماً ومُلْكا كبيراً » .

« ثَمَّ » : أى فى الجنة .

« مُلْكا كبيراً » : فى التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : « لهم ما يشاءون فيها »[4] ويقال : أى لا زوالَ له .

---

(١) من ذلك قول المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وكأن طعم الزنجبيل به ... إذ ذقته وسلافة الخمر

وقال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـ ... ـل باتا بفيها وأريا مشوراً

(والأرى = هو العسل) .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شىء من غموض .

(٣) قيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يمتهنَّ بالخدمة (القرطبى جـ١٩ ص ١٤٤) .

(٤) آية ٣٥ سورة ق .

« عالِيَهُمْ ثيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ
وإستبرقٌ وحُلُّوا أساوِرَ من فِضَّةٍ
وسَقَاهم ربُّهم شراباً طَهوراً » .

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار . ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى ، والاسم يوافق الاسم دون العين[1].

« شراباً طهوراً » : الشراب الطهورُ هو الطاهر فى نفسِهِ المُطَهِّرُ لغيره .

فالشراب يكون طهوراً فى الجنة — وإنْ لم يحصل به التطهيرُ لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير .

ولكنه — سبحانه — لَمَّا ذَكَرَ الشرابَ — وهو اليومَ فى الشاهد نجَسٌ — أخبر أنَّ ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ ، ومع ذلك مُطَهِّرٌ ؛ يُطَهِّرُهم عن محبة الأغيار ، فمن يَحْتَسِ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات .

ويقال : يُطَهِّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ ، ولا يُبْقِي لبعضهم مع بعض خصيمة (ولاعداوة)[2] ولا دَعْوَى ولا شىء .

ويقال : يُطهِّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين .

ويقال : إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبولَه منهم ، ويقولون :
لقد طال أَخْذُنا مِنْ هؤلاء ، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِي أفواهَهم بغير أَكُفٍّ ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ .

ويقال : اليومَ شرابٌ وغداً شراب .. اليوم شرابُ الإيناس[3] وغداً شرابُ الكاس ، اليوم شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفّ .

---

(١) أرأيت كيف يلح القشيرى على هذا المعنى ؟
(٢) غير موجودة فى م وموجودة فى ص .
(٣) هكذا فى ص وهى فى م (الأنفاس) ، والصواب ما أثبتنا كما يتضح فيما بعد (آنسه) .

ويقال : مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبّتِه آنَسَه وشَجّعَه ؛ فلا يستوحِش فى وقته من شىء ، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذْل . ومن مقتضى شُرْبه بكأسِ محبته أن يجود على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز ، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار .

ومن آثارِ شُرْبِه تذلُّلُه لكلِّ أحدٍ لأجل محبوبه ، فيكون لأصغرِ الخَدَم تُرَابَ القَدَم ، لا يتحرّكُ فيه للتكبُّر عِرْقٌ .

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً فى بعض الأحايين أَنْ يَتِيهَ على أهل الدارين .

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أَنْ يملِكَه سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار وإلقاء قناع الحياء[1] ويظهر ما هو به من المواجيد :

يخلع فيك العذارَ قومٌ فكيف مَنْ ما لَه عذارُ ؟

ومن موجِبات ذلك الشراب سقوط الحشمة ، فيتكلم بمقتضى البسط ، أو بموجب لفظ الشكوى ، وبما لا يَستخرجُ منه — فى حال صَحْوه — سفيهٌ بالمناقيش[2] . . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى : « ربِّ أرِنى أنظر إليك »[3]

فقالوا : سَكِرَ من سماع كلامه[4] ، فَنَطَقَ بذلك لسانُه . وأمَّا مَنْ يسقيهم شرابَ التوحيد فيَنْفى عنهم شهودَ كلِّ غَيْرٍ فَيهيمون فى أودية العِزِّ ، ويتيهون فى مفاوزِ الكبرياء ، وتتلاشى

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الحياة) ، والملائم لخلع العذار إلقاء قناع (الحياء) . والمقصود بهما تجاوز حد الصبر على المكتوم من الحب ، ونطق العبد وهو فى غلبات الشهود بشطحات ظاهرها مستشنع وإن كان باطنها فى غاية السلامة (انظر تعريف السراج للشطح فى اللمع) .

(٢) المناقيش جمع منقاش ، ويقال فى المثل : استخرجت منه حقى بالمناقيش أى تعبت كثيراً حتى استخرجت منه حقى (الوسيط) .

(٣) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٤) الضمير فى (كلامه) يعود على الرب ؛ سبحانه حينما قال : « إننى أنا الله » ، وفى موضع آخر يصف القشيرى موسى عليه السلام بأنه كان فى حال التلوين فظهر عليه ما ظهر ، بينما المصطفى (ص) ليلة المعراج كان فى حال التمكين فما زاغ بصره وما طغى .

جملتهم فى هواء الفردانية . . فلا عقلَ ولا تمييزَ ولا فَهْمَ ولا إدراك . . فكلُّ هذه المعانى ساقطة .

فالعبدُ يكون فى ابتداء الكَشْفِ مُستوْعَباً ثم يصير مستغرقًا ثم يصيرُ مُسْتَهْلَكا .. « وأن إلى ربك المنتهى »[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا كان لكُمْ جزاء وكان سَعْيُكُم مَّشكوراً » .

يقال لهم : هذا جزاء لكم ، « مشكوراً » : وشُكْرُه لسعيهم تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل — هذا على طريقة العلماء ، وعند قومٍ شُكْرُهم جزاؤهم على شكرهم .

ويقال : شُكْرُه لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحنُ نَزَّلْنا عليكَ القرآن تنزيلاً »

فى مُدَّةٍ[2] سنين .

« فاصبِرْ لحُكم ربِّك ولا تُطِعْ منهم آثما أوْ كفُورًا » .

أى : ارْضَ بقضائه ، واستسلمْ لِحُكْمِه .

« ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً » : أى : ولا كفوراً ، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربِّه بطاعته .

« واذْكُرِ اسمَ ربِّكَ بُكْرَةً وأصيلًا * ومِنَ اللّيلِ فاسجُدْ له وسَبِّحْهُ ليلاً طويلاً » .

الفَرْضُ فى الأول ، ثم النَّفْل[3]

« إنَّ هؤلاء .. »

---

(١) آية ٤٢ سورة النجم .

(٢) هكذا فى النسختين ولا نستبعد أنها فى الأصل (عدة) وكلاهما صحيح فى السياق .

(٣) فالصلاة جاءت فى الأول (بكرة وأصيلاً) صلاة الصبح ثم الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب والعشاء ثم من بعد ذلك النفل وهو (وسبحه ليلا طويلا) : لأنه تطوع ، قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل : هو خاص بالنبى (ص) وحده .

أى كفّار قريش .

« يُحبُّونَ العاجلةَ ويَذَرُون وراءهم يوماً ثقيلاً » .

أى : لا يعملون ليوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناهُم وشَدَدْنا أسْرَهم وإذا شِئْنا بَدَّلنا أمثالَهم تبْدِيلاً » .

أعدمناهم ، وخلقنا غيرَهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق[1].

« إنَّ هذه تذكِرةٌ ... »

أى : القرآن تذكرة .

« فَمَن شاء اتَّخذَ إلى ربِّه سبيلاً » .

بطاعته .

« وما تشاءون إلاَّ أن يَشَاء اللهُ إنَّ الله كان علياً حكيماً * يُدْخِلُ مَن يشاء فى رحمتِه والظالمين أعَدَّ لهم عذاباً أليماً » .

أى : عذاباً أليما موجِعاً يخلص وَجَعُهُ إلى قلوبهم .

---

(١) تأخرت هذه العبارة عن موضعها ، فأرجعناها إلى مكانها .

سُورَةُ المرسَلاَت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سمعها بسمع الوَجْدِ وَفَى له فلم ينظرْ إلى أحد ، ومَنْ سمعها بسمع العِلْمِ جَادَ له فلم يبخلْ بروحه على أحد .

ومن سمعها بسمع التوحيد جَرَّدَ سِرَّه عن إيثارِ[1] ما سواه فى الدنيا والعُقبى عيناً وأثَراً فما كان هذا كله إلا حاصلاً به كائناً منه .

قوله جل ذكره : « والمُرْسَلاَتِ عُرْفاً » .

« المرسلات » : الملائكة ، « عرفاً » أى : أرسلوا بالمعروف من الأمر ، أو كثيرين كعُرْفِ الفَرس .

« فَالعاصِفاتِ عصْفاً » .

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

« والنَّاشِراتِ نَشْراً » .

الأمطار (لأنها تنشر النبات . فالنشر بمعنى الإحياء) . ويقال : السُّحُبُ تنشر الغيث . ويقال : الملائكة .

« فالفارِقاتِ فَرْقاً » .

الملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

« فالمُلقياتِ ذِكْراً * عُذْراً أو نُذْراً » .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (ثياب) وهى خطأ من الناسخ .

الملائكة : تُلقِى الوحىَ على الأنبياء عليهم السلام ؛ إعذاراً وإنذاراً ..

وجوابُ القَسَمِ :

« إنّما تُوعَدُونَ لواقِعٌ » .

فأقسم بهذه الاشياء : إنَّ القيامة لحقٌّ .

قوله جل ذكره : « فإذا النُّجومُ طُمِسَتْ » .

إنما تكون هذه القيامة . « وطمست » : ذهب ضوؤها .

« وإذا الجِبالُ نُسِفَتْ » .

ذَهَبَ بها كلِّها بسرعة ، حتى لا يَبْقَى لها أثَرٌ .

« وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يومٍ أُجِّلَتْ * ليومِ الفَصْلِ » .

أى : جَعَلَ لها وقتاً وأجَلاً لفَصْلِ القضاء يومَ القيامة .

ويقال : أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة .

« وما أدْراكَ ما يومُ الفَصْل »

على جهة التعظيمِ له .

« ويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبين » .

مضى تفسيرُ معنى الويل .

ويقال فى الإشارات : فإذا نجومُ المعارف طمست بوقوع الغيبة .

وإذا الجبالُ نُسفِت : القلوبُ الساكنة بيقين الشهود حُرِّكَتْ عقوبةً على ما هَمَّتْ بالذى لايجوز . فويلٌ يومئذٍ لأرباب الدعاوَى الباطلةِ الحاصلةِ من ذوى القلوب المُطبقة الخالية من المعانى .

قوله جل ذكره : « ألم نُهْلِكِ الأوَّلينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهم الآخِرين » .

الذين كذَّبوا رُسُلَهم ، وجحدوا آياتنا ؛ فمثلما أهلكنا الأولين كذلك نفعل بالمجرمين إذا فعلوا مثلَ فِعْلِهم .

« ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » الذين لا يستوى ظاهرُهم وباطنهم فى التصديق .

وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلَّة والفَترة فى الطريقة ، والخيانة فى أحكام المحبة فعُذِّبوا بالحرمان فى عاجلهم ، ولم يذوقوا من المعانى شيئاً .

قوله جل ذكره : « ألم نَخْلُقكم من ماء مَّهين ؟ » .

أى : حقير . وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذَكَّرَهم أصلَ خلقتهم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدُّ دعوى من بنى آدم . فمن الواجبِ أنْ يتفَكَّرَ الإنسانُ فى أصلِه . . . كان نطفةً وفى انتهائه يكون جيفة ، وفى وسائط حالِه كنيفٌ فى قميص ! ! فبالحرىِّ ألاَّ يُدِلَّ ولا يفتخر :

كيف يزهو مَنْ رجيعُه أبَدَ الدهرِ ضجيعُه
فهو منه وإليـــه وأخـــوه ورضيعُه
وهو يدعوه إلى الحُـــشِّ[1] بصفر فيطيعه ؟ ! !

ويقال : يُذكِّرهم أصلَهم .. كيف كان كذلك .. ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة ، قال تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » ، والذى يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرقِّيَكَ من الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة .

قوله جل ذكره : « ألم نجعلِ الأرضَ كِفَاتًا * أحياء وأمواتًا » .

« كفاتًا » أى : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتا ؛ فهم يعيشون على ظهرها ، ويُودَعون بعد الموت فى بطنها ..

« وجَعلْنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكُم ماء فُراتًا » .

---

(١) الحش بفتح الحاء وضمها = الكنيف .

والمقصود : كيف ترهو أيها الإنسان ، وإن ما يعذفه جسمك من فضلات ملازم لك حياتك . ليلك ونهارك ، وأنت تطيعه صاغراً إذا أمرك ودعاك بالذهاب إلى الحش ؟

أى : جبالاً مرتفعات ، وجعلنا بها الماء سقياً لكم . يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِهِ بذلك عليهم . والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنَّه لم يخسف بكم الأرض — وإن علمتم ما علمتم .

« انطلقوا إلى ما كنتم به تُكَذِّبون » .

يقال لهم : انطلقوا إلى النار التى كذَّبتم بها .

« انطلِقوا إلى ظِلٍّ ذى ثلاثِ شُعَب * لاظليلٍ ولا يُغْنى من اللَّهب » .

كذلك إذا لم يعرف العبدُ قَدْرَ انفتاحِ طريقه إلى الله بقلْبه ، وتعزُّزِه بتوكله .. فإذا رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاء الغفلة نَزَعَ اللهُ عن قلبه الرحمةَ ، وانسدَّت عليه طُرُقُ رُشْدِه ، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا .

ويقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون. والاستقلالُ بالله جنةُ المأوى ، والرجوعُ إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم .. وفى معناه أنشدوا :

ولم أرَ قبلى مَنْ يُفارِقُ جنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم

ثم يقال لهم إذا أخذوا فى التنصُّل والاعتذار :

« هذا يومُ لا يَنطِقون * ولا يُؤْذَنُ لهم فيَعْتَذِرون » .

فإلى أنْ تنتهىَ مدَّةُ العقوبة فحينئذٍ : انْ استأنَفْتَ وقتاً استؤنِفَ لك وقتٌ . فأمَّا الآن.. فصبراً حتى تنقضِىَ أيامُ العقاب .

« هذا يومُ الفَصْلِ جمعناكم والأوَّلين » .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم فى الدنيا من الخذلان ، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى ظلالٍ وعيونٍ » .

اليومَ .. فى ظلال العناية والحماية ، وغداً ... هم فى ظلال الرحمة والكلاءة .

اليومَ . . فى ظلال التوحيد ، وغداً .. فى ظلال حُسْن المزيد .

اليومَ .. فى ظلال المعارف ، وغداً .. فى ظلال اللطائف .

اليومَ .. فى ظلال التعريف ، وغداً .. فى ظلال التشريف .

« كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

اليومَ تشربون على ذِكْره . . وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء .

« إنّا كذلك نجزى المحسنين » .

والإحسانُ من العبد تَرْكُ الكلِّ لأجْله ا كذلك غداً : يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجْلِك .

قوله جل ذكره : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مُجرمون » .

هذا خطابٌ للكفار ، وهذا تهديد ووعيد ، والويل يومئذٍ لكم .

قوله جل ذكره : « و إذا قيل لهم آركعوا لا يركعون » .

كانوا يُصُرِوُّن على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم[1] .

[ذكر فى التفسير : أن المتقين دائماً فى ظلال الأشجار ، وقصور الدرِّ مع الأبرار ، وعيون جارية وأنهار . ، وألوانٍ من الفاكهة والثمار . . من كل ما يريدون من الملِك الجبّار . ويقال لهم فى الجنة : كلوا من ثمار الجنات ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . « بما كنتم تعملون » من الطاعات . « كذلك نجزى المحسنين » من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا « هنيئاً » : لا تبعة عليكم من جهة الخصومات ، ولا أذيَّة فى المأكولات والمشروبات .

وقيل : الهنىء الذى لا تَبِعَةَ فيه على صاحبه ، ولا أَذِيَّةَ فيه من مكروهٍ لغيره .]

---

(١) إلى هنا انتهى تفسير السورة فى م النسخة ص . وكل ما بين القوسين الكبيرين موجود فى النسخة م . .

سُورَةُ النَّبَأ (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمُ مَلِكٍ تجمَّلَ عِبادُه بطاعته ، وتَزَيَّنَ خَدَمُه بعبادته ، وهو سبحانه لا يتجمَّلُ بطاعة المطيعين ، ولا يتزيَّنُ بخدمة العابدين ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم ، وزينة العارفينَ حُلَّةُ معرفتهم ، وزينة المحبِّين تاجُ ولايتهم .. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوهِهم بصَوْبِ (٢) عَبْرَتِهم .

قوله جل ذكره : «عَمَّ يتساءلون * عن النبأِ العظيم * الذى هم فيه مُخْتَلِفون ».

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث ، ولالتباسِ ذلك عليهم ، وكثرةِ مُساءلتهم عنه ، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى معناه .

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث ، وكم استدلَّ عليهم فى جوازِه بوجوهٍ من الأمثلة .. فهذا من ذلك ، يقول : « عمَّ يتساءلون ـ عن النبأ العظيم » : عن الخبر العظيم « الذى هم فيه مختلفون » قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم :

« ألَم نجعل الأرضَ مِهاداً ؟ »

ذَلَّلْناها لهم حتى سَكَنوها

« والجبالَ أوْتاداً ؟ ».

---

(١) هذا هو اسم السورة كما جاء فى ص أما فى م فعنوانها (سورة عم يتساءلون) .

(٢) هى فى م (بضرب) وهى فى ص (بصوت) وكلاهما غير مقبول فى السياق ، وقد رجحنا أن تكون فى الأصل (بصوب) على أساس أن القشيرى يستعمل الفعل (تنقطر) مع (العبرة) فى مواضع مماثلة ، كما أنها أقرب فى الرسم .

أوتاداً للأرضِ حتى تَميدَ بِهم .

« وخلقناكُم أزْوَاجاً »

ذَكَرًا وأنثى ، وحَسَناً وقبيحاً . . وغير ذلك

« وجَعَلْنا نومَكم سُباتاً »

أى راحةً لكم ، لتَنقَطِعوا عن حركاتِكم التى تعبتم بها فى نهاركم .

« وجَعَلْنا الليلَ لِباسًا »

تُغَطِّى ظُلْمتُه كلَّ شىء فتسكنوا فيه .

« وجعلنا النهارَ معاشاً »

أى وقتَ معاشِكم .

« وبَنَيْنَا فوقَكم سَبْعاً شِداداً »

أى سبع سموات .

« وجعلنا سِراجاً وهَّاجا »

أى الشمس ، جعلناها سراجاً وقَّاداً مشتعلا .

« وأنزلنا من المعصرات ماء ثَجَّاجا »

« المعصرات » الرياح التى تَعْصِرُ السحاب[1] .

« ماء ثجاجاً » مطراً صَبَّابا .

« لِنُخرِجَ به حَبًّا ونباتًا *
وجَنَّاتٍ ألفافاً »

« حباً » كالحنطة والشعير ، « وجنات ألفافاً » بساتين يَلْتَفُّ بعضُها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاَّ علمتم أنِّى قادرٌ على أنْ أُعيدَ الخَلْقَ وأُقيمَ القيامة ؟

---

(١) والمعصرات أيضاً السحائب تعتصر بالمطر ، وأعصر القوم أى : أمطروا ، ومنه « وفيه يعصرون » والمعصر الجارية أول ما أدركت الحيض . فالمعصر السحابة التى حان لها أن تمطر (الصحاح) .

فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه ، وتمكينهم من منافعهم .. قال :

« إنَّ يومَ الفصلِ كان ميقاتاً »

مضى معناه

« يومَ يُنفَخُ فى الصُّورِ فتأتون أفواجاً » .

أى فى ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ .

« وفتحت السماء فكانت أبواباً »

أى : تَشَقَّقَتْ وانفطرت .

« وسُيِّرَتِ الجبالُ فكانت سَراباً »

أى كالسراب .

« إنَّ جَهَنَّمَ كانت مِرْصاداً » .

أى ممراً . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

« للطَّاغِين مآباً »

أى مرجعاً .

« لابثين فيها أحقاباً »

أى دهوراً ، والمعنى مُؤَبَّدين

« لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شرابا *
إلَّا حميًا وغَسَّاقا »

مضى معناه . ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب .

« جزاءً وفاقا »

أى : جُوزُوا على وفق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى به الحُكم .

« إنّهم كانوا لا يرجُون حِساباً »

لا يؤمنون فيرجون الثواب ويخافون العقاب .

« و كَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً »[1] .

أى : تكذيباً .

« و كُلَّ شىء أحصيناه كتاباً »

أى : كتبناه كتاباً ، وعلمناه عِلْما .

والمسبِّحُ الزاهدُ يحصى تسبيحَه ، والمهجورُ البائسُ يحصى أيامَ هجرانه ، والذى هو صاحب وصالٍ لا يتفرَّغ من وَصْلِه إلى تذكُّرِ أيامه فى العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكة يُحصون زلاَّت العاصين ، ويكتبونها فى صحائفهم . والحق سبحانه يقول : « وكل شى أحصيناه كتاباً » فكما أحصى زَلاَّتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أَحْصَى أيامَ هجرانِ المهجورين وأَيامَ مِحَنِ المتحَنين ، وإنَّ لهم فى ذلك لَسَلْوَةً ونَفَساً :

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما فى الصبر فَضْلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ ! وأَرْبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْر !

قوله جل ذكره : « فَذوقوا فَلَن نزيدَكم إلاَّ عذاباً »

يأيها المُنَعَّمون فى الجنة . . إفرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون .. احترقوا فى النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً[2]

ويأيها المطيعون . . افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل .

يأيها المساكين . . إبكوا واجزعوا فلن نزيدَكم إلَّا عَزْلاً على عَزْل .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين مفَازاً * حدائِقَ وأعناباً * وكواعِبَ أترابًا * وكأساً دِهَاقاً *

---

(١) فى «كذابا» يقول الفراء: هى لغة يمانية فصيحة ؛ يقولون : كذبت به كذاباً وخرقت القميص خِرَّاقاً. فكل فعل فى وزن (فعَّل) مصدره فِعال مشددة فى لغتهم .

(٢) قال أبوبرزة : سألت النبى (ص) عن أشد آية فى القرآن فقال : قوله تعالى: «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » أى : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » و« كلما خبت زدناهم سعيراً» .

لَا يسمعون فيها لَغْواً ولا كِذَّابا *
جزاءً من ربِّك عطاء حِساباً »

مُسَلَّمٌ للمتقين ما وعدناهم به .. فهنيئا لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْية والظَفَرِ بالسُّؤْلِ والمُنْيَة : من حدائق وأعنابٍ ، ومن كواعبَ أترابٍ وغير ذلك .

فيأيها المُهَيَّمون المتيَّمون هنيئًا لكم ما أنتم فيه اليومَ فى سبيل مولاكم من تجرُّدٍ وفقر ، وما كلَّفكم به من توكل وصبر ، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر .

أحرى الملابسِ ما تَلْقَى الحبيبَ به يومَ التزاورِ[1] فى الثوب الذى خَلَعا

قوله : « لا يسمعون فيها ... » آذانُهم مصونةٌ عن سماع الأغيار ، وأبصارهم محفوظةٌ عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جل ذكره : « ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما
الرحمٰنِ لا يملِكون منه خطاباً »

وكيف تكون للمُكَوَّن المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةٌ أنْ يملك منه خطاباً ؟ أو يتنفَّسَ بدونه نَفَسًا ؟ كلاّ .. بل هو اللهُ الواحدُ الجبَّار .

قوله جل ذكره : « يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا
لا يتكلَّمون إلاّ مَنْ أذِنَ له الرحمٰنُ
وقال صَوَابًا »

إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع فى ذلك اليوم ، وأمَّا الخواص وأصحابُ الحضور فَهُم أبداً بمشهدِ العزِّ بنعت الهيبة ، لا نَفَسَ[2] لهم ولا راحة ؛ أحاط بهم سرادُقها واستولت عليهم حقائقها .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (التزاول) وهى خطأ من الناسخ ، والمقصود من النص الشعرى : أن الله يحب أن يرى على الفقراء ثياب التجرد لأنها الثياب التى خلعها عليهم بنفسه حينما آثروا حقه على حظوظهم .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (لانفر لهم ولا فرحة) وربما كانت (فرجة) بالجيم .

قوله جل ذكره : « ذلك اليومُ الحقُّ فمَن شاء اتَّخَذَ إلى ربِّه مآباً » .

م بمشهد الحقِّ ، والحكمُ عليهم الحقُّ ، حكم عليهم بالحق ، وهم مجذوبون بالحقِّ للحقِّ .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنذرناكُم عذاباً قريباً » .

وهو عند أهلِ الغفلة بعيدٌ ، ولكنَّه فى التحقيق قريبٌ .

« يومَ ينظرُ المرء ما قدَّمَتْ يداهُ
ويقـــولُ الكافرُ [1] : يا ليتنى
كُنتُ تُراباً » .

مضوا فى ذُلِّ الاختيار والتمنِّى [2] ، وبُعِثوا فى حسرة التمنِّى ، ولو أنهم رضوا بالتقدير لتخلَّصوا [3] عن التمنِّى .

---

(١) قيل : يراد بالكافر هنا أبى بن خلف أو عقبة بن أبى معيط . ويرى أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيرى – صاحب هذا الكتاب : هو إبليس ، يقول : ياليتنى خلقت كآدم من تراب ولم أقل أنا خير منه لأنى من نار . (القرطبى –١٩ ص ١٨٩) .

(٢) وردت فى النسختين (التمنى) وهى مقبولة ، ولكننا نرجح أنها ربما كانت فى الأصل (التمنى) لأن الاختيار كان فى الدنيا ، واختيار المرء – حسب نظرية القشيرى – مجلبة لعنائه وشقائه .. هذا فضلا عن أن إثبات (التمنى) يزيد المعنى – نظراً لتلون الفاصلة – قوة وجمالا .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (لتحصلوا) وواضح فيها خطأ الناسخ .

سُورَةُ النَّازِعَات [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ لربٍّ عزيز ، سماعُه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز ، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز ، وفهمُه يحتاج إلى قلبٍ عزيز .

وأنَّى لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبة مُبْتَذَل ، ووقتٍ مُعَطَّلٍ فى الخسائسِ مُسْتَغْرق ، وقلبٍ فى الاشتغال بالأغيار مستعمل . . أنَّى له أنْ يَصْلُح لسماع هذا الإسم ؟ ! .

قوله جل ذكره : « والنَّازعاتِ غَرْقًا » .

أى الملائكة ؛ تنزِعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

« غرقًا » : أى إغراقًا كالمُغرِق فى قَوْسِه[2] .

ويقال : هى النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

« والنَّاشِطاتِ نَشْطًا » .

هى أنفس المؤمنين تَنْشَط للخروج عند الموت .

ويقال : هى الملائكة تنشِطُ أرواحَ الكفّار ، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هى الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ .

ويقال : هى الأوهاق[3] .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (سورة والنازعات) بإثبات الواو .

(٢) إغراق النازع فى القوس أن يبلغ مداها ويستوفى شدها .

(٣) هكذا فى م وهى فى (ص الارهاق) بالراء وهى خطأ فى النسخ ، والأوهاق جمع وهق بحركتين وقد يسكن : الحبل تشد به الإبل والخيل حتى تؤخذ وفى طرفه أنشوطة . وأوهق الدابة أى طرح فى عنقها الوهق . وعن عكرمة وعطاء : الأوهاق تنشط السهام .

ويقال : هى النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى المشارق .

« والسَّابِحات سَبْحاً »

الملائكة تسبح فى نزولها .

ويقال : هى النجوم تسبح فى أفلاكها .

ويقال : هى السفن فى البحار .

ويقال : هى أرواح للمؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

« فالسَّابقاتِ سَبْقاً » .

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحى ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هى النجوم يسبق بعضها بعضاً فى الأفول .

« فالمُدَبِّراتِ أمْراً » .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحى ، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات ، وإسرافيل بالصُّور ، ومَلَكُ الموت يَقْبِضِ الأرواح . . عليهم السلام .

وجوابُ القَسم قوله : « إن فى ذلك لَعِبرةً لمن يخشى »(١)

قوله جل ذكره : « يومَ ترجُفُ الرَّاجِفةُ » .

تتحرك الأرض حركةً شديدة .

« تتبعُها الرَّادِفةُ » .

النفخة الأولى فى الصُّور . وقيل : الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية .

---

(١) هذه هى الآية رقم ٢٦ بالسورة وهو اختيار الترمذى أيضاً .. وهى كما ترى متأخرة جداً . ويرى بعض المفسرين أن جواب القسم مضمر لأنه لا يخفى على السامع ، ويرى آخرون – كالفراء – أنه البعث بدليل « أئذا كنا عظاما نخرة » .

ويرى القرطبى : أنه قسم جوابه : إن القيامة حق .

« قلوبٌ يومئذٍ واجِفةٌ » .

خائفـــــة .

« يقـــــولون أئِنَّا لمردودون فى الحافِرة[1] » .

أى إلى أول أمرِ نا وحالنا ، يعنى أئِذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشى على الأرض بأقدامنا) ؟ . قالوه على جهة الاستبعاد .

« أئِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرةً » .

أى بالية .

« تلك إذاً كَرَّةٌ خاسِرةٌ » .

رَجْعَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جل ذكره : « فإنَّما هى زَجْرَةٌ واحدةٌ * فإذا هم بالساهِرة[2] » .

جاء فى التفسير إنها أرض المحشر ، ويقال : إنها أرضٌ بيضاء لم يُعْصَ الله فيها[3] .

ويقال : الساهرة نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جل ذكره : « هـل أتاكَ حـديثُ مُوسى * إذ ناداهُ ربُّهُ بالوادِ المُقَـــدَّسِ طُوًى » .

أى الأرض المطهرة المباركة . « طوًى » اسم الوادى هناك .

« اذْهَبْ إلى فرعونَ إنه طَغَىٰ * فَقُلْ هل لكَ إلى أَنْ تَزَكَّىٰ » .

---

(١) سميت الأرض الحافرة لأنها مستقر الحوافر .

(٢) سميّت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره (الفراء) ، وقال أبو كبير الهذلى :

يرتدن ساهرة كأن جميعها ... وعميمها أسداف ليل مظلم

(٣) هذا رأى ابن عباس .

قلنا له : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل له : هل يقع لك أَنْ تؤمِنَ وتتطهر من ذنوبك .

وفى التفسير : لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش أربعمائة سنةٍ فى السرور والنعمة .. ثم لك الجنة فى الآخرة .

« وأَهْدِيَكَ إلى ربِّك فتخشى » .

أُقَرِّرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول ، وأعرفك صحة الدين . . فهل لك ذلك ؟ فلم يَقْبَلْ .

ويقال : أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه فى خَفِيِّ سِرِّه وواجبِ مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبَه عن إرادة هذه الأشياء ، وإيثار مرادِه على مراد ربِّه ، وألقى فى قلبه الامتناعَ ، وتَرْكَ قبولِ النُّصْح .. وأىُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ ؟ وأىَّ كَبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر ؟

قوله جل ذكره : « فأراهُ الآية الكُبرى » .

جاء فى التفسير : هى إخراجُ يده بيضاء لها شعاعٌ كشعاع الشمس . فقال فرعون : حتى أشاوِرَ هامانَ[1] ، فشاوَرَه ، فقال له هامان : أبعد ما كُنْتَ ربًّا تكون مربوبًا ؟ ! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً ؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك ، وعَصَى ، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ ، ونادى :

« فقال أنا ربُّكُمُ الأعلى » .

ويقال : إنَّ إبليس لمَّا سَمِع هذا الخطابَ فرَّ وقال : لا أطيق هذا !

ويقال قال : أنا ادَّعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت . . وهذا يقول : أنا ربُّكم الأعلى .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى ذلك لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى » .

---

(١) يقصد القشيرى من بعيد إلى شيئين : أولها أن فساد الملوك قد يكون بسبب وزرائهم وحاشيتهم .. ولعلنا نذكر ما قلناه فى المدخل عن أن أشد المحنة التى ألمت بالقشيرى كانت بسبب الكندرى وزير السلطان طغرل .

وثانيهما أن الصحبة السيئة قد تؤدى إلى هلاك الصاحب والمصحوب ، وفى هذا تحذير لأرباب الطريق (راجع باب الصحبة فى الرسالة ص ١٤٥) .

أى فى إهلاكنا فرعون لَعِبْرَة لمن يخشى .

قوله جل ذكره : « ءأنتم أشَدُّ خَلْقًا أمِ السماء بناها * رَفَعَ سمْكَها فسوّاها * وأغْطَشَ ليلها وأخرجَ ضُحاها » .

« فسوّاها » جعلها مستوية . « وأغطش ليلها » أظلم ليلها . « ضحاها » ضوؤها ونهارها .

« دحاها » بَسَطها وَمدَّها .

« أخرجَ منها ماءها ومَرْعاها » .

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات ..

« والجبالَ أرساها » .

أثْبَتَها أوتاداً للأرض .

« متاعًا لّكم ولأنْعَامِكم » .

أى أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع ، وكذلك لأنعامِكم .

« فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكبرىٰ » .

الداهية العُظمى .. وهى القيامة .

« يومَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ماسعىٰ » .

وبرزت الجحيم لمن يرىٰ ، فأمَّا من طغىٰ وكَفَرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى والمُسْتَقَرُّ والمثوى .

« وأمَّا مَنْ خاف مقامَ ربِّه ونَهَى النَّفْسَ عن الهوىٰ * فإنَّ الجنةَ هى المأوىٰ » .

« مقام ربه » : وقوفه غداً فى محل الحساب . ويقال : إقبالُ الله عليه وأنَّه راءٍ له .. وهذا عينُ المراقبة ، والآخَر محلُّ المحاسبة .

« ونهى النفس عن الهوى » أى لم يتابع هواه .

قوله جل ذكره : « يسألونَكَ عن الساعةِ أيَّانَ مُرْساها ؟ » .

أى متى تقوم ؟

« فِيمَ أنت مِن ذكراها » .

مِنْ أين لك عِلْمُها ولم نعلمك ذلك [1] .

« إلى رَبِّك مُنتَهاها » .

أى إنما يعلم ذلك ربُّكَ .

« إنما أنت مُنذِرُ مَن يخشاها » .

أى تخوِّف ، فيقبل تخويفَكَ مَنْ يخشاها ويؤمن .

« كأنهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلْبثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحاها » .

كأنهم يومَ يَرَوْن القيامة لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ؛ فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ ما لبثوا تحت الأرض .

---

(١) روى الإمام البخارى فى نهاية حديثه عن هذه السورة قال : حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا الفضيل بن سليمان حدثنا أبوحازم حدثنا سهل بن سعد رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تل الإبهام بعثت والساعة كهاتين . » (البخارى حـ٣ ص١٤٢) .

سورة عبس [1]

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . . اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده ، اسم عزيز انسدَّ على الأولين والآخرين طريقُ وُجُودِه . . وأنَّى بذلك ولا حَدَّ له ؟ مَن الذى يدركه بالزمان والزمانُ خَلْقُهُ ؟ ومن الذى يحسبه فى المكانِ والمكانُ فِعْلُه ؟ ومَن الذى يعرفه — إلَّا وبه يعرفه ؟ ومَن الذى يَذْكُره [2] — إلا وبه يذكره ؟

قوله جل ذكره : « عَبَسَ وتَوَلَّىٰ * أن جاءهُ الأعمىٰ » .

نَزَلَت فى ابن أمِّ مكتوم ، وكان ضريراً .. أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس ابن عبد المطلب وأمية بن خلف الجُمَحىّ [3] — يرجو الرسولُ صلى الله عليه وسلم إيمانَهما ، فَكَرِه أنْ يَقْطَعَ حديثَه معهما ، فأعرض عن ابن أمِّ مكتوم ، وعَبَسَ وَجْهُهُ ، فأنزل اللهُ هذه الآية .

وجاء فى التفسير : أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم خرج على أثرِه ، وأَمَرَ بطلبِه ، وكان بعد ذلك يَبَرُّه ويُكْرِمُه ، فاستخلفه على المدينة مرتين .

وجاء فى التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْبَسْ — بعد هذا — فى وجهِ فقيرٍ قط ، ولم يُعْرِضْ عنه .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (سورة الأعمى)

(٢) هكذا فى ص . هى فى نظرنا أصوب من (يدركه) التى فى م لأن السياق بعدها سيكون : (إلا وبه يدركه) والله سبحانه منزه عن الدرك واللحوق كما نعرف من مذهب القشيرى . أما الذكر فهذا مقبول على حد تعبير ذى النون المصرى : (لا أعرفك إلا بك ولا أذكرك إلا بك) .

(٣) يقول ابن العربى : غير صحيح أن أمية هذا كان فى هذا المجلس ، فقد كان بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة وكان موته كافرا ، ولم يقصد المدينة ، ولا اجتمع بالنبى .

ويقال : فى الخطاب لُطْفٌ . . وهو أنه لم يواجهه بل قالَه على الكناية[1] ، ثم بعده قال :

« وما يُدْرِيكَ لعلَّه يَزَّكَّىٰ » .

أى يتذكر بما يتعلم منك أو .

« أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ » .

قوله جل ذكره : « أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فأنت له تَصَدَّىٰ * وما عليكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ » .

أمّا مَن استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله .

ويقال : استغنى بماله فأنت له تصدَّى ، أى تُقْبِلُ عليه بوجهك .

« وما عليك . . . » فأنت لا تُؤَاخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ .

« وَأَمَّا مَن جاءك يسعىٰ » .

لطَلَبِ العِلْمِ ، ويخشى الله فأنت عنه تَتَلَهَّى ، وتتشاغل . . وهذا كله مِنْ قبيلِ العتاب معه لأَجْلِ الفقراء .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شاءَ ذَكَرَه » .

القرآن تذكرة ؛ فَمَنْ شاء الله أن يَذْكُرَه ذَكَرَه ، ومَنْ شاء الله ألا يَذْكُرَه لم يُذَكِّرْه ؛ أى بذلك جرى القضاء ، فلا يكون إلا ما شاء اللهُ .

ويقال : الكلامُ على جهة التهديد ؛ ومعناه : فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره ، ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره ! كقوله « فمن شاء فليؤمِن ومن شاء فليكفر »[2] .

وقال سبحانه : « ذَكَرَه » ولم يقل « ذَكَرَها » لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره : « فى صُحُفٍ مُّكَرَّمَة » .

---

(١) أى تحدث عن عبوس الوجه بضمير الغائب ، ثم جاء العتاب بضمير الخطاب .

(٢) آية ٢٩ سورة الكهف .

أى صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك ، وفى اللوح المحفوظ .

« مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » .

مرفوعة فى القَدْر والرتبة ، مطهرة من التناقض والكذب .

« بأيدى سَفَرَةٍ » .

أى : الملائكة الكَتَبة .

« كِرَامٍ بَرَرَةٍ » .

كرامٍ عند الله بَرَرَة .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَه ! » .

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْره ! .

« مِن أىِّ شىء خَلَقَهُ * من نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ » .

خَلَقَه وصَوَّره وقَدَّره أطواراً : من نطفةٍ ، ثم عَلَقَةٍ ، ثم طوراً بعد طور .

قوله جل ذكره : « ثم السبيلَ يَسَّرَهُ » .

يَسَّرَ عليه السبيلَ فى الخير والشرِّ ، وألهمه كيف التصرُّف .

ويقال : يَسَّرَ عليه الخروجَ من بطن أُمِّه يخرج أولاً رأسه منكوساً .

« ثم أماتَه فأَقْبَرَهُ » .

أى : جعل له قَبْراً لئلا تفترِسَه السِّباعُ والطيورُ ولئلا يفتضح .

« ثم إذا شَاء أنشَرَهُ » .

بَعَثَه من قبره .

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ »

أى : عصى وخالَفَ ما أُمِرَ به .

ويقال : لم يقضِ الله له ما أمره به ، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه[1].

قوله جل ذكره : « فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامِه * أنَّا صَبَبْنا الماء صَبًّا * ثم شَقَقْنا الأرضَ شَقًّا * فأنبتْنَا فيها حَبًّا * وعِنَبًا وقضْبًا * وزيتُونًا ونَخْلاً * وحَدَائِقَ غُلْبًا » .

فى الإشارة : صَبَبْنا ماء الرحمةِ على القلوب القاسية فَلانَتْ للتوبة ، وصببنا ماء التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد .

« وقضْبًا » أى القَتّ[2] .

« وحدائق غُلبًا » متكاثفةً غلاظاً .

« وفا كِهةً وأبًّا » .

الفا كهة : جميع الفوا كه ، و « أبًّا » : المرعى .

« متاعاً لَّكُم ولأنعامِكُم . . . » .

«فإذا جاءتِ الصاخَّة » أى : القيامة ؛ فيومئذٍ يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم بيَّن ما سبب ذلك فقال :

« لكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه » .

لا يتفرَّغ إلى ذاك ، ولا ذاك إلى هذه . كذلك قالوا : الاستقامةُ أنْ تشهدَ الوقتَ

---

(١) أى : كلاّ لم يقض الله لهذا الكافر ماأمره به من الإيمان ، بل أمره بمالم يقضِ له ــ وهذا الرأى للإمام ابن فورك شيخ القشيرى .

(٢) سمى القتّ قضباً لأنه يقضب ، أى يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة (الحسن) ويرى ابن عباس أنه الرطب لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

قيامةً ، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلّا وهو — اليومَ — بقلبه يَفِرُّ من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

فالعارفُ مع الخَلْق ولكنه يُفَارقهم بقلبه — قالوا :

فلقد جعلتك فى الفـــــؤادِ مُحَدِّثى
وأبَحْتُ جسمى مَنْ أراد جـــلوسى[1]

قوله جل ذكره : « وُجوهٌ يومَئذٍ مُسْفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ » .

وسببُ استبشارهم مختلفٌ ؛ فمنهم مَن استبشاره لوصوله إلى جنّته ، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته . ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربِّه فرآه .

« وَوُجوهٌ يومَئذٍ عليهـا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُها قَتَرَةٌ * أولئك هم الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ » .

وهى غَبَرَةُ الفُسّاق . « ترهقها قترة » . وهى ذُلُّ الحجاب .

---

(١) أحد بيتين ينسبان إلى رابعة العدوية ، و الثانى :

فالجسم منى للجليس مؤانِسٌ وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

(نشأة التصوف الإسلامى ص ١٩١ ط المعارف تأليف بسيونى) .

سُورَةُ التَّكْوِير

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ أثلجَتْ من قومٍ قلوبًا ، وأوهجت من آخرين قلوبًا ؛ من المطيعين أثلجَتْها ، ومن العاصين أوْهَجَتْها ، ومن المريدين أبهجتها ، ومن العارفين أزعجتها .

قوله جل ذكره . « إذا الشمسُ كُوِّرَتْ » .

ذَهَبَ ضَوْؤُها .

« وإذا النُّجومُ انْكَدَرَتْ » .

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض .

قوله جل ذكره . « وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ »[1] .

أُزِيلَتْ عنها مناكبُها .

« وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ » .

وهى النُّوق الحواملُ التى أتى حَمْلُها عَشْرَةَ أشهر . . أهملت فى ذلك اليوم لشدة أهواله ، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها) .

« وإذا الوحُوشُ حُشِرَتْ » .

أُحْيِيَتْ ، وجُمِعَتْ فى القيامة لِيُقْتَصَّ لبعضها من بعض ؛ فيقتصّ للجّماء من القَرْناء[2] — وهذا على جهة ضَرْبِ المثل ؛ إذ لا تكليف عليها .

---

(١) تأخرت هذه الآية بعد آية (العشار) فى م فوضعناها فى مكانها الصحيح .

(٢) هذا رأى ابن عباس كما رواه عنه عكرمة ، والجماء : ماليس لها قَرْنٌ ، وفى أمثالهم « عند النطاح يُغْلَبُ الكبش الأَجَمّ » .

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم — اليومَ — على العِوَضِ . . جوازاً لا وجوباً على ماقالَه أهلُ البِدَع .

« وإذا البحارُ سُجِّرَتْ » .

أوقدت — مِنْ سَجَرْتُ التنور أَسْجُرُه سَجْراً ، أى : أحْمَيْتُه .

« وإذا النُّفوسُ زُوِّجَتْ »[1] .

بالأزواج .

« وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بأىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » .

نُشِرَتْ ، أى : بُسِطَت .

« وإذا السماءُ كُشِطَتْ » .

أى : نُزِعَتْ وطُوِيَتْ .

« وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ » .

أوقِدَت .

« وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » .

أى : قُرِّبَتْ من المتقين .

قوله جل ذكره : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ »

هو جوابٌ لهذه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفى قيام قيامة هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتجلِّى هذه المعانى لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

---

(١) قرنت بأشكالها فى الجنة والنار ، قال تعالى : «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله » .

فمن اختلاف أحوالهم : أنّ لشموسهم فى بعض الأحيان كسوفًا وذلك عندما يُرَدُّون[1] . ونجومُ علومِهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريدين فى بعض الأحوال ، فعند ذلك « علمت نفس ما أحضرت » .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بالْخُنَّسِ * الجَوارِ الكُنَّسِ » .

أى : أُقْسِمُ ، والخُنَّس والكُنَّس هى النجوم إذا غربت[2] .

ويقال : البقر الوحشى[3] .

قوله جل ذكره : « واللَّيلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ » .

عسعس : أى جاء وأقبل . « تنفّس » : خرج من جوف الليلِ .

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

« إنَّه لقولُ رسُولٍ كريمٍ » .

إن هذا القرآنَ لقولُ رسولٍ كريمٍ ، يعنى به جبريل عليه السلام .

« ذى قُوَّةٍ عند ذى العَرْشِ مَكينٍ » .

« مكين » من المكانة ، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آلِ لوطٍ وقلَبَها .

« وما صاحِبُكم بمجنونٍ »

وهذا أيضاً من جواب القَسَم .

« ولقد رآه بالأُفُقِ المبينِ »

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج .

---

(١) وعندما يُرَدُّون، فى أحوال القبض بعد البسط والهجر بعد الوصل ، والخوف بعد الرجاء والفرق بعد الجمع .. ونحو ذلك .

(٢) قيل هى الكواكب الخمسة الدراري : زحل ، والمشترى ، وعطارد ، والمريخ ، والزُّهرة (فى رواية عن على ابن أبى طالب) .

(٣) فسرت هكذا فى رواية عن عبد الله بن مسعود ، وأخرى عن ابن عباس .

ويقال : رأى ربَّه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين .

« وما هُو على الغيبِ بِضَنين » .

بمُتَّهَم (١)

قوله جل ذكره : « فأين تَذْهبُون ؟ » .

إلى متى تتطوحون فى أودية الظنون والحسبان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاَّ رجعتم إلى مولاكم فيما سَرَّكم أو أساءكم ؟

« إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ للعالَمين * لِمَن شاء منكم أن يستقيم » .

ما هذا القرآن إلَّا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم . . . وقد مضى القولُ فى الاستقامة .

« وما تشاءون إلَّا أن يشاء اللهُ ربُّ العالَمينَ » .

أنْ يشاءوا(٢) .

---

(١) لا تكون بهذا المعنى إلا إذا قرئت (بظنين) بالظاء ، وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو والكسائى . والآخرين بالضاد فيكون المعنى (ببخيل) أى لا يبخل عليكم بما يعلم من أخبار السماء .

(٢) كنا ننتظر من القشيرى الذى يعادى بأن كل شىء من الله وإلى الله حتى أكساب العباد أن يفيض فى توضيح هذه الآية أكثر من ذلك ؛ لأنها ناصعة صريحة فى نسبة المشيئة – كل المشيئة – لله ، وأن الإنسان إذا وصف بالمشيئة فهى مرتبطة بالمشيئة الإلهية .

سُورَةُ الانْفِطَار

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ منيعةٌ ليس يسمو إلى فَهْمها كلُّ خاطر ؛ فإذا كان الخاطِرُ غيرَ عاطرٍ فهو عن عِلْمِ حقيقتها مُتَقاصِر .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انفطَرَتْ »

أى : انشقت .

« وإذا الكواكِبُ انتثرتْ » .

تساقطت وتهافتت .

« وإذا البحارُ فُجِّرَتْ » .

أى : فُتِحَ بعضها على بعض .

« وإذا القُبورُ بُعثِرَتْ »

أى : قُلِبَ ترابُها ، وبُعِثَ الموتى الذين فيها ، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .

«عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ» .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كلُّ نَفْس ما قدَّمت من خيرها وشَرِّها .

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ » .

أى : ما خَدعَكَ وما سوَّلَ لكَ حتى عَمِلْتَ[1] بمعاصيه ؟

ويقال : سألَه وكأنما فى نَفْسِ السؤال لقَّنَه الجوابَ يقول : غرَّنى كَرَمُكَ بى ، ولولا كَرَمُكَ لَمَا فَعَلْتُ ؛ لأنَّك رأيت فَسَتَرْتَ ، وقدَرْتَ فأمْهَلْتَ .

ويقال : إن المؤمنَ [2] وثِقَ بِحُسْن إفضالِه فاغترَّ بطولِ إمهالِه فلم يرتكب الزلَّة لاستحلاله ، ولكنَّ طولَ حِلمه عنه حَمَلَه على سوء خصالِه ، وكما قلت[3] :

يقول مولاى : أمَا تستحى ... مما أرى من سوء أفعالِكَ
قلت : يا مولاى رفقًا فقد ... جرَّأنى[4] كثرةُ أفضالِك

قوله جل ذكره : « الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فعَدَلَكَ * فى أىِّ صُورةٍ مَّا شاء رَكَّبَكَ » .

أى : ركَّبَ أعضاءَكَ على الوجوه الحكميَّة[5] فى أى صورة ماشاء ، من الحُسْنِ والقُبْح ، والطولِ والقِصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصِّفَة ، و « فى » بمعنى «على» ؛ فيكون معناه : على أى صفة شاء ركَّبَكَ ؛ من السعادة أو الشقاوة ، والإيمانِ أو المعصية . .

قوله جل ذكره . « كلَّا بل تُكذِّبونَ بالدِّين »

أى : القيامة[6] .

« وإنَّ عليكُمْ لحافظين * كِرَاماً كَاتبين * يعلمُون ما تفعلونَ » .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوَّفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (علمت) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) يقصد القشيرى هنا (المؤمن العاصى) .. المنزلة بين المنزلتين (بين المؤمن والكافر) .
(٣) ينبغى ملاحظة ذلك إذا أردنا أن ندرس (القشيرى الشاعر) : أنظر هذه الدراسة فى كتابنا عن (الإمام القشيرى) .
(٤) هكذا فى م وهى فى ص (أفسدنى) وكلاهما صحيح .
(٥) هكذا فى النسختين ، وقد كنا نريد أن نظن أنها ربما كانت (الحكيمة) ، ولكن ارتباط السياق بالمشيئة (.. ما شاء ركَّبك) جعلنا نحجم عن هذا الظن .
(٦) بدليل قوله تعالى فيما بعد (يصلونها يوم الدين) .

حشمتهم من اطّلاع الحق ، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لَكانَ تَوقيُّهم عن المخالفاتِ لرؤيته — سبحانه ، واستحياؤهم من اطلّاعه — أتمَّ من رُؤية الملائكة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الأبرارَ لفى نَعيم * وإنَّ الفُجَّارَ لفى جَحيم » .

« الأبرار » : هم المؤمنون ؛ اليومَ فى نعمة العصمة ، وغداً هم فى الكرامة والنعمة « الفجار » : اليومَ فى جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشِّرْكِ الموجِبِ للفُرقة ، وغداً فى النارِ على وجه التخليد والتأبيد .

ويقال : « إن الأبرار لفى نعيم » . فى رَوْحِ الذِّكْر ، وفى الأُنْسِ فى أوان خَلْوَتهم . « وإن الفجار لفى جحيم » . فى ضيق قلوبهم وتَسَخُّطِهم على التقدير ، وفى ظُلُمات تدبيرهم ، وضيق اختيارهم .

« يَصْلَوْنَها يومَ الدِّين * وما هُم عنها بغائبين » .

« يصلونها » أى النار . « يوم الدين » . يوم القيامة .

« وما هم عنها » عن النار . « وما أدراك ما يومُ الدين ؟ » قالها على جهة التهويل .

« يومَ لا تملِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله » .

الأمر لله يومئذٍ ، ولله من قبله ومن بعده ، ولكن « يومئذٍ » تنقطع الدعاوَى ، إذ يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية .

سُورَةُ المُطَفِّفِين

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاؤه ، وجلاله جماله ، وجماله جلاله . الوجودُ له غيرُ مُسْتَفْتَح ، والموجودُ منه غيرُ مُسْتَقْبَح . المعهودُ منه لُطْفُه ، المأمولُ منه لُطْفه . . كيفما قَسَمَ للعبدِ فالعبدُ عَبْدُه ؛ إنْ أقصاه فالحُكْمُ حكمه ، وإنْ أدناه فالأمر أمرُه[1] .

قوله جل ذكره : « وَيْلٌ للمطففِّين * الّذين إذا
أكتالوا على النـاس يستوفون *
وإذا كَالُوهم أو وَّزنوهم يخسِرون » .

« ويلٌ » : الويلُ كلمةٌ تُذْكَر عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك ! و « المطفِّف » . الذى يُنْقِصُ الكَيْلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا ، ويتجلّى ذلك فى : الوزن والكيْلِ ، وفى إظهار العيب ، وفى القضاء والأداء والاقتضاء ؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم مالا يرضاه لنفسه

---

(١) هذا هو نص تفسير البسملة كما جاء فى م أمّا فى ص فهى على النحو التالى : —

[بسم الله : اسم جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراض وأعلال ، وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال . فهو الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناءٌ ولا زوال] .

وهذا هو تفسير بسملة سورة الانشقاق كما جاء فى م وكما سنرى ، ومعنى هذا أن اضطراباً حدث فى الأمر . وما دمنا نعرف أن القشيرى لا يستوحى إشارته من كل بسملة بطريقة عفوية ، ولكن على أساس المغزى العام للسورة .. فقد اخترنا أن تكون بسملة «المطففين» هى هذه على أساس أن قسمة الله للعبد قسمة عادلة ليس فيها (تطفيف)، وأن ما أوجده الله من وجود (غير مستقبح) .

فليس بمنصف . وأمَّا الصِّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلِّ مَنْ لهم معهم معاملة — والصدقُ عزيزٌ ، وكذلك أحوالهم فى الصُّحْبَةِ والمعاشرة . . فالذى يرى عَيْبَ الناسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو من هذه الجملة — جملة المطففين — كما قيل :

وتُبْصِرُ فى العينِ مِنِّى القَـــــذَى
وفى عيـــنِكَ الجـــــذْعَ لا تُبْصِرُ

ومَن اقتضى حقَّ نَفْسه — دون أن يَقْضِيَ حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه — فهو من جملة المطففين .

والفتى مَنْ يقضى حقوق الناس ولا يقتضى من أحدٍ لنفسه حقًّا .

قوله جل ذكره : « أَلَا يَظُنُّ أولئك أنَّهم مَّبعُوثونَ * ليومٍ عظيم ؟ * يومَ يقومُ النـاسُ لربِّ العالَمين » .

أى : ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحَاسَبون غداً ، وأنهم مُطَالَبون بحقوق الناس ؟ .

ويقال : مَنْ لم يَذْكُرْ — فى حال معاملةِ الناسِ — معاينةَ القيـامة ومحاسبتها فهو فى خسرانٍ فى معاملته .

ويقال : مَنْ كان صاحبَ مراقبة للهِ ربِّ العالَمين استشعر الهيبةَ فى عاجلِهِ ، كما يكون حالُ الناسِ فى المحشر ؛ لأنَّ اطلاعَ الحقِّ اليومَ كاطلاعه غداً .

قوله جل ذكره . « كلَّا إنَّ كتابَ الفُجَّارِ لفى سِجِّين * وما أدْراكَ ما سجينٌ ؟ * كتابٌ مَرْقومٌ » .

« سجين [1] » قيل : هى الأرض السابعة ، وهى الأرض السفلى ، يُوضَع كتابُ أعمالِ الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة ، ثم تُحْمَلُ أرواحُهم إلى ما هنالك .

---

(١) فى رواية عن أنس أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : «سجِّين أسفل الأرض السابعة» .

ويقال : « السِّجين » جُبٌّ فى جهنم . وقيل : صخرةٌ فى الأرض السفلى ، وفى اللغة السِّجين : فعيلٌ من السجن .

« وما أدراك ما سجين » . استفهامٌ على جهة التهويل

« كتابٌ مرقوم » . أى مكتوب ؛ كَتَبَ اللهُ فيه ما هم عاملون، وما هم إليه صائرون . وإنما المكتوبُ على بنى آدم فى الخير والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلّق به علمه وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذى علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لايكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِه إلّا مَنْ شاء من المقربين بالقَدْرِ الذى أراده ؛ فإنه يُجْرِى عليهم فى دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير .

ثم قال : « وَيْلٌ يومَئِذٍ للمُكَذِّبين * الذين يُكَذِّبون بيومِ الدِّين * وما يُكَذِّبُ به إلّا كُلُّ مُعْتَدٍ أثيمٍ »

ويلٌ للذين لا يُصَدِّقون بيوم الدين ، وما يُكَذِّبُ به إلا كل مُجاوِزٍ للحَدِّ الذى وُضِعَ له؛ إذا يُتْلَى عليه القرآن كَفَرَ به .

« كلّا بل رَانَ عَلَى قلوبِهم مّا كانوا يَكْسِبون * كلّا إنّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبُون »

أى : غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصى . . وكما أنهم — اليومَ — ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليلُ الخطاب يوجبُ أن يكون المؤمنون يَرَوْنَه غداً كما يعرفونه اليوم .

قوله جل ذكره : « كلّا إنَّ كِتابَ الأبرارِ لَفِى عليِّينَ » .

« عليِّين » أعلى الأمكنة ، تحمل إليه أرواح الأبرار تشريفاً لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرة المنتهى . ويقال : فوق السماء السابعة . كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون [1] من الملائكة .

« إنَّ الأبرارَ لفى نعيم » .

اليومَ وغداً : اليومَ فى رَوْح العرفان ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأُنْسِ القُربة وبَسْطِ الوصلة . وغداً — فى الجنة وما وُعِدوا به من فنون الزلفة والقربة .

قوله تعالى : « على الأرائك يَنظرون » .

أثْبَتَ النظرَ ولم يُبَيِّن المنظور إليه لاختلافهم فى أحوالهم ؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره . ومنهم من ينظر إلى حُورِه ، ومنهم ومنهم . . ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله — سبحانه — يَنْظُرون .

قوله جل ذكره : « تَعْرِفُ فى وجُوهِهم نضْرَةَ النَّعيم » .

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أنَّ أثَرَ نَظَرِه إلى مولاه ما يلوح على وجهه من النعيم ؛ فأحوال المحبِّ شهودٌ عليه أبداً . فإنْ كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاختيالُه ودلالُه ، وسرورُه وحبورُه ، ونشاطُه وانبساطُه . وإنْ كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراق فالشهودُ عليه نحولُه وذبولُه ، وحنينُه وأنينُه ، ودموعُه وهجوعُه .. وفى معناه قلت [2] .

يا مَنْ تَغَيُّرُ صورتى لَمَّا بدا — لجميع ما ظنوا بنا — تحقيقُ

---

(١) هكذا فى ص وفى م (يشهد) بدون ضمير غائب ، وحسب النسخة الأولى تكون عودة الضمير على الكتاب المرقوم ، وحسب النسخة الثانية يكون الكلام مستمراً خصوصاً ولم يبدأ كالعادة بعلامة تشعر ببدء الآية مثل : قوله تعالى أو قوله جل ذكره .. أى : يشهد المقربون أن الأبرار لفى نعيم ، ويتقوى الرأى الأول بما قاله القشيرى منذ قليل : إن الله يُطْلِع بعض المقربين على أسرار خلقه بالقدر الذى يريده سبحانه ، كذلك فإن السياق — على الفهم الثانى — يقتضى فتح همزة (إن الأبرار ...) ولكنها مكسورة مما يدل على أن الكلام مستأنف — اللهم إلا إذا كانت يشهد بمعنى يقسم — فالشهادة ترد بمعنى القَسَم — كما مرَّ من قبل .. وهمزة إن تكسر بعد القسم .

(٢) نسمد كثيراً جداً بهذا الشعر الذى صاغه القشيرى ، فهو شاعر مُقِلٌّ ، ولكنه — كما هو واضح — رقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يامن تَغَيُّرُ صورتى — لمَّا بدا — تحقيقٌ لجميع ما ظنوا بنا ؛ أى أن ماظهر على أسرتى من أشياء حاولت كتمانها قد حقَّق ظنونَ الواشين والعاذلين .. فلا فائدة .. فالصب تفضحه عيونه ! ونحسب أنَّ ما قبل النص ، وما يقصده النص الثانى يؤيدان تذوقنا على هذا النحو .

وقلت :

ولمّا أتَى الواشـــين أنّى زُرْتُها ... جَحَدْتُ حِذاراً أنْ تَشِيعَ السرائرُ
فقالوا : نرى فى وجهِك اليومَ نضرةً ... كَسَتْ مُحيَّاكَ[1] . . وهاذاك ظاهِرُ !
وبُرْدُكَ لا ذاك الذى كان قبلَه ... به طِيبُ نَشْرٍ لم تُشِعْهُ الجامِرُ
فما كان منّى من بيانٍ أُقيمه ... وهيهات أن يخفى مُريبٌ مساتِرُ !

قوله جل ذكره : « يُسْقَونَ من رَحيقٍ مَّختومٍ * خِتامُه مِسْكٌ وفى ذلك فليتنافَس المتنافِسون ».

« مختوم » أى رحيقٌ لا غِشَّ فيه .

ويقال : عتيقٌ طَيِّبٌ .

ويقال : إنهم يشربون شراباً آخره مِسْكٌ .

ويقال : بل هو مختومٌ قبل حضورهم .

ويقال : « ختامه مسك » . ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ ، مُعَدٌّ مُدَّخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه .

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . وتنافُسُهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والسباقُ إلى القُرَب ، وتعليقُ القلبِ بالله ، والانسلاخُ عن الأخلاقِ الدَّنِيَّة ، وجَوَلانُ الهِمَمِ فى الملكوت[2] ، واستدامةُ المناجاة .

قوله جل ذكره: « ومِزَاجُه من تسنيم * عيناً يَشْرَبُ بها المُقَرَّبون » .

« تسنيم » أى : عينٌ تَسَنَّمُ عليهم من عُلُوٍّ .

وقيل : ميزابٌ يَنْصَبُّ عليهم من فوقهم .

ويقال : سُمِّى تسنيماً ؛ لأن ماءه يجرى فى الهواء مُتَسَنِّماً فينصبُّ فى أوانى أهل الجنة ؛

---

(١) كذا بالأصل ولعلّها (بدت في محياك) كى يستقيم الوزن .

(٢) هكذا فى ص وهى أصح مما فى م (المكتوب) فهى مشتبهة على الناسخ .

فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجًا ، ومنهم مَنْ يُسْقى صِرْفًا .. الأولياء يُسْقَون مزجًا ، والخواصُ يُسْقَون صِرْفًا[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين أجْرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون » .

كانوا يضحكون استهزاء بهم .. فاليومَ .. الذين آمنوا من الكفار يضحكون !

« فاليومَ الذين آمنوا من الكُفار يضحكون * عَلَى الأرائكِ ينظرون * هل ثُوِّبَ الكفَّارُ ما كانوا يفعلون؟»

« هل ... » استفهام يراد منه التقرير .

ويقال : إذا رأوا أهلَ النارَ فى النار يُعذَّبون لاتأخذهم بهم رأفة ، ولا تَرِقُّ لهم قلوبُهم ، بل يضحكون ويستهزئون ويُعَيِّرونهم .

---

(١) نفهم من هذا أن الخواص أعلى درجةً من الأولياء .

سُورَةُ الانشقَاق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »[1]

« بسم الله » : اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعالُه لا بأغراضٍ وأعلال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انشقت » .

« انشقت » : انصدعت .

« وأَذِنَت لربِّها وحُقَّتْ » .

أى قابَلَتْ أمرَ ربِّها بالسمع والطاعة . . وحقَّ لها أن تفعل ذلك .

« وإذا الأرضُ مُدَّتْ » .

بُسِطَتْ باندكاكِ آكامها وجبالِها حتى صارت ملساء ، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلَّت عنها . . وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء فى قوله : « فملاقيه » أى يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله .[2]

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فمُلاقيه » .

---

(١) نعيد إلى الذاكرة ما قلناه من قبل من حدوث افتراق بين النسختين بين تفسير بسملتى « المطففين » و « الانشقاق » .

(٢) يرى الكسائى – ويوافقه أبوجعفر النحاس وغيره – أن جواب القسم هو : « فأما من أوتى كتابه بيمينه .... » أى : إذا انشقت السماء فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا ..

« يأيها الإنسان » : يأيها المُكلَّفُ . . إنَّك ساعٍ بما لَكَ سَعْيًا ستلقى جزاءه ؛ بالخير خيراً وبالشَّرِّ شَرًّا .

« فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينه » .

وهو المؤمنُ المُحْسِنُ .

« فسوف يُحَاسَبُ حساباً يسيراً » .

أى حساباً لا مَشَقَّة فيه . ويقال : « حساباً يســـيراً » أى يُسْمِعُه كلامَه — سبحانه — بلا واسطة ، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابِه ما فى الحساب من عناء .

ويقال : « حساباً يسيراً » : لا يُذَكِّرُه ذنوبَه . ويقال : يقول : ألم أفعل كذا ؟ وألم أفعل كذا ؟ يعُدُّ عليه إحسانَه .. ولايقول : ألم تفعل كذا ؟ لا يُذَكِّرُه عصيانَه .

« ويَنقَلِبُ إلى أهلِه مسروراً » .

أى بالنجاة والدرجات ، وما وَجَدَ من المناجاة ، وقبول الطاعات ، وغفران الزَّلّات .

ويقال : بأن يُشَفِّعَه فيمن يتعلَّق به قلبُه . ويقال : بألا يفضحه .

ويقال : بأن يَلْقى ربَّه ويُكَلِّمَه قبل أنْ يُدْخِلَه الجنة فيَلْقى حَظِيَّتَه من الحورِ العين .

قوله جل ذكره : « وأمَّا مَنْ أوتِيَ كتابَه وراء ظَهْره » .

وهو الكافر .

« فسوف يدعو ثُبُوراً » ..

أى وَيْلاً .

« ويَصْلَى سعيراً » .

جهنم .

« إنَّه كان فى أهله مسروراً »

من البَطَرِ[1] والمدح .

« إنَّه ظَنَّ أن لَّن يحور » .

أنه لن يرجعَ إلينا ، ولن يُبْعَثَ .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بالشَّفَق » .

بالحُمْرَةِ التى تعقب غروبَ الشمس .

« والليلِ وما وَسَقَ » .

وما جَمَعَ وضمَّ .

« والقمرِ إذا اتَّسَقَ » .

تَمَّ واستوى واجتمع .

ويقال : الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم ، وأُذِيقوا الفراقَ فى بعض أحوالهم ، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسْطٍ ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبَ جَمْعٍ[2] . « والليل وما وسق » : ليالى غيبتهم وهم بوصف الاستياقِ ؛ أو ليالى وصالهم وهم فى روح التـــلاقى ، أو ليالى طَلَبِهم وهم بنعتِ القَلَقِ والاحتراقِ .

« والقمر إذا اتسق » : إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفان على القلوب فلا نَخْسَ ولا نُقْصان .

قوله جل ذكره : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ » .

أى حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةً بعد شدَّة .

ويقال : تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً .

ويقال : طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغِنَى ، والصحة والسَّقم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ فى الآخرة .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (النظر) والسياق يقتضى (البطر) فهو من أشد آفات الطريق خطراً – كما نعرف من مذهب القشيرى .

(٢) فى م (وأوان فراق بعد جمع) والاصطلاحان الصوفيان الملائمان هما (الفرق والجمع) .

قوله جل ذكره : « فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنون ؟ » .

أى فما لكُفَّارِ أُمَّتِكَ لا يُصَدِّقون . . وقد ظهرت البراهين ؟

« وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ
لا يَسْجُدون * بل الذين كفروا
يُكَذِّبون * واللهُ أعلمُ بما يُوعُون » .

« يوعون » أى تنطوى عليه قلوبُهم — من أَوْعَيْتُ المتاعَ فى الظَّرْفِ أى جعلته فيه .

« فَبَشِّرْهم بعذابٍ أليم * إلّا الذين
آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أَجْرٌ
غيرُ ممنون » .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع .

سُورَةُ البُرُوج

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ مَنْ لا عقل يَكْتَنِهُهُ[1] ، اسمُ مَنْ لا مِثْلَ يُشْبِهُهُ ، اسمُ من لا فَهْمَ[2] يرتقى إليه بالتصوير ، اسمُ مَنْ لا علمَ ينتهى إليه بالتقدير[3] ، اسمُ مَنْ لم يَرَه بَصَرٌ إلّا واحدٌ — وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه[4] ، اسمُ مَنْ لا يَجْسُرُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ بغير ما إذْنٍ فيه ، اسمُ مَنْ لا قُطْرَ يحويه ، ولا سِرَّ يُخفيه ، ولا أحدَ يصل إلى معرفته إلّا مَنْ يرتضيه .

قوله جل ذكره : « والسماء ذاتِ البروج » .

أراد البروج الأثنى عشر[5] .

« واليومِ الموعودِ » .

يوم القيامة .

وجوابُ القَسَمِ قوله : « إنَّ بَطْشَ ربِّك لشديد » .

قوله جل ذكره : « وشاهدٍ ومشهودٍ » .

يقال : الشاهدُ اللهُ ، والمشهودُ الخَلْقُ .

---

(١) أى يدرك كنهه .

(٢) هكذا فى النسختين ، ومع ذلك فإننا نرجح أنها ربما كانت فى الأصل (من لا وهم ...) فمن أقوال ذى النون : (كلما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك) الرسالة ص ٤ .

(٣) نعرف فى الاصطلاح أن (التقدير) لله و(التدبير) للإنسان ، ولكن (التقدير) مستعمل هنا خاصاً بالإنسان ؛ أى أن أحداً لا يستطيع أن (يقدر) الله حق قدره .

(٤) يشير بذلك إلى اختلاف الآراء حول رؤية النبى (ص) ربه ليلة المعراج رؤية بصرية (الرسالة ص ١٧٥).

(٥) وهى التى تسير الشمس فى كل منها شهراً ، وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والمشهودُ اللهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والمشهودُ القيامة ، قال تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »[1] ، وقال فى القيامة : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود »[2] .

وقيل : الشاهد يومُ الجمعة[3] ، والمشهود يومُ عَرَفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذى يكتب العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه ، وأعضاؤه تشهد عليه ؛ فهو شاهد وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامة ، والمشهودُ الناس .

ويقال : المشهودُ هم الأمة لأنه صلّى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمة ، والمشهودُ سائر الأمم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسود لأنّ فيه كتابَ العهد .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخَلْق ؛ يشهدون لله بالوحدانية ، والمشهود الله .

ويقال : الشاهدُ الله ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قوله جل ذكره : « قُتِل أصحابُ الأخدودِ * النارِ ذاتِ الوَقود » .

أى لُعِنوا . والأخدودُ : الحُفْرةُ فى الأرض إذا كانت مستطيلةً ، وقصتهم فى التفسير معلومة[4] و« الوقود » الحطب .

وهم أقوامٌ كتموا إيمانَهم فلمّا عَلِمَ مَلِكُهم بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة ، وألقاهم فيها .

---

(١) آية ٤١ سورة النساء .

(٢) آية ١٠٣ سورة هود .

(٣) خرّج ابن ماجة وغيره رواية عن أبى الدرداء قوله : قال رسول الله (ص) : « أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » .

(٤) قيل هم من السجستان ، وقيل من نجران ، وقيل من القسطنطينية ، وقيل : هم من المجوس . وقيل من اليهود ، وقيل من النصارى .

وآخِرُ مَنْ دَخَلَها امرأةٌ كان معها رضيعٌ ، وهَمَّت أن ترجع ، فقال لها الولد : قِفى واصبرى .. فأنت على الحقِّ .

وألقوها فى النار ، واقتحمتها ، و بينما كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً ، ونجا من كان فى النار من المؤمنين وسَلِموا .

قوله جل ذكره : « وما نَقَمُوا منهم إلاَّ أن يُؤْمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له مُلْكُ السموات والأرضِ واللهُ على كلِّ شىء شهيد » .

ما غَضبوا منهم إلاَّ لإيمانهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين فَتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنَّمَ ولهم عذاب الحريق » .

أى أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم « فلهم عذاب جهنم » : نوعٌ من العذاب ، « ولهم عذابُ الحريق » : نوع آخر[1] .

قوله جل ذكره : « إنّ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ لهم جنَّاتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ ذلكَ الفوزُ الكبير » .

« ذلك الفوز الكبير » : النجاة العظيمة .

« إنّ بَطْشَ ربِّك لشديد » .

البطشُ الأخذ بالشدة .

« إنّه هو يُبْدِئُ ويُعيد » .

يُبدئُ الخَلْق ثم يُعيدُهم بعد البعث .

---

(١) قد يكون العذاب الأول بالزمهرير فى جهنم ، والثانى بنار الحريق ؛ فكأنهم يعذبون ببردها وحرها والله أعلم .

ويقال : يبدئ بالعذاب ثم يُعيد ، وبالثواب ثم يُعيد .

ويقال : يبدئ على حُكْم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه ، ويبدئ على الضعف ويعيدهم إلى الضعف .

و يقال : يبدى الأحوال السَّنيَّة فإذا وقعت حجبة يعيد ثانية .

و يقال : يبدى بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا نَقَضَ توبتَه فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه فى أول حاله .

ويقال : يبدى لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً ، فلا يزال يبدى و يعيد إلى آخر العمر .

قوله جل ذكره : « وهو الغَفور الوَدُود » .

« الغفور » كثيرُ المغفرة ، «الودود» مبالغة من الوَادِّ ، و يكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر لهم كثيراً لأنه يَوَدُّهم ، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّونه .

قوله جل ذكره : « ذو العرش المجيد »

ذو المُلْكِ الرفيع ، والمَجْد الشريف .

« فعَّالٌ لمَا يُريد » .

لأنه مالِكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجْرَ عليه ولا حَظْرَ .

قوله جل ذكره : « هل أتاكَ حديثُ الجُنود » .

الجموع من الكفار .

« فِرْعَونَ وَثَمُود »

وقد تقدم ذكر شأنهما .

« بل الذين كفروا فى تَكذْيب »

« الذين كفروا » يعنى مُشْرِكى مكة ؛ « فى تكذيب » للبعث والنشر .

« واللهُ مِن ورائهم محيط »

عالمٌ بهم .

« بل هو قرآنٌ مجيدٌ * فى لوح محفوظ » .

« فى لوح محفوظ » مكتوبٍ فيه . وجاء فى التفسير : أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء ، دِفَّتَاه من ياقوتة حمراء عَرْضُها بين السماء والأرض ، وأعلاه متعلِّقٌ بالعرش ، وأسفله فى حِجْرِ مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ فى اللوح كذلك محفوظ فى قلوب المؤمنين ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فهو فى اللوح مكتوبٌ ، وفى القلوبِ محفوظٌ .

سُورَةُ الطَّارق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وَفَّقه لعرفانه ، ثم زيَّنَه بإحسانه ، ثم استخلصه بامتنانه ؛ فعَصَمَه من عِصيانه ، وقام بحسن التولِّى — فى جميع أحواله — بشانِه ، ثم قبَضَه على إيمانه ، ثم بَوَّأَه فى جنانه ، وأكرمه برضوانه ، ثم أكمل عليه نِعْمَتَه برؤيته وعيانه .

قوله جل ذكره : « والسماء والطارق »

أقسم بالسماء ، وبالنجمِ الذى يَطْرُق ليلا .

« وما أدراك ما الطارق ؟ »

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم .

« النجمُ الثاقِب »

المضيء العالى . وقيل : الذى ترمى به الشياطين .

ويقال : هى[1] نجوم المعـــرفة التى تدل على التوحيد يستضيءُ بنورها ويهتدى بها أولو البصائر .

« إن كُلُّ نَفْسٍ لمَّا عليها حافِظ »

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حافِظٌ من الملائكة ، يحفظ عليه عملَه ورزقَه وأجلَه ، ويحمله على دوامِ التيقُّظ وجميلِ التحفُّظ .

قوله جل ذكره : « فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق * خُلِقَ

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (هو نجم المعرفة ... إلخ) .

من ماء دافقٍ * يخرجُ من بين
الصُّلْبِ والترائب »

يخرج من صُلْبِ الأب ، وتريبةِ الأم .

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته — سبحانه .

« إنَّه على رَجْعِهِ لقادِرٌ »

إنه على بَعْثِهِ ، وخَلْقِهِ مرةً أخرى لقادِرٌ ؛ لأنه قادر على الكمال — والقدرةُ على الشيء تقتضى القدرةَ على مِثْلِهِ ، والإعادة فى معنى الابتداء .

« يومَ تُبْلَى السرائرُ »

يوم تُمْتَحنُ الضمائر .

« فما لَه من قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ »

أى ما لهذا الإنسان — يومئذٍ — من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

« والسماء ذاتِ الرَّجْعِ »

أى المطر .

« والأرضِ ذات الصَّدْع »

« الصدع » : الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر .

« إنَّه لقولٌ فَصْلٌ »

أى : إن القرآن لقولٌ جَزْمٌ .

« وما هو بالهَزْلِ »

الهزل ضد الجِدّ ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِب .

قوله جل ذكره : « إنَّهم يكيدون كَيْداً »

أى يحتالون حيلةً .

« وأكيدُ كيْداً »

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعْلاً ونُبْرِمُ خَلْقاً ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

« فَمَهِّلِ الكافرين أمْهِلْهُم رُويداً »

أى أنظِرهم ، وأمهِلهم قليلا ، وأرْوِدْهم رويداً .

سُورَةُ الأَعْلى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَه وَجَدَه ، ومَنْ استسعفه حَمِدَه . مَنْ طَلَبَه عَرَفَه ، ومَنْ عَرَفَه لاطَفَه ، فإذا وَجَدَ لُطْفَه ألِفَه ، وإذا أَلِفَه أَنِفَ أنْ يخالِفه .

قوله جل ذكره : « سَبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعْلَى »

أى سَبِّح ربَّك بمعرفة أسمائه ، واسبح بسِرِّك فى بحار علائه ، واستخرِجْ من جواهر عُلُوِّه وسنائه ما ترصِّعُ به عِقْدَ مَدْحِه وثنائه .

« الذى خَلَقَ فَسَوَّىٰ »

خَلَق كلَّ ذى روحٍ فسَوَّى أجزاءه ، ورَكَّبَ أعضاءه على ما خَصَّه به من النظم العجيب والتركيب البديع .

« والذى قَدَّرَ فَهَدَىٰ »

أى قدّر ما خَلَقَه ، فجَعَلَه على مقدار ما أراده ، وهدى كلَّ حيوانٍ إلى مافيه رشده من المنافع ، فيأخذ ما يُصْلِحه ويترك ما يضره — بحُكم الإلهام .

ويقال : هَدَى قلوبَ الغافلين إلى طلب الدنيا فمروها ، وهدى قلوبَ العابدين إلى طلب العقبى فآثروها ، وهدى قلوبَ الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها ، وهدى قلوبَ العلماء إلى النظر فى آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها .

(وهدى قلوبَ المريدين إلى عِزِّ وَصْفِه فآثروه ، واستفرغوا جُهْدَهم فطلبوه)[1] ، وهدى

---

(١) ما بين النوسين موجود فى ص وغير موجود فى م

العارفين إلى قُدْس نعتِه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى الموحِّدين إلى علاء سلطانه فى توحد كبريائه فتركوا ماسواه وهجروه ، وخرجوا عن كلِّ مألوفٍ لهم ومعهود[1] حتى قصدوه . فلمّا ارتقوا عن حدِّ البرهان ثم عن حدِّ البيان ثم عمّا كالعيان عَلِموا أنّه عزيزٌ ، وأنّه وراء كلِّ فَصْلٍ ووَصْلٍ ، فرجعوا إلى موطنِ العَجْزِ فتوسَّدوه .

« والذى أخْرَجَ المرْعَىٰ »

أى النبات .

« فجَعَله غُثَاء أحْوَىٰ »

جعله هشيماً كالغثاء ، وهو الذى يقذفه السيل . و « أحوى » أسود .

« سنُقْرِئُك فلا تَنسىٰ »[2].

سنجمع القرآن فى قلبك — يا محمد — حِفْظاً حتى لا تنسى لأنا نحفظه عليك .

« إلاَّ ما شاء اللهُ إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يخفىٰ » .

مما لايدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه .

وهو — سبحانه — يعلم السِّرَّ والعَلَن .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ إن نَفَعَت الذِّكرى »

والذِّكرى تنفع لا محالة[3]، ولكنْ لِمَنْ وَفَّقَه اللهُ للاتعاظِ بها ، أمّا مَنْ كان المعلومُ من حاله الكفرَ والإعراضَ فهو كما قيل :

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (معبود) وقد رجحنا (معهود) لتلاؤمها مع (مألوف) . ولكن إذا تذكرنا أن الصوفية يرون الانسياق وراء الهوى نوعاً من الشرك الخفى — قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » — فيمكن فى ضوء ذلك قبول (معبود) أيضاً .

(٢) يرى الجنيد أن المعنى «فلا تنسى العمل به » ، وهذا من الآراء الحسنة التى يتمشى معها رأى القشيرى فى « إلا ما شاء الله » .

(٣) وهذا تفسر (إن) فى الآية على معنى (ما) : أى فذكر ما نفعت الذكرى ، ولا يكون لها حينئذ معنى الشرط ، وتفسر على معنى (إذ) مثل : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وعلى معنى (قد) .

وما انتفاعُ أخى الدنيـــا بِمُقْلَتِهِ إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّـلَمُ

« سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ »

الذى يخشى الله ويخشى عقوبته .

« ويَتَجَنَّبُهَا الأشـقَى * الذى يَصْلَى النارَ الـكبرى * ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا » .

أى يتجنَّبُ الذِّكْرَ الأشقَى الذى يَصْلَى النارَ الـكبرى ، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه ، ولا يحيا حياةً تَلَذُّ له .

قوله جل ذكره : « قد أفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ » .

مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ والعيوبِ ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدَّى الزكاة — وَجَدَ النجاة ، والظَّفَرَ بالْبُغْيَة ، والفَوزَ بالطِّلبة .

« وذَكَرَ اسمَ ربِّه فَصَلَّىٰ »

ذَكَرَ اسمَ ربِّه فى صلاته . ويقال : ذَكَره بالوحدانية وصَلَّى له .

« بل تُؤْثِرُون الحياةَ الدنيا »

تميلون إليها ؛ فتُقَدِّمون حظوظَكم منها على حقوق الله تعالى .

[« والآخرةُ خـيْرٌ وأبْـقَىٰ »

والآخرة للمؤمنين خيرٌ وأبقَى — من الدنيا — لطُلَّابها .] (١)

قوله جل ذكره : « إنّ هـذا لفى الصُّحُفِ الأولىٰ * صُحُفِ إبراهيمَ وموسىٰ »

إن هذا الوعظَ لفى الصحف المتقدمة ، وكذلك فى صحف إبراهيم وموسى وغيرهما ؛ لأنَّ التوحيدَ ، والوعدَ والوعيدَ . . لا تختلف باختلاف الشرائع .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

سُورَةُ الغَاشِيَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : كلمةٌ من سمعها وفى قلبِه عرفانُه تلألأت أنوارُ قلبه ، وتفرَّقَتْ أنواعُ كُرَبِه ، وتضاعَفَتْ فى جماله طوارقُ حُبِّه ، وتحيَّرت فى جلالِه شوارقُ لُبِّه .

كلمةٌ مَنْ عَرَفَها — وفى قلبِه إيمانُه — أحبَّها من داخل الفؤاد ، وهَجَرَ — فى طَلَبِها — الرُّقاد ، وتَرَكَ — لأجْلِها — كلَّ همٍّ ومراد .

قوله جل ذكره : « هل أتاكَ حديثُ الغاشية ؟ » .

« الغاشية » المُجَلِّلَةُ ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ ، تَغْشَى وجوهَ الكفَّار .

« وُجُوهٌ يومَئذٍ خاشِعةٌ * عامِلَةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلَى ناراً حامية » .

وجوهٌ — إذا جاءت القيامة — خاشعة أى ذليلة . عاملة ناصبة : النَّصَب التعب .

جاء فى التفسير : أنهم يُجَرُّون على وجوههم .

« تصلى ناراً حامية » تلزم ناراً شديدة الحرِّ .

ويقال : « عاملة » فى الدنيا بالمعاصى ، « ناصبة » فى الآخرة بالعذاب .

ويقال : « ناصبة » فى الدنيا « عاملة » لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان[1] ، وفى معناه عملُ أهل النفاق .

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس قوله : «هم الذين أنصبوا أنفسهم فى الدنيا على معصية الله عز وجل ، وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله — جل ثناؤه — منهم إلا ما كان خالصاً » .

« تُسْقَىٰ من عينٍ آنية » .

تناهى حَرُّها .

« ليس لهم طعامٌ إلَّا من ضريعٍ *
لا يُسْمِنُ ولا يُغْنى من جوعٍ » .

نَبْتٌ ينمو بالحجاز له شَوْكٌ ، وهو سمٌّ لا تأكله الدواب ، فإذا أكلوا ذلك فى النار يُغَصُّون ، فَيَسْقَوْنَ الزقُّوم .

وإن آتصافَ الأبدانِ — اليومَ — بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواح وجدانَ المكاشفات (وفقدِ)[1] الأسرارِ أنوارَ المشاهدات ، (وفقدِ) القلب الإخلاصَ والصدق فى الاعتقادات لا يجدى خيراً ، ولا ينفع شيئاً — وإنما هى كما قال : « عاملة ناصبة »

قوله جل ذكره : « وجوهٌ يومئذٍ نَّاعمةٌ » .

أى : مُتَنَعِّمة ، ذات نعمةٍ ونضارةٍ .

« لِسَعْيِها راضِيةٌ » .

حين وَجَدَتْ الثوابَ على سعيها ، والقبول لها .

« فى جَنَّةٍ عاليةٍ » .

عالية فى درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبدانهم فى درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله فى عزيز مناجاتهم .

« لا تسمعُ فيها لاغيةً » .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلمةُ لغوٍ .

قومٌ يسمعون بالله ، وقومٌ يسمعون لله ، وقومٌ يسمعون من الله ، وفى الخبر : « كنت له سمعاً وبصراً فبى يَسْمَعُ وبى يُبْصِرُ »[2] .

---

(١) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يكون السياق أكثر وضوحاً

(٢) « ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها » أورده السراج فى لمعه ص ٨٨ . وهو حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة وأحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة ، وابن السنى عن ميمون .

« فيها عينٌ جاريةٌ » .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .

ويقال : تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له — اليومَ — عيونٌ جارية بالبكاء[1] ، وغداً لم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء .

« فيها سُرُرٌ مَرفوعةٌ * وأكوابٌ مَوضوعة * ونمارِقُ مصفوفةٌ * وزرابيُّ مبثوثةٌ » .

النمارق المصفوفة فى التفسير : الطنافس المبسوطة .

الزرابى المبثوثة فى التفسير : البُسُط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فُهومهم[2] .

قوله جل ذكره : « أفلا يَنظُرون إلى الإبِل كيف خُلِقَتْ ؟ » .

لمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيَّدة قالوا : كيف يصعدها المؤمن ؟ فقال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها تنزل ؟ فكذلك تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الوليُّ .

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه ، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته — سبحانه .

فالقومُ كانوا أصحابَ البوادى لا يرون شيئاً إلا السماء والأرضَ والجبالَ والجِمالَ . . . فأمَرَهم بالنظر فى هذه الأشياء .

---

(١) منذ عهد مبكر ظهرت طائفة البكَّائين فى صفوف الزهاد ، وإن كان بعض الصوفية لا يتحمس للبكاء إمَّا لأن الدموع علامة شكوى ، وهم لايحبون أن يشكوا ، وإمَّا لأنها تنم عن ضعف الحال ، وهم يتمنون أن يكونوا راسخين كالجبال .

(٢) يتبع هنا فكرة القشيرى الأساسية عن وصف الآخرة : الأسماء أسماء ، والأعيان بخلاف ذلك .

وفى الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه ؛ منها : ما فى إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحَمْلِ والركوب ، ثم بنَسْلِها ، ثم بلحمها ولبنها ووَبَرِها . . . ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى ليستطيع الصبىُّ أنْ يأخذَ بزِمامها ، فتنجرّ وراءه . والإبل تصبر على مقاساة العَطَش فى الأسفار الطويلة ، وهى تَقْوَى على أن تحمِلَ فوق ظهورها الكثيرَ من الحمولات .. ثم حِرَانُها إذا حقدت ، واسترواحُها إلى صوتِ مَنْ يحدوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يُعَلِّل المرء بما يناط بها من بِرِّها[1] .

« فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ * لَسْت عليهم بمصيطر[2] » .

لستَ عليهم بمُسَلَّطٍ ؛ فذَكِّر — يا محمد — بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك[3] .

« إلَّا مَنْ تولَّىٰ وكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العذابَ الأكبرَ » .

إلا مَنْ تولَّى عن الإيمان وكفر فيعذبه اللهُ بالخلودِ فى النار .

« إنَّ إلينا إيابَهُم * ثم إنَّ علينا حِسابَهُم » .

إن إلينا رجوعَهم ، ثم نجازيهم على الخير والشرّ .

---

(١) إشارة القشيرى الخاصة بالإبل استوفت المراد ، فمن المعلوم أن ضروب الحيوان المختلفة لا تخرج عن أربعة : حَلُوبة ، وركُوبة ، وأكُوله ، وحَمُولة . وقد استطاع القشيرى أن يقنع أن الإبل جمعت كل هذه المنافع .

(٢) بمصيطر ومسيطر ، أى بالصاد والسين (الصحاح) .

(٣) لم يقع القشيرى فيما وقع فيه بعض المفسرين حين قالوا : « إن فى الآية نسخاً بآيات القتال والجهاد » .. فالعذاب الأكبر فى الآخرة لا ينفى تعذيب الكفار بشتى ألوان التعذيب فى الدنيا ، ومنها القتل والأسر .

سُورَةُ الفَجْر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله كلمةٌ ما استولت على قلبٍ فقيرٍ فأقلقته ، وما تمكّنت من سِرٍّ مُتَيَّمٍ فَشَتَّتْه ، وما استولت على روح محبٍّ فرحمته[1] . كلمةٌ قهّارة للقلوب . . ولكن لا لكلِّ قلب ، كلمةٌ لا سبيل لها لكلِّ عقل ، كلمة تكتفى من العابدين بقراءتهم لها ، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببَذْلِ أرواحهم فيها .

قوله جل ذكره : « والفجرِ * وليالٍ عَشْرٍ » .

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان : مستطيلٌ وقصير[2] ؛ ففى التفسير : إنه فَجْرُ المحرَّم لأنه ابتداء السنة كلها ، وقيل : فجر ذى الحجة .

ويقال : هو الصخور ينفجر منها الماء .

ويقال : أقسم به لأنّه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار .

« وليالٍ عشر » قيل : هى عَشْرُ ذى الحجة ، ويقال : عَشْرُ المحرم ؛ لأن آخرها عاشوراء . ويقال : العَشْرُ الأخيرة من رمضان .

ويقال : هى العَشْرُ التى ذكرها اللهُ فى قصة موسى عليه السلام تمّ به ميعاده بقوله : وأتممناها بعَشْر » .

---

(١) هكذا فى النسختين ، ولا نستبعد أنها فى الأصل : (فأراحته) ذلك لأن رحمة الله عامة ، للخاصة والكافة ، أما محبته – التى هى رحمة خاصة بالخواص – فهى المقصودة هنا (الرسالة ص ١٥٨) وهذه المحبة إذا استولت على روح محب أزعجته وما (أراحته) لأنها تتطلب بذل الروح ، واسترخاص المهجة .

(٢) فى النسختين (مستطول ومستطير) ولم نفهم المقصود ، فوضعنا (قصير) لعل مستطير كى يكون هناك بين فجر لعام كامل . وفجر ليوم واحد – والله سبحانه وتعالى أعلم .

ويقال : هو « فجرُ » قلوبِ العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم ، وأسفر صُبْحُ معارفهم ، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان[1] بما تجلَّى فى قلوبهم من البيان .

« والشَّفْعِ والوَتْرِ » .

جاء فى التفاسير : الشفعُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفَةَ[2] .

ويقال : آدم كان وتراً فشُفِعَ بزوجته حواء .

وفى خبرٍ : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبْح .

ويقال : الشفع الزوج من العَدَد ، والوتر الفَرْدُ من العدد .

ويقال : الشفع تضادُّ أوصاف الخَلْق : كالعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والحياة والموت . والوتر انفرادُ صفاتِ اللهِ سبحانه عمَّا يضادُّها ؛ علم بلا جهلٍ ، وقدرة بلا عجزٍ ، وحياة بلا موتٍ .

ويقال : الشفعُ الإرادة والنية ، والوتر الهِمَّة ؛ لا تكتفى بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله — لتقدُّسِه عن الوَصْلِ والفَصْل . فبقيت الهِمَّةُ غريبةً .

ويقال : الشفع الزاهد والعابد ، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً ، والوترُ المريدُ فهو كما قيل :

فريدٌ من الخِلَّانِ فى كل بلدةٍ
إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ

« والليلِ إذا يَسْرِ » .

« يسرى » يمضى .

قوله جل ذكره . « هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْرٍ ؟ » .

« حِجْرٍ » . لُبٍّ . وجوابُ القَسَمِ : « إن ربَّك لبالمرصاد » .

---

(١) أى عن النطاق العقلى .. والعقل — فى نظر الصوفية — مصاب بآفات التجويز والتحير والارتباط بالمحسات .

(٢) يوم عرفة وتر ، لأنه تاسع الأيام العشرة ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . . وقد روى حديث بهذا المعنى عن جابر بن عبد الله .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *
إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ... » .

ذكر قصص هؤلاء المتقدمين .. إلى قوله : « فَصَبَّ عليهم رَبُّكَ سَوْطَ عذاب » أى : شدة العذاب .

« إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمرصاد » .

لا يفوته شىء .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الإِنسانُ إِذا ما ابتلاه ربُّه
فأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقولُ ربِّى أَكْرَمَنِ *
وأَمَّا إِذا ما أَبتلاه فَقَدَرَ عليهِ رِزْقَهُ
فيقولُ ربِّى أَهانَنِ » .

« فيقول ربى أكرمنى » : أى : شَكَرَه .

« فَقَدَرَ عليه رزقَه » . أى : ضيَّق ، « فيقول ربى أهانن » . أى : أذَلَّنى . كلا .. ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان [1] .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بل لا تُكْرِمون اليتيم »

أى : أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة ؛ فلا تُكْرِمون اليتيمَ .

« ولا تَحَاضُّون على طعامِ المسكين *
وَتَأْكُلُون التُّراثَ أَكلاً لَمًّا » .

لَمًّا . أى شديداً .

« وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا »

جَمًّا أى كثيراً .

---

(١) كما نعرف من مذهب القشيرى ، أقصى درجات الغضب : الخذلان للعصيان وأقصى درجات الرضا : التوفيق للطاعة .. وكلاهما من الله .

قوله جل ذكره : « كلّا إذا دُكّتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا » .

أى : قامت القيامة .

« وجاء ربُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » .

« وجاء ربُّك » أى الملائكة بأمره[1] .

ويقال : يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

« وجِئَ يومئذٍ بجهنَّمَ يومئذٍ يَتذكَّرُ الإنسانُ وأنَّى له الذِّكرىٰ ؟ ! »

يقال : تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام[2]

وفى ذلك اليوم يتذكر الإنسانُ .. ولا يَنفَعه التذكُّر ، ولا يُقْبَلُ منه العُذْرُ .

« يقولُ يا ليتنى قَدَّمْتُ لحياتى »

أى : أَطَعْتُ ربِّى ونظرت لنفسى .

« فيومَئذٍ لَّا يُعَذِّبُ عذابَه أَحَدٌ »

أى : لا يعذِّب فى الدنيا أحدٌ مثلما يعذِّبه الله فى ذلك اليوم .. إذا قرئت الذال بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح[3] « لا يُعَذَّب » فالمعنى : لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر[4] .

قوله جل ذكره : « يٰأيتها النَّفْسُ المطمئنةُ » .

---

(١) أى : جاءهم ربُّك . أى : ظهرت آياته ، وأزيل الشك ، وصارت المعارف ضرورية ، وظهرت القدرة الإلهية . والمقصود نفى التحول من مكان إلى مكان عن الله ، فقد جلَّت الصمدية عن الارتباط بالتحول الحركى والتقيد الزمانى والمكانى .

(٢) «... كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش » (ابن مسعود) — وفى صحيح مسلم حديث يرويه ابن مسعود بهذا المعنى .

(٣) بالفتح قراءة الكسائى « لايعذَّب » « ولا يوثَق » .

(٤) قيل : هو إبليس لأنه أشد المخلوقات عذاباً ، وقيل «هو أمية بن خلف لتناهيه فى كفره وعناده .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال : المطمئنةُ بالمعرفة : ويقال : المطمئنة بذكر الله .

ويقال : بالبشارة بالجنة . ويقال : النفس المطمئنة : الروح الساكنة[1]

« ارْجِعى إلى ربِّكِ راضيةً مَرْضية »

راضيةً [2] عن الله ، مَرْضيةً من قِبَلِ الله .

« فادخُلى فى عبادى * وادْخُلى جَنَّتى » .

أى : فى عبادى الصالحين .

---

(١) تأخرت هذه العبارة الأخيرة إلى نهاية السورة فى النسختين فنقلناها إلى موضعها .

(٢) وردت (من) ولكننا وجدنا أن المعنى حينئذ لن يتغير فيما بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فوضعنا (عن) بدلا من (من) مسترشدين بقوله تعالى : «رضى الله عنهم ورضوا عنه» . وإن كنا لا نستبعد أن (من) تؤدى معنى صوفياً : هو أنه حتى رضاهم عن الله (من) الله ، فليس للعبد حول ولا طول حتى يرضى أو يسخط .. إلا إذا كان ثمة فضل إلهى (من) الله .

سُورَةُ البَلَد

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »[1]

« بسم الله » كلمةٌ تُخبر عن جلالٍ أزلىّ ، وجمالٍ سرمدىٍّ ، جلالٍ ليس له زوال ، وجمالٍ ليس له انتقال ، جلالٍ لا بأغيارٍ[2] وأمثال ، جمالٍ لا بصورةٍ ومثال ، وجلالٍ هو استحقاقُه لجبروته وجمالٍ هو استيجابُه لملكوته ، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه فناءٌ فى فناء ، وجمالِ مَنْ لاطَفَه به فأحوالُه بقاءٌ فى بقاء .

قوله جل ذكره : « لا أُقْسِمُ بهذا البَلَدِ » .

أى : أُقْسِم بهذا البلد ، وهو مكة .

« وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد » .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةً واحدةً [3].

« ووالدٍ وما وَلَد » .

كلُّ والدٍ وكلُّ مولود . وقيل : آدم وأولاده

وجواب القسم : « لقد خلقنا الإنسانَ فى كبد » .

ويقال : أُقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به .. وبَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ .

« لقد خلقنا الإنسانَ فى كَبَدٍ »

---

(١) مرة أخرى حدث اضطراب .. فتفسير البسملة هنا كما جاء فى م موضوع فى ص فى أول السورة القادمة : سورة الشمس .. والعكس فى م .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (باعتبار) والصحيح ما أثبتنا .

(٣) عن ابن عباس قال : « أُحِلَّت له ساعةً من نهار ثم أُطبقت وحُرِّمت إلى القيامة وذلك يوم فتح مكة . وثبت أن النبى (ص) قال : « إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرامٌ إلى أن تقوم الساعة ؛ فلم تحلل لأحدٍ قبلى ، ولاتحل لأحدٍ بعدى ؛ ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » .

أى : فى مشقة ؛ فهو يقاسى شدائدَ الدنيا والآخرة .

ويقال : خَلقَه فى بطن أمه (منتصباً رأسُه) فإذا أذِنَ الله أن يخرج من بطن أمِّه تنكَّس رأسُه عند خروجه ، ثم فى القِماط وشدِّ الرِّباط . . . ثم إلى الصِّراط هو فى المِياط والمِياط[1] .

قوله جل ذكره : « أيَحْسَبُ أن لَّن يَقْدِرَ عليْه أحدٌ »

أى : لقوَّته وشجاعته عند نَفْسِه يقول :

« يقول أهْلَكْتُ مالاً لُبَدَا » .

« لبداً » كثيراً ، فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم .[2]

« أيَحْسَبُ أن لَّم يَرَهُ أحدٌ » .

أليس يعلم أنَّ اللهَ يراه ، وأنه مُطَّلِعٌ عليه ؟

قوله جل ذكره : « ألَمْ نَجْعَل لَّه عينينِ * ولساناً وشفتينِ ؟ »

أى : ألم نخلقه سميعاً بصيراً متكلِّماً .

« وهديناهُ النَّجْدَيْنِ » .

ألهمناه طريقَ الخيرِ والشرِّ .

« فلاَ اقتحمَ العقبةَ * وما أدْراكَ ما العقبةُ ؟ * فكُّ رقبةٍ * أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مسغبةٍ * يتيما ذا مَقْرَبةٍ * أوْ مسكيناً ذا متربةٍ » .

أى : فهلَّا اقتحم العقبة . « وما أدراك ما العقبة ؟ استفهام على التفخيم لشأنها .

ويقال : هى عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله : وهو فكُّ رقبة : أى : إعتاقُ مملوك ، والفكُّ الإزالة . وأطعم فى يومٍ ذى مجاعةٍ وقحطٍ وشدَّةٍ يتيماً ذا قرابة ، أو « مسكيناً ذا متربة » : لا شىء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع .

---

(١) يقال : هم فى هياط ومياط أى فى شر وجَلَبة ، وقيل : فى دنو وتباعد (الوسيط) .

(٢) يقال : نزلت فى رجل من بنى جُمَح كان يقال له : أبو الأشدين ، وكان من أشد أعداء النبى (ص) . (قاله الكلبى) .

قوله جل ذكره : «ثم كان مِنَ الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبرِ وتواصَوْا بالمَرْحَمة» .

أى : من الذين يرحم بعضهُم بعضاً .

« أولئك أصحابُ المَيْمَنة »

أى : أصحاب اليُمْنِ والبركة .

« والذين كفروا بآياتِنا هم أصحابُ المَشْأَمة * عليهم نارٌ مُؤْصَدة » .

هم المشائيمُ على أنفسهم ، عليهم نارٌ مُطْبِقَة ؛ يعنى أبواب النيران (عليهم مغلقة) .

والعقبة التى يجب على الإنسان اقتحامها : نَفْسُه وهواه ، وما لم يَجُزْ تلك العقبة لا يفلح و « فك رقبة » هو إعتاقُ نَفْسِه من رِقِّ الأغراض والأشخاص .

ويكون فك الرقبة بأن يهدى مَنْ يفكُّه — من رق هواه ونفسه — إلى سلامته من شُحِّ نفسه ، ويرجعه إليه ، ويخرجه من ذُلِّه .

ويكون فكُّ الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء .

ويقال : يطعم من كان فى متربة ويكون هو فى مسغبة .

« ثم كان من الذين آمنوا ... » أى تكون خاتمته على ذلك[1] .

---

(١) أى يبقى على ذلك حتى الوفاة .

سُورَةُ الشَّمْس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِدَم . « الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقائه بوصف العَلاء والكَرَم .

كاشَفَ الأرواحَ بقولِه : « بسم الله » فَهَيَّمها ، وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمن الرحيم » فَتَيَّمها ؛ فالأرواحُ دَهْشَى فى كَشْفِ جلاله ، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله[1].

قوله جل ذكره : « والشَّمسِ وضُحاها » .

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها .

« والقمرِ إذا تَلاها » .

أى : تَبِعَها ؛ وذلك فى النصف الأول من الشهر .

« والنَّهارِ إذا جلَّاها » .

إذا جلَّى الشمسَ وكَشَفَها .

« والليلِ إذا يَغْشَاها » .

أى : يَغْشَى الشمسَ (فيذهب بضوئها) .

« والسماء وما بناها » .

أى وبنائها . ويقال : ومَنْ بناها[2]

---

(١) نذكر بما قلناه آنفا عن تعاكس وضع تفسيرى البسملة فيما بين «البلد» و «الشمس» فى النسختين م ، و ص .

(٢) هذا القول الأخير اختاره الطبرى ، وقاله الحسن ومجاهد . وأهل الحجاز يقولون : سبحان (ما) سبَّحت له . أى سبحان من سبحت له .

« والأرضِ وما طحاها » .

أى : وطَحْوِها . ويقال : ومَنْ طحاها (أى بسطها أو قسمها أو خلقها) .

« ونَفْسٍ وما سوّاها » .

ومن سوّى أجزاءها وأعضاءها .

« فألهمها فُجورَها وتقْواها » .

أى : بأن خَذلَهَا ووَفّقَها .

ويقال : فجورها : حركتها فى طلب الرزق ، وتقواها : سكونها بِحُكْمِ القدير .

وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : « قد أفلَحَ مَن زَكّاها » .

هذا جواب القَسَم . أى : « لقد أفلح من زكّاها » .

ويقال : مَنْ زكّاه اللهُ عزّ وجلّ .

« وقد خابَ من دَسّاها » .

أى : دسّاها الله . وقيل : دسّها[1] فى جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خاب مَنْ دسّ نَفْسَه بمعصية الله . وقيل دسّاها : جعلها خسيسةً حقيرةً . وأصل الكلمة دسسها[2]

قوله جل ذكره : « كَذّبَتْ ثمودُ بطَغْوَاها » .

« بطغواها » : لطغيانها ، وقيل : إن صالحاً قد مات ، فكفَرَ قومُه ، فأحياه اللهُ ، فدعاهم إلى الايمان ، فكذّبوه ، وسألوه علامةً وهى الناقة ، فأتاهم صالح بما سألوا .

« إذ انبعَثَ أشقاها » .

---

(١) أى دسها صاحبها .

(٢) من التدسيس ، وهو إخفاء الشىء فى الشىء ، فأبدلت سينه ياءً كما يقال : تَقَضّيْتُ أظفارى والأصل قصصت ، ومثله قولهم فى تقضّض : تقضّى .

« أشقاها » عاقِرُها .

« فقال لهم رسـولُ اللهِ ناقةَ اللهِ
وسُقْيَاها » .

أى : احذروا ناقةَ اللهِ ، واحذروا سقياها : أى : لا تتعرَّضوا لها .

« فكذَّبُوه فعَقَروها . . » .

أى كذَّبوا صالحًا ، فعقروا الناقةَ .

« . . . فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم بِذَنبِهِم
فَسَوَّاها » .

أى : أهلكهم بجُرْمِهم ، « فسوَّاها » : أى أطبق عليهم العذاب[1] .

ويقال : سَوَّى بينهم ربُّهم فى العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة .

قوله جل ذكره : « ولا يخافُ عُقباها » .

أى : أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة .

ويقال : قد أفلح[2] مَنْ دَاوَمَ على العبادة ، وخابَ مَنْ قصَّرَ فيها .

وفائدة السورة : أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَه عن الذنوبِ والعيوبِ ، ثم عن الأطماع فى الأعواض والأغراض ، ثم أَبْعَدَ نَفْسَه عن الاعتراض على الأقسام ، وعن ارتكاب الحرام . وقد خابَ مِن خانَ نَفْسَه ، وأهملها عن المراعاة ، ودَنَّسَهَا بالمخالفات ؛ فلم يرضَ بعَدَمِ المعانى حتى ضمَّ إلى فَقْرِها منها الدعاوى المظلمة ... فغرقت فى بحرِ الشقاء سفينتُه .

---

(١) بأن سوى عليهم الأرض .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (أصلح) وقد رجَّحنا ما أثبتنا ، فهكذا الآية ، ثم ما تلا هذه العبارة .

سُورَةُ اللَّيْل

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ تُخْبِرُ عن إلهيةِ الله ؛ وهى استحقاقُه لنعوتِ المجد والتوحُّد ، وصفاتِ العزِّ والتفرُّد ؛ فَمَنْ تجرَّدَ فى طَلَبِه عن الكسلِ ، ولم يستوطنْ مركبَ العجزِ والفشلِ ، ووَضَعَ النظر موضعَه وَصَلَ بدليل العقل إلى عرفانه ، ومَنْ بَذَلَ روحَه ونَفْسَه ووَدَّعَ فى الطلبِ راحتَه وأُنْسَه ، ولم يُعَرِّجْ فى أوطان الوقفة ظفر بحكم الوصل إلى شهود سلطانه ، والناسُ فيه بين مُوَفَّقٍ ومخذول ، أو مؤيَّدٍ ومردود .

قوله جل ذكره : « والليلِ إذا يَغْشَىٰ » .

يغشى الأفقَ ، وما بين السماء والأرض فيستره بظُلْمتِه .

والليلِ لأصحاب التحيُّر يستغرق جميعَ أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشد .

« والنهارِ إذا تجلَّىٰ »

أنارَ وظَهرَ ، ووَضح وأسفر .

ونهارُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم ، حتى لا يَخْفَى عليهم شىء ، فسكنوا بطلوعِ الشمس[1] عن تكلُّفِ إيقاد السراجِ[2] .

« ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثىٰ » .

أى : « من » خَلَقَ الذكر والأنثى ؛ وهو الله سبحانه :

« إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّىٰ » .

هذا جوابُ القَسَم ، والمعنى : إنَّ عملكم لمختلف ؛ فمنكم : مَنْ سَعْيُه فى طلب دنياه ، ومنكم مَنْ سعيُه فى شهواتِ نَفْسِه واتباع هواه ، ومنكم مَنْ فى طَلَبِ جاهِه ومُناه ، وآخرُ فى طلبِ عقباه ،

(١) يقصد شمس التوحيد .

(٢) إذا طلعت شمس التوحيد لم تُغْنِ محاولات العقل ، لأن نورها يطغى على كل الأنوار .

وآخر فى تصحيح تقواه ، وآخر فى تصفية ذكراه ، وآخر فى القيام بحُسْنِ رضاه ، وآخر فى طلب مولاه .

ومنكم : من يجمع بين سعى النفْس بالطاعة ، وسَعْى القلب بالإخلاص ، وسعى البَدَن بالقُرَب ، وسعى اللسان بذكر الله ، والقول الحَسَنِ للناس ، ودعاء الخَلْقِ إلى الله والنصيحة لهم .

ومنهم مَنْ سعيُهُ فى هلاكِ نَفْسِهِ وما فيه هلاك دنياه . . ومنهم . . ومنهم .

قوله جل ذِكْرُه : « فأمَّا مَنْ أعطىٰ واتَّقىٰ * وصَدَّقَ بالحُسْنىٰ * فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرَىٰ »

« فأمَّا من أعطى » من مالِه ، « واتقى » مخالفةَ ربِّه ...

ويقال : « أعطى » الإنصافَ من نَفْسِه ، « واتقى » طَلَبَ الإنصافِ لنفسه[1] . . .

ويقال : « اتقى » مساخِطَ اللهِ . « وصدّق بالحسنى » : بالجنة ، أو بالكَرَّةِ الآخرة ، وبالمغفرةِ لأهل الكبائر ، وبالشفاعة من جهة الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، وبالخَلَفِ[2] من قِبَلِ اللهِ ... فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى : أى نُسَهِّلُ عليه الطاعاتِ ، ونُكَرِّهُ إليه المخالفاتِ ، ونُشَهِّى إليه القُرَبَ ، ونُحَبِّبُ إليه الإيمانَ ، ونُزَيِّنُ فى قلبه الإحسان .

ويقال : الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته .

« وأمَّا مَن بَخِلَ واستغنىٰ * وكَذَّبَ بالحسنىٰ * فَسَنُيَسِّرُه للعُسْرَىٰ » .

أما من مَنَعَ الواجبَ ، واستغنى فى اعتقاده ، وكَذَّبَ بالحسنى : أى بما ذَكَرْنا ، فسنيسره للعسرى ؛ فيقع فى المعصية ولم يُدَبِّرْها ، ونوقف[3] له أسبابَ المخالفة .

ويقال « أعطى » أعْرَضَ عن الدارين ، « واتَّقى » أن يجعل لهما فى نفسه مقداراً .[4]

---

(١) من الصورة أن تتحلّى بالإنصاف وأن تتخلّى عن الانتصاف . . هكذا قال الشيوخ .

(٢) (الخَلَف) بالمعنى العام : إن الله يرث الأرض ومن عليها ، وبالمعنى الصوفى : «فالذين يهبهم – فى حال الفناء والمحق – فهو عنهم خَلَف (انظر بسمة الأحقاف من هذا المجلد) .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (نوفق) وهى مقبولة أيضاً (فالتوفيق) للعسرى هو التيسير لها كما فى الآية .. بل لعلّها أقرب إلى السياق عما فى ص .

(٤) حتى يبتعد عن الأعواض والأغراض ، وينقى قلبه لله وحده .

قوله جل ذكره : « وما يُغْنِي عنه ماله إذا تَرَدَّىٰ »

يعنى : إذا مات .. فما الذى يغنى عنه ماله بعد موته ؟

قوله جل ذكره : « إن علينا لَلْهُدَىٰ »

لأوليائنا ، الذين أرشدناهم . ويقال : « إن علينا للهدى » بنصيب الدلائل .

« وإنَّ لنا للآخِرَةَ والأُولىٰ »

مِنْكاً ، نعطيه من نشاء .

« فأنذَرْتُكم ناراً تَلَظَّىٰ »

أى : تتلظَّى .

« لا يَصْلاها إلاَّ الأشْقَى »

أى : لا يُعَذَّبُ بها إلَّا الأشقى ، وهو :

« الذى كَذَّبَ وتولىٰ »

يعنى : كَفَرَ .

« وسَيُجَنَّبُها الأتقى * الذى يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّىٰ »

يعطى الزكاةَ المفروضة .

ويقال يتطهَّر من الذنوب .

ونزلت الآية فى (أبى بكرٍ)[1] رضى الله عنه . والآية علمة .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى م ، ويوجد فقط « رضى الله عنه » وفى م : يوجد فقط (والآية عامة) فأكلنا السياق .

ويروى : أن النبى (ص) مر ببلال وهو يعذب فى الله ويقول : أحد أحد ، فلما نقل ذلك إلى أبى بكر ، عرف أبو بكر ما يريده النبى ، فذهب إلى أمية بن خلف ، واشترى بلالا وأعتقه ، فلما قال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده ، نزل قوله تعالى : «وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» .

« وما لأحَدٍ عنده مِن نِّعمةٍ تُجْزَىٰ »

حتى تكون هذه مكافأةً له . ولا يفعل هذا ليَتَّخِذَ عند أحدٍ يَداً ، ولا يطلب منه مكافأة :

« إلاَّ ٱبتغاءَ وَجْهِ ربِّهِ الأعلىٰ »

أى : ليتقرَّبَ بها إلى الله .

« ولسوف يَرْضَىٰ »

يَرْضَى اللهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سُورَةُ الضُّحَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لا يُشْبِهُهُ كُفُوٌ[1] فى ذاتِهِ وصفاتِهِ ، ولا يَستفزُّه[2] لَهْوٌ فى إثباتِ مصنوعاته ، ولا يعتريه سَهْوٌ فى عِلْمِهِ وحكمتهِ ، ولا يعترضه لَغْوٌ فى قوله وكلمتِهِ .

فهو حكيمٌ لا يلهو ، وعليمٌ لا يسهو ، وحليمٌ يُثْبِتُ ويمحو ؛ فالصدق قَوْلُه ، والحقُّ حُكْمُهُ ، والخَلْقُ خَلْقُهُ والمُلْكُ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : « والضُّحىٰ * والليلِ إذا سَجَا »

« والضحى » : ساعةٌ من النهار . أو النهارُ كلُّه يُسَمّى ضُحًى . ويقال : أقسم بصلاة الضُّحى .

ويقال : الضحى الساعةُ التى كَلَّم فيها موسى عليه السلام .

« والليلِ إذا سجا » أى : ليلة المعراج ، و « سجا » : أى سَكَنَ ، ويقال : هو عامٌّ فى جِنْسِ الليلِ .

ويقال : « الضحى » وقت الشهود . « والليل إذا سجا » الذى قال : إنه لَيُغَانُ على قلبى[3] . . . »

---

(١) أصلها « كفؤٌ » أى مماثل ، أو قوى قادر على تصريف العمل .
ويقرأ بضم الفاء وسكونها ، فإن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز فى عينه الضم والاسكان إلا قوله تعالى « وجعلوا له من عباده جزءاً » (آية ١٥ سورة الزخرف) .

(٢) استفزه الشىء = استخفه ، واستفزه فلان = أثاره وأزعجه .

(٣) عن أغر مزينة قال : قال رسول الله (ص) : إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى . وفى رواية لمسلم : « توبوا إلى ربكم ، فوالله إنى لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » .

ويقال : « الليل إذا سجا » حين ينزل اللهُ فيه إلى السماء الدنيا — على التأويل الذى يصحُّ فى وصفه[1] .

« ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ »

ما قَطَعَ عنك الوحىَ وما أبغضك[2] .

وكان ذلك حين تأخَّر جبريلُ — عليه السلام — عنه أياماً[3] ، فقال أهل مكة : إن محمداً قد قلاه ربُّه . ثم أنزل اللهُ هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثنى عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل : إن شاء الله[4] .

« وللآخِرةُ خيرٌ لَكَ من الأولىٰ »

أى : ما يعطيك فى الآخرة خيرٌ لَكَ مما يعطيك فى الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والحوض ، وما يُلْبِسُك من لباس التوحيدِ — غداً — خيرٌ مما أعطاكَ اليومَ .

« ولسوفَ يُعْطِيكَ ربُّكَ فَتَرْضَىٰ »

قيل : أفترضى بالعطاء عن المُعْطِى ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : « ألم يجدك يتيماً فآوىٰ ؟ »

---

(١) تقدَّم التعليق على هذا الخبر فى هامش سبق .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (يفضيك) .

(٣) فى البخارى عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله (ص) فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة (هى العوراء بنت حرب أخت أبى سفيان ، وهى حمالة الحطب ، زوج أبى لهب) فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله عز وجل « والضحى » .

(٤) يقال : إن جروأ دخل تحت السرير فى حجرته ومات ، فلما تغيب الوحى سأل خادمه خولة : يا خولة ما حدث فى بيتى ؟ ما لجبريل لا يأتينى ؟ فلما قامت إلى البيت فكنسته وأخبرته بما وجدت .. فلما عاده الوحى سأله عن سر تأخره فقال جبريل : أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟

قيل : إلى عمِّه أبى طالب .

ويقال : بل آواه إلى كَنَفِ ظِلِّه ، وربَّاه بلطف رعايته .

ويقال : فآواكَ إلى بِساطِ القربة بحيث انفردْتَ بمقامِك ، فلم يُشَاركْك فيه أحدٌ

« ووَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ »

أى : ضللْتَ فى شِعابِ مكة ، فَهَدَى إليكَ عَمَّكَ أبا طالبٍ فى حال صباك .

ويقال : « ضالًا » فينا متحيِّزاً .. فهديناك بنا إلينا .

ويقال : « ضالًا » عن تفصيل الشرائع ؛ فهديناك إليها بأن عرَّفناك تفصيلَها .

ويقال : فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك .

وقيل : « ضالًا » للاستنشاء[1] فهداك لذلك .

ويقال « ضالاً » فى محبتنا ، فهديناك بنور القربة إلينا .

ويقال : « ضالاً » عن محبتى لكَ فعرَّفتك أنِّى أُحِبُّك .

ويقال : جاهلًا بمحلِّ شرفِكَ ، فعرَّفْتُك قَدْرَكَ .

ويقال : مستتراً فى أهل مكةَ لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك[2]

« ووجدك عائِلاً فأَغْنَىٰ »

فى التفسير : فأغناكَ بمال خديجة .

ويقال : أغناكَ عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد[3]

ويقال : أغناكَ بالنبوَّة والكتاب . ويقال : أغناك بالله .

---

(١) الكلمة غير واضحة الرسم فى النسختين ، وقد رجحنا هذه الكلمة لأنها أقرب إلى ما فى م ، ولأن من القصص السابقة ما يشير إلى أنه لم يقدم المشيئة فعوتب فى ذلك «ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله »

(٢) ربما تتفق هذه الإشارة مع ما جرت عليه العرب فى وصف الشجرة المنفردة فى الفلاة لا شجر معها بأنها ضالة يهتدى بها إلى الطريق لأنها علامة مميزة ، فهى معروفة لذاتها ، ولأنها علامة على الطريق هادية إليه .

(٣) هكذا فى م ، وهى فى ص (بالعقل) ، ولكننا نرجح ما جاء فى م ، ولا نستبعد أنها فى الأصل (الفقر) .. فالرضا فى حال الفقر أو (الفقد) أتم فى النعمة من الرضا فى حال الغنى .. وهل أعظم من الغنى بالله ؟ !

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداء ؛ بلا سؤالٍ منك .

قوله جل ذكره : « فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر »

فلا تُخِفْه ، وارفقْ به ، وقرِّبْه

« وأمَّا السَّائلَ فلا تَنْهَرْ »

أى : إمَّا أنْ تُعْطِيَه . . أو تَرُدَّه برِفْقٍ ، أو وعدٍ .

ويقال : السائلُ عنَّا ، والسائلُ المتحيِّرُ فينا — لا تنهرهم ، فإنَّا نهديهم ، ونكشف مواضع سؤالهم عليهم . . فلاطِفْهم أنت فى القول .

« وأمَّا بنعمةِ ربِّك فَحَدِّث »

فاشكُرْ ، وصَرِّحْ بإحسانه إليك ، وإنعامه عليك .

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَن التجأ إليه ، وجَلَّ مَنْ توكَّلَ عليه ، وفاز فى الدنيا والعُقْبَى مَنْ تَوَسَّلَ به إليه ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ منه قَرَّبَه ومَنْ شكاَ إليه حَقَّقَ له مَطْلَبَه ، ومَنْ رَفَعَ قصَّته إليه قَضَى مأربَه .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرَكَ ؟ »

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ للإسلام ؟ ألم نُلَيِّنه للإيمان ؟

ويقال : ألم نوسع صدرك بنور الرسالة ؟ ألم نوسِّع صدرك لقَبُولِ ما نوردُ عليك .

« ووَضَعْنَا عنك وِزْرَكَ * الذى أنقضَ ظَهْرَكَ »

أى : إثمَكَ قبل النبوَّة .

ويقال : عصمناكَ عن ارتكابِ الوِزْرِ ؛ فَوَضْعُهُ عنه بأنَّه لم يستوجبْهُ قطّ .

ويقال : خفضنا عنك أعباء النبوَّة وجعلناكَ محمولاً لا متحمِّلاً[1] .

ويقال : قويناكَ على التحمُّل من الخَلْق ، وقوَّيناكَ لمشاهـــــدتنا ، وحفظنا عليك ما استحفظت [2] ، وحرسناكَ عن ملاحظة الخَلْق فيما شرَّفناكَ به .

---

(١) وهذه أقصى درجات الحب ، وقد مر بنا كيف قارن القشيرى بين مواقف موسى ، ومواقف المصطفى صلوات الله عليهما ، وكيف أوضح لنا أن موسى كان متحملا بينما كان نبيا محمولا .

(٢) إشارة إلى القرآن ، الذى حفظ من التغيير والتحريف .. إلى الأبد .

« الذى أنقض ظهرك » : أى : أثقله ، ولولا حَمْلُنا عنك لَـكُسِرَ .

« ورَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ »

بِذِكْرِنا ؛ فكما لا نَصِحُّ كلمةُ الشهادة إلا بى ، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك .(١)

ويقال : رفعنا لك ذكرك بقول الناس : محمد رسول الله !

ويقال : أثبتنا لك شرف الرسالة .

« فإنَّ مع العُسْر يُسْراً * إنَّ مع العُسْر يُسْراً »

وفى الخبر : « لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن »(٢) ومعناه : أن العسر بالألف واللام فى الموضعين للعهد — فهو واحد ، واليُسْر مُنكَّرٌ فى الموضعين فهما شيئان . والعُسْر الواحد : ما كان فى الدنيا ، واليُسْران : أحدهما فى الدنيا من الخصب ، وزوال البلاء ، والثانى فى الآخرة من الجزاء ؛ وإذاً فعُسْرُ جميع المؤمنين واحد — وهو ما نابهم من شدائد الدنيا ، ويُسْرُهم اثنان : اليومَ بالكَشْفِ والصَّرْفِ(٣) ، وغداً بالجزاء .

قوله جل ذكره : « فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ »

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانْصَبْ فى الدعاء .

ويقال : فإذا فرغت من العبادة فانصب فى الشفاعة .

ويقال : فإذا فرغت من عبادة نَفْسِك فانْصَبْ بقلبك .

« وإلى ربِّك فارغَب »

فى جميع الأحوال .

ويقال : فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب فى الشفاعة .

---

(١) فلا تصح الشهادة شرعاً إلا إذا قلنا : .... وأن محمداً رسول الله .

(٢) البخارى ص ١٤٥ ج ٣ .

(٣) (الكشف) هنا ليس كما قد نفهم من قبيل المصطلح الصوفى ، بل هو كشف الغمة وصرف المحنة ، فهى لفظة عامة فى هذا السياق .

سُورَةُ التِّين

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

اسم « الله » يدلُّ على جلالِ مَنْ لم يَزَلْ ، ويُخْبِرُ عن جمالِ مَنْ لم يَزَلْ ، ينبه على إقبالِ مَنْ لم يَزَلْ ، يشير إلى إفضال من لم يَزَلْ ؛ فالعارف شهد[1] جلالَه فطَاش ، والصفيُّ شهد جمالَه فعاش ، والوليُّ شهد إقباله فارتاش ، والمريدُ يشهد إفضالَه فلا يطلب مع كفايته المعاش .

قوله جل ذكره : « والتينِ والزيتُونِ »

أقسم بالتين لما به من عظيم المِنَّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه النَّوى ، وخَلَّصَه من شائب التنغيص ، وجعله على مقدار اللُّقْمة لتكمل به اللذَّة . وجعل فى « الزيتون » من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به .

« وطُورِ سينينَ »

الجبل الذى كَلَّمَ الله موسى عليه . ولموضعِ قَدَمِ الأحبابِ حُرْمةٌ .

« وهذا البَلَدِ الأمينِ »

يعنى : مكة ، ولهذا البلد شرف كبير ، فهى بلدُ الحبيب ، وفيها البيت ؛ ولبيتِ الحبيبِ وبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة.[2]

---

(١) من هنا يبدأ فى النسخة بياض فى النسخة ص يتلوه . سقوط حتى بداية سورة العاديات . ولهذا نعتمد فيما بين الموضعين على النسخة م وحدها .

(٢) مما ذهب المفسرون فى تفسير : التين والزيتون وطور سنين ، والبلد الأمين قول بعضهم : إن التين إشارة إلى جبل دمشق وهو مأوى عيسى عليه السلام ، وبالزيتون جبل بيت المقدس فهو مقام الأنبياء جميعهم ، وطور سينين إشارة إلى موسى كليم الله ، والبلد الأمين إشارة إلى أن مكة بها بيت إبراهيم وبها دار محمد صلى الله عليه وسلم .. فكأن مطالع السورة تشير إلى النبوات البارزة .

قوله جل ذكره : « لقد خَلَقْنا الإنسانَ فى أحسنِ تقويم » .

فى اعتدال قامتِهِ ، وحُسْنِ تركيب أعضائه . وهذا يدل على أنَّ الحقَّ — سبحانه — ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ اشترك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغةُ للحقِّ . . كالعلم ، فالأعلمُ اللهُ ، والقدرة : فالأقدَرُ اللهُ فلو اشترك الخَلْقُ والخالقُ فى التركيب والصورة لكانَ الأحسن فى الصورة اللهُ ... فلمَّا قال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » عُلِمَ أنَّ الحقَّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن التقويم وعن الصورة .(١)

قوله جل ذكره : « ثم رَدَدْناهُ أسفلَ سافلينَ »

أى : إلى أرذل العمر وهو حال الخَرَفِ(٢) والهَرَم .

ويقال : « أسفل سافلين » : إلى النار والهاوية فى أقبح صورة ؛ فيكون أوَّلُ الآيةِ عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفَّار .. كما أنَّ التأويلَ الأولَ — الذى هو حال الهَرَم — خاصٌّ فى البعض؛ إذ ليس كلُّ الناسِ يبلغون حالَ الهَرَم .

« إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ فلهم أجْرٌ غيرُ ممنون »

أى : غير منقوص .

ويقال : « ثم رددناه أسفل سافلين » أى : إلى حال الشقاوة والكفر إلَّا المؤمنين .

قوله جل ذكره : « فما يُكذِّبُك بَعدُ بالدِّينِ »

أيها الإنسانُ . . مع كل هذا البرهانَ والبيان ؟

« أليسَ اللهُ بأحْكمِ الحاكمين » ؟

---

(١) فى هذا ردٌّ جميل مقنع على المشبهة ، وعلى كل ذى تصور وهمى للألوهية .

(٢) الخرف = فساد العقل بسبب كبر السِّن .

سُورَةُ العَلَق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يوجِبُ أحدَ أمرين : « إمَّا صَحْواً وإمَّا مَحْواً » ؛ صحواً لِمَنْ سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه ، أو محواً لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحيَّر فى جلال سلطانه .

قوله جل ذكره : « اُقرَأْ باسم ربِّكَ الذى خَلَقَ »

هذه السورة من أوّلِ ما نَزَلَ على المصطفى صلَّى الله عليه وسلم لما تعرَّض له جبريل فى الهواء ، ونَزَلَ عليه فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . فالناسُ كلُّهم مريدون — وهو صلى الله عليه وسلم كان مُرَادًا . فاستقبل الأمر بقوله : « ما أنا بقارئٍ » ، فقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئٍ ، فقال له : اقرأ كما أقول لك ؛ اقرأ باسم ربك الذى خلق . أى خلقهم على ما هم به .

« خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ »

العَلَق جمع عَلَقَة ؛ كشجَرٍ وشجرة .. (والعَلَقَةُ الدمُ الجامد فاذا جرى فهو المسفوح) .

« اُقرأْ وربُّكَ الأكرمُ »

« الأكرم » : أى الكريم .

ويقال : الأكرم من كلِّ كريم .

« الذى عَلَّمَ بالقَلَمِ * عَلَّمَ الانسانَ ما لم يعلَم »

عَلَّمهم ما لم يعلموا : الضرورىَّ ، والكسبىَّ .

« كلاَّ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَىٰ * أن رآه استغنىٰ »[1]

أى : يتجاوز حَدَّه إذا رأى فى نفسه أنه استغنى ؛ لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره .

ولم يقل : إن استغنى بل قال : « أن رآه استغنى » فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه ، وكان مشاهداً لمحلِّ افتقاره — لم يكن طاغياً[2] .

قوله جل ذكره : « إنَّ إلى ربِّك الرُّجْعَىٰ » .

أى : الرجوع يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « أرأيتَ الذى يَنهَىٰ * عبداً إذا صلىٰ »

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ ففى الآية هذا الإضمار .

« أرَأيْتَ إن كان على الهُدَىٰ * أو أمر بالتَّقْوىٰ »

لكان خيراً له ؟

« أرأيتَ إنْ كذَّب وتولَّى »

كذَّب بالدِّين ، وتولَّى عن الهداية .

قوله جل ذكره : « ألم يعلم بأنَّ اللهَ يرىٰ » ؟

أى : ما الذى يستحقُّه مَنْ هذه صفته ؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة ـ ومَنْ لم يَبْلُغْ حالَ المراقبة لم يَرْتَقِ منه إلى حال المشاهدة .

قوله جل ذكره : « كلاَّ لَئن لَّمْ يَنتهِ لَنَسْفَعاً بالناصية * ناصيةٍ كاذِبَةٍ خاطِئة »

---

(١) قيل نزلت فى أبى جهل حين نهى النبى «ص» عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه أن يصلى فى المسجد ويقرأ باسم الرب .. والذين يرون ذلك يرون أن السورة ليست من أوائل ما نزل من القرآن . أو يجوزون أن تكون أوائل السورة كذلك وأن بقيتها فى شأن أبى جهل – أى متأخرة .

روى البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى ذلك فقال : لو فعل لأخذته الملائكة . (البخارى ـ ٣ ص ١٤٦) .

(٢) من أشد آفات الطريق خطراً ملاحظة النفس ، وناهيك بدعاواها .

لَنَأْخُذَنَّ بناصيته (وهى شَعْرُ مُقَدَّم الرأس) أَخْذَ إذلالٍ . ومعناه لنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ .

وقوله : « ناصية كاذبة خاطئة » بدلٌ من قوله : « لنسفعاً بالناصية »[1]

« فَلْيَدْعُ نادِيَهُ * سَنَدْعُ الزبانية »

فليدعُ أهلَ ناديَه وأهل مجلسه ، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه .

قوله جل ذكره : « كلاَّ لا تُطِعْهُ واسجُد واقترِب »

أى : اقتربْ من شهود الربوبية بقلبك ، وقِفْ على بِساط العبودية بنَفْسك .

ويقال : فاسجُدْ بنفسِك ، واقترِبْ بسِرِّك[2] .

---

(١) نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية يقصد بها صاحب الناصية كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، أى هو صائم فى نهاره وقائم فى ليله .

(٢) السجود عبادة الظواهر ، ولهذا ربطها القشيرى بالنفس ، فكل ما يتصل بالظاهر يرتبط – عنده – بالنفس ، وأمّا الاقتراب فهو عبادة الباطن المرتبطة بالسرّ .

سُورَةُ القَدْر

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ تُحْضِرُ قلوبَ العلماء لتأمُّل الشواهد ، وتُسْكِرُ قلوبَ العارفين إذا وردوا المشاهِد . . فهؤلاء أحضرهم فبَصَّرَهم ، وعلى استدلالهم نصرهم .

وهؤلاء بشرابِ محابِّه أسكَرَهم ، وفى شهودِ جلالِه حَيَّرَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلناهُ فى ليلةِ القَدْرِ » .

فى ليلةٍ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه ، فى ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسِهم ، ويشهد فيها العارفون قَدْرَ معبودهم . . وشتان بين وجودِ قَدْرٍ * وشهودِ قَدْرٍ ! فلهؤلاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم ، ولهؤلاء شهود قدرٍ ولكن قدر معبودهم

« وما أدراك ما ليلةُ القدْرِ » ؟

استفهامٌ على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة .

« ليلةُ القدْرِ خيرٌ مِّن ألفِ شهرٍ » .

أى : هى خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر . هى ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها فى مسامرةٍ وخطاب . . كما قيل :

يا ليلة من ليالى الدهرِ قابلت فيها بَدْرَها بِبَدْرِ
ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجْرِ حتى تولَّت وهى بِكْرُ الدهرِ

قوله جل ذكره : « تَنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها
بإذن رَبِّهم من كلِّ أمْرٍ * سلامٌ
هى حتَّى مطلعِ الفجر » .

« الروح فيها » : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عظيم

« بإذن ربهم » : أى بأمر ربهم .

« من كل أمر سلام » : أى مع كل مأمورٍ منهم سلامى عَلَى أوليائى[1] .

« هى حتى مطلع الفجر » : أى هى باقية إلى أن يطلع الفجر .

---

(١) قد يتأيد رأى القشيرى فى اختيار هذا النسق الذى يتم به الكلام بما يرويه أنس ــ قال : قال رسول الله (ص) : إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة (جماعة) من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى .

سُورَةُ لَمْ يَكُن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تَنَصَّل إليه المذنبون فَغَفَرَ لهم وجبرَهم[1] ؛ وتوسّلَ إليه المطيعون فوَصَلَهم ونَصَرَهم .

تَعَرَّفَ إليه العالِمون فبَصَّرَهم ، وَتَقَرَّب منه العارفون فَقَرَّبهم . . . لكنه — سبحانه — في جلاله حَيَّرَهم[2] .

قوله جل ذكره : « لم يكُنِ الذين كَفَرُوا من أهل الكتابِ والمشرِكينَ مُنفكِّينَ حتى تأتيهُم البَيِّنَةُ » .

« منفكين » : مُنْتَهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيِّنة : وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي لم يزالوا مجتمعين عَلَى تصديقه ؛ لِمَا وَجَدوه في كتبهم إلى أنْ بَعَثَه الله تعالى . فلمّا بعثَه حسدوه وكفروا .

« رسولٌ من الله يتلوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » .

---

(١) في النسخة م توجد بعد هذا الموضع العبارة التالية «وتوكّل إليه العموفون فجبرهم» . ونستبعد وجودها في الأصل ؛ لأن ترتيب العارفين لا يأتي بين المذنبين والمطيعين ، وإنما يأتي بعد « العالمين » ، كما هو ثابت في النسخة على هذا النحو الذي أثبتناه هنا . كما أنّ « جبرهم » فعل يتصل بالزلاّت والذنوب ... فيبدو أن العبارة متصلة بالمذنبين ، ويتأيد ما اخترناه بالسياق الذي نألفه في أسلوب البسملة عند الشيخ ، فضلا عن خدمته للموسيقى والمعنى .. وهما العنصران الأساسيان في نسيج البسملة عنده .

(٢) التحيّر في الجلال صفة مدح ، ولذا يقول يحيى بن معاذ : يا دليل المتحيرين زدني تحيراً .. لأنه غرق في بحر الوجود عند الشهود .

أى حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُباً مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

« فيها كتب قيمة » [1] : مستوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره : « وَما تَفَرَّقَ الذين أوتوا الكتابَ
إلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتهم البيِّنَةُ » .

يعنى : القرآن .

قوله جل ذكره : « وما أُمِروا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصينَ
له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤْتُوا
الزكاةَ وذلك دِينُ القيِّمة » .

« مخلصين له الدين » أى موحِّدين لا يُشرِكون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ ألَّا يكونَ شيءٌ من حركاتك وسَكَناتك إلَّا لله .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخَلَلِ .

« حنفاء » : مائلين إلى الحقِّ ، عادلين عن الباطل [2] .

« ويقيموا الصلاة . . وذلك دِينُ القيِّمة » : أى دينُ الملَّةِ القيمة ، والأمة القيِّمة ، والشريعة القيِّمة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفروا من أهل الكتابِ
والمشركينَ فى نارِ جهنَّمَ خالدين فيها
أولئك هم شَرُّ البَرِيَّة » .

« خالدين فيها » : مقيمين . « البريَّة » : الخليقة .

« إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
أولئك هم خَيْرُ البريَّة » .

---

(١) يرى القرطبي : أن « كتبا » هنا بمعنى الأحكام ؛ لأن كَتَبَ بمعنى حَكَمَ ، قال تعالى : « كَتَبَ اللهُ لأغلبَنَّ » سورة المجادلة .

(٢) كلمة « حنيف » من الأضداد ، فهى تحمل معنى (الميل) عن الباطل و (الاستقامة) فى طريق الحق .

أى : خير الخلق ، وهذا يدل عَلَى أنهم أفضلُ من الملائكة .

قوله جل ذكره: « جزاؤهم عند ربِّهم جنَّاتُ عَدْنٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً » .

« جزاؤهم » : أى ثوابهم فى الآخرة عَلَى طاعاتهم .

« تجرى من تحتِهَا الأنهار » أى : من تحت أشجارها الأنهار .

« رَّضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه » .

فلم تَبْقَ لهم مطالبةٌ إلَّا حقَّقَها لهم .

« ذلك لِمَنْ خَشِىَ ربَّهُ » .

أى : خافَهُ فى الدنيا .

والرضا سرورُ القلب بمرِّ القضَا .

ويقال : هو سكونُ القلبِ تحت جَرَيان الحُكْم .

سُورَةُ الزّلزلة

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ تَأَمَّلَها بمعانيها وَوقَفَ عَلَى ما أُودِعَ فيها رَتَعَتْ أسرارُه فى رياضٍ من الأُنْسِ مونِقة، وأينعت أفكارُه بلوائح من اليقين مُشْرِقة ، فهى عَلَى جَلال الحقِّ شاهدة ، وهى على مايحيط به الذِّكْرُ ويأتى عليه الحَصْرُ زائدة .

قوله جل ذكره: « إذَا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها * وأخْرَجَتِ الأرضُ أثقالَها » .

أى: أمواتَها ، وما فيها من الكنوز والدفائن .

« وقال الإنسانُ مالَها » ؟

يعنى الكافرُ الذى لا يُؤْمِنُ بها أى بالبعث[1] .

« يومئذٍ تُحَدِّثُ أخبارَها » .

يومئذٍ تُخْبِرُ الأرضُ :

« بأنَّ رَبَّكَ أوْحَى لها » .

أى : إنما تفعَل ذلك بأمر الله .

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : «هو الأسود بن عبد الأسد » ويرى بعض المفسرين: أن الإنسان هنا هو كل إنسان من مؤمن وكافر لأن الجميع لا يعلمون أشراط الساعة فى ابتداء أمرها إلى أن يتحققوا عمومها ، ولذا يسأل بعضهم بعضاً .

أمَّا القشيرى فقد نظر إليها من ناحية الاعتراف وجعل من يسأل عنها كافراً بها جاحداً لها . أمَّا المؤمن فلا حاجة له فى السؤال .

«يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتاً لِيُرَوْا[1]

أعمالَهُمْ » .

« أشتاتاً » : متفرّقين . « ليُرَوا أعمالَهم » ليُحاسَبوا .

قوله جل ذكره : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَهُ *

ومَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَهُ » .

فيُقاسِي عناءه .

(١) هذه قراءة العامة . وقرأ الحسن والزهري وقتادة والأعرج وابن عاصم وطلحة بفتحها : «ليَرَوْا» .

سُورَةُ العَادِيَات

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ غَيورٌ لا يَصْلُح لذكرها إلّا لسانٌ مصونٌ[1] ، عن اللّغْوِ والغيبة ، ولا يصلح لمعرفتها إلّا قلبٌ محروسٌ عن الغفلة والغيبة[2] ، ولا يصلح لمحبتها إلّا رُوحٌ محفوظةٌ عن العلاقة والحجبة .

قوله جل ذكره : « والعادياتِ ضَبْحًا » .

« العاديات » : الخيلُ التى تعدو[3] .

« ضبحاً » أى إذا ضَبحن ضبحاً ، والضبحُ : هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ . ويقال : ضبحُها هو شِدةُ نَفَسِها عند العَدْوِ .

وقيل : « العاديات » ؛ الإبل[4] .

وقيل : أقسم الله بأفراسِ الغزاة[5] .

« فالمُورياتِ قَدْحًا » .

تورى بحوافرها النار إذا عَدَتْ وأصابَتْ سنابِكُها الحجارة بالليل .

---

(١) من هذا الموضع تبدأ النسخة ص بعد البياض والسقوط اللذين أشرنا إليهما من قبل .

(٢) الغيبة المتصلة باللسان هى الكلام فى حقّ الغائب ، والغيبة المتصلة بالقلب هى ورود وارد من أى نوع يُعَطِّل الاتجاه الكامل نحو المحبوب ، كالتفكير فى الثواب أو الخوف من العقاب ، أو الطمع فى الأعواض ، أو استعجال شىء .. ونحو ذلك مما يشوب كأس المحبة من غيرية . .

(٣) العَدْوُ : هو تباعد الأرجل فى سرعة المشى .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (الليل) وهى خطأ فى النسخ والفعل المستعمل مع الإبل هو (ضبح) فتكون (ضبحا) هنا بحاء مبدلة عن عين (القرطبى حـ٢٠ ص ١٥٦)

(٥) فى الخبر : «من لم يعرف حرمة فرس الغازى ففيه شعبةٌ من النفاق » .

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال : هى الأسِنَّة .

« فالمُغيراتِ صُبْحاً » .

تُغير على العدوِّ صباحاً .

« فأثَرْنَ به نَقْعاً » .

أى : هَيَّجْنَ به غباراً .

« فوَسَطْنَ به جَمْعاً » .

أى : تَوَسَّطْنَ المكان ، أى : تتوسط الخيل بفوارسها جَمْعَ العَدُوِّ .

« إنَّ الإنسانَ لِربِّهِ لَكَنُودٌ » .

هذا هو جوابُ القَسَمِ .

« لكنود » : أى لكَفُور بالنعمة[1] .

« وإنه عَلَى ذلك لَشَهيدٌ » .

أى : وإنه على كنوده لشهيد

« وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لشديدٌ » .

أى : وإنه لبخيلٌ لأجل حُبِّ المال[2] .

قوله جل ذكره : « أفلا يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما فى القبُور » .

أى : بُعِثَ الموتى .

« وحُصِّلَ ما فى الصُّدور » .

بُيِّنَ ما فى القلوب من الخير والشرِّ .

« إنَّ ربَّهم بهم يومَئِذٍ لَخَبير » .

---

(١) روى عن ابن عباس : أن الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، بلسان كنانة : البخيل السيءُ المَلَكَة .

(٢) قال تعالى : « إنْ ترك خيراً » آية ١٨٠ سورة البقرة .

أفلا يعلم أن اللهَ يُجازِيهم — ذلك اليومَ — على ما أسلفوا ، ثم قال عَلَى الاستئناف :
« إنّ ربهم بهم يومئـــذٍ لخبير » .

ويقال فى معنى الـكَنُود[1] : هو الذى يَرَى ما إليه مِنْ البَلْوَى ، ولا يرى ما هو به مِنْ النُّعْمَى .

ويقال : هو الذى رأسُه على وسادة النعمة ، وقَلْبُه فى ميدان الغفلة .

ويقال : الـكَـنُود : الذى ينسى النِّعَم ويَعُدُّ المصائب .

وقوله : « وإنّه على ذلك لشهيد » ، يحتمل : وإنّ اللهَ على حاله لشهيد .

---

(١) لعل القشيرى هنا مستفيد من قول ذى النون المصرى : الكنودُ : هو الذى إذا مسّه الشر جزوع ، وإذا مَسّه الخيرُ منوع . يجزع من البلوى ، ويمنع الشكر على النعمى .

سُورَةُ القَارِعَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا سمعها العاصون نَسُوا زَلَّتَهم فى جنب رحمته ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتَهم فى جنب إلٰهيته .

كلمةٌ مَنْ سمعها ما غادَرَتْ له شُغْلاً إلاَّ كَفَتْه ، ولا أمراً إلَّا أصلحَتْه ، ولا ذنباً إلَّا غفرَتْه ، ولا أرَباً إلَّا قضَتْه .

قوله جل ذكره : « القارِعةُ * ما القارِعةُ » .

القارعةُ : اسمٌ من أسماء القيامة ، وهى صيغة « فاعلة » من القَرْع ، وهو الضربُ بشدَّة . سُمِّيت قارعة لأنها تقرعهم .

« وما أدْراكَ ما القارِعةُ » ؟ .

تهويلاً لها .

« يومَ يكونُ الناسُ كالفَرَاشِ المبثوثِ » .

أى : المُتفرِّق . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضا .

« وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفُوشِ » .

أى : كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه : أن أصحابَ الدعاوى[1] وأرباب القوة فى الدنيا يكونون — فى القيامة إذا

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الدواعى) وهى خطأ من الناسخ ، وقد وردت صحيحة فيما بعد ؛ فالمقصود دعوى النفس .

بُعِثُوا — أضعفَ من كلِّ ضعيف ؛ لأن القُوى هنالك تسقط ، والدعاوى تَبْطُل .

قوله جل ذكره : « فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه * فهُو فى عِيشَةٍ رَّاضية » .

مَنْ ثقلت موازينُه بالخيرات فهو فى عيشة راضية ؛ أى مَرْضية .

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكون بوزن الصحف . ويقال : يخلق بَدَلَ كلِّ جزء من أفعاله جوهراً ، وتُوزَنُ الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

« وأمَّا مَنْ خَفَّتْ موازِينُه * فأُمُّه هاويةٌ » .

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات — وهم الكفارُ — فمأواه هاوية .

« وما أدْراكَ مَاهِيَه ؟ * نارٌ حامية » .

سؤالٌ على جهة التهويل[1] . ولم يَرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزَن ، ولكن يُجازَى كلٌّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له ، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكَسْبٍ منه .[2]

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (التحويل) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) بعد أن تحدث عن ميزان الأعمال تحدث عن ميزان الأحوال .. ومن المعلوم أن الأعمال جهود كسبية ، والأحوال مواهبُ فيضية .. ولكن قد يكون فيها شىء من الكسب فمثلا : إذا رضى العبد بالقبض أنعم الحقُّ عليه بالبسط ، وإذا راعى حدود الوقت ظفر بمقضيات الوقت وإلا ... كان الوقت عليه مقتاً والإنسان لا يحاسب إلا على ما كسب .

سُورَةُ التَّكَاثُر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ فى آزالِه عن كل مكان ، ولم يَحْتَجْ فى آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان ؛ لا يقطعه حدٌّ فأنَّى يجوز فى وَصْفِه المكان ؟ ولا يقطعه عَدٌّ فأنَّى تجوز فى وَصْفِه الزيادةُ والنقصان ؟[1]

قوله جل ذكره : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ المَقَابِرَ » .

أى : شَغَلَكم تَفَاخُرُكم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أنْ مِتُّم .

ويقال : كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم ؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء ، وبمن مضى من أسلافهم .

فقال لهم : شَغَلَكم تفاخركم فيما بينكم حتى عَدَدْتم أمواتكم مع أحيائِكم . وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةَ الله .

« كَلَّا سوفَ تعلمون * ثم كَلَّا سوفَ تعلمُون » .

على جهة التهويل .

« كَلَّا لو تعلمون عِلْمَ اليقينِ » .

أى : لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عمَّا أنتم فيه من التكذيب .

---

(١) واضح مدى ارتباط اتجاه القشيرى في إشارة البسملة بالجوّ العام للسورة الذى ينبنى على اتخاذ الزيادة والنقصان مقياساً للتفاخر والادعاء .

« لَتَرَوُنَّ الجحيمَ * ثم لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقين * ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عنِ النعيمِ ».

أراد جميعَ ما أعطاهم اللهُ من النعمة ، وطالَبهم بالشكر عليها .

ومن النعيم الذى يُسأَلُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع ؛ والرُّخَصُ فى العبادات .

ويقال : الماء الحار فى الشتاء ، والماء البارد فى الصيف .

ويقال : منه الصحّةُ فى الجسد ، والفراغ .(١)

ويقال : الرضاء بالقضاء . ويقال : القناعة فى المعيشة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) في البخارى وفي سنن ابن ماجه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .
ومعنى الغبن : أنهما نعمتان ولكن غالب الناس يصرفهما فى غير محالهما .

سُورَةُ الْعَصْـــر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها لم يَدَّخِرْ عنها[1] مَالَه ؛ لأنَّه عَلِمَ أنه — سبحانه — يُحْسِنُ مآلَه ، ومَنْ عَرَفَهَا لم يُؤْثِرْ عليها نَفْسَه ؛ لأنَّه لم يجد بدونها أُنْسَه .

كلمةٌ مَنْ صَحِبهَا لم يمنعْ عنها روحَه ؛ إذ وَجَدَ الحياةَ الأبدية له ممنوحة .[2]

قوله جل ذكره : « والعَصْرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ »

« العصر » : الدهر — أقسم به

ويقال : أراد به صلاةَ العصر . ويقال : هو العَشِيّ .

« الإنسان » : أراد به جِنْسَ الإنسان . « والخُسْر » : الخسران .

والمعنى : إن الإنسان لفى عقوبةٍ من ذنوبه . ثم استثنى المؤمنين فقال :

« إلَّا الذين آمنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ
وتَواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ » .

الذين أخلصوا فى العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ ، وتواصوا بالصبر .

وفى بعض التفاسير : قوله : « الذين آمنوا » يعنى أبا بكر ، «وعملوا الصالحات» : يعنى عمر

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (عنة) .

(٢) هكذا فى م وهى في ص (مفتوحة) وإن كانت هناك زيادة كالميم تتلو الميم الأولى .

و « وتواصوا بالحقِّ » يعنى عثمان ، و « وتواصوا بالصبر » يعنى علياً — رضى الله عنهم أجمعين .[1]

والخسرانُ الذى يلحق الإنسان على قسمين : فى الأعمال ويتبيَّن ذلك فى المآل ، وفى الأحوال ويتبيَّن ذلك فى الوقت والحال ؛ وهو القبضُ بعد البسط ، والحجبةُ بعد القربة ، والرجوعُ إلى الرُّخَص بعد إيثار الأَشَقِّ والأَوْلَى .

« وتواصوا بالحقِّ » : وهو الإيثارُ مع الخَلْق ، والصدقُ مع الحقِّ .

« وتواصوا بالصبر » : على العافية . . . فلا صبرَ أَتَمُّ منه .

ويقال : بالصبر مع الله . . وهو أشدُّ أقسام الصبر[2]

---

(١) تنسب هذه الرواية إلى أُبَىّ بن كعب الذى قال : قرأت على رسول الله (ص) « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبىّ الله ؟ فقال : « والعصر » قَسَمٌ من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار « إن الإنسان لفى خسر » : أبو جهل .. إلى آخر الرواية كما نقلها القشيرى .

(٢) انظر «الرسالة» باب الصبر ص ٩٢ .

سُورَةُ الهُمَزَة

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » : اسمُ مَنْ لا غَرَضَ له فى أفعاله ، اسمُ من لا عِوَضَ عنه فى جلالِه وجمالِه . اسمُ مَنْ لا يصيرُ العبدُ عنه مختاراً ، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ الفقيرُ[1] من دونه قَراراً ، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِه فِراراً .

قوله جل ذكره : « ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » .

يقال : رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَة : أى كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة .

ويقال : الهُمَزَة الذى يقول فى الوجه ، واللُّمزة الذى يقول مِنْ خَلْفِه .

ويقال : الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره ، واللَّمْزُ باللسان .

ويقال : الهُمَزَة الذى يقول ما فى الإنسان ، واللُّمَزَة الذى يقول ما ليس فيه .

قوله جل ذكره : « الذى جَمَعَ مالاً وعَدَّدَهُ » .

« جمَّع » بالتشديد[2] على التكثير ، وبالتخفيف .

« يَحْسَبُ أَنَّ مالَه أَخْلَدَهُ » .

أى : يُبْقِيه فى الدنيا . كلَّا ليس كذلك :

---

(١) الفقير هنا المقصود به الصوفىُّ المفتقر إلى الله ، انظر آخر السورة .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص غير موجودة ، مما قد يشعر باحتمال انصراف الكلام إلى «عدَّده» فهى أيضاً تقرأ على التشديد والتخفيف .

« كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فى الُحطَمَةِ * وما أدْراكَ ما الُحطَمَةُ * نارُ اللهِ المُوقَدَةُ * الَّتى تَطَّلِع على الأَفئِدة » .

لَيُطْرَحَنَّ فى جهنمَّ . « وما أدراك ما الحطمة » ؟ على جهة التهويل لها .

فهم فى نار الله الموقدة التى يبلغ أَلَمُها الفؤاد .

« إنَّها عليهم مُؤْصَدَةٌ » .

مُطبَقَة .

« فى عَمَدٍ مُمَدَّدة » .

« عَمَد » : جمع عماد . وقيل : إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم ؛ كقوله : «أحاط بهم سرادقها »[1]

ويقال : الغِنَى بغيرِ اللهِ فَقْرٌ ، والأُنْسُ بغيره وَحْشَة ، والعزُّ بغيره ذُلٌّ .

ويقال : الفقيرُ مَنْ استغنى بمالِه ، والحقيرُ : مَنْ استغنى بجاهِه ، والمُفْلِسُ : مَن استغنى بطاعته ، والذليلُ : من استغنى بغير الله ، والجليلُ : من استغنى بالله .

ويقال : بَيِّنَ أن المعرفة إذا اتَّقَدتْ فى قلب المؤمن أحرقت كلَّ سُؤْلٍ وأَرَبٍ فيه ، ولذلك تقول جهنَّمُ — غداً — للمؤمن : « جُزْ ، يا مؤمن . . فإنَّ نورَكَ قد أَطْفَأَ لَهَبى » !

---

(١) آية ٢٩ سورة الكهف .

سُورَةُ الفِيل

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ غَنِيٍّ مَنْ أطاعَهُ أغناه ، ومَنْ خالَفَهُ أضَلَّه وأعماه .

اسمُ عزيز مَنْ وافقه رَقَّاه إلى الرتبة العليا ، ومَنْ خالَفَهُ ألقاه فى المحنة الكبرى .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ كيف فَعَلَ رَبُّكَ بأصحابِ الفيلِ » ؟ .

ألمْ يَنْتَهِ إليكَ فيما أنزل عليك عِلْمُ ما فَعَلَ ربُّكَ بأصحاب الفيل ؟ .

وفى قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيصِ اللهِ البيتَ العتيقَ بالحِفْظِ والكلاءة . وذلك : أنَّ أبرهة — مَلِكَ اليمن — كان نصرانياً ، وبنى بيعةً لهم بصنعاء ، وأراد هَدْمَ الكعبة ليصرفَ الحجَّ إلى بيعتهم .

وقيل : نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشى ، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم ، ثم تغافلوا عنها ولم يُطْفِئوها ، فهبَّت الريحُ وحَمَلَتْ النارَ إلى الكنيسة وأحرقتها ، فَقَصَد أبرهةُ الكعبةَ لِيَهْدِمها بجيشه .

فلمّا قَرُبَ من مكة أصاب مائتى جَمَلٍ لعبد المطلب ، فلمَّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم ، فَعَرَفَهُ رجلان ، فقالا له :

ارجع . . فإن المَلِكَ غضبان .

فقال : واللاتِ والعُزَّى لا أرْجِعُ إلَّا بإبلِي .

فقيل لأبرهة : هذا سَيِّدُ قريشٍ ببابِك ؛ فأَذِنَ له ، وسأله عن حاجته ؛

فأجاب أبرهة : إنها لك غداً ، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت[1] .

فعاذ عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم بما حدث ، ثم قام وأخذ بحلْقةِ باب الكعبة وهو يقول :

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يمـــنعُ رَحْلَه فامنعْ حِلَالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صليبُهمْ ومِحَالُهم عَدْواً مِحالَكْ
إنْ يدخلوا البـــلدَ الحرا مَ فأمرٌ ما بدالكْ[2]

فأرسل اللهُ عليهم طيراً أخضرَ[3] من جهة البحر طِوالَ الأعناق ، فى منقار كل طائرٍ حَجَرٌ وفى مخلبه حجران .

قيل : الحجَرةُ منها فوق العدس دون الحمص .

وقيل : فوق الحمص دون الفستق ، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها .

وقيل : مُخَطَّطةٌ بالسَّواد . فأُمْطِرَتْ عليهم ، وماتوا كُلُّهم .

وقيل : كان الفيلُ ثمـــانيةً ؛ وقيل : كان فيلاً واحداً .

وفى رواية : إنه كان قبل مولده صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـــلم بأربعين سنة .

وقيل : بثلاثة وعشرين سنة . وفى رواية « وُلِدْتُ عامَ الفيل[4] » .

قوله جل ذكره : « ألم يَجْعَلْ كَيْدَهم فى تضليل » ؟

أى : مَكرَهمْ فى إبطال .

---

(١) قيل : إن النجاشى قال له : لقد أعجبتنى حين رأيتك ، ولكنى زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتُها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ؟ فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل.. أما البيت فله رب سيمنعه .

(٢) الحِلال جمع حِيل . والمِحال : القوة . والعَدْو بالعين المهمله : الاعتداء .

(٣) قال سعيد بن جبير : هى طيرٌ خُضْر لها مناقير صُفْر .

(٤) وفى رواية : « ولدت يوم الفيل» . وقال قيس بن مخرمة : «ولدت أنا ورسول الله (ص) عام الفيل » .

« وأرْسَلَ عليهم طيراً أبابيلَ » .

« أبابيل » : مجتمعةً ومتفرِّقةً .

« ترميهِم بحجارةٍ من سِجِّيلٍ » .

قيل بالفارسية : سنگك أو گل — أى طينٌ طُبِخَ بالنار كالآجُر(١) .

« فَجَعَلهم كعَصْفٍ مأكول » .

« كعصفٍ » : كأطرافِ الزرع قبل أن يدرك . « مأكول » أى ثَمرَهُ مأكول .

ويقال : إذا كان عبد المطلب — وهو كافرٌ — أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت — فاللهُ لم يُخَيِّبْ رجاءهُ . . ، وسَمِعَ دُعاءَهُ . . . فالمؤمِنُ المخلصُ إذا دعا ربَّه لا يردُّهُ خائباً .

ويقال : إنما أُجيب لأنَّه لم يسأل اللهَ لِنَفْسِه ، وإنما لأجْلِ البيت . . وما كان لله لا يضيع .

---

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية أولها حجارة وآخرها طين . (نقله السيوطى فى إتقانه ج١ ص ١٣٨ فى باب ماوقع فى القرآن بغير لغة العرب .

سُورَةُ قُرَيْش

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم » : الباء فى « بسم » تشير إلى براءة سِرِّ الموحِّدِين عن حسبان الحِدثان ، وعن كلِّ شىء ممَّا لم يكن فكان ، وتشير إلى الإنقطاعِ إلى اللهِ فى السَّرَّاء والضرَّاء ، والشِّدَّةِ والرخاء .

والسين تشير إلى سكونهم فى جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى مِنَّةِ اللهِ عليهم بالتوفيق[1] لِمَا تحقَّقُوا به من معرفته ، وتخلَّقوا به مِنْ طاعته[2] .

قوله جل ذكرهُ : « لإيلافِ قُريشٍ * إيلافِهِم رحلةَ الشتاء والصيف » .

« الإيلاف » : مصدر آلَفَ ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف . . وهو أَلِفَ إلْفاً[3] .

والمعنى : جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريْشٍ ، أى ليَأْلَفوا رحلتهم فى الشتاء والصيف .

وكانت لهم رحلتان للامتيار[4] : رحلةٌ إلى الشام فى القيظ ، ورحلة إلى اليمن فى الشتاء .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (بالتحقيق) .

(٢) يستطيع القارىء أن يربط بين فحوى البسملة كما يتذوقها القشيرى هنا وبين الجو العام للسورة .

(٣) عند هذه النقطة تنتهى النسخة (ص) ونعتمد فيما بقى من الكتاب على النسخة م .

(٤) الامتيار طلب الميرة وجمعها .

والمعنى : أنعم اللهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم .

وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ لإيلافِ قريشٍ ، كأنه أعْظَمَ المِنَّةَ عليهم . وأمرَهم بالعبـادة :

« فلْيَعبدوا ربَّ هذا البيتِ * الذى أطْعَمَهُم من جوعٍ » .

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم .

وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوعٍ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم[1] .

« وآمَنَهُم من خوف » .

حين جعلَ الحرَمَ آمِناً ، وأجارَهم من عدوِّهم .

ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلْبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

وَوَجْهُ المِنَّةِ فى الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكْفِيَّ الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعده القوة ولا القلبُ — إلَّا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى .

« ولنبلونكم بشىء من الخوفِ والجوعِ[2] » فقدَّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

---

(١) دعا عليهم الرسول (ص) لمَّا كذَّبوه وقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسِنِى يوسف » فاشتد القحط ، فقالوا : يا محمد ادعُ الله لنا فإنَّا مؤمنون ، فدعا فأخصبت الأرض ، وحملوا الطعام إلى سائر البلدان .

(٢) آية ١٥٥ سورة البقرة .

سُورَةُ الدِّين [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها غِذاء أرواحِ المحبِّين ، ضياء أسرار الواجدين ، شفاءُ قلوبِ المُتَيَّمين ؛ بلاءُ مُهج المساكين ، دواء كلِّ فقيرٍ مسكين[2] .

قوله جل ذكره : « أرأيتَ الذى يُكذِّبُ بالدِّين » .

نزلت الآية على جهة التوبيخ ، والتعجُّبِ من شأن تظلُّم اليتيمِ من الكفار .

قال : أرأيتَ الذى يكذِّب بالدين ، وبالحساب والجزاء ؟

« فذلكَ الذى يَدُعُّ اليتيمَ » .

يدفعه بجفوة ، ويقال : يدفعه عن حقِّه[3] .

« ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين » .

أى : لا يَحُثُّ على إطعام المسكين ، وإنما يدعُّ اليتيم ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد نزع الرحمةَ من قلبه ، ولا تنزع الرحمة إلَّا من قلبِ شقيٍّ .

وهو لا يحث على طعام المسكين ، لأنه فى شُحِّ نَفْسِه وأَمْرِ بُخْلِه .

قوله جل ذكره : « فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ * الذين هُم عن صلاتِهم ساهون * الذين هم يُرَاءُونَ »

---

(١) يقول السيوطى فى إتقانه : تسمى سورة أرأيت ، وسورة الدين ، وسورة الماعون (الإتقان جـ١ ص ٥٥)

(٢) مرة أخرى نلفت النظر إلى ما بين إشارات البسملة والجو العام للسورة .

(٣) قال ابن جريج : نزلت فى أبى سفيان ، وكان ينحر فى كل أسبوع جَزُوراً فطَلَبَ منه يتيم شيئاً ، فقرَّعه بعصاه .

السَّاهى عن الصرة الذى لايُصَلِّى . ولم يقل : الذين هم فى صلاتهم ساهون . . ولو قال ذلك لـكان الأمرُ عظيماً .

« الذين هم يُراءون » : أى يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس — لا إخلاصَ لهم

« ويمنَعونَ المَاعُون » .

الماعون . مثل الماء ، والنار ، والـكلأ ، والفأس ، والقِدْر وغير ذلك من آلةِ البيت ، ويدخل فى هذا : البُخْلُ ، والشُّحُّ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمْـكِنٌ ومُسْتَطاع .

سُورَةُ الكَوْثر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّه فى آزالِه .

اسمٌ عزيزٌ أَعَزَّ مَنْ شاء بأفضالِه وإقبالِه ؛ وأَذَلَّ أعداءه بسلاسله وأغلالِه ، والتخليدِ فى جحيمِه وأنكالِه .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أعطيناك الكوثَرَ » .

« الكوثر » : أى الخير الكثير . ويقال : هو نَهْرٌ فى الجنة .

ويقال : النبوَّةُ والكتابُ . وقيل : تخفيف الشريعة .

ويقال : كثرةُ أُمَّتِه .

ويقال : الأصحابُ والأشياع . ويقال : نورٌ فى قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

« فَصَلِّ لِرَبِّك وانْحَرْ » .

أى صَلِّ صلاةَ العيد « وانحر » النُّسُكَ[1]

ويقال : جمع له فى الأمر بين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال « وانحر » أى استقبِل القِبْلَةَ بنحرك . أو ارفع يديك فى صلاتك إلى نحرك[2]

---

(١) فى البخارى وغيره : قال رسول الله (ص) «أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلّىَ ، ثم نرجع فننحر ، مَنْ فَعَلَ فقد أصاب نُسُكَنَا ، ومَنْ ذبح قبل فإنما هو لحمٌ قدَّمه لأهله ، ليس من النُّسُكِ فى شىء لأن ترتيب الآية : صلاة ثم نحر . وقال أنس : كان النبى (ص) ينحر ثم يصلى حتى نزلت .

(٢) عن على رضى الله عنه : لمّا نزلت الآية سأل النبىُّ جبريل : ما هذه النحيرة التى أمرنى الله بها ؟ قال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرَّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبَّرْت .. فزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

ويقال : ضَعْ يمينك على يسارك فى الصلاة واجعلها تحت نَحْرِك .

« إنَّ شَانِئَكَ هو الأَبْتَر » .

أى : لا يُذْكَرُ بخيرٍ ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير .(١)

---

(١) قيل : هو العاص ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو عقبة بن أبي مُعيط . والأبتر من الرجال : من لا وَلَدَ له ، أو مات أبناؤه وبقيت بناته .

سُورَةُ الْكَافِرُون [1]

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ آمَنَ بها أَمِنَ مِنْ زوال النِّعمى ، وحَظِيَ بنعيم الدنيا والعقبى ، وسَعِدَ سعادةً لا يَشْقى ، ووَجَدَ مُلكاً لا يَفْنى ، وبَقِيَ فى العزِّ والعُلَى .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا أيُّها الكافرونَ * لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون » .

من أصنامكم .

« ولا أنتم عَابدونَ ما أعبُدُ » .

« ما » أعبد أى « من » أعبد .

« ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتُم » .

فى زمانكم .

« ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ » .

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد .

« لكم دينُكُم ولِيَ دين » .

أى : لكم جزاؤكم على دينكم ، ولى الجزاءُ على دينى .

---

(١) من أسمائها : سورة العبادة ، والمقشقشة .

والعبودية[1] القيـام بأمره على الوجه الذى به أمَرَ ، وبالقَدْر الذى به أمَرَ ، وفى الوقت الذى فيه أمَر .

ويقال : صِدْقُ العبودية فى تَرْكِ الاختيار ، ويظهر ذلك فى السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انـكسار .

ويقال : العبودية انتفاء الـكراهية بـكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفك مولاك

(١) واضح أن إشارة القشيرى تستند إلى «العبودية» بينما الآيات تتحدث عن «العبادة» ولكن الصلة وثيقة بين كليهما وبين «العبودة» : ارجع فى ذلك إلى رسالة القشيرى ص ٩٩ .

سُورَةُ النَّصْر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ كريمٌ يُبْصِرُ ويَسْتُرُ ، ويَعْلَمُ ويَحْلُم [1] ، ويمدح ولا يَفْضَح ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصفح ؛ يَعْصَى العبدُ على التوالى ، ويَغْفرُ الحقُّ ولا يُبالى .

قوله جل ذكره : « إذا جاء نَصْرُ اللهِ والفتحُ » .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ ، و « الفتح » فتح مكة .

« ورأيتَ الناسَ يَدْخُلونَ فى دينِ اللهِ أفواجاً » .

يُسْلِمون جماعاتٍ جماعاتٍ .

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ واستغفِرهُ » .

أكْثِرْ حَمْدَ ربِّكَ ، وصلِّ له ، وقَدِّسْه .

ويقال : صَلِّ شكراً لهذه النعمة .

« واستغفِرْه » وسَلْ مغفرته .

« إنَّه كان توَّاباً » .

لِمَنْ تاب ؛ فإنه يقبل توبته .

ويقال : نصرة الله — سبحانه — له بأنْ أفناه عن نَفْسِه ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية ، وصفَّاه من الكدورات النفسانية . وأمَّا « الفتح » : فهو أنْ رَقَّاه إلى محلِّ الدنوِّ ، واستخلصه بخصائص الزلفة ، وألبسه لِباسَ الجمع ، واصطلمه عنه ، وكان له عنه ، ولنَفْسِه — سبحانه — منه ، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ ، وعَرَّفَه — من كمال معرفته به — ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشا إليه [2] .

---

(١) فى ص (يحكم) ولكننا آثرنا أن تكون (يَحْلُمُ) مرجحين أن ذلك أقرب إلى الأصل ؛ لأن الحِلْم هنا أقرب إلى السياق .

(٢) تعبر هذه الفقرة تعبيراً صادقاً عن مدى نظرة الصوفية إلى المصطفى على أنه «الصوفىّ الأول» .

سُورَةُ أبى لَهَب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة جبَّارة للمذنبين ، تجبر أعمالَهم ، وتحقِّق آمالَهم ، وهى للعارفين تُصَغِّر فى أعينهم أحوالَهم ، وتُكَمِّل — عن شواهدِهم — امتحاءهم[1] واستئصالَهم ، وتحقِّق لهم — بعد فنائهم عنهم — وصالَهم .

قوله جل ذكره : « تَبَّتْ يدا أبى لَهَبٍ وتَبَّ » .

أى : خَسِرَت يداه .

« ما أغنىٰ عنْهُ مالُهُ وما كَسَبَ » .

ما أغنى عنه مالُه ولا كَسْبُه الخبيثُ — شيئاً .

وقيل : « ما كسب » : وَلَدُه[2] .

قوله جل ذكره : « سَيَصْلىٰ ناراً ذات لَهَب * وامرأتُه حَمَّالَةَ[3] الحطبِ » .

يلزمها إذا دَخَلَها ؛ فلا براحَ له منها . وامرأتُه أيضاً ستَصْلىَ النارَ معه .

« فى جيدِها حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » .

---

(١) فى ص (امتحانهم) والصواب أن تكون (امتحاءهم) أى حصول «المحو» لهم .

(٢) حين قال أبولهب : «إن كان ما يقوله ابن أخى حقاً فإنى أفدى نفسى بما لى وولدى» فنزل : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

(٣) وعلى الرفع قراءة نافع . وقرأ عاصم بالنصب على الذم كأنها اشتهرت بذلك — كقوله تعالى : «ملعونين أينما ثُقِفوا » آية ٦١ سورة الأحزاب .

« مَسَدٌ » شيء مفتول ، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه فى طريقِ رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويقال : سُحْقاً لِمَنْ لا يعرف قَدْرَكَ ـ يامحمد . وبُعْداً لِمَنْ لم يشهد ما خصصناكَ به مِن رَفْعِ محلِّك ، وإكبارِ شأنِك ... ومَنْ ناصبَكَ كيف ينفعه مالُه ؟ والذى أقيناه لأجلِكَ وقد (أساء)[1] أعمالَه .. فإنَّ إلى الهوانِ والخِزْيِ مآلَه ، وإنَّ على أقبحِ حالٍ حالَ امرأتِه وحالَه .

---

(١) ما بين القوسين من عندنا فهى فى النسخة م مشتبهة .

سُورَةُ الإخْلَاص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة عَزَّ لسانٌ ذَكَرَها ، وأعَزُّ منه قلبٌ عَرَفَها ، وأعزُّ من هذا رُوحٌ أحَبَّها ، وأعزُّ من هذا سِرٌّ شهدها .

ليس كلُّ مَنْ قصدها وَجَدَها ، ولا كلُّ لِمَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها .

قوله جل ذكره : « قُلْ هو اللهُ أحَدٌ » .

لمَّا قال المشركون : أُنسُبْ لنا ربَّكَ . أنزل اللهُ تعالى : « قل هو الله أحد »[1] فمعنى «هو» أى : الذى سألتُم عنه « هو » الله . ومعنى « أحد » أى : هو أحدٌ .

ويقال : « هو » مبتدأ ، « والله » خبره و« أحد » خبرٌ ثانٍ كقولهم :

هذا حلوٌ حامض .

« اللهُ الصَّمَدُ » .

« الصمد » : السيِّدُ الذى يُصْمَدُ إليه فى الحوائج ، ويُقْصَدُ إليه فى المطالب . ويقال : الكاملُ فى استحقاق صفات المدح .

ويرجِّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال : إنه الذى لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا (. . .)[2] فى ذاته .

---

(١) روى الترمذى ذلك عن أبى العالية . وقيل : الآية جوابٌ لسؤال المشركين : صِفْ لنا ربَّك .. أمِنْ ذهب هو أم من نحاس أم من صُفْر ؟

(٢) مشتبهة .

« لم يَلِدْ ولم يُولَدْ » .

ليس بوالدٍ ولا مولود .

« ولم يكن لَّهُ كُفواً أحد » .

تقديره . لم يكن أحدٌ كفواً له .

و« أحد » أصله وَحْدٌ ، ووِحَدٌ ، وواحد بمعنًى ، وكونه واحداً : أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له .

ويقال : السورة بعضها تفسيرٌ لبعض ؛ مَن هو الله ؟ هو الله . مَن الله ؟ الأحد ، مَن الأحد ؟ الصمد ، مَنْ الصمد ؟ الذى لم يلد ولم يولَد ، مَنْ الذى لم يلد ولم يولَد ؟ الذى لم يكن له كفواً أحد .

و يقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله : « هو » . وكاشَفَ الأرواحَ بقوله : « الله » وكاشَفَ القلوبَ بقوله : « أحد » .. وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقى السورة .

ويقال : كاشَفَ الوالهين بقوله : « هو » ، والموحِّدين بقوله : « الله » والعارفين بقوله : « أحد » والعلماء بقوله : « الصمد » ، والعقلاء بقوله : « لم يلد ولم يولد » ... إلى آخره .

و يقال : لمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ فى الله أمرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال : « قل هو اللهُ أحد » : أى ذُبَّ عنى ما قالوا ، فأنت أوْلى بذلك . وحينما بسطوا لسان الذمِّ فى النبيِّ صلى الله عليه وسلم تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم ، فقال : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربِّكَ بمجنون» وقال : « والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » أى أنا أذبُّ عنك ؛ فأنا أوْلى بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله : « هو » فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : « الله » ، ثم زاد فى البيان لمنْ نزل عنهم .

فقال : « أحدٌ » ثم لمن نزل عنهم فقال : « الصـــــمد » .

ويقال : الصَّمَدُ الذى ليس عند الخَلْقِ منه إلا الاسم والصفة

ويقال : الصمدُ الذى تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهم له، وعن إشرافِ معارفهم عليه .

ويقال : تقدَّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه .

ويقال : تَنَزَّه عن وقوف العقول عليه .

سُورَةُ الفَلَق

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا تجلّى لقلبٍ فإنْ لاطفَهُ بجماله أحياه ، وإنْ كاشفه بجلاله أبادَه وأفناه ؛ فالعبدُ فى حالتى : بقاءٍ وفناءٍ ، ومحوٍ وإثباتٍ ، ووَجْدٍ وفَقْدٍ .

قوله جل ذكره : « قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ » .

أى أمتنع وأعتصم بربِّ الفَلَق . والفلقُ الصُّبْحُ .

ويقال : هو الخَلْقُ كلُّهم[1] . وقيل الفَلَقُ وادٍ فى جهنم[2] .

« مِن شرِّ ما خَلَقَ » .

أى من الشرور كلِّها .

« ومِن شرِّ غاسِقٍ إذا وقَبَ » .

قيل : الليلُ إذا دَخَلَ . وفى خبرٍ . أنه صلّى الله عليه وسلم أخذ بيد عائشة ونَظَرَ إلى القمر فقال : « يا عائشة ، تَعَوَّذِى باللهِ من شرِّ هذا فإنه الغاسقُ إذا وقب[3] » .

« ومن شرِّ النَّفّاثاتِ فى العُقَدِ » .

وهن السواحر اللواتى ينفخن فى عُقَد الخَيط (عند الرُّقية) ويوهمنَّ إدخال الضررِ بذلك .

---

(١) أى هو كل ما انفلق من حيوان وصبح ونوىً وحَبّ ونبات وغيره ..
(٢) تأخر وضع هذه العبارة قليلا فأثبتناه فى موضعه .
(٣) رواه الترمذى . وقال أبوعيسى : هو حديث صحيح .

« ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد » .

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق .

وفى السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله . ومَنْ صَحَّ توكُّلُه على الله فهو الذى صحَّ تحقُّقُه بالله ، فإذا توكَّلَ لم يُوَفِّقْه اللهُ للتوكُّلِ إلَّا والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكَّلَ به عليه ؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دَفْعِ البلاء عنه — فإنْ أَخَذَ فى التحرُّز من[1] تدبيره وحَوْله وقُوَّته ، وفَهْمِه وبصيرته فى كلِّ وقتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ فى التدبير ، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا . . كُفِيَ مُرَادَه أم لا . وعند ذلك الملك الأعظم ، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة ، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا .[2]

---

(١) بعد (من) كلمة منهمة فى الرسم أقرب ما تكون إلى (جبلته) .

(٢) معنى هذا أن تمامَ التوكّل على الله أعظمُ مانع للعبد من أن يُلِمَّ به مكروه نتيجة سِحرٍ أو حَسَدٍ ونحوهما ، فلن يصيب العبدَ إلا ما كتبه الله له .

سُورَةُ النَّاس

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »

بسم الله الذى قصرت عنه العقولُ فوقفت ، وعَجَزَت العلومُ فتحيرَّت ، وتقاصَرَ المعلوفُ فخَجِلَت ، وانقطعت الفُهُومُ فدهشت .. وهو بنعت علائِه ووصفِ سنائه وبهائه وعِ كبريائه يُعْلَمُ ولكنَّ الإحاطةَ فى العلمِ به مُحالٌ ، ويُرَى ولكنَّ الإدراكَ فى وصفه مستحيلٌ ويُعْرَف ولكنَّ الإشرافَ فى نعته غير صحيح .(١)

قوله جل ذكره : « قُل أعُوذُ بربِّ النَّاسِ » .

أعتصِم بربِّ الناسِ خالِقِهِم وسيِّدِهِم .

« مَلِكِ النَّاسِ » .

أى مالِكِهِم جميعهم .

« إلٰهِ النَّاسِ » .

القادرِ على إيجادِهِم .

« مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخنَّاسِ » .

من حديثِ النَّفْسِ بما هو كالصوتِ الخفىِّ .

ويقال : مِنْ شرِّ ذى الوسواس .

ويقال : من شرِّ الوسوسة التى تكون بين الجِنَّةِ والناس .

---

(١) فقد جلَّت الصمدية أن يستشرف منها عالِمٌ بعلمه أو واهِم بوهمه ، أو عارف بمعرفته .. وكلُّ ماهنالك هو شهود (الفعل) الإلٰهى لا (الذات) الإلٰهية .

« والخنّاس » الذى يغيب ويخنس عن ذِكْرِ الله . وهو من أوصاف الشيطان .

« الذى يُوَسْوِسُ فى صُدورِ النّاسِ *

مِنَ الجِنّةِ والناس » .

قيل : « الناس » يقع لفظها على الجنّ والإنْسِ جميعاً — كما قال تعالى :

« وإذ صَرفْنا إليك نفراً من الجنّ »[1] فسمّاهم نفراً ، وكما قال :

« يعوذُون برجالٍ من الجنّ »[2] فسمّاهم رجالاً . . فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ، والشيطانُ الذى له تسلُّطٌ على الناسِ كالوسواس ؛ فللنَّفْس من قِبَلِ العبد هواجسُ ، وهواجِسُ النَّفْسِ ووساوسُ الشيطانِ يتقاربان ؛ إذ أن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة فى الدين أو إلى ارتكاب المعصية ، أو إلى الخصال الذميمة — فهو نتيجة الوساوس والهواجس .

وبالعلم يُمَيَّزُ[3] بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوساوس[4] .

(ومما تجب معرفته)[5] أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإنْ خالَفْتَه يَدَعْ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى ؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . . .[6]) غير مختلفة .

---

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٦ سورة الجن .

(٣) فى النص كلمة منهمة اخترنا (يميز) طبقاً لرأى القشيرى كما سيتضح من الهامش التالى .

(٤) « الخاطر خطاب يَرِدُ على الضمائر ؛ وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون من أحاديث النفس أو من تجلّى الحق ؛ فإذا كان من الملَك فهو الإلهام ، وإذا كان من قبل النفس قيل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قِبَلِ الله — سبحانه — وإلقائه فى القلب فهو خاطرُ حقّ .. وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم .... » رسالة القشيرى ص ٤٦ و ٤٧ .

(٥) هذه إضافة من جانبنا ليتماسك السياق ويتضح .

(٦) مشتبهة .

خاتمة الكتاب

بعونه تعالى انتهى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات » للإمام القشيرى فى غُرّة رجب من عام ١٣٩٠ هـ وقد استغرق هذا العمل نحو خمسِ سنواتٍ كوامل ، قطعنا فيها رحلةً أضنت الجسمَ والبصر والفكر ، ولكنها أمتعت القلبَ ، وأيقظت الروح ، وأنعشت السِّرّ .

ولست أحبُّ — متأثرًا الصوفية — أن أحدِّث القارئ عن مقدار ما لقيت من متاعب . . فهذا ضربٌ من دعوى النفس . . وإنما أترك ذلك للقارئ . وقبل كل شىء أضرع إلى الله — وحده — أن يحتسب هذا العمل لى ذخراً عنده ، وأن يمحوَ — إن شاء — من ديوانى بعض خطاياى .

كما أدعو الله أن ينفع به كافة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بمقدار ما له من قيمة علمية نادرة ، وبمقدار ما لصاحبه — رضى الله عنه — من قَدْرٍ جليلٍ فى تراثنا العظيم .

والواقع . . أنّ أعظمَ ما يغمنى بالسعادة من دواعٍ هو هذا الاستقبالُ الذى حظى به الكتاب ، فقد وصلتنى رسائل عديدة من أقطارٍ شتَّى ، ومن علماء أجلاء من نواحٍ نائية كلها تحثُّ على المسير ، وتغذِّى العزم ، وتلهم الصبرَ على إتمام هذا العمل الشاق .

ولا أحب أن أختم كلمتى قبل أن أعتذر للقارئ عما قد يكون فى الكتاب من قصور أو تقصير ، ترجع أسباب بعضه لى ، وتقع تبعته علىّ ، ويعود بعضه إلى المطبعة — فنحن شريكان فيه كما يرجع الكثير منها إلى النُّسَّاخ . .

ولا عجب فى ذلك فالرحلة طويلة ، ودروبها متشعبة . ولكننا نَعِد — إذا شاء اللهُ وظهرت للكتاب طبعات أخرى — أن نتحاشى قَدْرَ الوسع كل هذه الوجوه . وأكون

سعيداً لو أشرك القرّاء أنفسهم معى فى ذلك ؛ فبعثوا إلىّ بملاحظهم ، فلم يعد الكتابُ منذ الآن قاصراً علىّ وحدى .

كما أعد — إن شاء الله — بتدارك ما جاء فى الكتاب من عيوب الشعر التى حالت الظروف القاهرة دون تداركها .

لقد كان رائدنا فى هذه المرحلة من التحقيق أن يصل المتن الصوفىّ للناس ، ولكننا فى المراحل التالية سننهض — بحول الله وقوته — بكثيرٍ من الأعمال التى تتصل بالشروح ، وبالمصطلحات ، وبالقضايا الأساسية التى نهض بها الكتاب . . فليس « لطائف الإشارات » بأقلّ من « الرسالة » التى حظيت باهتمام الأجيال المتعاقبة .

وأخيراً ، فإنى أتمنى أن أكون بإخراج هذا الكتاب قد وفيت بعض الدَّين الذى فى عنقى للإمام الجليل عبد الكريم القشيرى — رضى الله عنه وأرضاه .

وفقنا الله جميعاً إلى الخير .

دكتور إبراهيم بسيونى

أستاذ بكلية الألسن – الزيتون – القاهرة

الفهـرس

اسم السورة	الصفحة
الشـعراء	٥
النمـل	٢٣
القصص	٥٣
العنكبوت	٨٦
الروم	١٠٧
لقمـان	١٢٧
السـجدة	١٣٨
الأحـزاب	١٤٩
سـبأ	١٧٥
فاطـر	١٩٠
يس	٢١١
الصافـات	٢٢٧
ص	٢٤٥
الزمـر	٢٦٦
المؤمن (غافـر)	٢٩٤
فصلـت	٣١٩
الشـورى	٣٤١
الزخـرف	٣٦١
الدخـان	٣٧٩
الجاثيـة	٣٨٨

اسم السورة	الصفحة
الأحقاف	٣٩٥
محمد (صلى الله عليه وسلم)	٤٠٣
الفتح	٤١٧
الحجرات	٤٣٧
ق	٤٤٧
الذاريات	٤٥٩
الطور	٤٧١
النجم	٤٨٠
القمر	٤٩٣
الرحمن	٥٠٢
الواقعة	٥١٦
الحديد	٥٣٠
المجادلة	٥٤٨
الحشر	٥٥٦
الممتحنة	٥٦٩
الصف	٥٧٥
الجمعة	٥٨١
المنافقون	٥٨٧
التغابن	٥٩٢
الطلاق	٥٩٨
التحريم	٦٠٤
الملك	٦١٠
القلم	٦١٦
الحاقة	٦٢٤
المعارج	٦٢٨
نوح	٦٣٤
الجن	٦٣٧
المزمل	٦٤١
المدثر	٦٤٧
القيامة	٦٥٤

اسم السورة	الصفحة
الإنسان	٦٦٠
المرسلات	٦٧٠
النبأ	٦٧٥
النازعات	٦٨١
عبث	٦٨٧
التكوير	٦٩٢
الإنفطار	٦٩٦
المطففين	٦٩٩
الإنشقاق	٧٠٥
البروج	٧٠٩
الطارق	٧١٤
الأعلى	٧١٧
الغاشية	٧٢٠
الفجر	٧٢٤
البلد	٧٢٩
الشمس	٧٣٢
الليل	٧٣٥
الضحى	٧٣٩
ألم نشرح	٧٤٣
التين	٧٤٥
العلق	٧٤٧
القدر	٧٥٠
لم يكن	٧٥٢
الزلزلة	٧٥٥
العاديات	٧٥٧
القارعة	٧٦٠
التكاثر	٧٦٢
العصر	٧٦٤

اسم السورة	الصفحة
الهمزة	٧٦٦
الفيل	٧٦٨
قريش	٧٧١
الدين	٧٧٣
الكوثر	٧٧٥
الكافرون	٧٧٧
النصر	٧٧٩
أبا لهب	٧٨٠
الإخلاص	٧٨٢
الفلق	٧٨٥
الناس	٧٨٧
خاتمة الكتاب	٧٨٩

انتهى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٣٦ /٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6623 - 5

يقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى:
«ملك يوم الدين» : مَلَكَ قلوب العابدين إحسانه فطمعوا فى عطائه، ومَلَكَ قلوب الموحدين سلطانه فقنعوا ببقائه. عرّف أرباب التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم، علموا أن العبد لا ملك له، ومن لا ملك له لا حكم له، ومن لا حكم له لا اختيار له، فلا لهم عن طاعته إعراض، ولا على حُكْمه إعتراض، ولا فى اختياره معارضة، ولا لمخالفته تعرضَ.

و «يوم الدين» يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر ـ الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد، فمن بين مقبولٍ يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجرمهم.

واعلم عزيزى القارئ أن الإمام القشيرى في تفسيره للبسملة يلجأ إلى تفسير كل بسملة تتكرر على نحو مُلْفِت للنظر، إذْ هى تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه، ويزداد إعجاباً بالقشيرى كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها. فالله، والرحمن ، والرحيم لها دلالات خاصة فى سورة القارعة مثلا، ولها دلالات فى سورة النساء، ولها دلالات خاصة فى سورة الأنفال...، وهكذا.

١٦٠٠ قرشاً مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب